رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وراجعه
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويان

الجزء الأول

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعد للنشر
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويان

الجزء الأول

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) برحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



## مقدمة الدكتور

## طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فلا يخفى على المسلم ما للعلم من فضل، وما للعلماء من مكانة، فهم خلفاء الله في عباده بعد الرسل، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة يُعرف بها فضلُ العلم وأجره، وشموخ أهله، ورفعة طلابه، من ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، قال ابن كثير: «أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم، المتضلعون فيه»[(١)].

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١]، وقوله ـ جل شأنه ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٤).

قال ابن كثير: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[١].

وأما من السنة فأحاديث كثيرة، منها حديث معاوية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ»[٢].

وحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ الله له بِهِ طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ»[٣].

وحديث أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فَضْلُ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِي على أَدْنَاكُمْ»، ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السمٰوات وَالْأَرَضِينَ، حتى النَّمْلَةَ في جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ الناس الْخَيْرَ»[٤].

وما رواه أبو الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فيه عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا من طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ له من في السمٰوات وَمَنْ في الأرض وَالْحِيتَانُ في جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ على سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لم يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، وإذا عرف المسلم فضل العلم والعلماء، وعظم منزلتهم، وسمو مكانتهم، أدرك خطورة فقدهم، وخلو المجتمع منهم، فإن العلم يُنْتَقص بموت العلماء، وبذلك جاء الحديث الصحيح، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ من الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حتى إذا لم يبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[2].

قال النووي: «هذا الحديث يبين أن المراد بقبض العلماء في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه، ولكن معناه أن يموت حملته، ويتخذ الناس جهالًا يحكمون بجهالاتهم، فيضلون ويضلون»[3].

وقد أوصى النبي ﷺ بالأخذ من العلم قبل أن يُرفع، وذلك فيما رواه

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢٢٣).

أبو الدرداء ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إلى السَّمَاءِ، ثُمَّ قال: «هذا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ من الناس حَتَّى لَا يَقْدِرُوا منه على شَيْءٍ»، فقال زِيَادُ ابن لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وقد قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زِيَادُ، إن كنت لَأَعُدُّكَ من فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هذه التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟»[1].

وفيما رواه أبو أمامة ﷺ قال: لَمَّا كان في حَجَّةِ الْوَدَاعِ قام رسول اللَّهِ ﷺ وهو يَوْمَئِذٍ مُرْدِفٌ الْفَضْلَ بن عَبَّاسٍ على جَمَلٍ آدَمَ، فقال: «يا أَيُّهَا الناس خُذُوا مِنَ الْعِلْمِ قبل أن يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَقَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ»، وقد كان أَنْزَلَ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ١٠١]، قال: فَكُنَّا نَذْكرها كَثِيرًا فَتَمْنَعُنَا مِنْ مَسْأَلَتِهِ، وَاتَّقَيْنَا ذَاكَ حين أَنْزَلَ الله على نَبِيِّهِ ﷺ، قال: فَأَتَيْنَا أَعْرَابِيًّا فَرَشَوْنَاهُ بِرِدَاءٍ، قال: فَاعْتَمَّ بِهِ حتى رأيت حَاشِيَةَ الْبُرْدِ خَارِجَةً من حَاجِبِهِ الْأَيْمَنِ، قال: ثُمَّ قُلْنَا له سَلِ النبي ﷺ، قال: فقال له: يا نبي اللَّهِ كَيْفَ يُرْفَعُ الْعِلْمُ مِنَّا وَبَيْنَ أَظْهُرِنَا الْمَصَاحِفُ، وقد تَعَلَّمْنَا ما فيها وَعَلَّمْنَاهَا نِسَاءَنَا وَذَرَارِيَنَا وَخَدَمَنَا؟ قال: فَرَفَعَ النبي ﷺ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، وأحمد (٤/ ١٦٠)، (٦/ ٢٦).

رَأْسَهُ وقد عَلَتْ وَجْهَهُ حُمْرَةٌ مِنَ الْغَضَبِ، قال: فقال: «أي ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بين أَظْهُرِهِمُ الْمَصَاحِفُ لم يُصْبِحُوا يَتَعَلَّقُوا بِحَرْفٍ مِمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُمْ، ألا وإنَّ من ذَهَابِ الْعِلْمِ أن يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ»، ثَلاَثَ مِرَارٍ[١].

وفي هذا رد على من زعم أن وجود الكتب يغني عن العلماء، وأن موت العلماء ليس بتلك المصيبة؛ لأنه - كما يتوهم - يستطيع أن يبين الحكم، ويستنبط المسائل، ويرجح عن طريق الكتب.

قال ابن حجر: «وفي حديث أبي أمامة من الفائدة الزائدة أن بقاء الكتب بعد رفع العلم بموت العلماء لا يغني من ليس بعالم شيئًا»[٢].

إن أمة بلا علماء لهي أمة حائرة، يُخَافُ عليها الضلالُ، ويُنْتَظرُ فيها الشقاءُ والفناءُ.

وأدم البكاء على أناس لا يرون للعلماء حقًا، ولا يقيمون لأقوالهم وزنًا، فكيف يطلبون السعادة والهناء، فالهم لا يزال ضجيعهم، والأسف أليفهم.

إن فقد العلماء مصيبة عظيمة، تكوي القلوب، وتضرم الجوانح، وتسعّر الأجساد، وتقطع الأجلاد، وتفتّت الأكباد، وإذا ما خلت بلادٌ منهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٧٨٦٧).

(٢) فتح الباري (١٤/ ٢٨٦).

حسبتها خاوية من كل شيء، ما بها صافر ولا زافر ولا أنيس، ولا عين تطرف، ولا جفن يذرف.

والأمة بأكملها حمّلت العلماء ثقلًا يؤودهم، وجسمتهم أمرًا يكدهم، وكلفتهم شيئًا ينوء بهم، فإذا ذهبوا فمن يحمل هذا العبء؟ ومن يطيق هذا الثقل؟

وإذا أصاب الأمة أزمة طامّة، وملمّة صاخّة، أو أثَارَ حاقدٌ نقع الفتنة، واقتدح نارها، واستفتح بابها، وثور رهجها، اشرأبت أعناق الناس نحو العلماء، ترقب مواقفهم، فلهم القدح المعلىٰ في هذا السبيل، تأمل منهم موقف القوة والعز والصدق، وحق لهم ذلك، فللعلماء الصادقين مواقف مشرّفة، وبطولات عظيمة على مدى التاريخ، سطّرتها كتب السير والمفاخر، وحفظها كل مسلم يعتز بدينه وعلمائه، ومع أمل الأمة ويقينها، تأتي أنفس العلماء الصادقة المشمخرة، سلاحها الإيمان بالله، وعتادها الإخلاص والصدق والعلم، وغايتها العزة في الدارين، وكلمة جهرها لا سرها: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، لا تريد مالًا ولا جاهًا، ولا تلقي لأوساخ الدنيا بالًا، همّها عزّ الأمة ونجاتها، فيكشف الله بهم هبوات المحن، ومائرات الفتن، وأزمات الزمن، فيزول الخوف والوجل، ويتصل الأمن والدعة، ويعود البال في رخاء، والأمر في غاية الاستواء.

إن طريق العلم طويل وشاق، قل من سلكه وتحمل أعباءه، ولذا فمن

كانت نيته صالحة، ونفسه كبيرة، قدر على الاستمرار فيه، متعبًا بذلك جسمه ونفسه، مواصلًا ليله بنهاره.

وإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبارًا تَعِبَتْ في مُرادِها الأَجْسامُ

ومن أعطى العلم كله أعطاه العلم بعضه، ومما يحزن النفس، ويدمي الفؤاد، أن يفوت هذا الفهم على العاقل، فيعتقد أن العلم يُنال في وقت قصير، وهمة متواضعة، وقراءة قليلة، في أوقات الفراغ القصيرة المتناثرة، وهو مع هذا غير مقتنع بمطالعة أمّات الكتب، زاهدًا في حضور مجالس العلماء، فهذا وأمثاله قصدهم الشاعر بقوله:

تَمَنَّيْتَ أَنْ تُمْسِي فَقِيهًا مُنَاظِرًا بِغَيْرِ عَنَاءٍ وَالْجُنُونُ فُنُونُ

وَلَيْسَ اكْتِسَابُ الْمَالِ دُونَ مَشَقَّةٍ تَلَقَّيْتَهَا فَالْعِلْمُ كَيْفَ يَكُونُ

إن المستمع للعلماء لا يمل حديثهم، ولا يسأم مجالسهم، فكلامهم أرْيٌ مشفى، وعسل مصفّى، أنيق النواحي، رقيق الحواشي، عذب المذاق، سلس على التراق، يتحدر على الأفهام تحدر الزلال على حر الأوام، يدب في الأفهام دبيب الصحة في دنف الأسقام.

وهذه البلاد ـ بحمد الله ـ منذ ظهور دعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، ومناصرة الإمام محمد بن سعود له، حفلت بالعلماء الربانيين؛ إذ كانت دعوة مباركة، تميزت عن غيرها بدعم ولاة الأمر لها، فاجتمع على نصرتها العلماء والأمراء، فكتب الله لها بفضله القبول والانتشار

والاستمرار، وها هي ذي دعوتهم الصافية، ترفرف في بلاد كثيرة، نورها ساطع يتشعشع، وطيبها عاطر يتضوع.

ومنذ ذلك الوقت والعلماء فيها يبذلون أوقاتهم وأنفسهم، نصرة للعقيدة السلفية الصحيحة، فأرسلوا الدعاة إلى بلادٍ كثيرة، حتى تبددت سحب البدع والخرافات، واستقبلوا الدارسين من أنحاء المعمورة، ووفروا لهم كل أسباب الراحة، كل ذلك رغبة منهم في نشر العلم النافع، والعقيدة الصحيحة، فكانوا في عملٍ دؤوبٍ، وإيثارٍ ظاهرٍ، وتفانٍ متواصلٍ، في كل زمانٍ ومكانٍ، دون أي مطمعٍ دنيوي، ودون أن يتقاضوا على عملهم هذا شيئًا من حطام الدنيا، فحصل بذلك ـ ولله الحمد والمنة ـ الخير العميم.

ورغم أن الدنيا أقبلت إليهم بزينتها، إلا أنهم ركلوها بأقدامهم، زاهدين بها، معرضين عن زينتها، وما ذاك إلا لأنهم أخلصوا النيات، وطلبوا ما عند الله من الأجر والثواب، فلله درّهم، اتصلت محامدهم، وعلت مبانيهم، وجمت مكارمهم.

رأيناهم كيف بذلوا أوقاتهم للعلم والتعليم، واستقبال الناس للسؤال والاستفسار في كل الأوقات، دون مللٍ أو كللٍ، حتى في أيام مرضهم وتعبهم، عطاؤهم لا ينقطع، وبذلهم لا يتوقف، حتى ملؤوا الدنيا علمًا وهدى، ونورًا وتقى، فكتب الله لهم علو الكعب، وذيوع الصيت، فبقيت مآثرهم، وجميل صفاتهم في كل جنان، وعلى كل لسان، ما كرَّ الجديدان.

وما نتذكر بذلهم وعطاءهم - في زمن قل فيه عطاء غيرهم - إلا تستبق عبراتنا، وتفيض دموعنا، فلهم في كل قلب مأثرة، وبكل جيد مكرمة.

ولذا ما إن تفقد الأمة أحد هؤلاء الأفذاذ إلا ترى عيونًا عبرى، وأكبادًا حرى، وألسنًا تلهج بالثناء والدعاء، فهم نجوم في السماء مضيئة، متى أفلت ضل السائرون، ونور في الطرقات المظلمة، متى انطفأ تعثر المارون.

وكيف لا يُفقد هؤلاء العلماء، وهم في حياتهم يحملون من العبء أثقله، ومن الهم أجله، يسهرون الليالي الطوال، ويَصِلون الليل بالنهار؛ طلبًا لعز الأمة، وحرصًا على نجاتها، ولذا بَكَيْنَاهُم يوم ماتوا بصوب قلوبنا، لا بماء أعيننا، فيا رب ارحمهم، وأسكنهم الفردوس الأعلى من الجنة، وما لنا بعد وفاتهم إلا الصبر والدعاء، وفي الصبر مسلاة الهموم النوازل، وكلٌّ على حوض المنية وارد، وداء الموت ليس له دواء، وعزاء بعضنا لبعض، أن هذا طريق الرسل والأنبياء والصالحين، ولابد من سلوكه، وهذا قضاء الله وقدره.

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ ... وَمَا لِامْرِئٍ عَمَّا قَضَى اللَّهُ مَزْحَلُ

وعلماؤنا الأبرار تمسكوا بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف الصالح، فكانت فتاواهم تنبع من هذا الأساس، وتنبني عليه، وما كان لحظوظ النفوس، وأهواء القلوب، مكان في فتاواهم واختياراتهم، لا في أول طلبهم للعلم، ولا حين تصدروا للناس، وصاروا صروحًا للعلم، يُشارُ

إليهم، ويتقرب منهم، بل درَّسوا عقودًا من الزمن، لا يلحظ الطالب عندهم، والملازم لهم، أي تغير في المبدأ، أو انتكاس في الرأي، أو تحريف للفتوى، أو حب لحطام هذه الدنيا الفانية، أو سعي للظهور، مع أنهم جمعوا علمًا غزيرًا في الفنون كلها، يعزُّ على من انتقصهم من دعاة السوء معشار ما حووا[1].

بل من عُمِّرَ منهم رآه الناس في حال كبره، فرأوا العجب منه في التقوى، والزهد، والورع، والدين، والبذل، والعطاء، والمروءة، وسألوا من أدركوه شابًا، فأخبروهم أن من رآه في حال كبره فكأنما رآه في حال شبابه، لم تتغير خطاه، ولم يتبدل طريقه.

وبهذه الأخلاق والإخلاص، أودع علماؤنا بطون التاريخ صحائف مجد خالدة، على مرور الأزمان.

قلبنا صحائف حياة هؤلاء العلماء الأبرار، فلم نعثر فيها على سقطة، أو زلة، أو هفوة، ما وجدنا فيها إلا سطورًا تنم عن تقوى ودين، وإخلاص مكين، وكفى فخرًا بهذا الثبات على الطريق الصحيح، طيلة حياة الإنسان،

---

(١) ذكر لي سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ـ حفظه الله ـ شيئًا من قصص هؤلاء العلماء، ومنهم الشيخ صالح بن مطلق، فقد ذكر لي بعض قصصه التي تدل على قوة حفظه وسعة اطلاعه، وكان مما ذكر لي ـ حفظه الله ـ أن الشيخ صالحًا كان يحفظ أكثر من خمسين ألفًا من الأبيات الشعرية.

رغم تغير الظروف، وكثرة الصوارف والعوائق، وتقلب الأحوال والقلوب، وتتابع الخطوب.

عاش هؤلاء العلماء الربانيون أشياعًا للحق، وأنصارًا لدين الله، منذ ظهور الدعوة المباركة إلى يومنا الحاضر، مخلصين في خدمة العلم الشرعي تعليمًا ونشرًا، يستمرئون التعب في سبيله ويستطيبونه، محتسبين الأجر والثواب في تدريسهم، وتأليفهم، ودعوتهم، كانوا صادقين، لم يبتغوا بهذا العطاء والتدريس شهرةً ولا رياءً، ولم يجر عليهم ذلك غنمًا ولا ثناءً، بل لم يخطر في بال أحدهم أن يقوده هذا الطريق إلى منصب رفيع من مناصب الدنيا، طالما سعى إليه غيرهم، ممن نال من أعراضهم، وحذَّر من كتبهم ومؤلفاتهم.

وبأمثال هؤلاء العلماء أخمد الله شهاب الباطل، وأنار بهم سبيل الحق، فهم أكثر الناس أفضالًا، وأجملهم فعالًا، وأرجحهم عقلًا، وأثقبهم فهمًا.

وهم الذين - بفضل الله وتوفيقه - يأخذون بأيدي الناس عند الحوادث والملمات، ويكونون نبراسًا لهم في ظلم المشكلات.

وهذا العطاء من غير طلب لأجر الدنيا عسير على كثير من النفوس، إلا على أناس أتقياء أنقياء، سكن الورع في قلوبهم، وألفت القناعة صدورهم؛ ذلك لأنهم نظروا إلى هذه الدنيا نظرة صدق وقناعة، أنها فانية، واستعدوا للآخرة بأعمالهم الحسنة، وإنفاقهم المستمر للوقت والمال في سبيل

الله، ورأوا أن لهم أجرًا في الدار الآخرة، لا يفوتهم بإذن الله.

ورغم أن بعضهم عاش حياة فقر وعوز، إلا أن ذلك لم يكن مسوغًا لأخذ أجرة على تعليمه، وجلوسه للناس، بل كان الواحد منهم رغم قلة ذات اليد، جوادًا معطاءً، يجود لغيره، ويبيت جائعًا طوال يومه وليلته.

ورغم ما لاقوه من مصاعب وأزمات، فلم يزدهم تمسكهم بمذهب أهل السنة والجماعة إلا قوة في العلم، وصلابة في قول الحق، استقرت في قلوبهم، وكرامة عن المساومة على علمهم وعملهم بحطام هذه الدنيا الفانية، ملأت عليهم أنفسهم، فلهم أنفس أبية، وهمم علية، فصاروا - بحمد الله - أئمة ومنارًا للعلم، وعلمًا للحق، ونورًا يُستَضَاءُ بهم، فهم نبراس الأمة إذا عرتها دواجي المشكلات، والتبست عليهم عقد المسائل، فسلامٌ على تلك الأرواح، ورحمةُ الله على تلك الأشباح، ما مثلهم ومثل غيرهم إلا كما قيل:

نَزَلُوا بِمَكَّةَ فِي قَبَائِلِ هَاشِمٍ ... وَنَزَلْتُ بِالْبَيْدَاءِ أَبْعَدَ مَنْزِلِ

وقول الآخر:

لا تُعرِضَنَّ بِذِكْرِنَا فِي ذِكْرِهِم ... لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَىٰ كَالْمُقْعَدِ

لقد عاش علماؤنا شعارهم الزهد، ودثارهم التواضع واللين، بذلوا كل ما في وسعهم لبيان الحق، ونصبوا له أعلامًا لا تُشتبه، وبنوا له منارًا لا يُهدم، ورفعوا له راية لا تنتكس، وجعلوا له آية لا تنطمس، ونهجوا له طريقًا لا يُلتبس، وهم مع تواضعهم لا يخافون في الله لومة لائم، فإن أقبلت إليهم

سحائب البدع، ورياح الخرافات، أو ازْوَرَّ شخص عن الطريق الصحيح، واستنكف عن الحق الواضح الصريح، وتبرقع بالشنار، وتلفع بالمعرة، وتنطق بالخزي، فزعوا وهم حماة الأمة بعد الله، وقاموا عليه بالصمصام البتار، وما أدراك ما هو، لا تنبو مضاربه، ولا تكل غواربه، إن اعتلىٰ قدّ، وإن اعترض قطّ، فانقلب ذلك المبتدع خاسئًا حسيرًا، ونكص على عقبيه ذليلًا مقهورًا، وولىٰ دبره ملومًا مدحورًا.

وأنىٰ للمبتدعة وأشياعهم أن يقفوا أمام العلماء الأوابين، والأزكياء المنيبين، فعدوهم مقهور، ومغالبهم محذور، لا يجادلهم إلا محجوج، ولا يباريهم إلا مفلوج، ولا ينازلهم إلا مفلول.

وكان من ثمار جهود هؤلاء العلماء الأوّابين الصادقين، وعطائهم المستمر تأليف الكتب، وطباعتها، وتوزيعها على طلبة العلم دون مقابل، فاستفاد منها ـ بحمد الله وفضله ـ ما لا يُحصى من الناس، حتى ظهر ـ بحمد الله ـ مذهب أهل السنة والجماعة بالحجج النيرة، والبراهين الساطعة.

ومن كان هذا عمله وعطاؤه، وهذه نيته وطريقته، استحق التبجيل والاحترام والتقدير، لكن أبت نفوس المبتدعة المريضة هذا المبدأ، وقابلت الإحسان بالإساءة، وبدل أن يشكروا هؤلاء العلماء، قابلوهم بالسبّ والشتم والإساءة، والقذف بأشنع الألفاظ، وتعلقوا بأهداب الكذب، وما من ذم وعيب إلا ألصقوه بعلمائنا زورًا وبهتانًا.

ومع بذل علمائنا الصادقين، وعطائهم الذي شهد له القريب والبعيد، والعدو والصديق، إلا أنهم يتهمونهم بالتقصير في العطاء، والتعلق بالمصالح، مع أن هؤلاء المبتدعة هم الذين تشبثوا بأذيال الدنيا، وأهانوا أنفسهم لأجلها، وصدق عليهم المثل «رمتني بدائها وانسلت» فقد تقفعت أيديهم، فلا ترشح باليسير، ولا تجود بفتيل ولا قطمير.

وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللَّوْمِ لَائِمٌ ... يَلُومُ عَلَى الْبُخْلِ الرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وصفوهم تارة بالمشبهة، وتارة بالمجسمة والحشوية وغير ذلك، وسموهم أيضًا الوهابية، قاصدين بذلك تنفير الناس عنهم، معتقدين ـ هؤلاء الحمقى ـ أنه لقب سوء، وما علموا أننا نفخر به، ونرجو الله أن نلقاه على مذهب أهل السنة والجماعة.

لقد سطر هؤلاء المبتدعة في كتبهم مخازي وسبًّا لعلماء هذه البلاد المباركة، يستحي الفاسق من اعتقادها، ويأبى المجنون أن يتحدث بها، ولا عجب من ذلك، فكل إناء بما فيه ينضح، ولا يضر السحاب نبحُ الكلاب، وتفوهوا في دروسهم واجتماعاتهم ومحاضراتهم بأشنع مما كتبوا ولكن:

إِذَا الْكَلْبُ لَا يُؤْذِيكَ إِلَّا بِنَبْحِهِ ... فَدَعْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَنْبَحُ

وما ضر علماؤنا هذا النباح والضجيج، فهم على يقين تام، بأن الحق باق حتى وإن علاه الغبار وقتًا ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ

فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد:١٧].

والله ناصر دينه، ومعلٍ كلمته، ولذا كانت كلماتهم، ونصائحهم نابعة من قلوب صادقة، فعاش الواحد منهم قرير العين، هادي البال، ممدوحًا -بفضل الله ومنته- بكل لسان، وبقي ذكرهم وإخلاصهم على مرور الأزمان، ذكرًا مقرونًا بالشكر والدعاء والثناء، تفتخر به الأجيال.

ولا يثنى على علماء السنة في هذه البلاد، إلا تأخذ أفئدة هؤلاء المبتدعة حسرة، ويلازمهم غم وكمد، لا هم لهم إلا البحث عما أوتيه علماؤنا من القبول والعطاء، وما أصابهم من الملمات، فيغتمون بالأولى، ويفرحون بالثانية ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[البقرة: ١٠٩]، حتى غدوا مضرب المثل لحثالة الحاسدين.

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

ويا ليتهم علموا أن الحسد كبيرة من كبائر الذنوب، يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ويكفي في ذمه ومقته أنه اعتراض على قدر الله.

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا ... أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْأَدَبْ

أَسَأْتَ عَلَى اللَّهِ فِي حُكْمِهِ ... إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

وبمجالسهم الخاصة تراق الفضائل، ويقتل الصدق، ويطرد العدل في القول، ويلصق بعلمائنا الأتقياء كل زورٍ وبهتان، ذلك أن الحسد يملأ نفوس هؤلاء المبتدعة، فعليهم من الله ما يستحقون، تركوا الأعداء آمنين،

وما صوبوا سهامهم إلا إلى نحور علمائنا الأبرار الأطهار.

لقد أمضى هؤلاء أوقاتهم انتقاصًا لعلماء السنة والجماعة، راجين أن يكون لهذا الانتقاص أثر في تشويه سمعة العلماء الربانيين، وفاتهم أن أهل الحق قد احتلوا منزلة عالية ـ بفضل الله ـ لا تتأثر بشنيع أقوالهم:

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعَهُ ... فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلا يَضَعُ

وأنفقوا أموالهم وأوقاتهم في التحذير من كتبهم وعلمهم، فكان رد علمائنا:

إِذَا مَا هَجَانِي نَاقِصٌ لَا أُجِيبُهُ ... فَإِنِّي إِنْ جَاوَبْتُهُ لِيَ الذَّنْبُ
أُنَزِّهُ نَفْسِي عَنْ مُسَاوَاةِ سُفْلِهِ ... وَمَنْ ذَا يَعُضُّ الْكَلْبَ إِنْ عَضَّهُ

وما أجابوهم إذ في إجابتهم تنفيس لكربهم:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ
فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَّجْتَ عَنْهُ ... وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَدًا يَمُوتُ

فيا ويلهم إذا طويت صحائف أعمالهم، وقد سودوها بهذا المين العظيم، والبهت المبين، وهناك التلاقي عند حكم عدل ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي ... وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

إنك لتعجب من هؤلاء الذين أترعت قلوبهم بالغضب، وأفعمت صدروهم بالغيظ، وشحنت أجوافهم بالحنق، وطبعت أحشاؤهم بالإحن،

سلم منهم أعداء الله ورسوله، ولم يسلم منهم إخوانهم المؤمنون، فصوّبوا سهامهم نحو العلماء العاملين العابدين المخصلين. خلت مجالس هؤلاء المساكين من كل خير، وملئت بالانتقاص لأهل العلم والدين، غير سائلين ولا مستوحشين أن يجتمع في مجالسهم الموبوءة كبائر الذنوب، من الكذب والغيبة والنميمة وغيرها. فبارك صنيعهم العدو الأثيم، يسبقه الشيطان الرجيم، فأنى لمثل هؤلاء الفلاح والنجاح؟!

وبدل أن يبدؤوا علماءنا بالرُّحب والتحية والتكرمة، تلقوهم بقطوب وعبوس، وبسور وكسوف.

وما علم الواحد من هؤلاء المساكين أن للعلماء منزلة عظيمة، من رام ظلمهم ظلم نفسه وغرّها، ومن حاول ضيمهم ضام نفسه وضرها، لا تمتد إليهم يد ضائم إلا عادت إليه مبتورة البراجم، ولا هوت إليهم كف ظالم إلا انقلبت بائنة المعاصم، ومهما عابهم قليل دين وعقل، فعيبه به لاحق، وبعرضه لاصق، وإليه عائد، وعليه وارد، وسيكون عاره عليهم سمة في جبينه، وشامة في عرينه.

ولو قدر لك أن تقف على دخائل هؤلاء ودفائنهم، وغيابات قلوبهم، ومخبآت صدورهم، ومضمرات نفوسهم، لرأيت إثمًا كبيرًا، وشرًا مستطيرًا، والله غالب على أمره، ولن ينفع هؤلاء مكرهم وكيدهم، فقد حكم الله لأهل العلم والدين بالنصر العزيز، والأيد الشديد، والعز الوطيد، والظفر

القاهر، والغلب الظاهر.

وليت هؤلاء الذين سوّلت لهم أنفسهم انتقاص علمائنا، ليتهم حفظوا كلمة الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ﷺ حين قال: «إن استطعت فكن عالمًا، فإن لم تستطع فكن متعلمًا، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم»[1].

ورغم أنهم يرون مذهب أهل السنة والجماعة دلائل النصر له ناطقة، وشواهده صادقة، إلا أنهم تبعٌ لكل ناعق وناعر، وهم سراعٌ إلى من نصب للباطل راية، ورفع للشر علمًا.

وما الذي أثار نفوسهم إلا قول الحق، واتباع الدليل من الكتاب والسنة، فإذا ما تكلم العالم بالعقيدة الصحيحة، استثار هذا الأمر دفين حقدهم، وكمين ضغنهم، فخالفوا بأهوائهم الكتاب والسنة، وأحدثوا من البدع ما لا يُلأم صَدعُه، ولا تُسدّ ثُلمته. ولطالما ادعوا علمًا وهو بريء منهم:

إِذَا زَادَ عِلْمُ الْمَرْءِ قَلَّ ادِّعَاؤُهُ ... وَإِنْ قَلَّ يَوْمًا عِلْمُهُ ضَلَّ وَادَّعَى

كَذَا الْغُصْنُ أَيَّامَ الثِّمَارِ تَنَالُهُ ... فَإِنْ صَارَ مَعْدُومَ الثِّمَارِ تَرَفَّعَا

وإذا طمس العالم الصادق شيئًا من بدعهم، أقاموا عليها مأتمًا، يحسبون أنها

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه (ص١٣٧).

قربة إلى الله، وتجاهلوا وجهلوا أنها لا تزيدهم من الله إلا بعدًا، وتناسوا أثر هذه البدع، وعواقبها الوخيمة، فما هامت بها أمة من الأمم، إلا خفقت على ربوعها رايات الفساد والدمار، ولا نزلت بدار قوم، إلا كان حليفهم الذل والعار.

وما في صدور هؤلاء علم ولا هدى، ولا ورع ولا تقى، ما فيها إلا سخائم مدفونة، توشك أن تخرج، ترى أثر عداوتهم أثناء كلامهم تعريضًا، وكثيرًا ما نسمعها منهم تصريحًا، ولذا سئم طلعتهم كل صاحب عقل ودين.

في قلوبهم تغلي مراجل العداوة، وتلتهب نار البغضاء، فكان خير علاج لدائهم هذا تركهم يتعذبهم في نيران حسدهم:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الحَسُودِ ... فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وما إن يسمع هؤلاء أدلة وصف الله بصفات الكمال، إلا ترتعد فرائصهم فرقًا، وتستطير عقولهم روعًا، وتشرق نفوسهم بالأدلة الصحيحة الصريحة، فتبًا لهم كيف فقدوا بجهلهم حلاوة العلم!

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلالا

أولعت قلوبهم بالتأويل، وأغريت نفوسهم بالتشبيه والتحريف، فتخبطوا في ظلمات الهوى دهورًا، إذ مرض العقول عسير علاجه:

وَعِلَاجُ الأَبْدَانِ أَيْسَرُ خَطْبًا ... حِينَ تَعْتَلُّ مِنْ عِلَاجِ الْعُقُولِ

وإذا ذُكِرَ علماءُ أهل السنة، وأُثْنِيَ عليهم خيرًا، أقبل المبتدعة بقضهم

وقضيضهم، يثيرون الرَّهج في طريق الحق، رافعين لواء الحسد والبغضاء، يحسبون كثرتهم دليل قوة على مذهبهم، وما علموا أن العالم الرباني الواحد، تهابه الأفئدة في ثنايا الأحشاء، ويقف بعون الله في وجه فئام من أهل الباطل، لا يأبه بكثرتهم، ولا يحفل بجداهم، وإن رفعوا رايات الشبه، أو زينوا الباطل، قتلهم بحجته، ووهصهم بقدمه، وهو يردد:

لَا تَخْشَ كَثْرَتَهُمْ فَهُمْ هَمَجُ الـ ـوَرَى وَذُبَابُهُ أَتَخَافُ مِنْ ذُبَّانِ

ترى الواحد منهم وقد نهكته العلل الناهكة، والأمراض المدنفة، لكن في غيّه وعداوته لمذهب أهل السنة يستعيد قواه، وينسى مرضه وضعفه، ولا عجب! فقد استحوذ عليه الشيطان، واتخذه مركبًا، وأملى له فغمسه في الغرور والكبر، وزيّن له سوء عمله، فأضلّه عن طريق الهدى والحق، واحتوت عليه شدة الجهالة، فصدته عن السعادة، واستحوذ عليه الشقاء، فصرفه عن الرشد.

وإذا ذكرت قولًا لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أقبل ذلك المبتدع الأثيم ينصره أهل الفرقة والزيغ والشقاق، ولسان حاله يردد:

وَكُنْتُ امْرَأً مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى بِي الحَالُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي
فَلَوْ مَاتَ قَبْلِي كُنْتُ أُحْسِنُ بَعْدَهُ طَرَائِقَ فِسْقٍ لَيْسَ يُتْقِنُهَا بَعْدِي

ثم تبختر وتهدد وتوعد، وسب وشتم، معتقدًا أنه أحدث خوفًا ورعبًا بصراخه، لكن ما نفعه ذلك:

فَدَعِ الوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ

ووعيده وصراخه ليس غريبًا عليه، فالمبتدع لا يحجزه تقى، ولا يردعه نُهى.

وبحمد الله فمذهب أهل السنة والجماعة شهدت له العدول، وقام عليه البرهان.

ولا يزال علماؤنا ـ حفظهم الله ورعاهم ـ يذبّون عن حريم الإسلام، وها هي ذي كتبهم وشروحهم، آيات عظيمة باهرة، وحجج بليغة قاهرة، رآها المبتدعة عيانًا، وكانت عليهم ـ بفضل الله ـ دليلًا وبرهانًا، عرض الحق عليهم بأيسر بيان، وأظهر دليل، ولكن ـ للأسف ـ كثير من هؤلاء أمعن في إساءته، وتعمَّه في سَكْرته، وتسكع في باطله وطمّته، وصدق القائل:

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ أَمَاكِنِهَا وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ

وأعداء الحق عاهدوا الشيطان وواثقوه، ونشروا رايات ضلالهم وباطلهم، وأعلام جهالتهم، محكمين عقولهم الخربة، وأهواءهم المنحرفة، معرضين بها عن الكتاب والسنة، فعصفت بهم الأهواء، وطوّح بهم الحسد والبغضاء، فتشعب صدعهم، وانشقت عصاهم، وانقطع نظامهم، ووقعوا في شراك الشيطان.

وما أخرجوه من كتب الردود على مذهب أهل الحق عفى عليها الدهر، وصارت إلى زاوية من زوايا النسيان، وطمس ما فيها من تزوير وبهتان.

ولو اتسعت لهؤلاء الأمور في وقت، وذاع لهم صوت وكتاب، فسوف تغشى عليهم بعد ظلمة المعاصي.

وهم باستمرار عنادهم وحربهم لأهل السنة والجماعة، جرثومة قد حان انجعافها، وثمرة خبيثة آن قطافها، وهاهي ذي بدعهم قد ضعفت قواعدها، وتضعضعت دعائمها، وكفاهم حسرة ما يعيشونه من ذل وصغار، كما قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعاصي لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه»[1].

ولا يغتر عاقل إن رأى هؤلاء المبتدعة قد أُعطوا شيئًا من حطام هذه الدنيا، فقد جاء في الحديث: «وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّه»[2].

وصدق القائل:

عَتِبْتُ عَلَى الدُّنْيَا لِرِفْعَةِ جَاهِلٍ ... وَخَفْضِ لِذِي عِلْمٍ فَقَالَتْ خُذِ الْعُذْرَا
بَنُو الْجَهْلِ أَبْنَائِي لِهَذَا رَفَعْتُهُم ... وَأَهْلُ التُّقَى أَبْنَاءُ ضَرَّتِي الْأُخْرَى
أَأَتْرُكُ أَوْلَادِي يَمُوتُونَ ضَيْعَةً ... وَأُرْضِعُ أَوْلَادًا لِضَرَّتِي الْأُخْرَى

وبحمد الله استمر علماؤنا على منهج التعليم، وشرح كتب أهل السنة

---

(١) ذكر ذلك الأثر شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٥٨)، وابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٤٨)، والجواب الكافي (ص٣٨)، ونسباه إلى الحسن البصري رحمه الله.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

والجماعة في العقيدة، التي حفظت حديثهم، وأبقت ذكرهم، ومن هذه الكتب: كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب ـ رحمهم الله ـ وغيرها، وقد نُشر أكثرها في كتب وأشرطة، فكانت هذه الكتب زاجرة للمبتدعة، فصاروا أحدوثة سائرة، وعبرة ظاهرة.

وكان من هؤلاء العلماء الأبرار، والأولياء الأخيار، سماحة شيخنا العلامة الفقيه بقية السلف الحفي الوفي التقي النقي عبدالله بن عبدالرحمن ابن عبدالله الجبرين، حفظه الله ورعاه، وجعل الجنة مثوانا ومثواه، فهو ممن رسا طوده، وارتفع جده.

فقد ابتدأ في التدريس في حدود عام تسعين وثلاثمائة وألف للهجرة، في عدة مساجد، ودور للعلم، وشرح كتبًا في العقيدة، ومتونًا في مختلف الفنون، طبع أكثرها، وكان ضمن ما شرح وعلق عليه: شرح ابن أبي العز على العقيدة الطحاوية، فقد طلب منه بعض طلبة العلم ذلك، فابتدأ شرحه عام ثمانية وأربعمائة وألف للهجرة ـ واستمر شرحه نحو عشر سنين ـ تبدّل القراء وتعددوا، واستمر شيخنا حفظه ربي وسدد خطاه في شرحه حتى أتمه، وهذه صفة العالم الرباني، يكون بعيد الهمة، صائب الرأي، مسدد العزم.

وقد صرف ـ حفظه الله ـ في شرحه عنايته، وأفرغ مجهوده، وبذل وسعه وطاقته، وكان شرحه للكتاب من محفوظاته، دون أن يرجع إلى المصادر والشروح، لضيق وقته؛ إذ كان عضو إفتاء، تُحال إليه كثير من المعاملات

والاستفسارات، ورغم مشاغله الكثيرة، وأعبائه الجسيمة، ومحاضراته وندواته، وأحاديثه، وكلماته في المساجد والمناسبات، وبعض المجلات، ودوراته العلمية في مناطق كثيرة، وفتاواه الشفهية والتحريرية، ومقابلاته، ودروسه الصباحية والمسائية، إلا أن شرحه جعل الكتاب للقارئ قريب المتناول، داني الملتمس، بيِّن المنهج، بمثله تستمال القلوب النافرة، وتستصرف الأبصار الطامحة، وترد الأهواء الشاردة، ولا عجب، فشيخنا في الفصاحة صارم اللسان، شديد العارضة، مجنب ـ بفضل الله ـ مواقف الزلل، مؤيد بالتوفيق والسداد.

ولما انتهى الشيخ ـ حفظه الله ـ من شرح الكتاب، شرفني بالعناية به، وتحقيقه، والإشراف على طبعه، وقد سُجل الشرح في أربعة وثمانين شريطًا، ولكن لما فرّغت الأشرطة، وجدت في الكتاب مواطن كثيرة غير مشروحة، بسبب تغيب الشخص الموكل بالتسجيل عن بعض الدروس، فأحصيت النقص، وعرضته على سماحة شيخنا، وطلبت منه أن يشرحه مرة أخرى؛ ليتم الكتاب، فشرحه في اثنين وعشرين شريطًا، فرغت كلها، فكانت ربع الكتاب تقريبًا.

قرأت الكتاب أولًا محققًا، وبعد بضع صفحات قرأته مستفيدًا متعلمًا؛ إذ عرض فيه سماحة الشيخ الوالد كثيرًا من الفوائد، والقواعد، والتنبيهات، والنكت، والأبيات الشعرية، والقصص، وكلام المحققين من أهل العلم

الكثير، مما زين الشرح وأكمله، فلا عجب أن كان شيخنا قريع دهره، وكوكب نظرائه، وما زال ـ أعزه الله ـ يصعد إلى العز، ويترقى إلى ذرى المجد.

وكان العمل في التحقيق على حذف المكرر من الشرح، وتخريج الأحاديث دون الآثار، مستفيدًا من تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي لشرح ابن أبي العز.

ثم رأيت من الفائدة تخريج الآثار أيضًا، وعزو الأبيات الشعرية، وذكر بعض المصادر المشار إليها في الشرح، وكنت بين فترة وأخرى أجمع أوراقًا من الشرح، حصل عندي فيها إشكال، وأعرضها على سماحة الشيخ، فيبيّن لي ما أشكل، ويزيل عني ما استغلق، حتى اكتمل ـ بحمد الله ومنته وفضله ـ تحقيق الكتاب، ثم رأيت من كمال الاستفادة من الكتاب، أن توضع فهارس في آخره؛ ليسهل على القارئ مراجعة الموضوع، أو الحديث الذي يريد الاطلاع عليه.

وبعد؛ فهذا تحقيق الكتاب قد بذلت فيه جهدي وطاقتي، وأنفقت فيه وقتًا كثيرًا، شجعني لتحمل ذلك العناء، أنه علم شرعي، يبقى بإذن الله أجره، ولعلنا نحظى بدعوات صادقة، من كل قارئ للكتاب، ومستفيد منه.

وزاد من همتي أيضًا لهذا العمل، شرف خدمة سماحة شيخنا ـ أعزه الله ورفع درجته ـ فقد أغدق علي من غير منة ولا أذى من المعروف ما لا أستطيع سداده أو سداد بعضه، مهما شكرته ومجدته في مقدمتي هذه، فقد

عرفته جوادًا فياضًا معطاءً نفاحًا بالخير، متواضعًا سمحًا لينًا، وحق لي أن أحبه وأقول له:

كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ النُّفُوسِ مُرَكَّبٌ فَأَنْتَ إِلَى كُلِّ الأَنَامِ حَبِيبُ

وما طلبت منه شيئًا منذ عرفت نفسه الطاهرة الزكية، إلا وجدته ندي الكفين، رحب الذراع، شماله أندى من يمين غيره، يقال له:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ كِلْتَا يَدَيْكَ مُفِيدَةٌ

شِمَالُكَ أَنْدَىٰ مِنْ يَمِينِ سِوَاكَا

وفي أمثال سماحة شيخنا يقال:

يَمِينُكَ فِيهَا اليَمْنُ وَاليُسْرُ فِي اليُسْرَىٰ

فَبُشْرَىٰ لِمَنْ يَرْجُو النَّدَىٰ بِهِمَا بُشْرَىٰ

ولطالما استشهدت بعد منه وأفضاله علي بقول القائل:

تَبَرَّعْتَ لِي بِالْجُودِ حَتَّىٰ نَعَشْتَنِي

وَأَعْطَيْتَنِي حَتَّىٰ حَسِبْتُكَ تَلْعَبُ

فَأَنْتَ النَّدَىٰ وابْنُ النَّدَىٰ وَأَبُو النَّدَىٰ

حَلِيفُ النَّدَىٰ مَا لِلنَّدَىٰ عَنْكَ مَذْهَبُ

فلله دره فهو السري السخي، وكم نقش بأياديه البيضاء في سويداء قلبي، آيات شكر وثناء، لن أنساها بإذن ربي ما بقيت لي عين تطرف، وقلب يخفق، وكيف أنسى معروفه، وأنا الذي لم أسمع في كل ما طلبته منه إلا كلمة نعم، وأراني أمام أياديه الكثيرة، التي لا تجازى والتي حظيت بها مستشهدًا

للثناء عليه بقول الشاعر:

لَزِمْتَ نَعَمْ حَتَّىٰ كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
سَمِعْتَ مِنَ الأَشْيَاءِ شَيْئًا سُوَىٰ
وَأَنْكَرْتَ لَا حَتَّىٰ كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
سَمِعْتَ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ وَالْأُمَمِ

وحسبي أخيرًا من هذا الجهد، أن يكون موضع رضا القارئ المنصف وتشجيعه، وكنت في كل عملي أرجو أن أحسن فيه ما أمكنني الإحسان، فإن كان ذلك فالحمد لله الكريم المنان على بلوغ التمام، وإلا فأسأله بلوغه - مع الحمد والشكر والاعتراف بالتقصير - كما أسأله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يبارك في حياة سماحة شيخنا، وفي علمه، وعمله، وعمره، وذريته، وطلابه، ومؤلفاته، وأن يديم له سوابغ نعمه، وقرائن قسمه، ويصل سوالفها بعواطفها، كما أسأله سبحانه أن يبلغه الرتب الجليلة، والمحال النفيسة، وأن يمتعه بالصحة والعافية، وأن يجعل ما بذله ويبذله في ميزان حسناته، وأن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه/

د. طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر
ص.ب ٢٦٥٣٥ الرياض ١١٤٩٦

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## مقدمة الطبعة الأولى[١]

الحمد لله الملك المعبود، الرحيم الودود، المعروف بالكرم والجود، له الأسماء الحسنى، وصفات الكمال في الشاهد والمشهود، سميع بصير فلا يخفى عليه خافية في جميع الوجود، أحمده سبحانه وهو الرب المحمود، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ند له ولا معبود، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود، والمقام المحمود، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن بذل في نصرة دينه غاية المجهود.

أما بعد:

فإن ربنا سبحانه فطر عباده على معرفة ربهم وخالقهم، ومدبر أمورهم، فخلقهم حنفاء، ومنحهم العقول والأفهام؛ للتمييز بين الخالق والمخلوق، ونصب لهم الأدلة الظاهرة، حتى تدل كل عاقل ومفكر على وظيفته التي خُلق لأجلها في هذه الحياة الدنيا، ومع ذلك سلط عليهم الأعداء والأضداد، الذين يصدونهم عن الهدى، ويوقعونهم في الردى، فتمكن الشيطان وجنوده من إغواء الكثير، وتغيير فطرتهم، وإيقاعهم في الشرك والكفر والبدع والمعاصي،

---

(١) هذه المقدمة كتبها سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ـ حفظه الله ـ قبل أن يكمل النواقص من شرح الطحاوية.

فبعث الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين، يدعون الناس إلى ما خُلقوا له، ويبصرونهم بالدين الذي يجب أن يدينوا به، وأنزل كتبه لبيان شرعه ودينه الذي كلف به عباده، وقد بلَّغ الرسل ما نزل عليهم، وبشروا وأنذروا وحذروا وخوفوا، فمن الناس من هداه الله وتقبل الخير وفرح به، وعمل بما جاءه عن ربه على ألسن رسله، ومنهم من كفر وأنكر وكذَّب الرسل واتبع الهوى، وركن إلى الدنيا فحقت عليه الضلالة.

وقد ختم الرسل بنبينا محمد ﷺ، وجعل شريعته آخر الشرائع، وعمم برسالته الإنس والجن، والعرب والعجم، والقريب والبعيد، وقد بدأ دعوته إلى التوحيد، وإخلاص الدين لربه سبحانه، وترك الشرك وعبادة المخلوقات، وقد كان الشرك متمكنًا في نوع البشر، فهم يعبدون الأوثان، ويدعون مع الله آلهة أخرى، وينكرون البعث والنشور، ولقد أعلن دعوته إلى الدين الخالص، وإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى ربًا وخالقًا ومدبرًا ومتصرفًا في الكون، وإلهًا ومعبودًا وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه، ودعاهم إلى الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال.

وقد أنزل الله تعالى عليه هذا القرآن الكريم، الذي وصفه بأنه بيان وهدى، ورحمة، وموعظة، وشفاء لما في الصدور، وقد كلفه الله تعالى أن يبلغ رسالة ربه، وأن يُبين للناس ما نزل إليهم، وأن يوضح لهم ما جاء به من الشريعة، فقام بذلك أتم قيام، ووضح الأوامر والنواهي بقوله وفعله؛ حتى

ظهر أمر الله تعالى ودينه، وتحقق ما أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

وقد صدق على ذلك صحابته الكرام، الذين آمنوا برسالته، وتقبلوا ما جاء به من الشريعة، وآمنوا به وبما جاء به، وبذلوا في نصرته غاية الجهود، ونشروا الإسلام والإيمان والقرآن في شرق الأرض وغربها، وجاهدوا في الله حق جهاده، فكانوا مضرب المثل في الصبر والمصابرة والدعوة والبيان، فقامت حجة الله على العباد، وانتشر الإسلام، وبلغ ما بلغه الليل والنهار.

ومع ذلك حدث في الملة خلاف وبدع ومنكرات؛ كما أخبر النبي ﷺ بأن الأمة تفترق ثلاثًا وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي ما كان على مثل ما كان عليه هو وأصحابه [1].

وقد حصل هذا التفرق والاختلاف، فظهر الخوارج ونحوهم ممن يكفر بالذنوب، وخرجوا عن الطاعة، وقاتلوا المسلمين.

ثم خرج من أنكر صفات الله تعالى، وعطل الرب عن صفات الكمال،

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وقد ورد من طرق متعددة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، فقد رُوي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو، رضي الله عنهم. أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠، ٢٦٤١)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٢٠، ١٤٥)، وغيرهم.

وعُرِفُوا عند سلف الأمة بالجهمية، حيث إن الذي اشتهر بذلك وأعلنه ودعا إليه هو الجهم بن صفوان.

ثم تتابعت البدع والمحدثات وتمكنت عبر القرون الماضية، ولَـمَّا ظهرت وانتشرت حذَّر منها سلف الأمة وأئمتها، واهتموا ببيان السنة، وإظهار الأدلة في الرد على أولئك المبتدعة، والتحذير من شرهم، ومن الانخداع بشبهاتهم التي يروجونها كأدلة عقلية أو نقلية، واتفق علماء صدر الأمة وحملة السنة على محاربة تلك البدع وأهلها، والإنكار عليهم بشدة، وصدرت منهم كلمات قوية في التحذير من البدع، والتشديد عليهم بما يقرب من التكفير والتفسيق في حق الجهمية، والمعطلة، والرافضة، والمرجئة، والجبرية، والقدرية، والمعتزلة، ونحوهم.

وكثرت المؤلفات في السنة وأدلتها في التوضيح وبيان الحق، والتحذير من ضده، وضمَّن أكابر العلماء ذلك ضِمْن مؤلفاتهم؛ كما فعل البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه، حيث بدأ كتابه وختمه بالإيمان والتوحيد، وبدأ مسلم ـ رحمه الله ـ صحيحه بعد المقدمة بكتاب الإيمان، وأورد فيه الأحاديث التي على شرطه تتعلق بالعقيدة، والتي يستدل بها أهل السنة والجماعة، وكذا ما يستدل به من خالفهم حتى لا يُقال: إنه يذكر ماله ويترك ما عليه. وهكذا بقية أهل السنن حيث ضمَّنوا كتبهم ما يتعلق بالعقيدة في أثناء مؤلفاتهم، كما فعل أبو داود والترمذي، أو في مقدماتها كابن ماجه والدارمي.

ومع ذلك فقد صنف علماء السلف كتبًا كثيرة تختص بالعقيدة وبيان السنة

وأدلتها، وأكثروا من المؤلفات في ذلك، ويسر الله تعالى وجود الكثير منها وطبعها ونشرها؛ مما كتبه المحدثون وعلماء صدر الأمة الموثوق بهم. واعتمدوا في إثبات عقائدهم على الأحاديث، والآثار الصحيحة، التي نقلوها بالأسانيد الثابتة، حتى لا يتهموا أنهم ابتدعوها من أنفسهم، وحتى يُعرف عن الأئمة الأربعة المشهورين ما يقولونه في باب الاعتقاد، فإنهم معترف بهم في المذاهب والفروع، ولهم أتباع يقلدونهم، ويتمسكون بأقوالهم، ويعتمدون مذهبهم، ومع ذلك يخالفونهم أو يخالفون بعض أقوالهم في الأصول والعقائد، وأغلبهم الذين تسموا بالأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، فقد تمكنت عقيدتهم في القرون الوسطى وحتى هذا الزمان، مع أنهم خالفوا أبا الحسن في عقيدته المتأخرة، التي ذكرها في رسالته «الإبانة»، وفي كتابه «مقالات الإسلاميين»، ومع ذلك تمسك هؤلاء الأشاعرة بكتبه القديمة، والتي وافق عليها ابن كلاب وغيره، وكتبوا في هذه العقيدة العديد من الكتب الكبيرة والصغيرة، وطُبعت واشتهرت، وكثر معتنقوها عبر القرون الماضية، ولم يشتهر أحد بمجادلتهم ومناظرتهم والرد على أدلتهم مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، مع أن أهل السنة لا يزالون كثيرًا يكتبون في العقيدة، ويبينون ما هم عليه، ولكن الشهرة والسمعة لأولئك الأشاعرة.

وكان من جملة من كتب في العقيدة الإمام الطحاوي رحمه الله، وهو من الحنفية، وله المؤلفات المشهورة في الحديث والفقه، مع ما فيها من التعصب للمذهب، فألَّف نبذة في العقيدة، ذكر فيها عقيدته في أركان الإيمان، وفي

الصفات، وفي أغلب معتقد أهل السنة، ومع ذلك ذكر ما عليه الأحناف في باب الإيمان ونحوه، ولم يصرح بإثبات أغلب الصفات، وقد اشتهرت «العقيدة الطحاوية»، وشرحها الكثير من الأحناف، وتوسعوا في الشروح، إلا أن أغلبهم سار على ما هو متمكن من المعتقد الأشعري في إنكار الصفات وتأويلها، وحمل كلام الطحاوي على ما يوافق معتقد الأشاعرة المتمكن في تلك الأعصار.

وكان ممن شرحها عالم شهير حنفي المذهب، إلا أنه سلفي العقيدة، وهو ابن أبي العز الأذرعي رحمه الله تعالى، فقد التزم في شرحه التقيد بمعتقد السلف الصالح، وما كان علماء الأمة يقولون؛ كالأئمة الأربعة ونحوهم، وقد طُبع شرحه، وقرر تدريسه في الجامعات الإسلامية في المملكة العربية السعودية وغيرها، وحيث إن الحنفية غالبًا لا يركنون إلى مؤلفات غيرهم فقد تقبلوا هذا الشرح، وانتفعوا به، ورجع الكثير منهم إلى معتقد السلف الصالح والصدر الأول، وتأثروا بمثل هذا الشرح مع أنه يتوسع ويذكر الأدلة، ويوضح ما يقوله ويشرحه بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة والآثار السلفية التي لا مطعن فيها إلا للمتكلف.

ولَـمَّا كان له هذا التمكن اختار بعض التلاميذ علينا قراءته وشرحه، واقترحوا ذلك عليَّ، فالتزمت بذلك في أحد مساجد الرياض، وذلك في سنة ثمان من القرن الخامس عشر، وكان الدرس بعد صلاة المغرب إلى أذان صلاة العشاء في مساء يوم السبت ليلة الأحد من كل أسبوع، باستثناء أيام الإجازات

ونحوها، والطريقة في الشرح: قراءة بعض التلاميذ للجملة من المتن، وكلام الشارح عليها إن كان قليلاً كصفحة أو نحوها، ثم أتكلم على المعنى الإجمالي لتلك الجملة بما فتح الله، وقد أتوسع حسب ما يقتضيه المقام، وأذكر عقيدة أهل السنة في ذلك، وتوضيح أدلتهم، وأجيب عن بعض الأسئلة التي يوردها بعض الحاضرين، ويفوتني كثيرًا الكلام على بعض الجملة، أو بعض الأدلة، أو أحيل على كلام الشارح، ولا أتكلم على جميع الأدلة والوجوه والتقاسيم التي يذكرها الشارح رحمه الله؛ وذلك لوضوحها، ولأن الكلام على معانيها ووجه دلالتها قد يطول، ولا تحتمله أفهام السامعين، وقد ينقطع الكلام بدخول الوقت الثاني، أو بالاشتغال بأجوبة الأسئلة، ثم في الأسبوع الثاني أبدأ بمقدمة في موضوع الدرس السابق، أو كلام موسع على عموم العقيدة وأهميتها، ثم نبدأ في الدرس الجديد، وقد أتجاوز بعض الجمل أو التعليلات سهوًا؛ حيث لا أتذكر كلام الشارح جميعه عند الشرح، فأقتصر على ما علق بالذهن منه، واكتفي بالمعنى العام للموضوع.

وقد استمر هذا الشرح عدة سنوات حتى يسر الله إتمامه، وتولى قراءة الشرح على الحاضرين بعض التلاميذ، وتولى تسجيل هذا الدرس تسجيلات الراية لقربها من المسجد، واستمروا في التسجيل لهذا الدرس وغيره من الدروس التي ألقيتها في ذلك المسجد مع كثرتها، وقد فات بعض المواضيع لم تسجل، لكنها قليلة، وقمت بعد ذلك بشرحها مع الاختصار، وقد بقيت أشرطة التسجيل في تسجيلات الراية، واشتراها الكثير من التلاميذ، ومن أهل

التسجيلات الأخرى.

ثم وفق الله تعالى الشيخ الدكتور: طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر للاشتغال بها، فعمل على تفريغها من تلك الأشرطة، رغم ما في ذلك من التعب والمشقة، وبعد أن فرغها وكتبها قام بالتصحيح والترتيب للكلام والتنسيق، وحذف التكرار، وما لا صلة له بالشرح، وغيَّر بعض العبارات والكلام الذي ليس بفصيح، وهكذا عمل على تخريج الآثار والأحاديث التي ترد في الشرح، وذكر مواضعها وأرقامها ودرجاتها ونحو ذلك، وقد صبر على ذلك، وبذل جهدًا كبيرًا . وقد فوضت إليه الترتيب والتصرف؛ حيث إنه أهل لذلك، وله حقوق الطبع والإشراف والتصحيح، وله أن يستعين على العمل في ذلك بمن يراه من طلبة العلم الموثوق بهم.

ومع ذلك فهذا جهد المقل، وقدرة المفلس، حذر فيه من الداء وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله، فللقارئ غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، فهذه بضاعته المزجاة تعرض على القراء، ويرحم الله من أهدى إلينا عيوبنا، وأصلح ما وجده من الأخطاء والأغلاط، فإن الإنسان محل النسيان، لاسيما في هذا الشرح الذي حصل ارتجالاً في ساعة الإلقاء، دون مراجعة للمؤلفات، ولا استعداد ولا تحضير ولا تأهب، وإنما هو توضيح لما ذكره الشارح، وبيان للمعنى العام، اعتمادًا على الذاكرة وما علق بالذهن من العلوم العامة التي تمر بنا وتقرأ علينا في مؤلفات علماء أهل السنة وصدر الأمة.

وهكذا يقع أيضًا تكرار كثير لبعض الموضوعات والمعاني، وللأدلة والأحاديث والآثار؛ حيث إن المقام يستدعي ذكرها، ولو كانت قد سبقت مرارًا؛ لِمَا في ذكرها من المناسبة، ولم ننبه على التكرار في موضعه لظهوره، وللحاجة إليه، فهذا ما عملنا في هذا الشرح.

نسأل الله تعالى أن ينفع بأصله، وأن يصلح أحوال المسلمين، وأن يتوب على التائبين، ويرد ضال المسلمين، ويقمع البدع والمبتدعين، ويرشد الغاوين ويبصرهم بأصل الدين، ويرحمنا ويعفو عنا بفضله ومغفرته وهو أرحم الراحمين، والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

**عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين**

**عضو هيئة الإفتاء المتقاعد**

## مقدمة الشارح

قال ابن أبي العز - رحمه الله -:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْل

الحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَن لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

---

قال الشيخ[1]:

الحمد لله رب العالمين، قيوم السَّموات والأرضين، مدبر الخلائق أجمعين، عالم الغيب والشهادة، الملك الحق المبين، لا إله غيره ولا رب ولا معين، نحمده سبحانه على جزيل الفضل والامتنان، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تعالى عن مشاركة الأوثان، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الداعي إلى رضوانه، الهادي إلى إحسانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأعوانه، وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

---

(١) هذه المقدمة سجلها سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين - حفظه الله - بصوته مع بداية إكماله لشرح الطحاوية.

فإن الله تعالى كمَّل لنا دين الإسلام، ورضيه لنا دينًا، وجعله يدور على خمسة أركان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، وبيَّن ذلك وفصله نبينا محمد ﷺ، فأوضح ما يجب إيضاحه، وبيَّن للأمة ما يحتاجون إلى بيانه، وعلمهم علم العقيدة وعلم التوحيد، وبيَّن عليهم ما التبس عليهم في ذلك.

ونقل ذلك صحابته رضي الله عنهم، فأخبروا بأنه علمهم كل شيء يحتاجون إليه، ولم يكتم شيئًا من العلم الذي آتاه الله تعالى، وتناقل ذلك المسلمون قرنًا بعد قرن، ينقلون علم الشريعة، وعلم العقيدة، وعلم التوحيد، وعلم أصول الدين، وما يتفرع عن ذلك، وتلقى ذلك تلاميذهم عن المشايخ الكبار، ثم وصل إلى الذين دونوا ذلك، وكتبوا فيه المؤلفات. وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم، وكذلك تلاميذهم كانوا على عقيدة راسخة، ألا وهي عقيدة أهل السنة والجماعة، يؤمنون بآيات الله تعالى، وبكلماته، ويؤمنون بأسمائه وصفاته التي تلقوها من الكتاب والسنة، والتي أخذوها عن نبيهم ﷺ مجملة ومفصلة، وهكذا استمروا على هذا الاعتقاد، وجزمت به نفوسهم، وعقدت عليه قلوبهم. وكان من آثار هذا الاعتقاد الذي رسخ في قلوبهم أن فدوا دينهم بأموالهم وبأنفسهم، وبكل ما يملكونه وما يستطيعونه. فيقول أحدهم بلسان الحال: أنا مسلم، أنا مسلم، ديني أقدمه على كل شيء، أفدي ديني بنفسي وبكل ما أملك، أتمسك بذلك كل التمسك، ولا أغير شيئًا من دين الإسلام الذي أنا عليه، ولو قُتلت ولو مُزقت، ولو حصل لي ما حصل من

العذاب، والشقاق، والنكال، ونحو ذلك. صبروا على ذلك.

ثم كان من آثار هذه العقيدة أن جاهدوا في سبيل الله؛ لأجل إظهار هذا الدين وهذه العقيدة التي امتلأت بها قلوبهم، قالوا: لابد أننا مسؤولون عن الأمة الإسلامية في شرق الأرض وغربها وجنوبها وشمالها، لابد أننا نقوم بإبلاغ هذا الدين، وإذا لم يقبله إنسان دعوناه، وإن أصر واستكبر فإننا نقاتله حتى يدين بالإسلام، حتى نتغلب عليه، ونعمل بما جاء عن نبينا ﷺ أنه قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناس حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإذا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ على الله**»[1].

فغزوا شرق الأرض وغربها، وفتح الله عليهم البلاد، وفتح أيضًا عليهم القلوب، واطمأن الناس إلى صحة ما جاءوا به، وشرح الله صدور أهل الإسلام لهذا الدين؛ صدور من اطمأنوا إلى ذلك، وعرفوا صلاحيته لكل زمان ومكان، فكان ذلك من أسباب انتشار هذا الدين حتى انتشر على ثلاثة أرباع المعمورة: في الشرق والغرب.

وواصل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتلاميذ الصحابة والمسلمون القتال إلى أن وصلوا إلى ما وصلوا إليه، وفتحوا البلاد الغربية وكذلك البلاد الشرقية، وتوسعوا في نشر الإسلام، وكل ذلك لأنهم اطمأنوا بأنه الدين

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الحنيف، الدين القويم الذي يصلح لكل زمان ومكان، وعرفوا أن هذه العقيدة التي أخذوها من الكتاب والسنة هي الصحيحة، التي من اعتقدها فإنه يكون من أهل السلامة، ومن الذين يسيرون على سبيل النجاة.

وحيث أخبر النبي ﷺ بحدوث البدع وكثرة المبتدعات، فإنهم حذروا ذلك لَمَّا حذرهم نبيهم ﷺ في قوله في آخر حياته: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فإنه من يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسنتي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإن كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[1]. أخبر بأن الذي يعيش منهم يرى اختلافًا كثيرًا في هذه الأمة، وقد أخبر ﷺ بأن هذه الأمة تتفرق فرقًا بقوله: «**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»[2]، وفي رواية: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»[3]، وفي رواية عند الترمذي[4]: قالوا: وَمَنْ هِيَ يا رَسُولَ الله؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢) من حديث معاوية ﷺ، وأخرجه عن أنس ﷺ وفيه زيادة: أحمد (٣/ ١٢٠/ ١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٩٢).

(٤) برقم (٢٦٤١).

وَأَصْحَابِي». بيَّن أن هذه الفرقة الناجية هم الذين على سيرة النبي ﷺ، وعلى ما كان عليه هو وأصحابه.

ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ حتى يَأْتِيَ أَمْرُ الله، وَهُمْ كَذَلِكَ»[1]. قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعلم من هم»[2]. وهذا صحيحٌ، فإن الذين اشتغلوا بالحديث النبوي وقرؤوه وحفظوه، واعتقدوا ما دل عليه هم أقرب إلى أن يكونوا المتمسكين بسنة النبي ﷺ، ينطبق عليهم أنهم مثل الصحابة.

يقول بعض الشعراء:

أَهْلُ الحَدِيثِ هُمُوا صَحْبُ النَّبِيِّ وَإِنْ لَمْ يَصْحَبُوا نَفْسَهُ أَنْفَاسَهُ صَحِبُوا[3]

أي أنهم صحبوا كلامه الذي يخرج مع أنفاسه، بمعنى: أنهم يشتغلون به.

وحيث أخبر النبي ﷺ بتفرق هذه الأمة فقد وقع هذا التفرق كثيرًا، فأول

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان ﷺ، وأخرجه بنحو هذا اللفظ البخاري (٣٦٤٠، ٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧، ١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة، ومعاوية رضي الله عنهما، وسيأتي تفصيل تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص٢)، وأبو الفضل الهروي في «مشتبه أسامي المحدثين» (ص٢١)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ١١٨)، وانظر: فتح الباري (١/ ١٦٤، ١٣/ ٢٩٣)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).

(٣) ذكره ابن الصلاح في طبقات الشافعية (١/ ٣٥٧)، ونسبه إلى الحسن بن محمد القومسي.

ما حدث من الفرق: طائفة الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، والذين يجعلون العفو ذنبًا والذنب كفرًا، ولأجل ذلك قاتلوا الصحابة، وقاتلوا المسلمين.

ووردت فيهم أحاديث كثيرة تدل على أن قتالهم أفضل من قتال غيرهم، ومن ذلك: قوله ﷺ: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ من الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ»[1]. وقد جاء رَجُلٌ من بَنِي تَمِيمٍ يُدعى ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، فقال: يا رَسُولَ الله اعْدِلْ، فقال ﷺ: «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إذا لم أَعْدِلْ؟ قد خِبْتَ وَخَسِرْتَ إن لم أَكُنْ أَعْدِلُ»، فقال عُمَرُ: يا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لي فيه فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فقال ﷺ: «دَعْهُ فإن له أَصْحَابًا يَحْقِرُ أحدكم صَلاتَهُ مع صَلاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يقرؤون الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إلى نَصْلِهِ فلا يُوجَدُ فيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى رِصَافِهِ فما يُوجَدُ فيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى نَضِيِّهِ - وهو قِدْحُهُ - فلا يُوجَدُ فيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى قُذَذِهِ فلا يُوجَدُ فيه شَيْءٌ، قد سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أو مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ على حِينِ فُرْقَةٍ من الناس»[2].

وقد خرجوا على عهد علي ﷺ، وقاتلهم يوم النهروان، وقتل منهم مقتلة كبيرة، ومع ذلك فإنهم استمروا بقية القرن أو بعده، وإلى اليوم لهم بقايا يكفرون بالذنوب، ويقاتلون من خالف عقيدتهم، وهؤلاء فرقة ضالة ولو كانوا

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

يصلون ويصومون ويقرؤون القرآن ويعملون بأكثر ما فيه.

كذلك حصلت فرقة ثانية ظهرت في آخر عهد علي ﷺ، واستفحل شرها في عهد بني أمية، وهم الذين يسمون أنفسهم شيعة علي ﷺ، وسبب خروجهم أنهم أحبوا عليًا ﷺ؛ لِمَا رأوا من سيرته في العراق، ولَمَّا أحبوه وسمعوا في دولة بني أمية من يسبه ويضلله ويشتمه ويلعنه على رؤوس المنابر، قالوا: لابد أن ننتصر لإمامنا علي ﷺ. فعند ذلك أخذوا يجمعون من الأكاذيب في فضله؛ ليردوا على الذين قد ينخدعون بسماع لعنه وشتمه على المنابر، فكذبوا عليه أكاذيب لا تُحصى في فضله، وفي إمامته، وفي تقدمه، وبالغوا في ذلك بفضائل يعرف العاقل أنها مكذوبة، قصدهم بذلك الرد على أولئك الذين يضللونه.

ولما أنكر عليهم بعض أتباعهم، وقالوا: إذا كانت له هذه الفضائل فَلِمَ لَمْ يكن هو الأول، وكيف سبقه ثلاثة من الخلفاء دامت خلافتهم خمسًا وعشرين سنة؟ أليس ذلك ظلمًا له؟ فعند ذلك قالوا: بلى إنه مظلوم، وإن الذين استبدوا بالأمر وبالولاية قبله هم ظلمة. وركزوا على أبي بكر وعمر وعثمان، وكذلك بقية الصحابة، وادعوا أنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ حيث بايعوا أبا بكر ثم عمر ثم عثمان، وادعوا أنهم كتموا الوصية لعلي بأنه هو الولي، ولفقوا أكاذيب في ولايته لا أساس لها، وقد تمكنوا في العراق ودام تمكنهم، وزاد عددهم.

ولما خرج زيد بن علي - رحمه الله - ودعا إلى نفسه في آخر خلافة بني أمية، قالوا: نواليك على أن تتبرأ من أبي بكر وعمر. فامتنع وقال: هما صاحبا جدي.

فعند ذلك تركوه، فقال: إذًا عند ذلك ترفضوني؟! فسموا: رافضة[١].

ومع ذلك استفحل شرهم، وصاروا يزيدون بما يلفقونه من الأكاذيب، ولم يزل أمرهم يستفحل إلى زماننا هذا، وقد أكثروا من المؤلفات في تراجم أئمتهم الاثني عشر، وكذلك تراجم من يؤمهم أو من يميل إليهم من الرافضة ونحوهم، وأكثروا من المؤلفات في هذا المذهب الباطل، الذي من سمعه وتعقله عرف بطلانه وبعده عن الصواب.

كذلك أيضًا في آخر القرن الأول وفي أول القرن الثاني خرجت بدعة أخرى، ألا وهي بدعة التعطيل، وهم الذين ينفون قدرة الله تعالى، وينفون كلامه، وينفون محبته وصفاته التي وصف بها نفسه. اشتهر بإنكار القدرة في آخر القرن الأول معبد الجهني، وغيلان الدمشقي. وقد أدركهم ابن عمر - رضي الله عنهما - وحَذَّر منهم، وبين أنه لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره[٢].

كذلك ظهر أيضًا في أول القرن الثاني آخرون منهم، واشتهر ذلك عن الجعد بن درهم، الذي جادل في إنكار كلام الله، وفي إنكار محبته، جادل على ذلك وصبر على القتل، وقتله خالد القسري رحمه الله؛ ذلك لأنه لما خطب

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٦ وما بعدها)، والفرق بين الفرق (ص١٥)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٨).

بالناس خطبة عيد النحر قال: «أيها الناس! ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا» ـ تعالى الله عما يقول الجعد ـ ثم نزل فذبحه[1].

وقال في ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مقدمة نونيته[2]:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ ... قَسْرِيّ يَومَ ذَبائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلاَّ وَلاَ مُوسَى الْكَلِيمُ الدَّاني
شَكَرَ الضَّحِيّة كُلّ صَاحِب سنّةٍ ... لِلَّهِ دَرّكَ مِنْ أَخِي قُربَانِ

أي: أنه جعله ضحيته يتقرب بها إلى الله تعالى، فشكر هذه الضحية كل صاحب سنة. وقد روى هذا الأثر البخاري ـ رحمه الله ـ في رسالته: «خلق أفعال العباد»[3]، ورواه غيره من الأئمة[4].

وظهر في ذلك الزمان أيضًا واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، واشتهرا بإنكار قدرة الله تعالى، واشتهرا أيضًا بأن العاصي ليس بمؤمن ولا كافر، وجعلاه بمنزلة بين المنزلتين.

---

(١) سيأتي الكلام عن ذلك في شرح ابن أبي العز رحمه الله.

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

(٣) (ص٢٩).

(٤) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٢١)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٥)، والذهبي في «العلو» (ص١٣١).

ثم خرج أيضًا في القرن الثاني رجل يُقال له: الجهم بن صفوان. الذي أنكر صفات الله تعالى، فأنكر الاستواء، وأنكر الكلام، وأنكر بقية الصفات الفعلية والذاتية، وتمنى أن يمحو آيات الاستواء من القرآن.

وقد اشتهرت بدعته وصار كل من اشتهر بالتعطيل يسمونه جهميًا. ومذهب الجهمية هو تعطيل الله تعالى عن صفات الكمال، وقد ورث هذا المذهب كثيرون من المعتزلة، واشتهر منهم: بشر بن غياث المريسي، ثم بعده أيضًا: أحمد بن أبي دؤاد، والذين مكنوا لكثير من الناس أن يعتقدوا هذه العقيدة، ودعوا أيضًا بعض الخلفاء - ومنهم المأمون - إلى أن يمتحن الناس بقول إن القرآن مخلوق، ويعذب من لم يقل بهذه المقالة، وقد جرت فتن عظيمة، وامتُحن العلماء، وكان منهم الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - الذي صبر على الأذى، وصبر على الضرب والجلد والحبس.

قال الشاعر[1]:

وَيَقُولُ عِنْدَ الضَّرْبِ لَسْتَ بِتَابِعٍ ... يَا وَيْحَكُمْ لَكُمْ بِلَا بُرْهَانِ

أَتَرَوْنَ أَنِّي خَائِفٌ مِنْ ضَرْبِكُمْ ... لَا وَالْإِلَٰهِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ

كُنْ حَنْبَلِيًّا مَا حَيِيتَ فَإِنَّنِي ... أُوصِيكَ خَيْرَ وَصِيَّةِ الْإِخْوَانِ

وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ فَأَحْمَد ... زين الثِّقَاتِ وَسَيِّد الفِتْيَانِ

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٥/ ٢٨٢)، ونسبها إلى أبي المعالي القاسم بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المدائني.

ثم إن الله تعالى نصر الحق، وانتصر الإمام أحمد على الذين خالفوه، وظهرت حجة الله تعالى، وظهر أمر الله.

ولما تمكن هؤلاء المبتدعة الذين ينكرون أسماء الله وصفاته، اهتم علماء الأمة بأمر العقيدة، فكتبوا في ذلك العقائد الكثيرة ليردوا على أولئك المبتدعة، وكان من جملة من كتب: الإمام أحمد رحمه الله، فله رسالة اسمها: «أصول السنة»، وله رسالة أخرى اسمها أيضًا: «السنة»، وله رسالة يرد بها على الجهمية فيما شكَّت فيه من متشابه القرآن. ثم ألَّف ابنه عبد الله رسالة موسعة أيضًا سماها: «السنة»، ثم ألَّف أيضًا تلميذه أبو بكر الخلال كتابًا واسعًا سماه باسم «السنة»، وكلها ـ والحمد الله ـ مطبوعة منتشرة، وإن كره نشرها وطبعها كثير من المخالفين والمبتدعين.

كذلك أيضًا ألَّف ابن أبي حاتم رسالة أيضًا في السنة، وألَّف ابن أبي عاصم رسالة السنة، وكتب عثمان بن سعيد الدارمي رسالة في الرد على الجهمية، وهي رسالة قوية، وأخرى ناقش بها رسالة كتبها الثلجي في عقيدة المريسي، وكلتاهما مطبوعتان يمدحهما علماء أهل السنة ويثنون على محتوياتهما، وهي أدلة واضحة.

وكذلك كتب الكثير من المتقدمين كابن خزيمة كتابه الذي سماه: «التوحيد»، وابن منده كتابه: «التوحيد»، وكتابه: «الإيمان»، وابن أبي شيبة رسالة صغيرة في الإيمان، وأبي عبيد القاسم بن سلام رسالة أيضًا صغيرة تتعلق بالإيمان، وتوسع آخرون فكتبوا في ذلك كتبًا واسعة، ومنهم: الإمام ابن

بطة ـ رحمه الله ـ كتابه الذي سماه: «الإبانة الكبرى»، و«الإبانة الصغرى» التي احتوت على أدلة واضحة رواها بالأسانيد، وهكذا كتب الآجري ـ رحمه الله ـ كتابًا واسعًا سماه: «الشريعة»، وهكذا كتب اللالكائي كتابًا واسعًا في شرح أصول اعتقاد أهل السنة. وكلها مطبوعة متوفرة والحمد لله.

وكذلك للبربهاري ـ رحمه الله ـ رسالة بعنوان: «شرح السنة» مطبوعة أيضًا، كلها تتعلق بعقيدة أهل السنة والجماعة. وكذلك نظم ابن أبي داود منظومة حائية في عقيدة أهل السنة[1]، يقول في أولها:

تَمَسَّكْ بحبْلِ الله واتَّبِع الهُدَى ولا تَكُ بدْعِيًا لَعلَّكَ تُفلِحُ

... إلى آخر ذلك.

وكتب أيضًا كثيرٌ من العلماء الذين كانوا قد دخلوا في علم الكلام، وذلك أن أبا الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ كان في أول الأمر معتزليًا، متتلمذًا على الجبائي ونحوه، ثم إنه جرت بينهما مناقشة في بعض المسائل، فعجز الجبائي عن أن ينتصر عليه، فترك مذهبه، ثم إنه اعتنق مذهب ابن كُلاَّب المشهور، ولَـمَّا انتقل إلى مذهب ابن كُلاَّب بقي على ذلك مدة طويلة، وألَّف عليه كتبًا كثيرة، اشتهرت تلك الكتب، وتلقاها جمع من العلماء في القرن الرابع، واشتهر عنه أنه على تلك العقيدة، وصار المذهب الأشعري هو الذي يُعرف وينتشر في شرق البلاد وغربها إلا ما شاء الله.

---

(١) وقد شرحها سماحة شيخنا عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين ـ حفظه الله ـ في رسالة مستقلة.

ثم إن الأشعري ـ رحمه الله ـ رجع في آخر أمره، وألَّف رسالة له مختصرة اسمها: «الإبانة في أصول الديانة»، ونعم ما فعل، فقد نصر فيها الحق، وذكر أنه على طريقة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وكأنه ترك طريقة الكُلاَّبي، وكذلك أيضًا ألَّف كتابًا واسعًا في فرق الأمة اسمه: «مقالات الإسلاميين»، ولما أتى على مقالة أهل السنة توسع في ذكر عقيدتهم، وقال في آخر ذلك: «وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب»[1].

ومع صراحة كلامه فإن المذهب الأشعري لم يزل متمكنًا إلى زماننا هذا، ومع ذلك فإن أهله يجادلون على ذلك المذهب، وهو ليس مذهب أهل السنة حقًا، ولو ادعى بعض الأئمة وبعض العلماء أنهم من السنة ـ أعني الأشاعرة وكذا الماتريدية ـ وذلك لمخالفتهم لأهل السنة في أمور كثيرة، فهم لا يثبتون صفة العلو، ولا صفة الاستواء، ولا الصفات الفعلية كالمحبة والرضى والغضب والرحمة والعجب والضحك وما أشبه ذلك، ولا يثبتون صفة الوجه ولا صفة اليد وما أشبهها، وهكذا أيضًا ينفون النزول والمجيء وما أشبه ذلك، مما يدل على أنهم ليسوا على مذهب أهل السنة الصحيحة.

وقد اشتهرت مؤلفاتهم، وتمكنت عقيدتهم، ولَـمَّا أظهر الله شيخ الإسلام ابن تيمية في آخر القرن السابع وأول القرن الثامن جادلهم، وخافوا مجادلته؛ لأن له شعبية ومكانة وشهرة في المسلمين في زمانه، حيث يعترفون بفضله،

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (٢٩٧).

ويقدرونه ويرفعون من مكانته، ولأجل ذلك جادلوه مجادلات قوية في دمشق، وفي مصر، وفي كلها يظهر عليهم، ولا يجدون حيلة إلا أن يأمروا السلطان بأن يسجنه، فسُجن مرارًا في مصر، ثم سُجن أخيرًا في دمشق حتى مات، وأحبه المسلمون ولو ضلله وكفره من يكفره من كثير من المخالفين له من العقيدة، فلا عبرة بهم ولو كثروا، فإنه لا يضر السحاب نبح الكلاب.

وكان من المتقدمين الذين كتبوا، ولكنهم قربوا من المذهب الأشعري: البيهقي - رحمه الله - في كتابه «الأسماء والصفات»، فإنه تساهل في ذلك، وكان له بعض الهفوات، ولكنه من المُحَدِّثين، ولا يستطيع أن يكتم الأحاديث التي صحت عنده بالأسانيد، فروى الأحاديث الكثيرة بإسناده في كتابه «الأسماء والصفات»، ولكن قد أفسده كثير من الذين حققوه وطبعوه، وصرفوا ما فيه عن ظاهره. وله أيضًا كتاب «الاعتقاد» على عقيدة أهل السنة، وإن كان فيه شيء من الإجمال وعدم التصريح بعقيدة أهل السنة التي تخالف معتقد الأشاعرة.

وكان من جملة المتقدمين الذين كتبوا في العقيدة: الشيخ العالم الطحاوي رحمه الله، الذي كان شافعيًا، ثم حصل بينه وبين علماء الشافعية شيء من الخلاف، فتحول وصار حنفيًا، وتعصب للمذهب الحنفي، وألَّف رسالته، عُرفت بـ «العقيدة الطحاوية».

وهذه العقيدة ألَّفها الإمام أحمد بن جعفر الطحاوي الحنفي، المتوفى سنة ثلاثمائة وواحد وعشرين للهجرة، واسمها: «بيان السنة والجماعة»، وقد اعتنى

بها كثير من الحنفية وشرحوها:

**أولًا**: شرح شجاع الدين هبة الله بن أحمد المعلى التركستاني، المتوفى سنة سبعمائة وثلاث وثلاثين.

**ثانيًا**: شرحها نجم الدين بكبرس بن يلنقح التركي، المتوفى سنة ستمائة واثنتين وخمسين، في مجلد كبير سماه: «النور اللامع والبرهان الساطع».

**ثالثًا**: شرحها صدر الدين على بن أحمد بن أبي العز الأذرعي الدمشقي الحنفي، المتوفى سنة سبعمائة واثنتين وتسعين.

**رابعًا**: شرحها محمود بن أحمد بن مسعود القونوي الحنفي، المتوفى سنة سبعمائة وسبعين، شرحًا بسيطًا، أوله: حمدًا لله المتوحد بكمال صمديته، وسماها: «القلائد في شرح العقائد».

**خامسًا**: القاضي سراج الدين عمر بن إسحاق الهندي الحنفي، المتوفى سنة سبعمائة وثلاث وسبعين، رتب الأصل على مقدمة ومهمات وتتمة، وفي مقدمته عشر تنبيهات.

**سادسًا**: شرحها المولى أبو عبد الله محمود بن محمد بن أبي إسحاق الفقيه الحنفي القسطنطيني، وأول شرحه: الحمد لله الذي هدانا لهذا. وأتمه سنة تسعمائة وستة عشر.

**سابعًا**: شرحها المولى كافي الحسن البسنوي الأقحصاري، المتوفى سنة ألف وخمس وعشرين، شرحًا وجيزًا وسماه: «نور اليقين في أصول الدين»، أتمه عند المحاصرة تحت قلعة استرغون سنة ألف وأربع وعشرين قبل الفتح بيومين.

مما يدل على عناية علماء الحنفية بهذه العقيدة، ولكن الكثير من الذين شرحوها سلكوا طريقة الأشاعرة، ولم ينهجوا نهج العقيدة السلفية إلا ابن أبي العز الأذرعي رحمه الله، فإنه من أهل السنة؛ وذلك لأنه تتلمذ على الإمام أبي الفداء ابن كثير صاحب التفسير والتاريخ رحمه الله، وكان ابن كثير قد تتلمذ أيضًا على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، بحيث إنه قرأ عليه واختص به، ومات شيخ الإسلام وعمره ثمان وعشرون، ولكنه تأثر به كثيرًا، وصحح معتقده ولو كان شافعي المذهب. فلما قرأ عليه الأذرعي ـ رحمه الله ـ تأثر به أيضًا، وصحح العقيدة وأصبح من أهل السنة الذين ينصرون السنة ويبتعدون عن البدع وما أشبهها.

وهذا الشرح لابن أبي العز هو الذي طُبع في هذه المملكة، وذلك لأن علماء أهل السنة عرفوا ميله ووجدوه موافقًا ومناسبًا لما عليه أهل السنة، فلأجل ذلك طُبع مرارًا، وكذلك أيضًا قُرر شرحه على الكليات في هذه البلاد، فيُقرأ في كلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود، وكذلك في جامعة أم القرى، وفي الجامعة الإسلامية، وقد اشتهر ـ والحمد الله ـ وعرفوا بذلك صحة معتقده، مع أن الطحاوي ـ عفا الله عنه ـ لم يُفصح بكثير مما كان عليه السلف الصالح، ولكن استنبطوا ذلك من بعض الإشارات وبعض الأماكن. وذكر أيضًا كلمات فيها شيء من الإجمال أو الكلمات التي لم يستعملها أهل السنة، مثل: التنزيه عن الأبعاض والأعراض، والجهات الست، وما أشبهها. وحمله على ذلك أن هذا قد اشتهر في زمانه عند الذين تسموا بأنهم أشعرية،

ولكنه ـ رحمه الله ـ حملها على أحسن محامل، وقد أكثر في شرحه هذا من النقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وعن ابن القيم من كتبهما الموجودة، ولكنه لا يتجرأ على الإفصاح بالنقل عنهما؛ لأنه قد اشتهر عند أهل زمانه ومن قبلهم ومن بعدهم أن ابن تيمية مجسمٌ، وأنه ممن خالف معتقد الأشاعرة، وكذلك أيضًا تلميذه الذي سلك طريقته الإمام ابن القيم رحمهما الله.

فهو ينقل عن كتبهما كثيرًا، ولكنه لا يُفصح باسميهما، فينقل ذلك وكأنه كلام منه، ثم بعد ذلك يضيف إليه عبارات وتصرفات، وكذلك أيضًا بعض الملاحظات وما أشبهها. ولما أتى على الإيمان ـ الذي هو عند الحنفية اسم للتصديق فقط ـ عند ذلك حاول أن يذكر أن الخلاف ليس معنويًا وإنما هو خلاف لفظي، وتكلف في صرف كلام الطحاوي، ولكنه لم يصنع شيئًا، كما قال ذلك كثير من الأئمة.

وبكل حال فإن هذا الشرح هو الذي اشتهر والحمد لله، وقبله حتى الحنفية الذين هم متشددون في أطراف البلاد في الهند والسند والباكستان والأفغان وفي تلك البلاد، الذين يتمسكون بالمذهب الحنفي، والذين يتقبلون ما جاء في كتب الحنفية، فلأجل ذلك أصبح مرجعًا عندهم وعند غيرهم؛ لأنه يتقيد بما كان عليه السلف الصالح رحمه الله تعالى.

وحيث إن هذا المتن محتوٍ على جل العقيدة وإن كان فيه بعض الملحوظات، فقد يسر الله أن قمت بشرحه مفردًا في كثير من الدورات في هذه البلاد وفي غيرها، في الإجازات التي نتولى فيها شرح كثير من المتون، ونشرحها

شرحًا غير موسع بقدر ما يحتمله الوقت الذي هو وقت تلك الدورة؛ كأسبوع أو خمسة أيام أو نحو ذلك. وهكذا أيضًا شرحه كثير من المشايخ في مثل هذه الدورات في المملكة وفي غيرها، وكل ذلك دليل على أنهم اهتموا بهذا الشرح، وأنه قريب من معتقد أهل السنة.

أما شرح ابن أبي العز فقد يسر الله أن قمت بشرحه أو بالتعليق عليه، وكان ذلك في ابتداء سنة ألف وأربعمائة وثمان للهجرة، وذلك في مسجد الراجحي القديم الذي في الربوة.

وكذلك يكون هناك درس آخر في «عمدة الأحكام» وغيرها من المتون، ثم تُلقى أيضًا أسئلة كثيرة، ثم نجيب على كثير منها.

وكان الذي يتولى تسجيله هو تسجيلات الراية، فيأتي منتدب منهم ويسجل الدرس متنًا وشرحًا، وكذلك الشرح الثاني، وكذلك الإجابة على الأسئلة. وبقيت تلك الأشرطة عند ذلك الفرع، ثم قام بتفريغها أخونا الشيخ الدكتور طارق بن محمد الخويطر، وفقه الله وسدده.

وطريقتنا في الشرح أن يُقرأ علينا شرح ابن أبي العز ثم أتكلم عليه إجمالًا، نتكلم على الجملة التي شرحها، ولم أتمكن من مطالعة شروح غيره، ولا أستعد لذلك، ولا أقدر على أن أُحَضِّر لذلك الدرس، وإنما أتكلم بما فتح الله وبما أعرفه من المعلومات القديمة، وأشغل بذلك أكثر الوقت إلى قرب الأذان، ثم بعده نقرأ في متن آخر. وقد يفوتني كثير من الجمل لا أتعرض لها في شرحي، وذلك إما لضيق الوقت، وإما لنسياني بعض الجمل أو بعض الأدلة التي

يستدل بها ابن أبي العز رحمه الله، حيث إنه يذكر أدلة كثيرة؛ لأنه يكتب على مهل، وأما أنا فأتكلم ارتجالًا بما استحضره مما يتعلق بتلك الجملة، أريد بذلك التوسع، وأريد إفهام الحاضرين الذين قد لا يفهمون الكلام الفصيح الذي يأتي به الشارح، فإذا فصلته وذكرت بعض الأمثلة والأدلة فإنهم قد يفهمونه أكثر.

هكذا استمر على ذلك عملنا إلى أن أنهينا ذلك الشرح والحمد لله، ولكن مع ذلك قد فاتنا شيء كثير، إما أننا لم نشرحه ـ لبعض الجمل ـ وإما أنه فات الذين يسجلون، حيث إنهم قد يغيب المسجل أحيانًا؛ لانشغاله في بعض الأوقات، ومن جملة ما لم يُسجل مقدمة ابن أبي العز مع طولها، وكذلك كثير من الجمل التي بأول الكتاب لم نجد أنها سُجلت. وحيث إنها بحاجة إلى أن تُشرح وأن يكون شرحها مساويًا لشرح غيرها مما بعدها طلب مني الدكتور طارق ـ حفظه الله ـ أن أشرحها، وأن أكمل ذلك الشرح حتى يكون الكتاب واسعًا، وحتى يُطبع ويُستفاد منه، وقد يصل إلى مجلدين أو أكثر إذا فُرغ كله وطُبع كطبعة شرح ابن أبي العز.

وأقول بعد ذلك إنني أعتذر عما قد يكون في الشرح من الهفوات ومن الأخطاء التي قد يكون سببها عدم الاستحضار، وسأحرص أنا وأخونا طارق الخويطر على تتبع الشرح وملاحظة ما فيه، وإصلاح ما قد يحتاج إلى إصلاح، ويحتاج أيضًا إلى تكميل. وكذلك أيضًا تخريج الأحاديث التي فيه والآثار.

وأما النقول التي ينقلها من كلام ابن القيم أو من كلام الشيخ ابن تيمية

ـ رحمهما الله ـ فإن تمكنا أشرنا إلى مواضعها من كتب الشيخين، وإن لم نعثر عليها أو لم نتمكن اقتصرنا على الإشارة إلى أن هذا من كلام فلان، أو لا نتمكن من ذكر ذلك.

أما تخريج الأحاديث التي في الشرح فقد تولى تخريجها الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، وسوف نعتمد فيها على تخريجه وفيه الكفاية. وهكذا أيضًا ما نزيده وما نضيفه نحرص أيضًا على أن نسجل شيئًا من التعاليق وما أشبهها، وقد يتولى ذلك الشيخ الدكتور طارق الخويطر أثابه الله، وقد نشير إلى بعضها عند الحاجة إلى ذلك مع أنه قد يكون كثير منها يذكر الشارح من خرجه، إلا أنه يحتاج إلى الجزء والصفحة حتى يرجع إليها المراجع؛ وذلك لأنها قد تُذكر بالمعنى في نفس الكتاب، ونذكرها أيضًا ونغير من لفظها، فإذا رجع إليها المراجع ووجد لفظها عرف بأنها ذُكرت بالمعنى، والأحاديث بلا شك تختلف ألفاظها عند المخرجين، حتى عند المخرج الواحد، بحيث إن الأحاديث التي في صحيح مسلم يختلف لفظها مع كونها عن راوٍ واحد، وكذلك أيضًا في صحيح البخاري، فضلًا عن الكتب الأخرى.

كذلك أيضًا نحرص على إضافة ما نستطيعه من توضيح لبعض الجمل، وننبه على بعض الأخطاء التي قد يكون فيها شيء من الخطأ العقدي الذي قلد فيه المؤلف ما اشتهر في معتقدهم من معتقد الأشاعرة، وننبه أن هذا اجتهاد منه، وهو مأجورٌ حيث إن هذا المعتقد ـ الذي هو المعتقد الأشعري ـ كاد أن يغطي بقية المعتقدات، وكاد أهل السنة ألا يعرفوا شيئًا في ذلك الزمان إلا هذا

المذهب إلا ما شاء الله، وكان أهل السنة يستخفون بمعتقدهم، وينالهم شيء من الأذى إذا صرحوا بذلك؛ كما حصل للإمام البربهاري الذي في القرن الرابع لَمَّا صرَّح بعقيدة أهل السنة، حاربه أهل زمانه وأساؤوا إليه؛ لأنه جهر بذلك. وهكذا لَمَّا أن أبا يعلى - رحمه الله - وكتب بعض الرسائل التي تتعلق بصفة العلو وبإثبات الصفات، خطؤوه أو ضللوه وقالوا: إن أبا يعلى رجل مشبه أو مجسم. فاعتذر بأنه لم يأت بشيء من نفسه، وإنما نقل من كتب الأئمة؛ كالإمام أحمد وابنه والخلال وغيرهم، ممن سلكوا هذا المسلك.

ولكن لما أن هؤلاء - في القرن الرابع وما بعده - انشغلوا بهذا المعتقد الجديد الذي هو معتقد الأشاعرة كما يقولون، مع أن الأشعري - رحمه الله - تراجع عن ذلك، ولكن تمسكوا بهذا وانتشر هذا المعتقد الذي هو معتقد الأشاعرة، وصاروا يجادلون عليه ويؤلفون فيه مؤلفات تتعلق بذلك، كالعقائد النسفية، وكذلك بدء الأمالي، وكذلك متن الخريدة، وغير ذلك، حتى ذكر بعض ذلك الشيباني أيضًا في عقيدته التي نظمها، وقال[1]:

سَأَحْمَدُ رَبِّي طَاعَةً وَتَعَبُّدًا ... وَأَنْظِمُ عِقْدًا فِي الشَّرِيعَةِ أَوْحَدَا

وهكذا في بدء الأمالي وغيرها من الشروح، وكذلك المتون التي كتبوها واعتنوا بها وشرحها كثير منهم، كلها على هذا المعتقد الذي هو معتقد الأشاعرة. وانتشر ذلك حتى في القطر الغربي الذي هو جهة الأندلس،

---

(١) انظر: كشف الظنون (٢/ ١٣٤٠).

وكذلك المغرب وأفريقيا، والمشرق كله - بلاد الهند والسند والأفغان والباكستان ونحو ذلك - تمكن عندهم هذا المعتقد.

فنقول: إن هذا المعتقد فيه شيء من الأخطاء التي نبه عليها شيخ الإسلام ابن تيمية في مؤلفاته، وابن القيم في كتابيه: «اجتماع الجيوش الإسلامية»، و«الصواعق المرسلة»، والإمام الذهبي في كتاب «العلو». ومن جاء بعدهم على نهجهم وسلك ذلك أئمة الدعوة الذين هداهم الله تعالى، ويسر لهم أن اعتنقوا هذا المعتقد وكتبوا فيه، وكذلك العقائد التي كتبها أئمتنا ومشايخنا في زماننا، كلها - والحمد لله - على عقيدة أهل السنة والجماعة.

كتب في ذلك الشيخ زيد بن فياض - رحمه الله - شرحًا وافيًا على العقيدة الواسطية، والشيخ عبد العزيز بن رشيد - رحمه الله - شرحًا وافيًا ضافيًا على العقيدة الواسطية، وألف الشيخ عبدالرحمن بن سعدي - رحمه الله - أيضًا متنًا مختصرًا في بيان العقيدة السليمة الصحيحة، وهكذا أيضًا شيخنا الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين - رحمهما الله - وشرح أيضًا شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - الواسطية شرحًا متوسطًا، وكذلك أيضًا شرح الحموية شرحًا متوسطًا، وكل ذلك دليل على أنهم تبنوا هذه العقيدة التي هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وخافوا أن تفشو عقيدة الأشاعرة التي عليها الكثير من الوافدين ومن تلك البلاد، والتي يتمسكون بها ويدّعون أنها هي الصواب، مع ما فيها من المخالفة للنصوص، ولكن يعتمدون في عقائدهم على أدلة عقلية في

نظرهم أنها سليمة لا يقع عليها شيء من الخطأ، ولكن ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ ﴾ [ فاطر:٨].

ونقول: نحن ـ والحمد لله ـ على العقيدة السليمة، تُدرس هذه العقيدة في هذه الدولة في المعاهد العلمية، والكليات الإسلامية وغيرها، يتلقى ذلك الطلاب عن مشايخهم الذين يثقون بهم، يشرحون لهم ما تيسر من هذه المتون، كـ «الواسطية» لابن تيمية، وكذلك «لمعة الاعتقاد» للإمام موفق الدين، وعقائد أيضًا لبعض أهل زمانهم لابن رجب ـ رحمه الله ـ تتعلق بالصفات؛ ذلك لأنهم أيضًا تأثروا بمن في زمانهم كابن تيمية ونحوه، فكانوا على العقيدة السليمة الصحيحة، تبنوا هذه العقيدة وساروا عليها، وهدى الله من شاء إليها، ولو أنكر ذلك وبدَّع في زماننا الكثير من الذين على المعتقد الأشعري، ومنهم: زاهد الكوثري وغيره، فإنه أخذ يمتعض وينهى عن طبع بعض كتب أهل السنة كـ «الرد على المريسي» للدارمي، وكتاب «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد رحمه الله، وغيرهم، إلى أن ظهر الحق واستبان، والحمد لله.

ولا عجب إذا امتعض هؤلاء أو أظهروا بعض الإنكار للمسائل العقدية التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وبيّن أدلتها النبي ﷺ، واعتمد فيها أهل السنة على الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة.

قوله: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ابتدأ ـ رحمه الله تعالى ـ بالبسملة

والحمدلة تأسيًا بالقرآن الكريم، فإنه ابتدأ بالبسملة والحمدلة، وكان النبي ﷺ يبدأ مكاتباته بالبسملة في كتابته لغيره من الملوك ونحوهم إذا كتب يدعوهم إلى الله تعالى[١]، وقد رُوي أنه ﷺ قال: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فيه بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ فَهُوَ أَقْطَعُ»[٢]، وفي رواية: «لاَ يُفْتَحُ بِذِكْرِ الله عز وجل فَهُوَ أَبْتَرُ»[٣]، وفي رواية: «لا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ الله فَهُوَ أَقْطَعُ»[٤]، وفي رواية: «أجذم»[٥]. والمعنى: أنه ناقص البركة.

وهذه التسمية ذُكرت في القرآن في أوائل السور ما عدا سورة براءة، وقد

---

(١) كما في كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، وفي أوله: «بِسْمِ الله الرحمن الرَّحِيمِ، من مُحَمَّدٍ عبد الله وَرَسُولِهِ إِلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ على من اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ...»، أخرجه البخاري (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان ﷺ.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٢٥٥)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وابن حبان (١/ ١٧٣)، والبيهقي (٣/ ٢٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٤١) من حديث كعب بن مالك ﷺ. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٤٣): «قال النبي ﷺ: كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهو أقطع، وفي رواية: بحمد الله، وفي رواية: بالحمد فهو أقطع، وفي رواية: أجذم، وفي رواية: لا يُبدأ فيه بذكر الله، وفي رواية: ببسم الله الرحمن الرحيم، روينا كل هذه في كتاب الأربعين للحافظ عبد القادر الرهاوي سماعًا من صاحبه الشيخ أبي محمد عبدالرحمن بن سالم الأنباري عنه».

اختُلف فيها هل هي من القرآن أو لا؟ ولا خلاف أنها بعض آية من سورة النمل في قصة سليمان ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠]. وهي تتضمن التبرك باسم الله، والتقدير: باسم الله أتبرك، أو تبركي باسم الله، وذلك لأن الاسم الشريف يُتبرك به؛ لأنه دال على ذات الإله وحده، فالله تعالى هو ذو الألوهية والعبودية على خلقه.

ثم قد وصف نفسه وسمى نفسه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر»[(١)]. وقيل: الرحمن رحمة عامة لجميع الخلق، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

والرحمة صفة من صفات الله تعالى التي تليق به، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ»[(٢)]. ولما رُفع له ابن ابنته ونفسه تقعقع فاضت عيناه، فقال له سَعْدٌ: يا رَسُولَ الله ما هذا؟ فقال: «هذه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله في قُلُوبِ عِبَادِهِ»[(٣)]. وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فرآه يُقَبِّلُ الْحَسَنَ، فقال: إِنَّ لي عَشَرَةً من الْوَلَدِ ما قَبَّلْتُ وَاحِدًا منهم، فقال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، والبيهقي (٩/ ٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد ﷺ.

رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»(١).

فدل على أن «الرحمن» اسم من أسماء الله ينطبق على الذات الربانية، وكذلك أيضًا يدل على صفة الرحمة التي تليق بالله تعالى، ولا نؤولها ولا نكيفها إلا أنها رحمة حقيقية، وقد أخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١].

ثم يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: (حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْل)، هكذا جاء في مقدمة هذه الخطبة، وجاء في بعض الروايات بدلها: (الحَمْدُ لله، وَصَلَّى اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ)، وكل ذلك ثابت، وقد كان النبي ﷺ يُعَلِّم أصحابه خطبة الحاجة، فيقول: إذا كان لأحدكم حاجة فليقل: «الحَمْدُ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ»(٢)، هذه الخطبة ذكرها عبد الله بن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) هذه خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي ﷺ بين يدي حاجته، أخرجها مسلم مختصرة من حديث جابر ﷺ (٨٦٧)، ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما (٨٦٨)، ووردت مطولة ومختصرة من حديث ابن مسعود ﷺ عند أبي داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ شرح لها في جزء لطيف.

مسعود ﷺ، ورُويت في كتب السنن، وهي خطبة لائقة مناسبة، ابتُدِئت بالحمد الذي هو الثناء على الله تعالى.

وقد فُسر الحمد بأنه فعل يُنبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره، وقيل: إن الحمد هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله.

ثم يقول: (نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ)، الواجب أن العباد يستعينون بالله في كل حاجاتهم، ولذلك جاء في سورة الفاتحة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، أي: نطلب منك الإعانة فإنك أنت الذي تعين؛ كما في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:١١٢]. فالعباد يستعينون به على أمور دينهم حتى يوفقهم ويعينهم؛ ليعملوا الأعمال الصالحة التي كلفهم الله بها والتي يحبها الله، ويستعينون به على أمور دنياهم في تجاراتهم وحروثهم وبناء بيوتهم وغير ذلك، فإنه لو وكل العبد إلى نفسه لوكله إلى ضيعة، فلأجل ذلك لابد أن يطلب من ربه الاستعانة على كل شيء من أمور الدنيا والدين.

وأما الاستغفار فإنه طلب المغفرة، والتي هي غفر الذنوب وسترها وإزالة أثرها، والعبد بحاجة إلى أن يغفر الله له، وذلك لأنه محل الخطايا، ويكتسب الكثير من الذنوب، فإذا كثرت عليه الذنوب ولم يطلب من ربه محوها تراكمت عليه وأهلكته، فلابد أنه يطلب من ربه الغفر أي: الستر، (نستغفرك) أي:

نطلب منك غفر الذنوب، يعني: محوها وإزالة أثرها حتى لا تتراكم علينا.

وقد وردت أدلة كثيرة في القرآن والسنة في الأمر بالاستغفار، من ذلك: قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:٣]، وكذا قول نوح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ [نوح:١٠، ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود:٩٠]، وقول الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[محمد:١٩]، وذكر الله عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح:٢٨]، طلب من ربه أن يغفر له ولوالديه، وقد كانا مؤمنين.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: (وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا)، الاستعاذة: مشتقة من العياذ الذي هو الاحتماء، نعوذ: يعني نحتمي بربنا، ونستجير به، ونسأله الحفظ لنا من كل ما يسوؤنا، فالاستعاذة: هي الالتجاء واللياذ والاعتصام والاستجارة بالرب سبحانه وتعالى. ولا شك أن المستعيذ يشعر من نفسه بالعجز، ويشعر من نفسه بالتذلل، ويشعر من نفسه بالضعف، فينطرح بين يدي ربه، ويطرح نفسه على باب الرحمة، يطلب من ربه أن يحميه ويحوطه، ويحفظه من كل سوء، ومن الشرور التي تحدق به، ومن الشياطين من الإنس والجن الذين يكيدون له. فالله تعالى هو الذي يعيذ من استعاذ به، وهاهنا

الاستعاذة من شرور الأنفس، ومن سيئات الأعمال، كأنه يقول: إن أنفسنا فيها شرور، وأنت الذي تعيذنا من تلك الشرور، بأن تعصمنا وتحفظنا أن نقترف شرورًا مما تجرنا إليه الأنفس، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

وكذلك سيئات الأعمال، أي: الخطايا والذنوب التي وقعنا فيها وعملناها، نعوذ بك أن نصر على سيئات، ونعوذ بك أن نقع في محرمات، وأن نقع في الخطايا والذنوب، نسألك أن تحفظنا من تلك السيئات، وأن تعفو عنا وتغفرها لنا.

ثم يقول: (مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ)، الهداية من الله: التوفيق، فهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فمن هداه الله تعالى ووفقه وسدده، فلا يقدر أحد على أن يضله، ولا على أن يصرفه عن ذلك الهدى، ومن أضله وحكم عليه بالضلال، فلا حيلة في هدايته، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٣٦]، يعني: من أضله الله حكم عليه فما له من هاد، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧]، أي: من وفقه الله واهتدى فليس له من يتسلط عليه ويقدر على إضلاله، بل يحفظه الله تعالى ويوفقه.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: (وأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)، هاتان الشهادتان ركن من أركان الإسلام، بل هما الركن الأساس والذي لا يقبل الله من أحد الإسلام إلا إذا أتى

بالشهادتين، موقنًا بهما وعاملًا بمقتضاهما.

والشهادة: معناها الإقرار والاعتراف، أي: أقر وأعترف على نفسي، وأعلم علمًا يقينًا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ومعنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحق إلا الله، أي: لا أحد يستحق العبادة غير الله، فإنه الإله وحده. والإله: هو الذي تألهه القلوب، محبةً ومودةً وتقربًا إلى الله وتعظيمًا، أي: لا أحد يستحق أن يؤلَّه ويُعبد ويُعظم ويُقدس إلا الله وحده لا شريك له.

كلمة (لا إله إلا الله)، أولها نفي (لا إله)، وآخرها إثبات، نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله، ومثبتًا العبادة لله وحده.

وكلمة (**وحده لا شريك له**)، وحده: تأكيد للإثبات، أي: الله وحده هو الإله، و(**لا شريك له**)، تأكيد للنفي، أي: لا إله يشاركه.

وقد تكلم العلماء ـ رحمهم الله ـ على هذه الشهادة، وبالأخص أئمة الدعوة، وذكروا لها سبعة شروط، نظمها بعضهم في قوله:

عِلْمٌ يَقِيْنٌ وَإِخْلاصٌ وَصِدْقُكَ مَعَ مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالْقَبُولِ لَهَا

أولًا: العلم: يعني أن يكون الذي يقول (لا إله إلا الله) يعلم بمعناها، يعلم ما تدل عليه من إثبات الإلهية لله التي هي العبادة، ومن نفي العبادة عن غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

ثانيًا: لابد أن يستيقن بما دلت عليه، أن يستيقن بمدلولها، يعلم يقينًا أن الإلهية لله وحده، ويوقن بذلك ويعتقده اعتقادًا جازمًا.

**ثالثًا**: أن يخلص الإلهية لله، فيعبد الله مخلصًا له الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، أي: قد أخلصوا دينهم وصفوه لله تعالى، فلا يطلبون من غيره، ولا يلتفتون إلى سواه، يعملون بقول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣].

**رابعًا**: أن يقولها صادقًا؛ لأن هناك من يقولها بلسانه ولا يعتقد معناها بقلبه، فالمنافقون وكثير من اليهود يقولونها ومع ذلك يشركون؛ لأنهم ما أيقنوا بأن الإلهية حق لله تعالى.

**خامسًا**: المحبة لما تدل عليه، والواجب على العباد أن يكون حبهم لله مقدمًا على حبهم لغيره، وكذلك محبتهم لأنواع العبادة كلها، أن يحبوا التواضع وأن يحبوا الخضوع وأن يحبوا الخشوع وأن يحبوا الدعاء لله وحده، ونحو ذلك من أنواع العبادة.

**سادسًا**: الانقياد، وهو الاتباع لما جاء في الحديث، ولما جاء في القرآن.

**سابعًا**: القبول، وهو تقبل كل ما جاء عن الله تعالى في القرآن وفي السنة.

وأضاف بعض العلماء إليها شرطًا ثامنًا، ونظمه بقوله:

وَزِيْدَ ثَامِنُهَا الْكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... سِوَى الإِلَهِ مِنَ الأَنْدَادِ قَدْ أُلِهَا

دليل ذلك قول النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»[1]. فلا بد أن يكون المسلم كافرًا بالآلهة كلها، معتقدًا بطلان كل ما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣) من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه رضي الله عنهما.

يُعبد من دون الله.

وأما شهادة أن محمدًا عبده ورسوله، فإنها أيضًا لازمة لكل من دخل في الإسلام، ولازمة أيضًا للمسلم أن يتقرب بها، وأن يكرر هذه الشهادة؛ لأجل ذلك قُرن بين الشهادتين في الأذان، فالمؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن محمدًا رسول الله. وكذلك في التشهد في آخر الصلاة أو في وسط الصلاة يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أي: أقر وأعترف أن محمدًا عبد الله ورسوله.

وهو سيدنا؛ لقوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]، وفي رواية: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2]، واسمه العلم (محمد)، ذُكر في القرآن في عدة مواضع، وسُمي به لكثرة خصاله الحميدة، وسُمي به قبله سبعة عشر على ما قاله ابن الهائم؛ كما ذكر ذلك في مقدمة «الرَّوْض المُرْبع»[3].

والشهادة هاهنا له بالعبودية والرسالة، أي: لابد أن يُشهد له أنه عبد وأنه رسول. والعبودية مشتركة بينه وبين غيره من سائر الخلق، فإنهم جميعًا عبيد الله: الملائكة والرسل والبشر كلهم عبيد لله، وذلك أنهم مملوكون له يتصرف فيهم كيف يشاء، فهو يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يسعد ويشقي، يفقر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) (١/ ٩).

ويغني، يريش ويبري، يتصرف فيهم بما يشاء، فهم عبيده وملكه. وكذلك الأنبياء أيضًا فخرهم وشرفهم الانتماء إلى العبودية، أنهم عبيد الله، ولذلك قال الله في حق نبينا ﷺ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾[البقرة:٢٣]، ذكره بالعبودية يدل على أنه لم يترق إلى رتبة الربوبية، ولكنه عبدٌ شرفه الله تعالى بالرسالة. وقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء:١]، هذا شرف له وهو أنه أُسري به إلى بيت المقدس كما ذُكر في هذه السورة: ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾، وكذلك قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان:١]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن:١٩]. كل هذه صفات له بالعبودية، ولكنها تعتبر شرفًا؛ لأن العبد هو العابد المتعبد المتذلل لمعبوده.

ولا شك أيضًا أن الأنبياء كلهم عبيد لله، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ [ص:١٧]، ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾[ص:٤١]، ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[النساء:١٧٢]، فالملائكة عبيد لله؛ كما قال تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧]، ونحو ذلك من الأدلة.

واختص ﷺ عن الأمة بأنه رسول، أي: أن الله تعالى اختاره لحمل الرسالة فأرسله إلى الناس كافة، وتميز على غيره من الرسل بأن دينه باقٍ، وأنه خاتم الأنبياء والرسل، وأن رسالته إلى جميع الخلق، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقد كان الأنبياء من قبله إنما يُبعث النبي إلى قومه خاصة وبُعث ﷺ إلى الناس كافة؛ كما في حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ ولم تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى الناس عَامَّةً»[1]، أرسله الله تعالى بهذه الرسالة التي هي هذه الشريعة، وفرض على الناس أن يطيعوه، وكل ذلك دليل على أن العبد عليه أن يشهد هاتين الشهادتين؛ ليكون دخوله في الإسلام دخولًا كاملًا.

ثم يقول: (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا)، الصلاة من الله: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى. هكذا نقل البخاري عن أبي العالية[2]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) كما ترجم بذلك في صحيحه (٦/ ١٢٠) قال: «باب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾، قال أبو العالية: صَلاةُ الله ثَنَاؤُهُ عليه عِنْدَ الْمَلائِكَةِ».

والأصل أن الصلاة الدعاء؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، ولكنها من الله تستدعي رحمة ورفعة وأجرًا وثوابًا لمن يصلي عليهم[1]، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣]، أي: يرحمكم ويعفو عنكم.

ثم يقول: (وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ)، آله: قيل إنهم أهل بيته؛ كزوجاته وأعمامه وبني عمه من بني العباس ومن بني أبي طالب ومن بني عقيل ونحوهم، كلهم أهله وأقاربه، وكذلك زوجاته فإنهن من أهل بيته، وبيوته بيوتهن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾[الأحزاب:٥٣]، أي: بيوت زوجاته. فقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأحزاب:٣٣]، هذا خطاب لأمهات المؤمنين، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، هاهنا ذكَّر، ولم يقل: (ويطهركن)؛ لأن النبي ﷺ دخل معهن لأنه صاحب البيت، أي: يريد الله أن يطهركم أنت وبيوتك وزوجاتك ومن فيهن، وهكذا أيضًا أقاربك.

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٩٨): «في صلاة الله علينا خمسة أقوال:
أحدها: أنها رحمته، قاله الحسن، والثاني: مغفرته، قاله سعيد بن جبير، والثالث: ثناؤه، قاله أبو العالية، والرابع: كرامته، قاله سفيان، والخامس: بركته، قاله أبو عبيدة.

وهناك من يقول: إن آله هم أتباعه على دينه، ورجح ذلك بعض العلماء، منهم: الشوكاني في «نيل الأوطار»[١]، وأنشد قول الشاعر:

آلُ النَّبِيِّ هُمُو أَتْبَاعُ مِلَّتِهِ ... مَنْ كَانَ مِنْ عَجَمٍ مِنْهُمْ وَمِنْ عَرَبِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ آلُهُ إِلَّا قَرَابَتُهُ ... صَلَّى الْمُصَلِّي عَلَى الطَّاغِي أَبِي لَهَبِ

وبكل حال يصدق على أن آله أتباعه، وأن آله خاصة أهل بيته؛ لأنه جاء في بعض الروايات: «**اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ**»[٢].

وأما (صحبه)، فإنهم صحابته الذين اتبعوه وساروا على طريقته، وصدقوه ولم يكذبوه، وعملوا بسنته عملًا كاملًا، عملوا بها في الأقوال والأعمال، ولم يتخلفوا عنه في شيء من الغزوات، بل هم دائمًا يغزون معه.

ومن أشرافهم وأكابرهم: الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكذا بقية الستة: سعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعامر الذي هو أبو عبيدة بن الجراح، وكذلك بقية الصحابة، فقد رضي الله عنهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾، هؤلاء من السابقين الذين هاجروا والذين نصروا الله، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، أي: جاؤوا بعدهم

---

(١) فِي بَابِ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى تَفْسِيرِ آلِهِ الْمُصَلَّى عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ صِفَةِ الصَّلَاةِ (٢/ ٣٢٧ - ٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧) من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ.

متأخرين وصحبوا النبي ﷺ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

ثم يقول: (وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا)، والسلام: دعاء بالسلامة، أي: صلِّ وسلم عليه وعلى آله وأصحابه جميعهم، أكثر تسليم وأتمّه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الشارح:

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّهُ لَـمَّا كَانَ عِلْمُ أُصُولِ الدِّينِ أَشْرَفَ الْعُلُومِ، إِذْ شَرَفُ الْعِلْمِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ، وَهُوَ الْفِقْهُ الأَكْبَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فِقْهِ الْفُرُوعِ، وَلِهَذَا سَمَّى الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ - رحمة اللَّهِ عليه - مَا قَالَهُ وَجَمَعَهُ فِي أَوْرَاقٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ «الْفِقْهَ الأَكْبَرَ»، وَحَاجَةُ الْعِبَادِ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ حَاجَةٍ، وَضَرُورَتُهُمْ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ؛ لأَنَّهُ لا حَيَاةَ لِلْقُلُوبِ، وَلا نَعِيمَ وَلا طُمَأْنِينَةَ، إِلا بِأَنْ تَعْرِفَ رَبَّهَا وَمَعْبُودَهَا وَفَاطِرَهَا، بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَيَكُونَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَحَبَّ إِلَيْهَا مِمَّا سِوَاهُ، وَيَكُونَ سَعْيُهَا فِيمَا يُقَرِّبُهَا إِلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ.

---

قال الشيخ:

كلمة (أَمَّا بَعْدُ)، يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، وقد كان النبي ﷺ يأتي بها في خطبه[1]، وكذلك في مقالاته[2].

يقول الشارح - رحمه الله -: (فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ عِلْمُ أُصُولِ الدِّينِ أَشْرَفَ الْعُلُومِ)، صحيح أنه أشرف العلوم، والمراد بأصول الدين: علم العقيدة؛ لأن العقيدة

---

(١) كما في حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما؛ الذي أخرجه البخاري (٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥) وفيه: «فخَطَبَ رسول الله ﷺ الناس، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: أَمَّا بَعْدُ...».

(٢) كما في كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، المتقدم تخريجه.

تعتبر أصلًا لغيرها متى صحت العقيدة ورسخت في القلب وتمكنت من الضمير وأيقن المسلم بصحة تلك الأصول، فإنه بلا شك تنبعث جوارحه إلى العمل بما جاء. فعلم أصول الدين أشرف العلوم، وعلينا أن نهتم به، وعلم العقيدة أشرف من سائر العلوم؛ كعلوم الفقه وفروع المسائل، وعلوم السير، وعلوم الأدب، وعلوم اللغة، وعلوم النحو، وسائر العلوم، ويدل على ذلك قول بعض العلماء شعرًا:

الْعِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الْصَحَابَةُ لَيْسَ خُلْفٌ فِيْهِ

مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الْرَسُوْلِ وَبَيْنَ رَأْيِ سَفِيْه

كَلاَّ وَلاَ نَصْبُ الْخِلافِ جَهَالَةً ... بَيْنَ الْنُصُوصِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيْه[1]

وأما قول بعض النحويين:

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُوْمِ أَجَلَّهَا ... فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيْمُ الأَلْسُن[2]

يعني: النحو.

فقد رد عليه ابن عبد البر في كتاب «العلم»[3] وقال:

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُوْمِ أَجَلَّهَا ... فَأَجَلُّهَا عِنْدَ الْتَقِيّ الْمُؤْمِن

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٧٩)، والحطة في ذكر الصحاح الستة (ص٥١).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٨) بسنده عن أبي العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، المعروف بالمبرد.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٦).

عِلْمُ الْدِيَانَةِ وَهُوَ أَرْفَعُهَا لَدَى ... كُلِّ امْرِئٍ مُتَفَقِّهٍ مُتَدَيِّن
هَذَا الْصَحِيْح وَلا مَقَالَةُ جَاهِلٍ ... فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيْمُ الأَلْسُن
لَوْ كَانَ ذَا فِقْهٍ لَقَالَ مُبَادِرًا ... فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيْمُ الأَدْيُن

فعلم الأصول هو الذي يقيم الدين، وهو شرط في قبول بقية الأعمال، فإن من لم يحقق علم العقيدة فلابد أنه سيقع في البدع ويقع في المخالفات، فتُرد عليه أعماله.

وقول الشيخ ـ رحمه الله ـ: (إِذْ شَرَفُ الْعِلْمِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ)، يعني: أن المعلوم الذي هو أصول الدين أشرف من غيره، فالعلم الذي هو تعلم هذه الأصول هو أشرف كل العلوم؛ لأن معلوماته أشرف من غيرها.

ثم يقول: (وَهُوَ الْفِقْهُ الأَكْبَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فِقْهِ الْفُرُوعِ)، والمراد بفقه الفروع: مسائل العبادات والمعاملات والجنايات، وكذلك الآداب والأخلاق ونحوها، فإن أصول الدين أكبر من غيرها، فهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى سائر الفروع.

يقول ـ رحمه الله ـ: (وَلِهَذَا سَمَّى الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ ـ رحمة الله عليه ـ مَا قَالَهُ وَجَمَعَهُ فِي أَوْرَاقٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ «الْفِقْهَ الأَكْبَرَ»)، أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ جمع له مسائل تتعلق بالعقيدة، وسماها: «الفقه الأكبر»، وقد نقل عنها العلماء، مما يدل على أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ كان على عقيدة سليمة في أمور الاعتقاد في الأسماء والصفات، نقل عنها ابن تيمية في «الحموية»[1]، وكذلك الذهبي في كتاب

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦).

«العلو»[١]، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية»[٢]، ونقل غيرهم منها.

وهذه الرسالة تتضمن عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد اشتهرت، ولكن لما أن المتأخرين من الحنفية تغيروا في علم العقيدة، وصاروا أشعرية أو ماتريدية، أو نحو ذلك من البدع، ما راقتهم هذه العقيدة بل أصبحت مخالفة لما هم عليه، فلأجل ذلك سعوا في تغييرها، فغيروا منها شيئًا كثيرًا، وحذفوا منها بعض الجمل الصريحة، وكذلك أضافوا إليها كلمات تغير مدلولها. ويُرجع فيها إلى نقول العلماء الأولين كابن تيمية ومن معه، فإنهم نقلوا من أصلها. وقد شرحها بعض علماء الحنفية كأبي منصور الماتريدي، وعلي بن سلطان الهروي، كل ذلك دليل على أنها محل اعتماد.

يقول الشارح ـ رحمه الله ـ: (وَحَاجَةُ الْعِبَادِ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ حَاجَةٍ)، أي: حاجتهم إلى علم أصول الدين فوق كل حاجة إلى غيره من العلوم، وذلك لأن بالتعمق فيه تصح العبادات وتُقبل، وبالخطأ فيه يقع العالم في بدع ومحدثات، فتعلمه ضرورية؛ ولهذا قال: (وَضَرُورَتُهُمْ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ)، أي: أشد من ضرورتهم إلى المأكل والمشرب، أشد من ضرورتهم إلى النَفَس الذي يتلقونه بأفواههم، أشد من ضرورتهم إلى الأرواح؛ لأنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا طمأنينة لها إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته

---

(١) (ص١٣٤).

(٢) (ص٧٣).

وأفعاله، فمتى تعلم الناس معرفة الله تعالى، عرفوه بآياته ومخلوقاته وبدلالاته، وعرفوا أنه معبودهم وخالقهم، وأنه فاطر السَّمَوات والأرض، عرفوه بأسمائه الحسنى التي سمى بها نفسه، وسماه بها نبيه ﷺ، وعرفوه بصفاته العلى التي وصف بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ، واقتصروا في ذلك على ما وصفه به نفسه، وما وصفه به نبيه ﷺ، وابتعدوا عن البدع، وعرفوه أيضًا بأفعاله التي يتصرف بها في العباد أنفسهم، ويتصرف في جميع الخلق كيف يشاء، وأنه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فإن القلوب تحيا حياة طيبة وتطمئن في حياتها.

ولابد مع ذلك أن يكون الرب تعالى أحب إليها مما سواه؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤]، وقال النبي ﷺ: «ثَلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا...»[1] إلى آخره.

معنى ذلك أن العبد إذا عرف ربه ومعبوده وخالقه، وأقر بأسمائه وصفاته، وأقر بإنعامه عليه، فلابد أنه يحبه محبة شديدة قوية ثابتة، ولابد أن يكون القلب سائرًا في كل ما يقرب إلى الله دون غيره من سائر المخلوقات.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس ﷺ.

متى أحب العبد ربه كان سيره فيما يحب الله، وفيما يرضى به، وما يقرب إليه من الأعمال الصالحة، وأعرض عن غيره من المخلوقات، واعتمد على الله تعالى، وصبر على ما أصابه، وطلب من ربه قضاء حاجاته دون غيره، إذا مسه ضرٌ أو جهدٌ تضرع إلى الله تعالى وحمده؛ كما جاء أنه ﷺ لما خيّره الله بين أن يكون ملكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، قال: «بَلْ عَبْدًا رَسُولًا»(١)، وجاء عنه ﷺ أنه قال: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قلت: لا يا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا، فإذا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وإذا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ»(٢).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، وابن حبان (١٤/ ٢٨٠)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه النسائي في الكبرى (٦٧١٠)، والبيهقي (٧/ ٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٥/ ٢٥٤)، والطبراني في الكبير (٧٨٣٥) من حديث أبي أمامة ﷺ.

قال الشارح:

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ تَسْتَقِلَّ الْعُقُولُ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَإِدْرَاكِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ، فَاقْتَضَتْ رَحْمَةُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أَنْ بَعَثَ الرُّسُلَ بِهِ مُعَرِّفِينَ، وَإِلَيْهِ دَاعِينَ، وَلِمَنْ أَجَابَهُمْ مُبَشِّرِينَ، وَلِمَنْ خَالَفَهُمْ مُنْذِرِينَ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَ دَعْوَتِهِمْ، وَزُبْدَةَ رِسَالَتِهِمْ: مَعْرِفَةَ الْمَعْبُودِ سُبْحَانَهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، إِذْ عَلَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ تُبْنَى مَطَالِبُ الرِّسَالَةِ كُلِّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.

---

قال الشيخ:

العقول مهما فكرت ومهما تأملت تعجز عن أن تستقل بمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، وتعجز أن تدرك ذلك على التفصيل الذي جاء في رسالة الرسل، فاقتضت رحمة الله - وهو العزيز الرحيم - أن بعث الرسل، كما ذكر قصصهم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ [هود:٢٥]، ثم قال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [هود:٥٠] ... إلى آخره. وذكر وظائفهم بقوله: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤].

فبعث الرسل يعرفون بربهم، يعرفون الخلق أن الإله الحق هو الله، وأنه خالق الخلق ومدبرهم، وأنه الذي تجب عليهم عبادته، يعرفون بالله، ويدعون الناس إليه؛ كما وصف الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا

مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٦]، وأخبر بأنهم يبشرون من أجابهم، وينذرون من خالفهم، وفي رسالة النبي ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥]، يبشر المؤمنين بأن لهم الجنة، وأن لهم النصر والتمكين، وأن لهم الثواب العاجل، ولهم الأجر في الآخرة، ويعدهم على ذلك بأن الله تعالى معهم، وأنه ينصرهم، وأنه يُعلي مكانهم، ويحذر الكافرين الذين يعصون الرسل، والذين يخالفون دعوة كل رسول، والذين يخالفون ما دلت عليه عقولهم، ويجعلون مع الله معبودات أخرى، أو يجحدون الله ويجحدون حقه عليهم، ينذرهم ويخوفهم بالعذاب الأليم.

أولئك الرسل مفتاح دعوتهم، وزبدة رسالتهم: معرفة المعبود سبحانه، بأسمائه وصفاته وأفعاله، بل يدعونهم إلى التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦]، أي: كل أمة جاءهم رسول يقول لهم: اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت، أي: الأصنام ونحو ذلك. فمفتاح دعوتهم معرفة الله تعالى وعبادته، فنوح ـ عليه السلام ـ قال لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٥٩]، وكذلك قالها هود وصالح وشعيب ـ عليهم السلام ـ كلهم يقول: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]، أي: أنه جعل رسالتهم أنهم يأمرون بطاعة الله تعالى وطاعة

الرسل، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فهذا مفتاح دعوتهم، وهذا زبدة رسالتهم، أنهم يدعون إلى معرفة الله سبحانه، معرفته بأسمائه الحسنى، وبصفاته العلى، وبأفعاله في خلقه.

على هذه المعرفة تُبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها، كل الرسل متفقون على هذه الدعوة، وكلهم جاؤوا بالتوحيد، وحققوه ودعوا إليه.

قال الشارح:

ثُمَّ يَتْبَعُ ذَلِكَ أَصْلانِ عَظِيمَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَعْرِيفُ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ، وَهِيَ شَرِيعَتُهُ الْمُتَضَمِّنَةُ لأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَالثَّانِي: تَعْرِيفُ السَّالِكِينَ مَا لَهُمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ.

---

قال الشيخ:

هذان أصلان عظيمان شريفان، فالأصل الأول: أن الرسل وأتباع الرسل يعرفون الأمة الطريق الموصل إليه، الذي هو الصراط المستقيم، والذي هو الشريعة المتضمنة للأمر والنهي، فإن الله تعالى لا يُعبد إلا بما أمر به، وبما قرره، وبما أنزله.

يقول الحفظي[1] ـ رحمه الله ـ:

واللهُ لَيْسَ يَقْبَلُ الْعِبَادَه ... إِلَّا عَلَىٰ الْأَمْرِ الَّذِي أَرَادَه

ولا شك أن الطريق إلى الشريعة هو اتباع ما جاءت به الرسل الأولون والآخرون، فمن سار على نهجهم فهو على الصراط المستقيم.

والمصلي في صلاته يدعو بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]،

---

(١) هو الشيخ محمد بن أحمد الحفظي الحجازي اليمني، وهذا البيت من أرجوزة له نظمها في بيان دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، ذكر فيها مآثر آل سعود لما استجابوا لدعوته ونصروه، وقال في مطلعها: «الحمدُ حقًّا مستحقًّا أبدا ... لله رب العالمين سرمدا»

أي: دلنا وأرشدنا وثبتنا على الطريق الموصل إليك يا رب، الذي ليس فيه اعوجاج، والذي هو طريق من قبلنا ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]، والذي هو هذه الشريعة التي جاءت بها الرسل، والتي تتضمن أمر الله تعالى ونحوه، أي: تحتوي على ما أمر الله به من العبادات التي يحبها، والتي رتب عليها الثواب العظيم، ومن المحرمات التي نهى عنها وحذر منها، فكلها من الشريعة.

ولهذا لا يجوز أن يُضاف إلى الشريعة ما ليس منها، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا ما ليس منه فَهُوَ رَدٌّ»[1]، أي: مردود عليه، فلابد أن العباد يعرفون هذا الطريق، الذي هو الصراط المستقيم، والذي هو الشريعة السمحة التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية:١٨]، أي: اتبع هذه الشريعة التي تتضمن أمر الله تعالى ونهيه؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، والآيات التي بعدها فيها أوامر ونواه.

أما الأصل الثاني: فإنه (تَعْرِيفُ السَّالِكِينَ مَا لَهُمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ)، السالكون لهذا الصراط، المتبعون له، والعاملون به، هم الذين أنعم الله عليهم، والذين وفقهم وسددهم، والذين هداهم وأرشدهم، هؤلاء

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

لابد أن نعرفهم حتى نكون معهم، ولابد أيضًا أن يعرفوا ما لهم بعد الوصول إلى الله من النعيم المقيم، وقد جاءت الرسل بذلك وجاءت بها الكتب، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء:٩، ١٠]، فالذين آمنوا هم السالكون، يُعرفهم ويذكر الله تعالى ما لهم بعد الوصول إليه، أي: بعد وصولهم إلى ربهم في الآخرة، أن لهم الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وأنهم خالدون فيها لا يظعنون ولا يرحلون، وأن لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف:٧١]، وفي قول النبي ﷺ عن الجنة: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»[1]. وقد وصف الله تعالى مقامهم بأنه مقيم في قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [النساء:٥٧]، بعدما أخبر الله عنهم بأنهم لهم أجر كبير، ولهم أجر عظيم مقيم، أي لا يتغير ولا يتبدل.

فهكذا يعرف المسلم هذين الأصلين: الطريق الموصل إلى الله، وكذلك أيضًا جزاء الذين يسلكون هذا الطريق، إذا وصلوا إلى الله، كيف يجدون ثواب ذلك عند الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الشارح:

فَأَعْرَفُ النَّاسِ بِاللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَتْبَعُهُمْ لِلطَّرِيقِ الْمُوصِّلِ إِلَيْهِ، وَأَعْرَفُهُمْ بِحَالِ السَّالِكِينَ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ رُوحًا، لِتَوَقُّفِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ عَلَيْهِ، وَنُورًا لِتَوَقُّفِ الْهِدَايَةِ عَلَيْهِ. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر:١٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣]، فَلا رُوحَ إِلا فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلا نُورَ إِلا فِي الاسْتِضَاءَةِ بِهِ.

وَهُوَ الشِّفَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ هُدًى وَشِفَاءً مُطْلَقًا، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمُنْتَفِعُ بِذَلِكَ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ، خُصُّوا بِالذِّكْرِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَلا هُدَى إِلا فِيمَا جَاءَ بِهِ.

---

قال الشيخ:

الذين يتبعون هذه الشريعة ويسيرون عليها ولا يحيدون عنها يعملون بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فهؤلاء أتبعهم للطريق الموصل إليه،

وهؤلاء أعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، يعني: الذين عرفوا الطريق لا شك أنهم يعرفون حال السالكين، ويعرفون ماذا يكون لهم إذا قدموا على الله تعالى.

ثم ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ أن الله تعالى سمى هذا الوحي روحًا: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر:١٥]، أي: الحياة التي تحيى بها القلوب تُسمى روحًا؛ لأن الحياة الحقيقية لا تكون إلا به، وكذلك سماه نورًا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]. هكذا أخبر تعالى بأنه جعل هذا الكتاب والإيمان نورًا يهدي به من يشاء من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، هذا نور معنوي ينير للناس الطريق التي يسلكونها، وهي طريق معنوية توصلهم إلى رضىٰ الله تعالى، فإذا ساروا على هذا الطريق فإنهم يسيرون على نور في الدنيا، وفي الآخرة أيضًا ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ [التحريم:٨].

قال ـ رحمه الله ـ: (فَلا رُوحَ إِلا فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلا نُورَ إِلا فِي الاسْتِضَاءَةِ بِهِ)، فالنور الحقيقي هو الاستضاءة بنور الوحي، وكذلك الروح التي تحيى بها القلوب حقيقة العمل بهذه الشريعة التي جاءت بها الرسل

وخاتمهم نبينا ﷺ، فمتى تمسك العباد بهذا القرآن وبهذا العمل، فإنهم يُرجى أن يكونوا على نور من الله تعالى، حتى يأتيهم أجلهم وهم على الهدى.

ولا شك أن النبي ﷺ قبل أن ينزل إليه القرآن ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان، أي: أنه لم يكن يعرف القرآن قبل أن يوحى إليه، وأما الإيمان: فقيل إنه بمعنى الدعوة أو الشرائع والمعالم.

وهذا القرآن روح ونور فكذلك يكون هو الشفاء؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

قال ـ رحمه الله ـ: (فَهُوَ وَإِنْ كَانَ هُدًى وَشِفَاءً مُطْلَقًا، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمُنْتَفِعُ بِذَلِكَ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ خُصُّوا بِالذِّكْرِ)، فالقرآن والشرع شفاء ورحمة للمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، الشفاء: هو العلاج الذي يزيل الأمراض، والقرآن والإيمان يزيل أمراض القلوب من الشك والشرك والغل والحسد والأحقاد وسوء الظن ونحو ذلك، فهو شفاء عام لكل أحد، ولكن الذي ينتفع به حقًا هم المؤمنون، فلذلك قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، فكما أنه شفاء للقلوب فهو شفاء أيضًا للأجساد، وكذلك رحمة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت:٤٤]، وذلك لأنهم لا يتقبلونه ولا يهتدون، هذا سبب تخصيص المؤمنين بأنه شفاء لهم.

قال ـ رحمه الله ـ: (وَاللهُ تَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ، فَلا هُدَى إِلا فِيمَا جَاءَ بِهِ)، دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة:٣٣] والرسول هاهنا هو محمد ﷺ، والله تعالى هو الذي أرسله، والهدى الذي أُرسل به يعم هدى الدلالة وهدى البيان، أي: بما فيه هدى، فالقرآن فيه هدى بيان وفيه هدى دلالة، وكذلك الشرع كله يُعتبر فيه الهدى، وهو دين الحق الدين الصحيح الذي جاءت به الرسل، وفصله نبينا محمد ﷺ، فلا هدى إلا فيما جاء به في هذه الشريعة التي جاء بها، ليس هناك هدى في غيرها.

قال الشارح:

وَلا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ إِيمَانًا عَامًّا مُجْمَلًا، وَلا رَيْبَ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَى التَّفْصِيلِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي تَبْلِيغِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَدَاخِلٌ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَعَقْلِهِ وَفَهْمِهِ، وَعِلْمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَحِفْظِ الذِّكْرِ، وَالدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، والدُّعاءِ إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْمُجَادَلَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ مِنْهُمْ.

---

قال الشيخ:

لا شك أنه يجب على كل البشر الإيمان بالشرع إيمانًا مجملًا، وذلك بأن يصدق بأن ما جاء به النبي ﷺ كله حق، وكله من الله، وأن الله تعالى أمر به وكلَّف الأمة به، ثم أمر نبيه ﷺ أن يبينه للناس بيانًا كاملًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]، أي: لتبين وتوضح لهم الشرع المجمل والعبادات المجملة؛ حتى يكونوا على بصيرة من دينهم.

قوله: (وَلا رَيْبَ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَى التَّفْصِيلِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ)، أي: فرض كفاية على الأمة أن يعلموا ويتعلموا تفاصيل الشريعة وأحكامها كلها، وبيان ما جاء فيها، ومعرفة ما تدل عليه، ومعرفة ما أُمروا به

ونُهوا عنه، يجب عليهم في الجملة أن يكون فيهم من يعرف ذلك، حتى إذا توقف أحد في العمل يجد من يدله، ويجد من يخبره بأن هذا واجب، عليك أن تفعل كذا، وعليك أن تجتنب كذا.

الله تعالى أجمل كثيرًا من العبادات، أجمل ذكر الصلاة، وذكر الحج، وذكر الزكاة ونحوها، وأجمل أيضًا ذكر المحرمات: ذكر الربا، والزنى، والخمر. وتفصيل هذه الأشياء كلها جاء به النبي ﷺ، أمره الله تعالى بالبيان وبالبلاغ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧]، فهو داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[النور:٥٤]، فتفاصيل الشريعة بينها الرسول ﷺ للصحابة، ونقلها الصحابة لمن بعدهم، فلأجل ذلك كانت الشريعة محفوظة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩].

كذلك أمر الله تعالى بتدبر القرآن، وبتعقله وفهمه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[النساء:٨٢]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾ [المؤمنون:٦٨]، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص:٢٩]، والتدبر: هو التعقل والتفهم والتأمل في دلالة كل آية، وفيما تعبر عنه، وما تدور حوله، ومن تدبر القرآن تبين له طريق الحق.

كذلك يدخل تفصيل الشريعة في علم الكتاب والحكمة، الكتاب: القرآن، والحكمة: هي السنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى

بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤]، وقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾[البقرة:٢٦٩] فعلم الكتاب: تفصيل القرآن، وعلم الحكمة: تفصيل السنة.

وكذلك يدخل في حفظ الذكر الذي أمر الله بالمحافظة عليه في قوله تعالى: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤١]، وفي قوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وحفظ الذكر: معناه تفكر في الآيات التي فيها تذكير، وكذلك الآيات التي فيها تسبيح وتحميد واستغفار ونحو ذلك.

وذلك داخل في الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وهذا دليل على أن هذه كلها من فروض الكفاية، أمة يقومون بالحق، ويدعون الناس إلى الخير، يعني: إلى الدين وإلى العبادة وإلى الأعمال الصالحة، وإلى العلم النافع والعمل الصالح، **ويأمرون الناس بالمعروف**، وينهونهم عن المنكر.

والمعروف: كل ما أمر الله به؛ لأن النفوس تعرفه وتألفه، وتشهد بملاءمته وحسنه، وكل ما أمر الله تعالى به أو رسوله ﷺ فإنه من المعروف.

أما المنكر: فإنه كل ما تنكره الفطر وتستقبحه، وتشهد بقبحه وبعده عن الصواب، وكل ما نهى الله عنه أو نهى النبي ﷺ عنه فإنه من المنكر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية على الأمة، يجب عليهم

أن يكون فيهم من يقوم بذلك.

كذلك يدخل في الدعاء إلى سبيل الله تعالى المذكور في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]. فأولًا: الدعاء بالحكمة، أي: بالكلام اللين، واجتناب الشدة، واجتناب الكلام السيئ الذي ينفر، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فإذا كلمت الذي تدعوه بكلام لطيف، وبكلام ليِّن، وبصرته بما يجب عليه، وبينت له ما هو مكلف به من الأوامر والنواهي والعبادات وما أشبهها، فلا شك أنه إذا أراد الله به الخير يتقبل ذلك ويلين.

وإذا لم تؤثر فيه الحكمة فانتقل إلى الموعظة الحسنة، وهي تذكيره بربه وبواجباته عليه بأن الله هو الذي خلقه وأمره بالعبادة، وتذكيره أيضًا بالدنيا وزوالها وزوال من عليها، وتذكيره بالبعث بعد الموت الذي أخبر الله تعالى به، وتذكيره بالعذاب الشديد في الدنيا بما ينزله الله من العقوبات، وفي الآخرة بعذاب النار، وتذكيره أيضًا بالثواب الذي هو ثواب على الأعمال الخيرية الصالحة، ثواب على الحسنات، وفي الآخرة أيضًا ثواب أعظم ألا وهو الجنة.

فإذا لم يتأثر بالحكمة ولا بالموعظة فانتقل معه إلى المجادلة بالتي هي أحسن، وهي: المنازعة والمخاصمة ولكن بلين ولطف؛ ليكون ذلك أدعى إلى تقبله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

[العنكبوت:٤٦]؛ ذلك لأنه قد يكون عنده شبهة يتشبث بها ويتعلق بها، أو رؤية من حوله من الناس على هذه المعصية وهذا الكفر، فإذا كانت عنده هذه الشبهة فإنك تجادله وتستجلب منه بيان ما عنده من الشبهة، فإذا أقر واعترف بها فإنك بذلك تخصمه، ويلين معك، وتنقطع شبهاته، وذلك لأن الإنسان:

إما أن يعرف الحق ويعمل به، وهذا من أهل السعادة؛ لأنه اتبع الحق وعمل بما جاء به. وإما أن يعرفه ولكن لا يعمل به، وهذا كحال أهل الكتاب الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

وإما أن ينكر الحق ولا يعترف به، لا يعترف بالكتاب، ولا يعترف بالرسالة، ولا يعترف بالشريعة، ولا بغير ذلك.

والذي يدعوه بالحكمة هو الذي يعرف الحق، ويعمل به ويتمناه، ولكن قد يكون معه شيء من الخلل، أما الذي لا يعمل به فننتقل معه إلى الموعظة.

والعامة من الناس الذين يقعون في المعاصي يعرفون أنها معصية، ولكن تغلبهم نفوسهم وشهواتهم، فيحتاجون إلى من يعظهم ويذكرهم؛ حتى يتركوا ما تميل إليه أنفسهم من الشهوات المحرمة، وما تميل به إلى الباطل، وإلى الدعة والراحة. أما الذي يُجادل فإنه الذي يجحد الحق ويعارضه.

وبكل حال فهذا من فروض الكفاية، وهكذا كل ما أوجبه الله تعالى على المؤمنين يعتبر العبادات والعلوم واجبة عليهم وفرض كفاية.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَا يَجِبُ عَلَى أَعْيَانِهِمْ: فَهَذَا يَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ قُدَرِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ، وَمَا أُمِرَ بِهِ أَعْيَانُهُمْ، وَلا يَجِبُ عَلَى الْعَاجِزِ عَنْ سَمَاعِ بَعْضِ الْعِلْمِ أَوْ عَنْ فَهْمِ دَقِيقِهِ مَا يَجِبُ عَلَى الْقَادِرِ عَلَى ذَلِكَ.

وَيَجِبُ عَلَى مَنْ سَمِعَ النُّصُوصَ، وَفَهِمَهَا مِنْ عِلْمِ التَّفْصِيلِ مَا لا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، وَيَجِبُ عَلَى الْمُفْتِي الْمُحَدِّثِ وَالْحَاكِمِ مَا لا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

فروض الأعيان تجب على كل مسلم، إذا كان قادرًا على أن يتعلمها ويعملها، وأن علماء المسلمين وقادتهم يجب عليهم ما لا يجب على العامة، هذا هو الصحيح. فالواجبات العينية واجبات على كل الأفراد، والواجبات الكفائية تتنوع بتنوع قُدرهم، وقد يكون أيضًا بعض الواجبات العينية لا تجب على بعض الأفراد؛ كالعاجز عن الحج لا يجب عليه أن يتعلم مناسك الحج كلها، حتى يقدر على الإتيان به، وكذلك أيضًا العاجز عن الزكاة الذي ليس له مالٌ يُزكى، لا نكلفه بأن يعرف عن صفة الزكاة وأهل الزكاة ونحوها. فوجوب الأشياء العينية على حسب القدرة، وعلى حسب الحاجة وعلى حسب المعرفة.

فما أُمر به أعيانهم فإنهم يعملون به، وأما العاجز فلا يجب عليه كما إذا كان

عاجزًا عن سماع بعض العلم، مثل ما يجب على القادر، فإن العامة قد لا يستطيعون سماع بعض العلوم، وليس عندهم قدرة أن يتابعوا فروع المسائل. وكذلك العامة قد يصعب عليهم فهم دقيق المسائل، فلا يجب عليهم مثل الذي يجب على القادر الذي يسمع النصوص ويفهمها أو يتصورها، ويفهم الأدلة من الآيات والحديث، ويجب عليه أن يتعلمها بالتفصيل، ويجب عليه من العلم المفصل ما لا يجب على الآخرين الذين لم يسمعوها؛ كالعامة والبوادي ونحوهم.

كذلك المفتي والمُحَدِّث والحاكم يجب عليهم ما لا يجب على من ليس كذلك، وذلك لأن المفتي مأمور بأن يتثبت وأن يتعلم المسائل التي يستفتيه الناس فيها، كذلك المحدث الذي يحمل الحديث لابد أن يكون عنده علم بالحديث وما يكون فيه، والحاكم والقاضي ونحوهم لا شك أنه يجب عليه ما لا يجب على من ليس كذلك، وذلك لأن الناس يحتاجون إليه، فلابد أن يتعلم ما الناس يحتاجون إليه، حتى إذا ترافعوا عنده وجدوا عنده علمًا.

قال الشارح:

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ عَامَّةَ مَنْ ضَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ أَوْ عَجَزَ فِيهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الحَقِّ، فَإِنَّمَا هُوَ لِتَفْرِيطِهِ فِي اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَتَرْكِ النَّظَرِ وَالاسْتِدْلالِ المُوَصِّلِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ. فَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللهِ ضَلُّوا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٣ ـ ١٢٦].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أَنْ لا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلا يَشْقَى فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ[1].

---

قال الشيخ:

لابد أن العامة الذين ضلوا في هذا الباب ـ يعني: في باب العقيدة وفي باب المعرفة ـ أو عجزوا فيه عن معرفة الحق، أو عن تصوره، فعدلوا عن الحق إلى الباطل، واتبعوا ما تهواه أنفسهم، لابد أن لذلك سبب، كيف ضلوا وكيف

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٢١)، والطبري (١٦/ ٢٢٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٠)، والطبراني في الكبير (١٢٤٣٧)، والحاكم (٢/ ٣٨١) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥٦).

عجزوا عن معرفة الحق مع أن الحق واضح؟ لأنهم فرطوا في اتباع السنة النبوية، لم يتبعوا النبي ﷺ فيما جاء به، فلذلك عجزوا عن معرفة الحق، ولو بذلوا سببًا لقدروا على أن يعرفوا الحق وأن يتبعوه، ولكنهم فرَّطوا وأضاعوا أوقاتهم، واتبعوا ما تهواه أنفسهم وتشتهيه، ولم يهتموا بما جاء به الرسول من السنة النبوية، وتركوا النظر والاستدلال الموصل إلى معرفة الله، وإلى معرفة شريعته، وقد أُمروا بالنظر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ [ق:٦]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾[الغاشية:١٧]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ [غافر:٨٢]. ولم يهتموا بالاستدلال؛ كالاستدلال بالمخلوقات على من خلقها، والاستدلال بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، وهو الذي أنزل هذه الشريعة.

فإذا تأمل الإنسان، وتفكر فيما بين يديه بل في نفسه، وصل إلى معرفة ربه، ومعرفة شريعته، أما الذين عجزوا وفرطوا، وتركوا النظر وتركوا الاستدلال، فإنهم يعتبرون معرضين، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا والعياذ بالله؛ كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]، ولذلك يوصف النصارى بأنهم من أهل الضلال، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣].

الهدى: هو الشرع الذي يكون هاديًا لمن سار عليه، من سار عليه فإنه

يهتدي إلى طريق الحق والصواب. ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، أي: لا يضيع ولا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾، أي: عن شرعي وديني وكتابي، وعمل بضد ذلك ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قد يُقال: إن هذه المعيشة عاجلة في الدنيا، وذلك بسبب ذل المعاصي؛ كما رُوي عن بعض السلف أنه قال في العصاة: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعاصي لا يفارق قلوبهم، أبي الله إلا أن يذل من عصاه»[1]. هذه هي المعيشة الضنك العاجلة.

وروي أيضًا عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس، وإن للسيئة ظلمةً في الوجه، وسوادًا في القلب، وضنكًا في المعيشة، وبغضًا في قلوب الناس»[2].

وروي عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: «ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله في قلوبهم له البغض»[3].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣).

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح (٦/ ٤٨٩)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٢٧)، وابن القيم في الجواب الكافي (ص٣٥)، وروضة المحبين (ص٤٤١). وأخرج نحوه ابن الجوزي في ذم الهوى (١٨١) عن أنس ﷺ.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٥)، وذكره ابن القيم في الجواب الكافي (ص٣٤)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٦٣).

أخبر تعالى أن الذي يعرض عن ذكر الله، يعني: عن كتابه وعن شرعه وعن دينه، فيغفل عن ذلك أن له هذه المعيشة الضنك في الدنيا، ولو توسع في الدنيا، ولو أعطى نفسه ما تشتهي، فإن ذل المعاصي لا يفارق قلوبهم.

ثم قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٤]، هكذا، قيل: أعمى عن حجته، وقيل: إن الله إذا ألقاه في النار سلبه بصره؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[الإسراء: ٩٧]، فلا يُستنكر أن يكون عندما يُلقى في النار يؤخذ بصره، وإن كان في الآخرة يكون بصيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق:٢٢]، ولقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[مريم:٣٨].

ثم قال: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[طه:١٢٥]، يعني: سلبت بصري وأنا في الدنيا بصير أبصر وأعرف الطريق. يقول الله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[طه:١٢٦]، يعني: جزاءً لك، نسيت آياتنا وشريعتنا وأعرضت عنها، ولم تهتم بها، فاليوم ننساك. والله تعالى لا يضل ولا ينسى، ولكن يعاملهم معاملة من نُسوا، ولذلك قال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة:٦٧].

قال ـ رحمه الله ـ: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أَنْ لا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلا يَشْقَى فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ)، قرأ القرآن

وتدبره وعقله، ثم عمل بما فيه، واتبع إرشاداته، فإنه لا يضل في الدنيا، بمعنى: أنه يكون على هدى، ويكون على عمل بر، ولا يشقى في الآخرة، أي: لا يكون من الذين شقوا، الذين توعدهم الله تعالى في الآخرة بالعذاب.

قال الشارح:

كَمَا فِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ»، قُلْتُ: فَمَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «كِتَابُ الله، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى من غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسُنُ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى مِثْلِ هَذَا المَعْنَى.

---

قال الشيخ:

هذا الحديث رواه الترمذي[١]، والدارمي[٢]، والبغوي في «شرح السنة»[٣]، لكن في إسناده الحارث بن عبد الله الأعور، وهو ضعيف[٤]، مشهور بالضعف.

---

(١) برقم (٢٩٠٦).

(٢) (٢/ ٥٢٦).

(٣) (٤/ ٤٣٨).

(٤) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٢/ ١٨٥)، وتهذيب الكمال (٥/ ٢٤٦).

وقد روى مسلم في مقدمة صحيحه[١] عن الشعبي، قال: «حدثني الْحَارِثُ الأَعْوَرُ الْهَمْدَانِيُّ، وكان كَذَّابًا». وكان يميل إلى عقيدة الشيعة، وإن لم يكن من الذين يحملون على الصحابة، ولا يبغضون أبا بكر وعمر وغيرهما.

ويمكن أن هذا الحديث من كلام علي ﷺ، فإنه قد آتاه الله تعالى حكمة، فيكون من كلام علي ﷺ، ولكن غلط الحارث فرفعه، أو مَنْ دون الحارث.

ورُوي عن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**إن هذا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ الله، فَتَعَلَّمُوا من مَأْدُبَتِهِ ما اسْتَطَعْتُمْ، إن هذا الْقُرْآنَ حَبْلُ الله، وَالنُّورُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عصمه لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ، لا يزيغ فَيُسْتَعْتَبُ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، ولا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، ولا يَخْلَقُ عن كَثْرَةِ الرَّدِّ، فاتلوه، فإن اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ على تِلاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ...**»[٢] إلى آخره. قد يكون هذا أيضًا من كلام ابن مسعود، وأنه وهم فيه من جعله مرفوعًا.

وكذلك روى الطبراني في «المعجم الكبير»[٣]، وأبو نعيم في «الحلية»[٤]، عن مُعَاذِ بن جَبَلٍ ﷺ، قال: ذَكَرَ رسول الله ﷺ يَوْمًا الْفِتَنَ فَعَظَّمَهَا وَشَدَّدَهَا،

---

(١) (١/ ١٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٣٧٥)، والدارمي (٢/ ٥٢٣)، والطبراني في الكبير (٨٦٤٦) موقوفًا على ابن مسعود ﷺ، ورفعه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥)، والحاكم (١/ ٥٥٥)، والبيهقي في الصغرى (ص٥٤١).

(٣) برقم (١٦٠).

(٤) (٥/ ٢٥٣).

فقال عَلِيُّ بن أبي طَالِبٍ ﷺ: يا رَسُولَ الله، فما المُخْرَجُ مِنهَا؟ فقال: «كِتَابُ الله، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ...» إلى آخره. وهذا أيضًا ضعيف.

وبكل حال فإن هذا حديث فيه علوم نافعة، وفيه وصف للقرآن، وهذا الوصف صحيح لا خلاف فيه، وأنه يكون سببًا للخروج من الفتن، فإن هذا القرآن فيه أخبار الأمم السابقة، وأخبار الأمم اللاحقة، وأخبار ما يكون بين العباد من المخاصمات، فيُتخذ حكمًا يرجع إليه، وهذا القرآن هو الفصل الذي يفصل بين الحق والباطل، وليس فيه هزل، ولا كلام سيء، بل كله حق، فمن تركه ولم يمتثل به ولم يعمل به فهو جبار، والله تعالى يقصم الجبابرة، ويميتهم ويقطع دابرهم.

وهذا القرآن هو الهدى، والذي يريد الهدى فإنه يتبعه، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، فإذا طلب الهدى من قوانين أو من نحاتة أفكار، أو زبالة أذهان، فإن الله يضله.

هذا القرآن (هُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ)، قيل: يُفسر به قول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[آل عمران:١٠٣]، فالحبل في الأصل: هو السبب الذي يُدلى به الدلو، ويُصعد به أو يُنزل به، شبهه بأن الذي يتمسك به فإنه لا ينقطع كالحبل المتين.

ووصفه بأنه (الذِّكْرُ الحَكِيمُ)، في قول الله تعالى لما ذكر القرآن: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[آل عمران:٥٨]، أي: أنه محكم ليس

فيه خطأ ولا خلل، والقرآن كله يُسمى ذكرًا.

وكذلك: (هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ)، في قولنا: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، أي: الطريق المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج.

ووصفه بأنه (لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ)، أي: الأهواء إذا اتبعت ما جاء به هذا القرآن فإنها لا تزيغ ولا تضل، ولا تنحرف يمنة ولا يسرة، وأما من اتبع غيره فإنه يزيغ؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[الصف:٥]، أما إذا كان هواه متبعًا له فلا يزيغ؛ لقوله ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكونَ هواهُ تَبَعًا لما جِئْتُ بِهِ»[1].

وكذلك: (لا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسُنُ)، يعني: الألسن التي تقرأه وتتأمله لا يلتبس عليها. وكذلك: (لا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ)، كما ذُكر أن بعضهم لم ينم في سفر طويل، ويقول: «إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلى وقعت في أخرى»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص١٨٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٨)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. وقد أورده النووي في آخر الأربعين، وقال: «حديث صحيح، رُوِّيناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح». وانظر تعليل الحافظ ابن رجب للحديث في جامع العلوم والحكم (ص٣٨٧، ٣٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (ص١٦٧)، أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٠، ١٥١).

وكذلك: (لا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ)، العارفون، العلماء بالله لا يشبعون من قراءته، ولا يشبعون من تأمله، ولا يشبعون من تفسيره ولا من متابعة معانيه وتأملها.

(مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ)، الذي يستدل بالقرآن لا يجب الاعتراض عليه وتكذيبه؛ لأن من كذبه فقد كذب الله.

(وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ)، يعني: من اتبعه وعمل بما فيه فأجره على الله.

(وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ)، يعني: من اتخذه حكمًا، ومن لم يحكم به فإنه ضال، وإنه ظالم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[المائدة:٤٥]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، فمن حكم بالقرآن فإنه حاكم بالعدل.

(وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، الذين يدعون إلى القرآن، ويدعون إلى ما فيه، فإن الله تعالى يهديهم إلى الصراط المستقيم.

هكذا دلالة الحديث على تعظيم كتاب الله تعالى.

قال الشارح:

وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ دِينًا يَدِينُونَ بِه، إِلا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِدِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَلامُ.

وَقَدْ نَزَّهَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْعِبَادُ، إِلا مَا وَصَفَهُ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[الصافات:١٨٠ ـ ١٨٢]، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْكَافِرُونَ، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، لِسَلامَةِ مَا وَصَفُوهُ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، ثُمَّ حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى تَفَرُّدِهِ بِالأَوْصَافِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا كَمَالَ الْحَمْدِ.

---

قال الشيخ:

لا يقبل الله تعالى إلا دين الإسلام الذي شرعه لهذه الأمة وللأمم قبلها، فإنه الدين الصحيح الذي من لم يدن به فإن عمله مردود، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩]، أي: الدين الصحيح الذي يجب أن يدين به كل مخلوق من البشر هو دين الإسلام.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥]، فالذين يدينون بدين اليهود، أو النصارى، أو الشيوعيين والدهريين، أو البوذيين، أو القبوريين ونحوهم، أو الهندوس، أو

الذين لا دين لهم، كل هؤلاء خاسرون؛ لهذه الآية: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فلا يقبل الله إلا الدين الموافق للدين الذي شرعه على ألسن رسله صلى الله عليهم وسلم، وخاتمهم محمد ﷺ.

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون، فإن قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، انتقاد للكفار، وتنزيه عما يصفون الله تعالى به من النقائص والعيوب، وكذلك من جعل الصاحبة والولد له، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا عن ما يصفه به الكفار؛ كاليهود والنصارى والمشركون الذين يقولون: إن الملائكة بنات الله. فالله تعالى سبح نفسه عن ما يصفه به هؤلاء: جميع الكفار ونحوهم.

ثم قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وذلك لأن المرسلين جاؤوا بما هو الحق والصواب، فوصفوا الله تعالى بصفات الكمال، ونزهوه عن النقائص والعيوب، وجميع ما جاؤوا به فيه سلامة للرب تعالى عن كل نقص وعن كل عيب.

ثم قال: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، حمد نفسه؛ لأنه المتفرد بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد، فهو المحمود على كل حال، يُحمد على الخير وعلى الشر، ويُحمد على صفاته، ويُحمد على أفعاله، ويُحمد على تقديره، ويُحمد على جميع تصرفاته.

قال الشارح:

وَمَضَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، يُوصِي بِهِ الأَوَّلُ الآخِرَ، وَيَقْتَدِي فِيهِ اللاحِقُ بِالسَّابِقِ. وَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ مُقْتَدُونَ، وَعَلَى مِنْهَاجِهِ سَالِكُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]. فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي ﴿أَدْعُوٓا۟﴾، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمُ الدُّعَاةُ إِلَى الله، وَإِنْ كَانَ مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ، فَهُوَ صَرِيحٌ أَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ فِيمَا جَاءَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَكِلا الْمَعْنَيَيْنِ حَقٌّ.

---

قال الشيخ:

ما جاء به الرسول ﷺ من هذه الشريعة مما يتعلق بالعقائد ومما يتعلق بالأعمال والأحكام قد تقبله خير القرون ـ القرن الأول ثم القرن الثاني ثم الثالث ـ فهم خير قرون الأمة؛ كما قال النبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وخير القرون القرن الأول، والذين هم صحابة النبي ﷺ - رضوان الله عليهم - الذين صحبوه وتقبلوا ما جاء به، وتلقوا الشريعة عنه بدون واسطة. ثم يتبعهم التابعون الذين هم تلامذة الصحابة، ثم بعدهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، أي من سار على نهجهم، واتبع هداهم إلى يوم القيامة. كلهم مضوا على ما جاء به النبي ﷺ، أولهم يوصي تلاميذه الذين يأخذون عنه، فالأول يوصي به الآخر، يقتدي اللاحق فيه بالسابق، والتلاميذ واللاحقون من الأمم المتمسكون بالسنة يقتدون بمن سبقهم من السابقين من الصحابة، الذين رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[التوبة:١٠٠]، فذكر في الآية المهاجرين من مكة وغيرها إلى المدينة، ثم ذكر الأنصار الذين في المدينة الذين نصروا الله ورسوله، ثم ذكر الذين اتبعوهم بإحسان، يعني: الذين أسلموا بعد ذلك، سواء هاجروا أو لم يهاجروا، وكذلك الذين ساروا على نهجهم وطريقتهم إلى يوم القيامة، وكلهم من التابعين لهم بإحسان، كلهم يقتدون بنبيهم محمد ﷺ، ويتمسكون بسنته، ويتبعون شريعته، ويسيرون على منهاجه، ويسلكون طريقته التي أوصى بها، والتي علمها لمن كان من أمته؛ كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

السبيل: الطريق، الذي هو الطريق المعنوي، يعني: أن هذه الشريعة هي

سبيلي الذي أسير عليه وأتبعه، وإن منه أني أدعو إلى الله على بصيرة، أي: أدعو إلى دين الله، وأدعو إلى معرفة الله، وأدعو إلى شريعة الله تعالى حال كوني على بصيرة، أي: حال كوني على نور وعلى برهان، وعلى علم صحيح، لا أدعو على جهل، ولا أدعو على ضلال.

ثم قال: ﴿أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، قيل: إن التقدير: أدعو إلى الله أنا وأتباعي. كل من كان من أتباع النبي ﷺ فإنه يدعو إلى الله، كأنه يقول: أتبع النبي ﷺ وأدعو إلى ما دعا إليه. ولابد أن يكون أيضًا على بصيرة، أي: أنا أدعو على بصيرة وأتباعي يدعون على بصيرة.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ: (قَوْلُهُ: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي ﴿أَدْعُوٓاْ﴾)، أي: أدعو ويدعو من اتبعني، فهو دليل على أن أتباعه هم الذين يدعون إلى الله، ويمكن أن يكون ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، معطوفًا على الضمير المنفصل الذي هو ﴿أَنَا﴾، والتقدير: على بصيرة أنا، وعلى بصيرة من اتبعني. أي: أن أتباعه على بصيرة فيما جاء به دون غيرهم. وكلا المعنين حق، فهو لابد أن تكون دعوته على بصيرة، وأتباعه لابد أيضًا أنهم يقومون بما قام به، فيتبصرون في دينهم، ثم بعد ذلك يدعون إلى ما دعا إليه.

قال الشارح:

وَقَدْ بَلَّغَ الرَّسُولُ ﷺ الْبَلاغَ الْمُبِينَ، وَأَوْضَحَ الْحُجَّةَ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ خَيْرُ الْقُرُونِ. ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَافْتَرَقُوا، فَأَقَامَ اللَّهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يَحْفَظُ عَلَيْهَا أُصُولَ دِينِهَا، كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ بقوله: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ»(١).

---

قال الشيخ:

هكذا نشهد أن الرسول ﷺ بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، ووجههم، ووضح لهم ما يحتاجون إليه، عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾[المائدة:٦٧].

فالله تعالى كلَّفه أن يبلغ، وقد شهد له الصحابة - رضي الله عنهم - بهذا البلاغ لما ناشدهم في خطبته في حجة الوداع، قال: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟»، قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فقال بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى الناس: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ(٢)، وقال في رواية: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُم الغَائِبَ»(٣).

---

(١) يأتي تفصيل تخريجه في شرح سماحة الشيخ عبد الله بن جبرين حفظه الله.

(٢) قطعة من حديث جابر ﷺ الطويل في صفة حج النبي ﷺ، الذي أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث من حديث أبي بكرة ﷺ.

فقد بلَّغ الرسالة التي أُرسل بها ووضحها، وكذلك أقام الحجة على المستبصرين الذين هم أهل بصيرة وأهل علم. ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩]، فقد أرسل الله الرسل لحكمة؛ كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، فلا حجة لأحد أن يقول: ما جاءنا من بشير ونذير. فقد جاءكم بشير ونذير.

قال: (وَسَلَكَ سَبِيلَهُ خَيْرُ الْقُرُونِ)، أي: سلك سبيل النبي ﷺ خير القرون، الذين هم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، فالصحابة هم الذين أخذوا عن النبي ﷺ، وتلقوا عنه الشرع، وكذلك تلامذتهم الذين تلقوا عنهم، فإنهم كانوا كلهم - والحمد لله - على هدى، إلا من شذ منهم من المبتدعة؛ كالخوارج والرافضة والقدرية ونحوهم.

وكذلك القرن الثاني فإنهم أيضًا متمسكون، وفيهم العلماء الأجلاء، منهم: أبو حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، والليث بن سعد، وأبو عمرو الأوزاعي، وسفيان الثوري، هؤلاء أئمة الدنيا في زمانهم في القرن الثاني، ولو كان قد خلف في ذلك القرن بعض المبتدعة، نبغت الرافضة والزيدية، وكذلك الجهمية والمعطلة، ولكنهم كانوا ذليلين مقموعين.

وكذلك أيضًا القرن الثالث فيه أئمة وعلماء وأجلاء، مات فيه الشافعي والإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وغيرهم من العلماء الذين حفظ الله تعالى بهم الشريعة، وأقاموا الحجة على من بعدهم.

وبعد القرون الثلاثة خلف من بعدهم خلوف يدخلون في قول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[مريم:٥٩]. هؤلاء الذين خلفوا بعد القرون الثلاثة اتبعوا ما تميل به الأهواء، وكذلك أيضًا تفرقوا فرقًا متباينة، والغالب أنهم خالفوا الشريعة، وبالأخص فيما يتعلق بالأسماء والصفات، وصاروا فرقًا كثيرة. فالمعتزلة فرقهم متعددة، وكذلك الأشعرية، والماتريدية، والكرامية، والكلابية، وكذلك فرق الرافضة؛ كالإمامية، والجعفرية، والإسماعيلية، والزيدية، ونحوهم، تفرقوا فرقًا.

ولكن الله تعالى أقام لهذه الأمة من يحفظ عليها دينها، ويحفظ عليها أصول دينها، ففي كل قرن أئمة يدعون إلى الحق، ويسيرون عليه، ويتمسكون به، هؤلاء هم ورثة الشريعة، الذين هم الأمة المعصومة أو الطائفة المنصورة. كل زمان ـ والحمد لله ـ فيه أئمة يحفظون الحق فيجددونه إذا تتبعنا قرون الأمة، ولكن يقلون أحيانًا ويكثرون، والغلبة عادة للأشرار والمبتدعة، وأهل الحق قلة، يعتبرون فرقة من ثلاث وسبعين فرقة.

أقام الله تعالى لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها، أخبر بذلك الصادق المصدوق بقوله ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلا مَنْ خَالَفَهُم، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ»، وهذا حديث مروي عن جماعة من الصحابة:

أولًا: أخرجه مسلم[١]، وغيره[٢] من حديث ثوبان ﷺ.

ثانيًا: أخرجه البخاري[٣]، ومسلم[٤]، وغيرهما[٥]، عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

ثالثًا: أخرجه البخاري[٦]، ومسلم[٧]، وغيرهما[٨]، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

رابعًا: أخرجه مسلم[٩]، وغيره[١٠]، عن جابر بن سمرة ﷺ.

خامسًا: أخرجه مسلم[١١]، وغيره[١٢]، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

---

(١) برقم (١٩٢٠).

(٢) أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وابن ماجه (١٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)..

(٣) برقم (٣٦٤٠).

(٤) برقم (١٩٢١).

(٥) أحمد (٤/ ٢٤٤)، والدارمي (٢/ ٢٨٠)،

(٦) برقم (٧١، ٣٦٤١).

(٧) برقم (١٠٣٧).

(٨) أحمد (٤/ ٩٣، ٩٩)، والطبراني في الكبير (٨٤٠، ٩٠٥).

(٩) برقم (١٩٢٢).

(١٠) الطبراني (٢٠٦١).

(١١) برقم (١٥٦).

(١٢) أحمد (٢/ ٣٤٥)، وابن حبان (١٥/ ٢٣١)، والبيهقي (٩/ ٣٩).

سادسًا: أخرجه مسلم[١]، وغيره[٢]، عن عقبة بن عامر ﷺ.

سابعًا: أخرجه الدارمي[٣]، والحاكم[٤] عن عمر بن الخطاب ﷺ.

ثامنًا: أخرجه ابن ماجه[٥] عن أبي هريرة ﷺ.

تاسعًا: أخرجه الترمذي[٦] وابن ماجه[٧] وأحمد[٨] عن قرة بن إياس ﷺ.

عاشرًا: أخرجه أحمد[٩]، وأبو داود[١٠]، وغيرهما[١١]، عن عمران بن حصين ﷺ.

وغير ذلك من الطرق ومن الأحاديث، فهذه الطائفة هم الذين كانوا على الشريعة، وأخرج الترمذي[١٢] أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لما سألوا

---

(١) برقم (١٩٢٤).

(٢) الطبراني في الكبير (٢١١، ٢٢٨).

(٣) (٢/ ٢٨٠).

(٤) (٤/ ٤٤٩).

(٥) برقم (٧).

(٦) برقم (٢١٩٢).

(٧) برقم (٦).

(٨) (٣/ ٤٣٦).

(٩) أحمد (٤/ ٤٢٩، ٤٣٤).

(١٠) برقم (٢٤٨٤).

(١١) الطبراني في الكبير (٢٢٨)، والحاكم (٤/ ٤٥٠).

(١٢) برقم (٢٦٤١).

النبي ﷺ عن الفرقة الناجية، وقالوا: مَنْ هِيَ يا رَسُولَ الله؟ قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، أي: من كان متمسكًا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فإنه من هذه الفرقة الناجية.

وفسرهم البخاري بأنهم أهل العلم[١]، يعني: الذين يَعْلَمُون ويَعْمَلُون ويُعَلِّمُون ويَدْعُون إلى العلم، والعلم هنا: العلم الصحيح الذي هو ميراث الأنبياء، «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لم يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولا دِرْهَمًا، إنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[٢].

وقال الإمام أحمد في هذه الطائفة: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»[٣]. أراد الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بأهل الحديث: أهل السنة والجماعة ومن يعتقد معتقدهم من أهل الحديث.

ويقول النووي[٤]: «يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم

---

(١) قال البخاري ـ رحمه الله ـ: «باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً ﴾، وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم». انظر: فتح الباري (١٣/ ٣١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص٢)، وأبو الفضل الهروي في «مشتبه أسامي المحدثين» (ص٢١)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٥ ـ ٢٧)، و«تاريخ بغداد» (٤/ ١١٨).

(٤) في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).

شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض».

وعلى كل حال فإن هذه بشارة من النبي ﷺ أنه قد يبقى في هذه الأمة جماعة تقوم بهم الحجة، يبلغون الشريعة، ويحفظونها، ويعملون بها.

قال الشارح:

وَمِمَّنْ قَامَ بِهَذَا الحَقِّ مِنْ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ: الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَلامَةَ الأَزْدِيُّ الطَّحَاوِيُّ، تَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، بَعْدَ المِئَتَيْنِ، فَإِنَّ مَوْلِدَهُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلاثِينَ وَمِئَتَيْنِ، وَوَفَاتَهُ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ.

فَأَخْبَرَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ، وَنَقَلَ عَنِ الإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ ابْنِ ثَابِتٍ الْكُوفِيِّ، وَصَاحِبَيْهِ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحِمْيَرِيِّ الأَنْصَارِيِّ، وَمُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَه مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَيَدِينُونَ بِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

---

قال الشيخ:

هكذا أخبر بأن من الذين قاموا بهذا الحق، والذين بلغوه وكانوا عليه من علماء المسلمين: الإمام الطحاوي: إمام لأنه قدوة في العلم، كنيته أبو جعفر، واسمه: أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي، تغمده الله برحمته، قام بذلك بعد المئتين، ذكر أن ولادته سنة تسع وثلاثين ومائتين، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، فعمره قد قارب الثمانين.

يقول: إنه - رحمه الله - كتب عقيدته، وضمنها ما كان عليه السلف رحمهم الله، يعني: سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين، وقد كان - رحمه الله - في الفروع على مذهب الشافعي، ثم إنه حصل بينه وبين بعض الشافعية خلاف فتحول إلى مذهب أبي حنيفة. وأبو حنيفة فقيه من فقهاء الأمة، وهو عالم

العراق، ولد سنة ثمانين، ومات سنة مائة وخمسين، واسمه النعمان بن ثابت، مولى بني تيم. رأى أنس بن مالك لما قدم الكوفة، ولكن لم يثبت له رواية عن الصحابة رضوان الله عليهم.

فهو إمام من الأئمة، ولكن لما كان يقول بأن الإيمان مجرد التصديق أساء الظن به كثيرون وطعنوا فيه، وذكروا فيه جرحًا. نقل بعض ذلك عبد الله ابن الإمام أحمد في كتابه الذي هو «السنة»[١] الطبعة الثالثة، ولكن الذين صححوه وحققوه أجابوا عن تلك المطاعن. وكذلك أيضًا نقل بعض تلك المطاعن الإمام ابن حبان في كتابه «المجروحين»[٢]، والذين أيضًا طبعوه ذكروا أجوبة عن تلك المطاعن. ونقل المطاعن وتوسع فيها أيضًا الخطيب البغدادي في ترجمة أبي حنيفة من «تاريخ بغداد»[٣].

ولا شك أنها قد تكون صحيحة، ولكن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ معذور.

ثم إن كثيرًا من الذين يقلدون أبا حنيفة قد تشددوا في رد تلك الآثار، وزادوا في التشدد في ردها بأسانيد، بتضعيف بعضها. وعلى كل حال هو إمام معتبر، وما خالف فيه من الأحاديث فإنه معذور؛ لأنها لم تبلغه.

وأما أبو يوسف فإنه من الذين رووا فقه أبي حنيفة، وكذلك محمد بن

---

(١) (١/ ١٨٠) الطبعة الأولى.

(٢) (٣/ ٦٠ وما بعدها).

(٣) (١٣/ ٣٢٣).

الحسن اشترك في تسجيل فقه أبي حنيفة، وكتبوا من فقهه مؤلفات كثيرة، اشتهرت تلك المؤلفات، ولما اشتهرت وكُتبت تلقاها كثيرٌ من الناس، وقالوا: نذهب إليها ونعمل بها. واشتهر مذهب أبي حنيفة في الهند والباكستان والأفغان، وغيرها من تلك البلاد، وكذلك أيضًا يوجد من يتمذهب بمذهبه في تركيا وفي مصر وفي غيرها من الدول الإسلامية. ولكن قد يكون معهم شيء من التعصب لمذهبهم الذي هم عليه، حيث إنهم يردون أحاديث صحيحة ثابتة، وأبو حنيفة معذور؛ لأنها ما بلغته، وأما هم فإنهم ليسوا معذورين؛ لأنها قد بلغتهم وقامت عليهم الحجة.

يقول: إنهم نقلوا ـ يعني أبا حنيفة وصاحبيه ـ ما كانوا يعتقدونه من أصول الدين يدينون به رب العالمين، وإن الطحاوي كتب ذلك، وأثبته في عقيدته التي شُرحت في هذا الكتاب.

قال الشارح:

وَكُلَّمَا بَعُدَ الْعَهْدُ، ظَهَرَتِ الْبِدَعُ، وَكَثُرَ التَّحْرِيفُ الَّذِي سَمَّاهُ أَهْلُهُ تَأْوِيلًا لِيُقْبَلَ، وَقَلَّ مَنْ يَهْتَدِي إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ؛ إِذْ قَدْ يُسَمَّى صَرْفُ الْكَلامِ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى مَعْنًى آخَرَ يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ فِي الْجُمْلَةِ تَأْوِيلًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ قَرِينَةٌ تُوجِبُ ذَلِكَ، وَمِنْ هُنَا حَصَلَ الْفَسَادُ. فَإِذَا سَمَّوْهُ تَأْوِيلًا قُبِلَ وَرَاجَ عَلَى مَنْ لا يَهْتَدِي إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا.

---

قال الشيخ:

رد كثير من المتأخرين أدلة الكتاب والسنة، أو بالأخص فيما يتعلق بالعقيدة، وحرفوا تلك النصوص من الآيات الصحيحة ومن الأحاديث الصحيحة، صرفوها عن ظاهرها، وسموا ذلك التحريف تأويلًا حتى يُقبل.

الأصل في التأويل أنه اسم لما يؤول إليه الأمر، وتأويل الأمر بيان نهايته وما يؤول إليه. هذا هو الأصل في التأويل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٦]، وقول يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:١٠١]، يعني: تأويل الرؤيا. وكما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

وقد يُراد بالتأويل معنى الكلام وتفسيره؛ كما اصطلح على ذلك ابن جرير، حيث يقول: القول في تأويل قوله تعالى. ويقول: اختلف أهل التأويل

في ذلك. ويقول: وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. يريد بذلك تفسير الكلام وما يحتمله.

ولكن المتأخرين استعملوا التأويل بمعنى قريب من التحريف، ويفسرونه بأنه صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به. يقولون: إذا كان هذا اللفظ له احتمالان، وكان الاحتمال المرجوح هناك قرينة ترجحه، فإننا نصرف اللفظ إلى ذلك المرجوح؛ لنتخلص من أن يكون حجة علينا. فيؤولون آيات الاستواء ويحرفونها، ويقولون: الاستواء بمعنى الاستيلاء. وما أشبه ذلك، وكذلك آيات العلو، وآيات الرفع، وآيات الفوقية، يقولون: المراد علو القدر وعلو القهر، وفوقية القهر. ويستدلون بقول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وبقولهم: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. وهذا صرف للفظ عن الفوقية الصريحة التي هي الرفع والارتفاع إلى معنى بعيد، الذي هو صرف هذه الأدلة كلها إلى أن المراد فوقية القهر ونحو ذلك.

وقلّ من يهتدي من الناس إلى التفريق بين التحريف والتأويل، فالتأويل معروف أنه هو التفسير أو نهاية الكلام وما يؤول إليه. وأما التحريف فإنه طريقة اليهود، قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[النساء:٤٦]، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة:٤١]، يعني: يتكلفون ويصرفونه ويتصرفون فيه تصرفًا يُبطل دلالته.

فهؤلاء المتأخرون يصرفون الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر بعيد - وإن كان يحتمله اللفظ في الجملة - فيسمونه تأويلًا، ولكن احتماله بعيد، مع أنه قد لا يكون هناك قرينة توجب هذا الصرف، ولكن يقولون: إن القرينة هي نفي التشبيه وإنكار العقل لما يدل عليه هذا المعنى. وما أشبه ذلك.

فلما تسلطوا على هذه الآيات وهذه الأحاديث بهذا التحريف الذي سموه تأويلًا، حصل الفساد. ولكن لما سموه تأويلًا قبله كثير من الناس وراج على من لا يهتدي إلى الفرق بين التحريف والتأويل، وظنوا أنهم على صواب، وأنهم يريدون بذلك الجمع بين الأدلة حتى لا يكون هناك اختلاف بين الآيات، ولا يكون هناك آيات تعارض ما يميلون إليه، وما يسلكونه من المذاهب المبتدعة.

قال الشارح:

فَاحْتَاجَ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى إِيضَاحِ الأَدِلَّةِ، وَدَفْعِ الشُّبَهِ الْوَارِدَةِ عَلَيْهَا، وَكَثُرَ الْكَلامُ وَالشَّغَبُ، وَسَبَبُ ذَلِكَ إِصْغَاؤُهُمْ إِلَى شُبَهِ الْمُبْطِلِينَ، وَخَوْضُهُمْ فِي الْكَلامِ الْمَذْمُومِ، الَّذِي عَابَهُ السَّلَفُ، وَنَهَوْا عَنِ النَّظَرِ فِيهِ وَالاشْتِغَالِ بِهِ وَالإِصْغَاءِ إِلَيْهِ، امْتِثَالا لأَمْرِ رَبِّهِمْ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[الأنعام:٦٨]، فَإِنَّ مَعْنَى الآيَةِ يَشْمَلُهُمْ.

---

قال الشيخ:

لما اشتهر هذا التأويل، الذي هو في الحقيقة تحريف، فإن المؤمنين وأهل السنة والجماعة بحاجة وضرورة إلى إيضاح الأدلة الدالة على هذه الصفات ونحوها، يجمعون الآيات ويبينون دلالتها، ويبينون أنها واضحة الدلالة. واحتاجوا أيضًا إلى دفع الشبه التي يوردها عليهم أولئك المتكلمون وأولئك المعطلون، فإنهم قد ملؤوا كتبهم بهذه الشبهات، ذكروا منها شيئًا كثيرًا. يدل على ذلك النظر في كتب الكلام التي ملؤوها بتلك الشبهات، والتي هي متناقضة غاية التناقض، والتي وسعوا فيها الكلام بدون فائدة.

إذا نظرت ـ مثلًا ـ في تفسير الرازي[1] على قوله تعالى في سورة الأعراف:

---

(١) (١٤/ ٨٣).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤]، وجدت فيه كلامًا كثيرًا كله تقديرات لا أصل لها، يعترض بها على تفسير الاستواء بأنه الاستقرار والعلو ونحو ذلك.

وكذلك التأويلات التي سلطوها على مثل هذه الآيات وسموها تأويلًا وهي تحريف، وقد أكثروا الكلام وشاغبوا أكثر الشغب، الذي هو شقاق ونزاع في أمور ظاهرة واضحة الدلالة.

وسبب كثرة الكلام وسبب هذا التأويل أن هؤلاء الذين سموا أنفسهم علماء قد أصغوا إلى شُبه المبطلين من الملاحدة والزنادقة والذين دخلوا في الإسلام تسترًا من اليونان ونحوهم، وأرادوا بذلك إفساد دين المسلمين وتشكيكهم في الدين الذي يدينون به. دخل كثيرٌ من الناس في ذلك.

وهكذا أيضًا لما عُربت الكتب اليونانية وقرأها كثيرٌ من الناس، وفيها أيضًا تشكيك وفيها كلام سيء، فأخذوا يخوضون في الكلام المذموم الذي لا فائدة فيه، وملؤوا بها المؤلفات التي سموها كتب العقائد، ما بين متوسع وما بين مختصر.

وقد سبق أن السلف ـ رحمهم الله ـ كانوا يعيبون علم الكلام ويحذرون منه، حتى يقول الشافعي ـ رحمه الله ـ: «حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ أن يضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء مَنْ ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم

الكلام» انتهى[1].

وللسلف ـ رحمهم الله ـ كلام كثير يعيبون به على هؤلاء المتكلمين، الذين ملؤوا بهذا الكلام السيئ مؤلفات كثيرة. فالسلف ـ رحمهم الله ـ ينهون عن الكلام، وعن النظر فيه، وعن الاشتغال به، والإصغاء إليه، وعن مجالسة أهله، وعن استماع شبهاتهم؛ لأنها قد تسبب شكًا، أو قد تقع في القلب ويصعب بعد ذلك استخراجها. وقد روى ابن بطة في كتابه المشهور الذي هو «الإبانة الكبرى» آثارًا كثيرة عن علماء السلف ينهون عن الإصغاء إلى دعاة الضلال، ولو كانوا يقرؤون الآيات والأحاديث؛ لأنهم قد يصرفونها عن دلالتها.

والله تعالى قد نهى عن هذا الخوض، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾[الأنعام:٦٨]، الذين يخوضون في آيات الله، يعني: يتكلمون فيها بغير علم، ويحرفونها ويصرفونها عن دلالتها، ويتأولون دلالاتها إلى دلالات بعيدة، يقول: إذا رأيتهم فابتعد عنهم، ولا تجلس معهم، حتى يتركوا ذلك، ويخوضوا في حديث مباح، مما يتعلق بالدين ونحو ذلك. فمعنى هذه الآية يشمل هؤلاء المتكلمين الذين خاضوا في علم الكلام، والذين توسعوا في ذلك، فلأجل ذلك يجب على المسلمين أن يبتعدوا عن علم الكلام ونحوه.

---

(١) سيأتي تخريجه.

قال الشارح:

وَكُلٌّ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالانْحِرَافِ عَلَى مَرَاتِبَ: فَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا، وَقَدْ يَكُونُ فِسْقًا، وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً، وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً.

---

قال الشيخ:

التحريف على مراتب، وكذلك الانحراف عن مدلولها، (فَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا)، كالذين يحرفون العرش بأنه الملك، أو يحرفون آيات الصفات بأنها ليست حقيقية، وكذلك أيضًا الذين ينكرون العلم وينكرون جميع الصفات، قد يبلغ بهم ذلك إلى أن يكونوا كفارًا؛ كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرُهُم خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البُلْدَانِ

خمسون تُضرب في عشر، أي: خمسمائة عالم.

قال: (وَقَدْ يَكُونُ فِسْقًا)، يعني: يؤدي بصاحبه إلى أن يكون من الفساق، (وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً)، يعني: ذنبًا من الذنوب لا يصل إلى الفسق، ولا يصل إلى الكفر، (وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً)، قد يُقال: أخطأ هذا المتأول، أو أخطأ هذا المحرر، وإن كان معذورًا ومأجورًا على اجتهاده.

وعلى ذلك فالتحريف كله مذموم، سواءً ما بلغ حد الكفر، أو ما أوصل حد الفسق، أو ما أوقع في الذنب والمعاصي، أو ما كان خطأً ليس بصواب، وعلى المسلم أن يجتنب هذا التحريف، وأن يتبع الحق والصواب.

قال الشارح:

فَالْوَاجِبُ اتِّبَاعُ الْمُرْسَلِينَ، وَاتِّبَاعُ مَا أَنْزَلَ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ خَتَمَهُمُ اللَّـهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَجَعَلَهُ آخِرَ الأَنْبِيَاءِ، وَجَعَلَ كِتَابَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كُتُبِ السَّمَاءِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَجَعَلَ دَعْوَتَهُ عَامَّةً لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، الْجِنِّ وَالإِنْسِ، بَاقِيَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَانْقَطَعَتْ بِهِ حُجَّةُ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللَّـهُ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكْمَلَ لَهُ وَلأُمَّتِهِ الدِّينَ خَبَرًا وَأَمْرًا، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَةً لَهُ، وَمَعْصِيَتَهُ مَعْصِيَةً لَهُ، وَأَقْسَمَ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوهُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِهِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ - وَهُوَ الدُّعَاءُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَدُّوا صُدُودًا، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا أَرَادُوا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا.

---

قال الشيخ:

اتباع المرسلين واجب على الأمم؛ لأنهم رسل الله، ولأنهم واسطته بينه وبين عباده، فالواجب على أممهم أن يتبعوهم، وأن يتبعوا ما أنزل الله تعالى عليهم من الشرائع ومن الكتب.

وقد ختمهم الله تعالى بنبينا محمد ﷺ، فجعله آخر الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]،

وقال النبي ﷺ: «أنا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»[١]. فليس بعد رسالته رسالة، وليس بعده نبيٌّ، وليس بعد كتابه كتاب، أخبر الله بأنه جعل كتابه مهيمنًا على ما قبله من الكتب، وعلى ما بين يديه من كتب السماء، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨] قال ابن عباس: «أي مؤتمنًا على هذا القرآن»، وقال: «القرآن أمين على كل كتاب قبله»[٢]. وقيل: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، ما وافقه فهو حق، وما خالفه فهو باطل، أي: حاكمًا على ما قبله من الكتب. فهكذا هذا الكتاب الذي يحتوي على ما تحتوي عليه وزيادة، كل الكتب التي قبله تضمنها؛ كما ذُكر ذلك، والمراد مسألة التوحيد ومسألة العقيدة والأسماء والصفات.

وكذلك أنزل الله تعالى على نبينا ﷺ الكتاب والحكمة؛ كما أخبر بذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء:١١٣]، الكتاب: هو هذا القرآن، والحكمة: ما فيه من الأحكام، أو ما ألهمه من الأحاديث.

كذلك جعل دعوته عامة لجميع الثقلين ـ الإنس والجن ـ لأن الله تعالى لَـمَّا جعله خاتم الرسل جعل رسالته خاتمة الشرائع كلها، فرسالته عامة للإنس

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) من حديث ثوبان ﷺ. وأخرج شطره الأخير البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرج هذين الأثرين: الطبري (٦/ ٢٦٦، ٢٦٧)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٥٠).

والجن، وعامة للعرب والعجم، وعامة للبعيد والقريب، لجنس بني آدم؛ لقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولقوله تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام:١٩]، أي: من بلغه القرآن فإنه مكلف أن يتبعه.

كذلك جعل رسالته باقية إلى يوم القيامة، أي: أنها لا تنقطع، ودينه صالح لكل زمان ومكان. ردًا على الذين يقولون: إنما يصلح لذلك الزمان الذي نزل فيه، وأن هذا الزمان قد تطور وقد تعددت الهمم، وقد تجددت أحكام، وتجددت فيه أشياء. نقول: كل هذا ليس بصحيح، بل هو صالح للزمان المتقدم ولهذا الزمان، وقد انقطعت به حجة العباد على الله؛ كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾[الأنعام:١٤٩]، أي: حجته غالبة على حجتهم، فليس لهم حجة وليس لهم عذر. وقد بين الله بهذا القرآن كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل:٨٩]، أي: كل شيء يحتاجون إليه.

وكذلك النبي ﷺ بيَّن لأمته كل شيء يحتاجون إليه، وأكمل له ولأمته الدين؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣]. أكمل لنا هذا الدين؛ أكمله في الأخبار، وأكمله في الأوامر والنواهي، وأكمله في الأحكام، وأكمله في المواعظ، وكل شيء

يحتاجون إليه.

كذلك (جَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَةً لَهُ، وَمَعْصِيَتَهُ مَعْصِيَةً لَهُ)، فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء:٨٠]، وقرن طاعته بطاعة رسوله، فقال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال:١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[النساء:١٤]، فجمع بين طاعته وطاعة رسوله، وطاعته هي الامتثال والاتباع، فمن أطاعه فإنه لابد أن يتبعه، وثبت أنه ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قالوا: يا رَسُولَ الله، وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[1].

وأقسم الله تعالى بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥]، أي: لا يكونون مؤمنين صحيحًا إيمانُهم إلا إذا جعلوك حكمًا، ورضوا بحكمك في كل ما يختصمون فيه، وفي كل ما يختلفون فيه من أمور دينهم ومن أمور دنياهم، فيرضون بحكمك، ويسلمون بذلك، ولا يكون في صدورهم حرج

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مما قضيت به، بل يعلمون أنه حكم واجب الاتباع، وأنه من الله تعالى؛ لأن حكمه ﷺ إنما يكون بأمر الله، فلابد أن يتخذوه حاكمًا، وإذا جاءهم أمرٌ فإن عليهم أن يبحثوا، فإذا ثبت أنه عن نبيهم ﷺ، فعليهم أن يقولوا: رضينا بذلك وسلمنا. ولا يردون شيئًا منه.

قوله: (وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِهِ)؛ كما في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠]، فهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطواغيت ويمتنعون من التحاكم إلى النبي ﷺ، إما لأنه لا يأخذ رشوة، وإما لأنه يحكم بالعدل، وهم قد يكون في خصوماتهم جور وظلم، فلأجل ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦١]، إذا دُعوا إلى حكم الله وإلى حكم الرسول فإنهم يملون، ويصدون صدودًا، ولا يرضون بحكم الله ولا بحكم رسوله. وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[النساء:٥٩]، والرد إلى الله: الرد إلى القرآن، والرد إلى النبي ﷺ بعد موته: الرد إلى سنته.

فالذين يصدون صدودًا إذا دعوا إلى الله وإلى الرسول، هؤلاء من المنافقين الذين ذُكروا في هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾، يعني: يدَّعون

أنهم مؤمنون وليسوا بمؤمنين ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، يعني: يدَّعون أنهم على الإيمان، ولكنهم لا يفعلون ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:٦١، ٦٢]، هكذا يقولون: ما أردنا إلا أن نجمع بيننا وبين الآخرين، نريد بتحاكمنا الإحسان والتوفيق بيننا وبين إخواننا. كل ذلك من دعاوي المنافقين والعياذ بالله.

قال الشارح:

كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ: إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُحِسَّ الأَشْيَاءَ بِحَقِيقَتِهَا، أَيْ: نُدْرِكَهَا وَنَعْرِفَهَا، وَنُرِيدُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الدَّلائِلِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْعَقْلِيَّاتِ - وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ جَهْلِيَّاتٌ - وَبَيْنَ الدَّلائِلِ النَّقْلِيَّةِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ الرَّسُولِ، أَوْ نُرِيدُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْفَلْسَفَةِ.

وَكَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ، مِنَ الْمُتَنَسِّكَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ: إِنَّمَا نُرِيدُ الأَعْمَالَ بِالْعَمَلِ الْحَسَنِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَبَيْنَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ حَقَائِقَ، وَهِيَ جَهْلٌ وَضَلالٌ. وَكَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَمَلِّكَةِ وَالْمُتَأَمِّرَةِ: إِنَّمَا نُرِيدُ الإِحْسَانَ بِالسِّيَاسَةِ الْحَسَنَةِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

هذه أقوال هؤلاء الذين هم من المتكلمين ومن الفلاسفة، وكثيرًا ما يؤولون الأدلة الصحيحة، أو يردونها ولا يعملون بها ولو كانت في الصحيحين، فيردون الأحاديث بأنها أخبار آحاد لا تفيد إلا الظن، أو يسلطون عليها التأويلات حتى يبطلوا دلالتها، فيقولون: (إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُحِسَّ الأَشْيَاءَ بِحَقِيقَتِهَا، أَيْ: نُدْرِكَهَا وَنَعْرِفَهَا)، يعني: يخوضون في الأمور الغيبية فيقولون: نريد أن ندرك حقيقتها، ونعرف دلالتها، ونعرف ماهيتها، فيبحثون عن الأمور الغيبية التي طوى الله تعالى علمها عن الخلق، كعلم كيفية أسماء الله وصفاته، وكيفية مجيئه ونزوله، وكيفية إرادته وأفعاله، وما أشبه ذلك.

هكذا يقولون، وهذا مما لا حاجة بهم إليه، فالله سبحانه وتعالى قد أخبر بذلك فعليهم ألا يبحثوا عن الكيفية، ولا يبحثوا عن الماهية والحقيقة، بل يؤمنون به على ما يتبادر وعلى ما يظهر.

كذلك يقولون: نريد التوفيق بين الدلائل العقلية وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول ﷺ. فيقولون: إن العقول دلت على صدق الرسل، وما علمنا صدق الرسل إلا بعقولنا، فإذا جاء عن الرسل شيءٌ يحيله العقل لم نقبله، بل لابد أن نجمع بين العقل والنقل. وفي الحقيقة أن تلك العقليات جهالات، ليست عقليات، وإنما هي ظنون وتخمين، واتباع للظن بغير حقيقة، فكيف يُحتاج إلى أن يُجمع بينها وبين أدلة الشريعة الصريحة الصحيحة، التي جاءت عن النبي ﷺ وليس بها أية خلاف؟!

ولكن خُيل إليهم أن العقول يجب أن تُقدم، وأن كل شيء يخالف هذه العقول فإنه يُرد ولو كان ما كان، فأبطلوا بعقلياتهم الكثير من الشرعيات، وما علموا أنه لا مدخل للعقول في خلق الله تعالى ولا في أمره، وقد يعجزون عن إدراك ماهية بعض المخلوقات، فإن العقل نفسه لا يدرون ماهيته، والروح التي في هذا البدن لا يدرون ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف يتدخلون في أمور الله تعالى وفي أسمائه وصفاته؟!

كذلك كثيرٌ من المبتدعة المتنسكة الذين يسمون أنفسهم النُسَّاك، وكذلك المتصوفة الذين يتسمون بالصوفية، يقولون: (إِنَّمَا نُرِيدُ الأَعْمَالَ بِالْعَمَلِ الْحَسَنِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَبَيْنَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ حَقَائِقَ، وَهِيَ

جَهْلٌ وَضَلالٌ)، فالنساك والمبتدعة والمتصوفة هؤلاء يخوضون أيضًا بعقولهم في الغيبيات، ولذلك يسمون التصوف بأسماء غريبة عجيبة، فيقولون: (الأَعْمَالَ بِالْعَمَلِ الحَسَنِ)، يعني: الجمع بين العمل الحسن وبين الشريعة لابد أن نعمل به، ونوفق بين الشريعة وبين ما يُدعى أنه من الباطل، الذي يسمونه حقائق، وهي في الحقيقة جهالات وضلالات. هذه من شبههم. وكذلك كثير من أهل الكلام والتأويل يقولون: (إِنَّمَا نُرِيدُ الإِحْسَانَ بِالسِّيَاسَةِ الحَسَنَةِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ)، هؤلاء أيضًا يردون كثيرًا من الأدلة، ومن الأعمال، ومن الغيبيات، ومن الأحكام التي أمر الله بها، فيردونها ويقولون: إنها لا توافق السياسة الحسنة، ونريد أن نوفق بين السياسة الحسنة وبين الشريعة.

كل هذا من الكلام السيئ الذي لا حقيقة له، والواجب أنهم يتقبلون ما جاءت به هذه الشريعة على ما هي عليه.

قال الشارح:

فَكُلُّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يُحَكِّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ غَيْرَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَيْنَ مَا يُخَالِفُهُ، فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَافٍ كَامِلٌ، يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ حَقٍّ.

وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّقْصِيرُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَعْلَمْ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأُمُورِ الْكَلامِيَّةِ الاعْتِقَادِيَّةِ، وَلا فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْوَالِ الْعِبَادِيَّةِ، وَلا فِي كَثِيرٍ مِنَ الإِمَارَةِ السِّيَاسِيَّةِ، أَوْ نَسَبُوا إِلَى شَرِيعَةِ الرَّسُولِ - بِظَنِّهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ - مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَأَخْرَجُوا عَنْهَا كَثِيرًا مِمَّا هُوَ مِنْهَا.

فَبِسَبَبِ جَهْلِ هَؤُلاءِ وَضَلالِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ، وَبِسَبَبِ عُدْوَانِ أُولَئِكَ وَجَهْلِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، كَثُرَ النِّفَاقُ، وَدَرَسَ[1] كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الرِّسَالَةِ.

---

قال الشيخ:

كل من طلب أن يُحكِّم في شيء من أمر الدين غير ما جاء بها الرسول، يعني: غير الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ وبلغها وتلقاها عنه صحابته وأمته، فإذا طلب أن يُحكِّم في شيء غير ما جاء به الرسول، ويعتقد أن هذا حكم حسن؛ كقولهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾[النساء:٦٢]، وأن هذا أيضًا جمع بين ما جاء به الرسول ﷺ وبين ما يخالفه، فله نصيب من ذلك. يعني: من

---

(١) دَرَسَ دَرْسًا وَدُرُوسًا: عفا وذهب أثره وتقادم عهده. انظر: لسان العرب، (درس).

عمل المنافقين الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، أو الذين لا يؤمنون حتى يُحكِّموا الرسول فيما شجر بينهم، أو من طريقة المتكلمين والمبتدعة والمتملكة، له نصيب من هذا، بل الواجب عليه أن يحكم الرب والشرع في أمور الدين كلها.

وإذا قالوا: إن هذا مما جاء به الرسول ﷺ، وإن لم يكن من النصوص.

نقول: إن ما جاء به الرسول كافٍ شامل كامل، يدخل فيه كل شيء، ويدخل فيه حقوق الآدميين، وتدخل فيه الأمور الدنيوية، وتدخل فيه المحدثات الجديدة، كل هذا داخل في الشريعة، وليس في الشريعة نقص، وليس هناك شيء إلا ويوجد له حكم في شريعة الله تعالى. فما جاء به الرسول كافٍ كامل يدخل فيه كل حق، وإنما وقع التقصير حقًا من كثير ممن ينتسبون إلى الشريعة، حيث لم يعلموا ما جاء به الرسول في كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية؛ لأنهم اشتغلوا بضد ذلك، وقصروا في تعلم ما جاء به النبي ﷺ في الأمور الاعتقادية، واشتغلوا بالأمور الكلامية، وكذلك قصروا في كثير من الأحوال العبادية، وكذلك في كثير من الإمارة والسياسة، وكذلك نسبوا إلى شريعة النبي ﷺ ما ليس منها، بظنهم وتقليدهم، وأخرجوا عنها كثيرًا مما هو منها. هؤلاء بلا شك هم الذين جنوا على الأمة وأوقعوا أنفسهم بهذا الظن السيئ.

يقول الشارح: (فَبِسَبَبِ جَهْلِ هَؤُلاءِ وَضَلالِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ)، يعني: تقصير هؤلاء الذين ينتسبون إلى العلم، الذين هم علماء لكن لم يشتغلوا بالعلم

الصحيح بسبب جهلهم وتفريطهم، (**وبِسَبَبِ عُدْوَانِ أُولَئِكَ وَجَهْلِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، كَثُرَ النِّفَاقُ**)، أولئك المتفلسفة والمتزندقة ونحوهم اعتدوا على الأدلة وأخربوها، وبسبب عدوانهم وجهلهم ونفاقهم كثر النفاق (**وَدَرَسَ كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الرِّسَالَةِ**)، أي: من علم الشريعة الذي جاء به النبي ﷺ، واشتغل كثير من الناس بما هو بعيد عن الحق.

قال الشارح:

بَلِ الْبَحْثُ التَّامُّ، وَالنَّظَرُ الْقَوِيُّ، وَالاجْتِهَادُ الْكَامِلُ، فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؛ لِيُعْلَمَ وَيُعْتَقَدَ، وَيُعْمَلَ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَيَكُونَ قَدْ تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَأَنْ لا يُهْمَلَ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ عَاجِزًا عَنْ مَعْرِفَةِ بَعْضِ ذَلِكَ، أَوِ الْعَمَلِ بِهِ، فَلا يَنْهَى عَمَّا عَجَزَ عَنْهُ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، بَلْ حَسْبُهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْهُ اللَّوْمُ لِعَجْزِهِ، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْرَحَ بِقِيَامِ غَيْرِهِ بِهِ، وَيَرْضَى بِذَلِكَ، وَيَوَدَّ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا بِهِ، وَأَنْ لا يُؤْمِنَ بِبَعْضِهِ وَيَتْرُكَ بَعْضَهُ، بَلْ يُؤْمِنُ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَأَنْ يُصَانَ عَنْ أَنْ يُدْخِلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، مِنْ رِوَايَةٍ أَوْ رَأْيٍ، أَوْ يَتَّبِعَ مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، اعْتِقَادًا أَوْ عَمَلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢].

وَهَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ، وَهِيَ طَرِيقَةُ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُهُمُ السَّلَفُ الْقَدِيمُ مِنَ التَّابِعِينَ الأَوَّلِينَ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ. وَمِنْ هَؤُلاءِ أَئِمَّةُ الدِّينِ الْمَشْهُودُ لَهُمْ عِنْدَ الأُمَّةِ الْوَسَطِ بِالإِمَامَةِ.

---

قال الشيخ:

حقيقة أن البحث التام والنظر القوي والاجتهاد الكامل هو فيما جاء به الرسول ﷺ؛ لأجل أن يُعلم ويُعتقد، ولأجل أن يُعمل به ظاهرًا وباطنًا، فيكون قد تُلي الكتاب حق تلاوته، ولم يُهمل منه شيء. هذا حقًا هو الواجب أن يبحث

المسلم بحثًا كاملًا، وينظر نظرًا قويًا، فيجتهد اجتهادًا كاملًا تامًا في كل ما بلغه النبي ﷺ، حتى يعلم ذلك ويعتقده، وحتى يعمل بالشريعة في الظاهر والباطن، وحتى يكون من الذين يتلونه حق تلاوته ويتبعونه، وحتى لا يكون من الذين يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[النساء:١٥٠]، والذين وبخهم الله تعالى بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥].

لاشك أن كثيرًا من الناس قد يعجز عن معرفة بعض ذلك، أو العمل به، وأن العبد قد يعجز عن معرفة تفاصيل ذلك، أو تطبيقه والعمل به، ولكن لا ينهى غيره عما عجز عنه، فلا يقول: لا تقم بذلك. نقول: هذا مما جاء به الرسول، فلا تنه غيرك عن أن يتعلمه ويطبقه، ويبحث عن معانيه. حسبك، أن يسقط عنك اللوم؛ لأنك عاجز حيث إنك عجزت عن معرفة شيء من ذلك أو كله، فلا تمنع غيرك، ولا تقل: إن هذا لا يجوز. بل عليك أن تفرح إذا قام به غيرك، فإذا رأيت من العلماء من اشتغلوا بهذا العلم الصحيح، وبيَّنوا صحيحه، وبيَّنوا ما يدل عليه، فإن عليك أن تُسر بذلك، وأن تفرح به فرحًا شديدًا، حتى تكون ممن يتبعون الحق، ويرضون به.

عليك أن تود أن تكون قائمًا به، تقول: يا ليتني قدرت فأكون قائمًا بهذا العلم. ولا تكن من الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فإن الله تعالى توعدهم بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ

مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾[البقرة:٨٥]، فهذا وعيد شديد للذين يؤمنون ببعضه دون بعض. الواجب أن تؤمن بالكتاب كله، وأن يُصان الكتاب عن أن يُدخل فيه ما ليس منه، لا تُدخلوا في كتاب الله ولا في شريعته شيئًا ليس منه، ولا تقدموا عليه آراءكم، ولا رواياتكم، ولا أقوال مشايخكم، بل عليكم أن تتبعوا ما جاء من عند الله اعتقادًا وعملًا، وعليكم أن تتركوا كل ما هو مبتدع ليس من الكتاب ولا من السنة، وألا تردوا شيئًا من الحق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٤٢]، الحق الواضح تخلطونه بالباطل، تخلطون بينهما وتجعلون الباطل حقًا والحق باطلًا، وتعلمون الحق ولكنكم تكتمونه، مع أنكم تعرفون أنه حق؛ لأجل مصالح دنيوية، أو لأجل رئاسة، أو ما أشبه ذلك.

هذا كله من رد كتاب الله تعالى، ومن التجرؤ على الكتاب بكتمان شيء مما أنزل الله، وقد توعد الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[البقرة:١٧٤]، وعيد شديد للذين يكتمون شيئًا من الحق وهم يعلمونه؛ لأجل أن يشتروا به ثمنًا قليلًا من رئاسة أو مال أو ما أشبه ذلك.

فالذين يؤمنون بالكتاب كله ويتبعونه هؤلاء هم سلفنا الصالح، هذه

كانت طريقة السابقين الأولين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة، طريقتهم أنهم لا يردون شيئًا صحيحًا، ولا يؤمنون ببعض دون بعض، بل يؤمنون بالكتاب كله، ويصونون كتاب الله، فلا يُدخلون فيه ما ليس منه من آرائهم أو نحوها، فإذا عجزوا عن بعضه فإنهم لا ينهون غيرهم عما عجزوا عنه، بل يفرحون إذا قام غيرهم به.

فهذه طريقتهم رحمهم الله، وكذلك طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة، أي: علماء كل زمان كلهم جاؤوا بالحق واتبعوه، أولهم: السلف القديم من التابعين الأولين، الذين تتلمذوا على الصحابة رضي الله عنهم، ثم من بعدهم من الأئمة والعلماء الذين حفظ الله تعالى بهم الدين، وهؤلاء منهم أئمة الدين الذين شهد لهم عند الأمة الوسط بالإمامة، الأمة الوسط: هي هذه الأمة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣].

قال الشارح:

فَعَنْ أَبِي يُوسُفَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ أَنَّهُ قَالَ لِبِشْرٍ الْمُرِّيسِيِّ: الْعِلْمُ بِالْكَلامِ هُوَ الْجَهْلُ، وَالْجَهْلُ بِالْكَلامِ هُوَ الْعِلْمُ، وَإِذَا صَارَ الرَّجُلُ رَأْسًا فِي الْكَلامِ قِيلَ: زِنْدِيقٌ، أَوْ رُمِيَ بِالزَّنْدَقَةِ[1].

أَرَادَ بِالْجَهْلِ بِهِ اعْتِقَادَ عَدَمِ صِحَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ عِلْمٌ نَافِعٌ، أَوْ أَرَادَ بِهِ الإِعْرَاضَ عَنْهُ أَوْ تَرْكَ الالْتِفَاتِ إِلَى اعْتِبَارِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَصُونُ عِلْمَ الرَّجُلِ وَعَقْلَهُ، فَيَكُونُ عِلْمًا بِهَذَا الاعْتِبَارِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ بِالْكَلامِ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ الْمَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذَبَ.

وَقَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ: حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلامِ.

---

قال الشيخ:

هكذا نقل هذه الآثار الشارح رحمه الله.

وأبو يوسف: هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي، صاحب أبي حنيفة، والذي نقل كثيرًا من علم أبي حنيفة رحمه الله، والذي تفقه عليه.

---

(١) سيأتي تخريجه في كلام سماحة الشيخ حفظه الله.

أما بشر المريسي: فإنه مبتدع ضال، رأس في الطائفة المريسية، ولو كان قد تفقه على أبي يوسف وعلى غيره، ولكن اشتهر بالبدعة وإنكار الصفات، وإنكار أن يكون القرآن كلام الله، فهو مبتدع ضال لا ينبغي أن يُروى عنه. اتبع طريقة الجهم بن صفوان وإن لم يدركه، وقد توفي سنة مئتين وثمانية عشر.

وبكل حال فإن هذه نصيحة من أبي يوسف ـ رحمه الله ـ يقول: (**الْعِلْمُ بِالْكَلامِ هُوَ الْجَهْلُ**)، يعني: أن الذي يتعلم الكلام يُقال له: أنت جاهل ولست بعالم، ولو ادعيت أنك وصلت إلى العلم. (**وَالْجَهْلُ بِالْكَلامِ هُوَ الْعِلْمُ**)، فالذي يشتغل بالعلم الصحيح ويترك الكلام هو الذي يُقال له عالم. وإذا صار الرجل رأسًا في الكلام فإنه يُقال له: هذا زنديق. أو يُرمى بالزندقة، التي هي النفاق وإخفاء العقيدة السيئة.

يريد ـ رحمه الله ـ بقوله: (**الْجَهْلُ بِالْكَلامِ هُوَ الْعِلْمُ**)، أي: اعتقاد عدم صحته، فإن ذلك علم نافع. أو يريد الإعراض عنه، فالجهل بالكلام: يعني الإعراض عنه وترك الالتفات إلى اعتباره، فإن ذلك يصونك أيها المسلم، يصون علمك وعقلك، فتكون عالمًا بهذا الاعتبار.

هذا كله نهي عن علم الكلام الذي ولده المتكلمون.

وكذلك يقول أبو يوسف ـ رحمه الله ـ: (**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ بِالْكَلامِ تَزَنْدَقَ**)، أي: إذا انشغل بالكلام أدى به ذلك إلى أن يلتحق بالزنادقة المنافقين الذين يخفون عقيدتهم السيئة. ويقول: (**وَمَنْ طَلَبَ الْمَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ**)، الكيمياء: طريقة يتعلمونها يكتسبون بها، وكثير من العلماء ينهون عن تعلمها، وإن كان

المتأخرون قد يمدحون بعض صفاتها. ويقول: (**وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذَبَ**)، أي: من طلب الأحاديث الغريبة التي ليس لها طرق وليست مشهورة، لابد أنه يقع في الكذب.

وهذا الأثر عن أبي يوسف قد أخرجه البغدادي الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»[١] عن أبي يوسف، قال: (**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ بِالْكَلامِ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ المَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذَبَ**).

والشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ ذكرنا عنه سابقًا أنه يقول: (**حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلامِ**)، هذا الأثر رواه البيهقي في «مناقب الشافعي»[٢]، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث»[٣]، وابن حجر في «توالي التأسيس»[٤]، وغيرهم.

الشافعي: عالم الأثر، وناصر الحديث، أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي المطلبي المكي، المتوفى سنة مئتين وأربعة، صاحب المذهب المشهور. حكم في أهل الكلام الذين يشتغلون بعلم الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال،

---

(١) (ص٥). وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ١٤٥)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٤٧).

(٢) (١/ ٤٦٢).

(٣) (ص٧٨).

(٤) (ص٦٤).

وأن يُطاف بهم بين الناس والعشائر، وبين القبائل، قبائلهم وقبائل غيرهم، وأن يُقال: هذا جزاؤهم؛ لأنهم تركوا الكتاب والسنة والعلم الصحيح، وأقبلوا على علم الكلام الذي هو جهل.

وقد بين هذا ـ رحمه الله ـ بيانًا واضحًا حقًا يجب أن يُعتمد، وأن يُعرف أنه ـ رحمه الله ـ ناصح بترك هذا العلم الذي هو علم الكلام.

قال الشارح:

وَقَالَ أَيْضًا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ:

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ ... إِلَّا الْحَدِيثَ وَإِلَّا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ

الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا ... وَمَا سِوَى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

---

قال الشيخ:

البيتان منسوبان للشافعي في «طبقات السبكي»[(١)]، و«البداية»[(٢)]، وغيرهما، وقيل: منسوبان لبعض علماء الشاش[(٣)]. ومعناهما جيد.

والمراد بالعلوم: العلوم الكلامية التي اشتغل بها كثير من المتكلمين، وصدوا بها عن كلام الله تعالى، وعن الحديث، وعن السنة، وعن العقيدة، وعن الأحكام، وعن الفقهيات، وعن تراجم العلماء، وكذلك عن الأخبار والتراجم ونحوها. هذه كلها داخلة في علم القرآن، فالقرآن مشتمل على جميع العلوم النافعة: على الأحكام، وعلى الآداب، وعلى القصص، وعلى الأمثال، وعلى الآداب والأخلاق وما أشبهها. فما سواه من العلوم فإنها مشغلة صادة

---

(١) (١/ ٢٩٧).

(٢) (١٠/ ٢٥٤).

(٣) نقل ذلك الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٧٩) عن أبي زيد الفقيه، ومن طريق الخطيب أخرجه القاضي عياض في «الإلماع» (ص٤١). والشاش: من بلاد الترك، ويجمع كورًا من كور خراسان. انظر: معجم ما استعجم (٣/ ٧٧٦).

عن الخير إلا الحديث، أي: علم الحديث والاشتغال به والفقه الذي هو استنباط الأحكام من الأدلة.

ثم يقول: (**الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا**)، يعني: رواية المحدثين بقولهم: حدثنا محمد بن رافع .. أو حدثنا وكيع .. ونحو ذلك، وما سوى ذلك من العلوم فإنه وسواس الشياطين، أي أنه من وسوسة الشياطين.

ويقول ابن القيم[1] - رحمه الله -:

**الْعِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الْصَحَابَةُ هُمْ أُولُو العِرْفَانِ**

**مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ النُّصُوصِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلانِ**

فهكذا فرَّق بين العلم الصحيح وبين ما ليس بعلم صحيح.

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٧٩).

وَذَكَرَ الأَصْحَابُ فِي الْفَتَاوَى: أَنَّهُ لَوْ أَوْصَى لِعُلَمَاءِ بَلَدِهِ: لا يَدْخُلُ الْمُتَكَلِّمُونَ، وَلَوْ أَوْصَى إِنْسَانٌ أَنْ يُوقَفَ مِنْ كُتُبِهِ مَا هُوَ مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ، فَأَفْتَى السَّلَفُ أَنْ يُبَاعَ مَا فِيهَا مِنْ كُتُبِ الْكَلامِ. ذُكِرَ ذَلِكَ بِمَعْنَاهُ فِي الْفَتَاوَى «الظَّهِيرِيَّةِ». فَكَيْفَ يُرَامُ[1] الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الأُصُولِ، بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؟!

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ[2]:

أَيُّهَا الْمُغْتَدِي لِيَطْلُبَ عِلْمًا ... كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الرَّسُولِ
تَطْلُبُ الْفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلًا ... كَيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أَصْلِ الأُصُولِ

---

قال الشيخ:

وهذا صحيح إن شاء الله، إذا أوصى الإنسان وقال: هذا المال أو هذه الغلة لعلماء هذا البلد. فلا يدخل المتكلمون الذين اشتغلوا بعلم الكلام، فإنهم لا يسمون علماء. وكذلك إذا أوصى أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم بقوله: أوقفوا كتبي العلمية، أي: اجعلوها وقفًا. فإنه إذا كان فيها شيء من كتب الكلام فإنه لا يكون وقفًا، بل يجوز بيعه، مع أن الموقوف لا يجوز أن يباع. هكذا ذكره بمعناه صاحب الفتاوى «الظهيرية» لظهير الدين أبي بكر محمد بن

---

(١) يُرام: يُطلب، رام الشيء: طلبه. انظر: لسان العرب (روم).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ١٥٨).

أحمد بن عمر البخاري، الفقيه الأصولي القاضي، الذي تولى الحسبة ببخارى، وتوفي سنة ستمائة وتسعة عشر.

ذكر هذه الفتاوى: فتوى الذي أوصى لعلماء بلده، وفتوى الذي أوصى أن يوقف من كتبه كتب العلم.

(فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الأُصُولِ)، أي: علم العقائد (بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؟!)، لا يمكن، من أراد علم الرسول واتبعه فإنه يحصل على علم الأصول، فلا يمكن أن يصل إلى علم الأصول ـ وأصلها العقيدة ـ إلا إذا كان متبعًا لما جاء به النبي ﷺ.

وهكذا ما قاله هذا الشاعر: (أَيُّهَا الْمُغْتَدِي لِيَطْلُبَ عِلْمًا)، أي: الذي يغدو أو يروح لأجل طلب العلم، أخبروه وقولوا: (كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الرَّسُولِ)، العلوم التي يجب أن تتعلموها إنما هي العلم الذي بلغه النبي ﷺ.

(تَطْلُبُ الْفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلا  كَيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أَصْلِ الأُصُولِ)

لا تنشغل بالفروع حتى تصحح الأصول، فالأصول هي ما جاء به النبي ﷺ، فتغفل علم الأصل وتشتغل بفروع وأنت لم تشتغل بما هو الأصل الأصيل.

قال الشارح:

وَنَبِيُّنَا ﷺ أُوتِيَ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ، فَبُعِثَ بِالْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ وَالْعُلُومِ الأَوَّلِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ، وَلَكِنْ كُلَّمَا ابْتَدَعَ شَخْصٌ بِدْعَةً اتَّسَعُوا فِي جَوَابِهَا، فَلِذَلِكَ صَارَ كَلامُ الْمُتَأَخِّرِينَ كَثِيرًا، قَلِيلَ الْبَرَكَةِ، بِخِلافِ كَلامِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَإِنَّهُ قَلِيلٌ، كَثِيرُ الْبَرَكَةِ، لا كَمَا يَقُولُهُ ضُلالُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَجَهَلَتُهُمْ: إِنَّ طَرِيقَةَ الْقَوْمِ أَسْلَمُ، وَإِنَّ طَرِيقَتَنَا أَحْكَمُ وَأَعْلَمُ! وَلا كَمَا يَقُولُهُ مَنْ لَمْ يُقَدِّرْهُمْ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْفِقْهِ: إِنَّهُمْ لَمْ يَتَفَرَّغُوا لاسْتِنْبَاطِ الفقه وَضَبْطِ قَوَاعِدِهِ وَأَحْكَامِهِ اشْتِغَالًا مِنْهُمْ بِغَيْرِهِ! وَالْمُتَأَخِّرُونَ تَفَرَّغُوا لِذَلِكَ، فَهُمْ أَفْقَهُ!!

---

قال الشيخ:

هكذا يذكر ـ رحمه الله تعالى ـ أن النبي ﷺ قد أتاه الله فواتح الكلم، وخواتمه، وثبت عنه أنه قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»[1]، أو: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ»[2]، وقد أورد ابن رجب في كتاب: «جامع العلوم والحكم»[3] روايات لهذا الحديث، وفيها أنه أُوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، واختُصِرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣) وليس فيه «وخواتمه» من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٢/ ١٧٢) بلفظ: «أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) (ص٤، ٥).

له الكلام اختصارًا، فقد بعثه الله تعالى: (بِالْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ)، يعني: الجامعة، والألفاظ القليلة التي يدخل فيها شيء كثير من العلوم، وكذلك أيضًا بعثه: (وَالْعُلُومِ الأَوَّلِيَّةِ وَالأخْرَوِيَّةِ)، يعني: بعلوم الأولين والآخرين، (عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ)، وأكملها.

ثم يذكر أنه: (كُلَّمَا ابْتَدَعَ شَخْصٌ بِدْعَةً اتَّسَعُوا فِي جَوَابِهَا، فَلِذَلِكَ صَارَ كَلامُ الْمُتَأَخِّرِينَ كَثِيرًا، قَلِيلَ الْبَرَكَةِ)، وذلك لكثرة البدع، فإن القدرية يبتدعون بدعًا ويحبذونها ويذكرون حججًا عليها، فيضطر العلماء في زمانهم إلى مناقشتها، ويطول الكلام، ويبتدع أيضًا المعتزلة والجهمية والمعطلة بدعًا وشبهات، يقررون بها ما هم عليه، ويطيلون شعبها،ويطيلون فروعها، فيستدعي ذلك أهل السنة إلى أن يناقشوها، وأن يتكلموا فيها، فيطول الكلام ويكثر، ولا حاجة إلى هذا التوسع، إنما الواجب أن نقول: اقتصروا على كتاب الله وسنة رسوله، وكذلك أيضًا على تفسير سلف الأمة وأئمتها، ولا تشتغلوا ببدع هؤلاء المتأخرين الذين وسعوا الكلام، وتوسعوا في ذكر التقديرات، وفي ذكر التخمينات وما أشبهها، وتوسعوا فيما يظنونه وفيما يقدرونه، فصار كلامهم كثيرًا، ولكن قليل البركة.

(بِخِلافِ كَلامِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَإِنَّهُ قَلِيلٌ، كَثِيرُ الْبَرَكَةِ)، إذا نظرنا في كتب المتقدمين في عقائدهم كعقائد الإمام أحمد وابنه، وتلميذه الخلال وغيرها من كتب السلف - رحمهم الله - وجدناها مختصرة، ولكن فيها بركة كثيرة.

نُقل عن المتكلمين الضلال والجهلة أنهم يقولون: (طريقة السلف أسلم،

وطريقة الخلف أعلم وأحكم)[1]. وهذا ظلم وكذب، بل طريقة السلف المتقدمين أسلم وأعلم وأحكم، وأما طريقتكم أيها الخلف وأيها المتكلمون فإنها طريقة ضالة، قد وقعتم في الزلل، ووقعتم في التناقض الكثير، فكانت نهايتكم الحيرة والضلال.

هكذا يقول بعض المتأخرين الذين لم يقدروا السلف قدرهم، ومع ذلك ينتسبون إلى الفرقة فيظلمون السلف ويقولون: إنهم لم يتفرغوا للاستنباط. وكذبوا، بل تفرغوا واستنبطوا، وبينوا الأحكام، وشرحوا الأحاديث، وبينوا ما فيها، كما تدل عليه كتبهم ومؤلفاتهم التي تتعلق بالعقيدة، وتتعلق بالأحكام، وتتعلق بالشريعة، كيف يُقال: إنهم لم يتفرغوا للاستنباط، ولا لضبط قواعده وأحكامه، مشتغلين عنها بغيرها؟! وأما المتأخرون فقد تفرغوا لذلك، وهم أعلم وأفقه؟! وهذا ليس بصحيح، بل السلف ـ رحمهم الله ـ تفرغوا لذلك، وجاءوا بكل ما يقدرون عليه مما هو خير كثير، وأما المتأخرون فإنهم وسّعوا الكلام، ووسعوا الكتب، وشغلوا الناس بقراءة تلك الكتب التي لا طائل تحتها.

---

(١) انظر في بيان هذه المقالة وبطلانها: مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧)، ودرء التعارض (٥/ ٣٧٨)، والصواعق المرسلة (٣/ ١١٣٣)، وفتح الباري (١٣/ ٣٥٢)، والتحف في مذاهب السلف للشوكاني (ص١٦)، وآيات الأسماء والصفات لمحمد الأمين الشنقيطي (ص٤٦).

قال الشارح:

فَكُلُّ هَؤُلاءِ مَحْجُوبُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِ السَّلَفِ، وَعُمْقِ عُلُومِهِمْ، وَقِلَّةِ تَكَلُّفِهِمْ، وَكَمَالِ بَصَائِرِهِمْ. وَتَاللهِ مَا امْتَازَ عَنْهُمُ الْمُتَأَخِّرُونَ إِلا بِالتَّكَلُّفِ وَالاشْتِغَالِ بِالأَطْرَافِ الَّتِي كَانَتْ هِمَّةُ الْقَوْمِ مُرَاعَاةَ أُصُولِهَا، وَضَبْطَ قَوَاعِدِهَا، وَشَدَّ مَعَاقِدِهَا، وَهِمَمُهُمْ مُشَمَّرَةٌ إِلَى الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَالْمُتَأَخِّرُونَ فِي شَأْنٍ، وَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ آخَرَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

---

قال الشيخ:

يقول: إن هؤلاء الذين يقولون إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، محجوبون عن معرفة مقدار السلف، فإن السلف - رحمهم الله - أعلم وأحكم وطريقتهم أسلم، وقد تكلموا وبينوا ما فيه الخير، ونقل السلف والخلف عنهم علمًا كثيرًا، ويدل على مقادير السلف ومعرفتهم، ويدل على عمق علومهم، وعلى قلة تكلفهم؛ لأنهم لا يتكلفون في علم الأشياء المحجوبة عنهم، ويدل على أن الله تعالى بصّرهم بالحق، وأنهم أكمل بصيرة، وأن المتأخرين لم يمتازوا عنهم إلا بالتكلف والتعمق في أشياء لا حاجة بهم إليها، يشتغلون: (بِالتَّكَلُّفِ وَالاشْتِغَالِ بِالأَطْرَافِ الَّتِي كَانَتْ هِمَّةُ الْقَوْمِ مُرَاعَاةَ أُصُولِهَا)، لم يكونوا يهتمون بعلم الغيوب، والأشياء الغيبية والتقادير ونحوها، إنما يحتاجون إلى: (ضَبْطَ قَوَاعِدِهَا، وَشَدَّ مَعَاقِدِهَا)، يقعدون لها قواعد، ويشدون تلك المعاقد.

(وَهِمَمُهُمْ مُشَمَّرَةً إِلَى المَطَالِبِ الْعَالِيَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ)، يعني: أن مطالبهم فوق مطالب هؤلاء المتأخرين، (فَالْمُتَأَخِّرُونَ فِي شَأْنٍ، وَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ آخَرَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا).

قال الشارح:

وَقَدْ شَرَحَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعْضَ الشَّارِحِينَ قَدْ أَصْغَى إِلَى أَهْلِ الْكَلامِ الْمَذْمُومِ، وَاسْتَمَدَّ مِنْهُمْ، وَتَكَلَّمَ بِعِبَارَاتِهِمْ.

وَالسَّلَفُ لَمْ يَكْرَهُوا التَّكَلُّمَ بِالْجَوْهَرِ وَالْجِسْمِ وَالْعَرَضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلاحًا جَدِيدًا عَلَى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالاصْطِلاحِ عَلَى أَلْفَاظٍ لِعُلُومٍ صَحِيحَةٍ، وَلا كَرِهُوا أَيْضًا الدَّلالَةَ عَلَى الْحَقِّ وَالْمُحَاجَّةَ لأَهْلِ الْبَاطِلِ.

بَلْ كَرِهُوهُ لاشْتِمَالِهِ عَلَى أُمُورٍ كَاذِبَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلْحَقِّ، وَمِنْ ذَلِكَ مُخَالَفَتُهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلِهَذَا لا تَجِدُ عِنْدَ أَهْلِهَا مِنَ الْيَقِينِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا عِنْدَ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَضْلًا عَنْ عُلَمَائِهِمْ، وَلاشْتِمَالِ مُقَدِّمَاتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، كَثُرَ الكلام، وَانْتَشَرَ الْقِيلُ وَالْقَالُ، وَتَوَلَّدَ لَهُمْ عَنْهَا مِنَ الأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ الصَّحِيحِ وَالْعَقْلِ الصَّرِيحِ مَا يَضِيقُ عَنْهُ الْمَجَالُ. وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ الكلام زِيَادَةُ بَيَانٍ عِنْدَ قَوْلِهِ: (فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ...).

---

قال الشيخ:

عقيدة الطحاوي - رحمه الله - شرحها كثير من علماء الحنفية، وقد ذكرنا في المقدمة نقلًا عن صاحب «كشف الظنون» عددًا من الذين شرحوها، واطلع صاحب الشرح عليها، لكن كثيرًا منهم اشتغلوا بعلم الكلام المذموم، ونقلوا في ذلك شيئًا كثيرًا. وقد تقدم بيان الكلام المذموم الذي هو توليد المتأخرين، فبعض الشراح استمد منهم، وتكلم بعباراتهم، وحرّف كثيرًا من كلام

الطحاوي، وأسقط بعض العبارات التي لم تكن مناسبة وموافقة لمذهبهم.

قوله: (**وَالسَّلَفُ لَمْ يَكْرَهُوا التَّكَلُّمَ بِالْجَوْهَرِ وَالْجِسْمِ وَالْعَرَضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلاحًا جَدِيدًا عَلَى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالاصْطِلاحِ عَلَى أَلْفَاظِ لِعُلُومٍ صَحِيحَةٍ**)، لا شك أن الجوهر والجسم والعرض ونحوها اصطلاحات اصطلح عليها المتكلمون، وأخذوا يولدون ويقولون: إن الله ليس بجوهر، ولا عرض، ولا جسم، ومنزه عن الأعراض والأبعاض والأعضاء ونحو ذلك. وهذا قد يكون اصطلاحًا جديدًا على معانٍ صحيحة، ولكن الغالب أنهم يستعملونه في معانٍ غير صحيحة. وأنه لم يرد عن السلف ولا عن الصحابة الكلام في الجوهر والجسم والعرض ونحوها، سواء كانت اصطلاحًا على معانٍ صحيحة أو غير صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، اصطلح العلماء على ألفاظ للعلوم الصحيحة، كما في اصطلاح أهل الحديث في علم المصطلح، فإنها علوم صحيحة.

والسلف ـ رحمهم الله ـ ما كرهوا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، ما كرهوا إلا محاجة المبطلين وتوسيع باطلهم، وكرهوا هذه المحاجة وهذه الدلالة؛ لأنها تشتمل على أمور كاذبة مخالفة للحق، ولأن هذه العلوم الكلامية مخالفة للكتاب والسنة، ومخالفة للأدلة الشرعية. ولما كانت مخالفة لها تسلطوا عليها بالتأويل والتحريف، وسلطوا عليها الكلام الذي يريدون به صرفها عن ظاهرها، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلًا عن علمائهم.

وسيأتي لذلك أمثلة في كلام الشارح رحمه الله، وأن كثيرًا من علماء هؤلاء علمهم جهل، وكانت نهايتهم الحيرة، مقدمتهم تشتمل على الحق والباطل، فلما كان كذلك كثر بينهم المراء والجدال والمحاكة والمماحكة، وانتشر بينهم القيل والقال، وولدوا أنواعًا من الكلام، تولد عنها تلك الأقوال التي تخالف الشرع الصحيح والعقل الصريح مما يضيق عنه المجال. وهذا كله بسبب توليدهم لتلك العبارات.

وأخبر أنه سيأتي مزيد لذلك عند قوله: (فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ...).

قال الشارح:

وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَشْرَحَهَا سَالِكًا طَرِيقَ السَّلَفِ فِي عِبَارَاتِهِمْ، وَأَنْسُجَ عَلَى مِنْوَالِهِمْ، مُتَطَفِّلا عَلَيْهِمْ، لَعَلِّي أَنْ أُنْظَمَ فِي سِلْكِهِمْ، وَأُدْخَلَ فِي عِدَادِهِمْ، وَأُحْشَرَ فِي زُمْرَتِهِمْ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩].

وَلَمَّا رَأَيْتُ النُّفُوسَ مَائِلَةً إِلَى الاخْتِصَارِ، آثَرْتُهُ عَلَى التَّطْوِيلِ وَالإِسْهَابِ، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

---

قال الشيخ:

أخبر ـ رحمه الله ـ بأنه سوف يشرحها، وأنه سلك في شرحه طريقة السلف في عباراتهم. وذلك لأنه تتلمذ على ابن كثير ـ رحمه الله ـ وتأثر به، وابن كثير تتلمذ على ابن تيمية وتأثر به فيما يتعلق بعلم العقيدة، ولما كان كذلك اقتنى كثيرًا من كتب ابن تيمية ومن كتب ابن القيم، وتأثر بها وصار ينقل منها، وإن كان لا يُصرح بأن هذا من كلام فلان أو فلان إلا عند الحاجة. ولعله رأى أن كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم منبوذ عند أهل زمانه، أو عند أهل مذهبه من الحنفية الذين هم من المتكلمة، فلأجل ذلك لم يُصرح بالنقل عنهم من كتبهم.

سلك ـ رحمه الله ـ طريقة السلف بعباراتهم، يُكثر من الآثار التي تدل على

إثباتهم للصفات رحمهم الله، ونسج على منوالهم، وسار على مسيرهم، متطفلًا عليهم، يعني: أنه عد نفسه كأنه طفيلي عليهم، راجيًا أن ينظمه الله تعالى في سلكهم، أي: معهم، وأن يدخله في عداد السلف الصالح، وأن يحشره في زمرتهم، أي: إذا حُشروا زمرًا، وأن يجعله الله تعالى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩].

النبيون: الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم بإنزال الوحي عليهم.

الصديقون: هم الذين صدقوهم وبالغوا في تصديقهم.

الشهداء: الذين استشهدوا في سبيل الله، أو الذين شهدوا بالحق وهم يعلمون.

الصالحون: الذين أصلحهم الله تعالى، وأصلح أعمالهم وأقوالهم.

﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، أي: ما أحسن رفقتهم، ويُرجى أن يكون هذا الشارح - إن شاء الله - من جملتهم.

أخبر بأنه رأى النفوس مائلة إلى الاختصار، فآثره على التطويل والإسهاب، ولو أراد لتوسع توسعًا زائدًا بذكر الأدلة، وبذكر المحاجة وبيان ما تدل عليه، ولكن كلامه فيه شفاء وفيه الكفاية، فإنه شرحها شرحًا واضحًا ظاهرًا، ليس فيه أية خفاء، واقتصر على النقل عن السلف رحمهم الله، وترك النقل عن أهل الكلام، واعتمد على الله تعالى، وآثر الاختصار على الإسهاب وعلى الإطالة، وأخبر بأنه يعتمد على الله.

يقول: (وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)، راجيًا من الله تعالى توفيقه لكل ما هو صواب، متوكلًا عليه، ومنيبًا إليه، ومتضرعًا إليه، ومخبرًا بأنه حسبه ونعم الوكيل، والحسب: هو الكافي، والوكيل: هو الذي يوكل على كل شيء. والله سبحانه وتعالى حسب عباده المؤمنين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٤]، أي: وحسب أتباعك من المؤمنين الله سبحانه وتعالى أن يكفيكم جميع أموركم.

(وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) هذه الجملة ذكرها الله تعالى عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣]، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السَّلام حين أُلقي في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْكَافِي ذُو الْعِزِّ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِلْطَافِ

فهو سبحانه حسب من توكل عليه.

فالشارح ـ رحمه الله ـ يُرجىٰ أن يكون موفقًا حيث طلب من الله تعالى التوفيق، واعتمد عليه ورجا ذلك، واختصر هذا الشرح ولو شاء لأطال،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وبحث فيه عما هو الحق، وتقيد فيه بطريقة السلف، ونقل فيه النقول الصحيحة عن سلف الأمة في إثبات الصفات كلها، فيما يتعلق بصفة الاستواء وصفة العلو، وأن الله تعالى فوق كل شيء، وكذلك في الصفات الفعلية، صفات القدرة والإرادة والعلم والرحمة وما أشبهها.

وفقه ربه لذلك فكان بذلك من الموفقين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالمِينَ.

قَالَ العَلامَةُ حُجَّةُ الإِسْلامِ أَبُو جَعْفَرٍ الوَرَّاقُ الطَّحَاوِيُّ بِمِصْرَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

هَذَا ذِكْرُ بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، عَلى مَذْهَبِ فُقَهَاءِ المِلَّةِ: أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ بْنِ ثَابِتٍ الكُوفِيِّ، وَأَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الأَنْصَارِيِّ، وَأَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ ـ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ـ وَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَيَدِينُونَ بِهِ رَبَّ العَالمِينَ.

---

قال الشيخ:

إنَّ هذه العقيدة على مذهب أهل السُّنَّة والأئمَّة كلِّهم، ولكنَّ الطَّحاوي ذكر أنَّها على مذهب أبي حنيفة وصاحبَيْه، وذلك لأنَّه كتبها لتلاميذه المختصِّين، الذين في قلوبهم وَقْعٌ وَقَدْرٌ لهؤلاء الأئمَّة الثلاثة، الذين هم أبوحنيفة وصاحِباه؛ لأنَّ صاحبيه ـ محمد بن الحسن وأبا يوسف ـ هما اللذان دَوَّنا مذهبه، وكتبا المسائل التي سُئِلَ عنها ونشراها؛ فلأجل ذلك أصبحا مختصَّين به.

فيقول: إنَّ هذه العقيدة فيها معتقد هؤلاء الثَّلاثة. ولا ينافي أنَّ فيها معتقد الأئمَّة الآخرين؛ كالشَّافعيّ ومالك، وأحمد، وكذلك بقيَّة الأئمَّة؛ لأنَّ العقيدة كما ذكرنا سالمة من الخلافات، إلَّا خلاف المبتدعة، والمبتدعة لا يُعتدُّ بخلافهم.

قَالَ الْإِمَامُ الطَّحَاوِيُّ ـ رحمه الله ـ:

نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ ـ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ ـ: أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ.

---

قال الشارح:

اعْلَمْ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩]، وَقَالَ هُودٌ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٦٥]، وَقَالَ صَالِحٌ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف:٧٣]، وَقَالَ شُعَيْبٌ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف:٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

وَقَالَ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»[1]. وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا النَّظَرُ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ، وَلَا الشَّكُّ، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبَابِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٢).

الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ.

---

**قال الشيخ:**

هذا الكلام يدلُّ على أهميَّة التَّوحيد، والتَّوحيد الذي ذكره الشارح هو توحيد العبادة؛ فإنَّه الذي دعت إليه الرُّسل، واتَّفقت عليه دعوتُهم، فيقول: إنَّ التَّوحيد هو أوَّل ما يكلَّفُ به العباد، وهو الذي يُسأل عنه في الحشر يوم المعاد، وهو الذي يُفْتَن فيه في القبور ويُسأل عنه المقبور، وهو أوَّل دعوة الرُّسل، وهو الذي اتَّفقت عليه الرِّسالات.

نأخذ من هذه الأدلَّة أهميته؛ لأنَّ الشَّيء الذي اتَّفقت عليه دعوة الرُّسل يدلُّ على أهميَّته، وشيءٌ بدأ به كلُّ رسولٍ دعوتَه يدلُّ على أهميَّته.

دعوة الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم بدأت بنوعٍ من أنواع التَّوحيد، وهو توحيد العبادة؛ كما في هذه الآيات؛ فإنَّ كلَّ نبيٍّ كان يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٥٩]، وهذا توحيد العبادة.

وجَمَعَهم تعالى في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، هذا توحيد العبادة، يعني: نُوحي إلى كلِّ رسولٍ، فنقول له: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، يعني: افعل ذلك وأمر أُمَّتك به، وادْعُهم إليه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، هذا هو توحيد العبادة.

ويقول تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[الزخرف:٤٥]، الجواب: لو سأل؛ لقيل: ما جعل اللهُ من إله غيره، وما أذِنَ لرسولٍ أن يدعُوَ إلى عبادة إلهٍ مع الله.

ثم يقول: إنَّ أوَّل واجبٍ على العباد والمخلوقات أن يأتوا بالشَّهادتين، ولهذا مكث الرَّسول ﷺ بمكَّةَ عشرَ سنين، لا يدعو إلَّا إلى الشَّهادتين، يدعو إلى تحقيق لا إله إلَّا الله، وإلى تصديقه بأنَّه رسولٌ من الله، عشرَ سنين لا يدعو إلَّا إلى توحيد العبادة، أليس ذلك دليل أهميَّته؟! ما فُرضت عليه العبادات إذ ذاك؛ لأنَّها متفرِّعةٌ عن أصلٍ وهو التَّوحيد؛ فالعبادات كلُّها ما تُقْبَلُ إلَّا بهذا الأصل، لو أتعب المشركون أنفسهم، فصلَّوا وتصدَّقوا وحجُّوا وأنفقوا وجاهدوا وقرؤوا القرآن، دون أن يوحِّدوا الله، ويذروا ما يدعون من دونه؛ ما قُبلت منهم عباداتهم ولم تنفعهم؛ لأنَّهم فقدوا شرطَها.

أمَّا المتكلِّمون، الذين نهى علماؤنا عن الخوض في كلامهم من المعتزلة ونحوهم، فيقولون: إنَّ أوَّل واجبٍ النَّظر، وبعضهم يقول: أوَّل واجبٍ قصد النَّظر، وبعضهم يقول: أوَّل واجبٍ الشَّكُّ، وهذه أقوالٌ باطلةٌ.

صحيحٌ أنَّ الله تعالى أمرنا بالنَّظر لأجل الاعتبار، بل قد أمر الذين كَّذبوا بالنَّظر والاعتبار في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ [ق: ٦]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾

[الغاشية: ١٧، ١٨]، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ﴾[محمد: ١٠]؛ إلَّا أنَّ النَّظر هنا يُدعى إليه لأجل الاقتناع، يعني: يُقال لكَ: إذا دعوتَ مسلمًا فادعه إلى الشَّهادتين، فإذا توقَّف فادعه إلى النَّظر، قل له: انظر إلى هذه المخلوقات، انظر إلى هذه الأفلاك الثَّابتة، وهذه الأفلاك الزَّائلة، وهذه المخلوقات المُنبثَّة؛ هل خُلِقَتْ عبثًا؟! انظر إلى نفسك وتقلُّبِ أحوالِكَ؛ هل خُلِقْتَ من غير خالقٍ؟! فإذا نظر وتفكَّر، فإنَّه عند ذلك يعتبر ويرجع إلى ما تدعوه إليه، فالنَّظر والقصد إلى النَّظر وسيلةٌ ودلالةٌ وحجةٌ على المعاند، لا بمعنى أنَّ أوَّل واجبٍ النَّظر، بل يُدعى مَن شكَّ وتوقَّف إلى أن ينظر حتَّى يستيقن.

وأمَّا قولهم: إنَّ أوَّل واجبٍ الشَّكُّ؛ أي: إنَّ أوَّل ما يجب على الإنسان عندما يعقل أن يشكَّ، ثم بعد ذلك يسأل في إزالة ذلك الشَّكِّ!! فهذا قولٌ باطلٌ، بل الواجب أوَّلًا ـ أي: أوَّل كلِّ شيءٍ ـ أن يأتي بالشَّهادتين، ثم بعد ذلك يعمل بمقتضاهما، والأعمال متفرِّعةٌ عن الشهادتين.

قال الشارح:

بَلْ أَئِمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ الشَّهَادَتَانِ، وَمُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ الْبُلُوغِ لَمْ يُؤْمَرْ بِتَجْدِيدِ ذَلِكَ عَقِيبَ بُلُوغِهِ، بَلْ يُؤْمَرُ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ أَوْ مَيَّزَ عِنْدَ مَنْ يَرَى ذَلِكَ، وَلَمْ يُوجِبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى وَلِيِّهِ أَنْ يُخَاطِبَهُ حِينَئِذٍ بِتَجْدِيدِ الشَّهَادَتَيْنِ، وَإِنْ كَانَ الْإِقْرَارُ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَاجِبًا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَوُجُوبُهُ يَسْبِقُ وُجُوبَ الصَّلَاةِ، لَكِنْ هُوَ أَدَّى هَذَا الْوَاجِبَ قَبْلَ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

معنى هذا الكلام: أن الأطفال عندما ينشؤون بين آبائهم يلقِّنهم الأبُ معالمَ التَّوحيد من وقت تمييزه، فيلقِّنه معرفة ربِّه، ومعرفة نبيِّه، واستحقاقَ الله العبادةَ، ووجوب العبادة عليه، فينشأ على الإسلام وعلى قول لا إله إلَّا الله، ويسمع ذلك من أبويه وهو صغيرٌ لم تجب عليه الأحكام بعدُ، فإذا بلغ استمرَّ في العمل، ولا يحتاج عند البلوغ أن تقول له: انطق بالشَّهادتين الآن! أصبحت مكلَّفًا، بل يكفي نطقه فيما سبق؛ في تشهُّده، في صلاته، في إجابته للمؤذِّن ... وما أشبه ذلك، فلا حاجة بعد ذلك عند البلوغ إلى تلقينه، ولا إلى تجديد إسلامه، بل هو مسلمٌ بين أبوين مسلمين، منذ عقِلَ وهو يُلقَّن ويُؤلَّف.

ولو أنَّه بلغ بعدما صلَّى، لم يُؤمر بإعادة الصَّلاة، خلافًا لبعض العلماء الذين يقولون: لو صلَّى الظُّهر قبل أن يبلغ ثمَّ بلغ بعدها باحتلامٍ أو نحوه، نأمره بإعادة الظُّهر؛ لأنَّه صلاَّها قبل أن يبلغ، وهي في حقِّه غير واجبةٍ، فبعدما بلغ تصير

واجبةً عليه. والصَّحيح أنَّه لا يؤمر؛ لأنَّ الله ما أمر بالصَّلاة مرَّتين، فإذا أدَّاها ـ ولو قبل البلوغ ـ كانت مجزئةً.

فكما لا يُؤمر بإعادة الصَّلاة بعد البلوغ لو كان الوقت باقيًا، فكذلك لا يُؤمر بعد البلوغ بتجديد الشَّهادتين، بل يكفيه أنَّه على الفطرة، وأنَّه تلقَّن ذلك وتعلَّمه وفهمه.

قال الشارح:

وَهُنَا مَسَائِلُ تَكَلَّمَ فِيهَا الْفُقَهَاءُ؛ كَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِالشَّهَادَتَيْنِ، أَوْ أَتَى بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا: هَلْ يَصِيرُ مُسْلِمًا أَمْ لَا؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَصِيرُ مُسْلِمًا بِكُلِّ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ.

فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ مَا يُدْخِلُ فِي الْإِسْلَامِ، وَآخِرُ مَا يُخْرَجُ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]. فَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ وَآخِرُ وَاجِبٍ.

فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ، أَعْنِي: تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ.

---

قال الشيخ:

هذه مسألةٌ فرضها أيضًا ليس بصحيحٍ، وهو قولهم: إنَّه قد يوجد من ينشأ ولم يتكلَّم بالشَّهادتين من أوَّل أمره إلى أن يبلغ، فهل تصلح عبادته؟

نقول: هذا محالٌ، وذلك لأنَّ النُّطق بالشَّهادتين قد يكون شرطًا في صحَّة العبادة؛ كما في التَّشهُّد، فالصَّلاة مثلًا لا بدَّ من التَّشهُّد في آخرها، يقول: أشهد ألَّا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، ثم يأتي بالصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣) بنحوه، والطبراني في الكبير (٢٢١)، والحاكم (١/ ٣٥) من حديث معاذ ﷺ. وله شاهد عند مسلم (٢٦) من حديث عُثْمَانَ بن عفان ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ».

يُسَلِّم، ولا تصحُّ صلاته إلَّا بهذا التَّشهُّد، فهو ركن من أركانها. فكيف يُتصوَّر أن إنسانًا يُولد بين أبوين مسلمين، ويبلغ، وهو ما تكلَّم بكلمة (لا إله إلَّا الله محمدٌ رسول الله)؟ هذا فرضٌ غير واقعٍ، وذلك لأنَّ المسلم يسمع كلمة لا إله إلَّا الله مرارًا وتكرارًا؛ في الأذان، وفي الخطب، وفي التَّشهُّد، وفي القرآن ... وقد ذُكرت الشَّهادة في القرآن في عِدَّة مواضعٍ؛ كقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران: ١٨]، فلابدَّ أنَّ الصَّبيَّ يقرأ من القرآن أو يسمع من يقرؤه، فينطق به، فيكون بذلك مسلمًا قد أتى بالشَّهادتين.

والتَّوحيد الذي عرفنا أهميَّته هو توحيد العبادة، وهو أوَّل ما يُدخل به الإسلام، وأوَّل ما يُدعى إليه الكافر، وأوَّل ما ينطق به إذا أسلم، فيقال له: قل: أشهد ألَّا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله؛ وذلك لقوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**»[1]، فإذا أسلم كافرٌ فإنَّه يُلَقَّنُ الشَّهادتين، ويُبيَّنُ له معناهما، ويُؤمر بالعمل بمقتضاهما، فهذا أوَّل ما يُدْخِل العبدَ في الإسلام، وهو نطقه بالشَّهادتين واعتقاده بمدلولهما.

وتوحيد العبادة أيضًا هو آخر ما يخرج به العبد من هذه الدُّنيا، فالإنسان مأمور أن يختم حياته بـ (لا إله إلَّا الله)؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**»[2]، يعني: خُتم له بالتَّوحيد أو بما يدلُّ على هذا المعنى، وختم

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٢).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

له بخاتمةٍ حسنةٍ، ولهذا قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم[١]، وغيره[٢]: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ»، يعني: ليكن آخر ما ينطقون به كلمة (لا إله إلَّا الله)؛ حتَّى يُختَم لهم بما ابتدؤوا به؛ يُختَمَ لهم بعقيدةٍ سليمةٍ، وهي اعتقاده أنَّ الله هو الإله الحقُّ، وأنَّ إلهيَّة ما سواهُ باطلةٌ، فبذلك يكونُ أوَّلُ الأمر وآخرُه هو هذا التَّوحيد، الذي هو توحيد العبادة.

(١) برقم (٩١٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، (٩١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٧)، والترمذي (٩٧٦)، والنسائي (١٨٢٦)، وابن ماجه (١٤٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الشارح:

فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: الْكَلَامُ فِي الصِّفَاتِ.

وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَبَيَانُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

وَالثَّالِثُ: تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ اسْتِحْقَاقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَإِنَّ نُفَاةَ الصِّفَاتِ أَدْخَلُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ، كَالْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَمَنْ وَافَقَهُ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ يَسْتَلْزِمُ تَعَدُّدَ الْوَاجِبِ! وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ، فَإِنَّ إِثْبَاتَ ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ لَا يُتَصَوَّرُ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ، وَإِنَّمَا الذِّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ الْمُحَالَ وَيَتَخَيَّلُهُ، وَهَذَا غَايَةُ التَّعْطِيلِ.

---

قال الشيخ:

نعرف ـ بل يعرف حتَّى أطفال المسلمين والحمد لله ـ أنَّ أقسام التَّوحيد ثلاثة: توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات.

ويجب أن يُلقَّن الطِّفل هذه الألوان، وأن يُعرَّف مدلولَها.

والمتقدِّمون من صدر هذه الأمَّة أكثروا من التَّأليف في توحيد الأسماء والصِّفات، بل غالب كتبهم التي ألَّفوها في العقيدة تدور حول الأسماء والصِّفات، حتَّى ولو سمَّوْها كتاب التَّوحيد ـ كابن خزيمة وغيره ـ فإنَّ الخلاف

في الأسماء والصِّفات مشتهرٌ في القرون الأولى، فقد أظهر الخلاف فيها ابتداءً الجهم بن صفوان في أوَّل القرن الثَّاني، ثمَّ تبعه أتباعٌ له سمَّاهم السَّلف بالجهميَّة، وسُمُّوا أيضًا بالمعتزلة، وكثروا وانتشروا وتمكَّنوا، وكان من عقيدتهم إنكار الصِّفات.

وإنَّما أنكر الجهم وأتباعه صفات الله عزَّ وجل؛ لأنَّهم إنَّما تَخيَّلُوا فاعتمدوا على الفكر والخيال والعقول، فأدلَّتهم في نفي الصِّفات أدلَّةٌ تخمينيَّةٌ عقليَّةٌ؛ ولهذا يقول كثيرٌ منهم: إنَّ هذا الباب لا يكشفه إلاَّ الخيال، وإنَّهم يعجزون عن التعبير.

والحاصل: أنَّ عقيدتهم هي نفي الصِّفات، يعني: أنهم نفوا عن الله تعالى صفاته كلها، ومنهم من أثبت سبع صفاتٍ كالأشعريَّة، ومنهم من نفى حتَّى أسماء الله مع الصِّفات.

والعلَّة التي نفوا لأجلها هذه الصِّفات ـ ما ذكره الشَّارح رحمه الله ـ هي قولهم: إنَّ إثبات الصِّفات يستلزم تعدُّد الواجب، فهم يقولون: إنَّ الواجب الله وحده، أي: الله تعالى هو واجب الوجود. وهذه لفظةٌ من ألفاظ المتكلِّمين: واجب الوجود، وممكن الوجود، وهي من جملة ما تكلَّموا به وتوسَّعوا فيه.

وأخصُّ أوصاف الله عند المعتزلة (القِدَم): إنَّه هو القديم، فيقولون: إذا أثبتنا أنَّ الله قديمٌ، وأثبتنا أنَّ سمع الله قديمٌ، وقدرة الله قديمةٌ، وعلمه قديمٌ، وكلامه قديمٌ، ما صار القديم واحدًا، بل صار عددًا، فلا جَرَمَ أنَّنا نمحو الصِّفات ونجعل القدم لذات الله وحده.

فنفوا الصِّفات، وأثبتوا الذَّات، وأثبتوا القِدَم للذَّات.

كيف يُرَدُّ عليهم؟

مر بنا كلام الشَّارح، حيث قال: إنَّ إثبات ذاتٍ مجرَّدةٍ عن الصِّفات لا يمكن في الوجود - ولو هَضَمَ العقل إثبات ذلك - فإنَّ العقل قد يهضم المُحَال، فهذا من المحال، يعني: مستحيلٌ أن تُوجد ذاتٌ مجرَّدةٌ عن صفاتٍ ومتَّصفةٌ بالقِدَم، فكما أنَّكم يا معتزلة ويا مبتدعة تُثبتون أنَّ الله تعالى له ذاتٌ، فلا بدَّ أن تثبتوا له الصِّفات، فإنَّ الصِّفات من جملة الذَّات، والوحدانيَّة لا تنافيها، فالله تعالى واحدٌ بصفاتِهِ، فذاته وصفاته شيءٌ واحدٌ، ولا يلزم لإثبات الصِّفات تعدُّدٌ.

هذا الردِّ عليهم باختصارٍ.

قال الشارح:

وَهَذَا الْقَوْلُ قَدْ أَفْضَى بِقَوْمٍ إِلَى الْقَوْلِ بِالْحُلُولِ أو الِاتِّحَادِ، وَهُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُفْرِ النَّصَارَى، فَإِنَّ النَّصَارَى خَصُّوهُ بِالْمَسِيحِ، وَهَؤُلَاءِ عَمُّوا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ.

---

قال الشيخ:

هذا الكلام مما تقشعرُّ منه الجلود، وهذه التشريعات تخص مذهب أهل الوحدة وهم طائفةٌ يُقال لهم: أهل وحدة الوجود، أو يسمّون: أهل الحلول، وأهل الاتِّحاد، وهم الذين يقولون: إنَّ ذات المخلوق حالَّةٌ بذات الخالق، وإنَّه لا فرق عندهم بين خالقٍ ومخلوقٍ، بل الأمر شيءٍ واحدٍ، لا فرق بين الخالق والمخلوق، تعالى الله عن قولهم.

وهذه الطَّائفة كانت منتشرةً في القرون الوسطى، وأشهر من أشاع هذا القول في القرن الثالث: رجلٌ يُقال له الحسين الحلَّاج[1]، أظهر التصوُّف، وأبطن هذا القول ثم أظهره، وحُفِظَتْ عنه كلماتٌ شنيعةٌ تدلُّ على هذه المعتقدات،

---

(١) قال ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (١٢/ ٢٩٨): «حدثت بدعة الإرجاء بعد انقراض عصر الصحابة ... ثم حدثت بدعة التجهم بعد انقراض عصر التابعين، واستفحل أمرها واستطار شررها في زمن الأئمة كالإمام أحمد وذويه، ثم حدثت بعد ذلك بدعة الحلول وظهر أمرها في زمن الحسين الحلاج، وكلما أظهر الشيطانُ بدعة من هذه البدع وغيرها، أقام الله لها من حزبه وجنده من يردها ويحذر المسلمين منها».

وحُفِظَتْ ـ أيضًا ـ عن بعض أهل زمانِهِ.

فنقول: إنَّ هذا القول ـ مع شناعته ـ يؤدِّي إلى هذه الأقوال الشَّنيعة، ونبيِّن ذلك على وجه الاختصار، يعني: من فروع قولهم إن فرعون صادقٌ لَـمَّا قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]؛ لأنَّه من جملة الرَّبِّ، أخطأ فرعونُ حيث خصَّ نفسَهُ، ولو قال: أنا وأنت وهذا وهذا كلُّنا الربُّ؛ لكان مصيبًا، فهو صادقٌ؛ لأنَّه من جملة الرَّبِّ. كذلك المشركون لما عَبَدوا هذا الصَّنم وهذا الوثن وهذا القبر وهذا وهذا، هم على صوابٍ؛ لأنَّهم ما عبدوا إلاَّ الله، ولكنَّهم أخطؤوا لَـمَّا خصَّصوا، لو قالوا: إنَّ الله هو كلِّ شيءٍ، وإنَّ كلَّ شيءٍ من جملة الله؛ لكانوا مصيبين، ولكنَّهم لما خصَّصوا أخطؤوا.

وكذا قولهم: ما يكون هناك حلالٌ وحرامٌ. يعني: الجميع شيءٌ واحدٌ، لا فرق عندهم بين نكاح الأمِّ والأخت والأجنبيَّة؛ كلُّ ذلك من عينٍ واحدةٍ، بل هو العين الواحدة، تعالى الله عن قولهم.

قد صَدَرَتْ من أكابرهم كلماتٌ شنيعةٌ من مثل هذا، يقشعرُّ الجلدُ منها؛ حيث حُفِظَ عن الحسين الحلاَّج هذا: قوله: ما في الجُبَّةِ إلَّا الله! يعني: نفسه، وعن بعضهم أنَّه قال: سبحاني! سبحاني! ما أعظم شاني! وعنه أنَّه مرَّة كانوا يمشون خلفَهُ، فالتفت، فلـمَّا رآهم يمشون خلفه؛ قال لهم: إنَّني أنا الله، لا إله إلَّا أنا فاعبدونِ! تعالى الله عن قوله. هذا بعض من أقوالهم.

وكان بعض العلماء المتأخِّرين يَذُبُّ عن الحلاَّج، ويدَّعي أنَّه من أهل

العقيدة، وأنَّه مُوَحِّدٌ، ولما نُقِلَ له قولُهُ في أبياتٍ:

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرَّ سَنَا لَاهُوتِهِ الثَّاقِبِ
حَتَّىٰ بَدَا مُسْتَتِرًا ظَاهِرًا فِي صُورَةِ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ

قال: لُعِنَ من قال هذا[1]. فقيل: إنَّه الحلاَّج. فظهر بذلك كفرُهُ.

هذان البيتان فيهما الكفر الصَّريح؛ فإنَّ (النَّاسوت): هو النَّاس، و(اللاَّهوت): هو الإله؛ أي: أظهر ناسوته؛ يعني: أظهر النَّاس في صورة نفسه، (سرِّ سنا لاهوته الثَّاقب): حتَّى بدا في خلقه ظاهرًا في صورة ثاقب، تعالى الله عن قولهم.

ويقول بعضهم أيضًا[2]:

الربُّ عبدٌ والعبدُ ربٌّ يا ليت شعري من المكلَّفْ
إن قلتَ عبدٌ فذاك ربٌّ أو قلتَ ربٌّ أنَّى يُكلَّفْ

تعالى الله عن قولهم.

والذي أدَّى بهم إلى هذه الأقوال الشَّنيعة: أنَّهم لَمَّا نفوا الصِّفات، وجعلوا

---

(١) قال ابن خفيف ـ رحمه الله ـ: على قائل هذا لعنة الله، فلما قيل له: هذا شعر الحسين الحلاج، قال: إن كان هذا اعتقاده فهو كافر. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٢٦).

(٢) هو ابن عربي صاحب كتاب «فصوص الحكم». انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٢٤٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وهذا مبني على أصله، فإن عنده ما ثم عبد ولا وجود إلا وجود الرب، فمن المُكَلَّف؟! وعلى أصله هو المُكَلَّفْ وَالمُكَلِّفْ، كما يقولون: أرسل من نفسه إلى نفسه رسولًا!».

وجود الله وجودًا مطلقًا؛ أدَّى بهم إلى أنْ يقولوا: إنَّ ذات المخلوق حالَّة في ذات الخالق، وإنَّه عين وجود المخلوقات . تعالى الله عن ذلك.

والمسلم عليه أن يعرف نفسه، وأن يعرف أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ خالقه مباينٌ للخلق، وأنَّ الرَّبَّ ـ سبحانه وتعالى ـ فوق عرشه بائنٌ من خلقه، ليس في ذاته شيءٌ من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، ويَستحضرُ أنَّه ـ سبحانَهُ ـ هو العليم بكلِّ شيءٍ، الذي لا تخفى عليه من عباده خافيةٌ، وإذا استحضر عظمته، وجلاله، وكبرياءه، وقُربَه، وابتعاده، وأنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنَّه لِما توسوس به النُّفوس وما يحيك في الصُّدور عليمٌ؛ ألزمه ذلك أن يعظِّمه حقَّ التَّعظيمِ، وأن يخافَهُ حقَّ الخوف.

إننا إذا بحثنا في مسألة الصِّفات وعَلِمنا صفات الله تعالى؛ أُوجِبَ للعالِمِ بها أنْ يخافه حقَّ الخوف، وأنْ يعبده حقَّ العبادة.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا التَّوْحِيدِ: أَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ كَامِلُو الإِيمَانِ، عَارِفُونَ بِاللَّهِ عَلَى الحَقِيقَةِ!

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّ عُبَّادَ الأَصْنَامِ عَلَى الحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا عَبَدُوا اللَّهَ لا غَيْرَهُ!

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّهُ لا فَرْقَ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ بَيْنَ الأُمِّ وَالأُخْتِ وَالأَجْنَبِيَّةِ، وَلا فَرْقَ بَيْنَ المَاءِ وَالخَمْرِ وَالزِّنَى وَالنِّكَاحِ، الْكُلُّ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ، لا بَلْ هُوَ الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ.

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّ الأَنْبِيَاءَ ضَيَّقُوا عَلَى النَّاسِ. تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

---

قال الشيخ:

يريد بالتوحيد: ما سلكه أهل الحلول والاتحاد، الذين يقولون: إن الله تعالى بذاته حال في جميع المخلوقات، وأن كل المخلوقات عين الذات الربانية. هكذا يعتقدون، ومن أشهرهم ابن عربي الاتحادي، الذي يقول فيه بعض المتأخرين:

مَعْبُودُهُ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ بَدَا ... الْكَلْبُ وَالْقِرْدُ وَالْخِنْزِيرُ وَالْأَسَدُ

يعني: أنه يدَّعي أن الذات الربانية حالة في جميع المخلوقات، ومن ذلك الكلاب والخنازير والقردة وما أشبهها.

فهكذا يجعلون كل شيء من المخلوقات والموجودات هو عين ذات الرب، فعلى قولهم يكون فرعون على صواب؛ لأن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، يعني: أنا جزء من الرب، فيكون كامل الإيمان هو وقومه، فيكونون العارفين بالله على الحقيقة، إلَّا أنهم أخطؤوا حيث خصصوا، ولو عمموا وقالوا: فرعون وموسى وجميع الخلق كلهم من الله، فعلى هذا القول الاتحادي يكونون كمل إيمانهم.

وكذلك أيضًا عباد الأصنام الذين يعبدون الأشجار والأحجار والأموات ونحوهم، على قول هؤلاء الحلولية أنهم مصيبون وأنهم عبدوا الله؛ لأن تلك الأصنام من ذات الله تعالى ـ تعالى الله عن قولهم ـ إنما أخطؤوا حيث خصصوا، ولو قالوا: إن الأصنام وجميع الموجودات كلها معبودة، وكلها من الذات الربانية لأصابوا، ومع ذلك فإنهم على قول أهل الاتحاد إنما عبدوا الله.

ومن فروع هذا المذهب أنه لا فرق في التحريم والتحليل، بين الأم والأخت والأجنبية، وذلك لأن الجميع من ذات الرب تعالى، وعلى قولهم يجوز أن ينكح الرجل أمه وأخته، كما ينكح المرأة الأجنبية؛ لأن الكل واحد.

وعلى قولهم: لا فرق بين الماء والخمر، والشرع أخطأ حيث حرم الخمر دون الماء، وأخطأ حيث حرم الزنى دون النكاح، مع أن الكل من عين واحدة، بل هو العين الواحدة، الزنى نفس النكاح، والخمر نفس الماء، والأم كالأجنبية، كلهم جزء من الذات الربانية تعالى الله عن قولهم.

ويدّعون أن الأنبياء ضيقوا على الناس حيث خصصوا العبادة بالله تعالى، ولم يعمموا، ولو قالوا لهم: اعبدوا كل شيء في الوجود. لكانوا صادقين، هكذا على قولهم هذا الباطل.

وقد اشتهرت مقالاتهم هذه، وناقشها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتوجد له رسائل في المجلد الثاني من مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، في مناقشة هؤلاء الذين هم الاتحادية، ولهم رؤوس مشهورون: كابن سبعين، والحلاج، وابن الفارض، ونحوهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا الثَّانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، كَالْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَهُوَ الْغَايَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ.

وَهَذَا التَّوْحِيدُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى نَقِيضِهِ طَائِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، بَلِ الْقُلُوبُ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ كَوْنِهَا مَفْطُورَةً عَلَى الْإِقْرَارِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، كَمَا قَالَتِ الرُّسُلُ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

---

قال الشيخ:

هذه الرُّبوبيَّة يقرؤها الأطفال في المدارس، يعرفون أنَّها معرفة الله تعالى بآياته، التي هي مخلوقاته.

إذا قيل لك: بمَ عرفت ربَّك؟

فَقُلْ: بآياته ومخلوقاته؛ فهذا هو توحيد الرُّبوبيَّة، يعرف بالنَّظر في هذه المخلوقات، وهي أفعال الله تعالى.

ذكروا أنَّه لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، قال كفار قريش بمكة: كيف يسعُ الناسَ إلهٌ واحد؟ فنزلت الآية بعدها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤][1]، يعني: تذكَّروا مثل هذه الأشياء التي تدلكم على أنَّ الربَّ هو الإله الواحد.

وكم في القرآن من الآيات في مثل هذا؛ كقوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ [يس: ٣٣]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس:٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم: ٢٠]، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم:٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]... إلى غير ذلك من الآيات.

وفي السُّور المكيَّة الكثير من هذه الأدلة، حتَّى إن بعض السُّور تتوالى فيها الأدلة وتتكرر؛ كقوله ـ جل وعلا ـ في سورة المرسلات: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥] ... إلى آخرها. ثمَّ في السُّورة التَّي تليها: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ [النبأ:٦] ... إلى آخرها. ثمَّ في السُّورة التي تليها: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٦١) عن عطاء رحمه الله.

[النازعات:٢٧] ... إلى آخرها. ثمَّ في السُّورة التي تليها: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ [عبس:٢٤، ٢٥] إلى آخرها. فإنَّ هذه آياتٌ على توحيد الرُّبوبيَّة الذي يُقصد منه تثبيت توحيد الإلهيَّة.

فتوحيد الربوبية معترَفٌ به، ولكن لا يكفي، بل لابدَّ معه من ثمرته، وهذا التَّوحيد أصبح حجةً عليهم في التَّوحيد الذي هو حقُّ الله، يُقال لهم: اعملوا ما دمتم أقررتم به، يقول تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[المؤمنون:٨٤، ٨٥]، يعني: أفلا تعبدونه، ويقول ـ جل شأنه ـ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٦، ٨٧]، يعني: تتَّقون الشِّرك وتعبدون الله وحده، ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٨، ٨٩]، أي: كيف تُصرفون عن عبادته؟

فأصبح توحيد الرُّبوبيَّة حجَّةً عليهم.

قال الشارح:

وَأَشْهَرُ مَنْ عُرِفَ تَجَاهُلُهُ وَتَظَاهُرُهُ بِإِنْكَارِ الصَّانِعِ: فِرْعَوْنُ، وَقَدْ كَانَ مُسْتَيْقِنًا بِهِ فِي الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ مُوسَى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ قَوْمِهِ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ لَهُ تَجَاهُلَ الْعَارِفِ، قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٤ـ٢٨].

وَقَدْ زَعَمَ طَائِفَةٌ أَنَّ فِرْعَوْنَ سَأَلَ مُوسَى مُسْتَفْهِمًا عَنِ الْمَاهِيَّةِ، وَأَنَّ الْمَسْئُولَ عَنْهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَاهِيَّةٌ، عَجَزَ مُوسَى عَنِ الْجَوَابِ! وَهَذَا غَلَطٌ. وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَجَحْدٍ، كَمَا دَلَّ سَائِرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ جَاحِدًا لِلَّهِ، نَافِيًا لَهُ، لَمْ يَكُنْ مُثْبِتًا لَهُ طَالِبًا لِلْعِلْمِ بِمَاهِيَّتِهِ. فَلِهَذَا بَيَّنَ لَهُمْ مُوسَى أَنَّهُ مَعْرُوفٌ، وَأَنَّ آيَاتِهِ وَدَلَائِلَ رُبُوبِيَّتِهِ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ بِمَا هُوَ؟ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْرَفُ وَأَظْهَرُ وَأَبْيَنُ مِنْ أَنْ يُجْهَلَ، بَلْ مَعْرِفَتُهُ مُسْتَقِرَّةٌ فِي الْفِطَرِ أَعْظَمَ مِنْ مَعْرِفَةِ كُلِّ مَعْرُوفٍ.

قال الشيخ:

نأخذ من هذا الكلام أنَّ جميع الأمم معترفون بتوحيد الرُّبوبيَّة، أي: أنَّ الله هو الخالق، الرَّازق، وهو المدبِّر، وهو الذي أوجد الكائنات، لكن قد اشتهر عن فرعون أنَّه ادَّعى الرُّبوبيَّة؛ حيث قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، والصَّحيح أنَّه كان معترفًا في الباطن بأنَّ المخلوقات لها خالقٌ؛ لأنَّه يعرف أنَّه كان معدومًا فَوُجِدَ، ففرعونُ لم يكن شيئًا مذكورًا ثم خُلق، وقد يقال له: من ربُّهم قبل أن تُوجد؟ أنت وُلدت قريبًا وتموت، من ربُّهم قبل أن تُخْلَقَ أنتَ؟

فلا بدَّ أن فرعون معترفٌ بأنَّ هناك ربًّا خالقًا، والدَّليل على ذلك هذه الآية، وهي قول موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فالله أيَّدَ موسى بتسع آياتٍ، منها: العصا، واليد، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم، وفرق البحر، وتظليل الغمام، وما أشبهها، لمَّا أيَّده بها؛ قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾، يعني: الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فأفاد بأنَّ فرعون عالمٌ بذلك.

وكذلك حكى الله عن آل فرعون اليقين بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]؛ فدلَّ على كونهم مُسْتَيْقِنينَ. وكذلك حكى عن عاد وثمود قوله في قصَّتهم: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، يعني: على

بصيرةٍ ممَّا جاءتهم به الرُّسل، ولكنَّ جَحْدهم كان عِنادًا.

ففرعون أظهر الإنكار، ولكنَّه في الباطن كان على يقينٍ لِمَا يقول موسى، ولكنَّه خاف أن يذهب عنه ملكه؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾[الزخرف: ٥١]، ثمَّ قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، يعني: موسى، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، فهو أراد أن يخدع قومه بما هو فيه، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، وأمَّا قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٢٣]، لَمَّا قال له موسى: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤]، فهذا على وجه العِناد.

وقد ذكر الشارح أنَّ بعض المتكلِّمين يقولون: إنَّ فرعون سأل عن الماهِيَة: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني: من أيِّ شيءٍ ربُّ العالمين وما ماهيته؟ والصَّحيح أنَّ سؤاله إنَّما هو تعنُّتٌ، لا أنَّه يسأل عن الماهِيَة، فموسى ـ عليه السَّلام ـ ذكر له الأدلَّة على إثبات الرَّبِّ وقدرته وسيطرته، والآيات التي تدلُّ عليه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الإسراء:١٠٢]، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء:٢٦]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[الشعراء:٢٨]؛ فاستدلَّ عليه بهذه الأدلَّة الكونيَّة الَّتي لا يجحدها، كما استدلَّ إبراهيم على النَّمرود بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ ثمَّ قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فهذه أدلَّةٌ تدلُّ على أنَّ الربَّ هو الموجِدُ لهذه الكائنات، يعتبر بها أولو البصائر.

وقد ذكر الله عن المشركين أنَّهم يعبدون الله ويعبدون غيره في الرَّخاء، وأمَّا في الشِدَّة فإنَّهم لا يعبدون إلَّا الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٦٧]، فدلَّ على أنَّهم في الرخاء يعبدون الله ويعبدون غيره، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ﴾ [الأنعام:١٣٦]، فدلَّ على أنَّهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، ولكن لَمَّا أشركوا حبطت أعمالهم، فأصبحتْ باطلةً لا يُعْتَبَرُ ما تقربوا به؛ لأن المطلوب منهم أن يكون الدين لله، وألَّا يُصرف منه شيءٌ لغير الله.

قال الشارح:

وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الطَّوَائِفِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَمَاثِلَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ.

فَإِنَّ الثَّنَوِيَّةَ مِنَ الْمَجُوسِ، وَالْمَانَوِيَّةَ - الْقَائِلِينَ بِالْأَصْلَيْنِ: النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَأَنَّ الْعَالَمَ صَدَرَ عَنْهُمَا - مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ النُّورَ خَيْرٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَحْمُودُ، وَأَنَّ الظُّلْمَةَ شِرِّيرَةٌ مَذْمُومَةٌ، وَهُمْ مُتَنَازِعُونَ فِي الظُّلْمَةِ: هَلْ هِيَ قَدِيمَةٌ أَوْ مُحْدَثَةٌ؟ فَلَمْ يُثْبِتُوا رَبَّيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

---

قال الشيخ:

هذا تقريرٌ لتوحيد الرُّبوبيَّة، يعني: أنَّ توحيد الرُّبوبيَّة هو الاعتراف بأنَّ الله ربُّ كلِّ شيءٍ، وهو الذي أقرَّ به المشركون كما ذكر ذلك عنهم. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقال - عز وجل -: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

فإذا كانوا مشركين، ومع ذلك يعترفون بهذا النَّوع - وهو أنَّ الله تعالى هو الذي خلق ورزق، وهو الذي يُدَبِّر الأمر، ويملك السَّمع والأبصار - فإنَّ هذا لم ينفعهم، ولم يدخلهم في الإسلام.

يقول: ما عُرفت أمَّةٌ من الأمم يُشركون في توحيد الرُّبوبيَّة إلَّا المجوس، ومع ذلك فليس شركهم شركًا ظاهرًا، فالمجوس يدَّعون أنَّ العالَم مخلوقٌ من خالِقَيْن، ويقولون: إن النُّور خلق الخير، والظُّلمة خلقتِ الشَّرَّ. فالعالم عندهم صادرٌ عن النُّور والظُّلمة، ولأجل ذلك فهم يعبدون النار، فمعبودهم المقدَّس عندهم هو النار؛ يشعلونها، ويطوفون بها، ويصلُّون أمامها، ويستقبلونها، ولأجل ذلك نُهِيَ المسلمون أنْ يستقبلوا النار؛ حذرًا من التَّشبُّه بالمجوس، ومع ذلك لم يقولوا: إن النُّور والظُّلمة سواءٌ، بل يقولون: إن الخير هو النُّور، وإن الظُّلمة شريرةٌ، ما صدر منها خيرٌ. فهم لا يجعلونهما سواء، ومع ذلك فإنَّهم مختلفون: هل النُّور والظُّلمة كلاهما قديمٌ؟ أو القديم هو النُّور، والظُّلمة حادِثَةٌ؟، وقد ذكر شيخ الإسلام هذا الكلام في «الرِّسالة التَّدمريَّة»[1].

وعلى اعتقاد أنَّهما قديمان، فإنَّهم لا يجعلونهما سواءً، فهذا دليلٌ على أنَّه ليس في الوجود أحدٌ يشرك في توحيد الرُّبوبيَّة شركًا ظاهرًا.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٧٥).

قال الشارح:

وَأَمَّا النَّصَارَى الْقَائِلُونَ بِالتَّثْلِيثِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا لِلْعَالَمِ ثَلَاثَةَ أَرْبَابٍ يَنْفَصِلُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، بَلْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ صَانِعَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، وَيَقُولُونَ: بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

وَقَوْلُهُمْ فِي التَّثْلِيثِ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُمْ فِي الْحُلُولِ أَفْسَدُ مِنْهُ، وَلِهَذَا كَانُوا مُضْطَرِبِينَ فِي فَهْمِهِ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ، لَا يَكَادُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِمَعْنًى مَعْقُولٍ، وَلَا يَكَادُ اثْنَانِ يَتَّفِقَانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ بِالذَّاتِ، ثَلَاثَةٌ بِالْأُقْنُومِ! وَالْأَقَانِيمُ[1] يُفَسِّرُونَهَا تَارَةً بِالْخَوَاصِّ، وَتَارَةً بِالصِّفَاتِ، وَتَارَةً بِالْأَشْخَاصِ. وَقَدْ فَطَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بَعْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ، وَفِي الْجُمْلَةِ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

---

قال الشيخ:

وهذا أيضًا ردٌّ على النَّصارى، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[المائدة: ٧٣]. فهم يجعلون الله ثالثَ ثلاثةٍ، ويجعلون عيسى ابن الله؛ كما حكى الله عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: ١٧] ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى

---

(١) الأقانيم: الأصول، واحدها: أقنوم. انظر: لسان العرب (قنم).

﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، يعني: منهم من يقول: إنَّ الله هو المسيح - تعالى الله عن قولهم - ومنهم من يقول إنَّه ابن الله - وهذا أشهر وأكثر عندهم - ومنهم من يقول: إنَّ الله ثالث ثلاثةٍ، وهو قولهم بالأب والابن وروح القُدُس.

وقد حكى الله أيضًا عنهم في مخاطبته لعيسى - عليه السلام - يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[المائدة:١١٦]، وهذا دليلٌ على أنَّ المُثَلِّثَة يقولون: إنَّ الله إله، والمسيح إلهٌ، وأمُّه إلهٌ. تعالى الله عن قولهم، فأنكر ذلك عيسى - عليه السلام - وقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة: ١١٧].

ومشهورٌ في كتب النَّصارى أنَّهم يقولون بالأقانيم الثَّلاثة، وهم مختلفون في معنى الأقانيم، وكذلك مختلفون: هل هي قديمةٌ كلُّها، أو بعضها حادثٌ؟ لكن منهم من يفسِّرها بالأرواح، ومنهم من يفسِّرها بالآلهة، أو تُفسَّر عندهم بالأشياء القديمة، والحاصل أنَّهم مضطربون فيها.

وقد ردَّ عليهم الأئمة، ومن أراد تفصيل الردِّ عليهم فليقرأ كتاب شيخ الإسلام المشهور: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، وهو مطبوع متداول. وقد ضمَّنه الردَّ عليهم، وفصَّل في أجوبتهم، واستوفى ذلك - رحمه الله - وكذلك غيره من العلماء؛ حيث تتبَّعوا أدلَّتهم، واستوفوا ما يدور حول ذلك من الشُّبه، وبيَّنوا كيفيَّة تناقضهم، ومن ذلك ما أُثِر عنهم: إنَّ العالَم صادرٌ من ثلاثةٍ، وهم في الحقيقة يعترفون في نفس الأمر بأنَّ العالَم مخلوقٌ من واحدٍ، صادرٌ من واحدٍ.

قال الشارح:

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ مَنْ يُثْبِتُ لِلْعَالَمِ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ وَالْفَلْسَفَةِ تَعِبُوا فِي إِثْبَاتِ هَذَا الْمَطْلُوبِ وَتَقْرِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنْ تَقْرِيرِ هَذَا بِالْعَقْلِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ يُتَلَقَّى مِنَ السَّمْعِ.

---

قال الشيخ:

هذا بيانٌ لما عليه الفلاسفة ونحوهم، فالاعتراف بالخالق سبحانه وتعالى اعترافٌ فطريٌّ، ولكنَّ الفلاسفة كأنَّهم يريدون أنْ يُعَبِّروا عما فُطِروا عليه تعبيرًا مقنعًا، فلأجل ذلك اختلفت التَّعبيراتُ عندهم، وسيأتينا بعض تعبيراتهم التي يستدلُّون بها على أن العالَم لم يصدر إلاَّ من خالقٍ واحدٍ، وأكثرهم لَـمَّا لم يقدروا على التعبير زعموا أنَّ هذا متلقًّى من السَّمع - يعني: من الشَّرع - وأنَّ الاعتراف بالخالق مأخوذٌ عن الشَّرع.

وبلا شكٍّ هو أمرٌ فطريٌّ، ولو تُرِكَ كلُّ أحدٍ والفطرة التي فُطر عليها لعرف أنَّ له ربًّا، وأنَّه مخلوقٌ، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»[1]، ويُسْتَدَلُّ بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[الروم: ٣٠].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولكنْ مع ذلك هناك أدلَّةٌ عقليَّةٌ صريحةٌ تبيِّن للإنسان أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ له خالقًا، وقد احتجَّ عليهم ـ سبحانه وتعالى ـ بالعقل في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[الطور: ٣٥].

فإذا عرفوا أنَّهم لم يُخلقوا من غير شيءٍ، فلابدَّ لهم من خالقٍ خلقهم.

قال الشارح:

وَالمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ النَّظَرِ إِثْبَاتُهُ بِدَلِيلِ التَّمَانُعِ، وَهُوَ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ فَعِنْدَ اخْتِلَافِهِمَا - مِثْلَ أَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا تَحْرِيكَ جِسْمٍ وَآخَرُ تَسْكِينَهُ، أَوْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا إِحْيَاءَهُ وَالْآخَرُ إِمَاتَتَهُ - فَإِمَّا أَنْ يَحْصُلَ مُرَادُهُمَا، أَوْ مُرَادُ أَحَدِهِمَا، أَوْ لَا يَحْصُلُ مُرَادُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَالْأَوَّلُ مُمْتَنِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الجَمْعَ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ، وَالثَّالِثُ مُمْتَنِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ خُلُوُّ الْجِسْمِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ، وَيَسْتَلْزِمُ أَيْضًا عَجْزَ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ إِلَهًا، وَإِذَا حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، كَانَ هَذَا هُوَ الْإِلَهَ الْقَادِرَ، وَالْآخَرُ عَاجِزًا لَا يَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ، وَتَمَامُ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ.

---

قال الشيخ:

أتى الشارح بهذا ليُبيِّن أنَّه هو الدَّليل عندهم، ويسمَّى دليلًا عقليًّا، وتسمَّى دلالةُ التَّمانُعِ دلالةً عقليَّةً على أنَّ الخالقَ واحدٌ، وليس معه خالقٌ آخر.

فيقولون: لو كان للعالَمِ صانِعان متكافئان، كلاهما خالقٌ مستقلٌّ مكافئٌ للآخر، فأراد أحدهما تسكينَ شيءٍ، وأراد الآخر تحريكَه، أو أراد أحدُهما إحياءَ شخص وأراد الآخرُ إماتَته، فاختلفا، فإذا كان للعالم خالقان فقد يختلفان؛ يقول أحدهما: سنحيي هذا. ويقول الآخر: سنميته. فإذا أراد هذا إحياء وهذا إماتةً، واختلفا؛ فماذا يحصل؟ هل يمكن أنْ يكون هذا الشَّخص حيًّا ميتًا؟ لا يمكن. هل يمكن أن يكون متحرِّكًا ساكنًا في آنٍ واحدٍ؟ لا يمكن.

يعني: لا يمكن أن يحصل مرادهما معًا؛ لأنه جمعٌ بين الضِّدَّيْن، فإذًا: لا بدَّ أنْ يحصل مراد واحد منهما، أو لا يحصل مراد أحدٍ منهما، وكونه أيضًا لا يحصل مراد كلٍّ منهما هذا ممتنعٌ أيضًا؛ لأن الجسم لا بدَّ أنْ يكون إمَّا متحرِّكًا وإمَّا ساكنًا، إمَّا حيًّا وإمَّا ميتًا، ولا يمكن أنْ يكون خاليًا من الحركة وخاليًا من السكون، ولا يمكن أيضًا أن يكون لا حيًّا ولا ميِّتًا. إذًا لا بدَّ أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر، فالذي يحصل مراده هو الإله، وهو الذي يَصْلُح للإلهيَّة، والذي لا يحصل مراده هو عاجزٌ، لا يصلح أنْ يكون إلهًا، هذا يسمَّى عندهم دليلُ التَّمانع.

وقد دلَّ على ذلك في القرآن قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، يعني: لو كان مع الله آلهة مساوية له لفسدت المخلوقات، وذلك لِمَا يلزمهم من اختلاف الأهواء واختلاف الإرادات.

فهذا ونحوه ممَّا يدلُّ عقلًا على أنَّ العالَم خالقه واحدٌ، وهو الله تعالى، وهو المتصرِّف بهذا الكون كما يشاء.

قال الشارح:

وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ دَلِيلَ التَّمَانُعِ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي قَرَّرُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الَّذِي بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ، وَدَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ التَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الْمُتَضَمِّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ خَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحِدٌ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥]. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

---

قال الشيخ:

كثيرٌ من المتكلِّمين يدَّعون أنَّ التَّوحيد الذي دلَّت عليه هذه الآية، والذي دلَّت عليه دلالة التَّمانع: أنَّه هو الذي دعت إليه الرُّسل، وهذا خطأٌ، بل الرُّسل إنَّما دعوا إلى توحيد العبادة، وذلك لأنَّ توحيد الرُّبوبيَّة فطريٌّ لم ينكره المشركون الأولون، بل جميع الأمم كلُّهم معترفون بتوحيد الرُّبوبيَّة؛ كما ذكرنا في الآيات السابقة، ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون:٨٤ـ ٨٥]، وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:٦٣].

فإذا كانوا معترفين بهذا النَّوع الذي هو توحيد الرُّبوبيَّة، وأنَّ الرَّبَّ هو الخالق وحده، فالرسل إنما دعت إلى التَّوحيد الذي هو التَّوحيد العمليُّ، القصديُّ، الإراديُّ، الذي هو توحيد الإلهيَّة، أو توحيد العبوديَّة.

قال الشارح:

وَلَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا مُشَارِكَةٌ لِلَّهِ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ، بَلْ كَانَ حَالُهُمْ فِيهَا كَحَالِ أَمْثَالِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْأُمَمِ مِنَ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ وَغَيْرِهِمْ، تَارَةً يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ تَمَاثِيلُ قَوْمٍ صَالِحِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا كَانَ أَصْلَ شِرْكِ الْعَرَبِ، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ، وَقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّ هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِعَيْنِهَا صَارَتْ إِلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، ذَكَرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَبِيلَةً قَبِيلَةً[1].

---

قال الشيخ:

نرى أنَّ الرُّسل دعوا إلى توحيد العبادة الذي هو توحيد الطَّلب، وتوحيد القصد، والتَّوحيد الإراديُّ الذي طلبه الله من عباده وأمرهم به، هذا هو التوحيد العملي، وضدّه الشِّرك الذي هو دعوة غير الله تعالى معه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

والأمم السَّابقة متَّفقون ـ كما مرَّ ـ على أنَّ الخالق لهذا العالم واحدٌ؛ هو الله، ومع ذلك يدعون آلهةً غيره يسمُّونها آلهةً؛ كما حكى الله عن قوم إبراهيم أنَّهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء:٧١]، وأنَّهم قالوا لمَّا كسَّرها: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥٩]، وقالوا: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فسمَّوها آلهةً، ومعلومٌ أنَّهم يألهونها، أي: يحبُّونها، ويعظِّمونها، ويصرفون لها أنواع التألُّه، وهكذا فعل المشركون في العهد النَّبويِّ، فإن قصدهم إنَّما هو التقرُّب إليها، وأنَّه غرضهم منها.

فقد ذكره الله تعالى في قوله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، هذه مقالة المشركين، وكذلك حكى الله عنهم أنَّهم قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ورَدَّ عليهم ـ كما حكى عن الرجل المؤمن ـ بقوله: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣]، فأخبر بأنَّهم إنَّما يريدون شفاعتهم، وأنَّهم لا يشفعون، ولا تغني شفاعتهم شيئًا.

هذا هو قصد المشركين الأوَّلين، وقصد المشركين المعاصرين، وهم سواءٌ، فهم يريدون شفاعتهم والتوسُّل بهم، ويزعمون أنَّ لهم وجاهةً وصلاحًا، فلكونهم ذوي صلاحٍ تُطلب منهم الشفاعة، ويشفعون لهم شفاعةً تفيدهم، إما في

العاجل، وإما في الآجل، وأول ما حدث هذا الشرك في قوم نوح؛ كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وفي الحديث الذي أشار إليه الشارح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه أسماء قومٍ صالحين في قوم نوحٍ، أسماء رجالٍ من أهل العلم، ومن أهل العبادة، ومن أهل الفضل، لَمَّا ماتوا أَسِفَ تلامذتهم عليهم وحزنوا، فجاءهم الشيطان، وقال: صوِّروهم، وانصبوا صورهم؛ حتَّى تتذكَّروا عبادتهم فتنافسوهم، أو تتذكَّروا علومهم فتعملوا بها، فصوَّروا تماثيل، وسمَّوها بأسمائهم: هذا ودٌّ، وهذا سُواعٌ، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسرٌ.

ولَمَّا ذهب أولئك الَّذين صوَّروهم ونشأ أولادٌ لهم جُهَّالٌ، وصاروا يرون هذه الصُّور، جاءَهمُ الشَّيطان، وقال: إنَّ آباءكم ما صوَّروهم إلاَّ ليعظِّموهم، فإنَّهم من أهل الصَّلاح؛ فعند ذلك عظَّموهم، وزادوا من تعظيمهم شيئًا فشيئًا، إلى أنْ صاروا يصرفون لهم حقَّ الله، ثمَّ جاء الطُّوفانُ وغرق من على الأرض، ولكن بقيت تلك الصُّور؛ حتى وُجدت في العصر الجاهليِّ، وأوَّل من أثارها عمرو بن لُحَيِّ بنِ خَنْدَفٍ الخُزاعيُّ، وهو الذي يقول ﷺ فيه: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

السَّوَائِبَ»[١].

ذكروا أنَّ الشَّيطان تمثَّل له في صورة كاهنٍ، وكان كلام الكهنة يكون مسموعًا، فقال له: ائْتِ سيف جُدَّة؛ تجد بها أصنامًا معدَّةً، ثم أوردها تهامة ولا تهب، ثمَّ ادْعُ العرب إلى عبادتها تُجب. فأتى عمرو ساحل جدة، فوجد بها ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا، وهي الأصنام التي عُبِدت على عهد نوح وإدريس، ثم إن الطوفان طرحها هناك فسقى عليها الرمل، فاستثارها عمرو، وخرج بها إلى تهامة، وحضر الموسم، فدعا إلى عبادتها فأجيب[٢].

فتفرَّقت هذه الأصنام الخمسة في العرب، وصارت معبودةً إلى العهد النَّبويِّ، يعني: صورٌ قديمةٌ من عهد نوحٍ احْتُفِظ بها أو بأمثالها، وصارت تُعبد إلى العهد النَّبويِّ.

فهذا أوَّل شِركٍ، وآخره هو الشِّرك بعبادة الصَّالحين، وبتسميتهم أولياءَ أو سادةً أو أفاضلَ أو أشرافًا، هذه التَّسمية أوجبت أنَّهم يغْلُون فيهم حتَّى صرفوا لهم خالِصَ العبادةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٥/ ١٦١).

قال الشارح:

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[١] عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ «أَمَرَنِي أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ، وَلَا تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٢] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، قَالَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٣] أَنَّهُ ذُكِرَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَذُكِرَ لَهُ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[٤] عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

---

(١) برقم (٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) برقم (٥٣٢) من حديث جندب ﷺ.

قال الشيخ:

هذه أحاديثٌ تدلُّ على أنَّ أصل الشِّرك هو تعظيم القبور، ولاسيَّما قبور الأولياء والسَّادة والصَّالحين، وبطريق الأولى قبور الأنبياء والرسُّل، فالنَّبيُّ ﷺ عَرَفَ هذا، وعَرَفَ أنَّه أكبر سببٍ في حدوث الشِّرك في العالم.

فإنَّه لَمَّا مات أولئك الصَّالحون في قوم نوح.

**أوَّلًا**: عكفوا على قبورهم.

**ثانيًا**: صوَّروا تماثيلهم.

**ثالثًا**: طال عليهمُ الأمد فعبدوهم.

وكذلك في النَّصارى، وكذلك في اليهود، وكذلك في الأمم الأخرى؛ سبب الشِّرك فيهم عبادةُ الأولياء والصالحين والأنبياء ونحوهم.

في هذه الأحاديث يقول ﷺ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

وكذلك يقول ﷺ: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، أي: يُحذِّر مما صنعوا، ثم قالت: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ ـ أي: لجُعل بارزًا ـ وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

وكذلك في مرض موته ﷺ لمَّا ذكرت له أمُّ سلمة وأمُّ حبيبة كنيسةً رأَيْنها في أرض الحبشة يُقال لها: مارِيَة، وفيها صور، فقال ﷺ: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ**

**الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**، يخاطب أمَّ سلمة أو أمَّ حبيبة.

فأولئك قد جمعوا بين الفِتْنَتَيْنِ: فتنة التَّماثيلِ، وفتنةَ القبورِ، فإذا مات فيهم الرَّجل الصَّالح صوَّروا صورته ـ هذا التِّمثال ـ ثمَّ بعد ذلك بنوا على قبره، وقد يكون البناء على قبره متقدمًا على الصُّورة، فهم يبنون على قبره ويصوِّرون صورته، فيجمعون بين فتنتين: فتنة الصُّور، وفتنة القبور، وكلاهما من الأسباب الدَّاعية إلى الشِّرك.

وهذا ما حصل في هذه الأمَّة، فهو ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في آخر حياته قبل أن يموت بخمسٍ حذَّر من ذلك على المنبر بقوله: «**أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

ثمَّ لَمَّا كان في سياق الموت اهتَّم بهذا الأمر، طفق يطرح خميصة له كانت على وجهه، فإذا اغتَّم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؛ كأنَّه يشير إلى أنْ لا تتَّخذوا قبري مسجدًا كما فعل أولئك.

وقد بيَّن العلماء معنى اتِّخاذها مساجد: أنَّه تحرِّي تلك الأماكن للصَّلاة عندها، فمجرَّد قصدها لأجل الصَّلاة عندها اتِّخاذٌ لها، ولو لم يكن هناك بناءٌ، ولو لم يبنوا عليها بنيانًا مثل هذا المسجد، بل ما دام يقصد هذه البقعة التي يزعم أنَّ فيها قبر وليٍّ، أو قبر نبيٍّ، أو قبر سيِّدٍ، أو قبر رجلٍ صالحٍ، ويفضِّل الصَّلاةَ عندها، ويطيل الجلوس عندها، ويتبرَّك بتربتها، فَقَدِ اتَّخذها مسجدًا شاء أم أبى،

ما دام يتحرَّاها للصَّلاة، ويُفضِّل الصَّلاة عندها عن الصَّلاة في بيوت الله تعالى، فهو ممَّنِ اتَّخذها مسجدًا، سواءٌ أُقيم عليها بناءٌ، أو لم يُقَمْ عليها.

ولمَّا كان كذلك ـ يعني: أن القبور مظِنَّة الفتنة ـ حَرَصَ ﷺ على ألَّا يكون هناك ما يدعو إلى ذلك، فثبت عنه ﷺ أنَّه «**نَهَىٰ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ**»[1]؛ لأن هذه الأشياء مِمَّا يدفع الجُهَّال إلى الاعتقاد فيها، إذا رأوا هذا القبر على هذه الحال؛ قالوا: هذا قبر وليٍّ، هذا قبر سيِّدٍ، هذا ممَّن يُتبرَّك به، هذا ممَّا يُرجى تأثيره ونفعه، فيقصدونه ويَغْلُون فيه، فيحصل الشِّرك.

فنبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ حَسمَ مادَّةَ الشِّركِ، ومَنع من الوسائل التي توقع في شرك العبادة، وأرسل عليًّا ﷺ بقوله: «**لَا تَدَعْ تِمْثَالًا إلا طَمَسْتَهُ، ولا قَبْرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَهُ**»[2]، يعني: سوِّيته بالقبور الأخرى.

أمره بطمس الصُّور والتماثيل؛ لأنَّها أصلٌ في عبادة غير الله، وأمر بتسوية القبور ـ يعني: بتخفيض القبر المشرف الذي قد رُفع على ما سواه من القبور ـ مخافة أن يُعتقد فيه.

فهذا دليلٌ على أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قد حَرص كُلَّ الحرص على أن تكون أُمَّتُهُ متمسِّكةً بتوحيد الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٠) من حديث جابر ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٩).

قال الشارح:

وَمِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ عِبَادَةُ الْكَوَاكِبِ، وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ بِحَسَبِ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِلْكَوَاكِبِ مِنْ طِبَاعِهَا، وَشِرْكُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ - فِيمَا يُقَالُ - مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَكَذَلِكَ الشِّرْكُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ لَهُمْ.

---

قال الشيخ:

عبادة الكواكب أو الأفلاك - كالشَّمس والقمر - من جملة ما وقع فيه بعض الأُمم؛ ولذلك نهى الله تعالى عن ذلك، وأخبر بضلال من يفعله.

وحكىٰ الله تعالى عن مَلِكة سبأٍ وقومها بقوله عن الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، يعني: صدَّهمُ الشَّيطان عن سجودهم لله الذي خلقهم، ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٤، ٢٥]، فهذا دليلٌ على أنَّ هناك أممًا عبدوا الشَّمس، وأخبرنا - عليه الصَّلاة والسَّلام - بأنَّ المشركين يسجدون لها، ونهى ﷺ عن الصَّلاة عند طلوعِ الشَّمسِ وعند غروبها، فقال: «فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حين تَطْلُعُ بين قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لها الْكُفَّارُ»[1].

وكذلك هناك أيضًا مَنْ شركهم بعبادة الكواكب، وقيل: إنَّ قوم إبراهيم كان

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢) واللفظ له، من حديث عمرو بن عبسة السلمي ﷺ. وأخرجه البخاري مختصرًا (٣٢٧٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

شركهم بعبادة الكواكب، يعبدونها ويبنون لها الهياكلَ، وقد حكىٰ الله أيضًا عنهم أنَّهم يعبدون أصنامًا بقولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]، وأنَّ أصنامهم من حجارةٍ أو من خشبٍ، ولأجل ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾[الشعراء:٧٥، ٧٦]، ثُمَّ قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾[الأنبياء:٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦]، يعني: خلقَكم وخلق ما عملتُم بأيديكم.

فهذا دليلٌ على أنهم يعبدون أصنامًا منحوتةً مع عبادتهم الكواكب.

وقد قيل: إنَّ من أدلَّة ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]، على وجه المناظرة، وكذلك قال للقمر: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٧]، وقال للشَّمس: ﴿هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾[الأنعام:٧٨].

وقيل: إنَّ مِنْ أدلَّة ذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٨، ٨٩]، ممَّا يدلُّ على أنَّهم كانوا ينظرون أيضًا في النُّجوم. فعبادة الكواكب لا شكَّ أنَّها شركٌ؛ لأنَّ هذه الكواكب مخلوقةٌ مُسيَّرةٌ، والله هو الذي يُسيِّرها، وهو الذي سخَّرها بقوله تعالى: ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[الأعراف:٥٤].

والحاصل: أنَّ من جملة المعبودات عبادة الكواكب، وبناء الهياكل لها، وكلُّ ذلك ممَّا محاه الإسلام، وحثَّ المسلمين على أن تكون عبادتهم لله وحده.

قال الشارح:

وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالصَّانِعِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ، وَلَكِنِ اتَّخَذُوا هَذِهِ الوَسَائِطِ شُفَعَاءَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

---

قال الشيخ:

قد تقدَّم أنَّ المشركين الأوَّلين يعترفون بالخالق وأنه واحدٌ: هو الله تعالى، حكى الله ذلك عن مشركي العرب في عدَّة آياتٍ، منها: قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: هذا لله وحده، ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[المؤمنون:٨٤-٨٩].

يبيِّن أنَّهم يعترفون بهذا، وأنَّ اعترافهم بتوحيد الرُّبوبيَّة صار حُجَّةً عليهم في التَّوحيد الذي جحدوه، وهو توحيد الإلهيَّة. ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، أي: كيف تُصرفون عن عبادته وأنتم تعرفون أنَّه الذي يُجير ولا يُجار عليه، والذي بيده ملكوت كلِّ شيءٍ، وهو ربُّ السَّمٰوات السَّبع، وهو ربُّ العرش العظيم، وهو الذي له

الأرض، وله السَّمٰوات، وله المخلوقات، ومع ذلك تعبدون غيره؛ أين عقولكم؟!.

فسُئلوا: لماذا تعبدون هذه المعبودات؟ فأخبر الله تعالى بأنَّهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، يريد: أي يقربونا إليه. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، أي: ما نريد إلا شفاعتهم.

هذه مقالتهم، وهي بعينها مقالة عُبَّاد القبور، وعُبَّاد الأولياء، ونحوهم؛ يقولون: إنَّهم أناسٌ ذوو فضلٍ ومنزلةٍ، الله يقبل منهم ولا يقبل منا، فإذا تقرَّبنا إليهم أدخلونا على الله، وقُبلت أعمالنا بسببهم، ويضربون مثلًا بملوك الدُّنيا، فيقولون: إنَّ ملوك الدُّنيا لا يوصَلُ إليهم إلاَّ بالشُّفعاء، إذا أردتَ حاجةً عندهم فإنَّك تتوسَّل بأحد الوزراء، أو أحد الكُتَّاب، أو أحد الخدم؛ حتَّى يدخلك عليهم ويشفع لك عندهم.

وهذا قياسٌ فاسدٌ، فإنَّ الملوك بشرٌ لا يعرفون ما في الضَّمير، ولا يعرفون الصَّادق من الكاذب، فيحتاجون إلى أن يقبلوا شفاعة من يعرفونه، والربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ ليس بحاجةٍ إلى من يُعرِّفه، فإنَّه أعلم بما في الضَّمائر، ويعلم ما توسوس به النُّفوس، وهو عليمٌ بذات الصُّدور، فلا حاجة إلى أن يشفع عنده أحدٌ، وإنما يأذن بالشَّفاعة في الآخرة لبعض عباده، ويقبل شفاعتهم تكريمًا لهم، ولكنْ بإذنه، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن جملة الشرك الذي حذَّر منه نبيُّنا ﷺ: الشِّركُ في العبادة، وأنَّ من أسبابه

اتِّخاذ القبور مساجد، وتقدَّم لنا كثيرٌ من الأدلَّة في نهيه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عن الشِّرك، وفي ذمِّه للذين يتَّخذون قبور أنبيائهم مساجد، وبيان ما آل إليه أمرهم، وسوف يمُّر بنا أيضاً ما يحقِّق التَّوحيد الذي هو توحيد الرُّبوبيَّة، ثمَّ بعد ذلك ينتج منه توحيد الإلهيَّة.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ كَانَ حَالُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ؛ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عنهم فِي قِصَّةِ صَالِحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ عَنِ التِّسْعَةِ الرَّهْطِ الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ـ أَيْ: تَحَالَفُوا بِاللَّهِ ـ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ. فَهَؤُلَاءِ الْمُفْسِدُونَ الْمُشْرِكُونَ تَحَالَفُوا بِاللَّهِ على قَتْلِ نَبِيِّهِمْ وَأَهْلِهِ، وَهَذَا بَيِّن أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ إِيمَانَ الْمُشْرِكِينَ.

---

قال الشيخ:

في قصَّة الرهط من قوم صالح ـ التي جاء ذكرها في قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النمل:٤٨، ٤٩]، دلالة على أنَّهم ولو كذَّبوا صالحًا، فإنَّهم يعرفون الله، ويعترفون بالرُّبوبيَّة، ولهذا تقاسموا بالله أن يكونوا كفارًا مكذِّبين للنَّبيِّ، ومع ذلك يتقاسمون بالله، ما تقاسموا بغير الله.

فيُعرف من هذا أنَّ الكفَّار المشركين الذين كذَّبوا الرُّسل كانوا يعرفون أنَّ الله هو ربُّهم، وأنَّه هو الخالق، وهكذا أيضًا الذين كذَّبوا نبيَّنا ﷺ كانوا معترفين بأنَّ الله هو ربُّهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونحو ذلك من الآيات.

فإذا كانوا يُقِرُّون بأنَّ الله هو الخالق الرَّازق فماذا جَحَدوا؟ جحدوا توحيد

العبادة وهو حقُّ الله، إنَّما عرفوا الله ربًّا، ولكن ما عبدوه وحده، وما عظَّموهُ حقَّ تعظيمه، بل أشركوا به، وجعلوا معه آلهةً أخرى، فكانوا بذلك مشركين، وكذَّبوا الرُّسل الذين دعوهم إلى عبادته، فقوم نوحٍ كانوا يعرفون ربَّهم، ولكنِ احتقروا نوحًا وكذَّبوه، وهكذا قوم هودٍ وقوم صالحٍ وقوم إبراهيمَ ... إلى آخر الأمم، ومشركو العرب كذَّبوا نبيَّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أوَّل الأمر، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص:٥].

قال الشارح:

فَعُلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ المَطْلُوبَ هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٠. ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم ١٠].

وَقَالَ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1]، وَلَا يُقَالُ: إِنَّ مَعْنَاهُ يُولَدُ سَاذِجًا لَا يَعْرِفُ تَوْحِيدًا وَلَا شِرْكًا، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِمَا تَلَوْنَا.

وَلِقَوْلِهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ[2] الشَّيَاطِينُ»[3] الحَدِيثَ.

وَفِي الحَدِيثِ المُتَقَدِّمِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ: «يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» وَلَمْ يَقُلْ: وَيُسْلِمَانِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: «يُولَدُ عَلَى المِلَّةِ»، وَفِي أُخْرَى: «عَلَى هَذِهِ المِلَّةِ»[4].

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٩).

(٢) اجْتَالَتْهُمْ: حولتهم عن الهدى، فجالوا معهم في الضلالة. انظر: لسان العرب (جول).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عِيَاضِ بن حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ ﷺ.

(٤) أخرج الروايتين مسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الشيخ:

معرفة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ معرفةٌ فطريَّةٌ فُطِرَ الخلقُ عليها، ودين الإسلام الذي اختاره الله دينًا له، وأرسل به الرُّسل، دينٌ فطريٌّ، بمعنى: أنَّ القلوب مفطورةٌ على استحسانه، وعلى أنَّه الدِّين الصَّحيح، ولو فكَّر كلُّ عاقلٍ في هذا الدين؛ لعرف أنَّه أصحُّ الأديان، وأنَّ من دان بغيره فهو خاسرٌ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفي الآية الكريمة في سورة الروم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، يعني: فطرهم على معرفته وعلى استحقاقه لأن يُعبد، ولكن أفسدت عليهمُ الشَّياطين تلك الفطرة، وأفسدتها عليهمُ البيئات والمجتمعات، وأفسدها عليهمُ الآباء والأجداد والأمَّهات والجدَّات، وأفسدها عليهمُ المربُّون والمعلِّمون والمُنشئون، ولو تركوهم وما تميل إليه فطرتهم لمالوا إلى الإسلام، ولعرفوا أنَّه الدِّين الحقُّ، وإن كان لابدَّ من تنبيههم على تفاصيله.

وهذا ما دَلَّ عليه الحديث: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»، يعني: على معرفة أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ له خالقًا، وأنَّ الخالق هو الذي يستحقُّ أن يُعبد.

وكذلك معنى الحديثِ الآخرِ القُدُسيِّ: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ»، حُنَفاء يعني: مستقيمين على الدِّين، ولكن تَسلَّطَتْ عليهمُ الشَّياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وأخرجتهم عن الحنيفيَّة، وحرَّمت عليهمُ الحلالَ، وأحلَّت

لهمُ الحرامَ، وأوقعتهم في الشِّرك والضَّلال.

ومما نعلمه بهذا أنَّ الإنسان بفطرته يُفضِّل الدِّين الصَّحيح، وأنَّ أصحَّ الأديان هو هذا الدِّين، ولكنَّ كثرة المنحرفين، وكثرة النَّصارى، وكثرة اليهود، وكثرة المشركين، وكثرة المبتدعين، هذه كلُّها بسبب الدِّعايات لها، والتي تصدُّ عن الإسلام.

ومعلومٌ أنَّ الله سبحانه أوضح الحقَّ، وأرسل به الرُّسل، وأنزل به الكتب، ولكن جعل هناك أعداءً للحقِّ، هؤلاء الأعداء يحرصون على أن يميلوا بالنَّاس إلى ما هم عليه، فالمشركون يحبُّون أنْ يكثُرَ أمثالهم، وكذلك المبتدعون، كلُّ أهل بدعةٍ يحبُّون أن يكون النَّاس معهم على بدعتهم، والأصل الذي يدفعهم إلى ذلك هو الشَّيطان الذي هو عدوُّ الإنسان، فإنَّه لَمَّا كان عدوًّا للإنسان؛ زيَّن له البِدَع، وزيَّن له الشِّرك، وزَّين له الكفر، ثمَّ أمره أن يدعو النَّاس إلى ما ينتحله.

قال الشارح:

وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ ﷺ هُوَ الَّذِي تَشْهَدُ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ بِصِدْقِهِ.

مِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: لَا رَيْبَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ مَا يَكُونُ حَقًّا، وَتَارَةً مَا يَكُونُ بَاطِلًا، وَهُوَ حَسَّاسٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَاتِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرَجِّحٍ لِأَحَدِهِمَا. وَنَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا عُرِضَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ وَأَنْ يُكَذِّبَ وَيَتَضَرَّرَ، مَالَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى أَنْ يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ، وَحِينَئِذٍ فَالِاعْتِرَافُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ، وَالْإِيمَانُ بِهِ، هُوَ الْحَقُّ أَوْ نَقِيضُهُ، وَالثَّانِي فَاسِدٌ قَطْعًا، فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي الْفِطْرَةِ مَا يَقْتَضِي مَعْرِفَةَ الصَّانِعِ وَالْإِيمَانَ بِهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَحَبَّتُهُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ أَوْ لَا، وَالثَّانِي فَاسِدٌ قَطْعًا، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي فِطْرَتِهِ مَحَبَّةُ مَا يَنْفَعُهُ.

---

قال الشيخ:

هذا من الأدلَّة على أنَّ معرفة الخالق سبحانه معرفةٌ فطريَّةٌ، يدركها الإنسان بفطرته، وهذا تقريرٌ من تقارير المتكلِّمين، ولكنَّه واضحٌ.

يقول: إنَّ الإنسان لا بدَّ أن يخطُر بقلبه خواطر، هذه الخواطر وهذه الإرادات قد تكون صحيحةً وقد تكون فاسدةً، ولا شكَّ أنَّه متى فكَّر في تلك الخواطر؛ عَرَفَ ما يضرُّه وما ينفعه، فمن ذلك: أن يفكِّر في نفسه وفي الوجود الذي حوله، فيعترف حينئذٍ أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ الوجود الذي حوله مخلوقٌ، ويعترف بعد ذلك أنَّ هذا المخلوق لا بُدَّ له من خالقٍ متصرِّفٍ، وأنَّ التصرُّف للخالق وحده، ثمَّ إذا

اعترف بذلك، انتفع بهذا الاعتراف كلُّ عاقلٍ، فإذا خَطَرت في قلبه هذه الخواطر، فلا بدَّ أن يفكِّر في نهايتها، فينظر: هل هي حقٌّ أو باطلٌ؟ فإن كانت حقًّا؛ فإنَّه يُؤثرها ولا يدخل عليها ما يضادُّها؛ إذ كلُّ عاقلٍ يُؤْثِرُ ما ينفعه ويترك ما يضرُّه.

فلو قيل لك مثلًا: اعترِفْ بالبعث والجزاء في الآخرة، ونحن نثيبك ونرفع منزلتك ونعطيك ونمكِّنك، أو أظْهِرِ الإنكار ونحن نحبسك ونضربك ونؤنِّبُك ونحرمك.

العاقلُ يقولُ: لماذا لا أعترف وأنا أعرف ما في الاعتراف بالبعث من الثَّواب، سوف أعترف ما دام أنَّ الاعتراف أوَّلًا: عليه أدلَّةٌ وهي أدلَّة البعث، وثانيًا: فيه منفعةٌ، وثالثًا: أتَّقي فيه مضرَّةً.

فكلُّ عاقلٍ يُؤثر أن يعترف بالحقِّ؛ حتَّى يحصل له الانتفاع.

قال الشارح:

وَمِنْهَا: أَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى جَلْبِ المَنَافِعِ وَدَفْعِ المَضَارِّ بِحَسَبِهِ، وَحِينَئِذٍ وَإِن لَمْ تَكُنْ فِطْرَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مُسْتَقِلَّةً بِتَحْصِيلِ ذَلِكَ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ مُعَيَّنٍ لِلْفِطْرَةِ، كَالتَّعْلِيمِ وَنَحْوِهِ، فَإِذَا وُجِدَ الشَّرْطُ، وَانْتَفَى المَانِعُ، اسْتَجَابَتْ لِمَا فِيهَا مِنَ المُقْتَضِي لِذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

هذا أيضًا دليلٌ عقليٌّ، معلومٌ أنَّ الله تعالى فَطَرَ العباد على معرفته، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ولكنَّ هذه الفطرة قد لا تكفي لتفاصيل الحقوق، والإنسان مثلًا لو نشأ في البادية؛ لم يسمع بالدِّين، ولم يعرفْ شيئًا عنه، فإنَّه ولو عرف أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ هذا الكون مُدبَّرٌ مُسخَّرٌ، لكن يخفى عليه أشياء من تفاصيل العبادة، يقول مثلًا: أنا مخلوقٌ ولي خالقٌ، وخالقي له حقوقٌ عليَّ، ولكن ما هي وكيف أؤدي هذه الحقوق؟ وما الذي يحبُّه حتَّى أفعله؟ وما الذي يكرهه حتَّى أتركه؟

هذا يُرْجَع فيه إلى ما جاءت به الرُّسل، الذين بيَّنوا للنَّاس حقوق الله على العباد، فأمروهم أن يفعلوها، وبيَّنوا لهم ما حرَّمه؛ فأمروهم أن يتركوه؛ فهذا يُتلقى من الرُّسل، وإلَّا فالإنسان لو تُرك وفطرَتَهُ دون تغيير؛ لمال إلى الحقِّ وآثره، ولكنَّ تفاصيل الحقِّ تُؤخذ عن الرُّسل.

قال الشارح:

وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ قَابِلَةٌ لِلْعِلْمِ وَإِرَادَةِ الحَقِّ، وَمُجَرَّدُ التَّعْلِيمِ وَالتَّحْضِيضِ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ وَالْإِرَادَةَ، لَوْلَا أَنَّ فِي النَّفْسِ قُوَّةً تَقْبَلُ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلَوْ عُلِّمَ الجُهَّال وَالْبَهَائِمُ وَحُضِّضَا لَمْ يَقْبَلَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ حُصُولَ إِقْرَارِهَا بِالصَّانِعِ مُمْكِنٌ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مُنْفَصِلٍ مِنْ خَارِجٍ، وَتَكُونُ الذَّاتُ كَافِيَةً فِي ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ المُقْتَضِي قَائِمًا فِي النَّفْسِ وَقُدِّرَ عَدَمُ المَعَارِضِ، فَالْمُقْتَضِي السَّالِمُ عَنِ المَعَارِضِ يُوجِبُ مُقْتَضَاهُ، فَعُلِمَ أَنَّ الْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهَا مَا يُفْسِدُهَا، كَانَتْ مُقِرَّةً بِالصَّانِعِ عَابِدَةً لَهُ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْمُفْسِدُ الخَارِجُ، وَلَا الْمُصْلِحُ الخَارِجُ، كَانَتِ الْفِطْرَةُ مُقْتَضِيَةً لِلصَّلَاحِ؛ لِأَنَّ الْمُقْتَضِيَ فِيهَا لِلْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ قَائِمٌ، وَالمَانِعَ مُنْتَفٍ.

---

قال الشيخ:

الصَّحيح أنَّ مجرَّد التَّحريضِ لا يدفع الإنسان، فلو كان لك ولدٌ وأنت تُحرِّضه، تقول: يا ولدي تعلَّم، يا ولدي اطلُبِ العلم، يا ولدي احفظِ القرآن، وهو مع ذلك ليس له رغبةٌ، بل نفسه مائلةٌ عن هذا التَّعلُّم، فلو ضربتَه وأدَّبته ونصحته وعلَّمته، ما قَبِلَ إلَّا إذا أقبلتْ نفسه، وهَوَى ذلك، وعَرَفَ فيه فائدةً ومنفعةً. وهذه المعرفة تتكوَّن من التَّصوُّر، وذلك أنَّ الإنسان له عقلٌ، وعقله يهديه إلى تصوُّر الأمر، فيتصوَّر الشَّابُّ ـ مثلًا ـ أنَّ الجهل نقصٌ، فيقول: لماذا أبقى على الجهل وهو نقصٌ؟! ويتصوَّر أنَّ العلمَ شَرَفٌ، فيدفعه هذا التَّصوُّر إلى

التَّعلُّم. أما مجرَّد الضَّرب أو التَّرغيب، ومجرَّد التَّرهيب والتَّخويف ونحو ذلك، إذا لم يكن هناك تصوُّرٌ وإقبالٌ من النَّفس فإنَّه لا يُفيد؛ كما هو مشاهدٌ.

فالذي يريدُ الخيرَ لا بدَّ أن يعرف فوائده من قبل؛ حتَّى تدفعه تلك المعرفة إلى طلبه، فالعبد ـ مثلًا ـ إذا عَرَفَ أنَّه مخلوقٌ، وعَرَفَ أنَّ المخلوق عليه حقوقٌ، وعَرَفَ أنَّ أداء تلك الحقوق سببٌ للسَّعادة، ألا يحرص على أداء تلك الحقوق؟! يؤدِّيها حتَّى تحْصُلَ له السَّعادة، وهي الحياة الطَّيِّبةُ في الدنيا، والجنَّة في الآخرة، ولكن: من أين يأخذ معرفة تلك الحقوق التي عليه؟

يأخذها من الشريعة، فيقول: الحقوق التي عليَّ هي: عبادة الله، ودعاؤه، وخوفه، ورجاؤه، والرَّغبة إليه، وخشيته، والخشوع له، وما أشبه ذلك من ترك التعلُّق بغيره من عبادة وطاعة، وما أشبه ذلك.

فالعاقل عليه أن يعلِّم الفائدة أوَّلًا، يعني: إذا أردتَ أن تُرَغِّبَ ولدك في أمرٍ، فإنَّ عليك أن تُعْلِمه بفائدته؛ حتَّى يُقْبِل عليه، فإذا أردت أن تعلِّمه ـ مثلًا ـ حرفةً من الحرف أو صَنْعةً يتكسَّب بها، كبناءٍ، وغراسةٍ، وتجارةٍ، ورعايةٍ، أو أي صنعةٍ من الصَّنائع، فلا بدَّ أن تخبره بفوائدها، فتقول: تعَلَّمْ هذه الحرفة، فإنَّها صنعةٌ مفيدةٌ، وتحتاجها ويحتاج إليك النَّاس، وتكتسب كذا وكذا. فإذا قَنِعَ انْدَفَعَ وطلبها، فكذلك إذا قلت: أنت محتاجٌ إلى العلم، والعلم فائدته كذا وكذا، وقنع؛ انْدَفَعَ إلى العلم. وهكذا إذا قلت لإنسان: أنت محتاجٌ إلى ربِّك؛ حتَّى يثيبك ويعطيك، وربُّك غني عنك، وصدَّق بذلك، سألك عن الحقوق التي عليه، فقلت: حقُّ الله عليك أن تعبده، وعبادتُه كذا وكذا؛ انْدَفَعَ إلى عبادة ربه وطاعته.

فإذًا ننصح كلَّ إنسانٍ أراد إقناع آخر أن يخبره بذلك الأمر الذي يدفعه إليه؛ حتى يرغب فيه.

قوله: (وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْمُفْسِدُ الخَارِجُ، وَلَا الْمُصْلِحُ الخَارِجُ...) من هذا قد يُتصوَّر في إنسانٍ وُلِدَ ونشأ في بريَّةٍ، أو في بلدةٍ وحده، أو بين أُناسٍ لا يعرف كلامهم ولا يعرفون كلامه، وليس هناك أحدٌ يعلِّمه الخير، ولا أحدٌ يعلِّمه الشَّرَّ، لكن معه فطرةٌ، وهذه الفطرة هي الإسلام، فلابدَّ أن يكون معه دافعٌ يدفعه إلى معرفة الكون وماذا يُراد به، فإذا قُدِّرَ أنَّه ليس هناك مفسدٌ ولا مصلحٌ، فإنَّ الفطرةَ ميَّالةٌ إلى طلب المصلح، فيندفع إلى طلب الخير.

أمَّا إذا وُلد المولودُ ونشأ في بلدٍ أهلها يعرفون الخير ولَقَّنوه له، وقالوا: عبادة الله هي الأصلح، وأنت مخلوقٌ لها، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فإنَّه يعرف ذلك، ثمَّ يتلقَّى العبادة.

وكذلك لو وُجد بين أناسٍ يشركون، وقالوا له: التَّعلُّق بهؤلاء الصَّالحين ينفع، وهؤلاء مقرَّبون عند الله، ونحن ندعوهم حتَّى يكونوا شفعاءنا عند الله، ونحو ذلك، صدَّقهم وفعل كفعلهم، وذلك لأنَّه ساذَجٌ لا يعرف إلا ما علَّموه.

كذلك إذا وُلد ونشأ بين نصارى يقولون: المسيح هو الله، أو ابن الله - تعالى الله عما يقولون - صدَّقهم واندفع إلى ما يقولونه، وهكذا. بخلاف ما إذا ولد ليس عنده من يعلِّمه؛ لا بدعةً، ولا سُنَّةً، لا إسلامًا، ولا كفرًا، فإنَّه يبقى متحيِّرًا، ولكنَّ فطرته تدفعه إلى معرفة الإسلام أو محبَّته وتفضيله على غيره.

قال الشارح:

وَيُحْكَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَرَادُوا الْبَحْثَ مَعَهُ فِي تَقْرِيرِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ سَفِينَةٍ فِي دِجْلَةَ، تَذْهَبُ، فَتَمْتَلِئُ مِنَ الطَّعَامِ وَالْمَتَاعِ وَغَيْرِهِ بِنَفْسِهَا، وَتَعُودُ بِنَفْسِهَا، فَتُرْسِي بِنَفْسِهَا، وَتَتَفَرَّغُ وَتَرْجِعُ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدَبِّرَهَا أَحَدٌ؟! فَقَالُوا: هَذَا مُحَالٌ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا! فَقَالَ لَهُمْ: إِذَا كَانَ هَذَا مُحَالًا فِي سَفِينَةٍ، فَكَيْفَ فِي هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ عُلْوِهِ وَسُفْلِهِ! وَتُحْكَى هَذِهِ الْحِكَايَةُ أَيْضًا عَنْ غَيْرِ أَبِي حَنِيفَةَ.

---

قال الشيخ:

هؤلاء قومٌ من الملاحِدَة، عندهم شكٌّ في توحيد الرُّبوبيَّة، وفي وجود الخالق سبحانه؛ فجاؤوا إلى أبي حنيفة ـ العالِم المشهور ـ وأرادوا أن يمتحنوه، ولكنَّه امتحنهم قبل ذلك بهذا السُّؤال، ولا شكَّ أنَّه شيءٌ محسوسٌ واقعٌ. يقول: ما يُصدِّق العاقل أنَّ هناك سفينةً تمشي بنفسها، تحمل نفسها وما بها من الذخائر، وترسل نفسها إلى مكانٍ ما، وتنزل حمولتها من نفسها، وترجع من حيث جاءت. فالسَّفينةُ خشبةٌ من الجمادات، ليس لها عقلٌ ولا إدراكٌ، كيف يُتصوَّر أنَّها تسلك الطَّريق، وأنَّها ترسو في المكان المعدِّ لها، وأنَّها تمتدُّ إلى الأثاث والمتاع والأطعمة وتحملها، وأنَّها ترسو وتنزل عن نفسها ؟! لا يمكن أبدًا.

ومثلُها أيضًا المراكب الجديدة، فالسَّيَّارة ـ مثلًا ـ ما تتحرَّك بنفسها، فلو قيل لك: إنَّ هناك سيارةً أو طائرةً أو باخرةً تتحرَّك بنفسها، وأنَّها تذهب إلى البلد

الذي تريده ولا تخطئ الطَّريق، وأنَّها إذا وقفت وقفت في الأسواق، وأنَّها حمَّلت نفسها من الأرزاق ومن الأكسية والأمتعة ونحوها، وجاءت إلى البلد المحتاج ونزلت من نفسها، هل يصدِّق بهذا عاقلٌ ؟ هذا محالٌ.

يقول: إنَّه إذا كان هذا محالًا، فإننَّا نشاهد هذا الكون مدبَّرًا أتمَّ تدبيرٍ، هل يصدِّق عاقلٌ أنَّه وُجد من غير موجدٍ، أو أنَّه وُجِدَ بالصُّدفةِ؟

هذه الكواكب التي تطلع وتغرب سيرُها منتظمٌ، لا يتقدَّم هذا عن وقته، ولا هذا عن وقته، هذه الشَّمس وهذا القمر اللذان سيرهما في الشِّتاءِ له حدٌّ، وفي الصَّيف له حدٌّ، هذه الرِّياح التي تثور أحيانًا وتسكن أحيانًا، هذه البحار والأنهار والأشجار والمخلوقاتُ المُنْبَثَّة في البرِّ وفي البحر والحيوانات والجماد، هل يُعقل أنَّها وُجدت بالصُّدفة؟ لا يمكن.

فإذا كان هذا غير ممكن، فلا بدَّ لها من موجدٍ، كما أن السَّيَّارة لا بدَّ لها من محرِّك، فكذلك هذه الموجودات لا بدَّ لها من مسيِّرٍ، وهو الخالقُ وحده الذي يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥، ١٦]، ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس:٢٢]، في ظُلُمات البرِّ والبحر، هو الذي سخَّر ذلك، فهذه حُجَّةٌ عقليَّةٌ تدلُّ على وجود الله، وتدفع كلَّ مُنكرٍ وملحدٍ.

قال الشارح:

فَلَوْ أَقَرَّ رَجُلٌ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، الَّذِي يُقِرُّ بِهِ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ، وَيَفْنَىٰ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ، وَيَجْعَلُونَهُ غَايَةَ السَّالِكِينَ، كَمَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ (مَنَازِلِ السَّائِرِينَ) وَغَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَيَتَبَرَّأْ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، كَانَ مُشْرِكًا مِنْ جِنْسِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

---

قال الشيخ:

توحيد الرُّبوبيَّة هو الغاية عند أهل الكلام، وهو الذي يفنىٰ فيه المتصوِّفون، يعني: يجعلونه هو الغاية، فأكبر مقصد وأكبر مطلب عندهم هو توحيد الربوبية، وهو الاعتراف بأنَّ الله موجودٌ، وبأنَّه خالقٌ ورازقٌ ومدبِّرٌ، هذا هو الغاية عندهم، ولكن ليس هو الغاية عند أهل الحقِّ؛ بل الغاية والمطلب هو توحيد العبادة الذي هو عبادة الله، الذي هو القيام بحقِّه.

فالمتصوِّفة يفنون في توحيد الرُّبوبيَّة، ومعنى كونهم يفنون فيه: أنَّهم يبالغون في تعلُّمه إلى أن يأتي عليهم شيءٌ يسمى الفناء، لا حاجة لنا بذكره، هذا هو الغاية عندهم، والمتكلِّمون أيضًا كذلك، يعني أنَّهم يجعلونه هو الغاية؛ حتى إنهم يقولون: إنَّ معنى لا إله إلاَّ الله: لا خالِقَ إلاَّ الله، وهذا ليس بصحيحٍ؛ فإنَّ المشركين يعرفون أنَّه لا خالق إلاَّ الله، ولكن ما نفعهم حيث عبدوا غيره معه.

إذًا لابدَّ أن يكون الاعتراف بأنَّه لا إله إلا الله، يعني: لا معبود بحقٍّ إلاَّ الله، فتوحيد العبادة هو الغايةُ.

فالمتكلِّمون يُراد بهم أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، والمتصوِّفون يُراد بهم الصُّوفيَّة، وهم أهل العبادات السِّرِّيَّة، وغالبًا تكون عباداتهم قلبيَّةً، يبالغون في العبادات القلبيَّة، ولكنَّهم يقعون في بدعٍ، ومن جملة بدعهم: أنَّهم ينعزلون عن المسلمين وعن العبادات ونحو ذلك، وأنَّ أحدهم يبقى معتزلًا مدَّةً طويلةً حتَّى يحصل له حضور قلبه ومشاهداته، فيترك لذلك عدَّة صلواتٍ، ويقول: إنْ ذهبت أصلِّي تفرَّق عليَّ قلبي، فأنا الآن أفكِّر وأجمع همومي، فإذا قمتُ تفرَّقتْ تلك الهموم التي جمعتها.

والصُّوفيَّة موجودون بكثرةٍ في كثيرٍ من البلاد، ولهم تمكُّنٌ، وقد انخدع بهم خلقٌ كثيرٌ، ومع ذلك المتقدِّمون منهم في القرن الثَّالث كانوا على علم وعلى عبادة، إلاَّ أنَّهم زُهَّادٌ، وأما المُحْدَثون، فإنَّهم وقعوا في عقائدٍ سيِّئةٍ وبِدَعٍ عمليَّةٍ.

قال الشارح:

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَبَيَانِهِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَجْعَلُ الْأَوَّلَ دَلِيلًا عَلَى الثَّانِي، إِذْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ الْأَوَّلَ، وَيُنَازِعُونَ فِي الثَّانِي، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي الْعِبَادَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَتَجْعَلُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى؟! كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ الْآيَاتِ [النمل:٥٩، ٦٠].

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آخِرِ كُلِّ آيَةٍ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ فَعَلَ هَذَا؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، يَتَضَمَّنُ نَفْيَ ذَلِكَ، وَهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ غَيْرُ اللَّهِ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أنه اسْتِفْهَامٌ: هَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ؟ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ الْكَلَامِ، وَالْقَوْمُ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ [الأنعام:١٩]، وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، لَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ مَعَهُ إِلَهًا ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ

﴿ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل:٦١]، بَلْ هُمْ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّـهَ وَحْدَهُ فَعَلَ هَذَا، وَهَكَذَا سَائِرُ الْآيَاتِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ ﴾ [الأنعام:٤٦].

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

تقرير توحيد الرُّبوبيَّة في القرآن كثيرٌ، والقصد منه الإلزام بتوحيد العبوديَّة، فإنَّ آية البقرة ـ وهي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ ـ ذكر الله فيها تقرير توحيد الرُّبوبيَّة بستَّة أدلَّةٍ، وهي قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]؛ خلقهم، وخلق آباءهم، وخلق الأرض، وخلق السَّماء، وأنزل المطر، وأنبت النَّبات.

يقول: استدِلُّوا بهذه على أنَّه المعبود، فاعبدوا الله الذي جعل هذه الأشياء، أنتم تعترفون بأنَّه الذي خلقكم، وأنَّه الذي خلق مَنْ قبلكم، وأنَّه خالق السَّمٰوات والأرض، وأنه مرسل السَّحاب ومنزلٌ منها المطر، ومنبت النَّبات؛ فلماذا تعبدون غيره؟

فيحتجُّ عليهم بإقرارهم بهذا التَّوحيد على التَّوحيد الثَّاني، ما داموا يقرُّون بتوحيد الرُّبوبيَّة، فيلزمهم توحيد العبادة.

وكذلك الآيات الأخرى في سورة النَّمل؛ فإنَّ قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[النمل:٦٠]، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[النمل:٦١]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٦٢]، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[النمل:٦٣]، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٦٤]؛ كلُّ هذه يقول بعد كلِّ آية: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، يعني: هل هناك أحدٌ شارك الله في هذه الأشياء؟ فإذا كنتم تقرُّون بأنَّ الله هو الذي أنشأها وحدَهُ، فلماذا تعبدون غيره؟ لماذا تصرفون العبادة لغيره؟

فمعنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: هل هناك أحدٌ شريكٌ لله في هذه الأشياء، وفي خلق هذه المخلوقات، وفي هذه التصرفات؟ إذا كنتم تقرُّون بأنَّه ليس له شريكٌ، فلماذا جعلتم معه آلهةً تعبدونها؟.

هم جعلوا معبوداتٍ وسمّوها آلهةً، وصرفوا لها العبادة، ولَمَّا دعاهم إلى قول «لا إلهَ إلَّا الله» أنكروا ذلك.

وجاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أتى عمَّهُ أبا طَالِبٍ يَعُودُهُ، وَأَتَتْهُ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: إنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَقَعُ فِي آلِهَتِنَا، قال: ما شَأْنُ قَوْمِكَ يَشْكُونَكَ؟ قال: «**يَا عَمِّ أُرِيدُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي الْعَجَمُ إِلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ**»، قال: مَا هِيَ؟ قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»، فَقَامُوا فَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥][1]، وفي رواية: «فقالوا: إِلَهًا وَاحِدًا؟ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧][2]».

والإله عندهم هو المألوه المعبود، أي: الذي تألَهُهُ القلوب؛ فاحتجَّ الله عليهم بالشَّيء الذي يعرفونه على الذي ينكرونه وهو العبادة، يقولون: إنَّ العبادة ليست لله وحده، فيجعلونها لغيره أو له ولغيره، وأما الخلق والتَّدبير، فإنَّه لله وحده، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]، فإذا كانوا يعترفون بهذا، فإنَّه حجَّةٌ عليهم في أنَّ التَّوحيد المطلوب لا يستحقُّه إلَّا الله.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه الترمذي (٣٢٣٢)، وفيه أنهم قالوا: «إِلَهًا وَاحِدًا؟! ما سَمِعْنَا بهذا في الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إن هذا إلا اخْتِلَاقٌ».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشارح:

وَإِذَا كَانَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ ـ الَّذِي يَجْعَلُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الصُّوفِيَّةِ هُوَ الْغَايَةَ فِي التَّوْحِيدِ ـ دَاخِلًا فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَام، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، فَلْيُعْلَمْ أَنَّ دَلَائِلَهُ مُتَعَدِّدَةٌ، كَدَلَائِلِ إِثْبَاتِ الصَّانِعِ، وَدَلَائِلِ صِدْقِ الرَّسُولِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ كُلَّمَا كَانَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَحْوَجَ كَانَتْ أَدِلَّتُهُ أَظْهَرَ، رَحْمَةً مِنَ اللهِ بِخَلْقِهِ.

---

قال الشيخ:

يقول: إنَّ توحيد الإلهيَّة هو المطلوب، وتقدَّم أنَّ كلَّ رسولٍ يبدأ دعوته بقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]؛ لأنَّه توحيدٌ عمليٌّ، وأفعالٌ مشاهدةٌ، وأمَّا توحيد الرُّبوبيَّة فهو في الغالب اعتقاديٌّ، وقد يكون خفيًّا، فإذا كانتِ الدَّعوة إلى التَّوحيد العمليِّ، فلابدَّ أنَّ الأدلَّة عليه واضحةٌ.

يقول: إنَّ كلَّ شيءٍ حاجة النَّاس إليه شديدةٌ، فالأدلَّة عليه واضحةٌ، والأدلَّة على توحيد الإلهيَّة أوضح الأدلة، وهي الأدلَّة الكونيَّة، يعني: الذي كوَّن هذا الكون هو الذي يكون أهلًا للعبادة.

يقول ابن كثيرٍ ـ رحمه الله ـ لَمَّا فسَّر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]،

يقولُ: «ومضمونه أنه الخالق الرازق، مالك الدار وساكنها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده، ولا يُشرك به غيره»[١].

هذا صحيح، فالأدلَّة على توحيد العبادة واضحةٌ وظاهرةٌ، يعني: توحيد الرُّبوبيَّة أقوى دليلٍ وأقوى حجَّةٍ على وجوب عبادة الله وحده، وظهورها من نواحٍ:

**أوَّلًا**: أنَّه الخالق المالك المتصرِّف، فيكون هو المستحقَّ للعبادة.

**ثانيًا**: أنَّه المنعم، فنِعم الله على عباده لا تنقطع، فيستحقُّ عليها أن يُعبد وحده.

**ثالثًا**: أنَّه يثيب على هذه العبادة أعظم ثوابٍ، ويعاقب على تركها أعظم عقابٍ.

فيستحقُّ العبادة لهذه الأمور، والعاقلُ لا يخفى عليه هذا الدَّليل.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٨).

قال الشارح:

وَالْقُرْآنُ قَدْ ضَرَبَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِيهِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَهِيَ المَقَايِيسُ الْعَقْلِيَّةُ الْمُفِيدَةُ لِلْمَطَالِبِ الدِّينِيَّةِ، لَكِنَّ الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ الحَقَّ فِي الحُكْمِ وَالدَّلِيلِ، فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ مَعْلُومَةً ضَرُورِيَّةً مُتَّفَقًا عَلَيْهَا، اسْتُدِلَّ بِهَا، وَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا.

وَالطَّرِيقَةُ الفصيحَة فِي الْبَيَانِ أَنْ تُحْذَفَ، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ، بِخِلَافِ مَا يَدَّعِيهِ الْجُهَّالُ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ فِيهِ طَرِيقَةٌ بُرْهَانِيَّةٌ، بِخِلَافِ مَا قَدْ يَشْتَبِهُ وَيَقَعُ فِيهِ نِزَاعٌ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُهُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ.

---

قال الشيخ:

طريقة القرآن ضرب الأمثلة، وكثيرًا ما تأتي الأمثلة على معبودات المشركين؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ ...﴾ إلى آخرها، [الحج:٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩]، هذا أيضًا مثلٌ لمن يعبد إلهًا واحدًا، ومن يعبد آلهةً متفرِّقين كثير.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الروم:٢٨]، يقول: هل ترضى أن يكون مملوكك شريكًا لك في مالك وأهلك؟! إذا كنت لا ترضى، فهذه الآلهة مملوكةٌ لله،

فكيف تكون شريكةً له في العبادة؟! .

فضَرْبُ الأمثلة في القرآن لأجل إقناع من يستمع ذلك، وطريقة القرآن هي إيضاح الحُجَج بهذه الأمثلة، ولكنه يحذف المقدِّمات التي لا حاجة لها اختصارًا، ويقتصر على الشَّيء المهمِّ.

وبالجملةِ فكلُّ من تأملَّ الأدلَّة اتَّضح له أن توحيد الإلهيَّة أدلته واضحةُ الدَّلالة، فعليه أن يَقْنَعَ به، ويُقْنِعَ الخصم.

قال الشارح:

وَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مَعْلُومَ الِامْتِنَاعِ عِنْدَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، بِاعْتِبَارِ إِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَإِنَّمَا ذَهَبَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَنَّ ثَمَّ خَالِقًا خَلَقَ بَعْضَ الْعَالَمِ، كَمَا يَقُولُهُ الثَّنَوِيَّةُ فِي الظُّلْمَةِ، وَكَمَا يَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ فِي أَفْعَالِ الْحَيَوَانِ، وَكَمَا يَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ الدَّهْرِيَّةُ فِي حَرَكَةِ الْأَفْلَاكِ، أَوْ حَرَكَاتِ النُّفُوسِ، أَوِ الْأَجْسَامِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ أُمُورًا مُحْدَثَةً بِدُونِ إِحْدَاثِ اللهِ إِيَّاهَا، فَهُمْ مُشْرِكُونَ فِي بَعْضِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَكَثِيرٌ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ قَدْ يَظُنُّ فِي آلِهَتِهِ شَيْئًا مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ، بِدُونِ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

توحيد الرُّبوبيَّة قليلٌ جحوده في البشر، إلَّا أنَّ هناك من يشرك شركًا جزئيًّا، مثل المجوس، أشركوا بتوحيد الرُّبوبيَّة، فجعلوا الخَلْق من اثنين: من النُّور والظُّلمة، وقالوا: إن النُّور خَلَقَ الخير، والظّلمة خَلَقَتِ الشَّرَّ، ولم يجعلوهما سواءً، بلِ النُّور خيرٌ والظُّلمةُ شرِّيرةٌ، وهم لا يعظِّمون إلاَّ واحدًا، ولهذا يعبدون النَّار.

ومثل بعض المعتزلة الذين يجعلون بعض المخلوقات من إيجاد الحيوانات، ويقولون في الأفعال: إنَّ الإنسان يخلق أفعاله من دون قدرة الله، ولهذا المجوس يجعلون الوجود عن خالقين، والمعتزلة يجعلونه عن عددٍ؛ فلذلك يسمَّون: مجوسَ هذه الأمَّة، ولو زعموا أنَّهم ينزِّهون الله تعالى عنِ الظُّلم؛ لأن عملهم نوعُ شركٍ في الرُّبوبيَّة، وإن كانوا لا يعبدون إلَّا الله، ولكن كونهم يُسنِدون بعض الأفعال إلى

غير الله، ويقولون: إنَّ الإنسان يخلق فعله؛ صدَّق أنَّهم مشركون نوع شركٍ في الرُّبوبيَّة.

وعلى كلِّ حالٍ، فالأصل أنَّ الأمم كلَّهم يعترفون بتوحيد الرُّبوبيَّة، إلَّا من شذَّ؛ كفرعون الذي كان ينكر ذلك في الظاهر، ولكنَّه كان في باطن الأمر يعترِف بأنَّه مخلوقٌ، وأنَّ له خالقًا، ويوجد في هذه الأزمنة من يسمَّوْن بالشُّيوعيِّين، وقديمًا يسمَّون بالدَّهرِّيين، وهم في الحقيقة مُعاندون مكابرون، وإلَّا فلو رجعوا إلى تفكيرهم، ولو حكَّموا عقولهم؛ لما بقوا على هذه العقيدة السَّيِّئة، ولكنَّ مع المكابرة قلَّدوا من يقول فيها ومن يذهب إليها.

فالأصل أنَّ جميع طبقات العالم المكلَّفين يعترفون بأنَّ للعالم خالقًا، حتَّى الفلاسفة، وإن كانوا ينقسمون إلى دهرِّيين وإلهيِّين، لكنْ جُلُّهم على الاعتراف بالخالق، وأنَّ هذا الكون مفتقرٌ إلى من أوجده، وهذا هو توحيد الرُّبوبيَّة: أنَّ الموجد واحدٌ، لكنْ هناك أنواعٌ من الشِّرك في الرُّبوبيَّة، كشرك المجوس، وشركٌ المعتزلة، وإن لم يكن صريحًا، وشرك الفلاسفة والمتصوِّفة.

قال الشارح:

فَلَمَّا كَانَ هَذَا الشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مَوْجُودًا فِي النَّاسِ، بَيَّنَ الْقُرْآنُ بُطْلَانَهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْبُرْهَانَ الْبَاهِرَ، بِهَذَا اللَّفْظِ الْوَجِيزِ الظَّاهِرِ. فَإِنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا فَاعِلًا، يُوصِلُ إِلَى عَابِدِهِ النَّفْعَ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ الضُّرَّ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُ سُبْحَانَهُ إِلَهٌ آخَرُ يُشْرِكُهُ فِي مُلْكِهِ، لَكَانَ لَهُ خَلْقٌ وَفِعْلٌ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَرْضَى تِلْكَ الشَّرِكَةَ، بَلْ إِنْ قَدَرَ عَلَى قَهْرِ ذَلِكَ الشَّرِيكِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْمُلْكِ وَالْإِلَهِيَّةِ دُونَهُ فَعَلَ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ انْفَرَدَ بِخَلْقِهِ وَذَهَبَ بِذَلِكَ الْخَلْقِ، كَمَا يَنْفَرِدُ مُلُوكُ الدُّنْيَا بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِمَمَالِكِهِ، إِذَا لَمْ يَقْدِرِ الْمُنْفَرِدُ مِنْهُمْ عَلَى قَهْرِ الْآخَرِ وَالْعُلُوِّ عَلَيْهِ. فَلَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

إِمَّا أَنْ يَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِخَلْقِهِ وَسُلْطَانِهِ.

وَإِمَّا أَنْ يَعْلُوَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا تَحْتَ قَهْرِ مَلِكٍ وَاحِدٍ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ، بَلْ يَكُونُ وَحْدَهُ هُوَ الْإِلَهُ، وَهُمُ الْعَبِيدُ الْمَرْبُوبُونَ الْمَقْهُورُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

وَانْتِظَامُ أَمْرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ وَإِحْكَامُ أَمْرِهِ، مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ مُدَبِّرَهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَمَلِكٌ وَاحِدٌ، وَرَبٌّ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ لِلْخَلْقِ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ لَهُمْ سِوَاهُ. كَمَا قَدْ دَلَّ دَلِيلُ

التَّمَانُعِ عَلَى أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ فَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَذَلِكَ تَمَانُعٌ فِي الْفِعْلِ وَالْإِيجَادِ، وَهَذَا تَمَانُعٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ. فَكَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَالَمِ رَبَّانِ خَالِقَانِ مُتَكَافِئَانِ، كَذَلِكَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ.

---

قال الشيخ:

عندما نتأمل الآيات التي تثبت توحيد الربوبية نجدها كثيرة، يقرِّر الله تعالى توحيد الرُّبوبيَّة، وذلك بذكر خلقه للمخلوقات؛ كقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٥٧]، وكقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[الشورى: ٢٩]، وكقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[لقمان: ١٠، ١١].

تقريرُ هذه الآيات للتَّوحيد يتبَّين منها أنَّ هذا يُراد به نتيجة، وهو أنَّ من عرف أنَّ الله تعالى واحدٌ في ربوبيَّته؛ لم يعبد معه غيره، وقد ذكرنا أنَّ ابن كثيرٍ قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[البقرة: ٢١]، قال: «ومضمونه أنه الخالق الرازق، مالك الدار وساكنها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده، ولا يُشرك به غيره»[1]، ومن ذلك هذه الآية في سورة

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٨).

المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [المؤمنون:٩١]، فالله تعالى ما اتَّخذ من ولدٍ، لو كان له ولدٌ ـ تعالى عن ذلك ـ لكان الولد يشارك أو يشابه أباه، والله منزَّهٌ عن ذلك، ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ ﴾، ولو كان معه إلهٌ لزاحمه في الخلق والتَّدبير، وفي التَّصرُّف وفي الملكية، وهذا معنى قوله: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾.

فالمشاهَدُ أنَّ ملوك الدنيا يتنافسون، وكلٌّ منهم يحبُّ أن يكون هو الأقوى وهو المسيطر، وقرأنا عن بعضهم أنَّه لَمَّا قَتَل قريبًا له عند الملك؛ قال: إنَّ هذا من أحبِّ النَّاس إليَّ؛ ولكنَّ المُلك عقيمٌ ـ يعني: لا أريد من يزاحمني في المُلك ـ هذا مَلِكٌ من ملوك الدنيا، بطريق الأولى أن يقال: إنَّ الله تعالى لا شريك له، فلو كان له شريكٌ في الخَلْق والمُلك؛ لزاحمه، ولظهرت آثار هذه المزاحمة، وهو معنى قوله: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾، يعني: لو كان معه آلهةً؛ لكان كلُّ إلهٍ ينفصلُ عنِ الآخر بخلقه، ويعتزل ويحاول أن يكون له السَّيطرة، ويكون له العلوُّ على الآخر، ويكون هو المتمكِّن، ولعلا بعضهم على بعض.

وإذا نظرنا فيما حولنا فإذِ الأمرُ منتظمٌ، وإذا هذا الخلق وهذا العالَم يسير على هيئةٍ وحالةٍ واحدةٍ، لا يختلُّ ولا يقع فيه أيُّ تغيُّرٍ، وهذا أكبر دليل على أنَّ الذي خلقه ليس له شريكٌ، وأنَّه ليس له مزاحمٌ، وإلا لذهب كلُّ خالقٍ أو كلُّ إلهٍ بِخَلْقه وانفصل، كما يحصل من ملوك الدُّنيا؛ فإنَّ ملوك الدنيا ـ كما هو مشاهدٌ ـ كلٌّ منهم ينفصل في مملكته مع أنها ملكيَّةٌ مؤقَّتةٌ، كلٌّ ينفصل وكلٌّ يدبِّر مملكة خاصَّةً،

بل كلٌّ يحاول التَّغلُّب على الآخر، فهذا ونحوه دليلٌ على أن الخالق واحد.

وتسمَّى هذه الآية: دليل التَّمانع، ودلالة التَّمانع يقول بها المتكلمون، واستدلوا على أنَّ الخالق واحدٌ بدلالة التَّمانع، فقالوا: لو كان للعالم خالقان متساويان، فأراد أحدهما تحريك جسمٍ وأراد الآخر تسكينه، أو أراد أحدهما إحياءه وأراد الآخر إماتته؛ فإمَّا أن يحصل مراد واحدٌ دون واحدٍ، فيكون أحدهما قادرًا والآخر عاجزًا، وإمَّا أن يحصل مرادهما جميعًا، وهو محالٌ، وإمَّا ألاّ يحصل مراد أحدٍ منهما أيضًا، وهو محالٌ، فإذًا: إذا حصل مراد واحدٍ منهما؛ فالذي حصل مراده هو القاهر الغالب، والذي لم يحصل مراده عاجزٌ لا يصلح أن يكون إلهًا ولا خالقًا.

فكذلك ما جاء في هذه الآية: لو كان معه آلهة لاستقلَّ كلُّ إلهٍ بما خلق، ولعلا بعضهم على بعضٍ، فلما لم يحصل ذلك، دلَّ على أنَّ الخالق واحدٌ.

قال الشارح:

فَالْعِلْمُ بِأَنَّ وُجُودَ الْعَالَمِ عَنْ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ بُطْلَانُهُ، فَكَذَا تَبْطُلُ إِلَهِيَّةُ اثْنَيْنِ. فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُوَافِقَةٌ لِمَا ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ فِي الْفِطَرِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، دَالَّةٌ مُثْبِتَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ.

---

قال الشيخ:

إذا عرفنا توحيد الرُّبوبيَّة، فإنَّه يلزم منه توحيد الإلهيَّة، وقد ذكرنا أنَّ بعض المشايخ يقولون في تقريرهم: اعرفوا الله بأفعاله، ووحِّدوه بأفعالكم.

وأفعال الله هي خلقه وتدبيره؛ فإنَّها هي الدِّلالة على معرفة الله، فإذا قيل لك: بِمَ عرفت ربك؟ فقُلْ: بآياته ومخلوقاته. فاعرفوا الله بأفعاله، ووحِّدوه بأفعالكم، يعني: خصُّوه بعبادتكم.

فالآيات التي تقرِّر توحيد الرُّبوبيَّة كهذه الآية: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، والآياتُ الأخر تقرِّرُ توحيد الرُّبوبيَّة، وإذا استقرَّ توحيد الرُّبوبيَّة أصبح دليلًا على توحيد الإلهيَّة، يعني: أنَّ الله الخالق الرَّازق، المدبِّر، المتصرِّف في هذا الكون، الذي يُجري هذه الأشياء كما هي، ويحيي ويميت، والذي ابتدع هذا الكون من غير سابق خلقٍ، لا شكَّ أنَّه الذي يستحقُّ أن يُفرد بالعبادة، فيكون هذا دليلًا على توحيد العبادة.

قال الشارح:

وَقَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]. وَقَدْ ظَنَّ طَوَائِفُ أَنَّ هَذَا دَلِيلُ التَّمَانُعِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ ... إلخ، وَغَفَلُوا عَنْ مَضْمُونِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَقُلْ: أَرْبَابٌ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ وُجُودِهِمَا، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ آلِهَةٌ سِوَاهُ لَفَسَدَتَا.

---

قال الشيخ:

وهذه الآية أيضًا من أوضح الأدلَّة، وهي قول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، يعني: إذا قُدِّر أنَّ فيهما آلهةً إلَّا الله، فإنَّ كلَّ إلهٍ أو كلَّ خالقٍ يدبِّر ما يستطيعه، ويحرص على أن يتغلَّب على ما بجانبه، فلا تنتظم هذه الأفلاك ولا هذه المخلوقات، بل يحصل فيها شيءٌ من الخلل، ويحصل فيها شيءٌ من الاضطراب، ومثل ذلك مشاهدٌ، فإنه لو قُدِّر أنَّ هناك شريكين في أمرٍ، وكلٌّ منهما يحبُّ أن يكون هو المسيطر وهو المتسلِّط؛ لكان هذا يهمل الذي في جانب الثَّاني، وهذا يهمل الذي في جانب الثَّاني، فيقع الإهمال والاختلال، فلما رأينا الأمور منتظمةً؛ عرفنا أنَّه ليس فيهما آلهةٌ إلَّا اللهُ وحدَه.

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿لَفَسَدَتَا﴾، وَهَذَا فَسَادٌ بَعْدَ الْوُجُودِ، وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ يُوجَدَا. وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمَا آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، بَلْ لَا يَكُونُ الْإِلَهُ إِلَّا وَاحِدًا، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِلَهُ الْوَاحِدُ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ فَسَادَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْآلِهَةِ فِيهِمَا مُتَعَدِّدَةً، وَمِنْ كَوْنِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ غَيْرَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا صَلَاحَ لَهُمَا إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ فِيهِمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا غَيْرُ. فَلَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ لَفَسَدَ نِظَامُهُ كُلُّهُ، فَإِنَّ قِيَامَهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَدْلِ، وَبِهِ قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَأَظْلَمُ الظُّلْمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ الشِّرْكُ، وَأَعْدَلُ الْعَدْلِ التَّوْحِيدُ.

---

قال الشيخ:

الله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقد استنبط المؤلِّف ـ رحمه الله ـ أنَّ هذه الآية دليلٌ على إثبات توحيد الإلهيَّة، وليس توحيد الرُّبوبيَّة، لم يقل: لو كان فيهما أربابٌ ولا ملوكٌ ولا ملائكٌ ولا خالقون، بل قال: آلهةٌ، والإله هو المعبود المألوه؛ كما سيأتي إن شاء الله.

وأيضًا فإنَّ الله قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾، ولم يقل: لو كان في الوجود، وهذا دليلٌ على أنَّه بعد إيجادهما، والله قال: ﴿لَفَسَدَتَا﴾، ولم يقل: لم توجدا.

فالآيةُ تقرِّر توحيد الإلهيَّة، ولكنَّه متوقفٌ على توحيد الرُّبوبيَّة، فيخبر تعالى بأنَّ الإلهيَّة لا تصلح إلَّا لإلهٍ واحدٍ، وهو الله، وأنَّ من جعل معه آلهةً أخرى، فإنَّه

قد ضلَّ، وقد أخبر الله بأنَّ المشركين يجعلون معه آلهةً في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام:١٩]، ولكن تلك الآلهة آلهةٌ مخلوقةٌ ضعيفةٌ، لا تصلح أنْ تُتَّخذ آلهةً، وهذا في شرك الأوَّلين، وكذا في شرك الآخرين، وإن كانوا لا يعترفون بتسميتها آلهةً.

والحاصلُ: أنَّ الإلهيَّة الحقَّة إنَّما هي للخالق وحده، وهذه الآية في توحيد الإلهيَّة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾، ولكن كما عرفنا أنَّ توحيد الإلهيَّةِ مسبوقٌ بتوحيد الرُّبوبيَّة، لا يعترف العبد بتوحيد الإلهيَّة إلَّا بعدما يعترف بتوحيد الرُّبوبيَّة.

قال الشارح:

وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْعَكْسِ، فَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَكُونُ عَاجِزًا، وَالْعَاجِزُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأنعام:١٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧]، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٤٢].

وَفِيهَا لِلْمُتَأَخِّرِينَ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا إِلَى مُغَالَبَتِهِ.

وَالثَّانِي - وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ، كَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ -: لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [المزمل:١٩]، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾.

وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا: إِنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ، بَلْ جَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ، وَقَالُوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]، بِخِلَافِ الْآيَةِ الْأُولَى.

---

قال الشيخ:

معنى كون توحيد الإلهية متضمِّنًا لتوحيد الرُّبوبيَّة: أنَّه لا يمكن أنْ يعترف بأنَّ الإلهيَّة الحقَّة لله تعالى، وهو ينكر أن يكون هو ربَّ العالمين، فمن اعترف بأنَّ

الله هو الإله الحقُّ؛ اعترف بأنَّه الخالق، الرازق، المدبِّر، المتصرِّف، فتوحيد الرُّبوبيَّة في ضِمْن توحيد الإلهيَّة دون العكس، وليس كلُّ منِ اعترف بتوحيد الرُّبوبيَّة يعترف بالإلهيَّة، فهناك من يعترف بتوحيد الرُّبوبيَّة ويشرك في توحيد الإلهيَّة.

وهذه الآيات ونحوها تقرِّر توحيد الإلهيَّة، ولكنه ـ كما عرفنا ـ مسبوقٌ بتوحيد الرُّبوبيَّة ومتوقِّفٌ عليه، وتوحيد الرُّبوبيَّة يُعرف بالأدلَّة وبالآيات وبالفطرة ـ كما تقدَّم ـ ولكنَّ توحيد الإلهيَّة هو الذي يحتاج إلى أدلَّةٍ، ويحتاج إلى بيانٍ وتعليمٍ؛ ولهذا جاءتِ الرُّسل بالتَّعليم لتوحيد الإلهيَّة بأن يقولوا للنَّاس: وحِّدوا اللهَ بكذا، وحِّدوه بالدعاء، وحِّدوه بالرَّجاء، وحِّدوه بالاستعانة به وحده، وحِّدوه بالخوف منه، وحِّدوه بالخشية، لا تستعينوا بغيره، لا تستغيثوا بسواهُ ... إلى آخر أنواع العبادة، هذا هو توحيدُ الإلهيَّة الذي يحتاج إلى تفصيلٍ.

والشارح ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢]، رجَّح أنَّ السَّبيل هنا القربىٰ، يعني: لو قُدِّر أنَّ هناك آلهةً سوى الله؛ لكانت تلك الآلهة تتقرَّب إلى الله، وتتوسَّل إليه، وتبتغي السَّبيل إلى رضاه، وإذا كان كذلك؛ فإنَّ هذا هو الأولى بمن يعبد تلك الآلهة.

ودلَّ على ذلك ـ أيضًا ـ قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٥، ٥٦]، يخبر بأنَّ

أولئك الذين تدعونهم أيُّها المشركون خيرٌ منكم؛ فإنَّهم يدعون الله تعالى ويتوسَّلون إليه بالأعمال الصَّالحة.

والحاصل: أنَّ الآية صريحةٌ بأنَّه ليس هناك آلهةٌ غير الله، فلو كان هناك آلهةٌ غير الله؛ لكانت، تلك الآلهة تتقرَّب إلى الله، وتبتغي إليه الوسيلة وتعبده وتوحِّده، لكنَّها لا تصلح، وإذا كانت كذلك امتنع أن تكون آلهةً؛ كيف يكون إلهًا من هو عابدٌ لغيره ؟ كيف يصلح أن يُعبد من هو عابدٌ لغيره؟ إذا كانت تعبد الله فما لك أيُّها الإنسان تعبدها؟ اعْبُدِ الذي هي تعبده وحده.

قال الشارح:

ثُمَّ التَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ رُسُلُ اللَّهِ، وَنَزَلَتْ بِهِ كُتُبُهُ، نَوْعَانِ: تَوْحِيدٌ فِي الْإِثْبَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَتَوْحِيدٌ فِي الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ.

فَالْأَوَّلُ: هُوَ إِثْبَاتُ حَقِيقَةِ ذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَكَمَا أَخْبَرَ رَسُولُهُ ﷺ. وَقَدْ أَفْصَحَ الْقُرْآنُ عَنْ هَذَا النَّوْعِ كُلَّ الْإِفْصَاحِ، كَمَا فِي أَوَّلِ «الْحَدِيدِ»، و«طه»، وَآخِرِ «الْحَشْرِ»، وَأَوَّلِ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَةِ، وَأَوَّلِ «آلِ عِمْرَانَ»، وَسُورَةِ «الْإِخْلَاصِ» بِكَمَالِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ، مِثْلَ مَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤]، وَأَوَّلُ سُورَةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزمر:١] وَآخِرُهَا، وَأَوَّلُ سُورَةِ «يُونُسَ» وَأَوْسَطُهَا وَآخِرُهَا، وَأَوَّلُ سُورَةِ «الْأَعْرَافِ» وَآخِرُهَا، وَجُمْلَةُ سُورَةِ «الْأَنْعَامِ».

---

قال الشيخ:

مشهورٌ عند طُلَّاب العلم أنَّ أنواع التَّوحيد ثلاثةٌ: توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات. والشَّارح هنا ذَكَرَ أنَّ التَّوحيد نوعان: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الطَّلَب والقصد، وهذان النَّوعان يتضمَّنان

الأقسام الثَّلاثة التي ذكرنا؛ فإنَّ توحيد المعرفة هو توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الإثبات هو توحيد الصِّفات، وتوحيد الطَّلَب والقصد هو توحيد العبادة أو الإلهيَّة، هذه أقسامُ التَّوحيدِ.

فتوحيد الرُّبوبيَّة هو توحيد المعرفة، أي: معرفة الله. إذا قيل: بِمَ عرفتَ ربَّك؟ تقول: بآياته ومخلوقاته التي يُستَدلُّ بها على عظمة ذاته. وهذا النَّوعُ هو توحيد الذَّات، أو إثبات الذَّات، ويسمَّى توحيد الرُّبوبيَّة.

أمَّا الإثبات فهو توحيد الصِّفات، وهو اعتقاد أنَّ كلَّ صفةٍ لله تعالى فإنَّه منفردٌ بها، لا يشبه غيره في شيءٍ من صفاته، فيقال ـ مثلًا ـ: صفاته الذَّاتيَّة؛ كوجهه، ويده، وسمعه، وبصره، لا تشبه صفات المخلوقين، نوحِّده بها، ونقول: إنَّها لائقةٌ به. وكذلك الصِّفات الفعليَّة، فيقال: إنَّ الله يحبُّ ويرحم ويغضب ويرضى ويكره ويَمْقت، وإنَّ الله استوى ويجيء وينزل؛ كما أخبرنا، وهو في كلِّ ذلك لا يشبهه أحدٌ من خلقه، فهو منفردٌ بذلك وحده، وهذا توحيد الصِّفات.

وتوحيد الذَّات هو الاعتقاد بأنَّ الله واحدٌ بذاته، ليس معه شريكٌ في الخلق.

وتوحيد الإثبات هو اعتقاد أنَّ الله واحدٌ في صفاته، لا يشبهه أحدٌ من مخلوقاته في شيءٍ من خصائص صفاته.

وهذا النَّوع ـ وهو توحيد الصفات ـ قد اجْتهد السَّلف ـ رحمهم الله ـ في تقريره، وما ذاك إلاَّ لأنَّهم ابْتُلوا في زمانهم بمن أنكره، أو بمن غلا في إثباته، فأنكره قومٌ ـ وسمّوهم جهميَّةً ومعتزلةً ـ حيث نفوا صفات الله تعالى ذاتيَّةً أو فعليَّةً، وغلا فيه قومٌ، فسمّوهم مُشَبِّهَة؛ لأنهم زادوا في الإثبات، حتَّى جعلوا

صفاته كصفات خلقه. فاجتهد السَّلف ـ رحمهم الله ـ في إثبات ذلك، وقرَّروه أتمَّ تقريرٍ، وكتبهم ـ بحمد الله ـ موجودةٌ ميسَّرةٌ، سمَّوها «كتب السُّنَّة»، أو «كتب التَّوحيد»، أو «كتب الإيمان»، أو «الاعتقاد»، أو «الأسماء والصِّفات» ... أو ما أشبه ذلك من أسماءٍ.

فإذا وجدتَ للسَّلف كتابًا باسم «كتاب السُّنة»، فإنَّه الصفات، وإذا وجدت كتابًا باسم «التوحيد» فإنه يعني توحيدَ الصِّفات، وإذا وجدت كتابًا باسم «الاعتقاد»، فإنَّه يعني هذا الباب، أو وجدت كتابًا باسم «الأسماء والصفات»، فإنَّه يُعنى بهذا الأمر، أو وجدت كتابًا باسم «الإيمان»، فإنَّه يُعنى به هذا التَّوحيد.

وأمَّا توحيد الطَّلَب والقصد، فهو توحيد الإلهيَّة، ومعنى الطَّلَب: السؤال، والقصد: التَّوجُّه بالقلب إلى الله.

فالسُّؤال يسمَّى طَلَبًا، وهو من حقِّ الله، فالسَّائل هو الذي يقول ـ مثلًا ـ: أسألك رضاك، أسألك ثوابك، أسألك جنَّتك، أسألك عطاءك، هذا توحيدٌ في الطَّلَب.

والقصد: أن يكون قلبه متوجِّهًا إلى ربِّه، هذا توحيد القصد.

هذا النَّوع يسمَّى التَّوحيد الطَّلَبيَّ، ويسمَّى التَّوحيد القصديَّ، والتَّوحيد الإراديَّ؛ لأنَّه مرادٌ من العباد، والتَّوحيد العمليَّ؛ لأنَّه أعمالٌ يعملونها، ويسمَّى توحيد الإلهيَّة، وتوحيد العبادة.

أمَّا الأوَّل فيسمَّى توحيدًا علميًّا، والتَّوحيد العلميُّ: هو التَّوحيد الخبريُّ؛ لأنَّه يعتمد على الأخبار، والتَّوحيد الاعتقادي؛ لأنَّه عقيدةٌ يعتقدها الإنسان،

فتوحيد الصِّفات، أو توحيد الذَّات، أو توحيد الرُّبوبيَّة، كلُّها أسماءٌ لتوحيدٍ واحدٍ.

فإذا قيل: ما هو التَّوحيد العلميُّ، الخبريُّ، الاعتقاديُّ؟

تقول: هو توحيد الأسماء والصِّفات وتوحيد الرُّبوبيَّة.

وإذا قيل: ما هو التَّوحيد الطَّلَبيُّ، الإراديُّ، القصديُّ، العمليُّ؟

تقول: هو توحيد العبادة.

والأدلَّة على ذلك كثيرةٌ، فإنَّ القرآن قد وضَّح ذلك كثيرًا، فسورة الإخلاصِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، في التَّوحيد العلميِّ الخبريِّ الاعتقاديِّ، وهو توحيد الأسماء والصِّفات.

وسورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، في التَّوحيد الطَّلبيِّ القصديِّ الإراديِّ، وهو توحيد العبادة أو الإلهيَّة.

والسُّور الأخرى متضمِّنةٌ لهذا ولهذا، فأوَّل سورة الحديد في الأسماء والصِّفات، وكذلك آخر سورة الحشر، وكذا آياتٌ كثيرةٌ متفرقةٌ في القرآن، وأوَّل سورة ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ - التي هي الزُّمَر - وآخرها وأوسطها أو أغلبها، وأوَّل سورة الأعراف وآخرها، ونحوها، هذه في التَّوحيد العمليِّ، الذي هو توحيد الطَّلب والقصد. وإذا تأمَّلنا هذه الآيات وجدناها تبيِّن هذا النَّوع، وتحثُّ عليه، وترغِّب فيه، فتدعو إلى معرفة توحيد الرُّبوبيَّة؛ حتَّى يرسخَ في القلب، ثمَّ ينبعث منه توحيد العبادة؛ حتَّى يُكْثِرَ العبدُ من أنواع القربات والعبادات.

قال الشارح:

وَغَالِبُ سُوَرِ الْقُرْآنِ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَوْعَيِ التَّوْحِيدِ، بَلْ كُلُّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ: إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ.

وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ.

وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ، فَذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتِهِ.

وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ إِكْرَامِهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ.

وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ، فَهُوَ جَزَاءُ مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ.

---

قال الشيخ:

جميع القرآن يدور حول التَّوحيد والإخبار عن الله تعالى؛ كقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، يُعَدُّ هذا توحيدًا، لكنَّه توحيد الذَّات أو الرُّبوبيَّة.

كذلك نقول في الأوامر، فقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ [النساء: ١]،

ونحو ذلك، هذا توحيدٌ، وهو توحيد عبادةٍ؛ لأنَّه أمرٌ بعبادة الله.

كذلك ما في القرآن من الأحكام؛ كالعبادت والصلوات والقربات، هذه مكمِّلات التَّوحيد وثمراته، فإنَّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الله هو الواحد عَبَدَه، فأمثلة العبادات هي: الصَّلوات، والصَّدقات، والقربات.

كذلك ما في القرآن من محظوراتٍ؛ من النَّهي عن المحرَّمات، والنَّهي عن الفواحش والمنكرات، هذه اجتنابها يكمِّل التَّوحيد، وفعلها ينقص ثواب التَّوحيد، فإنَّ المعاصي تنقص ثواب التَّوحيد، فيُنهى عنها حتَّى يَكْمُلَ التَّوحيدُ.

كما أن في القرآن قصصًا؛ كقصَّة نوحٍ ـ عليه السلام ـ وقومه، وهودٍ ـ عليه السلام ـ وقومه، وشعيبٍ ـ عليه السلام ـ وقومه، فيها نجاة قومٍ لأجل التَّوحيد، وهلاك آخرين لأجل مخالفة التَّوحيد.

وفي القرآن ذكر الجنَّة وثوابها، والدَّعوة إليها، والجنَّة هي ثواب أهلِ التَّوحيد، وفي النَّار والعذاب والنَّكال والغضب وما أشبه ذلك، عقوبةٌ لأهل الشِّرك المبتعدين عن التَّوحيد.

والأمثلة التي ضُربتْ في القرآن كلُّها لأجل تقرير التَّوحيد، مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، يعني: لا تدعوا إلَّا إلهًا واحدًا، فإنَّ هذه المخلوقات لا تخلق ذبابًا، وهذه المخلوقات التي أنتم تعبدونها مخلوقةٌ، ومع ذلك فهي ضعيفةٌ، فهذا في تقرير التَّوحيد.

ومثل قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ [الزمر:٢٩]، فيه تقرير التَّوحيد، فإنَّ السَّلم هو الخالص، يقول: الذي يعبد الله تعالى هو مثل العبد الذي يملكه واحد، والذي يعبد هذا وهذا لا شكَّ أنَّه مثل العبد الذي بين شركاء، كلٌّ منهم ينتزعه لنفسه، وكلٌّ منهم يقول: أريده لخدمتي. وهم مع ذلك متشاكسون، يعني: بينهم شيءٌ من البغضاء، وشيءٌ من الاختلاف والجدال والاضطراب.

لا شكَّ أنَّ هذه الأمثلة تقريرٌ للتَّوحيد، فإن كان الآيات قصصًا فهي لتقرير التَّوحيد، وإن كانت وعدًا ووعيدًا فهي في الثواب الذي يترتَّب على فعل التَّوحيد، وفي العقاب الذي يترتَّب على ترك التَّوحيد، وإن كانت أحكامًا وأوامر ونواهي وواجباتٍ ومحرَّماتٍ، فهي من مُكَمِّلات التَّوحيد، فعلًا أو تركًا، أو كانت في أوامر بالعبادة ونحوها، فهي أمثلة أنواع التَّوحيد.

فأصبح القرآن دائرًا على التَّوحيد، وذلك دليلٌ على أهميَّته.

ولأجل ذلك صار التوحيد شرطًا في قَبول العبادات، فلا تُقبل الصَّلاة إلَّا بشرط الإسلام، ولا تُقبل الطَّهارة إلاَّ بشرط الإسلام، وهو التَّوحيد أصلًا، وكذا لا تُقبل الصَّدقات ولا تُقبل القُرُبات، ولا الصِّيام، ولا الحجُّ، وما أشبه ذلك، كلها لا تُقبل إلاَّ بأن يتقدَّمها شرطٌ واحدٌ، وهو التَّوحيد، حتَّى الفاتحة ـ التي هي أكثر سورة نكررها في صلاتنا كل يوم ـ تفسيرها يدور حول التَّوحيد؛ أوَّلها ووسطها وآخرها؛ كلُّها دائرةٌ على التَّوحيد، وكذا بقيَّة السُّور.

قال الشارح:

فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ، فَـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَوْحِيدٌ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تَوْحِيدٌ، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ تَوْحِيدٌ مُتَضَمِّنٌ لِسُؤَالِ الْهِدَايَةِ إِلَى طَرِيقِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الَّذِينَ فَارَقُوا التَّوْحِيدَ.

وَكَذَلِكَ شَهِدَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا التَّوْحِيدِ، وَشَهِدَتْ لَهُ بِهِ مَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٨، ١٩]، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِثْبَاتَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَالرَّدَّ عَلَى جَمِيعِ طَوَائِفِ الضَّلَالِ، فَتَضَمَّنَتْ أَجَلَّ شَهَادَةٍ وَأَعْظَمَهَا وَأَعْدَلَهَا وَأَصْدَقَهَا، مِنْ أَجَلِّ شَاهِدٍ، بِأَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ.

---

قال الشيخ:

القرآن كلّه يدورُ حول تقرير التَّوحيد، كما تقدَّم أنَّ الأوامر والنواهي في الأحكام تكميلٌ للتَّوحيد أو أمرٌ بالتَّوحيد، والقصص والوقائع فيها بيان حال أهل التَّوحيد ومن خالف التَّوحيد، فالله يذكر قصَّة المكذِّبين بالتَّوحيد وكيف أهلكهم، وقصَّة الرُّسل ومن نجا معهم؛ لأنَّهم من أهلِ التَّوحيد، وكذلك ذكر

الثَّواب والعقاب؛ الثَّواب لأهل التَّوحيد، والعقاب لمن خالف التَّوحيد.

فيقول: إنَّ سورة الفاتحة تتضمَّن التَّوحيد، كلُّ آيةٍ منها فيها توحيدٌ:

**الآية الأولى**: التي فيها الحمد، أي: أنَّه المستحقُّ للحمد وحدَه، فهو توحيدٌ؛ لأنه تخصيصٌ للحمد بمن يستحقُّه.

**والآية الثَّانية**: فيها وصف الله تعالى بالرَّحمة، وهذا توحيد الصِّفات، يعني: إنَّ من صفاته أنَّه المتوحِّد بصفة الرَّحمة.

**والآية الثَّالثةُ**: فيها المُلْك؛ أي: هو وحده المالك، فلا يملك أحدٌ ملكَه.

**والآية الرَّابعة**: فيها العبادة، أي: لا نعبد غيرك، فأنت المعبود وحدك، وأنت المستعان به وحدك، وهذه هي حقيقة التَّوحيد؛ فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد العبادة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد العمل أو توحيد المعرفة.

وكذلك سؤال الهداية، والهداية هي: الدَّلالة على الصِّراط الذي هو صراط أهل التَّوحيد، والذين أنعم الله عليهم هم أهل التَّوحيد، والدُّعاء بأنْ يجنِّب الله السَّالك طريق الغاوين، وهم أهل الغضب وأهل الضَّلال؛ لأنَّهم خالفوا التَّوحيد.

فتضمَّنتْ سورة الفاتحة من أوَّلها إلى آخرها تقرير التَّوحيد.

وكذلك الآية التي ذكرها، وهي من سورة آل عمران، فإنَّ الله ذَكَر أنَّه شَهِدَ بهذه الشَّهادة، يقول: (فَتَضَمَّنَتْ أَجَلَّ شَهَادَةٍ وَأَعْظَمَهَا وَأَعْدَلَهَا وَأَصْدَقَهَا، مِنْ أَجَلِّ شَاهِدٍ، بِأَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ)، فالشَّاهد هو الله والملائكة والعلماء: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ

أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨]، فجعل أهل الشَّهادة هم هؤلاء الثَّلاثة: شَهِدَ لنفسه، وشَهِدَتْ له ملائكته، وشَهِدَ له أهل العلم به من خلقه، وأولو العلم هُمُ الذين آتاهمُ الله معرفةً بتوحيده، فهمُ الذين يخصُّونه بالتَّوحيد، أمَّا المشركون فإنَّهم جَهَلَةٌ، فكلُّ من أعطاه الله علمًا بهذا النَّوع فهو من أهل العلم.

فالشَّاهد هو: الله، وملائكته، وأهل العلم من خلقه.

والشَّهادة معناها: الإقرار بالمشهود به والاعتراف به.

والمشهود به هو: الإلهيَّة؛ ولهذا كرَّر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ مرَّتَين، وأتبعها أنَّ الإسلام هو دين الحقِّ. فهذه الآية في تقريرِ التَّوحيد.

وقد تكلم ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ على هذه الآية في آخر كتابه «مدارج السالكين»[1]، والشَّارح ـ رحمه الله ـ لخَّص كلامه ونقل منه كثيرًا، ممَّا يدُّل على أنَّ الآية تضمَّنَتْ معاني جديدةً مفيدةً، إذا تأمَّلها المسلم عَرَفَ كيفيَّة التَّوحيد، وكيف شَهِدَ الله به لنفسه، وشهدت به ملائكته له، وشَهِدَ به العلماء من خلقه.

---

(١) (٣/ ٤٥٠).

قال الشارح:

وَعِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي ﴿ شَهِدَ ﴾ تَدُورُ عَلَى الْحُكْمِ، وَالْقَضَاءِ، وَالْإِعْلَامِ، وَالْبَيَانِ، وَالْإِخْبَارِ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا حَقٌّ لَا تَنَافِيَ بَيْنَهَا؛ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ تَتَضَمَّنُ كَلَامَ الشَّاهِدِ وَخَبَرَهُ، وَتَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ وَإِخْبَارَهُ وَبَيَانَهُ.

فَلَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

فَأَوَّلُ مَرَاتِبِهَا: عِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ وَاعْتِقَادٌ لِصِحَّةِ الْمَشْهُودِ بِهِ وَثُبُوتِهِ.

وَثَانِيهَا: تَكَلُّمُهُ بِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُعْلِمْ بِهِ غَيْرَهُ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِهَا مَعَ نَفْسِهِ وَيَتَذَكَّرُهَا وَيَنْطِقُ بِهَا أَوْ يَكْتُبُهَا.

وَثَالِثُهَا: أَنْ يُعْلِمَ غَيْرَهُ بِمَا يَشْهَدُ بِهِ وَيُخْبِرُهُ بِهِ وَيُبَيِّنُهُ لَهُ.

وَرَابِعُهَا: أَنْ يُلْزِمَهُ بِمَضْمُونِهَا وَيَأْمُرَهُ بِهِ.

فَشَهَادَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ: عِلْمَهُ بِذَلِكَ سُبْحَانَهُ، وَتَكَلُّمَهُ بِهِ، وَإِعْلَامَهُ، وَإِخْبَارَهُ لِخَلْقِهِ بِهِ، وَأَمْرَهُمْ وَإِلْزَامَهُمْ بِهِ. فَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ تَضَمَّنُهَا ضَرُورَةً، وَإِلَّا كَانَ الشَّاهِدُ شَاهِدًا بِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، وَقَالَ ﷺ: «عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ»[1]، وَأَشَارَ إِلَى الشَّمْسِ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨)، والحاكم (٤/ ٩٨) بنحوه، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٩٨): «صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ، وفي إِسْنَادِهِ محمد بن سُلَيْمَانَ بن مَسْمُولٍ، وهو ضَعِيفٌ».

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ التَّكَلُّمِ وَالخَبَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩]، فَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَهَادَةً، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظُوا بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ، وَلَمْ يُؤَدُّوهَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ.

---

قال الشيخ:

كلمة: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾، قيل معناها: عَلِمَ، وقيل: أخبر، أو بيَّن، أو علَّم خلقه، أو أمر به وألزمهم، والكلمة تحتمل ذلك كلَّه، أي: عَلِمَ بوحدانيَّته، وهو أعلم بنفسه وبخلقه، وقيل: بيَّن ذلك وأظهره، وقيل: أخبر به عباده وأعلمهم به، وقيل: أمر بذلك وألزم به عباده، وقيل: أمرهم بأن يوحِّدوه وأن يخلصوا له العبادة، هذه هي حقيقة ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

قوله: (فَلَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِبَ)، أي: هذه الشَّهادة تضمَّنت هذه المراتب الأربع: تضمَّنَتْ أنَّ الله عَلِمَ بذلك وهو أعلم بنفسه، ثمَّ بعد ذلك تكلَّم به، ثمَّ بعد ذلك علَّم به خلقه، ثم بعد ذلك أمرهم به؛ فهذه مراتب أربع: العلم، ثمَّ التَّكلُّم، ثمَّ الإخبار، ثمَّ الإلزام؛ يعني: الأمر أمر إلزامٍ.

ثم تكلَّم ـ رحمه الله ـ على معاني هذه الأشياء، فقال: إنَّ الإنسان لا يشهد إلَّا بما عَلِمَ، قال تعالى: ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [يوسف:٨١]، فأنتَ ما تؤمر بالشَّهادة إلَّا بعدما تعلمها وتعتقد معناها وتتحقَّقها، فلابدَّ من هذا الأمر، وهو العلم، ولا بدَّ أن يكون العلم علمَ يقينٍ لا علم شكٍّ وتردُّدٍ، ولا بدَّ أن يكون ذلك

العلم قائمًا على أدلَّةٍ، فإنَّ العلم الذي ليس له دليلٌ قويٌّ لا يؤمَنُ أن يأتي دليلٌ يبطله، ولا شكَّ أنَّ علم التَّوحيد قائمٌ على أدلَّةٍ قويَّةٍ لا يمكن أن يأتي ما يبطل دلالتها.

فهذه المرتبة الأولى، وهو أنَّ الشَّاهد يعلم ما يشهد به، يعلمه عِلْم يقينٍ، ويكون علمه ناشئًا عن أدلَّةٍ، وتكون تلك الأدلَّة صريحة الدِّلالة، ليس فيها شكٌّ ولا تردُّدٌ.

كذلك المرتبة الثَّانية، وهي مرتبة التكلُّم والإخبار، أنت إذا شهدت بالتَّوحيد واعتقدتَهُ بقلبك، فلا تسكتْ عمَّا في نفسك، بل عليك أن تخبر بما تقوله وبما تعتقده، فتخبر النَّاس بأنَّك على يقينٍ بهذا التَّوحيد، وأنَّك على عقيدةٍ راسخةٍ ومعرفةٍ تامَّةٍ بما تعتقده من إلهيَّة الله وحده، ومن استحقاقه لصفات الكمال، وللأسماء الحسنى، والصِّفات العُلى.

فالتَّكلُّم يسمى شهادةً، فإنَّ هذه الآية في المشركين في قوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩]، هم ما قالوا: نشهدُ أنَّ الملائكة بنات الله، إنَّما تكلَّموا فيما بينهم، فلذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾، يعني: تكلَّموا فيما بينهم، وقالوا: الملائكة إناثٌ، الملائكة بنات الله، فجعل ذلك شهادةً، فقال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾، فهذا سبب تسميتِها شهادةً: أنَّهم تكلَّموا بها.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْإِعْلَامِ وَالْإِخْبَارِ فَنَوْعَانِ: إِعْلَامٌ بِالْقَوْلِ، وَإِعْلَامٌ بِالْفِعْلِ. وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مُعْلِمٍ لِغَيْرِهِ بِأَمْرٍ: تَارَةً يُعْلِمُهُ بِهِ بِقَوْلٍ، وَتَارَةً بِفِعْلٍ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ جَعَلَ دَارَهُ مَسْجِدًا وَفَتَحَ بَابَهَا، وَأَبْرَزَهَا بِطَرِيقِهَا، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ بِالدُّخُولِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا: مُعْلِمًا أَنَّهَا وَقْفٌ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِهِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ وُجِدَ مُتَقَرِّبًا إِلَى غَيْرِهِ بِأَنْوَاعِ الْمَسَارِّ، يَكُونُ مُعْلِمًا لَهُ وَلِغَيْرِهِ أَنَّهُ يُحِبُّهُ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِقَوْلِهِ، وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ.

وَكَذَلِكَ شَهَادَةُ الرَّبِّ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَبَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ، يَكُونُ بِقَوْلِهِ تَارَةً، وَبِفِعْلِهِ أُخْرَى، فَالْقَوْلُ مَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَأَمَّا بَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ بِفِعْلِهِ، فَكَمَا قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: شَهِدَ اللَّهُ ـ بِتَدْبِيرِهِ الْعَجِيبِ، وَأُمُورِهِ الْمُحْكَمَةِ عِنْدَ خَلْقِهِ ـ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَقَالَ آخَرُ[1]:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّهَادَةَ تَكُونُ بِالْفِعْلِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]، فَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَهُ.

---

(١) يُنسب هذا البيت لأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد. انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٤/ ٣٩)، وتاريخ بغداد (٦/ ٢٥٣)، وتاريخ دمشق (١٣/ ٤٥٣).

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَشْهَدُ بِمَا جَعَلَ آيَاتِهِ المَخْلُوقَةَ دَالَّةً عَلَيْهِ، وَدَلَالَتُهَا إِنَّمَا هِيَ بِخَلْقِهِ وَجَعْلِهِ.

---

قال الشيخ:

هذه المرتبة الثَّالثة التي هي إعلام الغير، يقول: إنَّ الله شَهِدَ لنفسه بالإلهيَّة، ومن آثار الشَّهادة ومن تمامها أن أعلم غيره بأنَّه لا إله إلاَّ هو، وهذا الإعلام ذَكَرَ بأنَّه يكون بأمرين: إعلامٌ بالفعل، وإعلامٌ بالقول.

إعلام الله لخلقه بالقول: هو ما تضمَّنه كلامه الذي أوحاه إلى رسله، فإنَّه أرسل الرُّسل، وأوحى إلى كلٍّ منهم بهذا التَّوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فهذا إعلامٌ بالقول؛ حيث أعلم كلَّ نبيٍّ بواسطة الملائكة بهذا النَّوع، الذي هو توحيد العبادة، وكذلك أنزل إلى كلِّ نبيٍّ كُتُبًا أو صُحُفًا، وضمَّن تلك الكتب كلامه الذي يتضمَّن توحيده وشرعه، فهذا إعلامٌ بالقول.

وأما الإعلام بالفعل: فهو ما نصبه تعالى من الآيات والدِّلالات، التي من تأمَّلها عَرَفَ حقيقة التوحيد، وعَرَفَ الدِّينَ الحقَّ، وعَرَفَ أنَّ الله هو الواحد الأحد، فإنَّه سبحانه نَصَبَ الآيات، ولفت إليها الأنظار، فلأجل هذا يُذَكِّر عباده بهذه المخلوقات التي خَلَقَها، فيخبرهم بخلقهم أنفسهم، وبخلق ما على الأرض من الدَّوابِّ، ويخبرهم بخلق الأرض واختلاف ما فيها من جبالٍ، ومهادٍ،

وبحارٍ، وأنهارٍ، وأشجارٍ، وثمارٍ، وما أشبه ذلك، وهكذا يلفت أنظارهم إلى ما فوقهم من الرِّياح، والسُّحب، والأفلاك، وما فيها من النُّجوم السيَّارة والثَّابتة، وما أشبهها، كلُّ ذلك من الآيات التي نصبها لعباده، يعلِّمهم بهذا التَّوحيد، كأنَّه يقول: تعلَّموا من هذه الآيات دلالتها على أنَّ الخالق لها هو الواحد الأحد، هو المستحقُّ لأن يُعبدَ ويُفردَ.

فشهد بالقول بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

وشَهِدَ بالفعل بأن أعلم عباده بالفعلِ، فَنَصَبَ الآيات والدّلالاتِ؛ حتَّى يعلموا منها قدرته تعالى على كلِّ شيءٍ، واستحقاقه لأن يُؤَلَّه وحده، وأن لا يُؤَلَّه معه غيره.

يذكر الشَّارِح أنَّ الإعلام يكون بالقول وبالفعل حتى من واجبنا، فالواجد منَّا عليه أن يُعْلِم النَّاس بما يعتقده، نحن نعتقد أنَّ لا إله إلاَّ الله، فنخبر بأنَّا نعتقد ذلك، وهذا الإخبار يقتضي الإعلام، اعلموا بأنَّا نعتقد أنَّ الله هو الإله الحقُّ. فهذا إعلامٌ بالقول.

والإعلام بالفعل: هو أفعال الإنسان، فأنت مثلًا إذا رأيت المؤمن التَّقيَّ الموَحِّد يمدُّ يديه إلى ربِّه يتضرَّع إليه، عرفت أنَّه يعبد إلهًا واحدًا، وكذلك إذا رأيته يركع له ويسجد، ويقوم له ويقعد، ويخضع له ويتواضع، عرفت من ذلك أنَّه يعبد إلهًا واحدًا، فأعلمك هذا العابد بقوله، وأعلمك بفعله، فالإعلام يكون بالأمرين: بالقول، وبالفعل.

فمثلًا: الذي يبني مسجدًا لم يقل للنَّاس: أيُّها النَّاس! هذا وَقْفٌ، بل لَـمَّا بناه على هيئة المسجد، وفتح أبوابه، وشرَّع للنَّاس ليجتمعوا فيه ليؤدُّوا الصَّلوات، وليحضروا فيه الخطب والحلقات، كان ذلك إعلامًا بالفعل، وإن لم يكن إعلامًا بالقول.

فكذلك إذا أعلمك طالب العلم أو المسلم بفعله أنَّه يعبد الله وحده، فإنَّ ذلك كافٍ في الإعلام.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْأَمْرِ بِذَلِكَ وَالْإِلْزَامِ بِهِ، وَأَنَّ مُجَرَّدَ الشَّهَادَةِ لَا يَسْتَلْزِمُهُ، لَكِنَّ الشَّهَادَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتَتَضَمَّنُهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ شَهِدَ بِهِ شَهَادَةَ مَنْ حَكَمَ بِهِ، وَقَضَى وَأَمَرَ وَأَلْزَمَ عِبَادَهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل:٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[التوبة:٣١]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨]، وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

ذكر ـ رحمه الله ـ مرتبة العلم، ثمَّ مرتبة التَّكلُّم، ثمَّ مرتبة الإخبار، ثمَّ هذه المرتبة الرَّابعة، التي هي مرتبة الأمر والإلزام بالمأمور به، وهو التَّوحيد.

قال اللهُ تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٨، ١٩]، هذه الشَّهادة قد لا يكون فيها أمرٌ صريحٌ للنَّاس بأن يشهدوا، فما قال: اشهدوا بما شهد به، ولا قال: ألزمتكم أيها الناس بأن تشهدوا بما شهدت به. ولكنَّ العاقل يتفكَّر إذا قرأ أو قيل له: إنَّ الله قد شهد لنفسه بالوحدانيَّة، وملائكته شهدوا له بذلك، والعلماء من خلقه شهدوا له بذلك؛ يفكر ويقول: كيف لا أكون

معهم؟ كيف لا أكون مع العلماء؟ إذا لم أكن مع العلماء كنت مع الجهَّال، لا أرضى أن أكون بين الجاهلين أتقلَّب. فعند ذلك يشهد بما شهدوا به، فكأنَّ ذلك أمرٌ، كأنه يقول: شهدت بذلك أنا وملائكتي والعلماء من خلقي، فافعلوا ذلك واشْهَدوا به يا جميع الخلق.

هذا قد يُؤخذ من هذه الشَّهادة، ولكن هناك أدلَّةٌ صرَّحت بأمر النَّاس كلِّهم بهذه الشَّهادة وبهذا التَّوحيد، مثل الآيات التي تقدمت، فالله تعالى يقول: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، ويقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة:٨٣]، ويقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ويقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١]، ويقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

فالأمر يقتضي الإلزام، إذا أمر الله بهذا فقد ألزمَنا به، ولا شكَّ أنَّ ما ألزم به يجب امتثاله، فإنَّ أمر الله هو الحقُّ، وضدُّه هو الباطل، فمن لم يمتثلْ هذا المأمورَ فإنَّه خاسرٌ.

قال الشارح:

وَوَجْهُ اسْتِلْزَامِ شَهَادَتِهِ سُبْحَانَهُ لِذَلِكَ: أَنَّهُ إِذَا شَهِدَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَدْ أَخْبَرَ وَبَيَّنَ وَأَعْلَمَ وَحَكَمَ وَقَضَى أَنَّ مَا سِوَاهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَأَنَّ إِلَهِيَّةَ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، كَمَا لَا تَصْلُحُ الْإِلَهِيَّةُ لِغَيْرِهِ. وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْأَمْرَ بِاتِّخَاذِهِ وَحْدَهُ إِلَهًا، وَالنَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِهِ مَعَهُ إِلَهًا، وَهَذَا يَفْهَمُهُ الْمُخَاطَبُ مِنْ هَذَا النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، كَمَا إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا يَسْتَفْتِي رَجُلًا، أَوْ يَسْتَشْهِدُهُ، أَوْ يَسْتَطِبُّهُ، وَهُوَ لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ، وَيَدَعُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ، فَتَقُولُ: هَذَا لَيْسَ بِمُفْتٍ، وَلَا شَاهِدٍ، وَلَا طَبِيبٍ، الْمُفْتِي فُلَانٌ، وَالشَّاهِدُ فُلَانٌ، وَالطَّبِيبُ فُلَانٌ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنْهُ وَنَهْيٌ.

---

قال الشيخ:

كأنَّ الشَّارح يقول: إنَّ كلمة ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١٨] قد يُؤخذ منها الأمر، لكن كيف يكون ذلك؟

إذا أخبر الله بهذا الخبر؛ فقد أخبر بإلهيَّته الحقَّة، ونفى عن غيره الإلهيَّة، نفى أن يكون غيره صالحًا لأن يكون إلهًا، وإذا لم يصلح غيره للإلهيَّة، فكأنَّه يأمر عباده بأن يُؤلِّهوه، فيقول: الإله الحقُّ هو الله، فإذا كنتم تريدون نجاتكم، فاتَّخذوه إلهًا، واتركوا إلهيَّة ما سواه.

هذا وجه أخذ الأمر بقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾، كل من سمع ذلك يقول: هذه شهادة الله، فإذا شهد الله وملائكته والعلماء من خلقه بهذا الشَّيء، فقد بَطُلَ

ما عداه، وكلُّ ما سوى هذا المشهود به فهو باطلٌ، فلا يصحُّ حينئذٍ أن يُجعل معه آلهةٌ، ولا أن يؤلَّه غيرُه، فمن ألَّهَ غيرَه فقد ضلَّ سعيه في الحياة الدُّنيا، وخسر عمله.

ونضرب مثلًا: إذا سمعت إنسانًا يسأل آخر أن يعالجه، فقلت له: هذا ليس بطبيبٍ، بل الطَّبيب فلانٌ، فكأنَّك تقول: اذهب إليه، واترك هذا، فإنَّه ليس بطبيبٍ.

أو يستشهده يقول: اشهد معي ـ يعتقد أنَّه مقبول الشهادة ـ فإنَّك تقول: هذا ليس بشاهدٍ، ولكنَّ الشاهد فلانٌ، فكأنَّك تقول: اذهب إليه واستشهده، فإنَّه الذي تُقبل شهادته.

وكذلك إذا رأيته يستفتي جاهلًا، فقلت: هذا ليس بمُفْتٍ، المفتي فلانٌ، فكأنَّك تقول: اذهب إليه.

هذا الذي تخاطبه يفهم أنَّك تأمره بأن يذهب إلى ذلك الطَّبيب، والشَّاهد والمفتي، فكذلك إذا قال الله: الإلهيَّة الحقَّة لله، كأنَّه يقول: فألِّهوه، اتَّخذوه إلهًا، واتركوا إلهيَّة ما سواه. فهذا وجه الدِّلالة من الشَّهادة.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَالْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، فَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، تَضَمَّنَ هَذَا الْإِخْبَارُ أَمْرَ الْعِبَادِ وَإِلْزَامَهُمْ بِأَدَاءِ مَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ الْقِيَامَ بِذَلِكَ هُوَ خَالِصُ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ.

وَأَيْضًا: فَلَفْظُ «الْحُكْمِ» و«الْقَضَاءِ» يُسْتَعْمَلُ فِي الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ، وَيُقَالُ لِلْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ: قَضِيَّةٌ، وَحُكْمٌ، وَقَدْ حُكِمَ فِيهَا بِكَذَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥١ ـ ١٥٤]، فَجَعَلَ هَذَا الْإِخْبَارَ الْمُجَرَّدَ مِنْهُمْ حُكْمًا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥، ٣٦]، لَكِنَّ هَذَا حُكْمٌ لَا إِلْزَامَ مَعَهُ، وَالْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُتَضَمِّنٌ الْإِلْزَامَ.

وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ شَهَادَةٍ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهَا، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا، وَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِمْ بِهَا الْحُجَّةُ، بَلْ قَدْ تَضَمَّنَتِ الْبَيَانَ لِلْعِبَادِ وَدَلَالَتَهُمْ وَتَعْرِيفَهُمْ بِمَا شَهِدَ بِهِ، كَمَا أَنَّ الشَّاهِدَ مِنَ الْعِبَادِ إِذَا كَانَتْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ، وَلَمْ يُبَيِّنْهَا، بَلْ كَتَمَهَا، لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا أَحَدٌ، وَلَمْ تَقُمْ بِهَا حُجَّةٌ. وَإِذَا كَانَ لَا يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَّا بِبَيَانِهَا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ بَيَّنَهَا غَايَةَ الْبَيَانِ بِطُرُقٍ ثَلَاثَةٍ: السَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، وَالْعَقْلِ.

---

قال الشيخ:

وهذا أيضًا بيان أنَّه يؤخذ الحكم من هذا الأمر، فالأمر بالتَّوحيد إلزام به،

فإنَّ الإنسان إذا سمع حكم الله تعالى فإنَّه يتبعه، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠]، إذا عرف أنَّ الله أخبر بهذا الشَّيء، وأنَّه أعلم خلقه بأنَّه الإله، فإنَّه يعرف أنَّه الإله الحقُّ الذي يستحقُّ أن يؤلَّهَ، فكأنَّه يقول: إنَّ الله يأمرنا بأن نتَّخذه إلهًا ونترك التَّألُّه لغيره. هذا من جهةٍ.

ومن جهةٍ ثانيةٍ يقول: إذا فسَّرنا ﴿شَهِدَ﴾ بـ«حَكَمَ» و«أَخْبَرَ»، فإنَّ الخبر والحكم يقتضيان الإلزام، ومعلومٌ أنَّ الحكم هو: إثبات أمرٍ لأمرٍ أو نفيه عنه ـ كما يقول ذلك الأصوليُّون ـ فإذا حكم الله لنفسه بالإلهيَّة، وحكم لغيره بعدم الصَّلاحية للإلهيَّة، فهذا حكمٌ من الله، وحكم الله واجب الاتِّباع، والحكم قد يطلق على كلِّ قضيةٍ، فكلُّ قضيةٍ قد تسمَّى حكمًا، تقول: هذه قضيَّة فلانٍ، وحُكِمَ فيها بكذا وكذا؛ كما في هذه الآيات التي أخبر الله بها بأن هذا الأمر حكمٌ منه.

وعلى كلِّ حالٍ، فالآية صريحةٌ في إبطال إلهيَّة ما سوى الله تعالى، وإثبات الإلهيَّة له، والإثبات يستلزم الإلزام.

قوله: (وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ شَهَادَةٍ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهَا، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا)، أي: أنَّ مجرَّد الشَّهادة لا تتمُّ إلاَّ إذا كان معها إلزامٌ، فالله تعالى عندما شهد كأنَّه ألزم، شهد لنفسه بأنَّه لا إله إلاَّ هو، وهذه الشَّهادة تستلزم الأمر الذي ينتج منه الإيجاد، ومعلومٌ أنَّ الشَّهادة لا يُنتفع بها إلاَّ إذا بُيِّنت، يقول: لو أنَّ إنسانًا عنده شهادةٌ لك وكتمها، ما حصل لك انتفاعٌ بها، فلا تنتفع بها إلا إذا بيَّن وقال: لك عندي شهادةٌ، استشهدني. فالله تعالى شهد لنفسه، وبيَّن هذه الشَّهادة بهذه الطُّرق.

قال الشارح:

أَمَّا السَّمْعُ: فَبِسَمْعِ آيَاتِهِ الْمَتْلُوَّةِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَا عَرَّفَنَا إِيَّاهُ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ كُلِّهَا، الْوَحْدَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا، غَايَةَ الْبَيَانِ، لَا كَمَا يَزْعُمُهُ الْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَمُعَطِّلَةِ بَعْضِ الصِّفَاتِ مِنْ دَعْوَى احْتِمَالَاتٍ تُوقِعُ فِي الْحَيْرَةِ، تُنَافِي الْبَيَانَ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ وَرَسُولَهُ الْكَرِيمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[الزخرف:١، ٢]، ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[يوسف:١]، ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ تَأْتِي مُبَيِّنَةً وَمُقَرِّرَةً لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، لَمْ يُحْوِجْنَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَأْيِ فُلَانٍ، وَلَا إِلَى ذَوْقِ فُلَانٍ، وَوَجْدِهِ فِي أُصُولِ دِينِنَا.

وَلِهَذَا نَجِدُ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مُخْتَلِفِينَ مُضْطَرِبِينَ، بَلْ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فَلَا يَحْتَاجُ فِي تَكْمِيلِهِ إِلَى أَمْرٍ خَارِجٍ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ فِيمَا يَأْتِي مِنْ كَلَامِهِ بِقَوْلِهِ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلِرَسُولِهِ ﷺ).

قال الشيخ:

لَـمَّا شهد الله تعالى هذه الشَّهادة بيَّنها، وبيانه عن طريق السَّمع، وعن طريق البصر، وعن طريق العقل، وعن طريق النَّظر، يعني: أنَّه بيَّنها بكلِّ أنواع البيان، لم يبقَ طريقٌ إلاَّ وبيَّنه من جهته أتمَّ بيانٍ.

فمن طريق السَّمع: سماعنا آيات الله، التي هي القرآن والكتب التي أنزلها على رسله، لا شكَّ أنَّ في هذا بيانًا واضحًا. وهذا هو الذي دعا الشارح ـ رحمه الله ـ إلى أن يستشهد بالآيات التي فيها ذكر البيان، فإنَّ قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٣٨]، يبيِّن أيَّ شيءٍ؟ لا شكَّ أنَّه يبيِّن المهمَّ الذي يحتاجون إليه، وأهم ما يحتاجون إليه معرفة الله بآياته ومخلوقاته، ومعرفة حقِّه، وهو: عبادته وحده، وترك عبادة ما سواه، وطاعته بواسطة رسله.

وكذلك وَصَفَ القرآن بقوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[يوسف:١]، يعني: المُبيِّن، الذي بيَّن الله فيه، فهو مبين من أوجه:

أوَّلًا: أنَّه بيِّنٌ واضحٌ.

وثانيًا: أنَّه مشتملٌ على بيانٍ، وأيُّ بيانٍ أوضح من بيان كلام الله تعالى؟

وثالثًا: أنَّ الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يوضِّحه، والرَّسول ﷺ بيَّن معانيه بقوله وبفعله، امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل:٤٤]. وقد ذكر الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنَّهم كانوا يتعلَّمون

المعاني مع الألفاظ، يقول عبد الله بن حبيبٍ السلمي ﷺ: «حدثنا من كان يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُم كَانُوا يَقْتَرِئُونَ من رسول اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلاَ يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الأُخْرَى حتى يَعْلَمُوا ما في هذه مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قالوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»[1]. ولا شكَّ أنَّ هذا لإقامة الحجَّة، ما دام أنَّ هذا القرآن قد بيَّن للنَّاس ما يحتاجون إليه ـ وبالأخصِّ في أمر العقيدة والتَّوحيد ـ فإنَّ الخلق واجبٌ عليهم أن يقبلوا ذلك البيان، وينتفعوا به، ويعملوا به، وما ظهر لهم فإنَّهم يقبلونه، وما خفي عنهم من الأمور الغيبيَّة فإنَّهم يُسلِّمون له، ويتوقَّفون عن البحث في حقيقته، وهذا معنى قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (**لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا**)، بل نتسلَّم ذلك على ما هو عليه:

**أوَّلًا**: أنَّه واضحٌ من حيث إنَّه مفهومٌ؛ لأنَّه بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ.

**ثانيًا**: أنَّ ما فيه من الخفيِّ قد بيَّنه الرَّسول ﷺ، وتلقَّى ذلك عنه صحابته، وبيَّنوا ذلك وشرحوه لتلامذتهم، ونُقلت شروحهم وتفاسيرهم في كتب التَّفسير موضحةً ظاهرةً، يجدها من طلبها، فما بقي لأحدٍ حجةٌ.

فالحاصل: أنَّ التوحيد قد بُيِّن أتمَّ بيانٍ، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١١٧).

فالكون مليء بالآيات الدالة على وحدانية الله، وبينات الرسل وأحوالهم شواهد صدق على أن الله أرسلهم، وأسماء الله وصفاته من ألطف الأدلة على وحدانيته وصدق رسله.

والعلم في الأصل أفضل من الجهل، وكلٌّ يحب الانتماء والانتساب إلى العلم، ويهرب ويربأ بنفسه أن يُنسب إلى الجهل، والعلوم تتفاوت في الأهمية، فأهم العلوم هو العلم الذي يَفْقَه به العَبْدُ دِينَه، فيعرف كيف يعبد ربه، بل يعرف ربه ويعرف دينه، فهذا هو أشرف وأفضل العلوم.

وطريق تعلمه وتحصيله سهل ويسير على من يسره الله عليه؛ لأن الله سبحانه لما أقام الحجة على عباده ببعثة الرسل وإنزال الكتب، تكفل بحفظ ذلك؛ حتى لا يكون للمتأخر حجة كما لم تكن للمتقدم.

فيسر الله حفظ ذلك العلم الذي هو ميراث الأنبياء، حتى وصل إلى المتأخرين كما هو عند المتقدمين، ولكن حيث كان هناك أعداء لهذا الدين ولهذا العلم، فإن أولئك الأعداء قد حرصوا على أن يشوهوا سمعة هذا العلم الصحيح، وأن يلبسوا على أهله، وأن يرموهم بالعيوب، ولكن الله سبحانه حفظ شريعته، وقيض لأولئك من يدفع شبههم، ويبين ضلالهم وخطأهم، فقيض الله أهل السنة الذين ساروا على نهج الرسل، وساروا على نهج الصحابة، وعُرفوا - حتى عند الأعداء - بأنهم السائرون على طريقة السلف، أو بأنهم المتمسكون بالسنة، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ولا شك أن علم العقيدة من جملة العلوم التي حصل فيها شيء من الاشتباه والاختلاف، وأصل هذا العلم معرفة الله تعالى المعرفة التي ينتج منها عبادته، وأن يُترك ويُعرض عن عبادة ما سواه، فإذا عرف الإنسان أهمية هذا العلم استطاع بعد ذلك أن يعرف مفرداته وتفاصيله؛ حيث إنها موجودة ميسرة في متناول الأيدي، وقد يسر الله لها من اعتنى بها، فما على المسلم الذي يريد العلم الصحيح إلا أن يتناولها بالتعلم والتفقه ليعبد ربه على بصيرة.

قال الشارح:

وَأَمَّا آيَاتُهُ الْعِيَانِيَّةُ الخَلْقِيَّةُ: فَالنَّظَرُ فِيهَا وَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا يَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُهُ الْقَوْلِيَّةُ والسَّمْعِيَّةُ، وَالْعَقْلُ يَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ، فَيَجْزِمُ بِصِحَّةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَتَتَّفِقُ شَهَادَةُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ.

---

قال الشيخ:

عرفنا أنَّ أهم العلوم معرفة الله ثم عبادته، ولكونها أهمَّ من غيرها جاءت الشَّريعة لبيانها، وقد بيَّنها الله عن طريق السَّمع، وعن طريق البصر، وعن طريق العقل.

فأمَّا البيان السَّمعيُّ: فهو ما بلَّغه الرُّسل من كلام الله ومن كلام الأنبياء الذين بيَّنوه، فإنَّ هذا بيانٌ لهذه العقيدة، يأخذه النَّاس عن طريق السَّمع، وتسمَّى الآيات السَّمعيَّة، فالقرآن والأحاديث أدلَّةٌ سمعيَّةٌ منقولةٌ عن عالمٍ بعد عالمٍ إلى أن تنتهي إلى النَّبيِّ ﷺ، أو إلى الأنبياء قبله.

أمَّا الأدلَّة النَّظريَّة: فهي الآيات التي تُرى بالعين، ويُقال: لها أيضًا: المخلوقات؛ وذلك لأنَّ النَّظر فيها يكسب النَّاظر عبرةً وعِظَةً، ويُكسبه معرفةً وبصيرةً، ولأجل ذلك كثيرًا ما يرشد الله العباد إلى النَّظر في الآيات والبراهين؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦]، وكقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [غافر:٨٢]، وأشباه ذلك من الآيات كثيرةٌ.

النَّظر في هذه المخلوقات هو الدَّليل النَّظريُّ، أو الدَّليل البصريُّ، وكلَّما كان العاقل فاهِمًا ذكيًّا كان نظره أتمَّ، وأمَّا إذا نقصت العقليَّة، فإنَّ النَّظر يكون أنقص؛ وذلك لأنَّ مجرَّد النَّظر بالعين لا يفيد حتَّى يكون نظرًا بالقلب، فالعين توصل إلى القلب، فإذا لم يكن هناك قلبٌ واعٍ حيٌّ لم ينفعِ النَّظر بالعين، وقد يكون هناك من هو أعمى لا يبصر، ولكن يَعتبر بما يحسُّه، فيكون نظره بقلبه أقوى من نظر المبصرين، وقد يكون من المبصرين من يشاهدون هذه الآيات والعجائب، ولكنَّ قلوبهم في غيبٍ وغفلةٍ، وفي أغشيةٍ وأكنَّةٍ، قلوبهم غُلْفٌ مُقفلٌ عليها، والعياذ بالله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

والحاصل: أنَّ الله سبحانه بيَّن هذه الآيات والبراهين بيانًا واضحًا عن طريق السَّمع بالآيات السَّمعية، وعن طريق النَّظر بالآيات البصريَّة، وعن طريق القلب بالعقل والفهم، ومتى اجتمعت في العاقل لم يتخلَّف أثرها، وهو الاستبصار، وإذا اختلَّ واحدٌ منها نقص الأثر، وأكثر ما يكون في النَّفس إذا فُقد النَّظر العقليُّ؛ لأنَّ هناك من يسمع ولكن لا يفقه، وهناك من يبصر ولكن لا يتبصَّر؛ لفقد النَّظر العقليِّ والعياذ بالله، فمن رزقه الله حياة قلبٍ انتفع بما يسمع ويرى، ومن فقد ذلك فالعمى خيرٌ له.

قال الشارح:

فَهُوَ سُبْحَانَهُ لِكَمَالِ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَحِكْمَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلْعُذْرِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا وَمَعَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل:٤٣، ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾[آل عمران:١٨٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران:١٨٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧].

حَتَّى إِنَّ مِنْ أَخْفَى آيَاتِ الرُّسُلِ آيَاتُ هُودٍ، حَتَّى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣]، وَمَعَ هَذَا فَبَيِّنَتُهُ مِنْ أَوْضَحِ الْبَيِّنَاتِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ لِتَدَبُّرِهَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤-٥٦].

فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ وَلَا خَوَّارٍ، بَلْ هُوَ وَاثِقٌ بِمَا قَالَهُ، جَازِمٌ بِهِ، فَأَشْهَدَ اللَّهَ أَوَّلًا

عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَغَيْرُ مُسَلِّطٍ لَهُمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمُ، الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا، وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهِمْ لَهَا، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالِاسْتِهَانَةِ لَهُمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ، وَازْدِرَائِهِمْ، وَلَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَاجِلُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ.

ثُمَّ قَرَّرَ دَعْوَتَهُمْ أَحْسَنَ تَقْرِيرٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى وَرَبَّهُمُ الَّذِي نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ، هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَقَرَّ بِهِ، وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ.

فَأَيُّ آيَةٍ وَبُرْهَانٍ أَحْسَنُ مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَرَاهِينِهِمْ وَأَدِلَّتِهِمْ؟ وَهِيَ شَهَادَةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بَيَّنَهَا لِعِبَادِهِ غَايَةَ الْبَيَانِ.

---

قال الشيخ:

أقام الله تعالى الحجَّة وقطع المعذرة ببينات الرسل، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ﴾ [النساء: ١٦٤، ١٦٥]، أي: أرسلنا أولئك لتنقطع الحجَّة وينقطع العذر؛ لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، كما حكى الله ذلك عنهم.

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص:٤٨]، فالله سبحانه أرسل الرُّسل، وجعل معهم بيِّناتٍ تُرجِّح جانبهم، وجعل لهم معجزاتٍ يظهر بها صدقهم، وكل نبيٍّ معجزاته تناسبه وتعجز أهل زمنه، فمنهم من أخبرنا الله بمعجزاته؛ كما أخبر عن صالح ـ عليه السلام ـ أنَّ من معجزاته تلك النَّاقة التي قال لهم عنها: ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وأخبر أن معجزات موسى ـ عليه السلام ـ تسع آيات، وهي: اليد، والعصا، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم أو الطَّمس، والسنين، ونقص الثمرات، وما أشبهها آياتٌ معجزةٌ لأهل زمانه.

وأن معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ: أنَّه يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبرهم بما يأكلون وبما يدَّخرون في بيوتهم.

ومعجزات داود ـ عليه السلام ـ: منها قوله: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:١٨، ١٩].

ومعجزات سليمان ـ عليه السلام ـ: في قوله: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص:٣٦ـ٣٨].

وكذلك معجزات نبيِّنا ﷺ ودلائل نبوَّته، منها:

١ ـ هذا القرآن الذي تحدَّى به فصحاء العرب في زمانه، فعجزوا عن معارضته.

٢ـ ما أجرى الله على يديه من الآيات؛ كإخباره بالأمور المغيّبة.

٣ـ نصره وتأييده على أعدائه.

وهذه المعجزات يُراد منها ظهور صدق أولئك الرُّسل؛ وذلك أنَّ الله تعالى يحبُّ أن يقطع العُذْر عن العاصي والمفرِّط، ويحبُّ العذر إلى العباد؛ ولذلك ورد في حديث: «لَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ»[1]، وقال في الحكمة في إرسالهم: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات:٦]، يعني: إعذارًا وإنذارًا، فهذا دليلٌ على أنَّه سبحانه قطع حجَّة النَّاس بقولِهِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

ومن تأمَّل آيات الرُّسل عرف صدقَهم، ولكن إنما صدَّ عنهم من أعمى الله بصيرتَه، ولأجل ذلك عاقب الله من كذبهم بأنواعٍ من العقوبات، فأهلَكَ قوم نوحٍ بالغرَقِ، ثم عادًا ـ وهم قوم هود ـ أرسل الله عليهم الرِّيح، وقوم صالح ـ وهم ثمود ـ عاقبهم الله بالصَّيحة، وأشباه ذلك؛ كلُّهم ذكر الله عقوباتهم.

وذكر الشَّارح أنَّ قوم هودٍ كأنَّهم أنكروا رسالته لـمَّا لم يأْتهم بآيةٍ ومعجزةٍ بيِّنةٍ، ولكنه قرَّر آية هود ومعجزته التي أُخذت من هذه الآية في سورة هود، وهي قول الله تعالى حكايةً عنهم أنَّهم قالوا: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣]، يعني: بآيةٍ مُعْجِزَةٍ، ثـمَّ ظنُّوا أنَّه إنَّما به جنونٌ، فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود:٥٤]، يعني: إنَّ آلهتنا تسلَّطتْ عليك فأصابتك بجنونٍ، ولكنَّه ردَّ عليهم هذا الرَّدّ المتَّزن الذي يدلُّ على ثباته، فقرَّر أنَّه لا يخافهم، ولو حصل اجتماعُهم كلهم؛ حيث قال: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:٥٥، ٥٦].

وتقدم تفصيل الشَّارح وتفسيره لهذا، وأنه أخذَهُ من كونه فردًا يتحدَّى أمَّةً من أقوى الأمم؛ حتَّى إنَّهم قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، ووصفهم بالجبروت بقوله: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[الشعراء:١٣٠]، وهو شخصٌ واحدٌ يتحدَّاهم ويقول لهم: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾، أي: ائتوا بكلِّ كيدٍ، ائتوا بكلِّ حيلةٍ إن كنتم تستطيعون، ولكنَّكم لا تستطيعون؛ لأنِّي معتمدٌ على الله، ومتوكِّلٌ على الله الذي هو ربِّي وربكم، والذي يأخذ بنواصي جميع الدَّوابِّ، فكلُّ الدَّوابِّ مسخَّرةٌ مذلَّلةٌ بأمره.

فهذا ونحوه دليلٌ على أنَّ الله قوَّى قلبَه وثبَّته؛ وذلك أعظم من بقيَّة المعجزات، وبلا شكٍّ أنَّ الله أيَّده بمعجزاتٍ أخرى لا ندري ما هي، لكن بها تقوم الحجَّة على العباد، فما بقي لأحدٍ على الله تعالى بعد الرُّسل حجَّةٌ.

قال الشارح:

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى «الْمُؤْمِنُ»، وَهُوَ فِي أَحَدِ التَّفْسِيرَيْنِ: الْمُصَدِّقُ الَّذِي يُصَدِّقُ الصَّادِقِينَ بِمَا يُقِيمُ لَهُمْ مِنْ شَوَاهِدِ صِدْقِهِمْ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُرِيَ الْعِبَادَ مِنَ الْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي بَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ حَقٌّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]، أَيِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ الْمُتَقَدِّمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [فصلت:٥٢]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣].

فَشَهِدَ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ بِقَوْلِهِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، وَوَعَدَ أَنَّهُ يُرِي الْعِبَادَ مِنْ آيَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ الْخَلْقِيَّةِ مَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ أَيْضًا، ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَجَلُّ، وَهُوَ شَهَادَتُهُ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، فَإِنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ «الشَّهِيدَ» الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ، بَلْ هُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُشَاهِدٌ لَهُ، عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِهِ.

وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالْأَوَّلُ اسْتِدْلَالٌ بِقَوْلِهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاسْتِدْلَالُهُ بِالْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ اسْتِدْلَالٌ بِأَفْعَالِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

---

قال الشيخ:

كلُّ هذا تفصيلٌ لبيان أنَّ الله سبحانه أقام الحجَّة وقطع المعذرة.

وقوله: (وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى «الْمُؤْمِنُ»)، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر:٢٣]، فهو الذي يصدِّق رسله، وعباده المؤمنين، فيصدِّق الرُّسل بما يظهر على أيديهم من المعجزات والبراهين، ويصدِّق المؤمنين بما ينصرهم ويؤيِّدهم عند خصوماتهم للأعداء، أو عند قتالهم للكفار، فالنَّصر الذي يجريه على أيديهم هذا من التَّصديق لهم، وكذلك الحجَّة التي يجريها على ألسنتهم من التَّصديق لهم، يصدِّقهم حتَّى يعرف صدقهم، ويعرف ذلك مَنْ قصدُه الحقُّ والصواب.

وأمَّا من زاغ عقلُه، فإنَّه لا تُغني عنه النُّذر، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

كذلك من أسمائه تعالى «الشَّهيد»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧]، والشَّهيد: الشَّاهد، والشَّاهد مأخوذٌ من المشاهدة؛ وذلك لأنَّه تعالى شاهدٌ على عباده، ومن جملتهم رسله، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩]، وشهادته على رسله سبحانه أنَّه شهد بصدق ما جاؤوا به، وذلك بما أجرى على أيديهم من الآيات والبراهين، وبذلك كلِّه يُعْرَف أنَّه ما بقي لأحد حجَّة بعد الرُّسل وبعد الكتب، فما بقي إلاَّ المعاندون الذين يخالفون الحقَّ عنادًا.

قال الشارح:

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِذَلِكَ لَا يُعْهَدُ فِي الِاصْطِلَاحِ؟

فَالجَوَابُ: أَنَّ اللَّـهَ تَعَالَى قَدْ أَوْدَعَ فِي الْفِطَرِ - الَّتِي لَمْ تَتَنَجَّسْ بِالْجُحُودِ وَالتَّعْطِيلِ، وَلَا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ - أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَامِلُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، وَمَا خَفِيَ عَنِ الخَلْقِ مِنْ كَمَالِهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ مِمَّا عَرَفُوهُ مِنْهُ.

وَمِنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ: شَهَادَتُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَاطِّلَاعُهُ عَلَيْهِ؛ بِحَيْثُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ ذَرَّةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ كَيْفَ يَلِيقُ بِالْعِبَادِ أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ، وَأَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ، وَيَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ؟ وَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَمَالِهِ أَنْ يُقِرَّ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْكَذِبِ، وَيُخْبِرَ عَنْهُ بِخِلَافِ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْصُرَهُ عَلَى ذَلِكَ وَيُؤَيِّدَهُ، وَيُعْلِيَ شَأْنَهُ، وَيُجِيبَ دَعْوَتَهُ، وَيُهْلِكَ عَدُوَّهُ، وَيُظْهِرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ مَا يَعْجِزُ عَنْ مِثْلِهِ قُوَى الْبَشَرِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَاذِبٌ عَلَيْهِ مُفْتَرٍ؟!

وَمَعْلُومٌ أَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَقُدْرَتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَعِزَّتَهُ وَكَمَالَهُ الْمُقَدَّسَ يَأْبَى ذَلِكَ، وَمَنْ جَوَّزَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ.

---

قال الشيخ:

ذكر ابن القيِّم - رحمه الله - في بعض كتبه أنَّه لقي بعض النَّصارى الذين يُكذِّبون برسالة النَّبيِّ ﷺ، فقال لهم: أنتم أيُّها النَّصارى قد طعنتم في حكمة الله،

وطعنتم في قدرته، وطعنتم في علمه واطِّلاعه! فاستغرب هؤلاء النَّصارى هذا الكلام. فقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: بلى بتكذيبكم لمحمد بأنَّه رسولٌ، هذا طعنٌ في الله، وذلك أنَّنا وأنتم نشاهد أنَّه ادَّعى أنَّه نبيٌّ، وقامت على يديه هذه الدَّلالات التي هي دلائل نبوةٍ، فكيف يقيمها الله على يديه وهو كذَّاب؟ ثمَّ نصره الله في مواطنَ كثيرةٍ؛ انتصر على الأعداء الكثير وعدد المسلمين قليل، فكيف ينصره على أولئك الأعداء وهو يكذب عليه، ويقول عليه ما لم يُقَل؟ ثمَّ مكَّن الله لدينه وانتشر هذا الدِّين الذي هو في زعمكم دينٌ باطلٌ مكذوبٌ؟ هل يليق بحكمة الله أن يُعلي هذا الدين وهو دينٌ باطلٌ، وأن يظهره، وأن يمكِّن أهلَه، وأن يسلِّطهم على النَّاس؛ يقتلون، ويأسرون، ويفتحون البلاد، ويدوِّخون العباد، وهم مع ذلك في زعمكم ـ أيُّها النَّصارى ـ كذبةٌ متَّبعون لنبيٍّ كذابٍ؟

لا شكَّ أنَّ هذا طعنٌ في الله، فأنتم يا معشر النصارى قد طعنتم في ربِّكم من حيث لا تشعرون، حيث كذَّبتم هذا النَّبيَّ الذي هو ـ في زعمكم ـ ليس بنبيٍّ، وطعنتم في حكمة الله تعالى؛ إذ هو سبحانه حكيمٌ يضع الأشياءَ في مواضعها، كيف يليق بالله أن ينصره، وأن يُعلي سلطانه، وأن يؤيِّده، وأن يُظهِر على يديه هذه المعجزات، وهو يسمع كلامه الذي هو افتراءٌ عليه وكذبٌ؟! كيف ينصره ويمكِّن له في الأرض؟! وكيف يهدي قلوب النَّاس إلى اتِّباعه؟! وكيف يُقبل بقلوبهم عليه؟! وكيف يُظهر من صفاته ما يكون سببًا في تصديقه؟!

ولا شكَّ أنَّ هذا شيءٌ واقعيٌّ حقيقيٌّ، فالذين يكذِّبون برسالته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وهم يشاهدون أنَّ دينَه الحقَّ قد انْتشر وتمكَّن حتَّى غطَّى ثلثي

المعمورة، وحتَّى دان له أكثر العباد، وشهدوا بُحْسنه وبملاءمته، حتى - وهم أعداءٌ - بمجرَّد ما يسمعون دعوته ويعرفون شريعته وطريقته تنطلق ألسنتهم بتحسين ما جاء به، وتشهد بذلك عقولهم، ويتَّبعونه بأدنى اتِّباع دون تلكُّؤ ودون توقف، فإنَّ هذا كلَّه دليلٌ على صحَّة هذا الدِّين، ودليلٌ على قَبول النُّفوس له، وأنَّ الذين أنكروه إنَّما انتكستْ معارفهم وفِطَرُهُم، ولم يعرفوا الحقَّ مع قيام الأدلَّة الواضحة عليه.

فعلى هذا يُعَدُّ هذا التَّمكين مِنْ أكبر الآيات وأكبر المعجزات التي تدلُّ على صدق رسالته ﷺ؛ حيث مكَّن الله له، وحقَّق قول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[النور:٥٥].

وصَدَّقَ الله هذا الوعد، فمكَّن لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، ومكَّن لهم في البلاد، وفتح لهمُ القلوب، وفتح لهمُ الأسباب، ويسَّر لهمُ اليسرى، وجنَّبهم العسرى، وظهر دينُ الله تعالى، وتحقق قول الله - عز وجل -: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[الصف: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقوله - جل شأنه -: ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]، فتمَّم اللهُ نورَه الذي هو هذه الشَّريعة، وأظهر هذا الدِّين على سائر الأديان، ولا شكَّ أنَّ ذلك من أكبر المعجزات.

فلو لم يكن هناك دلائل نبوةٍ تدلُّ على صدقه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وصحَّة ما جاء به، لو لم يكن دليلٌ إلاَّ النَّصر والتَّمكين وفتح القلوب له وفتح البلاد له، وما أيَّده به من هذا التَّمكين الذي أقبلتْ قلوب النَّاس عليه وأحبُّوه، وكان أحدهم يصبح وهو عدوٌّ له، فإذا أسلم بأوَّل النَّهار لم يأته اللَّيل إلَّا والإسلام أحبُّ إليه من الدُّنيا وما فيها؛ وذلك لما يشاهدونه بهذا الإسلام من سهولةٍ، ومحبَّةٍ، وصلاحٍ، وانشراح صدرٍ، وفرحٍ، وانبساطٍ، وقوة يقينٍ، لا شكَّ أنَّ هذا من أكبر الآيات والمعجزات، لو لم يكن هناك آياتٌ أخرى لكان هذا كافيًا في كون هذا الدِّين حقًا، وأنَّه من عند الله سبحانه وتعالى.

هذا ما يقرِّره الشَّارح في هذا الموضع.

قال الشارح:

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَهِيَ طَرِيقُ الخَوَاصِّ، يَسْتَدِلُّونَ بِاللَّهِ عَلَى أَفْعَالِهِ، وَمَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَفْعَلَهُ وَلَا يَفْعَلَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَيَسْتَدِلُّ أَيْضًا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر:٢٣].

وَأَضْعَافُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ. وَهَذِهِ الطَّرِيقُ قَلِيلٌ سَالِكُهَا، لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا إِلَّا الخَوَاصُّ. وَطَرِيقَةُ الْجُمْهُورِ الِاسْتِدْلَالُ بِالْآيَاتِ الشَّاهِدَةِ؛ لِأَنَّهَا أَسْهَلُ تَنَاوُلًا وَأَوْسَعُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُفَضِّلُ بَعْضَ خَلْقِهِ عَلَى بَعْضٍ.

---

قال الشيخ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، حقٌّ وصحيحٌ، فإنَّ كلَّ من كذَّب على الله فإنَّ الله ينتقم منه ولو بعد حينٍ، فإنَّ فرعون لمَّا كذَّب وادَّعى الرُّبوبيَّة عاقبه الله، مع كون مصر قد أطاعت له؛ حتى قال لهم: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]، يعني: موسى.

فماذا كانت عاقبته؟ انتقم الله منه وأغرقَه وهم ينظرون.

كذلك الكذَّابون في زمن النَّبيِّ ﷺ لَمَّا ظنُّوا أنَّ محمدًا كاذبٌ، فقالوا: سوف ندَّعي مثل ما ادَّعى، فتنبَّأ شخصٌ يُقال له: مُسَيْلمة، فانخدع به بعض الجَهَلة من عشيرته، ولكنَّ الله انتقم منه وسلَّط عليه المسلمين، فقُتل وضلَّ أتباعه، وكذلك تنبَّأ آخر في اليمن، فما مُتِّع إلاَّ ثلاثة أشهرٍ؛ حتى انتقم الله منه وأهلَكَه.

وهكذا مصير كلُّ من ظهر منه اعتداءٌ، يَعْرِف ذلك من قرأ التَّاريخ، ومن قرأ كتب التَّاريخ يجد أنَّ هناك أناسًا حاولوا التَّكبُّر والتَّجبُّر، وحصل لهم شيءٌ من المُلك والقوَّة، فاستعملوا بطشهم وقوَّتهم، ثم أُمهِلوا مدةً، ولكن أخذهمُ اللهُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ. قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢][1].

فكون هذا الإسلام باقيًا ومستمرًا يزيد ويظهر، كلما ضَعُفَ في جهة مكَّن الله له في جهة أخرى، وأهله يحبُّونه ويقبلون عليه ويتمسَّكون به، ويؤثرونه ولو قُتلوا ولو عُذِّبوا، كلُّ هذا دليلٌ على أنَّه من الله تعالى، وأنَّ ما يقولونه ويعتقدونه

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

هو الدِّين الحقَّ، والكذَّابون والمفترون يُعجِّل الله لهمُ العقوبة ويأخذهم وينتقم منهم، دليلٌ على أنَّ الله لا يؤيِّد الكذَّابين ولا يمكنِّهم، كيف يمكِّنهم وهم يفترون عليه؟ كيف يمكَّن لهم في الأرض وهم كذَّابون يقولون عليه ويضلُّون عباده؟ هذا لا يليقُ بحكمة الله تعالى؛ فإنَّ من أسمائه «الحكيم»: الذي يضع الأشياء في مواضعها.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يؤكِّد صحَّة هذا الدِّين وهذه العقيدة وهذا التَّوحيد، ويدلُّ عباده على ذلك بآياته وبمخلوقاته وبأسمائه وبصفاته، يعني: بآثار تلك الأسماء وآثار تلك الصِّفات، فإنَّ من أسماء الله تعالى «الحكيم»: الذي يضع الأشياء في مواضعها، ومن أسمائه تعالى «العزيز»: الغالب لكلِّ من خرج على طاعته، ومن أسمائه تعالى أنَّه «عزيزٌ ذو انتقامٍ»، يعني: ينتقم مِمَّن خالف أمره ويأخذه أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ، ومن أسمائه «العليم»: الذي لا يخفى عليه علم شيءٍ في الأرض ولا في السَّماء.

وهكذا يُقال ـ أيضًا ـ في حكمته، وخلقه، وتدبيره، وفيما قدَّره وقضاه في هذا الكون، لا شكَّ أنَّ هذا كلّه له آثارٌ تدلُّ على ما أعطاه الله تعالى لعباده من الفكر، ومن العقل الذي رزق به عبادًا صالحين قبلوه وتقبَّلوه.

قال الشارح:

فَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ فِي غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ وَالْمَدْلُولُ عَلَيْهِ، وَالشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ لَهُ، قَالَ تَعَالَى لِمَنْ طَلَبَ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الآيات. [العنكبوت:٥١].

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ ـ كَمَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ ـ فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى قَوْلِ مَنْ قَسَّمَ التَّوْحِيدَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ، وَجَعَلَ هَذَا النَّوْعَ تَوْحِيدَ الْعَامَّةِ، وَالنَّوْعَ الثَّانِيَ تَوْحِيدَ الخَاصَّةِ، وَهُوَ الَّذِي يَثْبُتُ بِالحَقَائِقِ، وَالنَّوْعَ الثَّالِثَ تَوْحِيدًا قَائِمًا بِالْقِدَمِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ!

---

قال الشيخ:

إنَّ القرآن الذي أنزله الله على قلب نبيِّنا محمدٍ ﷺ فيه الكفاية لِمَن اعْتبر، وفيه الدَّلالة، وفيه العبرة؛ فإنَّ المشركين لَـمَّا طلبوا آيات، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت:٥٠]، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]، فهذا الكتاب كافٍ عن جميع الآيات؛ لِمَا فيه من الأخبار عن المتقدِّمين وعن المتأخِّرين، فمن نظر فيه واعتبر اكتفى بذلك.

والقرآنُ قد بيَّن حقيقة التَّوحيد ـ الذي هو توحيد الرُّسل ـ غاية البيان،

فالتَّوحيد الحقيقيُّ ـ كما تقدَّم ـ هو توحيد العبادة، وهو الذي أُرسلتْ به الرُّسل، وهو دين الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم، والذين حكى عنهم المؤلِّف أنَّهم جعلوا هذا النَّوع توحيدَ العامَّة؛ هؤلاء هم غُلاة الصُّوفيَّة، أو أهل الوِحدة، هُمُ الذين جعلوا هذا النَّوع ـ الذي هو عبادة الله ـ توحيدَ العامَّة، وجعلوا وراءه توحيدين: توحيدَ الخاصَّة، وتوحيدَ خاصَّة الخاصَّة، وكلُّ ذلك لا دليل عليه، وإنَّما الأصل أنَّ التَّوحيد الذي هو حقُّ الله على عباده، هو التَّوحيد الأصليُّ، الذي أُمر النَّاس أن يدينوا به، ويتعلَّموه، ويعبدوا الله تعالى بموجبه. وسيأتي بيان الأدلَّة على بقية أنواع التَّوحيد إن شاء الله تعالى.

وقد مرَّ بنا بيان شيءٍ مما أوضحه الله تعالى من العلم الذي هو من أهمِّ العلوم، وأنَّ الله بيَّنه عن طريق السَّمع، وعن طريق البصر، وعن طريق العقل، فبيَّنه بالآيات السَّمعيَّة؛ وذلك بالقرآن والسُّنَّة التي تسمع وتتلى، وكذلك بالآيات النَّظريَّة، وهي المخلوقات التي جعلها الله علاماتٍ ودلالاتٍ يعتبر بها أولو الألباب، وهكذا بيَّنه عن طريق العقل؛ حيث أعطى الإنسان فكرًا وعقلًا وذكاءً يعقل به ما أمامه وما بين يديه، وفي كلِّ ذلك ينتج نتيجة، وهي معرفة نفسه، ومعرفة ربِّه، ومعرفة ما خُلق له، وما أُمر به جملةً وتفصيلًا، ونتيجة هذه المعرفة وثمرتها هي العبادة الخالصة لله وحده، وترك عبادة ما سواه، ومداره كلمة الإخلاص التي هي كلمة: (لا إله إلَّا الله)، فإنَّها أوَّل ما دعت إليه الرُّسل، وهي كلمة التَّوحيد.

هذا هو توحيد الرُّسل، وهو ما جاءت به وما بلَّغته، وهو ما عليه جماهير

الأمَّة، وهو ما تعلَّمه المسلمون قديمًا وحديثًا، ولا عبرة بمن خالف في ذلك من الصُّوفيَّة ونحوهم، الذين جعلوا هذه الكلمةَ توحيدَ العامَّة؛ حيث قسَّموا النَّاس إلى عامَّةٍ وخاصَّةٍ وخاصَّة خاصَّةٍ، وقالوا: إنَّ كلمة: (لا إله إلَّا الله) توحيد العامَّة، وكلمة: (الله الله) توحيد الخاصَّة، وكلمة: (هو هو) توحيد خاصَّة الخاصَّة، يعني: خلاصة الخلاصة!

فعند هؤلاء ـ قبَّحهم الله ـ أنَّ الأنبياء والرُّسل والصَّحابة وعلماء الأمَّة كلَّهم من العامَّة الذين لا يعرفون ولا يفقهون، وعندهم أنَّ الصُّوفيَّة ـ يعني: عوام من دخل فيهم ـ هُمُ الخاصَّة، وأفرادهم وعلماءهم والواصلين منهم إلى الذُّروة هم خاصَّة الخاصَّة؛ فلأجل ذلك تجدهم في ذكرهم لا يزيدون على كلمة: (هو هو)، ولا شكَّ أنَّ هذا لا يدلُّ على معنى، وأمَّا كلمة الإخلاص فإنَّها دالَّةٌ على معنى فهمه المدعوون، دلَّت على إخلاص العبادة لله والتبرُّؤ ممَّا سواه، ولهذا تشتمل على ولاءٍ وبراءٍ، فإنَّ قوله: (لا إله): براءٌ، و(إلَّا الله): ولاءٌ، وتشتمل على اتِّصالٍ وانفصالٍ: (إلَّا الله) هو اتصالٌ بالإله وحده، و(لَا إله) هو انفصالٌ عن المألوهات، فيقال: فيها نفيٌ وإثباتٌ، وفيها اتِّصالٌ وانفصالٌ، وفيها ولاءٌ وبراءٌ.

فلما كانت كذلك كانت جامعةً لمعنى التَّوحيد، الذي هو توحيد الرُّسل، ولكن لَابُدَّ مِنْ معرفة معناها؛ وذلك لأنَّه وجد من المتأخِّرين من يتكلَّمون بها، ولكن لم يفهموا مدلولها، فاحتاج المسلم إلى أن يفهم ما دلَّت عليه؛ حتَّى يعبدَ الله تعالى بمقتضاها.

قال الشارح:

فَإِنَّ أَكْمَلَ النَّاسِ تَوْحِيدًا الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَالْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ أَكْمَلُ فِي ذَلِكَ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ أَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا، وَهُمْ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَأَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا الْخَلِيلَانِ: مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ - فَإِنَّهُمَا قَامَا مِنَ التَّوْحِيدِ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُمَا عِلْمًا، وَمَعْرِفَةً، وَحَالًا، وَدَعْوَةً لِلْخَلْقِ، وَجِهَادًا، فَلَا تَوْحِيدَ أَكْمَلُ مِنَ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَدَعَوْا إِلَيْهِ، وَجَاهَدُوا الْأُمَمَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مُنَاظَرَةِ إِبْرَاهِيمَ قَوْمَهُ فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَصِحَّةِ التَّوْحِيدِ وَذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فَلَا أَكْمَلَ مِنْ تَوْحِيدِ مَنْ أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ.

وَكَانَ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ إِذَا أَصْبَحُوا أَنْ يَقُولُوا: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[1].

فَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: التَّوْحِيدُ، وَدِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ: مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ: هِيَ شَهَادَةُ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَفِطْرَةُ الْإِسْلَامِ: هِيَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٧)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٥)، والبيهقي في الدعوات الكبير (١/ ١٩) من حديث عبد الرحمن بن أبزى ﷺ.

مَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ عُبُودِيَّةً وَذُلًّا وَانْقِيادًا وَإِنَابَةً.

---

قال الشيخ:

إنَّ أكمل التَّوحيدِ هو توحيدُ الأنبياءِ، والأنبياء يتفاوتون وأكملهم الرُّسل، فإنَّ الرُّسل هُمُ الذين قاموا للدَّعوة وللجهاد، وبلَّغوا ودعوا إلى الله وكُلِّفوا بالدَّعوة، وأكمل الرُّسل هم أولوا العزم، وهم خمسةٌ ذكرهُمُ الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣].

هؤلاء هم أولو العزم الذين عناهم الله تعالى في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ وذلك لأنَّهم هُمُ الذين صبروا وصابروا، ولهم مكانةٌ ومقامٌ، فهم أفضل الرُّسل.

وأفضل الخمسة الخليلان: إبراهيم ومحمد ـ صلَّى الله عليهما وسلَّم ـ وقد أخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ، كما في حديث جندب بن عبدالله البجلي ﷺ، حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قد اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كما اتَّخَذَ إبراهيم خَلِيلًا»[1]، فالخليلان لهما مقامٌ سامٍ رفيعٌ،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

وهما اللَّذان جاهدا في الله، ودعوا إلى التَّوحيد أتمَّ دعوةٍ، ولقيا في ذلك ما لقيا.

ومعلومٌ أنَّ الرُّسل كلَّهم دعوا إلى التوحيد، متقدِّمهم ومتأخِّرهم؛ وقد أمر الله نبيَّه بأن يقتدي بهم كلِّهم، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، أي: فاقتدِ بهديهم وبما جاءك عنهم وبما بلغك، ولا شكَّ أنَّ مِنَ هُداهم التَّوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، كلُّ رسولٍ يوحَى إليه بهذا. هذا من جملة هداهم الذي أُمر النَّبيُّ ﷺ بأن يهتدي به، وأمته تبعٌ له.

كذلك هذا الدُّعاء الذي كان النَّبيُّ ﷺ يعلِّمه أصحابهَ، يقول: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ...**» إلى آخره، دعاءٌ جامعٌ؛ لأنَّ فيه ذِكْر ملَّة إبراهيم، يعني: أنَّ من جملة ما تمسَّكنا به: ملَّة أبينا إبراهيم التي أمرنا الله تعالى أن نقتدي بها، وملَّة الأنبياء التي أُمر نبيُّنا أن يقتدي بها، فإذا تمسَّك المسلمون بذلك، فإنَّهم إن شاء الله على طريق النَّجاة.

قال الشارح:

فَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ، الَّذِي مَنْ رَغِبَ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١]. وَكُلُّ مَنْ لَهُ حِسٌّ سَلِيمٌ، وَعَقْلٌ يُمَيِّزُ بِهِ، لا يَحْتَاجُ فِي الِاسْتِدْلَالِ إِلَى أَوْضَاعِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالجَدَلِ وَاصْطِلَاحِهِمْ وَطُرُقِهِمْ الْبَتَّةَ، بَلْ رُبَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِهَا فِي شُكُوكٍ وَشُبَهٍ يَحْصُلُ لَهُ بِهَا الحَيْرَةُ بِالضَّلَالِ وَالرِّيبَةِ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِذَا سَلِمَ قَلْبُ صَاحِبِهِ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ الَّذِي لَا يُفْلِحُ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّوْعَ الثَّانِيَ وَالثَّالِثَ مِنَ التَّوْحِيدِ، الَّذِي ادَّعَوْا أَنَّهُ تَوْحِيدُ الخَاصَّةِ وَخَاصَّةِ الخَاصَّةِ، يَنْتَهِي إِلَى الْفَنَاءِ الَّذِي يُشَمِّرُ إِلَيْهِ غَالِبُ الصُّوفِيَّةِ، وَهُوَ دَرْبٌ خَطِرٌ، يُفْضِي إِلَى الِاتِّحَادِ، انْظُرْ إِلَى مَا أَنْشَدَه شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الأَنْصَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَيْثُ يَقُولُ[1]:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدِ ... إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ

تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ ... عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ

تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ ... وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ

---

(١) ذكر هذه الأبيات في منازل السائرين (ص١٣٩)، قال: «وقد أجبت في سالف الزمان سائلًا سألني عن توحيد الصوفية بهذه القوافي الثلاث: ...».

وَإِنْ كَانَ قَائِلُهُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لَمْ يُرِدْ بِهِ الِاتِّحَادَ، لَكِنْ ذَكَرَ لَفْظًا مُجْمَلًا مُحْتَمَلًا، جَذَبَهُ بِهِ الِاتِّحَادِيُّ إِلَيْهِ، وَأَقْسَمَ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِ إِنَّهُ مَعَهُ، لَوْ سَلَكَ الْأَلْفَاظَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي لَا إِجْمَالَ فِيهَا كَانَ أَحَقَّ، مَعَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي حَامَ حَوْلَهُ لَوْ كَانَ مَطْلُوبًا مِنَّا لَنَبَّهَ الشَّارِعُ عَلَيْهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَهُ، فَإِنَّ عَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، فَأَيْنَ قَالَ الرَّسُولُ هَذَا تَوْحِيدُ الْعَامَّةِ، وَهَذَا تَوْحِيدُ الخَاصَّةِ، وَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ؟ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى؟ أو أشار إليه.

---

قال الشيخ:

نعرف أنَّ التَّوحيد الذي دعت إليه الرُّسل حقًّا توحيدٌ واحدٌ ليس فيه فروعٌ، فليس هناك توحيد خاصَّةٍ، وخاصَّة خاصَّةٍ، وعامَّةٍ؛ بَلِ الرَّسول ﷺ دعا النَّاسَ كلَّهم ـ وكذا الأنبياء ـ إلى شيءٍ واحدٍ، وأمرهم بأن يتمسَّكوا به، وهو الإخلاص لله تعالى، بحيث يعبدونه ويتركون عبادة ما سواه بعد المعرفة، فأمَّا هذا التَّقسيم الذي تدَّعيه هذه الطَّوائف، فإنَّه مُبتدَعٌ.

الطَّائفة التي ابتدعَتْ ذلك هم الصُّوفيَّة، قسَّموا التَّوحيد إلى ثلاثة أقسامٍ: فجعلوا العامَّة توحيدهم كلمة: (لا إله إلا الله)، والخاصَّة كلمة: (الله)، وخاصة الخاصة كلمة: (هو هو)، ونسأل مَنْ الذي سبقهم من الرُّسل إلى هذا التَّقسيم؟! لو كان حقًّا لبيَّنته الرُّسل لأممهم، فهذا يدل على أنَّهم لم يُسبقوا إليه ولا دليل عليه، ومع كونه لا دليل عليه فإنَّه يؤول بسالكيه إلى هلاك معنوي لا هلاك حسي، فيؤول بصاحبه إلى أن يضلَّ ويتيه، ويؤدي به إلى الحيرة والرَّيب.

وكثيرٌ من الذين خاضوا في هذا العلم أدّى بهم ذلك الأمر وذلك التَّوسُّع إلى الشَّكِّ والحَيْرة، ويأتينا ـ إن شاء الله ـ أمثلةٌ لذلك في هذا الكتاب.

كذلك يؤدي بهم هذا التقسيم إلى طريقةٍ أخطر من ذلك، وهي طريقة الاتِّحاد، وهو مذهبٌ باطلٌ، وقد أشار إليه الشَّارح فيما سبق، وهو مذهب أهل وحدة الوجود، الذين يجعلون الخالق متَّحِدًا بالمخلوق! فيقال لهم: ما الدَّليل على ذلك، ومن الذي سبقكم إلى ذلك؟ فلا يجدون دليلًا ولا سابقًا من أهل العلم.

ويؤدي بهم أيضًا هذا التقسيم إلى طريقةٍ يسمُّونها الفناءَ، والفناءُ عندهم هو: غاية المنازل وأعلى المراتب، متى وصل إليها العارف عندهم وصل إلى حظيرة القدس! وهو الذي ـ في نظرهم ـ يفنى بعبادته عن معبوده، ويفنى بوجوده عن موجوده، بحيث يتلاشى عن نفسه، ويفنى في خالقه كما يقولون، ولهم في ذلك عباراتٌ بَشِعَةٌ لا حاجة بنا إلى أن نعرفها، والجهل بها أولى؛ لأنَّ تلك المعارف وتلك الشَّطَحات التي وقعوا فيها سببها هذا الخوض، وهو الحصول على رتبة خاصَّة الخاصَّة.

ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أنَّ هذا طريقٌ خطرٌ، وأنَّه لا يجوز سلوك الطَّريق الذي يوصل إلى هذا الأمر.

وهذه الأبيات التي أنشدها أبو إسماعيل الهَرَوي في آخر كتابه الذي سماه «منازل السَّائرين»[1]، والذي شرحه ابن القيم في كتابه الذي سماه «مدارج

(١) (ص١٣٩).

السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وذكر هذه الأبيات في أوَّله، وحرص على أن يحملها محملًا حسنًا، ولكن فيها شيءٌ من الإجمال، وفيها شيءٌ من الإيهام؛ لأنَّ ظاهرها أنَّ النَّاس كلّهم لم يوحِّدوا الله، وأنه لا يقدر على توحيد الله إلاَّ الله، وأن الله هو الذي وحَّد نفسه؛ فإنَّ قوله:

ما وحَّدَ الواحدُ من واحدٍ ... إذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدهُ جاحدُ

ظاهره أنَّ كلَّ النَّاس حتَّى الأنبياء لم يكونوا موحِّدين، وإنَّما الله الذي وحَّد نفسه، ولكن حمله على أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يعرف ذلك إلاَّ بمعرفةٍ من الله وتعريفٍ منه، وحمله الاتحاديُّون على مذهبهم، واجتذبوا أبا إسماعيل - رحمه الله - إليهم، وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم إنَّه لمنهم، وكلامه في الحقيقة موهمٌ، ولكنَّ عقيدته سليمةٌ، وله مؤلَّفاتٌ تدلُّ على أنَّه من أهل السُّنَّة، بيَّنها العلماء في ترجمته.

وعلى كلِّ حالٍ، فطريقة الرُّسل وأتباعهم والأئمَّة والعلماء هي معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وذكره بما أمر به، وبما بلَّغته رسله، وبذلك يكون الإنسان من العارفين ومن الموحِّدين، دون أن يحتاج إلى معرفة الاصطلاحات الصُّوفيَّة والشَّطَحات، وتلك الكلمات التي ما أنزل الله بها من سلطانٍ.

قال الشارح:

هَذِهِ النُّقُولِ وَالْعُقُولُ حَاضِرَةٌ، فَهَذَا كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَهَذِهِ سُنَّةُ الرَّسُولِ، وَهَذَا كَلَامُ خَيْرِ الْقُرُونِ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَسَادَاتِ الْعَارِفِينَ مِنَ الْأَئِمَّةِ، هَلْ جَاءَ ذِكْرُ الْفَنَاءِ فِيهَا، وَهَذَا التَّقْسِيمُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ؟! وَإِنَّمَا حَصَلَ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، الْمُشْبِهِ لِغُلُوِّ الْخَوَارِجِ، بَلْ لِغُلُوِّ النَّصَارَى فِي دِينِهِمْ. وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ وَنَهَى عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]، وَقَالَ ﷺ: «لَا تُشَدِّدُوا فَيُشَدِّدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، رَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

---

قال الشيخ:

أَوَّلًا: ذكر أنَّ هذه الكلمات لم يأتِ بها كتابٌ ولا سُنَّةٌ، يعني: كلماتهم الاصطلاحيَّة التي يتغالون فيها، كتقسيم التَّوحيد إلى ثلاثةٍ، وتقسيم الفناء أيضًا إلى ثلاثةٍ، وما أشبه ذلك، كلُّها ليس عليها دليلٌ، وإنَّما هي اصطلاحاتٌ من عندهم.

ثانيًا: ذكر أنَّ هذا بسبب الغلوِّ، والغلوُّ: هو الزِّيادة على المقصود أو على

---

(١) برقم (٤٩٠٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

المطلوب أو على الوارد، والتشدُّد فيه. وقد حكى الله أنَّ النَّصارى غَلَوْا في عيسى؛ حيث قالوا: هو الله، وأنَّ الله هو المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، أو ابن الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، هذا من الغلوِّ الذي ذمَّهم الله به.

وقد وقع الغلوُّ في هذه الأمة، ووقع في العبادات وفي النصوص؛ كما فعلت الخوارج، فإنَّهم غلوا حتَّى كفَّرُوا بالذُّنوب، ووقع الغلوُّ في بعض الأشخاص، كالرَّافضة؛ حيث غَلَوا في أهل البيت حتَّى اعتقدوا فيهم العصمة، وفضَّلوهم على كثيرٍ من الرُّسل، وأعطوهم شيئًا من حقِّ الله، وهذا من الغُلُوِّ.

وقد ذمَّ الله تعالى الغلوَّ ونهى عنه في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وفي سورة المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة:٧٧].

وكذلك جاء ذم التشدد في أحاديث النبي ﷺ، ومنها هذا الحديث الذي أورده الشارح في النَّهي عن التشدُّد وذمِّ المتشدِّدين، وأنَّ من المتشدِّدين النَّصارى، فإنَّهم «شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، رَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ»، وكذلك نهى عن الغلوِّ بقوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي

الدِّينِ، فَإِنَّه أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»[1]، ذكر أنَّه أهلك من كان قبلنا، ودين الله تعالى وسطٌ بين الغالي والجافي، الغالي هو الزائد، والجافي هو المقصِّر، ولعله يأتينا ما هو أوسع في الغلو في هذا البحث إن شاء الله.

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٣٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلاَ شَيْءَ مِثْلُهُ.

---

قال الشارح:

اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، وَلَكِنَّ لَفْظَ «التَّشْبِيهِ» قَدْ صَارَ فِي كَلَامِ النَّاسِ لَفْظًا مُجْمَلًا يُرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ، وَهُوَ مَا نَفَاهُ الْقُرْآنُ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ، مِنْ أَنَّ خَصَائِصَ الرَّبِّ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، رَدٌّ عَلَى الْمُمَثِّلَةِ الْمُشَبِّهَةِ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، رَدٌّ عَلَى النُّفَاةِ الْمُعَطِّلَةِ، فَمَنْ جَعَلَ صِفَاتِ الْخَالِقِ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ، فَهُوَ الْمُشَبِّهُ الْمُبْطِلُ الْمَذْمُومُ، وَمَنْ جَعَلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ مِثْلَ صِفَاتِ الْخَالِقِ، فَهُوَ نَظِيرُ النَّصَارَى فِي كُفْرِهِمْ. وَيُرَادُ بِهِ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ للهِ شَيْءٌ مِنَ الصِّفَاتِ، فَلَا يُقَالُ: لَهُ قُدْرَةٌ، وَلَا عِلْمٌ، وَلَا حَيَاةٌ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَوْصُوفٌ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ! وَلَازِمُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ لَا يُقَالُ لَهُ: حَيٌّ، عَلِيمٌ، قَدِيرٌ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ يُسَمَّى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَكَذَا كَلَامُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَإِرَادَتُهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

في هذه العبارة ردٌّ على المشبِّهة الذين غَلَوا في الإثبات؛ حتى شبهوا الخالق

بالمخلوق، فهناك للخالق بالمخلوق، وهناك مشبِّهة لصفات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بصفات المخلوق، وهناك مشبِّهة لأفعال الخالق بأفعال المخلوق، والكل ضالُّون.

الذين شبَّهوا المخلوق بالخالق: كالنصارى الذين شبهوا عيسى بالله، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة:١٧]، أو قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، ومثلهم جميع الذين يعظِّمون المخلوقين ويعطونهم شيئًا من حقِّ الله، فإنَّ هؤلاء شبهوا المخلوق بالرَّبِّ تعالى؛ حيث رفعوا المخلوق وأعطوه ما لا يستحقُّه.

ومن هؤلاء أيضًا القبوريُّون، الذين غَلَوا في المخلوقين ووصفوهم بصفاتٍ لا يستحقُّها إلاَّ الخالق، فشبَّهوا المخلوق بالخالق ورفعوا قدره حتَّى أعطوه شيئًا من خصائص الخالق سبحانه وتعالى.

أمَّا التَّشبيه في الأفعال: فهو أن تُجْعَل أفعالُ الله كأفعال المخلوق، أو تُجْعَل أفعالُ المخلوق كأفعال الخالق، وتفصيل ذلك والتمثيل عليه معروفٌ، ويحتاج إلى توسُّعٍ ليس هذا محلُّه، لكن نعرف أنَّ الله تعالى موصوفٌ ببعض الأفعال التي قد يُوصف بها العبد، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥]، فالله تعالى أخبر أنَّه استوى على العرش، والإنسان موصوفٌ أيضًا بالاستواء، قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣]، وليس الاستواء كالاستواء.

كذلك وصف الله تعالى نفسه بالمجيء في قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا

صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢]، وليس مجيء الله كمجيء الملائكة، بل مجيء الله يليق به، وكذلك وصف نفسه وبعض خلقه بالإتيان، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وليس إتيان الله كإتيان الملائكة، فالملائكة مخلوقون.

فهنا نقول: إنَّها من الأفعال، ولا يجوز التَّشبيه فيها، وكذلك لا يجوز أيضًا التَّشبيه بالصِّفات الذَّاتيَّة التي أثبتها الله لنفسه، فإذا أثبت الله لنفسه اليدين كما في قوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤]، نقول: ليس كيدي المخلوقين، وإذا أثبت لنفسه الوجه وأثبته له رسوله ﷺ، كما في قوله: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وفي قوله: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨]، وفي قول الرسول ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1]، وفي قوله ﷺ: «مَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[2] ... وأشباه ذلك.

فنقول: ليس كمثله شيءٌ في ذلك، وأهل السُّنَّة يقولون: إنه وصفٌ حقيقيٌّ، ولكن ليس مثل صفات المخلوقين وخصائصهم، هذا هو معنى التَّشبيه، ولكن هناك من استعمل التَّشبيه وأراد به نفي الصِّفات، وهذه طَّريقة المعتزلة أتباع جهم

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث عبدالله بن قيس ﷺ.

ابن صفوان ونحوه؛ حيث سلكوا طريقة النَّفي، وجعلوا النَّفي مطلقًا، ونفوا كلَّ صفةٍ وُجدت في المخلوق، وزعموا أنَّ إثباتها تشبيهٌ، وأنَّ إثبات الصِّفة التي في المخلوق تشبيهٌ؛ فصاروا يتعلَّقون بهذه الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولا يتمُّونها، أو لا يعملون بآخرها؛ فإن في آخرها ردٌّ عليهم في نفيهم للصِّفات. وقد رُوي أنَّ كبيرًا من كبرائهم ـ يُقال له: ابن أبي دؤاد ـ قال لأحد الخلفاء: أريد أن تكتب على الكعبة قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. هربًا من إثبات السَّمع والبصر.

فلا شكَّ أنَّ هؤلاء غَلَوا في النَّفي، ولازِمُ قولهم أنَّ كلَّ صفةٍ موجودةٍ في أيِّ مخلوقٍ لا يجوز إثباتها للخالق، فنقول لهم: يلزمكم أن تنفوا صفة الحياة، وأن تنفوا صفة الوجود، وصفة الذَّات، وما أشبه ذلك. إذا قلتم: إنَّ لله ذاتًا. قلنا: شبَّهتم؛ إذِ المخلوقُ له ذاتٌ. فإذا قالوا: لا تشبه ذواتنا. قلنا: لماذا لا تقولون: له سمعٌ لا يشبه سمع المخلوقين، وبصرٌ لا يشبه بصر المخلوقين؟

فعلى كلِّ حالٍ الآية دليلٌ لأهل السُّنَّة، ولكن اتَّخذها المعتزلة دليلًا لهم، ولم يعملوا بآخرها؛ لأنَّ في آخرها ردًّا عليهم. يقول العلماء: قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ على المشبِّهة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على المعطِّلة، يعني: بعض آية ردَّتْ على الطَّائفتين: طائفةٌ غلت في النَّفي، وطائفةٌ غلت في الإثبات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ على الغُلاة في الإثبات، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على الغُلاة في النَّفي.

قال الشارح:

وَهُمْ يُوَافِقُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَوْجُودٌ، عَلِيمٌ، قَدِيرٌ، حَيٌّ، وَالمَخْلُوقُ يُقَالُ لَهُ: مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، وَلَا يُقَالُ: هَذَا تَشْبِيهٌ يَجِبُ نَفْيُهُ، وَهَذَا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَصَرِيحُ الْعَقْلِ، وَلَا يُخَالِفُ فِيهِ عَاقِلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمَّى نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِهَا، وَكَذَلِكَ سَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ، وَسَمَّى بِبَعْضِهَا صِفَاتِ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ الْمُسَمَّى كَالْمُسَمِّي، فَسَمَّى نَفْسَهُ: حَيًّا، عَلِيمًا، قَدِيرًا، رؤوفًا، رَحِيمًا، عَزِيزًا، حَكِيمًا، سَمِيعًا، بَصِيرًا، مَلِكًا، مُؤْمِنًا، جَبَّارًا، مُتَكَبِّرًا. وَقَدْ سَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ فَقَالَ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥]، ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١]، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨]، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١]، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف:٧٩]، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ [السجدة:١٨]، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥]. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُمَاثِلُ الْحَيُّ الْحَيَّ، وَلَا الْعَلِيمُ الْعَلِيمَ، وَلَا الْعَزِيزُ الْعَزِيزَ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَسْمَاءِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر:١١]،

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ. قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1].

وَفِي حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[2] وَغَيْرُهُ[3]، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا،

---

(١) برقم (١١٦٢).

(٢) برقم (١٣٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، وابن حبان (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥)، والحاكم (١/ ٥٢٤).

وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ وَرَسُولُهُ صِفَاتِ اللهِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَقُوَّةً.

---

قال الشيخ:

أراد الشارح بهذا الردَّ على هؤلاء الذين كلَّما جاءتهم صفةٌ لله موجودةٌ في المخلوق نفوها عن الله تعالى وجعلوها مجازًا، أو تأوَّلوها بتأويلاتٍ بعيدةٍ، وزعموا أنَّ إثباتها فيه شيءٌ من التَّشبيه.

فيُقال لهم: يلزمكم على هذا أن تفرِّقوا بين صفات المخلوقين وأن تجمعوا بين صفاتهم وصفات الخالق، ويُرَدُّ عليهم بهذه الآيات.

ويُرد عليهم بهذه الآيات، ففيها أنَّ الله تعالى سمَّى نفسه بعدَّة أسماءٍ، وسمَّى بها بعض خلقه، فمن أسمائه «العزيز»، وسمَّى بعض خلقه بذلك في قوله: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١]، ومن أسمائه «المَلِك»، وسمَّى به بعض خلقه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ [يوسف:٥٠]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف:٧٩]، ومن أسمائه «المؤمن»؛ كما في سورة الحشر، وقد سمَّى به بعض خلقه، وكثيرًا ما يذكر المؤمن والمؤمنين والمؤمنات، ومن أسمائه «الجبَّار، المتكبِّر»، وقد سمَّى به أيضًا بعض

خلقه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

ومعلومٌ أنَّه ليس الاسم كالاسم، وليس المَلِك كالمَلِك، وليس العزيز كالعزيز، وليس الجبَّار كالجبَّار، فمُلك الله ليس كمُلك المخلوق، وعزَّة الله ليست كعزَّة المخلوق، فعزَّة المخلوق محدودةٌ، وهكذا يُقال في بقيَّة الأسماء.

فكذلك إذا سمَّى اللهُ نفسه: السَّميع البصير ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، وسمَّى الإنسانَ بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، عُرف أنَّه ليس السَّمع كالسَّمع، وليس البصر كالبصر، وإن كان معلومًا اتِّحاد الاسم، فالسَّمع هو إدراك الأصوات، والبصر هو إدراك المبصَرات والمرئيَّات، ولكن بينهما تفاوتٌ، هذا في الأسماء.

وكذلك يُقال في الصِّفات: إذا وصف الله نفسه بالعلم، ووصف به بعض خلقه، عُرف أنَّه ليس العلم كالعلم، بل بينهما فرقٌ، فعِلمُ الله ليس كعلم المخلوق الذي هو حادثٌ، والذي يعتريه النِّسيان والتَّغيُّر؛ فالله وَصَفَ نفسَه بالعلم صفةً ذاتيَّةً، لا يعتريه جهلٌ ولا تتغيَّر معلوماته، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر:١١]، وكما ورد في الأحاديث النبوية، كما في قوله ﷺ: «بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ»[1]،

(١) قطعة من حديث عمار بن ياسر ﷺ الذي تقدم قريبًا.

وفي قوله: «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي»[1]، وما أشبهه ذلك.

لا شكَّ أنَّ في هذا إثباتًا لهذه الصِّفات، فإذا أثبتها المسلم، فإنَّ عليه أن يعتقد أنَّه ليس معناها كالمعنى الذي يُثْبَت للمخلوق، بل صفة المخلوق تليق به، وصفة الخالق تليق به، وبهذا - إن شاء الله - يصير المؤمن موحِّدًا، فإذا أثبت الصفات، ولم يعتقد فيها شيئًا من التَّشبيه والتَّشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، ولم ينفها عن الخالق، واعتقد أنَّها حقيقةٌ لائقة بالخالق سبحانه، وأنَّ صفات المخلوق يعتريها التغيُّر والنَّقص، وليس كذلك صفات الخالق، فلا يكون هذا مشبِّهًا.

بل المشبِّه - كما عرفنا - هو الذي يبالغ، فيقول: يد الله كأيدينا، وسمعه كأسماعنا، وذاته كذوات المخلوق - تعالى الله عن ذلك - وهؤلاء هم الذين ردَّ الله عليهم في عدَّة آيات؛ كما في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وفي قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، وفي قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، وفي قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وأشباه ذلك، فإنَّ هذا ردٌّ على الذين جعلوا المخلوق كالخالق أو الخالق كالمخلوق، تعالى الله عن قولهم.

---

(١) قطعة من حديث الاستخارة الذي تقدم قريبًا.

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم:٥٤]، ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف:٦٨]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ الْعِلْمُ كَالْعِلْمِ، وَلَا الْقُوَّةُ كَالْقُوَّةِ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ، وَهَذَا لَازِمٌ لِجَمِيعِ الْعُقَلَاءِ.

فَإِنَّ مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ، كَالرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ وَالتَّجْسِيمَ! قِيلَ لَهُ: فَأَنْتَ تُثْبِتُ لَهُ الْإِرَادَةَ وَالْكَلَامَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ، مَعَ أَنَّ مَا تُثْبِتُهُ لَهُ لَيْسَ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، فَقُلْ فِيمَا نَفَيْتَهُ وَأَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِثْلَ قَوْلِكَ فِيمَا أَثْبَتَّهُ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ! قِيلَ لَهُ: فَأَنْتَ تُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، مِثْلَ: حَيٍّ، عَلِيمٍ، قَدِيرٍ، وَالْعَبْدُ يُسَمَّى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَلَيْسَ مَا يَثْبُتُ لِلرَّبِّ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مُمَاثِلًا لِمَا يَثْبُتُ لِلْعَبْدِ، فَقُلْ فِي صِفَاتِهِ نَظِيرَ قَوْلِكَ فِي مُسَمَّى أَسْمَائِهِ.

---

قال الشيخ:

هنا يرد على بعض النُّفاة، وهم الأشاعرة، فإنَّهم يثبتون أنَّ الله تعالى يسمع ويبصر ويتكلَّم ويقدر ويعلم ويريد، ويثبتون له الحياة، ومع ذلك ينفون الصِّفات الفعليَّة، فينفون أنَّ الله يحبُّ أو يبغض أو يفرح، وكذلك ينفون أنَّ لله سبحانه

وجهًا أو يدًا كما أثبت لنفسه، وهكذا بقيَّة الصِّفات.

فإذا طُلب منهم سبب النَّفي، قالوا: إنَّ هذه موجودةٌ في المخلوق، فالمخلوق يغضب ويرضى، ويحبُّ ويبغض، فلا يكون الرَّبُّ مثله! وإذا قيل لهم: عجبًا لكم! إذًا أنتم تقولون: إنَّ الله يريد ويعلم ويسمع ويتكلَّم ويقدر، والمخلوقون كذلك لهم إراداةٌ وسمعٌ وبصرٌ وعلمٌ وقدرةٌ، فما الفرق بين ما أثبتُّم وبين ما نفيتم؟! لا يجدون سبيلًا إلى الفرق، فتنقطع بذلك حجَّتهم؛ لأنهم فرَّقوا بين ما جمع الله بَيْنَهُ، فأثبتوا الإرادة، ونفوا المحبَّة، ولا فرق بينهما.

قوله: (**فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ! قِيلَ لَهُ: فَأَنْتَ تُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى**)، هذه طائفةٌ أخرى من النُّفاة؛ وهم المعتزلة الذين لا يثبتون شيئًا من الصِّفات، فلا يثبتون أنَّ الله حيٌّ، ولا سميعٌ، ولا بصيرٌ ... إلى آخره ـ تعالى الله عن قولهم ـ ولكنَّهم يثبتون الأسماء، فيقولون: إنَّها أسماءٌ ثابتةٌ لله، وإنَّ الله سميعٌ، بصيرٌ، عليمٌ، قديرٌ، حيٌّ، مُريدٌ، متكلِّمٌ، ملكٌ، قدُّوسٌ. يثبتون هذه بوصفها أسماء، ولكنَّهم لا يجعلونها دالَّةً على صفاتٍ.

فيُقال لهم: المخلوق أيضًا يُسمَّى بذلك، يُسمَّى حيًّا، ويُسمَّى قديرًا، ويُسمَّى عليمًا، فقد أثبتُّم أسماءً موجودةً في المخلوق، فإذا أثبتُّم الأسماء لزمكم إثبات الصِّفات، فلا فرق. هذا لازم هؤلاء أيضًا، يُقال لهم فيما نفوا مثل قولهم فيما أثبتوا، فإذا قالوا: إنَّنا نثبتها على أنَّها أسماءٌ يُنادى بها الرَّبُّ تعالى. قُلنا: والمخلوق كذلك يُنادى بها، فإذا كان لا يلزم التَّشبيه مع كونها ثابتةً للمخلوق، فلماذا لا تثبتون الصِّفات وتجعلونها مناسبةً للموصوف؟!

قال الشارح:

فَإِنْ قَالَ: وَأَنَا لَا أُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، بَلْ أَقُولُ: هِيَ مَجَازٌ، وَهِيَ أَسْمَاءٌ لِبَعْضِ مُبْتَدَعَاتِهِ، كَقَوْلِ غُلَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ!

قِيلَ لَهُ: فَلَا بُدَّ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ حَقٌّ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَالْجِسْمُ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ هُوَ مُمَاثِلًا لَهُ.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا، بَلْ أُنْكِرُ وُجُودَ الْوَاجِبِ.

قِيلَ لَهُ: مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ الْمَوْجُودَ إِمَّا وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ، وَإِمَّا غَيْرُ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ، وَإِمَّا قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ، وَإِمَّا حَادِثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَإِمَّا مَخْلُوقٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى خَالِقٍ، وَإِمَّا غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَا مُفْتَقِرٍ إِلَى خَالِقٍ، وَإِمَّا فَقِيرٌ إِلَى مَا سِوَاهُ، وَإِمَّا غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ.

وَغَيْرُ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ، وَالْحَادِثُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِقَدِيمٍ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِخَالِقٍ، وَالْفَقِيرُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِغَنِيٍّ عَنْهُ. فَقَدْ لَزِمَ عَلَى تَقْدِيرِ النَّقِيضَيْنِ وُجُودُ مَوْجُودٍ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ قَدِيمٍ أَزَلِيٍّ خَالِقٍ غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ، وَمَا سِوَاهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَأَنَا لَا أُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، بَلْ أَقُولُ: هِيَ مَجَازٌ)، هذا قول طائفةٍ أخرى أكفر وأشدُّ من المعتزلة ضلالًا، أضلُّ منهم جميعًا، وهم: غُلاة الباطنيَّة، والملاحِدَة، وغُلاة الفلاسفة، يقولون: إنَّنا لا نثبت الأسماء ولا نثبت الصِّفات،

وهذه الأسماء التي يُسمَّى بها الله ليست حقيقيَّةً، وإنَّما هي مجازٌ، وهي أسماءٌ لبعض المخلوقات أو المخترَعات.

فيقال لهم: لا بدَّ أنكَّم تثبتون أنَّ الله موجودٌ وقائمٌ بنفسه، والمخلوق كذلك موجودٌ وقائمٌ بنفسه، فإذا أثبتُّم هذا الوصف الذي هو موصوفٌ به المخلوق، فقد وقعتم فيما فررتم منه، فررتم من التَّشبيه ووقعتم فيه، فلا محيدَ لكم عن ذلك. هذا يبيِّن تناقض هؤلاء النُّفاة.

قوله: (فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا، بَلْ أُنْكِرُ وُجُودَ الْوَاجِبِ)، هؤلاء هم الدَّهريَّة والشُّيوعيَّة ونحوهم، الذين ينكرون واجب الوجود، فيُحتجُّ عليهم بحجَّةٍ عقليةٍ، فيُقال لهم: إنَّ هذه الموجودات حادثةٌ، والحادث لا بدَّ له من محدثٍ، وإذا قلنا: إنَّ المحدث الذي أحدثه يفتقر إلى محدثٍ آخرَ، لَزِمَ التَّسلسل، فيقال: إذًا هناك محدثٌ لها، وهو الله تعالى.

ويُقال أيضًا: إنَّ الموجودات قسمان: واجب الوجود، وممكن الوجود، وواجب الوجود هو الخالق، وممكن الوجود هو المخلوق؛ لأنه يمكن أن يوجد، ولأنَّه يأتي عليه الفناء، وتنقسم أيضًا إلى قسمين: غنيٌّ بنفسه لا يحتاج إلى غيره وهو الخالق، وفقيرٌ بالذَّات مفتقرٌ إلى غيره وهو المخلوق، فالمخلوق وصْفُ الفقر له لازمٌ؛ ولذلك ورد في قصيدةٍ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة قوله[1]:

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

(١) انظر: العقود الدرية (ص٣٩١).

يقول: إنَّ الفقر وصفٌ ذاتيٌّ للمخلوقات، وأن الغِنى الذاتيَّ وصفٌ للخالق تعالى، فالخالق غنيٌّ بذاته، والمخلوق فقيرٌ بذاته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وإذا تأمَّل العاقل هذه الأشياء اضطرَّ إلى الاعتراف بأنَّ هناك خالقًا غنيًا بنفسه، قائمًا بنفسه، قديمًا أزليًّا، غير مسبوقٍ بعدمٍ، ولا يأتي عليه الفناء؛ وذلك أخذًا بعين الاعتبار من هذه الموجودات التي وُجدت وتفنى، أنَّ الموجود لا بدَّ له من مُوجِدٍ، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

فإذا لم يكونوا خُلقوا من غير شيءٍ تعيَّن أنَّهم مخلوقون من شيءٍ، وإذا لم يكونوا هم الخالقين تعيَّن أنَّ لهم خالقًا خلقهم، فليس الإنسان يخلق نفسه، وإلَّا لحرص على أن يكمل خلقه، وكذلك ليس هو يخلق ولده، وإلَّا لحرص على أن يكون ولده في أحسن ما يُراد، فنحن نشاهد أنَّ الإنسان يُولد له ولدٌ مشلولٌ، ويُولد له أولادٌ ناقصو الخِلْقَة، ويُولد له من هم ناقصو العقل، وكذلك قد يُولد له ذكورٌ أو إناثٌ أو إناثٌ وذكورٌ، وذلك دليلٌ على أنَّه ليس هو الذي يختار، وليس هو الذي يقدِّر لنفسه، بل هناك من يخلق هذا الخلق ويدبِّرهم، وهو الخالق وحده، فعُرف بذلك أنَّ هذا الوجود مفتقرٌ إلى موجدٍ، وأنَّه مفتقرٌ إلى واجب الوجود.

فما دام أنَّ هذا الوجود مفتقرٌ إلى موجدٍ، فيلزم أن يكون ذلك الموجد موصوفًا بصفاتٍ تناسبه لا تشبه صفات المخلوق، وإلَّا لأتى عليه ما يأتي على المخلوق من الفناء، فيتعيَّن أن هناك فرقًا كبيرًا بين الخالق والمخلوق، فالخالق حيٌّ

لا يموت والمخلوق يموت، والخالق قديمٌ غير مسبوقٍ بعدم والمخلوق مسبوقٌ بعدمٍ، مخلوقٌ ثمَّ يفنى - كما هو مشاهد - والخالق غنيٌّ بنفسه، فالمخلوق فقيرٌ بالذَّات، وفقيرٌ بنفسه، لا غنى له عن ربِّه طرفة عينٍ.

فهذا يُحتجُّ به على هؤلاء النُّفاة الذين ينكرون أن يكون للوجود مُوجدًا، ويسندون الأشياء إلى الطَّبائع - تعالى الله عن قولهم - والطَّبائع لابدَّ لها من طابع، فليس هناك معتَمدٌ يعتمدونه ويستندون إليه إلَّا عقولٌ فاسدةٌ، فلا يُلتَفت إلى ترَّهاتهم وأباطيلهم.

قال الشارح:

وَقَدْ عُلِمَ بِالْحِسِّ وَالضَّرُورَةِ وُجُودُ مَوْجُودٍ حَادِثٍ كَائِنٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَالحَادِثُ لَا يَكُونُ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ، وَلَا قَدِيمًا أَزَلِيًّا، وَلَا خَالِقًا لِمَا سِوَاهُ، وَلَا غَنِيًّا عَمَّا سِوَاهُ، فَثَبَتَ بِالضَّرُورَةِ وُجُودُ مَوْجُودَيْنِ: أَحَدُهُمَا وَاجِبٌ، وَالْآخَرُ مُمْكِنٌ، أَحَدُهُمَا قَدِيمٌ، وَالْآخَرُ حَادِثٌ، أَحَدُهُمَا غَنِيٌّ، وَالْآخَرُ فَقِيرٌ، أَحَدُهُمَا خَالِقٌ، وَالْآخَرُ مَخْلُوقٌ. وَهُمَا مُتَّفِقَانِ فِي كَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا شَيْئًا مَوْجُودًا ثَابِتًا.

وَمِنَ المَعْلُومِ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا لَيْسَ مُمَاثِلًا لِلْآخَرِ فِي حَقِيقَتِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَتَمَاثَلَا فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ، وَأَحَدُهُمَا يَجِبُ قِدَمُهُ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ، وَالْآخَرُ لَا يَجِبُ قِدَمُهُ وَلَا هُوَ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ، وَأَحَدُهُمَا خَالِقٌ، وَالْآخَرُ لَيْسَ بِخَالِقٍ، وَأَحَدُهُمَا غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، وَالْآخَرُ فَقِيرٌ.

فَلَوْ تَمَاثَلَا لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْهُمَا وَاجِبَ الْقِدَمِ لَيْسَ بِوَاجِبِ الْقِدَمِ، مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ مَوْجُودٍ بِنَفْسِهِ، خَالِقًا لَيْسَ بِخَالِقٍ، غَنِيًّا غَيْرَ غَنِيٍّ، فَيَلْزَمُ اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ عَلَى تَقْدِيرِ تَمَاثُلِهِمَا. فَعُلِمَ أَنَّ تَمَاثُلَهُمَا مُنْتَفٍ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ، كَمَا هُوَ مُنْتَفٍ بِنُصُوصِ الشَّرْعِ.

---

قال الشيخ:

هذا تكميلٌ لهذه الحجَّة العقليَّة في الردِّ على هؤلاء الشُّيوعيِّين والدَّهريِّين؛ فهو يقول: إنَّنا نشاهد أنَّ على الأرض هذه المخلوقات التي منها: الإنسان، والحيوان، والدَّوابُّ والأشجار، والنَّباتات، ونحوها، ونعرف أنَّها كائنةٌ حيَّةٌ،

ونعرف أنَّها موجودةٌ، وأنها أشياءٌ، ونعرف أنَّها حادثةٌ مسبوقةٌ بعدم، ونعرف أنَّها يأتي عليها الفناء والعدم، فتيبس الأشجار، وتنقطع الثمار مثلًا، وتموت الدَّوابُّ والحشرات ونحوها وتتوالد، ويموت الإنسان ويخلفه غيره ... وهكذا. فهذا الدَّليل يبيِّن أنَّها حادثةٌ، والحادث فقيرٌ، فلا بدَّ أنَّ الذي أحدثه غنيٌّ، والحادث عاجزٌ، ولا بدَّ أن يكون الذي أحدثه قادرٌ كامل القدرة، والحادث مستجدٌ، ولا بدَّ أن يكون الذي أحدثه قديمٌ.

فإذا كان كذلك، فالذين ينكرون هذا الدَّليل العقليَّ قد أنكروا المحسوس، وهناك فرقٌ كبيرٌ بين الحادث والمحَدث، بين المخلوق والخالق، بين الغنيِّ والفقير، بين واجب الوجود وممكن الوجود أو جائز الوجود، بين الموجود بنفسه وبين الموجود بغيره، فرقٌ كبيرٌ بين هذا وهذا، فبهذا الدَّليل العقلي يُرَدُّ على هذه الطَّوائف.

وأمَّا الأدلَّة السمعيَّة فإنَّها أشهر وأظهر، وكثيرًا ما يحتجُّ الله تعالى بالآيات الظَّاهرة وهذه الحوادث ونحوها على وجوده وعلى عظمة شأنه ونحو ذلك، وقد تقدَّم لنا شيءٌ من الأدلَّة على ذلك.

قال الشارح:

فَعُلِمَ بِهَذِهِ الْأَدِلَّةِ اتِّفَاقُهُمَا مِنْ وَجْهٍ، وَاخْتِلَافُهُمَا مِنْ وَجْهٍ. فَمَنْ نَفَى مَا اتَّفَقَا فِيهِ كَانَ مُعَطِّلًا قَائِلًا لِلْبَاطِلِ، وَمَنْ جَعَلَهُمَا مُتَمَاثِلَيْنِ كَانَ مُشَبِّهًا قَائِلًا لِلْبَاطِلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَذَلِكَ لِأَنَّهُمَا وَإِنِ اتَّفَقَا فِي مُسَمَّى مَا اتَّفَقَا فِيهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى مُخْتَصٌّ بِوُجُودِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ، وَالْعَبْدُ لَا يَشْرَكُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَالْعَبْدُ أَيْضًا مُخْتَصٌّ بِوُجُودِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ مُشَارَكَةِ الْعَبْدِ فِي خَصَائِصِهِ.

---

قال الشيخ:

إذا عُرف أنَّ الخالق والمخلوق مشتركان في أسماء، فالخالق شيءٌ والمخلوق شيءٌ، الخالق موجودٌ والمخلوق موجودٌ، الخالق ثابتٌ والمخلوق ثابتٌ، وكذلك في بعض الصِّفات، يُقال مثلًا: الله حيٌّ والإنسان حيٌّ والشجر حيٌّ ... وما أشبه ذلك، فهذا الاتِّفاق لا يلزم منه التَّشابه، بل بينهما فرقٌ كبيرٌ.

إذا عرفنا دلالة العقل على وجود خالقٍ، قديرٍ، قديمٍ، أزليٍّ، قادرٍ على كلِّ شيءٍ، لا يعجزه شيءٌ، ولا يخرج عن قدرته شيءٌ، عُرف بذلك أنَّ المخلوق ينافي هذه الصِّفات، فهو محدثٌ وفقيرٌ ... إلى آخر ما تقدَّم. فيَثْبُت بذلك وجود الخالق واتِّصافه بالصِّفات التي يتَّصف بها المخلوق، ولكن لا يلزم تشابهٌ بين صفة الخالق وصفة المخلوق، كما لا يلزم تشابهٌ بين الذَّاتين.

قال الشارح:

وَإِذَا اتَّفَقَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَهَذَا الْمُشْتَرَكُ مُطْلَقٌ كُلِّيٌّ يُوجَدُ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ، وَالْمَوْجُودُ فِي الْأَعْيَانِ مُخْتَصٌّ لَا اشْتِرَاكَ فِيهِ.

وَهَذَا مَوْضِعٌ اضْطَرَبَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النُّظَّارِ، حَيْثُ تَوَهَّمُوا أَنَّ الِاتِّفَاقَ فِي مُسَمَّى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْوُجُودُ الَّذِي لِلرَّبِّ كَالْوُجُودِ الَّذِي لِلْعَبْدِ.

---

قال الشيخ:

وهذا خطأٌ، يعني: إذا اتَّفق اثنان في اسمٍ لم يلزم أن يكون هذا كهذا، فإنَّنا نسمِّي الشَّجر حيًّا، ونسمِّي الحيوان حيًّا، ونسمِّي الإنسان حيًّا، ولا يلزم أن يكون هذا كهذا، ويُقال: الجبال موجودةٌ والحيوانات موجودةٌ، اتفق في كلمة (موجودةٍ) شيئان، ولا يلزم أن تكون الجبال كالحيوانات، بل بينهما فرقٌ.

فما دام كذلك فلا يلزم إذا قلنا: (الله حيٌّ والإنسان حيٌّ) أن يكون هناك تشابهٌ بينهما، فليست هذه الحياة كهذه الحياة، ولا العلم كالعلم، ولا القدرة كالقدرة، عُرف بذلك ضلال هذه الطَّوائف بهذه التَّقديرات.

قال الشارح:

وَطَائِفَةٌ ظَنَّتْ أَنَّ لَفْظَ «الْوُجُودِ» يُقَالُ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ، وَكَابَرُوا عُقُولَهُمْ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ عَامَّةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّقْسِيمِ، كَمَا يُقَالُ: الْمَوْجُودُ يَنْقَسِمُ إِلَى وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ، وَقَدِيمٍ وَحَادِثٍ. وَمَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْأَقْسَامِ، وَاللَّفْظُ الْمُشْتَرَكُ كَلَفْظِ «الْمُشْتَرِي» الْوَاقِعِ عَلَى الْمُبْتَاعِ وَالْكَوْكَبِ، لَا يَنْقَسِمُ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ يُقَالُ: لَفْظُ «الْمُشْتَرِي» يُقَالُ عَلَى كَذَا أَوْ عَلَى كَذَا، وَمِثَالُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ الَّتِي قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي مَوْضِعِهِ.

---

قال الشيخ:

وهذه طوائف من المتكلِّمين يبالغون في مثل هذه الأشياء، يُرَدُّ عليهم، فيُقال مثلًا: إنَّ هناك وجودًا في الأعيان ووجودًا في الأذهان، والمعنى الموجود في الأذهان هو ما يتخيَّله الإنسان بعقله، ولكن قد يتخيَّل ويتصوَّر بعقله أشياء غير حقيقيَّةٍ، فعُرف بذلك أنَّ الوجود في الأذهان لا يلزم منه التَّماثل، فإذا مثَّل الإنسان في ذهنه شيئًا أو تخيَّل أشياء، لم يلزم أن تكون واقعيَّةً.

وأمَّا الذين قالوا: إنَّ الوجود لفظٌ مقولٌ بالاشتراك اللَّفظيِّ! فلا شكَّ أنَّ هؤلاء أيضًا أخطؤوا.

معلومٌ أنَّ هناك كلمات تشترك فيها موجوداتٌ، ولكن تختلف المسمَّيات، فعندنا كلمة: (المشتري) تقع على الذي يشتري منك سلعةً، يسمَّى هذا الرَّجل المشتري، وتقع على نجمٍ من النُّجوم مشهورٌ، يُقال: هذا النَّجم اسمه المشتري،

ومعلومٌ أنَّ هذا نجمٌ وهذا إنسانٌ، فلا يقال: إنَّ هذا اشتراكٌ في اللفظ.

كذلك يقولون: كلمة (موجودٍ) مشتركةٌ لفظًا، وهذا خطأٌ، فإن اللِّسان الذي تكلَّمت به العرب على أنَّ كلمة (الموجود) تدل على أن الموجود هو الذي له وجودٌ في الأعيان، ويُدرك بالعين. ولا يقال للموجود في الذهن: إنَّه موجودٌ؛ حيث لا يدرك بالأعيان، فلا بدَّ أن يكون الوجود مدركًا بالأعين لا مقدَرًا بالذِّهن.

فظهر بذلك خطأ الذين يقولون بالاشتراك اللَّفظيِّ، والذين يقولون: إنَّ الوجود وجودٌ ذهنيٌّ.

قال الشارح:

وَأَصْلُ الخَطَإِ وَالْغَلَطِ: تَوَهُّمُهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الْعَامَّةَ الْكُلِّيَّةَ يَكُونُ مُسَمَّاهَا الْمُطْلَقُ الْكُلِّيُّ هُوَ بِعَيْنِهِ ثَابِتًا فِي هَذَا الْمُعَيَّنِ وَهَذَا الْمُعَيَّنِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ مَا يُوجَدُ فِي الخَارِجِ لَا يُوجَدُ مُطْلَقًا كُلِّيًّا، لَا يُوجَدُ إِلَّا مُعَيَّنًا مُخْتَصًّا، وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ إِذَا سُمِّيَ اللَّهُ بِهَا كَانَ مُسَمَّاهَا مُعَيَّنًا مُخْتَصًّا بِهِ، فَإِذَا سُمِّيَ بِهَا الْعَبْدُ كَانَ مُسَمَّاهَا مُخْتَصًّا بِهِ، فَوُجُودُ اللهِ وَحَيَاتُهُ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، بَلْ وُجُودُ هَذَا الْمَوْجُودِ الْمُعَيَّنِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَكَيْفَ بِوُجُودِ الخَالِقِ! أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: هَذَا هُوَ ذَاكَ، فَالْمُشَارُ إِلَيْهِ وَاحِدٌ لَكِنْ بِوَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

---

قال الشيخ:

يقال: إنَّ الكلام على ما يتعلَّق بالوجود في الذِّهن، والوجود بالعين كلامٌ يتعلَّق بالاحتجاج على هؤلاء الملاحِدَة ونحوهم، فهم يحتاجون إلى بسطٍ في الكلام، وإلى إقناعٍ لهم، ولأجل ذلك نقل الشَّارح هذا الكلام من كتب شيخ الإسلام ابن تيميَّة وغيره؛ ليبيِّن أنَّهم يفرضون وجودًا في الذِّهن مخالفًا للوجود في العين، ثم يعتقدون أنَّه لو كان كلُّه موجودًا في العين لحصل بذلك تشابهٌ؛ فلذلك نفوا الوجود في العين، وقدَّروا وجودًا في الذِّهن، وكلُّ ذلك كلامٌ لا طائل تحته، والمسلم على فطرته يعتقد أنَّ كلَّ صفةٍ ثبتت للخالق فإنَّه لا يشبهه بها خلقه، وأنَّ المخلوق بصفاته ناقصٌ وحادثٌ، وصفاته تناسبه، كما صفات الخالق تناسبه.

قال الشارح:

وَبِهَذَا وَمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْمُشَبِّهَةَ أَخَذُوا هَذَا الْمَعْنَى، وَزَادُوا فِيهِ عَلَى الْحَقِّ فَضَلُّوا، وَأَنَّ الْمُعَطِّلَةَ أَخَذُوا نَفْيَ الْمُمَاثَلَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَزَادُوا فِيهِ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى ضَلُّوا، وَأَنَّ كِتَابَ اللهِ دَلَّ عَلَى الْحَقِّ الْمَحْضِ الَّذِي تَعْقِلُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ الصَّحِيحَةُ، وَهُوَ الْحَقُّ الْمُعْتَدِلُ الَّذِي لَا انْحِرَافَ فِيهِ.

فَالنُّفَاةُ أَحْسَنُوا فِي تَنْزِيهِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ عَنِ التَّشْبِيهِ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَكِنْ أَسَاؤُوا فِي نَفْيِ الْمَعَانِي الثَّابِتَةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَالْمُشَبِّهَةُ أَحْسَنُوا فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، وَلَكِنْ أَسَاؤُوا بِزِيَادَةِ التَّشْبِيهِ.

---

قال الشيخ:

وكِلا الطَّائفتيْن مخطئةٌ ضالَّةٌ: الذين غَلَوا في الإثبات حتَّى جعلوا صفات المخلوق كصفات الخالق، وقالوا: لله يدٌ كأيدينا، ووجهٌ كوجوهنا، هؤلاء أحسنوا في أثبات الصِّفات، ولكنَّهم أخطؤوا في التَّشبيه.

وأمَّا النُّفاة الذين غَلَوا في النَّفي، وقالوا: كلُّ صفةٍ موجودةٍ في المخلوق لا يمكن أن تثبت للخالق، فإنَّ إثباتها يؤول إلى التَّشبيه، والله تعالى ليس كمثله شيءٌ! هؤلاء أحسنوا في نفي التَّشبيه، ولكنَّهم أساؤوا حيث نفوا الصِّفات الثَّابتة الموجودة.

والوسط: أن يُقال: صفات الخالق تليق به، وصفات المخلوق تليق به، وليست هذه كهذه، فنثبت ما أثبته الله لنفسه، وننفي ما نفاه عن نفسه.

قال الشارح:

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُخَاطَبَ لَا يَفْهَمُ الْمَعَانِيَ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِاللَّفْظِ إِلَّا أَنْ يَعْرِفَ عَيْنَهَا أَوْ مَا يُنَاسِبُ عَيْنَهَا، وَيَكُونُ بَيْنَهَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ وَمُشَابَهَةٌ فِي أَصْلِ الْمَعْنَى، وَإِلَّا فَلَا يُمْكِنُ تَفْهِيمُ الْمُخَاطَبِينَ بِدُونِ هَذَا قَطُّ، حَتَّى فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِ مَعَانِي الْكَلَامِ بِتَعْلِيمِ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ، مِثْلَ تَرْبِيَةِ الصَّبِيِّ الَّذِي يُعَلَّمُ الْبَيَانَ وَاللُّغَةَ، يُنْطَقُ لَهُ بِاللَّفْظِ الْمُفْرَدِ، وَيُشَارُ لَهُ إِلَى مَعْنَاهُ، إِنْ كَانَ مَشْهُودًا بِالْإِحْسَاسِ الظَّاهِرِ أَوِ الْبَاطِنِ، فَيُقَالُ لَهُ: لَبَنٌ، خُبْزٌ، أُمٌّ، أَبٌ، سَمَاءٌ، أَرْضٌ، شَمْسٌ، قَمَرٌ، مَاءٌ، وَيُشَارُ لَهُ مَعَ الْعِبَارَةِ إِلَى كُلِّ مُسَمًّى مِنْ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ، وَإِلَّا لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَى اللَّفْظِ وَمُرَادَ النَّاطِقِ بِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ يَسْتَغْنِي عَنِ التَّعْلِيمِ السَّمْعِيِّ، كَيْفَ وَآدَمُ أَبُو الْبَشَرِ أَوَّلُ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أُصُولَ الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَهِيَ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا، وَكَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ بِخِطَابِ الْوَحْيِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ.

---

قال الشيخ:

معلومٌ أنَّ هذه المسمَّيات لا تُفهم إلَّا بعد التَّفهيم، فلو قَدِمَ إنسانٌ أعجمي إلى بلاد العرب، لاحتاج إلى مدة من الزمان حتَّى يعرف المسمَّيات، يسمع كلمة (رجلٍ) ولا يدري ما تدلُّ عليه؛ حتى يُقال له: هذا هو الرَّجل، ويسمع كلمة (كرسيٍّ) ولا يدري ما هي؛ حتَّى يُقال: هذا هو الكرسيُّ، ويسمع كلمة (مسجدٍ) ولا يدري ما هي؛ حتى يُكرَّر عليه: هذا هو المسجد، وهذا هو السَّقف، وهذا هو الفراش، وهذا هو العمود، وهذه هي الألواح، وكذا وكذا، فيأخذها بالتَّدريج؛

كالصَّبيِّ عندما يشبُّ ويسمعُ ويعقل يُلَقَّن كلمةً كلمةً، فيقال له مثلًا: هذا هو الأبُ، وهذه هي الأمُّ، وهذا هو الخبز؛ لأنه إذا سمع كلمة (الخبز) قد لا يفهم حتَّى يُشار إليه، وهذا هو اللبن، وهذا هو اللَّحم، وكذا وكذا.

هذه الأسماء لابدَّ أن تُفهم بالتَّدريج، فالله تعالى علَّم آدم الأسماء كلَّها، علَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ: اسم الإنسان، واسم الحيوانات، واسم الدَّوابِّ، واسم الأدوات، واسم الكواكب، واسم الحشرات، واسم النَّباتات، هذا التَّعليم لا شكَّ أنَّه لُقِّنَه تلقينًا، قيل له: هذا كذا، اسمه كذا.

كذلك هذه الكلمات التي نتكلَّم بها في هذه اللُّغة، وكذلك الأعاجم لا نعرف اصطلاحاتهم حتَّى يسمُّوها لنا، فيقولون: نسمِّي هذا كذا، ونسمِّي هذا كذا، فتُؤخذ بالتَّعلُّم وبالتَّدريج.

وهذه المسمَّيات لها معانٍ؛ فكلمة (الحُبِّ) قد لا نستطيع أن نعبِّر عن معناها، ولكن فُهمت باصطلاحنا، والأعاجم لا يدرون ما معناها؛ حتَّى يُشار لهم، وقد أثبت الله تعالى المحبة، فنحن نفهمها ونقول: معناها كذا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، ونحو ذلك.

وكذلك كلمة (العَجَب) أثبتها الله في قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد:٥]، فنحن نفهمها بلغتنا، ونترجمها باللُّغات الأخرى، ونعرف مدلولها ومعناها. وكذا كلمة (الغضب)، وكلمة (الرِّضا)، وكلمة (البُغض)، وكلمة (الرَّحمة) ... وما أشبه ذلك.

فهذه كلماتٌ تدلُّ على صفاتٍ، فلا بدَّ أنَّ العرب الذين نزلتْ عليهم يفهمون مدلولها؛ حيث إنَّ مدلولها واضحٌ عندهم، فعُرف بذلك أنَّها مفهومة المعاني، وأنَّها دالَّةٌ على صفاتٍ، وأنَّ الذين قُرئت عليهم فهموا مدلولها. فهؤلاء الذين أنكروا مدلولها يُقال لهم: أنكرتم شيئًا مفهومًا معقولًا في عقولكم وفي عقول من قبلكم، فأنكرتم الحسَّ والعقل والشَّرع.

فيُعرف بذلك أنَّ الألفاظ التي صرَّفوها وتأوَّلوها أو أنكروها، أو قالوا مثلًا: إنَّها ذهنيَّةٌ، أو مشتركةٌ اشتراكًا لفظيًّا، أو أنَّها مجازٌ، أو ما أشبه ذلك؛ كتأويلهم للرَّحمة، والغضب، والرِّضا، واليد، والعلوِّ، والنُّزول، والاستواء، وما أشبه ذلك، مع أنَّها كلماتٌ مفهومةٌ عند الذين نطقوا بها، ومعلومٌ عندهم معناها كما يعرفون اسم الخبز، واللَّبن، واللَّحم، والبُرِّ، والتَّمر، وما أشبه ذلك، يعرفون هذه ويعرفون هذه، لا فرق بينها، فما الذي جعلكم تؤوِّلون هذه وتتكلَّفون فيها، ولا تؤوِّلون كلمة الخبز وكلمة اللحم وكلمة التمر، وما أشبه ذلك؟! فالذين تكلَّموا بهذا يفهمونه كالذين تكلَّموا بهذا.

فهذا يبيِّن أنَّ تأويلاتهم بعيدةٌ عن العقل والفطرة.

وقد أرسل الله تعالى محمدًا ﷺ بلسان عربي مبين، فخاطب الناس بلسانهم، وعلمهم بالتدريج، وكان مما خاطبهم به التعريف بالله بأسمائه وصفاته، وذلك بألفاظ يفهمون معانيها، ويفهمون أن المخلوق وإن اتصف بمسمياتها لكن الحقائق تختلف، ولذلك لم يتوهموا تشبيهًا، ولا فروا منه إلى النفي والتعطيل، بل أثبتوا كلمة التوحيد، وثبتوا على ما جاء في التنزيل.

ويعتقد المسلمون أنَّ الله تعالى موصوفٌ بصفات الكمال، ويعتقدون أنَّ توحيد الصِّفات متلقًّى عَنِ الشَّرع، مأخوذٌ عن كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ؛ وذلك لأنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ اختاره الله لحمل الرسالة؛ لما فيه من الأهليَّة، فهو ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ من أفصح الخلق وأنصحهم، يحبُّ الخير لأمَّته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: من جنسكم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. فإذا كان حريصًا على هِداية الأمَّة، وإذا كان يحبُّ لهمُ النَّجاة، ورزقه الله وأعطاه الفصاحة والقدرة على البلاغ والبيان، فلا بدَّ أنَّه قد بلَّغ، ولا بدَّ أنَّه قد بيَّن، ومن اعتقد أنَّه كتم ما أُنزل إليه فقد كفر، ومن اعتقد أنَّه لَبَّس على الأمَّة وأوقعهم في الحيرة فقد كفر، بل نعتقد أنَّه بلَّغ ولم يكتم، وأوضح وبيَّن، وإذا رجعنا إلى بيانه وإلى ما بلَّغه وجدناه واضحًا.

والنبي ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ظهر في أُناس يتكلَّمون باللُّغة العربيَّة، ويفهمون كلامه، وإذا كان كذلك، فلا بدَّ أنَّه خاطبهم بما يفهمون، فنرجع إلى لغتهم.

ومعلومٌ أنَّه جاء بشيءٍ لم يكونوا يعرفونه، فسماه بأسماءٍ يفهمونها، فما كانوا يعرفون كلمة (الإسلام) ولا كلمة (الإيمان) على مسمَّاها الشَّرعيِّ، ولا كانوا يعرفون كلمات (الصَّلاة) ولا (الوضوء) ولا (الصوم) على مسمَّاه الشَّرعيِّ، وكذلك لم يكونوا يعرفون مسمَّى (النِّفاق)، ولا مسمَّى (الكفر)، ولا (الشِّرك)،

ولا (الفسوق) بمسمَّاها الشَّرعيِّ، لكن يعرفون الكلمات على معانٍ أخرى، فاستعمل هذه المعاني التي تقارب ما يعرفونه.

وإذا كان هذا في هذه الأمور المعتادة التي هي من العبادات، فإنَّه كذلك تكلَّم معهم في الصفات، فهم يعرفون ماذا يُطلق عليه السَّمع، وكذلك البصر والقدرة والقوَّة والعلم والكلام، فلا بدَّ أنَّه خاطبهم بالأشياء التي يفهمونها، وأنَّهم فهموا ما بلَّغهم به.

فعلى هذا فالذين يتكلَّفون في صرف اللَّفظ عن ظاهره لا شكَّ أنَّهم وقعوا في ضلالٍ، ووقعوا في تخطئة النَّبيِّ ﷺ من حيث يشعرون، أو من حيث لا يشعرون.

قال الشارح:

فَدَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى المَعْنَى هِيَ بِوَاسِطَةِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا عَنَاهُ الْمُتَكَلِّمُ وَأَرَادَهُ، وَإِرَادَتُهُ وَعِنَايَتُهُ فِي قَلْبِهِ، ولَا يُعْرَفُ بِاللَّفْظِ ابْتِدَاءً، وَلَكِنْ لَا يُعْرَفُ المَعْنَى بِغَيْرِ اللَّفْظِ حَتَّى يُعْلَمَ أَوَّلًا أَنَّ هَذَا المَعْنَى المُرَادَ هُوَ الَّذِي يُرَادُ بِذَلِكَ اللَّفْظِ وَيُعْنَى بِهِ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ ثُمَّ سَمِعَ اللَّفْظَ مَرَّةً ثَانِيَةً، عَرَفَ المَعْنَى المُرَادَ بِلَا إِشَارَةٍ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا يُحَسُّ بِالْبَاطِنِ، مِثْلِ الجُوعِ وَالشِّبَعِ وَالرِّيِّ وَالْعَطَشِ وَالحُزْنِ وَالْفَرَحِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ اسْمَ ذَلِكَ حَتَّى يَجِدَهُ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِذَا وَجَدَهُ أُشِيرَ إِلَيْهِ، وَعُرِّفَ أَنَّ اسْمَهُ كَذَا.

وَالْإِشَارَةُ تَارَةً تَكُونُ إِلَى جُوعِ نَفْسِهِ أَوْ عَطَشِ نَفْسِهِ، مِثْلَ أَنْ يَرَاهُ أَنَّهُ قَدْ جَاعَ، فَيَقُولُ لَهُ: جُعْتَ، أَنْتَ جَائِعٌ، فَيَسْمَعُ اللَّفْظَ وَيَعْلَمُ مَا عَيَّنَهُ بِالْإِشَارَةِ، أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهَا مِنَ الْقَرَائِنِ الَّتِي تُعَيِّنُ المُرَادَ، مِثْلَ نَظَرِ أُمِّهِ إِلَيْهِ فِي حَالِ جُوعِهِ، وَإِدْرَاكِهِ بِنَظَرِهَا أَوْ نَحْوِهِ أَنَّهَا تَعْنِي جُوعَهُ، أَوْ يَسْمَعُهُمْ يُعَبِّرُونَ بِذَلِكَ عَنْ جُوعِ غَيْرِهِ.

---

قال الشيخ:

أورد الشَّارح هذا الكلام ليبيِّن أنَّ الرَّسول ﷺ خاطبهم بكلماتٍ يفهمونها، وإلَّا فلو لم يكونوا فاهمين لما سكتوا حتى يستفهموا، فإنَّ الإنسان الذي لا يفهم الكلمة لابدَّ أن يسأل عنها. فأنت مثلًا لو لقيت رجلًا أعجميًّا، ثم خاطبته بمثل هذه الكلمات ولم يفهم، فإنَّه يضيق صدره حتَّى تُفْهِمَه، فتقول له: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، تشير إلى هذه وتقول اسمها شاةٌ، وهذه اسمها بقرةٌ، وهذه

اسمها ناقةٌ مثلًا، وهذا جملٌ، وهذا حصانٌ، فحينئذٍ يَفهم.

وهكذا أيضًا إذا عبَّرت له عن الأشياء العلويَّة، قلت مثلًا: هذه السماء، وهذه الأرض، وهذا اسمه جبلٌ، وهذا اسمه وادٍ، وهذه شجرةٌ، وهذه نخلةٌ، إلى أن يفهم، وهكذا أيضًا تعبِّر له عن المعاني التي قد لا يكون مشارًا إليها، لا يكون لها أشخاصٌ، مثل: الجوع، والعطش، والخوف، والفرح، والحزن، والضَّحك، والبكاء، لا يفهمها إلَّا إذا أحسَّ بها.

فإذا كان كذلك فمن شكٍّ أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عندما تكلَّم بالكلمات كانوا يفهمون معناها، كانوا يفهمون أنَّه إذا أخبر أنَّ الله سميعٌ بصيرٌ معناه: أنه يدرك الأصوات ويبصر المرئيَّات، وكذلك إذا أخبر أنَّه متكلِّم يفهمون من كلامهم وممَّا يعرفونَه أنَّ الكلام ما يُسمع وما يُعبَّر به عن المعاني، ويفهمون من العلم مثلًا ضدَّ الجهل، ويفهمون من المحبة ضدَّ الكراهية أو ضدَّ البُغض ... وهكذا، فإذا كانوا يفهمون ذلك وهو لغتهم، فكيف يُقال: إنَّها غير معلومةٍ، وإنَّ هذه الكلمات بمنزلة الكلمات الأعجميَّة التي يسمعها الإنسان ولا يدري معناها؟!

فأنت ـ مثلًا ـ لو سمعت كلامًا أعجميًّا ولم تفهمه؛ لقلت: فلانٌ ما بيَّن لي، كلَّمني بكلامٍ غير معروفٍ، فلا تشهد له بالبيان.

ونحن نشهد بأنَّ الرَّسول ﷺ بيَّن، وأنَّ القرآن بيانٌ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، فنشهد بأنَّه بيَّن للناس، وأن النَّاس فهموا عنه، ولو كان كما يقوله النُّفاة والمبتدعة من التَّكلُّف في صرف تلك الكلمات لما كان قد بيَّن، وهم لا يقولون على هذا: إنَّه بيَّنٌ؛ بل يعتقدون أنَّه لَبَّس، وحاشاه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ من التَّلبيس.

قال الشارح:

إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ، فَالْمُخَاطَبُ الْمُتَكَلِّمُ إِذَا أَرَادَ بَيَانَ مَعَانٍ، فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا أَدْرَكَهَا الْمُخَاطَبُ الْمُسْتَمِعُ بِإِحْسَاسِهِ وَشُهُودِهِ، أَوْ بِمَعْقُولِهِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ، فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْقِسْمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لَمْ يَحْتَجْ إِلَّا إِلَى مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ، بِأَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَ مَعَانِيَ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ وَمَعْنَى التَّرْكِيبِ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٨، ٩]، أَوْ قِيلَ لَهُ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهِمَ الْمُخَاطَبُ بِمَا أَدْرَكَهُ بِحِسِّهِ.

وَإِنْ كَانَتِ الْمَعَانِي الَّتِي يُرَادُ تَعْرِيفُهُ بِهَا لَيْسَتْ مِمَّا أَحَسَّهُ وَشَهِدَهُ بِعَيْنِهِ، وَلَا بِحَيْثُ صَارَ لَهُ مَعْقُولٌ كُلِّيٌّ يَتَنَاوَلُهَا حَتَّى يَفْهَمَ بِهِ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ، بَلْ هِيَ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَوَاسِّهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، فَلَا بُدَّ فِي تَعْرِيفِهِ مِنْ طَرِيقِ الْقِيَاسِ وَالتَّمْثِيلِ وَالِاعْتِبَارِ بِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْقُولَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي شَاهَدَهَا مِنَ التَّشَابُهِ وَالتَّنَاسُبِ، وَكُلَّمَا كَانَ التَّمْثِيلُ أَقْوَى، كَانَ الْبَيَانُ أَحْسَنَ، وَالْفَهْمُ أَكْمَلَ.

---

قال الشيخ:

الرُّسل - عليهم السَّلام - بيَّنوا للنَّاس أشياءً يشاهدونها، وأشياء لم يشاهدوها، ولكن شاهدوا ما يشهد لها. فمثلًا: العبادات وضَّحوها، فقالوا: هذه صفة الوضوء، وهذا اسمه وضوءٌ، وهذه كيفيَّته، وهذه هي الصَّلاة، وهذه كيفيتها،

وهذه من جملة البيان.

كذلك بيَّنوا أشياء لم نشاهدها، وعبَّروا عنها بعبارةٍ نفهمها، فمثلًا: اليوم الآخر ـ الذي هو يوم القيامة ـ لم نشاهده؛ لأنَّه لم يكن بعد، ولكن ذُكرت لنا أوصافه بكلماتٍ مفردةٍ وجُمَلٍ نفهم المعنى منها، فأُخْبِرنا بأنَّ النَّاس يُبعثون وتُعاد أرواحهم في أجسادهم، وهذا مفهومٌ معناه، وكذلك جَمْعُ النَّاس في يوم القيامة مفهومٌ معناه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦]، وكذلك نصب الموازين والوزن للأعمال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، مفهومٌ الوزن، ومعروفٌ نوعه، وكذلك الإخبار بنشر الكتب: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، ما رأيناه، ولكن نفهم معناه.

هذه الأمور التي أُخبرنا بها ونحن لم نرها، فهمنا معناها؛ لأنها وردت بالكلمات التي نعرف جنسها، فالوزن معروفٌ جنسه في الدُّنيا، ولكن ليس الوزن في الدُّنيا كالوزن في الآخرة، بل بينهما فرقٌ، إلَّا أن كلًا منهما فيه ميزان يرجح ويخف، فمنهم من ثَقُلَتْ موازينُه، ومنهم من خفَّتْ موازينُه.

وكذلك الصِّراط الذي أُخْبِرنا بأنَّ النَّاس يمشون عليه، الصِّراط في الدُّنيا معروفٌ، وهو الطَّريق الواسع، ولكن أخبرنا بأنَّ الصِّراط في الآخرة منصوبٌ، وأنه يمشي عليه كل الخلائق ... إلى غير ذلك من أوصافه، فنؤمن بذلك كلِّه، ولكن نعلم أنه ليس كالذي نعرف في الدُّنيا.

وهكذا أيضًا الكتب التي تُنشر في الآخرة، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾، كلٌّ يقرأ كتابه، الأميُّ وغير الأميِّ، معلومٌ أنَّ هذا ليس ككتاب الدُّنيا الذي لا يقرؤه إلاَّ القارئ، فعُرف بذلك أنَّنا أُخبرنا بأشياء من الغيب مفهوم معناها، وإن لم تُفهم كيفيَّتها.

فبذلك يُعرف أنَّ الإيمان بالأمور الغيبيَّة لابدَّ من فهم معناه، لو أنَّ النَّاس ما فهموا كلمة: النَّار، وجهنم، وسَقَر، والسَّعير، ونارٍ تلظَّى، ونارٍ موقدةٍ، ونارٍ حاميةٍ، لو لم يفهموا معناها؛ ما خافوا، ولا بكوا، ولا حَذِروا، ولا ابتعدوا عن المعاصي التي تدخلهم هذه النَّار، ولكنهم فهموا أنَّها نار عذابٍ، وأنَّ عذابها وَبيلٌ، واعتقدوا صحَّة ما جاء فيها من الحميم والغصة والزَّقُّوم، وما أشبه ذلك.

ولو أنَّ النَّاس ما فهموا معنى جنَّات النَّعيم ودار السَّلام وما أشبهها، وما فيها من الحُبور، وما فيها من القصور والأنهار والأشجار والثمار، لو لم يفهموها ولو لم يتصوَّروها، ما عملوا لأجلها، فلا بدَّ أنَّهم فهموا.

إذًا الذين آمنوا بالآخرة وآمنوا بالغيب فهموا معنى ذلك، فيُقاس على ذلك فهمهم لمدلول الصِّفات، وإن لم يكن هناك تماثلٌ حقيقيٌّ.

ولهذا يقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ليس في الدنيا ممَّا في الجنَّة؛ إلَّا الأسماء»[1]، يعني: إنَّها تتشابه في الأسماء، وتتشابه في المعنى العامِّ، فالله تعالى أخبر

(١) أخرجه الطبري (١/ ١٧٢).

أنَّ في الجنَّة أنهارًا، ومع ذلك تجري في غير أُخدودٍ، هل يُتصوَّر أنَّها تجري في الدُّنيا على الأرض بغير أخدودٍ؟ يعني: في غير حُفَرٍ وسواقٍ تجري على وجه الأرض، ومع ذلك لا تسيح في النّهر؟! فهذا من آيات الله.

وكذلك المنازل التي في الآخرة أخبر النبي ﷺ عنها بقوله: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا**»[1]، فهذا دليلٌ على أنَّنا نعرف أنَّها قصورٌ، وأنَّها مبنيَّةٌ، وأنَّها من لؤلؤٍ، ومن زبرجدٍ، ومن كذا وكذا، ولكنها ليست ممَّا ندركه. فهذا دليلٌ على أنَّ أمور الآخرة نفهم معناها ولا نعرف كيفيَّتها، فيقال: مثل ذلك أيضًا في باب الصِّفات.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٣)، وابن خزيمة (٣/ ٣٠٦)، وابن حبان (٢/ ٢٦٢)، والبيهقي (٤/ ٣٠٠) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

قال الشارح:

فَالرَّسُولُ ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ـ لَمَّا بَيَّنَ لَنَا أُمُورًا لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي لُغَتِهِمْ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِعَيْنِهَا، أَتَى بِأَلْفَاظٍ تُنَاسِبُ مَعَانِيَهَا تِلْكَ المَعَانِيَ، وَجَعَلَهَا أَسْمَاءً لَهَا، فَيَكُونُ بَيْنَهَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ، كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْكُفْرِ.

وَكَذَلِكَ لَمَّا أَخْبَرَنَا بِأُمُورٍ تَتَعَلَّقُ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا قَبْلَ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ أَلْفَاظٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا بِعَيْنِهَا، أَخَذَ مِنَ اللُّغَةِ الْأَلْفَاظَ الْمُنَاسِبَةَ لِتِلْكَ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ تِلْكَ المَعَانِي الْغَيْبِيَّةِ، وَالمَعَانِي الشُّهُودِيَّةِ الَّتِي كَانُوا يَعْرِفُونَهَا، وَقَرَنَ بِذَلِكَ مِنَ الْإِشَارَةِ وَنَحْوِهَا مَا يُعْلَمُ بِهِ حَقِيقَةُ المُرَادِ، كَتَعْلِيمِ الصَّبِيِّ، كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «النَّاسُ فِي حُجُورِ عُلَمَائِهِمْ كَالصِّبْيَانِ فِي حُجُورِ آبَائِهِمْ»[1].

---

قال الشيخ:

مر بنا أنَّ الرَّسول ﷺ استعمل معاني لم تكن معروفةً عند العرب، ولكن عَبَّر عنها بما يقاربها من كلماتٍ يفهمون معناها، فما كانوا يعرفون الشِّرك أنَّه عبادة غير الله معه، ولكن يعرفون أنَّ الشِّرك اشتراكُ اثنين في شيءٍ، فهذا تسمية عبادة غير الله مع الله، مثل اشتراك اثنين في شيءٍ، فسمَّاه (شِركًا) لما فيه من الاشتراك. ولَمَّا

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (القسم المتمم) (ص٣٢١).

كانوا يعرفون أنَّ الكفر هو السَّتر والتَّغطية، وكان الكافر قد أنكر الإيمان وأنكر التَّوحيد ونحو ذلك، وجحده وستره، صدّق عليه أنَّه كفرٌ، فسمَّاه الرَّسول ﷺ (كفرًا) بأمر الله، وما كانوا يعرفون أنَّ الإيمان هو الدُّخول في هذه الشَّريعة وتقبُّلها، بل يعرفون أن الإيمان هو تصديق الإنسان بقلبه بشيءٍ، فلما جاء بهذه الكلمة جعلها اسمًا للتصديق الكلِّيِّ بما جاء في هذا الشَّرع، هذا تصديقٌ وهذا تصديقٌ، ولكن هذا بشيءٍ وهذا بشيءٍ، وكذلك كانوا يعرفون أنَّ كلمة الإسلام تعني الإذعان للشَّيء والاستسلام له؛ فاستعمل الإسلام في الإذعان للشَّرع والانقياد له، وما كانوا يعرفون الصَّلاة أنَّها الرُّكوع والسُّجود ... إلى آخره؛ فاستعملها في هذا لأنَّهم يعرفون أنَّ الصَّلاة هي الدُّعاء، وهذه فيها دعاءٌ.

وهكذا يُقال في بقية الأشياء، فلَمَّا علمهم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ هذه الأشياء، علَّمهم أسماءها ثم علَّمهم كيفيَّتها، فلمَّا سُئل عن الإسلام فسَّره بالأركان، ولمَّا سُئل عن الإيمان وعن الإحسان فسرهما، فإذا كان هذا تعليمه لأمَّته، واستعمل هذه الكلمات فيما يقاربها من اللُّغة التي يفهمونها، فهو ﷺ بمنزلة المعلِّم الذي يعلِّم تلاميذَه، ويبدؤهم بصِغار العلم قبل كِباره، ويربِّيهم بذلك، والله تعالى أرشد إلى هذه الطَّريقة بقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩]. فهكذا ينبغي أن يُعرف ويُعتقد أنَّ الرُّسل بلَّغوا وبيَّنوا للنَّاس الأمور الغيبيَّة والأمور الاصطلاحيَّة الشرعيَّة على حسب ما يفهمون، وأنَّ أمَّتهم فهموا منهم ذلك فهمًا كاملًا.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَا يُخْبِرُ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، فَقَدْ يَكُونُ مِمَّا أَدْرَكُوا نَظِيرَهُ بِحِسِّهِمْ وَعَقْلِهِمْ، كَإِخْبَارِهِمْ بِأَنَّ الرِّيحَ أَهْلَكَتْ عَادًا، فَإِنَّ عَادًا مِنْ جِنْسِهِمْ، وَالرِّيحَ مِنْ جِنْسِ رِيحِهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ أَشَدَّ، وَكَذَلِكَ غَرَقُ فِرْعَوْنَ فِي الْبَحْرِ، وَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْإِخْبَارُ بِذَلِكَ فِيهِ عِبْرَةٌ لَنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وَقَدْ يَكُونُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ الرَّسُولُ مَا لَمْ يُدْرِكُوا مِثْلَهُ الْمُوَافِقَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَكِنَّ فِي مُفْرَدَاتِهِ مَا يُشْبِهُ مُفْرَدَاتِهِمْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، كَمَا إِذَا أَخْبَرَهُمْ عَنِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمُوا مَعْنًى مُشْتَرَكًا، وَشَبَهًا بَيْنَ مُفْرَدَاتِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَبَيْنَ مُفْرَدَاتِ أَلْفَاظٍ مما عَلِمُوهُ فِي الدُّنْيَا بِحِسِّهِمْ وَعَقْلِهِمْ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْهَدُوهُ بَعْدُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ يَشْهَدُوهُ مُشَاهَدَةً كَامِلَةً؛ لِيَفْهَمُوا بِهِ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْنَى الْغَائِبِ، أَشْهَدَهُمْ إِيَّاهُ، وَأَشَارَ لَهُمْ إِلَيْهِ، وَفَعَلَ فِعْلًا يَكُونُ حِكَايَةً لَهُ، وَشَبَهًا بِهِ، يَعْلَمُ الْمُسْتَمِعُونَ أَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِالْحَقَائِقِ الْمَشْهُودَةِ هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي يَعْرِفُونَ بِهَا الْأُمُورَ الْغَائِبَةَ.

---

قال الشيخ:

عرفنا أنَّ هذا من جملة ما بيَّنه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ وأخبرهم عن

أمورٍ لم يشاهدوها، فمن ذلك أمورٌ قد سبقت ولكن يُفهم معناها، أخبر الله بأنَّه أغرق قوم نوحٍ وأنجى نوحًا في السَّفينة، فنعرف أنَّ قوم نوحٍ بشرٌ مثلنا، وأنَّ السَّفينة مركبٌ من المراكب يسبح في البحر، فأخبر بأنَّه أنْجَى نوحًا ومَنْ معه بالسَّفينة بقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥]، وفي قوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، هذا شيءٌ مفهومٌ سمعناه وفهمنا معناه.

وكذلك إخباره بأنَّه أهلك عادًا بالرِّيح؛ فعادٌ بشرٌ مثلنا؛ إلاَّ أنَّهم أشدُّ خلقًا؛ كما في قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، والرِّيحُ من جنس الريحِ التي نعرفها، إلاَّ أنَّها أشدُّ، وهكذا يقال في الإخبار عن الأمم السَّابقة: معناها مفهوم.

أما الأمور الغيبيَّة التي هي من الأمور الأخرويَّة، فقد أخبر الله تعالى على لسان رسوله عن أمورٍ غيبيَّةٍ من الأمور المستقبلية، ولكن نُصدِّق بها، ونفهم مدلولها الإجماليَّ وإن لم نفهم الكيفيَّة، قد خُبِّرْنا مثلًا بالصِّراط والميزان، وكذلك الحوض في الآخرة، وحساب الله تعالى للخلق، وخلقتهم وكيفيتهم، وكذلك الجنَّة والنَّار وما فيها، هذه مفهومٌ معناها، وإن لم يكن الذي نشاهده في الدُّنيا كالذي يحصل في الآخرة، بل بينهما تفاوتٌ. فعُرِفَ بذلك أنَّ الرُّسُل بيَّنوا للنَّاس، وأنَّ النَّاس فهموا المعنى العموميَّ الذي يحصلُ به إدراكُهم وانتفاعُهم.

قال الشارح:

فَيَنْبَغِي أَنْ تُعْرَف هَذِهِ الدَّرَجَاتُ:

أَوَّلُهَا: إِدْرَاكُ الْإِنْسَانِ الْمَعَانِيَ الْحِسِّيَّةَ الْمُشَاهَدَةَ.

وَثَانِيهَا: عَقْلُهُ لِمَعَانِيهَا الْكُلِّيَّةِ.

وَثَالِثُهَا: تَعْرِيفُ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى تِلْكَ الْمَعَانِي الْحِسِّيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ.

فَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ الثَّلَاثُ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي كُلِّ خِطَابٍ. فَإِذَا أَخْبَرَنَا عَنِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفِنَا الْمَعَانِيَ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَقَائِقِ الْمَشْهُودَةِ وَالِاشْتِبَاهَ الَّذِي بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ بِتَعْرِيفِنَا الْأُمُورَ الْمَشْهُودَةَ، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ مِثْلَهَا لَمْ يُحْتَجْ إِلَى ذِكْرِ الْفَارِقِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَصَصِ الْأُمَمِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِثْلَهَا، بَيَّنَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْفَارِقِ، بِأَنْ يُقَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ مِثْلَ هَذَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِذَا تَقَرَّرَ انْتِفَاءُ الْمُمَاثَلَةِ كَانَتِ الْإِضَافَةُ وَحْدَهَا كَافِيَةً فِي بَيَانِ الْفَارِقِ، وَانْتِفَاءُ التَّسَاوِي لَا يَمْنَعُ منه وُجُودُ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ الَّذِي هُوَ مَدْلُولُ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ، وَبِهِ صِرْنَا نَفْهَمُ الْأُمُورَ الْغَائِبَةَ، وَلَوْلَا الْمَعْنَى الْمُشْتَرَكِ مَا أَمْكَنَ ذَلِكَ قَطُّ.

---

قال الشيخ:

لابُدَّ لمعرفة المعاني من معرفة الألفاظ، فلو كنَّا لا نعرف كلمة (سمع)، ما فهمنا قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، ولو كنَّا لا نعرف المعنى الذي تُفسَّر به الكلمة ـ أنَّ السَّمع هو إدراك الأصوات ـ ما فهمنا أيضًا المعنى الذي

دلَّت عليه الجملة، ولو كنَّا نسمع كلمة (سمع)، ونفسِّرها ولكن لا ندري ما مدلولها، ما فهمناها ولا انتفعنا بالكلام.

فيُقال: علينا أن نعرف أنَّ المعاني واضحةٌ تُفهم بمجرَّد فَهْم اللُّغة، فيفهم المسلمون ـ مثلًا ـ إذا قيل في أوصاف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّه المهيمن، وأنَّه رقيبٌ على عباده، فهموا أنَّه يراهم، وإذا قيل: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨، ٢١٩]، فهموا أنَّه يراهم، وأنَّه مطَّلِعٌ على أعمالهم، وإذا قرؤوا ـ مثلًا ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فهموا أنَّ ذلك تخويفٌ؛ حيث إنَّه يراقبهم، ولا يخفى عليه من أمورهم خافيةٌ.

ولو كانوا لم يتصوَّروا ـ مثلًا ـ هذا القرب لم يؤمنوا به؛ وذلك لأنَّه من الأمور الغيبيَّة، إنَّما القصد منه التَّخويف حتَّى يَحذر الإنسان إذا عرف أنَّ عليه رقيبًا.

فإذا عرفنا مدلول الكلمة، وعرفنا كيف تُفَسَّر، قلنا ـ مثلًا ـ: السَّمع يفسَّر بأنَّه إدراكُ الأصوات، وفهمنا معناها، والبصر يُفسَّر بأنه إدراك الأشخاص، ورؤية الأعيان المبصرة، وفهمنا أنَّ الرَّبَّ تعالى موصوفٌ بالعلوِّ، وعرفنا أنَّ العلوَّ هو الارتفاع فوق كلِّ شيءٍ، وفهمنا هذه اللَّفظة وأدركنا معناها، فعلى ذلك ندرك ثبوت الصِّفة، ولكن هل نفهم التَّشبيه؟

لا نفهم التَّشبيه ـ يعني: لا نفهم أنَّ صفة المخلوق كصفة الخالق ـ فلا نقول ـ مثلًا ـ: إنَّ الله يسمع كسمعنا، ويبصر كبصرنا، وله يدٌ كأيدينا.

والذي سبَّب معرفتَنا لهذا الفرق: أنَّ صفات المخلوق إذا أُضيفت إليه تناسبه، وصفات الخالق إذا أُضيفت إليه تناسبه، فالإضافة كافيةٌ في إثبات الفرق، فيكتفىٰ بها، ويقال: إذا كانت ذات الرَّبِّ تعالى ليست كذوات المخلوقين، فكذلك صفاته ليست كصفاتهم، سواءٌ الصِّفات الفعليَّة أو الصِّفات الذاتيَّة، فيعتقد المسلمون أنَّ هذا كافٍ في إثبات الفرق بين صفةٍ وصفةٍ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلَا شَيءَ يُعْجِزُهُ.

---

قال الشارح:

لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿لَا يَـُٔودُهُ﴾ أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ وَلَا يُعْجِزُهُ، فَهَذَا النَّفْيُ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ نَفْيٍ يَأْتِي فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، لِكَمَالِ عَدْلِهِ، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣]، لِكَمَالِ عِلْمِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، لِكَمَالِ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَإِلَّا فَالنَّفْيُ الصِّرْفُ لَا مَدْحَ فِيهِ.

---

قال الشيخ:

هذه من صفات النَّفي، وصفات الله تعالى تدور بين النَّفي والإثبات، فمن

الصِّفات السَّلبيَّة أو صفات النَّفي هذا الوصف: كونه لا يُعجِزُه شيءٌ، وقد دلَّت عليه هذه الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: لا يكلِّفه ولا يشقُّ عليه حفظهما، فكذلك قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ [فاطر:٤٤]، يعني: ما كان ليعجز ويتكلَّف من شيءٍ أيًّا كان، وهذا من صفات النَّفي، يقصد منه كمال القدرة، فإنَّ كونه لا يُعجزه شيءٌ دليلٌ على أنَّه كامل القدرة، ففيه إثبات صفة القدرة، وإثبات أنَّ تلك القدرة فوق كلِّ قدرةٍ.

فالإنسان قد يوصَف بأنَّ معه قدرةً واستطاعةً، ولكنَّها محدودةٌ، قد يُقال: هذا لا يستطيع أن يحمل مئتي كيلو، وقد يُقال: فلانٌ لا يستطيع أن يخرق هذا الجبل، يعجزه مثل ذلك، أو: لا يستطيع أن يتسلَّق هذا الحائط دون سلَّمٍ مثلًا، فالمخلوق تعجزه أشياء؛ لأنَّ قدرته محدودةٌ، أما الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يعجزه شيءٌ، فإذا كان لا يعجزه شيءٌ كان من آثار ذلك أنَّه يَثيب، ويُعاقب، ويَنتقم، ويبطش بمن يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ولا يكلِّفه شيءٌ ولا يشقُّ عليه.

ونتيجة الإيمان بذلك إيجاد الخوف والرجاء في النفس، فإنَّ الإنسان إذا عَلِمَ أنَّ الله تعالى لا يُعْجِزُه شيءٌ، فلا يعجزه أن يعاقبه إذا عصاه، خافه ولم يعصه، ولا يعجزه بأن يثيبه بأنواع الثواب إذا أطاعه، رجاه وأطاعه.

إذا عرف المسلم أنَّ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ، قال: الله لا يعجزه شيءٌ، لا يعجزه أن يدخل الخلق وأضعافهم في الجنة، ويجعل

لهم منازل واسعة، ويعطيهم من أنواع النَّعيم على عددهم، ولو كثر وكانوا ألوفًا وألوف الألوف، لا يعجزه أن يعطيهم وأن يثيبهم، كذلك أيضًا إذا استكثر عدد الكفَّار، فلا يُقال: كيف أن هؤلاء الكفَّار ـ الذين لا يحصيهم أحدٌ إلا الله ـ تسعهم النَّار؟ يُقال: الله لا يعجزه شيءٌ، والفضاء واسعٌ، والنَّار واسعةٌ، فهو سبحانه يقدر على أن يجعل لهم أماكن في النَّار واسعةً، وأن يجعلهم على هذه الخِلْقة، وأن يجعل لكلٍّ منهم مكانًا.

فإذا قيل: العاصي آمنٌ، كأنَّه يقول: إنَّه في مأمن لا يخاف.

قيل: عليك أن تخاف أيُّها العاصي من نقمة الله في الدُّنيا وعقوبته، فإنَّه لا يعجزه شيءٌ.

فالحاصل أنَّ نتيجة قولنا: (لا يعجزه شيء): أن نرجوه، فنعمل للثَّواب العظيم الذي لا يُعجز اللهَ، ونَحْذَر من العقاب العظيم الذي لا يعجز اللهَ، ونَحْذَر في الدُّنيا التي لا تُعجز الله، هذا من حيث إثبات هذه الصِّفة بخصوصها.

وقد بيَّن الشَّارح صفات السَّلب، وذكر أنَّ الصِّفات السَّلبيَّة يبيِّنها ما يأتي بضدها، فإذا قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ:٣]، فهمنا منه كمال العلم، وإذا قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، فهمنا منه إثبات الوحدانيَّة، وإذا قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، نفي اللُّغوب يثبت كمال القوَّة وكمال القدرة.

وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فيه إثباتٌ للعظمة،

يعني: أنَّ الأبصار وإن نظرت إليه فإنَّها لا تدركه كما هو؛ لكمال عظمته، وقد ورد عن عكرمة ـ رحمه الله ـ أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فسَّر قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١٣]، فقال: إن النبي ﷺ رأى ربه عز وجل، فقال له رجلٍ: أليس قد قال: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فقال له عكرمة: ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلّها ترى؟[1]. فهو سبحانه لكمال عظمته لا تدركه الأبصار.

وهكذا كلُّ صفةٍ فيها نفي إثباتٍ لضدِّ تلك الصِّفة، يعني: إثباتٌ لكمال الصِّفة التي أثبتها الله، ونفي ضدِّها.

فإنَّ من عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في بعض الصِّفات أنَّهم يصفون الله تعالى بما وَصَفَ به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، وينفون عنه ما نفى عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ؛ من النقائص والعيوب، ومن ذلك أنَّ الله تعالى نفى عن نفسه أشياء فيها نقص؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾، وكقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤]، نفى أن يعجزه شيءٌ، وذلك دليل القدرة ودليل كمال القوَّة، وهكذا قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: لا يكلِّفه ولا يشقُّ عليه، وذلك دليل كمال العلم، وكمال القوَّة، وكمال القدرة.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٧/ ٥٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٩)، والدارقطني في رؤية الله (ص١٨٧).

وبذلك يُعرف أنَّ كلَّ صفةٍ نفاها الله عن نفسه، فإنَّ ذلك لإثبات ما هو كمال، فنفي العجز لإثبات القدرة، ونفي اللُّغوب لإثبات القوَّة، كما أنَّ نفي العزوب: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣]؛ لإثبات كمال العلم، ونفي المِثْل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ونفي النِّدِّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، ونفي الكفؤ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، ونفي الشَّريك والمثيل والولد: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، ونحوها؛ لإثبات كمال الوحدانيَّة.

هذه طريقة أهل السُّنَّة: أنَّهم ينفون ما نفى الله عن نفسه، ويعرفون أنَّ هذا النَّفي دليلٌ على إثبات صفات الكمال، فمن ذلك ما تقدم من قول الماتن: (وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ)، يدخل في ذلك أنَّه لا يعجزه شيءٌ في الكائنات، أي: لا يعجز عن شيءٍ، ولا يخرج عن قدرته شيءٌ، بل هو كامل القدرة، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. فهذا مراده بهذه الكلمة، ويدخل فيها أشياء تمرُّ بنا إن شاء الله تعالى.

قال الشارح:

أَلَا يُرَىٰ أَنَّ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

قُبَيِّلَـــةٌ لَا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّـــةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

لَـمَّا اقْـتَرَنَ بِنَفْـيِ الْغَـدْرِ وَالظُّلْـمِ عَـنْهُمْ مَـا ذَكَـرَهُ قَبْـلَ هَـذَا الْبَيْـتِ وَبَعْـدَهُ، وَتَصْغِيرُهُمْ بِقَوْلِهِ: (قُبَيِّلَةٌ)، عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ عَجْزُهُمْ وَضَعْفُهُمْ، لَا كَمَالُ قُدْرَتِهِمْ.

وَقَوْلُ الْآخَرِ:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَـدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

لَـمَّا اقْتَرَنَ بِنَفْيِ الشَّرِّ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَمِّهِمْ، عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ عَجْزُهُمْ وَضَعْفُهُمْ أَيْضًا.

---

قال الشيخ:

مرَّ بنا معناهما، وفيهما نفيٌ.

البيت الأوَّل يقول في قبيلة:

قُبَيِّلَـــةٌ لَا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّـــةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

وظاهر البيت فيه مدحٌ لهم، وأنهم لا يغدرون ولا يظلمون، ولكن الشاعر لم يقصد المدح، وإنَّما قصد ضعفهم وعجزهم عن الانتقام، وذلك يؤخذ من قرائن الحال، وما اقترن بالبيت من قرائن الأحوال.

وكذلك البيت الثَّاني يذكر به قومه، فيقول:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَـدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

فظاهر البيت أن الشاعر يمدح قومه بأنَّهم ليسوا أهلًا للشَّرِّ، ولكن هو في الحقيقة يذمُّهم، يقول: إنَّهم ليسوا ممَّن يقدر على الانتقام، ولا يأخذ بالثَّأر، ولا ينتقم لنفسه، ولهذا يقول بعد هذا البيت:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا ... شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

فهو يتمنَّى أن يكون له قومٌ أقوياء.

فالحاصل: أنَّ بعض النَّفي قد يكون ذمًّا مثل هذه الأبيات، وأما إذا تجرَّد من القرائن، فإنَّه يكون مدحًا؛ كالآيات التي سبقت.

قال الشارح:

وَلِهَذَا يَأْتِي الْإِثْبَاتُ لِلصِّفَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مُفَصَّلًا، وَالنَّفْيُ مُجْمَلًا، عَكْسَ طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ بِالنَّفْيِ الْمُفَصَّلِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُجْمَلِ، يَقُولُونَ: لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَلَا شَبَحٍ، وَلَا جُثَّةٍ، وَلَا صُورَةٍ، وَلَا دَمٍ، وَلَا لَحْمٍ، وَلَا شَخْصٍ، وَلَا جَوْهَرٍ، وَلَا عَرَضٍ، وَلَا بِذِي لَوْنٍ، وَلَا رَائِحَةٍ، وَلَا طَعْمٍ، وَلَا مَجَسَّةٍ، وَلَا بِذِي حَرَارَةٍ، وَلَا بُرُودَةٍ، وَلَا رُطُوبَةٍ، وَلَا يُبُوسَةٍ، وَلَا طُولٍ، وَلَا عَرْضٍ، وَلَا عُمْقٍ، وَلَا اجْتِمَاعٍ، وَلَا افْتِرَاقٍ، وَلَا يَتَحَرَّكُ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَتَبَعَّضُ، وَلَيْسَ بِذِي أَبْعَاضٍ وَأَجْزَاءٍ وَجَوَارِحَ وَأَعْضَاءٍ، وَلَيْسَ بِذِي جِهَاتٍ، وَلَا بِذِي يَمِينٍ وَلَا شِمَالٍ وَأَمَامٍ وَخَلْفٍ وَفَوْقٍ وَتَحْتٍ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ مَكَانٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْمَمَاسَّةُ، وَلَا الْعُزْلَةُ، وَلَا الْحُلُولُ فِي الْأَمَاكِنِ، وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ الدَّالَّةِ عَلَى حُدُوثِهِمْ، وَلَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مُتَنَاهٍ، وَلَا يُوصَفُ بِمِسَاحَةٍ، وَلَا ذَهَابٍ فِي الْجِهَاتِ، وَلَيْسَ بِمَحْدُودٍ، وَلَا وَالِدٍ وَلَا مَوْلُودٍ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَقْدَارُ، وَلَا تَحْجُبُهُ الْأَسْتَارُ. إِلَى آخِرِ مَا نَقَلَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ لِمَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ.

وَهَذَا النَّفْيُ الْمُجَرَّدُ مَعَ كَوْنِهِ لَا مَدْحَ فِيهِ، فِيهِ إِسَاءَةُ أَدَبٍ، فَإِنَّكَ لَوْ قُلْتَ لِلسُّلْطَانِ: أَنْتَ لَسْتَ بِزَبَّالٍ، وَلَا كَسَّاحٍ، وَلَا حَجَّامٍ، وَلَا حَائِكٍ! لَأَدَّبَكَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَادِحًا إِذَا أَجْمَلْتَ النَّفْيَ، فَقُلْتَ: أَنْتَ لَسْتَ مِثْلَ أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ، أَنْتَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَأَشْرَفُ وَأَجَلُّ، فَإِذَا أَجْمَلْتَ فِي النَّفْيِ أَجْمَلْتَ فِي الْأَدَبِ.

وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الحَقِّ بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ سَبِيلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ. وَالمُعَطِّلَةُ يُعْرِضُونَ عَمَّا قَالَهُ الشَّارِعُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلَا يَتَدَبَّرُونَ مَعَانِيَهَا، وَيَجْعَلُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ المَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ هُوَ المُحْكَمَ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ.

وَأَمَّا أَهْلُ الحَقِّ وَالسُّنَّةِ وَالْإِيمَانِ، فَيَجْعَلُونَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الحَقَّ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ، وَالَّذِي قَالَهُ هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا جمليًا، أَوْ يُبَيِّنُوا حَالَهُ تَفْصِيلًا، وَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا يُحْكَمُ بِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

---

قال الشيخ:

هكذا ذكر العلماء ـ كشيخ الإسلام ابن تيميَّة وغيره من علماء أهل السُّنَّة ـ أنَّ طريقة الرُّسل وما بُعثوا به في بعض الصِّفات أنَّهم يصفون الله تعالى بالنَّفي والإثبات، ولكنَّ طريقتهم في الإثبات التَّفصيل، وطريقتهم في النَّفي الإجمال؛ لأن التَّفصيل في الصِّفات الثبوتيَّة مدحٌ، والإجمال في الصِّفات السَّلبيَّة مدحٌ.

فعندنا في الصِّفات السَّلبيَّة التي فيها نفيٌ مجملٌ، يُنزه به الله عن جميع النَّقائص؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مريم:٦٥]، أي: لا سميَّ له، فهذا نفيٌ مجملٌ. وكقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، فهذا نفيٌ مجملٌ. وكقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ

أَندَادًا ﴾[البقرة:٢٢]، وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤]، هذا نفيٌ مجملٌ، وكذلك قوله: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ [سبأ:٣]، نفيٌ مجملٌ، فلم يقل: لا يعزب عنه سمع كلمةٍ ولا سمع حركةٍ ولا سمع صوتٍ، بل أجمل. هذه طريقة أهل السُّنَّة في النَّفي.

وأمَّا في الإثبات، فإنَّ الرُّسل جاؤوا بالتَّفصيل، ففي الكتاب والسُّنَّة من التَّفصيل الشيء الكثير، ففي بعض الصِّفات الثُّبوتيَّة أثبت الله لنفسه أنَّه العزيز الحكيم، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:١٣٤]، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٠]، ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة:٩٧]، وأثبت لنفسه أنَّه الذي خلق، والذي يرزق، والذي يحيي ويميت، والذي يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، وأثبت لنفسه أنَّ له قدرةً وعلمًا ووجهًا ويدًا، وأنَّه ينزل كما يشاء، ويجيء كما يشاء، وأنَّه فوق عباده، وأنَّه على العرش استوى، وما أشبه ذلك، هذه صفاتٌ ثبوتيَّةٌ أثبتها الله؛ لأنَّه يُمدح بها.

وهذه طريقة أهل السُّنَّة: التَّفصيل في الصِّفات الثُّبوتيَّة والإجمال في صفات النَّفي، وسبب ذلك: أنَّ النَّفي ليس بمدحٍ، إلَّا إذا تضمَّن إثباتًا، وكلّ النَّفي الذي في القرآن فإنه يتضمَّن إثباتًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، نفى الله السِّنَة؛ لأنَّ ذلك يتضمَّن كمال الحياة، ونفي النَّومَ؛ لأنَّ نفي النَّوم يستلزم كمال القيُّوميَّة. ومعلومٌ أنَّ النَّوم وأنَّ السِّنَة ـ التي هي

النُّعاس ـ نقصٌ، فإذا نفاها الله؛ دلَّ على كمال الحياة وكمال القيُّوميَّة.

وقد بين ذلك النَّبيُّ ﷺ فقال: «**إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَا يَنَامُ، ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قبل عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قبل عَمَلِ اللَّيْلِ**»[1].

فالحاصل أنَّنا إذا تأمَّلنا الصِّفات السَّلبيَّة وجدناها تتضمَّن إثبات كمالٍ، وإذا تأمَّلنا الصِّفات الثُّبوتيَّة ـ كإثبات العزَّة والحكمة والحياة والقيُّوميَّة ونحوها ـ وجدناها صفات كمالٍ، وهذه طريقة الرُّسل.

وأمَّا طريقة المعتزلة والجهميَّة والنُّفاة، فقد عكسوا الأمر، فتوسَّعوا في السَّلب والنَّفي، وأجملوا في الإثبات، فهم لا يثبتون إلَّا صفاتٍ قليلةً؛ لا يثبتون إلاَّ كلمة (موجودٍ) مثلًا، أو (علَّة الوجود)، أو (الخالق)، ولكن يتوسَّعون في النَّفي؛ كما جاء في هذه العبارة التي نقلها الأشعريُّ عن المعتزلة، يقشعرُّ الجلد منها، فلا حاجة بنا إلى تفصيلها، ونعوذ بالله أن نعتقدها، ونبرأ إلى الله مِمَّن يعتقد هذا في ربِّه سبحانه وتعالى.

ولكن لَمَّا كان المعتزلة اعتمدوا على الفلاسفة الذين يسمَّون أنفسهم إلهيِّين، لم يجدوا بُدًّا من أن يتَّبعوهم فيما قالوه، فوصفوا الله بهذه الصِّفات السَّلبيَّة، وهي تصل إلى أكثر من أربعين صفةً أو خمسين، وإن كان فيها شيءٌ صحيحٌ، مثل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾[فاطر:٤٤]،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وما أشبه ذلك، هذه صفات صحيحة، ولكنَّ أغلب ما جاء فيها تلقُّوه عن الفلاسفة، وأمْلَتْه عليهم خيالاتهم الباطلة، فعكسوا طريقة الرُّسل، يعني: توسَّعوا في السَّلب والنَّفي الذي ما يُمدح به، وقلَّلوا في الإثبات الذي يُمدح به واختصروه.

وقد مرَّ بنا أنَّ من جملة ما نفى الله عن نفسه قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، هذا سلبٌ، ولكن أثبت بعده بقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وبيَّن العلماء أنَّ هذا ورد على التَّمدُّح، وقالوا: الذي لا يُرىٰ لا يُمدح، فلا يُمدح الشَّيء بكونه لا يُرى، وإنَّما يُمدح إذا كان يُرىٰ ولكن تعجز الأبصار عن أن تحيط به. فدلَّ على أنَّه يُرىٰ، وعندما تراه الأبصار لا تدركه، يعني: لا تحيط به، فأفاد أنَّ هذا مدحٌ، يدل على القدرة والعظمة.

فكلُّ نفيٍ في القرآن فإنَّه دالٌّ على كمالٍ.

قال الشارح:

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ غَالِبَ عَقَائِدِهِمُ السُّلُوبُ: لَيْسَ بِكَذَا، ولَيْسَ بِكَذَا. وَأَمَّا الْإِثْبَاتُ فَهُوَ قَلِيلٌ، وَهُوَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ حَيٌّ، وَأَكْثَرُ النَّفْيِ المَذْكُورِ لَيْسَ مُتَلَقًّى عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا عَنِ الطُّرُقِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي سَلَكَهَا غَيْرُهُمْ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فَفِي هَذَا الْإِثْبَاتِ مَا يُقَرِّرُ مَعْنَى النَّفْيِ، فَفُهِمَ أَنَّ المُرَادَ انْفِرَادُهُ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَهُوَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ مَوْصُوفٌ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، مِمَّا أَخْبَرَنَا بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَلَهُ صِفَاتٌ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُهُ الصَّادِقُ ﷺ فِي دُعَاءِ الْكَرْبِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي»[1].

وَسَيَأْتِي التَّنْبِيهُ عَلَى فَسَادِ طَرِيقَتِهِمْ فِي الصِّفَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

يُعرف أنَّ هؤلاء النُّفاة ليس لهم دليلٌ على هذا السَّلب: أنَّ الله ليس بكذا، وليس بفوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا متحرك، ولا ساكن ... إلخ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وقد ذكرنا أنَّهم اعتمدوا على طرق الفلاسفة، وأنَّ الفلاسفة اعتمدوا في ذلك على طرقٍ عقليَّةٍ، ولكنَّها في الحقيقة خيالات تخيَّلوها، فهذه طريقتهم في النفي، وأمَّا في الإثبات، فلم يثبتوا إلَّا قليلًا، فالأشعريَّة ـ مثلًا ـ أثبتوا سبع صفاتٍ وأثبتوا الأسماء، والمعتزلة أثبتوا الأسماء، ولكن نفوا دلالتها على الصِّفات، فقالوا: إنَّ الله سميعٌ بلا سمعٍ، وبصيرٌ بلا بصرٍ، وعليمٌ بلا علمٍ، وقديرٌ بلا قدرةٍ ـ تعالى الله عن قولهم ـ وجعلوها أسماءً مجرَّدةً عن الصِّفات.

ويُردُّ عليهم بطريقة القرآن، فإنَّ القرآن إذا نفى أتبع النفي بالإثبات، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، إثباتٌ لكمال القدرة، وإثباتٌ للإحاطة؛ إحاطة بالعلم بكلِّ شيءٍ، مع أنَّه قد نفى أن يحيط النَّاس به في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فدلَّ على أنَّه لكماله لا يستطيعون أن يطَّلعوا إلاَّ على ما أطلعهم عليه. وكذلك جمع بين النَّفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وهذا ردٌّ على الممثِّلة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وهذا ردٌّ على المعطِّلة، فجمع بين النَّفي والإثبات في بعض آية، وردَّ على الفئتين: الفئة التي غَلَت في الإثبات حتَّى شبَّهت صفاته بالمخلوقات، والفئة التي غَلَت في النَّفي حتَّى نفت عنه صفات الإثبات الكماليَّة، وهذه هي طريقة الرُّسل وطريقة الكتاب والسُّنَّة، التي تروي الغليل وتشفي العليل، فمن سار على نهج أهل السُّنَّة في النَّفي والإثبات، وعلى طريقة الرُّسل، فلا يخشى من الملام، ولا يَرِدُ عليه كلامٌ.

قال الشارح:

وَلَيْسَ قَوْلُ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ)، مِنَ النَّفْيِ المَذْمُومِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

فَنَبَّهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ فِي آخِرِ الْآيَةِ عَلَى دَلِيلِ انْتِفَاءِ الْعَجْزِ، وَهُوَ كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَإِنَّ الْعَجْزَ إِنَّمَا يَنْشَأُ إِمَّا مِنَ الضَّعْفِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُهُ الْفَاعِلُ، وَإِمَّا مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ:٣]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، وَقَدْ عُلِمَ بِبَدَائِهِ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَانْتَفَى الْعَجْزُ؛ لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ مِنَ التَّضَادِّ، وَلِأَنَّ الْعَاجِزَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

---

قال الشيخ:

يعني: أن قول الماتن: (وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ)، نفيٌ، ولكن هذا النَّفي دليلٌ على إثباتٍ، وهو إثبات كمال القدرة، فنفى العجز ليدلَّ على أنَّه كامل القدرة وكامل القوة، ولهذا جمع الله بين النَّفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، فهذا نفي، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، فأثبت العلم والقدرة ليدلَّ على أنَّه قديرٌ، ولا يعجزه شيءٌ، فعُرف أنَّ هذا نفيٌ موافقٌ للنَّفي الذي في القرآن، وهو النَّفي الذي يتضمَّن إثباتًا،

وعلَّل بأنَّ العاجز لا يصلح بأن يكون إلهًا، وأنَّه يدخل في القدرة كلُّ شيءٍ.

إذا وصفنا الله تعالى بكمال القدرة، فهو قادرٌ على كلِّ شيءٍ، لا يخرج عن قدرته شيءٌ؛ لا من الأفعال، ولا من الذوات، فيقدر على أن يجعل المؤمن كافرًا والكافر مؤمنًا، يقلِّب القلوب، ويحول بين المرء وقلبه، وقد ورد في الحديث في قول النَّبيِّ ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ**»(١)؛ فدلَّ على أنَّ من جملة ما يملكه ويستطيعه ويقدر عليه الحيلولة بين الإنسان وبين قلبه، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤].

فهذه صفةٌ من صفات الكمال، وهي إثبات كمال القدرة، وصفات الله وأسماؤه تعالى لا يحيط بها إلَّا هو، كما دلَّ على ذلك الحديث الذي أورد الشارح، وهو أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّم أصحابه هذا الدُّعاء، وفيه قوله: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»(٢)، فدلَّ على أنَّه استأثر بأسماءٍ وبصفاتٍ لم يُطْلع عليها أحدًا، فالرسول ﷺ يقول: أسألك بكلِّ هذه الأسماء، والسُّؤال بالأسماء توسُّلٌ إلى الله تعالى بها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ **[الأعراف:١٨٠]**.

والحاصل: أنَّ صفات الله تعالى كلَّها صفات كمالٍ، إذا أثبتناها فإنَّنا نعتقد أنَّها

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٦٥).

صفات كمالٍ، ومعلومٌ أنَّ الذي يثبت هذه الصِّفات يعظِّم قدر ربِّه في قلبه، ومن عظَّم قدر ربِّه في قلبه لم يقدم على معصيته، هذه فائدة قراءتنا لباب الصِّفات؛ حتَّى يكون قدر الرَّبِّ عظيمًا.

إذا عَرف العبد أنَّ الله مطَّلعٌ على كلِّ شيءٍ لم يقدم على معصيته، وإذا عرف أنَّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ولا يخفى عليه من أمره خافيةٌ، ويعلم ما توسوس به النَّفس وما يجول في القلب، وإذا عَرف كمال قدرته على أن يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، وإذا عرف قدرته على أنَّه واسع الرَّحمةِ، وواسع الثَّوابِ، وشديد العقابِ، كل ذلك يحمله على الاستكثار من الطَّاعات، والابتعاد عن المحرَّمات.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلاَ إلهَ غَيْرُهُ.

---

قال الشارح:

هَذِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي دَعَتْ إِلَيْهَا الرُّسُلُ كُلُّهُمْ - كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ - وَإِثْبَاتُ التَّوْحِيدِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بِاعْتِبَارِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُقْتَضِي لِلْحَصْرِ، فَإِنَّ الْإِثْبَاتَ الْمُجَرَّدَ قَدْ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الِاحْتِمَالُ. وَلِهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، فَإِنَّهُ قَدْ يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ خَاطِرٌ شَيْطَانِيٌّ: هَبْ أَنَّ إِلَهَنَا وَاحِدٌ، فَلِغَيْرِنَا إِلَهٌ غَيْرُهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

وَقَدِ اعْتَرَضَ صَاحِبُ «الْمُنْتَخَبِ» عَلَى النَّحْوِيِّينَ فِي تَقْدِيرِ الْخَبَرِ فِي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فَقَالُوا: تَقْدِيرُهُ: لَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: يَكُونُ ذَلِكَ نَفْيًا لِوُجُودِ الْإِلَهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَفْيَ الْمَاهِيَّةِ أَقْوَى فِي التَّوْحِيدِ الصِّرْفِ مِنْ نَفْيِ الْوُجُودِ، فَكَانَ إِجْرَاءُ الْكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ هَذَا الْإِضْمَارِ أَوْلَى.

وَأَجَابَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ الْمُرْسِيُّ فِي «رِيِّ الظَّمْآنِ»، فَقَالَ: هَذَا كَلَامُ مَنْ لَا يَعْرِفُ لِسَانَ الْعَرَبِ، فَإِنَّ «إِلَهَ» فِي مَوْضِعِ الْمُبْتَدَأِ عَلَى قَوْلِ سِيبَوَيْهِ، وَعِنْدَ غَيْرِهِ اسْمُ «لَا»، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا بُدَّ مِنْ خَبَرٍ لِلْمُبْتَدَأِ، وَإِلَّا فَمَا قَالَهُ مِنَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْإِضْمَارِ فَاسِدٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِذَا لَمْ يُضْمَرْ يَكُونُ نَفْيًا لِلْمَاهِيَّةِ، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْمَاهِيَّةِ هُوَ نَفْيُ الْوُجُودِ، لَا تُتَصَوَّرُ الْمَاهِيَّةُ إِلَّا مَعَ الْوُجُودِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ «لَا مَاهِيَّةَ»، و«لَا وُجُودَ». وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ مَاهِيَّةً عَارِيَةً عَنِ الْوُجُودِ. و«إِلَّا اللَّهُ» مَرْفُوعٌ، بَدَلًا مِنْ «لَا إِلَهَ»، لَا يَكُونُ خَبَرًا لِـ «لَا»، وَلَا لِلْمُبْتَدَأ. وَذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا ذِكْرَ الْإِعْرَابِ، بَلِ الْمُرَادُ دَفْعُ الْإِشْكَالِ الْوَارِدِ عَلَى النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ، وَبَيَانُ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَهُوَ فَاسِدٌ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُمْ: «نَفْيَ الْوُجُودِ» لَيْسَ تَقْيِيدًا؛ لِأَنَّ الْعَدَمَ لَيْسَ بِشَيْءٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩].

وَلَا يُقَالُ: لَيْسَ قَوْلُهُ: «غَيْرُهُ» كَقَوْلِهِ: «إِلَّا اللَّهُ»؛ لِأَنَّ «غَيْرُ» مُعْرَبٌ بِإِعْرَابِ الِاسْمِ الْوَاقِعِ بَعْدَ «إِلَّا»، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ لِلْخَبَرِ فِيهِمَا وَاحِدًا. فَلِهَذَا ذَكَرْتُ هَذَا الْإِشْكَالَ وَجَوَابَهُ هُنَا.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَلاَ إِلَهَ غَيْرُهُ)، هذه كلمة الإخلاص، وهي كلمة: (لا إله إلاَّ الله)، ففي دعاء الاستفتاح يقول ﷺ: «سُبْحَانَكَ اللهم وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، ولا إِلَهَ غَيْرُكَ»[1]، وهو معنى: لا إله إلَّا أنت، فقوله: «غَيْرُكَ»

(١) أخرجه أبوداود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي (٨٩٩)، وابن ماجه (٨٠٤)، وأحمد

يعني: لا إله سواك، أي: ليس هنا إلهٌ يصلُح للإلهيَّة غيرك، وهو معنى الاستثناء في قوله: (إِلَّا اللَّهُ).

وقد تكرَّرت هذه الكلمة في القرآن الكريم:

فوردت بلفظ: (لا إله إلاَّ الله)، في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

وبلفظ: (لا إله إلَّا هو)؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣].

وبلفظ: (لا إله إلاَّ أنت)، في دعاء ذي النُّون في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

ووردت من كلام الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه:١٣، ١٤]، وكله معناه واحد، وهو نفي الإلهيَّة عن غير الله.

وأما الإعراب الذي ذُكر عن النَّحويِّين أنَّهم قالوا: تقديره: لا إله في

---

=

(٣/ ٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأخرجه مسلم (٣٩٩) موقوفًا من قول عمر بن الخطاب ﷺ. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٩٦): «وقد ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يجهر بسبحانك اللهم وبحمدك، يعلمه الناس، فلولا أن هذا من السنة المشروعة لم يفعل هذا عمر، ويقره المسلمون عليه».

الوجود إلاَّ الله. فقد تعقَّبه العلماء وقالوا: إنَّ هناك في الوجود من يسمَّى إلهًا، ولكن لا يصلح أن يكون إلهًا، فالصَّواب أن يُقال: لا إله حقٌّ إلَّا الله، أو: لا إله بحقٍ إلَّا الله، أي: لا أحد يستحقُّ الإلهيَّة إلَّا الله، فالتَّقدير بحقٍّ أولى، وذلك لكثرة من يُسمَّى إلهًا ممَّا تألَهه القلوب ويتَّخذه المشركون إلهًا؛ لأنَّ كلمة (الإله): اسم لما تألَهه القلوب وتحبُّه، ومعلومٌ أنَّ المشركين يؤلِّهون معبوداتهم، سواءٌ المعبودات القديمة؛ كالأصنام المنحوتة على صور المخلوقات؛ كودٍّ وسواعٍ ... إلخ، أو الخياليات؛ كالذين يؤلِّهون بعض السَّادة، أو بعض الأولياء، وكالذين يؤلِّهون عبدالقادر الجيلانيّ، أو أحمد البدوي، أو الحسين، أو عليًّا، أو ابن العيدروس، أو تاجًا، أو ابن علوان ... أو نحوهم؛ فإنَّهم يُؤلِّهونهم، بمعنى أنَّ قلوبهم تحبُّهم وتقدِّسهم وتعظِّمهم وتوقِّرهم، ويكون في قلوبهم لهم قدرٌ ومكانةٌ، وهذا هو حقيقة التألُّه.

أمَّا المسلمون الموحِّدون، فإنَّهم يُؤلِّهون الله وحده، لا تألَه قلوبهم غيره، فلا تحبُّ سواه محبة العبادة، ولا تخاف من غيره، ولا تعظم إلَّا هو، ولا تخضع وتتواضع إلا له، وهكذا . هذه صفة أولياء الله الذين هُمُ الموحِّدون، الذين اتَّخذوه إلهًا وصدُّوا بقلوبهم عمَّا سواه.

ولما كانت هذه الكلمة تتضمَّن الإخلاص، كانت أوَّل دعوة الرُّسل، وتقدم في أوَّل الكتاب أنَّ أوَّل ما دعت إليه الرُّسل هذه الكلمة، وأن نوحًا ـ عليه السلام ـ كان يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، أي:

لا يستحقُّ أن يكون غيره إلهًا، وكذلك قالها هود، وصالح، وشعيب، وبقيّة الأنبياء الذين ذكر الله أنَّه أوحى إليهم بذلك.

وإذا عرف المسلم معنى هذه الكلمة، عرف حقيقة التَّوحيد الذي دعت إليه الرُّسل، والمصيبة أنَّ أولئك الذين يعبدون هؤلاء الأموات يقولون: لا إله إلَّا الله ليلًا ونهارًا، وسّرًا وجِهارًا، لكن لا يعملون بمعناها، ولا يعرفون مضمونها، يقولونها ويخالفونها؛ لأنَّهم لم يفهموا معنى الإله، ولو عرفوا أنَّ الإله هو الذي تألَهه القلوب ـ يعني: تحبُّه وتعظِّمه ـ؛ لعلموا أنَّهم قد ألَّهوا هؤلاء الأموات، ولكنهم لا يعرفون معنى العبادة.

إذا قلنا: معنى (لا إله إلَّا الله): لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، قلنا لهم: وما معنى المعبود؟ أنتم الآن قد عبدتم غير الله من هؤلاء الأموات، فالعبادة هي: التَّذلُّل والخضوع، وقد تذلَّلتم وخضعتم لهؤلاء الأموات، فأصبحتم قد دعوتم غير الله، فلا ينفعكم التَّهليل.

فالحاصل أنَّ كلمة التَّوحيد: (لا إله إلَّا الله)، أو (لا إله إلَّا هو)، أو (لا إله غيره)، هي التي يجب أن ندعو إليها، وهي التي دعت إليها الرُّسل، ومنهم نبيُّنا ﷺ، حيث أقام عشر سنين في مكَّة لم يدعُ إلَّا إلى هذه الكلمة؛ يقول للناس: «**قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله تُفْلِحُوا**»[1]، وكانوا يعرفون معناها، ولَـمَّا قال لعمه

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٢)، والطبراني في الكبير (٤٥٨٢)، والحاكم (١/ ١٥) من حديث ربيعة بن عباد الديلي ﷺ.

أبي طالب: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بها عِنْدَ اللَّهِ»[(١)]، يعني: أحتجُّ بها عند الله أنَّك متَّ على التَّوحيد، فَهِم أبو طالب والحاضرون أنَّها تتضمَّن البراءة من كلِّ المألوهات، فذكَّروه الحجَّة الشيطانيَّة، وهي ملَّة أبيه عبد المطلب، فمات على قوله: «هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِب».

ولما أتى عمَّهُ أبا طَالِبٍ يَعُودُهُ، وَأَتَتْهُ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَقَعُ فِي آلِهَتِنَا، قال: ما شَأْنُ قَوْمِكَ يَشْكُونَكَ؟ قال: «يَا عَمِّ أُرِيدُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي الْعَجَمُ إِلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ»، قال: مَا هِيَ؟ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَقَامُوا فَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]؟![(٢)]، فهذا دليلٌ على أنَّ كلَّ ما يُؤلِّهونه ويحبُّونه محبَّة تعظيمٍ وتوقيرٍ واحترامٍ، فإنَّه إلهٌ عندهم.

وقد خَفِيَ هذا المعنى على القبوريِّين الذين عظَّموا القبور، فيُقال لهم: تعظيمكم هذا هو التألُّه شئتم أم أبيتم، قد اتخذتموها آلهةً، وكذلك أفعالكم، فَحَلفكم بالأموات ـ مثلًا ـ أو دعاؤكم لهؤلاء من الأموات ـ كقولكم: يا عيدروس! يا تاج! يا يوسف! ـ وتعلق قلوبكم بهم هو تألُّهٌ، قد اتَّخذتموهم بذلك آلهةً شئتم أم أبيتم، عبدتموهم وإن لم تسمُّوا ذلك عبادةً، فالعبرة بالحقائق لا بالمسمَّيات، سمُّوها ما شئتم، سمَّوا أفعالكم توسُّلًا أو تودُّدًا أو تبرُّكًا أو تحيُّةً أو استشفاعًا أو تقرُّبًا، فالحقائق لا تتغيَّر بالمسمَّيات.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣٦).

ولذلك نحثُّ كلَّ مسلمٍ على أن يعرف أن كلمة التوحيد (لا إله إلَّا الله)، تدعو إلى أن يكون الله هو الإلهَ الحق ـ يعني: المعبود بحقٍ ـ وأن يَعبده حقَّ عبادته، وأن يصدَّ بقلبه عن عبادة وتعظيم كلِّ ما سواه، فبذلك يكون محقِّقًا لهذا التَّوحيد، الذي دعت إليه الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ.

---

قال الشارح:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، وَقَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»(١). فَقَوْلُ الشَّيْخِ: قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ، هُوَ مَعْنَى اسْمِهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ.

وَالْعِلْمُ بِثُبُوتِ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطْرَةِ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى وَاجِبِ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ، قَطْعًا لِلتَّسَلْسُلِ، فَأَنْتَ تُشَاهِدُ حُدُوثَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ، وَحَوَادِثِ الْجَوِّ كَالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْحَوَادِثُ وَغَيْرُهَا لَيْسَتْ مُمْتَنِعَةً، فَإِنَّ الْمُمْتَنِعَ لَا يُوجَدُ، وَلَا وَاجِبَةَ الْوُجُودِ بِنَفْسِهَا، فَإِنَّ وَاجِبَ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ، وَهَذِهِ كَانَتْ مَعْدُومَةً ثُمَّ وُجِدَتْ، فَعَدَمُهَا يَنْفِي وُجُودَهَا، وَوُجُودُهَا يَنْفِي امْتِنَاعَهَا، وَمَا كَانَ قَابِلًا لِلْوُجُودِ وَالْعَدَمِ لَمْ يَكُنْ وُجُودُهُ بِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]. يَقُولُ سُبْحَانَهُ: أَحَدَثُوا مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ أَمْ هُمْ أَحْدَثُوا أَنْفُسَهُمْ؟! وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّيْءَ الْمُحْدَثَ لَا يُوجِدُ نَفْسَهُ، فَالْمُمْكِنُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وُجُودٌ وَلَا عَدَمٌ لَا يَكُونُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ، بَلْ إِنْ حَصَلَ مَا يُوجِدُهُ، وَإِلَّا كَانَ مَعْدُومًا، وَكُلُّ مَا أَمْكَنَ وُجُودُهُ بَدَلًا عَنْ عَدَمِهِ، وَعَدَمُهُ بَدَلًا عَنْ وُجُودِهِ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وُجُودٌ وَلَا عَدَمٌ لَازِمٌ لَهُ.

وَإِذَا تَأَمَّلَ الْفَاضِلُ غَايَةَ مَا يَذْكُرُهُ الْمُتَكَلِّمُونَ وَالْفَلَاسِفَةُ مِنَ الطُّرُقِ الْعَقْلِيَّةِ، وَجَدَ الصَّوَابَ مِنْهَا ما يَعُودُ إِلَى بَعْضِ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الطُّرُقِ الْعَقْلِيَّةِ بِأَوضَحِ عِبَارَةٍ وَأَوْجَزِهَا، وَفِي طُرُقِ الْقُرْآنِ مِنْ تَمَامِ الْبَيَانِ وَالتَّحْقِيقِ مَا لَا يُوجَدُ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

وَلَا نَقُولُ: لَا يَنْفَعُ الِاسْتِدْلَالُ بِالْمُقَدِّمَاتِ الْخَفِيَّةِ وَالْأَدِلَّةِ النَّظَرِيَّةِ: فَإِنَّ الْخَفَاءَ وَالظُّهُورَ مِنَ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ، فَرُبَّمَا ظَهَرَ لِبَعْضِ النَّاسِ مَا خَفِيَ عَلَى غَيْرِهِ، وَيَظْهَرُ لِلْإِنْسَانِ الْوَاحِدِ فِي حَالٍ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ فِي حَالٍ أُخْرَى.

وَأَيْضًا فَالْمُقَدِّمَاتُ وَإِنْ كَانَتْ خَفِيَّةً فَقَدْ يُسَلِّمُهَا بَعْضُ النَّاسِ وَيُنَازِعُ فِيمَا هُوَ أَجْلَى مِنْهَا، وَقَدْ تَفْرَحُ النَّفْسُ بِمَا عَلِمَتْهُ بِالْبَحْثِ وَالنَّظَرِ مَا لَا تَفْرَحُ بِمَا عَلِمَتْهُ مِنَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعِلْمَ بِإِثْبَاتِ الصَّانِعِ وَوُجُوبِ وُجُودِهِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ فِطْرِيٌّ، وَإِنْ كَانَ يَحْصُلُ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنَ الشُّبَهِ مَا يُخْرِجُهُ إِلَى الطُّرُقِ النَّظَرِيَّةِ.

---

قال الشيخ:

نعرف أنَّ هذا الوصف ـ وهو قوله: (قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ) ـ أنَّه وصفٌ ثابتٌ للإله، ولكنَّ العبارة التي في القرآن والسُّنَّة أوضح، وهي قول الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، فسَّره النَّبيُّ ﷺ بقوله: «أَنْتَ الْأَوَّلُ

فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[١]، وفسَّره أيضًا في حديث عمران بن حصين ﷺ بقوله: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»[٢]، وهذا دليلٌ على أنَّ الله تعالى قديمٌ ولم يُسبقْ بعدمٍ، وأنه دائمٌ ولا يلحقه فناءٌ، وأنَّ المخلوقات حادثةٌ معدومةٌ، ثم وُجدت، ثم يأتي عليها العدم.

ويُستدلُّ على هذا بحدوث الحوادث، فيقال: هذه الحوادث لا بدَّ لها من محدثٍ، وهذا قد يُعَدُّ دليلًا عقليًّا، ولكن أيدَّته الآيات كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، فإذا تحقَّق أنَّهم لم يخلقوا أنفسهم، وتحقَّق أنَّهم لم يُخلَقوا من غير شيءٍ؛ تعين أنَّهم خُلِقوا من شيءٍ، وأنَّ لهم خالقًا خلقهم.

وهذا مما يُرد به على النُّفاة الطَّبائعيِّين الدهريِّين، والذين يسمُّون في هذه الأزمنة بالشيوعيِّين، الذين ينكرون الخالق، وقديمًا كانوا يسمَّوْن بالطَّبائعيِّين، ومنهم الفلاسفة الطَّبائعيُّون، وهناك فلاسفةٌ يقرُّون بالخالق، ويسمّون الفلاسفة الإلهيِّين.

هؤلاء جميعًا يُحتجُّ عليهم بالعقل، فيقال: هذه الموجودات نشاهد أنَّها كانت معدومةٌ ثم وُجدت، فلا بدَّ لها من موجدٍ، نشاهد أنَّ السَّماء صافيةٌ، ثمَّ يتراكم فيها السَّحاب، فلا بدَّ له من موجدٍ، ونشاهد أنَّ الأرض تكون يابسةً ثمَّ نشاهدها

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٨).

بعد ذلك تهتزُّ خضراء، فيها أشجارٌ وفيها ثمارٌ، فلا بدَّ لها من موجدٍ، ونشاهد أنَّ الإنسان يكون صغيرًا ثم نشاهده بعد ذلك قد وُلد له أولادٌ إلى جانبه، كانوا من قبل معدومين ثم وُجدوا، فلا بدَّ لهم من موجدٍ، وهكذا توالد الحيوانات والدَّوابِّ ونحوها لا بدَّ لها من موجدٍ، فإنَّ الإنسان ليس هو الذي يُوجِد نفسَه، وليس هو الذي يَخلق أولاده، ولو كان هو الذي يتصرَّف بنفسه؛ لحرص على أن يكون خَلْقُه أحسنَ من خلق غيره، ولو كان هو الذي يُوجد ولده؛ لحرص على أن يكون ولده مثلًا ذكورًا أو نحو ذلك.

فتعيَّن بذلك أنَّ هناك خالقًا يتصرَّف في هذا الكون، فهو الذي يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويخفض ويرفع، ويُسعِد ويشقي، ويُفقِر ويُغني، فلابدَّ أن تنتهي هذه الموجودات إلى موجدٍ، وذلك الموجد لابدَّ أن يكون غنيًّا بنفسه، وأنَّ ما سواه فقيرٌ إليه، وهذا الوصف هو وصف الخالق جل شأنه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٥-١٧]، أي: ليس ذلك صعبًا ولا شاقًّا على الله، بل هو سهلٌ يسيرٌ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فإذًا يعتقد أهل السُّنَّة أنَّ ربَّ هذا الكون واحدٌ، وأنَّه هو الذي يتصرَّف في الكون، وأنَّه قديمٌ بلا ابتداءٍ، ليس له بدايةٌ ولا نهايةٌ، وقد ذكر الله تعالى أنَّ كلامه لا ينفد فقال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، وما ذاك إلَّا أنَّ كلام الله ليس له بداية

ولا نهاية، فالبحر ولو مُدَّ معه سبعة أبحرٍ أو ما لا نهاية لها، والأشجار من أوَّل الدُّنيا إلى آخرها لو كانت أقلامًا، فكُتب بتلك الأقلام وكُتب بمداد هذه البحار، لنفدَتِ البحار، ولتكسَّرتِ الأقلام، ولم ينفد كلام الله، وذلك لأنَّه لا بداية له ولا نهاية. ولا شكَّ أنَّ هذه من الحجج العقليَّة التي تقطع مخاصمة أولئك.

وإذا عرف المسلمون أنَّ لهم خالقًا خلقهم وخلق هذا الكون، عرفوا أنَّهم ما خُلقوا عبثًا، فلا بدَّ أنَّ للخالق الذي خلقهم وأنعم عليهم حقًّا عليهم، فيعرفون حقَّ الله على العبيد، وهو عبادته وحده لا شريك له، فيكون هذا دافعًا لهم إلى أن يقوموا بهذا الحقِّ، ثمَّ بعد ذلك يعلِّقوا آمالهم راجين الثَّواب الذي رتّب لهم على تلك العبادة.

والحاصل: أنَّ كلَّ مسلمٍ وكلَّ عاقلٍ إذا فكَّر في هذا الكون، ورأى وجودَه، ورأى أنَّه يحدث بعد أن كان معدومًا، عَرف أنَّه لا بدَّ له من محدثٍ، وذلك المحدث لو كان مفتقرًا إلى محدث آخر؛ لكان فقيرًا.

ثمَّ قد يُقال أيضًا: من الذي أحدث المحدِثَ الأوَّل؟ وإذا كان له محدِثٌ: من الذي أحدث الذي قبله؟ فيلزم بذلك التَّسلسل؛ فإذا قيل: إن المحدث واحدٌ، وإنَّه غير مسبوقٍ بعدمٍ، وإنَّه الأوَّل بلا بدايةٍ، انقطع التَّسلسل، فلم يكن هناك تسلسلٌ في الماضي ولا في المستقبل. هذا تقرير هذه الحجَّة العقليَّة، ولكن تكفي عنها هذه الآية النَّقليَّة وما يشابهها من الآيات التي يحتجُّ الله بها على عباده في قدرته وكمال تصرُّفه في هذا الكون وما فيه من الآيات والعبر، إنَّ في ذلك لعبرة وعظة، ولكن تلك العبرة والعظة إنَّما ينتفع بها أهل العقول.

قال الشارح:

وَقَدْ أَدْخَلَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى «الْقَدِيمَ»، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تعالى الْحُسْنَى، فَإِنَّ «الْقَدِيمَ» فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ: هُوَ الْمُتَقَدِّمُ عَلَى غَيْرِهِ، فَيُقَالُ: هَذَا قَدِيمٌ لِلْعَتِيقِ، وَهَذَا حَدِيثٌ لِلْجَدِيدِ. وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ هَذَا الِاسْمَ إِلَّا فِي الْمُتَقَدِّمِ عَلَى غَيْرِهِ، لَا فِيمَا لَمْ يَسْبِقْهُ عَدَمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، وَالْعُرْجُونُ الْقَدِيمُ: الَّذِي يَبْقَى إِلَى حِينِ وُجُودِ الْعُرْجُونِ الثَّانِي، فَإِذَا وُجِدَ الْحَدِيثُ، قِيلَ لِلْأَوَّلِ: قَدِيمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١]، أَيْ: مُتَقَدِّمٌ فِي الزَّمَانِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء:٧٥، ٧٦]، فَالْأَقْدَمُ مُبَالَغَةٌ فِي الْقَدِيمِ، وَمِنْهُ: الْقَوْلُ الْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ لِلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]، أَيْ: يَتَقَدَّمُهُمْ، وَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ الْفِعْلُ لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا، كَمَا يُقَالُ: أَخذني مَا قَدُمَ وَمَا حَدُثَ، وَيُقَالُ: هَذَا قَدَمَ هَذَا وَهُوَ يَقْدُمُهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْقَدَمُ قَدَمًا؛ لِأَنَّهَا تَقْدُمُ بَقِيَّةَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ.

وَأَمَّا إِدْخَالُ «الْقَدِيمِ» فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ، وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، مِنْهُمُ ابْنُ حَزْمٍ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَعْمَلًا فِي نَفْسِ التَّقَدُّمِ، فَإِنَّ مَا يُقَدَّمُ عَلَى الْحَوَادِثِ كُلِّهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِالتَّقَدُّمِ مِنْ غَيْرِهِ، لَكِنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الَّتِي

تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِ مَا يُمْدَحُ بِهِ، وَالتَّقَدُّمُ فِي اللُّغَةِ مُطْلَقٌ لَا يَخْتَصُّ بِالتَّقَدُّمِ عَلَى الحَوَادِثِ كُلِّهَا، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى.

وَجَاءَ الشَّرْعُ بِاسْمِهِ «الْأَوَّلِ»، وَهُوَ أَحْسَنُ مِنَ «الْقَدِيمِ»؛ لِأَنَّهُ يُشْعِرُ بِأَنَّ مَا بَعْدَهُ آيِلٌ إِلَيْهِ وَتَابِعٌ لَهُ، بِخِلَافِ «الْقَدِيمِ»، وَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، لَا الحَسَنَةُ.

---

قال الشيخ:

مشهورٌ في كتب أهل الكلام وَصْف الله بأنَّه القديم، بل عندهم أنَّ القديم أخصُّ أوصاف الله، ويعنون أنَّه الذي لم يتقدَّمه شيءٌ، ولذلك ينفون الصِّفات ـ تعالى الله عن قولهم ـ ويقولون: إنَّ تعدُّد الصِّفات يَلزم منه تعدُّد القدماء، يعني أنَّ القديم واحدٌ، وهو الله، فلا يكون هناك قديمون غيره.

فلو قيل: إنَّ لله صفات؛ لكانت أيضًا موصوفةً بالقدم، أي: فيقال: الله قديمٌ، وسمعه قديمٌ، وبصره قديمٌ، ونحو ذلك.

وقد أجاب أهل السُّنَّة عليهم بأجوبة، منها:

**أوَّلًا**: أن لفظة «القديم» لا تدلُّ على الأوليَّة.

**ثانيًا**: أنَّ نفي الصِّفات لاستلزامها تعدُّد الأقدمين لا يلزم هذا الاستلزام؛ وذلك لأنَّ القديم ليس بلفظٍ شرعيٍّ ولا لغويٍّ، ولأنَّ الله تعالى واحدٌ بذاته وبصفاته، وأنَّ الصِّفات من جملة الذَّات، فلا يكون في إثباتها تعدُّد.

وها هو الشَّارح ينكر على هؤلاء الذين يقولون: إن القديم من أسماء الله،

ويذكر أن الاسم الصحيح الذي سمَّى الله به نفسه هو الأوَّل والآخر، أمَّا القديم، أو الأزليُّ، فهي أسماءٌ اصطلاحيَّةٌ، لا يلزم من الاصطلاح عليها ثبوتها.

ويقصدون بالقديم: عدم تقدُّم شيءٍ عليه، ويقصدون بالأزليِّ أو بالدَّائم: عدم إتيان الفناء عليه، ولو أتوا على هذين الاسمين في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، وقول النَّبيِّ ﷺ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[1]، لكان ذلك كافيًا، ولكان التَّفسير واضحًا، ولكانت الأسماء واقعةً موقعها.

وكلمة القديم عند العرب لا تدلُّ على تقدُّم الإنسان على غيره كلّه، وإنَّما تدلُّ على تقدُّمه على جنسه، فإذا وُجد له جنسٌ جديدٌ؛ سمِّي الأوَّل قديمًا، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، فإنَّ العراجين هي قمم النَّخل ـ يعني: العروق التي يكون فيها التَّمر ـ ويكون قديمًا إذا حمل النَّخل مرَّةً ثانيةً، فيقال للعراجين التي كانت في العام الماضي: هذه عراجين قديمةٌ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء:٧٦]، يعني: إنَّ آباءكم قد تقدَّموا عليكم، ومعلومٌ أنَّ الآباء قبلهم أجداد، وقبل الأجداد أجدادٌ وهلُمَّ جرًّا، فسمِّي الآباء القريبون أقدمين، فدلَّ على أنَّ القديم لا يدُّل على التقدُّم، ولا يدلُّ على السَّبق، وإنَّما يدلُّ على سبق بعض الجنس.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧٧).

فوصف الله تعالى بأنَّه الأوَّل أبلغ من وصفه بأنَّه القديم، وتعطي كلمة (الأول) معنى الأوَّليَّة، وتعطي كلمة (الآخر) معنى الأزليَّة، يعني الأبديَّة والديمومة؛ لأنَّ الله موصوفٌ بأنَّه دائمٌ وأبديٌّ وأزليٌّ، لا يأتي عليه الفناء ولا التَّغيُّر، وأنَّه هو كما وصف نفسه حيٌّ لا يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ**»[1]؛ فبعد موت النَّاس والمخلوقات في هذه الحياة يبقى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

فإذا كان هو الباقي، فإنَّه يبعث العباد، ثمَّ بعد ذلك لا يأتي عليه فناءٌ أبدًا، وذلك هو الأصل في الدَّوام والبقاء، الذي هو وصفٌ لله وحده، فيعتقد المسلمون هذا الاعتقاد، وهو أنَّ ربَّهم سبحانه الذي خلق هذا الكون وهذا الخَلْق لم يُسبقْ بعدمٍ، بل هو قديمٌ، وأنَّه لا يأتي عليه الفناء، بل هو دائمٌ، ولكن يعبِّرون بالأوَّل والآخر؛ لأنهما أوضح من القديم والدَّائم، أو الأزليِّ، أو نحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

لاَ يَفْنَى وَلاَ يَبِيدُ.

---

قال الشارح:

إِقْرَارٌ بِدَوَامِ بَقَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وَالْفَنَاءُ وَالْبَيْدُ مُتَقَارِبَانِ فِي المَعْنَى، وَالجَمْعُ بَيْنَهُمَا فِي الذِّكْرِ لِلتَّأْكِيدِ، وَهُوَ أَيْضًا مُقَرِّرٌ وَمُؤَكِّدٌ لِقَوْلِهِ: (دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ).

---

قال الشيخ:

قوله: (لاَ يَفْنَى وَلاَ يَبِيدُ)، مؤكدٌ لقوله: (دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ)، ودليله من القرآن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقول النَّبيِّ ﷺ: «أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»[1]، مثَّل بالجنِّ والإنس؛ لأنَّهم الثَّقلان المكلَّفان بكلِّ شيءٍ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٥).

كلُّ المخلوقات تموت وتفنى، ولا يبقى إلَّا وجه الله تعالى؛ وذلك دليلٌ على الكمال، والذي يكون له الكمال يستحقُّ أن يُقدَّس، وأن يُعبد وحده، وأن يقوم عبادُه الذين هم خلقُه وملكه بالواجب عليهم نحوه، وذلك هو العبادة المستمَّرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلاَ يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ.

---

قال الشارح:

هَذَا رَدٌّ لِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ الْإِيمَانَ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَالْكَافِرُ أَرَادَ الْكُفْرَ، وَقَوْلُهُمْ فَاسِدٌ مَرْدُودٌ، لِمُخَالَفَتِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَالْمَعْقُولَ الصَّحِيحَ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْقَدَرِ الْمَشْهُورَةُ، وَسَيَأْتِي لَهَا زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَسُمُّوا «قَدَرِيَّةً» لِإِنْكَارِهِمُ الْقَدَرَ، وَكَذَلِكَ تُسَمَّى الْجَبْرِيَّةُ الْمُحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ قَدَرِيَّةً أَيْضًا، وَالتَّسْمِيَةُ عَلَى الطَّائِفَةِ الْأُولَى أَغْلَبُ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَعَاصِيَ قَدَرًا، فَهُوَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا يَرْضَاهَا وَلَا يَأْمُرُ بِهَا، بَلْ يُبْغِضُهَا وَيَسْخَطُهَا وَيَكْرَهُهَا وَيَنْهَى عَنْهَا، وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ قَاطِبَةً، فَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْحَالِفَ لَوْ قَالَ: وَاللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَحْنَثْ إِذَا لَمْ يَفْعَلْهُ، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا، وَلَوْ قَالَ: إِنْ أَحَبَّ اللَّهُ، حَنِثَ إِذَا كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَلاَ يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ)، هذا مثل قول السلف: (مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)، وقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، يعني: أنَّ ما أراده

تعالى فإنَّه ولا بدَّ سيحصل، وما لم يرده فإنَّه لا يكون، والمراد هنا الإرادة الكونيَّة، وذلك لأنَّ الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونيَّة، وإرادة شرعيَّة.

فالله تعالى قدَّر الكائنات، فلا يحدث في الوجود شيءٌ إلاَّ بإرادته، وهذا أكثر ما يحصل أو تطلق الإرادة عليه، أي: الإرادة الكونيَّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٥]، والآيات في هذه الإرادة كثيرة.

فيعتقد أهل السُّنَّة أنَّه سبحانه لا يكون شيءٌ في الوجود إلَّا بإرادته، ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]، ولكن لا يُتَّخذ ذلك حُجَّةً في المعصية كما تفعله طائفة الجبريَّة، الذين يزعمون أنَّهم لا اختيار لهم، وأنَّ العباد مجبورون على المعاصي وعلى الكفر، وليس لهم أيُّ اختيارٍ، بل الإرادة الكاملة لله سبحانه، فلا يُعصى قسرًا ولا قهرًا، ولا تكون إرادة الخلق أقوى من إرادة الله، ولكن قد منحهم إرادةً وقدرةً تناسبهم، وهي مغلوبةٌ بقدرة الله، فللعباد قدرةٌ على أفعالهم، ولهم إرادةٌ، ولكنَّ إرادتهم وقدرتهم مسبوقةٌ بإرادة الله تعالى وبقدرته.

والقدريَّة ينقسمون إلى قسمين:

**قدريَّةٌ نفاةٌ**: الذين نفوا قدرة الله، وقالوا: إنَّ الله لا يقدر على أفعال العباد!

**وقدريَّةٌ مجبِّرةٌ**: الذين يقولون: إنَّ الله أجبر العباد على المعاصي وعلى الطاعات وقصَرَهم عليها، تعالى الله عن ذلك.

وكلاهما ضُلَّال، وهدى اللهُ أهلَ السُّنَّة، فقالوا: إنَّ الله قديرٌ على كلِّ شيءٍ، ولكن منح العبد قدرةً يُكلَّف بها، فإذا اعتقدنا ذلك سلمنا من الاعتراضات.

قال الشارح:

وَالمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ يَقُولُونَ: الْإِرَادَةُ فِي كِتَابِ اللهِ نَوْعَانِ: إِرَادَةٌ قَدَرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ خَلْقِيَّةٌ، وَإِرَادَةٌ دِينِيَّةٌ أَمْرِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ.

فَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ: هِيَ المُتَضَمِّنَةُ لِلْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا.

وَالْكَوْنِيَّةُ: هِيَ المَشِيئَةُ الشَّامِلَةُ لِجَمِيعِ الحوادث.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هود:٣٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ الْأَمْرِيَّةُ، فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦]،

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي مِثْلِ قَوْلِ النَّاسِ لِمَنْ يَفْعَلُ الْقَبَائِحَ: هَذَا يَفْعَلُ مَا لَا يُرِيدُهُ اللَّهُ، أَيْ: لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يَأْمُرُ بِهِ.

وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ فَهِيَ الْإِرَادَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَالْفَرْقُ ثَابِتٌ بَيْنَ إِرَادَةِ الْمُرِيدِ أَنْ يَفْعَلَ، وَبَيْنَ إِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَفْعَلَ، فَإِذَا أَرَادَ الْفَاعِلُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا، فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ مُعَلَّقَةٌ بِفِعْلِهِ، وَإِذَا أَرَادَ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا، فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ لِفِعْلِ الْغَيْرِ، وَكِلَا النَّوْعَيْنِ مَعْقُولٌ لِلنَّاسِ، وَالْأَمْرُ يَسْتَلْزِمُ الْإِرَادَةَ الثَّانِيَةَ دُونَ الْأُولَى، فَاللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَمَرَ الْعِبَادَ بِأَمْرٍ فَقَدْ يُرِيدُ إِعَانَةَ الْمَأْمُورِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ، وَقَدْ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُرِيدًا مِنْهُ فِعْلَهُ.

وَتَحْقِيقُ هَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ فَصْلَ النِّزَاعِ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى: هَلْ هُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِإِرَادَتِهِ أَمْ لَا؟ فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ الْخَلْقَ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَهُ، فَأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَخْلُقَ ذَلِكَ الْفِعْلَ، وَيَجْعَلَهُ فَاعِلًا لَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَهُ، فَجِهَةُ خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، غَيْرُ جِهَةِ أَمْرِهِ لِلْعَبْدِ عَلَى وَجْهِ الْبَيَانِ لِمَا هُوَ مَصْلَحَةٌ لِلْعَبْدِ أَوْ مَفْسَدَةٌ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِذَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ وَأَبَا لَهَبٍ وَغَيْرَهُمَا بِالْإِيمَانِ، كَانَ قَدْ بَيَّنَ لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وما يُصْلِحُهُمْ إِذَا فَعَلُوهُ، وَلَا يَلْزَمُ إِذَا أَمَرَهُمْ أَنْ يُعِينَهُمْ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِي

خَلْقِهِ لَهُمْ ذَلِكَ الْفِعْلَ وَإِعَانَتِهِمْ عَلَيْهِ وَجْهُ مَفْسَدَةٍ مِنْ حَيْثُ هُوَ فِعْلٌ لَهُ، فَإِنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَخْلُقُ لِحِكْمَةٍ، وَلَا يَلْزَمُ إِذَا كَانَ الْفِعْلُ الْمَأْمُورُ بِهِ مَصْلَحَةً لِلْمَأْمُورِ إِذَا فَعَلَهُ أَنْ يَكُونَ مَصْلَحَةً لِلْآمِرِ إِذَا فَعَلَهُ هُوَ، أَوْ جَعَلَ الْمَأْمُورَ فَاعِلًا لَهُ، فَأَيْنَ جِهَةُ الْخَلْقِ مِنْ جِهَةِ الْأَمْرِ؟ فَالْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ يَأْمُرُ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ مُرِيدًا النَّصِيحَةَ وَمُبَيِّنًا لِمَا يَنْفَعُهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا يُرِيدُ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ مَصْلَحَتِي فِي أَنْ آمُرَ بِهِ غَيْرِي وَأَنْصَحَهُ يَكُونُ مَصْلَحَتِي فِي أَنْ أُعَاوِنَهُ أَنَا عَلَيْهِ، بَلْ قَدْ تَكُونُ مَصْلَحَتِي إِرَادَةَ مَا يُضَادُّهُ، فَجِهَةُ أَمْرِهِ لِغَيْرِهِ نُصْحًا غَيْرُ جِهَةِ فِعْلِهِ لِنَفْسِهِ، وَإِذَا أَمْكَنَ الْفَرْقُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ، فَهُوَ فِي حَقِّ اللهِ أَوْلَى بِالْإِمْكَانِ.

---

قال الشيخ:

هذا الكلام يوضح ما قلنا من أنَّ الإرادة قسمان:

١ ـ إرادةٌ دينيَّةٌ شرعيَّةٌ أمريَّةٌ.

٢ ـ وإرادةٌ كونيَّةٌ قدريَّةٌ خلقيَّةٌ.

والفرق بينهما أن الإرادة الكونيَّة لا بدَّ من وجود المراد فيها، فكلُّ شيءٍ أراده الله كونًا وقدرًا فلا بدَّ من وجوده، ولكن قد يحبُّه وقد لا يحبُّه، والذي يريده شرعًا ودينًا قد لا يوجد ولكنه يحبُّه، فالطَّاعات والأعمال الصَّالحة هذه أرادها الله دينًا وشرعًا من جميع الخلق، وأحبَّها منهم، ولكن قد تحصل من بعضهم وقد لا تحصل من البعض، فيقول: إنَّ الله أراد من فرعون وأبي لهبٍ أن يؤمنا، أراد ذلك دينًا وشرعًا وأمرًا، ولكن ما أراد ذلك كونًا ولا قدرًا ولا خلقًا، فلذلك لم

يُوجدِ الإيمان منهما والأعمال الصالحة، وأراد من الأنبياء وأصحابهم الإيمان دينًا وشرعًا، وأراده منهم كونًا وقدرًا فوجد، فكلُّ الأعمال الصَّالحة محبوبةٌ عند الله، وإذا وقعت فإنَّها مرادةٌ دينًا وشرعًا، ومرادةٌ كونًا وقدرًا، وكلُّ الحوادث ـ حتَّى المعاصي والكفر والمخالفات ـ فهي واقعةٌ بإرادة الله الكونيَّة القدريَّة الخلقيَّة، ولكنَّها ليست محبوبةً ولا مرضيَّةً، ولو كان الله قد أرادها؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، فأخبر بأنَّه لا يرضى الكفر، ولكن يرضى الشُّكر.

وقد ذكر الشارح الأدلة من الآيات على الفرق بين الإرادتين؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾، هذه إرادةٌ كونيَّةٌ، يعني: من قدَّر الله وكوَّن أنَّه يهديه، فإنَّه ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾، أي: من قدّر أنه يضل ولا يهتدي؛ فإنه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، إرادةٌ كونيَّةٌ قدريَّةٌ. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، وما أشبهها، فهذه إرادةٌ كونيَّةٌ، يعني: إذا كان الله يريد كونًا وقدرًا أن يغويكم فلا رادَّ لما أراده، وهذا معنى قول المسلمين: (مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ).

لكن إذا احتجَّ بعض العصاة، وقال: إن الله لم يُرِدْ هدايتي، فكيف أهتدي والله ما أراد هدايتي؟

نقول له: اسأل اللهَ الهدايةَ حتَّى يستجيب لك، وافعلِ السَّبب، فإنَّ الله أعطاك قدرةً، وأعطاك استطاعةً على الأسباب، وأقدَرَكَ على الأسباب المحسوسة، فافعلها حتَّى تكون أسبابًا في حصول الإرادة ووجودها.

وإذا قال بعض العصاة مثلًا: هكذا أراد اللهُ منِّي هذه المعصية.

نقول: أرادها كونًا، ولم يردها شرعًا، الله تعالى أراد منك الإيمان شرعًا وأمرك به، أمر النَّاس كلَّهم بأن يتَّقوه وأن يؤمنوا به، وأحبَّ ذلك منهم، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]، وبلا شكٍّ أنَّ الخير دائمًا يُنسب إلى الله تعالى، وأما الشُّرور فلا يجوز نسبتها إليه؛ كما حكى الله عن مؤمني الجنِّ أنَّهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، فالإرادة هنا إرادةٌ شرعيَّةٌ، يعني: أراد الله بهم الخير إرادةً شرعيَّةً، والإرادة في قوله تعالى: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، إرادةٌ كونيَّةٌ.

وعلى هذا يحصل للمؤمن معرفة الفرق بين الإرادتين بأن يقول: كلُّ ما في الوجود من الحوادث فهو مرادٌ كونًا وقدرًا، ولكن قد يكون محبوبًا كالطَّاعات، وقد يكون مكروهًا كالمعاصي، وكلُّ الطَّاعات التي تحدث من أهلها فهي مرادةٌ ومحبوبةٌ دينًا وشرعًا؛ لأن الله تعالى أراد الإيمان من النَّاس كلِّهم دينًا وشرعًا، ولكن تحقَّق ذلك في المؤمنين بإيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، واجتمعت فيهم الإرادتان: الشرعيَّة، والقدريَّة، فإيمان المؤمنين وصلاتهم وعباداتهم مرادٌ كونًا وقَدَرًا لوجودها، ومرادةٌ دينًا وشرعًا للأمر بها ولمحبتها.

ومع ذلك فإنَّ على المسلم أن يسأل ربَّه الهداية؛ حتَّى ييسِّر له هذه الأسباب ويجعله من أهلها، فإذا قام بالأسباب وفعلها، رُجي بذلك أن يكون ممَّن أراد الله تعالى هدايتَه كونًا وقدرًا، ووفَّقه لذلك دينًا وشرعًا، ولا يعتمد على الواقع، ولا يعتمد على حاله التي هو عليها، ويقول: لم يُرِدْ الله هدايتي، ويستمر على الضلال ـ والعياذ بالله ـ فإنَّ الذين يحتجُّون بالقدر يحتجُّون به حينًا دون حين؛ لأنَّهم لا يسلمون ذلك في أمورهم الدنيويَّة، بل تراهم مجدِّين ومجتهدين، بخلاف أمورهم الدينيَّة، فإنَّك تراهم في أمورهم وفي معاشهم مشمِّرين، وأمورهم الدينيَّة يحتجُّون بالقضاء وبالقدر، ويحتجُّون بأنَّ الله ما أراد منهم كذا وكذا.

فيُقال لهم: الباب واحدٌ، فإذا اجتهدتم في أمور الدنيا، فاجتهدوا في أمور الدِّين، والله تعالى هو الموفِّق، فمن أراد الخير والعمل الصالح أعانه الله على فِعْل ما أراد.

قال الشارح:

وَالْقَدَرِيَّةُ تَضْرِبُ مَثَلًا بِمَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِأَمْرِهِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَكُونُ الْمَأْمُورُ أَقْرَبَ إِلَى فِعْلِهِ، كَالْبِشْرِ وَالطَّلَاقَةِ، وَتَهْيِئَةِ الْمَسَانِدِ وَالْمَقَاعِدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذَا يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ مَصْلَحَةُ الْآمِرِ تَعُودُ إِلَى الْأَمْرِ، كَأَمْرِ الْمَلِكِ جُنْدَهُ بِمَا يُؤَيِّدُ مُلْكَهُ، وَأَمْرِ السَّيِّدِ عَبْدَهُ بِمَا يُصْلِحُ مُلْكَهُ، وَأَمْرِ الْإِنْسَانِ شَرِيكَهُ بِمَا يُصْلِحُ الْأَمْرَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَهُمَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْآمِرُ يَرَى الْإِعَانَةَ لِلْمَأْمُورِ مَصْلَحَةً لَهُ، كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِذَا أَعَانَ الْمَأْمُورَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يُثِيبُهُ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَأَنَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، فَأَمَّا إِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْآمِرَ إِنَّمَا أَمَرَ الْمَأْمُورَ لِمَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ، لَا لِنَفْعٍ يَعُودُ عَلَى الْآمِرِ مِنْ فِعْلِ الْمَأْمُورِ، كَالنَّاصِحِ الْمُشِيرِ وقد رأى أَنَّهُ إِذَا أَعَانَهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْآمِرِ، وَأَنَّ فِي حُصُولِ مَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ مَضَرَّةً عَلَى الْآمِرِ، مِثْلَ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، وَقَالَ لِمُوسَى: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]. فَهَذَا مَصْلَحَتُهُ فِي أَنْ يَأْمُرَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْخُرُوجِ، لَا فِي أَنْ يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ لَوْ أَعَانَهُ لَضَرَّهُ قَوْمُهُ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْعِبَادَ بِمَا يُصْلِحُهُمْ، لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، لَا سِيَّمَا وَعِنْدَ الْقَدَرِيَّةِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ أَحَدًا عَلَى مَا بِهِ يَصِيرُ فَاعِلًا، وَإِذَا

عُلِّلَتْ أَفْعَالُهُ بِالْحِكْمَةِ، فَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا، فَلَا يَلْزَمُ إِذَا كَانَ فِي نَفْسِ الْآمِرِ لَهُ حِكْمَةٌ فِي الْأَمْرِ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِعَانَةِ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ حِكْمَةٌ، بَلْ قَدْ تَكُونُ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ لَا يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا أَمْكَنَ فِي الْمَخْلُوقِ أَنْ يَكُونَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ أَنْ يَأْمُرَ بِأَمْرٍ لِمَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ، وَأَنْ تَكُونَ الْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ لِلْآمِرِ أَنْ لَا يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِمْكَانُ ذَلِكَ فِي حَقِّ الرَّبِّ أَوْلَى وَأَحْرَى.

---

قال الشيخ:

عرفنا أنَّ المعتزلة يخالفون في أصل القاعدة، وينكرون قدرة الله على أفعال العباد مع عموم قدرة الله، فيقولون: إنَّ الله لا يقدر على أفعال العباد، ومعنى خلقه لأفعال العباد ـ عندهم ـ: تهيئة الأسباب، لا أنَّه يحرِّك جوارحهم، أو أنَّه يبعث فيهم البواعث التي تباشر الأفعال.

وعقيدة المسلمين أنَّ الله تعالى هو الخالق للعبد ولما يعمل، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦]، ولكنَّ قدرة الله عامَّةٌ لكلِّ شيءٍ، وتدخل فيها أفعال العباد، ومع ذلك فلا نجعل العبد آلةً ليس له أيُّ اختيارٍ، بل له قدرةٌ وإرادةٌ، وقدرة الله وإرادته غالبةٌ على قدرة العبد وإرادته.

وبحسب تلك القدرة التي مكَّنه الله بها وجعله فاعلًا بسببها يُثاب ويُعاقب؛ حيث بها يباشر العبادُ الأفعالَ خيرًا وشرًّا، فيعصي العاصي، ويطيع المطيع، فالعبد هو المؤمن، والكافر، والبَرُّ، والفاجر، والمصلي، والصائم، أي: تُنسب إليه أفعاله؛

لأنَّه الذي باشرها، وإن كانت خلقًا لله تعالى أزليًّا.

ويبيِّن الشارح أن الآمر قد يعين المأمور وقد لا يعينه، فذكر ـ مثلًا ـ: إذا أمر الملك أحد وزرائه، فإنَّه يهيِّئ الأسباب؛ لأنَّ له مصلحةً في هذا الأمر، وهكذا أيضًا إذا أمر الملكُ أحدَ خدمه، فإنَّه يعينه ويساعده، وإذا أمر الشَّريكُ شريكَهُ بأمرٍ فيه مصلحةٌ لهما، فإنَّه يساعده، وإذا أمر السَّيِّدُ عبدَه بأمرٍ، فإنَّ ذلك الفِعْل فيه مصلحةٌ له، وفي مثل هذا يساعد الآمرُ المأمور.

وضرب أيضًا مثلًا لمن لا يحتاج أن يساعد، وهو إذا لم يكن فيه مصلحةٌ، ومَثَّل بذلك الرَّجل الذي نصح موسى بقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، أمره بالخروج، وليس من مصلحته أن يساعده وأن يرحِّله ويركبه؛ لأن في ذلك مضرَّة على الآمر؛ لأنَّه من قوم فرعون، لكنه أراد أن يحذِّر موسى، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠].

فيُقال: الله سبحانه وتعالى قد تقتضي حكمته أن يعين المؤمن على الأوامر، ويهيِّئ له الأسباب، ويمكِّنها له، ويعمل الأعمال الصَّالحة، ويسِّرها الله له، ويكون ذلك فضلًا منه ومنَّةً، وقد تقتضي حكمته أن يخذل بعض العباد، ويخلي بينهم وبين أهوائهم وبين أعدائهم، ولا يعينهم ولا يحميهم، فيعصون ويقعون في الكفر أو في مقدِّمات الكفر، وذلك حكمة منه وعدلٌ، ليس بظالمٍ لهذا ولا بجائرٍ مع هذا، هكذا تقتضي حكمة الله، فلا اعتراض للمعتزلة والقدريَّة على أفعال الله، فإنَّه يفعل ما يشاء، ويضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، حكمةً وعدلًا ونعمةً وفضلًا.

قال الشارح:

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ يُمْكِنُ فِي حَقِّ المَخْلُوقِ الحَكِيمِ أَنْ يَأْمُرَ غَيْرَهُ بِأَمْرٍ وَلَا يُعِينَهُ عَلَيْهِ، فَالخَالِقُ أَوْلَى بِإِمْكَانِ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مَعَ حِكْمَتِهِ، فَمَنْ أَمَرَهُ وَأَعَانَهُ عَلَى فِعْلِ المَأْمُورِ كَانَ ذَلِكَ المَأْمُورُ بِهِ قَدْ تَعَلَّقَ بِهِ خَلْقُهُ وَأَمْرُهُ إِنْشَاءً وَخَلْقًا وَمَحَبَّةً، فَكَانَ مُرَادًا بِجِهَةِ الخَلْقِ وَمُرَادًا بِجِهَةِ الأَمْرِ. وَمَنْ لَمْ يُعِنْهُ عَلَى فِعْلِ المَأْمُورِ كَانَ ذَلِكَ المَأْمُورُ قَدْ تَعَلَّقَ بِهِ أَمْرُهُ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ خَلْقُهُ؛ لِعَدَمِ الحِكْمَةِ المُقْتَضِيَةِ لِتَعَلُّقِ الخَلْقِ بِهِ، وَلِحُصُولِ الحِكْمَةِ المُقْتَضِيَةِ لِخَلْقِ ضِدِّهِ. وَخَلْقُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يُنَافِي خَلْقَ الضِّدِّ الآخَرِ، فَإِنَّ خَلْقَ المَرَضِ - الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ ذُلُّ العَبْدِ لِرَبِّهِ، وَدُعَاؤُهُ، وَتَوْبَتُهُ، وَتَكْفِيرُ خَطَايَاهُ، وَيَرِقُّ بِهِ قَلْبُهُ، وَيُذْهِبُ عَنْهُ الكِبْرِيَاءَ وَالعَظَمَةَ وَالعُدْوَانَ - يُضَادُّ خَلْقَ الصِّحَّةِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ مَعَهَا هَذِهِ المَصَالِحُ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ خَلْقُ ظُلْمِ الظَّالِمِ - الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ لِلْمَظْلُومِ مِنْ جِنْسِ مَا يَحْصُلُ بِالمَرَضِ - يُضَادُّ خَلْقَ عَدْلِهِ الَّذِي لَا يَحْصُلُ بِهِ هَذِهِ المَصَالِحُ، وَإِنْ كَانَتْ مَصْلَحَتُهُ هُوَ فِي أَنْ يَعْدِلَ.

وَتَفْصِيلُ حِكْمَةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، تَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَتِهَا عُقُولُ البَشَرِ.

وَالْقَدَرِيَّةُ دَخَلُوا فِي التَّعْطِيلِ عَلَى طَرِيقَةٍ فَاسِدَةٍ: مَثَّلُوا اللَّهَ فِيهَا بِخَلْقِهِ، وَلَمْ يُثْبِتُوا حِكْمَةً تَعُودُ إِلَيْهِ.

---

قال الشيخ:

يمثل بهذا أنَّ حكمة الله تعالى قد تقتضي إعانةَ المأمور، وقد تقتضي عدم

إعانته، فالله تعالى أمر جميع البشر - مؤمنهم وكافرهم - بالتقوى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١]، هذا الخطاب لجميع أجناس العالم، ولكن منهم من اتَّقى، ومنهم من لم يتَّقِ الله؛ فالذين اتَّقوا الله أراد الله بهم الخير، ومكَّنه لهم، وهداهم وأعانهم، فله عليهم نعمةُ الإعانة ونعمةُ الفضل، والذين لم يَتقوه هؤلاء قد خذلهم، وخلَّى بينهم وبين أهوائهم، ولم يُعِنْهم؛ حكمةً منه وعدلًا، فهذا خَلَقَ فيه الإيمان، وهذا خَلَقَ فيه الكفر، بمعنى مكَّنه منه وأقدره عليه، وله الحكمة في هذا وهذا؛ لأنَّه سبحانه خلق ضدَّين: مؤمنًا وكافرًا، وخلق دارين: جنةً ونارًا، ولا بد لكلٍّ من الدَّارين من أهل يؤهَّلون لها، ولهذا يخبر تعالى بأنَّه لو شاء لهدى النَّاس جميعًا، ولو شاء لضلُّوا كلُّهم؛ فيقول تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف:٣٣]، يعني: لولا أن يكونوا كلُّهم على الكفر، لجعلنا للكفَّار هذه الأشياء، فينخدع النَّاس بهم، ويعتقدون أنَّهم خُصُّوا بذلك لشرفهم ولأهليَّتهم، فيكفرون مثلهم، وهو واقعٌ كثيرًا.

وخلق تعالى المرض والصحة، وله الحكمة في ذلك، ففي خلقه للمرض مصلحةٌ تكمُن في أنَّ المريض يشعر بالذُّلِّ والضَّعف، ويتذكر فاقتَه وحاجتَه ومسكنتَه وتعلَّق قلبُه بربِّه، فيدعوه ويستكين إليه، وإذا كان دائمًا في صحَّةٍ وفي نعمةٍ ورفاهيةٍ ونشاطٍ وثروةٍ وشهراتٍ متتابعة، فإنَّه لا يأمن أن يأخذه الأَشَرُ والبَطَرُ والكبرياء والإعجاب بالنَّفس، ويكون منطلقًا إلى الكفر والمعاصي؛ كما هو

الواقع، ولهذا يخبر تعالى بأنَّه لو وَسَّعَ على النَّاس لتجبَّروا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾، يعني: لو وسَّع لهم الرزق وأتمه عليهم؛ ﴿ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:٢٧]، يعني: لتكبَّروا وتجبَّروا.

فبذلك نَعرف أنَّه كما خلق هؤلاء واختارهم مؤمنين، خلق هؤلاء وجعلهم كافرين، فله الحكمة في خلق هذين الضِّدَّين، كما خلق المرض وخلق الصِّحَّة.

قال الطحاوي:

لَا تَبْلُغُه الأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ.

---

قال الشارح:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]. قَالَ فِي «الصِّحَاحِ»: تَوَهَّمْتُ الشَّيْءَ: ظَنَنْتُهُ، وَفَهِمْتُ الشَّيْءَ: عَلِمْتُهُ. فَمُرَادُ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّهُ لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَهْمٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمٌ. قِيلَ: الْوَهْمُ مَا يُرْجَى كَوْنُهُ، أَيْ: يُظَنُّ أَنَّهُ عَلَى صيغةِ كَذَا، وَالْفَهْمُ: هُوَ مَا يُحَصِّلُهُ الْعَقْلُ وَيُحِيطُ بِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا نَعْرِفُهُ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ أَحَدٌ، صَمَدٌ، لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٣، ٢٤].

---

قال الشيخ:

يعتقد المسلمون أنَّ ربَّهم سبحانه وتعالى موصوفٌ بصفات الكمال، منزَّه عن صفات النَّقص، ويعتقدون أنَّه ليس كمثله شيءٌ وهو السَّميع البصير، وأنَّهم

لا يستطيعون معرفة كيفيَّة صفاته ولا كُنهها، ولا كُنه ذاته، ويقولون: الله أعلم بكيفيَّة صفاته وبكيفيَّة أفعاله، فلا يجوز أن يُسأَل عنه بكيف؛ كما قال الإمام مالك -رحمه الله- لَـمَّا سُئل عن الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»[1]. يعني: الكيفيَّة التي هو عليها، وكيفية الاستواء، ونحو ذلك.

وهذا أيضًا يُقال في سائر الصِّفات؛ كصفة النُّزول، والمجيء، والعلوِّ، والغضب، والرَّحمة، والمحبَّة ... وما أشبهها، يعتقد المسلمون أنَّها ثابتةٌ، ولكن يعجزون عن إدراك كيفيَّتها، فكيفيَّة ذات الله وكيفيَّة صفاته لا يستطيع أن يدركها فَهْمٌ، ولا يتخيَّلها وَهْمٌ، لو فكر الإنسان بفكره لما استطاع أن يصل إلى كيفيَّة الخالق، فقد عجز العباد عن إدراك أقرب شيءٍ إليهم، وهي الأرواح التي تحيا بها الأجساد، فلم يستطيعوا أن يدروا ما كيفيَّتها، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

وقد أخبر الله تعالى أن الملائكةَ من خلقه، ونحن نؤمن بهم وإن لم نرهم، ولا ندري ممَّا خُلقوا، ولا ندري كيفيَّة خَلْقِهم، خَلَقَهم الله تعالى لعبادته، ولكن ما ترتيبهم وما أعضاؤهم وما أجسادهم؟ الله أعلم بذلك.

وهكذا إذا أخبرنا الله تعالى بوجود الشياطين، وأخبر النَّبيُّ ﷺ بأنَّ «الشَّيْطَانَ

---

(١) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، وذكره الذهبي في العلو (ص١٣٩).

يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»[1]، ولكن لا ندري ما كيفيَّة هذا الشَّيطان، ولا مثاله، ولا وزنه، ولا غير ذلك، وأخبرنا الله تعالى بوجود الجن، وأنهم ينفذون في الإنسان، وأنَّهم يدخلون في الأرض، وحُكيت عنهم الأقوال، وسُمعوا وشُوهدوا، ومع ذلك لا ندري ما هيَّتهم، ولا كيفيَّة خلقهم.

وإذا عجزنا عن هؤلاء، فعَجْز الإنسان عن كيفيَّة وماهيَّة الرَّبِّ تعالى بطريق الأولى، فما عليه إلَّا أن يستسلم لهذا الكون، يعرف أنَّ هذا الكون الذي هو هذا الوجود لا بدَّ له من مكوِّنٍ، وأن ذلك المكوِّن الذي كونَّ هذه الكائنات ـ أجرامها وأعلامها، وعلويَّها وسفليها ـ هو الواحد الأحد، وحده لا شريك له، وهو الذي لا تبلغه الأفهام، ولا تتوهمه الأوهام، ولا تدركه العقول، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولا يُوصف إلَّا بما وصف به نفسه على وجه الكمال؛ كما في الآيات التي ذُكرت، فإنَّ الله وصف نفسه بهذه الصِّفات؛ ليُعْتَقَد أنَّه الإله الحقُّ، وأنَّه ربُّ الأرباب، وأنَّه الخالق البارئ المصوِّر، وأنَّه الملك القدُّوس السَّلام، وأنَّه الحيُّ القيُّوم، الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ ... إلى آخر معنى الآيات وغيرها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلَا يُشْبِهُ الأَنَام.

---

قال الشارح:

هَذَا رَدٌّ لِقَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ، الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الصِّفَاتِ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْبِدَعِ، فَمِنْ كَلَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»: لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا خِلَافُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا. انْتَهَى[1].

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ[2].

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ: مَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِشَيْءٍ فَشَبَّهَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ[3].

---

(١) انظر: الفقه الأكبر، بشرح د. محمد الخميس (ص١٤، ٢٤).

(٢) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٣٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ١٦٣).

(٣) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٣٢).

وَقَالَ: علامَةُ جَهْمٍ وَأَصْحَابِهِ دَعْوَاهُمْ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ مَا أُولِعُوا بِهِ مِنَ الْكَذِبِ: أَنَّهُمْ مُشَبِّهَةٌ، بَلْ هُمُ المُعَطِّلَةُ[1].

وَكَذَلِكَ قَالَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ: عَلَامَةُ الجَهْمِيَّةِ تَسْمِيَتُهُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ مُشَبِّهَةً[2]. فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ نُفَاةِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِلَّا يُسَمِّي الْمُثْبِتَ لَهَا مُشَبِّهًا، فَمَنْ أَنْكَرَ أَسْمَاءَ اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ غَالِيَةِ الزَّنَادِقَةِ: الْقَرَامِطَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُقَالُ لَهُ: عَالِمٌ وَلَا قَادِرٌ، يَزْعُمُ أَنَّ مَنْ سَمَّاهُ بِذَلِكَ فَهُوَ مُشَبِّهٌ؛ لِأَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الِاسْمِ يُوجِبُ الِاشْتِبَاهَ فِي مَعْنَاهُ، وَمَنْ أَثْبَتَ الِاسْمَ وَقَالَ: هُوَ مَجَازٌ، كَغَالِيَةِ الجَهْمِيَّةِ، يَزْعُمُ أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ حَقِيقَةً، قَادِرٌ حَقِيقَةً، فَهُوَ مُشَبِّهٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ الصِّفَاتِ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ، وَلَا قُدْرَةٌ، وَلَا كَلَامٌ، وَلَا مَحَبَّةٌ، وَلَا إِرَادَةٌ، قَالَ لِمَنْ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ: إِنَّهُ مُشَبِّهٌ، وَإِنَّهُ مُجَسِّمٌ.

وَلِهَذَا كُتُبُ نُفَاةِ الصِّفَاتِ ـ مِنَ الجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ ـ كُلُّهَا

---

(١) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٣٢).

(٢) أخرج الإمام الحافظ أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن الإمام أبي عبد الله ابن منده، بسنده عن وكيع بن الجراح ـ رحمه الله ـ أنه قال: «من علامة الجهمية أن يسموا أصحاب الحديث مشبهة». وقال الإمام أبو زكريا: «وكذلك قال عبد الله بن المبارك، ووهب بن جرير، وعاصم النبيل، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وقتيبة بن سعيد، وعتبة بن وهب، وحرب بن إسماعيل، وأبو مسعود الرازي، وأبو حاتم الرازي، وأبو زرعة الرازي، وبشر بن الوليد، وعبدالله بن محمد بن النعمان، وغيرهم من أئمة الدين رحمة الله عليهم أجمعين». انظر: جزء فيه ذكر أبي القاسم الطبراني (ص٣٥٦).

مَشْحُونَةٌ بِتَسْمِيَةِ مُثْبِتِي الصِّفَاتِ مُشَبِّهَةً وَمُجَسِّمَةً، وَيَقُولُونَ فِي كُتُبِهِمْ: إِنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْمُجَسِّمَةِ قَوْمًا يُقَالُ لَهُمُ: الْمَالِكِيَّةُ، يُنْسَبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَوْمًا يُقَالُ لَهُمُ الشَّافِعِيَّةُ، يُنْسَبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ!! حَتَّى الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ مِنْهُمْ، كَعَبْدِ الْجَبَّارِ، وَالزَّمَخْشَرِيِّ، وَغَيْرِهِمَا، يُسَمُّونَ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ وَقَالَ بِالرُّؤْيَةِ مُشَبِّهًا. وَهَذَا الِاسْتِعْمَالُ قَدْ غَلَبَ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ غَالِبِ الطَّوَائِفِ.

---

قال الشيخ:

من عقيدة أهل السُّنَّة أنَّهم إذا أثبتوا الصِّفات نفوا التَّشبيه، فيقولون: نثبت لله الصِّفات، ولكن صفاته لا تشبه صفات المخلوق. كما أنَّهم يثبتون لله أفعالًا، ويقولون: لا تشبه أفعال العباد. فيثبتون ـ مثلًا ـ صفة اليد والوجه كما أثبتها الله لنفسه، ويقولون: لله يدٌ لا كأيدي المخلوقين، ولله وجهٌ لا كوجوه المخلوقين، وما أشبه ذلك.

وكذلك في صفات الأفعال يثبتون أنَّ الله تعالى يحبُّ، ويكره، ويَسْخَط، ويغضب، ويرضى، وما أشبه ذلك، ويقولون: إنَّ هذه أفعالٌ حقيقيَّةٌ، ولكن ليس كغضب المخلوق، ولا كرضا المخلوق، وما أشبه ذلك، ويثبتون أنَّ الله يسمع ويبصر، ويقولون: ليس كسمع المخلوق ولا كبصره؛ وذلك لأنَّه فرقٌ كبيرٌ بين ما يُثْبَت للخالق وما يُثْبَت للمخلوق، فسمع المخلوق مثلًا لا يُدرِك إلَّا الأصوات القريبة، وسمع الخالق يدرك القريب والبعيد، وسمع المخلوق تشتبه عليه

الأصوات، فلو تكلَّم عنده خمسة في حينٍ واحدٍ لما فهم ما يقوله واحدٌ منهم، أما الخالق ـ عز وجل ـ فلا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، بل يسمع الكل، ولا تغلِّطه كثرة السؤال مع اختلاف اللُّغات وتفنُّن المسائل.

كذلك البصر، فالمخلوق لا يخرق بصره الحيطان ونحوها، ولا يبصر في الظُّلمات، أما الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فيبصر كلَّ شيءٍ ولا يخفى عليه شيءٌ، فيبصر النَّملة الصغيرة في حنادسِ[1] الظُّلَم؛ أين هذا من هذا ؟!

وذكر الشارح أنَّ كثيرًا من نفاة الصِّفات يسمُّون من أثبتها: مشبِّهةً، مع أنَّنا نصرِّح بنفي التَّشبيه، فيقولون: إنَّكم إذا قلتم: إنَّ الله على العرش، فإنَّكم مشبِّهةٌ، وإذا قُلتم: إنَّ الله ينزل كما يشاء، فإنَّكم مشبِّهةٌ، وإذا أثبتم أنَّ الله له سمعٌ وله بصرٌ، فأنتم مشبِّهةٌ ... وما أشبه ذلك.

وهذا خطأ من الفعل والقول، كيف يصير أهل السُّنَّة مشبِّهةً مع نفيهم للتَّشبيه ؟! .

لكنَّ أولئك النُّفاة يظنُّون أنَّ مجرَّد الإثبات تشبيهٌ، يقولون: مجرَّد إثبات فعلٍ يوجد للخالق والمخلوق تشبيهٌ، فإذا قلت: إنَّ الخالق يسمع والمخلوق يسمع، فقد شبَّهت. وليس الأمر كذلك ! فهناك فرق بين السَّمَعَيْن.

ويقولون: إذا قُلت: إنَّ لله يدًا وللمخلوق يدًا؛ فقد شبَّهت.

---

(١) حَنادِس: جمع حِنْدِس: وهو الليلُ الشديدُ الظُّلْمَة، ومنه حديث: «في لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ حِنْدِسٍ»، أي: شديدةِ الظُّلْمَة. انظر: لسان العرب (٦/ ٥٨). والحديث أخرجه أحمد (٣/ ١٩٠).

نقول: كلَّا، ليس كذلك، فرقٌ بين اليدين، فكلٌّ تناسبه صفته، كما إذا قلتم أنتم يا معتزلة مثلًا: للخالق ذاتٌ وللمخلوق ذاتٌ، إذًا يلزمكم - على قولكم - أن تصيروا مشبِّهين؛ وإذا قلتم: إنَّ الخالق موجودٌ والمخلوق موجودٌ، يلزمكم أن تصيروا مشبِّهين، فكيف ترموننا بالتَّشبيه مع نفينا له؟! .

وذكر الشارح أيضًا أن كل من نفى شيئًا سمَّى المثبت له مشبِّهًا، فالباطنيَّة وغلاة القرامطة ينفون الأسماء والصِّفات كُلَّها، ولا يثبتون أسماءً ولا صفات لله تعالى، فمن أثبتها عندهم يُسمَّى مشبِّهًا.

وهناك فرقةٌ يثبتون الأسماء وينفون الصِّفات، ولا يجعلون لله صفاتٍ تؤخذ من تلك الأسماء، فيقولون: سميعٌ بلا سمعٍ، بصيرٌ بلا بَصَرٍ، عليمٌ بلا علمٍ، قديرٌ بلا قدرةٍ - تعالى الله عن قولهم - فيسمُّون مشبهًا كل من أثبت أنَّ الله يسمع ويبصر ... إلخ، مع أنَّ الذين يثبتونها يقولون: لا تشبه صفات المخلوق.

وهناك من المعتزلة من ينفي الصِّفات، فينفون القدرة والعلم والكلام وما أشبهها، وينفون أنَّ الله تعالى يُرى، ويزعمون أنَّ مَن أثبت شيئًا من ذلك؛ فإنَّه مشبِّهٌ، ومنهم من المفسِّرين الزَّمخشريّ صاحب تفسير «الكشاف»، فإنَّه معتزليٌّ، وهو ممَّن يقول بخلق القرآن، وبأنَّ الله لا يُرى في الآخرة.

ولمَّا كان أهل السُّنَّة يقولون: إنَّ الله تعالى يُرى بلا كيفٍ، أو أنَّه ينزل بلا كيفٍ، أو أنَّه استوى على العرش بلا كيفٍ، لم يوافقهم على ذلك، وادَّعى أنَّهم

مشبِّهةٌ بهذا الفعل، ونقل في ذلك عن بعض العدلية قوله[1]:

لَجَمَاعَةٌ سَمُّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً ... وَجَمَاعَةٌ حُمُرٌ لَعَمْرِي مُوكَفَه

قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا ... شَنْعَ الْوَرَىٰ فَتَسَتَّرُوا بالبَلْكَفَه

يعني: تستَّروا بقولهم: بلا كيف، وإلَّا فقد شبَّهوه - تعالى الله عن قوله - وهكذا أيضًا إنكارهم لجميع الصِّفات.

وأمَّا عبدالجبَّار، فهو من المعتزلة المتقدمين.

وبلا شكٍّ أنَّ مثل هؤلاء لا يُلتفت إليهم، ولو انتشرت - مع الأسف - كتبهم، ولو حققّت، ولو قدِّستْ، ولو وُجدت تُباع في المكتبات الكبيرة والصغيرة، فلا يُغترُّ بها. فمثلًا الكتاب الكبير المسمى بـ «المغني» الذي هو أكبر مؤلَّف للمعتزلة - وهو من تأليف القاضي عبدالجبَّار - مطبوع في عدَّة مجلَّداتٍ، ومحققٌّ ومعتنىً به، وهو مع ذلك في نصر هذا المذهب الباطل، وله كتاب في مجلَّدين أيضًا مطبوع اسمه «متشابه القرآن»، تَتَبَّعَ فيه آيات الصِّفات، وحرَّفها وصرفها عن ظاهرها، ومع ذلك زعم أنَّه أجاب عمَّا هو متشابه، وهو في الحقيقة خلَّط في هذا الكتاب، فلا يُغترُّ بكتبه، وله أيضًا كتاب في أصول المعتزلة التي هي الأصول الخمسة، وأشباه ذلك في كتبهم الموجودة المطبوعة، فلا يُغترُّ بهم، وفي كتب أهل السُّنَّة غنيةٌ وكفايةٌ.

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ١٤٨).

قال الشارح:

وَلَكِنَّ الْمَشْهُورَ مِن اسْتِعْمَالِ هَذَا اللَّفْظِ عِنْدَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ الْمَشْهُورِينَ: أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ بِنَفْيِ التَّشْبِيهِ نَفْيَ الصِّفَاتِ، وَلَا يَصِفُونَ بِهِ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ، بَلْ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ الْمَخْلُوقَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فَنَفَى الْمِثْلَ وَأَثْبَتَ الوصف.

وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ نَفْيُ التَّشْبِيهِ مُسْتَلْزِمًا لِنَفْيِ الصِّفَاتِ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا: أَنَّ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ فِيهِ بِقِيَاسٍ تَمْثِيلِيٍّ يَسْتَوِي فِيهِ الْأَصْلُ وَالْفَرْعُ، وَلَا بِقِيَاسٍ شُمُولِيٍّ يَسْتَوِي أَفْرَادُهُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُمَثَّلَ بِغَيْرِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ هُوَ وَغَيْرُهُ تَحْتَ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ يَسْتَوِي أَفْرَادُهَا. وَلِهَذَا لَمَّا سَلَكَتْ طَوَائِفُ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْيِسَةِ فِي الْمَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ، لَمْ يَصِلُوا بِهَا إِلَى الْيَقِينِ، بَلْ تَنَاقَضَتْ أَدِلَّتُهُمْ، وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ التَّنَاهِي الْحَيْرَةُ وَالِاضْطِرَابُ، لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ فَسَادِ أَدِلَّتِهِمْ أَوْ تَكَافِيهَا.

وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ قِيَاسُ الْأَوْلَى، سَوَاءً كَانَ تَمْثِيلًا أَوْ شُمُولًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، مِثْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمُمْكِنِ أَوْ لِلْمُحْدَثِ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ - وَهُوَ مَا كَانَ كَمَالًا لِلْوُجُودِ

غَيْرَ مُسْتَلْزِمٍ لِلْعَدَمِ بِوَجْهٍ. فَالْوَاجِبُ الْقَدِيمُ أَوْلَى بِهِ.

وَكُلُّ كَمَالٍ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ثَبَتَ نَوْعُهُ لِلْمَخْلُوقِ وَالْمَرْبُوبِ الْمُدَبَّرِ، فَإِنَّمَا اسْتَفَادَهُ مِنْ خَالِقِهِ وَرَبِّهِ وَمُدَبِّرِهِ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ.

وَأَنَّ كُلَّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ فِي نَفْسِهِ - وَهُوَ مَا تَضَمَّنَ سَلْبَ هَذَا الْكَمَالِ - إِذَا وَجَبَ نَفْيُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ وَالْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ نَفْيُهُ عَنِ الرَّبِّ تَعَالَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى.

وَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ: أَنَّ مِنْ غُلَاةِ نُفَاةِ الصِّفَاتِ الَّذِينَ يَسْتَدِلُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ أَوِ الْأَسْمَاءِ، وَيَقُولُونَ: وَاجِبُ الْوُجُودِ لَا يَكُونُ كَذَا وَلَا يَكُونُ كَذَا، ثُمَّ يَقُولُونَ: أَصْلُ الْفَلْسَفَةِ هِيَ التَّشْبِيهُ بِالْإِلَهِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ، وَيَجْعَلُونَ هَذَا غَايَةَ الْحِكْمَةِ، وَنِهَايَةَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، وَيُوَافِقُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ يُطْلِقُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ، وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ»[1]، فَإِذَا كَانُوا يَنْفُونَ الصِّفَاتِ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَتَخَلَّقُ الْعَبْدُ عَلَى زَعْمِهِمْ؟! وَكَمَا أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَعَالَى، لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، لَكِنَّ الْمُخَالِفَ فِي هَذَا النَّصَارَى وَالْحُلُولِيَّةُ وَالِاتِّحَادِيَّةُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ.

وَنَفْيُ مُشَابَهَةِ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لَهُ، مُسْتَلْزِمٌ لِنَفْيِ مُشَابَهَتِهِ لِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ؛

---

(١) لم أقف عليه من قول النبي ﷺ فيما اطلعت عليه من كتب السنة، وروى نحوه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٥١) عن ذي النون المصري، وذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٢٤١) وقال: «أثرٌ باطلٌ».

فَلِذَلِكَ اكْتَفَى الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بِقَوْلِهِ: (وَلَا يُشْبِهُ الْأَنَامَ)، وَالْأَنَامُ: النَّاسُ، وَقِيلَ: كُلُّ ذِي رُوحٍ، وَقِيلَ: الثَّقَلَانِ. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، يَشْهَدُ لِلْأَوَّلِ أَكْثَرَ مِنَ الْبَاقِي. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

---

قال الشيخ:

مؤلِّف المتن الإمام أبو جعفر الطحاوي ـ رحمه الله ـ ممَّن يقول بإثبات الصِّفات، ومن المعلوم أنَّ مَن أثبت الصِّفة لا يقول بنفيها مع كونه يصرِّح بنفي التَّشبيه، فالطَّحاويُّ يُثبت صفات الأفعال؛ كالكلام، والعلم، والقدرة ... وما أشبهها، وإذا كان يثبتها فقد صرَّح هنا بأنَّه ينفي عنها مشابهة المخلوقات، وبذلك يُعلم أنَّه لا تناقض بين إثبات الصِّفات ونفي التَّشبيه، ونحن ـ أهل السُّنَّة ـ نثبت أنَّ الله تعالى موصوفٌ بصفات الكمال، وأنَّ مرجعها إلى خبره عن نفسه وخبر رسله عنه، ونعتقد ـ مع ذلك ـ أنَّها تختصُّ به، وأنَّ صفات الخالق لا تشبه غيرها، كما أنَّ صفات المخلوق تختصُّ به ولا تشبه صفات الخالق، ويعتقد أيضًا المسلمون أنَّ الله تعالى موصوفٌ بكلِّ كمالٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وهذا يسمُّونه قياس الأولى، وهو أنَّ كلَّ كمالٍ ثبت للمخلوق فالخالق أولى به؛ وذلك لأنَّ المخلوق لم يكتسبْه إلَّا من الخالق سبحانه.

فصفات الكمال التي لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه كيف تُوجد في المخلوق ويخلو عنها الخالق جل شأنه؟!

هذا هو قياس الأولى، وأمَّا قياس التَّمثيل وقياس الشُّمول، الذي يستعمله القياسيُّون من أهل الكلام، فلا يجوز استعماله؛ فلا يجوز مثلًا أن يُقال: كلُّ موصوفٍ فإنَّه حادثٌ؛ لأن صفات الخالق غير حادثةٍ، بل الخالق بصفاته ليس بحادثٍ، بل هو الأوَّل بصفاته، سواءٌ كانت فعليَّةً أو قوليَّةً أو ذاتيَّةً، وسيأتي قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ في وصف الرَّبِّ سبحانه وتعالى: (**لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الخَلْقِ اسْتَفَادَ اسم الخَالِقِ، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسم الْبَارِي**)، أي: هو موصوفٌ بأنَّه الخالق قبل أن ينشئ الخلق، وموصوفٌ بأنَّه الباري قبل أن يُوجد الخلق.

وهكذا أيضًا الصِّفات التي لها أثرٌ في العباد، نحو التوَّاب: هو موصوفٌ بأنَّه التَّوَّاب وإن لم يكن هناك من يتوب عليهم، وموصوف بأنَّه الرَّحمن قبل أن يوجد من يرحمهم ... وهكذا؛ فصفات الله تعالى أوَّليَّة أزليَّة، ليست مسبوقةً بعدمٍ، وليست كصفات أيِّ مخلوقٍ، وكلُّ كمالٍ في المخلوق فإنَّما اكتسبه واستفاده من الخالق، فالله تعالى هو الذي أعطاه، وهو الذي أيَّده، وهو الذي سدَّده.

وبالجملة لا يُفهم ـ كما تقوله المتكلمة ـ أنَّ إثبات الصِّفات تشبيهٌ، بل يجتمع أنَّ المسلم يصف الله بصفات الكمال، وأنَّه لم يكن مشبِّهًا، ولأجل ذلك جمع الله في الردِّ بين الطَّائفتين، في بعض آية في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فإن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ ردٌّ على المشبِّهة الذين غلوا في إثبات الصِّفات؛ حتى شبهوا الله بخلقه، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على المعطِّلة الذين غلوا في النَّفي؛ حتَّى عطَّلوا الخالق عن صفاته، وهاتان

الطَّائفتان قد كفَّرهم كثيرٌ من العلماء؛ ولهذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

ولهذا قال بعض السلف: «المشبِّه يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموِّحد المثبت يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا»[1].

وهذا معنى قول نُعيم بن حمّاد: (مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ)[2].

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٢٦)، والصواعق المرسلة (١/ ١٤٨)، ومقدمة القصيدة النونية لابن القيم.

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٠٥).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فَنَفْيُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران:١ - ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ ﴾ [طه:١١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر:٦٥]. وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»[1]. الحَدِيثَ.

لَمَّا نَفَى الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - التَّشْبِيهَ أَشَارَ إِلَى مَا تَقَعُ بِهِ التَّفْرِقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، بِمَا يَتَّصِفُ بِهِ تَعَالَى دُونَ خَلْقِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ؛ لِأَنَّ صِفَةَ الحَيَاةِ البَاقِيَةِ مُخْتَصَّةٌ بِهِ تَعَالَى دُونَ خَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ يَمُوتُونَ.

وَمِنْهُ: أَنَّهُ قَيُّومٌ لَا يَنَامُ؛ إِذْ هُوَ مُخْتَصٌّ بِعَدَمِ النَّوْمِ وَالسِّنَةِ دُونَ خَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ يَنَامُونَ. وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ نَفْيَ التَّشْبِيهِ لَيْسَ المُرَادُ مِنْهُ نَفْيَ الصِّفَاتِ، بَلْ هُوَ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦٣).

سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، لِكَمَالِ ذَاتِهِ.

فَالْحَيُّ بِحَيَاةٍ بَاقِيَةٍ لَا يُشْبِهُ الْحَيَّ بِحَيَاةٍ زَائِلَةٍ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعًا وَلَهْوًا وَلَعِبًا ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، فَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَالْمَنَامِ، وَالْحَيَاةُ الْآخِرَةُ كَالْيَقَظَةِ، وَلَا يُقَالُ: فَهَذِهِ الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ كَامِلَةٌ، وَهِيَ لِلْمَخْلُوقِ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: الْحَيُّ الَّذِي الْحَيَاةُ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ اللَّازِمَةِ لَهَا، هُوَ الَّذِي وَهَبَ الْمَخْلُوقَ تِلْكَ الْحَيَاةَ الدَّائِمَةَ، فَهِيَ دَائِمَةٌ بِإِدَامَةِ اللَّهِ لَهَا، لَا أَنَّ الدَّوَامَ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهَا لِذَاتِهَا، بِخِلَافِ حَيَاةِ الرَّبِّ تَعَالَى. وَكَذَلِكَ سَائِرُ صِفَاتِهِ، فَصِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

---

قال الشيخ:

هذه من الصِّفات الثُّبوتية، يعني: أنَّا نثبت لله تعالى من الصِّفات صفةَ الحياة وصفة القيُّوميَّة، وننفي ضدَّهما من الصِّفات السَّلبيَّة، وهي صفة النَّوم، وصفة الموت، وصفة السِّنَة ـ التي هي النُّعاس أو مقدِّمات النَّوم ـ فهذه صفات نقصٍ، فالرَّبُّ سبحانه أثبت الصِّفات الكماليَّة بقوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، ونفى صفات النَّقص بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾، يعني: نعاسٌ ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾، وهو النوم المعروف، ونفى الموت بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فنفى الموت، ونفى السِّنة، ونفى النَّوم؛ لأنَّ النَّوم نقصٌ، فالإنسان يحتاجه والدَّوابُّ؛ لأنَّ فيه شيئًا من إراحة البدن بعد التَّعب، والرَّبُّ ـ سبحانه وتعالى ـ

منزَّهٌ عن التَّعب، ومنزَّهٌ عن اللُّغوب.

ورُوي أنَّ اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السَّمَوات والأرض، فقال: «خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الجِبَالَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَمَا فِيهِنَّ مِنْ مَنَافِعَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ الشَّجَرَ وَالمَاءَ وَالمَدَائِنَ وَالْعُمْرَانَ وَالخَرَابَ، فَهَذِهِ أَرْبَعَة، وَخَلَقَ يَوْمَ الخَمِيسِ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الجُمْعَةِ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالمَلَائِكَةَ إِلَى ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِيَتْ مِنْهُ، فَخَلَقَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْآجَالِ حِينَ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَلْقَى الْآفَةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وَفِي الثَّالِثَةِ آدَمَ وَأَسْكَنَهُ الجَنَّةَ، وَأَمَرَ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ». قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ»، قالوا: قد أصبت لو أتممت؟ فغضب النبي ﷺ، وعَلِمَ أنَّهم يريدون بذلك ما هم يعتقدونه من أنَّ الله أكمل المخلوقات يوم الجمعة واستراح يوم السَّبت، هكذا عندهم: أنَّ الله استراح يوم السَّبت، وكذبوا، فإنَّ الله تعالى لا يحتاج إلى راحةٍ، فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨][1]، يعني: من تعبٍ، فنفى عن نفسه هذا اللُّغوب الذي هو

---

(١) أخرجه الطبري (٢٤/ ٩٤)، والحاكم (٢/ ٥٤٣) من طريق أبي سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقال: صحيح الإسناد، وأورده الذهبي في العلو (ص٩٥) وقال: «صححه الحاكم وأنى ذلك، والبقال قد ضعفه ابن معين والنسائي». وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٥): «هذا الحديث فيه غرابة».

نقصٌ وعيبٌ؛ ليدلَّ على أنَّ الله موصوفٌ بكلِّ كمالٍ.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ قائمٌ على هذه المخلوقات؛ ولذلك سمَّى نفسه بالقيُّوم، يعني: القائم على خلقه، ومعلومٌ أنَّ القائم على خلقه هو الذي يراقبهم ويرعاهم ويكلؤهم وهم نائمون، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء:٤٢]، أي: الرحمن هو الذي يكلؤكم، يعني: يحفظكم ويراقبكم، فإذا كان كذلك، فإنَّه الذي يراعي عباده، ومثله لا يعتريه نومٌ ولا نقصٌ ولا سِنَةٌ ولا غير ذلك؛ لأنَّه الذي يمسك هذه المخلوقات.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥]، أي: هو الذي يمسكها بقوَّته وبخلقه وبتمكينه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٤١]، أي: هو الذي يمسكهما حتَّى لا تضطربا ولا تزولا.

فإذا كان كذلك، فإنَّه الحيُّ الذي لا يموت، والجنُّ والإنس يموتون، وقد حكم الله بالفناء على كلِّ من سواه، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، فهذا دليل الحياة التي لا يعتريها نقصٌ ولا تغييرٌ، ولا شكَّ أنَّ النوم نقصٌ، ولذلك يسمَّى أخا الموت، والنوم موتةٌ

صغرى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، فذكر أنَّه يتوفَّاها في منامها، فالنَّوم شبه الموت، ولذلك نفاه ـ جل وعلا ـ عن نفسه، ونفى أيضًا مقدِّماته في قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والسِّنَة: هي النُّعاس أو النَّوم الخفيف، فيعتقد المسلمون أنَّ الله موصوفٌ بصفات الكمال؛ كالحياة الكاملة، والقيُّوميَّة الكاملة.

وقد وافقت الأشاعرةُ على وصف الله تعالى بالحياة، ولكنهم رجعوا في إثباتها إلى العقل، يقولون: إنَّما أثبتناها لدلالة العقل عليها، وكأنَّهم لم يعتبروا دلالة الشَّرع مع الأدلَّة الواضحة الدلالة من الآيات والأحاديث ونحوها، والحديث الذي مرَّ بنا ـ وهو حديثٌ مشهورٌ ـ وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَا يَنَامُ، ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قبل عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قبل عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إليه بَصَرُهُ من خَلْقِهِ**»[1]، فابتدأ هذا الحديث بنفي هذا النَّقص ـ وهو النَّوم ـ وأنَّه لا ينبغي أن ينام.

هذه هي عقيدة المسلمين، وبلا شكٍّ أنَّ الذي يعتقد أنَّ ربَّه حيٌّ لا يموت، وأنَّه قيُّومٌ لا ينام، وأنَّه لا يعتريه تغيُّرٌ، هو الذي يكون قَدْرُ ربِّه في قلبه أعظم من قَدْرِ كلِّ شيءٍ، فيعبده حقَّ العبادة.

---

(١) تقدم تخريجه (٣٦٣).

قال الشارح:

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ - أَعْنِي: «الحَيَّ»، «الْقَيُّومَ» - مَذْكُورَانِ فِي الْقُرْآنِ مَعًا فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ كَمَا تَقَدَّمَ، وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُمَا الِاسْمُ الْأَعْظَمُ[1]، فَإِنَّهُمَا يَتَضَمَّنَانِ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَكْمَلَ تَضَمُّنٍ وَأَصْدَقَهُ، وَيَدُلُّ «الْقَيُّومُ» عَلَى مَعْنَى الْأَزَلِيَّةِ وَالْأَبَدِيَّةِ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ «الْقَدِيمِ». وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى كَوْنِهِ مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ، وَهُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ، وَ«الْقَيُّومُ» أَبْلَغُ مِنَ «الْقَيَّامِ»؛ لِأَنَّ الْوَاوَ أَقْوَى مِنَ الْأَلِفِ، وَيُفِيدُ قِيَامَهُ بِنَفْسِهِ، بِاتِّفَاقِ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلِ اللُّغَةِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ. وَهَلْ تُفِيدُ إِقَامَتَهُ لِغَيْرِهِ وَقِيَامَهُ عَلَيْهِ؟ فِيهِ قَوْلَانِ، أَصَحُّهُمَا: أَنَّهُ يُفِيدُ ذَلِكَ. وَهُوَ يُفِيدُ دَوَامَ قِيَامِهِ وَكَمَالَ قِيَامِهِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَزُولُ وَلَا يَأْفُلُ، فَإِنَّ الْآفِلَ قَدْ زَالَ قَطْعًا، أَيْ: لَا يَغِيبُ وَلَا يَنْقُصُ وَلَا يَفْنَى وَلَا يُعْدَمُ، بَلْ هُوَ الدَّائِمُ الْبَاقِي الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ.

وَاقْتِرَانُهُ بِالْحَيِّ يَسْتَلْزِمُ سَائِرَ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَيَدُلُّ عَلَى بَقَائِهَا وَدَوَامِهَا، وَانْتِفَاءِ النَّقْصِ وَالْعَدَمِ عَنْهَا أَزَلًا وَأَبَدًا؛ وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ

---

(١) كما في حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾. أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وأحمد (٦/ ٤٦١).

النَّبِيِّ ﷺ[1].

فَعَلَى هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ مَدَارُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى كُلِّهَا، وَإِلَيْهِمَا تَرْجِعُ مَعَانِيهَا، فَإِنَّ الْحَيَاةَ مُسْتَلْزِمَةٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا صِفَةٌ مِنْهَا إِلَّا لِضَعْفِ الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ تَعَالَى أَكْمَلَ حَيَاةٍ وَأَتَمَّهَا، اسْتَلْزَمَ إِثْبَاتُهَا إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ يُضَادُّ نَفْيُهُ كَمَالَ الْحَيَاةِ.

وَأَمَّا «الْقَيُّومُ»، فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ كَمَالَ غِنَاهُ وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ، فَإِنَّهُ الْقَوِيمُ بِنَفْسِهِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، الْمُقِيمُ لِغَيْرِهِ، فَلَا قِيَامَ لِغَيْرِهِ إِلَّا بِإِقَامَتِهِ.

فَانْتَظَمَ هَذَانِ الِاسْمَانِ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَتَمَّ انْتِظَامٍ.

---

قال الشيخ:

الماتن يقول: (حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ)، والشَّارح ابتدأ شرحه بأوَّل آية الكرسيِّ، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، واستدلَّ أيضًا بأوَّل سورة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران:١ ـ ٣]، وبالآية الثالثة في

---

(١) كما في حَدِيثِ أُبَيِّ بن كَعْبٍ ﷺ، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «يا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»، قال: قلت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «يا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»، قال: قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴾، قال: فَضَرَبَ في صَدْرِي، وقال: «والله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». أخرجه مسلم (٨١٠).

سورة طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، [طه: ١١١].

قُرِنَ هذان الاسمان في ثلاثة مواضع: في سورة البقرة في آية الكرسيِّ، وفي أوَّل سورة آل عمران، وفي هذه الآية من سورة طه، وَلَـمَّا كان هذا شأنهما، قال بعض العلماء: إنَّهما يتضمَّنان اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى؛ ولأجل ذلك يُنْدَبُ أن يُكثر العبد من التَّوسُّل بأسماء الله إذا دعاه، وأن يُكثر من التَّوسُّل بهذين الاسمين، وكان من دعاء النبي ﷺ الذي علَّمه لابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»[1]، فأفاد بأنَّ هذين الاسمين يُدعى الرَّبُّ تعالى بهما، كما يُدعى ببقيَّة الأسماء الحسنى التي قال الله فيها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: توسَّلوا بها في دعائه.

إذًا فالعبد عند الدُّعاء يتوسل بأسماء الله الحسنى، ومن جملتها: الحيُّ القيُّوم، وبلا شكٍّ فإنَّ هذين الاسمين يتضَّمنان صفاتِ الكمالِ، فإنَّ الحيَّ يتضمَّن إثباتَ الحياة، والحياةُ التي تثبتها لله تعالى هي أتمُّ حياةٍ وأكملها، وذلك لوصفها بأنَّها حياةٌ مستقرَّةٌ، وبأنَّها لا يعتريها نقصٌ؛ مثل النَّوم الذي هو أخو الموت، ولا يعتريها الموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ومن هذا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٣)، والحاكم (١/ ٥٤٥) وصححه، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وحسنه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٦/ ٣٠٠). وأخرجه الترمذي مختصرًا (٣٥٢٤).

الوصف يستحقُّ الرَّبُّ تعالى أن يكون هو الإله؛ ولأجل ذلك بدأ الآية بإثبات الإلهيَّة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، في آية الكرسيِّ، وفي أوَّل سورة آل عمران، فكأنَّه يقول: الإلهيَّة الحقَّة لا تصلح إلاَّ لمن هو حيٌّ قيُّومٌ، الحياة والقيُّوميَّة الكاملة هي التي استحقَّها الرَّبُّ، واستلزمت جميعَ صفاتِ الكمالِ، ومعنى كونها تستلزم صفاتِ الكمالِ: أنّ مَنْ أثبتها لزمه أن يثبت بقيَّة الصِّفات التي هي صفاتُ كمالٍ، فإنَّ الحياة كلَّما كانت كاملةً؛ لزم أن يكون غيرها من الصِّفات تابعًا لها.

وأمَّا من نفى شيئًا من الصِّفات، فإنَّه إنَّما أثبت حياةً ناقصةً، وقد وُصف الله عزَّ وجلَّ بالسَّمع، والحياةُ تستلزم أن يكون سميعًا، وبالبصر الذي يستلزم أن يكون مِنْ حيٍّ، وبالكلام الذي لا بدَّ أن يكون من حيٍّ، وكذلك بالقدرة والعلم والمشيئة والإرادة ... وما أشبه ذلك من الصفات، التي يأتينا تفصيلها إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا فالمسلم عليه أن يُلحَّ في دعاء الله تعالى، ويتوسَّل إليه بأسمائه، بعد أن يعتقد دلالَةَ تلك الأسماء، فدِلالةُ الحيِّ على إثبات الحياة، ودلالَةُ القيُّوم إثبات القيُّوميَّة، التي هي القيام على خلقه، فهو سبحانه القائم على خلقه المدبِّر لشؤونهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بِلَا مَؤونَةٍ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦ - ٥٨]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥]، ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [محمد:٣٨]، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام:١٤].

وَقَالَ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ». الحَدِيثَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وَقَوْلُهُ: (بِلَا مَؤونَةٍ): بِلَا ثِقَلٍ وَلَا كُلْفَةٍ.

---

(١) برقم (٢٥٧٧).

قال الشيخ:

هذا من جملة ما وصف الله به نفسه، وأخبر عن نفسه أنَّه الذي خلق الخلق ورزقهم، أي: هو المنفرد بذلك وحده، فأمَّا الخلق فليس فيه منازعٌ، وأما الرزق فظاهرٌ أنَّه الذي يسَّر أسبابَ الرِّزق، وأخبر بذلك ليعرفه العبادُ فيعبدونه وحده، فإذا عرفوا أنَّهم مخلوقون اعترفوا بأنَّ لهم خالقًا، هو الله وحده، ما خلقهم لحاجته إليهم، أو ليتكثَّر بهم من قلَّةٍ، أو ليتعزَّز بهم من ذلة، ولا ليستغني بهم من عيلةٍ، بل هو الغنيُّ عنهم وهم الفقراء إليه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

وقد أخبر الله بالحكمة في خلقه لهذا الخلق، وهو أنَّه خلقهم لعبادته وأمرهم بطاعته، خلقهم ليعرفوه ويعبدوه، وأمرهم بأن يوحِّدوه ويطيعوه، وهو الغنيُّ عنهم؛ ولهذا قال -عز وجل-: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧]، وقال تعالى: في آية أخرى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، فهو الغنيُّ وهم الفقراء.

إذا عرف العباد بأنَّهم مخلوقون، وأنَّ لهم خالقًا، عرفوا بأنَّ ذلك الخالق غنيٌّ عنهم، وأنَّهم فقراءُ إليه، عرفوا بأنَّهم مملوكون، وأنَّ لهم مالكًا، عرفوا بأنَّهم مدَّبرون، وأنَّ هناك مَنْ يدبِّرهم ويسخِّرهم ويتصرَّف بهم كما يشاء، ذلك الخالق

والمالك والرَّبُّ والمتصرِّف، هو المستحقُّ لأن يعبدوه، ولأجل ذلك خاطبهم بذلك وذكَّرهم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١]، فابتدأ بنعمة الخلق، بعد ما أمرنا بالعبادة ذكرنا بأسباب هذه العبادة:

**أولًا**: أنه خلقكم.

**ثانيًا**: أنه خلق من قبلكم.

**ثالثًا**: أنه أنزل لهم من السَّماء ماءً.

**رابعًا**: أنه جعل لكم الأرض فراشًا، والسَّماء بناءً.

**خامسًا**: أنه أنبت لكم النبات.

كلُّ ذلك من الأسباب التي هي منَّةٌ ونعمةٌ منه سبحانه وتعالى.

أمَّا قوله: (**رَازِقٌ**)، فمعلومٌ أنَّه الذي تفرَّد بالرِّزق وحده، وقد يقول قائلٌ: بل العبد هو الذي يتكسَّب، والدَّوابُّ هي التي تتقلَّب في طلب الرِّزق، فكيف يكون ذلك رزقًا ونحن نشاهد أنَّ الإنسان هو الذي يكتسب الرِّزق؟!

يقول هذا الكثير، وأكثر من قاله هم الملاحدةُ؛ حتَّى ذُكِرَ عن بعض الملاحدة أنَّه لما قيل له: تذكَّر أنَّ الله هو الذي يرزقك. فقال: كلا، إنَّما ترزُقني يميني - أو بهذا المعنى والعياذ بالله! - نَسِيَ أنَّ الله حنَّن عليه أبويه في الطُّفولة، ونسي أنَّ الله يسَّر له الرِّزق وهو في رحم أمِّه حتَّى يأتيه الرِّزقُ مِنَ حيث لا يشعر، فكان له - وهو في بطن أمِّه - بابٌ واحدٌ يأتيه الرِّزق منه، وهو مِنْ سُرَّته يتغذَّى من ذلك الدَّم، مَنِ الذي يسَّر له ذلك؟! هل الأبوان لهما تصرُّفٌ في هذا الجنين حتَّى يتمَّ خلقه؟!

فالذي دبَّره على هذه الهيئة هو الذي يرزقه لَمَّا خرج إلى هذه الدُّنيا.

ومَن الذي فجَّر له هذين الثديين في صدر والدته بهذا اللَّبن اللَّذيذ الذي يحصل له بالتَّغذِّي؟! ومن الذي ألهم هذا الطِّفل أن يمتصَّ حتَّى يحصل على هذا اللَّبن الذي يتقوَّت به ؟! الله هو الذي أخرجه إلى الدنيا، وفتح له بابين، وهما هذان الثديان، يكون منهما رزقه وغذاؤه، لا يستطيع أن يُحصِّل لنفسه هذا الرِّزق، إلاَّ أنَّ الله يسَّره له.

ومن الذي حنَّن قلب أبويه عليه، وجعل في قلوبهما الشَّفقة التامَّة إلى أنْ يَحْنُوا عليه ويحدبا عليه ويحبا بقاءه، ويسهرا ويتعبا في تحصيل راحته؟! لولا أنَّ الله جعل ذلك في قلوبهما لما التفتا إليه، ولما بقي على هذه الحياة مدَّةً، بعدما شبَّ وترعرع ومُنِعَ من ذينك الثَّديين فتح الله له أربعة أبوابٍ من الرِّزق، وهما: شرابان وطعامان، الشَّرابان: لبنٌ مأخوذٌ من الحيوان، وأشربة من الماء ومن مركَّبات الماء، والطعامان: أطعمة اللَّحم من الحيوانات التي سخَّرها الله وجعلها مسخَّرةً ليأكل من لحومها، وسائر الأطعمة مِمَّا تنبته الأرض.

فالذي يسَّر أسباب الرزق هو الذي أنبت هذا النَّبات حتَّى أينع، وأصبح صالحًا للرِّزق وللقوت، ولو شاء الله تعالى لجعل الأرض حَجَرًا لا تُنْبِت، ولو جعل الأرض كلَّها ماءً لم يحصل فيها هذا النَّبات وهذا الاستقرار، ولو شاء الله لجعلها سبخةً لا يحصل أن يكون فيها أيُّ نباتٍ أصلًا، حتَّى لو جعلها الله تعالى كلَّها ذهبًا أو كلَّها فضَّةً هل يحصل الانتفاع بها وتنبت ويأكل النَّاس ودوابهم ويتقوتون بها؟! ما تنفعهم، لَمَّا أنَّ الله جعلها رخاءً وصالحةً للإنبات، وكان ذلك

من الرِّزق؛ ولهذا يمتنُّ على عباده بأنَّه الذي رزقنا، ولسنا نحن الذين نرزق أنفسَنا.

ثمَّ إذا كان الإنسان قد أُعطي قوَّةً حتَّى يتكسَّب ويجمع المال من هنا ومن هنا، فمن الذي أعطاه هذا العقل وهذا الفكر حتى يتسبب؟

ومن الذي أعطاه هذه الأدوات وهذه الآلات حتَّى يسيرَ على قدميه، ويبطش بيديه ويكتسب بها؟ أليس هو الذي خلقه؟

إذًا فالله تعالى هو الخالقُ، وإذا كان هو الخالقَ، فهو الذي يستحقُّ أن يُعبَدَ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

مُمِيتٌ بِلَا مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ.

---

قال الشارح:

المَوْتُ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ، خِلَافًا لِلْفَلَاسِفَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]. وَالْعَدَمُ لَا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا، وَفِي الحَدِيثِ: «إِنَّهُ يُؤْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ»[1]. وَهُوَ وَإِنْ كَانَ عَرَضًا فَاللَّهُ تَعَالَى يَقْلِبُهُ عَيْنًا، كَمَا وَرَدَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ: «أَنَّهُ يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةِ الشَّابِّ الحَسَنِ، وَالْعَمَلُ الْقَبِيحُ عَلَى أَقْبَحِ صُورَةٍ»[2]، وَوَرَدَ فِي القرآن: «أَنَّهُ يَأْتِي عَلَى صُورَةِ الشَّابِّ الشَّاحِبِ اللَّوْنِ»، الحَدِيثَ[3]. أَيْ: قِرَاءَةَ الْقَارِئِ. وَوَرَدَ فِي الْأَعْمَالِ: «أَنَّهَا تُوضَعُ فِي المِيزَانِ»[4]،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) هذا معنى حديث البراء بن عازب ﷺ، أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ٥٤)، والحاكم (١/ ٣٧، ٤٠) وصححه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٧٨١)، وأحمد (٥/ ٣٤٨)، والدارمي (٢/ ٥٤٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٩) من حديث بريدة ﷺ.

(٤) كما في حديث عبد اللَّهِ بن عَمْرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «تُوضَعُ المَوَازِينُ يوم الْقِيَامَةِ، فيؤتى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ في كَفَّةٍ، فَيُوضَعُ ما أُحْصِيَ عليه، فَتَمَايَلَ بِهِ المِيزَانُ، قال: فَيُبْعَثُ بِهِ إلى النَّارِ، قال: فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ إذا صَائِحٌ يَصِيحُ من عِنْدِ الرحمن، يقول: =

وَالْأَعْيَانُ هِيَ الَّتِي تَقْبَلُ الْوَزْنَ دُونَ الْأَعْرَاضِ. وَوَرَدَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ: أَنَّهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ «يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ»(١). وَفِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ»(٢). وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

يتكلَّم الشَّارح هنا على الموت أنَّه مخلوقٌ، ردًّا على الفلاسفة الذين يقولون: الموت أمرٌ عدميٌّ، ليس له جرمٌ، ليس هناك شيءٌ مخلوقٌ اسمه الموت! وكذَّبوا قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ [الملك:٢]، فدلَّ على أنَّ هناك شيءٌ اسمه الموت، وأنَّه شيءٍ حسِّيٌّ ـ محسوس ـ وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ بما يدلُّ على أنَّ هذا الموت شيءٌ محسوسٌ، فقال: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَقُولُونَ: نعم هذا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ

---

=

لاَ تَعْجَلُوا لاَ تَعْجَلُوا، فإنه قد بَقِيَ له، فَيُؤتى بِبِطَاقَةٍ فيها لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، فَتُوضَعُ مع الرَّجُلِ في كَفَّةٍ حتى يَمِيلَ بِهِ الْمِيزَانُ». أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١) واللفظ له، وأخرجه بنحو هذا اللفظ: الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبان (١/ ٤٦١).

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ.

(٢) كما في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: «... يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قبل عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قبل عَمَلِ اللَّيْلِ» تقدم تخريجه (ص٣٣٢).

قد رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَقُولُونَ: نعم هذا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قد رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يقول: يا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا - ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[مريم:٣٩]»[1].

فيزداد أهل الجنة فرحًا، ويزداد أهل النار حزنًا؛ وذلك لأنَّ أهل الجنَّة أيقنوا أنَّهم سيبقون في حياةٍ مستقرَّةٍ ليس بعدها موتٌ، وأنَّ أهل النَّارِ كانوا يأملون الموت ويرجونه، ويقولون: العَدَم خيرٌ من هذا الوجود؛ فيقولون لخازن النار: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، يعني: لِيُمتنا، والله - عز وجل - يقول: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

والشَّاهد: أنَّه أخبر في هذا الحديث بأنّ الموت شيءٌ محسوسٌ يُرى ويُعرف، يعرفون أنَّه هو الموت، ولو كان عرضًا، فالله تعالى قادرٌ أن يجعله جسمًا، ويجعل له جثَّةً أو صورةً؛ كما في الأعمال التي هي أعراضٌ؛ حيث أخبر أنَّ الله - جل وعلا - يجعلها أجسامًا وأجرامًا، وأنَّها توزن مع كونها أعراضًا، فالصلاة تصبح جسمًا كما ورد في الحديث: «مَنْ صَلَّى الْصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَأَسْبَغَ لَهَا وضُوءَهَا، وَأَتَمَّ لَهَا قِيَامَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، خَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضَاءَ مُسْفِرَة، تَقُولُ: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، وَمَنْ صَلَّى الْصَّلَاةَ لِغَيْرِ وَقْتِهَا، فَلَمْ يُسْبِغْ لَهَا وضُوءَهَا، وَلَمْ يُتِمْ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

لَهَا خُشُوعَهَا وَلَا رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا، خَرَجَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي؛ حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، ثُمَّ ضُرِبَ بِهَا وَجْهَهُ»[1]. أراد بذلك أنَّ الأعراض يجعلها الله تعالى أجسامًا.

فقد يجعل الله تعالى للكلام أجرامًا؛ ولهذا جاء في الحديث في قوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أو تَمْلَأُ ما بين السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»[2].

ومعلومٌ أنَّ كلمة (الحمد لله) ليس لها جرمٌ، ولكن يجعل الله لها جرمًا وجُثَّةً حتَّى تملأ الميزان، وكذلك التَّحميد والتَّكبير ونحو ذلك، وهذا معنى ما روي: أنَّ الأعمال تُوزن ولو كانت أعراضًا، فكذلك الموت ـ ولو كان عَرَضًا ـ يجعل الله له جرمًا حتى يُرى، فهو سبحانه الذي خلق الموت وخلق الحياة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٢٦٣) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه بنحوه: البزار (٧/ ١٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٤٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

قال الطحاوي:

مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ، لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُم مِنْ صِفَتِهِ، وكَما كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيًّا، كَذلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِيًّا.

---

قال الشارح:

أَيْ: أَنَّ اللَّهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ: صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ وُصِفَ بِصِفَةٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا؛ لِأَنَّ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ صِفَاتُ كَمَالٍ، وَفَقْدَهَا صِفَةُ نَقْصٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْكَمَالُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِضِدِّهِ، وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذا صِفَاتُ الْفِعْلِ وَالصِّفَاتُ الِاخْتِيَارِيَّةُ وَنَحْوُهَا، كَالْخَلْقِ وَالتَّصْوِيرِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالطَّيِّ، وَالِاسْتِوَاءِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ وَالنُّزُولِ، وَالْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، وَإِنْ كُنَّا لَا نُدْرِكُ كُنْهَهُ وَحَقِيقَتَهُ الَّتِي هِيَ تَأْوِيلُهُ، وَلَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، وَلَكِنَّ أَصْلَ مَعْنَاهُ مَعْلُومٌ لَنَا، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَقَالَ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ»[1]. وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ تَحْدُثُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٠٣).

الشَّفَاعَةِ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[1]؛ لِأَنَّ هَذَا الْحُدُوثَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَدَثَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ تَكَلَّمَ الْيَوْمَ وَكَانَ مُتَكَلِّمًا بِالْأَمْسِ لَا يُقَالُ: أَنَّهُ حَدَثَ لَهُ الْكَلَامُ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ لِآفَةٍ كَالصَّغِرِ وَالْخَرَسِ، ثُمَّ تَكَلَّمَ يُقَالُ: حَدَثَ لَهُ الْكَلَامُ، فَالسَّاكِتُ لِغَيْرِ آفَةٍ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا بِالْقُوَّةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَفِي حَالِ تَكَلُّمِهِ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا بِالْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ الْكَاتِبُ فِي حَالِ الْكِتَابَةِ هُوَ كَاتِبٌ بِالْفِعْلِ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ كَاتِبًا فِي حَالِ عَدَمِ مُبَاشَرَتِهِ لِلْكِتَابَةِ.

وَحُلُولُ الْحَوَادِثِ بِالرَّبِّ تَعَالَى، الْمَنْفِيُّ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، لَمْ يَرِدْ نَفْيُهُ وَلَا إِثْبَاتُهُ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَفِيهِ إِجْمَالٌ: فَإِنْ أُرِيدَ بِالنَّفْيِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَحِلُّ فِي ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الْمُحْدَثَةِ، وَلَا يَحْدُثُ لَهُ وَصْفٌ مُتَجَدِّدٌ لَمْ يَكُنْ، فَهَذَا نَفْيٌ صَحِيحٌ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ نَفْيُ الصِّفَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ، مِنْ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ، وَلَا أَنَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى، وَلَا يُوصَفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ النُّزُولِ وَالِاسْتِوَاءِ وَالْإِتْيَانِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَهَذَا نَفْيٌ بَاطِلٌ.

---

قال الشيخ:

في الكلام الأوَّل ذَكَرَ الماتنُ ـ رحمه الله ـ أنَّ صفات الرَّبِّ تعالى أزليَّةٌ، وأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

موصوفٌ بها في الأزل قبل أن تحدث الأفعال التي ظهرت بها. فيعتقد المسلمون أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قديم بصفاته، ويردون بذلك على النُّفاة الذين ينفون الصِّفات، ويقولون: إنَّا إذا أثبتناها لزمنا تعدد القدم! وهذا اللازم باطلٌ، فالله تعالى قديمٌ بصفاته، سواء الصِّفات الذاتيَّة أو الصِّفات الفعليَّة، ليس منها شيءٌ متجدِّدٌ بعد أن لم يكن، فصفاته الذاتيَّة التي أخبر عنها؛ كالوجه، واليد، والعين، وما أشبه ذلك، هذه قديمةٌ لم يحدث منها شيءٌ، وصفات الفعل؛ كالعلم، والكلام، والقدرة، والإرادة، والمحبَّة، والبُغض، والكراهة، وما أشبه ذلك، موصوفٌ بها أزلًا وإن لم تحدُثْ أسبابها، يعني: وإن لم يحدث من يغضب عليه، فهو موصوفٌ بأنَّه يغضب، وبأنَّه يرضى قبل أن يوجد خلقٌ يرضى منهم أو يغضب، وموصوفٌ بأنَّه يحبُّ ويكره قبل أن يحدث الخلق الذين يحبُّ منهم الصَّالحين ويكره غيرهم، فالله سبحانه موصوف بهذه الصفات قبل أن يوجد الخلق، فمثلًا هو سبحانه موصوفٌ بأنَّه يعجب، وبأنَّه يفرح، وبأنَّه يضحك، وبأنَّه يجيء وينزل، وبأنَّه استوى على العرش، إلى غير ذلك من الصفات، فهو موصوف بذلك أزلًا قبل أن تحدث الفروع لذلك، هذه عقيدة أهل السُّنَّة.

ومعلومٌ أنَّ هذه الأفعال صفاتٌ فعليَّةٌ وأنَّها تتجدَّد؛ لأجل ذلك كانت عقيدة أهل السُّنَّة أنَّ كلام الله قديمُ النَّوع متجدِّد الآحاد، يعني أنَّه متكلِّمٌ، وأنَّه يتكلَّم، بخلاف من يقول من المعتزلة ونحوهم: إنَّ كلام الله قديمٌ؛ معناه أنَّه لا يتكلَّم الآن ـ تعالى الله عن ذلك ـ وهكذا بقيَّة الصِّفات.

فيقال: إن الله موصوفٌ في الأزل بأنَّه يغضب ويرضى، ولا يزال على ذلك

حتَّى يوم القيامة، وقد أخبر الأنبياء بأنَّه يغضب؛ كما ورد في حديث الشَّفاعة: «فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[1]، وكذلك يقول نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، كلٌّ منهم إذا طُلِبَ منه الشَّفاعة، يخبر بأنَّ ربَّه قد غضب غضبًا، فيدل على أنَّ الله موصوفٌ بالغضب أزلًا، وأنَّه يغضب إذا شاء، ومعلوم أنَّ المعاصي التي رُتِّبت عليها العقوبات تحدُثُ فتحدُثُ آثارُها، فإذا كان الله تعالى يرضى عن المؤمن، فإذا وُجد المؤمن وآمن وعمل صالحًا رضي عنه، وإذا كان يغضب على العاصي، فإذا وُجد ذلك العاصي ووجدت منه معصية غضب عليه، فرضي الله عن هذا وغضب على هذا، فإذًا هذه الأفعال تتجدَّد، لا أنَّها وُجدت مرَّةً ثم انقطعت، هكذا صفات الله الفعليَّة.

وكذلك صفة النُّزول لم تكن مرَّةً ثم انقطعت، وصفة المجيء: أخبر الله بأنَّه يجيء يوم القيامة في قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، يعني: في يوم القيامة، فدل ذلك على أنَّ صفات الله الفعلية أزليَّةٌ وأبديَّةٌ، وأنَّها أفعالٌ لا يزال متَّصفًا بها.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣٥).

قال الشارح:

وَأَهْلُ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ يُطْلِقُونَ نَفْيَ حُلُولِ الحَوَادِثِ، فَيُسَلِّمُ السُّنِّيُّ لِلْمُتَكَلِّمِ ذَلِكَ، عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ نَفَى عَنْهُ سُبْحَانَهُ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، فَإِذَا سَلَّمَ لَهُ هَذَا النَّفْيَ أَلْزَمَهُ نَفْيَ الصِّفَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ، وَهُوَ غير لَازِمٍ لَهُ. وَإِنَّمَا أُتِيَ السُّنِّيُّ مِنْ تَسْلِيمِ هَذَا النَّفْيِ الْمُجْمَلِ، وَإِلَّا فَلَوِ اسْتَفْسَرَ وَاسْتَفْصَلَ له لَمْ يَنْقَطِعْ مَعَهُ.

وَكَذَا مَسْأَلَةُ الصِّفَةِ: هَلْ هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ أَمْ لَا؟ لَفْظُهَا مُجْمَلٌ. وَكَذَلِكَ لَفْظُ «الْغَيْرِ»، فِيهِ إِجْمَالٌ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ إِيَّاهُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا جَازَ مُفَارَقَتُهُ لَهُ.

وَلِهَذَا كَانَ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ لَا يُطْلِقُونَ عَلَى صِفَاتِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ أَنَّهُ غَيْرُهُ، وَلَا أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّ إِطْلَاقَ الْإِثْبَاتِ قَدْ يُشْعِرُ أَنَّ ذَلِكَ مُبَايِنٌ لَهُ، وَإِطْلَاقَ النَّفْيِ قَدْ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ هُوَ؛ إِذْ كَانَ لَفْظُ «الْغَيْرِ» فِيهِ إِجْمَالٌ، فَلَا يُطْلَقُ إِلَّا مَعَ الْبَيَانِ وَالتَّفْصِيلِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ هُنَاكَ ذَاتًا مُجَرَّدَةً قَائِمَةً بِنَفْسِهَا مُنْفَصِلَةً عَنِ الصِّفَاتِ الزَّائِدَةِ عَلَيْهَا، فَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ الصِّفَاتِ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ الَّتِي يُفْهَمُ مِنْ مَعْنَاهَا غَيْرُ مَا يُفْهَمُ مِنْ مَعْنَى الصِّفَةِ، فَهَذَا حَقٌّ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الخَارِجِ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنِ الصِّفَاتِ، بَلِ الذَّاتُ الْمَوْصُوفَةُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لَهَا لَا تَنْفَصِلُ عَنْهَا، وَإِنَّمَا يَعْرِضُ لِلذِّهْنِ ذَات وَصِفَة، كُلٌّ وَحْدَهُ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الخَارِجِ ذَاتٌ غَيْرُ مَوْصُوفَةٍ، فَإِنَّ هَذَا مُحَالٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صِفَةَ الْوُجُودِ، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَكُّ عَنِ الْوُجُودِ، وَإِنْ كَانَ الذِّهْنُ يَفْرِضُ ذَاتًا وَوُجُودًا، يَتَصَوَّرُ هَذَا وَحْدَهُ، وَهَذَا وَحْدَهُ، لَكِنْ لَا يَنْفَكُّ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فِي الخَارِجِ.

وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: الصِّفَةُ لَا عَيْنُ الْمَوْصُوفِ وَلَا غَيْرُهُ. وهَذَا لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ، وَهُوَ: أَنَّ الصِّفَةَ لَيْسَتْ عَيْنَ ذَاتِ الْمَوْصُوفِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الذِّهْنُ مُجَرَّدَةً بَلْ هِيَ غَيْرُهَا، وَلَيْسَتْ غَيْرَ الْمَوْصُوفِ، بَلِ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِهِ وَاحِدٌ غَيْرُ مُتَعَدِّدٍ.

وَالتَّحْقِيقُ أَنْ يُفَرَّق بَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ: الصِّفَاتُ غَيْرُ الذَّاتِ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: صِفَاتُ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ، فَإِنَّ الثَّانِي بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ مُسَمَّىٰ اللَّهِ يَدْخُلُ فِيهِ صِفَاتُهُ، بِخِلَافِ مُسَمَّىٰ الذَّاتِ، فَإِنَّه لَا يَدْخُل فِيهِ الصِّفَات؛ لأنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الصِّفَاتَ زَائِدَةٌ عَلَىٰ مَا أَثْبَتَهُ الْمُثْبِتُونَ مِنَ الذَّاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الذَّاتُ الْمَوْصُوفَةُ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (لَا زَالَ بِصِفَاتِهِ)، وَلَمْ يَقُلْ: لَا زَالَ وَصِفَاتِهِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يُؤْذِنُ بِالْمُغَايَرَةِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ ﷺ فِي مُنَاظَرَتِهِ الْجَهْمِيَّةَ: «لَا نَقُولُ: اللَّهُ وَعِلْمُهُ، اللَّهُ وَقُدْرَتُهُ، اللَّهُ وَنُورُهُ، وَلَكِنْ نَقُولُ: اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَنُورِهِ، هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَإِذَا قُلْت: أَعُوذُ بِاللَّهِ، فَقَدْ عُذْت بِالذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَوْصُوفَةِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُقَدَّسِ الثَّابِتَةِ، الَّتِي لَا تَقْبَلُ الِانْفِصَالَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَإِذَا قُلْت: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ، فَقَدْ عُذْت بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَلَمْ أَعُذْ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُفْهَمُ مِنْ لَفْظِ «الذَّاتِ»، فَإِنَّ «ذَاتَ» فِي أَصْلِ مَعْنَاهَا لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا مُضَافَةً، أَيْ: ذَاتُ وُجُودٍ، ذَاتُ قُدْرَةٍ، ذَاتُ عِزٍّ، ذَاتُ عِلْمٍ، ذَاتُ كَرَمٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. فـ «ذَاتُ كَذَا»، بِمَعْنَى صَاحِبَةِ كَذَا: تَأْنِيثُ ذُو، هَذَا أَصْلُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ.

فَعُلِمَ أَنَّ الذَّاتَ لَا يُتَصَوَّرُ انْفِصَالُ الصِّفَاتِ عَنْهَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَإِنْ كَانَ الذِّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ ذَاتًا مُجَرَّدَةً عَنِ الصِّفَاتِ، كَمَا يَفْرِضُ الْمُحَالَ. وَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»(١). وَقَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»(٢). وَلَا يَعُوذُ ﷺ بِغَيْرِ اللَّهِ. وَكَذَا قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»(٣). وَقَالَ ﷺ: «وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا»(٤). وَقَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ»(٥).

---

قال الشيخ:

نبيِّن أوَّلًا بعض الشُّبهات التي يروِّجها أهل التَّعطيل نفاة صفات الله تعالى.

فمن شبهاتهم: قولهم: إنَّ الله منزَّهٌ عن حلول الحوادث.

فإذا سمع ذلك الجاهل اعتقد أنَّهم صادقون، واعتقد أنَّ الله لا يجوز أن تحلَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وأحمد (٢/ ١٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٤٤) من حديث محمد بن كعب القرظي ﷺ، وأخرجه الطبراني في الدعاء (ص٣١٥) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

به الحوادث، فإذا سلَّم لهم بذلك ووافق عليه، قالوا: لا يجوز أن يُوصف بالكلام الحادث، ولا أن يحدث له غضب، ولا أن يحدث له رضى، ولا أن يحدث له كراهية أو سخط، وما أشبه ذلك، فينفون الأفعال الاختيارية وصفات الأفعال بحجَّة أنَّها حادثةٌ، والحادث لا يُوصف به الرَّبُّ، وعندهم أنَّ الرَّبَّ قديمٌ لم يحدث منه شيءٌ، ولا يجوز أن يُوصف بصفةٍ تحدث، وهذا خطأٌ.

فيُقال لهم: ماذا تريدون؟! إن أردتم أنَّ الله لا يحدث له صفةٌ لم تكن موجودةً في الأزل؛ فهذا صحيحٌ؛ لأنَّ الله تعالى يسمَّى خالقًا قبل وجود المخلوقين، ورازقًا قبل أن يكون هناك من يرزق، وهو المحيي والمميت قبل أن يوجد الخلق الذي يحيي فيهم من يشاء ويميت فيهم من يشاء، يعني: أنَّ صفاته متَّصفٌ بها بالفعل أزلًا وإن لم تكن موجودةً، فإنَّ الذي يكون قادرًا على الفعل يصحُّ أن يوصف به ولو لم يزاوله، فإذا رأيت إنسانًا ساكتًا صامتًا، قلت: هذا الإنسان متكلِّمٌ، يعني: ليس أخرس ولو كان في تلك الحال صامتًا، يعني: أنَّه متكلِّم بالقوَّة، فكذلك يقال: الله محيي، يعني: يحيي ويميت، فهو سبحانه مُتَّصف بصفة القدرة على الإحياء والإماتة والرِّزق والخلق والتصرُّف والتَّدبير قبل أن توجد المخلوقات، ولكن بعد وجود هذه المخلوقات فإنَّ الله تعالى يميت من يشاء، ويحيي من يشاء، ويرزق هذا، ويفقر هذا، ويغني هذا، ويصحُّ هذا، ويسقم هذا، ويرفع هذا، ويخفض هذا، وكلُّ هذه صفاتٌ حادثةٌ، فأصل الصِّفة موجودٌ ليس بحادثٍ، ومفرداتها حادثةٌ.

كذلك نقول: الله تعالى متكلِّمٌ في الأزل، ويتكلَّم إذا شاء، وليس معنى ذلك

أنَّه تكلَّم أزلًا ثم انقطع كلامه، بل كلام الله قديمُ النوعِ حادثُ الآحادِ.

**ومن شبهاتهم قولهم: إنَّ صفات الله زائدةٌ عن ذاته.**

وهذه شبهةٌ باطلةٌ، فليست صفاته زائدةً عن ذاته، بل صفات الله من ذاته، وهو واحدٌ بصفاته، ولا يلزم من إثبات الصِّفات تعدُّد القدماء كما يقولون، فليس هناك تعدُّدٌ؛ وذلك أنهم يقولون: إذا قلنا: ذات الرَّبِّ قديمةٌ، وسمعه قديمٌ، وبصره قديمٌ، وعلمه قديمٌ، وقدرته قديمةٌ؛ لا نكون أثبتنا واحدًا، بل أثبتنا عددًا، هكذا قالوا.

وهذه شبهةٌ باطلةٌ، فإنَّ الله تعالى واحدٌ بصفاته، فليست الصِّفات خارجةً عن الذَّات، ولا يُتصوَّر أن تكون هناك ذاتٌ مجرَّدةٌ عن جميع الصِّفات، ولو لم يكن إلاَّ صفة الوجود، التي هي ملازمةٌ لكلِّ موجودٍ؛ فلا يمكن أن يُفرض شيءٌ ليس له صفاتٌ وهو مع ذلك له ذاتٌ، بل كلُّ ذاتٍ يلزم أن تكون لها صفاتٌ.

**ومن شبهاتهم أيضًا قولهم: إن صفات الله غيره.**

وهي شبهةٌ باطلةٌ، فليست صفات الله تعالى غيره، بل صفاته من ذاته، ولله المَثَل الأعلى، فالمخلوق لا يُقال: إنَّ صفاته غيره، فإذا رأيت إنسانًا ـ مثلاً ـ فإنك لا تقول: جاء زيد ويداه ورجلاه ورأسه وظهره وبطنه وعيناه وأذناه، بل تقول: جاء زيد، وتدخل صفاته في ذاته وفي شخصه، فهو شيءٌ واحدٌ وشخصٌ واحدٌ بهذه الصِّفات، ولا يلزم من كونه ذا صفاتٍ أن يكون عددًا، فلا تقول: جاءني عشرة عينان وأذنان ويدان ورجلان وشفتان، بل شخصٌ واحدٌ مسمىً بهذا الاسم. والله ـ سبحانه وتعالى ـ ليست صفاته زائدةً عن ذاته، بل صفاته من ذاته،

فإذا اعتقد المسلم أنَّ الله موصوفٌ بهذه الصِّفات التي هي صفات كمالٍ؛ اعتقد مدلولها، فإذا اعتقد أنَّ الله يغضب حذر من أسباب الغضب، وإذا اعتقد أنَّه يرضى فعل أسباب الرِّضى، وإذا اعتقد أنَّه الذي يحيي ويميت دعا بذلك وعبده وعرف حقه، وإذا اعتقد أنَّه الذي يفقر ويغني ويمنع ويعطي عرف أنَّ العبادة لا تصلح إلَّا له ... وهكذا.

فمعرفة هذه الصِّفات تزيد العبد بصيرةً في دينه، وتحمله على التَّمسُّك بدينه، وعلى الإكثار من التَّقرُّب إلى الله تعالى بحقوقه.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: الِاسْمُ عَيْنُ الْمُسَمَّى أَوْ غَيْرُهُ؟ وَطَالَمَا غَلِطَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَجَهِلُوا الصَّوَابَ فِيهِ، فَالِاسْمُ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى تَارَةً، وَيُرَادُ بِهِ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَيْهِ أُخْرَى، فَإِذَا قُلْتَ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، أَوْ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى نَفْسُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحْمَنُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحمن مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَالِاسْمُ هَاهُنَا لِلْمُسَمَّى، وَلَا يُقَالُ: غَيْرُهُ، لِمَا فِي لَفْظِ الْغَيْرِ مِنَ الْإِجْمَالِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالْمُغَايَرَةِ أَنَّ اللَّفْظَ غَيْرُ الْمَعْنَى فَحَقٌّ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا اسْمَ لَهُ، حَتَّى خَلَقَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً، أَوْ حَتَّى سَمَّاهُ خَلْقُهُ بِأَسْمَاءٍ مِنْ صُنْعِهِمْ، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ وَالْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: (مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ...) إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ، إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الشِّيعَةِ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ اللهَ تَعَالَى صَارَ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ وَالْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَيْهِ، لِكَوْنِهِ صَارَ الْفِعْلُ وَالْكَلَامُ مُمْكِنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا، وَأَنَّهُ انْقَلَبَ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذَّاتِيِّ إِلَى الْإِمْكَانِ الذَّاتِيِّ! وَعَلَى ابْنِ كِلَابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُمَا، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ الْفِعْلَ صَارَ مُمْكِنًا لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا مِنْهُ.

وَأَمَّا الْكَلَامُ عِنْدَهُمْ فَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَازِمٌ لِذَاتِهِ.

وَأَصْلُ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ دَوَامَ الْحَوَادِثِ مُمْتَنِعٌ، وَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَوَادِثِ مَبْدَأٌ؛ لِامْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ

الْبَارِي - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَزَلْ فَاعِلًا مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ، بَلْ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُمْتَنِعِ مُمْتَنِعَةٌ! وَهَذَا فَاسِدٌ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ حُدُوثِ الْعَالَمِ وَهُوَ حَادِثٌ، وَالْحَادِثُ إِذَا حَدَثَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُحْدَثًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا، وَالْإِمْكَانُ لَيْسَ لَهُ وَقْتٌ مَحْدُودٌ، وَمَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدَّرُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ فِيهِ، فَلَيْسَ لِإِمْكَانِ الْفِعْلِ وَجَوَازِهِ وَصِحَّتِهِ مَبْدَأٌ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَيَجِبُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْفِعْلُ مُمْكِنًا جَائِزًا صَحِيحًا، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الرَّبُّ قَادِرًا عَلَيْهِ، فَيَلْزَمُ جَوَازُ حَوَادِثَ لَا نِهَايَةَ لِأَوَّلِهَا.

---

قال الشيخ:

لما ذكر صاحب المتن قِدَم الصِّفات أو قِدَم أسماء الله التي هي في الأصل تتضمَّن صفات، فالرزَّاق مثلًا يستلزم أن يكون هناك مرزوق، والخالق يستلزم أن يكون هناك مخلوقون، وكذلك المحيي والمميت يلزم منه أن يكون هناك من يحييهم ومن يميتهم، وكذلك اسم العلم يلزم أن يكون هناك ما يعلمه، وهكذا المعزُّ والمذلُّ، والخافض والرافع، والمعطي والمانع، لا شك أنَّها أسماءٌ لها آثارٌ في الخلق، فآثارها كونه يعطي هذا، ويمنع هذا، ويحرم هذا، ويحيي هذا، ويميت هذا، ويعزُّ هؤلاء، ويذلُّ هؤلاء، ويخفض قومًا، ويرفع آخرين.

هذه الصِّفات وهذه الأسماء موصوفٌ بها الرَّبُّ تعالى في الأزل، قبل أن يُوجد الخلق، خلافًا لقول المعتزلة والجهميَّة والكلابيَّة ونحوهم، الذين يقولون: إنَّها حدثت بعد حدوث المخلوقات! وهذا خطأٌ، بل قولهم بامتناع حوادث لا أوَّل

لها، هذا من تقديرات المتكلِّمين، والأولى بنا عدم الخوض في مثل ذلك، وأن نقول: الله أعلم بالمخلوقات التي خلقها، ومتى ابتدأ خلقه، ولا نقول: إنَّ المخلوقات ليس لها مبدأ، لكن نعلم أنَّ ما سوى الله حادثٌ، وأنَّ الرَّبَّ تعالى قديمٌ أزليٌّ أوَّلٌ، ونعلم أنَّ حكمة الله تعالى في هذه الموجودات أنَّه أوجد هذا الكون بما فيه؛ ليُعرف بذلك قدره، ولتعرف بذلك أهليَّته للعبادة، وليعرف المسلمون بذلك أنَّهم مخلوقون للإسلام ومخلوقون لأداء حقوق ربِّهم سبحانه وتعالى، الذي هذا خلقه وهذا تكوينه، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١]، هكذا يجب أن يعتقد المسلم.

قال الشارح:

قَالَتِ الجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ: نَحْنُ لَا نُسَلِّمُ أَنَّ إِمْكَانَ الحَوَادِثِ لَا بِدَايَةَ لَهُ، لَكِنْ نَقُولُ: إِمْكَانُ الحَوَادِثِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مَسْبُوقَةً بِالْعَدَمِ لَا بِدَايَةَ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الحَوَادِثَ عِنْدَنَا تَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ قَدِيمَةَ النَّوْعِ، بَلْ يَجِبُ حُدُوثُ نَوْعِهَا وَيَمْتَنِعُ قِدَمُ نَوْعِهَا، لَكِنْ لَا يَجِبُ الْحُدُوثُ فِي وَقْتٍ بِعَيْنِهِ، فَإِمْكَانُ الحَوَادِثِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مَسْبُوقَةً بِالْعَدَمِ لِأَوَّلِهِ، بِخِلَافِ جِنْسِ الحَوَادِثِ.

يُقَالُ لَهُمْ: هَبْ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ ذَلِكَ، لَكِنْ يُقَالُ: إِمْكَانُ جِنْسِ الحَوَادِثِ عِنْدَكُمْ لَهُ بِدَايَةٌ، فَإِنَّهُ صَارَ جِنْسُ الْحُدُوثِ عِنْدَكُمْ مُمْكِنًا، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا، وَلَيْسَ لِهَذَا الْإِمْكَانِ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ، بَلْ مَا مِنْ وَقْتٍ يُفْرَضُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ قَبْلَهُ، فَيَلْزَمُ دَوَامُ الْإِمْكَانِ، وَإِلَّا لَزِمَ انْقِلَابُ الْجِنْسِ مِنَ الِامْتِنَاعِ إِلَى الْإِمْكَانِ مِنْ غَيْرِ حُدُوثِ شَيْءٍ.

---

قال الشيخ:

هذه أيضًا شبهةٌ من شبهات المعتزلة أو الجهميَّة ونحوهم، ولا يحتاج المسلم إلى معرفة تفاصيل الردِّ عليهم في قولهم بأنَّ هذه حادثةٌ في وقت كذا وكذا، وذلك لأنَّا لا نعلم وقت حدوثها، ويمكن إذا قدَّرنا أنها حدثت مثلًا قبل مئة ألف سنة أن يقول قائلٌ: يمكن أنَّها حدثت قبل ذلك: بمئتين، ويقول آخر: يمكن أنَّها قبل ألفي سنة، ويقول آخر: يمكن أنَّها قبل ذلك بألوف. فإذًا ليس هناك وقتٌ يجزم العباد بأنَّه حدثت فيه هذه المحدثات، لكن نعرف أنَّها حادثةٌ، فالله تعالى ذكر أنَّه خلق

الإنسان بعد أن كان عدمًا، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[الإنسان:١]، يعني: معدومًا، وخلق الجنَّ بعد أن كانوا عدمًا، وخلق الملائكة بعد أن كانوا عدمًا أيضًا، وهكذا أيضًا خلق السَّمٰوات والأرض في ستَّة أيامٍ بعد أن لم تكن موجودةً، وهكذا سائر مخلوقات الله الذي ابتدأ خلقها.

ولا شكَّ أنَّه أوجد هذه الموجودات، وبثَّ هذه الدَّوابّ ـ مثلًا ـ على هذه الأرض، وخلق هذه الأنهار وهذه البحار والأشجار والثِّمار والآبار ونحو ذلك، فهو الذي ابتدأها بعد أن لم تكن موجودةً، ويمكن أنَّه خلق قبلها مخلوقاتٍ لا ندركها ولا نعلمها، فالله تعالى هو المنفرد بالخلق وبالتَّصرُّف، وإنَّما علينا أن نعتبر بما نرى، ونعرف أنَّ هذه الموجودات خُلقت لنأخذ منها دلالةً وعبرةً على أنَّ خالقها هو خالق كلِّ شيءٍ، وأنَّه بذلك مستحقٌّ للعبادة وحده، فنعبده، ونخلص العبادة له، ولا نتجاوز ذلك. هذا هو الأولى بالمسلم.

قال الشارح:

وَمَعْلُومٌ أَنَّ انْقِلَابَ حَقِيقَةِ جِنْسِ الْحُدُوثِ، أَوْ جِنْسِ الْحَوَادِثِ، أَوْ جِنْسِ الْفِعْلِ، أَوْ جِنْسِ الإِحْدَاثِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ هَذَا مِنَ الْعِبَارَاتِ مِنَ الِامْتِنَاعِ إِلَى الْإِمْكَانِ، هُوَ يُصَيِّرُ ذَلِكَ مُمْكِنًا جَائِزًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا مِنْ غَيْرِ سَبَبِ تَجَدُّدٍ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ.

وَهُوَ أَيْضًا انْقِلَابُ الْجِنْسِ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذَّاتِيِّ إِلَى الْإِمْكَانِ الذَّاتِيِّ، فَإِنَّ ذَاتَ جِنْسِ الْحَوَادِثِ عِنْدَهُمْ تَصِيرُ مُمْكِنَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُمْتَنِعَةً، وَهَذَا الِانْقِلَابُ لَا يَخْتَصُّ بِوَقْتٍ مُعَيَّنٍ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدَّرُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ قَبْلَهُ، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ هَذَا الِانْقِلَابُ مُمْكِنًا، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْمُمْتَنِعُ مُمْكِنًا! وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الِامْتِنَاعِ مِنْ قَوْلِنَا: لَمْ يَزَلِ الحَادِثُ مُمْكِنًا، فَقَدْ لَزِمَهُمْ فِيمَا فَرُّوا إِلَيْهِ أَبْلَغُ مِمَّا لَزِمَهُمْ فِيمَا فَرُّوا مِنْهُ! فَإِنَّهُ يُعْقَلُ كَوْنُ الحَادِثِ مُمْكِنًا، وَيُعْقَلُ أَنَّ هَذَا الْإِمْكَانَ لَمْ يَزَلْ، وَأَمَّا كَوْنُ الْمُمْتَنِعِ مُمْكِنًا فَهُوَ مُمْتَنِعٌ فِي نَفْسِهِ، فَكَيْفَ إِذَا قِيلَ: لَمْ يَزَلْ إِمْكَانُ هَذَا الْمُمْتَنِعِ؟! وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

---

قال الشيخ:

الممكن: هو الذي يتصور وجوده وحدوثه، والممتنع: هو ما لا يتصور العقل وجوده، أو ما لا يمكن أن يحدث، فالممتنعات: هي المستحيلات.

ومعلوم أن هذه المخلوقات كانت معدومة فوجدت لإمكان حدوثها، وأن هناك أشياء مستحيلة ولم تكن، وممتنعة ولم تحدث، مثل: الجمع بين الضدين،

فلا يمكن ـ مثلًا ـ أن يكون المكان الضيق مظلمًا ومنيرًا في وقت واحد، فلا يجتمع فيه النور والظلمة لكونهما ضدين، ولا يجتمع في وجه إنسان كونه أبيض وأسود، ولا في ثوبه ـ مثلًا ـ أنه أحمر وأبيض؛ لأن اجتماع الضدين من الممتنعات.

ومعلوم أن الله تعالى لا يعجزه شيء، وأنه قادر على أن يجمع بين الضدين، وقادر على أن يخلق المستحيل، ولكن جرت العادة بامتناع هذا في التصور، وأخبر بأنه قد يوجد بعض الأشياء مثل الأمور الغيبية؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤]، قد يقول قائل: مستحيل أن يكون الشيء لا ميتًا ولا حيًا، فيقال له: ليس بمستحيل، بل يمكن في قدرة الله أن يكون الشيء ميتًا حيًا في آن واحد، وإن كان المراد في هذه الآية أنه لا يحيا حياة يستلذ بها في النار، ولا يموت موتًا يستريح منه، بل هو متألم يتمنى الموت ولا يحصل له؛ لهذا السبب نفيت عنه الحياة والموت.

وعلى كل حال: وصف الرب سبحانه بالأفعال عام في أنه على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء، وأنه قادر على أن يجمع بين المختلفات، وأن يوجد المتضادات، ولكن جرت العادة بأن هذا الممتنع لم يحدث ولم نره مع قدرته على أن يحدثه.

قال الشارح:

فَالحَاصِلُ: أَنَّ نَوْعَ الحَوَادِثِ هَلْ يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي المُسْتَقْبَلِ وَالمَاضِي أَمْ لَا؟ أَوْ فِي المُسْتَقْبَلِ فَقَطْ؟ أَوِ المَاضِي فَقَطْ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ مَعْرُوفَةٍ لِأَهْلِ النَّظَرِ مِنَ المُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ:

أَضْعَفُهَا: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: لَا يُمْكِنُ دَوَامُهَا لَا فِي المَاضِي وَلَا فِي المُسْتَقْبَلِ، كَقَوْلِ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ، وَأَبِي الهُذَيْلِ العَلَّافِ.

وَثَانِيهَا: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي المُسْتَقْبَلِ دُونَ المَاضِي، كَقَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

وَالثَّالِثُ: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي المَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ، كَمَا يَقُولُهُ أَئِمَّةُ الحَدِيثِ، وَهِيَ مِنَ المَسَائِلِ الْكِبَارِ. وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي المَاضِي دُونَ المُسْتَقْبَلِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ جُمْهُورَ الْعَالَمِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ يَقُولُونَ: إِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مَخْلُوقٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا قَوْلُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنَ المَعْلُومِ بِالْفِطْرَةِ أَنَّ كَوْنَ المَفْعُولِ مُقَارِنًا لِفَاعِلِهِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مَعَهُ مُمْتَنِعٌ مُحَالٌ، وَلَمَّا كَانَ تَسَلْسُلُ الحَوَادِثِ فِي المُسْتَقْبَلِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الْآخِرَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، فَكَذَا تَسَلْسُلُ الحَوَادِثِ فِي المَاضِي لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ هُوَ الْأَوَّلَ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ. فَإِنَّ الرَّبَّ ـ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى - لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَكَلَّمُ إِذَا يَشَاءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٥، ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].

وَالْمُثْبَتُ إِنَّمَا هُوَ الْكَلام الْمُمْكِنُ الْوُجُودُ، وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ النَّوْعُ دَائِمًا فَالْمُمْكِنُ هُوَ التَّقَدُّمُ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ؛ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ شَيْءٌ يُقَارِنُهُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَأَمَّا دَوَامُ الْفِعْلِ فَهُوَ أَيْضًا مِنَ الْكَمَالِ، فَإِنَّ الْفِعْلَ إِذَا كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ فَدَوَامُهُ دَوَامُ الْكَمَالِ.

---

قال الشيخ:

الأفعال التي ذِكْرها ودوامها في الماضي، أو دوامها في المستقبل، أو في الماضي والمستقبل؛ هذه من الأمور الغيبيَّة، ومعنى دوامها في الماضي: أنَّ الله تعالى قديمٌ، وأنَّه لم يزل يَخلق، لم يكن في زمنٍ معطَّلًا عن الخلق، وغيرُ موجود خلق يدبِّرهم ويتصرَّف فيهم، وكذلك في المستقبل، يعني: أنَّه لا يزال موجودًا، وأنَّه بعدما يفنى

هذا الخلقُ يحييهم مرَّةً ثانيةً، ويبقى متصرِّفًا فيهم، يعلم أحوالهم وما يصيرون إليه، ويعذِّب من يشاء ويرحم من يشاء، ويعطي ويمنع، وتظهر آثار أفعاله على المخلوقات.

فلا شكّ أنَّ هذا ونحوه من جملة ما يعتقده المسلمون، ولكن ذهب بعض الفلاسفة إلى أنَّ هذا الوجود لم يُسبقْ بعدمٍ، وأنَّ هذا النَّوعَ الإنسانيَّ قديمٌ، ليس له بدايةٌ، وأنكروا أن يكون هناك بشرٌ اسمه آدم خُلق من ترابٍ، وأنكروا أن يكون لهذا الخلق نهاية، وأن تكون هناك السَّاعة التي تقوم، وأن يكون هناك النَّفخُ في الصُّور ... وما أشبه ذلك، أنكروا ذلك كلَّه، واعتقدوا أنَّ هذا النَّوع لم يزل، وأنَّ جنس هذا المخلوق أزليٌّ قديمٌ، وأنَّه مستمرٌّ بلا نهايةٍ.

**ولا شكَّ أنَّ هذا فيه إنكارٌ لعدة أمور:**

**أوَّلًا**: للأمور الغيبيَّة التي أخبر الله تعالى بها.

**ثانيًا**: إنكارٌ للجزاء على الأعمال التي أخبر الله بأنَّه يجازي عليها عباده في الآخرة.

**ثالثًا**: إنكارٌ لشرع الله عزَّ وجلَّ، وأوامره ونواهيه، وأحكامه التي حكم بها على العباد.

وإنكار ذلك بلا شكٍّ يُخرج من الملَّة، والواجب على المسلم أن يكون معتقدًا لما أخبر الله به؛ من كونه هو الحيَّ القيُّوم الذي لم يزل ولا يزال، ومن كونه هو المتَّصفَ بالخلق وبالتَّصرُّف وبالتَّدبير لشؤون العباد، ويعتقد أيضًا أنَّه هو المتفرِّد بإيجادهم وحده ولم يكن هناك من أوجدهم غيره.

وكونه يعتقد أنَّ قبلهم خلقٌ غيرهم، وقبل الخلق خلقٌ، وقبل الأوَّلين أوَّلون، هذا من الأمور الغيبيَّة التي لم يُطْلعنا الله عليها، فالله أعلم بمن كان قبل ذلك، وبأفعاله قبل ذلك، إلَّا أنَّنا نعتقد أنَّه موصوفٌ بهذه الصِّفات، وإن لم تظهر آثارها، كما مر بنا في قول الماتن: (لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الخَلْقِ اسْتَفَادَ اسم الخَالِقِ، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسم الْبَارِي)، بل هو مُتسمَّى بالخالق قبل أن يبدأ بالخلق، ومتسمَّى بالرَّازق قبل أن يُوجد الخلق الذين يرزقهم؛ لأنَّه خالق بالقوَّة وإن لم يكن خالقًا بالفعل.

ونتوقَّف عن تسلسل الحوادث في الماضي، ونقول: الأمر غيبٌ، ولم يخبرنا الله تعالى بشيءٍ من ذلك، وليس لنا التَّدخُّلُ في هذه الأمور؛ لأنَّها من الأمور التي لا يضرُّ جهلها، ولا يُفيد علمها، وقد تُوقِعُ في شيءٍ من الحيرة والاضطراب، والمسلم عليه أن يقتصر على ما فيه فائدةٌ له في العقيدة، وأن يعتقد ما ينفعه، ويكون دافعًا له لمعرفة ربِّه بأسمائه وصفاته، وإلى التقرُّب إلى الله تعالى بموجب تلك الأسماء.

قال الشارح:

قَالُوا: وَالتَّسَلسُلُ لفظٌ مُجْمَلٌ، لمْ يَرِدْ بِنَفْيِهِ وَلا إِثْبَاتِهِ كِتَابٌ وَلا سُنَّةٌ، ليَجِبَ مُرَاعَاةُ لفْظِهِ، وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلى: وَاجِبٍ وَمُمْتَنِعٍ وَمُمْكِنٍ.

فَالتَّسَلسُلُ فِي المُؤَثِّرِينَ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لذَاتِهِ، وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ مُؤَثِّرُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ اسْتَفَادَ تَأْثِيرَهُ مِمَّا قَبْلَهُ لا إِلى غَايَةٍ.

وَالتَّسَلسُلُ الوَاجِبُ: مَا دَل عَلَيْهِ العَقْلُ وَالشَّرْعُ، مِنْ دَوَامِ أَفْعَالِ الرَّبِّ تَعَالى فِي الأَبَدِ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا انْقَضَى لأَهْلِ الجَنَّةِ نَعِيمٌ أَحْدَثَ لَهُمْ نَعِيمًا آخَرَ لا نَفَادَ لهُ، وَكَذَلكَ التَّسَلسُلُ فِي أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ طَرَفِ الأَزَلِ، وَأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ مَسْبُوقٌ بِفِعْلٍ آخَرَ، فَهَذَا وَاجِبٌ فِي كَلامِهِ، فَإِنَّهُ لمْ يَزَل مُتَكَلمًا إِذَا شَاءَ، وَلمْ تَحْدُثْ لهُ صِفَةُ الكَلامِ فِي وَقْتٍ، وَهَكَذَا أَفْعَالُهُ التِي هِيَ مِنْ لوَازِمِ حَيَاتِهِ، فَإِنَّ كُلَّ حَيٍّ فَعَّالٌ، وَالفَرْقُ بَيْنَ الحَيِّ وَالمَيِّتِ: الفِعْلُ، وَلهَذَا قَال غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلفِ: الحَيُّ الفَعَّالُ، وَقَال عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ: «كُلُّ حَيٍّ فَعَّالٌ، وَلمْ يَكُنْ رَبُّنَا تَعَالى قَطُّ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ مُعَطَّلًا عَنْ كَمَالِهِ، مِنَ الكَلامِ وَالإِرَادَةِ وَالفِعْلِ»[1].

---

قال الشيخ:

قوله: (قَالُوا: وَالتَّسَلسُلُ لفْظٌ مُجْمَلٌ)، يريد هنا بالتسلسل أن الخالق قد يكون له خالق، ثم ذلك الخالق قد يكون له خالق، وهكذا يحصل التسلسل،

---

(١) ذكر ذلك الأثر ابن القيم في شفاء العل.. (ص١٥٦).

ولاشك أنه لفظ مجمل، وحيث إنه ما ورد نفيه ولا إثباته لا في القرآن ولا في الحديث الصحيح، فيجب أن نتوقف عنه، ولو ورد لوجب علينا مراعاة ذلك اللفظ، ثم ذكر أن التسلسل ينقسم إلى: واجب وممتنع وممكن.

قوله: (**فَالتَّسَلسُلُ فِي المُؤَثِّرِينَ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لذَاتِهِ**)، هكذا يجب أن نتوقف عن هذا حيث لم يرد بإثباته دليل صحيح يُرجع إليه، فنحن نؤمن بأن الله تعالى خالق الخلق، وأن ربَّنا ـ جل وعلا ـ قديمٌ لم يُسبق بعدم، فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته.

قوله: (**وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ مُؤَثِّرُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ اسْتَفَادَ تَأْثِيرَهُ مِمَّا قَبْلَهُ لا إِلى غَايَةٍ**)، فإن هذا أيضًا قد يؤدي إلى الحيرة.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ مفصلاً لأنواع التسلسل: (**وَالتَّسَلسُلُ الوَاجِبُ: مَا دَل عَلَيْهِ العَقْلُ وَالشَّرْعُ، مِنْ دَوَامِ أَفْعَالِ الرَّبِّ تَعَالى فِي الأَبَدِ، وَأَنَّهُ كُلمَا انْقَضَى لأَهْلِ الجَنَّةِ نَعِيمٌ أَحْدَثَ لَهُمْ نَعِيمًا آخَرَ لا نَفَادَ لَهُ**)، فهذا يجب أن يعتبره المسلمون، فقد دل العقل والشرع أن أفعال الرب تعالى ليس لها نهاية بل هي أبدية، أفعاله التي وصف بها نفسه ليس لها نهاية، كلما فعل شيئًا فإنه يفعل أيضًا مثله أو ما يشابهه، فهكذا، ومن ذلك تسلسل نعيم أهل الجنة؛ حيث أخبر الله تعالى بأن لهم نعيمًا مقيمًا لا يتغير ولا يزول، كلما نفد وانقضى النعيم لهم أُحدث لهم نعيم آخر، وهكذا يستمر بقاؤهم إلى غير نهاية، ويُقال كذلك أيضًا في النار، أنها باقية على القول الراجح، وأن قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ

﴿أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣]، أي: أحقابًا لا تتناهى، يقول العلماء: كلما انتهى حقب ابتدأ حقب إلى ما لا نهاية له، هكذا.

يقول ـ رحمه الله ـ: (وَكَذَلِكَ التَّسَلسُلُ فِي أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ طَرَفِ الأَزَل، وَأَنَّ كُل فِعْلٍ مَسْبُوقٌ بِفِعْلٍ آخَرَ)، هذا أيضًا من التسلسل الواجب.

قوله: (فَهَذَا وَاجِبٌ فِي كَلامِهِ)؛ لأن الله ذكر أن كلامه لا نهاية له، لو كانت شجر الدنيا كلها من أولها إلى آخرها أقلام، وكانت البحار ومثلها معها مرارًا مدادًا، فكُتب بتلك الأقلام، وبتلك البحار لتكسرت الأقلام، ولنفدت البحار قبل أن تنفد كلمات ربي، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «الوابل الصيب»[1]: «وكيف تفنى كلماته ـ عز وجل ـ وهي لا بداية لها ولا نهاية، والمخلوق له بداية ونهاية»، فنعتقد أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأن كلامه قديم النوع ليس له مبتدأ، وكذلك متجدد الآحاد، وليس له أيضًا نهاية، إذا لم تحدث له صفة الكلام بعد أن كان غير متكلم.

وكذلك الكثير من الأفعال، متصف بها قبل أن يوجد من يفعله بها، فهو الرزاق قبل أن يوجد الذين يرزقهم، وهو الخالق قبل أن يوجد المخلوقون، وهو المعطي المانع قبل أن توجد آثار هذه الأفعال.

قوله: (وَهَكَذَا أَفْعَالُهُ التِي هِيَ مِنْ لوَازِمِ حَيَاتِهِ...)، أي: هكذا أفعال الله من لوازم حياته، فمن لوازم ذلك أنه يحي ويميت، وأنه يمنع ويعطي، ويصل

---

(١) (ص٩٠).

ويقطع، ويخفض ويرفع، ويسعد ويشقي، ويميت ويحيي، هذه من لوازم حياته، وهذه أفعال قائمة به، ولم تكن مسبوقة بعدم، ولم يكن لها شيء سابق أبدًا.

يقول ـ رحمه الله ـ: (فَإِنَّ كُلَّ حَيٍّ فَعَّالٌ)، لما ذكر الله تعالى من أسمائه الحي في قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]، عُرف أنه فعال، أثبت الله ذلك بقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦].

قوله: (وَالفَرْقُ بَيْنَ الحَيِّ وَالمَيِّتِ: الفِعْلُ)، فالميت ليس له فعل، وليس له حركة، وأما الحي فإنه يتصرف كما يشاء بحسب قدرته، والله على كل شيء قدير، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فكونه حيًا بمعنى فعال، كما قال ذلك كثير من السلف وعلماء الأمة؛ وهكذا أيضًا قال ذلك عثمان بن سعيد الدارمي ـ رحمه الله ـ وله مسند كبير وله رد على بشر المريسي، ورد أيضًا على الجهمية، وكلا الردين مطبوع، يقول: «كُلُّ حَيٍّ فَعَّالٌ، وَلَمْ يَكُنْ رَبُّنَا تَعَالَى قَطُّ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ مُعَطَّلًا عَنْ كَمَالِهِ»، لم يكن في وقت من الأوقات معطلاً عن التصرف عن الأفعال التي يفعلها، يعني أنه فعال لما يريد، فلم يكن في وقت من الأوقات معطلاً عن الكلام، ولا عن الإحياء والإماتة، ولا عن العطاء والمنع، ولا عن الخفض والرفع، ولا عن الوصل والقطع .. ونحو ذلك، بل إنه متصف بالكلام دائمًا، وبالإرادة دائمًا، فعال لما يريد، وبالأفعال دائمًا.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَأَمَّا التَّسَلسُلُ الْمُمْكِنُ: فَالتَّسَلسُلُ فِي مَفْعُولاتِهِ مِنْ هَذَا الطَّرَفِ، كَمَا تَتَسَلسَلُ فِي طَرَفِ الأَبَدِ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَزَل حَيًّا قَادِرًا مُرِيدًا مُتَكَلِّمًا، وَذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ فَالفِعْلُ مُمْكِنٌ لَهُ بِمُوجِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُ، وَأَنْ يَفْعَل أَكْمَلُ مِنْ أَنْ لا يَفْعَل، وَلا يَلزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَزَل الخَلقُ مَعَهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَقَدِّمٌ عَلى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَقَدُّمًا لا أَوَّل لَهُ، فَلكُل مَخْلُوقٍ أَوَّلُ، وَالخَالقُ سُبْحَانَهُ هو الأول الذي ليس قبله شيء فلا أَوَّل لَهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الخَالقُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَأَمَّا التَّسَلسُلُ الْمُمْكِنُ)، أي: هذا التسلسل الممكن الذي يكون لمفعولاته سبحانه وتعالى.

قوله: (مِنْ هَذَا الطَّرَفِ)، أي: من طرف الأزل، يعني: السبق، أي: التسلسل لمفعولاته في الأزل، وكذلك أيضًا في طرف الأبد، بما أنه دائمًا يخلق ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، ويتصرف إلى ما لا نهاية له.

قوله: (إِذَا لَمْ يَزَل حَيًّا قَادِرًا مُرِيدًا مُتَكَلِّمًا، وَذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ فَالفِعْلُ مُمْكِنٌ لَهُ بِمُوجِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُ)، يعني: الفعل الذي هو: الحياة والقدرة والتكلم والإرادة، وتجدد المعلومات يعني: علمه بما كان وبما لم يكن فإذا لم يزل

متصفًا بهذه الصفات: الحياة والقدرة والإرادة والكلام ونحوها فالفعل ممكن له، بوجوب هذه الصفات له، إذا أوجبنا هذه الصفات فكذلك الأفعال.

قوله: (أَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِنْ أَنْ لا يَفْعَلَ)، يعني: كونه يتصف بالفعل أكمل من كونه معطلاً عن الفعل.

يقول: (وَلا يَلزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَزَل الخَلقُ مَعَهُ)؛ لأنه سبحانه هو الأول ليس قبله شيء، ولكن لا يلزم أن يكون معطلاً عن الفعل، ولا يلزم أن يكون المخلوقون من البشر ونحوهم معه في الأزل، نعتقد أنه سبحانه هو الأول، وأنه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدمًا لا أول له، فإذا كان هو الأول فلا يكون معه في الأزل من مخلوقاته إلا ما خلقه وأراده، فهو متقدم على كل مخلوقات أفراده، فلكل مخلوق أول، المخلوق له بداية، أما الخالق سبحانه فليس له بداية ولا أول له، هو وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق، كل ما سواه كائن بعد أن لم يكن، موجود بعد أن كان معدومًا.

قال الشارح:

قَالُوا: وَكُلُّ قَوْلٍ سِوَى هَذَا فَصَرِيحُ العَقْلِ يَرُدُّهُ وَيَقْضِي بِبُطْلانِهِ، وَكُلُّ مَنِ اعْتَرَفَ بِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالى لَمْ يَزَل قَادِرًا عَلى الفِعْلِ لزِمَهُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ، لا بُدَّ لهُ مِنْهُمَا:

إِمَّا أَنْ يَقُول بِأَنَّ الفِعْلَ لَمْ يَزَل مُمْكِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَقُول لَمْ يَزَل وَاقِعًا.

وَإِلا تَنَاقَضَ تَنَاقُضًا بَيِّنًا، حَيْثُ زَعَمَ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالى لَمْ يَزَل قَادِرًا عَلى الفِعْلِ، وَالفِعْلُ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لذَاتِهِ، لوْ أَرَادَهُ لَمْ يُمْكِنْ وُجُودُهُ، بَل فَرْضُ إِرَادَتِهِ عِنْدَهُ مُحَالٌ وَهُوَ مَقْدُورٌ لهُ. وَهَذَا قَوْلٌ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

---

قال الشيخ:

أورد الشارح هذا الدليل العقلي، فيقول: كل قول غير هذا الذي تقدم يرده العقل الصريح، ويقضي ببطلانه بمجرد العقل.

يقول: (كُلُّ مَنِ اعْتَرَفَ بِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالى لَمْ يَزَل قَادِرًا عَلى الفِعْلِ)، أي: أنه في الأول لم يزل قادرًا على الفعل، فيلزمه أحد أمرين لابد له من أحدهما أو منهما: (إِمَّا أَنْ يَقُول بِأَنَّ الفِعْلَ لَمْ يَزَل مُمْكِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَقُول لَمْ يَزَل وَاقِعًا)، إذا لم يقل بالقولين تناقض تناقضًا بينًا، ومعنى كون الفعل ممكنًا أي: أن الأفعال في الأزل ممكنة للرب سواء فعلها أو لا، وكذلك أيضًا الأفعال قد يُقال: إنها لا تزال واقعة، فمن ادعى أن الله تعالى لم يكن متمكنًا من الأفعال أو أنها لم تكن واقعة فلابد أنه يتناقض تناقضًا بينًا، (حَيْثُ زَعَمَ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالى لَمْ يَزَل قَادِرًا عَلى الفِعْلِ، وَالفِعْلُ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لذَاتِهِ)، كيف يكون قادرًا على الفعل ومع ذلك

يقول: الفعل محال ممتنع إيقاعه، ممتنع لذاته، لو أراده ما تمكن من وجوده، هكذا يكون التناقض، يقول بالفرض إرادة أنه محال، فرض أنه يريده وأنه يريد فعله محال مع كونه مجبورًا له، يقول: (إن قَوْلٌ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا)، أي: يتناقض الذين يقولون بخلاف هذا.

قال الشارح:

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ الذِي دَل عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَالعَقْلُ، أَنَّ كُل مَا سِوَى الله تَعَالى مُحْدَثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لمْ يَكُنْ، أَمَّا كَوْنُ الرَّبِّ تَعَالى لمْ يَزَل مُعَطَّلاً عَنِ الفِعْل ثُمَّ فَعَل، فَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ وَلا فِي العَقْل مَا يُثْبِتُهُ، بَل كِلاهُمَا يَدُلُّ عَلى نَقِيضِهِ.

وَقَدْ أَوْرَدَ أَبُو المَعَالِي فِي (إِرْشَادِهِ)[1]، وَغَيْرُهُ مِنَ النُّظَّارِ عَلى التَّسَلسُل فِي المَاضِي، فَقَالُوا: إِنَّكَ لوْ قُلتَ: لا أُعْطِيكَ دِرْهَمًا إِلا أُعْطِيكَ بَعْدَهُ دِرْهَمًا، كَانَ هَذَا مُمْكِنًا، وَلوْ قُلتَ: لا أُعْطِيكَ دِرْهَمًا حَتَّى أُعْطِيَكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا، كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا.

---

قال الشيخ:

كون الرب تعالى معطلًا عن الفعل ثم فعل، هذا من الأمور الغيبية لم يرد في الشرع ما يثبته، ولا في العقل أيضًا، بل الشرع والعقل يدلان على نقيضه أنه سبحانه لم يكن معطلاً عن الفعل ثم قدر، هكذا.

قوله: (وَقَدْ أَوْرَدَ أَبُو المَعَالِي)، أبو المعالي هو: عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني النيسابوري الشافعي - رحمه الله - الذي يُعرف بإمام الحرمين، مات سنة أربعمائة وثمان وسبعين، له كتاب (الإرشاد) الذي نقل منه المؤلف، وهكذا أيضًا قاله غيره من النظار أوردوا على التسلسل في الماضي، وقالوا: إنه

---

(١) (ص٢٦، ٢٧).

لا يمكن في حق الإنسان، أما في المستقبل فإنه ممكن، إذا قلت: لا أعطيك درهمًا إلا أعطيتك بعده درهمًا، كان هذا ممكنًا، بأن تعطيه في اليوم الأول درهمًا، ثم تستمر كل يوم تعطيه درهمًا ما دمت حيًا، وأما لو قلت: لا أعطيك درهمًا حتى أعطيك قبله درهمًا. فإن هذا ممتنع؛ لأنك إذا أعطيته الدرهم الأول، فقد يمتنع أن تكون قد أعطيته قبله شيئًا من الدراهم، فالتسلسل في المستقبل ممكن في حق الإنسان وأما في الماضي فليس ممكنًا في حق الإنسان على هذا التمثيل.

قال الشارح:

وَهَذَا التَّمْثِيلُ وَالْمُوَازَنَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ، بَل الْمُوَازَنَةُ الصَّحِيحَةُ أَنْ تَقُول: مَا أَعْطَيْتُكَ دِرْهَمًا إِلا أَعْطَيْتُكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا، فَتَجْعَلُ مَاضِيًا قَبْل مَاضٍ، كَمَا جَعَلتَ هُنَاكَ مُسْتَقْبَلا بَعْدَ مُسْتَقْبَلٍ. وَأَمَّا قَوْلُ القَائِل: لا أُعْطِيكَ حَتَّى أُعْطِيَكَ قَبْلَهُ، فَهُوَ نَفْيٌ للمُسْتَقْبَل حَتَّى يَحْصُل فِي الْمُسْتَقْبَل وَيَكُونُ قَبْلَهُ، فَقَدْ نَفَى الْمُسْتَقْبَل حَتَّى يُوجَدَ الْمُسْتَقْبَلُ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ، أَمَّا نَفْيُ المَاضِي حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهُ مَاضٍ، فَإِنَّ هَذَا مُمْكِنٌ. وَالعَطَاءُ الْمُسْتَقْبَلُ ابْتَدَاؤُهُ مِنَ المعطي والْمُسْتَقْبل الذِي لهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ لا يَكُونُ قَبْلَهُ مَا لا نِهَايَةَ لهُ، فَإِنَّ مَا لا نِهَايَةَ لهُ فِيمَا يَتَنَاهَى مُمْتَنِعٌ.

---

قال الشيخ:

رد بذلك على الذي يقول: لا أعطيك درهمًا حتى أعطيك قبله درهمًا. أن هذا يكون ممتنعًا؛ وذلك لأنه لا يمكن أن يعطيه الدرهم الأول؛ لأنه يقول: ما أعطيتك قبل هذا شيئًا، فلا أعطيك إلا إذا كنت أعطيتك، فمتى كنت قد أعطيتك أعطيتك ثانيًا.

فيقول: (هَذَا التَّمْثِيلُ وَالْمُوَازَنَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ، بل الْمُوَازَنَةُ الصَّحِيحَةُ أَنْ تَقُول: مَا أَعْطَيْتُكَ)، أي: بلفظ الماضي (دِرْهَمًا إِلا أَعْطَيْتُكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا)، فتجعل الماضي قبل الماضي، أي: أنني أعطيتك الآن درهمًا وكنت قبله قد أعطيتك درهمًا مثله، (فَتَجْعَلُ مَاضِيًا قَبْل مَاضٍ، كَمَا جَعَلتَ هُنَاكَ مُسْتَقْبَلا بَعْدَ مُسْتَقْبَلٍ).

قولـه: (وَأَمَّـا قَـوْلُ القَائِـل: لا أُعْطِيـكَ حَتَّـى أُعْطِيَـكَ قَبْلَـهُ، فَهُـوَ نَفْـيٌ للمُسْتَقْبَل حَتَّى يَحْصُل فِي المُسْتَقْبَل وَيَكُـونُ قَبْلَهُ)، يعنـي: أن هـذا غـير ممكـن، لا أعطيك حتى أعطيك قبله فليس في الإمكان.

قوله: ( فَقَدْ نَفَى المُسْتَقْبَل حَتَّى يُوجَدَ المُسْتَقْبَلُ، وَهَـذَا مُمْتَنِـعٌ)، بخـلاف (نَفْيُ المَاضِي حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهُ مَاضٍ، فَإِنَّ هَذَا مُمْكِنٌ).

قوله: (وَالعَطَاءُ المُسْتَقْبَلُ ابْتِدَاؤُهُ مِنَ المعطي. والمُسْتَقْبل الـذِي لـهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ لا يَكُونُ قَبْلَهُ مَا لا نِهَايَةَ لهُ، فَإِنَّ مَا لا نِهَايَةَ لهُ فِيمَا يَتَنَـاهَى مُمْتَنِعٌ)، ويُحال ها هنا إلى كتاب ابن تيمية الذي هـو «درء تعـارض النقـل والعقـل»[1]، والـذي يقول فيه ابن القيم[2]:

وَاقْرَأ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي  مَا فِي الْوُجُـودِ لَـهُ نَظِيرٌ ثَـانِ

فيكون هذا الكلام موضحًا فيه.

---

(١) (٩/ ١٧٧ ـ ١٩٠).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٩٠).

قال الطحاوي ـ رحمه الله ـ:

لَيْسَ بَعْدَ خَلقِ الخَلقِ اسْتَفَادَ اسم «الخَالق»، وَلا بِإِحْدَاثِهِ البَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسم «البَارِي».

---

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

ظَاهِرُ كَلامِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ أَنَّهُ يَمْنَعُ تَسلسُل الحَوَادِثِ فِي المَاضِي، وَيَأْتِي فِي كَلامِهِ مَا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ لا يَمْنَعُهُ فِي المُسْتَقْبَل، وَهُوَ قَوْلُهُ: (وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ لا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلا تَبِيدَانِ)، وَهَذَا مَذْهَبُ الجُمْهُورِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلا شَكَّ فِي فَسَادِ قَوْل مَنْ مَنَعَ ذَلكَ فِي المَاضِي وَالمُسْتَقْبَل، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الجَهْمُ وَأَتْبَاعُهُ، وَقَال بِفَنَاءِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، لَمَا يَأْتِي مِنَ الأَدِلةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَال بِجَوَازِ حَوَادِثَ لا أَوَّل لَهَا، مِنَ القَائِلينَ بِحَوَادِثَ لا آخِرَ لَهَا فَأَظْهَرُ فِي الصِّحَّةِ مِنْ قَوْل مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَل حَيًّا، وَالفِعْلُ مِنْ لوَازِمِ الحَيَاةِ، فَلَمْ يَزَل فَاعِلاً لِمَا يُرِيدُ، كَمَا وَصَفَ بِذَلكَ نَفْسَهُ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٥، ١٦].

---

قال الشيخ:

يُفهم من كلام الطحاوي ـ رحمه الله ـ أنه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي، والله تعالى أخبر بأنه خالق الخلق، وأنه مستحق لاسم الخالق قبل أن

يوجد أي مخلوق، فيمتنع تسلسل الحوادث في الماضي، وسوف يأتي في كلام الطحاوي ما يدل على أنه لا يمتنع تسلسل الحوادث في المستقبل، لما ذكر الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان ولا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، وهذا مذهب الجمهور.

قوله: (**وَلا شَكَّ فِي فَسَادِ قَوْلِ مَنْ مَنَعَ ذَلكَ فِي المَاضِي وَالمُسْتَقْبَل**)، أي: مَنْ منع مِن تسلسل الحوادث في المستقبل، الذي هو قول الجهم الذي هو رئيس الجهمية، وكذلك أتباعه الذين يقولون بفناء الجنة والنار، وسيأتي أدلة تبطل قولهم.

قوله: (**وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَال بِجَوَازِ حَوَادِثَ لا أَوَّل لَهَا...**)، أي: يقول ـ رحمه الله ـ: إن قول من قال بجواز حوادث لا أول لها، من الذين يقولون بحوادث لا آخر لها، فإنه قول صحيح، حوادث لا أول لها أظهر في الصحة من قول من فرق بينهما؛ وذلك لأننا نعتقد أن الله ـ سبحانه ـ حيٌّ لم يزل حيًا، ومعلوم أن الأفعال من لوازم الحياة، والحي لابد أن يكون له أفعال، فلم يزل فعَّالاً لما يريد، يعني: الله تعالى قديم بأفعاله، ولم يزل موصوفًا بأنه فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، فقد وصف نفسه بذلك في قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾، أي: رب العرش المجيد، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، و(المَجِيدُ) صفة للرب سبحانه ليست صفة للعرش؛ ولذلك جاءت مرفوعة، و(فَعَّالٌ)، صفة للرب لكل ما يريد، أي: لكل ما يريده من الحوادث وما أشبهها.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلى أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالى يَفْعَلُ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَزَل كَذَلِكَ؛ لأَنَّهُ سَاقَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ المَدْحِ وَالثَّنَاءِ عَلى نَفْسِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ، وَلا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَادِمًا لِهَذَا الكَمَالِ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]، وَلَمَّا كَانَ مِنْ أَوْصَافِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلالِهِ أنه الخالق لَمْ يَكُنْ حَادِثًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَعَلَهُ، فَإِنَّ (مَا) مَوْصُولَةٌ عَامَّةٌ، أَيْ: يَفْعَلُ كُلَّ مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، وَهَذَا فِي إِرَادَتِهِ المُتَعَلِّقَةِ بِفِعْلِهِ. وَأَمَّا إِرَادَتُهُ المُتَعَلِّقَةُ بِفِعْلِ العَبْدِ فَتِلْكَ لَهَا شَأْنٌ آخَرُ: فَإِنْ أَرَادَ فِعْلَ العَبْدِ وَلَمْ يُرِدْ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَيْهِ وَيَجْعَلَهُ فَاعِلًا لَمْ يُوجَدِ الفِعْلُ وَإِنْ أَرَادَهُ حَتَّى يُرِيدَ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا، وَهَذِهِ هِيَ النُّكْتَةُ التِي خَفِيَتْ عَلى القَدَرِيَّةِ وَالجَبْرِيَّةِ، وَخَبَّطُوا فِي مَسْأَلَةِ القَدَرِ؛ لِغَفْلَتِهِمْ عَنْهَا، وَفَرْقٌ بَيْنَ إِرَادَتِهِ أَنْ يَفْعَلَ العَبْدُ وَإِرَادَته أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا.

وَسَيَأْتِي الكَلامُ عَلى مَسْأَلَةِ القَدَرِ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالى.

الرَّابِعُ: أَنَّ فِعْلَهُ وَإِرَادَتَهُ مُتَلازِمَانِ، فَمَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ فَعَلَ، وَمَا فَعَلَهُ فَقَدْ أَرَادَهُ. بِخِلافِ المَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ مَا لا يَفْعَلُ، وَقَدْ يَفْعَلُ مَا لا يُرِيدُهُ. فَمَا ثَمَّ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ إِلا اللهُ وَحْدَهُ.

الخَامِسُ: إِثْبَاتُ إِرَادَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِحَسَبِ الأَفْعَالِ، وَأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ لَهُ إِرَادَةٌ تَخُصُّهُ، هَذَا هُوَ المَعْقُولُ فِي الفِطَرِ، فَشَأْنُهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ عَلَى الدَّوَامِ وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

---

قال الشيخ:

قوله: (أَنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ)؛ لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أي: لِمَا يريده ولِمَا يشاؤه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

قوله: (الثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ...)، أي: يقول: إنه سبحانه لم يزل كذلك، يعني لم يزل فعالاً لما يريد، فهذه الآية ساقها الله في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كمال صفاته.

قوله: (وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ)، يعني: أن كونه فعالاً لِمَا يريد دليل على صفات الكمال.

قوله: (وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَادِمًا لِهَذَا الكَمَالِ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ)، بل دائمًا وأبدًا هو فعال لِمَا يريد، فلا يمكن أن ينعدم منه ذلك الفعل في وقت أو يكون عاجزًا؛ ولهذا يقول الماتن: إنه موصوف بأنه خالق قبل أن يوجد المخلوق، وبأنه رازق قبل أن يوجد المرزوقون؛ ولأنه قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]، يرد على الذين يعبدون غير الله ممن لا يخلقون شيئًا، وهم يُخلقون، لا يخلقون شيئًا ولا يتصرفون بأنفسهم، فهل

يستوون بالذي هو خالق كل شيء؟! هل يُقال: إن الذي يخلق مثل الذي لا يخلق ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟.

قوله: (**لَمْ يَكُنْ حَادِثًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ**)، يعني: لم يكن بذاته حادثًا، وكذلك أفعاله لم تكن حادثة بعد أن كانت معدومة.

قوله: (**الثَّالِثُ: أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَعَلَهُ...**)، أي: يقول: هذا الأمر فيه أنه سبحانه إذا أراد شيئًا فعله، فإن (ما) في قوله - جل وعلا -: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا﴾، موصولة بمعنى الذي، أي: فعال للذي يريد، وهي عامة، أي: فعال يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله؛ لأنه سبحانه هو المريد لأفعاله ولكن هناك إرادة تتعلق بفعل العبد، فالإرادة المتعلقة بالعبد لها شأن آخر؛ لأن الله تعالى لا يكون في الوجود إلا ما يريد، فقد يريد العبد شيئًا ولا يحصل؛ لأن الله لم يرده كونًا وقدرًا، وإذا أراد الله تعالى فعل العبد فإنه يكون، وإذا أراد العبد فعل شيء ولم يرد الله أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل، فقد يهم العبد بشيء ولكن لا يعينه الله تعالى، ولا يستطيع أن يفعله سواءً أكان محرمًا ومعصية أم كان واجبًا وطاعة، فإذا لم يرده الله تعالى ولم يجعله فاعلاً، ولم يعنه لم يوجد ذلك الفعل، ولكن مع ذلك الله تعالى أراد كل موجود، ولكن لا ينسب إلى الله إرادة الشرور، بل الأصل أن كل ما أراده وقدره فقضاؤه فيه أنه خير، وإذا كان شرًا فإنه يكون منسوبًا لغير مذكور، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]،

فكلمة (أُرِيدَ) هذا للشر، مع أن الله تعالى هو الذي أراده كونًا وقدرًا، وأما الرشد فصرح بأنه من الله ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

قوله: (لَمْ يُوجَدِ الفِعْلُ وَإِنْ أَرَادَهُ)، أي: وإن أراده العبد وهمَّ به.

قوله: (حَتَّى يُرِيدَ مِنْ نَفْسِهِ)، أي: الرب تعالى.

قوله: (وَهَذِهِ هِيَ النُّكْتَةُ التِي خَفِيَتْ عَلى القَدَرِيَّةِ وَالجَبْرِيَّةِ، وَخَبَّطُوا فِي مَسْأَلَةِ القَدَرِ؛ لغَفْلَتِهِمْ عَنْهَا)، وهي أنهم يقولون: إن قدرة العبد لا تدخل في قدرة الله، أن الله تعالى لا يوصف بأنه يفعل أو يريد الشرور، أو يريد شيئًا من أفعال العبد. فالقدرية يجعلون العبد هو الذي يفعل المعاصي، ويفعل الطاعات، ولا يقدر الله تعالى على فعله، وأما الجبرية فهم بعكسهم، فهم يقولون: إن كل الأفعال منسوبة إلى الله، وإن العبد ليس له أي فعل، فتخبطوا في مسألة القدر؛ لغفلتهم عنها.

فيقول الشارح: (وَفَرْقٌ بَيْنَ إِرَادَتِهِ أَنْ يَفْعَلَ العَبْدُ)، أي: إن أراد الله أن يفعل هذا العبد، أو (إِرَادَته أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلاً)، أي: أن يجعله الله تعالى فاعلاً.

قوله:( الرَّابِعُ: أَنَّ فِعْلَهُ وَإِرَادَتَهُ مُتَلازِمَانِ...)، أي: هكذا فعل الله تعالى وإرادته متلازمان لا يمكن أن يفعل شيئًا إلا بإرادة، ولا يمكن أن يريد شيئًا كونًا وقدرًا إلا وقد فعله، وما أراده لابد أن يفعله، (فَمَا أَرَادَ)، أي: أراد أن يفعله فإنه قد فعله، وكل شيء فعله فقد أراده، كل شيء فعله الله تعالى من خير أو شر فقد أراده، أما المخلوق فليس كذلك.

قوله: (بِخِلافِ المَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ مَا لا يَفْعَلُ، وَقَدْ يَفْعَلُ مَا لا يُرِيدُهُ)، أي: يريد شيئًا وقد لا يقدر أن يفعله، وقد يفعل أشياء ما أرادها؛ كالمكره ـ مثلًا ـ أو الذي يفعل بغير نية أو نحو ذلك.

قوله: (الخَامِسُ: إِثْبَاتُ إِرَادَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِحَسَبِ الأَفْعَالِ)، أي: كل فعل فعله فإن له إرادة، فيكونون كإرادات متعددة، أراد أن يُحيي هذا، وأراد أن يغني هذا وأن يفقر هذا، وأن يقوي هذا وأن يضعف هذا، ونحو هذا، إرادات متعددة بحسب الأفعال.

قوله: (وَأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ لهُ ـ سبحانه ـ إِرَادَةٌ تَخُصُّهُ)، أي: كل فعل فعله فلابد أن يكون له إرادة تخصه.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

السَّادِسُ: أَنَّ كُل مَا صَحَّ أَنْ تَتَعلقَ بِهِ إِرَادَتُهُ جَازَ فِعْلُهُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْزِل كُل لَيْلةٍ إِلى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَنْ يَجِيءَ يَوْمَ القِيَامَةِ لفَصْل القَضَاءِ، وَأَنْ يُرِيَ عِبَادَهُ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَتَجَلى لَهُمْ كَيْفَ شَاءَ، وَيُخَاطِبَهُمْ، وَيَضْحَكَ إِلَيْهِمْ، وَغَيْرَ ذَلكَ مِمَّا يُرِيدُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْتَنِعْ عَلَيْهِ فِعْلُهُ، فَإِنَّهُ تَعَالى فَعَّالٌ لَمَا يُرِيدُ. وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُ صِحَّةُ ذَلكَ عَلى إِخْبَارِ الصَّادِقِ بِهِ، فَإِذَا أَخْبَرَ وَجَبَ التَصْدِيْق، وَكَذَلكَ مَحْوُ مَا يَشَاءُ، وَإِثْبَاتُ مَا يَشَاءُ، كُل يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالى.

---

قال الشيخ:

قوله: (السَّادِسُ: أَنَّ كُل مَا صَحَّ أَنْ تَتَعلقَ بِهِ إِرَادَتُهُ جَازَ فِعْلُهُ)، المعنى: أن كل ما صح أن تتعلق به الإرادة جاز فعله، وإن لم يكن ممكنًا عندها، ولكن الله تعالى لا يعجزه شيء، كل شيء صح أن تتعلق به إرادة الله فإنه يجوز فعله، وإن أنكره بعض من ينكره من المعطلة ونحوهم، ذكر لذلك أمثلة:

المثال الأول: النزول كل ليلة إلى السماء الدنيا، فهذا بإرادة الله، إذا كان أراد ذلك حصل هذا النزول.

الثاني: إذا أراد (أَنْ يَجِيءَ يَوْمَ القِيَامَةِ لفَصْل القَضَاءِ)، حصل ذلك المجيء كما شاءه، ولو أنكر ذلك من أنكره.

الثالث: إذا أراد (أَنْ يُرِيَ عِبَادَهُ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَتَجَلى لَهُمْ كَيْفَ شَاء)، حصل ذلك، ولو أنكر ذلك من أنكره من المعتزلة ونحوهم.

الرابع: إذا أراد أن يخاطب عباده ويضحك إليهم، حصل ذلك، ولو أنكر ذلك المعطلة.

قوله: (وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُ صِحَّةُ ذَلِكَ عَلَى إِخْبَارِ الصَّادِقِ بِهِ)، وهو النبيّ ﷺ. فإذا أخبر بمثل هذه الأمثلة وجب أن نصدق بذلك وأن نقول: إنه قد أراده.

قوله: (وَكَذَلِكَ مَحْوُ مَا يَشَاءُ، وَإِثْبَاتُ مَا يَشَاءُ)، فقد قال الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، فأخبر أن هناك محوًا وإثباتًا قد أراده الله؛ وكذلك قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] سبحانه وتعالى، هذا أيضًا مما يثبته أهل السنة، وهو أنه سبحانه يفعل ما يشاء، وأنه كل يوم هو في شأن.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْحَوَادِثَ لَهَا أَوَّلٌ، يَلْزَمْ مِنْهُ التَّعْطِيلُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ غَيْرَ فَاعِلٍ ثُمَّ صَارَ فَاعِلًا.

وَلَا يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ قِدَمَ الْعَالَمْ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَىٰ اللَّهِ مُحْدَثٌ مُمْكِنِ الوُجُودِ، مَوْجُودٌ بِإِيجَادِ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْعَدَمُ وَالْفَقْرُ، وَالِاحْتِيَاجُ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَازِمٌ لِكُلِّ مَا سِوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ وَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ، غَنِيٌّ لِذَاتِهِ، وَالْغِنَىٰ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَازِمٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَلِلنَّاسِ قَوْلَانِ فِي هَذَا العَالَمِ: هَل هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَادَّةٍ أَمْ لا؟ وَاخْتَلَفُوا فِي أَوَّلِ هَذَا العَالَمِ مَا هُوَ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧].

---

قال الشيخ:

قوله: (وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْحَوَادِثَ لَهَا أَوَّلٌ...)، يعني: إذا قلنا: إنه فعله مختارًا، وأنه فعال لما يريد، وأنه لم يزل مسمى باسم الخالق مع ما كان، ويستحق اسم الباري فلا يلزم من ذلك أن العالم قديم، يعني: أن هذه المخلوقات: جنس بني آدم، وجنس الشياطين، وجنس المخلوقات من الملائكة والدواب ونحو ذلك، نعتقد أن كل ما سوى الله محدث بعد أن كان معدومًا؛ ولأجل ذلك نقول: إن الإنسان يكون معدومًا ثم يوجد، كل ما سوى الله محدث وممكن الوجود

وليس واجب الوجود، ونعتقد أيضًا أنه موجود بإيجاد الله تعالى له، أن الله تعالى هو الذي أوجده.

قوله: (لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْعَدَمُ وَالْفَقْرُ)، أي: كل مخلوق ليس له من نفسه إلا وصف العدم، ووصف الفقر، وصف لازم؛ وفي ذلك أبيات لشيخ الإسلام يقول[1]:

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

قوله: (وَالِاحْتِيَاجُ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَازِمٌ لِكُلِّ مَا سِوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ)، أي: كل ما سوى الله فإنه محتاج، هذا الوصف الذاتي ـ أي: الحاجة ـ لازم لكل ما سوى الله، والله تعالى واجب الوجود لذاته، والمخلوق ممكن الوجود لذاته، كما أن الله تعالى غني لذاته، والغنى وصف ذاتي لازم لله سبحانه وتعالى، وأما المخلوق فإن غناه ليس وصفًا ذاتيًا؛ لأنه قد يستغني ثم يزول غناه.

قوله: (وَلِلنَّاسِ قَوْلَانِ فِي هَذَا الْعَالَمِ: هَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَادَّةٍ أَمْ لَا)، يعني: هذا العالم الذي هو جنس الإنسان، وجنس الجن، والملائكة، والشياطين، والدواب، هل مخلوقة من مادة أم لا؟ والصحيح: أنها مخلوقة من مادة، فالإنسان خُلق من تراب هذا أوله، ثم الآخر خُلق من ماء مهين.

يقول: (وَاخْتَلَفُوا فِي أَوَّلِ هَذَا الْعَالَمِ مَا هُوَ؟)، أول هذا العالم الذي هو السموات والأرض والجبال والأفلاك والنجوم والشمس والقمر وما أشبهها،

---

(١) انظر: العقود الدرية (ص٣٩١).

والأولى أن لا نخوض في مثل هذا، الله تعالى خالق كل شيء، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧]، هكذا أخبر عن نفسه أنه الذي خلق السموات والأرض، هذه الأرض الواسعة التي نراها، وقد ذُكر أيضًا أن هناك غيرها سبع أرضين كما في قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢]، خلق الله هذه السموات وهي السموات السبع، وهذه الأراضي في ستة أيام مع أنه قادر على أن يخلقها في لحظة ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، ثم يقول: بأن عرشه على الماء يعني: قبل أن يخلق هذه المخلوقات فقد خلق العرش، وكان العرش على الماء، وسُئل ابن عباس - رضي الله عنهما -: على أي شيء الماء؟ فقال: «عَلَىٰ مَتْنِ الرِّيح»[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٠٢)، والطبري (١٢/ ٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٥).

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَرَوَى البُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ أَهْلُ اليَمَنِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ، فَقَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ»[1]، وَفِي رِوَايَةٍ «غَيْرِهِ»، «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ؛ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»، وَفِي لَفْظٍ: «ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ».

فَقَوْلُهُ: «كَتَبَ فِي الذِّكْرِ» يَعْنِي: اللَّوْحَ المَحْفُوظَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥]؛ يُسَمَّى مَا يُكْتَبُ فِي الذِّكْرِ ذِكْرًا، كَمَا يُسَمَّى مَا يُكْتَبُ فِي الكِتَابِ كِتَابًا.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الحَدِيثِ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ المَقْصُودَ إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ كَانَ مَوْجُودًا وَحْدَهُ وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ دَائِمًا، ثُمَّ ابْتَدَأَ إِحْدَاثَ جَمِيعِ الحَوَادِثِ، فَجِنْسُهَا وَأَعْيَانُهَا مَسْبُوقَةٌ بِالعَدَمِ، وَأَنَّ جِنْسَ الزَّمَانِ حَادِثٌ لا فِي زَمَانٍ، وَأَنَّ اللهَ صَارَ فَاعِلاً بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنَ الأَزَلِ إِلَى حِينِ ابْتِدَاءِ الفِعْلِ، ولا كَانَ الفِعْلُ مُمْكِنًا.

---

قال الشيخ:

في هذا الحديث ذكر عمران بن الحصين ﷺ أنه كان عند النبي ﷺ فجاءه

(١) يأتي قريبًا التنبيه في كلام سماحة الشيخ على أن هذه الرواية لم ترد في الصحيح ولا في غيره.

بنو تميم، فقال: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَى يا بَنِي تَمِيمٍ**»، قالوا: قد بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فغضب النبي ﷺ، ثم جاءه ناس من أهل اليمن، فقال: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَى يا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لم يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ**» فقالوا: قد قبلنا، ثم قالوا: (**جِئْنَاكَ لنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ**). هكذا جاءوا من اليمن مع بعد المشقة ليتفقهوا في الدين، لَمَّا سمعوا قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢]؛ ليتعلموا العقيدة، ويتعلموا الأحكام التي تلزمهم، ثم ذكروا أنهم يسألون عن أول هذا الأمر، يعني: عن أول هذه المخلوقات، وأول هذه الموجودات، فابتدأ وقال: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**»، وقد أخرجه بهذا اللفظ: البخاري[١]، والدارمي في (الرد على الجهمية)[٢]، وأخرجه البخاري[٣] أيضًا، والطبراني في (الكبير)[٤] بلفظ: «**وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرَهُ**»، وأخرجه ابن خزيمة في (التوحيد)[٥]، والنسائي في التفسير من (الكبرى)[٦] بلفظ: «**كَانَ اللهُ وَلا شَيْءَ غَيْرُهُ**»، وأخرجه أحمد في (المسند)[٧] بلفظ: «**كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**

---

(١) برقم (٧٤١٨).

(٢) (ص٣٤، ٣٥).

(٣) برقم (٣١٩١).

(٤) (١٨/ برقم٥٠٠).

(٥) (٢/ ٨٨٤).

(٦) برقم (١١١٧٦).

(٧) (٤/ ٤٣١).

قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ».

فهذه الروايات لم يرد منها في الصحيح إلا رواية: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، ورواية: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرَهِ»، أخبر ﷺ بأن الله تعالى هو الخالق، وأنه لم يكن شيء قبله بل هو الأول؛كما في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، فلم يكن شيء قبله؛ لأنه هو الخالق، وما سواه فإنه من المخلوقات فيكون هو الأول.

ذكر أيضًا «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، وقد سُئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: على أي شيء الماء؟ فقال: «على متن الريح»[1]، هذا دليل على أن العرش مخلوق من المخلوقات، وكذلك الماء والريح، فكلها وجدت قبل العرش أو بعده.

وأخبر أنه «كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»، أي: كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، ففي الحديث: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كَائِنٌ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٧٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٩٥)، والحاكم (٢/ ٤٩٨)، والبيهقي (٩/ ٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ: أحمد (٥/ ٣١٧)، والبزار (٧/ ١٣٧)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٣٨)، وأخرجه الترمذي (٣٣١٩) =

وفي رواية: «ثم خَلقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»، أي: أوجد هذه المخلوقات، كما أخبر بذلك.

قوله: (فَقَوْلُهُ: كَتَبَ فِي الذِّكْرِ. يَعْنِي: اللوْحَ المَحْفُوظَ)، دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١، ٢٢]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الرعد:٣٩]، التي هي اللوح المحفوظ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فالزبور هو: الكتاب الذي أُنزل على داود، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾، أي: من بعد ما خلقنا ذلك اللوح الذي كُتب فيه كل شيء، فسمى الله ما يُكتب الذكر فيه ذكرًا، كما يُسمى ما يُكتب في الكتاب كتابًا.

قوله: (إِنَّ المَقْصُودَ إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ كَانَ مَوْجُودًا وَحْدَهُ وَلَمْ يَزَل كَذَلِكَ دَائِمًا، ثُمَّ ابْتَدَأَ إِحْدَاثَ جَمِيعِ الحَوَادِثِ...)، المراد بهذا أن الله تعالى موجود قبل أن يُوجد شيء قبله، وأنه سبحانه هو الموجود، والجمهور على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قديمٌ لم يُسبق بعدم، وقد أخبر ﷺ أن الله ـ جل وعلا ـ كان موجودًا ولم يكن شيء قبله، وأنه لم يزل كذلك دائمًا، وأنه ابتدأ جميع الحوادث؛ كالعرش والماء

---

=

بلفظ: «... بِمَا هو كَائِنٌ إلى الأَبَدِ»، وسيأتي الكلام على هذا الحديث في تعليق سماحة الشيخ على قول الطحاوي: «ونُؤْمِنُ باللَّوحِ والقَلَمِ، وبجَميعِ مَا فيهِ قَدْ رُقِم».

والريح والسموات وما أشبه ذلك، فهذه الموجودات كلها من المخلوقات والأفلاك وما أشبهها جنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، لم تكن شيئًا كما في خلق الإنسان، في قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، أي: أتى عليه زمان طويل وهو لم يوجد ولم يكن شيئًا مذكورًا، أما جنس الزمان الذي هو الليل والنهار؛ وكذلك الأوقات والساعات وما أشبهها فلاشك أيضًا أنها موجودة؛ لأنه لابد أن يكون هناك زمان يمضي سواء أكان له علامات أم لا، موجودٌ قبل خلق الشمس والقمر، وقبل خلق الأفلاك، وقبل خلق الليل والنهار، الزمان موجود وليس بحادث.

وأما القول (**بأَنَّ اللهَ تعالى صَارَ فَاعِلًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنَ الأَزَلِ إِلى حِينِ ابْتِدَاءِ الفِعْلِ ولا كَانَ الفِعْلُ مُمْكِنًا**)، فهذا لا دليل عليه، بل الله تعالى موصوف بأنه فعالٌ لما يريد، وأنه لم يكن معطلًا عن إيجاد المخلوقات، أو عن إيجاد الموجودات، وهو تعالى قادر على كل شيء.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَالقَوْلُ الثَّانِي: المُرَادُ إِخْبَارُهُ عَنْ مَبْدَإِ خَلقِ هَذَا العَالمِ المَشْهُودِ الذِي خَلقَهُ اللهُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ، كَمَا أَخْبَرَ القُرْآنُ بِذَلكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَدَّرَ اللهُ تَعَالى مَقَادِيرَ الخَلقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ». فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ تَقْدِيرَ هَذَا العَالمِ المَخْلُوقِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ كَانَ قَبْلَ خَلقِ السَّمَوَاتِ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وَأَنَّ عَرْشَ الرَّبِّ تَعَالى كَانَ حِينَئِذٍ عَلى المَاءِ.

دَلِيلُ صِحَّةِ هَذَا القَوْلِ الثَّانِي مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَ أَهْلِ اليَمَنِ: «جِئْنَاكَ لنَسْأَلكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ». هُوَ إِشَارَةٌ إِلى حَاضِرٍ مَشْهُودٍ مَوْجُودٍ، وَالأَمْرُ هُنَا بِمَعْنَى المَأْمُورِ، أَيِ: الذِي كَوَّنَهُ اللهُ بِأَمْرِهِ، وَقَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ بَدْءِ هَذَا العَالمِ المَوْجُودِ، لا عَنْ جِنْسِ المَخْلُوقَاتِ؛ لأَنَّهُمْ لمْ يَسْأَلُوهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ عَنْ خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَالَ كَوْنِ عَرْشِهِ عَلى المَاءِ، وَلمْ يُخْبِرْهُمْ عَنْ خَلقِ العَرْشِ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.

---

قال الشيخ:

قوله ﷺ: «قَدَّرَ اللهُ تَعَالى مَقَادِيرَ الخَلقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ

بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ»، هكذا في صحيح مسلم[١]، ولفظه: «كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، قال: وَعَرْشُهُ على المَاءِ».

وأخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات)[٢] بلفظ: «قَدَّرَ اللهُ المَقَادِيرَ»، وأخرجه أيضًا بلفظ: «فَرَغَ اللَّهُ مِنْ المَقَادِيرِ وَأُمُورِ الدُّنْيَا».

وكذلك أخرجه أحمد[٣] والترمذي[٤]، وليس فيه: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ».

قال البيهقي: وقوله: «فَرَغَ» أي: يريد به إتمام خلق المقادير لا أنه كان مشغولًا به وفرغ منه؛ لأن الله لا يشغله شيء عن شيء، فإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون.

أخبر ﷺ في هذا الحديث: أن تقدير هذا العالم المخلوق كان قبل خلق السَّمَوَات والأرض بخمسين ألف سنة، أي: أن تقدير هذا العالم الذي هو السَّمَوَات والأرض كان مقدورًا مقدرًا قبل خلق هذه المخلوقات بخمسين ألف سنة.

وذكر أيضًا أن عرش الرب كان حينئذٍ على الماء، وعلى هذا أخبر ﷺ أن

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

(٢) (ص٣٧٤).

(٣) (٢/ ١٦٩).

(٤) برقم (٢١٥٦).

بدء خلق هذا العالم المشاهد الذي هو: السَّمَوَات والأرض أن الله تعالى خلقها في ستة أيام، ثم استوى على العرش كما يشاء.

كذلك أخبر بأن الله قدر مقادير الخلق قبل خلق السَّمَوَات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك عندما خلق القلم وقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، فقبل خلق السَّمَوَات كان العرش على الماء، والماء والعرش كلاهما مخلوق، فأخبر أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل إيجاد السَّمَوَات والأرض بخمسين ألف سنة، وأخبر أن عرش الرب كان حينئذٍ مخلوقًا، وكان على الماء.

قوله: (**دَلِيلُ صِحَّةِ هَذَا القَوْلِ الثَّانِي مِنْ وُجُوهٍ:أَحَدُهَا...**)، أهل اليمن جاؤوا يسألون عن أول هذا الأمر يعني الذي يشاهدونه، الذي هو هذه الموجودات: السَّمَوَات، والأفلاك، والشمس، والقمر، والمخلوقات التي على ظهر الأرض، والرياح، والبحار، والجبال ونحو ذلك، وهو شيء مشاهد موجود، فقولهم: (**عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ**)، أي: عن هذا المأمور الذي حصل بأمر الله تعالى وكونه الله بأمره، بقوله: كن فكان.

قوله: (**أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ بَدْءِ هَذَا العَالَمِ المَوْجُودِ**)، أي: الذي هو هذه المخلوقات، فبدأ بإخبارهم عن الله تعالى أنه كان ولم يكن شيء قبله.

قوله: (**لا عَنْ جِنْسِ المَخْلُوقَاتِ**)، أي: ولم يجبهم عن جنس المخلوقات، يعني: لم يخبرهم من أي شيء خُلقت السَّمَوَات والأرض، ومن أي شيء خُلقت الأفلاك، لم يسألوه عن هذا، لما أخبرهم عن أولية الله تعالى أخبرهم بعد

ذلك عن خلق السَّمَوَات والأرض، أنه خلق ذلك، كما أخبر بذلك وأنه خلقها في ستة أيام، وأخبر أنه خلقها حال كون العرش على الماء، فدل على أن العرش كان مخلوقًا قبل السَّمَوَات والأرض، ولم يخبرهم عن خلق العرش، فلما أخبرهم بأن العرش على الماء دل على أنه مخلوق قبل خلق السَّمَوَات والأرض، وأن الله تعالى خصه بأن استوى عليه كما يليق به.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، وَقَدْ رُوِيَ (مَعَهُ)، وَرُوِيَ (غَيْرَهُ)، وَالمَجْلسُ كَانَ وَاحِدًا، فَعُلِمَ أَنَّهُ قَالَ أَحَدَ الأَلْفَاظِ وَالآخَرَانِ رُوِيَا بِالمَعْنَى، وَلفْظُ القَبْل ثبتَ عَنْهُ فِي غَيْرِ هَذَا الحَدِيثِ.

فَفِي صحيح مُسْلم[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ..» الحَدِيثَ، وَاللفْظَانِ الآخَرَانِ لَمْ يَثْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ وَلهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْل الحَدِيثِ إِنَّمَا يَرْوِيهِ بِلفْظِ (القَبْل)؛ كَالحُمَيْدِيِّ وَالبَغَوِيِّ وَابْنِ الأَثِيرِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلكَ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا اللفْظِ تَعَرُّضٌ لابْتِدَاءِ الحَوَادِثِ، وَلا لأَوَّل مَخْلُوقٍ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» أَوْ«مَعَهُ»أَوْ«غَيْرَهُ»،«وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُل شَيْءٍ»، فَأَخْبَرَ عَنْ هَذِهِ الثَّلاثَةِ بِالوَاوِ، «وَخَلقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ» رُوِيَ بِالوَاوِ وَبـ(ثُمَّ)، فَظَهَرَ أَنَّ مَقْصُودَهُ إِخْبَارُهُ إِيَّاهُمْ بِبَدْءِ خَلقِ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَهِيَ المَخْلُوقَاتُ التِي خُلقَتْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، لا ابْتِدَاءَ خَلقِ مَا خَلقَهُ اللهُ قَبْل ذَلكَ، وَذَكَرَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ بِمَا يَدُلُّ عَلى خَلقِهِمَا، وَذَكَرَ مَا قَبْلَهُمَا بِمَا يَدُلُّ عَلى كَوْنِهِ وَوُجُودِهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لابْتِدَاءِ خَلقِهِ.

---

(١) برقم (٢٧١٣).

قال الشيخ:

قال: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، أما رواية: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ»، فهذه اللفظة لم ترد في الصحيح ولا في غيره، وقد وهم شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته في شرح هذا الحديث الموجود في مجموع الرسائل والمسائل[1] في قوله: «إنها في البخاري»، وتابعه على هذا الوهم تلميذه الإمام ابن القيم في (المدارج)[2]، وعلى قولهما فإن الشارح يقول: (وَقَدْ رُوِيَ «مَعَهُ»، وَرُوِيَ «غَيْرَهُ»، وَالمَجْلِسُ كَانَ وَاحِدًا).

ثم قال: (فَعُلِمَ أَنَّهُ قَالَ أَحَدَ الأَلْفَاظِ وَالآخَرَانِ) ـ أي: لفظ «مَعَهُ»، و«غَيْرَه» ـ (رُوِيَا بِالمَعْنَى، وَلَفْظُ القَبْل ثبتَ عَنْهُ فِي غَيْرِ هَذَا الحَدِيثِ)، ثبت لفظ «قبله» لِمَا في هذا الحديث الذي في دعائه ﷺ أنه قال: « اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْء»، فهذا الحديث فيه لفظ (القبل)، فيؤيد قوله: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، وهي الرواية التي في الصحيح.

قوله: (وَاللفْظَانِ الآخَرَانِ لَمْ يَثْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ)، لكن رواية «غيره» قد رواها البخاري في صحيحه، ولعلها رواية بالمعنى.

---

(١) (٦/ ٥٥١).

(٢) (١٨/ ٢١٠).

قوله: (**وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ إِنَّمَا يَرْوِيهِ بِلفْظِ: القَبْلِ**)، فلقد رواه الحميدي الذي هو شيخ البخاري، أبو بكر بن عبدالله بن الزبير بن عيسى، وله مسند مطبوع، وكذلك البغوي الذي هو العلامة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الشافعي صاحب (التفسير)، وصاحب (شرح السنة)، وصاحب (المصابيح)، وكذلك ابن الأثير الذي هو أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري صاحب (جامع الأصول لأحاديث الرسول)، فهؤلاء اقتصروا على رواية (القبل).

قوله: (**وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا اللفْظِ تَعَرُّضٌ لابْتِدَاءِ الحَوَادِثِ، وَلا لأَوَّلِ المَخْلُوقَاتِ**)، إنما فيه الإخبار بأن الله تعالى لم يكن شيء قبله.

فقد شرح هذا الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة مستقلة اسمها (شرح حديث عمران: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**»)، ولعل الشارح استمد منه وتابعه في رواية «**مَعَهُ**»،أَوْ«**غَيْرَهُ**»، فإن هذا كان موجودًا، وشرحه موجود في المجلد الثامن عشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

ثم أخبر بأن الله تعالى «**كَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ**»، أي: بعد أن أخبر بأن الله لم يكن شيء قبله، ولما أخبر بذلك أخبر بأن العرش موجود، والماء موجود، ولكن لا يدل على القدم، بل الأصل أن العرش مخلوق، وكذلك الماء مخلوق، فخلقهما قبل خلق السَّمَوَات والأرض، ويمكن أيضًا أنه قبل كتابة الذكر، أي: ما في اللوح المحفوظ؛ لأنه قال: «**وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**»، فكان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، أخبر عن

هذه الثلاثة بالواو، يعني: يقوله: «**وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**»، وقوله: «**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»، وقوله: «**وَكَتَبَ**» لم يقل: (ثم كتب) بل أخبر عنها بالواو، وأما خلق السَّمَوَات والأرض فقد رُوي: «**وخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**» بالواو، ورُوي: «**ثم خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**» بـ(ثم) التي تدل على التعقيب، فتبين أن مقصوده ﷺ إخباره إياهم ببدء خلق السَّمَوَات والأرض وما بينهما؛ لأنهم يشيرون بقولهم: «**نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ**» فأخبرهم عما يسألون عنه السَّمَوَات والأرض وما بينهما، أي: هي المشاهدة والتي يمكن الإشارة إليها بقولهم: «**عَنْ هَذَا الأَمْرِ**»، وهي المخلوقات التي خلقها الله تعالى في ستة أيام في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى﴾ في عدة مواضع[1]، لم يكن يقصد إخبارهم بابتداء خلق ما خلق الله قبل ذلك، أنه خلق العرش قبل ذلك، وخلق الماء قبل خلق السَّمَوَات والأرض، وكذلك خلق الريح، وخلق القلم.

ذكر السَّمَوَات والأرض بما يدل على خلقهما بقوله: «ثم خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ» مما يدل على أنهما مخلوقتان، أما ما قبلهما كالعرش والماء والذكر فذكر ما قبلهما بما يدل على كونه وجودًا، يعني على أن العرش كائن والماء والذكر، واللوح والقلم أنهما كانا موجودين، ولكنه لم يتعرض في هذا الحديث لابتداء خلقه هل هو مخلوق قديمًا أو حديثًا.

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ٥٤)، وسورة يونس (الآية: ٣)، وسورة الحديد (الآية: ٤).

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الحَدِيثُ قَدْ وَرَدَ بِهَذَا وَهَذَا، فَلَا يُجْزَمُ بِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِدَلِيلٍ، فَإِذَا رَجَحَ أَحَدُهُمَا، فَمَنْ جَزَمَ بِأَنَّ الرَّسُولَ أَرَادَ المَعْنَى الْآخَرَ فَهُوَ مُخْطِئٌ قَطْعًا، وَلَمْ يَأْتِ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى المَعْنَى الْآخَرِ، فَلَا يَجُوزُ إِثْبَاتُهُ بِمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مَعْنَى الحَدِيثِ، وَلَمْ يَرِدْ «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ» مُجَرَّدًا، وَإِنَّمَا وَرَدَ عَلَى السِّيَاقِ المَذْكُورِ، ولَا يُظَنُّ أَنَّ مَعْنَاهُ الْإِخْبَارُ بِتَعْطِيلِ الرَّبِّ تَعَالَى دَائِمًا عَنِ الْفِعْلِ حَتَّى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

وَأَيْضًا: فَقَوْلُهُ ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلم يكن شَيْءٌ قَبْلَهُ ـ أَوْ مَعَهُ، أَوْ غَيْرُهُ ـ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى مَوْجُودٌ وَحْدَهُ لَا مَخْلُوقَ مَعَهُ أَصْلًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» يَرُدُّ ذَلِكَ، فَإِنَّ الجُمْلَةَ وَهِيَ: «كَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» إِمَّا حَالِيَّةٌ، أَوْ مَعْطُوفَةٌ، وَعَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَوْجُودٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَعُلِمَ أَنَّ المُرَادَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ المَشْهُودِ.

---

قال الشيخ:

يتكلَّم الشارح على حديث عمران بن حصين ﷺ لما جاء أهل اليمن يسألون عن أوَّل هذا الأمر، فقال النَّبيُّ ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ

شَيْءٍ»[1]. أخبر الرسول ﷺ في هذا الحديث أنَّ الله تعالى هو الأوَّل ولم يكن شيءٌ قبله، وذلك تحقيق للأوَّليَّة المذكورة في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، فلم يكنْ شيءٌ قبله، وهذا لا يدلُّ على أنَّه تعالى كان معطَّلاً عن الأفعال فلم يكن يخلق، بل يدلُّ على أنَّه خالقٌ، ففي ذكر أنَّ عرشه على الماء دليلٌ على أنَّه قد خلق العرش، وأنَّه قد خلق الماء، وأنَّه خلق مخلوقاتٍ قد تكون موجودةً وقد تكون معدومةً، ولا بدَّ أن يكون خالقًا، فالله تعالى لم يكن معطَّلًا عن الخلق.

ويعتقد المسلمون أنَّ الله تعالى قديمٌ بأفعاله، وأنَّه الذي ليس قبله شيءٌ، وأنَّ مِنْ أعظم مخلوقاته العرشَ، وقد ورد في عِظَم العرش ما يدلُّ على أنَّه أقدم المخلوقات ومن أعظمها، وقد ذكر الله سعة كرسيِّه في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقيل: إنَّ الكرسيَّ كالمرقاة بين يدي العرش، وأنه قد وسع السَّمٰوات والأرض مع عِظَمها.

ورد في الحديث: «مَا السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»[2]، والترس: هو المجنُّ الذي يُلبس على الرَّأس، وماذا تغطي الدراهم السبعة - التي أحدها بقدر الظّفر أو نحوه - من ذلك التُّرس؟

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧٩).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧) من حديث زيد بن أسلم مرسلًا.

فالسَّمَـٰوات السَّبع والأرضون السَّبع في الكرسيِّ، هذا مقدارها منه.

والكرسيُّ صغيرٌ أيضاً بالنسبة إلى العرش، ففي الحديث الآخر قال ﷺ: «**مَا السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ**»[1]، (الحلقة): قطعةٌ من الحديد ملتقيةُ الطَّرفيْن، إذا أُلقيت حلقةٌ في فلاةٍ؛ فماذا تشغل من تلك الفلاة؟! فالكرسيُّ صغيرٌ بالنِّسبة إلى العرش، «**كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ**».

فهذا دليلٌ على عِظَم هذا الكرسيِّ، ثمَّ عِظَم هذا العرش، وإذا كان هذا عِظَمه فإنَّه مخلوقٌ وليس قديمًا؛ لأنَّ الله خالق كلِّ شيءٍ، وإذا كان هذا عِظَم هذا المخلوق، فما ظنُّك بعظمة الخالق سبحانه وتعالى؟

الله تعالى قد ذكر أنَّه يقلِّب المخلوقات بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، ففي الأثر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «مَا السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُون السَّبْعُ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[2]، فماذا تشغل حبة الخردل في يد عبدٍ؟! وكل ذلك دليلٌ على عظمة الخالق، ولا شكَّ أنَّ من اعتقد عظمته وكبرياءَه خافه وهابه وَعَبَدَه حقَّ العبادة.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ، وأورده ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١١)، وقال: «وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح عنه».

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ٢٥)، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤٧٦).

ولكن لا ينبغي الخوض في الأمور الغيبيَّة التي ليس عليها دليلٌ وبرهانٌ، والتي يؤدِّي الخوض فيها إلى حَيْرةٍ وشكٍّ، فكثيراً ما يشتكي بعض المؤمنين أنَّهم يلاقون حَيْرةً وشكًّا، وأنهم تأتيهم وساوس إذا بحثوا في مثل هذه الأمور، وقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: من خَلَقَ كَذَا وَكَذَا، حَتَّىٰ يَقُولَ لَهُ: من خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهِ»[1]، وقال ﷺ: «لَا يَزَالُ الناس يَتَسَاءَلُونَ حَتَّىٰ يُقَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ»[2]. فعلى من وقع له ذلك أن يقول: آمنت بالله، وأن يستعيذ بالله من الشَّيطان، وأن يقبلَ كلَّ ما جاءه عن الله، ويبعد عنه كلّ ما يجلب حيرةً أو وسوسةً أو نحو ذلك، فيقطعها ويجعل حديث نفسه وخوضها في الشَّيء الذي ينفعه، ويؤمن بالإجماليَّات التي أخبر الله بها عنه؛ حتَّى يكون بذلك مطمئنَّ القلب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الطحاوي:

لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ، وَمَعْنَى الخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ.

---

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ «الرَّبُّ» قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَرْبُوبٌ، وَمَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ «خَالِقٌ» قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَخْلُوقٌ.

قَالَ بَعْضُ المَشَايِخِ الشَّارِحِينَ: وَإِنَّمَا قَالَ: (لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَمَعْنَى الخَالِقِ)، دُونَ «الخَالِقِيَّةِ»؛ لِأَنَّ «الخَالِقَ» هُوَ المُخْرِجُ لِلشَّيْءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لَا غَيْرُ، وَ«الرَّبُّ» يَقْتَضِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، وَهِيَ: المُلْكُ وَالْحِفْظُ وَالتَّدْبِيرُ وَالتَّرْبِيَةُ وَهِيَ تَبْلِيغُ الشَّيْءِ كَمَالَهُ بِالتَّدْرِيجِ، فَلَا جَرَمَ أَتَى بِلَفْظٍ يَشْمَلُ هَذِهِ المَعَانِيَ، وَهِيَ الرُّبُوبِيَّةُ. انْتَهَى. وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الخَلْقَ يَكُونُ بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ أَيْضًا.

---

قال الشيخ:

هذا مثلُ ما سبق من قبل: أنَّ الله تعالى من أسمائه «الخالق» قبل أن يُوجد المخلوقون، ومن أسمائه «الرَّازق» قبل أن يُوجد المرزوقون، ومن صفاته

قال الطحاوي:

وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي المَوْتَى بَعْدَمَا أَحْيَا، اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ.

---

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ مُحْيِي المَوْتَى قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ خَالِقٌ قَبْلَ خَلْقِهِمْ، إِلْزَامًا لِلْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ، كَمَا حَكَيْنَا عَنْهُمْ فِيمَا تَقَدَّمَ. وَتَقَدَّمَ تَقْرِيرُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

---

قال الشيخ:

يعتقد المسلم أنَّ الله تعالى يفعل ما يشاء، فإنَّ من صفاته أنَّه يحيي ويميت؛ من شاء أحياه ومن شاء أماته، ومن شاء رزقه وأغناه، ومن شاء أفقره، يعطي من يشاء ويمنع، ويخفض من يشاء ويرفع، ويعزُّ من يشاء ويذلُّ. وهذه الأوصاف التي هي من صفاته هي أيضاً قديمةٌ، بمعنى أنَّه موصوفٌ بها أزلًا، فمن أسمائه ـ جل شأنه ـ: «المحيي»، قبل أن يخلق الذين يحييهم، وكذلك «المميت»، و«المعطي»، و«المانع»، و«الخافض»، و«الرَّافع» ... وما أشبه ذلك.

والقصد من معرفة هذه الأسماء أن يعرف العبد أنَّها لله تعالى، فيرغب إليه أن يعزَّه، ويعلم أنَّ من أذلَّه الله فلا معزَّ له، ويرغب إليه أن يرفع قدره، ويعلم أنَّ من خفضه الله فلا رافع له، ويرغب إليه بالهداية، ويعلم أنَّ من يضلل الله

فما له من هادٍ. وهكذا بقيَّة الصِّفات.

وذلك أنَّ هناك فِرَقًا من المبتدعة؛ كالمعتزلة الذين يعتقدون أنَّه لا يفعل إلا ما يقدر عليه، وأنَّ العبد يفعل بلا قدرةٍ له ـ تعالى الله عن قولهم ـ وأنَّ العبد هو الذي يفعل باختياره، وهو الذي يهدي نفسه ويضلُّ نفسه. ولا شكَّ أنَّ هذا فيه اعتراضٌ على الله، وتحجُّرٌ لصفته، وأنَّه لا يقدر إلَّا على ما يقدر عليه دون بعض الأمور التي لا يقدر عليها، والله تعالى قد وصف نفسه بعموم القدرة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وسيأتي بيان هذا إن شاء الله تعالى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ إليه يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

---

قال الشارح:

ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِ صِفَاتِهِ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ خَلْقِهِ، وَالْكَلَامُ عَلَى «كُلٍّ» وَشُمُولِهَا، وَشُمُولِ «كُلٍّ» فِي كُلِّ مَقَامٍ بِحَسَبِ مَا يَحْتَفُّ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ، يَأْتِي فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ حَرَّفَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمَعْنَى الْمَفْهُومَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]. فَقَالُوا: إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ، وَأَمَّا نَفْسُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ! وَتَنَازَعُوا: هَلْ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهَا أَمْ لَا؟! وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى عَلَى مَا قَالُوا لَكَانَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَعْلَمُهُ! وَخَالِقٌ لِكُلِّ مَا يَخْلُقُهُ! وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ فِيهَا، فَسَلَبُوا صِفَةَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ فَهُوَ مُنْدَرِجٌ فِي هَذَا، وَأَمَّا الْمُحَالُ لِذَاتِهِ، مِثْلَ كَوْنِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مَوْجُودًا مَعْدُومًا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ، فَهَذِهِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُهُ، وَلَا يُسَمَّى شَيْئًا، بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: خَلْقُ مِثْلِ نَفْسِهِ، وَإِعْدَامُ نَفْسِهِ! وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَالِ.

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ التَّامَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِهَا إِلَّا مَنْ آمَنَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي الْمَعْدُومِ الْمُمْكِنِ: هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ الْمَعْدُومَ لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي الْخَارِجِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَيَكْتُبُهُ، وَقَدْ يَذْكُرُهُ وَيُخْبِرُ بِهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، فَيَكُونُ شَيْئًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ وَالْكِتَابِ، لَا فِي الْخَارِجِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٩]، أَيْ: لَمْ تَكُنْ شَيْئًا فِي الْخَارِجِ، وَإِنْ كَانَ شَيْئًا فِي عِلْمِهِ تَعَالَى، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

---

قال الشيخ:

يعتقد المسلمون ما أخبر الله به عن نفسه من عموم قدرته أنَّه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وكلمة ﴿شَيْءٍ﴾، يدخل فيها ما هو موجودٌ وما هو معدومٌ ممَّا يقدِّره الله تعالى، وتدخل فيها أعمال العباد؛ من عبادات، وطاعات، وحسنات، وكذلك السيئات والخطايا كلها داخلةٌ في عموم (كل) في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فيدخل في ذلك كلُّ الممكنات.

أمَّا غير الممكن المستحيل، فإنَّه لا يدخل في هذا العموم، مثل كون الشَّيء

معدومًا موجودًا في آنٍ واحدٍ؛ هذا من المستحيل أن يُوجد ويُعدم في آنٍ واحدٍ، أو يكون الشَّخص حيًّا ميِّتًا في آنٍ واحدٍ، ومثل ما يورده بعض المتعنتين، يقولون: هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه؟ نقول: هذا محالٌ، ولا ينبغي الخوض فيه؛ لأن الله تعالى هو المنفرد الذي ليس له شريكٌ، وليس له شبيهٌ ولا معينٌ.

والمعتزلة ينكرون هذا العموم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ويقولون: (**إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ**)، ولا شكَّ أنَّ هذا فيه تنقّصٌ، فإنَّه على هذا المعنى يكون عليمًا بما يعلمه، وقديرًا على ما يقدر عليه، وفعَّالًا لما يفعله ... وما أشبه ذلك، ولا شكَّ أنَّ هذا لا فائدة فيه.

فقولهم: (**إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ**)، معناه: أنَّه لا يقدر على كلِّ شيءٍ، وأنَّ هناك أشياء لا يقدر عليها ـ تعالى الله عن قولهم ـ فيكون في هذا تنقُّصٌ.

فالآية فيها العموم: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، عامٌّ لا يستثنى منه شيءٌ ممكنٌ، يعني: ما يدخل في الإمكان.

أما كلامهم في المعدوم: هل هو شيءٌ أو ليس بشيءٍ؟ فالمعدوم ـ على الصَّحيح ـ لا يُقال له: شيءٌ، حتَّى يوجد، ولكنَّ الله تعالى عالمٌ بما يوجد من المعدومات التي ستوجد، وقادرٌ على إيجاده في الوقت الذي قدَّر إيجادَه، وإلَّا فقد نفى أن يكون المعدوم شيئاً في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وكذلك قوله تعالى مخاطباً زكريا:

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]، يعني: لم تك موجودًا، بل كنت معدومًا وقد خلقتك، فنفى أن يكون المعدوم شيئًا في الوجود، ولكن هو في علم الله شيءٌ إذا قدَّر أنَّه سيوجد، فهو داخلٌ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فالله تعالى أخبر بأنه إذا قال للشَّيء كن وهو معدوم كان، فسماه شيئاً مع كونه معدومًا؛ لأنَّه يوجد إذا قال الله له كن، وهذا معنى أنَّ أمره تعالى بعد الكاف والنُّون، يعني: خلقه للمعدومات التي قدَّر أنَّها توجد بقول: كن، فتكون، وتوجد، وتحصل على هذا الوجود.

هكذا حقَّق المحقِّقون أنَّ المعدوم شيءٌ في علم الله، وليس شيئًا في الوجود فيما يُرى ولا فيما يُشاهد.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، رَدٌّ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ، فَهُوَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا شبه، فَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، فَلَيْسَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ كَسَمْعِ الرَّبِّ وَبَصَرِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَةِ تَشْبِيهٌ؛ إِذْ صِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

وَلَا تَنْفِ عَنِ اللَّهِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَا وَصَفَهُ بِهِ أَعْرَفُ الخَلْقِ بِرَبِّهِ، وَمَا يَجِبُ لَهُ وَمَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، وَأَنْصَحُهُمْ لِأُمَّتِهِ، وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْبَيَانِ، فَإِنَّكَ إِنْ نَفَيْتَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُنْتَ كَافِرًا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَإِذَا وَصَفْتَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَا تُشَبِّهْهُ بِخَلْقِهِ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَإِذَا شَبَّهْتَهُ بِخَلْقِهِ كُنْتَ كَافِرًا بِهِ. قَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ الطَّحَاوِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ).

---

قال الشيخ:

قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ردٌّ على طائفتين متقابلتين:

**إحداهما**: غلت في الإثبات، وهم الممثِّلة المشبِّهة.

**والأخرى**: غلت في النَّفي، وهم المعطِّلة النُّفاة.

فرد الله على الأولى بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أي: لا تجعلوا لله مِثْلًا، فليس له مثل في صفاته ولا في ذاته ولا في أفعاله، لا في صفاته الفعليَّة ولا في صفاته الذاتيَّة، لا يشبهه شيءٌ. فالذين غَلَوْا في الإثبات، وجعلوا يد الله كأيدينا وسمعه كأسماعنا، أو قالوا: إنَّه يسمع بكذا وبكذا، أو أنَّه ينظر بكذا ... وما أشبه ذلك مما غلَوا فيه إلى أن أثبتوا له خصائص المخلوقين، لا شكَّ أنَّهم قد وقعوا فيما هو كفرٌ؛ ولهذا يقول نُعيم بن حمّاد: (مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ)، ويقول آخر: «المشبِّه يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموِّحد المثبت يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا»[1].

الموحد: الذي يثبت لله الصفات ويجعلها لله وحده، لا يشبهه فيها شيءٌ.

وفي ذلك أيضًا يقول ابن القيِّم ـ كما تقدَّم ـ:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

والمعطِّل: الذي ينكر صفاتِ الله، فينفي أنَّ الله متَّصفٌ بصفات الكمال؛ كالسَّمع، والبصر، والعلم، والرَّحمة، والمحبَّة، وصفات الذَّات؛ كاليد التي أثبتها لنفسه، والعين، والوجه ... وما أشبه ذلك من الصِّفات.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٢٦)، والصواعق المرسلة (١/ ١٤٨).

لا شكَّ أنَّ من نفى ذلك فقد عطَّل الله تعالى، وتعطيلُ الصِّفات يلزم منه تعطيلَ الذَّات، فكأنَّه لم يثبت إلهًا يُعبد، فمن أنكر ما وصف اللهُ به نفسَه من صفات الكمال فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيهٌ.

وأهل السُّنَّة إذا أثبتوا هذه الصِّفات نَفَوا عنها التَّشبيه، فيقولون ـ مثلًا ـ: صفاته لا تشبه صفاتِنا، فهو يسمع لا كسمع المخلوق، ويَعجَب لا كعجب المخلوق، ويرحم لا كرحمتنا، وكذلك له يدانِ لا كأيدينا، وأشباه ذلك.

فإذا لم يثبتوا له شيئًا من خصائص المخلوقين، فلا يلزم أن يكونوا مشبِّهين، ولا يلزم أيضًا من إثبات أنَّ اللَّهَ تعالى فوق العباد، وأنَّه هو العليُّ الأعلى، لا يلزم من إثبات ذلك أن يكونوا مشبِّهين، ولا يلزم أيضًا من إثبات أنَّه على العرش، وأنَّه تعالى فوق عباده، أو أنَّه يراه عباده يوم القيامة كما يشاء، لا يلزم من ذلك محذور.

فإذاً أهل السُّنَّة هم أحظى بالدَّليل، وهم أسلم من التَّأويل والتعطيل.

قال الشارح:

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِأَنَّ لَهُ الْمَثَلَ الْأَعْلَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ [النحل: ٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ مَثَلَ السَّوْءِ - الْمُتَضَمِّنَ لِلْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَسَلْبِ الْكَمَالِ - لِأَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْثَانِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَثَلَ الْأَعْلَى - الْمُتَضَمِّنَ لِإِثْبَاتِ الْكَمَالِ كُلِّهِ - لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ سَلَبَ صِفَاتِ الْكَمَالِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ جَعَلَ لَهُ مَثَلَ السَّوْءِ، وَنَفَى عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى، وَهُوَ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ، الْمُتَضَمِّنُ لِلْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ، وَالْمَعَانِي الثُّبُوتِيَّةِ، الَّتِي كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ فِي الْمَوْصُوفِ وَأَكْمَلَ كَانَ بِهَا أَكْمَلَ وَأَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ.

وَلَمَّا كَانَتْ صِفَاتُ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَكْثَرَ وَأَكْمَلَ، كَانَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَكَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، بَلْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى الْمُطْلَقِ اثْنَانِ؛ لِأَنَّهُمَا إِنْ تَكَافَآ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا أَعْلَى مِنَ الْآخَرِ، وَإِنْ لَمْ يَتَكَافَآ، فَالْمَوْصُوفُ بِهِ أَحَدُهُمَا وَحْدَهُ، فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى مِثْلٌ أَوْ نَظِيرٌ.

---

قال الشيخ:

تقدَّم أنَّ الله تعالى لا يُقاس بخلقه؛ لا قياس تمثيلٍ، ولا قياسَ شمولٍ، ولكن يُعطى أعلى صفات الكمال، وأنَّ هذا هو معنى المَثَلِ الأعلى الذي في هذه

الآيات: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وتقدَّم أنَّ معناه: أنَّ كلَّ كمالٍ اتَّصف به المخلوق ليس فيه نقصٌ؛ فالرَّبُّ تعالى أولى به، وكلُّ نقصٍ يُوصف به المخلوق، فالرَّبُّ أَوْلَى بأن ينزَّه عن النقص الذي يتنزَّه عنه المخلوق، وكلُّ عيب يكون في الإنسان، فالرَّبُّ تعالى أولى بالتَّنزُّه عنه، والكمال الذي يُمدح به ويثبت على أنَّه كمال وليس فيه أيُّ نقصٍ، فالرَّبُّ تعالى أولى أن يُمدح به.

فأمَّا إذا كان ذلك الكمال في الإنسان من خصائصه، فإنَّه يُنزَّه عنه الرَّبُّ؛ كإثبات الولد، فالولد للإنسان قد يكون صفة كمالٍ، ولكنَّ الرَّبَّ تعالى منزَّهٌ عن الولد كما نزَّه نفسه عن ذلك؛ لأنَّ الله تعالى ليس بحاجةٍ إلى ولدٍ ولا إلى شريكٍ أو معينٍ، والإنسان بحاجةٍ إلى الأولاد؛ لأنَّهم يساعدونه ويخلفُونه، ولأنَّه يعتريه التَّغيُّر والكِبَر، ويأتي عليه الموت، فالخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ليس بحاجةٍ إلى هذا، ولا يعدُّ وصفه به في حقِّه كمالًا، بل هو نقصٌ؛ لاستدعائه المِثْل، واستدعائه الحاجة إلى الصَّاحبة، والله تعالى قد أخبر بأنَّه لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولدًا.

وكذلك من النَّقائص ـ مثلًا ـ: ما نفى الله تعالى عن نفسه من الشَّريك، ومن الوليِّ من الذُّلِّ، ومن المعين والظَّهير ... وما أشبه ذلك.

فيُنفى عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه، ويُعتقد أنَّ ذلك من الكمال؛ كما نفى عن نفسه بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، يعني: من يشاركه ويستحقُّ اسمًا كاسمه، وكما في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

[الإخلاص:٤]، والكفو: هو المثل، وكما نفى النِّدَّ بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وكما نفى المثل في قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، وأشباه ذلك، فإذا نظرنا إلى هذه النَّقائص التي نفاها الله عن نفسه، فينفيها المسلم عقيدة راسخة.

وإذا نظرنا إلى صفات الكمال مثل الرَّحمة، والعزَّة، والحكمة، والعلم، وكمال القدرة، وكمال التصرُّف، وكمال الغنى، وكمال المحبَّة ... وما أشبه ذلك، وهي صفات يُمدح بها، فيثبتها المسلمون كما أثبتها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنفسه، وإثباتهم بالدَّليل وبقياس الأولى الذي هو المَثَل الأعلى؛ كما أخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن نفسه.

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى، وَوَفَّقَ بَيْنَ أَقْوَالِهِمْ بَعْضُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَهَدَاهُ، فَقَالَ: الْمَثَلُ الْأَعْلَى يَتَضَمَّنُ: الصِّفَةَ الْعُلْيَا، وَعِلْمَ الْعَالِمِينَ بِهَا، وَوُجُودَهَا الْعِلْمِيَّ، وَالْخَبَرَ عَنْهَا وَذِكْرَهَا، وَعِبَادَةَ الرَّبِّ تَعَالَى بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الْقَائِمَةِ بِقُلُوبِ عَابِدِيهِ وَذَاكِرِيهِ.

فَهَاهُنَا أُمُورٌ أَرْبَعَةٌ:

ثُبُوتُ الصِّفَاتِ الْعُلْيَا لِلَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ سَوَاءٌ عَلِمَهَا الْعِبَادُ أَوْ لَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ فَسَّرَهَا بِالصِّفَةِ.

الثَّانِي: وُجُودُهَا فِي الْعِلْمِ وَالشُّعُورِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: إِنَّهُ مَا فِي قُلُوبِ عَابِدِيهِ وَذَاكِرِيهِ، مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ، وَمَحَبَّتِهِ وَجَلَالِهِ، وَتَعْظِيمِهِ، وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَهَذَا الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ أَصْلًا، بَلْ يَخْتَصُّ بِهِ فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا اخْتَصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ أن أَهْلَ السَّمَاوَاتِ يحبونه ويُعَظِّمُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ كَذَلِكَ، وَإِنْ أَشْرَكَ بِهِ مَنْ أَشْرَكَ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ، وَجَحَدَ صِفَاتِهِ مَنْ جَحَدَهَا، فَأَهْلُ الْأَرْضِ مُعَظِّمُونَ لَهُ، مُجِلُّونَ، خَاضِعُونَ لِعَظَمَتِهِ، مُسْتَكِينُونَ لِعِزَّتِهِ وَجَبَرُوتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم:٢٦].

الثَّالِثُ: ذِكْرُ صِفَاتِهِ، وَالْخَبَرُ عَنْهَا، وَتَنْزِيهُهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَالتَّمْثِيلِ.

**الرَّابِعُ: مَحَبَّةُ المَوْصُوفِ بِهَا وَتَوْحِيدُهُ، وَالْإِخْلَاصُ لَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ أَكْمَلَ كَانَ هَذَا الْحُبُّ وَالْإِخْلَاصُ أَقْوَى.**

---

**قال الشيخ:**

يُفسَّر قول الله تعالى في موضعين من القرآن: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وقد تبيَّن من قول الشَّارحِ وغيرِه أنَّ كلَّ صفةٍ تثبُت للمخلوق، وهي صفة كمالٍ لا نَقْصَ فيها بوجهٍ من الوجوه، فالخالق أولى بإثباتها، وكلَّ نفيٍ تنزَّه عنه المخلوق، أو أصبح نقصًا في حقِّه، فإنَّ تنزيه الله عنه بطريق الأولى، هذا تفسير المَثَل الأعلى: أن يُوصَفُ اللهُ تعالى بالصِّفات العلى، وبالأسماء الحسنى.

**أوَّلًا:** إذا أثبتنا لله تعالى تلك الأسماءَ وتلك الصِّفات، وذكرنا أدلَّتها العقليَّة والنقليَّة، فهذا من المَثَل الأعلى.

**ثانيًا:** وَصْفُ الله تعالى بها، وذكرها بالألسن وتداولها، وبيان آثارها؛ مثل: آثار العلم، وآثار السَّمع والبصر، وآثار القدرة والحكمة ونحوها؛ فإنَّ ذِكْرَها وإشهارَها وتداوُلَها وتناقُلَها؛ ليُرسِّخُ الاعتقاد بها في القلوب.

**ثالثًا:** وَصْفُ الله تعالى بموجبها إذا ذكرناها، فإنَّنا نصف الله تعالى بها، ونعتقد أنها صفاتٌ مدلولٌ عليها.

**رابعًا:** عبادته بآثارها، وهذه هي النَّتيجة، نتيجةُ العقيدة العبادةُ، فمن كانت عقيدتُه ضعيفةً؛ كانت عبادتُه ضعيفةً، ومن كانت عقيدتُه سليمةً راسخةً

قويَّةً؛ كانت عبادتُه متمكِّنةً ثابتةً راسخةً .

متى كانت العقيدة ـ وبالأخصّ ما يتعلَّق بأسماء الله تعالى وبصفاته ـ سليمةً، وثابتةً في العقل والقلب، كانت آثارُها واضحةً؛ فينتج من ذلك دعاءُ الله تعالى بها وعبادتُه بموجبها، وهذا هو مدلولُ المَثَلِ الأعلى الذي كَثُر كلام السَّلف حوله، وبلا شكٍّ أنَّه عامٌّ من كلمة ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الروم:٢٧]، ويقتضي أنَّ كلَّ مسلم يعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ صفاتِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي أثبتها لنفسه وأثبتها له نبيُّه ﷺ صحيحةٌ، وأنَّها كما يليق به، وأنَّها أيضاً صفاتُ كمالٍ؛ سواءً أكانت ثبوتية ـ كإثبات العلم، والحكمة، والقدرة، والقوّة، والعزّة، ونحوها ـ أم كانت نفيًا؛ كنفي السِّنَةِ، والنَّوم، والموت، واللُّغوب، والنِّدِّ، والولد، وما أشبهها، فإثبات ذلك أو نفي ضدِّه من المَثَل الأعلى.

قال الشارح:

فَعِبَارَاتُ السَّلَفِ كُلُّهَا تَدُورُ عَلَى هَذِهِ المَعَانِي الْأَرْبَعَةِ.

فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يُعَارِضُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[الروم:٢٧]، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟ وَيَسْتَدِلُّ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ وَيَعْمَى عَنْ تَمَامِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، حَتَّى أَفْضَى هَذَا الضَّلَالُ بِبَعْضِهِمْ - وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادَ الْقَاضِي - إِلَى أَنْ أَشَارَ عَلَى الخَلِيفَةِ المَأْمُونِ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى سِتْرِ الْكَعْبَةِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، حَرَّفَ كَلَامَ اللَّهِ لِيَنْفِيَ وصفه تَعَالَى بِأَنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، كَمَا قَالَ الضَّالُّ الْآخَرُ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ: وَدِدْتُ أَنِّي أَحُكُّ مِنَ الْمُصْحَفِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ السَّمِيعَ الْبَصِيرَ أَنْ يُثَبِّتَنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَفِي إِعْرَابِ ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْكَافَ صِلَةٌ زِيدَتْ لِلتَّأْكِيدِ، قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ[1]:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرِ ... خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

وَقَالَ آخَرُ: مَا إِنْ كَمِثْلِهِمُ فِي النَّاسِ مِنْ بَشَرِ[2]

---

(١) ذكره ابن حيان في تفسير البحر المحيط (٧/ ٤٨٨).

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٣) ولم ينسبه، وتمامه:

سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ إِذَا أَبْصَرْتَ فَضْلَهُمُ ... مَا إِنْ كَمِثْلِهِمُ فِي النَّاسِ مِنْ بَشَرِ

وَقَالَ آخَرُ: وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ[١].

فَيَكُونُ (مِثْلِهِ) خَبَرَ (لَيْسَ)، وَاسْمُهَا (شَيْءٌ). وَهَذَا وَجْهٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ، تَعْرِفُ الْعَرَبُ مَعْنَاهُ فِي لُغَتِهَا، وَلَا يَخْفَى عَنْهَا إِذَا خُوطِبَتْ بِهِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ أَيْضًا زِيَادَةُ الْكَافِ لِلتَّأْكِيدِ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ: وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنَ[٢].

وَقَوْلِ الْآخَرِ: فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولِ[٣].

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الزَّائِدَ (مِثْلِ) أَيْ: لَيْسَ كَهُوَ شَيْءٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ (مِثْلَ) اسْمٌ، وَالْقَوْلُ بِزِيَادَةِ الْحَرْفِ لِلتَّأْكِيدِ أَوْلَى مِنَ الْقَوْلِ بِزِيَادَةِ الِاسْمِ.

---

قال الشيخ:

تكلَّم الشارح على قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، هذه الآية ردَّ الله فيها على طائفتيْنِ من أهل الضَّلال؛ فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، ردٌّ على المُمثِّلة الذين يُمثِّلون صفاتِ الله

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٢)، ونسبه إلى أوس بن حجر. وتمامه:

وَقَتْلَىٰ كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيـ ـلِ تَغَشَّاهُم مُسْبِلٌ مُنْهَمِرُ

(٢) ذكره سيبويه في كتابه (١/ ٤٠٨)، والأزهري في تهذيب اللغة (١٥/ ١٠٩)، ونسباه إلى خطام المجاشعي.

(٣) ذكره سيبويه في كتابه (١/ ٤٠٨)، ونسبه إلى حُمَيْدٍ الأرقط. وتمامه:

تَرْمِيهِمُ حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلْ فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

بصفاتِ خَلْقِه، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ردٌّ على النُّفَاةِ المعطِّلة الذين نفوا صفات الكمال، فجمع الله تعالى في هذه الآية بين إبطال شُبَه المعطِّلة والمشبِّهة.

وقد كَثُر استدلالُ نُفاة الصفات بأوَّل الآية، ولا يذكرون آخرها، هؤلاء النُّفاة يُسَمَّوْنَ: المعطِّلةَ، ويسمِّيهمُ السَّلفُ: الجهميَّة؛ وهم الذين اشتهروا بنفي الصِّفات، فنفوا صفة العلوِّ والاستواء، ونفوا صفة السَّمع، والبصر، والكلام، والمحبَّة، والرَّحمة، والكراهية، والرِّضا، والغضب... وما أشبهها، نفوا ذلك وبالغوا في نفيه، وكان نتيجة قولهم أن عطَّلوا الله تعالى عن صفات الكمال. فأهل السُّنَّة يردُّون قول هؤلاء المعطِّلة، ويستدلُّون بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، على إثبات السَّمع والبصر، وهما من جملة صفات الكمال التي يبالغ في نفيها أهلُ التَّعطيل.

ومن جملة هؤلاء المعطِّلة: أحمد بن أبي دؤاد، كان قاضيًا مقدَّمًا عند الخليفة المأمون الذي قرَّب أهل الكلام، فأوقعوه في علمهم الباطل، وأخرجوه من عقيدة أهل السُّنَّة، وزيَّنوا له القولَ بنفي الصِّفات، وأنَّ إثباتها يؤدِّي إلى التَّشبيه، وأنَّ الله ليس كمثله شيءٌ، وأخذوا يردِّدون قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ولا يذكرون آخر الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقد أشار ذلك المعطِّل على الخليفة المأمون بأن يكتب على كسوة الكعبة: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، بدلًا من ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

والآية تحوي صفتي السَّمع والبصر؛ لأنَّ السَّمع والبصر صفتان ثبوتيَّتان، وصفتان ذاتيَّتان، فأراد إبطالَ هاتين الصِّفتين، وتمسَّك بأول الآية.

ولا شكَّ أنَّ هذا فيه تحريفٌ لفظيٌّ، وتغييرٌ لكلام الله تعالى، وذلك من حقدهم على الإسلام، وعلى النُّصوص المثبتة لصفات الله سبحانه.

وذكروا أيضًا أنَّ رجلًا[1] منهم قد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء ـ أحد القرَّاء السَّبعة ـ فقال له: أريد أن تقرأ هذه الآية في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]: (وكلَّم الله) بنصب لفظ الجلالة (الله)؛ حتَّى يجعل موسى ـ عليه السلام ـ هو المتكلم، ويجعل اللهَ ـ جل وعلا ـ هو المُكَلَّم، رغبة منه في نفي أنَّ الله تعالى هو المتكلِّم، وكذا قال في سورة البقرة: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، لا تقل: ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، أراد أن يغيِّر كلام الله وينفي أنَّ الله هو المتكلِّم؛ ولكنَّ أبا عمرو ـ رحمه الله ـ قطع حجَّته، وقال له: هب أنَّكَ قرأتَ هذه الآية هكذا، فكيف تصنع في هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هل تقدر أنْ تغيِّرها؟! فبُهت ذلك الجهميُّ، وعرف أنَّه لا حيلةَ له في تغيير كلام الله. فهذا يُعدّ من تحريف اللَّفظ، ويدل على رغبة أهل البدع في نفي دلالة الكتاب والسنة.

ومن جملتهم الجهم بن صفوان، وهو رئيسهم الذي نُسبت الفرقةُ

---

(١) هو عمرو بن عبيد رأس المعتزلة.

إليه ـ والسَّلف يسمُّون كلَّ من بالغ في النَّفي جهميًّا ـ حُفظ عنه أنَّه قرأ مرَّة في أوَّل سورة طه، فوقف على قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وكان عنده جليسٌ، فقال لجليسِه: ليتني أتمكَّن فأحكَّ هذه الآية من مصاحف المسلمين! هكذا يتمنى هذا العدوُّ ـ مع أنَّها ذُكرت في سبعة مواطن ـ وسيأتينا شيءٌ من الكلام حولها إن شاء الله.

فهذا من تحريف أو من حِيَل وغرور أهل الكلام وأهل العقائد السَّيِّئة لنصوص الصِّفات، وذلك لأنَّها تخالف معتقدهم الذي رَسِخَ في قلوبهم، ولو أنَّهم اعتقدوا عقيدة أهل السُّنَّة وفوَّضوا كيفيتها إلى الله تعالى؛ لسلموا من هذا الانحراف، فالآية صريحة الدِّلالة، ولكن لا يُفهم منها تشبيهٌ، فنحن نستدلُّ بها، فنقول: الله تعالى استوى على العرش، ولكن ليس كمثله شيءٌ في الاستواء، ليس استواؤه كاستواء المخلوق على العرش، وليس عرشُه كعرش المخلوق.

ونقول: إن الله هو العليُّ الأعلى، الذي هو فوق عباده، ولكن ليس كمثله شيءٌ، ليس كمثله في علوِّه أحدٌ من المخلوقين، وليس علُّوه كعلوِّ المخلوق، ولا ارتفاعُه ولا فوقيَّته كفوقيَّة المخلوقين.

وكذلك يقال في الصِّفات الذَّاتيَّة؛ فيُقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ليس كمثل سمعه سمعٌ، وليس كبصره بصرٌ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة:٢٠]، ليس قدرته كقدرة مخلوقٍ، وليس علمه كعلم مخلوقٍ... وهكذا.

ثمَّ قد يظهر من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أنَّ فيها إشكالًا،

وذلك أنَّ عندنا حرف (الكاف) وكلمة (مثل)، قد يُفهم منها أنَّ لله مثلًا، وأنَّ ذلك المثل لا يُوجَدُ له نظيرٌ، (كمثل) الله تعالى: ليس له مثل.

لكن الصحيح أن الآية لا يُفهَمُ منها أنَّ لله مثلًا، وأنَّ ذلك المثل لا يوجد له نظيرٌ؛ لأن معنى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أي: ليس يماثله شيءٌ من المخلوقات، و(الكاف) التي دخلت على (مثل) تكون صلةً؛ كما قال أحد شعراء العرب في هذا البيت:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرِ ... خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

وكذلك قول العرب: مثلك لا يفعل كذا، يعني: أنت لا تفعل كذا.

فيكون تقدير الآية: (ليس لله مِثْلٌ)، نفيٌ للماثلة في أيِّ شيءٍ؛ نفيُ المماثلة في الذَّات، ونفيُ المماثلة في الصِّفات، ونفي المماثلة في الأفعال.

والنفاة يثبتون الذَّات لله: أنَّ لله تعالى ذاتًا حقيقةً، فيُقال لهم: ونحن نثبت الصِّفات التي أثبتها ونفى عنها المماثلة، ونقول: ليس له مماثلٌ في صفاته، ونثبت أيضًا أفعاله، فنثبت أنَّه استوى، وأنَّه ينزل، وأنَّه يجيء تعالى لفصل القضاء، وأنَّه يسمع ويرى؛ كما قال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وأنَّه يتكلَّم إذا شاء، وأنَّه يحبُّ ويكره كما أثبت ذلك لنفسه، نثبتُ ذلك كلَّه ونعتقد أنَّ ذلك على ما يليق بالله، وليس لله مماثلٌ في ذلك؛ فإذا أثبتنا الذَّات ونفينا عنها المماثلة، وأثبتنا الصِّفات ونفينا عنها المماثلة، لم يكن لهم إلينا سبيلٌ، فنكون نحن إن شاء الله أحظى بالدَّليل، وأحظى بعدم الاعتراض.

فإذا توقَّفنا عَن طلب الكيفيَّة، وعن معرفة الكُنْه، وحقيقة الشَّيء، وفوَّضنا كيفية ذلك إلى عالمه، وتقبَّلنا ما نعرفه، فإن ذلك يُوصلُ المسلمَ إلى معرفة خالقه على ما يليق به، وسلامته من كلِّ الاعتراضات ومن كلِّ الشُّبَه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ.

---

خَلَقَ: أَيْ: أَوْجَدَ وَأَنْشَأَ وَأَبْدَعَ. وَيَأْتِي (خَلَقَ) أَيْضًا بِمَعْنَى: قَدَّرَ. وَالخَلْقُ: مَصْدَرٌ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى المَخْلُوقِ. وَقَوْلُهُ: (بِعِلْمِهِ) فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الحَالِ، أَيْ: خَلَقَهُمْ عَالِمًا بِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٥٩، ٦٠]. وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى المُعْتَزِلَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ المَكِّيُّ - صَاحِبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَجَلِيسُهُ - فِي كِتَابِ «الحَيْدَةِ»[1]، الَّذِي حَكَى فِيهِ مُنَاظَرَتَهُ بِشْرًا المَرِيسِيَّ عِنْدَ المَأْمُونِ حِينَ سَأَلَهُ عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى، فَقَالَ بِشْرٌ: أَقُولُ: لَا يَجْهَلُ، فَجَعَلَ يُكَرِّرُ السُّؤَالَ عَنْ صِفَةِ الْعِلْمِ، تَقْرِيرًا لَهُ، وَبِشْرٌ يَقُولُ: لَا يَجْهَلُ، وَلَا يَعْتَرِفُ لَهُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِعِلْمٍ، فَقَالَ الْإِمَامُ عَبْدُالْعَزِيزِ: نَفْيُ الجَهْلِ لَا يَكُونُ صِفَةَ مَدْحٍ، فَإِنَّ قَوْلِي: هَذِهِ الْأُسْطُوَانَةُ لَا تَجْهَلُ، لَيْسَ هُوَ إِثْبَاتَ الْعِلْمِ لَهَا، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ وَالمَلَائِكَةَ وَالْمُؤْمِنِينَ

---

(١) (ص٤٤ - ٤٦).

بِالْعِلْمِ، لَا بِنَفْيِ الجَهْلِ، فَمَنْ أَثْبَتَ الْعِلْمَ فَقَدْ نَفَى الجَهْلَ، وَمَنْ نَفَى الجَهْلَ لَمْ يُثْبِتِ الْعِلْمَ، وَعَلَى الخَلْقِ أَنْ يُثْبِتُوا مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ، وَيَنْفُوا مَا نَفَاهُ، وَيُمْسِكُوا عَمَّا أَمْسَكَ عَنْهُ.

وَالدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى عِلْمِهِ تَعَالَى: أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ إِيجَادُهُ الْأَشْيَاءَ مَعَ الجَهْلِ، وَلِأَنَّ إِيجَادَهُ الْأَشْيَاءَ بِإِرَادَتِهِ، وَالْإِرَادَةُ تَسْتَلْزِمُ تَصَوُّرَ الْمُرَادِ، وَتَصَوُّرُ الْمُرَادِ: هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُرَادِ، فَكَانَ الْإِيجَادُ مُسْتَلْزِمًا لِلْإِرَادَةِ، وَالْإِرَادَةُ مُسْتَلْزِمَةً لِلْعِلْمِ، فَالْإِيجَادُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْعِلْمِ. وَلِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ مَا يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ الْفَاعِلِ لَهَا، لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمُحْكَمَ الْمُتْقَنَ يَمْتَنِعُ صُدُورُهُ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ، وَلِأَنَّ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ عَالِمٌ، وَالْعِلْمُ صِفَةُ كَمَالٍ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ لَا يَكُونَ الخَالِقُ عَالِمًا. وَهَذَا لَهُ طَرِيقَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ: نَحْنُ نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الخَالِقَ أَكْمَلُ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ أَكْمَلُ مِنَ الْمُمْكِنِ، وَنَعْلَمُ ضَرُورَةً أَنَّا لَوْ فَرَضْنَا شَيْئَيْنِ، أَحَدُهُمَا عَالِمٌ وَالْآخَرُ غَيْرُ عَالِمٍ كَانَ الْعَالِمُ أَكْمَلَ، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الخَالِقُ عَالِمًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمُمْكِنُ أَكْمَلَ مِنْهُ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ.

الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: كُلُّ عِلْمٍ فِي الْمُمْكِنَاتِ ـ الَّتِي هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ ـ فَهُوَ مِنْهُ، وَمِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يَكُونَ فَاعِلُ الْكَمَالِ وَمُبْدِعُهُ عَارِيًا مِنْهُ بَلْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَلَا يَسْتَوِي هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ، لَا فِي قِيَاسٍ تَمْثِيلِيٍّ، وَلَا فِي قِيَاسٍ شُمُولِيٍّ، بَلْ كُلُّ مَا ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ مِنْ كَمَالٍ فَالخَالِقُ بِهِ أَحَقُّ، وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ مَخْلُوقٌ مَا فَتَنْزِيهُ الخَالِقِ عَنْهُ أَوْلَى.

قال الشيخ:

صفة العلم من صفات الكمال لله تعالى، و(العلم): هو العلم بالكائنات، ولا شكَّ أنَّ العلم صفة كمالٍ في المخلوق، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، والجواب: لا يستوون، فالذين يعلمون أكملُ، فما دام أنَّه صفة كمالٍ، فإنَّ الخالق أولى به.

ومعلومات الله تعالى لا تحصى، وهو عالمٌ بكلِ شيءٍ؛ فهو يخبر عن نفسه أنَّه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، ويُوصف بأنَّه يعلم ما كان وما يكون ـ يعني: في المستقبل ـ وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنَّه يعلم ما تُكِنُّه النُّفوس وما تسرُّه الضَّمائر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

وفي هذه الآيات دلالةٌ واضحةٌ، فإن قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤]، استفهامُ إنكارٍ، يعني: كيف لا يعلم بخلقه؟! فحيث إنَّه الذي خلقهم كيف لا يعلم بهم؟! كيف لا يعلم بأفرادهم؟! وكيف لا يعلم بأعمالهم؟! بل هو سبحانه عالم بهم، لا تخفى عليه منهم خافيةٌ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، يعني: لا يعلم الأمور المستقبلة إلَّا هو، إلى قوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، يعني: قد علمه وأثبته.

وكذلك قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، يعني: يعلم ما اكتسبتم في النَّهار.

والآيات في هذا الباب كثيرةٌ، وقد استوفاها العلماء ـ رحمهم الله ـ في الأدلَّة على إثبات هذه الصِّفة في كتب أهل السُّنَّة وكتب الرَّدِّ على أهل البدع، فمثلًا: كتاب «الرَّدِّ على الجهميَّة»، لعثمان بن سعيد الدَّارمي، لَـمَّا كانت الجهميَّة تثبت صفات السَّلب، وتصف الله تعالى بالصِّفات السَّلبيَّة دون الصِّفات الثُّبوتيَّة، ردَّ عليهم أنَّ الصِّفات السَّلبيَّة ليست مدحًا، بخلاف الصِّفات الثُّبوتيَّة؛ فإنَّها مدحٌ؛ وهذه القصَّة التي ذُكرت، نقلها الشَّارح من كتاب «الحَيْدة» ـ وهو مطبوعٌ مشهورٌ ـ: أنَّ الكناني قال للمريسي: إنَّ الله تعالى يعلم، فامتنع المريسي مِنْ إثبات العلم، وقال: أقول لا يجهل!

وهكذا عادةُ الجهميَّة ـ وبشرٌ منهم ـ يصفون الله بالصِّفات السَّلبيَّة، أي: صفات النَّفي؛ لا يجهل، ولا يتكلَّم، ولا ينزل، يقول له الكناني: إنَّ هذه الأسطوانة لا تجهل، ما يوصف بالكمال إلَّا العلم، فالعلم تحصيلٌ، وأمَّا نفي الجهل، فليس فيه صفة إثباتٍ! فقرَّره ليقرَّ بصفة العلم، فامتنع بناءً على عقيدته.

وهكذا يقال: إنَّ الله تعالى موصوفٌ بالعلم، والأدلَّة السَّمعيَّة على ذلك كثيرة، فقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١١٩]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد:٤]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وأشباه ذلك.

كذلك العقل دلَّ على إثبات صفة العلم، وذلك أنَّ خلق هذه المحدثات

وإيجادها مع إحكام الخلق وإتقانه دليلٌ على صفة العلم؛ فإنَّه لا يثبت إلَّا عن علم، فإن هذا الخلق، مع إتقان المخلوق، وعدم التَّفاوت فيه، لا بد أن يكون صادرًا عن علمٍ.

وقد اعتقد صفة العلم الأشاعرة؛ فهي من الصِّفات السَّبع التي أثبتوها: فأثبتوا صفة الإرادة، وقالوا: دلَّ عليها العقل، وأثبتوا صفة القدرة بالعقل أيضًا، وأثبتوا صفة العلم بالعقل أيضًا؛ فقالوا مثلًا: إنَّنا نشاهد حدوث المخلوقات وتجدُّدها، فنشاهد اختلاف الرِّياح، ونشاهد إنشاء السُّحب، ونشاهد حلول العقوبات والمَثُلات، ونشاهد تجدُّد المخلوقات: يفنى جيلٌ وينشأ جيلٌ، ونشاهد النَّباتات والثِّمار ونحو ذلك، هذه مخلوقةٌ لا بدَّ لها من خالقٍ، والذي أوجدها لا يكون عاجزًا؛ فلا بدَّ من إثبات القدرة بدلالة العقل.

كذلك إثبات صفة الإرادة دليله العقليُّ هو التَّخصيص؛ فإنَّهم يقولون مثلًا: نشاهد اثنين أخوين، قد يكونان توأمين وقد ينشآن في أسرة واحدة وفي تربية واحدة، ثمَّ مع ذلك يفترقان، ويكون هذا غنيًا وهذا فقيرًا، ويكون هذا قويًا وهذا ضعيفًا، ويكون هذا جاهلًا وهذا عالمًا، ويكون هذا سعيدًا وهذا شقيًا، ويكون هذا مطيعًا وهذا عاصيًا، وهذا عاقًّا وهذا بارًّا فتخصيص الله أحدهما بالهداية وبالتَّوفيق وبالإعانة وبالقوة ونحو ذلك دليلٌ على أنَّه أراد بهذا خيرًا ولم يرده بالآخر، وهذا دليلٌ على صفة الإرادة.

وأما صفة العلم؛ فدلَّ عليها إتقان المخلوقات وإحكامها كما ذكرنا؛

فوجود المخلوقات محكمةً دليلٌ على أنَّه خلقها بعلمه؛ كما قاله الشَّارح، فالإنسان ـ مثلًا ـ لا تجد عضوًا منه خُلقَ عبثًا؛ حتَّى رؤوس الأصابع التي فيها الأظافر لم تُخلق عبثًا، الشَّعر الذي في الرَّأس وفي الأنف وفي العينين وفي الوجه؛ كلُّ ذلك ما خُلق عبثًا، وكذلك جميع أعضائه الظَّاهرة والباطنة متقنةٌ غاية الإتقان، ما من عضوٍ في غير موضعه، إتقان هذه المخلوقات في الإنسان وفي الحيوان وفي النَّبات وما أشبه ذلك دليلٌ على أنَّ الله عليمٌ حيث، وضع هذه الأشياء بموضعها؛ أليس هذا دليلًا عقليًا على إثبات صفة العلم؟!

ثم يُقال أيضًا: يُشاهد أنَّ المخلوقات يفضل من يكون فيها عالمًا على من يكون جاهلًا؛ حتَّى البهائم: الكلاب ـ المعلَّمة منها ـ صيدُها حلالٌ بخلاف غيرها؛ فالله تعالى يقول: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، فالصيدُ بالكلب المعلَّم مأكولٌ، وبغيره ليس بمأكولٍ، وبذلك تميَّزت الكلاب المعلَّمة وغير المعلَّمة، وكذلك التفاوت في الإنسان: العالم أفضلُ من الجاهل.

فما دام العلم صفة كمالٍ؛ فكيف يخلو منه الخالق؟! أليس اللهُ الذي علَّم هذا العلم ؟! يقول الله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، كيف يعلِّمه شيئًا وهو جاهلٌ؟! الذي يمنُّ بالعلم لابدَّ أن يكون عالِمًا، لهذا نقرِّر هذه الصِّفة التي أنكرتها الجهميَّة وبالغت في إنكارها، وذكرنا ذلك الإنكار عن بِشْرٍ المريسيِّ وأتباعه مِنَ الجهميَّة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَارًا.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٢، ٣].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[1] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ».

---

قال الشيخ:

هذا له موضعٌ آخر يأتينا فيه كلامٌ واسعٌ إن شاء الله، ويُراد به تحديد مواضعِ المخلوقات وآجالِها وأزمِنتها ونحو ذلك، وأنَّه لا يكون إلَّا ما قد قُدِّر، ولا يحدث في الوجود شيءٌ إلَّا وقد كتبه الله وقدَّر أجله وحدَّده؛ فكلُّ شيءٍ يحدث فإنَّه بقدرٍ.

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

ورد في الحديث: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حتى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»[١]، مع أنَّهما خُلقان يتَّصف بهما العبد، ولكنَّهما بقدرٍ.

ويجب لمثل هذا أن يستسلم الإنسان لما قدَّره الله وقضاه، وسيأتينا أنَّ على الإنسان أن يفعل الأسباب التي أُمر بها ولا يترك الأسباب ويقول: إن الله قد قدَّر كلَّ شيء، فلا حاجة إلى أن أفعل، فإن كل الأسباب من القدر.

وفي الحديث عن أبي خُزَامَةَ عن أبيه - رضي الله عنهما - أنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا، هل تَرُدُّ من قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ»[٢]، يعني: أنت مأمورٌ بأن تتعالج وتتداوى، ولا ينافي ذلك الإيمان بالقدر، كما أنَّك مأمورٌ بأن تنكح وتطلب الولد، ولا ينافي ذلك القدر أو اعتقاده، كما أنَّك مأمورٌ بأن تكتسب وتطلب المعيشة بحِرفةٍ أو بعملٍ أو بتجارةٍ أو نحو ذلك، ولا ينافي أنَّ ذلك مقدَّرٌ، وأنَّ رزقَك مقدَّرٌ، كما أنَّك مأمورٌ بأن تأكل وتشرب، ولا ينافي ذلك القدر، كل هذه أسبابٌ حسيَّةٌ.

وعلى كل حالٍ المراد هنا بالقدر التَّقدير الأزليُّ، فإن قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وَقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وَقوله:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٥) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٦٥)، وابن ماجه (٣٤٣٧)، وأحمد (٣/ ٤٢١).

﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى:٣]، كلُّ ذلك إشارةٌ إلى التَّقدير السَّابق، بمعنى: أنَّ الله قدَّر الآجال وحدَّدها، نؤمن بذلك ونعرف أنَّ الإنسان لا يتعدَّى قدرَه ولا يجاوز حدّه، وأنَّ المقتول قُتل بأجله ولم يقطع عليه أجله، وأنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقَها وأجلَها، وكذلك نُؤمن بأنَّ الله عَلِمَ الآجال وكتبها قبل أن يخلُقَ الخلقَ، كتابةً قديمةً عامةً، ثمَّ كتابةً أخرى بعدما تكوَّن الجنين؛ كتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ.

فالآجال محددةٌ، لكن مع ذلك الإنسان منهيٌّ عن فعل الأضرار، أو الإلقاء بيده إلى التهلكة، وإن كان ذلك مقدَّرًا، فلا تُلْقِ نفسك مثلًا في النَّار وتقول: قدر، ولا تلق نفسك من شاهقٍ أو في طريقٍ أو في بحرٍ، وتقول: إن كان الله قدَّر هلاكي أو قدَّر نجاتي. الله تعالى قدَّر كلَّ شيءٍ، ولكن نهاك عن التَّهلكة، وأمرك باتِّقاء أسباب الهلاك، وإن كان ذلك مقدَّرًا عليك، وهكذا سائر الأحكام.

والحاصل: أنَّ الآجال مقدرةٌ، والنتيجة أنَّك إذا أصابتك مصيبةٌ، أو مات إنسانٌ مثلًا،؛ فلا تتلوَّم، ولا تقل: ليته فعل، أو نحو ذلك، فإذا وقع أمرٌ، أو وقع حادث مثلًا، فلا تقل: لو أنِّي ما أسرعت إلى كذا، ولو أني ما ركبت مع فلان لسلمت، ولو أني، ولو أني، لا تقل: لو أني فعلت وفعلت، أمَّا في المستقبل، فيتوقع الإنسان أسباب الهلاك والشَّرِّ ويكون ذلك موافقًا للقدر، ودليله قول النَّبيِّ ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ

أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كان كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وما شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1]، قَدَرُ اللَّهِ: أي هذا قضاؤه، فما شاء فعل، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فيحتجُّ بالقدر على الأمور التي قد مضت.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالًا.

---

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ قَدَّرَ آجَالَ الخَلَائِقِ، بِحَيْثُ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[1] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ أَجَلِهِ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ أَجَلِهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ».

فَالمَقْتُولُ مَيِّتٌ بِأَجَلِهِ، فَعَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ وَقَضَى أَنَّ هَذَا يَمُوتُ بِسَبَبِ المَرَضِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْقَتْلِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الهَدْمِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الحَرْقِ، وَهَذَا بِالْغَرَقِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ، وَخَلَقَ

---

(١) برقم (٢٦٦٣).

سَبَبَ المَوْتِ وَالحَيَاةِ.

وَعِنْدَ المُعْتَزِلَةِ: المَقْتُولُ مَقْطُوعٌ عَلَيْهِ أَجَلُهُ، وَلَوْ لَمْ يُقْتَلْ لَعَاشَ إِلَى أَجَلِهِ، فَكَأَنَّ لَهُ أَجَلَانِ، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ أَجَلًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَعِيشُ إِلَيْهِ الْبَتَّةَ، أَوْ يَجْعَلُ أَجَلَهُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ، كَفِعْلِ الجَاهِلِ بِالْعَوَاقِبِ، وَوُجُوبِ الْقِصَاصِ وَالضَّمَانِ عَلَى الْقَاتِلِ، لِارْتِكَابِهِ المَنْهِيَّ عَنْهُ وَمُبَاشَرَتِهِ السَّبَبَ المَحْظُورَ. وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُهُ ﷺ: «صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»[1]، أَيْ: سَبَبُ طُولِ الْعُمُرِ، وَقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا يَصِلُ رَحِمَهُ، فَيَعِيشُ بِهَذَا السَّبَبِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ السَّبَبُ لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَلَكِنْ قَدَّرَ هَذَا السَّبَبَ وَقَضَاهُ، وَكَذَلِكَ قَدَّرَ أَنَّ هَذَا يَقْطَعُ رَحِمَهُ فَيَعِيشُ إِلَى كَذَا، كَمَا قُلْنَا فِي الْقَتْلِ وَعَدَمِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَلْزَمُ مِنْ تَأْثِيرِ صِلَةِ الرَّحِمِ فِي زِيَادَةِ الْعُمُرِ وَنُقْصَانِهِ تَأْثِيرُ الدُّعَاءِ فِي ذَلِكَ أَمْ لَا؟ فَالجَوَابُ: أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ لِأُمِّ حَبِيبَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: «قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ تَعَالَى لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ»، الحَدِيثَ، كَمَا تَقَدَّمَ.

فَعُلِمَ أَنَّ الْأَعْمَارَ مُقَدَّرَةٌ، لَمْ يُشْرَعِ الدُّعَاءُ بِتَغْيِيرِهَا، بِخِلَافِ النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ مَشْرُوعٌ لَهُ، نَافِعٌ فِيهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الدُّعَاءَ بِتَغْيِيرِ الْعُمُرِ لَمَّا تَضَمَّنَ النَّفْعَ الْأُخْرَوِيَّ شُرِعَ كَمَا فِي الدُّعَاءِ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠١٤) من حديث أبي أمامة ﷺ، ويشهد له حديث أنس ﷺ: «من سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ أو يُنْسَأَ له في أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

يَاسِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[1]، إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ»[2] مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ».

وَفِي الحَدِيثِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّ النَّذْرَ سَبَبٌ فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ وَحُصُولِ النَّعْمَاءِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[3] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ».

---

قال الشيخ:

هذا كلامٌ على الآجال، بمعنى تحديدها ومعرفة نهايتها، فالآجال هي الأعمار، والله تعالى قد جعل لكلِّ إنسانٍ عمرًا محدَّدًا لا يتجاوزه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:١١]، وكذلك لَمَّا ذكر المنافقين في غزوة أحدٍ، وأنهم تمنَّوا أنَّهم ما خرجوا، وحكى عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١٦).

(٢) (١/ ٤٩٣). وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (٩٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٧)، وابن حبان (٣/ ١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾، فرد عليهم - جل وعلا - بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ولما قالوا: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾، رد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، فالآجالُ هي أعمارٌ محدَّدةٌ، يعني: مكتوبٌ أجل كلِّ إنسانٍ.

وأمَّا الدُّعاء بطول العمر فذهب بعضهم إلى أنَّه لا يستحبُّ؛ لأنَّ العمر محدَّدٌ، فلا تقل: أطال الله عمرك، أو: اللهمَّ أطِلْ عمرَه، أو: اللهمَّ أطِلْ حياته... أو ما شابه ذلك، والصَّحيح أنَّه دعاءٌ من جملة الأدعية الجائزة، وإنكار النَّبيِّ ﷺ: على أمِّ حبيبة - لَـمَّا دعت الله أن يمتِّعها بأبيها وبأخيها وزوجها - إرشادٌ إلى ما هو أفضل، يعني: أن الأفضل الدُّعاء الأخرويُّ للثواب الأخرويِّ، وإلَّا فقد ثبت أنَّه ﷺ دعا لأناس بطول العمر، ومن جملتهم أنس بن مالك ﷺ، دعا له ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ أَطِلْ عُمرَهُ، وَأَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ»[1]، فاستجيبت دعوته، بمعنى أنَّ ذلك مكتوبٌ في الأزل.

وعلى هذا يجوز أن يسأل الإنسان طولَ الحياة، ويكون ذلك مطابقًا لما قُدِّرَ، وتكون أيضًا بعض الأعمال سببًا في طول العمر، ولكنَّه مطابقٌ لما قدِّر؛ أي: إنَّ الله تعالى كتب أنَّ عمره يطول بسبب دعائه، أو بسبب أعماله الصَّالحة؛ بسبب برِّه، ودليله الحديث الذي أورده الشارح: «لَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ»،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٠٧). وأصله في البخاري (١٩٨٢)، ومسلم (٢٤٨٠).

ومعناه: أن الله كتب عمره ـ مثلًا ـ مئة سنةٍ بسبب برِّه، والذي لم يبرَّ مثلًا كتب عمره خمسين سنة أو ما أشبه ذلك، فكذلك أيضًا عمره يكون ثمانون سنة بسبب دعائه، والله كتب أنَّه سيدعو فيعمَّر بذلك، فدعاؤه من جملة الأعمال التي أُمِرَ بها، كما أنَّ دعاءه بالفوز بالجنَّة، ودعاءه بالنَّجاة من النَّار، ودعاءه بالرِّزق، وما أشبه ذلك، من الأدعية المطلوبة.

فعلى هذا يجوز للعبد أن يسألَ اللهَ تعالى طول البقاء وطول الحياة، ويُسأل له، ويكون ذلك مطابقًا لما قدَّره الله، كما يجوز أن يسأل السَّعادةَ في الدُّنيا والآخرة والرِّزقَ والحياةَ الطَّيِّبة وما أشبه ذلك، فإنَّ الدعاء من جملة الأسباب التي كتبها الله تعالى وقدَّرها، والدُّعاء بطول الحياة قد ورد في الحديث الذي سبق: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»[1]، وبقوله: «**وإذا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غير مَفْتُونٍ**»[2].

فهذا دليلٌ على جواز الدُّعاء بأن يطيلَ اللهُ حياةَ الإنسان، ولا ينافي ذلك أنَّ الآجالَ محدَّدة، ولكن قد جعلَ اللهُ لها أسبابًا أزليَّةً لا بدَّ مِنْ وقوعها.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٥/ ٢٤٣)، والطبراني في الكبير (٢١٦)، والحاكم (١/ ٥٢١) من حديث معاذ بن جبل ﷺ. وأخرجه الترمذي (٣٢٣٣)، وأحمد (١/ ٣٦٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشارح:

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّعَاءَ يَكُونُ مَشْرُوعًا نَافِعًا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ هُوَ، وَلِهَذَا لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْمُعْتَدِينَ فِي الدُّعَاءِ. وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يَكْرَهُ أَنْ يُدْعَى لَهُ بِطُولِ الْعُمُرِ، وَيَقُولُ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١]، فَقَدْ قِيلَ فِي الضَّمِيرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾، إِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِمْ: عِنْدِي دِرْهَمٌ وَنِصْفُهُ، أَيْ: وَنِصْفُ دِرْهَمٍ آخَرَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ.

وَقِيلَ: الزِّيَادَةُ وَالنُّقْصَانُ فِي الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، وَحُمِلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٨، ٣٩]، عَلَى أَنَّ الْمَحْوَ وَالْإِثْبَاتَ مِنَ الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ سِيَاقُ الْآيَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، أَيْ: مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أَيْ: أَصْلُهُ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

وَقِيلَ: يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَيَنْسَخُهُ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ فَلَا يَنْسَخُهُ، وَالسِّيَاقُ أَدَلُّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَأْتِي

بِالْآيَاتِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، أَيْ: إِنَّ الشَّرَائِعَ لَهَا أَجَلٌ وَغَايَةٌ تَنْتَهِي إِلَيْهَا، ثُمَّ تُنْسَخُ بِالشَّرِيعَةِ الْأُخْرَى، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الشَّرَائِعِ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ. وَفِي الْآيَةِ أَقْوَالٌ أُخْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

---

قال الشيخ:

هذا يتعلَّق بعلم الله تعالى بالكائنات قبل وقوعها وبتحديدها وتقديرها، ومن ذلك: أنَّ الله تعالى حدَّد أجل كلِّ إنسان وقدَّر عمره؛ كما في هذه الآية: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١]، أي: الذي يعمَّر فيطول عمره هذا مكتوب، والذي ينتقص من عمره فيموت وهو صغيرٌ أو وهو شابٌّ أو وهو كهلٌ لم يبلغ سنَّ الشَّيخوخة أو الكِبَرِ هذا أيضًا مكتوبٌ عمره ومحدَّدٌ، وهو معنى الآيات التي في ذكر الآجال؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، أي: لا يستقدمون ساعة، وكقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، لا يؤخر أجلها المحتوم المكتوب، ولا يزيد في عمره، ولا يتقدَّم ولا يتأخَّر، بل لابدَّ أن يكون موته في الوقت الذي كتبه الله.

وذكر الشارح أنَّ الإمام أحمد كان يكره أن يُدعى له بطول العمر، وقد اختُلف في جواز ذلك، ولكنَّ الصَّحيح أنَّ ذلك جائزٌ إن شاء الله؛ كما يُدعى

للإنسان بالجنَّة وبالمغفرة وبالرِّزق وبالحياة الطَّيِّبة، وما أشبه ذلك، وكما يدعو الإنسان أيضًا لنفسه بهذه الأشياء.

وقد سبق أنَّ بيَّنا أدلَّة جواز ذلك، وأنَّ هذا لا ينافي القدر، أو كونها مقدَّرة، فإنَّ القدر عامٌّ لكلِّ شيءٍ، حتَّى للجنَّة والنَّار، فالله تعالى قد عَلِمَ أهل الجنَّة، ومع ذلك هم مأمورون بسؤالها، فلا يُقال: لا تَسأل الجنَّة، إذا كنت مكتوبًا مَنْ أهلها، فسوف تصير من أهلها، بل يُقال: سَلِ الله الجنَّة، فقد علَّم النبي ﷺ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ أن تدعو: «**وَأَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ**»[1]، وسأل النبي ﷺ أعرابيًا فقال له: «**مَا تَقُولُ فِي الصَّلاةِ؟**»، فَقَالَ: أَتَشَهَّدُ، ثُمَّ أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَنَا وَاللَّهِ مَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَأقرَّه النبي ﷺ وقال: «**حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**»[2]؛ يعني: إنَّنا ندندن ونسأل ونكثر مِنَ السُّؤال في طلب الجنَّة والنَّجاة من النَّار.

فإذا كان قد كُتب على الإنسان مقعدُه من الجنَّة، أو مقعدُه من النَّار، فإن ذلك لا ينافي أن يسألَ اللهَ الجنةَ، وكذلك إذا كان قد كُتب له رزقُه، الذي

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٦)، وأحمد (٦/ ١٣٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٢٢)، وابن حبان (٨٦٩)، والحاكم (١/ ٥٢١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود (٧٩٢)، وابن ماجه (٩١٠)، وأحمد (٣/ ٤٧٤)، وابن حبان (٣/ ١٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سيأتيه، فإن ذلك لا ينافي أنه يطلبه ويعمل ويكتسب، وقد كُتب له أيضًا ما سوف يكتسبه أو يحصل عليه، ومع ذلك هو مأمور بأنَّ يسأل الله رزقًا واسعًا، أو رزقًا حلالًا، أو ما أشبه ذلك، ومأمورٌ أيضًا بأن يسأل ربَّه حياةً سعيدةً، وحياةً طيبَّةً؛ ولو كان ذلك مكتوبًا.

والحاصل: أنَّ كتابة الأعمار، وكتابة الأرزاق والآجال، وكتابة السَّعادة والشَّقاوة وكتابة كلِّ شيءٍ يأتي الإنسان لا تنافي أن يسأل، ولا تنافي أن يعمل، بل مأمورٌ بالسُّؤال ومأمورٌ بالعمل، ولكن مع كونه مكتوبًا، فقد يكون معلَّقًا على سببٍ؛ كأن يكتب الله: أنَّه سيرزقه بسبب سؤاله، أو يجعله من أهل الجنة بسبب كثرة إلحاحه بالدُّعاء، أو يُوسِع عليه رزقَه بسبب كثرة طلبه. ويكون هذا الدُّعاء سببًا أزليًّا.

فيُقال: قد كتب الله أنَّه يسألُ، ويكون سؤاله من الأسباب التي يُرزق بسببها، ويُسعد بسببها، ويكتسب بسببها، وما أشبه ذلك، وهذا كما يُفعل في الأشياء الحسِّيَّة؛ فإنَّ الإنسان مأمورٌ بأن يأكل ويشرب، ويتزوَّج، ويكتسب، ويبني سكنًا... وما أشبه ذلك، وإن كان ذلك أيضًا مكتوبًا له.

وخلاصة القول: أن كتابةَ الأشياء في الأزل، وكتابة الأعمار في هذه الآية وغيرها لا تنافي أن يسأل الإنسان ربَّه وأن يدعوه، فالله تعالى قد أمر بدعائه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، كما أمر الله بالعمل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥].

قال الطحاوي:

لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُم، وعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ.

---

قال الشارح:

يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُرَدُّونَ، وَلَكِنْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الرَّافِضَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ وَيُوجِدَهُ. وَهِيَ مِنْ فُرُوعِ مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، وَسَيَأْتِي لَهَا زِيَادَةُ بَيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

هذا مِنْ تمام الكلام على العلم: أنَّ الله تعالى عَلِمَ ما كان، وما سوف يكون، وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا شكَّ أنَّ عِلْم الله تعالى واسعٌ لما مضى ولما يأتي، فالأشياء التي لم تأتِ وهي سوف تأتي قد علمها سبحانه، بل قد كتبها، فعلم عدد المخلوقات، وعلم أعمالهم، ونحو ذلك، وقد جاء في الحديث الصَّحيح أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَبْعَثُ الله

مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لـه: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ»[1]، وإن كانت كتابةٌ ثانيةٌ، مع أنَّ ذلك مكتوبٌ في أمِّ الكتاب، التي هي اللَّوح المحفوظ، الذي لا تتغير الكتابة الموجودة فيه، وأما ما في أيدي الملائكة من الصُّحف، فإنَّ الله تعالى يمحو منها ما يشاء ويُثْبِتُ، والملائكةُ يكتبون أعمال الإنسان وأقواله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ولأنَّ من تلك الأقوال ما لا ثوابًا فيه ولا عقابًا، فيمكن أنَّ هذا هو الذي يُمحى، ويبقى ما فيه ثوابٌ أو فيه عقابٌ، والجميع مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

وبكلِّ حالٍ، فإنَّ عِلْم الله تعالى بالآجال وبالكائنات وبما سوف يحدث علمٌ أزليٌّ قديمٌ، وقد أنكر ذلك المبتدعةُ، وكان مِنْ أوَّل مَن أنكره مِنَ القدريَّة: معبد الجهنيُّ، وغيلان القدري، وعمرو بن عبيد القدريُّ، وواصل بن عطاء القدريُّ، وكلُّ هؤلاء أدركوا آخر زمن الصَّحابة، ولكنَّهم ـ والعياذ بالله ـ تلقَّوا هذه البدع عن بعض النَّصارى وغيرهم، فكان من عقيدتهم أنَّ الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وجودها، وأنَّ الأمر أُنُفٌ، أي: مستأنَفٌ.

وسُئل عنهمُ ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فأنكر عليهم إنكارًا شديدًا؛ كما في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

الحديث الذي ذكره مسلمٌ في أوَّل «صحيحه»[1]، فقال: «فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بريءٌ منهم، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عبد اللَّهِ بن عُمَرَ: لو أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ ما قَبِلَ الله منه حتى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ».

وعلى عقيدة القدر: الرافضة ونحوهم، وأغلب الرافضة معتزلةٌ، فهم جمعوا بين بدعتين: بدعة الرَّفض التي هي تكفير الصحابة، وبدعة الاعتزال الذي هو إنكارُ صفات الله، ومن أبرز الصِّفات: صفة العلم.

وهؤلاء الذين ينكرون صفة أنَّ الله يعلم الأشياء قبل وجودها هم الذين عناهم الإمام الشَّافعيُّ ـ رحمه الله ـ بقوله: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه فقد كفروا»[2] يعني: إذا ابتُليم بأحدهم لمجادلته ومخاصمته ومناورته، فسلوه عن صفة العلم لله، فإن أقرُّوا به خُصموا، فيُقال لهم: ما الفرق بين العلم الماضي والعلم المستقبل؟ إذا كان يعلم الماضي، فهو يعلم المستقبل!

وقولوا لهم أيضًا: هل تحدُثُ هذه الكائنات بغير إرادته؛ فلا بد أن يكون هو الذي يُحدثُها وهو الذي يُوجدُها؟! فيُقال: كيف يوجدها وهو لا يعلم وقتَ وجودها؟!

---

(١) برقم (٨).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (ص٢٧)، ومجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩)، وطريق الهجرتين (٢٤٣).

وناظروهم أيضًا بالأدلَّة؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧]، وأشباه هذه الآيات، فإنَّهم بهذا سوف ينقطعون ولا يجدون حجَّةً.

قال الطحاوي:

وَأَمَرهُمْ بِطَاعتِه، ونَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِه.

---

قال الشارح:

ذَكَرَ الشَّيْخُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ بَعْدَ ذِكْرِهِ الخَلْقَ وَالْقَدَرَ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك:٢].

---

قال الشيخ:

يعني: كما أنَّ الله عَلِمَ الأشياء قبل وجودها، وقدَّرها وحدَّدها وأرادها وشاءها، فإنَّ ذلك لا ينافي الأمر والنَّهي، فهو الذي كلَّف العباد، ولا شكَّ أنَّه ما كلَّفهم إلاَّ وهم يقدرون، فلا يكلِّف من لا يقدر، دلَّت على ذلك الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

فالله تعالى أمرهم بأشياء يفعلونها، ونهاهم عن فعل أشياء، وحضَّهم ووعدهم على فعل المأمور وترك المنهيِّ والمزجور بالثَّواب، وتوعَّدهم على المخالفة بالعقاب، ولا شكَّ أنَّه ما أمرهم إلاَّ وهم يستطيعون، ويقدرون على

مزاولة هذه الأشياء، وإلَّا فالعاجز لا يمكن أن يُؤمر، وعلى قول المجبرة: أمرهم يُعَدُّ أمر تعجيز، مثل الأوامر التي يخاطبُ بها أهل النارُ أو الكفَّار هنا أو نحو ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، هذا أمرُ تعجيزٍ، وكقوله: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦].

والصحيح: أنَّ أوامر الله تعالى في قوله: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، هي أوامر لمن يقدر على الامتثال، أمَّا من لا يقدر، فلا يمكن أن يُؤمر، خلافًا للمجبِّرة أو الجبريَّة، فإنَّهم يعتقدون أنَّ الأمر أمرٌ لشيءٍ غير مقدورٍ، وغاية لمنكر، بمنزلة من أمر الأعمى أن ينقِّط المصاحف أو يكتبها، وهو يعلم أنَّه لا يبصر. فكذلك الأمر عندهم، حيث سلبوا الإنسان قدرته واختياره، وجعلوا حركته غير اختياريَّةٍ، ومثَّلوه بحركة الشَّجرة التي تحرِّكها الرِّياح من دون اختيارٍ، ولو كان الإنسان لا يستطيع لما كلَّفه الله، فإنَّ الله لا يكلِّف إلَّا من هو قادرٌ على ذلك، ولعلَّه يأتي فيما بعد تكملة الرَّدِّ على المجبِّرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ، إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَكَيْفَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاؤُه! وَمَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا وَأَكْفَرُ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ شَاءَ الْإِيمَانَ مِنَ

**الْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ شَاءَ الْكُفْرَ، فَغَلَبَتْ مَشِيئَةُ الْكَافِرِ مَشِيئَةَ اللَّهِ!! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.**

---

**قال الشيخ:**

هذا في الكلام على المشيئة والإرادة، والإرادة هنا هي الإرادة الكونيَّة القَدَريَّة، التي هي بمعنى المشيئة، فيعتقد المسلمون أنَّ مشيئة الله عامَّةٌ لكلِّ ما في الوجود، فلا يكون في الوجود إلَّا ما يريد، سواءٌ من الطَّاعات والأعمال والمعاصي ونحوها، أو من المخلوقات والموجودات والحوادث ونحوها، كلُّها حصلت بمشيئة الله وبإرادته الكونيَّة.

وقوله: (**مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ**)، يعني: ما أراده كوْنًا وقدرًا، فإنَّه سيوجد وسوف يحدث؛ لأنَّ الله أراده، وكلُّ شيءٍ أراده الله لا بدَّ أن يُكوِّنه، والله تعالى هو الذي يخلُقُه، وخَلْقُه للأشياء أن يقول لها كن: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فمن عقيدة أهل السُّنَّة: أنَّ مشيئة الله عامَّةٌ لكلِّ ما في الوجود، سواء المخلوقات أو غيرها. وعندما سُئِل النبيُّ ﷺ عن العزل في الجماع مخافة أن تحبَلَ المرأةُ أو الأمَةُ إذا وُطِئت، قال: «**مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ**»[1]، وفي بعض الأحاديث أنَّ رجلًا استأذنه في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٢)، ومسلم (١٤٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

العزل؛ فقال: «**اعْزِلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ، فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا**»[1]، يعني: لنْ تردَّ ما قدَّر الله أنَّه سيُوجد، ثم جاءه ذلك الرجل بعد أيام، فقال: إِنَّ الْجَارِيَةَ قد حَبِلَتْ، فقال النبي ﷺ: «قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا»، فمَنْ أراد الله أن يخلُق له مخلوقًا أو ولدًا، فلا بدَّ أن يكون، فهو سبحانه قَدَّر ما يكون، وإن كان العزلُ سببًا من أسباب عدم الحمل، فهو مكتوبٌ عند الله أنَّ هذا سيستعمل كذا وكذا من موانع الحمل، ويحصل له كذا، ومكتوب أنَّه سيستعمل أسباب الحمل ويحصل له كذا وكذا من الأولاد، وهذا سيقلُّ أولاده، وهذا سيكثرون، فكلُّ ذلك موجودٌ.

وهكذا أيضًا بالنِّسبة للدَّوابِّ لا يستنكر كثرتها وتوالدها، يقال: الله الذي قدَّر عددها، وخلقها، وعلم بوقت خلقِها وبعددها وبأعمالها، وما أشبه ذلك.

والأدلَّة على مشيئة الله كثيرةٌ، من ذلك الآيات التي أوردها الشارح، وغيرها من الآيات فيما يتعلق بمشيئة الله تعالى وبقدرته وبإرادته، وببيان أنَّ إرادة الإنسان مربوطةٌ بإرادة الله؛ كما في الآيات الأول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]. فقد يستدلُّ المعتزلة بأوَّلِ الآيةِ على أنَّ الإنسان حرٌّ في مشيئته، وأنَّ له أن يشاء، ولكنَّ تمام الآية ردٌّ لهذا الفهم، ودليلٌ لربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله، وهي: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي:

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٩) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

لا تستطيعون فعل شيءٍ ولو شئتم، إلَّا إذا كان الله قد شاءه وأراده وقدَّره وحدَّد وقته، فإذا لم يشأ الرَّبُّ شيئًا فلا يحصل، وهذا معنى قول الشافعي في أبياتٍ مشهورةٍ[1]:

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَىٰ مَا عَلِمْتَ ... فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَىٰ وَالْمُسِنْ
عَلَىٰ ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ ... وَهَذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تَعِنْ

ومعنى الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لزيد بن ثابت ﷺ: «**اللَّهُمَّ مَا قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ، أو نَذَرْتُ من نَذْرٍ، أو حَلَفْتُ من حَلِفٍ، فَمَشِيئَتُكَ بين يَدَيْهِ، مَا شِئْتَ كَانَ، وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ**»[2].

ومعنى قوله ﷺ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ**»[3].

وأما استدلال المعتزلة ببعض الآيات التي جاءت في المشيئة، فإنَّها تُقَيَّد بالآيات الأخرى، يستدلُّون بمثل قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

---

(١) أخرجها البيهقي (١٠/ ٢٠٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ٣٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩١)، والطبراني في الكبير (٤٨٠٣) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٧)، والحاكم (٣/ ٥٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقد أفرد ابن رجب في الكلام على هذا الحديث كتابًا أسماه: «نور الاقتباس في مشكاة النبي ﷺ لابن عباس».

[الكهف:٢٩]، ويقولون: إنَّ الأمر مسندٌ إليه، إن شاء اختار كذا، وإن شاء اختار كذا، فالأمر راجعٌ إليه.

فهذا الإطلاق يقيَّد بالآيات الآخرى، ومنها آية الأنعام التي أوردها الشارح: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، فردَّ الله الهداية والإضلال لمشيئته وإرادته، فدلَّت على أنَّه هو الذي يملك الأمر، ودلَّت على ذلك الآيات الأخرى؛ كقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]، يعني: من قدَّر الله أن يهتدي فلا يقدر الخلق أن يضلُّوه، ومن قدَّر ضلالَه لن يستطيعوا أن يهدوه، وإن كان هناك أسبابٌ جعلها الله مؤثِّرةً مفيدةً، ولكنَّها أيضًا أسبابٌ أزليَّةٌ، يعني: كتب الله أنَّ الولاية الصَّالحة والتَّربية الصَّالحة والنَّصيحة وما أشبه ذلك سببٌ مِن أسباب الهداية، تؤثِّر بإذن الله، ولكنَّ تأثيرَها مكتوبٌ وأزليٌّ، وإلَّا فالآية على عمومها.

وهكذا الحديث في خطبة الحاجة: «**مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ**»[1]، حكم بأنَّ الأمر لا يقدر على التَّصرُّف فيه إلَّا الله تعالى وحده.

يعرف الإنسان أنَّ المشيئةَ والإرادةَ أمرُهما إلى الله تعالى، فهو الذي يتصرَّفُ بالكون وحدَه، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٥).

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل:٣٥]، الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠]، فَقَدْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ جَعَلُوا الشِّرْكَ كَائِنًا مِنْهُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ ذَمَّ إِبْلِيسَ حَيْثُ أَضَافَ الْإِغْوَاءَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر:٣٩].

قِيلَ: قَدْ أُجِيبَ عَلَى هَذَا بِأَجْوِبَةٍ، مِنْ أَحْسَنِهَا: أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمُ احْتَجُّوا بِمَشِيئَتِهِ عَلَى رِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ، وَقَالُوا: لَوْ كَرِهَ ذَلِكَ وَسَخِطَهُ لَمَا شَاءَهُ، فَجَعَلُوا مَشِيئَتَهُ دَلِيلَ رِضَاهُ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ.

أَوْ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ اعْتِقَادَهُمْ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرِهِ بِهِ.

أَوْ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مُعَارَضَةَ شَرْعِهِ وَأَمْرِهِ، الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَجَعَلُوا الْمَشِيئَةَ الْعَامَّةَ دَافِعَةً لِلْأَمْرِ، فَلَمْ يَذْكُرُوا الْمَشِيئَةَ عَلَى جِهَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِنَّمَا ذَكَرُوهَا مُعَارِضِينَ بِهَا لِأَمْرِهِ، دَافِعِينَ بِهَا لِشَرْعِهِ، كَفِعْلِ الزَّنَادِقَةِ وَالْجُهَّالِ، إِذَا أُمِرُوا أَوْ نُهُوا احْتَجُّوا بِالْقَدَرِ. وَقَدِ احْتَجَّ سَارِقٌ عَلَى عُمَرَ ﷺ

بِالْقَدَرِ، فَقَالَ: «وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ»[١]. يَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨]، فَعُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُمُ التَّكْذِيبُ، فَهُوَ مِنْ قَبْلِ الْفِعْلِ، مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُقَدِّرْهُ؟ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ؟!

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا يَقُولُونَ فِي احْتِجَاجِ آدَمَ عَلَى مُوسَى ـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ـ بِالْقَدَرِ، إِذْ قَالَ لَهُ: أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ عَامًا؟ وَشَهِدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ آدَمَ حَجَّ مُوسَى، أَيْ: غَلَبَ عَلَيْهِ بِالْحُجَّةِ[٢].

قِيلَ: نَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ لِصِحَّتِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا نَتَلَقَّاهُ بِالرَّدِّ وَالتَّكْذِيبِ لِرَاوِيهِ، كَمَا فَعَلَتِ الْقَدَرِيَّةُ، وَلَا بِالتَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةِ، بَلِ الصَّحِيحُ أَنَّ آدَمَ لَمْ يَحْتَجَّ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ عَلَى الذَّنْبِ، وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ بِرَبِّهِ وَذَنْبِهِ، بَلْ آحَادُ بَنِيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ، فَإِنَّهُ بَاطِلٌ، وَمُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كَانَ أَعْلَمَ بِأَبِيهِ وَبِذَنْبِهِ مِنْ أَنْ يَلُومَ آدَمَ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ، وَإِنَّمَا وَقَعَ اللَّوْمُ عَلَى الْمُصِيبَةِ الَّتِي أَخْرَجَتْ أَوْلَادَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَاحْتَجَّ آدَمُ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ، لَا عَلَى الْخَطِيئَةِ، فَإِنَّ الْقَدَرَ يُحْتَجُّ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، لَا عِنْدَ الْمَعَائِبِ.

وَهَذَا الْمَعْنَى أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ، فَمَا قُدِّرَ مِنَ الْمَصَائِبِ يَجِبُ الِاسْتِسْلَامُ

---

(١) أخرج نحو هذا الأثر ابن عدي في الكامل (٢/ ٤٢٤)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص٣١٧)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ تَمَامِ الرِّضَىٰ بِاللهِ رَبًّا، وَأَمَّا الذُّنُوبُ فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يُذْنِبَ، وَإِذَا أَذْنَبَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ، فَيَتُوبَ مِنَ المَعَائِبِ، وَيَصْبِرَ عَلَى المَصَائِبِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠].

وَأَمَّا قَوْلُ إِبْلِيسَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر:٣٩]، إِنَّمَا ذَمَّ عَلَى احْتِجَاجِهِ بِالْقَدَرِ، لَا عَلَى اعْتِرَافِهِ بِالْمُقَدَّرِ وَإِثْبَاتِهِ لَهُ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:٣٤]، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ[1]:

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، أَنَّهُ قَالَ: «نَظَرْتُ فِي الْقَدَرِ فَتَحَيَّرْتُ، ثُمَّ نَظَرْتُ فِيهِ فَتَحَيَّرْتُ، وَوَجَدْتُ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقَدَرِ أَكَفَّهُمْ عَنْهُ، وَأَجْهَلَ النَّاسِ بِالْقَدَرِ أَنْطَقَهُمْ بِهِ»[2].

---

قال الشيخ:

هناك من يحتجُّ بالقدر؛ كالمشركين الأوَّلين، وأتباعِهم من المجبِّرة

---

(١) البيت للشافعي رحمه الله، راجع (ص٥١٦).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٦٧).

ونحوهم، فالمشركون احتجُّوا بمثل قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ كأنَّهم يقولون: الله هو الذي شاء عبادتنا لهم!

وكذلك قولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]؛ كأنَّهم يقولون: إذا شاء الله أغناهم؛ فكيف نغنيهم أو نطعمهم؟!

ولا شكَّ أنَّ هذه حجَّةٌ باطلةٌ، يجب على المسلم أن يعلم أنَّ الله وإن كانت له المشيئة التَّامَّة فإنه قد أعطى الإنسان مشيئةً تناسبه، فيكون بذلك ممتثلًا لأمر الله، وإن كانت مشيئةُ الله هي الأصل، وهي الغالبة على مشيئة المخلوق، فالثَّواب والعقاب للإنسان على المشيئة التي في وسعه ومقدرته، ولكن لا يُقال: إنَّ مشيئة الإنسان تغلبُ مشيئة الله كما تقوله المعتزلة، فهم يقولون: إذا شاء الإنسان شيئًا وأراد اللهُ غيره؛ غلبت إرادةُ الإنسان على إرادة الله، على زعمهم أنَّ الله يقسر قسْرًا، وأنَّه يكون في مُلكه ما لا يريد. وهذا كلُّه باطلٌ وغلوٌّ. والإنسان عليه أن يؤمن بعموم مشيئة الله تعالى وإرادته.

كذلك الاحتجاج بقول آدم عليه السلام: (**أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ عَامًا**)، إنَّما لامه موسى ـ عليه السلام ـ على مصيبةٍ حصلت، فاحتجَّ بأن هذا مكتوبٌ عليه، والاحتجاج بالأمر المكتوب على الإنسان قبل أن يوجد جائزٌ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قد قدَّر الأشياء قبل وجودها وحدَّد آجالها، فإذا عَلِمَ الله تعالى آجال الأشياء وحدَّدها، فلا بدَّ من وجودها في الوقت الذي حدَّدها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلًا، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي عَدْلًا.

---

قال الشارح:

هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ فِعْلِ الْأَصْلَحِ لِلْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْهُدَى وَالضَّلَالِ.

قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: الْهُدَى مِنَ اللَّهِ: بَيَانُ طَرِيقِ الصَّوَابِ، وَالْإِضْلَالُ: تَسْمِيَةُ الْعَبْدِ ضَالًّا، أَوْ حُكْمُهُ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ بِالضَّلَالِ عِنْدَ خَلْقِ الْعَبْدِ الضَّلَالَ فِي نَفْسِهِ. وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ: أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لَهُمْ، وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قُلْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، وَلَوْ كَانَ الْهُدَى بَيَانُ الطَّرِيقِ لَمَا صَحَّ هَذَا النَّفْيُ عَنْ نَبِيِّهِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ بَيَّنَ الطَّرِيقَ لِمَنْ أَحَبَّ وَأَبْغَضَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر:٣١]، وَلَوْ كَانَ الْهُدَى مِنَ اللَّهِ الْبَيَانُ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ نَفْسٍ، لَمَا صَحَّ التَّقْيِيدُ بِالْمَشِيئَةِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

---

قال الشيخ:

أي: نؤمن بأنَّ الله يهدي مَنْ يشاء فضلًا منه ونعمةً، ويضلُّ من يشاء عدلًا منه وحكمةً، فقد أنعم على من هداه، وخذل من أضلَّه، ولم يكن ظالمًا لهذا؛ بل ذلك عدله وحكمه وخلقه، يتصرف في الخلق كما يشاء. وذكر الشَّارح أن هذا ردٌّ على المعتزلة الذين يقولون بوجوب فعل الأصلح على الله.

والمعتزلة فرقةٌ انتسبت إلى الإسلام ثمَّ انتحلت نِحَلًا، ومنها أنَّهم يقولون: إنَّ الله لا يقدر على الهُدى والإضلال، فلا يقدر أن يضلَّ أحدًا، ولا أن يهدي أحدًا، بَلِ العباد هم الذين يختارون بأنفسهم، والعبد هو الذي يضلُّ نفسه أو يهدي نفسه، لا قدرة لله عليه. وهذا فيه تَنَقُّصٌ لله تعالى، حيث جعلوا قدرة العبد أقوى من قدرة الله، واختياره أقوى من اختيار ربِّه.

وقد يقولون: إنَّنا ننزِّه عن الظلم ـ هكذا قولهم ـ يقولون: إذا قدَّر على العبد أن يضله؛ فكيف يعاقبه؟! لو عاقبه ـ وهو الذي أضلَّه ـ لكان ظالمًا له، فنحن ننزِّه الله عن الظلم ونصفه بالعدل. ويسمُّون هذا العدل رتبةً وأصلًا عندهم.

والجواب: أننا نعترف أنَّ الهدى فضلٌ والإضلال عدلٌ، ونقول: إنَّ الله تعالى ما ظلم أحدًا من خلقه، وإنَّما هذا فضله يؤتيه من يشاءُ، فمنَّ على أهلِ الهداية، ويسَّر لهم الأسباب، وبيَّنها لهم، وقذف في قلوبهم الرَّحمةَ، وأعانهم حتَّى اختاروا الهدى، وساروا على الصِّراط المستقيم، وذلك فضله يؤتيه من يشاء، فاستحقُّوا بذلك الثَّواب، وإن كان هو الذي تفضَّل عليهم أوَّلًا وآخرًا.

فأوَّلًا: تفضَّل عليهم بأن هداهم، وسدَّد خُطاهم، وأقبل بقلوبهم على طاعته، وأمدَّهم بقوةٍ منه وتأييدٍ، وأعانهم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وتفضَّل عليهم ثانيًا: بأن أهَّلهم للثَّواب، فجعلهم من أهل الثَّواب الذي أعدَّه الله لعباده المطيعين، وأدخلهم دار كرامته، وأعطاهم ممَّا وعدهم من النَّعيم المقيم، وذلك فضله يؤتيه من يشاء.

أمَّا بالنِّسبة إلى الضُّلَّال والكافرين، فإنَّه ما ظلمهم، فقد بيَّن لهم الحقَّ وأوضحه لهم، وأعطاهم قوَّةً واستطاعةً وقدرةً يزاولون بها الأعمال، ولكنَّه حكم بعلمه أنَّهم ليسوا أهلًا للهداية، فأضلَّهم وأصمَّهم وأعمى أبصارهم، وحال بينهم وبين أسباب الهداية؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لذلك، فأصبحوا محرومين من الهداية، ولم يظلمهم الله تعالى؛ بل بيَّن لهم فاختاروا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت:١٧]، الله تعالى بيَّن لهم الأسباب، ولكنَّهم استحبُّوا العمى على الهدى، والمراد بالعمى هنا: عمى البصيرة، والبعدُ عَنِ الاستمالة للحقِّ، فلم يقبلوا ما جاءهم عن ربهم، بل ابتعدوا عنه، فصاروا بذلك محرومين، ولم يظلمهم ربُّهم سبحانه، بل هذا فضله يؤتيه من يشاء، وهذا عدله يحكم به على من يشاء، وهو في كلا الحالين حكيمٌ عليمٌ، يضع الأشياء في مواضعها اللَّائقة بها.

فقد خلق هؤلاء وجعل في قلوبهم محبة الحقِّ وَأَهَّلَهم لقَبُوله، وخلق هؤلاء وجعل في قلوبهم اختيار الحقِّ وأهلهم لردِّه، ولا خلاف أنَّه هو الذي

أضَلَّهم، يعني: صرفهم لَـمَّا لم يكونوا أهلًا للهداية.

فأنت أيُّها المهتدي! أيُّها المؤمن! أيها الموقن! قد أنعم الله عليك، فعليك أوَّلًا: أن تتمسَّك بهذه النِّعمة وبأسبابها، وعليك ثانيًا: أن تسأل ربَّك الثَّبات عليها، وتحمده وتشكره على ما أعطاك وخوَّلك، وعليك ثالثًا: أن تجتهد في ثمرتها الذي هو العملُ بما أُمِرْتَ به.

وإذا رأيت القسم الثَّاني الذين صُرِفُوا وحيلَ بينهم وبين الحقِّ، فإنَّ عليك شُكرَ النِّعمة التي أنت فيها، ومعرفة أنَّ هؤلاء محرومون، ولو زعموا أنَّهم أهل معرفةٍ، وأنَّ الصَّواب في جانبهم، فإنَّهم في الحقيقة محرومون مصروفون عن صراط الله المستقيم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ في مَشِيئَتِه، بَيْنَ فَضْلِهِ وعَدْلِهِ.

---

قال الشارح:

فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن:٢]، فَمَنْ هَدَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ فَبِفَضْلِهِ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَبِعَدْلِهِ، وَلَهُ الحَمْدُ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا المَعْنَى زِيَادَةُ إِيضَاحٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّ الشَّيْخَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمْ يَجْمَعِ الْكَلَامَ فِي الْقَدَرِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، بَلْ فَرَّقَهُ، فَأَتَيْتُ بِهِ عَلَى تَرْتِيبِهِ.

---

قال الشيخ:

قوله: (يَتَقَلَّبُونَ في مَشِيئَتِه)، يعني: أنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ الله تعالى شاء من هؤلاء الإيمانَ وأحبَّه، وشاء من هؤلاء المعصيةَ والكفرَ وقدَّره ولم يحبَّه، فأعمال أهل الطَّاعة قد شاءها كونًا وقدرًا، وأمر بها دينًا وشرعًا، وأحبَّها ورضيها، ووعد عليها الثَّواب، وأمَّا معاصي الكفَّار وذنوبهم، فإنَّه قد قدَّرها وشاءها كونًا وقدرًا، ولو شاء اللهُ ما عُصِيَ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٩٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة:١٣]، لو شاء الله تعالى لأقبل بقلوبهم ولهداهم إلى الحقِّ، ولكنَّه تعالى قدَّر أنَّ هؤلاء محرومون، وشاء منهم ما شاءه، فكلُّهم يتقلَّبون في مشيئته وبإرادته، فإنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال الطحاوي:

وهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الأَضْدَادِ والأَنْدَاد.

---

قال الشارح:

الضِّدُّ: المُخَالِفُ، وَالنِّدُّ: المِثْلُ. فَهُوَ سُبْحَانُهُ لَا مُعَارِضَ لَهُ، بَلْ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا مِثْلَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وَيُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بِنَفْيِ الضِّدِّ وَالنِّدِّ، إِلَى الرَّدِّ عَلَى المُعْتَزِلَةِ، فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ الْعَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَهُ.

---

قال الشيخ:

يعني: أن المعتزلة جعلوا الإنسان ندًّا لله، مع أنَّهم ما صرَّحوا بذلك، ولكنَّهم حيث جعلوه يخلق فعله، وزعموا أنَّ الله لا يقدر على أفعال العباد، واعتقدوا أنَّ الله يُعصى قَهْرًا عليه ـ تعالى الله عن قولهم ـ فعند ذلك جعلوا أنفسهم ضدًّا لله وندًّا له، بل جعلوا كلَّ مخلوقٍ كذلك، ولأجل ذلك يسمِّيهم الصَّحابة في بعض الرِّوايات: مجوسَ هذه الأمَّة، كما ورد في بعض الأحاديث مرفوعًا وموقوفًا: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَقُولُونَ: لا قدر، إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ»[1]، من باب الإنكار عليهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، وأحمد (٢/ ٨٦، ١٢٥)، والحاكم (١/ ٨٥)، والبيهقي =

وإذا قلتَ: كيف جعلوا لله ندًّا أو ضدًّا؟

نقول: لَـمَّا جعلوا المخلوق مستقلًا في تصرُّفه وفعله، فقد جعلوه متصرِّفًا في هذا الكون، والتَّصرُّف في الحقيقة للخالق سبحانه، فليس للمخلوق شيءٌ من التَّصرُّف المطلق.

وسبب تسميتهم مجوسًا: أنَّ المجوس ادَّعَوا أنَّ الكون صادرٌ عن اثنين، وأنَّ للعالم خالقيْنِ: النُّور والظُّلمة، فالنُّور خالق الخير، والظُّلمة خالقة الشَّرِّ، فلمَّا جعلوا العَالَمَ صادرًا عن خالقيْنِ، أشبههم المعتزلة الذين جعلوا كلًا يخلق ما يفعله، فجعلوا مع الله خالقِيْن، وليسا خالقَيْن فقط، بل جعلوا العالَمَ صادرًا عن عددٍ.

والحاصل: أنَّ هذه الجملة تصلُح ردًّا على المشركين، وتصلح ردًّا على القدريَّة، الرد على المشركين الذين يجعلون لله ندًّا وضدًّا، سواءٌ أكان ندًّا في الخلق والتَّكوين أم ندًّا في استحقاق العبادة، فالله سبحانه متعالٍ عن الأمريْنِ، فهو الخالق وحده، وليس معه ندٌّ يخلق كخلقه، وهو المستحقُّ للعبادة، وليس معه من يستحقُّها مثله.

---

=

(١٠/ ٣٠٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الطحاوي:

لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ.

---

قال الشارح:

أَيْ: لَا يَرُدُّ قَضَاءَ اللَّهِ رَادٌّ، وَلَا يُعَقِّبُ، أَيْ لَا يُؤَخِّرُ حُكْمَهُ، مُؤَخِّرٌ، وَلَا يَغْلِبُ أَمْرَهُ غَالِبٌ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ..

---

قال الشيخ:

يعني: أنَّه هو المتصرِّف وحده، بخلاف المخلوق، فإنَّ هناك من يتعقَّبه، فكثيرًا ما يفعل الابن فعلًا ويتعقَّبه الوالد، ويقول: هذا خطأٌ، وأنت تفعل ما ليس بحسنٍ، لو قدَّمت كذا أو أخَّرْت. وكثيرًا ما يحكم الحاكم أو يقضي القاضي، ثمَّ يُرَدُّ قضاؤه، أو يتعقَّبه من فوقه، ويُنكر عليه ويقول: حكمُك خطأٌ، ولو أنَّه قد اجتهد وبذل وسعه، فلا يكون بذلك مصيبًا، بل هناك من يتعقبه على قوله، بخلاف الرَّبِّ سبحانه وتعالى، فإنَّه إذا قضى أمرًا فإنَّه لا يُردُّ، وإذا حكم بحكمٍ فإنَّه لا يُنقض، وإذا أمر بأمرٍ، فإنَّه لا يُتعقَّب، بل لا أحد يتعقَّب حكمَه.

ولأجل ذلك حُكم بكفر من يَردُّ أحكام الله تعالى، ويدَّعي أنَّها لا تلائم كلَّ وقتٍ وزمانٍ ومكانٍ، ويفضِّلون عليها القوانين الوضعيَّة، التي هي من نحاتة الأفكار، وزبالة الأذهان، ووضع البشر الذين هم محلُّ النَّقص والعيب،

ويتعقَّبون أحكام الله بأنَّها لا تناسب إلا الوقت الذي نزلت فيه.

ولا شك أنَّ هذا كفرٌ؛ لأنَّ الحكم الذي صدر من الله تعالى أنزله لعباده، وأمر به أمرًا عامًّا، وكلَّف به الخلق قاصيهم ودانيهم، أوَّلهم وآخرهم، فهو في الحقيقة المناسب لهم، فمن ردَّه أو ادعى عدم مناسبته، فقد تعقَّب حكم الله، وقد تنقَّص أمره، فهو شبيهٌ بمن يردُّ العبادات التي كُلِّف بها العباد، ويدَّعي أنَّها إنما قُصد منها أمرٌ خاصٌّ أو نحو ذلك.

وسيأتينا مزيد بيان لهذا الكلام في موضعه إن شاء الله تعالى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

آمَنَّا بذَلِكَ كُلِّه، وأَيْقَنَّا أَنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِهِ.

---

قال الشارح:

أَمَّا الْإِيمَانُ فَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْإِيقَانُ: الِاسْتِقْرَارُ، مِنْ يَقِنَ الْمَاءُ فِي الْحَوْضِ إِذَا اسْتَقَرَّ. وَالتَّنْوِينُ فِي (كُلًّا) بَدَلُ الْإِضَافَةِ، أَيْ: كُلُّ كَائِنٍ مُحْدَثٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَيْ: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَكْوِينِهِ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

مر بنا ذكرُ القضاء والقدر، وذكر الحكم والأمر والشَّرع، وذكر التَّنزُّه عن الضِّدِّ والنِّدِّ، وما أشبه ذلك مما تقدم من الأحكام.

وقوله: (آمَنَّا بذَلِكَ كُلِّه)، يعني: أنَّ هذا الذي سبق مما يجب الإيمان به واليقين، وكأنَّه يقول: لا يجوز الشَّكُّ ولا التَّردُّد في شيءٍ من ذلك؛ لأنَّه مبنيٌّ على أصلٍ قويٍّ ودليلٍ راسخٍ معتَمَدٍ، فلا بدَّ أن تؤمن بذلك كلِّه، وأنَّ توقن بأنَّه من عند الله، وتجزم وتصدِّق بكلِّ ما سبق وكلِّ ما سيأتي، وتتحقَّق أنَّه عقيدةٌ، وأنَّه يقينٌ، وأنَّ من شكَّ فيه فقد ضلَّ سواءَ السَّبيل، وتُوقن وتجزم بصحَّته، وأنَّه حقٌّ لا تردَّد فيه. هكذا ينبغي لكلِّ مؤمنٍ، ويعمُّ ذلك كلّ الشَّرع الذي اهتدت عليه هذه الشَّريعة بأدلَّتها، يجب أن نؤمن به وأن نوقن به.

فمثلًا: القرآن من أوَّله إلى آخره نؤمن به ونوقن به، والكلمتان: الإيمان واليقين تقوي إحداهما الأخرى، فآمنت وأيقنت متقاربتان، فاليقين: هو عدم الشَّكِّ، وهو أن لا يتطرَّق إليك تردُّدٌ أو شَكٌّ في اعتقادك بذلك الأمر، والإيمان: هو جزمُك وتصديقُك بذلك، واعتقادُك بصحَّته، وكلُّ ما جاء عن الله تعالى في القرآن آمنَّا به وأيقنَّا به، وكلُّ ما جاء وبلَّغ به الرَّسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ فإنَّنا نؤمن به ونوقن به، وكذلك نوقن بكلِّ ما جاء به الرُّسل، وبكلِّ ما أخبروا به، وأنَّه حقٌّ ويقينٌ على حقيقته، وأنَّ من شكَّ في شيءٍ من ذلك أو تردَّد فيه، فإنَّه ممَّن لم يُؤمن بالله حقَّ الإيمان، ولم يتقبَّلِ الشَّريعة كما أُمر بأن يتقبَّلها.

قال الطحاوي:

وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، ونَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى، ورَسُولُه الْمُرْتَضَى.

---

قال الشارح:

الِاصْطِفَاءُ وَالِاجْتِبَاءُ وَالِارْتِضَاءُ: مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى.

وَاعْلَمْ أَنَّ كَمَالَ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ ازْدَادَ كَمَالُهُ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَأَنَّ الْخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَذَكَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِاسْمِ الْعَبْدِ فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ، فَقَالَ فِي ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، وَبِذَلِكَ اسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ عَلَى النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْمَسِيحُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ ـ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»[1]. فَحَصَلَتْ لَهُ

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة. تقدم تخريجه (ص٤٣٥).

تِلْكَ المَرْتَبَةُ بِتَكْمِيلِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

هذا حديث عن الشهادة الثانية، وهي شهادة أنَّ محمدًا رسول الله.

بعد أن ذكر الشارح بعضًا ممَّا يتعلَّق بالإيمان بالله، تطرَّق إلى الإيمان بالرَّسول ﷺ، وذلك لأنَّ الشَّهادتين قرينتان، لا تتمُّ إحداهما إلاَّ بالأخرى، فمن شَهِدَ أن لا إله إلَّا الله، لزمته الشَّهادة بأنَّ محمَّدًا رسول الله؛ لأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ شَهِدَ له بذلك وسمَّاه رسولًا، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وأخبر بأنَّه أرسله في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، فإذا كان الله تعالى قد أخبر أنَّه رسولُه، فمن كمال تصديق الله: تصديق ما أخبر به من أنَّه مرسلٌ من الله سبحانه وتعالى.

كذلك إذا شهدنا لمحمدٍ ﷺ بأنَّه رسولٌ وصادقٌ، واعتقدنا صدقه، لزم من تصديقه الشَّهادة بأنَّ الله هو الإله الحقُّ؛ لأنَّ جُلَّ دعوته إلى: (لا إله إلَّا الله)، وأكثر ما دعا إليه تحقيقُ (لا إله إلَّا الله)، فعُرف بذلك أنَّ الشَّهادتين متلازمتان إحداهما مرتبطة بالأخرى، ومن أجل ذلك عُدّتا ركنًا واحدًا من أركان الإسلام، وهما الرُّكن الأساس الذي تنبني عليه بقيَّة الأركان، وهو شرطٌ لها كلِّها، لا يُقبل ركنٌ من الأربعة الأخرى إلَّا بعد أن يتحقَّق الرُّكن

الأوَّل، وهو الشَّهادتان.

وهنا ذُكِر النَّبيُّ ﷺ بثلاثة صفات:

الأولى: الاصطفاء. والثَّانية: الاجتباء. والثَّالثة: الارتضاء.

ووصفه أوَّلًا بالعبوديَّة، وتكلَّم الشَّارح هنا على العبوديَّة، وأنا أتكلَّم عليها ـ وإن كان فيما ذكره كفايةٌ ـ فأقول:

وصف الله نبيَّه بالعبوديَّة في هذه الآيات، في قوله في مقام التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، ما قال: لرسولنا، وقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، وقال في مقام الدَّعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، وفي مقام إنزال الكتاب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وفي آياتٍ كثيرةٍ وصفه الله تعالى بهذا الوصف، الذي هو كونه عبدًا لله.

وكذلك ذكر الشَّارحُ أنَّ عيسى ـ عليه السلام ـ وصفه بذلك، إذا طُلب من عيسى الشَّفاعة قال: «**اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**»، ولم يقل: رسولٌ، بل قال: عبدٌ؛ لأنَّ العبوديَّة هي الصِّفة الأصليَّة للخلق، وكذلك وُصف بها أيضًا الأنبياء قبله، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص:١٧]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١]، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥]، كلُّهم وصفهم بأنَّهم عبيدٌ من عباده، وواحدهم عبدٌ.

وكذلك حكى عن عيسى العبوديَّة، فقد حكى الله عنه بأنَّ أوَّل ما تكلَّم به وهو في المهد قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠]، وقال عنه في آخر سورة النِّساء: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، لا يستنكف: يعني لا يأنف من العبوديَّة، بل يراها صفة شرفٍ، وكذلك الملائكة لا يستنكر أحدهم أن يكون عبدًا لله، بل هم وُصفوا بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧]، أوَّل ما وصفهم به: أنَّهم عبادٌ، أي: مملوكون لله، وقد وصف جميع الخلق بذلك في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

وقد ذكر العلماءُ أنَّ العبوديَّة لله تنقسم قسمين:

**القسم الأول: العبوديَّة العامَّة**، التي يدخل فيها جميعُ الخلق؛ مؤمنهم وكافرُهم، برّهم وفاجرُهم، وهي المذكورة في هذه الآيات: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، والعبودية هنا معناها أنَّهم كلُّهم تابعون لتصرُّف الرَّبِّ سبحانه، وكلُّهم مملوكون له، فإذًا: هم عبيدٌ لله سبحانه، وهو الذي يحكُم فيهم ويعدلُ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، يقوله الله يوم القيامة.

فالخلق عبيدٌ لله بمعنى أنَّهم مملوكون، والله هو المالك لهم، فهم عبيده، يتصرَّف فيهم كيف يشاء، فهو الذي يميت من يشاء، ويحيي من يشاء، ويمرض من يشاء، ويشفي من يشاء، ويفقر هذا ويغني هذا، ويمنع هذا ويعطي هذا، ويتصرَّف فيهم تصرف المالك في ملكه ومملوكيه، لا معقب له؛ لأنهم جميعًا تحت تصرُّفه، وتحت تقديره، وفي قبضته، لا يخرج أحدٌ من قبضته، ولا يستقلُّ بنفسه ولا بملكيَّته، بل إذا شاء الله انتزع ملكه من يده، أو انتزع ما أعطاه له، فليس المخلوق مستقلًا، وهذه هي العبوديَّة العامَّة.

**القسم الثاني: العبوديَّة الخاصَّة**، وهي التي ذُكرت في حقِّ النَّبيِّ ﷺ، وفي حقِّ الملائكة، وفي حقِّ الأنبياء وغيرهم، وكذلك ذُكرت في حقِّ أولياء الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقوله الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦]، هذه عبوديَّةٌ خاصَّةٌ.

هذه العبوديَّة مقتضاها ومظهرها الذُّلُّ لله تعالى والخضوع له، وذلك أنَّ العبد العابد متى شعر بأنَّه عبدٌ لله، وأنَّه مملوكٌ له، وأنَّ الله هو المالك له يتصرَّف به كما يشاء، وأنَّه لا يملك التَّصرُّف لنفسه، ومتى شعر بأنَّه مخلوقٌ مربوبٌ ليس هو الذي خلق نفسه، ومتى شعر بأنَّ خالقه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ومتى شعر بأنَّ ربَّه صادق الوعد فيما وعده به، ومتى شعر بأنَّ ربَّه سبحانه قد وعده على الطَّاعة بالجزاء الأوفى، وتوعَّده على المعصية بالعقاب الأكبر، إذا

شعر بذلك نحوه أظهر التَّعبُّد، الذي هو التَّذلُّل والخضوع.

وأصل العبوديَّة: الذُّلُّ، ومنه سُمِّي العبد المملوك عبدًا؛ لأنَّه ذليلٌ لمالكه، ذليلٌ لسيِّده، فالخلق كلُّهم يجب أن يُظهروا هذا التَّذلُّل طَوْعًا واختيارًا، يجب أن يظهروا الذُّلَّ لربِّهم والخضوع له، والتواضع بين يديه، والاستقامة له، وأن يعتقدوا بذلك لربِّهم، وأنَّه المستحقُّ للعبوديَّة وحده.

وقد فُسِّرتِ العبادةُ التي أُمر بها العبد: بأنَّها غاية الذُّلِّ مع غايةُ الحبِّ، وذكر ذلك ابن القيِّم في «النُّونيَّة»[1] بقوله:

وَعِبَـادَةُ الرَّحْمَـٰنِ غَايَـةُ حُبِّـهِ ... مَـعَ ذُلِّ عَابِـدِهِ هُمَـا قُطْبَـانِ
وَعَلَـيْهِمَا فَلَـكُ الْعِبَـادَةِ دَائِـرٌ ... مَـا دَارَ حَتَّـىٰ قَامَـتْ الْقُطْبَـانِ
وَمَـدَارُهُ مِـنْ أَجْـلِ قَـوْلِ رَسُـولِهِ ... لَا لِلْهَـوَىٰ وَالـنَّفْسِ وَالـشَّيْطَانِ

فالعبد الحقيقيُّ هو الذي يذِلُّ لربِّه ويخضع، وهو الذي يحبُّ ربَّه غاية المحبَّة، وهو الذي يتعبَّد له غاية التعبُّد.

والأنبياء كذلك لا شكَّ أنَّهم كانوا بهذا الوصف، وكذلك نبيُّنا محمدٌ ﷺ كان بهذا الوصف، وعُد بحقِّه شرفًا، فإذًا ليس في وصفه بالعبوديَّة نوعٌ من النَّقص عليه، بل العبوديَّة لله غاية الشَّرف، وغاية العزِّ، وغاية الرِّفعة، العبوديَّة لله والرِّقُّ له والذُّلُّ له هي الأصل في الفضل وفي التَّمكين، وكذلك الأنبياء يعتزُّون بذلك؛ لأنَّهم يتعبَّدون لمالكهم، فهو سبحانه المالك الحقيقيُّ، والرِّقُّ

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٢٥٣).

له، والتَّذلُّلُ له، والانتماء إليه يُعدُّ شرفًا وفضلًا.

وأذكر بيتًا قالهُ ابن القيم في ميميته على لسانِ العابدِ؛ يقول لمن يفتخر بالعبودية[1]:

إِذَا قِيلَ هَـٰذَا عَبْدُهُمْ وَمُحِبُّهُمْ تَهَلَّلَ بِشْرًا وَجْهُهُ يَتَبَسَّمُ

يعني: يفتخر إذا نسب إلى أنَّهُ عبدهم، وقد يفتخر أيضًا بعض المماليك بانتمائه إلى الرّقِّ إلى بعض الملوك، يقول: أنا لي الفخر أن أكون عبدًا للملك الفلاني أو مملوكًا له.

فإذا كانوا يفتخرون بالرقِّ والملكيَّةِ لبعض الخلق، فكيف لا تفتخر أيُّها الإنسان بالرقّ والملكية والعبودية لربِّ الأرباب، ومسبِّب الأسباب، وخالق الكون سبحانه وتعالى؟

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص٩٥).

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَإِنَّ مُحَمَّدًا)، بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ)؛ لِأَنَّ الْكُلَّ مَعْمُولُ الْقَوْلِ، أَعْنِي: قَوْلَهُ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ).

وَالطَّرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ: تَقْرِيرُ نُبُوَّةِ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمُعْجِزَاتِ، لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ نُبُوَّةَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا بِالْمُعْجِزَاتِ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُضْطَرِبَةٍ، وَالْتَزَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِنْكَارَ خَرْقِ الْعَادَاتِ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى أَنْكَرُوا كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالسِّحْرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُعْجِزَاتِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ، لَكِنَّ الدَّلِيلَ غَيْرُ مَحْصُورٍ فِي الْمُعْجِزَاتِ، فَإِنَّ النُّبُوَّةَ إِنَّمَا يَدَّعِيهَا أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ أَوْ أَكْذَبُ الْكَاذِبِينَ، وَلَا يَلْتَبِسُ هَذَا بِهَذَا إِلَّا عَلَى أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ، بَلْ قَرَائِنُ أَحْوَالِهِمَا تُعْرِبُ عَنْهُمَا، وَتُعَرِّفُ بِهِمَا، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ فِيمَا دُونَ دَعْوَى النُّبُوَّةِ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ؟ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ حَسَّانُ ﷺ[1]:

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

وَمَا مِنْ أَحَدٍ ادَّعَى النُّبُوَّةَ مِنَ الْكَذَّابِينَ إِلَّا وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْكَذِبِ وَالْفُجُورِ وَاسْتِحْوَاذِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ مَا ظَهَرَ لِمَنْ لَهُ أَدْنَى تَمْيِيزٍ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا بُدَّ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِأُمُورٍ وَيَأْمُرَهُمْ بِأُمُورٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ أُمُورًا يَبِينُ بِهَا صِدْقُهُ، وَالْكَاذِبُ يَظْهَرُ فِي نَفْسِ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَيُخْبِرُ عَنْهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ مَا يَبِينُ بِهِ كَذِبُهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤١١).

وَالصَّادِقُ ضِدُّهُ، بَلْ كُلُّ شَخْصَيْنِ ادَّعَيَا أَمْرًا: أَحَدُهُمَا صَادِقٌ وَالْآخَرُ كَاذِبٌ، لَابُدَّ أَنْ يَظْهَرَ صِدْقُ هَذَا وَكَذِبُ هَذَا وَلَوْ بَعْدَ مُدَّةٍ، إِذِ الصِّدْقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبِرِّ، وَالْكَذِبُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْفُجُورِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[1].

---

قال الشيخ:

عرف المسلمونَ نُبوَّةَ نبيِّهم ﷺ، وشهدوا له بالرسالةِ، والطريق إلى معرفته والتَّصديق له ما أَيَّدَه الله تعالى به من المعجزات التي دلت على صدقه، ومعروف أنه بشر، وأنه واحد من الناس، والله سبحانه يصطفي رسلًا من خلقه، فينزل عليهم الآيات البينات بواسطة الملك، ويوحي إليهم من شرعه ما يشاء.

والرسل الذين يرسلهم الله تعالى إلى خلقه، ويؤيدهم بالمعجزات، يُعرف صدقهم لعدة أسباب، منها: ما يأتون به من الآيات والمعجزات، كما حصل لكثير من الأنبياء، فإن كلاً من الأنبياء أتى بمعجزات دلت على صدقه.

فموسى ـ عليه السلام ـ أيده الله بعصاه التي تنقلب إلى حية، وبيده التي تخرج

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) مختصرًا، ومسلم (١٧٧٣) بلفظه، من حديث ابن مسعود ﷺ.

بيضاء، وبالطوفان، وبما أرسله على آل فرعون في قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف:١٣٣]، وبالغمام الذي ينزل ليظللهم، وبالحجر الذي يتفجر منه الأنهار، وبإنزال المنِّ والسلوى، وغير ذلك من المعجزات.

وعيسى ـ عليه السلام ـ كذلك أخبر الله تعالى أنه يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وأخبر بأنه ينبئهم بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، فيخبرهم بأشياء يخفونها، وأيد هذا بكتابه الذي هو الإنجيل.

ونبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أيده الله تعالى بمعجزات، وقد استوفاها العلماء في كتب كثيرة تسمى «دلائل النبوة»، منها: إخباره بمغيبات مما اعتمده من وحي الله سبحانه وتعالى، وكذلك ما يقع منه من بركة طعام، وبركة شراب، وبركة ماء، وما أشبه ذلك.

وهكذا ما يخبر به من الأمور التي لم تقع فتقع كما أخبر، وذلك كله اعتمادٌ على وحي الله عز وجل، وهكذا ما وقع من المعجزات له؛ كحنين الجذع له، وتسبيح الحصى بين يديه، وسكون الجمل لما اضطرب، وما أشبه ذلك.

ولو لم يكن إلا تأييده بهذا القرآن الذي أنزله الله ـ جل وعلا ـ وجعله معجزًا، وتحداهم أن يأتوا بمثله لكفى، والكلام على هذا يطول.

ومما أيد الله تعالى به الأنبياء ـ أيضًا ـ أن جعل وجوههم دالة على صدقهم، كما

في البيت الذي ذكره الشارح:

لَـوْ لَمْ يَكُـنْ فِيـهِ آيَـاتٌ مُبَيِّنَـةٌ كَانَـتْ بَدِيهَتُـهُ تَأْتِيـكَ بِـالخَبَرِ

فلو لم يؤيده الله بهذه المعجزات لكان وجهه وبشره وطلاقته دليلًا على صدقه، فقد كان مأمونًا قبل الإسلام، وكانوا يسمونه بالصادق الأمين، وكان أيضًا حسن الملاطفة، لا يأتي شيئًا مما يُنكر في الجاهلية؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ حماه واصطفاه واختاره، وكان أيضًا موثوقًا عندهم بكلامه، لا يتكلم إلا بالصدق، كما شهد له بذلك أعداؤه، فإنه لما سأل هرقل أبا سفيان ﷺ بقوله: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: لا. فقال: لم يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ على اللَّهِ[1].

ومما يدل على صدقه ما جاء به من هذه الشريعة، التي إذا تأملها العاقل عرف أنها ليست من قبل نفسه، بل هي من حكيم حميد يضع الأشياء في مواضعها، فإنه لما أمر بهذه العبادات ونهى عن المحرمات، تأملها كل عاقل فعرف بذلك أنها صحيحة ملائمة للواقع.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان ﷺ.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٦/ ٧١، ٧٢).

فهذا مما ميز الله تعالى به أنبياءه: أنه أيدهم بما يدل على صدقهم، حتى يكون ذلك دليلًا على أنهم جاءوا بالشرع الشريف من الله عز وجل، وأنهم صادقون ليسوا بكاذبين، ولو كان أحد منهم كاذبًا على الله تعالى، لفضحه ولأظهر كذبه، فلا يجوز ذلك على الله سبحانه، فالله تعالى يتنزه أن ينصر من يكذب عليه، فلو كان كاذباً فيما جاء به لما قواه الله، بل لخذله كما خذل الكذابين، فقد ظهر في زمانه كذابون، ولكن كانت عاقبتهم المحو والاندحار؛ ظهر في اليمن كذاب يقال له: الأسود العنسي، الذي استولى على أكثر اليمن من نجران إلى صنعاء، ثم لما ظهر أنه كاذب قام عليه بعض حشمه فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذاب لما ادعى النبوة تبعه من اغتر به، ففضحه الله تعالى وسلط عليه من قتله.

وشريعة الله التي أوحاها إلى نبيه ﷺ باقية إلى أن يأتي أمر الله تعالى.

قال الشارح:

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٦].

فَالْكُهَّانُ وَنَحْوُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يُخْبِرُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِيَّاتِ، وَيَكُونُ صِدْقًا، فَمَعَهُمْ مِنَ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي يُخْبِرُونَ بِهِ لَيْسَ عَنْ مَلَكٍ، وَلَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ صَيَّادٍ: «قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا»، فَقَالَ: هُوَ الدُّخُّ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»[1]، يَعْنِي: إِنَّمَا أَنْتَ كَاهِنٌ. وَقَدْ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ[2]، وَقَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ[3]، وَذَلِكَ هُوَ عَرْشُ الشَّيْطَانِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَالْغَاوِي: الَّذِي يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَشَهْوَتَهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُضِرًّا لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ.

فَمَنْ عَرَفَ الرَّسُولَ وَصِدْقَهُ وَوَفَاءَهُ وَمُطَابَقَةَ قَوْلِهِ لِعَمَلِهِ، عَلِمَ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ بِشَاعِرٍ وَلَا كَاهِنٍ.

وَالنَّاسُ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ، حَتَّى فِي الْمُدَّعِي لِلصِّنَاعَاتِ وَالْمَقَالَاتِ، كَمَنْ يَدَّعِي الْفِلَاحَةَ وَالنِّسَاجَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَعِلْمَ النَّحْوِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٤٥)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٧٣)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٢٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَالطِّبِّ وَالْفِقْهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالنُّبُوَّةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عُلُومٍ وَأَعْمَالٍ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّصِفَ الرَّسُولُ بِهَا، وَهِيَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ وَأَشْرَفُ الْأَعْمَالِ، فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ الصَّادِقُ فِيهَا بِالْكَاذِبِ؟ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ قَدْ يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ مَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ رِضَى الرَّجُلِ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ وَفَرَحَهُ وَحُزْنَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِي نَفْسِهِ، بِأُمُورٍ تَظْهَرُ عَلَى وَجْهِهِ، قَدْ لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

---

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلق برسالة نبينا ﷺ، وكيف عُرِفَ أنَّه صادق؛ وذلك لأن المشركين رموه بالكذب، فمنهم من قال: ساحر كذاب، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: شاعر.

ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا﴾، يعني: انتظروا، ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١]، وأخبر أنه ليس بشاعر؛ فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وذمّ الشعراء في هذه الآية، فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٤ـ٢٢٧]، إلى آخر

الآية. فإنّ هذا تنزيهٌ لنبيه أن يكون شاعرًا وأن يعلمه الشعر، وتنزيه لهذا القرآن أن يكون شعرًا، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة:٤١، ٤٢]؛ وذلك لأنهم يتقولون عليه أنه من الكهنة، لما رأوا الكهنة وسجعهم وإخبارهم بأشياء من المغيبات، ادّعوا بأنه كاهن، والكاهن في الأصل هو الذي يدّعي علم الغيب، أو يخبر عن المغيبات، أو يخبر عمّا في الضمير، أو يدل على مكان المسروق ومكان الضالّة واللقطة، وذلك بتنزل الشيطان عليه، فإن الشياطين تختطف السمع وتسترقه من السماء، وتوحيه إلى أوليائها من السحرة والكهنة، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ [الصافات:٨ ـ ١٠]، يعني: الكلمة يخطفها الشيطان من الملائكة، ويستمعها ويُقرّها في أذن وليّه الساحر أو الكاهن.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنّ الشياطين تنزّلُ على أولئك الكهنة ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء:٢٢١، ٢٢٢]، أي: الكاهن، أفاك: يعني كذاب، أثيم: يعني من أهل الزور، وهو الإثم العظيم. يلقون السمع: يعني ما يختطفونه من الملائكة ويلقونه إليهم، وأكثرهم كاذبون، وقد ورد في الحديث كيف يأخذ الكاهن الكلمة من السمع، قال ﷺ: «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إلى من تَحْتَهُ» ـ يعني: الذي يخطفها ـ «ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إلى من تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا على لِسَانِ السَّاحِرِ أو الْكَاهِنِ ... فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ

كَذْبَةٍ»[1]، الكاهن يستمع الكلمة التي سمعت من السماء، ثم يضيف إليها كذبه، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٣].

فعُرِف بذلك أن الله تعالى نزّه نبيّه عن أن يكون من الكهنة الذين تتنزّلُ عليهم الشياطين، وإنّما ينزل عليه مَلَكٌ بهذا الوحي المتتابع، الذي اشتماله على الحكم وعلى الأحكام دليل على أنه من حكيم حميد، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وذكر أيضًا أن من الكهنة الذين عاصروا النبي ﷺ شابٌّ من اليهود اسمه صافي ابن صّياد، ورد في شأنه أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما؛ حتى ظن بعض الصحابة أنه المسيح الدجال، واستأذن عمر ﷺ أن يقتله، فقال النبي ﷺ: «إن يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عليه، وَإِنْ لم يَكُنْهُ فلا خَيْرَ لك في قَتْلِهِ»[2]، يعني: إن كان هو المسيح الدجال، فلا تستطيع أن تقتله؛ لأن الله قدّر أن يخرج، وأن يحصل منه ما سوف يحصل، فلن تُسلَّطُ عليه، أما إذا لم يكن هو، فلا خير لك في قتله. ولكن القرائن دلّت على أنه ليس هو الدجال، وإنما هو كاهنٌ من الكهنة الذين تنزل عليهم الشياطين، أخبر بأنه يرى عرشًا في السماء، وأن ذلك عرش الشيطان، وأخبر بأنه يأتيه صادق وكاذب، يعني: يأتيه وسوسةٌ من

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٤٥)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الشيطان أو وحي من الشيطان، فتارة يصدق وتارةً يكذب، وذلك هو وحي الشيطان، والشياطين يوحون إلى أوليائهم، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١]، فهناك وحي شياطين تنزل به إلى أوليائهم.

ومما يدل على تكهنه أن النبي ﷺ قال له: «**قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا**»، فَقَالَ: هُوَ الدُّخُّ، وكان قد خبأ له سورة الدخان، وفيها قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان:١٠]، إلخ، فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**».

فالحاصل: أن النبي ﷺ قد نزهه الله تعالى عن صفات هؤلاء وهؤلاء، وقد حلاّه بصفات تدل على صدقه وصحة كلامه؛ وذلك لما يشتمل عليه كلامه من الانتظام والإحكام، وكذلك موقع كلامه في القلوب، فمتى سمعه السامع أصغى إليه والتذّ به، سواء أكان من القرآن أم مما علّمه الله تعالى. ولاشك أن الناس يفرقون بين صادق الدعوى وكاذبها ـ وكما ذكر الشارح ـ فإن الناس يميزون في كلّ من يدّعي أو ينتحل أمرًا من الأمور وهو ليس من أهله، وأنّ ذلك لا يخفي على الفَطِن منهم، وكل مَن أعطاه الله تعالى فطنةً، فإنه يميز بين الصادق والكاذب، فلو كان ﷺ كاذبًا ـ وحاشاه من ذلك ـ لما خفي كذبه على جمهرة الصحابة، لاسيما عقلائهم الذين صحبوه مدة طويلة قبل الرسالة وبعدها، وعرفوا صدقه، والتذّوا باتباعه، وحمدوا العاقبة لما آمنوا به،

وتمنّوا أنهم مع السابقين الأولين الذين سبقوا إلى تصديقه واتّباعه، وتفانوا في نصرته، وبذلوا في سبيل ذلك أموالهم وأنفسهم، وهجروا بلادهم وأولادهم وأزواجهم وعشائرهم، هجروا ذلك كله لَمَّا وقر الإيمان في قلوبهم، ولَمَّا ذاقوا حلاوة العلم والإيمان وحلاوة التصديق، فرخصت عندهم الدنيا بأسرها، وبذلوا في سبيل ذلك كل شيء؛ حتى نفوسهم قتلًا في سبيل الله، وذلك دليل على أنهم عرفوا صدقه كما يعرفون أولادهم وأحفادهم.

كذلك الكاذب في كل نِحْلةٍ يُعرف كذبه، فكل من ينتحلُ شيئًا ليس له، فإنه يظهر أمرُه، ولا يخفي على فُطناء الناس، وإذا عمل أي عمل وهو ليس من أهله وجُرِّب ذلك ابتعد عنه الناس وحذروا منه.

ومثّل الشارحُ بالأعمال التي في زمنه؛ كالخياطة والنساجة والكتابة والخرازة وما أشبهها، وهذه حرف يدوية قد يتعلّمها الإنسان في زمن يسير، ولكن قد يتسمَّى إنسان بأنه من أهلها ويُرى بالتجربة أنه ليس كذلك، حتى يقول بعضهم[1]:

فَدَعْ عَنْكَ الْكِتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا ... وَلَوْ سَوَّدْتَ ثَوْبَكَ بِالْمِدَادِ

يعني: أنك لست من أهل هذه الصنعة، ولو فعلت ما فعلت.

فعُرف بذلك أن كل مَنْ تعاطى شيئًا ليس مِن أهله، فإن الناس يعرفون أنه كاذب ويظهر كذبه.

---

(١) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٣٧٩) ونسبه إلى عمرو بن بحر.

وهذه الدعوة التي يجيء بها الأنبياء الذين يرسلهم الله تعالى إلى خَلقه، لا شك أنها دعوة كبيرة، فلو كانوا كاذبين لما أيدهم الله بما يدُل على صدقهم، ولأظهر كذبهم، ولفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ونكّل بهم، فإن الكاذب يعرف بأدنى ممارسة؛ كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]، وقد أخبر بأن نبيه يعرف بعض المتستِّرين بأوصافهم الظاهرة، كما في قوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وقوله: ﴿فَلَعَرَفْنَاهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد:٣٠]، يعني: بأوسامهم، أو بأماراتٍ تظهر على وجوههم، يعرف بها مَنْ هو صادق ومن هو كاذب، فإذا كانت هذه الأعمال تعرف بالسِّيما أو بالنِّحلة أو بالأمارات الظاهرة، فلا شك أن أمارات النبوة تعرف لمن تأملها.

قال الشارح:

وَقَدْ قِيلَ: مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ.

فَإِذَا كَانَ صِدْقُ الْمُخْبِرِ وَكَذِبُهُ يُعْلَمُ بِمَا يَقْتَرِنُ مِنَ الْقَرَائِنِ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى الْمُدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، كَيْفَ يَخْفَى صِدْقُ هَذَا مِنْ كَذِبِهِ؟ وَكَيْفَ لَا يَتَمَيَّزُ الصَّادِقُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَاذِبِ بِوُجُوهٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ؟

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ خَدِيجَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَعْلَمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ الصَّادِقُ الْبَارُّ، قَالَ لَهَا لَمَّا جَاءَهُ الْوَحْيُ: إِنِّي قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ: كَلَّا وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُقِرِّي الضَّيْفَ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[1]. فَهُوَ لَمْ يَخَفْ مِنْ تَعَمُّدِ الْكَذِبِ، فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ، وَإِنَّمَا خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوءٍ، وَهُوَ الْمَقَامُ الثَّانِي، فَذَكَرَتْ خَدِيجَةُ مَا يَنْفِي هَذَا، وَهُوَ مَا كَانَ مَجْبُولًا عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشِّيَمِ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنَّ مَنْ جَبَلَهُ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ، وَنَزَّهَهُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُخْزِيهِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ النَّجَاشِيُّ لَمَّا اسْتَخْبَرَهُمْ عَمَّا يُخْبِرُ بِهِ، وَاسْتَقْرَأَهُمُ الْقُرْآنَ فَقَرَؤُوا عَلَيْهِ: «إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ»[2].

---

(١) قطعة من حديث عائشة - رضي الله عنها - أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) قطعة من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - أخرجه أحمد (١/ ٢٠١)، (٥/ ٢٩٠).

وَكَذَلِكَ وَرَقَةُ ابْنُ نَوْفَلٍ، لَمَّا أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَآهُ، وَكَانَ وَرَقَةُ قَدْ تَنَصَّرَ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ مَا يَقُولُ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَأَى، فَقَالَ: «هَذَا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى»[1].

وَكَذَلِكَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، طَلَبَ مَنْ كَانَ هُنَاكَ مِنَ الْعَرَبِ - وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ - وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ إِنْ كَذَبَ أَنْ يُكَذِّبُوهُ، فَصَارُوا بِسُكُوتِهِمْ مُوَافِقِينَ لَهُ فِي الْأَخْبَارِ.

سَأَلَهُمْ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقَالُوا: لَا.

قَالَ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقَالُوا: لَا.

وَسَأَلَهُمْ: أَهُوَ ذُو نَسَبٍ فِيكُمْ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالُوا: لَا، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا.

وَسَأَلَهُمْ: هَلِ اتَّبَعَهُ ضُعَفَاءُ النَّاسِ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَذَكَرُوا أَنَّ الضُّعَفَاءَ اتَّبَعُوهُ.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَرْجِعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقَالُوا: لَا.

---

(١) قطعة من حديث عائشة - رضي الله عنها - المتقدم تخريجه قريبًا.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقَالُوا: يُدَالُ عَلَيْنَا مَرَّةً وَنُدَالُ عَلَيْهِ أُخْرَى.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ.

وَسَأَلَهُمْ: بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَقَالُوا: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

وَهَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ مَسَائِلَ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ مَا فِي هَذِهِ المَسَائِلِ مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَقَالَ:

سَأَلْتُكُمْ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، قُلْتُ: لَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ فِيكُمْ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، فَقُلْتُ: لَوْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، فَقُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبُ فَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكُمْ: أَضُعَفَاءُ النَّاسِ يَتْبَعُونَهُ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتُمْ: ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، يَعْنِي: فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَقُلْتُمْ، بَلْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، إِذَا خَالَطَتْ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ عَلَامَاتِ الصِّدْقِ وَالحَقِّ، فَإِنَّ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ لَا بُدَّ أَنْ

يَنْكَشِفَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، فَيَرْجِعَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَيَمْتَنِعَ عَنْهُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ، وَالْكَذِبُ لَا يَرُوجُ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ يَنْكَشِفُ.

وَسَأَلْتُكُمْ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُمْ: إِنَّهَا دُوَلٌ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لَهَا.

قَالَ: وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ[1].

وَهُوَ لِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِعَادَةِ الرُّسُلِ وَسُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ أَنَّهُ تَارَةً يَنْصُرُهُمْ وَتَارَةً يَبْتَلِيهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ، عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ عَلَامَاتُ الرُّسُلِ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، لِيَنَالُوا دَرَجَةَ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ. كَمَا فِي «الصَّحِيحِ»[2] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ فِي الْقُرْآنِ مَا فِي إِدَالَةِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْحِكْمَةِ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، الْآيَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١، ٢]، الْآيَاتِ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى سُنَّتِهِ فِي

---

(١) أخرجه البخاري (٧) من حديث أبي سفيان ﷺ، وذكره الشارح بالمعنى مع تقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، وأدرج فيه كلامًا من عنده.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب بن سنان الرومي ﷺ.

خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ الَّتِي بَهَرَتِ الْعُقُولَ.

قَالَ[١]: وَسَأَلْتُكُمْ عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ؟ فَذَكَرْتُمْ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ، وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ.

وَكَانَ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَهُوَ حِينَئِذٍ كَافِرٌ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بُغْضًا وَعَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي وَنَحْنُ خُرُوجٌ، لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[٢]، إِنَّهُ لَيُعَظِّمُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، وَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ سَيَظْهَرُ، حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهٌ[٣].

---

قال الشيخ:

أورد الشارح هذه القصص للاستدلال بها على صحة ما جاء به النبي

---

(١) القائل هو هرقل، في حديث أبي سفيان ﷺ المتقدم تخريجه آنفًا.

(٢) ابن أبي كبشة: أحد أجداد النبي ﷺ، وهنا أراد أبو سفيان انتقاص النبي ﷺ؛ لأن من عادة العرب إذا أرادت ذلك نسبت إلى جد غامض. انظر: فتح الباري (١/ ٤٠).

(٣) إلى هنا تمام حديث أبي سفيان ﷺ المتقدم تخريجه.

ﷺ، فإن هؤلاء العقلاء ـ الذين معهم معرفةٌ وعلمٌ ـ استدلّوا بهذه القرائن على صدقه وصحة رسالته؛ وذلك لأن الله تعالى أجرى العادة بأن الكاذب يُفضحُ ويظهر كذبه، إذا أسر سريرةً سيئةً أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وعرف الناس ما يخفيه وما يضمره من كذب أو حقدٍ أو نفاق أو نحو ذلك، ولذلك كان المنافقون في عهد النبي ﷺ لا يخفى أمرهم بما يُظهرونه من الكلمات السيئة التي فيها همزٌ ولمزٌ وعيبٌ، فيعرفهم المؤمنون.

إذا عرفوا أن هذا يميل إلى المنافقين، ويجالسهم، ويتكلم معهم، ويلقاهم بوجه منبسط ونحو ذلك؛ عرفوا أنه ليس بصادق الإيمان، ولو أنه يلاطف المؤمنين ويظهر لهم التصديق؛ كما ذكر الله ذلك عن المنافقين عمومًا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]، ولكن فضحهم الله تعالى، وأظهر سرائرهم، وعرفهم المسلمون وحذروهم، وحذّر نبيَّه بقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون:٤].

أما صادق الإيمان، فإنه يُعرفُ صدقُه بتصديقه بأعماله التي يعملها، فمن صار صادقًا من الصحابة عرفوا تصديقه بأقواله وبأعماله وبمحافظته، وهكذا كلُّ صادق، فإن الله تعالى يؤيده ويُظهرُ علامةَ صدقِه. إذا كان هذا في الأمور العادية وفي أغراض الناس واحدًا واحدًا، يُعرف الصادق منهم من الكاذب،

فيفضح اللهُ الكاذب على رؤوس الأشهاد في الدنيا وفي الآخرة. فإذا كان الناس يعرفون الصادق بالتجربة والكاذب بالتجربة، فكيف لا يعرفون الكاذب المتنبئ؟ كيف لا يعرفون أنه كاذبٌ؛ حتى لو أظهر ما أظهره من المخرقة والتدجيل والكذب والسحر والشعوذة، وما أشبه ذلك، كما يجري على أيدي الكهنة والمتنبئين ونحوهم، فإن ذلك لا يخفى على الفطن.

إذا جبل الله العبد على صفات حميدةٍ عُرف أنه لا يتقوَّلُ على الله تعالى، كالقصص التي سمعنا.

**القصة الأولى: قصة خديجة رضي الله عنها**، وهي زوج النبي ﷺ، وأول زوجاته، وأم أولاده كلهم إلا إبراهيمَ ـ الذي هو من مارية القبطية ـ وخديجة رضي الله عنها هي أول من آمن به من النساء، ولما نزل عليه الوحي أول ما نزل وهو بغار حراء، جاء إليها فَزِعًا وقال: «**زَمِّلُونِي**»[1]، فزمَّلوه، أي: غطّوه بغطاء حتى هدأ رُوعُه، ثم أخبر خديجة الخبر، وقال لها: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»، يعني: خشيت أن يكون نزل بي مسٌّ من الجنِّ أو نحو ذلك، فعند ذلك استدلت بصفاتة الحميدة أنه لا ينزل عليه هذا الأمر، ولا يُسلِّط الله عليه شيئًا يفسد عقله ويفسد عليه جسمهُ وعبادته؛ استدلت بالصفات التي جبله الله عليها فقالت: «كَلَّا وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ـ لأن صلة الأقارب من الأمور التي يحمدها الله تعالى ويأمر بها ـ وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ

(١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ المتقدم تخريجه (ص٥٨٣).

الْكَلَّ، وَتُقِرِّي الضَّيْفَ ـ يعني: الطارق إذا نزل أطعمه وأشبعه ـ وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ ـ يعني: الفقير ونحوه، تعطيه وتكسب صداقته ـ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ». ولا شك أن من كانت هذه صفاته التي جبله الله عليها، لا يُخزيه الله تعالى.

**القصة الثانية: مع ورقة بن نوفل.** ذكروا أنّ ثلاثةً من قريش كأنهم أنكروا ما عليه قريش من الضلال، فذهبوا يطلبون دينًا أحسن من هذا الدين، فكان منهم ورقةُ الذي اتصل بالنصارى، وتعلم دينهم ولغتهم وكتابتهم وتنصر، ورجع إلى قومه ومعه الإنجيل، يترجمه وينقله إلى العربية، وينسخ ما شاء الله، وكان معه معرفة بالكتب الأولى، وبما اشتملت عليه، وبصفات النبي ﷺ التي اشتمل عليها الإنجيلُ وغيره، فلما جاءت إليه خديجة ـ رضي الله عنها ـ طلبت منه أن يسمع ما يقول النبي ﷺ، فقصّ عليه ما رأى، فعرف من كلامه أنه ليس بكاذب، وأن هذا الذي نزل عليه هو المَلَكُ الذي نزل على موسى.

كيف عرف ذلك؟ عرفه بالأمارات التي قرأها في كتب أهل الكتاب، وعرف أيضًا صدقه فيما جاء به أنه ليس من أهل الكذب، وقال: هذا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ الله على مُوسَى، يا لَيْتَنِي فيها جذع، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قال: نعم، لم يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إلا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[1].

---

(١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ المتقدم تخريجه (ص٥٨٣).

فآمن به وصدّقه، وشهد أن ما جاء به هو ما جاء به موسى وسائر الأنبياء، وأخبر أنه سينالُه ما ناله الأنبياءُ من الأذى في سبيل الله تعالى.

**القصة الثالثة: مع النجاشي**؛ وهو ملك الحبشة، وكان نصرانيًا، وكان لديه معرفة بالكتب وصفة الأنبياء وغيرهم. لما جاءه المهاجرون ونزلوا بالحبشة هربًا من أذى قريش، واستقروا عنده، أحضرهم وسمع منهم ما قالوه في صفة النبي ﷺ، وقرؤوا عليه بعضًا من القرآن، فبكى وخشع وآمن، وأقسم بأن ما جاء به محمدٌ ﷺ هو الحق، وأخبر أن مقالته في عيسى مقالةٌ صحيحة، وأنه لم يخالف ما هو عليه مثقال هذه، وأشار إلى ذلك إشارةً لطيفة، مما يدلُّ على أنه صدَّقه وأنه صحَّح رسالته.

كيف عرف ذلك وهو لم ير النبي ﷺ؟ وإنما سمع ما جاء به، سمع القرآن الذي نزل عليه، وسمع بعض صفاته، فاستدلَّ بها على صدقه وصحةِ رسالته، فآمن به، وكان يهدي إليه ويُكاتبه، وأصدقَ عنه أمَّ حبيبة لَمَّا تزوجها النبي ﷺ بعد موت زوجها، وأرسلها إليه ﷺ[1]. كل ذلك يدل على أنه كان معه وصدَّقه.

وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب[2] لما سمع بموته، وذلك دليل على أنه

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢١٠٧)، وأحمد (٦/ ٤٢٧)، والحاكم (٢/ ١٨١)، والبيهقي (٧/ ٢٣٢) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

(٢) كما في حديث جابر ﷺ الذي أخرجه البخاري (١٣١٧)، ومسلم (٩٥٢).

كان من المصدقين للرسول ﷺ. عرف ذلك مع أنه ما رآه، ولو رآه لازداد يقينًا بصحة ما جاء به وبصدقه.

فهذا دليل على أن الصادقَ يعرفُ الناسُ صدقَه بأدنى ما يسمعون من خبره.

**القصة الأخيرة: مع هرقل**، الذي كان ملكًا للروم عندما كانوا في الشام بمدينة دمشق، وكانوا يدينون بالنصرانية، فأرسل إليه النبي ﷺ كتابًا يدعوه إلى الإسلام، ويقول فيه: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ**»(١)، وكتب إليه آيةً من سورة آل عمران فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]، فلمَّا جاءه هذا الكتاب، أرسل من يسأل: هل هنا من يعرف هذا الرجلَ الذي يدعي أنه نبي؟ حتى يسأل عن أخلاقه وعن صفاته، فدلُّوه على أبي سفيان، وكان أبو سفيان قريبًا من النبيِّ ﷺ من جهة النسب؛ لأنه من بني عبد مناف، وهو الجد الثالث من أجداد النبي ﷺ، الجد الأول عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فكلاهما يجتمع في عبد مناف، وإن كان صدَّه عن الدخول في الإسلام أول مرةٍ الرئاسة والمنصب، سأله هرقل عن هذه الأسئلة، واستدل بجوابها على صحة ما جاء به النبي ﷺ.

---

(١) قطعة من حديث أبي سفيان ﷺ المتقدم قريبًا.

**فالسؤال الأول: عن نسبه؟**

أخبره أبو سفيان أنه ذو نسب، يعني أنه من أشراف الناس، وليس من أطرافهم أو أراذلهم، فالأنبياء يبعثون في وسط القبائل وفي أشرفهم، ولا يبعثون من أطراف القبائل وأراذلها. اعترف أبو سفيان ﷺ أن النبي ﷺ ذو نسب، وأن آباءه وأجداده لهم شرف ورفعة ومنصب.

**السؤال الثاني: هل مَلَك أحدٌ من آبائه؟**

فلمَّا أخبره بأنه لم يملك أحد فيهم، استدل على أنه لو كان أحد من آبائه قد ملك، لكان طالبًا لملك أبيه، فلمَّا لم يكن ذلك عرف أنه لا غرض له في الملك.

**السؤال الثالث: هل كان كذابًا قبل أن يقول ما قال؟**

فلما أخبره أنهم لم يجرِّبوا عليه كذبًا، قال: كيف يدَع الكذب على الناس ويكذب على الله؟ فيستحيل أن يكون كذابًا.

**السؤال الرابع: هل أحدٌ سبقه إلى هذا القول؟**

فلما أخبره أنه ما سُبِقَ، استدل على أنه صادق؛ لأنه لو قالها أحد قبله، لكان مقتديًا به، ولقالوا: رجل قال مقالةً قد سُبِقَ إليها.

**السؤال الخامس: سأله عن أتباعه؟**

فأخبره أنهم ضعفاء الناس؛ وذلك لأنّ ضعفاءهم أرقّ قلوبًا، وعادةً هم الذين يتقبلون الحق، وهم أتباع الرسل، كما أخبر الله تعالى عن قوم نوح ـ عليه السلام ـ أنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، يعني: أراذل الناس، وما نراك اتبعك إلا أراذلنا، ولكن العاقبة في النهاية أن أشرافُ الناس

أسلموا واتبعوه.

**السؤال السادس: هل يزيدون أو ينقصون؟**

ولما أخبره أنهم يزيدون، عرف أنّ زيادتهم دليلٌ على أن ما هم عليه صحيحٌ، وأنهم يتبعونه ليقينهم بأن ما جاء به الحق، كل من تبين له الحق اتبعه.

**السؤال السابع: هل ارتدّ أحدٌ منهم؟**

فلمَّا أخبره بأنهم لا يرتدون، بل مَنْ دخل في الإسلام تمسك به، ولم يرجع عنه أبدًا، قال: هكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوبَ لا يسخطُه أحد. فالإيمان الذي دخلوا فيه اطمأنت به قلوبهم، فلما اطمأنت به قلوبهم، عرفوا صدقه وصحته، فلم يسخطوه، بل تفانوا في نُصرته.

**السؤال الثامن: هل قاتلوه؟**

فأخبره بأنهم قاتلوه، وأنه يُنصر عليهم، ويُنصرون عليه، وذلك من الابتلاء الذي يبتلي الله تعالى به أنبياءه، ثم تكون العاقبة لهم، ويبتلي أتباع أنبيائه كما في الآيات التي سردها الشارح، وقد علَّقَ الشارح على هذا تعليقًا حسنًا، وذكر أن الله تعالى يبتلي الأنبياء والأولياء، ثم بعد ذلك يفرِّجُ عنهم، ليظهر من يصدق منهم ومن يكذب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾[الحج:١١]، فالابتلاء الذي يبتلي به عباده إنما ليظهر صدقهم من كذبهم؛ ليتميز من يكون مؤمنًا صادقًا ممن هو دعيٌّ ليس بصادق الإيمان.

**السؤال التاسع: هل يغدر إذا عاهدوه؟**

فأخبره بأنه لا يغدر، وقد كان ﷺ حريصًا على أن يفيَ بالمواعيد، ولا يؤثر عنه غدر، وقد أمره الله تعالى إذا أحسَّ أو خاف من قومه خيانةً أن ينبذ إليهم عهدهم، قال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾[الأنفال:٥٨]، يعني: انبذ إليهم عهدهم، وقل لهم قد تبرّأنا من العهد، ولا عهد بيننا وبينكم، فاستعدُّوا للحرب، ولا تأتِهم بغتةً وهم آمنون باقون على عهدهم ومواثيقهم.

**وأما السؤال العاشر والأخير: فإنه يتضمن شرعه الذي جاء به؟**

اعترف أبو سفيان بأنه يأمرُهم بعبادة الله وحده، وهو التوحيد، وأنه ينهاهم عما يعبد آباؤهم من الأصنام، وهو الشرك بالله، وأنه يأمرهم بالأشياء التي يشهد العقل بسلامتها وبملاءمتها، ألا وهي: الصدق في الحديث، وصلة الرحم، والصبر على الضراء والسراء، والعفاف... هذه الخصال التي يشهد العقل بملاءمتها وحُسنها.

فالحاصل: أن أبا سفيان لما أخبره بذلك، عرف هرقل ملك الروم أنها صفات نبيٍّ بما صدّق أبو سفيان تلك الصفات وصدقه أيضًا رفقاؤه، ولم ينكروا عليه وكلهم وافقوا على ذلك، وهي صفاتٌ صحيحةٌ منقولةٌ ومشهورة ومتواترة عنه، فكان ذلك من الأدلة التي ظهر بها صدقه.

فدل ذلك على أن صدق الأنبياء يُعرف بالأمارات التي يتميزون بها، بحيث لا يخفى أمرهم على ذي عقل سليم.

قال الشارح:

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ: أَنَّ مَا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ بِمَجْمُوعِ أُمُورٍ، قَدْ لَا يَسْتَقِلُّ بَعْضُهَا بِهِ، بَلْ مَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ - مِنْ شِبَعٍ وَرِيٍّ وَشُكْرٍ وَفَرَحٍ وَغَمٍّ - فَأُمُورٌ مُجْتَمِعَةٌ، لَا يَحْصُلُ بِبَعْضِهَا، لَكِنْ بِبَعْضِهَا قَدْ يَحْصُلُ بَعْضُ الْأَمْرِ.

وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ بِخَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، فَإِنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ يُحَصِّلُ لِلْقَلْبِ نَوْعَ ظَنٍّ، ثُمَّ الْآخَرُ يُقَوِّيهِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْعِلْمِ، حَتَّى يَتَزَايَدَ وَيَقْوَى. وَكَذَلِكَ الْأَدِلَّةُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ الْآثَارَ الدَّالَّةَ عَلَى مَا فَعَلَهُ بِأَنْبِيَائِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمَا فَعَلَهُ بِمُكَذِّبِيهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ، كَتَوَاتُرِ الطُّوفَانِ، وَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا بَعْدَ نَبِيٍّ، فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ، كَقِصَّةِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ، يَقُولُ فِي آخِرِ كُلِّ قِصَّةٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٦٧، ٦٨].

وَبِالْجُمْلَةِ: فَالْعِلْمُ بِأَنَّهُ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ أَقْوَامًا اتَّبَعُوهُمْ، وَأَنَّ أَقْوَامًا خَالَفُوهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ نَصَرَ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ، وَعَاقَبَ أَعْدَاءَهُمْ: هُوَ مِنْ أَظْهَرِ الْعُلُومِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَأَجْلَاهَا.

وَنَقْلُ أَخْبَارِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَظْهَرُ وَأَوْضَحُ مِنْ نَقْلِ أَخْبَارِ مَنْ مَضَى مِنَ الْأُمَمِ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ وَعُلَمَاءِ الطِّبِّ، كَبُقْرَاطَ وَجَالِينُوسَ وَبَطْلَيْمُوسَ وَسُقْرَاطَ وَأَفْلَاطُونَ وَأَرِسْطُو وَأَتْبَاعِهِ.

قال الشيخ:

بمجموع دلائل النبوة يقوَى التَّصديق بنبوة ذلك النبي، فالله تعالى يؤيد الأنبياءَ بمعجزات يُعرف بمجموعها صدق كل واحد منهم، ولو لم يكن إلا معجزة واحدة، لتوقَّف الناس أو بعضهم في الصدق، ولكن إذا تأيَّدت المعجزة بمعجزة أخرى، ثم جاءت ثالثةٌ ثم رابعةٌ... وهكذا، فمجموعها بلا شك يثير في النفس انتباهًا، ويكون سببًا للتصديق واليقين.

ثم ضرب الشارح لذلك مثلًا: بأن الإنسان لا يتأثر بكلمة، ولكن يتأثر بكلمات، وكذلك لا يشبع بلقمةٍ واحدة، ولكن مجموعُ اللقمات يشبعه، وكذلك لا يرتوي من جرعة واحدة حتى تجتمع جرعات، ولا يصدِّق الحادثة الكبيرة بخبر شخص واحدٍ حتى يجتمع عنده أشخاصٌ. فالخبر الأول يثير في النفس انتباهًا، والخبر الثاني يقوي ما في النفس، ولا يزال يقوى إلى أنْ يصير كالشمس يقينًا، فهكذا معجزات الأنبياء بمجموعها يحصل اليقين والصدق بأن ما جاؤوا به من الله تعالى.

وقد ذكر اللهُ أنه أرسل رسلًا من قبلنا، وأبقى آياتٍ تدل على صدقهم، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، يعني: أماكنهم وآثارهم. وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل:٥٢]، وقال في آية أخرى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ

بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [القصص:٥٨]، يعني: أنهم أُهلكوا وبقيت آثارهم، وفي ذلك دلالة على أنه وجد قبلنا أمم كذّبت، أُرسلت إليها رسلٌ، ونزلت عليهم العقوبة لما كذبوا الرسل، ونجّى الله الرسل ومن آمن بهم، وأهلك المكذبين.

وذكر الله أن من أولهم نوحًا عليه السلام، وأنه أنجاه في السفينة، فقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٥]، يعني: أبقينا السفينة أو جنس السفينة؛ تذكيرًا وعبرةً للناس إلى يوم الدين، يتذكرون بها تلك السفينة التي نجا فيها من آمن، وغرق من لم يؤمن.

ويذكر أننا نعلم يقينًا بأنه وجد في الأرض أنبياء، جاؤوا برسالات، صدّقهم من صدقهم ممن أراد الله هدايته، وكذّبهم من كذّبهم ممن كتب الله عليه الشقاوة. نجّى الله الأنبياء ومن آمن بهم، وأهلك المكذبين وانتقم منهم، نعلم ذلك يقينًا، قصّ الله علينا قصة نوح، وهود، وإبراهيم، وعادٍ، وثمود، وقوم شعيب، وأصحاب الأيكة، وموسى مع فرعون، قصّ الله هذه القصص، وأمر بالاعتبار بها، فبعد قصة موسى قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾، وهكذا بعد قصة إبراهيم، وقصة نوح... إلى آخر القصص في سورة الشعراء ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾، يعني: لعبرة وموعظة.

فالحاصل: أننا نعلم يقينًا بأن الله تعالى أرسل رسلًا، ونتحقق بأنهم مرسلون من الله، وأنه تعالى أيدهم، بالمعجزات التي أجراها على أيديهم وأعجزت أهل زمانهم، وحاولوا أن يعارضوها، كما حكى الله تعالى عن

فرعون لما رأى تلك الآيات مع موسى، ظنها سحرًا، فجاء بالسحرة الذين ألقوا حبالهم وعصيّهم، فخُيِّل إلى موسى أنها تسعى، ولكن لما ألقى عصاه التقمت ذلك كله، فعرف السحرة أن ذلك ليس سحرًا، وأنه من الله تعالى، فآمنوا واستجابوا لذلك، فعند ذلك بطش بهم وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١]، فهؤلاء لما كانوا ذوي معرفة بالسحر، وعرفوا أن هذا لا يشبهه؛ آمنوا.

فالحاصل: أنا نعلم يقينًا أن أنبياء الله تعالى صادقون فيما بلَّغوه، وأنهم جاؤوا بهذه الرسالة ـ التي هي الشريعة المحمدية ـ والشرائع التي قبلها، وكلّها متفقةٌ على أصل واحد، وهو العقيدة والتوحيد؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، أي: كل منهم جاء بهذه الرسالة، وتنوعت الشرائع في الأوامر والنواهي.

فإذًا المسلم يعتقد صحة الرسالة، وأن الرسل صادقون، والإيمان بالرسل ركنٌ من أركان الإيمان.

قال الشارح:

وَنَحْنُ الْيَوْمَ إِذَا عَلِمْنَا بِالتَّوَاتُرِ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ، عَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّهُمْ كَانُوا صَادِقِينَ عَلَى الحَقِّ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

مِنْهَا: أَنَّهُمْ أَخْبَرُوا الْأُمَمَ بِمَا سَيَكُونُ مِنِ انْتِصَارِهِمْ وَخِذْلَانِ أُولَئِكَ، وَبَقَاءِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ.

وَمِنْهَا: مَا أَحْدَثَهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ نَصْرِهِمْ وَإِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ، إِذَا عُرِفَ الْوَجْهُ الَّذِي حَصَلَ عَلَيْهِ ـ كَغَرَقِ فِرْعَوْنَ وَغَرَقِ قَوْمِ نُوحٍ وَبَقِيَّةِ أَحْوَالِهِمْ ـ عُرِفَ صِدْقُ الرُّسُلِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَتَفَاصِيلِ أَحْوَالِهَا، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ الخَلْقِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ كَذَّابٍ جَاهِلٍ، وَأَنَّ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهُدَى وَالخَيْرِ، وَدَلَالَةِ الخَلْقِ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَنْعِ مَا يَضُرُّهُمْ، مَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ رَاحِمٍ بَرٍّ يَقْصِدُ غَايَةَ الخَيْرِ وَالْمَنْفَعَةِ لِلْخَلْقِ.

---

قال الشيخ:

المعجزات والآيات التي أجراها الله تعالى على أيدي الأنبياء، إذا تأملها المتأمل، صدَّق بأنها من الله، وصدَّق بأنهم جاؤوا من عند الله، وأنهم مرسلون صادقون فيما بلغوه.

أخبروا بأن الله يهلك المكذبين وينجي المصدقين، فوقع ما أخبروا به، أهلك الله أعداءهم وأنجى أولياءهم، كما حكى الله ذلك، أخبروا بأن الله ينصر

أولياءه ويخذل أعداءه؛ كما في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، فوقع ما أخبروا به. أخبروا بأمور مستقبلة لم تقع من قبل، فوقعت وطابقت ما أخبروا به سواء بسواء؛ وذلك دليلُ صدقهم، وصحة رسالتهم، أخبروا بأن هذه الشرائع من الله، وبالتأمل عرف صدقهم؛ حيث تواتر عن الأنبياء ما يدل على اتفاق شريعتهم، صدّق المتأخر منهم من قبله، ووافق ما جاء به، وأيّد المتقدمُ من يأتي بعده، فحكى الله عن عيسى أنه قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [آل عمران:٥٠]، وحكى عنه أنه قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وهكذا الرسل يصدق الأول منهم من قبله، ويبشِّر بمن بعده أو يأمر بأن يتبع، ولا شك أن ذلك كله مع اجتماع دليل صدقهم، وصحة ما جاؤوا به من الرسالة، وأنها من الله تعالى، فنحن نعلم يقينًا أنه كان في الأرض رسلٌ، وكان لهم أمم، وجاؤوا بشرائع بعدهم، وأن الله تعالى نجّى المؤمنين وأهلك المكذبين، نعلم ذلك بالتواتر، فضلًا أو زيادة على خبر الله تعالى، ونعلم صدقهم بهذه المعجزات التي أجراها الله تعالى على أيديهم.

قال الشارح:

وَلِذِكْرِ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ، وَقَدْ أَفْرَدَهَا النَّاسُ بِمُصَنَّفَاتٍ، كَالْبَيْهَقِيِّ وَغَيْرِهِ.

بَلْ إِنْكَارُ رِسَالَتِهِ ﷺ طَعْنٌ فِي الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنِسْبَتُهُ إِلَى الظُّلْمِ وَالسَّفَهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، بَلْ جَحْدٌ لِلرَّبِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْكَارٌ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ عِنْدَهُمْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ صَادِقٍ، بَلْ مَلِكٌ ظَالِمٌ، فَقَدْ تَهَيَّأَ لَهُ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ وَيَتَقَوَّلَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَمِرَّ حَتَّى يُحَلِّلَ وَيُحَرِّمَ، وَيَفْرِضَ الْفَرَائِضَ، وَيُشَرِّعَ الشَّرَائِعَ، وَيَنْسَخَ الْمِلَلَ، وَيَضْرِبَ الرِّقَابَ، وَيَقْتُلَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ وَهُمْ أَهْلُ الحَقِّ، وَيَسْبِيَ نِسَاءَهُمْ، وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، وَيَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَفْتَحَ الْأَرْضَ، وَيَنْسِبَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُشَاهِدُهُ وَهُوَ يَفْعَلُ بِأَهْلِ الحَقِّ، وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ فِي الِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ، وَيُعْلِي أَمْرَهُ، وَيُمَكِّنُ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ الخَارِجَةِ عَنْ عَادَةِ الْبَشَرِ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُجِيبُ دَعَوَاتِهِ، وَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُ، وَيَرْفَعُ لَهُ ذِكْرَهُ، هَذَا وَهُوَ عِنْدَهُمْ فِي غَايَةِ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالظُّلْمِ، فَإِنَّهُ لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَأَبْطَلَ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَبَدَّلَهَا وَقَتَلَ أَوْلِيَاءَهُ، وَاسْتَمَرَّتْ نُصْرَتُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يُقِرُّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ بِالْيَمِينِ، وَلَا يَقْطَعُ مِنْهُ الْوَتِينَ.

فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لَا صَانِعَ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَبِّرَ، وَلَوْ كَانَ لَهُ مُدَبِّرٌ قَدِيرٌ حَكِيمٌ، لَأَخَذَ عَلَى يَدَيْهِ، وَلَقَابَلَهُ أَعْظَمَ مُقَابَلَةٍ، وَجَعَلَهُ نَكَالًا لِلصَّالِحِينَ؛ إِذْ لَا يَلِيقُ بِالْمُلُوكِ غَيْرُ ذَلِكَ، فَكَيْفَ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ وَأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ؟

وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ وَالشَّهَادَةَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَذَّابِينَ قَامَ فِي الْوُجُودِ، وَظَهَرَتْ لَهُ شَوْكَةٌ، وَلَكِنْ لَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ، بَلْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ، وَقَطَعُوا دَابِرَهُ وَاسْتَأْصَلُوهُ. هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى إِنَّ الْكُفَّارَ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١]، أَفَلَا تَرَاهُ يُخْبِرُ أَنَّ كَمَالَهُ وَحِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْبَى أَنْ يُقِرَّ مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيْهِ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَهُ عِبْرَةً لِعِبَادِهِ، كَمَا جَرَتْ بِذَلِكَ سُنَّتُهُ فِي الْمُتَقَوِّلِينَ عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وَهُنَا انْتَهَى جَوَابُ الشَّرْطِ، ثُمَّ أَخْبَرَ خَبَرًا جَازِمًا غَيْرَ مُعَلَّقٍ: أَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ نَفَى عَنْهُ الْإِرْسَالَ وَالْكَلَامَ لَمْ يُقَدِّرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

---

قال الشيخ:

بدأ أولًا بأن دلائل نبوة محمد ﷺ كثيرة، وأنها أُفردت بالتأليف، وذكر منها ابن كثير في تاريخه[1] في آخر السيرة الشيء الكثير الذي أتى إليه إحصاؤه،

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٦/ ٢٥٧ وما بعدها).

وتتبعها أيضًا الكثيرون. ومن أوسع من توسَّع فيها البيهقي في «دلائل النبوة»، وهو مطبوع، وكذلك أبو نعيم صاحب «الحلية» له كتاب «دلائل النبوة» وهو مطبوع أيضًا، وهكذا غيرهم. وبأكثرها يُعلم ويتيقن أنه ﷺ صادق فيما جاء به، فكيف بمجموعها مع كثرتها.

ثم إن الشارح ضرب مثلًا في أن المكذبين لنبينا محمد ﷺ - كاليهود والنصارى، وكذلك سائر المكذبين - لا شك أنهم قد سبُّوا الله، وتنقصوه غاية التنقيص من حيث لا يشعرون، فكثير من اليهود يدّعون أنه كذاب وأنه مفترٍ، وكذلك أيضًا كثير من النصارى والوثنين وغيرهم، وآخرون يقولون: إنه رسول إلى العرب فقط وليس برسولٍ إلى غيرهم فرسالته خاصة.

فيُقال لهؤلاء - كما قال الشارح رحمه الله -: أنتم قد تنقصتم الله غاية التنقص؛ لأنكم ادّعيتم أنه كذاب، والله تعالى ينصره، وهو مع ذلك يتصرف هذه التصرفات وهو كذابٌ في زعمكم، ومع ذلك يدّعي أنه مرسل من الله، فيحلِّل أشياء، ويحرِّم أشياء، ويبطش بالناس، ويقتل ويأسر ويوثق وينتقم ويسبي الذراري، ويقتل الأباء، ويحبس ويفتح البلاد، ويدوخ العباد، ويجول في الأرض، ويتجول مثل ما هو الواقع، وهو مع ذلك كذاب مفترٍ في زعمكم، والله يؤيده ويقوّيه وينصره، ويمده بالمعجزات، ويمده بالملائكه التي تقوّيه، ويجيب دعواته، وينتصر له، وهو يعلم أنه كذاب وأنه مفترٍ.

هذا بلا شك تنقص لله تعالى؛ لأن حكمة الله تأبى إلا أن ينتقم ممن كفر، كما انتقم من الذين كذبوا الرسل فيما سبق، وأحل بهم أنواع العقوبات، وأنزل

بهم أنواع المثلات، وقد ذكر الله تعالى أنه ينتقم منه لو كذب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٦]، يعني: أنه لو كان متقولًا وكاذبًا لانتقمنا منه، ولبطشنا به بطشًا شديدًا، وأمتناه وقطعنا دابره؛ كما فعلنا ذلك بمن كذب وافترى، فإنه ظهر في زمن النبي ﷺ بعض المفترين والكذابين، لكن ما مُتِّعوا، منهم رجل تسمَّى بالأسود العنسي، ذلك الذي تنبأ في اليمن، ولكنه ما مكث إلا ثلاثة أشهر حتى قُتل، ومنهم: مسيلمة الكذاب في آخر العهد النبوي، وبعد موت النبي ﷺ، بايعه خلق كثير أكثر من مئة ألف، ولما غزاهم الصحابة في نحو عشرة آلاف أو أقل لم يقفوا دونهم، بل سُلِّط عليه من قتله - وهو وحشي قاتل حمزة - ثم بعد ذلك اضمحلّت دعوته ولم يبق لها أثر.

هذه سنة الله فيمن كذّب وافترى عليه، لكن رسالة هذا النبي الكريم باقية مستمرة والحمد لله، تزداد قوة وعلوًّا وظهورًا، وأتباعه الذين ينتمون وينتسبون إلى رسالته لهم التمكن ولهم القوة، كلّما حققوا السير على طريقته والتمسك بسنته يتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

تحقق ذلك كله في أتباع هذا النبي الكريم، فدلّ ذلك يقينًا على أنه صادق

مصدق، شهدت برسالته العقول، وشهدت بصدقه القلوب، وعرف ذلك الخاص والعام، وأظهر الله تعالى دينه كما وعد بذلك في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣]، فصدق الله هذا الوعد، وأظهره على الدين كله؛ حتى دخل دين الإسلام في أكثر المعمورة وفي أكثر بقاع الأرض، وبقي ظاهرًا جليًّا، كلما تمسك أهله به أظهرهم الله تعالى وقوّاهم. ولا شك أن هذا دليل على أن هذه الشريعة من الله، وأن الذي جاء بها هو الصادق المصدوق، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

قال الشارح:

وَقَدْ ذَكَرُوا فُرُوقًا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ، وَأَحْسَنُهَا: أَنَّ مَنْ نَبَّأَهُ اللَّهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، إِنْ أَمَرَهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِرَسُولٍ. فَالرَّسُولُ أَخَصُّ مِنَ النَّبِيِّ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا، وَلَكِنَّ الرِّسَالَةَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، فَالنُّبُوَّةُ جُزْءٌ مِنَ الرِّسَالَةِ، إِذِ الرِّسَالَةُ تَتَنَاوَلُ النُّبُوَّةَ وَغَيْرَهَا، بِخِلَافِ الرُّسُلِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَنَاوَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ، بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، فَالرِّسَالَةُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَهْلِهَا.

وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَخُصُوصًا مُحَمَّدًا ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

---

قال الشيخ:

أولًا: ذكر أن هناك فرقًا بين الرسول والنبي، وقد عطف اللهُ بعضهم على بعض في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢]، وأكثرهم على أن الرسول هو الذي يُكلَّف بالتبليغ، فإذا لم يُكلَّف بالتبليغ فهو نبي، فإذًا الرسالة أخص، والأنبياء أكثر من الرسل. ولذلك ورد في عددهم أنهم أكثر من مئة ألف نبيّ، وأن الرسل ثلاث مئة وثلاثَ عشرة رسولًا، وقد

ذكر الله في القرآن عددًا منهم، ولم يذكر الكثير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، ورسالة نبينا محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع وخاتمة الرسل، فهو خاتم الأنبياء، ورسالته آخر الرسالات، وشريعته آخر الشرائع، وبلا شك أن إرسال الرسل إلى أهل الأرض نعمة من الله؛ ليبلغوهم شرع الله عندما يعظم الجهل ويتراكم على القلوب، وتطول الغفلة، ويطول زمن الفترة، ويقع الناس في المعاصي والكفر، ويحق عليهم العذاب، عند ذلك يرسل الله إليهم رسولًا يبين ما وقعوا فيه من الجهالات، وما أخطأوا فيه من الأعمال، ويدعوهم إلى الرجوع إلى ربهم، وإلى ترك البدع والضلالات والشركيات، وإلى اتباع الشريعة والطاعة لله ولرسوله، فإذا أصروا وعاندوا أهلكهم، وإذا آمنوا نصرهم وأيدهم وقوَّاهم.

وقد ذكر الله تعالى أن رسالة نبينا محمد ﷺ من أعظم المِنَن وأكبر النعم على هذه الأمة، في موضعين من القرآن، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، فذكر أن ذلك منّةٌ من الله عليهم؛ حيث أصبح سببًا في انتشالهم من الجهالات، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ

﴿ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد:٩].

فإذًا هذه الرسالة نعمة من الله، كان الناس قبلها في جهالة لا يعرفون لماذا خلقوا، ولا بماذا أمروا، ولا بماذا كلِّفوا ؟ يعبدون الأوثان، ويشركون بالله، ويستحلون المحرمات، وليس عندهم إيمان بالبعث والجزاء والنشور، ولا معرفة لحلال ولا حرام، جهلةٌ في غاية الجهل، فلمّا جاءت هذه الشريعة أصبحوا بعدها عارفين، متحققة المعرفة فيهم، وزالت عنهم تلك الأمور الجاهلية، وأصبحوا ذوي معرفة وذوي إيمان، وتلك مِنّةُ الله على عباده، فما عليهم إلا أن يشكروا ربهم على ما أعطاهم وما وهبهم. قال الله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢]، بعدما أخبر الله سبحانه بأنه أرسل الرسول ليبين لهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، أمرهم بذكره، وأن يطيعوا هذا الرسول، وأن يتبعوه، وأن يعملوا بشريعته، وفائدة ذلك ونتيجته أن ينصرهم الله تعالى، ويؤيدهم، ويقويهم، ويعزهم، ويظهر دينهم على الدِّين كله ولو كره المشركون.

قال الطحاوي:

وَأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أُحْسِنَ بِنَاؤُهُ، وَتُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ، فَطَافَ بِهِ النُّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ، إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاهَا، فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ خُتِمَ بِيَ الْبُنْيَانُ وَخُتِمَ بِيَ الرُّسُلُ»، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ، الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ، وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ»(٢).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (١٤/ ٣١٦)، والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ١٧٥)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٤٧١)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأصله عند البخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٢٨٦) بلفظ مختلف.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

بَعْدِي»[1]، الحَدِيثَ.

وَلِمُسْلِمٍ[2]: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ».

---

قال الشيخ:

من صفاته ﷺ أنه خاتم الأنبياء، ولأجل ذلك صارت شريعتُه خاتمة الشرائع، وكذلك حُكم ببقائها إلى أن تقوم الساعة، لا تنسخها شريعة، ولا يأتي بعده نبي، هذه الأدلة تدل على أنه آخر الأنبياء، والأنبياء قبله كثير، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك:٩]، والنُّذُرُ: هم الأنبياء والرسل أو المنذرون لهم، فلما علم الله تعالى فضيلة هذه الشريعة وميزتها وملاءمتها لكل زمان ومكان، وصلاحها لكل جيل وقُطر، وعدم منافاتها للمصالح العامة والخاصة، جعلها الله شريعةً عامةً، فكان من ضمن رسالة هذا النبي الكريم أن أُرسل إلى الناس عامة قاصيهم ودانيهم، وأن جُعلت رسالته عامة وخاتمة للرسالات، بحيث

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) وابن حبان (١٦/ ٢٢٠)، ولم يرد عند مسلم بهذا اللفظ، وإن كان أصله عنده برقم (٢٨٨٩).

(٢) برقم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لا ينسخها بعده من يأتي، وقد ذكر أنه يأتي بعده ابن مريم في قوله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حتى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»[1]، ولكنه يحكم بشريعة الإسلام، فأصبحت هذه الشريعة - لشرفها ولصلاحيتها - آخر الشرائع، وأصبح هذا النبي - لشرفه وميزته - آخر الأنبياء. هكذا نعتقد، وكل من ادّعى النبوة بعده فإنه كذاب مهما كان، ففي هذا الحديث الذي ذكره الشارح أخبر ﷺ بأنه يأتي بعده ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، ولكن سماهم كذابين، وهو ﷺ آخر الأنبياء وخاتم الرسل.

وذكر بعض العلماء أنه خرج من هؤلاء الثلاثين عددٌ كثير، فقيل: خرج منهم سبعة وعشرون أو ثمانية وعشرون، وما بقي إلا واحد أو اثنان، وآخرهم المسيح الدجال الكذاب، ومراده بهؤلاء الثلاثين من يأتي بشبهات، ويصدقه بعض العوام، ويقع بسببه فتنة، ويغترُّ وينخدع به أُناس، ويكون له أتباع ومؤيدون ينتصرون له.

ومن آخر من تنبأ أو خرج في هذه القرون: غلام أحمد القادياني، الذي ادّعى أنه نبيٌّ، وأنه يأتيه الوحي، وقد عظمت الفتنة به، وظهر في بلاد الهند، وانتشر أتباعه وسُمُّوا بالقاديانية، ولا يزالون متمكّنين إلى هذا اليوم، ولا يزال العلماء يضلِّلونهم ويردُّون عليهم ويُبدِّعونهم ويبيِّنون تهافتهم وأكاذيبهم، وهم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٦)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مع ذلك لا يزالون منتشرين، مع أن دعوى ذلك الغلام الذي ادّعى أنه يأتيه الوحي دعوى باطلة، يُكذبها أدنى من يتأمل بعقلٍ وبأدنى معرفة.

ولكن قد يجد من يتتبّع التاريخ عددًا كثيرًا قد يزيدون على المئات يدَّعون أنهم يأتيهم الوحي وأنهم أنبياء، حتى في زماننا هذا في الوقت القريب ظهر أكثر من عشرة، كلهم يدّعون ذلك، لكن غالب ذلك عن نقصٍ في العقل، وعن وجع في الرأس يخلُف فكر الإنسان، وعن وساوسَ شيطانية يُخيل بها إلى ذلك الإنسان، فيدّعي هذه الدعوى، ويزين له الشيطان، ولا ينخدع الناس به، ولا يعملون بقوله.

وقد وقع هذا أيضًا في القرون المتقدمة كثيرًا، فقوله ﷺ: «**وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ**»، المراد به من لهم شبهاتٌ، ومن لهم سلطةٌ وقوةٌ يتمكنون بها، ويتبعهم فئامٌ من الناس، وليس المراد كل من ادّعى أنه نبيّ، ولكن من ينخدع به ويُغترُّ بمقاله.

وبكل حال فالأدلة واضحةٌ في أن محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء، وخاتم الرسل، ولا عبرة بمن جاء بعده وادعى ذلك.

وقد ذُكر أن رجلًا سمى نفسه «لا»، وادَّعى أنه نبيٌّ، وقال: إن محمدًا يقول: «**لا، نبيٌّ بعدي**»، يعني: الشخص الذي اسمهُ «لا» نبيٌّ بعدي. فيُرَدّ عليه بالآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وهكذا أيضًا ذكروا في زمن قريب أن امرأة ادّعت أنها نبية، وقالت: إن

محمدًا يقول: «**لا نبي بعدي**»، ولم يقل لا نبية بعدي. ولا شك أن الرسالة جاءت في الرجال، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ [يوسف:١٠٩]، فلم يبعث الله تعالى النبوة إلا في الرجال، والصحيحُ أنّ مريم ابنة عمران إنما هي صِدِّيقة، كما قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ ﴾ [المائدة:٧٥]، لم تصل إلى درجة النبوة، ولم ينزل عليها الوحي، والوحي الذي أنزل على أمها إنما هو وحيُ إلهام، وكذلك الوحي الذي أُنزل على أمِّ موسى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾ [القصص:٧]، أي: وحي إلهام.

وعلى كل حال، فنبوة محمد ﷺ هي آخر النبوات، وشريعتُه هي آخر الشرائع، والمتمسك بها إن شاء الله على سبيل النجاة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَإِمَامُ الْأَتْقِيَاءِ.

---

قال الشارح:

هُوَ ﷺ الْإِمَامُ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، أَيْ: يَقْتَدُونَ بِهِ. وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا بُعِثَ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ وَاقْتَدَى بِهِ فَهُوَ مِنَ الْأَتْقِيَاءِ.

---

قال الشيخ:

هذه من صفاته ﷺ، ولا شك أنّ الإمامة معناها القدوة، والإمام هو الذي يُقتدى به، وقد وصف الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه أمة في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، يعني: قدوة، يُقتدى به.

ومدح اللهُ عباده الذين يقولون: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وكذلك جعل اللَّهُ تعالى إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]، وإذا كان نبينا محمد ﷺ إمامًا فإنه يُقتدى به، والاقتداء يعمُّ الاقتداء بكل ما جاء به، سواء من العادات أم من العبادات، فإن

كان من العبادات والقربات، فالعبد يفعلها على أنها طاعةٌ يحتسب الأجر فيها، والطاعات والعبادات هي ما جاء عن ربّه، فجاء عن الله تعالى بالحلال والحرام، وجاء بالطاعات والحسنات، فنحن نفعلها على أنها من سنته، فنحافظ على الصلوات؛ لأنها من شريعته، فرائضها ونوافلها، وكذلك على الطهارة سواء بالماء أو بالتراب أو نحو ذلك، وهكذا سائر العبادات كالصيام والصدقة والحج والجهاد والدعوة إلى الله والذكر والقراءة وما أشبهها. هذه تُفعل على أنها من العبادة، يُتَّبعُ فيها شرع هذا النبي الكريم.

وأما العادات، فنفعلها إذا نقلت عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أنها أولى من غيرها، وإن كان الغرض منها جائزًا، والمراد بالعادات: الأمور التي كان معمولًا بها قبل الإسلام، فمن المعلوم أنه ﷺ كان يأكل ويشرب وينام ويتزوج، وكذلك كان يدخل ويخرج ويركب وينزل ويسافر ويرحل ويقيل، وغير ذلك من الأمور المعتادة، فهذه العادات إذا فعلها العابد اقتداء واتباعًا ومحبة فقد يثاب عليها، ولو كانت مما تستدعيها النفس، كما أخبر ﷺ بأن العبد إذا فعلها اقتداءً واتباعًا وبنيةٍ صادقة أثيب عليها، فيثاب على طلب الرزق لأجل أن يعفَّ نفسه، ولأجل أن يقُوت من تحت يده، ويثاب على إعفافه لزوجته، وإن كان ذلك من الأمور الطبيعية، ويُثاب على نفقته على أهله؛ لقوله ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِها وَجْهَ اللَّهِ إلا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي**

فِي امْرَأَتِكَ»[1]، أما إذا فعل ذلك على أنها عادة فلا ثواب ولا عقاب.

وعلى كل حالٍ فكونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إمامًا لأمته، وبالأخص المتقون منهم المقتدون به، هذا يعمُّ كل ما جاء به من الشرع، ويكون أتباعه في ذلك لهم الأجر على هذا الاتباع.

(١) أخرجه البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

قال الطحاوي:

وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ.

---

قال الشارح:

قَالَ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1]. وَفِي أَوَّلِ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2]. وَرَوَى مُسْلِمٌ[3] وَالتِّرْمِذِيُّ[4] عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِسَاقِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي هَلْ أَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ». خَرَّجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[5]، فَكَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) برقم (٢٢٧٦).

(٤) برقم (٣٦٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ».

آدَمَ وَلَا فَخْرَ»[1]؟

فَالجَوَابُ: أَنَّ هَذَا كَانَ لَهُ سَبَبٌ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ قَالَ يَهُودِيٌّ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَلَطَمَهُ مُسْلِمٌ، وَقَالَ: أَتَقُولُ هَذَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ فَاشْتَكَى مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَطَمَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا؛ لِأَنَّ التَّفْضِيلَ إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الحَمِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَهَوَى النَّفْسِ كَانَ مَذْمُومًا، بَلْ نَفْسُ الْجِهَادِ إِذَا قَاتَلَ الرَّجُلُ حَمِيَّةً وَعَصَبِيَّةً كَانَ مَذْمُومًا، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْفَخْرَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فَعُلِمَ أَنَّ الْمَذْمُومَ إِنَّمَا هُوَ التَّفْضِيلُ عَلَى وَجْهِ الْفَخْرِ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الِانْتِقَاصِ بِالْمَفْضُولِ. وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ أَيْضًا قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»[2]، إِنْ كَانَ ثَابِتًا، فَإِنَّ هَذَا قَدْ رُوِيَ فِي نَفْسِ حَدِيثِ مُوسَى، وَهُوَ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ. لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: إِنَّ فِيهِ عِلَّةً، بِخِلَافِ حَدِيثِ مُوسَى، فَإِنَّهُ صَحِيحٌ لَا عِلَّةَ فِيهِ بِاتِّفَاقِهِمْ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (٣/ ٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأخرجه أحمد (١/ ٢٨١)، وأبو يعلى (٤/ ٢١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ»، وأخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، بلفظ: «لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ».

وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُهُمْ بِجَوَابٍ آخَرَ، وَهُوَ: أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى»، وَقَوْلَهُ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ الخَاصِّ، أَيْ: لَا يُفَضَّلُ بَعْضُ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ بِعَيْنِهِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» فَإِنَّهُ تَفْضِيلٌ عَامٌّ، فَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ. وَهَذَا كَمَا لَوْ قِيلَ: فُلَانٌ أَفْضَلُ أَهْلِ الْبَلَدِ، لَا يَصْعُبُ عَلَى أَفْرَادِهِمْ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ: فُلَانٌ أَفْضَلُ مِنْكَ. ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ الطَّحَاوِيَّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ أَجَابَ بِهَذَا الجَوَابِ فِي «شَرْحِ مَعَانِي الْآثَارِ»[1].

---

قال الشيخ:

وصف النبي ﷺ بأنه سيد ولد آدم، وسيدُ الناس يوم القيامة، وسيد المرسلين، ويُطلقُ السيدُ على الشريف، وعلى المطاع، وعلى كبير القوم، وعلى أفضلهم، أو من له حُرمةٌ فيهم؛ الذي إذا أشار إليهم أطاعوه، والذي يحترمونه ويقدرونه ويعرفون له ميزته وفضله وشرفه.

وقد ورد ما يدل على النهي عن هذا الإطلاق، ووردت أحاديث تدل على الإباحة، من ذلك ما أورده الشارح من قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وكذلك قوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»، يعني: لا أقول ذلك افتخارًا، وإنما هو من باب التحدث بنعم الله، عملًا بقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، وذكر السبب؛ وهو أن

---

(١) (٤/ ٣١٥).

الناس يوم القيامة يطلبُون أن يشفع لهم، فيأتون آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيطلبون منهم الشفاعة، فكلّهم يعتذر، حتى يأتون إليه ﷺ فيشفع، فيكون بذلك سيدًا؛ لأنه قُبلت شفاعته حيث شفع. ولا شك أن هذا السُّؤدد والمنزلة، توجب له فضلًا وشرفًا.

وأما دليل النهي: فما ثبت عنه ﷺ في حديث وفد بني عامر عن عبدالله بن الشخير ﷺ، قال: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلى رسول اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أنت سَيِّدُنَا، فقال: «السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أو بَعْضِ قَوْلِكُمْ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ»[1].

ولعل الجمع بينهما أن نهيه عن قول: «أَنْتَ سَيِّدُنَا»، مخافة أن يغلوا فيه؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بجاهلية، فخاف أنه إذا أقرّهم على هذه اللفظة أعطوه شيئًا من خالص حق الله، فمنعهم، وقال: «السَّيِّدُ الله». وأمرهم أن يقولوا: «عَبْدُاللَّهِ وَرَسُولُه»، ولا يتكلموا بألفاظٍ فيها شيءٌ من الزيادة والغُلوّ. ومع ذلك فإن أفضل ما يوصف به الوصف الذي اختاره لنفسه، وهو العبودية مع الرسالة والنبوة، حيث وصفه الله بالعبودية والرسالة والنبوة، وهي الأوصاف التي وردت في القرآن، فنقول: نبي الله، وعبد الله، ورسول الله، ولا يمنع أن نقول: سيدنا وسيد ولد آدم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٠٣)، وأحمد (٤/ ٢٤، ٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٨٣).

وذكر الشارح أنه يشكل الأمر على أحدهم، فيقول: كيف يكون سيد المرسلين وأفضل النبيين، وهو ﷺ قد اعترف أن موسى ـ عليه السلام ـ أفضل منه، فقال: «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى**»، وأجاب الشارح: بأن هذا في الرد على من يتعصب لشخص بعينه، فإن ذلك الأنصاريَّ ﷺ غار لما سمع اليهودي يقول: «والذي اصطفى موسى على البشر»، فلطم اليهودي، وقال: «تقول هذا ومحمد بين أظهرنا؟»، يعني: أنه أشرف، وأنه الذي اصطفاه الله على البشر، فأمر ﷺ بأن لا يُفاضل بين الأنبياء، وأمر بأن لا يُفضَّل على موسى ـ عليه السلام ـ من باب الاعتراف بفضل موسى، ومن باب التواضع منه ﷺ، وإلا فقد عرف أنه أفضل من غيره، ولو لم يكن من فضله إلا أنه الذي يشفع والذي يبعثه الله مقامًا محمودًا، والذي تُقبل شفاعته، فيقال له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ**»[1].

وكذلك ذكر السبب، وهذا قد يكون مبررًا، ولكن لا يقتضي الفضل كون الناس يصعقون يوم القيامة الصعقة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، أخبر بأن الناس يُصعقون، وأن أولُ من يفيق وأول من يصحو ويرفع رأسه محمد ﷺ، لكنه يجد موسى ـ عليه السلام ـ قد

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة المتقدم تخريجه (ص٤٣٥).

أفاق قبله، وقد أخذ بقائمة من قوائم العرش، فيقول: «فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَى اللَّهُ»[1]، وفي رواية: «أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»[2]، وصعقة الطور هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، يعني: أن تلك الصعقة صارت هي حظه من الصعق، فلم يصعق لما صعقوا، أو هو ممن استثنى الله في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الزمر:٦٨]، يعني: هو ممن شاء الله ألا يصعق، أو أنه أفاق قبله، فإذا كان أفاق قبله، كان له مزية، وأما إذا جوزي أو كان ممن استثنى الله، فلا يدل ذلك على فضل ومزيّة على محمد ﷺ.

فبالجملة محمد ﷺ أفضل الرسل، وأمّته أفضل الأمم، بل وأكثرهم دخولًا الجنة، والذي يدخل من أمته الجنة أكثر من أمة موسى - عليه السلام - ومن غيره من الأنبياء.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَا يُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، وَأَنَّ بَعْضَ الشُّيُوخِ قَالَ: لَا يُفَسَّرُ لَهُمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى يُعْطَى مَالًا جَزِيلًا، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ فَسَّرَهُ بِأَنَّ قُرْبَ يُونُسَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ كَقُرْبِي مِنَ اللَّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَعَدُّوا هَذَا تَفْسِيرًا عَظِيمًا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِكَلَامِ اللَّهِ وَبِكَلَامِ رَسُولِهِ لَفْظًا وَمَعْنًى، فَإِنَّ هَذَا الحَدِيثَ بِهَذَا اللَّفْظِ لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا اللَّفْظُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[1]. وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَالَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»[2]. وَهَذَا اللَّفْظُ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ، أَيْ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى، لَيْسَ فِيهِ نَهْيُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُفَضِّلُوا مُحَمَّدًا عَلَى يُونُسَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ الْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، أَيْ: فَاعِلٌ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧]، فَقَدْ يَقَعُ فِي نَفْسِ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ أَكْمَلُ مِنْ يُونُسَ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ، إِذْ لَا يَفْعَلُ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ. وَمَنْ ظَنَّ هَذَا فَقَدْ كَذَبَ، بَلْ كُلُّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ يَقُولُ مَا قَالَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٣) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - بلفظ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

يُونُسُ: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كَمَا قَالَ أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ وَآخِرُهُمْ.

فَأَوَّلُهُمْ: آدَمُ، قَدْ قَالَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

وَآخِرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ: مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ ـ حَدِيثِ الِاسْتِفْتَاحِ ـ مِنْ رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَغَيْرِهِ، بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ» إِلَى آخِرِهِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[1]، إِلَى آخِرِ الحَدِيثِ.

وَكَذَا قَالَ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٦]، وَأَيْضًا: فَيُونُسُ ﷺ لَمَّا قِيلَ فِيهِ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨]، فَنُهِيَ نَبِيُّنَا ﷺ عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِ، وَأُمِرَ بِالتَّشَبُّهِ بِأُولِي الْعَزْمِ، حَيْثُ قِيلَ لَهُ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، فَقَدْ يَقُولُ مَنْ يَقُولُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ: وَلَيْسَ لِلْأَفْضَلِ أَنْ يَفْخَرَ عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَفْضَلَ؟ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَفِي

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

صَحِيحِ مُسْلِمٍ[1] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». فَاللَّهُ تَعَالَى نَهَى أَنْ يُفْخَرَ عَلَى عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَيْفَ عَلَى نَبِيٍّ كَرِيمٍ؟ فَلِهَذَا قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». فَهَذَا نَهْيٌ عَامٌّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَفَضَّلَ وَيَفْتَخِرَ عَلَى يُونُسَ.

وَقَوْلُهُ: «مَنْ قَالَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»، فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ، فَهَذَا الْكَلَامُ يَصِيرُ نَقْصًا، فَيَكُونُ كَاذِبًا، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ، بَلْ هُوَ تَقْدِيرٌ مُطْلَقٌ، أَيْ: مَنْ قَالَ هَذَا فَهُوَ كَاذِبٌ، وَإِنْ كَانَ لَا يَقُولُهُ نَبِيٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، وَإِنْ كَانَ ﷺ مَعْصُومًا مِنَ الشِّرْكِ، لَكِنَّ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ لِبَيَانِ مَقَادِيرِ الْأَعْمَالِ.

وَإِنَّمَا أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ؛ لِأَنَّا لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَعْلَمَ ذَلِكَ إِلَّا بِخَبَرِهِ، إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ يُخْبِرُنَا بِعَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَنَا هُوَ بِفَضَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ، وَلِهَذَا أَتْبَعَهُ بِقَوْلِهِ: «وَلَا فَخْرَ»، كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ. وَهَلْ يَقُولُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: أَنَّ مَقَامَ الَّذِي أُسْرِيَ بِهِ إِلَى رَبِّهِ - وَهُوَ مُقَرَّبٌ مُعَظَّمٌ مُكَرَّمٌ - كَمَقَامِ الَّذِي أُلْقِيَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ؟! وَأَيْنَ الْمُعَظَّمُ الْمُقَرَّبُ مِنَ الْمُمْتَحَنِ الْمُؤَدَّبِ؟! فَهَذَا فِي غَايَةِ التَّقْرِيبِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّأْدِيبِ. فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الِاسْتِدْلَالِ؛ لِأَنَّهُ بِهَذَا الْمَعْنَى الْمُحَرَّفِ لِلَفْظٍ لَمْ يَقُلْهُ الرَّسُولُ، وَهَلْ يُقَاوِمُ هَذَا الدَّلِيلُ عَلَى نَفْيِ عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ الْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ الصَّرِيحَةَ الْقَطْعِيَّةَ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ

---

(١) برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ.

تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، الَّتِي تَزِيدُ عَلَى أَلْفِ دَلِيلٍ، كَمَا يَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

في هذا الشرح الطويل رد على بعض علماء الأشاعرة، وهو الجويني، ذكروا أنه استدل بقوله في الحديث: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُس» بأنه دليل على مسألتنا في العلو: بأن الله ليس فوق عرشه، وليس فوق عباده. وفسّر ذلك بأن يونس في وسط البحر، ومحمدًا فوق السمٰوات السبع، وكلاهما بالنسبة إلى الله سواءٌ، يعني كلاهما بالقرب منه، سواء الذي في لُجّة البحر، والذي فوق سبع سمٰوات، واستدل الجويني بهذا على أن الرب ـ سبحانه وتعالى ـ ليس فوق العرش، ولا فوق السمٰوات، يعني: أن الله في كل مكان ـ تعالى الله عن قولهم ـ فرد عليه الشارح وبيّن أن هذه مقالة شنيعة؛ فالحديث لم يثبت بهذا اللفظ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُس بن مَتَّى»، وإنما الذي ثبت قوله ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

وسبب الحديث: أنّه قد يقول رجلٌ: أنا خير من يونس؛ لأن يونس ذهب مغاضبًا، وظن أن الله لن يقدر عليه، ويونس نبذ بالعراء وهو مذموم، فالتقمه الحوت وهو مليم، فأنا خيرٌ منه؛ لأني ما فعلت هذه الأفعال، فقد يقول ذلك بعض الناس، فنهاهم وقال: لا تقولوا ذلك، فإن يونس نبي من أنبياء الله، أجرى الله تعالى له هذه الآيات والمعجزات، حيث التقمه الحوت، ولبث في

بطنه مدة، ولم يمت في بطنه، وكذلك أمر الله الحوت أن يخرجه وينبذه على ساحل البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وأرسله إلى قومه، وهم مئة ألف أو يزيدون، فآمنوا، وكل هذه فضائل له، مع أنه قد اعترف بالظلم في قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، نقول: هذا الظلم لا ينقِّصه، بل نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد اعترف بالظلم، وكذلك أبوه آدم ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فلا ينبغي أن يغتر بمثل هذه اللفظة المنقولة عن هذا الرجل الذي قال: في هذا الحديث دليل على أن الله ليس فوق العرش. وأبى أن يفسِّره حتى يجمعوا له مالًا كثيرًا، فجمعوا له أموالًا وأعطوه إياها، فلما فسره لهم أعجبوا بذلك غاية الإعجاب، وهو تفسير بعيد عن الصواب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَحَبِيبُ رَبِّ العَالَمِينَ.

---

قال الشارح:

ثَبَتَ لَهُ ﷺ أَعْلَى مَرَاتِبِ المَحَبَّةِ، وَهِيَ الخُلَّةُ، كَمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»(١)، وَقَالَ: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ»(٢). وَالحَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحِ، وَهُمَا يُبْطِلَانِ قَوْلَ مَنْ قَالَ: الخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَالمَحَبَّةُ لِمُحَمَّدٍ، فَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ، وَمُحَمَّدٌ حَبِيبُهُ. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ»(٣). وَالمَحَبَّةُ قَدْ ثَبَتَتْ لِغَيْرِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فَبَطَلَ قَوْلُ مَنْ خَصَّ الخُلَّةَ بِإِبْرَاهِيمَ وَالمَحَبَّةَ بِمُحَمَّدٍ، بَلِ الخُلَّةُ خَاصَّةٌ بِهِمَا،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) بنحوه، من حديث ابن مسعود ﷺ، وأخرجه البخاري (٤٦٧) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - دون قوله: «وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ».

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب ﷺ.

وَالمَحَبَّةُ عَامَّةٌ. وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1] الَّذِي فِيهِ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ»، لَمْ يَثْبُتْ.

---

قال الشيخ:

هذا مشتهر عند غلاة الصوفية أن المحبة أعلى من الخلة، وأنها أعلى الصفات، ولأجل ذلك يبالغُ أهلُ السلوك وأهل التصوف في وصف المحبة وفي آثار المحبة ونحو ذلك ولهم فيها وفي تعريفها أقوال.

وقد بحث معهم ابن القيم ـ رحمه الله ـ في بعض كتبه في تعريف المحبة، كما في كتابه الذي كتبه في المحبة، وأسماه «روضة المحبين»، وكذلك في كتابه الذي أسماه «مدارج السالكين» عند باب المحبة، وهكذا في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين»، فإنه تكلم في هذه الكتب على المحبة، ونقل عن أهل السلوك وأهل التعبد وأهل التصوف تعريفات لها، حتى وصل إلى ثلاثين تعريفًا، وانتهى إلى أن قال: إن المحبة كاسمها، لا تحتاج إلى تعريف، ولا تزيدها التعريفات إلا غموضًا، فالمحبة كلمة محبوبة، كلمة لذيذة، كلمة معروفة عند السامع، لا تحتاج إلى تفسير. ولا شك أن صفة المحبة تثبت بين المؤمنين وفي حق المؤمنين لربهم، ومن الله لهم، ومن بعضهم لبعض، فثبت قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ

---

(١) برقم (٣٦٢٠) وقال: «هذا حديث غريب».

إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[١].

وفي حقوق المسلم لأخيه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وفي قوله ـ عليه الصلاة والسلام: «لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٢]، فهذه المحبة من المؤمن لأخيه، ولكن لها آثار، فإذا أحببت أخاك كان من آثار ذلك أن توده، وأن تقترب منه، وأن تدله على خير ما تعلم، وتحذره من شر ما تعلمه. هذه آثار المحبة، فمن كان صادقًا فإنها تظهر عليه آثارها.

وأما محبة الله تعالى لعباده فهي المحبة المطلوبة، يقول الله سبحانه في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[٣]، وكذلك الآيات التي أوردها الشارح فيها إثبات أن الله يحب من هذه صفته، ومثلها كثير كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف:٤]، وقوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، وأشباه ذلك كثير، مما يدل على أن الله تعالى يحب عباده المؤمنين، الذين هذه صفاتهم، وآثار محبته لهم أنه يوفقهم ويسددهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إذًا فكل المؤمنين يحبون الله تعالى، والرسول ﷺ أخبر بأن الله تعالى يحب أناسًا بأعيانهم، ومن ذلك قوله في علي ﷺ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ على يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**»[1]، فأعطاها عليًّا ﷺ.

ولا شك أن المؤمنين كلهم يعرفون أنهم يحبون الله حبًا شديدًا، وأن أسباب محبتهم له أنه أعطاهم وخوّلهم وأنعم عليهم وهداهم، وأنه هو ربهم ومالكهم وسيدهم والمتصرف فيهم، وأنه المستحق لأن يعبد، ويُصلى له ويسجد، وأنه الذي بيده الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وهو الذي يثيب ويعاقب. فكانت هذه الأسباب دافعة للمؤمن أن يحب ربه.

وقد ذكرنا أن للمحبة آثارًا، لكن البعض من الناس يقولون: إنهم يحبون الرسول، ويحبون الله، وهناك آية تفضحهم تسمى آية المحنة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهكذا قول الشاعر[2]:

تَعْصِي الْإِلَـٰهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَـٰذَا عَجِيبٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٢) أخرج البيتين ـ الأول والثاني ـ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٩) ونسبهما إلى عبدالله ابن المبارك، ونسبهما البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٨٦) لأبي العتاهية. وأورد الأبيات الثلاثة ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٧٩) ونسبها إلى الإمام الشافعي.

فِي كُـلِّ يَـوْمٍ يَبْتَـدِيكَ بِنِعْمَـةٍ مِنْـهُ وَأَنْـتَ لِـشُكْرِ ذَاكَ مُـضِيعُ

إذًا المحبة ليست خاصة بالأنبياء، بل الله يحب المؤمنين والمتقين، ولا يحب فقط محمدًا أو نبيًا من الأنبياء، بل يحب عباده كلهم إذا كانوا صالحين، مصلحين، محسنين، مؤمنين، تائبين، قانتين، مطيعين له، متطهرين، مقاتلين في سبيله، ومتصفين بغير ذلك من الصفات التي رتب المحبة عليها.

وأما الخلَّة، فهي أعلى أنواع المحبة، يقول الشاعر[1]:

قَدْ تَـخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِـذَا سُـمِّيَ الْـخَلِيلُ خَلِـيلَا

وقد أثبت الله تعالى الخلة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، وجاء في الحديث الذي أورده الشارح في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»، فالخليلان هما: نبينا محمد وأبو الأنبياء إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. فهذه الخلة ـ التي هي أعلى أنواع المحبة ـ قد تُطلق فيما بين الآدمين كما حكى الله تعالى عن قول بعض الكفار وهو في النار: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨]، يعني: محبًا محبة قوية، وكذلك أخبر عن أهل المحبة الدنيوية فسماهم أخلاء، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وعلى هذا، فالخلّة أعلى أنواع المحبة، وقد ثبتت من الله تعالى لإبراهيم

---

(١) هو بشار بن برد، انظر ديوانه (ص٩٧٩).

عليه السلام، ثم لمحمد ﷺ، فهما الخليلان.

فمن يقول: إن محمدًا حبيب الله، وإن إبراهيم خليل الله، وإن المحبة أعلى من الخلة، فقد أخطأ، بل الخلة أعلى من المحبة، فهي أعلى صفاتها، وإبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ كلاهما خليل الله تعالى، وبقية المؤمنين والمتقين أحباء لله تعالى، الذين يحبهم ويحبونه.

قال الشارح:

وَالمَحَبَّةُ مَرَاتِبُ:

أَوَّلُها: الْعَلَاقَةُ، وَهِيَ تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالمَحْبُوبِ.

وَالثَّانِيَةُ: الْإِرَادَةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَى مَحْبُوبِهِ وَطَلَبُهُ لَهُ.

الثَّالِثَةُ: الصَّبَابَةُ، وَهِيَ انْصِبَابُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُهُ صَاحِبُهُ، كَانْصِبَابِ المَاءِ فِي الْحُدُورِ.

الرَّابِعَةُ: الْغَرَامُ، وَهِيَ الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، وَمِنْهُ الْغَرِيمُ، لِمُلَازَمَتِهِ، وَمِنْهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥].

الخَامِسَةُ: المَوَدَّةُ، وَالْوُدُّ، وَهِيَ صَفْوُ المَحَبَّةِ وَخَالِصُهَا وَلُبُّهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦].

السَّادِسَةُ: الشَّغَفُ، وَهِيَ وُصُولُ المَحَبَّةِ إِلَى شَغَافِ الْقَلْبِ.

السَّابِعَةُ: الْعِشْقُ: وَهُوَ الْحُبُّ المُفْرِطُ الَّذِي يُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْهُ، وَلَكِنْ لَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ تَعَالَى، وَلَا الْعَبْدُ فِي مَحَبَّةِ رَبِّهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَطْلَقَهُ بَعْضُهُمْ. وَاخْتُلِفَ فِي سَبَبِ المَنْعِ، فَقِيلَ: عَدَمُ التَّوْقِيفِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. وَلَعَلَّ امْتِنَاعَ إِطْلَاقِهِ: أَنَّ الْعِشْقَ مَحَبَّةٌ مَعَ شَهْوَةٍ.

الثَّامِنَةُ: التَّيْمُ، وَهُوَ بِمَعْنَى التَّعَبُّدِ.

التَّاسِعَةُ: التَّعَبُّدُ.

الْعَاشِرَةُ: الْخُلَّةُ، وَهِيَ المَحَبَّةُ الَّتِي تَخَلَّلَتْ رُوحَ المُحِبِّ وَقَلْبَهُ. وَقِيلَ فِي

تَرْتِيبِهَا غَيْرُ ذَلِكَ، وَهَذَا التَّرْتِيبُ تَقْرِيبٌ حَسَنٌ، يُعْرَفُ حُسْنُهُ بِالتَّأَمُّلِ فِي مَعَانِيهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ وَصْفَ اللَّهِ تَعَالَى بِالمَحَبَّةِ وَالخُلَّةِ هُوَ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ بِالْإِرَادَةِ وَالْوُدِّ وَالمَحَبَّةِ وَالخُلَّةِ، حَسْبَمَا وَرَدَ النَّصُّ.

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَحْدِيدِ المَحَبَّةِ عَلَى أَقْوَالٍ، نَحْوَ ثَلَاثِينَ قَوْلًا، وَلَا تُحَدُّ المَحَبَّةُ بِحَدٍّ أَوْضَحَ مِنْهَا، فَالْحُدُودُ لَا تَزِيدُهَا إِلَّا خَفَاءً، وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْوَاضِحَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَحْدِيدٍ، كَالمَاءِ وَالهَوَاءِ وَالتُّرَابِ وَالجُوعِ وَالشَّبَعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

هذا من جملة كلام أهل السلوك الذين يتكلمون في العبادات القلبية، وقد ذكرنا أن ابن القيم ـ رحمه الله ـ قد أشار إلى ذلك في كتابه «روضة المحبين»، وفي «طريق الهجرتين»، وفي «مدارج السالكين»، وذكر تعريفات للمحبة، وذكر أيضًا ترتيب أنواع المحبة أو أقسامها.

فهذه الأقسام العشرة ـ التي أولها: العلاقة وآخرها الخلة ـ قد جعل هو وغيره ترتيبها تقريبيًا، ومنهم من قدم بعضها على بعض، ولا شك أنها أسماء لأنواع من المحبة، منها ما يكثر استعماله، ومنها ما لا يكثر، ومنها ما لا يجوز إطلاقه على الله تعالى كالعشق، والصحيح ـ في سبب عدم جواز إطلاقه ـ ما علّله به الشارح من أنه محبةٌ مع شهوةٍ، وأن الله تعالى يُوصفُ بالمحبة والخلّة والإرادة والمودة، يُوصف بهذه الأربعة من العشرة، أما البقية فلم ترد، فلا يجوزُ

أن تستعمل في حق الله تعالى، فالصبابة ـ مثلًا ـ والعلاقة والعشق وما أشبهها، هذه مستعملة اصطلاحيًا في أنواع من المحبة.

ولا شك أن المحبة أمرٌ قلبي يجده الإنسان من قلبه، حيث يميل إلى المحبوب بعض الميل، ويؤثر محبوبه على نفسه أو يواسيه، ويكون له من الأثر ذلك الميل، وهناك بعض الأسباب التي استدعت ذلك، وقد تكون أسبابًا ظاهرة كالإحسان، ونحو ذلك، فإن القلوب تألف وتحب من أحسن إليها، والله تعالى هو الذي أحسن إلى عباده، وهو الذي خوّلهم وأعطاهم، فإذا أحبوه كان سبب المحبة هو الإحسان، كما أنك تحب من أحسن إليك، وقد تكون المحبة لأسباب قاصرة غير متعدية كما تحب إنسانًا لصلاحه وإن لم ينلك منه نفع دنيوي، ولكن رأيته صالحًا وتقيًا وزاهدًا وورعًا وعابدًا فأحببته لذلك، وجعلت محبتك له عبادة، تؤمل الثواب عليها؛ حيث إنه يحب الله وأنت تحبه.

فهكذا أيضًا محبتنا لربنا، لا شك أن أعظم أسبابها كونه الذي يملك العباد، والذي يتصرف فيهم، فهذه من أسباب محبتهم له، وأنه هو الذي وعد من أحبه بالثواب، ومن لم يفعل ذلك توعده بالعقاب، فكان هو أهل المحبة وأهل المودة، الذي تحبه القلوب، ويكون لها آثارٌ كما سبقت الإشارة إليه، وأن الذي يحب الله تعالى يطيعه ويعبده، وتظهر آثار ذلك على البدن في كثرة العبادة ونحوها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَكُلُّ دَعْوَى نُبُوَّةٍ بَعْدَهُ فَغَيٌّ وَهَوَى.

---

قال الشارح:

لَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، عُلِمَ أَنَّ مَنِ ادَّعَى بَعْدَهُ النُّبُوَّةَ فَهُوَ كَاذِبٌ، وَلَا يُقَالُ: فَلَوْ جَاءَ الْمُدَّعِي لِلنُّبُوَّةِ بِالْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْبَرَاهِينِ الصَّادِقَةِ كَيْفَ يُقَالُ بِتَكْذِيبِهِ؟ لِأَنَّا نَقُولُ: هَذَا لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُوجَدَ، وَهُوَ مِنْ بَابِ فَرْضِ الْمُحَالِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَأْتِيَ مُدَّعٍ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ وَلَا يُظْهِرُ إِمَارَةَ كَذِبِهِ فِي دَعْوَاهُ. وَالْغَيُّ: ضِدُّ الرَّشَادِ. وَالْهَوَى: عِبَارَةٌ عَنْ شَهْوَةِ النَّفْسِ. أَيْ: أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَى بِسَبَبِ هَوَى النَّفْسِ، لَا عَنْ دَلِيلٍ، فَتَكُونُ بَاطِلَةً.

---

قال الشيخ:

تقدم أنه ﷺ خاتم النبيين، يعني: آخرهم، وبهذا نعرف أنّ كل من ادعى أنه نبي فدعواه غيٌّ، يعني: ضد الرشد، أي: خطأٌ وباطلٌ وضلال وبعيد عن الصواب والصدق، من ادّعى أنه نبيٌّ. فإنه كاذب، ولو موّه على الناس، ولو أتى بمخارق، ولو أتى بما عجز عنه الناس ظاهرًا، ولو فعل ما يفعله السحرة والمشعوذون ونحوهم، وادّعى أنه ينزل عليه الوحي. فنقول: هذه التي أنت تراها هي الشياطين، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١]،

فالشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، وقد تخدع العبد وتصور له أنها من الله، وأن ما تجيء به حق، وأنه نبيٌّ، فيخيل إليه أنه ينزل عليه الوحي كما ينزل على الأنبياء.

وقد وقع مثل ذلك لمن تنزلت عليهم الشياطين، فرُوي أن رجلًا قال لعبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إن المختار يزعم أنه ينزل عليه جبريل، فقال: «صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١]»[1]، يعني: الذي نزل عليه شيطان. هذا مع أنه صهره، فأخت المختار زوجة عبدالله، وهي صفية بنت أبي عبيد، هذا مثال في أن الشياطين تنزل على بعض الناس، وتخدعهم بأنها من الله، وأنها وحيٌ، وأن ما تأتي به حق.

وقد مرّ بنا قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[2]، وأنَّ بعض العلماء ذكروا الذين خرجوا منهم فبلغوا سبعة وعشرين، وأن من آخرهم الكذاب الذي خرج في بعض البلاد الهندية وسمى نفسه غلام أحمد القادياني، وتبعه وصدقه وانخدع به خلقٌ كثير، وادّعى أنه نبي. وخلق كثير قبله وصلوا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٣٣): «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) تقدم تخريجه (ص٦١١).

إلى هذا العدد، والبقية لا بدّ أن يأتوا كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وآخرهم الدجال الكذاب الذي يدّعي أنه ربٌّ، ويأتي بشعوذة ومخرقة يجريها الله تعالى على يديه، فتنة للناس، إلا من ثبته الله تعالى وعرّفه بالحق.

وعلى هذا نقول: لو أتى بما سيأتى به الدجال، كما في حديث النواس بن سمعان ﷺ: «**فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عليهم سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ ما كانت ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عليه قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيس بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ من أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُول لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ**»، والنحل له يعسوب - وهو كبيره ورئيسه الذي إذا صاح بالنحل تبعته - يقول: تتبعه كما يتبعُ النحلُ يعسوبها. وهذا من الفتنة، «**ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ**»[1]، فهو يقتل الرجل قطعتين ثم يقول له: قم. فيقوم، ولكن مع ذلك لا يزيده إلا بصيرةً ومعرفة بأنه الدجال الكذاب.

فبهذا نعرف أنه قد يجري على أيدى بعض الدجالين شيءٌ من الشعوذة، وأن ذلك من الشيطان، فالشيطان يموِّه على الأعين حتى يُرِيَ بعض الناس أشياء شبه خارقة للعادة، أو تشبه معجزات الأنبياء، فما يفعله بعض السحرة

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

من كونهم مثلًا قد يجرون السَّيارة مثلًا بشعرة من الشعر، أو يقف تحت السيارة ويحملها بيده أمام الناس والناس ينظرون، أو تمرّ السيارة عليه بعجلاتها ولا تضره، لا شك أن هذا شعوذة على أعين الناظرين، ولا عبرة لمن أقرّ ذلك.

وقد حدث مثل ذلك في عهد الصحابة، فقد روي أن ساحرًا عند بعض ملوك بني أمية كان يموِّه على الحاضرين، فيقطع رأس الإنسان ثم يعيده، فعمد أحد الصحابة ـ وهو جندب الخير ﷺ ـ إلى سيفه واحتضنه وقرّب من ذلك الساحر، فلما وصل إليه ضربه بالسيف حتى قطع رأسه، وقال له أَحْيِ نفسَك إن كنت صادقًا، ثم قال: قال النبي ﷺ: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**»[1]، فهذا جزاؤه حيث موّه على الأعين، ولَـمَّا استعاذ ذلك الصحابي من الشيطان، وتحصّن بأسماء الله تعالى لم يرد عليه فعل ذلك المشعوذ، ولم يخطر بمعرفته ولم يكتشفه، فهذا مثال أن ما يظهر على أيدي بعضهم من الشعوذة والمخرقة ومن التمويه على الناس، إنما هو من الشياطين التي تظهر أمام الناظرين في صور مختلفة، حتى توهم بأشياء خارجة عن قدرة البشر، ولا حقيقة لها.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والدارقطني (٣/ ١١٤) والحاكم (٤/ ٣٦٠)، والبيهقي (٦/ ١٣٨)، قال الترمذي: «وَالصَّحِيحُ عن جُنْدَبٍ مَوْقُوفٌ، وَالْعَمَلُ على هذا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ من أَصْحَابِ النبي ﷺ وَغَيْرِهِمْ». وقصة قتل الساحر أخرجها عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ١٨١)، وذكرها ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٤٤٦)، وابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٥١٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى، بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ.

---

قال الشارح:

أَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ الْجِنِّ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]، وَكَذَا سُورَةُ الْجِنِّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. قَالَ مُقَاتِلٌ: «لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ رَسُولًا إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَبْلَهُ»(١). وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ، وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رَسُولٌ، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنَ الْجِنِّ نُذُرٌ(٣). وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٠]، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ(٤) عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ: أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الْجِنِّ رُسُلًا،

---

(١) انظر: تفسير مقاتل (٣/ ٢٣٠)، وذكره البغوي في تفسيره (٤/ ١٧٥).

(٢) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٣/ ٢١٦)، وتفسير البغوي (٢/ ١٣١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٨).

(٤) في تفسيره (٨/ ٣٦).

وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَفِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهَا مُحْتَمِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ، وَهِيَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[الرحمن:٢٢]، وَالْمُرَادُ: مِنْ أَحَدِهِمَا.

وَأَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى كَافَّةِ الْوَرَى، فَقَدْ قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، أَيْ: وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الْآيَةَ [يونس:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران:٢٠].

وَقَالَ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٣).

وَقَالَ ﷺ: «لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1]. وَكَوْنُهُ ﷺ مَبْعُوثًا إِلَى النَّاسِ كَافَّةً مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ النَّصَارَى: إِنَّهُ رَسُولٌ إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً، فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا صَدَّقُوا بِالرِّسَالَةِ لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَقَدْ قَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَالرَّسُولُ لَا يَكْذِبُ، فَلَزِمَ تَصْدِيقُهُ حَتْمًا، فَقَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَبَثَّ كُتُبَهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ وَالْمُقَوْقِسِ، وَسَائِرِ مُلُوكِ الْأَطْرَافِ، يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ.

---

قال الشيخ:

في هذا أنه ﷺ أرسل إلى الجن والإنس، ورسالته إلى الجن واضحة من الأدلة، وقد ثبت في الحديث أنه ﷺ ذهب مرة إلى الجن، وقرأ عليهم سورة الرحمن، فكان كلما مرّ بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]، قالوا: «لَا بِشَيْءٍ من نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ»[2]. وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي

---

(١) برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٨٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أو اغْتِيلَ، قال: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بها قَوْمٌ، فلما أَصْبَحْنَا إذا هو جَاءٍ من قِبَلَ حِرَاءٍ، قال: فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فلم نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بها قَوْمٌ، فقال: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ معه، فَقَرَأْتُ عليهم الْقُرْآنَ»، قال: فَانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فقال: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عليه، يَقَعُ في أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ ما يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ»، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ»[1].

وثبت في الصحيحين[2] من حديث ابن عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: «انْطَلَقَ النبي ﷺ في طَائِفَةٍ من أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إلى سُوقِ عُكَاظٍ، وقد حِيلَ بين الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُبُ، فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إلى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: ما لكم؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قالوا: ما حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إلا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا ما هذا الذي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نحو تِهَامَةَ إلى النبي ﷺ وهو بِنَخْلَةَ، عَامِدِينَ إلى سُوقِ عُكَاظٍ، وهو يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فلما سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا له، فَقَالُوا: هذا والله الذي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حين

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).

رَجَعُوا إلى قَوْمِهِمْ، فقالوا: يا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١، ٢]، فَأَنْزَلَ الله على نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إليه قَوْلُ الْجِنِّ».

ولا شك أن كل ذلك دالٌّ على أنه ﷺ بُعث إليهم، والأنبياء الذين قبله والرسل كانوا يبعثون إليهم، وليس في الجن رسل إنما هم نذر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فليس في الجن رسل، وإنما فيهم نُذُرٌ يأخذون العلم والرسالة عن الرسل من الإنس فينذرون قومهم، وقد ذكر في سورة الجن أن فيهم أخيارًا وأشرارًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن:١١]، وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَٰسِطُونَ﴾، يعني: الجائرون، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا الْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[الجن:١٤، ١٥]، فهذا دليل على أن فيهم من الأشقياء والسعداء، والمقربين والمبعدين، والمؤمنين وغير المؤمنين.

وبلا شك أن الرسالة التي بلغها النبي ﷺ فيها أحكام تناسبهم، من كيفية صيامهم وصلاتهم وتناكحهم وغير ذلك من أحكام تخصهم، وهي واضحة فيما بينهم.

أما رسالته ﷺ إلى الإنس فلا شك أنه مرسل إليهم، وأن رسالته عامة وليست خاصة إلى قومه قريش ولا إلى العرب، ولا إلى أهل جزيرة من الجزر،

بل عامَّة إلى كل من على وجه الأرض ممن بلغته دعوته من الإنس، وقد دلّ على ذلك النصوصُ التي فيها خطاب الناس جميعًا، فإن قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١]، الناس: عام لكل إنسيّ، وكذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾ [النساء:١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج:١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات:١٣]، الخطابات بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، تدل على أنه مأمور بأن يبلغ الناس كلهم ما أُنزل إليه، وهكذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، يخاطب الناس كلهم، ويقول: بأنه رسول الله إليكم جميعًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨]، أي: للناس كلهم، وهكذا الآيات التي ذكرها الشارح، كقوله تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]، وقوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]، والعالمون: كلُّ من على وجه الأرض من الخلق من الذين لهم معرفة ولهم إدراك، وهم جنس بني آدم.

والدليل على ذلك أيضًا فعله، وهو أنه ﷺ لم يخص رسالته بقومه ولا بالعربي ولا بأهل الجزيرة.

فإذًا ليست رسالته خاصة بالعرب كما يقول النصارى، فهم لما رأوا

معجزاته، ولما رأوا أنه انتصر وظهر دينه، وتأيّد وتمكن، وعلا على الأديان كلها، وتحقق قول الله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، بُهتوا، ولم يجدوا بدًّا من تصديقه، ولكنهم قالوا: هو رسول وهو صادق، ولكن ليس رسولًا إلينا، إنما هو رسول إلى العرب.

والجواب: كذبتم، لو كان رسولًا إلى العرب لما دعا غيرهم، كيف يقول: إني رسول إلى الناس جميعًا، وهو رسول إلى العرب خاصة؟ فالرسول لا يكذب، ولا يرسل الله كذابًا، أنتم الذين كذبتموه، وزعمتم أنه قال: إني رسول الله إلى الناس جميعًا مع أنه ليس رسولًا إلَّا إلى العرب، فإذا صدقتموه فصدِّقوه في كل شيء، لاتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض، لا تصدقوه ببعض قوله دون بعض.

ثم ذكر الشارح أنه ﷺ كان يبعث كتبه إلى ملوك زمانه، فبعث إلى النجاشي ملك الحبشة التي تُعرف الآن بأثيوبيا، وبعث إلى المقوقس وهو ملك مصر، وكان مُلكه يمتد إلى بعض الدول الأفريقية، ومع ذلك كانوا نصارى أيضًا، وبعث إلى هرقل ملك الروم، وكان في دمشق الشام، وكان يملك الشام وتركيا وما وراءهما، وبعث إلى كسرى ملك الفرس، وكان الفرس إذ ذاك مجوسًا، ويملك العراق وبلاد فارس كلها، وما اتصل بها من وراء النهر، يعني: بلاد المشرق كلها. بعث إليهم جميعًا يدعوهم إلى الإسلام، فدل على أنه مبعوثٌ

إلى كل الناس، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ»[1]، يعني: بُعثت إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم. والأحاديث في ذلك كثيرةٌ كما تقدم جانبٌ منها.

فعلى هذا تكون رسالته ﷺ عامة؛ لأنه خاتم الأنبياء، وإذا كان خاتم الأنبياء، لزم أن يكون مرسلًا إلى الناس كلهم؛ لأنه ليس بعده نبيٌّ، فلا يليق أن تُهمل الأمم الأخرى والدول النائية التي في أطراف البلاد، لا يأتيها رسول من الله يبين لها شرائعه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

قال الشارح:

قَوْلُهُ: (وَكَافَّةِ الْوَرَى)، فِي جَرِّ (كَافَّةِ) نَظَرٌ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: لَمْ تُسْتَعْمَلْ كَافَّةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا حَالًا، وَاخْتَلَفُوا فِي إِعْرَابِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ:٢٨]، عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا حَالٌ مِنَ الْكَافِ فِي أَرْسَلْنَاكَ، وَهِيَ اسْمُ فَاعِلٍ، وَالتَّاءُ فِيهَا لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ: إِلَّا كَافًّا لِلنَّاسِ عَنِ الْبَاطِلِ.

وَقِيلَ: هِيَ مَصْدَرُ (كَفَّ)، فَهِيَ بِمَعْنَى كَفًّا، أَيْ: إِلَّا أَنْ تَكُفَّ النَّاسَ كَفًّا، وَوُقُوعُ الْمَصْدَرِ حَالًا كَثِيرٌ.

الثَّانِي: أَنَّهَا حَالٌ مِنَ (النَّاسِ)، وَاعْتُرِضَ بِأَنَّ حَالَ الْمَجْرُورِ لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَأُجِيبَ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ كَثِيرًا فَوَجَبَ قَبُولُهُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَيْ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا لِلنَّاسِ كَافَّةً.

الثَّالِثُ: أَنَّهَا صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: إِرْسَالَةً كَافَّةً. وَاعْتُرِضَ بِمَا تَقَدَّمَ أَنَّهَا لَمْ تُسْتَعْمَلْ إِلَّا حَالًا.

وَقَوْلُهُ: (بِالْحَقِّ وَالْهُدَى وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ)، هَذِهِ أَوْصَافُ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرْعِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَسَائِرِ الْأَدِلَّةِ. وَالضِّيَاءُ: أَكْمَلُ مِنَ النُّورِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس:٥].

قال الشيخ:

كلامه على قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾، قد بينه الرسول ﷺ بقوله: «وَبُعِثْتُ إلى الناس كَافَّةً»[1]، والمرادُ عامةً ـ فلا حاجة إلى تلك التقديرات، فكافة بمعنى عامة إلى كل الناس.

وأما كلامه على وصف رسالة النبي ﷺ أنه أرسل بالنور والهدى، لا شك أن هذا وصفٌ مطابق للشريعة التي جاء بها أنها مشتملة على الهدى، ومشتملة على الضياء وعلى النور، وعلى البيان وعلى الحق، وذلك الوصفُ الذي جعلها صالحةً لكل زمان ومكان، وصالحة لكل مخاطب ممن هو من المكلفين، فلا يصلح أن تكون الرسالة مؤقته، كما يقوله بعض أهل هذا الزمان: إن الشرائع إنما تناسب البدائيين، أو أنها تناسب أهل زمان محمدٍ الذي أنزلت عليه، ولا تناسب أهل هذا الزمان الذين تطوّروا وعرفوا، وفهموا وتعلموا كذا وكذا.

بل هذا كذب، فشريعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يمكن أن يدخلها تغيرٌ، ولا يمكن أن يكون فيها شيء من الخلل، وهي تصلح لتطبيقها في هذا الزمان، وفي الأزمنة التي قبله، وفي الأزمنة التي بعده.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

(١) تقدم تخريجه (ص٧٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأشرف على طبعه ونشره
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويان

الجزء الثاني

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويان

الجزء الثاني

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٣٦٢٩٤٥ - ٤٣٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١

المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام

ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢

المملكة العربية السعودية

فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (ابن عثيمين) يرحمه الله

هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ. فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرَ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦]، فَلَمَّا أَوْعَدَ اللَّهُ بِسَقَرَ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، عَلِمْنَا وَأَيْقَنَّا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ.

---

قال الشارح:

هَذِهِ قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ، وَأَصْلٌ كَبِيرٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، ضَلَّ فِيهِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ مِنَ النَّاسِ. وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هُوَ الْحَقُّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُمَا، وَشَهِدَتْ بِهِ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ الَّتِي لَمْ تُغَيَّرْ بِالشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالْآرَاءِ الْبَاطِلَةِ.

وَقَدْ افْتَرَقَ النَّاسُ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ عَلَى تِسْعَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ مَا يَفِيضُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ مَعَانِي، إِمَّا مِنَ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، وَهَذَا قَوْلُ الصَّابِئَةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ مَخْلُوقٌ خَلَقَهُ اللَّهُ مُنْفَصِلًا عَنْهُ، وَهَذَا قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِ اللَّهِ، هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْخَبَرُ

وَالِاسْتِخْبَارُ، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ قُرْآنًا، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهُ بِالْعِبْرِيَّةِ كَانَ تَوْرَاةً، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ، كَالْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ أَزَلِيَّةٌ مُجْتَمِعَةٌ فِي الْأَزَلِ، وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَمِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَخَامِسُهَا: أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ، لَكِنْ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا، وَهَذَا قَوْلُ الْكَرَّامِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَسَادِسُهَا: أَنَّ كَلَامَهُ يَرْجِعُ إِلَى مَا يُحْدِثُهُ مِنْ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ الْقَائِمِ بِذَاتِهِ، وَهَذَا يَقُولُهُ صَاحِبُ «الْمُعْتَبَرِ»[1]، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الرَّازِيُّ فِي «الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ».

وَسَابِعُهَا: أَنَّ كَلَامَهُ يَتَضَمَّنُ مَعْنًى قَائِمًا بِذَاتِهِ هُوَ مَا خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيِّ.

وَثَامِنُهَا: أَنَّهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ الْقَائِمِ بِالذَّاتِ وَبَيْنَ مَا يَخْلُقُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْمَعَالِي وَمَنْ تَبِعَهُ.

وَتَاسِعُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِهِ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ، وَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الصَّوْتُ الْمُعَيَّنُ قَدِيمًا، وَهَذَا الْمَأْثُورُ عَنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَوْلُ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ)، إِنَّ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ،

---

(١) هو: «المعتبر في الحكمة»، وصاحبه هو: أبو البركات بن ملكا الطبيب الفيلسوف. انظر: هدية العارفين أسماء المؤلفين (٦/ ٥٠٦).

عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ)، ثُمَّ قَالَ: (وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى). وَكَسْرُ هَمْزَةِ إِنَّ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ، لِأَنَّهَا مَعْمُولُ الْقَوْلِ، أَعْنِي قَوْلَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ).

---

قال الشيخ:

بدأ الشارح ـ رحمه الله ـ الكلام عن القرآن وأنه كلام الله، وسبب ذلك أن صفة كلام الله من أقدم المسائل التي أنكرتها المبتدعة، وكان أول من اشتهر بإنكار أن الله يتكلم، هو الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان، وقد قتله خالد القسري في يوم عيد الأضحى، حيث قال: «ضحّوا، تقبّل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا ولم يتخذ إبراهيم خليلًا»[1]، وأنكر الجهم وكذا شيخه الجعد أن يكون الله متكلمًا، وأن يكون القرآن كلام الله، وادّعى أن الكلام لا يحصل إلا من المخلوقين، وأن الكلام يحتاج إلى لهوات ونَفَس ولسان وشفتين وأسنان ولثة... ونحو ذلك، فادّعى أنّ ذلك لا يُتصوَّر إلا من المخلوق، وأنّ الخالق لا يمكن أن يتكلم، فلما أنكر أن الله تعالى متكلمٌ جيء بالقرآن، وقيل: هذا القرآن ماذا تقول فيه؟ أليس هو كلام الله؟ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨).

وكما سماه قولًا، بقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، وكما ينسب القول إليه بقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ [المائدة:١١٦]، ونحو ذلك من النصوص التي فيها إثبات أن الله قال، وأن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وأنه كلّم موسى تكليمًا، وأن هذا القرآن كلام الله في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وأن كلمات الله قديمة النوع. حادثة الآحاد، وأنها لا نهاية لها، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩]، وكما في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وغير ذلك من النصوص الكثيرة، فلما جيء بهذه النصوص تحيَّر ماذا يقول، فلم يجد بدًّا من أن يقول: إن القرآن مخلوق، وإن الله خلقه كما خلق الإنسان والأجرام والكواكب والحيوانات والنباتات، وأنكر أن يكون كلام الله تعالى، وسيأتي مناقشة قوله وما استدل به، وبيان ضعف تلك الأدلة.

ولما تكلم الجعد ثم الجهم، ثم تلميذهما بشر المرِّيسي، ثم غيرهم من المبتدعة، كانوا في أول الأمر ضعفاء مقهورين، لا يُلتفت إلى قولهم، ولا أحد ينخدع بهم، ولكن حدث في خلافة المأمون أنه قرّب بعضهم فزينوا له مذهبهم، وبينوا لهم أنهم أولى بالصواب، وأن القرآن مخلوق، ودَعَوْه إلى أن يمتحن الناس بذلك، فأطاعهم الخليفة المأمون ووافقهم، وحصلت بذلك فتنٌ عظيمة وامتُحن فيها أئمة الإسلام، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو

الذي صمد أمام الفتنة وصبر، وأوذي في ذات الله، ومات المأمون قبل أن يُؤتى بالإمام أحمد وتولَّى بعده أخوه المعتصم، وهو الذي تولَّى ضرب الإمام أحمد، فأمر بضربه بين يديه، وأطال حبسه ولم يزل على ذلك إلى أن تُوفي المعتصم، وتولى بعده ولده الواثق، فخفّت الفتنة في زمنه، ولكن لم يزل على عقيدة أبيه فيما يظهر، ثم بعده تولى ولده المتوكِّل، وهو الذي نصر السنه وقرّب أهلها وأبعد المبتدعة.

والحاصل: أن مسألة القرآن والقول فيه قديمة، حدثت في أول القرن الثاني، ثم استفحلت في أول القرن الثالث، وتمكَّنت وكثر الخوض في مسألة القرآن وما هو، وكذلك في مسألة كلام الله تعالى وكيف يتكلم، وتشعَّبت المذاهب ـ كما ذكر الشارح ـ إلى تسعة أقوال، كلها فيما يتعلق بالقرآن. والصواب منها هو القول التاسع الأخير الذي هو قول أهل السنة، وهو: إثبات أن الله تعالى تكلم ويتكلم إذا شاء، وأن كلامه قديم النوع، حادث الآحاد، وأن كلامه يُسمع؛ يسمعه من يشاء من خلقه، كما أسمعه موسى لَـمَّا ناداه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء:١٠]، والنداء لابدَّ أن يكون مسموعًا، وكما ناجاه في قوله: ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:٥٢]، ولابدَّ أنه سمع مناجاة ربه، وهكذا أيضًا كلم نبينا ﷺ لَـمَّا أُسري به وأوحى إليه منه إليه، وهكذا.

فإذًا يعتقد المسلمون بأن كلام الله قديم النوع، حادث الآحاد، وأن هذا القرآن هو كلام الله حقًّا؛ حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني

ولا المعاني دون الحروف، بل كلها كلام الله تعالى كما شاء. ويعتقدون أيضًا بأنه لم يزل متكلمًا، وما ذاك إلا أن الكلام صفة كمال، وتركها أو فقدها صفة نقص، ويلزم من فقدها أو نفيها نفي التشريع؛ إذ لو كان الله تعالى غير متكلم، فمن أين يُعرف أنه أمر أو نهي، ومن أين يُعرف أنه يحب هذا ويبغض هذا، ومن أين يُعرف أنه أنزل هذا أو لم ينزله؟ فلا بد أنه متكلم. وكل عاقل يثبت صفة الكلام لله تعالى؛ لأنه موصوف بصفات الكمال، ومنزَّه عن صفات النقائص والعيوب.

وأما قول غلاة الصابئة والفلاسفة ونحوهم: إنه ما يفيض من العقل الفياض، والعقل الفياض عندهم كأنه الخالق، وما يقع في النفوس أو تتحرك به العقول يسمُّونه فيضًا من العقل الفيّاض، فعندهم - على هذا - كل شيء في الوجود فهو من قول الله ومن كلامه، ولذا طبَّق ذلك أهل الاتحاد، حيث يقول قائلهم[1]:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ ... سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

وهذا من أمحل المحال وأبطل الباطل؛ لأنه يلزم منه أن يكون كلام الكفار كلام الله، وكلام الإلحاد والكفر والزندقة والنفاق ونحو ذلك - عند هؤلاء - أنه كلام الله.

---

(١) هو ابن عربي صاحب الفصوص، ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٧٢)، وفي الرد على البكري (ص٢١٣)، وسيذكره ابن أبي العز في شرحه قريبًا.

وأما قول المعتزلة: إنه مخلوق، وإن الله خلقه كما خلق البشر وكما خلق حركات البشر، فهذا قول باطل ستأتي مناقشته.

وأما قول ابن كُلَّاب ـ وكذلك الأشعريون ونحوهم ـ أنه معنًى واحدٌ قائمٌ بنفسه، إن عُبِّر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عُبِّر عنه بالعبرية كان توراة... إلخ، فهذا أيضًا قولٌ باطلٌ، وذلك لأنه يلزم منه أن تكون معنى التوراة هي معنى القرآن، ومعنى القرآن هو معنى الإنجيل، ليس بينهما فرقٌ، وهذا معلومٌ بطلانه؛ فإن في التوراة أحكامًا ومواعظ لم تَرِدْ في القرآن بلفظها، وكذلك في التوراة أشياء ليست في الإنجيل، وفي الإنجيل أشياء ليست في التوراة، فهذا دليل على بطلان هذا القول الذي يدّعون أنه معنًى واحدٌ قائم بذات الله تعالى.

وأما الأقوال الأخرى: الذين يدَّعون أنه حروف وأصوات أزلية ـ أي: قديمة ـ فمقتضى ذلك أن الله لا يتكلم الآن، وأنه تكلم في وقتٍ، ثم انقطع من الكلام ـ تعالى الله عن ذلك ـ وأشباه ذلك من الأقوال.

فالحاصل: أنّا نعتقد أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ وحيًا من الله، وتلاه المسلمون وقرؤوه وتعبدوا بتلاوته، وصدَّقوا بأنه قول الله، ليس قول البشر، نعتقد أن هذا هو كلامُ الله حقًّا، وليس كلام غيره، وسيأتينا ـ إن شاء الله ـ مناقشة أقوال المخالفين.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا)، رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ تَزْعُمُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ حِكَايَةُ قَوْلِهِمْ، قَالُوا: وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ، كَبَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ! وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ.

فَإِنَّ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَانٍ وَأَعْيَانٌ، فَإِضَافَةُ الْأَعْيَانِ إِلَى اللَّهِ لِلتَّشْرِيفِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لَهُ، كَبَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، بِخِلَافِ إِضَافَةِ الْمَعَانِي، كَعِلْمِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَجَلَالِهِ، وَكِبْرِيَائِهِ، وَكَلَامِهِ، وَحَيَاتِهِ، وَعُلُوِّهِ، وَقَهْرِهِ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنْ صِفَاتِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَخْلُوقًا.

وَالْوَصْفُ بِالتَّكَلُّمِ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَضِدُّهُ مِنْ أَوْصَافِ النَّقْصِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِمْ مِّنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٨]، فَكَانَ عُبَّادُ الْعِجْلِ - مَعَ كُفْرِهِمْ - أَعْرَفَ بِاللَّهِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا لِمُوسَى: وَرَبُّكَ لَا يَتَكَلَّمُ أَيْضًا. وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْعِجْلِ أَيْضًا: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه:٨٩]، فَعُلِمَ أَنَّ نَفْيَ رُجُوعِ الْقَوْلِ وَنَفْيَ التَّكَلُّمِ نَقْصٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عَدَمِ أُلُوهِيَّةِ الْعِجْلِ.

وَغَايَةُ شُبْهَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: يَلْزَمُ مِنْهُ التَّشْبِيهُ وَالتَّجْسِيمُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: إِذَا قُلْنَا أَنَّهُ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ انْتَفَتْ شُبْهَتُهُمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ:

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس:٦٥]، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ أَنَّهَا تَتَكَلَّمُ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ تَتَكَلَّمُ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١]، وَكَذَلِكَ تَسْبِيحُ الحَصَى(١) وَالطَّعَامِ(٢)، وَسَلَامُ الحَجَرِ(٣)، كُلُّ ذَلِكَ بِلَا فَمٍ يَخْرُجُ مِنْهُ الصَّوْتُ الصَّاعِدُ مِنَ الرِّئَةِ، المُعْتَمِدُ عَلَى مَقَاطِعِ الحُرُوفِ.

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بِقَوْلِهِ: (مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا)، أَيْ: ظَهَرَ مِنْهُ، وَلَا نَدْرِي كَيْفِيَّةَ تَكَلُّمِهِ بِهِ. وَأَكَّدَ هَذَا المَعْنَى بِقَوْلِهِ: (قَوْلًا)، أَتَى بِالمَصْدَرِ المُعَرَّفِ لِلْحَقِيقَةِ، كَمَا أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى التَّكْلِيمَ بِالمَصْدَرِ المُثْبِتِ النَّافِي لِلْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤]، فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟!

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ ـ أَحَدِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ ـ: أُرِيدُ أَنْ

---

(١) كما في حديث أبي ذر ﷺ، قال: «... فَتَنَاوَلَ النَّبِيُّ سَبْعَ حَصَيَاتٍ أَوْ تِسْعَ حَصَيَاتٍ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتَ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرَسْنَ». أخرجه البزار (٩/ ٤٣١)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٤٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٦٤).

(٢) كما في حديث ابن مسعود ﷺ، قال: «وَلَقَدْ كنا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ». أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٣) كما في حديث جَابِرِ بن سَمُرَةَ ﷺ، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «إني لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ قبل أَنْ أُبْعَثَ، إني لَأَعْرِفُهُ الْآنَ». أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

تَقْرَأَ: وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى، بِنَصْبِ اسْمِ اللَّهِ؛ لِيَكُونَ مُوسَى هُوَ الْمُتَكَلِّمَ لَا اللَّهُ! فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: هَبْ أَنِّي قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟! فَبُهِتَ الْمُعْتَزِلِيُّ!

---

قال الشيخ:

عرفنا أن صفة الكلام صفةُ شرفٍ وكمال، ونفيها صفةُ نقص، واستدل الشارح بقوله تعالى في حكاية قصة العجل الذي عبده أصحاب موسى. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ [الأعراف:١٤٨]، وقال في موضع آخر: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه:٨٩]، وَبَّخَهُم موسى وكذلك هارون ـ عليهما السلام ـ وقالا: كيف تعبدون من لا يتكلم؟ كيف تعبدون من لا يكلمكم؟ فلم يقولوا كما قالت المعتزلة، لو كان الله تعالى لا يتكلم لقال قوم موسى لموسى: وربُّك أيضًا لا يتكلم. ولكنهم أعقل من المعتزلة.

فعُرف بذلك أن صفة الكلام صفة كمال وشرف، وأنها ثابتة لله تعالى عن طريق التواتر؛ لكثرة الأدلة التي تبيّنها، والتي اتضحت دلالتها من تلك النصوص. وفي هذا أن المعتزلة الذين ادَّعوا أن الكلام مخلوقٌ، وأنه كسائر المخلوقات، خلقه كخلق الإنسان ونحوه، أنهم لم يعتبروا بالأدلة التي بين أيديهم، ولم ينظروا في هذه النصوص التي دلالتها واضحة.

وفي القصة التي أوردها الشارح عن ذلك المعتزلي الذي جاء إلى أبي عمرو ابن العلاء أحد القراء السبعة من أهل العراق، وقال له: اقرأ هذه الآية: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، بنصب لفظ الجلالة (الله)؛ ليكون موسى هو المكلِّم ولا يكون الله متكلِّمًا، ولكن أبا عمرو ـ رحمه الله ـ بيَّن له أن ذلك لا يفيدك، لو قرأنا أنا وأنت هذه الآية «وكلَّم اللهَ» لجاءتنا آية لا يمكن أن نحرِّفها، وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فإنها صريحة في أن الربَّ تعالى هو المكلِّم، ولهذا بهت ذلك المعتزلي، ولم يرد شيئًا.

وقد اشتهر أن جمعًا من المعتزلة، أوَّلوا التكليم هنا بأنه التجريح، فقالوا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، أي: جرّحه؛ لأن الكَلْم: الجرح، كما في قوله ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ»[1]، أي: ما من مجروح يوم القيامة إلا وجاء يوم القيامة وكَلْمُهُ يدمي. فادّعوا أن قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾، يعني: جرّحه بأظافر الحكمة، ولكن هذا القول باطل؛ فإن النصوص دالَّة على أنه هو الكلام المسموع؛ ولذا أثبت الله أنه ناداه في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء:١٠]، ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦]، وناجاه:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مسلم (١٨٧٦) بلفظ: «مَا مِنْ كَلْمٍ يُكلَمُ...».

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، والمناجاة والنداء لا يكونان إلا بكلام مسموع، فكيف يؤوّلون ذلك ويحرفونه تحريفًا لفظيًا أو معنويًا؟

وكذلك ثبت أن الله تعالى خاطب موسى منه إليه، وذكر خطابه في آيات؛ كقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[طه:٢٤]، وقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣، ٤٤]، وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، فالله تعالى خاطبه وأسمعه ذلك الخطاب، فلا بد أن يكون الخطاب بكلام مسموع، ولا يستطيع المعتزلة أن يحرِّفوا ذلك.

فالحاصل: أن تأويلاتهم وحرصهم على صرف الدلالات لا يفيدهم؛ لكثرة الأدلة.

قال الشارح:

وَكَمْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى تَكْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَغَيْرِهِمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، فَعَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَتَبْقَى بَرَكَتُهُ وَنُورُهُ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ[1] وَغَيْرُهُ[2].

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ، وَإِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ، وَإِثْبَاتُ الْعُلُوِّ، وَكَيْفَ يَصِحُّ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الرَّبِّ كُلُّهُ مَعْنًى وَاحِدًا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧]، فَأَهَانَهُمْ بِتَرْكِ تَكْلِيمِهِمْ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ تَكْلِيمَ تَكْرِيمٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، إِذْ قَدْ أَخْبَرَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى أَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ فِي النَّارِ: ﴿اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فَلَوْ كَانَ لَا يُكَلِّمُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، لَكَانُوا فِي ذَلِكَ هُمْ وَأَعْدَاؤُهُ سَوَاءً، وَلَمْ يَكُنْ فِي تَخْصِيصِ

---

(١) برقم (١٨٤).

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣/ ٦٧) برقم (٢٢٥٣)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٨٢)، والآجري في الشريعة (٢/ ١٠٢٨).

أَعْدَائِهِ بِأَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ فَائِدَةٌ أَصْلًا.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ[1]: «بَابُ كَلَامِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَسَاقَ فِيهِ عِدَّةَ أَحَادِيثَ. فَأَفْضَلُ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ رُؤْيَةُ وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَكْلِيمُهُ لَهُمْ. فَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِرُوحِ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى نَعِيمِهَا وَأَفْضَلِهِ الَّذِي مَا طَابَتْ لِأَهْلِهَا إِلَّا بِهِ.

---

قال الشيخ:

وهذا أيضًا نوع من الأدلة، ما حكاه الله تعالي من كلامه لأهل الجنة في عدة آيات، فالله تعالي يذكر أنه يخاطب أهل الجنة، فيقول: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر:٤٦]، ويقول تعالى مخاطبًا عباده في يوم القيامة: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩]، هذا كلام الله في يوم القيامة، كذلك يحكي الله تعالى أنه إذا دخل أهلُ الجنة الجنة سمعوا كلام الله، وذلك معنى قوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٨]، والقول لا بد أن يكون مسموعًا، فلا بدّ أن أهل الجنة يسمعونه، ولا شك أن سماعهم لكلامه يُعد نعمة ونعيمًا ولذّةٌ يلتذُّون بها، فيلتذون بسماع كلام ربهم، كما يلتذون برؤية ربِّهم، ويتنعمون بكل ذلك، ولكن أهل النار محرومون من الجميع؛ فحُرموا مِنْ رؤية ربِّهم، كما حكى الله

---

(١) في كتاب التوحيد (٩/ ١٥١).

عنهم في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، فصار حجابهم عذابًا لهم، وحُرموا من سماع كلام الله، الذي هو كلام نعيم وكلام رحمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧٧]، يعني: لا يكلمهم كلام رحمة وكلام نعمة.

ففرَّق الله بين أهل الجنة وأهل النار بأن هؤلاء يكلمهم وهؤلاء لا يكلمهم، فدل على أن كلام الله تعالى حق وثابت، وأن تركه لكلام هؤلاء عذاب أليم في حقهم.

ولا شك أن الكلام اسمٌ لكل ما يسمعه المكلَّم المنادى، وأهل الجنة ينادَوْن فيرفعون أنظارهم، فيسمعون كلام الله منه إليهم، وكذلك موسى ـ عليه السلام ـ لما ناداه ربه سمع كلام الله تعالى.

وروي ـ أيضًا ـ أنَّ الصحابة قالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦][1]، يعني: أسمعهم وأجيبهم إذا دَعَوني.

ونزل أيضًا في موسى ـ عليه السلام ـ في خصائصه أن الله خصَّه بإسماعه

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣١٤). قال الحافظ ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب (١/ ٤٣٤): «في سنده ضعف».

كلامه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فأخبر بأن كلامه الحق الذي أسمعه موسى أنه من خصائص موسى ـ عليه السلام ـ دون غيره من أهل زمانه.

وكل ذلك شواهد وأدلّة ظاهرة بأن الله تعالى متكلمٌ، وأنه يتكلم إذا شاء، وأن ذلك من صفات الكمال.

قال الشارح:

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، وَالْقُرْآنُ شَيْءٌ، فَيَكُونُ دَاخِلًا فِي عُمُومِ (كُلٍّ)، فَيَكُونُ مَخْلُوقًا!! فَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ. وَذَلِكَ: أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ كُلَّهَا عِنْدَهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَخْلُقُهَا الْعِبَادُ جَمِيعَهَا، لَا يَخْلُقُهَا اللَّهُ، فَأَخْرَجُوهَا مِنْ عُمُومِ (كُلٍّ)، وَأَدْخَلُوا كَلَامَ اللَّهِ فِي عُمُومِهَا، مَعَ أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، بِهِ تَكُونُ الْأَشْيَاءُ الْمَخْلُوقَةُ، إِذْ بِأَمْرِهِ تَكُونُ الْمَخْلُوقَاتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ مَخْلُوقًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا بِأَمْرٍ آخَرَ، وَالْآخَرُ بِآخَرَ، إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، فَيَلْزَمُ التَّسَلْسُلُ، وَهُوَ بَاطِلٌ. وَطَرْدُ بَاطِلِهِمْ: أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ صِفَاتِهِ تَعَالَى مَخْلُوقَةً، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرِهِمَا، وَذَلِكَ صَرِيحُ الْكُفْرِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَيْءٌ، وَقُدْرَتَهُ شَيْءٌ، وَحَيَاتَهُ شَيْءٌ، فَيَدْخُلُ ذَلِكَ فِي عُمُومِ كُلٍّ، فَيَكُونُ مَخْلُوقًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا بِكَلَامٍ يَقُومُ بِغَيْرِهِ؟ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَا أَحْدَثَهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْجَمَادَاتِ كَلَامَهُ! وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَا خَلَقَهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ، لَا يُفَرَّقُ حِينَئِذٍ بَيْنَ نَطَقَ وَأَنْطَقَ، وَإِنَّمَا قَالَتِ الْجُلُودُ: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ﴾ [فصلت:٢١]، وَلَمْ تَقُلْ: نَطَقَ اللَّهُ، بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا بِكُلِّ كَلَامٍ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، زُورًا كَانَ أَوْ كَذِبًا أَوْ كُفْرًا أَوْ هَذَيَانًا!! تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَدْ طَرَّدَ

ذَلِكَ الِاتِّحَادِيَّةُ، فَقَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

وَلَوْ صَحَّ أَنْ يُوصَفَ أَحَدٌ بِصِفَةٍ قَامَتْ بِغَيْرِهِ، لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ لِلْبَصِيرِ: أَعْمَى، وَلِلْأَعْمَى: بَصِيرٌ؛ لِأَنَّ الْبَصِيرَ قَدْ قَامَ وَصْفُ الْعَمَى بِغَيْرِهِ، وَالْأَعْمَى قَدْ قَامَ وَصْفُ الْبَصَرِ بِغَيْرِهِ! وَلَصَحَّ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالصِّفَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا فِي غَيْرِهِ، مِنَ الْأَلْوَانِ، وَالرَّوَائِحِ، وَالطُّعُومِ، وَالطُّولِ، وَالْقِصَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

نعرف من هذا أن هذه الصفات التي استدلوا بها واردةٌ عليهم، استدلوا بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، فقالوا: القرآن شيء، فيكون مخلوقًا داخلًا في عموم (كلّ)، فردّ عليهم الشارح بأن هذا من أعجب العجب، وأنكم تقولون: إن أفعال العباد ليست بمخلوقة لله، وتخرجون أفعالكم وأفعال العباد عن أن تكون مخلوقة لله، فلماذا لم تدخلوها في عموم (كل)، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ومع ذلك تدخلون في ذلك صفةً من صفاته، وهو القرآن الذي هو كلام الله، فتدخلون صفته في كونها مخلوقة، ولا تدخلون أفعالكم ولا حركاتكم في كونها مخلوقة لله، وهذا من العجب.

ثم استدل أيضًا بأنه يلزم من قولهم أن يوصف الله تعالى بالصفات التي قامت بالمخلوقات؛ وذلك لأنهم يقولون: هذا القرآن خلقه في أفواه العباد، أو

خلقه ثم تكلم العباد به، فهو ليس كلامه، ولكنه خلقه ومع ذلك يضاف إليه، وهذا كلام باطل؛ لأنه يلزم منه ـ كما ذكر الشارح ـ أن يكون من تكلم بكلام يوصف به غير المتكلم، فالله تعالى ـ على زعمهم ـ ما تكلم، ولكن يقال كلامه وإن لم يكن هو المتكلم به؛ لأن الكلام قام بمخلوقاته، فيكون مضافًا إليه وإن لم يكن به، فيلزم على هذا ـ كما مر بنا ـ أن يوصف الأعمى بأنه بصير؛ لأن البصر قد قام بغيره، والبصير يوصف بأنه أعمى؛ لأن العمى قد قام بغيره، وأن يوصف الله بصفات المخلوقات كلها، والمخلوقات توصف بصفات النقص، كالعجز، والجهل، والجنون، والكفر، والفسق، والزنا، والغضب، والإلحاد.. وما أشبه ذلك.

فعلى قولهم هذا، يُقال: إن الله عاجز وجاهل... تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وعلى منطوقهم ذلك يجوز إضافة هذه الأفعال كلها إلى الله تعالى، وأن تكون الكلماتُ كلها التي تجري في الخلق من كلام الله، حتى وإن كانت إلحادًا وكفرًا وزندقة وسبًّا وهجاءً وكلامًا قذرًا يتعلق بالأوساخ والقاذورات، ونحو ذلك، والجلود تقشعرُّ من هذه الأقوال وحكايتها؛ لبطلانها.

والقول الصحيح: أن القرآن كلام الله تعالى، وأن ما قالوه وما اعتمدوه لا دلالة لهم عليه، فاعتقد أيها المسلم بأن هذا القرآن كلام الله، تكلم به حقًّا، منه بدأ وإليه يعود كما شاء، وإن لم نعرف كيفية تكلُّمه، وكيفية إنزاله وما يتعلق بذلك، بل نعرف ونتحقق بأن الله متكلِّمٌ بكلام يُسمعُ، وأن من كلامه القرآن وسائرُ الكتب التي أنزلها على عباده، فإذا اعتقدنا ذلك، فقلنا بهذه الكتب التي

أنزلها وضمَّنها شريعته، وضمّنها أمره ونهيه ونحو ذلك، والله تعالى فرَّق بين الخلق والأمر في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فدل ذلك على أن الأمر ليس خلقًا، فالأمر: هو الكلام، والخلق: إيجاد المخلوقات، التي يخلقها الله ـ جل وعلا ـ بأمره، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فالمخلوق يخلق بالكلام؛ لقوله: ﴿كُن﴾، الذي هو أمر، فـ ﴿كُن﴾ ليست مخلوقة؛ لكونها من كلام الله، وإنما المخلوق ما يحدثه بها، يعني: ما يخلقه من المخلوقات بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، هذا الصحيح، وكل تشعباتهم وتأويلاتهم بعيدة عن العقل وعن الفطرة التي فطر الله تعالى عليها العباد.

قال الشارح:

وَبِمِثْلِ ذَلِكَ أَلْزَمَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ بِشْرًا الْمَرِيسِيَّ بَيْنَ يَدَيِ الْمَأْمُونِ، بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ مَعَهُ مُلْتَزِمًا أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ نَصِّ التَّنْزِيلِ، وَأَلْزَمَهُ الْحُجَّةَ، فَقَالَ بِشْرٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَدَعْ مُطَالَبَتِي بِنَصِّ التَّنْزِيلِ، وَيُنَاظِرْنِي بِغَيْرِهِ، فَإِنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَهُ وَيَرْجِعْ عَنْهُ، وَيُقِرَّ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ السَّاعَةَ، وَإِلَّا فَدَمِي حَلَالٌ. قَالَ عَبْدُالْعَزِيزِ: تَسْأَلُنِي أَمْ أَسْأَلُكَ؟ فَقَالَ بِشْرٌ: اسْأَلْ أَنْتَ، وَطَمِعَ فِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ: يَلْزَمُكَ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلَاثٍ لَا بُدَّ مِنْهَا: إِمَّا أَنْ تَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْقُرْآنَ ـ وَهُوَ عِنْدِي أَنَا كَلَامُهُ ـ فِي نَفْسِهِ، أَوْ خَلَقَهُ قَائِمًا بِذَاتِهِ وَنَفْسِهِ، أَوْ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ؟ قَالَ: أَقُولُ: خَلَقَهُ كَمَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا. وَحَادَ عَنِ الْجَوَابِ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: اشْرَحْ أَنْتَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ، وَدَعْ بِشْرًا فَقَدِ انْقَطَعَ.

فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: إِنْ قَالَ: خَلَقَ كَلَامَهُ فِي نَفْسِهِ، فَهَذَا مُحَالٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَكُونُ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ الْمَخْلُوقَةِ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ، وَإِنْ قَالَ: خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، فَيَلْزَمُ فِي النَّظَرِ وَالْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِ فَهُوَ كَلَامُهُ، فَهُوَ مُحَالٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ يُلْزِمُ قَائِلَهُ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ كَلَامٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ! وَإِنْ قَالَ: خَلَقَهُ قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ، فَهَذَا مُحَالٌ؛ لَا يَكُونُ الْكَلَامُ إِلَّا مِنْ مُتَكَلِّمٍ، كَمَا لَا تَكُونُ الْإِرَادَةُ إِلَّا مِنْ مُرِيدٍ، وَلَا الْعِلْمُ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ، وَلَا يُعْقَلُ كَلَامٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُتَكَلِّمٌ. فَلَمَّا اسْتَحَالَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا، عُلِمَ أَنَّهُ صِفَةٌ لِلَّهِ.

هَذَا مُخْتَصَرٌ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي «الْحَيْدَةِ»[1].

---

قال الشيخ:

رسالة «الحيدة» لكاتبها عبدالعزيز الكناني، وهي مطبوعة، ذكر فيها أنه لما اشتهر عن بشرٍ المريسي أنه يقول: إن القرآن كلامُ الله، حاول أن يجادله، فذكر أنه لما صلي مرة الجمعة قدِم ولده أمام الناس، فسأله بصوت رفيع وقال: يا بني! ما تقول في القرآن، فقال بصوت رفيع: القرآن كلام الله، فلما سُمع قبض عليه؛ لأن ذلك كان زمن فتنةٍ قد افتتن بها خلق كثير، وقد انتشر القول بأن القرآن مخلوق، وهدَّدوا وتوعَّدوا من يقول بأنه كلام الله.

عند ذلك أُحضر بين يدي المأمون، وهو أحد خلفاء بني العباس، وكان ممن دخله كلام المعتزلة وزيّنوا له، حتى اعتقد ما يقولونه: إن القرآن مخلوق، فلما حضر بين يديه أمره بأن يحضر من يناظره، فأحضر بشرًا المرّيسي، وهو رأس المعتزلة أو رأس الجهمية في ذلك الزمان، فتناظرا بين يدي المأمون، وكلَّما أتى بحجةٍ قوية حاد عنها ذلك المعتزليُّ الجهميُّ، فسمّى رسالته بـ«الحيدة».

في هذه المقالة ألزمه بإحدى ثلاث: قال له: إذا قلت: إن القرآن مخلوق، فلا بدّ من واحدة من ثلاثٍ: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن في ذاته، وإما أن تقول: إنه خلقه في غيره، وإما أن تقول: إنه خلقه مستقلًا بنفسه. فحاد ولم

---

(١) (ص٨١ ـ ٨٤).

يجب المريسي، ولم يستطع أن يتخلَّص، فشرحها الكناني ـ رحمه الله ـ وقال: إذا قلت إن الله خلقه في ذاته فهذا محال؛ لأنه يكون محلًا للحوادث، والله تعالى منزّه عن أن يكون محلًا للحوادث، أي أنه: لم يحدث له صفة كانت مفقودةً، بل هو قديمٌ بصفاته، كما تقدم في قول المؤلف: (**لَيْسَ بَعْدَ خَلقِ الخَلقِ اسْتَفَادَ اسم «الخَالق»، وَلا بِإِحْدَاثِهِ البَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسم «البَارِي»**)، فبطل أن يكون خلقه في ذاته. وإذا قلت: إنه خلقه مستقلًا يعني: مخلوق مستقلٌّ اسمه القرآن، فيلزم بذلك أن نشاهد ذلك المخلوق؛ فالمخلوقات لا بدّ أنها تُشاهَد، وأيضًا لابدَّ أنه يأتي عليه التغيُّر.

وقد سمعت أيضًا حكاية أن أحد الذين امتُحنوا في القرآن، لما أحضروه قالوا له: ماذا عندك، قال: رأيت رؤيا، رأيت أني قمت في الليل لأصلي، فلما كبرَّت وقرأت الفاتحة، وقرأت ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وفي الركعة الثانية قرأت الفاتحة، وأردت أن أقرأ سورة الإخلاص، فلم أستطع ولم أقدر، فرفعتُ رأسي فإذا القرآن مسجّى، قلت: ما هذا؟ قالوا: القرآن ميتٌ، فنزلته أنا ومن معي فغسلناه وكفنَّاه وصلينا عليه. فقالوا له ـ تعجبًا ـ: القرآن يموت؟! قال: نعم، أنتم تقولون: إن القرآن مخلوق، وكل مخلوق يموت. فخصمهم بذلك وبيّن لهم أن هذه وإن كانت رؤيا، فإنها ردٌّ عليكم؛ إذا قلتم إن القرآن مخلوق منفصل مستقل يُرى، فلا بد أنه يأتي عليه التغير؛ يمرض ويشفى، ويكبر ويصغر، ويزيد وينقص، وينطق بنفسه. فإذا كان هو مخلوقًا

مستقلًا، فمن الذي لمسه، ومن الذي شاهده؟ والقرآن إنما هو هذا الكلام الذي نقرؤه، فهو عرض من الأعراض، إذا نطقنا به فإنا لا نشاهد الكلمات التي نتكلم بها تخرج ويراها من يراها، فهو عرضٌ تكلم الله تعالى به، وليس بمخلوق.

وإذا قلتم: إنه كلام خلقه الله في غيره، لزمكم أن كل ما يتكلم به الناس فهو كلام الله خلقه في غيره، يعني: خلقه بألسنة الناس وبقلوبهم، فما ينطقون به فهو من كلام الله.

وقد طرد ذلك كثير من الملاحدة الذين يقال لهم: أهل الاتحاد، حتى استدل بعضهم بقول قائلهم، وهو ابن عربي:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

فجعلوا كل ما ينطق به الناس كلام الله، ولو كان كفراً، أو شعرًا، أو هجاءً، أو سخريةً، أو ما أشبه ذلك، تعالى الله عن قولهم.

فلما بطلت هذه الثلاثة ما بقي إلا أنه كلام الله ليس بمخلوق.

قال الشارح:

وَعُمُومُ (كُلٍّ) فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ، وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِالْقَرَائِنِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، وَمَسَاكِنُهُمْ شَيْءٌ، وَلَمْ تَدْخُلْ فِي عُمُومِ كُلِّ شَيْءٍ دَمَّرَتْهُ الرِّيحُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُرَادَ: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبَلُ التَّدْمِيرَ بِالرِّيحِ عَادَةً وَمَا يَسْتَحِقُّ التَّدْمِيرَ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بِلْقِيسَ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣]، الْمُرَادُ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُفْهَمُ مِنْ قَرَائِنِ الْكَلَامِ؛ إِذْ مُرَادُ الْهُدْهُدِ أَنَّهَا مَلِكَةٌ كَامِلَةٌ فِي أَمْرِ الْمُلْكِ، غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ إِلَى مَا يَكْمُلُ بِهِ أَمْرُ مُلْكِهَا، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ.

وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، أَيْ: كُلِّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَدَخَلَ فِي هَذَا الْعُمُومِ أَفْعَالُ الْعِبَادِ حَتْمًا، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْعُمُومِ الْخَالِقُ تَعَالَى، وَصِفَاتُهُ لَيْسَتْ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَصِفَاتُهُ مُلَازِمَةٌ لِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ، لَا يُتَصَوَّرُ انْفِصَالُ صِفَاتِهِ عَنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ قَوْلِهِ: (مَا زَالَ قَدِيمًا بِصِفَاتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ). بَلْ نَفْسُ مَا اسْتَدَلُّوا بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، مَخْلُوقًا، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، فَمَا أَفْسَدَهُ مِنِ اسْتِدْلَالٍ! فَإِنَّ (جَعَلَ) إِذَا كَانَ بِمَعْنَى (خَلَقَ) يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ

وَاحِدٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠، ٣١]. وَإِذَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَمْ يَكُنْ بِمَعْنَى خَلَقَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل:٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر:٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء:٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء:٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف:١٩]، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ، فَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣].

---

قال الشيخ:

هذا مِمَّا استدلوا به وتقدم نقضُه.

الدليل الأول: أنهم استدلوا بعموم ﴿كُلِّ﴾، في قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، فقال بشر المريسي لعبدالعزيز الكناني: إن قلت: إن كلام الله شيء خصمناك؛ لأنه داخل في هذه الآية، وإن قلت: إنه ليس بشيء ضللت وكفرت، وذلك لأن المحسوسات داخلة في ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾. ولكن بشرًا لَمَّا قال

هذا اعتقد أنه قد غلب الكناني، وأنه ظهر عليه بالحجة، فقال له الكناني: ما أمرتك بأن تجيب على الآية، دعني أتولَّى الجواب، فقال: إن القرآن شيءٌ لا كالأشياء، التي أريد في هذه الآية. هذا جواب.

والجواب الثاني: هو أن كلمة (كل) قد ترد عامَّة، ولكن بحسب ما يُراد منها، لا أنها يدخل فيها كل الأشياء.

وقد استدل الشارح بدليلين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، يحكي الله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد أنها تدمر كل شيء، ومع ذلك مساكنهم أصبحت موجودةً ما دمّرتها، فدلّ على أن كلمة (كل شيء)، يراد بها كل شيء يقبل التدمير.

والدليل الثاني: قوله تعالى ـ في قصة بلقيس ملكة اليمن ـ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣]، ومعلوم أن هناك أشياء لم تؤت منها؛ كالذي أُوتي سليمانُ، فإنه أوتي ذلك الصرح، والريح التي غدُوّها شهرٌ ورواحها شهر، وسُخّرت له الشياطين كل بناءٍ وغواص، ومع ذلك ما أوتيت مثل ذلك وهي في زمنه، وما تجاوز ملكها جهتها التي هي بها، فإذًا أوتيت من كل شيءٍ عام، ولكنه مخصوص بما يؤتاه مثلها. فعرف أن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يراد به كلُّ شيء من المخلوقات، ولا يدخلُ في ذلك ذاته الكريمة، وكذلك لا يدخل فيه صفاته؛ كعلمه وسمعه وبصره، فإنها من جملة ذاته، وكذلك

كلامه، فإنه صفة من صفاته، فلا يدخل في عموم الكل، هذا توجيه الدليل الأول.

أما الدليل الثاني الذي استدلوا به والشبهة التي تشبَّثوا بها فهي: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣]، فقالوا: جعلنا بمعنى خلقنا، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١]، يعني: خلق الظلمات والنور.

والجواب عن هذه الآية ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾، ما أورده الشارح الشارح، وهو جواب واضحٌ؛ إذ يقول: كلمة (جعل) تأتي متعديةً إلى مفعولٍ واحدٍ، وتأتي متعديةً إلى مفعولين، فإذا كانت متعدية إلى مفعول واحد فهي بمعنى خلق، كما في هذه الآيات التي استدل بها، فإن قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ:٩ ـ١١]، هذه بمعنى خلق، وكذلك قوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾، وأما إذا تعدَّت إلى مفعولين، فهي بمعنى صيَّر، وليست بمعنى خلق، فمنه هذه الآية: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾، يعني: صيّرناه قرآنًا عربيًا، ليست بمعنى خلق، ومنه الآيات التي استدل بها الشارح، وهي كثيرة، فإن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤]، هل معناها لا تخلقُوا الله؟! وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف:١٩]، هل معناه:

خلقوا الملائكة ؟! المعني: صيَّروا الملائكة، وكذلك قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء:٢٩]، ليس معناه: لا تخلق يدك مغلولةً، بل معناها: لا تصيِّر... وهكذا بقية الآيات.

فهاتان شبهتان لا مستند للمعتزلة بالتعلُّق بهما.

قال الشارح:

وَمَا أَفْسَدَ اسْتِدْلَالَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الشَّجَرَةِ، فَسَمِعَهُ مُوسَى مِنْهَا! وَعَمُوا عَمَّا قَبْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَمَا بَعْدَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾، وَالنِّدَاءُ هُوَ الْكَلَامُ مِنْ بُعْدٍ، فَسَمِعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - النِّدَاءَ مِنْ حَافَّةِ الْوَادِي، ثُمَّ قَالَ: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾، أَيْ: أَنَّ النِّدَاءَ كَانَ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ عِنْدِ الشَّجَرَةِ، كَمَا تَقُولُ: سَمِعْتُ كَلَامَ زَيْدٍ مِنَ الْبَيْتِ، يَكُونُ (مِنَ الْبَيْتِ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، لَا أَنَّ الْبَيْتَ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ! وَلَوْ كَانَ الْكَلَامُ مَخْلُوقًا فِي الشَّجَرَةِ لَكَانَتِ الشَّجَرَةُ هِيَ الْقَائِلَةُ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وَهَلْ قَالَ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، غَيْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ وَلَوْ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ بَدَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ لَكَانَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، صِدْقًا؛ إِذْ كُلٌّ مِنَ الْكَلَامَيْنِ عِنْدَهُمْ مَخْلُوقٌ قَدْ قَالَهُ غَيْرُ اللَّهِ! وَقَدْ فَرَّقُوا بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ عَلَى أُصُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ: أَنَّ ذَاكَ كَلَامٌ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الشَّجَرَةِ، وَهَذَا كَلَامٌ خَلَقَهُ فِرْعَوْنُ!! فَحَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَاعْتَقَدُوا خَالِقًا غَيْرَ اللَّهِ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى مَسْأَلَةِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

وهذا دليل مِمَّا استدلوا به، وهي شبهة داحضة، فقد استدلوا بقوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠]، قالوا: إن موسى سمع الصوت من الشجرة!! فالشجرة هي التي تكلَّمت!! أو خلق الله الكلام في الشجرة!! فلذلك قالوا: إن كلام الله مخلوق. وهذا قول بعيد.

ويقول المؤلف: إنهم عموا عما قبل الآية وما بعدها؛ فإن قوله: ﴿نُودِيَ﴾؛ النداء يكون بصوت مسموع، وهذا مما يُستدل به على أن الله تعالى متكلِّمٌ؛ لأنه أثبت لنفسه النداء في عدة آيات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾[الشعراء:١٠]، وقال: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[النازعات:١٦]، وقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، وقال: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٢]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [فصلت: ٤٧] ... ونحو ذلك، فالنداء من الله يكون بكلام مسموع.

فإذًا قوله تعالى: ﴿نُودِيَ﴾، يعني: ناداه ربُّه بكلام سمعه، وأما قوله: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾، يعني: أنه نودي وهو في البقعة المباركة التي ذكرها الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢]، هذه البقعة ذكر الله

أنها مباركة، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، يعني: سمع الصوت من جهة الشجرة، لا أن الشجرة هي التي نطقت، وإنما سمع الصوت من جهتها، ورأى تلك النار وقال: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، يعني: رأى نارًا وضوءًا يشتعل عند تلك الشجرة، فظن أنه نارٌ، فذهب ليأتي من النار بشعلة أو جمرة لأهله لعلهم يصطلون، وكان ذلك من شدة البرد، فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[طه:١٠]، فلما جاء إلى الشجرة سمع هذا النداء، وفي ذلك النداء قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٤ ـ ١٨].

كل هذا تكلم الله به وسمعه موسى عليه السلام، ولأجل ذلك يُسمى موسى ـ عليه السلام ـ: كليم الله، بمعنى: أن الله كلّمه وأسمعه كلامه، وليست الشجرة هي التي نطقت بذلك، وإنما سمع الصوت من جهة الشجرة، يعني جاء من تلك الجهة، فهو كما يقول القائل: كلّمني زيد من الدار، يعني: أنَّ الصوت خرج من الدار، لا أن الدار هي التي نطقت.

فإذًا هذا دليلٌ بعيد أن يُتعلَّق به، وهو من جملة أدلتهم الباطلة.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، [التكوير: ١٩]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ أَحْدَثَهُ، إِمَّا جِبْرِيلُ أَوْ مُحَمَّدٌ.

قِيلَ: ذِكْرُ الرَّسُولِ مُعَرَّفٌ أَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنْ مُرْسِلِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ قَوْلُ مَلَكٍ أَوْ نَبِيٍّ، فَعُلِمَ أَنَّهُ بَلَّغَهُ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ بِهِ، لَا أَنَّهُ أَنْشَأَهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ.

وَأَيْضًا: فَالرَّسُولُ فِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ جِبْرِيلُ، وَفِي الْأُخْرَى مُحَمَّدٌ، فَإِضَافَتُهُ إِلَى كُلٍّ مِنْهُمَا تُبَيِّنُ أَنَّ الْإِضَافَةَ لِلتَّبْلِيغِ؛ إِذْ لَوْ أَحْدَثَهُ أَحَدُهُمَا امْتَنَعَ أَنْ يُحْدِثَهُ الْآخَرُ.

وَأَيْضًا: فَقَوْلُهُ رَسُولٌ أَمِينٌ[1]، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَزِيدُ فِي الْكَلَامِ الَّذِي أُرْسِلَ بِتَبْلِيغِهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، بَلْ هُوَ أَمِينٌ عَلَى مَا أُرْسِلَ بِهِ، يُبَلِّغُهُ عَنْ مُرْسِلِهِ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَّرَ مَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ الْبَشَرِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ بَشَرٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ مُحَمَّدٍ - بِمَعْنَى أَنَّهُ أَنْشَأَهُ - فَقَدْ كَفَرَ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ قَوْلُ

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على هذا الشرح (ص١١٤): «الآية التي ذكرها الشارح ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، جاءت مرتين: في سورة الحاقة: (٤٠)، وليس فيها بعدها الوصف بلفظ (أمين)، والأخرى في سورة التكوير: (١٩)، ثم بعدها: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، فتعبير الشارح بقوله: (وأيضًا فقوله: رسول أمين)، فيه شيء من التساهل، لم يرد به حكاية التلاوة، وإنما أراد المعنى فقط. ولو قال: وأيضًا فوصف الرسول بأنه أمين.. كان أدق وأجود».

بَشَرٍ، أَوْ جِنِّيٍّ، أَوْ مَلَكٍ، وَالْكَلَامُ كَلَامُ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا، وَمَنْ سَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمُنْزِلِ...

قَالَ: هَذَا شِعْرُ امْرِئِ الْقَيْسِ.

وَمَنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1]، قَالَ: هَذَا كَلَامُ الرَّسُولِ، وَإِنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٢ ـ ٥]، قَالَ: هَذَا كَلَامُ اللَّهِ، إِنْ كَانَ عِنْدَهُ خَبَرُ ذَلِكَ، وَإِلَّا قَالَ: لَا أَدْرِي كَلَامُ مَنْ هَذَا؟ وَلَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ لَكَذَّبَهُ. وَلِهَذَا مَنْ سَمِعَ مِنْ غَيْرِهِ نَظْمًا أَوْ نَثْرًا، يَقُولُ لَهُ: هَذَا كَلَامُ مَنْ؟ هَذَا كَلَامُكَ أَوْ كَلَامُ غَيْرِكَ؟

---

قال الشيخ:

قد يعترض معترض بهذه الآيات التي في سورة الحاقة، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤٠ ـ ٤٢]، وبالآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩ ـ ٢١]، فالرسول ها هنا هو جبريل

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

الذي بلغه عن الله، فمعنى قوله: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾، يعني: تبليغ رسول، ونأخذ من كلمة (رسول) أنه لم يُنْشئه ولم يقُلْه من نفسه، وإنما بلَّغه؛ لأنه مرسل، والرسول: هو الذي يحمل رسالةً من غيره، وكل من حمل كلامًا أو كتابًا فإنه يسمى رسولًا؛ تقول: أرسلتُ خادمي بكذا وكذا، أو يأتيكم رسولي، أي: منتدَبي، فالرسول هو الذي يحمل رسالة.

فهذا القرآن قول رسول، يعني: قولٌ جاء به رسولٌ أُرسلَ به، ذلك الرسول الذي ذكر في هذه الآيات هو جبريل عليه السلام، يُبين ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣ ـ ١٩٤]، فهكذا قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩ ـ ٢١]، فوصف بأنه أمين في الموضعين، ويُؤخذُ من ذلك أنه مأمون على ما أُرسل به، لا يدخل فيه زيادة ولا نقص ولا أيّ نوع من التغيير، بل يبلغه كما هو دون أي تحريف أو تغيير.

فإذًا لا متعلق بهذه الآية، بل الآية واضحة في أنه بلغه عمن أرسله، وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول الشارح: (وَالْكَلَامُ كَلَامُ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا)، وكلام الله الذي بلغه هو الرسول، سواء كان جبريل أو محمدًا، فإنما منه التبليغ، وقد ذكر الله ذلك في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور:٥٤]، وقوله: ﴿بَلَٰغٌ

مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

فالتبلغ معناه: إيصالُ ما بُعِث به إلى المرسل إليه كما هو دون نقص أو تغيير. فإذًا هو بلّغه، نشهد بأنه بلَّغ ما أُرسل به إلى هذه الأمه، وأن الأمة قد حفظته، ونقول كما قال الشارح: (**وَالْكَلَامُ كَلَامُ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا**)، فالكلام كلامُ الله ـ جل وعلا ـ وتبليغ جبريل عليه السلام، يعني: نزل به جبريل، وقد قرأه وعلمه للأمة محمدٌ ﷺ، فهو كلام الله، ولا يضاف إلى من بلّغه.

واستدل الشارح ـ رحمه الله ـ على أن الكلام يُضاف إلى من ابتدأه بقولنا إذا سمعنا من ينشد: قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمُنْزِلِ ـ: هذا كلام امرئ القيس، ولا نقول هذا كلامك أيها المتكلم، وإذا سمعناك تقول ـ مثلًا ـ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»، هل نقول: هذا كلامك أيها المتكلم؟ نقول: هذا كلام الرسول ﷺ، نعرف أنه أول من قال هذا.

وإذا سمعنا من يقرأ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١، ٢]، ونحن نعرف أنه كلام الله، فنقول: هذا كلامُ الله، وليس كلامك أيها المتكلم، إنما أنت مبلِّغ، لا أنك مبتدئ.

فإذًا القرآن كلام الله ـ جل وعلا ـ وتبليغ رسوله ﷺ.

قال الشارح:

وَبِالجُمْلَةِ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ كُلُّهُمْ، مِنْ أَهْلِ المَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ، مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ تَنَازَعَ المُتَأَخِّرُونَ فِي أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هَلْ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالذَّاتِ، أَوْ أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ.

وَقَدْ يُطْلِقُ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ عَلَى الْقُرْآنِ أَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمُرَادُهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْتَلَقٍ مُفْتَرًى مَكْذُوبٌ، بَلْ هُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا المَعْنَى مُنْتَفٍ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ.

وَالنِّزَاعُ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا خَلَقَهُ اللَّهُ، أَوْ هُوَ كَلَامُهُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَقَامَ بِذَاتِهِ؟ وَأَهْلُ السُّنَّةِ إِنَّمَا سُئِلُوا عَنْ هَذَا، وَإِلَّا فَكَوْنُهُ مَكْذُوبًا مُفْتَرًى مِمَّا لَا يُنَازِعُ مُسْلِمٌ فِي بُطْلَانِهِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَشَايِخَ المُعْتَزِلَةِ - وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ - مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اعْتِقَادَهُمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ لَمْ يَتَلَقَّوْهُ لَا عَنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا عَنْ أَئِمَّةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّ عَقْلَهُمْ دَلَّهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ تَلَقَّوْا مِنَ الْأَئِمَّةِ الشَّرَائِعَ.

وَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ عَلَى فِطَرِهِمُ السَّلِيمَةِ وَعُقُولِهِمُ المُسْتَقِيمَةِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ نِزَاعٌ، وَلَكِنْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ أَغْلُوطَةً مِنْ أَغَالِيطِهِ، فَرَّقَ بِهَا بَيْنَهُمْ، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة:١٧٦].

قال الشيخ:

تقدم ـ عند سياق اختلاف الأمة في القرآن هل هو كلام الله ـ أن هناك فرقة قالوا: كلام الله معنى واحد قائم بذاته، وهذا قول الأشعرية والماتريدية، ولهذا قالوا: إنه معنى واحد يُعبَّر عنه مثلًا بالعبرية فيصير توراة، وبالسريانية فيصير إنجيلًا، وبالعربية فيصير قرآنًا، وهو معنى واحد. هذا قول باطل.

ويقولون أيضًا: إن كلام الله تعالى هو المعنى لا اللفظ، ولهم أدلّة ربما يأتي نقاشٌ حولها.

وهناك قول ثانٍ للمبتدعة ـ أيضًا ـ: أن كلام الله حروف وأصوات تكلَّم بها بعد أن لم يكن متكلمًا، وهذا أيضًا خطأ، فإن الله تعالى لم يزل موصوفًا بأنه متكلم، ويتكلم إذا شاء. وقول أهل السنة: إن كلام الله قديمُ النوع حادثُ الآحاد، وأنه لم يزل متكلمًا، ويتكلم إذا شاء، وأن القران من كلامه، وأن الكلام لله صفة مدح وليس هو مخلوقًا، كما أن صفاته ليست مخلوقةً، علمه وقدرته وإرادته وحلمه ورحمته، وكذلك صفاته الذاتية: سمعه، وبصره، كل ذلك منسوب إليه ومضافٌ إليه، وليس شيء من ذلك مخلوقًا.

وقد تقول المعتزلة: إن القرآن غير مخلوق، ولكنهم لا يقولون: القرآن كلام الله، بل يقفون عند القول الأول وهو: القرآن غير مخلوق، ولكن هذه العبارة يعبِّرون بها عن معنى صحيح يوافق عليه كل أحد، وهو أنهم يعنون أنه غير مفترى ولا مختلَق ولا مكذوب. وأن محمدًا ﷺ لم يكن اختلقه ولا افتراه،

وهم يتسترون وراء هذا القول، وإلا فإنهم يعتقدون أن الله تعالى خلقه كما خلق سائرَ المخلوقات.

فإذا عرفنا مثل هذه الأقوال بقي أن يعتقد كل مسلم بأن القرآن الذي أنزله الله تعالى هو كلامه، وأنه صفة كمال، وأنه معجز بذاته، وأنه ليس بمخلوق، ولا شيء من صفات الله مخلوقة، ويعتقد أن أهل السنة مجمعون ـ الصحابة والسلف ـ على أن القرآن كلام الله تكلم به، وأنه من جملة كلامه، وأنزله وحيًا، وجعله معجزةً لهذا النبي خالدة باقية ما شاء الله أن تبقى، ما دام يُعمل به، منزَّلٌ غيرُ مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، بدأ منه قولًا، وإليه يعود، أي: يُرفَع في آخر الزمان، عندما يقلُّ العمل به.

هذا قول أهل السنة، ولا عبرة بالأقوال الشاذّة المبتدعة التي خالفت هذا القول.

قال الشارح:

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُ الطَّحَاوِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ نَوْعَ كَلَامِهِ قَدِيمٌ. وَكَذَلِكَ ظَاهِرُ كَلَامِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»، فَإِنَّهُ قَالَ: «وَالْقُرْآنُ فِي الْمَصَاحِفِ مَكْتُوبٌ، وَفِي الْقُلُوبِ مَحْفُوظٌ، وَعَلَى الْأَلْسُنِ مَقْرُوءٌ، وَعَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُنَزَّلٌ، وَلَفْظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ، وَكِتَابَتُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ، وَقِرَاءَتُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ، وَالْقُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ حِكَايَةً عَنْ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَعَنْ فِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَلَامُ اللَّهِ إِخْبَارًا عَنْهُمْ، وَكَلَامُ مُوسَى وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مَخْلُوقٌ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَا كَلَامُهُمْ، وَسَمِعَ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا كَلَّمَ مُوسَى كَلَّمَهُ بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ لَمْ يَزَلْ، وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا خِلَافُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِنَا». انْتَهَى[1].

فَقَوْلُهُ: (وَلَمَّا كَلَّمَ مُوسَى كَلَّمَهُ بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ)، يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ حِينَ جَاءَ كَلَّمَهُ، لَا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ أَزَلًا وَأَبَدًا يَقُولُ: يَا مُوسَى، كَمَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فَفُهِمَ مِنْهُ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ مِنْ أَصْحَابِهِ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ،

---

(١) انظر: الفقه الأكبر، بشرح د. محمد الخميس (ص٢٠ ـ ٢٤).

لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُسْمَعَ، وَإِنَّمَا يَخْلُقُ اللَّهُ الصَّوْتَ فِي الْهَوَاءِ، كَمَا قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: (الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ)، لَمْ يَزَلْ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ حَدَثَ لَهُ وَصْفُ الْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا.

---

قال الشيخ:

نقل الشارح هنا كلام أبي حنيفة؛ لأنه حنفي المذهب، والماتِن، الذي هو الطحاوي، حنفي أيضًا، والعقيدة مشهورة عند الحنفية، ولكن أكثر المتأخرين من الحنفية مالوا في باب الاعتقاد، وفيما يتعلق بالأسماء والصفات، وفيما يتعلق بالإيمان، وفيما يتعلق بالقرآن، انحرفوا بسبب من قرؤوا عليه من الأشاعرة ونحوهم، ولكن الشارح ـ رحمه الله ـ كان على عقيدةٍ سلفيةٍ، تلقَّاها عن مشايخه الذين أخلصوا له في التعليم، وحَسُنَ اعتقاده، فاحتج على أهل ذلك المذهب بأقوال من يحترمونهم، فهذا الطحاوي ـ رحمه الله ـ حنفي وكلامه واضح في أنَّ الربَّ سبحانه وتعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء.

وهذا أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ إمام المذهب قوله صريح في إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وفي الاستدلال على ذلك بأن الله كلَّم موسى، وأن موسى ـ عليه السلام ـ سمع كلام الله منه إليه، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾

[الأعراف:١٤٣]، وقال: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤]، وكذلك ناداه وناجاه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، والنداء لا يكون إلا بكلام، والمناجاة ـ التي هي كلامٌ خفيٌّ بين اثنين ـ لا تكون إلا بكلام. وكل ذلك استدل به أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على أن الله تعالى هو الذي تكلم بهذا القرآن، وأنه لم يزل متكلمًا، ويكلم من يشاء.

واستدل أيضًا بأن ما في القرآن من حكاية كلام الأمم أو كلام الرسل أو غيرهم، هو عينُ كلام الله، فنحن نقول: قال الله تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦، ٣٧]، هذا كلام الله حكاه عن فرعون. كذلك نقول: قال الله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣]، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]، هذا كلام الله، حكاه عن إبليس.

فكلام الله قديم النوع، أي: أنه سبحانه يتكلم قبل أن يقع كلام إبليس، وكلام فرعون، وكلام قوم نوح لنوحٍ في قولهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود:٣٢]، وكذلك كلام بقية الأمم. لكن لا يُفهم من ذلك أن الله تعالى لم يزل ولا يزال أزلًا وأبدًا يقول: يا موسى، أو يا نوح، إنما تكلم بهذا الكلام الذي يحكي فيه كلام إبليس، وكلام

فرعون، وكلام قوم نوح، وغيرهم من الأمم، بعدما تكلموا به؛ لأن كلامهم مخلوق، بل الإنسان في جميع حركاته مخلوق، والله هو الذي خلقه وخلق حركاته، وهو الذي يحرك شفتيه ويحرك لسانه، وهو الذي أنطقه بذلك، كما تنطق في الآخرة الجلود والأيدي والأرجل، فالإنسان بجميع ما يُنسبُ إليه مخلوق.

أما الرب تعالى بجميع صفاته، فإنه ليس بمخلوق، بل صفاته كلها مضافة إليه من ذاته، ولا يجوز القول بأن شيئًا من صفاته مخلوق، ولا أنه حادث بعد أن لم يكن.

وتقدم أن صفاته قديمةٌ، لكن يُقال في الكلام: إنه قديمُ النوع، حادث الآحاد، بمعنى: أنه لم يزل متكلمًا، ويتكلم إذا شاء.

قال الشارح:

وَبِالْجُمْلَةِ: فَكُلُّ مَا تَحْتَجُّ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامٌ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَهُوَ حَقٌّ يَجِبُ قَبُولُهُ. وَمَا يَقُولُ بِهِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَأَنَّهُ صِفَةٌ لَهُ. وَالصِّفَةُ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْمَوْصُوفِ: فَهُوَ حَقٌّ يَجِبُ قَبُولُهُ وَالْقَوْلُ بِهِ. فَيَجِبُ الْأَخْذُ بِمَا فِي قَوْلِ كُلٍّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الصَّوَابِ، وَالْعُدُولِ عَمَّا يَرُدُّهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ مِنْ قَوْلِ كُلٍّ مِنْهُمَا.

فَإِذَا قَالُوا لَنَا: فَهَذَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ الْحَوَادِثُ قَامَتْ بِهِ. قُلْنَا: هَذَا الْقَوْلُ مُجْمَلٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ قَبْلَكُمْ قِيَامَ الْحَوَادِثِ بِهَذَا الْمَعْنَى بِهِ تَعَالَى مِنَ الْأَئِمَّةِ؟ وَنُصُوصُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ تَتَضَمَّنُ ذَلِكَ، وَنُصُوصُ الْأَئِمَّةِ أَيْضًا، مَعَ صَرِيحِ الْعَقْلِ.

---

قال الشيخ:

مفهوم كلام الشارح أننا نقبل ما في أقوالهم من الحق، ونردُّ الباطل، فإذا قالوا: إن كلام الله تعالى صفةٌ قائمةٌ بذاته، قلنا: إن هذا صحيح، ولكن قولهم إنه معنى واحدٌ، لا نوافقهم عليه؛ وذلك لأن فيه ذكر الجنة وفيه ذكر النار، وكونه معنى واحدًا لا يكون بين آية الوعد والوعيد فرق، وكذلك فيه ذكر العذاب وفيه ذكر الرحمة، وإذا كان معنى واحدًا لم يكن بين هذه الآية وهذه الآية فرق، فإذًا لا يوافقُون على أنه معنى واحد، ولكن يوافقون على أنه قائم

بذاته، كما أن سائر الصفات قائمة بالموصوف، لا يعقل صفة إلا وهي قائمةٌ بالموصوف، البياض مثلًا لا بدّ أن يكون قائمًا بشيء أبيَض، فلا يوجد منفصلًا، ولا يُنتزعُ البياضُ من هذا النور ويُقبض عليه، ويقال هذا البياض، كذلك الحُمرة أو السواد؛ لابدّ أن تقوم بجرم يوصف بأنه أحمر أو أسود، فكذلك الصفات، فالسمع لا بدّ أن يقوم بمن يسمع، والكلام لا بدّ أن يقوم بمن يتكلم.

فإذًا الصفات نوافق بأنها قائمة بذاته جل وعلا، ولكن قولهم مثلًا: إننا إذا قلنا: إنه يتكلم، وإنه يعلم ويقدر، يكون ذلك سببًا لكون الحوادث تقوم به. هذه أكبر شبهة يتشبَّثُون بها، فيرمون أهل السنة بأنهم يقولون بأن الحوادث تقوم بذاتِ الله، على معتقدهم أن الله تعالى بذاته وبأفعاله قديم، وأنه لا يَحدُثُ منه شيء بعد أن لم يحدث وهذا خطأ، بل الله تعالى يُحدِثُ ما يشاء، فيسمع ما يحدث بعد أن لم يكن حادثًا، يسمع الأصوات التي حدثت بعد أن لم تحدث، ويرى الأشخاص الذين تجدد خلقهم بعد أن لم يكن متجددًا، والرؤية هذه جنسها قديم، وهي حادثة، فيقال: صفة البصر لله تعالى قديمة، ولكن هذا الإبصار حادث، ولا يلزم قيام الحوادث بذات الله.

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ خَاطَبُوا النَّاسَ وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَالَ وَنَادَى وَنَاجَى وَيَقُولُ، لَمْ يُفْهِمُوهُمْ أَنَّ هَذِهِ مَخْلُوقَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، بَلِ الَّذِي أَفْهَمُوهُمْ إِيَّاهُ: أَنَّ اللَّهَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ، وَالْكَلَامُ قَائِمٌ بِهِ لَا بِغَيْرِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَقَالَهُ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ: «وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِوَحْيٍ يُتْلَى»[1]. وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ خِلَافَ مَفْهُومِهِ لَوَجَبَ بَيَانُهُ، إِذْ تَأْخِيرُ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ لَا يَجُوزُ.

وَلَا يُعْرَفُ فِي لُغَةٍ وَلَا عَقْلٍ قَائِلٌ مُتَكَلِّمٌ لَا يَقُومُ بِهِ الْقَوْلُ وَالْكَلَامُ، وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فَرُّوا مِنْ ذَلِكَ حَذَرًا مِنَ التَّشْبِيهِ، فَلَا يُثْبِتُوا صِفَةً غَيْرَهُ، فَإِنَّهُمْ إِذَا قَالُوا: يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، قُلْنَا: وَيَتَكَلَّمُ لَا كَتَكَلُّمِنَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصِّفَاتِ.

وَهَلْ يُعْقَلُ قَادِرٌ لَا تَقُومُ بِهِ الْقُدْرَةُ، أَوْ حَيٌّ لَا تَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»[2]، فَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ: أَنَّهُ ﷺ عَاذَ بِمَخْلُوقٍ؟ بَلْ هَذَا كَقَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ»[3]، وَكَقَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٧٢٦)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٨)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ١١٢) من حديث ابن مسعود ﷺ، وأخرجه أحمد (٣/ ٤١٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٥١) من حديث عبد الرحمن بن خنبش ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٤٠).

أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»[١]، وَكَقَوْلِهِ: «وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا»[٢]. كُلُّ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى.

وَهَذِهِ المَعَانِي مَبْسُوطَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، وَإِنَّمَا أُشِيرُ إِلَيْهَا هُنَا إِشَارَةً.

---

قال الشيخ:

يتكلم الشارح عن قولهم: إنكم تقولون: إن الحوادث تقوم بذات الله، وأن هذا تنقُّصٌ لله؛ لأنكم جعلتم صفاته حادثةً، أو الحادث يقوم به، وذلك لأنَّ أخصَّ الصفات عند المعتزلة هي صفة القِدم، فيمتنعون عن إثبات شيءٍ متجدِّد، فيقولون: إذا أثبتنا أنَّ الله متكلِّم الآن صار الكلام متجددًا، وصار قائمًا بالذات، وإذا أثبتنا أنه يعلم، صار هذا العلم جديدًا بعد أن لم يكن موجودًا وهكذا قولهم.

فيرد عليهم بأنه لا تُعقَلُ صفةٌ قائمة بذاتها، بل لا بد أن تكون الصفةُ قائمةً بالموصوف، فلا تقوم صفة بغير موصوف أبدًا.

وفي هذه الأزمنة يوجد شيء قد يتعلقون به، فمثلًا الأشرطة التي تحفظ الكلام وتسجله معلوم أنها لا تنطق بنفسها، وإنما تحفظ كلامًا قد تكلم به إنسان، فتعيده بلهجته، فيقال: هذا صوت فلان، وهذا كلام فلان تكلم به

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٤٠)

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٤٠).

وحُفِظ، قام هذا الكلام بهذا الشريط مثلًا بعد أن قام بالتكلم، فالكلام صدر من متكلِّم، ولم يكن صادرًا من غير متكلم، كذلك ـ مثلًا ـ الأشرطة الضوئية أو الأفلام التي تسجل الأشخاص والحركات، إذا رؤي فيها شخص قيل: هذا فلان وهذه حركته، ولا يقال: إن هذه الحركة قامت بنفسها، ولا أنه ليس هناك حركة بغير متحرك. فلا تكون حركة إلا من متحرك، ولا يكون سمع إلا من سميع، ولا يكون قول إلا من قائل.

وبهذا يُعرَف أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق، ومن الأدلة على ذلك: أن الرسول ﷺ استعاذ بكلام الله في قوله: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ**»، وكذلك قوله: «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»، وكذلك قوله: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ**»، وقوله: «**أَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ**»، وقوله: «**أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ**»، كل ذلك استعاذة بصفة من صفات الله، لا يلزم منه أنه استعاذ بمخلوق، فعُرف بذلك أن هذه الصفات قائمةٌ بالموصوف، لا يمكن أن تنفصلَ بنفسها، فلا يمكن أن يوجد كلام إلا من متكلم قام بذلك الكلام، ولا نقص في ذلك ولا حادث.

ولا يُقال ـ كما تقول المعتزلة ـ إنه بذلك تقوم به الحوادث، بل يقال: هو الذي يفعل الأشياء وتحدث بعد أن لم تكن حادثةً، وهو سبحانه عالم بذلك كلِّه قبل أن يُوجد، وعالم بما سيحدث، وعالم بما تكلَّم به وما سوف يتكلم به، فلا يقال: حدث له علمٌ تجدد، أو حدث له كلامٌ، بمعنى: أنه لم يكن يعلمه، بل هو عالم بكل شيء سبحانه وتعالى. فَعُرِف بذلك أن هذا لا متمسَّك لهم فيه.

قال الشارح:

وَكَثِيرٌ مِنْ مُتَأَخِّرِي الحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ، وَالتَّعَدُّدُ وَالتَّكَثُّرُ وَالتَّجَزُّؤُ وَالتَّبَعُّضُ حَاصِلٌ فِي الدَّلَالَاتِ، لَا فِي المَدْلُولِ. وَهَذِهِ الْعِبَارَاتُ مَخْلُوقَةٌ، وَسُمِّيَتْ كَلَامَ اللَّهِ لِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ وَتَأَدِّيهِ بِهَا، فَإِنْ عُبِّرَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ قُرْآنٌ، وَإِنْ عُبِّرَ بِالْعِبْرِيَّةِ فَهُوَ تَوْرَاةٌ، فَاخْتَلَفَتِ الْعِبَارَاتُ لَا الْكَلَامُ. قَالُوا: وَتُسَمَّى هَذِهِ الْعِبَارَاتُ كَلَامَ اللَّهِ مَجَازًا!

وَهَذَا الْكَلَامُ فَاسِدٌ، فَإِنَّ لَازِمَهُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]، هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣]، وَمَعْنَى آيَةِ الْكُرْسِي هُوَ مَعْنَى آيَةِ الدَّيْنِ! وَمَعْنَى سُورَةِ الْإِخْلَاصِ هُوَ مَعْنَى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد:١]، وَكُلَّمَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْقَوْلَ تَبَيَّنَ لَهُ فَسَادُهُ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِكَلَامِ السَّلَفِ.

---

قال الشيخ:

سبق بيان أن المؤلف حنفي المذهب، ولقد يسر الله له مشايخ اعتقدوا عقيدة سلفية، فتلقى تلك العقيدة عنهم، وتأثر بشيخه عماد الدين ابن كثير - رحمه الله - صاحب التفسير، وابن كثير تأثر بابن تيمية؛ حيث قرأ عليه فصلحت عقيدته وأصلح غيره، ولهذا نجد صاحب **هذا الشرح ينقل كثيرًا عن** ابن تيميه وعن تلميذه ابن القيم، وإن لم يصرح بالنقل عنهم؛ وذلك لأنه لو

نقل عنهما صراحة لنُبذ كلامه؛ لكونّ كثير من الحنفية لا يقبلونها؛ أولًا: لأنهما من الحنابلة، وثانيًا: لأنهما في نظر أكثر المتأخرين قد أخطآ خطأً كبيرًا بإظهار هذه العقيدة التي ليس عليها أحد في زمانهما.

فالشارح ـ رحمه الله ـ يحكي عن متأخري الحنفية، قولهم: إن كلام الله معنى واحد قائم بذاته ليس متعددًا، فإن عُبِّر عنه بالعربية فهو القرآن، أو بالعبرية فهو التوراة، أو بالسريانية فهو الإنجيل، وردَّ عليهم بأن قولهم هذا فاسد؛ لأن فيه إبطال لما تضمنه القرآن، فعلى قولهم تكون آية الكرسي مثلَ آية الدَّين، ويكون معنى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ مثل معنى سورة الإخلاص، فهل يقول عاقل: إن المعنى الذي في هذه كالمعنى الذي في هذه؟ كل عاقل يقرأ يعرف أن هذه لها مدلول وهذه لها مدلول، وهكذا آية الرحمة غير آية العذاب، وآية ذكر الجنة غير آية ذكر النار، فالذي يتأمل هذه المقالة يعلم بُعدها عن الصواب.

ومع ذلك فقد قالها جموع كثيرون، انخدعوا بذلك، وساروا عليه، واعتقدوا أنه هو القول الصواب، وتلقوه عن مشايخهم، وشبهتهم التي اعتمدوا بها: هو خوفهم من أن يقولوا: إن الله متكلِّم، واعتقادهم أنَّ الكلام لا يصدر إلا من ذات، وأنه حادث، وأن الله منزَّه عن أن تقوم به الحوادثُ، وقد تبيَّن بطلان هذه المقالة.

قال الشارح:

وَالحَقُّ: أَنَّ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ حَقِيقَةً، وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَنَاهَى، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

وَلَوْ كَانَ مَا فِي الْمُصْحَفِ عِبَارَةً عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللَّهِ، لَمَا حَرُمَ عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحْدِثِ مَسُّهُ، وَلَوْ كَانَ مَا يَقْرَؤُهُ الْقَارِئُ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ لَمَا حَرُمَ عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحْدِثِ قِرَاءَتُهُ، بَلْ كَلَامُ اللَّهِ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مَقْرُوءٌ بِالْأَلْسُنِ، مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، كَمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»[1].

وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ كُلِّهَا حَقِيقَةٌ، وَإِذَا قِيلَ: فِيهِ خَطُّ فُلَانٍ وَكِتَابَتُهُ، فُهِمَ مِنْهُ مَعْنًى صَحِيحٌ حَقِيقِيٌّ، وَإِذَا قِيلَ: فِيهِ مِدَادٌ قَدْ كُتِبَ بِهِ، فُهِمَ مِنْهُ مَعْنًى صَحِيحٌ حَقِيقِيٌّ، وَإِذَا قِيلَ: الْمِدَادُ فِي الْمُصْحَفِ، كَانَتِ الظَّرْفِيَّةُ فِيهِ غَيْرَ الظَّرْفِيَّةِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَفِيهِ مُحَمَّدٌ وَعِيسَى، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مُغَايِرَانِ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ خَطُّ فُلَانٍ الْكَاتِبِ، وَهَذِهِ

---

(١) (ص٢٠).

المَعَانِي الثَّلَاثَةُ مُغَايِرَةٌ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ كَلَامُ اللَّهِ. وَمَنْ لَمْ يَتَنَبَّهْ لِلْفُرُوقِ بَيْنَ هَذِهِ المَعَانِي ضَلَّ وَلَمْ يَهْتَدِ لِلصَّوَابِ.

---

قال الشيخ:

نبَّه الشارح أن كتب الله تعالى متضمِّنة كلامَه، وكل كتاب منها محتوٍ على معان غير المعاني التي في الكتب الأخرى، فالتوراة فيها أحكام، والإنجيل فيه أحكام أخرى؛ ولهذا قال عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فجاء بالتخفيف عن بني إسرائيل بأشياء قد حُرِّمت في التوراة. وكذلك الزبور فيه مواعظ وأذكار وتنبيهات وتذكير، وكذلك القرآن فيه أحكام، وفيه أوامر ونواهٍ، وفيه قصص وأمثال ونحو ذلك.

فإذًا كيف يقول عاقل: إن المعنى الذي في التوراة هو المعنى الذي في الإنجيل، وهو المعنى الذي في الزبور، وهو المعنى الذي في القرآن، وأن هذا عين هذا، إلَّا أنه اختلفت العبارة، فهذا عربي وهذا عبري وهذا سرياني؟!

نقول: هذا من أبعد البعيد، ومن أمحل المحال.

ثم إن القرآن ـ كما هو معروف ـ لا يمسه إلا المطهرون، وعلى قول هؤلاء الأشاعرة ونحوهم أنه عبارة، بمعنى: أنه تعبير عن كلام الله، فإن الذي عبر به إما جبريلُ وإما محمدٌ أو غيرُهما، جعلوا كلام الله المعنى، وهم عبَّروا عنه بمنزلة المترجم الذي ينقل الكلام من لغة إلى لغة، ومعلوم أنك إذا سمعت إنسانًا

ينقل الكلام من العربية إلى الأوردية، تقول: هذا تعبير فلان المترجم. وعلى قولهم هذا يكون القرآن تعبيرَ محمد أو تعبير جبريلَ، لا أنه نفس كلام الله، فإذا كان تعبيرًا لغير الله، إنما هو تعبير للرسول، لم يكن له حرمة، وعلى هذا يجوز أن يقرأه الجنب والحائض، ويجوز أن يمس المصحف مَنْ هو محدثٌ ولو حدثًا أكبر؛ لأنه ليس فيه كلام الله، وإنما عبارة أو حكاية أو ترجمة لكلام الله، إنما الكلام هو المعنى، وأما الحروف والألفاظ فليست هي كلام الله، فلا يكون له حرمة، وهذا خطأ.

المسلمون مجتمعون على أن هذا المصحف فيه كلام الله، بمعنى أنه مكتوب فيه، وإذا قالوا مثلًا: في هذا المصحف مدادٌ أسود وأحمر، يعني: حبرٌ كتب به، فالمراد أن المداد مخلوق؛ لأنه كتب به، ولكن المكتوب هو كلام الله.

ولهذا يقول ابن القيم في «نونيته»[1]:

إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ ... بِأَنَامِلِ الْأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ

هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيُهُ وَحُرُوفُهُ ... وَمَدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ

مدادنا: يعني حبرنا، والرَّقُّ: يعني الصحيفة، وأما الكلام فإنه ليس بمخلوق.

يقول: أنت تقول ـ مثلًا ـ: في هذا القرآن السمٰوات والأرض والأمم. يعني: أنها مكتوبة فيه، ولكن إذا قلت ـ مثلًا ـ: فيه مداد وحبر وأوراق، كان

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٣٢٤).

لك مقصد، وإذا قلت: في هذا المصحف: السمٰوات والأرض والجنة والنار، صدقت في أنها موجودة، يعني: مكتوب فيه، وإذا قلت: فيه كلام الله، صدقت؛ لأنه مكتوب فيه كلام الله.

فالحاصل أن اعتقاد المسلمين أن القرآن كلام الله ينفي ما يقول هؤلاء المبتدعة من أن القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ عبارة أو حكاية عن كلام الله لا أنه عين كلام الله، وقد كتب شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ رسالة في الردِّ على بعض الأشاعرة الذين قدموا للتدريس في هذه البلاد، وأرادوا إظهارَ معتقدهم من أنَّ القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله، وقد بيَّن ـ رحمة الله ـ في تلك الرسالة مذهب أهل السنة، والرد على مَنْ يقول: إن القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله، لا أنه نفس كلام الله أو عينه، وقال: إنما هو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، والرسالة مطبوعة مفردة وضمن رسائله.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ فِعْلُ الْقَارِئِ، وَالْمَقْرُوءِ الَّذِي هُوَ قَوْلُ الْبَارِي، مَنْ لَمْ يَهْتَدِ لَهُ فَهُوَ ضَالٌّ أَيْضًا، وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا وَجَدَ فِي وَرَقَةٍ مَكْتُوبًا: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ[1].

مِنْ خَطِّ كَاتِبٍ مَعْرُوفٍ. لَقَالَ: هَذَا مِنْ كَلَامِ لَبِيدٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا خَطُّ فُلَانٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا خَبَرٌ حَقِيقَةً، وَلَا تَشْتَبِهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ بِالْأُخْرَى.

وَالْقُرْآنُ فِي الْأَصْلِ: مَصْدَرٌ، فَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْقِرَاءَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، وَقَالَ ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»[2]. وَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْمَقْرُوءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[3]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ

---

(١) أخرج البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ: كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ».

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، والنسائي (١٠١٥)، وابن ماجه (١٣٤٢)، وأحمد (٤/ ٢٨٣) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ.

فَالْحَقَائِقُ لَهَا وُجُودٌ عَيْنِيٌّ وَذِهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ، وَلَكِنَّ الْأَعْيَانَ تُعْلَمُ، ثُمَّ تُذْكَرُ، ثُمَّ تُكْتَبُ، فَكِتَابَتُهَا فِي الْمُصْحَفِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ، وَأَمَّا الْكَلَامُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُصْحَفِ وَاسِطَةٌ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِلَا وَاسِطَةٍ وَلَا لِسَانٍ.

---

قال الشيخ:

معلوم أن هناك فرقًا بين القراءة والمقروء، فيكون عندنا قارئٌ وقراءة ومقروء، فالقارىء هو الإنسان الذي حرك شفتيه ولسانه، والقراءة هي الصوت الذي سمعناه، والمقروء هو الكلام الذي نطق به، فحركات لسانه وشفتيه مخلوقة، ولكن المقروء الذي قرأه ليس بمخلوق، ولهذا يقول العلماء - إذا عرّفوا ذلك -: الصوت صوت القارىء، والقول قول الباري. فالصوت الذي تسمعه تضيفه إلى القارىء، فتقول: هذه قراءة بصوت فلان، ولكن الكلام المقروء الذي قرأه، تقول: هذا كلامُ الله، سمعت كلامَ الله بصوت القارىء فلان صاحب الصوت الحسن، والذي قراءته فيها تخشُّعٌ وتذلُّل.

وتأتي القراءة بمعنى المقروء، وتأتي كلمة القرآن بمعنى القراءة، واستدل الشارح على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، والمراد هنا: القراءة التي تُقرأ في صلاة الفجر، فهي

مشهودة؛ تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فعبَّر عن القراءة بالقرآن، وكذلك قول النبي ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، المراد: قراءته، فهنا عبَّر عن القرآن بالقراءة.

وأحيانًا تستعمل كلمة القرآن ويراد بها المقروء، يعني: الكلام الذي يقرأ، وهو كلام الله، كما في الآيات الأخرى، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه:١١٤]، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦، ١٧]، يعني: قراءته.

فإذا عرفنا أنه حيثما قرئ وحيثما كتب فهو كلام الله، نقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى المكتوب في المصاحف، المسموع بالآذان، المقروء بالألسن، ونقول أيضًا: إن كل هذه التصرفات لا تخرجه عن كونه كلام الله، ونقول إن المخلوق من ذلك ما للآدميين؛ فالأوراق مخلوقة، والمداد مخلوق، والأيدي التي تكتب والحروف التي يطبع بها مخلوقة، ولكن نفس الكلام غير مخلوق، بل هو كلام الله تعالى، وكل ما يضاف إلى الله فليس بمخلوق.

فالحاصل: أنه كيفما كُتب، وكيفما قُرئ لم يخرج عن كونه كلام الله تكلم به حقيقة، يُمثَّلُ ذلك بأن كل من سمع كلامًا نسبه إلى من تكلم به أولًا، فإذا سمع شعرًا من شعر لبيد ـ مثلًا ـ يقول: هذا كلام لبيد، وهو أحد الشعراء المشهورين، وقد مدح النبي ﷺ شعره، فقال: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ، كَلِمَةُ

لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ»[1].

فإذا رأيت ورقة مكتوبًا فيها شطر هذا البيت قلت: هذا كلام لبيد حقيقة، وهذا خطُّ فلان حقيقة، وهذه كلمة: «كُلُّ شَيْءٍ»، موجودة في هذه الورقة حقيقة، وفي الحقائق ما بينها فرق، حقيقة وحقيقة وحقيقة. فإذا سمعت في الإذاعة صوت قارىء يقرأ القرآن، قلت: هذا كلام الله حقيقة، وهذه الإذاعة إذاعة القرآن حقيقة، وهذه سورة القصص حقيقة، وهذا كلام الله حقيقة، ولا تنافِيَ بين هذه الحقائق: كلام الله، وقراءة فلان، وإذاعة القرآن، وما أشبه ذلك... تقول على الجميع: إنه حقيقة ولا تخالف بين الحقائق. فكيف يدَّعون أنه لا يمكن أن يعَبَّرَ بالقرآن عن شيئين، ما دمنا نعرف أنه يُعبَّر به عن القراءة بقوله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، يعني: القراءة، ويعبَّر به عن المقروء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، وكلا التعبيرين لا ينافي الآخر، فكذلك بقية الحقائق.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٧).

قال الشارح:

وَالْفَرْقُ بَيْنَ كَوْنِهِ فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ، وَبَيْنَ كَوْنِهِ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، أَوْ لَوْحٍ مَحْفُوظٍ، أَوْ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ: وَاضِحٌ.

فَقَوْلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، أَيْ ذِكْرَهُ وَوَصْفَهُ وَالْإِخْبَارَ عَنْهُ، كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا مَكْتُوبٌ عِنْدَهُمْ؛ إِذِ الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، لَمْ يُنْزِلْهُ عَلَى غَيْرِهِ أَصْلًا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الزُّبُرِ، وَلَمْ يَقُلْ فِي الصُّحُفِ، وَلَا فِي الرَّقِّ؛ لِأَنَّ الزُّبُرَ جَمْعُ زَبُورٍ، وَالزُّبُرَ هُوَ: الْكِتَابَةُ وَالْجَمْعُ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أَيْ: مَزْبُورِ الْأَوَّلِينَ، فَفِي نَفْسِ اللَّفْظِ وَاشْتِقَاقِهِ مَا يُبَيِّنُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ، وَيُبَيِّنُ كَمَالَ بَيَانِ الْقُرْآنِ وَخُلُوصِهِ مِنَ اللَّبْسِ.

وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، أَيْ: ذِكْرَهُ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾[الطور:٣]، أَوْ ﴿لَّوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾[البروج:٢٢]، أَوْ ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[الواقعة:٧٨]؛ لِأَنَّ الْعَامِلَ فِي الظَّرْفِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْعَامَّةِ، مِثْلَ الْكَوْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْحُصُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ يُقَدَّرُ: مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ، أَوْ فِي رَقٍّ. وَالْكِتَابُ: تَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ مَحَلُّ الْكِتَابَةِ، وَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ الْمَكْتُوبُ، وَيَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ كِتَابَةِ الْكَلَامِ فِي الْكِتَابِ، وَكِتَابَةِ الْأَعْيَانِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ فِيهِ، فَإِنَّ تِلْكَ إِنَّمَا يُكْتَبُ ذِكْرُهَا. وَكُلَّمَا تَدَبَّرَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْمَعْنَى وَضَحَ لَهُ الْفَرْقُ.

قال الشيخ:

جاء وصف القرآن في كتب الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، وليس معنى هذه الآية أنه أنزل على الأولين، فما أنزل إلا على نبينا محمد ﷺ، لكن معناها أنه مذكور في زُبُر الأولين، والزبر هي الصحف، واحدها: زَبُور، أي: ذكر هذا القرآن ومدحه موجود في تلك الصحف التي أنزلت على الأنبياء السابقين، هذا معنى كونه في زبر الأولين. مثل أن تقول: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، أي: مذكورٌ اسمه أو وصفه أو نبوته في التوراة وفي الإنجيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، يعني: ذكره وصفته واسمه ونبوته وآياته ومعجزاته. والذين قرؤوا التوراة يعرفون وصفه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

أما قول الله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢٢]، ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٨]، فهذا معناه: أن القران مكتوب في اللوح المحفوظ، ففي الحديث: «أَوَّل مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُو كَائِنٌ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1]، فجرى بما هو كائن، وكتب الكلام الذي تكلّم به في

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١)، وسيأتي الكلام عليه في تعليق سماحة الشيخ على قول الطحاوي: «ونُؤْمِنُ باللَّوحِ والقَلَمِ، وبجَميعِ مَا فيهِ قَدْ رُقِم».

اللوح المحفوظ ـ الذي يسمّى أمَّ الكتب، ويسمى الإمامَ؛ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]، ويسمى الكتاب المكنون، فالقرآن ـ سوره، وآياته، وحروفه، وكلماته ـ في الكتاب المكنون الذي هو اللوح المحفوظ، الذي لا يمسه إلا المطهرون، والذي هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

فلا فرق بين هذا وهذا، وليس كما يدّعون أنه لم يكن موجودًا ثم خلق.. قالوا: خلقه الله كما خلق الإنسان، وكما خلق سائر المخلوقات، ولو كان كذلك لما سمَّاه تنزيلًا، والله قد أفصح بأنه مُنزَّل، وبأنه تنزيلٌ، ولم يذكر أنه مخلوق، ولا أنه خلقه، ولو كان مخلوقًا لذكره في موضعٍ واحدٍ حتى يُحمَل عليه بقيةُ الأماكن التي فيها ذكر التنزيل.

قال الشارح:

وَحَقِيقَةُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى الخَارِجِيَّةُ: هِيَ مَا يُسْمَعُ مِنْهُ أَوْ مِنَ المُبَلِّغِ عَنْهُ، فَإِذَا سَمِعَهُ السَّامِعُ عَلِمَهُ وَحَفِظَهُ، فَكَلَامُ اللَّهِ مَسْمُوعٌ لَهُ مَعْلُومٌ مَحْفُوظٌ، فَإِذَا قَالَهُ السَّامِعُ فَهُوَ مَقْرُوءٌ لَهُ مَتْلُوٌّ، فَإِنْ كَتَبَهُ فَهُوَ مَكْتُوبٌ لَهُ مَرْسُومٌ. وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا لَا يَصِحُّ نَفْيُهُ، وَالمَجَازُ يَصِحُّ نَفْيُهُ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: لَيْسَ فِي المُصْحَفِ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَا مَا قَرَأَ الْقَارِئُ كَلَامَ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وَهُوَ لَا يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَسْمَعُهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ عَنِ اللَّهِ. وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ المَسْمُوعَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ حَتَّى يَسْمَعَ مَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ. وَالْأَصْلُ الحَقِيقَةُ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ المَكْتُوبَ فِي المَصَاحِفِ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ حِكَايَةٌ كَلَامِ اللَّهِ، وَلَيْسَ فِيهَا كَلَامُ اللَّهِ، فَقَدْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَسَلَفَ الْأُمَّةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ ضَلَالًا.

---

قال الشيخ:

يبيِّن الشارح أنَّ كلام الله تعالى هو الحروفُ والمعاني، وأن الله تكلم به حقيقة، ولكن بلغه رسوله فكلم به الرسول الملكي، ونزل به الملَك على الرسول البشري، كما أخبر النبي ﷺ في كيفية نزول الوحي، في قوله: «وَيَتَمَثَّلُ

لِي الْمَلَكُ أَحْيَانًا رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُول»[1]، يعني: أنَّ مِنَ الوحي ما يكون نزوله عليه أن يتمثل له الملك في صورة رجل، ومعلوم أن كلام الله تعالى مسموع بالآذان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، فصرّح بأنه كلام الله. وفي آيات أخرى فيها التصريح بذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، ﴿الْكِتَابَ﴾، يعني: الكتابة، ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، يعني: تلاوة دون فهم، وعبر بذلك عن القراءة، ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

والحاصل: أن سماع كلام الله ممكن، ولكن ليس المراد أنه يسمع كلام الله من الله، بل المراد أن يُسمع ممن يقرؤه ويخبر بأنه كلام الله، إنما الذي سمع كلام الله من الله وجاء الدليل على ذلك: موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف:١٤٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فأخبر الله أن موسى

---

(١) أخرجه البخاري (٢، ٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

سمع كلام الله منه إليه، وكذلك نبينا ﷺ لما أُسري به، كلمه الله منه إليه، فكل ذلك يفيد أن كلام الله تعالى مسموع.

أماالصوت الذي نسمعه من قارىء القرآن فمعلوم أنا لا نقول: إن هذا الصوت هو صوت الله تعالى، وإنما نقول: المتكلِّم به هو كلامُ الله، والذي أسمعنا إياه هو هذا القارىء، فسمعنا كلام الله من هذا القارىء، فهذا الفرق بين السماع وبين المقروء والقارىء.

قال الشارح:

وَكَلَامُ الطَّحَاوِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يَرُدُّ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ لَا يُتَصَوَّرُ سَمَاعُهُ مِنْهُ، وَأَنَّ الْمَسْمُوعَ الْمُنَزَّلَ الْمَقْرُوءَ وَالْمَكْتُوبَ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْهُ. فَإِنَّ الطَّحَاوِيَّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يَقُولُ: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا)، وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ، وَيَقُولُونَ: مِنْهُ بَدَا، وَإِلَيْهِ يَعُودُ. وَإِنَّمَا قَالُوا: مِنْهُ بَدَا؛ لِأَنَّ الْجَهْمِيَّةَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ خَلَقَ الْكَلَامَ فِي مَحَلٍّ، فَبَدَأَ الْكَلَامُ مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ. فَقَالَ السَّلَفُ: مِنْهُ بَدَا، أَيْ: هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ، فَمِنْهُ بَدَا، لَا مِنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة:١٣]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: وَإِلَيْهِ يَعُودُ: يُرْفَعُ مِنَ الصُّدُورِ وَالْمَصَاحِفِ، فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا فِي الْمَصَاحِفِ. كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ آثَارٍ.

---

قال الشيخ:

قولهم: (مِنْهُ بَدَا، وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، صريح في رد قول المعتزلة الذين ادّعوا أنه خلقه، وأن الذي تكلم به البشر. فلا يكون كلام الله، إنما يكون كلام ذلك الذي ابتدأ كلامه إذا كان مخلوقًا، معناه: أن الله ـ تعالى الله ـ خَلَقه في غيره، وإذا خلقه في غيره كان ذلك الغير هو الذي ابتدأ به، وهو أولُ مَنْ تكلَّم به،

والسلف أطبقوا على قولهم في وصف القرآن: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، يعني: ابتدأ الكلام من الله تعالى، وهو الذي تكلم به.

ويقول العلماء - أيضًا - بل والبلغاء: إن الكلام إنما يُضافُ إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلِّغًا مؤديًا، فالذي ابتدأ رسالةً وكتبها من إنشائه، ثم أعطاها قارئًا يقرؤها، يقال: هذه من كتابة زيد، أو من إنشائه، سمعناها من عمرو حينما قرأها عمرو، فالقارىء إنما بلَّغ، والمبتدئ بالكلام هو الذي أنشأ، فهكذا نقول: سمعنا كلام الله من قراءة فلان.

ورد في الأحاديث أن القرآن في آخر الزمان يرفع من الدنيا[1]، وذلك عندما يقلُّ العملُ به، فيُرفع من الصدور، ويُمسح من المصاحف، فتصبحُ المصاحفُ بيضاء ليس فيها شيء، وذلك علامة على انقضاء الدنيا وقرب زوالها، وهذا معنى قولهم: (مِنْهُ بَدَا، وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، يُرَدُّ إليه سبحانه ويُرفع من هذه الحياة.

---

(١) كما في حديث حُذَيْفَةَ بن الْيَمَانِ ﷺ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حتى لَا يُدْرَى ما صِيَامٌ ولا صَلَاةٌ ولا نُسُكٌ ولا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى على كِتَابِ اللَّهِ عز وجل في لَيْلَةٍ، فلا يَبْقَى في الأرض منه آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ من الناس؛ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا على هذه الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا». أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، وابن حبان (١٥/ ٢٦٦)، والحاكم (٤/ ٤٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥٦). وصحح إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩٤)، وقوى إسناده ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٦).

ولا شك أن رفعه مصيبة كبيرة ولكن الذين يُرفع من بين أيديهم لا يشعرون بالمصيبة، بل لا يهمهم، بل ربما يُهينونه ويمتهنونه، كما في بعض الدول عندهم بعض الملاحدة والزنادقة والشيوعيين والمنافقين يدوسون كلام الله بأحذيتهم - تعالى الله، وعليهم ما يستحقونه من عقاب الله - فإذا انتشر هذا الكفر في الأرض، وأطبق على البلاد كلها، ولم يبقَ أحد يحرف حرمة كلام الله تعالى، عند ذلك يرفع هذا القرآن، ولا يبقى منه حرف.

وهذه منذرات وأمارات على قرب انقضاء الحياة الدنيا، لكن نحن في هذه الحياة ما دُمنا نرى من يعظمه ويحترمه ويقرؤه ويتلوه، فإننا نؤمِّل خيرًا إن شاء الله.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (بِلَا كَيْفِيَّةٍ)، أَيْ: لَا تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَكَلُّمِهِ بِهِ قَوْلًا لَيْسَ بِالْمَجَازِ، (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا)، أَيْ: أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ عَلَى لِسَانِ الْمَلَكِ، فَسَمِعَهُ الْمَلَكُ جِبْرِيلُ مِنَ اللَّهِ، وَسَمِعَهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْمَلَكِ، وَقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣ ـ ١٩٥]، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

يقول بعض العلماء: إنه تتبّع ذكر القرآن في المصحف، فوجد ذكره في أكثر من خمسين موضعًا، وغالبًا يُذكر بلفظ الإنزال والتنزيل، ولم يُذكر بلفظ الخلق، ذُكر بلفظ «الجعل» في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، ولكن فُسِّر الجَعْلُ بأنه التصيير، يعني: صيَّرناه عربيًّا؛ لأنه أُنزل على قوم من العرب ليفهموهُ وليُعلّموه لمن بعدهم أو غيرهم، وذُكر القرآنُ بلفظ الإنزال؛ كما في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس:٥]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت:٢]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، وكل ذلك دليلٌ على أنه منزلٌ من الله.

واستدلُّوا بذلك أيضًا على صفة العلو؛ لأن النزول لا يكون إلا من فوق، فالقرآن منزل من الله تعالى، والله تعالى فوق سمـواته كما يشاء، والقرآن نزل منه، والذي نزل به هو المَلَك، والذي نُزِّلَ عليه هو الرسول ﷺ، وكذلك الرسل قبله أُنزلت عليهم هذه الكتبُ التي فيها الشرائع التي شرِّعت لهم.

فالتنزيل يدلُّ على أنه نزل بعد أن تكلم الله به، وكتبه في اللوح المحفوظ وأمر به الملك، فأنزله على رسوله، فأصبح متلوًّا مقروءًا، ولم يخرج بذلك كله عن كونه كلام الله سبحانه وتعالى.

قال الشارح:

وَقَدْ أُورِدَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ نَظِيرُ إِنْزَالِ الْمَطَرِ، وَإِنْزَالِ الْحَدِيدِ، وَإِنْزَالِ ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ مِنَ الْأَنْعَامِ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ فِيهِ مَذْكُورٌ أَنَّهُ إِنْزَالٌ مِنَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:١، ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٣ ـ ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

وَإِنْزَالُ الْمَطَرِ مُقَيَّدٌ بِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]، وَالسَّمَاءُ: الْعُلُوُّ، وَقَدْ جَاءَ فِي مَكَانٍ آخَرَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ الْمُزْنِ، وَالْمُزْنُ: السَّحَابُ، وَفِي مَكَانٍ آخَرَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ.

وَإِنْزَالُ الْحَدِيدِ وَالْأَنْعَامِ مُطْلَقٌ، فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ هَذَا الْإِنْزَالُ بِهَذَا الْإِنْزَالِ،

وَهَذَا الْإِنْزَالُ بِهَذَا الْإِنْزَالِ؟! فَالْحَدِيدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمَعَادِنِ الَّتِي فِي الْجِبَالِ، وَهِيَ عَالِيَةٌ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ كُلَّمَا كَانَ مَعْدِنُهُ أَعْلَى كَانَ حَدِيدُهُ أَجْوَدَ. وَالْأَنْعَامُ تُخْلَقُ بِالتَّوَالُدِ الْمُسْتَلْزِمِ إِنْزَالَ الذُّكُورِ الْمَاءَ مِنْ أَصْلَابِهَا إِلَى أَرْحَامِ الْإِنَاثِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: أَنْزَلَ، وَلَمْ يُنْزِلْ. ثُمَّ الْأَجِنَّةُ تَنْزِلُ مِنْ بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ إِلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَنْعَامَ تَعْلُو فُحُولُهَا إِنَاثَهَا عِنْدَ الْوَطْءِ، وَيَنْزِلُ مَاءُ الْفَحْلِ مِنْ عُلْوٍ إِلَى رَحِمِ الْأُنْثَى، وَتُلْقِي وَلَدَهَا عِنْدَ الْوِلَادَةِ مِنْ عُلْوٍ إِلَى سُفْلٍ. وَعَلَى هَذَا فَيُحْتَمَلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر:٦]، وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا، أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِبَيَانِ الْجِنْسِ.

الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ.

وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ يُحْتَمَلَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى:١١].

---

قال الشيخ:

أورد الشارح اعتراضات البعض في فهمهم لآيات التنزيل التي وصف الله بها القرآن، والله تعالى كلما ذكر القرآن ذكره بلفظ الإنزال، ولم يذكره بلفظ الخلق، لم يقل خلقنا القرآن، وإنما يقول: أنزلنا القرآن، ثم يزيد على ذلك أنه منزل من الله، أو من عند الله، ولا شك أن هذا يدل على الاختصاص، وكلمة الإنزال تعرف العرب معناها، أنه لا يكون الإنزال إلَّا من الأعلى، أنزله: أي

جاء به بعد أن كان رفيعًا، فتقول: أنزلت الدلو في البئر، أو نزلته إذا دلَّيته من أعلى إلى أسفل، وتقول: نزل فلان من السطح ومن الجبل ومن ظهر المركوب الذي هو راكبه، نزل منه بعد أن كان مرتفعًا.

فلما كانَ الإنزال من العلو، فالقرآن كذلك نازل من العلو، نازل من السماء، نازل من الله تعالى، منزَّل من ربك، هذا حقيقة ما ذكر الله عن القرآن، وليس مثل إنزال المطر، فإنزال المطر مقيَّد بأنه من السماء، أو بأنه من المزن، أو بأنه من المعصرات... ونحوهما، وإن كان الله هو الذي أنشأه وخلقه فيها.

وإنزال الحديد معناه: خلقه وإيجاده، ولكن أوجده في العلوِّ، ثم نزل إلى السفل، فالمعادن والمناجم عادة تكون في جوف الأرض، فهي مخلوقة في الجبال، ثم تذوب وتنزل إلى جوف الأرض، أو نحو ذلك، وكذلك قد يُعثر عليها وهي في رؤوس الجبال، فينزلونها من الجبال، ولا شك أن ذلك كله إنزال حقيقيٌّ، فهو إنزال، ولكن لم يقل: إنه من عند الله، فحصل بذلك الفرقُ الكبير بين إنزالها وبين إنزال القرآن.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا)، الْإِشَارَةُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ وَإِنْزَالِهِ، أَيْ: هَذَا قَوْلُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَهُمُ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَأَنَّ هَذَا حَقٌّ وَصِدْقٌ.

وَقَوْلُهُ: (وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ)، رَدُّهُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ بِهَذَا الْقَوْلِ ظَاهِرٌ. وَفِي قَوْلِهِ: (بِالْحَقِيقَةِ)، رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَامَ بِذَاتِ اللَّهِ لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ الْكَلَامُ النَّفْسَانِيُّ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ لِمَنْ قَامَ بِهِ الْكَلَامُ النَّفْسَانِيُّ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ: إِنَّ هَذَا كَلَامٌ حَقِيقَةً، وَإِلَّا لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْأَخْرَسُ مُتَكَلِّمًا، وَلَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ الَّذِي فِي الْمُصْحَفِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ هُوَ الْقُرْآنُ وَلَا كَلَامَ اللَّهِ، وَلَكِنْ عِبَارَةٌ عَنْهُ لَيْسَتْ هِيَ كَلَامَ اللَّهِ، كَمَا لَوْ أَشَارَ أَخْرَسُ إِلَى شَخْصٍ بِإِشَارَةٍ فَهِمَ بِهَا مَقْصُودَهُ، فَكَتَبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ عِبَارَتَهُ عَنِ الْمَعْنَى الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَخْرَسُ، فَالْمَكْتُوبُ هُوَ عِبَارَةُ ذَلِكَ الشَّخْصِ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى. وَهَذَا الْمَثَلُ مُطَابِقٌ غَايَةَ الْمُطَابَقَةِ لِمَا يَقُولُونَهُ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُسَمِّيهِ أَحَدٌ أَخْرَسَ، لَكِنْ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْمَلَكَ فَهِمَ مِنْهُ مَعْنًى قَائِمًا بِنَفْسِهِ، لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ حَرْفًا وَلَا صَوْتًا، بَلْ فَهِمَ مَعْنًى مُجَرَّدًا، ثُمَّ عَبَّرَ عَنْهُ، فَهُوَ الَّذِي أَحْدَثَ نَظْمَ الْقُرْآنِ وَتَأْلِيفَهُ الْعَرَبِيَّ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِي بَعْضِ الْأَجْسَامِ كَالْهَوَاءِ الَّذِي هُوَ دُونَ الْمَلَكِ هَذِهِ الْعِبَارَةَ.

وَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ: هَلْ سَمِعَ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ جَمِيعَ الْمَعْنَى أَوْ بَعْضَهُ؟ فَإِنْ قَالَ: سَمِعَهُ كُلَّهُ، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَمِعَ جَمِيعَ كَلَامِ اللَّهِ،

وَفَسَادُ هَذَا ظَاهِرٌ، وَإِنْ قَالَ: بَعْضَهُ، فَقَدْ قَالَ: يَتَبَعَّضُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ أَوْ أَنْزَلَ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ.

وَلَمَّا قَالَ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، وَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:٣٤]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، هَلْ هَذَا جَمِيعُ كَلَامِهِ أَوْ بَعْضُهُ؟ فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ جَمِيعُهُ، فَهَذَا مُكَابَرَةٌ، وَإِنْ قَالَ: بَعْضُهُ، فَقَدِ اعْتَرَفَ بِتَعَدُّدِهِ.

---

قال الشيخ:

قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ)، أكّده بقوله: (بِالْحَقِيقَةِ)؛ ليُبين أن عقيدة أهل السنه أن القرآن كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه، ليس أحدهما فقط، وذلك ردٌّ على طائفتين:

الطائفة الأولى: الذين قالوا: إنه مخلوق، وهم المعتزلة الذين ورثوا الجهمية، فإنهم قالوا: إنه خلقه كما خلق السمٰوات والأرض والإنسان والحركات... ونحوها.

الطائفة الثانية: الذين زعموا أن كلام الله هو المعنى وليس اللفظ، وعلى زعمهم لا يكون الله متكلمًا، وهذا الذي نقرؤه ليس هو كلامَ الله، إنما هو عبارة أو حكاية أو ترجمة لكلام الله، والذي عبَّر به هو الملك، كأنه أُلْهِمَهُ إلهامًا، فعبَّر

عما أُلْهِم، وأنزل إلى الرسل ذلك المعنى، وهو الذي صاغ هذه العبارة. فهل نقول: إنه كلام الملَك؛ لأن الذي صاغه جبريل، أو هو كلام الرسل لا أنه كلام الله؟ ولا شك أن هذا فيه إبطال النصوص، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [البقرة:٧٥]، وقوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام:١١٥]، وقوله: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، وأشباه ذلك كثير.

ولو كان كذلك لكان الله تعالى موصوفًا بأنه لا يتكلم ـ تعالى الله عن قولهم ـ ويلزم على ذلك أن يكون ناقصًا؛ لأن عدم القدرة على الكلام نقص في حق كل عاقل؛ لأن كل عاقل يرى أن الكلام ميزة، وأن نفيه نقيصة، وهؤلاء قد وصفوا الرب تعالى بالنقيصة.

ثم جادلهم الشارح بما بما مر معنا، فقال: أنتم تقولون: إن موسى سمع كلام الله، ولكنه لم يسمع إلا المعنى، فهل هو سمع جميع ما يُنسبُ إلى الله من الكلام أو سمع بعضه؟ فإذا قلتم: سمع بعضه، فلابدَّ أن يكون الذي سمعه سماعًا حقيقيًا لا أنه معنوي.

ونقول بعد ذلك: إن الله تعالى كلَّم بعض خلقه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء:١٠]، وقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢]، وقال:

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:٣٦]، أخبر تعالى أنه كلّم هؤلاء، وهذا صريح في أنه كلمهم كلامًا مسموعًا، وليس ذلك هو كلام الله كله؛ لأن كلام الله تعالى لا يحصى، ودليله قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

إذًا كلام الله لا نهاية له، فلو قدِّر أن أشجار الأرض كلها من أول ما خلقت في الدنيا إلى نهايتها كلها أقلام، والبحار مع سعتها ومعها سبعة أمثالها من البحار انقلبت حبرًا يكتب به، فكتب بذلك الحبر وبتلك الأقلام، لتكسرت الأقلام ولنفدت البحار قبل أن يفنى كلام الله، هذا مفاد هذه الآيات، فكيف يُقال: إن كلام الله له نهاية، وإنه هو المعنى فقط؟ هذا لا شك أنه تنقُّصٌ للربِّ سبحانه وتعالى. وهكذا وَصْفُهُ أيضًا أنه لا يتكلم، وأن هذا إنما هو عبارة أو حكاية عنه.

قال الشارح:

وَلِلنَّاسِ فِي مُسَمَّى الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ: أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ اللَّفْظَ وَالمَعْنَى جَمِيعًا، كَمَا يَتَنَاوَلُ لَفْظُ الْإِنْسَانِ الرُّوحَ وَالْبَدَنَ مَعًا، وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ.

الثَّانِي: اسْمٌ لِلَفْظٍ فَقَطْ، وَالمَعْنَى لَيْسَ جُزْءَ مُسَمَّاهُ، بَلْ هُوَ مَدْلُولُ مُسَمَّاهُ، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ اسْمٌ لِلْمَعْنَى فَقَطْ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى اللَّفْظِ مَجَازٌ؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنِ اتَّبَعَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالمَعْنَى، وَهَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْكِلَابِيَّةِ.

وَلَهُمْ قَوْلٌ خَامِسٌ - يُرْوَى عَنْ أَبِي الحَسَنِ -: أَنَّهُ مَجَازٌ فِي كَلَامِ اللَّهِ، حَقِيقَةٌ فِي كَلَامِ الْآدَمِيِّينَ؛ لِأَنَّ حُرُوفَ الْآدَمِيِّينَ تَقُومُ بِهِمْ، فَلَا يَكُونُ الْكَلَامُ قَائِمًا بِغَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ، بِخِلَافِ كَلَامِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ عِنْدَهُ بِاللَّهِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَلَامَهُ. وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ الْأَخْطَلِ:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا

فَاسْتِدْلَالٌ فَاسِدٌ، وَلَوِ اسْتَدَلَّ مُسْتَدِلٌّ بِحَدِيثٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ لَقَالُوا: هَذَا خَبَرُ وَاحِدٍ! وَيَكُونُ مِمَّا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَتَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِهِ! فَكَيْفَ وَهَذَا الْبَيْتُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ مَوْضُوعٌ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأَخْطَلِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي

دِيوَانِهِ؟! وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ: (إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ)، وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الصِّحَّةِ، وَعَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ عَنْهُ فَلَا يَجُوزُ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ، فَإِنَّ النَّصَارَى قَدْ ضَلُّوا فِي مَعْنَى الْكَلَامِ، وَزَعَمُوا أَنَّ عِيسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ نَفْسُ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَاتَّحَدَ اللَّاهُوتُ بِالنَّاسُوتِ! أَيْ: شَيْءٌ مِنَ الْإِلَهِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّاسِ! أَفَيُسْتَدَلُّ بِقَوْلِ نَصْرَانِيٍّ قَدْ ضَلَّ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَى الْكَلَامِ، وَيُتْرَكُ مَا يُعْلَمُ مِنْ مَعْنَى الْكَلَامِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؟!

وَأَيْضًا: فَمَعْنَاهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ إِذْ لَازِمُهُ أَنَّ الْأَخْرَسَ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا لِقِيَامِ الْكَلَامِ بِقَلْبِهِ وَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ، وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَإِنَّمَا أُشِيرُ إِلَيْهِ إِشَارَةً.

---

قال الشيخ:

الفِرَقُ لهم في مسمَّى الكلام عدةُ تعريفات؛ فمنهم من يقول: إن الكلام اسم للفظ وللمعنى جميعًا، اللفظ: الذي هو الحروف، والمعنى: الذي اشتملت عليه تلك الحروف وتلك الكلمات.

والنحويون عرفوا الكلام: أنه ما أفاد وصيغ بالألفاظ العربية، وتركَّب من كلمتين فأكثر، فأما إذا كان من كلمة واحدة فلا يسمى كلامًا، وهكذا إذا لم يُفِدِ فلا يسمى كلامًا، وهكذا إذا كان متركبًا ولكن ليس بالألفاظ العربية، فلا يسمى كلامًا.

هناك من يقول: إن الكلام هو الحروف والكلمات التي يُنطق بها، وأما

المعاني التي اشتمل عليها، فلا تدخل في مسمَّى الكلام، وهذا قول المعتزلة، وهناك قول ثالث بعكسه، وهو أن الكلام هو المعنى، وأما الحروف، فإنما هي دالَّةٌ عليه، وهناك قول رابع: أنه مشتركٌ بينهما.

وبكل حال، فهذه الأقوال كلها خطأ إلا القول الأول، وهو أن الكلام اسم للفظ وللمعنى جميعًا، فلا يسمى كلامًا إلا إذا كان له معنى مفيدًا، وكان بالحروف التي يسمعها المتكلم، ولو كان الكلام مصوغًا بغير العربية سميناه كلامًا بلغة أهله، يعني: أن الأعاجم لهم عدة لغات، وتسمى لغاتهم كلامًا، فنقول: تكلَّم بلغته، أو: لا نفهم كلامه، فسِّر لنا كلامك، فنسميه كلامًا إذا فسَّره بلغةٍ نفهمها.

وعلى هذا فالكلام العربي: اسمُ المصوغ بالحروف وبالكلمات التي استعملتها العرب، إذا كانت ذات معانٍ مفهومة عند الذين وضعوا اللغة وعند الذين تكلموا عليها.

فإذًا القرآن كلمات وحروف وجمل وآيات وسور، وكل جملة لها معنى مستقل، وقد تكون الآية فيها عدة جمل، فآية الكرسي اشتملت على عشر جمل، الجملة الأولى: قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، فيها إثبات الإلهية، الجملة الثانية: قوله: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، مشتملة على اسمين من أسماء الله مؤكدين لوصفه، الجملة الثالثة: قوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، نفيٌ لهذين النقصين؛ السِّنة: هي النعاس، والنوم: معروف... إلى آخر الآية. فتُسمى

الجملة كلامًا، فيقال: هذه جملة من كلام الله، ويقال كذلك في بقية القرآن: إنه مشتمل على كلمات وجمل ذات معانٍ، كل جملة دالة على معنى يفهمه من تعلَّمه وعرفه، ويترجم إلى لغة أخرى لمن لا يفهمه. هذا القول هو الصحيح: أن الكلام اسمٌ للفظ والمعنى، وأن كلام الله اسمٌ للحروف والكلمات مع المعاني التي دلت عليها تلك الكلمات.

وذهبت الأشاعرة إلى أن الكلام هو المعنى، وأنه معنى قائم بنفس الله تعالى، وأنه فهمه الملك مما أشير إليه إشارة، وجعلوا ما يقوم بالنفس هو الكلام، واستدلوا بهذا البيت الذي نسبوه إلى الأخطل، وهو قوله:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا

وقد جعلوا هذا البيت عمدتهم وحجتهم، فتراهم دائمًا يستدلون به في كتبهم، وهو استدلال فاسد ـ كما بيَّن الشارح ـ ونحن نحتج عليهم بالأحاديث التي في الصحيحين فيردونها ويقولون: هذا خبرُ واحدٍ، وخبر الواحد لا يفيد إلَّا الظن، فيردونه مع أنه ورد في الصحيحين، وهو متفق عليه، ويردون أحاديث النزول، مع أنها رواها نحو عشرة من الصحابة، ويقولون: إنها أخبار آحاد لا نقبلها ولو كانت في الصحيحين، ويردون أحاديث الاستواء والكتابة، كقوله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[1]، ويردون أيضًا أحاديث الرحمة، وأحاديث المحبة،

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ونحو ذلك، ويقولون: إنها أخبار آحاد تفيد الظن.

فيُقال لهم: عجبًا لكم، تردُّون أحاديث الصحيحين، وتحتجُّون بهذا البيت! هذا البيت هل هو متواتر، أو خبر واحد؟ لم يخرج عن كونه خبر واحد، بل ربما لا أصل له، فما نُقل هذا البيت لا بإسناد صحيح ولا بإسناد ضعيف، وإنما تتناقلونه وتنسبونه إلى الأخطل، وقد قال ابن القيم في نونيته[1]:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيْتٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

ويقول شيخ الإسلام في قصيدته اللامية[2]:

قُبْحٌ لِمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ وَرَاءَهُ ... وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الْأَخْطَلُ

إنما دليلهم هذا البيت الذي نُسب إلى الأخطل، ثم بحث عنه المحققون في ديوان الأخطل فلم يجدوه، فدلّ على أنه مصنوع مكذوب، قاله من نسبه إلى الأخطل، وذكره بعضهم بلفظ: (إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ)، بمعنى: إن القلب هو الذي يملك أن صاحبه يقدر على البيان، وهذا هو الأليق على تقدير ثبوت هذا البيت.

ولو قدَّرنا أنه من كلام الأخطل، فهل يكون كلامُ الأخطل حُجَّةً؟ الأخطل نصراني ولو كان عربيًا، فهو من نصارى العرب، أصرَّ على نصرانيته،

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٢٧٠).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٢٩٦، ٢٩٧)، وقد شرحها سماحة الشيخ عبدالله بن جبرين ـ حفظه الله ـ وشرحه مطبوع.

دُعي إلى الإسلام فامتنع أن يقبل الإسلام، وبقي على نصرانيته، وفد على عمر بن عبدالعزيز، وطلب أن يدخل عليه ليجيزه جائزةً، فقال: «أليس هو الذي يقول:

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا ... وَلَسْتُ بِآكِلٍ لَحْمَ الْأَضَاحِي
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عِيسًا بُكُورًا ... إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلْنَجَاحِ
وَلَسْتُ بِزَائِرٍ بَيْتًا بَعِيدًا ... بِمَكَّةَ أَبْتَغِي فِيهِ صَلَاحِي
وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعِيرِ أَدْعُو ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شُمُولًا ... وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ

والله لا يدخل عليَّ وهو كافرٌ أبدًا»[1].

هذه عقيدته! يتمدّح بأنه سيشرب الخمر، ويسجد للشمس إذا طلعت أو غربت، ويتمدح بأنه لا يحج البيت، ويتمدَّح بأنه لا يأكل لحم الأضاحي، ويشبه المؤذن ـ الذي يؤذن: حيَّ على الفلاح ـ بأنه كالعَيْر، فهل يُقبل مثلُ هذا، وهل يكون كلامُه حجة؟

ثم يحتجُّ أيضًا عليهم الشارح بأن النصارى ضلّوا في مسمى الكلام الذي نحن بصدد تعريفه، فعندهم أن عيسى ـ عليه السلام ـ نفس كلمة الله، يقولون: إنه نفس الكلمة. والصحيح: أنه خلق بها، لا أنه هو الكلمة، يقولون: عيسى هو الكلمة، وهو قوله: كن، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ

(١) ذكر الأثر والأبيات ابن الجوزي في المنتظم (٧/ ٣٦).

ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩]، فهو خلقه وقال له: كن، كما خلق آدم وقال له: كن، وسُمِّي كلمة الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ﴾ [النساء:١٧١]، الكلمة التي ألقاها هي قوله: ﴿كُن﴾، وهي كلام الله خلق بها كما خلق سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، فالنصارى ضلُّوا في هذا الباب، واعتقدوا أن عيسى نفس الكلمة.

وإذا كان هو شاعرًا نصرانيًّا، فإنه تكلم على عقيدة النصارى، فكيف نقلِّد النصارى فيما اعتقدوا؟ هذا كلّه على تقدير أن البيت ثابت.

ثم لسنا بحاجة إلى الاستدلال بأقوال النصارى، فكتاب الله وسنة نبيِّه وكلام العرب واضحٌ في أن المتكلِّم يُسمَّى متكلِّمًا، والذي لا يتكلَّم يسمى أخرس، ومن معلوم أنه قد يقوم بقلب الأخرس كلام، وقد يشير إليه، وإذا أشار إليه فُهِم منه، فمعناه أن الأخرس الذي لا ينطق يُسمى متكلِّمًا على قول هؤلاء الأشاعرة.

فعُرِف بذلك أنه لا دلالة لهم بذلك، وأن القول الثابت والصحيح، أن الكلام هو اللفظ والمعنى جميعًا، ليس هو المعنى الذي استشهدوا له بهذا البيت.

قال الشارح:

وَهُنَا مَعْنًى عَجِيبٌ، وَهُوَ: أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَهُ شَبَهٌ قَوِيٌّ بِقَوْلِ النَّصَارَى الْقَائِلِينَ بِاللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ! فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: كَلَامُ اللَّهِ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِذَاتِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ سَمَاعُهُ، وَأَمَّا النَّظْمُ الْمَسْمُوعُ فَمَخْلُوقٌ، فَإِفْهَامُ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ بِالنَّظْمِ الْمَخْلُوقِ يُشْبِهُ امْتِزَاجَ اللَّاهُوتِ بِالنَّاسُوتِ الَّذِي قَالَتْهُ النَّصَارَى فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الشَّبَهِ مَا أَعْجَبَهُ!

وَيَرُدُّ قَوْلَ مَنْ قَالَ: بِأَنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ: قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»[1]، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»[2]. وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُصَلِّيَ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ عَامِدًا لِغَيْرِ مَصْلَحَتِهَا بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ مِنْ تَصْدِيقٍ بِأُمُورٍ دُنْيَوِيَّةٍ وَطَلَبٍ، لَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ، وَإِنَّمَا يُبْطِلُهَا التَّكَلُّمُ بِذَلِكَ، فَعُلِمَ اتِّفَاقُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِكَلَامٍ.

---

قال الشيخ:

اللاهوت عندهم: الإله، والناسوت: الناس. والنصارى يدَّعُون أن

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٩٢٤)، والنسائي (١٢٢١)، وأحمد (١/ ٤٣٥)، وابن حبان (٦/ ١٥) من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، قبل حديث رقم (٧٥٢٢).

اللاهوت اتصل بالناسوت، فتكوَّن منهما هذا الإنسان، وتبعهم على هذا الاعتقاد أيضًا ملاحدةٌ يقال لهم: أهل الاتحاد وأهل الوحدة؛ عندهم أن اللاهوت متصلٌ بالناسوت ومتحد معه. وفي ذلك يقول حلاّجهم:

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ ... سِرَّ سَنَا لَاهُوتِهِ الثَّاقِبِ
حَتَّىٰ بَدَا مُسْتَتِرًا ظَاهِرًا ... فِي صُورَةِ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ

ولا شك أن هذا الكلام كفر، والله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق، فكلام النصارى في قولهم: إن عيسى هو عين الكلمة، وأن الكلمة جزء من ذات الربِّ سبحانه وتعالى، شبيه بقول الاتحادية الذين يزعمون ـ كزعم النصارى ـ أن اللاهوت اتحد مع الناسوت وأصبح شيئًا واحدًا. وأن من جملة ذلك عيسى أنه خلق من أنثى، ولكن بعد اتصال اللاهوت بالناسوت، وجلود المؤمنين تقشعرُّ من أن يتصور هذا التصوّر، ولكن قلوب أولئك صُدَّت عن معرفة الحق فزُيِّن لهم الباطل والعياذ بالله.

ثم استطرد الشارح ـ رحمه الله ـ في الرد على من يقول: (إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ)، ومعلوم أن الكلام هو ما يُسمع، فلا يُقال للساكت: إنه تكلم؛ إذا جلست إلى إنسان وهو يحدِّث نفسه هل تقول: إنه تكلّم بكذا وكذا؟ ما دام أنه صامت ما نطق بكلمة، فإنك لا تقول: إنه تكلم، بل تقول: جلستُ معه وقمتُ وهو ساكت، ولو أنه منذ جلست يحدث نفسه.

واستدل الشارح على فساد قولهم، بحديثين:

الحديث الأول: حديث معاوية بن الحكم ﷺ، قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ

رَسُول اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فقلت: وَاثَكَل أُمِّيَاهْ ما شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إلي؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ على أَفْخَاذِهِمْ، فلما رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فلما صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هو وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا منه، فَوَاللَّهِ ما كَهَرَنِي وَلا ضَرَبَنِي ولا شَتَمَنِي، قال: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ من كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»[1].

فجعل الكلام هذا كلامًا يبطل الصلاة، ولكنه عذره لجهله، لكونه جاهلًا لم يشعر بما يقول أنه مبطل.

والحديث الثاني: «**إِنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ**»، يعني: مما تجدد الوحي أن لا تتكلموا في الصلاة، وكانوا أول ما فُرضت يكلم أحدهم أخاه بحاجته، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، أُمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام.

فالكلام الذي يبطل الصلاة هو اللفظ الذي يسمع، الكلمات التي ينطق بها الإنسان وتخرج من فمه من بين شفتيه يسمعها من حوله، لا شك أنها تبطل الصلاة، فلو أن إنسانًا قال لآخر عمدًا: أنصت، أو قم، أو تعال، أو نحو ذلك متعمدًا، وهو عالم أنه في صلاة، بطلت صلاته، وإنما رُخِّص في الكلام الذي

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

من مصلحة الصلاة أو نحوها، أو من مكمِّلات أركان الصلاة، كالتسبيح عندما ينوب الإمام شيء أو ما أشبه ذلك.

فالكلام الذي يُسمع، وهو من غير أركان الصلاة، يبطل الصلاة.

وهل تبطل الصلاة بحديث النَّفس؟! لا تبطلُ، فالإنسان لا يسلم غالبًا من حديث النفس، فأيُّنا لا يحدِّث نفسه؟ كما رُوي عن مصعب بن سعد أنه قال لأبيه: «ياأبتِ! أرأيت قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، أهو ما يحدِّث به أحدُنا نفسه في صلاته ؟ قال: لا، ولكن السهو أن يؤخروها عن وقتها»[1]؛ لأنه قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾، ولم يقل في صلاتهم، فالسهو في الصلاة وإن كان ينقِّص منها ولكنه لا يبطلها، لأجل ذلك يقع السهو كثيرًا من المصلي، ولأجل ذلك شُرع سجودُ السهو، علم الله أنه يحصلُ السهو، فيزيد في الصلاة بسبب اشتغال قلبه وبسبب حديث قلبه، وينقص منها ويقدم أو يؤخر؛ وذلك لأن قلبه قد يشتغل بشيء من حديثه أو من أموره الدنيوية، فيغفل عما هو مقبل عليه فيسهو.

فحديث النفس لا يسمى كلامًا، لو كان يسمى كلامًا لبطلت به الصلاة؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِن كَلَامِ النَّاسِ»، فَعُلِم أن حديث النفس لا يُسمَّى كلامًا، ولأجل ذلك يرد على

(١) أخرجه الطبري (٣٠/ ٣١١)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢١٤).

هؤلاء الذين يقولون: (إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ)، بل نقول: ليس كذلك، إنما الكلام هو ما يُسمع وما ينطق به المتكلِّم. هذا هو حقيقة الكلام، وأما ما هو غير ذلك، فإنه يسمى وسوسة، أو حديث نفس، أو سهوًا، أو ما أشبه ذلك.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَل بِهِ». فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ إِلا أَنْ تَتَكَلَّمَ، فَفَرَّقَ بَيْنَ حَدِيثِ النَّفْسِ وَبَيْنَ الكَلامِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لا يُؤَاخِذُ بِهِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِهِ، وَالْمُرَادُ: حَتَّى يَنْطِقَ بِهِ اللسَانُ، بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ. فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ الكَلامُ فِي اللُّغَةِ؛ لأَنَّ الشَّارِعَ إِنَّمَا خَاطَبَنَا بِلُغَةِ العَرَبِ.

---

قال الشيخ:

لا زال الشارح ـ رحمه الله ـ يأتي بالأدلة التي ترد على الذين يقولون: إن كلام الله نفسي، وأنه شيء في النفس لا أنه تكلم به بكلام مسموع، وذلك لأنهم ينكرون أن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت، ويقولون: إن كلام الله هو المعنى، وأن هذه الحروف التي في القرآن ليست نفسها كلام الله، إنما كلام الله هو ما دل عليه المعنى، فيتكلم في الرد على هؤلاء، وهذا قول مشتهر عند الأشاعرة الذين ينكرون أن يكون الله يتكلم بحرف وصوت، فهذا الحديث دليل على أن ما حدثت بها نفسها ـ أي: الأمة ـ لا يُسمى كلامًا، فعلى هذا إذا كان الله تعالى لم يتكلم بهذا، وإنما هو شيء في نفسه فإنه لا يُسمى كلامًا، ولا يُقال: إنه كلام الله.

أخبر ﷺ أن الله عفا عن حديث النفس، إلا أن تتكلم، أو تعمل، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، فدل على أن حديث النفس لا يُسمى كلامًا، فلو

كان القرآن إنما هو حديث النفس لم يتلفظ ولم يتكلم به الله تعالى، لكان لا يُسمى كلامًا، أخبر ﷺ أن الله لا يؤاخذ به - أي: بحديث النفس - حتى يتكلم به، أي: حتى ينطق به اللسان، هكذا اتفاق العلماء أن حديث النفس لا يؤاخذ به لما في هذا الحديث، ولقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فعُلم أن هذا هو الكلام الذي يُعرف عند العرب، والشارع خاطبنا باللغة العربية الفصحى، فدلّ على أن حديث النفس لا يُسمى كلامًا، وإنما يُسمى حديث نفس، أو ما أشبه ذلك.

وهذا الحديث أخرجه البخاري[١] ومسلم[٢] وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ، وهو مروي في أكثر السنن[٣] وفي غيرها، وقد خُصصت به الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، أخبر ﷺ بأن الله تعالى لا يؤاخذ بما في النفس.

---

(١) برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩).

(٢) برقم (١٢٧).

(٣) أبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١١٨٣)، والنسائي (٣٤٣٣)، وابن ماجه (٢٠٤٠).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَفِي السُّنَنِ: أَنَّ مُعَاذًا ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!». فَبَيَّنَ أَنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا هُوَ بِاللِّسَانِ، فَلَفْظُ القَوْلِ وَالكَلَامِ وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُمَا - مِنْ فِعْلٍ مَاضٍ وَمُضَارِعٍ وَأَمْرٍ وَاسْمِ فَاعِلٍ -: إِنَّمَا يُعْرَفُ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَسَائِرِ كَلَامِ العَرَبِ إِذَا كَانَ لَفْظًا وَمَعْنًى.

وَلَمْ يَكُنْ فِي مُسَمَّى الكَلَامِ نِزَاعٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنَّمَا حَصَلَ النِّزَاعُ بَيْنَ المُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ البِدَعِ، ثُمَّ انْتَشَرَ.

---

قال الشيخ:

هذا الحديث أخرجه الترمذي[1]، وأحمد[2]، والنسائي في «السنن الكبرى»[3]، وابن ماجه[4]، من طريقين: عن معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ، لكن ذكروا أنه لم يثبت سماع أبي وائل عن معاذ.

---

(١) برقم (٢٦١٦).

(٢) (٥/ ٢٣١).

(٣) برقم (١١٣٣٠).

(٤) برقم (٣٩٧٣).

وأخرجه أحمد[١]، والطيالسي[٢]، وابن أبي شيبة[٣] من رواية عروة بن النزال عن معاذ ولم يسمع منه أيضًا، وأخرجه أحمد[٤] من رواية شهر بن حوشب عن عبدالرحمن بن غنم عن معاذ، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف[٥] من طريق عبيدة بن حميد عن الأعمش عن الحكم عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ، وهو موجود في الأحاديث الأربعين النووية، وقد حكم النووي بصحته، وقد شرحه وأطال في شرحه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»[٦].

والشاهد فيه: أنه ﷺ أخبر بأن الكلام إنما هو باللسان لما قال: (بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ)، فأخبر بأنه في حصائد ألسنتهم، فدل على أن ما يقوم في القلب، وما يقوم في النفس لا يُسمى كلامًا، فهؤلاء الأشاعرة الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى، وأن جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذي عبَّر بهذا القرآن، أو محمد ﷺ هو الذي عبر بهذه الحروف وبهذه الألفاظ. لاشك أنهم أنكروا أن يكون الله تعالى متكلمًا.

---

(١) (٥/ ٢٣٧).

(٢) برقم (٥٦٠).

(٣) (٥/ ٣٢٠).

(٤) (٥/ ٢٣٦).

(٥) (٥/ ٣٢٠).

(٦) (ص٢٦٨).

قوله: (فَلفْظُ القَوْل وَالكَلامِ وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُمَا، مِنْ فِعْلٍ مَاضٍ وَمُضَارِعٍ وَأَمْرٍ وَاسْمِ فَاعِلٍ)، نحو (قال) و(يقول) و(قل)، و(القول)، (تكلم)، (يتكلم)، (تكلم) (كلامًا).

قوله: (إِنَّمَا يُعْرَفُ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَسَائِرِ كَلامِ العَرَبِ إِذَا كَانَ لفْظًا وَمَعْنًى)، يعني: إذا كان الكلام باللفظ، أي بالحروف، وكذلك إذا كان له معنى، فالحروف المركبة التي ليس لها معنى لا تسمى كلامًا، كما بين ذلك النحويون ونحوهم؛ كقول ابن مالك في الألفية: «كلامنا لفظ مفيد كاستقم»[1]؛ وكذلك قال الصنهاجي: «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع»[2].

يقول: (وَلَمْ يَكُنْ فِي مُسَمَّى الكَلامِ نِزَاعٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ)، أي: كلهم لا خلاف بينهم في مسمى الكلام أنه اللفظ والمعنى، كلهم يعرفون ذلك، وكذلك العرب تعرفه.

قوله: (وَإِنَّمَا حَصَلَ النِّزَاعُ بَيْنَ المُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ البِدَعِ، ثُمَّ انْتَشَرَ)، وذلك لأن المعتزلة أنكروا أن يكون القرآن كلام الله، وجعلوه مخلوقًا؛ لأنهم خُيل إليهم أن الكلام إنما يخرج من الفم ومن اللسان واللهوات والشفتين والحنجرة ونحو ذلك، فصعب عليهم أن يقروا بأن الله يتكلم بهذا الكلام على

---

(١) انظر: ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل (١/ ١٣).

(٢) انظر: أنواع الكلام في «الآجرومية» بشرح حسن الكفراوي (ص٧).

هذه الصفة؛ فلذلك قالوا: القرآن مخلوق. وقاربهم الأشاعرة الذين وافقوهم على أن الله لا يتكلم بالحرف والصوت لما يستلزمه - كما يزعمون - من ثبوت هذه الجوارح ونحوها، ولما اشتهر عند أئمتهم أن القرآن كلام الله، لم يقدروا على أن يخالفوا ما نُقل عن السلف - رحمهم الله - كما نُقل عن الشافعي وأحمد وسفيان الثوري ووكيع والليث بن سعد وشعبة ونحوهم من العلماء، فاصطلحوا على أن الكلام هو المعنى، وأن القرآن إنما هو كلام الله بالمعنى ليس باللفظ، وكان من أكثر ما يستدلون به بيت ويذكرون أنه لشاعر نصراني وهو الأخطل، فيستدلون به دائمًا وهو قوله:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا  جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا

وقد تقدم الجواب عن هذا البيت وعن بقية استدلالاتهم.

قال الشارح:

وَلا رَيْبَ أَنَّ مُسَمَّى الكَلامِ وَالقَوْلِ وَنَحْوِهِمَا ـ لَيْسَ هُوَ مِمَّا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى قَوْلِ شَاعِرٍ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا تَكَلَّمَ بِهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَعَرَفُوا مَعْنَاهُ، كَمَا عَرَفُوا مُسَمَّى الرَّأْسِ وَاليَدِ وَالرِّجْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلامَ اللَّهِ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ تَعَالَى، وَإِنَّ المَتْلُوَّ المَحْفُوظَ المَكْتُوبَ المَسْمُوعَ مِنَ القَارِئِ حِكَايَةُ كَلامِ اللَّهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَقَدْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ فِي المَعْنَى وَهُوَ لا يَشْعُرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء:٨٨]، أَفَتُرَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُشِيرُ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِ، أَوْ إِلَى المَتْلُوِّ المَسْمُوعِ؟

وَلا شَكَّ أَنَّ الإِشَارَةَ إِنَّمَا هِيَ إِلَى هَذَا المَتْلُوِّ المَسْمُوعِ، إِذْ مَا فِي ذَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مُشَارٍ إِلَيْهِ، وَلا مُنَزَّلٍ وَلا مَتْلُوٍّ وَلا مَسْمُوعٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾، أَفَتُرَاهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: لا يَأْتُونَ بِمِثْلِ مَا فِي نَفْسِي مِمَّا لَمْ يَسْمَعُوهُ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَمَا فِي نَفْسِ البَارِي ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا حِيلَةَ إِلَى الوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلا إِلَى الوُقُوفِ عَلَيْهِ.

---

قال الشيخ:

لفظ (الكلام)، ولفظ (القول)، ولفظة (نطق) ونحوها، معروف في لغة العرب، لا يُحتاج في إثباته إلى الاستشهاد بقول شاعر؛ كهذا الشاعر الذي هو

الأخطل، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، نقلوا الكلام والقول والنطق وما أشبه ذلك، وكذلك كانوا يعرفونه لفظًا ومعنى، كما يعرفون مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك، أنها أسماء لأشياء حقيقة، ويفرقون بينها في اللغة فلا أحد يشتبه عليه مسمى الرأس، ولا مسمى اليد والرجل.

والذين يقولون: **(إِنَّ كَلامَ اللَّهِ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ إن عُبر عنه بالعربية فهو قرآن، وإن عُبر عنه بالعبرية فهو توراة، وإن عُبر عنه بالسريانية فهو إنجيل)**، أو كما يقولون، وإنه ليس عين كلام الله تعالى، ويقولون: **(وَإِنَّ الْمَتْلُوَّ الْمَحْفُوظَ الْمَكْتُوبَ الْمَسْمُوعَ مِنَ الْقَارِئِ حِكَايَةٌ كَلامِ اللَّهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ)**، مَنْ قال بذلك فقد قال بخلق القرآن في المعنى وهو لا يشعر، إذا قال: إن هذا الذي نقرؤه ونسمعه من القارئ، ونكتبه في المصاحف، ونحفظه في صدورنا، إنه ليس عين كلام الله، وإنما هو حكاية لكلام الله، وأنه مخلوق؛ لأنه ترجمة لكلام الله الذي في نفسه، فالذين قالوا: هذه المقالة يلزمهم أن يكونوا من الذين يقولون: إن القرآن مخلوق في المعنى، وهم لا يشعرون؛ لأن هذا شيء لازم لهم، الله تعالى أخبر بأن هذا القرآن الذي يُتلى هو المعجز في هذه الآية: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[الإسراء:٨٨]، أخبر تعالى بأنهم لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي يتلونه، والذي يسمعونه، فإنهم يعجزون عن أن يأتوا بمثله، الإشارة في قوله:

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، ليس إلى ما في نفس الله تعالى، فإن الذي في نفس الله لا يمكن الوصول إليه، وإنما المراد بهذا القرآن أي هذا المسموع المتلو الذي تسمعونه، والذي تقرؤونه وتكتبونه، فالإشارة إنما هي إلى هذا القرآن الذي يُتلى ويُسمع ويُكتب في المصاحف، هو الذي لا يقدرون على أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، أما الذي في ذات الله فإنه غير مشار إليه، وليس منزلاً، ولا متلوًا ولا مسموعًا؛ لأنه أمر يقوم بذات الرب تعالى، فدل على أن المراد هذا القرآن الذي نزل على قلب النبي ﷺ بلسان عربي مبين، وأنه عين كلام الله؛ كما قال بعض المتأخرين في عقيدته[1]:

بَلْ إِنَّهُ عَيْنُ الْكَلَامِ أَتَىٰ بِهِ ... جِبْرِيلُ يَنْسَخُ حُكْمَ كُلِّ كِتَابِ

قوله: (قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، أَفْتُرَاهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: لا يَأْتُونَ بِمِثْلِ مَا فِي نَفْسِي مِمَّا لَمْ يَسْمَعُوهُ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَمَا فِي نَفْسِ البَارِي - عَزَّ وَجَلَ - لا حِيلَةَ إِلَى الوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلا إِلَى الوُقُوفِ عَلَيْهِ)، فعلى هذا إنما قال: لا يأتون بمثل هذا القرآن الذي يسمعونه ويتلونه ويقرؤونه، والذي أُنزل على قلب النبي ﷺ.

---

(١) هذا البيت ينسب لعمران بن رضوان المتوفى سنة ١٢٨٠هـ نزيل لنجة بأرض فارس، طُبعت قصيدته ضمن كتاب الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية للشيخ سليمان بن سحمان.

قال الشارح:

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى حِكَايَةِ مَا فِي نَفْسِهِ وَعِبَارَتِهِ، وَهُوَ الْمَتْلُوُّ الْمَكْتُوبُ الْمَسْمُوعُ، فَأَمَّا أَنْ يُشِيرَ إِلَى ذَاتِهِ فَلا - فَهَذَا صَرِيحُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، بَلْ هُمْ فِي ذَلِكَ أَكْفَرُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّ حِكَايَةَ الشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَشَبَهِهِ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ مَحْكِيَّةٌ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ التِّلاوَةُ حِكَايَةً لَكَانَ النَّاسُ قَدْ أَتَوْا بِمِثْلِ كَلامِ اللَّهِ، فَأَيْنَ عَجْزُهُمْ؟! وَيَكُونُ التَّالِي - فِي زَعْمِهِمْ - قَدْ حَكَى بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ مَا لَيْسَ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ. وَلَيْسَ الْقُرْآنُ إِلا سُوَرًا مُسَوَّرَةً، وَآيَاتٍ مُسَطَّرَةً، فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣]، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌۢ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَاتِنَآ إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١٣، ١٤]، وَيُكْتَبُ لِمَنْ قَرَأَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ. قَالَ ﷺ: «أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»[1]. وَهُوَ الْمَحْفُوظُ فِي صُدُورِ الْحَافِظِينَ الْمَسْمُوعُ مِنْ أَلْسُنِ التَّالِينَ.

قَالَ الشَّيْخُ حَافِظُ الدِّينِ النَّسَفِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «الْمَنَارِ»: «إِنَّ الْقُرْآنَ اسْمٌ لِلنَّظْمِ وَالْمَعْنَى». وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الأُصُولِ، وَمَا يُنْسَبُ إِلَى أَبِي

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي الصَّلاةِ بِالفَارِسِيَّةِ أَجْزَأَهُ». فَقَدْ رَجَعَ عَنْهُ، وَقَالَ: «لا يَجُوزُ القِرَاءَةُ مَعَ القُدْرَةِ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ». وَقَالُوا: لَوْ قَرَأَ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا فَيُدَاوَى، أَوْ زِنْدِيقًا فَيُقْتَل؛ لأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ بِهَذِهِ اللُّغَةِ، وَالإِعْجَازُ حَصَل بِنَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ.

---

قال الشيخ:

قوله: (فَإِنْ قَالُوا: إِنَّمَا أَشَارَ إِلى حِكَايَةِ مَا فِي نَفْسِهِ وَعِبَارَتِهِ، وَهُوَ المَتْلُوُّ المَكْتُوبُ المَسْمُوعُ، فَأَمَّا أَنْ يُشِيرَ إِلى ذَاتِهِ فَلا)، يرد عليهم ـ رحمه الله ـ فيقول: هذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، إذا قلتم: إن قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الإسراء:٨٨]، إشارة إلى حكاية ما في نفسه وعبارته، يعني: أن هذا القرآن حكاية وعبارة عن ما في نفس الباري ـ سبحانه وتعالى ـ وقد أصبح مكتوبًا مسموعًا، وليس الإشارة إلى ذاته، هكذا يقولون، فيقول الشارح: هذا صريح القول بأن القرآن مخلوق؛ وذلك لأن هذا المتلو والمسموع ولو كان كما تقولون حكاية ما في نفس الله وعبارته، فإنه ليس هو عين كلام الله، إنما هو عبارة وحكاية.

فعلى هذا يكون مخلوقًا، فالذين يقولون بذلك، هم مثل المعتزلة، أو قد يكونون أكفر من المعتزلة، فإن المعتزلة قالوا: إن القرآن كله مخلوق، ولم يقولوا: إنه حكاية ولا عبارة، فيُقال: إن حكاية الشيء مثله وشبهه، حكاية ما في نفسه

وعبارته لاشك أنها مثله وشبهه، فهذا تصريح بأن صفات الله تعالى محكية ومترجمة.

يقول: (وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ التِّلاوَةُ حِكَايَةً لَكَانَ النَّاسُ قَدْ أَتَوْا بِمِثْلِ كَلامِ اللَّهِ)، أي: بمثل القرآن؛ لأنهم ترجموا ما في نفس الله تعالى، وأتوا بهذا القرآن فيكون هذا القرآن ليس هو عين كلام الله، إنما هو عين كلام هؤلاء الذين ترجموه: إما الملائكة، وإما محمد ﷺ، ونحو ذلك، فعلى هذا قد قدر الناس وقدر المخلوقون؛ كجبريل عليه السلام، ومحمد ﷺ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فكيف يكونون عاجزين، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، فعلى قولهم: إن الإشارة إلى حكاية ما في نفسه، فالذين يتلون القرآن ويقرؤونه ـ في زعمهم ـ قد حكوا صوتًا وحرفًا عن الله تعالى ما ليس بحرف وصوت، قد حكوا هذه الأصوات وهذه الحروف وهي ليست حروفًا وليست أصواتًا، ومعلوم أننا نسمعها من القارئ، نسمع أصواتًا ونسمع حروفًا كل حرف وكل كلمة وكل جملة منفصلة ودالة على معنى، القرآن هو سور مسورة كل سورة لها أول ولها آخر، وآيات مسطرة كل آية لها مبدأ ومنتهى، قد تكون آيات قصيرة من كلمة واحدة؛ كقوله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٤]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر:١]، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر:١]، وقد تكون طويلة؛ كآية الكرسي، وآية الدين، والقرآن ذكر الله أنه ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١٣،

١٤]، فإذا كان كذلك دل على أنه ليس هو كلام البشر، وليس هو تعليمهم، وإنما هو عين كلام الله الذي تكلم به كما يشاء.

فعلى هذا نعتقد: أن القرآن كيفما تُلي، وكيفما قُرئ، فإنه عين كلام الله، وأنه سور؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣]، ونعتقد أنه آيات؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، أي: أنهم يحفظونه في صدورهم ويكتبونه في مصاحفهم، وكذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١١ـ ١٤]، بما أن الله تعالى نزهه وأخبر بأنه في صحف الملائكة، أو اللوح المحفوظ مكرمة، وكذلك في هذه المصاحف يجب أن تكون مكرمة مرفوعة مطهرة، تُطهر عن أن يمسها المحدث، وتُرفع عن أن تكون في مستوى الأرض ونحوه، أخبر النبي ﷺ بأنه يُكتب لمن قرأه بكل حرف عشر حسنات في قوله: «**من قَرَأَ حَرْفًا من كِتَابِ اللَّـهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[1].

قيل: إنه أراد بالحرف الكلمة؛ لأن كلمة (ألف) تتكون من (همزة ولام وفاء)، وكذلك (لام) تتكون من (لام وألف وميم)، وكذلك (ميم) من

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٠٠).

(ميمين وبينهما ياء).

وعلى كل حال إنه دليل على فضل قراءة القرآن، وأن القرآن هو المحفوظ في صدور الحافظين، الذي يسر الله تعالى حفظه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:١٧]، وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [مريم:٩٧]، محفوظ في صدور الحافظين، ومسموع من ألسن التالين، نسمعه إذا تلاه التالي، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ثم قال عن الشيخ حافظ الدين النسفي عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي: كان إمامًا بارعًا في الحديث ومعانيه، له كتاب «منار الأنوار» في أصول الفقه)، والنسفي هذا مشهور أنه من الحنفية، وغالب أهل زمانه على المذهب الأشعري في الصفات، ولكنه ها هنا نطق بالحق، فقال: (إِنَّ القُرْآنَ اسْمٌ للنَّظْمِ وَالمَعْنَى)، صحيح أن هذا القرآن يعم حروفه ومعانيه.

قوله: (وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الأُصُولِ)، أي: من أهل أصول الفقه، كلهم يقولون: إن القرآن لفظًا ومعنى هو كلام الله.

قوله: (وَمَا يُنْسَبُ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي الصَّلاةِ بِالفَارِسِيَّةِ أَجْزَأَهُ)، لعل هذا قاله أبو حنيفة عندما كان بجوار الفارسيين؛ لأن أصله فارسي، وقد يشق عليهم القراءة بالعربية، ولكن ذكر أنه رجع عنه، يقول المرغيناني في (الهداية) وكذلك العيني في شرحها: «يُروى رجوع أبي حنيفة في أصل المسألة، إلى قول أبي محمد بعدم حجية القراءة بغير العربية، كذلك أيضًا

رواه الرازي وغيره وعليه الاعتماد، وتنزيله منزلة الإجماع، القرآن اسم للنظم والمعنى، جميعًا بالإجماع».

فلا يمكن أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ يجوز أن تُقرأ الفاتحة في الصلاة بلغة غير العربية، بل يلزم القراءة بالعربية، الفاتحة وغيرها، ولا يجوز القراءة بغيرها، أما غير القراءة كالخطب والمواعظ والرسائل، فلا مانع من أنه يكتبها ويقرؤها بالفارسية وغيرها، حتى يتبين لهم الكلام الذي يريدون فهمه، فذكر أن أبا حنيفة قال: (**لا يَجُوزُ القِرَاءَةُ مَعَ القُدْرَةِ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ**).

والأئمة يقولون: (**لَوْ قَرَأَ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا فَيُدَاوَى، أَوْ زِنْدِيقًا فَيُقْتَل**)، الذي يستحل القراءة بغير العربية يُتهم بأنه مجنون، فيُعالج حتى يُشفى، أو يُتهم بأنه زنديق ومنافق، والمنافقون والزنادقة يُقتلون؛ لأنهم أنكروا ما جاءت به الرسل، وادعوا كذب الرسل، وصاروا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله: (**لأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ بِهَذِهِ اللُّغَةِ، وَالإِعْجَازُ حَصَلَ بِنَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ**)، نزل القرآن بالعربية؛ لأنها أفصح اللغات، وأكثرها مواد ومعاني؛ فلأجل ذلك نزل هذا القرآن وتكلم الله تعالى بهذه العربية، وقد رُوي عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «تعلموا العربية، فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة»[1]، وقد ذكر الله

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠٠)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥)، وأخرج ابن أبي شيبة (٦/ ١١٦) نحوه عن أُبي بن كعب ﷺ.

تعالى أن هذا القرآن عربي في قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥]، أي: بلسان العرب الواضح، وكذلك لما أن الكفار قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾، أجاب الله بقوله: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]، أي: ذلك الذي يميلون إليه ويقولون: إن محمدًا تعلم منه أعجمي، وهذا القرآن نزل باللغة العربية، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه، فكونهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله لقوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور:٣٤]، عجزوا عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود:١٣]، عجزوا عن ذلك ولو كانت من السور القصار، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة:٢٣، ٢٤]، أي: أنكم تعجزون عن أن تأتوا بمثله ولو دعوتم أعوانكم وشركاءكم؛ لأنه أفصح الكلام، ولأنه من الله تعالى، فهو معجز بلفظه ومعناه، وقد تكلم العلماء على إعجاز القرآن وبينوا أنه معجز لا يقدر أحد على مثله؛ لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي - رحمه الله -:

وَمَنْ سَمِعَهُ، وَقَالَ: إِنَّهُ كَلامُ البَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ.

---

قال الشارح:

لا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ أَنْكَرَ أَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللَّهِ، بَل قَال إِنَّهُ كَلامُ مُحَمَّدٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الخَلقِ، مَلكًا كَانَ أَوْ بَشَرًا. وَأَمَّا إِذَا أَقَرَّ أَنَّهُ كَلامُ اللَّهِ، ثُمَّ أَوَّل وَحَرَّفَ فَقَدْ وَافَقَ قَوْل مَنْ قَال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، فِي بَعْضِ مَا بِهِ كَفَرَ، وَأُولئِكَ الذِينَ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ، وَسَيَأْتِي الكَلامُ عَلَيْهِ عِنْدَ قَوْل الشَّيْخِ: (وَلا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى.

---

قال الشيخ:

كلام الماتن: (وَمَنْ سَمِعَهُ)، يعني: سمع القرآن، (وَقَالَ: إِنَّهُ كَلامُ البَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ). صريح في أنه كفر إذا أنكر أن القرآن كلام الله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٥]، معلوم أنهم إنما سمعوا هذا القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ، فإذا قال: إنه كلام محمد، أو ترجمته، أو ترجمة غيره من الخلق ملكًا كان أو بشرًا، أو أن محمدًا افتراه؛ كما قال ذلك المشركون في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود:٣٥]، وغير ذلك من الآيات، فالذي يقول: إنه من

كلام محمد، أو من كلام ملك أو بشر، فإنه يكفر.

ثم يخبر أنه إذا أقر أنه كلام الله، ولكنه أوّل وحرَّف وغيَّره عن ما يدل عليه، أو قال: إنه ترجمة، أو إنه ليس عين كلام الله. فمثل هذا قد وافق قول مَنْ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، وذلك قول الوليد الذي ذكره الله تعالى، فإن الوليد بن المغيرة قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٤، ٢٥]، فتوعده الله بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦]، وافق هذا القائل في بعض ما قاله، وفي بعض ما كفر به، هؤلاء الذين يقولون: إنه من قول البشر أولئك الذين ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران:١٥٥]، ووعد الشيخ الشارح أنه سوف يتوسع في الكلام عن ذلك عند قول الماتن: (وَلا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي - رحمه الله -:

وَلا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَرِ.

---

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّهُ أَشْرَفُ وَأَفْصَحُ وَأَصْدَقُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] الآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود:١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس:٣٨]، فَلَمَّا عَجَزُوا - وَهُمْ فُصَحَاءُ العَرَبِ، مَعَ شِدَّةِ العَدَاوَةِ - عَنِ الإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، تَبَيَّنَ صِدْقُ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ. وَإِعْجَازُهُ مِنْ جِهَةِ نَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ، لا مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا فَقَطْ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ - أَيْ: بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ - فَنَفْيُ المُشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ التَّكَلُّمُ، وَمِنْ حَيْثُ النَّظْمُ وَالمَعْنَى، لا مِنْ حَيْثُ الكَلِمَاتُ وَالحُرُوفُ، وَإِلَى هَذَا وَقَعَتِ الإِشَارَةُ بِالحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ - أَيْ: أَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ كَلامِهِمْ وَبِلُغَتِهِمُ التِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا - أَلا تَرَى أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ؟ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:١، ٢]، ﴿الم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١-٣]،

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وَكَذَلِكَ البَاقِي يُنَبِّهُهُمْ أَنَّ هَذَا الرَّسُول الكَرِيمَ لَمْ يَأْتِكُمْ بِمَا لا تَعْرِفُونَهُ، بَل خَاطَبَكُمْ بِلِسَانِكُمْ.

---

قال الشيخ:

صحيحٌ أنه لا يشبه قول البشر؛ وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته مع شدة عداوتهم له، فهو أشرف وأفصح وأصدق من كلام كل البشر مع أنه بلسانهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، يعني: أنه من كلام الله تعالى، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، أي: أنه قول من الله تعالى، والله تعالى لا أحد أصدق منه؛ وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، أي: لو اجتمع الخلق من الجن والإنس على معارضة القرآن لعجزوا عنه؛ وكذلك قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود:١٣]، فتحداهم بذلك فعجزوا، ثم تحداهم أيضًا فقال -عز وجل-: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨]، فلما عجزوا عن معارضته، وعلى أن يأتوا بمثله عندما طلب الله ذلك منهم في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، فعجزوا كلهم مع أنهم فصحاء

العرب، ومع شدة العداوة التي عادوه بها؛ لأنه سفه أحلامهم وسبَّ آلهتهم، فعجزوا عن الإتيان بسورة مثله، فضلاً عن الإتيان بمثله كله.

فبذلك تبين صدق النبي ﷺ فيما جاء به، وأن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلام الله حقًا ليس كلام أحد من البشر، فيتبين (**إِعْجَازُهُ مِنْ جِهَةِ نَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ**)، أي: أنه أعجزهم لم يقدروا على معارضته من جهة النظم فيأتوا بسورة من مثله نظمًا، وكذلك من جهة معناه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

قوله: (**لا مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا فَقَطْ**)، أي: من جهة النظم، ولا من جهة المعنى، بل من جهة النظم والمعنى.

يقول: (**هَذَا مَعَ أَنَّهُ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ - أَيْ: بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ**)، التي يتكلمون بها وهم فصحاء، يدل على فصاحتهم ما رُوي من أشعارهم وخطبهم البليغة، ومع ذلك جاء هذا القرآن باللغة العربية الفصحى، فلم يقدروا على معارضته.

قوله: (**فَنَفْيُ المُشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ التَّكَلُّمُ، وَمِنْ حَيْثُ النَّظْمُ وَالمَعْنَى**)، أي: أنهم لا يأتون بما يشبهه من حيث التكلم به؛ لأنه كلام الله، ومن حيث نظمه ومعناه، (**لا مِنْ حَيْثُ الكَلِمَاتُ وَالحُرُوفُ**)، أما الكلمات والحروف فإن كلامهم يشتمل على هذه الحروف العربية التي يتكلمون بها.

يقول: (**وَإِلَى هَذَا وَقَعَتِ الإِشَارَةُ بِالحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ**)، وهي

تسع وعشرون سورة اُفتتحت بالحروف المقطعة، وهي: (الٓمٓ) وأخواتها، و(المص)، (المر)، (طسم)، (حم) (عسق)، وكذلك (طه)، (كهعيص)، (ص)، (ق)، (أَيْ: أَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ كَلامِهِمْ وَبِلُغَتِهِمُ التِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا).

ثم قال: (أَلا تَرَى أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ ؟)، في سورة (البقرة): ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ [البقرة:١، ٢]، بعد الحروف الثلاثة أشار إلى الكتاب، أي: هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، وفي أول سورة (آل عمران): ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمرن: ١-٣]، ذكر إنزال الكتاب بالحق بعد الحروف، وبعد كلمة التوحيد؛ كذلك في أول سورة (الأعراف): ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، وكذلك في سورة (يونس): ﴿الٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وفي سورة (الرعد): ﴿الٓمٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:١]، وغيرهن من البواقي كلهن بعدما تُذكر الحروف يُذكر بعد ذلك إشارة إلى القرآن، قد يُستثنى من ذلك أول سورة (مريم): ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ [مريم:١، ٢]، فإن هذا فيه نوع إشارة إلى أن رحمة ربك التي نزلت على زكريا - عليه السلام - من كلام الله، وكذلك أول سورة (العنكبوت)، وأول سورة (الروم)، ولكن فيها نوع الإشارة إلى شيء من كلام الله، ينبههم إلى أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه، لم يأتكم بشيء

غريب، بل خاطبكم بلسانكم الذي تتكلمون به؛ ولهذا لما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾، أي: يميلون إليه، ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]، أي: هذا القرآن جاء بلسانكم العربي الواضح المبين.

قال الشارح:

وَلكِنَّ أَهْلَ المَقَالاتِ الفَاسِدَةِ يَتَذَرَّعُونَ بِمِثْلِ هَذَا إِلى نَفْيِ تَكَلُّمِ اللهِ بِهِ، وَسَمَاعِ جِبْرِيلَ مِنْهُ، كَمَا يَتَذَرَّعُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، إِلى نَفْيِ الصِّفَاتِ. وَفِي الآيَةِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨]، مَا يَرُدُّ عَلى مَنْ يَنْفِي الحَرْفَ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾، وَلَمْ يَقُلْ فَأْتُوا بِحَرْفٍ، أَوْ بِكَلِمَةٍ. وَأَقْصَرُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ ثَلاثُ آيَاتٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ ـ رَحِمَهُمَا اللهُ ـ: إِنَّ أَدْنَى مَا يُجْزِئُ فِي الصَّلاةِ ثَلاثُ آيَاتٍ قِصَارٍ أَوْ آيَةٌ طَوِيلَةٌ؛ لأَنَّهُ لا يَقَعُ الإِعْجَازُ بِدُونِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

قال الشيخ:

يريد بأهل المقالات الفاسدة: المعتزلة، وغلاة الأشاعرة، والماتريدية، والكلابية ونحوهم، الذين يتذرعون بمثل هذا، ويقول: هو كتاب أنزل إليك، أو هو كتاب، يتذرعون به إلى نفي تكلم الله به، أنه ما تكلم به، مع صريح الآيات أنه كلام الله، مثل قول الله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، وكذلك ينفون سماع جبريل منه، وجبريل بلغه وإنما نُسب القول إليه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠]، يعني: تبليغ رسول كريم، الذي هو

جبريل ـ عليه السلام ـ لا أنه هو الذي أنشأه، فهكذا يتذرعون بهذه الآيات لنفي أن الله تعالى تكلم به، أو أن جبريل ـ عليه السلام ـ سمعه منه بهذه الحروف.

وهكذا يتذرع المعتزلة والمعطلة بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، إلى نفي جميع الصفات، فيقولون: إذا أثبتنا صفةً فإن الصفة موجودة في المخلوق فيكون ذلك تشبيهًا، والله ليس كمثله شيء.

نقول: إن في هذه الآية ما يرد قولكم، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، فأول الآية رد على الممثلة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وآخر الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، رد على المعطلة الذين نفوا صفات الله تعالى.

كما في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨]،فدل على أنه سور، وأن بعضها يشبه بعضًا، ففي قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، ما يرد قول من ينفي الحرف، فيقولون: إن كلام الله ليس بصوت ولا بحرف، وأنه معنى قائم بنفسه. هكذا يقولون، والله تعالى يقول: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾، ولم يقل فأتوا بحرف أو بكلمة.

قوله: (وَأَقْصَرُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ ثَلاثُ آيَاتٍ)، أقصر سورة في القرآن هي سورة (الكوثر) ثلاث آيات، وكذلك سورة (العصر)، وكذلك سورة (النصر)، كلها ثلاث آيات.

نقل الشارح عن أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة ـ رحمهما الله ـ أنهما يقولان: (**إِنَّ أَدْنَى مَا يُجْزِئُ فِي الصَّلاةِ ثَلاثُ آيَاتٍ قِصَارٍ أَوْ آيَةٌ طَوِيلةٌ؛ لأَنَّهُ لا يَقَعُ الإِعْجَازُ بِدُونِ ذَلكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ**). أبو يوسف قد تقدم ذكره في مقدمة الكتاب، وكذلك محمد بن الحسن الشيباني، وكلاهما رويا عن الإمام أبي حنيفة.

يقول المرغيناني في «الهداية» ـ وهو حنفي ـ: «أدنى ما يجزئ من القراءة في الصلاة آية عند أبي حنيفة، وقالا:» ـ يعني: أبا يوسف ومحمد ـ «ثلاث آيات قصار أو آية طويلة؛ لأنه لا يسمى قارئًا بدونها، فأشبه قراءة ما دون الآية».

ونقل العيني في (البناية) التي هي شرح (الهداية): «أن قولهما هو رواية عن أبي حنيفة».

على كل حال: هذا كله دليل على أن القرآن كلام الله، وأنه ليس يشبه قول البشر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي - رحمه الله -:

وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ، فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ.

---

قال الشارح:

لَمَّا ذَكَرَ - فِيمَا تَقَدَّمَ - أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، مِنْهُ بَدَا، نَبَّهَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ، نَفْيًا لِلتَّشْبِيهِ عَقِيبَ الْإِثْبَاتِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَإِنْ وُصِفَ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ، لَكِنْ لَا يُوصَفُ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ بِهَا مُتَكَلِّمًا، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. وَمَا أَحْسَنَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَ لِلْمُثْبِتِ لِلصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، بِاللَّبَنِ الْخَالِصِ السَّائِغِ لِلشَّارِبِينَ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثِ التَّعْطِيلِ وَدَمِ التَّشْبِيهِ، وَالْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا، وَالْمُشَبِّهُ يَعْبُدُ صَنَمًا. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، وَكَذَا قَوْلُهُ: (وَهُوَ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ)، أَيْ: دِينُ الْإِسْلَامِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّعْطِيلَ شَرٌّ مِنَ التَّشْبِيهِ؛ لِمَا سَأَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا، بَلْ صِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ)، أَيْ: مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِ فِيمَا قَالَهُ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَصْفِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ وَوَعِيدِ الْمُشَبِّهِ، اعْتَبَرَ وَانْزَجَرَ عَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ.

قال الشيخ:

ذكر في هذا الكلام أن من الناس من غلا وجعل كلام الله ككلام البشر، ومنهم من جفا ونفى أن يكون لله كلام أصلًا، وادعى أن القرآن مخلوق، ومنهم من أثبت لله تعالى كلامًا، ونفى أن يكون مثل كلام المخلوقين، وهذا هو القول الوسط، وهو قول أهل السنة. ويقال كذلك في سائر الصفات، وهو أن كل صفة نثبتها لله تعالى فإنا نعتقد أنها على ما يليق به، وننزِّه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن أن يكون شبيهًا بالمخلوقين في أي صفةٍ، كما ننزهه عن أن تُسلب عنه صفات الكمال، فسَلْبُ الصفات يُسمى تعطيلًا، وإثباتها واعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين يُسمى تشبيهًا، وكلاهما طرفا نقيض، وكلاهما باطل لا يجوز القول به، والقول الوسط ـ الذي هو قول أهل السنة ـ اعتقاد أن صفات الله وكلامه وأفعاله ثابتة وحقٌّ ويقين، وليست مماثلةً لصفات المخلوقين، هكذا يجب أن نقول، ولأجل ذلك مثَّله الشارح باللَّبَن الصافي الذي يخرج من بين فَرْثٍ ودم، فجعل اللَّبَن هو قول أهل السنة، والفَرْثُ والدم قولَ المعطِّلة والمشبِّهة.

وذكر أن بعض السَّلف كانوا يقولون: «الممثِّل يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموحِّد يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا». ويقول آخر: من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومَن نفى عنه ما أثبته لنفسه فقد كفر، وليس في إثبات صفات الله تعالى تشبيه أصلًا، بل فيها إثبات صفاتٍ تليق بجلاله، ينزَّه فيها عن أن يكون مشابهًا لشيء من المخلوقات، وهكذا ينبغي أن نعتقد في صفات ربِّنا سبحانه وتعالى.

وبلا شك أن كلا الطرفين يعتقده خَلْقٌ، يعني: طرف التشبيه يعتقده أناس، وطرف التعطيل عليه أمم آخرون، ولكن المعطِّلة أكثر، لما يروِّجونه من عقليَّاتهم التي يموِّهون بها في نفي الصفات، فلأجل ذلك يقول الشارح: إن المعطِّلة أشد كفرًا من المشبِّهة، و ما ذاك إلَّا لكثرة ما ابتُلِيَ بهم الخلق؛ فلذلك يرجح كثير من الأئمة أن المعطِّل قد تنقَّص الله غاية التنقُّص، حتى سلب ربَّه سبحانه صفات الكمال وألحقه بالناقصات أو بالجمادات أو بالمعدومات أو بالمستحيلات الممتنعات، يعني: من لازم أقوالهم مثل هذا، فلذلك يقول ابن القيم في نونيّته[1]:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

يعني: ما كأنه يعبد شيئًا، ولا يؤمن بشيء - تعالى الله عن قولهم - ويأتي لذلك أيضًا زيادة بيان في الردِّ على الطائفتين.

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢١٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الجَنَّةِ، بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَلِمَهُ.

وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ.

---

قال الشارح:

المُخَالِفُ فِي الرُّؤْيَةِ: الجَهْمِيَّةُ وَالمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الخَوَارِجِ وَالْإِمَامِيَّةِ، وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَدْ قَالَ بِثُبُوتِ الرُّؤْيَةِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ المَعْرُوفُونَ بِالْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَأَهْلُ الحَدِيثِ، وَسَائِرُ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ المَنْسُوبُونَ إِلَى السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ مِنْ أَشْرَفِ مَسَائِلِ أُصُولِ الدِّينِ وَأَجَلِّهَا، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا المُشَمِّرُونَ، وَتَنَافَسَ المُتَنَافِسُونَ، وَحُرِمَهَا الَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ مَحْجُوبُونَ، وَعَنْ بَابِهِ مَطْرُودُونَ.

---

قال الشيخ:

من هنا بدأ الماتن ثم الشارح بالكلام على مسألة رؤية المؤمنين لربِّهم سبحانه وتعالى، والرؤية في الآخرة ثابتة لأهل السنة في الجنة وفي الموقف أحيانًا، وهذه الرؤية من تمام نعيم أهل الجنة، ومن تمام كرامتهم، ومن تمام إتحافهم والإنعام عليهم، أن يروا ربَّهم، وأن يتجلَّى لهم ربُّهم كما يشاء، وأن يكشف الحجاب بينهم وبينه، وأن ينظروا إليه كما يشاء، وإذا نظروا إليه لم يلتفتوا إلى غيره حتى يحتجب عنهم، فيزدادون بهجةً وسرورًا، وتُسْفِرُ وجوههم وتزدادُ نُضرة، ويزدادون حبرةً وفرحًا.

وأخبر العلماء والعبَّاد والعارفون بأنه لولا يقينهم بأنهم سيرون ربهم تعالى لقتلوا أنفسهم، ولو خافوا أنهم في الآخرة لا يتنعَّمون برؤيته لَمَا قرَّ لهم قرارٌ، ولَمَا سُرُّوا بذلك الموعد، لكن اطمأنوا إلى خبر ربِّهم، والخبر عن نبيِّهم عليه أفضل الصلاة والسلام، وصدَّقُوا بأنهم في يوم القيامة وفي الجنة يتنعَّمون غاية التنعُّم برضا الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك برؤيته، ولا شكَّ أن ذلك واردٌ في الأدلة الكثيرة، وفي النصوص الصحيحة التي لا تحتاج إلى تدعيمٍ ولا إلى تقوية، والتي بلغت في كثرتها التواتر، وسيورد الشارح كثيرًا منها، ولكن أنكرها ـ مع كثرتها ـ من حُرِموا هذا النعيم، ومن صُدُّوا بقلوبهم عن هذا الأمر العظيم، أولئك هم الجهمية والمعتزلة، وأتباعهم من الخوارج والإمامية.

والجهمية أتباع الجهم بن صفوان، وهو أوَّل من أنكر الصفات، كما أنكر أن يكون الربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ يُرى، وقال: لا يمكن أن يُرى إلَّا إذا كان في

مقابلة أو كان في جهة، فادّعى أن رؤيته مستحيلة غير ممكنة.

وتَبِعت الجهميَّةَ المعتزلةُ، والمعتزلة فِرقٌ كثيرة، لا يزالون موجودين، ولهم مؤلَّفات ينكرون فيها الصفات، ومن جملة الصفات الرؤية، ينكرون أكبر نعيم وأكبر لذَّة لأهل الجنة، ولأهل الدنيا إذا تذكروها، هداهم ما تذكروه إلى طلبها وإلى المغالاة في العبادة التي تؤهِّلهم لها، ولا شكَّ أن هذه العبادة هي أجلُّ العبادات، وهذا النعيم هو أجلُّ نعيم يحصل لأهل الجنة.

وتبعهم على ذلك المتأخرون من الخوارج، فإنهم على هذا المعتقد، وهو إنكار الرؤية، والقول بأن القرآن مخلوق، والقول بأن العبد ليس له أية قدرة، بل هو مَسلوبُ القدرة، أما المتقدمون من الخوارج فلم يُنقل عنهم كل ذلك.

هذه من عقائد المعتزلة التي وافقهم عليها بعض الخوارج، وقد اطَّلَعتُ على كتاب لبعض المتأخرين سمَّاه «الحقُّ الدامغ»، أنكر فيه الصفات، وركَّز على مسألة الرؤية، وتكلَّف في صرفِ الأدلة التي تدل عليها، وركز فيه أيضًا على مسألة القرآن وأنه مخلوق، وكذلك مسألة القدر، فأنكر قدرة الله على أفعال العباد، فينبغي أن نأخذ حذرنا من مثل هذه الكتب وهؤلاء المؤلفين، وهذا المؤلف موجود في دولة عُمان، وقد ضلَّ بسببه خلق كثير، ولكن بحمد الله أن الحق واضح، ويبشِّرُنا كثيرٌ من الذين ذهبوا إلى تلك الدولة أن كثيرًا من الشباب الذين تفتَّحت معارفهم قد أنكروا معتقد أسلافهم وآبائهم لمثل هذا، وأنهم رجعوا إلى عقيدة أهل السنة، ولو لم يتمكنوا من الإفصاح بها، ولكن الإباضية هناك - والذين هم فرقة من الخوارج - لهم الدولة ولهم الصَّولة ولهم

القوة، فَهُم من بقية الخوارج يعتقدون هذه العقيدة.

وبكل حال، فإن مسألة الرؤية هي من أجلِّ المسائل ومن أفضلها، اعتقدها أهل السنة، وآمنوا بها، ولا عبرة بمن أنكرها من هؤلاء، فقد أخبر الله تعالى بأن من خلقه من يُحْجَبُ عنه، في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وهؤلاء منهم بلا شك، إذا كانوا ينكرون أن يكون الله تعالى يُرى في الآخرة فمعناه أنهم لا يريدون رؤية الله، وأنهم سيُحجبُون عن الله تعالى، ولا يُحجب عنه إلا الكافرون، فقد حرموا أنفسهم هذه اللذة وأنكروها، فيكونون معاقبون بمثل ما اعتقدوه والعياذ بالله.

قال الشارح:

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنَ الْأَدِلَّةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، وَهِيَ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ، وَأَمَّا مَنْ أَبَى إِلَّا تَحْرِيفَهَا بِمَا يُسَمِّيهِ تَأْوِيلًا، فَتَأْوِيلُ نُصُوصِ الْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ، أَسْهَلُ مِنْ تَأْوِيلِهَا عَلَى أَرْبَابِ التَّأْوِيلِ، وَلَا يَشَاءُ مُبْطِلٌ أَنْ يَتَأَوَّلَ النُّصُوصَ وَيُحَرِّفَهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا إِلَّا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ السَّبِيلِ مَا وَجَدَهُ مُتَأَوِّلُ هَذِهِ النُّصُوصِ.

وَهَذَا الَّذِي أَفْسَدَ الدُّنْيَا وَالدِّينَ، وَهَكَذَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي نُصُوصِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَحَذَّرَنَا اللَّهُ أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَهُمْ، وَأَبَى الْمُبْطِلُونَ إِلَّا سُلُوكَ سَبِيلِهِمْ، وَكَمْ جَنَى التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنْ جِنَايَةٍ، فَهَلْ قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ! وَكَذَا مَا جَرَى فِي يَوْمِ الْجَمَلِ، وَصِفِّينَ، وَمَقْتَلِ الْحُسَيْنِ ﷺ، وَالْحَرَّةِ؟ وَهَلْ خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ، وَاعْتَزَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، وَرَفَضَتِ الرَّوَافِضُ، وَافْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ؟!

وَإِضَافَةُ النَّظَرِ إِلَى الْوَجْهِ، الَّذِي هُوَ مَحَلُّهُ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَتَعْدِيَتُهُ بِأَدَاةِ (إِلَى) الصَّرِيحَةِ فِي نَظَرِ الْعَيْنِ، وَإِخْلَاءُ الْكَلَامِ مِنْ قَرِينَةٍ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ حَقِيقَتُهُ وَمَوْضُوعِهِ، صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِذَلِكَ نَظَرَ الْعَيْنِ الَّتِي فِي الْوَجْهِ إِلَى الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ.

قال الشيخ:

أصرحُ ما استدلّ به أهل السنة هو هذه الآية التي في سورة القيامة، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، الكلمة الأولى رسمت بالضَّاد، والمراد أنها وجوهٌ مشرقة ناضرةٌ، من النضارة التي هي البهاء والإشراق والسرور والابتهاج، يعني: أنها منيرة، وقد ذكر الله تعالى أن وجوه أهل الخير هكذا فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، تبيضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسوَدُّ وجوه أهل الفرقة والابتداع، وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، هذه وجوه أهل السعادة أيضًا.

فهكذا ذكر الله في هذه الآية أن هذه الوجوه ناضرة، يعني: بهيَّةٌ مشرقةٌ مستنيرة مضيئة، تغشاها الفرحة والسرور، لماذا ؟ لأنها شاعرة بالسعادة، ولأنها أيقنت بحسن العاقبة، ولأنها عرفت الفوز والظفر بالمطلوب، وعرفت أنها ستلقى الجزاء الذي وعدت به، وهو الجزاء الأوفى الذي هو جزاء الحسنات بأضعافها.

والقول الثاني: أنها لَمَّا نظرت إلى الله سبحانه أشرقت من آثار ذلك النظر، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾، أي: مشرقة مضيئة بسبب رؤيتها لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، أي: تلك الوجوه الناضرة ناظرة إلى ربها ـ جل وعلا ـ نظر عيان، ولم يقل: إلى نعمة ربِّها ناظرة، ولم يقل: إلى ثواب ربها ناظرة،

ولم يقل: إلى النعيم راضية، ولا إلى الجنة ناظرة، بل قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: تنظر إلى ربها.

وفرق بين من يقرؤها ويُمِرُّها كما جاءت، وبين من يتكلف في تأويلها، فالمعتزلة والذين أنكروا الصفات تأوّلوها تأويلاتٍ بعيدة، فيؤول بعضهم قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ﴾ بالنعمة، يعني: آلاء ربِّها أو نِعَم ربِّها ناظرة. ونحن نقول: و﴿إِلَىٰ﴾ معروف أنه حرف جر، ولكن جعلوه اسمًا مضافًا، فقالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾، أي: نعمة ربِّها، أو واحد الآلاء، ولا شك أن هذا تكلُّف بعيد.

وهكذا قال بعضهم: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: إلى ثواب ربها، أو إلى نعمة ربها، أو إلى جزاء ربها، فجعلوا في الكلام مضمرًا، ما الذي دلكم على أن في الكلام مضمرًا أو محذوفًا؟ ولماذا تتركون الظاهر وتأتون بمضمر من قبل أنفسكم؟ لا شك أنه لا دلالة عليه عندهم.

وبعضهم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: إلى ربِّها منتظرة ما يعطيها أو ما يهبها، مع أن هناك فرقًا بين ناظرة وبين منتظرة.

هذه من أمثال التأويلات، وما هو إلا تكلُّف ويسمونه تأويلًا، وهو في الحقيقة تحريف وتغيير وتصحيف لكلام الله، وصرف له عن ظاهره.

نقول: إذا تسلَّطتم على هذا النص بالتأويل، أمكن غيركم وأمكنكم أن تتأوّلوا آيات المعاد، أنتم الآن يا معتزلة تسلَّطتم فتأوَّلتم آيات الصفات وحرفتموها وصرفتموها عن ظاهرها، وبفعلكم هذا فتحتم الباب لغيركم،

فجاء الفلاسفة وأنكروا المعاد الجسماني، وقالوا: ليس هناك ردٌّ للأرواح في الأجساد، وليس هناك إحياء للأموات، فقيل لهم: كيف تردون على هذه النصوص؟ فقالوا: نتأوَّلها، ليس تأويلكم لآيات الصفات أصعب من تأويلنا لآيات المعاد.

ثم جاءت فرقة أخرى من غُلاة الفلاسفة وغلاة الصوفية، فتأوَّلوا نصوص الأحكام ـ الحلال والحرام والأوامر والنواهي ـ وصرفوها أيضًا، وأبطلوها كلَّ الإبطال، حتى قال بعضُهم: المراد بالحجِّ حج القلوب إلى علاَّم الغيوب، أو قالوا مثلًا: المراد بالصلاة اتصال القلب بالربِّ، وليس معناها أن تجتمعوا في المساجد وتركعوا وتسجدوا، هذا ليس المراد منكم، إذا صفت قلوبكم، واتصلت بالملإ الأعلى، فهذه هي الصلاة التي أُمِرتُم بها! هكذا يقول الفلاسفة، ويقول الصوفية ونحوهم.

نقول: إذًا بطلت بهذا التأويل الأحكامُ التي نقلت بالفعل وبالقول الصريح ؟! بسببكم يا أشعرية ويا معتزلة، لَـمَّا فتحتم باب التأويل لآيات الصفات، فدخل من هذا البَاب الفلاسفةُ والصوفيةُ وأهلُ الوحدة ونحوهم، وصاروا يتأولون، وحصل بالتأويل مفاسد، فإن الفتن التي وقعت من عهد الصحابة إنما هي بسبب التأويلات الباطلة، يعني: قتل عثمان ﷺ، وقتل الحسين ﷺ، وكذلك الفتن التي حصلت، مثل وقعة صفِّين، ووقعة الجمل، ووقعة الحرَّة، حصلت بسبب التأويلات البعيدة عن الصواب.

فلا تتأولوا النصوص، بل أجرُوها على ما يُفهم منها، وفوِّضوا الكيفية،

إذا قصرت أنظارُكم ومعرفتُكم عن شيء فلتتوقّف عن الكيفية، كيفيَّة تلك الرؤية، أو كيفية الصفة التي هي صفة ذات، قولوا: الله أعلم بها، كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ». فهكذا نقول: الكلام معلومٌ، والكيف مجهول، والرؤيةُ معلومةٌ وكيفيتها مجهولة لنا، الله أعلم بكيفيتها.

وإذا كان كذلك سَلِمنا من أن نقع في هذا التحريف الذي سمَّاه أهله تأويلًا ترويجًا له؛ حتى يُقبل عند السُّذَّجِ وقِصار الأفهام.

قال الشارح:

فَإِنَّ النَّظَرَ لَهُ عِدَّةُ اسْتِعْمَالَاتٍ، بِحَسَبِ صِلَاتِهِ وَتَعَدِّيهِ بِنَفْسِهِ: فَإِنْ عُدِّيَ بِنَفْسِهِ فَمَعْنَاهُ: التَّوَقُّفُ وَالِانْتِظَارُ، كَقَوْلِهِ: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣]، وَإِنْ عُدِّيَ بِـ (فِي)، فَمَعْنَاهُ: التَّفَكُّرُ وَالِاعْتِبَارُ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وَإِنْ عُدِّيَ بِـ (إِلَى)، فَمَعْنَاهُ: الْمُعَايَنَةُ بِالْأَبْصَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:٩٩]، فَكَيْفَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْبَصَرِ؟

وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِسَنَدِهِ إِلَى ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]، قَالَ: مِنَ الْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، قَالَ: فِي وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١). عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: نَظَرَتْ إِلَى رَبِّهَا فَنُضِّرَتْ بِنُورِهِ(٢). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قَالَ: تَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ(٣). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وُجُوهٌ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الديلمي في الفردوس (٤/ ٤٠٩)، وأخرج نحوه: أحمد (٢/ ١٣، ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣)، والطبري (٢٩/ ١٩٣)، وأبو يعلى (١٠/ ٧٦)، والحاكم (٢/ ٥٠٩)، والدارقطني في الرؤية (ص١٤٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩/ ١٩٢)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٦٤)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٩١)، والدارقطني في الرؤية (ص١٦٢).

(٣) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٦٤)، والآجري في الشريعة =

﴿يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، قَالَ: مِنَ النَّعِيمِ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قَالَ: تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا نَظَرًا[1]، ثُمَّ حَكَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ. وَهَذَا قَوْلُ كُلِّ مُفَسِّرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالحَدِيثِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، قَالَ الطَّبَرِيُّ[2]: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فَالحُسْنَى: الجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَسَّرَهَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ مِنْ بَعْدِهِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»[3] عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: «قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيُكْشَفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ

---

=

(٢/ ٩٩٠)، والبيهقي في الاعتقاد (ص١٢٦).

(١) أخرجه الطبري (٢٩/ ١٩٢)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص١٢١)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٦٥)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٩٢).

(٢) في تفسيره (٢٦/ ١٧٣ ـ ١٧٥).

(٣) برقم (١٨١) بغير هذا اللفظ.

إِلَيْهِ، فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ». وَرَوَاهُ غَيْرُهُ[1] بِأَسَانِيدَ مُتَعَدِّدَةٍ وَأَلْفَاظٍ أُخَرَ، مَعْنَاهَا أَنَّ الزِّيَادَةَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكَذَلِكَ فَسَّرَهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ[2] ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ، مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ، وَحُذَيْفَةُ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

قال الشيخ:

هذه ثلاث آيات من كتاب الله تعالى دالَّةٌ على الرؤية أو مفسَّرة بها، فالآية الأولى هي قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، وفي تفاسير الصحابة والتابعين أنهم قالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: إلى وجه ربها، أو تنظر إلى ربِّها، صرّح بذلك عددٌ من الصحابة، وقد ذكرت أن المعتزلة حرَّفوا كلمة النظر، فجعلوه الانتظار، أو حرَّفوا كلمة (إلى) فجعلوها النعمة، أو اعتقدوا ضميرًا، فجعلوا على حذف مُضاف، أي إلى نعمة ربها، أو إلى ثواب ربِّها.

وكلمة النظر تارة تُعدَّى بنفسها، وتارة تعدّى بحرف «في»، وتارة تُعدَّى

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٠)، وابن ماجه (١٨٧)، وأحمد (٤/ ٣٣٣).

(٢) في تفسيره (١١/ ١٠٤ ـ ١٠٧).

بحرف «إلى»، فمثال تعديتها بنفسها: قول الله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣]، قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ هنا ليس معناه النظر بالعين، وإنما معناه انتظروا، أي: أمهلوا حتى نقتبس من نوركم، ليس معناه المعاينة؛ لأنه عُدِّيَ بنفسه، ومثال تعديته بـ «في»: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، النظر هنا بمعنى الاعتبار، ينظر في الملكوت يعني: نظر اعتبار وتأمُّل؛ ليستدلوا بها على قدرة خالقها، وإذا عُدِّيت بـ «في» فلا تحتمل إلَّا النظر بالاعتبار.

وأما هنا، فإن النظر عُدِّي بـ «إلى»، فهو مثل قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:٩٩]، ﴿ٱنظُرُوٓا۟﴾ هنا يعني: بأعينكم، وهي لا تحتمل غير المعاينة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧]، يعني: الإبل موجودة أمامهم فينظرون إليها معاينة، فكذلك قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، لا تحتمل إلَّا أن النظر هو المعاينة، فتبيَّن بذلك في صراحة الآية دلالتها على النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

الآية الثانية: قوله تعالى في سورة «ق»: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، الله تعالى أخبر بأن لهم فيها ما يشاؤون، كل شيء يشاؤونه وتتمنَّاه نفوسهم أو يخطر على بالهم يحضر إليهم، ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾،

هذا المزيد زائد عن النعيم الذي بين أيديهم، فلا بدّ أن يكون هذا الزائد له خصوصية، لذلك فُسِّر المزيد بأنه النظر إلى وجه ربِّهم، يعني: نعمة زائدة على ما يستحقونه، وهي: النظر إلى ربهم، يعني: أثابهم الله وأعطاهم ذلك، هكذا فُسِّرت من قبل السَّلف بأن المزيد هو النظر إلى ربهم.

الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ [يونس:٢٥، ٢٦]، دار السلام: هي الجنة، يدعو إليها ويدعو إلى العمل الذي يدخلها، ثم إذا دخلوها فماذا يستحقون؟ ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وهي الجنة التي فيها جميع أنواع الحسن، ﴿وَزِيَادَةٞ﴾، لاشك أن هذه الزيادة شيء زائد على الحسنى التي هي الجنة؛ لذلك فسَّرها رسول الله ﷺ بأنها نظرهم إلى وجه ربهم، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن صهيب ﷺ، ورواه أيضًا غيره، وكذلك فسَّره أبو بكر وغيره من الصحابة، واستدلوا بأنه قال بعدها: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾، يعني: أنهم بنظرهم إلى الله لا يرهَقُهم مللٌ، ولا يلحق وجوههم كدر، ولا يلحقها ذلةٌ ولا مهانة ولا غير ذلك.

لأن عادة الإنسان إذا نظر إلى الشمس في شدة وهجها، فإن وجهه قد يَعبس، أو قد يتغير، وعينيه قد تكِلُّ من قوة شُعاعها وقوة نورها، وكذلك بعض الأنوار المشعة شديدة الإضاءة كالبرق ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا

بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور:٤٣]، والله تعالى قد أخبر بأنه نورٌ ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥]، وأخبر النبي ﷺ بأن حجابه النور[١]. فهذا يعني أن النظر إليه مع كثرة تلك الأنوار المشعة، لا يرهق وجوه المؤمنين منه ذلّةٌ، بل تزداد وجوههم إشراقًا، وتزداد بهجة ونضارة وسرورًا، وما ذاك إلَّا أنهم يعدُّون ذلك غاية النعيم، ولذلك قال بعض العابدين[٢]:

فَلَو أَنِّي اسْتَطَعْتُ غَضَضْتُ طَرْفِي ... فَلَمْ أَنْظُرْ بِهِ حَتَّىٰ أَرَاكَ

يعني: من شدة الشوق إلى الله تعالى، يقول: لو استطعت لما نظرت إلى أي مخلوق حتى أنظر إليك يا ربي، شوقًا إليك وارتياحًا إلى رؤية ربي، هكذا حالة العارفين المشتاقين إلى ربهم. أمّا الذين أنكروا هذه الرؤية فإنهم محرومون من هذا النعيم كله، محرومون من هذه الزيادة، أو قد اعتقدوا حرمان أنفسهم والعياذ بالله.

ومسألة الرؤية مسألة كبيرةٌ شريفة، قد اهتم بها أهل السنة، وقدَّموا الكلام فيها، من وقت الإمام الشافعي وهم يجادلون فيها لمن أنكرها، ولا يزالون إلى ذلك، وقد كتب فيها ابنُ القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه المسمّى: «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، الذي يتعلق بصفة الجنة، وقد سرد في باب من أبوابه آيات الرؤية، ثم سرد فيه الأحاديث الواردة في ذلك، والتي يمكن

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٦٣)، وسيورده الشارح مع أحاديث أُخر فيما بعد.

(٢) ذكره ابن الجوزي في المدهش (ص٥٠٢) ونسبه إلى المتنبي.

الاستدلال بها، وإذا كان في بعضها ضعف فإن بعضها يتقوي ببعض، والأكثر قويٌّ من حيث السند، وأعرض عن الأحاديث الموضوعة، فمن قرأه عرف بذلك كثرة ما ورد فيها من الأدلة، وهكذا أيضًا أتبعه بالنقولات ثم ردّ على من أنكر ذلك من المعتزلة، وبيَّن ما أجابوا به، وناقشهم بما استدلوا به.

وتبعه على ذلك الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي في كتابه الذي سماه «معارج القبول في شرح سلّم الأصول»، وكتاب « سُلَّم الأصول »، وهي منظومة نظمها من أول أمره، ثم شرحها في هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين، وأفاض في الشرح وتوسع، ولَمَّا أتى على الأدلة التي تدل على صفة الرؤية توسع أيضًا فيها، فنحيل إلى هذين الشرحين لمن أراد أن يتوسع: كتاب ابن القيم وكتاب الشيخ حافظ الحكمي، وغيرهما أيضًا من الكتب التي اعتنت بمسائل التوحيد والعقيدة، ومن جملتها مسألة الرؤية، ومناقشة ما فيها من الخلافات، وبيان الحق لأهله.

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، احْتَجَّ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبَرِيُّ[1] وَغَيْرُهُ عَنِ الْمُزَنِيِّ عَنِ الشَّافِعِيِّ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: حَدَّثَنَا الْأَصَمُّ حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَضَرْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيَّ، وَقَدْ جَاءَتْهُ رُقْعَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ فِيهَا: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: «لَمَّا أَنَّ حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي السُّخْطِ، كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا»[2].

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْمُعْتَزِلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فَالْآيَتَانِ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ.

الْآيَةُ الْأُولَى: فَالِاسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَالِ.

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ، وَلَمَّا سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ

---

(١) في تفسيره (٣٠/ ١٠٠).

(٢) أخرجه البيهقي من طريق أبي عبد الله الحاكم في «أحكام القرآن للشافعي» (١/ ٤٠)، وأخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٠٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٣١٤).

سُؤَالَهُ، وَقَالَ: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦].

الثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي لَا أُرَى، أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيَتِي، أَوْ لَسْتُ بِمَرْئِيٍّ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ ظَاهِرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَانَ فِي كُمِّهِ حَجَرٌ فَظَنَّهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ: أَطْعِمْنِيهِ، فَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ: أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ، أَمَّا إِذَا كَانَ طَعَامًا، صَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَأْكُلَهُ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَرْئِيٌّ، وَلَكِنَّ مُوسَى لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيَتَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ؛ لِضَعْفِ قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى. يُوَضِّحُهُ:

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْجَبَلَ مَعَ قُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ لَا يَثْبُتُ لِلتَّجَلِّي فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ؟

الْخَامِسُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْجَبَلَ مُسْتَقِرًّا، وَذَلِكَ مُمْكِنٌ، وَقَدْ عَلَّقَ بِهِ الرُّؤْيَةَ، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِيرَ أَنْ يَقُولَ: إِنِ اسْتَقَرَّ الْجَبَلُ فَسَوْفَ آكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنَامُ. وَالْكُلُّ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ.

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ الَّذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوَابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَجَلَّى لِرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ؟ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أَنَّ الْجَبَلَ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيَتِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَالْبَشَرُ أَضْعَفُ.

السَّابِعُ: أَنَّ اللَّـهَ كَلَّـمَ مُوسَـى وَنَـادَاهُ وَنَاجَـاهُ، وَمَـنْ جَـازَ عَلَيْـهِ الـتَّكَلُّمُ وَالتَّكْلِيمُ وَأَنْ يُسْمِعَ مُخَاطِبَهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَرُؤْيَتُهُ أَوْلَى بِالْجَوَازِ، وَلِهَذَا لَا يَتِمُّ إِنْكَارُ رُؤْيَتِهِ إِلَّا بِإِنْكَارِ كَلَامِهِ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا. وَأَمَّا دَعْوَاهُمْ تَأْبِيدُ النَّفْيِ بِـ (لَنْ)، وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الْآخِرَةِ، فَفَاسِدٌ، فَإِنَّهَا لَوْ قُيِّدَتْ بِالتَّأْبِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى دَوَامِ النَّفْيِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَيْفَ إِذَا أُطْلِقَتْ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقـرة:٩٥]، مَـعَ قَوْلِـهِ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وَلِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ لِلتَّأْبِيدِ الْمُطْلَقِ لَمَا جَازَ تَحْدِيدُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يوسف:٨٠]، فَثَبَتَ أَنَّ (لَنْ) لَا تَقْتَضِي النَّفْيَ الْمُؤَبَّدَ.

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ بْنُ مَالِكٍ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ـ[1]:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

---

قال الشيخ:

أما الآية الأولى التي استدل بها الشافعي على إثبات الرؤية، فهي قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وهي أوضح دليل على أن أهل الجنة ليسوا محجوبين عن ربهم؛ وذلك لأن هذا وعيدٌ لأعداء الله،

---

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (٣/ ١٥١٥).

وعيد للكفار، وعيد للفجَّار الذين قال الله في حقهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، فهؤلاء من وعيدهم أنهم عن ربهم يومئذٍ - أي: يوم القيامة وما بعده - محجوبون، وقد ذكر بعدهم الأبرار في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، ولو كانوا لا يرون ربهم لكانوا أيضًا عن ربهم محجوبين، فلم يكن هناك فرق بين الأبرار والفجار، وهؤلاء يعتبرون قد عذِّبوا بحجبهم عن ربهم، والحيلولة بينهم وبين نعمة الرؤية ونعيمها، ولا شك أن رؤية المؤمنين وعدم حجبهم نعمة ومنَّة وكرامة يزدادون بها نعيمًا وبهجة، فلو كانوا لا يرون ربهم لم يكن هناك فرق بين الأبرار والفجار، ولكانوا جميعًا عن ربهم محجوبون، فهذه آية استدل بها الشافعي ومن بعده من الأئمة على إثبات رؤية المؤمنين وحجب الكافرين.

وأما الآية الثانية فقد استدل بها المعتزلة على إنكار الرؤية، وهي في قصة موسى - عليه السلام - لَمَّا سأل الله تعالى الرؤية، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فاستدلوا بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، على أنك لا تراني أبدًا لا في الدنيا، ولا في الآخرة، **وهذا تأويل خاطئ**؛ لأن الآية إنما نفت الرؤية في الدنيا، وذلك لأن الإنسان في الدنيا خِلْقَتُهُ ضعيفةٌ، لا يستطيع أن يمثل أمام عظمة الربِّ سبحانه

وتعالى، فإن خلْقَتَنا في هذه الدنيا على هذه الهيئة، خلقةٌ ضئيلة ضعيفة، لا تثبت أمام تجلِّي ربِّنا، ولا أمام أنواره وجلائه وكبريائه، وقد أخبر النبي ﷺ بشيء من ذلك في قوله: «**إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَا يَنَامُ، ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ...**»، إلى قوله: «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[1]، يعني: أن هذا الحجاب في الدنيا، حجاب النور أو النار، لو كشفه لأحرق ذلك الضياء وذلك النور ما انتهى إليه من الخلق، فإذا كان كذلك، فجميع الخلق في هذه الدنيا مخلوقون من هذا اللحم والدم على هذه الخلقة الضعيفة، لا يستطيعون أن يمثلوا أمام هذه الرؤية وهذه العظمة، فهذا هو السبب في أن الله منع موسى ـ عليه السلام ـ من الرؤية في الدنيا.

ولكن هل يدل على أنه ممنوع من الرؤية في الآخرة؟ لا يدلُّ على ذلك في الآخرة؛ إذ يعطي الله أولياءه من قوة الخلقة ومن عظمها ما يثبُتُون به أمام رؤية ربِّهم، فقد وردَ أن كل من يدخل الجنة يوم القيامة «**على خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، على صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا في السَّمَاءِ**»[2]، فإذا كانت هذه الزيادة في خِلَقِهم فلابدَّ أنه سيُزاد في قوة حواسِّهم وفي قوة أعضائهم حتى يتمكنوا من الثبوت أمام رؤيتهم لربهم، ولا يغشى وجوههم قتر ولا ذلّةٌ، ولا ينالهم شيء من

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الضعف ولا مِمَّا ينالهم في الدنيا.

هذا هو السبب في أنّ الله منع موسى من الرؤية في الدنيا، وكذلك كلُّ أحد في الدنيا لا يستطيع أن يرى ربه، لقوله ﷺ في الحديث: «**تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى يَمُوتَ**»[1]، فأثبت أنه لا أحد يستطيع أن يمثل أمام عظمة ربه، وأنه لن يرى ربه حتى يموت، وذلك في حديث الدجَّال، لما أخبر بأن الدجَّال يأتي ويقول: أنا الربّ، أنا الله. أخبر بأنه كاذبٌ، وأنه لا يمكن في الدنيا لأحدٍ أن يرى ربه، إنما الرؤية في الآخرة.

ثم استدل الشارح بأن هذه الآية دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، فقال: (**فَالْاسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ**)، نقول: معلومٌ أن موسى نبيُّ الله وكليمُه الذي كلّمه تكليمًا، ومعلوم أنه اصطفاه؛ قال تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه:٤١]، اصطفاه واختاره، وأخبر بأنه كلَّمه تكليمًا، فهو من خيار أنبياء الله ورسله وأوليائه، وقد أرسله إلى فرعون، وأرسله إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه التوراة، وقربه نجيًّا، فهو أعرف بربه، وهو أعلم بما يستحيل على ربِّه، فكيف تكونون يا معتزلة أعلم من موسى عليه السلام؟! هل يُقال: إن فلانًا المعتزلي أو الجهمي أعلم من موسى عليه السلام؟! حاشا وكلَّا؛ موسى الذي هو أحد أولي العزم من رسل الله،

---

(١) رواه مسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الذي ذكره الله أكثر من ذكره من بين أنبيائه في كلامه، لا يكون ذلك المعتزلي أو الجهمي أعلم منه بما يستحيل على الله، وبما يجوز على الله، هذا مما تحيله العقول، ومما لا يجوز في شرع الله.

ثم إن الله تعالى ما أنكر عليه لما قال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[الأعراف:١٤٣]، ولم يوبِّخه على ذلك، وقد أنكر على نوحٍ ـ عليه السلام ـ لَـمَّا سأل نجاةَ ولده، لَـمَّا قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود:٤٥]، أنكر عليه وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، أنكر على نوح هذا السؤال، ولكن موسى ـ عليه السلام ـ لَـمَّا سأل وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، ما أنكر عليه، بل قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، فهل هذا دليل على أن هذا السؤال ليس بمستحيل، وقد قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: إني لا أُرى، إنه لا تجوزُ رؤيتي، إني لست بمرئيٍّ، بل قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، أي: لن تراني في الدنيا، ولا تستطيع ذلك. والفرق بين العبارتين واضح.

ومثَّل لذلك المؤلف ـ رحمه الله ـ بما إذا كان مع إنسان حجرٌ، وظننته رغيفًا، فقلت: أطعمني من هذا، فقال: لن تُطعمه، هل تفهم أنه ليس بطعامٍ، بل تقول: إنه قد حرمني، إذا قال: لن تأكله، لن تطعمه، تقول: قد حسدني من هذا الطعام. أما إذا قال: ليس بمطعوم، وليس بمأكول، ولا يصحُّ أكله، وليس بما يؤكل، فهمت بذلك أنه اعتذر، وأنه ليس من المأكولات.

فقولـه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، يبيِّن أن الرؤية جائزة، ولكنك لا تقدر عليها في الدنيا.

ثم قولـه: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾، علَّق رؤية موسى ـ عليه السلام ـ على استقرار الجبل، أليس استقرار الجبل ممكنًا؟ الله تعالى قادر على أن يثبِّت الجبل حتى يستقر إذا تجلّى له الرب، والله تعالى قد علَّق رؤية موسى على استقرار الجبل، والمعلَّق على الممكن ممكن، فهذا دليل على إمكان الرؤية، وأنها واقعة، وأنه يمكن رؤية الله، وأن رؤية الله ليست بمستحيلة، ما دامت عُلِّقت على ممكن، فالتعليق على الممكن ممكن.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، تجلّى الله كما شاء للجبل، ولَمَّا تجلّى للجبل ـ والجبل هو الطور من أكبر الجبال ـ انساخ الجبل، وذلك مع كونه جماد، ومع كونه ليس به حركة، انساخ واندكّ وانخسفت به الأرض ولم يثبت، فعند ذلك **صعق موسى** عليه السلام، وإذا جاز أن يتجلّى الله للجبل، ألا يجوز أن يتجلّى لعباده في الدار الآخرة؟ وأن يكرمهم بهذا التجلِّي، وينعمهم، ويزيد في كرامتهم، بلى، الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على ذلك، فكما تجلَّى للجبل لا يستحيل أن يتجلَّى لعباده كما يشاء في دار كرامته.

فعرفنا بذلك أن الآية دليلٌ على إمكان الرؤية، بل دليلٌ على وقوعها، وأن الاستدلال بها على النفي استدلالٌ عكسيٌّ، بل هي على الرؤية أدلُّ منها على ضدِّ الرؤية.

أما قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، فيقولون: إن كلمة ﴿لَن﴾، تدل على النفي المؤبد في الدنيا والآخرة، والجواب: أن كلمة (لن) لا تدلُّ على النفي المؤبد المؤبد ـ كما ذكر الشارح ـ حتى ولو أُكِّدت بأبد؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ [الجمعة:٧]، نفى أنهم يتمنَّون الموت، وقد ذكر أنهم يتمنُّونه في النار، ويقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، فهم يتمنون الموت في الآخرة، والله يقول: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾، إذًا المراد في الدنيا، فدلَّ على أن النفى في الدنيا لا يعمُّ النفي في الآخرة.

وهكذا البيت الذي أورده الشارح لابن مالك صاحب الألفية:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا  فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

ومعناه: أن من يرى من النحاةِ أن النفي مؤبّد بـ (لن)، فاردُد قوله، واعضد غيره من الأقوال، يعني: انصُر القول الذي يرى أنها لا تقتضي النفي المؤبَّد.

أما احتجاجهم بأن الرؤية مستحيلةٌ فمردود؛ لأنها لو كانت مستحيلة لما علَّقها على ممكن، فإن التعليق على شيء ممكن يدلُّ على الإمكان، والله تعالى منزَّه عن الحاجة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، وقرأها بعضهم: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ}[1]، وقال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٩).

أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات:٥٧]، فبيَّن أنه سبحانه منزه عن الحاجة إلى الطعام والشراب ونحو ذلك، وذكر من نقص عيسى وأمه الحاجة في قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة:٧٥]، يعني: أنهما يحتاجان ويأكلان الطعام، فدلَّ على أن الله تعالى منزَّهٌ عن الحاجة إلى ذلك.

فنقول: نحن والمعتزلة وغيرهم متفقون على أن الله ليس بحاجةٍ إلى الأكل والشرب ونحو ذلك، وذلك من المستحيلات، فلا يمكن أن يعلّق على شيء ممكن.

قال الشارح:

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ: فَالْاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى الرُّؤْيَةِ مِنْ وَجْهٍ حَسَنٍ لَطِيفٍ، وَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ التَّمَدُّحِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَدْحَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ، وَأَمَّا الْعَدَمُ الْمَحْضُ فَلَيْسَ بِكَمَالٍ فَلَا يُمْدَحُ بِهِ، وَإِنَّمَا يُمْدَحُ الرَّبُّ تَعَالَى بِالنَّفْيِ إِذَا تَضَمَّنَ أَمْرًا وُجُودِيًّا، كَمَدْحِهِ بِنَفْيِ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْقَيُّومِيَّةِ، وَنَفْيِ الْمَوْتِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْحَيَاةِ، وَنَفْيِ اللُّغُوبِ وَالْإِعْيَاءِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْقُدْرَةِ، وَنَفْيِ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالظَّهِيرِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَقَهْرِهِ، وَنَفْيِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ صمديته وَغِنَاهُ، وَنَفْيِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ تَوَحُّدِهِ وَغِنَاهُ عَنْ خَلْقِهِ، وَنَفْيِ الظُّلْمِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ عَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَغِنَاهُ، وَنَفْيِ النِّسْيَانِ وَغُزُوبِ شَيْءٍ عَنْ عِلْمِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، وَنَفْيِ الْمِثْلِ الْمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَلِهَذَا لَمْ يَتَمَدَّحْ بِعَدَمٍ مَحْضٍ لَمْ يَتَضَمَّنْ أَمْرًا ثُبُوتِيًّا، فَإِنَّ الْمَعْدُومَ يُشَارِكُ الْمَوْصُوفَ فِي ذَلِكَ الْعَدَمِ، وَلَا يُوصَفُ الْكَامِلُ بِأَمْرٍ يَشْتَرِكُ هُوَ وَالْمَعْدُومُ فِيهِ، فَإِنَّ الْمَعْنَى: أَنَّهُ يُرَى وَلَا يُدْرَكُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ لَا يُدْرَكُ بِحَيْثُ يُحَاطُ بِهِ، فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرُّؤْيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء:٦١، ٦٢]، فَلَمْ يَنْفِ مُوسَى الرُّؤْيَةَ، وَإِنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ،

فَالرُّؤْيَةُ وَالْإِدْرَاكُ كُلٌّ مِنْهُمَا يُوجَدُ مَعَ الْآخَرِ وَبِدُونِهِ، فَالرَّبُّ تَعَالَى يُرَى وَلَا يُدْرَكُ، كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ مِنَ الْآيَةِ، كَمَا ذُكِرَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ. بَلْ هَذِهِ الشَّمْسُ الْمَخْلُوقَةُ لَا يَتَمَكَّنُ رَائِيهَا مِنْ إِدْرَاكِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ.

---

قال الشيخ:

أكبر ما يستدلُّ به المعتزلة، هذه الآية من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٢، ١٠٣]، فإن هذه الآية عدُّوها أوضح الأدلة في أن الله لا يُرى؛ قالوا: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، يعني: لا تراه الأبصار، أما أهل السنة فقد استدلوا بها على إثبات الرؤية لا على نفيها؛ وذلك لأن الإدراك هو الإحاطة، أي: لا تحيط به الأبصار إذا رأته، فالفرق بينهما واضح؛ ليست الرؤية هي الإدراك، الإدراك شيء زائد على الرؤية.

وقد ورد عن عكرمة ـ رحمه الله ـ أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فسَّر قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، فقال: إن النبي ﷺ رأى ربه عز وجل، فقال له رجل: أليس قد قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فقال له عكرمة: ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى، قال:

فكلّها ترى؟[1]، يعني: أنك ترى الشمس ولكنك لا تراها كلّها إنما ترى منها ما قابلك، وكذلك إذا رأيت جبلًا بعيدًا فإنك ترى منه ما قابلك، ولم تره كلّه، فرؤيته كلّه أعلاه وأسفله والخفي منه والمقابل وغير المقابل، هذا يقال له: الإدراك، فإدراك البصر معناه: رؤية المرئي كلّه، وعدم خفاء شيء منه، والله تعالى لعظمته ولجلاله ولكبريائه إذا رأته الأبصار فلا تحيط به، ولا ترى إلا ما تجلّى منه، يتجلّى لهم وينظر إليهم وينظرون إليه، ولكن لا يُحيطون بذاته، إنما يدركون منه ما تجلّى، ففرقٌ واضحٌ بين الرؤية وبين الإدراك.

وقد أخبر الله تعالى عن قوم موسى ـ عليه السلام ـ أنهم لا يُدركون، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾، يعني قوم فرعون وقوم موسى عليه السلام، أخبر بأنهم يتراءون، هؤلاء يرون هؤلاء، وهؤلاء يرون هؤلاء، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، أي: محاط بنا، أي سوف يحيطون بنا ويلحقون ويحدقون بنا، هذا معنى الإدراك، فنفى ذلك موسى، وقال: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لا تخافوا، لا يدركونكم، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١، ٦٢]، وقد وعده الله بأنهم لا يدركون في قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]، فلما وعده بأنهم لا يدركون، وثق بوعد ربه، وأنهم لا يدركهم شيء.

والحاصل: أن هذه الآية دليل واضح على أن الله تعالى يُرى؛ حيث ذكرها

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٥٦).

في مجال التمدُّح، وقد علمنا أن الله لا يتمدَّح إلا بما هو ثبوت، لا يتمدّح بالنفي المحض، وكونه لا يُرى هذا ليس فيه مدح، النفي المحض عدم، والعدم ليس بشيء، والمعدوم لا يمدح به، وإنما الله مدح نفسه بالنفي الذي تضمَّن ثبوتًا.

وبكل حال يعتقد المسلم أن هذه الآية دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، ففيها أن الأبصار إذا نظرت إلى ربَّها فلا تدركه، يعني: لا تحيط به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

قال الشارح:

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ الدَّالَّةُ عَلَى الرُّؤْيَةِ، فَمُتَوَاتِرَةٌ، رَوَاهَا أَصْحَابُ الصِّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ.

فَمِنْهَا: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»، الحَدِيثَ، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] بِطُولِهِ.

وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَيْضًا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2] نَظِيرُهُ.

وَحَدِيثُ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، الحَدِيثَ أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3]. وَحَدِيثُ صُهَيْبٍ ﷺ الْمُتَقَدِّمُ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ[4] وَغَيْرُهُ.

وَحَدِيثُ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٤) برقم (١٨١).

فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1].

وَمِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ: «وَلَيَلْقِيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ، وَلَا تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ يَا رَبِّ»، الحَدِيثُ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»[2].

وَقَدْ رَوَى أَحَادِيثَ الرُّؤْيَةِ نَحْوُ ثَلَاثِينَ صَحَابِيًّا، وَمَنْ أَحَاطَ بِهَا مَعْرِفَةً يَقْطَعُ بِأَنَّ الرَّسُولَ قَالَهَا، وَلَوْلَا أَنِّي الْتَزَمْتُ الْاخْتِصَارَ لَسُقْتُ مَا فِي الْبَابِ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

---

قال الشيخ:

هذا النوع الثاني من الأدلة السمعية: الدلالة من السنّة، أي: من الأحاديث النبوية. ومعلوم أن السنّة تفسِّر القرآن، وتبيِّنه، وتدل عليه، وتعبِّر عنه، ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يقول إلَّا حقًّا؛ لأنه أعلم بربِّه الذي أرسله، فلا يصفه إلَّا بما هو حقٌّ، وبما هو وحيٌ ومطابق للواقع الحق، فإذا جاءتنا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) برقم (١٤١٣).

الأحاديث عن النبي ﷺ مشتملة على وصفٍ أو شيء من صفات الله تقبّلناها، وكيف لا نتقبّلها وهي من معدن الرسالة؟ كيف لا نتقبلها وهي من الرسول ﷺ الذي دلّ على ربه، والذي هدى الأمّة إلى الله، وبيَّن لهم حقوقه عليهم، فكذلك بيَّن لهم أنواع التوحيد، ومن جملة ما بيَّنه لهم: توحيد الأسماء والصفات، ولا شكّ أن من أجَلِّها: كون الله تعالى يُرى، ويتجلَّى لعباده.

وأحاديث إثبات الرؤية كثيرة، رواها نحو ثلاثين صحابيًّا، وهي في الجملة أغلبها صحيح، ومنها ما هو حسن، ومنها ما فيه ضعف ينجبر بغيره ويتقوَّى ببقية الأحاديث.

وقد ذكرت في أول هذه المسألة أن الإمام ابن القيم قد فصَّل القول فيها في كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، وهو كتاب في صفات الجنة ونعيمها، فإنه جعل من جملة أبوابه باب الرؤية، وأن المؤمنين يرون ربهم، ونقلها كذلك الشيخ حافظ الحكمي في كتابه «معارج القبول في شرح سلّم الأصول»، سردها أيضًا كما سردها ابن القيمّ، وإن كان اختصر منها بعض الأسانيد، وبعض الألفاظ، وذكر ابن القيم أيضًا جملة كثيرة منها في كتابه«الصواعق المرسلة»، وذُكرت أيضًا متفرقة في كتب الحديث، وفي كتب التفسير، واضحة دلالتها، ولكثرتها يُحكم بأنها متواترة وإن لم تتواتر أفرادها، فهي متواترة أعدادها.

والمتواتر: هو ما نقله العدد الكثير ـ الذين تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ـ عن مثلهم إلى منتهاهم، ويكون مستند انتهائهم الحسّ، أي ما يدرك

بالحواس الخمس أو بأحدها.

وقد سرد الشارح ـ رحمه الله ـ بعضًا من هذه الأحاديث، أوضحها حديث جرير ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، وفي حديث أبي هريرة ﷺ الذي قبله، قال ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»، يعني: ليلة أربع عشرة، وهو من أوضح ما يُرى.

وقوله: «لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، أي: لا يلحقكم ضيمٌ ولا ضرر، أو «لَا تَضَامُّونَ» بفتح التاء، والأصل: (تَتَضَامُّونَ)[1]، أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض، بل ترونه بأماكنكم ولو كنتم على وجه الأرض وفي أقطار البلاد، ترونه كما يشاء، وتتمة الحديث: قوله ﷺ: «فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، والمراد بهاتين الصلاتين: الفجر والعصر، وخصّهما بالمحافظة عليهما؛ لأن الرؤية لخواص المؤمنين تكون بكرةً وعشيًّا، وقد ورد أن خواص المؤمنين في الجنة يرون ربهم في أول النهار وفي آخره، وأما عوامهم فيرونه في كل أسبوع في مثل يوم الجمعة[2]، ويسمى يوم

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٢٧).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيَزُورُونَ رَبَّهُمْ...». أخرجه الترمذي (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٤٣٣٦)، وابن حبان (١٦/ ٤٦٥).

الجمعة: يوم المزيد؛ حيث يزورون ربهم ويتجلّى لهم، ويكون الذين يتقدمون إلى صلاة الجمعة هم أقرب وهم أولى بأن يُقدَّمُوا، فيدُل ذلك على فضل التقدُّم لصلاة الجمعة، وأن ذلك أكثر ثوابًا وأقدم رؤية وأكثر نعيمًا.

ومن الأدلة التي أوردها الشارح: حديث أبي هريرة وأبي سعيد - رضي الله عنهما - حديث طويل في «الصحيحين» فيه قوله ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»، ترون ربّكم ولا تضارُّون في رؤيته، يعني: لا تتوهمون، ولا يكون هناك ريبٌ ولا شك، بل ترونه عيانًا، رؤية واضحة، كما لا تتوهمون في رؤية الشمس ولا في رؤية القمر ليلة البدر.

والحديث في سياقه طولٌ، لاسيما حديث أبي سعيد ﷺ، وقد ساقه مسلم بطوله في كتاب الإيمان في أول الجزء الثالث، وبيَّن الرؤية في الموقف والرؤية في القيامة، وكذلك حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن الأحاديث أيضًا حديث أبي موسى ﷺ، وفيه قوله ﷺ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**»، قد ذكر الله الجنتين الأوليين في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]، وذكر الجنتين الأخريين بقوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٦٢]، زاد في

هذا الحديث أنه ليس بينهم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلَّا رداء الكبرياء، وذلك دليل على أنه تعالى يكشف ذلك الرداء وذلك الحجاب، ويتجلّى لعباده متى شاء، فليس بينهم وبين النظر إليه إلاّ ذلك الرداء، وهذا دليلٌ على أنه إذا شاء تجلّى كما يشاء.

وتقدم ـ أيضًا ـ حديث صهيب ﷺ الذي في صحيح مسلم، في قوله ﷺ في تفسير الزيادة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، أنها النظر إلى ربِّهم، وأنهم ما أُعطوا شيئًا ألذّ عندهم من النظر إلى ربهم، عندما يقول: «سَلُونِي»، فيقولون: نسألك رضاك، ثم يسألونه أن يتجلَّى، فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أفضل عندهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة المذكورة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وهذه الأحاديث وأمثالها صحيحة، نطق بها النبي ﷺ وتلقّاها أهل السنة بالقبول، فليس لأولئك المعتزلة أن يردوها، ولكن اعتمدوا في ردِّهم على أنها أخبار آحادية، وكذبوا، ليست أخبارٌ آحاد، فقد تلقَّاها جمع غفير عن مثلهم، ورواها جَمعٌ غفير من الصحابة، ثم مثلهم من التابعين أو أضعافهم، وهكذا إلى أن دوِّنت... فكيف تكون أخبار آحاد؟ ثم لو قُدِّر أنها أخبار آحاد فإنها تفيد العلم، ويستدل بها على العقائد؛ وذلك لأنهم يعملون بهذه في الشرائع، فكذلك يلزمهم أن يعملوا بهذه في العقائد.

قال الشارح:

وَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا فَلْيُوَاظِبْ سَمَاعَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، فَإِنَّ فِيهَا مَعَ إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ أَنَّهُ يُكَلِّمُ مَنْ شَاءَ إِذَا شَاءَ، وَأَنَّهُ يَأْتِي لِفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَأَنَّهُ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، وَأَنَّهُ يَتَجَلَّى لِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ يَضْحَكُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي سَمَاعُهَا عَلَى الْجَهْمِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الصَّوَاعِقِ.

وَكَيْفَ تُعْلَمُ أُصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؟ وَكَيْفَ يُفَسَّرُ كِتَابُ اللَّهِ بِغَيْرِ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ وَأَصْحَابُ رَسُولِهِ، الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(٢).

وَسُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، مَا الْأَبُّ؟ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟(٣)

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (١/ ٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص٣٧٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٦)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص٤٣٠)، وأورده ابن كثير (٤/ ٤٧٤) في تفسير سورة عبس، وقال:

=

قال الشيخ:

الأحاديث التي وردت في الرؤية موجودة في كتب أهل السنة، وفي مؤلفاتهم التي ألفوها في بيان سنة النبي ﷺ، من أرادها فليواظب على سماع تلك الأحاديث وتلك الكتب؛ في صحيح البخاري في آخره كتاب التوحيد، وفي صحيح مسلم في أوله كتاب الإيمان، وفي سنن أبي داود في آخره كتاب السنة، وهكذا في بقية الكتب.

لا شك أن الذي يقرأ كتب أهل السنة يجد فيها وصف الله تعالى بأنه يتجلَّى لعباده، وبأنه يكشف الحجاب، وبأنهم ينظرون إلى وجهه، وفيها أن حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وفيها سؤال النبي ﷺ في قوله: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**»[1]، وأشباه ذلك.

يقول الشارح: إن هذه الأحاديث التي فيها أن الله تعالى يخاطب العباد، وأنه يتجلّى لهم، وأن له وجهًا كما يشاء، وأنه يضحك إلى عباده، وأنه

---

=

«وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق ﷺ».

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وابن حبان (٥/ ٣٠٤)، والبزار (٤/ ٢٣٠)، والحاكم (١/ ٥٢٤) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما. وأخرج نحوه أحمد (٥/ ١٩١)، والطبراني في الكبير (٤٨٠٣)، والحاكم (١/ ٥١٦) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

يكلمهم... إلى آخر ذلك، (سَمَاعُهَا عَلَى الجَهْمِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الصَّوَاعِقِ)، فإذا كانوا يتمنون أن يحكّوا آيات الاستواء من القرآن، فكذلك أحاديث الصفات يتمنون أنها لم ترد، ولأجل ذلك يُنَفِّرون من قراءة الكتب التي فيها هذه الأحاديث، وينهون عن جمعها في مكان واحد؛ حتى لا تكون حُجّة عليهم، وحتى لا يتأثر بها تلامذتهم إذا رأوها مجتمعة، وصعب عليهم تأويلها والتكلف في ردِّها.

ومع ذلك كله فإنهم لم يتوقفوا عن الخوض بما لا علم لهم به، بل بالغوا في رد الأحاديث وفي رد الآيات، وتكلفوا في الكلام حولها بكلام لا يليق أن يقوله مسلم فضلًا عن عاقل.

وقولهم هذا يعد من القول على الله بلا علم، الذي هو أعظم من الشرك، ويُعدّ من التخرص في القرآن، والتخرص في القرآن ضلال، كما جاء في الحديث الذي أورده الشارح، فتأويلهم للآيات قول على الله بغير علم، وتكلفهم في ردها قول في القرآن بالرأي، فهم يقولون في القرآن برأيهم، فيقولون - مثلًا -: إن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، معناه: منتظرة للثواب، أو معناه منتظرة إلى نعم ربها؛ حيث قالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ يعني: نعمة ربها! وهذا قول على الله بلا علم، وقول في القرآن بالرأي، فيكونون داخلين في هذا الحديث: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

والصحابة - رضي الله عنهم - مع كونهم أعلم بالقرآن، وهم الذين شاهدوا نزوله، إذا لم يعلم أحدهم تفسير آية توقف دون أن يفصح، ولو كان

عندهم علم، فهذا أبو بكر ﷺ - ومن أفضلُ من الصديق ﷺ الذي هو الخليفة الأول للرسول ﷺ - لَمَّا سُئل عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٣١]، مَا الْأَبُّ؟ قَالَ: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟».

وهؤلاء الذين يتخبطون في القرآن ويتكلفون في رد الآيات، يقول أحدهم: إن كلام موسى - عليه السلام - ليس سؤالًا، في قوله: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وأنه - عليه السلام - لا يريد أن يرى ربّه، وإنما يريد أن يوبّخ قومه الذين قالوا: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [النساء:١٥٣]، أو قالوا: ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [البقرة:٥٥]، قالوا: يريد بذلك توبيخ قومه! من قال هذا قبلكم يا معتزلة أو يا أتباع المعتزلة؟! هذا هو التخرص في كلام الله بغير علم.

قال الشارح:

وَلَيْسَ تَشْبِيهُ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ تَشْبِيهًا لِلَّهِ، بَلْ هُوَ تَشْبِيهُ الرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ، لَا تَشْبِيهُ الْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِيِّ، وَلَكِنْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَإِلَّا فَهَلْ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِلَا مُقَابَلَةٍ؟ وَمَنْ قَالَ: يُرَى لَا فِي جِهَةٍ، فَلْيُرَاجِعْ عَقْلَهُ!! فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُكَابِرًا لِعَقْلِهِ، أو فِيعَقْلِهِ شَيْءٌ، وَإِلَّا فَإِذَا قَالَ: يُرَى لَا أَمَامَ الرَّائِي، وَلَا خَلْفَهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ يَسَارِهِ، وَلَا فَوْقَهُ، وَلَا تَحْتَهُ. رَدَّ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ بِفِطْرَتِهِ السَّلِيمَةِ.

وَلِهَذَا أَلْزَمَ الْمُعْتَزِلَةُ مَنْ نَفَى الْعُلُوَّ بِالذَّاتِ بِنَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَقَالُوا: كَيْفَ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِغَيْرِ جِهَةٍ.

وَإِنَّمَا لَمْ نَرَهُ فِي الدُّنْيَا لِعَجْزِ أَبْصَارِنَا، لَا لِامْتِنَاعِ الرُّؤْيَةِ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ إِذَا حَدَّقَ الرَّائِي الْبَصَرَ فِي شُعَاعِهَا ضَعُفَ عَنْ رُؤْيَتِهَا، لَا لِامْتِنَاعٍ فِي ذَاتِ الْمَرْئِيِّ، بَلْ لِعَجْزِ الرَّائِي، فَإِذَا كَانَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْمَلَ اللَّهُ قُوَى الْآدَمِيِّينَ حَتَّى أَطَاقُوا رُؤْيَتَهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجَبَلِ، خَرَّ مُوسَى صَعِقًا، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، بِأَنَّهُ لَا يَرَاكَ حَيٌّ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ، وَلِهَذَا كَانَ الْبَشَرُ يَعْجِزُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الْمَلَكِ فِي صُورَتِهِ، إِلَّا مَنْ أَيَّدَهُ اللَّهُ كَمَا أَيَّدَ نَبِيَّنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:٨]، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَا يُطِيقُونَ أَنْ يَرَوُا الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ، فَلَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ فِي

صُورَةِ بِشَرٍ، وَحِينَئِذٍ يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ: هَلْ هُوَ بَشَرٌ أَوْ مَلَكٌ؟ وَمِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا أَنْ بَعَثَ فِينَا رَسُولًا مِنَّا.

وَمَا أَلْزَمَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ هَذَا الْإِلْزَامَ إِلَّا لَمَّا وَافَقُوهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، لَكِنَّ قَوْلَ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا يُرَى لَا فِي جِهَةٍ، أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ مِنْ قَوْلِ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ لَا يُرَى وَلَا فِي جِهَةٍ.

---

قال الشيخ:

لا شك أن أقوال أولئك المعتزلة وغيرهم ممن نفى الرؤية، أو أثبت رؤيةً غير حقيقية، أنها أقوال مضطربة، يردها كل عاقل.

وقد عرفنا أن المعتزلة ينكرون الرؤية، وأما طائفة الأشاعرة فإنهم يثبتون الرؤية، ولكن لا يثبتون العلو، ولا يثبتون الجهة، ينفون أن يكون الله تعالى فوق العالم، وينفون أن يكون الله تعالى فوق عرشه، وفوق سمواته، بائنًا من خلقه، فيقولون: إنه يُرى لا في جهة. هذا قول الأشعرية، وحقيقة قولهم أن الرؤية عندهم هي مكاشفات قلبية، وأنوار تسطع للقلب، لا أنهم ينظرون بأعينهم وبأبصارهم إلى ربهم، يقولون: إن هذا يستلزم الرؤية التي هي المقابلة.

فردّ عليهم الشارح ومن قبله بأن هذا قول باطل، وأن من قال: إن الله يرُى لا في جهة، فليراجع عقله؛ لأن المرئي لا بدّ أن يكون في جهةٍ، وإن لم تكن تلك الجهة تحصره، فالله تعالى يتجلَّى لعباده من فوقهم، فينظرون إليه، ولكن لا يدل أنه محصورٌ في جانب أو في جهة أو حيِّز ـ تعالى الله ـ بل يرونه كما يشاء.

هذا هو القول الصحيح، فقول هؤلاء المعتزلة ومثلهم الأشعرية الذين قالوا بهذه المقالة يبعده العقل، وهو قول على الله تعالى بلا علم.

والواجب على المسلم إذا جاءته أدلة أن يقبلها ويعرف أحقّيتها وصحتها، ويؤمن بأنها كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وأن الله أخْبرُ بنفسه، وأن رسله أعلمُ بما يجوز على ربهم، وقد أخبروا بذلك، فليس لأحد أن يردّ بعض خبرهم ويقبل بعضه، فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، بل إذا قَبِلَ ما يتعلّق بالأعمال، يقبل أيضًا ما يتعلّق بالعقائد من الأمور الأخروية والأمور الغيبية؛ حتى يكون بذلك سليم الفطرة، صحيح المعتقد، مؤمنًا بما جاء عن الله على مراد الله، كما نقل عن الأمام الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه قال: «آمنتُ باللَّهِ، وبما جاءَ عَن اللَّهِ، على مُرادِ اللَّهِ، وآمنتُ برسولِ اللَّهِ، وبما جاءَ عَن رسولِ اللَّهِ، على مُرادِ رسولِ اللَّهِ»[1].

(١) ذكره ابن قدامة المقدسي في لمعة الاعتقاد (ص١٠)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة المدنية، انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٤).

قال الشارح:

وَيُقَالُ لَمَنْ قَال بِنَفْيِ الرُّؤْيَةِ لانْتِفَاءِ لازِمِهَا وَهُوَ الجِهَةُ: أَتُرِيدُ بِالجِهَةِ أَمْرًا وُجُودِيًّا أَوْ أَمْرًا عَدَمِيًّا؟ فَإِنْ أَرَادَ بِهَا أَمْرًا وُجُودِيًّا كَانَ التَّقْدِيرُ: كُلُّ مَا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٌ لا يُرَى، وَهَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ مَمْنُوعَةٌ، وَلا دَلِيل عَلى إِثْبَاتِهَا، بَل هِيَ بَاطِلَةٌ، فَإِنَّ سَطْحَ العَالمِ يُمْكِنُ أَنْ يُرَى، وَلَيْسَ العَالمُ فِي عَالمٍ آخَرَ. وَإِنْ أَرَدْتَ بِالجِهَةِ أَمْرًا عَدَمِيًّا، كانت الْمُقْدِمَةُ الثَّانِيَةُ مَمْنُوعَةٌ، فَلا نُسَلمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةٍ بِهَذَا الاعْتِبَارِ.

---

قال الشيخ:

الذين نفوا رؤية الله تعالى المعتزلة، وبالغوا في نفيها نفيًا صريحًا، وقالوا: إنه يلزم من إثبات الرؤية وجود الجهة، أن الله تعالى في جهة؛ لأنه لا يمكن أن يُرى إلا في جهة من إحدى الجهات الست.

وكذلك الأشاعرة الذين يقولون: إن الرؤية رؤية قلبية، مكاشفات تتجلى للقلب لا أنها رؤية بصرية؛ لأنه يلزم من الرؤية التي هي تقليب الحدقة نحو المرئي إثبات الجهة، وهذا غير مراد.

قوله: (أَتُرِيدُ بِالجِهَةِ أَمْرًا وُجُودِيًّا)، يعني: أمرًا موجودًا، وهو: الفوق أو التحت، أو اليمين أو اليسار، أو الأمام أو الخلف.

قوله: (فَإِنْ أَرَادَ بِهَا أَمْرًا وُجُودِيًّا كَانَ التَّقْدِيرُ)، أي: تقدير الكلام.

قوله: (كُلُّ مَا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٌ لا يُرَى)، سطح العالم وأعلاه يمكن

أن يُرى (وَلَيْسَ العَالَمُ فِي عَالَمٍ آخَرَ)، وإلا لزم التسلسل، فلابد أن تبطل هذه المقدمة: أن الجهة أمر وجودي.

قوله: (وَإِنْ أَرَدْتَ بِالجِهَةِ أَمْرًا عَدَمِيًّا، كانت المُقْدِمَةُ الثَّانِيَةُ مَمْنُوعَةٌ، فَلا نُسَلِمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةٍ بِهَذَا الاعْتِبَارِ)، بل نعتقد أن الله تعالى في جهة العلو؛ كما دلت على ذلك النصوص الصريحة الواضحة، وكما بالغ الشارح ـ رحمه الله ـ عند قول الماتن: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، أي: وفوق كل شيء.

فقولهم: لانتفاء الجهة. نقول: لا نسلم انتفاء الجهة، بل نثبت الجهة بغير تكييف، أو بغير تمثيل.

قال الشارح:

وَكَيْفَ يَتَكَلمُ فِي أُصُول الدِّينِ مَنْ لا يَتَلقَّاهُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَلقَّاهُ مِنْ قَوْل فُلانٍ؟! وَإِذَا زَعَمَ أَنَّهُ يَأْخُذُهُ مِنْ كِتَابِ الله لا يَتَلقَّى تَفْسِيرَ كِتَابِ الله مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُول، وَلا يَنْظُرُ فِيهَا، وَلا فِيمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، المَنْقُول إِلَيْنَا عَنِ الثِّقَاتِ النَّقَلةِ، الذِينَ تَخَيَّرَهُمُ النُّقَّادُ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْقُلُوا نَظْمَ القُرْآنِ وَحْدَهُ، بَل نَقَلُوا نَظْمَهُ وَمَعْنَاهُ، وَلا كَانُوا يَتَعَلمُونَ القُرْآنَ كَمَا يَتَعَلمُ الصِّبْيَانُ، بَل يَتَعَلمُونَهُ بِمَعَانِيهِ. وَمَنْ لا يَسْلُكُ سَبِيلَهُمْ فَإِنَّمَا يَتَكَلمُ بِرَأْيِهِ، وَمَنْ يَتَكَلمُ بِرَأْيِهِ وَمَا يَظُنُّهُ دِينَ الله وَلَمْ يَتَلقَّ ذَلكَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَأْثُومٌ وَإِنْ أَصَابَ، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَأْجُورٌ وَإِنْ أَخْطَأَ، لكِنْ إِنْ أَصَابَ يُضَاعَفُ أَجْرُهُ.

---

قال الشيخ:

يقول ـ رحمه الله ـ: لا يجوز لأحد أن يتكلم في أصول الدين، وفي العقيدة، وفي إثبات كلام الله، وفي إثبات رؤية الله، وما أشبه ذلك، لا يتكلم في هذه الأصول إلا من تلقى ذلك من الكتاب والسنة، أي: أخذ أدلة ذلك من كتاب الله تعالى، ومن سنة النبي ﷺ، فإن هذا هو الذي يُقبل قوله، أما الذي يتلقى ما يتكلم به من قول فلان وفلان فإنه يتخبط في كلامه في الأصول ولا يُقبل قوله، فإذا زعم أنه يأخذ من كلام الله، فإنه لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول ﷺ، ولا ينظر فيها، وإذا استدلوا بشيء من الآيات وقالوا: إن دليلنا

الآية الفلانية، نقول: خذوا تفسيرها وتفسير آيات الله تعالى من أحاديث النبي ﷺ، فكيف تأخذون قول فلان وفلان، فإن فلانًا وفلانًا ليسا بمعصومين؟ كيف تعرضون عن كتاب الله تعالى، أو تعرضون عن تفسير الصحابة رضوان الله عليهم، ولا تنظرون في كتاب الله، ولا في أحاديث الرسول، ولا فيما قاله صحابة النبي ﷺ، والتابعون لهم بإحسان، الذي نُقل إلينا عن الثقات نقلاً متواترًا.

قوله: (**الذِينَ تَخَيَّرَهُمُ النُّقَّادُ**)، نقاد الحديث ونقاد السنة، الأئمة المقتدى بهم؛ كالأئمة الأربعة، وأهل الصحيحين، وأهل السنن ونحوهم، وكذلك علماء التابعين.

نقول: الواجب أن نرجع إلى أقوالهم وإلى تفاسيرهم؛ لأنهم تلقوا تفسير ذلك عن نبيهم ﷺ.

قوله: (**فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْقُلُوا نَظْمَ القُرْآنِ وَحْدَهُ، بَل نَقَلُوا نَظْمَهُ وَمَعْنَاهُ**)، أي: لفظه وآياته وكذلك تفسيره ومعانيه، فسروا ذلك كله؛ ولهذا قلَّ أن تقرأ آية إلا وتجد فيها تفسيرًا عن علماء الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والتابعين ومن سار على نهجهم؛ كتفسير ابن جرير، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير عبدالرزاق، والتفسير الذي ذكره سعيد بن منصور في آخر سننه، وغير ذلك؛ لأن التابعين ونحوهم نقلوا نظم القرآن، ونقلوا معناه.

قوله: (**وَلا كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ القُرْآنَ كَمَا يَتَعَلَّمُ الصِّبْيَانُ**)، أي: يتعلمون الألفاظ فقط.

قوله: (**بَل يَتَعَلمُونَهُ بِمَعَانِيهِ**)؛ كما ذُكر عن أبي عبدالرحمن عبد الله بن حبيب السلمي أنه قال: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن» وعدَّ جماعة من الصحابة «أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات من النبي ﷺ لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»[1].

يقول: (**وَمَنْ لا يَسْلُكُ سَبِيلهُمْ فَإِنَّمَا يَتكَلمُ بِرَأْيِهِ، وَمَنْ يَتكَلمُ بِرَأْيِهِ وَمَا يَظُنُّهُ دِينَ اللهِ وَلَمْ يَتَلقَّ ذَلكَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَأْثُومٌ وَإِنْ أَصَابَ**)، الذي لا يسلك سبيل الصحابة والتابعين مأثوم؛ لأنه يتكلم برأيه في كلام الله، وقد رُوي أنه ﷺ قال: «**من قال في الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ**»[2]، الذي يتكلم برأيه، ويتكلم بما يظنه دين الله، ويعتقد أنه مصيب وأنه يرجو الصواب في جانبه، وهو مع ذلك لم يتلق ذلك من الأدلة، أي: من الآيات ومن الأحاديث. نقول: إنك مأثوم ولو أصبت في بعض الأحوال؛ ولهذا كان السلف يحذرون أن أحدًا يتكلم في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم.

أما مَنْ أخذ من الكتاب والسنة، واعتمد عليهما كأدلة، فإنه مأجور بفضل الله، وإن أخطأ، ولكن إن أصاب يُضاعف أجره؛ كما في الحديث عن عمرو بن

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/ ١٧٢)، وأبو جعفر الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (١/ ٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

العاص ﷺ وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إذا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وإذا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[1]، أي: أنه إذا أخطأ فله أجر، وخطأه مغفور؛ لأنه مجتهد، وهكذا إذا أصاب فله أجران: أجر على الاجتهاد، وأجر على الإصابة؛ وذلك لأنه من أهل الإصابة، ومن أهل الاجتهاد، أما هؤلاء الذين يتخبطون في القرآن، ويتخبطون في أمر الاعتقاد، وليس عندهم ما يعتمدون عليه من الآيات والأحاديث فإنهم آثمون لما جاء في الحديث أن الذي يتكلم برأيه متوعد بهذا الوعيد الشديد.

تجد كلامهم في تفاسيرهم يعتمدون فيه على الرأي، ويحرف أحدهم الآيات ويؤولها على معتقده الذي ينتحله ولو كان ذلك بعيدًا؛ لأنه ينكر الصفات، وينكر الرؤية لله تعالى، وينكر أن يكون القرآن كلام الله، كما أن ذلك عقيدة المعتزلة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وقوله: (وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لأَهْلِ الجَنَّةِ)، تَخْصِيصُ أَهْلِ الجَنَّةِ بِالذِّكْرِ، يُفْهَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرُّؤْيَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَلا شَكَّ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الجَنَّةِ لِرَبِّهِمْ فِي الجَنَّةِ؛ وَكَذَلِكَ يَرَوْنَهُ فِي المَحْشَرِ قَبْلَ دُخُولِهِمُ الجَنَّةَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤].

وَاخْتُلِفَ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ المَحْشَرِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لا يَرَاهُ إِلا المُؤْمِنُونَ.

الثَّانِي: يَرَاهُ أَهْلُ المَوْقِفِ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ الكُفَّارِ وَلا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

الثَّالِثُ: يَرَاهُ مَعَ المُؤْمِنِينَ المُنَافِقُونَ دُونَ بَقِيَّةِ الكُفَّارِ. وَكَذَلِكَ الخِلافُ فِي تَكْلِيمِهِ لأَهْلِ المَوْقِفِ.

---

قال الشيخ:

عقيدة أهل السنة أن أهل الجنة يرون ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ وأنهم يتنعمون برؤيته، والأدلة على ذلك كثيرة من الآيات والأحاديث، وقد توسع فيها ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «حادي الأرواح»، وكذلك غيره من الذين تكلموا في هذه العقيدة من أهل السنة والجماعة؛ وكذلك أيضًا الدارمي ـ رحمه الله ـ في كتابه «الرد على الجهمية» وهو مطبوع.

قول الشارح: (تَخْصِيصُ أَهْلِ الجَنَّةِ بِالذِّكْرِ، يُفْهَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرُّؤْيَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ)، أن غيرهم لا يرونه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وإذا كانوا محجوبين وهم الكفار دل على أن غيرهم لا يُحجبون وهم أهل الجنة، فأهل الجنة يرون الله تعالى لاشك في رؤيتهم لربهم إذا دخلوا الجنة؛ وكذلك أيضًا يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة؛ كما ثبت ذلك في «الصحيحين» حيث قال ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ الناس يوم الْقِيَامَةِ، فيقول: من كان يَعْبُدُ شيئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هذه الأُمَّةُ فيها شَافِعُوهَا أو مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمْ الله فيقول: أنا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هذا مَكَانُنَا حتى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فإذا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمْ الله في صُورَتِهِ التي يَعْرِفُونَ، فيقول: أنا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أنت رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ»[(١)].

وفي رواية: «فيقول: هل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بها؟ فَيَقُولُونَ: نعم، فَيُكْشَفُ عن سَاقٍ، فلا يَبْقَى من كان يَسْجُدُ للهِ من تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إلا أَذِنَ الله له بِالسُّجُودِ، ولا يَبْقَى من كان يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إلا جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ على قَفَاهُ»[(٢)]. والحديث قد ذكره ابن كثير[(٣)] عند

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢).

تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

يقول: مما يدل على أنهم يرونه يوم القيامة قبل دخول الجنة قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، قد فُسر اللقاء بأنه الرؤية، كما جعل ذلك ابن القيم من أدلة إثبات الرؤية.

يقول الشارح: (وَاخْتُلِفَ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ المَحْشَرِ)، أي: هل يراه الناس كلهم؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: (أَنَّهُ لا يَرَاهُ إِلا المُؤْمِنُونَ)؛ لأن غيرهم عن ربهم يومئذٍ محجوبون، والحجاب هو: الحيلولة، يعني بينهم وبين الله حجاب لا يرونه، أما المؤمنون فإنهم يرونه.

القول الثاني: (أنه يَرَاهُ أَهْلُ المَوْقِفِ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ الكُفَّارِ وَلا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ)، ولعل السبب في ذلك أن تقوم عليهم الحجة، يعني: أن يعلموا أن هذا ربهم، الذي هو على كل شيء قدير، والذي أمرهم بعبادته فعصوه.

القول الثَّالثُ: أنه (يَرَاهُ مَعَ المُؤْمِنِينَ المُنَافِقُونَ)؛ لأنهم مختلطون بالمؤمنين ومعهم، يصلون معهم، ويغزون معهم، وإن كانوا مع الكفار في الباطن، فيراه المنافقون دون بقية الكفار.

يقول: هذا خلاف في رؤية الكفار له على ثلاثة هذه الأقوال.

قوله: (وَكَذَلِكَ الخِلافُ فِي تَكْلِيمِهِ لأَهْلِ المَوْقِفِ)، أي: على ثلاثة أقوال:

قيل: لا يكلم إلا المؤمنين.

وقيل: يكلم الجميع، ويسمعون كلامه.

وقيل: يكلم المؤمنين والمنافقين.

والأقوال مبسوطة أدلتها في كتب العلماء رحمهم الله.

قال الشارح:

وَاتَّفَقَتِ الأُمَّةُ عَلى أَنَّهُ لا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي ذَلِكَ إِلا فِي نَبِيِّنَا ﷺ خَاصَّةً: مِنْهُمْ مَنْ نَفَى رُؤْيَتَهُ بِالعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا لَهُ ﷺ.

وَحَكَى القَاضِي عِيَاضٌ فِي كِتَابِهِ «الشِّفَا» اخْتِلافَ الصَّحَابَةِ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي رُؤْيَتِهِ ﷺ، وَإِنْكَارَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنْ يَكُونَ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، وَأَنَّهَا قَالتْ لِمَسْرُوقٍ حِينَ سَأَلَهَا: هَل رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ؟ فَقَالتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلتَ، ثُمَّ قَالتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ.

ثُمَّ قَال: وَقَال جَمَاعَةٌ بِقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَهُوَ المَشْهُورُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَاخْتُلِفَ عَنْهُ، وَقَال بِإِنْكَارِ هَذَا وَامْتِنَاعِ رُؤْيَتِهِ فِي الدُّنْيَا جَمَاعَةٌ مِنَ المُحَدِّثِينَ وَالفُقَهَاءِ وَالمُتَكَلِمِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أنه قال: أَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِهِ، وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْهُ: أَنَّهُ رَآهُ بِقَلْبِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَقْوَالا وَفَوَائِدَ.

ثُمَّ قَال: وَأَمَّا وُجُوبُهُ لِنَبِيِّنَا ﷺ وَالقَوْلُ بِأَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ فَلَيْسَ فِيهِ قَاطِعٌ وَلا نَصٌّ، وَالمُعَوَّلُ فِيهِ عَلى آيَةِ النَّجْمِ، وَالتَّنَازُعُ فِيهَا مَأْثُورٌ، وَالاحْتِمَالُ لَهَا مُمْكِنٌ.

---

قال الشيخ:

هذا كلام القاضي عياض، فيقول الشارح - رحمه الله -: (وَاتَّفَقَتِ الأُمَّةُ عَلى أَنَّهُ لا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنَيْهِ)؛ لأن الله تعالى منع موسى - عليه السلام - لَمَّا

قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، أي: لا يمكن أن تراني في الدنيا؛ وذلك لضعف بنية الآدمي، فلا يحتمل أن يثبت لرؤية الله؛ ولهذا لم يثبت الجبل الشامخ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾، جبل شامخ أصم، تجلى له الرب تعالى بنوره، فاندك الجبل من عظمة رؤية الله، وعظمة نوره، فكيف يثبت لذلك الإنسان في الدنيا الذي خلقته ضعيفة، وأما في الآخرة فإن الله يقويهم ويعطيهم من القوة ما يتمكنون به من أن يثبتوا لرؤية الله تعالى.

قوله: (**وَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي ذَلِكَ إِلا فِي نَبِيِّنَا ﷺ خَاصَّةً**)، تنازعوا: اختلفوا.

قوله: (**مِنْهُمْ مَنْ نَفَى رُؤْيَتَهُ بِالعَيْنِ**)، كما منع الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ الذي كلمه تكليمًا أن يراه، (**وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا لَهُ ﷺ**).

ثم ذكر كلام القاضي عياض في كتابه «الشفا»، وهذا القاضي هو: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي المالكي رحمه الله، كان من أجلاء علماء المغرب، إمام في الحديث، له التآليف النفيسة البديعة، وهذا النص مذكور في كتابه «الشفا»[1].

ذكر اختلاف الصحابة ﷺ ومن بعدهم في رؤية النبي ﷺ، وذكر إنكار عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن يكون النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وأنها قالت

---

(١) (١/ ١٩٥ ـ ٢٠٢).

لمسروق لما سألها: (هَل رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟)، فَقالتْ: (لقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلتَ).

ثُمَّ قَالتْ: (مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ)، هذا الحديث أخرجه البخاري[١]، ومسلم[٢]، وأحمد[٣]، والترمذي[٤]، والنسائي[٥]، وغيرهم، ولفظه عند مسلم: (كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلاَثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ . قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ. قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلاَ تَعْجَلِينِي أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ، سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ. فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ

---

(١) برقم (٤٨٥٥).

(٢) برقم (١٧٧).

(٣) (٦/ ٤٩، ٥٠).

(٤) برقم (٣٠٦٨).

(٥) في الكبرى (١١٠٨٢).

﴿يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧]، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]).

وقد شرح هذا الحديث النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في «شرح مسلم»[1]، وكأنه يميل إلى القول بأن الله تعالى يمكن رؤيته في الدنيا لبعض الخواص كمحمد ﷺ، وقد أجاب عن آية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، كما أجاب عنها أئمة السلف بأن الإدراك غير الرؤية، أي: ما تراه الأبصار لا تدرك كونه، ولا تعرف ماهيته.

ومع ذلك فإن هذا قول ليس بصحيح، والرؤية إذا مُنع منها موسى فمحمد ﷺ كذلك لا يقدر أن يثبت على رؤية الله التي لم يثبت عليها الجبل.

يقول القاضي عياض: (وَقَالَ جَمَاعَةٌ بِقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ)، يعني: أنه لا يمكن رؤيته، وأن الله تعالى لم يره أحد، لا رسول الله ولا غيره، هذا قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ كما في

(١) (٣/ ٤ ـ ١١).

صحيح مسلم، وهذا أيضًا قول ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما، وإن كان عن أبي هريرة ﷺ خلاف، وقال آخرون: إن ذلك ممكن، أنه ﷺ قد رأى ربه في الدنيا، قال ذلك جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

ومن أشهر مَنْ يقول بذلك ابن عباس رضي الله عنهما، فقد نُقل عنه أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ - عز وجل - اصْطَفَى إبراهيم بِالْخُلَّةِ، وَاصْطَفَى مُوسَى بِالْكَلامِ، وَاصْطَفَى مُحَمَّدًا بِالرُّؤْيَةِ»[(١)] صلوات الله عليهم، وأخرج البخاري[(٢)]، وأحمد[(٣)]، والترمذي[(٤)]، والنسائي[(٥)]، وغيرهم من طريق سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قول الله - عز وجل -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال: «هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رسول اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ».

لكن هذا القول موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، وليس صريحًا في الرؤيا، فإنه لم يذكر متعلق الرؤية.

ثم ذكر أن من جملة من وافقه بعض المفسرين.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٧/ ٤٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٩)، وعبدالله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٢٩٨)، والطبراني في الكبير (١١٩١٤).

(٢) برقم (٤٧١٦).

(٣) (١/ ٢٢١).

(٤) برقم (٣١٣٤).

(٥) في الكبرى (١١٢٢٨).

قوله: (وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْهُ: أَنَّهُ رَآهُ بِقَلْبِهِ)، أي: قال عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: رآه رؤيا قلب، أي: رآه بقلبه. والأثر عن عطاء أخرجه مسلم في «صحيحه»[1] من طريق ابن أبي شيبة عن حفص عن عبدالملك عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك رواه غيره.

يقول ـ هذا كلام القاضي عياض ـ: (وَأَمَّا وُجُوبُهُ لنَبِيِّنَا ﷺ وَالقَوْلُ بِأَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ فَلَيْسَ فِيهِ قَاطِعٌ وَلا نَصٌّ)، أي: ليس فيه دليل صريح ولا نص قاطع، (وَالمُعَوَّلُ فِيهِ عَلَى آيَةِ النَّجْمِ)، وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣، ١٤]، يعني: لما أُسري به ﷺ، فقيل: الضمير في (رَآهُ): يعود إلى الله تعالى، وقيل: يعود إلى جبريل ـ عليه السلام ـ وهذا هو المشهور.

قوله: (وَالتَّنَازُعُ فِيهَا مَأْثُورٌ، وَالاحْتِمَالُ لَهَا مُمْكِنٌ)، أي: هل رأى جبريل، أو رأى ربه؟ هكذا.

---

(١) برقم (١٧٦).

قال الشارح:

وَهَذَا القَوْلُ الذِي قَالهُ القَاضِي عِيَاضٌ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ هُوَ الحَقُّ، فَإِنَّ الرُّؤْيَةَ فِي الدُّنْيَا مُمْكِنَةٌ، إِذْ لوْ لمْ تَكُنْ مُمْكِنَةً، لمَا سَأَلَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، لكِنْ لمْ يَرِدْ نَصٌّ بِأَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، بَل وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَال: سَأَلتُ رَسُول الله ﷺ هَل رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتُ نُورًا».

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَال: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَال: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْل قَبْل عَمَل النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْل عَمَل اللَّيْل، حِجَابُهُ النُّورُ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ ـ لوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلقِهِ». فَيَكُونُ ـ وَاللهُ أَعْلمُ ـ مَعْنَى قَوْلِهِ لأَبِي ذَرٍّ «رَأَيْتُ نُورًا»: أَنَّهُ رَأَى الحِجَابَ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»: النُّورُ الذِي هُوَ الحِجَابُ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَتِهِ، فَأَنَّى أَرَاهُ؟ أَيْ: فَكَيْفَ أَرَاهُ وَالنُّورُ حِجَابٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَمْنَعُنِي مِنْ رُؤْيَتِهِ ؟ فَهَذَا صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ. وَاللهُ أَعْلمُ.

وَحَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ اتِّفَاقَ الصَّحَابَةِ عَلى ذَلكَ.

---

قال الشيخ:

كلام القاضي عياض هو الحق، حيث تكلم على وجوده لنبينا ﷺ، وأنه ليس فيه نص قاطع، وأن المعول فيه على آية النجم، وأن فيها نزاع،

وأن الاحتمالية ممكنة.

الرؤية في الدنيا وإن كانت ممكنة فإنها قد لا تكون مقدورة للبشر، والدليل على إمكانه سؤال موسى ـ عليه السلام ـ الرؤية، فلو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام، وهو أعرف بالله أن يسأله ما ليس بممكن، هكذا.

قوله: (**لكِنْ لَمْ يَرِدْ نَصٌّ بِأَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ**)، يعني: دليل واضح أنه رأى ربه بعيني رأسه، بل وردت أدلة تدل على نفي رؤيته لربه، ذكر حديث أبي ذر ﷺ قال: (**سَأَلْتُ رَسُول الله ﷺ هَل رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَال: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: رَأَيْتُ نُورًا**). وهذا الحديث أخرجه مسلم[1]، وأخرجه الإمام أحمد[2] بلفظ: «**قَدْ رَأَيْتُ نُورًا أَنَّى أَرَاهُ**»، وله شاهد من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «**يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله عز وجل**»[3]. وله شاهد مرسل أخرجه الدارمي في (الرد على الجهمية)[4].

فقوله: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»، أي: كيف أراه ودونه هذه الأنوار، وفي رواية: «**رَأَيْتُ نُورًا**»، أي: إنني رأيت نورًا بيني وبينه.

ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: (**قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ**

---

(١) برقم (١٧٨).

(٢) (٥/ ١٤٧).

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٠/ ٣٥١).

(٤) (ص٧٢).

بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ). الله تعالى قد أخبر بأنه لا ينام ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولا ينبغي له أن ينام؛ لأن النوم أخو الموت، فالله تعالى منزه عن ذلك.

وذكر أنه (يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)، قيل: إن القسط هو الميزان، وقيل: العدل.

وذكر أنه (يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)، أي: يُرفع إليه عمل النهار قبل أن يصل الليل، أي: قبل أن يدخل الليل، وكذلك عمل الليل يُرفع إليه قبل دخول النهار، فعمل الليل يُرفع إليه قبل ذهاب الليل كله، وقبل أن يبدأ النهار؛ وكذلك عمل النهار يُرفع إليه قبل أن يدخل الليل.

وذكر أن (حِجَابُهُ النُّورُ)، أي: قد احتجب عن المخلوقات بهذا النور، وفي رواية: (النَّارُ)، (لَوْ كَشَفَهُ)، أي: لو كشف هذا الحجاب (لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)، جعل بينه وبين الخلق هذا النور الذي هو حجاب قوي، لو كشف ذلك الحجاب لاحترق ما انتهى إليه بصره من خلقه، يعني: من نور وجهه سبحانه وتعالى، (سُبُحَاتُ وَجْهِهِ)، في هذا الحديث دليل

على إثبات الوجه، حيث أخبر النبي ﷺ بأن له سبحات يعني أنوار، وأنه لو كشفه لاحترقت جميع المخلوقات التي ينتهي إليها بصر الله. هذا الحديث أخرجه مسلم[١]، وأحمد[٢]، وابن ماجه[٣]، وغيرهم.

قوله: (**وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»: النُّورُ الذِي هُوَ الحِجَابُ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَتِهِ**)، أي: رأيت ذلك النور الذي هو الحجاب أي أوله، وقوله: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» أي: دونه هذا النور الذي هو الحجاب يمنعني ويمنع غيري من رؤيته، فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني ويمنع غيري من رؤيته؟

قال: (**فَهَذَا صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ**)، وعدم إثباتها لأي أحد من البشر أو من الملائكة ونحوهم.

ثم ذكر أن عثمان بن سعيد الدارمي حكى اتفاق الصحابة على ذلك، وهذا في كتابه «الرد على الجهمية»، وهو مطبوع.

---

(١) برقم (١٧٩).

(٢) (٤/ ٤٠٥).

(٣) برقم (١٩٥).

قال الشارح:

ونحن إلى تَقْرِيرِ رُؤْيَتِهِ لِجِبْرِيل أَحْوَجُ مِنَّا إِلى تَقْرِيرِ رُؤْيَتِهِ لِرَبِّهِ تَعَالى، وَإِنْ كَانَتْ رُؤْيَةُ الرَّبِّ تَعَالى أَعْظَمَ وَأَعْلى، فَإِنَّ النُّبُوَّةَ لا يَتَوَقَّفُ ثُبُوتُهَا عَلَيْهَا أَلْبَتَّةَ.

---

قال الشيخ:

يقول الشارح: إن الآيات تدل على رؤية جبريل عليه السلام، فنحن بحاجة إلى تقرير هذه الرؤية؛ لأنه ﷺ أخبر بأنه ما رأى جبريل ـ عليه السلام ـ في صورته التي خُلق عليها إلا مرة واحدة، ودل على ذلك آية سورة (التكوير): ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير:٢٣]، أي: رأى جبريل عليه السلام، وكذلك آية سورة (النجم): ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم:٧]، فتقرير رؤيته لجبريل ـ عليه السلام ـ أولى بأن يحقق ويقرر، وهو أحوج إلى تقرير رؤيته إلى ربه تعالى؛ لأن الأدلة جاءت بنفي رؤيته لربه تعالى.

نحن نعتقد: أن رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة، الأنبياء حتى موسى ـ عليه السلام ـ لم يثبت أنهم رأوا ربهم، وموسى ـ عليه السلام ـ الذي كلمه الله تكليمًا مُنع من إثبات الرؤية.

قال الشارح:

قوله: (بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلا كَيْفِيَّةٍ). هَذَا لكَمَال عَظَمَتِهِ وَبَهَائِهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى ـ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَلا تُحِيطُ بِهِ، كَمَا يُعْلَمُ وَلا يُحَاطُ بِهِ عِلمًا، قَال تَعَالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠].

---

قال الشيخ:

قوله: (بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلا كَيْفِيَّةٍ)، يعني: إذا رآه المؤمنون فإنهم لا يحيطون به؛ وكذلك أيضًا لا يدركون ماهيته، ولا كيفيته، وذلك لكمال عظمة الله ـ سبحانه ـ وبهائه وجلاله وكبريائه، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، أي: لا تحيط به كما يُحاط بالمرئي في الدنيا، كما ورد عن عكرمة أنه قال لرجل يحتج على نفي الرؤية بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، فقال له: ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلّها ترى؟[1]، وكما أنه سبحانه يُعلم ولا يُحاط به علمًا، نحن نعلم صفاته، ولكن لا نحيط به علمًا.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٥٦).

قال الشارح:

قوله: (وَتَفْسِيرُهُ عَلى مَا أَرَادَ اللهُ وَعَلِمَهُ) إِلَى أَنْ قَالَ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا وَلا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا). أَيْ: كَمَا فَعَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ بِنُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي الرُّؤْيَةِ، وَذَلِكَ تَحْرِيفٌ لكَلامِ اللَّهِ وَكَلامِ رَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ هُوَ: الذِي يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَالفَاسِدُ الْمُخَالِفُ لَهُ، فَكُلُّ تَأْوِيلٍ لَمْ يَدُل عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَلَيس مَعَهُ قَرِينَةٌ تَقْتَضِيهِ، فَإِنَّ هَذَا لا يَقْصِدُهُ الْمُبَيِّنُ الهَادِي بِكَلامِهِ، إِذْ لَوْ قَصَدَهُ لَخَفَّ بالكَلامِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلى المَعْنَى الْمُخَالِفِ لظَاهِرِهِ، حَتَّى لا يُوقِعَ السَّامِعَينَ فِي اللبْسِ وَالخَطَأِ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَل كَلامَهُ بَيَانًا وَهُدًى، فَإِذَا أَرَادَ بِهِ خِلافَ ظَاهِرِهِ، وَلَمْ يَخُفَّ بِهِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلى المَعْنَى الذِي يَتَبَادَرُ غَيْرُهُ إِلى فَهْمِ كُل أَحَدٍ، لَمْ يَكُنْ بَيَانًا وَلا هُدًى. فَالتَّأْوِيلُ: إِخْبَارٌ بِمُرَادِ الْمُتَكَلِمِ لا إِنْشَاءٌ.

---

قال الشيخ:

عبارة الطحاوي: (وَتَفْسِيرُهُ عَلى مَا أَرَادَ اللهُ وَعَلِمَهُ)، المراد بذلك النصوص التي ذكر الله تعالى فيها بعضًا من الصفات، وأخبر فيها عن بعض الأمور الغيبية من صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فنحن نعرف معناه الذي دل عليه اللفظ، وأما كيفيته وماهيته وما هو عليه فهذا مما لم نطلع عليه ولا نعلمه، ونقول: الله أعلم بمراده. كما يقولون ذلك في الحروف المقطعة في أوائل السور، أنه على ما أراده الله وعلمه، أن الله تعالى أراد بإنزال الآيات البيان والهدى

للناس، وقد علم أنهم يفهمون ذلك، ويعرفونه؛ لأنه بلغتهم، فنقول: الأشياء التي تشكل علينا كيفيتها وماهيتها هي التي نكل الكيفية إلى الله تعالى، (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا وَلا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا)، أي: لا نتأولها كما فعلت المعتزلة ومثلهم أيضًا في هذه الأزمنة الأباضية الذين عبثوا بنصوص القرآن، وبنصوص السنة الواردة في إثبات الرؤية، فقد تسلطوا عليها، وحاولوا أنها تُصرف عن دلالتها، فحرفوها تحريفًا بعيدًا، فيدخلون في قول الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١]، أي: يصرفونه عن ما هو دال عليه، ويسمون ذلك تأويلًا، وهكذا يفعلون بالأحاديث النبوية يصرفونها عن ما دلت عليه، ويسمون ذلك تأويلاً.

التأويل الصحيح: هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، وهو الذي يوافق مفهوم الأحاديث الظاهرة التي يتبادر فهمها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وأما التأويل الفاسد فإنه المخالف لما جاء به كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، فإننا نقول: هذا تأويل فاسد، بل نقول: إنه تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه، فلا نسميه تأويلاً بل هو في الحقيقة تحريف.

قوله: (فَكُلُّ تَأْوِيلٍ)، بمعنى (لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ السِّيَاقِ)، سياق الكلام، (وَلَيسَ مَعَهُ قَرِينَةٌ تَقْتَضِيهِ)، أي: قرينة تفيد أن المعنى شيء غير ما يتبادر إلى الأفهام.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا لا يَقْصِدُهُ الْمُبَيِّنُ الْهَادِي بِكَلامِهِ)، الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر أن القرآن هدى وبيان بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣]، وبقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨]، فإذا كان الكلام ظاهرًا ومفهومًا فإنه لا يحتاج إلى أن يصرفه صارف ويتكلف متكلف فيحرفه عن ظاهره الذي دل عليه،(الْمُبَيِّنُ الْهَادِي بِكَلامِهِ)، الذي هو النبي ﷺ.

قوله: (إِذْ لَوْ قَصَدَهُ لَخَفَّ بِالكَلامِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى المَعْنَى المُخَالِفِ لظَاهِرِهِ)، أي: لجعل مع الكلام قرينة تبين أنه لم يرد ظاهره، وإنما أراد معنى مخالفًا لِمَا يتبادر منه.

قوله: (حَتَّى لا يُوقِعَ السَّامِعَينَ فِي اللبْسِ وَالخَطَأِ)، إذا لم يكن هناك قرينة كان الكلام ظاهرًا، ومع ذلك فإن قصد المتكلم غير المعنى الذي يتبادر إلى الفهم، فإنه يوقع السامعين في اللبس والخطأ، فيفهمون من الكلام غير المراد، كما تقوله المعتزلة ونحوهم ممن يتأول الصفات وأدلتها على غير ما يتبادر منها.

قوله: (فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ كَلامَهُ بَيَانًا وَهُدًى)، أي: يُبين ما يحتاجون إليه ويهديهم الصراط المستقيم.

قوله: (فَإِذَا أَرَادَ بِهِ خِلافَ ظَاهِرِهِ)، وخلاف متبادره ومع ذلك (وَلَمْ يَخُفَّ بِهِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى المَعْنَى الذِي يَتَبَادَرُ غَيْرُهُ إِلَى فَهْمِ كُلِّ أَحَدٍ، لَمْ يَكُنْ بَيَانًا وَلا هُدًى. فَالتَّأْوِيلُ: إِخْبَارٌ بِمُرَادِ المُتَكَلِمِ لا إِنْشَاءٌ)، ومن أمثلة الكلام الذي

ليس معه قرائن:

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فإنه صريح ليس معه قرينة.

وكذلك قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢].

وكذلك قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وقد تكلفوا وصرفوا المجيء والإتيان بقولهم: (أي: جاء أمره)، ونحو ذلك، قد يستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ [الحشر:٢]، لكن ها هنا قرينة أن المراد أتاهم الله بعذابه، وأتاهم بالمؤمنين الذين تسلطوا عليهم، حتى أخروجهم من ديارهم، وأما قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾، فليس هناك قرينة تجعله مصروفًا عما يتبادر منه.

قال الشارح:

وَفِي هَذَا المَوْضِعِ يَغْلَطُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ المَقْصُودَ فَهْمُ مُرَادِ المُتَكَلِّمِ بِكَلامِهِ، فَإِذَا قِيلَ: مَعْنَى اللفْظِ كَذَا وَكَذَا، كَانَ إِخْبَارًا بِالذِي عَنَاهُ المُتَكَلِّمُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الخَبَرُ مُطَابِقًا كَانَ كَذِبًا عَلَى المُتَكَلِّمِ.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَفِي هَذَا المَوْضِعِ يَغْلَطُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)، الكثير الذين يغلطون هم الذين عقيدتهم منحرفة؛ كإنكارهم لإثبات الرؤية، أو إنكارهم لعلو الله تعالى، أو لمجيئه كما يشاء، وكذلك إنكارهم للصفات الفعلية؛ كصفة الاستواء وما أشبهها، وصفة العلو، فيغلطون في هذه المواضع.

قوله: (فَإِنَّ المَقْصُودَ فَهْمُ مُرَادِ المُتَكَلِّمِ بِكَلامِهِ)، أي: المقصود فهم مراد الله تعالى بكلامه، (فَإِذَا قِيلَ: مَعْنَى اللفْظِ كَذَا وَكَذَا كَانَ إِخْبَارًا بِالذِي عَنَاهُ المُتَكَلِّمُ)، يعني: أنه بذلك حقيقة ظاهرة معلومة ليس فيها خفاء.

قوله: (فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الخَبَرُ مُطَابِقًا كَانَ كَذِبًا عَلَى المُتَكَلِّمِ)، إذا قالوا: معنى ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾، جاء أمره. أين الدليل على أنه يكون هناك مستتر أو مقدر؟ لاشك أنه أيضًا كذب، وإذا قالوا: إن معنى النزول نزول الملك، أو نزول العذاب، وإذا قالوا: إن قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦]، المراد بقوله: ﴿ مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ملائكته، فإن ذلك كله كذب على المتكلم.

قال الشارح:

وَيُعْرَفُ مُرَادُ الْمُتَكَلِّمِ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

مِنْهَا: أَنْ يُصَرِّحَ بِإِرَادَةِ ذَلِكَ الْمَعْنَى.

وَمِنْهَا: أَنْ يَسْتَعْمِلَ اللفْظَ الذِي لهُ مَعْنًى ظَاهِرٌ بِالوَضْعِ، وَلا يُبَيِّنُ بِقَرِينَةٍ تَصْحَبُ الكَلامَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ذَلكَ المَعْنَى، فَكَيْفَ إِذَا حُفَّ بِكَلامِهِ مَا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ حَقِيقَتَهُ وَمَا وُضِعَ لَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٣]، وقوله ﷺ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»[1]. فَهَذَا مِمَّا يَقْطَعُ السَّامِعُ فيه بِمُرَادِ المُتَكلِم، فَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ مُرَادِهِ بِمَا دَل عَلَيْهِ حَقِيقَةُ لَفْظِهِ الذِي وُضِعَ لهُ مَعَ القَرَائِنِ المُؤَكِّدَةِ، كَانَ صَادِقًا فِي إِخْبَارِهِ، وَأَمَّا إِذَا تَأَوَّل الكَلامَ بِمَا لا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ هَذَا مُرَادُهُ كَذِبٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ بِالرَّأْيِ، وَتَوَهُّمٌ بِالهَوَى.

---

قال الشيخ:

قوله: (مُرَادُ المُتَكَلِّمِ)، يعني: ما يريده بالكلام الذي تكلم به، ومنه كلام الله تعالى، وكلام رسوله، كيف يُعرف مراده؟ يُعرف:

أولاً: (أَنْ يُصَرِّحَ بِإِرَادَةِ ذَلِكَ المَعْنَى)، مثل قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:٢]،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

معلوم أن الله تعالى ما أتاهم بذاته، وإنما أتاهم بالمؤمنين الذين حاصروهم.

ثانيًا: (أَنْ يَسْتَعْمِلَ اللفْظَ الذِي لهُ مَعْنًى ظَاهِرٌ بِالوَضْعِ، وَلا يُبَيِّنُ بِقَرِينَةٍ تَصْحَبُ الكَلامَ أَنَّهُ لمْ يُرِدْ ذَلكَ المَعْنَى)، أي: إذا استعمل اللفظ الذي هو ظاهر كلفظ النزول، فإن هذا لفظ ظاهر لا يحتاج إلى قرينة، فإذا لم يكن هناك قرينة تصحب الكلام يُفهم منها أنه لم يرد ذلك المعنى عُرف أنه على ظاهره، (فَكَيْفَ إِذَا حُفَّ بِكَلامِهِ مَا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ حَقِيقَتَهُ وَمَا وُضِعَ لهُ)، أي: ما وضع له اللفظ حقًا، فمثل هذا لا يشك شاك أنه ما أراد ظاهر اللفظ بل يعلم يقينًا أنه ظاهر اللفظ، حيث لم يكن هناك قرينة تصرفه عن ظاهره، بل إن هناك قرائن تدل على أنه أراد حقيقته، وأراد ما وُضع له، وأراد ما يتعارفون عليه، واستدل بقول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٣]، في إثبات أن الله كلم موسى عليه السلام.

وقد حاول بعض المعتزلة تحريف هذه الكلمة، وطلب من أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة أن يقرأ: {وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا}، بنصب لفظ الجلالة (الله) ليكون موسى ـ عليه السلام ـ هو المتكلم لا الله، فقال له أبو عمرو ـ رحمه الله ـ: هَبْ أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هل تستطيع أن تحرفها؟ فانقطع ذلك المعتزلي.

وتسلط أيضًا بعض المعتزلة وقالوا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾، جرحه بأظافر

الحكمة، سبحان الله! التجريح يعتبر عذابًا، وموسى ـ عليه السلام ـ يُسمى كليم الله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف:١٤٤]، فأين القرينة التي تدل على أن (كلمه) يعني (جرحه)؟ بل إنه كلمه ودل على ذلك آيات النداء، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء:١٠]، ولا يكون النداء إلا بكلام مسموع، وكذلك قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤]، لا يجوز أن يقول ذلك غير الله.

ومن الكلام الصريح قوله ﷺ في حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ لما قال له أناس: هل نَرَى رَبَّنَا يوم الْقِيَامَةِ؟ فقال: «هل تُضَارُّونَ في الشَّمْسِ ليس دُونَهَا سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «هل تُضَارُّونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ليس دُونَهُ سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يوم الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ»[1].

وفي حديث جرير ﷺ قال: كنا جُلُوسًا عِنْدَ النبي ﷺ إِذْ نَظَرَ إلى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا الْقَمَرَ لا تُضَامُونَ في رُؤْيَتِهِ»[2]، فإن هذا صريح في إثبات الرؤية؛ لأن «ترون» يعني: تنظرون. وفي رواية: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا»[3]، أكده بقوله: (عيانًا)، وأكده بقوله في رواية

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

أخرى: «هل تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ»[1]، وأكد ذلك بقوله: «ليس دُونَهَا سَحَابٌ»، وكذلك «الْقَمَر لَيْلَةَ الْبَدْرِ»، يقطع السامع فيه بمراد المتكلم.

قوله: (فَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ مُرَادِهِ بِمَا دَل عَلَيْهِ حَقِيقَةُ لَفْظِهِ الذِي وُضِعَ لَهُ مَعَ القَرَائِنِ المُؤَكِّدَةِ، كَانَ صَادِقًا فِي إِخْبَارِهِ)، الله تعالى أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة اللفظ الذي هو إثبات هذه الرؤية في آيات كثيرة ذُكرت في أدلة إثبات الرؤية.

قوله: (وَأَمَّا إِذَا تَأَوَّل الكَلامَ)، أي: متأول (بِمَا لا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ هَذَا مُرَادُهُ كَذِبٌ عَلَيْهِ)، أي: الذين يتأولونه بما لا يدل عليه وليس هناك قرينة نقول: كذبتم على الله، وتأولتم بالرأي، وتوهمتم بالهوى، فارجعوا وراجعوا الحق.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

قال الشارح:

وَحَقِيقَةُ الأَمْرِ: أَنَّ قَوْل القَائِل: نَحْمِلُهُ عَلى كَذَا، أَوْ: نَتَأَوَّلُهُ بِكَذَا، إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ دَفْعِ دَلالةِ اللفْظِ عَلى مَا وُضِعَ لهُ، فَإِنَّ مُنَازِعَهُ لَمَّا احْتَجَّ عَلَيْهِ بِهِ وَلَمْ يُمْكِنْهُ دَفْعُ وُرُودِهِ، دَفَعَ مَعْنَاهُ، وَقَال: أَحْمِلُهُ عَلى خِلافِ ظَاهِرِهِ.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَحَقِيقَةُ الأَمْرِ)، أي: الذي نقوله إذا قال قائل: (نَحْمِلُهُ عَلى كَذَا)، نحمل الاستواء على الاستيلاء، أو نتأوله بالاستيلاء، فنقول: هذا (مِنْ بَابِ دَفْعِ دَلالةِ اللفْظِ عَلى مَا وُضِعَ لهُ)، تدفعون دلالته على ما وُضع له وهو العلو، الذي ينازعونكم ويحتجون به، فالذين ينازعون في هذا اللفظ إذا لم يمكنهم (دَفْعُ وُرُودِهِ، دَفَعُوا مَعْنَاهُ)، لا يقدرون على أن يدفعوا آيات الاستواء فتسلطوا على معانيها، وقالوا: نحملها على خلاف ظاهرها، ويقولون: إن ظاهرها غير مراد. وبذلك تسلطوا على آيات الصفات.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيل: بَل للحَمْل مَعْنًى آخَرَ لَمْ تَذْكُرُوهُ، وَهُوَ: أَنَّ اللفْظَ لَمَّا اسْتَحَال أَنْ يُرَادَ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَظَاهِرُهُ، وَلا يُمْكِنُ تَعْطِيلُهُ، اسْتَدْللنَا بِوُرُودِهِ وَعَدَمِ إِرَادَةِ ظَاهِرِهِ عَلى أَنَّ مَجَازَهُ هُوَ المُرَادُ، فَحَمَلنَاهُ عَلَيْهِ دَلالةً لا ابْتِدَاءً.

قِيل: فَهَذَا المَعْنَى هُوَ الإِخْبَارُ عَنِ المُتَكلمِ أَنَّهُ أَرَادَهُ، وَهُوَ إِمَّا صِدْقٌ وَإِمَّا كَذِبٌ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَمِنَ المُمْتَنِعِ أَنْ يُرِيدَ خِلافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ وَلا يُبَيِّنُ للسَّامِعِين المَعْنَى الذِي أَرَادَهُ، بَل يَقْرُنُ بِكَلامِهِ مَا يُؤَكِّدُ إِرَادَةَ الحَقِيقَةِ، وَنَحْنُ لَا نَمْنَعُ أَنَّ المُتَكلمَ قَدْ يُرِيدُ بِكَلامِهِ خِلافَ ظَاهِرِهِ، إِذَا قَصَدَ التَّعْمِيَةَ عَلى السَّامِعِ حَيْثُ يَسُوغُ ذَلكَ، وَلكِنَّ المُنْكَرَ أَنْ يُرِيدَ بِكَلامِهِ خِلافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ إِذَا قَصَدَ البَيَانَ وَالإِيضَاحَ وَإِفْهَامَ مُرَادِهِ! كَيْفَ وَالمُتَكلمُ يُؤَكِّدُ كَلامَهُ بِمَا يَنْفِي المَجَازَ، وَيُكَرِّرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَيَضْرِبُ لهُ الأَمْثَال.

---

قال الشيخ:

قوله: (فَإِنْ قِيل: بَل للحَمْل مَعْنًى آخَرَ لَمْ تَذْكُرُوهُ)، هذا مما يدلي به المتأولون لآيات الصفات فيقولون: إن للحمل معنى آخر لم تذكروه وهو أن اللفظ إذا استحال أن يُراد به حقيقته وظاهره، كأن يُراد به حقيقة الرؤية؛ لأنهم في نظرهم أن هذا مستحيل، أو يُراد حقيقة الاستواء الذي هو العلو، هذا مستحيل عندهم، ثم يقولون: لا يمكن تعطيله، لا يمكن أن نعطل هذه الآيات، ولا أن نجعلها ليس لها معنى، فحينئذٍ استدللنا بوروده في هذه

الآيات، وبعدم إرادة ظاهره أنه ليس حقيقة النزول، وليس حقيقة الاستواء وليس حقيقة الضحك ونحو ذلك، استدللنا على أن مجازه هو المراد فحملناه عليه دلالة لا ابتداء، أي: حملناه على مجاز، وقد توسعوا في ذكر المجاز.

فأجاب الشارح ـ رحمه الله ـ بقوله: (فَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الإِخْبَارُ عَنِ الْمُتَكَلِّمِ أَنَّهُ أَرَادَهُ)، يعني: كأنكم تقولون: إنه أراد المجاز. فنقول: (إِمَّا صِدْقٌ وَإِمَّا كَذِبٌ)، وقد سبق ذلك.

قال: (وَمِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يُرِيدَ خِلافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ)، أي: مجازه، ويقول: تكلفوا واصرفوا كلامي عن ظاهره، واحملوه على مجازات بعيدة، من الممتنع أن يريد خلاف ظاهره ومع ذلك (لا يُبَيِّنُ لِلسَّامِعِينَ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ، بَلْ يَقْرُنُ بِكَلامِهِ مَا يُؤَكِّدُ إِرَادَةَ الْحَقِيقَةِ)، وإرادة ظاهره، لا يكون هناك قرينة تصرفه، بل هناك قرينة وقرائن تؤكد إرادة الحقيقة، مثل: آيات التكليم ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فإن الكلام معروف أنه الكلام المسموع، ومن الأدلة أيضًا آيات النداء فهي مقترنة بما يدل على أن المراد حقيقة لا أنه مجاز.

قوله: (وَنَحْنُ لا نَمْنَعُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ قَدْ يُرِيدُ بِكَلامِهِ خِلافَ ظَاهِرِهِ، إِذَا قَصَدَ التَّعْمِيَةَ عَلَى السَّامِعِ حَيْثُ يَسُوغُ ذَلِكَ)، قد يريد المتكلم التعمية على السامع، أو تنبهه إذا ساغ ذلك، ومثاله: قول النبي ﷺ لذلك الرجل: «إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ»[1]، يُفهم منه أنه الفصيل الصغير، وكذلك قوله ﷺ لامرأة:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وأحمد (٣/ ٢٦٧) من حديث أنس ﷺ.

«زَوْجُكِ الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ»[١]، ظنت أن في عينه بياضًا غير البياض الأصل، وقوله ﷺ: «إِنَّ الجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ»[٢]، هذا يُقصد به التعمية حيث يسوغ ذلك.

قال: (وَلكِنَّ المُنْكِرَ أَنْ يُرِيدَ بِكَلامِهِ خِلافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ)، أي: وخلاف ظاهره، وهو مع ذلك يقصد (البَيَانَ وَالإِيضَاحَ)، ويقصد إفهام مراده، فمثل هذا لا يصير أن يريد حقيقة خلاف ظاهره، وخلاف المراد منه وهو مع ذلك يريد البيان، ويصفه بقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٨]، ويقول: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

قال: (كَيْفَ وَالْمُتَكَلِّمُ يُؤَكِّدُ كَلَامَهُ بِمَا يَنْفِي المَجَازَ)، بقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٣]، هذا تأكيد، وبقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء:١٠]، هذا تأكيد، وكرر ذلك في غير موضع، وضرب له الأمثال، فكل هذا يريد الحقيقة ولا يريد المجاز.

---

(١) أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، وأخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف، كما ذكر العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢/ ٧٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤٠) عن الحسن مرسلاً، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشارح:

قوله: (فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلا مَنْ سَلَّمَ للَّهِ - عَزَّ وَجَل - وَلرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلى عَالِمِهِ). أَيْ: سَلَّمَ لنُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا بِالشُّكُوكِ وَالشُّبَهِ وَالتَّأْوِيلاتِ الفَاسِدَةِ، أَوْ يقول: العَقْلُ يَشْهَدُ بِضِدِّ مَا دَل عَلَيْهِ النَّقْلُ! وَالعَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ!! فَإِذَا عَارَضَهُ قَدَّمْنَا العَقْلَ!! وَهَذَا لا يَكُونُ قَطُّ. لكِنْ إِذَا جَاءَ مَا يُوهِمُ مِثْل ذَلكَ: فَإِنْ كَانَ النَّقْلُ صَحِيحًا فَذَلكَ الذِي يُدَّعَى أَنَّهُ مَعْقُولٌ إِنَّمَا هُوَ مَجْهُولٌ، وَلوْ حَقَّقَ النَّظَرَ لظَهَرَ ذَلكَ. وَإِنْ كَانَ النَّقْلُ غَيْرَ صَحِيحٍ فَلا يَصْلُحُ للمُعَارَضَةِ، فَلا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَتَعَارَضَ عَقْلٌ صَرِيحٌ وَنَقْلٌ صَحِيحٌ أَبَدًا، وَيُعَارَضُ كَلامُ مَنْ يَقُولُ ذَلكَ بِنَظِيرِهِ، فَيُقَالُ: إِذَا تَعَارَضَ العَقْلُ وَالنَّقْلُ وَجَبَ تَقْدِيمُ النَّقْلِ؛ لأَنَّ الجَمْعَ بَيْنَ المَدْلُولَيْنِ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَرَفْعُهُمَا رَفْعُ النَّقِيضَيْنِ، وَتَقْدِيمُ العَقْلِ مُمْتَنِعٌ؛ لأَنَّ العَقْلَ قَدْ دَل عَلى صِحَّةِ السَّمْعِ وَوُجُوبِ قَبُولِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَلوْ أَبْطَلنَا النَّقْلَ لكُنَّا قَدْ أَبْطَلنَا دَلالةَ العَقْلِ، وَلوْ أَبْطَلنَا دَلالةَ العَقْلِ لمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مُعَارِضًا للنَّقْلِ؛ لأَنَّ مَا لَيْسَ بِدَلِيلٍ لا يَصْلُحُ لمُعَارَضَةِ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ، فَكَانَ تَقْدِيمُ العَقْلِ مُوجِبًا عَدَمَ تَقْدِيمِهِ، فَلا يَجُوزُ تَقْدِيمُهُ، وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ، فَإِنَّ العَقْلَ هُوَ الذِي دَل عَلى صِدْقِ السَّمْعِ وَصِحَّتِهِ، وَأَنَّ خَبَرَهُ مُطَابِقٌ لمُخْبَرِهِ، فَإِنْ جَازَ أَنْ تَكُونَ الدَّلالةُ بَاطِلةً لبُطْلانِ النَّقْلِ لزِمَ أَنْ لا يَكُونَ العَقْلُ دَلِيلاً صَحِيحًا، وَإِذَا لمْ يَكُنْ دَلِيلاً صَحِيحًا لمْ يَجُزْ أَنْ يُتَّبَعَ بِحَالٍ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُقَدَّمَ، فَصَارَ تَقْدِيمُ العَقْلِ عَلى النَّقْلِ قَدْحًا فِي العَقْلِ.

قال الشيخ:

قول الماتن ـ رحمه الله ـ: (فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلا مَنْ سَلِمَ لله عَزَّ وَجَلَ وَلِرَسُولِهِ ﷺ)، يعني: سلِّم في الآيات لأمر الله، وسلِّم للنبي ﷺ، فالأحاديث التي جاءت على هذا تُقبل ويُسلَّم أمرها إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ.

قوله: (وَرَدَّ عِلمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلى عَالِمِهِ)، أي: وأخر متشابهات نردها إلى الله تعالى، وذلك يُراد به الكيفية والكنه والماهية التي هي عليها، فإن ذلك مما لا تصل إليه علومنا، وهذا معنى قول مالك ـ رحمه الله ـ: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»[1].

يقول الشارح: (أَيْ: سَلمَ لنُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)، وقبلها على ما هي عليه، وعلى ما تدل عليه.

قوله: (وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا بِالشُّكُوكِ وَالشُّبَهِ وَالتَّأْوِيلاتِ الفَاسِدَةِ)، أي: لم يسلط عليها التأويلات التي تحرفها وتصرفها عن ظاهرها، ويورد عليها الشبهات، ويورد عليها التشكيك، فإن هذا ما سَلِم ولا سَلَّم، وكذلك الذين يقولون: العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل، والعقل أصل النقل فإذا عارضه قدمنا العقل. هكذا يحتجون، يقولون: ما عرفنا صدق الرسل إلا بعقولنا، فإذا جاؤوا بشيء تحيله العقول فإننا ننفي ذلك ونقول: هذا لا تأتي به الرسل؛ لأنه

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٣).

ينفيه العقل، وينكره كل عاقل، فلا يمكن أن نقره، ولو كان متواترًا، ولو كان من القرآن، ونسلط عليه التأويلات أو التحريفات ونحمله على المجازات، ولو كثرت الآيات، ولو تنوعت الدلالات، فنقدم العقل؛ لأنه الأصل. هكذا يقولون.

فيقول الشارح: (هَذَا لا يَكُونُ قَطُّ)، إذ لا يمكن حقًا أن يتعارض العقل والنقل.

قوله: (لَكِنْ إِذَا جَاءَ مَا يُوهِمُ مِثْلَ ذَلِكَ)، أي: إذا قُدر أنه جاء لفظ يوهم أن العقل يخالف ما دل عليه النقل، فإننا نقول: إذا كان النقل صحيحًا فذلك العقل فاسد.

قوله: (فَذَلِكَ الذِي يُدَّعَى أَنَّهُ مَعْقُولٌ)، نقول: إنه مجهول، عقلك ليس بسليم، بل عقلك ومعقولك جهالة وضلالة.

قوله: (وَلَوْ حَقَّقَ النَّظَرَ لَظَهَرَ ذَلِكَ)، أي: لو حققت النظر لظهر لك ذلك أن عقلك غير سليم.

قوله: (وَإِنْ كَانَ النَّقْلُ غَيْرَ صَحِيحٍ)، كالأحاديث الضعيفة (فَلا يَصْلُحُ لِلْمُعَارَضَةِ)، ولا يُعارض بها العقل السليم، فلا يمكن أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبدًا، ولا يمكن أن يعارض كلام الله تعالى.

قال: (وَيُعَارَضُ كَلامُ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ بِنَظِيرِهِ، فَيُقَالُ: إِذَا تَعَارَضَ العَقْلُ وَالنَّقْلُ وَجَبَ تَقْدِيمُ النَّقْلِ)، صحيح، نقول: نعكس عليكم الكلام، نقول: يجب تقديم النقل، (لأَنَّ الجَمْعَ بَيْنَ المَدْلُولَيْنِ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَرَفْعُهُمَا رَفْعُ

النَّقِيضَيْنِ)، أي: رفع النقل والعقل،(وَتَقْدِيمُ العَقْلِ مُمْتَنِعٌ؛ لأَنَّ العَقْلَ قَدْ دَلَّ عَلَى صِحَّةِ السَّمْعِ)، وعلى ثبوت النقل، لاسيما الآيات الصريحة الواضحة الدلالة، والأحاديث الصحيحة التي لا اشتباه في دلالتها، فلا يمكن أن يُقدم عليها هذه العقول المضطربة، فإننا نشاهد أن أحد هؤلاء المتكلمين يبقى مدة وهو يقول: إن العقل ينكر هذا. ثم يتراجع بعد مدة ويقول: بل العقل يقره. شخص واحد أقر عقلاً بشيء ثم أنكره، أنكر شيئًا بالعقل ثم أقره، كذلك شخصان عاقلان عقلهما وذكاؤهما قوي ومع ذلك يختلفان، هذا يقول: استدل بالعقل. وهذا يقول: استدل بالعقل.

يقول: (فَلَوْ أَبْطَلْنَا النَّقْلَ لَكُنَّا قَدْ أَبْطَلْنَا دَلالَةَ العَقْلِ)؛ لأن النقل هو الصحيح، أما إذا (أَبْطَلْنَا دَلالَةَ العَقْلِ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مُعَارِضًا لِلنَّقْلِ)، نقول: نرد هذا الفهم الذي تفهمه هذه العقول المنفردة، لا يصلح أن يكون ذلك العقل المضطرب معارضًا للنقل؛ (لأَنَّ مَا لَيْسَ بِدَلِيلٍ لا يَصْلُحُ لِمُعَارَضَةِ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ)، إذا كان العقل ليس بدليل فلا يُعارض شيئًا من الأشياء، وبذلك يكون (تَقْدِيمُ العَقْلِ مُوجِبًا عَدَمَ تَقْدِيمِهِ، فَلا يَجُوزُ تَقْدِيمُهُ)، تقديمه كيف يكون موجبًا عدم تقديمه؟ هذا يقول: نقدم، وهذا يقول: لا نقدمه.

قال: (وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ، فَإِنَّ العَقْلَ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَى صِدْقِ السَّمْعِ وَصِحَّتِهِ، وَأَنَّ خَبَرَهُ مُطَابِقٌ لِمُخْبِرِهِ)، أي: العقل هو الذي دل على صدق السمع، أي: الأدلة المسموعة، ودل على أن خبره مطابق لمخبره.

قال: (فَإِنْ جَازَ أَنْ تَكُونَ الدَّلالَةُ بَاطِلَةً لِبُطْلانِ النَّقْلِ لَزِمَ أَنْ لا يَكُونَ

العَقْلُ دَليلاً صَحِيحًا)؛ لأنه اضطرب.

قوله: ( وَإِذَا لَمْ يَكُنْ دَليلاً صَحِيحًا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُتَّبَعَ بِحَالٍ)، أي: أن يُتبع العقل.

قوله: (فَضْلا عَنْ أَنْ يُقَدَّمَ، فَصَارَ تَقْدِيمُ العَقْلِ عَلى النَّقْلِ قَدْحًا فِي العَقْلِ)، وقد توسع في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»[1]، وهذا الكتاب من أفضل الكتب، وقد مدحه ابن القيم بقوله[2]:

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي ... مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِ

---

(١) (١/ ٧٨ وما بعدها).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٩٠).

قال الشارح:

فَالوَاجِبُ كَمَالُ التَّسْلِيمِ للرَّسُولِ ﷺ، وَالانْقِيَادُ لأَمْرِهِ، وَتَلَقِّي خَبَرِهِ بِالقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، دُونَ أَنْ يُعَارِضَهُ بِخَيَالٍ بَاطِلٍ يُسَمِّيهِ مَعْقُولًا، أَوْ نُحَمِّلَهُ شُبْهَةً أَوْ شَكًّا، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرِّجَالِ وَزُبَالَةَ أَذْهَانِهِمْ، فَيُوَحِّدَهُ بِالتَّحْكِيمِ وَالتَّسْلِيمِ وَالانْقِيَادِ وَالإِذْعَانِ، كَمَا وَحَّدَ المُرْسِلَ بِالعِبَادَةِ وَالخُضُوعِ وَالذُّلِّ وَالإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ.

---

قال الشيخ:

هكذا يقول ـ رحمه الله ـ أن الواجب أن نسلم للنبي ﷺ وأن ننقاد لأمره، وأن نتلقى جميع أخباره بالقبول وأن نصدقها؛ لأنه هو الصادق والمصدوق، يحرم أن نعارضه بخيال باطل، وهو الذي يسمونه (معقولاً) فنعارض كلام النبي ﷺ، ويحرم أن نحمل كلامه ﷺ شبهة، أو شكًا، أو نورد عليه تشكيكًا أو نحو ذلك، ويحرم أن نقدم عليه آراء الرجال، وزبالة أذهانهم، فإن الدين ليس بالرأي، وليس بمجرد الأذهان، ويجب أن نوحد الله تعالى بالتحكيم والتسليم والإذعان والانقياد، ونجعله واحدًا ونسلم لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، كما وحدنا الرب ـ سبحانه وتعالى ـ بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فنوحد النبي ﷺ بأن نرجع إلى حكمه، ونسلم له ونذعن وننقاد، ونوحد الرب تعالى بالعبادة لا نعبد غيره، ولا نخضع إلا له، ولا نتذلل إلا بين يديه، ونتوب إليه ونتوكل عليه.

قال الشارح:

فَهُمَا تَوْحِيدَانِ، لا نَجَاةَ للعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إلا بِهِمَا: تَوْحِيدُ المُرْسِلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ، فَلا يُحَاكِمُ إلى غَيْرِهِ، وَلا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ، وَلا يَقِفُ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقَ خَبَرِهِ عَلى عَرْضِهِ عَلى قَوْلِ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ وَذَوِي مَذْهَبِهِ وَطَائِفَتِهِ وَمَنْ يُعَظِّمُهُ، فَإِنْ أَذِنُوا لهُ نَفَّذَهُ وَقَبِلَ خَبَرَهُ، وَإِلا فَإِنْ طَلَبَ السَّلامَةَ فَوَّضَهُ إِلَيْهِمْ وَأَعْرَضَ عَنْ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ، وَإِلا حَرَّفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَسَمَّى تَحْرِيفَهُ تَأْوِيلاً وَحَمْلًا، فَقَالَ: نُؤَوِّلُهُ وَنَحْمِلُهُ. فَلأَنْ يَلقَى العَبْدُ رَبَّهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ ـ مَا خَلا الإِشْرَاكَ بِاللهِ ـ خَيْرٌ لهُ مِنْ أَنْ يَلقَاهُ بِهَذِهِ الحَالِ.

---

قال الشيخ:

قوله: (فَهُمَا تَوْحِيدَانِ)، يريد بالتوحيد: اتباع النبي ﷺ والتسليم لأمره، والانقياد لحكمه، هذا توحيد.

والثاني: توحيد الرب تعالى بالعبادة والخضوع.

فلا نجاة من عذاب الله إلا بهذين التوحيدين: (تَوْحِيدُ المُرْسِلِ)، وهو الله، (وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ).

قوله: (فَلا يُحَاكِمُ إلى غَيْرِهِ، وَلا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ)؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥].

قوله: (وَلا يَقِفُ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقَ خَبَرِهِ عَلى عَرْضِهِ عَلى قَوْلِ

شَيْخِهِ...)، هكذا يفعل كثير من هؤلاء، فإذا جاءه الأمر من الله فلابد أنهم يتوقفون، فيقولون: هذا الأمر نعرضه على مشايخنا، وعلى أئمتنا، وعلى علماء مذاهبنا، وعلى طوائفنا، وعلى الذين يعظمونهم، فإذا أذنوا لنا نفذناه وقبلنا خبره، وإذا لم يأذنوا لنا فإما أن نفوضه ونقول: نفوض أمره مع اعتقادنا أن هذا ليس له حقيقة. ويقولون: هذا هو السلامة، ويعتقدون أن طريقة السلف التفويض وعدم المعرفة للمعاني، هذه حالة من حالاتهم.

الحالة الثانية: أن يعرضوا عن هذا الأمر، وهذا الخبر مع اعتقادهم أنه لا يجوز العمل به، فيسكتون.

الحالة الثالثة: أن يسلطوا عليه التحريفات التي تصرفه عن ظاهره، ويسمون هذا التحريف تأويلاً وحملاً، فيقولون: نؤوله أو نحمله على كذا وكذا.

يقول الشارح ـ رحمه الله ـ: (فَلأَنْ يَلقَى العَبْدُ رَبَّهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ ـ مَا خَلا الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ ـ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلقَاهُ بِهَذِهِ الحَال)، التي هي موقفهم من هذه الأدلة: إما التفويض، وإما السكوت، وإما التحريف، اتباعًا لأقوال مشايخهم.

قال الشارح:

بَل إِذَا بَلغَهُ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ يَعُدُّ نَفْسَهُ كَأَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُول اللَّـهِ ﷺ، فَهَل يَسُوغُ أَنْ يُؤَخِّرَ قَبُولهُ وَالعَمَل بِهِ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلى رَأْيِ فُلانٍ وَكَلامِهِ وَمَذْهَبِهِ؟! بَل كَانَ الفَرْضُ المُبَادَرَةَ إِلى امْتِثَالِهِ، مِنْ غَيْرِ التِفَاتٍ إِلى سِوَاهُ، وَلا يُسْتَشْكَلُ قَوْلُهُ لمُخَالفَتِهِ رَأْيَ فُلانٍ، بَل تُسْتَشْكَلُ الآرَاءُ لقَوْلِهِ، وَلا يُعَارَضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ، بَل تُهْدَرُ الأَقْيِسَةُ، وَتُلغَى لنُصُوصِهِ، وَلا يُحَرَّفُ كَلامُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ، لخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولاً، نَعَمْ هُوَ مَجْهُولٌ، وَعَنِ الصَّوَابِ مَعْزُولٌ! وَلا يُوقَفُ قَبُولُ قَوْلِهِ عَلى مُوَافَقَةِ فُلانٍ دُونَ فُلانٍ، كَائِنًا مَنْ كَانَ.

---

قال الشيخ:

هذا الواجب أن من سمع الحديث يعد نفسه كأنه سمع النبي ﷺ يتكلم به، فيقول سمعًا وطاعة، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، لا يجوز له (أَنْ يُؤَخِّرَ قَبُولهُ وَالعَمَل بِهِ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلى رَأْيِ فُلانٍ)، أو على كلام فلان، أو على مذهب فلان، فهذا فعل هؤلاء المتمذهبة والمتأولة.

قوله: (بَل كَانَ الفَرْضُ المُبَادَرَةَ إِلى امْتِثَالِهِ)، أي: الواجب والفرض المبادرة إلى امتثال هذا النص (مِنْ غَيْرِ التِفَاتٍ إِلى سِوَاهُ)، ولا إلى كلام أحد من العلماء الذين يخالفونه، ولا يُستشكل قوله وكلامه لأجل مخالفته لرأي فلان،

بل تُستشكل هذه الآراء لقوله، فإن آراء الناس تُرد وتُعد مشكلة، إذا خالفت تلك الآراء والتخمينات وما أشبهها.

قوله: (وَلا يُعَارَضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ)، أي: لا يعارض نص النبي ﷺ بالأقيسة.

قال: (بَلِ تُهْدَرُ الأَقْيِسَةُ وَتُلغَى لِنُصُوصِهِ)، أي: لنصوص الله تعالى.

قوله: (وَلا يُحَرَّفُ كَلامُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ)؛ كما يفعل اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه، لا يجوز أن يُحرف (لِخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولاً)، بل هو مجهول، هذا الخيال الذي يسمونه (معقولاً) وهو في الحقيقة مجهول كيف يُحرف لأجله كلام الله؟!! فهو في الحقيقة مجهول وعن الصواب معزول بعيد.

قوله: (وَلا يُوقَفُ قَبُولُ قَوْلِهِ عَلَى مُوَافَقَةِ فُلانٍ دُونَ فُلانٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ)، بل قول الله وقول رسوله مقدم على قول كل أحد، وذلك من كلام الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أنه قال: «كل أحد يؤخذ منه ويُرد إلا صاحب هذا القبر» يعني: النبي ﷺ.

قال الشارح:

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: «لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا، حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ، وَيَقُولُ: «مَهْلًا يَا قَوْمِ! بِهَذَا أُهْلِكَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ».

---

قال الشيخ:

هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد[١]، وعبدالرزاق[٢]، وابن ماجه[٣]، وغيرهم، وقد أخرجه مسلم في (صحيحه)[٤] عن عبد الله بن عمرو مختصرًا،

---

(١) (٢/ ١٨١).

(٢) في مصنفه (١١/ ٢١٦).

(٣) برقم (٨٥).

(٤) برقم (٢٦٦٦).

وهو مشهور عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقد ذكره ابن كثير[1] عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

أخبر ﷺ بأن القرآن ما نزل يكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا ما عرفنا منه نعمل به، وما جهلنا منه نتوقف فيه ونرده إلى عالمه إلى الله تعالى، وإلى النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

أخبر عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - أنه لما رأى الصحابة جلسوا متحلقين كره أن يفرق بينهم، فابتعد عنهم قليلاً، ثم إنهم خاضوا في مسائل من القدر، وجاؤوا بالأدلة يتنازعون فيها، هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية، وارتفعت أصواتهم، ولما سمعهم النبي ﷺ خرج مغضبًا، وقد احمر وجهه، وجعل يرميهم بالتراب، ويقول: «مَهْلاً يَا قَوْمِ»، أي: لا تتجرؤوا على ذلك، فإن بهذا الاختلاف «أُهْلِكَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ»، حيث اختلفوا على أنبيائهم واختلفوا بكتبهم، وضربوا كتب الله تعالى بعضها ببعض، القرآن نزل يصدق بعضه بعضًا، لا يكذب بعضه بعضًا، هكذا أرشدهم، فإن أشكلت علينا بعض الآيات فإننا نقول: الله أعلم بمراده بها، يعني: بمراده بها تدل عليه من حيث الكيف، والكنه، والمعنى الغيبي، وما أشبه ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

قال الشارح:

وَلا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ القَوْل عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلمٍ، قَال تَعَالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣]، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦]، فَعَلى العَبْدِ أَنْ يَجْعَل مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَل بِهِ كُتُبَهُ هُوَ الحَقُّ الذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، فَيُصَدِّقُ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَمَا سِوَاهُ مِنْ كَلامِ سَائِرِ النَّاسِ يُعْرَضُ عَلَيْهِ، فَإِنْ وَافَقَهُ فَهُوَ حَقٌّ، وَإِنْ خَالفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ هَل خَالفَهُ أَوْ وَافَقَهُ لكَوْنِ ذَلكَ الكَلامِ مُجْمَلاً لا يَعْرِفُ مُرَادَ صَاحِبِهِ، أَوْ قَدْ عُرِفَ مُرَادُهُ لكِنْ لَمْ يُعْرَفْ هَل جَاءَ الرَّسُولُ ﷺ بِتَصْدِيقِهِ أَوْ بِتَكْذِيبِهِ، فَإِنَّهُ يُمْسِكُ عَنْهُ، وَلا يَتَكَلمُ إِلا بِعِلمٍ، وَالعِلمُ: مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَقَدْ يَكُونُ عِلمٌ عَنْ غَيْرِ الرَّسُولِ، لكِنْ فِي الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِثْل: الطِّبِّ وَالحِسَابِ وَالفِلاحَةِ، وَأَمَّا الأُمُورُ الإِلهِيَّةُ وَالمَعَارِفُ الدِّينِيَّةُ، فَهَذِهِ العِلمُ فِيهَا مَا أُخِذَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ لا غَيْرَ.

---

قال الشيخ:

يُخبر بأن الله تعالى حرم أن نقول على الله بغير علم، كما في هذه الآية من سورة (الأعراف)، فإن الله تعالى ذكر فيها المحرمات، وبدأ بالأخف ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، هذه أخف من الذي بعدها؛ لأنها تحت

مشيئة الله؛ ولأن الله تعالى قد يسترها ويغفرها، ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾، هو: القول أو العمل الذي يترتب عليه ذنب كبير وهو أكبر من الفواحش، ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، وهو: التعدي والظلم؛ التعدي على الله تعالى وعلى شرعه، والتعدي على الناس بغير حق وهو أكبر من الإثم، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، هو الشرك: الذي يحبط الأعمال، وهو الذي لا يغفره الله، وهو أكبر من البغي، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هو: القول على الله بغير علم، أي التخرص في شرع الله، والتخرص في أحكام الله، وهو أعم وأعظم من الشرك؛ وذلك لأنه يدخل نفسه في الشرع، كأنه يزاحم الله تعالى، ويُشرع ما لم يشرعه الله، ويُغير شرع، الله ويقول على الله بغير علم، وهكذا آية (الإسراء): ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: لا تتبع شيئًا ليس لك به علم، بل قف على ما تعلم.

قال: (فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ)؛ لأنه من الله تعالى، جاءت به الرسل الصادقون، وأنزل الله تعالى به كتبه المحققة، فيجب اتباعه، (فَيُصَدِّقُ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ)، وأنه من الله تعالى، وأن ما سواه كلام من سائر الناس، وهذا الذي من كلام سائر الناس إذا جاءنا نعرضه على كلام الله وكلام رسوله، وعلى الكتاب والسنة، وكذا اصطلاحاتهم: كالجوهر والعرض والأعراض والأبعاض والأعضاء وما أشبه ذلك، وكذلك الجهة والحيز والجسم وما أشبهها، نعرضها على كلام الله

فما وافق كلام الله وكلام رسوله فهو حق، وأما إذا خالفه فهو باطل، نرد الباطل ونأخذ الحق.

قوله: (وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ هَل خَالَفَهُ أَوْ وَافَقَهُ لكَوْنِ ذَلكَ الكَلامِ مُجْمَلا لا يَعْرِفُ مُرَادَ صَاحِبِهِ)، أي: أما إذا لم نعلم ولم يتبين لنا هل يوافق أو يخالف؛ لكون ذلك الكلام مجملاً ولم نعلم مراد صاحبه؛ لكونه غير واضح.

قوله: (أَوْ قَدَ عُرِفَ مُرَادُهُ لكِنْ لَمْ يُعْرَفْ هَل جَاءَ الرَّسُولُ ﷺ بِتَصْدِيقِهِ أَوْ بِتَكْذِيبِهِ فَإِنَّهُ يُمْسِكُ عَنْهُ)، أي: أو نعرف مراده لكن لم نعرف هل جاء الرسول ﷺ بتصديقه أو تكذيبه، فإننا نتوقف ونمسك عنه في هاتين الحالتين:

الأولى: إذا كان الكلام مجملاً فإننا نتوقف.

الثانية: وإذا كان الكلام واضحًا، ولكن ما وجدنا ولم نعرف دليلاً يصدقه أو يكذبه فإننا نمسك عن قبوله ولا نتكلم إلا بعلم؛ لهذه الآية ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: (وَالعِلمُ: مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ)، هذا هو العلم الصحيح.

قوله: (وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ)، أي: العلم النافع ما جاء به الرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي بين شرع الله.

قوله: (وَقَدْ يَكُونُ عِلمٌ عَنْ غَيْرِ الرَّسُولِ، لكِنْ فِي الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِثْلِ: الطِّبِّ وَالحِسَابِ وَالفِلاحَةِ)، الأمور الدنيوية يجوز أن يُتكلم فيها بعد التجربة بحسب المعرفة، وبحسب ما يقوله الناس، يتكلمون في الطب والحساب

والفلاحة والحراثة والنجارة، وسائر الحرف اليدوية وما أشبهها.

قوله: (**وَأَمَّا الأُمُورُ الإِلهِيَّةُ وَالمَعَارِفُ الدِّينِيَّةُ، فَهَذِهِ العِلمُ فِيهَا مَا أُخِذَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ لا غَيْرَ**)، أي: وأما الأمور الإلهية التي مرجعها إلى الله وإلى الشرع، وكذلك المعارف الدينية، فهذه العلم فيها موقوف على ما أُخذ عن النبي ﷺ لا غير، نتوقف فيها على الدليل، فنسأل كل مَنْ تكلم هل هناك دليل يدل على ما تقوله من كلامك في الإلهيات أو كلامك في الأسماء والصفات، أو كلامك في الآيات والأحاديث، أو كلامك في الأحكام الشرعية، أو كلامك في العقائد، هل هناك دليل فنقبله؟ إذا لم يكن هناك دليل فإننا نرده، أما إذا كان كلامك في الأمور الدنيوية فإننا نرجع فيها إلى أهل الخبرة وأهل المعرفة، الذين يتعلمون العلوم الدنيوية: كالحساب، والهندسة، والصناعات والطب والأدوية .. وما أشبهها، فإن الناس يتعلمونها وإن كانت في الأصل قد دلت عليها الأدلة الشرعية.

قد تكلم العلماء على المسائل الطبية، كما فعل ذلك ابن القيم في «زاد المعاد»، فإنه تكلم عن الطب النبوي، وتبعه على ذلك زميله الذي هو الذهبي، فتكلم أيضًا عن الأمور الطبية في رسالة له اسمها «الطب النبوي»، وتبعهما على ذلك زميلهما أيضًا الذي هو ابن مفلح فتكلم أيضًا عن الطب وأطال فيه في كتابه «الآداب الشرعية»، وتكلم الناس في علم الحساب وتوسعوا فيه، كما فعل ذلك صاحب ألفية الفرائض في كتابه «العذب الفائض»، فإنه توسع في علم الحساب، مما دل على أن الأولين تكلموا في الحساب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلا تَثْبُتُ قَدَمُ الإِسْلامِ إِلا عَلى ظَهْرِ التَّسْليمِ وَالاسْتِسْلامِ.

---

قال الشارح:

هَذَا مِنْ بَابِ الاسْتِعَارَةِ، إِذِ القَدَمُ الحِسِّيُّ لا تَثْبُتُ إِلا عَلى ظَهْرِ شَيْءٍ، أَيْ: لا يَثْبُتُ إِسْلامُ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لنُصُوصِ الوَحْيَيْنِ، وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا، وَلا يَعْتَرِضُ عَلَيْهَا وَلا يُعَارِضُهَا بِرَأْيِهِ وَمَعْقُولِهِ وَقِيَاسِهِ.

رَوَى البُخَارِيُّ[1] عَنِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ: «مِنَ اللَّهِ الرِّسَالَةُ، وَمِنَ الرَّسُولِ البَلاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ». وَهَذَا كَلامٌ جَامِعٌ نَافِعٌ.

---

قال الشيخ:

قوله: (قَدَمُ الإِسْلامِ)، إشارة إلى حقيقة الإسلام، وأن الإسلام الحقيقي لا يثبت إلا إذا سلَّم الإنسان لأمور الله تعالى واستسلم لعبادة الله؛ ولهذا فسر الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - الإسلام بقوله: «الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله»، فلابد من التسليم

---

(١) في كتاب التوحيد، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، قبل الحديث رقم (٧٥٣٠).

لأمر الله تعالى، فلا يثبت إسلام كل أحد حتى يسلم لنصوص الوحيين، وحتى ينقاد إليها، ولا يعترض عليها، ولا يورد عليها إشكالات إذا كانت واضحة، ولا يعارضها بالآراء والمعقول والأقيسة، وبذلك يُقال: إنه ثابت قدمه في هذا الدين الذي هو الإسلام.

ذكر كلام ابن شهاب الزهري رحمه الله ـ وهو من التابعين، أنه قال: (مِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ، وَمِنَ الرَّسُولِ البَلاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ).

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «هذا وقع في قصة أخرجها الحميدي في (النوادر) ومن طريقه الخطيب قال الحميدي: حدثنا سفيان قال: قال رجل للزهري: يا أبا بكر قول النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجُيُوبَ» ما معناه؟ فقال الزهري: من الله العلم، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم»[1]، قيل: هذا الرجل هو أبو عمرو الأوزاعي، وقد رُوي نحو هذا عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن أنه فسر الاستواء، فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»، أي: الاستسلام لأمر الله تعالى.

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٤).

قال الشارح:

وَمَا أَحْسَنَ المَثَلَ المَضْرُوبَ للنَّقْلِ مَعَ العَقْلِ، وَهُوَ: أَنَّ العَقْلَ مَعَ النَّقْلِ كَالعَامِّيِّ المُقَلِّدِ مَعَ العَالِمِ المُجْتَهِدِ، بَل هُوَ دُونَ ذَلكَ بِكَثِيرٍ، فَإِنَّ العَامِّيَّ يُمْكِنُهُ أَنْ يَصِيرَ عَالِمًا، وَلا يُمْكِنُ للعَالِمِ أَنْ يَصِيرَ نَبِيًّا رَسُولاً، فَإِذَا عَرَفَ العَامِّيُّ المُقَلِّدُ عَالِمًا، فَدَل عَلَيْهِ عَامِّيًّا آخَرَ، ثُمَّ اخْتَلَفَ المُفْتِي وَالدَّالُّ، فَإِنَّ المُسْتَفْتِيَ يَجِبُ عَلَيْهِ قَبُولُ قَوْلِ المُفْتِي، دُونَ الدَّالِ، فَلَوْ قَالَ الدَّالُّ: الصَّوَابُ مَعِي دُونَ المُفْتِي؛ لأَنِّي أَنَا الأَصْلُ فِي عِلْمِكَ بِأَنَّهُ مُفْتٍ، فَإِذَا قَدَّمْتَ قَوْلَهُ عَلَى قَوْلِي قَدَحْتَ فِي الأَصْلِ الذِي بِهِ عَرَفْتَ أَنَّهُ مُفْتٍ، فَلزِمَ القَدْحُ فِي فَرْعِهِ! فَيَقُولُ لهُ المُسْتَفْتِي: أَنْتَ لَمَّا شَهِدْتَ لهُ بِأَنَّهُ مُفْتٍ، وَدَللتَ عَلَيْهِ، شَهِدْتَ لهُ بِوُجُوبِ تَقْلِيدِهِ دُونَكَ، فَمُوَافَقَتِي لكَ فِي هَذَا العِلْمِ المُعَيَّنِ، لا تَسْتَلزِمُ مُوَافَقَتَكَ فِي كُل مَسْأَلَةٍ، وَخَطَؤُكَ فِيمَا خَالفْتَ فِيهِ المُفْتِيَ الذِي هُوَ أَعْلمُ مِنْكَ، لا يَسْتَلزِمُ خَطَأَكَ فِي عِلْمِكَ بِأَنَّهُ مُفْتٍ، هَذَا مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ ذَلكَ المُفْتِيَ قَدْ يُخْطِئُ.

---

قال الشيخ:

هذا مثل حسن ضربه العلماء للعقل مع النقل، العقل: هو ما يُفهم بالعقول، والنقل: هو الأدلة التي في الوحيين، فمثل العقل كالعامي المقلد، والنقل كالعالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير؛ لأن العامي المقلد قد يمكنه أن يكون عالمًا، ولا يمكن للعالم أن يصير نبيًا ورسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالمًا، فدل عليه عاميًّا آخر وقال: اذهب إلى فلان فإنه عالم، وإنه أعلم مني،

فاسأله واقبل كلامه. ذهب المستفتي إلى ذلك العالم، واستفتاه، ثم بعد ذلك رجع إلى الدال، فقال: إن فلانًا المفتي قال كذا وكذا. فقال الدال عليه: أنا أخالفه. المستفتي ماذا يجب عليه؟ يلزمه قبول قول المفتي ولا يلزمه قبول قول ذلك الذي دله، لو قال الدال: الصواب معي دون المفتي؛ لأنني أنا الأصل في علمك بأنه عالم، أنا الذي دللتك عليه، فإذا قدمت قوله على قولي، قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفتٍ، فيلزم القدح في فرعه الذي هو أنه مفتٍ، هكذا، ويقول له المستفتي: أنت أرسلتني إليه وشهدت له بأنه مفتٍ، ودللتني عليه، وشهدت له بوجوب تقليده دونك، وشهدت بأنه أهل أن يُقبل قوله، ولم تفتني أنت أولاً، فلابد أن أوافقه، ولو وافقتك أنت في هذا العلم المعين الذي هو دلالتك فلا يلزم أن أوافقك في كل مسألة، أي: في خطئك فيما خالفت فيه المفتي، وقد شهدت بأنه أعلم منك، وذلك لا يستلزم خطأك بعلمك بأنه مفتٍ، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ، ولكن شهادتك أيها الدال على أنه أعلم منك، تستلزم أن لا نرد قوله، ولا نقبل قولك؛ لأنك قد أحلت عليه، وقد بينت أنه أعلم منك، وأنه يجب قبول قوله.

يقول الشارح:

وَالعَقْلُ يَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُول مَعْصُومٌ فِي خَبَرِهِ عَنِ اللهِ تَعَالى، لا يَجُوزُ عَلَيْهِ الخَطَأُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ التَّسْلِيمُ لهُ وَالانْقِيَادُ لأَمْرِهِ، وَقَدْ عَلِمْنَا بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ أَنَّ الرَّجُل لوْ قَال للرَّسُول: هَذَا القُرْآنُ الذِي تُلقِيهِ عَلَيْنَا، وَالحِكْمَةُ التِي جِئْتَنَا بِهَا، قَدْ تَضَمَّنَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تُنَاقِضُ مَا عَلِمْنَاهُ بِعُقُولنَا، وَنَحْنُ إِنَّمَا عِلِمْنَا صِدْقَكَ بِعُقُولنَا، فَلوْ قَبِلنَا جَمِيعَ مَا تَقُولُهُ مَعَ أَنَّ عُقُولنَا تُنَاقِضُ ذَلكَ لكَانَ ذلك قَدْحًا فِي مَا عَلِمْنَا بِهِ صِدْقَكَ، فَنَحْنُ نَعْتَقِدُ مُوجِبَ الأَقْوَال المُنَاقِضَةِ لمَا ظَهَرَ مِنْ كَلامِكَ، وَكَلامُكَ نُعْرِضُ عَنْهُ، لا نَتَلقَّى مِنْهُ هَدْيًا وَلا عِلمًا، لمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا الرَّجُل مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَلمْ يَرْضَ مِنْهُ الرَّسُولُ بِهَذَا، بَل يَعْلمُ أَنَّ هَذَا لوْ سَاغَ لأَمْكَنَ كُلَّ أَحَدٍ أَنْ لا يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، إِذِ العُقُولُ مُتَفَاوِتَةٌ، وَالشُّبُهَاتُ كَثِيرَةٌ، وَالشَّيَاطِينُ لا تَزَالُ تُلقِي الوَسَاوِسَ فِي النُّفُوسِ، فَيُمْكِنُ كُلَّ أَحَدٍ أَنْ يَقُول مِثْل هَذَا فِي كُل مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَمَا أَمَرَ بِهِ!! وَقَدْ قَال تَعَالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور:٥٤]، وَقَال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]، وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤]، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١، ٢]، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:٢]، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن

تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي القُرْآنِ.

---

قال الشيخ:

العقل يعلم أن الرسول ﷺ معصوم في خبره عن الله تعالى، فإن الذين آمنوا به من الصحابة عرفوا صدقه، وعرفوا أنه لا يخبر إلا عن ربه سبحانه وتعالى، وعرفوا أنه لا يجوز عليه الخطأ، وعرفوا أن الواجب عليهم التسليم له، فسلموا له بعقولهم، فالعقل يجب عليه أن يسلم للنبي ﷺ، وأن ينقاد لأمره.

قوله: (وَقَدْ عَلِمْنَا بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: هَذَا القُرْآنُ الذِي تُلقِيهِ عَلَيْنَا... لا نَتَلَقَّى مِنْهُ هَدْيًا وَلا عِلْمًا)، خلاصة هذا القول: أن إنسانًا لو اعترض على دين الإسلام، وقال: يا رسول الله إن هذا القرآن الذي تلقيه علينا، وهذه الحكمة والأحاديث التي جئتنا بها، قد تتضمن أشياء كثيرة تناقض عقولنا، ولا تستسيغها عقولنا، فكيف نقبلها مع أنَّا ما علمنا أنك صادق إلا بعقولنا، فإذا قبلنا جميع ما تقوله وعقولنا تناقض ذلك، كان هذا قدحًا فيما علمنا به صدقك، فلا نعتقد أو نتقبل تلك الأقوال المناقضة لما ظهر لعقولنا، بل نعرض عنها، ونعرض كلامك كله على عقولنا، ولا نتلقى منه هدى ولا علمًا إذا كان يخالف عقولنا، نعرض كلامك

الذي جئت به من كلام الله، وكلامك الذي من الأحاديث على عقولنا، وننظر هل يوافق عقولنا أو لا يوافقها، فما لم يوافقها نطرحه، سواء من كلامك أو من كلام الله تعالى الذي جئت به؟ فالذي يقول هذا لا يكون مؤمنًا حقًا بما جاء به الرسول ﷺ، بل يعترض عليه، كأنه يقول: لا نقبل إلا ما توافقه عقولنا وما نرضى به وما يوافق ما نفهم، فلا يؤمن حقًا بالنبي ﷺ، ولا يكون راضيًا من الرسول ﷺ بكل ما جاء به، ولا يرضى بالنبي ﷺ.

قوله: (**بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا لَوْ سَاغَ لأَمْكَنَ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ لا يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ**)، بل يعلم أن هذا الاعتراض لو ساغ، ولو جاز أن تُعرض الأدلة على العقول؛ لأمكن كل أحد أن لا يؤمن بشيء مما جاء به الرسول ﷺ فتكون أقوال النبي ﷺ، وكلام الله تعالى يرد بعضه هذا، ويرد بعضه هذا، ويرد بعضه هذا؛ لأن هذا قد يقول: هذا لا يوافق عقلي فلا أقبله. والثاني يقول: هذا لا يوافق عقلي. وتأتي شبهات كثيرة، والشياطين تلقي بالوساوس في النفوس، فيمكن لكل أحد أن يقول: لا أقبل إلا ما يوافق عقلي، فيقول مثل هذا في كل ما أخبر به النبي ﷺ، وما أمر به.

وكل هذا يخالف الأدلة:

**الدليل الأول**: قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور:٥٤]، وقد بلَّغ ما أُنزل إليه، وإذا بلغ فإن علينا أن نتقبله.

**الدليل الثاني**: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]،

ونشهد بأنهم قد بلغوا ما أُنزل إليهم وما أُرسلوا به.

**الدليل الثالث:** قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٤]، فكل رسول أرسله الله بلسان قومه الذين أرسل إليهم، وقد بلغوا ما أُنزل إليهم، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، والله تعالى هو الذي أضل هؤلاء لحكمة، وهدى هؤلاء برحمة.

**الدليل الرابع:** قوله تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة:١٥]، النور: هو القرآن، وكذلك وصفه بأنه كتاب مبين، وكذلك أيضًا مما يُسمى نورًا الرسول ﷺ، وقد سمى الله القرآن نورًا بقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾ [التغابن:٨]، ووصف الكتاب بأنه مبين، فلابد أن نتبع هذا النور، ولابد أن نتبع هذا الكتاب، ولا نرد منه شيئًا ولو لم توافقه عقولنا.

**الدليل الخامس:** قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [الدخان: ١، ٢]، وصفه بأنه مبين، أي: لابد أنه بين الذي يحتاجون إليه، ولم يكن فيه لبس، ولم يكن فيه خفاء، بل هو واضح بيِّن والحمد لله.

**الدليل السادس:** قول الله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [يوسف:٢]، وصف الله الكتاب الذي هو هذا القرآن بأنه مبين، أي: مبين واضح يفهمه كل من تأمله.

الدليل السابع: قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]، أي: هذا القرآن ليس حديثًا يُفترى، ومنه هذه القصص كقصة يوسف ـ عليه السلام ـ ولكن هذا القرآن تصديق لما بين يديه من الكتب، ومن الرسل، وتفصيل لكل شيء يحتاجون إليه، وذكر أنه هدى يهدي الله به من يشاء، وذكر أنه رحمة للمؤمنين.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، هكذا وصف هذا الكتاب إنه تبيان لكل شيء، فإذا لم يقبل منه إلا ما يوافق عقولنا لم نشهد بأنه تبيان لكل شيء، ولا أنه هدى يُهدى به ويُستدل به على الأحكام، ولا أنه رحمة من الله لعباده، ولا أنه بشرى للمسلمين، فهذه الآيات وما أشبهها فيها بيان الرد على الذين يقولون: لا نقبل إلا ما توافقه عقولنا.

قال الشارح:

فَأَمْرُ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ تَكَلَّمَ فِيهِ بِمَا يَدُلُّ عَلى الحَقِّ أَمْ لا؟ الثَّانِي بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ عَلى الحَقِّ بِأَلْفَاظٍ مُجْمَلَةٍ مُحْتَمِلَةٍ، فَمَا بَلَغَ البَلاغَ المُبِينَ، وَقَدْ شَهِدَ لهُ خَيْرُ القُرُونِ بِالبَلاغِ، وَأَشْهَدَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ فِي المَوْقِفِ الأَعْظَمِ، فَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ فِي أُصُولِ الدِّينِ لَمْ يُبَلِّغِ البَلاغَ المُبِينَ، فَقَدِ افْتَرَى عَلَيْهِ ﷺ.

---

قال الشيخ:

حقًا إن الإيمان بالله واليوم الآخر قد بلغه النبي ﷺ، وتكلم فيه بما يدل على الحق، وفصله تفصيلاً ظاهرًا، ومن أنكر ذلك فقوله باطل، وإذا علمنا بأنه تكلم بالحق، ثم قيل: إنه تكلم على الحق بألفاظ مجملة محتملة كذا وكذا، فليس ذلك بالبيان الذي أمره الله بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]؛ لأنه بينه بألفاظ مجملة، تحتمل كذا وكذا، فلا يُقال: إنه بلغ البلاغ المبين، والواقع الصحيح أنه بلغ الرسالة ونصح الأمة ولما خطبهم في حجة الوداع في عرفة، وكذلك في منى، وفصل لهم الكلام الذي أخبرهم به، وبين لهم المحرمات والمباحات عند ذلك قال: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**»، قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ - وهؤلاء هم خير القرون الصحابة ﷺ - فقال بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى الناس:

«اللهم اشْهَدْ، اللهم اشْهَدْ»[1]، فأشهد الله عليهم في هذا الموقف العظيم الذي حضره جمع عظيم.

فالذين يدَّعون أنه في أصول الدين لم يُبلغ البلاغ، وأنه لم يُعلم الناس ما يحتاجون إليه، وإنما أخبرهم بضد ذلك، أو أخبرهم بأخبار مجملة محتملة.

نقول: قد كذبتم وافتريتم على النبي ﷺ.

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٥)

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

فَمَنْ رَامَ عِلمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ، حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ، وَصَافِي المَعْرِفَةِ، وَصَحِيحِ الإِيمَانِ.

---

قال الشارح:

هَذَا تَقْرِيرٌ للكَلامِ الأَوَّل، وَزِيَادَةُ تَحْذِيرٍ أَنْ يُتَكَلمَ فِي أُصُولِ الدِّينِ - بَل وَفِي غَيْرِهَا - بِغَيْرِ عِلمٍ. وَقَال تَعَالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج:٣، ٤]، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج:٨، ٩]، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠]، وَقَال تَعَالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣]، إِلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالةِ عَلى هَذَا المَعْنَى.

---

قال الشيخ:

الذين يحاولون علم ما حُجب عنهم، أو ما حُظر عنهم علمه، ويتكلفون ولا يقتنعون بالتسليم، ولا ترضى بذلك أفهامهم، فإنهم عن ربهم محجوبون.

قوله: (حَجَبَهُ مَرَامُهُ)، يعني: مقصدهم، (عَنْ خَالصِ التَّوْحِيدِ)؛ لأنهم تكلفوا، فحُجبوا عن صافي المعرفة، حُجبوا عن صحيح الإيمان؛ لأنهم لم يقتنعوا بأمر الله، ولم يقتصروا على ما أخبرهم الله به، وأخذوا يتكلفون، وأخذوا يصرفون الكلام ويحرفونه عن مواضعه.

قوله: (هَذَا تَقْرِيرٌ للكَلامِ الأَوَّل)، الذي هو وجوب الرضا والتسليم لأمر الله تعالى.

قوله: (وَزِيَادَةُ تَحْذِيرٍ أَنْ يُتَكَلمَ فِي أُصُولِ الدِّينِ)، أي: في العقيدة (بَل وَفِي غَيْرِهَا بِغَيْرِ عِلمٍ)، بل بالظن والهوى والرأي.

ثم ذكر أدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، الخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام لكل من تعدى وتكلم بغير علم، أي: لا تتبع الشيء الذي ليس لك به علم، ولا تتخرص فإنك مسؤول، سمعك وبصرك وفؤادك مسؤولون كلهم عن تخرصك وقولك في الله بغير علم.

الدليل الثاني: قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج:٣، ٤]، هذا قسم من الناس يجادلون في الله بغير علم، يجادلون في أسماء الله، ويجادلون في وحدانية الله، ويجادلون في صفاته، ويجادلون في أمره ونهيه، وليس عندهم علم بذلك، بل يتبعون شياطين الإنس والجن، والشيطان: المريد، هو العاصي، كُتب على الشيطان أنه من تولاه - أي: من تولاه منكم أيها الإنس، فإن الشيطان يضله ويهديه إلى عذاب السعير، يضله عن الحق، ويهديه إلى عذاب النار، يوقعه في عذاب النار، فكيف تجادلون في الله بغير علم، وتتبعون الشيطان؟!!.

**الدليل الثالث:** قوله - جل وعلا -: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج:٨، ٩]، يجادلون في الله بغير علم، يجادلون في أسمائه وصفاته، يجادلون في وحيه، يجادلون في كلامه، يجادلون في أحكامه، يجادلون في وعده ووعيده، وليس عندهم علم، بل بالظن، وليس عندهم هدى، وليسوا على كتاب مبين كتاب بيّن، ثم قال: ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾، يعني: هذا الذي يجادل قد ثنى عطفه، ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: ليضل الناس عن سبيل الله، فوعده بكونه ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾، أي: عذاب وذل وإهانة، ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾، أي: هذا جزاؤه في الآخرة.

الدليل الرابع: قوله ـ جل شأنه ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، أي: لا أضل من هذا الذي اتبع هواه بغير هدى من الله، بل يتبع ما تتمناه نفسه، يتبع ما تهواه نفسه بغير هدى، إنما يتبع الظن ليس عنده دلالة، وليس عنده دليل من الله، هؤلاء ظالمون، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الدليل الخامس: قوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]، أي: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والذين يعصون الله ويعصون رسله يتبعون الظن أي التخرص، ويتبعون هوى أنفسهم، ويتبعون آراءهم.

ثم قال: (إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالةِ عَلَى هَذَا المَعْنَى).

قال الشارح:

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلا أُوتُوا الجَدَلَ ثُمَّ تَلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف:٥٨]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ[(١)].

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِيمُ». خَرَّجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[(٢)].

وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلرَّسُولِ نَقَصَ تَوْحِيدُهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ، أَوْ يُقَلِّدُ ذَا رَأْيٍ وَهَوًى بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، فَيَنْقُصُ مِنْ تَوْحِيدِهِ بِقَدْرِ خُرُوجِهِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَإِنَّهُ قَدِ اتَّخَذَهُ فِي ذَلِكَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، أَيْ: عَبَدَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ، وَإِنَّمَا دَخَلَ الفَسَادُ فِي العَالَمِ مِنْ ثَلاثِ فِرَقٍ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا[(٣)]

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٥٢).

(٢) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٧٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٦٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٧).

قال الشيخ:

حديث أبي أمامة ﷺ يدل على أن الجدل سببه الضلال، إذا كانوا على هدى، وكانوا على بيان، وكانوا على نور وبرهان، ثم ضلوا بعد ذلك الهدى، فلابد أن يأتوا بالجدل الذي هو: الخصومات والمنازعات وكثرة الردود وكثرة الافتراض، بحيث إن هذا ينقض قول هذا، وهذا يناقض هذا؛ كما قال بعض الشعراء[1]:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا ... حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ

أي: أنها مثل الزجاج إذا ضرب بعضه ببعض انكسر الضارب، والمضروب، فهكذا حججهم وهكذا جدالهم.

وأنشد ابن القيم في كتابه «الصواعق المرسلة»[2] مثل هذا فقال:

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِعِمْيَانٍ خَلَوا ... فِي ظُلْمَةٍ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلَا

فَتَصَادَمُوا بِأَكُفِّهِمْ وَعِصِيِّهِمْ ... ضَرْبًا يُدِيرُ رَحَا الْقِتَالِ طَوِيلَا

حَتَّىٰ إِذَا مَلُّوا الْقِتَالَ رَأَيْتَهُمْ ... مَشْجُوجًا اوْ مَفْجُوجًا اوْ مَقْتُولَا

وَتَسَامَعَ الْعِمْيَانُ حَتَّىٰ أَقْبَلُوا ... لِلصُّلْحِ فَازْدَادَ الصِّيَاحُ عَوِيلَا

فهكذا حجج هؤلاء.

---

(١) انظر: الانتصار لأصحاب الحديث (ص٧٢)، ودرء التعارض (٧/ ٣١٤).

(٢) (٣/ ٩٨١).

يقول ﷺ في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِيمُ»، مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج:٣]، وقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤]، يعني: أنه خصم وأنه شديد الخصومة، والألد: هو الشديد في الخصام، فهو بغيض إلى الله تعالى.

يقول ـ رحمه الله ـ: (وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلرَّسُولِ ﷺ)، يعني: في كل ما جاء به، ويتقبل كل ما بلغه فإنه (نَقَصَ تَوْحِيدُهُ)، قد نقص توحيده، (فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ)، أي: إن ما يقوله كله رأي ليس عليه دليل، وإنما يتبع ما تهواه نفسه، أو يقلد غيره من أهل الأهواء والآراء بغير هدى من الله، يتبع أقوالهم وهم ليسوا على نور ولا برهان، فينقص بذلك توحيده، ينقص منه بقدر خروجه عما جاء به الرسول ﷺ؛ لأنه لم يسلم للرسول ﷺ، فيكون قد اتخذ في ذلك إلهًا غير الله حيث لم يرضَ بحكم الله، ولم يرضَ بشرعه الذي جاء به الرسول، وجعل دينه تبعًا لما تهواه نفسه، فيدخل في قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣]، أي: اتخذ ما يهواه إلهًا، أي: لا يهوى شيئًا إلا ركبه، حتى قال بعض العلماء: ما تحت أديم السماء إله يُعبد شر من هوى متبع، الذي كل ما تهواه نفسه، وكل ما تميل إليه يتخذه إلهًا، أي: يعظمه ويتبع ما يجيء به، فالذي يعبد ما تهواه نفسه يكون ضالًا.

قوله: (وَإِنَّمَا دَخَلَ الفَسَادُ فِي العَالَمِ مِنْ ثَلاثِ فِرَقٍ)، كما أنشد ذلك عبدالله ابن المبارك رحمه الله، فقال:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَ إِدْمَانُهَا

فالإصرار على الذنوب سبب لموت القلوب، فإن كل من أذنب ذنبًا نُكت في قلبه نكتة سوداء إلى أن تغطي قلبه، وكذلك يُريه الذل إذا أدمن على الذنوب، يكون ذليلاً عند الله تعالى وعند عباده، أبى الله إلا أن يذل من عصاه؛ كما قال ذلك بعض السلف ـ رحمه الله ـ في أهل الذنوب: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

ثم يقول:

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

أي: الذي يترك الذنوب ويعمل الصالحات يكون سببًا في حياة قلبه واستنارته، (وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا)، النفس الأمارة بالسوء خير لك أن تعصيها، وأن تخالف ما تأمرك به من المعاصي ونحوها.

ثم قال:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلا المُلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

هؤلاء الثلاثة: الملوك الذين يتسلطون على البشر، والأحبار: الذين هم علماء سوء، والرهبان: الذين هم عباد سيئون.

قال الشارح:

فَالْمُلُوكُ الجَائِرَةُ يَعْتَرِضُونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالسِّيَاسَاتِ الجَائِرَةِ، وَيُعَارِضُونَهَا بِهَا، وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَأَحْبَارُ السُّوءِ: وَهُمُ العُلَمَاءُ الخَارِجُونَ عَنِ الشَّرِيعَةِ بِآرَائِهِمْ وَأَقْيِسَتِهِمُ الفَاسِدَةِ، المُتَضَمِّنَةِ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَحْرِيمَ مَا أَبَاحَهُ، وَاعْتِبَارَ مَا أَلْغَاهُ، وَإِلْغَاءَ مَا اعْتَبَرَهُ، وَإِطْلَاقَ مَا قَيَّدَهُ، وَتَقْيِيدَ مَا أَطْلَقَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالرُّهْبَانُ: وَهُمْ جُهَّالُ المُتَصَوِّفَةِ، المُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالشَّرْعِ، بِالأَذْوَاقِ وَالمَوَاجِيدِ وَالخَيَالَاتِ وَالكُشُوفَاتِ البَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، المُتَضَمِّنَةِ شَرْعَ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَإِبْطَالَ دِينِهِ الذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالتَّعَوُّضَ عَنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ بِخُدَعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ.

---

قال الشيخ:

هكذا الملوك الجائرون يعترضون على الشريعة بالسياسات، فيقولون: لابد أن نحكم الناس بهذه السياسات ونترك ما يعارضها، مما لم يوافق أقيستنا، فيحكمون بالقوانين الوضعية، ويغيرون شرع الله تعالى، فأباحوا الزنى إذا كان برضا الطرفين، واعترضوا على شرع الله، وأباحوا الخمور، وقالوا: إنها أشربة طيبة، وأباحوا المعاملات الربوية الصريحة وقدموها على حكم الله ورسوله، وقدموا حكمهم الذي تلقوه عن طواغيتهم على أحكام الله تعالى الشرعية، ولم يحكموا شرع الله، فهؤلاء أفسدوا الدين بقدر ما وصلوا إليه.

أما الأحبار: الذين هم العلماء الخارجون عن الشريعة، فإنهم أفسدوه بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، التي تتضمن تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، فحرموا الحلال، وحللوا الحرام بأهوائهم، واعتبروا ما ألغاه الله تعالى ورسوله، وألغوا كثيرًا مما اعتبره، وأطلقوا ما قيد الله ورسوله، وقيدوا ما أطلقه الله ورسوله، فكونوا بذلك أربابًا يدخلون في قول الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، لما سمع هذه الآية عدي بن حاتم ﷺ قال: (إنهم لم يعبدوهم)، فقال له ﷺ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»، يعني: أنهم يحرمون الحلال ويحلون الحرام، قال: « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[1].

ثم قال: (الرُّهْبَانُ: وَهُمْ جُهَّالُ الْمُتَصَوِّفَةِ، الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالشَّرْعِ، بِالأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِيدِ وَالْخَيَالاتِ وَالْكُشُوفَاتِ الْبَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، الْمُتَضَمِّنَةِ شَرْعَ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَإِبْطَالَ دِينِهِ الذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالتَّعَوُّضَ عَنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ بِخُدَعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ)، يقول بعض الشعراء كما أنشد ذلك ابن القيم في كتابه الذي سماه «إغاثة اللهفان»[2]:

إِنْ قُلْتَ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ ... هَمَزُوكَ هَمْزَ الْمُنْكِرِ الْمُتَغَالِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير الطبري (١٠/ ١١٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦)، والبيهقي (١٠/ ١١٦).

(٢) (١/ ٢٣٢).

أَوْ قُلْتَ قَدْ قَالَ الصَّحَابَةُ وَالْأُلَىٰ ... تَبِعُوهُمُ فِي الْقَوْلِ وَالْأَعْمَالِ
أَوْ قُلْتَ قَالَ الْآلُ آلُ الْمُصْطَفَىٰ ... صَلَّىٰ عَلَيْهِ اللَّهُ أَفْضَلُ آلِ
أَوْ قُلْتَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ... وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالْإِمَامُ الْعَالِي
أَوْ قُلْتَ قَالَ صِحَابُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ... فَالْكُلّ عِنْدَهُمُ كَشِبْهِ خَيَالَ
وَيَقُولُ قَلْبِي قَالَ لِي عَنْ سِرِّهِ ... عَنْ سِرِّ سَرِّي عَنْ صَفَا أَحْوَالِي
عَنْ حَضْرَتِي عَنْ فِكْرَتِي عَنْ خَلْوَتِي ... عَنْ شَاهِدِي عَنْ وَارِدِي عَنْ حَالِي
عَنْ صَفْوِ وَقْتِي عَنْ حَقِيقَةِ مَشْهَدِي ... عَنْ سِرِّ ذَاتِي عَنْ صِفَاتِ فِعَالِي
دَعْوَىٰ إِذَا حَقَّقْتَهَا أَلْفَيْتَهَا ... أَلْقَابَ زُورٍ لُفِّقَتْ بِمُحَالِ
تَرَكُوا الْحَقَائِقَ وَالشَّرَائِعَ وَاقْتَدَوا ... بِظَوَاهِرِ الْجُهَّالِ وَالضُّلَّالِ

هكذا حال هؤلاء المتصوفين، فإن أحدهم يقول: قال لي قلبي عن ربي، حدثني قلبي عن ربي، ويقول: لا أوافق شيئًا يخالف ما في قلبي، وما تتحدث بي نفسي، يُخيل إليهم أنهم على صواب في تلك البدع التي تخيلوا، والتي يحسبونها حقائق وهي في الحقيقة خيالات لا أصل لها.

قال الشارح:

فَقَالَ الأَوَّلُونَ: إِذَا تَعَارَضَتِ السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ! وَقَالَ الآخَرُونَ: إِذَا تَعَارَضَ العَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا العَقْلَ! وَقَالَ أَصْحَابُ الذَّوْقِ: إِذَا تَعَارَضَ الذَّوْقُ وَالكَشْفُ، وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمْنَا الذَّوْقَ وَالكَشْفَ.

---

قال الشيخ:

قوله: (فَقَالَ الأَوَّلُونَ: إِذَا تَعَارَضَتِ السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ)، الأولون: هم الملوك ومَنْ حول الملوك الذين يقدمون السياسية على الشرع، وفي نظرهم أن السياسة تسوس الناس، وأنها تحركهم، وأن السياسة تكون سببًا لاستقامتهم؛ فلأجل ذلك يقدمون السياسة على الشرع، ولاشك أن الشرع هو الأصل وهو المقدم، وهو الذي فيه سياسة الناس، وفيه إقامتهم على الحق، وفيه تهذيبهم، وفيه حثهم على الطاعات وعلى الامتثال، وقد ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الرسالة المشهورة «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، وبيَّن في هذه الرسالة أن الشريعة فيها سياسة الناس بما يهذبهم، وبما يستقيمون به، وبما يعملون به العمل الذي فيه ضبطهم، وعدم خروجهم عن الشريعة، وعن ما يصلح الناس، فهكذا تكون السياسة الشرعية، وقد بين فيها ـ رحمه الله ـ حال الأمراء الذين يسوسون الناس، وبيَّن أنهم إذا كانوا ظلمة جائرين فإن الناس يمقتونهم ويبغضونهم، كما حصل في ولاية الحجاج بن يوسف، فإن الناس أبغضوه لقوته ولشراسته، ولأخذه بالتهمة، ولظلمه ولقتله

الكثير، ولحبسه الكثير من الناس، زعمًا أن هذا هو السياسة التي يسوس بها الناس، والتي يتهذبون بها، ولما جاء بعده عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - وعدل في الناس سمعوا له وأطاعوا، ولم يخرجوا عليه، ولم يظلم في ولايته أحدٌ أحدًا، مما يدلّ على أن السياسة هي بالشريعة التي هي: أوامر الله تعالى، وإقامة حدوده، فالملوك والأمراء ونحوهم يسوسون الناس بإقامة الحدود، فيرجمون الزاني أو يجلدونه إذا ثبت ذلك عليه، أو قامت التهمة نحوه، ويقطعون يد السارق؛ حتى يأمن الناس على أموالهم، ويجلدون القاذف، ويقيمون الحدود على قُطاع الطريق بما ذكر الله من قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:٣٣]، وكذلك يقتلون أهل الردَّة، ويقتلون السحرة ونحوهم، ويجلدون شارب الخمر أو يقتلونه، إذا تكرر ذلك منه أربع مرات، فإذا كانوا كذلك فإن الناس يطيعون ويستسلمون، ويكون ذلك سببًا في استقامتهم، وعدم عصيانهم، وعدم خروجهم، وبذلك تكون السياسة هي الشريعة.

أما أن تُقدم السياسة التي فيها قتل وسجن وظلم، يحبسون أو يقتلون بالتهمة، أو يسلبون الأموال، وينكلون بالتهم، ويحبسون من ليس أهلاً أن يحبس ونحو ذلك، فإن ذلك لا يكون سببًا في العدل، ولا في الطمأنينة ولا في إراحة الناس، ولا في موافقتهم وسمعهم وطاعتهم.

قوله: (وَقَالَ الآخَرُونَ)، الآخرون: هم أهل الكلام الذين يقولون: (إِذَا

(تَعَارَضَ العَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا العَقْل)، وشبهتهم يقولون: إنما عرفنا صدق الرسل بالعقل، فإذا جاؤوا بشيء يخالف العقل لم نقبله؛ لأننا نعرف أنهم جاؤوا بما يوافق العقل، فنقدم العقل وما دل عليه.

قد يُقال: إن هذا صحيح في الأمور العادية والمعلومة، ولكن لا يُقال: إن الرسل جاؤوا بما يخالف العقل، بل جميع الشريعة توافق العقل وتصدقه، وكذلك أيضًا الأخبار الأخروية، فالخبر عن عذاب القبر، والبعث والنشور، والأخبار عن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ وعما يليق به من الصفات، كل ذلك نصدق به ولو خالف عقولاً ليست مستقيمة، بل نقول: إن الأصل هو النقل، الأصل هو الشرع، فنقدم الشرع على هذه العقول المضطربة، ونبين أن تلك العقول التي يردون بها النقل، ويردون بها الشرع عقول مضطربة؛ ولأجل ذلك يقع بينهم كثير من الاختلاف، فيكون هناك اثنان كلاهما ذكي وكلاهما عاقل، ومع ذلك يختلفان، هذا يقول: أقر بكذا؛ لأن العقل وافقه، وهذا يقول: أنفيه وأنكره؛ لأن العقل لم يوافقه.

كذلك قد ينكر بعضهم شيئًا وقتًا طويلاً، ويقول: إن العقل قد خالفه، ثم بعد مدة يعترف به ويقول: إن العقل يوافقه، شخص واحد يوافق عقله مرة، ثم يخالف مرة أخرى.

على هذا فإن الأصل هو النقل والشرع، يُقدم على تلك العقول، ونسلم ما جاء به النقل والشرع، ولو أنكر ذلك من أنكره.

قوله: (وَقَالَ أَصْحَابُ الذَّوْقِ)، وهم المتصوفة، وكذلك غلاة الصوفية،

وغلاة القبوريين، وغلاة المتكلمين في هذه المواجيد وما أشبهها، فإنهم يقولون: (إِذَا تَعَارَضَ الذَّوْقُ وَالكَشْفُ، وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمْنَا الذَّوْقَ وَالكَشْفَ)، والجواب: أن هذا خطأ، وأن الواجب تقديم الشرع على الأذواق، وعلى المواجيد، وعلى الكشوفات، وما أشبهها؛ لأن هذه الأذواق حادثة ولا أصل لها، ولأنها مختلفة ومضطربة، وهكذا أيضًا ما يدعونه من الكشوفات، وأنه يُكشف لهم عن أمور غيبية، وأنهم يطَّلعون على الأمور الغائبة ونحو ذلك، وأن عندهم أذواقًا بقلوبهم ومواجيد.

كل هذه ليس لها أصل، وليس لها شرع، والواجب أن ننكرها، وأن نردها ونقدم عليها ظاهر الشرع، وبذلك نكون مستسلمين لأمر الله تعالى، ومطيعين له.

قال الشارح:

وَمِنْ كَلامِ أَبِي حَامِدٍ الغَزَالِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ فِي كِتَابِهِ الذِي سَمَّاهُ «إِحْيَاءَ عُلُومِ الدِّينِ»، وَهُوَ مِنْ أَجَلِ كُتُبِهِ، أَوْ أَجَلِهَا: «فَإِنْ قُلتَ: فَعِلمُ الجَدَلِ وَالكَلامِ مَذْمُومٌ كَعِلمِ النُّجُومِ، أَوْ هُوَ مُبَاحٌ أَوْ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ للنَّاسِ فِي هَذَا غُلُوًّا وَإِسْرَافًا فِي أَطْرَافٍ:

فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ بِدْعَةٌ وَحَرَامٌ، وَإِنَّ العَبْدَ أَنْ يَلقَى اللهَ بِكُلِ ذَنْبٍ سِوَى الشِّرْكِ خَيْرٌ لهُ مِنْ أَنْ يَلقَاهُ بِالكَلامِ.

وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ فَرْضٌ، إِمَّا عَلى الكِفَايَةِ، وَإِمَّا عَلى الأَعْيَانِ، وَإِنَّهُ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ وَأَعْلى القُرُبَاتِ، فَإِنَّهُ تَحْقِيقٌ لِعِلمِ التَّوْحِيدِ، وَنِضَالٌ عَنْ دِينِ اللَّهِ.

قَالَ: وَإِلى التَّحْرِيمِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَسُفْيَانُ وَجَمِيعُ أَئِمَّةِ الحَدِيثِ مِنَ السَّلَفِ. وَسَاقَ الأَلْفَاظَ عَنْ هَؤُلاءِ.

قَالَ: وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ الحَدِيثِ مِنَ السَّلَفِ عَلى هَذَا. لا يَنْحَصِرُ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنَ التَّشْدِيدَاتِ فِيهِ، وقَالُوا: مَا سَكَتَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ ـ مَعَ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِالحَقَائِقِ، وَأَفْصَحُ بِتَرْتِيبِ الأَلْفَاظِ مِنْ غَيْرِهِمْ ـ إِلا لِمَا يَتَوَلدُ مِنْهُ مِنَ الشَّرِّ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[1]، أَيِ: المُتَعَمِّقُونَ فِي البَحْثِ وَالاسْتِقْصَاءِ.

وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنَ الدِّينِ لَكَانَ أَهَمَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَيُعَلِّمُ طَرِيقَهُ، وَيُثْنِي عَلى أَرْبَابِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ اسْتِدْلالِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ اسْتِدْلالَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

الفَرِيقِ الآخَرِ. إِلى أَنْ قَال: فَإِنْ قُلتَ: فَمَا الْمُخْتَارُ عِنْدَكَ؟ فَأَجَابَ بِالتَّفْصِيلِ، فَقَال: فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَفِيهِ مَضَرَّةٌ: فهو باعتبار منفعته فَهُوَ فِي وَقْتِ الانْتِفَاعِ حَلالٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ وَاجِبٌ، كَمَا يَقْتَضِيهِ الحَالُ. وَهُوَ بِاعْتِبَارِ مَضَرَّتِهِ فِي وَقْتِ الاسْتِضْرَارِ وَمَحِلِهِ حَرَامٌ.

---

قال الشيخ:

يريد بذلك علم الكلام، لاشك أن السلف ـ رحمهم الله ـ لم يتكلموا في علم الكلام، ولا في علم الجدل، بل كانوا ينهون عنه، ويبتعدون عن مجالسة أهل الجدل، وعن علم الكلام، وعن الإصغاء إلى شبهتهم، وإلى كلامهم، وقد نقل ابن بطة ـ رحمه الله ـ في «الإبانة» كثيرًا من كلام السلف في تحذيرهم عن الإصغاء إلى أهل الكلام، والسماع لكلامهم أو مجادلتهم، حتى ولو كانوا يجادلون بآيات وأحاديث، ويقولون: نخشى أن يؤولوها وأن يظهروا معنى يخالف المتبادر منها، وأن يعلق ذلك بأسماعنا وبقلوبنا، ويصعب علينا إخراج ذلك الذي علق بقلوبنا، فكانوا يبتعدون عن المتكلمين وأهل الجدل، إلا المجادلة بالتي هي أحسن لمن يقصد الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وأما كثرة الخصومات والتشكيك ونحو ذلك، فإنه

منهي عنه، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج:٣]، يجادلون في الله بغير علم، ويتبعون أقوال شياطين الإنس والجن، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٤، ٢٠٥]، فحذَّر من مثل هؤلاء، ونهى الله تعالى عن مجالستهم، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام:٦٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٠].

فالحاصل: أن علم الجدل وعلم الكلام بدعة ومحدثة ليس له أصل، ولا يجوز أن يُصار إليه، ولكن قد يجوز تعلمه لأجل مخاصمة أهله، وقطع شبهاتهم، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تعلم علم المنطق؛ ليرد على أهله ردًا واضحًا، ويبين شبهاتهم، كما فعل في كتابه «الرد على المنطقيين»، من ذم المنطق ونحو ذلك، وما يوجد أيضًا في كلامه من ذكر حكايات أقول المتكلمين يريد بذلك مناقشتها، كما في كتابه «نقض المنطق»، وكذلك في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»، فقد توسع فيه، وكذلك أيضًا في كتابه الكبير الذي رد فيه على علماء الكلام الذي سماه «نقض التأسيس في الرد على أساس

التقديس»، و«التأسيس» رسالة للفخر الرازي، أكد فيها ما هم عليه من العقيدة السيئة، فنقضها شيخ الإسلام بأدلة قاطعة، حتى لا تروج على الناس.

كذلك أيضًا السلف - رحمهم الله - لم يتكلموا بهذا، فلم يتكلموا في الأعراض، ولا في الأبعاض، ولا في الجوهر، ولا في توليد مثل هذه الكلمات، بل الأصل أنهم أعرضوا عنها، وقد أنكر ذلك السلف كما في كلام لعمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - أورده ابن قدامة في رسالته «لمعة الاعتقاد»[1] لما ذكر مثل هذا الخبر، أنكره وحذر منه، ثم قال: «وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: كلامًا معناه: قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم: حدث بعدهم» - يعني: هذا العلم حادث بعدهم - يقول: «فما أحدثه إلا مَنْ خالف هديهم ورغب عن سنتهم» وهم هؤلاء المجادلون، فهم الذين ولدوه وأحدثوه، «ولقد وصفوا منه ما يشفي، وتكلموا منه بما يكفي، فما فوقهم محسر، وما دونهم مقصر، لقد قصر عنهم قوم فجفوا، وتجاوزهم آخرون فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم». انتهى كلامه رحمه الله.

ومعنى كلامه: أنه لو كان فيه خير لكان السلف أقوى وأحرى أن يحصلوا على ذلك الخير ويحصلوه، فإنهم أحرص على الخير، ولكن تركوه؛ لعلمهم أنه لا خير في هذا الجدل وفي هذا الكلام ونحو ذلك.

---

(١) (ص١٠٠).

وذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أيضًا في «الحموية» كلامًا لبعض العلماء، وفي آخرها ذكر ذم الشافعي ـ رحمه الله ـ وغيره لعلم الكلام، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالَ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلامِ»[1].

وهذا كله ظاهر للتحذير منه، ويُرجع إلى كتاب «الإبانة» لابن بطة، وغيره من الكتب التي نقلت هذه الآثار بالأسانيد، وكذلك كتاب «البدع والنهي عنها» لابن وضاح، وغيرها من الكتب.

فيقول: «**مَعَ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِالْحَقَائِقِ، وَأَفْصَحُ بِتَرْتِيبِ الأَلْفَاظِ مِنْ غَيْرِهِمْ**»، أي: أنه لو كان فيه خير لبينوه، ولكنهم سكتوا عنه (**لِمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِنَ الشَّرِّ**)، واستدل بقول النبي ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»[2]، قال: (**أَيِ: الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الْبَحْثِ وَالاسْتِقْصَاءِ**)، وما ذُكر أنه ﷺ أخبر عن شر الناس، ووصفهم بأنهم: الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَنَطِّعُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ المتكبرون، فيجب أن يُحذر منهم.

ثم ذكر أنهم (**احْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنَ الدِّينِ لَكَانَ أَهَمَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَيُعَلِّمُ طَرِيقَهُ، وَيُثْنِي عَلَى أَرْبَابِهِ**)، فلما لم يفعل دلَّ ذلك على أنه لا خير فيه، وأنه ضرر وشر محض يجب أن يُترك، ولا تُقرأ كتبهم

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٢٩).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٢٤٠).

التي تحتوي على ذلك، سواء في كتب التفسير التي ملؤوها بمثل هذه الشبهات، كـ«التفسير الكبير» للرازي، فإنه عندما تكلم على آية الاستواء: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وَلَّدَ شبهات عقلية لا أهمية لها، وكذلك في كثير من الآيات التي تطرق لها، وكذلك أيضًا في كتاب «الإرشاد»، وغيره من الكتب التي تحتوي على هذه الكلمات، وعلى هذه الاصطلاحات، وكذلك أيضًا شروحهم لكتب عقائدهم، كشروحهم لكتب أبي الحسن الأشعري، فإنه تكلم في كتبه القديمة على ما هو مخالف للحق، فإن أبا الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ كان في أول أمره معتزليًا، تتلمذ على المعتزلة: كأبي الهذيل، وأبي هاشم الجبائي، ونحوهما، ثم ترك طريقته وتتلمذ على ابن كُلاب، وأكثر كتبه على طريق ابن كُلاب، ثم رجع عن ذلك كله وأخذ طريقة الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كما في رسالته «الإبانة».

وعلى كل حال: فكتبهم التي فيها توليد هذا الكلام، الأولى وننصح طالب العلم أن لا يقرأ فيها؛ لذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية[1]:

فَانْظُرْ تَرَى لَكِنْ نَرَى لَكَ تَرْكَهَا حَذَرًا عَلَيْكَ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ

أي: انظر في كتبهم ترى فيها العجائب، ولكن الأفضل لك أن تتركها، وتبتعد عنها، ولا تقرأ فيها، حذرًا أن تزل بك قدم بعد ثبوتها، وأن يتعلق شيء من معانيها بقلبك، فيصعب عليك بعد ذلك التخلص منه.

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٧٢).

فهذا هو ما كان عليه السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ وأهل الحديث من السلف والأئمة، كالشافعي ومالك وأحمد وسفيان الثوري ونحوهم، كلهم حذروا من علم الكلام.

وأما الفريق الآخر الذين يقولون: إنه مباح، فلعلهم أرادوا فيمن عنده معرفة بالعقيدة السليمة، بحيث إنه لا ينخدع إذا قرأ في تلك الكتب، وقرأ ذلك الكلام بحيث يكون على عقيدة سليمة، هكذا قالوا: إنه مباح لمن لا يتأثر إذا قرأ فيه.

وكذلك الذين قالوا: إنه مستحب أو مندوب أو نحو ذلك، وأما الذين قالوا: (**إِنَّهُ فَرْضٌ، إِمَّا عَلَى الكِفَايَةِ، وَإِمَّا عَلَى الأَعْيَانِ**)، فهؤلاء هم غلاة المتكلمين، وقد تكلم أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ في أول كتابه «المستصفى» في أصول الفقه، وذكر مقدمة في كتابه مدح بها علم الكلام، وجعله من العلوم الشرعية ـ أي: من العلوم الدينية ـ وساواه بالحديث والتفسير ونحو ذلك، ولعله قصد بذلك من كان عنده معرفة بالعقيدة السليمة، بحيث إنه لا يتأثر، وكتابه هذا الذي هو «إحياء علوم الدين»، فيه مواعظ، وفيه حكم؛ لأن أبا حامد قد أوتي ذكاء وفطنة، فكان إذا تكلم عن الموضوع أوسعه وبين ما يتكلم به، ولكن كتابه دليل على أنه لم يتوغل في علم الحديث، فالآثار التي فيه والأحاديث ليست صحيحة، بل الأكثر منها أو كلها إلا ما قلَّ موضوعة أو ضعيفة شديدة الضعف، وهذا دليل على أنه ليس من أهل الحديث، وقد كان عنده علم بالفلسفة، وندم على تركه لعلم الحديث، ومات وصحيح البخاري

على صدره، كما ذُكر ذلك في هذا الشرح.

وقد حذَّر كثير من العلماء من كتابه «إحياء علوم الدين»، ولعل السبب ما فيه من الموضوعات التي فيها شيء من الفلسفة، وكذلك أيضًا الأحاديث المكذوبة والموضوعة، وإلا فإنه كتاب مفيد، كما ذكر الشارح أنه (مِنْ أَجَلِ كُتُبِهِ، أَوْ أَجَلِهَا)، يعني: فيما يتعلق بالمواعظ والكلام على الحقائق، والكلام على الآداب والأخلاق ونحو ذلك.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: (فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَفِيهِ مَضَرَّةٌ)، أي: علم الكلام فيه منفعة ومضرة، فإذا كان فيه مضرة، فهو لا يجوز التعمق فيه، ولا الكلام فيه؛ لأجل خطره الذي يتأثر به القارئ في العقيدة، وأما إذا وجدت فيه منفعة خاصة لمن هم من أهل الإيمان ومن أهل المعرفة فإنه (حَلالٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ وَاجِبٌ، كَمَا يَقْتَضِيهِ الحَالُ)، هكذا فَصِّل، ولكل مقام مقال، والأولى الاقتصار على الأدلة وكتب الأحاديث وكتب التفاسير الصحيحة السليمة.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ نقلًا عن الغزالي:

قَالَ: فَأَمَّا مَضَرَّتُهُ، فَإِثَارَةُ الشُّبُهَاتِ، وَتَحْرِيفُ العَقَائِدِ وَإِزَالَتُهَا عَنِ الجَزْمِ وَالتَّصْمِيمِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَحْصُلُ بِالابْتِدَاءِ، وَرُجُوعُهَا بِالدَّلِيلِ مَشْكُوكٌ فِيهِ، وَيَخْتَلِفُ فِيهِ الأَشْخَاصُ، فَهَذَا ضَرَرُهُ فِي اعْتِقَادِ الحَقِّ، وَلَهُ ضَرَرٌ فِي تَأْكِيدِ اعْتِقَادِ البِدْعَةِ، وَتَثْبِيتِهَا فِي صُدُورِهِمْ، بِحَيْثُ تَنْبَعِثُ دَوَاعِيهِمْ وَيَشْتَدُّ حِرْصُهُمْ عَلَى الإِصْرَارِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ هَذَا الضَّرَرَ بِوَاسِطَةِ التَّعَصُّبِ الذِي يَثُورُ مِنَ الجَدَلِ.

---

قال الشيخ:

هكذا اعترف بهذا هذا العالم الذي هو الغزالي مع أنه ممن خاض في علم الكلام، فأثبت أنه يثير الشبهات، وذلك واقع كثير، شبهات يولدها المتكلمون في إثبات الاستواء، وكذلك في إثبات صفة العلو،وفي إثبات بقية الصفات الفعلية، وكذلك تحريك العقائد وزلزلتها، وكذلك حصول الشك في العقيدة، وإزالة العقيدة بعد الجزم، أو بعد التصميم، أو بعد العقيدة الراسخة وسبب ذلك أنه يحصل هذا ـ إي: إثارة هذا التحريك ـ في الابتداء من حين يبتدئ في علم الكلام تحصل منه هذه الزلزلة وما أشبهها، وأما رجوعها وثبوت العقيدة بالدليل فإن ذلك مشكوك فيه، ويختلف باختلاف الأشخاص فالكثير من المتكلمين يبقى ذلك الشك في قلبه ويصعب أن يتحول؛ فلذلك رجوعه ولو أقيمت عليه الأدلة مشكوك فيه، ومنهم من يهديه الله تعالى ويتراجع فإن الغزالي ـ رحمه الله ـ ندم على فعله وخوضه في علم الكلام، وتمنى أنه لم يخض

فيه، ومات وصحيح البخاري على صدره، كما ذكر ذلك هذا الشارح رحمه الله.

يقول: (فَهَذَا ضَرَرُهُ فِي اعْتِقَادِ الحَقِّ)، ورسوخ العقيدة، (وَلَهُ ضَرَرٌ فِي تَأْكِيدِ اعْتِقَادِ البِدْعَةِ وَتَثْبِيتِهَا فِي صُدُورِهِمْ)، بمعنى: أنه إذا خاض في هذه الافتراضات رسخت عقائد المبتدعة في قلبه، وثبتت في صدره، وانبعثت دواعيها واشتد حرصه على الإصرار عليها، أيًا كانت تلك البدع، وأشدها بدع المعطلة الذين يخوضون في صفات الله، وفي أسمائه الحسنى، وفيما يجب أن يوصف به فإن هؤلاء بدعتهم أشد البدع؛ لأنها توجب الشك، حتى قال بعضهم ـ كما ذكر الشارح ـ: أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام. وذكر أيضًا أنهم ندموا في آخر حياتهم، فالبدعة تتأكد في قلوب المتكلمين، وتثبت في صدورهم وترسخ فيها.

ثم قال: (تَنْبَعِثُ دَوَاعِيهِمْ)، أي: تنبعث الدواعي إليها، (وَيَشْتَدُّ حِرْصُهُمْ عَلَى الإِصْرَارِ عَلَيْهِ)، أي: يشتد حرصهم على التمسك بها والإصرار بها.

ويقول سبب هذا الضرر: (التَّعَصُّبِ الذِي يَثُورُ مِنَ الجَدَلِ)، فإنهم إذا انتحلوا هذه البدعة، ثم جادلهم أحد وقد تلقوا هذه البدعة عن مشايخهم فلن ينصاعوا إلى الحق، بل يتمسكون بها ويتلقون تلك البدع، وترسخ في قلوبهم، حتى ولو كانت من البدع الضعيفة، كما يحصل عند المعطلة وعند الأشاعرة، فقد حصل أن شيخ الإسلام ابن تيمية ناظرهم، ومع ذلك تمسكوا بما هم عليه إلا القليل.

يقول الشارح ـ رحمه الله ـ نقلًا عن الغزالي:

قَال: وَأَمَّا مَنْفَعَتُهُ، فَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ فَائِدَتَهُ كَشْفُ الحَقَائِقِ وَمَعْرِفَتُهَا عَلى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَهَيْهَاتَ فَلَيْسَ فِي الكَلامِ وَفَاءٌ بِهَذَا المَطْلَبِ الشَّرِيفِ، وَلَعَل التَّخْبِيطَ وَالتَّضْلِيل فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الكَشْفِ وَالتَّعْرِيفِ.

قَال: وَهَذَا إِذَا سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ أَوْ حَشْوِيٍّ رُبَّمَا خَطَرَ بِبَالِكَ أَنَّ النَّاسَ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا، فَاسْمَعْ هَذَا مِمَّنْ خَبَرَ الكَلامَ، ثُمَّ قَلاهُ بَعْدَ حَقِيقَةِ الخِبْرَةِ وَبَعْدَ التَّغَلغُل فِيهِ إِلى مُنْتَهَى دَرَجَةِ المُتَكَلِمِينَ، وَجَاوَزَ ذَلكَ إِلى التَّعَمُّقِ فِي عُلُومٍ أُخَرَ تناسب نَوْعَ الكَلامِ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلى حَقَائِقِ المَعْرِفَةِ مِنْ هَذَا الوَجْهِ مَسْدُودٌ. وَلعَمْرِي لا يَنْفَكُّ الكَلامُ عَنْ كَشْفٍ وَتَعْرِيفٍ وَإِيضَاحٍ لبَعْضِ الأُمُورِ، وَلكِنْ عَلى النُّدُورِ.

انْتَهَى مَا نَقَلْتُهُ عَنِ الغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

---

قال الشيخ:

قوله: (قَال)، يعني: الغزالي. هكذا يقول الغزالي أنه قد يُظن أن فيه منفعة، وتلك المنفعة (فَائِدَتَهُ كَشْفُ الحَقَائِقِ وَمَعْرِفَتُهَا عَلى مَا هِيَ عَلَيْهِ)، أي: أنه يسبب كشف الحقائق الغيبية، وكشف الأمور المحجوزة والمحجوبة عن الإنسان، وكشف حقائق الجواهر والأعراض والأبعاض وما أشبه ذلك، فإنه يظن هذه فائدة له، ولكن يقول: (هَيْهَاتَ فَلَيْسَ فِي الكَلامِ وَفَاءٌ بِهَذَا المَطْلَبِ الشَّرِيفِ)، أي: بكشف الحقائق ومعرفتها، فإنه ليس فيه وفاء بهذا المطلب بل

إنه ـ كما تقدم ـ يسبب الشك والحيرة.

ثم قال: (وَلعَل التَّخْبِيطَ وَالتَّضْليل فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الكَشْفِ وَالتَّعْرِيفِ)، وهذا صحيح، أن الذين يكونون فيه دائمًا ويتخبطون فيه أنهم يضلون وينحرفون فتخبطهم وضلالهم أكثر من الكشف والتعريف، وأكثر من معرفة الحقائق. فقد يقول قائل: إن هذا الكلام (إِذَا سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ)، أي: الذي انشغل بعلم الحديث، (أَوْ حَشْوِيٍّ)، أي: الذي تلقى الصفات على ما هي عليه واعتقدها على كيفيتها، كالذين يفهمون منها التكييف والتشبيه، وإن كان لفظ (الحشوي) يطلقه المعطلة خطأً على من أثبت الصفات.

(رُبَّمَا خَطَرَ بِبَالِكَ)، أي: إذا سمعته يقول ذلك، تقول: (أَنَّ النَّاسَ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا)، أي: إن هذا المحدث جاهل بهذا الكلام، وأنه ليس من أهله.

ثم يقول الغزالي: (فَاسْمَعْ هَذَا مِمَّنْ خَبَرَ الكَلامَ)، يعني: نفسه، أنه قد خبر الكلام، وأنه قد توغل فيه، وأنه قد تتبع المقالات التي فيه، وعرف حقيقته ونهايته،(ثُمَّ قَلاهُ)، أي: تركه (بَعْدَ حَقِيقَةِ الخِبْرَةِ وَبَعْدَ التَّغَلغُلِ فِيهِ إِلى مُنْتَهَى دَرَجَةِ المُتَكَلِمِينَ)، أي: أنه خبره، ثم أبغضه وتركه، وأنه تركه بعد حقيقة الخبرة، وطول الكلام، وطول التغلغل، إلى أن انتهى إلى درجة المتكلمين الذين تجاوزوا ذلك (إِلى التَّعَمُّقِ فِي عُلُومٍ أُخَرَ تناسب نَوْعِ)، أي: علم (الكَلامِ)، يقول: (وَتَحَقَّقَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلى حَقَائِقِ المَعْرِفَةِ مِنْ هَذَا الوَجْهِ مَسْدُودٌ) يعني: أن العلم بالكلام جهل، وليس هو طريقًا إلى المعرفة واليقين.

قال الشارح:

وَكَلامُ مِثْلِهِ فِي ذَلكَ حُجَّةٌ بَالغَةٌ، وَالسَّلفُ لمْ يَكْرَهُوهُ لُمجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلاحًا جَدِيدًا عَلى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالاصْطِلاحِ عَلى أَلْفَاظٍ لعُلُومٍ صَحِيحَةٍ، وَلا كَرِهُوه أَيْضًا للدَلالةَ عَلى الحَقِّ وَالمُحَاجَّةِ لأَهْلِ البَاطِلِ، بَل كَرِهُوهُ لاشْتِمَالِهِ عَلى أُمُورٍ كَاذِبَةٍ مُخَالفَةٍ للحَقِّ. وَمِنْ ذَلكَ: مُخَالفَتُهَا للكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا فِيهِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحَةٍ، فَقَدَ وَعَّرُوا الطَّرِيقَ إِلى تَحْصِيلهَا، وَأَطَالُوا الكَلامَ فِي إِثْبَاتِهَا مَعَ قِلةِ نَفْعِهَا، فَهِيَ لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ عَلى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، وَلا سَمِينٌ فَيُنْتَقَى، وَأَحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ فَهُوَ فِي القُرْآنِ أَصَحُّ تَقْرِيرًا، وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلا التَّكَلُّفُ وَالتَّطْوِيلُ وَالتَّعْقِيدُ. كَمَا قِيل:

لَوْلا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّنَاظُرِ لا المُغْنِي وَلا العَمَدُ

يُحَلِلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا ... وَبِالذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ

فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ بِالذِي وَضَعُوهُ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ، وَالفَاضِلُ الذَّكِيُّ الذِي يَعْلَمُ أَنَّ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ زَادَتْ بِذَلكَ.

---

قال الشيخ:

كلام الشارح هذا يرد على أهل الكلام، مع أنهم اعترفوا على أنفسهم بأنهم ما ازدادوا إلا شكًا، فيقول بعضهم لما حضره الموت: «قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة،

وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى عنه أهل الإسلام، وكل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني» انتهى. وكذلك قول الفخر الرازي لما ذكر كلام أهل الكلام في قوله:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ثم قال: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الكَلامِيَّةَ، وَالمَنَاهِجَ الفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلاً، وَلا تَرْوِي غَلِيلاً، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ القُرْآنِ، اقْرَأْ فِي الإِثْبَاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر:١٠]، وَاقْرَأْ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي» انتهى.

قوله: (وَكَلامُ مِثْلِهِ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ) أي: وكذلك كلام غير الرازي والغزالي، يقول: إنه حجة في هذا الباب؛ وذلك لأنهم قالوه عن تجربة ونهوا عن علم الكلام، فالسلف ـ رحمهم الله ـ كرهوا علم الكلام وأكثروا من النهي عنه، وقد قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «حكمي في أهل الكلام حكم عمر في

صبيغ أن يضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء مَنْ ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام» انتهى[1].

قوله: (وَالسَّلَفُ لَمْ يَكْرَهُوهُ لُمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلاحًا جَدِيدًا عَلى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ) ولو كان فيه معان صحيحة فإنهم ـ في الحقيقة ـ صعبوا الوصول إليها من طريق الكلام، ومن طريق المنطق؛ ولهذا يقول المشايخ: إن هذا العلم ينقض بعضه بعضًا. علم الكلام وعلم المنطق وما أشبهها يبطل بعضه بعضًا، فلو أن إنسانًا ذكر حجة وبالغ فيها بعلم الكلام أو بعلم المنطق ففي إمكان الآخر أن يبطلها، وأن يردها بنفس العلم الذي هو علم الكلام فيكون كلامهم يرد بعضه بعضًا، ولاشك أن الاصطلاح على ألفاظ لعلوم جديدة جائز، أو كون علم الكلام علمًا جديدًا دليلاً على معان صحيحة جائز، ولكن يمكن الوصول إليها بغير علم الكلام.

قوله: (وَلا كَرِهُوه أَيْضًا للدَلالةَ عَلى الحَقِّ وَالْمُحَاجَّةِ لأَهْلِ البَاطِلِ)، يعني: بعلم الكلام، ولكن كرهوا علم الكلام؛ لأنه يشتمل على علوم كاذبة، وعلى أمور كاذبة وعلى مخالفات للحق، وتلبيس للباطل.

قوله: (مُخَالفَتُهَا للكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا فِيهِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحَةٍ)، أي: ولاشك أيضًا أن الاشتغال بعلم الكلام يوقع في مخالفة الكتاب والسنة، ومخالفة العلوم

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٢٩).

الصحيحة التي هي الكتاب والسنة.

قوله: (**فَقَدَ وَعَّرُوا الطَّرِيقَ إِلَى تَحْصِيلِهَا**) أي: إن أهل الكلام قد وعروا الطريق إلى تحصيل العلوم الصحيحة حيث جعلوا هذا الاصطلاح الذي هو علم الكلام، فوعروا الطريق أو شددوا فيه، وأطالوا الكلام في إثبات تلك العلوم مع قلة نفعها، فهكذا قلَّت فائدة تلك العلوم، وتغني عنها العلوم الشرعية، وهي: الآيات والأحاديث.

ثم شبه هذه العلوم الجديدة من علوم المتكلمين بقوله: (**فَهِيَ لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، وَلا سَمِينٌ فَيُنْتَقَى**)، هذا لفظ جملة في حديث أم زرع الذي في الصحيحين[1] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لاَ يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتِ الأُولَى: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، لاَ سَهْلٍ فَيُرْتَقَى، وَلاَ سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ**»، هذا لفظه في الصحيحين، فالمؤلف الشارح اختار هذه الجملة تشبيهًا بتلك العلوم التي يطيل فيها المتكلمون ويتوسعون، شبهها بلحم جمل، ومعلوم أن الرغبة في لحم الجمل قليلة، وأنه أيضًا غثّ، أي: هزيل ليس فيه دسم، إنما هو لحم هزيل لا رغبة فيه، ومع ذلك فإنه على رأس جبل، أي: جُعل على رأس جبل، وذلك الجبل أيضًا وعر صعب الوصول إليه، فليس الجبل سهلاً فيُرتقى ويُصعد إليه حتى يؤخذ ذلك اللحم، وليس اللحم سمينًا

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

فيُنتقل، أي: فيُنقل ويؤخذ، أو يُنتقى على ما في بعض الروايات، ويُنتقى يعني: يؤخذ منه النقي الذي هو السمن، هكذا شبه علم الكلام.

يقول: (**وَأَحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ فَهُوَ فِي القُرْآنِ أَصَحُّ تَقْرِيرًا، وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلا التَّكَلُّفُ وَالتَّطْوِيلُ وَالتَّعْقِيدُ**)، أي: أحسن ما عندهم موجود في القرآن ومقرر أصح تقرير وأحسن تفسير، هذا أحسن شيء عندهم يُستغنى عنه بالقرآن، ولا يأتي صاحب شبهة إلا وفي القرآن ما يبطلها؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، أما أهل الكلام فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، وهو التكلف في نحت الكلام وتصويره، والإطالة بما لا فائدة تحته، وتعقيد الكلام والتكلف فيه هذا هو الذي عندهم.

ثم استشهد ـ رحمه الله ـ بهذا الشعر:

لَوْلا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّنَاظُرِ لا المُغْنِي وَلا العَمَدُ

يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا ... وَبِالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ

(**التَّنَافُسُ**) هو المنافسة بين أهل الدنيا، فلولا ذلك لما وضعت كتب التناظر، أي الكتب **التي في المناظرات، حملهم على تأليفها التنافس في العلوم**، وكلٌ يحاول أن يغلب، فوضعوا هذه الكتب التي في المناظرات، ومنه كتاب اسمه «المغني» للقاضي عبدالجبار المعتزلي، ومنه كتب العمد، لكثير من المتكلمين.

ثم يقول:

يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا وَبِالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ

أي: في زعمهم أنهم يحللون بعلم الكلام عقدًا وشبهات في نظرهم، ولكن ما زادت تلك الشبهات إلا تعقيدًا وتشديدًا.

ثم يقول: (فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ بِالَّذِي وَضَعُوهُ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ)، أي: عندما يتكلمون على آية ونحوها - كآية الاستواء - يوردون شبهًا كثيرة، وتلك الشبه ينقض بعضها بعضًا، وهم يدعون أنهم يزيلون تلك الشبه.

قوله: (وَالفَاضِلُ الذَّكِيُّ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ زَادَتْ بِذَلِكَ)، أي: والعاقل الذكي يعلم أن الشبه - وهي الشكوك - زادت بكلامهم هذا، فلم يزيدوا الأمر إلا شدة.

قال الشارح:

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ لَا يَحْصُلَ الشِّفَاءُ وَالْهُدَى وَالْعِلْمُ وَالْيَقِينُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَيَحْصُلَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَيِّرِينَ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الْأَصْلُ، وَيَتَدَبَّرَ مَعْنَاهُ وَيَعْقِلَهُ، وَيَعْرِفَ بُرْهَانَهُ وَدَلِيلَهُ، إِمَّا الْعَقْلِيُّ وَإِمَّا الْخَبَرِيُّ السَّمْعِيُّ، وَيَعْرِفَ دَلَالَتَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا، وَيَجْعَلَ أَقْوَالَ النَّاسِ الَّتِي تُوَافِقُهُ وَتُخَالِفُهُ مُتَشَابِهَةً مُجْمَلَةً، فَيُقَالُ لِأَصْحَابِهَا: هَذِهِ الْأَلْفَاظُ تَحْتَمِلُ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ أَرَادُوا بِهَا مَا يُوَافِقُ خَبَرَ الرَّسُولِ قُبِلَ، وَإِنْ أَرَادُوا بِهَا مَا يُخَالِفُهُ رُدَّ.

وَهَذَا مِثْلُ لَفْظِ الْمُرَكَّبِ وَالْجِسْمِ وَالْمُتَحَيِّزِ وَالْجَوْهَرِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيِّزِ وَالْعَرَضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لَمْ تَأْتِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالْمَعْنَى الَّذِي يُرِيدُهُ أَهْلُ الِاصْطِلَاحِ، بَلْ وَلَا فِي اللُّغَةِ، بَلْ هُمْ يَخْتَصُّونَ بِالتَّعْبِيرِ بِهَا عَنْ مَعَانٍ لَمْ يُعَبِّرْ غَيْرُهُمْ عَنْهَا بِهَا، فَتُفَسَّرُ تِلْكَ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ أُخَرَ، وَيُنْظَرُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ، وَإِذَا وَقَعَ الِاسْتِفْسَارُ وَالتَّفْصِيلُ تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ.

مِثَالُ ذَلِكَ فِي «التَّرْكِيبِ»، فَقَدْ صَارَ لَهُ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا. التَّرْكِيبُ مِنْ مُتَبَايِنَيْنِ فَأَكْثَرَ، وَيُسَمَّى: تَرْكِيبَ مَزْجٍ، كَتَرْكِيبِ الْحَيَوَانِ مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ وَالْأَعْضَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعُلُوِّ وَنَحْوِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، أَنْ يَكُونَ مُرَكَّبًا بِهَذَا الْمَعْنَى الْمَذْكُورِ.

وَالثَّانِي: تَرْكِيبُ الْجِوَارِ، كَمِصْرَاعَيِ الْبَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُ أَيْضًا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ تَعَالَى إِثْبَاتُ هَذَا التَّرْكِيبِ.

الثَّالِثُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْمُتَمَاثِلَةِ، وَتُسَمَّى: الْجَوَاهِرَ الْمُفْرَدَةَ.

الرَّابِعُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْهَيُولَى وَالصُّورَةِ، كَالْخَاتَمِ مَثَلًا، هَيُولَاهُ: الْفِضَّةُ، وَصُورَتُهُ مَعْرُوفَةٌ.

وَأَهْلُ الْكَلَامِ قَالُوا: إِنَّ الْجِسْمَ يَكُونُ مُرَكَّبًا مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ، وَلَهُمْ كَلَامٌ فِي ذَلِكَ يَطُولُ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهُوَ أَنَّهُ: هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْءَيْنِ، أَوْ مِنْ أَرْبَعَةٍ، أَوْ مِنْ سِتَّةٍ، أَوْ مِنْ ثَمَانِيَةٍ، أَوْ سِتَّةَ عَشَرَ؟ وَلَيْسَ هَذَا التَّرْكِيبُ لَازِمًا لِثُبُوتِ صِفَاتِهِ تَعَالَى وَعُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْجِسْمَ غَيْرُ مُرَكَّبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا قَوْلُهُمْ مُجَرَّدُ دَعْوَى، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

الْخَامِسُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ، هُمْ سَمَّوْهُ تَرْكِيبًا لِيَنْفُوا بِهِ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهَذَا اصْطِلَاحٌ مِنْهُمْ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ، وَلَا فِي اسْتِعْمَالِ الشَّارِعِ، فَلَسْنَا نُوَافِقُهُمْ عَلَى هَذِهِ التَّسْمِيَةِ وَلَا كَرَامَةَ. وَلَئِنْ سَمَّوْا إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ تَرْكِيبًا، فَنَقُولُ لَهُمْ: الْعِبْرَةُ لِلْمَعَانِي لَا لِلْأَلْفَاظِ، سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ، فَلَا يَتَرَتَّبُ عَلَى التَّسْمِيَةِ بِدُونِ الْمَعْنَى حُكْمٌ، فَلَوِ اصْطَلَحَ عَلَى تَسْمِيَةِ اللَّبَنِ خَمْرًا، لَمْ يَحْرُمْ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ.

السَّادِسُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْمَاهِيَّةِ وَوُجُودِهَا، وَهَذَا يَفْرِضُهُ الذِّهْنُ أَنَّهُمَا غَيْرَانِ، وَأَمَّا فِي الْخَارِجِ، هَلْ يُمْكِنُ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنْ وُجُودِهَا، وَوُجُودُهَا مُجَرَّدٌ عَنْهَا؟ هَذَا

مُحَالٌ، فَتَرَى أَهْلَ الْكَلَامِ يَقُولُونَ: هَلْ ذَاتُ الرَّبِّ وُجُودُهُ أَمْ غَيْرُ وُجُودِهِ؟ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ خَبْطٌ كَثِيرٌ، وَأَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً رَأْيُ الْوَقْفِ وَالشَّكِّ فِي ذَلِكَ، وَكَمْ زَالَ بِالْاسْتِفْسَارِ وَالتَّفْصِيلِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَضَالِيلِ وَالْأَبَاطِيلِ.

---

قال الشيخ:

قد علمنا أنَّ الشَّرع الشَّريف كامل في جميع ما يحتاج إليه البشر، وأنَّ الرسول ﷺ قد بيَّن للأمَّة ما تحتاج إليه، وبالأخصِّ ما يقولونه بألسنتهم وما يعتقدونه بقلوبهم في صفات ربِّهم، ولا يليق أنه يقال: إنه علَّمهم الفروع وترك الأصول؛ بل الأصول أولى بالتَّعليم، علَّمهم الأصول الَّتي هي العقائد: علمعهم ما يقولونه في ربِّهم بألسنتهم وما يعتقدونه بقلوبهم، قبل أن يعلِّمهم الأوامر والنَّواهي ونحو ذلك، وذلك لأنَّ العقيدة سببُ الأعمال، فالذي لا يكون معه عقيدة لا ينبعث جسمه بالعمل، وإذا رسخت العقيدة ـ الَّتي هي معرفة الرَّبِّ سبحانه ومعرفة عظمته وكبريائه وجلاله في القلب ـ أورثت أعمالًا، أورثت الخوف من الله، ورجاءه، ومحبَّته، والخضوع والخشوع له، والإخبات والإنابة والتَّوبة والرُّجوع إليه، وأورثت تعظيمه وتألُّهه ودعاءه وعبادته.

فإذا انتفت هذه المعرفة من القلب انتفت العبادة، ونحن نشاهد أنَّ الصَّحابة ـ رضي الله عنهم وتابعيهم بإحسان ـ أكثر النَّاس أعمالًا، وأتمَّهم خشوعًا، وأتمَّهم تذلُّلًا، فما الَّذي حملهم على ذلك؟! أليس هو قوَّة المعرفة؟!

أليس هو قوَّة العقيدة؟! أليس العقيدة رسخت في قلوبهم وهي معرفة ربِّهم؟!

إذًا فنحن نحثُّ المسلم على أن يقوِّي عقيدته، ونقول له: تعلَّم ما ترسخ به عقيدتك في قلبك، قوِّ العقيدة الَّتي هي معرفة الله ومعرفة عظمته ومعرفة جلاله وكبريائه، واحرص على ترسيخ هذه العقيدة في قلوب أولادك، وفي قلوب إخوتك، وفي قلوب المسلمين عامة، فإنَّها متى رسخت في القلوب آتت أُكُلَهَا، وأثمرت العبادات الكثيرة الَّتي هي فعل الصَّالحات وترك المحرمات.

إذًا لو كان علم الكلام هذا وتفاصيلُه من الشَّريعة ما أهملته الرُّسل، ولَعَلَّمته لأممهم، ونحن لم يُنقل لنا عن نبيِّنا شيءٌ من ذلك، ما نُقل عنه أنَّه خاض بأصحابه في هذا العلم الذي هو الجدل والخصومات والمنازعات ونحوها، نعلم أنَّه ما تكلَّم بها، بل كلامه في معرفة الله، وفي عظمته، وفي صفاته، وكلامه في أحكامه وأوامره ونواهيه وما إلى ذلك، هذا هو الذي بلَّغه لأمَّته، وبلَّغته أمَّته بعضهم لبعض.

يقول بعض السلف: أنا أحلف ـ لو حُلِّفت ـ أن أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ماتوا ولم يتكلَّموا في لفظ التَّركيب ولا الحيِّز ولا الجهة ولا الجوهر ولا العرض بالمعنى الذي أراده المتكلِّم، وإذا لم يتكلَّم بها هؤلاء، فلا خير فيها.

ثبت أنَّ بعض المتكلِّمين ـ وهو ابن أبي دؤاد، الذي زيَّن للخلفاء أن يمتحنوا النَّاس في علم الكلام، ومنه القول بخلق القرآن ـ جاءه أحد العلماء فقال له: أخبرنا عن هذا الَّذي تدعو النَّاس إليه؛ هل عَلِمَه نبيُّ الله ﷺ

وأبوبكر وعمر وعثمان وعليّ أو ما علموه؟ فإذا قلت: ما علموه. قلنا: كيف تعلم شيئًا ولا يعلمونه؟! أنت أعلم من الرَّسول؟! أنت أعلم من الخلفاء الراشدين؟! حاشا وكلاَّ أن تكون أعلم منهم، وإذا قلت : بل يعلمونه؛ فهلَّا وسعك ما وسعهم؟! هل دعوا إليه وهل نشروه وهل علَّموه الناس وهل ألزموهم باعتقاده؟! إذا لم يفعلوا، فاتبعهم: لا تنشره ولا تظهره، إذا كان عقيدة لك فاكتُمها في نفسك ولا تُلزم غيرك بأن يعتقدها، لماذا لا يسعك ما وسعهم؟! لا وسَّع الله على من لم يسعه ما وَسِعَ رسول الله ﷺ وخلفاءه الراشدين وصحابته والتَّابعين وأئمَّة الدِّين.

مرَّ بنا من أمثلة ما تكلَّم به المتكلِّمون: كلامهم في التركيب، وفي العرض، وفي الجوهر، وفي الحيِّز، وفي الجهة وفي الأبعاض، وفي الأعضاء ونحو ذلك؛ فيقولون: إنَّ الله منزَّه عن التركيب، ومنزَّه عن الجسم، وعن الجوهر، وعن العرض وعن البعض، وعن الجهة، وعن الحيِّز، وما أشبه ذلك، يقولون: ننزِّه الله تعالى عن ذلك، ثم يشرحون هذه الكلمات ويتوسَّعون فيها.

ومر بنا ما نقله عنهم الشَّارح في معنى التَّركيب، ولا شكَّ أنَّ هذه الكلمة بدعيَّةٌ لم يتكلَّم بها السَّلف، وقد جعل المتكلمون لهذه الكلمة ستَّة معانٍ، آخرها قولهم: التَّركيب هو التَّركيب من الصِّفات والذَّات. أرادوا أنَّ الله تعالى ليس له صفات، إذا قالوا: إنَّ الله ليس بمركَّب، فقالوا: التَّركيب يعمُّ التَّركيب بالصِّفات والذَّات.

وقد بيَّن العلماء ـ رحمهم الله ـ أنَّ إثبات الصِّفات لله إثباتَ وجود، لا إثبات

تحديد، كما أنَّ إثبات الذَّات إثبات وجود، لا إثبات تحديد ولا إثبات تكييف، وذلك لحجب البشر وقصورهم على أن يصلوا بمعارفهم إلى تحديد الصِّفات وكيفيتها، وقد ذكروا أنَّ علم الصِّفات ملحقٌ بعلم الذَّات، يحذو حذوه ويسير على مثاله، فإذا كنَّا نثبت لله تعالى ذاتًا ولا نكيِّفها، فهكذا نثبت له صفات ولا نكيِّفها.

وكثيرٌ من السَّلف يقولون في الصِّفات: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف. وفي الأثر المشهور عن مالك ـ رحمه الله ـ قوله: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول». وفي أثر عن شيخه ربيعة قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول». يعني: لا تصله العقول، له كيفيَّة ولكنَّها محجوبة عنَّا، فنؤمن به ونتوقَّف عن تلك الكيفيَّة، فإذا سأل سائل: ما كيفيَّة الاستواء؟ قلنا: الكيف مجهول. فإثبات الصِّفات إثبات وجود، لا إثبات تكييف ولا إثبات تمثيل.

فهؤلاء الَّذين يقولون: إنَّ الله تعالى غير مركَّب، ثمَّ يريدون بالتَّركيب التَّركيب من الصِّفات والذَّات، يريدون بذلك نفي الصِّفات، فيُقال لهم: أنتم تثبتون الذَّات؛ فهل لها كيفيَّة؟ فإذا قالوا: لا يعلم كيفيَّة الذَّات إلَّا الله. قلنا: كذا الصِّفات لا يعلم كيفيَّتها إلَّا الله تعالى.

إذًا الحاصل هنا كلامُهم في التَّركيب وأنَّه أقسام، وهي الأقسام السِّتَّة الَّتي أوردها الشارح، هذا لا يحتاج إلى البحث فيه، بل هو من علم الكلام، وإنَّما أورده الشَّارح ليبيِّن تهافتهم، وليبيِّن أنهم خاضوا في شيءٍ لا فائدة فيه، ولا حاصل له.

وهذه التركيبات للأقسام السِّتَّة القصد منها هو القِسم السَّادس، وإلَّا فالأقسام الأولى من جملة ما ولَّدوه، وقالوا: التركيب من الأعضاء والتَّركيب من الصُّورة، وهيَّؤوا له ذلك، قالوا ذلك بالتَّتبُّع أو بعلم الكلام الَّذي ولَّدوه، فنقول: لا يجوز الخوض في مثل هذا، بل يقال: الله تعالى منزَّه عن النقائص، وموصوف بصفات الكمال.

قال الشارح:

وَسَبَبُ الضَّلَالِ الْإِعْرَاضُ عَنْ تَدَبُّرِ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِكَلَامِ الْيُونَانِ وَالْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَؤُلَاءِ: أَهْلَ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُفِيدُوا عِلْمًا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، وَإِنَّمَا أَتَوْا بِزِيَادَةِ كَلَامٍ قَدْ لَا يُفِيدُ، وَهُوَ مَا يَضْرِبُونَهُ مِنَ الْقِيَاسِ لِإِيضَاحِ مَا عُلِمَ بِالْحِسِّ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْقِيَاسُ وَأَمْثَالُهُ يُنْتَفَعُ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَعَ مَنْ يُنْكِرُ الْحِسَّ.

وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَذَوْقِهِ وَسِيَاسَتِهِ - مَعَ وُجُودِ النَّصِّ، أَوْ عَارَضَ النَّصَّ بِالْمَعْقُولِ - فَقَدْ ضَاهَى إِبْلِيسَ، حَيْثُ لَمْ يُسَلِّمْ لِأَمْرِ رَبِّهِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوا نَبِيَّهُ وَيَرْضَوْا بِحُكْمِهِ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

---

قال الشيخ:

يبين الشارح - رحمه الله - أن سبب ضلال هؤلاء هو إعراضهم عن تدبر

كلام الله تعالى، وما جاء عن رسوله ﷺ، واشتغالهم بعلوم الفلسفة والمنطق التي أتوا بها من كتب اليونان القديمة، فيطرحون النصوص الصحيحة الصريحة إذا خالفت المعقول عندهم، معتمدين في ذلك على أقيسة وآراء مختلفة، لم يفيدوا بها علمًا لم يكن معروفًا، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، فكان ذلك سببًا لتسميتهم: أهل الكلام.

يقول: (**وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَذَوْقِهِ وَسِيَاسَتِهِ ـ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ، أَوْ عَارَضَ النَّصَّ بِالْمَعْقُولِ ـ فَقَدْ ضَاهَى إِبْلِيسَ**)، فهؤلاء الذين يعارضون النصوص بالمعقول، قد خالفوا ما أمرهم الله به، وشابهوا في ذلك إبليس حينما تكبر ولم يستسلم لأمر ربه، واحتج بقياس فاسد استدل به على أنه خيرٌ من آدم عليه السلام، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، لكن لم ينفعه هذا القياس؛ لأنه خالف به أمر الله ـ جل وعلا ـ فأصبح من الكافرين المطرودين من رحمة الله.

وكذلك كل من جعل رأيه وذوقه وسياسته دليله وقائده، وقدمه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قد خرج عن مسمى الإيمان؛ حيث أقسم الله تعالى بنفسه على ذلك، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، فعُلِم بذلك أن طريق النجاة هو الإعراض عن طرق أهل الكلام، والإقبال على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ، مُوَسْوِسًا تَائِهًا، شَاكًّا، لَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَلَا جَاحِدًا مُكَذِّبًا.

---

قال الشارح:

يَتَذَبْذَبُ: يَضْطَرِبُ وَيَتَرَدَّدُ. وَهَذِهِ الحَالَةُ الَّتِي وَصَفَهَا الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَالُ كُلِّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ المَذْمُومِ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَعِنْدَ التَّعَارُضِ يَتَأَوَّلُ النَّصَّ وَيَرُدُّهُ إِلَى الرَّأْيِ وَالْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَيَؤُولُ أَمْرُهُ إِلَى الحَيْرَةِ وَالضَّلَالِ وَالشَّكِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ رُشْدٍ الحَفِيدُ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِمَذَاهِبِ الْفَلَاسِفَةِ وَمَقَالَاتِهِمْ، فِي كِتَابِهِ «تَهَافُتِ التَّهَافُتِ»: «وَمَنِ الَّذِي قَالَ فِي الْإِلَهِيَّاتِ شَيْئًا يُعْتَدُّ بِهِ؟». وَكَذَلِكَ الْآمِدِيُّ، أَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَاقِفٌ فِي المَسَائِلِ الْكِبَارِ حَائِرٌ. وَكَذَلِكَ الْغَزَالِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - انْتَهَى آخِرُ أَمْرِهِ إِلَى الْوَقْفِ وَالحَيْرَةِ فِي المَسَائِلِ الْكَلَامِيَّةِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْ تِلْكَ الطُّرُقِ وَأَقْبَلَ عَلَى أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَاتَ وَالْبُخَارِيُّ عَلَى صَدْرِهِ. وَكَذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ، قَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي «أَقْسَامِ اللَّذَّاتِ»:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ

وأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ ... وَحاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سوى أَنْ جَمَعْنَا فيه قِيلَ وَقَالُوا

فَكَم قَد رَأَينا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ ... فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا

وَكَمْ مِنْ جِبالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا رِجَالٌ فَزَالُوا والجِبَالُ جِبَالُ

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَلَا تُرْوِي غَلِيلًا، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، اقْرَأْ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر:١٠]، وَاقْرَأْ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، ثُمَّ قَالَ: «وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي».

---

قال الشيخ:

أورد الشارح هذا الكلام ليبيِّن أنَّ هؤلاء نهايتهم الحيرة والتذبذب؛ وذلك لأنَّهم ليسوا على عقيدة راسخة، بل إنَّ كلامهم هذا الذي يولِّدونهُ هو سبب الشَّكِّ؛ لأنَّه لا يأتي ببرهان بل بعضه يردُّ بعضًا، ويكذب بعضه بعضًا، فيأتي أحدهم بمسائل جدليَّة ويجمعها في مؤلَّفاته، ثمَّ يأتي آخر أجدل منه فينقضها واحدة واحدة، فلا يبقى معه شيء، يقول: كما أنَّك تولِّد كذا فأنا أولِّد مثله.

وقد تعلَّمها كثير من العلماء ليردُّوا عليها، ومن جملة مَن عرفها وأتقنها شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله، فإنَّه درس علومهم، وإن لم يصرف فيها وقتًا، ولكن ما أعطيه من الذَّكاء ومن الفطنة ومن قوَّة الذَّاكرة، جعله يفهمها بمجرَّد ما يقرؤها، فناقش كتبهم، وردَّ عليهم ردًا متقنًا، فكتابه «منهاج السُّنَّة» الذي هو في الرد على الرافضة، جعل ثلثه في مناقشة المتكلِّمين فيما يتعلَّق

بالصِّفات ونحو ذلك، وهكذا كتابه «درء تعارض العقل والنقل»، مطبوع أيضًا في عشرة مجلَّدات، هو أيضًا مناقشة لهم في تلك الشُّبهات، وبيان ما وقعوا فيه من التَّناقضات، وهكذا أيضًا كتابه الَّذي يسمَّى بـ «نقض التأسيس»، فـ«التأسيس» كتاب للرَّازي وهو من المتكلمين، صاحب هذه الأبيات التي أوردها الشارح له، والكتاب مطبوع، واسمه: «تأسيس التَّقديس»، ردَّ عليه شيخ الإسلام وإن لم يردَّ عليه كله، فناقشه كأنَّه درس كلامهم وتوغَّل فيه، وكلُّ ذلك ليعرف المسلمون أنَّهم لا يثبتون على فعلة، بل نهايتهم الحيرة، ونهايتهم التَّذبذب، كما ذكر الشارح عن أمثال هؤلاء منهم.

ومنهم ابن رشد - ويسمى ابن رشد الحفيد - له كتاب في الانتصار للفلاسفة؛ وذلك لأنَّ الغزالي صنَّف كتابًا سمَّاه: «تهافت الفلاسفة»، ولـمَّا صنَّفه ردَّ عليه ابن رشد وانتصر لهم وسمَّى ردَّه: «تهافت التَّهافت».

وسبق أن نقل الشارح كلام الغزالي أو بعض كلامه من كتاب «إحياء علوم الدِّين»، فالحاصل أنَّ الغزالي يبيِّن أنَّهم ليسوا على عقيدة راسخة، بل إنَّهم متهافتون مضطربون متذبذبون، ولا عبرة لمن انتصر لهم من أفرادهم، فإنَّ ابن رشد فيلسوف، لم يكن على عقيدة راسخة، بل ينقل عنهم أنَّهم متذبذبون، وأنَّهم مهما وصلوا إليه لا يثبتون أيضًا على طريقة.

الثاني: أبو الحسن الآمدي، صاحب كتاب «الإحكام في أصول الأحكام»، من علماء المتكلِّمين، ولكن من الذين تكلَّموا في هذا العلم، وتكلَّموا أيضًا في العلوم الأخرى؛ كأصول الفقه، ومع ذلك فقد اعترف عنهم

وعن من خاض منهم في علم الكلام بأنَّ هذه نهايتهم: الحيرة والشَّكُّ والاضطراب.

الثالث: الغزالي صاحب «الإحياء»، يقولون: إن «إحياء علوم الدين» من خير كتبه وأحسنها، وإن كان فيه شيء من البدع، والغزالي لم يكن من المحدِّثين، فحشد فيه أحاديث موضوعة لا أصل لها، وإن كان جاء فيه بأفكار وبفوائد مهمة، وقد كان في أوَّل أمره مشتغلًا بعلم الكلام، وبالجدل والفكر، وما أشبه ذلك، وهذا هجِّيراه[1]، ولأجل ذلك قدَّم في أوَّل كتابه «المستصفى» مقدّمة في المنطق، وفي آخر حياته ندم على أنَّه أضاع حياته في شيء لا فائدة فيه؛ فأقبل على الحديث وجعل يقرؤه، ووافاه الأجل وكتاب «صحيح البخاري» على صدره؛ كأنَّه يقول: ندمت على إعراضي عن كتب الحديث، فأنا الآن أشتغل بها في آخر حياتي. ولعلَّه خُتم له خاتمة حسنة.

الرابع: أبو عبدالله الرَّازي، ويسمى: فخر الدين الرازي، صاحب «التَّفسير الكبير» الذي هو أكبر التَّفاسير الموجودة لهذا العَالِم الكبير، وصنَّف كتابًا له سمَّاه «أقسام اللَّذات»، وكأنَّه ينقض أكثر عمله، فحياته ذهبت في شيء لا فائدة فيه من علم الجدل، رُوي أنَّه مرَّة كان يمشي مع طريق وخلفه تلاميذ له كثير يزيدون على مئة أو مئتين مرُّوا على عجوز فاستغربته، وقالت: من

---

(١) يُقال: هذا هِجِّيراه، وإهْجِيراهُ، وإهْجِيرَاؤُه بالمدّ والقَصْر، وهِجِّيرُه كسِكِّيتٍ، وأُهْجوِرَته بالضمّ، وهِجْرِيَّاهُ وإجْرِيّاه، أي: دَأْبُه ودَيْدنُه وشَأْنُه وعادَتُه. انظر: لسان العرب (هجر).

هذا؟ قالوا: هذا أبو عبدالله الرَّازي العالم الجليل، يحفظ ألف دليل على وجود الله تعالى. قالت العجوز: أفي الله شكٌّ؟! عجوز على فطرتها تقول: هذا الذي حرص على جمع هذه الأدلة في قلبه شكٌّ، وفي قلبه توقُّف، لا يحرص على تتبُّع هذه الأدلة إلَّا من هو في حيرةٍ أو في شكٍّ.

فهو يقول في هذه الأبيات:

نِهَايَـةُ إِقْـدَامِ العُقُـولِ عِقَـالُ وَأَكْثَـرُ سَـعْيِ العَـالَمِينَ ضَـلَالُ

نهاية: يعني نهاية هذا الأمر، إقدامهم يعني: تقدُّمهم، وسعيهم يعني: عملهم أكثره ضلالٌ. ثم يقول في أثنائها:

وَلَمْ نستَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُول عُمْرِنا سوى أَنْ جَمَعْنَا فيه: قِيلَ وَقَالوا

هذا الَّذي استفدنا، ما استفدنا من جمعنا ومن تأليفاتنا إلَّا قال فلان، وقيل كذا..

يقول بعد هذه الأبيات: (لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ)، يعني: طرق الكلام ومناهج الفلاسفة، (فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَلَا تُرْوِي غَلِيلًا)، والعليل: المريض، والغليل: الظمآن، (وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، اقْرَأْ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر:١٠]، وَاقْرَأْ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي).

فهذا كلامه، في هذا الكتاب «أقسام اللَّذات»، أليس ذلك دليلًا على أنَّه اعترف على نفسه وعلى بني جنسه من المتكلمين أنَّ سعيهم ضلالٌ، وأنَّهم في حيرة، وأنَّ عملهم تائه؟!

فإذًا نقول: هذه نهايتهم، أمَّا أصل العقيدة الرَّاسخة الَّتي هي معرفة الله بصفاته وتفويض كيفيتها، فهؤلاء - والحمد لله - لم يقعوا في شيء من هذا التَّزلزل.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّهْرَسْتَانِيُّ[1]، إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا الْحَيْرَةَ وَالنَّدَمَ، حَيْثُ قَالَ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: يَا أَصْحَابَنَا لَا تَشْتَغِلُوا بِالْكَلَامِ، فَلَوْ عَرَفْتُ أَنَّ الْكَلَامَ يَبْلُغُ بِي إِلَى مَا بَلَغَ مَا اشْتَغَلْتُ بِهِ. وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ: لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ، وَخَلَّيْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ، وَدَخَلْتُ فِي الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ، وَالْآنَ فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ، فَالْوَيْلُ لِابْنِ الْجُوَيْنِيِّ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي، أَوْ قَالَ: عَلَى عَقِيدَةِ عَجَائِزِ نَيْسَابُورَ.

وَكَذَلِكَ قَالَ شَمْسُ الدِّينِ الْخُسْرَوْشَاهِيُّ - وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ تَلَامِذَةِ فَخْرِ الدِّينِ الرَّازِيِّ - لِبَعْضِ الْفُضَلَاءِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَالَ: مَا تَعْتَقِدُ؟ قَالَ: مَا يَعْتَقِدُهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: وَأَنْتَ مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ لِذَلِكَ مُسْتَيْقِنٌ بِهِ؟ أَوْ كَمَا قَالَ، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، لَكِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَبَكَى حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ.

وَلِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ الْفَاضِلِ الْمَشْهُورِ بِالْعِرَاقِ:

فِيكَ يَا أُغْلُوطَةَ الْفِكَرِ ... حَارَ أَمْرِي وَانْقَضَى عُمُرِي

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٧٣).

سَـافَرَتْ فِيـكَ العُقُـولُ فَمَـا ... رَبِحَـتْ إِلَّا أَذَى الـسَّـفَـرِ
فَلَحَـى اللهِ الأُلَى زَعَمُـوا ... أَنَّـكَ المَعْـرُوفُ بِالنَّظَـرِ
كَـذَبُوا إِنَّ الَّـذِي ذكَـروا ... خـارِجٌ عَـنْ قُـوَّةِ البَـشَرِ

وَقَالَ الخَوْنَجِيُّ عِنْدَ مَوْتِهِ: مَا عَرَفْتُ مِمَّا حَصَّلْتُهُ شَيْئًا سِوَى أَنَّ الْمُمْكِنَ يَفْتَقِرُ إِلَى الْمُرَجِّحِ، ثُمَّ قَالَ: الِافْتِقَارُ وَصْفٌ سَلْبِيٌّ، أَمُوتُ وَمَا عَرَفْتُ شَيْئًا.

وَقَالَ آخَرُ: أَضْطَجِعُ عَلَى فِرَاشِي وَأَضَعُ الْمِلْحَفَةَ عَلَى وَجْهِي، وَأُقَابِلُ بَيْنَ حُجَجِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، وَلَمْ يَتَرَجَّحْ عِنْدِي مِنْهَا شَيْءٌ.

وَمَنْ يَصِلْ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّـهُ بِرَحْمَتِهِ وَإِلَّا تَزَنْدَقَ، كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ ـ رَحِمَهُ اللَّـهُ ـ: مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالْكَلَامِ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ المَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الحَدِيثِ كَذَبَ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّـهُ ـ: حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ.

وَقَالَ: لَقَدِ اطَّلَعْتُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ عَلَى شَيْءٍ مَا ظَنَنْتُ مُسْلِمًا يَقُولُهُ، وَلَأَنْ يُبْتَلَى الْعَبْدُ بِكُلِّ مَا نَهَى اللَّـهُ عَنْهُ ـ مَا خَلَا الشِّرْكَ بِاللَّـهِ ـ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُبْتَلَى بِالْكَلَامِ. انْتَهَى.

وَتَجِدُ أَحَدَ هَؤُلَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ يَرْجِعُ إِلَى مَذْهَبِ الْعَجَائِزِ، فَيُقِرُّ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ وَيُعْرِضُ عَنْ تِلْكَ الدَّقَائِقِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ، الَّتِي كَانَ يَقْطَعُ بِهَا، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ فَسَادُهَا، أَوْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ صِحَّتُهَا، فَيَكُونُونَ فِي نِهَايَاتِهِمْ ـ إِذَا سَلِمُوا مِنَ الْعَذَابِ ـ

بِمَنْزِلَةِ أَتْبَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَعْرَابِ.

وَالدَّوَاءُ النَّافِعُ لِمِثْلِ هَذَا الْمَرَضِ، مَا كَانَ طَبِيبُ الْقُلُوبِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُهُ - إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ -: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ[1].

تَوَسَّلَ ﷺ إِلَى رَبِّهِ بِرُبُوبِيَّةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، إِذْ حَيَاةُ الْقَلْبِ بِالْهِدَايَةِ. وَقَدْ وَكَّلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ بِالْحَيَاةِ: فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ، وَمِيكَائِيلُ بِالْقَطْرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَإِسْرَافِيلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَالَمِ وَعَوْدِ الْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَادِهَا. فَالتَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِرُبُوبِيَّةِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الْعَظِيمَةِ الْمُوَكَّلَةِ بِالْحَيَاةِ، لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح أوَّلًا بقيَّة كلام هؤلاء الَّذين عُرف عنهم الحيرة، منهم: الشَّهرستاني صاحب كتاب «الملل والنِّحل».

---

(١) برقم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومنهم: الجويني صاحب كتاب «الإرشاد»، ويسمَّى والد إمام الحرمين، وله أيضًا مؤلَّفات، وكلامه في «الإرشاد» دليل على أنَّه متوغِّل في علم الكلام.

ومنهم: هذا العالم المشهور الَّذي يسمَّى الخسروشاهي، الَّذي يحلف أنَّه لا يدري ما يعتقد، ويغبط العامَّه في عقيدتهم.

هذه الكلمات المنقوله عنهم ـ وكذلك عن غيرهم ـ لا شكَّ أنَّها دليل واضح على أنَّ هذا النَّوع من علم الكلام نهايته الحيرة، وأنَّهم لا يثبتون على طريقة، بل حُجَج هؤلاء تردُّ حُجج هؤلاء. اعترف أحدهم بأنه يبيت اللَّيلة من أوَّلها إلى آخرها وهو يقابل حُجَج هؤلاء بحجج هؤلاء، ويصبح ما ترجَّح عنده منها واحدةٌ، أيُّ فائدة بالعلم بها، وأيُّ فائدة من معرفتها؟!

إذًا أسلم الطُّرق البعد عن هذه الطَّريقة ـ الَّتي هي علم الكلام ـ وهجر أهلها والبعد عنهم، بل عقوبتهم بما قال الشَّافعي رحمه الله، والعلاج مثل ما ورد في هذا الحديث، وهو قوله ﷺ بعدما توسَّل برب هذه الأرواح الثَّلاثة: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**». كأنَّك ترغب إلى الله وتقول: هؤلاء اختلفوا، وأنا لا أدري مع من الحقُّ، فإذا هديتني ووفَّقتني ودللتني على الصَّواب، فإنِّي أنا المهتدي، أنت الَّذي تهدي من تشاء وتضلُّ من تشاء. إذا رغب العبد وتوسَّل بربوبيَّة هؤلاء الملائكة؛ فإنَّ الله تعالى يقبل دعاءه ويجيبه لما طلب، ويصرفه عن المحظورات، وعن أضرارها وشرورها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ؛ إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ، وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ، تَرْكَ التَّأْوِيلِ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ.

---

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِمْ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَعَلَى مَنْ يُشَبِّهُ اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»[1]، الحَدِيثَ. أَدْخَلَ (كَافَ) التَّشْبِيهِ عَلَى (مَا) المَصْدَرِيَّةِ أَوِ المَوْصُولَةِ بِـ (تَرَوْنَ) الَّتِي تَنْحَلُّ إِلَى المَصْدَرِ الَّذِي هُوَ (الرُّؤْيَةُ)، فَيَكُونُ التَّشْبِيهُ فِي الرُّؤْيَةِ لَا فِي المَرْئِيِّ. وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ فِي أَنَّ المُرَادَ إِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ وَتَحْقِيقُهَا، وَدَفْعُ الِاحْتِمَالَاتِ عَنْهَا. وَمَاذَا بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْإِيضَاحِ؟! فَإِذَا سُلِّطَ التَّأْوِيلُ عَلَى مِثْلِ هَذَا النَّصِّ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِنَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ؟! وَهَلْ يَحْتَمِلُ هَذَا النَّصُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَعْلَمُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟! وَيَسْتَشْهِدُ لِهَذَا التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١]، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا اسْتُعْمِلَ فِيهِ (رَأَى) الَّتِي مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ!! وَلَا شَكَّ أَنَّ (رَأَى) تَارَةً تَكُونُ بَصَرِيَّةً، وَتَارَةً تَكُونُ قَلْبِيَّةً، وَتَارَةً تَكُونُ مِنْ رُؤْيَا الحُلْمِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَا يَخْلُو الْكَلَامُ مِنْ قَرِينَةٍ تُخَلِّصُ أَحَدَ مَعَانِيهِ مِنَ الْبَاقِي. وَإِلَّا لَوْ أَخْلَى الْمُتَكَلِّمُ كَلَامَهُ مِنَ الْقَرِينَةِ الْمُخَلِّصَةِ لِأَحَدِ الْمَعَانِي لَكَانَ مُجْمِلًا مُلْغِزًا، لَا مُبَيِّنًا مُوَضِّحًا. وَأَيُّ بَيَانٍ وَقَرِينَةٍ فَوْقَ قَوْلِهِ: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»[1]؟ فَهَلْ مِثْلُ هَذَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِرُؤْيَةِ الْبَصَرِ، أَوْ بِرُؤْيَةِ الْقَلْبِ؟ وَهَلْ يَخْفَى مِثْلُ هَذَا إِلَّا عَلَى مَنْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ؟

فَإِنْ قَالُوا: أَلْجَأَنَا إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، حُكْمُ الْعَقْلِ بِأَنَّ رُؤْيَتَهُ تَعَالَى مُحَالٌ لَا يُتَصَوَّرُ إِمْكَانُهَا!

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذِهِ دَعْوَى مِنْكُمْ، خَالَفَكُمْ فِيهَا أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ، وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُهَا، بَلْ لَوْ عُرِضَ عَلَى الْعَقْلِ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ لَحَكَمَ بِأَنَّ هَذَا مُحَالٌ.

وَقَوْلُهُ: (لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ)، أَيْ: تَوَهَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى عَلَى صِفَةِ كَذَا، فَيَتَوَهَّمُ تَشْبِيهًا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا التَّوَهُّمِ - إِنْ أَثْبَتَ مَا تَوَهَّمَهُ مِنَ الْوَصْفِ - فَهُوَ مُشَبِّهٌ، وَإِنْ نَفَى الرُّؤْيَةَ مِنْ أَصْلِهَا - لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّوَهُّمِ - فَهُوَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ. بَلِ الْوَاجِبُ دَفْعُ ذَلِكَ الْوَهْمِ وَحْدَهُ، وَلَا يَعُمُّ بِنَفْيِهِ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَيَنْفِيهُمَا رَدًّا عَلَى

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

مَنْ أَثْبَتَ الْبَاطِلَ، بَلِ الْوَاجِبُ رَدُّ الْبَاطِلِ وَإِثْبَاتُ الحَقِّ.

---

قال الشيخ:

أوّلًا: الواجب علينا أن نقبل الصِّفة الَّتي جاءتنا على ظاهرها، لاسيَّما إذا كانت صريحة بعيدة عن التَّوهُّمات، وأن نحملها على المحمل الذي يمكن أن تتحمَّله، وأن ننزِّه كلام الله وكلام رسوله ﷺ عن الاحتمالات البعيدة الَّتي فيها شيءٌ من التكلُّف، وفيها صرف للَّفظ عن المتبادر منه، وعن ما يفهمه المخاطب لأوَّل وهلة؛ وذلك لأنَّ كلام الله تعالى أفصح الكلام وأوضحه وأجلاه معنىً وأقرب إلى أن يُفهم، ولا يحتاج إلى إيضاح زائد، وليس ككلام الملغزين أهل الألغاز وأهل الإشارات الخفيَّة. وهكذا أيضًا كلام نبيِّه ﷺ، فإنَّه أفصح الخلق وأنصحهم، وإذا كان فصيحًا؛ فلا بدَّ أنَّه سيتكلَّم بما يعرفه المخاطَبون ويفهمونه، بحيث لا يشكُّون في مقصده، وكذلك إذا كان أنصح الخلق وأحبَّهم لمعرفة الأمَّة، وأحبَّهم لنجاتها، وأحبهم لإبعادها عن الأشياء الوهميَّة، إذا كان كذلك، فلا بدَّ أنَّه يوضِّح لهم، ولا يترك لهم الكلام ملتبسًا، ولا يتكلَّم بكلام موهم، حاشاه أن يتكلَّم بكلام يُفهم منه غير ما يُراد.

والصَّحابة - رضي الله عنهم - تقبلوا كلامه ﷺ، وحملوه على ما هو عليه دون أن يسألوه ويناقشوه، ودون أن يفسِّروا كلامه بما لا يحتمله، حتَّى جاء بعض الخلف المتأخِّرين الَّذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ

﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩]، يعني: أنَّهم قاموا مقامهم في وراثة الكتاب، ولكنَّهم لم يعملوا به، فهؤلاء الخلف الَّذين جاؤوا بعد السَّلف هم الَّذين عملوا هذه الأعمال، وهي التَّأويلات البعيدة، الَّتي تكلَّفوا فيها، وصرفوها عن ما هو مقصود بها.

فقد تقدم قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، الوجوه معروف أنَّها محلُّ العيون، والعينان مركبَّة في الوجه، فإذا كان الوجه مقابلًا؛ فإن العين تنظر، فالله تعالى قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٤]، وفي سورة أخرى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]، و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]، فجعل الوجوه علامة على الشَّقاء أو السَّعادة، كما في آية أخرى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فالوجه هو الَّذي تكون فيه علامة الإشراق والسَّعادة أو علامة الاسوداد والشَّقاوة.

فإذا قال الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أيُّ كلام يكون أفصح من هذا الَّذي يفهم منه أن الوجوه تنظر إلى ربِّها؟

جاء قوم من هؤلاء الخلف وسلَّطوا التَّأويل عليه، وقالوا: إنَّ المراد بالنظر هنا الانتظار، أو المراد نظر الثَّواب لا نظر الرَّبِّ تعالى، فيقولون: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ يعني: إلى ثواب ربِّها. فما الدليل على أنَّها على هذا القدَّر؟ هل في الكلام

المحذوف؟! الله تعالى أعلى من أن يوهم كلامه ويجعله خفيًّا ليس بجليٍّ، فكيف يقال: ناظرةٌ إلى ثواب الله، أو إلى آلائه ونعمه؟!

وإذا عرفنا ذلك؛ فإنَّ كلام النَّبيِّ ﷺ أيضًا فصيح، بعثه الله باللغة الفصحى، وهو أفصح من نطق بالضَّاد، أفصح العرب، كلامه أيضًا في غاية الوضوح والفصاحة والبيان، فقوله ﷺ ـ مثلًا ـ في حديث جرير ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[1]، ويقول في حديث أبي هريرة ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**»، **قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»**[2]، أليس هذا واضحًا في أنَّ المراد النَّظر والمعاينة بالعين؟!

جاء هؤلاء الخلف وسلَّطوا عليه التَّأويل، وقالوا: المراد العلم، «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ**»، يعني: ستعلمون ربَّكم. ونحن نقول: هم يعلمونه في الدُّنيا؛ فكيف قال ستعلمون؟! كأنهم ما علموا؟!

حرف السين يفيد الاستقبال لشيء مستقبل، لو كان قائل هذا مراده العلم، لقالوا: نحن نعلم ربَّنا، ونعلم أنَّه ربُّنا، ولكنَّه قال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ**»، يعني: يوم القيامة، يعني: في الآخرة وفي الجنَّة، ثمَّ لماذا قال: **كَمَا تَرَوْنَ**

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

هَذَا الْقَمَر ؟ هل هم كانوا يرون القمر في تلك السَّاعة؟ وإذا كانوا يرونه هل يشكُّون في أنَّ هذا هو القمر؟ هذا من التَّأويل البعيد، كيف يقاس على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١]، يعني: ألم تعلم، أو: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم:٢٤]، يعني: ألم تعلم، وكذلك الآيات التي فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[البقرة:٢٤٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ [غافر:٦٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [المجادلة:٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [الحشر:١١]، فالمراد هنا الرُّؤية العلميَّة، يعني: ألم تر بقلبك، لا مناسبة بين هذه وبين قوله ﷺ: «سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ»، فهنا دخلت السِّين، يعني: أنَّه في المستقبل، وأكد بقوله ﷺ: «كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، أي: لا تشكُّون في رؤيته، فبينهما فرق، فعُرف بذلك أنَّ هذه تأويلات بعيدة لا يحتاج إليها عاقل ولا يصدِّقها.

وأما قولهم: حملنا على ذلك أنَّ الرؤية لله فيها تشبيهٌ، فإذا قلنا: إنَّه يُرى، فقد شبهناه بخلقه ـ تعالى الله عن قولهم ـ.

قلنا: ما الذي أشعركم؟ لا يلزم من ذلك لو رأوه كلُّهم هل يلزم أن يكون مشابهًا لخلقه؟ حاشا وكلَّا، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يلزم إذا رأوه أن يكون مماثلًا لشيء من مخلوقاته؛ بل هو كما يشاء، قد أكَّد النَّبي ﷺ هذه الرؤية، وأخبر بأنها من أعلى نعيم أهل الجنَّة، وأنَّها غاية مقصدهم و مرامهم،

حتَّى يقول بعضهم:

فَلَو أَنِّي اسْتَطَعْتُ غَضَضْتُ طَرْفِي فَلَـمْ أَنْظُـرْ بِهِ حَتَّىٰ أَرَاكَ[1]

فعلى كلِّ حال لا يُلتفت إلى تلك التَّأويلات، والمؤمن يتقبَّل هذه النُّصوص، ثمَّ يعرف الفائدة، وهي رسوخ عقيدته في قلبه، وأنَّه مؤمن بالله وبما جاء عن الله، ويقينه وتصديقه بأن المؤمنين يرون ربَّهم في دار كرامته، وبأنَّ المؤمنين يتنعَّمون ويلتذُّون بهذه الرُّؤية، وأنَّها من جملة نعيمهم، وقبوله للأدلَّة التي دلَّت على ذلك وعدم تسليطه للتَّأويلات، وإعراضه عن تأويلات المتكلِّمين وعدم الإصغاء إلى أقوالهم، وإعراضه عن الأدلَّة العقليَّة التَّي ولَّدوها، والتَّي زعموا أنَّها براهين، وهي في الحقيقة شبهات وضلالات.

---

(١) راجع (٢/ ١٣٤).

قال الشارح:

وَإِلَى هَذَا المَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بِقَوْلِهِ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَزِلَةَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُنَزِّهُونَ اللَّهَ بِهَذَا النَّفْيِ! وَهَلْ يَكُونُ التَّنْزِيهُ بِنَفْيِ صِفَةِ الْكَمَالِ؟ فَإِنَّ نَفْيَ الرُّؤْيَةِ لَيْسَ بِصِفَةِ كَمَالٍ؛ إِذِ الْمَعْدُومُ لَا يُرَى، وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ وَنَفْيِ إِدْرَاكِ الرَّائِي لَهُ إِدْرَاكَ إِحَاطَةٍ، كَمَا فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّ نَفْيَ الْعِلْمِ بِهِ لَيْسَ بِكَمَالٍ، وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي إِثْبَاتِ الْعِلْمِ وَنَفْيِ الْإِحَاطَةِ بِهِ عِلْمًا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُحَاطُ بِهِ رُؤْيَةً، كَمَا لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا.

وَقَوْلُهُ: (أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ)، أَيِ: ادَّعَى أَنَّهُ فَهِمَ لَهَا تَأْوِيلًا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا، وَمَا يَفْهَمُهُ كُلُّ عَرَبِيٍّ مِنْ مَعْنَاهَا، فَإِنَّهُ قَدْ صَارَ اصْطِلَاحُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي مَعْنَى التَّأْوِيلِ: أَنَّهُ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَبِهَذَا تَسَلَّطَ الْمُحَرِّفُونَ عَلَى النُّصُوصِ، وَقَالُوا: نَحْنُ نَتَأَوَّلُ مَا يُخَالِفُ قَوْلَنَا، فَسَمَّوُا التَّحْرِيفَ تَأْوِيلًا، تَزْيِينًا لَهُ وَزَخْرَفَةً لِيُقْبَلَ، وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ الَّذِينَ زَخْرَفُوا الْبَاطِلَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، وَالْعِبْرَةُ لِلْمَعَانِي لَا لِلْأَلْفَاظِ، فَكَمْ مِنْ بَاطِلٍ قَدْ أُقِيمَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مُزَخْرَفٌ عُورِضَ بِهِ دَلِيلُ الحَقِّ.

وَكَلَامُهُ هَنَا نَظِيرُ قَوْلِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا)، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا المَعْنَى بِقَوْلِهِ: (إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ، وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ: تَرْكَ التَّأْوِيلِ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ

الْمُسْلِمِينَ). وَمُرَادُهُ: تَرْكُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ تَأْوِيلًا، وَهُوَ تَحْرِيفٌ، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ تَأَدَّبَ وَجَادَلَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكَ كُلِّ مَا يُسَمَّى تَأْوِيلًا، وَلَا تَرْكَ شَيْءٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ لِبَعْضِ النَّاسِ لِدَلِيلٍ رَاجِحٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: تَرْكُ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، الْمُخَالَفَةِ لِمَذْهَبِ السَّلَفِ، الَّتِي يَدُلُّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى فَسَادِهَا، وَتَرْكُ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ.

فَمِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ: تَأْوِيلُ أَدِلَّةِ الرُّؤْيَةِ، وَأَدِلَّةِ الْعُلُوِّ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَلَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا!

---

قال الشيخ:

نعرف أنَّ هؤلاء المعتزلة ونحوهم هم الذين توسَّعوا في هذا المجال، وحملوا غيرهم على أن يتوسَّعوا فيه، ولم يكن السَّلف ـ رحمهم الله ـ يتوسَّعون في هذا الكلام، بل يقبلونه على ما هو عليه، ولا ينقِّبُون عن شيء من الإيرادات التَّي يوردها عليهم أهل التَّعطيل، فكان كلام السَّلف ـ رحمهم الله ـ قليلًا، ولكنَّ معناه كثير، وكانوا يقبلون النُّصوص، ويعرفون معناها ويفهمونه، ويعلمون ما قصد منها، فيقرؤون ـ مثلًا ـ الآيات التَّي وردت في الصِّفات، ويعلمون أنَّها صفاتٌ ثابتة، ولكن يعلمون أنَّها تخالف صفات المخلوق؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء، ويعلمون أنَّ من تلك الصِّفات صفة العلم وصفة

الرُّؤية، وأنَّها حقيقيَّة، ولكنَّها ليست كصفات المخلوقين.

ويعلمون أنَّ الله تعالى ما نفى عن نفسه إلَّا النقائص، كلُّ شيء فيه نقص فإنَّه قد نفاه، فيقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، أي: لا يماثله شيء؛ لأنَّ المخلوق يأتي عليه الفناء، والله تعالى ليس كذلك، ويقول تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: لا أحد يستحقُّ أن يسمَّى «الله» أو «إله» أو نحو ذلك؛ وذلك لنقص المخلوقات الَّتي تسمَّى بذلك، وقال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، نفى ذلك عن نفسه لأنَّه نقص، فالنوم أخو الموت، وقد نفى الموت أيضًا عن نفسه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان: ٥٨]، فنفى الموت عن نفسه لأنه نقص، ونفى عن نفسه ـ أيضًا ـ عزوب شيء أو نسيانه، فقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١]، لا يعزب يعني: لا يغيب عنه، ولا ينسى شيئًا؛ لأنَّ النسيان نقص فنفاه عن نفسه، ونفى عن نفسه اللُّغوب فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، واللُّغوب هو: التَّعب والسَّآمة والنَّصب، وذلك أيضًا نقص.

فكل النَّقائص نزَّه الله عنها نفسه؛ وذلك لما يرد عليها من التَّغير، لم ينفِ عن نفسه الرَّؤية أنَّه لا يُرى، ولو كان نقصًا لنفاه، والرؤية صفة كمال وعدمها صفة نقص؛ وذلك لأنَّ المعدوم لا يُرى، والمعدوم ليس بشيء، والذي ليس بشيء هو كاسمه ليس بشيء، فأثبت الله تعالى أنه يُرى، ولكن نفى عن نفسه إحاطة الأبصار به في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، يعني:

لا تحيط به، إذا رأته، فإنَّها لا تحيط به، ترى ما يبدو وما يتجلَّى منه ولا تحيط به، وهو يدرك الأبصار.

وقد تقدَّم أنَّ الرُّؤية غير الإدراك، فالله ما نفى إلَّا الإدراك، والإدراك هو الإحاطة، وقد تقدَّم أنَّ عكرمة قال لرجل يحتج على نفي الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فقال له: ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلّها ترى؟[1]، فذلك الإدراك، نحن نرى السَّماء، ولكن لا ندركها، ولا ندري ما ماهيَّتها، ونرى الشَّمس والقمر، ولكن لا ندرك ماهيتها، ولا من أيِّ شيء، ونرى هذا السَّحاب وهذه النُّجوم، ولكن لا ندركها، أبصارنا تضعف عن أن تحيط بها وعن أن تعلم ماهيَّتها.

إذًا فالرؤية شيء غير الإدراك، والإدراك زائد على الرُّؤية، فمن تعظيم الله أنَّه يُرى ولا يُدرك، كذلك من تعظيم الله تعالى أنه يُعلم ولا يحاط بعلمه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، أي: لا يعلمون إلَّا ما أعلمهم؛ وذلك لنقص المخلوقين وعظمة الخالق سبحانه وتعالى، فهم مهما علموا فإنهم لا يعلمون تفاصيل ذات الله تعالى، ولا ما هو عليه إلَّا ما أطلعهم عليه.

فهذا هو بيان الفرق بين ما يقوله هؤلاء وبين ما يقوله أهل السُّنة.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٥٦).

أمَّا كونهم سلَّطوا على ذلك التأويل، فقالوا ـ مثلًا ـ: آية الرُّؤية تدلُّ على إثبات صفة تشبيه، أو نحو ذلك، فنحن نسلِّط عليها التَّأويل.

فنقول: لا حاجة بنا إلى تأويلكم، ولا حاجة بها إلى هذا التأويل، بل انفوا عنها التَّشبيه وتسلمون.

واصطلحوا على أنَّ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره، قالوا ـ مثلًا ـ: ظاهر قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، أنَّ لله وجهًا، ولكن نصرفه فنقول: الوجه الذَّات، فنقول: كلُّ شيء هالك إلَّا ذاته! فهذا أيضًا تأويل، ويقولون: ظاهر قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، أنَّ لله يدَين، وفي إثباتها تشبيه، ونحن نفرُّ من التشبيه، فلأجل ذلك نسلِّط عليها التَّأويل، فنقول: المراد باليدين النِّعمة، أو القدرة! وهذا بعيدٌ، فقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، يعني: مبسوطتان بالعطاء، وقد أكد ذلك النَّبي ﷺ فقال: «**يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وقال: أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ**»[1].

وقد أثبت الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنفسه اليمين بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، فكيف

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تقولون: اليد القدرة؟! هذا من التَّأويل البعيد.

وهكذا قولهم: إنَّ كلام الله المعنى لا اللَّفظ، فهذا أيضًا من التَّأويل، وهكذا قولهم: إنَّ رحمة الله إرادة الإحسان، أو غضبه: إرادة الانتقام، كلُّ ذلك يسمونه تأويلًا.

فأهل السُّنَّة لا يدخلون في باب التَّأويل، والواجب عليهم أن يقتصروا على نفي التشبيه، وهذا هو معنى قول الماتن: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، كان كثير من السَّلف إذا رأوا الإنسان يبالغ في النَّفي اتَّهموه بالتجهم؛ لأنَّ الَّذين يبالغون في النفي لا يتوقُّون النَّفي ولا يتوقُّون التَّنزيه أو التَّشبيه، وهم أقربُ إلى أن يكونوا مشبهة من غيرهم، وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ في بعض كتبه أنَّ هؤلاء مشبِّهة، ولو ادعوا أنَّهم يهربون من التَّشبية. وكيف يكونون مشبِّهة؟

أوَّلًا: أنَّه ارتسم في قلوبهم أنَّ تلك الصِّفات دالَّة على التَّشبيه، وما فهموا من النُّصوص إلَّا التَّشبيه.

ثانيًا: أنَّهم لـمَّا نفوا الصِّفات نفيًا كليًّا، وقعوا في التشبيه بالجمادات، أو التَّشبيه بالمعدومات، أو التَّشبيه بالمستحيلات، فأصبحوا بذلك مشبِّهين، فقيل لهم: أنتم مشبِّهة.

فعلى كلِّ حال تأويلاتهم التَّي يتأوَّلون بها النُّصوص يردُّها كلُّ ذي عقل سليم.

قال الشارح:

ثُمَّ قَدْ صَارَ لَفْظُ التَّأْوِيلِ مُسْتَعْمَلًا فِي غَيْرِ مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ.

فَالتَّأْوِيلُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ: هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَئُولُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ، فَتَأْوِيلُ الْخَبَرِ: هُوَ عَيْنُ الْمُخْبَرِ بِهِ، وَتَأْوِيلُ الْأَمْرِ نَفْسُ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ. كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ[1]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، وَمِنْهُ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا، وَتَأْوِيلُ الْعَمَلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢]، فَمَنْ يُنْكِرُ وُقُوعَ مِثْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ، وَالْعِلْمَ بِمَا تَعَلَّقَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْهُ؟!

وَأَمَّا مَا كَانَ خَبَرًا، كَالْإِخْبَارِ عَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَهَذَا قَدْ لَا يُعْلَمُ تَأْوِيلُهُ، الَّذِي هُوَ حَقِيقَتُهُ؛ إِذْ كَانَتْ لَا تُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ، فَإِنَّ الْمُخْبَرَ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَصَوَّرَ الْمُخْبَرَ بِهِ، أَوْ مَا يَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهُ، الَّتِي هِيَ

---

(١) أخرجه البخاري ٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

تَأْوِيلُهُ، بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ نَفْيُ الْعِلْمِ بِالْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَ الْمُخَاطِبُ إِفْهَامَ الْمُخَاطَبِ إِيَّاهُ، فَمَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِتَدَبُّرِهَا، وَمَا أَنْزَلَ آيَةً إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُعْلَمَ مَا عَنَى بِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. فَهَذَا مَعْنَى التَّأْوِيلِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ، وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا التَّأْوِيلُ مُوَافِقًا لِلظَّاهِرِ أَوْ مُخَالِفًا لَهُ.

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، كَابْنِ جَرِيرٍ وَنَحْوِهِ، يُرِيدُونَ بِهِ تَفْسِيرَ الْكَلَامِ وَبَيَانَ مَعْنَاهُ، سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ خَالَفَ، وَهَذَا اصْطِلَاحٌ مَعْرُوفٌ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ كَالتَّفْسِيرِ، يُحْمَدُ حَقُّهُ، وَيُرَدُّ بَاطِلُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، الْآيَةَ [آل عمران:٧]، فِيهَا قِرَاءَتَانِ: قِرَاءَةُ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وَقِرَاءَةُ مَنْ لَا يَقِفُ عِنْدَهَا، وَكِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ حَقٌّ، وَيُرَادُ بِالْأُولَى: الْمُتَشَابِهُ فِي نَفْسِهِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ، وَيُرَادُ بِالثَّانِيَةِ: الْمُتَشَابِهُ الْإِضَافِيُّ الَّذِي يَعْرِفُ الرَّاسِخُونَ تَفْسِيرَهُ، وَهُوَ تَأْوِيلُهُ.

وَلَا يُرِيدُ مَنْ وَقَفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أَنْ يَكُونَ التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ لِلْمَعْنَى، فَإِنَّ لَازِمَ هَذَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ كَلَامًا لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ وَلَا الرَّسُولُ، وَيَكُونُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا سِوَى قَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [الأعراف:٧]، وَهَذَا الْقَدْرُ يَقُولُهُ غَيْرُ

الرَّاسِخِ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَجِبُ امْتِيَازُهُمْ عَنْ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ»[1]. وَلَقَدْ صَدَقَ ﷺ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا لَهُ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ[2]. وَدُعَاؤُهُ ﷺ لَا يُرَدُّ. قَالَ مُجَاهِدٌ: «عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، أَقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا»[3]. وَقَدْ تَوَاتَرَتِ النُّقُولُ عَنْهُ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي جَمِيعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَقُلْ عَنْ آيَةٍ: إِنَّهَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

---

**قال الشيخ:**

مناسبة هذا الكلام أنَّ المبتدعة والمعتزلة ونحوهم يستعملون كلمة التَّأويل بمعنى صرف اللَّفظ عن ظاهره كما ذكرنا قريبًا؛ كقولهم في ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]: استولى عليه، فهذا صرفٌ له عن ظاهره، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، أي: في السَّماء علمه، أو في السَّماء ملائكته، وهذا صرف للَّفظ عن ظاهره، وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥، ١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) بنحوه، وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) كما أورده الشارح.

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٣٩٥)، والطبراني في الكبير (١١٠٩٧).

إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، أي: تصعد إلى ملائكته أو إلى علمه أو نحو ذلك. وهذا تأويل باطل ما أنزل الله عليه دلالةً، ولا أوضحه، ولا أمر به.

فهذا هو التَّأويل المذموم، الَّذي يذمُّه السَّلف، ويقولون: لا تتأوَّلوا، أو: لا تستمعوا إلى هذا التَّأويل الذي يراد به صرف اللَّفظ عن ظاهره.

وكلمة التَّأويل تأتي بمعنى التفسير، فقد كان ابن جرير - رحمه الله - يقول في تفسيره: «القول في تأويل قوله تعالى»، ومراده: في تفسير الآية، ويقول: «اختلف أهل التَّأويل في تأويل ذلك»، ويقول: «وبمثل الَّذي قلنا في ذلك قال أهل التَّأويل»، فالمراد أهل التفسير.

أمَّا في لغة القرآن، فقد وردت كلمة التَّأويل، وكذلك في لغة الصحابة والمراد بها حقيقة الشَّيء وماهية وما يؤول إليه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [الأعراف:٥٣]، فالمراد حقيقته، أي: هل ينتظرون إلَّا أن يأتي الأمر الَّذي يقع ما أُخبروا به، تأويله: أي وقوع ما فيه، فمثلًا تأويل قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف:٤٤]، تأويله: وقوع المناداة، وكون هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النَّار، وهؤلاء ينادون هؤلاء، إذا وقع ذلك فهذا هو التَّأويل، فيُقال مثلًا: هذا هو تأويل الآية التي أخبرنا بها، يعني: حقيقة ما وقع.

وكذلك مرجع الشَّيء يُسمَّى تأويلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٥]، يعني: أحسن حقيقةً وأحسن مظهرًا ومرجعًا.

ومنه أيضًا: تأويل الرُّؤيا، حكى الله عن يوسف ـ عليه السلام ـ قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]، ثمَّ بعد أن جاء إخوته وأبواه ودخلوا عليه، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:٩٩، ١٠٠]، يعني: هذه حقيقتها وقع ما تأوَّل به، وفي الآية الأخرى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف:٣٦]، أي: بحقيقته وما يؤول إليه وما وقع. وفي أول السُّورة يقول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦]، يعني: حقائقها، وكيف تؤول إليه يعني: ما ترجع إليه.

فالتَّأويل الَّذي في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، المراد: ابتغاء معرفة وقوعه وكيفيته وتصوره، وذلك غيبٌ، ولا يعلمه إلَّا الله، فإذا وقع علموه ولا يقع إلَّا في يوم القيامة، فمثلًا: آيات الوزن في قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦ ـ ٩]، قد يقولون: نريد تأويل هذا الميزان، وما مقداره، وسعة الكفَّة،

وكيف تميل، وكيف تخفُّ بهذا وتثقل بهذا؟ فنقول: تأويله لا يعلمه إلَّا الله، أي: لا نعلم حقيقة ذلك الوزن، ولا نعلم كيف تكون الأعمال أعراضًا حتى توزن، إنَّما يظهر إذا بدت، فإذا ظهرت الموازين ووزنت فيها الأعمال، فعند ذلك نقول: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وهذا تأويله يعني: هذا هو حقيقته.

إذا تطايرت الصُّحف إلى الأيمان والشَّمائل، فنقول: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[الحاقة:١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:٢٥]، هذا تأويلها، يعني: وقع، وقبل ذلك لا ندري: ما هو الكتاب، ولا كيف يكون الكتاب الَّذي يحصي الأعمال كلَّها، كما في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، وكما في قوله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، كيف يكون ذلك الكتاب يقبض باليد؟ هذا ما لا يعلمه إلَّا الله، فإذا وقع وأُخذت الكتب بالأيمان والشَّمائل عند ذلك نقول: هذا تأويل تلك الآيات الَّتي أخبر الله فيها بأن ذلك سيقع، وأنَّ صورته وكيفيته كذا.

قال الشارح:

وَقَوْلُ الْأَصْحَابِ ـ رَحِمَهُمُ اللَّهُ ـ فِي الْأُصُولِ: إِنَّ الْمُتَشَابِهَ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَيُرْوَى هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ قَدْ تَكَلَّمَ فِي مَعْنَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ، فَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا مَعْرُوفًا، فَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، وَهِيَ الْمُتَشَابِهُ، كَانَ مَا سِوَاهَا مَعْلُومَ الْمَعْنَى، وَهَذَا الْمَطْلُوبُ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، وَهَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَتْ آيَاتٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعَادِّينَ.

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ: هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الْاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الْاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلَالَةٍ تُوجِبُ ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي يَتَنَازَعُ النَّاسُ فِيهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ وَالطَّلَبِيَّةِ. فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ مِنْهُ: الَّذِي يُوَافِقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ. وَذُكِرَ فِي «التَّبْصِرَةِ» أَنَّ نُصَيْرَ بْنَ يَحْيَى الْبَلْخِيَّ رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ حَمَّادِ بْنِ أَبِي يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ ـ رَحِمَهُمُ اللَّهُ ـ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي فِيهَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُؤَدِّي ظَاهِرُهُ إِلَى التَّشْبِيهِ؟ فَقَالَ: نُمِرُّهَا كَمَا جَاءَتْ، وَنُؤْمِنُ بِهَا، وَلَا نَقُولُ: كَيْفَ وَكَيْفَ.

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْمَعْنَى الْفَاسِدَ الْكُفْرِيَّ لَيْسَ هُوَ ظَاهِرَ النَّصِّ وَلَا مُقْتَضَاهُ، وَأَنَّ مَنْ فَهِمَ ذَلِكَ مِنْهُ فَهُوَ لِقُصُورِ فَهْمِهِ وَنَقْصِ عِلْمِهِ، وَإِذَا كَانَ

قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ[١]:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وَقِيلَ[٢]:

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ أَمَاكِنِهَا ... وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ

فَكَيْفَ يُقَالُ فِي قَوْلِ اللَّهِ ـ الَّذِي هُوَ أَصْدَقُ الْكَلَامِ، وَأَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] ـ: إِنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ إِنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ هُوَ الْكُفْرُ وَالضَّلَالُ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ لِمَا يَصْلُحُ مِنَ الِاعْتِقَادِ، وَلَا فِيهِ بَيَانُ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ؟! هَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ الْمُتَأَوِّلِينَ.

وَالْحَقُّ أَنَّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا كَانَ بَاطِلًا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ. وَالْمُنَازِعُونَ يَدَّعُونَ دَلَالَتَهُ عَلَى الْبَاطِلِ الَّذِي يَتَعَيَّنُ صَرْفُهُ!

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذَا الْبَابُ الَّذِي فَتَحْتُمُوهُ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَنْتَصِرُونَ بِهِ عَلَى إِخْوَانِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعَ قَلِيلَةٍ حَقِيقَةً، فَقَدْ فَتَحْتُمْ عَلَيْكُمْ بَابًا لِأَنْوَاعِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى سَدِّهِ، فَإِنَّكُمْ إِذَا سَوَّغْتُمْ صَرْفَ الْقُرْآنِ عَنْ دَلَالَتِهِ الْمَفْهُومَةِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ، فَمَا الضَّابِطُ فِيمَا يَسُوغُ تَأْوِيلُهُ وَمَا لَا يَسُوغُ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا دَلَّ الْقَاطِعُ الْعَقْلِيُّ عَلَى اسْتِحَالَتِهِ تَأَوَّلْنَاهُ، وَإِلَّا أَقْرَرْنَاهُ!

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقي (٤/ ٢٤٦).

(٢) البيت للبحتري، انظر: معجم الأدباء (٥/ ٥٧٣).

قِيلَ لَكُمْ: وَبِأَيِّ عَقْلٍ نَزِنُ الْقَاطِعَ الْعَقْلِيَّ؟ فَإِنَّ الْقِرْمِطِيَّ الْبَاطِنِيَّ يَزْعُمُ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى بُطْلَانِ ظَوَاهِرِ الشَّرْعِ! وَيَزْعُمُ الْفَيْلَسُوفُ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى بُطْلَانِ حَشْرِ الْأَجْسَادِ! وَيَزْعُمُ الْمُعْتَزِلِيُّ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى امْتِنَاعِ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى امْتِنَاعِ قِيَامِ عِلْمٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ رَحْمَةٍ بِهِ تَعَالَى!! وَبَابُ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي يَدَّعِي أَصْحَابُهَا وُجُوبَهَا بِالْمَعْقُولَاتِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَنْحَصِرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

وَيَلْزَمُ حِينَئِذٍ مَحْذُورَانِ عَظِيمَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ لَا نُقِرَّ بِشَيْءٍ مِنْ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَتَّى نَبْحَثَ قَبْلَ ذَلِكَ بُحُوثًا طَوِيلَةً عَرِيضَةً فِي إِمْكَانِ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ! وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْكِتَابِ يَدَّعُونَ أَنَّ الْعَقْلَ يَدُلُّ عَلَى مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، فَيَؤُولُ الْأَمْرُ إِلَى الْحَيْرَةِ.

الْمَحْذُورُ الثَّانِي: أَنَّ الْقُلُوبَ تَتَخَلَّى عَنِ الْجَزْمِ بِشَيْءٍ تَعْتَقِدُهُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ؛ إِذْ لَا يُوثَقُ بِأَنَّ الظَّاهِرَ هُوَ الْمُرَادُ، وَالتَّأْوِيلَاتُ مُضْطَرِبَةٌ، فَيَلْزَمُ عَزْلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنِ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَا أَنْبَأَ اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ، وَخَاصَّةُ النَّبِيِّ هِيَ الْإِنْبَاءُ، وَالْقُرْآنُ هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ أَهْلَ التَّأْوِيلِ إِنَّمَا يَذْكُرُونَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِلِاعْتِضَادِ لَا لِلِاعْتِمَادِ، إِنْ وَافَقَتْ مَا ادَّعَوْا أَنَّ الْعَقْلَ دَلَّ عَلَيْهِ قَبِلُوهُ، وَإِنْ خَالَفَتْهُ أَوَّلُوهُ! وَهَذَا فَتْحُ بَابِ الزَّنْدَقَةِ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

---

قال الشيخ:

تقدم أنَّ الله ذكر في القرآن آيات محكمات هنَّ أم الكتاب، وأخر متشابهات، والمعلوم أنَّ المفسِّرين قد تكلَّموا على آيات القرآن كلها، ولم يسكتوا

عن آية أو آيات، ويقولوا: هذه من المتشابه، إلَّا أنَّ بعضهم لا يتكلَّمون على الحروف المقطَّعة الَّتي في أوائل السُّور، وكثير منهم تكلَّموا عليها، وقالوا: يُراد بها كذا وكذا، وإن اختلفت الآراء فيها.

وما دام أن القرآن قد فُسِّر كلُّه، فهذه الآيات المتشابهات يظهر أنَّها الكيفيَّة للأمور الغيبيَّة، يعني الأشياء الَّتي يخبر فيها عن أمور غيبيَّة، ولكنَّنا لا نعلم كيفيَّتها، فإذا أخبر الله أنَّ في الجَنَّة أنهار تجري، فإنَّا لا ندري ما كيفيَّة هذه الأنهار، نعلم أن فيها أنهارًا من ماء غير آسٍ، وأنهارًا من لبن لم يتغيَّر طعمه .. إلى آخره، هذا من علم الغيب الَّذي نقول: الله أعلم بكيفيَّته، وهكذا أيضًا الأشجار الَّتي في الجنَّة، وكذلك الأشجار الَّتي في النار، ذكر الله أنَّ في النَّار شجرة الزَّقُّوم؛ فلا ندري ما كيفيَّة تلك الشَّجرة، وكيف لا تحترق في النَّار؟ فنقول في ذلك كله: الله أعلم بماهيته وكيفيته، فهو من المتشابه، وهو من الكيفيَّات الغيبيَّة الَّتي يتوقَّف عنها ويقال: الله أعلم بكيفيَّتها.

ويُقال ذلك ـ أيضًا ـ في كيفيَّات صفات الله: أنَّا نفوِّضها، ولا ندري ما كيفيَّتها، إلَّا أنا نتحقَّق معانيها، ونتحقَّق أنَّ الله متكلِّمٌ بكلام يُسمعُ، ونتحقَّق أنَّ الله يعلم الخفيَّ والجليَّ، ويسمع القريب والبعيد، وهكذا، ولكن كيفيَّة تلك الصِّفات نفوِّضها ونقول: الله أعلم بالكيفيَّة. وهذا أقرب الأقوال، في الآيات المتشابهات أنَّها كيفيَّات الأمور الغيبيَّة.

أمَّا التَّأويل الَّذي ذكروه، وهو صرف اللَّفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بدليل يقترن به أو لقرينة تؤيِّد المرجوح وترجِّحه، فهذا

ذكرنا أنَّه اصطلاح للمتأخِّرين، وهو اصطلاحٌ جديد لم يكن عند السَّلف، ولا يعرفون هذا، وهو في الحقيقة تحريف وتكلُّف، وصرف للَّفظ عن ظاهره، وفي الحقيقة أنَّا إذا جمعنا الأدلَّة عرفنا أنَّه يصعب صرفها لاسيَّما وقد اجتمعت الدَّلالة من كلِّ من مفرداتها.

بعد ذلك قد يقولون: إنَّ ظاهر هذه النُّصوص يوهم التَّشبيه، ويوهم أنَّ الله مثل خلقه، وأنَّا إذا أثبتنا الرُّؤية وأثبتنا الكلام وما أشبه ذلك، أثبتنا أنَّه مثل الخلق، والله ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفوًا أحد.

فيقولون: إنَّ هذه الأدلَّة يُفهم منها التَّشبيه. هكذا قالوا، ونحن نقول: لا يُفهم ذلك، حاشا وكلَّا أن تكون نصوص صفات الله دالَّة على شيء باطل، أو تكون نصوص الحديث دالَّة على ما هو كفر، بل كلام الله أفصح الكلام، وكلام نبيِّه ﷺ أوضحه، وهو ﷺ أنصح الخلق لأمَّته، وإذا اجتمعت هذه الأمور: فصاحته ونصحه والبيان الَّذي أُعطيه، واجتمع إلى ذلك أنَّ كلام الله واضح الدَّلالة، فلا يجوز أن يقال: إنَّ ظاهره غير مراد، أو إنَّ ظاهره يقتضي كفرًا، أو نحو ذلك.

كثيرًا ما يقول المتكلِّمون: ظاهر النُّصوص غيرُ مرادٍ. نقول: ما مرادكم بظاهرها؟ هل تريدون مثلًا أنَّ ظاهرها ما يليق بالمخلوق، أنَّا إذا قلنا ـ مثلًا ـ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، أنَّ الله له عينان كعينيِّ المخلوق، أو له يدان كأيدي المخلوق، فهذا ليس بمراد، ولكن أخطأتم في قولكم: إنه ظاهره،

فلا يمكن أن يفهم من نصوص الصِّفات ما هو ضلال، بل معروف أنَّ صفات الله تعالى تليق به، وإذا كنتم تقولون: إنَّ لله ذاتًا لا تشبه غيره، فكذلك له صفات لا تشبه غيره، فإنَّ القول في الصِّفات كالقول في الذَّات يحتذي حذوه ومثاله.

وإذا كان الكلام واضحًا وفصيحًا، فلا عبرة بمن خفي عليه وبمن لم يظهر له، وهذا الشاعر البحتري يقول:

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ أَمَاكِنِهَا وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ

يقول هذا الشاعر: أنا عليَّ أن آتي بالكلام الفصيح، وأختار الكلام البليغ، ولكن إذا لم يفهموا، فلست بملوم.

فيُقال: كذلك كلام الله واضح، وإذا لم تفهموا كان النَّقص في أذهانكم أنتم، ليس النَّقص في كلام الله، فكلام الله واضح وكلام رسوله ﷺ واضح وفصيح، ولكن ما أتيتم إلَّا من سوء أفهامكم ومن سوء تفكيركم، وإلَّا فلو أعطيتم الكلام حقَّه لقلتم بأنَّه لا يدلُّ على محذور.

وعلى كلِّ حال، معلوم أنَّهم ما خاضوا في ذلك إلَّا لَـمَّا ارتسم في أذهانهم وأفكارهم أنَّ صفات الله كصفات المخلوق، وأنَّ النُّصوص دالَّة على ما هو تشبيه، فعند ذلك أكثروا من البحث والتنقيب حتى وقعوا فيما وقعوا فيه مما هو تحريف.

قال الشارح:

قَوْلُهُ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، النَّفْيُ وَالتَّشْبِيهُ مَرَضَانِ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، فَإِنَّ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ نَوْعَانِ: مَرَضُ شُبْهَةٍ، وَمَرَضُ شَهْوَةٍ، وَكِلَاهُمَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، فَهَذَا مَرَضُ الشَّهْوَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة:١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥]. فَهَذَا مَرَضُ الشُّبْهَةِ، وَهُوَ أَرْدَأُ مِنْ مَرَضِ الشَّهْوَةِ؛ إِذْ مَرَضُ الشَّهْوَةِ يُرْجَى لَهُ الشِّفَاءُ بِقَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وَمَرَضُ الشُّبْهَةِ لَا شِفَاءَ لَهُ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ.

وَالشُّبْهَةُ الَّتِي فِي مَسْأَلَةِ الصِّفَاتِ نَفْيُهَا وَتَشْبِيهُهَا، وَشُبْهَةُ النَّفْيِ أَرْدَأُ مِنْ شُبْهَةِ التَّشْبِيهِ، فَإِنَّ شُبْهَةَ النَّفْيِ رَدٌّ وَتَكْذِيبٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَشُبْهَةَ التَّشْبِيهِ غُلُوٌّ وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَدِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَتَشْبِيهُ اللَّهِ بِخَلْقِهِ كُفْرٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وَنَفْيُ الصِّفَاتِ كُفْرٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وَهَذَا أَحَدُ نَوْعَيِ التَّشْبِيهِ، فَإِنَّ التَّشْبِيهَ نَوْعَانِ: تَشْبِيهُ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ، وَهَذَا الَّذِي يَتْعَبُ أَهْلُ الْكَلَامِ فِي رَدِّهِ وَإِبْطَالِهِ، وَأَهْلُهُ فِي النَّاسِ أَقَلُّ مِنَ النَّوْعِ الثَّانِي، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ تَشْبِيهِ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ، كَعُبَّادِ الْمَشَايِخِ، وَعُزَيْرٍ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْأَصْنَامِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّارِ، وَالْمَاءِ، وَالْعِجْلِ، وَالْقُبُورِ، وَالْجِنِّ، وَغَيْرِ

ذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ يَدْعُونَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

---

قال الشيخ:

قول الماتن: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، يريد بالنَّفي: إنكار الصفات، أو المبالغة في نفيها، ويريد بالتشبيه إثبات أنَّ صفات الله كصفاتنا، فيكون بذلك مشبهًا، ومذهب الأئمَّة وأهل السُّنَّة وسط بين المذهبين؛ فإنهم يقولون: إنَّ من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس في إثبات صفات الله تشبيه. ويقول بعضهم: المشبِّه يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموحِّد - يعني المثبت - يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا. وأخذ ذلك ابن القيِّم في «نونيَّته» بقوله[1]:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

فالَّذين شبَّهوا يقال فيهم: قد غلوا في الإثبات، فقالوا: لله يد كأيدينا، ولله وجه كوجوهنا، وما أشبه ذلك؛ فوقعوا في تشبيه الخالق بخلقه - تعالى الله - وهذا فيه أنَّهم عبدوا الأوثان والأصنام.

أمَّا الَّذين نفوا الصفات، فهم في الحقيقة لم يُثبتوا خالقًا، ومن قال: الله

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢١٢).

تعالى لا يعلم ولا يتكلم، ولا يسمع، ولا يرى، وليس له يد، وليس له وجه، آل الأمر إلى أن صاروا يعبدون عدمًا، ولا يثبتون خالقًا.

ثمَّ قد عرفنا أنَّهم لَمَّا جاءتهم هذه النُّصوص، صارت مخالفة لِما في أفكارهم، فسلَّطوا عليها التَّأويلات، وفتحوا باب التَّأويل للفلاسفة الذين أنكروا حقيقة المعاد، وفتحوا باب التَّأويل للَّذين أنكروا الأحكام والأوامر والنَّواهي؛ كغلاة الصُّوفيَّة والباطنيَّة ونحوهم، فأصبحوا في الحقيقة هم الَّذين جلبوا الشَّرَّ، وفتحوا بابه على الإسلام والمسلمين.

فالَّذي يريد السلامة هو الَّذي يتوقَّى هذه الأمراض: مرض التَّشبيه، ومرض التَّعطيل، ومرض النَّفي، ومرض الإثبات الزَّائد، الَّذي هو غلوٌّ في الإثبات، جعلهم الشارح كالمرضى. والمعروف أنَّ المرض هو الَّذي يُنهك الجسم، حتَّى يلزم صاحبه الفراش، ولكن هذا مرض الأبدان؛ لأنَّ المرض نوعان: مرض قلب، ومرض بدن، فمرض البدن له أدوية عند الأطبَّاء، وفي الحديث: «ما أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إلا أَنْزَلَ له شِفَاءً»[1]، ولكن المرض الشَّديد هو مرض القلب.

ومرض القلب أيضًا نوعان: مرض الشُّبهة ومرض الشَّهوة، مرض الشَّهوة هو الشَّهوة إلى الزِّنى أو إلى المعاصي ونحوها؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، نهى الله المرأة

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أن ترقِّق كلامها، فإنَّه إذا سمعها الفاسقُ طمع في الاتصال بها، فهذا مرض شهوة الزنى ونحوه.

أمَّا مرض الشُّبه فهو أشد؛ لأن مرض الشَّهوة قد يزول بالعفَّة أو بالنِّكاح الحلال، أما مرض الشُّبهة فإنَّه الَّذي يتمكَّن في القلب. فهذان المرضان من أشدِّ الأمراض.

ومن أمراض الشُّبهة مرض التَّشبيه ومرض التَّعطيل، وذكر أنَّ مرض التَّعطيل أشدُّ؛ وذلك لأنَّ المشبِّه غالٍ في الإثبات، غلا به الإثبات إلى أن وقع في أنَّ الله كخلقه ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولكنَّ الَّذي يقول ذلك فئة قليلة بالنِّسبة إلى المعطلة.

وبكلِّ حال نحن نبرأ إلى الله، ونحذر من كلا المرضين، فمرض التعطيل أشدُّ؛ لأنَّ أهله أكثر، ولأنَّ الدِّعايات إليه أكثر، وقد تكرر كثيرًا في كلام العلماء النَّهي عن التعطِّيل وعن التَّشبيه، فيقولون في آيات الصِّفات وأحاديثها: أمروها كما جاءت بلا كيف، ويقولون: نقبلها من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تكييف ولا تعطيل، فينفون عنها هذه الأشياء، وكذلك ينفون عنها الإلحاد الَّذي هو الميل بها عمَّا قُصِد بها، فإنَّ الله تعالى ذمَّهم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، يعني: بالأسماء الحسنى، ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: اتركوهم وابتعدوا عنهم، والإلحاد في أسمائه إنكار حقائقها، أو إنكار دلالاتها، وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠]، فعلينا أن نتجنب هذه الأشياء، ومن أهمِّها: الإلحاد في أسماء الله، والإلحاد في آياته، فإذا قرأنا القرآن وسمعنا الأحاديث؛ وقلنا: نمرُّها كما جاءت، وننزِّه ربَّنا عمَّا لا يليق به، سلمنا من هذه الأمراض كلها إن شاء الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

فَإِنَّ رَبَّنَا ـ جَلَّ وَعَلَا ـ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ.

---

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ إِلَى تَنْزِيهِ الرَّبِّ تَعَالَى بِالَّذِي هُوَ وَصْفُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا. وَكَلَامُ الشَّيْخِ مَأْخُوذٌ مِنْ مَعْنَى سُورَةِ الْإِخْلَاصِ، فَقَوْلُهُ: (مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ)، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَقَوْلُهُ: (مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ)، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، وَقَوْلُهُ: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ)، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وَهُوَ أَيْضًا مُؤَكِّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ، وَالْوَصْفُ وَالنَّعْتُ مُتَرَادِفَانِ، وَقِيلَ: مُتَقَارِبَانِ. فَالْوَصْفُ لِلذَّاتِ، وَالنَّعْتُ لِلْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ الْوَحْدَانِيَّةُ وَالْفَرْدَانِيَّةُ. وَقِيلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا: إِنَّ الْوَحْدَانِيَّةَ لِلذَّاتِ، وَالْفَرْدَانِيَّةَ لِلصِّفَاتِ، فَهُوَ تَعَالَى مُتَوَحِّدٌ فِي ذَاتِهِ، مُتَفَرِّدٌ بِصِفَاتِهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى حَقٌّ وَلَمْ يُنَازِعْ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَكِنْ فِي اللَّفْظِ نَوْعُ تَكْرِيرٍ.

وَلِلشَّيْخِ ـ رحمه الله ـ نَظِيرُ هَذَا التَّكْرِيرِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْعَقِيدَةِ، وَهُوَ بِالْخُطَبِ وَالْأَدْعِيَةِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْعَقَائِدِ، وَالتَّسْجِيعُ بِالْخُطَبِ أَلْيَقُ.

وَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، أَكْمَلُ فِي التَّنْزِيهِ مِنْ قَوْلِهِ: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ).

---

قال الشيخ:

قصد الطَّحاوي ـ رحمه الله ـ بذلك الزِّيادة في التَّوضيح والإثبات، فإنّ قوله: (فَإِنَّ رَبَّنَا ـ جَلَّ وَعَلَا ـ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ)، يؤكِّد بذلك ما تقدم من إثبات الصِّفات ونفي التَّشبيه.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الواحد الأحد، موصوف بأنَّه هو الواحد، قد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، وفي قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣]، فالوحدانية لا شكَّ أنَّها خاصَّة به، فهو الواحد في صفاته، والواحد في ذاته، ومعناه أنَّه لا يصلح أن يكون معه خالق غيره، ولا معبود سواه، كذلك هذا دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإنَّ الأحد يراد به المتوحِّد في جميع الخصائص، وكذلك قوله: (مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ)، دلَّ عليه كونه لم يلد ولم يولد، فإنَّ الله تعالى نزَّه نفسه عن الولد في عدَّة آيات، ردًّا على من جعل له ولدًا؛ كالنصارى الَّذين قالوا: المسيح ابن الله، واليهود في قولهم: عزير ابن الله، وكفَّار العرب في جعلهم الملائكة بنات الله، ردَّ الله عليهم ذلك وأنكر عليهم في قوله تعالى:

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ [الصافات:١٥٣]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

فالواجب على المسلم أن ينزِّه ربَّه عن صفات المحدثات، وعن صفات الخلق الَّتي تختصُّ بهم، وأن يثبت لله سبحانه صفات الكمال التي يُعرف منها أنَّه هو الواحد الأحد، المنزَّه عن النَّقص وعن العيب، وأنَّ صفاته تختصُّ بذاته، وأنَّه منزَّه عمَّا لا يليق به، فإذا عرف ذلك عرف أنَّه يتمِّم بذلك توحيده إن شاء الله، وإن صلحت عقيدته فيكون صلاحها بهذين الأمرين: إثبات الصِّفات على ما يليق بالله، وتنزيهه ـ جل وعلا ـ عن مشابهة المخلوقين، سواء في الذَّات، أو في الصفات، أو في الأفعال، ففي ذلك يردُّ على الطوائف المنحرفة الَّذين غلوا في الإثبات والَّذين زادوا في النَّفي.

فمن لم يتوقَّ النَّفي والتَّشبيه زلَّ ولم يصل للتَّنزيه، وهو سبحانه موصوف بصفات الكمال منزُّه عن صفات النَّقص، وليس بمعنى واحد من البريَّة، أي: لا يشبه أحدًا من مخلوقاته، وهذه خلاصة العقيدة، من أقرَّ بها عصمه الله تعالى من الأخطاء.

قال الطحاوي:

وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ.

---

قال الشارح:

أَذْكُرُ بَيْنَ يَدَيِ الْكَلَامِ عَلَى عِبَارَةِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مُقَدِّمَةً، وَهِيَ: أَنَّ النَّاسَ فِي إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

فَطَائِفَةٌ تَنْفِيهَا، وَطَائِفَةٌ تُثْبِتُهَا، وَطَائِفَةٌ تُفَصِّلُ، وَهُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِلسَّلَفِ، فَلَا يُطْلِقُونَ نَفْيَهَا وَلَا إِثْبَاتَهَا إِلَّا إِذَا بُيِّنَ مَا أُثْبِتَ بِهَا فَهُوَ ثَابِتٌ، وَمَا نُفِيَ بِهَا فَهُوَ مَنْفِيٌّ؛ لِأَنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ قَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ فِيهَا إِجْمَالٌ وَإِبْهَامٌ، كَغَيْرِهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الِاصْطِلَاحِيَّةِ، فَلَيْسَ كُلُّهُمْ يَسْتَعْمِلُهَا فِي نَفْسِ مَعْنَاهَا اللُّغَوِيِّ. وَلِهَذَا كَانَ النُّفَاةُ يَنْفُونَ بِهَا حَقًّا وَبَاطِلًا، وَيَذْكُرُونَ عَنْ مُثْبِتِيهَا مَا لَا يَقُولُونَ بِهِ، وَبَعْضُ الْمُثْبِتِينَ لَهَا يُدْخِلُ فِيهَا مَعْنًى بَاطِلًا، مُخَالِفًا لِقَوْلِ السَّلَفِ، وَلِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالْمِيزَانُ، وَلَمْ يَرِدْ نَصٌّ مِنَ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ بِنَفْيِهَا وَلَا إِثْبَاتِهَا، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَصِفَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا، وَإِنَّمَا نَحْنُ مُتَّبِعُونَ لَا مُبْتَدِعُونَ.

فَالْوَاجِبُ أَنْ يُنْظَرَ فِي هَذَا الْبَابِ ـ أَعْنِي بَابَ الصِّفَاتِ ـ فَمَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَثْبَتْنَاهُ، وَمَا نَفَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ نَفَيْنَاهُ، وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي وَرَدَ بِهَا النَّصُّ يُعْتَصَمُ بِهَا فِي الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ، فَنُثْبِتُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي.

وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ الَّتِي لَمْ يَرِدْ نَفْيُهَا وَلَا إِثْبَاتُهَا فَلَا تُطْلَقُ حَتَّى يُنْظَرَ فِي مَقْصُودِ قَائِلِهَا، فَإِنْ كَانَ مَعْنًى صَحِيحًا قُبِلَ، لَكِنْ يَنْبَغِي التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِأَلْفَاظِ النُّصُوصِ، دُونَ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ، إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ، مَعَ قَرَائِنَ تُبَيِّنُ الْمُرَادَ وَالْحَاجَةَ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ مَعَ مَنْ لَا يَتِمُّ الْمَقْصُودُ مَعَهُ إِنْ لَمْ يُخَاطَبْ بِهَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَرَادَ الرَّدَّ بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ، كَدَاوُدَ الْجَوَارِبِيِّ وَأَمْثَالِهِ، الْقَائِلِينَ: إِنَّ اللَّهَ جِسْمٌ، وَإِنَّهُ جُثَّةٌ وَأَعْضَاءٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنَ النَّفْيِ الَّذِي ذَكَرَهُ هُنَا حَقٌّ، لَكِنْ حَدَثَ بَعْدَهُ مَنْ أَدْخَلَ فِي عُمُومِ نَفْيِهِ حَقًّا وَبَاطِلًا، فَيَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِ ذَلِكَ، وَهُوَ: أَنَّ السَّلَفَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ لِلَّهِ حَدًّا، وَأَنَّهُمْ لَا يَحُدُّونَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ.

---

قال الشيخ:

الطَّريقة في هذا ما سبق في باب الأسماء والصِّفات المرجع إلى النَّقل لا إلى العقل، والنَّقل هو الكتاب وصحيح السُّنَّة النبوية؛ لأنهما نقلا لنا بطريق ثابتة، ليس فيها تشكيك، وليس في ثبوتها توقُّف، فنقتصر على النَّقل؛ وذلك لأنَّ العقول لا تستطيع أن تتدخَّل في هذا الأمر، ولا أن تعرف حقائقه، ولا أن تفكر تفكيرًا تتدخَّل فيه.

فإذا قال المتكلِّمون: إنَّ هذا الوصف لا يقرُّه العقل أو لا يثبته. فالجواب:

أن نقول: ما للعقول ولأمر الغيب؟! هذا من أمر الغيب، والعقول محجوزة عن هذا الأمر.

نقول بعد ذلك: إنَّ الطحاوي ـ الَّذي هو صاحب المتن ـ عاش في أواخر عهد السَّلف، وفي عهده وجد كثيرٌ من المبتدعة تمكنوا، فكان هناك المشبِّهة الذين بالغوا في الإثبات حتَّى شبَّهوا الخالق بالمخلوقين، ومنهم داود الجواربي، وطائفة أخرى من المبتدعة، هم المعطِّلة، ومنهم أكابر المعتزلة؛ كأبي الهذيل العلاَّف، وأبي عليٍّ الجبَّائيِّ، وكذلك الجاحظ، وسائر المعتزلة، بالغوا في النَّفي، فعطَّلوا الله تعالى عن صفات الكمال، واشتهرت أقوال هؤلاء وأقوال هؤلاء، إلَّا أنَّ المعطِّلة أكثر من المشبِّهة؛ لأنَّ النُّفوس تنفر من إثبات التَّشبيه.

فلمَّا كان كذلك، ألف الطَّحاوي هذه الرِّسالة، وقصد بذلك الرَّدَّ على هؤلاء وهؤلاء، فأثبت فيها الصِّفات كما تليق بالله تعالى، وردَّ فيها على المشبِّهة الَّذين بالغوا في الإثبات، وتكلَّم بهذه الكلمات، وإن كان الأفضل تركها، يعني: الحدود، والغايات، والأركان، والأعضاء، والأدوات، والجهات السِّت الأولى تركها؛ لأنَّ المتكلِّمين الَّذين هم النُّفاة، صاروا ينفون بها حقًّا وباطلًا، فلمَّا أدخلوا في نفيها حقًّا كان الأولى أن ينقل الباطل بعبارة سليمة ليس فيها شيء من الشُّبهة.

كذلك ذكر أنَّ للنَّاس في استعمالها ثلاثة أقوال:

١ ـ قول لا يجيز إثباتها.

٢ ـ وقول لا يجيز نفيها.

٣ ـ وقول بالتَّفصيل في المسألة.

ويمكن أن يكون هناك قول رابع، وهو التَّوقف فيها من غير نفي ولا إثبات.

فيُقال: هذه من الأمور المبتدعة، فنحن لا نثبتها إطلاقًا ولا ننفيها، ولكنَّ التَّفصيل أولى، وهو أن يُقال: ماذا تريدون بالحدود؟ وماذا تريدون بالأعضاء والأدوات؟ وماذا تريدونَ بالجهات؟ في كلامكم هذا حقٌّ وباطل، الحقُّ الَّذي أنتم تنفونه عبَّروا عنه بعبارة سليمة، والباطل الَّذي أنتم تنفونه أيضًا عبروا عنه بعبارة سليمة، حتَّى نوافقكم على نفي الباطل، ونخالفكم في نفي الحقِّ، ونتحقَّق أنَّ الصَّواب مع من أثبت، لا مع من نفى أو نحو ذلك.

نقول: إن الذين أطلقوا كلمة الحدّ على الله ـ عز وجل ـ لهم عذرٌ في ذلك، لكن الأولى عدم إطلاقها؛ لأنَّ الحدَّ له تفسيرات كما سيأتي، وكذلك النهايات والأركان والأعضاء والأدوات، فالأولى التَّوقُّف عن ذلك، ونقتصر على ما أثبته الله، فنقول: إنَّ الله تعالى بذاته فوق سمٰواته على عرشه عليٌّ على خلقه، وأنَّه سبحانه قريب من عباده يطَّلع عليهم، ولا تخفى عليه منهم خافية، وأنَّه موصوفٌ بصفات الكمال منزَّه عن النَّقائص والعيوب.

فإذا أثبتنا ذلك، لا يحتجّ علينا أهل البدع بحجَّة، ولن يجدوا علينا قولًا يصفوننا فيه بأننا ممثِّلة أو نحو ذلك.

قال الشارح:

قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: «كَانَ سُفْيَانُ، وَشُعْبَةُ، وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، وَشَرِيكٌ، وَأَبُو عَوَانَةَ، لَا يَحُدُّونَ وَلَا يُشَبِّهُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ، يَرْوُونَ الْحَدِيثَ وَلَا يَقُولُونَ: كَيْفَ؟ وَإِذَا سُئِلُوا قَالُوا بِالْأَثَرِ»[1]. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ: (وَقَدْ أَعْجَزَ خَلْقَهُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ). فَعُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ اللَّهَ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِحَدِّهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عَنْ خَلْقِهِ مُنْفَصِلٌ عَنْهُمْ مُبَايِنٌ لَهُمْ.

سُئِلَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: بِمَ نَعْرِفُ رَبَّنَا؟ قَالَ: «بِأَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، قِيلَ: بِحَدٍّ؟ قَالَ: بِحَدٍّ»[2]. انْتَهَى.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَدَّ يُقَالُ عَلَى مَا يَنْفَصِلُ بِهِ الشَّيْءُ وَيَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَيْرُ حَالٍّ فِي خَلْقِهِ، وَلَا قَائِمٍ بِهِمْ، بَلْ هُوَ الْقَيُّومُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، الْمُقِيمُ لِمَا سِوَاهُ. فَالْحَدُّ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُنَازَعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَصْلًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ نَفْيِهِ إِلَّا نَفْيُ وُجُودِ الرَّبِّ وَنَفْيُ حَقِيقَتِهِ.

وَأَمَّا الْحَدُّ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَهُوَ أَنْ يَحُدَّهُ الْعِبَادُ، فَهَذَا مُنْتَفٍ بِلَا مُنَازَعَةٍ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ. قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ: سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ، سَمِعْتُ أَبَا مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الْعَنْبَرِيَّ، سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيَّ يَقُولُ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ

---

(١) أخرجه البيهقي (٣/ ٢)، وذكره ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه الدارمي في نقض الإمام أبي سعيد (١/ ٢٢٤).

فَقَالَ: ذَاتُ اللهِ مَوْصُوفَةٌ بِالْعِلْمِ، غَيْرُ مُدْرَكَةٍ بِالْإِحَاطَةِ، وَلَا مَرْئِيَّةٍ بِالْأَبْصَارِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، مِنْ غَيْرِ حَدٍّ وَلَا إِحَاطَةٍ وَلَا حُلُولٍ، وَتَرَاهُ الْعُيُونُ فِي الْعُقْبَى، ظَاهِرًا فِي مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقَدْ حَجَبَ الْخَلْقَ عَنْ مَعْرِفَةِ كُنْهِ ذَاتِهِ، وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ، فَالْقُلُوبُ تَعْرِفُهُ، وَالْعُيُونُ لَا تُدْرِكُهُ، يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُ بِالْأَبْصَارِ، مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا إِدْرَاكِ نِهَايَةٍ.

---

قال الشيخ:

عرفنا أنَّ الأولى ترك الخوض في ذكر الحدِّ، ولكنَّ السَّلف - رحمهم الله - قصدوا بالإثبات بيان أنَّ الرَّبَّ تعالى متميِّز عن خلقه، فإنَّه فوق سمٰواته على عرشه عليٌّ على خلقه.

وهذا معنى قولهم: بائن من خلقه، وقولهم: إنَّه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، يردُّون بذلك على الحلوليَّة الَّذين تقدَّم قولهم في أوَّل الكتاب، فيقصدون بذلك البيان الواضح بأنَّ الرَّبَّ سبحانه وتعالى بذاته فوق سمٰواته على عرشه وأنَّه بائن من خلقه.

ومعنى قولهم: بحدٍّ، أي: بينه وبين الخلق حدٌّ، وهو معنى البينونة، ويتوقّفون عند هذا.

قال الشارح:

وَأَمَّا لَفْظُ الْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، فَيَتَسَلَّطُ بِهَا النُّفَاةُ عَلَى نَفْيِ بَعْضِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ بِالْأَدِلَّةِ الْقَطْعِيَّةِ، كَالْيَدِ وَالْوَجْهِ.

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»: «لَهُ يَدٌ وَوَجْهٌ وَنَفْسٌ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْيَدِ وَالْوَجْهِ وَالنَّفْسِ، فَهُوَ لَهُ صِفَةٌ بِلَا كَيْفٍ، وَلَا يُقَالُ: إِنَّ يَدَهُ قُدْرَتُهُ وَنِعْمَتُهُ؛ لِأَنَّ فِيهِ إِبْطَالَ الصِّفَةِ»[1]. انْتَهَى.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ثَابِتٌ بِالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[المائدة:١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ «لَمَّا يَأْتِي النَّاسُ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»[2]، الْحَدِيثَ.

---

(١) انظر: الفقه الأكبر بشرح د. محمد خميس (ص٤٧).

(٢) قطعة من حديث أنس بن مالك ﷺ، أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

وَلَا يَصِحُّ تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْيَدِ الْقُدْرَةُ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ بِقُدْرَتِي مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَدِ، وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَقَالَ إِبْلِيسُ: وَأَنَا أَيْضًا خَلَقْتَنِي بِقُدْرَتِكَ، فَلَا فَضْلَ لَهُ عَلَيَّ بِذَلِكَ. فَإِبْلِيسُ - مَعَ كُفْرِهِ - كَانَ أَعْرَفَ بِرَبِّهِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ. وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١]؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى جَمَعَ الْأَيْدِي لَمَّا أَضَافَهَا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ، لِيَتَنَاسَبَ الْجَمْعَانِ، فَاللَّفْظَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمُلْكِ وَالْعَظَمَةِ، وَلَمْ يَقُلْ: (أَيْدِيَّ) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمُفْرَدِ، وَلَا (يَدَيْنَا) بِتَثْنِيَةِ الْيَدِ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ، فَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ نَظِيرَ قَوْلِهِ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: «حِجَابُهُ النُّورُ، وَلَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

وَلَكِنْ لَا يُقَالُ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ: إِنَّهَا أَعْضَاءٌ، أَوْ جَوَارِحُ، أَوْ أَدَوَاتٌ، أَوْ أَرْكَانٌ؛ لِأَنَّ الرُّكْنَ جُزْءُ الْمَاهِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَا يَتَجَزَّأُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْأَعْضَاءُ فِيهَا مَعْنَى التَّفْرِيقِ وَالتَّعْضِيَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]. وَالْجَوَارِحُ فِيهَا مَعْنَى الِاكْتِسَابِ وَالِانْتِفَاعِ، وَكَذَلِكَ الْأَدَوَاتُ هِيَ الْآلَاتُ الَّتِي يُنْتَفَعُ بِهَا فِي جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُنْتَفِيَةٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى،

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣١٣).

وَلِهَذَا لَمْ يَرِدْ ذِكْرُهَا فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. فَالْأَلْفَاظُ الشَّرْعِيَّةُ صَحِيحَةُ الْمَعَانِي، سَالِمَةٌ مِنَ الِاحْتِمَالَاتِ الْفَاسِدَةِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ لَا يُعْدَلَ عَنِ الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا؛ لِئَلَّا يَثْبُتَ مَعْنًى فَاسِدٌ، أَوْ يُنْفَى مَعْنًى صَحِيحٌ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ عُرْضَةٌ لِلْمُحِقِّ وَالْمُبْطِلِ.

---

قال الشيخ:

يعني من قوله تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، أن هذا النَّفي تسلَّط به النُّفاة على الصِّفات، فقالوا: نحن ننفي عن الله تعالى الأعضاء والأركان والأدوات، هذا قول السَّلف ومنهم الإمام الطحاوي صاحب المتن.

فتسلطوا بذلك على نفي الصفات الثَّابته بالأدلة؛ فنفوا صفة الوجه لله، ونفوا صفة النَّفس، ونفوا صفة اليد، وصفة العين أو الأعين التَّي أثبتها لنفسه، وغير ذلك من الصِّفات الواردة في القرآن والسُّنَّة؛ وقالوا: إنَّها أعضاء، وإنها إركان، وإنَّها أدوات.

والشارح ـ رحمه الله ـ بيَّن أنَّ السلف أثبتوا الصفات لله؛ لأن الله أثبتها في كتابه، فأثبت الله لنفسه صفة اليد في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦]، وكذلك قوله مخاطبًا لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، فأضاف الله تعالى لنفسه صفة اليدين، فدلَّ على أنَّها صفة ثابتة، لكنها لا تشبه صفة المخلوقين، ويقال: الله أعلم بكيفيَّتها.

كما استدلوا على إثبات صفة اليد بأنَّ الله تعالى، ذكرها مفرده بقوله: ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾، وذكرها مثنَّاة مضافة إلى ضمير المفرد، كما في قوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾، وفي قوله: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾، وذكرها بصيغة الجمع، ولكن مضافة إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس:٧١]، فهنا ذكرها بضمير الجمع ﴿ أَيْدِينَآ ﴾؛ لأن ضمير الجمع يؤتى به للتَّعظيم، فذكر الله تعالى نفسه بضمير الجمع للدِّلالة على التَّعظيم، كما يقول الملك: نحن أمرنا بكذا، ونحن فعلنا كذا، وهو واحد، يريد بذلك التَّعظيم، فالله تعالى يعظِّم نفسه بضمير الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر:١]، ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح:١]، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الزخرف:٣٢]، فيذكر نفسه بضمير الجمع للدِّلالة على التَّعظيم، فكذلك قوله: ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾، الضمير للجميع للدِّلالة على العظمة، وأنَّه المستحقُّ لأن يُعظَّم.

كذلك أثبت الله تعالى لنفسه وأثبت النَّبيُّ ﷺ لربِّه صفة اليد أو اليدين في قوله ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وقال: أَرَأَيْتُمْ ما

أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ »[1].

وفي قوله ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ على مَنَابِرَ من نُورٍ عن يَمِينِ الرحمن عز وجل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»[2].

وفي قوله ﷺ: «يَطْوِي اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ السَّمَاوَاتِ يوم الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بيده الْيُمْنَى، ثُمَّ يقول: أنا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يقول: أنا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ»[3].

فهذه أدلَّة على إثبات هذه الصِّفة، فيثبتها أهل السُّنَّة كما يليق بالله سبحانه وتعالى، وقد أورد ابن كثير ـ رحمه الله ـ أدلَّة كثيرة في إثبات صفة اليد عند تفسير قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

أمَّا صفة الوجه، فذكرت في الآيات كثيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل:٢٠]، وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥١٩) بنحوه، ومسلم (٢٧٨٨) واللفظ له، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

[القصص:٨٨]، ونحوها من الآيات، وكذلك في الحديث النَّبويِّ قال ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1]، وفي قوله: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2]، ونحو ذلك من الأدلَّة.

فهذه أدلَّة واضحة من الكتاب والسُّنَّة على إثبات هذه الصِّفة.

وكذلك صفة النَّفس، ذكرها الله في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقوله عن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]، وفي آيات كثيرة غير ذلك؛ فصفة النَّفس ذكرها الله تعالى وأثبتها وهو أعلم بنفسه، وكذلك رسوله ﷺ أعلم بمرسله، فيُقتصر على ما جاء في الكتاب والسُّنَّة.

ثمَّ اعتذر الشارح عن الطحاوي في استعماله لهذه الكلمات، وذكر أنَّه ما قصدها حقًّا، وأنَّ هذه الصِّفات لا تسمَّى أركانًا، ولا تسمَّى أدوات، ولا تسمَّى أعضاءً، واستدلَّ بأنَّ الأعضاء واحدها عضو، وهو الذي لا يمكن أن يتجزَّأ، والله منزَّه عن ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣١٣).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

وذكر قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١]، يعني: أقسامًا وأجزاءً.

وبكلِّ حال فكان الأولى أن لا تذكر هذه الأشياء؛ لأنَّ فيها حقٌّ وباطلٌ، فإنَّ النُّفاة ـ الَّذين هم الجهميَّة ونحوهم ـ نفوا بها جميع الصِّفات، وتسلَّطوا على ما ورد في النصوص فنفوه، وقالوا: إنَّه أعضاء، وإنَّه أركان، وإنَّه أدوات، فلمَّا تسلَّطوا بها احتاج أهل السُّنَّة إلى أن يبيِّنوا أنَّ الصِّفات لا تدخل في هذا النَّفي، وأنَّه لا يُقال: الصِّفات الَّتي أثبتناها لا يصدق عليها أنَّها أركان، ولا أنَّها أدوات، ولا أنَّها أعضاء، ونحو ذلك.

قال الشارح:

وَأَمَّا لَفْظُ الْجِهَةِ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَعْدُومٌ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ إِلَّا الخَالِقُ وَالمَخْلُوقُ، فَإِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ مَخْلُوقًا، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَحْصُرُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَإِنْ أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ، وَهُوَ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ. فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهُ فِي جِهَةٍ، بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَهُوَ صَحِيحٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ حَيْثُ انْتَهَتِ الْمَخْلُوقَاتُ فَهُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، عَالٍ عَلَيْهِ.

وَنُفَاةُ لَفْظِ الْجِهَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ نَفْيَ الْعُلُوِّ، يَذْكُرُونَ مِنْ أَدِلَّتِهِمْ: أَنَّ الْجِهَاتِ كُلَّهَا مَخْلُوقَةٌ، وَأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْجِهَاتِ، وَأَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ فِي جِهَةٍ يَلْزَمُهُ الْقَوْلُ بِقِدَمِ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْجِهَةِ ثُمَّ صَارَ فِيهَا. وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَنَحْوُهَا إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، سَوَاءٌ سُمِّيَ جِهَةً أَوْ لَمْ يُسَمَّ، وَهَذَا حَقٌّ. وَلَكِنَّ الْجِهَةَ لَيْسَتْ أَمْرًا وُجُودِيًّا، بَلْ أَمْرٌ اعْتِبَارِيٌّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِهَاتِ لَا نِهَايَةَ لَهَا، وَمَا لَا يُوجَدُ فِيهَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فَلَيْسَ بِمَوْجُودٍ.

---

قال الشيخ:

قصد الطحاوي صحيح، وهو أنَّ الرَّبَّ سبحانه وتعالى لا يحيط به شيء من خلقه؛ لأن الجهات مخلوقة، فلا تحيط به جهة بمعنى تحويه أو تحصره، وقد

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فإذا كانوا لا يحيطون به علمًا، فكذلك المخلوقات لا تحيط به، يعني: لا تحصره أو تحويه - تعالى الله - هذا هو قصده.

والجهات السِّتُّ معروفة، هي: الفوق، والتَّحت، واليمين، واليسار، والأمام، والخلف، معنى أنَّها لا تحيط به، أي: لا تحصره جهة فيها، بل هو أعظم من كل شيء.

ثمَّ لا ينافي ذلك أن يوصف الله تعالى بأنَّه بائن فوق عباده، في جهة العلوِّ أنَّه فوق عباده، ولكن لا يلزم من ذلك حصر ولا إحاطة ولا غير ذلك، وقد دلَّت الأدلَّة الشَّرعيَّة على وصف الرَّبِّ سبحانه وتعالى بصفة العلوِّ، وسيتكلم الشارح على ذلك بتوسُّع في هذا الكتاب، ويذكر الأدلَّة الدالَّة على أنَّ الله فوق مخلوقاته كما يشاء، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، وكذلك غيرها من الأدلَّة.

قال الشارح:

وَقَوْلُ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ)، هُوَ حَقٌّ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ. وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لِمَا يَأْتِي فِي كَلَامِهِ أَنَّهُ تَعَالَى (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ). فَإِذَا جُمِعَ بَيْنَ كَلَامِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ)، وَقَوْلُهُ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، عُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَحْوِيهِ شَيْءٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ، كَمَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْعَالِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

لَكِنْ بَقِيَ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ إِطْلَاقَ مِثْلِ هَذَا اللَّفْظِ ـ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِجْمَالِ وَالِاحْتِمَالِ ـ كَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى، وَإِلَّا تَسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَأَلْزَمَ بِالتَّنَاقُضِ فِي إِثْبَاتِ الْإِحَاطَةِ وَالْفَوْقِيَّةِ وَنَفْيِ جِهَةِ الْعُلُوِّ، وَإِنْ أُجِيبَ عَنْهُ بِمَا تَقَدَّمَ، مِنْ أَنَّهُ نَفَى أَنْ يَحْوِيَهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَالِاحْتِصَامُ بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْلَى.

الثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُ: (كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ)، يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مَا مِنْ مُبْتَدَعٍ إِلَّا وَهُوَ مُحَوٍّ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ. فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَنَّهُ مُحَوٍّ بِأَمْرٍ وُجُودِيٍّ، فَمَمْنُوعٌ، فَإِنَّ الْعَالَمَ لَيْسَ فِي عَالَمٍ آخَرَ، وَإِلَّا لَزِمَ التَّسَلْسُلُ، وَإِنْ أَرَادَ أَمْرًا عَدَمِيًّا، فَلَيْسَ كُلُّ مُبْتَدَعٍ فِي الْعَدَمِ، بَلْ مِنْهَا مَا هُوَ دَاخِلٌ فِي غَيْرِهِ، كَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي الْكُرْسِيِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُنْتَهَى الْمَخْلُوقَاتِ، كَالْعَرْشِ. فَسَطْحُ الْعَالَمِ لَيْسَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، قَطْعًا لِلتَّسَلْسُلِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

قال الشيخ:

في هذا لحظ الشارح على الماتن هاتين الملحوظتين:

الأولى: يقول: إنَّ الأَوْلَى عدم استعمال هذه الألفاظ؛ لِمَا فيها من الإبهام، ولِمَا فيها من العموم الَّذي تسلَّط به الأعداء أو المبتدعة على نفي ما هو حق، فإنَّهم تسلَّطوا بقولهم: لا تحويه الجهات السِّتُّ على نفي جهة العلوِّ، وبنفي الأعضاء والأركان والأدوات على نفي صفة الكمال، وجعلوا هذا دليلًا لهم، مع أنَّ هذا غير مراد الطحاوي رحمه الله، بل مراده حقٌّ؛ كما بيَّنه الشارح واعتذر عنه.

كذلك لحظ أنَّ قوله: كسائر المبتدعات يفهم منه أنَّ المبتدعات من المخلوقات تحويها جهة من الجهات، وهذا ليس بصحيح، يعني: ليس كل الموجودات محويَّة حوتها جهة من الجهات. ومثَّل بالعالم وما أشبهه.

وبكلِّ حال، فالاقتصار على السُّنَّة، والاقتصار على ما ورد في الأدلَّة الشَّرعيَّة الصريحة والسنة الصحيحة هو الدليل الواضح، وهو الَّذي ليس فيه توقُّف ولا شكٌّ، وفيه الكفاية والمقنع، وكذلك الاستدلال بعبارات السَّلف، فالسَّلف ـ رحمهم الله ـ يُعبِّرون بعبارات واضحة، ففيها الكفاية عن التَّعبير بعبارات موهمة استعملها المتأخِّرون، وأدخلوا فيها حقًّا وباطلًا.

قال الشارح:

وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ: بِأَنَّ (سَائِرَ) بِمَعْنَى الْبَقِيَّةِ، لَا بِمَعْنَى الجَمِيعِ، وَهَذَا أَصْلُ مَعْنَاهَا، وَمِنْهُ (السُّؤْرُ)، وَهُوَ مَا يُبْقِيهِ الشَّارِبُ فِي الْإِنَاءِ. فَيَكُونُ مُرَادُهُ غَالِبَ المَخْلُوقَاتِ، لَا جَمِيعَهَا، إِذِ السَّائِرُ عَلَى الْغَالِبِ أَدَلُّ مِنْهُ عَلَى الجَمِيعِ، فَيَكُونُ المَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَيْرُ مَحْوِيٍّ، كَمَا يَكُونُ أَكْثَرُ المَخْلُوقَاتِ مَحْوِيًّا، بَلْ هُوَ غَيْرُ مَحْوِيٍّ بِشَيْءٍ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَلَا يُظَنّ بِالشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أَنَّهُ مِمَّنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ بِنَفْيِ النَّقِيضَيْنِ، كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الشَّارِحِينَ، بَلْ مُرَادُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا، الْعَرْشِ أَوْ غَيْرِهِ.

وَفِي ثُبُوتِ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ نَظَرٌ، فَإِنَّ أَضْدَادَهُ قَدْ شَنَّعُوا عَلَيْهِ بِأَشْيَاءَ أَهْوَنَ مِنْهُ، فَلَوْ سَمِعُوا مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ لَشَاعَ عَنْهُمْ تَشْنِيعُهُمْ عَلَيْهِ بِهِ، وَقَدْ نَقَلَ أَبُو مُطِيعٍ الْبَلْخِيُّ عَنْهُ إِثْبَاتَ الْعُلُوِّ، كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ يَقْتَضِي نَفْيَهُ، وَلَمْ يَرِدْ بِمِثْلِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، فَلِذَلِكَ قُلْتُ: إِنَّ فِي ثُبُوتِهِ عَنِ الْإِمَامِ نَظَرًا، وَإِنَّ الْأَوْلَى التَّوَقُّفُ فِي إِطْلَاقِهِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ بِمِثْلِهِ خَطَرٌ، بِخِلَافِ الْكَلَامِ بِمَا وَرَدَ عَنِ الشَّارِعِ، كَالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْجُهَّالِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ـ كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ[1] ـ يَكُونُ الْعَرْشُ فَوْقَهُ، وَيَكُونُ مَحْصُورًا بَيْنَ طَبَقَتَيْنِ

(١) حديث النزول أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مِنَ الْعَالَمِ. فَقَوْلُهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ السَّلَفِ، مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو عُثْمَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّابُونِيُّ: سَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ أَبَا مَنْصُورِ بْنَ حماد ـ بَعْدَ رِوَايَتِهِ حَدِيثَ النُّزُولِ ـ يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ. انْتَهَى.

وَإِنَّمَا تَوَقَّفَ مَنْ تَوَقَّفَ فِي نَفْيِ ذَلِكَ، لِضَعْفِ عِلْمِهِ بِمَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ السَّلَفِ، وَلِذَلِكَ يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَرْشِ، بَلْ يَقُولُ: لَا مُبَايِنَ، وَلَا مُحَايِثَ، لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، فَيَصِفُونَهُ بِصِفَةِ الْعَدَمِ وَالْمُمْتَنِعِ، وَلَا يَصِفُونَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ بِحُلُولِهِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ، وَيَقُولُ: هُوَ وُجُودُ كُلِّ مَوْجُودٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَسَيَأْتِي لِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى زِيَادَةُ بَيَانٍ، عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

لَمَّا كان بعض المنتمين إلى مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ قد دخلهم شيءٌ من التَّغيُّر في العقيدة، نسبوا إليه أنَّه مِمَّن يقول: إنَّ الله تعالى لا داخل العالَم ولا خارجه، وهذا لا شكَّ أنَّه لم يقله أبو حنيفة رحمه الله، بل أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ قد أثبت الاستواء، وأثبت أنَّ الله تعالى فوق عرشه، وأنَّه يُدعى من أعلى، وأنَّ العباد إذا دعوه رفعوا إليه أيديهم متضرِّعين إليه، استدلَّ بذلك كلِّه

على أنَّ الله تعالى فوق عباده، ولم يقل هذه المقالة الشَّنيعة الَّتي يستعملها النُّفاة.

فعلى هذا لا يظنُّ أن أحدًا من أئمَّة الإسلام، لا أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ ولا غيره من الأئمَّة المتَّبعين، المقتدى بهم، أنَّهم يدخلون في هذه الأمور المبتدعة، والَّتي فيها تعطيل الله تعالى، ونفي صفات كماله؛ وذلك لأنَّ صفات الكمال ثابتة لله ـ سبحانه وتعالى ـ عقلًا ونقلًا، والصِّفات الَّتي أثبتها كلُّها صفات كمال، والَّتي نفاها؛ لأنَّها تشتمل على نقص، ونفى النَّقص كمال، هذه هي طريقة أهل السُّنَّة: أنَّهم ينفون عن الله الصِّفات الَّتي نفاها عن نفسه؛ لأنَّ في نفيها إثباتًا لأضدادها، وذلك كلُّه من صفات الكمال.

ولا شكَّ أنَّ المسلم إذا اعتقد في ربِّه أنَّه قريب مجيب، واعتقد أنَّه عليم حكيم، واعتقد أنَّه سميع بصير، استحضر ذلك في كلِّ حالاته، وعظم قدر ربِّه في قلبه، وأكثر من دعائه، وتعلَّق قلبه برجائه، وخافه حقَّ الخوف، واستعدَّ للقائه، وعظَّمه غاية التَّعظيم، وهذا هو السِّرُّ في تقرير أهل السُّنَّة هذه الصِّفات، حتَّى يعرف المسلمون صفات ربِّهم فيعبدونه حقَّ عبادته.

ومن صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّه القاهر فوق عباده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، فيؤمن العباد بهذا القهر الَّذي مقتضاه الغلبة والإحاطة، والقهر هو قوَّة الغلبة، يعني: أنَّه غالب متصرِّف في العباد، ليس لهم قدرة على التصرُّف بأنفسهم من دون اختيار الله وقضائه وتدبيره.

ومن صفاته سبحانه أنَّه العليُّ بجميع أنواع العلوِّ: علوُّ القدر، وعلوُّ القهر، وعلوُّ الذَّات، وكذلك فوقيَّة القدر، وفوقيَّة القهر، وفوقيَّة الذَّات، ولا شكَّ أنَّ هذه الصِّفات قد دلَّت عليها أدلَّة سمعيَّة: الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة، فإن مرجع المسلمين في استدلالهم على صفات ربِّهم إلى هذه النُّصوص الثَّابتة المنقولة عن نبيِّهم نقلًا ثابتًا متواترًا، وهذا الإثبات للفوقيَّة بجميع أنواعها يستلزم أن يكون الرَّبُّ ـ سبحانه وتعالى ـ بكلِّ شيء عليمًا، فإنَّه إذا كان قاهرًا لعباده، وقادرًا عليهم، وعالمًا بهم، ومطَّلعًا عليهم، ويرى صغيرهم وكبيرهم، وخفيَّهم وجليَّهم؛ كان ذلك أدلَّ على عظمته وعلى إحاطته، فالمخلوقون حقيرون بالنِّسبة لعظمة ربِّهم، والإنسان جزء صغير من مخلوقات الله، والأرض التي نحن عليها والسَّمٰوات الَّتي هي فوقنا ومحيطة بنا جزء صغير أيضًا من مخلوقات الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر:٦٧]، فما مقدار الإنسان؟ وما قدره في هذا الكون العظيم الَّذي هذا مقداره؟ قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: «مَا السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعِ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[1]، حبَّة الخردل هي أصغر ما يتصوَّر من الحبوب، حب الخردل شجر معروف، وحبُّه صغير جدًا، فيقول: إذا قبض أحدكم حبَّة خردل في كفِّه، فهل يحسُّ أنَّها تشغل مكانًا؟ كذلك المخلوقات: السَّمٰوات

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

السَّبع والأرضون السَّبع يقبضها الله وكأنَّها حبَّة خردل في يد أحدكم.

فهذا دليل على العظمة وأنَّ علوَّه سبحانه فوق عباده لا ينافي عِلمَه، ولا ينافي اطلاعه، ولا ينافي إحاطته بعباده، ولا ينافي رؤيته لهم، وقربه منهم، وهيمنته عليهم، ونظره إليهم، وعلمه بأحوالهم وبأقوالهم، وسماعهُ لأصواتهم، وما أشبه ذلك، أفلا يكون العبد مستحضرًا لذلك في كلِّ حالاته حتَّى يعبد ربَّه غاية العبادة، وحتَّى يخافه غاية الخوف؟!

إذًا فمن أصل عقيدة المسلمين الاعتقاد بالفوقيَّة لله، وأنَّ ذلك لا ينافي علمه وقربه واطلاعه على عباده، كذلك على المسلم أن يعرف العقائد الضَّالَّة فيجتنبها، وعليه أن يُقْبِل على عقيدة السَّلف والأئمَّة وأهل السُّنَّة، ويعرض عن ما سواها من عقائد المبتدعة؛ كأهل وحدة الوجود والحلوليين، ونحوهم من البدع الضَّالَّة، الَّذين أنكروا علوَّ الله، وقالوا: إنَّه لا فوق ولا تحت، ولا مباين ولا محايث، أو أنَّ وجوده هو وجود الكون، أو أنَّه حالٌّ في المخلوقات بذاته - تعالى الله عمَّا يقولون - فكلُّ أولئك لم يثبت الإيمان في قلوبهم، ولم ترسخ معرفة الله وعقيدة الإسلام في أفئدتهم، فوسوس لهم الشَّيطان أنَّ ذات الله حالَّة فيكم أو في كلِّ مكان، أو أنَّ وجوده هو وجود الكون، أو ما أشبه ذلك، يريدون بذلك أن يسوِّغوا مذاهبهم، فعلى المسلم أن يعرف العقيدة السَّليمة، وأن يعتقدها، وأن يتعبَّد لله تعالى بموجبها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقَظَةِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعُلَا، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى.

---

قال الشارح:

(الْمِعْرَاجُ): مِفْعَالٌ، مِنَ الْعُرُوجِ، أَيِ: الْآلَةِ الَّتِي يُعْرَجُ فِيهَا، أَيْ: يُصْعَدُ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ السُّلَّمِ، لَكِنْ لَا يُعْلَمُ كَيْفَ هُوَ، وَحُكْمُهُ كَحُكْمِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ، نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَشْتَغِلُ بِكَيْفِيَّتِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقَظَةِ)، اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْإِسْرَاءِ، فَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ، نَقَلَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَنَقَلَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ نَحْوَهُ[1].

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يُقَالَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مَنَامًا، وَبَيْنَ أَنْ يُقَالَ: كَانَ بِرُوحِهِ دُونَ جَسَدِهِ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ، فَعَائِشَةُ وَمُعَاوِيَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمْ يَقُولَا: كَانَ مَنَامًا، وَإِنَّمَا قَالَا: أُسْرِيَ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ، وَفَرْقٌ مَا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ إِذْ مَا يَرَاهُ النَّائِمُ قَدْ يَكُونُ أَمْثَالًا مَضْرُوبَةً لِلْمَعْلُومِ فِي الصُّورَةِ

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (٥/ ٢٧٥)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٥، ٢٤٦)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٦).

الْمَحْسُوسَةِ، فَيَرَى كَأَنَّهُ قَدْ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَذُهِبَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَرُوحُهُ لَمْ تَصْعَدْ وَلَمْ تَذْهَبْ، وَإِنَّمَا مَلَكُ الرُّؤْيَا ضَرَبَ لَهُ الْمِثَالَ. فَمَا أَرَادَا أَنَّ الْإِسْرَاءَ مَنَامًا، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الرُّوحَ ذَاتَهَا أُسْرِيَ بِهَا، فَفَارَقَتِ الجَسَدَ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلَانِ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ، فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا تَنَالُ ذَاتُ رُوحِهِ الصُّعُودَ الْكَامِلَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً يَقَظَةً، وَمَرَّةً مَنَامًا. وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا الجَمْعَ بَيْنَ حَدِيثِ شَرِيكٍ وَقَوْلِهِ: «ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ»، وَبَيْنَ سَائِرِ الرِّوَايَاتِ.

وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ كَانَ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً قَبْلَ الْوَحْيِ، وَمَرَّةً بَعْدَهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، مَرَّةً قَبْلَ الْوَحْيِ، وَمَرَّتَيْنِ بَعْدَهُ. وَكُلَّمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ لَفْظٌ زَادُوا مَرَّةً، لِلتَّوْفِيقِ! وَهَذَا يَفْعَلُهُ ضُعَفَاءُ أَهْلِ الحَدِيثِ، وَإِلَّا فَالَّذِي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ النَّقْلِ: أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ مَرَّةً وَاحِدَةً بِمَكَّةَ، بَعْدَ الْبِعْثَةِ، قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ، وَقِيلَ: بِسَنَةٍ وَشَهْرَيْنِ، ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ.

---

قال الشيخ:

من عقائد أهل السُّنَّة الإيمان بأنَّ النَّبيَّ ﷺ عُرج به إلى السَّماء، وفرضت عليه الصَّلوات الخمس في ليلة المعراج، وأنَّ ذلك كان بمكَّة قبل الهجرة بثلاث سنين أو نحوها.

وكذلك من عقائدهم ثبوت الإسراء، وقد ذكر الله تعالى الإسراء، قال

تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وأخبر ﷺ في الحديث بأنه أُسْرِي به[١]، يعني: ذُهب به من مكَّة إلى أن وصل إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، وهذا المسجد كان قبلة النَّبيِّ ﷺ قبل الهجرة، وبعد الهجرة أيضًا كان يستقبله ستَّة عشر أو سبعة عشر شهرًا؛ لذلك يقال: أولى القبلتين، ويقال: إنَّه مسرى النَّبيِّ ﷺ، وهو أحد المساجد الثَّلاثة الَّتي يشدُّ إليها الرِّحال، قال ﷺ: «**لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدِي**»[٢]، يعني: أنَّه يجوز أن يسافر إليه لأجل فضل الصلاة فيه، فالصَّلاة فيه تعدل خمس مئة صلاة في غيره[٣]، والصلاة في المسجد النَّبويِّ «**أَفْضَلُ**

---

(١) -حديث الإسراء أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنهما. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٤٦٠): «وقد روى هذا الحديث عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة، لكن طرقه في الصحيحين تدور على أنس مع اختلاف أصحابه عنه، فرواه الزهري عنه عن أبي ذر كما في هذا الباب، ورواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة، ورواه شريك بن أبي نمر وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا واسطة، وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر».

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) كما في حديث أبي الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى غَيْرِهِ مِائَةُ أَلْفِ صَلَاةٍ، وَفِي مَسْجِدِي أَلْفُ صَلَاةٍ، وَفِي مَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِخَمْسِمِائَةِ صَلَاةٍ»

من أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»[1]، و«صَلَاةٌ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ من مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ»[2]، كما ورد ذلك في الأحاديث، هذه المساجد الثَّلاثة هي الَّتي يشدُّ إليها الرّحل؛ فمسجد إيليا ويسمى مسجد بيت المقدس أو البيت المقدَّس الَّذي بناه سليمان عليه السلام، وقيل: إنَّه جدَّده، وقيل: إنَّه أوَّل من بناه، والصَّحيح أنَّه بُني قديمًا، ثبت في حديث أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قلت يا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأرض أَوَّلَ؟ قال: «المَسْجِدُ الحَرَامُ»، قال: قلت ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: «المَسْجِدُ الْأَقْصَى»، قلت: كَمْ كان بَيْنَهُمَا؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»[3]، فدلَّ على أنَّه بني قديمًا؛ لأنَّ المسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام، وقيل: إنَّ إبراهيم جدَّده؛ فعلى هذا يكون المسجد الأقصى قديمًا.

---

=

أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١/ ٢١٢) برقم (٤٢٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧): «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات، وفي بعضهم كلام، وهو حديث حسن». قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٩٥٤): «أصح ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الأقصى حديث أبي ذر ﷺ قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل مسجد رسول الله أو بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ فِيهِ».

(١) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٦)، وأحمد (٣/ ٣٤٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٧٩): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

فالحاصل: أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أُسري به من المسجد الحرام بمكةَّ إلى المسجد الأقصى، وأنَّه جُمع له الأنبياء هناك، وأنَّه صلَّى بهم إمامًا، وقد أنكرت كفار قريش هذا لَـمَّا أخبرهم بأنَّه أُسري به وكذبوه، وقال أبو جهل: «ألا تعجبون مما قال محمد، يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس ثم أصبح فينا، وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرًا، ومقفلة شهرًا، فهذه مسيرة شهرين في ليلة واحدة»[1]!!

فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر ﷺ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة[2].

وفي بعض الأحاديث أنَّه أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ «بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، يُقَالُ: له الْبُرَاقُ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ»[3]، يعني:

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٩٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٥١٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٦)، والحاكم في دلائل النبوة (٢/ ٣٦٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٥٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) قطعة من حديث الإسراء الطويل، أخرجه البخاري (٣٢٠٧، ٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

خطوته الواحدة مدَّ البصر، وسيره أسرع من طرفة العين، فقطع هذه المسافة في هذه اللَّحظات، ووصل إلى هناك ثمَّ رجع، هذا هو الإسراء.

والصَّحيح أنَّه أُسري ببدنه وبروحه ولم يكن منامًا، والكفار لم يكونوا ينكرون المنامات، فلو قال ﷺ: إنَّ ذلك منام أو أحلام أو رؤيا لصدَّقوه؛ لأنَّ الإنسان يرى في منامه أنَّه يقطع مسافات، وأنَّه وصل إلى كذا وكذا، وهو نائم على فراشه لم يفارقه، فيعترفون بذلك، ولكن لَـمَّا أخبرهم بهذا كذَّبوه، فدلَّ على أنَّ الإسراء كان بجسده، وأنَّه ركب البراق حقيقة، وذهب ورجع، وأخبرهم بآيات وبدلالات واستوصفوا منه بيت المقدس، فعند ذلك وصفه لهم وصفًا دقيقًا، وذلك أنَّ الله تعالى جلَّاه له لَـمَّا التبس عليه بعض الأشياء، وكشفه له وصوَّره أمامه، فصار يصفه وهم يسألونه، كما ثبت في الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال: «لَـمَّا كذبني قُرَيْشٌ قُمْتُ في الْحِجْرِ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عن آيَاتِهِ وأنا أَنْظُرُ إليه».

فهذا هو الإسراء يقظة لا منامًا بجسده وبروحه.

وهناك من يقول: إنَّ الإسراء بالرُّوح فقط، وأنَّ روحه خرجت وفارقت جسده، وأن الجسد بقي ليس فيه روح، وأنَّ الرُّوح لفتها وصلت إلى ذلك المكان، ويستدلون على هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]، ولكنَّ الرُّؤيا ليست مطلق الحلم، بل كلَّ شيء يراه الإنسان يسمَّى في اللُّغة رؤيا، هذا هو الإسراء.

أمَّا المعراج: فهو الصُّعود إلى السماء، وقد دلَّ عليه من القرآن آيات كريمة في أوَّل سورة النَّجم في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:٥ ـ ١١]، إلى آخر الآيات؛ فإن هذا دليل على أنَّه رفُع جسده حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، والقوس معروف أنَّه الآلة الَّتي يرمى بها، يعني أنَّه دنا من ربِّه فتدلى، يعني هبط.

هذه الآيات ونحوها دلالة على أنَّه رفع وأنَّه أسري به، وأنَّه رأيالملك في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم:١٣ ـ ١٥]، وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٧، ١٨]، كلُّ ذلك كان في المعراج، فالآيات فيها إجمال ذلك، والأحاديث فيها التَّفصيل لذلك كلُّه، كما هو معروف في كتب الحديث كـ«الصَّحيحين» وفي غيرهما، وقد أورد ابن كثير في أول تفسير سورة الإسراء جملة كثيرة من أحاديث الإسراء والمعراج، وأفردها كثير من العلماء بالتَّأليف وتوسَّعوا فيها.

فنقول: من العلماء من يقول: إنَّ الإسراء كان بالرُّوح؛ كما روي ذلك عن

عائشة ـ رضي الله عنها ـ وغيرها [١]، أنَّ الجسد لم يُفقد، ومنهم ـ وهو الصَّحيح ـ من يقول: إنَّه كان يقظةً لا منامًا، وإنَّه بالجسد والرُّوح معًا، وإنَّ جسده عُرج به بحيث اخترق سبع سمٰوات سماءً ثم سماءً، ووجد الأنبياء في السَّماء، وسلَّم على من وجد منهم، وفرضت عليه الصَّلوات، وكلَّمه الله منه إليه وخاطبه وخفف عنه عشرًا عشرًا، إلى أن استقرَّت خمس صلوات، فقال الله تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]، وفي الحديث: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عن عِبَادِي، وَأَجْزِي الحَسَنَةَ عَشْرًا»[٢]، يعني: عندما خُفِّفت الصَّلاة إلى خمسٍ من الفرائض، كلُّ ذلك كان ليلة الإسراء.

والَّذين قالوا: إنَّ الإسراء تكرَّر، هؤلاء كأنَّهم يريدون الجمع بين الرِّوايات، ولكنَّ الصَّحيح أنَّ الإسراء والمعراج لم يتكرَّر، وإنَّما هو مرةً واحدة، وفي ليلة واحدة، عُرج به من بيت المقدس إلى السَّماء ثمَّ نزل في ليلته، وما ذلك على الله بعزيز.

---

(١) راجع (٢/ ٣٣٢).

(٢) قطعة من حديث الإسراء الطويل، أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

قال الشارح:

قَالَ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيِّمِ: يَا عَجَبًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مِرَارًا! كَيْفَ سَاغَ لَهُمْ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُفْرَضُ عَلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ، ثُمَّ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ رَبِّهِ وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى تَصِيرَ خَمْسًا، فَيَقُولُ: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، ثُمَّ يُعِيدُهَا فِي المَرَّةِ الثَّانِيَةِ إِلَى خَمْسِينَ، ثُمَّ يَحُطُّهَا إِلَى خَمْسٍ؟!

وَقَدْ غَلَّطَ الْحُفَّاظُ شَرِيكًا فِي أَلْفَاظٍ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، وَمُسْلِمٌ أَوْرَدَ الْمُسْنَدَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «فَقَدَّمَ وَأَخَّرَ وَزَادَ وَنَقَصَ». وَلَمْ يَسْرُدِ الحَدِيثَ. وَأَجَادَ رَحِمَهُ اللَّهُ. انْتَهَى كَلَامُ الشَّيْخِ شَمْسُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: أَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ، عَلَى الصَّحِيحِ، مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، رَاكِبًا عَلَى الْبُرَاقِ، صُحْبَةَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَزَلَ هُنَاكَ، صَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، وَرَبَطَ الْبُرَاقَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْمَسْجِدِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ نَزَلَ بَيْتَ لَحْمٍ وَصَلَّى فِيهِ، وَلَا يَصِحُّ عَنْهُ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ جِبْرِيلُ، فَفُتِحَ لَهُمَا، فَرَأَى هُنَاكَ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَحَّبَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ، فَرَأَى فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَلَقِيَهُمَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، فَرَدَّا عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَرَحَّبَا بِهِ، وَأَقَرَّا بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَرَأَى فِيهَا يُوسُفَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ،

فَرَأَى فِيهَا إِدْرِيسَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَرَأَى فِيهَا هَارُونَ بْنَ عِمْرَانَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَلَقِيَ فِيهَا مُوسَى، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَلَقِيَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ.

ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، ثُمَّ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى الجَبَّارِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ـ فَدَنَا مِنْهُ حَتَّى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعَ حَتَّى مَرَّ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ ؟ قَالَ: بِخَمْسِينَ صَلَاةً، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَالْتَفَتَ إِلَى جَبْرَائِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَعَلَا بِهِ جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى بِهِ إِلَى الجَبَّارِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ فِي مَكَانِهِ ـ هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي (صَحِيحِهِ)، وَفِي بَعْضِ الطُّرُقِ: ـ فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا، ثُمَّ نَزَلَ حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى جَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَمَرَهُ مُوسَى بِالرُّجُوعِ وَسُؤَالِ التَّخْفِيفِ، فَقَالَ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، فَلَمَّا نَفَذَ، نَادَى مُنَادٍ: قَدْ أَمْضَيْتُ

فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي[1].

---

قال الشيخ:

هكذا سرد الشارح مجمل حديث الإسراء والمعراج، وهذا على وجه الاختصار، ومن أراد التَّوسُّع فيجده في «صحيح مسلم»، باب الإسراء برسول الله ﷺ، وفي «صحيح البخاري» في آخره في كتاب التوحيد، وفي كتب أهل السُّنَّة، وذكرت أنَّ ابن كثير في أوَّل تفسير سورة الإسراء أورد أكثر الرِّوايات وساقها بنصِّها كما هي، وملخَّصها ما سبق من أنَّه ﷺ أتاه الملك وهو في مكة في بيت أمِّ هانئ وأتي به إلى المسجد، وفي بعض الرِّوايات: أنَّه غسل قلبه بماء زمزم، وملأه حكمة وإيمانًا، ثمَّ ركب معه على البراق، الَّذي هو دابَّة الله أعلم بكيفيَّتها، يضع حافره عند منتهى طرفه، فوصل إلى بيت المقدس في لحظات، ثمَّ صلَّى بالأنبياء هناك، وبعد ذلك عُرِج به إلى السَّماء، والعروج: هو الرُّقيُّ والصُّعود، ولا نعلم كيفيَّة ذلك.

لا شكَّ أنَّه عرج بجسده وروحه، إمَّا على نفس الدابَّة الَّتي هي البراق، وإمَّا أنَّ جبريل حمله فخرق هذا الجو في لحظات حتَّى أتى إلى باب السَّماء الدُّنيا، فاستفتح لبابها، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، فَفُتح له بعد أن قيل: مرحبًا به وبمن

---

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

جاء معه، فوجد في السَّمٰوات هؤلاء الأنبياء، سماء بعد سماء.

لقي آدم في السَّماء الدُّنيا، فسلَّم عليه، وفي بعض الرِّوايات أنَّه رآه وعنده أسودة عن يمينه وأسودة عن يساره، فإذا نظر عن يساره بكى، وإذا نظر عن يمينه ضحك، فالَّذين عن يمينه هم نسم أهل الجنَّة، والَّذين عن يساره هم نسم أهل النَّار، والأسودة: أرواح تُعرض عليه من أهل الجنَّة ومن أهل النَّار، نسم بَنِيه، فقيل: إن هذا روحه، يعني: روح آدم تمثَّلت هناك، وكذلك أرواح الأنبياء الآخرين مثِّلت هنالك، ويمكن أن يكون جُعلت في أجسادٍ تناسبها وتلائمها، الله أعلم بكيفيَّة تلك الأجساد.

والحاصل: أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كما أخبر الله، عُرج به حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، وأوحى الله تعالى إليه، ورفعه إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، ومرَّ على البيت المعمور الَّذي في السَّماء السَّابعة، وأخبر أنَّه «يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إليه»، كلُّ يوم يدخل غيرهم، فذلك البيت الَّذي ذكره الله في قوله: ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ [الطور:٤]، ثم فُرضت عليه هذه الصَّلوات أوَّلًا خمسين صلاةً، وخفَّفها الله حتَّى صارت خمسًا، فقال الله تعالى: «قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، ورجع في ليلته إلى الأرض، وأصبح في مكة، وذلك سهلٌ يسيرٌ في قدرة الله سبحانه وتعالى.

فيؤمن أهل السُّنَّة بذلك، ولو استنكر ذلك من استنكره من المبتدعة

ونحوهم؛ وذلك لأنَّ من لا علم عنده، أو من لا يؤمن إلَّا بالمحسوسات ونحوها، قد يستبعد ويقول: إنَّ الإنسان على هذه الأرض لا يمكنه أن يعيش إذا فارقها؛ لأنه يعيش بهذا الأكسجين. نقول: كيف لا يجوز أن يكون أهل السَّماء يعيشون كما يعيش أهل الأرض، وأن يكون عندهم مثل ما يكون عند أهل الأرض؟! والله على كل شيءٍ قدير.

فبكلِّ حالٍ الَّذين يستبعدون ذلك ويقولون: إنَّه مستحيلٌ أن يفارق الإنسان هذه الأرض، أو يرتفع إلى غيرها، أو ما أشبه ذلك، كلُّ ذلك تخبُّطات وتخرُّصات، والَّذين استنكروه للبعد، وقالوا: كيف يقطع هذه المسافات ونحوها، استنكارهم هذا راجع لقصر عقولهم وأفهامهم.

ذكرنا أنَّ أبا بكر ﷺ يصدِّقه، ويقول: كيف لا أصدِّقه وهو يأتيه خبر السَّماء؟! ينزل عليه الملك في لحظاتٍ ويصعد في لحظاتٍ كطرف العين؛ فلم لا نصدقه؟! ما دمنا عرفنا أنَّه قد صدق في دعواه أنَّه مرسلٌ من ربِّه، فكذلك دعواه أنَّه بُعث، وأنَّه جاء بهذه الشريعة، وهكذا أيضًا ما جاء به من الإسراء والمعراج، وهذا يعد شرفًا وميزةً وفضيلة له عليه الصلاة السلام، أنَّه عُرج به في الحياة، وأنَّه صعد إلى السَّماء السَّابعة، وأنَّه كلَّمه ربُّه منه إليه، وأنَّه دنا إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام حتى سمعها، وأنَّ الله خاطبه منه إليه كما يشاء، هذا من فضائله ﷺ أنَّه جاوز سبع طباق، رفعه الله تعالى فوقها، فهذا أدخلوه في العقيدة؛ لأنَّه من حقوق النَّبيِّ ﷺ وخصائصه وميزته.

ولا يُكذِّب ذلك إلا من قَصر علمُه عن معرفة المغيَّبات، واقتصر على ما

يظنُّ أنَّه ظاهر، أو اقتصر على ما تدركه حواسُّه، دون أن يؤمن بقدرة الله على كلِّ شيء، أما من آمن أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ فإنه لا يستبعد مثل هذا الحادث العظيم.

قال الشارح:

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ فِي رُؤْيَتِهِ ﷺ رَبَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، وَأَنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ رَآهُ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يَرَهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ هَذَا الْمَرْئِيَّ جِبْرِيلُ، رَآهُ مَرَّتَيْنِ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا[1].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨]، فَهُوَ غَيْرُ الدُّنُوِّ وَالتَّدَلِّي الْمَذْكُورَيْنِ فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ، فَإِنَّ الَّذِي فِي سُورَةِ النَّجْمِ هُوَ دُنُوُّ جِبْرِيلَ وَتَدَلِّيهِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ وَابْنُ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٥ ـ ٨]، فَالضَّمَائِرُ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَا الْمُعَلِّمِ الشَّدِيدِ الْقُوَى، وَأَمَّا الدُّنُوُّ وَالتَّدَلِّي الَّذِي فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، فَذَلِكَ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ دُنُوُّ الرَّبِّ تَعَالَى وَتَدَلِّيهِ. وَأَمَّا الَّذِي فِي سُورَةِ النَّجْمِ: أَنَّهُ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَهَذَا هُوَ جِبْرِيلُ، رَآهُ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً فِي الْأَرْضِ، وَمَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وَالْعَبْدُ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الْجَسَدِ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٧٥).

وَالرُّوحِ، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، فَيَكُونُ الْإِسْرَاءُ بِهَذَا الْمَجْمُوعِ، وَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ عَقْلًا، وَلَوْ جَازَ اسْتِبْعَادُ صُعُودِ الْبَشَرِ لَجَازَ اسْتِبْعَادُ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى إِنْكَارِ النُّبُوَّةِ وَهُوَ كُفْرٌ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْحِكْمَةُ فِي الْإِسْرَاءِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوَّلًا؟ فَالْجَوَابُ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ: أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ إِظْهَارًا لِصِدْقِ دَعْوَى الرَّسُولِ ﷺ الْمِعْرَاجَ، حِينَ سَأَلَتْهُ قُرَيْشٌ عَنْ نَعْتِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَنَعَتَهُ لَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ عِيرِهِمُ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ، وَلَوْ كَانَ عُرُوجُهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ مَكَّةَ لَمَا حَصَلَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ اطِّلَاعُهُمْ عَلَى مَا فِي السَّمَاءِ لَوْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهُ، وَقَدِ اطَّلَعُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِنَعْتِهِ.

وَفِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ وُجُوهٍ، لِمَنْ تَدَبَّرَهُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

---

قال الشيخ:

تفسير هذه الآيات من سورة النجم قول الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، المعلَّم: هو النَّبيُّ ﷺ، والمعلِّم هو شديد القوى، وهو الملك، أي: جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: ذو قوَّة، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، الاستواء هنا: الارتفاع، ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: ارتفع بالأفق الأعلى، والأفق واحد، والآفاق وهي الجهات المتقابلة، فعلَّمه واستوى وارتفع، وهو

بالآفق الأعلى، ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾، أي: قرب منه، وذلك بعدما عرج به إلى السَّماء، ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾، التدلِّي والدنوُّ هنا للملك الَّذي هو جبريل، أي: قرب منه، و﴿ دَنَا ﴾، يعني: انحدر إليه ونزل إليه، ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾، القوس: هو الجهاز الَّذي يُرمى به، ويتَّخذونه آلةً للرَّمي به، وكانوا يرمون به قبل وجود الأسلحة الجديدة، فيقول: إنَّه دنا منه وقرب وهو يراه حتَّى كان منه قدر قوسين أو أقرب من القوسين، هذا معنى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.

وأمَّا قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم:١٠]، فلا شكَّ أنَّ الوحي من الله تعالى؛ لأنَّه الذي أوحى إلى عبده، وسواءً كان العبد هو الملك أو البشر؛ فالوحي من الله إلى الملك الذي هو جبريل، ومن الملك إلى البشر الذي هو محمد عليهما الصَّلاة والسَّلام، أوحى إليه الشيء الَّذي أوحى.

أمَّا قوله: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم:١١]، الرُّؤية هنا قلبية، أي: ما كذب الفؤاد الرُّؤيا الَّتي رآها، وهذا دليل على أنَّه ﷺ كُشف له، وأُعطي مكاشفات وأنوارًا وفتوحات فتحت على قلبه، فاستنار قلبه، فأصبح كأنَّه يرى ربَّه رأي عين، وإنَّما ذلك رؤية بالقلب، وهذا معنى قول السَّلف: إنَّه ﷺ رأى ربَّه بقلبه، يعني: بتلك الكشوفات والفتوحات والواردات الَّتي ترد على قلبه، ممَّا يطمئن به ويقوى بذلك يقينه، فهذا دليلٌ على أنَّه لم يرَ ربَّه رؤيةً بصريَّة؛

لقوله ﷺ في الحديث السَّابق لَـمَّا قيل له: هَل رَأَيتَ رَبَّكَ ؟ فَقَال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، أي دونه أنوارٌ فكيف أراه، وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتُ نُورًا»[1].

فإذًا الرُّؤية هنا رؤية قلبية، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾، وفي قراءة: {مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ}[2]، أي: لم يكذب بما رآه من الكشوفات والإلهامات والواردات الَّتي وردت عليه.

وأمَّا قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، فالرُّؤية هنا أيضًا للملك، أي: ولقد رأى جبريل ـ عليه السلام ـ نزلةً أخرى، أي: مرَّة أخرى، هذه مرَّة رأى فيها جبريل ـ عليه السلام ـ وهو في السَّماء على الهيئة والصُّورة الَّتي خلق عليها وقد سدَّ الأفق وله ستُّ مئة جناح، والمرة الأولى ذُكرت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]، رآه بالأفق الأعلى ورآه بالأفق المبين، كما في حديث ابن مسعود ﷺ قال: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ منها قد سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ من جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ»[3].

إذًا ثبت أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ لَـمَّا سُئلت عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥)، والطبري (٢٧/ ٤٩)، وأصله عند البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) مختصرًا.

رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾، فقالت: أنا أَوَّلُ هذه الْأُمَّةِ سَأَلَ عن ذلك رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقال: «**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيها غير هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا من السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السَّمَاءِ إلى الأرض**»[1]، رآه هذه المرة بالأفق الأعلى عند سدرة المنتهى، وهي سدرة عظيمة في الجنة، قد أخبر ﷺ بأنَّ نَبْقَهَا ـ يعني: حملها ـ مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ ـ والقلال: جمع قلَّة، وهي: الأزيار الَّتي تعمل للمياه ونحوها ـ وأنَّ وَرَقَهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ ، هذه هي سدرة المنتهى، عندها جنَّة المأوى.

فهذه الآيات من هذه السُّورة فيها الدَّليل على أنَّه ﷺ عُرج به، ورأى جبريل وهو بالأفق الأعلى، ودنا فتدلَّى ودنا منه، وأنَّ الله تعالى أوحى إليه ما أوحى من فرض الصلوات الخمس.

فهذا مثالٌ للإيمان بالغيب أو للأشياء التي لا تدركها الحواسُّ، أو يستغربها الإنسان إذا سمع بها، ويقول: بشرٌ خُلق من الأرض، فكيف مع ذلك رفع إلى السماء، وخرق السمٰوات سماءً فوق سماء، ثم نزل وهو على هيئته، وبحياته التي هو عليها؟ والإنسان خلق من الأرض ولا يستطيع أن يفارقها؟

نقول: إن ذلك خلق الله وتقديره، وهو الذي يدبِّر الأشياء كما يشاء، فهو الذي خلق الإنسان، وأعطاه الحياة على هذه الأرض، وأنزل عليها آدم وذريته،

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٧٥).

وقال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥]، وقال: ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف:٢٥]، فالمعلوم أن الإنسان خلق من هذه الأرض، ولكن لا مانع من أن يرفع إلى السماء إذا شاء الله تعالى، ثم يهبط منها، ويكون مأواه ومماته على الأرض، ومنها يبعث، كما حصل له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وللرسل من قبله.

قال الطحاوي:

وَالحَوْضُ - الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ غِيَاثًا لِأُمَّتِهِ - حَقٌّ.

---

قال الشارح:

الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الحَوْضِ تَبْلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ، رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بِضْعٌ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا، وَلَقَدِ اسْتَقْصَى طُرُقَهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ بْنُ كَثِيرٍ، تَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، فِي آخِرِ تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ، الْمُسَمَّى بِـ «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ»[1].

فَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[2] - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ». وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمُ اخْتَلَجُوا[3] دُونِي، فَأَقُولُ: أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[4].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ[5] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «أَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِغْفَاةً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا، إِمَّا قَالَ لَهُمْ، وَإِمَّا قَالُوا لَهُ: لِمَ ضَحِكْتَ؟ فَقَالَ

---

(١) (١٩/ ٤٢٣ - ٤٧٢) بتحقيق د. عبدالله التركي.

(٢) برقم (٦٥٨٠).

(٣) يُخْتَلَج: يُجتذب ويقتطع. انظر: لسان العرب (خلج).

(٤) برقم (٢٣٠٤).

(٥) في المسند (٣/ ١٠٢).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ»، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١]، حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الْجَنَّةِ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ الْكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ[1]، وَلَفْظُهُ: «هُوَ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَالْبَاقِي مِثْلُهُ.

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَشْخُبُ[2] فِيهِ مِيزَابَانِ مِنْ ذَلِكَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ، وَالْحَوْضُ فِي الْعَرَصَاتِ قَبْلَ الصِّرَاطِ؛ لِأَنَّهُ يُخْتَلَجُ عَنْهُ، وَيُمْنَعُ مِنْهُ أَقْوَامٌ قَدِ ارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا يُجَاوِزُونَ الصِّرَاطَ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ[3] وَمُسْلِمٌ[4] عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ». وَالْفَرَطُ: الَّذِي يَسْبِقُ إِلَى الْمَاءِ.

---

(١) برقم (٤٠٠).

(٢) يَشْخُبُ: يسيل، والشخب: السيلان. انظر: لسان العرب (شخب).

(٣) برقم (٦٥٨٩).

(٤) برقم (٢٢٨٩).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ[1] عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ». قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ - وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا - فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلٍ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَزِيدُ فِيهَا: «فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي». سُحْقًا: أَيْ بُعْدًا.

---

قال الشيخ:

هذا من الإيمانِ أيضًا بالغيب، وهو الإيمان بيوم القيامة وما يكون فيه.

قد أخبر الله تعالى بالبعث بعد الموت، وبحشر الأجساد، وبإعادة الأرواح إلى أجسامها، وبجمع الناس كلّهم ليوم لا ريب فيه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦]، يعني: يقومُ أَوَّلُهم وآخرهم. ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠]، فالإيمانُ بالبعث بعد الموت ركن من أركان الإيمان بالله تعالى، ويؤمن العبد بما يكون في ذلك اليوم مما أخبر الله به، وأخبر به رسوله ﷺ، وتفاصيل

---

(١) برقم (٧٠٥٠) باختلاف يسير، وأخرجه مسلم (٢٢٩٠).

ذلك مذكورة في أحاديث النبي ﷺ، ومجملها وارد في كلام الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك ذكر الحوض، فقد ورد فيه أحاديث كثيرة بلغت حدّ التواتر، زادت على رواية أربعين صحابيًّا، رووا ذكر الحوض عن النبيّ ﷺ، ورواها أئمَّةُ السّنة وعلماء الأمّة في مؤلّفاتهم بألفاظ متعدّدة، وطرق كثيرة، وروايات مجموعها يقطع به صحته، ولا يُلتفت إلى من أنكره.

وقد ورد أيضًا دليل ذلك في القرآن في سورة الكوثر، وقد فسَّر النبيُّ ﷺ الكوثر في هذا الحديث بأنَّه نهر في الجنّة، أعطاه الله نبيّه ﷺ، ماؤه أشدّ بياضًا من اللبن، وهو أحلى من العسل، وكذلك أخبر بأنّه أُعطي هذا الحوض المورود في عرصات القيامة، وأنه يصب فيه ميزابان من نهر الكوثر، فهو جزءٌ أو فرعٌ أو امتدادٌ للكوثر الذي أُعطيه في الجنّة.

والحوض معروف عند العرب، فهو الإناء الذي يُتَّخَذ من الجلود، تُسقى به الإِبِلُ أو الغنم ونحوها، عادةً يحملونه على ظهور الإبل، فإذا وردوا أو أقبلوا على المياه أرسلوا واردًا يصلح لهم الوِرد، ويسمّون ذلك الوارد الذي يتقدّمهم الفَرَط، فيقولون: أنت فرَطنا يا فلان، يعني: أنّك الذي تتقدّم أمامنا إلى ذلك المورد، وتصلحَ لنا الورد، فإذا وردوا بدوابّهم، وإذا هو قد ملأ الحوض ماءً، وقد ركّب البكرة التي يستقى عليها، وقد انتزع من الماء بقدره، فيبدؤون في سقي دوابّهم إلى أن تنهل وتروى، فتشرب من ذلك الحوض.

أما الحوض الذي أعطاه الله نبيّنا ﷺ في الآخرة، فهو نهرٌ ليس مصنوعًا من جلود ولا من أوانٍ، الله أعلم بما صُنع منه، ولكنه ممدّ، وقد روي أنّه

مسيرة شهرٍ في شهر[١]، يعني: طوله مسيرةُ شهر، وعرضه مسيرةُ شهر؛ بالسّير المعروف في ذلك الزّمان، وقُدّر في بعض الروايات: «كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءِ»[٢]، فصنعاء: عاصمة اليمن، وأيلة: مدينة في الشام، يعني: طوله من ذلك المكان إلى ذلك المكان، وفي بعض الروايات أنّه «لَأَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ»[٣]، وعدن ـ أيضًا ـ مدينة معروفة في اليمن، ولعلّ ذلك باختلاف جهاته، وبكلّ حال فإنّه على هذا حوضٌ واسعٌ طويلٌ ممتلئٌ ماءً.

وورد في هذه الرويات أنّه يشخُب فيه ميزابان من الجنّة، أو من الكوثر، وأنّ فيه آنية، والآنية: الكؤوس التي يُشرب بها، آنيته «كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»[٤]، يعني: في الكثرة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، يرد عليه المؤمنون، ويذاد عنه المنافقون، أخبر بأنه يرد عليه أناس فيعرفهم، فإذا أقبلوا إليه وعرفهم احتجزوا، وحيل بينه وبينهم! فيقول: أصحابي!! يعني مِمّن أسلموا معي وعرفتهم، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، يعني: من المرتدّين، أو من المنافقين، أو من المتسمّين بالإسلام وليسوا بمسلمين، أما المؤمن حقًّا الذي ثبت على الإيمان سواءً من الصحابة أو مِمّن بعد الصحابة، فإنّه يرد على ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٨) من حديث حذيفة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس ﷺ.

الحوض، ويشرب منه شربةً هنيئةً مريئةً لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنّة، وذلك لما جعل الله في ذلك الماء من الشفاء، ولما جعل فيه من اللذّة، إذا كان ماؤه أشدّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل الذي هو غايةٌ في الحلاوة وفي اللّذّة، وأنّ الشربة منه لا يعادلها شيءٌ، فيؤمن العبد المؤمن بذلك.

ورد في بعض الروايات أنّ لكلّ نبيٍّ حوضًا، ولكن نبيّنا ﷺ أكثرهم واردًا[1]، يعني: أوسعهم حوضًا وأكثرهم واردًا، وأمّته المتّبعون له أكثر من غيرهم من الأمم، وذلك لأنّ الذين صدّقوه واتّبعوه وحقّقوا اتّباعه وصاروا من أتباعه عددهم لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى.

والصحيح أنّ الحوض في عَرَصات القيامة قبل أن يعبروا الصراط، لكن ورد في بعض الروايات أنّهم إذا نزلوا وهم ظِماءٌ، فيردُون عليه كورود الناهلة على حوضها[2]، ولعلّه يمتدّ أيضًا إلى طرف الصراط، فلا مانع أن يكون معظمه في عرصات القيامة، وقبل أن يركبوا الصراط، ثم بعدما ينزلون من الصراط يجدون له طرفًا، ثم بعد ذلك يشربون منه، ويدخلون الجنّة كما أخبر الله تعالى.

فيؤمن المسلمون بذلك، وإن لم تدركه عقولهم، ويؤمنون بما أخبر به

---

(١) سيأتي ذلك في كلام الشارح.

(٢) كما في حديث لقيط بن عامر ﷺ، الذي أخرجه أحمد (٤/ ١٣)، وفيه: «فَتَظَّمَّؤُونَ على حَوْضِ الرَّسُولِ على أظمأ والله نَاهِلَةٍ عليها قَطُّ ما رَأَيْتُهَا».

نبيّهم ﷺ، وأنّ هذا من كرامة هذا النبيّ عليه الصلاة والسلام، ومعلوم أنّه يقف على الحوض، وينظر من يرد عليه، وكذلك يكون معه ملائكة يأذنون في ورود البعض الذين ليسوا من الأمّة حقًّا، فالذي لا يرد الحوض يبقى على ظمئه، وعلى جهده، وعلى ما يلاقيه من الشقاوة والتعب، والذين يردون يطمئنّون للشرب، ويلتذّون بذلك، ويعرفون بذلك أنّهم من أهل السعادة وأهل الخير، وهؤلاء الذين يردون عليه هم أهل السنّة والجماعة، أهل الاتّباع لا أهل الابتداع، ولأجل ذلك يرد المبتدعة المرتدّون الذين أحدثوا، فيُقال: «**إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**».

فالذي يرجو أن يكون من أتباع صاحب الحوض المورود، ويرجو أن يرد ذلك الحوض، وينهل منه؛ عليه باتِّباع السنّة، وعليه بالتصديق بما جاء عن نبيّ الأمّة، وعليه بالعمل الصالح، وتحقيق التصديق الذي التزمه، فبذلك يكون من أهل السعادة إن شاء الله.

قال الشارح:

وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي صِفَةِ الحَوْضِ: أَنَّهُ حَوْضٌ عَظِيمٌ، وَمَوْرِدٌ كَرِيمٌ، يُمَدُّ مِنْ شَرَابِ الجَنَّةِ، مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الِاتِّسَاعِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ سَوَاءٌ، كُلُّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ. وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «أَنَّهُ كُلَّمَا شُرِبَ مِنْهُ وَهُوَ فِي زِيَادَةٍ وَاتِّسَاعٍ، وَأَنَّهُ يَنْبُتُ فِي حَالٍ مِنَ الْمِسْكِ وَالرَّضْرَاضِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ قُضْبَانَ الذَّهَبِ، وَيُثْمِرُ أَلْوَانَ الجَوَاهِرِ»[1]، فَسُبْحَانَ الخَالِقِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي أَحَادِيثَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّ حَوْضَ نَبِيِّنَا ﷺ أَعْظَمُهَا وَأَحْلَاهَا وَأَكْثَرُهَا وَارِدًا[2]. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْطُبِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ فِي «التَّذْكِرَةِ»[3]: وَاخْتُلِفَ فِي الْمِيزَانِ وَالحَوْضِ: أَيُّهُمَا يَكُونُ قَبْلَ الْآخَرِ؟ فَقِيلَ: الْمِيزَانُ، وَقِيلَ: الحَوْضُ. قَالَ أَبُو الحَسَنِ الْقَابِسِيُّ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الحَوْضَ قَبْلُ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالمَعْنَى يَقْتَضِيهِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ عِطَاشًا مِنْ قُبُورِهِمْ ـ كَمَا تَقَدَّمَ ـ فَيُقَدَّمُ قَبْلَ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩٨) من حديث ابن مسعود ﷺ. والحال: الطين، والرضراض: الحصى.

(٢) كما في حديث سمرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»، أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، والطبراني في الكبير (٦٨٨١)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٤٤).

(٣) (١/ ٣٠٢، ٣٠٤).

الْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ. قَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِ «كَشْفِ عِلْمِ الْآخِرَةِ»: حَكَى بَعْضُ السَّلَفِ مِنْ أَهْلِ التَّصْنِيفِ، أَنَّ الْحَوْضَ يُورَدُ بَعْدَ الصِّرَاطِ، وَهُوَ غَلَطٌ مِنْ قَائِلِهِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هُوَ كَمَا قَالَ، ثُمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، بَلْ فِي الْأَرْضِ الْمُبَدَّلَةِ، أَرْضٍ بَيْضَاءَ كَالْفِضَّةِ، لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ، وَلَمْ يُظْلَمْ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدٌ قَطُّ، تَظْهَرُ لِنُزُولِ الْجَبَّارِ - جَلَّ جَلَالُهُ - لِفَصْلِ الْقَضَاءِ. انْتَهَى.

فَقَاتَلَ اللَّهُ الْمُنْكِرِينَ لِوُجُودِ الْحَوْضِ، وَأَخْلِقْ بِهِمْ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وُرُودِهِ يَوْمَ الْعَطَشِ الْأَكْبَرِ.

---

قال الشيخ:

في هذه الفقرة ملخّص صفة الحوض المورود من حيث طوله وعرضه، وأنّه مربّع وله أربع زوايا، كل زاوية منه مسيرةُ شهر، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن الذي هو في غاية البياض، وأحلى من العسل الذي هو أشدُّ الأشياء حلاوةً، وأطيبُ ريحًا من المسك، له رائحةٌ عبقةٌ طيّبةٌ، وذكر أيضًا أنّه ينبت في جوانبه وفي رضراضه من النّبات الذي يكون مبهجًا للنفوس؛ من اللؤلؤ والمرجان وأنواع الجواهر، منَّ الله به عليهم، إنّ الله على كل شيءٍ قدير. وأنّه يردهُ المؤمنون ويُذادُ عنه الكافرون والمكذّبون والمنافقون، وأنّه يكون قبل الميزان وقبل الصراط؛ وذلك لأن النّاس يبعثون من قبورهم حفاةً عراةً غُرْلًا بُهمًا، ويكونون في تلك الحال عطاشًا، شديدٌ عطشهم، فهم بحاجةٍ إلى ما

يدفعون به ذلك العطش، فيردون لينهلوا من الحوض، حتى إذا رووا بعد ذلك اطمأنّوا، عند ذلك يفصل بينهم، فتنصب الموازين، وينصب الصراط، وتوزن الأعمال، وتتطاير الصحف، ويُعرف بذلك أهل السعادة من أهل الشقاوة، حتى يفصل الله تعالى فيما بينهم.

والذين أنكروا هذه الأمور الواردة خليق بهم وحريّ بهم أن يحال بينهم وبين وروده كما أنّهم كذّبوه، وكما أنّ الذين كذّبوا برؤية الله تعالى خليق بهم أن يكونوا عن ربّهم محجوبين، كالذين أنكروا الأمور التي أخبر الله بها، وأخبر بها رسوله ﷺ، لا شكّ أنّهم مكذّبون لم يصدّقوا التصديق اللازم لهم، ولم يأتوا بما يجب عليهم، إنّما صدّقوا بما يناسب أهواءهم، والواجب على المسلم أن يصدّق بكل ما جاء من الله تعالى، سواءٌ أدركه عقله أو لا، فيكون بذلك حقًا من الذين يؤمنون بالغيب، ومن الذين يصدّقون رسله، ومن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَقٌّ، كَمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ.

---

قال الشارح:

الشَّفَاعَةُ أَنْوَاعٌ: مِنْهَا مَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَمِنْهَا مَا خَالَفَ فِيهِ الْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ.

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الشَّفَاعَةُ الْأُولَى، وَهِيَ الْعُظْمَى، الْخَاصَّةُ بِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرِهِمَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - أَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ.

مِنْهَا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَدُفِعَ إِلَيْهِ مِنْهَا الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ

الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى: فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، قَالَ: هَكَذَا هُوَ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ

رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ، مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَقُومُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] بِمَعْنَاهُ، وَاللَّفْظُ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ[2].

---

قال الشيخ:

هذا أيضًا من كرامات النبيّ ﷺ، وهو الإيمان بالشفاعة التي هي شفاعته لأهل الموقف في إراحتهم من ذلك الموقف، فيؤمن بذلك أهل السنّة، وقد أنكرت ذلك الخوارج والمعتزلة، وغلا بعض المشركين، وأثبتوا الشفاعة من دون إذن الله سبحانه وتعالى، وقول أهل السنّة هو الوسط، وهو أنه يشفع،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٢) في المسند (٢/ ٤٣٥).

وكذلك غيره، ولكن لا يشفع أحدٌ عند الله إلا بإذنه.

فالشفاعة عند الله تعالى في الآخرة بإذنه، ولهذا في هذا الحديث أنّه يقول: «اشْفَعْ تُشَفَّعْ»، فلا يُبدأ بالشفاعةِ أولًا حتى يأذن الله تعالى له بأن يشفع، وكذلك غيره من الأنبياء والملائكة، لا يشفعون إلا بعد إذن الله سبحانه وتعالى.

قال الشارح:

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ، مِنْ إِيرَادِ الْأَئِمَّةِ لِهَذَا الحَدِيثِ مِنْ أَكْثَرِ طُرُقِهِ، لَا يَذْكُرُونَ أَمْرَ الشَّفَاعَةِ الْأُولَى، فِي أن يَأْتِيَ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، كَمَا وَرَدَ هَذَا فِي حَدِيثِ الصُّورِ، فَإِنَّهُ المَقْصُودُ فِي هَذَا المُقَامِ، وَمُقْتَضَى سِيَاقِ أَوَّلِ الحَدِيثِ، فَإِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَى آدَمَ فَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَ النَّاسِ وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ مُقَامِهِمْ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ سِيَاقَاتُهُ مِنْ سَائِرِ طُرُقِهِ، فَإِذَا وَصَلُوا إِلَى الجَزَاءِ إِنَّمَا يَذْكُرُونَ الشَّفَاعَةَ فِي عُصَاةِ الْأُمَّةِ وَإِخْرَاجَهُمْ مِنَ النَّارِ.

وَكَانَ مَقْصُودُ السَّلَفِ فِي الِاقْتِصَارِ عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ مِنَ الحَدِيثِ هُوَ الرَّدُّ عَلَى الخَوَارِجِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا خُرُوجَ أَحَدٍ مِنَ النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهَا، فَيَذْكُرُونَ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ النَّصُّ الصَّرِيحُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْبِدْعَةِ الْمُخَالِفَةِ لِلْأَحَادِيثِ.

وَقَدْ جَاءَ التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ، وَلَوْلَا خَوْفُ الْإِطَالَةِ لَسُقْتُهُ بِطُولِهِ، لَكِنْ مِنْ مَضْمُونِهِ: «أَنَّهُمْ يَأْتُونَ آدَمَ ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَذْهَبُ فَيَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: الْفَحْصُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا شَأْنُكَ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ، فَشَفِّعْنِي فِي خَلْقِكَ، فَاقْضِ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: شَفَّعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَهُمْ، قَالَ: فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَعَ النَّاسِ، ثُمَّ ذَكَرَ انْشِقَاقَ السَّمَوَاتِ، وَتَنَزُّلَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْغَمَامِ، ثُمَّ يَجِيءُ الرَّبُّ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَالْكَرُوبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ يُسَبِّحُونَ بِأَنْوَاعِ التَّسْبِيحِ، قَالَ: فَيَضَعُ اللَّهُ كُرْسِيَّهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَرْضِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي أَنْصِتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَسْمَعُ أَقْوَالَكُمْ، وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، إِلَى أَنْ قَالَ: فَإِذَا أَفْضَى أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، قَالُوا: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا فَنَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؟ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَبِيكُمْ، إِنَّهُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ، وَكَلَّمَهُ قَبْلًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَذَكَرَ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ مُحَمَّدًا ﷺ.

إِلَى أَنْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَآتِي الْجَنَّةَ، فَآخُذُ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، ثُمَّ أَسْتَفْتِحُ، فَيُفْتَحُ لِي، فَأُحَيَّى وَيُرَحَّبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَنَظَرْتُ إِلَى رَبِّي ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَأْذَنُ لِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ لِي: ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي، قَالَ اللَّهُ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ ـ: مَا شَأْنُكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ، فَشَفِّعْنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: قَدْ شَفَّعْتُكَ، وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ». الْحَدِيثَ. رَوَاهُ الْأَئِمَّةُ: ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ[1]، وَالطَّبَرَانِيُّ[2]،

---

(١) (٢/ ٣٣٠)، (٣٠/ ١٨٦).

(٢) في الأحاديث الطوال (ص٢٦٦).

وَأَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيُّ[١]، وَالْبَيْهَقِيُّ[٢]، وَغَيْرُهُمْ[٣].

---

قال الشيخ:

ذكر العلماء أن أكثر أنواع الشفاعات التي اختصّ بها النبيّ ﷺ هي الشفاعة في يوم القيامة؛ لأجل إراحة الناس من طول الموقف، ولأجل فصل القضاء بينهم؛ وذلك لأنّ الموقف ـ الذي هو يوم القيامة ـ قد ذُكر من طوله ومن هوله، ومن ما يكون فيه من الغمّ والكرب، ومن العذاب والألم، ما الله تعالى به عليم، أما طوله: فقد ذكر الله أنّه كألف سنة مما تعدّون، وفي آية أخرى أنّ مقداره خمسون ألف سنة، ولعلّ ذلك لاختلاف تقديره عند الناس، أو في ظنّ الكثير من النّاس، لكنّه لا يحسّ بطوله أهل التوحيد، وأهل العقيدة، وأهل الأعمال الصالحة؛ وذلك لأنّهم ينعمون بذلك الموقف.

---

(١) في مسنده (٥/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) في شعب الإيمان (١/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٥٠): «هذا الحديث مشهور، وهو غريب جدًا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه ... وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، وقد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جدًا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقًا واحدًا، فأُنكر عليه بسبب ذلك».

كذلك من الهول الذي يناهم بالموقف شدّة الحرّ؛ كما ورد في حديث المقداد بن الأسود الذي رواه مسلم في «صحيحه»[1]، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشَّمْسُ يوم الْقِيَامَةِ من الْخَلْقِ حتى تَكُونَ منهم كَمِقْدَارِ مِيلٍ ... فَيَكُونُ الناس على قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ في الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ من يَكُونُ إلى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ من يَكُونُ إلى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ من يَكُونُ إلى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ من يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا».

كذلك أيضًا شدّة الهول الذي يشاهدونه من طول الموقف ومما هم فيه من الكرب، يقول بعضهم لبعض: ألا تطلبون من يشفع لكم حتى يريحكم الله من هذا الموقف، وحتى تتخلّصوا منه إمّا إلى جنّةٍ وإمّا إلى نار؟

فعند ذلك يطلبون من يشفع لهم، فذكر في الحديث أنّهم يأتون أولًا إلى أبيهم آدم ـ عليه السلام ـ وهو أبو البشر، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنّته، يعني: خصّك بهذه الخصائص، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه، ألا ترى إلى ما قد أصابنا، اشفع لنا إلى ربِّك، يعني ليريحنا من طول الموقف، فيعتذرُ آدم ـ عليه السلام ـ ويقول: وهل أخرجكم من الجنّة إلا ذنب أبيكم، فيعترف بأنّه أخطأ، وأنّه بسبب ذنبه أُخرج من الجنة، وقد كان من أهلها، لما أسكن فيها، وأخطأ تلك الخطيئة التي هي أكله من تلك الشجرة، أخرج منها إلى دار الشقاء، وهي دار الدنيا.

---

(١) برقم (٢٨٦٤).

وفي هذا تحذير من الأعمال السيِّئة التي تحرم من دخول الجنة، قال بعض السلف: آدم أخرج من الجنة بذنب واحد، وأنتم تعملون الذنوب وتكثرون منها، وترجون أن تدخلو معها الجنة.

ويقول بعضهم[1]:

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنَيْ رَاقِدِ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ
مَنَّيْتَ نَفْسَكَ ضَلَّةً وَأَلَجْتَهَا ... طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهُنَّ غَيْرُ قَوَاصِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرْكَ الجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

والحاصل: أنَّ أباهم آدم ـ عليه السلام ـ يعترف بخطيئته، ويعتذر عن الشفاعة، ويقول: كيف أشفع وأنا مذنب، ثمَّ يحيلهم إلى نبيّ الله نوح عليه السلام.

فيأتون إليه ويقولون: يا نوح أنت أول الرسل، بُعثت إلى أهل الأرض، وسمّاك اللهُ عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربِّك، ونوح ـ عليه السلام ـ له ميزةٌ وفضيلة، ولكن لم يقبل أن يشفع لهم تواضعًا، وتعلّل واعتذر بأنَّه قد دعا على قومِهِ بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، فاعتذر بذلك حيث دعا بهذه الدعوة، وأنَّه ما كان دعا إلَّا على الكفار والَّذين

(١) هذه الأبيات من شعر محمود الوراق، رواها بسنده أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤٠٤)، والخطيب البغدادي في الزهد والرقائق (ص٧٦).

يستحقّون الغرق، فاستجاب الله دعوته بإغراق أهلِ الأرض إلا أهل السفينة.

بعد نوح يأتون إلى إبراهيم ـ عليهما السلام ـ فيعتذر، ثم يأتون إلى موسى ـ عليه السلام ـ فيعتذر أيضًا، ثمّ إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فيعتذر، ثم يأتون إلى النبي محمد ﷺ، فعند ذلك يقول: «**أنا لها**»؛ فإذا التزم يشفع، سجد لربّه، ثم إذا أذن له ربُّه تكلّم بعدما يفتح الله عليه من المحامد ومن الثّناء ما لا يحسنه الآن، يعني: أنَّ الله يلهمه من تمجيد ربه، وتحميده، والثناء عليه، ما الله به عليم، فبعد ذلك يرغب إلى ربِّه أن يفصل بين العباد، وأن يريحهم من ذلك الموقف.

بعد ذلك يستجيب الله دعوته فيفصل بينهم، ويقول: «**إِنِّي أَنْصِتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَسْمَعُ أَقْوَالَكُمْ، وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ**»، فعند ذلك تنصب الموازين، وتنشر الدواوين، ويأتي دور الحساب، ويحاسب الله كلّ أحدٍ، ويتفرّق الكتاب، وتتطاير الصحف بالأيمان وبالشمائل، فآخِذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، فيُسعد الله أقوامًا ويشقي آخرين، يُسعد أهل الدين وأهل التقوى وأهل الصلاح، ويُشقي أهل الفساد وأهل الكفر والعناد.

بعد ذلك يكون ما أخبر الله من كونه يميز هؤلاء من هؤلاء، فتفرق عليهم أنوار، فيمشون بأنوارهم، فينطفئ نور المنافق ونور الكافر، ثمَّ يتأخَّر فيضرب بينهم بسورٍ له باب، وذلك تميّز وفصل بين أهل التقوى وأهل الشقاوة والعياذ بالله، ثم بعدما يتميّزون، ويركبون الصراط، ويسلكونه جسرًا

على متن جهنّم، يمرّون عليه بقدر أعمالهم، كما ذكر في بعض الأحاديث أنّه: «**أَدَقُّ من الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ من السَّيْفِ**»[١]، وأنّهم يسيرون عليه بأعمالهم، فمنهم من يمرّ عليه كالبرق، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمر كأجاود الخيل والرِّكاب، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، وعلى جنبي الصراط كلاليب مثل شوك السَّعدان[٢]، لا يعلم قدرها إلَّا الله تعالى، تخطف من أُمِرَت بخطفه، فناجٍ مسلَّم، ومخدوش، ومكدوس في النار تختطفه تلك الكلاليب، فإذا نجوا من الصراط وسلكوه، وكانوا قد وعدوا بأنَّهم يردون النار، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، قالوا: أين النار التي وعدنا الله أن نردّها؟ فيقال: إنّكم مررتم عليها وهي خامدة، يعني: مرّوا على الصراط وكان منصوبًا على متن جهنم، فإذا مرّ المؤمن لم يحسّ بلهبها، بل تقول: جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي، عند ذلك يوقفون على قنطرةٍ بين الجنّة والنار، ويقتصُّ من بعضهم لبعض مظالمُ كانت بينهم، فإذا هذّبوا ونُقّوا أُذِنَ لهم بدخول الجنّة، كما جاء في «صحيح البخاري»[٣]، ولا يدخلونها إلا بعد أن يشفع لهم نبيّنا ﷺ، وهذه من خصائصه ومميزاته.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢١): «السعدان: بفتح السين وإسكان العين المهملة، وهو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب».

(٣) برقم (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قال الشارح:

النَّوْعُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ مِنَ الشَّفَاعَةِ: شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي أَقْوَامٍ قَدْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَيَشْفَعُ فِيهِمْ لِيَدْخُلُوا الجَنَّةَ، وَفِي أَقْوَامٍ آخَرِينَ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ أَنْ لَا يَدْخُلُونَهَا.

النَّوْعُ الرَّابِعُ: شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ فِيهَا فَوْقَ مَا كَانَ يَقْتَضِيهِ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ. وَقَدْ وَافَقَتِ الْمُعْتَزِلَةُ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ خَاصَّةً، وَخَالَفُوا فِيمَا عَدَاهَا مِنَ المَقَامَاتِ، مَعَ تَوَاتُرِ الْأَحَادِيثِ فِيهَا.

النَّوْعُ الخَامِسُ: الشَّفَاعَةُ فِي أَقْوَامٍ أَنْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَيَحْسُنُ أَنْ يُسْتَشْهَدَ لِهَذَا النَّوْعِ بِحَدِيثِ عُكَاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ، حِينَ دَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1].

النَّوْعُ السَّادِسُ: الشَّفَاعَةُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ، كَشَفَاعَتِهِ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ عَذَابُهُ.

ثُمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «التَّذْكِرَةِ»[2] بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا النَّوْعِ: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]. قِيلَ لَهُ: لَا تَنْفَعُهُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، كَمَا تَنْفَعُ عُصَاةَ الْمُوَحِّدِينَ، الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) (١/ ٢٤٩).

النَّوْعُ السَّابِعُ: شَفَاعَتُهُ أَنْ يُؤْذَنَ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1] عَنْ أَنَسٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ».

النَّوْعُ الثَّامِنُ: شَفَاعَتُهُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ، مِمَّنْ دَخَلَ النَّارَ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ بِهَذَا النَّوْعِ الْأَحَادِيثُ. وَقَدْ خَفِيَ عِلْمُ ذَلِكَ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، فَخَالَفُوا فِي ذَلِكَ، جَهْلًا مِنْهُمْ بِصِحَّةِ الْأَحَادِيثِ، وَعِنَادًا مِمَّنْ عَلِمَ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى بِدْعَتِهِ.

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ تُشَارِكُهُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا.

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ تَتَكَرَّرُ مِنْهُ ﷺ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ.

وَمِنْ أَحَادِيثِ هَذَا النَّوْعِ: حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ[3]: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا مَعْبَدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَنَزِيُّ، قَالَ: اجْتَمَعْنَا وَنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ إِلَيْهِ، يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ، فَوَافَيْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى،

---

(١) برقم (١٩٦).

(٢) في المسند (٣/ ٢١٣).

(٣) برقم (٧٥١٠).

فَاسْتَأْذَنَّا، فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لَا تَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، جَاؤُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، لَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى، فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا، لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ».

قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ، قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ، وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ [وَهُوَ جَمِيعٌ][1] فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيهْ؟ فَحَدَّثَاهُ بِالْحَدِيثِ، فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيهْ؟ فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَا أَدْرِي، أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا؟ فَقُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا! مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثَكُمْ، قَالَ: «ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2].

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ عُثْمَانَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ»[3].

---

(١) لم ترد في الأصول، وهي عند البخاري، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٧٦): «أي: مجتمع العقل، وهو إشارة إلى أنه كان حينئذ لم يدخل في الكبر الذي هو مظنة تفرق الذهن وحدوث اختلاط الحفظ».

(٢) برقم (١٩٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٦٠): «هذا إسناد =

وَفِي الصَّحِيحِ[1] مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا، قَالَ: «فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»، الْحَدِيثَ.

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي الشَّفَاعَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

فَالْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى وَالْمُبْتَدِعُونَ مِنَ الْغُلَاةِ فِي الْمَشَايِخِ وَغَيْرِهِمْ: يَجْعَلُونَ شَفَاعَةَ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ عِنْدَ اللَّهِ كَالشَّفَاعَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الدُّنْيَا.

وَالْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ أَنْكَرُوا شَفَاعَةَ نَبِيِّنَا ﷺ وَغَيْرَهُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَيُقِرُّونَ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا ﷺ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ، وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ، لَكِنْ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ وَيَحُدَّ لَهُ حَدًّا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ[2]، حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «إِنَّهُمْ يَأْتُونَ آدَمَ، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنَّهُ عَبْدٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَذْهَبُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي

---

=

ضعيف لضعف علاق بن أبي مسلم، رواه البزار في مسنده من طريق عنبسة بإسناده، ولفظه: «أول من يشفع الأنبياء، ثم الشهداء، ثم المؤذن»، ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده الكبير: ثنا إسحاق ثنا أحمد بن يونس، فذكره بإسناده ابن ماجه ومتنه سواء».

(١) أخرجه مسلم (١٨٣).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيَّ، لَا أُحْسِنُهَا الْآنَ، فَيَقُولُ: أَيْ مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ فَأَسْجُدُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا». ذَكَرَ هَذا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

---

قال الشيخ:

هذه من أنواع الشفاعات التي خصَّ بها النبي ﷺ، وهي سبع:

**النوع الأوّل** ـ وهو أشهرها ـ: شفاعته لأهل الموقف أن يريحهم الله من طول الموقف، وأن ينزل الله ليفصل القضاء بينهم، حتى يدخل هؤلاء دارهم، وهؤلاء دارهم.

**النوع الثاني**: شفاعته في قومٍ تساوت حسناتهم وسيِّئاتهم في أن يدخلهم الله الجنة، وهم قومٌ لهم طاعاتٌ ومعاصٍ متساوية، كأنَّه لم يرجح ميزان هذا ولا هذا، ولكن كتب الله على نفسه: «**أَنَّ رَحْمَتِي سبقت غَضَبِي**»[1]، فيتلقّاهم الله برحمته، ويقبل فيهم شفاعة نبيّه، فيدخلهم الجنّة، مع أنّ لهم سيئات تساوي حسناتهم.

بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا حاسب العبد، فإنه يقتصُّ من سيئاته لحسناته، فإذا بقي له حسنةٌ واحدةٌ ضاعفها وأدخله بها الجنّة، كما في قوله

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، يعني: يجعلها أضعافًا مضاعفةً حتى يستحقّ بها الثواب.

**النوع الثالث**: شفاعتهُ ﷺ في قومٍ استحقّوا النار، وكأنَّهم من أهل التوحيد، ولكن معهم سيّئات وذنوب من الكبائر التي توعّد عليها بالعذاب، فيدخلون الجنّة بعدما أُمر بهم؛ لأن فضّل الله تعالى ورحمته تعمّ عباده الذين يشملهم اسمُ الإيمان، واسم التوحيد، واسم الاستجابة، فيشفع لهم لكونهم من أمّته، فيدخلون الجنّة.

**النوع الرابع**: الشفاعة لأهل الجنّة في أن يدخلوها، عندما يقفون عند أبواب الجنّة لا يدخلونها حتى يستفتح لهم النبي ﷺ، فأَوَّلُ من يستفتح باب الجنّة محمد ﷺ، وأوّل من يدخل الجنّة من الأمم أمّتهُ، فيقول خازن الجنّة: «بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»[1]، فهو يستأذن ويشفع إلى ربِّه في أن يفتح أبواب الجنّةِ، فيدخلها أهلها، ومع سعة أبواب الجنّة فقد ذكر أن للجنّة ثمانية أبواب، ولكن ما سعة الباب؟

ورد في الحديث: «أَنَّ ما بين مِصْرَاعَيْنِ من مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عليها يَوْمٌ وهو كَظِيظٌ من الزِّحَامِ»[2]، من كثرةِ من يدخل من تلك الأبواب الثمانية، الباب الواحد سعته مسيرة أربعين سنةً، ليس أربعين يومًا،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧) من حديث عتبة بن غزوان ﷺ.

ولا أربعين شهرًا، ما مقدار ذلك؟ الله أعلم بمنتهاه. ومع ذلك يأتي عليه يومٌ ـ الله أعلم بمقدار ذلك اليوم ـ وهو كظيظ من الزّحام من كثرة من يدخلُ من هذه الأمّة ومن غيرها.

**النوع الخامس**: شفاعته ﷺ لقومٍ أن يدخلوا الجنّة بغير حساب، ومنهم عُكَّاشة بن محصن ﷺ، لَمَّا قال النبيّ ﷺ: «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ من أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، قالوا: وَمَنْ هُمْ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «**هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ ولا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ فقال: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، قال: «**أَنْتَ مِنْهُم**»[1]، يعني: كأنه شفع له أن يكون من الذين يدخلون الجنّة بغير حساب، ومنهم أيضًا غيره.

**النوع السادس**: الشفاعة لقوم من أهل الجنّة، ولكن مراتبهم نازلة، فيشفع لهم أن ترفع مراتبهم، وأن يُعطوا أجرًا، وأن يزاد لهم في الثواب، وفي مضاعفةِ الجزاء، وهذا النوع من الشفاعة اعترفت به المعتزلة، الذين أنكروا بقية الشفاعة؛ وذلك لأنّهم إنّما أنكروا الشفاعة لمن يُخْرَج من النّار أو من يستحقُّ النّار، أمّا أهل الجنّة، فأقرّوا بأنّه يكون فيها شفاعة في رفع المنازل ونحوها.

**النوع السابع** ـ وهو آخر الشفاعة الخاصّة به ﷺ ـ: الشفاعة في قومٍ استحقّوا النّار ودخلوها في أن يخفف عنهم من عذابها، ومن ذلك شفاعته لعمّه أبي طالب أن يخفّف الله عنه من العذاب، ذكر في الحديث أنّه يستحقّ أن يكون في الدّرك

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٣).

الأسفل من النار؛ لأنّه عرف التوحيد ولكنّه لم يقبله، وعرف صِدق النبيّ ﷺ ولكنّه لم يتّبعه، ولكن بسبب نصرته للنبيّ ﷺ وحمايته له، وبسبب أنّه مكّنه من أن يدعو إلى الله، وقال له: صرِّح بما تريد فأنا أنصرك، فنصره وآواه حتّى بلّغ الرسالة، ولم يتجرّأ المشركون على النيل من النبيّ ﷺ في حياة أبي طالب، فخفف عنه العذاب بسبب نصرته للنبي ﷺ، فأصبح في ضحضاح من نار، ولكن ليس ذلك بهيّن، بل قد ذكر أن ذلك الضحضاح يغلي منه دماغه، ويرى أنّه لا أحد أشدّ منه عذابًا، وهو أخفّهم، وقد ورد في الحديث: «**أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أبو طَالِبٍ، وهو مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ**»(١)، وفي رواية: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يوم الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ في ضَحْضَاحٍ من النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي منه أُمُّ دِمَاغِهِ**»(٢). ومن شدّةِ حرارة هذا النعل يحمى جسده كلّه، حتى إنّ دماغه يكون له غليانٌ من شدّة حرّه، ما يرى أنّ أحدًا أشدّ عذابًا منه، وإنّه لأخفّهم.

نأخُذُ من هذه الأنواع ميزةً وفضيلةً لنبيّنا ﷺ، حيث خُصَّ بأنّه الذي يشفع هذه الأنواع من الشفاعات، يعني: الشفاعةُ العظمى التي هي لإراحة النّاس من الموقف، والشفاعةُ الثانيةُ التي هي في قومٍ تساوت حسناتهم وسيّئاتهم أن يدخلوا الجنّة، والشفاعة الثالثة التي في قومٍ استحقّوا النّار أو أُمِر بهم إلى النار؛ أن لا يدخلوها، والشفاعة الرابعة التي هي في أهل الجنّةِ؛ أن يفتح لهم، ولمن

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

يدخلوها، والشفاعة الخامسة التي هي في بعض أهل الجنّة؛ أن تُرفع مراتبهم، وأن يزاد في ثوابهم، والشفاعة السادسة: التي في قومٍ أن يدخلوا الجنّة بغير حسابٍ، والشفاعة السابعة في بعض أهل النار أن يخفّف عنهم.

هذه أنواع من الشفاعة خاصّة بالنبيّ ﷺ، وبقيت نوعٌ من الشفاعة ليس خاصًّا به ﷺ، بل يشفع غيره من الملائكةِ والأنبياء والشهداء.

قال الشارح:

وَأَمَّا الِاسْتِشْفَاعُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ، فَفِيهِ تَفْصِيلٌ: فَإِنَّ الدَّاعِيَ تَارَةً يَقُولُ: بِحَقِّ نَبِيِّكَ أَوْ بِحَقِّ فُلَانٍ، يُقْسِمُ عَلَى اللَّهِ بِأَحَدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَهَذَا مَحْذُورٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَقْسَمَ بِغَيْرِ اللَّهِ.

وَالثَّانِي: اعْتِقَادُهُ أَنَّ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ حَقًّا.

وَلَا يَجُوزُ الحَلِفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ حَقٌّ إِلَّا مَا أَحَقَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِمُعَاذٍ ﷺ، وَهُوَ رَدِيفُهُ: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ». فَهَذَا حَقٌّ وَجَبَ بِكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ، لَا أَنَّ الْعَبْدَ نَفْسَهُ مُسْتَحِقٌّ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا كَمَا يَكُونُ لِلْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى الْعِبَادِ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَحَقُّهُمُ الْوَاجِبُ بِوَعْدِهِ هُوَ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ، وَتَرْكُ تَعْذِيبِهِمْ مَعْنًى لَا يَصْلُحُ أَنْ يُقْسَمَ بِهِ، وَلَا أَنْ يُسْأَلَ بِسَبَبِهِ وَيُتَوَسَّلَ بِهِ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ هُوَ مَا نَصَبَهُ اللَّهُ سَبَبًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

وَكَذَلِكَ الحَدِيثُ الَّذِي فِي «المُسْنَدِ»[1] مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي قَوْلِ المَاشِي إِلَى الصَّلَاةِ: «أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ»، فَهَذَا حَقُّ السَّائِلِينَ، هُوَ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ الَّذِي أَحَقَّ لِلسَّائِلِينَ أَنْ يُجِيبَهُمْ، وَلِلْعَابِدِينَ أَنْ يُثِيبَهُمْ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ[2]:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الوَاسِعُ

فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِ الدَّاعِي: (بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ)، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: (بِحَقِّ نَبِيِّكَ)، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؟ فَالجَوَابُ: أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: (بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ) أَنَّكَ وَعَدْتَ السَّائِلِينَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَنَا مِنْ جُمْلَةِ السَّائِلِينَ، فَأَجِبْ دُعَائِي، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: بِحَقِّ فُلَانٍ فَإِنَّ فُلَانًا وَإِنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ، فَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ إِجَابَةِ دُعَاءِ هَذَا السَّائِلِ. فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لِكَوْنِ فُلَانٍ مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ أَجِبْ دُعَائِي! وَأَيُّ مُنَاسَبَةٍ فِي هَذَا وَأَيُّ مُلَازَمَةٍ؟ وَإِنَّمَا هَذَا مِنَ الِاعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ المُبْتَدَعَةِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا عَنِ الصَّحَابَةِ، وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا فِي الحُرُوزِ وَالهَيَاكِلِ الَّتِي يَكْتُبُ بِهَا الجُهَّالُ وَالطُّرُقِيَّةُ.

---

(١) (٣/ ٢١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٣٩)، وبدائع الفوائد (٢/ ٣٩٠).

وَالدُّعَاءُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، وَالْعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى السُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ، لَا عَلَى الْهَوَى وَالِابْتِدَاعِ.

---

قال الشيخ:

ها هنا ردٌّ على الذين يسألون الله تعالى بحقّ المخلوقين، ويقولون: إنّ المخلوق إذا كان مقرّبًا عند الله، فله منزلة ورفعةٌ، وله حقّ على الله، كالأنبياء والأولياء والصالحين. وهذا - كما قال الشارح - اعتداءٌ في الدعاء، والله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، والمعتدون في الدعاء: هم الذين يدعون بإثمٍ، أو يدعون بذنبٍ أو بشيءٍ لم يُشرع لهم، وهذا لم ينقل عن النبيّ ﷺ، ولا عن صحابته أنّهم سألوا بحقّ مخلوق، أو توسّلوا بحقّ مخلوق، لا بحقّ فلان، ولا بجاه فلان، ولا غير ذلك؛ فالمحذور فيه حَلِفٌ بحقّ مخلوق، والحلف بغير الله شرك.

وقد ثبت أنّ النبيّ ﷺ قال: «من حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أو أَشْرَكَ»[1]، فإذا قال: بحقّ فلانٍ، أو بالنبيّ، أو بالوليّ، أو بجاه فلان، أو بشرفي، أو بحياتي، أو بحياتك يا فلان، أو ما أشبه ذلك على وجه التأكيد؛ كان قد حلف بمخلوقٍ، فيكون هذا تعظيمًا لذلك المحلوف به، والنبيّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ٣٤، ٦٩)، وابن حبان (١٠/ ١٩٩)، والحاكم (١/ ١٨)، والبيهقي (١٠/ ٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بِاللَّـهِ أو لِيَصْمُتْ»[1]، وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إلا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إلا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»[2].

فأمرنا أن نتجنَّب الحلف بالآباء؛ كما كان المشركون يحلفون بآبائهم أو بأمّهاتهم، أو بأصنامهم، في قولهم: واللات والعزّى... ونحو ذلك، وفي الحديث قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ بِاللَّاتِ، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إلا الله»[3]؛ كأنّه أشرك فأُمر بأن يجدّد التّوحيد لِيُبطل الاعتقاد بأن اللات والعزّى معظّمةٌ، أو أنّها تستحقّ التعظيم، فكذلك إذا حلف بالوليّ فلان، أو بعليّ، أو بحسن، أو بحسين، أو بعيدروس، أو بابن علوان، أو بكذا وكذا... فإنّ هؤلاء مخلوقون لا يجوز الحلف بهم.

كذلك سؤال الله تعالى بحقّ المخلوقين، أو بجاه المخلوقين، هذا أيضًا شرك؛ وذلك لأنه ليس لأحد حقٌّ على الله تعالى إلا ما أحقّه على نفسه.

يتكرر في كتب القبوريين وعلى ألسن دعاتهم حديثٌ مكذوب يقولون: إنَّ النبيّ ﷺ قال: (إذا سألتم اللهَ فاسألوه بجاهي، فإنّ جاهي عند الله عظيم)، هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبوداود (٣٢٤٨)، والنسائي (٣٧٦٩)، وابن حبان (١٠/ ١٩٩)، والبيهقي (١٠/ ٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وعلقه البخاري جازمًا به (بَاب من حَلَفَ بِمِلَّةٍ سِوَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ) قبل حديث رقم (٦٦٥٢).

حديث مكذوب لا أصل له[١]، ما قاله النبيّ ﷺ، وحاشاه أن يأمر بأن يسألوا الله بجاهِهِ، وهو الذي يحب التواضع، والذي يعرف ربّه، وأنّ ربّه هو الذي يستحقّ التعظيم، فكيف يقول: اسألوا الله بجاهي فإنّ جاهي عند الله عظيم؟

فإذًا الذين يقولون: أسألك بجاه نبيّك، أو بحقّ نبيّك، أو بحقّ الوليّ فلان، أو بجاه الوليّ فلان، هؤلاء قد أشركوا؛ لأنّهم عظَّموا هذا المخلوق وحلفوا به، وجعلوا له حقًا على الله، ومعلوم أنَّ الله تعالى هو الذي يتفضّل على العباد، وليس أحدٌ يملك من الله شيئًا، وليس على الله حقّ لأي مخلوق، بل هو الذي له الحق عليهم.

أمّا حديث معاذ ﷺ الذي ذكره الشارح، فالحقّ فيه حقّ تفضّلٍ، حقّ تكرّم. وقوله ﷺ: «**حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، هذا حقّ وجوب، فعلى العباد كلّهم حقٌّ لله تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأما حقّ العباد على الله أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئًا، فهذا ليس حقّ وجوب، بل هو حقّ تفضُّل وتكرُّم؛ وذلك لأنّه هو الذي وفَّقهم وأنعم عليهم، ثم هو وعدهم، وهو لا يخلف الميعاد، فقد وعد ـ سبحانه وتعالى ـ مَنْ وحَّده أنه يثيبه وينعّمه، وأنّه لا يعذّبه إذا فعل التوحيد الصحيح الصادق.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في التوسل والوسيلة (ص١٢٩): «هذا الحديث كذب، ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين».

وإذا كان كذلك، فليس خاصًّا بنبيٍّ ولا بوليٍّ ولا بغيره. يقالُ: إذا كانَ للنبيّ ﷺ حقٌّ على الله، فأنت كذلك لك أن توحِّد الله ولا تشرك به شيئًا، ولا تلتفت بقلبك إلى أي مخلوق، ولا تتعلّق على سيِّد، ولا على وليٍّ، ولا على شفيع، ولا على غيرهم، تعلّق بربِّك حتّى يرحمك، ويُنعّمك، ولا يعذّبك؛ فبذلك تكون من الذين استحقّوا هذا على الله حقّ تكرّم.

والبيت الذي ذكر يؤيّد أنّ هذا حقّ تكرّم وهو قولهم:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الوَاسِعُ

فيقول هذا الشاعر: إنَّ العباد ليس لهم على الله حقٌّ، يعني: حقًّا واجبًا، وأنّ سعيهم وأعمالهم الصالحة لا تضيع، بل هي محفوظة يحصيها الله ثم يوفّيهم أجورهم، فمن وجد خيرًا فليحمدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلاَّ نفسه، فهذا حقٌّ تكرّم، وإن عُذِّبوا فبعدله، ولا يعذّبهم ظلمًا، إنّما يعذّبهم عدلًا؛ لكونهم يستحقّون العذاب، وإذا نُعِّموا فبفضله، يعني: هو الذي تفضّل عليهم وهداهم، فهدايته لهم نعمة، لو أن الله تعالى عذّب أهل سمٰواته وأهل أرضه لعذّبهم وهم يستحقّون العذاب، ولا يكون ظالمًا لهم، ولو أنّه أنعم عليهم لكانت نعمته عليهم أفضلَ من أعمالهم.

أما الحديث الذي يكثر ما يستدلّ به القبوريون، وهو الحديث الذي روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ:

**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّ ممشاي، فإني لم أَخْرُجْ أَشَرًا وَلاَ بَطَراً وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، أَسْأَلُكَ أن تنقذني مِنَ النَّارِ وأن تَغْفِرَ لي ذنوبي، إنه لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الا أنت»**[1].

والجواب: أوّلًا أنّ هذا الحديث فيه ضعفٌ؛ لأن في إسناده عطيّة بن سعد العوفي، وهو ضعيف. ثم على تقدير صحته لا دلالة فيه، فليس معنى حقّ السائلين، يعني جاههم، وجاهُ النّاس كلهم سواءٌ، ولو كان كذلك لقال: أسألك بحقّ النبيّين، أو بحقّ الأولياء، أو بحقّ فلانٍ من الأولياء؛ كعبد القادر، أو البدوي أو نحوه...، ولكن قال: بحقّ السائلين، وما هو حقُّ السائلين؟ هو ما وعد الله من سأله بالثّواب، حقّ السائلين على الله أن يجيبهم، وحق العاملين أن يثيبهم، فهذا هو حقّهم الذي يسألون الله به، فكأنّك تقول: ياربّ أسألك بما جعلته حقًّا على نفسك لمن سألك أن تجيبه، فأنا من جملةِ السائلين، فأجب سؤالي وأثبني على أعمالي، ذلك لَمَّا كان هذا حقَّ السائلين كلهم، كنت أنت من السائلين، يقول: يا ربّ! أنا من جملة السائلين، وقد جعلت للسائلين عليك حقًّا بقولك: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وبقولك: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وأنا من السائلين، فأسألك بما جعلته حقًّا على نفسك، وبما وعدت السائلين أن تجيبهم.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٤).

أين من ذلك التوسُّل بالجاه؟ أين هو هنا التوسُّل بحقِّ المخلوق؟ ليس فيه توسّل بحقّ مخلوق. إذًا فكيف يتعلّق بهذا القبوريون الذين يدْعون فلانًا وفلانة، ويقولون: إنّ هؤلاء من جملةِ الذين أُمِرنا بأن نتوسّل بحقِّهم، وأن نسأل الله بحقّهم، فلا يُغْتَرُّ من يستدلّ بهذا الحديث على أنّه دليلٌ في جواز السؤال بحقِّ الأموات، أو بحقّ الأولياء، أو غير ذلك. فليس فيه أيضًا أيّ دليل.

وقد أورد العلماء هذا الحديث في الردِّ على من استدلَّ به من القبوريين، الذين جعلوه طعنًا على الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ الذي يمنع من السؤال بحقِّ المخلوق وجاهه أيًّا كان؛ فكلّ من دعا مع الله أحدًا أشرك بالله ولو محمَّدًا. فيقولون: هذا دليلٌ على أنّه يجوز السؤال بحقِّ المخلوق، أين فيه السؤال بحقّ مخلوق؟ إنّما فيه سؤال بما جعل الله، يعني: كأنه يقول: أنت وعدت السائلين أن تجيبهم، وأنا من جملةِ السائلين فأجب سؤالي، فلا دلالة فيه على شيء مما يتعلَّقون به.

قال الشارح:

وَإِنْ كَانَ مُرَادُهُ الْإِقْسَامَ عَلَى اللَّهِ بِحَقِّ فُلَانٍ، فَذَلِكَ مَحْذُورٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْإِقْسَامَ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ لَا يَجُوزُ، فَكَيْفَ عَلَى الْخَالِقِ؟! وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»[1]. وَلِهَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَصَاحِبَاهُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ: يُكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الدَّاعِي: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ فُلَانٍ، أَوْ بِحَقِّ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَبِحَقِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. حَتَّى كَرِهَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعْقِدِ الْعِزِّ مِنْ عَرْشِكَ، وَلَمْ يَكْرَهْهُ أَبُو يُوسُفَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لَمَّا بَلَغَهُ الْأَثَرُ فِيهِ.

وَتَارَةً يَقُولُ: بِجَاهِ فُلَانٍ عِنْدَكَ، يَقُولُ: نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَأَوْلِيَائِكَ، وَمُرَادُهُ أَنَّ فُلَانًا عِنْدَكَ ذُو وَجَاهَةٍ وَشَرَفٍ وَمَنْزِلَةٍ، فَأَجِبْ دُعَاءَنَا. وَهَذَا أَيْضًا مَحْذُورٌ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ التَّوَسُّلَ الَّذِي كَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَهُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لَفَعَلُوهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَوَسَّلُونَ فِي حَيَاتِهِ بِدُعَائِهِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُمْ، وَهُمْ يُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَائِهِ، كَمَا فِي الِاسْتِسْقَاءِ وَغَيْرِهِ. فَلَمَّا مَاتَ ﷺ قَالَ عُمَرُ ﷺ ـ لَمَّا خَرَجُوا يَسْتَسْقُونَ ـ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا»[2]. مَعْنَاهُ: بِدُعَائِهِ هُوَ رَبَّهُ وَشَفَاعَتِهِ وَسُؤَالِهِ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّا نُقْسِمُ عَلَيْكَ بِهِ، أَوْ نَسْأَلُكَ بِجَاهِهِ عِنْدَكَ؛ إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ مُرَادًا لَكَانَ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٠١٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

جَاهُ النَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ مِنْ جَاهِ الْعَبَّاسِ.

وَتَارَةً يَقُولُ: بِاتِّبَاعِي لِرَسُولِكَ، وَمَحَبَّتِي لَهُ، وَإِيمَانِي بِهِ، وَبِسَائِرِ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَتَصْدِيقِي لَهُمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّوَسُّلِ وَالِاسْتِشْفَاعِ.

فَلَفْظُ التَّوَسُّلِ بِالشَّخْصِ وَالتَّوَجُّهِ بِهِ فِيهِ إِجْمَالٌ، غَلِطَ بِسَبَبِهِ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ: فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ التَّسَبُّبُ بِهِ لِكَوْنِهِ دَاعِيًا وَشَافِعًا، وَهَذَا فِي حَيَاتِهِ يَكُونُ، أَوْ لِكَوْنِ الدَّاعِي مُحِبًّا لَهُ، مُطِيعًا لِأَمْرِهِ، مُقْتَدِيًا بِهِ، وَذَلِكَ أَهْلٌ لِلْمَحَبَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ، فَيَكُونُ التَّوَسُّلُ إِمَّا بِدُعَاءِ الْوَسِيلَةِ وَشَفَاعَتِهِ، وَإِمَّا بِمَحَبَّةِ السَّائِلِ وَاتِّبَاعِهِ، أَوْ يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ وَالتَّوَسُّلُ بِذَاتِهِ، فَهَذَا الثَّانِي هُوَ الَّذِي كَرِهُوهُ وَنَهَوْا عَنْهُ.

---

قال الشيخ:

ذُكِر الدليل على أنّه لا يجوز الإقسام بمخلوق على الله تعالى، في «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، باب ما جاء في الإقسام على الله، والإقسام على الله معناه: إلزام الله تعالى بشيء؛ كأن يقول: أقسمتُ عليك يا ربّ أن تفعل كذا، ولا شكَّ أنّ هذه جرأة كبيرة على الله، كيف تُلزم ربَّك بشيء؟ وكيف تقسم عليه بأن يفعل شيئًا وهو الذي يتصرّف في العباد، وما ورد في ذلك إنّما هو على وجه المثل، الحديث الذي يقول فيه ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ

بِالْأَبْوَابِ لو أَقْسَمَ على اللهَ لَأَبَرَّهُ »[1]، هذا بيانٌ أنّ هنالك من هو متواضعٌ لله تعالى، لو قُدِّر أنَّه طلب من ربِّه وألحَّ في طلبه لأجاب دعوته، ولكن ليس فيه أنّكم تقسمون على الله؛ فتقول: أقسمت عليك أن تنزل المطر، أقسمت عليك أن تشفي المريض، أقسمت عليك أن تنبت النبات، فهذا لا يجوز؛ لما فيه من إلزام الربِّ سبحانه بما لا يملكه العبد، فالعبد لا يملك إلا الدعاء، فيسأل ربّه ما يحبّه، يقول: يا ربّ نحن الفقراء وأنت الغني فأنزل علينا غيثك، يا ربّ نحن المذنبون وأنت العفوُّ، فاعفُ عنَّا، وما أشبه ذلك، وهذا المراد بالنهي عن الإقسام على الله.

ومن أراد التوسُّع في الأدلّة، فليقرأ في شرح الباب الذي ذكرنا في آخر كتاب التوحيد، وكذلك في «شرح فتح المجيد»، و«تيسير العزيز الحميد»، باب ما جاء في الإقسام على الله تعالى.

أما سؤال الله تعالى بحقّ مخلوق، فإنّ هذا أيضًا لا يجوز، وأنّ المخلوق ليس له أيُّ حقٍّ على الله، ولكن قد يكون السائل أراد بذلك محبَّة ذلك العبد، فيكون سأل الله تعالى وتوسّل إليه بعمل صالح، والتوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة من الأسباب الجالبة لإجابة الدعاء ولقبوله. وقد ذُكر لذلك أمثلة، فمثلًا إذا قلت: يا ربِّ، أسألك بأنّي عبدك الذليل، أسألك بأني مصدِّق بوعدك ووعيدك، أسألك بما عملته لك من الصالحات، فهذه توسّلات مباحة يرجى بذلك قبول الدعاء بها، وكذلك إذا توسّلت بمحبّة أولياء الله، فإن ذلك فيه أيضًا وسيلة لإجابة الدعاء،

---

(١) اخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

كأن تقول: أسألك بأنّي أحبُّك، وأحبُّ نبيَّك، وأحبُّ عبادك الصالحين، أسألك بمحبَّتي لك، ومحبَّتي لهم أن تجيب دعوتي، أو أن تقيل عثرتي، أو ما أشبه ذلك، أو أن تقول: أسألك بإيماني بك، وتصديقي لنبيّك، واتّباعي لشريعته، وإيماني بما جاء به، وتصديقي بكتابك وعملي به، ونحو ذلك، تتوسّل إلى الله تعالى بأعمال خيريّة، والله تعالى يحبُّ من هو أهلٌ للإجابة، إذا كان صادقًا فيما قاله بقلبه، أو فيما قاله بلسانه.

فمثلًا إذا دعوت وقلت: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما صَنَعْتُ...**»[1]، يعني: توسّلت بأنّك ملتزم بعهد الله ووعده ما استطعت، فذلك من الأسباب.

كذلك إذا قلت: أسألك أن ترزقني عملًا صالحًا أكون به محبوبًا لك، وما أشبه ذلك، هذه أدعية نبويّة وأدعية فيها توسُّل بأعمال صالحة ودعاء بالأعمال الصالحة أو بالتوفيق لها.

ولم يرد عن السلف - رحمهم الله - أنهم قالوا في دعائهم: أسألك بحقِّ فلان، أو بحقِّ عبد القادر، أو بحقِّ السيِّد البدوي، أو بحقِّ ابن عباس، أو ما أشبه ذلك.

أما ما ورد من توسُّل عمر بالعباس - رضي الله عنهما - والذي كثيرًا ما يستدلّ به القبوريون، فيقولون: كيف تعيبون علينا أن نتوسّل بالصالحين، وهذا عمر توسَّل بالعبّاس؟ نقول: تأمّلوا قصة عمر ﷺ حتى تعرفوا ما فعله وما فعلتموه،

---

(١) أخرجه البخاري (٦: ٦٣) من حديث شداد بن أوس ﷺ.

والفرق الكبير بين فعلكم وفعله.

فعمر ﷺ لما أصابه الجدب، كان العباس بن عبد المطلب ﷺ: أولًا: كبير السنّ، وثانيًا: تقيًّا زاهدًا، وثالثًا: قريب الصلة بالنبيّ ﷺ، فلأجل هذه الأسباب قدَّمه ليدعو، فقال عمر: «**اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِيَنَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا**»، يعني: نتوسّل بدعائه، هو حيّ بين أيديهم، وقدّموه ليؤمّنوا على دعائه، وليسأل الله تعالى، فكأنهم يقولون: اللّهمَّ تقبَّل دعاءه، فإنّه من عبادك الصالحين.

وهذا يجوز في كل حالٍ وفي كل وقت، فإذا خرجنا مثلًا نستسقي، ونطلب الغيث، جاز لنا أن نختار أتقانا ونقدِّمه، ونأمره بأن يدعو، ونؤمِّن على دعائه، فإنّه أولى وأقرب إلى إجابةِ دعائنا، ونقول: يا ربّنا، هذا عبدك الصالح قدَّمناه، ونحن نؤمِّن على دعائه، نسألك أن تجيب دعوته لنا، نسألك أن ترحمنا بدعائه وبدعائنا، هذا ليس فيه محذور.

هؤلاء القبوريّون يتوسَّلون بالأموات، فلو كان جائزًا لما عدل عمر ﷺ إليه عن النبيّ ﷺ، ولا عن أبي بكر ﷺ، كيف يعدلُ عنهما وهما أفضلُ من العباس ﷺ، ولَـمَّا عدل عنهما إلى العباس ﷺ دلَّ أنّه استقرّ في علمه أنّه لا يجوز التوسُّل بالأموات، ولا بالغائبين، حتى ولو كانوا أنبياء أو أولياء، أو شهداء أو صالحين. ومعلوم أن حمزة بن عبد المطلب أفضل من العباس، وأقدمُ منه إسلامًا، وقُتل شهيدًا في سبيل الله، وهو مقبورٌ عندهم بالمدينة، فلماذا لم يذهبوا إلى قبره؟ ولماذا لم يتوسّلوا به ويقولون: نتوسّل إليك بحمزة بن عبد المطلب؟ ولماذا لم يأتوا إلى قبر

النبيّ ﷺ ويقولوا: يا محمَّد، استسقِ لنا؟!

فإذًا لا دِلالة في أنه يجوز الاستسقاء بالوليّ الميت، أو الولي الغائب، بخلاف الحيِّ السويِّ الحاضر، الذي يدعو ويؤمِّنون على دعائه، ويسألون ربَّهم أن يجيب دعاءهم معه، فهذا لا محذور فيه، وهو الذي فعله عمر مع العباس رضي الله عنهما.

وقد رأينا وقرأنا لكثير من القبوريين الذين يؤيِّدون دعاء المخلوق أو التوسُّل بالمخلوق الميت، كالنّبهاني مثلًا في كتابه الذي يُسمّى «شواهد الحقِّ»، وكذلك ابن علوي المالكي، وغيرهم الذين يوالون في دعاء الأموات، أو يزيّنونه؛ يقولون: إنّ عمر ﷺ عدل عن النبيِّ ﷺ مخافة أنَّهم إذا لم يُجابُوا بدعائه وبتوسّله يسوء ظنّهم فيه، ويكذّبونه، ويدّعون أنّه لا يُستجاب دعاؤه، ويدّعون أنَّه لا ينفعُ التوسّل به، وما أشبه ذلك من التلفيقات، هكذا يتعلّل النبهاني ومن شاكلَه، ونقول لهم: إذا كان كذلك في عهد عمر، فلماذا لا يكون هذا في عهدكم؟ لماذا لا تعدلون عنه؟ لماذا تعدلون عن الأحياء إلى الأموات؟ ألا تخافون أنّكم إذا طلبتم النبيّ ولم يُسْتَجَبْ دُعاؤكم، أنَّ النّاس وكذلك العامَّة يسيئؤون الظنَّ بالنبيِّ ﷺ، ويقولون: إنّه لا يستجابُ دُعاؤه؟ فإذا كان محذورًا في عصر عمر ﷺ فهو محذور في عهدكم.

وعلى كل حال، فلا يُغترَّ بما يلفِّقونه مما يستدلُّون به على أنّه يجوزُ دعاء الأموات، أو التوسُّل بهم، أو الاستشفاع بهم، ويستدلّون بهذه ولا دلالة فيها.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ السُّؤَالُ بِالشَّيْءِ، قَدْ يُرَادُ بِهِ التَّسَبُّبُ بِهِ، لِكَوْنِهِ سَبَبًا فِي حُصُولِ المَطْلُوبِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ.

وَمِنَ الْأَوَّلِ: حَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَوَوْا إِلَى الْغَارِ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّ الصَّخْرَةَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَتَوَسَّلُوا إِلَى اللَّهِ بِذِكْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الخَالِصَةِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ. فَهَؤُلَاءِ: دَعَوُا اللَّهَ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ هِيَ أَعْظَمُ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ، وَيَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَيْهِ، وَيَسْأَلُهُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ وَعَدَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَتْ كَالشَّفَاعَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ، فَإِنَّ الشَّفِيعَ عِنْدَ الْبَشَرِ كَمَا أَنَّهُ شَافِعٌ لِلطَّالِبِ شَفَّعَهُ فِي الطَّلَبِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ صَارَ شَفْعًا فِيهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ وِتْرًا، فَهُوَ أَيْضًا قَدْ شَفَعَ المَشْفُوعَ إِلَيْهِ، وَبِشَفَاعَتِهِ صَارَ فَاعِلًا لِلْمَطْلُوبِ، فَقَدْ شَفَّعَ الطَّالِبَ وَالمَطْلُوبَ مِنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى وِتْرٌ، لَا يَشْفَعُهُ أَحَدٌ، فَلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ بِوَجْهٍ.

فَسَيِّدُ الشُّفَعَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى، فَقَالَ لَهُ اللَّهُ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاسْأَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَيَحُدُّ لَهُ حَدًّا فَيُدْخِلُهُمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الجَنَّـةَ»[1]، فَـالْأَمْرُ كُلُّـهُ لِلَّـهِ، كَـمَا قَـالَ تَعَـالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَإِذَا كَانَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلَكِنْ يُكْرِمُ الشَّفِيعَ بِقَبُولِ شَفَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا يَشَاءُ»[2].

وَفِي «الصَّحِيحِ»[3] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

وَفِي «الصَّحِيحِ»[4] - أَيْضًا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ شَاةٌ لَهَا يُعَارٌ، أَوْ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: أَغِثْنِي أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ».

فَإِذَا كَانَ سَيِّدُ الخَلْقِ وَأَفْضَلُ الشُّفَعَاءِ يَقُولُ لِأَخَصِّ النَّاسِ بِهِ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ؟ وَإِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي، وَشَفَعَ عِنْدَهُ الشَّفِيعُ، فَسَمِعَ الدُّعَاءَ، وَقَبِلَ الشَّفَاعَةَ، لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ المُؤَثِّرُ فِيهِ كَمَا يُؤَثِّرُ المَخْلُوقُ فِي المَخْلُوقِ،

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فَإِنَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَذَا يَدْعُو وَيَشْفَعُ، وَهُوَ الخَالِقُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ الْعَبْدَ لِلتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَثَابَهُ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ، وَهَذَا مُسْتَقِيمٌ عَلَى أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَدَرِ، وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

---

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلق بقولِ الإنسان أسألك بكذا، فإذا كان الذي سألت به عملًا صالحًا فهو وسيلة، والله تعالى قد أمر بها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، أي: اجعلوا بينكم وبينه وسيلة، والوسيلةُ: ما يوصل إليه، وقد فُسِّرت بأنَّها الأعمال الصالحة، يتوصَّل بها العبد إلى ثواب ربِّه وعظيم أجره.

فإذًا أنت تقولُ ـ مثلًا ـ: أسألك ياربِّ بحقِّ أعمالي، أو بحقِّ إيماني، أو بحقِّ تصديقي، فتجعلُ ذلك وسيلة تُقربك إلى رضى الله، فهذا جائز، وإذا قلت ـ مثلًا ـ: أسألك بإيماني بنبيِّك، أو بمحبَّتي لك، أو بمحبَّتي لعبادك الصالحين، فأنت تتوسَّل بأعمالك الصالحة، فهذا أيضًا توسُّل بأعمالٍ صالحةٍ عملتَها تكون سببًا في فوزك وسعادتك. أما إذا توسّلت بمخلوقٍ بأن قلت: أسألك بحقِّ عبدك، أو بحقِّ رسولك، أو بشرفي، أو بحقِّ آبائي أو أجدادي أو أسلافي، فهذا توسُّل بمخلوق وهو غير جائز.

ومن التوسل بالأعمال الصالحة ما ورد من قصة الثلاثة الذين أدَّاهم المبيتُ إلى غار، فانحدرت صخرةٌ، فسدَّت باب الغار عليهم، فعرفوا أنَّهم لا ينجِّيهم إلا التوسُّل بأعمالهم الصالحة، ودعاء الله، فتوسَّلوا، توسَّل أحدهم ببرِّ والديه، لكونه بَارًّا بوالديه، وقال بعد ذلك: «**اللهم إن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ**»، يعني: مخلصًا لك، «**فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى منها السَّمَاءَ**»، فانفرجت الصخرة، غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج.

وتوسَّل الثاني بعفافه؛ لكونه تمكَّن من فعل الحرام، ولكنَّه تركه خوفًا من الله، وذهب ما دفعه من المال، وقال بعد ذلك: «**فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً**»، فانفرجت الصخرة قليلًا.

وتوسّل الثالث بأمانته وبكونه مؤتمنًا على مال غيره، فلم يأخذ من أجرة ذلك الأجير شيئًا، بل نماها له ودفعها إليه، وذلك دليل الأمانة، وقال: «**اللهم إن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا**»، فانفرجت الصخرةُ وخرجوا يمشون، فهؤلاء الثلاثة أجاب الله تعالى دعاءَهم لما توسَّلوا بأعمالهم الصالحة، ولم يقولوا نسألك بحقِّ أوليائك، أو: نسألك بحقِّ عبدك فلان. مع أن بينهم عبادٌ صالحون، ورسل وأنبياء، كموسى وعيسى وأيوب وهارون عليهم السلام، فما سألوا الله إلَّا بحقِّ أعمالهم، فيجوز أن تسأل الله بإيمانك وبتصديقك، وما أشبه ذلك، هذا هو التوسُّل المطلوب أو التوسُّل المشروع، وأمَّا التوسُّل بحقِّ مخلوق أو بجاه مخلوق ـ ولو كان نبيًّا أو وليًّا ـ فهو ممنوع، وهو من وسائل الشرك.

والحاصل: أنّ الشفاعة ملكٌ لله كما عرفنا، وإذا كانت ملكًا لله، فلا تُطلب

من مخلوق، لا تُطلب من النبيِّ ﷺ ولا غيره، فنبيّنا ﷺ هو سيِّد الشفعاء، ومع ذلك لا يشفع أولًا حتى يستأذن على ربه فيسجد، ويطيل سجوده، فيقال له: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»؛ فيبدأ بحمد الله كما تقدّم في حديث أنس ﷺ[1]؛ يحمده بمحامدَ يفتحها الله عليه، فذلك لا شكّ أنّه لأجل أن يُمجِّد ربَّه، فيبدأ بتمجيد الله تعالى حتّى يأذن له.

وقد أورد الشارح الأدلّة التي تدلُّ على أن الملكَ ملكُ الله، وأنّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع ما خصّه به ليس له مُلكٌ، وليس له تصرّف.

ومن ذلك: الاستدلال بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، نزلت لمّا أنّه ﷺ شُجَّ وجهه يوم أُحد، وكُسرت رباعيَّته وهشِّمت البيضة على رأسه، يعني: الترس، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ»، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[2]، يعني: أَنَّ الأمر ليس لك، وإذا لم يكن له من الأمر شيءٌ في الدنيا، فكذلك الأمر في الآخرة.

وكذلك قوله تعالى ـ في الآية الثانية ـ ردًّا على المنافقين الذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. الأمر كلّه لله؛ ليس لمحمّد ﷺ، ولا لحسن، ولا لعيدروس، ولا لغيرهم من المخلوقين، وإذا كان لله، فليطلب مِمَّن هو له.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

كذلك الاستدلال بهذه الأحاديث في أنّ النبيّ ﷺ لا يُغني عن أقاربه شيئًا، يقول في هذا الحديث للعباس، وفاطمة، وصفيّة، رضي الله عنهم، ولبني هاشم وبني عبد مناف: «**يا بَنِي عبد مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ من اللَّهِ شيئًا، يا عَبَّاسُ بن عبدالْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ من اللَّهِ شيئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رسول اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ من اللَّهِ شيئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي ما شِئْتِ من مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ من اللَّهِ شيئًا**»[1]، إذا كان لا يغني عنهم من الله شيئًا، وإذا كان لا يملك شيئًا لعمّه، ولا لعمّته، ولا أعمام أبيه، ولا لأبناء أعمامه، ولا لابنته، وأنَّ الملك كلَّه لله، فكيف يُطلب، وكيف يُدعى؟! وإذا بطل هذا في حقِّ النبيِّ ﷺ، فكيف بالعباس؟ وكيف بعليٍّ؟ وكيف بابن عبّاس رضي الله عنهم؟ وكيف بفلان وفلان ممَّن هم دونه ودونهم في المراتب؟

إنّ الملك للَّهِ، وطلب الشفاعة، وطلب الوسيلة، وطلب العبادة، وطلب الملك كلِّه من الله، فإذا طلب العبد من ربِّه، عند ذلك أجاب الله تعالى دعوته.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٩٨).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي أَخْذِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَمْيِيزِهِمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَإِلَى أَصْحَابِ الشِّمَالِ، وَفِي بَعْضِهَا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ:

فَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي: عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا، قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ۝﴾». وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ[2] أَيْضًا، وَابْنُ جَرِيرٍ[3]،

---

(١) في المسند (١/ ٢٧٢).

(٢) في الكبرى (١١١٢٧).

(٣) في تفسيره (٩/ ١١).

وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[١]، وَالحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ[٢]، وَقَالَ: «صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ».

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ[٣] أَيْضًا عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُدْخِلَ بِهِ الجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَ بِهِ النَّارَ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٤]، وَالتِّرْمِذِيُّ[٥]، وَالنَّسَائِيُّ[٦]، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[٧]، وَابْنُ جَرِيرٍ[٨]، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ[٩].

---

(١) في تفسيره (٥/ ١٦١٣).

(٢) (٢/ ٣٥٢).

(٣) في المسند (١/ ٤٤، ٤٥).

(٤) برقم (٤٠٧٣).

(٥) برقم (٣٠٧٥).

(٦) في الكبرى (١١١٢٦).

(٧) في تفسيره (٥/ ١٦١٢).

(٨) في تفسيره (٩/ ١١٣).

(٩) (١٤/ ٣٧).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ[١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَذَا ؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، قَالَ: رَبِّ، كَمْ عُمُرُهُ ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ، جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ، قَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ، فَخَطِئَتْ»، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ[٢] وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ».

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ[٣] أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا».

---

(١) برقم (٣٠٧٨).

(٢) في المستدرك (١/ ٦٤).

(٣) في المسند (٣/ ١٢٧).

وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] أَيْضًا.

وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ أُخَرُ أَيْضًا كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الجَنَّةِ.

---

قال الشيخ:

يؤمن أهل السنَّة بالميثاق الذي ذكره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٢، ١٧٣]، فهاتان الآيتان فيهما أنَّ الله أخذ من ظهور بني آدم ذريَّتهم.

وقد اختلف في المراد بالذرِّيَّة المأخوذين، هل هم مأخوذون من ظهر كل إنسان، أو كلَّهم من آدم؟ ظاهر الآية أنَّهم من ظهور بني آدم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أي: أخرج من كُلِّ إنسان ذريَّته، ثم كلَّمهم وخاطبهم وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ويكون هذا هو الفطرة التي فطر الله عليها الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]، وكما في قول النبيّ ﷺ: «ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ»[1]. فأخبر أنَّ الآدمي يولد على الفطرة، وإنّما تتغيَّر فطرته بسبب ما يتلقَّاه من أبويه، أو من أقاربه، أو من بيئته ومن ينشأ بينهم، وإلَّا فلو تُرِكَ كُلُّ أحدٍ على فطرته؛ لعرف ما خُلق له، ولعرف أنَّ له ربًا، ولعرف أنَّه مُكلَّف، ولبحث بعد ذلك عن التكاليف التي أُمر بها.

ويؤيِّد هذا أنَّ الفطرة هي الخِلقة والابتداع، كما في قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]. فاطرها: يعني: منشئها ومبدعها وموجدها، فالله تعالى هو الذي فطر الخلق، وابتدأ خلقهم، وأوجدهم على غير مثال سبق، فلمَّا فطرهم على هذا كانوا بذلك مستعدِّين لمعرفته ولمعرفة ما خُلقوا له، ولكن صرفتهم الصوارف وصدَّتهم الصدود، واجتذبتهم الأهواء والأديان الباطلة التي تلقَّوها، هذا قول في هذه الآية.

صحيح أنَّ الله تعالى جعل للإنسان عقلًا وفكرًا، وبدون هذا العقل والفكر يسقط عنه التكليف، فما دام أنَّ معه فطرتَه ومعه عقليّته، فإنّه مكلّف، حتى ولم تأته الشريعة، حتى ولو لم يسمع بها، ولكنه إذا نشأ عاقلًا عرف أنَّه ليس بمهمل، وأنَّ هذا الكون كلّه لا بدَّ له من موجد، وأنَّ الذي أوجده لا بدَّ له من حقوق على عباده، فيبحثُ بعد ذلك، ولما كانت الفطرة والعقليات لا يمكن أن تفصِّل الحقوق، فالله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب، ليبيِّن تلك الحقوق، فكأنَّه

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٩٩).

يقول: أنتم بفطرَكم وبعقولكم تعرفون أنّكم مخلوقون، وأنَّ لكم خالقًا، وأنَّ لخالقكم عليكم حقوقًا، ولكن هذه الحقوق نحن نبيِّنها لكم ونفصِّلها، فنقول: من حقوق الله كذا، ومن ما أمركم به كذا، ومن ما نهاكم عنه ذلك، فامتثلوا، وإذا امتثلتم فإنَّ لكم الثواب على كذا، وإذا لم تمتثلوا بل خالفتم، فإن عليكم العقاب. هذه وظيفة الرّسل؛ جاؤوا مبيِّنين لما في فطرة الإنسان، ولما في عقليته من العلوم، ومفصِّلين لها.

وهذا قول من الأقوال في هذه الآية.

وقد دلّت الأدلّة على أنَّ الله سبحانه جعل للإنسان معرفة ليدرك ما أمامه وما خلفه، ولكن تلك الأدلة تتغيَّر بتغيُّر ما يفسدها وما يمازجها؛ إما من العلوم، وإما من الأعمال، وإما من الأشخاص.

فكثير من العلوم تصرف الفطرة حتى يُرى الحسن قبيحًا، والقبيح حسنًا، وكثيرٌ من المجتمعات والمخالطات تصرف الفطرة، يفسد عليه زملاؤه وأخلاؤه وإخوته ومعاشروه، يفسد عليه عقله وفطرته، فتنقص معرفته، ويبقى لا يعرفُ إلا ما يألفه، لا يعرف أنَّ الخير خير، ولا أنَّ الشرَّ شرٌّ، فيستحسن القبيح، ويستقبح الحسن، وكثيرٌ من الشبهات التي يروِّجها أهلها تُفسد الفطرة أيضًا، فينقلبُ فيها الحقّ باطلًا، والباطل حقًّا، ولو سلم النّاس من هذه الأشياء لبقوا على فطرتهم، وعلى هذه فيقال: إنَّ دين الإسلام هو دين الفطرة، وهو الدين الذي تشهد العقول السليمة بحسنه وملائمته، ولأجل ذلك قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه

معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه»[1].

وذهب بعض المبتدعة إلى أن العقل له دخلٌ في التحسين والتقبيح، وجعلوه مقدَّمًا على الشرع، وهذا قولٌ خطأٌ، ولو قيل بالتحسين والتقبيح العقليّين، ولكن لا دخل للعقل فيما يخالف الشرع، فإذا جاء الشرع وجاءت النصوص قُدِّمت النصوص على ما تستحسنه العقول، مهما كانت تلك العقول، فليس للعقل مدخل ما دام أنَّ الشرع وجد ناصًّا على حكم من الأحكام، فيقدَّم حكم الشرع على جميع العقول، ومع ذلك فإنَّ العقول الصريحة لا يمكن أن تخالف النصوص والأدلَّة الواضحة الصحيحة، وابن تيمية ـ رحمه الله ـ له في ذلك كتاب مشهور سمَّاه: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، صحيح المنقول: يعني الأحاديث والأدلة الصحيحة، وصريح المعقول: يعني العقول السليمة، أي: أنَّ العقول السليمة لا تخالف النُّقول الصحيحة.

أمَّا القول الثاني: وهو ما ذكر في هذه الأحاديث، فهو قول من الأقوال في معنى الآية، وإن كانت الآية بينها وبينه نوع مخالفة، فهو ينصُّ في هذه الأحاديث على أنَّ الله تعالى لَمَّا خلق آدم مسح ظهره، واستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فالله تعالى قادر على كلِّ شيء ولا يعجزه شيء، ولما استخرجهم عرضهم على آدم، فعرفهم وأخبرهم بأنَّهم ذريَّته، وأنَّهم مَنْ سوف يُخلق مِنْ

(١) انظر: البداية والنهاية (٦/ ٧١، ٧٢).

صلبه، وأصلاب أبنائه إلى يوم القيامة، وفي بعض الروايات أنَّ الله استخرج أهل الخير، وقال: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ»، واستخرج أهل الشر، وقَالَ: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فميَّز ـ وهم في صُلب آدم ـ بيَّن من هم سعداءُ ومن هم أشقياءُ، وعلم أهل الجنّة من أهل النّار، وعلم من يعمل لهذه ومن يعمل لضدِّها.

وأشكل ذلك على بعض الصحابة، فقال: مادام أنَّ الله قد كتب علينا ونحن في صلب أبينا من هو من أهل الجنّة، ومن هو من أهل النار، فلماذا نعمل؟ لا بدّ أن نكون إلى ما كتب لنا! فأخبره النبي ﷺ بأنكم مكلَّفون ومأمورون بالعمل، والله تعالى هو الذي يوفِّق كل إنسان لما خلقه له، ولما كتبه عليه قبل أن يخلقه.

وفي رواية[1]: قرأ قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]. أهل الخير ييسَّرون لعملٍ يكونون به سعداء، وأهل الشرِّ يخذلهم ويصرفهم فيعملون بعمل أهل الشرِّ وأهل الشقاوة والعياذ بالله، ولكن مع ذلك كلّه فإنَّهم مأمورون ومنهيُّون، مكلَّفون بأن يمتثلوا هذا الفعل وبأن يتركوا هذا الفعل، ويكونون إذا فعلوا ذلك مطيعين، وإذا لم يفعلوه عصاة.

على كل حال لا يستبعد أنَّ الله سبحانه عندما خلق آدم أخرج ذريَّته كالذرِّ لا يحصي عددهم إلَّا الله، كلُّ من على وجه الأرض اليوم، وكلُّ من على وجه

(١) أخرجها البخاري (٤٩٤٧)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ.

الأرض فيما سبق، وكلُّ من على وجه الأرض فيما بعد، قد علم الله تعالى عددهم وأعمارهم، وكتب آجالهم، وعرف أوقاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وكما في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

وكما أخبر النبيُّ ﷺ: «**أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كَائِنٌ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١).

ما هو كائن: يعني: من كلِّ موجود، ومن كلِّ من سوف يوجد، خلقهم وخلق أعمالهم، وعرف آجالهم، وعرف أزمنتهم، فهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، ولا يعزُب عن علمه مثقال ذرَّة، فيؤمن الإنسان بالأمرين: يؤمن بأنَّ الله خلق الخلق، واستخرج ذريَّة آدم من قبل أن يوجدهم، ويؤمن بأنَّ كل إنسان رُزق فطرة وعقلًا، يعرف به الخير ويعرف به الشرّ، وأنّ تلك الفطرة هي التي غيَّرت الأهواء والشهوات والانتماءات، إمَّا بقيت على حالتها وفطرتها، وإمَّا انحرفت وتغيَّرت، ولا يحمله ذلك على أن يعتمد على القضاء والقدر ويستسلم ويدع العمل، بل عليه أن يعمل، وكُلٌّ ميسَّر لما خلق له.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١).

قال الشارح:

وَمِنْ هُنَا قَالَ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَرْوَاحَ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ الْأَجْسَادِ. وَهَذِهِ الْآثَارُ لَا تَدُلُّ عَلَى سَبْقِ الْأَرْوَاحِ الْأَجْسَادَ سَبْقًا مُسْتَقِرًّا ثَابِتًا، وَغَايَتُهَا أَنْ تَدُلَّ عَلَى أَنَّ بَارِئَهَا وَفَاطِرَهَا سُبْحَانَهُ صَوَّرَ النَّسَمَةَ وَقَدَّرَ خَلْقَهَا وَأَجَلَهَا وَعَمَلَهَا، وَاسْتَخْرَجَ تِلْكَ الصُّوَرَ مِنْ مَادَّتِهَا، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيْهَا، وَقَدَّرَ خُرُوجَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا فِي وَقْتِهِ الْمُقَدَّرِ لَهُ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا خُلِقَتْ خَلْقًا مُسْتَقِرًّا وَاسْتَمَرَّتْ مَوْجُودَةً نَاطِقَةً كُلُّهَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يُرْسِلُ مِنْهَا إِلَى الْأَبْدَانِ جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ حَزْمٍ. فَهَذَا لَا تَدُلُّ الْآثَارُ عَلَيْهِ، نَعَمْ، الرَّبُّ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ مِنْهَا جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ، كَمَا قَالَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي سَبَقَ بِهِ التَّقْدِيرُ أَوَّلًا، فَيَجِيءُ الْخَلْقُ الْخَارِجِيُّ مُطَابِقًا لِلتَّقْدِيرِ السَّابِقِ، كَشَأْنِهِ سُبْحَانَهُ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّهُ قَدَّرَ لَهَا أَقْدَارًا وَآجَالًا، وَصِفَاتٍ وَهَيْئَاتٍ، ثُمَّ أَبْرَزَهَا إِلَى الْوُجُودِ مُطَابِقَةً لِذَلِكَ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ.

فَالْآثَارُ الْمَرْوِيَّةُ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْقَدَرِ السَّابِقِ، وَبَعْضُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ اسْتَخْرَجَ أَمْثَالَهُمْ وَصُوَرَهُمْ، وَمَيَّزَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ.

وَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ، فَإِنَّمَا هُوَ فِي حَدِيثَيْنِ مَوْقُوفَيْنِ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَمِنْ ثَمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فِطْرَتُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿شَهِدْنَآ﴾، أَيْ: قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا أَنَّكَ رَبُّنَا. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: أَشْهَدَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. وَقِيلَ: شَهِدْنَا

مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، وَالْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ بَلَى. وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ أَيْضًا: هُوَ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ وَمَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ شَهِدُوا عَلَى إِقْرَارِ بَنِي آدَمَ[1]. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وَمَا عَدَاهُ احْتِمَالٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَشْهَدُ ظَاهِرُ الْآيَةِ لِلْأَوَّلِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَعَادَهُمْ، كَالثَّعْلَبِيِّ وَالْبَغَوِيِّ وَغَيْرِهِمَا. وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْهُ، بَلْ ذَكَرَ أَنَّهُ نَصَبَ لَهُمُ الْأَدِلَّةَ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَشَهِدَتْ بِهَا عُقُولُهُمْ وَبَصَائِرُهُمُ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِيهِمْ، كَالزَّمَخْشَرِيِّ وَغَيْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ، كَالْوَاحِدِيِّ وَالرَّازِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَغَيْرِهِمْ، لَكِنْ نَسَبَ الرَّازِيُّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالثَّانِيَ إِلَى الْمُعْتَزِلَةِ.

---

قال الشيخ:

في هذه الأحاديث أو بعضها ما يُفهم منه أنّ الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنّ الذي خاطبها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، هي الأرواح.

من عقيدة أهل السنّة أنّ الأرواح مخلوقة، وليست قديمةً كما تقول الفلاسفة ونحوهم، خلقها الله بعد أن لم تكن، وذلك لأنّ الإنسان مركّب من جسد وروح. الروح هي التي تحيا بها أجسادهم، وإذا خرجت الروح مات الجسد، فهل الروح

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١١٥ - ١١٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣١٨).

مخلوقة قبل الجسد، أو مخلوقة مع الجسد؟ الصحيح أنَّها مخلوقة عندما خلق الله الجسد، فكلما خُلِقَ جسد خُلِقَ له روح، وكلّما مات ذلك الجسد بقيت روحه، إمّا معذّبة وإمّا منعَّمة، إلى أن ترجع إليه في الآخرة، وربّما يأتينا شيءٌ يتعلَّق بخلق الأرواح.

وعلى كل حال، فالآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[الأعراف:١٧٢]، هناك من يقول: إنّ الله أخرجهم من آدم، وأخذ عليهم العهد، وأشهدهم على أنفسهم، وأنَّهم قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾. ولعلّنا نقول: إنّنا لا نتذكّر هذا المقال، ولا ندري ولا نعرف متى أخرجنا؟ ولا هل قيل لنا هذا القول أو لا؟ فلذلك يقال: إنَّ هذه هي الفطرة، وإنَّ هذا الإشهاد هو ما فُطِرَ عليه من المعرفة، وإنَّ قولهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾، يعني: شهدنا أنّ ربَّنا هو الذي خلقنا، فيكون ذلك خطابًا للأرواح قبل الأجساد. ومن العلماء من قال: إنَّ هذا وإن لم يتذكّره كل إنسان، ولكنّه حقٌّ وواقع، وإن لم يكن هناك ذاكرةٌ عند كل إنسان، ولعلّ القول الأول أنّ ذلك هو الفطرة التي فطر عليها هو الأقرب.

ومن المفسِّرين من اقتصر على مدلول الأحاديث، فجعل الآية مفسَّرةً بالأحاديث: أنَّ معناها أخرجهم من آدم، وأشهدهم على أنفسهم، وردَّهم في صلب آدم، وأخرج منه أولاده، وأخرج من أولاده أحفاده، يعني: أولادهم، وهكذا تسلسلت الولادة إلى ما شاء الله تعالى، إلى أن يحصل وجود من قدَّر الله

خلقه إلى يوم القيامة.

ومن العلماء المفسرين من اقتصر على ذكر الفطرة، وأنّ المراد بالإشهاد هنا هو ما قذف في قلوبهم من المعرفة، ومن الفطرة التي فطر الناس عليها. ومنهم من ذكر القولين. والكلُّ مجتهدٌ، وكلٌّ اختار ما يناسبه، فالذين تخصَّصوا في النقول وفي الحكايات ونحوها، واقتصروا على الميثاق الذي ورد في الأحاديث، والذين فسّروا بالرأي أو فسّروا بالاستنتاج، ذكروا أيضًا الفطرة والرّواية التي فيها أنّ الله تعالى أشهدهم، وأنّهم قالوا: شهدنا وتكلَّموا هذا.

ويقول الشارح: إنّها موقوفة، ليست مرفوعةً، وربما كانت ممَّا نقل من كتب بني إسرائيل التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، إنّما تقبل إذا وافقت النقل الصحيح عن النبيّ ﷺ، أو عن ما جاء في كتاب الله تعالى، فعلى هذا نحنُ نعتقدُ معنى الآية إجمالًا، وإذا ثبتت لنا الأحاديث اعتقدناها، ووكّلنا كيفيَّتها إلى الله تعالى.

قال الشارح:

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، أَعْنِي: أَنَّ الْأَخْذَ كَانَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ، وَإِنَّمَا فِيهَا أَنَّ الْأَخْذَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْأَخْذَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ وَالْإِشْهَادَ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النَّارِ، كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَإِرَاءَةُ آدَمَ إِيَّاهُمْ مِنْ غَيْرِ قَضَاءٍ وَلَا إِشْهَادٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَالَّذِي فِيهِ الْإِشْهَادُ - عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي قَالَهَا أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ - مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُمَرَ، وَتَكَلَّمَ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ، وَلَمْ يُخَرِّجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّحِيحِ غَيْرَ الْحَاكِمِ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ»، وَالْحَاكِمُ مَعْرُوفٌ تَسَاهُلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَالَّذِي فِيهِ الْقَضَاءُ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النَّارِ دَلِيلٌ عَلَى مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، وَذَلِكَ شَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ، وَلَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يُخَالِفُ فِيهِ الْقَدَرِيَّةُ الْمُبْطِلُونَ الْمُبْتَدِعُونَ.

وَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَالنِّزَاعُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَلَوْلَا مَا الْتَزَمْتُهُ مِنَ الِاخْتِصَارِ لَبَسَطْتُ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، وَمَا قِيلَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَيْهَا، وَمَا ذُكِرَ فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ، وَدَلَالَةِ أَلْفَاظِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْكِلَةٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهَا، فَنَذْكُرُ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ ذَلِكَ، حَسَبَ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ. فَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ بَنِي آدَمَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، قَالُوا: وَمَعْنَى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، دَلَّهُمْ عَلَى تَوْحِيدِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ بَالِغٍ يَعْلَمُ ضَرُورَةً أَنَّ لَهُ رَبًّا وَاحِدًا، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أَيْ: قَالَ، فَقَامَ ذَلِكَ مَقَامَ الْإِشْهَادِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَفَّالُ وَأَطْنَبَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْرَجَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ خَلْقِ الْأَجْسَادِ، وَإِنَّهُ جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا عَلِمَتْ بِهِ مَا خَاطَبَهَا»[1]. ثُمَّ ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

---

قال الشيخ:

هذه أيضًا أقوالٌ في معنى الآية، أحدها: أنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: كلّما وُلد مولود أخذ الله عليه العهد، واستشهده بما فُطر عليه ليعرف أنَّ له ربًا، وأنّه مربوب، وأنّ عليه تكاليف، كلّما ولد مولودٌ أخذ عليه العهد، وذلك لأنّ الله قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، وبنو آدم: جمع، يعني: من كلّ آدمي من البشر أخذ الله من ظهره، يعني: استخرج من ظهره من ولده، ثم استنطقهم واستشهدهم، ويكون ذلك ما علموه، أو ما أقام أمامهم من البيِّنات والبراهين على أنّه ربُّهم، وعلى أنّهم مربوبون له، والمربوب له ربّ، وعلى أنّهم مخلوقون، والمخلوق له خالق.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣١٤).

وأما القول بأنّهم استُنطقوا لما أخرجوا من آدم، وشهدوا على أنفسهم، وقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، لما قال الله لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فهذا قولٌ اعتمد فيه على حديثين، ولكن الحديثين فيهما مقال، فيقول: حديث ابن عباس الذي تقدم، وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهم- لم يُخرجهما أهل الصحيح، والراجح أنهما موقوفان وليسا مرفوعين.

قال الشارح:

وَأَقْوَى مَا يَشْهَدُ لِصِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: حَدِيثُ أَنَسٍ الْمُخَرَّجُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] الَّذِي فِيهِ: «قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي». وَلَكِنْ قَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى: «قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ». وَلَيْسَ فِيهِ «فِي ظَهْرِ آدَمَ». وَلَيْسَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى إِخْرَاجُهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ.

بَلِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ مُتَضَمِّنٌ لِأَمْرَيْنِ عَجِيبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: كَوْنُ النَّاسِ تَكَلَّمُوا حِينَئِذٍ، وَأَقَرُّوا بِالْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ بِهَذَا تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ، وَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ آدَمَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ ظَهْرِهِ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ، أَوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَهُوَ أَحْسَنُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ذُرِّيَّتَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (٣/ ٢٠٨، ٢٣٩).

شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ ـ كَمَا تَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ ـ لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهُ.

الْخَامِسُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الْإِشْهَادِ إِقَامَةٌ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؛ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، وَالْحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

السَّادِسُ: تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الْإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلِّهِمْ وَإِشْهَادِهِمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الْوَقْتَ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

السَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾، فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا الْإِشْهَادِ؛ لِئَلَّا يَدَّعُوا الْغَفْلَةَ، أَوْ يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ، فَالْغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالْمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ. وَلَا تَتَرَتَّبُ هَاتَانِ الْحِكْمَتَانِ إِلَّا عَلَى مَا قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ.

الثَّامِنُ: قَوْلُهُ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾، أَيْ: لَوْ عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ وَشِرْكِهِمْ لَقَالُوا ذَلِكَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِهَذَا الْإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]. فَهَذِهِ هِيَ الْحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠].

الْعَاشِرُ: أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ الْبَيِّنَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا، بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الْمَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى، فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعِينَةٌ عَلَى مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنعام:١٧٤]، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، لَا يُولَدُ مَوْلُودٌ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْفِطْرَةِ، هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ تَفَطَّنَ لِهَذَا ابْنُ عَطِيَّةَ وَغَيْرُهُ، وَلَكِنْ هَابُوا مُخَالَفَةَ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا التَّصْرِيحُ بِأَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَعَادَهُمْ. وَكَذَلِكَ حَكَى الْقَوْلَيْنِ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ فِي شَرْحِ التَّأْوِيلَاتِ، وَرَجَّحَ الْقَوْلَ الثَّانِيَ، وَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ وَمَالَ إِلَيْهِ.

---

قال الشيخ:

ويمكن أن يجمع بين القولين في أن الآية في ميثاق والأحاديث في ميثاق،

فالآيةُ يظهر أنّ المراد بها الميثاق الذي يأخذه على كل مولود يولد بالفطرة، وذلك الميثاق هو المعرفة التي فُطر عليها، والآية والأحاديث في خلق الأرواح؛ أنّ الأرواح خلقت، ثم أُعيدت في صلب آدم، وأنّها تكلّمت وشهدت وإن لم تكن الأجساد موجودةً، وتتذكّر.

وبكلّ حال، فإن هذه الآية تؤيّد أنّ الميثاق الذي فيها غير الميثاق الذي في الأحاديث من هذه الوجوه العشرة، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، لم يقل: من آدم، ونفى بها أنّهم أُخرِجوا من ظهر آدم، فدلّ على الفرق بين الآية وبين ما في الأحاديث.

والآية فيها قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، والأحاديث فيها أنّهم كلّهم ذريّة آدم، والآية فيها أنّه أشهدهم على أنفسهم، وهذا الإشهاد قد لا يتذكّرونه؛ لأنّه هو الفطرة، فلو كان هو الإشهاد عند خلق الأرواح لم يكن حجةً عليهم، فدلّ على أنّ المراد أنّهم فُطروا على الإسلام، وأنّه لا مانع من أنّ الله سبحانه أخرج أرواحهم وأنفاسهم من صلب آدم، وعرضهم عليه، ورأى بين عيني كل إنسان وبيصًا، وأنّ منهم نبيّ الله داود ،وأنّه وهبه من عمره أربعين إلى آخر ما تقدّم.

لا مانع من أن نؤمن بأنّ الله استخرج الأرواح قبل أن يخلق الأجساد، وأنّه أخذ الميثاق على الإنسان، وأنّ الميثاق الذي أخذه على الأجساد الذي في الآية هو المعرفة والفطرة التي فطروا عليها، فبذلك لا يحصل اختلاف بين الآية والحديث.

يعتقد المسلم أنَّ الله فطر الناس على المعرفة وعلى الديانة، وأنّ تلك الفطرة

تتغيّر بتغيّر البيئات، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، ويعتقدون ذلك بناءً على الأحاديث، أنّ الله استخرج ذريّة آدم، وعلم أهل الجنّة، وعلم أهل النّار، وقال: هؤلاء للجنّة ولا أبالي، وهؤلاء للنّار ولا أبالي، وذلك يبين سابق قدر الله تعالى أو سابق علمه قبل وجودها، والله تعالى بكل شيء عليم.

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، وَالشِّرْكَ حَادِثٌ طَارِئٌ، وَالْأَبْنَاءُ تَقَلَّدُوهُ عَنِ الْآبَاءِ، فَإِذَا احْتَجُّوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّ الْآبَاءَ أَشْرَكُوا وَنَحْنُ جَرَيْنَا عَلَى عَادَتِهِمْ، كَمَا يَجْرِي النَّاسُ عَلَى عَادَةِ آبَائِهِمْ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَنْتُمْ كُنْتُمْ مُعْتَرِفِينَ بِالصَّانِعِ، مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَقَدْ شَهِدْتُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّ شَهَادَةَ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ هِيَ إِقْرَارُهُ بِالشَّيْءِ لَيْسَ إِلَّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ: أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِكَذَا، بَلْ مَنْ أَقَرَّ بِشَيْءٍ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِهِ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِقْرَارِ الَّذِي شَهِدْتُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَى الشِّرْكِ؟ بَلْ عَدَلْتُمْ عَنِ الْمَعْلُومِ الْمُتَيَقَّنِ إِلَى مَا لَا يُعْلَمُ لَهُ حَقِيقَةٌ، تَقْلِيدًا لِمَنْ لَا حُجَّةَ مَعَهُ، بِخِلَافِ اتِّبَاعِهِمْ فِي الْعَادَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَإِنَّ تِلْكَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ مَا يُعْلَمُ بِهِ فَسَادُهَا، وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ لَكُمْ، بِخِلَافِ الشِّرْكِ، فَإِنَّهُ كَانَ عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالشَّهَادَةِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَا يُبَيِّنُ فَسَادَهُ وَعُدُولَكُمْ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ.

فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي يَأْخُذُهُ الصَّبِيُّ عَنْ أَبَوَيْهِ هُوَ: دِينُ التَّرْبِيَةِ وَالْعَادَةِ، وَهُوَ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الطِّفْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ كَافِلٍ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِهِ أَبَوَاهُ، وَلِهَذَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِأَنَّ الطِّفْلَ مَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى دِينِهِمَا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا الظَّاهِرَةِ، وَهَذَا الدِّينُ لَا يُعَاقِبُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - عَلَى الصَّحِيحِ - حَتَّى يَبْلُغَ وَيَعْقِلَ وَتَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَحِينَئِذٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ دِينَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ بِعَقْلِهِ هُوَ أَنَّهُ دِينٌ صَحِيحٌ، فَإِنْ

كَانَ آبَاؤُهُ مُهْتَدِينَ، كَيُوسُفَ الصِّدِّيقِ مَعَ آبَائِهِ، قَالَ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨]، وَقَالَ لِيَعْقُوبَ بَنُوهُ: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة:١٣٣]، وَإِنْ كَانَ الْآبَاءُ مُخَالِفِينَ الرُّسُلَ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ الْآيَةَ [العنكبوت:٨].

فَمَنِ اتَّبَعَ دِينَ آبَائِهِ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ، بَلْ يَعْدِلُ عَنِ الحَقِّ المَعْلُومِ إِلَيْهِ، فَهَذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

---

قال الشيخ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣]، هذه هي مقالةُ المشركين، فيقولون: إنما أنزل الكتاب على إحدى الطائفتين، وهما اليهود والنّصارى الذين أُنزلت عليهم التوارةُ والإنجيلُ، ويقولون أيضًا: إنما أشرك آباؤنا واتّبعناهم، فكأنّهم يقولون: إن العذاب واقعٌ عليهم لا علينا، والجواب على ذلك من وجهين:

**أوّلًا**: أنَّ الله فطركم على التوحيد وعلى معرفته، وركّب فيكم العقول بحيث تعرفون أنَّ لكم خالقًا، وخالقكم له عليكم حقوق.

**ثانيًا**: إذا عرفتم أنَّ هذا الدين الذي عليه آباؤكم ـ وهو الشِّرك ـ باطل، فلا بدَّ أن تبحثوا عن الدِّين الصحيح، وهو الذي خُلقتم له، ولكنَّكم لم تفعلوا، بل اتَّبعتم آباءكم، وأطعتم كبراءكم، فكنتم بذلك مستحقِّين للعذاب، قال الله تعالى عن أهل النار: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨]، ﴿أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾، أي: الأبناء للآباء، قال ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، أي: لا ينفعكم كونهم الذين أضلّوكم، بل كان الواجب عليكم ألاّ تقبلوا هذا الضلال. ويقول تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٧، ٢٨]، يعني: تضلّوننا أو تسعَون في إضلالنا، إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات:٣٣]، مع أنّ الآباء هم السبب في ضلال الأبناء، ولأجل ذلك كان الواجب على الآباء أن يفكّروا، وألّا يضلّوا بعد أن أعطاهم الله فكرًا وعقلًا، وعلى الأبناء أيضًا أن يستعملوا فطرتهم وعقلهم، وألّا يقبلوا كل ضالّة أو كلّ بدعة، وقد حكى الله تعالى أنّه في يوم القيامة يتبرّأ بعضهم من بعض؛ المتبوع يتبرأ من التابع، والتابع يتبرأ من المتبوع: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا

مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧]، الأتباع: هم الذين تبرأ منهم المتَّبعون، ولكن لا ينفعهم ذلك بعد أن أضلّوهم.

وعلى كل حال فحجَّة الله قائمة، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام:١٤٩]؛ وذلك لأنَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب، ولأنَّه فطر الناس على العبادة، ولكن أضلَّتهم الأهواء وأضلَّتهم الشياطين، وأضلَّتهم المجتمعات ونحوها.

ومعلوم أنَّ العادة كما قلنا: إنَّ الابن ينشأ على دين أبويه، بل إنّه يحكم له باتّباع أبيه في الدنيا، لكن في الدين يكون تبعًا لخير أبويه، إذا كان الأبوان أحدهما مسلم والآخر كافر؛ حكمنا أنّه يتَّبع خير أبويه في الدين، ولكن يُحكم عليهم بما حُكم على آبائهم.

وقد سُئِلَ النبي ﷺ عن الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ، فَيُصِيبُونَ من نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، أي: إذا قتلنا أطفالًا لم نتعمَّد قتلهم، فما الحكم؟ فقال: «هُمْ مِنْهُمْ»[1]، يعني: أنَّنا نحكم بأنّهم تبعٌ لآبائهم؛ وذلك لأنَّهم غالبًا ينشؤون على نشأتهم كما حكى الله عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧]، أي: كلَّما ولد لهم أولاد نشؤوا على ما نشأ عليه آباؤهم من الفجور ومن الكفر. ومع ذلك، فإنَّ الله تعالى قد يخرج من أصلاب الكفار من يعبد الله ويعرفه إذا أراد به

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٣)، ومسلم (١٧٤٥) من حديث الصعب بن جثَّامة ﷺ.

خيرًا، وأدخله الدين أو أدخل الدين عليه.

وعلى كلٍّ حال، نحن قلنا: إنَّ الإنسان عليه أن يحرص على أولاده فيربِّيهم ويعلِّمهم، وعلى الولد أن ينظر فيما فيه والده وفيما عليه أهله، فإذا كان حقًا وصوابًا قبله وعمل به، وإلا سأل عن الحق وعمل به، ولم يعمل بالباطل، وإن كان عليه أهله أو مجتمعه أو قبيلته وأسرته، أو نحو ذلك.

قال الشارح:

وَهَذِهِ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، يَتْبَعُ أَحَدُهُمْ أَبَاهُ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنِ اعْتِقَادٍ وَمَذْهَبٍ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً لَيْسَ هُوَ فِيهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، بَلْ هُوَ مِنْ مُسْلِمَةِ الدَّارِ، لَا مُسْلِمَةِ الِاخْتِيَارِ، وَهَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.

فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ هَذَا الْمَحِلَّ، وَلْيَنْصَحْ نَفْسَهُ، وَلْيَقُمْ مَعَهُ، وَلْيَنْظُرْ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ هُوَ؟ وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ، فَإِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، فَإِنَّهُ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ. وَأَقْرَبُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ الْمَرْءُ أَمْرُ نَفْسِهِ لَمَّا كَانَ نُطْفَةً، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، وَالتَّرَائِبُ: عِظَامُ الصَّدْرِ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا تَدْبِيرُ الْأَبَوَيْنِ وَسَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَلَوْ كَانَتْ مَوْضُوعَةً عَلَى لَوْحٍ أَوْ طَبَقٍ، وَاجْتَمَعَ حُكَمَاءُ الْعَالَمِ عَلَى أَنْ يُصَوِّرُوا مِنْهَا شَيْئًا لَمْ يَقْدِرُوا. وَمُحَالٌ تَوَهُّمُ عَمَلِ الطَّبَائِعِ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا مَوَاتٌ عَاجِزَةٌ، وَلَا تُوصَفُ بِحَيَاةٍ، وَلَنْ يَتَأَتَّى مِنَ الْمَوَاتِ فِعْلٌ وَتَدْبِيرٌ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ، وَانْتِقَالِ هَذِهِ النُّطْفَةِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، عَلِمَ بِذَلِكَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، فَانْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِالْعَقْلِ أَنَّ لَهُ رَبًّا أَوْجَدَهُ، كَيْفَ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَهُ؟! وَكُلَّمَا تَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ ازْدَادَ يَقِينًا وَتَوْحِيدًا، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح أن الإنسان عادةً يتَّبع آباءه ومجتمعه، ولكن لا يكون ذلك حجةً

له، ولا يحتج بذلك، ولا يكون معذورًا بذلك، فهؤلاء المشركون الذين قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٣]، يقال: لا نهلككم بفعلهم، بل كلٌّ يُعذّب بذنبه، فآباؤكم عليهم ذنوب، وأنتم عليكم ذنوب، وأبناؤكم عليهم ذنوبهم التي اقترفوها وعملوها، ولو كان المضلّ هو الأوّل؛ وذلك لأن الله تعالى فطر العباد على معرفته، والواجب عليهم أن يتأمّلوا ما فُطروا عليه، وأن يتعقّلوا خلقه، وهذا الكون الذي بين أيديهم، وأن يتفكّروا في مخلوقات الله تعالى، فيصلون بذلك إلى نتيجة، وهي توحيد الربوبيّة، وهو أنَّ هذا الكون له ربٌّ خالقٌ مدبّرٌ، وأنّه لم يخلق عبثًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، يعني: مهملًا، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٧-٤٠]، أن يتدبّر الإنسان مبدأ أمره ومبدأ تكوينه، وهو أنّه كان في صلب أبيه، ثمَّ خرج واستقرَّ في رحم أمّه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢]، جعله الله تعالى في مستقرّ لا تصل إليه الأيدي، ولا تعمل فيه الطبائع، ولا تقدر عليه الحيل، انقطعت عنه التدابير، فأخرجه الله بعد أن كوّنه بشرًا سويًّا، كما في قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، يعني: أطفالًا، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ [غافر:٦٧].

فهذا التدبير وهذا التنقّل ليس للطبيعة فيه مجال، بل الترتيب والتربية هي خلق الله وتدبيره وتكوينه، فإذا عرف الإنسان هذا الكون، وأنّه لا بدّ له من خالق ومن مدبّر ومتصرّف، استقرّ بذلك توحيد الربوبيّة في عقله، وعرف أنّ له ربًا، ثم بعد ذلك ينتقل من تفكير إلى تفكير، يقول: ما دام أنّ لهذا الكون ربًا وخالقًا ومدبّرًا، فإنّ لهذا الرّب الخالق المدبّر حقوقًا علينا، وهي التعبُّد له، وأن نعبده وحده، وأن نقرَّ به إلهًا، وأن نصرف له حقوقه التي فرضها علينا، بعد ذلك يسأل عن هذه الحقوق، فإذا عرفها التزم بالتقرُّب، والتزم أن يعبد الله، وأن يحرص على الاستكثار من العبادات والقربات، فبذلك يكون من أهل السعادة، فكونه يقنع بما كان عليه آباؤه من الكفر والضلال والبدع والشرك والانحرافات، التي تملُّها الأسماع، وتنكرها الطباع، ويقول: هكذا وجدتُ آبائي عليه، فيُقال له: هذا خطأ، لماذا لم تسأل عن الحقِّ؟ أترضى أن تكون مقلّدًا لا تدري ما الناس فيه؟

هؤلاء الذين يتّبعون الناس فيما هم عليه من خطأٍ، هم الذين إذا سُئلوا في القبر: من ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيُّك؟ يقول أحدهم: هاه هاه، لا أدري، سمعتُ النّاس يقولون شيئًا فقلتُه، فيعذَّبون في قبورهم على هذه المقالة، ولا ينفعهم أنَّهم سمعوا النّاس وأنَّهم قلّدوهم، بل الواجب على العاقل من حيث هو أن يستعمل عقله في معرفة خالقه ومدّبره، وألّا يرضى بما النَّاس عليه دون أن يمحِّص تلك الأعمال التي يعملها النَّاس، ودون أن يعرف الحقَّ أو يبحث عنه، فإنَّه إذا بحث عن الحقِّ عرفه، وإذا عرفه لزمه العمل به، وإذا لزمه العمل به وأدّاه كما ينبغي سعد وأصبح من أهل الخير.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى - فِيمَا لَمْ يَزَلْ - عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلا يُزَادُ فِي ذَلِكَ العَدَدُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، وكَذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُم أَنْ يَفْعَلوهُ.

---

قال الشارح:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فَاللَّهُ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أَزَلًا وَأَبَدًا، لَمْ يَتَقَدَّمْ عِلْمَهُ بِالْأَشْيَاءِ جَهَالَةٌ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[مريم: ٦٤].

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ رَأْسَهُ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا قَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا، ونَدَعُ العَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، ومَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»،

ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١٠]. خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1].

---

قال الشيخ:

ذكر هنا صفةً من صفات الله تعالى، وهي العلم العام، وفي ذلك ردٌّ على طائفة من غُلاة المعتزلة، الذين يقولون: إنَّ الله لا يعلم بالأشياء حتى تقع، ولا يعلم بها قبل أن يوجدها، وهم يردُّون بذلك النصوص، ويتنقَّصون الربَّ سبحانه وتعالى، وهؤلاء هم غُلاة القدريَّة قديمًا؛ كمعبد الجهمي وغيره، يقولون: إنَّ الأمر أُنُفٌ، يعني: أنَّه يستقبل ويستقدم، ولا يعلم الشيء الذي لم يقع.

ومن عقيدةِ أهلِ السنّةِ أنَّ الله تعالى علم ما الخلقُ عاملون، بعلمه القديم الذي لا يعزب عن علمه شيء، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس:٦١]، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الخفيّ والجليّ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم السرّ وأخفى من السرّ؛ والسرّ: هو ما يضمره الإنسان في نفسه، ولا يبديه لأحد، وأخفى منه ما لم يخطر بباله، فيعلم الله أنّه سيخطر للإنسان كذا وكذا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

مِمّا لم يكن يظنّ أنّه يخطر.

والأدلّة على إثبات صفة العلم وقِدَمه كثيرةٌ مشهورة، وقد جمعها العلماء الذين كتبوا في الصفات، واستوفَوْا ما ورد فيها من الآيات والأحاديث، وإذا عرف المؤمن أنّ اللهّ تعالى موصوف بالعلم، اعتقد دخول أعمال العباد في علم الله تعالى، وأنّه سبحانه علم من هو سعيد، ومن هو شقيٌّ، ومن هو فاجرٌ، ومن هو تقيٌّ، ومن هو فقير، ومن هو غنيٌّ، ومن هو من أهل الخير، ومن هو من أهل الشرِّ، كلّهم قد أحاطَ الله بهم علمًا؛ لهذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

يدخل في علم الله كلُّ شيء؛ ما لم يكن وما سيكون، كذلك بعد أنَّ علمه الله تعالى، فإنَّه قد أثبته في الذكر في اللوح المحفوظ، «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كَائِنٌ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1]، مِمَّا سيوجد ومِمَّن سيولد، ومن أعمال العباد ونحو ذلك. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، علم ذلك وتفاصيله، وهو يسيرٌ على الله جل وعلا، ويقول تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، من قبل أن نبرأ تلك المصيبة، بل من قبل أن نبرأ الخليقة

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١).

كلهم، كتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما يشاء الله، وذلك يسيرٌ على الله، ليس فيه صعوبة؛ لأنّه هو الذي يُدبِّر الخلائق، وهو الذي يعلم أقوالهم، ولا يخفى عليه شيء منهم.

فإذًا مادام أنَّه خلقهم وأنَّه هو الذي يتصرَّف فيهم، فهم لا يخرجون عمّا علمه فيهم، علم من سيصير منهم إلى الخير، ومن سيصير إلى الشر، ولكن كلّفهم وأمرهم بذلك الغيب، وكذلك أعانَ هؤلاء، وخذل هؤلاء، هدى من شاء، وأضلَّ من شاء، وله الحجَّة البالغة على عباده.

ولا يقول قائل: إنَّ هذا يُتخذ حجَّة للكافر بأن يقول: إذا كان الله قد كتب عليَّ الشقاء، فليس لي حيلةٌ في أن أردَّ ما كتب الله، وإذا كان الله كتبني في أمِّ كتابه شقيًّا طريدًا، فإن ذلك لا يردُّ كتابةَ الله.

ونقول له: من أدراك بذلك، إنما أنت مأمورٌ بأن تفعل الأسباب، وقد يكون فعلُك سببًا من الأسباب التي قدَّر الله بها أنّك من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة.

وقد ذكر العلماء أن القدر على أربعةِ أنواع:

**الأول: التقدير العام**: وهو العلم بالكائنات قبل وجودها وكتابتها في اللوح المحفوظ.

**الثاني: التقدير السنوي**: وهو أنّ الله يكتب في ليلةِ القدر ما يكون في تلك السنة من الحوادثِ، هذه كتابةٌ جزئية يقدِّر في ليلة القدر، ويكتب فيها ما يكون على وجه الأرض من تلك الليلة إلى مثلها من السنة القابلة، فهذا كتابة أو تقدير أو

علم خاص، وهو السنوي.

**الثالث: التقدير العمريّ**: وهو أنّ المولود إذا علق في رحم أمّه أرسل الله تعالى إليه المَلَك، فقال: ياربّ، مخلّقةٌ أو غير مخلّقة؟ يعني: هل يتمّ خلقُه ويولد سويًّا، أو تسقطه الرحم وتقذفه ميتًا، فإذا قال الله: مخلّقةٌ، قال: يا ربّ، ذكر أم أنثى؟ فيكتب ذلك، سعيد أم شقي؟ فيكتب ذلك، ويسأل عن رزقه؛ فيخبره الله بأنّ رزقه يكون كذا وكذا، ويكتب أجله بأنه طويل الأجل أو قصير الأجل، يقدّر الله ذلك كله له[1]، وفي حديث ابن مسعود ﷺ المشهور: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ له: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ**»[2]، فيكتب ذلك كلّه وهو في رحم أمه، فالمؤمن الذي يؤمن بذلك يؤمن بسعة علم الله تعالى، ولكن لا يتّخذ ذلك حجّة في ترك العمل، بل يعمل، فكلٌّ ميسَّر لما خلق له، كما أخبر بذلك النبيّ ﷺ، فإن كان سعيدًا فإن الله يسهِّل له الأسباب التي بها يكون سعيدًا، وعليه أن يبذل الأسباب، وإن كان شقيًّا، فإنَّه محروم ولو بذلت الأسباب، فهذا واسع علم الله، يعني: أن الله تعالى عليم بكلِّ شيء، وعلمه قد وسع الخلائق كلَّها.

وفائدة الإيمان بالعلم المراقبة وهو أنّك إذا علمت أنَّ الله عليم بما يجول في

---

(١) انظر نص الحديث عند البخاري (٣١٨ و٣٣٣٣ و٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٣٩)، وسيأتي في كلام الشارح (٢/ ٤٣٩).

نفسك، وبما تحدّث به قلبك، وبما تهمّ به من طاعة أو معصية، يطّلع على ضميرك، ويعلم ما في قلبك، حملك ذلك على أن لا تعمل إلا خيرًا، وعلى ألا تحدّث نفسك إلا بخير؛ فبذلك تكون من أهل الخير، أما الإنسان الذي يظنّ أنّ الله لا يعلمه، ولا يعلم أحواله، فإن هذا الظن ناتج عن الجهل، وهو الذي يوقعه في العصيان، ويجرّئه على المخالفات؛ كأنّه يعتقد أنّه لا يراه ربّه.

روى ابن مسعود ﷺ قال: «اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أو ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فقال أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ما نَقُولُ؟ قال الْآخَرُ: يَسْمَعُ إن جَهَرْنَا ولا يَسْمَعُ إن أَخْفَيْنَا، وقال الْآخَرُ: إن كان يَسْمَعُ إذا جَهَرْنَا فإنه يَسْمَعُ إذا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢].

فهؤلاء الذين ظنّوا أنّ الله لا يعلم أعمالهم، ماذا حصل لهم بسبب ظنهم هذا؟ حصل لهم أنّهم أكثروا من السيّئات، وتجرؤوا على المحرّمات، ووقعوا في الذنوب، فكان ذلك سبب شقائهم، وإن كان ذلك مكتوبًا عليهم في الأزل، لكن منهم سببٌ وافق ما قدّره الله عليهم.

فعلى العبد إذا علم أنّ الله تعالى عليم بأحواله، وبوساوسه، وبخطرات قلبه، وبأعماله، فإن هذا الاعتقاد يحمله على أن يراقب ربه، وعلى ألّا يخالفه طرفة عين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ، والسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضاءِ اللَّـهِ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضاءِ اللَّهِ.

---

قال الشارح:

تَقَدَّمَ حَدِيثُ عَلِيّ ﷺ، وَقَولُهُ ﷺ فِيهِ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[1].

وَعَنْ زُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّـهِ ـ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ، بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ، فِيمَ العَمَلُ اليَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ»، قَالَ: فَفِيمَ العَمَلُ؟ قَالَ زُهَيْرٌ: ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو الزُّبَيْرِ بِشَيْءٍ لَمْ أَفْهَمْهُ، فَسَأَلْتُ: مَا قَالَ؟ فَقَالَ: «اعْمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ». رواه مسلم[2].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَينِ»[3]،

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٣).

(٢) برقم (٢٦٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

وَزَادَ الْبُخَارِيُّ[١]: «وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٢] أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيد، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ»[٣]: قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ تَخْرِيجِ الْآثَارِ فِي هَذَا الْبَابِ، وَأَكْثَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنَ الْكَلَامِ فِيهِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ مُجْتَمِعُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْآثَارِ وَاعْتِقَادِهَا، وَتَرْكِ الْمُجَادَلَةِ فِيهَا، وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ.

---

قال الشيخ:

إن الله تعالى علم السعيد والشقيّ، ولكن قد يعمل الإنسان بعمل أهل الخير،

---

(١) برقم (٦٦٠٧).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٣٩).

(٣) (٦/ ١٢).

ثمّ يرتدّ في آخر عمره ويكون من أهل الشرّ؛ لأن الله كتب عليه الشقاوة. وبالعكس قد يحيى الإنسان مع أهل الكفر، ويقضي عمره كله على الكفر والضلال، ثمّ يهديه الله قبل أن يموت، فيموت وقد اهتدى.

وقد ذُكِر أن الأصيرم من الأنصار كان على دين قومه المشركين، ولم يسلم إلَّا قبيل معركة أُحُد فأسلم، ودخل المعركة، واستشهد مع من استشهد، فجعله النبيّ ﷺ من الشهداء، وقال: «إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1]، رغم أنه لَم يصلّ لله ركعة، ولكنّه أسلم إسلامًا يقينيًا، وجاهد في سبيل الله.

وضدّه رجل كان يُظهر أنّه مسلم، ويجتهد في الأعمال، ولَـمَّا حضر المعركة أيضًا قاتل قتالًا شَديدًا، حتى قتل ستةً أو سبعة، فلما ذُكر للنبيّ ﷺ قال: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، خُتم له بخاتمةٍ سيئةٍ، وهو أنّه لَـمَّا أحسّ بالألم قتل نفسه، فقال النبيّ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلَ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[2].

فالأعمال بالخواتيم، والإنسان عليه أن يسأل الله حسن الختام؛ لأنه إذا خُتم له بخاتمةٍ حسنة انتهت بها حياته، كان من أهل السعادة، وإذا استمرّ على العمل السيِّئ حرم الخير وخُتم له بعمل الشقاوة، والعياذ بالله.

فنعرف بذلك معنى هذا الحديث، أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنّة فيما يبدو للنّاس وهو من أهل النّار، أو يعمل بعمل أهل الجنّة حتّى يقرب من الموت،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وابن هشام في السيرة (٤/ ٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) هو جزء من حديث سهل بن سعد المتقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

فيعمل بعمل أهل النار، ويرتدّ ما بين عشيّةٍ وضحاها، كما ذكر ذلك النبي ﷺ في حديث الفتن، حيث قال: «**يُصْبِحُ فِيهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا**»[1]، يعني: بين عشيّة وضحاها يكفر. فهذا يحثّ الإنسان على أن يتمسّك بدينه، وأن يحرص على حسن الخاتمة، ويعرف أنّ الله تعالى يختم للإنسان بالعمل الذي قدّره له، والذي كتبه من أهله، ولكن له في ذلك سبب، وهو أنه إذا أكثر من سؤال الله تعالى أجاب الله دعوته، وإن كان ذلك مكتوبًا عليه قبل أن يخلقه.

نحن الآن نقرأ في العقيدة، والعقيدة: ما يعقد عليه القلب، وإذا انعقد القلب على أمرٍ، فإنّه لا يتخلى عنه، ولا شك أنَّ من آثار الاعتقاد قوّة العمل، فإذا اعتقد العبد أمرًا فإنه يلازمه ويتمسك به ويتشبّث به بكل قواه، ويتفانى في العمل به، ويصبر على ما يناله، وإذا كانت العقيدة عن يقين صبر على ما يناله من أذى، أو من تعذيب، وبذل في تحقيق ما يعتقده كلّ غالٍ ورخيص حتى نفسه، كما حصل للمؤمنين في كل زمان، الذين بذلوا نفوسهم رخيصةً في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمته، كل ذلك لأجل قوةِ العقيدةِ في قلوبهم.

ومن العقيدةِ التي نقرأ فيها: الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله، ويدخل فيها الإيمان بأسماء الله تعالى وبصفاته، ويظهر على من اعتقدها أثرها، ويدخل فيها أيضًا الإيمان بوحدانية الله تعالى وتفرده، ويدخل في ذلك أيضًا الإيمان بقوة الله،

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وبقهره، وبجبروته، وبخلقه، وبتقديره، وبقدرته على كل شيء، وآثار ذلك عبادة الله وحده، وترك عبادة من سواه.

ويدخل في الشهادة الثانية: الإيمان بصدق النبي ﷺ، وبأمانته، والإيمان بتبليغه للرسالة وبيانها، والإيمان بصحّةِ ما جاءَ به، وما بلَّغه، وكونُه كلُّه من عند ربه، ويدخل في ذلك وجوب طاعته، ووجوب محبّته واتباعه، والتأسِّي به، والسير على نهجه، وتحكيمه والرضا بحكمه، وعدم الميل عن سنّته، ومتى تحقق ذلك؛ ظهر أنه من قوةِ العقيدةِ في قلب المؤمن.

يدخل في ذلك أيضًا الإيمان بفضائله ﷺ ومزاياه، وأنّه سيِّد الخلق يوم القيامة، وأنَّه الشفيع المشفَّع، وأنَّه صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة في الآخرة، وكل ذلك يستدعي مِمَّن قال ذلك واعتقد أن يتبعه بالعمل.

ويدخل في ذلك الإيمان بكل ما جاء به من عند الله تعالى، وما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من عند الله تعالى.

والرسل جميعًا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وخاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ مكلّفون من الله تعالى بتبليغ الرسالة، فأدّوا الأمانة، وبلّغوا الرسالة، ونصحوا أممهم، فكلّ ما بلغوه وكلّ ما جاؤوا به، وكلّ ما جاء في كتبهم، فالعبد يلتزم به ويصدقه، سواءً أكان مجملًا أم مفصّلًا، ثم جاءنا التفصيل في كتابنا الذي أنزله الله على قلب محمد ﷺ، فصّلت فيه أحوال الدنيا والآخرة، وما يكون بعد الموت، وما يكون في الدار الآخرة، فيؤمن العبد بذلك ويصدّق بتفاصيله، والإجمال في الكتب السابقة نؤمن بها إيمانًا مجملًا، نصدّق بأنّها كلام الله، وبأنّها من الله، وبأنّه

حقٌّ، وبأن الله كلّف بها الأمم الذين نزلت عليهم، كلّفهم بالعمل بتفاصيلها، ولكن نحن ما كلّفنا بالعلم بتفاصيلها، وإنّما نؤمن بها مجملةً، ويدخل ذلك في الإيمان بكتب الله، وأدلّة ذلك واضحةٌ، والحمد لله .

فإذا آمن العبد بكلّ ذلك وبغيره من تفاصيل العقيدة، صدق عليه أنّه من أهل العقيدة الراسخة، الذين يعملون عن عقيدة ويقين وإيمان، ولا يردّهم عن العمل شُبَهٌ ولا شكّ، ولا يعتريهم توقّف ولا ريب.

فإذا اعتقد العبد العقيدة التي هي متلقّاةٌ عن الله تعالى التي بعث بها رسله صلوات الله عليهم، ظهرت آثارها على أعماله، وإذا رأيت المبتدعة الذين يخالفون الأدلّة، دلّك ذلك على ضعف عقيدتهم، وعلى تزعزعها، وكونها على شفا جُرُفٍ هارٍ، لم تكن راسخة في قلوبهم.

وهكذا إذا رأيت الذين يتهاونون بالسيئات، ويرتكبون المحرمات، ويتركون الطاعات الواجبة، فإنّ ذلك دليلٌ على ضعف معتقدهم؛ لأنها لم ترسخ العقيدةُ في قلوبهم، ولم يطمئنّوا بالإيمان، ولو اطمأنّوا به لما أقدموا على هذه المخالفات، ولو استحضروا عظمة ربّهم، وأنّه يراهم ويعلم سرائرهم وضمائرهم، لما أقدموا على المعاصي، وهم يعرفون أنّها معاصٍ.

فإذًا يتفقدُ الإنسانُ نفسه، ويتفقّد بني جنسه، ويعرف بذلك سليم العقيدة وضعيفها، ويعرف بذلك من هو قويّ الإيمان متمكّن منه، قد رسخ الإيمان في سويداء قلبه، فيقول: هذا من أهل العقيدة عرفته بقوة إيمانه، وعرفته بآثار إيمانه، وبقوةِ تصديقه، وعرفته بالعمل، وبالبعد عن الحرام، وبالبعد عن المشتبهات.

وهذا ضعيف العقيدة عرفته بتساهله في الإيمان، وبتساهله في المعاصي، وبتساهله في ترك الطاعات، وما أشبه ذلك.

فهذه هي النتيجة والفائدة الصحيحة لعلم هذه العقيدة وتفاصيلها، التي فُصِّلت في «الطحاوية»، وكذلك في غيرها من عقائد أهل السنّة؛ تفاصيلها تزيد العبد قوةً وإيمانًا، سواءً منها ما يتعلَّق بالعهود وما يتعلّق بالمواثيق، أو ما يتعلّق بدخول الأعمال في مسمَّى الإيمان، أو ما يتعلّق بالقضاء والقدر، أو ما يتعلَّق بالعلوم الغيبيَّة السابقة واللاحقة، أو ما يتعلَّق بالإيمان بالبعث، أو بما بعد البعث، أو ما يتعلَّق بالقبر وفتنته ونعيمه، أو ما يتعلَّق بالإيمان بالجنَّة والنَّار، والثَّواب والعقاب، والوعد والوعيد، أو ما يتعلَّق بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما أشبه ذلك، كل ذلك يُعدّ تفاصيلَ لأصل هذه العقيدة، ولكن الأصل ـ كما ذكرنا ـ: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبما جاء عن الله على مراد الله.

مر بنا فيما سبق كلام حول المواثيق والعهود التي أخذها الله تعالى على عباده في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وعَرَفنا أنَّ هذا ـ كما ورد في الأحاديث ـ العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في صلب آدم، وأنَّه العهد الذي فطر الله عليه العباد وجبلهم عليه، وهذا هو الأقرب والأنسب، وبيَّنه قول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، وقوله في الحديث القدسي: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عليهم

ما أَحْلَلْتُ لهم، وَأَمَرتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي ما لم أُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»[1]، فكونهم حنفاء على الفطرة، والحنيفيّة التي هي معرفة الله ومعرفة ما خُلقوا لهُ، فهذا هو الأقرب، ولكن نؤمن أيضًا أنَّ الله تعالى استخرج ذريّة آدم من ظهره، وعرف منهم من هو من أهل الجنَّة، ومن هو من أهل النَّار، وقال: هؤلاء إلى الجنَّة ولا أُبالي، وهؤلاء إلى النَّار ولا أُبالي.

فنؤمن بذلك وإن كنَّا لا نتذكّر ذلك العهد، ولكن خبر الله أُنُفٌ، والأصل أنّه معرفة الله تعالى وجِبلَّة العبد التي لو ترك عليها لعرف أنّه مخلوق وأنّ له خالقًا، وأنّ خالقه له عليه حقوق، فيؤمن العباد بذلك من جملة الإيمان بالغيب، ومن جملة العقيدة التي يعتقدونها.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٢٢٠).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ، وَسُلَّمُ الحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ القَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرامِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الكِتابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ، كَانَ مِنَ الكافِرِينَ».

---

قال الشارح:

أَصْلُ القَدَرِ سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَهُوَ كَوْنُهُ أَوْجَدَ وَأَفْنَى، وَأَفْقَرَ وَأَغْنَى، وَأَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَضَلَّ وَهَدَى. قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «القَدَرُ سِرُّ اللَّهِ، فَلَا تَكْشِفْهُ»[1].

وَالنِّزَاعُ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ مَشْهُورٌ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَماعَةِ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقٌ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ وَيَشَاؤُهُ، وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يُحِبُّهُ، فَيَشَاؤُهُ كَوْنًا، وَلَا يَرْضَاهُ دِينًا.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/ ٥١٢، ٥١٣) وفيه: «لا تفشه».

وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ الْقَدَرِيَّةَ وَالْمُعْتَزِلَةُ، وَزَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَاءَ الْإِيمَانَ مِنَ الْكَافِرِ، وَلَكِنَّ الْكَافِرَ شَاءَ الْكُفْرَ، فَرُّوا إِلَى هَذَا، لِئَلَّا يَقُولُوا: شَاءَ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ، وَعَذَّبَهُ عَلَيهِ! وَلَكِن صَارُوا كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ! فَإِنَّهم هَرَبُوا مِنْ شَيْءٍ، فَوَقَّعُوا فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُمْ أَنَّ مَشِيئَةَ الْكَافِرِ غَلَبَتْ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ الْإِيمَانَ مِنْهُ - عَلَى قَوْلِهِمْ - وَالْكَافِر شَاءَ الْكُفْرَ، فَوَقَعَتْ مَشِيئَةُ الْكَافِرِ دُونَ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى! وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ الْاِعْتِقَادِ، وَهُوَ قَوْلٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ مُخَالِفٌ لِلْدَلِيل.

رَوَى اللَّالَكَائِي[1]، مِنْ حَدِيثِ بَقِيَّةَ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ، حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْن الحَجَّاجِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيدِ المَكِّيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ عَلَيْنَا يُكَذِّبُ بِالْقَدَرِ، فَقَالَ: دُلُّونِي عَلَيهِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَعْمَى، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، لَأَعُضَّنَّ أَنْفَهُ حَتَّى أَقْطَعَهُ، وَلَئِنْ وَقَعَتْ رَقَبَتُهُ بِيَدِي لَأَدُقَّنَّهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَأَنِّي بِنِسَاءِ بَنِي فَهْمٍ يَطُفْنَ بِالخَزْرَجِ، تَصْطَكُّ أَلْيَاتُهُنَّ مُشْرِكَاتٍ، وَهَذَا أَوَّلُ شِرْكٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَنْتَهِي بِهِم سُوءُ رَأْيِهِمْ حَتَّى يُخْرِجُوا اللَّهَ مِنْ أَنْ يُقَدِّرَ الخَيْرَ، كَمَا أَخْرَجُوهُ مِنْ أَنْ يُقَدِّرَ الشَّرَّ»[2].

قَوْلُهُ: وَهَذَا أَوَّلُ شِرْكٍ فِي الْإِسْلَامِ، إِلَى آخِرِهِ، مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَهُ: الْقَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ، وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ، نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ.

---

(١) في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٢٥).

(٢) وأخرجه أيضًا أحمد (١/ ٣٢٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٩).

قال الشيخ:

يذكر الشارح أنّ القدر سرُّ الله تعالى في كونه وفي أمره، ووجهُ كونه سرًّا لا يعلمه البشر: أن الربَّ ـ سبحانه وتعالى ـ له الحكمة في كونه هدى هذا وأضلَّ هذا، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يسألون، ولا يجوز للعباد أن يسألوا الربّ عن الأسباب في أفعاله سبحانه، فلا يُقال: لماذا حبس الله الخير؟ ولماذا أنزل الله العذاب؟ ولماذا خلق الله الأمراض؟ ولماذا خلق الله الحشرات والأضرار؟ ولماذا خلق الله السباع؟ ولماذا سلّط الله على المؤمنين الأمراض والعاهات والفقر؟ ولماذا سلّط عليهم الكفار؟ لماذا أفقر هذا وأغنى هذا؟.

لكن ـ مع ذلك ـ نعرف أنّه سبحانه حكيم، يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فلا يفعل شيء عبثًا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وليس شيءٌ من خلقه موجود إلَّا لحكمة، ولم يسلّط عقوبة ويخلق مرضًا إلا لمصلحةٍ وحكمة، سواءً أعلمنا تلك الحكمة أم حُجبت عنّا؛ لأنّ هذا مقتضى أنّه الحكيم ذو الحكمة، التي هي غاية المصلحة، ولكن ليس لنا الاعتراض على تصرُّفه، فهو سبحانه يتصرَّف في خلقه كيف يشاء، فيهدي هذا فضلًا منه، ويضلّ هذا عدلًا منه، ويغني ويفقر، ويميت ويحيي، ويسعد ويشقي، ويمنع ويعطي، لا رادّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وليس لنا أن نعترض على الله تعالى، بل نؤمن بذلك كلِّه، ونقول: لا نعلم الحكمة في ذلك، ولا نعلم السرَّ في ذلك،

فالقدر سرُّ الله في خلقه.

هذا من ناحية خلقه للأشياء الضارَّة والنافعة معًا، ولا شكَّ أنَّ خلق الخير والشرِّ، وخلق النفع والضرِّ المتضادِّ؛ أنَّهما دليل على كمال القدرة، فإنَّنا إذا رأينا أنَّه فرَّق بين الأخوين هذا غني وهذا فقير، هذا سليم وهذا مريض، هذا سعيد وهذا شقي، هذا مهتدٍ وهذا ضالّ، مع كونهما على حدٍّ سواء، فهذا يدلُّ على كمال التصرُّف، وأنَّه تصرف في خلقه كما يشاء، وأنَّه خلق الضدَّين، وذلك دليل كمال القدرة، فالظُّلمة ضدُّها النور، والليل ضدُّه النهار، وكذلك المزدوجات؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، يعني: ذكرًا وأنثى، فهكذا أيضًا المتضادات: الصحّة والمرض ضدّان، والخير والشرّ ضدّان، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، الله تعالى هو الذي خلقها وقدّرها، ولكن نعرف أن كل ما صدر عن الله تعالى فإنَّه خير؛ ولذلك ورد في حديث الاستفتاح: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[1].

معلوم أنَّ الله هو الذي يقدِّر الأمراض، وهو الذي يقدِّر الفقر والمصائب، وهو الذي يقدِّر العاهات على العباد والحوادث ونحوها، ولكن هل يُقال: إنَّها شرٌّ بالنسبة إلى الله؟ والجواب: أنها ليست شرًّا، بل هي لحكمةٍ، ومحض مصلحة. فهذا معنى قوله ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**».

وإذا تتبَّعت القرآن والأدلّة تجد أنَّ كل ما فيه ضرر وشرٌّ ينسب إلى الإنسان،

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

وإن كان الله هو الذي أوجده وكوّنه وقدّره، وقد حكى الله عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنّه قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠]، لم يقل: وإذا أمرضني، بل قال: وإذا مرضت، مع أنَّ الله هو الذي ينزل المرض ويقدِّره، ولكن لا يضاف إليه الشرُّ المحض.

وحكى الله عن مؤمني الجنِّ أنَّهم قالوا: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن:١٠]، فالشرّ قالوا فيه: ﴿ أُرِيدَ ﴾، وفي الخير قالوا: ﴿ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾؛ وذلك تنزيه لله تعالى عن أن يصدر منه شرٌّ محضٌ، وإن كان هو الذي قدّر الشرَّ وخلقه وكوَّنه، فإنَّه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، فيعتقد العبد أنَّ صدوره من الله تعالى خير ولمحض مصلحة، وليس فيه أي ضرر بالنسبة إلى الله، ولو كان في ذلك كراهية للعباد وضرر عليهم، لكن ما خلقه وقدَّره إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ، فهو خير، فلا يضاف الشرُّ إلى الله تعالى . هذا هو قول أهل السنة .

أما المعتزلة فقد أنكروا أن يكون الله تعالى يخلق أفعال العباد، وجعلوا العبد هو الذي يخلق فعله، وجعلوا العباد هم الذين يهدون أنفسهم ويضلّونها، وكذَّبوا بالنصوص الواردة في مثل إضافة الأفعال إلى الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧]، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزمر:٣٦، ٣٧]، وكذلك قول النبيّ ﷺ في خطبة الحاجة: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ

يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ»[1].

من هذا كله نعلم أنَّ الله هو الذي هدى هذا وأقبل بقلبه إلى الخير، وأضلَّ هذا وصرفه إلى الشرِّ، وله المِنَّة والنعمة على المهتدين، وهو العادل في صرف هؤلاء المعتدين الظالمين، وما عذَّبهم وهو ظالم لهم، ولو عذَّب أهل سمٰواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته أفضل من أعمالهم.

فعلى هذا نقول: إنَّ الله تعالى هو الذي خلق أفعال العباد، فلو شاء لما ضلَّ هذا ولما اهتدى هذا، فهو الذي منَّ على هذا وهداه، وهو الذي أضلَّ هذا وصرفه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]. وقد حكى الله عن المشركين أنَّهم يتعلَّقون بعموم المشيئة، ولا متعلَّق لهم في ذلك، فإذا قال المشركون مثلًا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس:٤٧]، نقول: حقًّا، لو شاء الله ما أشركتم، ولكنَّه سبحانه خذلكم عدلًا منه، ولم يُقدّر لكم الهداية، لكن أعطاكم قوةً وأعطاكم اختيارًا، وأعطاكم ميلًا وتفضيلًا، فصرتم به مائلين إلى أفعال الشرِّ، وإلى الكفر، وإلى المعاصي، فميلكم هذا واختياركم، وإن كان مسبوقًا بقضاء الله وقدره، هو الذي تستحقُّون عليه العقوبة؛ فلذلك يقول أهل السنَّة: إنَّ الله تعالى تغلب قدرته

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٦).

قدرة العباد، ولكن أعطانا قوَّة وقدرة واستطاعة نتمكَّن بها من مزاولة الأعمال، وقدرة الله وإرادته ومشيئته غالبةٌ على قدرة العباد ومشيئتهم وإرادتهم، ولأجل ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

والمعتزلة لم تتَّسع قلوبهم لهذا، فقالوا: إنَّ قدرة العبد غلبت قدرة الله، ويقولون: إنَّه يكون في الوجود ما لا يريد، وإنَّه أراد من الناس كلِّهم أن يؤمنوا، ولكن غلبت قدرةُ هؤلاء الكفار قدرة الله، فاختاروا الكفر؛ فغلبت قدرتهم، فكان في الكون من يخلق مع الله؛ لأنَّهم خلقوا أفعالهم مستقلِّين بها، دون أن يكون لله تصرُّف فيهم ولا قدرة عليهم، فكانوا بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، كأنَّهم يقولون: لو أنَّه خلق فيهم ذلك وعذبهم، لكان ظالمًا لهم، كيف يعذِّبهم وهو الذي خلق فيهم الكفر، وخلق فيهم المعاصي، وأقدرهم عليها.

نقول: أنتم فررتم من شيء ووقعتم في شرٍّ منه حيث جعلتم الله مغلوبًا على أمره حين قلتم: إنَّه يعصى قسرًا، وإنَّ قدرتهم تغلب قدرته، تعالى الله عن ذلك!! ولأجل هذا الاعتقاد الذي هو قولهم: إنَّ مع الله من يخلق، سمُّوا «مجوس هذه الأمة»؛ لأن المجوس يجعلون الأمر صادرًا عن خالقين: النور والظلمة، فالنور هو الذي يخلق الخير، والظلمة هي التي تخلق الشرّ. والقدرية ينكرون قدرة الله، ويجعلون العباد يخلقون أفعالهم مستقلِّين بها، ولا يجعلون لله قدرةً على الهداية، ولا على الإضلال.

وبكلِّ حالٍ فإن عقيدة أهل السنَّة: أنَّ لله تعالى قدرةً تغلب قدرة العباد،

ولكن يثيب العباد ويعاقبهم على ما أوجد فيهم من القدرة والاستطاعة، التي يتمكّنون بها من مزاولة الأعمال، فثواب العباد وعقابهم على طاعاتهم كما في قوله: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، بما قدّمت أيديكم، وبما كسبت أيديكم، فما دام أنّهم أسندت إليهم الأعمال، فمنهم من عمل بها، ومنهم من لم يعمل، فلابدَّ أنَّ لهم استطاعةً وقدرةً يتمكَّنون بها من إيجاد الإيمان والكفر، وإيجاد الطاعات والمعاصي، ولكن كل ذلك مسبوق بقدرة الخالق تعالى وباختياره وبقهره، ولو شاء الله لما حصل ذلك منهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، فللّه الحجة على خلقه، فهو الذي يقدر على أن يعطي هذا الهداية منًّا منه وكرمًا، ويخذل هذا.

والبحث في هذا بحثٌ واسع يتعلَّق بالقضاء والقدر، وقد أطال فيه العلماء حتى يبطلوا شبهة طائفتين؛ طائفة غلت في الإثبات، وطائفة غلت في النَّفي، فالذين غلوا في الإثبات يسمَّون المجبرة أو الجبريَّة، وقد غلوا في الإثبات حتَّى سلبوا العبد قدرته واختياره، وجعلوه كالشجرة تحرِّكها الرياح، ليس له أي اختيار، وجعلوا تعذيبه على المعاصي ظلمًا من الله له ـ تعالى الله عن قولهم ـ وتوسّط أهل السنّة والجماعة وجعلوا للعبد قدرة وإرادة، والله خالقه وخالق قدرته وإرادته، وجعلوا العباد فاعلين حقيقة تضاف إليهم أعمالهم، فالعبد هو المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، والمصلِّي والصائم، تُسند إليه هذه الأعمال وإن كانت بقضاء الله وبقدره وبخلقه وبإرادته؛ حيث لا يخرج شيءٌ عن إرادة الله تعالى.

قال الشارح:

وَرَوَى عُمَرُ بْنُ الهَيْثَمِ قَالَ: خَرَجْنَا فِي سَفِينَةٍ، وَصَحِبَنَا فِيهَا قَدَرِيٌّ وَمَجُوسِيّ، فَقَالَ الْقَدَرِيُّ لِلْمَجُوسِيّ: أَسْلِمْ، قَالَ المَجُوسِيُّ: حَتَّى يُرِيدَ اللَّهُ، فَقَالَ الْقَدَرِيُّ: إِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُرِيدُ، قَالَ المَجُوسِيُّ: أَرَادَ اللَّهُ وَأَرَادَ الشَّيْطَانُ، فَكَانَ مَا أَرَادَ الشَّيْطَانُ! هَذَا شَيْطَانٌ قَوِيٌّ!! وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ: فَأَنَا مَعَ أَقْوَاهِمَا!![1]

وَوَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى حَلْقَةٍ فِيهَا عَمْرُو بْنُ عُبَيدٍ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنَّ نَاقَتِي سُرِقَتْ، فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يَرُدَّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُبَيدٍ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ لَمْ تُرِدْ أَنْ تُسْرَقَ نَاقَتُهُ فَسُرِقَتْ فَارْدُدْهَا عَلَيهِ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا حَاجَةَ لِي فِي دُعَائِكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: أَخَافُ ـ كَمَا أَرَادَ أَنْ لَا تُسْرَقَ فَسُرِقَتْ ـ أَنْ يُرِيدَ رَدَّهَا فَلَا تُرَدُّ!![2]

وَقَالَ رَجُلٌ لِأَبِي عِصَامٍ الْقَسْطَلَانِي: أَرَأَيتَ إِنْ مَنَعَنِي الهُدَى وَأَوْرَدَنِي الضَّلَالَ، ثُمَّ عَذَّبَنِي، أَيَكُونُ مُنْصِفًا؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو عِصَامٍ: إِنْ يَكُنِ الهُدَى شَيْئًا هُوَ لَهُ، فَلَهُ أَنْ يُعْطِيَه مَنْ يَشاءُ، ويَمْنَعُهُ مَنْ يَشاءُ.

وَأَمَّا الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

---

(١) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص٨٢)، وابن المستفاض في القدر (ص٢٤٤)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٦١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٨٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٤٠).

[السجدة:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الإنسان:٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

---

قال الشيخ:

في هذه القصص التي حكاها الشارح ما يُبطل قول المعتزلة؛ ففي القصَّة الأولى مجوسي وقدري، ومعلوم أن المجوس يجعلون الكون صادرًا عن خالقين، خالق الخير وخالق الشرِّ، فهذا المجوسي باقٍ على مجوسيَّته، فدعاه هذا القدريُّ للإسلام! فقال المجوسيّ: لا أسلم حتى يريد الله أن أسلم، فقال ذلك القدري: الله يريد الإسلام منك، ولكن الشَّيطان هو الذي يريد منك الكفر! فتعجَّب ذلك المجوسي، وقال: هذا شيطان قويّ؛ قوَّة الشيطان غلبت قوَّة الله! الله أراد أن أؤمن، والشيطان أراد أن أكفر، فغلبت إرادةُ الشيطان إرادة الله. فخصم بذلك وهزم المعتزلي، ولو أنَّه قال: إن الله تعالى أراد كلَّ شيءٍ، أراد منك الإيمان وأحبَّه منك، ولكن جعل لك قدرةً وميلًا واستطاعةً تزاول بها العمل، لكان ذلك أقرب إلى أن يتقبّل. فهذه لا شكَّ أنّها دالّةٌ على أن المعتزلة

متذبذبون في شبهاتهم، وفي حججهم.

وأمّا القصة الثانية: قصة الأعرابي الذي سُرقت ناقته، فدعا له هذا المعتزلي وقال: اللهمَّ إنَّك لم ترد أن تسرق ناقته فارددها !! ولكن الأعرابيّ فطِن وقال للمعتزلي: الله ما أراد أن تُسرق وسُرقت، فإذًا لو أراد أن يردَّها لن يقدر، فلا حاجة لي في دعائك.

فالله تعالى هو الذي يريد كل شيء، ولا يكون في الوجود إلَّا ما يريد، ولكنَّه يقدِّر هذه الأشياء كما يشاء.

والأدلَّة التي أوردها الشارح واضحة الدلالة في أنَّ مشيئة الله تعالى وقدرته عامَّة، وأنَّه لا يكون في الوجود إلَّا ما يريد، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان:٣٠]، أي مشيئتكم التي تزاولون بها الأعمال مرتبطة بمشيئة الله، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، فإضلاله لهؤلاء عدلٌ منه، ولكن معلوم أنَّه مكَّنهم من الأعمال فزاولوا الأعمال السيِّئة من الكفر والذنوب، فعذَّبوا على تلك المزاولة التي صاروا بها كفارًا مقدِّمين للكفر ومقدِّمين للمعاصي، وهدى المؤمنين وأقبل بقلوبهم ومكَّنهم وأعطاهم قدرة يزاولون بها الطاعات والإيمان، فصاروا بذلك مؤمنين مطيعين، فعذَّب هؤلاء على معاصيهم وكفرهم، وإن كان بقضاء وقدر، وأثاب هؤلاء على إيمانهم وطاعتهم، وإن كان بقضاءٍ وقدر.

وبعد، فإنَّ من أركان الإيمان بالله: الإيمان بقضائه وقدره، فهو ركن من

أركان الإيمان الستَّة، بيَّنه النبي ﷺ بقوله: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

وذكره الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمَّن شيئين:

**الدرجة الأولى**: تتضمَّن أنَّ الله تعالى علم الأشياء ثم كتبها، أولًا العلم، وثانيًا الكتابة، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، هذا دليل على الكتابة. كذلك قول النبي ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2]، أي: إنَّه تعالى علم ما سوف يحدث من أوَّل الدنيا إلى آخرها، وأثبت ذلك، وليس في ذلك صعوبة على الله، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، والله هو الذي أوجد الكائنات فلا يكون

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١)، وسيأتي الكلام على هذا الحديث في تعليق سماحة الشيخ على قول الطحاوي: «ونُؤْمِنُ باللَّوحِ والقَلَمِ، وبجَميعِ مَا فيهِ قَدْ رُقِم».

في الوجود إلا ما يريد، وحيث إنَّها تكون بإرادته سبحانه وتعالى، فإنَّها كذلك كائنة بعد خلقه وبعد إيجاده لها، فهو علمها قبل أن توجد، وأثبتها في اللوح المحفوظ كما أخبر بذلك.

وقد كان غُلاة القدر قديمًا ينكرون هذا النوع، ويقولون: إنَّ الله لا يعلم بالأشياء حتى تقع، وبعضهم يقول: إنَّه يعلم الكليَّات ولا يعلم الجزئيَّات، بمعنى: أنَّه لا يعلم مفردات الأشياء، وإن كان يعلم عموماتها، وقد أوردنا فيما سبق أثر ابن مسعود ﷺ حيث قال: «اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أو ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فقال أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ما نَقُولُ؟ قال الْآخَرُ: يَسْمَعُ إن جَهَرْنَا ولا يَسْمَعُ إن أَخْفَيْنَا، وقال الْآخَرُ: إن كان يَسْمَعُ إذا جَهَرْنَا فإنه يَسْمَعُ إذا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٢، ٢٣][1]، فهكذا ظنّ هؤلاء الذين يظنون أنَّ الله لا يعلم أعمالهم، أو أنَّه يخفى عليه شيء من أحوالهم، أو أنَّهم يكونون في مكانٍ أو موضعٍ لا يراهم ربُّهم، أو نحو ذلك.

فإذا آمن العبد بأنَّ الله عالمٌ بسرِّه، وعالمٌ بنجواه، وعالمٌ بأحواله، وعالمٌ بما هو عامل، وأنَّه قد كتب أعماله قبل أن يوجده، وقد كتب ما هو كائن، ويعلم ما

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٣٧).

توسوس به نفسه، وما يجول ويتحدَّث به في قلبه، ترتب على إيمانه بذلك أنَّه يخاف الله حقَّ الخوف، فإنَّ من علم أنَّ أعماله محصاةٌ عليه، وعلم أنَّها مكتوبة لا تضيع دقيقها وجليلها، كبيرها وصغيرها، وأنَّه سوف يحاسَب عليها، وأنَّه سوف يوقف عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧]، فهذه درجة من درجات القدر، وهي الإيمان بأنَّ الله عالم بالأعمال وبالمخلوقات، وعالم بعددها، وكتب ذلك وأثبته قبل أن توجد المخلوقات بأسرها، وأنَّه لا يحدث إلا ما علم الله أنَّه سيحدث، في الوقت الذي قدر أنَّه يحدث فيه، دون تقدُّم أو دون تأخُّر.

**أما الدَّرجة الثانية**: والتي تتضمَّن شيئين أيضًا، فهي الإيمان بإرادة الله تعالى ويخلقه، هذه الدرجة تتضمَّن أنَّ الله أراد ما في الكون وخلقه، والإرادة عامَّة لا يكون شيء في الوجود خارجًا عنها، وهي الإرادة الكونيَّة القدرية، وهي بمعنى المشيئة، فلهذا يقول المسلمون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ويقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا يكون في الوجود حركة إلا بإرادة الله ومشيئته، ولا يكون لإنسان حول إلا بإذن الله، ولا يكون له قوّة ولا قدرة ولا استطاعة على أمر من الأمور إلا بالله تعالى، فما شاءه كان وإن لم يشأ العباد، وما شاءه العباد لا يكون إذا لم يشأ الله، وفي هذا المعنى قال الشافعي ـ رحمه الله ـ في

أبياتٍ مشهورةٍ[1]:

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

فيؤمن العبد بأنَّ ما شاء الله كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لن يكون وإن شاء الخلق، ومصداق ذلك في قول النبي ﷺ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ»[2]. ومع ذلك، فإنَّا إذا آمنَّا بكتابة هذه المخلوقات، وبإيجاد الله لها، لا يكون ذلك عذرًا لنا في ترك الأعمال، بل يزيدنا ذلك نشاطًا في العمل وجدًّا واجتهادًا، وما ذاك إلا أنَّنا خُلقنا للعمل، وأُعطينا من القوَّة التي بإرادة الله ما نستطيع به مزاولة الأعمال.

فهذا هو الجمع بين كون الله تعالى خالقًا ما في الوجود، وأنَّه يريد ما في الكون، وبين كونه أراد من العباد أفعالهم التي هي الطاعات والإيمان، أراد ذلك دينًا وشرعًا، وأمرهم بما هم قادرون على امتثاله، وأعطاهم من القوَّة ما يزاولون به تلك الأعمال، وما يصحُّ أن تنسب إليهم، ويثابون عليها ويعاقبون على أفعالهم، فبهذا يجتمع إيمان أهل السنَّة بما ذكرنا، ويكون هذا من السرّ الذي لا يعلم كيفيَّته إلا الله، كما تقدّم لنا أنَّ القدر سرُّ الله تعالى في خلقه.

---

(١) تقدم ذكرها (١/ ٥٤٧).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

قال الشارح:

وَمَنْشَأُ الضَّلَالِ: مِنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَبَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا، فَسَوَّى بَيْنَهُمَا الْجَبْرِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا، فَقَالَتِ الْجَبْرِيَّةُ: الْكَوْنُ كُلُّهُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَيَكُونُ مَحْبُوبًا مَرْضِيًّا، وَقَالَتِ الْقَدَرِيَّةُ النُّفَاةُ: لَيْسَتِ الْمَعَاصِي مَحْبُوبَةً لِلَّهِ، وَلَا مَرْضِيَّةً لَهُ، فَلَيْسَتْ مُقَدَّرَةً، وَلَا مَقْضِيَّةً، فَهِيَ خَارِجَةٌ عَنْ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَشِيئَةِ وَالْمَحَبَّةِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْفِطْرَةُ الصَّحِيحَةُ، أَمَّا نُصُوصُ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ مِنَ الْكِتَابِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِهَا، وَأَمَّا نُصُوصُ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وَقَالَ تَعَالَى عَقِبَ مَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَالْكِبْرِ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٨].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»(١).

وَفِي «الْمُسْنَدِ»(٢): «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ». وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأعوذُ بكَ مِنْكَ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٢) (٢/ ١٠٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٤٠).

فَتَأَمَّلْ ذِكْرَ اسْتِعَاذَتِهِ بِصِفَةِ الرِّضَا مِن صِفَةِ السَّخَطِ، وَبِفِعْلِ الْمُعَافَاةِ مِنْ فِعْلِ الْعُقُوبَةِ، فَالْأَوَّلُ لِلصِّفَةِ، وَالثَّانِي لِأَثَرِهَا الْمُتَرَتِّبُ عَلَيْهَا، ثُمَّ رَبَطَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا إِلَى غَيْرِهِ، فَمَا أَعُوذُ مِنْهُ وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِكَ وَإِرَادَتِكَ، وَمَا أَعُوذُ بِهِ مِنْ رِضَاكَ وَمُعَافَاتِكَ هُوَ بِمَشِيئَتِكَ وَإِرَادَتِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تَرْضَى عَنْ عَبْدِكَ وَتُعَافِيَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَغْضَبَ عَلَيْهِ وَتُعَاقِبَهُ، فَإِعَاذَتِي مِمَّا أَكْرَهُ، وَمَنْعُهُ أَنْ يَحِلَّ بِي، هِيَ بِمَشِيئَتِكَ أَيْضًا، فَالْمَحْبُوبُ وَالْمَكْرُوهُ تُلُّهُ بِقَضَائِكَ وَمَشِيئَتِكَ، فَعِيَاذِي بِكَ مِنْكَ، فَعِيَاذِي بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَرَحْمَتِكَ مِمَّا يَكُونُ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَعَدْلِكَ وَحِكْمَتِكَ، فَلَا أَسْتَعِيذُ بِغَيْرِكَ مِنْ غَيْرِكَ، وَلَا أَسْتَعِيذُ بِكَ مِنْ شَيْءٍ صَادِرٍ عَنْ غَيْرِ مَشِيئَتِكَ، بَلْ هُوَ مِنْكَ، فَلَا يَعْلَمُ مَا فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَارِفِ وَالْعُبُودِيَّةِ إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَمَعْرِفَةِ عُبُودِيَّتِهِ.

---

قال الشيخ:

يقول الشارح: إنَّ الذين ضلُّوا في هذا الباب سوَّوا بين المشيئة والإرادة، والصحيح أنَّه بينهما فرقًا، فإنّ الإرادة تنقسم قسمين: إرادة شرعيّة، وإرادة قدريّة. فالإرادةُ القدريّة هي بمعنى المشيئة، والإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبَّة، فالله تعالى أراد الطاعات شرعًا وأحبَّها، وأراد المعاصي كونًا وكرهها، ولم يحبَّها، ولكنه قدَّرها وأرادها وشاءها، ولو لم يشأها لم تكن، ولكنَّه ما رضيها ولا أحبَّها، بل كرهها وتوعَّد عليها، ولو كانت بمشيئته وبقدرته وبإرادته الكونيَّة، حتَّى لا يكون

في الوجود ما لا يريد، وحتى لا يُعصى ربّنا قسرًا عليه، فنعرف بذلك أنَّ هناك فرقًا بين المشيئة والإرادة الشرعية.

فالإرادة الشرعية: هي كونه تعالى يريد الطاعات يعني شرعها وأرادها وأحبَّها، وقد ذكر الله هذه الإرادة في مواضع، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فهذه إرادة شرعيَّة، كذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]، فهذه الإرادات كلها إرادة شرعيّة.

نقول: إنَّ الله تعالى أراد الطاعات شرعًا، وأراد من العباد كلِّهم الإيمان شرعًا، أراد منهم الطاعات، فأراد منهم الصيام والصدقات والزكوات والجهاد والحجَّ والعمرة والذكر والقراءة وأنواع الطاعات، وأحبَّ هذه الطاعات، وأراد منهم ترك المعاصي شرعًا، وكرهها، فهذه إرادةٌ شرعيّة، وهي تستلزم المحبّة للمراد. فإذا شرع الله شيئًا وأراده شرعًا فإنّه يحبُّه ولو لم يكن، فيحب الإيمان من الخلق كلِّهم ولو لم يحصل إلَّا من بعضهم، ويحبُّ الصلوات من الناس كلِّهم ولو أنّ بعضهم ما حصلت منه الصلاة، ويحب الصَّوم، ويحب الصدقات، ويحبُّ الجهاد، ويحبُّ التوبة، ويحبّ الاستغفار، ويحبّ الأذكار، ويحبّ التلاوة، يحبّ ذلك منهم، وقد أراده شرعًا، ولكنه لم يحصل إلَّا من البعض، وهم المسلمون

المؤمنون. فهذه إرادة شرعيّة، وهي التي ذكرنا أنَّ الله تعالى يحبّ ما يترتب عليها، ولكنها لا تستلزم حصول المراد، فقد يريد شرعًا أمرًا ولكنّه لا يحصل؛ لكونه ما أراده قدرًا، يعني: أراد من الكفار الإيمان شرعًا ولم يرده قدرًا، فلذلك لن يحصل، وأراد من العصاة أن يطيعوه، ولكنّه لم يرده قدرًا ولم يشأه؛ فلذلك لم يحصل. هذا معنى الإرادة الشرعيّة.

**أما الإرادة الكونيّة:** فهي التي لا بدّ أن يقع مرادها، وقد ذُكرت في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١]، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، فهذه إرادة كونيّة، يعني: مكتوبة في الكون وفي الأزل، وهي القدريّة، وهي التي يقع المراد بها، ولكن ليس محبوبًا كله، فليس ما يريده الله من هذه الكائنات يكون دائمًا محبوبًا، فلذلك نقول: إنّه أراد المعاصي كونًا ولكنّه لا يحبّها، وأراد الكفر كونًا ولكنه لا يحبّه، ولم يرده شرعًا، ومع ذلك لو لم يشأه ولو لم يرده لما حصل، فإنّه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولما لم يحبّه ولم يأمر به شرعًا بل كرهه؛ كان مترتبًا عليه العقاب.

فهذا هو المراد بكونه سبحانه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولكن غلا في هذه الإرادة قوم، ونفاها قوم، وتقابل الطرفان أو الطائفتان، فطائفة جبريّة، جعلوا كل الموجودات مخلوقة لله، ولم يجعلوا للإنسان أي تصرّف، بل جعلوه مجبورًا ليس له أيُّ اختيار، وقالوا: إنَّ عقوبته على المعاصي ظلم؛ لأنه مقسور

ومجبور عليها، فهذه الطائفة هم الجبريَّة.

والطائفة الثانية التي قابلتهم: هم نفاةُ قدرة الله، الذين يقولون: ننزِّه الله عن الظلم، فنقول: إنَّه لو خلق هذه المعاصي وعاقب عليها لكان ظالمًا. فهذه الطائفة غلت في النفي فقالت: إنَّ أعمال العباد ومعاصيهم وطاعاتهم ليست من خلق الله، بل من خلقهم ومن إيجادهم، وأنَّ العباد هم الذين يوجدون أفعالهم. فهذه الطائفة غلت في النفي فجعلت الإنسان يخلق فعله، ونفت أن يكون لله أي قدرة على أفعال العبد، وزعموا بذلك أنَّهم أهل العدل والإنصاف.

وكلا الطائفتين ضالٌّ، فالطائفةُ الأولى جعلت للكفار وللعصاة عذرًا؛ لأنهم يقولون: كيف يخلقنا ويخلق فينا المعاصي ثم يعاقبنا عليها؟ والطائفة الثانية جعلت مع الله من يخلق، وجعلت كل إنسان خالقًا مستقلًا بأفعاله، وكذبت بالأدلّة التي تثبت أنَّ الأمر بيد الله تعالى، يضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء.

وتوسّط أهل الحقِّ وقالوا: إنَّ الكائنات حاصلةٌ بقدرة الله، كلها طاعات ومعاصٍ، ولكن تنسب إلى العبد، فالله أعطى العبد قدرة يزاول بها الأعمال، ويصح نسبتها إليه، ولأجل ذلك يقولون: إن العباد فاعلون حقيقة، والله خالقهم وخالق أفعالهم، فالعبد هو المؤمن والكافر والبرُّ والفاجر والمصلّي والصائم، تنسب أفعاله إليه، وإن كانت بقضاء الله تعالى وقدره، وبإرادته الكونيّة، وبمشيئته التي حصلت بإرادة الله، ولكنّها تُنسب إلى العبد، ولو سلبنا العبد هذه القدرة لبطلت الشريعة، وفي بطلان الشريعة بطلان الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومن الأوامر والنواهي، ومن خلق الثواب والعقاب، والله تعالى منزَّه عن

ذلك، فلو لم يكن للعباد القدرة على مزاولة أعمالهم لما أُمروا، ولأجل ذلك تتوجه إليهم الإرشادات، فيقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة:١٠٥]، فأخبر بأنَّ لهم أعمالًا، لو لم يكونوا قادرين لما أمروا بها، ولكن الله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم، وقدرتهم مسبوقة بقدرة الله.

أمّا أدلّة الرِّضا فقد أورد منها الشارح الآيات والأحاديث في إثبات أنَّ الله تعالى يرضى ويسخط، وللرِّضا والسخط أسباب ذكرها في هذه الآيات، أو أشار إلى بعضها، فتراه تارةً يثبت الرضا، وتارةً ينفيه، يقول الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، فأخبر بأنه لا يرضى عن الكفر، ومعناه أنَّه يكرهه، وأخبر بأنَّه يرضى بالشكر ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وأضاف هنا الكفر إليهم؛ لأنَّه صدر بأفعالهم، وإن كانت مقدَّرة، والشكر إليهم ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾.

وهكذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»[1]، فأثبت الرضا، وأثبت السخط، وأثبت الكراهية؛ أثبت أنَّ هذه المعاصي يكرهها الله، ومعلوم أنَّه نهى عنها العباد، وما نهاهم إلا ولهم قدرةٌ على الانتهاء، وعلى أن ينزجروا ويتركوا الأعمال السيئة التي منها الكفر.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٦١).

فالحاصل: أنَّ من عقيدة أهل السنة إثبات أنَّ الله يرضى ويسخط، ويحبُّ ويكره، وأنَّ الأعمال التي يحبُّها قد أمر بها عباده، وأنّه ما أمرهم إلَّا وهم قادرون، وأنَّ الأعمال التي نهى عنها يسخطها ويكرهها، وقد نهاهم عنها، ولا ينهاهم إلَّا عن شيءٍ يقدرون على فعله، فإنَّ العاجز لا يُنهى عن شيء يعجز عن فعله، فلا يُقال ـ مثلًا ـ للإنسان: لا تحيي الموتى؛ لأنّه عاجز عن إحيائهم، فلا يُنهى عنه. ولا يُقال له ـ مثلًا ـ: لا تخلق الأرض؛ لأنه عاجز عن أن يخلقها، بخلاف ما إذا قيل له: لا تقتل النفس التي حرَّم الله، فإنّه في إمكانه أن يقتل، أو لا تزن، أو لا تأكل الحرام، فلا يُنهى عن شيءٍ لا يستطيعه، بخلاف ما يستطيعه، فيُقال له مثلًا: احمل هذا الكرسي، أو انقل هذا المصحف من مكان إلى مكان، أو يقال له: قم واركع ركعتين، هذه باستطاعته فعله، فيُؤمر بما يستطيع، ويُنهى عمَّا هو ممكن أن يُفعل، ولا يُؤمر بالمستحيل أن يفعله، ولا يُنهى عن الشيء الذي مستحيلٌ فعله.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُرِيدُ اللَّهُ أَمْرًا وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يُحِبُّه؟ وَكَيفَ يَشَاؤُه وَيُكَوِّنُهُ؟ وَكَيفَ يَجْتَمِعُ إِرَادَتُهُ لَهُ وَبُغْضُهُ وَكَرَاهَتُهُ؟

قِيلَ: هَذَا السُّؤَالُ هُوَ الَّذِي افْتَرَقَ النَّاسُ لِأَجْلِهِ فِرَقًا، وَتَبَايَنَتْ طُرُقُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَ نَوْعَانِ: مُرَادٌ لِنَفْسِهِ، وَمُرَادٌ لِغَيْرِهِ. فَالْمُرَادُ لِنَفْسِهِ مَطْلُوبٌ مَحْبُوبٌ لِذَاتِهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ، فَهُوَ مُرَادٌ إِرَادَةَ الْغَايَاتِ وَالْمَقَاصِدِ.

وَالْمُرَادُ لِغَيْرِهِ قَدْ لَا يَكُونُ مَقْصُودًا لِلْمُرِيدِ، وَلَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى ذَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ وَسِيلَةً إِلَى مَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ، فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ مِنْ حَيْثُ نَفْسُهُ وَذَاتُهُ، مُرَادٌ لَهُ مِنْ حَيْثُ إِفْضَاؤُهُ وَإِيصَالُهُ إِلَى مُرَادِهِ. فَيَجْتَمِعُ فِيهِ الْأَمْرَانِ: بُغْضُهُ وَإِرَادَتُهُ، وَلَا يَتَنَافَيَانِ، لِاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقَيْهِمَا. وَهَذَا كَالدَّوَاءِ الْكَرِيهِ، إِذَا عَلِمَ الْمُتَنَاوِلُ لَهُ أَنَّ فِيهِ شِفَاءَهُ، وَقَطْعِ الْعُضْوِ الْمُتَآكِلِ، إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِي قَطْعِهِ بَقَاءَ جَسَدِهِ، وَكَقَطْعِ الْمَسَافَةِ الشَّاقَّةِ، إِذَا عَلِمَ أَنَّهَا تُوصِلُ إِلَى مُرَادِهِ وَمَحْبُوبِهِ. بَلِ الْعَاقِلُ يَكْتَفِي فِي إِيثَارِ هَذَا الْمَكْرُوهِ وَإِرَادَتِهِ بِالظَّنِّ الْغَالِبِ، وَإِنْ خَفِيَتْ عَنْهُ عَاقِبَتُهُ، فَكَيفَ بِمَنْ لَا يَخْفَى عَلَيهِ خَافِيَةٌ؟

فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَكْرَهُ الشَّيْءَ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ إِرَادَتُهُ لِأَجْلِ غَيْرِهِ، وَكَوْنُهُ سَبَبًا إِلَى أَمْرٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فَوْتِهِ.

مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ خَلَقَ إِبْلِيسَ، الَّذِي هُوَ مَادَّةٌ لِفَسَادِ الْأَدْيَانِ وَالْأَعْمَالِ وَالِاعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِشَقَاوَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادِ، وَعَمَلُهُمْ بِمَا يُغْضِبُ

الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ السَّاعِي فِي وُقُوعِ خِلَافِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَعَ هَذَا، فَهُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى مَحَابَّ كَثِيرَةٍ لِلرَّبِّ تَعَالَى تَرَتَّبَتْ عَلَى خَلْقِهِ، وَوُجُودُهَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَدَمِهَا:

مِنْهَا: أَنَّهُ تَظْهَرُ لِلْعِبَادِ قُدْرَةُ الرَّبِّ تَعَالَى عَلَى خَلْقِ الْمُتَضَادَاتِ الْمُتَقَابِلَاتِ، فَخَلَقَ هَذِهِ الذَّاتِ الَّتِي هِيَ أَخْبَثُ الذَّوَاتِ وَشَرُّهَا، وَهِيَ سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ فِي مُقَابَلَةِ ذَاتِ جِبْرِيلَ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَشْرَفِ الذَّوَاتِ وَأَطْهَرِهَا وَأَزْكَاهَا، وَهِيَ مَادَّةُ كُلِّ خَيْرٍ، فَتَبَارَكَ خَالِقُ هَذَا وَهَذَا. كَمَا ظَهَرَتْ قُدْرَتُهُ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالدَّاءِ وَالدَّوَاءِ، وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَذَلِكَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلِيلِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَإِنَّهُ خَلَقَ هَذِهِ الْمُتَضَادَاتِ، وَقَابَلَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَجَعَلَهَا مَحَالَّ تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ. فَخُلُوُّ الْوُجُودِ عَنْ بَعْضِهَا بِالْكُلِّيَّةِ تَعْطِيلٌ لِحِكْمَتِهِ، وَكَمَالِ تَصَرُّفِهِ، وَتَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ.

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَائِهِ الْقَهْرِيَّةِ، مِثْلُ: الْقَهَّارِ، وَالْمُنْتَقِمِ، وَالْعَدْلِ، وَالضَّارِّ، وَالشَّدِيدِ الْعِقَابِ، وَالسَّرِيعِ الْحِسَابِ، وَذِي الْبَطْشِ الشَّدِيدِ، وَالْخَافِضِ، وَالْمُذِلِّ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ كَمَالٌ، لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُتَعَلَّقِهَا، وَلَوْ كَانَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ عَلَى طَبِيعَةِ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ.

---

قال الشيخ:

هذا الاعتراض كثيرًا ما يردِّده العصاة، ويقولون - إذا نصحناهم عن المعصية -: إنَّ الله ما هدانا، إنَّ الله قدَّر علينا هذا، ولو أنه هدانا لما خرجنا عن

الطاعة، فنتوقّف حتى يهدينا الله، ويستمرُّون في المعاصي، ويحتجُّون بمثل هذه الحجج، ويقول بعضهم: كيف يقدِّر علينا أن نكفر وأن نفسق أو نعصي ثم مع ذلك يعذِّبنا ويعاقبنا؟ لو كان يعذب على ذلك ما قدّره ولا أوجده ولا أراده كونًا وقدرًا، فدائمًا يحتجون بهذه الأمور المقدَّرة، ويقولون: صحيح إنَّ الله أرادها كونًا، وأنَّه قدرها وأنَّه لو شاء لما حصلت، ولكن هو سبحانه أرادها.

ونقول لهم: لا يلزم من إرادة الله لها أنَّه يحبّها، ولا يلزم من كراهته لبعضها أنَّه لا يحبُّ، فهو أراد الكفر كونًا، وهو يكرهه ويكره أهله شرعًا، وأراد الطاعات وهو يحبُّها، وإن لم تحصل من البعض.

مر بنا في كلام الشارح أنّ المرادات إما أن تكون مرادة لنفسها، وإما أن تكون مرادة لغيرها، فالطاعات مرادةٌ لنفسها؛ مثل: الإيمان، والسنن، والصالحات، والحسنات، وسائر الطاعات مرادةٌ لنفسها، أرادها الله من المؤمنين وحصلت؛ لأنَّه يحبها . وأما المعاصي، فإنَّه أرادها ولكن لغيرها، لم يردها لذاتها، وإنَّما أرادها لمصلحةٍ قد تظهر وقد تخفى للبعض.

وذكر الشارح بعض الحكم في إيجاد هذه المخلوقات الشريرة، وكذلك في إيجاد المعاصي، وتقدير الكفر، وتقدير البدع، وفشوُّها وانتشارها وما أشبه ذلك، فمن ذلك أنَّه شاء هذه الأشياء كونًا، يعني: الكفر والمعاصي والبدع، وقدّرها حتى يمتحن عباده المؤمنين ويبتليهم بمجاهدتها وببغضها وببغض أهلها، وبمعرفة ما يجب عليهم نحوهم، فلو كان الناس كلُّهم مؤمنين ما حصل بغضٌ في الله، ولكن نحن نبغض من يبغضُه اللهُ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين ما حصل

جهاد في سبيل الله، ولو كان الناس كلهم مؤمنين ما حصل ولاءٌ وبراءٌ.

ثمّ أيضًا من حكمة الله في إيجادها: إظهار قدرة الله، فالله تعالى قد أظهر قدرته العامّة ووجدت آثارها، فمن آثارها: عقوبات العصاة وما أنزل بهم من المثُلات، فلو كان الناس كلهم مؤمنين ما أغرق هؤلاء، ولا أهلك هؤلاء بصيحةٍ، ولا أرسل على هؤلاء الريح العقيم، ولا أهلك هؤلاء بعذاب يوم الظّلة.

فمن حكمة الله في إيجاد ذلك أن تُعرف قدرة الله؛ حيث إنّه ينتقم ممن عصاه ويعاقبه، ويعجّل له العذاب في الدنيا؛ ليكون ذلك دليلًا على العذاب في الآخرة، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لما كان في الآخرة إلا دارٌ واحدة وهي الجنّة، ولكنّه تعالى قدّر في الدنيا معاصٍ حتى يكون للدار الآخرة نصيبٌ، فإنّه خلق الدارين الجنة والنار، وهما ضدّان، كما خلق في الدُّنيا الخير والشرّ، والإيمان والكفر، وكذلك سائر المتضادات، وكل واحد مضادٌّ للآخر أو مقابل له، فمثلًا: الليل يقابله النهار، والنّور تقابله الظلمة، والخير يقابله الشرّ، والذكر يقابله الأنثى، والبياض يقابله السواد مثلًا، كذلك الطاعة مع المعصية، والكفر مع الإيمان، والعقوبة مع الثواب، والوعد مع الوعيد ضدّان متقابلان، فخلق الضدين دليل على كمال القدرة، فيؤمن العبد إذا رأى خلق المتضادات بكمال قدرة القادر، وأنّ هذه قدرة الله، حيث خلق هذه الأشياء، ثم مع ذلك نحن نؤمن بأنّه ما خلق شيئًا إلا وله فيه حكمة، ولا يجوز أن نعترض على الله في خلقه لشيء من مخلوقاته.

ويُروى أنّ أحدهم رأى دابّة الخنفساء، فقال: ليت الله ما خلقها، أو لماذا خلق هذه الدّابّة؟ هذه الخنفساء لا فائدة فيها ولا منفعة!! فاعترض على الله في

خلقها، فابتُلي بقرحة خرجت فيه، ولم يوجد لها علاج إلا خنفساء أُحرقت وذُرّ عليه رمادُها فبرأ، فعرف أن الله ما خلق شيئًا إلا وله حكمة في ذلك.

فلا يجوز أن تقول: ليت الله ما خلق السباع، وليت الله ما خلق هذه الحيّات ولا هذه الهوامّ، التي ليس فيها إلا مضرّةٌ وضرر على العباد. بل تقول: إنّه خلق هذه لتُعلم بذلك قدرته، وليُعلم أنّه قادرٌ على خلق الأضداد، وليكون ذلك آيةٌ من آياته:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

فهذه المخلوقات كبيرها وصغيرها كلُّها دالّةٌ على كمال قدرته، إذا تأملها الإنسان عرف بذلك كمال قدرة القادر، مع أنّها لا تحصى، دواب البرِّ من طيور ومن دواب تدبُّ على الأرض، لا يحصيها إلا الله تعالى، في خلقها عجائب من عجائب الله، ودوابُّ البحر مع كثرتها أيضًا وتفاوتها، وما أشبه ذلك، كلها فيها عجائب من قدرة الله تعالى، فخلقها ليس عبثًا، لم يخلق الله شيئًا إلا وله في ذلك حكمة، حتى البعوضة والنملة والذرّة ونحو ذلك من الدوابّ الصغيرة، ولو كان على الناس ضرر من هذه السباع التي تأكل دوابهم، أو من هذه الحيَّات والهوامِّ ونحوها، أو من هذا الذباب الذي يقع عليهم أو على طعامهم، أو من هذا البعوض الذي يلدغهم، فإنّ الله تعالى حكيم.

وأيضًا فإنّ له الحكمة حتى فيما يجريه من الأمراض ونحوها، هذه الأمراض

---

(١) راجع (١/ ٢٦٨).

التي أنزلها الله يسلّطها على من يشاء، ولا يجوز أيضًا أن يُعترض على الله ولا يقال: ليت الله ما خلق الحمى، ولا خلق المرض كذا وكذا، بل الله له الحكمة في خلقه، وفي أمره.

وبكل حال، فإنّ إيجاد هذه الأشياء لأجل الحكمةِ، ولأجلِ إظهارِ القدرةِ وكمالها.

ويُقال مثل ذلك أيضًا في الحكمة في خلق إبليس وأعوانه الذي هو مادة الشرِّ ونحوه، والحكمة في خلق الكفار وانتشارهم، وكذلك في تقويتهم وإمدادهم بالقوة والذخائر ونحو ذلك، والحكمة في تمكينهم من الأعمال التي عملوها وما أشبه ذلك، ومن تسليطهم أحيانًا على المؤمنين، لا شكّ أنَّ الله تعالى له الحكمة في ذلك، فلا يعترض على الله، بل يؤمن العبد بأنّه هو القادر على كل شيءٍ، وأنّ ذلك دليل على كمال قدرته وتمام تصرّفه.

قال الشارح:

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَائِهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِحِلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَسَتْرِهِ وَتَجَاوُزِهِ عَنْ حَقِّهِ، وَعِتْقِهِ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عَبِيدِهِ، فَلَوْلَا خَلْقُ مَا يَكْرَهُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى ظُهُورِ آثَارِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، لَتَعَطَّلَتْ هَذِهِ الْحِكَمُ وَالْفَوَائِدُ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرَ لَهُم»[1].

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَاءِ الْحِكْمَةِ وَالْخِبْرَةِ، فَإِنَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيُنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا، فَلَا يَضَعُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَلَا يُنْزِلُهُ فِي غَيْرِ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا كَمَالُ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَخِبْرَتِهِ، فَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، وَأَعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ لِقَبُولِهَا، وَيَشْكُرُهُ عَلَى انْتِهَائِهَا إِلَيْهِ، وَأَعْلَمُ بِمَنْ لَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ. فَلَوْ قَدَّرَ عَدَمَ الْأَسْبَابِ الْمَكْرُوهَةِ، لَتَعَطَّلَتْ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ، وَلَفَاتَتْ مَصَالِحُ عَدِيدَةٌ، وَلَوْ عُطِّلَتْ تِلْكَ الْأَسْبَابُ لِمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ، لَتَعَطَّلَ الْخَيْرُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي فِي تِلْكَ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا كَالشَّمْسِ وَالْمَطَرِ وَالرِّيَاحِ، الَّتِي فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ مَا هُوَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا يَحْصُلُ بِهَا مِنَ الشَّرِّ.

وَمِنْهَا: حُصُولُ الْعُبُودِيَّةِ الْمُتَنَوِّعَةِ الَّتِي لَوْلَا خَلْقُ إِبْلِيسَ لَمَا حَصَلَتْ، فَإِنَّ عُبُودِيَّةَ الْجِهَادِ مِنْ أَحَبِّ أَنْوَاعِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَلَوْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مُؤْمِنِينَ، لَتَعطَّلَت هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الْمُوَالَاةِ لِلَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَعُبُودِيَّةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعُبُودِيَّةُ الصَّبْرِ، وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَإِيثَارِ مَحَابِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَعُبُودِيَّةُ التَّوْبَةِ وَالْاِسْتِغْفَارِ، وَعُبُودِيَّةِ الْاِسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ أَنْ يُجِيرَهُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَيَعْصِمَهُ مِنْ كَيْدِهِ وَأَذَاهُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الَّتِي تَعْجِزُ الْعُقُولُ عَنْ إِدْرَاكِهَا.

---

قال الشيخ:

أشار الشارح إلى الحكمة في أنّ الله تعالى أوجد المعاصي والطاعات، وأوجد في الدنيا عصاةً ومطيعين، وأوجد أسبابًا يتمكّن بها البعض من مزاولة المعاصي، أو تكون سببًا لانتشار بعضها، وأسبابًا تكون سببًا في الطاعات ونحوها، ويطول البحث فيها؛ فمثلًا: العصاة أسباب معاصيهم كثيرة؛ فمنها: الشّهوات التي تتزيّن لهم، ومنها: الدنيا التي تبسط على كثير منهم، فيتمادون في المعصية، ومنها الهوى الذي يميلُ بكثيرٍ منهم، ومنها: دعاة الضلال الذين يدّعون إلى الباطل ويوالون فيه، ومنها وساوس الشيطان التي هي سبب للضلال والكفران ونحو ذلك.

كذلك أيضًا أسباب الطاعة التي منها: إرسال الرسل ودعاتهم، ومنها: قراءة كتب الله وما يكون بها من الاهتداء ومنها دعوة المؤمنين إلى الله إخوانهم وترغيبهم بالخير وتعليمهم إياه، وذكر الطرق التي يتوصلون بها إلى الطاعات ونحو ذلك.

فوُجِد في الحياة الدنيا طاعات ومعاصٍ، ووجد فيها كفرٌ وإيمان، ولو كان

الناس كلهم مؤمنين لما ظهرت آثار أسماء الله، فمن أسماء الله: العزيز، والجبار، والمنتقم، وشديد العقاب. ولو لم يكن هناك من يعاقب لما عرفنا ماذا يكون معنى شديد العقاب، أو عزيزٌ ذو انتقام، أو المنتقم، ولو كان الناس كلهم مطيعين، لما انتقم الله من هذا العاصي.

ومن حكمة الله في إيجاد المعاصي ظهور آثار أسمائه الحسنى التي تدل على كماله سبحانه، فمن أسماء الله: الرؤوف، والرحيم بالعباد، والمعطي، والمتفضل، ولو كان الناس كلّهم على الإيمان الكامل، ما حصل أنّه رحم هؤلاء، وعفا عن هؤلاء، وغفر لهؤلاء، وتاب على هؤلاء، فإنّه ليس هناك معاصٍ يتوب هذا منها، ولا يستغفر هذا منها، فيغفر له كما في الحديث: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلَنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرَنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[1].

لو كان الناس كلّهم مطيعين ما حصلت آثار ذلك.

كذلك أيضًا من أسمائه: الحكيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فلو كان كل الناس مطيعين ما حصلت آثار الحكمة. ومن حكمته أنّه يعاقب هذا عقوبةً في موضعها، ومن حكمته أنّه يثيب هذا، ومن حكمته أنّه يعطي هذا، ويمنع هذا، ويرفع هذا ويخفض هذا، ويعزّ هذا، ويذلّ هذا، ونحو ذلك، فقدَّر الله وجود المعاصي حتى تظهر آثار هذه الأسماء التي هي من أسماء الله تعالى الحسنى.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

هذا الكلام ونحوه استنبطه العلماء من وجود هذه الطاعات والمعاصي، وكون الناس كلهم ليسوا على إيمان ولا على كفر؛ بل فيهم مؤمن وكافر، ومطيع وعاصٍ، فقالوا: إن آثار هذه إنَّما ظهرت بوجود من يتوب الله عليهم بعد أن كانوا عصاةً، فالله هو التواب ويقبل توبة عبده ويفرح بها كذلك، هؤلاء يستغفرون فيغفر لهم، والله تعالى غفور رحيم، وهؤلاء يرحمهم ويتجاوز عنهم، والله غفور رحيم، وغير ذلك من الحكم في أسماء الله تعالى.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ كَانَ يُمْكِنُ وُجُودُ تِلْكَ الْحِكَمِ بُدُونِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ؟

فَهَذَا سُؤَالٌ فَاسِدٌ! وَهُوَ فَرْضُ وُجُودِ الْمَلْزُومِ بُدُونِ لَازِمِهِ، كَفَرْضِ وُجُودِ الْابْنِ بِدُونِ الْأَبِ، وَالْحَرَكَةِ بِدُونِ الْمُتَحَرِّكِ، وَالتَّوْبَةِ بِدُونِ التَّائِبِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ مُرَادَةً لِمَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ الْحِكَمِ، فَهَلْ تَكُونُ مُرْضِيَةً مَحْبُوبَةً مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، أَمْ هِيَ مَسْخُوطَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ؟

قِيلَ: هَذَا السُّؤَالُ يَرِدُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهَلْ يَكُونُ مُحِبًّا لَهَا مِنْ جِهَةِ إِفْضَائِهَا إِلَى مَحْبُوبِهِ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهَا لِذَاتِهَا؟

وَالثَّانِي: مِن جِهَةِ الْعَبْدِ، وَهُوَ أَنَّهُ هَلْ يَسُوغُ لَهُ الرِّضَا بِهَا مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أَيْضًا؟ فَهَذَا سُؤَالٌ لَهُ شَأْنٌ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْعَدَمِ، أَعْنِي عَدَمَ الْخَيْرِ، وَأَسْبَابِهِ الْمُفْضِيَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ شَرٌّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ وُجُودِهِ الْمَحْضِ، فَلَا شَرَّ فِيهِ، مِثَالُهُ: أَنَّ النُّفُوسَ الشِّرِّيرَةَ وُجُودُهَا خَيْرٌ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَوْجُودَةٌ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا الشَّرُّ بِقَطْعِ مَادَّةِ الْخَيْرِ عَنْهَا، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ فِي الْأَصْلِ مُتَحَرِّكَةً، فَإِنْ أُعِينَتْ بِالْعِلْمِ وَإِلْهَامِ الْخَيْرِ تَحَرَّكَتْ بِهِ، وَإِنْ تُرِكَتْ، تَحَرَّكَتْ بِطَبْعِهَا إِلَى خِلَافِهِ، وَحَرَكَتُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ حَرَكَةٌ: خَيْرٌ، وَإِنَّمَا تَكُونُ شَرًّا بِالْإِضَافَةِ، لَا مِنْ حَيْثُ هِيَ حَرَكَةٌ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ ظُلْمٌ، وَهُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، فَلَوْ وُضِعَ فِي مَوْضِعِهِ لَمْ يَكُنْ شَرًّا، فَعُلِمَ أَنَّ جِهَةَ الشَّرِّ فِيهِ نِسْبِيَّةٌ إِضَافِيَّةٌ.

وَلِهَذَا كَانَتِ الْعُقُوبَاتُ الْمَوْضُوعَةُ فِي مَحَالِّهَا خَيْرًا فِي نَفْسِهَا، وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي حَلَّتْ بِهِ؛ لِمَا أَحْدَثَتْ فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الَّذِي كَانَتِ الطَّبِيعَةُ قَابِلَةً لِضِدِّهِ مِنَ اللَّذَّةِ، مُسْتَعِدَّةً لَهُ، فَصَارَ ذَلِكَ الْأَلَمُ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا، وَهُوَ خَيْرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَاعِلِ حَيْثُ وَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْ شَرًّا مَحْضًا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَالِاعْتِبَارَاتِ، فَإِنَّ حِكْمَتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ. فَلَا يُمْكِنُ فِي جَنَابِ الْحَقِّ تَعَالَى أَنْ يُرِيدَ شَيْئًا يَكُونُ فَسَادًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَا مَصْلَحَةَ فِي خَلْقِهِ بِوَجْهٍ مَا، هَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْمُحَالِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ، الْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، بَلْ كُلُّ مَا إِلَيْهِ فَخَيْرٌ، وَالشَّرُّ إِنَّمَا حَصَلَ لِعَدَمِ هَذِهِ الْإِضَافَةِ وَالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَلَو كَانَ إِلَيْهِ لَمْ يَكُنْ شَرًّا، فَتَأَمَّلْهُ. فَانْقِطَاعُ نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي صَيَّرَهُ شَرًّا.

فَإِنْ قِيلَ: لَمْ تَنْقَطِعْ نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ خَلْقًا وَمَشِيئَةً؟ قِيلَ: هُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَيْسَ بِشَرٍّ، فَإِنَّ وُجُودَهُ هُوَ الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَيْسَ بِشَرٍّ، وَالشَّرُّ الَّذِي فِيهِ مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِهِ بِالْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ حَتَّى يُنْسَبَ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرُ.

---

قال الشيخ:

أورد الشارح الاعتراض الذي يعترض به بعض غلاة القدريّة على خلق الله تعالى للشرور والأشرار وإيجاده لهم مع كونهم أشرارًا، فذكر من اعتراضاتهم قولهم: لماذا خلق الله إبليس مع أنّه كلّه شرّ؟ ولماذا خلق الله الكفرة والمشركين الذين ليس فيهم خيرٌ محض بل هم شرٌّ محض، وجودهم ضرر على المسلمين؟ ولماذا خلق الله هذه المعاصي والأسباب التي يستعان بها عليها؟ لماذا وجدت

المسكرات وما يتَّصل بها؟ ولماذا وجد المفسدون الذين يعيثون في الأرض فسادًا؟ ولماذا وجدت المعاصي؟

فيعترض هؤلاء يقولون: هذا شرٌّ؛ فكيف أوجده الله؟ وكيف أراده؟ وكيف خلقه؟ مع أنَّه لا يحصل به إلا شرّ وضرر على المؤمنين، فيتضررون بوجود هؤلاء الكفار؛ لأهم يصدُّونهم عن الهدى، ويحاولون ردَّهم إلى الكفر، وإخراجهم من ملَّة الإسلام، ويلقون عليهم الشبهات والشكوك، ويظهرون الفساد، والمعاصي ونحو ذلك.

فلماذا وجدوا؟ ولماذا خلقهم الله؟ ولماذا مكّنهم؟ أليس في هذا إعانة على المعاصي؟ أليس في هذا تمكين للعصاة وتقويةً لشأنهم؟

هذا خلاصة هذا الاعتراض على حِكم الله سبحانه وتعالى، وقد تقدَّم أنَّه سبحانه خلق الجنّة والنّار، فمن حكمته أن جعل دارًا للثواب، ودارًا للعقاب، فلابدَّ أنَّ لهذه من يسكنها ولهذه من يسكنها، حكمةُ الله لا بدَّ أن تتمَّ بذلك، فلمّا كان كذلك لم يكن بدٌّ أن يكون الخلق فريقين، فريق في الجنّة وفريقٌ في السعير، وتقدَّم أنَّ من أسماءِ الله تعالى التي سمَّى بها نفسه، وامتدح بها؛ أسماء تدلُّ على مثل هذه الأفعال، كاسمه المنتقم، والجبار، والعزيز، وذو القوة المتين، وكذلك أسماؤه المزدوجة؛ مثل الخافض والرافع مزدوجان، والمعزُّ والمذلُّ، والمعطي والمانع، فلابدّ أن تظهر مدلولات هذه الأسماء، ولا تظهر إلا إذا وجد من يذلّهم الله ومن يمنعهم، ومن يخفضهم، لا بدّ أن يوجد من يقهرهم باسمه القهار، ومن يقدر على عقوبتهم بموجب اسمه القادر، ومن يرحمهم ويغفر لهم بموجب اسمه الغفور

الرحيم، ولو كان الناس كلُّهم أتقياءَ بررةً لم تظهر أيضًا آثار أسمائه فمن يرحم إذا كانوا كلهم أتقياء، ومن يغفر له إذا كانوا كلهم مطيعين، وهكذا بقيةُ أسماء الله سبحانه وتعالى.

وبعد الجواب عن هذا الاعتراض نقول: كل ما أوجده الله وأراده، فإنه خير بالنسبة إلى الله تعالى، وإن كان شرًّا بالنسبة إلى العبد الذي حصل عليه ذلك الشرّ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى ما أوجده إلا لمصلحة، وهي الاختبار للعباد، وكذلك الابتلاء، ولكي يظهر من يصبر ومن يجزع، ويظهر من يطيع ومن يعصي، ويظهر من يمتثل ومن يأبى، ويظهر من يكون صالحًا أو يكون فاسدًا، هذا من اختبار الله لعباده، فهو سلَّط عليهم هؤلاء الأعداء، وسلَّط عليهم إبليس الرجيم؛ حتى يكون منهم مقاومة وشدّة تمسُّك، رغم ما يلقيه من الدعايات إلى الفساد وإلى المعاصي، فيثابون ويزاد في ثوابهم إذا تمسَّكوا، فلذلك سلَّط عليهم هذه الشهوات التي تدفعهم إلى الدنيا وإلى المحرمات، فأظهرها أمامهم، ويثبِّت الله أولياءه، ويخذل أعداءه، ويكون الذي يستمسك بالدِّين ويصبر عليه هو الذي يعظِّم ثوابه . وهذا أيضًا يصدقُ على المصائب التي تحصل للعباد، وقد يكون حصولها للأتقياء أكثر من حصولها للفسقة ونحوهم.

المصائب التي ذكرها الله في قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٥]، هذه قد يكون الابتلاء بها للمؤمنين أشدّ، أما الكفار فقد يُمتّعون بالقوة، ويمتّعون بالأموال ونحو ذلك، كما

حكى الله عنهم أنَّهم قالوا: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ:٣٥]، فهذا الابتلاء الذي يبتلي الله تعالى به المؤمنين؛ ليكون أعظم لأجرهم إذا صبروا واحتسبوا، فهكذا خلقه لهذه الشرور؛ ليكون أعظم للأجر، إذا عرف العبد أنَّه قد سُلِّط عليه الأعداء فصبر، وَعُدّ مجاهدًا غاية الجهاد، فهو يجاهد الشيطان الرجيم الذي دائمًا يسوِّل له ويوسوس له، وهو يجاهد النفس الأمَّارة بالسوء التي تخيّل له دائمًا وتدفعه، وهو يجاهد الهوى الذي يعمي ويصمُّ، وهو يجاهد الشهوات التي تتجلّى له، وتندفع نفسه إليها، وتتزيَّن له، ولكنّه يمسك نفسه ويقمعها، وهو يجاهد قرناء السوء وجلساء السوء الذين يدفعونه إلى الشرور، ويدعونه إليه، هذا يدعوه إلى زنى، وهذا يدعوه إلى ربا، وهذا يدعوه إلى شرك، وهذا يدعوه إلى غشّ، وهذا يدعوه إلى تكاسل عن العبادة، وهذا يدعوه إلى شرب مسكر، ولكنَّه يمسك زمام نفسه، ويجاهد هؤلاء الدُّعاة، ويردّ عليهم دعايتَهم، فلو كان الناس كلّهم مفطورين على الإسلام، ما ظهرت آثار هذا الجهاد، زيادةً على الجهاد الحسّي الذي هو جهاد الكفار الذي أمر الله به، وأكّده، وكرر ذكره في عددٍ من الآيات، والإنسان متى قاوم هذه المقاومة، وصبر هذه المصابرة، فإنَّه يعدُّ ناجحًا في الابتلاء والاختبار، ويعدّ مثابًا غاية الثواب، فيجزل الله له الأجر على ذلك، فهذا من حكمة الله.

إذًا فلا يُعترضَ على الله، ولا يُقال: لماذا سلَّط الأشرار؟ ولماذا قوّاهم؟ ولماذا أعطاهم الدنيا وأعطاهم النّعم، وأعطاهم العدد والعدّة، والقوّة، ونحو ذلك؟

لا يُعترض على الله تعالى؛ لأنّه أوجد ذلك ليظهر من يصبر ممّن يجزع، وليظهر من يقوي نفسه ممّن لا يقويها، فيثاب هذا على مقاومته، ويعرف بذلك عدم صبر هؤلاء الذين لم يصبروا على قمع نفوسهم الأمّارة بالسوء، فالله تعالى له الحكمة في ذلك، فهو خير بالنسبة إلى خلق الله تعالى وإيجاده، وشرٌّ بالنسبة إلى فعل العبد، فالعبد إذا زنى قيل: هذا الزنى شرّ؛ لأنّه صدر منه، ولكن الله تعالى هو الذي قدّر ذلك وأحدثه، فهو خيرٌ بالنسبة إلى إيجاد الله تعالى له، حيث إنّه أخبر العباد بذلك، ومكّنه وجعل أسبابه ظاهرةً، كذلك العبد إذا سكر، والمرأة إذا تبرَّجت، وتجمّلت لغير زوجها، وفعلت ما لا يحلّ لها فعله، والرجل إذا تعاطى غشًّا في معاملةٍ أو غصبًا أو سرقةً أو اختلاسًا أو ما أشبه ذلك، كذلك إذا سوّلت له نفسه ترك الصَّلوات، أو تخلُّفًا عن جماعات، أو ما أشبه ذلك من ترك الطاعات، قيل: الله تعالى هو الذي قدَّر أسباب ذلك، ولكنَّه جعل ذلك اختبارًا للعباد وابتلاءً لهم؛ ليظهر بذلك أهل طاعته من أهل معصيته، الذين أراد بهم الخير فقويت نفوسهم وأعطاهم قوةً، والذين خذلهم وخلّى بينهم وبين نفوسهم، وقوّى عليهم أعداءهم، فلم يتمكّنوا من مقاومةِ أولئك الأعداء، فأصبحوا من الخاسرين.

قال الشارح:

فَإِنْ أَرَدْتَ مَزِيدَ إِيضَاحٍ لِذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَسْبَابَ الخَيْرِ ثَلَاثَةٌ: الْإِيجَادُ، وَالْإِعْدَادُ، وَالْإِمْدَادُ، فَإِيجَادُ هَذَا خَيْرٌ، وَهُو إِلَى اللَّهِ، وَكَذَلِكَ إِعْدَادُهُ وَإِمْدَادُهُ، فَإِذَا لَمْ يَحْدُثْ فِيهِ إِعْدَادٌ وَلَا إِمْدَادٌ، حَصَلَ فِيهِ الشَّرُّ بِسَبَبِ هَذَا الْعَدَمِ الَّذِي لَيْسَ إِلَى الْفَاعِلِ، وَإِنَّمَا إِلَيهِ ضِدُّهُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلَّا أَمَدَّه إِذْ أَوْجَدَهُ؟ قِيلَ: مَا اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ إِيجَادَهُ وَإِمْدَادَهُ، وَإِنَّمَا اقْتَضَتْ إِيجَادَهُ وَتَرْكَ إِمْدَادِهِ، فَإِيجَادُهُ خَيْرٌ، وَالشَّرُّ وَقَعَ مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَّا أَمَدَّ المَوْجُودَاتِ كُلَّهَا؟ فَهَذَا سُؤَالٌ فَاسِدٌ، يَظُنُّ مُورِدُهُ أَنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ المَوْجُودَاتِ أَبْلَغُ فِي الْحِكْمَةِ! وَهَذَا عَيْنُ الجَهْلِ! بَلِ الحِكْمَةُ كُلُّ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ الَّذِي بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، وَلَيسَ فِي خَلْقِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا تَفَاوُتٌ، فَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا لَيسَ فِي خَلْقِهِ تَفَاوُتٌ، وَالتَّفَاوُتُ إِنَّمَا وَقَعَ بِأُمُورٍ عَدَمِيَّةٍ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهَا الخَلْقُ، وَإِلَّا فَلَيسَ فِي الخَلْقِ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَإِنِ اعْتَاصَ عَلَيْكَ هَذَا وَلَمْ تَفْهَمْهُ حَقَّ الْفَهْمِ، فَرَاجِعْ قَوْلَ الْقَائِلِ[1]:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَرْضَى لِعَبْدِهِ شَيْئًا وَلَا يُعِينُهُ عَلَيهِ؟ قِيلَ: لِأَنَّ إِعَانَتَهُ عَلَيهِ قَدْ تَسْتَلْزِمُ فَوَاتَ مَحْبُوبٍ لَهُ أَعْظَمَ مِنْ حُصُولِ تِلْكَ الطَّاعَةِ الَّتِي رَضِيَهَا لَهُ، وَقَدْ يَكُونُ

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب، الشاعر المشهور، له صحبة ورواية. انظر: أسد الغابة (٤/ ٢٩٢)، والبداية والنهاية (٧/ ١٦٠)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٦٨٦).

وُقُوعُ تِلْكَ الطَّاعَةِ مِنْهُ يَتَضَمَّنُ مَفْسَدَةً هِيَ أَكْرَهُ إِلَيهِ سُبْحَانَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِتِلْكَ الطَّاعَةِ. وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦]، الْآيَتَيْنِ. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ كَرِهَ انْبِعَاثَهُمْ إِلَى الْغَزْوِ مَعَ رَسُولِهِ، وَهُوَ طَاعَة، فَلَمَّا كَرِهَهُ مِنْهُمْ، ثَبَّطَهُمْ عَنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ بَعْضَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي كَانَتْ تَتَرَتَّبُ عَلَى خُرُوجِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، أَيْ: فَسَادًا وَشَرًّا، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾، أَيْ: سَعَوْا بَيْنَكُمْ بِالْفَسَادِ وَالشَّرِّ، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، أَيْ: قَابِلُونَ مِنْهُمْ مُسْتَجِيبُونَ لَهُمْ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ سَعْيِ هَؤُلَاءِ مِنَ الشَّرِّ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ مَصْلَحَةِ خُرُوجِهِمْ، فَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ أَنْ أَقْعَدَهُمْ عَنْهُ.

فَاجْعَلْ هَذَا الْمِثَالَ أَصْلًا، وَقِسْ عَلَيْهِ.

---

قال الشيخ:

تكثر إيرادات هؤلاء المجبرة، وهم طائفة يسمّون مجبرة وجبريّة، وهم الذين يعذرون العبد على فعل المعاصي، ويزعمون أنّ له عذرًا في ذلك؛ لأنه ليس له أي اختيار، ولا أي قدرة على أي فعل، فيكثرون من إيراد مثل هذه الشبهات، فيقولون ـ مثلًا ـ: كيف يريد الله هذه المعاصي وهو يكرهها؟

فيُقال: الله تعالى أرادها كونًا وكرهها شرعًا.

ويقولون: مادام أنَّ الله قد خلق العباد كلّهم لعبادته، فكيف لا يسوّي بينهم فيهديهم جميعًا ويرشدهم؟

والجواب: أنّه ـ سبحانه وتعالى ـ خلقهم ومكّنهم، ولكنّه علم أنّ فيهم نفوسًا شرّيرةً تختار الشرّ فخذلها، ونفوسًا خيّرةً تختار الخير فوفّقها، فله الحكمة في توفيق هذا وفي خذلان هذا، وإن كان الجميع كلّهم عبيده وتحت تصرّفه، وهم الذّين كلّفوا جميعًا بعبادته وبالإنابة إليه.

وضرب المؤلّف مثلًا بما حكى الله تعالى عن المنافقين في سورة التّوبة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧]، هؤلاء ممّن كانوا أسلموا، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولا شكّ أنّ الله تعالى خذلهم وخلّى بينهم وبين أهوائهم وشهواتهم، ولم يوفّقهم لما وفّق إليه صفوته وخيرته من خلقه من المهاجرين والأنصار الذين أصطفاهم، والذين مكّن لهم في دينهم. فهؤلاء المنافقون لمّا تخلّفوا عن الخروج في غزوة تبوكَ، وأتوا بأعذارٍ لا فائدة فيها، وليست صادقة، بل حلفوا وهم كاذبون، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، فأخبر الله تعالى أنّهم لم يريدوا الخروج أصلًا، ولم يستعدّوا له، ولو كانوا يريدون الخروج، ويرغبون في الغزو، لأعدّوا

العدّة، ولهيّؤوا أنفسَهم، فهم قادرون على أن يخرجوا، وعندهم استطاعة وتمكّن، ولكنّهم لم يفعلوا، فلما لم يفعلوا دلّ على أنّهم ما أرادوه، ولا أعدّوا له عدّته، مع أن الله تعالى هو الذي خذَّلهم؛ لأنّه علم أنّ في خروجهم مفسدة كبيرة؛ لأنه لا يكون منهم إلَّا ضرر، فلذلك كره الله خروجهم وانبعاثهم وثبّطهم، أي: سكّنهم وصرف أنفسهم عن الخروج لمصلحةٍ عظيمةٍ، فإنّهم لو خرجوا ما زادوا المسلمين إلَّا خبالًا، أي: ضعفًا وتخذيلًا وتثبيطًا عن القتال وعن العدو، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾، يعني: أوقعوا فيما بين المسلمين الفتن والتشكيكات ونحو ذلك، فكان هذا من حكمةِ الله أن خذَّلهم، ولم يبعث عزائمهم إلى القتال.

وبذلك يعرف أنّه تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فعلى المسلم أن يرضى ويسلم بما جاءه من شرع الله تعالى وأمره ودينه، وأن يعترف أنّه ما خَلق إلَّا ما فيه مصلحةٌ، سواء كانت مخلوقات جوهرية أو عرضيّة، وسواء كانت أشخاصًا أو عروضًا وأعمالًا، كل ذلك له الحكمة فيه، فهو الحكيم العليم.

وعلى الإنسان أن يلحّ في سؤاله لربّه، وأن يكثر من الدعاء، والله تعالى قد قدّر له ما هو مقدّر، وجعل سبب ذلك كثرة الإلحاح في الدعاء، فيكون سببًا من أسباب تيسير اليسرى، وتجنيب العسرى، وليس مغيّرًا لما في قدر الله تعالى.

قال الشارح :

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي، وَهُوَ الَّذِي مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ، فَهُوَ أَيْضًا مُمْكِنٌ، بل واقِعٌ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يَسْخَطُ الفُسُوقَ وَالمَعَاصِيَ وَيَكْرَهُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ وَاقِعَةٌ بِكَسْبِهِ وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، وَيَرْضَى بِعِلْمِ اللَّهِ وَكِتَابَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَأَمْرِهِ الْكَوْنِي، فَيَرْضَى بِمَا مِنَ اللَّهِ، وَيَسْخَطُ مَا هُوَ مِنْهُ، فَهَذَا مَسْلَكُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى كَرِهَتْهَا مُطْلَقًا، وَقَوْلُهُمْ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ إِطْلَاقَهُمْ لِلْكَرَاهَةِ لَا يُرِيدُونَ بِهِ شُمُولَهُ لِعِلْمِ الرَّبِّ وَكِتَابَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الَّذِي إِلَى الرَّبِّ مِنْهَا غَيْرُ مَكْرُوهٍ، وَالَّذِي إِلَى الْعَبْدِ مَكْرُوهٌ.

فَإِنْ قِيلَ: لَيْسَ إِلَى الْعَبْدِ شَيْءٌ مِنْهَا.

قِيلَ: هَذَا هُوَ الْجَبْرُ الْبَاطِلُ، الَّذِي لَا يُمْكِنُ صَاحِبُهُ التَّخَلُّصَ مِنَ هَذَا الْمَقَامِ الضَّيِّقِ، وَالْقَدَرِيُّ الْمُنْكِرُ أَقْرَبُ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ مِنَ الْجَبْرِيِّ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ، الْمُتَوَسِّطُونَ بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ أَسْعَدُ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَتَأَتَّى النَّدَمُ مَعَ شُهُودِ الْحِكْمَةِ فِي التَّقْدِيرِ، وَمَعَ شُهُودِ الْقَيُّومِيَّةِ وَالْمَشِيئَةِ النَّافِذَةِ؟ قِيلَ: هَذَا هُوَ الَّذِي أَوْقَعَ مَنْ عَمِيَتْ بَصِيرَتُهُ فِي شُهُودِ الْأَمْرِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَرَأَى تِلْكَ الْأَفْعَالَ طَاعَاتٍ؛ لِمُوَافَقَتِهِ فِيهَا الْمَشِيئَةَ وَالْقَدَرَ، وَقَالَ: إِنْ عَصَيْتُ أَمْرَهُ فَقَدْ أَطَعْتُ إِرَادَتَهُ! وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ[1]

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٥)، ومدارج السالكين (١/ ٢٢٩).

وَهَؤُلَاءِ أَعْمَى الخَلْقِ بَصائِرَ، وَأَجْهَلُهُمْ بِاللَّهِ وَأَحْكَامِهِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ هِيَ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ، لَا مُوافَقَةُ الْقَدَرِ وَالمَشِيئَةِ، وَلَوْ كَانَ مُوَافَقَةَ الْقَدَرِ طَاعَةً، لَكَانَ إِبْلِيسُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُطِيعِينَ لَهُ، وَلَكَانَ قَوْمُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوط وَشُعَيبٍ وَقَوْمَ فِرْعَون، كُلُّهُم مُطِيعِينَ! وَهَذَا غَايَةُ الجَهْلِ.

لَكِن إِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ عَجْزَ نَفْسِهِ، وَنُفُوذَ الْأَقْدَارِ فِيهِ، وَكَمَالَ فَقْرِهِ إِلَى رَبِّهِ، وَعَدَمَ اسْتِغْنَائِهِ عَنْ عِصْمَتِهِ وَحِفْظِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ: كَانَ بِاللَّهِ فِي هَذِهِ الحَالِ لَا بِنَفْسِهِ، فَوُقُوعُ الذَّنْبِ مِنْهُ لَا يَتَأَتَّى فِي هَذِهِ الحَالِ أَلْبَتَّة، فَإِنَّ عَلَيهِ حِصْنًا حَصِينًا مِنْ: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»[1]، فَلَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ الذَّنبُ فِي هَذِهِ الحَالِ، فَإِذَا حُجِبَ عَنْ هَذَا المَشْهَدِ، وَبَقِيَ بِنَفْسِهِ، اسْتَوْلَى عَلَيْهِ حُكْمُ النَّفْسِ، فَهُنَالِكَ نُصِبَتْ عَلَيهِ الشِّبَاكُ وَالْأَشْرَاكُ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيهِ الصَّيَّادُونَ، فَإِذَا انْقَشَعَ عَنْهُ ضَبَابُ ذَلِكَ الْوُجُودِ الطَّبْعِيِّ، فَهُنَالِكَ يَحْضُرُهُ النَّدَمُ وَالتَّوبَةُ وَالْإِنَابَةُ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي المَعْصِيَةِ مَحْجُوبًا بِنَفْسِهِ عَنْ رَبِّهِ، فَلَمَّا فَارَقَ ذَلِكَ الْوُجُودَ، صَارَ فِي وُجُودٍ آخَرَ، فَبَقِيَ بِرَبِّهِ لَا بِنَفْسِهِ.

---

(١) هذه الرواية للحديث أوردها الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول (١/ ٢٦٥)، والمشهور من الحديث ما أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها...». وسيورده الشارح بتمامه.

قال الشيخ:

كثيرًا ما يحتجُّون بأنَّ هذه المعاصي والواقعات مرادةٌ لله تعالى، فيقول أحدهم: أنا خالفت أمر الله، ولكن وافقتُ إرادةَ الله؛ لأن الله تعالى أراد منِّي هذا الفعل وهذه المعصية.

فالجواب: أنّ هذه الإرادة إرادة كونيّة، وقد أراد منك إرادةً شرعيّةً أن تطيعه، فلا تحتجَّ بالإرادة الكونيّة وتترك الإرادة الشرعيّة، فقد اراد الله تعالى كل ما في الكون إرادةً كونيّة، ولكنّه أراد الطاعات إرادة شرعيّة، وهذه الطاعات التي أرادها قد تقع، وقد لا تقع؛ لأنّه خلق كل الخلق للعبادة، فمنهم من عبده، ومنهم من لم يعبده، فمحبّة العبادة من الجميع إرادة شرعيّة، فالذي يقول: ليس للعبد أي اختيار، نقول له: هذه مقالة الجبريّة الذين يزعمون أنَّ العبد مسلوبُ الاختيار أصلًا، وأنّه بمنزلة الشجرة التي تحرّكها الرياح، ليس له أي اختيار، ففي ذلك إبطال شرع الله، وإبطال أحكامه وقضائه وقدره.

والواجب على المسلم أن يعترف بشرع الله، وأن يَدين له بالطاعة، وأن يسلّم لقضائه وقدره، ولا يردَّ عليه شيئًا من أمره؛ فبذلك يصبح مستسلمًا لأمره، فأمّا هؤلاء الذين يقولون: إنّ جميع حركاتنا، ولو كانت معاصي ولو كانت غير محبوبة لله، فهي طاعةٌ؛ لأنها وافقت مراد الله القدري، لذلك يقول قائلهم:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ

فهذا عين المحادة لله؛ لأن الطاعات إنّما تكون بالعبادات التي فرضها، فكونه يقول: أفعالي كلّها طاعات، حتّى ولو كانت فجورًا، ولو كانت زورًا، ولو كانت

كذبًا، ولو كانت معاصي وكفرًا وشركًا، كيف تكون طاعاتٍ وقد حرّمها الله تعالى وسمّاها معاصي؟ فهذه معاصٍ بالنسبة إلى صدورها من العبد، وهي مرادةٌ كونًا وقدرًا؛ لأنها وقعت بخلق الله وتكوينه، فما شاءه كان، وما لم يشأه لم يكن، فإذا علم العبد أولًا أنَّ الله تعالى أراد جميع ما في الكون كونًا وقدرًا وما هو حادث، ولكنه أحبَّ الطاعات، وكره المحرَّمات، وأمر بالطَّاعات أمرًا شرعيًا، ونهى عن المحرَّمات نهيًا شرعيًّا، وعلم أيضًا: بأنّ مزاولة العبد لها واختياره تفضيل منه لهذا الذي اختاره؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، وأنّ الثواب والعقاب حقّ لله، فمتى علم العبد واستسلم لذلك فهو من أهل الخير.

ومن استحضر دائمًا أنّه مكلّف، واستحضر أنّ الله تعالى يوفّق العبد الذي يستحضر عظمة ربّه، وأن الإنسان لم يُخلق هملًا، بل خُلِقَ للعبادة، واستحضر أنّ ربّه لَمَّا كلّفه وأمره ونهاه، كان بمرأىً ومسمعٍ من ربِّه، لا تخفى عليه منه خافية، واستحضر أيضًا أنّه في كلّ حالاته عنده الدافع الذي يدفعه إلى الخير، وهو قوّة الإيمان وقوّة هذا الاستحضار، فمن تمّت معه هذه الاستحضارات، فإنّه لا يقدم على معصية، وكيف يقدم عليها وهو يستحضر عظمة الله تعالى، كأنّه واقفٌ بين يدي ربه، كيف يقدم عليها وهو يعلم أنّه يترتّب عليها عقوبة وإثمٌ شديد؟ كيف يقدم عليها وهو يعلم أنّ ربَّه يكرهها؟

والعبد إذا أكثر من العبادات، سواءً أكانت قلبيَّة أم قوليَّة أم بدنيَّة، ثم وثق بالثواب عليها، فإنَّ ذلك يحجزه عن أن يأتي بضدها، فلا يجتمع أنّه في آن واحد يطيع الله ويطيع الشيطان، ولا يجتمع في آن واحد أنه يكون عبدًا مطيعًا وعاصيًا،

يعبد الله، ويعبد الأصنام، ولا يجتمع أنَّه في آن واحد مستحضرًا لعظمة الله تعالى، وغافلًا عنه مقبلًا على هواه، بل متى تمَّت له هذه الاستحضارات عبد ربَّه، وأكثر من عبادته، وأقبل عليه إقبالًا كليًّا. ومتى كان كذلك فإنّ ربه ـ سبحانه وتعالى ـ يسدّد خطاه، ويوفقه، ويحبّب إليه العبادة، ويحميه عن المعصية، كما في قوله في الحديث القدسي: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا...**»، في بعض الروايات: «**فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي**»، بمعنى: أنّ الله تعالى يحفظه ويحوطه ويحرسه، فتكون حركاته في إرادة الله، وفي طاعة الله، وما ذاك إلا أنَّ قلبه امتلأ بعظمة الله، وامتلأ بالإيمان به، وامتلأ بحب الخير، وامتلأ بالأعمال الخيريَّة الصالحة، والميل إليها، ولما امتلأ القلب بها ظهرت آثار ذلك على السَّمع وعلى البصر وعلى اليد وعلى الرجل، فصار نظره كله لله، وسمعه كله لله، ومشيه وحركاته كلها بالله، ومن الله، وإلى الله، وفي الله.

فهذا هو الذي لا يمكن أنَّ يقدم على معصية مع ما يقوم به من هذه الحال، فالعبد الذي يكون بهذه المثابة ـ إن شاء الله ـ لا يقدم على معصيته، وإنَّما يأتي من نقص في استحضاره بقلبه لهذه الأشياء، فإنَّ العوائق التي تعوقه عن هذه الاستحضارات كثيرة، فالشهوات وزينة الحياة الدنيا ومتاعها، والشغل بها كثيرًا، والانهماك في المحرمات، كل ذلك يجلب إلى قلبه شيئًا من الغفلة، فيوجب له ذلك صدودًا عن الخير، وإقبالًا على الشرور والفساد، نعوذ بالله من الخذلان.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الْكُفْرُ بِقَضَاءِ اللَّـهِ وَقَدَرِهِ، وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَنْ نَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ، فَكَيفَ نُنْكِرُهُ وَنكْرَهُهُ؟!

فَالجَوَابُ: أَنْ يُقَالَ أَوَّلًا: نَحْنُ غَيْرُ مَأْمُورِينَ بِالرِّضَا بِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ اللَّـهُ وَيُقَدِّرُهُ، وَلَمْ يَرِدْ بِذَلِكَ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، بَلْ مِنَ الْمَقْضِيِّ مَا يُرْضَى بِهِ، وَمِنْهُ مَا يُسْخَطُ وَيُمْقَتُ، كَمَا لَا يَرْضَى بِهِ القَاضِي لِأَقْضِيَتِهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ مِنَ الْقَضَاءِ مَا يُسْخَطُ، كَمَا أَنَّ مِنَ الْأَعْيَانِ الْمَقْضِيَّةِ مَا يُغْضَبُ عَلَيهِ وَيُمْقَتُ وَيُلْعَنُ وَيُذَمُّ.

وَيُقَالُ ثَانِيًا: هُنَا أَمْرَانِ: قَضَاءُ اللَّـهِ، وَهُوَ فِعْلٌ قَائِمٌ بِذَاتِ اللَّـهِ تَعَالَى، وَمَقْضِيٌّ، وَهُوَ الْمَفْعُولُ الْمُنْفَصِلُ عَنْهُ، فَالقَضَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ وَعَدْلٌ وَحِكْمَةٌ، فَيُرْضَى بِهِ كُلِّهِ، وَالمَقْضِيُّ قِسْمَانِ: مِنْهُ مَا يُرْضَى بِهِ، وَمِنْهُ مَا لَا يُرْضَى بِهِ.

وَيُقَالُ ثَالِثًا: القَضَاءُ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَعَلُّقُهُ بِالرَّبِّ تَعَالَى وَنِسْبَتُهُ إِلَيهِ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يُرْضَى بِهِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: تَعَلُّقُهُ بِالْعَبْدِ وَنِسْبَتُهُ إِلَيْهِ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُرْضَى بِهِ، وَإِلَى مَا لَا يُرْضَى بِهِ. مِثَالُ ذَلِكَ: قَتْلُ النَّفْسِ، لَهُ اعْتِبَارَانِ: فَمِنْ حَيْثُ قَدَّرَهُ اللَّـهُ وَقَضَاهُ وَكَتَبَهُ وَشَاءَهُ، وَجَعَلَهُ أَجَلًا لِلْمَقْتُولِ وَنِهَايَةً لِعُمرِهِ، نَرْضَى بِهِ، وَمِنْ حَيْثُ صَدَرَ مِنَ الْقَاتِلِ وَبَاشَرَهُ وَكَسَبَهُ وَأَقْدَمَ عَلَيْهِ بِاخْتِيَارِهِ، وَعَصَى اللَّـهَ بِفِعْلِهِ، نَسْخَطُهُ وَلَا نَرْضَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ...)، إِلَى آخِرِهِ.

التَّعَمُّقُ: هُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي الْكَلَامِ فِيهِ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ، وَالمَعْنَى: أَنَّ الْمُبَالَغَةَ فِي

طَلَبِ الْقَدَرِ وَالْغَوْصِ فِي الْكَلَامِ فِيهِ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ. الذَّرِيعَةُ: الْوَسِيلَةُ، وَالذَّرِيعَةُ وَالدَّرَجَةُ وَالسُّلَّمُ، مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى، وَكَذَلِكَ الخِذْلَانُ وَالْحِرْمَانُ وَالطُّغْيَانُ مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى أَيْضًا، لَكِنَّ الْخُذْلَانَ فِي مُقَابَلَةِ النَّصْرِ، وَالْحِرْمَانَ فِي مُقَابَلَةِ الظَّفْرِ، وَالطُّغْيَانَ فِي مُقَابَلَةِ الْاِسْتِقَامَةِ.

---

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلّق بالرضا بالقضاء، والرضا بالمقضي، فنقول: يلزمنا أن نرضى بالقضاء، وأمَّا المقضيّ الذي يقع بذلك القضاء، فلا يلزمنا الرضى به، بل قد ننكره ونستبشعه، فَمَثَّل بقتل النفس ظلمًا، نقول: هذا الذي قُتل قد بلغ أجله الذي كُتِب له، لم يُقْطع عليه أجله، الله تعالى قضى وقدّر وكتب أنّ هذا عمره لا يزيد ولا ينقص، فالمقتول مات بأجله المحدَّد له؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤]، ويقول تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾[آل عمران:١٥٤]، أي: لو تحصّنتم في بيوتكم، والله قد كتب على بعضكم القتل، لخرجوا إلى المكان الذي قدّر الله عليهم أن يموتوا أو يقتلوا فيه ولا بدّ، وقد ذكر الله تعالى أنّ الموت محكوم على الإنسان مهما تحصّن، كما في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨]، يعني: ولو تحصّنتم في أحصن الأبراج يصل إليكم الموت الذي قدّره الله لكم، سواءً بسببٍ ظاهر، أو بسبب خفيٍّ، فمن

حيثُ حصل هذا الموت لهذه النفس، نؤمن بأنَّ هذا قضاءٌ وقدرٌ، وأنّ هذا المقتول مهما تحصَّن لا بدَّ أن يحصل له ما قدَّر الله تعالى عليه، ولكن مع ذلك ننكر هذا الذنب على القاتل، ونلومه عليه، ونسخطه، والله تعالى أنكره عليه، وتوعّده على هذا القتل بوعيد شديد، وتوعّده النبي ﷺ، وأخبر بأنّه يستحقّ العقوبة.

الله تعالى كتب القصاص في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ [البقرة:١٧٨]، وفي قوله: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ ﴾ [المائدة:١٤٥]، فهذا دليل على إنَّه من حيث إنَّه قضاءٌ وقدرٌ، ومن حيث صدوره من ذلك القاتل، نسخطه وننكره ونلوم القاتل، وهكذا بقيّة الحوادث التي تحدث في الدنيا، منها ما نرضاه، ومنها ما نسخطه من حيث الظاهر، أمّا من حيث القضاء والقدر، فجميعه مرضيٌّ لله سبحانه وتعالى، مقضيّ له ومرضيّ للعباد.

فعلى كلّ حال يلزمنا الرضا بكلّ ما قضاه الله وقدّره، ولا يلزمنا الرّضا بكلّ مقضيّ ومخلوق ومقدّر وجوده في العالم، بل نسخط المعاصي ولو كانت قضاءً وقدرًا، وننكر على من فعلها ونلومه على ذلك، وإذا احتجّ بالقدر لم نمنعه من أخذ الحقّ منه، كما ذكرنا أنّ عمر ﷺ لَمَّا رُفع إليه سارق، قال له: «ما حملك؟» أي: على السرقة، قال السارق: «قضاء الله»، أي: إنه مكتوب عليَّ، وهذا قدر الله، فقطع يده، وقال: «هذه للسرقة»، وجلده وقال: «هذه لكذبك على الله»[1]، فهو بذلك

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٥٠).

يعرف أنّ هذا مأمور به.

ولَمَّا خرج عمر ﷺ إلى الشام، ذُكِرَ له أنّ الطاعون قد وقع في الشام، فشاور الصحابة هل يقدم عليهم أو لا يقدم؟ فاختلفوا، فمنهم من قال: لا تذهب إلى الشام ومعك هؤلاء الذين هم صفوةُ الصحابة فتعرِّضهم للموت، ومنهم من قال: إنَّ هذا شيء مكتوب فلا تفرَّ بهم، ولا ترجع، ولكنَّه عزم على الرجوع. فقال له أبو عبيدة بن الجرّاح: فِرَارًا من قَدَرِ اللَّـهِ؟ فقال عُمَرُ: «لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّـهِ إلى قَدَرِ اللَّـهِ»[1].

يعني يقول: إنّ الله تعالى قدّر لنا أن نرجع، وما كتب لنا أن نذهب، فنحن إذا رجعنا فبقدر الله، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. ثمّ ضرب مثلًا وقال: «أَرَأَيْتَ لو كان لك إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا له عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إن رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّـهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّـهِ؟»، فالله تعالى هو الذي قدّر لك أن تسلك هذا، ثم اختار لك أن تسلك هذا، فهكذا إذا رجعت من مكانٍ مخوفٍ، فليس ذلك هربًا من قضاءٍ، بل الله الذي قدّر عليك هذا القضاء والقدر، قدّر عليك أنّك ترجع أو أنّك لا ترجع، وإذا كان الله تعالى قد كتب على الإنسان أنّه يموت بسبب، فلا بدّ أنْ يصل إليه الموت في أيّ مكان.

وقد رُوي أنَّ بعض البصريين هرب من الطاعون، فركب حمارًا له، ومضى بأهله نحو سفوان،فسمع حاديًا يحدو خلفه يقول:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

لَـنْ يُـسْبَقِ اللَّـهُ عَـلَى حِمَـارِ وَلَا عَـلَى ذِي مِيعَـةٍ طَيَّـارِ
أَوْ يَـأْتِي الحَتْـفُ عَـلَى مِقْـدَارِ قَـدْ يُـصْبِحُ اللَّـهُ أَمَـامَ السَّارِي[1]

فتوقّف واستمع قليلًا، ثم إنَّه نزل في ذلك المكان، وأصابه الطاعون ومات، ولم يغنه فراره ولا هربه.

الله تعالى قد ذكر أنّ قومًا هربوا من الموت، ثم إنّ الله تعالى أماتهم في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣]، ما أخرجهم إلا حذر الموت، ولكن هل سلموا، بل أماتهم الله ثم أحياهم، يعني: قُدرة الله تعالى تأتي على كلّ شيء، فأماتهم الله ليريهم أنَّ الخروج والهرب لا ينجيهم، ثم أحياهم بقدرته ليعلمهم ويريهم كامل قدرته.

وعلى كل حال فنحن نقول: إنَّ الإنسان مأمور بأن يتحصّن، وبأن يفعل الأسباب، وبأن يأخذ حذره، ولكن لا يردَّ عنه ما قد كتب الله عليه من الآجال والأمراض والعاهات ونحو ذلك، وإنّما هذه أسباب ظاهرةٌ، ولا يجوز مع ذلك تركها، فإن الله سبحانه قد أمر بأخذ الحذر في حالة صلاة الخوف لَـمَّا أمر بها، ومعلوم أنّ المسلمين قد يقولُ قائلهم: سوف نصلّي جماعة، والله تعالى سوف يحرسنا، ويحفظنا، ولكنَّ الله تعالى أخبر بأنَّ المشركين يتحيّنون الفرص، ويحتالون

(١) ذكر هذه القصة ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٤٨٩)، وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٢١٤).

في أن يجدوا غفلةً من المؤمنين فيقتلونهم، فقال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢]، هكذا أخبر الله عن الكافرين، وأمر المسلمين بأن يأخذوا الحذر في قوله تعالى في الآية: ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾، يعني: في حالةِ صَلاتِهم للخوفِ يأخذوا أسلحتهم، ويكونوا حذرين.

فكلّ ذلك دليل على أنّ فعل السبب لا ينافي التوكّل، وأنّه لا يردّ ما قدّر الله، فإنّ فعل الأسباب مأمور به، وتركها إلقاءٌ إلى التهلُكة، وإنّ التعرّض أو فعل الأسباب التي يحصل بها الموت عمدًا، يصير ذنبًا كبيرًا؛ ولهذا ورد الوعيد الشديد على من قتل نفسه بفعل ظاهرٍ، ففي حديث أبي هريرة ﷺ وغيره أن النبي ﷺ قال: «من تَرَدَّى من جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ في نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فيه خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ بها في بَطْنِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا»[1]، فمن التهم سُمًّا فإنّه يدخل جهنم ويُجعل السمّ في يده يتحسّاه دائمًا في نار جهنّم، **والعياذ بالله**، ومَن تردّى من رأس جبل حتى يموت، فهو يتردّى في نار جهنّم. فهذا دليل على أنّه إذا فعل سببًا يعوقه، أو يوصل إلى أنّه يقتل بذلك نفسه، فإنّه معرّضٌ لهذا الوعيد. ولو قال مثلًا: إنّ هذا مكتوبٌ عليّ،

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

وإنّ هذا مقدّر، نقول له: إنّ الله تعالى هو الذي قدّر كلّ شيء، ولكنّه نهاك عن شيءٍ أنت تستطيعه، فنهاك أن تلقي بيدك إلى التهلكة، ونهاك عن هذه المعاصي، ونهاك عن هذه المخالفات، وأمرك بأضدادها، وما أمرك إلا بأمرٍ أنت مستطيعٌ له، ولو كان كل ذلك واقعًا بقضاء وقدر.

قال الطحاوي:

فَالحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ، نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً.

---

قال الشارح:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلُوه: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوه؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانُ»، إِلَى تَعَاظُمِهِمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ.

وَلِمُسْلِمٍ(٢) أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الوَسْوَسَةِ، فَقَالَ: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ».

وَهُوَ بِمَعْنَى حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ، فَإِنَّ وَسْوَسَةَ النَّفْسِ وَمُدَافَعَةَ وسْوَاسِهَا بِمَنْزِلَةِ الْمُحَادَثَةِ الْكَائِنَةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَمُدَافَعَةُ الْوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَاسْتِعْظَامُهَا صَرِيحُ الْإِيمَانِ، وَمَحْضُ الْإِيمَانِ.

هَذِهِ طَرِيقَةُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ، سَوَّدُوا الْأَوْرَاقَ بِتِلْكَ الْوَسَاوِسِ، الَّتِي هِيَ شُكُوكٌ وَشُبَهٌ، بَلْ وَسَوَّدُوا الْقُلُوبَ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ؛ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ، وَلِذَلِكَ أَطْنَبَ

---

(١) برقم (١٣٢).

(٢) برقم (١٣٣).

الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فِي ذَمِّ الخَوْضِ فِي الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ وَالْفَحْصِ عَنْهُ.

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الخَصِمُ»[1]. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[2]: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْد، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدَرِ، قَالَ: فَكَأَنَّمَا تَفَقَّأَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الغَضَبِ، قَالَ: فَقَالَ: «مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟! هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم»، قَالَ: فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَشْهَدْهُ، بِمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجه أَيْضًا[3].

---

قال الشيخ:

عندنا شيئان: الأمر الأول: ما يجول في النّفس، وما يحدث من الوساوس والأوهام، ولكن لا يخرجها الإنسان، بل يزيلها أو يحرص على إزالتها، فهذه مما يُعفى عنه. والأمر الثاني: ما ابتُلي به المتكلّمون من إظهار تلك الوساوس والتكلّم بها، وكتابتها وإشاعتها، وهذا مذموم.

فكان الصحابة وكذلك التابعون وتلاميذهم، إذا خطرت في أنفسهم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٢٩).

(٢) في المسند (٢/ ١٧٨).

(٣) برقم (٨٥).

خطرات وشكوك لم يبدوها، بل استمرّوا على ما هم عليه من العقيدة، وآمنوا بالله وبما جاء عن الله سبحانه وتعالى، فلم تضرُّهم تلك الوساوس ولا تلك الهواجس.

وكثيرًا ما يخطر على قلب الإنسان وسوسةٌ في أمورٍ من الغيب ـ مثلًا ـ في ماهية وكيفيَّة العرش، وذات الربّ تعالى وصفاته، وكذلك أمور البعث وأمور البرزخ، قد يتوارد على نفسه شيء من التشكيكات في هذه، وكيف تتصوّر، وكيف يتحقق ما ذُكر من وصفها في هذه النصوص، فإنّ في ذلك شيئًا من الاستبعاد، ومن الاستغراب، فإذا تواردت هذه الشكوك على هذه النفوس، ولكن أحرقتها النفس المطمئنَّة، ولم تلتفت إليها، ولم يتكلّم بها الإنسان، فإنّ ذلك ممّا يعفى عنه، وقد سمّاه النبيّ ﷺ: «صَرِيحُ الْإِيمَانِ»، يعني: ما دمتم تنتصرون على هذه الوساوس دون أن تتكلّموا بها، فإن ذلك معفو عنه، كما ثبت في الحديث قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ»[1].

فحديث النفس معفوٌّ عنه، يعني: الخواطر التي تخطر في القلب، والتي تكون طوارئ وخواطر ووساوس وأوهامًا وتشكيكات، ولكن يغلبها المؤمن بقوة إيمانه، لَمَّا قامت عنده الأدلّة الصريحة والصادقة في صدق الرسل، وما جاؤوا به من الأمور الغيبية، وثق بها أتمّ ثقة، ولم تؤثّر فيه تلك الشكوك والأوهام ونحوها، فلمّا وجد بذلك هذه الثقة اضمحلّت تلك الوساوس، ولم تضرّه، فعليك أيها

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٩١).

المؤمن أن تؤمن بالحقّ الذي أنت عليه، وتثق به، دون أن تلتفت إلى شيء من تلك الأوهام، ولا تتمادى معها، هكذا أخبر عليه الصلاة والسلام.

عرفنا أن من عقيدة المسلمين الإيمان، وأركانه ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه، وأن الإيمان تدخل فيه الأعمال، فالأعمال من مسمَّى الإيمان، ولأجل ذلك يقوى الإيمان ويضعف، ويزيد وينقص، بسبب زيادة الأعمال يزداد الإيمان، وبسبب نقص الأعمال وارتكاب الذنوب ينقص الإيمان، وذلك مما يحمل المسلم على أن يتعهّد إيمانه بالزيادة، ويحذر من النقصان؛ لأنّه إذا تغافل وصار ينقص إيمانه شيئًا فشيئًا، لم يأمن أن يضعف، وإذا ضعف لم يكن زاجرًا له عن اقتراف السيِّئات، ولم يكن دافعًا له إلى التكاثر من الحسنات، كذلك قد يصير ضعف الإيمان سببًا لأن يقوى ضدّه وهو الكفر أو الذنب أو المعصية، فإنّه كلَّما قوي الإيمان ضعفت دوافع الكفر والفسوق والعاصي، وكلما ضعف الإيمان قويت أضداده. فيحرص المسلم على أن يتعهد الإيمان مجدًا مجتهدًا في الحرص على تقوية إيمانه، وعلى البعد عن الأسباب التي تضعفه، فقد بيّن العلماء مسمّى هذه الأشياء؛ لأنَّها مسميات شرعيّة.

فالإيمان وإن كان أصله لغويًا، ولكنّه أصبح مسمىً شرعيًا، استعمله الشرع في الانقياد لأوامر الله تعالى، واتّباع ما جاء عنه، واستعمله في تكميل هذا الاتّباع، بامتثال الطاعات وترك المحرّمات، فأصبح مسمّى شرعيًا.

كذلك الإسلام مسمّىً شرعيّ، ولو كان أصله في اللغة: الإذعان والاستسلام، ولكنّه أصبح اسمًا شرعيًّا يراد به: الدخول في هذا الدين، والانتماء

إليه، والالتزام بتعاليمه، فهو مسمّى شرعيّ بعد أن كان لغويًّا.

كذلك الإحسان مسمّىً شرعيّ، قد بيّنه النبي ﷺ، فوصف أهله وقسّمهم، فأصبحت هذه الأسماء الإسلام والإيمان والإحسان، كذلك أضدادها أصبحت مسمّيات شرعيّة، فالكفر مسمّى شرعيّ، وإن كان أصله في اللغة الستر والتغطية، والشرك مسمّى شرعيّ، ولو كان له أصل في اللغة الذي هو الاشتراك في شيئين، أو التشريك بين اثنين، والنفاق مسمّى شرعي ولو كان له أصلٌ في اللغة، ولكنّه أصبح مستعملًا في هذا الاستعمال الشرعي.

فهذه المسميات جاءت الشريعة باستعمالها في هذه الأشياء، منها ما هو مأمور به؛ كالإسلام والإيمان والإحسان، والدين والاستقامة، وما أشبهها، ومنها ما هو منهي عنه، ومحذَّر منه؛ كالكفر والشرك والنفاق والسيّئات والخطايا والذنوب، وما أشبهها، هذه مسمّيات شرعيّة، ودخولها في العقيدة من حيث إنّ على المسلم أن يعتقد ما جاءت به الشريعة، وأن يقبلها قبولًا كليًا، فيقول: هذا الإسلام تضمّنته هذه الشريعة، فأنا أدين بالإسلام سواءً فيما يتعلّق بالعقائد، أو ما يتعلّق بالأعمال، فيدين لله تعالى به، ويعتقد أنّه سفينةُ النجاة، وأنّه سبيل الوصول إلى السلامة، فيعتقد صحته وسلامة من سار عليه، ويعتقد خطأ من ضلّ وابتعد عنه، أو أخذ منه بعضًا دون بعض، فهذا وجه دخوله في العقيدة.

أما أركان الإسلام فهي مشهورة، ولم يدخلوها في العقيدة، ما عدا الركن الأساسي الذي هو الشهادتان، فإنها أساس العقيدة، وأساس التوحيد، بخلاف الأركان العملية، فالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وما أشبهها، هذه من الأعمال التي جعلوها من الفروع، ولكن هي في الحقيقة من العقيدة؛ لأنها أسس للعقيدة، ولأنّ إنكارها إنكار لشيء معلوم من الدين بالضرورة، فيخرج المنكر لها من الملّة، ويدخل في الكفر والعياذ بالله؛ وذلك لأنّها لما كانت أدلّتها واضحة، والمسلمون تلقّوها بالقبول، لم يكن هناك مجال لإنكارها ولو وجد من ينكرها، فإنّ أولئك الذين أنكروها قد خالفوا المعقول والمنقول، وكذلك الذين تأوّلوها كالفلاسفة، وبعض الصوفيّة ونحوهم، الذين قالوا: إنّ الصلاة ليست هي هذه الأفعال، إنّما المراد بها اتصال القلب بالرّب، وفسروا الحجّ بأنّه: حجّ القلوب إلى علاّم الغيوب، وأسقطوا بذلك هذه الأركان الظاهرة، والتي تعلّمها المسلمون من نبيِّهم ﷺ، ولكن نفرةُ المسلمين من هذه الأقوال واستبشاعهم لها أوجب أنّها ما تذكر في العقائد، فاقتصر أهل العقائد على أركان الإيمان التي هي الستّة، وأصلها كما تقدّم وتكرّر أصلان: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر. فإذا اجتمع هذان تبعهما بقية الأركان، ولكنّهم فصّلوا في كثيرٍ منها، وأجملوا في بعضٍ منها لقلةِ الخلاف، وبذلك إذا حققها المسلم أصبح من أهل العقيدة السليمة، وأهل الاستقامة، الذين هم على سبيل النجاة.

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩]، الخَلَاقُ: النَّصِيبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠]، أَيْ: اسْتَمْتَعْتُمْ بِنَصِيبِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِنَصِيبِهِمْ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا، أَيْ: كَالخَوْضِ الَّذِي خَاضُوهُ، أَوْ كَالْفَوْجِ، أَوْ الصِّنْفِ، أَوْ الجِيلِ الَّذِينَ خَاضُوا.

وَجَمَعَ ـ سُبْحَانَهُ ـ بَيْنَ الْاِسْتِمْتَاعِ بِالخَلَاقِ وَبَيْنَ الخَوْضِ؛ لِأَنَّ فَسَادَ الدِّينِ: إِمَّا فِي الْعَمَلِ، وَإِمَّا فِي الْاِعْتِقَادِ، فَالْأَوَّلُ مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ، وَالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشُّبُهَاتِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَأْخَذَ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «فَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟».

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً».

---

(١) برقم (٧٣١٩) ولفظه: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى تَأْخُذَ أُمَّتِي ...» الحديث.

قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». رواه الترمذي[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٢]، وَابْنُ مَاجَه[٣]، وَالتِّرْمِذِيُّ[٤]، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بن أبي سُفْيَانَ ﷺ قَالَ: قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»[٥].

وَأَكْبَرُ الْمَسَائِلِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخِلَافُ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، وَقَدْ اتَّسَعَ الْكَلَامُ فِيهَا غَايَةَ الْاِتِّسَاعِ.

---

(١) برقم (٢٦٤١)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، قال الحافظ في التقريب (ص٣٤٠): «ضعيف في حفظه». وانظر: الجرح والتعديل (٥/ ٢٣٤)، والكامل في ضعفاء الرجال (٤/ ٢٧٩).

(٢) برقم (٤٥٩٦).

(٣) برقم (٣٩٩١).

(٤) برقم (٢٦٤٠)، وأخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢)، وصححه ابن حبان (١٤/ ١٤٠)، والحاكم (١/ ١٢٨).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وأخرجه عن أنس ﷺ وفيه زيادة أحمد (٣/ ١٢٠/ ١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٩٢).

قال الشيخ:

كلامه هاهنا على تفرق الأمة، وأن هذه الأمة ستفعل كما فعل الأولون، فالله تعالى ذكر أن الأولين استمتعوا بخلاقهم، وأنكم استمتعوا أيها العرب بخلاقكم مثل استمتاعهم، وأنكم خضتم كخوضهم الذي خاضوه، والاستمتاع: الانتفاع، يعني: أنهم انتفعوا بأخلاقهم وبقوا عليها كاستمتاع الذين من قبلهم بأخلاقهم، وخوضهم في الذي خاضوه، وأخبر بأن الخلاق هو الحظ والنصيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠]، أي: ليس له من حظ ولا نصيب، فأخبر الله تعالى بأنكم أيها العرب استمتعتم بنصيبكم من الدنيا كاستمتاع الذين من قبلكم بنصيبهم، وأنكم خضتم (كَالَّذِي خَاضُوهُ، أَوْ كَالْفَوْجِ، أَوْ الصِّنْفِ، أَوْ الْجِيلِ الَّذِينَ خَاضُوا)، وهذا على وجه الإنكار، وعلى وجه التحذير. والمراد: ابتعدوا عن تقليدهم فيما خاضوا فيه، ولو كانوا يدعون أنهم على حق أو أنهم على صواب، فإن هذا استمتاع وخوض يؤدي إلى الباطل فابتعدوا عنه.

قوله: (وَجَمَعَ ـ سُبْحَانَهُ ـ بَيْنَ الْاسْتِمْتَاعِ بِالْخَلَاقِ وَبَيْنَ الْخَوْضِ)، أي: يخبر بأن الله جمع بين الاستمتاع والخوض في قوله ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾، ﴿وَخُضْتُمْ﴾.

قوله: (لِأَنَّ فَسَادَ الدِّينِ: إمَّا فِي الْعَمَلِ، وَإِمَّا فِي الِاعْتِقَادِ)، فالعمل هو الخوض، والخلاق هو الاعتقاد.

يقول: (فَالْأَوَّلُ مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ)، أي: الفساد في العمل بالشهوات التي

توقع في الآثام؛ لأن الإنسان إذا أعطى نفسه ما تشتهي جرته إلى المحرمات، من الشهوات التي هي توقع في النار؛ لأن النبي ﷺ قال: «**حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[1]، فالشهوات التي تشتهيها النفس ـ كالزنى والغناء والخمور وما أشبهها ـ توقع في الذنب الكبير.

قوله: (**وَالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشُّبُهَاتِ**)، أي: الفساد في الاعتقاد بالشبهات التي يلفقها أعداء الإسلام، ويريدون للأمة أن تقع في هذا الخوض، فيكون ذلك سببًا في شكهم في دينهم، فيجمعون شبهات يشبهون بها، وهي التي سببت حيرة كثير من هذه الأمة، حيث وقعوا في الحيرة وماتوا وهم في شك، نعوذ بالله.

ثم أورد مجموعة من الأحاديث، هذه الأحاديث دالة على أن الأمة تتبع من قبلها، في حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ قوله ﷺ: «**لتأخذن أُمَّتِي مَأْخَذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «**وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ**»[2]، المآخذ هي: الطرق والعادات والأعمال السيئة، يعني: أنهم يسيرون على نهج الأمم قبلهم الذين هم فارس وهم من المجوس، والروم وهم من النصارى، ونحوهم أيضًا كاليهود، أفعالهم تتبعها هذه الأمة شبرًا بشبر وذراع بذراع، بحيث إنهم يفعلون كل ما فعلوه قبلهم ولو مسيرة شبر أو ذراع،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٤٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «حُجِبَتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ».

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٦).

وهذا فيه تحذير للأمة وإخبار بأن هذا واقع، وقد وقع كما أخبر.

وفي حديث عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قوله ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ»[1]، بنو إسرائيل هم: اليهود والنصارى؛ لأن كلاً منهم يدَّعون أنهم من ذرية إسرائيل الذي هو يعقوب عليه السلام، أي: أن هذه الأمة تسير مع مسير تلك الأمم، حتى كأنهم يسيرون على آثارهم، يضع أحدهم نعله على موضع نعل اليهودي أو النصراني، إذا رفع قدمًا وضع عليه قدمًا، بمعنى: أنهم يفعلون كأفعالهم، كما يفعل الذي يسير على أثر غيره، يضع قدمه على موضع قدمه.

ثم ضرب مثلاً من الأفعال الشنيعة، قال: «حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»، أي: إذا كان منهم من زنى بأمه علانية - والعياذ بالله - أمام الناس جهرًا كان من هذه الأمة من يصنع ذلك، وهذا من الواقع الشنيع، ولاشك أنه قد وقع ذلك، حيث أخبر به النبي ﷺ، فإن كثيرًا ممن ينتسب إلى الإسلام صاروا يحلون الحرام ومن ذلك الزنى، ويجعلونه حِلاً إذا حصل التراضي بين الزانيين، ويجر ذلك إلى أن الرجل قد يزني بأمه أو بابنته أو ببعض محارمه ولا يبالي والعياذ بالله.

قوله ﷺ: «وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»، أخبر ﷺ أن بني إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة، قيل: إن هذا للحصر، وأن فرقهم وصلت

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

إلى ثنتين وسبعين، وقيل: إن هذا على وجه المبالغة في الكثرة.

قوله ﷺ: «وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»، قيل: إن المراد أمة الدعوة فيدخل فيها كل من كان من البشر فإنه من أمة الدعوة. وقيل: المراد أمة الإجابة الذين استجابوا للنبي ﷺ واتبعوه وقالوا: إننا مسلمون. افترقوا فرقًا كثيرة، وذكر الثلاث وسبعين؛ لأجل التكثير لا لأجل الحصر، فلو أحصيت فرقهم فقد تكون أكثر، ويمكن أن يُراد أن هذه الثلاث وسبعين هي رؤوس الفرق بخلاف الفروع، فإن الفروع كثيرة يمكن أنها تصل إلى مئات أو ألوف من الفرق، وبعض الفرق قد يكونون انقرضوا، وبعضهم قد يكونون قلة تابعين لغيرهم.

ثم يقول: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، هذه الفِرق إذا قلنا: إنه يدخل فيهم فرق الأمة: كالقدرية والمعتزلة والوعيدية والجهمية والصوفية والرافضة والزيدية والإمامية والعلمانية ونحوهم من هذه الفرق القديمة والجديدة، ومثلهم أيضًا النُصيرية والدرزية ونحوهم، فإن من هؤلاء من هم قريبون من الإسلام ـ كالأشاعرة والماتريدية ونحوهم ـ فلا يُحكم بأنهم كلهم في النار، بل يكونون كأهل البدع الذين انتحلوا بدعًا، فيكون وعيدهم بأنهم من أهل النار، يعني: سيدخلونها وإن كانوا سوف يخرجون منها. وقيل: إن المراد أمة الدعوة، فيدخل فيهم النصارى والمجوس واليهود والقبوريون والمشركون والشيوعيون والبوذيون والهندوس ونحوهم ممن ينتحلون نحلاً ويصيرون أممًا وفرقًا مستقلة.

وبكل حال فإن هذا وعيد شديد: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، أي: ما كان عليه النبي ﷺ

وأصحابه الذين صحبوه، ولاشك أنه لم يقع فيهم اختلاف ولا انحراف ﷺ، بل كانوا متمسكين، ولما خرجت الخوارج لم يكن فيهم أحد من الصحابة بل كلهم ممن بعد الصحابة، وكذلك لما ظهرت المعطلة والقدرية لم يكن فيهم أحد من الصحابة، فمن اقتدى بالصحابة وما كانوا عليه، كالأئمة وعلماء التابعين والمحدثين ونحوهم فإنهم من أهل النجاة؛ ولذلك سُئل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن الفرقة الناجية، فقال: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرفهم»[1]. يعني: الأقرب أنهم المحدثون الذين اشتغلوا بعلم الحديث؛ لأنه العلم الموروث عن النبي ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»[2]، هذا أيضًا فيه هذا التفرق يمكن أن فرق الأمة: أمة الإجابة أو أمة الدعوة، وإذا قيل: إنهم أمة الإجابة فيكون من أحاديث الوعيد، ويكون أيضًا الذين يدخلون النار ـ والعياذ بالله ـ هم أهل البدع الكبيرة الذين يدخلونها بسبب بدعهم، وقد يطول مكثهم فيها وقد لا يطول، ومثلهم أيضًا أهل المعاصي ونحوهم.

وفي حديث معاوية ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ**

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٤).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»[1]، المراد بأهل الكتابين: أهل التوراة والإنجيل، فأهل التوراة اليهود، وأهل الإنجيل النصارى، ذكر أن فرقهم وصلت إلى هذا العدد، إما على وجه الحصر، أو لأجل التكثير.

ثم قال: « **وإن هذه الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ على ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يعني: الأَهْوَاءَ -** » يراد بذلك الحصر، أو يراد بذلك التكثير، «**كُلُّهَا في النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وهي الجَمَاعَةُ**». والمراد بالجماعة: الذين اجتمعوا على الحق ولو كانوا قليلاً، فإنهم هم أهل السنة وأهل الجماعة، ومن خالفهم فإنه بعيد عن أن يكون من أهل السنة، وبعيد عن أن يكون من الجماعة، يقول بعض السلف: «الجماعة من كان على الحق ولو كانوا قليلاً، ولو خالفهم عدد كثير»؛ ولهذا في النونية لابن القيم لما ذكر قول أهل السنة في إثبات العلو قال[2]:

هَذَا وَسَادِسُ عَشْرِهَا إِجْمَاعُ أَهْـ ... ـلِ الْعِلْمِ أَعْنِي حُجَّةَ الْأَزْمَانِ

مِنْ كُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ شَهِدَتْ لَهُ ... أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ

لَا عِبْرَةً بِمُخَالِفٍ لَهُمُ وَلَوْ ... كَانُوا عَدِيدَ الشَّاءِ وَالْبُقْرَانِ

يعني: أن الذين يكونون حجة هم أهل الحديث وعسكر القرآن، ولا عبرة بمن خالفهم ولو كثروا.

ثم قال: (**وَأَكْبَرُ المَسَائِلِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الخِلَافُ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، وَقَدْ**

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٤٣٩).

اتَّسَعَ الْكَلَامُ فِيهَا غَايَةِ الْاِتِّسَاعِ)؛ ذلك لأنه أول ما حدث مسألة القدر الذي هو إنكار العلم، فإن الذين سألوا ابن عمر - رضي الله عنهما - وهم : يحيى بن يعمر وحميد بن عبدالرحمن الحميري قالوا: «يا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ»[1]، هؤلاء هم غلاة القدرية، وقد رد عليهم الشافعي - رحمه الله - بقوله: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه فقد كفروا»[2]، يعني: سلوهم وناقشوهم هل الله تعالى بكل شيء عليم؟ فإن أقروا به قلنا: ما الفرق بين علم السابق وعلم اللاحق؟، وإذا جحدوه كفروا لعموم الآيات، ثم حدث بعدهم القدرية الذين ينفون قدرة الله وهم المعتزلة والذين يقولون: إن الله لا يخلق أفعال العباد. وقد رد عليهم أيضًا العلماء وبينوا أن هذا تنقص لله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (ص٢٧)، ومجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩)، وطريق الهجرتين (٢٤٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قَالَ الطَّحَاوِيُّ:

فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

---

قال الشارح:

اعْلَمْ: أَنَّ مَبْنَى الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى التَّسْلِيمِ، وَعَدَمِ الْأَسْئِلَةِ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالشَّرَائِعِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَحْكِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أُمَّةِ نَبِيٍّ صَدَّقَتْ بِنَبِيِّهَا وَآمَنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ أَنَّهَا سَأَلَتْهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ وَنَهَاهَا عَنْهُ وَبَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهَا، وَلَوْ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَمَا كَانَتْ مُؤْمِنَةً بِنَبِيِّهَا، بَلِ انْقَادَتْ وَسَلَّمَتْ وَأَذْعَنَتْ، وَمَا عَرَفَتْ مِنَ الْحِكْمَةِ عَرَفَتْهُ، وَمَا خَفِيَ عَنْهَا لَمْ تَتَوَقَّفْ فِي انْقِيَادِهَا وَتَسْلِيمِهَا عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَلَا جَعَلَتْ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهَا، وَكَانَ رَسُولُهَا أَعْظَمَ عِنْدَهَا مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قُولُوا: بِمَ أَمَرَ رَبُّنَا»؛ وَلِهَذَا كَانَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْأُمَمِ عُقُولًا وَمَعَارِفَ وَعُلُومًا - لَا تَسْأَلُ نَبِيَّهَا: لِمَ أَمَرَ اللَّهُ بِكَذَا؟ وَلِمَ نَهَى عَنْ كَذَا؟ وَلِمَ قَدَّرَ كَذَا؟ وَلِمَ فَعَلَ كَذَا؟ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْإِيمَانِ وَالْاِسْتِسْلَامِ، وَأَنَّ قَدَمَ الْإِسْلَامِ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى دَرَجَةِ التَّسْلِيمِ.

فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ: التَّصْدِيقُ بِهِ، ثُمَّ الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى امْتِثَالِهِ، ثُمَّ الْمُسَارَعَةُ إِلَيْهِ وَالْمُبَادَرَةُ بِهِ، وَالْحَذَرُ عَنِ الْقَوَاطِعِ وَالْمَوَانِعِ، ثُمَّ بَذْلُ الْجُهْدِ وَالنُّصْحِ فِي الْإِتْيَانِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، ثُمَّ فِعْلُهُ؛ لِكَوْنِهِ مَأْمُورًا بِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَوَقَّفُ الْإِتْيَانُ

بِهِ عَلَى حِكْمَتِهِ، فَإِنْ ظَهَرَتْ لَهُ فَعَلَهُ، وَإِلَّا عَطَّلَهُ، فَإِنَّ هَذَا يُنَافِي الْإِنْقِيادَ، وَيَقْدَحُ فِي الْإِمْتِثَالِ.

---

قال الشيخ:

الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم في أمره ونهيه، ما أمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولا نهى عن شيء إلا وفيه مضرة ومفسدة، ولكن مع ذلك ليس لنا أن نكثر التساؤل عن حكمة أي فعل أو أي قول نؤمر به أو نفعله، بل نرضى ونسلم لأمر الله سبحانه وتعالى، ولا نتعنت ولا نخالف في هذه الأوامر والنواهي، بل نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ونقول: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:٣٢]، رضينا بما جاءنا عن الله، وقد رُوي عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه قال: «آمنتُ باللَّهِ، وبما جاءَ عَن اللَّهِ، على مُرادِ اللَّهِ، وآمنتُ برسولِ اللَّهِ، وبما جاءَ عَن رسولِ اللَّهِ، على مُرادِ رسولِ اللَّهِ»[1].

قوله: (اعْلَمْ: أَنَّ مَبْنَى الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى التَّسْلِيمِ، وَعَدَمِ الْأَسْئِلَةِ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالشَّرَائِعِ)، بل يقولون: سلمنا لأمر ربنا، رضينا بما جاءنا منه، قبلناه وإن لم تظهر لنا الحكمة، هذا هو مبنى العبودية، وكذلك الإيمان على الرضا والتسليم، وعدم التقعر في الأسئلة، لا يُسأل عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٦٢).

يقول: (وَلِهَذَا لَمْ يَحْكِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أُمَّةِ نَبِيٍّ صَدَّقَتْ بِنَبِيِّهَا وَآمَنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ أَنَّهَا سَأَلَتْهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ وَنَهَاهَا عَنْهُ وَبَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهَا)، الأمم السابقة، يعني الذين صدقوا نوحًا ـ عليه السلام ـ أو صدقوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أو صدقوا لوطًا أو شعيبًا أو هودًا ـ عليهم السلام ـ ما سألوا، ما قالوا: لماذا أمرتنا بالتوحيد، لماذا نهيتنا عن الشرك؟ لماذا أمرتنا بالنكاح ونهيتنا عن السفاح؟ لماذا حرمت علينا المسكرات وما أشبهها؟ لماذا أبحت لنا الطيبات وحرمت علينا الخبائث؟ لا يسألون عن تفاصيل الحكمة، ولو فعلت ذلك ما كانت مؤمنة بنبيها، بل الأصل أنهم ينقادون ويسلمون ويذعنون لما جاءهم عن الله تعالى على لسان رسوله، فما عرفوه من الحكمة عرفوه، إذا عرفوا المصالح قالوا بها، ولاشك أن في الطهارة بالماء مصالح، وأن في الصلاة مصالح وعبودية وتذلل، وأن في الزكاة مصالح، وأن في الصوم مصالح، وأن في الحج مصالح، وأن في الجهاد مصالح.

وكذلك أيضًا في تحريم المحرمات كتحريم الربا، وتحريم الغش وتحريم الغرر والغصب وما أشبه ذلك، يعرفون أن فيها مصالح، ولكن لم يتوقف قبولهم على معرفة تلك المصالح، بل ينقادون ويسلمون، وما عرفوا من الحكمة عرفوه، وما خفي عنهم لم يتوقفوا في الانقياد والتسليم على معرفته، بل يقولون: إنه حق، وإنه من الله تعالى، ولو لم تظهر لنا الحكمة.

قوله: (وَلَا جَعَلَتْ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهَا)، يعني: معرفة الحكمة ونحوها، فلو سأل أحد: لماذا شُرع التيمم بالتراب مع أنه تلوث وغبار ونحو ذلك؟ نقول: لا نسأل

عن شيء من ذلك، بل نعرف أن الله تعالى حكيم في أمره ونهيه، ومع ذلك فإن العلماء قد حرصوا على أن يذكروا ما يقدرون عليه من الحكم، وقد تكلم ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه (إعلام الموقعين) على مثل هذا، لماذا ـ مثلاً ـ أُمر بالاغتسال من المني ولم يؤمر بالاغتسال من البول؟ وذكر الحكمة، لماذا قُطعت يد السارق في ربع دينار وجُعلت ديتها خمسمائة دينار؟ وذكر الحكمة، وأشباه ذلك وأطال في ذلك، ومع ذلك الذي لم تظهر الحكمة فيه يجب التسليم له.

يقول: (وَكَانَ رَسُولُهَا أَعْظَمَ عِنْدَهَا مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ)، بل نسلم لذلك.

قوله: (كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قُولُوا: بِمَ أَمَرَ رَبُّنَا)، أي: لماذا أمرنا بكذا؟ ما الحكمة وما المصلحة؟ لا تقولوا ذلك، بل قولوا: بأي شيء أمرنا ربنا؟ وهكذا نقول: لا نسأل عن لِمَ؛ عن حكمة في أمر من الأوامر، بل نقول: الأمور كلها بيد الله تعالى، وما أمرنا به امتثلنا، وما نهانا عنه انتهينا.

قوله: (كَانَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْأُمَمِ عُقُولًا وَمَعَارِفَ وَعُلُومًا)، السلف ـ رحمهم الله ـ الصحابة لا يسألون النبي ﷺ لماذا أمر الله بكذا؟ ولماذا نهى عن كذا؟ ولماذا قدَّر كذا؟ ولماذا فعل كذا؟ لا يسألون عن هذا؛ لأن هذا تكلف، لما قرأ عمر ﷺ قول الله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٣١]، على المنبر، فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو

التكلف يا عمر»[(١)]، وسُئل أبا بكر الصديق ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾، فقال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[(٢)]، منقطع.

قوله: (لِعِلْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْإِيمَانِ وَالْاِسْتِسْلَامِ)؛ لأن المؤمنين يقولون: آمنا بالله واستسلمنا لأمره.

قوله: (وَأَنَّ قَدَمَ الْإِسْلَامِ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى دَرَجَةِ التَّسْلِيمِ)، القدم هنا استعارة عن ثبوت الإسلام، لا يثبت الإسلام حقًا إلا على درجة التسليم، أن يقولوا: سلمنا لأمر الله تعالى.

ثم قال: (فَأَوَّلُ مَرَاتِبَ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ: التَّصْدِيقُ بِهِ)، إذا جاءنا الأمر فأول مرتبة أن نصدق بذلك الأمر.

ثانيًا: (الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى امْتِثَالِهِ)، أي: نعزم ونجزم من أنفسنا على امتثال ذلك الأمر.

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص٣٧٥)، وعبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٤٩)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٨١)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٦)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٥٩)، والحاكم (٢/ ٥١٤) وصححه. وأخرج البخاري (٧٢٩٣) نحو ذلك عن أَنَسٍ ﷺ قال: «كنا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ، فقال: نُهِينَا عن التَّكَلُّفِ». قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٧٠): «وذكر الحميدي أنه جاء في رواية أخرى عن ثابت عن أنس أن عمر قرأ ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾، فقال: ما الأب، ثم قال: ما كلفنا، أو قال: ما أمرنا بهذا».

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٦).

ثالثًا: (ثُمَّ الْمُسَارَعَةُ إِلَيهِ وَالْمُبَادَرَةِ بِهِ)، وعدم التواني وعدم التأخر، ثم (وَالحَذَرَ عَنِ الْقَوَاطِعِ وَالمَوَانِعِ)، أي: إذا بادرنا وامتثلنا نحذر عن الشواغل والقواطع التي تعوقنا عن امتثال ذلك الأمر.

رابعًا: (ثُمَّ بَذْلُ الجُهْد وَالنُّصْح فِي الْإِتْيَانِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ)، ذلك الذي أُمرنا به نحرص على أن نبذل ما نستطيعه حتى نأتي به كاملاً كما أمرنا الله تعالى به، وأن ننصح لديننا حتى نأتي به كما أمرنا الله تعالى به.

خامسًا: (ثُمَّ فِعْلُهُ؛ لِكَوْنِهِ مَأْمُورًا بِهِ، بِحَيثُ لَا يَتَوَقَّفُ الْإِتْيَانُ بِهِ عَلَى حِكْمَتِهِ)، يقول: أفعله لأن الله أمرنا به، ولا أتوقف على معرفة الحكمة أو المصلحة بل أمتثله؛ لأن الله تعالى أمر به، وأما السؤال فإنه السؤال عن الأوامر لا عن الحكم؛ ولهذا يقولون: (شفاء العي السؤال)، أي:السؤال عن الأحكام وعن الأوامر والنواهي.

قال الشارح:

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ نَاقِلاً عَنْ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: «فَمَنْ سَأَلَ مُسْتَفْهِمًا رَاغِبًا فِي الْعِلْمِ وَنَفْيِ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ، بَاحِثًا عَنْ مَعْنى يَجِبُ الْوُقُوفُ فِي الدِّيَانَةِ عَلَيْهِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ، فَشِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، وَمَنْ سَأَلَ مُتَعَنِّتًا غَيْرَ مُتَفَقِّهٍ وَلَا مُتَعَلِّمٍ، فَهُوَ الَّذِي لَا يَحِلُّ قَلِيلُ سُؤَالِهِ وَلَا كَثِيرُهُ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِي: الَّذِي يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ هُوَ بَسْطُ الْأَدِلَّةِ، وَإِيضَاحُ سُبُلَ النَّظَرِ، وَتَحْصِيلُ مُقَدِّمَاتِ الْاِجْتِهَادِ، وَإِعْدَادُ الْآلَةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الْاِسْتِمْدَادِ، قَالَ: فَإِنْ عَرَضَتْ لَكَ مَسْأَلَةٌ: أُتِيتَ مِنْ بَابِهَا، وَنُشِدَتَ مِنْ مَظَانِّهَا، وَاللَّهُ يَفْتَحُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهَا» انْتَهَى[1].

وَقَالَ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ». رواه الترمذي[2] وغيره[3].

وَلَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَلَكِنْ مَنْ تَأَوَّلَ حُكْمَ الْكِتَابِ لِشُبْهَةٍ عَرَضَتْ لَهُ، بُيِّنَ لَهُ الصَّوَابُ لِيَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَهُوَ ـ سُبْحَانَه وَتَعَالَى ـ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، لَا بِمُجَرَّدِ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، كَمَا يَقُولُ جَهْمُ

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣٣٣).

(٢) برقم (٢٣١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان (١/ ٤٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٣)، وأحمد (١/ ٢٠١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

وَأَتْبَاعُهُ، وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ).

---

قال الشيخ:

قوله: (قَالَ الْقُرْطُبِيُّ) القرطبي إمام مشهور وله كتاب التفسير الكبير الذي سماه «الجامع لأحكام القرآن».

قوله: (نَاقِلاً عَنِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ)، ابن عبدالبر عالم مغربي له مؤلفات كثيرة ومن أكبرها كتابه «التمهيد» في شرح الموطأ، وله «جامع بيان العلم وفضله»، وهذا البحث في كتابه «التمهيد»[1].

قوله: (فَمَنْ سَأَلَ مُسْتَفْهِمًا رَاغِبًا فِي الْعِلْمِ وَنَفْيِ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ، بَاحِثًا عَنْ مَعْنًى يَجِبُ الْوُقُوفُ فِي الدِّيَانَةِ عَلَيْهِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ)، يتكلم - رحمه الله - عن الذي يسأل، نقول: هل سؤالك رغبة في العلم حتى تنفي الجهل عن نفسك، وتبحث عن المعنى الذي يجب الوقوف عليه ومعرفة الحكم فيه؟ فهذا سؤال جائز، بل قد يكون واجبًا على الإنسان أن يسأل عما أشكل عليه.

قال: (فَشِفَاءُ الْعَيِّ السُّؤَالُ، وَمَنْ سَأَلَ مُتَعَنِّتًا غَيْرَ مُتَفَقِّهٍ وَلَا مُتَعَلِّمٍ، فَهُوَ الَّذِي لَا يَحِلُّ قَلِيلُ سُؤَالِهِ وَلَا كَثِيرُهُ)، وقد ورد أيضًا ذم المتعنتين في بعض الأحاديث،

---

(١) (٢١/ ٢٩٢).

مثل قوله ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[1]، ونحو ذلك.

قوله: (قَالَ ابْنُ الْعَرَبِي)، ابن العربي المفسر المشهور الذي له كتاب أحكام القرآن، وله أيضًا كتب أخرى، يقول: (: الَّذِي يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ هُوَ بَسْطُ الْأَدِلَّةِ)، يعني: معرفة الأدلة، (وَإِيضَاحُ سُبُلَ النَّظَرِ)، يعني: توضيح السبيل الذي تنظر فيه وجه الدلالة، (وَتَحْصِيلُ مُقَدِّمَاتِ الْاِجْتِهَادِ)، حتى تكون قادرًا على الاجتهاد ومعرفة الأدلة، ومعرفة الأحكام، فإن للاجتهاد مقدمات مذكورة في كتب أصول الفقه، (وَإِعْدَادُ الْآلَةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الْاِسْتِمْدَادِ)، الآلة: إما الحصول على الكتب والمراجع، ومثلها في هذه الأزمنة الأشرطة ونحوها، وإما القدرة على الفهم، وذلك بالفهم والعقل والتعقل والتفهم ونحو ذلك.

ثم قال: (فَإِنْ عَرَضَتْ لَكَ مَسْأَلَةٌ: أُتِيتَ مِنْ بَابِهَا، وَنُشِدْتَ مَنْ مَظَانِّهَا)، أي: إذا أتتك مسألة ابحث عنها في مظانها، (وَاللَّهُ يَفْتَحُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهَا)، إلى هنا انتهى كلام القرطبي.

ثم استدل أيضًا بقوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»، وهذا حديث شريف، وهو من أحاديث الأربعين النووية التي شرحها ابن رجب ـ رحمه الله ـ في «جامع العلوم والحكم»[2] الذي شرح فيه خمسين حديثًا من جوامع الكلم، وقد وسع الكلام فيه رحمه الله.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٤٠).

(٢) (ص١١٣).

يقول: (وَلَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ)، الذين يردون حكم الكتاب عنادًا هؤلاء كفرة، وأما الذي يتأول حكم الكتاب، فيتأول بعض الآيات، أو بعض الأحاديث لشبهة عرضت له، وهذا ما يحصل لكثير من المعتزلة ومن الأشاعرة ونحوهم، ومن المبتدعة كالمتصوفة والقبوريين ونحوهم، فإنهم إذا جاءتهم بعض الأدلة يؤولونها ويحملونها على محامل بعيدة، فنقول: إن هذا الاعتراض خطأ، وإن هذا التأويل خطأ، الذي تسمونه تأويلاً وهو في الحقيقة تحريف للكلم عن مواضعه، فاعرفوا الصواب، يتبين لك الصواب، الصواب في المسألة كذا وكذا، إذا كانت من مسائل العقائد نبين له القول فيها، وإذا كانت من مسائل الأحكام الخلافية نبين له أيضًا الخلاف فيها، والصواب فيها، ومع الأسف أن كثيرًا من المجتهدين أو المقلدين يؤولون بعض الأدلة، فالحنفية إذا وردت عليهم بعض الأدلة تخالف ما رُوي في كتبهم حرصوا على أن يتكلفوا في ردها، وهذا خطأ، فالصواب واجب الرجوع إليه، والله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم في أمره لا يُسأل عما يفعل لكمال حكمته، قال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فلكمال حكمته ورحمته وعدله نعترف بذلك؛ لأنه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة، ولكن لا نتكلف ونسأل عن كذا وكذا.

قوله: (لَا بِمُجَرَّدِ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ)، ليس معنى كونه لا يُسأل لمجرد قهره وقدرته، بل لأنه حكيم عليم في كل ما يأمر به.

قوله: (كَمَا يَقُولُ جَهْمٌ وَأَتْبَاعُهُ)، الجهمية يقولون: لا يُسأل عما يفعل لقهره

لا لحكمته. أما نحن فنقول: لا يُسأل عما يفعل؛ لأنه حكيم وعادل.

فهذا هو الواجب، والشارح سوف يتوسع في هذه المسألة عند قول الطحاوي: (وَلَا نُكَفِّرَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)، وكأنه يعتذر ويقول: إن الواجب أن الإنسان يرضى ويسلم بما جاءه عن الله تعالى، وأما المسائل الخلافية إذا كانت في الفروع فإننا لا نكفر بها، فكم حصل من خلافات بين الفقهاء، بين الحنفية والشافعية خلافات كثيرة، وكذلك بين الشافعية والمالكية خلافات كثيرة، ومع ذلك لم يكونوا يكفر بعضهم بعضًا، حتى سُئل الشافعي: هل نصلي خلف من يقلد مالكًا؟ فاستعظم ذلك وقال: «أو لست أصلي خلف مالك؟»، يعني: أن مالكًا هو إمامه وهو شيخه الذي استفاد منه، ومع ذلك هذه الخلافات مثل كون الشافعية يجهرون بالبسملة ويجهر بعضهم بالنية، ولم يفعل ذلك المالكية هذه من مسائلهم الاجتهادية، وكذلك بقية المسائل التي حصل فيها خلاف، أما إذا كانت عقائدية فإننا نحذر منها، مثل: مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، أو مسألة كون الإيمان مجرد التصديق كما تقوله الحنفية اتباعًا لرواية عن الإمام أبي حنيفة، وقد أجاب عن ذلك الشارح وجعل الخلاف لفظيًا، والصحيح أنه معنوي كما هو معروف.

وبكل حال فإننا نعرف أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم فيما أمر به وفيما نهى عنه، وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وأن العلماء ـ رحمهم الله ـ قد تكلموا على الحِكَم والمصالح التي في الأوامر والنواهي، حتى يعرفوا ويعرّفوا أن الله تعالى ما أمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولا نهى عن شيء إلا وفيه مضرة، والله أعلم.

قال الطحاوي:

فَهَذَا جُمْلَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ:

عِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَوْجُودٌ، وعِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَفْقُودٌ.

فَإِنْكَارُ العِلْمِ المَوْجُودِ كُفْرٌ، وادِّعاءُ العِلْمِ المَفْقُودِ كُفْرٌ، وَلَا يَثْبُتُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ الْعِلْمَ المَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ المَفْقُودِ.

---

قال الشارح:

الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: (فَهَذَا) إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ. وَقَوْلُهُ: (وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ)، أَيْ: عِلْمِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، نَفْيًا وَإِثْبَاتًا.

وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ المَفْقُودِ: عِلْمَ الْقَدَرِ الَّذِي طَوَاهُ اللَّهُ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ المَوْجُودِ: عِلْمَ الشَّرِيعَةِ، أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا.

فَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَمَنِ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

---

قال الشيخ:

قوله: (مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ)، أي: من أول ما ابتدأ هذه العقيدة إلى هذا الموضع؛ وكذلك ما بعد هذا الموضع إلى آخر العقيدة بكل ما جاءت به الشريعة.

ثم يقول الماتن: (وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ)، يعني: المتمكنين، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، أي: راسخون في علم ما جاء به الرسول ﷺ جملة وتفصيلاً، نفيًا وإثباتًا، متمكنين من هذا العلم؛ لأنهم حفظوه وشرحوه وفهموه وتلقوه بالقبول فيما يتعلق بالنفي؛ كالصفات السلبية مثل قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ونحو ذلك، أو إثباتيه كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه:١١٠]، ويعني بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾: العلم المفقود، وهو: (عِلْمَ الْقَدَرِ الَّذِي طَوَاهُ اللَّهُ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ).

قوله: (وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ الْمَوْجُودِ: عِلْمَ الشَّرِيعَةِ)، قد ذكر الماتن أن العلم: إما علم في الخلق موجود، أو علم في الخلق مفقود، فأراد بالعلم الموجود علم الشريعة، في الأصول والفروع.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، الْآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ خَفَاءِ حِكْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا عَدَمُهَا، وَلَا انْتِفَاؤُهَا جَهْلَنَا حِكْمَتِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ خَفَاءَ حِكْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا فِي خَلْقِ الحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ وَالْفَأْرِ وَالحَشَرَاتِ، الَّتِي لَا يُعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا المَضَرَّةُ، لَمْ يَنْفِ أَنْ يَكُونَ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقًا لَهَا، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا حِكْمَةٌ خَفِيَتْ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ لَا يَكُونُ عِلْمًا بِالمَعْدُومِ.

---

قال الشيخ:

الآيات في إثبات العلم لله تعالى كثيرة، ومنها هذه الآية في سورة (الجن): ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، فقد أخبر تعالى أنه تفرد بعلم الغيب، ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾، فقد يطلع بعض رسله على بعض الأمور المغيبات التي لا يعلمها إلا هو.

ذكر الله مفاتح الغيب إجمالاً بقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وفي آية (لقمان)، جاء فيها تفصيل مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، أنها خمس:

**الأول:** ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: متى تقوم الساعة، لا يعلم ذلك إلا الله؛ وذلك لأنها من الأمور المستقبلة.

**الثاني:** ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، فلا يعلم متى ينزل إلا الله حيث إنه من الأمور الغيبية، متى ينشئ الله السحب، متى يرسل الله الرياح، متى يصرفه ويسوقه إلى الأرض التي قدر الله أنه ينزل فيها؟ متى ينزل؟ وفي أي بلد؟ لا يعلم ذلك إلا الله.

**الثالث:** ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾، يعني: ما تشتمل عليه أرحام النساء، وكذلك أرحام البهائم: الإبل والبقر والغنم والفيلة وسائر الحيوانات لا يدري ما في أرحامها إلا الله، هل هو واحد أو أكثر؟ هل هو حي أو ميت؟

**الرابع:** ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أية نفس لا تدري ماذا يحصل لها في اليوم الذي بعد هذا اليوم، هل يحصل لها خير أو شر؟ الله تعالى هو الذي يعلم ذلك.

**الخامس:** ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، قريبة أو بعيدة؟ قد يكون موتها في بلد بعيد، ثم يجعل الله لها حاجة إلى ذلك البلد، فيحصل بذلك الوفيات، وما أشبهها.

قوله: (**وَلَا يَلْزَمُ مِنْ خَفَاءِ حِكْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا عَدَمُهَا**)، أي: لا يلزم إذا خفيت علينا حكمة الله أن تكون معدومة، بل لله تعالى حكمة وإن كانت خافية علينا.

قوله: (**وَلَا انْتِفَاؤُهَا جَهْلَنَا حِكْمَتِهِ**)، أي: ولا يلزم إذا جهلنا انتفاء الحكمة أن تكون منتفية ليس هناك حكمة، بل لله تعالى حكمة في كل شيء، حتى في خلق

الدواب الضارة، نعلم أن الله تعالى هو الذي خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات والذباب والبعوض ونحو ذلك، وكذلك الذئاب والسباع والأسود وما أشبهها، الله هو الذي خلقها، ونحن نقول: إن فيها مضرة، ولكن قد يكون فيها حكم لا يعلمها إلا الله، فالله تعالى حكيم عندما خلقها وخلق غيرها من الشرور والسموم وما أشبه ذلك، فكوننا لا نعلم منها إلا المضرة، لا ينفي أن يكون الله تعالى هو خالقها، ولا ينفي أن يكون فيها حكمة ومصلحة عظيمة، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، فلله تعالى حكم كثيرة في كل المخلوقات، وفي الحشرات، ونحو ذلك، فعدم العلم بالشيء لا يكون علمًا بأنه معدوم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمْ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وَرَوَى الحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ[1] بِسَنَدِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، صَفَحَاتُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، لِلَّهِ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِئَةِ لَحْظَةٍ، يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاؤُهُ».

اللَّوْحُ الْمَذْكُورُ: هُوَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ فِيهِ، وَالْقَلَمُ الْمَذْكُورُ: هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ وَكَتَبَ بِهِ فِي اللَّوْحِ الْمَذْكُورِ الْمَقَادِيرَ، كَمَا فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ[2]، عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

---

(١) في الكبير برقم (١٢٥١١)، ورواه موقوفًا على ابن عباس - رضي الله عنهما - بنحو هذا اللفظ من طريق أخرى برقم (١٠٦٠٥).

(٢) برقم (٤٧٠٠)، وأخرجه الترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

قال الشيخ:

ذكر الطحاوي هنا أن من عقيدة أهل السنة الإيمان بأن الله تعالى خلق اللوح والقلم، وأنه كتب فيه ورقم فيه مقادير المخلوقات.

أقول: نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، وأنه خلق اللوح الذي كتب فيه هذه المخلوقات، من أول ما يكون في الدنيا إلى آخرها، ويُسمى (أم الكتاب)، قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، فأم الكتاب هو: اللوح المحفوظ، وكل شيء مكتوب فيه، كل كلام بني آدم من أول الدنيا إلى آخرها قد كتبه الله في ذلك اللوح، ثم وكل الملائكة أن يكتبوا الموجودات، يُكتب عمل كل إنسان، وتُكتب أقواله، وإذا عُرضت يوم القيامة محا الله منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب، وأثبت ما فيه حسنات أو سيئات،كما قال: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، وأصول ذلك موجودة في اللوح المحفوظ الذي ذكره الله، وهو أم الكتاب.

وفي هذا الحديث عند الطبراني ـ رحمه الله ـ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ»، لا يعلم قدر هذا اللوح إلا الله، وذكر أنه من در، وكونه من الدر يدل على نفاسته، «صَفَحَاتُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ»، يعني: طرفاه وحافتاه، وذكر أن «قَلَمُهُ نُورٌ»، أي: القلم الذي كتب به، وفي رواية: «وَعَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، مقدار ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة هذا عرضه فكيف بطوله؟! قال: «لِلَّهِ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِئَةِ لَحْظَةٍ»، أي: عدد أيام السنة، وبكل نظرة يخلق ما في

هذا اللوح: «يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاؤُهُ»، وهذا دليل على عظمة هذا اللوح، وكذلك عظمة الرب تعالى الذي هو خالق كل شيء.

قوله: (اللَّوْحُ الْمَذْكُورُ: هُوَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ فِيهِ)، أي: ما هو كائن إلى يوم القيامة، كل شيء مكتوب في ذلك اللوح: الكلام والأعمال والبشر، وعدد المخلوقات وعدد الحيوانات وكلها.

وفي حديث عبادة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[1]، وفي رواية: «قال: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2]، فنحن نؤمن بهذا اللوح ونؤمن بهذا القلم.

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١).

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلِ الْقَلَمُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ، أَوِ الْعَرْشُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، ذَكَرَهُمَا الْحَافِظُ أَبُو الْعَلَاءِ الْهَمَذَانِي، أَصَحُّهُمَا: أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلَ الْقَلَمِ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»[1] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

فَهَذَا صَرِيحٌ أَنَّ التَّقْدِيرَ وَقَعَ بَعْدَ خَلْقِ الْعَرْشِ، وَالتَّقْدِيرَ وَقَعَ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِ الْقَلَمِ، بِحَدِيثِ عِبَادَةَ ﷺ هَذَا، وَلَا يَخْلُو قَوْلُهُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ» إِلَى آخِرِهِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً أَوْ جُمْلَتَيْنِ: فَإِنْ كَانَ جُمْلَةً ـ وَهُوَ الصَّحِيحُ ـ كَانَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِهِ قَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»؛ كَمَا فِي اللَّفْظِ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ» بنصب (أَوَّلَ) و(الْقَلَمَ).

وَإِنْ كَانَ جُمْلَتَيْنِ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ بِرَفْعِ (أَوَّلُ) وَ(الْقَلَمُ)، فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، فَيَتَّفِقُ الْحَدِيثَانِ؛ إِذْ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْعَرْشَ سَابِقٌ عَلَى التَّقْدِيرِ، وَالتَّقْدِيرُ مُقَارِنٌ لِخَلْقِ الْقَلَمِ.

وَفِي اللَّفْظِ الْآخَرِ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ».

فَهَذَا الْقَلَمُ أَوَّلُ الْأَقْلَامِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجَلُّهَا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) بلفظ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قال: وَعَرْشُهُ على المَاءِ».

وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ[١]: إِنَّهُ الْقَلَمُ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١].

وَالْقَلَمُ الثَّانِيُّ: قَلَمُ الْوَحْيِ: وَهُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ وَحْيُ اللَّهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَلَمِ هُمُ الْحُكَّامُ عَلَى الْعَالَمِ، وَالْأَقْلَامُ كُلُّهَا خَدَمٌ لِأَقْلَامِهِمْ. وَقَدْ رُفِعَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى مُسْتَوَى يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ[٢]، فَهَذِهِ الْأَقْلَامُ هِيَ الَّتِي تَكْتُبُ مَا يُوحِيهِ اللَّهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُدَبِّرُ بِهَا أَمْرَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ.

---

قال الشيخ:

هكذا ذكر العلماء هذا الاختلاف، هل القلم أول المخلوقات أو العرش أول المخلوقات؟ فيه قولان، ذكرهما أبو العلاء الهمداني، أصحهما أن العرش قبل القلم، وأشار إلى ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية[٣]، فيقول فيها:

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ ... قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَاءِ الْهَمَدَانِي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٦)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٢)، والتبيان في أقسام القرآن (ص١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث ابن عباس وأبي حبة الأنصاري رضي الله عنهم.

(٣) انظر النونية مع شرح ابن عيسى (١/ ٣٧٧).

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لِأَنَّهُ قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ

فرجح كما رجح الشارح هنا أن العرش قبل المخلوقات كلها، وأن العرش قبل القلم، واستدل بهذا الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ،وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**»، والتقدير هاهنا هو كتابة مقادير المخلوقات، وهذا التقدير قبل خلق السَّمَوَاتِ والأرض، ولكن كان بعد خلق العرش، وكان عرشه على الماء، وقد دل على ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[هود:٧].

وسُئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: على أي شيء الماء؟ فقال: «على متن الريح»[1]، فدل على أن هذا الماء مخلوق، وأن الريح مخلوقة، وأن العرش مخلوق، ويمكن أن يكون العرش قد أمسكته قدرة الله، وإن لم يكن معتمدًا على شيء قبل الماء وقبل الريح ونحو ذلك، فالله تعالى قدر مقادير الخلائق، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ قبل خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية التي هي السَّمَوَاتِ والأرض بخمسين ألف سنة، ليس بسنة ولا بعشر سنين ولا بألف سنة، بل بخمسين ألف سنة، فهذا الحديث صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، يعني: أن العرش كان موجودًا عند تقدير مقادير الخلائق، والتقدير وقع أول

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٩٠)، والطبري (١٢/ ٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٨)، والحاكم (٢/ ٣٣٧) وصححه.

خلق القلم، عندما خلق الله القلم أمره فكتب؛ لهذا الحديث.

أما قوله في حديث عبادة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»، فهل هذا جملة أو جملتان؟ إذا كان جملة - وهذا هو الصحيح - فلا دلالة فيه على أن القلم سابق للعرش؛ لأن المعنى: (أَنَّهُ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِهِ قَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»)، أي: أول ما خلقه الله قال له: اكتب، فيكون النصب فيهما، والتقدير: أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، يعني: ساعة ما خلق القلم قال له: اكتب، ولا يدل على أنه سابق لخلق العرش، بل إنه أَمَرَه الله عند أول خلقه، هذا إذا كان جملة واحدة: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ». هذا هو الصحيح، أي أنه عند أول خلقه أُمر أن يكتب، وجاء في الرواية الأخرى: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»، أي: إن أول أمره أُمر بأن يكتب بنصب (أَوَّلَ) و(الْقَلَمَ).

أما إن كان جملتين، فالتقدير: أولُ ما خلقَ اللهُ القلمُ، فقال له: اكتب، يكون برفع (أولُ) و(القلمُ)، فيكون (أولُ) مبتدأ و(القلمُ) خبر، أي: أول شيء خلقه الله هو القلم، وعلى هذا (فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ)، أي: من هذا العالم المشاهد الذي هو السَّمَوَاتِ وما فيهن وما بينهما، لا أنه سابق للعرش. (فَيَتَّفِقُ الْحَدِيثَانِ؛ إِذْ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْعَرْشَ سَابِقٌ عَلَى التَّقْدِيرِ)، الذي هو كتابة المخلوقات، وكتابة اللوح، (وَالتَّقْدِيرُ مُقَارِنٌ لِخَلْقِ الْقَلَمِ)، ساعة ما خُلق القلم أُمر بأن يكتب مقادير الخلائق، ولكن العرش سابق على التقدير.

وقد جاء في رواية أخرى: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»، فهو صريح

بأنه ليس هو أول المخلوقات، وإنما هو الذي أُمر بأن يكتب عندما خلقه، لما خلقه قال له: اكتب.

قوله: (فَهَذَا الْقَلَمُ أَوَّلُ الْأَقْلَامِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجَلُّهَا)، أي: الذي كتب الله به مقادير الخلائق.

قوله:( وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إِنَّهُ الْقَلَمُ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾)، أقسم الله بالنون، وأقسم بالقلم، وأقسم بما يسطرون.

قوله: (وَالْقَلَمُ الثَّانِيُّ: قَلَمُ الْوَحْيِ: وَهُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ وَحْيُ اللَّهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ) يعني: الذي يكتب به الملائكة وحي الله إلى أنبيائه ورسله.

قوله: (وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَلَمِ) الذي هو قلم الوحي،

قوله: (هُمُ الْحُكَّامُ عَلَى الْعَالَمِ)، أي: الملائكة الذين ذكرهم الله بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، هؤلاء الذين يكتبون وحي الله، ويكتبون كلام عباد الله، (وَالْأَقْلَامُ كُلُّهَا خَدَمٌ لِأَقْلَامِهِمْ).

وفي حديث الإسراء يقول ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ»[1]، يعني: رُفع إلى ما فوق السَّمَوَاتِ السبع فسمع صريف

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٣٥).

الأقلام، يعني صريف كتابتها، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله ـ تبارك وتعالى ـ من الأمور التي يدبرها، من أمر العالم العلوي والسفلي، وقيل: إنها التي تكتب أمور بني آدم في صحفهم في قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤]، كل ذلك ممكن، ولكن يظهر مما ذكره الشارح أن المراد أقلام الملائكة الذين يكتبون تدبير الخلائق وما هو حادث، وما يمكن أن يحدث.

قال الطحاوي:

فَلَو اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهم عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّـهُ تعالى أَنَّه كَائِنٌ، لِيجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَو اجْتَمعُوا كُلُّهُم عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّـهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ غَيْرِ كَائِنٍ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْه، جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ.

---

قال الشارح:

تَقَدَّمَ حَدِيثُ جَابِرٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ، قَالَ: «جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ فِيمَ الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ»[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلاَمُ أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّـهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّـهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّـهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّـهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّـهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّـهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». رواه الترمذي[2]، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٨).

(٢) برقم (٢٥١٦).

وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذِي[1]: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وما أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مع الْكَرْبِ، وَأَنَّ مع الْعُسْرِ يُسْرًا».

---

قال الشيخ:

يتكلم الشارح ـ رحمه الله ـ هنا على المقادير السابقة، وفي ذلك رد على غلاة القدرية الذين ينكرون العلم السابق، فينكرون أن الله يعلم الأشياء قبل أن توجد، ويقولون: إن الأمر أنف. يعني: أنه مستأنف، وأن جميع هذه الموجودات لا يعلمها حتى توجد، وكان أول من قال ذلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي، اشتهرا بهذا القول الذي هو إنكار علم الله السابق، فينكرون أن الله يعلم الأشياء قبل أن توجد مع أنه هو الذي أوجدها، والذي قدر أوقاتها وحددها، والذي كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن مما يحدث في الأمور المستقبلة، وقد ذكر العلماء أن التقدير أربعة أقسام:

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (١/ ٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، والحاكم (٣/ ٥٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠٣). قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٨٤): «رواه عبد بن حميد في مسنده بإسناد ضعيف». وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٦٦): «رواه عبد بن حميد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رفعه ... وذكره مطولاً بسند ضعيف، ورواه أحمد، والطبراني، وغيرهما بسند أصح رجالًا وأقوى».

**التقدير الأول**: التقدير العام، وهو: الذي كُتب في اللوح المحفوظ، كتابة ما هو كائن من جميع الحوادث والأقوال.

**التقدير الثاني**: التقدير السنوي، الذي يكون في ليلة القدر إلى مثلها، بمعنى: أن الملائكة يكتبون بأمر الله تعالى في تلك السنة ما هو كائن إلى مثلها؛ ولذلك سميت ليلة القدر، أي: ليلة التقدير على هذا القول، مع أن ذلك مكتوب قبلهم أو موجود في اللوح المحفوظ، ولكن يكتبونه حتى يوافق ما يحدث.

**التقدير الثالث**: التقدير العمري، وهو: الذي يأمر الله الملك أن يكتب على الإنسان وهو في الرحم ما هو عامله إذا قدر الله تعالى أنه سيحيا، يأمر الله تعالى الملك أن يكتب أربع كلمات، وهي: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد[1]، هذا تقدير خاص لكل فرد في حياته من أول ما يولد إلى أن يخرج من الدنيا.

**والتقدير الرابع**: اليومي، التي هي حوادث كل يوم، وهي المذكورة في قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

فالمقادير المستقبلة قد علمها الله تعالى، كما قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في الواسطية[2]: «وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ، فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا». يعني: العلم القديم الذي هو صفته.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٢٩).

(٢) (ص٣٥).

في حديث سراقة بن مالك بن جعشم ﷺ، قال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ)، أي: بين لنا حتى نعرف كأننا خلقنا الآن (فِيمَ الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟)، أي: في أي شيء عملنا الآن؟ (أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ)، يعني: أننا نعمل أشياء قد كُتبت علينا وقد قُدرت علينا؟ (أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟)، يعني: أننا نستقبل أشياءً ما كُتبت وإنما نحن الذين نخلقها؟ فقال ﷺ: «لاَ، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ» فأخبر ﷺ بأن أعمال البشر مقدرة قبل أن يوجدوا، وأن الأقلام قد كتبت ذلك وجفت يعني يبست، وأن المقادير قد قُدرت.

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو أحد الأربعين النووية، يقول ﷺ: (كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا)، أي: كأنه يمشي وراءه أو قريبًا منه، فعلمه بهذه الكلمات فحفظها، ناداه بقوله: «يَا غُلاَمُ»، وذلك لأنه كان شابًا يافعًا، يعني: عمره قريب من ثلاثة عشر عامًا، ولكنه كان ذكيًا قوي الذاكرة، فقال له ﷺ: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ» يعني: أرشدك إلى هذه الكلمات:

الجملة الأولى: قال: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ»، تكلم العلماء على كيفية حفظ الله، فبينوا أن المراد حفظ أوامره ونواهيه، وحفظ حدوده، وحفظ كلامه، وما أشبه ذلك، وأن من حفظ الله حفظه الله، أي: من حفظ حدود الله وحفظ أوامره ونواهيه فإن الله تعالى يحفظه من المكاره، ولو كادته السَّمَوَاتِ والأرض، والله تعالى قد قدر أنه ينجو لما قدروا عليه، هذا معنى «يَحْفَظْكَ»، أي: يحفظك الله تعالى من كيد الكائدين.

الجملة الثانية: قال: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، عرفنا أن حفظ الله حفظ

أوامره ونواهيه، وذكر أن من حفظ الله وجد هذا الحفظ، «تُجَاهَكَ» يعني: أمامك، كما في رواية، أي: تجد هذا، فأجر حفظك لله تجده أمامك في الآخرة، أي تجد ثوابه وتجد فعله وأن الله تعالى يثيبك عليه.

الجملة الثالثة: قال: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ»، أي: لا تسأل غير الله، بل سل الله كل شيء، فاسأل ربك كل ما أنت محتاج إليه، والله تعالى قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فمعنى ذلك: لا تسأل غير الله، بل أسأل ربك كل شيء أنت بحاجة إليه؛ ولذلك قال بعض الشعراء[1]:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْئَلُ يَغْضَبُ

أي: أن الإنسان إذا كررت سؤاله فإنه يغضب منك ويمل، أما الله تعالى فإنه يحب السائلين ويعطيهم ويجيبهم ويثيبهم، وفي الحديث: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[2].

---

(١) ذكر هذين البيتين أبو سليمان الخطابي في كتابه «العزلة» (ص٦٧) وعزاهما إلى الخزيمي.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٢٩)، والترمذي (٣٣٧٣)، وأحمد (٢/ ٤٤٢)، والحاكم (١/ ٤٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ١٤٥)، وقال ابن كثير في تفسيره لسورة غافر آية (٦٠): «تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به».

الجملة الرابعة: قال: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، الاستعانة: طلب العون، والله تعالى يعين عباده، كما في قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، أي: لا تستعن إلا بالله، بل استعن بالله على أمورك وعلى عباداتك حتى يعينك عليها، وعلى معاملاتك، وعلى مكاسبك، وعلى أهلك، وعلى أولادك،وعلى جميع ما أنت بحاجة إليه، تسأل الله أن يعينك عليه، فإذا أعانك فإنه يسهل عليك كل عسير، وإذا لم يعنك صعبت عليك الأمور ولو كنت ذا علم وذا حذق وذا قوة.

الجملة الخامسة: هذه الجملة تتعلق بالقدر، أي: بعلم الله السابق وبالحوادث، قال: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ»، الله تعالى كتب ما هو كائن، كتب رزقك قبل أن يخلق المخلوقات، ثم كتبه كتابة ثانية وأنت في الرحم، فالخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ـ أي: بعطاء أو بنفع أو بمال أو نحو ذلك ـ لم ينفعوك إلا بأشياء قد كتبها الله لك، وقدر أنها تأتي إليك على أيديهم،كذلك «وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ» أي: لا إذا قدر الله تعالى حمايتك وحفظك لم يصلوا إلى أي ضرر يريدون أن يضروك به، بل يردهم الله.

ويجب أن نعرف أن هذا لا ينافي فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابًا، فالإنسان لا يجلس في بيته ويقول: يأتيني رزقي ويدخل عليَّ من وراء الأبواب

ومن وراء الحيطان، بل يؤمر بأن يتسبب، وهذه الأسباب قد كتبها الله وجعلها أسبابًا، فالأسباب التي أُمرت بها أسباب للرزق الذي كتبه الله لك وأنت في الرحم أو قبل أن يخلق الدنيا، فكتب الأسباب، وكتب ثمرتها، وكتب مزاولتك لها، وأمرك بأن تزاولها، كذلك أيضًا أنت مأمور بأن تتقي الشرور وأن تتقي أسباب الضرر؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١]، فهذه من أسباب الوقاية التي جعلها الله تعالى أسبابًا، يعني: هذه الدروع التي يلبسها المقاتل لا ترد من قدر الله شيئًا، ولكن جعلها الله تعالى أسبابًا، فالأمة لا يفعلون إلا شيئًا قد كتبه الله وقدره على عباده، لو اجتمعوا على إنسان ليضروه والله تعالى قد قدر أنهم لا يضرونه لم يصلوا إليه، ولا يضرونه إلا بشيء قد كتبه الله.

ثم قال: «رُفِعَتِ الأَقْلَامُ» التي تكتب المقادير، «وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» أي: يبست الحروف التي كُتبت في هذه الصحف، وفُرغ من الأمر، هذا حد رواية الترمذي، وقد رواه غير الترمذي كالإمام أحمد[1] وغيره، وفيه زيادة: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ»، هذا بمعنى: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، أي: تجد ثواب هذا الحفظ أمامك عند الله تعالى.

---

(١) في المسند (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) من عدة طرق.

ثم قال: «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّـهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» مادمت في سعة وفي رخاء فعليك أن تتعرف إلى الله، بمعنى أنك تعمل الأعمال الصالحة حتى تكون معروفًا بها عند الله، وكذلك معروفًا أيضًا عند الملائكة الذين يكتبون أعمالك، ومعروفًا أيضًا عند أهل السَّمَوَاتِ حيث تصعد أعمالك إلى السَّمَوَاتِ، فيقول: إذا كنت في الرخاء وفي السعة فأكثر من الأعمال الصالحة، حتى إذا دعوت الله تعالى في شدة فإنه يعرفك، يعني: يجيبك ويعطيك، كما حصل ليونس ـ عليه السلام ـ لما أُلقي في البحر والتقمه حوت كبير، فدعا ربه وهو في بطن الحوت، قال: ﴿أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وفي بعض الآثار أن الملائكة قالوا: يا رب هذا صوت ضعيف معروف في بلاد غريبة، قال: «أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟» قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: «ذَلِكَ عَبْدِي يُونُسَ»، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة! قالوا: يا رب، أَوَلا يُرحم بما كان يصنع في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: «بَلَى»، فأمر الحوت فطرحه بالعراء[1]، فهذا معنى «يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ».

كذلك يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وما أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ»، وهذا معنى ما ذكر، «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٠٠)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٢٨)، والطبراني في الدعاء (ص٣٥) من حديث أنس ﷺ.

يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»، فالذي أخطأك لم يُكتب أنه سوف يصيبك، والذي أصابك وحصل عليك مكتوب عليك ولا يخطئك، ومع ذلك أنت مأمور بالتحفظ، وأنت مأمور بفعل الأسباب التي تقيك الأشياء، فإذا ابتعدت عن الأخطار كان ذلك سببًا مكتوبًا عليك، إذا تعرضت للأخطار وأُصِبت وتعاطيت الأسباب التي توقعك في شر فإن ذلك يعتبر خطأ ويعتبر تهورًا.

ثم يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ»، الصبر: هو الصبر على المصائب وما أشبهها، والصبر على المحن ونحو ذلك، والصبر أيضًا عند القتال، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ [الأنفال:٤٥]،أي: اصبروا، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، فإذا صبروا نصرهم الله، وكذلك أيضًا كل من صبر ظفر، يعني: صبر على طاعة الله فإن الله تعالى يثيبه، صبر نفسه يعني حبسها عن المعاصي فإن الله تعالى يثيبه، صبر على المكاره وصبر على المصائب فإن الله تعالى ينصره ويثيبه.

يقول: «وَأَنَّ الْفَرَجَ مع الْكَرْبِ» أي: إذا أصابك كرب فارتقب وانتظر أن يأتيك الفرج من الله، كما قال بعضهم[1]:

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ ... لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرُ

(١) ذكر هذه الأبيات ابن حبان في روضة العقلاء (ص١٥٩) ونسبها إلى المنتصر بن بلال الأنصاري.

عَسَى مَا تَرَى أَنْ لَا يَدُومَ وَأَنْ تَرَى لَهُ فَرَجًا مِمَّا أَلَحَّ بِهِ الْعُسْرُ
إِذَا اشْتَدَّ عُسْرٌ فَارْجُ يُسْرًا فَإِنَّهُ قَضَى اللَّهُ أَنَّ الْعُسْرَ يَتْبَعَهُ الْيُسْرُ

فإذا حصل الكرب ودعا العبد ربه فإن الله يفرج الكروب ويزيل الشدائد عن بعض الذين يرغبون إليه وإن كان قد يبتليهم ببعض المصائب وما أشبهها.

يقول: «وَأَنَّ مع الْعُسْرِ يُسْرًا»، العسر: يراد به الشدائد، فإذا نزلت الشدائد بالإنسان أعقبها الله تعالى باليسر، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وجاء قوله ﷺ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»[1]، ولعله يشير إلى قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]، فإن العسر في الآيتين معرف فهو شيء واحد، وأما اليسر فإنه مُنكَّر، فيدل على أن هناك يسران، فهذا معنى قوله: «وَأَنَّ مع الْعُسْرِ يُسْرًا»، فمتى حصل العسر فإن الله تعالى يعقبه باليسر، وقد قضى الله أن العسر يتبعه اليسر.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٨٠)، والطبري (٣٠/ ٢٣٥، ٢٣٦)، والحاكم (٢/ ٥٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠٦) من حديث الحسن البصري مرسلاً، وله شاهد موقوف على عمر ﷺ، أخرجه مالك في الموطأ (٩٦١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٢)، والحاكم (٢/ ٣٠١) وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠٥).

قال الشارح:

وَقَدْ جَاءَتِ الْأَقْلَامُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَغَيْرِهَا مَجْمُوعَةً، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لِلْمَقَادِيرِ أَقْلَامًا غَيْرَ الْقَلَمِ الْأَوَّلِ، الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مَعَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. وَالَّذِي دَلَّتْ عَلَيهِ السُّنَّةُ أَنَّ الْأَقْلَامَ أَرْبَعَةٌ. وَهَذَا التَّقْسِيمُ غَيْرُ التَّقْسِيمِ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ.:

الْقَلَمُ الْأَوَّلُ: الْعَامُ الشَّامِلُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مَعَ اللَّوْحِ.

الْقَلَمُ الثَّانِيُّ: خَبَرُ خَلْقِ آدَمَ، وَهُوَ قَلَمٌ عَامٌ أَيْضًا، لَكِن لِبَنِي آدَمَ، وَرَدَ فِي هَذَا آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَأَرْزَاقَهُمْ وَآجَالَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ، عُقَيبَ خَلْقِ أَبِيهِمْ.

الْقَلَمُ الثَّالِثُ: حِينَ يُرْسَلُ الْمَلِكُ إِلَى الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرَّوْحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ[1].

الْقَلَمُ الرَّابِعُ: الْمَوْضُوعُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ بُلُوغِهِ، الَّذِي بِأَيْدِي الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ، الَّذِينَ يَكْتُبُونَ مَا يَفْعَلُهُ بَنُو آدَمَ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

---

قال الشيخ:

هكذا جاء تقسيم هذه الأقلام أنها أربعة، وقد تقدم أن هناك قلمان، وهذه

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٤٩).

الأقلام الأربعة غير القلمين الأوليين، الله تعالى ذكر: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١]، ولكن يُراد بذلك هذه الأقلام التي تكتب هذه الأعمال، فالأقلام جاءت في هذه الأحاديث في قوله: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ**» ونحو ذلك، دل على أن المقادير لها أقلام غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

والذي دلت عليه السنة بتتبع الأدلة أن الأقلام أربعة، وأن تقسيمها إلى أربعة غير التقسيم المتقدم إلى قسمين.

قوله: (**الْقَلَمُ الْأَوَّلُ: الْعَامُّ الشَّامِلُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ**)، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ، الذي هو أول ما خلق الله وأمره أن يكتب ما هو كائن.

قوله: (**الْقَلَمُ الثَّانِيُّ: خَبَرُ خَلْقِ آدَمَ، وَهُوَ قَلَمٌ عَامٌّ أَيْضًا، لَكِن لِبَنِي آدَمَ، وَرَدَ فِي هَذَا آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَأَرْزَاقَهُمْ وَآجَالَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ، عُقَيبَ خَلْقِ أَبِيهِمْ**)، ولعل من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[الأعراف:١٧٢]، ونحو ذلك، وما ثبت أيضًا من قوله ﷺ: «**أَخَذَ اللهُ الْمِيْثَاقَ مِن ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي: عَرَفَةَ - فأخرج من صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بين يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلاً، قال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالوا: بَلَى شَهِدْنَا...**»[1]، يعني: استنطقهم،

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٠٣).

فشهدوا على أن الله هو ربهم، وهو الذي خلقهم.

فلما خلق الله تعالى آدم أخرج ذريته، وكتب على كل فرد من أول الدنيا إلى آخرها ما هو عامل، وفي بعض الروايات: «وَجَعَلَ بين عَيْنَيْ كل إِنْسَانٍ منهم وَبِيصًا من نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ على آدَمَ، فقال: أَيْ رَبِّ من هَؤُلاءِ؟ قال: هَؤُلاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلاً منهم فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ ما بين عَيْنَيْهِ، فقال: أَيْ رَبِّ من هذا؟ فقال: هذا رَجُلٌ من آخِرِ الأُمَمِ من ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ له: دَاوُدُ...»[1] إلى آخر القصة.

القلم الثالث: خاص بكل إنسان (حِينَ يُرْسَلُ المَلِكُ إِلَى الجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ)، وذلك بعد الأربعين الثالثة، (وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٍ)، هكذا ورد في حديث ابن مسعود ﷺ، وغيره من الأحاديث الكثيرة التي أوردها ابن رجب ـ رحمه الله ـ في «جامع العلوم والحكم»[2] في شرح هذا الحديث، وأنه يُكتب ذلك وهو في بطن أمه، وذلك لا ينافي أنه مكتوب قبل أن يُخلق، وقبل خلق المخلوقات، وإنما هذه كتابة جديدة حينما يُرسل الملك إلى الجنين ويكتب ما هو كائن وما هو عامل.

القلم الرابع: (المَوْضُوعُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ بُلُوغِهِ)، في حديث أنه ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبَرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٠٥).

(٢) (ص٤٦ وما بعدها).

حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ»[1]. هذا يُسمى (قلم التكليف)، فإذا بلغ العبد وُضِع عليه هذا القلم الذي هو قلم التكليف، بمعنى أنه يصير من الذين تكتب الملائكة أعمالهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، أي: الملائكة الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، فإذا بلغ العبد وكُلِّف فعند ذلك يتولى الملائكة كتابة أعماله كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، أي: يكتبون كل ما يتلفظ به.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٥٥٩٦)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وأحمد (٦/ ١٠١)، والحاكم (٢/ ٥٩) وصححه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشارح:

وَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَالْوَاجِبُ إِفْرَادُهُ سُبْحَانَهُ بِالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة:٤١]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]، وَنَظَائِرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

وَلَابُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ، فَإِنَّهُ لَا يَعِيشُ وَحْدَهُ، وَلَوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا، فَلَابُدَّ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ يُرَاعِي بِهَا رَعِيَّتَهُ، فَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَقِيَ، فَإِنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ اتَّقَىٰ الْمَخْلُوقَ، وَالْخَلْقُ لَا يَتَّفِقُ حُبُّهُم كُلُّهُم وَبُغْضُهُم، بَلِ الَّذِي يُرِيدَهُ هَذَا يَبْغُضَهُ هَذَا، فَلَا يُمْكِنُ إِرْضَاؤُهُمُ كُلُّهُم، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ ﷺ: «رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، فَعَلَيكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي يُصْلِحَكَ فَالْزَمْهُ، وَدَعْ مَا سِوَاهُ فَلَا تُعَانِيهِ، فَإِرْضَاءُ الْخَلْقِ لَا مَقْدُورٌ وَلَا مَأْمُورٌ، وَإِرْضَاءُ الْخَالِقِ مَقْدُورٌ وَمَأْمُورٌ»[1].

---

قال الشيخ:

في هذا ما يجب على الإنسان المكلف، لاشك أنه عرض على كلٍ، وعلم أن كلاً من عند الله، عرف عظمة ربه سبحانه وجلاله وكبرياءه، وعلم حقه عليه،

---

(١) أخرجه الخطابي في العزلة (٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٢٣).

فأنت تعلم حق الله تعالى عليك وأنك عبد من عبيده، وأنه كلفك بعبادته وحده، فالواجب أن تفرده سبحانه بالخشية والتقوى، والخشية: هي شدة الخوف؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾، أي: لا تخف من الناس، بل عليك أن تخاف من الله وحده، وجاء في بعض الآثار: «من خاف الله خاف منه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء»[1]، فعليك أن يكون خوفك من الله وخشيتك منه، وإذا خشيت الله تعالى فإنه يحرسك ويحميك وإن كنت مأمورًا بالأسباب.

كذلك قوله تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، الرهب هو: شدة الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فلا ترهب إلا من الله وحده، ولا ترهب من غيره.

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾، التقوى: العمل بطاعة الله، كما جاء في بعض الآثار: «التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله»[2]، فلا تتق غير الله، ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾، وتقديم الضمير يقتضي التخصيص، مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥٤١) من كلام الفضيل بن عياض، وقال: «وقد روى هذا اللفظ عن واثلة بن الأسقع مرفوعًا، غير أن إسناده مجهول».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٤٦) من كلام طلق بن حبيب، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٥٩).

نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، أي: لا نعبد غيرك، إياك نرهب أي: لا نرهب غيرك، إياك نتقي أي: لا نتقي غيرك، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢]، أي: من جمع بين هذا كله: طاعة الله ورسوله بامتثال الأوامر وترك النواهي، وخشية الله التي هي شدة الخوف، وتقوى الله التي هي مراقبته والخوف من عذابه، أولئك هم الفائزون الذين هم أهل الفوز والسعادة في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر:٥٦]، أي: الرب ـ سبحانه وتعالى ـ أهل أن يتقيه العباد، وأهل أن يغفر لهم إذا اتقوه.

ثم يقول: (وَنَظَائِرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ)، يعني: الأوامر والإرشادات التي فيها أمر العباد بأن يخافوا من الله ولا يخافوا غيره، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:١٧٥]، ونحو ذلك كثير.

يقول: (وَلَابُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ)، يعني: كما أنه يتقي الله فيتقي المعاصي ويتقي الذنوب، يتوقى يعني: يجعل بينه وبينها وقاية، ولابد أيضًا أنه يتوقى الشرور ويتوقى الآفات، فلا يتهور ولا يخاطر بنفسه، ولا يفعل الأسباب التي فيها ضرر عليه، بل يتوقاها.

قوله: (فَإِنَّهُ لَا يَعِيشُ وَحْدَهُ)، الإنسان مدني بالطبع، فلا يمكن أنه ينفرد وحده ويعيش، بل لابد أن يكون مع الناس.

قوله: (وَلَوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا، فَلَابُدَّ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ يُرَاعِي بِهَا رَعِيَّتَهُ)، الملوك ولو بلغوا ما بلغوا لابد أن يتقي أحدهم أشياء يراعي بها رعيته الذين تحت سلطته.

قوله: (فَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَقِيَ)، أي: لابد من صفة التقوى، (فَإِنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ اتَّقَىٰ الْمَخْلُوقَ)، يعني: يتقي شرور الناس، اتق شر من أحسنت إليه، حتى قال بعضهم[1]:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّة

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ ... فَكَانَ أَخْبَرَ بِالْمَضَرَّة

فالذي يتقي الله يقيه الله المخاوف، وكذلك أيضًا يتقي شرور الناس يتقي أضرارهم، يتوقى ذلك بقدر ما يستطيع.

قوله: (وَالْخَلْقُ لَا يَتَّفِقُ حُبُّهُم كُلُّهُم وَبُغْضُهُم)، ليس كلهم يتفقون على حب إنسان، بل لابد أن يكون فيهم من يبغضه، حتى الأنبياء جعل الله لهم أعداء يقاطعونهم ويؤذونهم، فكذلك الإنسان كل فرد له أولياء وله أعداء، هؤلاء يحبونه وهؤلاء يبغضونه.

قوله: (بَلِ الَّذِي يُرِيدُهُ هَذَا يَبْغُضُهُ هَذَا)، قد يكون إنسان يحبك، وآخر يبغضك ويحقد عليك، (فَلَا يُمْكِنُ إِرْضَاؤُهُمْ كُلُّهُم)، يعني: أنهم كلهم يرضون عنك، (كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ ﷺ: «رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ)، يعني: رضا

---

(١) ذكر هذين البيتين الثعالبي في يتيمة الدهر (٣/ ١٢٦)، ونسبهما لابن حجاج.

الناس كلهم، فلا يمكن أنه يرضوا عن الإنسان، بل لابد أن يكون فيهم من لا يبلغ رضاه.

ثم يقول: (**فَعَلَيكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي يُصْلِحَكَ فَالْزَمْهُ**)، أي: الشيء الذي يصلحك ويكون فيه صلاحك لازمه، (**وَدَعْ مَا سُوَاهُ فَلَا تُعَانِهِ، فَإِرْضَاءُ الخَلْقِ لَا مَقْدُورٌ وَلَا مَأْمُورٌ، وَإِرْضَاءُ الخَالِقِ مَقْدُورٌ وَمَأْمُورٌ**)، فأنت مأمور بأن تلتمس رضا الله، وأن تبتعد عن سخطه ولو سخط عليك الخلق، وفي الحديث المشهور قول النبي ﷺ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهِ عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»[1].

فَالمسْلم عليه أن يقصد رضا الله، وأن يعمل بما يرضي الله، ومتى كان كذلك فإن الله تعالى يرضي عنه الخلق ولو كانوا يبغضونه، يعرفون أنه ليس له هدف، وأنه ليس له غرض خاص في بغض هذا أو في بغض هذا، إنما يبغض من يبغضهم الله؛ لأجل خصال اتصفوا بها، فيحب أولياء الله لا لغرض دنيوي، ولا لأمر خاص، بل يعرف أن هؤلاء أولياء الله الذين يحبهم فيحب من يحبهم الله، وأن هؤلاء أعداء لله يبغضهم الله فيقول: أولياء الله وأحباب الله أنا أواليهم،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان (١/ ٥١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه بنحو هذا اللفظ الطبراني في الكبير (١١٦٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولو أنهم بعيدون من النسب، بعيدون مني نسبًا، ولو ما حصلت منهم لي منفعة دينية أو دنيوية، ولكن بما أنهم يحبون الله، ويحبون الخير، يقصدونه ويعملون به فأنا أحبهم. وإذا قُدّر أنهم كرهوك وقدحوا فيك وأبغضوك وحاولوا إضرارك فلا يضر السحاب نبح الكلاب، عليك بأن تصبر وتصابر على أذى الناس، ولابد أن يكون هناك أذى لكل إنسان، فإذا صبرت فالله تعالى وعدك بالصبر، وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - السابق يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ»، فتصبر على أذى الناس وعلى ما ينالك منهم؛ لتكون بذلك سعيدًا إن شاء الله تعالى.

فإرضاء الخلق ليس بمقدور، لو التمست رضا الناس كلهم لم تقدر على ذلك؛ لأن ربنا سبحانه فاوت بين الخلق، وجعلهم متقاطعين، جعل فيهم حسدة ومفسدين، فالذين يحسدون يريدون لك الشر ويعملون على ما يقدرون عليه من إضرارك حسدًا وبغضًا، كما يقول بعض الشعراء[1]:

حَسَدُوا الْفَتَىٰ إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالقَوْمُ أَعْدَاءٌ لَهُ وخُصُوْمُ

كَضَرَائِرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... حَسَدًا وَبُغْضًا إِنَّهُ لَدَمِيْمُ

فما حمل الذين يحسدونك ويحقدون عليك ويتتبعون الهفوات إلا الحسد الذي يكنونه في قلوبهم، وعادة أنهم يكتمون الخير ويظهرون السوء أو الشرور،

---

(١) هذان البيتان ينسبان إلى أبي الأسود الدؤلي، انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٢)، والفصول المفيدة في الواو المزيدة (ص٢١١).

حتى قال بعضهم[1]:

صُـمٌّ إِذَا سَـمِعُوا خَـيْرًا ذُكِـرْتَ بِـهِ ... وَإِذَا ذُكِـرْتَ بِـسُوءٍ عِنْـدَهُمْ أَذَنُـوا

إِنْ يَـسْمَعُوا سَـيِّئًا طَـارُوا بِـهِ فَرِحًـا ... عَنِّي وَمَـا سَـمِعُوا مِـنْ صَـالِحٍ دَفَنُوا

فهكذا لابد أن الإنسان يتحمل ويصبر وينصره الله تعالى ويظهره، ولا يضره من احتال أو حاول أن يمكر به.

(١) هذان البيتان ينسبان إلى قعنب بن أم صاحب، انظر: لسان العرب (٤/ ٤٣٤).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَالْمَخْلُوقُ لَا يُغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، فَإِذَا اتَّقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ، كَفَاهُ مَؤُونَةَ النَّاسِ، كَمَا كَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، رُوِيَ مَرْفُوعًا، وَرُوِيَ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا»[1]، فَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَرَضِيَ عَنْهُ، ثُمَّ فِيمَا بَعْدُ يَرْضَوْنَ؛ إِذْ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ فَيُحِبُّهُ النَّاسُ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهَ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»، وَقَالَ فِي الْبُغْضِ مِثْلَ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

قوله: (وأيضًا فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئًا)، أي: أن الخلق كلهم لا يغنون من الله شيئًا.

ثم ذكر أثر عائشة رضي الله عنها، وقد رُوي مرفوعًا وموقوفًا عليها قالت: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَرْضَى

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًا»، هكذا إذا أرضى الله تعالى ولو سخط عليه الناس، فإن الناس يعذرونه ويقولون: إنه لم يكن محابيًا، ولم يكن ملتمسًا لمصلحة دنيوية، ولكنه يريد رضا الله تعالى. فيرضى الله تعالى عنه، ويرضي عنه الناس.

وأما الذي يعمل بسخط الله، ويسخط الله بعمل المعاصي والمحرمات، فإن الله يسخط عليه الناس، ولو أنهم أصدقاؤه، ولو أنهم أقارب له، فإنهم يعودون يذمونه.

هذا معنى قوله: «عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًا»، وفي رواية: «سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسِ».

وهذا الأثر الذي رُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا وموقوفًا دليل على أن الإنسان عليه أن يلتمس رضا ربه ولو سخط عليه الناس، فيصدع بالحق ويقول به، ولا يخاف في الله لومة لائم، وإذا علم الناس حُسن قصده، وأنه لا يبالي بأحد، وأنه يعرف أن هذا رضا لله تعالى فإنهم يعذرونه ويرضون عنه، ويرضيهم الله عنه، وأما الذي يعصي الله تعالى ويسخطه لأجل أن يرضى عنه الناس، ويعطيهم ما يهوونه وما يناسبهم وهو يعلم أن في ذلك سخط الله تعالى، فإن الله يعاقبه بحيث يسخط عليه الناس، والذين يحمدونه يعودون يذمونه.

قوله: (فَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَرَضِيَ عَنْهُ)، وكفى بذلك منزلة رفيعة، إذا أرضى الله تعالى، إذا علم أن في هذا الأمر رضا الله تعالى فيكفيه مؤنة الناس ولو حاولوا أن يضروه، ويرضي الله تعالى عنه، ثم فيما بعد يرضون عنه إذا

علموا حسن مقصده وأنه لا يريد إلا ما عند الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]، يعني: النهاية لأهل التقوى، ولا شك أيضًا أن الناس يحبونه، إذا أحبه الله حبَّب إليه الناس حيث؛ لأنه والحال هذه قد قدم رضا الله تعالى على رضا كل أحد، ولم يبالِ بالناس، ولم يلتفت إلى رضا أحد، وعلم أن هذا الأمر أمر الله وأنه مقدم على أمر كل أحد.

ثم استدل الشارح بما في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إذا أَحَبَّ الله الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ له الْقَبُولُ فِي الأرض»، وقال في البغض مثل ذلك: «وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فيقول: إني أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ، قال: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، قال: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ له الْبَغْضَاءُ فِي الأرض»؛ وذلك لأن الله تعالى موصوف بأنه يحب أولياءه، ويحب المتقين، ويحب عباده الصالحين، وإذا أحبهم فإنه لأجل صلاحهم ولأجل تقاهم، ولأجل ديانتهم؛ ولأنهم يلتمسون رضا الله، ولو سخط عليهم جميع الناس، ويقولون: لا حاجة لنا برضا الناس إذا سخط الله علينا، نقول الحق ونجهر به، ونعلم أن هذا هو الذي يحبه الله منا، أما الذي يلتمس رضا الناس ويتنازل على ما يريدون ويحل لهم الحرام؛ لأجل أن يحبوه، ولأجل أن يوسع عليهم، ويقول: الناس لا يحبون إلا من تنازل لهم عن الأشياء وتسامح معهم، وما أشبه ذلك، لاشك أن هذا وما أشبهه يعتبر تركًا

للحق، وإفسادًا له، ويعتبر تسببًا في بغض الله تعالى للعبد الذي فعل ذلك، ثم بغض الملائكة له، ثم بغض أهل الأرض له، بخلاف من قدم محبة الله فإن الله تعالى يحبه ويحبب إليه الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]، أي: مودة فيما بين الناس.

قال الشارح:

فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ أَنْ يَتَّقِيَ: إِمَّا الْمَخْلُوقَ، وَإِمَّا الْخَالِقَ، وَتَقْوَى الْمَخْلُوقَ ضَرَرُهَا رَاجِحٌ عَلَى نَفْعِهَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، وَتَقْوَى اللَّهَ هِيَ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلٌ لِلتَّقْوَى، وَهُوَ أَيْضًا أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، لَا يَقْدِرُ مَخْلُوقٌ عَلَى أَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ وَيُجِيرَ مِنْ عَذَابِهَا غَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا احْتَاجَ تَقِيٌّ قَطُّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا يَضِيقُ عَلَى النَّاسِ، وَأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّ فِي التَّقْوَى خَلَلًا، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أَيْ: فَهُوَ كَافِيهُ، لَا يُحْوِجُهُ إِلَى غَيْرِهِ.

---

قال الشيخ:

قوله: (فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ أَنْ يَتَّقِيَ: إِمَّا الْمَخْلُوقَ، وَإِمَّا الْخَالِقَ)، وهذا معلوم، فمن اتقى الله تعالى وخافه وأطاعه والتمس رضاه واتقى عذابه، فإن الله تعالى يقيه من كل سوء، وأما الذي يتقي المخلوقين ويخاف منهم ويرضيهم ولو أسخط الله تعالى، فإنهم لا ينفعونه، ولو نفعوه نفعًا عاجلاً دنيويًا، فإن ذلك يكون وبالاً عليه في الآخرة.

قوله: (وَتَقْوَى الْمَخْلُوقِ)، أي: كونه يخاف من المخلوقين ويتقيهم، (ضَرَرُهَا رَاجِحٌ عَلَى نَفْعِهَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ)؛ لأنه لَمَّا خافهم واتقاهم تساهل في حقوق الله تعالى، فيكون ذلك كأنه خوف من الناس، وكأنه عبادة للمخلوق والعياذ بالله.

قال: (وَتَقْوَى اللَّهِ هِيَ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)، هكذا ذكروا أن من خاف الله تعالى خاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء، والذي يخاف الله هو الذي يلتمس رضا الله، ويتقي الله تعالى، وقد ذكر الله فائدة التقوى فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥]؛ لأن الله تعالى هو أهل التقوى وأهل المغفرة، أهل أن يتقيه العباد، ثم هو يغفر لهم، فإنه هو الذي يغفر الذنوب جميعًا كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، ولكن قال بعد ذلك: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤].

قوله: (لَا يَقْدِرُ مَخْلُوقٌ عَلَى أَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ وَيُجِيرَ مِنْ عَذَابِهَا غَيْرُهُ)، بل القادر على ذلك هو الله وحده، وأما المخلوق فقدرته قدرة محدودة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يجير ولا يجار عليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٩]، فالله تعالى يجير من استجار به ويحميه، ولا أحد يجير عنه، ولا أحد يرد أمر الله تعالى إذا أراد أمرًا فإنه لا معقب لقضائه ولا راد لحكمه.

قوله: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا احْتَاجَ تَقِيٌّ قَطْ)، أي: الذي يتقي الله تعالى لا يحتاج أخذًا من هذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[الطلاق:٢، ٣]، فعليه بتقوى الله وتحقيقها حتى يرزقه من حيث لا يحتسب.

قوله: (فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا يَضِيقُ عَلَى النَّاسِ)، أي: من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ومن كل بلاء عافية، ومن كل عسر يسرًا، هكذا ثمار التقوى، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾، ولو تكالب عليه الناس، ولو اشتدت عليه الكروب، يجعل الله له مخرجًا، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾، أي: ييسر له الرزق ويأتيه الرزق من وجه لا يقدر له، أي من حيث لا يحتسب، أما إذا لم يتق الله فإنه لا يحصل له ذلك.

قوله: (فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّ فِي التَّقْوَى خَلَلًا)، أي: إذا رأيته قد وقع في شدة، وفي أزمة، وفي فقر فاعرف أن تقواه قليلة، وأن في تقواه خلل، فأرشده إلى أن يستغفر الله ويتوب إليه، وذكره بهذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾، أي: فهو كافيه، لا محوجه إلى غيره.

قال الشارح:

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ التَّوَكُّلَ يُنَافِي الْاِكْتِسَابَ، وَتَعَاطِي الْأَسْبَاب، وَأَنَّ الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْأَسْبَابِ! وَهَذَا فَاسِدٌ، فَإِنَّ الْاِكْتِسَابَ: مِنْهُ فَرْضٌ، وَمِنْهُ مُسْتَحَبٌّ، وَمِنْهُ مُبَاحٌ، وَمِنْهُ مَكْرُوهٌ، وَمِنْهُ حَرَامٌ، كَمَا قَدْ عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلُ الْمُتَوَكِّلِينَ، يَلْبَسُ لَأْمَةَ الْحَرْبِ[1]، وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لِلِاكْتِسَابِ[2]، حَتَّى قَالَ الْكَافِرُونَ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]؛ وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَرَى الْاِكْتِسَابَ يُنَافِي التَّوَكُّلَ يُرْزَقُونَ عَلَى يَدِ مَنْ يُعْطِيهِمْ، إِمَّا صَدَقَةً، وَإِمَّا هَدِيَّةً، وَقَدْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ مَكَّاسٍ، أَوْ وَالِي شُرْطَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، لَا يَسَعُهُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ الَّتِي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، قَالَ الْبَغَوِيُّ[3]: قَالَ مُقَاتِلُ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي يَوْمَ السَّبْتِ! قَالَ الْمُفَسِّرُونَ[4]:

---

(١) يأتي تخريجه قريبًا في كلام الشيخ حفظه الله.

(٢) كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: «كنت مع رسول اللَّهِ ﷺ في سُوقٍ من أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ ...» الحديث، أخرجه البخاري (٥٨٨٤).

(٣) في تفسيره (٤/ ٢٧٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٣٥)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيَرْزُقُ، وَيُعِزُّ قَوْمًا وَيُذِلُّ آخَرِينَ، وَيَشْفِيَ مَرِيضًا، وَيَفِكُّ عَانِيًا، وَيُفَرِّجُ مَكْرُوبًا، وَيُجِيبُ دَاعِيًا، وَيُعْطِيَ سَائِلاً، وَيَغْفِرَ ذَنْبًا، إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنْ أَفْعَالِهِ وَإِحْدَاثِهِ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ.

---

قال الشيخ:

صحيح أن التوكل هو الثقة بالله تعالى مسبب الأسباب، ولكنه سبحانه أمر بتعاطي الأسباب، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، هذا سبب، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]، هذا من الأسباب، وفي قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠]، هذا من الأسباب، لم يقل: اجلسوا في بيوتكم ويأتيكم الطعام والشراب ونحو ذلك؛ لأن هذا من الغرور، أمرنا الله تعالى بأن نتوكل عليه، ونثق بأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، ولكن مع ذلك أمرنا بأن نفعل هذه الأسباب.

قوله: (فَإِنَّ الْاِكْتِسَابَ)، الذي هو طلب الرزق، قد يكون فرضًا، وقد يكون مستحبًا، وقد يكون مباحًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون حرامًا، يعني: أنه تتعلق به الأحكام الخمسة، فالله تعالى أمر المقاتلين بأن يفعلوا الأسباب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]، يعني: من الكفار تحصنوا، وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢]، وفي قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء:١٠٢].

قوله: (وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلُ الْمُتَوَكِلِينَ)، ومع ذلك كان يلبس لأمة الحرب التي يتقي بها والتي يقاتل بها، وذكر الله أنه كان يمشي في الأسواق للاكتساب، وذكر ذلك أيضًا عن الأنبياء بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٢٠]، حتى قال الكافرون: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧]، فأخبر الله تعالى أن الأنبياء كذلك، وأن هذا سبب من الأسباب.

يقول: (وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَرَى الْاِكْتِسَابَ يُنَافِي التَّوَكُلَ يُرْزَقُونَ عَلَى يَدِ مَنْ يُعْطِيهُمْ، إِمَّا صَدَقَةً، وَإِمَّا هَدِيَّةً، وَقَدْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ مَكَّاسٍ، أَوْ وَالِيَ شُرْطَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ...)، يعني: أن كثيرًا ممن يقولون: نحن متوكلون لا نفعل سببًا، ولا نحرك ساكنًا، ولا نتسبب في طلب الرزق أبدًا لا شك أنهم يحتاجون إلى القوت، والقوت لا ينزل لهم من السماء، لا ينزل من السماء أرغفة، ولا ينزل الله عادة من السماء طعامًا وتمرًا، إنما ينزل المطر الذي جعل الله تعالى فيه هذه البركة، ولكن أمر بالسبب، ولكن ليعرف الإنسان أن هذه الأسباب الله تعالى هو الذي يسببها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ [الواقعة:٦٣ــ٦٥]، فأضاف الحرث إليهم: ﴿ تَحْرُثُونَ ﴾، فدل على أنهم هم الذين يحرثون الأرض، وهم الذين يبذرون فيها البذر، وهم الذي يسقونها، والله تعالى هو الذي يسر لهم ذلك، وهو الذي جعل

لهم هذا الماء في هذه الأرض يخرجونه ثم يسقون به حروثهم، أو أنبع الماء لهم حتى إذا نبع ذلك الماء يسقون منه حروثهم وأشجارهم، ولو شاء جعل زرعهم حطامًا.

فهؤلاء الذين يتركون الاكتساب لاشك أنهم مفرطون ومهملون؛ ولهذا روي أن بعض الناس كانوا يَحُجُّونَ ولا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فإذا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا الناس، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] [البقرة:١٩٧]، أمرهم بأن يحملوا معهم زادًا، فالذين يتركون الاكتساب يحتاجون إلى عطية، قد يعطيهم ويهدي إليهم بعض أهل المكاسب المحرمة، فيعطيهم من هو صاحب مكس، يعني: مكوسًا يأخذها ضرائب على الناس، أو والي شرطة، أي: الشرطة الذين يعملون بشيء من المعاصي ونحو ذلك.

يقول: (وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ الَّتِي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩])، أي: في بيان أن الله تعالى مسبب الأسباب، وأنه أمرنا بأن نعمل وأن ذلك مكتوب في أم الكتاب، وأننا نثق بأن الملائكة يكتبون أعمالنا، ثم يمحو الله ما يشاء بالتوبة من السيئات ونحو ذلك، ويثبت التوبة وما أشبه ذلك وعنده أم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قولـه تعـالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الـرحمن:٢٩]، أي: أن الله تعـالى كـل يـوم يحدث مـا يشاء مـن الأمـور التـي أحدثها والتـي تتجدد في عبـاده، فيرزق قومًـا ويسهل لهم الرزق وآخرين يمنعهم، يحيي هؤلاء ويميت هؤلاء، ويعز قومًا ويذل قومًـا بـإذن الله تعـالى، ويتـصرف في خلقـه كـما يشاء، كـل هـذا داخـل في التقـدير اليومي، فأخبر سبحانه أنه كل يوم هو في شأن.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَه.

---

قال الشارح:

هَذَا بِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْمَقْدُورَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ حَيْثُ يَقُولُ:

مَا قَضَى اللَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَه ... وَالشَّقِيُّ الْجَهُولُ مَنْ لَامَ حَالَه

والقائل الآخر:

اقْنَعْ بِمَا تُرْزَقُ يَا ذَا الْفَتَى ... فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَه

إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قَائِمًا ... وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا نَمْ لَه

---

قال الشيخ:

قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَه، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَه)، مأخوذ من قول النبي ﷺ: «وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[1]، ومع ذلك الإنسان مأمور بأن يتحفظ، ومأمور بأن يتحصن بقدر ما يستطيع، كما في قول الله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢]؛ ولأن النبي ﷺ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٤١).

في القتال ظاهر بين درعين[١]، وأخذ لأمته؛ كما في قصة خروجه ﷺ يوم أُحُدٍ لَـمَّا شَاوَرَ أَصْحَابَهُ فِي الْمُقَامِ فِي المدينة أو الْخُرُوجِ لِمُلاقَاةِ الْعَدُو، فَرَأَوْا له الْخُرُوجَ، فَلَمَّا لَبِسَ لأْمَتَهُ وَعَزَمَ قالوا: أَقِمْ، فلم يَمِلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَزْمِ، وقال: «**لَيْسَ لِنَبِي إذا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتى يُقَاتِلَ**»[٢]، ولبس على رأسه المجن الذي هو الترس الذي يقيه من وقع السلاح؛ كما في حديث أنس ﷺ قال: «كان أبو طَلْحَةَ يَتَتَرَّسُ مع النبي ﷺ بِتُرْسٍ وَاحِدٍ، وكان أبو طَلْحَةَ حَسَنَ الرَّمْيِ، فَكَانَ إذا رَمَى تَشَرَّفَ النبي ﷺ فَيَنْظُرُ إلى مَوْضِعِ نَبْلِهِ»[٣]، وسُئل سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ عن جُرْحِ النبي ﷺ يوم أُحُدٍ، فقال: «جُرِحَ وَجْهُ النبي ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتْ الْبَيْضَةُ على رَأْسِهِ»[٤]، وجاء في حديث أنس ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دخل عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ»[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠)، والنسائي في الكبرى (٨٥٢٩)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، وأحمد (٣/ ٤٤٩) من حديث السائب بن يزيد ﷺ.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٦٠٠)، وأحمد (٣/ ٣٥١) من حديث جابر ﷺ. وذكره البخاري معلقًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٩/ ١١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

(٥) أخرجه البخاري (١٨٤٦). والمِغْفَر: زَرَدٌ من الدِّرْع يُنْسَجُ على قَدْرِ الرَّأْسِ يُلْبَسُ تَحْتَ القَلَنْسُوَة، ويُقَالُ: هو رَفْرَفُ البَيْضَةِ أو حلَقٌ يَتَقَنَّعُ بِهَا المُتَسَلِّحُ. انظر: لسان العرب =

فكل ذلك من فعل الأسباب، مع الثقة بأن الله إذا قدَّر المصيبة فلا يردها شيء، وما أصاب العبد فإنه مكتوب، ولا يقول: ليتني وليتني، وقد جاء في الحديث قول النبي ﷺ: «**احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ**»[1]، أي: افعل الأسباب النافعة ولا تتكاسل ولا تظهر العجز، ثم قال: «**وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ**»، أي: أن الله تعالى هو الذي يعينك إذا شاء، «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**» أي: إذا قُدر أنه أصابك ذنب أو أصابتك مصيبة أو حدث حادث أو نحو ذلك، أو فاتك شيء من الفوائد أو نحو ذلك، فلا تتلوم ولا تقل: ليتني فعلت كذا وكذا، ولا تقل: لو أني تقدمت، أو لو أني تأخرت، أو لو أني اشتريت هذا لربحت، أو لو أني بعت في هذا المكان لربحت، ولكن اعلم أن هذا مقدر، وقل: «**قَدَرُ اللَّهِ**»، أي: أن هذا قدر الله، «**وما شَاءَ فَعَلَ، فإن لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

**قوله: (الْمَقْدُورُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ)**، أي: أن المقدر كائن ولو تحصن منه المتحصن لابد أنه يحصل، فما قدره الله فإنه حاصل، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل شيء كتبه الله وقدره فلابد أن يحصل، ولو حصل ضد ذلك المقدر كائن.

وقول القائل:

**مَا قَضَى اللَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَه وَالشَّقِيُّ الْجَهُولُ مَنْ لَامَ حَالَه**

أي: أن كل ما قدره الله بأنه كائن، فلا محالة من كينونته، ولا محالة من

---

=

(٥/ ٢٧)، والقاموس المحيط (٥٨٠)، وتاج العروس (١٣/ ٢٤٨).

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٢٨).

وقوعه، أما الشقي الجهول فإنه الذي يتلوم، يلوم حالته التي وقعت له، هذا يعتبر جهولًا.

وأنشد أيضًا الشارح قول الآخر:

اقْنَعْ بِمَا تُرْزَقُ يَا ذَا الْفَتَى ... فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَه

إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قَائِمًا ... وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا نَمْ لَه

القناعة: كون الإنسان يرضى بما أعطاه الله تعالى، مع كونه يسعى في طلب الرزق، ويعلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨]، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦]، وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت:٦٠]، ولَمَّا قال النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[1]، عرفوا بأن الطير تتسبب، فالطير لا تجلس في أوكارها ولا في أعشاشها، بل تذهب وتتلمس الرزق وتتطلب، وكذلك بقية الحيوانات تتطلب الرزق، حتى السباع لا تجلس في جحرها، وحتى الدواب لا تجلس في جحورها، فالضب - مثلاً - والأرنب والوبر واليربوع تنتشر في الأرض تطلب الرزق، ومع ذلك فإن الله تعالى هو الذي يرزقها، فيقول: (فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَه)، أي: واحدة النمل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، والنسائي في الكبرى (١١٨٠٥)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٣٠)، وابن حبان (٢/ ٥٠٩) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

وقوله: (إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قَائِمًا)، الدهر: المراد به هنا الزمان أو الحظ إذا أقبل عليك، فإنك تقبل وتتلقى ما قدر الله وما أعطاك الله، حتى يُكتب لك وتحصل على ما كتب الله، فإذا أقبلت عليك الدنيا وتيسرت لك أسبابها فإنك تتقبل ذلك وترضى به، وتفعل ما تقدر عليه، وإذا تولت عنك الدنيا فنم ولا تهتم، ولا تقل: ليتني وليتني، أو فاتني كذا وفاتني كذا، وهذا كله لا يدل على ترك الأسباب، إنما الله تعالى أمرنا بأن نفعل الأسباب، ونثق بأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، وهو الذي جعلها مؤثرة ومفيدة، وإذا فعلنا أي سبب فإن الله تعالى هو الذي ينفع بهذه الأسباب.

قال الطحاوي:

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِن خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا، لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ، وَلَا مُعَقِّبٌ، وَلَا مُزِيلٌ، وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا مُحَوِّلٌ، وَلَا نَاقِصٌ، وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ.

---

قَالَ الشَّارِحُ:

هَذَا بِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ، مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِالْكَائِنَاتِ، وَأَنَّهُ قَدَّرَ مَقَادِيرَهَا قَبْلَ خَلْقِهَا، كَمَا قَالَ ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»[1]، فَيُعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَصِيرُ مَوْجُودَةً لِأَوْقَاتِهَا، عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ، فَكَانَتْ كَمَا عَلِمَ، فَإِنَّ حُصُولَ المَخْلُوقَاتِ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ غَرَائِبِ الْحِكَمِ لَا يُتَصَوَّرُ إِيجَادُهَا إِلَّا مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ عَلَى إِيجَادِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

وَأَنْكَرَ غُلَاةُ المُعْتَزِلَةِ أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَالِمًا فِي الْأَزَلِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ حَتَّى يَفْعَلُوهَا! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «نَاظِرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨٤).

أَنْكَرُوا كَفَرُوا»[1]، فَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مُسْتَطِيعٌ يَفْعَلُ مَا اسْتَطَاعَهُ فَيُثِيبُه، وَهَذَا مُسْتَطِيعٌ لَا يَفْعَلُ مَا اسْتَطَاعَهُ فَيُعَذِّبُهُ، فإِنَّما يُعَذِّبُهُ؛ لأَنَّه لَا يَفْعَلُ مَعَ القُدْرَةِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ، وَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ لَا يَأْمُرُهُ وَلَا يُعَذِّبُه عَلَى مَا لَمْ يَسْتَطِعْهُ.

وَإِذَا قِيلَ: فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ قَادِرًا عَلَى تَغْيِيرِ عِلْمِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ، فَإِذَا قَدَرَ عَلَى الْفِعْلِ، قَدَرَ عَلَى تَغْيِيرِ عِلْمِ اللَّهِ.

قِيلَ: هَذِهِ مَغْلَطَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ مُجَرَّدَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْفِعْلِ لَا تَسْتَلْزِمُ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا يَظُنُّ مَنْ يَظُنُّ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ إِذَا وَقَعَ الفِعْلُ، وَلَو وَقَعَ الْفِعْلُ، لَكَانَ المَعْلُومَ وَقُوعَهُ لَا عَدَمَ وُقُوعَهُ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَحْصُلَ وُقُوعُ الْفِعْلِ مَعَ عِلْمِ اللَّهِ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ، بَلْ إِنْ وَقَعَ، كَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقَعُ، وَإِنْ لَمْ يَقَعَ، كَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ عِلْمَ اللَّهِ إِلَّا بِمَا يَظْهَرُ، وَعِلْمُ اللَّهِ مُطابِقٌ لِلْوَاقِعِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ يَسْتَلْزِمُ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ، بَلْ أَيُّ شَيْءٍ وَقَعَ كَانَ هُوَ المَعْلُومَ، وَالْعَبْدُ الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَأْتِ بِمَا يُغَيِّرُ الْعِلْمَ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى فِعْلٍ لَمْ يَقَعْ، وَلَوْ وَقَعَ، لَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقَعَ، لَا أَنَّهُ لَا يَقَعُ.

وَإِذَا قِيلَ: فَمَعَ عَدَمِ وُقُوعِهِ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَقَعُ، لَوْ قَدَرَ الْعَبْدُ عَلَى وُقُوعِهِ، قَدَرَ عَلَى تَغْيِيرِ الْعِلْمِ؟ قِيلَ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ الْعَبْدُ يَقْدِرُ عَلَى وُقُوعِهِ وَهُوَ لَمْ يُوقِعْهُ، وَلَوْ أَوْقَعَهُ، لَمْ يَكُنِ المَعْلُومُ إِلَّا وُقُوعَهُ، فَمَقْدُورُ الْعَبْدِ إِذَا وَقَعَ، لَمْ يَكُنِ المَعْلُومُ إِلَّا وُقُوعَهُ، وَهُؤُلَاءِ فَرَضُوا وُقُوعَهُ مَعَ الْعِلْمِ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ! وَهُوَ فَرْضٌ

---

(١) راجع (١/ ٥٤٠).

مُحَالٌ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ: افْرِضْ وُقُوعَهُ مَعَ عَدَمِ وُقُوعِهِ! وَهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ وُقُوعُهُ مَعَ عِلْمِ الرَّبِّ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ مُحَالًا لَمْ يَكُنْ مَقْدُورًا؟ قِيلَ: لَفْظُ الْمُحَالِ مُجْمَلٌ، وَهَذَا لَيْسَ مُحَالًا لِعَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِ لَهُ، وَلَا لِعَجْزِهِ عَنْهُ، وَلَا لِامْتِنَاعِهِ فِي نَفْسِهِ، بَلْ هُوَ مُمْكِنٌ مَقْدُورٌ مُسْتَطَاعٌ، وَلَكِن إِذَا وَقَعَ، كَانَ اللَّهُ عَالِمًا بِأَنَّهُ سَيَقَعُ، وَإِذَا لَمْ يَقَعْ، كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ لَا يَقَعُ، فَإِذَا فُرِضَ وُقُوعُهُ مَعَ انْتِفَاءِ لَازِمِ الْوُقُوعِ، صَارَ مُحَالًا مِنْ جِهَةِ إِثْبَاتِ الْمَلْزُومِ بِدُونِ لَازِمِهِ. وَكُلُّ الْأَشْيَاءِ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ هِيَ مُحَالٌ!

وَمِمَّا يُلْزِمُ هَؤُلَاءِ: أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ قَادِرًا عَلَى شَيْءٍ، لَا الرَّبُّ، وَلَا الْخَلْقُ، فَإِنَّ الرَّبَّ إِذَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَفْعَلُ كَذَا لَا يَلْزَمُ مِن عِلْمِهِ ذَلِكَ انْتِفَاءُ قُدْرَتِهِ عَلَى تَرْكِهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ انْتِفَاءُ قُدْرَتِهِ عَلَى فِعْلِهِ، فَكَذَلِكَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ أَفْعَالِ عِبَادِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

---

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلّق بعلم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها، ويسمّى هذا التقديرَ العام، وهو أنّ الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي سبق كل شيءٍ، فعلِم أعمالهم، وعلم عددهم، وعلم عدد المخلوقات، وأحصى ذلك قبل أن يوجدوا، وخلق القلم وأمره أن يكتب؛ وجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة.

ودليلُ ذلك من القرآن ظاهر مثل قول الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد:٢٢]، ومثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج:٧٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩].

والآيات في هذا كثيرة تفيد سعة علم الله بالأشياءِ قبل وجودِها.

وذكر الشارح أنَّ غلاة المعتزلة المتقدِّمين أنكروا هذا النوع، وزعموا أنَّ الله لا يعلم الأشياء حتّى توجد، وقال بعضهم: إنّه يعلم الكلّيات ولا يعلم الجزئيّات، ويعلم عموم الأشياء ولا يعلم تفاصيلها . ومقتضى هذا أنّه يعلم عدد الخلق، ولكن لا يعلم تفاصيل أعمالهم، فيعلم أنّ هذه القبيلة يبلغ عددها كذا وكذا، ولا يعلم أعمال هذا الإنسان حتّى يعملها، وهذا يُعدّ تنقّصًا لعلم الله، والله بكلِّ شيءٍ عليم، والله هو علاّم الغيوب، وهؤلاء الذين أنكروا العلم السابق والعلم الأزلي، هم الذين عناهم الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ بقوله: «نَاظِرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ أَنْكَرُوا كَفَرُوا». يعني: نسألهم: هل تقرّون بأنّ الله بكلِّ شيءٍ عليم؟ وما قد كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؟ هل تقرّون بسعة علم الله تعالى؟ فإن أقرّوا خُصموا، فإن العلم بالتفاصيل داخل في ذلك . وإن جحدوا كفروا؛ وذلك لأنّهم إذا جحدوا علم الله تعالى

لزمهم أن يصفوه بالعجز وبالجهل، وبأنّه يكون في الوجود والملك ما لا يريد، فيلزم بذلك التنقّص، وهذا إنكارٌ للأدلّة؛ فيكونون بذلك كفارًا جاحدين لصفاتِ الله تعالى.

وقد أقرّ الأشعريّة بوصف الله تعالى بأنّه عليم، ولكنّهم أنكروا بعض الصفات الفعليّة . أمّا المعتزلة: فأنكروا صفة العلم لله سبحانه وتعالى، ووصفوه بأنّه لا يجهل، هكذا في معتقداتهم، بعد ذلك أخذوا يردّدون شبهات، فيقولون: إذا علم الله أن هذا الإنسان يعمل كذا، وأنّه يعمل كذا، فلا بدّ أن يكون قادرًا على أن يردّه، وأصبح قد رضي بأفعاله التي هي المعاصي، وإذا لم يكن قادرًا أصبح موصوفًا بالعجز، وأشباه ذلك مما مر معنا من هذه التشكيكات التي يردِّدونها على أهل السنَّة، الذين يصفون الله تعالى بالعلم القديم، وقد سبق جواب أهل السنّة عليهم، فإن أهل السنّة يقولون: إنّ كل ما وقع فإنّه مُراد، ولكن منها ما هو مراد ومحبوب كالطاعات، ومنها ما هو مُراد ومقدّر كالمعاصي، فالمراد المقدّر عَلِمه الله وقدّره وقضاه على العبد، ولكنّه كرهه شرعًا، ولم يحبّه، وتوعّد فاعله عليه، والعبد إذا زاوله يوصف بأنّه كافر، أو بأنّه عاصٍ أو فاسق، أو خاطئ أو مذنب؛ لأنه ارتكب هذا وفعله بقدرة واختيار مستطاع له، فهو الذي يُعاتب ويُعاقب عليه. هذا هو معتقد أهل السنّة في هذا؛ ولا يلزم من ذلك أنّه خلق الشرّ وأنّه أراده بل لا يلزم من إرادته كونًا أن يحبّه، وأن يقدّره، وأن يريده شرعًا.

والله تعالى أعطى العبد قدرةً يستطيع بها مزاولة أعماله، فالعبد هو المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمصلّي والصائم، والعباد قدرة على أفعالهم، ولهم

إرادة، ولكن الله تعالى هو الذي خلقهم وخلق قدرتهم وإرادتهم، ولو شاء لهداهم، ولكنّه بحكمته البالغةِ أضلّ قومًا بعدله، وهدى قومًا بفضله، فله النعمةُ على من هداه، وله الحكمة على من أضلّه، وأعطى كلًّا منهم من الاستطاعة ما يزاول به أعماله، وهذا مما يذكر في الردّ على هؤلاء الذين يطيلون الجدل في مثل علم الله تعالى وإرادته، فنحن إذا قلنا: إنّ جميع ما في الوجود مرادٌ قدره، وكلُّ ما هو حادث فهو معلوم لله قبل أن توجد المخلوقات، ومرادٌ كونًا وقدرًا، بحيث إنّ الله قدّره، وإنّه لو شاء ما حصلت هذه الأشياء، فإنّه سبحانه بقدرته لا يمكن أن توجد معصيةٌ قسرًا عليه من دون رضاه، أو دون تقديره، ولكنّه لحكمته جعل هؤلاء من أهل الذنوب وهؤلاء من أهل الحسنات حكمةً منه، ولا شكّ أنّ الذين اختاروا هذا، والذين اختاروا هذا لهم من هذا الاختيار ما يؤهّل هؤلاء ليستحقّوا الثواب، وهؤلاء ليستحقّوا العقاب، وحكمة الله تعالى خفيّة لا يطّلع عليها العباد.

هذه الدرجة التي ذكرنا، أو هذه المنزلة التي هي العلم السابق هو الذي لا يتغيّر، يعني: يقال ما كتبه الله في اللوح المحفوظ لا يمكن تغييره، يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١]، هذا في المصائب، ويقول تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

ويقول علقمة ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]: هو الرجل تصيبه مصيبة، فيعلم أنّها من عند الله فيرضى ويسلّم،

يعني: يستسلم لما أصابه بقضاء الله تعالى وبقدره، فيكون بذلك قد اتّقى الله حقّ تقاته، وقد علم أنّ ما حدث فهو بأمر الله تعالى وبتقديره، وفعل ما يقدر عليه، وما هو مأمورٌ به، واستسلم لأمر الله تعالى.

وتقدّم لنا وتكرّر أنّ إيماننا بالقضاءِ والقدر لا يستلزم أن نترك الأسباب والأفعال والأعمال التي نعملها، كما أنّنا لا نترك الأسباب الحسيّة في طلب المعاش، فكذلك في طلب الأجر الأخروي، والحسنات الأخروية، فالعبد مأمور أن يفعلها، مع إيمانه بأنّها مقدرة، وأنّها ستأتيه، ولكنّه مأمور بذلك، ويؤمن بأنّ المصائب التي حصلت عليه لا بدّ منها؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]، ولقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، يعني: الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧]، فبين أنّ التحصّن لا يمنع قدر الله الذي قدّره.

فعلى كل حال هذه الدرجة تقتضي الإيمان بسعة علم الله تعالى، وواسع علمه بتفاصيل المخلوقات لا ينافي فعل الأسباب وحدوث المسببات بعد أسبابها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ، وَأُصُولِ الْمَعْرِفَةِ، وَالْاِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

---

قال الشارح:

الْإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَسَبْقِ عِلْمِهِ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ خَلْقِهَا، قَالَ ﷺ فِي جَوَابِ السَّائِلِ عَنِ الْإِيمَانِ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، وَقَالَ ﷺ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

---

قال الشيخ:

قول الشارح: (الْإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ)، يعني: الإشارة بقوله: (وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ)، ثم استدل على أنه من الإيمان بقطعة من حديث جبريل - عليه السلام - وهو قوله ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، ثم قال في آخر الحديث: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ

---

(١) برقم (٨).

السَّائِلُ؟» قال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَال: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

وهذا صريح في أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان لا يتم الإيمان إلا به، بأن يؤمن العبد أن الله تعالى على كل شيء قدير، وهو معنى ما رُوي عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه قال: «القدر قدرة الله»[1]، أي: أنه الذي قدر ذلك، فإذا آمن العبد بأنه على كل شيء قدير آمن بأن الله قدَّر كل شيء، وأنه قادر على كل شيء، فيدخل في ذلك أفعال العباد، بمعنى أنه سبحانه قادر على أن يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وأن أفعالهم داخلة في قدرة الله تعالى.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، خلق كل شيء حتى حركات العباد التي هي أفعالهم فهي خلقه ـ سبحانه ـ وتقديره؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، أي: ما أمر به فإنه مقدر لابد أن يكون فيؤمن العباد بقضاء الله تعالى وبقدره، ويعلمون أن كل ما في الوجود فإنه كائن بقضاء الله تعالى وقدره.

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٦٢)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٥٤)، وابن القيم في شفاء العليل (ص٢٨)، وطريق الهجرتين (ص١٦٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالْاِعْتِرَافُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ.

---

قال الشارح:

أَيْ: لَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ وَالْاِعْتِرَافُ بِالرُّبُوبِيَّةِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِصِفَاتِهِ تَعَالَى، فَإِنَّ مَنْ زَعَمَ خَالِقًا غَيْرَ اللَّهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ، فَكَيفَ بِمَنْ يَزْعُمْ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَخْلُقُ فِعْلَهُ؟ وَلِهَذَا كَانَتْ الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَحَادِيثُهُمْ فِي «السُّنَنِ».

رَوَى أَبُو دَاود[1] عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هذِهِ الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا، فَلاَ تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا، فَلا تَشْهَدُوهُم».

وَرَوَى أَبُو دَاود[2] أَيْضًا عَنْ حُذَيفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا قَدَرَ، مَنْ مَاتَ مِنْهُم، فَلاَ تَشْهَدُوا جَنازَتَهُ، وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُم فَلاَ تَعُودُوهُم، وهُمْ شِيعَةُ الدَّجَّالِ، وَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُلْحِقَهُم بِالدَّجَّالِ».

وَرَوَى أَبُو دَاود[3] أَيْضًا عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ القَدَرِ وَلَا تُفَاتِحُوهُمْ».

---

(١) برقم (٤٦٩١).

(٢) برقم (٤٦٩٢)، وأخرجه أحمد (٥/ ٤٠٧).

(٣) برقم (٤٧١٠، ٤٧٢٠)، وأخرجه أحمد (١/ ٣٠).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ[1] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ لَيْسَ لَهُمَا فِي الْإِسْلَامِ نَصِيبٌ: الْمُرْجِئَةُ وَالْقَدَرِيَّةُ».

لَكِن كُلُّ أَحَادِيثِ الْقَدَرِيَّةِ الْمَرْفُوعَةِ ضَعِيفَةٌ، وَإِنَّما يَصِحُّ الْمَوْقُوفُ مِنْهَا، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّهُ قَالَ: «الْقَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ، وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ، نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ»[2]، وَهَذَا لِأَنَّ الْإِيمانَ بِالْقَدَرِ يَتَضَمَّنَ الْإِيمَانَ بِعِلْمِ اللَّهِ الْقَدِيمِ، وَمَا أَظْهَر مِن عِلْمِهِ بِخِطَابِهِ وَكِتَابه مَقَادِيرَ الخَلَائِق، وَقَدْ ضَلَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ خَلَائِقُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ وَالْفَلَاسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ يُنْكِرُ عِلْمَهُ بِالْجُزْئِيَّاتِ أَوْ بِغَيرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمَّا يَدْخُلُ فِي التَّكْذِيبِ بِالْقَدَرِ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح فيما تقدم أنَّ الإيمان بالقدر من تمام الإيمان بصفات الله تعالى، وأن من الواجب على الإنسان أن يؤمن بصفات الله، فيؤمن بأنّه العليم والحكيم، وبأنّه المدبِّر والمتصرِّف في الخلق، وذلك كلّه يتوقّف على الإيمان بالقدر؛ لأنّ القدر يدخل فيه قدرةُ الله، ويدخل فيه علمُ الله، فإنكار قدرة الله تعالى إنكار لصفاته،

---

(١) برقم (٢١٤٩)، وأخرجه ابن ماجه (٦٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٥) مرفوعًا عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٧): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه هانئ بن المتوكل وهو ضعيف». وأخرجه ابن المستفاض في القدر (ص٢٨٥)، والآجري في الشريعة (٢/ ٨٧٦)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٧٠) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

ووصفٌ له بالعجز سبحانه وتعالى، وبأنّه يكون معه من يتصرَّف في الكون دون رضاه، وذلك شرك. كذلك إنكار علم الله وصف له تعالى بالجهل، وذلك أيضًا تنقّص، غاية التنقّص لصفات الله تعالى.

فمن آمن بأن الله على كل شيء قدير، وأنّ الله بكلِّ شيءٍ عليم، وآمن بأنّه عزيزٌ حكيم، وبأنّه هو الذي نظّم الخلق، وهو الذي يتصرّف في الكونِ وحده، وهو الذي يعلم السعيد والشقيّ، والفاجر والتقيّ، وهو الذي قدّر المقادير وأوجدها؛ فيلزم في الحال هذه أن يعلم أنَّ هذه المصائب التي تحدث تحدث بعلم الله، وأنّها متى وقعت فليس منها مفرٌّ ولا محيد، ولأجل ذلك أمر النبيّ ﷺ بالإيمان بهذا الأمر بقوله: «**وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]. وقال لابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في حديثه المشهور: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[2]، يعني: يبست الصحف مما كتب فيها، ورفعت الأقلام: فلم يبقَ كتابة، بل الأمر قد فُرِغ منه، وقد عُرف أهل الجنّة من أهل النار.

فالإيمان بالقدر من تمام الإيمان بالله تعالى، والذين أنكروه صنفان: صنف أنكروا العلم، وصنف أنكروا القدرة؛ فالذين أنكروا العلم هم غلاة القدرية

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٨٥).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

الذين يقولون: إن الله لا يعلم الأشياء حتى توجد، أو أنَّه يعلم الكلِّيَّات دون الجزئيات، ومنهم عمرو بن عبيد، وغيلان القدري، ومعبد الجهمي، ثم جاء بعدهم الذين أنكروا قدرة الله عمومًا، واشتهر ذلك عن المعتزلة، ومنهم أبو الهذيل العلاف المعتزلي، وأبو هاشم الجُبّائي، والقاضي عبد الجبار الهمذاني، والجاحظ المشهور، وأشباههم... هؤلاء من المعتزلة أنكروا قدرة الله، ولأجل ذلك قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «القدر قدرة الله»، يعني: أنَّ الإيمان بقدرة الله إيمان بالقدر، وعلى قول هؤلاء المعتزلة يكون هناك من يخلق مع الله، ولا يكون الله هو الذي يخلق وحده.

عقيدة المعتزلة أنَّ كل إنسان يخلق فعله، وأنَّ الله لا يقدر على أفعال العباد، وأنَّه لا يستطيع أن يهدي هذا ولا يضلُّ هذا، وأنّ قدرة العبد تغلب قدرة الله، وإذا أراد العبد أن يعصي، وأراد الله ألاّ يعصي؛ غلبت قدرة العبد على قدرة الخالق تعالى. فهذا هو معتقدهم في أنّ العبد يخلق أفعاله دون أن يكون لله قدرةٌ على ردّه، ويزعمون أنَّ هذا هو العدل، ويقولون: إنَّه لو خلق الأفعال في العبد، ثم عذَّبه عليها عُدّ ظالمًا له، هذا سبب غلّوهم في القدر، حتّى جعلوا هناك من يخلق مع الله تعالى، ولم يجعلوا الخلق والأمر لله، خالفوا قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فالخلق لله وحده، والأمر الذي هو الشرع لله وحده.

ولأجل ذلك وردت هذه الأحاديث في أنّ القدريّة مجوس هذه الأمّة، ومع أنها مرويّةٌ بالإسناد، إلا أن فيها مقالًا؛ وإنّما الصحيح الموقوف من كلام الصحابة،

وكلام الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ معتبر، وكذلك تلاميذ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كلامهم معتبر؛ وذلك لأنّهم هم الذين شاهدوا نزول الوحي، وهم الذين نقلوا لنا الشرع عن النبيّ ﷺ، فإذا حذرونا عن هؤلاء القدريّة وقالوا: إنّهم يجعلون مع الله من يخلق، وأنّهم مجوس هذه الأمّة، لم يقولوا ذلك إلا عن توقيف، ولابدّ أنّهم عرفوا ذلك عن طريق الرسول ﷺ، وعن طريق شريعته. هذا هو السبب في كون أقوالهم أصبحت معتبرة.

ومعنى كون القدرية مجوس هذه الأمّة: أنّ المجوس ـ كما تقدّم في أول الكتاب، ويسمّون أيضًا: الثنوية ـ لأنهم شابهوا المجوس الذين يدّعون أنّ الخلق صدر عن اثنين: النور خلق الخير، والظّلمة خلقت الشرّ، وهؤلاء يقولون: إنّ الله هو الذي خلق الإنسان، ولكن الإنسان يخلق أعماله وأفعاله، فيجعلون مع الله من يخلق، ولا يجعلون الأفعال مخلوقةً لله تعالى، ويخالفون قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وتقدّم أنّهم يخشون بذلك أن يحتجَّ محتجٌّ بالقدر على المعاصي، يقول العلماء: إنّهم لما اعتقدوا هذا الاعتقاد السَّيئ، وهو أنَّ العبد هو المستقلّ بفعله، وأنَّ الله ليس بقادر على أن يخلق أفعال العباد، لا خيرًا ولا شرًّا، خلَّى الشيطان بينهم وبين الأعمال، فأصبحوا يتعبّدون ويكثرون من التَّمسك بالعبادات، ويأتون بأنواع التنفُّل والقربات، ويبتعدون عن المحرَّمات صغائرها وكبائرها؛ لأنَّ من عقيدتهم أنَّ الإصرار على الصغيرة يُصيِّرها كبيرة، وأنَّ الكبائر مُخرجةٌ من الملَّة، ومن

عقيدتهم التكفير بالكبائر، وأنَّ الكبيرة توجب الخلود في النّار، ويسمّى ذلك «إنفاذ الوعيد»، فمن توعّده الله بأي عذاب، فإنَّه يُحكم بخلوده في النّار، فأهل المعاصي عندهم مخلَّدون في النَّار، لا يخرجون منها، ويستدلون بمثل قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧]، وبقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، وما علموا أنّ هذه الآيات للكفَّار الذين حكم الله بأنَّهم مخلَّدون في النار، أمّا العصاة الذين أذنبوا ذنوبًا فيخرجون منها بشفاعة الشافعين، أو برحمة أرحم الراحمين.

فهؤلاءِ مجوس هذه الأمّة، هذا من قولهم، وأمّا مخافتهم أن يحتجَّ محتجٌّ بالقدر على فعل المعاصي، فقد ذكرنا أنَّ من عقيدةِ أهل السنَّة أنَّ المعاصي إذا صدرت عن العبد نُسبت إليه مباشرةً، ونُسبت إلى الله تعالى تقديرًا، ولَـمَّا كانت تُنسب إلى العبد مباشرةً وإيجادًا، استحقّ ذلك العبد أن يعاتَب عليها، وأن يعاقب. وكذلك الطاعات تنسب إلى العبد مباشرةً، وتنسب إلى الله خلقًا وتقديرًا، وإذا كان كذلك فلا حُجّةَ للمجبرةِ على فعل هذه الذنوب، نعرف بذلك أنَّ كلتا الطائفتين خاطئة؛ القدريَّة الذين ينفون قدرة الله على أفعال العباد، والمجبرة الذين يعذرون العبد في الأفعال، ويقولون: إنَّ تعذيبه على أفعاله ظلم؛ لأنَّه ليس له أي اختيار، نقول: إنّ له اختيارًا، لكن اختياره مسبوق باختيار الله تعالى، وله قدرةٌ، ولكن قدرته مغلوبة بقدرةِ الله.

قال الشارح:

وَأَمَّا قُدْرَةُ اللَّـهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِهِ الْقَدَرِيَّةُ جُمْلَةً، حَيْثُ جَعَلُوهُ لَمْ يَخْلُقْ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، فَأَخْرَجُوهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ.

وَالْقَدَرُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِي دِلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَيهِ، وَأَنَّ الَّذِي جَحَدُوه هُمُ الْقَدَرِيَّةُ الْمَحْضَةُ بِلَا نِزَاعٍ: هُوَ مَا قَدَّرَه اللَّهُ مِنْ مَقَادِيرِ الْعِبَادِ، وَعَامَّةُ مَا يُوجَدُ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالْأَئِمَّةِ فِي ذَمِّ الْقَدَرِيَّةِ يَعْنِي بِهِ هَؤُلَاءِ، كَقَوْلِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ لَمَّا قِيلَ لَهُ: يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ ـ: «أَخْبِرْهم أَنِّي مِنْهُم بَرِيءٌ، وَأَنَّهُم مِنِّي بُرَآءُ».

وَالْقَدَرُ الَّذِي هُوَ التَّقْدِيرُ الْمُطَابِقُ لِلْعِلْمِ: يَتَضَمَّنُ أُصُولًا عَظِيمَةً:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ عَالِمٌ بِالْأُمُورِ الْمُقَدَّرَةِ قَبْلَ كَوْنِهَا، فَيُثْبِتُ عِلْمَهُ الْقَدِيمَ، وَفِي ذَلِكَ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ عِلْمَه الْقَدِيمَ.

الثَّانِي: أَنَّ التَّقْدِيرَ يَتَضَمَّنُ مَقَادِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَقَادِيرُهَا: هِيَ صِفَاتُهَا الْمُعَيَّنَةُ الْمُخْتَصَّةُ بِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، فَالْخَلْقُ يَتَضَمَّنُ التَّقْدِيرَ: تَقْدِيرَ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، بِأَنْ يُجْعَلَ لَهُ قَدْرٌ، وَتَقْدِيرَهُ قَبْلَ وُجُودِهِ، فَإِذَا كَانَ قَدْ كَتَبَ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ قَدْرَهُ الَّذِي يَخُصُّهُ فِي كَمِّيَّتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ، كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الْعِلْمِ بِالْأُمُورِ الْجُزْئِيَّةِ الْمُعَيَّنَةِ، خِلَافًا لِمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْكُلِّيَّاتِ دُونَ الْجُزْئِيَّاتِ! فَالْقَدَرُ يَتَضَمَّنُ الْعِلْمَ الْقَدِيمَ، وَالْعِلْمَ بِالْجُزْئِيَّاتِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَأَظْهَرَهُ قَبْلَ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ إِخْبَارًا مُفَصَّلًا، فَيَقْتَضِي أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُعْلِّمَ الْعِبَادَ الْأُمُورَ قَبْلَ وُجُودِهَا عِلْمًا مُفَصَّلًا، فَيَدُلُّ ذَلِكَ بِطَرِيقِ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْخَالِقَ أَوْلَى بِهَذَا الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يُعْلِمَ عِبَادَهُ بِذَلِكَ، فَكَيفَ لَا يَعْلَمُهُ هُوَ؟!

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ مُخْتَارٌ لِمَا يَفْعَلُهُ، مُحْدِثٌ لَهُ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، لَيْسَ لَازِمًا لِذَاتِهِ.

الخَامِسُ: أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى حُدُوثِ هَذَا الْمَقْدُورِ، وَأَنَّهُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَإِنَّهُ يُقَدِّرُهُ، ثُمَّ يَخْلُقُهُ.

---

قال الشيخ:

يستدل على إثبات القدر بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، والقدر معناه تحديد الشيء وتقدير مدّته وزمانه، وأنَّ اللَّهَ قدَّر الأعمال: متى تحدث هذه الطاعة، ومتى تنتهي، وقدَّر الأعمار؛ فعمر الإنسان لا يزيد عمَّا قدَّره الله وكتبه ولا ينقص، وقدَّر الوفيات وقدَّر أسبابَها، وجعلها مَكتوبةً بأنَّ هذا الإنسان لا بدَّ أن يموت بسبب من الأسباب، وليس له مفرٌّ مما كتبه الله عليه، وما أشبه ذلك.

وفي الحديث عن أبي خُزَامَةَ عن أبيه - رضي الله عنهما - أنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وَتُقَاةً

نَتَّقِيهَا، هل تَرُدُّ من قَدَرِ اللَّـهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّـهِ»[1]، أي: هي مكتوبةٌ أنَّه يزول المرض بهذا السبب، ولأجل ذلك أمر النبيّ ﷺ بالتداوي بقوله: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّـهِ، فَإِنَّ اللَّـهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الهَرَمُ»[2].

فتعاطي هذه الأسباب لا ينافي أنّ العبد مكتوب عليه ما هو فاعل، ولا يقول إنسان: أنا سوف أترك هذا الفعل، ولا بدّ لي من حصول ما كُتب لي؛ لأنّ ترك الأسباب كليًّا نقص في العقل، فلو رأيت إنسانًا عزم على ترك الأكل والشرب واللباس ونحو ذلك، وقال: إذا قدَّر الله أنِّي أتغذى بغير ذلك، وإذا كساني الله قد قدَّر لي ذلك، فلا حاجة إلى أن أطعم أو أشرب، وإلى أن ألبس. نقول: هذا نقص في العقل؛ لأنَّ هذه الأشياء جعلها الله أسبابًا حسيَّةً، وأمر بتعاطيها وأباحها، فلا يكون شِبَعٌ إلا بالأكل، ولا ريٌّ إلا بالشرب، ولا ولدٌ إلاَّ بالنكاح. وكذلك الأرزاق التي أمر بالاكتساب لها؛ فإنّه أمر بفعل هذه الأسباب حتّى يصل من خلالها الرزق، ولو كان هو الذي قدّرها، وهو الذي يسَّرها كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، فذكر أنَّهم يزرعون ويغرسون الأشجار، ويسقونها، ويبذرون الحبوب وينبتونها،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٢٦).

(٢) أخرجه بألفاظ متقاربة: أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، والنسائي في الكبرى (٧٥١١)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (٤/ ٢٧٨) من حديث أسامة بن شريك ﷺ.

فأضاف إليهم الفعل، ولكن أخبر بأنّه هو الذي جعل هذه الأرض قابلة لذلك حتّى تصير منبتةً ومثمرةً، وهو الذي أيضًا أوجد هذا الماء الذي به هذا الشراب، ولو شاء لغيَّره كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ يعني: ملحًا أجاجًا لا يصلح للشرب ولا للسقي ولا لغير ذلك.

فأصبح بذلك الإيمان بهذا القدر يقتضي بأن نعلم أنَّ تفاصيل الأشياء معلومة وموجودة لله تعالى، ولكن لا نترك الأسباب الحسيّة، بل يفعلها الإنسان، ويعلم أنّها مقدرةٌ من الله، وأنّه هو الذي أمر بها ويسَّرها.

ولا يزال الحديث متصلًا عن ركن الإيمان بالقضاء والقدر، وقد توسّع فيه صاحب المتن، وصاحب الشرح؛ لأنَّ الخلاف فيه مع طائفتين مشهورتين: طائفة تغلو في الإثبات، وطائفةٌ تغلو في النَّفي، والذين يغلون في النَّفي طائفتان أيضًا: منهم من ينفي العلم، ومنهم من ينفي القدرة. وكلُّ الطوائف مبتدعةٌ ضُلاّل، وقد هدى الله أهل السنَّة، فتوسطوا في باب القدر بين الجبريّة والقدريّة:

فالجبرية نفوا قدرة العبد، وجعلوه مجبورًا ليس له أي اختيار، وجعلوه يعاقب على ما لا يفعل، ويثاب على ما ليس له فيه اختيار، فجعلوا حركته كحركة الشجرة التي تحرِّكها الرّياح.

وأمّا القدريّة، فإنّهم نفوا قدرة اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ على أفعال العباد، ووصفوا ربّهم تعالى بالعجز عن الهداية وعن التصرّف في الخلق كما يريد، فلأجل ذلك كانوا مشبّهين بالمجوس، ووردت فيهم آثار وأحاديث ـ وإن لم يصح رفعها كما مرّ

بنا ـ أنّهم مجوس هذه الأمّة، وأنّهم لخصلتهم هذه ينبغي مقاطعتهم كما ورد في تلك الأحاديث: «**إِنْ مَرِضُوا، فَلاَ تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا، فَلا تَشْهَدُوهُم**»، مع أنه معلوم أنّ عيادة المريض المسلم من حقّ المسلم على المسلم، فمن حقّ المسلم على المسلم أن يعوده إذا مرض، ويتّبع جنازته إذا مات. ولكن قاطع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتلامذتهم هؤلاء؛ وذلك لأنّهم أتوا بأمرٍ شنيع، وهو تعجيز الله عزَّ وجلَّ، واتهامه بعدم القدرة، وتفضيل قدرة العباد على قدرته، ولو كانوا في زعمهم يريدون أن ينزِّهوا ربهم عن الظلم، يعني أن يخلق المعصية، ثم يعاقب عليها.

وقد ذكرنا أنّ أهل السنَّة وسط في هذا الباب، باب القدر بين الجبريّة والقدريّة؛ وذلك لأنّهم آمنوا بقدرةِ الله على كل شيء، ثم مع ذلك اعتقدوا أنّ للعبد قدرةً مغلوبةً بقدرة الله، وأنّ الله تعالى أعطى العباد قدرةً يزاولون بها أعمالهم، فبتلك القدرة يفعلون الأعمال التي يُثابون عليها، أو التي يعاقبون عليها، ولو كانت مغلوبة بقدرة الله، فيقال: للعبد قدرة، وله إرادة، فقدرة الله وإرادته غالبة على قدرة العبد وعلى إرادته، وتلك القدرة هي التي يستحقّ عليها أن يثاب على الطاعات ويعاقب على المعاصي، ولولا تلك القدرة لبطلت حكمة الله ولبطل شرع الله؛ وذلك لأن الله تعالى قد شرع الشرع، وأرسل الرسل وأنزل الكتب، وضمّنها أوامر ونواهي، فلا بدَّ أن يكون هذا الأمر والنهي موجّهًا إلى من يستطيع مزاولته، وإذا آمنّا بذلك آمنّا بأنّ الله تعالى أقدَر العبادَ على ما هم قادرون عليه، وأعطاهم القدرة التي تناسبهم، فبها يثابون وبها يعاقبون.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

فَوَيْلٌ لِمَنْ ضَاعَ لَهُ فِي الْقَدَرِ قَلْبًا سَقِيمًا ـ وَفِي نُسْخَةٍ: فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ قَلْبُهُ فِي الْقَدَرِ قَلْبًا سَقِيمًا ـ لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا، وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكًا أَثِيمًا.

---

قال الشارح:

الْقَلْبُ لَهُ حَيَاةٌ وَمَوْتٌ، وَمَرَضٌ وَشِفَاءٌ، وَذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا لِلْبَدَنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، أَيْ: كَانَ مَيْتًا بِالْكُفْرِ، فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْإِيمَانِ، فَالْقَلْبُ الصَّحِيحُ الحَيُّ إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ البَاطِلُ وَالقَبَائِحُ، نَفَرَ مِنْهَا بِطَبْعِهِ، وَأَبْغَضَهَا، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، بِخِلَافِ الْقَلْبِ الْمَيِّتِ، فَإِنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «هَلَكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْرِفُ بِهِ المَعْرُوفَ وَالمُنْكَرَ»[1].

وَكَذَلِكَ الْقَلْبُ المَرِيضُ بِالشَّهْوَةِ، فَإِنَّهُ لِضَعْفِهِ يَمِيلُ إِلَى مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ قُوَّةِ المَرَضِ وَضَعْفِهِ.

وَمَرَضُ الْقَلْبِ نَوْعَانِ ـ كَمَا تَقَدَّمَ ـ: مَرَضُ شَهْوَةٍ، وَمَرَضُ شُبْهَةٍ، وَأَرْدَؤُهُمَا

---

(١) أخرجه الطبري (٢٧/ ٢٢٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٤)، والطبراني في الكبير (٨٥٦٤).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٥): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

مَرَضُ الشُّبْهَةِ، وَأَرْدَأُ الشُّبَهِ مَا كَانَ مِن أَمْرِ الْقَدَرِ. وَقَدْ يَمْرَضُ الْقَلْبُ، وَيَشْتَدُّ مَرَضُهُ، وَلَا يَعْرِفُ بِهِ صَاحِبُهُ، لِاشْتِغَالِهِ وَانْصِرَافِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ صِحَّتِهِ وَأَسْبَابِهَا، بَلْ قَدْ يَمُوتُ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ بِمَوْتِهِ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا تُؤْلِمُهُ جِرَاحَاتُ الْقَبَائِحِ، وَلَا يُوجِعُهُ جَهْلُهُ بِالْحَقِّ وَعَقَائِدُهُ الْبَاطِلَةُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا كَانَ فِيهِ حَيَاةٌ، تَأَلَّمَ بِوُرُودِ الْقَبِيحِ عَلَيْهِ، وَتَأَلَّمَ بِجَهْلِهِ بِالْحَقِّ بِحَسَبِ حَيَاتِهِ، وَ:

..... مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ[1]

وقد يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَكِنْ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ تَحَمُّلُ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا، فَيُؤْثِرُ بَقَاءَ أَلَمِهِ عَلَى مَشَقَّةِ الدَّوَاءِ، فَإِنَّ دَوَاءَهُ فِي مُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَذَلِكَ أَصْعَبُ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْفَعُ مِنْهُ.

وَتَارَةً يُوَطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ، ثُمَّ يَنْفَسِخُ عَزْمُهُ، وَلَا يَسْتَمِرُّ مَعَهُ لِضَعْفِ عِلْمِهِ وَبَصِيرَتِهِ وَصَبْرِهِ، كَمَنْ دَخَلَ فِي طَرِيقٍ مَخُوفٍ مُفْضٍ إِلَى غَايَةِ الْأَمْنِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ صَبَرَ عَلَيْهِ، انْقَضَى الْخَوفُ وَأَعْقَبَهُ الْأَمْنُ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى قُوَّةِ صَبْرٍ، وَقُوَّةِ يَقِينٍ بِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ، وَمَتَى ضَعُفَ صَبْرُه وَيَقِينُهُ، رَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ، وَلَمْ يَتَحَمَّلْ مَشَقَّتَهَا، وَلَا سِيَّمَا إِنْ عَدِمَ الرَّفِيقَ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْوَحْدَةِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: أَيْنَ ذَهَبَ النَّاسُ، فَلِي أُسْوَةٌ بِهِم! وَهَذِهِ حَالُ أَكْثَرِ الخَلْقِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْلَكَتْهُمْ. فَالْبَصِيرُ الصَّادِقُ لَا يَسْتَوْحِشُ مِنْ قِلَّةِ الرَّفِيقِ، وَلَا مِنْ فَقْدِهِ، إِذَا اسْتَشْعَرَ قَلْبُهُ مُرَافَقَةَ

---

(١) شطر بيت للمتنبي، أولُه: «مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ». انظر: ديوانه بشرح عبدالرحمن البرقوقي (٤/ ٢١٧).

الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ: ﴿أَلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّـۧنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وَمَا أَحْسَنُ مَا قَالَ أَبُو مُحَمَّد عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ المَعْرُوف بِأَبِي شَامَةَ، فِي كِتَابِ «الحَوَادِثُ وَالْبِدَعُ»: «حَيْثُ جَاءَ الْأَمْرُ بِلُزُومِ الجَمَاعَةِ، فَالْمُرَادُ لُزُومُ الحَقِّ وَاتِّبَاعُهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَمَسِّكُ بِهِ قَلِيلًا، وَالْمُخَالِفُ لَهُ كَثِيرًا؛ لِأَنَّ الحَقَّ هُوَ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ الجَمَاعَةُ الْأُولَى مِنْ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، وَلَا نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ بَعْدهم». وَعَنِ الحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «السُّنَّةُ ـ وَالَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ ـ بَيْنَ الْغَالِي وَالجَافِي، فَاصْبِروا عَلَيْهَا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كَانُوا أَقَلَّ النَّاسِ فِيمَا مَضَى، وَهُمْ أَقَلُّ النَّاسِ فِيمَا بَقِيَ، الَّذِينَ لَمْ يَذْهَبُوا مَعَ أَهْلِ الْإِتْرَافِ فِي إِتْرَافِهِمْ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْبِدَعِ فِي بِدَعِهِمْ، وَصَبَرُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ حَتَّى لَقُوا رَبَّهُمْ، فَكَذَلِكَ، فَكُونُوا».

---

قال الشيخ:

كلام الشارح يتعلّق بمرض القلب وصحّته . ومناسبته أنّ هؤلاء ما أُتوا إلّا من زيغ القلوب، وما صُرفوا عن الحق إلا بسبب مرضها، وأسباب المرض كثيرةٌ؛ ومنها: تلقي الشبهات، والله تعالى قد ذكر أن القلوب تمرض، فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، فمرض القلوب نوعان: مرض شهوة، ومرض شبهة.

ذكر الله مرض الشهوة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، هذا هو مرض الشهوة، وهو الذي يميل إلى الفواحش، ويطمع في الأجنبيّة إذا خضعت في القول، والله سبحانه ينهى نساء المؤمنين عن هذا.

وأما مرض الشبهة، فهو أشدّ؛ لأنه يصد القلب عن الحقِّ، ومتى صُدَّ القلب عنه ابتُلي بالباطل، وقد ذكر الله للقلوب أنواعًا من الأمراض، فمنها:

**أولاً: الطبع**: قال تعالى حكاية عن اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٥٥]، فالطبع عليها معناه: أنّها خُتم عليها بحيث لا يصل إليها الخير، ولا تعرفه ولا تطمئنّ إليه، وهذا الطبع هو أشد الأمراض.

**ثانيًا: الختم**: وهو بمعنى الطبع، قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة:٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية:٢٣]، ومعلومٌ أَنَّ الخَتْمَ هَوَ تَغْطيةُ الشيءِ، بحيث لا يصل إليه شيء كما في الظروف المختومة التي لا تصل إليها الأيدي؛ فالقلب الذي ختم عليه لا يصل إليه الخير ولا ينتبه للمواعظ ولا يتذكّر، وسبب ذلك هو الشبهات.

**ثالثًا: الزيغ**: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، والزيغ:

هو الانحراف والميل، ولا شكّ أنّ سببه الشبُهات والتشكيكات التي تجعل الحقَّ عنده باطلًا والباطل حقًا، فيميل عن الحق إلى الباطل، وذلك هو الزيغ . وقد ذكر الله أسبابه، ومنها: أنّهم زاغوا بأنفسهم، فزادهم الله من ذلك: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وذكر أيضًا من أسبابه تتبُّع المتشابهات، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، إلى قوله عن الرّاسخين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨]، فالزيغ معناه: الانحراف والميل عن الاستقامة، وسببه هذه المعاصي والمخالفات.

رابعًا: القسوة: التي هي قسوةٌ معنويّة، بحيث لا يصل القلب إليه الخير، ولا يلين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]، فعاتبهم بأنّهم قست قلوبهم، وأبعدُ القلوب من الله تعالى القلب القاسي، وهو الذي لا يلين لموعظة، ولا يتأثّر بتذكير، ولا يقبل ذكرى، ولا يتأثر بتخويف، وتأتيه الإرشادات وتأتيه النصائح، وكل ذلك يصدُّ عنه صدودًا، ولا يزيده ذلك الأمر إلا نفورًا، وما ذاك إلا أنّه ممتلئٌ من الانحراف وممتلئٌ من الشبهات ولم يبقَ فيه محلٌّ للمواعظ، ولا محلٌّ للاعتبار، ولا لقبول الحق؛ فكان بذلك قلبًا قاسيًا لا يلين، شُبّه بالحجارة أو أشدّ من الحجارة.

**خامسًا: الرَّانُ:** الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، والرَّان أو الرِّين: هو الغطاء الذي يحجُب القلب عن الاعتبار، يحجبه عن التذكر، فلا يصل إليه الخير، وسببه كثرة الذنوب، فكلما كثرت الذنوب صارت أغلفةً على القلب؛ غلافًا فوق غلاف، وغطاءً فوق غطاء، إلى أن يشقّ اختراقها وتنقيتها وإزالتها.

**سادسًا: الإقفال:** وهو أشدُّ أمراض القلوب ـ كما ذكر بعض العلماء ـ وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤]، والقفل هو ما يغلق به الباب ويوصد، ولا يمكن فتحه إلا بمفتاحه الذي صنع له، فالقلب إذا كان قد أُقفل ولم يكن له ما يُفْتَح به، فإنّه يبقى محجوبًا محجوزًا لا يصل إليه خيرٌ.

وهذه الأمراض التي ذكرنا لها أسباب، وقد ورد من أسباب أمراض القلوب: الشبهات، والشهوات، والتشكيكات، وما أشبهها، وكلّما عظُمت تلك الشكوك تراكمت على القلب، فحصل الزَّيغ والانحراف والميل عن الاستقامة، وكلّما لان القلب وقبل الحق، فإنّه يلينُ ويتأثَّر، كما ذكر الله تعالى ذلك عن أوليائه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]، تلين جلودهم، وتلينُ قلوبُهم، والقلب اللّين هو الذي إذا سمع موعظة تأثّر، وعلامة تأثره أنّه يُقبل على الله ويعرض عن الناس، وعلامة تأثُّره كذلك أنّه يحدث فيه خشوع وخوف ويحدث فيه زيادة طاعات وانصراف عن الآثام

والمحرمات، وهذا هو علامة لين القلب، وكذلك أيضًا اطمئنانه إلى الخير، وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، فقلوب المؤمنين هي التي تطمئنّ بذكر الله، وهي التي تلين لكلام الله، وأمّا قلوب أولئك الفسقة ونحوهم، فإنّها قاسية مقفلة لا يصل إليها الخير مهما تكلّم الإنسان، ومهما وعظ، كما وُصِفوا بأنّهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

على كل حال أسباب ذلك في هؤلاء المبتدعة هي الشبهات، فعلى العبد أولًا: أن يكثر الاستعاذة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ من زيغ القلب بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، ونحو ذلك من الأدعية، كذلك يتجنّب تلك الشبهات التي تصل إلى القلب فتقسّيه، ويتجنّب المعاصي التي لها تأثيرٌ على القلوب، ولها سبب في الإعراض عن الحقّ وعدم تقبّله.

وبعد أن عرفنا أنّ الأسباب في قسوةِ القلب هي هذه الشبهات نقول: إنّ هذه الشبهات كثيرًا ما يثيرها أولئك المشبّهون الذين زاغت قلوبهم، فهم يثيرونها حتى يزيغوا غيرهم، فعلى الإنسان أن يحذر من شبهاتهم وتشكيكاتهم الموجودة في مؤلفاتٍ كثيرةٍ، يشكّكون فيها في قدرة الله عزّ وجلّ، وفي آثار علمه، ويشكّكون فيها أيضًا في عذابه وفي ثوابه، وما أشبه ذلك، فإذا عرف العبد أنّ هذه من التشكيكات التي قسّت قلوبهم؛ تجنّبها حتّى يبقى قلبه ليّنا خاشعًا خاضعًا متواضعًا.

ومعلوم أيضًا أنّ هذه المواعظ ونحوها لها آثارٌ على عباد الله، وأنّ العبد إذا قبلها استقام على الخير، واستمرّ عليه وقبله، وإذا أكثر من مجالس الذكر ومجالس العلماء ومجالس العُبّاد، وقبل مناصحتهم وإرشاداتهم تأثّر بذلك أيضًا، ولان قلبه زيادةً على ما يحصل له من كثرة العبادات وكثرة المعلومات.

وهذا هو السبب في أنّ قسمًا من الناس لا يتأثّرون بخير، ولا يقبلون إرشادًا ولا نصحًا ولا غير ذلك؛ لأنّهم عاشوا على البعد عن الخير وعدم تقبّله، وهناك آخرون إذا تكلّم معهم إنسان بكلمة أو بكلمتين لانت قلوبهم وخشعوا، ودمعت أعينهم، وأقبلوا على الله، وتابوا إليه وأنابوا، وسبب ذلك محبّتهم للخير وإقبالهم عليه، فعلى العبد أن يكون من الذين يحبّهم الله، والذين يقبلونه ويقبلون كلامه.

قال الشارح:

وَعَلَامَةُ مَرَضِ الْقَلْبِ عُدُولُهُ عَنْ الْأَغْذِيَةِ النَّافِعَةِ الْمُوَافِقَةِ لَهُ إِلَى الْأَغْذِيَةِ الضَّارَّةِ، وَعُدُولُهُ عَنْ دَوَائِهِ النَّافِعِ إِلَى دَوَائِهِ الضَّارِّ.

فَهَا هُنَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: غِذَاءٌ نَافِعٌ، وَدَوَاءٌ شَافٍ، وَغِذَاءٌ ضارٌّ، وَدَوَاءٌ مُهْلِكٌ. فَالْقَلْبُ الصَّحِيحُ يُؤْثِرُ النَّافِعَ الشَّافِيَ عَلَى الضَّارِّ الْمُؤْذِي، وَالْقَلْبُ الْمَرِيضُ بِضِدِّ ذَلِكَ.

وَأَنْفَعُ الْأَغْذِيَةِ غِذَاءُ الْإِيمَانِ، وَأَنْفَعُ الْأَدْوِيَةِ دَوَاءُ الْقُرْآنِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا فِيهِ الْغِذَاءُ وَالدَّوَاءُ، فَمَنْ طَلَبَ الشِّفَاءَ فِي غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ، وَأَضَلِّ الضَّالِّينَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، و«مِنْ» في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، لبيان الجنس، لا للتبعيض، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

فَالْقُرْآنُ هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا كُلُّ أحدٍ يُؤَهَّلُ لِلِاسْتِشْفَاءِ بِهِ. وَإِذَا أَحْسَنَ الْعَلِيلُ التَّدَاوِيَ بِهِ، وَوَضَعَهُ عَلَى دَائِهِ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ، وَاعْتِقَادٍ جَازِمٍ، وَاسْتِيفَاءِ شُرُوطِهِ، لَمْ يُقَاوِمِ الدَّاءُ أَبَدًا، وَكَيْفَ تُقَاوِمُ الْأَدْوَاءُ كَلَامَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ الَّذِي لَوْ نَزَلَ عَلَى

الجِبَالِ لَصَدَّعَهَا، أَوْ عَلَى الْأَرْضِ لَقَطَّعَهَا! فَمَا مِنْ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ سَبِيلُ الدِّلَالَةِ عَلَى دَوَائِهِ وَسَبَبِهِ وَالْحِمْيَةِ مِنْهُ لِمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهْمًا فِي كِتَابِهِ.

وَقَوْلُهُ: (لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيبِ سِرًّا كَتِيمًا)، أَيْ: طَلَبَ وَهْمُهُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْغَيبِ سِرًّا مَكْتُومًا؛ إِذِ الْقَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَهُوَ يَرُومُ الْاِطِّلَاعَ عَلَى الْغَيبِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦]، إلى آخر السورة.

وَقَوْلُهُ: (وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ)، أَيْ: فِي الْقَدَرِ، (أَفَّاكًا): كَذَّابًا، (أَثِيمًا): مَأْثُومًا.

---

قال الشيخ:

القلوب تمرض ولها شفاء، وهي بحاجة إلى علاج وغذاء. والبدن إذا مرض احتاج إلى الدواء، وإذا جاع احتاج إلى الغذاء. وغذاءُ البدن: الأكلُ والطعام، وعلاجه: الأدويةُ والعقاقير وما أشبهها. وهذا غذاء ودواء حسّي، ولكن لا يفيد ذلك في مرض القلوب، فالقلوب لها غذاء هي بحاجة إليه أشدّ من حاجة الأبدان إلى غذائها، وهو غذاء معنوي، وهذا الغذاء هو كلام الله وكلام رسوله هذا الغذاء وما يستنبط من العلوم الشرعيّة، والعمل به، فما دام القلب مستقيمًا وما دام سليمًا؛ فإنّه بحاجة إلى أن يستمرّ معه هذا الغذاء، وأن يستمرّ العبد على قراءة كلام الله وعلى تعلّمه وعلى تعلّم السنّة النبويّة، وعلى العمل بها، حتّى يبقى قلبه سليمًا،

ويستمرّ على العمل وعلى الفطرة والاستقامة، أما إذا أحسّ بمرض من الأمراض التي ذكرنا فإن لديه العلاج، لديه الشفاء والعلاج النافع، وليس علاجه عند الأطباء وفي الصيدليات ونحوها، بل هو علاج معنويٌّ، وهو أن يتعاطى هذا الكتاب، وأن يعالج به قلبه، فإذا كان المرض من الشبهات فإنّه يزيلها بما يبطلها، فإذا ورد إلى القلب شبهة التشكيك في المعاد، وجد في القرآن علاجًا ودواءً لهذه الشبهة، وإذا مرض القلب بشبهة التشكيك مثلًا في الإيمان بالغيب؛ وجد في القرآن علاجًا ودواءً لهذا المرض، وإذا مرض القلب بشبهة الشكّ في المعاد، أو في المبدأ، أو في أول الخلق أو في آخره، أو شبهة الشكّ في الأسماء والصفات، أو في العبادات والمعاملات، أو في الأوامر والنّواهي، أو ما أشبه ذلك؛ توقّف في ذلك، ووجد العلاج النافع الكامل في كلام الله وفي كلام رسوله ﷺ، ولكن ذلك يحتاجُ إلى قلبٍ حيٍّ واعٍ فطن، ويحتاج إلى تأمّل فيقرأ كتاب الله عز وجل، ويتتّبع السنة النبويّة، وعند ذلك يحيا قلبه بعد أن كان ميتًا، ويصحّ بعد أن كان مريضًا، ويزول ما فيه من الوهم، وتزول الأمراض الكثيرة التي ذكرنا، فيزول الإقفال وتزول الأكِنّة، ويزول الختم، ويزول الطبعَ وتزول القسوة ويزول الرَّين وما أشبهها بإذن الله إذا استعمل كتاب الله فإن في ذلك علاجًا **ودواءً لهذه الأمراض القلبية.**

وقد توسَّع العلماء ـ رحمهم الله ـ في ذكر أمراض القلوب وفي بيان علاجها، وذكر من ذلك جملةً كبيرةً ابن القيم ـ رحمه الله ـ في أول كتابه الذي سمّاه «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، وغيره من العلماء الذين تكلّموا على أمراض القلوب وعلاجها، وذكروا أنّ علاجها في كتاب الله تعالى، وبسنّةِ نبيّه ﷺ، وأنّه

أيضًا هو غذاؤها، واستدلّوا بالآيات التي فيها وصف القرآن بأنّه شفاء، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، والذي في الصُّدُوْرِ: هو الشُّكُوك، ومن وقع في قلبِهِ شكٌّ أو وقع في قلبِهِ توقُّف أو شيءٌ من التّردّد أو ما أشبه ذلك، فليعالج قلبه بكتابِ الله عزّ وجلّ، وبذلك يزول ذلك الشكّ ويزول ذلك المرض، كذلك قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، فالمؤمنون هم الذين إذا قرأوا القرآن شُفوا سواءً شفاءً حسّيًّا وهو إزالةُ الأمراض، أو شفاءً معنويًا وهو تصفية القلوب وإزالة ما فيها من الصدأ؛ فإن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاءه بكلام الله عزَّ وجلَّ، وسنة نبيه وبالعمل بالشريعة؛ فبذلك يصفو القلب ويستنير، ويصير نوره يخرق تلك الظلمات التي يأتي بها أولئك المُشْبِهون.

فعلى العبد أن يقبل على هذا العلاج النافع حتى يؤثر فيه، ولا يُؤثر فيه إلا إذا كان صادق الرغبة في إقباله على الله، وصادقًا في محبّته لكلام الله وكلام رسوله، ومصدّقًا بما وصف به هذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، فوصف بأربع صفات، وكل واحدة منها لها أهمّيتها، كذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ

﴿لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وَقَدْ جرّب كثير من العلماء هذه الآيات، ورأوا أنّها تشفي شفاءً حسّيًا، من الأمراض الحسيّة التي يُبتلى بها بعض النّاس، فقالوا: إنّ المسلم إذا استعمل هذه الآيات وعمل بها وعالج بها قلبه شُفي، وكذلك إذا عالج بها بدنه شُفي، فتزول الأمراض العارضة التي تعرض للإنسان ولا يستطيع علاجها الأطباء؛ فمرض الشياطين الذي هو مرض السَّحَرة ونحوهم، والصرف والعطف، وكذلك مرض الجنّ والإصابة بالجنون وملامسات الجان وملابساتهم، لا يستطيعها الأطباء ولا يعالجونها، ومرض الإصابة بالنظرة وبالعين ونحوها، لا يستطيعها أيضًا الأطبّاء، ولكن علاجها الصحيح هو القرآن الذي فيه هذا الشفاء الذي مدحه الله بهذه الآيات في قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، فغير المؤمنين لا يعترفون بأنّه كلام الله، كما أنّ أمراضهم مستعصية، وهي قسوة القلوب، فهم لا يتأثّرون به، وهذا القرآن ما جعله الله إلا لأهل ذكره ولأهل عبادته شفاءً، أمّا غير المؤمنين فحرمهم من الانتفاع به.

فإذا أراد الإنسان أن ينتفع بالقرآن وأن تزول به أمراضه، فعليه أن يحقّق الإيمان، وأن يحقّق التّصديق به، وأن يصدق كلام الله الذي جعله شفاءً، وأن يعمل به بكلّ ما يستطيع من العمل، فذلك إذا عالج به بصدقٍ نفعه واستفاد منه،

هكذا ذكر كثيرٌ من المحقّقين من العلماء.

كذلك أيضًا نقول: وجد أيضًا بالتجربة أنّ هناك أمراضًا مستعصيةً عليهم؛ كمرض السرطان ونحوه من الأمراض التي استعصت، ومع ذلك عولجت بكلام الله فشفاها الله، ولكن حصل الشفاء لأناس دون غيرهم؛ لأنه اجتمع أمران: إيمان المريض، وتصديقه بأن القرآن شفاءٌ وعمله به، وكذلك إيمان الراقي، وتصديقه بذلك واستعماله له، فاجتمع الأمران فحصل بذلك الشفاء، وعولج بها الفسقة والعصاة وأهلُ الشبهات والمبتدعة، ونحوهم، فلم يتأثّروا، لا في الأمراض الحسيّة، ولا في الأمراض المعنويّة، وذلك كلّه تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعد فهارسه
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويان

الجزء الثالث

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويرقي

الجزء الثالث

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (ابن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

والعَرْشُ والكُرْسِيّ حَقٌّ.

---

قال الشارح:

كَمَا بَيَّنَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]. ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، في غير ما آيةٍ مِنَ القرآن: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر:٧]، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وَفِي دُعَاءِ الْكَرْبِ الْمَرْوِيِّ فِي «الصَّحِيحِ»: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ»[(١)].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ[(٢)] فِي حَدِيثِ الْأَوْعَالِ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في المسند (١/ ٢٠٦).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُوْنَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَيْنَهُما مَسِيْرَةُ خَمْس مِئةِ سَنَةٍ، ومِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسَ مِئةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَماءٍ مَسِيْرَةُ خَمْس مِئةِ سنة، وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ العَرْشِ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وأَعْلاهُ كَما بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ، واللَّهُ فَوْقَ ذلِكَ، لَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد[1]، وَالتِّرْمِذِيُّ[2]، وَابْنُ مَاجه[3].

وَرَوَى أَبُو دَاوُد[4] وَغَيْرِهِ بِسَنَدِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنْ حَدِيثِ الأَطِيطِ، أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمٰواتِهِ لَهٰكَذَا، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ، مِثْلَ القُبَّةِ» الحَدِيث.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[5] عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الجَنَّةَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ». يُرْوَىٰ: «وَفَوْقَهُ» بِالنَّصْبِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَبِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، أَيْ: وَسَقْفُهُ.

وَذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى أَنَّ الْعَرْشَ فَلَكٌ مُسْتَدِيرٌ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ مُحِيطٌ بِالْعَالَمِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَرُبَّمَا سَمَّوْهُ: الفَلَكَ الْأَطْلَسَ، وَالْفَلَكَ التَّاسِعَ. وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الشَّرْعِ أَنَّ لَهُ قَوَائِمَ تَحْمِلُهُ المَلَائِكَةُ، كَمَا قَالَ ﷺ: «فَإِنَّ

---

(١) برقم (٤٧٢٣).

(٢) برقم (٣٣٢٠).

(٣) برقم (١٩٣).

(٤) برقم (٤٧٢٦) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٥) برقم (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

النَّاسَ يُصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّوْرِ»[1].

---

قال الشيخ:

ابتدأ الشارح بذكر الإيمان بالغيب، ومن جملة ما أخبر الله به من الأمور الغيبيّة: العرش والكرسي.

ذكر الله العرش في عدة مواضع من القرآن، وذكره النبيّ ﷺ في هذه الأحاديث التي أوردها الشارح، ففي كتاب الله ذكر الكرسي في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وذكر الله تعالى أنّه استوى على العرش في سبع آيات من القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقد أنكر حقيقة العرش بعض المبتدعة؛ فقال بعضهم: العرش هو الملك، واستوى على العرش: أي استوى على الملك، وهذا باطل؛ بل العرش في اللغة: هو السرير الذي يجلس عليه الملوك، ولهذا ذكر الله عن ملكة سبأ هذا العرش في قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] إلى قوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل:٣٨]، وقوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل:٤٢]، فدلّ على أن العرش هو السرير الذي يجلس عليه الملك، أما العرش الذي خصّه الله بالاستواء،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٣).

فهو من الأمور الغيبيّة، ولا يحيط بوصفه إلَّا الله عزّ وجلّ.

ورد في آية الكرسي أنّ الكرسي وسع السمٰوات والأرض: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقد ورد في الحديث: «مَا السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمْ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تِرْسٍ»[١]، والترس: هو المجنّ الذي يلبس على الرأس. ماذا تشغلُ سبعة دراهم إذا جعلت في هذا الترس؟ وماذا تغطي منه؟ وهذا دليل على عظمةِ هذا الكرسي. السموات من يحيط بها؟ والأرضون السبع من يحيط بها إلا الله عزّ وجلّ؟ هذه عظمتها.

وورد أيضًا في بعض الأحاديث أنّ الكرسي صغيرٌ بالنسبة إلى العرش كما في قوله ﷺ: «مَا السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ»[٢]، فما تشغل تلك الحلقة من تلك الأرض؟ هذا هو الكرسي الذي وسع السموات والأرض هو بالنسبة إلى العرش هكذا! إذا كانت هذه عظمة العرش، فكيف بعظمة الخالق الذي هو ربُّ العرش وربُّ كلِّ شيء!!

وقد رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: «مَا السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعِ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[٣]، والخردل نبات

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

معروف حبّه صغير غاية في الصغر، فكلّ هذا دليلٌ على عظمة الله عزَّ وجلَّ، وأنّ هذه المخلوقات حقيرة بالنسبةِ إلى عظمته وجلاله وكبريائه، والعبد إذا استحضر عظمة الله، فإنّه يمتنع أن يُقدم على معصيته، ويمتنع أن يغفل عن ذكره، ويحمله هذا الاستحضار على أن يُعظّم ربَّه غاية التعظيم، وأن يخافه غاية الخوف، وأن يجلّه ويبجّله، وأن يصغر كل مخلوق عنده؛ وكل مخلوق مهما كانت مقدرته يكون حقيرًا وصغيرًا بالنسبة إلى عظمة الخالق وجلاله وكبريائه.

هذا هو السبب في كون الله تعالى وصف نفسه بالعظمة، ووصف العرش الذي خصّه بالاستواء بهذا، ووصفه في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وفي قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦]، وذكر الله العرش في عدّة آيات مما يدلُّ على أنّه عرشٌ حقيقيٌّ تطوف به الملائكة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر:٧]، وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]؛ أي: ربُّ العرش، أي: مالكه وخالقه.

فهذه الأدلّة تدلّ على أنّه ليس هو كما تقول المعتزلة: إنّ العرش هو المُلك، بل العرش مخلوق، قد خلقه الله كما خلق سائر المخلوقات، ولكنّه عظيمٌ لا يحيط بهِ إلاَّ الله عزّ وجلّ، ولا يعلمُ قدره إلاَّ الله عزّ وجلّ، والمخلوقات كلُّها حقيرة وصغيرة بالنسبةِ إليه، والله تعالى أعلم بحقيقته، وإنَّما على المؤمنين أن يؤمنوا بما أخبر الله به، وأن يفوِّضوا علم الغيب إلى الله.

قال الشارح:

وَالْعَرْشُ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنْ السَّرِيرِ الَّذِي لِلْمَلَكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ بِلْقِيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وَلَيْسَ هُوَ فَلَكًا، وَلَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْعَرَبُ ذَلِكَ، وَالْقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، فَهُوَ سَرِيرٌ ذُو قَوَائِمَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَهُوَ كَالْقُبَّةِ عَلَى الْعَالَمِ، وَهُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، فَمِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ[1]:

مَجِّدُوا اللَّهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلُ ... رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرا

بِالْبِنَاءِ الْعَالِي الَّذِي بَهَرَ النَّا ... سَ وَسَوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرا

شَرْجَعًا لَا يَنَالُهُ بَصَرُ الْعَيْـ ... ـنِ تُرَى حَوْلَهُ الْمَلَائِكُ صُورا

الصُّور هُنَا: جَمْعُ أَصْوَر: وَهُوَ الْمَائِلُ الْعُنُقِ لِنَظَرِهِ إِلَى الْعُلُوِّ. وَالشَّرْجَعُ: هُوَ الْعَالِي الْمَنِيفُ، وَالسَّرِيرُ: هُوَ الْعَرْشُ فِي اللُّغَةِ.

وَمِنْ شِعْرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﷺ، الَّذِي عَرَّضَ بِهِ عَنِ الْقِرَاءَةِ لِامْرَأَتِهِ حِينَ اتَّهَمَتْهُ بِجَارِيَتِهِ:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا

وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ شِدَادٌ ... مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

ذكره ابنُ عبد البرّ وغيره من الأئمّة[2].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٧).

(٢) انظر: الاستيعاب (٣/ ٩٠١)، وتاريخ دمشق (٢٨/ ١١٢).

وَرَوَى أَبُو دَاود[1] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: إِنَّ مَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبعَ مِئَةِ عَامٍ»، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِم[2]، وَلَفْظُهُ: «خَفْقُ الطَّيرِ سَبْعَ مِئَةِ عَامٍ».

وَأَمَّا مَنْ حَرَّفَ كَلَامَ اللَّهِ، وَجَعَلَ الْعَرْشَ عِبَارَةً عَنِ الْمُلْكِ، كَيْفَ يَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، أَيَقُولُ: وَيَحْمِلُ مُلْكَهُ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ؟! وَكَانَ مُلْكُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَكُونَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - آخِذًا بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْمُلْكِ؟! هَلْ يَقُولُ هَذَا عَاقِلٌ يَدْرِي مَا يَقُولُ؟!

---

قال الشيخ:

هذا الكلام على العرش، وقد أخبر الله تعالى بأنه خلق العرش، وأنه ربُّ العرش في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وفي قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، والعرش في اللّغة: هو السَّرير، وقد أخبر الله عن بلقيس بأنّ لها عرشًا عظيمًا، وهي امرأةٌ كانت ملكةً في بلادِ سبأ، وكذلك أخبر تعالى عن عرشه العظيم

---

(١) برقم (٤٧٢٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) في التفسير (١٠/ ٣٣٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بأخبار واضحة تدلُّ على أنَّه مخلوق، وأنَّه محمول، وأنّ حوله الملائكة، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [غافر:٧]، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ [الزمر:٧٥]؛ والحفوف: بمعنى الاستدارة حول العرش، وذلك دليلٌ على أنّه مخلوقٌ وأنّه محمول، وأخبر أنّه رفيع الدرجات ذو العرش: أي صاحب العرش، وأخبر بأنَّه في يوم القيامة يُحمَل في قوله: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٧]، وأخبر أيضًا أنّه استوى على العرش في سبعة مواضع من القرآن، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس:٣]، وأخبر في سورة هود بأنّ العرش على الماء في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧]، يعني: عندما خلق السموات أو قبل أن يخلق السموات كان عرشه على الماء، وسُئل ابن عباس: على أيِّ شيء الماء؟ فقال: «على متن الريح»[1]، فالله قادر على أن يجعل الماء على الريح، تحمل الماء أو تجعله في هواءٍ، فهو قادر على كلّ شيء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

ولما ذكر الله تعالى أنّه استوى على العرش ـ كما في آيات كثيرة ـ صعُب تصديق ذلك على النُّفاة، الذين ينفون عُلُوَّ الله تعالى واستواءه على عرشه، فقالوا: العرش الملك، وقالوا: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، أي: على المُلك استوى!! وهذا خطأ

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٧٨).

بعيد، كيف يكونُ المُلك بهذه الأوصاف؟ الله ذكر أنّ العرش تحمله الملائكة، فهل الملك تحمله؟ والله ذكر أنّ العرش كان على الماء، فكيف يكون الملك على الماء؟ هذا قولٌ تنكره الطباع، والعرب تعرف العرش، وتعرف مسمّاه؛ وأنّ العرش في اللغة: هو السرير الذي للملك، ذكر ذلك العرب في شعرهم، كما في الأبيات التي نُقلت عن شعر أميّة بن الصلت، وكان من شعراء العرب، فهو يقول:

مَجِّدُوا اللهَ فَهُوَ لِلمَجْدِ أَهْلُ ... رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرا

بالبناءِ العَالِي الَّذي بَهَرَ النَّا ... سَ وسَوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيْرا

شَرْجَعًا لا يَنالُهُ بَصَرُ العَيْـ ... ـنِ تُرَى حَوْلَهُ المَلائِكُ صُوَرا

وصفه بأنّه سرير بالبناءِ الأعلى الذي سبق الناس، وسوّى فوق السماء سريرًا، فأطلق عليه اسم سرير؛ لأنّ هذه هي لغة العرب، وجعله في البناء الأعلى الذي هو السموات العلى، أخبر بأنّه فوق السموات.

هذا الشعر قاله هذا الشاعر الذي هو عارفٌ وعالمٌ ببعض الأحكام، وقد أنشده عَمْرو بن الشَّرِيدِ ﷺ للنبي ﷺ، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم[1]، قال: رَدِفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فقال: «هل مَعَكَ من شِعْرِ أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْتِ شيئًا؟»، قلت: نعم، قال: «هِيهْ»، فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فقال: «هِيهْ»، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فقال: «هِيهْ»، حتى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ، فقال: «إِنْ كَادَ لَيُسْلِمُ». وفي أوصافه ما صدقّها النبيّ ﷺ، ومن ذلك: وصف الله تعالى بأنّه الأعلى، وبأنّه فوق الماءِ، وبأنّه فوق

(١) برقم (٢٢٥٥).

العرش، وبأنّ العرش سريرٌ كما في هذه الأبيات.

وكذا الأبيات الثانية التي نظمها عبد الله بن رواحة ﷺ، أحد شعراء الصحابة من الأنصار، لما أنّه وطىء أمةً له بملك اليمين، فرأته زوجته فأنكرت عليه، فاستنكر وقال: ما فعلت، وقد عرفت أنّ الذي عليه جنابة لا يقرأ القرآن، فقالت: إن كنت صادقًا فاقرأ القرآن، فأنشد هذه الأبيات، واعتقدت أنّها من القرآن، يقول فيها:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا
وتَحْمِلُهُ مَلائِكَةٌ شِدادٌ ... مَلائِكَةُ الإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

فأخبر النبيّ ﷺ وأقرّه على ذلك، والشاهد منه ذِكر العرش في قوله: وأنّ العرش فوق الماء طافٍ، الطافي: هو السابح فوقه الراكب فوق الماء، وفوق العرش ربُّ العالمين، أخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، والمُرادُ أنّه فوق الماء، وفوق المخلوقات.

وبكلّ حال فالعرش هو: هذا السرير الذي لا يعلم قدره إلا الله.

وقد ذكر العلماء أنّ الكرسي غير العرش، الكرسي الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الكرسي: قيل إنّه كالمرقاة بين يدي العرش، ومع ذلك هذا الكرسي وسع السموات والأرض، واتّسع للسموات السبع وللأرضين السبع، وقد ذكرنا فيما مضى الحديث الذي فيه «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ

أُلْقِيَتْ فِي تِرْسٍ»[١].

الترس: هو المجن الذي يلبس على الرأس، والدراهم: هي قطع من الفضة صغيرة، ماذا تشغل سبع دراهم من هذا الترس، والترس قد يتسع لمئات من الدراهم، ثم هذا الكرسي صغير بالنسبة للعرش.

وورد أيضًا في بعض الآثار: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ»[٢]، الحلقة هي القطعة من الحديد متلاقية الطرفين، إذا ألقيت بأرض فلاة ماذا تشغل منها، هل تشغل ربعها؟ أو عشرها، أو عشر عشرها؟ أو ربع عشر من أعشارها؟ لا تشغل منها إلا جزءًا يسيرًا، فكذا نسبة الكرسي إلى العرش، وإذا كانت هذه عظمةُ العرش، فكيف بعظمة رب العرش؟ الذي خلقه وخلق جميع الخلق، وإذا عرف العباد هذه العظمة، وعظمة هذه المخلوقات، فكذلك بعظمة رب العرش خالق الملائكة الذين يحملون العرش، وقد ذكر الله عددهم في قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، ولكن ماذا تقول في أولئك الملائكة؟ لا يعلم قدر وصفهم إلا الله، وفي هذا الحديث الذي أورده الشارح أخبر بأنَّ منهم ملكًا؛ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة عام، وفي رواية: سبع مئة للطائر.

متى تُقدر هذه المسافة القليلة؟ فكيف ببقيّة جسده؟ هذا من حملة العرش،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

ومع ذلك لا يحملون العرش بقوّتهم، إنّما يحملونه بذكر الله، يقولون: كيف نحمل العرش وأنت رب العرش؟ ـ وهذه عظمة العرش ـ فقال: احملوه بالتسبيح، أو كما قيل. فلولا أنّ الله أعانهم بالتسبيح لما حملوه، مع أنّ هذه عظمتهم، وهذه صورهم وعظم خلقهم.

وعلى هذا فالعرش قد تقدّم أنّه سقف المخلوقات، وسقف الجنّة، سقف الفردوس، في الحديث المتقدّم يقول ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[1]، فهذا دليلٌ على أنّه سقف المخلوقات، وأنّه محيط بالمخلوقات، ولا يعلم قدره إلاَّ الله، ومع ذلك فإنَّ الربَّ تعالى مستغنٍ عن العرش، وما دونه، والله تعالى محيط بخلقه، وقريب منهم، وعالم بأعمالهم، لا تخفى عليه منهم خافية، وهو سبحانه مطَّلع على الأعمال، وقادرٌ على أن يُثيب هذا ويعاقب هذا، وقادرٌ على أن يتَّسع لخلقه رحمةً وعلمًا وحكمةً وعزَّةً وتصرُّفًا. فإذا كانت هذه عظمة المخلوقات، فكيف بعظمة ربِّ المخلوقات؟!!

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤).

قال الشارح:

وَأَمَّا الْكُرْسِيُّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَقَدْ قِيلَ: هُوَ الْعَرْشُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ غَيْرُهُ. نُقِلَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرِهِ، رَوَىٰ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي كِتَابِ «صِفَةِ الْعَرْشِ»[١]، وَالْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»[٢]، وَقَالَ: «إِنَّهُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»؛ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ أَنَّهُ قَالَ: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يَقْدُرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى». وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ[٣].

وَقَالَ السُّدي: «السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي جَوْفِ الْكُرْسِيِّ، وَالْكُرْسِيُّ بَيْنَ يَدَي الْعَرْشِ»[٤].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»[٥].

---

(١) (ص٧٩).

(٢) (٢/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ٣١١)، وقال: «والموقوف أولى». وبمثله قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٢)، والذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩١).

(٥) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

وَقِيلَ: «كُرْسِيُّهُ عِلْمُهُ»، ويُنْسَبُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْمَحْفُوظُ عَنْهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُ دَلِيلٌ إِلَّا مُجَرَّدُ الظَّنِّ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ جِرَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، كَمَا قِيلَ فِي الْعَرْشِ. وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «بَيْنَ يَدَيِ الْعَرْشِ كَالْمِرْقَاةِ إِلَيْهِ».

---

قال الشيخ:

هذا الكلام على الكرسي الذي وسع السموات والأرض، وأنّه كالمرقاة بين يدي العرش، أو أنّ الكرسي موضع القدمين، فهو مخلوق، وهو مع ذلك ذكر الله سَعته، وأنه وسع السموات والأرض. فإذا كان الكرسي قد وسع السموات والأرض، فكيف بالعرش؟ هذا هو القول الصحيح: أنّ الكرسي مخلوق، ذكر الله أنّه وسع السموات والأرض، وأنّه غير العرش.

هناك قول آخر: أنّ الكرسي هو العرش، والصحيح أنّه غيره، هذا هو المشهور، وأنه مقدمة العرش، أو مرقاة بين يديه، وهناك قولٌ ثالث ولكنّه ضعيف، وهو أنّ الكرسي هو العلم، وسع كرسيُّه أي: علمه، وهذا القول، وإن روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فإنّه لا يثبت عنه، والصحيح القول الأول عنه، ولعلّ هذا من أقوال بعض المبتدعة الذين يريدون أن يؤوِّلوا الأشياء بغير ظواهرها، فلما أوّلوا العرش بأنّه المُلك، أوّلوا الكرسي بأنّه العلم، حتّى يبطلوا الصفات التي وردت في النّصوص، والتي تتعلّق بالعرش والكرسي والتي الإيمان بها من الإيمان بالغيب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ العَرْشِ وَمَا دُوْنَه، مُحِيْطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقَهُ.

---

قال الشارح:

أَمَا قَوْلُهُ: (وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ)؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وَإِنَّمَا قَالَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ هَذَا الْكَلَامَ هُنَا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْعَرْشَ وَالْكُرْسِيِّ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ غِنَاهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْعَرْشِ، وَمَا دُونَ الْعَرْشِ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ خَلْقَهُ لِلْعَرْشِ وَاسْتِوَاءَهُ عَلَيْهِ لَيْسَ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، بَلْ لَهُ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ اقْتَضَتْهُ، وَكَوْنِ الْعَالِي فَوْقَ السَّافِلِ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ السَّافِلُ حَاوِيًا لِلْعَالِي، مُحِيطًا بِهِ، حَامِلًا لَهُ، وَلَا أَنْ يَكُونَ الْأَعْلَى مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ. فَانْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ، كَيْفَ هِيَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَتْ هِيَ مُفْتَقِرَةً إِلَيْهَا! فَالرَّبُّ تَعَالَى أَعْظَمُ شَأْنًا، وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَلْزَمَ مِنْ عُلُوِّهِ ذَلِكَ، بَلْ لَوَازِمُ عُلُوِّهِ مِنْ خَصَائِصِهِ، وَهِيَ حَمْلُهُ بِقُدْرَتِهِ لِلسَّافِلِ، وَفَقْرُ السَّافِلِ، وَغِنَاهُ هُوَ سُبْحَانَهُ عَنِ السَّافِلِ، وَإِحَاطَتُهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِهِ، فَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ مَعَ حَمْلِهِ بِقُدْرَتِهِ لِلْعَرْشِ وَحَمَلَتِهِ، وَغِنَاهُ عَنِ الْعَرْشِ، وَفَقْرِ الْعَرْشِ إِلَيْهِ، وَإِحَاطَتِهِ بِالْعَرْشِ، وَعَدَمِ إِحَاطَةِ الْعَرْشِ بِهِ، وَحَصْرِهِ لِلْعَرْشِ، وَعَدَمِ حَصْرِ الْعَرْشِ لَهُ، وَهَذِهِ اللَّوَازِمُ مُنْتَفِيَةٌ عَنِ الْمَخْلُوقِ.

وَنُفَاةُ الْعُلُوِّ أَهْلُ التَّعْطِيلِ لَوْ فَصَّلُوا هَذَا التَّفْصِيلَ، لَهُدُوا إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ،

وَعَلِمُوا مُطَابَقَةَ الْعَقْلِ لِلتَّنْزِيلِ، وَلَسَلَكُوا خَلْفَ الدَّلِيلِ، وَلَكِنْ فَارَقُوا الدَّلِيلَ، فَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]: كَيْفَ اسْتَوَىٰ؟ فَقَالَ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ»[1]. وَيُرْوَىٰ هَذَا الْجَوَابُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ مَوْقُوفًا، وَمَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ[2].

---

قال الشيخ:

قوله: إنّ الله مستغنٍ عن العرش، ومستغنٍ عن ما دون العرش، يفيد بأنّ العرش هو سقف المخلوقات، وأنّه أعظمها فيما أخبرنا الله به، وأنّ عظمة هذه المخلوقات كلّها حقيرةٌ بالنسبة إلى هذا العرش، ومع ذلك فإنّ الربَّ الذي خلقه وخلق غيره مستغنٍ عن العرش، ومستغنٍ عن غيره، ولا يحتاج إليه ليحمله، ولا إلى الملائكة لتحمله، بل هو بقدرته الذي يُمسك المخلوقات، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، وأخبر بأنّه خلق السموات بغير عَمَدٍ، خلق سبع سمواتٍ طباقًا، سبعًا شدادًا بناها فوق الأرض، ومع ذلك ثبّتها، فهي مستغنيةٌ عن عمدٍ تعتمد عليها، وأما المخلوق إذا رفع سقفًا فلا بدَّ أن يثبته بعمدٍ،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٧)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ١٦٢).

يعتمد عليها ذلك السقف، وقد ذكر الله تعالى أنّ السماء سقف في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء:٣٢]، ومع ذلك فليس لها عمد، يقول تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان:١٠]، أي: ليس لها عمد تشاهدونها، فهي مستغنية عن ذلك؛ لكون الله تعالى هو الذي أمسكها بقوّته، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [فاطر:٤١]، مع كونه هو الذي فوق العالم وفوق الخلق، وعالٍ على عباده؛ فإنّه هو الذي جميع المخلوقات بحاجةٍ إليه، وهو مستغنٍ عنها، ومستغنٍ عن السموات، مستغنٍ عن الأرض ومن فيها، ومستغنٍ عن العباد وطاعاتهم، ومستغنٍ عن الملائكة وعبادتهم، وكذلك مستغنٍ عن العرش وعن الكرسي، فهو الغنيُّ عن ذلك، وكلّ شيء فقيرٌ إليه، بل هو الذي يمسكها، وهو الذي يحملها، وهو الذي يثبّتها كما يشاء.

فالنفاة الذين توهّموا أنّ في هذه المخلوقات حاجة، قالوا: إذا كان الله فوقها فهو محتاجٌ إليها يلزم أن تكون هناك حاجة وضرورة إليها.

وهذا خطأٌ، بل أخبر بأنّه عالٍ على هذه المخلوقات، ومع ذلك فإنّه الغنيُّ عمّا سواه، وكلّ ما سواه فقير إليه، فلا يحتاج إلى خلقه في شيءٍ من خصائصهم، بل هو سبحانه الغنيّ وهم الفقراء، فلا يُغترُّ بما يقوله الذين يردّون بعض النصوص، ويعتقدون أنّ في إثباتها لزوم حاجةٍ، أو أنّ هذا يلزم منه حلول الحوادث في ذات الله تعالى، ونحو ذلك من الكلمات التي هي من توليدات المتكلّمين.

قال الشارح:

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَوْقَهُ)، بِغَيْرِ وَاوٍ مِنْ قَوْلِهِ: (فَوْقَهُ)، وَالنُّسْخَةُ الْأُولَى هِيَ الصَّحِيحَة، وَمعْنَاهَا: أَنَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَعْنَىٰ الثَّانِيَة: أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَوْقَ الْعَرْشِ. وَهَذَا ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَسْقَطَهَا بَعْضُ النُّسَاخِ سَهْوًا، ثُمَّ اسْتَنْسَخَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ تِلْكَ النُّسْخَةِ، أَوْ أَنَّ بَعْضَ الْمُحَرِّفِينَ الضَّالِّينَ أَسْقَطَهَا قَصْدًا لِلْفَسَادِ، وَإِنْكَارًا لِصِفَةِ الْفَوْقِيَّةِ، وَإِلَّا فَقَدْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَا يَبْقَى لِقَوْلِهِ: مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَوقَ الْعَرْشِ ـ وَالْحَالَةُ هَذِهِ ـ مَعْنًى؛ إِذْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَا يُحَاطُ بِهِ؛ فَتَعَيَّنَ ثُبُوتُ الوَاو. وَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

أَمَّا كَوْنُهُ مُحِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ إِحَاطَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ كَالْفَلَكِ، وَأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ دَاخِلُ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ: إِحَاطَةُ عَظَمَةٍ وَسَعَةٍ وَعِلْمٍ وَقُدْرَةٍ، وَأَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَظَمَتِهِ كَالْخَرْدَلَةِ، كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّهُ قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ،

وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم»[1].

---

قال الشيخ:

كل ما سبق من كلام الشارح هذا يؤخذ منه عظمة الربِّ سبحانه وتعالى، وأنّه محيطٌ بكلّ شيء، والإحاطة هي العلم بها والاستيلاءُ عليها والتصرف فيها، فكونه قد أحاط علمًا بها في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾؛ أحاط بها بمعنى أنّه أحصاها وعلمها، وتولّى عليها واستولى على جميع المخلوقات. وإذا علم المخلوق أنّ الله بكلِّ شيءٍ محيط، كان من جملة ذلك أن الله محيطٌ بالعباد، ومحيط بعلومهم التي يعلمونها؛ فإنّه هو الذي فتحها عليهم، ومحيطٌ بأعمالهم التي يعملونها، لا يخفى عليه من أعمالهم شيء، كما في قوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وكذلك محيط بالمخلوقات كلّها؛ سواءً الجماد أو المتحرك، سواءً الحيوان والنّبات وغير ذلك؛ كله قد أحاط به واستولى عليه وتصرّف فيه، فهو المستولي على خلقه.

والفائدةُ من معرفة ذلك: التعظيم؛ فإنّ العبد إذا تصوَّر أنّ الله تعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ عظّمه حقَّ التعظيم، وعبدَه حقَّ العبادة، وابتعد عمّا يسخطه وعمّا نهى عنه. واستفاد من ذلك أيضًا تعظيم شرعه، والتّصديق بخبره، وطلب الثواب

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

الذي رتّبه ووعد به على العبادة، فكلّ ذلك من فوائد معرفة إحاطته بكلّ شيء من المخلوقات .

هذه عقيدةُ المسلمين؛ لذلك أصبح أهلُ العقيدة السليمةِ هم الذين يعظِّمون حرمات الله تعالى وشعائره، وأمّا الذين أنكروا علم الله أو أنكروا عظمته أو نحو ذلك، فهم الذين وقعوا فيما وقعوا فيه من المخالفات والمعاصي والعقائد المنحرفة.

فيجب على المسلم أن يدين بعظمةِ ربّه، وأن يستحضر جلاله وكبرياءه، وأن يكون ذلك حاملًا له على تعظيمه، وعلى خوفه وإجلاله، وعلى الرغبة في ثوابه، والرهبة من عقابه، ويكون ذلك بمعرفة الأدلّة على ذلك، فالأدلّة على عظمة الله سبحانه تعظيم الله لنفسه، وورد في الحديث: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»[1]. وورد أيضًا وصف الله تعالى بالكبرياء والعظمة، واختصاصه بذلك بقوله في الحديث القدسي: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[2]، يعني: أنّ ذلك من خصائصه التي لا يجوز أن ينازعه فيه أحد، فإذا كان ذلك من خصائصه سبحانه؛ فمنازعته ومشاقّته في شيءٍ مما هو خاصٌّ به يُعدُّ اعتراضًا على الله .

ومعلوم أنّ الإنسان إذا وجب عليه أمرٌ تحيّل لأن يعرف الدليل عليه، والله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه أبوداود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وأحمد (٢/ ٢٤٨)، وابن حبان (٢/ ٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تعالى قد أقام الأدلّة على عظمته وعلى جلاله، وعلى استحقاقه للتبجيل والإعظام. فقد وصف الله نفسه بذلك كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء:٣٤]. فيجب أن نعتقد أنَّ أنواع العظمة لله، فهو المستحقّ للتعظيم وأنواع الكبرياء، وأنواع العلوّ لله وحده، وبعد ذلك تقول: ما فائدتي إذا دِنْتُ بذلك؟ ما الفائدة التي أعرفها وأجتنيها وأحصل عليها إذا وصلتُ إلى هذه العقيدة؟ والجواب أن نقول: لا شكّ أنّك متى قمت بهذا واعتقدته عقيدةً صحيحةً عظُم قدرُ ربِّك في قلبك، فصعُب عليك أن تعصيه، وعظُم عليك أن تدين لغيره بالعظمة، وكذلك كبُر عليك أن تترك طاعته، وعرفت أنّ له عليك حقوقًا كثيرة لا بدّ أن تدين بها، ولا بدّ أن تحرص على أدائها... هذه فوائد هذه المعرفة.

وقد مرَّ بنا من صفات الله تعالى الغنى، وقول الطحاوي: « وهو مستغنٍ عن العرش » يعني: غني عن العرش وما دونه، وأنّه خلق الخلق وليس بحاجةٍ إلى عبادةِ الخلق، وليس بحاجة إلى شيء من المخلوقات، بل هو الغنيّ عنهم: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨]، ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٦].

فإذا دان العبدُ لله تعالى بالغنى؛ عرف أنّ هذا الغنى عام، وأنّ اللهّ مستغنٍ عن جميع ما في الكون، فهو مستغنٍ عن العرش، ومستغنٍ عن السموات، ومستغنٍ عن الأرض، بل هو الخالق وحده، وهي المخلوقة، ولكن قد وصف نفسه بأنّه

استوى على العرش، وبأنّه عالٍ على خلقه، ولا يدلُّ ذلك على حاجةٍ له لأيّ مخلوق.

كذلك من صفاته التي تقدّمت: الإحاطة، يقول الماتن: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، أي: هو محيطٌ بالأشياء والإحاطةُ بها هي: الاستيلاء عليها، بمعنى أنّه محيطٌ بالأشياء وكلّها تحت سيطرته، وتصرّفه، وليس أحدٌ ولا شيءٌ إلا بإرادته، ولا يتصرّف إلا بعلمه، وهو المتصرّف فيها وحده.

فإذا كان كذلك دلّ على كماله وعظمته، فالذي يعتقدُ ذلك لا شكّ أنّه يعظّم قدر ربّه في قلبه، وبعد ذلك يصعب عليه أن يتخلّف عن طاعة، أو يرتكب معصية، أو يفعل إثمًا، أو يبارز ربّه بالعصيان، يستحضر الربّ الذي هذه عظمته، وهذا جلاله وكبرياءُه، وهذا غناه عن خلقه، ثم يستحضر ضعف المخلوقين، وضعف الخلق كلِّهم وفقرهم وفاقتهم وحاجتهم الشديدة إلى ربِّهم، فبعد ذلك يقول: ما أنا وما قدري حتى أظهر الغنى عن الله، وحتى أبارزه بالذنوب، وحتّى أعصي أمره وأرتكب نهيه؟! وهل أتحمّل شيئًا من سخطه، وهل أصبر على عذابه؟! فيكون ذلك زاجرًا له عن اقتراف المآثم.

الإحاطة بكلّ شيء تقدّم دليلها؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، وقوله -عز وجل-: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:٢٠]، وقوله -جل وعلا-: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء:١١٦]، ونفى بذلك عن المخلوقين بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ

عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالإحاطة: السيطرة والاستيلاء التام، والولاية الكاملة التي لا ينقصها شيء هي لله وحده، وهو المحيطُ بالأشياء كلِّها علويِّها وسفليِّها، وعالمٌ بها ومتصرفٌ فيها، ولا يخفى عليه شيء من أمرها، وذلك لأنَّها هي مخلوقة، وهو الخالق وحده.

قال الشارح:

وَمِنَ المَعْلُومِ ـ وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى ـ أَنَّ الوَاحِدَ مِنَّا إِذَا كَانَ عِنْدَهُ خَرْدَلَةٌ، إِنْ شَاءَ قَبَضَهَا وَأَحَاطَتْ قَبْضَتُهُ بِهَا، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَهَا تَحْتَهُ، وَهُوَ فِي الحَالَيْنِ مُبَايِنٌ لَهَا، عَالٍ عَلَيْهَا فَوْقَهَا مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، فَكَيْفَ بِالعَظِيمِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِعَظَمَتِهِ وَصْفُ وَاصِفٍ لَهَا، فَلَوْ شَاءَ لَقَبَضَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ اليَوْمَ، وَفَعَلَ بِهَا كَمَا يَفْعَلُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَجَدَّدُ لَهُ إِذْ ذَاكَ قُدْرَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا الآن، فَكَيْفَ يَسْتَبْعِدُ العَقْلُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ يَدْنُو سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْضِ أَجْزَاءِ العَالَمِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ؟ أَوْ يُدْنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ؟ فَمَنْ نَفَى ذَلِكَ، لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ المَشْهُورِ الَّذِي رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي رُؤْيَةِ الرَّبِّ تَعَالَى: فَقَالَ لَهُ أَبُو رَزِينٍ: كَيْفَ يَسَعُنَا ـ يَا رَسُولَ اللَّهِ ـ وَهُوَ وَاحِدٌ وَنَحْنُ جَمِيعٌ؟ فَقَالَ: «سَأُنْبِئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللَّهِ: هَذَا القَمَرُ، آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُخْلِيًا بِهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ»[1]، وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. فَهَذَا يُزِيلُ كُلَّ إِشْكَالٍ، وَيُبْطِلُ كُلَّ خَيَالٍ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ فَوْقَ المَخْلُوقَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]. وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الأَوْعَالِ المُتَقَدِّمِ: «وَالعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، واللَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ»[2]. وَقَدْ أَنْشَدَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وأحمد (٤/ ١١)، والحاكم (٤/ ٥٦٠).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣).

رَوَاحَةَ ﷺ شِعْرَهُ الْمَذْكُور بَيْنَ يَدَيِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَقَرَّهُ عَلَى مَا قَالَ، وَضَحِكَ مِنْهُ.

وَكَذَا أَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَوْلَهُ:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عَلُ

وَأَنَّ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَاهُمَا ... لَهُ عَمَلٌ مِنْ رَبِّهِ مُتَقَبَّلُ

وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودُ ابْنَ مَرْيَمَ ... رَسُولٌ أَتَى مِنْ عَنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُرْسَلُ

وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ قَامَ فِيهِمُ ... يُجَاهِدُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَيَعْدِلُ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَأَنَا أَشْهَد»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، وَفِي رِوَايَةٍ: «تَغْلِبُ غَضَبِي»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[2] وَغَيْرُهُ[3].

وَرَوَى ابْنُ مَاجه عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا إِلَيْهِ رُؤُسَهُمْ، فَإِذَا الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُه قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَقَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، سَلَامٌ عَلَيْكُم، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يَلْتَفِتونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ٤٠٧)، وانظر: ديوان حسان بن ثابت ﷺ (ص٢١٨).

(٢) برقم (٣١٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٥١).

دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ»[١].

وَرَوَى مُسْلِمٌ[٢] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، بِقَوْلِهِ: «أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ».

---

قال الشيخ:

لا يزال الكلام متعلقًا بإحاطة الله ـ عزّ وجلّ ـ بالمخلوقات، وصغر المخلوقات بالنسبةِ إلى الخالق. وقد تقدّم الاستدلال على عظمة العرش والكرسي وصغر المخلوقات بالنسبة إليهما، وأنّ السموات السبع والأرَضينَ السبع في الكرسي كدراهمَ سبعة أُلقيت في ترس.

كذلك ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أحاديث عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، وبيَّن أنّ هذه السموات والأرَضين صغيرة إلى قبضة الربِّ عزَّ وجلَّ، وهي مطويّات بيمينه، والأحاديث التي فسّرت ذلك قد يأتينا بعضها مستقبلًا إن شاء الله، وفيها الدلالة على أنّ الله تعالى يقبض المخلوقات كما يشاء، وورد في

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٥).

(٢) برقم (٢٧١٣).

الأحاديث أنّه يقبض السموات والأرض، وأنّه يهزُّهنَّ ويقول: أنا الملك، أنا الملك؟[١].

وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما - وهو من أجل علماء الصحابة - أنّه قال: «مَا السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعِ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[٢]. وماذا تشغل حبّة الخردل؟ ومعلومٌ أنّها صغيرة وحقيرة في القبضة، قد يقبض الإنسان ألفًا أو أكثر من ألف في كفّه ولا يمتلىء الكفّ من ذلك، فكيف حبّة واحدة؟ فهذه المخلوقات التي تشاهد عظمتها ولا يعلم سعتها إلا الله تعالى، وقد أخبرنا بعظمتها أنّها سبعٌ شداد، وأنّها سبعٌ طباق، وأنّ المسافات التي بينها، بين كل سماءين مسيرة خمسمئة سنة، متى تقطع هذه المسافة؟ كل ذلك صغير بالنسبة إلى عظمة الربّ سبحانه وتعالى. فهذا دليلٌ على عظمته، ودليلٌ على إحاطته بكلِّ شيء، هذا معنى قوله: «محيطٌ بكلّ شيء».

أمّا قوله: (وفوقه)، فالمراد أنّنا نعتقد أنّ الله فوق كلّ شيء، وقد ذكر الشارح في بعض النسخ «محيطٌ بكلِّ شيء فوقه» من دون واو، وأنّ هذه لا معنى لها؛ لأنّ الله إحاطته ليست فوق العرش، بل بكلّ شيءٍ بالعرش وبما فوقه وبما تحته، ومعلومٌ أنّ العرش هو سقف المخلوقات وهو أعلاها، وفوقه الربُّ سبحانه، وهو قريب من عباده.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

الأدلّة على الفوقيّة كثيرة؛ مرَّ في الشرح كثير منها؛ منها ما هو صريح لا يحتمل التأويل؛ فالآية التي في سورة النحل لا تحتمل التأويل وهي قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠]، قُيّدت بـ (من) حتّى لا يتأوّلها المتأوّل.

وأمّا الآية الثانية التي في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١] في موضعين، فقد يُقال: المراد بالفوقيّة في هذه الآية، فوقيّة الغلبة، وفوقيّة القهر، كما قال فرعون: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، يعني: فوقيّة قهر، ولكن يؤخذ منها فوقيّة الذات، وفوقيّة الغلبة، فهي دالّةٌ على المعنيين، فإذًا تكون من الآيات الدالّة على وصف الله تعالى بالفوقيّة التي هي العلوّ الذي يقتضي العظمة.

أمّا الأحاديث فمرَّ بنا منها جملة؛ من ذلك قوله ﷺ في حديث الأوعال: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»[1]. فالفوقيّة هنا صريحة، ومن ذلك قوله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[2]، فهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ الربّ تعالى فوق العباد وفوق العرش، كذلك الحديث الذي في تفسير الآية الكريمة من سورة الحديد: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣]، في الدّعاء المأثور أنّ النبيّ ﷺ قال:

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

«أنت الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ...»[1]، ففسَّر الظاهر بأنّه العالي الذي ليس فوقه شيء، فهو فوق المخلوقات، ومع ذلك فهو قريبٌ منها، ولذلك فسّر الباطن بالقريب الذي ليس دونه شيءٌ، فعلُوُّه سبحانه وتعالى وفوقيّته لا تنافي قربه ومعيّته، يستحضر المؤمنون الوصفين معًا، القرب والعلّو.

كذلك تقدّم لنا شعر أميّة بن أبي الصلت وشعر عبد الله بن رواحة ﷺ، وذكر هنا أيضًا شعرًا لحسّان ﷺ، وكلّها مذكور فيها العلوّ والفوقيّة، أما الفوقيّة ففي قول ابن رواحة ﷺ[2]:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا

فصرّح بالفوقيّة، وأقرّه النبيّ ﷺ.

وهكذا أيضًا في هذا البيت لحسّان[3]، وهو قوله:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عَلُ

رسول الذي فوق السموات، يعني: فوق السموات وفوق العرش، ثم

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٩).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٢٨).

وصفها أنّها من عملُ؛ فهذا دليلٌ على أنّ الصحابة كلَّهم يدينون بهذه الفوقيّة، وبأنّهم قد تلقّوها وتلقّنوها من نبيّهم ﷺ، وهذه الفوقيّة دليلٌ من الأدلّة على صفةِ العلوّ، والأدلّة عليه كثيرةٌ، أوصلها بعضهم إلى واحد وعشرين نوعًا، ذكر ذلك ابن القيّم في «نونيّته»، ابتدأها بالآيات التي في الاستواء وكل نوع تحته مفردات، فالفوقيّة نوع من أنواع الأدلّة التي تدلّ على صفة العلوّ.

ولَـمَّا كانت مسألة العلوّ من المسائل الاعتقاديّة بالغ أئمّة السلف في إثباتها، وكتبوا فيها الأدلّة التي توضّح قول السلف وقول من سار على طريقهم، فنجد المتقدِّمين من السلف والأئمّة الذين كتبوا في السنّة، نجدهم أوفوها حقّها، فكتاب «التوحيد» لابن خزيمة الذي هو شجىً في حلوق الأشاعرة والمعتزلة، ونحوهم، حتى إن بعضهم يسمّيه كتاب «الشرك»، مع أنّه اعتمد آيات وأحاديث صحيحة رواها بالأسانيد، ولكن لَـمَّا خالف معتقدهم أساؤوا به، وصاروا يحذّرون منه.

كذلك أيضًا كتب السنّة التي كتبها سلفهم مثل كتاب «الإبانة» و«كتاب التوحيد» و«كتاب الإيمان» و«كتاب السنّة» لأئمّة علماء، ومنهم من ردّ على الجهميّة في كتاب «الردّ على الجهميّة»، وسمّى كلّ من خالف ذلك جهميًّا، ولم يزل السلف يكتبون في ذلك فممَّن كتب في ذلك أيضًا: ابن منده وهو عالم من العلماء، وعثمان بن سعيد الدارمي، وابن أبي عاصم، وكذلك القاضي أبو يعلى، حتّى غير الحنابلة كتبوا في ذلك، فكتب في ذلك الإمام الذهبي، وله كتابه المعروف باسم «العلوُّ للعليِّ الغفار»، وصفه بهذا الوصف، وكأنّه لما رأى كثرة الذين دانوا

بغيره مِمّن سمّوا أنفسهم أشاعرة، رأى بأن يفصح بما يعتقده ولو خالف مشايخه وأقرانه والمنتمين إلى قوله أو إلى مذهبه فلم يبالِ بذلك ما دام أنّه يعتمد الدليل ويقول الحقّ.

فلذلك نقول: إنّ مسألة العلوّ لم يقل بها من جماعة المتأخّرين إلا أفراد قلّة؛ الطوائف الذين تسمّوا بأنّهم أشاعرة أنكروها، والطوائف الذين قالوا إنّهم معتزلة أنكروها، وطوائف الشيعة كلّهم معتزلة يدينون بذلك، وطوائف الخوارج، وطوائف الجبريّة، زيادةً على الجهميّة ونحوهم، كلّهم ينكرون هذه الصفة، ولا عبرة بإنكار من أنكرها ما دامت الأدلّة واضحة صريحة في إثباتها، فلا يعتبر بمن أنكر الحقّ مع وضوحه.

أما أهل السنَّةِ فيثبتونها على ما يليق بالله تعالى، ويذكرون الأدلّة ويعتمدونها، ثم يجمعون بينها وبين آيات القرب وأدلّة المعيّة ونحو ذلك، ولا يفهمون منها تجسيمًا، ولا تشبيهًا ولا جهةً، ولا حصرًا ولا تحيّزًا، ولا غير ذلك، أمّا أولئك المنكرون، فإنّهم يستعملون هذه الكلمات؛ أنّها تحصر الخالق، وأنّه تحيّز، ولا عبرة بتلك الأقوال التي يموِّهون بها. فعلى المسلم أن يعتقد الحقّ ولو خالفه من خالفه.

قال الشارح:

وَالْمُرَادَ بِالظُّهُورِ هُنَا: الْعُلُوُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧]، أَيْ: يَعْلُوهُ.

فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الْأَرْبَعَةُ مُتَقَابِلَةٌ: اسْمَانِ مِنْهَا لِأَزَلِيَّةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَبَدِيَّتِهِ، وَاسْمَانِ لِعُلُوِّهِ وَقُرْبِهِ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ[1] عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، أَوْ هَلَكَتْ، فَاسْتَسْقِ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ إِلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟! وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ ـ وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ ـ وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ بِالرَّاكِبِ».

وَفِي قِصَّةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ، لَمَّا حَكَمَ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِم بِحُكْمِ الْمَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ». وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ الْأَمَوِيُّ فِي «مَغَازِيهِ»،

---

(١) برقم (٤٧٢٦).

وَأَصْلُهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[١].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ زَيْنَبَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أَنَّهَا كَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَقُولُ: «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»[٢].

وَعَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّه مَرَّ بِعَجُوزٍ، فَاسْتَوْقَفَتْهُ، فَوَقَفَ مَعَهَا يُحَدِّثُهَا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَبَسْتَ النَّاسَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْعَجُوزِ؟ فَقَالَ: وَيْلَكَ! أَتَدْرِي مَنْ هَذِهِ؟ هِذِهِ امْرَأَةٌ سَمِعَ اللَّهُ شَكْوَاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، هَذِهِ خَوْلَةُ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة:١]، أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ[٣].

وَرَوَى عِكْرِمَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧]، قَالَ: «وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ: مِنْ فَوْقِهِمْ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، من دون قوله: «من فوق سبع سموات». وقد أخرج هذه الزيادة: الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١٦)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤٢٦)، والبيهقي (٩/ ٦٣)، وأوردها ابن أبي حاتم في العلل (١/ ٣٢٥)، وفي إسنادها محمد بن صالح التمار، قال فيه أبو حاتم الرازي في الجرح والتعديل (٧/ ٢٨٧): «شيخ ليس بالقوي لا يعجبني حديثه».

(٢) برقم (٧٤٢٠).

(٣) في الرد على الجهمية (ص٥٤). وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٢)، وقال الذهبي في كتابه العلو (ص٧٨): «هذا إسناد صالح فيه انقطاع».

وَمَنْ سَمِعَ أَحَادِيثَ الرَّسُولِ ﷺ وَكَلَامَ السَّلَفِ، وَجَدَ مِنْهُ فِي إِثْبَاتِ الْفَوْقِيَّةِ مَا لَا يَنْحَصِرُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ، لَمْ يَخْلُقْهُمْ فِي ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، فَتَعَيَّنَ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ خَارِجًا عَنْ ذَاتِهِ، وَلَوْ لَمْ يتَّصِفْ سُبْحَانَهُ بِفَوْقِيَّةِ الذَّاتِ، مَعَ أَنَّهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، غَيْرُ مُخَالِطٍ لِلْعَالَمِ، لَكَانَ متَّصِفًا بِضِدِّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ القَابِلَ لِلْشَيْءِ لَا يَخْلُو مِنْهُ، أَوْ مِنْ ضِدِّهِ، وَضِدُّ الْفَوْقِيَّةِ: السُّفُولُ، وَهُوَ مَذْمُومٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَقَرُّ إِبْلِيسَ وَأَتْبَاعُهُ وَجُنُودُهُ.

---

قال الشيخ:

هذه الأدلّة التي ساقها الشارح تقوّي دلالة الفوقيّة؛ فدلالة حديث الأعرابيّ أنه أنكر عليه لما قال: نستشفع بالله عليك؛ ولا شكّ أنّ هذا تنقّص لله، كأنّه يقول: نجعل اللهّ شافعًا عندك، الله يشفع عند الخلائق، وهذا فيه شيء من التنقّص.

أمّا قوله: (نَسْتَشْفِعُ بِكَ إِلَى اللَّهِ)، فلم يستنكره، كأنّه يقول: اشفع لنا إلى ربّك، أو اشفع لنا إليه، إنما أنكر عليه الثاني: (وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ)؛ لأن شأن الله تعالى أعظم، وذاته أجلّ، ووصفه وجلاله وكبرياؤه أعظم من أن يكون شفيعًا عند أحد من خلقه، بل هو الذي يُستشفع إليه، ولا يشفع إلى أحد، بل لا يشفع عنده أحد إلَّا بإذنه، كما ذُكر ذلك في القرآن: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولَمَّا أنكر عليه ذلك

بيَّن له عظمة الربِّ تعالى، فقوله: «أَتَدْرِي مَا اللَّه؟»، يعني: أنّك ما عرفت قدر ربِّك، وما استحضرت عظمته، ولو استحضرت ذلك لما قلت هذه المقالة، فشأن الله تعالى أعظم.

ثم ذكر أنّ الله تعالى فوق العرش، وأنّ العرش يئطُّ به أطيط الرّحل، وهذا من باب التعظيم، أو من باب البيان، يعني: أنّه تعالى فوق العرش، ومع عظمةِ العرشِ ومع كبرِ العرشِ وإحاطته بهذه المخلوقات فهو يُسمع له هذا الأطيط، يقال: إنّ هذا من ثِقل الربِّ تعالى، وقد ذكر الله تعالى أنّ العرش محمول، وأنَّ حملة العرش ما حملوه بقوَّتهم وإنَّما حملوه بقوَّة ربِّهم، ومع ذلك فإنَّ الربَّ تعالى غنيٌّ عن العرش، وغنيٌّ عن حملة العرش، ولكن كل ذلك من باب إظهار العظمة والكبرياء ونحو ذلك.

كذلك ما ذكر من الأدلّة عن الصحابة، ومن ذلك قول النبيِّ ﷺ لسعد بن معاذ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِم بِحُكْمِ المَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمٰوَاتٍ»، يعني: وافقت حكم الله، والله فوق سمٰواته.

وكذلك قول زينب ـ رضي الله عنها ـ: «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»، يعني: تريد قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، أي: أنّ الله تعالى هو الذي زوّجها، فصرَّحت بالفوقيّة، وأنّ الله تعالى فوق سمٰواته.

وبالجملة: هذه أمثلةٌ من الأدلَّة، والأدلّة التي تثبتُ صفة الفوقيّة كثيرة، ثم

إذا قُلنا: هذه أدلّة نقليّة؛ والمخالفون لا يقبلون الأدلّة النقليّة التي في زعمهم أنّها تُخالف العقل، وأنّها تُنافي العقول، ويزعمون أنّهم ما عرفوا صدق الرُّسل إلا بالعقول، فإذا جاء الرُّسل بما ينافي العقول لم يقبلوه، هكذا علّلوا !!

والجواب: أنّ تلك العقول التي ردَّت هذه النقول عقول فاسدة مضطربة، لا تصلح أن تكون ميزانًا لقبول شيء دون شيء، فعقولكم التي رددتم بها هذه النّصوص، ورددتم بها هذه الصفات، وزعمتم أنَّ هذا مستنكر ومستبشع، وثقيل على النفوس، ولا تقبله العقول.

نقول: هذه العقول كثيرًا ما يكون فيها الاضطراب، وكثيرًا ما تأتي بشبهاتٍ لا تثبت عند الحقّ، وكثيرًا ما يُبطل بعضهم شبهة البعض التي يدلي بها، وكثيرًا ما يُبطل أحدهم دليله بنفسه، فيذكر دليلًا ثم يأتي بما يناقضه، وكذلك يأتي الآخر بدليل يناقض دليل شيخه، ونحو ذلك. فكيف مع ذلك يعتمدون هذه، ويقولون: إنّها أدلّة عقليّة؟!

وقد جاءهم الشارح ـ رحمه الله ـ بدليل عقلي، فيقول: هب أنّه ليس هناك دليلٌ نقليٌّ، أو أنّكم تأوّلتم هذه النقول، وقلتم مثلًا: الفوقيّة هنا فوقيّة العظمة، أو فوقيّة الغَلَبة، أو فوقيّة القهر، أو أنّها لا تدلّ على أنَّ الله فوق المخلوقات، بل إنّه ليس فوق العرش، وليس فوق السموات، وأنّ جميع الأماكن بالنسبة إليه سواء، وأنّه ليس له مكان ـ تعالى الله عمّا يقولون ـ نقول لكم: العقول السليمة تشهد بإقرار صفة الفوقيّة، وذلك لأنّ من لم يثبت الفوقيّة لزمه إثبات ضدها، ضدّان متباينان، لابدّ أن يوصف بأحدهما، من لم يوصف بالفوقيّة وصف بالسفليّة

وبالتحتيّة، وهذه صفة نقص لله تعالى، والله سبحانه أحقّ بأن يوصف بالفوقيّة، وقد ذُكر أنّ السفل والتّحت أماكن الشياطين، وأنّ إبليس وقومه وجنوده هم الّذين يوصفون بالسفل لا بالفوقية .

وقد دان أهل السنّة والمسلمون عمومًا بوصف الله تعالى بالفوقيّة، وأقروا بذلك في عقولهم، ووافقوا على تلك الأدلّة الصحيحة الصريحة، وعلموا أنّ من لم يكن موصوفًا بالعلوّ فهو موصوف بالسفل، ومن لم يكن موصوفًا بالفوقيّة فهو موصوف بالتحتيّة، واستدلّوا بهذه النّصوص، وأقرّوا على ذلك بعقولهم، ولا عبرة بمن خالفهم في ذلك، ولو كثر عددهم.

قرأتُ لبعض هؤلاء المبتدعة لما تكلّموا ونقلوا أثرًا يخالف معتقدًا على تفسير قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ ﴾ [الشورى: ٥]، فنقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «تكاد السموات تتفطّر من ثقل الربّ تعالى»[1]، فكبرت هذه الكلمة عند هذا الجهميّ ونحوه، فقال: من هيبته!! انظر كيف صرف هذا الأثر عن الظاهر، وجعل المراد الهيبة؟! لأنه لا يدين بأن الله تعالى فوق السموات، وأنّ السموات تتفطّر من ثقله، ويُكذب أيضًا ما ورد في الحديث أنّ العرش يئطّ به، ونحو ذلك.

فعلى كل حال يُقال لهم: العقول السليمة تدلّ على أنّ من لم يتصّف بالعلوّ اتّصف بالسفل، ومن لم يتّصف بالفوقيّة اتّصف بالتحتيّة، فأنت يلزمك إذا نفيت

---

(١) أخرجه الطبري (٢٥/ ٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦١٤).

الفوق أن تثبت التحت، وذلك وصف ذُلّ، أو وصف نقص كامل فلا يجوز، فأصبح العقل والنقل كلاهما متفقان على هذا الذي هو وصف كمال، وأصبحت عقلياتهم متهافتة، كما وصفها شيخ الإسلام بالبيت الذي استشهد به:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَكُلُّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ[1]

شبّهها بالزجاج، فإن الزجاجة إذا ضربت بأختها تكسّرت هذه، وتكسّرت هذه، هكذا شُبه هؤلاء وهؤلاء.

---

(١) راجع (٢/ ٢٣٠).

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: لَا نُسَلِّمَ أَنَّهُ قَابِلٌ لِلْفَوْقِيَّةِ حَتَّىٰ يَلْزَمَ مَنْ نَفْيِهَا ثُبُوتُ ضِدِّهَا. قِيلَ: لَو لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لِلْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَقِيقَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، فَمَتَى أَقْرَرْتُم بِأَنَّهُ ذَاتٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، غَيْرُ مُخَالِطٍ لِلْعَالَمِ، وَأَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الخَارِجِ، لَيْسَ وُجُودُهُ ذِهْنِيًا فَقَطْ، بَلْ وُجُودُهُ خَارِجَ الْأَذْهَانِ قَطْعًا، وَقَدْ عَلِمَ العُقَلاءُ كُلُّهُم بِالضَّرُورَةِ أَنَّ مَا كَانَ وُجُودُهُ كَذَلِكَ، فَهُوَ إِمَّا دَاخِلُ الْعَالَمِ، وَإِمَّا خَارِجٌ عَنْهُ، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارُ مَا هُوَ أَجْلَى وَأَظْهَرُ مِنَ الْأُمُورِ البَدِيهِيَّاتِ الضَّرُورِيَّةِ بِلَا رَيْبٍ، فَلَا يُسْتَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ بِدَلِيلٍ إِلَّا كَانَ الْعِلْمُ بِالْمُبَايَنَةِ أَظْهَرَ مِنْهُ، وَأَوْضَحَ وَأَبْيَنَ، وَإِذَا كَانَ صِفَةُ العُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ صِفَةَ كَمَالٍ، لَا نَقْصَ فِيهِ، وَلَا يَسْتَلْزِمُ نَقْصًا، وَلَا يُوجِبُ مَحْذُورًا، وَلَا يُخَالِفُ كِتَابًا، وَلَا سُنَّةً، وَلَا إِجْمَاعًا، فَنَفْيُ حَقِيقَتِهِ يَكُونُ عَيْنَ البَاطِلِ وَالْمُحَالِ الَّذِي لَا تَأْتِي بِهِ شَرِيعَةٌ أَصْلًا. فَكَيفَ إِذَا كَانَ لَا يُمْكِنُ الإِقْرَارُ بِوُجُودِهِ وَتَصْدِيقُ رُسُلِهِ، وَالْإِيمَانُ بِكِتَابِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُه إِلَّا بِذَلِكَ؟! فَكَيفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ شَهادَةُ العُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَالفِطَرِ المُسْتَقِيمَةِ، والنُّصُوصِ الوَارِدَةِ المُتَنَوِّعَةِ المُحْكَمَةِ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَكَوْنِهِ فَوْقَ عِبَادِهِ، الَّتِي تَقْرُبُ مِنْ عِشْرِينَ نَوْعًا.

---

قال الشيخ:

هذه مجادلةٌ مع أصحاب المذاهب العقليّة، ولا يستحسن التوسُّع في الكلام معهم بالعقليّات؛ لما في ذلك من سلبيات:

أولها: فيه مضيعةٌ للوقت.

وثانيًا: فيه إثارةٌ لشبهات لا ينبغي الخوض فيها.

وثالثًا: لا شكّ أنّ تصوّر ما يقولونه فيه مما يسبب التشويش على الإنسان، والتفكّر في أشياء لا يحتاج إلى التفكّر فيها، وقد أُمرنا بالتفكر في مخلوقات الله وآلائه؛ لأننا نأخذ منها عبرةً على عظمة خالقها، وأمّا ذات الخالق، وكيفيّة صفاته، فنصرف عنها الأفكار، ونستحضر في أذهاننا عظمته وجلاله وكبرياءه وعلوّه على خلقه، وتفرّده بالملك، وتفرّده بالتصرّف، واستحقاقه للعبادة من خلقه وللتعظيم، وإذا اعتقدنا ذلك كفينا عن الإثم، وعن الخوض في الأشياء الباطلة.

وكلامهم في وصف الله تعالى ليس له حقيقة ولا وجود إلا في الأذهان، وهم يقسمون الوجود إلى وجودين: وجود في الأذهان ووجود في الأعيان، خارج الأذهان هو الذي يمكن للعيان أن يصل إليه فيقول: إنّنا إذا تأمّلنا ما يقوله المعتزلة وما يقوله سلفهم، وهم الفلاسفة، من ذلك النفي المحض، وعدم الاعتراف بخالقٍ مدبِّر متصرِّف في الخلق.

فيُقال لهم: إمّا أن تعترفوا بوجود ربٍّ خارج الأذهان، أو لا تعترفوا، وعلى كل حال فإنّه ولابدّ فوق العباد، أو تحت، أو عن يمين، أو عن يسار، وجهة الفوقيّة أشرف الجهات، فاعتقدوها، ولا يلزم منها محذور إذا اعْتُقِدت، لا يلزم أن يقال: إنّها تدلّ على حصرٍ، أو على تحيّز، أو على تجسيم، أو على غير ذلك من المحظورات، التي يلتزمون بها، ندين بذلك ونترك خوضنا فيما يقولونه مما هو في الحقيقة نفيٌ محضٌ، ولا فرق بين ما يقولونه ويعتقدونه، وبين العدم المحض الذي هو حقيقة المعدوم الذي لا مدح له ولا وجود أصلًا فيمدح.

وبكلّ حال هذا هو معتقد أهل السنّة، وتلك هي أقوال الفلاسفة أخذها عنهم المعتزلة في أوّل الكلام، يقولون: إنّ ما يتّصف بالسفل يكون قابلًا للعلوّ، فإذا لم يكن قابلًا للعلوّ لم يلزم اتّصافه بالسّفل، وهذا أيضًا من أقوالهم في كل ما يعتقدونه، يقولون مثلًا: إنّه لا يقبل السمع ولا البصر، فلا يوصف به، يلتزمون ذلك في نفي السمع والبصر، وإذا قيل لهم مثلًا: شبَّهتم الله تعالى، فإذا نفيتم عنه السمع والبصر لزمكم أن تشبِّهوه بفاقد السمع وهو الأصمّ، وفاقد البصر وهو الأعمى، فيقولون: هذا لو كان قابلًا، أما إذا لم يكن قابلًا فلا. ثم يقولون مثلًا: الجدار لا يقبل الاتصاف بهما، فلا يُقال للجدار: حيًّا ولا ميِّتًا؛ لأنّه لا يقبلهما، ولا يُقال للجدار إنّه أصمّ ولا سميع ولا أعمى ولا بصير؛ لأنه ليس قابلًا لواحدٍ منهما.

وهذا ليس بصحيح؛ بل هو قابلٌ لهما، يوصف بأنّه جماد، ويوصف بأنّه ميت لا حركة فيه، فهو يقبل ذلك، فعُرف بذلك أن تمسّكهم بهذه الشبهة التّي تلقّوها من الفلاسفة شبهة باطلةٌ ضالّة.

قال الشارح:

أَحَدُهَا: التَّصْرِيحُ بِالفَوْقِيَّةِ مَقْرُونًا بِأَدَاةِ «مِنْ» المُعَيِّنَةِ لِلْفَوْقِيَّةِ بِالذَّاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

الثَّانِي: ذِكْرُهَا مُجَرَّدَةً عَنِ الأَدَاةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨].

الثَّالِثُ: التَّصْرِيحُ بِالعُرُوجِ إِلَيْهِ نَحْوُ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقوله ﷺ: «فيعرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيكُم فَيَسْأَلُهم»[1].

الرَّابِعُ: التَّصْرِيحُ بِالصُّعُودِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

الخَامِسُ: التَّصْرِيحُ بِرَفْعِهِ بَعْضَ المَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥].

السَّادِسُ: التَّصْرِيحُ بِالعُلُوِّ المُطْلَقِ الدَّالِّ عَلَى جَمِيعِ مَرَاتِبِ الْعُلُوِّ ذَاتًا وَقَدْرًا وَشَرَفًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

السَّابِعُ: التَّصْرِيحُ بِتَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر:١]. ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [غافر:٢]. ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [فصلت:٢]. ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢]. ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل:١٠٢]، ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان:١ ـ ٥].

الثَّامِنُ: التَّصْرِيحُ بِاخْتِصَاصِ بَعْضِ المَخْلُوقَاتِ بِأَنَّهَا عِنْدَهُ، وَأَنَّ بَعْضَهَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ بَعْضٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]. ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ [الأنبياء:١٩]. فَفَرَّقَ بَيْنَ «مَنْ لَهُ» عُمُومًا وَبَيْنَ «مَنْ عِنْدَهُ» مِنْ مَمَالِيكِهِ وَعَبِيدِهِ خُصُوصًا، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ: «عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»[1].

التَّاسِعُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ، وَهَذَا عِنْدَ المفَسِّرِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ «فِي» بِمَعْنَى «عَلَى»، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِالسَّمَاءِ العُلُوُّ، لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَجُوزُ الحَمْلُ عَلَى غَيْرِهِ.

العَاشِرُ: التَّصْرِيحُ بِالِاسْتِوَاءِ مَقْرُونًا بِأَدَاةِ «عَلَى» مُخْتَصًّا بِالْعَرْشِ، الَّذِي هُوَ أَعْلَى المَخْلُوقَاتِ، مُصَاحِبًا فِي الْأَكْثَرِ لِأَدَاةِ «ثُمَّ» الدَّالَّةِ عَلَى التَّرْتِيبِ وَالْمُهْلَةِ.

---

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

قال الشيخ:

الأدلّة على علوِّ اللهّ تعالى كثيرة، يمكن أن تصل إلى أكثر من مئتين ـ يعني: فروعها وأفرادها ـ ولكن بإجمال حصروها في هذه الوجوه، وهي تسمّى أنواعًا من الأدلّة، وكل نوع تحته أفراد:

النوع الأول: الفوقيّة المقرونة بـ «من»، ورد في قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠].

الثاني: ذكر الفوق مجردًا عن «من»، وهو عامٌّ لأنواع الفوقيّة، وهو قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٨]، يعمُّ ذلك أنّه فوقهم بقهره، وفوقهم بذاته، فوقيّةً تليق بجلاله.

الثالث: التصريح بالعروج، والعروج والمعراج: الرُّقيُّ، ذُكر في قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة: ٥]، وفي قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، ولا شكّ أنّ العروج يكون من أسفل إلى أعلى، وهذا دليل على أنّه العلي الأعلى.

الرابع: التصريح بالصّعود، والصعود هو الرُّقيُّ أيضًا، ذُكر في قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠]، الصعود معناه الرّقي، فدلَّ على إثبات صفة العلوّ.

الخامس: ذكر الرّفع، ومعلوم أنّ الرّفع يكون لشيء نازلٍ إلى شيءٍ رافع، ذُكر في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠]، وذُكر في قوله في

عيسى ـ عليه السلام ـ في سورة آل عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وفي سورة النساء: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]؛ كان عيسى ـ عليه السلام ـ في الأرض فرفعه الله تعالى إلى السموات، فهذا دليل على صفة العلوّ.

السادس: ذكرُ العلوّ، وكلمة العلوّ وردت بثلاث صيغ: وردت بصيغة العليّ، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]، ووردت بصيغة الأعلى، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل:٢٠].

ولا شكّ أنّ العلوّ يستلزم ثلاثة أنواع: علوّ القدر، وعلوّ القهر، وعلوّ الذّات.

السابع: التصريح بذكر أنّه في السّماء، في موضعين من سورة الملك: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦].

وأمّا في الأحاديث فكثيرٌ جدًا، كقوله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونَنِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(١)، وقوله: «ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ»(٢)، ولما قال للجارية: «أَيْنَ الله؟»، قالت: في السَّماء، فقال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٥).

مُؤْمِنَةٌ»[1]؛ تفسَّر هذه الكلمة بتفسيرين:

التفسير الأوّل: أنّ «في» بمعنى «على»، فيكون قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، يعني: على السّماء، ولا يلزم أن تكون السّماء تحيط به أو تحصره - تعالى الله - ويدل لذلك قوله تعالى عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، أي: على جذوع النّخل، وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، أي: على الأرض، وكذلك «في السماء»، أي: على السماء.

ولها معنى ثانٍ: أنّ السّماء اسمٌ للعلوّ، فكل ما علا وارتفع فهو سماء، فيكون قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من في العلوّ.

الثامن: ذكر التنزيل، والنّزول من الله تعالى في عدّة من المواضع، مثل قوله تعالى: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:٢]، والنزول معناه الهبوط، فدلَّ على أنَّ الملائكة تنزل من الله، وكذلك الكتاب نزل من الله، فهذا يستدعي أن يكون النزول من أعلى، فدلَّ على إثبات صفة العلوّ.

التاسع: تخصيص بعض المخلوقات بأنّها عند الله: قال تعالى عن امرأة فرعون: ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]. وقال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩]. والحديث الذي أورده المؤلف، وهو قوله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1]. فالتصريح بأنها عنده دليلٌ على صفة العلوّ، والله أخبر بأنّ بعض المخلوقات أقرب إليه مِن بعض، والقرب قد يكون حسيًّا، وقد يكون معنويًّا، وإن كان الجميع بالنسبة إلى قدرة الله وعظمته سويًّا.

العاشر: ذكر الاستواء، وقد ورد في سبعة مواضع: في سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سورة الرّعد: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾، وفي سورة طه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، وفي سورة الفرقان: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾، وفي سورة السجدة، وفي سورة الحديد، كلُّها ذكر فيها لفظ استوى. والعرب إذا ذكرت الاستواء وعُدِّيَ بـ (على) فإنّها تقصد بذلك العلوّ، دليل ذلك قوله تعالى في سفينة نوح: ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ [هود:٤٤]، استوت عليه: يعني استقرّت مرتفعة عليه، وقوله تعالى في الإبل: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف: ١٣]، يعني: تركبوا مرتفعين على ظهورها، فهذا الاستواء بمعنى الارتفاع.

فهكذا قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾، وقد فسّرها السلف رحمهم الله، وإن كان أكثرهم يفوّضون كيفيّتها، كما ذُكر عن مالك أنّه قال: «الاستواء معلوم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

والكيف مجهول»[1]، وصفه بأنّه معلوم، أي: معروف من جهة اللغة؛ لأنّه كلام عربيّ فصيح نزل على قوم يعرفونه ويفهمونه، فهو معروف يُفسّر ويبيّن ويترجم من لغة إلى أخرى، ولكن له كيفيّة؛ تلك الكيفيّة هي الممنوعة، وهي المجهولة، وهي الخفيّة التي لا يُخاض فيها، فالكيف مجهول. هذا تفسير السلف ـ رحمهم الله ـ مالك إمام دار الهجرة، وشيخه ربيعة بن أبي عبدالرحمن، وأم سلمة رضي الله عنها إحدى أمّهات المؤمنين روي عنهم هذا التفسير.

أمّا المعتزلة والنّفاة فقد حرّفوا هذه اللفظة، وجعلوها بمعنى الاستيلاء، فقالوا: استوى، أي: استولى.

وردَّ عليهم بعض علماء أهل السنّة، فقالوا: الاستيلاء عام، ليس خاصًا، فالله مستولٍ على جميع المخلوقات لا على العرش وحده، وإنّما خصّ الله الاستواء بالعرش، وأنتم تجعلون الاستواء بمعنى الاستيلاء، ولا خصوصيّة للعرش بذلك، وبذلك يبطل تأويلهم.

فعرفنا بذلك أنّ هذه الأنواع أنواع صريحة في أنّ الله سبحانه وتعالى فوق عباده، كما أخبر في هذه الأنواع من الأدلّة وغيرها.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٣).

قال الشارح:

الحَادِي عَشَر: التَّصْرِيحُ بِرَفْعِ الأَيْدِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذا رفعَ إليه يديهِ أَنْ يَرُدَّهُما صِفْرًا»[1].

وَالقَوْلُ بِأَنَّ العُلُوَّ قِبْلَةُ الدُّعَاءِ فَقَطْ بَاطِلٌ بِالضَّرُورَةِ وَالْفِطْرَةِ، وَهَذَا يَجِدُهُ مِنْ نَفْسِهِ كُلُّ دَاعٍ، كَمَا يَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الثَّانِي عَشَر: التَّصْرِيحُ بِنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَالنُّزُولُ المَعْقُولُ عِنْدَ جَمِيعِ الأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ.

الثَّالِثُ عَشَر: الإِشَارَةُ إِلَيْهِ حِسًّا إِلَى الْعُلُوِّ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ وَبِمَا يَجِبُ لَهُ، وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ البَشَرِ، لَمَّا كَانَ بِالمَجْمَعِ الأَعْظَمِ الَّذِي لَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ مِثْلُهُ، فِي اليَوْمِ الْأَعْظَمِ، فِي المَكَانِ الأَعْظَمِ، قَالَ لَهُم: «أَنْتُمْ مَسْؤولُونَ عَنِّي، فَماذا أَنْتُم قائِلُونَ؟»، قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَرَفَعَ أُصْبُعَهُ الْكَرِيمَةَ إِلَى السَّمَاءِ، رَافِعًا لَهَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهَا وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، قَائِلًا: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[2]. فَكَأَنَّا نُشَاهِدُ تِلْكَ الْأُصْبُعَ الْكَرِيمَةَ وَهِيَ مَرْفُوعَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ اللِّسَانَ الْكَرِيمَ وَهُوَ يَقُولُ لِمَنْ رَفَعَ أُصْبُعَهُ إِلَيْهِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». وَنَشْهَدُ أَنَّهُ بَلَّغَ البَلَاغَ المُبِينَ، وَأَدَّى رِسَالَةَ رَبِّهِ كَمَا أَمَرَ، وَنَصَحَ أُمَّتَهُ غَايَةَ النَّصِيحَةِ، فَلَا يُحْتَاجُ مَعَ

---

(١) أخرجه أبوداود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وأحمد (٥/ ٤٣٨) من حديث سلمان ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ.

بَيَانِهِ وَتَبْلِيغِهِ وَكَشْفِهِ وَإِيضَاحِهِ إِلَى تَنَطُّعِ الْمُتَنَطِّعِينَ، وَحَذْلَقَةِ الْمُتَحَذْلِقِين! وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الرَّابِعُ عَشَر: التَّصْرِيحُ بِلَفْظِ «الأَيْنَ»، كَقَوْلِ أَعْلَمِ الْخَلْقِ بِهِ، وَأَنْصَحِهِمْ لِأُمَّتِهِ، وَأَفْصَحِهِمْ بَيَانًا عَنْ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ، بِلَفْظٍ لَا يُوهِمُ بَاطِلًا بِوَجْهٍ: «أَيْنَ اللَّهُ»، فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ[1].

الْخَامِسُ عَشَر: شَهَادَتُهُ ﷺ لِمَنْ قَالَ: إِنَّ رَبَّهُ فِي السَّمَاءِ؛ بِالْإِيمَانِ.

السَّادِسُ عَشَر: إِخْبَارُهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ رَامَ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ لِيَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى، فَيُكَذِّبُهُ فِيمَا أَخْبَرَهُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ، فَقَالَ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦، ٣٧]، فَمَنْ نَفَى الْعُلُوَّ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ فَهُوَ فِرْعَوْنِيٌّ، وَمَنْ أَثْبَتَهُ فَهُوَ مُوسَوِيٌّ مُحَمَّدِيٌّ.

السَّابِعُ عَشَر: إِخْبَارُهُ ﷺ أَنَّهُ تَرَدَّدَ بَيْنَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَبَيْنَ رَبِّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِسَبَبِ تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ، فَيَصْعَدُ إِلَى رَبِّهِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مُوسَى عِدَّةَ مِرَارٍ[2].

الثَّامِنُ عَشَر: النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى رُؤْيَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَهُ تَعَالَى مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ كَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ، وَلَا يَرَوْنَهُ إِلَّا مِنْ فَوْقِهِم، كَمَا قَالَ ﷺ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِم، إِذْ سَطَعَ

---

(١) منها: سؤاله للجارية في الحديث المتقدم تخريجه (٣/ ٤٩).

(٢) كما ورد في حديث الإسراء والمعراج، وقد تقدم بتمامه فيما مضى.

لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا رُؤُسَهُمْ، فَإِذَا الجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِم مِنْ فَوْقِهِم، وَقَالَ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، سَلامٌ عَلَيْكُم، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، ثُمَّ يَتَوَارَى عَنْهُم، وَتَبْقَى رَحْمَتُهُ وبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ». رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ»(١)، وَغَيْرُه(٢)، مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ ﷺ.

---

قال الشيخ:

هذه أيضًا أنواعٌ من الأدلّة، كل نوع قد يكون تحته عدّة أفراد؛ فمنها:

رفع الأيدي، فقد ورد كثيرًا أنَّ النبي ﷺ كان إذا دعا رفع يديه، وكذلك صرّح بذلك في قوله في هذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِيّ مِنْ عَبْدِهِ إِذا رفعَ إليهِ يديهِ أَنْ يَرُدَّهُما صِفْرًا»(٣).

ولا شكّ أنّ الذي يرفع يديه إنّما يرفعهما إلى الله جل وعلا، وأنّه بذلك يستعطي ويستجدي، ويسأل ويطلب، فلو لم يكن ربُّه فوقه لما رفع يديه، فهذا دليل على ذلك.

كذلك من الأدلّة: الإشارة بالأصبع إليه في التشهّد، وكذلك في الخطب،

---

(١) لم أعثر عليه في نسخة المسند المطبوع بين أيدينا.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٨)، وأورده ابن كثير في تفسيره (٦/ ٥٨٣) من رواية ابن أبي حاتم، وقال: «في إسناده نظر».

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٥٢).

ونحو ذلك، فالنبيّ ﷺ لَـمَّا خطب في حجّة الوداع وبلّغهم وعلّمهم؛ قَالَ بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1]، ولاشكّ أنّ ذلك استشهاد بربّه الذي هو فوق العباد، وهذا من الأدلّة الواضحة على مسألة العلوّ والفوقيّة.

كذلك من أنواع الأدلّة السؤال بكلمة (أين)، كما في قوله ﷺ: «أين الله؟»، قاله للجارية، وقاله في غير حديث، وذلك دليل على أنّه سبحانه وتعالى فوق العباد، أي: أنّه اتصف بالفوقيّة، ولَـمَّا قالت الجارية: في السماء؛ شهد لها بالإيمان، وأفاد بأنّ أهل الإيمان هم الذين يعترفون بأنّ الربّ تعالى فوقهم، وأنّهم يعتقدون ذلك، وأنّ هذا فطرة الله التي فطر عليها الخلق، فهم يؤمنون بها.

كذلك مسألة رؤية المؤمنين لربِّهم في الجنّة، هي من المسائل التي اعترف بها أهل السنّة، ووافق عليها الأشاعرة، ونفتها المعتزلة، ولكن موافقة الأشاعرة حجّة عليهم، فهم ـ مع ذلك ـ لا يؤمنون بها إيمانًا حقيقيًا؛ لأنّهم ينكرون مسألة العلو، ولَـمَّا أنكروا العلوّ وجاءتهم الأدلّة في أنّ المؤمنين يرونَ ربَّهُم، لم يجدوا بدًّا من أن يقولوا بالرؤية اتّباعًا للأئمّة الذين ينتسبون إليهم، ومن جملتهم الأشعري الذي يقولون إنّ هذا معتقده، ولكن فسّروا الرّؤية بالمكاشفات القلبيّة، أو بالرؤية القلبيّة، أو برؤية أنواره، أو ما أشبه ذلك، فلم يثبتوا رؤيةً حقيقيّة؛ وذلك لأنها تردّ على مذهبهم بدحضه. وقد تكاثرت الأدلّة الصريحة التي تدلّ على إثبات الرؤية؛

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٥٢).

وأن بعض المؤمنين يرون ربّهم، وهي معروفة مشهورة تقدّم بعضها.

وبكلّ حال، فالأدلّة التي ذكرت وغيرها أنواع كثيرة دالّة على أنّ الله تعالى موصوف بأنّه فوق عباده، وبأنّه هو العليّ الأعلى، ومتى اعتقد المسلم هذا الاعتقاد الذي هو علوّ الله تعالى على خلقه وفوقيّته؛ فإنّه يستحضر دائمًا أن الله فوق عباده، وأنّه مع ذلك يسمعهم، ويراهم، ويطّلع عليهم، ويعلم مناجاتهم، ويعلم أقوالهم؛ فيزداد خشية وطاعة لله تعالى، ويعرف بأنّه أهل التقوى وأهل المغفرة.

قال الشارح:

وَلَا يَتِمُّ إِنْكَارُ الفَوْقِيَّةِ إِلَّا بِإِنْكَارِ الرُّؤْيَةِ، وَلِهَذَا طَرَّدَ الجَهْمِيَّةُ النَّفْيَيْنِ، وَصَدَّقَ أَهْلُ السُّنَّةِ بِالْأَمْرَيْنِ مَعًا، وَأَقَرُّوا بِهِمَا، وَصَارَ مَنْ أَثْبَتَ الرُّؤْيَةَ وَنَفَى العُلُوَّ مُذْبَذَبًا بَيْنَ ذَلِكَ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَهَذِهِ الأَنْوَاعُ مِنَ الأَدِلَّةِ لَوْ بُسِطَتْ أَفْرَادُهَا لَبَلَغَتْ نَحْوَ أَلْفِ دَلِيلٍ، فَعَلَى المُتَأَوِّلِ أَنْ يُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ! وَهَيْهَاتَ لَهُ بِجَوَابٍ صَحِيحٍ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ!

وَكَلَامُ السَّلَفِ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ العُلُوِّ كَثِيرٌ جِدًّا، فَمِنْهُ: مَا رَوَى شَيْخُ الإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الأَنْصَارِيُّ فِي كِتَابِهِ «الفَارُوق»، بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي مُطِيعٍ البَلْخِيِّ: أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا حَنِيفَةَ عَمَّنْ قَالَ: لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الأَرْضِ؟ فَقَالَ: قَدْ كَفَرَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، قُلْتُ: فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ عَلَى العَرْشِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لَا أَدْرِي العَرْشُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: هُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، فَمَنْ أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، فَقَدْ كَفَرَ. وَزَادَ غَيْرُهُ: لِأَنَّ اللَّهَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّين، وَهُوَ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ. انْتَهَى[1].

وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، فَقَدْ انْتَسَبَ إِلَيْهِ طَوَائِفُ مُعْتَزِلَةٌ وَغَيْرُهُمْ، مُخَالِفُونَ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنِ اعْتِقَادَاتِهِ، وَقَدْ يُنْسَبُ إِلَى مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ مَنْ يُخَالِفُهُمْ فِي بَعْضِ اعْتِقَادَاتِهِمْ. وَقِصَّةُ أَبِي يُوسُفَ فِي اسْتِتَابَتِهِ لِبِشْرٍ المِرِيسِيِّ لَـمَّا أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فَوْقَ العَرْشِ مَشْهُورَةٌ. رَوَاهَا

---

(١) انظر: الفقه الأكبر (ص١٣٥).

عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَغَيْرُهُ.

وَمَنْ تَأَوَّلَ «فَوْقَ»، بِأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ عِبَادِهِ وأَفْضَلُ مِنْهُمْ، وَأَنَّه خَيْرٌ مِنَ الْعَرْشِ وَأَفْضَلُ مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ: الأَمِيرُ فَوْقَ الوَزِيرِ، وَالدِّينَارُ فَوْقَ الدِّرْهَمِ، فَذَلِكَ مَا تَنْفِرُ عَنْهُ العُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَتَشْمَئِزُّ مِنْهُ القُلُوبُ الصَّحِيحَةُ. فَإِنَّ قَوْلَ القَائِلِ ابْتِدَاءً: اللَّهُ خَيْرٌ مِنْ عِبَادِهِ، وَخَيْرٌ مِنْ عَرْشِهِ؛ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ: الثَّلْجُ بَارِدٌ، وَالنَّارُ حَارَّةٌ، وَالشَّمْسُ أَضْوَأُ مِنَ السِّرَاجِ، وَالسَّمَاءُ أَعْلَى مِنْ سَقْفِ الدَّارِ، وَالجَبَلُ أَثْقَلُ مِنَ الحَصَى، وَرَسُولُ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ فُلَانٍ اليَهُودِيِّ، وَالسَّمَاءُ فَوْقَ الأَرْضِ!! وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَمْجِيدٌ وَلَا تَعْظِيمٌ وَلَا مَدْحٌ؛ بَلْ هُوَ مِنْ أَرْذَلِ الْكَلَامِ وَأَسْمَجِهِ وَأَهْجَنِهِ! فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَلَامِ اللَّهِ، الَّذِي لَو اجْتَمَعَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، لَمَا أَتَوا بِمِثْلِهِ وَلَو كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرًا!! بَلْ فِي ذَلِكَ تَنَقُّصٌ كَمَا قِيلَ فِي المَثَلِ السَّائِرِ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا[1]

وَلَو قَالَ قَائِلٌ: الجَوْهَرُ فَوْقَ قِشْرِ البَصَلِ وَقِشْرِ السَّمَكِ؛ لَضَحِكَ مِنْهُ العُقَلَاءُ، لِلتَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، فَالتَّفَاوُتُ الَّذِي بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ المُقَامُ يَقْتَضِي ذَلِكَ، بِأَنْ كَانَ احْتِجَاجًا عَلَى مُبْطِلٍ، كَمَا فِي قَوْلِ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]،

---

(١) ذكر نحوه الثعالبي في يتيمة الدهر (٥/ ٢٩٩) ونسبه إلى أبي درهم البندنيجي، وفيه:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَزْرِي بِهِ الفَتَى ... إِذَا قَالَ هَذَا السَّيْفُ أَمْضَى مِنَ العَصَا

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه:٧٣].

---

قال الشيخ:

يبيّن الشارح بهذا الردّ على هؤلاء المتأوّلين؛ وذلك لأنّهم لما جاءتهم هذه الأدلّة، التي يقول: لو بسطت أفرادها لبلغت ألف دليل، وأنّهم يعجزون عن أن يجيبوا عنها دليلًا دليلًا، يقول إنّهم: سلكوا للتخلّص منها مسالك رديئة، فالذين قالوا مثلًا: إنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، المراد: خيرٌ من عباده، ومعنى فوقهم: خير منهم، كما يُقال: هذا الطعام فوق هذا الطعام، يعني: خير منه، أو هذه الشاة فوق هذا الشاة، يعني: أفضل منها، وما أشبه ذلك. فتأوّلوا قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾، بمعنى: خير من عباده، وهذا من الكلام البارد الذي لا فائدة فيه، ومَرَّ بنا الكثير من هذه الأمثلة التي يُردّ بها هذا الكلام، ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق حتى يقال: إنّ اللهّ خير من عباده.

وقد سمّاهم الله عباده، فكيف مع ذلك يقال: إن (فوقهم) بمعنى خير منهم!!؟ ثم إنه لا يُقال: إن الملك الذي يملك الكثير من البلاد خيرٌ من المملوك الذي هو عبدٌ ذليل؛ لأنّه لا مناسبة بينهم، ولو قال قائل ذلك لاستحقّ التأديب، كيف يقال: إنّ هذا خيرٌ من عبده؟

وهكذا أيضًا بقيّة الكلام الذي ذكره الشارح عنهم، فهو كلام بارد سمج، يعني: مثل قولهم: السماء فوقنا، والأرض تحتنا، والشمس حارّة، وهي أضوأ من

السراج، فلا مناسبة بينهما حتى يقال ذلك، وضرب الشارح المثل بهذا البيت.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ  إِذا قِيْلِ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضى مِنَ العَصا

صحيح أنّ السيف أمضى من العصا، ولكن ينقُص قدر السيف إذا قيل هذا؛ لأنّه لا مناسبة بينهما، فالسيف له قدره، والعصا أنقص وأنقص وأنقص، وكذلك المثل الذي سمعنا؛ لو قال قائل: الجوهر الذي هو من أنفس ما يُدّخر خير من قشر البصل، أو من قشر السمك، صحيح، ولكن يسخر من ذلك العاقل، وأي عاقل إذا سمع هذا استهزأ بقائله، وقال: لا مناسبة بين ذلك، فبذلك يُعرف أنّ هذا الكلام كلامٌ رديءٌ، وأنّه لا مناسبة له، وعلى هذا فإنه ينبغي تفسير هذه الآيات بالمعاني التي تناسبها.

فيقال عن الفوقيّة: إنّها عامّة في فوقيّة القدر، وفوقيّة الذات، وفوقيّة القهر والغلبة، ويقال أيضًا في العلوّ: إنّ الله تعالى عليّ بجميع أنواع العلوّ، ومن ذلك: علوّ الذات، ويقال في بقيّة الأدلّة مثل ذلك، ويقال: إذا اجتمعت هذه الأدلّة بأنواعها التي لو بسطت لبلغت أفرادها ألفَ دليل: كيف إذا اجتمع منها عشرةٌ صعب التخلّص منها، فكيف إذا اجتمع مئة؟ كيف إذا اجتمع ما يقرب من ألف؟ كيف يجيبون عنها ويتخلّصون؟؟

إذًا ليس لهم إلّا أن يسلّموا بهذه الصفة، التي هي صفة العلوّ لله سبحانه وتعالى، وعند ذلك إذا اعترفوا بأنّ الله هو العليّ الأعلى؛ فإنهم يعترفون بصفاته التي منها أنّه قريب منهم، وأنّه مطّلع عليهم، وأنّ علوّه وارتفاعه على خلقه لا يلزم منه غيبة ولا بعد ولا خفاء شيء عليه، كما أخبر بذلك في كتابه

بقولـــه تعـــالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس:٦١]، العُزُوْب: بمعنى الغياب، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [المؤمنون:١٧]، أي: أنّه تعالى ليس غافلًا عن عباده، بل هو مطّلع عليهم.

ولمّا رفع الصحابة أصواتهم مرّة بالتكبير وكانوا في سفر، قال لهم ﷺ: «**ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّه مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**»[1]. أمرهم ـ والحال هذه ـ أن يدعوا ربَّهم سرًّا، وأنْ يُناجُوا ربَّهُم، وأخبر بأنّهم يذكرونه، وأنّهم يستحضرونه، وأنّه يعلم سرّهم ونجواهم.

فمتى استشعر العبد هذه الصفة التي هي صفة العلوّ والفوقيّة والقهر والغلبة، واستشعر أيضًا صفة القرب والمناجاة ونحو ذلك، حمله هذا الاستشعار كلّه والاستذكار على أنّ يعظم ربّه، وأن يعبده حقّ عبادته.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

قال الشارح:

وَإِنَّمَا يَثْبُتُ هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْفَوْقِيَّةِ فِي ضِمْنِ ثُبُوتِ الْفَوْقِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقِيَّةُ الْقَهْرِ، وَفَوْقِيَّةُ الْقَدْرِ، وَفَوْقِيَّةُ الذَّاتِ، وَمَنْ أَثْبَتَ الْبَعْضَ وَنَفَى الْبَعْضَ، فَقَدْ تَنَقَّصَ.

وَعُلُوُّهُ تَعَالَى مُطْلَقٌ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، فَإِنْ قَالُوا: بَلْ عُلُوُّ الْمَكَانَةِ لَا الْمَكَانِ؛ فَالْمَكَانَةِ: تَأْنِيثُ الْمَكَانِ، وَالْمَنْزِلَةُ: تَأْنِيثُ الْمَنْزِلِ، فَلَفْظُ: «الْمَكَانَةِ وَالْمَنْزِلَةِ» يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَكَانَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالرَّوْحَانِيَّةِ، كَمَا يُسْتَعْمَلُ لَفْظُ: «الْمَكَانِ وَالْمَنْزِلِ» فِي الْأَمْكِنَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ، فَإِذَا قِيلَ: لَكَ فِي قُلُوبِنَا مَنْزِلَةٌ، ومَنْزِلَةُ فُلَانٍ فِي قُلُوبِنَا وَفِي نُفُوسِنَا أَعْظَمُ مِنْ مَنْزِلَةِ فُلَانٍ، كَمَا جَاءَ فِي الأَثَرِ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدَكُم أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُ العَبْدَ مِنْ نَفْسِهِ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ قَلْبِهِ»[1].

فَقَوْلُهُ: «مَنْزِلَةُ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ»: هُوَ مَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِذَا عُرِفَ أَنَّ: «الْمَكَانَةَ وَالْمَنْزِلَةِ»: تَأْنِيثُ الْمَكَانِ وَالْمَنْزِلِ، وَالْمُؤَنَّثُ فَرْعٌ عَلَى الْمُذَكَّرِ فِي اللفْظِ وَالْمَعْنَى، وَتَابِعٌ لَهُ، فَعُلُوُّ الْمِثْلِ الَّذِي يَكُونُ فِي الذِّهْنِ يَتْبَعُ عُلُوَّ الحَقِيقَةِ، إِذَا كَانَ مُطَابِقًا كَانَ حَقًّا، وَإِلَّا كَانَ بَاطِلًا.

فَإِنْ قِيلَ: الْمُرَادُ: عُلُوُّهُ فِي الْقُلُوبِ، وَأَنَّهُ أَعْلَى فِي الْقُلُوبِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (ص٣٣٣)، وأبو يعلى (٣/ ٣٩٠)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٧)، والحاكم (١/ ٤٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٩٨) من حديث جابر ﷺ.

قِيلَ: وَكَذَلِكَ هُوَ، وَهَذَا العُلُوُّ مُطَابِقٌ لِعُلُوِّهِ فِي نَفْسِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَالِيًا بِنَفْسِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، كَانَ عُلُوُّهُ فِي القُلُوبِ غَيْرَ مُطَابِقٍ، كَمَنْ جَعَلَ مَا لَيْسَ بِأَعْلَى أَعْلَى.

وَعُلُوُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا هُوَ ثَابِتٌ بِالسَّمْعِ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَالفِطْرَةِ، أَمَّا ثُبُوتُهُ بِالْعَقْلِ؛ فَمِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: العِلْمُ البَدِيهِيُّ القَاطِعُ بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا سَارِيًا فِي الآخَرِ، قَائِمًا بِهِ كَالصِّفَاتِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَائِمًا بِنَفْسِهِ بَائِنًا مِنَ الآخَرِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ العَالَمَ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَلَقَهُ فِي ذَاتِهِ أَو خَارِجًا عَنْ ذَاتِهِ، وَالأَوَّلُ بَاطِلٌ، أَمَّا أَوَّلًا: فَبِالِاتِّفَاقِ، وَأَمَّا ثَانِيًا: فَلِأَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لِلْخَسَائِسِ وَالْقَاذُورَاتِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَالثَّانِي يَقْتَضِي كَوْنَ العَالَمِ وَاقِعًا خَارِجَ ذَاتِهِ، فَيَكُونَ مُنْفَصِلًا، فَتَعَيَّنَتِ المُبَايَنَةُ؛ لأنّ القولَ بأنّه غَيْرُ متَّصلٍ بالعالم، وغَيْرُ منفصلٍ عنه غَيْرُ معقول.

الثَّالِثُ: أَنَّ كَوْنَهُ تَعَالَى لَا دَاخِلَ العَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ يَقْتَضِي نَفْيَ وُجُودِهِ بِالْكُلِّيَّةِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، فَيَكُونُ مُوْجُودًا إِمَّا دَاخِلَهُ وَإِمَّا خَارِجَهُ، وَالأَوَّلُ بَاطِلٌ، فَتَعَيَّنَ الثَّانِي، فَلَزِمَتْ المُبَايَنَةُ.

---

قال الشيخ:

استكمل الشارح بقية كلام عن العلوّ والفوقيّة، وقد ذكر فيما سبق أن العلوّ ثلاثة أنواع: علوّ الذات، وعلوّ القدر، وعلوّ القهر. كذلك الفوقيّة: فوقيّة القدر،

وفوقيّة القهر، وفوقيّة الذات.

**فوقيّة القدر**: مثل أن تقول: الذهب فوق الفضّة؛ يعني: فوقها قدْرًا، هذه فوقيّة القدر.

**فوقيّة القهر**: كأن تقول: الأمير فوق الرَّعيّة؛ يعني: فوقيّة قهر، أي قاهر لهم.

**وفوقيّة الذات**: كأن تقول: الأمير فوق الكرسي، يعني: أنّه فوقه بذاته.

فنثبت لله تعالى الفوقيّة بأنواعها، والعلو بأنواعه.

وإذا أثبتنا لله فوقية الذات؛ فإننا نثبت مع ذلك قربه، ومعيّته، ومراقبته لعباده، وكونه لا تخفى عليه منهم خافية، بل هو قريب منهم، كما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦].

من هذا يُعرف أنّ الفوقيّة لله تعالى بكلّ الأنواع، فالذين تأوّلوا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٨]، وقالوا: بفوقيّته الغلبة؛ هؤلاء قد استدلّوا بكلمة القهر ليقولوا: هذا نوع من أنواع الفوقيّة.

وقد دلّ على النوع الثاني من أنواع الفوقيّة قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠]، فإنّ هذه لا تحتمل أنّها فوقيّة القهر، بل هي فوقيّة الذات، فهم يخافون ربّهم، وربّهم فوقهم، معنى ذلك أنّه مطّلع عليهم وقريب منهم.

وكذلك العلوّ قد يُستعمل بمعنى الغلبة، كما حكى الله تعالى عن فرعون أنّه قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤]، فأراد بالعلوّ هنا الغلبة، أي: أنا الغالب، وأنا المتصرّف، وأنا المالك، وهذا نوع من أنواع العلوّ.

فالله تعالى وصف نفسه بقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠]، فنقول الأعلى: علوّ غلبة، وعلوّ قهر، وعلو قدر وذات، له أنواع العلوّ كلّها، ولا يلزم من ذلك أن يكون محتاجًا لشيء من مخلوقاته، بل هو غنيّ عن العرش وما دونه، كما تقدّم.

وقد ذكرنا أنّ العلوّ صفة دلّ عليها العقل والفطرة، كما دلّ عليها السّمع الذي هو النقل، والنصوص التي وردت دالّة على صفة العلو أكثر من أن تحصر، والفطرة والعقل دالٌّ لكلّ عاقل على صفة العلوّ.

أما في صفة الاستواء فدلّ عليها النقل؛ دلّت عليها نصوص الآيات الصريحة التي لا تحتمل التأويل، وقد ذكر العلماء بتوسّع آيات الاستواء، مما يدلّ على أنّهم متّفقون على دلالتها على العلوّ؛ حيث إنّها عُدّيت بـ (على): ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وكلمة (على) تدلّ على الفوقيّة، أي: فوق العرش.

فسّروها بأربعة تفاسير: قال بعضهم: استوى على العرش يعني: استقرّ عليه، وقال آخرون: ارتفع عليه، وقال آخرون: علا، وقال البعض: صعد.

كما نظم ذلك ابن القيّم في «النونيّة»[1] بقوله:

وَلَقَدْ أَتَىٰ فِي عَشْرِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْـ ... ـقُولِ فِي فَوْقِيَّةِ الرَّحْمَنِ

مَعَ مِثْلِهَا أَيْضًا يَزِيدُ بِوَاحِدٍ ... هَا نَحْنُ نَسْرِدُهَا بِلَا كِتْمَانِ

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٣٩٦).

مِنْهَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي ... سَبْعٍ أَتَتْ فِي مُحْكَمِ القُرْآنِ
وَكَذَلِكَ اطَّرَدَتْ بِلَا لَامٍ وَلَوْ ... كَانَتْ بِمَعْنَى اللامِ فِي الأَذْهَانِ
لَأَتَتْ بِهَا فِي مَوْضِعٍ كَيْ يُحْمَلُ ... البَاقِي عَلَيْهَا بِالبَيَانِ الثَّانِي
وَنَظِيرُ ذَا إِضْمَارُهُمْ فِي مَوْضِعٍ ... حَمْلًا عَلَى المَذْكُورِ فِي التِّبْيَانِ

اطَّردت في سبع مواضع بلا لام، ولم تمرّ في موضع واحد باللام (استولى).

والسلف فسّروها بأربعة تفاسير، وذكر ذلك في قوله[1]:

وَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ ... قَدْ حُرِّرَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ ... تَفَعَ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعَدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ ... وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي
يَخْتَارُ هَذَا القَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ ... أَدْرَىٰ مِنَ الجَهْمِيِّ بِالْقُرْآنِ

أبو عبيدة هو: معمر بن المثنّى من علماء اللغة، فسّر قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: صعد. وذكروا أنّه طَرَقَ جمعٌ من أصحابه الباب، وكان بغرفة في أعلى بيته، فأطلّ عليهم من فوق، وقال: استووا، أي: ارتفعوا واصعدوا إليّ.

وعلى كل حال، فإن الاستواء دلّ عليه النقل، ولا يخالفه العقل، وبقيّة الأدلّة تؤيّد العقل، فعُرِفَ بذلك أنّ الاستواء دلّ عليه السمع، وأنّ العلو قد دلّ عليه السمع الذي هو النصوص، والعقل الذي هو الفطرة، وأنّ تأويلات المتأوّلين بأنّ

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٤٤٠).

المراد علوّ المكانة وعلوّ المنزلة، وأنّ هذا مثل قولهم: فلان له منزلة في قلبي، أو مكانة في نفسي، وفسّروا أنّ العلوّ علوّ المكانة.

نقول: هذا خلاف الظاهر، وإذا قلنا: إنّ الله فوق عباده لم يلزم أن يكون محتاجًا لشيء من مخلوقاته، بل هو سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وكما قال الشارح ـ رحمه الله ـ: (المَكانَةُ وَالمَنْزِلَةُ: تَأْنِيثُ المَكَانِ وَالمَنْزِلِ)، وعلى هذا يكونوا قد أثبتوا مكانًا ومنزلًا، وسواء كان هذا المكان في قلوب العباد أو فوق العباد، لازم أنهم قد أثبتوه.

ثم من وجوه دلالة العقل ـ كما تقدم ـ فقد ذكر الشارح أنّ العقل دلّ على انفصال الخالق عن المخلوق وتميزه عنه، وأنه لا يمكن أن يكون الخالق مختلطًا بالمخلوق، فإن ذلك يلزم منه أنه محل لحلول الحوادث، وأن قول الفلاسفة لا داخل العالم ولا خارجه قول بالنفي المحض، فالشيء الذي لا داخل العالم ولا خارجه هذا هو المعدوم حقًا، ويكون قولهم هذا قولًا بالنفي المحض. فيكونون لا يثبتون إلهًا ـ تعالى الله عن قولهم ـ بخلاف أهل السنة، الذين أثبتوا أنه فوق العالم، وأنه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، وأنه خلق خلقه متميزين عنه، وهو الذي ابتدأ خلقهم وأنشأهم، وقال لأحدهم: كن فيكون كما أخبر بذلك، والخلق خلقه والأمر أمره، والعباد عليهم أن يعبدوه، وأن يصفوه بصفاته التي هي صفاتُ كمال.

قال الشارح:

وَأَمَّا ثُبُوتُهُ بِالْفِطْرَةِ، فَإِنَّ الخَلْقَ جَمِيعًا - بِطِبَاعِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ السَّلِيمَةِ - يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ، وَيَقْصِدُونَ جِهَةَ العُلُوِّ بِقُلُوبِهِمْ عِنْدَ التَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ المَقْدِسِيُّ أَنَّ الشَّيخَ أَبَا جَعْفَر الهَمَذَانِي حَضَرَ مَجْلِسَ الأُسْتَاذِ أَبِي المَعَالِي الجُوَيْنِيِّ المَعْرُوف بِإِمَامِ الحَرَمَيْنِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي نَفْيِ صِفَةِ العُلُوِّ، وَيَقُولُ: كَانَ اللَّهُ وَلَا عَرْشَ، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا كَانَ! فَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَر: أَخْبِرْنَا يَا أُسْتَاذُ عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا؟ فَإِنَّهُ مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ: يَا اللَّه، إِلَّا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ ضَرُورَةً تَطْلُبُ العُلُوَّ، لَا يَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، فَكَيفَ نَدْفَعُ هَذِهِ الضَّرُورَةَ عَنْ أَنْفُسِنَا؟

قَالَ: فَلَطَمَ أَبُو المَعَالِي عَلَى رَأْسِهِ وَنَزَلَ! وَأَظُنُّهُ قَالَ: وَبَكَى! وَقَالَ: حَيَّرَنِي الهَمَذَانِي، حَيَّرَنِي الهَمَذَانِي! أَرَادَ الشَّيْخُ: أَنَّ هَذَا أَمْرٌ فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَلَقَّوْهُ مِنَ المُعَلِّمِينَ، يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ طَلَبًا ضَرُورِيًّا يَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ، وَيَطْلُبُهُ فِي العُلُوِّ.

وَقَدْ اعْتُرِضَ عَلَى الدَّلِيلِ العَقْلِيِّ بِإِنْكَارِ بَدَاهَتِهِ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَهُ جُمْهُورُ العُقَلَاءِ، فَلَو كَانَ بَدِيهِيًّا، لَمَا كَانَ مُخْتَلَفًا فِيهِ بَيْنَ العُقَلَاءِ، بَلْ هُوَ قَضِيَّةٌ وَهْمِيَّةٌ خَيَالِيَّةٌ.

وَالجَوَابُ عَنْ هَذَا الِاعْتِرَاضِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَلَكِنْ أُشِيرُ إِلَيْهِ هُنَا إِشَارَةً مُخْتَصَرَةً، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ العَقْلَ إِنْ قَبِلَ قَوْلَكُم، فَهُوَ لِقَوْلِنَا أَقْبَلُ، وَإِنْ رَدَّ العَقْلُ قَولَنَا، فَهُوَ لِقَوْلِكُم أَعْظَمُ رَدًّا، فَإِنْ كَانَ قَوْلُنَا بَاطِلًا فِي العَقْلِ، فَقَوْلُكُمْ أَبْطَلُ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُكُمْ حَقًّا مَقْبُولًا فِي العَقْلِ، فَقَولُنَا أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا فِي

العَقْلِ، فَإِنَّ دَعْوَى الضَّرُورَةِ مُشْتَرَكَةٌ.

فَإِنَّا نَقُولُ: نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ بُطْلَانَ قَوْلِكُمْ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ كَذَلِكَ، فَإِذَا قُلْتُمْ: تِلْكَ الضَّرُورَةُ الَّتِي تَحْكُمُ بِبُطْلَانِ قَوْلِنا هِيَ مِنْ حُكْمِ الْوَهْمِ لَا مِنْ حُكْمِ العَقْلِ، قَابَلْنَاكُمْ بِنَظِيرِ قَوْلِكُمْ، وَعَامَّةُ فِطَرِ النَّاسِ ـ لَيْسُوا مِنْكُمْ وَلَا مِنَّا ـ يُوافِقُونَنَا عَلَى هَذَا، فَإِنْ كَانَ حُكْمُ فِطَرِ بَنِي آدَمَ مَقْبُولًا، تَرَجَّحْنَا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ كَانَ مَرْدُودًا غَيْرَ مَقْبُولٍ، بَطَلَ قَوْلُكُمْ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا بَنَيْتُمْ قَوْلَكُمْ عَلَى مَا تَدَّعُونَ أَنَّهُ مُقَدِّمَاتٌ مَعْلُومَةٌ بِالْفِطْرَةِ الآدَمِيَّةِ، وَبَطَلَتْ عَقْلِيَّاتُنَا أَيْضًا، وَكَانَ السَّمْعُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ مَعَنَا لَا مَعَكُمْ، فَنَحْنُ مُخْتَصُّونَ بِالسَّمْعِ دُونَكُمْ، وَالعَقْلُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أَكْثَرُ العُقَلَاءِ يَقُولُونَ بِقَوْلِنَا، قِيلَ: لَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الَّذِينَ يُصَرِّحُونَ بِأَنَّ صَانِعَ العَالَمِ لَيْسَ هُوَ فَوْقَ العَالَمِ، وَلَيْسَ فَوْقَ العَالَمِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ، وَأَنَّهُ لَا مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا حَالٌّ فِي الْعَالَمِ، طَائِفَةٌ مِنَ النُّظَّارِ، وَأَوَّلُ مَنْ عُرِفَ عَنْهُ ذَلِكَ فِي الإِسْلَامِ: جَهْمُ بنُ صَفْوَانٍ، وَأَتْبَاعُهُ.

---

قال الشيخ:

مر معنا هذه الدلالة العقلية كما ذكرنا، وهي دلالةٌ على صفة العلو.

وقد ذكر العلماء أن صفة الاستواء دلّ عليها الكتاب والسنة، وأن صفة العلو قد دلَّ عليها الكتاب والسنة والفطرة، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ

عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠]، فالناس مفطورون وقلوبهم موجهة إلى السماء لا يقدرون أن ينكروا ذلك، إذا ناجى أحدهم ربه رفع رأسه، حتى ذكروا أن الدواب إذا أجدبت ترفع رؤوسها إلى السماء، وهذا أيضًا دليل على أنّ هذه الفطرة فطرة عامة، فالخلق المكلَّف وغيره قد فُطر على الخوف والرهبة من الله تعالى فوقه.

وهذه الحكاية من أبي المعالي الجويني وأبي علي الهمداني مشهورة، هذا الجويني عالم مشهور من علماء الشافعية، ولكنه من الأشاعرة، الذين ينكرون صفة العلو، وإن كانوا يقرون بكثير من الصفات، لكن صفة العلو التزموا إنكارها، وحجته: أن الله كان قبل أن يخلق العرش، وهو الآن على ما كان قبل خلق العرش، وهذه الحجة وهمية ليست بلازمة ولا مقنعة.

صحيح أن الله تعالى كان قبل كل شيء، وأنه هو الذي خلق العرش وما دون العرش، وأنه مستغن عن العرش وما دونه، ولا يلزم من استوائه على العرش أنه محتاج إليه أو إلى غيره.

لما تكلَّم الجويني في هذا الجمع الكبير، اعترض عليه الهمداني بهذا الاعتراض، وقال: دعنا من هذا، نحن مضطرون أن نرفع أبصارنا إلى السماء عند الدعاء، فإذا دعا أحدنا ربه، وجد من قلبه ميلًا إلى العلو، لا يلتفت يمنة، ولا يسرة، ولا أمام، ولا خلف، ولا تحت، هذه الضرورة التي نجدها بقلوبنا كيف ندفعها؟ لا نستطيع دفعها، هذه نظريةٌ عقليةٌ راسخة في القلوب.

ولَـمَّا تكلم الهمداني بهذا حيَّر الجويني، ولم يجد إلا أن يستسلم،

فقال: (حيَّرني الهمداني، حيرني الهمداني).

صحيحٌ أن هذه فطرة فطر اللَّهُ الخلق عليها، لا يستطيعون أن ينكروها، لكن هؤلاء الذين أنكروها أبدًا كانوا مفطورين عليها، وإنما أنكروها عنادًا، وإلا فلا شك أن قلوبهم تميل إلى فوق، ولكنهم لما تلقوا هذه العقيدة عن أكابرهم ومشايخهم لم يجدوا بدًّا من الاستسلام لها، وصرف الاعتراض عليها، هذا هو السبب في كونهم ينكرون ما هو مباشر وما هو منشور.

ثم لقولهم: لو كانت فطرية لاستوى الناس فيها وفي الإقرار بها، فإن الناس كلهم ذوو عقول.

الجواب: قد أقر بها من بقي على فطرته، وأما من تغيرت فطرته، فلا يُلتفت إلى إنكاره؛ وذلك أن هؤلاء المنكرين ممن تغيرت فطرته؛ الله تعالى فطر الناس على معرفته، فتغيرت تلك الفطرة بالبيئة وبالمجتمعات، وبالتربية السيئة فصار لهم حالتان:

إما أنهم مقرون بقلوبهم ولكنهم ينكرون بألسنتهم ما في قلوبهم من الميل إلى الفوقية. وإما أنهم تغيرت فطرتهم، فلم يبقَ في قلوبهم ذلك الميل الذي كان فيها عندما وُلدوا.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن الفطرة تتغير بالمجتمعات في قوله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1]، يعني:

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٩٩).

أنه مولودٌ على الفطرة، التي هي معرفة ربّه، ومعرفة خالقه، وإقراره بالفوقيّة، لكن أبويه ومجتمعه ومعلميه ومدربيه هم الذين يفسدون تلك الفطرة إلى ما يعتقدونه، حتى يصير يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا وثنيًا أو مبتدعًا أو منحلًا أو جهميًا أو غيره.

فإن الله تعالى قد فطر الناس على هذه الفطرة، ولكن هؤلاء أنكروا بزعمهم، وادَّعوا بأن عقولهم لا تدلّ على هذه الفطرة، ولا على هذه العقلية!!

ويُقال في جوابهم أيضًا: أقر بهذه الفطرة وبهذه الخلقة الخلق الكثير، الذين بقوا على عقيدتهم. وأنكرتموها وأنتم على ما أنتم عليه، فيتقابل إقرار هؤلاء، وإقرار هؤلاء، فننظر أيهما أرجح، فنجد أن هؤلاء المقرين في جانبهم النقل من الكتاب والسنة، فيجتمع العقل والنقل، فيكون أرجح من الذين ليس معهم إلا العقل.

ثانيًا: أن عقول هؤلاء دائمًا واهية تتغيّر، وتختلف اختلافًا كثيرًا، فنجد اثنين يتعلمان على معلم واحد ثم يختلفان، فهذا يقول: أنكر عقلي كذا، وهذا يقول: لم ينكره عقلي. وتجد الواحد يبقى مثلًا برهة من الزمن، وهو يقرّ ويعترف بهذا الأمر، ثم تغلب دعوى المجتمعات فتصرفه وينقلب ويقول أنكره قلبي برهة من الزمن!! وقلبك مقرّ به، ثم بعد ذلك أنكره.

وقد يكون العكس؛ إذ يتربى عشرين أو ثلاثين سنة وهو منكر له؛ تقليدًا لمجتمعه، وتقليدًا لمدرسيه ولمعلميه، ثم بعد ذلك يمنّ الله عليه ويرجع إلى العقل السليم فيوافق عليه.

فإذًا: اختلاف عقولهم دليل على عدم اتّزانها، فهذا يقرّ، وهذا ينكر، أو هذا يقر زمنًا ثم ينكر، مما يدل على أن عقولهم ليست معيارًا، إنما المعيار هو الشرع، وكذلك العقول السليمة.

قال الشارح:

وَاعْتُرِضَ عَلَى الدَّلِيلِ الفِطْرِيِّ: أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لِكَوْنِ السَّمَاءِ قِبْلَةً للدُّعَاءِ، كَمَا أَنَّ الكَعْبَةَ قِبْلَةٌ للصَّلَاةِ، ثُمَّ هُوَ مَنْقُوضٌ بِوَضْعِ الجَبْهَةِ عَلَى الأَرْضِ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةِ الْأَرْضِ.

وَأُجِيبَ عَنْ هَذَا الِاعْتِرَاضِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَكُمْ: إِنَّ السَّمَاءَ قِبْلَةُ الدُّعَاءِ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ، وَلَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَهَذَا مِنَ الأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَى جَمِيعِ سَلَفِ الأُمَّةِ وَعُلَمَائِهَا.

الثَّانِي: أَنَّ قِبْلَةَ الدُّعَاءِ هِيَ قِبْلَةُ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ يُسْتَحَبُّ للدَّاعِي أَنْ يَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ فِي دُعَائِهِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ[1]، فَمَنْ قَالَ: إِنَّ لِلدُّعَاءِ قِبْلَةً غَيْرَ قِبْلَةِ الصَّلَاةِ، أَوْ إِنَّ لَهُ قِبْلَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا الكَعْبَةُ، وَالأُخْرَى السَّمَاءُ، فَقَدِ ابْتَدَعَ فِي الدِّينِ، وَخَالَفَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ.

الثَّالِثُ: أَنَّ القِبْلَةَ هِيَ مَا يَسْتَقْبِلُه العَابِدُ بِوَجْهِهِ، كَمَا تُسْتَقْبَلُ الْكَعْبَةُ فِي الصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالذَّبْحِ، وَكَمَا يُوَجَّهُ الْمُحْتَضَرُ وَالمَدْفُونُ؛ وَلِذَلِكَ

---

(١) كما في حديث جابر ﷺ في حجة الوداع، الذي أخرجه مسلم (١٢١٨)، وفيه: «...ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَدَعَاهُ، وَكَبَّرَهُ، وَهَلَّلَهُ، وَوَحَّدَهُ». وكذلك حديث ابن مسعود ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَقْبَلَ الْبَيتَ، فَدَعَا عَلَى سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيشٍ». أخرجه البخاري (٣٩٦٠)، ومسلم (٢٧٩٤).

سُمِّيَتْ وِجْهَةً، وَالِاسْتِقْبَالُ خِلَافُ الِاسْتِدْبَارِ، فَالِاسْتِقْبَالُ بِالْوَجْهِ، وَالِاسْتِدْبَارُ بِالدُّبُرِ، فَأَمَّا مَا حَاذَاهُ الإِنْسَانُ بِرَأْسِهِ أَوْ يَدَيْهِ أَوْ جَنْبِهِ، فَهَذَا لَا يُسَمَّى قِبْلَةً، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، فَلَوْ كَانَتِ السَّمَاءُ قِبْلَةَ الدُّعَاءِ، لَكَانَ الْمَشْرُوعُ أَنْ يُوَجِّهَ الدَّاعِي وَجْهَهُ إِلَيْهَا، وَهَذَا لَمْ يُشْرَعْ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي تُرْفَعُ الْيَدُ إِلَيْهِ لَا يُسَمَّى قِبْلَةً، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، وَلِأَنَّ الْقِبْلَةَ فِي الدُّعَاءِ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ تُتَّبَعُ فِيهِ الشَّرَائِعُ، وَلَمْ تَأْمُرِ الرُّسُلُ أَنَّ الدَّاعِي يَسْتَقْبِلَ السَّمَاءَ بِوَجْهِهِ، بَلْ نَهَوْا عَنْ ذَلِكَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوَجُّهَ بِالْقَلْبِ، وَاللجَأَ وَالطَّلَبَ الَّذِي يَجِدُهُ الدَّاعِي مِنْ نَفْسِهِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ، وَالْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ، وَأَكْثَرُ مَا يَفْعَلُهُ الْمُضْطَرُّ وَالْمُسْتَغِيثُ بِاللَّهِ، كَمَا فُطِرَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ يَدْعُو اللَّهَ، مَعَ أَنَّ أَمْرَ الْقِبْلَةِ مِمَّا يَقْبَلُ النَّسْخَ وَالتَّحْوِيلَ، كَمَا تَحَوَّلَتِ الْقِبْلَةُ مِنَ الصَّخْرَةِ إِلَى الْكَعْبَةِ.

وَأَمْرُ التَّوَجُّهِ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الْجِهَةِ الْعُلْوِيَّةِ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ، وَالْمُسْتَقْبِلُ لِلْكَعْبَةِ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ هُنَاكَ، بِخِلَافِ الدَّاعِي، فَإِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ وَخَالِقِهِ، وَيَرْجُو الرَّحْمَةَ أَنْ تَنْزِلَ مِنْ عِنْدِهِ.

وَأَمَّا النَّقْضُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ، فَمَا أَفْسَدَهُ مِنْ نَقْضٍ، فَإِنَّ وَاضِعَ الْجَبْهَةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ الْخُضُوعُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِالذُّلِّ لَهُ، لَا بِأَنْ يَمِيلَ إِلَيْهِ إِذْ هُوَ تَحْتَهُ، هَذَا لَا يَخْطُرُ فِي قَلْبِ سَاجِدٍ، لَكِنْ يُحْكَى عَنْ بِشْرٍ الْمِرِّيسِي أَنَّهُ سُمِعَ وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَسْفَلُ!! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَإِنَّ مَنْ أَفْضَى بِهِ النَّفْيُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ لَحَرِيٌّ أَنْ يَتَزَنْدَقَ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ

بِرَحْمَتِهِ، وَبَعِيدٌ مِنْ مِثْلِهِ الصَّلَاحُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]. فَمَنْ لَمْ يَطْلُبِ الاِهْتِدَاءَ مِنْ مَظَانِّهِ، يُعَاقَبْ بِالحِرْمَانِ، نَسْأَلُ اللَّهَ العَفْوَ وَالْعَافِيَةَ.

وَقَوْلُهُ: (وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الإِحَاطَةِ خَلْقَهُ»، أَي: لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وَلَا رُؤيَةً، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْإِحَاطَةِ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ.

---

قال الشيخ:

هذا اعتراض اعترض به النفاة، فقالوا: أنتم تقولون: إن رفع الأيدي في الدعاء دليل على صفة العلوِّ، وإن الإشارة بالإصبع في التشهّد دليلٌ على صفة العلو. ونحن نجيب ونقول: إنما رُفعت الأيدي إلى السماء؛ لأن السماء قبلة الدعاء، لا أن الله فوق السماء، ولا أن الله فوق العباد؛ إنما السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة. هذا اعتراضهم.

واعترضوا أيضًا بالسجود، فقالوا: السجود وضع الجبهة على الأرض، وهذا دليل على أن الله ليس فوق العباد وإلا لما وضعوا جباههم على الأرض.

والجواب واضح والحمد لله، وخلاصته ـ كما ذكر الشارح ـ: أن قولهم: إن قبلة الدعاء هي السماء، قول باطل، بل الصحيح أن قبلة الدعاء هي قبلةُ

الصلاة، من أراد أن يستجاب دعاؤه استقبل القبلة التي هي الكعبة، وليست السماء هي قبلة الدعاء، ولو كانت قبلة الدعاء لاستقبلها الداعي بوجهه، ولم يكتفِ برفع يديه، فرفع اليدين دليل على أنه يشعر بأن ربه فوقه، وأنه هو الذي يعطيه، والقبلة إنما هي ما يُستقبل بالوجه، كما أن المصلي يستقبل الكعبة أو جهة الكعبة بوجهه.

ثم يُجاب بجواب ثانٍ، وهو: أن القبلة تقبل النسخ، فقبلة الصلاة نُسخت بعد أن كانت إلى بيت المقدس، فحُوّلت إلى الكعبة.

فإذا كانت القِبلةُ تقبلُ النسخ، فدلّ على أن هذه أيضًا تقبل النسخ، وهذا لا يجوز؛ لأنها فطرية، يعني: رفع الأبصار إلى السماء، وكذلك رفع الأيدي إلى السماء، وكذلك تعلق القلوب بمن في السماء، كل هذا أمر فطري، لا يُمكن أن يُنسخ كما نسخت قبلة الصلاة.

ثم يذكر أنهم أجابوا أيضًا عن قولهم: لو كان في السماء لَما سجدوا بوجوههم على الأرض.

نقول: السجود على الأرض ليس لأن الله تحت العباد ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولكن السجود لأجل التواضع، ولأجل أن يشعر العبد في صلاته أنه متواضع لربه، فإن أعلى شيء في الإنسان هو وجهه، وهو أكرم أعضائه عليه، فإذا وضعه على الأرض تواضعًا وذلًا وخضوعًا، دلَّ ذلك على تعظيمه لربه، وحينئذٍ يرحمه ربه، ويغفر له ذنبه؛ لأنه تواضع هذا التواضع، وشعر من نفسه بالاستكانة والخضوع والفقر والفاقة إلى ربه، وكان ذلك من الأسباب التي

شرعت لأجل أن يشعر العبد في صلاته بالعبودية.

فإن من الصلاة ما يدلّ على العبودية والذل لله، فالقيام فيه ذلٌّ وتواضع، والركوع فيه انحناء وخضوع، والسجود فيه تعبُّد وذلّ وانكسار بين يديّ الله، وليس لأجل الاعتقاد أن الربّ تعالى في جهة التحت، وإنما هذا عقيدة من انتكست فطرته كما نقل الشارح رحمه الله عن بشر بن غياث المريسي، وهو من أكابر المعتزلة والجهمية من أتباع الجهم بن صفوان، الذين ينكرون الصفات وينكرون أن القرآن كلام الله، وهذه المقالة السيئة التي نقلت عنه تقشعرّ منها الجلود، وهذا دليل على أن زيغ القلوب، والإصابة بالانتكاس من عقوبات الابتداع.

لَمَّا طبع الله على قلوبهم وقعوا في هذا الابتداع، فصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، قلَّب الله أفئدتهم لَمَّا لم يؤمنوا به، فلم يستفيدوا مما سمعوه، تعالى الله عن قولهم وعن معتقداتهم السيئة.

وقد تكرّر أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا على العقيدة السلفية، لم يرتَدَّ منهم أحدٌ أو ينكر شيئًا منها ـ حاشاهم من ذلك ـ ولكن حدث في آخر عهدهم بدعٌ، بعضها أهون من بعض، وأهونها البدعة الأولى التي هي بدعة الخوارج، ثم يليها بدعة القدرية، وقد يكون لهم فيها عذر. وكل هذه حدثت في آخر القرن الأول، ولكن أشنعها وأبشعها البدعة التي حدثت في أوائل

القرن الثاني، بدعة الجهميّة.

نشأت هذه البدعة في خراسان التي تقع الآن في إيران وانتشرت انتشارًا خفيًا، وفي آخر القرن الثاني تمكَّنت من بعض النفوس، وتمكنت في أول القرن الثالث، وحصل ما حصل.

وكان من دعاتها الجعد بن درهم، الذي ضحى به خالد بن عبدالله القسري يوم العيد، ومن دعاتها أيضًا الجهم بن صفوان، وهو الذي ينتسب إليه أهل هذا المذهب، قتلَه سَلم بن أحوز ـ رحمه الله ـ لبدعته، وورثه بشر بن غياث المريسي، وهو أيضًا مبتدع على طريقة الجهم. وتمكن من بعض الولاة فقرَّب وقبل مقالته كثير من المخدوعين، الذين رأوا زخرف قوله وصدَّقوه، حتى أهلكه الله، وقد ذكروا أنه لَمَّا دُفن في مقبرة من مقابر العراق رُؤي بعض الأموات في المنام وعلى وجهه سفعة من النار أو لفحة منها، فقيل: ما هذا؟ فقال: دفن عندنا بشر المريسي، فالتهبت جهنم على هذا المكان، فنالنا منها هذا اللهب، والعياذ بالله.

ثم ظهر في أواخر القرن الثاني وأول القرن الثالث أحمد بن أبي دؤاد، وهو الذي زين للمأمون الفتنة والدعاء إلى القول بخلق القرآن، فنصر الله الحق وظهر، وخذل الله هذا العدو، فعوقب بإصابته بالفالج في آخر عمره، وبقي ذليلًا مهينًا مهجورًا، لا يحترمه أحد، ولا يعظِّمه أحد، ولما مات لم يوجد من يحمله إلا ثلاثة رجال، والرابع امرأة، وكل ذلك تحقير من الله تعالى لأهل الشر، ولأهل الأهواء والبدع.

أما أهل السنة فإنهم أعزاء، ولهم النصرة والتمكين.

لكن مع الأسف بعد انقضاء القرون الثلاثة المفضَّلة تمكَّن هذا المذهب، وصار أهل القرن الرابع لا يعرفون غيره إلا ما شاء الله، وبقي أهل السنة مستخفين في القرن الرابع وما بعده إلى أن أظهر الله الحق على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن على طريقته ولا يزال لله تعالى بقايا من أهل العلم ومن أهل الدين في كل زمان، ينافحون ويكافحون ويردّون البدع ويردّون على أهلها، وبهم تقوم حجة الله على عباده.

من جملة ما مرَّ بنا في هذه العقيدة: الكلام على صفة العلوّ والفوقية، وقد ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ كثيرًا من الأدلة العقلية والنقلية الشرعية، وفيها أنواع كثيرة من الآيات والأحاديث، وإن لم يستوفِ أحال على الكتب التي استوفت ككتاب «العلو للعليّ الغفار» للإمام الذهبي، وكتب كثيرة استوفت هذه المقالة التي هي صفة العلوّ بأدلّتها، ومنه عرفنا أن المسلم إذا اعتقد هذه الصفة، ودان لله تعالى بأنه العليّ الأعلى، فإن الله تعالى سيتقبّل عبادته، ويضاعف أجره، ويحصل للذين يعتقدونها مخافة ربهم من فوقهم، كما أخبر عن الملائكة بقوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠]. فإن المسلم إذا استشعر أن ربه من فوقه، وأنه مطَّلع عليه، فإنه يشعر من نفسه بالذلّ، ولربه بالعزّ والجلال، فيعظِّمه ويراقبه ويخافه، ويعبده حق عبادته. هذا نتيجة تصحيح هذه العقيدة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

«ونَقولُ: إنَّ اللهَ اتَّخَذَ إبْرَاهيمَ خَليلًا، وكَلَّمَ مُوسى تَكْليمًا، إيمانًا وَتَصْديقًا وتَسْليمًا».

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، الخُلَّة: كَمَالُ المَحَبَّةِ، وَأَنْكَرتِ الجَهْمِيَة حَقِيقَةَ المَحَبَّةِ مِنَ الجَانِبَيْنِ، زَعْمًا مِنْهُمْ أَنَّ المَحَبَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِمُنَاسَبَةٍ بَيْنَ المُحِبِّ وَالمَحْبُوبِ، وَأَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ القَدِيمِ وَالمُحْدَثِ تُوجِبُ المَحَبَّةَ! وَكَذَلِكَ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ التَّكْلِيمِ - كَمَا تَقَدَّمَ -.

وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ ابْتَدَعَ هَذَا فِي الإِسْلَامِ هُوَ الجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ، فِي أَوَائِلِ المِئَةِ الثَّانِيَةِ، فَضَحَّىٰ بِهِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ القَسْرِيُّ أَمِيرُ العِرَاقِ وَالمَشْرِقِ بِوَاسِطٍ، خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الأَضْحَىٰ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ تَقَبَّلَ اللَّهُ ضَحَايَاكُم، فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا، ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ[1]. وَكَانَ ذَلِكَ بِفَتْوَىٰ أَهْلِ زَمَانِهِ مِنْ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ خَيْرًا.

---

(١) تقدم تخريج هذا الأثر (١/ ٤٨).

وَأَخَذَ هَذَا الْمَذْهَبَ عَنِ الْجَعْدِ: الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانٍ، فَأَظْهَرَهُ، وَنَاظَرَ عَلَيْهِ، وَإِلَيْهِ أُضِيفَ قَوْلُ: «الْجَهْمِيَّةِ». فَقَتَلَهُ سَلْمُ بْنُ أَحْوَز - أَمِيرُ خُرَاسَان - بِهَا، ثُمَّ انْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْمُعْتَزِلَةِ أَتْبَاعُ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ، وَظَهَرَ قَوْلُهُمْ فِي أَثْنَاءِ خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ، حَتَّىٰ امْتُحِنَ أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ، وَدَعَوْهُم إِلَى الْمُوَافَقَةِ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وَأَصْلُ هَذَا مَأْخُوذٌ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئَةِ، وَهُمْ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلًا وَمُوسَىٰ كَلِيمًا؛ لِأَنَّ الْخُلَّةَ هِيَ كَمَالُ الْمَحَبَّةِ الْمُسْتَغْرِقَةِ لِلْمُحِبِّ، كَمَا قِيلَ:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلا[1]

وَلَكِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَخُلَّتَهُ، كَمَا يَلِيقُ بِهِ تَعَالَىٰ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ، وَيَشْهَدُ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»، يَعْنِي نَفْسَهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»[3].

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[4].

فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ خَلِيلًا، وَأَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ

---

(١) البيت لبشار بن برد، انظر ديوانه (ص٩٧٩).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

(٤) تقدم تخريجه (١/ ٣٥٩).

ذَلِكَ، لَكَانَ أَحَقَّ النَّاسِ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقُ، مَعَ أَنَّهُ ﷺ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يُحِبُّ أَشْخَاصًا، كَقَوْلِهِ لِمُعَاذٍ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»[1]. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لِلْأَنْصَارِ[2]، وَكَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حِبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَابْنُهُ أُسَامَةُ حِبَّهُ[3]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ العَاصِ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، قَالَ: فَمِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا»[4].

فَعُلِمَ أَنَّ الخُلَّةَ أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ المَحَبَّةِ، وَالمَحْبُوبُ بِهَا لِكَمَالِهَا يَكُونُ مَحْبُوبًا لِذَاتِهِ، لَا لِشَيْءٍ آخَرَ؛ إِذِ المَحْبُوبُ لِغَيْرِهِ هُوَ مُؤَخَّرٌ فِي الحُبِّ عَنْ ذَلِكَ الْغَيْرِ، وَمِنْ كَمَالِهَا لَا تَقبَلُ الشَّرِكَةَ وَلَا المُزَاحَمَةَ، لِتَخَلُّلِهَا المُحِبَّ، فَفِيهَا كَمَالُ التَّوْحِيدِ وَكَمَالُ الحُبِّ، وَلِذَلِكَ لَمَّا اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ وَلَدًا صَالِحًا، فَوَهَبَ لَهُ إِسْمَاعِيلَ، فَأَخَذَ هَذَا الْوَلَدُ شُعْبَةً مِنْ قَلْبِهِ، فَغَارَ الخَلِيلُ عَلَى قَلْبِ خَلِيلِهِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَكَانٌ لِغَيْرِهِ، فَامْتَحَنَهُ بِذَبْحِهِ، لِيَظْهَرَ سِرَّ الخُلَّةِ فِي تَقْدِيمِهِ مَحَبَّةَ خَلِيلِهِ عَلَى مَحَبَّةِ وَلَدِهِ، فَلَمَّا اسْتَسْلَمَ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَعَزَمَ عَلَى فِعْلِهِ، وَظَهَرَ سُلْطَانُ الخُلَّةِ فِي الْإِقْدَامِ عَلَى ذَبْحِ الْوَلَدِ إِيثَارًا لِمَحَبَّةِ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (٥/ ٢٤٤)، وابن حبان (٥/ ٣٦٤)، والحاكم (١/ ٢٧٣).

(٢) أخرج البخاري (٣٧٨)، ومسلم (٢٥٠٩) من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال للأنصار: «أَنْتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ».

(٣) كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

خَلِيلِهِ عَلَى مَحَبَّتِهِ، نَسَخَ ذَلِكَ عَنْهُ، وَفَدَاهُ بِالذِّبْحِ العَظِيمِ؛ لأَنَّ المَصْلَحَةَ فِي الذَّبْحِ كَانَتْ نَاشِئَةً مِنَ العَزْمِ، وَتَوْطِينِ النَّفْسِ عَلَى مَا أُمِرَ، فَلَمَّا حَصَلَتْ هَذِهِ المَصْلَحَةُ، عَادَ الذَّبْحُ نَفْسُهُ مَفْسَدَةً، فَنُسِخَ فِي حَقِّهِ، وَصَارَتِ الذَّبَائِحُ وَالقَرَابِينُ مِنَ الهَدَايَا وَالضَّحَايَا سُنَّةً فِي أَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

---

قال الشيخ:

تكلم الشارحُ ـ رحمه الله ـ على مسألة الخُلَّةِ التي قال الله فيها: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، وذكر أن الخلَّة أعلى أنواع المحبة، وأن الخليل في الأصل: هو المحبوب الذي تخلَّلت محبته شغاف القلب، فالخليل هو المحبوب الذي بلغت محبته النهاية، والأخلاَّءُ هم الأحباب، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، يعني: في الآخرة، الذين كانوا متحابين محبة شديدة في الدنيا، إذا لم تكن محبتهم مبنيَّة على التقوى، صار بعضهم في الآخرةِ لبعضهم عدوًّا، ولو كانت تلك المحبَّة والخلَّة وثيقة.

إذًا: الخلَّة أن تتخلل المحبّة شغاف القلب، واستدل الشارح بقول الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلا

مسلك الروح: يعني دخلت فيما تدخل فيه الروح، والروح تسري في الجسد في العروق والدماء وفي البشر وفي العظم، وفي كل شيء ما عدا الشعر، يخاطب محبوبته، فيقول: إنها تخللت ما تخللته الروح، حتى وصلت إلى شغاف

القلب، ولذا سمي الخليل خليلًا. ويقول الشاعر أيضًا:

لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٍ وَكُلُّ الَّذِي دُونَ الْمَمَاتِ قَلِيلُ
وَإِنَّ افْتِقَادِيَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا يَدُومُ خَلِيلُ[1]

الخليل: هو المحبوب.

وذكر أيضًا في قول الله تعالى حكاية عن دعوى الكفار في النار: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان:٢٨]، يعني: محبوبًا.

الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلًا، يعني: محبوبًا.

والنبيّ ﷺ له محبوبون، ولكن المحبة الصادقة القوية خالصة لربِّه، بينه وبين ربِّه، وهو قد أحبَّ ربَّه تلك المحبة التي هذه نهايتها، وهذه غايتُها؛ فبقي قلبه ممتلئًا بتلك المحبة التي هي الخلّة، ليس فيه موضع لغيره.

وهكذا يجب على كل مؤمن أن يكون قلبه ممتلئًا بمحبَّة ربه، المحبة التي لا ينازعها غير محبة المحبوب.

عندما اتخذ الله سبحانه إبراهيم ـ عليه السلام ـ خليلًا، وأحبّه هذا النوع من المحبة، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ أحبَّ ربَّه كذلك المحبّة التامّة التي هي أعلى أنواع المحبّة، ولما أعطاه ولده إسماعيل ـ عليه السلام ـ ومعلوم أن الولد محبوب في النفس، وأن النفس تميل إليه وتحبّه محبّة طبيعيّة، محبّة شفقة وحنان،

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب قالهما لما ماتت فاطمة رضي الله عنها. أخرجهما ابن حبان في الثقات (٩/ ٢٣٤)، والحاكم (٣/ ١٦٣).

تعلق قلب إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وأحبَّه، غارَ الرَّبُّ تعالى على خليله ألا يكون في قلبه موضع إلَّا لربّه، أن يكون قلبه منشغلًا بربه، ولا يكون به أية محبة لغير الله تعالى، فعند ذلك امتحنه بأن يذبح ولده، فلمَّا استجاب لربه والتزمْ بأنْ يطيع ربه في هذه المحنة ظهر ذلك الجزء في قلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ وذلك الاشتراك الذي صار فيه محبة للولد، فصفا قلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ لربه، وعرف ربه من قلبه أنه ممتلىء بمحبة ربّه، وأنه لا يقدم على محبته محبة المال ولا الولد، ولا خليل ولا غير ذلك، فعند ذلك نسخ الله هذا الأمر كما عرفنا، وفداه بذبح عظيم، هذه هي صفة المحبة، وهي من أعلى الصفات الفعلية.

الله تعالى يحب عباده الصالحين، ويتخذ من يشاء منهم خليلًا، فإبراهيم ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ هما الخليلان اللذان اتخذهما الله بهذه الخلة التي هي من خصائصهما، وأما بقية الخلق فإنهم يحبون الله تعالى، والله تعالى يحب المؤمنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، كما أخبر بذلك. فالمحبة عامة للمؤمنين، والخلة خاصة بالخليلين، والتي هي من الله تعالى.

هذه الصفة التي هي صفة الخلة بل صفة المحبة عمومًا قد أنكرتها الجهمية؛ أنكروها من الجانبين، فقالوا: الله لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ. أنكروا أن المؤمنين يحبون ربهم، وشبهتهم، يقولون: إن المحبة لا تكون إلا بين اثنين بينهما تجانس، فالإنسان يحب إنسانًا؛ لأنه إنسان، ولأن بينهما تجانس، وليس بين الرب وبين الخلق تجانس. يقولون: الربّ قديم، والإنسان حادث، فما دام أن

بينهما هذا التفاوت، فلا يمكن أن يكون بينهما هذه المحبة التي هي خاصة بالمتجانسين.

وهذه شبهة باطلة، والمؤمنون يجدون في قلوبهم المحبة، ويجدون من ربهم آثار المحبة، إنه تعالى يحب عباده. وأما آثار هذه المحبة فإنه ينصرهم، ويكرمهم، ويقويهم، ويعلي شأنهم، ويعلي كلمتهم، ويوفقهم ويسدِّد خطاهم، أليس ذلك من آثار المحبة؟ إذا رأيت إنسانًا يكرم رجلًا، ويقدره، ويقدسه، ويزوره، ويستزيره، ويهديه، ويقبل هديته، ويمدحه في المجالس، ألست تقول: إنه يحبه؟ تقول: هذا يحبه ذاك، بينهما محبة.

نحن نشهد آثار المحبة من الله تعالى، نشهد أنه يوفق بعض عباده، وأنه ينصرهم، ويؤيدهم، ويقوي عزائمهم، ويقوي قلوبهم، أليس ذلك من آثار المحبة؟ بلى ذلك دليل على أنه أحبهم؛ لأنه أظهرهم، وقواهم، ونصرهم، وأيدهم، كما حصل لأولياء الله تعالى في كل مكان وزمان.

إذًا: نستدل بآثار المحبة على وجودها، وهذا لو لم ترد الأدلة، فكيف إذا وردت الأدلة الشرعية الكثيرة على ذلك؟ قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، اجتمعت المحبّتان: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، هذا رد على المعتزلة في مقولتهم لا يُحِبُّ ولا يُحَبّ. فالآية أثبتت أنه يحبهم ويحبونه، ومن آثار محبته لهم أنه ينصرهم، ويؤيدهم، ويقوي كلمتهم، وآثار محبتهم لربهم أنهم يعبدونه، ويخلصون له العبادة، ويوحِّدونه، ويطيعون أوامره، ويعظمون

شرعه، ويستعدون للقائه، ويعملون بشرائعه كلِّها، ويحذرون من أسباب غضبه، ويرجون أسباب ثوابه، أليس ذلك دليلًا على أنهم يحبونه؟

كذلك محبتهم للنبي ﷺ واجبة عليهم، وهي تابعة لمحبة الله تعالى، يقول النبيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1].

نحن نحب هذا النبي ﷺ، والكثير يقولون: نعم نحن نحبه، ونشهد أنه رسول الله، لكن لهذه المحبة علامات لابدّ أن تظهر على من يحب النبي ﷺ، ومن أبرز هذه العلامات: طاعته واتباعه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وسنسرد الكلام عن محبته ﷺ في موضع آخر.

ذكر الشارح أيضًا أن الله تعالى كلَّم موسى ـ عليه السلام ـ تكليمًا، وقد تقدّم الكلام على القرآن، وأنه كلام الله، وأن الله متكلّم ويتكلَّم متى شاء، وأن من كلامه القرآن، وأن كلامه لا يفنى ولو كتب بكل أقلام الدنيا لفنيت الأقلام وتكسَّرت، ولو كتب بمياه البحار لنفدت مياه البحار قبل أن تنفد كلمات الله.

فنقول: إن الله خصَّ من عباده من كلّمهم، ومنهم موسى ـ عليه السلام ـ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥) واللفظ له، ومسلم (٤٤) من حديث أنس ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: اخترتك وفضَّلْتك برسالاتي وبكلامي، وهذه الآية لا يستطيع المعتزلة أن يؤوِّلوها.

أما الآية التي استشهد بها الشارح، وهي قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ومثلها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فإنها صريحة في أن الله تعالى قد كلَّم موسى عليه السلام، ومعروف من الكلام أنه مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولكن المعتزلة لما أنكروا هذه الصفة، تأولوها تأويلًا بعيدًا، وقد ذكر فيما سبق أنهم يقولون: التكليم هو التجريح؛ كلَّمه: أي جرَّحه بأظافر الحكمة. وما أبعد هذا التأويل! ونسوا أن الله تعالى أخبر بأنه اصطفاه برسالته وكلامه، وأن تكرر الآيات يمنع صرفها إلى هذا التأويل البعيد، ونسوا أن التأويل وصرف الآيات إلى هذه الحالة لا يمكن إلا بقرينة ترجح ما تأولوه، وبما أنه ليس هناك قرينة، فلا نقبل منهم هذا التأويل.

وقد ذكر أن الجهم أو أحد تلامذته جاء إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة، وهو من قراء الكوفة وقال له: أريد أن تقرأ هذه الآية هكذا: (وَكَلَّمَ اللَّـهَ مُوسَى تَكْلِيمًا)! يريد أن موسى ـ عليه السلام ـ هو الذي كلَّم اللَّـهَ، وأن اللَّـهَ لم يكلِّم موسى عليه السلام، فجعل اسم «الله» مفعولًا به، أي: منصوب على أنه هو المكَلِّم، فقال أبو عمرو ـ رحمه الله ـ: هب أني أو غيري

قرأها هكذا، فكيف تفعل بقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فبُهت ذلك المعتزلي؛ لأن هذه الآية لا تستطيع المعتزلة تأويلها ولا تحريفها. ويسمى هذا تحريفًا لفظيًا.

والحاصل: أن المعتزلة أنكروا هاتين الصفتين، صفة الخلّة وصفة الكلام، وهذه المقالة اشتهرت عن الجعد بن درهم وهو الذي ضحَّى به خالد القسري أمير واسط ـ بلدة في العراق ـ بعد أن أفتى علماء زمانه بكفره، بعد أن أصرَّ على قوله وعناده، ولم يرجع ولم يقبل، فبعدما خطب رحمه الله نزل وذبحه، يقول ابن القيم في نونيته [1]:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ ... ـقَسْرِيّ يَومَ ذَبائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلاَّ وَلاَ مُوسَى الْكَلِيمُ الدَّانِ
شَكَرَ الضَّحِيّةَ كُلّ صَاحِبِ سنّةٍ ... لله درّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

أي: أنه جعله ضحيته يتقرب بها إلى الله تعالى.

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ» [2]،

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠). وقد ذكر هذه السلسلة ـ سلسلة التعطيل ـ: ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ١٩)، وابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٧٢).

فأخذها الجهم ونشرها، وإليه نسبت هذه الطائفة، فيقال: جهمية.

وكلمة (الجهم) كلمةٌ مستبشعة، يُقال: إنها مشتقة من جهنم، مما يدل على أن اسمه قريب من هذه الكلمة، وذكر الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه أخذ مقالته عن طائفةٍ يُقال لهم السمنية.

وبكل حال أسانيد الجهمي تعود إلى سحرة اليهود وأشباههم! فكيف يترك لها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وعقائد سلف المسلمين؟!

قال الشارح:

وَكَمَا أَنَّ مَنْزِلَةَ الخُلَّةِ الثَّابِتَةِ لإِبْرَاهِيمَ ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ـ قَدْ شَارَكَهُ فِيهَا نَبِيُّنَا ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ، كَذَلِكَ مَنْزِلَةُ التَّكْلِيمِ الثَّابِتَةُ لِمُوسَى ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ـ قَدْ شَارَكَهُ فِيهَا نَبِيُّنَا ﷺ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ[1].

وَهُنَا سُؤَالٌ مَشْهُورٌ، وَهُوَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَكَيفَ طَلَبَ لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ مِثْلَ مَا لِإِبْرَاهِيمَ، مَعَ أَنَّ المُشَبَّهَ بِهِ أَصْلُهُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ المُشَبَّهِ؟ وَكَيفَ الجَمْعُ بَيْنَ هَذَينِ الأَمْرَينِ المُتَنَافِيَينِ؟

وَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ العُلَمَاءُ بِأَجْوِبَةٍ عَدِيدَةٍ، يَضِيقُ هَذَا المَكَانُ عَنْ بَسْطِهَا.

وَأَحْسَنُهَا: أَنَّ آلَ إِبْرَاهِيم فِيهِمُ الأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ فِي آلِ مُحَمَّدٍ مِثْلُهُمْ، فَإِذَا طَلَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِآلِهِ مِنَ الصَّلَاةِ مَا لِإِبْرَاهِيمَ وَآلِهِ وَفِيهِمُ الأَنْبِيَاءُ، حَصَلَ لآلِ مُحَمَّدٍ مَا يَلِيقُ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَبْلُغُونَ مَرَاتِبَ الأَنْبِيَاءِ، وَتَبْقَى الزِّيَادَةُ الَّتِي لِلْأَنْبِيَاءِ، وَفِيهِمْ إِبْرَاهِيمُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، فَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ المَزِيَّةِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ.

وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا: أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ هُوَ أَفْضَلُ آلِ إِبْرَاهِيمَ، فَيَكُونُ قَوْلُنَا: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» مُتَنَاوِلًا لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ هُوَ مُتَنَاوِلٌ إِبْرَاهِيمَ أَيْضًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]،

---

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

فَإِبْرَاهِيمُ وَعِمْرَانُ دَخَلَا فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤]، فَإِنَّ لُوطًا دَاخِلٌ فِي آلِ لُوطٍ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة:٤٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]. فَإِنَّ فِرْعَونَ دَاخِلٌ فِي آلِ فِرْعَونَ.

وَلِهَذَا ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ أَكْثَرُ رِوَايَاتِ حَدِيثِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا فِيهَا: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»، وَفِي كَثِيرٍ مِنْهَا: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»، وَلَمْ يَرِدْ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ[1]. وَمَا ذَلِكَ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ إِلَّا لِأَنَّ فِي قَوْلِهِ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»، يَدْخُلُ آلُهُ تَبَعًا، وَفِي قَوْلِهِ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»، هُوَ دَاخِلٌ فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ.

---

قال الشيخ:

مرَّ معنا أن محمدًا ﷺ قد أُعطي مثلما أُعطي الأنبياء قبله، فلما اتخذ الله إبراهيم ﷺ خليلًا اتخذ محمدًا ﷺ خليلًا، كما تقدّم في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[2]، وقد تقدّم أنه ﷺ لم يتَّخذ من أمته خليلًا، مع أنه قد أحبَّ قومًا منهم؛ كقوله لمعاذ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»[3]، وكتسمية أسامة

---

(١) كما في حديث كعب بن عجرة ﷺ عند البخاري (٣٣٧٠).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٨٣).

«حِبِّ النَّبِيِّ ﷺ»[١].

ولكن لم يقل إن هذا خليلي، وقال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيْلُ اللَّهِ»[٢].

أما التكليم: فقد حصل ذلك لنبيِّنا ﷺ لَمَّا أُسري به؛ كلَّمه الله، منه إليه، وأسمعه كلامه، لَمَّا فرض خمسين صلاة، قال ﷺ: «فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ فَلَمْ أَزَلْ ارْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّد، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[٣]. ففي هذا أنه كلَّمه تكليمًا، وعلى هذا يكون قد حصل للنبي ﷺ الخلّةُ التي لإبراهيم، والكلام الذي لموسى ـ عليهما السلام ـ وكذلك بقية الفضائل التي لبقية الأنبياء.

ثم ذكر الشارح الإشكال الذي يورده بعض العلماء لقوله في التشهد: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم»، أو «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»، ويقولون: كيف يُسأل للنبي ﷺ مثلما سُئل لإبراهيم، أو مثلما حصل لإبراهيم، يعني: شبيهًا به، والمشبَّه دون المشبَّه به؟

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

(٣) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

فعلى هذا يكون الذي يحصل لمحمد ﷺ من الصلاة أقل من الذي يحصل لإبراهيم عليه السلام! فكيف يكون ذلك، ومحمد ﷺ أفضل؟

الجواب أن يقال: إن محمدًا ﷺ من آل إبراهيم، بل هو أفضل آل إبراهيم؛ ولأجل ذلك يذكر الله قومه بقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، ولما كان في الإسراء ولقيه في السماء السابعة قال: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ»[1]؛ لأنه من ذريته، فهو من آل إبراهيم. وإذا قلنا: «كما صليت على آل إبراهيم»، دخل في ذلك محمد ﷺ، وطلبنا لآل محمد كما طُلِبَ لآل إبراهيم، فلا يصير هناك إشكال إن شاء الله.

قد تكرر أن منبع العقيدة وأصلها هو الإيمان بالغيب، وأن ذلك ينحصر بالأركان الستة التي ذكرها النبي ﷺ في تفسير الإيمان، حيث قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[2].

وذكرنا أن أصل ذلك كله هو الإيمان بالله، وأن من آمن بالله ربًا وخالقًا وإلهًا ومعبودًا، التزم بكتابه وبسائر كتبه، والتزم بالإيمان بالعذاب والنعيم الذي وعد به، والتزم بالإيمان بالأمر والنهي الذي شرعه الله، والتزم بالإيمان بالقضاء والقدر الذي قدره وقضاه، والتزم بالإيمان بالبعث والنشور الذي

---

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

أخبر به، وآمن بالرسل، وآمن بالكتب، وآمن بالملائكة، وآمن بالغيب كلّه، ونتج عن الإيمان بذلك العمل، أي: صدق به تصديقًا جازمًا، وعمل بما صدق به، وبما هو قادم عليه، ويتوقف الإيمان بالله تعالى على معرفة الأدلة، ولأجل ذلك كان الأولون يقرئون أبناءهم «الأصول الثلاثة» ويلقنونهم إياها، وهي:

إذا قيل لك: من ربّك؟ فقل: ربّي الله الذي ربّاني وربّى جميع العالمين بنعمته.

وإذا قيل: بمَ عرفت ربّك؟ فقل: عرفته بآياته ومخلوقاته.

وهذه أكبر الدلائل، فمن عرف الله تعالى عرفه بمخلوقاته، وآمن به، ومن آمن به آمن بقضائه بقدره، وآمن بأمره ونهيه، وآمن بوعده ووعيده، وآمن بشرعه وبحكمه، وآمن بكل ما أخبر به، ومتى آمن بذلك وصدق به تصديقًا جازمًا؛ ظهرت آثار ذلك على أعماله، فرأيته مسارعًا للأعمال، ورأيته مستكثرًا من الصالحات، ورأيته مستعدًا للقاء الله، ورأيته عاملًا بما أمر الله، ومبتعدًا عما حرَّم الله، وإذا رأيته ليس كذلك؛ فاعلم أن تصديقه ضعيف، واعلم أن إيمانه ضعيف.

ومن رأيته يترك الأوامر، ويرتكب الكبائر، ويتساهل بالصغائر ويصرّ عليها، فاعلم أن تصديقه ضعيف، وأن إيمانه مشكوك فيه، فإن الإيمان الضعيف يظهر أثره بقلّة الأعمال الصالحة، وباقتراف السيئات وترك المأمورات، والإيمان القوي تظهر آثاره على الأعمال؛ فتجده مسارعًا إلى الخيرات، مستكثرًا منها، يعلم آثارها، ويعلم صلاحها، ويعلم النتيجة التي

يجنيها من ورائها، ويعلم أن ثوابها عظيم، وأن أجرها لا يضيع عند الله، ويعلم أن في تركها الحسرة والندامة. فهذه العلامات التي تعلم بها المصدِّق من المكذِّب، وتعرف بها الإيمان من النفاق.

ومرَّ بنا أن من أركان الإيمان الإيمان بالملائكة، ويدخل في ذلك ما أخبر الله تعالى به عنهم، مع أننا لم نرهم، ولكن نؤمن بهم كما أخبر الله بذلك من الإيمان بالغيب.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ لَمَّا جَاءَ أَبُو أَوْفَى ﷺ بِصَدَقَتِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»[1]. فَعَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»، لَا يَدْخُلُ فِيهِمْ؛ لِإِفْرَادِهِ بِالذِّكْرِ.

وَلَمَّا كَانَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشْرَفَ بُيُوتِ العَالَمِ عَلَى الإِطْلَاقِ، خَصَّهُمُ اللَّهُ بِخَصَائِصَ:

مِنْهَا: أَنَّهُ جَعَلَ فِيهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ، فَلَمْ يَأْتِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ نَبِيٌّ إِلَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ اتَّخَذَ مِنْهُمُ الخَلِيلَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ جَعَلَ صَاحِبَ هَذَا البَيْتِ إِمَامًا لِلنَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وَمِنْهَا: أَنَّهُ أَجْرَى عَلَى يَدَيْهِ بِنَاءَ بَيْتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ قِيَامًا لِلنَّاسِ، وَمَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَجَعَلَهُ قِبْلَةً لَهُمْ وَحَجًّا، فَكَانَ ظُهُورُ هَذَا البَيْتِ مِنْ أَهْلِ هَذَا البَيْتِ الْأَكْرَمِينَ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُصَلُّوا عَلَى أَهْلِ هَذَا البَيْتِ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الخَصَائِصِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبدالله بن أبي أوفى ﷺ.

قال الشيخ:

قد ذكرنا أن من أركان الإيمان الإيمان بالأنبياء والرسل، وأن الأنبياء هم الذين أوحى الله إليهم، وأنزل عليهم شيئًا من شرعه، وأن منهم من كلفه الله بالتبليغ، وأمره بالدعوة، وجعل رسالته مؤكدة في أن يدعو إليها ويبلّغها، وحذّر من أرسل إليهم إذا لم يصدقوه أن يعذّبهم، وأنزل على كل واحد منهم شريعةً مستقلة، فهؤلاء هم رسل الله؛ نؤمن بهم.

ومنهم أنبياء يوحي الله إليهم، ولكن لم يفردهم بشرائع خاصة، بل يحكمون بشرائع من قبلهم، ولكن ينزل عليهم الوحي، ويأمرهم الله به بأوامر تكون موافقة للأوامر التي أوحى بها إلى الأنبياء قبلهم، فهؤلاء أنبياء ولكن ليسوا مكلّفين بالدعوة العامة، ولم يعذِّب من كذّبهم تعذيبًا عامًا كالذين كذّبوا المرسلين.

ورد في حديث أن أبا ذر ﷺ سأل النبي ﷺ: كَمْ وَفَاءُ عِدَّةِ الأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: «**مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ من ذلك ثَلاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا**»[1]. والله تعالى أخبر في القرآن عن بعضهم؛ عن نحو خمسة وعشرون نبيًّا أو رسولًا، والبقية لم يقصصهم علينا، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطبراني في الكبير (٧٨٧١) من حديث أبي أمامة ﷺ. وأخرجه ابن حبان (٢/ ٦٧)، والحاكم (٢/ ٥٩٧)، والبيهقي (٩/ ٤) من حديث أبي ذر ﷺ، وأخرج طرفًا منه الإمام أحمد (٥/ ١٧٨).

مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٤].

وأفضل هؤلاء الأنبياء المرسلون منهم، وأفضل المرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم.

وأفضل هؤلاء الخمسة الخليلان: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وأفضلهما محمد ﷺ، وهو خاتم الرسل، وهو أفضل الأنبياء وسيد ولد آدم.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ له ميزة، وله فضائل، أثنى الله عليه بها ومدحه بها، وذكر أنه دعا الناس وهو صبي صغير، وبكَّتهم ووبَّخهم وهو لا يزال في الفتوة، كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٦٠]، فهو في ذلك الوقت الذي كسَّر فيه أصنامهم لم يزل فتى شابًا، وذلك دليل على أنه قام بالدعوة وهو شاب.

كذلك وقعت له معجزة كبيرة وهي أن الله جعل النار عليه بردًا وسلامًا، وكذلك وهب له الله على الكبر إسماعيل وإسحاق، وأجاب دعوته لما دعا بقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات:١٠٠]، فأجاب الله دعوته، وجعل الأنبياء بعده كلّهم في ذرّيّته، فأولاده أنبياء: إسماعيل وإسحاق، وكذلك ابنه يعقوب، وكذلك يوسف بن يعقوب، وهكذا من كان بعده من ذرّيّته إلى أن كان نبيّنا ﷺ، وهو من ذريّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فالكلّ من ذرّيّة إبراهيم، فهم من آل إبراهيم.

ومن فضائله أن الله تعالى جعل على يديه بناء البيت، أمره الله تعالى أن يبنيه بعد أن كان مندرسًا منذثرًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ مكانه يعني: موضعه، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧]، فجعله الله على يديه، وأمره بأن يطهِّره بقوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥]، وهذه كلّها من الخصائص والميزات، ولما كان بهذا الشرف لم يكن هناك استنكار في أن يُصلَّى على محمد ﷺ كما صُلِّيَ على آل إبراهيم عليه السلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ونُؤمِنُ بالمَلائِكَةِ والنَّبِيينَ، والكُتُبِ المُنْزَلَةِ عَلى المُرْسَلِينَ، ونَشْهَدُ أَنَّهُم كَانُوا عَلى الحَقِّ المُبِينِ.

---

قال الشارح:

هَذِه الأُمُورُ مِنْ أَرْكَانِ الإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآيات [البقرة: ٢٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

فَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإِيمَانَ هُوَ الإِيمَانَ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ، وَسَمَّى مَنْ آمَنَ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ مُؤْمِنِينَ، كَمَا جَعَلَ الكَافِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

وَقَالَ ﷺ فِي الحَدِيثِ المُتَفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ، حَدِيث جِبْرِيل وَسُؤَاله للنَبِيِّ ﷺ عَنِ الإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِن باللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ»[1].

فَهَذِهِ الأُصُول الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيهَا الأَنْبِياءُ وَالرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيهِم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

وَسَلامُهُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهَا حَقِيقَةَ الإِيمانِ إِلَّا أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَأَمَّا أَعْدَاؤُهُمْ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنَ الفَلَاسِفَةِ وَأَهْلِ البِدَعِ، فَهُمْ مُتَفَلوتُونَ فِي جَحْدِهَا وَإِنْكَارِهَا، وَأَعْظَمُ النَّاسِ لَهَا إِنْكَارًا الفَلَاسِفَةُ المُسَمَّونَ عِنْدَ مَنْ يُعَظِّمَهُمْ بِالحُكَمَاءِ، فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا كُتُبِهِ وَلَا مَلَائِكَتِهِ وَلَا بِاليَوْمِ الآخِرِ، فَإِنَّ مَذْهَبَهُمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وُجُودٌ مُجَرَّدٌ لَا مَاهِيَّةَ لَهُ وَلَا حَقِيقَةَ، فَلَا يَعْلَمُ الجُزْئِيَّاتِ بِأَعْيَانِهَا، وَكُلُّ مُوْجُودٍ فِي الخَارِجِ، فَهُوَ جُزْئِيٌّ، وَلَا يَفْعَلُ عِنْدَهُمْ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَإِنَّمَا العَالَمُ عِنْدَهُمْ لَازِمٌ لَهُ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَإِنْ سَمَّوْهُ مَفْعُولًا لَهُ، فَمُصَانَعَةً وَمُصَالَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي اللفْظِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ بِمَفْعُولٍ، وَلَا مَخْلُوقٍ، وَلَا مَقْدُورٍ عَلَيْهِ، وَيَنفُونَ عَنْهُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَسَائِرَ صِفَاتِهِ! فَهَذَا إِيمَانُهُمْ بِاللَّهِ.

وَأَمَّا كُتُبُهُ عِنْدَهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَصِفُونَهُ بِالْكَلَامِ، فَلَا تَكَلَّمَ وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا قَالَ وَلَا يَقُولُ، وَالْقُرْآنُ عِنْدَهُمْ فَيْضٌ فَاضَ مِنَ الْعَقْلِ الفَعَّالِ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ زَاكِي النَّفْسِ طَاهِرٍ، متميِّزٍ عَنِ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ بِثَلَاثِ خَصَائِص: قُوَّةِ الإِدْرَاكِ وَسُرْعَتِهِ؛ لِيَنَالَ أَعْظَمَ مِمَّا يَنَالُهُ غَيْرُهُ! وَقُوَّةُ النَّفْسِ؛ لِيُؤَثِّرُ بِهَا فِي هَيُولِي العَالَمِ بِقَلْبِ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ، وَقُوَّةِ التَّخْيِيلِ؛ لِيُخَيِّلُ بِهَا القُوَى العَقْلِيَّةَ فِي أَشْكَالٍ مَحْسُوسَةٍ، وَهِيَ المَلَائِكَةُ عِنْدَهُمْ! وَلَيْسَ فِي الخَارِجِ ذَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ، وَتَذْهَبُ وَتَجِيءُ، وَتَرَى وَتُخَاطِبُ الرَّسُولَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أُمُورٌ ذِهْنِيَّةٌ لَا وُجُودَ لَهَا فِي الأَعْيَانِ.

وَأَمَّا اليَوْمُ الآخِرُ، فَهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ تَكْذِيبًا بِهِ وَإِنْكَارًا لَهُ، وَعِنْدَهُمْ أَنْ هَذَا

العَالَمَ لَا يَخْرَبُ، وَلَا تَنْشَقُّ السَّمَوَاتُ وَلَا تَنْفَطِرُ، وَلَا تَنكَدِرُ النُّجُومُ، وَلَا تُكَوَّرُ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ، وَلَا يَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَيُبْعَثُونَ إِلَى جَنَّةٍ وَنَارٍ! كُلُّ هَذَا عِنْدَهُمْ أَمْثَالٌ مَضْرُوبَةٌ لِتَفْهِيمِ العَوَامِ، لَا حَقِيقَةَ لَهَا فِي الخَارِجِ، كَمَا يَفْهَمُ مِنْهَا أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. فَهَذَا إِيمَانُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ - الذَّلِيلَةِ الحَقِيرَةِ - بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ. وَهَذِهِ هِيَ أُصُولُ الدِّينِ الخَمْسَةُ.

---

قال الشيخ:

يتمثل الإيمان في الأركان الستة، وقد ذُكرت في القرآن؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذه من أركان الإيمان، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، هذه من أركان الإيمان، مدحَ الله تعالى الذين يؤمنون بها، وذمَّ الذين يكذّبون بها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ [النساء: ١٣٧]. والمراد بإيمانهم ثم كفرهم: تكذيبهم بعد أن صدَّقوا، أو تصديقهم بشيء ثم تكذيبهم بآخر، أو نحو ذلك، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

أمرنا أن نؤمن بالله، ونؤمن برسله، ونؤمن بالكتب المنزلة على الأنبياء قبلنا، وبالكتاب المنزل على نبينا عليه الصلاة والسلام، وأخبر بسوء عاقبة من كذب وكفر بهذه الأركان الخمسة، والإيمان بها يستلزم اعتقادها واعتقاد صحتها، فإذا كنا نؤمن بالله تعالى، فإننا نعلم صفاته من كلامه، ومن كلام رسوله، ونؤمن بما جاء في صفاته سبحانه من صفات الكمال، وننزهه مما نزه نفسه عنه من صفات النقص. وهذا كمال الإيمان بالله تعالى.

أما الفلاسفة ونحوهم، فإنهم لم يؤمنوا بالله حقيقة؛ لأنهم إنما يؤمنون بوجود مجرَّد ليس له وجود في الخارج، وإنما هو وجود في الذهن، يرجع في الحقيقة إلى العدم حيث وصفوه بصفات العدم، مما يجلُّ أن يوصف به، وهذا إيمانهم بالله وهم - مع ذلك - يسمون بالحكماء وبالعلماء، وتسميتهم بالفلاسفة؛ لأن الفلسفة عندهم نوع من الحكمة، وهي علم المعتقد الذي يدور على الأدلة، فهو عندهم علم له أهميته، هذا إيمانهم بالله تعالى.

يوجد هذا التفسير في مؤلفات أكابرهم؛ كمؤلفات عالمهم الكبير المشهور ابن سينا، وعالم آخر يقال له «الفارابي»، وآخر يقال له «الطوسي»، وأشباههم، وهؤلاء الذين هم علماء إسلاميون - كما يقال عنهم - معظَّمون ومقدَّسون للأسف عند الكثير في هذه الأزمنة، وكتبهم ذات ثمن رفيع، ولها منزلة عالية عند الكثير؛ وذلك لما فيها - في زعمهم - من الأفكار، ولما فيها من الابتكارات والاختراعات والعلوم العقلية كما يسمونها؛ فلذلك صارت محلَّ تقدير عندهم، مثل كتب ابن سينا سواء التي تتعلق بالطب، أو بالكلام، أو بالعلوم

التي يسمونها علومًا، أو تتعلق بالأحكام، أو غير ذلك. وكذلك كتب العالم الذي يسمونه المعلم الثاني «الفارابي».

وهؤلاء ولو سُمُّوا فلاسفة إسلاميين، لكنهم أبعدوا عن الصواب، وبالأخصّ الإيمان بالغيب، فهم أبعد الناس عنه، فلا يُغترّ بمن يمدحهم، ومن يثني عليهم، ومن يزعم أنهم علماء إسلاميون أجلاء، لهم منزلة رفيعة، ولهم مكانة عند المسلمين، لا يؤبه لذلك.

وكذلك عرفنا إيمانهم ببقية الأركان، وكيف حملوا ذلك على خيالات وأوهام، فالرسل عندهم لم ينزل عليهم الوحي، والرسل عندهم أناس أذكياء وعندهم فطنة، استطاعوا بفطنتهم وبذكائهم أن يلبِّسوا على الناس، وأن يقولوا: أُنزل علينا، وإننا مشرعون بأعلى الشرع، ونحن رسل من الله، ولم يكن هناك رسالة، ولم يكن هناك شرع، وإنما أرادوا أن يكون لهم أتباع، فصار لهم ما أرادوا. هذه عقيدتهم في الرسل، ويسمون ذلك تخييلًا، ولا شكَّ أنهم ما آمنوا بالرسل حقيقة الإيمان.

أما الكتب فماذا يقولون فيها؟ هم لا يعتقدون أنها كلام الله، ولا أن الله يتكلم، ولا أن له صفات حقيقية، ما داموا لا يجعلون له وجودًا، إنما هو وجود في الأذهان، لا وجودًا في الأعيان، فليس لله كلام عندهم، وهذا القرآن هو إما من نظم البشر، أو من تركيب الملك، أو نحو ذلك. فليس لله عندهم كتب منزلة متضمنة لشرعه!!

أما الملائكة، فلا يؤمنون بأن هناك ملائكة، ذوو أرواح، يصعدون

وينزلون ويتكلمون، ويحملون الوحي.

وعندهم أن الروح التي في الإنسان هي حياة عامة في هذا الكون، إذا اتصلت بالمخلوق أحسَّ بالحياة، وإذا انفصلت عنه انتقلَ إلى الوفاة؛ فعندهم أن الملائكة ليس لها حقيقة وجود، بل ليس هناك أفلاك يصعدون بها وينزلون.

وسيأتينا الكلام على الأنبياء والرسل وعلى اليوم الآخر خلافًا لما يقولون من أنه لا حقيقة للبعث، ولا حقيقة لانقضاء الدنيا، بل من معتقد الفلاسفة أنه ليس هناك بعث ولا نشور، ولا حياة للأجساد، ولا جمع لها بعد أن تتفتت، ولا إعادة للأرواح إليها، وليس هناك جنة ولا نار، يُثاب بهذه ويعاقب بهذه، أي: ليس عندهم مبدأ. يقولون: إن هذا العالم لم يزل موجودًا منذ القدم، ولم يسبق بعدم، ويكذبون بخلق آدم، ويقولون: ليس هناك شخص اسمه آدم، خلق من تراب، بل هذا الخلق وهذا الوجود وهذه الأرض قديمة ما سبقت بعدم. هذه عقائد الفلاسفة- كذبوا خبر الله وأخبار الرسل وما جاؤوا به، وخالفهم بذلك أهل السنة وأقروا بها على ما جاءت به، وأخذوا تفاصيلها عن الرسل الذين جاؤوا بهذه الشرائع، وقبلوا بها كما جاءت، وصاروا بذلك أحق باتباع الرسل.

قال الشارح:

وَقَدْ أَبْدَلَتْهَا الْمُعْتَزِلَةُ بِأُصُولِهِمُ الخَمْسَةِ الَّتِي هَدَمُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ الدِّينِ، فَإِنَّهُمْ بَنَوْا أَصْلَ دِينِهِمْ عَلَى الجِسْمِ وَالعَرَضِ الَّذِي هُوَ المَوْصُوفُ وَالصِّفَةُ عِنْدَهُمْ، وَاحْتَجُّوا بِالصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ الأَعْرَاضُ عَلَى حُدُوثِ المَوْصُوفِ الَّذِي هُوَ الجِسْمُ، وَتَكَلَّمُوا فِي التَّوْحِيدِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، فَنَفَوْا عَنِ اللَّهِ كُلَّ صِفَةٍ، تَشْبِيهًا بِالصِّفَاتِ المَوْجُودَةِ فِي المَوْصُوفَاتِ الَّتِي هِيَ الأَجْسَامُ، ثُمَّ تَكَلَّمُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَفْعَالِهِ الَّتِي هِيَ القَدَرِ، وَسَمَّوْا ذَلِكَ «العَدْلَ»، ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي النُّبُوَّةِ وَالشَّرَائِعِ، وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالوَعْدِ وَالوَعِيدِ، وَهِيَ مَسَائِلُ الأَسْمَاءِ وَالأَحْكَامِ، الَّتِي هِيَ المَنْزِلَةُ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ، وَمَسْأَلَةُ إِنْفَاذِ الوَعِيدِ، ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي إِلْزَامِ الْغَيْرِ بِذَلِكَ، الَّذِي هُوَ الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، وَضَمَّنُوهُ جَوَازَ الخُرُوجِ عَلَى الأَئِمَّةِ بِالقِتَالِ، فَهَذِهِ أُصُولُهُمُ الخَمْسَةُ، الَّتِي وَضَعُوهَا بِإِزَاءِ أُصُولِ الدِّينِ الخَمْسَةِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا الرَّسُولُ.

الرَّافِضَةُ المُتَأَخِّرُونَ جَعَلُوا الأُصُولَ أَرْبَعَةَ: التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ وَالنُّبُوَّةَ وَالإِمَامَةَ.

وَأُصُولُ أَهْلِ السُّنَّةِ تَابِعَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ.

وَأَصْلُ الدِّينِ: الإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، كَمَا تقدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا كَانَتِ الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ - لَمَّا تَضَمَّنَتَا هَذَا الأَصْلِ - لَهُمَا شَأْنٌ عَظِيمٌ لَيْسَ لِغَيْرِهِمَا، فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،

قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[١].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[٢] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: «بَيْنَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةِ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيتَهُ».

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ المَكِّيُّ: أَرْكَانُ الإِيمَانِ سَبْعَةٌ، يَعْنِي: هَذِهِ الخَمْسَةَ، وَالإِيمَانَ بِالقَدَرِ، وَالإِيمَانَ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَهَذَا حَقٌّ، وَالأَدِلَّةُ عَلَيْهِ ثَابِتَةٌ مُحْكَمَةٌ قَطْعِيَّةٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الإِشَارَةُ إِلَى دَلِيلِ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح تأويلات الفلاسفة، ويسمَّون الفلاسفة الإلهيين، يعني: الذين يؤمنون بالإله، ويسمون الذين ينتسبون إلى الإسلام فلاسفة إسلاميين.

ذكر بعد ذلك أركان الإيمان، أو أركان الدين عند المعتزلة، الذين يدّعون بأنهم مسلمون، ويدَّعون أن الحقَّ في جانبهم، ولهم مؤلفاتٌ على مذهبهم ومعتقدهم، وُجدوا وكَثروا في القرن الثالث، ولكن تمكَّنوا بقوة، وسيطروا على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٨).

(٢) برقم (٨٠٦).

أكثر الأمة في القرن الرابع وما بعده، وأصبح وجود أهل السنة قليلًا في تلك القرون، وأركان الدين عند المعتزلة خمسة، ويسمّونها بأسماء حسنة: التوحيد والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ما أحسنها من أسماء! ولكن ماذا تتضمَّن محتوياتها؟ وما تتضمَّنه وما تفسر به فيه الشرّ:

الأصل الأول: التوحيد: فالتوحيد عندهم هو نفي الصفات، ويقولون: إذا أثبتنا سمعًا وبصرًا وقدرة وعلمًا ورحمة ومحبة ويدًا ووجهًا وعلوًّا ونزولًا، لم نثبت واحدًا بل أثبتنا عددًا، فلا نكون موحِّدين، الموحِّد هو الذي يثبت واحد هو الله، إله واحد ولا يجعل له صفات؛ فإن الصفات تكون زائدة على الذات عندهم، ويقولون: إنَّ القِدَم لله، وإنه لو كانت الصفات قديمة، لكان القدماء عددًا. هذه شبههم!!

والجواب: إن الصفة من الموصوف، ولا يلزم من إثباتها تعدّد؛ فتقول مثلًا: جاءني فلان، رجلٌ واحد، ولا تعدّد، ولا تقل: جاءني زيدٌ، ورِجلُه، ورأسُه، ويدُه، وبطنُه، وروحه ونفسه؛ لأنه واحد، يعني: أن الصفة تابعة للموصوف، فلا يلزم من إثبات الصفات إثبات العدد، فبطلت بذلك شبهتهم في إنكارهم الصفات، وزعمهم أن إنكارها هو التوحيد.

الأصل الثاني: العدل: والعدل عندهم هو إنكار القدرة العامة، يقولون: إن الله لا يقدر على خلق أفعال العباد، فكيف يخلقها، ثم يعذب العصاة ويثيب

المطيعين، وهو الذي خلق حركات هؤلاء وحركات هؤلاء.

تقدم الكلام على القدر، وذكرنا هناك أن الله هو الذي خلق أفعال العباد، ولكنه سبحانه، ولو كان الخالق وحده للعبد وعمله، قد أعطى العباد قدرة خاصة يتمكنون بها من مزاولة أعمالهم، وبها تُنسب إليهم، فيُقال: هذا هو المؤمن، وهذا هو الكافر، وهذا هو البرُّ، وهذا هو الفاجر، وهذا هو المصلي، وهذا هو التارك، وهذا هو المزكّي، وهذا هو البخيل؛ تنسب إليهم أعمالهم، ويثابون على حسنها، ويعاقبون على سيئها، وإن كانت خلقًا لله تعالى.

أما المعتزلة، فيقولون: إذا أثبتنا أن الله خلقها، فكيف يعذب عليها؟ بل ننفي خلقها ونقول: لم يخلقها الله، ولا يقدر على خلقها، وليس لله قدرة على أفعال العباد، وليس الله عندهم على كل شيء قدير، وقدرة العبد عندهم تغلب قدرة الله ـ تعالى الله عن قولهم ـ ولا يقدر أن يهدي من يشاء، ولا يضل من يشاء، ولا يعطي من يشاء، ولا يمنع من يشاء، كل ذلك عندهم يسمونه العدل، وهذا معتقدٌ باطل.

**الأصل الثالث: المنزلة بين منزلتين:** فماذا يراد عندهم بذلك؟ يتعلق هذا بأسماء الأحكام والدين، عندنا ـ أهل السنة ـ أن المؤمن لا يخرج من الإيمان بالذنوب، ولا يدخل في الكفر، بل يُقال للمذنب: مؤمن ناقص الإيمان، ويُقال له: خاسر، ويُقال له: مؤمن بإيمانه، وفاسق بكبيرته، ولا نخرجه من الإيمان كليًّا، ولا ندخله في الكفر، ولا نحكم عليه بالنار، ولا نستحل قتله ولا قتاله، ولا أخذ ماله، ولا سفك دمه؛ لأن معه الأصل الأصيل الذي هو الإيمان بالله

وحده، ولو صدر منه ما صدر.

أما المعتزلة، فيخرجون المذنب من الإيمان ولا يدخلونه في الكفر، ويجعلونه في منزلة بينهما، فيقولون: ليس بمؤمن وليس بكافر، أي: إننا لا نعامله معاملة المؤمن حتى ولو كان يصلي ويزكي، إذا كان يأكل الربا، أو يزني، أو يشرب الخمر، أو يكذب، أو ما أشبه ذلك. فهم يخرجونه من الإيمان ولا يدخلونه في الكفر، ويجعلونه في منزلة بين منزلتين، فلو أدخلوه في الكفر لاستحلو قتله وأخذ ماله، ولكنهم لا يفعلون ذلك، وهذه المنزلة مبتدعة.

وأهل السنة يقولون: إنه لا يخرج من الإيمان، وأن الله تعالى إذا شاء عفا عنه، وإذا شاء عذبه.

**الأصل الرابع: الوعيد:** ويوردون النصوص التي توعّد الله بها على الكبائر، ويقولون: لا يخلف الله وعده، ولا بد أن تقع تلك النصوص، وتلك العقوبات التي رُتّبت على تلك الذنوب والكبائر، ويُخلّدون أصحاب الكبائر في النار، ويكذبون قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]. ويقولون: صاحب الكبيرة مخلَّد في النار.

وهذه الطريقة أخذوها من الخوارج، ولكن الخوارج يخرجونه من الإيمان، ويدخلونه في الكفر، ويستحلون دمه وماله، والمعتزلة يخرجونه من الإيمان، ولا يدخلونه في الكفر، ولا يعاملونه في الدنيا معاملة الكفار، ولكن في الآخرة

الخوارج والمعتزلة متفقون على أنه مخلد في النار.

**الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: يضمِّنون ذلك الخروج على الأئمّة، يقولون: إذا عصى إمام المسلمين وأصرَّ على معصيته، ولو كانت صغيرة، لا يُقرّه عليه أهل السنة، ولا يخرجون عليه ويقاتلونه، ولكن المعتزلة يسمون ذلك أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

وأهل السنة يقولون: لا نكفِّر الإمامَ، ولا نخرُج عليه ما لم نرَ كفرًا بواحًا، كما أمرنا بذلك النبي ﷺ[1]. هذه أصول الإسلام عند المعتزلة.

أما الرافضة فأصولهم أربعة، وعندهم أيضًا أن الإمامة أصل من أصولهم، وهي عندهم من أقوى أركان دينهم، فالذي لا يؤمن بالإمامة لأهل البيت لا يكون مؤمنًا ولا مسلمًا، ولا يُقبل منه إسلام ولا دين ولا أعمال صالحة.

ويجعلون الأئمّة اثني عشر، وبعدهم ليس لهم أئمّة، إلى هذا اليوم انقطعت الإمامة عندهم، فمن حدود سنة ستين ومائتين من الهجرة ليس لهم إمام، وإمامهم الثاني عشر ينتظرونه إلى اليوم، ويسمّونه المهدي المنتظر، معتقدين أنه دخل سرداب سامراء، وصاروا ينتظرونه في كلّ ليلة، يوقفون

---

(١) كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ، قال: دَعَانَا رسول اللَّهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ في مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قال: «إلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ من اللَّهِ فيه بُرْهَانٌ». أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

فرسًا عند ذلك السرداب، ويصيحون طول ليلهم: اخرج يا مولانا، اخرج يا مولانا. ولا يجيبهم أحدٌ طوال هذه القرون[1].

فهم يؤمنون بأن الأئمّة الاثني عشر من أهل البيت هم الأئمّة، وأنه ليس للناس إمام، وإنه لا تصح الصلاة إلا خلف إمام معصوم، وأن صلاتهم خلفنا لا تُقبل أبدًا، وكذلك صلاتهم خلف غير المعصوم، وهكذا.

وعلى كل حال فهي قواعد باطلةٌ، يُعرف بطلانها بمجرد سماعها.

أما أهل السنة، فإنهم يؤمنون بأن واجب المسلمين طاعة ولاة أمورهم، والسمع والطاعة، والصبر على ما يروا منهم من المخالفات والمعاصي، ما لم يرون كفرًا بواحًا عندهم من الله تعالى فيه برهان، وعند ذلك يخرجون عن طاعتهم، ولا يدخلون في الديانة لهم.

والإيمان بالملائكة والرسل والكتب ونحو ذلك مذكور في الآيات التي مرَّت معنا في أواخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾

---

(١) والغيبة عندهم صغرى وكبرى، فالصغرى - كما يزعمون - لَـمَّا كان للإمام الثاني عشر في السرداب سفراء يتصل عن طريقهم بقومه، ولَـمَّا مات آخر السفراء عندهم بدأت الغيبة الكبرى في معتقداتهم الفاسدة، ولقد أحسن من قال:

مَا آنَ لِلسِّرْدَابِ أَنْ يَلِدَ الَّذِي ... كَذَّبْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ مَرَّتَيْنِ

فَعَلَى عُقُولِكُمُ العَفَاءِ فَإِنَّكُمْ ... ثَلَّثْتُمُ العَنْقَاءَ وَالغِيلَانَا

انظر: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٢/ ٤٨٣).

[البقرة:٢٨٥]، هذه أربعة من أركان الإيمان ذكرها الله في هذه الآية.

وقد ورد حديث فيها، وفي الآية التي بعدها: «مَنْ قَرَأَ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[1]، أي: أصبحت كافية له عن الأوراد، ومن سأل الله تعالى بها أعطيه؛ لأن الله تعالى أجاب الدعاء الذي ذُكر فيها، إذا قال العبد: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ،قال: فعلت، وإذا قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قال الله تعالى: قد فعلت. وإذا قال: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، قال الله: قد فعلت. وإذا قال: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله: قد فعلت[2]. فيعد قراءة هاتين الآيتين تجديدًا للإيمان، وختمًا للآيتين بهذا الدعاء الذي ترجى إجابته إن شاء الله.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشارح:

وَأَمَّا المَلَائِكَةُ، فَهُمُ المُوَكَّلُونَ بِالسَّمواتِ وَالأَرْضِ، فَكُلُّ حَرَكَةٍ فِي العَالَمِ، فَهِيَ نَاشِئَةٌ عَنِ المَلَائِكَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:٤]. وَهُمُ المَلَائِكَةُ عِنْدَ أَهْلِ الإِيمَانِ وَأَتْبَاعِ الرُّسُلِ، وَأَمَّا المُكَذِّبُونَ بِالرُّسُلِ، المُنْكِرُونَ لِلصَّانِعِ، فَيَقُولُونَ: هِيَ النُّجُومُ.

وَقَدْ دَلَّ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى أَصْنَافِ المَلَائِكَةِ، وَأَنَّهَا مُوَكَّلَةٌ بِأَصْنَافِ المَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَكَّلَ بِالجِبَالِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالسَّحَابِ وَالمَطَرِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَائِكَةً تُدَبِّرُ أَمْرَ النُّطْفَةِ حَتَّى يَتِمَّ خَلْقُهَا، ثُمَّ وَكَّلَ بِالْعَبْدِ مَلَائِكَةً لِحِفْظِ مَا يَعْمَلُهُ وَإِحْصَائِهِ وَكِتَابَتِهِ، وَوَكَّلَ بِالمَوْتِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالسُّؤَالِ فِي القَبْرِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالْأَفْلَاكِ وَتَعْذِيبِ أَهْلِهَا وَعِمَارَتِهَا مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالجَنَّةِ وَعِمَارَتِهَا وَغِرَاسِهَا وَعَمَلِ آلَاتِهَا مَلَائِكَةً.

فَالمَلَائِكَةُ أَعْظَمُ جُنُودِ اللَّهِ، وَمِنْهُمُ: المُرْسَلَاتِ عُرْفًا، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا، وَالفَارِقَاتِ فَرْقًا، وَالمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا.

وَمِنْهُمُ: النَّازِعَاتِ غَرْقًا، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا.

وَمِنْهُمُ: الصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا.

وَمَعْنَى جَمْعُ التَّأْنِيثِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ: الفِرَقُ وَالطَّوَائِفُ وَالجَمَاعَاتُ، الَّتِي مُفْرَدُهَا «فِرْقَةٌ» وَ«طَائِفَةٌ» وَ«جَمَاعَةٌ».

وَمِنْهُمْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وَمَلَائِكَةُ العَذَابِ، وَمَلَائِكَةٌ قَدْ وُكِّلُوا بِحَمْلِ العَرْشِ، وَمَلَائِكَةٌ قَدْ وُكِّلُوا بِعِمَارَةِ السَّمَوَاتِ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ المَلَائِكَةِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وَلَفْظُ «المَلَكُ» يُشْعِرُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مُنَفِّذٌ لِأَمْرِ مُرْسِلِهِ، فَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ الأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ، وَهُمْ يُنَفِّذُونَ أَمْرَهُ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧، ٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠].

فَهُمْ عِبَادٌ لَهُ مُكْرَمُونَ، مِنْهُمُ الصَّافُّونَ، وَمِنْهُمُ المُسَبِّحُونَ، لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، لَا يَتَخَطَّاهُ، وَهُوَ عَلَى عَمَلٍ قَدْ أُمِرَ بِهِ، لَا يُقَصِّرُ عَنْهُ، لَا يَتَعَدَّاهُ، وَأَعْلَاهُمُ الَّذِينَ عِنْدَهُ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠].

---

قال الشيخ:

الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، والملائكة واحدهم مَلَك بفتح اللام، خلق من خلق الله، أرواح لا نراهم، ولا نشك بأنهم يتجسّدون، وأنهم يصعدون وينزلون، وأنهم يتصلون بالإنسان، ويتكلّمون، وأن الملك يتمثّل إنسانًا، ويكلِّم النبيّ، وينزل عليه بالوحي.

وقد سمّى الله تعالى منهم في القرآن اثنين في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨].

سمَّى اللهُ جبريل وميكال، وجبريل قرئ: جبرائيل، وجِبريل، بعدة قراءات، وهو مسمّى واحد.

وذكر الله تعالى ملك الموت في قوله: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة:١١]، وسمِّي في بعض الروايات بعزرائيل[(١)]، وسمي في الحديث ملك ثالث وهو إسرافيل[(٢)].

وسمّي ملك رابع وهو مالك، في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف:٧٧]، وذكر الله تعالى خزنة النار، وخزنة الجنة، في قوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ

---

(١) أخرج أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٠٨) عن أشعث بن أسلم قال: «سأل إبراهيم صلوات الله عليه ملك الموت واسمه عزرائيل...». قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٤٧): «وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل، والله أعلم». وقد ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بذلك في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٩) فقال: «الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون، حتى الملائكة وحتى عزرائيل ملك الموت».

(٢) كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله: «اللهم رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ...» الحديث، تقدم تخريجه (٢/ ٢٧٥).

خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الزمر:٧١]، وفي قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ [الملك:٨]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ [الزمر:٧٣]، فالملائكة خلق من خلق الله تعالى، لا يُحصي عددهم إلا الله.

لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر:٣٠]، قال المشركون: ما داموا تسعة عشر، فنحن أكثر منهم، سنغلبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١]، جنوده ـ جل وعلا ـ هم الملائكة، ولا يعلمهم إلا هو.

وورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ، ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ**»(١).

وقد مرَّ في كلام الشارح ذكر بعض صفاتهم، وما وُكّلوا به، فمنهم: الموكلون بالمطر وتصريفه، والسحب وتصريفها، وكذلك الموكلون بحفظ بني آدم، كما في قوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١]، وكذلك الموكّلون بحفظ الأعمال، كما في قوله: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، وكذلك الذين ينزلون بالوحي، كما في قوله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٢)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، والبيهقي (٧/ ٥٢) من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ.

تعالى: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٥، ١٦]، وصفهم بأنهم سَفَرةٌ؛ لأنهم وسطاء بين الله ورسله، وأنهم كرام بررة، كذلك أقسم الله بهم في قوله تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات:٥]، وفي قوله: ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾، أي: الملائكة الذين يصفون صفوفًا، ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾، الذين يزجرون السُّحُب ونحوها، ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ [الصافات:١ ـ ٣]، الذين يتلون كلامَ الله ويذكرون الله تعالى به، وفي قوله تعالى: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ [المرسلات:١]، الذين يُرسلهم الله تعالى ليعرّفوا عباده، وفي قوله: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ [النازعات:١، ٢]، النازعات: التي تنزع أرواح الكفار نزعًا شديدًا، يعني: عند الموت، وهم ملائكة العذاب. والناشطات: التي تنشط أرواح المؤمنين عند الموت نشطًا، وهكذا في الآيات بعدها.

وهذه الأوصاف تبيّن أنواع الملائكة وأعمالهم، فنصدّق بهم، وإن لم نرَهم، لكن نصدّق بأنهم خلقُ الله تعالى، كما أننا نصدّقُ بالجنّ، وبأنهم يدخلون في الإنس، ويداخلونهم، وبأنهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها، وإن لم نرَ الجنّ، وإن كذّب بهم من كذّب، وقال: لو كان الجن موجودين لرأيناهم بالمجهر. ونقول: إنهم لا يُرون؛ فهم بمنزلة شعاع النور الذي يشع من الأنوار، ونحوها، فهو ليس جرمًا ولكن يخرقهم البصر، فليس لهم جسد حقيقي حتى ينعكس ويكبّره المكبّر.

فالملائكة والجنّ والشياطين أرواح ليس لهم أجساد تقوم بهم، بينما

الإنسان مركّب من روح وجسد، فإذا خرجت الروح بالموت ما نراها عندما تخرج وتفارق الجسد، يبقى الجسد دون حركة، وليس فيه الروح التي تحركه، فإذا أراد الله إحياءه جمع الجسد مرة ثانية، وأعاد إليه الروح.

وكذا نقول: إن الروح التي يحيا بها الجسد لا يعلم كيفيّتها إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، فالأرواح التي ليس لها أجسادٌ تعيش وتتقلّب وتذهب وتجيء، وهي خفيفة الحركة، كالملائكة، وكالجن الذين ذكر الله تعالى إنهم يصلون إلى السماء: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٨، ٩]، لا يستغرب أن تكون الملائكة يصعدون إلى السماء في طرفة عين، ويقطعون المسافات الطويلة في لحظة؛ وذلك لخفة أجسادهم، ولأن الله أعطاهم من القوة على الصعود وقطع المسافات ما لم يعطِ الإنسان.

فعلى المسلم أن يصدّق بمثل هذه الأمور وإن كان لم يدركها ببصره؛ وذلك لأنها أخبر عنها الصادق المصدوق ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

فتبين بذلك أن الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، يجب على المسلم أن يؤمن بوجودهم، ويؤمن بما أخبر الله تعالى عنهم في كتابه حيث وصفهم بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧]، وبأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾

يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠]، وبأنهم ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، ونحو ذلك من الآيات التي مدحهم بها.

ويجب على المسلم كذلك الإيمان بمن سميّ منهم، والإيمان بأعمالهم التي أسندت إليهم، والإيمان بما نقل من أوصافهم، كل ذلك يدخل في الإيمان؛ لأنه من الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب يعمّ كل شيء غائب عنا أُخبرنا به يقينًا، ويلزمنا أن نصدق به كما وُصفَ لنا، وليس لنا أن نتكلَّف أكثر من ذلك.

ومعلوم أن الملائكة لا يمكننا رؤيتهم، فهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها، والذي خلق الأجساد خلق الأرواح، ومعلومٌ أنهم أجسام خفيفة علوية نورانية حيّة متحركة، تسمع وتعقل وتمتثل، وتركع وتسجد وتأتمر بأمر الله، وتقطع المسافات الطويلة الشاسعة في زمن قصير، وكل ذلك بقدرة الله الذي أقدرهم على ذلك.

ومرّت بنا مسألة التفضيل بين البشر والملائكة: أيهم أفضل؟ وهي مسألة كلامية، الكلام فيها من باب الجدل، ولكن بعض المتأخرين أخذ يرجح جانب تفضيل البشر حتى تكلّم بعبارات فيها شيء من التنقص والجفاء للملائكة، وأن الملائكة خدم للإنسان، والملائكة دون الإنسان بمرتبة أو مراتب، ولأجل ذلك تكلّم الشارح كغيره على هذه المسألة، وهي مسألة التفضيل بين البشر والملائكة، والمراد بين الصالحين منهم.

فالملائكة كلّهم مخلوقون للعبادة، وكلّهم عابدون، وأمّا البشر الذي هو الإنسان، فإن فيهم الفاسق وفيهم الكافر، وفيهم التقي والمؤمن، وفيهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ومثلهم أيضًا قسم من المخلوقات الروحانية، وهم الجن الذين قد ذكر الله عنهم أن فيهم الصالح وغيره، كما قالوا: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن:١١]. وأمَّا الشياطين فهم كلّهم شر، وكلّهم كفر؛ فلهذا يقال: إن الجنّ والإنس من كان منهم تقيًا نقيًا مؤمنًا عاملًا للصالحات، التحق بالملائكة، ومن كان منهم شقيًّا عاصيًا، خارجًا عن الطاعة، التحق بالشياطين الذين هم شر محض، ففي الجن شياطين وفي الإنس شياطين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:١١٢]، أخبر بأنّه في الإنس شياطين، بمعنى أنهم متشيطنة، أي: ملتحقون بالشياطين.

فعلى هذا يكون التفضيل بحسن الأعمال، فمن كان من الإنس من أهل التُّقى، وأهل الورع، وأهل الإيمان والعمل الصالح، وأهل الزهد في الدنيا، التحق بالملائكة، وقد يكون أفضل منهم، ومن كان شقيًا خارجًا عن الطاعة معتديًا، التحق بالشياطين، وقد يكون شرًا منهم.

أما مسألة المفاضلة فيراد بها البعض لا الكلّ، يعني: الصفوة والخيار من بني آدم هم الذين اختُلِف فيهم: هل هم أفضل أو الملائكة؟ ولعلَّ الأقرب أن الأفضل هو من كان لله أكثر عبادة وطاعة، سواء من الملائكة، أو من بني آدم.

قال الشارح:

وَرُؤَسَاؤُهُمُ الأَمْلَاكُ الثَّلَاثَةُ: جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ، المُوَكَّلُونَ بِالحَيَاةِ، فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالوَحْيِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ القُلُوبِ وَالأَرْوَاحِ، وَمِيكَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِالقَطْرِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الأَرْضِ وَالنَّبَاتِ وَالحَيَوَانِ، وَإِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الخَلْقِ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ.

فَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَسُفَرَاؤُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، يَنْزِلُونَ بِالأَمْرِ مِنْ عِنْدِهِ فِي أَقْطَارِ العَالَمِ، وَيَصْعَدُونَ إِلَيْهِ بِالأَمْرِ، قَدْ أَطَّتِ السَّمَوَاتُ بِهِمْ، وَحُقَّ لَهَا أَنَّ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ لِلَّهِ[1]، وَيَدْخُلُ البَيْتَ المَعْمُورَ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ[2].

---

قال الشيخ:

يتكلم - رحمه الله - على الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠]، فيذكر أن رؤساءهم ثلاثة.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١١٨)، وسيأتي في كلام سماحة الشيخ حفظه الله.

(٢) ثبت ذلك في حديث الإسراء الطويل الذي أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.

وذكر أن جبرائيل ـ عليه السلام ـ موكل بالوحي الذي ينزل به على الأنبياء، وهذا الوحي به حياة القلوب والأرواح، فإن الوحي الذي هو: الكتب التي ينزلها الله تعالى على عباده تكون بها حياة القلوب، وحياة الأرواح وتنعمها، فهو الذي ينزل على الأنبياء.

وقد ذكر اليهود أنه عدو لهم، وقالوا: لأنه ينزل بالعذاب، وينزل بالعقوبات، ونحو ذلك، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧، ٩٨].

أما ميكائيل ـ وقرأه بعضهم: ميكال ـ فإنه موكل بالقطر، أي: بإنزال المطر، والمطر تحصل به حياة الأرض بعهد موتها، وكذلك يحصل به نمو النبات، ويحصل به حياة الحيوان الذي يأكل من ذلك النبات ويعيش عليه.

وأما إسرافيل فإنه موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، وكثيرًا ما يذكر الله تعالى الصور ويذكر النفخ فيه؛ كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧]، وذُكر أن الصور مثل: القرن الكبير، قال بعض العلماء: إن فيه ثقوب بقدر عدد الآدميين، كل ثقب يخرج منه روح ذلك

الإنسان إذا نفخ فيه[1]. فعند ذلك تدخل تلك الروح في جسدها بعدما ينبت ذلك الجسد ويعيده الله كما كان.

قوله: (فَهُم)، أي: هؤلاء الملائكة، (رُسُلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ)؛ كما قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، وهم أيضًا سفراؤه بينه وبين عباده، والسفير هو: الواسطة، فهم الذين يبلغون العباد، أي: يبلغون الأنبياء، فهم سفراء بين الله وبين الأنبياء، والأنبياء سفراء بين العباد وبين ربهم، فالملائكة ينزلون بالأمر من عند الله في أقطار العالم، فالأمر الذي من الله تعالى ينزلون به في أي قطر من أقطار العالم، ثم يصعدون إليه بالأمر؛ كما في قول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وكما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]،أي: يعرجون إلى الله تعالى، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، فهم يصعدون بالأوامر إليه ـ سبحانه ـ وهو أعلم بهم، وبما يكون في الأرض، وبما يكتبونه من أعمال بني آدم.

قوله: (قَدْ أَطَّتِ السَّمَوَاتُ بِهِم)، والأطيط: هو صوت الأقتاب، عادة أن الراحلة إذا رُحل عليها، وكان الرحل ثقيلاً يُسمع له أزيز ويُسمع له صوت، أي: أن السماء لكثرة ما فيها من الملائكة فقد أثقلها وجودهم حتى أطت، أي:

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٤١) عن وهب بن منبه، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٦٧).

سُمع لها أطيط.

يقول ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ لِلَّهِ»، وهذا الحديث أخرجه الترمذي[١]، وابن ماجه[٢]، والإمام أحمد[٣] عن أبي ذر ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ لِلَّهِ سَاجِدًا»، وحسنه الترمذي، ويشهد له حديث حكيم بن حزام عند الطحاوي في المشكل[٤]، وعند الطبراني في الكبير[٥] بسند قوي، وآخر من حديث أنس عند أبي نعيم[٦].

قوله: (وَيَدْخُلُ الْبَيْتَ الْمَعْمُورِ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ)، وهذا قطعة من حديث الإسراء المطول الذي في الصحيحين فيه: أن النبي ﷺ قال بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، وإذا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كل يومٍ سَبْعُونَ أَلفَ مَلكٍ لا يَعُودُون إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ».

وقد ذكر الله تعالى البيت المعمور في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ

---

(١) برقم (٢٣١٢).

(٢) برقم (٤١٩٠).

(٣) (٥/ ١٧٣).

(٤) (٢/ ٤٣).

(٥) برقم (٣١٢٢).

(٦) في الحلية (٦/ ٢٦٩).

مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ [الطور:١ـ ٤]، يعني: أنه بيت في أعلى السَّمَوات، وأنه يدخله كل يوم سبعين ألفًا ليصلوا فيه، ثم لا يعودون إليه، ويدخله في اليوم الثاني مثلهم سبعون ألفًا لا يعودون إليه، ثم في اليوم الثالث آخرون غيرهم سبعون ألفًا، وهكذا من أول الدنيا إلى آخرها، وهذا دليل على أن الملائكة كثير، وأن عددهم لا يحصيه إلا الله تعالى.

قال الشارح:

وَالقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِذِكْرِ المَلَائِكَةِ وَأَصْنَافِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَتَارَةً يُقْرِنُ اللَّهُ تَعَالَى اسْمَهُ بِاسْمِهِمْ، وَصَلَاتَهُ بِصَلَاتِهِمْ، وَيُضِيفُهُمْ إِلَيْهِ فِي مَوَاضِعِ التَّشْرِيفِ.

وَتَارَةً يَذْكُرُ حَفَّهُمْ بِالْعَرْشِ، وَحَمْلَهُمْ لَهُ، وَبَرَاءَتَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ.

وَتَارَةً يَصِفُهُمْ بِالإِكْرَامِ، وَالْكَرَمِ، وَالتَّقْرِيبِ، وَالْعُلُوِّ، وَالطَّهَارَةِ، وَالْقُوَّةِ، وَالإِخْلَاصِ.

قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨]، ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]، ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦]، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١]، ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات:٨].

وَكَذَلِكَ الأَحَادِيثُ طَافِحَةٌ بِذِكْرِهِمْ؛ فَلِهَذَا كَانَ الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ أَحَدَ الأُصُولِ الخَمْسَةِ الَّتِي هِيَ أَرْكَانُ الإِيمَانِ.

قال الشيخ:

قد أكثر الله تعالى من ذكر الملائكة في القرآن، وكذلك أكثر النبي ﷺ من الأحاديث التي تتعلق بالملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فالله تعالى تارة يقرن اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب:٤٣]، فقد قرن اسمه باسم الملائكة، وصلاته بصلاتهم، وتارة يضيفهم إليه يعني أنهم عبيده؛ كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الزخرف:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢]، يعني: ولا يستنكف الملائكة الذين هم عبيد لله تعالى.

وتارة يذكر أنهم يحفون بالعرش وأنهم يحملونه، ويذكر أيضًا براءتهم من الذنوب، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص، وكل هذه مذكورة في القرآن في آيات كثيرة مثل:

قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فها هنا قرن الملائكة بالرب تعالى، أي: قرن اسمه باسمهم.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨]، فأشهدهم على إلهيته، وعطف شهادتهم على شهادته، مما يدل على فضلهم.

كذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب:٤٣]، فعطف الملائكة عليه، أي: يصلي عليكم وتصلي عليكم ملائكته، وقد ذكر العلماء أن صلاة الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، والصلاة من الملائكة هي الاستغفار، والصلاة من الآدميين الدعاء[1]، وأنه بسبب صلاته وصلاة الملائكة يخرجهم من الظلمات إلى النور، أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر:٧]، وهم الملائكة الذين وكلهم الله أو خلقهم لحمل العرش؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٧]، وقد ذُكر في عظمة خلقهم أدلة كثيرة، ووصفهم النبي ﷺ في الحديث بقوله: «بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ...»[2]، فمن يقدر يقدرهم إلا الله تعالى، يحملون هذا العرش، ولا يحملونه إلا بتقوية الله، وقيل: إنهم لا يحملونه إلا بالتسبيح.

---

(١) تقدمت الإشارة إلى أقوال أهل العلم في معنى الصلاة على العبد من الله عز وجل، ومن الملائكة، ومن المؤمنين (١/ ٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٠٦) من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[الزمر:٧٥]، يعني: أنهم محيطون بالعرش من جهاته، وأن عملهم تسبيح الرب سبحانه وتعالى، فهم عباد لله تعالى خلقهم لعبادته، فامتثلوا بذلك، وقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥، ١٦٦].

ووصفهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]، أي: أنهم كرام على الله تعالى، ووصفهم بكل صفات الكمال، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[الأعراف:٢٠٦]، وهم الملائكة وصفهم بأنهم عنده كما يشاء، وزكاهم بأنهم لا يتكبرون عن عبادته، بل يرون أن عبادته أفضل الأفعال، ويرون أنها رفعة وشرف لهم.

وكذلك يسبحونه؛ كما في قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، فيقدسونه وينزهونه وله يسجدون، كما في الحديث الذي مضى أن السماء: «**مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ لِلَّهِ سَاجِدًا**»، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨]، أي: إذا استكبر الكفار عن الإيمان فإن ربك قد خلق عبادًا له لا يستكبرون عن عبادته، بل يسبحون له دائمًا ليلاً ونهارًا ولا يسأمون أي: لا يملون ولا يتعبون، يقويهم الله تعالى بقوة منه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠، ١١]، أي: الملائكة الذين وكلهم الله تعالى بحفظ أعمال بني آدم، وصفهم

بالكرم أنهم كرام، ووصفهم أنهم يكتبون أعمال العباد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

ووصفهم بقوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦]،أي: موصوفون بالكرم وكذلك بالبر الذي هو الصدق والإخلاص في الأعمال.

وكذلك قال تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١]، أي: يشهدون ذلك النعيم، وهم الملائكة.

كذلك أيضًا وصف الشياطين بأنهم محجوبون عن الملأ الأعلى بقوله: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾[الصافات:٨ ـ ١٠]، أي: أن الشياطين لا يستطيعون أن يستمعوا إلى الملأ الأعلى.

قال: (وَكَذَلِكَ الأَحَادِيثُ)، أي: النبوية (طَافِحَةٌ بِذِكْرِهِمْ)، أي: بفضائلهم وبما فيهم.

قوله: (فَلِهَذَا كَانَ الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةُ أَحَدَ الأُصُولِ الخَمْسَةِ الَّتِي هِيَ أَرْكَانُ الإِيمَانِ)، وأركان الإيمان ستة ـ كما تقدم ـ ومن جملتها: الإيمان بالملائكة، وقد ذكر الله تعالى الإيمان بالملائكة وجعله من أركان الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:١٧٧]، فجعل الإيمان بالملائكة بعد الإيمان باليوم الآخر، وكذلك أنكر على الذين يكفرون بالملائكة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦]، فجاء الكفر بالملائكة مع الكفر بالله، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت:٣٠]، ذُكر أنها إذا أقبل الموت تتنزل عليهم، وأنهم يبشرونهم، ويقولون لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ كما في حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»(١).

وقد مدحهم الله تعالى بصفات شريفة؛ كقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، أي: أن الملائكة لا يأنفون ولا يمتنعون من عبادة الله، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]، أي: لا يتكبرون عن عبادة الله تعالى، ولا يستحسرون: أي ولا يفترون.

وهكذا قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، أي: أنه جعلهم رسلًا.

---

(١) أخرجه النسائي (١٨٣٣)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٤)، والحاكم (١/ ٣٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأما خلقهم ففي صحيح مسلم[١] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»، وإذا خُلقوا من نور فإنهم نور، وهكذا ثبت في أحاديث المعراج أنه رُفع له ﷺ البيت المعمور في السماء السابعة محاذيًا للكعبة، وحرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، يدخله هذا العدد العظيم الذي لا يعودون إليه[٢].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]»[٣].

ورُوي عن جابر ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلا شِبْرٍ وَلا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أو مَلَكٌ رَاكِعٌ، أو مَلَكٌ سَاجِدٌ، فإذا كان يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا: سُبْحَانَكَ، ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شيئًا»[٤].

---

(١) برقم (٢٩٩٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ١٢٥).

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٦٠)، والطبري (٢٣/ ١١١، ١١٢)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٣٢).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٥١).

وقال النبي ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»، هكذا أخرجه أبو داود[١]، والبيهقي في (الأسماء والصفات)[٢]، وغيرهما[٣].

فمن سادة الملائكة جبرائيل ـ عليه السلام ـ فقد وصفه الله تعالى بالأمانة، في قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]، وكذلك بحسن الخلق والقوة، ومن شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط بمن فيهن من الأمم، وما معهم من الدواب والحيوانات على طرف جناحه، حتى بلغ عنان السماء، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها بإذن الله تعالى[٤].

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]، أي: خلق حسن وبهاء وسماع وقوة شديدة، أو ذو قوة واستطاعة، فله قوة وبأس شديد ومكانة ومنزلة عالية رفيعة، وهو السفير بين الله وبين رسله، كان يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة، وقد روى الإمام أحمد[٥] عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي

---

(١) برقم (٤٧٢٧) من حديث جابر ﷺ.

(٢) (١/ ٢٨٤) برقم (٨٤٦) من حديث جابر ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ١٩٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٤٨) من حديث جابر ﷺ، وذكره الذهبي في العلو (ص٩٧) وصححه.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٩٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٧) عن محمد بن كعب القرظي.

(٥) (١/ ٣٩٥).

صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنْ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالياقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ»، وروى مسلم[١] عن ابن مسعود ﷺ قال: «رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ له ستمائة جَنَاحٍ»، وروى الترمذي[٢] عن ابن مسعود ﷺ قال: «رَأَى رسول اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ من رَفْرَفٍ قد مَلأَ ما بين السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السَّلاَمُ مُهْبَطًا قد مَلأَ ما بين الخَافِقَيْنِ، عَلَيْهِ ثِيَابُ سُنْدُسٍ مُعَلَّقٌ بِها اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ». رواه أبو الشيخ[٣].

ولابن جرير[٤] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «جبرائيل عبدالله، ومكيائيل عبدالله، وكل اسم فيه (إيل) فهو عبد الله».

وروى الطبراني[٥] عن النبي ﷺ قال: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ المَلائِكَةِ؟ جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ»، وعن أبي عمران الجوني أنه بلغه أن جبرائيل أتى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال: «وما لي لا أبكي، ما جفت لي عين منذ خلق الله النار مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها»[٦].

---

(١) برقم (١٧٤).

(٢) برقم (٣٢٨٣).

(٣) في العظمة (٢/ ٦٧٨).

(٤) في تفسيره (١/ ٤٣٧).

(٥) في الكبير (١١٣٦١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥٢١)، وأخرج نحوه الإمام أحمد في الزهد (ص٧).

ومن سادتهم ميكائيل ـ عليه السلام ـ وهو موكل بالنبات والقطر، كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «...فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟ قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالْجُنُودِ، قُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟ قَالَ: عَلَى النَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، قُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ الْمَوْتِ؟ قَالَ: عَلَى قَبْضِ الأَنْفُسِ»[1]، وروى الإمام أحمد[2] عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال لجبريل ـ عليه السلام ـ: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكاً قَطُّ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ».

ومن سادتهم إسرافيل، وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور.

وروى الترمذي[3] وحسنه عن أبي سعيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قد الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟»، فَكَأَنَّ ذلك ثَقُلَ على أَصْحَابِ النبي ﷺ فقال لهم: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، على اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ: «إن ملكًا مِن حملة العرش يُقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله، قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السفلى ومرق رأسه من السماء السابعة العليا»، رواه أبو نعيم في (الحلية)[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١).

(٢) في المسند (٣/ ٢٢٤).

(٣) برقم (٢٤٣١)

(٤) (٦/ ٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى أبو الشيخ[١] عن الأوزاعي قال: «ليس أحد من خلق الله ـ عز وجل ـ أحسن صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذ في التسبيح قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم».

ومن سادتهم ملك الموت، وليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل، والله أعلم. قاله ابن كثير[٢].

وقال: «إنهم بالنسبة إلى ما هيأهم له أقسام: فمنهم حملة العرش، ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش، وهم الملائكة المقربون ... ومنهم سكان السموات السبع، يعمرونها عبادة دائبة، ليلاً ونهارًا، صباحًا ومساءً... فمنهم الراكع دائمًا، والقائم دائمًا، والساجد دائمًا، ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور، كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم، ومنهم الموكلون بالجنان، وإعداد الكرامة لأهلها، وتهيئة

---

(١) في العظمة (٣/ ٨٦).

(٢) في البداية والنهاية (١/ ٤٧). وأخرج أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٠٩) عن أشعث بن أسلم قال: «سأل إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ ملك الموت، واسمه عزرائيل...».
وقال الحافظ ابن حجر في الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع (ص١٠٨): «وأما تسمية ملك الموت عزرائيل، فقد اشتهر ذلك بين الناس، وقد راجعت مبهمات القرآن لأبي القاسم السهيلي فلم أجد ذلك فيه، ثم راجعت تفسير القرطبي فوجدته ذكر أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولم ينسبه لقائل، ولا ذكر فيه أثرًا، ثم راجعت تفسير الثعلبي فوجدته حكى أن اسمه عزرائيل، وعزاه لتفسير مقاتل وتفسير ابن الكلبي».

الضيافة لساكنيها، من ملابس، ومصاغ، ومساكن، ومآكل، ومشارب، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١].

ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر، وخازنها مالك، وهو مقدم على الخزنة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف:٧٧]، وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ ﴾ [التحريم:٦]، وقال: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر:٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[المدثر:٣١].

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء أمر الله خلوا عنه»[٢]. وقال مجاهد: «ما من عبد إلا وملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له: وراءك، إلا شيء يأذن الله تعالى فيه فيصيبه»[٣].

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٤٩، ٥٠).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٦).

ومنهم: الموكلون بحفظ أعمال العباد؛ كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠ـ ١٢].

وروى البزار[١] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه، أو بجذمة[٢] حائط، أو بغيره».

قال الحافظ ابن كثير: ومعنى إكرامهم أن يستحي منهم، فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها، فإن الله خلقهم كرامًا في خُلقهم وأخلاقهم، ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تَدْخُلُ الْمَلائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلا كَلْبٌ وَلا جُنُبٌ»[٣]، وفي رواية: «وَلاَ بَوْلٌ»[٤]، وفي رواية:

---

(١) كما في كشف الأستار (١/ ١٦٠ رقم ٣١٧)، وقال: «فيه حفص بن سليمان لين الحديث».

(٢) الجذم: القطع، والجذمة: القطعة من الشيء. انظر: لسان العرب (١٢/ ٨٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٢٧)، والنسائي (٢٦١)، وأحمد (١/ ١٣٩)، وابن حبان (٤/ ٥)، والحاكم (١/ ١٧١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٤٦) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

«لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا تَماثِيلُ»[١]، وفي رواية: «لا تَصْحَبُ المَلائِكَةُ رُفْقَةً فيها كَلْبٌ ولا جَرَسٌ»[٢][٣].

وروى مالك[٤]، والبخاري[٥]، ومسلم[٦] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَعاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهارِ، وَيَجْتَمِعُونَ في صَلاةِ الْفَجْرِ، وَصَلاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وهو أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عبادي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وهم يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

وفي رواية[٧] أن أبا هريرة ﷺ قال: «اقرأوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]».

وأخرج مسلم[٨] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّهِ ﷺ قال: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة الأنصاري ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢١١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) انظر: البداية والنهاية (١/ ٥٠، ٥١).

(٤) في الموطأ برقم (٤١١).

(٥) برقم (٥٥٥).

(٦) برقم (٦٣٢).

(٧) أخرجه البخاري (٤٦٨)، ومسلم (٦٤٩).

(٨) برقم (٢٦٩٩).

السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

وفي المسند[1] والسنن[2] حديث: «إن المَلْائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، رِضًا بِمَا يَطْلُبُ». والأحاديث في ذكر الملائكة ـ عليهم السلام ـ كثيرة ومشهورة. وبذلك جاءت الأدلة الكثيرة في فضل الملائكة.

---

(١) (٤/ ٢٣٩) من حديث صفوان بن عسال ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥)، والنسائي (١٥٨) من حديث صفوان بن عسال ﷺ.

وأخرج نحوه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

قال الشارح:

وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَصَالِحِي الْبَشَرِ، وَيُنْسَبُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ تَفْضِيلُ صَالِحِي الْبَشَرِ أَوِ الأَنْبِيَاءَ فَقَطْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَإِلَى الْمُعْتَزِلَةِ تَفْضِيلُ الْمَلَائِكَةِ، وَأَتْبَاعُ الأَشْعَرِيِّ عَلَى قَوْلَيْنِ:

مِنْهُمْ مَنْ يُفَضِّلُ الأَنْبِيَاءَ وَالأَوْلِيَاءَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ وَلَا يَقْطَعُ فِي ذَلِكَ قَوْلًا.

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ مَيْلُهُمْ إِلَى تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ.

وَقَالَتِ الشِّيعَةُ: إِنَّ جَمِيعَ الأَئِمَّةِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَصَّلَ تَفْصِيلًا آخَرَ.

وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ قَوْلٌ يُؤْثَرُ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، وَكُنْتُ تَرَدَّدْتُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ لِقِلَّةِ ثَمَرَتِهَا، وَأَنَّهَا قَرِيبٌ مِمَّا لَا يَعْنِي، وَ«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[1].

---

قال الشيخ:

كلام الناس كثير في المفاضلة بين الملائكة والبشر، وما يُنسب إلى أهل السنة قد يكون غير مشهور، الذين يفضلون صالحي البشر أو الأنبياء على

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٢١).

الملائكة؛ وكذلك ما يُنسب إلى المعتزلة من تفضيل الملائكة، وكلٌ له حجة وله قول، والأولى عدم التدخل في هذه المفاضلة، فإن أمرهم إلى الله تعالى[١].

أما الأشاعرة: فإن منهم من يقول: إن الأنبياء والأولياء أفضل من الملائكة؛ وذلك لحجج يقولونها.

والقسم الثاني: الذين يتوقفون ولا يقطعون في ذلك قولاً، ويقولون: إنه قد حُكي عن بعض الأشاعرة تفضيل الملائكة، وكذلك عن بعض أهل السنة وبعض الصوفية.

وأما الرافضة: فإنهم يدَّعون أن أئمتهم أفضل من جميع الملائكة، وأفضل من جميع البشر، وأئمتهم الذين يغلون فيهم هم: الاثنا عشر، ومنهم محمد بن الحسن العسكري الذي هو غائب منتظر ـ كما يقولون ـ وهو لا حقيقة له.

وعلى كل حال: الأولى عدم التدخل في هذه المفاضلة، فالله تعالى هو الذي يفضل بعضهم على بعض، كما قال في الملائكة، وكما قال في الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

---

(١) انظر: كلام شيخ الإسلام في مسألة التفضيل بين الملائكة والبشر في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥٧).

قال الشارح:

وَالشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّـهُ ـ لَمْ يَتَعَرَّضْ إِلَى هَـذِهِ المَسْأَلَةِ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ، وَلَعَلَّهُ يَكُونُ قَدْ تَرَكَ الكَلَامَ فِيهَا قَصْدًا، فَإِنَّ الإِمَامَ أَبَا حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّـهُ ـ وَقَفَ فِي الجَوَابِ عَنْهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي (مَآلِ الفَتَاوَى)، فَإِنَّهُ ذَكَرَ مَسَائِلَ لَمْ يَقْطَعْ أَبُو حَنِيفَةَ فِيهَا بِجَوَابٍ، وَعَدَّ مِنْهَا: التَّفْضِيلَ بَيْنَ المَلَائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ.

وَهَذَا هُوَ الحَقّ، فَإِنَّ الوَاجِبَ عَلَيْنَا الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيينَ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ أَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَفْضَلُ، فَإِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ مِنَ الوَاجِبَاتِ لَبَيَّنَ لَنَا نَصًّا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤].

وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّـهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا»[1]. فَالسُّكُوتُ عَنِ الكَلَامِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا ـ وَالحَالَةُ هَذِهِ ـ أَوْلَى.

---

قال الشيخ:

الطحاوي ـ رحمه الله ـ لم يتعرض لمسألة التفضيل بين الملائكة والبشر،

---

(١) يأتي تخريجه في تعليق سماحة الشيخ حفظه الله.

وترك الكلام فيها قصدًا، وأبو حنيفة ـ رحمه الله ـ توقف في الجواب عنها على ما ذكره في (مآل الفتاوى)، وهو (الملتقط في الفتاوى الحنفية)[1] تأليف أبي القاسم محمد بن يوسف العلوي السمرقندي الحنفي، وهو عالم بالتفسير والحديث والفقه والموعظة، مات سنة ست وخمسين وخمسمائة، فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب، ومنها: التفضيل بين الملائكة والأنبياء.

قوله: (وَهَذَا هُوَ الحَقُّ)، جاء في بعض النسخ.

قوله: (الوَاجِبُ عَلَيْنَا الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيينَ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ أَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَفْضَلُ)؛ لأن هذا من علم الغيب، والله تعالى هو الذي يفضل بعضهم على بعض.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ مِنَ الوَاجِبَاتِ لَبَيَّنَ لَنَا نَصًّا)، أي: ولو كان هذا الاعتقاد معرفة الفاضل من النبيين أو من الملائكة لبينه الله تعالى لنا نصًا، والله تعالى قد أكمل لنا الدين، ومن كماله أنه بيَّن كل ما نحتاج إليه؛ وكذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، أي: أنه سبحانه لا يترك شيئًا نسيانًا.

وأما هذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا...»، فهو ليس في الصحيحين، ولا في أحدهما، وهو حديث حسن أخرجه الدارقطني[2]،

---

(١) انظر: كشف الظنون (٢/ ١٨١٣).

(٢) (١/ ١٨٤).

والحاكم في المستدرك[١]، والبيهقي[٢]، وأبو نعيم في الحلية[٣]، والخطيب في (الفقيه المتفقه)[٤]، من طرق عدة عن مدكور عن أبي ثعلبة الخشني ورجاله ثقات، إلا أن مدكور لم يصح له سماع من أبي ثعلبة، ولكن له شواهد، وهو أحد الأحاديث الأربعين التي اختارها النووي، فهو من الأربعين النووية، قد شرحه ابن رجب في (جامع العلوم والحكم)[٥] وذكر له أيضًا شواهد وطرقًا يتقوى بها.

---

(١) (٤/ ١١٥).

(٢) (١٠/ ١٢).

(٣) (٩/ ١٧).

(٤) (٢/ ٩).

(٥) (ص٢٧٥ ـ ٢٨٢).

قال الشارح:

وَلَا يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ نَظِيرُ غَيْرِهَا مِنَ المَسَائِلِ المُسْتَنْبَطَةِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لأَنَّ الأَدِلَّةَ هُنَا مُتكَافِئَةٌ، عَلَى مَا أُشِيرُ إِلَيْهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَحَمَلَنِي عَلَى بَسْطِ الكَلَامِ هُنَا: أَنَّ بَعْضَ الجَاهِلِينَ يُسِيئُونَ الأَدَبَ بِقَوْلِهِمْ: كَانَ المَلَكُ خَادِمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ! أَوْ: إِنَّ بَعْضَ المَلَائِكَةِ خُدَّامُ بَنِي آدَمَ!! يَعْنُونَ المَلَائِكَةَ المُوَكَّلِينَ بِالْبَشَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الأَلْفَاظِ المُخَالِفَةِ للشَّرْعِ، المُجَانِبَةِ لِلأَدَبِ.

وَالتَّفْضِيلُ إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّنَقُّصِ، أَوِ الحَمِيَّةِ وَالعَصَبِيَّةِ لِلْجِنْسِ: لَا شَكَّ فِي رَدِّهِ، وَلَيْسَ هَذِهِ المَسْأَلَةُ نَظِيرَ المُفَاضَلَةِ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ تِلْكَ قَدْ وُجِدَ فِيهَا نَصٌّ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] الآية، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَسَيِّدُ المُرْسَلِينَ)، يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ.

وَالمُعْتَبَرُ رُجْحَانُ الدَّلِيلِ، وَلَا يُهْجَرَ القَوْلُ؛ لأَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الأَهْوَاءِ وَافَقَ عَلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ تَكُونَ المَسْأَلَةُ مُخْتَلَفًا فِيهَا بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ ﷺ يَقُولُ أَوَّلًا بِتَفْضِيلِ المَلَائِكَةِ عَلَى البَشَرِ، ثُمَّ قَالَ بِعَكْسِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ القَوْلَ بِالتَّوَقُّفِ أَحَدُ أَقْوَالِهِ.

وَالأَدِلَّةُ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ مِنَ الجَانِبَيْنِ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الفَضْلِ، لَا عَلَى الأَفْضَلِيَّةِ، وَلَا نِزَاعَ فِي ذَلِكَ.

قال الشيخ:

هذه المسألة ولو كانت مثل غيرها من المسائل المستنبطة من الأدلة، فإنها لا حاجة إلى التطويل فيها؛ لأن الأدلة فيها متكافئة، مَنْ فَضَّلَ الأنبياء، وَمَنْ فَضَّلَ الملائكة، وَمَنْ فَضَّلَ الأولياء، وَمَنْ فَضَّلَ الصالحين، وكذلك مَنْ فَضَّلَ الأئمة كما تقوله الرافضة.

وقد توسع الشارح ـ رحمه الله ـ في شرح هذه المسألة، وحمله على ذلك: هذه الإساءة ـ إساءة الأدب والتنقص ـ للملائكة، فقولهم: (المَلَكُ خادم للنبي ﷺ) ليس كذلك، بل الملائكة مطيعون لله تعالى، وكذلك قول بعضهم: (الملائكة خدام بني آدم) ليس كذلك، إنما يطيعون الله تعالى في أن جعلهم حفظة يحفظون بني آدم؛ وكذلك يحفظون أعمال بني آدم، وهذه الألفاظ فيها شيء من التنقص، وهي مخالفة للشرع، ومجانبة للأدب، ولا يجوز التنقص لعباد الله الذين مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧]، فإن هذا عيب لهم، مع أنهم مطيعون لأمر الله تعالى.

هذا التنقص حملهم عليه الحمية لبني آدم، أو العصبية للجنس، فهو مردود.

وهذه المسألة ليست نظير التفضيل بين الملائكة؛ لوجود الدليل كهاتين

الآيتين: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ففيها تفضيل لبعض الرسل؛ كأولي العزم وغيرهم، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

والشيخ ـ رحمه الله ـ قد تكلم على ذلك في أول الكتاب عند قوله في وصف النبي ﷺ: (وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ).

قوله: (وَالْمُعْتَبَرُ رُجْحَانُ الدَّلِيلِ)، أي: المعتبر العمل بالدليل الراجح، والمصير إليه، (وَلَا يُهْجَرُ الْقَوْلُ)، إذا كان بعض أهل الأهواء قد قالوا به، نحو بعض الشيعة وهم الرافضة، أو بعض المعتزلة، ونحو ذلك، إذا كانت المسألة مختلفًا فيها بين أهل السنة فلا مانع من الخوض فيها.

ثم ذكر أن أبا حنيفة كان أولاً يفضل الملائكة على البشر، ثم تراجع وفضل صالحي البشر، والراجح أن القول بالتوقف هو أحد أقواله.

ثم ذكر أن الأدلة في هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل لا على الأفضلية ولا نزاع في ذلك، وهذا صحيح أنها تدل على الفضل، وأن الملائكة فضلاء ولهم من الفضل كذا وكذا، ولكن لا تدل على أنهم أفضل من البشر؛ وكذلك فضائل البشر إنما تدل على فضائل الأنبياء، ولا نزاع في فضلهم وأنهم من أفضل البشر، والرسل والأولياء والصديقين والشهداء والصالحين.

قال الشارح:

وَلِلشَّيْخِ تَاجِ الدِّينِ الفَزَّارِي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مُصَنَّفٌ سَمَّاهُ: (الإِشَارَةِ فِي البِشَارَةِ فِي تَفْضِيلِ البَشَرِ عَلَى المَلَكِ)، قَالَ فِي آخِرِهِ: «اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ مِنْ بِدَعِ عِلْمِ الْكَلَامِ، الَّتِي لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهَا الصَّدْرُ الأَوَّلُ مِنَ الأُمَّةِ، وَلَا مَنْ بَعْدهم مِنْ أَعْلَامِ الأَئِمَّةِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ العَقَائِدِ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ كَثِيرٌ مِنَ المَقَاصِدِ؛ وَلِهَذَا خَلَا عَنْهَا طَائِفَةٌ مِنْ مُصَنَّفَاتِ هَذَا الشَّأْنِ، وَامْتَنَعَ مِنَ الكَلَامِ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الأَعْيَانِ، وَكُلُّ مُتَكَلِّمٌ فِيهَا مِنْ عُلَمَاءِ الظَّاهِرِ بِعِلْمِهِ، لَمْ يَخْلُ كَلَامُهُ عَنْ ضَعْفٍ وَاضْطِرَابٍ». انْتَهَى، وَاللَّهُ المُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.

---

قال الشيخ:

هذا كلام تاج الدين الفزاري، وهو شيخ الشافعية في زمانه: عبدالرحمن ابن إبراهيم بن ضياء بن سباع الفزاري، وكتابه (الإقليد) الذي جمعه على أبواب (التنبيه)، دليل على فقه نفسه، ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية)[1].

هذا المصنف قيل: إنه (الإشارة)، وقيل: (الإثارة)، ولعله موجود عند الشافعية أو غيرهم. يقول في آخر هذا الكتاب: (اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ مِنْ بِدَعِ عِلْمِ الْكَلَامِ)، الذي تكلم به المتكلمون، والحق أنه لا حاجة إليها حيث إنه

---

(١) (١٣/ ٣٢٥).

(لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهَا الصَّدْرُ الأَوَّلُ مِنَ الأُمَّةِ)، أي: الصحابة والتابعون (وَلَا مَنْ بَعْدهم مِنْ أَعْلَامِ الأَئِمَّةِ)؛ الأئمة الأربعة ونحوهم؛ وكذلك (لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ العَقَائِدِ)، أي: ولا تدخل في العقيدة، وكذلك (لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ كَثِيرٌ مِنَ المَقَاصِدِ)؛ لأنها من الكلام الذي ليس عليه دليل واضح، فلما خلت عنها مصنفات العلماء، وتوقف عن الكلام فيها جماعة من الأعيان، (وَكُلُّ مُتَكَلِّمٌ فِيهَا مِنْ عُلَمَاءِ الظَّاهِرِ بِعِلْمِهِ)، أي: كل من تكلم فيها إنما هو من علماء الظاهر، ومع ذلك (لَمْ يَخْلُ كَلَامُهُ عَنْ ضَعْفٍ وَاضْطِرَابٍ)، وكان الأولى عدم الجزم فيها بإثبات أو نفي تفضيل الملائكة أو غيرها.

قال الشارح:

فَمِمَّا اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى تَفْضِيلِ الأَنْبِيَاءِ عَلَى المَلَائِكَةِ: أَنَّ اللَّـهَ أَمَرَ المَلَائِكَةَ أَنْ يَسْجُدُوا لآدَمَ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِمْ؛ وَلِذَلِكَ امْتَنَعَ إِبْلِيسُ وَاسْتَكْبَرَ، وَقَالَ، ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء:٦٢].

قَالَ الآخَرُونَ: إِنَّ سُجُودَ المَلَائِكَةَ كَانَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِمْ، وَعِبَادَةً وَانْقِيَادًا وَطَاعَةً لَهُ، وَتَكْرِيمًا لآدَمَ وَتَعْظِيمًا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ الأَفْضَلِيَّةِ، كَمَا لَمْ يَلْزَمْ مِنْ سُجُودِ يَعْقُوبُ لابْنِهِ يُوسُفَ ـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ـ تَفْضِيلُ ابْنِهِ عَلَيْهِ، وَلَا تَفْضِيلُ الكَعْبَةَ عَلَى بَنِي آدَمَ بِسُجُودِهِمْ إِلَيْهَا، امْتِثَالًا لأَمْرِ رَبِّهِمْ.

وَأَمَّا امْتِنَاعِ إِبْلِيسُ، فَإِنَّهُ عَارَضَ النَّصَّ بِرَأْيِهِ وَقِيَاسِهِ الفَاسِدِ بِأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ، وَهَذِهِ المُقَدِّمَةُ الصُّغْرَىٰ، وَالكُبْرَىٰ مَحْذُوفَةٌ، تَقْدِيرُهَا: وَالفَاضِلُ لَا يَسْجُدُ لِلْمَفْضُولِ! وَكِلْتَا المُقَدِّمَتَيْنِ فَاسِدَةٌ:

أَمَّا الأُولَى: فَإِنَّ التُّرَابَ يَفُوقُ النَّارَ فِي أَكْثَرِ صِفَاتِهِ؛ وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسَ عُنْصُرُهُ، فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِ النَّارِ طَلَبَ العُلُوِّ وَالخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَالرُّعُونَةَ، وَإِفْسَادَ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ وَخَفْقَهُ وَإِهْلَاكَهُ وَإِحْرَاقَهُ، وَنَفَعَ آدَمَ عُنْصُرُهُ، فِي التَّوْبَةِ وَالاسْتِكَانَةِ، وَالانْقِيَادِ وَالاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللَّـهِ، وَالاعْتِرَافِ وَطَلَبِ المَغْفِرَةِ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِ التُّرَابِ النَّبَاتَ وَالسُّكُونَ وَالرَّصَانَةَ، وَالتَّوَاضُعَ وَالخُضُوعَ وَالخُشُوعَ وَالتَّذَلُّلَ، وَمَا دَنَا مِنْهُ يَنْبُتُ وَيَزْكُو، وَيَنْمِي وَيُبَارَكَ فِيهِ، ضِدَّ النَّارِ.

قال الشيخ:

هكذا أجاب الشارح ـ رحمه الله ـ عن هذا الاستدلال؛ حيث إن الذين فضلوا البشر ادعوا أن آدم أفضل من الملائكة؛ لأنهم سجدوا له، والصحيح أن سجودهم لأمر الله تعالى، حيث أمرهم بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [البقرة:٣٤]، فهو طاعة لله، وليس تعظيمًا لآدم، ولعل المراد الاعتراف بأن الله تعالى خلقه لعبادته؛ فلأجل ذلك أمرهم أن يحترموه ويعترفوا بفضله، ولا يلزم من ذلك كونه أفضل، وقد ذكر الله تعالى أن يعقوب ـ عليه السلام ـ وأولاده سجدوا ليوسف ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف:١٠٠]، ولا يُقال: إن يوسف أفضل من أبيه ـ عليهما السلام ـ بل أبوه نبي من الأنبياء، وهو أبو الأنبياء من بني إسرائيل.

ومعلوم أيضًا أن المسلمين يستقبلون الكعبة، ويسجدون إلى جهتها، ولا يُقال: إن الكعبة أفضل من بني آدم، لسجودهم إليها؛ لأن ذلك امتثالٌ لله تعالى، فسجدوا امتثالاً لأمر ربهم.

وأما إبليس فإنه عارض أمر الله تعالى برأيه وقياسه الفاسد ـ نظر إلى أن هذا فيه شيء من التذلل لآدم، وكذلك اعتقد أنه أفضل حيث قاس بقوله: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢]، هذه المقدمة الصغرى، وأما

الكبرى فإنها محذوفة، وتقديرها: فأنا أفضل منه، والفاضل لا يسجد للمفضول. هاتان مقدمتان، (وَكِلْتَا الْمُقَدِّمَتَيْنِ فَاسِدَةٌ)، وذكر أنه لا يلزم أن تكون النار أفضل من التراب، ويقول: التراب يتفوق على النار في أكثر صفاته، فإبليس خانه أصله وعنصره؛ فلذلك أبى واستكبر.

قوله: (مِنْ صِفَاتِ النَّارِ طَلَبَ الْعُلُوِّ وَالْخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَالرُّعُونَةَ، وَإِفْسَادَ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ وَمَحْقَهَ وَإِهْلَاكَهَ وَإِحْرَاقَهُ)، هذه من صفات النار، أنها تتكبر وتتجبر وتعلو، وهي أيضًا خفيفة، وطائشة، وفيها شدة ورعونة، وفيها أنها تحرق ما تصل إليه وتمحقه وتتلفه، فلا يلزم أن تكون أفضل من الطين.

قوله: (وَنَفَعَ آدَمَ عُنْصُرُهُ)، آدم عنصره الطين؛ فلذلك نفعه عنصره في التوبة والاستكانة، والانقياد والاستسلام لأمر الله، فتاب في الحال، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧]، واستكان لأمر ربه وتواضع له وانقاد، وندم على ما فعل، واستسلم لأمر الله تعالى، واعترف بالذنب بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، وطلب المغفرة، بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]؛ وذلك لأن التراب من صفاته: الثبات، والسكون، والرصانة، والثقل، والتواضع، والخضوع، والخشوع والتذلل، كما هو معروف.

قوله: (وَمَا دَنَا مِنْهُ يَنْبُتُ)، أي: جعله الله تعالى محلاً للنبات، وينميه ويبارك فيه، فهو ليس مثل النار التي هذه صفاتها؛ فلذلك نفع آدم أصله.

قال الشارح:

وَأَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ - وَهِيَ: أَنَّ الفَاضِلَ لَا يَسْجُدُ لِلْمَفْضُولِ -: فَبَاطِلَةٌ، فَإِنَّ السُّجُودَ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَامْتِثَالٌ لِأَمْرِهِ، وَلَوْ أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَسْجُدُوا لِحَجَرٍ لَوَجَبَ عَلَيْهِم الِامْتِثَالُ وَالْمُبَادَرَةُ، وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمَسْجُودَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْ السَّاجِدِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ تَكْرِيمُهُ وَتَعْظِيمُهُ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ. قَالُوا: وَقَدْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء:٦٢]، بَعْدَ طَرْدِهِ لامْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، لَا قَبْلَهُ، فَيَنْتَفِي الاسْتِدْلَالُ بِهِ.

---

قال الشيخ:

هذه المقدمة اعتقاد إبليس أن المفضول دون الفاضل، أي: أن الفاضل لا يتواضع للمفضول، هذه أيضًا باطلة؛ وذلك لأن هذا السجود ليس تفضيلاً لآدم، وإنما هو طاعة لله تعالى الذي أمر بذلك، وامتثالٌ لأمره، حيث قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة:٣٤]، وأمر الله تعالى يجب امتثاله على كل مسلم، ولو أمر الله تعالى عباده أن يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة؛ ليكون أجرهم على الله، لا يطلبون الأجر من الحجر.

فكذلك سجود الملائكة طاعة لله لا يطلبون الثواب عليه من آدم، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد، ولا أن آدم أفضل من الملائكة، لكن يدل على أن الله تعالى كرمه وعظمه وشرفه، حيث خلقه وقال:

﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥]، فهذه من خصائصه، فيدل ذلك على تفضيله وكرمه، ويدل على فضله.

قوله: (وَقَدْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢]، بَعْدَ طَرْدِهِ لامْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، لَا قَبْلَهُ)، فلا يكون في الآية دليل على المفاضلة، مع أن آدم قد فضله الله تعالى بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ومع أن إبليس قد رجح كثير من العلماء أنه ليس من الملائكة، بل إنه من الشياطين؛ لأن الملائكة خُلقوا من النور، وأما إبليس فإنه خُلق من نار؛ لقوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ [الأعراف:١٢]، وكذلك أيضًا الجن، قال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧].

وأما الملائكة فإنهم خُلقوا من النور؛ كما ثبت بذلك الحديث في صحيح مسلم[1] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتْ المَلائِكَةُ من نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ من مَارِجٍ من نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»، وقد ذكر الله تعالى أن إبليس من الجن في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠].

---

(١) برقم (٢٩٩٦).

قال الشارح:

وَمِنْهُ: أَنَّ المَلَائِكَةَ لَهُمْ عُقُولٌ وَلَيْسَتْ لَهُمْ شَهَوَاتٌ، وَالأَنْبِيَاءُ لَهُمْ عُقُولٌ وَشَهَوَاتٌ، فَلَمَّا نَهَوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الهَوَى، وَمَنَعُوهَا عَمَّا تَمِيلُ إِلَيْهِ الطِّبَاعُ، كَانُوا بِذَلِكَ أَفْضَلَ.

قَالَ الآخَرُونَ: يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ مِنَ المَلَائِكَةِ مِنْ مُدَاوَمَةِ الطَّاعَةِ، وَتَحَمُّلِ العِبَادَةِ، وَتَرْكِ الوَنَى وَالفُتُورِ فِيهَا، مَا يَفِي بِتَجَنُّبِ الأَنْبِيَاءِ شَهَوَاتِهِمْ، مَعَ طُولِ مُدَّةِ عِبَادَةِ المَلَائِكَةِ.

---

قال الشيخ:

هذا دليل ثان يستدلون به على تفضيل البشر؛ لأن الملائكة ليست لهم شهوات، بخلاف الأنبياء والرسل فإن لهم شهوات، ولما نهوا أنفسهم عن الهوى، ومنعوها عما تميل إليه الطباع، كانوا بذلك أفضل من الملائكة، هذه شبهة من يفضل الأنبياء والرسل.

معلوم أن الله تعالى خلق البشر ومنهم الأنبياء، وجعل لهم شهوات:

١ ـ شهوة للبطن: شهوة الأكل.

٢ ـ وشهوة للفرج: شهوة النكاح.

٣ ـ وشهوة للعين: شهوة النظر.

٤ ـ وشهوة للأذن: شهوة السماع.

فإذا وفق الله تعالى العباد ومنعوا أنفسهم عن الشهوات المحرمة، فإنهم

يُثابون على ذلك، كما يُثابون على الطاعات؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ [المؤمنون:٥، ٦]، فالعبد الذي يملك نفسه، ولا يتجرأ على حرام، ويقصر نفسه عن الفاحشة التي حرمها الله يعني ذنب الفرج، وذنب البطن الأكل الحرام، وذنب النظر إلى المتبرجات وإلى الصور الفاتنة ونحوها، وذنب السمع الذي هو شهوة الأذنين للسماع وللغناء وللطرب ونحو ذلك، فإن الله تعالى يثيبه على هذا الأمر؛ لكونه ملك نفسه.

ولكن قد يُقال: الملائكة قد خلقهم الله تعالى لطاعته، فمنهم: مَنْ هو ساجد منذ أن خلق الله تعالى الدنيا، أو منذ أن خلقهم الله إلى أن تقوم الساعة في سجدة واحدة، وكذلك أيضًا دائمًا يسبحون الليل والنهار لا يفترون، عبادتهم دائمًا مستمرة، فهذه المداومة للطاعة وتحملها، وكونهم لا يفترون، ولا يعجزون، ولا يتركون العبادة في وقت أبدًا، دليل على أنهم قد كثرت أعمالهم.

أما الأنبياء والبشر والرسل فإن أعمارهم قصيرة، وقد يتركون العبادة اشتغالاً بالمباحات: المباح من الكلام، والمباح من الأكل، والمباح من الاستمتاع، وما أشبه ذلك، فطول مدة عبادة الملائكة يقوم مقام قمع الأنبياء والرسل أنفسهم عن شهواتهم.

قال الشارح:

وَمِنْهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا إِلَى الأَنْبِيَاءِ، وَسُفَرَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

وَهَذَا الْكَلَامُ قَدِ اعْتَلَّ بِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ، وَاسْتِدْلَالُهُمْ بِهِ أَقْوَى، فَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ، إِنْ ثَبَتَ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ بِالرِّسَالَةِ، ثَبَتَ تَفْضِيلُ الرُّسُلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الرَّسُولَ الْمَلَكِيّ يَكُونُ رَسُولًا إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ.

وَمِنْهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١] الآيات.

قَالَ الآخَرُونَ: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْفَضْلِ لَا عَلَى التَّفْضِيلِ، وَآدَمُ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ، وَلَيْسَ الْخَضِرُ أَفْضَلُ مِنْ مُوسَى، بِكَوْنِهِ عَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ مُوسَى، وَقَدْ سَافَرَ مُوسَى وَفَتَاهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَى الْخَضِرِ، وَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ، وَطَلَبَ مُوسَى مِنْهُ الْعِلْمَ صَرِيحًا، وَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

وَلَا الْهُدْهُدُ أَفْضَلُ مِنْ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِكَوْنِهِ أَحَاطَ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ سُلَيْمَانُ عِلْمًا.

---

قال الشيخ:

هذا دليل ثالث لمن فضل البشر، يقولون: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا إِلَى الأَنْبِيَاءِ)، يعني: يرسلهم إليهم بالوحي، وجعلهم سفراء بينهم وبين

الله، والسفير: هو الواسطة، فالملائكة يكونون سفراء بين الله تعالى وبين أنبيائه.

ثم أجاب بأن هذا الكلام يصلح دليلًا لمن فضل الملائكة، ودلالته على تفضيل الملائكة أقوى؛ لأن الأنبياء والمرسلين إذا ثبت تفضيلهم على المرسل إليهم بالرسالة، ثبت تفضيل الرسل من الملائكة إليهم عليهم، نحن نعرف أن الرسل أفضل من الأمم، مع أن الله تعالى أرسلهم إليهم، وجعلهم وسطاء وسفراء إلى أممهم، فهل يقول قائل: إن الرسل دون المرسل إليهم بالفضل؛ لأنهم صاروا سفراء بينهم وبين الله؟ لا يقول ذلك قائل، لاشك أن الأنبياء أفضل من أممهم، وإذا كان كذلك فيُقال: كذلك في الملائكة الذين هم رسل الله تعالى إلى أنبيائه، فيكون لهم فضل، ولهم رفعة، وقد يكون الرسول الملكي أفضل من الرسول البشري؛ لأنه امتثل طاعة الله وأُرسل إليه، كما أن الرسول البشري أفضل من البشر الذين هم أمته، ولو كان قد أُرسل إليهم.

وأما قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١]، فهذا دليلٌ أيضًا على الفضل لا على التفضيل، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لَـمَّا خلق آدم علمه أسماء كل شيء، كما في بعض الروايات في قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1]، فلما علمه تلك الأسماء كان ذلك دليلًا على فضله، ثم إنه أمر آدم أن يعلمهم بقوله: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة:٣٣]، فلا يدل على أن آدم أفضل؛ لأن

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) من حديث أنس ﷺ.

الله تعالى أمره فعلمهم، وهذا علم خاص، والملائكة اعترفوا بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢]، فدل على أن تعليم آدم لهم إنما هو بأمر الله تعالى فيكون طاعة لله.

ثم استدل على أن الأنبياء الذين يتعلمون قد يكونون أفضل من المعلمين بقصة الخضر، فالخضر ليس أفضل من موسى عليه السلام، مع أن موسى ـ عليه السلام ـ احتاج إلى علمه، وتزود من المال وسافر، وقال: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠]، وصحب معه فتاه؛ وذلك في طلب العلم من الخضر، طلب موسى ـ عليه السلام ـ من الخضر بقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦]، واعترف الخضر بأنه على علم من الله، قال: «يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ من عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ»(١).

ورُوي أنه لَمَّا وقع عصفور على حرف السفينة، ونقر نقرة أو نقرتين من البحر، قال الخضر: «يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ»(٢).

فبكل حال هذا دليل على أن آدم فيه فضل، حيث علمه الله هذه الأسماء

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أُبي بن كعب ﷺ.

(٢) قطعة من الحديث السابق تخريجه.

فحفظها، وعرضها على الملائكة فلم يحفظوها؛ لقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣١، ٣٢]، فلا يدل على أن الملائكة مفضولون إذا علمهم آدم، كما لا يدل على أن موسى ـ عليه السلام ـ مفضول؛ لأنه تعلم من الخضر.

وكذلك أيضًا مثَّل بالهدهد الذي ذهب إلى اليمن وإلى سبأ وقال لسليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]، فذكر أنه أحاط بما لم يحط به سليمان ـ عليه السلام ـ علمًا، فهل يُقال: إن هذا الهدهد أفضل من سليمان ـ عليه السلام ـ؟ لا يُقال ذلك؛ لأن سليمان ـ عليه السلام ـ قد فضله الله تعالى بما أعطاه بقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص:٣٦، ٣٧]، وغير ذلك مما يدل على فضله.

قال الشارح:

وَمِنْهُ: قَوْلُه تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

قَالَ الآخَرُونَ: هَذَا دَلِيلُ الفَضْلِ لَا الأَفْضَلِيَّةِ، وَإِلَّا لَزِمَ تَفْضِيلُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنْ قُلْتُمْ: هُوَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ البَرُّ وَالفَاجِرُ، بَلْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا قِيلَ لآدَمَ: «ابْعَثْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»، «يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ مِئَةً وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدًا إِلَى الجَنَّةِ»[1]. فَمَا بَالُ هَذَا التَّفْضِيلِ سَرَى إِلَى هَذَا الوَاحِدِ مِنَ الأَلْفِ فَقَطْ!

وَمِنْهُ: قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ: «مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ...» الحَدِيثُ[2]، فَالشَّأْنُ فِي ثُبُوتِهِ، وَإِنْ صَحَّ عَنْهُ، فَالشَّأْنُ فِي ثُبُوتِهِ فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ.

وَمِنْهُ: حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ المَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبَّنَا أَعْطَيْتَ بَنِي آدَمَ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ فِيهَا، وَيَشْرَبُونَ، وَيَلْبَسُونَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ، وَلَا نَأْكُلُ وَلَا نَشْرَبُ وَلَا نَلْهو، فَكَمَا جَعَلْتَ لَهُمُ الدُّنْيا، فاجْعَلْ لَنَا الآخِرَةَ؟ قَالَ: لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ فَكَانَ». أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٧٢) بنحوه.

(٣) في المعجم الأوسط (٦/ ١٩٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٢): «رواه الطبراني في =

وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَد بن حَنْبَلٍ[١]، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي الأَنْصَارِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ المَلَائِكَةَ قَالُوا...» الحديث. وَفِيهِ: «وَيَنَامُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «لَا»، فَأَعَادُوا القَوْلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا».

وَالشَّأْنُ فِي ثُبُوتِهَا، فَإِنَّ فِي سَنَدِهِمَا مَقَالًا، وَفِي مَتْنِهِمَا شَيْئًا، فَكَيْفَ يُظَنُّ بِالمَلَائِكَةِ الإِعْتِرَاضُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ؟ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وَهَلْ يُظَنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ بِأَحْوَالِهِمْ، مُتَشَوِّفُونَ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنْ شَهَوَاتِ بَنِي آدَمَ؟ وَالنَّوْمُ أَخُو المَوْتِ[٢]، فَكَيْفَ يَغْبِطُونَهُمْ بِهِ؟ وَكَيْفَ يُظَنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ يَغْبِطُونَهُمْ بِاللَّهْوِ، وَهُوَ مِنَ البَاطِلِ؟ قَالُوا: بَلِ الأَمْرُ بِالعَكْسِ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا وَسْوَسَ إِلَى آدَمَ، وَدَلَّاه بِغُرُورٍ، إِذْ أَطْمَعَهُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا بِقَوْلِهِ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. فَدَلَّ أَنَّ أَفْضَلِيَّةَ المَلَكِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ مُسْتَقَرٌّ بِالْفِطْرَةِ.

---

=

الكبير والأوسط، وفيه إبراهيم بن عبدالله بن خالد المصيصي، وهو كذاب متروك».

(١) في السنة (٢/ ٤٦٩)، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٩٨) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/ ١٣٩) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٢) من حديث جابر ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٥): «رواه الطبراني في الأوسط، والبزار ورجال البزار رجال الصحيح».

قال الشيخ:

هذه الأدلة ساقها الشارح في مسألة التفضيل بين البشر والمَلَكِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧]؛ هل المراد الإنس أو المراد الخلق المؤمنون من الملائكة ومن الإنس ومن الجنّ؟ خير البرية: يعني خير الخليقة، فالصحيح أن الآية على عمومها يدخل فيها الملائكة، ويدخل فيها الجنّ المؤمنون، ويدخل فيها الإنس المؤمنون، فكل من آمن وعمل صالحًا من الإنس والجن، والملائكة فهو خير البريّة، أو من خير البريّة؛ البريّة: الخليقة، يدخل في الخليقة جميع المخلوقات، فيدخل فيها الشياطين، ويدخل فيها الجمادات والحيوانات، وتدخل فيها الأفلاك السائرة والأفلاك الثابتة، فهي كلها من البرية كلها من الخلق، والآية عامّة في الملائكة والبشر؛ إذ كل مؤمن عامل للصالحات هو خير البريّة.

وفي الصحيح عن أَنَسِ بن مَالِكٍ ﷺ قال: جاء رَجُلٌ إلى رسول اللَّهِ ﷺ، فقال: يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: «**ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ**»[1]. قال ذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ من باب التواضع، وإلا فهو من خير البريّة، لكنه لا يحبّ أن يكون هناك مفاضلة بين الأنبياء؛ حتى لا يكون في ذلك شيء من التنقص لبعض الأنبياء، أو الازدراء والاحتقار لهم، أو يغضب أتباعهم.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩).

قال الشارح:

يَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى، حِكَايَةً عَنِ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عِنْدَ رُؤْيَةِ يُوسُفَ: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠].

قَالَ الْأَوَّلُونَ: إِنَّ هَذَا إِنَّمَا كَانَ لِمَا هُوَ مَرْكُوزٌ فِي النُّفُوسِ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ خَلْقٌ جَمِيلٌ عَظِيمٌ، مُقْتَدِرٌ عَلَى الْأَفْعَالِ الْهَائِلَةِ، خُصُوصًا الْعَرَبِ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْعَظَمَةِ بِحَيْثُ قَالُوا: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

قَالَ الْآخَرُونَ: قَدْ يُذْكَرُ «الْعَالَمُونَ»، وَلَا يُقْصَدُ بِهِ الْعُمُومُ الْمُطْلَقُ، بَلْ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِحَسَبِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠]، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

---

قال الشيخ:

هذه حجة أخرى لمن يفضلون الملائكة، والجواب عنها: يقول: (قَالَ

الْأَوَّلُونَ: إِنَّ هَذَا إِنَّمَا كَانَ لِمَا هُوَ مَرْكُوزٌ فِي النُّفُوسِ).

لما أن الله تعالى كسا يوسف ـ عليه السلام ـ جمالاً زائدًا متفوقًا، ورآه تلك النسوة انبهرن بجماله، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]. فكأن الذين يفضلون الملائكة يقولون: إن هؤلاء النسوة اعتقدن أنه ليس بشرًا بل إنه من الملائكة.

فأجاب: سبب ذلك أنه مركوز في النفوس أن الملائكة خلقهم خلق جميل، وأنهم مقتدرون على الأفعال الهائلة، وأن الله تعالى أعطاهم قوة، وأنهم يقطعون المسافات الطويلة في زمن قصير فالعرب يعتقدون أن الملائكة خلقهم خلق جميل، حيث إن الملائكة كانوا في نفوسهم لهم عظمة، حتى قالوا: إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا؛ فلذلك قال هؤلاء النسوة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، ولا يدل على أن الملائكة أفضل من البشر، وإنما يدل على أن الملائكة فيهم جمال، ولا يدل جمالهم على أنهم أفضل من البشر.

وأما قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فكأنهم يقولون: إن قوله: ﴿إِنِّى مَلَكٌ﴾، يدلّ على أن الملك أفضلُ من البشر، ولكن لا غرابة في ذلك، ولا دلالة فيه على أفضلية البشر، ولا على أفضلية الملك، ولكن الكفار من العرب لما كذبوا النبي ﷺ كان من تعنتهم أن طلبوا الملائكة يحضرون معه، فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ

إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧]، فقال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٥]، يعني: أن الملك يناسب الإنزال على الملائكة، وأن يكون رسولًا لهم، وأمّا البشرُ فلا يناسبهم رسول إلَّا منهم، ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩] يعني: لو أرسلنا ملكًا لأرسلناه في صورة رجل؛ وذلك لأنهم لا يتمكنون من رؤية الملك، لكونه ليس على خلقتهم، فلا يرونه إلا إذا ظهر في صورة بشرية، وعلى هذا فالآيات ليس فيها دلالة لا على تفضيل الملائكة، ولا تفضيل البشر. والصحيح أن التفاضل إنما هو في الأعمال.

ومن الشُّبَهِ ـ أيضًا ـ: أن آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران أفضل من العالمين كلهم؛ لأن الله اصطفاهم على العالمين فيكونون أفضل من الملائكة، هكذا يستدل هؤلاء بهذه الآية.

وأجيب بأن المراد بالعالمين لا يُقصد به العموم المطلق، بل في كل بحسبه، فقد لا يدخل الملائكة في اسم العالمين، فإن كل مكان يُذكر فيها العالمون إنما هو بحسب ما يحتمله المكان، قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]، أفيقال: إنه نذير للملائكة؟ إنما يريد للعالمين من البشر، وكذلك قول قوم لوط: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٠]، يريدون عن الرجال الذين يأتون إليه فيمنعهم من أن يفعلوا بهم

الفاحشة، ولا يريدون أيضًا الملائكة، وكذلك قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، لا يريد الملائكة، وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، يعني: على عالمي زمانهم، فإن بني إسرائيل فضلهم الله تعالى على عالمي زمانهم، لا على العالمين جميعًا، فإن هذه الأمة أفضل من بني إسرائيل، أي: قوم موسى عليه السلام.

قال الشارح:

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧]، وَالْبَرِيَّةُ: مُشْتَقَّةٌ مِنَ البَرْءِ، بِمَعْنَى الخَلْقِ، فَثَبَتَ أَنَّ صَالِحِي البَشَرِ خَيْرُ الخَلْقِ.

قَالَ الآخَرُونَ: إِنَّمَا صَارُوا خَيْرِ البَرِيَّةِ؛ لِكَوْنِهِمْ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَالمَلَائِكَةُ فِي هَذَا الْوَصْفِ أَكْمَلُ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْأَمُونَ وَلَا يَفْتُرُونَ، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنَ المَلَائِكَةِ. هَذَا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (الْبَرِيئَةِ) بِالهَمْزِ، وَعَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ بِاليَاءِ، إِنْ قُلْنَا: إِنَّهَا مُخَفَّفَةٌ مِنَ الهَمْزَةِ، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهَا نِسْبَةٌ إِلَى البَرَى وَهُوَ التُّرَابُ ـ كَمَا قَالَهُ الفَرَّاءُ فِيمَا نَقَلَهُ عَنْهُ الجوهَرِيُّ فِي الصِّحَاحِ ـ يَكُونُ المَعْنَى: أَنَّهُمْ خَيْرُ مَنْ خُلِقَ مِنَ التُّرَابِ، فَلَا عُمُومَ فِيهَا إِذًا لِغَيْرِ مَنْ خُلِقَ مِنَ التُّرَابِ.

---

قال الشيخ:

استدلوا بقوله تعالى: ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، أو {خَيْرُ البَرِيئَةِ}، على أن البشر خير جميع البرية، أي: خير جميع المبروئين الذين خلقهم الله، فيدخل في ذلك الملائكة.

وأجاب الآخرون بأن الملائكة قد اتصفوا بهذا الوصف، فهم آمنوا وعملوا الصالحات، فيكونون من خير البرية، وليس قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[البينة:٧]، خاصًا بالبشر، بل كل مَنْ آمن وعمل الصالحات.

فاستدل الذين يفضلون البشر بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، فأجاب

الآخرون بأنهم صاروا خير البرية؛ لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة كذلك في هذا الوصف بالأكمل، فإنهم من المؤمنين حقًا، ومن العاملين للصالحات، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسأمون ولا يفترون، وإذا كان كذلك فلا يلزم أن يكون البشر خيرًا من الملائكة، حيث إن الملائكة أكمل إيمانًا، وكذلك أيضًا أكمل أعمالاً صالحة وأكثر؛ لأنهم منذ أن خُلقوا وهم يعملون الأعمال الصالحة.

وهناك قراءتان[1] في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾. فالقراءة الأولى: ﴿خَيْرُ الْبَرِيئَةِ﴾، بالهمز هذه قراءة نافع وابن عامر، وحجتهما أنه مِنْ بَرأَ اللهُ الخَلْقَ يبرؤهم برءًا، والله تعالى من أسمائه الباري، والخلق يبرؤون، والبريئة فعيلة بمعنى مفعولة. وأما عاصم وحمزة والكسائي وغيرهم فإنهم قرؤوها: ﴿الْبَرِيَّةِ﴾ من غير همز، مِنْ بَرأَ اللهُ الخلق. إلا أنهم خففوا الهمزة لكثرة الاستعمال.

فعلى قراءة (البريئة)، بالهمزة، نقول: إن الملائكة من الذين برأهم الله، يعني: خلقهم، وعلى قراءة (البرية)، بالياء إن قلنا: إنها مخففة من الهمز، وقد يُقال: إنها نسبة إلى البري الذي هو التراب كما قاله الفراء[2]، وهو يحيى بن زياد ابن عبدالله بن منصور أبو زكريا الكوفي، فيكون المعنى أنهم خير من خُلق من التراب، فلا عموم فيها إذًا لغير من خُلق من التراب.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٢٦٤)، والحجة في القراءات السبع (ص٣٧٤).

(٢) انظر: لسان العرب (١/ ٣١).

قال الشارح:

قَالَ الأَوَّلُونَ: إِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي تَفْضِيلِ صَالِحِي البَشَرِ إِذَا كَمَلُوا، وَوَصَلُوا إِلَى غَايَتِهِمْ وَأَقْصَى نِهَايَتِهِمْ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ، وَنَالُوا الزُّلْفَى، وَسَكَنُوا الدَّرَجَاتِ العُلَا، وَحَبَاهُمُ الرَّحْمَنِ بِمَزِيدِ قُرْبِهِ، وَتَجَلَّى لَهُمْ؛ لِيَسْتَمْتِعُوا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

قَالَ الآخَرُونَ: الشَّأْنُ فِي أَنَّهُمْ هَلْ صَارُوا إِلَى حَالَةٍ يَفُوقُونَ فِيهَا المَلَائِكَةَ أَوْ يُسَاوُونَهُمْ فِيهَا؟ فَإِنْ كَانَ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى حَالٍ يَفُوقُونَ فِيهَا المَلَائِكَةَ سُلِّمَ المُدَّعَى، وَإِلَّا فَلَا.

---

قال الشيخ:

صالحو البشر من أولياء الله وأنبيائه وصالح عباده إذا كملوا في عباداتهم وأحوالهم، ثم بُعثوا ووصلوا إلى غايتهم، وأقصى ما يتمنونه وهو دار الكرامة، أي: دخلوا الجنة، وسكنوا فيها، وحباهم الله تعالى بمزيد قربه، وتجلى لهم؛ ليتمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم، فيكونون بذلك من خيار خير الله.

ولكن يقولون مجيبين: الشأن في أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوون فيها الملائكة؟ قد لا يُسلم ذلك؛ وذلك لأنهم وإن صلحوا وإن كملوا وإن أكرموا في الدار الآخرة ودخلوا الجنة، وسكنوا الدرجات العلا، وتمتعوا بالنظر إلى الله تعالى، فقد لا يفوقون الملائكة، وقد لا يساوونهم، بحيث إنه لم يثبت أنهم يصيرون إلى حالة يتفوقون فيها على الملائكة.

قال الشارح:

وَمِمَّا اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْبَشَرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء:١٧٢]، وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَعْطُوفَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْوَزِيرُ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ، وَلَا الشُّرْطِيُّ أَوِ الْحَارِسُ! وَإِنَّمَا يُقَالُ: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الشُّرْطِيُّ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ وَلَا الْوَزِيرُ.

فَفِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ يَتَرَقَّى مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، فَإِذَا ثَبَتَ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ثَبَتَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ؛ إِذْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ دُونَ بَعْضٍ.

أَجَابَ الْآخَرُونَ بِأَجْوِبَةٍ، أَحْسَنُهَا، أَوْ مِنْ أَحْسَنِهَا: أَنَّهُ لَا نِزَاعَ فِي فَضْلِ قُوَّةِ الْمَلَكِ وَقُدْرَتِهِ وَشِدَّتِهِ وَعِظَمِ خَلْقِهِ، وَفِي الْعُبُودِيَّةِ خُضُوعٌ وَذُلٌّ وَانْقِيَادٌ، وَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَسْتَنْكِفُ عَنْهَا، وَلَا مَنْ هُوَ أَقْدَرُ مِنْهُ، وَأَقْوَى وَأَعْظَمُ خَلْقًا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ الْأَفْضَلِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

---

قال الشيخ:

يستدل بعض الناس على تفضيل الملائكة بهذه الآية، حيث ذكر الله تعالى أن عيسى - عليه السلام - لا يستنكف من العبادة، ولا يتكبر على الله تعالى، ثم

أخبر أيضًا بأن الملائكة كذلك لا يتكبرون، ولا يأنفون من عبادة الله تعالى.

وكأنهم يقولون: إن عطف الملائكة على عيسى ـ عليه السلام ـ يدل على فضل عيسى ـ عليه السلام ـ وهو بشر، ولكن ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، فيكون الملائكة معطوفين على عيسى ـ عليه السلام ـ وكأنه بدأ بالمفضول ثم عطف عليه أفضل منه.

ومثَّل بأنه: (**لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: لَنِ يَسْتَنْكِفَ الوَزِيرُ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ، وَلَا الشُّرْطِيُّ أَوِ الحَارَسُ**)، بمعنى: أن الوزير قد يتواضع ويخدم الملك، ولا يستنكر ذلك منه؛ لأنه عامل عند الملك، ولأنه موظف عنده، وهكذا الشرطي أو الحارس لا يُستنكر أن يُقال: إن الشرطي أو الحارس لا يأنف من خدمة الملك، أما أن يُقال: (**لَنْ يَسْتَنْكِفَ الشُّرْطِيُّ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ وَلَا الوَزِيرُ. فَفِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ يَتَرَقَّى مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى**)، بمعنى: أنه يُبدأ بالأدنى ثم يترقى إلى الأعلى، والوزير أدنى من الملك؛ وكذلك الشرطي أو الحارس كل منهم أدنى من الملك، فعطف الشرطي أو الحارس على الوزير غير مستنكر، وأما الوزير فإنه في رتبة أرفع من الشرطي أو الحارس فلا يُقال: إنه مماثل له، الذي يُعتاد أن يُقال: لا يستنكف الشرطي أن يكون خادمًا للملك، ولا الوزير فيُبدأ بالأقل الذي هو الشرطي، ثم يُعطف عليه الوزير، فيترقى من الأدنى الذي هو الشرطي إلى الأعلى الذي هو الوزير.

فإذا ثبت تفضيل الملائكة على عيسى ـ عليه السلام ـ ثبت في حق غيره؛ إذ

لم يقل أحد: إنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض، هذا يحتج به من يقول: إن الملائكة أفضل من البشر.

وأجاب الآخرون بأجوبة ذكر منها: (أَنَّهُ لَا نِزَاعَ فِي فَضْلِ قُوَّةِ الْمَلَكِ وَقُدْرَتِهِ وَشِدَّتِهِ وَعِظَمِ خَلْقِهِ، وَفِي الْعُبُودِيَّةِ خُضُوعٌ وَذُلٌّ وَانْقِيَادٌ)، فالملائكة أُعطوا قوة وقدرة وعظم خلقة، وكان من آثار ذلك خضوعهم وتذللهم لله تعالى وتعبدهم له، ولاشك أن عيسى ـ عليه السلام ـ لا يستنكف عن العبودية وعن الذل وعن الانقياد، وكذلك من هو أقدر منه، وأقوى وأعظم خلقًا؛ كالملائكة، فالجميع لا يستنكفون، فيكون عطف الملائكة؛ لأنهم أقوى من البشر، ولأنهم أُعطوا قوة واستمرارًا على العبادة، بحيث إنهم لا يستنكفون عنها، أو بحيث إنهم لا يفترون.

كذلك مما استدل به بعضهم على فضل الملائكة، في قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[النساء:١٧٢]، أنه وصف الملائكة بالقرب، والملائكة كلهم مقرَّبون؛ لأنهم عند الله، كما أخبر بذلك في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وبكلِّ حال فالله وصف الملائكة بأنّهم عنده، فالتقريب بحقّهم تقريب ذاتي، فهم مقربون إلى الله حِسًّا ومقرّبون عند الله معنىً. ولكن الصحيح أنَّ كلّ من اتقى الله وآمن به، فإنه من المقرّبين.

وقد ذكر الله أنَّ أهلَ الجنَّة أبرارٌ ومقرَّبُون، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٧، ٢٨]. فذكر أنها تُمزجُ للأبرار، وتكون خالصة للمقرّبين، فدلَّ على أنّ المقرّبين أعلى مرتبة من الأبرار، ولا شكّ أن المقرّبين يدخل فيهم الملائكة، ويدخل فيهم الإنس المؤمنون، ويدخل فيهم الجنّ، ونحو ذلك، من آمن وعمل صالحًا، واتقى الله تعالى، وحافظ على طاعته، فإنه من المقرّبين الذين يقربهم الله عنده في جنّته وفي دار كرامته. وعلى هذا فلا تكونُ الآية خاصّة بالملائكة، بل الملائكة مقرّبون، والإنس المؤمنون من الأنبياء ومن الصالحين مقرَّبون أيضًا، والجنّ الذين أطاعوا الله وأثابهم مقربون ـ على خلاف فيهم ـ فلا يكون في الآية دلالة على التفضيل.

قال الشارح:

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:٥٠]، وَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ بِمَعْنَى: إِنِّي لَوْ قُلْتُ ذَلِكَ لَادَّعَيْتُ فَوْقَ مَنْزِلَتِي، وَلَسْتُ مِمَّنْ يَدَّعِي ذَلِكَ.

أَجَابَ الآخَرُونَ: بِأَنَّ الكُفَّارَ كَانُوا قَدْ قَالُوا: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧]، فَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إِنِّي بَشَرٌ مَثْلُكُمْ أَحْتَاجُ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ البَشَرُ مِنَ الاِكْتِسَابِ وَالأَكْلِ وَالشُّرْبِ، لَسْتُ مِنَ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمْ حَاجَةً إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَلَا يَلْزَمُ حِينَئِذٍ الأَفْضَلِيَّةُ المُطْلَقَةُ.

---

قال الشيخ:

هذه حجة أيضًا لمن يُفضل الملائكة، حيث قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾، وهذه الآية مثل ما ذكره الله تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ [هود:٣١]، فكأنهم يقولون: إنه لو قال: إني ملك لادعيت منزلة فوق منزلتي، ولست ادعي ذلك، لا أدعي أنني أَرْفَعُ من رتبتي التي هي البشرية، بل أنا بشر مثلكم لن أصل إلى رتبة الملك، فيكون ذلك دليل على أن الملائكة أفضل.

وأجاب الآخرون أن الكفار قد طعنوا في الرسول بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا

﴿ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]؛ كأنهم استغربوا أن يكون بشرًا مثلهم، وقد قال الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ [الأنعام:٩]، أي: لو أنزلناه ملكًا لجعلناه بشرًا، فأمره الله تعالى أن يقول: (إِنِّي بَشَرٌ مَثْلُكُمْ أَحْتَاجُ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ البَشَرُ مِنَ الِاكْتِسَابِ وَالأَكْلِ وَالشُّرْبِ)؛ لأن هذا طبيعة البشر، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠]، لم يخرج الأنبياء عن كونهم من البشر، الذي يحتاجون إلى ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾ [الرعد:٣٨]، فالرسل من جنس البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤]، وكل واحد من الأنبياء يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، فدل على أنه مثلهم في أنه بشر مثلهم.

وتعنت الكفار بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الأنعام:٨]، هذا من باب التعنت؛ لأن البشر هو الذي يتمكنون من رؤيته والكلام معه، وهو الذي يتمكن من إبلاغهم ويتكلم معهم بما يحتاجون إليه، والبشر معروف أنه يحتاج إلى ما يحتاجون إليه، فيحتاج إلى اكتساب المال، ويحتاج بدنه إلى الأكل والشرب، ولا يستغني عن ذلك، فيكون كأنه يقول: (لَسْتُ مِنَ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمْ حَاجَةً إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ)، فإن الله تعالى خلق الملائكة

أرواحًا لا يحتاجون إلى الطعام ولا الشراب، ويستغنون بذلك، (فَلَا يَلْزَمُ حِينَئِذٍ الأَفْضَلِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ)، أن يكونوا أفضل مطلقًا من جميع البشر، أو أن البشر أفضل منهم، فهذا كله دليل على أن الأولى التوقف عن تفضيل هؤلاء أو هؤلاء، والله تعالى هو الذي يفضل من يشاء، ويرفع من يشاء في الدار الآخرة.

قال الشارح:

وَمِنْهُ مَا رَوَى مُسْلِمٌ[١] بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّـهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ». وَمَعْلُومٌ أَنَّ قُوَّةَ البَشَرِ لَا تُدَانِي قُوَّةَ المَلَكِ وَلَا تُقَارِبُهَا.

قَالَ الآخَرُونَ: الظَّاهِرُ أَنَّ المُرَادَ المُؤْمِنَ مِنَ البَشَرِ - وَاللَّـهُ أَعْلَمُ - فَلَا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ فِي هَذَا العُمُومِ.

وَمِنْهُ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّه - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ: «يَقُولُ اللَّـهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[٢] الحديث. وَهَذَا نَصٌّ فِي الأَفْضَلِيَّةِ.

قَالَ الآخَرُونَ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ «خَيْرٌ مِنْهُ» لِلْمَذْكُورِ، لَا الخَيْرِيَّةِ المُطْلَقَةِ.

وَمِنْهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ[٣] بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ:

---

(١) برقم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) في التوحيد (٢/ ٥٢٠). وأخرجه أيضًا الطبراني في الأوسط (٦/ ٢١١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٧٥)، قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٤٩): «فيه الحارث بن عبيد، وهو أبو قدامة الإيادي، أخرج له مسلم في صحيحه، إلا أن ابن معين ضعفه وقال: ليس هو بشيء، وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث، وقال أبو حاتم =

«بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ إِذْ جَاءَ جبريلُ فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَقُمْتُ إِلى شَجَرَةٍ مِثْلِ وَكْرَي الطَّيْرِ، فَقَعَدَ فِي إِحْدَاهُمَا، وَقَعَدْتُ فِي الأُخْرَى، فَسَمَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى سَدَّتِ الخَافِقَيْنِ، وَأَنَا أُقَلِّبُ بَصَرِي، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمَسَّ السَّمَاءَ مَسَّيْتُ فنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّه حِلْسٌ لَاطِئٌ، فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ باللَّهِ عَلَيَّ».

قَالَ الآخَرُونَ: فِي سَنَدِهِ مَقَالٌ، فَلَا نُسَلِّمُ الِاحْتِجَاجَ بِهِ إِلَّا بَعْدَ ثُبُوتِهِ.

وَحَاصِلُ الكَلَامِ: أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ مِنْ فُضُولِ المَسَائِلِ، وَلِهَذَا لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الأُصُولِ، وَتَوَقَّفَ أَبُو حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فِي الجَوَابِ عَنْهَا، كَمَا تَقَدَّم، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح هذين الحديثين لمناقشة الاستدلال بهم على فضل الملائكة، قوله تعالى في الحديث القدسي: «وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»، الملأ: الجماعة، أي: إنّك إذا ذكرت الله تعالى في ملأ ذكرك الله تعالى في ملأ من الملائكة خير من ذلك الملأ الذين هم البشر الذين ذكرت الله بينهم. فيدلّ على أن الملأ من الملائكة أفضل من الملأ من بين آدم، ولكنه لا يدلّ على الأفضليّة

---

=

الرازي: يُكتب حديثه ولا يُحتج به، وقال ابن حبان: كثر وهمه، فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، فهذا الحديث من غرائب رواياته، فإن فيه نكارة، وغرابة ألفاظ، وسياقًا عجيبًا، ولعله منام، والله أعلم».

المطلقة، إنّما يدلّ على فضل هؤلاء على هؤلاء. وقد يكون هناك ملأ من البشر آخرون أفضل من الملائكة أو مماثلون لهم.

وأما الحديث الذي فيه أن جبريل مع النبي ﷺ لَمَّا عُرِجَ به إلى السماء، أُتي بمثل الشجرة فجلس في وكر، وجلس جبريل في وكر، فسمت تلك الشجرة، يعني: ارتفعت، يقول: حتى لو شئت أن ألمس السماء للمستها، يقول هنا: نظرت إلى جبريل فإذا هو واطئٌ مثل الحلس، يعني: أنه متواضع، وذلك لمعرفته بربِّه، فهو متواضعٌ غاية التواضع.

هذا يستدلّ به على أنّ معرفته بالله تعالى أدّت إلى أنه يتواضع ويكثر من تعظيم ربِّه. وفي ذلك الأثر الذي يقول: «مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفُ، كَانَ مِنْهُ أَخْوَفُ»[1]. ولا شكَّ أنَّ جبريل معه معرفة بربّه؛ وذلك لأنه رسوله إلى الأنبياء، هو الذي ينزل بوحي من الله على أنبيائه، وحيث إنه هو الذي ينزل به، فهو عارف بربِّه، لكن لا يلزم تفضيله على جميع البشر الذين خلقهم الله تعالى لعبادته فعبدوه وأدّوا حقّ العبادة.

وعلى كل حالٍ، فالمسألة التي هي مسألة المفاضلة بين جنس البشر وجنس الملك، من فضول الكلام، لم يتكلّم عليها الأئمّة الأربعة، ولا أتباعهم المقتدى بهم، وإنّما تكلّم بها بعض من تكلّم من المتأخّرين وبالغوا، فلا حاجة إلى المبالغة فيها، وإنما قصد المؤلّف بذلك الردّ على الذين انتقصوا أو بالغوا في الانتقاص

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٧٢٨) من قول أحمد بن عاصم الإنطاكي.

للملائكة، حتى جعلوهم في منزلة الخدم لصالح الإنسان، وذلك فيه شيء من الانتقاص لهم، مع ما وصفهم الله تعالى به من الكمال والعبادة والمداومة على الطاعة، هذا ما يتعلّق بالإيمان بالملائكة.

قال الشارح:

وَأَمَّا الأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، فَعَلِيْنَا الإِيمَانُ بِمَنْ سَمَّى اللَّـهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ رُسُلِهِ، وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّـهَ تَعَالَى أَرْسَلَ رُسُلًا سُوَاهُمْ، وَأَنْبِيَاءَ لَا يَعْلَمُ أَسْمَاءَهُمْ وَعَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّـهَ تَعَالَى الَّذِي أَرْسَلَهُمْ.

فَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِهِمْ جُمْلَةً؛ لأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِي عَدَدِهِمْ نَصٌّ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا جَمِيعَ مَا أُرْسِلُوا بِهِ عَلَى مَا أَمَرَهُم اللَّـهُ بِهِ، وَأَنَّهُمْ بَيَّنُوهُ بَيَانًا لَا يَسَعُ أَحَدًا مِمَّنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ جَهْلُهُ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ خِلَافُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

---

قال الشيخ:

الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان؛ لقوله ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّـهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ... »[1].

وقد تقدم الكلام على الإيمان بالله وهو أساسها وأصلها، وتقدم أيضًا الكلام على الإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب، ومنها كلام الله ومنها القرآن، وبقي الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر.

وقد تقدم أيضًا أن من تمام التوحيد الشهادة للَّهِ سبحانه بالألوهية، ولمحمدٍ ﷺ بالرسالة، وتصديقه ﷺ بما جاء به، وأن ذلك من تمام الشهادتين، لا تصح إحدى الشهادتين إلَّا بالأخرى، ولكنه واجب أيضًا نحو بقية رسل الله تعالى، فقد أخبر الله تعالى أنه أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين، وقصَّ علينا بعض أخبارهم، وبعض القصص التي في القرآن هي من قصص بعض الأنبياء الذين أرسلهم الله فكذَّبهم أقوامهم، فأهلك الله المكذّبين وأنجى المؤمنين مع أنبيائهم، كقصة نوح، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ولوط، وموسى، وهارون، وعيسى، ويحيى، وزكريا، وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم.

ذكروا أن الأنبياء الذين ذُكرت أسماؤهم خمسة وعشرون نبيًا ذكروا في كثير من السور؛ في سورة الأنبياء عدد منهم، وفي سورة الأنعام عدد منهم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٨٣ ـ ٨٦]، فهؤلاء الذين سمّى الله تعالى من الأنبياء الواجب علينا أن نصدّق بهم، ونؤمن بأنهم بلغوا ما أُرسِلُوا به؛ لقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٣٥]، فجميع الرسل بلّغوا رسالات ربِّهم التي أرسلوا بها، ولأجل ذلك نجّاهم الله لما أنهم بلغوا، وأهلك أُممهم التي كذَّبَتْهُم، وأنجى من آمن منهم، كما حكى الله ذلك في القرآن.

كذلك نؤمن بأن لله تعالى رسل كثير لم يقصصهم الله علينا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء:١٦٤]، الرسل الذين لم يقصصهم الله لا يعلم عددهم إلا الله؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩]، لا يعلم عددهم ولا أزمنتهم إلا الله تعالى، حتى لو كان هناك مؤرخون ونسابون، ولكن الصحيح أن هناك أزمنة اندرس العلم بها، فلا يعلمها إلا الله تعالى فنؤمن بهم، وإن لم يسمّوا.

ورد في حديث أن أبا ذر ﷺ سأل النبي ﷺ: كَمْ وَفَاءُ عِدَّةِ الأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ من ذلك ثَلاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا

غَفِيرًا»[1]. وكثير منهم من بني إسرائيل، والله تعالى أخبر أن بني إسرائيل كانوا يقتلون الأنبياء بغير حقّ، قتلوا عددًا من الأنبياء، وآخر من قتلوا: يحيى عليه السلام.

والحاصل: أنهم كثيرون لا يعلم عددهم ولا أزمنتهم ولا أممهم إلا الله تعالى، والإيمان بهم واجب، وما بلغنا من شرائعهم نصدق به، وما لم يبلغنا لم نبحث عنه، ولسنا مكلّفين به، وكذلك نؤمن بأن شرائعهم كلها نسخت بشريعتنا، وأن شريعتنا هذه آخر الشرائع، وأحدثها وأجدّها، فهي آخر ما نزل من الشرائع التي نسخت ما قبلها.

فالعمل بها واجبٌ، وما قبلها منسوخٌ، مثل: التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى، وما أشبهها، كل هذه مما نسخ، ولم يبقَ العمل به، وإذا وجد بها شيء من الفوائد، كما روي في زبور داود: إن فيه فوائد. فتُنقل على أنها للاعتبار، لا على العمل بها، وفيها المواعظ، وفيها قصص، وفيها عبر وحكايات، وما أشبه ذلك من كتب التاريخ، وكتب العلم، وكتب الاستنباط والأحكام، فتُقرأ على أنها للتذكر وللاعتبار وللمواعظ، وللاسترشاد بها، هذا هو الواجب علينا نحو أنبياء الله تعالى ورسله.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٩٨).

قال الشارح:

وَأَمَّا أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، فَقَدْ قِيلَ فِيهِمْ أَقْوَالٌ، أَحْسَنُهَا: مَا نَقَلَهُ البَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ: أَنَّهُمْ نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَهُمُ المَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وَأَمَّا الإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَتَصْدِيقُهُ وَاتِّبَاعُ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح هنا أولي العزم، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]؛ العزم على الشيء معناه: الجزم والتصميم عليه، والصبر عليه، وعدم الجزع، وعدم التضجر. والأنبياء كلّهم صبروا على ما أوذوا، وصبروا على ما عذّبوا به، ولكن منهم خمسة اشتهروا بأنهم أبلوا بلاء حسنًا، وأنهم صبروا صبرًا لم يصبره غيرهم، فلأجل ذلك قيل: أولو العزم، وهم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ

ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]، فهؤلاء هم أولو العزم من الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم.

كما أن جميع الأنبياء قد صبروا، وقد حكي لنا عن صبر يوسف ـ عليه السلام ـ على ما أصابه، وصبر يعقوب ـ عليه السلام ـ على ما ناله من الحزن، وكذلك صبر لوط ـ عليه السلام ـ على ما أوذي به، وكذلك صبر هود وشعيب ـ عليهما السلام ـ كل منهم صبر، ولكن الصبر الذي نُقل عن أولي العزم أقوى.

فالواجب علينا الإيمان بهم، والتصديق بهم وكذلك الاقتداء بهم بالتحمّل والتصبّر.

قال الشارح:

وَأَمَّا الإِيمَانُ بِالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَنُؤْمِنُ بِمَا سَمَّى اللَّـهُ تَعَالَى مِنْهَا فِي كِتَابِهِ، مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ لِلَّـهِ تَعَالَى سُوَى ذَلِكَ كُتُبًا أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ، لَا يَعْرِفُ أَسْمَاءَهَا وَلَا عَدَدَهَا إِلَّا اللَّـهُ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

الإيمان بالكتب أحد أركان الإيمان، والإيمان بها هو: التصديق بما سمّى الله تعالى منها، قال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة:١١١]؛ التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، والزبور الذي أُنزل على داود عليه السلام، ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

هذه هي الكتب المشهورة الأربعة، وهناك كتب ذكرها الله تعالى؛ كقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم:٣٦]، فأخبر بأنه أوتي صحفًا قبل التوراة، وأخبر بأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أوتي صحفًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]. هذه الصحف لم تأتِنا، ولا نعرف ماذا تتضمّن، ولكنّنا نؤمن بأنها كلام الله، وبأنها من الله. وكذلك ما أنزله على الأنبياء من الصحف والكتب، نؤمن بأنها منزلة

من الله، ونؤمن بها إيمانًا مجملًا.

وأما الإيمان المفصَّل، فإنَّه يختصُّ بالقرآن، فالقرآن الذي أنزل علينا نؤمن به إيمانًا مفصلًا؛ فنقرأه ونتدبره ونتعلّمه، ونعمل بمحكمه، ونؤمن بمتشابهه، ونقف عند عجائبه، ونتلوه حقّ تلاوته، ونعتبر بأمثاله، ونعمل بأوامره، ونسترشد بإرشاداته، وكلّ ذلك مما أمرنا الله تعالى به، فلا بدَّ أن يكون الإيمان به إيمانًا مفصلًا، ونعتقد أنه آخر كتب الله التي أنزلها على الأنبياء، وأنه ناسخ لِمَا قبله من الكتب والشرائع، ونعتقد أنه كلام الله تعالى، وأن كلام الله تعالى لا ينفد، وأنه تكلَّم بكلام لا حدَّ له ولا نهاية، وأنّ هذا القرآن من كلام الله وليس كل كلام الله، وقد أخبر الله تعالى بأنَّ كلامه لا ينفد في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].

وقد تقدَّم أن الإيمان بالرسل إجمالًا وبمحمد ﷺ وبشريعته تفصيلًا؛ فهو آخر الرسل وخاتمهم، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، يعني: آخرهم، وشريعته هي الشريعة الباقية إلى أن تقوم الساعة، وإذا نزل عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ في آخر الدنيا يحكم بهذه الشريعة، ويكون واحدًا من أفراد أمّة محمد ﷺ، ولكن الله تعالى يظهر به هذا الدين، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، وينصره الله تعالى، ويظهر الدين على يديه، فهو إنما يُعدّ

مجدّدًا لهذه الشريعة.

فشريعة محمد ﷺ وسنّته والعمل بما جاء به هو الباقي، وهو اللازم لكلّ أحد، كلُّ من جاءه خبر أو أمر أو إرشاد من قبل هذا النبيّ الكريم لزمه العمل به، فالعمل به من تمام الشهادة له بالرسالة، فإذا لم يعمل به نقص حظه من الشهادة له بأنه رسول الله، والعمل بالشريعة إجمالًا واجب على كل مسلم، وعلى المسلم أن يتعلمها إجمالًا، ثم يعمل بها تفصيلًا، وأن يعمل بها حكمًا، وبذلك يكون من المتبعين لهذه الرسالة، ومن لم يكن كذلك نقص حظه من الاتباع.

قال الشارح:

وَأَمَّا الإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ، فَالإِقْرَارُ بِهِ، وَاتِّبَاعُ مَا فِيهِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الإِيمَانِ بِغَيْرِهِ مِنَ الكُتُبِ، فَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِأَنَّ الكُتُبَ المُنَزَّلَةَ عَلَى رُسُلِ اللَّهِ أَتَتْهُمْ مِنْ عِنْدِاللَّهِ، وَأَنَّهَا حَقٌّ وَهُدَى وَنُورٌ وَبَيَانٌ وَشِفَاءٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة:١٣٦]، ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ١-٤]، ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهَا، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ مِنْ عِنْدِهِ، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ صِفَةِ الكَلَامِ وَالْعُلُوِّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٢١٣]، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢]، ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ:٦]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧]، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن:٨]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي القُرْآنِ.

قال الشيخ:

كأنه قيل: إن من أركان الإيمان: الإيمان بكتب الله، وإن من كتب الله هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وجعله آية من آياته، ومعجزة من معجزاته، فكيف يكون الإيمان بهذا القرآن؟

فأجيب: أن الإيمان به: الإقرار بأنه منزل من الله، والإقرار بأنه حق، وأن النبي ﷺ جاء به ونزل عليه بواسطة الملك؛ وكذلك من الإيمان به اتباع ما فيه، والعمل بتعاليمه كلها، والتقيد بأوامره ونواهيه، وهذا أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب، فإن الكتب السابقة إنما نؤمن بأنها منزلة من الله، وأما هذا القرآن فنعمل به، ونتبع ما فيه، ونجعله دليلنا، ونقدم دلالته على غيرها من دلالات الكتب السابقة، إذا تخالفا، وكذلك نقدمها على ما تقتضيه العقول وغيرها، فلا نقدم عقولنا على ما جاء في كتاب الله تعالى، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسول الله تعالى أنها من عند الله، وأنها حق، وأنها صدق، وفيها هدى ونور وبيان وشفاء، فتجتمع كلها بأنها حق وأنها كلام الله، وأن فيها الهدى والنور، والبيان والشفاء والتصديق بأنها وحي من الله تعالى، وأما العمل فإنه يختص بما في هذا القرآن، الذي نتحقق أنه كتابنا الذي أُنزل علينا، ومن الأدلة على وجوب الإيمان بالرسل وبكتبهم:

قول الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة:١٣٦]، أي: نصدق

بالله إلهًا وربًا، ونصدق بكل ما أُنزل إلينا من الكتاب، ومن السنة، وما أُنزل على موسى وعيسى - عليهما السلام - وجميع الأنبياء كلهم.

وهكذا قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:١٣٦]، أي: نؤمن بكل ما أوتي موسى وعيسى - عليهما السلام - وما أوتي النبيون من ربهم، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [البقرة:١٣٦]، فموسى - عليه السلام - أوتي التوراة، وعيسى - عليه السلام - أوتي الإنجيل، وكذلك النبيون كلهم أوتوا كتبًا من ربهم، نصدق بذلك.

وهكذا أيضًا قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:١- ٤]، أي: نؤمن بأنه نزل التوراة والإنجيل، وأنه نزل علينا هذا الكتاب، وأنه أنزل الفرقان الذي هو هذا القرآن الذي هو من المعجزات.

وهكذا أيضًا قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، أي: أن الرسول وأتباعه آمنوا بما أنزله الله تعالى إليهم من هذا القرآن، ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: الرسول والمؤمنون آمنوا بذلك كله، وصدقوا به، وعملوا بما يقدرون عليه مما بلغهم، وبما بلغهم إياه نبيهم ﷺ.

وهكذا قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، أُمروا بأن يتدبروا هذا القرآن، يتعقلوه ويتدبروا ما فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، يعني: أفلم يتدبروه، ولو تدبروه وتعقلوه لعرفوا أنه من عند الله.

وهكذا قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، أي: ليتعقلوها ويتفهموها، ولو أنه من عند غير الله لوجدوا فيه اضطرابًا واختلافًا، ولكنه محكم وكله خير وكله شفاء، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله تكلم بهذا القرآن، وكذلك تكلم بالكتب المنزلة على الأنبياء، وتدل أيضًا على أنها نزلت من عند الله تعالى.

وهذه الآيات وما أشبهها دالة على إثبات صفة الكلام؛ وذلك للتصريح بأنها كلام الله، ودالة أيضًا على إثبات صفة العلو؛ لأن النزول لا يكون إلا من أعلى، ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران:٤]، يعني: أنزله من السماء إلى الأرض، وكذلك: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ [البقرة:١٣٦]، يعني: ما أنزله الله ـ عز وجل ـ إليهم، فكل ذلك دال على أن الله تعالى فوق عباده.

وهكذا قول الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٢١٣]، دليل على أنهم كانوا قبل نوح ـ عليه السلام ـ أمة واحدة، ثم حصل منهم الاختلاف، فبعدما اختلفوا بعث الله النبيين والرسل، وأمرهم بأن يبشروا من اتبعهم وأطاع الله تعالى

بالخير، وينذر من خالفهم وخرج عن طاعة ربه، ومع ذلك أنزل معهم الكتب التي تصدق ما جاؤوا به، وتبين أنها حق من الله تعالى.

وقد روى ابن جرير[١] في تفسير هذه الآية قال: «حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا أبو داود الطيالسي، قال: ثنا همام بن منبه، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا}». كما في الآية التي في سورة (يونس)، وهكذا أخرجه الحاكم في (المستدرك)[٢] عن محمد بن بشار به، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. إلا أن أبا داود الطيالسي اسمه سليمان بن داود، روى له البخاري تعليقًا، وهو من رجال مسلم، وله سنن مطبوعة مشهورة ومحققة، ولفظة (اختلفوا) إنما حُذفت تعليلًا لقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، على أنه وقع التصريح بهذا المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:١٩]. قال الطبري[٣]: «فتأويل (الأمّة) على هذا القول الذي

---

(١) (٢/ ٣٣٤).

(٢) (٢/ ٥٤٦، ٥٤٧).

(٣) (٢/ ٣٣٥).

ذكرناه عن ابن عباس: (الدين)»، ثم استدل بقول النابغة الذبياني:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَهَلْ يَأْثَمَنَّ ذُو أُمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ

يعني: ذا الدين.

قال: «فكان تأويل الآية على معنى قول هؤلاء: كان الناس أمة مجتمعة على ملة واحدة ودين واحد، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وأصل الأمة الجماعة تجتمع على دين واحد، ثم يُكتفى بالخبر عن الأمة من الخبر عن الدين؛ لدلالتها عليه؛ كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة:٤٨]، يُراد به أهل دين واحد وملة واحدة».

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢]، وصف لهذا القرآن بأنه كتاب عزيز يعني شريف، وأن الله تعالى حماه عن الباطل، فلا يأتيه الباطل ـ أي: الكذب والاختلاف والاضطراب ـ لا من بين يديه ولا من خلفه لا من قبله ولا من بعده؛ وذلك لأنه تنزيل من الله تعالى الذي من أسمائه أنه هو الحكيم والحميد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٦]، أي: هو الصدق.

وكذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، فإن هذا وصف لهذا القرآن.

وكذلك قوله - جل وعلا -: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، وقوله - جل شأنه -: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، وكل هذه الآيات وأمثالها كثيرة في القرآن تدل على صفة هذا القرآن، وأن الله تعالى ضمنه المواعظ التي إذا تأملها السامع اتعظ بها، وعرف الدنيا، وعرف الآخرة، وعرف الفرق بينهما، وأن الله تعالى جعله شفاء لما في الصدور من الشكوك والريب والتوقف ونحو ذلك، وأنه يهدي به المؤمنين، وأنه يحرمهم به على النار، وأنه لا يزيد الظالمين إلا خسارًا، وقد أمرنا الله تعالى أن نؤمن به، والإيمان به التصديق بكل ما فيه، ووصفه أيضًا بأنه نور في قوله: ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾؛ وذلك لأنه ينير للجاهلين كل ما يتوقفون فيه، ينور لهم الطرق التي يشكون فيها، من سار على ما فيه فإنه يسير على هدى وعلى بيان.

وأما من تركه وعدل عنه فإنه يتخبط في الظلمات؛ لأن النور ضده الظلمات، وهي التي يدعو إليها الشياطين؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فالمؤمنون حقًا يخرجهم الله تعالى من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، بعدما كانوا في جهل وفي ظلمات لا يهتدون سبيلاً، وإن لم تكن ظلمات حسية، ولكنها ظلمات وجهل بحيث أنهم لا يتأملون ولا يتفكرون فيما هم فيه، ولا يدرون ما هم فيه،فيخرجهم الله تعالى بهذا القرآن والعمل به واتباع ما فيه إلى النور الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي

ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهذا المشي ليس مشيًا حسيًا، وإنما هو مشي معنوي، والمعنى أن الله تعالى جعل له ما يستضيء به حتى يعرف به الحق من الباطل، ويميز بين ما يحبه الله تعالى ويرضاه، فإذا مشى على النور في هذه الدنيا ـ أي: على نور الإيمان والهدى ـ فإن الله تعالى يجزيه، فالجزاء من جنس العمل، فيكون في الدنيا في نعيم الروح وراحة القلب، وفي الآخرة في جنات النعيم بفضل الله تعالى.

قال الطحاوي - رحمه الله -:

وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَهُ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ.

---

قال الشارح:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيه مَا عَلَيْنَا». وَيُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِهَذَا الكَلَامِ إِلَى أَنَّ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَاحِدٌ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلَامِ بِارْتِكَابِ الذَّنْبِ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ.

وَالمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (أَهْلَ قِبْلَتِنَا) مَنْ يَدَّعِي الإِسْلَامَ وَيَسْتَقْبِلُ الْكَعْبَةَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ المَعَاصِي، مَا لَمْ يُكَذِّبْ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ. وَسَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَى هَذَينِ المَعْنَيَيْنِ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيخِ: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ). وَعِنْدَ قَوْلِهِ: (وَالإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ).

---

قال الشيخ:

كلام الماتن - رحمه الله - يتعلق بالمسلمين جميعًا، أي: أنهم مسلمون مؤمنون، وعلى هذا فكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن فإنه مسلم، يقول: نسميهم بذلك؛ لأنهم اعترفوا بكل ما جاء به النبي ﷺ، وصدقوا به، وقبلوا كل ما جاء

به من الأوامر والنواهي.

ثم استدل الشارح ـ رحمه الله ـ بقول النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيه مَا عَلينا». وهذا الحديث أخرجه البخاري[1] عن أنس ﷺ، ولفظه: «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلاَ تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ».

ويشير الشيخ ـ رحمه الله ـ بكلامه المتقدم إلى أن الإسلام والإيمان واحد، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله، ولكن الذي يترجح أن الإسلام أعم من الإيمان، وعلى هذا فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، وقد حقق ذلك شيخ الإسلام في كتاب (الإيمان)[2]، وبيَّن أن قوله تعالى عن الأعراب: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، دليل على أنه ليس كل من ادعى أنه مؤمن يكون مؤمنًا حقًا، إنما عليه أن يقول: إنه مسلم، فإذا حقق بعد ذلك أركان الإيمان صدق عليه أنه مؤمن ومسلم.

يقول: المؤمن والمسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنوب إلا إذا استحل الذنب وتعمد فعله، أو أباح فعله للناس، كمن يستحل ترك الصلاة كليًا، أو

---

(١) برقم (٣٩١).

(٢) انظر: كتاب الإيمان الكبير ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ٥ وما بعدها).

يستحل أكل الربا ويجعله حلالاً مباحًا، أو يستحل فعل الزنى أو يحله للمسلمين.

وأما قوله: (أَهْلِ قِبْلَتِنَا)، فالمراد: المسلمون الذين هم على الإسلام، والذين يستقبلون القبلة في صلاتهم، وكذلك أيضًا يحجون ويتوجهون إلى القبلة ولو كانوا من أهل الأهواء الذين معهم شيء من النقص في دينهم، أو عندهم شيء من المعاصي، فإنهم لا يخرجون بالمعاصي عن الإيمان، فلو شربوا الخمر وهم يعترفون بأنهم مذنبون، أو أكلوا شيئًا من الربا مع اعترافهم بأن الله تعالى حرمه، فإن ذلك لا يخرجهم من الإسلام، ولا يخرجون منه إلا إذا كذبوا بشيء مما جاء به النبي ﷺ تكذيبًا جازمًا، وقد وعد الشيخ ـ رحمه الله ـ بالكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ الماتن: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)، كما يأتي إن شاء الله، وكذلك عند قوله ـ رحمه الله ـ: (وَالإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ)؛ حيث نبه على أن الإسلام والإيمان اسم لمسمى واحد، وسوف يتعرض لذلك الشارح ويُبين الخطأ أو الخلاف في أن أهل الإيمان في أصله سواء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ، وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ.

---

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى الكَفِّ عَنْ كَلَامِ المُتَكَلِّمِينَ البَاطِلِ، وَذَمِّ عِلْمِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي الإِلَهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣].

وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْطِقَ فِي ذَاتِ اللَّهِ بِشَيْءٍ، بَلْ يَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ».

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «الحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: مَنْ أَلْزَمْتُهُ القِيَامَ مَعَ أَسْمَائِي وَصِفَاتِي أَلْزَمْتُهُ الأَدَبَ، وَمَنْ كَشَفْتُ لَهُ حَقِيقَةَ ذَاتِي أَلْزَمْتُهُ العَطَبَ، فَاخْتَرِ الأَدَبَ، أَوِ العَطَبَ».

وَيَشْهَدُ لِهَذَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا كَشَفَ لِلْجَبَلِ عَنْ ذَاتِهِ سَاخَ الجَبَلُ وَتَدَكْدَكَ وَلَمْ يَثْبُتْ لِعَظَمَةِ الذَّاتِ.

قَالَ الشِّبْلِيُّ: «الانْبِسَاطُ بِالْقَوْلِ مَعَ الحَقِّ تَرْكُ الأَدَبِ».

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ)، مَعْنَاهُ: لَا نُخَاصِمُ أَهْلَ الحَقِّ بِإِلْقَاءِ شُبُهَاتِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ عَلَيْهِمْ، الْتِمَاسًا لِامْتِرَائِهِمْ وَمَيْلِهِمْ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الدُّعَاءِ إِلَى البَاطِلِ، وَتَلْبِيسِ الحَقِّ، وَإِفْسَادِ دِينِ الإِسْلَامِ.

قال الشيخ:

كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ فيه النهي عن الخوض، وعن المجادلة والمماحكة في دين الله تعالى؛ كما يفعل ذلك المتكلمون الذين وسعوا علم الكلام، وتدخلوا فيما لا فائدة لهم فيه، فتكلموا بغير علم، ولا برهان من الله تعالى، وقد نهى العلماء عن علم الكلام، ونهوا أيضًا عن الاستماع إلى المتكلمين وإلى شبهاتهم؛ لأنهم إنما يُلقون الشبهات التي يشبهون بها على أهل الحق، فلا يجوز لنا مجالستهم، ولا سماع كلامهم، ولا القراءة في كتبهم، إلا للمتمكن الذي لا تروج عليه تلك البدع ولا تلك الشبهات، فكلامهم إنما هو بالخرص، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]؛ هكذا أخبر بأنهم يتبعون هوى أنفسهم، ويعدلون عن الهدى الذي جاءهم من الله تعالى.

ثم ذكر كلام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وهو قوله: (**لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْطِقَ فِي ذَاتِ اللَّهِ بِشَيْءٍ، بَلْ يَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ**)، أي: لا يتكلم في صفات الله بغير علم، إنما يقتصر على ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه سبحانه أعلم بنفسه، ورسوله أعلم بمن أرسله، وكان السلف ـ رحمهم الله ـ يكرهون التكلم في ذات الله تعالى؛ وكذلك ينهون عن الخوض أو طلب الكيفية لصفة من صفات الله تعالى، فيقولون في آيات الله وأحاديث الرسول ﷺ التي تتعلق بالصفات: «أمروها كما جاءت بلا كيف»، ونعرف أنهم يفهمون معانيها،

ويعتقدون ما دلت عليه، إلا أنهم لا يخوضون مع الخائضين الذين ذكر الله أن ذلك من أسباب عذابهم.

ثم نقل عن بعض العلماء أنه قال: (الحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: مَنْ أَلْزَمْتُهُ القِيَامَ مَعَ أَسْمَائِي وَصِفَاتِي أَلْزَمْتُهُ الأَدَبَ)، المراد بـ(الحق): الرب سبحانه وتعالى، وهذه من الحكم، أي: أن من ألزمه الله تعالى أن يكون مع أسمائه وصفاته يقف معها بلا تأويل، ولا تكذيب ولا تكييف ولا رد ولا تحريف، فإنه يكون من أهل الأدب مع الله، وأما قوله: (وَمَنْ كَشَفْتُ لَهُ حَقِيقَةَ ذَاتِي أَلْزَمْتُهُ العَطَبْ)، يعني: الذي يحاول الكشف عن ماهية ذات الرب سبحانه وتعالى، فإنه يقع في العطب؛ لأننا نثبت لله تعالى ذاتًا، كما في شعر خبيب بن عدي ﷺ:

ولست أُبَالِي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[1]

فأثبت أن لله تعالى ذات، وأهل السنة - وكذلك المبتدعة - يقرون أن لله تعالى ذات، ولكنها ليست كسائر الذوات، فيعترفون بأن ذات الله تعالى تليق به، وإن قصرت الأفهام عن كيفيتها، فالذين يخوضون في كيفية الذات يقعون في العطب.

قوله: (فَاخْتَرِ الأَدَبَ أَوِ العَطَبَ)، إذا التزمت بالقيام مع أسماء الله تعالى فأنت من أهل الأدب، وإذا بحثت ودققت وتعمقت في كيفية الذات، وفي كيفية الصفات تقع في العطب، والعاقل يختار الأدب على العطب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٥، ٣٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

واستشهد الشارح بما ثبت أن الله سبحانه لما تجلى للجبل ساخ الجبل وتدكدك، ولم يثبت لعظمة الذات؛ وذلك في قوله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، تجلى بعض الذات للجبل فلم يصبر ذلك الجبل، ولم يثبت مع عظمه لذات الله، بل اندك وساخ في الأرض هيبة لعظمة الله تعالى، ولما رأى موسى ـ عليه السلام ـ ذلك صعق وخر ساجدًا، وعلم بأن الله تعالى لا يثبت لرؤيته شيء في الدنيا.

ثم ذكر كلام الشبلي، وقوله: «**الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب**».

الشبلي: اسمه دلف بن جحدر الشبلي البغدادي، قال الذهبي[1]: «كان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، وكتب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن، لكنه كان يحصل له جفاف دماغ وسكر، فيقول أشياء يُعتذر عنه فيها، لا تكون قدوة»، وما يُحكى عنه من الكلمات التي فيها شيء من الشطحات، لعل ذلك قاله عندما يلف دماغه، فقوله: (**الانْبِسَاطُ بِالْقَوْلِ مَعَ الحَقِّ تَرْكُ الأَدَبِ**)، مع الحق: أي مع الله تعالى، الانبساط بالقول معه، يعني: الاقتصار على ما أمر به، وهذا ذكر أنه ترك الأدب.

قوله: (**وَلَا تُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ**)، أي: لا نخاصم أهل الباطل، ولا نخاصم أهل الحق، أي: بأن نلقي عليهم شبهات أهل الأهواء التي تسبب شكًا فيقع في

(١) في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٦٧).

قلوبهم شك، أو تقع تلك الشبهات في القلب، ويصعب بعد ذلك إخراجها، وكذلك أيضًا لا نخاصم أهل الباطل؛ لمعرفتنا بأنهم على باطل، إلا من كان عنده قوة ومعرفة بشبهاتهم وإبطالها، كما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية في أنه كان يجادلهم، ويظهر بالحجة عليهم، ويبطل شبهاتهم؛ لأنه يعرف الحق؛ وكذلك يعرف كيف يبطل تلك الشبهات فلا نخاصم على الحق؛ مخافة أنهم إذا وقع منهم ميل إلى تلك الشبهات صعب عليهم التخلص؛ لأن هذا في معنى الدعاء إلى الباطل، يعني: أن نشر شبهات أهل الأهواء دعوة إلى الشر، وتلبيس الحق بالباطل، وإفساد لدين الله، وإظهار لبدع المبتدعين.

قال الطحاوي:

وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينَ، فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ.

---

قال الشارح:

فَقَوْلُهُ: (وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ)، يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ: أَنَّا لَا نَقُولُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الزَّيْغِ وَاخْتَلَفُوا، وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيَدْحَضُوا بِهِ الحَقَّ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينَ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ: أَنَّا لَا نُجَادِلُ فِي القِرَاءَةِ الثَّابِتَةِ، بَلْ نَقْرَؤُهُ بِكُلِّ مَا ثَبَتَ وَصَحَّ، وَكُلٌّ مِنَ المَعْنَيَيْنِ حَقٌّ. وَيَشْهَدُ بِصِحَّةِ المَعْنَى الثَّانِي: مَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خِلَافَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ الْكَرَاهِيَةَ، فَقَالَ: كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، لَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

نَهَى ﷺ عَنِ الاخْتِلَافِ الَّذِي فِيهِ جَحْدُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ مَا مَعَ صَاحِبِهِ مِنَ الحَقِّ؛ لِأَنَّ كِلَا القَارِئَيْنِ كَانَ مُحْسِنًا فِيمَا قَرَأَهُ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا

---

(١) يأتي تخريجه في شرح سماحة الشيخ حفظه الله.

اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا؛ وَلِهَذا قَالَ حُذَيْفَةَ ﷺ لِعُثْمَانَ ﷺ: «أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ لَا تَخْتَلِفُ كَمَا اخْتَلَفَتْ الأُمَمُ قَبْلَهُمْ»[1]. فَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ اجْتِمَاعًا سَائِغًا، وَهُمْ مَعْصُومُونَ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالٍ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَرْكٌ لِوَاجِبٍ، وَلَا فِعْلٌ لِمَحْظُورٍ؛ إِذْ كَانَتْ قِرَاءَةُ القُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُف جَائِزَةً لَا وَاجِبَةً، رُخْصَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ جَعَلَ الاخْتِيَارَ إِلَيْهِمْ فِي أَيِّ حَرْفٍ اخْتَارُوهُ.

---

قال الشيخ:

قوله: (أَنَّا لَا نَقُولُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الزَّيْغِ وَاخْتَلَفُوا، وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيَدْحَضُوا بِهِ الحَقَّ)، وادعوا أنه مخلوق أو أنه عبارة أو حكاية وترجمة لكلام الله، بل إنه كلامه أتى به جبريل ـ عليه السلام ـ لينسخ به كل كتاب.

(بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ)، تكلم به حقًا، نشهد بذلك، ونعرف أنه (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينَ)، الذي هو الملك.

وقوله: (وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ) أي: لا نقول فيه كما يقول أهل الزيغ الذين اختلفوا فيه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وهم جميع أهل الأهواء الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم؛ لما أكثروا من الجدال، وأكثروا من إلقاء الشبهات، وأكثروا من التشكيك في آيات الله تعالى، وفي صفاته، وصاروا يضربون بعض القرآن ببعض، ويأخذون ما يناسبهم من الآيات، ويحملونها على محامل تخالف ما

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

دلت عليه، حتى توافق أهواءهم، فجادلوا بالباطل حتى انتشر باطلهم، واغتر بهم خلق كثير، ونحن إنما نقول: إنه كلام رب العالمين الذي تكلم به حقًا، ونزل به الروح الأمين.

ويحتمل قوله: (وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ) أي: في القراءات الثابتة التي ثبتت القراءة بها، وأقرها النبي ﷺ بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح من القراءات.

قوله: (وَكُلٌّ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ حَقٌّ)، يعني: مجادلة أهل الزيغ والباطل، وكذلك مجادلة أهل القراءات الثابتة.

قوله: (وَيَشْهَدُ بِصِحَّةِ الْمَعْنَى الثَّانِي)، الذي هو المجادلة في القراءات، ما رُوِي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ آيَةً سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خِلاَفَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَانطلقت بِهِ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ الْكَرَاهِيَةَ، فَقَالَ: كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ، لاَ تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»، أخرجه البخاري[1]، والإمام أحمد[2]، ولم يروه مسلم كما نبه عليه العلماء، فالنبي ﷺ نهى عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق، فإن القرآن يصدق بعضه بعضًا، ولا يجوز أن يُضرب بعضه ببعض، أن يُظهروا فيه أنه مختلف.

قال: (لِأَنَّ كِلَا الْقَارِئَيْنِ كَانَ مُحْسِنًا فِيمَا قَرَأَهُ)؛ لأنه متبع والقراءة بذلك جائزة.

---

(١) برقم (٢٤١٠، ٣٤٧٦، ٥٠٦٢).

(٢) (١/ ٣٩٣).

قوله: (وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا)، اختلفوا في كتبهم، واختلفوا في أديانهم، واختلفوا في نحلهم، واختلفوا في عبادتهم، وصار بعضهم يُكذب بعضًا، ثم ذكر أن عثمان ﷺ هو الذي وضع المصحف هذا؛ ولهذا يُقال: إنه بالرسم العثماني؛ وذلك لما جاءه حذيفة ﷺ من الشام والعراق، وذكر اختلاف قراءتهم أن هؤلاء يقرؤون بقراءة تخالف قراءة الآخرين، فخاف أنهم يختلفون؛ لأن هؤلاء يدعون أن قراءتهم هي الصواب، والآخرون كذلك، فقال حذيفة ﷺ: «أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ لَا تَخْتَلِفُ كَمَا اخْتَلَفَتْ الأُمَمُ قَبْلَهُمْ». أخرجه البخاري في صحيحه من طريق موسى بن إسماعيل، عن إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، أن أنس بن مالك ﷺ حدثه: أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ؛ حتى لا يحصل الاختلاف (فَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى

حَرْفٍ وَاحِدٍ)، وهذا اجتماع سائغ وجائز، ولما اجتمعت الأمة على ذلك عُرف أنه حق؛ لأنهم (مَعْصُومُونَ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالٍ)، ولم يكن في ذلك ترك لشيء من الواجبات، ولا فعل شيء من المحظورات، فلا يُقال: إنهم تركوا بقية القراءات التي أُنزل القرآن بها؛ إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف، إنما هي جائزة لا واجبة، فيجوز أن يقرأ ببعض القراءات الثابتة، وذلك رخصة من الله تعالى، وقد جعل الله الاختيار إليهم في أي حرف اختاروه، وكذلك أيضًا النبي ﷺ.

قال الشارح:

كَمَا أَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ مَنْصُوصًا؛ وَلِهَذَا كَانَ تَرْتِيبُ مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبِ الْمُصْحَفِ الْعُثْمَانِيِّ، وَكَذَلِكَ مُصْحَفُ غَيْرِهِ.

وَأَمَّا تَرْتِيبُ آيَاتِ السُّوَرِ فَهُوَ تَرْتِيبٌ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا آيَةً عَلَى آيَةٍ، بِخِلَافِ السُّوَرِ، فَلَمَّا رَأَى الصَّحَابَةُ أَنَّ الأُمَّةَ تَفْتَرِقُ وَتَخْتَلِفُ، وَتَتَقَاتَلُ إِنْ لَمْ تَجْتَمِعْ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، جَمَعَهُمُ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِ.

هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْقُرَّاءِ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ التَّرَخُّصَ فِي الْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ كَانَ فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ، لِمَا فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا، فَلَمَّا تَذَلَّلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْقِرَاءَةِ، وَكَانَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ يَسِيرًا عَلَيْهِمْ - وَهُوَ أَوْفَقُ لَهُمْ - أَجْمَعُوا عَلَى الْحَرْفِ الَّذِي كَانَ فِي الْعَرْضَةِ الْأَخِيرَةِ.

---

قال الشيخ:

ذكر العلماء أن ترتيب السور ليس واجبًا وليس منصوصًا عليه، ولكن اجتهد الصحابة فرتبوا هذه السور فبدؤوا بسورة (البقرة)، ثم (آل عمران) .. إلى آخره، إلى أن ختموا بسورة (الناس)، وليس ذلك واجبًا عليهم منصوصًا، وذكروا أن مصحف عبدالله ترتيبه على غير ترتيب هذا المصحف، كما نبه على ذلك الذين تكلموا في المصاحف، وكما نبه على ذلك الذين تكلموا في علوم القرآن كالسيوطي في (الإتقان) وصاحب (البرهان) وغيرهم، وهكذا كثير من مصاحف الصحابة.

أما ترتيب آيات السور فإنه ترتيب منصوص عليه، كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه آيات يقول: «ضعوا هذه الآيات في كذا وكذا، بعد آية كذا من سورة كذا»[١]، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية، فترتيب الآيات التي في السور منصوص عليه؛ بخلاف السور، فلما رأى الصحابة ﷺ أن الأمة يُخاف عليها أن تتفرق وأن تختلف وأن تتقاتل وأن يضلل بعضهم بعضًا بهذا الاختلاف إذا لم يجتمعوا على حرف واحد، جمعهم عثمان والصحابة على هذا الحرف الذي هو الرسم في هذه المصاحف.

هذا قول جمهور العلماء من سلف الأمة وأئمتها، وكذلك القراء كما نقل ذلك ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسيره[٢]، حيث أطال في ذلك.

ثم يقول: إن بعض العلماء رخصوا في الأحرف السبعة، وقالوا: إن ذلك كان في أول الإسلام، أي: أن الرخصة كانت في أول الإسلام؛ لِمَا في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً؛ ولأن أكثرهم لا يقرؤون ولا يكتبون فيقرؤون الكتابات، ولم تكن القراءة في الكتب أو في الصحف متيسرة عندهم، فكانوا يحفظونه حفظًا، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرًا عليهم ـ وهو أوفق لهم ـ أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة

---

(١) كما جاء في حديث زَيْدِ بن ثَابِتٍ ﷺ أنه قال: «كنا عِنْدَ رسول الله ﷺ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ من الرِّقَاعِ...». أخرجه الترمذي (٣٩٥٤)، وأحمد (٥/ ١٨٤).

(٢) (١/ ٥٦ وما بعدها).

الأخيرة، فهذا القرآن إنما هو ما في العرضة الأخيرة التي عرضها جبريل للنبي ﷺ؛ لأنه كان يعرضه عليه كل سنة مرة، وفي السنة الأخيرة عرضه عليه مرتين، واستنبط أن ذلك لقرب أجله ﷺ، وقد أخبر ﷺ بذلك فاطمة رضي الله عنها، كما في حديث عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي»، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عن يَمِينِهِ أو عن شِمَالِهِ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ، فقلت لها: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ، فقلت: ما رأيت كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ من حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قال، فقالت: ما كنت لأُفْشِيَ سِرَّ رسول اللهِ ﷺ، حتى قُبِضَ النبي ﷺ، فَسَأَلْتُهَا، فقالت: أَسَرَّ إلي: «إِنَّ جِبْرِيلَ كان يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، ولا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي»، فَبَكَيْتُ، فقال: «أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أو نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؟»، فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

قال الشارح:

وَذَهَبَ طَوَائِفُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى أَنَّ الْمُصْحَفَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الأَحْرُفِ السَّبْعَةِ؛ لأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُهْمَلَ شَيْءٌ مِنَ الأَحْرُفِ السَّبْعَةِ، وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى نَقْلِ الْمُصْحَفِ الْعُثْمَانِيِّ، وَتَرْكِ مَا سُوَاهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الإِشَارَةُ إِلَى الْجَوَابِ، وَهُوَ: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا لَا وَاجِبًا، أَوْ أَنَّهُ صَارَ مَنْسُوخًا.

---

قال الشيخ:

هكذا يقول بعض الفقهاء أن هذا المصحف مشتملٌ على الأحرف السبعة، ولكن الصحيح أنه ليس مشتملًا عليها؛ لأن كثيرًا من القراءات التي ثبتت كقراءة بعض الصحابة المروية بأسانيد صحيحة ليست في هذا المصحف، بل في غيره، كما ذُكر أن ابن مسعود ﷺ كان يقرأ: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَالذَّكَرَ وَالأُنثَى} [الليل:١-٣].

فدل ذلك على أنها لم تُنقل قراءته، وكذلك كثير من قراءات الصحابة -رضي الله عنهم- ومن الزيادات التي كان يقرأ بها كثير من السلف لم تُذكر ولم تُكتب في هذا المصحف العثماني.

وعلى كل حال فإن القراءة بالأحرف السبعة كانت رخصة، فقد تكلم العلماء على المراد بالأحرف السبعة في مؤلفات كثيرة؛ كمقدمة تفسير ابن جرير، وكذلك

شرح الحديث الذي أخرجه البخاري[١] ومسلم[٢]، في قصة عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم بن حزام - رضي الله عنهما - أخرجه البخاري، وتوسع في شرحه ابن حجر في (فتح الباري)[٣]، فعُرف بذلك أنها كانت توسعة ورخصة، وأن القراءة بتلك الأحرف كانت جائزة وليس واجبًا، أو أنه كان منسوخًا حيث اقتصروا على العرضة الأخيرة.

---

(١) برقم (٢٤١٩).

(٢) برقم (٨١٨).

(٣) (٩/ ٢٤ وما بعدها).

قال الشارح:

وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّهُ كَانَ يُجَوِّزُ القِرَاءَةَ بِالمَعْنَى! فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا قَالَ: (قَدْ نَظَرْتُ إِلَى القُرَّاءِ فَرَأَيْتُ قِرَاءَتَهُمْ مُتَقَارِبَةً، وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ: هَلُمَّ، وَأَقْبِلْ، وَتَعَالَ، فَاقْرَؤوا كَمَا عُلِّمْتُمْ». أَوْ كَمَا قَالَ.

---

قال الشيخ:

هذا الأثر أخرجه الطبري في (جامع البيان)[1]، والطبراني في الكبير[2] من ثلاثة طرق، ولفظه: إني قد سمعت إلى القرَّاء فوجدتهم متقاربين، فاقرؤوا على ما علمتم وإياكم والتنطع في الاختلاف، إنما هو كقول: أحدكم أقبل وهلم وتعال»، وإسناده صحيح، ويريد أن قراءتهم مع اختلاف الألفاظ متقاربة المعاني، ومثل بقوله: هلم وأقبل وتعال، وما أشبه ذلك. وأما أنه يجوّز تغيير الحروف وقراءتها بالمعنى، فإن ذلك كذب عليه، وما رُوي من أنه أقرأ أحد الذين لم يعلموا بدل قوله: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٤]، {طعام الفاجر}، فلعل ذلك تفسير لما صعب عليه أن ينطق بالأثيم، أمره بأن ينطق بالفاجر كتفسير لها، ولكن لا يجوز أن تُقرأ بهذه الكلمة، فهو ﷺ رأى أن قراءة القراء الذين أقرأهم النبي ﷺ ليست مختلفة، بل متقاربة، فعند ذلك صوب قراءتهم.

---

(١) (١٢/ ١٨١).

(٢) برقم (٨٦٨٠).

قال الشارح:

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا أَنْ لَا نُجَادِلَ أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، فَكَيْفَ بِمُنَاظَرَةِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ؟ فَإِنَّ أَهْلَ الْقِبْلَةِ مِنْ حَيْث الْجُمْلَةِ خَيْرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُنَاظَرَ مَنْ لَمْ يَظْلِمْ مِنْهُمْ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَلَيْسَ إِذَا أَخْطَأَ يُقَالُ: إِنَّهُ كَافِرٌ، قَبْلَ أَنْ تُقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي حَكَمَ الرَّسُولُ ﷺ بِكُفْرِ مَنْ تَرَكَهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى قَد عَفَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَنِ الخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ؛ وَلِهَذَا ذَمَّ السَّلَفُ أَهْلَ الأَهْوَاءِ، وَذَكَرُوا أَنَّ آخِرَ أَمْرِهِمُ السَّيْف.

وَسَيَأْتِي لِهَذَا المَعْنَى زِيَادَةُ بَيَانٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا).

---

قال الشيخ:

أمر الله تعالى بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، في قوله - عز وجل -: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، والمراد بمجادلتهم: مساءلتهم عما في كتبهم، وعما يشتبه عليهم فإذا جادلهم المسلم مجادلة حسنة، رُجي أنهم ينصاعون إلى الحق ويتقبلونه، وأما الظالمون منهم فيُشدد عليهم وينهون عن أن يتكبروا، وينهون عن الإصغاء إلى قولهم، فلا يجوز أن نجادلهم إلا بالتي هي أحسن، بل نضللهم ونبين لهم خطأهم أو بعدهم عن الصواب.

وهكذا أيضًا أمر الله تعالى بالمجادلة بالتي هي أحسن في الدعوة، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، أي: عندما يحتاج إلى المجادلة تكون مجادلة لطيفة، ليس فيها شراسة ولا قوة، ولا فظاظة أيضًا في الكلام.

فإذا كان أهل الكتاب لا يُجادلون إلا بالتي هي أحسن فكيف بمناظرة أهل القبلة؟ الذين هم من المسلمين،فإن أهل القبلة من حيث الجملة خير من أهل الكتاب؛ لأنهم يدينون بطاعة الله ورسوله، ويدينون بالإسلام، ويعترفون بالقرآن أنه كلام الله، وبالسنة أنها كلام النبي ﷺ، وإذا كانوا كذلك فلا يجوز أن يُناظر من لم يظلم منهم إلا بالتي هي أحسن،أما المبتدعة الظالمون كالرافضة ـ مثلاً ـ أو كالمعتزلة، أو غلاة الصوفية فإنه يُشدد عليهم في النزاع، ويُبين بعدهم عن الصواب، أما الذين يحبون الحق فإنهم إذا جُودلوا بالتي هي أحسن رُجي أنهم يتأثرون ويتوبون ويعترفون بخطئهم.

قوله: (**وَلَيْسَ إِذَا أَخْطَأَ يُقَالُ: إِنَّهُ كَافِرٌ**)، أي: لا يُقال له ذلك (**قَبْلَ أَنْ تُقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي حَكَمَ الرَّسُولُ ﷺ بِكُفْرِ مَنْ تَرَكَهَا**)، هكذا يعترف المسلمون بأن الله سبحانه وتعالى أمر بالدعوة إليه، ونهى عن الغلظة في الدعوة، ونهى أيضًا الذي يدعو أن يكون متكلمًا بكلام سيئ ينفر منه المدعو؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]، أي: دعا إلى عبادة الله، ودعا إلى دينه، ولكن لا يدعو بشدة فلا يقول: أنك

قد كفرت وخرجت من الدين. حتى تُقام عليه الحجة، فإذا أصر بعد قيام الحجة فإنه حينئذٍ يُغلظ عليه.

قوله: (وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ عَفَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَنِ الخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ)، كما في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وفي صحيح مسلم[١] أن الله تعالى قال: «قَدْ فَعَلت»، وروى ابن ماجه[٢] من طريق الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ». وهذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع، وظاهره أنه منقطع.

قال المزي: «رواه بشر بن بكر التنيسي، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد ابن عمير، عن ابن عباس»[٣]، «وليس ببعيد أن يكون السقط من صنعة الوليد بن مسلم، فإنه كان يدلس تدليس التسوية»[٤]، فأسقط عبيد بن عمير بعد عطاء، وجعل الحديث عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعلى كلٍ فالآية كافية، وهي قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾؛ ولهذا السلف ـ رحمهم الله ـ يذمون أهل الأهواء وأهل الكلام ويحذرون منهم،

---

(١) برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) برقم (٢٠٤٥).

(٣) انظر: تحفة الأشراف (٥/ ٨٥) برقم (٥٩٠٥).

(٤) انظر: مصباح الزجاجة (٢/ ١٢٦).

ويذكرون أن آخر أمرهم السيف، إذا امتنعوا من قبول الحق فإنهم يُقاتلون بقدر ما يصرون عليه من الباطل، أو ما ينكرونه من الحق.

ووعد الشارح - رحمه الله - أنه سيزيد هذا المعنى بيانًا عند قول الشيخ: (وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا).

قال الشارح:

قَوْلُهُ: (وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ)، قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَذَا المَعْنَى عِنْدَ قَوْلِهِ: «وَإِنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا».

قَوْلُهُ: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ)، هُوَ: جَبْرَائِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ سُمِّيَ رُوحًا؛ لأَنَّهُ حَامِلُ الوَحْيِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ القُلُوبِ إِلَى الرُّسُلِ مِنَ البَشَرِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ أَمِينُ حَقٌّ أَمِين ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ـ قَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣ـ ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩ـ ٢١]، وَهَذَا وَصْفُ جِبْرَائِيلَ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة:٤٠، ٤١]،الآيات، فَإِنَّ الرَّسُولَ هُنَا هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

---

قال الشيخ:

قوله: (قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَذَا المَعْنَى)، فهناك حقق أن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، كما يقول ذلك المبتدعة من الأشاعرة ونحوهم، الذين يقولون: إن كلام الله ليس بحرف ولا بصوت، وإنما هو المعنى، وأن هذا القرآن ترجمة كلام الله.

قوله: (هُوَ: جَبْرَائِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ سُمِّيَ رُوحًا)، وجبريل ـ عليه

السلام ـ روح؛ لأن الملائكة أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها، كما ذكر ذلك ابن القيم في كتاب (الروح)[1]، وقيل: إنه سمي روحًا ـ كما ذكر الشارح ـ لأنه يحمل الوحي، والوحي كالروح للقلوب تحيى به القلوب، يحمل ذلك إلى الرسل من البشر، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

قوله: (وَهُوَ أَمِينٌ حَقٌّ أَمِين)، أي: ووصف أيضًا بأنه أمين، أي: أنه أهل للأمانة إذا اؤتمن على الوحي، فإنه لا يغيره، بل يأمن به ويؤديه كما أؤتمن عليه؛ ولذلك وصفه الله تعالى بذلك في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:١٩٣ـ ١٩٥]، أي: نزل به إليك هذا الملك، الذي هو الروح الأمين، وهو جبريل عليه السلام، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، أي: أنزله على قلبك، وأقره في قلبك، ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، أي: لتنذر به الناس، وجعله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، حتى تفهمه، ويفهمه الذين أرسلت إليهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩ـ ٢١]، هذا الرسول هو جبريل ـ عليه السلام ـ وصفه الله تعالى بأنه:

**أولاً**: رسول، أي: يرسله إلى عباده.

**ثانيًا**: كريم عند الله تعالى، من الكرم الذي هو الشرف والرفعة.

---

(١) (ص١٤٨).

**ثالثًا**: ذو قوة، أي: له قوة؛ كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، وذكروا من قوته ـ ما تقدم ـ أنه حمل قرى قوم لوط إلى السماء، ثم قلبهم.

**رابعًا**: وصفه بأنه ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: عند رب العرش الذي هو الله مكين، أي: له مكانة ومنزلة.

**خامسًا**: مطاع، أي: يطيعه الملائكة؛ لأنهم جاء في حديث: «**إذا أَحَبَّ اللَّهَ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ له الْقَبُولُ فِي الأرض**»[1]، وذكر مثل ذلك في البغض، فدل على أنه مطاع، ومحترم عند الملائكة.

**سادسًا**: أمين، أي: مؤتمن على ما أرسل به من الوحي.

فالمراد بهذه الآيات في سورة (التكوير) جبريل ـ عليه السلام ـ وأما قوله تعالى في سورة (الحاقة): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، فإن الرسول هنا هو محمد ﷺ، وصفه بأنه رسول من الله، وبأنه كريم على الله، ونزه من جاء به عن أن يكون شاعرًا، أو يكون كاهنًا أو نحو ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٦١).

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ:(فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ)، تَصْرِيحٌ بِتَعْلِيمِ جِبْرَائِيلَ إِيَّاهُ، إِبْطَالًا لِتَوَهُّمِ القَرَامِطَةِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ تَصَوَّرَهُ فِي نَفْسِهِ إِلْهَامًا.

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ)، تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ فَقَدْ خَالَفَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ سَلَفَ الأُمَّةِ كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ بِالحَقِيقَةِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، بَلْ قَوْلُهُ: (وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ)، مُجْرَى عَلَى إِطْلَاقِهِ: أَنَّا لَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ خِلَافَهُمْ زَيْغٌ وَضَلَالٌ وَبِدْعَةٌ.

---

قال الشيخ:

هكذا يرد الشارح ـ رحمه الله ـ على قول هؤلاء القرامطة، فالله تعالى علم أو تكلم بالقرآن فسمعه جبريل، فنزل به حتى علمه النبي ﷺ بلفظه، بحروفه ومعانيه، والرسول هو سيد المرسلين، فهذا تصريح بأن جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذي علم محمدًا هذا القرآن، ففيه إبطال ورد لتوهم القرامطة وغيرهم، أن هذا القرآن تصوره في نفسه إلهامًا، أنه إنما هو خيالات تخيلها في نفسه، ثم تكلم بها فلا يكون على هذا كلام الله تعالى، بيَّن ذلك شيخ الإسلام في كتابه (درء تعارض العقل والنقل)[1]، وتوسع في بيانه.

---

(١) (١٠/ ٢٠٤).

وقوله: (تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ فَقَدْ خَالَفَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ)، فيه إشارة إلى أن الذين قالوا: إن القرآن مخلوق، قد خالفوا جماعة المسلمين، فيكون ذلك دليلاً على أنهم ليسوا من المسلمين حقًا، فيكون في هذا تنبيه على أنه كلام الله، وأن الذين يقولون: إنه مخلوق، قد خالفوا جماعة المسلمين، فلا يكونون من المسلمين، فإن سلف الأمة وأئمتها من عهد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى هذا الزمان، الذين اتبعوا الصحابة في الحقيقة، كلهم متفقون على أن القرآن كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، فمن قال: إنه مخلوق، فقد خالف جماعة المسلمين.

فقوله: (قُوْلُهُ: (وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ)، مُجْرَى عَلَى إِطْلَاقِهِ)، أي: أننا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه، سواء فيما يتعلق بالقرآن أنه كلام الله، أو فيما يتعلق ببقية الأحكام التي ابتدعوها، فإن خلاف جماعة المسلمين يكون زيغًا في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ويكون ضلالاً وبدعة، وكل بدعة ضلالة.

قال الطحاوي:

وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ، وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ».

---

قال الشارح:

أَرَادَ بِأَهْلِ الْقِبْلَةِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ: (وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ)، يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِهَذَا الكَلَامِ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الخَوَارِجِ القَائِلِينَ بِالتَّكْفِيرِ بِكُلِّ ذَنْبٍ.

وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا - أَنَّ بَابَ التَّكْفِيرِ وَعَدَمَ التَّكْفِيرِ بَابٌ عَظُمَتْ الفِتْنَةُ وَالمِحْنَةُ فِيهِ، وَكَثُرَ فِيهِ الافْتِرَاقُ، وَتَشَتَّتَتْ فِيهِ الأَهْوَاءُ وَالآرَاءُ، وَتَعَارَضَتْ فِيهِ دَلَائِلُهُمْ، فَالنَّاسُ فِيهِ فِي جِنْسِ تَكْفِيرِ أَهْلِ المَقَالَاتِ وَالعَقَائِدِ الفَاسِدَةِ، المُخَالِفَةِ لِلْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ، أَوْ المُخَالِفَةِ لِذَلِكَ فِي اعْتِقَادِهِمْ، عَلَى طَرَفَيْنِ وَوَسَطٍ، مِنْ جِنْسِ الاخْتِلَافِ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ العَمَلِيَّةِ.

فَطَائِفَةٌ تَقُولُ: لَا نُكَفِّرُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ أَحَدًا. فَتَنْفِي التَّكْفِيرَ نَفْيًا عَامًّا، مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ فِي أَهْلِ القِبْلَةِ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَكْفَرُ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ، وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ يُظْهِرُ بَعْضَ ذَلِكَ حَيْثُ يُمْكِنُهُمْ، وَهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِالشَّهَادَتَيْنِ.

وَأَيْضًا فَلَا خِلَافَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ أَظْهَرَ إِنْكَارَ الوَاجِبَاتِ

الظَّاهِرَةِ المُتَوَاتِرَةِ، والمُحَرَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ المُتَوَاتِرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ كَافِرًا مُرْتَدًا.

وَالنِّفَاقُ وَالرِّدَّةُ مَظِنَّتُهُمَا البِدَعُ وَالفُجُورُ، كَمَا ذَكَرَهُ الخَلَّالُ فِي كِتَابِ «السُّنَّةِ» بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أَسْرَعَ النَّاسِ رِدَّةً أَهْلُ الأَهْوَاءِ، وَكَانَ يَرَى هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وَلِهَذَا امْتَنَعَ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةِ عَنْ إِطْلَاقِ القَوْلِ بِأَنَّا لَا نُكَفِّرُ أَحَدًا بِذَنْبٍ، بَلْ يُقَالُ: لَا نُكَفِّرُهُمْ بِكُلِّ ذَنْبٍ كَمَا تَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ، وَفَرْقٌ بَيْنَ النَّفْيِ العَامِ وَنَفْيِ العُمُومِ، وَالوَاجِبُ إِنَّمَا هُوَ نَفْيُ العُمُومِ مُنَاقَضَةً لِقَوْلِ الخَوَارِجِ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بِكُلِّ ذَنْبٍ.

وَلِهَذَا - واللَّهُ أَعْلَمُ - قَيَّدَهُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (مَا لَمْ يَسْتَحِلُّهُ)، وَفِي قَوْلِهِ: (مَا لَمْ يَسْتَحِلُّهُ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُرَادَهُ مِنْ هَذَا النَّفْيِ العَامِ لِكُلِّ ذَنْبٍ مِنَ الذُّنُوبِ العَمَلِيَّةِ لَا العِلْمِيَّةِ، وَفِيهِ إِشْكَالٌ؛ فَإِنَّ الشَّارِعَ لَمْ يَكْتَفِ مِنَ المُكَلَّفِ فِي العَمَلِيَّاتِ بِمُجَرَّدِ العَمَلِ دُونَ العِلْمِ، وَلَا فِي العِلْمِيَّاتِ بِمُجَرَّدِ العِلْمِ دُونَ العَمَلِ، وَلَيْسَ العَمَلُ مَقْصُورًا عَلَى عَمَلِ الجَوَارِحِ، بَلْ أَعْمَالُ القُلُوبِ أَصْلٌ لِعَمَلِ الجَوَارِحِ، وَأَعْمَالُ الجَوَارِحِ تَبَعٌ، إِلَّا أَنْ يُضَمَّنَ قَوْلُهُ (يَسْتَحِلُّهُ) بِمَعْنَى: يَعْتَقِدُهُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

إن عقيدة أهل السنة أنهم لا يكفّرون بالذّنب، أي: إن مرتكب الكبيرة لا يصل إلى حدّ الكفر، ولكن هناك بدع توصل إلى حدّ الكفر، وأما مطلق الذنوب ولو كانت كبائر، ولو كان صاحبها مصرًّا عليها، فإنّه لا يكفَّر بها ما دام أنّه يعترف أنها ذنوب، وأنها محرَّمة، فإذا أكل الرِّبا وهو يعترف أنه محرَّم، أو فعل الزنا وهو يعترف أنه ذنب، وأنه حرام، أو شرب الخمر وهو يعترف بتحريمها، وكذلك غيرها من الذنوب لا يصل إلى حدّ الكفر إلاَّ إذا اعتقد حلَّها، فإنه يكفر بذلك، ويكفَّر مستحلّ الذنب المحرّم، ولو لم يفعله

وخالف في هذا الخوارج، الذين يجعلون الذنب كفرًا، والعفو ذنبًا، وخالف أيضًا المعتزلة، الذين يجعلون أصحاب الكبائر غير مسلمين ولا مؤمنين ولا كافرين، ولكن يجعلونهم في منزلة بين منزلتين.

أما أهل السنّة فلا يكفّرون بالذنوب، وقد ورد أدلة في خطر التكفير؛ منها قول الرسول ﷺ: «**وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أو قال عَدُوَّ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إلا حَارَ عَلَيْهِ**»[1]، يعني: رجع عليه الكفر. وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا على ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي،**

(١) أخرجه مسلم (٦١) من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ.

أَبْعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فقال: واللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أو لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: كُنْتَ بِي عَالِمًا، أَو كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إلى النَّارِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ[1].

فدلت هذه الآثار على خطر التكفير.

فهناك ذُنوب أُطلق عليها كفر، ولكن يقول العلماء: إنّه كفر دون كفر. مثل قوله ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[2]. أي: إن الكفر ها هنا هو كفر أصغر، لا يصل إلى الإخراج من الملة. وكذلك قوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[3]. فالمراد هنا كفران النعمة.

وهكذا قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[4]، نقول: إنه كفرٌ للنعمة، لا أنه الكفر المبيح للدم والمال؛ لأن الطعن بالنسب إنما هو ذنب، وعيب الإنسان في نسبه بأنه ليس ابن فلان، أو ليس من آل فلان، لا يصل إلى الكفر الذي يخرج من الملة، وكذلك والنياحة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٢/ ٣٢٣)، وابن حبان (١٣/ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

على الميت لا تُوصل صاحبها إلى الكفر الذي يخرج من الملة، ويُستباح دمُه ومالُه. فعرف من ذلك أنه كفرٌ دون كفر. هذا مجمل هذه الأحاديث.

وأما تارك الصلاة، فبعض العلماء يحمل الأحاديث التي فيه على أنه كفر النعمة، وفيه حديثان:

الأول: حديث جابر ﷺ: «**بين الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ**»(١).

والثاني: حديث بريدة الأسلمي ﷺ: «**الْعَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(٢).

ففيهما إطلاق الكفر على تارك الصلاة. وبعض العلماء يقولون: إنه كفر أصغر، أي: كفر النعمة، مثل الأحاديث الأخرى.

والقول الآخر: إنه كفر يخرج من الملة، ودليله: ما رواه عبدُ اللَّهِ بن شَقِيقٍ الْعُقَيْلِيِّ: «كان أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَرَوْنَ شيئًا من الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غير الصَّلاةِ»(٣)، ولا يرون ذلك في بقية الشرائع.

والصحيح: أنه إذا كان المسلم تركها تهاونًا بها وتمادى على هذا الترك

---

(١) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد (٥/٣٤٦)، وابن حبان (١٤٥٤) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٢٢).

واستمرّ عليه، فإن ذلك يُعدّ كفرًا مخرجًا من الملّة؛ لأنه وردت أحاديث تدلّ على البراءة منه، منها الحديث الذي في البخاري[١]: «**من تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**»، ومعنى ذلك أنه لا يكون مسلمًا، وهو يدلّ على خطر ترك الصلاة، وأنه حتى ولو كانت الأعمال الأخرى لا توصل صاحبها إلى الكفر إلا إذا استحلّها، لكن ترك الصلاة من بينها له أهميته، وله منزلة، حيث ذهب الجماهير إلى أنه يكفر.

وتوسَّع ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذه المسألة في كتابه الذي أسماه «كتاب الصلاة»، فتكلّم على أن تارك الصلاة يقتل، ثم تكلَّم على ما إذا قتل: هل يقتل حدًّا أو كفرًا؟ وذكر حجج الفريقين، ورجح أنه إذا أصرَّ وعاند وتمادى وامتنع فإنه يصير جاحدًا، فيحكم بكفره وردّته. وهذا نوع من التكفير.

أما البدع التي يكفر بها، فقد ذكرنا أن أكثر البدع لا يكفر بها؛ كبدعة المرجئة، والخوارج، والجبرية، والقدرية، والأشعرية، ونحوهم، لا توصل إلى الكفر وإلى البراءة من أصحابها، والأحاديث التي وردت في الخوارج، فقد أخبر النبي ﷺ أنهم: «**يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ**»[٢]، وهي أحاديث وعيد، قد تنطبق على بعضهم، وقد لا تنطبق.

والدليل على عدم التكفير أن عليًا ﷺ سُئِلَ عن أهل النهروان: أكفارٌ هم؟

---

(١) برقم (٥٥٣) من حديث بريدة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٥).

قال: من الكفر فروا، قيل: فمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، قيل: فما هم؟ قال: قومٌ أصابتهم فتنة، فعموا فيها وصموا، وبغوا علينا، وحاربونا، وقاتلونا، فقتلناهم[1]. فدلَّ على أنه لم يكفّرهم، مع أنه قاتلهم؛ وذلك لأنهم يكفِّرون بالكبائر، فإذا كفّرناهم صرنا مثلهم.

**وهناك بدعتان ذكرنا أنّهما مكفّرتان:**

**الأولى**: بدعة غلاة الجهمية، الذين غَلَوْا في إنكار الصفات حتى صار حقيقة قولهم التعطيل.

**الثانية**: بدعة غلاة الرافضة، الذين طعنوا في القرآن، وطعنوا في السنة، وطعنوا في حملة الشريعة وهم الصحابة، وكفّروهم، فمثل هؤلاء لم يكن عندهم دين يعتمدونه، فأصبحوا بذلك قد أبطلوا الشريعة، وكفَّروا أهلها، فيكونون هم أولى بالكفر؛ لأنهم طعنوا في القرآن، وادّعوا أنه محرّف، وقد زيد فيه ونقص منه، وكذلك لم يقبلوا السنة ولو ثبتت، ولو رواها الخلفاء الأربعة، وغيرهم، فلا يقبلونها ويرمون الخلفاء بأنّهم كفرة وخونة، ونحو ذلك. فهم ليس عندهم شرع يتمسّكون به، ويصبحون بذلك على غير شريعة. هذا يقال لغلاتهم الذين وصلوا إلى هذا الحد. أما الذين لم يكفّروا الصحابة، ولم يكفّروا الخلفاء، فلا يصلون إلى حدّ التكفير.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ١٥٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٦٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٤٤)، والبيهقي (٨/ ١٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣/ ٣٣٥).

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ...»، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ: رَدٌّ عَلَى المُرْجِئَةِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ، كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الكُفْرِ طَاعَةٌ، فَهَؤُلَاءِ فِي طَرَفٍ، وَالخَوَارِجُ فِي طَرَفٍ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: نُكَفِّرُ المُسْلِمَ بِكُلِّ ذَنْبٍ، أَوْ بِكُلِّ ذَنبٍ كَبِيرٍ، وَكَذَلِكَ المُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: يَحْبِطُ إِيمَانُهُ كُلُّهُ بِالْكَبِيرَةِ، فَلَا يَبْقَى مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الإِيمَانِ.

لَكِنَّ الخَوَارِجَ يَقُولُونَ: يَخْرُجُ مِنَ الإِيمَانِ، وَيَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ! وَالمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: يَخْرُجُ مِنَ الإِيمَانِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ، وَهَذِهِ المَنْزِلَةُ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ!! وَبِقَوْلِهِمْ بِخُرُوجِهِ مِنَ الإِيمَانِ أَوْجَبُوا لَهُ الخُلُودَ فِي النَّارِ!.

وَطَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الكَلَامِ، وَالفِقْهِ، وَالحَدِيثِ لَا يَقُولُونَ ذَلِكَ فِي الأَعْمَالِ، لَكِنْ فِي الاعْتِقَادَاتِ البِدْعِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا مُتَأَوِّلًا، فَيَقُولُونَ: يَكْفُرُ كُلُّ مَنْ قَالَ هَذَا القَوْلَ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ المُجْتَهِدِ المُخْطِئِ وَغَيْرِهِ، أَوْ يَقُولُونَ بِكُفْرِ كُلِّ مُبْتَدِعٍ، وَهَؤُلَاءِ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الإِثْبَاتِ العَامِ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ، فَإِنَّ النُّصُوصَ المُتَوَاتِرَةَ قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَنُصُوصُ الوَعْدِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا هَؤُلَاءِ تُعَارِضُ نُصُوصَ الوَعِيدِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا أُولَئِكَ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح أن هناك طائفتين متقابلتين وهم المرجئة والوعيدية؛ فالمرجئة

تعتقد أن الذنوب لا تضر ولو أكثر صاحبها، ويتعلقون بنصوص الوعد التي فيها أن أهل التوحيد ناجون، وأنهم من أهل الجنة، وأنهم يخرجون من النار، أو يشفع فيهم ولو لم يعملوا خيرًا، ونحو ذلك. وهؤلاء هم المرجئة، الذين قال قائلهم:

فَكَثِّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ المَعَاصِي ... إِذَا كَانَ القُدُومُ عَلَى كَرِيمِ [1]

وقال آخر:

فَكَثِّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايَا ... فَإِنَّكَ بَالِغٌ رَبًّا غَفُورًا

سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدْتَ عَلَيْهِ عَفْوًا ... وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا

تَعُضُّ نَدَامَةً كَفَّيْكَ مِمَّا ... تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّاسِ السُّرُورَا [2]

وقد رُوي عن بعض الزهاد أنه قرأ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، فقال: أقول غرّني كرمك.

وهذا خطأ، والصواب أن يُقال: إن الكريم لا ينبغي أن يُقابل بالمعصية؛ إذا كان ربًا كريمًا فيجب أن لا تتجرَّأ على معصيته، ولا أن تتهاون بحقه، بل علينا أن نطيعه ونحذر من أسباب سخطه.

---

(١) ذكر هذا البيت ابن خلكان في وفيات الأعيان (٢/ ٩٧) ونسبه إلى الحسن بن هانئ بن عبدالأول المعروف بأبي نواس. وانظر: الجواب الكافي (ص١٢).

(٢) ذكر هذه الأبيات ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٤٦٢) ونسبه إلى الحسن بن هانئ بن عبدالأول المعروف بأبي نواس.

وعلى كل حال فالمرجئة هم الذين يقولون: لا تضرّ الذنوب، وأصحابها يدخلون الجنة، ولا يعذب واحد من أهل الذنوب ولو كانت كبيرة.

ومعلومٌ أنه قد وردت أحاديث فيها أن المذنبين يعذّبون، وأنهم يحترقون وأنهم يشفع فيهم، وأن الشافعين يعرفونهم بآثار السجود، وهذا دليل على أنهم يصلون ومع ذلك دخلوا النار، إلا أن النار لم تأكل أثر السجود، فأعضاء السجود لا تأكلها النار، أما بقيّتها فإنها تحترق كما ورد، أي: إنهم ما دخلوا النار إلا وهم مسلمون، ومع ذلك دخلوها بسبب ذنوب اقترفوها.

ومن عقيدة أهل السنة أن المعاصي تبقى دون الشرك، وقد يغفرها الله، وقد يعاقب عليها، وأما الشرك فإنه لابدَّ أن يعاقب عليه، والعقوبة على ما دون الشرك، فتارة يعفى عنه، وتارة يغفر ذنبه مهما كبر بمشيئة الله، وتارة يدخله النار بسبب ما اقترفه من السيئات، ويكون ذلك تمحيصًا له من تلك السيئات. وقد ذكرنا أنهم مثلوا أن دخوله إلى النار من أجل تمحيصه وإزالة ما فيه من الدرن؛ كالحديد الذي يدخل إلى النار حتى يصفّى ولا يبقى عليه شيء من الخبث، فهكذا يدخل هؤلاء الذين يدخلون النار من أهل الكبائر.

هذه عقيدة المرجئة الذين يقولون: لا يضرّ مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل.

وقياسهم ليس بصحيح، فنحن نقول: الشرك لا تنفع معه الأعمال، ونوافقهم على أن الشرك يُحبط الأعمال، فالمشرك ولو عمل أي عمل، فإن

أعمالـه حابطـة، لقولـه تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمـر:٦٥]، وقـال تعـالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨].

نحن نقول: صحيح أنه لا تنفع الأعمال الحسنة مع الشرك لقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]؛ لأن الشرك أحبطها، وقد قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨] وفي آيـة أخـرى: ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النـور:٣٩]، وفي آيـة أخـرى: ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، أي: صفاة صلبة عليها تراب جاءها مطر شديد، فلـم يبـقَ عليهـا شيء مـن الـتراب. فهكـذا أعمالهـم ونفقـاتهم لا تبقـى؛ لأنهـا لا أساس لها ولا أصل. وهذا ردّنا على المرجئة.

أمـا الطـرف الثـاني وهـم الوعيديّـة مـن المعتزلـة ومـن الخـوارج، فكلهـم يخلّدون أصحاب الكبائر في النار ويقولون: إن من دخل النار فهو مخلّد فيها، وإن أصحاب الكبائر يدخلونها ولا يخرجون منها. ويستدلّون ببعض الآيات التي فيها عدم الخروج من النار كقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٣٧].

نقول: الآية وردت في الكفّار الذين يدخلونها، وقد حكم عليهم بالخلود،

وكذلك قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، إنَّما هي في الكفار أما المؤمنون الذين معهم أصل الإيمان وأهل التوحيد فقد وردت الأدلة في أنهم يخرجون منها بشفاعة الشافعين أو برحمة الله تعالى.

وقول أهل السنة وسط بين الطرفين. طرف شدّدوا، وهم الخوارج والمعتزلة، وجعلوا المذنبين كفارًا، فكل من أذنب ذنبًا جعلوه في النار سواء كفّروه في الدنيا، أو أخرجوه من الإيمان ولم يكفّروه. وفرقة غلوا في فعل الذنوب، وأباحوا للمسلم أن يفعل الذنوب بحجة أنها لا تضره.

أما أهل السنة فقالوا: لا نوصل العاصي إلى الكفر، ولا نخلّده في النار، ولكن نخاف عليه ونخشى عليه من العذاب، ومن يطيق العذاب ولو ساعة؟ ومن يطيق دخول النار ولو قليلًا؟ وإذا كان مفروضًا عليه أن يدخل النار حتى ولو ساعة لكان حقًا عليه أن يهرب من هذا السجن، ومن هذا العذاب، فإن كنّا نخاف عليه فإن ذلك يوجب عليه أن يخشى من أسباب الخوف، ويحذرها.

قال الشارح:

وَالكَلَامُ فِي الوَعِيدِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَسَيَأْتِي بَعْضُهُ عِنْدَ الكَلَامِ عَلَى قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَأَهْلُ الكَبَائِرِ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ).

وَالمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ البِدَعَ هِيَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَكُونُ مُؤْمِنًا بَاطِنًا وَظَاهِرًا، لَكِنْ تَأَوَّلَ تَأْوِيلًا أَخْطَأَ فِيهِ، إِمَّا مُجْتَهِدًا، وَإِمَّا مُفَرِّطًا مُذْنِبًا، فَلَا يُقَالُ: إِنَّ إِيمَانَهُ حَبِطَ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَدُلَّ عَلَى ذَلِكَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، بَلْ هَذَا مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَلَا نَقُولُ: لَا يَكْفُر، بَلِ العَدْلُ هُوَ الوَسَطُ، وَهُوَ: أَنَّ الأَقْوَالَ البَاطِلَةَ المُبْتَدَعَةَ المُحَرَّمَةَ المُتَضَمِّنَةَ نَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ الرَّسُولُ، أَوْ إِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ عَنْهُ، أَوْ الأَمْرَ بِمَا نَهَى عَنْهُ، أَوِ النَّهْيَ عَمَّا أمر به؛ يُقَالُ فِيهَا الحَقُّ، وَيُثْبَتُ لَهَا الوَعِيدُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ، وَيُبَيَّنُ أَنَّهَا كُفْرٌ، وَيُقَالُ: مَنْ قَالَهَا، فَهُوَ كَافِرٌ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا يُذْكَرُ مِنَ الوَعِيدِ فِي الظُّلْمِ فِي النُّفُوسِ وَالأَمْوَالِ، وَكَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ المَشَاهِيرِ بِتَكْفِيرِ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي الآخِرَةِ، وَلَا يَعْلَمُ الأَشْيَاءَ قَبْلَ وُقُوعِهَا.

وَعَنْ أَبِي يُوسُفَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أَنَّهُ قَالَ: نَاظَرْتُ أَبَا حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مُدَّةً، حَتَّى اتَّفَقَ رَأْيِي وَرَأْيُهُ: أَنَّ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ، فَهُوَ كَافِرٌ.

---

قال الشيخ:

هذه تعدّ أمثلة من البدع، وأن هناك بدعًا تُوصل إلى الكفر، قد ذكرنا أن أهل السنّة يكفرون غلاة الجهمية؛ وذلك لأنّ من قول الجهمية القول بخلق

القرآن، وأن القرآن مخلوق، والذي حملهم اعتقادهم بأن الله تعالى لا يتكلّم، فنفوا صفة الكلام عن الله، ومعلوم أن هذه الصفة صفة كمال لله، ونفيها يستلزم ضدها وهو النقص، وأن من نفى هذه الصفة فقد تنقّص الخالق، وكذلك قد أبطل الشرائع فلا جرم.

قال أهل السنة: من قال بخلق القرآن فإنه كافر، وقد نقل عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لما كان يناظر على القرآن، ويقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، فقالوا له: القرآن من جملة الموجودات. فقال: القرآن من علم الله، وعلم الله صفة من صفاته، فقال له بعض أولئك الجدليين: أنا أقول: إن علم الله مخلوق ـ تعالى الله عن ذلك ـ فقال: قد كفرت!! صرّح بأنه قد كفر بهذه الكلمة .

والله تعالى هو الخالق، وصفاته من ذاته، وكلامه من صفاته، وعلمه من صفاته، وكلامه من علمه، ومن ادّعى أن صفة من صفاته مخلوقة، فإنه جعل الربّ تعالى محلًا للحوادث، فيكون بذلك متنقّصًا لله تعالى أكبر التنقّص، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

بعد ذلك نقول: إن الذي حملهم على هذا هو إنكارهم للصفات، ولمّا أنكروا الصفات أصبحوا معطّلةً، ولما عطّلوا الله عن هذه الصفات، وصفهم السلف بالكفر، وقد ذكرنا فيما سبق أن ابن القيم رحمه الله صرّح بتكفيرهم فضلًا عن جماهير العلماء، فهو يقول في نونيته[1]:

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٢٩٠).

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرُهُم خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البُلْدَانِ
وَاللَّالَكَائِيُّ الإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ... ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلُهُ الطَّبَرَانِي

أي: خمسون تضرب في عشر، أي خمسمئة عالِم، واللالكائي ـ رحمه الله ـ نقل ذلك عن جمع كبير من العلماء، وأنه كفَّر من قال بخلق القرآن، ومن غلا في الصفات، وكتابه مطبوع، ومتداول يسمّى: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» في عدّة مجلّدات، واللالكائي إمام من أئمّة أهل السنّة، نقل بأسانيده هذه الأقوال عن سلف الأمّة، وأنّهم كفَّروا من قال بذلك.

وقد اشتهر أنّ أول من أظهر ذلك هو الجعد بن درهم، ولمّا نفى أن يكون الله تعالى متكلّمًا، وأن يكون القرآن كلامه، وصرّح بأن الله لم يكلّم موسى ـ عليه السلام ـ تكليمًا قتله أميرُ العراق في وقته خالد بن عبد الله لقسري؛ لأنه خرج في العراق وأضلَّ خلقًا كثيرًا، فاشتكى علماء السنّة إلى الأمير، فقتله بعد صلاة عيد النحر وقال مقالته المشهورة: يا أيها الناس! ضحّوا تقبّل الله ضحاياكم، فإنّي مضحٍّ بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلِّم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا، ثم نزل فذبحه. يقول ابن القيم في نونيته[1]:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ ... ـقَسْرِيّ يَومَ ذَبائِحِ القُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلاَّ وَلاَ مُوسَى الكَلِيمُ الدَّانِ

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

شَكَرَ الضَّحِيّة كُلّ صَاحِب سنّةٍ  لله درّكَ مِـنْ أَخِـي قُربَـانِ

جعله قربانًا أي: أضحية تقرّب به إلى الله، وأقرّه أهل السنّة في زمانه، وهذا دليل على أن هذه المقالة كفريّة تستلزم مستلزمات كثيرة.

الذين قالوا: إنَّ الله غير متكلّم، وإنَّ كلامه مخلوق كسائر المخلوقات. نقول لهم: من أين عرف الرسول أن هذا كلام الله، ومن أين يعرفون أن الله أمر بهذا أو نهى عن هذا؟ ومن أين يُعرف أن هذا شرعه، وأنّ هذا أمره إذا كان لا يتكلَّم، وكيف يكون الخلق إلا بالأمر؟ فما يكون هناك خلق إلا بأمر، والله تعالى ذكر أن المخلوقات تكون بأمره: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. فالخلق لا بدّ أن يكون بالأمر، والأمر لا بدّ أن يكون بالكلام، فمن عطّل الكلام فقد عطّل الخلق، وقد عطّل الشرع، وقد افترى على الله ومعناه أن الرسل بلغوا شيئًا ما أنزل إليهم، أو ما تحقّقوا أنه شرع الله.

وقولهم هذا يستلزم بشاعة شنيعة؛ فلا جرم أن حكم عليهم أهل السنة والجماعة بأنهم كفار إذا صرّحوا بذلك، وعاندوا عليه، ومن قال بأن علم الله أو كلام الله مخلوق، وعاند على ذلك، وقامت عليه الحجة، فإنه يكفر.

وإطلاق هذه الكلمة وتكرارها على هذا النحو من هؤلاء الأئمّة يقتضي أنَّهم يجعلونه كفرًا مخرجًا من الملّة، وكفرًا ناقلًا عن الإسلام، ومبيحًا للدمّ والمال. هذا هو القول الصحيح في هذه المسألة، أما البدع الأخرى التي تقدّمت، فقد لا توصل إلى الكفر، وإن كانت مفسّقة.

قال الشارح:

وَأَمَّا الشَّخْصُ المُعَيَّنُ، إِذَا قِيلَ: هَلْ تَشْهَدُونَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الوَعِيدِ، وَأَنَّهُ كَافِرٌ؟ فَهَذَا لَا نَشْهَدُ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَمْرٍ تَجُوزُ مَعَهُ الشَّهَادَةُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ البَغْيِ أَنْ يُشْهَدَ عَلَى مُعَيَّنٍ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ، وَلَا يَرْحَمُهُ، بَلْ يُخَلِّدُهُ فِي النَّارِ، فَإِنَّ هَذَا حُكْمُ الكَافِرِ بَعْدَ المَوْتِ. وَلِهَذا ذَكَرَ أَبُو دَاودَ فِي «سُنَنِهِ»[1] فِي كِتَابِ الأَدَبِ: «بَابَ النَّهْيِ عَنِ البَغْيِ»، وَذَكَرَ فِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَانَ رَجُلانِ فِي بَنِي إِسْرائِيلَ مُتَواخِيَيْنِ، فكانَ أَحَدُهُما يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزالُ المُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ. فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِيْنِ، فَقَالَ لِهَذَا المُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيَّ قَادِرًا؟ وَقَالَ للمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ». وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَلأَنَّ الشَّخْصَ المُعَيَّنَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا مَغْفُورًا لَهُ، أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِيمَانٌ عَظِيمٌ وَحَسَنَاتٌ أَوْجَبَتْ لَهُ رَحْمَةَ اللَّهِ، كَمَا غَفَرَ لِلَّذِي قَالَ: «إِذَا مِتُّ فَاسْحَقُونِي

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٢).

ثُمَّ ذُرُّونِي، ثُمَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ لِخَشْيَتِهِ»[1]. وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَى جَمْعِهِ وَإِعَادَتِهِ، أَوْ شَكَّ فِي ذَلِكَ، لَكِنَّ هَذَا التَّوَقُّفَ فِي أَمْرِ الآخِرَةِ لَا يَمْنَعُنَا أَنْ نُعَاقِبَهُ فِي الدُّنْيَا، لِمَنْعِ بِدْعَتِهِ، وَأَنْ نَسْتَتِيبَهُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ القَوْلُ فِي نَفْسِهِ كُفْرًا، قِيلَ: إِنَّهُ كُفْرٌ، وَالقَائِلُ لَهُ يَكْفُرُ بِشُرُوطٍ وَانْتِفَاءِ مَوَانِعَ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا صَارَ مُنَافِقًا وَزِنْدِيقًا، فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُكَفِّرَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ المُظْهِرِينَ الإِسْلَامَ إِلَّا مَنْ يَكُونُ مُنَافِقًا زِنْدِيقًا.

---

قال الشيخ:

هذا يتعلّق بالتكفير المعيّن، وهو غير التكفير العام، وذلك أن هناك فرق بين أن يقال فلان كافر، وبين أن يقال فلان يعمل عمل الكفار أو يقال هذا العمل كفر، هذه ثلاثة أنواع:

فالشهادة على معين بأنه كافر؛ هذه لا تجوز إذا كان من أهل القبلة، ومن أهل الإسلام، فمن أعلن الدخول في الإسلام ظاهرًا فلا يجوز أن يُحكم عليه بعينه أنه كافرٌ، ولا نُكفِّر أحدًا منهم ما دام أنه من أهل القبلة حتى لو قال مثل تلك الأقوال التي ذكرنا أن السلف قد كفّروا بها. ولكنّهم لا يكفّرون المعين لأسباب، منها: أنه قد يكون مقلّدًا، وإثمه على من قلّده؛ لأنه يُحسن الظنّ ببعض المشاهير فيظنّ أنه على صواب فيتبعه، فنحن لا نحكم بكفره، ما دام أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

لم يكن عنده الدليل الذي قام عليه. وإذا لم نكفّره فلا نقاتله حتّى نقيم عليه الحجة ويصرّ عليها.

في عهد الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب ـ رحمه الله ـ في القرن الثاني عشر، خرج على أُناس قد فشا فيهم الشرك، وهو تعظيم القبور والذبح عندها، والتمسّح بها، والتبرّك بتربتها، ودعاء الأموات، ونحوه مما هو شرك، بل هو شرك أوّلي، ولـمَّا دعا إلى توحيد الله لم يكفّر إلَّا من عاند منهم، أما الجهلة وعوامّ الناس فلم يكفّرهم، وإنّما كان يخطّئهم، فإذا قامت الحجة عليهم وأصرّوا وعاندوا وتمادوا وردّوا الحقّ مع وضوحه، فهنالك يقاتلهم ويكفّر من قتل منهم، ويستبيح أموالهم ودماءهم؛ لأنهم أصبحوا كالمشركين الأوّلين الذين عبدوا غير الله. وأما قبل ذلك فلا يحكم بكفرهم، وهذا مخالف لما ينقله عنه أعداؤه الذين كذبوا عليه، وقالوا عنه شناعات، وقد ألف العلماء كتبًا في الردود عليهم مثل «الأسنّة الحداد في الردّ على شبهات علوي الحداد»، وهو حضرمي قد غلا في الكذب على الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وادّعى أنّه إذا جاءه إنسان ليدخل في دينه يقول له: لا أقبلُ منك حتّى تقرّ بأنّك كنت كافرًا، وتشهد على أبويك الذين ماتا أنهما ماتا كافرين، وتشهد على أن الناس كانوا كفار من ستمئة سنة، ومثل هذه الأكاذيب ذكرها علويّ الحدّاد في كتاب له في الردّ على محمد بن عبد الوهاب، وكذلك كتاب في الردّ على آخر يقال له: بابصل، حضرميّ أيضًا، جمع ترّهات وأكاذيب مثل هذه.

والحاصل: أنه ـ رحمه الله ـ ما كان يُكَفِّرُ إلَّا من قامت عليه الحجة،

ولم يقاتل إلا بعدما بَيَّن لمن قاتلهم أن هذا شرك، فإذا بيّنه وأوضحه؛ عند ذلك أنذرهم، وقال لهم: إن تبتم وإلَّا قاتلناكم؛ لأنكم أصبحتم من المشركين الذين عملوا عمل المشركين. فهذا دليل على أن أهل السنّة لا يكفّرون المعيّن حتى ولو كان عمله كفرًا، إلا بعدما تقوم عليه الحجة. فهذه شبه، وهي التقليد، وإحسان الظنّ بالعلماء الذين بين ظهراني الناس المقلدين لهم.

ومن الشبهات أيضًا أنهم قد يجدون بعض الكتب المؤلفة في ما هم عليه فلأجل ذلك يسيرون عليها، ويعتقدون أن ما فيها هو الصواب، ولا يقفون على الردود، ولا على أدلة غيرها، فيسيرون عليها، ونحن نعذرهم في ذلك حتّى نبيّن لهم الخطأ الذي فيها، فإذا بيّناه لهم فأصرّوا على تلك الأعمال الكفريّة، رددنا عليهم وكفّرناهم وقاتلناهم وإلا فلا. هذه مما يكفّر بها.

لكن هناك أعمال دون الكفر، وهي التي تعرّض لها الشارح رحمه الله، وهي التي ذكر أنها من جملة البدع التي لا توصل إلى الكفر، وإنما هي أمور اجتهاديّة، ولكنّها خاطئة، وهي بعض البدع.

ذكرنا مثلًا أن الأشاعرة عندهم بدع، وهي إنكار بعض الصفات، والقول بأن كلام الله كلام نفسي، وأن هذا الموجود في المصاحف إنما هو المعنى لا الحروف، ونحو ذلك من بدعهم، ولكن لا نوصل ذلك إلى الكفر.

والمرجئة الذين غلوا في جانب الرجاء، لا نقول: إنهم وصلوا إلى الكفر، ولكن نقول: إنهم عملوا بدعة تفسّق ولا تكفِّر، وعلى كل حال، فالتكفير خطره كبير.

والحديث الذي أورده الشارح ـ رحمه الله ـ وفيه قصة ذلك الكتابي الذي قال لصاحبه: والله لا يغفر الله لك! قال الله لذلك المذنب: «ادخل الجنة برحمتي»، وعذّب ذلك الذي تألّى عليه. يقول أبو هريرة ﷺ: «قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته». يدلُّ على أنّ التكفير ذنبه كبير، وخطؤه عظيم، ولأجل ذلك على الإنسان أن يحفظ لسانه فلا يكفّر المعيّن.

أما العمل؛ فيقال: هذا العمل كفر. يقال مثلًا: القول بخلق القرآن كفر. ولا نقول: فلان كافرٌ لأنه يقول بكذا؛ لأنّنا لا نعلم الخاتمة، ولأنّه يمكن أن يكون قد تاب أو كان متأولًا، أو خُتِمَ له بخاتمة حسنة، أو مُحيت عنه سيئاته بسوابق، أو ما أشبه ذلك.

ففرق أن يقال هذا العمل كفر، أو هذا الشخص كافر لأنه يعمل، وهذا هو العمل وهذا الفرق بينهما، فالأعمال قد يطلق عليها كفر، فيقال مثلًا: ترك الصلاة كفر، ولكن ما نحكم على الإنسان أنه كافر لمجرّد عمل عمله، إلاّ إذا أصرّ على ذلك، وعاند عليه، وقاتل عليه، فإن ذلك يحكم عليه بالقول الآخر. فإذا عاند وأصرّ وامتنع من أداء الصلاة حتى قتل، فإن ذلك ـ بقول العلماء ـ يُعامل معاملة الكافر الخارج من الملّة، فلا يصلّى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

قال الشارح:

وَكِتَابُ اللَّهِ يُبَيِّنُ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ صَنَّفَ الخَلْقَ فِيهِ ثَلَاثَةَ أَصْنَاف: صِنْفٌ: كُفَّارٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَصِنْفٌ: مُؤْمِنُونَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَصِنْفٌ: أَقَرُّوا بِهِ ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا. وَهَذِهِ الأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ مَذْكُورَةٌ فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ، وَكُلُّ مَنْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَافِرٌ فِي نَفْسِ الأَمْرِ، وَكَانَ مُقِرًّا بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا زِنْدِيقًا، وَالزِّنْدِيقُ هُوَ الْمُنَافِقُ.

وَهُنَا يَظْهَرُ غَلَطُ الطَّرَفَيْنِ، فَإِنَّهُ مَنْ كَفَّرَ كُلَّ مَنْ قَالَ القَوْلَ الْمُبْتَدَعِ فِي البَاطِنِ، يَلْزَمُهُ أَنْ يُكَفِّرَ أَقْوَامًا لَيْسُوا فِي البَاطِنِ مُنَافِقِينَ، بَلْ هُمْ فِي البَاطِنِ يُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ كَانُوا مُذْنِبِينَ، كَمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»[1]، عَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ ﷺ، عَنْ عُمَرَ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ مِنَ الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ! مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا تَلْعَنْهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسولَهُ».

وَهَذَا أَمْرٌ مُتَيَقَّنٌ بِهِ فِي طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ وَأَئِمَّةٍ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَفِيهِمْ بَعْضُ مَقَالَاتِ الجَهْمِيَّةِ، أَوِ الْمُرْجِئَةِ، أَوِ القَدَرِيَّةِ، أَوِ الشِّيعَةِ، أَوِ الخَوَارِجِ، وَلَكِنَّ الأَئِمَّةَ فِي العِلْمِ وَالدِّينِ لَا يَكُونُونَ قَائِمِينَ بِجُمْلَةِ تِلْكَ البِدْعَةِ، بَلْ بِفَرْعٍ مِنْهَا، وَلِهَذَا

---

(١) برقم (٦٧٨٠).

انْتَحَلَ أَهْلُ هَذِهِ الأَهْوَاءِ لِطَوَائِفَ مِنَ السَّلَفِ المَشَاهِيرِ.

فَمِنْ عُيوبِ أَهلِ البِدَعِ تَكْفيرُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَمِنْ مَمَادِحِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يُخَطِّئونَ وَلَا يُكَفِّرُونَ.

---

قال الشيخ:

تقسيم الناس له ثلاثة أقسام مذكور في أول سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:٣]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة:٦]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٨]، هذه الآيات قسّمت الناس إلى: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين.

والمنافقون: هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويسمّيهم العلماء: زنادقة، فهؤلاء أمرهم خفيّ؛ لأننا لا نطلع على ما في صدورهم، ولأجل ذلك كان النبي ﷺ يعاملهم معاملة المسلمين؛ لأنهم يظهرون الإسلام، ويظهرون محبّة المسلمين.

وبكلّ حال، فتكفير المعيّن شيء، والحكم على العمل بأنه كفر شيء آخر، فرق بين هذا وهذا. هذه مسألة أو مسائل في التكفير، والإنسان عليه أن يتثبت في الحكم على المعيّن، فيعرف الدليل على أن العمل من أعمال الكفار.

فيما يتعلّق بالعقيدة من مسألة أحكام الإسلام في الدين أو مسألة أسماء

الإيمان، والأسماء الشرعية، قد عرفنا أن الشرع نقل هذه المسمّيات عن مسمّياتها اللغويّة إلى مسمّيات شرعيّة، فبدل ما كان الإيمان مجرّد التصديق أصبح الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح، وأعمال القلوب. لا يكون مؤمنًا إلا من ظهرت آثار الإيمان على جوارحه. هذا قول أهل السنّة. كذلك بدل ما كان الإسلام هو الإذعان والانقياد، كما هو مسمّاه في اللغة، أصبح الإسلام يصدق على من أقام الشرائع الظاهرة ودان بها. هذا هو المسلم.

وكذلك مسمّى الإحسان؛ الأصل فيه أنه إحسان العمل أيًّا كان، ولو كان عملًا دنيويًا، نقله الشارع إلى الإحسان في الأعمال الصالحة، الذي هو إتقانها بأن يستحضر حاله بأدائها.

وكذلك يقال في اسم التوحيد في اللغة: هو مشتقّ من الواحد، الذي هو العدد الفرد. نقله الشارع وسمّى به: إفراد الله بالعبادة، أي اعتقاد أن العبادة لله وحده، وأن الله وحده هو المتّصف بصفات الكمال، لا يشاركه فيها غيره، وأنه المتفرّد بالملك والتصرّف. هذه حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل.

وهكذا يُقال للتّقوى مثلًا: لها مسمىً في اللغة، ومسمىً في الشرع؛ ففي اللغة هي: توقّي الشرور والأضرار. وأمّا في الشرع: فجعلها توقّي عذاب الله. وغضبه بفعل الأوامر وترك النواهي.

وكذلك مسمّى البرّ الذي حثّ الله عليه بدل ما كان الإحسان إلى الإنسان، أصبح هو إحسان العمل كلّه، وتدخل فيه جميع الأعمال التي تدلّ على برِّ صاحبها وتصديقه.

ويقال كذلك أيضًا في أضداد هذه المسائل التي هي ضدها.

فمثلًا الشرك: كانوا يطلقونه على اشتراك اثنين في عمل، أو اشتراك اثنين في مال. هذا هو الشرك قبل الإسلام، والشرع جعله اسمًا لاشتراك العمل بين الله وبين غيره، فيدعوه ويدعو غيره، ويعبده ويعبد غيره ويتّقيه ويتّقي غيره، ويخافه ويخاف غيره، ويرجوه ويرجو غيره على حدّ سواء، يسمّى هذا شركًا؛ لأنّه تشريك في العبادة بين الخالق والمخلوق، وهو الذي ورد فيه الوعيد.

كذلك مثلًا: الكفر؛ العرب تعرف الكفر أنه ستر الشيء، ولكن جاء الشرع وأطلقه على جحد الربوبيّة، أو جحد الإسلام، أو جحد الشريعة وإنكارها وسترها وتغطيتها تغطية معنوية. هذا مسمّى الكفر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى التفسيق والتبديع، هذه المسألة قد مرّت بنا كثيرًا، وقد تكلّم فيها العلماء وأطالوا، ومر بنا بعض ممّا يتعلّق بها.

مذهب أهل السنّة أنا لا نكفِّر أهل القبلة بالذنوب، ولو كانت كبائر إلا إذا استحلّ صاحبها الذنب فإنه يكفر كما ذكر ذلك الماتن، يقال: إنه يكفر وإن لم يفعله، فمن قال: إن الخمر حلال ولو لم يشربها فإنه يكفر؛ لأنه خالف نصًا، ومن قال: إنّ الربا حلال ولو لم يأكله يكفر؛ لأنّه خالف النصوص، ومن قال إن الصلاة ليست فريضة كفر ولو لم يترك الصلاة، ومن قال لم يوجب الله الحجّ، أو لا يجب الصوم، أو أنكر شرعيّة الجهاد، وقال: إن الجهاد شريعة القتل، شيء لم يشرعه الله، هذا ظلم قتل للنفوس وإراقة للدماء، إذا أنكر ذلك

ولو كان مجاهدًا، نقول: هذا كفر، وصاحبه قد كفر بهذا الإنكار.

أما إذا فعل ذنبًا ولكنّه لم يستحلّه فإنّه لا يكفر، فلو فعل الزنى وهو يعتقد أنه حرام، أو شرب الخمر، أو قتل نفسًا وهو يعتقد بحرمة ذلك، ويعرف أنه مذنب، ولو كان ذنبه كبيرة من الكبائر، إلا أنه لا يصل إلى حدّ الكفر الذي يبيح الدمّ والمال، بل لا يزال موصوفًا بأنه قد وقع في ذنب، وإن كان ذلك الذنب يحتمل أن يعاقب عليه، ويحتمل أن يغفر له، و هذا المذنب المصر على هذا الذنب، لا نسمّيه كافرًا، ولا نسمّيه مؤمنًا كامل الإيمان، ولكن نسمّيه مؤمنًا ناقص الإيمان، أو نطلق عليه اسم فاسق أو عاصٍ، هذه عقيدة أهل السنّة، أنّه لا يصل إلى حدّ الكفر؛ لأنّ ذنبه دون الكفر، وأنّه لا يوصف بكمال الإيمان؛ لأنّه قد نقص إيمانه بهذا الذنب.

الذين كفّروا صاحب الذنب انقسموا طائفتين:

طائفة أخرجته من الإسلام ولم تدخله في الكفر، وهم المعتزلة وهم أهل المنزلة بين منزلتين.

وطائفة أخرجته من الإسلام وأدخلته في الكفر، واستحلّت دمه وماله، وهم الخوارج. واتفق الطرفان على أنّه مخلّد في النار.

وأهل السنّة لا يخرجونه من الإسلام، ولكن هو متعرّض للوعيد، وهو تحت مشيئة الله مادام أنّ ذنبه دون الكفر، ودون الشرك، فأمره تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفر له وأدخله الجنّة، وإن شاء عاقبه على قدر ذنبه. هذه عقيدة أهل السنّة. وسيأتينا تفصيل لذلك إن شاء الله.

قال الشارح:

وَلَكِن بَقِيَ هُنَا إِشْكَالٌ يَرِدُ عَلَى كَلَامِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّـهُ تَعَالَى ـ وَهُوَ: أَنَّ الشَّارِعَ قَدْ سَمَّى بَعْضَ الذُّنُوبِ كُفْرًا، قَالَ اللَّـهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ». متَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ[1].

وَقَالَ ﷺ: «لَا تَرْجِعوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضَكُمْ رِقابَ بَعْضٍ»[2].

«وَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»[3]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حَتَّى يَدَعَها: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِاللَّـهِ بْنِ عَمْرو رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا[4].

وَقَالَ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُها وَهُوَ مُؤْمِنٌ،

---

(١) تقدم تخريجه (١٣/ ٢٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (١١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

والتَّوْبَةُ مَعروْضَةٌ بَعْدُ»[١].

وَقَالَ ﷺ: «بَيْنَ الْمُسْلِمِ، وبينَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ ﷺ[٢].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ، أَوْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»[٣].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ»، رَوَاهُ الحَاكِمُ بِهَذَا اللَّفْظِ[٤].

وَقَالَ ﷺ: «ثِنْتَانِ فِي أُمَّتِي هُمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، والنِّياحةُ عَلى المَيِّتِ»[٥]. وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَالجَوَابُ: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ مُتَّفِقُونَ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ لَا يَكْفُرُ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ المِلَّةِ بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا قَالَتِ الخَوَارِجُ؛ إِذْ لَوْ كَفَرَ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ المِلَّةِ، لَكَانَ مُرْتَدًّا يُقْتَلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَا يُقْبَلُ عَفْوُ وَلِيِّ القَصَاصِ، وَلَا تَجْرِي الحُدُودُ فِي الزِّنَى، وَالسَّرِقَةِ، وَشُرْبِ الخَمْرِ، وَهَذَا القَوْلُ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه أبوداود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، وأحمد (٢/ ٤٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٥).

(٥) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

وَمُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ فِي النَّارِ مَعَ الكَافِرِينَ، كَمَا قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ بَاطِلٌ أَيْضًا؛ إِذْ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ﴾، إلى أن قال: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:١٧٨]. فَلَمْ يُخْرِجِ القَاتِلَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَجَعَلَهُ أَخًا لِوَلِيِّ القِصَاصِ، وَالْمُرَادُ أُخُوَّةُ الدِّينِ بِلَا رَيْبٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات:٩]، إلى أن قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وَنُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّانِي وَالسَّارِقَ وَالقَاذِفَ لَا يُقتَلُ، بَلْ يُقَامُ عَلَيْهِ الحَدُّ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمُرْتَدٍّ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ مِنْ عِرْضٍ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِرْهَم وَلَا دِينَارٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1].

فَثَبَتَ أَنَّ الظَّالِمَ يَكُونُ لَهُ حَسَنَاتٌ يَسْتَوْفِي الْمَظْلُومُ مِنْهَا حَقَّهُ.

---

(١) انفرد به البخاري (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولم يروه مسلم.

وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَار. قَالَ: الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ حَسَنَاتٌ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيَتْ حَسَنَاتُه قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ فِي حَالِ إِسَاءَتَهُ يِفْعَلُ حَسَنَاتٍ تَمْحُو سَيِّئَاتِهِ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

---

قال الشيخ:

الأحاديث التي تقدّمت هي التي استدلّ بها الخوارج على مسألة التكفير بالذنوب، أخذوا بظاهرها، وأهل السنّة قد أوردوها وأوردوا ما يبيّنها.

فمثلًا الإمام مسلم سرد في كتاب الإيمان من «صحيحه» سرد أحاديث كثيرة فيها التكفير بالذنوب، ثم سرد أحاديث بعدها فيها الرجاء، وفيها نفع الشفاعة لأهل التوحيد، وأنّ أهل التوحيد يخرجون من النار، ولو عملوا ذنوبًا وأن شفاعة النبي ﷺ تنال من لا يشرك بالله شيئًا، وأنهم ولو دخلو النار بذنوب أذنبوها، فإنّهم لا يخلدون في النار.

---

(١) برقم (٢٥٨١) بلفظ مختلف، من حديث أبي هريرة ﷺ.

هذا يدلّ على أنّ أحاديث الوعيد ليست دالّة على الإخراج من الملّة. ثم كثيرٌ من العلماء قالوا في أحاديث الوعيد، إنها تجرى على ظاهرها ليكون أبلغ في الزجر، وأنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد الذين لم يشوبوه بشرك، ولم يبتدعوا بدعًا مكفّرة، وعلى هذا سنسكت عن تأويل هذه الأحاديث، أو نحملها على محامل كما ذكر الشارح، ونحرص على الجمع بينها.

فمثلًا: قول النبيّ ﷺ: «لَا تَرْجِعوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضَكُمْ رِقابَ بَعْضٍ»[1]، هل كل من تقاتلوا لفتنة، أو لخلافات سياسية يصيرون كفارًا؟ لا يكونون كذلك، فقد تقاتل في عصر الصحابة عليّ ومعاوية رضي الله عنهما، ولم نحكم بكفر هؤلاء ولا هؤلاء. بل نقول: تلك فتن قدّرها الله تعالى، وكل منهما له مقصد وله تأويل، ولم يكونوا كفارًا، وكل منهم قتلاه تحت مشيئة الله، قتلوا في هذه الفتنة.

كذلك الذين تقاتلوا في وقعة الجمل، لم يقل أحد بأنهم كفار ما عدا المعتزلة ونحوهم، بل هم من الصحابة. وفي هذه المعركة قتل من الصحابة من قتل؛ كالزبير وطلحة وغيرهما رضي الله عنهما.

فهي فتن حدثت، ولا نقول إن من وقع فيها وصلوا إلى مرتبة الكفر والعياذ بالله، بل ننزّههم عن ذلك، وقوله ﷺ: «لَا تَرْجِعوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضَكُمْ رِقابَ بَعْضٍ»، نجريه على ظاهره، ونقول: إن القتال نوع من الذنب

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

لا يصل إلى الكفر، ونقول: لعلّه قصد الزجر والتحذير من قتال المسلمين بعضهم لبعض.

وكذلك قوله: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1]، نقول: هذا من أحاديث الوعيد أطلق عليه كفرًا وإن لم يكن مخرجًا من الملّة لغرض الزجر، ومن باب التحذير من قتل المسلم، والاستهانة به.

ومثل ذلك الآيات التي فيها وعيد شديد على بعض الذنوب، فمثلًا توعّد الله على أكل الرّبا بقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٧٥]، معلوم أن آكليه وإن دخلوا النار بذنوبهم، فهم تحت مشيئة الله.

وكذلك في القتل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]، وعقيدة أهل السنّة أنّه مسلم لا يخرج من الملّة، لكن هذا من باب الوعيد، وكثير منهم يقولون هذا جزاؤه إذا جازاه. وكذلك قوله تعالى في الفرار من الزّحف: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ [الأنفال:١٦]. هذا أيضًا نصّ فيه وعيد، وأهل السنّة يقولون: هو إن دخلها لا يخلد فيها، أو قد يعفو الله عنه

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

ولا يدخله. وكذلك القذف؛ يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٣، ٢٤]، هذا أيضًا من نصوص الوعيد، مع أنّها كلمة قد يكون فيها خطر، وقد لا يكون، ومع ذلك توعّد الله عليها بهذا الوعيد.

وهكذا الوعيد في الأحاديث التي مرت معنا في قوله ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، والتَّوْبَةُ مَعروْضَةٌ بَعْدُ**»(١).

لا شكَّ أنّ هذا فيه تحذير وتخويف شديد من هذه الأعمال التي هي من كبائر الذنوب.

وقوله: لا يفعلها وهو مؤمن؛ أي: مؤمن كامل الإيمان؛ لأنّ إيمانه يزجره عنها ويحذّره من اقترافها، لكن هو كما قيل ناقص الإيمان، أو عند بعضهم أنه ينزع الإيمان، ويكون عليه كالظلّة، حتّى إذا تاب رجع إليه، ولكن لا يرجع إليه كاملًا. وعلى كل حال فهذا من أحاديث الوعيد.

وكذلك حديث النفاق: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنافِقًا خَالِصًا...**»(٢). هذه أيضًا لا نقول إن كذبه أو خيانته يخرجه من الملّة، ولكنّها من نصوص الوعيد،

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

وقد أثبت الله عزّ وجلّ الإيمان بين المتقاتلين، والذين بينهم الضغائن والعداوات، وفي الآيات التي مرّت معنا ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، سمّاه أخًا مع كونه قاتلًا، وكذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، سمّاهم إخوة وهم يتقاتلون، ولكن قتال بغي فهم بُغاة يتقاتلون، هكذا حُملت هذه الآيات.

ومعلومٌ أيضًا أنّهم لو كانوا كفارًا لحبطت أعمالهم، ولم يبق لهم حسنات، فإن الكفر يحبط الأعمال، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، إذا أُحبط العلم لا يكتب منه حسنة واحدة، الكفار لا يكتب لهم حسنات، ولا شيء من الأعمال الصالحة، بل تبطل أعمالهم بقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

فلو كانوا كفارًا ما كان لهم حسنات، بل إما أن يجازوا بها في الدنيا ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وإمّا أن يبطلها كفرهم وشركهم، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ويقول أيضًا: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، حبطت: أي بطلت، ومثل الله تعالى أعمالهم بأنها: ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، لا يبقى منها شيء، فلو كانوا كفار ما بقي لهم أعمال صالحة، ولا حسنات، وقد ورد في الحديث أنه قد

يكون لهم حسنات، لكن يأتي أحدهم وقد قتل هذا وسفك دم هذا وسب هذا، ومع ذلك يؤخذ من حسناته! أليس هذا دليل على أنها باقية؟ إذن: فهو لم يصل إلى درجة الكفر، فهذا دليل على أن أعمالهم لا توصلهم إلى الإخراج من الملّة، وعلى هذا نسمّيهم عصاة، ونسمّيهم فسقة، وأهل كبائر، ونسمّيهم ناقصي الإيمان غير كامليه. هكذا مسمّاهم: أهل المعاصي، وهذا قولنا في أهل المعاصي.

أما الشرك والكفر فمعلوم أنّه يصير كفرًا مخرجًا من الملّة، وأن الشرك لا يغفر حتى ولو كان صغيرًا، فمن الشرك: الحلف بغير الله، وهو من الشرك الأصغر، وعلى هذا الحديث الذي مرّ معنا: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ**»[1]. المراد به: الشرك الأصغر؛ وذلك لأن الحلف بغير الله فيه إشراك، بنوع تعظيم ذلك المخلوق بتخصيصه بالحلف به حتى يكون شريكًا لله، والتعظيم لا يكون إلا لله. فالحالف قد عظّم الذي حلف به، فإن حلف بالله فقد عظّم الله، وإن حلف بغير الله فقد عظّم المخلوق فيكون تعظيمه شركًا، وإن كان من الأصغر ولكنّه لا يغفر إلا بالعقوبة. وهذا الحديث من الأحاديث التي تبيّن خطر الشرك ولو كان صغيرًا.

وأما البدع فقد عرفنا أن منها ما هو مكفّر، ومنها ما لا يصل إلى حدّ الكفر. والبدع المكفّرة تقدّم بعض منها، فقد تواتر عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنهم كفّروا من قال بخلق القرآن، كفّروهم من حيث العموم لا من

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٥).

حيث الأفراد، فما كانوا يقولون: هذا الشخص كافر لأنه قال بخلق القرآن، فإن من أشهرهم خليفة من بني العباس وهو المأمون، أول من فتن الناس، وجعلهم يقولون بخلق القرآن، وفتن العلماء، ومع ذلك لم يكفّره الإمام أحمد، بل يعذره بأنه كان متأولًا، أو أنه لبّس عليه أولئك المبتدعة لما قرّبهم وأدناهم، فدخلت أفكارهم في قلبه فشبّه عليه، لكن المبتدعة الذين تمكّنت هذه البدعة، منهم لا نعذرهم، ولكن لا نحكم على فلان بأنه كافر بهذه البدعة، ولكن من حيث العموم نقول: «القول بخلق القرآن كفر».

كذلك بدعة إنكار الصفات. الغلو في إنكارها، وهي طريقة المعتزلة الغلاة في إنكار هذه الصفات لا شكّ أنها كفر؛ لأنّ فيها نوع من التعطيل، حتى إن بعض العلماء جعلها أكبر من الشرك، ومن قول المشركين، الذين يجعلون العبادة مشتركة بين الخالق والمخلوق، ولكن ما دام أنهم يتسمّون بالإسلام، فلا نطلق عليهم الشتم، ولا نقول: فلان المعتزلي كافر لأن هؤلاء وإن كانوا من غلاة المعتزلة، ومن الذين اشتهروا فيه باعتناق هذا المذهب، وغلوا فيه وأضلوا فيه خلقًا كثيرًا، ولكن مقالتهم هذه مقالة كفريّة.

كذلك نقول في المذاهب المعاصرة الجديدة؛ هذه لا شكّ أنها كفر، يعني من حيث معتقداتهم، فمثلًا: الدروز ليسوا بمسلمين حقًا ولو تسمّوا بأنهم مع المسلمين بأنّهم يدلون بالشهادتين ظاهرًا، لكن في الباطن ليسوا بمسلمين مع وجودهم وكثرتهم في بعض البلاد، ولكن لا نقاتلهم، ولا نكفّر أعيانهم حتّى نقيم عليهم الحجج، ونواجههم مواجهة شخصية، ونبيّن لهم ويبيّنون لنا،

لكنّهم في الحقيقة يستخفون ويخفون عقائدهم، ويخفون مؤلفاتهم التي يعتنقون.

ويقال كذلك في الطائفة الجديدة التي تسمّى البعثيين، إذا بحثنا عن معتقداتهم ومؤلفاتهم نجد أنها مبادئ كفر، وأنهم كافرون، وأن معتقدي هذه العقيدة ليسوا حقًا مسلمين، وإنّما هم علمانيون أو اشتراكيون أو ماركسيون أو دنيويون، لا همّ لهم في الآخرة، ولا في مصالح الدين، ولا في الإقبال عليها، ولا على أصل الإسلام، كما يعرف ذلك في مؤلفات مذاهبهم، فمذهبهم مذهب كفريّ.

كذلك يقال في مذهب النصيريين والإسماعيليين وغلاة الشيعة الرافضة وأشباههم من الذين يتسمّون بأنهم من جملة المسلمين، ولكنّهم لهم عقائد ودسائس خفية تخالف الإسلام. فيقاتلون إذا أقيمت عليهم الحجة، وحصلت معهم مواقف يتبين فيها أنهم عارفون بالحقّ، ومعاندون ومحاربون له، أو أبطلت شهادتهم التي يتمسّكون بها فهذا ونحوه دليل على أنه يوجد هناك مكفّرات ولكن الحكم إنما هو للفعل لا للفاعل.

ولأجل ذلك ما ذكرناه في السابق أن أمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ عندما خرج على أهل هذه البلاد ووجد أهلها يشركون بالغلو في الصالحين، لم يكفّرهم مبدئيًا، ولكن بيّن أنّ فعلهم كفر، ولم يقاتلهم مبدئيًا، لكن شرع ببيان أعمالهم وبيان كفرهم، ولمّا أصرّوا وعاندوا وجابهوا وكتبوا رسائل بالردّ عليه؛ شبّهوا عليه وعلى الناس مع اتضاح الحق كالشمس،

وأفتى عند ذلك بجواز قتالهم وبأنهم كفار؛ لأنهم أباحوا عبادة غير الله وشابهوا المشركين الأولين أو زادوا عليه، كما بيّن ذلك في مؤلفاته رحمه الله، فما شرع القتال إلا بعد ما كتب الرسائل والكتب وأرسلها إلى الطوائف الأخرى، وبيّن لهم ودعاهم وذكر لهم ما يدعوهم إليه، فهدى الله من هدى بسببه، وأصرّ بعضهم على عناده، وشرع يلبّس على من لبّس عليه، فلما قامت عليهم الحجة، عند ذلك أمر بقتالهم.

وهم يتسمّون بأنّهم مسلمون، ويقرأون القرآن، ويأتون بالشهادتين، ويصلّون ويصومون ويزكّون ويحجّون، ولكن يشركون؛ كانوا قد عملوا مشاهد على القبور، كما تسمى الآن في العراق، والواحد منهم مشهدي؛ لأنهم يحجون إلى تلك القبور. عندهم معابد الآن أعظم من الحرمين، كالنجف وكربلاء، والذين يأتون إليها يتلقون بالحفاوة والتكريم، ويأتون بالخشوع.

وكذلك كانت توجد معابد في نجد منصوبة ومرفوعة، ويذبح عندها، ويجلس عندها، وكانوا يتحرون الصلاة عندها ويطوفون بها، ويدعون أصحابها ويهتفون بأسمائهم: يا زيد، يا يوسف، يا شمسان، فقال لهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب: أليس هذا الدعاء لغير الله؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، فلم يجدوا بدًّا من أن يقتنعوا بكلامه، ولكن بعض الذين فتنوا زاغوا عن ذلك، وأصرّوا على عنادهم، فحكم بكفرهم بعدما قامت عليهم الحجّة، بل تأسيًا بما ثبت عن النبيّ ﷺ أنه ما قاتل قومًا إلا

بعد أن دعاهم، ولَمَّا أرسل عليًا ﷺ لدعوة اليهود قال له: «انْفُذْ على رِسْلِكَ حتى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عليهم، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لك من أَنْ يَكُونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ»[1]، فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يريد أن يدخل الناس في الإسلام، وليس قصده أن يقاتل، وليس قصده أن تكون له سيادة ومنصب وملك وسعة تصرّف وأموال يقتنيها، ما كان هذا قصده، إنما قصده هداية الناس وإقبالهم على الدين والدخول فيه.

وهذا الذي يجب علينا بالنسبة إلى كل المبتدعة في زماننا، يجب أن نحرص على دعوتهم، وبيان الحق نحوهم، وإظهار الأحكام الشرعية، وبيان مطابقتها للحقيقة، فإذا أصرّوا بعد ذلك وعاندوا فهنالك يقاتلون، إلَّا إذا كانوا معاهدين أو لهم ذمّة، فأهل الذمة يؤمنون بقدر مدتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة:٤].

هناك مسألة ذات أهميّة، وهي مسألة التكفير والتشريك، فينبغي أن تعرف الفرق بين أن تقول: هذا العمل كفر، وهذا الشخص كافر. متى نحكم على الإنسان بأنه كافر؟ وبأنه في النار؟ إذا عرفنا أنه مات على الكفر، وهو ممّن قامت عليه الحجّة، كالذين في عهد رسول الله ﷺ، وهم كفار، أو جاءت الأدلّة

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

بأنهم من الكفار، وهكذا من بعدهم نعلم أنّ أبا لهب توعّده الله بقوله: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد:٣]، وكذلك أبو جهل مات على الكفر، وقتل عليه، وقد قال عنه رسول الله ﷺ: «هذا فِرْعَوْنُ هذه الأُمَّةِ»[1]. فمثل هؤلاء نتحقق أنهم في النار، ونحكم عليهم بذلك، ونعلم أنهم تحقق موتهم على الكفر.

إذا عرفنا أن شخصًا عاند الحق، وقاتل ضدّه، وعرفه المعرفة التامّة، وردّه الردّ الشنيع، وضلّل أهله، وعاند في قبوله، واستمرّ على ذلك، ومات ولم يتب، ولم يرتجع عن بدعته المكفّرة أو عن كفره؛ فحينئذٍ ندعو عليه، ونستحلّ شتمه ولعنه، ونقول: إنّه في النار. وأما من لم يتمّ ذلك فيه، نوكّل أمره إلى الله.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٩٦١)، وأحمد (١/ ٤٠٣، ٤٠٤)، والطبراني في الكبير (٨٤٦٩)، والبيهقي (٩/ ٦٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

قال الشارح:

وَالْمُعْتَزِلَةُ مُوافِقُونَ لِلْخَوارِجِ هُنَا فِي حُكْمِ الآخِرَةِ، فَإِنَّهُمْ وَافَقُوهُمْ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، لَكِنْ قَالَتِ الخَوَارِجُ: نُسَمِّيهِ كَافِرًا، وَقَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: نُسَمِّيهِ فَاسِقًا، فَالخِلَافُ بَيْنَهُمْ لَفْظِيٌّ فَقَطْ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ أيضًا متَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الوَعِيدَ الْمَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ. كَمَا وَرَدَتْ بِهِ النُّصُوصُ، لَا كَمَا يَقُولُهُ الْمُرْجِئَةُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَ الكُفْرِ طَاعَةٌ! وَإِذَا اجْتَمَعَتْ نُصُوصُ الوَعْدِ الَّتِي اسْتَدَلَّتْ بِهَا الْمُرْجِئَةُ، وَنُصُوصُ الوَعِيدِ، الَّتِي اسْتَدَلَّتْ بِهَا الخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ؛ تَبَيَّنَ لَكَ فَسَادُ القَوْلَيْنِ. وَلَا فَائِدَةَ فِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ سُوَى أَنَّكَ تَسْتَفِيدُ مِنْ كَلَامِ كُلِّ طَائِفَةٍ فَسَادَ مَذْهَبِ الطَّائِفَةِ الأُخْرَى.

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الاتِّفَاقِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ اخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا لَفْظِيًّا لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَسَادٌ، وَهُوَ: أَنَّهُ هَلْ يَكُونُ الكُفْرُ عَلَى مَرَاتِبَ، كَفْرًا دُونَ كُفْرٍ؟ كَمَا اخْتَلَفُوا: هَلْ يَكُونُ الإِيمَانُ عَلَى مَرَاتِبَ، إِيمَانًا دُونَ إِيمَانٍ؟ وَهَذَا الاخْتِلَافُ نَشَأَ مِن اخْتِلَافِهِمْ فِي مُسَمَّى «الإِيمَانِ»: هَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، أَمْ لَا؟ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ مَنْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ كَافِرًا نُسَمِّيهِ كَافِرًا؛ إِذْ مِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يُسَمِّيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الحَاكِمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ كَافِرًا، وَيُسَمِّيَ رَسُولُه مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ كَافِرًا، وَلَا نُطْلِقُ عَلَيْهِمَا اسْمَ الكُفْرِ، وَلَكِنْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، قَالَ: هُوَ كُفْرٌ عَمَلِيٌّ لا اعْتِقَادِيٌّ، وَالْكُفْرُ عِنْدَهُ عَلَى مَرَاتِبَ، كَفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، كَالإِيمَانِ عِنْدَهُ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ: هُوَ التَّصْدِيقُ، وَلَا يَدْخُلُ العَمَلُ فِي مُسَمَّى الإِيمَانِ، وَالكُفْرُ: هُوَ الجُحُودُ، وَلَا يَزِيدَانِ وَلَا يَنْقَصانِ، قَالَ: هُوَ كُفْرٌ مَجَازِيٌّ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ؛ إِذِ الكُفْر الحَقِيقِيّ هُوَ الَّذِي يَنْقِلُ عَنِ المِلَّةِ. وَكَذَلِكَ يَقُولُ فِي تَسْمِيَةِ بَعْضِ الأَعْمَالِ بِالإِيمَانِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أَيْ: صَلَاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، إِنَّهَا سُمِّيَتْ إِيمَانًا مَجَازًا؛ لِتَوَقُّفِ صِحَّتِهَا عَلَى الإِيمَانِ، أَوْ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الإِيمَانِ؛ إِذْ هِيَ دَالَّةٌ عَلَى كَوْنِ مُؤَدِّيهَا مُؤْمِنًا.

وَلِهَذَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِ الكَافِرِ إِذَا صَلَّى كَصَلَاتِنَا، فَلَيْسَ بَيْنَ فُقَهَاءِ المِلَّةِ نِزَاعٌ فِي أَصْحَابِ الذُّنُوبِ، إِذَا كَانُوا مُقِرِّينَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَمَا تَوَاتَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الوَعِيدِ. وَلَكِنَّ الأَقْوَالَ المُنْحَرِفَةَ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ بِتَخْلِيدِهِمْ فِي النَّارِ، كَالخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَلَكِنَّ أَرْدَأَ مَا فِي ذَلِكَ التَّعَصُّبُ مِنْ بَعْضِهِمْ، وَإِلْزَامُهُ لِمَنْ يُخَالِفُ قَوْلَه بِمَا لَا يَلْزَمُهُ، والتَّشْنِيعُ عَلَيْهِ! وَإِذَا كُنَّا مَأْمُورِينَ بِالعَدْلِ فِي مُجَادَلَةِ الكَافِرِينَ، وَأَنْ يُجَادَلُوا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَكَيْفَ لَا يَعْدِلُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي مِثْلِ هَذَا الخِلَافِ؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الآية [المائدة: ٨].

---

قال الشيخ:

هنا في هذا الباب طوائف انحرفوا، فطائفة المعتزلة يقولون: إن أصحاب

المعاصي خارجون من الإسلام، ولم يدخلوا في الكفر، بحيث لا تستباح دماؤهم ولا قتالهم، ولكنهم يخلدون في النار، وطائفة الخوارج يقولون: إنّ أصحاب الكبائر كفار يقاتلون، وتستحلّ دماؤهم وأموالهم، وإذا ماتوا ماتوا كفارًا، ويعاملون معاملة الكفار، فلا يغسّلون، ولا يدفنون في مدافن المسلمين، ولا يصلّى عليهم، وهم في الآخرة يحكمون عليهم بالخلود في النار.

والخوارج يستدلّون بالأحاديث التي تقدّمت في الكفر، كقوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ**»، وقال: «**النَّائِحَةُ إذا لم تَتُبْ قبل مَوْتِهَا تُقَامُ يوم الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ من قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ من جَرَبٍ**»[1].

كذلك طائفة المرجئة الذين يقولون: لا يضرّ مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل. هذه الطائفة تبيح للإنسان أن يكثر من المعاصي، وأنها لا تضرّه، ولو سرق، ولو قتل، ولو شرب الخمر، ومع ذلك كلِّه لا ينقُصُ إيمانه، فإيمانه كامل، وحسناته كاملة، وهو من أهل الجنّة، ولا تضرّه هذه الكبائر، ولا هذه السيئات، فيبطلون الأحاديث التي فيها الوعيد، وهؤلاء أيضًا مخطئون.

فالقولُ الوسط هو قول أهل السنّة، نقول: إنّهم مخطئون فهم يخاف عليهم خوف الوعيد، ويخاف عليهم من النار مادام أنهم قد سمّوا في بعض الأحاديث

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

كفارًا، وسمّوا في بعضها فسّاقًا، فلا بدّ أن هذه المعاصي تضرّهم، فإمّا أن تؤخّرهم عن دخول الجنّة، وفي ذلك ضرر، وإما أن يدخلوا النار، وذلك أيضًا ضرر، وقد يدخلون النار ويطول مكثهم فيها، وقد يدخلون النار ولا يطول مكثهم، وذلك على قدر أعمالهم، وهذا دليل على أن المعاصي لها تأثير على العاصي، فلأجل ذلك يخاف عليه إذا أصرّ عليها، ومعروف أيضًا أن الشرع ما حذّر منها، وأكثر الذمّ لها إلا ولها تأثير في الأعمال، وعلى الإنسان أن يرجع إلى الأحاديث التي وردت في الحثّ على كثرة الطاعات، والتحذير من المعاصي ولو كانت صغيرة، وعدم الإصرار عليها، وذكر شيء من أضرارها أو بعضها، فيعدّ ذلك زاجرًا للمسلم أن يصرّ على صغيرة، أو يأتي على ذنب، ولو مرة واحدة؛ مخافة أن يسبب له عذابًا عاجلًا أو آجلًا.

وأما ما ذكره الشارح من أن هذه المسألة مبنيّة على قول أن الإيمان يتفاوت؛ فهناك إيمان كامل، وهناك إيمان ناقص، وهناك كفر دون كفر، ونحو ذلك.

وقد روي في تفسير هذه الآيات التي في سورة المائدة عن بعض السلف: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، أنه أُطلق عليهم الكفر والفسق والظلم؛ وذلك لأنّهم عاندوا وعرفوا أنّهم يحكمون بغير حكم الله، وشرّعوا

مع الله، وادّعوا أنّ شرعهم أحسن من شرع الله، وتنقّصوا حكم الله، وادّعوا أنه ليس بمناسب، وليس بصالح، فلأجل ذلك حكم عليهم بالكفر والظلم والفسق.

وآخرون قالوا: إذا فعل ذلك لمصلحة، ورأى مثلًا أن الحكم الشرعيّ لا يناسب في بعض الأحيان، وأن الحكم بغيره قد يكون أنسب، فحكم بذلك متأوِّلًا لم نخرجه من الإسلام، بل نجعله دون هذا، فقالوا كفر دون كفر، ظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وهذا على طريقة من يجعل الكفر يتفاوت: كفر أكبر، وكفر أصغر، وكفر أوسط. وكذلك يجعلون الإيمان إيمانًا كاملًا، وإيمانًا متوسطًا، وإيمانًا ناقصًا.

ونحن نقول: نعم الإيمان يتفاوت، ولأجل ذلك تنقصه المعاصي، وتزيده الطاعات، وأما الكفر فنقول: إن الكفر يبطل الأعمال، ولأجل ذلك الكافر ولو أدى أعمالًا في حياته فإنها لا تنفعه، إلا أننا إذا رأيناه يعمل الأعمال التي تختصّ بالإسلام عاملناه معاملة المسلم؛ فإذا رأيناه يصلي مع الجماعة حكمنا له بأنه مسلم لأننا لا نعمل بالظاهر، ونكل أمر السرائر إلى الله تعالى، ولو كان في الباطن كافرًا فأمره إلى الله، لكن إن رأيناه مع الصلاة يعبد غير الله مثلًا، أو يشرك، أو لا يحكم بما في الشرع، أو يفضّل حكم غير الشرع على حكم الشرع، عاملناه بما يستحقّه، وبذلك يعرف أن هذا الباب الذي هو باب تفاوت المؤمنين وباب تفاوت الكفار، والتفاوت بحسب ما في القلوب: إما من الإيمان أو ضد الإيمان، فهو مسألة لها أهميتها، فالإيمان القوي يحمل على كثرة الطاعات

والعبادات، والإيمان الضعيف لا يزجر عن المحرّمات، ولا عن الآثام.

فيجب على المسلم أن يهتم بأمر دينه حتى يسلك طريق النجاة، وأهم ما في الدّين أمورَ العقيدة التي إذا ثبتت ورسخت انبنت عليها صحة الأعمال، وثبتت وأثيب عليها، وإذا فسدت العقيدة انبنى عليها فساد الفروع والأعمال.

ومن جملة العقيدة أسماء الإيمان والدين، وقد عرفنا جانبًا كبيرًا منها فيما يتعلّق بالتكفير والتفسيق وطريقة أهل السنّة في ذلك، ومن خالفهم. وسبب الخلاف في ذلك أنه جاءت أحاديث كثيرة فيها الحكم بالكفر على بعض الأعمال التي هي من المعاصي، وتسمّى تلك النصوص نصوص الوعيد، وأحاديث الوعيد طريقة أهل السنّة فيها أنهم يجرونها على ظاهرها؛ ليكون ذلك أبلغ في الزجر مع اعتقادهم أنها لا تخرج من الملّة، وأنّ مرتكب الكبيرة ولو كان متوعّدًا بالعذاب أو بالكفر أو نحو ذلك؛ فإنه لا يصل في العذاب إلى درجة أن يستباح دمه وماله، وأن يحكم عليه بالخلود في النار، بل يقال هذا من الذنوب التي توعّد عليها بهذا الوعيد، وأمرها إلى الله تعالى، وكل المعاصي التي دون الشرك، فإنّها تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفر لصاحبها، وإن شاء عذّبه بقدر ذنوبه؛ هذه طريقة أهل السنة.

وقد مرّ بنا بعض أحاديث الوعيد التي فيها شيء من الغلظة، مثل قوله ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، والتَّوْبَةُ مَعروْضَةٌ بَعْدُ»[١]

وهذا فيه نفي الإيمان، فنحن لا نقول: إنه خرج من الإيمان كليًّا، ولا أنه دخل في الكفر. المعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، والخوارج يقولون يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، ونحن نقول إنه لا يخرج من الإيمان ولكنّه تحت مشيئة الله تعالى. ونقول: إنه فاسق بهذا الذنب، ولكن لا يصل إلى أن يستباح دمه وماله وعرضه، ويباح قتله، ولكن ذنبه غليظ.

ومثله قول رسول الله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي أُمَّتِي هُمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، والنِّياحةُ عَلَى المَيِّتِ»[٢]، معلوم أن هاتين لا يكفّر بهما المسلم.

ومثله قوله ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[٣]. معلوم أن قتاله لا يصل إلى حدّ أنه يخرج من الملّة.

ومثله قوله ﷺ: «ليس مِنَّا من لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[٤]. والأحاديث كثيرة التي فيها: «ليس منا»، كقوله ﷺ: «من غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»[٥]، وأحاديث البراء، كقوله ﷺ: «يا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم (١٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بَعْدِي، فَأَخْبِرْ الناس أَنَّهُ من عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أو تَقَلَّدَ وَتَرًا، أو اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أو عَظْمٍ، فإن مُحَمَّدًا ﷺ مِنْهُ بَرِيءٌ»[1]. وأشباه ذلك مما فيه البراءة من الفعل والفاعل.

نقول: إن هذه الأحاديث جاءت للزجر عن هذه المعاصي، وقد جاءت أحاديث تدلّ على إخراج المسلمين الذين يدخلون النار وهم من أهل التوحيد؛ وإخراجهم من النار إمّا بشفاعة الشافعين، أو برحمة الله تعالى، فتلك الأحاديث صريحة واضحة، تدلّ دلالة واضحة على أنه وإن عمل صاحبها الكبائر ونحوها، إلا أنه لا يصل إلى حدّ الكفر.

وفي حديث أبي ذرٍّ ﷺ: لَمَّا قال النبيُّ ﷺ: «أَتَانِي آتٍ من رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي - أو قال: بَشَّرَنِي - أَنَّهُ مَنْ مَاتَ من أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قال أبو ذرٍّ ﷺ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قال: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»[2]. مما يدلّ على أنه لا يصل به حدّ الكفر، وإن فعل مثل تلك الذنوب، وأنه مؤمن بأصل الإيمان.

ومع ذلك فلا يجوز التساهل بهذه الذنوب؛ وذلك لأنّ التساهل بها، والإدمان عليها يقسّي القلب، ويصدّ عن الطاعة، ويكسّل عن الحسنات، ويُجرّئ على كثرة السيّئات، ويضعف في القلب الخوف من ارتكاب السيئات،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦)، والنسائي (٥٠٧٠)، وأحمد (٤/ ١٠٨)، والطبراني في الكبير (٤٤٩١)، والبيهقي (١/ ١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

وبسبب هذا الضعف يترك الواجبات، ويرتكب المحرّمات مما قد يكون سببًا في الطعن في الشريعة والعيب لها، والانتقاد لله تعالى في تحريم هذا الشيء، أو إيجاد هذا الشيء، والاعتراض على الله تعالى وذلك كفر، وكذلك انتقاد أحكامه، والطعن في شيء من الشريعة بأنه غير مناسب، أو أنه جور ونحو ذلك، وهذا بلا شكّ تقوّل على الله واعتراض عليه فلأجل ذلك ينهى عن الإصرار على الذنوب، حتى ولو كانت صغائر.

ويكثر في الحديث الزجر عن الصغائر والكبائر، وتكثر الأدلّة على الوعيد الشديد على بعض الذنوب، ويستشهد العلماء بأدلّة فيها الهلاك والعذاب لمن فعل هذه الذنوب، ولمن أصرّ عليها، وإذا عرف المسلم ذلك لم يتهاون فيها، ولو كانت لا توصل إلى الكفر؛ مخافة أنها مع التساهل ومع الاستمرار عليها تقسّي القلب، وتصدّه عن ذكر الله ومعرفته.

هذا واجب المسلم، ومتى تخلى عن السيئات حتى ولو صغيرة وكرهها في قلبه، فسوف يحبّ الطاعات ويألفها وتسهل عليه، ويحبّ الاستكثار منها، والإقلاع عن السيئات والبعد عنها، وكثرة الحسنات وكثرة الأعمال الصالحة مما يرفع الله بها العبد إلى الدرجات، ومما يقبل منه عبادته، ولا شكّ أنّها سبب معرفة ثواب الله تعالى وعصمته وأجره، حتى يكون في ذلك مثابرًا مكبًّا على الإكثار من الحسنات. ومتى عرف عقاب الله وعظيم عذابه على الإصرار على الكبائر حتى ولو كان ذلك عذاب يوم أو عذاب ساعة أو نحو ذلك، فكيف بعذاب دهور متطاولة؟ كلّ ذلك مما يزجر الإنسان عن المعاصي.

قال الشارح:

وَهُنَا أَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يُتَفَطَّنَ لَهُ، وَهُوَ: أَنَّ الْحُكْمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً: كَبِيرَةً أَوْ صَغِيرَةً، وَيَكُونُ كُفْرًا: إِمَّا مَجَازِيًا، وَإِمَّا كُفْرًا أَصْغَرَ، عَلَى الْقَوْلَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ حَالِ الْحَاكِمِ، فَإِنَّهُ إِنِ اعْتَقَدَ أَنَّ الْحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ، وَأَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِ، أَوِ اسْتَهَانَ بِهِ مَعَ تَيَقُّنِهِ أَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ؛ فَهَذَا كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَإِنِ اعْتَقَدَ وُجُوبَ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَعَلِمَهُ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، وَعَدَلَ عَنْهُ مَعَ اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ؛ فَهَذَا عَاصٍ، وَيُسَمَّى كَافِرًا كُفْرًا مَجَازِيًّا، أَوْ كُفْرًا أَصْغَرَ. وَإِنْ جَهِلَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهَا، مَعَ بَذْلِ جُهْدِهِ، وَاسْتِفْرَاغِ وُسْعِهِ فِي مَعْرِفَةِ الْحُكْمِ وَأَخْطَأَهُ، فَهَذَا مُخْطِئٌ، لَهُ أَجْرٌ عَلَى اجْتِهَادِهِ، وَخَطَؤُهُ مَغْفُورٌ.

وَأَرَادَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ)، مُخَالَفَةَ الْمُرْجِئَةِ، وَشُبْهَتُهُمْ كَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ لِبَعْضِ الأَوَّلِينَ، فَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ قُدَامَةَ بْنَ مَظْعُونٍ شَرِبَ الْخَمْرَ بَعْدَ تَحْرِيمِهَا هُوَ وَطَائِفَةٌ، وَتَأَوَّلُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية [المائدة: ٩٣]، فَلَمَّا ذُكِرَ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، اتَّفَقَ هُوَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ اعْتَرَفُوا بِالتَّحْرِيمِ، جُلِدُوا، وَإِنْ أَصَرُّوا عَلَى اسْتِحْلَالِهَا قُتِلُوا، وَقَالَ عُمَرُ لِقُدَامَةَ: أَخْطَأَتْ اسْتُكَ الْحُفْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوِ اتَّقَيْتَ وَآمَنْتَ

وَعَمِلْتَ الصَّالِحَاتِ، لَمْ تَشْرَبِ الخَمْرِ.

وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا حَرَّمَ الخَمْرَ وَكَانَ تَحْرِيمُهَا بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ، قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: فَكَيْفَ بِأَصْحَابِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ[1]. بَيَّنَ فِيهَا أَنَّ مَنْ طَعِمَ الشَّيْءَ فِي الحَالِ الَّتِي لَمْ يُحَرَّمْ فِيهَا، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مِنَ المُؤْمِنِينَ المُتَّقِينَ المُصْلِحِينَ، كَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ اسْتِقْبَالِ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ فَعَلُوا ذَلِكَ نَدِمُوا وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ أَخْطَأُوا، وَأَيِسُوا مِنَ التَّوْبَةِ، فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى قُدَامَةَ يَقُولُ لَهُ: ﴿حٰمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:١ ـ ٣]. مَا أَدْرِي أَيُّ ذَنْبَيْكَ أَعْظَمُ؟ اسْتِحْلَالُكَ المُحَرَّمَ أَوَّلًا؟ أَمْ يَأْسُكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ثَانِيًا؟ وَهَذَا الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَئِمَّةِ الإِسْلَامِ.

---

قال الشيخ:

عرفنا أولًا تفصيل الحكم بغير ما أنزل الله، وأنه ينقسم أهله ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كفارٌ، يعرفون حكم الله وينتقدونه، ويقولون الحكم الشرعي لا يناسبنا. أو الحكم الشرعي الذي في القرآن والسنة هذا قديم،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٥٠) من حديث البراء بن عازب ﷺ، وأخرج البخاري نحوه (٢٤٦٤) من حديث أنس ﷺ.

ولا يناسب هذا الزمان، فنحن نبتكر ونبتدع حكمًا يتناسب مع هذا الزمان حتى يوافق الحال.

هؤلاء الذين يحكمون بالقوانين الوضعية في هذا الزمان هم على هذه الطريقة، والعياذ بالله. وذلك أنهم يعرفون الأحكام الشرعية المأخوذة من الوحيين، ولكن زهدوا بها. ووضعوا هذه القوانين التي أخذوها من نحاتة الأفكار، ومن زبالة الأذهان، وممّا تلقوه عن الغربيين واليونان والكفرة والملاحدة؛ فاجتمعت لهم هذه القوانين ورفعوها، وجعلوا التحاكم إليها، وكان من نتيجتها تعطيل الكثير من الحدود، وتغيير الكثير من الأحكام. فكثير منهم كما هو معروف لا يجعلون المال خاصًا وهم الذين يسمّون بالاشتراكيين ونحوهم، فهؤلاء طوائف كثيرة يتسمّون بأنهم مسلمون، وينزعون الملكيّات من أهلها، ويستبدّون بها، ويزعمون أنها اشتراكيّة، وكذبوا؛ فإنّما هي استبداديّة، فهذا من جملة أحكامهم الجائرة.

كذلك من نتيجة أحكامهم تغيير الكثير من الفرائض التي فرضها الله تعالى، فغيّروا في الفرائض والمواريث، وحرّموا كثيرًا، وآتوا كثيرًا ممّن لا ميراث لهم، ونحو ذلك. مما يطول به التفسير.

كذلك أيضًا من نتيجة أقوالهم تعطيل كثير من الحدود. فالقصاص عندهم لا يجوز مع قول الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩]، سواء في الطرف أو في النفس، يستبدلونه بأخذ المال من القاتل، ويستبدلونه

بالسجن المؤبّد أو نحو ذلك، وكذلك تعطيل حد الزّنى وإباحة الزّنى إذا كان الزانيان متراضيين؛ لأن هذا شيء يملكانه، وقد حدث باختيارهما، وكذلك تعطيل حدّ الخمر؛ حيث إن الخمر عندهم أمر مباح ليس فيه أي بأس، وأن الحكم بتحريمها حكم ظلم وجور. انتقدوا الشرع!! إلى غير ذلك من هذه الأحكام الوضعيّة.

نقول: لا شكّ أنّ هذا كفر؛ لأنّهم اعترضوا على الشرع، وخطّأوه، وادّعوا أنّه قد تغيّر، وأنّه لا يناسب التطوّر كما يقولون، فجعلوا حكمهم أحسن من حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

هذه مقالة هؤلاء الذين يجعلون الحكم بغير ما أنزل الله على حسب أهوائهم، ويحكمون بما يلائمهم، ويتركون حكم الله وهم يعرفونه، ويطعنون في حكم الشرع؛ لا شكّ أنّ هؤلاء كفار ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

**والقسم الثاني**: الذين يحكمون به وهم يعرفون أنّه حرام، ولكن يقولون: إننا نحكم به لعذر أو ضرورة أو نحو ذلك، فهؤلاء عصاةٌ، إلا إذا كانوا مضطَّرِّين، فكثير من الإخوان الصالحين يضطرّون إلى السفر إلى بلاد تحكم بحكم الطاغوت الذي هو القوانين الوضعيّة، مع أنّهم إمّا مسلمون وإمّا غير مسلمين، يكون لأحدهم حقّ وإن كان له حقّ فماذا يفعل؟ يقول: هل أترك حقّي يضيع، أو أتحاكم إلى محاكمهم القانونيّة، وأنا أعرف أنّي صاحب حقّ،

وأعلم أنّهم يحكمون بحكم الطاغوت، ولكنّي مضطرّ إلى التحاكم إليهم؛ لعدم وجود حاكم شرعي، ولو تركت حقّي لذهب وهو قد لا يتساهل به، فبهذه الحالة فهو معذور حتّى لا يضيع حقّه، معذور إذا ترافع خصمه إلى أولئك الذين يحكمون بالقوانين الوضعيّة، ومتى حكموا له أخذ حكمهم وألزمه ضرورة؛ لأنه في بلادهم.

والحاصل: أن الذي يحكم بها وهو يعلم أنها محرّمة، ولكن يدّعي أنّه مضطرّ إليها أو أنّها ذنب، وأنّه لا يناسب في هذا الوقت، أو لا يتخلص له حقّه في هذا المجال إلا بهذا فهو معذور، ولكن هو مذنب؛ لأنّه تعاطى الشيء الذي اضطرّه إلى ذلك، وأما إذا كان ضرورة فلعلّه معذور.

**وأمّا القسم الثالث**: فهو الذي اجتهد في طلب إصابة الحقّ، ولكنّه لم يصبه، فحكم باجتهاده، فهذا معذور، وهو الذي له أجر على اجتهاده، ويُغفر خطؤه.

هذه أقسام من يحكم بغير ما أنزل الله، عرفنا أن منها ما هو معصية، ومنها ما هو كفر، ومنها ما هو عذر.

مرّ معنا حديث قدامة بن مظعون في عهد عمر - رضي الله عنهما - وكان قدامة ﷺ وبعض المسلمين في الشام التي كان يكثر فيها صناعة الخمر، وكانوا يجلسون فيها يدعون إلى الله، ويُعلّمون من دخل في الإسلام، ويجالسون أولئك الناس، فيشاهدونهم يشربون الخمر، وقدامة ﷺ واثنان معه شربوها متأوّلين

قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة:٩٣]، فقالوا: نشربها ونتّقي ونؤمن ونحسن، ولا يكون علينا حرج!! فهذا تأويل منهم، وظنٌّ منهم أن شربها لا ينافي الإيمان؛ فشربوها. فلمّا وصل الخبر إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وكان رجلًا غيورًا، أمر بهم فجلدوا، مع أنهم كانوا من مشاهير المسلمين.

ولكن سُئل الأمير هناك، وهو أبو عبيدة ﷺ: إن اعترفوا بأنها حرام ولكن وقعوا فيها عن معصية فعليهم الجلد، وإن أصرّوا واعتقدوا أنها حلال مباحة، فعليهم القتل؛ لأنهم أباحوا ما حرّم الله مع التصريح بتحريمها في الآية. فمن أباح شيئًا مما حرّمه الله حتى ولو لم يتناوله فقد خالف النصوص، فيُحكم بردّته. ولكنّهم تعلّلوا بأنّهم شبِّه عليهم، وظنّوا أن في هذه الآية دليلًا، وبيّن عمر لقدامة ـ رضي الله عنهما ـ خطأه قائلًا: (أَخْطَأَتْ اسْتُكَ الْحُفْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوِ اتَّقَيْتَ وَآمَنْتَ وَعَمِلْتَ الصَّالِحَاتِ، لَمْ تَشْرَبِ الْخَمْرَ). فالإيمان والعمل الصالح والتقوى والإحسان زواجر تزجر حقيقةً عن هذه المنكرات، ثمّ بيّن لهم أن هذه الآية نزلت في الذين ماتوا وهم يشربونها قبل التحريم، منهم الذين قتلوا في غزوة أحد أو بدر قبل أن تحرّم الخمر؛ نزل فيهم لما قال المسلمون: كيف بفلان مات وهي في بطنه، قتل شهيدًا وهو يشربها كيف حالتهم؟ أنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾، أي: فيما قد طعموا، لم يقل فيما سوف يطعمون، أو فيما سوف يأكلون أو سوف

يشربون، بل قال: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، فدلّ على أن المراد في الشيء الذي قد طعمه قبل التحريم، وحتّى أنتم الذين نزل تحريمها وأنتم أحياء، وكنتم تشربونها، فما طعمتم قبل التحريم، قد عفي عنكم، فاستقبلوا وقتًا جديدًا، وتوبوا إلى الله، وأقلعوا عنها.

فالحاصل: أن عمر ﷺ بيّن أنّهم إن اعتقدوا أنها حلال فقد خالفوا النصوص، فهنا يعدّ هذا ردّة، وإن قالوا: بل هي حرام، ولكنّا شربناها متأوّلين الآية، فهذه معصية، لا تخرج عن الملّة، ولكن فيها حدّ الخمر الذي شرعه الله.

وبهذا يُعرف أنّ من استحلّ الحرام المعروف من الدين بالضرورة فإنه يكفر، حتى ولو لم يفعله؛ فمن قال مثلًا: إنّ الزنى حلال إذا كان الزانيان متراضيين، ولا حرج فيه؛ لأنه شيء يمتلكانه، وقد بذلت المرأة نفسها، وبذل الرجل نفسه، فلا حرج عليهما فيما فعلاه، ولا إثم. نقول: هذا قد كفر، ولو لم يزنِ هو؛ لأنّه أحلّ الحرام.

ومن قال: إن الربا الذي حرمه الله في القرآن مباح، ولا إثم على من أكله، كما فعل المشركون فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]. نقول: إذا أباح الرّبا واستحلّه، وجعله مثل البيع، وجعله عملًا يجوز بالتراضي مادام أنّ المتعاقدين متراضيان، ولو لم يتعامل به، ولو لم يأكله، يعدّ بذلك مرتدًا.

ففرق بين من فعل المعصية وهو يعرف أنّها معصية، ويعترف على نفسه، وبين من فعلها وهو مستحلّ لها، أو استحلّها ولم يفعلها، فإنه يكفر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَنَرْجُو لِلمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُم، ويُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَشْهَدُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ، وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نُقَنِّطُهُمْ.

---

قال الشارح:

وَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَقِدَ هَذَا الَّذِي قَالَهُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَفِي حَقِّ غَيْرِه، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]. ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]. وَمَدَحَ أَهْلَ الخَوْفِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وَفِي «المُسْنَدِ»[1] وَالتِّرْمِذِي[2] عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قُلْتُ: يَا

---

(١) (٦/ ١٥٩، ٢٠٥).

(٢) برقم (٣١٧٥).

رَسُولَ اللَّهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الخَمْرَ وَيَسْرِقُ؟ قَالَ: «لَا، يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ». قَالَ الحَسَنُ ﷺ: عَمِلُوا ـ وَاللَّهِ ـ بِالطَّاعَاتِ، وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ المُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، وَالمُنَافِقُ جَمَعَ إِسَاءَةً وأمنًا. انْتَهَى.

---

قال الشيخ:

الرجاء: هو تعلق القلب برحمة الله، والخوف: وجل القلب من عذاب الله، وهنا طائفتان منحرفتان:

طائفة المرجئة الذين غلّبوا جانب الرجاء، وقالوا: لا تضرّ الذنوب والمعاصي، ما دام الإنسان مؤمنًا.

طائفة الوعيدية، وهم الخوارج والمعتزلة الذين غلّبوا جانب الخوف، وهم الذين يخلّدون أصحاب الكبائر في النار، ولا يجعلون لهم توبة، ويقولون إنّهم قد لا يوفقون للتوبة، وإنهم لا يخرجون من النار، فهؤلاء غلّبوا جانب الخوف.

أما أهل السنة، فيأمرون بالجمع بين الرجاء والخوف، فمن العلماء من يقول: عليك أن تسوّي بينهما، وقرأت لبعضهم أنّه مثل المحبة والخوف والرجاء بطائر، فقال: المحبّة رأس الطائر، والخوف والرجاء جناحاه؛ فإذا قطع رأسه مات، وإذا قطع أحد جناحيه تحسر، وإذا كمّل الجناحان الرأس تمّ الطيران.

هكذا تكون المحبّة حاملة للإنسان على العبادات، ويكون الجناح الأول وهو الرجاء يبعد قلبه عن الخوف، ويبعد قلبه عن اليأس وعن القنوط، ويعلق قلبه برحمة ربّه، والجناح الثاني الذي هو الخوف يكون مبعدًا له عن الآثام والمعاصي، وعن الذنوب، وعن الإصرار عليها، فإذا تذكر سعة رحمة الله ومغفرته وفضله وجوده وإحسانه ومحبته لعباده ومغفرته للذنوب جميعًا، برد قلبه ورجا رحمة ربّه، وإذا قرأ الآيات التي فيها الخوف والعقاب والألم والغضب، والنار، وشديد البطش، ونحو ذلك؛ فزع من المعاصي، وابتعد عنها، وتاب وأقلع وحذر من عقوبتها، فهو دائمًا يقرأ هذه وهذه، ولعلّ هذا هو السبب في أنّ الله دائمًا يذكر الخوف والرجاء في آيات تدلّ على هذا وهذا، مثل قول الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠]، فالآية الثانية فيها الخوف، حتى لا يغلب على قاسي القلب التساهل بالمعاصي ونحوها، فخوفه يحمله على البعد عن السيئات، ورجاؤه يحمله على الإكثار من الحسنات، رجاء أن تقبل توبته، وأن تغفر سيّئاته.

ومثله قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وهذه الأولى في الرحمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، والثانية: ﴿لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، يعني: فلا تيأس من الرحمة، ولا تقنط منها، ولكن لا تتساهل بالمعصية، فإن الله شديد العقاب.

ومثلها الآية التي استشهد بها عمر ﷺ لما بلغه أن قدامة بن مظعون ﷺ قد يئس وانقطع رجاؤه، وظنّ أنّه ليس له توبةً، فكتب إليه بهذه الآية في أول سورة غافر: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [غافر:٣]، جمع الله فيها بين الأمرين: المغفرة والعقاب، فقال له عمر ﷺ: (مَا أَدْرِي أَيُّ ذَنْبَيْكَ أَعْظَمُ؟ اسْتِحْلَالُكَ الْمُحرَّمَ أَوَّلًا؟ أَمْ يَأْسُكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ثَانِيًا؟)، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]. فإذا يئس العبد من رحمة الله فقد بلغ هذه الرتبة.

وهكذا يكون الإنسان بين هاتين المرتبتين: بين اليأس وبين الأمن، فلا يكون آيسًا ولا يكون آمنًا، فالأمن: أن يُكثر من الذنوب وكأنه آمن، والله تعالى يقول: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والواجب على المسلم أن يكون جامعًا بين الأمرين: بين الخوف، بحيث لا يعصي، وبين الأمن، بحيث لا ييأس.

الأمن الذي لا يوصله إلى التهاون بالمعاصي، فلا يأمن مكر الله، ولكن يكون مؤمنًا بفضل الله، وراجيًا لرحمة الله.

ثم إن الذين يقعون في الذنوب الكبائر من زنى وسرقة وقتل، ومن فواحش؛ كثير منهم إذا نصحته يقول: أنا عملت كذا وكذا، شربت الخمور، وتركت الصلاة مدة طويلة، وقد قسا قلبي، أنا لا تقبل توبتي، أنا مُقدم على

العذاب، أنا من أهل النار، كائنًا ما كان. فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦]، هذا هو القنوط، كأنّ أحدهم يقول: ما دمت فعلت الكبائر، فأنا لا تعمّني الرحمة، ولا يصلني العفو، ولا تبلُغني رحمة الله، أنا آيس من الرحمة، ونحو ذلك، يقوله بلسانه، والله أعلم بما في قلبه. ولعلّ السبب أنّه ألف المعاصي ونشأ عليها، وصعب عليه تركها، فلأجل ذلك اعتذر بهذا العذر، الذي هو أفسد من الفعل، هؤلاء قد وصلوا إلى هذه الرتبة الخطرة، وإلى القنوط أو التساهل بالمعاصي، والتساهل بعذاب الله، والإقدام على النار، جازمين بأنهم من أهلها.

وأما القسم الثاني: فإنّك تجدهم يكثرون من المعاصي، وإذا نصحتهم تعلقوا بالرحمة، وقالوا: رحمة الله واسعة، الله يغفر الذنوب جميعًا، الله وسعت رحمته كل شيء، الله غفور رحيم.

فهؤلاء آمنون، فدخلوا في قول الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]، فتجد أحدهم يترك العبادات، ويقترف المحرّمات، ويكثر من السيئات، ولا يهاب الإقدام عليها، ويتعلّق بالرحمة، فمثل هذا على طريقة المرجئة الذين يقولون: لا يضرّ مع الإيمان ذنب. ويقول قائلهم:

فَكَثِّر مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ المَعَاصِي ... إِذَا كَانَ القُدُومُ عَلَى كَرِيم

ومثل هذا قد أمن مكر الله، وتهاون بعقوبة الله. نقول له: لا تأمن أن يأتيك

الأجل وأنت على هذا التفريط، متساهل بحدود الله وحقوقه، لا تأمن أن هذه المعاصي تطمس قلبك وتقسّيه، وتحول بينه وبين المعرفة، وتحول بينه وبين الطاعة، فتبقى طريدًا شريدًا ـ والعياذ بالله ـ إذا أتاك الأجل وأنت طريد شريد، إذا أتاك الأجل وأنت على هذه الذنوب مصرّ عليها، فماذا تكون حيلتك؟ هل لك استطاعة على الصبر على النار؟ هل تصبر على عذاب الله ولو لحظة؟ حتى نار الدنيا لو عذبت بها، ماذا يكون صبرك على نار الدنيا حتى يكون صبرك على نار الآخرة؟ تذكّر أنّه قد يعذّبك ؛ لأنك استهنت بحقوقه وحدوده، وأقبلت على هذه المعاصي، وتهاونت بعقابه؛ فلا تأمن أن يعاقبك على هذا، ولو كنت موحّدًا، ولو كنت مؤمنًا حقًا لم تتهاون بحدود الله ولا بعقابه.

وبكلّ حال فقد ظهر لنا ذمّ هاتين الطريقتين: طريقة المرجئة الذين يتساهلون بالمعاصي ويكثرون منها، ويحلونها ويغلّبون جانب الرجاء.

وطريقة الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، ويحرمون العاصي من المغفرة في الآخرة، ونحو ذلك.

والطريقة الوسط بينهما أن يكون المسلم خائفًا راجيًا، كما جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ يرجون ويخافون؛ رجاء الرحمة حتى تهرب قلوبهم من اليأس، وخوف العذاب حتى لا يأمنوا مكر الله؛ حتّى يحملهم الرجاء على إحسان الظنّ بالله، ويحملهم الخوف على الحذر من

سخط الله، وعلى البعد عن معاصيه من صغائر وكبائر، وعمل الأعمال الصالحة التي تقرّبهم إلى الله، هذا وجه الجمع بين الخوف وبين الرجاء والذي فيه مخالفة الطائفتين: طائفة الوعيديّة من المعتزلة ونحوهم، وطائفة المرجئة من الجهميّة ونحوهم، الوسط بينهما طريقة أهل السنّة.

من عقيدة المسلم الخوف والرجاء، الخوف من عذاب الله، ورجاء رحمته، ونتيجة هذا أن الإنسان لا يأمن من عذاب الله ومن مكره، ولا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمته، بل يجمع بينهما، ويكون ذلك في نفسه، وكذلك في غيره.

ففي نفسه يخاف ويقول: إنني مذنب، وإنني مقصّر، وأخاف على نفسي من عذاب الله، وأخاف من مكره، ولكن لا يحمله هذا الخوف على القنوط واليأس من رحمة الله، بل يضيف إلى الخوف الرجاء.

وقد ذكر العلماء أنه في حالة الصحّة يغلِّب المسلم جانب الخوف، حتّى يحمله على استقلال أعماله، ويستكثر ويتوب. وأما عند الاحتضار وفي حالة المرض فالأَوْلى أن يغلب جانب الرجاء، فقد ورد في الحديث: «**لَا يَمُوتَنَّ أحدكم إلا وهو يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ**»[1]؛ رجاء أن يتلقّاه الله برحمته، ويصدق عليه قول الله ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بي ما شَاءَ**»[2]. فإذا مات وهو على ذلك رُجي أن يعمّه الله تعالى برحمته.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١)، والدارمي (٢/ ٣٩٥)، وابن حبان (٢/ ٤٠١)، والطبراني في =

هذا بالنسبة إلى الإنسان في نفسه يكون خائفًا راجيًا، يحمله الخوف على أن يحتقر أعماله، ويحمله الرجاء على أن يعلّق قلبه بربّه، ولا ينطفئ رجاؤه، ولا يقنط من رحمته.

كذلك في حق غيرك تخاف عليه، وترجو له، فتقول: فلان توفي وهو على الإسلام، نخاف عليه من العذاب، ونرجوا له الثواب، أو نرجوا للمحسنين، ونخاف على المسيئين. فالمسلمون الذين يظهر من أعمالهم الصالحة أنّهم من أهل الخير، ترجو لهم الثواب، وترجو لهم الجنّة، وترجو لهم المغفرة، وترجو لهم أن يكونوا من أهل الخير، وأن يكونوا من أهل الطاعة، وأن يحظوا بالثواب. والمسيؤون الذين ماتوا وهم على إساءة، أو باقون وهم على سيئاتهم، تقول أخشى على أحدهم، أو أخشى عليهم أن يقعوا في العذاب، أو أن يدركهم عذاب الله ونقمته.

والفقهاء في آخر باب الجنائز قالوا: نرجوا للمحسنين الذين ماتوا وهم من أهل الإيمان والإحسان، ولكن لا نجزم لهم بأنّهم من أهل الجنّة، ولكن نرجوا لهم ونغلّب الرجاء، ونخاف على المسيئين الذين ماتوا وهم مصرّون على بعض السيئات، أو كانوا من أهل الإساءة، أو من أهل التقصير، فنحن نخاف

---

=

الكبير (٢١٠) من حديث وائلة بن الأسقع ﷺ، وهو عند البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، بدون: «فَلْيَظُنَّ بِي ما شَاءَ».

عليهم، ولكن لا نجزم لهم بالنار، ولا نجزم لهم بالعذاب، وإنّما نخشى عليهم، وأما الذين قد ستروا أنفسهم، ولم يظهر لنا منهم هذا وهذا، ولكنّهم في الظاهر مسلمون ومن أهل السنّة، ومن أهل الخير، فهؤلاء لا يجوز أن نظنّ بهم ظنًّا سيئًا، بل يستحب أن يحسُن الظنّ بالمسلم الذي ظاهره الإسلام، ولا يظهر لنا منه ما يوجب سوء الظنّ، نقول: نحسن الظنّ به، ونرجو له الخير في حياته وبعد مماته.

وقد ذكرنا أن المسلم يجمع بين الخوف والرجاء، ومرّت بنا الأدلّة التي فيها أنّ الإنسان دائمًا يكون خائفًا راجيًا؛ منها أنّ الله تعالى كلّما ذكر الجنّة ذكر النار، وكلّما ذكر عذابه ذكر ثوابه، مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤]؛ آيتان متتابعتان، ذكر فيهما النعيم حتى يرجو المسلم رحمة الله، وذكر بعده الجحيم حتى يخشى ويخاف؛ فوجَّهه الخوفُ إلى الابتعاد عن أسباب دخول الجحيم، وهكذا في كثير من السور، كلّما ذكر الله أهل الجنّة، ذكر أهل النار، أو بالعكس؛ مثل قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٢١، ٢٢]، ثم قال الله تعالى في السورة نفسها: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ:٣١]، وكما قال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧ ـ ٤١]. وكثيرًا ما يذكر الله ثواب هؤلاء، وعقاب هؤلاء، ليكون المؤمن خائفًا راجيًا، سواء في نفسه، أو في بني جنسه.

الخوف يتعلّق بالخوف من بطش الله وعذابه؛ كأن يقال: خَفِ اللهَ، ألَا تَخاف الله؟ فتقول: كيف أخافه؟ يقال: تخاف من أن يغضب، من أن يعاقب، من أن يبطش بك، فإنه شديد العقاب لمن عصاه، ولمن خرج عن طاعته، وقد يتعلّق الخوف بالعذاب، فيقال: أما تخاف من النار، أما تخاف العذاب، أما تخاف عقاب الله؟ وقد يتعلّق الخوف بالأهوال، فيقال مثلًا: أما تخاف من أهوال القيامة، أما تخاف من هول المطلع، وكلّ ذلك نتيجته واحدة؛ فإن من خاف فإنّه يهتمّ لما خاف منه، ويبتعد عنه، وقد ضرب النبي ﷺ للخوف الحسي في الدنيا فقال: «**من خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، ألا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، ألا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ**»[1].

فنقول: إنّ هذا مثل حسّي، يعني: إن الخوف في الدنيا قد يكون حسيًا، فمثلًا: إنسانٌ سافر وحده على قدميه، وورد طريقًا بعيدًا فيه مخاوف وقطاع طرق، وسباع وهوامّ، وهو وحده، وليس معه سلاح ولا ما يتقوّى به، فماذا يفعل؟ لا شكّ أنّه يسير بمنتهى الحذر، ويسير في الوقت الذي يهدأ الناس فيه، الوقت الذي ينكون فيه قُطّاع الطريق نائمين، أو غافلين، أو مشتغلين بحاجاتهم أو نحو ذلك؛ ولذلك قال ﷺ: «من خَافَ أَدْلَجَ...»، الدلجة: السير في الليل، «**وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ**»، سار في الليل في غفلة الناس، حتّى إذا جاء

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، وعبد بن حميد (ص٤٢٥)، والحاكم (٤/ ٣٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

النهار اختفى؛ حتّى ينزل عليه الليل فلا يراه أحد، ولا يتعرّض له، فتمرّ عليه أيام وهو على هذه الحال، فيبلغ المنزل سالمًا.

نقول كذلك: من خاف من الله تعالى؛ فإنه يهرب من أسباب عذابه، فمن خاف من النار هرب منها، ومن خاف من عذاب الله هرب من أسبابه، كما أنّ من رجا شيئًا طلبه، فالرجاء السابق له علامتان: صدق الطلب، وصدق المواصلة، فإذا قلت لإنسان: أما ترجو ربّك؟ فيقول: أنا أرجوه. وتسأله: ألا ترجو رحمة الله، ألا ترجو جنّته؟ فيقول: نعم، أنا راجيه، فلا بدّ أن تقول له حينئذٍ: أين علامة الرجاء؟ فإن الطلب علامة صدق الرجاء، فمن رجا شيئًا طلبه. إذا كنت ترجو الجنّة، فلا بدّ أن تبذل لها ثمنًا، وثمنها هو الحسنات والأعمال الصالحة، فأما من يقول: أنا أرجو ثواب الله وأرجو رحمته، وأرجو جنّته، ولكنّه لا يقدّم لها ثمنًا، فإنّها لا تحصل له هذه الجنّة فهي غالية، وليست رخيصة، ولا بدّ لها من ثمن.

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً  بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الكَسْلَانِ[1]

كذلك نسأل من يقول: أنا أخاف النار؟ فنقول له: ألا تخاف النار؟ فيقول: بلى. نقول: أين علامة الخوف؟ لا بدّ للخوف من علامة، وعلامة ذلك أن تهرب من أسباب دخولها، وهي السيئات، فإذا ابتعدت عن السيئات، وتركت المخالفات، ولازمت الطاعات أتمّ ملازمة، ثبت

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٦٠٠).

عليك أنّك من الخائفين.

فأمّا أن تقول: أنا خائف من العذاب؟ وأنت تكثر من الذنوب والسيئات، ومع ذلك لا تخاف من عاقبتها، فلست بصادق، تذكّر أنّ الجنّة قد أُخرج منها أبونا آدم ـ عليه السلام ـ بذنب واحد.

قال بعض السلف: آدم ـ عليه السلام ـ أُخرج من الجنّة بذنب واحد، وأنتم تعملون الذنوب، وتكثرون منها، وترجون بها دخول الجنّة. وقال في ذلك بعضهم:

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنِي رَاقِدٍ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ

تَصِلِ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرْكَ الجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ العَابِدِ

وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمَ ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ[1]

نستغفر الله أن نكون من العصاة، فالخوف قليل في قلوبنا، وكذلك الرجاء غير محقق في صدورنا، ولكن لعلّ ولعلّ إن شاء الله.

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٤٥٩)، ونسبها بسنده إلى أبي نواس الحسن بن هانىء، وذكر أنه قالها في علته التي مات فيها.

قال الشارح:

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فَتَأَمَّل كَيْفَ جَعَلَ رَجَاءَهُمْ مَعَ إِتْيَانِهِمْ بِهَذِهِ الطَّاعَاتِ؛ فَالرَّجَاءُ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الإِتْيَانِ بِالأَسْبَابِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، شَرْعُهُ وَقَدَرُهُ وَثَوَابُهُ وَكَرَامَتُهُ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ أَرْضٌ يُؤَمِّلُ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ مِنْ مَغَلِّهَا مَا يَنْفَعُهُ، فَأَهْمَلَهَا وَلَمْ يَحْرُثْهَا وَلَمْ يَبْذُرْهَا، وَرَجَا أَنَّهُ يَأْتِي مِنْ مَغَلِّهَا مِثْلَ مَا يَأْتِي مَنْ حَرَثَ وَزَرَعَ وَتَعَاهَدَ الأَرْضَ؛ لَعَدَّهُ النَّاسُ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ! وَكَذَا لَوْ رَجَا، وَحَسَّنَ ظَنَّهُ أَنْ يَجِيئَهُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ! أَوْ يَصِيرَ أَعْلَمَ أَهْلِ زَمَانِهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبِ العِلْمِ وَحِرْصٍ تَامٍ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. فَكَذَلِكَ مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ، وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ فِي الفَوْزِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَى، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ مِنْ غَيْرِ طَاعَةٍ وَلَا تَقَرُّبٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَنْ رَجَا شَيْئًا، اسْتَلْزَمَ رَجَاؤُهُ أُمُورًا:

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ مَا يَرْجُوهُ.

الثَّانِي: خَوْفُهُ مِن فَوَاتِهِ.

الثَّالِثُ: سَعْيُهُ فِي تَحْصِيلِهِ بِحَسَبِ الإِمْكَانِ.

وَأَمَّا رَجَاءٌ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الأَمَانِيِّ، وَالرَّجَاءُ شَيْءٌ وَالأَمَانِي شَيْءٌ آخَرَ، فَكُلُّ رَاجٍ خَائِفٌ، وَالسَّائِرُ عَلَى الطَّرِيقِ إِذَا خَافَ أَسْرَعَ السَّيْرَ مَخَافَةَ الفَوَاتِ.

وَقَـــالَ تَعَـــالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. فَالْمُشْرِكُ لَا تُرْجَى لَهُ الْمَغْفِرَةُ؛ لأَنَّ اللَّهَ نَفَى عَنْهُ الْمَغْفِرَةَ، وَمَا سُوَاهُ مِنَ الذُّنُوبِ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ.

وَفِي «مُعْجَمِ الطَّبَرَانِيِّ»[1]: «عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القيامَةِ ثَلَاثَةُ دَوَاوِيْنَ: دِيوَانٌ لَا يَغْفِرُ مِنْهُ شَيئًا، وَهُوَ الشِّرْكُ باللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَهُوَ مَظَالِمُ العِبَادِ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، وَدِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ، وَهُوَ ظُلْمُ العَبْدُ نَفْسَهُ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ».

وَقَدِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ العُلَمَاءِ فِي الفَرْقِ بَيْنَ الكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، وَسَتَأْتِي الإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَأَهْلُ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ).

وَلَكِنْ ثَمَّ أَمْرٍ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهُ، وَهُوَ: أَنَّ الكَبِيرَةَ قَدْ يَقْتَرِنُ بِهَا مِنَ الحَيَاءِ، وَالخَوْفِ، وَالاسْتِعْظَامِ، لَهَا مَا يُلْحِقُهَا بِالصَّغَائِرِ، وَقَدْ يَقْتَرِنُ بِالصَّغِيرَةِ، مِنْ قِلَّةِ الحَيَاءِ، وَعَدَمِ المُبَالَاةِ، وَتَرْكِ الخَوْفِ، وَالاسْتِهَانَةِ بِهَا، مَا يُلْحِقُهَا بِالْكَبَائِرِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَرْجِعُهُ إِلَى مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ الفِعْلِ، وَالإِنْسَانُ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ.

---

(١) في المعجم الكبير (٦١٣٣) بلفظ مختلف من حديث سلمان ﷺ. وما أورده الشارح أخرجه بنحوه: أحمد (٦/ ٢٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشيخ:

ذكرنا أنّ الرجاء هو محبّة الشيء، وطلبه، وترك أضداده، وترك ما يعوق عنه، ومتعلقه؛ قد يتعلّق بالله تعالى، وقد يتعلّق بثوابه، وقد يتعلّق ببعض خلقه؛ فيقال مثلًا: أنت ترضي ربّك، ويقال: هذا يرجو رحمة الله، ويقال: هذا يرجو ربَّه. ولا بدّ لمن رجا أن يعمل. وضرب الشارح لذلك أمثلة، فقال: إذا كان إنسان له أرض وأهملها، وقال: أنا أرجو أن يكون لها غلّة، وأن يكون فيها ثمر، وأن يكون لها بذرة، مثل الذي حرث أرضه، أو غرس فيها وزرع، فهل يكون هذا محقًّا؟ كلا، بل يراه الناس سفيهًا؛ ويقولون له: كيف ترجوها وأنت مهمل لها؟ فإذا كنت ترجو منها ثمرًا وترجو منها غلّة، فلابدّ أن تفعل السبب الذي تحصل منه الغلّة، وهو الحرث والسقي والغرس والإصلاح... وما أشبه ذلك.

وأمثلة أخرى أيضًا: فكيف ينجب إنسان لم يتزوّج مثلًا، أو نقول هنا أشياء محسوسة، كيف يريد الشبع من لم يتناول طعامًا، أو الريّ من لم يشرب إن أراد أن يذهب الظمأ، أو الرزق ولم يطلبه أو يفعل أسبابه. فهكذا من يرجو السعادة ولم يفعل أسبابها. والذي يرجو الجنّة يبذل ثمنها، والذي يرجو رحمة الله تعالى ويرجو ثوابه يقدم له سببًا، يحصل به على ما رجاه. هذا ما يتعلّق بالرجاء.

والمؤلف الماتن ذكر الخوف والرجاء، وأن الخوف على من فعل كبيرة؛ نخاف على أهل الكبائر إذا ماتوا وهم على كبائرهم، وكذلك يخاف الإنسان

من عقاب الله إذا كان قد فعل ذنبًا، وهذا الخوف يحمله على ترك ذلك الذنب، سواء أكان كبيرًا أم صغيرًا، ومعلوم أن الخوف هو الوجل والفزع الذي يحمله على أن يترك هذا الذنب، وأن يتوب منه، ويقلع عنه، ولا يعود إليه، فإذا كان كذلك فهو خوف صادق.

والذنوب التي تسبّب العذاب قد تكون ذنوبًا توجب العذاب مثل الشرك، أو تسببه فلا توجبه، كما دون الشرك. الذي دون الشرك إمّا صغائر أو كبائر، والإصرار على الصغيرة يصيّرها كبيرة؛ وذلك لأنّ من تهاون بالذنب واستهان به، واستمرّ عليه دلّ إصراره وتهاونه به على احتقاره للذنوب. ومن احتقر الذنوب أصبح ذنبه عظيمًا، وبكونها تصبح عظيمة لا يبقى لها في قلبه قدر، فيتهاون بالذنوب، ويكثر من فعلها، فيقع فيها، وتتراكم عليه وتهلكه.

كما ورد ذلك في الأحاديث، وليس المقام يستدعي تفصيل الذنوب أو التوسّع فيها.

تكلّم الشارح أيضًا عن أكبر الذنوب وأكبر الكبائر، وهو الشرك، وأنّه يوجب دخول النار، لأنّ الله ذكر أنّه لا يغفر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، والحديث الذي مرّ معنا أن الشرك لا يغفر، حيث جعل الدواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر وهو الشرك، وصاحبه لابدّ أن يدخل النار بقدر شركه، إن كان أصغر، أو يخلد فيها إن كان أكبر.

وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد لنفسه، تقصيره في حقوق نفسه،

هذا يغفره الله، ولا يحاسب العبد عليه.

وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وهو مظالم العباد فيما بينهم، القصاص لا محالة، إذا كان العباد عندهم مظالم فيما بينهم؛ فلا بدّ أن تستوفى هذه المظالم في الدار الآخرة.

الشاهد هنا ذكر الظلم الذي هو أكبر الذنب، وهو الكفر والشرك، فإن الله تعالى سمّى الشرك ظلمًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وسمّى الكفر ظلمًا في قوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ وذلك لأنّ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والكافر يضع الإيمان في غير موضعه، والمشرك يضع العبادة في غير موضعها، فأصبحوا بذلك ظالمين، بل هو أعلى أنواع الظلم.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ قَدْ يُعْفَى لِصَاحِبِ الإِحْسَانِ العَظِيمِ مَا لَا يُعْفَى لِغَيْرِهِ، فَإِنَّ فَاعِلَ السَّيِّئَاتِ تَسْقُطُ عَنْهُ عُقوبَةُ جَهَنَّم بِنَحْوِ عَشَرَةِ أَسْبَابٍ، عُرِفَتْ بِالاسْتِقْرَاءِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم:٦٠]، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [البقرة:١٦٠]، والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَهِيَ الخَالِصَةُ، لَا تَخْتَصُّ بِهَا ذَنْبٌ دُونَ ذَنْبٍ، لَكِنْ هَلْ تَتَوَقَّفُ صِحَّتُهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عَامَّةً؟ حَتَّى لَو تَابَ مِنْ ذَنْبٍ، وَأَصَرَّ عَلَى آخَرَ لَا تُقْبَلُ؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا تُقْبَلُ.

وَهَلْ يَجُبُّ الإِسْلَامُ مَا قَبْلَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَإِنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا؟ أَمْ لَا بُدَّ مَعَ الإِسْلَامِ مِنَ التَّوْبَةِ مِنْ غَيْرِ الشِّرْكِ؟ حَتَّى لَوْ أَسْلَمَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الزِّنَى وَشُرْبِ الخَمْرِ مَثَلًا، هَلْ لَا يُؤَاخَذُ بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي كُفْرِهِ مِنَ الزِّنَى، وَشُرْبِ الخَمْرِ؟ أَمْ لَا بُدَّ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ مَعَ إِسْلَامِهِ؟ أَوْ يَتُوبَ تَوْبَةً عَامَّةً مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ؟ وَهَذَا هُوَ الأَصَحُّ: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّوْبَةِ مَعَ الإِسْلَامِ، وَكَونُ التَّوْبَةِ سَبَبًا لِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ، وَعَدَمِ المُؤَاخَذَةِ بِهَا، مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ، بَيْنَ الأُمَّةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَكُونُ سَبَبًا لِغُفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ إِلَّا التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، وَهَذَا لِمَنْ تَابَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾، وَقَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الآية [الزمر:٥٤].

السَّبَبُ الثَّانِي: الاسْتِغْفارُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]. لَكِنَّ الاسْتِغْفَارَ تَارَةً يُذْكَرُ وَحْدَهُ، وَتَارَةً يُقْرَنُ بِالتَّوْبَةِ، فَإِنْ ذُكِرَ وَحْدَهُ دَخَلَ مَعَهُ التَّوْبَةُ، كَمَا إِذَا ذُكِرَتِ التَّوْبَةُ وَحْدَهَا شَمِلَتْ الاسْتِغْفَارَ، فَالتَّوْبَةُ تَتَضَمَّنُ الاسْتِغْفَارَ، وَالاسْتِغْفَارُ يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الآخَرِ عِنْدَ الإِطْلَاقِ، وَأَمَّا عِنْدَ اقْتِرَانِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِالأُخْرَى، فَالاسْتِغْفَارُ: طَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّ مَا مَضَى، وَالتَّوْبَةُ: الرُّجُوعُ وَطَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّ مَا يَخَافَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ.

وَنَظِيرُ هَذَا: الفَقِيرُ وَالمِسْكِينُ، إِذَا ذُكِرَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ شَمِلَ الآخَرَ، وَإِذَا ذُكِرَا مَعًا، كَانَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَعْنًى، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩]، ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة:٤]، ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. لَا خِلَافَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الاسْمَيْنِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ لَمَّا أُفْرِدَ شَمِلَ المُقِلَّ وَالمُعْدِمَ، وَلَمَّا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالآخَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ الآية [التوبة:٦٠]، كَانَ المُرَادُ بِأَحَدِهِمَا المُقِلَّ، وَالآخَرِ المُعْدِمَ، عَلَى خِلَافٍ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ: الإِثْمُ وَالْعُدْوَانُ، وَالبِرُّ وَالتَّقْوَى، وَالفُسُوقُ وَالعِصْيَانُ.

وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا المَعْنَى: الكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، فَإِنَّ الكُفْرَ أَعَمُّ، فَإِذَا ذُكِرَ الكُفْرُ، شَمِلَ النِّفَاقَ، وَإِنْ ذُكِرَا مَعًا، كَانَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَعْنًى.

وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ وَالإِسْلَامُ، عَلَى مَا يَأْتِي الكَلَامُ فِيهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

لما ذكر أن الكفر والشرك أعظم الذنوب، وأنّه لا يغفر، ولما ذكر الذنوب التي هي دونه، ذكر أنّ ذلك يغفر بأسبابه، وهذه الأسباب التي ذكر منها سببين الآن أوصلها شيخ الإسلام إلى عشرة أسباب، وهذه أغلبها خاصّة بالمسلم، أمّا المشرك والكافر فلا يغفر له، ولا تنفعه، إلا السبب الأول، وهو التوبة.

ولا شكّ في أنه إذا تاب الكافر من الكفر مُحي عنه الكفر، وإذا تاب المشرك من الشرك مُحي عنه ذنب الشرك، فالتوبة تمحو ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. فهذا السبب يعمّ جميع الذنوب صغيرها وكبيرها، الكفر وما دون الكفر، إذا وفَّق الله تعالى العبد للتوبة وتاب، فإسلامه يُعدُّ توبة، وندمُه على كفره وعلى سيّئاته يُعد توبة، وعزمه على أنّه لا يرجع إلى شيء من ذلك هو من شروط التوبة، وتركه للأعمال التي تاب منها يُعد من التوبة.

وقد أطال العلماء الكلام عن التوبة، كما تكلّم على ذلك ابن القيّم في كتابه «مدارج السالكين»، وأطال فيها إطالة تستدعيها هذه التوبة، ومن جملة ما ذكره الشارح هو أنه هل يشترط لمن تاب أن يتوب من الذنوب كلّها، أو يصحّ أن يتوب من ذنب وهو يعمل ذنبًا.

يقول: الكافر إذا أسلم ودخل في الإسلام ونطق بالشهادتين، وأتى بالأركان الخمسة، ولكنّه يقول: أنا لا أصبر عن الخمر، أو لا أصبر عن الزنى، إذا استمرّ على هذا الذنب، فهل يقبل منه إسلامه أو لا يقبل؟ الصحيح أنّه

يقبل منه، ويكون كسائر المذنبين ما دام أنّه يوجد في المسلمين من يزني ولا يخرجه ذلك عن كونه مسلمًا، وإن كان ذلك ينقص إيمانه، كذلك لو أنّ إنسانًا تاب من الزّنى، ولم يتب من السرقة؛ قُبلت توبته من هذه، وعوقب على هذه، وهكذا بقيّة الذنوب. ويصحّ أن يتوب من ذنب، وإن كان معه ذنب آخر فتقبل توبته من هذا، ويعاقب على الثاني.

أمّا أدلّة التوبة والترغيب فيها، فهو واضح من القرآن والسنّة، وقد ورد الأمر فيها والترغيب فيها، والحضّ عليها، وورد قبوله، وأنّ الله يفرح بها، وما أشبه ذلك.

أما السبب الثاني: فهو الاستغفار. استغفر من غفر: بمعنى الستر، نقول: غفر الشيء ستره، ومنه سمّي المغفَر الذي يلبسه المجاهد على رأسه ليقيه من السلاح؛ لأنه يستر الرأس.

الاستغفار: إذا قال العبد: أستغفر الله، يعني: أسأله أن يغفر لي ذنوبي ويمحو عنّي أثرها. وإذا قال: اللهم اغفر لي، أي: امحُ عنّي السيّئات وكفّرها، وأزل عنّي ما تلوثت به منها. هذا معنى أستغفر الله: وهو طلب المغفرة، وطلب محو الذنب ومحو أثره، وذلك أنّ الذنب يسبب للإنسان شيئًا من الأثر السيّئ، كأنّه يؤثّر عليه أثرًا معنويًّا، وليس حسيًّا، وإن كان قليلًا - وسخ وقذر وأذى - وإن كان نظيف الجسم، ونظيف البدن، ونظيف الثياب. لكنّه قد تلبّس بهذه الذنوب، فأكسبته شيئًا من هذا الأذى، ومن الوسخ والقذر، فالاستغفار يمحوها ويزيل أثر السيئات، فإذا قال: اغفر لي؛ أي: امح عنّي، واسترني من

آثار هذه السيّئات.

ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أن الاستغفار مقارن للتوبة، فلا يمكن أن يكون تائبًا إلا إذا كان مستغفرًا، فإذا قال: أستغفر الله، فمعناه: ربِّ امْحُ عنِّي، وإذا قال: ربِّ تُبْ عليّ؛ أي: اقبل توبتي وكأنّه راجع إلى الله بعد أن كان معرضًا.

والمستغفر كأنّه طالب أن يزيل عنه أثر السيئات، فيكونان متلازمين، لا يكون توبة إلا ومعها استغفار، وذكر الشارح أنّهما متقاربان في المعنى، كلّ منهما يدخل في معنى الآخر، فلو اشتغل الإنسان بقوله: إني تائب إلى الله، ربّ إنّي تبت إليك، ربّ تب عليّ، أتوب إلى الله، تبت إليك وإني من المؤمنين، كفاه عن طلب الغفر.

وإن قال: أستغفر الله، ربِّ اغفر لي، غفرانك ربَّنا، وأكثر من طلب المغفرة، كفاه عن أن يقول إنّي تائب، فالتوبة تقوم مقام الاستغفار، والاستغفار يقوم مقام التوبة، والجمع بينهما من باب التأكيد والتقوّي، ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ يجمع بينهما، وقد ثبت عن ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»[1]؛ فقول: ربِّ اغفر لي: هذا استغفار، وقول: تب عليّ: هذا توبة، أتى بهما معًا، مع أنّ أحدهما بمعنى الآخر، وهذا من باب

(١) أخرجه أبوداود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وأحمد (٢/ ٢١)، وابن حبان (٣/ ٢٠٦).

التقوية ومن باب المعاهدة، وكان عليه الصلاة والسلام يكثر الاستغفار مع أنّ الله تعالى قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر في قوله سبحانه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، ولكنّه ﷺ كان يعدّ الغفلة ذنبًا، فيتوب منه، وقد ثبت عنه ﷺ أنّه قال: «**إنه لَيُغَانُ على قَلْبِي**[1] **وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ في الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[2]، هذه توبة واستغفار من ترك الذكر، أو من الغفلة أحيانًا، فكيف بنا ونحن دائمًا ـ إلا ما شاء الله ـ في غفلة، وفي سهو، وفي حديث نفس؟ أليس علينا أن نكثر من التوبة، وأن نكثر من الاستغفار، فهذان سببان في حصول محو السيئات وإزالة أثرها صغيرة كانت أم كبيرة.

قد مرّ بنا سابقًا ما يتعلّق بالخوف والرجاء، وأنّا نخاف على المذنبين، ونرجو للمحسنين، ونخاف عذاب الله، ونرجو ثوابه، وأنّ المسلم يجمع بين الخوف والرجاء.

ومن أسباب الخوف:

١ - تذكُّر عظمة الله عزّ وجلّ وهيبته وكبريائه، وهو أهل أن يخاف حقّ الخوف.

٢ - تذكُّر العذاب الدنيوي، وما أحلّ الله بالعصاة، وما أوقع بهم من المُثُلات، وذلك سبب لأن يخاف العباد من عذاب الله العاجل الذي أنزله بمن

---

(١) أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر. انظر: النهاية لابن الأثير (٣/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث أبي بردة ﷺ.

كفر، وعتا وتجبّر.

٣- تذكّر عذاب الآخرة، وأن عذاب النار شديد، وأنّ هول المطلع شديد، وأنّ عذاب الله في الآخرة أشدّ وأبقى، وذلك يدفع الإنسان إلى أن يخاف أشدّ الخوف.

وقد مدح الله الذين يخافونه ويخشونه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، يعني: الذين يخشونه حقّ خشيته هم الذين يعرفونه حقّ معرفته، العالمون بأمره ونهيه، والعالمون بعقوبته وشدّة بطشه.

وقد أمر الله بأن نخشاه دون غيره بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، والخشية: شدّة الخوف، وكذلك أمرنا أن نخافه، وألّا نخاف غيره، وأخبرنا بأنّ الشيطان يخوّفنا بأعدائنا، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم﴾ [آل عمران:١٧٥]، أي: إنّ الشيطان يعظّم أولياءه في نفوس المؤمنين، ويمكر لهم، أي: يوقع في نفوسهم أن الكفار أهل قوّة وأهل عزّة وأهل منعة وأهل معرفة، فاخشوهم وخافوهم، فعند ذلك يضعف خوف الله في قلب العبد، ويعظمُ خوفه من الإنسان، وذلك أعلى مقاصد الشيطان، فلذلك قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، أي: يخوّفكم أولياؤه، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم﴾. فالأسباب التي تدفع إلى الخوف كثيرة.

وأما الأسباب التي تدفع إلى الرجاء، في كون الإنسان يرجو رحمة الله،

ويعلّق قلبه بربّه، ويثق بأنّه سيعينه وينصره، وأنّه سينجيه من كيدِ عدوّه، ويثق بأنّه سبحانه أهل أن يرحم عبده، وأن يتجاوز عن السيئات، فالأسباب لذلك أيضًا كثيرة، فمنها:

١- تذكر واسع الرحمة، وأن من أسمائه تعالى الرحمن الرحيم، وأنه وصف نفسه بأنه أرحم الراحمين، ومقتضى هذه الرحمة أن يرحم من يرجوه، ويعلّق آماله برحمته، ولا ييأس من فضله ومن عطائه.

٢- ومن الأسباب التي تدفع العبد أن يرجوه وحده تذكر أنّه سبحانه قد غفر للعباد المذنبين، وكفّر عنهم السيئات، ومحا عنهم الزلّات، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو واسع الفضل والرحمة، وفي الحديث: «**جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذلك الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ**»[1]، ويوم القيامة يكمل المائة، ويرحم بها عباده، وكل جزء منها طباق ما بين السماء والأرض.

٣- كذلك يتذكر أن الله يغفر الذنوب لمن استغفره، ويفرح بتوبة التائب، ويحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين، ويقبل على عباده إذا أقبلوا إليه، وإذا تقرّبوا منه شبرًا تقرّب منهم ذراعًا، وذلك كلّه دليل على أنّه واسع الرحمة، فيرجوها العباد.

٤- ومن الأسباب التي تدفع العبد إلى الرجاء، تذكره مضاعفة الله

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الحسنات، فإنّ الله يضاعفها أضعافًا كثيرة، والحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها، وقد أخبر النبي ﷺ بأنه: «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ في كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[1].

فهذه بعض الأسباب التي لأجلها يجمع العبد بين الخوف والرجاء، رجاؤه يكون حاملًا له على تعلّق قلبه بربّه، وفعل الطاعات التي يستحق بها أن ينال واسع الرحمة والثواب. وخوفه يدفعه إلى الهرب من المحرّمات والمعاصي، حتّى ينجو من أسباب العذاب، فإذا جمع بينهما اعتدل أمره، وأصبح بذلك من المؤمنين فلا أمن ولا يأس. فالأمن هو فعل المذنبين الذين يصرّون على الذنوب ويأمنون، ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، واليأس: هو قطع الرجاء، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، بل يجمع المؤمن بينهما.

وقد ذكرنا أنّه يستحبّ في حالة الصحّة تغليب الخوف؛ حتّى يستقلّ حسناته فيكثر من الحسنات، وفي حالة المرض يغلِّب جانب الرجاء؛ حتّى يقدم على ربّه، وهو يحسِّن الظنّ به، وبذلك يعمل الحسنات ويهرب من السيئات.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

قال الشارح:

السَّبَبُ الثَّالِثُ: الحَسَناتُ، فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالسَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، فَالْوَيْلُ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أَعْشَارَهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. وَقَالَ ﷺ: «وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»(١).

السَّبَبُ الرَّابِعُ: المَصَائِبُ الدُّنْيَوِيَّةُ، قَالَ ﷺ: «مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا غَمٍّ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ بِهَا خَطَايَاهُ»(٢).

وَفِي «المُسْنَدِ»(٣): أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَزَلَتْ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، وَأَيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا؟ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ فَذَلِكَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ». فَالمَصَائِبُ نَفْسُهَا مُكَفِّرَةٌ، وَبِالصَّبْرِ عَلَيْهَا يُثَابُ العَبْدُ، وَبِالتَّسَخُّطِ يَأْثَمُ، فَالصَّبْرُ وَالتَّسَخُّطُ أَمْرٌ آخَرُ غَيْرُ المُصِيبَةِ، فَالمُصِيبَةُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ لَا فِعْلِ الْعَبْدِ، وَهِيَ جَزَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَى ذَنْبِهِ، وَيُكَفِّرُ ذَنْبَهُ بِهَا،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ١٥٣)، والحاكم (١/ ٥٤) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) (١/ ١١)، وصححه ابن حبان (٧/ ١٧٠)، والحاكم (٣/ ٧٤) من حديث أبي بكر ﷺ، ويشهد له حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

وَإِنَّمَا يُثَابُ الْمَرْءُ وَيَأْثَمُ عَلَى فِعْلِهِ، وَالصَّبْرُ وَالسَّخَطُ مِنْ فِعْلِهِ، وَإِنْ كَانَ الثَّوَابُ وَالأَجْرُ قَدْ يَحْصُلُ بِغَيْرِ عَمَلٍ مِنَ العَبْدِ، بَلْ هَدِيَّةٌ مِنَ الغَيْرِ، أَوْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فَنَفْسُ المَرَضِ جَزَاءٌ وَكَفَّارَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ.

وَكَثِيرًا مَا يُفْهَمُ مِنَ الأَجْرِ غُفْرَانُ الذُّنُوبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَدْلُولَهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ لَازِمِهِ.

السَّبَبُ الخَامِسُ: عَذَابُ القَبْرِ، وَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ السَّادِسُ: دُعَاءُ المُؤْمِنِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ فِي الحَيَاةِ وَبَعْدَ المَمَاتِ.

السَّبَبُ السَّابِعُ: مَا يُهْدَى إِلَيْهِ بَعْدَ المَوْتِ، مِنْ ثَوَابِ صَدَقَةٍ، أَوْ قِرَاءَةٍ، أَوْ حَجٍّ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ الثَّامِنُ: أَهْوَالُ يَوْمِ القِيَامَةِ وَشَدَائِدُهُ.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1]: «أَنَّ المُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ».

السَّبَبُ العَاشِرُ: شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ وَأَقْسَامِهَا.

السَّبَبُ الحَادِي عَشَر: عَفْوُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ مِنْ غَيْرِ شَفَاعَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ

---

(١) تفرد به البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

لَهُ لِعِظَمِ جُرْمِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ دُخُولِهِ إِلَى الْكِيرِ، لِيَخْلُصَ طِيبُ إِيمَانِهِ مِنْ خَبَثِ مَعَاصِيهِ، فَلَا يَبْقَى فِي النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِه أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، بَلْ مَنْ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ[1].

وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، امْتَنَعَ القَطْعُ لِأَحَدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الأُمَّةِ، غَيْرَ مَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِالجَنَّةِ، وَلَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ.

---

قال الشيخ:

هذه الأسباب التي ذكرها الشارح، هي أسباب رحمة الله ومغفرته ومحوه للسيئات وإزالة لأثرها.

تقدّم السبب الأول وهو التوبة النّصوح، وأن التّوبة تمحو الذنوب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وتقدّم السبب الثاني وهو الاستغفار والذي هو طلب محو الذنوب وإزالة أثرها، والذي كان يرغب فيه وورد الأمر به في القرآن وفي الأحاديث.

والسبب الثالث هنا وهو الحسنات والأعمال الصالحة، التي تمحو السيّئات، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وَقَالَ ﷺ: «وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[2]، فالحسنات تزيل أثر السيئات، ولو كثرت

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٣).

السيِّئات؛ وذلك لأن الحسنات يضاعفها الله أضعافًا كثيرة، وأما السيّئات فلا تضاعف، وإن كانت قد تعظم بسبب من الأسباب.

والحسنة تضاعف إلى عشر حسنات، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ـ عز وجل ـ قال: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هو هَمَّ بها وعملها كَتَبَهَا اللَّهُ له عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إلى سبعمائة ضِعْفٍ، إلى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ له سَيِّئَةً وَاحِدَةً**»[1]، وقال في رواية: «**أو مَحَاهَا اللَّهُ، وَلَا يَهْلِكُ على اللَّهِ إلا هَالِكٌ**»[2]، أخبر الله أنّه إذا همَّ بحسنة ولكن عاقه عائق فلم يعملها، أثابه الله بنيّته، وكتب همَّه حسنة، وإذا همَّ بسيئة فلم يعملها، أو تركها خوفًا من الله كتب همَّه حسنة كاملة، وإذا عمل الحسنة فله عشر حسنات، وإذا عمل السيئة فله سيئة واحدة.

فويلٌ لمن غلبت آحادُه عشراته، الذي تكثر سيئاته وهي واحدة واحدة حتّى تغلب حسناته وهي عشر عشر، فهذا هالك، «**وَلَا يَهْلِكُ على اللَّهِ إلا هَالِكٌ**». فإذا كان الإنسان قد وقع في سيئات وذنوب، فإنّه يؤمر بأن يكثر من الحسنات حتى تمحو أثر تلك السيئات هذا سبب من الأسباب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أما السبب الرابع، فهي المصائب التي تنوب الإنسان في هذه الحياة، والأدلّة عليها كثيرة. فالله تعالى يسلِّط المصائب على الناس ليختبرهم، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

ووردت أدلّة أخرى على أنّ الحسنات تزداد بالمصائب، والسيئات تمحى بالمصائب، فإذا صبر العبد على مصيبته كُتب له بها حسنات، ومُحي عنه سيئات، والمصائب تعمّ ما يصيب المسلم في النفس وفي المال وفي الأولاد، ونحو ذلك. فإذا أصاب الإنسان مرض، أو فقد مال، أو فقد ولد، أو موت قريب وحزن على ذلك، وعلم أن ذلك من عند الله، أثابه الله.

قال علقمة في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم ذلك ويرضى»[(١)].

وقال ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مع عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رضي فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[(٢)]. وقال في حديث آخر: «إذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ له الْعُقُوبَةَ في الدُّنْيَا، وإذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عنه بِذَنْبِهِ حتى يُوَافِيَ بِهِ يوم الْقِيَامَةِ»[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٨/ ١٢٣)، والبيهقي (٤/ ٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٤٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وأبو يعلى (٧/ ٢٤٧)، والحاكم (٤/ ٦٠٨) من حديث =

وقال ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا غَمٍّ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ بِهَا خَطَايَاهُ»[1]، وهذا بشرط أن يعلم أنّها من الله ويصبر، أمّا إذا أصاب العبد المصائب، فيشتكي إلى الناس ويجزع ويصيح، فإن الله يبطل أجره.

ولذلك وردت الأدلّة الكثيرة بأجور الصبر، والنهي عن الجزع.

أمّا السبب الخامس: فهو عذاب القبر؛ فقد يسلِّط الله عليه العذاب إذا كان عنده بقيّة ذنوب، وقد يكون ذلك سببًا في محوها، فتنة القبر وعذاب القبر بما فيه من الأهوال.

أمّا السببان السادس والسابع: فهما ما يُهدى إلى الميّت بعد موته من الدعاء له، والصدقة عنه من أقاربه وأصحابه و أحبابه، فيصل إليه ذلك. فإنّهم يصلّون عليه، ويدعون له، ويترحّمون عليه، ويهدي له أهلُه حسناتٍ، ويستغفرون له، ويتصدّقون عنه، ويهبون له أعمالًا جارية ونحو ذلك، فتكون أسبابًا للمغفرة.

أمّا السبب الثامن: فهو ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والشدائد، والفزع الأكبر، وذلك أيضًا مما يكفّر الله به الخطايا، ويمحو به الذنوب ونحوها.

---

=

أنس ﷺ، وأخرجه أحمد (٤/ ٨٧)، والحاكم (٤/ ٣٧٦) من حديث عبد الله بن مغفل ﷺ.

(١) تقدم (٣/ ٣١٢).

أمّا السبب التاسع: فقد ورد في الحديث أنّ الناس إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنّة والنار، فيقتصّ من بعضهم لبعض مظالم كانت بينهم، فهذا أيضًا مما تكفّر به السيئات، ويزال به أثرها[1].

وأما السبب العاشر: فقد أخبر النبي ﷺ بأنّ هناك شفاعة، وأنّ الله تعالى يُشَفِّع عباده الصالحين وأولياءه في أهل التوحيد، فيشفعون لهم فيخرج الله من النار بشفاعتهم من قدَّر الله أنه تزيل عنه هذه الشفاعة أثر السيّئات.

أمّا السبب الحادي عشر: فهو رحمة الله عزّ وجلّ بعباده، وعفوه عنهم، فقد ورد في الحديث أن الله يقول: «**شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ**»[2]؛ وذلك لأنهم من أهل العقيدة والتوحيد فيدخلهم الجنّة.

فبكلّ هذه الأسباب وغيرها يغلّب العبد بها جانب الرجاء، بحيث يعلم أنّ هذه من الأسباب التي يرفع الله بها العذاب، ويكفّر بها الله السيئات، فإذا لم تنفع هذه الأسباب، وبقي على العبد سيئات لم تكفّر بهذه المكفّرات كلّها فحينئذٍ لا بدّ أن يدخل الكير حتّى ينقّى؛ فإنّ النار بمنزلة كير الحدّاد، والحدّاد إذا كان عنده حديد مشوب بالتراب يدخله النار حتى يذوب، فإن ذاب الحديد انفصل عن الخبث والشوائب، فإنّه يتبيّن ما هو صالح وما ليس بصالح، قال

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٣).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٧).

الله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد:١٧]، يوقدون النار على الذهب حتّى يذوب ويخلص ما هو ذهب مما هو نحاس، ويتميّز هذا من هذا بكير الحدّاد، وكذلك النار التي أعدّها الله تعالى للعذاب، يدخل بها هذا الذي بقيت عليه سيئات، وبقيت عليه ذنوب لم تكفّرها هذه المكفّرات، فإذا طُيِّب ونقّي ولم يبق فيه إلاّ ما هو خالص، عند ذلك يأذن الله بإخراجه من النار، لأنّ دار النعيم ـ وهي الجنّة ـ دار طيبة لا يدخلها إلَّا الطيّب. فالذي فيه شيء من الخبث لا بدّ أن يُنقّى. وبكل حال عقيدة أهل السنّة أنّه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد، وأهل الإيمان، وأما من ليسوا بمؤمنين، فإنّهم يلحقون بالكفّار.

ومعلوم أنّ الإيمان الذي هو تحقيق الإيمان بالأركان الستّة: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]. الإيمان بهذه الأركان الستّة هو الذي يحمل على الأعمال الصالحة، ولكن هذا الإيمان قد يكون ضعيفًا، فيقع معه شيء من المعاصي والسيئات، ويقع صاحبه في شيء من التقصير وترك بعض الطاعات، فتتراكم عليه الذنوب، فيحتاج إلى ما يمحوها وما يكفّرها، وقد يكون ضعفه كبيرًا، فيكثر تناوله للسيئات، وقد يكون ضعف الإيمان قليلًا، فلا تكثر منه السيئات، فيمحوها ربّه بالمكفّرات، وقد يكون الإيمان قويًا وراسخًا، أرسخ من الجبال، فلا يُقدِمُ العبدُ على شيء

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

من السيئات، ولا يفعل شيئًا من المحرّمات.

أما من فقد الإيمان بهذه الأمور، ضعف إيمانه بالله، أو لم يؤمن بالله إلهًا وربًّا، وإنّما أنكر أن يكون الله هو ربه، أو عبد غيره أو نحو ذلك، أو لم يؤمن باليوم الآخر، كأن ينكر الدار الآخرة، وأن ينكر الجزاء والجنّة والنار، وجعل الدنيا هي الدار التي ليس غيرها دارًا، أو ما أشبه ذلك، وكذلك إذا أنكر الشرع الشريف، أو أنكر كتاب الله، أو كتبه المنزلة، أو أنكر رسالة الرسل، وما جاؤوا به، أو لم يؤمن برسالتهم وبما جاؤوا به، أو ردّ شيئًا من شرعهم، ولم يقبله، فمثل هذا لا يكون مؤمنًا؛ وذلك لأنّه لم يدخل الإيمان في قلبه، فلا تنفعه الطاعات التي يعملها، ولا القُربات التي يتقرّب بها؛ لأنها لم تكن على أصل ولم تكن على أساس، إذن فهذه هي المكفّرات التي هي من حقّ أهل الإيمان وأهل التوحيد الذين قد يضعف توحيدهم بسبب من الأسباب.

فأمّا من ليسوا من أهل العقيدة، ولا من أهل الإيمان، بل من أهل الكفر والنفاق والشرك، والمخالفات، وإنكار الدار الآخرة، وإنكار الجزاء والحساب، وإنكار الشرائع وردّها، فهؤلاء كفار، ولكن أعمالهم مهما كانت، فإن الله تعالى يحبطها: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]. ولو أكثروا من الحسنات والصدقات وما أشبه ذلك، مادامت ليست على أساس ولا أصل، وهو العقيدة الراسخة التي هي أهم أركان الإيمان كما ذكرنا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالأَمْنُ وَالإِيَاسُ يَنْقُلَانِ عَنْ مِلَّةِ الإِسْلامِ، وَسَبِيلُ الحَقِّ بَيْنَهُمَا لأَهْلِ القِبْلَةِ.

---

قال الشارح:

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ خَائِفًا رَاجِيًا، فَإِنَّ الخَوْفَ المَحْمُودَ الصَّادِقَ مَا حَالَ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَإِذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ خِيْفَ مِنْهُ اليَأْسُ وَالقُنُوطُ. وَالرَّجَاءُ المَحْمُودُ: رَجَاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، فَهُوَ رَاجٍ لِثَوابِهِ، أَوْ رَجُلٍ أَذْنَبَ ذَنْبًا، ثُمَّ تَابَ مِنْهُ إِلَى اللَّهِ، فَهُوَ رَاجٍ لِمَغْفِرَتِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

أَمَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُتَمَادِيًا فِي التَّفْرِيطِ وَالخَطَايَا، يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ بِلَا عَمَلٍ، فَهَذَا هُوَ الغُرُورُ وَالتَّمَنِّي وَالرَّجَاءُ الكَاذِبُ.

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: الخَوْفُ وَالرَّجَاءُ كَجَنَاحَيِ الطَّائِرِ إِذَا اسْتَوَيَا، اسْتَوَى الطَّيْرُ، وَتَمَّ طيرانُه، وَإِذَا نَقَصَ أَحَدُهُمَا، وَقَعَ فِيهِ النَّقْصُ، وَإِذَا ذَهَبَا، صَارَ الطَّائِرُ فِي حَدِّ المَوْتِ.

وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ أَهْلَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] الآية. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الآية [السجدة: ١٦]. فَالرَّجَاءُ

يَسْتَلْزِمُ الخَوْفَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ، لَكَانَ أَمْنًا، وَالخَوْفُ يَسْتَلْزِمُ الرَّجَاءَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ، لَكَانَ قُنُوطًا وَيَأْسًا. وَكُلُّ أَحَدٍ إِذَا خِفْتَهُ هَرَبْتَ مِنْهُ، إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِنَّكَ إِنْ خِفْتَه هَرَبْتَ إِلَيْه، فَالخَائِفُ هَارِبٌ مِنْ رَبِّهِ إِلَى رَبِّهِ.

وَقَالَ صَاحِبُ «مَنَازِلِ السَّائِرِينَ»[1] ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «الرَّجَاءُ أَضْعَفُ مَنَازِلِ المُرِيدِ». وَفِي كَلَامِهِ نَظَرٌ، بَلِ الرَّجَاءُ وَالخَوْفُ عَلَى الوَجْهِ المَذْكُورِ مِنْ أَشْرَفِ مَنَازِلِ المُرِيدِ.

وَفِي «الصَّحِيحِ»[2] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ». وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[3] عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»، وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ العَبْدَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَجَاؤُهُ فِي مَرَضِهِ أَرْجَحُ مِنْ خَوْفِهِ، بِخِلَافِ زَمَنِ الصِّحَّةِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ خَوْفُهُ أَرْجَحُ مِنْ رَجَائِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالحُبِّ وَحْدَهُ، فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالحُبِّ وَالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَحْمُود الوَرَّاق فِي قَوْلِهِ[4]:

---

(١) (ص٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٩٣).

(٣) برقم (٢٨٧٧).

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٤/ ٢٩٦).

لَوْ قَدْ رَأَيتَ الصَّغِيرَ مِنْ عَمَلِ الـ ـخَيْرِ ثَوَابًا عَجِبْتَ مِنْ كِبَرِه
أَوْ قَدْ رَأَيتَ الحَقِيرَ مِنْ عَمَلِ الشَّـ ـرِّ جَزَاءً أَشْفَقْتَ مِنْ حَذَرِهِ

---

قال الشيخ:

شاهد الكلام أنّ المسلم يجمع بين الخوف والرجاء وأنّ هذه النصوص تدلّ على ذلك؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]، جمع الله فيها بين الخوف والرجاء، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]، جمع الله فيها بين الخوف والطمع، والطمع: هو الرجاء، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، الحذر: هو الخوف، يعني: يخاف عذاب الآخرة، ويرجو رحمة ربِّه، ونحو ذلك من الأدلّة التي تدلّ على أنّ المسلم يجمع بين الخوف والرجاء.

وذكرنا بعض الأسباب التي لأجلها يخاف، والأسباب التي لأجلها يرجو. وقد ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ عن عباده هذه الصفات ليرغِّب بها، وكثيرًا ما يأمر الله عباده بالخوف منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١]، يعني: خافوا عذابي. وتارةً يعلق الخوف ببعض مخلوقاته، كقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:٢٤]، أي: خافوا من النار، وابتعدوا عنها، والنار من الأسباب التي تحمل العبد على الخوف، إذا تذكّرها.

ذُكِرَ أن الإنسان يجمع بين الخوف والرجاء، وأنّه يجعله كجناحي الطائر، وأن

المحبّة كرأس الطائر، والخوف والرجاء مثل الجناحين؛ فإذا كان الطائر قد استوى جناحاه، ورأسه موجود، ففيه حياة مستقرّة، وطيرانه معتدل، فإذا قُطع أحد جناحيه تعثَّرَ، وإذا قطع جناحاه فهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وإذا قطع رأسه مات، فلا بدّ أن تستوي الثلاثة، وأن تجتمع في العبد المحبّة والخوف والرجاء.

المحبّة: هي محبّة الله؛ لإنعامه على عبده، والخوف هو الخوف من عذابه، والرجاء: هو تعلّق قلبه بثوابه، فإذا عبد الله بالمحبّة فقط دون أن يخافه، فهو جاهل، كما يُذكر عن بعض المتصوّفة، وبعض غلاة الزهّاد ونحوهم، الذين يقولون ما نعبد الله خوفًا من ناره، ولا رجاءً لجنّته، ولكن نعبده محبّةً له، ثم إنهم يغالون في بعض المحبّة، وكأنّهم آمنون من العذاب، وكأنّهم لم يكن لهم رغبة في الثواب، فهذا حالة الصوفيّة، والذين يعبدون الله لهذا في الحقيقة منافقون أو زنادقة.

وأما من غلَّب جانب الخوف، فإنّه قد وقع في عقيدة الوعيديّة، الذين يُغلّبون جانب الوعيد، وهم الخوارج والحرورية والمعتزلة، ويسمّون وعيديّة؛ لأنهم يتمسّكون بالأدلّة التي فيها الوعيد، فيحقّقونها، ولهذا يخلدون أصحاب الكبائر في النار كما تقدّم.

وأما من عبد الله وحده وغلَّب جانب الرجاء فهذا يسمى المرجئ، والمرجئة هم الذين يتعلّقون بالرحمة ولا يذكرون العذاب، يرجون الله ولا يخافون عقابه، وهؤلاء على خطأ.

والمؤمن الحق يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يكون هناك خوف شديدٌ فيؤول إلى القنوط، ولا رجاء قويّ فيؤول إلى الأمن؛ لأنّ هذين قد ذمّهما الله تعالى في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

إذا رأيت مثلًا الذي يتمادى في العصيان، ويكثر الذنوب، ويقال له: ألا تخاف الله؟ ألا تتّقيه؟ ألا تخشاه؟ أين الخشية وأين الخوف وأين الرهبة من عذاب الله؟ فيتعلّق بالرحمة ويقول: رحمة الله واسعة، الله أرحم الراحمين. ثم يتمادى في المعصية، وتخوّفه من عذاب الدنيا فيأمن، وتخوّفه من عذاب الآخرة فلا يخاف؛ فمثل هذا يُخشى عليه أن يكون من الذين أمنوا مكرَ الله، وأمنوا انتقامه، وأمنوا عذابه، وأمنوا بطشه الشديد، وأمنوا من أخذه لهم على غرّة وغفلة، يُخاف عليهم أن يأتيهم أمر الله، وهم على غرّتهم وغفلتهم وسلوتهم، ما أخذ الله قومًا إلا عند غرّتهم، وقد أخبر النبيّ ﷺ بأنّ تأخير العذاب إمهال، وليس إهمالًا، فقال ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ ما يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»[1]، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢]، يعني: يغترّون بنعم الله وعطائه، فيأتيهم عذاب الله وهم غافلون.

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذا أَخذَهُ لم يُفلتْه»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢][2].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني (٩١٣) من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٢٩٦).

وهذا الإمهال والتأخير ليس هو لأجل أنهم ليسوا مذنبين، ولكنّ اللهّ يؤخّرهم إلى أجل كما قال سبحانه: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:٥٨]، أي: لهم موعد لا بدّ أن يأتي. هذا في حقّ الذين يأمنون مكر الله، ويعملون السيئات، ويكثرون منها، وهم آمنون مطمئنّون، كأنّهم لم يعملوا سيئة.

وهناك قسمٌ آخر، قد قطعوا رجاءَهم، وقنطوا من الرحمة، واستسلموا للعذاب في نظرهم، ولا ندري هل هم صادقون في هذا أو مستهزئون. تنصح كثيرًا من الذين عاشوا على السيّئات وعلى الكفريات، وعلى ترك القربات، فإذا نصحت أحدهم، وقلت له: تُبْ إلى الله، وأقبل عليه، واترك ما أنت عليه من التمادي والغفلة، واترك الذنوب. فإنه يمتنع ويقول: أنا قد أذنبت وكفرت وأسأت، وارتكبت من الخطايا كذا وكذا، وشربت الخمور، وزنيت، وقتلت، وأكلت الحرام، وفعلت وفعلت، فلا تنالني رحمة الله، ولا حيلة لي فيها، ولست من أهلها، بل أنا من أهل النار، وأنا آيس من الرحمة، هكذا ينقل عن بعضهم، ولعلّ هؤلاء من الذين يستهترون بمن ينصحهم، ويتهاونون بنظر الله عز وجلّ وينكرون أنّ هناك عذابًا دنيويًا، وعذابًا أخرويًا، فيقول هذه المقالة لردّ ذلك الذي ينصحهم، ولعدم قناعتهم بما نقوله.

نقول: بلا شكّ أنّ هذا كفر، ويؤول إلى الكفر، وذلك هو اليأس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، هؤلاء قد يئسوا من الرحمة، وقطعوا رجاءهم، ووقعوا في القنوط، وقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ

وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦]، القنوط: هو قطعُ الرجاء كليًّا من الرحمة، وكأنَّهم يقولون: لا تنالنا الرحمة، ولو كانت رحمة الله واسعةً، فذنوبنا أكبر من أن تنالها، وذنوبنا أكبر من أن تغفرها، قد كفرنا، وأسأنا، وأذنبنا، وأخطأنا، فذنوبنا كثيرة لا تصل إليها رحمة الله. فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال، والفسوق والمعاصي، ويتمادون فيها، ويموتون وهم على ذلك، وكأنّهم يئسوا من الخير، وقد قطعوا رجاءهم. هؤلاء وقعوا في هذه المرتبة القبيحة، التي هي اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله.

وبكلّ حال فالمسلم لو وقع فيما وقع فيه، فإنّ الله يكفّر عنه السيئات للأسباب التي مرّت بنا، فإذا حقق العقيدة والتوحيد قبل الله عزّ وجلّ منه وتاب عليه، ورحمه وهو أرحم الراحمين، وأمّا إذا مات على ذلك فقد أقدم على العذاب والعياذ بالله.

ثم إن من عقيدة المسلمين الأخذ بالظاهر، فهم يصفون الإنسان بما يظهر منه، فإذا أظهر خيرًا أحبّوه، وإذا أظهر سوءًا أبغضوه، ومع ذلك فإنّهم إنّما يحكمون بالظاهر، ففي الأثر عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رسول اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قد انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لنا من أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لنا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا من سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يُحَاسِبُهُ في سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لنا سُوءًا لم نَأْمَنْهُ ولم نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ

قال: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ»[1]، فليس لنا من أمره الباطن شيء؛ لأن الله تعالى هو الذي يتولى السرائر.

وبناء على هذه العقيدة، أو هذه القاعدة؛ فإنّنا نحبّ المؤمنين الذين أظهروا لنا الخير، ودانوا به وعملوا به، وأظهروا لنا العمل الصالح. وأظهروا لنا السنّة، وظهر لنا أنّهم من أهل الدين، ومن أهل الصلاح، وعملوا لله بما يحبه الله وبما فرضه عليهم، نحبّهم ونشهد لهم بالخير، سواءًا أدركناهم أو سبقونا، وندعو لهم بالمغفرة والرحمة، كما وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وصفهم الله بأنّهم يحبّون من هاجر إليهم ومن سبقهم من المؤمنين، ويدعون لهم بالمغفرة والرحمة، ويدعون الله بأن ينزع من قلوبهم الغلّ والحقد والحسد، والبغضاء والشنآن لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان.

فهذه صفة كلّ مؤمن، فإذا كان كذلك فإنّهم بضدّ ذلك، في حقّ الفسقة والمشركين والمنافقين والمعاندين، إذا رأوا أهل الفساد وأهل السوء وأهل المنكر أبغضوهم، ومقتوهم، وحذروا من شأنهم وعاملوهم بما يظهر منهم من السوء والفحش، والكلام القبيح، وحذّروا من فعلهم، ومقتوهم على هذا، ولو كانت قلوبهم نقيّة ليس إليهم معرفة ما في القلوب، فأهل الفساد وأهل الشرور، وأهل

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤١).

البدع إذا أظهروا بدعتهم، وأظهروا معاصيهم وأعلنوها، فإننا نبغضهم ونمقتهم ونحذرهم، ونحذر منهم، ويكون بغضنا لهم بغضًا في ذات الله، لا نبغضهم لأجل أهوائنا، ولا لأجل مصالحنا، ولا لأجل أنهم تنقّصونا أو عابونا، أو ما أشبه ذلك، بل يكون الحامل لنا على بغضهم غيرةً لله، وغيرةً على شريعته ودينه، وحماية لتعاليمه، ويكون من آثار هذا البغض وهذا المقت البعد عنهم والحذر من شرّهم، ومن سوئهم، والتحذير من أن ينخدع أحد بدعاياتهم وتضليلاتهم، وبمعاصيهم وفسوقهم الذي يدعون إليه، والذي ينشرونه ويظهرونه ويزعمون أنّ الحقّ والصواب في جانبهم، فإذا كان كذلك فهكذا يكون أهل الإيمان.

تقدّم أنّ من عقيدة أهل السنّة أنّهم يرجون لأهل الخير النجاة، ولا يجزمون لهم بالجنّة، ويخافون على أهل الشرّ من العذاب، وإن لم يجزموا لهم بالنار، ولكن يكون من آثار معرفتهم أن هؤلاء من الصالحين - سواء أدركوهم أو سبقوهم - أنّهم يحبّونهم، ويحثّون على أعمالهم، وإن لم يشهدوا لهم بأنّهم من أهل الجنّة؛ لأنّهم لا يعلمون ما في القلوب.

ومن آثار كراهتهم إذا رأوا أهل المعاصي، حذروهم وحذّروا منهم، ولم يشهدوا لهم بالنار، ويخافون عليهم من عذاب الله، وأنّهم من أهل النار، وإذا أنكروا عليهم ومقتوهم، حذّروا من سوئهم، وحذّروا من أفعالهم، وبيّنوا أخطاءهم، وقالوا: إنّهم وقعوا في هذا الخطأ، فإياكم أن تساعدوهم على خطئهم أو توافقوهم، أو تفعلوا كفعلهم، فيُنسب إليكم من الخطأ ما نُسب إليهم، أو ما وقعوا فيه، كذلك تكون طريقة أهل الخير؛ أنّهم يحذرون الشر، ويحذّرون منه،

ومعلومٌ أيضًا أن الشر والمعاصي والفتن تتفاوت، فمنها ما قد يُوصل إلى الكفر، وقد يوصل إلى الردّة والخروج من الإسلام، كالاستهزاء بشعائر الإسلام، والاستهزاء بأوامر الله ونواهيه، والاستهزاء بأهل الدين، والتنقّص لهم، فإذا ظهر هذا من أناس فإنّنا نبرأ منهم، ونضلِّلهم، ونخشى أن يكونوا قد وقعوا فيما يخرج من الملّة؛ وذلك لأن الاستهزاء قد ذكر الله أنّه من أعمال الكفّار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩، ٣٠]، والمقصود بالضحك: الاستهزاء.

وكذلك يقول تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون:١٠٩، ١١٠]، أي: تستهزئون بهم وتتنقّصونهم، فكان من أسباب العذاب: سخريتهم بأهل الدين.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، يستهزئون بهم ويتنقَّصونهم، فهذا دليل على أنّ الاستهزاء بالدين وبحملتِهِ يعد من دلائل الكفر.

كذلك قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢١١، ٢١٢]، أي: من أعمالهم، وديانتهم، وما أشبه ذلك، فإن السخرية من أسباب ردّتهم وكفرهم.

وقد روى ابن جرير الطبري[1] عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا أكثر من قرّائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: فأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]».

فجعل رسول الله ﷺ فعلهم هذا كفرًا؛ لأنّهم استهزؤوا بالله وآياته ورسوله وأصحاب رسوله، فكان ذلك منهم ردّةً أوصلتهم إلى الكفر والعياذ بالله!

وبكلّ حال، فإنّنا نقول: إنّنا نرجو للمحسن، ونخاف على المذنب، نقول إذا وصلوا إلى هذه الحال فإنهم قد وصلوا إلى درجة الكفر، فإنّنا نحكم بكفرهم، ونحكم بردّتهم ظاهرًا.

وأمّا إذا كان مما يحتمل أن يغفر، ويدخل تحت مشيئة الله، فإنّ ذلك مما لا يكفر به صاحبه، فالذنوب التي دون الشرك هي الذنوب المعرّضة للأسباب المكفّرة لها، ومن هذه المكفرات: التوبة، والاستغفار، ودعاء المؤمنين لأهلها، ومنها المصائب الدنيويّة، ومنها شدّة القبض عند الموت، وما يصيبهم من عذاب

(١) في تفسيره (١٠/ ١٧٢)، وأخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩).

القبر، ومنها شدّة الفزع في الآخرة، ومنها الحزن الذي ينالهم عند الموقف، وشدّة الألم، ومنها تكفير الله عزّ وجلّ لهم بما حصل لهم من المصائب، ومنها شفاعة الشافعين، ومنها ما ذكر من أنّهم يتهافتون عند القنطرة، وأنّهم يدخلون النّار، ويكفّر عنهم بقدر الذنب، وبعد ذلك يخرجون إذا كانوا من أهل التوحيد ومن أهل الصلاح.

وذكرنا أنّ المسلم مأمور بأن يجمع بين الخوف والرجاء، فيكون خائفًا راجيًا، ولا يبلغ به الرجاء إلى الأمن، بحيث يأمن مكر الله، ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، ولا يبلغ به الخوف إلى اليأس ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، بل يكون بينهما.

وذكرنا أنّ العلماء يقولون: يغلب الخوف في حالة الصحّة حتى يستقلّ أعماله، ويستكثر من الحسنات، وفي حالة المرض يغلب الرجاء؛ ليقدم على الله وهو يحسن الظنّ به، ففي الحديث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»[1]. فيكون ذلك إن شاء الله من أسباب رحمة الله لعبده.

هكذا ينبغي على المسلم في نفسه أن يجمع بين الخوف والرجاء، أما فيما يتعلق بالآخرين فإنه يخاف على المذنبين، ويرجو للمحسنين، فيجمع بين الخوف والرجاء من غير أن يصل إلى الجزم واليقين.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٩٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلاَ يَخْرُجُ العَبْدُ مِنَ الإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودِ مَا أدخلَهُ فيهِ.

---

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ بِخُرُوجِهِ مِنَ الإِيمَانِ بِارْتِكَابِ الكَبِيرَةِ. وَفِيهِ تَقْرِيرٌ لِمَا قَالَ أَوَّلًا: (إِنَّهُ لَا يُكَفَّرُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ، مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ). وَتَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَذَا المَعْنَى.

---

قال الشيخ:

تقدّم أنّ الخوارج يكفّرون بالذنب، وأنّ الإنسان إذا أصرّ عليه عدُّوه كافرًا داخلًا في الكفر، خارجًا من الإيمان، وأمّا المعتزلة فإنّهم يخرجونه بالذنب من الإيمان، ولكن لا يدخلونه في الكفر، ويجعلونه في منزلة بين الكفر والإيمان. والكلّ على خطأ، والصواب ما قاله الطحاوي: أنّه لا يخرج المرء منه إلا بما أدخله فيه؛ وهو الإيمان بالله والإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب والرسل واليوم الآخر والبعث، فإذا جحد شيئًا من هذه الأشياء خرج من الإيمان. فما دام يؤمن بالله، ويعمل بطاعته، ويؤمن بالرسل، ويعمل باتّباعهم، ويؤمن بالكتب، ويعمل بها، ويؤمن باليوم الآخر ويستعدّ له، فإنّه لا يخرج من الإيمان، ولو قصّر في بعض الأوامر، ولو ارتكب بعض النواهي، فذلك لا يوصله إلى الكفر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالإِيمَانُ: هُوَ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالجَنَانِ، وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّرْعِ وَالبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ، وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَواءٌ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالخَشْيَةِ وَالتُّقَى، وَمُخَالَفَةِ الهَوَى، وَمُلَازَمَةِ الأَوْلَى.

---

قال الشارح:

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الإِيمَانِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا: فَذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالأَوْزَاعِيُّ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيه، وَسَائِرُ أَهْلِ الحَدِيثِ، وَأَهْلُ المَدِينَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَأَهْلُ الظَّاهِرِ، وَجَماعَةٌ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ: إِلى أَنَّه تَصْدِيقٌ بِالجَنَانِ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ.

وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابُنَا إِلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّحَاوِيُّ: أَنَّهُ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالجَنَانِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الإِقْرَارَ بِاللِّسَانِ رُكْنٌ زَائِدٌ لَيْسَ بِأَصْلِيٍّ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ أَبُو مَنْصُورِ المَاتُرِيدِي رَحِمَهُ اللَّهُ، وَيُرْوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَذَهَبَ الكَرَّامِيَّةُ إِلَى أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ! فَالمُنَافِقُونَ عِنْدَهُمْ مُؤْمِنُونَ كَامِلُو الإِيمَانِ، لَكِنْ يَقُولُونَ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الوَعِيدَ الَّذِي أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ! وَقَوْلُهُمْ ظَاهِرُ الفَسَادِ.

وَذَهَبَ الجَهْمُ بْنُ صَفْوَانٍ وَأَبُو الحُسَيْنِ الصَّالِحِي - أَحَدُ رُؤَسَاءِ القَدَرِيَّةِ - إِلَى أَنَّ الإِيمَانَ: هُوَ المَعْرِفَةُ بِالقَلْبِ! وَهَذَا القَوْلُ أَظْهَرُ فَسَادًا مِمَّا قَبْلَهِ! فَإِنَّ لَازِمَهُ أَنَّ

فِرْعَونَ وَقَوْمَهُ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ عَرَفُوا صِدْقَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢]. وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤]. وَأَهْلُ الكِتَابِ كَانُوا يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَلَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ، بَلْ كَافِرِينَ بِهِ، مُعَادِينَ لَهُ، وَكَذَلِكَ أَبُو طَالِبَ عِنْدَهُ يَكُونُ مُؤْمِنًا، فَإِنَّهُ قَالَ[1]:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينا

بَلْ إِبْلِيسُ يَكُونُ عِنْدَ الجَهْمِ مُؤْمِنًا كَامِلَ الإِيمَانِ! فَإِنَّهُ لَمْ يَجْهَلْ رَبَّهُ، بَلْ هُوَ عَارِفٌ بِهِ، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦]. ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الحجر: ٣٩]. ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢]. وَالكُفْرُ عِنْدَ الجَهْمِ: هُوَ الجَهْلُ بِالرَّبِّ تَعَالَى، وَلَا أَحَدَ أَجْهَلُ مِنْهُ بِرَبِّهِ! فَإِنَّهُ جَعَلَهُ الوُجُودَ المُطْلَقِ، وَسَلَبَ عَنْهُ جَمِيعَ صِفَاتِهِ، وَلَا جَهْلَ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا، فَيَكُونُ كَافِرًا بِشَهَادَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ!

وَبَيْنَ هَذِهِ المَذَاهِبِ مَذَاهِبُ أُخَر، بِتَفَاصِيلَ وَقُيودٍ، أَعْرَضْتُ عَنْ ذِكْرِهَا اخْتِصَارًا، ذَكَرَ هَذِهِ المَذَاهِبَ أَبُو المُعِين النَّسَفِي فِي «تَبْصِرَةِ الأَدِلَّةِ»، وَغَيْرُهُ.

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن إسحق في السيرة (٢/ ١٣٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٨).

**قال الشيخ:**

ابتدأ الكلام على الإيمان وأسماء الإيمان والدين، ومعلوم أنّ الشرع الشريف جاء إلى هذه الأمّة وهم على جهل، ولكنّهم يتكلّمون بلغة عربيّة فصحى، فخاطبهم بلغتهم، وجاءهم بهذه الشريعة، وشرع لها أسماء، وعرفها، وأصبحت معروفة بأسمائها الشرعيّة، ولو كان لها أسماء لغويّة. فعرفت هذه بأسماء الإيمان والدين.

فيقال: تعريف الصلاة في اللغة: الدعاء، وتعريفها في الشرع: العبادة المشتملة على القيام والركوع والسجود.

وتعريف الزكاة في اللغة النماء أو الطهارة، وتعريفها في الشرع: القدر المخرج من المال الذي ينفق في وجوهه.

وتعريف الصيام في اللغة: مجرّد الإمساك، وفي الشرع: الإمساك بالنيّة عن المفطِّرات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وتعريف الحج في اللغة القصد، أو القصد إلى شيء معيّن، وفي الشرع: زيارة البيت الحرام في وقت مخصوص، من إنسان مخصوص.

وتعريف الجهاد في اللغة: بذل الجهد في الشيء الذي فيه مشقّة، وتعريفه في الشرع: هو قتال الكفار لأجل كفرهم.

وكذلك يقال في تعريف المعروف، وفي تعريف المنكر، وفي تعريف الإسلام والإيمان، والكفر والشرك، والنفاق والفسوق، وما أشبهها من المسمّيات في

اللغة، ومسمّياتها في الشرع معروفة، نقلها الشارع من مسمّياتها اللغوية، إلى المسمّيات الشرعية، فأصبحت إذا أطلقت تنصرف إلى المعنى الشرعي لا اللغوي.

فالكلام هنا على الإيمان، والإيمان له معنى في اللغة، وله معنى في الشرع، نقله الشرع إليه، وأصبح أهله إذا قيل: مؤمنون يقصد به المعنى الشرعي لا المعنى اللغوي. فنقول: الإيمان في اللغة: هو التصديق بالقلب، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ أنّهم قالوا لأبيه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]، أي: مصدّق لنا، لما قالوا: إن الذئب أكل أخاهم. فالإيمان في اللغة: التصديق، لكن الشرع الشريف جعله أعمّ من التصديق، فأدخل فيه العقيدة والأقوال والأعمال.

وعلى ذلك بنى الأئمّة ـ رحمهم الله ـ هذه الأصول، فنجد أن المؤلفين من العلماء عملوا على ذلك، ففي «صحيح البخاري» كتاب الإيمان، جعله في المقدّمة بعد كتاب بدء الوحي، وأورد فيه الأدلّة، فقال: باب الصلاة من الإيمان، باب الأذان من الإيمان، وهكذا، عدّد الأعمال الصالحة وجعلها من الإيمان، كأركان الدين كلها، وفي «صحيح مسلم» بدأ بعد المقدّمة بكتاب الإيمان، وأورد فيه الأحاديث الكثيرة التي تبين الإيمان، وتبيّن ما يدخل فيه، فأصبح الإيمان إذا أُطلق، فإنّه هو المسمّى الشرعي. فمن لم يكن على هذا فلا يقال له مؤمن، ولا يثاب ثواب المؤمنين.

معلوم أنّه يترتّب على هذه التسمية أحكام: يترتّب عليها أن من آمن عصم

نفسه من القتل، ويترتّب عليها أنّ من آمن أحرز الصواب، واستحقّ الثواب الذي ارتجع من الإيمان، ويترتّب عليها أنّ من آمن عاملناه معاملة إخواننا المؤمنين، فإذن لا بدّ أن يكون هذا هو الذي آمن الإيمان الشرعي، ليس الإيمان اللغويّ؛ لأنّ الإيمان اللغوي خفيٌّ، وإنّما هو شيء في القلب، ونحن لا نشقّ القلوب، ولا نشقّ البطون، وإنّما نعمل بما يظهر لنا إذا رأينا الإنسان يصلّي، ويصوم معنا، ويجاهد، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويترك المعاصي، والمحرّمات، ويستكثر من الأعمال الصالحات، قلنا هذا من أهل الإيمان.

فإذًا نقول: إن هذه الأقوال منها ما هو صواب، ومنها ما هو خطأ، فالصواب هو القول الأول الذي هو قول أهل الحديث، وقول أكثر الأئمّة الذين ذهبوا مذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه والأوزاعي وأئمّة الحديث البخاري ومسلم، وأهل السنن، وسائر المحدّثين، وأكثر المتكلّمين، وسلف الأمّة، وهذا هو القول الصحيح، وهو أنّ الإيمان تدخل فيه الثلاثة: وهي قول اللسان، وتصديق الجنان، وعمل الأركان. فنقول: ما هو قول باللّسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، والأركان هي الجوارح، فالعينان لهما عمل، والأذنان لهما عمل، واليدان والرجلان لهما عمل، والبطن والفرج كلها لها عمل.

وفي عقيدة أهل السنّة واعتقادهم أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان. وعلى ذلك أدلّة كثيرة، ويأتينا بعضها وأوضحها، قول النبي ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلا الله،**

وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ»[1]، يعني: يعمّ الخصال كلّها، فيقال مثلًا: الصدقات والصوم والصلاة من الإيمان، وهكذا الذكر من الإيمان، والتسبيح والقراءة والجهاد وفعل الخير كله من الإيمان، ويقال أيضًا: الزهد في الدنيا، والخوف من الله، والرجاء والحب في الله، والبغض في الله كلها، من خصال الإيمان.

وذكر في الحديث ثلاثة من شعب الإيمان: أعلاها: (قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلا الله)؛ لأنها العقيدة، ولأنها كلمة التوحيد، وهذا قول باللسان «لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إيّاه»، ولكن لها معنى، وأدناها: (إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ)، وهذا عمل بالأركان، كون الإنسان يميط الأذى عن الطريق هذا عمل بالبدن، والحياء شعبة من الإيمان. الحياء عمل قلبي، فذكر قول لا إله إلا الله، وذكر العمل وهو إماطة الأذى، وذكر الاعتقاد الذي هو الحياء، الذي هو فعل قلبي يحمل على ما يجمِّل ويزيّن، وينهى عن كل ما يدنّس ويشين، فبذلك تدخل الأعمال كلها في مسمّى الإيمان، ولأجل ذلك اهتمّ العلماء بشعب الإيمان، وصنّف الإمام البيهقي كتابًا كبيرًا سمّاه «شعب الإيمان» يعني خصال الإيمان، وأورد فيه الأحاديث الكثيرة بأسانيدها، وأوصله إلى تسع وسبعين خصلة، وجعل منها الأعمال اليدويّة والبدنيّة ونحوها، ومنها إماطة الأذى عن الطريق، وما أشبه ذلك. وعرفنا بذلك أن هذا القول هو أقوى الأدلّة، ولعلّه يأتينا ما يقوّيه من أدلّة أيضًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٩) مختصرًا، ومسلم (٣٥) بلفظه من حديث أبي هريرة ﷺ.

أما القول الذي ذكره الطحاوي ـ رحمه الله ـ فهو الذي اشتهر عند الحنفية، فأبو حنيفة ـ رحمه الله ـ كان من المتقدّمين، وكأنّه لم يتوسّع في الأدلّة، ولأجل ذلك أخذ الإيمان على أنه كلمة لغويّة، فجعل الإيمان هو التصديق بالقلب، وجعل القول علامة عليه، أو جعل القول منه.

فالإيمان عند أبي حنيفة: سلامة القول والاعتقاد، ولم تكن الأعمال عنده من الإيمان، ولا شكّ أنّ هذا قول خاطئ، وفيه نقص كما سيأتي.

وهناك أقوال أخرى أشار إليها الشارح، ولكنّها أقوال باطلة كما سيأتي.

ومن ذلك قول الماتريديّة: إنّ الإيمان إنّما هو العقيدة، والقول هو من آثاره.

وقول الكراميّة: إنّ الإيمان هو القول. والكرّاميّة هم أتباع عالم مشهور يقال له محمد ابن كرّام، كانوا في باب العقيدة وفي باب الإيمان والصفات أقربَ إلى أهل السنّة، ولكن لهم قول في الإيمان غريب، عندهم قول: إن الإيمان هو القول، هو التلفظ بهذه الكلمة فقط، فمعناه أن المنافقين عندهم مؤمنون؛ لأنّهم تلفظوا بـــه ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]، فمعناه: أنّ من قال باللسان: إنّه مؤمن فهو مؤمن، فالمنافقون عندهم مؤمنون، والله تعالى أثبت أنّ المنافقين كافرون في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ [المنافقون:٣]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٣٧، ١٣٨]، هؤلاء هم المنافقون الذين يقولون: آمنّا

باللسان، وهم مؤمنون عند الكراميّة، ولكنّهم يقولون: إنهم في النار؛ لأنّ الله توعّدهم في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٤٥]، وفي الآيات التي فيها الوعيد الشديد لهم، فهم يقولون: إنّهم في النار، وإنّ كلمتهم، وهي قولهم: إنّا آمنّا ليست عاصمةً لهم من العذاب، وعلى كلّ حال، فقد جعلوهم مؤمنين، وهذا قول خاطئ.

القول الرابع: قول الجهميّة، وهو أبعد الأقوال، وهو أنّ الإيمان عندهم هو المعرفة فقط. فمن عرف فهو مؤمن، وهذا القول من أعجب الأقوال كما قال الشارح، فيلزم من ذلك أن كلّ من عرف ذلك ولم يتّبع يصير مؤمنًا كامل الإيمان، والله قد ذكر أنّ إبليس ـ وهو أكبر الكافرين ـ يعرف ربّه، ويعرف أنّ هناك بعثًا، وأنّ هناك عذابًا، وأنّ هناك جنّة ونارًا، وقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٥]، فهو عارف.

إذًا فهو عندهم مؤمن، يستحق الوعد الذي وعد الله به المؤمنين، هذا هو قول الجهميّة.

كذلك فرعون قد أخبر الله أنّه عارف، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾، أي: آيات موسى عليه السلام ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل:١٤]، فرعون وقومه كانوا مستيقنين بها، وكذلك قوم موسى ـ عليه السلام ـ قد علموا ما أنزل الله من آيات مستيقنين بها، وكانوا عارفين بربّ السموات والأرض، ففرعون عندهم مؤمن كامل الإيمان، ويستحقّ ما يستحقّه أهل الإيمان الكُمَّل، كذلك كثير من

الكفار كانوا مؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٦]، قيل: إنّها نزلت في أبي طالب، كان يعرف أن محمدًا رسول الله وأنّه صادق، وكان ينهى عن أذاه، وكان ينهى عن اتباعه، وقيل: إن الكفار كانوا يعرفون صدقه، وكانوا يقولون: إنّه هو الصادق الأمين، وعلى كل حال أبو طالب كان مصدِّقًا بأنّ محمدًا رسول الله ﷺ، وبأنّه صادق، وذكر تصديقه في هذه الأبيات:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينا

لَوْلَا المَلامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينا

يقول: لولا مخافة أن يلومني أهلي وأصدقائي، ويقولون: تركت دين آبائك وأجدادك، وجلبت بذلك المسبّة على آبائك وأسلافك، لولا ذلك لآمنت به ولاتّبعته، فهذا ونحوه دليل على أنّه كان عارفًا، ولكنّ هذه المعرفة ما نفعته.

الإيمان عند الجهمية هو المعرفة، فهو مؤمن عندهم. أما الكفر فهو الجهل بالله؛ فيقال لهم: أنتم أجهل الناس بالله؛ لأنّكم جعلتم له الوجود المحض دون أن تقولوا له: وجود مطلق، أو وجود مقيّد ودون أن تجعلوا لله صفاتٍ، أو تجعلوا له أسماءً، جحدوا أسماء الله وجحدوا صفاته، ولم يصفوه إلا بأنّه موجود . قيل لهم: وجود قديم أو محدث؟ قالوا: وجود مطلق فقط. وهذا غاية الجهل، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر؛ لأنهم جعلوا الكفر هو الجهل، وأي جهل أكبر من جهل هؤلاء الجهميّة؟!

قال الشارح:

وَحَاصِلُ الكُلِّ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الإِيمَانَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَقُومُ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَسَائِرِ الجَوَارِحِ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جُمْهُورُ السَّلَفِ مِنَ الأَئِمَّةِ الثَّلَاثَةِ وَغَيْرِهِمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، كَمَا تَقَدَّمَ، أَوْ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ، دُونَ الجَوَارِحِ، كَمَا ذَكَرَهُ الطَّحَاوِيُّ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أَوْ بِاللِّسَانِ وَحْدَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَنِ الكَرَّامِيَّةِ، أَوْ بِالْقَلْبِ وَحْدَهُ، وَهُوَ: إِمَّا المَعْرِفَةِ، كَمَا قَالَهُ الجَهْمُ، أَوِ التَّصْدِيقُ، كَمَا قَالَهُ أَبُو مَنْصُورٍ المَاتُرِيدِي رَحِمَهُ اللَّهُ. وَفَسَادُ قَوْلِ الكَرَّامِيَّةِ وَالجَهْمِ بْنِ صَفْوَانٍ ظَاهِرٌ.

وَالاخْتِلَافُ الَّذِي بَيْنَ أَبِي حَنِيفَةَ وَالأَئِمَّةِ البَاقِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ اخْتِلَافٌ صُورِيٌّ، فَإِنَّ كَونَ أَعْمَال الجَوَارِحِ لَازِمَةً لِإِيمَانِ القَلْبِ، أَوْ جُزْءًا مِنَ الإِيمَانِ، مَعَ الاتِّفَاقِ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ لَا يَخْرُجُ مِنَ الإِيمَانِ، بَلْ هُوَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ، لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَسَادُ اعْتِقَادٍ، وَالقَائِلُونَ بِتَكْفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ، ضَمُّوا إِلَى هَذَا الأَصْلِ أَدِلَّةً أُخْرَى، وَإِلَّا فَقَدْ نَفَى النَّبِيُّ ﷺ الإِيمَانَ عَنِ الزَّانِي وَالسَّارِقِ وَشَارِبِ الخَمْرِ وَالمُنْتَهِبِ، وَلَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ زَوَالَ اسْمِ الإِيمَانِ عَنْهُم بِالكُلِّيَّةِ، اتِّفَاقًا.

وَلَا خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ مِنَ العِبَادِ القَوْلَ وَالعَمَلَ، وَأَعْنِي بِالقَوْلِ: التَّصْدِيقَ بِالْقَلْبِ، وَالإِقْرَارَ بِاللِّسَانِ، وَهَذَا الَّذِي يُعْنَى بِهِ عِنْدَ إِطْلَاقِ قَوْلِهِمْ: الإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، لَكِنَّ هَذَا المَطْلُوبَ مِنَ العِبَادِ: هَلْ يَشْمَلُهُ اسْمُ الإِيمَانِ أَمِ الإِيمَانُ أَحَدُهُمَا، وَهُوَ القَوْلُ وَحْدَهُ، وَالعَمَلُ مُغَايِرٌ لَهُ لَا يَشْمَلُهُ اسْمُ الإِيمَانِ عِنْدَ إِفْرَادِهِ بِالذِّكْرِ، وَإِنْ أُطْلِقَ عَلَيْهِمَا كَانَ مَجَازًا؟ هَذَا مَحَلُّ النِّزَاعِ.

قال الشيخ:

الشارح ـ رحمه الله ـ حنفيُّ المذهب، ومعروف أنّه أراد بهذا الكتاب تقريب الحنفيّة إلى أهل السنّة؛ لأنّه وإن كان حنفيًا في الفروع، لكنّه سلفيٌّ في الأصول والعقيدة، وقد تأثر بشيخه ابن كثير الذي كان شافعي المذهب، وهو تلميذ لابن تيميّة فتأثر ابنُ كثير بابنِ تيميّة وهو حنبليٌّ في باب العقيدة، فبقي ابن كثير شافعيًا في الفروع لكنّه في العقيدة على مذهب أهل السنّة، الذي تلقّاه عن شيخه ابن تيميّة.

أراد الشارح أن يقرّب مذهب الحنفيّة من مذهب أهل السنّة، ويبيّن أن الطحاوي أراد بها قول أهل السنّة، وما عليه سلف الأمّة، حتّى يردّ على الذين تمذهبوا بمذاهب باطلةٍ بعد السلف، وأنكروا الصفات، وأنكروا العلوّ والرؤية لله حقيقة والكلام لله حقيقة. تقدّم أنّه شرح هذه الأشياء، وبيّن أنّ كلام الله حروف ومعانٍ ردًا على الأشاعرة الذين أكثرهم من الحنفية، ويقولون: إنّ كلام الله هو المعنى دون اللفظ، وكذلك في مسألة الرؤية التي ستكون حقيقة بالبصر، وليست مكاشفات ورؤية قلبيةً كما يقول الأشاعرة، ولكن بقيت مسألة الإيمان، فقد عجز عن الجمع بين مذهب أهل السنّة ومذهب الحنفية في باب الإيمان، وذلك لصراحة كلام الطحاوي في أنّ الأعمال ليست من الإيمان؛ حيث جعل الإيمان هو التصديق بالقول فقط، فلم يجد الشارح بدًّا من أن يقول إنّ الخلاف لفظيّ، وإنّ النزاع ليس وراءه جدال، حيث يقول: إذا كنّا متّفقين على أن من عمل السيّئات

لا يخرج من الإيمان، فإنّا لا نجعل فعلها مدخلًا في الإيمان أو زيادة في الإيمان، ولا نجعل تركها مخرجًا من الإيمان. واستدلّ بقول النبيّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، والتَّوْبَةُ مَعروْضَةٌ بَعْدُ»[1]، يستدل بهذا الحديث على مذهب أهل السنّة في باب الإيمان، فأهل السنة يقولون: ليس مؤمنًا كامل الإيمان، ولا هو ناقص الإيمان، ونقول: إن العاصي معه رسم الإيمان؛ معه التصديق، ومعه بعض الأعمال فنسمّيه فاسقًا، ونسمّيه مؤمنًا ناقص الإيمان، ولا نسمّيه كامل الإيمان، والحديث جاء على هذا؛ مادام أنّنا اتفقنا على أنّ الأعمال من الإيمان، فلماذا لا نجعل تركها نقصًا في الإيمان، إذًا الأعمال من الإيمان، والخلاف ليس لفظيًّا كما قال الشارح، بل الخلاف معنويّ، ويترتّب عليه معانٍ كثيرة:

يترتّب عليه أنّ الفاسق مهما عمل من عمل يسمّى مؤمنًا كامل الإيمان، وذلك قول الطحاوي ـ عفا الله عنه ـ: أن أهله في أصله سواء. يعني: التفاوت إنّما هو في الخشية والتُّقى، وأما أصل الإيمان فهم متساوون فيه، فعندهم أنّ إيمان جبرائيل وإسرافيل والملائكة مثل إيمان آحاد الناس، كلّهم على حد سواء في الإيمان، لا تفاوتَ بينهم!! والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص، وهذا خطأ، بل الناس متفاوتون في الإيمان، والصحيح أن الإيمان يزيد وينقص، وتأتي أدلّة واضحة في أنّ الإيمان يزيد وينقص.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

وبكلّ حال؛ الإيمان تدخل فيه الأعمال، وهي من الإيمان، إذا كان النبي ﷺ جعلها شُعبًا، فالشعب لا بدّ منها، والشعب هي التي يتكوّن منها الشيء، فنقول: إنّ الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، أي: إنّ الإيمان يتكوّن من هذه الشعب، فيقال مثلًا: الصلاة شعبةٌ من الإيمان، والزكاة شعبةٌ من الإيمان، والأذكار شعبة من الإيمان، وحُسن الجوار شعبة من الإيمان، والصدقة شعبة من الإيمان، وأشباه ذلك. ويقال: إنّ للكفر شُعبًا كما للإيمان شعب، وإنّ الإيمان يتفاوت أصلُه، فالصحابة إيمانهم الذي في قلوبهم، وكذلك نتيجة أعمالهم التي عملوها هي أقوى وأفضل وآكد من إيمان من بعدهم، ومن إيمان الآخرين، والله تعالى قد أخبر أنّ هناك من هو مؤمن يشمله اسم الإيمان، ولو كان معه نقص في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]، يصدق عليه أنّه يحرر رقبة من أهل الإيمان، ولو كان عاصيًا، ولو كان مذنبًا، ولكنّ الإيمان الذي مدحه الله تعالى ووصفه بالنجاة في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١]، ولم يقتصر على هذه الآية، بل فسَّرهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]، إذًا هذه الآية من الإيمان، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:٣-٩]، هذه كلّها من الإيمان. وكذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة:١٥]، فيكون الإيمان الذي يكون منه أنّه يسجد وأنّه يسبح، وأنّه يؤمن، وأنّهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وأنّهم يدعون ربّهم خوفًا وطمعًا، هذه كلّها من صفات المؤمن، فلا يكون المؤمن صادقًا إلّا إذا اجتمعت فيه هذه الخصال، ونحوها.

فعرفنا بذلك أنّ الإيمان لا بدّ له من هذه الأصول، ولابدّ فيه من الأصل الصحيح الصادق، الذي هو الدافع إلى العمل، وهو التصديق القويّ والذي ترى آثاره بالعمل، وترى آثاره بالكلام، فإذا اجتمع العمل بالأركان، وكذلك النطق، وكذلك العقيدة الصادقة كمل الإيمان.

مما تكلّم به العلماء في العقيدة: أسماء الإيمان والدين فقضى أهل السنّة والأئمّة وجماهير السلف: أنّ الإيمان هو قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وأنّ الأعمال من مسمّى الإيمان. هذه عقيدة أهل السنّة.

وأكثر الحنفيّة على أنّ الإيمان هو: الاعتقاد بالجنان، والإقرار باللّسان، ولم يجعلوا الأعمال من مسمّى الإيمان، وهذا هو الذي ذكره الطحاوي ـ بناءً على معتقد الحنفيّة ـ أنّه الإقرار باللّسان، والاعتقاد بالجنان.

وذهب الماتريدية إلى أن الإيمان هو الاعتقاد بالجنان فقط، ولا تدخل فيه الأعمال ولا الأقوال. وذهب الكراميّة إلى أنّه مجرّد الإقرار باللّسان فقط، ولو لم يكن هناك اعتقاد بالجنان، فعلى قول الكراميّة يكون المنافقون الذين يقرّون

باللّسان مؤمنين، ولكنّهم مستحقّون للوعيد الذي توعّدهم الله به.

وذهب الجهم بن صفوان وأتباعه إلى أن الإيمان هو المعرفة، فمجرد المعرفة، تكون عندهم إيمانًا، وعندهم وعلى اصطلاحهم أن إبليس من المؤمنين وأن فرعون من المؤمنين، وكذلك الكفار الذين عرفوا صدق النبي ﷺ من المؤمنين، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وكما مرّ معنا في نظم أبي طالب، أنّه كان يعرف صدق النبيّ ﷺ، ولكنّه لم يتبعه . فعندهم يكون مؤمنًا، وكذلك اليهود عندهم مؤمنون بناءً على قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦].

ثمّ لخّص الأقوال في مسمّى الإيمان، والأصل قول أهل السنّة، أنّه يجمع بين الثلاثة: القلب واللسان والأركان، وهو الذي ذكره البخاري في أول كتاب الإيمان في «صحيحه»، يقول: هو قول وفعل، نصّ على القول والفعل، والزيادة والنقصان، ولم يذكر الاعتقاد؛ لأنّ الاعتقاد لا خلاف فيه، فلأجل ذلك خصص ووضح أنّ القول والفعل من الإيمان، ثم أخذ بذكر الأبواب في ذلك: باب الصلاة من الإيمان، وباب ردّ السلام من الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، باب الصدقة من الإيمان، وهكذا، وأقرّه على ذلك الشُّرَّاح من أهل السنّة، مثل ابن كثير، وابن رجب الذي شرح أوّل صحيح البخاري، وأقرّه عليه وأتى عليه بالأدلّة، وهكذا الذين شرحوه من أهل السنّة، أما الذين شرحوه من غيرهم فإنّهم قد وقعوا في بعض التأويلات، مثل بدر الدين العيني صاحب «عمدة القاري»؛

فإنّه حنفي المذهب، ولأجل ذلك أخذ يتأوّل هذه الأبواب، ويحاول أن تكون على مذهب الحنفيّة، وكذلك شارح الطحاوية ـ هذا الذي نقرأ له ـ حنفي أيضًا، وهو علي بن علي بن محمّد بن أبي العزّ الدمشقي، تتلمذ على يد ابن كثير، وتأثّر به في باب العقيدة، فلأجل ذلك التزم في باب الأسماء والصفات بمذهب أهل السنّة، وكان كلام الطحاوي في أصل الإيمان مخالفًا لمذهب أهل السنّة، بناءً على مذهب الحنفية، فقال الشارح: الخلاف لفظيّ، يعني: إذا جعلنا الإيمان أصلًا هو الاعتقاد الجازم، كانت الأعمال من ثمرات هذا الاعتقاد، فالذي يعمل إنّما يحمله على العمل الاعتقاد الجازم. وهذا صحيح؛ لأن الإنسان إذا رسخت العقيدة في قلبه انبعثت جوارحه بالأعمال، وأكثر من الصالحات والحسنات والقُربات، وإذا ضعفت العقيدة التي في قلبه ضُعفت الأعمال التي عنده، والدوافع التي تدفعه إلى الأعمال الخيريّة.

ولكن لا بدّ أن نقول: إنّ هذه الأعمال التي يعملها تسمّى إيمانًا، وأنّ الإيمان بها يزيد ويقوى، وأنّه يُوصف كل منها بأنّه إيمان، فتوصف الصلاة بأنّها إيمان، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، نزلت هذه لما صرفت القبلة إلى الكعبة؛ فقال بعض الصحابة: «يا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٠)، والترمذي (٢٩٦٤)، وأحمد (١/ ٢٩٥)، والطبراني في الكبير (١١٧٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج البخاري نحوه (٤٠) عن البراء ﷺ.

يعني: صلاتكم قبل التعديل، فلا تضيع أعمالكم، فسمّي الصلاة إيمانًا.

وقد ذكرنا أنّ النبيّ ﷺ جعل الأعمال كلها من الإيمان، في قوله: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ**»[1]، الشعب: هي القطع التي إذا تفرّقت ضعفت، وإذا اجتمعت كمل معناها، إنّ هذه الشعب قلّما اجتمعت في قلب المؤمن وفي عمله إلا أصبح مؤمنًا كامل الإيمان، وإذا نقصت واحدة نقص إيمانه، وهكذا إلى أن يذهب الإيمان كلّه من قلبه، فجعل كلمة التوحيد من الإيمان، وهي لفظ من اللسان، وجعل إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان، وهي من عمل الأركان، وجعل الحياء من الإيمان، وهو اعتقاد بالجنان، فدخل في ذلك كلّ ما شابه هذه الأشياء، وهذا معتقد أهل السنّة.

وأما معتقد أهل الحنفيّة، فقد عرفنا أنّه الاعتقاد والقول، وأنّ بعضهم جعل الخلاف لفظيًّا، والنزاع بين السنّة والحنفيّة لفظيًّا، والصحيح أنّه معنويٌّ؛ وذلك لأن الإنسان إن لم يعتقد أنّ الأعمال من مسمّى الإيمان، ضعف حرصه على الأعمال الصالحة، ولم يبالِ بالسيّئات؛ لاعتقاده أنّها لا تنقّصُ الإيمان، وأن الحسنات لا تزيد الإيمان، وأنّها ليست من الإيمان، فيضعف حرصه واجتهاده.

لأجل ذلك اهتمّ أهل السنّة بمن يعمل، أي بمعتقد هذا الاعتقاد ومقرّه، وذكر البخاري أنّه روايةً عن مائتين وسبعين عالمًا، كلّهم يقول: الأعمال من

---

(١) تقدم تخريجه (٣/٣٣٩).

مسمّى الإيمان، يعني: أنّه اختار مشايخه الذين روى عنهم في «الصحيح»، لا خارج «الصحيح»، وبلغ عددهم ما بلغ من الذين يقولون: إن الأعمال من مسمّى الإيمان، وفضّلهم على الذين يقولون: إن الأعمال ليست من الإيمان، مع كثرتهم في زمانه.

هذا دليل على اهتمام السلف - رضي الله عنهم - بعقيدتهم، وتحرّيهم في أخذها، ومعرفتهم بمن هو أهل أن يروى عنه، ومن هو ليس أهلًا لذلك.

قال الشارح:

وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَوْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ وَأَقَرَّ بِلِسَانِهِ، وَامْتَنَعَ عَنِ العَمَلِ بِجَوَارِحِهِ: أَنَّهُ عَاصٍ للَّهِ وَرَسُولِهِ، مُسْتَحِقُّ الوَعِيدَ، لَكِنْ فِيمَنْ يَقُولُ: إِنَّ الأَعْمَالَ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي مُسَمَّى الإِيمَانِ، مَنْ قَالَ: لَمَّا كَانَ الإِيمَانُ شَيْئًا وَاحِدًا، فَإِيمَانِي كَإِيمَانِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا! بَلْ قَالَ: كَإِيمَانِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيهِمُ السَّلَامُ! وَهَذَا غُلُوٌّ مِنْهُ، فَإِنَّ الكُفْرَ مَعَ الإِيمَان كَالعَمَى مَعَ البَصَرِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ البُصَرَاءَ يَخْتَلِفُونَ فِي قُوَّةِ البَصَرِ وَضَعْفِهِ، فَمِنْهُمُ الأَخْفَشُ وَالأَعْشَى، وَمَنْ يَرَى الخَطَّ الشَّخِينَ دُونَ الرَّفِيعَ إِلَّا بِزُجَاجَةٍ وَنَحْوِهَا، وَمَنْ يَرَى عَنْ قُرْبٍ زَائِدٍ عَلَى العَادَةِ، وَآخَرَ بِضِدِّهِ.

وَلِهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - قَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ)، يُشِيرُ إِلَى أَنَّ التَّسَاوِي إِنَّمَا هُوَ فِي أَصْلِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ التَّسَاوِي مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، بَلْ تَفَاوتُ نُورِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا، لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالشَّمْسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ، وَآخَرُ كَالمِشْعَلِ العَظِيمِ، وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ المُضِيءِ، وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الضَّعِيفِ، وَلِهَذَا تَظْهَرُ الأَنْوارُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَيْمَانِهِمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ عَلَى هَذَا المِقْدَارِ، بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِ الإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَكُلَّمَا اشْتَدَّ نُورُ هَذِهِ الكَلِمَةِ وَعَظُمَ أَحْرَقَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ، بِحَيْثُ إِنَّهُ رُبَّمَا وَصَلَ إِلَى حَالٍ لَا يُصَادِفُ شَهْوَةً وَلَا شُبْهَةً وَلَا ذَنْبًا إِلَّا أَحْرَقَهُ، وَهَذِهِ حَالُ الصَّادِقِ فِي تَوْحِيدِهِ، فَسَمَاءُ إِيمَانِهِ قَدْ حُرِسَتْ بِالرُّجُومِ مِنْ كُلِّ سَارِقٍ، وَمَنْ عَرَفَ هَذَا،

عَرَفَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّـهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّـهِ تَعَالَى»(١)، وَقَوْلِهِ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ»(٢). وَمَا جَاءَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الأَحَادِيثِ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى ظَنَّهَا بَعْضُهُم مَنْسُوخَةً، وَظَنَّهَا بَعْضُهُمْ قَبْلَ وُرُودِ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى نَارِ الْمُشْرِكِينَ وَالكُفَّارِ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُمُ الدُّخُولَ بِالْخُلُودِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

عرفنا أنّ هذا القول ـ الذي هو اعتقاد أنّ الأعمال ليست من مسمّى الإيمان ـ يرى أهله أنّهم إذا حقّقوا الاعتقاد وصحّ اعتقادهم، نتج عنه بعض الأعمال وأثمرت، وقد يستدلّون بعطف الأعمال على الإيمان بمثل قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

فالجواب: أنّ المراد هنا بالإيمان أصله، والمراد بالأعمال نتيجته وثمرته، أو تخصيص الصالحات يعني أكثر من الأعمال الصالحة، وبكلّ حال الأعمال لا بدّ أنّها داخلة في الإيمان؛ وذلك لأنّ الإيمان الذي هو قوّة اليقين وقوّة التصديق له علامات، وله آثار وله زمام، ومن أرفعها وأعلاها ظهورها على بدن صاحبها،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري(٤٢٥)، ومسلم(٣٣) عن عتبان بن مالك الأنصاري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) بنحوه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

فيكون هذا كلّه إيمانًا.

إذا رأينا العبد يغضّ بصره عما لا يحلّ قلنا: هذا هو الإيمان، وإذا رأيناه يصون سمعه عمَّا لا يحلّ قلنا هذا هو الإيمان، وإذا رأيناه يحفظ لسانه عن الكلام القبيح، والسيء، أو سمعناه يتلفّظ بالذكر وبالدعاء والنصح والتعليم قلنا هذا هو الإيمان، وإذا رأينا زهده وتواضعه وتقلّله من المشتبهات وبعده عن الآثام، قلنا: هذا هو الإيمان هذا هو المؤمن، يعني ظهر الإيمان عليه.

وأسباب ذلك هو أنّ الأدلّة التي وردت في اتجاه أهل التوحيد أو أصل كلمة الإخلاص، كما في قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى**»، وقوله ﷺ: «**من قال: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ على اللَّهِ**»[1]، وقال ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الجَنَّةَ**»[2]، وأخبر عن شفاعته يوم القيامة أنّها تنال من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، وأشباه ذلك من هذه الأحاديث.

هذه الأحاديث تمسّك بها أهل الإرجاء الذين غلّبوا جانب الرجاء، وقالوا: يكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ويكفي أن ينوي الإخلاص، ولا يشترط أن يعمل، ولا يشترط أن يكفّ عن السيئات؛ لأنها لم تشترط في هذه الأحاديث، ولكن هذا

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٩) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.

خطأ. والصواب: أنّ من قال هذا، فلا بدّ أن يعمل بموجبه، وأنّ (لا إله إلّا الله) قد قيّدت بالقيود الثّقال، وجعل لها شروط، وشروطها السبعة هي المذكورة في قول الشاعر:

عِلْمٌ يَقِيْنٌ وَإِخْلاصٌ وَصِدْقُكَ مَع مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُولِ لَهَا[1]

وبعضهم جعل لها شرطًا ثامنًا، ونظمه بقوله:

وَزِيْدَ ثَامِنُهَا الكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا سِوَى الإِلَه مِنَ الأَنْدَادِ قَدْ أُلِهَا

ما دام هذه الشهادة قد قيّدت بتلك القيود، فلا بدَّ أنّ التصديق يتبعه العمل، وإلا فلا يكون القول صادقًا، ولا يحصل صاحبه على النجاة.

عرفنا أنّ النبيّ ﷺ عندما أخبر بنجاة أهل هذه الكلمة، أراد أهلها الذين تقع في قلوبهم موقعًا، ويكون لها أثر، وهذا الأثر هو النتيجة التي هي العمل، وإذا قالوا: لا إله إلا الله، أي: لا معبود إلا الله؛ عبدوه بكلّ أنواع العبادة، فذلك هو التألّه له، وترك التألّه لغيره، فأمّا إذا لم يعبدوه فلا يصدق عليهم أنّهم اتخذوه إلهًا.

وأما الذين قالوا في هذه الأحاديث الكريمة إنّ كلمة لا إله إلا الله محمولة على أُولي الأمر، فإن بعض العلماء يقول: إنّ قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناس حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله...**»[2]. محمول على من دخل الإسلام أوّل مرّة، فإنّه يُكتفى منه بذلك، ولكن بعد ذلك ينظر في حاله هل

---

(١) راجع شرح هذا البيت (١/ ٧٠).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٢).

يستمرّ في العمل بمعنى (لا إله إلا الله)، فيكفّ عنه كفًّا تامًّا، أو لا يستمرّ في العمل بها، ولا يؤدّي حقوقها؟ وحينئذٍ يعود إلى ما كان عليه، فيقاتل عليها؛ لأنّه قالها ولم يعمل بها.

وأمّا الذين حملوا معنى «**من قال: لا إِلَهَ إلا اللَّـهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللَّـهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ على اللَّـهِ**»، وحديث: «**إِنَّ اللَّـهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّـهِ تَعَالَى**»، قالوا: المراد هنا نار الكفار، يعني: الذين يخلدون في النار، يعني: أنّه إذا دخلها لا يخلد فيها، أي: لا يدخل نار الكفار. وهذا فيه نظر؛ لأنه خلاف الأحاديث المطلقة.

فإذًا تحمل أحاديث الرجاء التي فيها النجاة لأهل (لا إله إلا الله)، على أنّ المراد من قالها صادقًا من قلبه، وإذا قالها صادقًا من قلبه، انطلقت جوارحه بالعمل، فأنت إذا دعوت إنسانًا إلى (لا إله إلا الله)، نطق وقال: أقول: لا إله إلا الله، وأقول: إنّ محمدًا رسول الله، طالبه بعد ذلك بمعناها، ما معنى الإله؟ أليس الإله المعبود؟ نطالبك أن تعبده؛ لأنك أقررت أنّه يجب أن يعبد، فإن من العبادة أركان الإسلام، ومن العبادة واجبات الإسلام، ومن العبادة مكمّلات الإسلام، ومن العبادة ترك المحرّمات، طالبه بمعنى ذلك، وقل: هذا هو التألّه، وإن أتيت بذلك فأنت صادق، وإلا فأنت منافق؛ لأن الذي يقولها ولا يعمل بها شبيه بالمنافقين، فإنّ المنافقين يقولونها ليحموا بذلك أبدانهم وأموالهم، أما المؤمنون، فإنّهم يطبقونها ويقولونها.

قال الشارح:

وَالشَّارِعُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا بِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ، فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْمَعْلُومِ بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الْجَاحِدِينَ، فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّ الأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ.

وَتَأَمَّلْ حَدِيثَ الْبِطَاقَةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، وَيُقَابِلُهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فَتَثْقُلُ الْبِطَاقَةُ، وَتَطِيشُ السِّجِلَّاتُ، فَلَا يُعَذَّبُ صَاحِبُهَا[1]. وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مُوَحِّدٍ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الْبِطَاقَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ.

وَتَأَمَّلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ قَاتِلِ الْمِئَةِ[2] مِنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ، الَّتِي لَمْ تَشْغَلْهُ عِنْدَ السِّيَاقِ عَنِ السَّيْرِ إِلَى الْقَرْيَةِ، وَحَمَلَتْهُ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنْ جَعَلَ يَنُوءُ بِصَدْرِهِ وَهُوَ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ.

وَتَأَمَّلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ الْبَغِيِّ مِنَ الإِيمَانِ، حِينَ نَزَعَتْ مُوقَهَا، وَسَقَتِ الْكَلْبَ مِنَ الرَّكِيَّةِ، فَغُفِرَ لَهَا[3].

وَهَكَذَا الْعَقْلُ أَيْضًا، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّفَاضُلَ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ، مُسْتَوُونَ

---

(١) حديث البطاقة تقدم تخريجه (١/ ٤٣١).

(٢) انظر الحديث عند البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٣) انظر الحديث عند البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

فِي أَنَّهم عُقَلَاءُ غَيرُ مَجَانِينَ، وَبَعْضُهُمْ أَعْقَلُ مِنْ بَعْضٍ.

وَكَذَلِكَ الإِيجَابُ وَالتَّحْرِيمُ، فَيَكُونُ إِيجَابٌ دُونَ إِيجَابٍ، وَتَحْرِيمٌ دُونَ تَحْرِيمٍ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ طَرَّدَ ذَلِكَ فِي العَقْلِ وَالوُجُوبِ.

---

قال الشيخ:

مرّ بنا أنّ كلمة (لا إله إلا الله) لا بدّ أن يعمل بها، وأنّ الذين يقولونها ولا يعملون بها هم المنافقون، وهم في الدّرك الأسفل من النار تحت الكفار؛ لأنّهم أخلّوا بشروطها، وهو العمل والتطبيق، وأنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فلم تنفعهم هذه الكلمة إلّا نفعًا دنيويًا، وذلك بأنّهم حقنوا بها دماءهم، وأحرزوا بها أموالهم، وأظهروا أمام الناس أنّهم مؤمنون، والله مطّلع على ما في قلوبهم، فلم تنفعهم هذه الكلمة حين صدرت عن غير اعتقاد؛ لأنّهم لم يعملوا بها حقّ العمل.

وأما أهل الإيمان الذين يقولونها ويعملون بمقتضاها، وتصدر عن قلوبهم، وتطمئن قلوبُهم بمدلولها، ويعرفون معناها، ويعملون بمقتضاها، هؤلاء هم أهل الإيمان حقًا، وهم بلا شكّ متفاوتون بهذه القوّة، وذلك بحسب كثرة الأدلّة، وبحسب قوة الأعمال أو كثرتها، فكلّما كثرت الأعمال الصالحة قوي الإيمان بالقلب. ولأجل هذا نقول: إن الأعمال من مسمّى الإيمان، وأنّها تزيد الإيمان، وأن السيئات تنقص الإيمان، أو ترك الصالحات ينقص الإيمان، فإذا كان الإيمان متفاوتًا، فإنّه يتفاوت قدره في القلب، الإيمان الذي في القلب يتفاوت، والإيمان

الذي على الأبدان يتفاوت.

وقد مثّل الشارح الإيمان الذي في القلوب بالبصر الذي بالعين؛ وقال: الناس يتفاوتون بالأبصار، تقول: هؤلاء كلّهم مبصرون، ولكنّ بعضهم أقوى بصرًا من بعض، فبعضهم يرى الشخص من بعيد، من مسافة ثلاثة أميال أو أربعة، ويميّزه بشخصه ويعرفه، وبعضهم لا يعرفه، ولو كان بينه وبينه خمسة أمتار أو نحوها، بعضهم يقرأ خطًا دقيقًا من دون نظارة ونحوها، وبعضهم لا يقرؤه ولو كان كبيرًا أو ما أشبه ذلك، كما هو مشاهد، فإذا كان هذا اختلافهم بالبصر، فكذلك اختلافهم بالعقول؛ لأن العقل أيضًا يتفاوت الناس فيه، فمنهم من يكون فطِنًا ذكيًّا، ومنهم من يكون بليدًا غاية البلادة والغباوة، ومنهم من يكون بين ذلك.

إذا كان هذا تفاوت في هذين الأمرين، وهما من خلق الله تعالى وتدبيره، فنقول: كذلك الإيمان الذي في القلب، فهو يقوى في حقّ أهل الإيمان، الذين كثرت الأدلّة في قلوبهم، فرسخ الإيمان في قلوبهم، وآخرون ضعُف الإيمان في قلوبهم بقلّة الأدلّة أو بعدمها.

ولأجل ذلك فإن البعض من أهل الإيمان إذا جاءته شبهة أو دعاه داع إلى الضلال، أو إلى الضد، أو إلى الردّة، ترك الإسلام وترك الصلاة، وترك الأعمال وارتدّ، وما ذاك إلّا لضعف الإيمان في قلبه، وضعف الأدلّة التي بني عليها هذا الإيمان.

وبعضهم الإيمان في قلبه أرسى من الجبال، لا تزعزعه الشبهات والتشكيكات، ولا الإيرادات التي يوردها عليه دعاة الضلال، ولو أتوه بكلّ

دليل عندهم، ولو ألقوا عليه كل شبهة، فإن إيمان قلبه يحرق تلك الشبهات، ويزيلها؛ لأنّ قلبه مستنير.

وقد سبق كلام الشارح ـ رحمه الله ـ حيث مثّل الإيمان بنور القلب، إذا كان فيه إيمان فإنّ فيه نورًا، والأنوار تتفاوت، فمنهم من يكون النور الذي في قلبه كنور الشمس، والذي يضيء على الدنيا، ومنهم من يكون كالسراج المتوسط، ومنهم من يكون كالسراج الضعيف، أو كالشمعة الضعيفة وما أشبهها، هذا بسبب المواد التي تمدّ ذلك النور.

وكذلك النور الذي في القلبي يمده الأدلّة من آيات الله تعالى، ومن مخلوقاته، ومن أحكامه، ومن شرائعه، ومن المعجزات التي جرت على أيدي رسله، وعلى أيدي أوليائه، تواردت على ذلك القلب، فتمكّنت فيه ورسخت، فليس له حيلة في تضعيفها أو إزالتها، وإذا رأيت إنسانًا إيمانه ضعيف، فإنّك تجده قليل الأعمال كثيرًا ما يترك الصلوات، ويتكاسل عنها، ويرتكب بعض المنهيّات، ونحو ذلك. والسبيل إلى إنقاذه أن تحثّه على ما يقوّي إيمانه، فإن قدرت فإنك تكرّر عليه الأدلّة والآيات والبراهين التي تصل إلى قلبه، وتكرّر عليه ما يبطل الشبهات التي امتلأ بها قلبه، فإن لم تقدر على ذلك، فأرشده إلى ما يقرؤه أو ما يسمعه من النشرات، أو من الكتب والمؤلفات التي تحتوي على براهين وآيات ودلالات واضحات. وبذلك يقوى الإيمان في قلبه، وتزول تلك الأسباب التي تُضعفه.

فعند ذلك ينبعث بدنه كله بالأعمال وجوارحه بالصالحات، فلا ينظر إلّا نظرات إيمان، ولا يسمع إلا سماع إيمان، ولا يتكلّم إلا كلام إيمان، ولا يهمّ بقلبه

إلا بما هو إيمان، ولا يخشَع إلا إلى إيمان، ولا يعمل بيديه إلا بما هو إيمان، ولا ينفق ماله إلا فيما هو إيمان، وهكذا، فهذا ونحوه ثمرات الإيمان الذي هو أصل في القلب، ثم بعد ذلك ينبعث ذلك على جوارحه.

قال الشارح:

وَأَمَّا زِيَادَةُ الإِيمَانِ مِنْ جِهَةِ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ مَا وَجَبَ بَعْدَ نُزُولِ القُرْآنِ كُلِّهِ، وَلَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنَ الإِيمَانِ المُفَصَّلِ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مَا يَجِبُ عَلَى مَنْ بَلَغَهُ خَبَرُهُ، كَمَا فِي حَقِّ النَّجَاشِيِّ وَأَمْثَالِهِ.

وَأَمَّا الزِّيَادَةُ بِالعَمَلِ وَالتَّصْدِيقِ، المُسْتَلْزِمُ لِعَمَلِ القَلْبِ وَالجَوَارِحِ، فَهُوَ أَكْمَلُ مِنَ التَّصْدِيقِ الَّذِي لَا يَسْتَلْزِمُهُ، فَالعِلْمُ الَّذِي يَعْمَلُ بِهِ صَاحِبُهُ أَكْمَلُ مِنَ العِلْمِ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِهِ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلِ اللَّازِمُ، دَلَّ عَلَى ضَعْفِ المَلْزُومِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ المُخْبَرُ كَالمُعَايِنِ»[1]، وَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا أُخْبِرَ أَنَّ قَوْمَهُ عَبَدُوا العِجْلَ لَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَدْ عَبَدُوهُ أَلْقَاهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِشَكِّ مُوسَى فِي خَبَرِ اللَّهِ، لَكِنَّ المُخْبَرَ، وَإِنْ جَزَمَ بِصِدْقِ المُخْبِرِ، فَقَدْ لَا يَتَصَوَّرُ المُخْبَرَ بِهِ فِي نَفْسِهِ، كَمَا يَتَصَوَّرُهُ إِذْ عَايَنَهُ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وَأَيْضًا: فَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الحَجُّ وَالزَّكَاةُ مَثَلًا، يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يَعْلَمَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَيُؤْمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَهُ مَا لَا يَجِبُ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا مُجْمَلًا، وَهَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الإِيمَانُ المُفَصَّلُ.

---

(١) أخرجه بنحو هذا اللفظ: أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)، وابن حبان (١٤/ ٩٦)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٢)، والحاكم (٢/ ٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ أَوَّلَ مَا يُسْلِمُ، إِنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ الإِقْرَارُ الْمُجْمَلُ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِوُجُوبِهَا وَيُؤَدِّيَهَا، فَلَمْ يَتَسَاوَ النَّاسُ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الإِيمَانِ.

---

قال الشيخ:

من عقيدة أهل السنة والجماعة: أنَّ الإيمان الذي في القلب والذي في اللسان وعلى الجوارح يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وقد دلَّ على ذلك أدلة كثيرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، كيف زادهم إيمانًا؟ أي: تصديقًا لخبر الله، وعملًا بآثار ذلك التصديق، الله أخبرهم بأنه ينصرهم، وبأنه لا يخذلهم، فلما جاءهم هذا الخبر مازادهم إلا تصديقًا بالله تعالى وبخبره فدل على أن الإيمان يزيد، وكل ما هو قابل للزيادة فهو قابل للنقص.

وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وتلاوتها: هي سماعها وقراءتها، وكيف تزيدهم إيمانًا؟ يعني: أنهم يعملون بها، ويصدقون بها، ويعرفون مدلولها، فيكون ذلك زيادةً في أعمالهم.

وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، السكينة التي أنزلها في قلوبهم: هي الطمأنينة إلى خبر الله وخبر رسوله ﷺ، والثقة بأنه ينصر من نصره، كما في الآيات الأخرى،

فهذه الثقة زادتهم إيمانًا، فدلَّ على أنهم كانوا مؤمنين، وأن هذه السكينة زادتهم إيمانًا إلى إيمانهم.

ولا شك أنها زيادة محسوسة، بحيث زادت أعمالهم، وكثرت حسناتُهم، وقلَّت سيئاتهم، ويكون ذلك من زيادة الحق والإيمان.

هذه بعض الأدلة على زيادة الإيمان، والشارح يقول: إن الزيادة هي زيادة الأعمال؛ لأن الذي عمل بالشريعة أولَ ما نزلت عملت بأعمال قليلة، ولما زادت الشرائع زادت أعماله، ومعلوم أن الذين أسلموا بمكة في أول الإسلام، ما فُرضت عليهم الطهارةُ ولا الصلاة ولا الصوم ولا الصدقة ولا الجهاد، وما فرضت عليهم الأركان كلها إلا الشهادتان، وظلوا عشر سنين قبل أن تفرضَ عليهم الصلاة، والذين أسلموا في السنة الثامنة من الهجرة أسلموا وقد تمت شرائع الإسلام، فصاروا يصلّون ويزكّون ويصومون ويجاهدون ويحجّون، ويعلمون ويعملون ويتعلمون القرآن ويقرؤونه، فأعمالُهم كانت أكثر من أعمال الأولين الذين اقتصروا على التوحيد وعلى الإخلاص، وهذا دليلٌ على تفاوت الإيمان بكثرة الأعمال، وهذه حجة لبعض العلماء في زيادة الإيمان، أن المراد بها زيادة الأعمال وكثرتها.

ومثَّل الشارح أيضًا بمن بلغته الشريعة، فآمن بها ولم تبلغه تفاصيلها؛ كالنجاشي ملك الحبشة، فإنه لما أسلم لم تبلُغه تفاصيل الشريعة من أركان الإسلام والمحرمات في الدين، وكذلك القرآن الذي أُنزلَ كلُّه ما سمع منه إلا بعضه، ولم يعمل به كله، فإيمانه بحسب ما وصل إليه من الأركان ومن الأحكام، فهو أقلُّ

نسبيًا من الذين حضروا التنزيل، فآمنوا به مفصَّلًا، وعملوا به عملًا كاملًا، فهؤلاء أكثر عملًا، فهم أقوى إيمانًا وأزيد، هكذا فسَّر بعضُ العلماء زيادةَ الإيمان بكثرة الأعمال، والصحيح أن التصديق الذي في القلب يتفاوت.

وقد ذكر الشارح خبر صاحب البطاقة[1] الذي أخبر النبي ﷺ بأنه يُدعى وله تسعةٌ وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر، مكتوبٌ فيها سيئاته، فيعترف بذلك كله، ثم يخرج له بطاقة صغيرة مكتوب فيها الشهادتان، فتوضع البطاقة في كفة والسجلات في كفة، فتطيش السجلات، وتثقل البطاقة؛ لأن هذا الشهادة صدرت من صميم قلبه، صدرت وهو موقن بها يقينًا صادقًا وإيمانًا قويًا، فلما قالها بهذه النية وبهذه العقيدة محت جميع ما سبقت، وكفّرت السيئات كلها، وأحرقتها إحراقًا مُزيلًا لآثارها، فلم يبقَ لها جرمٌ توزنُ به، فكانت هذه الشهادة هي التي ثقلت بتلك الأعمال.

واستدلَّ الشارح أيضًا بقصة الرجل الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا من بني إسرائيل[2]، لمَّا سأل: هل له من توبة؟ فأفتاه عابد بأن لا توبة له، فقتله وتمَّم به المائة، ثم سأل بعد ذلك عالمًا فأفتاه بأن الله يتوب عليه، ودلَّه على قرية بها أُناس صالحون، فجاء إليها مهاجرًا فارًّا بدينه، فأدركه الموت وهو في الطريق، فلما أدركه وكان قد وقر في قلبه محبة تلك القرية؛ أخذ ينأى بصدره ويقرب إليها، ولو أقلّ

---

(١) حديث البطاقة تقدم تخريجه (١/ ٤٣١).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٥٧).

قليل، فكان فعله هذا دليل على قوة إيمانه وقوة تصديقه، مما جعله يلحق بأهل تلك القرية وتُقبل توبته، وهذا دليل على أنّ الإيمان الذي في القلب إذا كان قويًا ظهرت آثارُه وعلاماته.

واستدل الشارح بقصة امرأة بغيّ[1]، يعني: زانية، ثم إنها تابت، ولما رأت كلبًا يلهث على رِكيَّة وقد كان يموت عطشًا، نزعت مُوقها، أي: خفها، وملأته ماءً، وسقت ذلك الكلب فشكر الله لها فغفر لها، وذلك دليل على أن هذه رحمة منها بهذه البهيمة، وأن الذي حملها على ذلك هو رجاؤها المغفرة من الله، وتعلّق قلبها بربها، وأنه الذي يثيبها على العمل، فكان هذا العمل الصادق الخالص نابعًا من إيمان قوي وتصديق ثابت، فأصبح مكفِّرًا لهذه السيئات التي سبقت.

وبكلِّ حالٍ، فالأعمال التي تخرج من القلب تكون على البدن، فإذا كان البدن عاملًا بها، زاد الإيمان الذي في القلب، فمن تكلم بكلمة من الخير زاد إيمانه، ومن تكلم بكلمة شر أو سوء نقص إيمانه، وإذا أنفق لله تعالى درهمًا أو دينارًا أو شيئًا يسيرًا يبتغي به وجه الله زاد إيمانه، وإن أنفقه فيما يسخط الله من لهو وباطل وكفر وضلال نقص إيمانه، وإن مشى خطوات إلى ذكر وإلى مسجد وإلى علم وإلى عبادة من العبادة زاد إيمانه، وإن مشى خطوة أو خطوات إلى لهو وباطل ولعب ومعصية من المعاصي وما أشبهها، فمشيه هذا يُنقِّص إيمانه.

هذا بمجرد الأفعال، ومعلومٌ أن الصلوات تزيد الإيمان، وأن أكل الحرام

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٥٧).

ينقص الإيمان، وأن النكاح الحلال بالنية يزيد الإيمان، والنكاح الحرام ينقص الإيمان، وكذلك الكسب الحلال والنفقة منه يزيد الإيمان، والكسب الحرام والنفقة منه ينقص الإيمان، ويقال كذلك في الكلام السيء والكلام الحسن، والذكر بأنواعه والدعاء والأمر بالخير وتعلُّم العلم وتعليمه يزيد به الإيمان، وتعلم الباطل والسوء والكلام السيء والسباب والشتائم ونحوها ينقص الإيمان، وهكذا، فعلى المسلم أن يتفقد نفسه وأعماله، ويحرص على أن يكون في زيادة لا في نقصان.

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَامَ بِقَلْبِه التَّصْدِيقُ الجَازِمُ، الذي لَا يَقْوَى على مُعَارَضَتِه شَهْوَة وَلَا شُبْهَة، لَا تَقَعُ معه مَعْصِيَة، وَلَوْلَا مَا حَصَلَ له مِنَ الشَّهْوَة وَالشُّبْهَة أَوْ إِحْدَاهُمَا لَمَا عَصَى، بَلْ يَشْتَغِلُ قَلْبُه ذَلِكَ الْوَقْتَ بِمَا يُوَاقِعُه مِنَ المَعْصِيَة، فَيَغِيبُ عنه التَّصْدِيقُ وَالْوَعِيدُ فَيَعْصِي. وَلِهَذَا - واللَّهُ أَعْلَمُ - قَالَ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1] الحَدِيث. فَهُوَ حِينَ يَزْنِي يَغِيبُ عنه تَصْدِيقُه بِحُرْمَةِ الزِّنَى، وَإِنْ بَقِي أَصْلُ التَّصْدِيقِ في قَلْبِه، ثُمَّ يُعَاوِدُه. فَإِنَّ المُتَّقِينَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]. قَالَ لَيْثٌ عَنْ مُجَاهِدٍ: «هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بِالذَّنْبِ فَيَذْكُرُ اللَّهَ فَيَدَعُهُ»[2]. وَالشَّهْوَة وَالْغَضَبُ مَبْدَأُ السَّيِّئَاتِ، فَإِذَا أَبْصَرَ رَجَعَ.

---

قال الشيخ:

يقرر - رحمه الله - مذهب الحنفية في الإيمان أنه التصديق، ومذهب الأئمة الباقين أنه التصديق باللسان والعمل بالأركان والاعتقاد بالجنان، فكأنه يقول: إن الخلاف لغويٌ. ولكن الصحيح أن الخلاف ليس لغويًا فقط، بل هو لغوي ومعنوي، ولكنه اعتذر بأن الإنسان إذا صدَّق تصديقًا جازمًا بربوبية الله سبحانه

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٢٥).

وإلهيته، وصدق أيضًا بنبوة النبي ﷺ، وصدق بالجنة والنار، وصدق بالبعث والنشور، تصديقًا لا يكون معه شكٌ ولا شبهة، فإنه - والحال هذه - يتمسك بالدين، ولا تقع منه معصية، ولا يخالف شعائر الدين. هذا صحيح، ولكن إذا اعتقد أن الإيمان هو التصديق فقط، وأن الأعمال تخرج عن مسمى الإيمان، فقد يخل ببعض الأعمال الصالحة، نظرًا إلى أنها لا تنقص الإيمان الذي أمر الله به، والذي دعا به عباده في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة:١٠٤].

فالشارح يعتذر عن هذا الخلاف، ويخبر بأن الشهوة والشبهة أو إحداهما هي التي تحمل العاصي على الوقوع في المعصية، مع كونه مصدقًا، حتى ولو كان يعتقد أن الإيمان قول وعمل، فيشتغل قلبه بهذه المعصية، ويغيب عنه التصديق الذي هو التصديق بالله وبربوبيته، ويغيب عنه الوعيد الذي هو وعيدالله لمن عصى، فيقع في المعصية، واستدل بقول النبي ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ...» الحديث. والذي يدل على أن الإيمان ينتفي من الزاني ومن السارق ومن شارب الخمر حالة مواقعته لهذه المعاصي، يقول بعض العلماء: إنه لا يخرج من الإيمان كليًا، ولكن ينقص إيمانه أو يُنزع منه إيمانه ثم يعود.

يقول الشارح - رحمه الله -: (**فَهُوَ حِينَ يَزْنِي يَغِيبُ عنه تَصْدِيقُه بِحُرْمَةِ الزِّنَى، وَإِنْ بَقِي أَصْلُ التَّصْدِيقِ في قَلْبِه**)، أي: أنه مصدق بالله تعالى، ومصدق بشرعه، وبعد ذلك يرجع إليه هذا الإيمان، واستدل بأن الله تعالى وصف المتقين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم

مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]. والآية تدل على أنهم من أهل التقوى، ومن أهل الإيمان، ولكن يعتريهم وسوسة من الشيطان، يكون من آثارها أن يغيب عنهم شيء من ذكر الله تعالى، ويقعون في معصية أو غفلة، ثم يتذكرون ويستعيذون من الشيطان، ويعودون إلى بصيرتهم، وعلمهم بالتقوى وخوفهم من الله.

ولهذا نقل عن مجاهد ـ رحمه الله ـ أنه قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بِالذَّنْبِ فَيَذْكُرُ اللَّهَ فَيَدَعُهُ»، وهذا صحيح، ومعناه أن الشيطان إذا وسوس لهم انتبهوا وتذكروا واستعاذوا من الشيطان، وتركوا ذلك الذنب.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: (**وَالشَّهْوَةَ وَالْغَضَبُ مَبْدَأُ السَّيِّئَاتِ**)، صحيح أن الشهوة إلى الحرام، كالزنى، وشرب الخمر، والقتل، والكبر، ونحو ذلك، تدفع إلى السيئات، وإلى اقترافها. وكذلك الغضب قد يحمله على أن يتكلم بكلام قبيح، يكون من آثاره أن يقع في معاصٍ، ويقع في ذنوب كبيرة، كسخرية، واستهزاء، وسب للدين، ونحو ذلك.

ولذلك كان النبي ﷺ ينهى عن الغضب، جاءه رجل وقال له: أوصني، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»، فرددها مرارًا، فقال: «لا تغضب»[1]. فالغضب والشهوة مبدأ السيئة التي تحمل عليها، فإذا أبصر وتعقل تراجع وترك ما يقوم به، وما تذهب إليه شهوته والغضب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الشارح:

ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٢]، أي: وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ تَمُدُّهُمُ الشَّيَاطِينُ فِي الْغَي ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لَا الْإِنْسُ تُقْصِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَلَا الشَّيَاطِينُ تُمْسِكُ عَنْهُمْ»(١). فَإِذَا لَمْ يُبْصِرْ يَبْقَى قَلْبُه فِي عَمَى، وَالشَّيْطَانُ يَمُدُّه فِي غَيِّه، وَإِنْ كَانَ التَّصْدِيقُ فِي قَلْبِه لَمْ يَكْذِبْ، فَذَلِكَ النُّورُ وَالْإِبْصَارُ، وَتِلْكَ الخَشْيَةُ وَالخَوْفُ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِه. وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يُغْمِضُ عَيْنَيْه فَلَا يَرَى، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْمَى، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ، بِمَا يَغْشَاه مِنْ رَيْنِ الذُّنُوبِ، لَا يُبْصِرُ الحَقَّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْمَى كَعَمَى الْكَافِرِ. وَجَاءَ هَذَا المعنى مَرْفُوعًا إلى النبي ﷺ: أنه قَالَ: «إِذَا زَنَى الْعَبْدُ نُزِعَ منه الْإِيمَانُ، فَإِنْ تَابَ أُعِيدَ إليه»(٢).

---

قال الشيخ:

قوله تعالى: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ﴾، الضمير للعصاة، يعني: إخوانهم من الشياطين، إخوان العصاة ونحوهم، يمدهم الشيطان في الغي، ويوقعهم في الذنب، ويزين لهم اقترافه، ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾، ذكر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «لَا الْإِنْسُ تُقْصِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَلَا الشَّيَاطِينُ تُمْسِكُ

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٥٩).

(٢) سيأتي تخريجه في كلام سماحة الشيخ حفظه الله.

عَنْهُمْ»، هكذا جاء في الأثر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، الإنس تستمر في السيئات ولا تتركها؛ لوسوسة الشياطين، ومع ذلك فإن الشياطين لا تمسك عنهم، بل تدفعهم إلى المداومة على السيئات، وعلى البدع، وعلى الكفر، ونحو ذلك. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣].

قوله: (فَإِذَا لَمْ يُبْصِرْ يَبْقَى قَلْبُه في عَمَى، وَالشَّيْطَانُ يَمُدُّه في غَيِّه، وَإِنْ كَانَ التَّصْدِيقُ في قَلْبِه لَمْ يَكْذِبْ)، هكذا وصف الله تعالى الكفار بالعمى، في قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، نفى الله عنهم السمع، والكلام، والبصر، والعقل، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وهذا أشد من عمى العين، وكذلك فقد الجوارح معنويًا أشد من فقدها حسيًّا، فالكفرة ونحوهم لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، هكذا وصفهم الله. وقال تعالى في حقهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٦].

فالإنسان إذا لم يبصر بعين قلبه يبقى قلبه في العمى، ويبقى الشيطان يمده في غيه، ويدفعه إلى الكفر أو البدع أو المعاصي، ولو كان التصديق في قلبه ما كَذَبَ ولا كَذَّبَ، ولا وقع في المعاصي، أعني التصديق الجازم. هكذا يقول الشارح؛ لأنه يؤيد أن التصديق الجازم لا يستمر معه معصية أبدًا.

قوله: (فَذَلِكَ النُّورُ وَالْإِبْصَارُ، وَتِلْكَ الخَشْيَةُ وَالخَوْفُ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِه)، بسبب الشهوة وبسبب الشيطان، فإن نور الإيمان وإبصار القلب، وكذلك الخوف من الله تعالى، والخشية، تخرج من قلبه، كما أن الإنسان يغمض عينيه ولا يرى، وهو مع ذلك بصير ليس بأعمى، (فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ، بِمَا يَغْشَاه مِنْ رَيْنِ الذُّنُوبِ)، التي تغطي القلب، فالرين في قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين:١٤]، هو الغطاء والغشاء الذي يغطي القلب حتى لا يبصر الحق، وإن لم يكن أعمى، يعني: له عينين يبصر بهما، وكذلك أيضًا لا يشبه الكافر الذي عماه أشد من عمى من فقد بصره، هذا الذي معه تصديق قد يغشى قلبه شيءٌ من الذنوب فلا يبصر الحق، وليس أعمى كعمى الكافر، كما في قوله ﷺ: «إِذَا زَنَى الْعَبْدُ نُزِعَ منه الْإِيمَانُ، فَإِنْ تَابَ أُعِيدَ إليه». هذا الحديث أخرجه أبو داود[1]، والترمذي[2]، والحاكم[3]، عن أبي هريرة ﷺ، وهو تفسير لقوله ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[4]؛ لأنه يُنزع الإيمان الذي في قلبه، فإذا تاب أُعيد إليه ذلك الإيمان.

---

(١) برقم (٤٦٩٠).

(٢) برقم (٢٦٢٥).

(٣) في المستدرك (١/ ٢٢).

(٤) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٧).

قال الشارح:

وَإِذَا كَانَ النِّزَاعُ في هذه المسألة بَيْنَ أَهْلِ السنة نِزَاعًا لَفْظِيًّا، فَلَا مَحْذُورَ فيه، سِوَى مَا يَحْصُلُ مِنْ عُدْوَانِ إحدى الطَّائِفَتَيْنِ على الأُخرى، وَالِافْتِرَاقِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَأَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إلى بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ المَذْمُومِ، مِنْ أَهْلِ الْإِرْجَاءِ وَنَحْوِهِمْ، وإلى ظُهُورِ الْفِسْقِ وَالمَعَاصِي، بِأَنْ يَقُولَ: أَنَا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ حَقًّا كَامِلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ! فَلَا يُبَالِي بِمَا يَكُونُ منه مِنَ المَعَاصِي.

وَبِهَذَا المعنى قَالَتِ المُرْجِئَةُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَه. وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا.

---

قال الشيخ:

يقرر الشارح ـ رحمه الله ـ أن النزاع في هذه المسألة نزاعٌ لفظيٌّ، ولكن ذكر العلماء أنه ليس نزاعًا لفظيًّا، بل إنه معنويٌّ.

ولا شك أن التساهل في أن الإيمان بالتصديق ذريعة لأن يتساهل الإنسان بالمعاصي، ويقول: أنا مصدقٌ! فيجهر بالمعاصي. ولذلك تكلم العلماء على المرجئة، وأكثروا من الكلام والقدح فيهم، كما فعل الخلال ـ رحمه الله ـ في كتاب «السنة»، فقد أكثر من النقول في ذم المرجئة، وكذلك تعرضوا لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ونقلوا عنه أقوالًا كثيرة تقدح فيه، وإن كان بعضهم أجاب عنها، كما فعل الإمام عبدالله بن أحمد في كتاب «السنة».

قوله: (فَلَا مَحْذُورَ فيه، سِوَى مَا يَحْصُلُ مِنْ عُدْوَانِ إحدى الطَّائِفَتَيْنِ على

الأُخرى)، لا شك أن هذا محذور؛ لأنه عند المخاصمة قد يتعدى بعضهم على بعض بالسب، والذم، والتشنيع، فيكون من آثار هذا النزاع تعدي بعضهم على بعض، ويكون هذا النزاع وسيلة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء، الذين توسعوا في الإرجاء، وتسهيل المعاصي، وظهور الفسوق والمعاصي؛ حيث يقول: أنا مؤمن مسلم حقًا، كامل الإسلام والإيمان، ويقول: أنا ولي الله، ولا يبالي بما يكون منه من المعاصي، فيفعل الذنوب، ويدعي أنه كامل الإيمان.

وهذا هو السبب في ذم المرجئة، الذين يقولون: (لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَه، كَمَا لا يَنْفعُ مَعَ الكُفْرِ عَمَلٌ)، قال الشارح: (وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا)، فذمَّ ـ رحمه الله ـ من يقول: أنا مؤمن كامل الإيمان، ويمدح نفسه ويزكيها، ثم يقع في المعاصي، كما تفعل المرجئة.

قال الشارح:

فَالْإِمَامُ أَبُو حنيفة ﷺ نَظَرَ إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ لُغَةً مَعَ أَدِلَّةٍ مِنْ كَلَامِ الشَّارِعِ، وَبَقِيَّةُ الْأَئِمَّةِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - نَظَرُوا إِلَى حَقِيقَتِهِ فِي عُرْفِ الشَّارِعِ، فَإِنَّ الشَّارِعَ ضَمَّ إِلَى التَّصْدِيقِ أَوْصَافًا وَشَرَائِطَ، كَمَا فِي الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

يعني: أن الإيمان لغة: هو التصديق، ويمكن أنه استنبط أيضًا من كلام النبي ﷺ، أو من الآيات بعض الأدلة على أن الإيمان هو التصديق، ولعل من أدلته عطف الأعمال على الإيمان في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥]، إلى غير ذلك من الأدلة.

أما الأئمة الثلاثة فإنهم نظروا إلى حقيقة عُرْفِ الشارع، فإن الشارع تصرف بمعنى هذه الكلمات، فأضاف إلى الإيمان أوصافًا تدل على أنه لابد منه، فجعل للإسلام معنى غير الذي كان عليه في اللغة، وكذلك الإيمان أضاف إليه أعمالًا، فضم إلى التصديق أوصافًا وشرائط، كما في الصلاة، فالصلاة لغةً: الدعاء، ومع ذلك جعلها الشارع عَلَمًا على هذه العبادة، والصيام لغةً: الإمساك، جعله الشارع اسمًا يدل على الإمساك المخصوص، والحج لغة: القصد، جعله الشارع اسمًا لهذه الأعمال والأنساك التي يقوم بها الحاج، وكذلك الشرك جعله الشارع عَلَمًا على عبادة مع الله غيره، وكذلك التوحيد ونحو ذلك من المسميات.

قال الشارح:

فَمِنْ أَدِلَّةِ الْأَصْحَابِ لِأَبِي حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّ الْإِيمَانَ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّصْدِيقِ، قَالَ تعالى خَبَرًا عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، أي: بِمُصَدِّقٍ لنا.

وَمِنْهُمْ مَنِ ادَّعَى إِجْمَاعَ أَهْلِ اللُّغَةِ على ذَلِكَ.

ثُمَّ هَذَا المعنى اللُّغَوِي ـ وَهُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ ـ هُوَ الْوَاجِبُ على الْعَبْدِ حَقًّا لله، وَهُوَ أَنْ يُصَدِّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِيمَا جَاءَ به مِنْ عِنْدِ الله، فَمَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ فِيمَا جَاءَ به مِنْ عِنْدِ الله فَهُوَ مُؤْمِنٌ فِيمَا بَيْنَه وَبَيْنَ الله تعالى، وَالْإِقْرَارُ شَرْطُ إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ في الدُّنْيَا. هَذَا على أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ، ولأنه ضِدُّ الْكُفْرِ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْجُحُودُ، وَهُمَا يَكُونَانِ بِالْقَلْبِ، فَكَذَا مَا يُضَادُّهُمَا. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]، يَدُلُّ على أَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَوْضِعُ الْإِيمَانِ، لَا اللِّسَانَ، ولأنه لَوْ كَانَ مُرَكَّبًا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ لَزَالَ كله بِزَوَالِ جُزْئِه، وَلِأَنَّ الْعَمَلَ قَدْ عُطِفَ على الْإِيمَانِ، وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَة، قَالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥]، في مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ.

---

قال الشيخ:

هكذا يستدل الحنفية، وهذا صحيح أن الإيمان لغة: التصديق، ولكن الشارع أضاف إليه، ولذلك قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ

شُعْبَةً...»[1]، فجعلها كلها من الإيمان.

قوله: (وَمِنْهُمْ - أي: من الحنفية - مَنِ ادَّعَى إِجْمَاعَ أَهْلِ اللُّغَة على ذَلِكَ)، وهذا صحيح أن الإيمان لغة هو التصديق، ثم قال: (فَمَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ فِيمَا جَاءَ به مِنْ عِنْدِ الله فَهُوَ مُؤْمِنٌ فِيمَا بَيْنَه وَبَيْنَ الله تعالى)، ولكن هذا خفي لا يبصره العباد، ولا يعلمونه حقيقة، فلا بد أن تظهر عليه الأعمال، فليس كل من ادعى أنه مصدق يكون صادقًا، فقد ادعى ذلك المنافقون، وأخبر الله تعالى أنهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

قوله: (وَالْإِقْرَارُ شَرْطُ إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِي الدُّنْيَا)، لا شك أنه لابد من الإقرار بالشهادتين، والإسلام ونحو ذلك، وهو عبارة عن التصديق، ولكن لابد أن يتبع الإقرار العمل.

قوله: (ولأنه ضِدُّ الْكُفْرِ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْجُحُودُ)، يقول: إن الإيمان ضده الكفر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، فجعلهما ضدين متقابلين. الكفر: (التَّكْذِيبُ وَالْجُحُودُ، وَهُمَا يَكُونَانِ بِالْقَلْبِ، فَكَذَا مَا يُضَادُّهُمَا)، أخبر بأن التكذيب والجحود في القلب، ولكن تظهر آثاره على البدن، وكذلك ما يضادهما.

ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٣٩).

[النحل:١٠٦]، كأنه يقول: إن الإيمان في القلب، فلذلك يكره. ويقول: إنه (يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَوْضِعُ الْإِيمَانِ، لَا اللِّسَانَ)، ولكن نقول: إن الإيمان الذي في القلب لا بد أن يظهر على اللسان وعلى الجوارح.

قوله: (لأنه لَوْ كَانَ مُرَكَّبًا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ لَزَالَ كله بِزَوَالِ جُزْئِه)، يعني: يزول الإيمان بزوال العمل. نقول: هذا صحيح أن الذي لا يعمل ولو كان مصدقًا لم يكن مؤمنًا، وكذلك إذا تكلم بلسانه واستهزأ وكان متعمدًا غير مكره.

قوله: (وَلِأَنَّ الْعَمَلَ قَدْ عُطِفَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ)، ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥]، كأنهم يقولون: إن العطف يقتضي المغايرة. ونقول: ليس كذلك، بل الأصل أن العطف إنما هو للتأكيد أو لبيان أثر الإيمان، وأن الإيمان يكون بالعمل، وذلك عمل الصالحات وترك السيئات.

قال الشارح:

وَقَدِ اعْتُرِضَ على اسْتِدْلَالِهِمْ بِأَنَّ الْإِيمَانَ في اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّصْدِيقِ بِمَنْعِ التَّرَادُفِ بَيْنَ التَّصْدِيقِ وَالْإِيمَانِ، وَهَبْ أَنَّ الْأَمْرَ يَصِحُّ في مَوْضِعٍ، فَلِمَ قُلْتُمْ أَنَّه يُوجِبُ التَّرَادُفَ مُطْلَقًا؟

وَكَذَلِكَ اعْتُرِضَ على دَعْوَى التَّرَادُفِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ. وَمِمَّا يَدُلُّ على عَدَمِ التَّرَادُفِ: أنه يُقَالُ لِلْمُخْبَرِ إِذَا صَدَّقَ: صَدَّقَه، وَلَا يُقَالُ: آمَنَه، وَلَا آمَنَ به، بَلْ يُقَالُ: آمَنَ لَهُ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس:٨٣]، وَقَالَ تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْمُعَدَّى بِالْبَاءِ وَالْمُعَدَّى بِاللَّامِ، فَالْأَوَّلُ يُقَالُ لِلْمُخْبَرِ به، والثاني لِلْمُخْبِرِ. وَلَا يَرِدُ كَوْنُه يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: مَا أَنْتَ بِمُصَدِّقٍ لَنَا؛ لِأَنَّ دُخُولَ اللَّامِ لِتَقْوِيَةِ الْعَامِلِ، كَمَا إِذَا تَقَدَّمَ الْمَعْمُولُ، أَوْ كَانَ الْعَامِلُ اسْمَ فَاعِلٍ، أَوْ مَصْدَرًا، على مَا عُرِفَ في مَوْضِعِه.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ الرد على من استدل ببعض النصوص على أن الإيمان والتصديق مترادفان، فذكر أنهما غير مترادفين، بل لكل منهما تعريف. ثم قال: (وَكَذَلِكَ اعْتُرِضَ على دَعْوَى التَّرَادُفِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ)، لا شك أن الإيمان والإسلام إذا جمعا فالإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: أعمال

القلب، ولكن إذا ذُكر أحدهما دخل فيه الآخر، هكذا قال العلماء.

فلفظ الإيمان غير كلمة التصديق، والدليل عليه هذه الآيات التي أوردها الشارح؛ منها قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]، مع أن التصديق يتعدَّى بالباء، يقال: صدّقتُ به، ولا يقال: صدّقتُ له . فأنت تقول مثلًا: صدّقت فلانًا، وصدَّقتُ بخبره، ولا تقول: صدقت له، فكذلك قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس:٨٣]، ولم يقل: فما آمن به؛ لأن المراد: اتّبعوه، وعملوا بما جاء به . هذا دليل على أن الإيمان أصبح مغايرًا للتصديق، وليس مرادفًا له. فعُرف بذلك أن الاستدلال بأن الإيمان في اللغة هو التصديق، لا يصلح دليلًا على أن الأعمال ليست من مُسمَّى الإيمان.

قال الشارح:

فَالحَاصِلُ أنه لَا يُقَالُ قَطُّ: آمَنْتُه، وَلَا صَدَّقْتُ له، إِنَّمَا يُقَالُ: آمَنْتُ له، كَمَا يُقَالُ: أَقْرَرْتُ له. فَكَانَ تَفْسِيرُه بِـ (أَقْرَرْتُ) أَقْرَبَ مِنْ تَفْسِيرِه بِـ (صَدَّقْتُ)، مَعَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ثَابِتٌ فِي المعنى، فَإِنَّ كُلَّ مُخْبِرٍ عَنْ مُشَاهَدةٍ أَوْ غَيْبٍ، يُقَالُ له فِي اللُّغَة: صَدَقْتَ، كَمَا يُقَالُ له: كَذَبْتَ. فَمَنْ قَالَ: السَّمَاءُ فَوْقَنَا. قِيلَ له: صَدَقْتَ.

وَأَمَّا لَفْظُ (الْإِيمَانِ)، فَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الخَبَرِ عَنِ الْغَائِبِ، فَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ: صَدَّقْنَاه، وَلَا يُقَالُ: آمَنَّا له، فَإِنَّ فيه أَصْلَ معنى الْأَمْنِ، وَالإِيمَانُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الخَبَرِ عَنِ الْغَائِبِ، فَالْأَمْرُ الْغَائِبُ هُوَ الذي يُؤْتَمَنُ عليه الْمُخْبِرُ. وَلِهَذَا لَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ وغيره لَفْظُ (آمَنَ له) إِلَّا فِي هَذَا النَّوْعِ. ولأنه لَمْ يُقَابَلْ لَفْظُ (الْإِيمَانِ) قَطُّ بِالتَّكْذِيبِ، كَمَا يُقَابَلُ لَفْظُ (التَّصْدِيقِ)، وَإِنَّمَا يُقَابَلُ بِالْكُفْرِ، وَالْكُفْرُ لَا يَخْتَصُّ بِالتَّكْذِيبِ، بَلْ لَوْ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ، وَلَكِنْ لَا أَتَّبِعُكَ، بَلْ أُعَادِيكَ وَأُبْغِضُكَ وَأُخَالِفُكَ؛ لَكَانَ كُفْرًا أَعْظَمَ. فَعُلِمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ التَّصْدِيقَ فَقَطْ، وَلَا الْكُفْرُ هُوَ التَّكْذِيبَ فَقَطْ. بَلْ إِذَا كَانَ الْكُفْرُ يَكُونُ تَكْذِيبًا، وَيَكُونُ مُخَالَفَة وَمُعَادَاة بِلَا تَكْذِيبٍ، فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، يَكُونُ تَصْدِيقًا وَمُوَافَقَة وَمُوَلَاةً وَانْقِيَادًا، وَلَا يَكْفِي مُجَرَّدُ التَّصْدِيقِ، فَيَكُونُ الْإِسْلَامُ جُزْءَ مسمى الْإِيمَانِ.

وَلَوْ سُلِّمَ التَّرَادُفُ، فَالتَّصْدِيقُ يَكُونُ بِالْأَفْعَالِ أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنُ تَزْنِي، وَزِنَاهَا

السَّمْعُ»، إلى أَنْ قَالَ: «وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُه»[١].

وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّه مَا وَقَرَ في الصّدورِ وَصَدَّقَتْه الْأَعْمَالُ»[٢]. وَلَوْ كَانَ تَصْدِيقًا فَهُوَ تَصْدِيقٌ مَخْصُوصٌ، كَمَا فِي الصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا، كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَيْسَ هَذَا نَقْلًا لِلَّفْظِ، وَلَا تَغْيِيرًا له، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُر بِإِيمَانٍ مُطْلَقٍ، بَلْ بِإِيمَانٍ خَاصٍّ، وَصَفَه وَبَيَّنَه. فَالتَّصْدِيقُ الذي هُوَ الْإِيمَانُ، أَدْنَى أَحْوَالِه أَنْ يَكُونَ نَوْعًا مِنَ التَّصْدِيقِ الْعَامِّ، فَلَا يَكُونُ مُطَابِقًا له في الْعُمُومِ وَالخُصُوصِ، مِنْ غَيْرِ تَغيير اللِّسَانِ وَلَا قَلْبِه، بَلْ يَكُونُ الْإِيمَانُ في كَلَامِ الشَّارِعِ مُؤَلَّفًا مِنَ الْعَامِّ وَالخَاصِّ، كَالْإِنْسَانِ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّه حَيَوَانٌ نَاطِقٌ، أو لِأَنَّ التَّصْدِيقَ التَّامَّ الْقَائِمَ بِالْقَلْبِ مُسْتَلْزِمٌ لِمَا وَجَبَ مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ وَالجَوَارِحِ، فَإِنَّ هذه لَوَازِمِ الْإِيمَانِ التَّامِّ، وَانْتِفَاءُ اللَّازِمِ دَلِيلٌ على انْتِفَاءِ الْمَلْزُومِ.

وَنَقُولُ: إِنَّ هذه اللَّوَازِمَ تَدْخُلُ في مسمى اللَّفْظِ تَارَة، وَتَخْرُجُ عنه أخرى، أَوْ إِنَّ اللَّفْظَ بَاقٍ على معناه في اللُّغَة، وَلَكِنَّ الشَّارِعَ زَادَ فيه أَحْكَامًا، أَوْ أَنْ يَكُونَ الشَّارِعُ اسْتَعْمَلَه في معناه الْمَجَازِي، فَهُوَ حَقِيقَة شَرْعِيَّة، مَجَازٌ لُغَوِي، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَقَلَه الشَّارِعُ. وهذه الأَقْوَالُ لِمَنْ سَلَكَ هَذِا الطَّرِيقَ.

وَقَالُوا: إِنَّ الرَّسُولَ قَدْ وَقَفَنَا على مَعَانِي الْإِيمَانِ، وَعَلِمْنَا مِنْ مُرَادِه عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قِيلَ: إِنَّه صَدَّقَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِلِسَانِه بِالْإِيمَانِ، مَعَ قُدْرَتِه على ذَلِكَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٨٠).

وَلَا صلى، وَلَا صَامَ، وَلَا أَحَبَّ الله ورسوله، وَلَا خَافَ الله، بَلْ كَانَ مُبْغِضًا لِلرَّسُولِ، مُعَادِيًا له يُقَاتِلُه، أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ.

كَمَا عَلِمْنَا أنه رَتَّبَ الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ على التَّكَلُّمِ بِالشَّهَادَتَيْنِ مَعَ الْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَة، أعلاها قَوْلُ لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَدْنَاهَا إِمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»(١). وَقَالَ أَيْضًا ﷺ: «الحَيَاءُ شُعْبَة مِنَ الْإِيمَانِ»(٢). وَقَالَ أيضا ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»(٣). وَقَالَ أَيْضًا ﷺ: «الْبَذَاذَة مِنَ الْإِيمَانِ»(٤).

فَإِذَا كَانَ الْإِيمَانُ أَصْلًا له شُعَبٌ مُتَعَدِّدَة، وَكُلُّ شُعْبَة مِنْهَا تُسَمَّى: إِيمَانًا، فَالصَّلَاة مِنَ الْإِيمَانِ، وَكَذَلِكَ الزَّكَاة وَالصَّوْمُ وَالحَجُّ، وَالْأَعْمَالُ الْبَاطِنَة، كَالحَيَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالخَشْيَة مِنَ الله وَالْإِنَابَة إليه، حتى تَنْتَهِي هذه الشُّعَبُ إلى إِمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، فإنه مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ. وهذه الشُّعَبُ، مِنْهَا مَا يَزُولُ الْإِيمَانُ بِزَوَالِهَا إِجْمَاعًا، كَشُعْبَة الشَّهَادَتين، وَمِنْهَا مَا لَا يَزُولُ بِزَوَالِهَا إجماعا، كَتَرْكِ إِمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَبَيْنَهُمَا شُعَبٌ مُتَفَاوِتَة تَفَاوُتًا عَظِيمًا، مِنْهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ شُعْبَة الشَّهَادَة،

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٣٩).

(٢) هو جزء من الحديث المتقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٢/ ٢٥٠)، وابن حبان (٢/ ٢٢٧)، والحاكم (١/ ٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، والطبراني في الكبير (٧٨٨)، والحاكم (١/ ٩)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٢٧) من حديث أبي أمامة بن ثعلبة الأنصاري ﷺ.

وَمِنْهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ شُعْبَةِ إِمَاطَةِ الْأَذَى.

وَكَمَا أَنَّ شُعَبَ الْإِيمَانِ إِيمَانٌ، فَكَذَا شُعَبُ الْكُفْرِ كُفْرٌ، فَالْحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ـ مَثَلًا ـ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَالْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ كُفْرٌ. وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ رأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْه بِيَدِه فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». رواه مُسْلِمٌ[1]. وفي لَفْظٍ: «لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[2].

وروى الترمذي[3] عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ». ومعناه ـ واللهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّ الْحُبَّ وَالْبُغْضَ أَصْلُ حَرَكَةِ الْقَلْبِ، وَبَذْلُ الْمَالِ وَمَنْعُه هُوَ كَمَالُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَالَ آخِرُ الْمُتَعَلِّقَاتِ بِالنَّفْسِ، وَالْبَدَنُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْمَالِ، فَمَنْ كَانَ أَوَّلُ أَمْرِه وَآخِرُه كله للهِ، كَانَ اللهُ إِلَهَه فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَمْ يَكُنْ فيه شَيْءٌ مِنَ الشِّرْكِ، وَهُوَ إِرَادَةُ غَيْرِ اللهِ وَقَصْدُه وَرَجَاؤُه، فَيَكُونُ مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ على قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَضَعْفِه بِحَسَبِ الْعَمَلِ.

وسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ ـ رحمه الله ـ فِي شَأْنِ الصَّحَابَةِ ـ رضي الله عنهم ـ:

---

(١) برقم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) برقم (٢٥٢١) من حديث معاذ بن أنس الجهني ﷺ بنحو هذا اللفظ. وما أورده المصنف أخرجه أبو داود (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ). فَسَمَّى حُبَّ الصَّحَابَةِ إِيمَانًا، وَبُغْضَهُمْ كُفْرًا.

وَمَا أَعْجَبَ مَا أَجَابَ به أَبُو الْمُعِينِ النَّسَفِي وغيره، عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِحَدِيثِ شُعَبِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورِ، وَهُوَ: أَنَّ الراوي قَالَ: «بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ»، فَقَدْ شَهِدَ الرَّاوي بِغَفْلَةِ نَفْسِه؛ حَيْثُ شَكَّ فَقَالَ: «بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ»، وَلَا يُظَنُّ بِرَسُولِ الله ﷺ الشَّكُّ في ذَلِكَ! وَأَنَّ هَذَا الحَدِيثَ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ!!.

فَطَعَنَ فيه بِغَفْلَةِ الرَّاوي وَمُخَالَفَتِهِ الْكِتَابَ. فَانْظُرْ إلى هَذَا الطَّعْنِ مَا أَعْجَبَه! فَإِنَّ تَرَدُّدَ الرَّاوي بَيْنَ السِّتِّينَ وَالسَّبْعِينَ لَا يَلْزَمُ منه عَدَمُ ضَبْطِهِ، مَعَ أَنَّ البُخَارِيَّ - رحمه الله - إِنَّمَا رواه «بِضْعٌ وَسِتُّونَ» مِنْ غَيْرِ شَكٍّ.

وَأَمَّا الطَّعْنُ بِمُخَالَفَةِ الْكِتَابِ، فَأَيْنَ في الْكِتَابِ مَا يَدُلُّ على خِلَافِه؟! وَإِنَّمَا فيه مَا يَدُلُّ على وِفَاقِه، وَإِنَّمَا هَذَا الطَّعْنُ مِنْ ثَمَرَةِ شُؤْمِ التَّقْلِيدِ وَالتَّعَصُّبِ.

وَقَالُوا أَيْضًا: وَهُنَا أَصْلٌ آخَرُ، وَهُوَ: أَنَّ الْقَوْلَ قِسْمَانِ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَهُوَ الِاعْتِقَادُ، وَقَوْلُ اللِّسَانِ وَهُوَ التَّكَلُّمُ بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ. وَالْعَمَلُ قِسْمَانِ: عَمَلُ الْقَلْبِ وَهُوَ نِيَّتُه وَإِخْلَاصُه، وَعَمَلُ الجَوَارِحِ. فَإِذَا زَالَتْ هذه الْأَرْبَعَةُ زَالَ الْإِيمَانُ بِكَمَالِه، وَإِذَا زَالَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ لَمْ تَنْفَعْ بَقِيَّةُ الْأَجْزَاءِ، فَإِنَّ تَصْدِيقَ الْقَلْبِ شَرْطٌ في اعْتِبَارِهَا وَكَوْنِهَا نَافِعَةً، وَإِذَا بَقِيَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ، وَزَالَ الْبَاقِي، فَهَذَا مَوْضِعُ المَعْرَكَةِ.

وَلَا شَكَّ أنه يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ طَاعَةِ الجَوَارِحِ عَدَمُ طَاعَةِ الْقَلْبِ؛ إِذْ لَوْ أَطَاعَ الْقَلْبُ وَانْقَادَ، لَأَطَاعَتِ الجَوَارِحُ وَانْقَادَتْ، وَيَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ طَاعَةِ الْقَلْبِ وَانْقِيَادِه

عَدَمُ التَّصْدِيقِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلطَّاعَة. قَالَ ﷺ: «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَة إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ، أَلَا وهي الْقَلْبُ»[1]. فَمَنْ صَلَحَ قَلْبُه صَلَحَ جَسَدُه قَطْعًا، بِخِلَافِ الْعَكْسِ. وَأَمَّا كَوْنُه يَلْزَمُ مِنْ زَوَالِ جُزْئِهِ زَوَالُ كُلِّهِ، فَإِنْ أُرِيدَ أَنَّ الهَيْئَة الِاجْتِمَاعِيَّة لَمْ تَبْقَ مُجْتَمِعَة كَمَا كَانَتْ، فَمُسَلَّمٌ، وَلَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ زَوَالِ بَعْضِهَا زَوَالُ سَائِرِ الْأَجْزَاءِ، فَيَزُولُ عنه الْكَمَالُ فَقَطْ.

---

قال الشيخ:

كل هذا في البيان والإيضاح للفرق بين التصديق والإيمان، وأنهما ليسا مترادفين، يعني: من كل جهة، ولو كانا مترادفين في اللغة، فإنهما غير مترادفين في الشرع، فمعلومٌ أن التصديق ضده التكذيب؛ يقال: صادق أو كاذب، ويقال: صدّقته أو كذبته، فالتصديق ضدّه التكذيب.

أما الإيمان فليس ضده التكذيب، بل ضدُّه الكفر، فيقال: آمن أو كفر، مؤمن وكافر، فأصبح له ضدًا غير ضد التصديق، فدلَّ على أنه ليس هو التصديق من كل جهة.

ويقال للذين قالوا: إن الإيمان والتصديق معناهما واحد، وإنهما مترادفان: قد دلَّت اللغة على التفريق بينهما، كما في الأمثلة التي ذكرها الشارح، مثل قول القائل: طلعت الشمس، فيقال له: صدقت أو كذبت، ولا يقال: له آمنت به، ولا آمنّا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

بخبرك، بل يقال: صدقنا، وأصبح الإيمان اسمًا للإيمان بالشيء الغائب؛ لأن الله أخبر بذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، أي: يجزمون به، ويعتقدونه، وإن كان غائبًا ولم يروه. إلى آخره ما ذكره الشارح.

وبكلِّ حال، فالإيمان في الأصل وفي اللغة هو التصديق، ولكن نقله الشارع من اللغة، وجعل له مسمًّى شرعيًا، فأصبحتِ الأعمال من مسمى الإيمان. فمن صرَّح بلسانه بسبِّ الدين، وبسبِّ الله، وبسب الرسل، وبكلمات الكفر، ونحو ذلك، وهو مع ذلك يزعم أنه من أهل الإيمان، وأنه قلبه مؤمن، لن نصدقه في ذلك، بل ما آمنَّا بما يقول؛ وذلك لأننا نعمل بالظاهر، كما رُوي أن رجلًا استأذن رسول الله ﷺ في قتل رجل من المنافقين، فَجَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلامِهِ، وَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يُصَلِّي؟»، قَالَ: بَلَى وَلا صَلاةَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيتُ عَنْهُمْ»[1]؛ لأنه أُمر بأن يعمل بالظاهر.

ولما جاء ذو الخويصرة إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، فقال ﷺ: «وَيْلَكَ، أو لست أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟»، فقال خَالِدُ بن الْوَلِيدِ ﷺ: يا رَسُولَ اللَّهِ، ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فقال ﷺ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي»،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، وابن حبان (١٣/ ٣٠٩) واللفظ له، والبيهقي (٣/ ٣٦٧) من حديث عبدالله بن عدي الأنصاري ﷺ.

قال خَالِدٌ: وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما ليس في قَلْبِهِ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «إني لم أُومَرْ أَنْ أَنقُبَ عن قُلُوبِ الناس، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ»[1]، يعني: إنما نعاملهم بما يظهر منهم.

فلأجل ذلك إذا قال بعضهم: إن قلبي ممتلئ إيمانًا، وأنا مؤمن. قلنا له: نصدق هذا الإيمان إذا أتيت بعلامة تدل عليه، وهو العمل، فإنه من مكملاته. فإذا لم تعمل بطل ما تقوله بما لم تعمله، وكذبناك ولم نقبل قولك، فلو كنت صادقًا لعملت، فكيف تزعُم أنك تحب اللهَ، وتحب الرسولَ ﷺ، وتحب الشريعة والإسلام، ومع ذلك لا تأتي بعلامة على هذه المحبة؟

تَعْصِي الْإِلَـٰهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَـٰذَا عَجِيبٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ ... مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ[2]

ومشهور الأثر الذي رُوي عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أنه قال: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّه مَا وَقَرَ فِي الصّدورِ وَصَدَّقَتْه الْأَعْمَالُ». فنفى ـ رحمه الله ـ أن يكون الإيمان بالتحلي، يعني: الحلية الظاهرة؛ مثل اللباس والهيئة والشعر والمظهر، أو المقال، أو السكنى بين المسلمين، أو نحو ذلك. وكذلك لا يكون الإيمان بالتمنّي، أي: بالألفاظ، فيقول: أنا مؤمن، وأنا من أهل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) راجع (٢/ ٦٣٣).

الإيمان، يمدح بذلك نفسه، فليس ذلك هو حقيقةَ الإيمان. الإيمان في الحقيقة هو ما امتلأ به القلب، ثم ظهرت آثاره على الأعمال، وصدقته الجوارح بأعمالها.

وبكل حال، فهذا الإيمان الذي يكون في القلب، ويكون في البدن هما متلازمان، وكذلك الذي يكون باللسان والذي يكون بالأركان، هما متلازمان، وكلاهما من خصال الإيمان، فمن استكمل هذه الخصال استكمل الإيمان، كما ذكر ذلك البخاري[1] عن عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أنه قال: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لم يَسْتَكْمِلْهَا لم يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حتى تَعْمَلُوا بها، وَإِنْ أَمُتْ فما أنا على صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ».

هذا كلام عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، ولا شك أنه أخذ ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم، وعرف أن الإيمان لا يكفي فيه الانتماء والتّسمِّي، بل له شروط ومكملاتٌ وآثارٌ، وله أعمال، فلابد للمؤمن أن يأتيَ بها ويستكملها حتى يُكتب بذلك مؤمنًا حقًا، فهكذا يكون المؤمنون الذين لا يفرقون بين طاعة الله ورسله، ولا يردُّون شيئًا من شريعته، هؤلاء هم المؤمنون حقًا.

وقد عرفنا أن من عقيدة أهل السنة أن الأعمال تدخل في مسمّى الإيمان، وأنه لا يكون مؤمنًا إذا لم يعمل؛ وذلك لأن الإيمان الذي في القلب تظهر آثاره على الأعمال، فالأعمال إيمان كما أن الاعتقاد إيمان، كما أن الأذكار باللسان إيمان، وكما

---

(١) في أول كتاب الإيمان من «صحيحه».

أن النفقات في وجوه الخير إيمان، وكما أن الأعمال الخيرية كلَّها، وخصال الخير وخصال الدين كلها من الإيمان، فالكفر له شُعَب، والإيمان له شُعب، فيقال مثلًا: إن السباب من خصال الكفر، والشتم واللعن من خصال الكفر، قال النبي ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1]، فجعل الأعمال المحرّمة كفرًا، وقال: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[2]، فجعلها كفرًا، أي: من خصال الكفر، وخصال الكفر تُسمى كفرًا، وخصال الإيمان تسمى إيمانًا، والعبد يحرص على أن يجمع خصال الخير كي تجتمع فيه كلّها، فيكون مؤمنًا حقًا ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] من الذي يزهد في هذا الثواب كله، ولا يحرص على أن يكون مؤمنًا حقًا حتى يحصل له هذا الثواب؟!

والذين زعموا أن الأعمال ليست من الإيمان، وجعلوا الإيمان مقتصرًا على العقيدة، وعلى الكلام - كما هو قول الحنفية - فإن قولهم فيه خلل، وقد ذكرنا فيما سبق أنهم لما اعتقدوا هذه العقيدة، ضعُف قدر الإيمان الذي في قلوبهم، فصاروا يكتفون بما في القلب وبما في اللسان، ولا يعدُّون الأعمال من مسمَّى الإيمان، فيضعف تنافسهم في الخيرات، ولا يبالي أحدهم بما ارتكب من السيئات والخطيئات، فيقعون في الذنوب ولا يشعرون، أو يظنون أنها لا تنافي إيمانهم، أو أنها لا تنقص ثوابهم، وكذلك يزهدون في الأعمال الخيرية من الحسنات والقُربات

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

وسائر الطاعات، يزهدون فيها ويظنون أنها لا يكون لها تأثير في إيمانهم، ولا في قُرباتهم ولا في أعمالهم، فكان ذلك سببًا في نقص تنافسهم في الخيرات.

أما أهل السنة فإنهم لما عرفوا أن الاعمال من الإيمان، صاروا يتنافسون في كثرة الخصال الخيرية، وصاروا يعملون الأعمال الدينية، ويُكثرون من الحسنات ويتوقّون السيئات والمخالفات، وصاروا بذلك في أعلى المراتب.

قال الشارح:

وَالْأَدِلَّة على زِيَادَة الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِه مِنَ الْكِتَابِ والسنة وَالْآثَارِ السَّلَفِيَّة كثيرة جِدًّا، مِنْهَا قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وَكَيْفَ يُقَالُ فِي هَذِه الآيَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا: إِنَّ الزِّيَادَة بِاعْتِبَارِ زِيَادَة الْمُؤْمِن به؟ فَهَلْ فِي قَوْلِ النَّاسِ ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، زِيَادَة مَشْرُوعٍ؟ وَهَلْ فِي إِنْزَالِ السَّكِينَة على قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ زِيَادَة مَشْرُوعٍ؟ وَإِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَة فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَرْجِعَهُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَة لِيَزْدَادُوا طُمَأْنِينَة وَيَقِينًا، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران:١٦٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥].

---

قال الشيخ:

تقدم تعريف الإيمان أنه قولٌ باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان،

يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان . هذه الجملة: يزيد وينقص، هي أيضًا محل خلاف بين أهل السنة وبين الحنفية، أو بين جمهور الأمة وبين الحنفية، وكذلك غيرهم من المبتدعة، فإنهم كالمرجئة والجهمية، لا يرون الأعمال من مسمَّى الإيمان، ولا يرون زيادة الإيمان ولا نقصه، ويعتقدون أن أهلَه في أصله سواءٌ، وأن تفاضُلهم إنما هو بالدرجات في الآخرة، أو بالأعمال، وإلا فالأعمال عندهم زائدة عن الإيمان، ويرون أن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، هكذا قالوا.

أما أهل السنة فيرون أن الإيمان يزيد وينقص، وقد ذكرنا أمثلة على ذلك فيما سبق، فإن الإنسان يحرص على زيادة إيمانه، فالكلمة الطيبة تزيدُ إيمانه، والكلمة الخبيثة تنقص إيمانه، والدرهم الذي ينفقه في وجوه الخير يزيد إيمانه، وإذا أنفقه في المعاصي ينقص إيمانه، والخطوات التي يسيرها إلى الخير وأماكنه، كالمساجد ونحوها تزيد إيمانه، وإذا خطا إلى أماكن اللهو واللعب والباطل ينقص بذلك إيمانه، وهكذا بقية الأعمال . هذا مثال على **زيادة الإيمان ونقصانه، أنه يزيد بالطاعة** وينقص بالعصيان.

وهذه الآيات التي أوردها الشارح فيها دلالة واضحة، على أن الإيمان يزيد وينقص، أثبت الله فيها الزيادة، وكل شيء يقبل الزيادة فهو يقبل النقصان، ففي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، لما خرج النبي ﷺ ومعه بعض أصحابه بعد وقعة أُحُد، يريد اللحاق بالمشركين، جاءهم

نعيم بن مسعود وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، يعني: أن المشركين قد جمعوا لكم يريدون أن يرجعوا إليكم ويقتلوا من بقي فاخشوهم، هذه المقالة هي التي قد قالها نعيم، هذه المقالة ما فيها زيادة أعمال ولا فيها زيادة تشريع، ولا فيها زيادة حكم، كيف زادتهم إيمانًا، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قَوِيَ إيمانهم بها، وكثر عملُهم، وصمدوا فيما جاؤا له، وتوجهوا في طلب المشركين، جادين في اللحاق بهم، مع ما أصابهم من القرْح، كما قال الله تعالى بعد أن ذكر الشهداء: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧١، ١٧٢]، أي: المصيبة التي نزلت بهم وأصيبوا بها في أُحُد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٢، ١٧٣].

كذلك الآيات التي في آخر سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، كيف زادتهم إيمانًا؟ عملوا بما في هذه السورة مثل هذه الآيات، وطبقوها وعملوا بما فيها، وكذلك اعتقدوا مدلولها فزاد إيمانهم، فهذا دليل واضح على أن الإيمان يزيد وينقص.

كذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]،

زادهم هدى، والهدى: زيادة إيمان وطمأنينة، كذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]، لَمَّا رجعوا من عمرة الحديبية أنزل الله عليهم الطمأنينة، وأنزل في قلوبهم السكينة، فازداد إيمانهم وكثُرت أعمالهم، وهذه أدلة واضحة على أن الإيمان يزيد، وأنه إذا كان يقبل الزيادة، فإنه يقبل النقصان.

فلذلك قال أهل السنة: إنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وإذا عرف المسلم ذلك حرص على ما يزيد إيمانه؛ فيحرص على ما يقوّيه، ويثبته ويرسخه، وهو إيمانه بما أخبر الله به، وكذلك اتّباعه لآيات الله، ونظره في مخلوقاته مما يرسّخ الإيمان في قلبه، ويقوّيه، كذلك كثرة عمله وتطبيقه لما جاء في هذه الشريعة، فذلك كله مما يزيد به إيمانه . وإذا عرفنا ما يزيد الإيمان، فإن ضد ذلك هو الذي ينقص الإيمان، أي: ضد الأعمال التي يزيد بها الإيمان، فالأعمال الصالحة تزيد الإيمان فيعملُ بها، وضدها المعاصي، وهي التي تنقص الإيمان، فيبتعد عنها.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَا رواه الْفَقِيه أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِي - رحمه الله - في تَفْسِيرِه[1] عِنْدَ هذه الآية، فَقَالَ: حَدَّثَنَا الفَقِيهُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ وَأَبُو الْقَاسِمِ السَّابَاذِي، قَالَا: حَدَّثَنَا فَارِسُ بْنُ مَرْدَوَيْه، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ بن الْعَابِدُ، قَالَ: حَدَّثَنَا يحيى بْنُ عيسى، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُطِيعٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سلمة، عَنِ أَبِي الْمُهَزِّمِ، عَنْ أَبِي هريرة ﷺ، قَالَ: جَاءَ وَفْدُ ثَقِيفٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؟ فَقَالَ: «لَا، الْإِيمَانُ مُكَمَّلٌ فِي الْقَلْبِ، زِيَادَتُه وَنُقْصَانُه كُفْرٌ».

فَقَدْ سُئِلَ شَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ - رحمه الله تعالى - عَنْ هَذَا الحَدِيثِ؟ فَأَجَابَ بِأَنَّ الْإِسْنَادَ مِنْ أبي الليْثِ إلى أبي مُطِيعٍ مَجْهُولُونَ، لَا يُعْرَفُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ التَّوَارِيخِ المَشْهُورَة.

وَأَمَّا أَبُو مُطِيعٍ، فَهُوَ: الحَكَمُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ مَسْلَمَة الْبَلْخِي، ضَعَّفَه أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، وَعَمْرُو بْنُ عَلِي الْفَلَّاسُ، والبُخَارِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ، والنَّسَائِيُّ، وَأَبُو حَاتِمٍ الرَّازِي، وَأَبُو حَاتِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حِبَّانَ الْبُسْتِي، وَالْعُقَيْلِي، وَابْنُ عَدِي، وَالدَّارَقُطْنِي، وَغَيْرُهُمْ.

وَأَمَّا أَبُو الْمُهَزِّمِ، الراوي عَنْ أبي هريرة: فَقَدْ تَصَحَّفَ على الْكَاتِبِ، وَاسْمُه: يَزِيدُ بْنُ سُفْيَانَ، فَقَدْ ضَعَّفَه أَيْضًا غَيْرُ وَاحِدٍ، وَتَرَكَه شُعْبَةُ بْنُ الحَجَّاجِ، وَقَالَ النسائي: مَتْرُوكٌ، وَقَدِ اتَّهَمَه شُعْبَةُ بِالْوَضْعِ؛ حَيْثُ قَالَ: لَوْ أَعْطَوْه فَلْسَيْنِ

---

(١) (٢/ ٩٩).

لَحَدَّثَهُمْ سَبْعِينَ حَدِيثًا.

قال الشيخ:

هذا الحديث الذي مرّ معنا لفظه أنَّ النبي ﷺ سُئل عن الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: «لَا، الْإِيمَانُ مُكَمَّلٌ فِي الْقَلْبِ، زِيَادَتُه كُفرٌ، وَنُقْصَانُه شِرْكٌ»!! هذا حديث باطل[1]، وضعه بعض هؤلاء الوضّاعين، ورجال إسناده إما مجهول، وإمّا كذاب، وإما ضعيف، فلا يُلتفت إليه، وليس بدليل، ثم هو مصادم للنّصوص، إذا كانت الآيات تدلّ على زيادته فكيف يأتي الحديث بأنه ليس هناك زيادة، إذا كان الله يقول: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، فكيف يأتي مع ذلك الحديث، ويكون من قول النبي ﷺ؛ ليخالف كتاب ربّه، وهو لا يأتي إلا بما أوحي به إليه، وقد أوحي إليه بأنّ الشريعة في هذا وأنّ أعمالها إذا عمل بها العباد زاد بذلك إيمانهم، فلا يقول قائل إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، معتمدًا على ذلك الحديث المكذوب.

(١) انظر: المجروحين (٢/ ١٠٣)، والموضوعات (١/ ٨١)، ولسان الميزان (٥/ ٣٤٧).

قال الشارح:

وَقَدْ وَصَفَ النبي ﷺ النِّسَاءَ بِنُقْصَانِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ[١]. وَقَالَ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ وَلَدِه وَوَالِدِه وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٢]. وَالْمُرَادُ نَفْي الْكَمَالِ، وَنَظَائِرُه كثيرة، وَحَدِيثُ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَحَدِيثُ الشَّفَاعَة، وأنه يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِه أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّة مِنْ إِيمَانٍ[٣].

فَكَيْفَ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا: إِنَّ إِيمَانَ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سَوَاءٌ؟ وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِمَعَانٍ أُخَرَ غَيْرِ الْإِيمَانِ؟!

وَكَلَامُ الصَّحَابَة - رضي الله عَنْهُمْ - فِي هَذَا المعنى كَثِيرٌ أَيْضًا. منه: قَوْلُ أبي الدَّرْدَاءِ ﷺ: «مِنْ فِقْه الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَاهَدَ إِيمَانَه وَمَا نَقَصَ منه، وَمِنْ فِقْه الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَيَزْدَادُ هُوَ أَمْ يَنْقُصُ»[٤]. وَكَانَ عُمَرُ ﷺ يَقُولُ لِأَصْحَابِه: «هَلُمُّوا نَزْدَدْ إِيمَانًا»[٥]، فَيَذْكُرُونَ الله عَزَّ وَجَلَّ.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ فِي دُعَائِه: «اللَّهُمَّ زِدْنَا إِيمَانًا وَيَقِينًا وَفِقْهًا»[٦].

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٨٧).

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٦).

(٤) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ١٢٩).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٤). واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤١).

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٢).

وَكَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ يَقُولُ لِرَجُلٍ: «اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً»[١]. وَمِثْلُه عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ رَوَاحَةَ[٢].

وَصَحَّ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ أنه قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ: إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِه، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ إِقْتَارٍ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ». ذكره البخاري ـ رحمه الله ـ في «صَحِيحِه»[٣]. وفي هَذَا الْقدرِ كِفَايَة، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ

---

قال الشيخ:

ما أورده الشارح ـ رحمه الله ـ أدلّة واضحة تدلّ على تفاوت أهل الإيمان في إيمانهم، وأنّهم ليسوا سواء كما يقول المبتدعة ونحوهم، إنّ الناس سواءٌ في الإيمان، وأنّهم لا يتفاوتون إلا بمعاني أخرى، فالنبيّ ﷺ نفى الإيمان عمّن فعل بعض المعاصي، ويفسّره العلماء بأنّ المراد نفي كماله، فإذا قال النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٤]، هل يقال: إنّ من لا يأمن جاره بوائقه كافر؟ لا، بل نقول إنّ إيمانه ناقص، أو قوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٥]، فهل نقول عن الإنسان إذا لم يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه: إنه كافر؟ لا،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٣).

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٣).

(٣) في كتاب الإيمان ـ باب إفشاء السلام من الإسلام.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) تقدم تخريجه (١/ ٦٣١).

ولكن نقول: إنّه لم يؤمن الإيمان الكامل؛ لأنّ الإيمان يتفاوت أهله فيه، فيكون منهم من هو كامل الإيمان، ومنهم من هو ناقص الإيمان، فهذا كمال الإيمان الذي هو استيفاء هذه الخصال ونحوها.

وكذلك مثل الأحاديث التي فيها إرشاد النبيّ ﷺ للمؤمن أن يفعل خصالًا معينة، كما في قوله ﷺ: «من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ»[1]، وقوله ﷺ «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ ثَلَاثِ لَيَالٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ»[2]. معلوم أنّها تؤمن، ولكن سفرها بغير محرم ينقص في إيمانها، لا أنّه ينفي الإيمان كلّه، وقوله: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحِدُّ على مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إلا على زَوْجٍ، فَإِنَّهَا تُحِدُّ عليه أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»[3]، ومعلوم أنّه ﷺ لا يخاطب إلّا من هي مؤمنة، ولكن لو حدّت على أبيها أكثر من ثلاث، فلا تخرج بذلك عن الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكن يكون هذا أيضًا نقصًا في الإيمان، ويقال كذلك في الخصال التي ذُكر فيها الإيمان.

وهذا دليل أنّ أهل الإيمان يتفاوتون فيه، فمن استكمل هذه الخصال، وابتعد عن الآثام، فهو كامل الإيمان، وإلّا فهو ناقص الإيمان بحسب أعماله التي أخلّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

بها، أو المعاصي التي ارتكبها، وقد أخبر النبي ﷺ بأنّ الإيمان الذي في القلب أيضًا يتفاوت في حقّ من يدخل النار في قوله: «**يَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لَا إِلَهَ إلا الله، وفي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ من خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لَا إِلَهَ إلا الله، وفي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ من خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لَا إِلَهَ إلا الله، وفي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ من خَيْرٍ**»[1]، أليس هذا دليلًا على أنّ الإيمان الذي في القلب يتفاوت؟ فإن كان الإيمان قويًا كانت آثاره أكبر، وتدفع البدن إلى مزيد من الأعمال، وإذا كان ضعيفًا قلّت الأعمال الخيريّة، وتكثر السيئات، أو تقلّ بحسب قوّة الإيمان الذي في القلب، وتكون الأعمال هذه علامة على ما في القلب، فتكون إيمانًا كذلك.

أيضًا ثبت أنّ السلف ـ رحمهم الله ـ كانوا يسمّون الأعمال إيمانًا، كما ذكر الشارح في بعض الآثار عن بعض الصحابة وغيرهم، كما ورد أنّ عمر ومعاذًا وابن رواحة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يقولون: اجلس بنا نؤمن ساعة، أو يقولون: نزدَدْ إيمانًا، أو: هلمّ فلنعمل أعمالًا نقوّي بها إيماننا، ونزيد بها إيماننا. يقولون: كيف يزيد؟ مثلًا إذا ذكرنا الله وحمدناه وشكرناه وأطعناه وعبدناه، زاد بذلك إيماننا بالذي عملناه، فكثرته يحصل بها ثقل الموازين، وتحصل بها خفة في الحساب في الآخرة، وتحصل بها السعادة، ويحصل بها إعطاء الكتاب باليمين، ويحصل بها أيضًا التمكين من الورود على الحوض، وكذلك أيضًا سرعة المسير على الصراط عندما ينصب، وآخر ذلك دخول الجنّة بسلام، كما أخبر النبي ﷺ، وذكر أيضًا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس ﷺ.

البخاري[1] عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ أنه قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ: إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِه، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ إِقْتَارٍ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ»، وذكر البخاري[2] أيضًا عن عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أنه قال: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لم يَسْتَكْمِلْهَا لم يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حتى تَعْمَلُوا بها، وَإِنْ أَمُتْ فما أنا على صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ».

ولا يقول ذلك، ويخبر بأن الإيمان له شرائط، ونتائج، وله ثمرات إلا وقد أخذ ذلك عن الصحابة، فإنّه تلميذ الصحابة، والصحابة أخذوا ذلك عن نبيّهم ﷺ، وعن كتاب ربّهم، فعرفنا بذلك أنّ الإيمان لا بدّ أن يستكمل حتى يفيد أصحابه، وحتى تكون نتيجته السعادة الأبديّة.

---

(١) في كتاب الإيمان ـ باب إفشاء السلام من الإسلام.

(٢) في أول كتاب الإيمان.

قال الشارح:

وَأَمَّا كَوْنُ عَطْفِ الْعَمَلِ على الْإِيمَانِ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَة، فَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا في مسمى الْإِيمَانِ: فَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِيمَانَ تَارَة يُذْكَرُ مُطْلَقًا عَنِ الْعَمَلِ وَعَنِ الْإِسْلَامِ، وَتَارَة يُقْرَنُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتَارَة يُقْرَنُ بِالْإِسْلَامِ. فَالْمُطْلَقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْأَعْمَالِ، قَالَ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [الأنفال:٢]. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ الآية [الحجرات:١٥]. ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٨١].

وَقَالَ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١) الحَدِيث.

«لَا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا»(٢).

«مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»(٣).

وَمَا أَبْعَدَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّ معنى قوله: «فَلَيْسَ مِنَّا»، أي: فَلَيْسَ مِثْلَنَا! فَلَيْتَ شِعْرِي: فَمَنْ لَمْ يَغُشَّ يَكُونُ مِثْلَ النبي ﷺ وَأَصْحَابِه؟

وأَمَّا إِذَا عُطِفَ عليه الْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَاعْلَمْ أَنَّ عَطْفَ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَة بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عليه، مَعَ الِاشْتِرَاكِ في الْحُكْمِ الذي ذُكِرَ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٠١) بلفظ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، ومَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» من حديث أبي هريرة ﷺ.

لهما، والمُغايرة على مَراتِبَ:

أعْلاها: أنْ يكونا مُتباينَيْنِ، ليْسَ أحَدُهُما هُوَ الآخَرَ، ولَا جُزْءًا منه، ولَا بيْنَهُما تَلازُمٌ، كقَوْلِه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٣]، وهَذا هُوَ الْغالِبُ.

ويَليه: أنْ يكُونَ بيْنَهُما تَلازُمٌ، كقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤٢]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢].

الثَّالِثُ: عَطْفُ بَعْضِ الشَّيْءِ عليه، كقَوْلِه تعالى: ﴿حَٰفِظُوا عَلَى الصَّلَوَٰتِ وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾ [الأحزاب:٧].

وفي مِثْلِ هَذا وَجْهَانِ:

أحَدُهُما: أنْ يَكُونَ دَاخِلًا في الْأَوَّلِ، فَيَكُونُ مَذْكُورًا مَرَّتَيْنِ.

والثاني: أنَّ عَطْفَه عليه يَقْتَضِي أنه لَيْسَ دَاخِلًا فيه هُنَا، وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فيه مُنْفَرِدًا، كَمَا قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ في لَفْظِ (الْفُقَرَاءِ وَالمَساكِينَ)، وَنَحْوِه، مما تَتَنَوَّعُ دِلَالَتُه بِالْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرَانِ.

الرَّابِعُ: عَطْفُ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ لِاخْتِلَافِ الصِّفَتَيْنِ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنۢبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر:٣]، وَقَدْ جَاءَ في الشِّعْرِ الْعَطْفُ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظِ فَقَطْ، كَقَوْلِه:

..... فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا[1]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]. وَالْكَلَامُ على ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ.

---

قال الشيخ:

هذا جواب عمّا استدلّ به الحنفيةُ من عطف العمل على الإيمان، فهم يقولون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٧]؛ يقولون: لو كانت الأعمال من الإيمان ما عُطفت عليه، فعطفها عليه يقتضي أنّها ليست من الإيمان، بل هي غيره، فالإيمان عندهم هو ما في القلب، والأعمال شيء زائد على الإيمان، هكذا قرّروا هذا الدليل.

نقول: مرّ معنا جواب الشارح، وكذلك أجاب غيره، حيث ذكر أنّ الإيمان تارة يكون مستقلًا غير معطوف على شيء، وتارة يعطف عليه، فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، فهذا تفسير للمؤمنين، بأنّهم أهل هذه الخصال، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة:١٥]،

---

(١) عجز بيت لعدي بن زيد العتادي، وصدره: فَقَدَّمَتِ الأَدِيمَ لِرَاهَشِيه.
انظر: ديوانه (١٨٣)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ٧٦).

فهذا دليلٌ على أن هؤلاء هم المؤمنون، ويكون من إيمانهم هذا السجودُ والتسبيح، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥]، فهذا تفسير للإيمان، وأشباه ذلك كثير، يذكر الله فيها الإيمان، ويذكر أن الأعمال داخلة فيه، فمثل هذا يبيّن الإيمان الحقيقي؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٣، ٤]، فإذًا هذا معنى من المعاني يكون فيه الإيمان مستقلًا غير معطوف على شيء. أمّا إذا عُطفت عليه بعض الأعمال، فذكر أنّ العاطف له عدّة حالات:

فتارة يقتضي العطف التغاير وكون الثاني غير الأول، فليس الثاني هو الأول ولكنه غيره، وهذا هو الكثير، فيما إذا عطفت بعضه على بعض؛ مثل قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٢٧٧]، فإنّ الصلاة غير الزكاة، فعطفت عليه للمغايرة. كذلك من أنواع العطف: العطف لأجل التنويع، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، فالعطف هنا في ﴿خَلَقَ﴾ و﴿وَجَعَلَ﴾ للتنويع لا للتغاير، وهو تفنُّن في الكلمات.

ومن أنواع العطف أن الشيء قد يُعطف على جزئه، أو على بعضه، يذكر مجملًا، ثم يُذكر بعض التفصيل فيه مثل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨]، فإن فجبريل وميكال داخلان في الملائكة، فلماذا عطفا؟ هل هل للتنويع، أو لبيان السبب؟ ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ

مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب:٧]، أخذ من النبيّين كلّهم ميثاقهم، ومن محمد ونوح وإبراهيم وعيسى عليهم الصلاة والسلام، أليسوا جميعًا من النبيّين؟ فلماذا خصّ هؤلاء؟ هذا عطف بيان، ليس عطف تنويع.

ومن العطف أيضًا: قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، الشرعة والمنهاج واحد، فالعطف هنا للترادف.

وذكر الشارح أيضًا قول الشاعر: (فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا)، الكذب والمين واحد، فالعطف هنا عطف بيان، أو عطف إيضاح.

إذًا فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [البقرة:٢٧٧]، العطف هنا عطف بيان، فبذلك يعرف أنّه ليس في الآيات ما يدلّ على أنّ الأعمال ليست من مسمّى الإيمان.

مرّ بنا أن من عقيدة أهل السنّة والجماعة زيادة الإيمان ونقصانه، والأدلّة على ذلك من الكتاب والسنة، وفائدة اعتقاد ذلك، والنقص والخلل في إيمان من أنكر ذلك. نقول: نعيد بعض الفوائد التي تترتّب على هذا الاعتقاد، فمن اعتقد أن الأعمال من مسمّى الإيمان، فإنه يحرص على استكثار الأعمال الصالحة، ومن اعتقد أنّ الإيمان يزيد بالطاعة حرص على الاستكثار من أنواع الطاعات، ومتى عرف أنّ إيمانه ينقص بالمعاصي ابتعد عن كلّ المعاصي؛ لأنه يحسّ ويستحضر أنه كلّما نقص إيمانه بمعصية؛ ضعف يقينه، ونقص حظّه من الآخرة، ومن الأجر، وكذلك ضعف حظّه من الثواب، فهو يبتعد عن هذه

الآثام التي تكون سببًا في نقص الإيمان.

وإذا كان الإيمان يقبل الزيادة فإنّه يقبل النقصان، وقد ذكرنا بعض الأدلّة التي تدلّ على الإيمان، والأمثلة التي تكون سببًا في زيادة الإيمان ونقصه، فإنّ الإنسان إذا استحضر أنّه بالكلمة الطيّبة يزيد إيمانه، وبالكلمة الخبيثة ينقص إيمانه، وبالنفقة في وجوه الخير يزيد إيمانه، وبسماع اللهو والإثم ونحو ذلك ينقص إيمانه، وبالخطوات التي يخطوها إلى عبادة، أو إلى مكان عبادة، يزداد إيمانه، وبالخطوات التي يخطوها إلى إثم أو محرّم ينقص إيمانه، وأنه يكتب له حسنات فيقدم عليه، وإذا أراد أن يتوجّه إلى طريق تفكرّ أيضًا هل له فيه خير، وهل هو إيمان أو كفر، وهل هو من شُعَب الإيمان، أو من شُعَب الكُفر؟ فلا يقدم إلَّا بعد أن يتحقّق أنّه عمل برّ وخير، وهكذا في بقيّة الأحوال.

ثم قد يقول قائل، فكيف تكون الأعمال من الإيمان، وهي تعطف عليه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٧]، فإنّه يفهم منه أنّ الأعمال زائدة على الإيمان.

والجواب كما مرَّ في الشرح: أنّ هذا العطف من عطف البيان، وعطف البيان مشهور عند العرب، يعطف على أنّه بيان لما قبله، وإيضاح له وتقوية؛ كأنّه يؤكّد أنّهم متى آمنوا فإنّهم يزيدون إيمانهم بهذه الأعمال الصالحة، والله تعالى كثيرًا ما يذكر الأعمال الصالحة ويفصّل فيها، فمثلًا سورة المؤمنون، ذكر فيها عشر صفات، أولها: الخشوع في الصلاة، وآخرها المحافظةُ على الصلوات، وإذا تأمّلنا

هذه الصفات التي أوّلها الإيمان، وجدناها كلها متفرّعةً من الإيمان، ووصفهم بأنّهم مؤمنون، وكأنّه قيل: وما هي أعمالهم؟ فقيل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]، إلى آخرها، فهذا بيان لأنّهم مؤمنون حقًا، يدلّهم إيمانهم على هذه الأشياء، فمن استكملها فهو منهم، ومن أخلّ بشيء منها، فقد أخلّ بالإيمان، أو فقد نقص إيمانه.

بهذا يعرف أنّ الإيمان يتفاوت أهله فيه، أو يزيد بعضهم على بعض، والذين يصلّون ولكنّهم لا يخشعون في صلاتهم أنقص من الخاشعين في صلاتهم، والذين يُصلّون ولكنّهم لا يحافظون على الجماعة بل يتخلّون عنها أحيانًا، أنقص إيمانًا من الذين يحافظون عليها، وكذلك الذين يعرضون كليًا عن مجالس اللغو ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٣]، أي: مبتعدون، فهم أكمل من الذين لا يُعرضون عنها، بل يجلسون مع أهله أو يسمعون لغوهم، ونحو ذلك.

فدلّ على أنّ أهل الإيمان يتفاوتون، وإن كانوا كلّهم مؤمنين، ولكن من استكمل هذه الصفات، فقد استكمل الإيمان، ومن أخلّ بشيء منها فقد نقص إيمانه، والنقص قد يأتي على الأجر، وقد يبقى معه بعض الشيء، فلذلك نعرف أن اعتقاد الإنسان وزيادة إيمانه بالطاعات سبب لاستكثاره من الطاعات، ونقص إيمانه بالمعاصي سبب لإتيانه المعاصي، فلك أن تذكر العاصي وتقول له: يا أخي لأنك مؤمن تذكّر أنّ أعمالك هذه التي تستمرّ فيها حتّى ولو كانت من صغائر الذنوب تنقص إيمانك، فإذا كنت تستمر بحلق لحيتك مثلًا، أو تطيل ثيابك تكبّرًا

وإعجابًا بنفسك، أو تتعاطى هذا الدخان تشربه دائمًا، وأنت تصرّ على ذلك، ينقص جزء من إيمانك، وكلّ يوم تقدح في إيمانك، وتقطع منه قطعة، وتجمع شعبًا من شعب الكفر، ويزيد حظّك من المعاصي، أفلا تكون منتبهًا خائفًا؟ إنّ هذا النقص وتواليه يضعف إيمانك، حتّى لا يبقى منه إلا القليل.

فما دمت كذلك وما دمت في زمن التمادي؛ فإنّ عليك أن تحرص كلّ الحرص على الأعمال التي يقوى بها إيمانك، ويضعف بها حظّك من الكفر ومن المعاصي، وكذلك تستجمع أهل الطاعة، وتحثّهم على الاستكثار منها، وتبشّرهم بأنّهم بكلّ خطوة إلى المسجد تزيد إيمانهم، وبكلّ ركعة يركعونها من النوافل تزيد إيمانهم، وبكلّ آية يقرؤونها يزيد إيمانهم، وبكلّ تهليلة وتكبيرة وتسبيحة وبكلّ استغفار، وبكلّ دعوة يدعون بها يزيد حظّهم من الإيمان، ويقوى في قلوبهم، وكذلك تقوى أبدانهم بالإيمان، ويكثر نصيبهم من الأجر الذي رُتّب على الإيمان.

فإذًا اعتقادنا أنّ الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي فيه هذه الفوائد، والذين جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، وأنّ الناس في أصله سواء، فاتتهم هذه الفوائد، فصاروا يعتقدون أنّ إيمانهم كامل لا يتزعزع، ولا يتغيّر ولا ينقص، فلا يبالون بالنقص من الحسنات، ولا يبالون باقتراف السيئات، فيقعون في المعاصي، ويتهاونون بها، ويدّعون أنها - بزعمهم - لا تضرّ ولا تنقص إيمانهم؛ لأنّها ليست من الإيمان، إنّما هو عمل القلب، وهذه إنّما هي أعمال اللسان، أو أعمال البدن، فبهذا الاعتقاد يهونون على أنفسهم أمر الذنوب، ويهونون على غيرهم الوقوع في المعاصي، فيقعون فيما حذّر الله منه وهم لا يشعرون.

قال الشارح:

فَإِذَا كَانَ الْعَطْفُ فِي الْكَلَامِ يَكُونُ على هذه الْوُجُوه، نَظَرْنَا فِي كَلَامِ الشَّارِحِ: كَيْفَ وَرَدَ فيه (الْإِيمَانُ)؟ فَوَجَدْنَاه إِذَا أُطْلِقَ يُرَادُ به مَا يُرَادُ بِلَفْظِ الْبِرِّ، وَالتَّقْوَى، وَالدِّينِ، وَدِينِ الْإِسْلَامِ.

ذُكِرَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ أَنَّهُمْ سَأَلُوا عَنِ الْإِيمَانِ ؟ فَأَنْزَلَ الله هذه الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الْآيَاتِ [البقرة:١٧٧].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ، وَالْمُلَائِي، قَالَا: حَدَّثَنَا الْمَسْعُودِي، عَنِ الْقَاسِمِ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي ذَرٍّ ﷺ، فَسَأَلَه عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَرَأَ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة:١٧٧] إِلَى آخِرِ الآية، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلْتُكَ، فَقَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ، فَسَأَلَه عَنِ الذي سَأَلْتَنِي عنه، فَقَرَأَ عليه الذي قَرَأْتُ عَلَيْكَ، فَقَالَ له الذي قُلْتَ لِي، فَلَمَّا أَبَى أَنْ يَرْضَى، قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ الذي إِذَا عَمِلَ الحَسَنَة سَرَّتْه، وَرَجَا ثَوَابَهَا، وَإِذَا عَمِلَ السَّيِّئَة سَاءَتْه، وَخَافَ عِقَابَهَا[1].

وَكَذَلِكَ أَجَابَ جَمَاعَة مِنَ السَّلَفِ بِهَذَا الجَوَابِ.

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٤١٦). ويشهد له حديث عمر بن الخطاب ﷺ: «من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك الْمُؤْمِنُ»، أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٩١٧٧)، وأحمد (١/ ١٨)، وابن حبان (١٥/ ١٢٢)، والحاكم (١/ ١٠٤)، والبيهقي (٧/ ٩١).

وفي «الصَّحِيحِ» قوله لِوَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ: «آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله؟ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدَه لَا شَرِيكَ له، وَإِقَامُ الصلاة، وَإِيتَاءُ الزَّكَاة، وَأَنْ تُؤَدُّوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ»[1].

وَمَعْلُومٌ أنه لَمْ يَرِدْ أَنَّ هذه الْأَعْمَالَ تَكُونُ إِيمَانًا بالله بِدُونِ إِيمَانِ الْقَلْبِ، لِمَا قَدْ أَخْبَرَ فِي مَوَاضِعَ أَنَّه لَا بُدَّ مِنْ إِيمَانِ الْقَلْبِ، فَعُلِمَ أَنَّ هذه مَعَ إِيمَانِ الْقَلْبِ هُوَ الْإِيمَانُ.

---

قال الشيخ:

ذكرنا أنّ هذا الموضوع يسمى: أسماء الإيمان والدين، أو أسماء الأحكام، وعرفنا أنّ هذه المسمّيات كانت مستعملة في اللغة، ولكن لها معانى يعرفونها، تلك المعاني وإن كانت معروفة عندهم لكن ليست هي المعاني الشرعية، ولأجل ذلك نقلها الشرع إلى هذه المسمّيات الخاصة، وذكرنا أنّهم يقولون مثلًا: الإيمان في اللغة كذا، وفي الشرع كذا، والإسلام لغةً كذا وشرعًا كذا، والتوحيد لغةً كذا وشرعًا كذا، والبرّ لغة كذا وشرعًا كذا، والتقوى في اللغة: مشتقّة من التوقّي، وهي الحذر من المخوف، وأمّا في لسان الشرع: توقّي عذاب الله، وأن يجعل بينه وبين سخط الله وقاية وحاجزًا منيعًا، وذلك يكون بامتثال كلّ ما أمر، وتجنّب كلّ ما عنه نهى وزجر، وهكذا بقيّة التعريفات، كما ذكرنا أيضًا أن أضدادها لها أيضًا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مسمّيات شرعيّة، فالشرك له مسمّى في اللغة ومسمّى في الشرع، والفسوق له مسمّى في اللغة ومسمّى في الشرع، وما أشبه ذلك، وهكذا أيضًا أسماء الأحكام، فالصلاة لغة كذا، وشرعًا كذا، والطهارة لغة كذا وشرعًا كذا، وكذا الصوم والجهاد والحج والعمرة والزكاة، وأشباه ذلك من المسمّيات.

نقول: إنّ الإيمان هكذا، كان أصله في اللغة: التصديق الجازم بالقلب، وفي قوله ﷺ لبني عبد القيس: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا من الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ**». هذه أقوال وأعمال لسانيّة وبدنيّة وماليّة، وكلّها جعلها من الإيمان، ولكن لابدّ معها من الإيمان الذي هو العقيدة، لابدّ أن يكون قلبك انعقد عليها، وإلا فلا تنفع، فإن الأعمال من دون إيمان القلب لا تفيد، فبذلك يعرف أن الشرع أضاف إليها إضافات أصبحت من مسمّياتها؛ لأنه فسّر الإيمان بهذه الأعمال.

وقد ثبت أيضًا أنّه فسّر الإيمان بهذه الأعمال الظاهرة، وهي أركانه الخمسة، وفسّر الإيمان بأعمال القلب وبالغيبيّات، وأركانه الستة، ومراده أنّ هذا أصله يعني التصديق بالأمور الغيبيّة، وهي هذه الأركان ومع ذلك لا بدّ أن يكون له مكمّلات ومتممات، وهي بقيّة الأعمال البدنيّة، فيقال: إنّه أيضًا نقل البرّ من المعنى اللغوي إلى المعنى الشرعي؛ فالبرّ في اللغة: الصدق، والبَرّ الصادق، وقد قالوا البرّ هو طاعة الوالد، كما يقال: أوصيك ببرّ الوالدين، يعني: طاعتهم، فالبرّ لغة طاعة الوالدين، أو صدق الحديث، ولكن الشرع جعله اسمًا لكلّ الأعمال

الخيريّة حتّى أعمال القلوب فأدخل فيه أركان الإيمان الخمسة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، فهذه أركان الإيمان الخمسة.

وذكر القدر في مواضع أخرى جعلها أساسًا للإيمان وللبرّ، ثمّ ذكر أعمالًا ماليّة، وجعلها أيضًا داخلةً في البرّ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، يعني: هذا عمل مالي وهو إعطاء المال لهؤلاء، فجعله من البرّ.

ثمّ قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذه أربعة من الأعمال البدنية.

ثم قال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، فأخبر بأنّهم الذين صدقوا لَمّا قالوا: آمنّا، وظهر إيمانهم على أبدانهم وعلى أموالهم، فهم قد صدقوا، وهم أيضًا أهل التقوى الذين توقّوا أسباب الهلاك، وجعلوا بينهم وبين النار وقاية وحاجزًا منيعًا، فأصبحوا بذلك مستحقّين لاسم التقوى.

وهكذا يقال في سائر المسمّيات الشرعيّة، وهو أنّ الله شرع لعباده هذه الأشياء، وسمّاها بهذه المسمّيات، وأريد بها هذه المعاني التي تدخل فيها، ورتّب عليها الأجر والثواب، فرتّب الله على البرّ الثواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣]، ورتّب على التقوى الجنّة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]،

أعدّت يعني: هيّئت للمتقين، كما رتّب بذلك على الإيمان، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦]، على إيمانهم وعملهم الصالح، فمن صدق بذلك كلّه وعمل به فهو المصدّق المتّبع لهذه الشريعة، ومن نقص حظّه من ذلك نقص حظّه من الآخرة.

قال الشارح:

وَأَيِّ دَلِيلٍ على أَنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَة في مسمى الْإِيمَانِ فَوْقَ هَذَا الدَّلِيلِ؟ فإنه فَسَّرَ الْإِيمَانَ بِالْأَعْمَالِ، وَلَمْ يَذْكُرِ التَّصْدِيقَ، لِلْعِلْمِ بِأَنَّ هذه الْأَعْمَالَ لَا تُفِيدُ مَعَ الْجُحُودِ. وفي «الْمُسْنَدِ»[1] عَنْ أَنَسٍ ﷺ، عَنِ النبي ﷺ، أنه قَالَ: «الْإِسْلَامُ عَلَانِيَة، وَالْإِيمَانُ في الْقَلْبِ».

وفي هَذَا الحَدِيثِ دَلِيلٌ على الْمُغَايِرَة بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ. وَيُؤَيِّدُه حَدِيثِ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدْ قَالَ فيه النبي ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[2]. فَجَعَلَ الدِّينَ هُوَ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِحْسَانَ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ دِينَنَا يَجْمَعُ الثَّلَاثَة. لَكِنْ هُوَ دَرَجَاتٌ ثَلَاثَة: مُسْلِمٌ، ثُمَّ مُؤْمِنٌ، ثُمَّ مُحْسِنٌ. وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ مَا ذُكِرَ مَعَ الْإِسْلَامِ قَطْعًا، كَمَا أنه أُرِيدَ بِالْإِحْسَانِ مَا ذُكِرَ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، لَا أَنَّ الْإِحْسَانَ يَكُونُ مُجَرَّدًا عَنِ الْإِيمَانِ، هَذَا مُحَالٌ. وَهَذَا كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]. وَالْمُقْتَصِدُ وَالسَّابِقُ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّة بِلَا عُقُوبَة، بِخِلَافِ الظَّالِمِ لِنَفْسِه، فإنه مُعَرَّضٌ لِلْوَعِيدِ.

وَهَكَذَا مَنْ أَتَى بِالْإِسْلَامِ الظَّاهِرِ مَعَ التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ، لَكِنْ لَمْ يَقُمْ بِمَا يَجِبُ عليه مِنَ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ فإنه مُعَرَّضٌ لِلْوَعِيدِ.

---

(١) (٣/ ١٣٥).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

فَأَمَّا الْإِحْسَانُ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِه، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَهْلِه، وَالْإِيمَانُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِه، وَأَخَصُّ مِنَ جِهَةِ أَهْلِه مِنَ الْإِسْلَامِ، فَالْإِحْسَانُ يَدْخُلُ فيه الْإِيمَانُ، وَالْإِيمَانُ يَدْخُلُ فيه الْإِسْلَامُ، وَالْمُحْسِنُونَ أَخَصُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَخَصُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَهَذَا كَالرِّسَالَة وَالنُّبُوَّة، فَالنُّبُوَّة دَاخِلَة فِي الرِّسَالَة، وَالرِّسَالَة أَعَمُّ مِنْ جِهَة نَفْسِهَا، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَة أَهْلِهَا، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِي، وَلَا يَنْعَكِسُ.

---

قال الشيخ:

هذا كلام يتعلّق بالإسلام والإحسان، فإنّ الرسول ﷺ في حديث وفد عبد القيس، فسّر الإيمان بالأعمال والأقوال؛ لأنّه ما أمرهم إلا بالإيمان، ولكن في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ المشهور سُئل عن الإسلام والإيمان والإحسان، ففسر كلّ واحد بتفسير، ولكن الثاني لا بدّ أنّه دخل في الأوّل، والثالث لا بدّ أنّه مستلزم للأوّلين قبله، ففسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة؛ فسره بالأركان الخمسة: بالشهادتين، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، هذا هو الإسلام؛ لأنّ هذه يظهر من صاحبها إذعان، وأصل الإسلام هو الإذعان والانقياد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣]، يعني: أذعنوا وانقادوا واستسلموا غيرَ مستعصين ولا متشددين، قويّهم وضعيفهم، حيوانهم وإنسانهم ومؤمنهم وكافرهم أذعنوا، يعني: أسلموا، فالإسلام في الأصل هو الإذعان، وأركانه الخمسة دليل واضح على أنّهم أعلنوا

دخولهم في الإسلام، فمن رأيناه يتلفّظُ بالشهادتين، ويحافظ على الصلوات، ويخرج زكاة ماله، ويصوم معنا، ويحجّ معنا؛ حكمنا أنّه مسلم؛ لأنّه يعمل مع المسلمين، ويدين الله تعالى ظاهرًا، ولم نفتّش ما في قلبه، فنعامله معاملة المسلمين، ولا نتكلّف البحث عن باطنه مادام يفعل هذه الأعمال الظاهرة، هذه تسمّى المرتبة الأولى، وهي المرتبة الواسعة.

ثمّ تليه المرتبة الثانية، وهي الإيمان، فسّره ههنا بالعقيدة: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، الإيمان بهذه الستّة يعني الاعتقاد بصحّتها، والاعتقاد بأحقيّتها: الإيمان بأنّ الله هو ربُّ الأرباب، وإلهُ العالمين، والمعبود وحده، المستحقّ للعبادة وحده دون ما سواه، والإيمان بالملائكة؛ لأنّهم رسل من خلق الله، مسخّرون لعبادته، والإيمان بالكتب؛ لأنّها كلام الله، وفيها شرعه، والإيمان بالرّسل؛ لأنّهم رسل ووسائط بين الله وبين عباده، والإيمان باليوم الآخر، والتصديق بالبعث بعد الموت، وبالجزاء الذي فيه، والإيمان بقدرة الله، وبما قدّره وقضاه على عباده.

هذه أمور عقديّة، ومعلوم أنّها إذ صحّت ورسخت في القلب، فلا بدّ أن تظهر آثارها على البدن، ولا بدّ أن ينطق صاحبها بما يقول، ولا بدّ أن يفعل ما يقول، ولا بدّ أن يظهر عليه الفعل والترك اللذان هما من آثار هذه العقيدة، ومن قال: أنا آمنت بالله وكتبه ورسله وبالملائكة والبعث بعد الموت وبالقدر. ثم رأيناه لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ولا يعبد الله وحده، بل يجعل معه إلهًا آخر؛ قلنا: كذبت، لو كنت صادقًا بإيمانك ويقينك لَمَا خالفت ذلك بأعمالك؛ فالأعمال التي

نراها ظاهرة هي في الحقيقة ترجمةٌ لما تقولُه وتعتقده، فإذن لا بدّ مع أركان الإيمان من أركان الإسلام؛ حتّى يكون ذلك ثقة وصحيحًا.

كما يقال في الإحسان الذي فسّره بقوله: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ**». قسّم العلماء هذا التفسير قسمين:

الأول: عين المشاهدة: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**».

والثاني: عين المراقبة: أن تستحضر أنّه يراك، أي: يراقبك.

فمن استحضر أنّه يرى ربّه اجتهد في الدعاء، واجتهد في العبادة وحسّنها وكمّلها، ومن لم يصل قلبه ويقينه هذا الاستحضار، فإنّه يستحضر أنّ ربّه مطلع عليه، يعلم نظره ولسانه وفلتاته، ويعلم حديث قلبه وما توسوس به نفسه، فيكون من آثار هذا الإيمان أن يحسن العمل إذا استحضر أنّه بمرأى ومسمع من ربّه، وأنّه لا تخفى عليه منه خافية، وأنّ الله مطّلع عليه ألا يكون ذلك حاملًا له على إتقان العمل وإحسانه.

فمثلًا ـ ولله المثل الأعلى ـ لو كان الإنسان موظفًا تحت إدارة قويّة المراقبة، ونحن دائمًا نجعل من يراقب الموظفين، فيشددون عليهم في الحضور في العمل وعدم التساهل، وقد يراقبونهم وهم لا يشعرون ولا يبصرونهم، فلا شكّ أنّ الموظفين يجدُّون في العمل، ويجتهدون فيه مخافة أن يُبعدوا عنه، ويحرموا من استحقاقاتهم. أمّا إذا كانوا مهملين، لا ينظر إليهم رئيسهم، ولا يفتّش عليهم ولا يراقبهم، فليس هناك دوافع في قلوبهم، لا دوافع إيمان، ولا مخافة من الله، ولا أمانة، فإنّهم يهملون الأعمال، ويقطعون أوقاتهم في اللهو واللعب، وفي القيل

والقال، ولا يخلصون في الأعمال، ولا يجدّون فيها، فهذا مثلٌ محسوس يشاهد بيانًا. فنقول: كذلك الإنسان الذي يعمل وهو يستحضر أن الله يراه؛ يحرص على إتقان العمل، وإذا غاب عنه هذا الاستحضار، فإنّه يتساهل كثيرًا في عمله.

فنقول بعد ذلك: هذه مراتب ثلاث: المرتبة العليا وهي الإحسان، والمرتبة الوسطى وهي الإيمان، والمرتبة الدنيا وهي الإسلام

أهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان؛ لأنّه يوجد فيهم من هو مسلم ظاهرًا وليس بمسلم باطنًا، يصلون وقلوبهم ليست مطمئنّةً بالإيمان.

وأهل الإيمان أقل من أهل الإسلام؛ لأنّهم خلاصتهم وصفوتهم.

وأهل الإحسان أهل المرتبة الثالثة، وهم خلاصة الخلاصة، يعني: أنّهم صفوة الصفوة، بمعنى أنّهم أهل الإحسان القويِّ، الذين بلغت بهم القوة إلى أنّهم يتقنون كلّ عمل، فإذا صلّوا أتقنوا الصلاة، ولم يغفلوا فيها، ولم يحدّثوا أنفسهم، وإذا دخل وقت نافلة لم يضيعوا وقتها إلا بعمل ما يحبّون وما يريدون، وهكذا بقية أعمالهم يحملهم استحضارهم لربّهم على أنّ لا يعصوه، طرفة عين، فيكون ذلك كلّه سببًا لإتقانهم العمل.

فلذلك يقال: إنّ الإسلام أعمّ من جهة أهله، يعني: أهله أكثر من أهل الإيمان، وأخصّ من جهة وصفه؛ لأنّه يدخل فيه أهل الأعمال الظاهرة، فأهل الإسلام أقلّ أعمالًا من أهل الإيمان، ولكنّهم أكثر عددًا، فيدخل فيهم المؤمنون، ويدخل فيهم المسلمون الذين ليسوا بمؤمنين، هذا معنى كونه أعمّ من جهة أهله، وأخصّ من جهة وصفه، يعني: أعمال أهله أقل من أعمال أهل الإيمان.

كذلك يقال: أهلُ الإيمان أكثر أعمالًا؛ لأنّهم آمنوا بالله واليوم الآخر، والكتاب، والملائكة، والنبيّين، والقدر، وصلّوا، وصاموا، وحجّوا، واجتهدوا، وتشهّدوا، وذكروا الله. وأمّا أهل الإسلام، فأعمالهم هي الأعمال الظاهرة: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، فهم أقلّ أعمالًا.

كذلك نقول: أهل الإحسان أقل من أهل الإيمان، فأهل الإيمان أكثر من أهل الإحسان، يعني: الإيمان أكثر من جهة أهله وأقلّ من جهة وصفه بالنسبة إلى الإحسان؛ لأنّ أهل الإحسان قد جمعوا الخصال الثلاثة، فأصبحوا مؤمنين مسلمين محسنين، فهم جمعوا بين إتقان العمل، وبين إخلاص العبادة لله، كأنّهم يرونه، ومراقبته، والإيمان به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، وأداء الصلاة، والصوم، والحج، جمعوا الأعمال كلّها، وتركوا السيّئات، وابتعدوا عن الآثام، فهم أكثر من جهة الوصف، ولكنّهم أقل من أهل الإيمان، فأهل الإحسان أقلّ من أهل الإيمان، وأهل الإيمان أقل من أهل الإسلام، ولكن أهل الإسلام أقلّ أعمالًا من أهل الإيمان، وأهل الإيمان أقلّ أعمالًا من أهل الإحسان.

ثمّ مثّل بالنبوّةِ والرسالة معًا، إن الأنبياء أكثر من الرسل، ولكنّهم أقلّ مسؤولية، وأقلّ عملًا من الرسل، فإنّ الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ عليهم أعمال ليست على الأنبياء، ولكنّ الرسل أقل عددًا من الأنبياء؛ فإنّ كلّ رسول نبي، وليس كلّ نبي رسولًا؛ فالرسول أقلّ من جهة أهله، وأكثر من جهة وصفه.

الرسول: هو الذي أوحى الله إليه، وهو الذي أمر بالتبليغ، وهو الذي دعا

وكُذِّب، وهو الذي عُوديَ وأوذي، فهو أكثر عملًا، والرسل أقلّ عددًا من الأنبياء، فالنبوة أكثر من جهة أهلها، وأقل من جهة الوصف، يعني: من جهة الأعمال، هذا التمثيل بالنبوّة والرسالة.

نقول: كذلك أهل الإيمان، وأهل الإحسان، وأهل الإسلام. إذا عرفنا أنّ هذه كلها من الأعمال الشرعية، فيجب على الإنسان أن يحرص على أن يجمع بينها كلّها، وعلى أن يأتي بالأعمال الظاهرة، وهي الإسلام، ويحقق الأعمال الباطنة، وهي أركان للإيمان، ويحرص أيضًا على الأعمال حتّى يكون من أهل مرتبة الإحسان، فيجمع بين المراتب كلّها.

ومعلوم أيضًا أنّ المسلم إذا تسمّى أنّه مسلم، ودخل في الإسلام، أصبح ملزمًا بأمور يعتقدها تسمّى عقائد، وأصبح ملزمًا بأعمال يعملها، وبأقوال يقولها، وكلها داخلة في الدين، ولأجل ذلك جعل النبي ﷺ هذه الأشياء كلّها من الدين في قوله: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1]. فجعل الإسلام والإيمان والإحسان كلّه من الدين الذي بعث الله به هذه الرسل، وسمّاه دين الإسلام في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فمن حقّق هذا كلّه، فقد حقّق هذا الدين الذي جاء به الرسل، ومن نقص شيئًا نقص بحسبه.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

قال الشارح:

وَقَدْ صَارَ النَّاسُ في مُسَمَّى الْإِسْلَامِ على ثَلَاثَة أَقْوَالٍ:

فَطَائِفَة جَعَلَتِ الْإِسْلَامَ هُوَ الْكَلِمَة.

وَطَائِفَة أَجَابُوا بِمَا أَجَابَ به النبي ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ؛ حَيْثُ فَسَّرَ الْإِسْلَامَ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة، وَالْإِيمَانَ بِالْإِيمَانِ بِالْأُصُولِ الخَمْسَة.

وَطَائِفَة جَعَلُوا الْإِسْلَامَ مُرَادِفًا لِلْإِيمَانِ، وَجَعَلُوا معنى قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَإِقَامُ الصلاة»[1]، الحَدِيثَ: شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ. وَالْأَصْلُ عَدَمُ التَّقْدِيرِ، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ، ثُمَّ قَالُوا: الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، فَيَكُونُ الْإِسْلَامُ هُوَ التَّصْدِيقَ! وَهَذَا لَمْ يَقُلْه أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَة، وَإِنَّمَا هُوَ الِانْقِيَادُ وَالطَّاعَة، وَقَدْ قَالَ النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ»[2]. وَفَسَّرَ الْإِسْلَامَ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة، وَالْإِيمَانَ بِالْإِيمَانِ بِالْأُصُولِ الخَمْسَة. فَلَيْسَ لَنَا إِذَا جَمَعْنَا بَيْنَهُمَا أَنْ نُجِيبَ بِغَيْرِ مَا أَجَابَ به النبي ﷺ.

وَأَمَّا إِذَا أُفْرِدَ اسْمُ الْإِيمَانِ فإنه يَتَضَمَّنُ الْإِسْلَامَ، وَإِذَا أُفْرِدَ الْإِسْلَامُ فَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْإِسْلَامِ مُؤْمِنًا بِلَا نِزَاعٍ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ، وَهَلْ يَكُونُ مُسْلِمًا وَلَا يُقَالُ له: مُؤْمِنٌ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فيه.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشيخ:

كلمة الإسلام كلمة شرعيّة، ولها معنى في اللغة، والإسلام في الشرع: قريب من معناه في اللغة، فسّره الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، في «ثلاثة الأصول»، بقوله: «الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله». هذا تفسير الإسلام بما يقرب من معناه اللغويّ، الذي هو: الإذعان والانقياد.

وأمّا تفسيره في الشرع: فلا أوضح من تفسير النبيّ ﷺ له بالأركان الخمسة؛ لأنها أول دليل على إذعانه وانقياده والتزامه، فإنّ من التزم هذه الأركان انقاد إلى ربّه، ولم يستعصِ، وفعلها منقادًا ظاهرًا، كأنّه يقاد بزمام إلى هذه الأعمال، كما يُقاد البعير المذلل الذي لا يستعصي ولا ينفر، فإنّ البعير إذا كان ذلولًا قد ذُلّل وانقاد، فإنه يأتي صاحبه بأول إشارة، ينساق إذا ساقه، وينقاد إذا قاده، فهذا مثال للمسلم، ينقاد لأمر الله ويذعن لأمره، ويتذلّل له، بخلاف الكافر؛ إذا أمره الله استعصى، وأظهر الشقاق، وعاند وامتنع وشدّد في الامتناع. فهو مثل الجمل الشرود، الذي كلّما قرب منه صاحبه نفر وابتعد، ولا يستطيع أن يأتيه إلا بقوة، وقد يتمنّع على صاحبه، ولا يُمكّنه من ركوبه، ولا من قيادته، ولا من غير ذلك، هذا سبب تسمية مَنْ دخل في هذا الدين مسلمًا، يعني مستسلمًا في الظاهر.

من الناس من يقول: إن الإسلام هو مجرّد الكلمة، أي: قوله: أسلمنا، يعني: انقدنا ظاهرًا، ولأجل ذلك أنكر الله على من ادَّعى الإيمان، وهو ليس مؤمنًا،

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

وعلى هذا، فلا يفسّر الإسلام بالكلمة التي هي قول أسلمنا، ولكنّ التفسير الواضح هو أن تفسّر الكلمة بالالتزام بالأركان الخمسة، فيقال: هذا مسلم، يعني: ملتزمٌ، والله أعلم بحقيقة باطنه.

أما إذا ذكر الإسلام والإيمان معًا، فإنّ الإسلام يفسّر بالأركان الخمسة؛ لأنها ظاهرةٌ، والإيمان يفسَّرُ بأعمال القلب، لكن إذا اقتصر على الإيمان فإن أهله يكونوا مسلمين، ولا بدّ أن يكونوا قائمين بالأركان الخمسة، وأن يكونوا قائمين ومعتقدين بالأركان الستة التي هي العقيدة.

وعلى هذا من كان مؤمنًا فهو مسلم، أما إذا اقتصر على الإسلام، فهل يدخل فيه الإيمان، أو لا يدخل؟

من العلماء من يقول: إن اسم المسلم عند الإطلاق يعمّ الملتزم، والملتزم لا بدّ أن يكون ملتزمًا بالرسالة. وبكلّ ما جاء فيها، ودليله قول النبيّ ﷺ: «من قال: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ على اللَّهِ»[1]، اشترط الكفر بما يُعبد من دون الله، وثبت أيضًا قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناس حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَيُقِيمُوا

(١) تقدم تخريجه (١/ ٧١).

الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإذا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ على الله»[1]. فجعل ذلك شرطًا لعصمتهم ولقبولهم، وبذلك يعرف بأنّهما متلازمان، كلّ مسلم يلزم أن يكون مؤمنًا، وكلّ مؤمن يستلزم الإسلام في مسألة مُسمّى الإيمان والإسلام، وما يتفرّع عن هذه الأسماء.

وقد بحث العلماء وأفاضوا في هذا البحث، ومن خلال بحثهم يتبيّن حثُّهم أن يكون المسلم المؤمن عاملًا بما يقتضيه هذا الاسم، فإنه إذا تسمّى بأنّه مسلم لم يكفِ مجرّد التسمية حتّى يظهر عليه أثر هذا الاسم، فلأجل ذلك جعلوا الاسم يشمل ما في القلب، ويشمل ما على اللسان، ويشمل ما على الأركان، ليصدق بذلك المسمّيات؛ لأنّه لو كان الإيمان مجرّد ما يكون في القلب، لَما كان هناك فرق بين الناس، بل كلّ يقول أنا مؤمن، ثم بعد ذلك يعمل ما يشاء.

إذا عرفنا أن الإيمان له آثار وله مكمّلات، عرفنا بذلك من هو صادق، ومن هو كاذب، وحقائقُ الأشياء تظهر بعلامات؛ فحقيقة الإيمان علامتها العمل، كما أنّ حقيقة الإسلام علامتها العمل، فمن ادّعى بأنه مؤمن، فلا بدّ أن يعمل، فإنّ العمل من تمام الإيمان، كما أنّ من ادّعى أنّه يحبّ الله، فلا بدّ أن يطيعه، ولا بدّ أن تظهر عليه آثار هذه المحبّة، أما أن يحب الله ولكنّه لا يطيعه بل يعصيه، فليس بصادق، كما ورد عن بعض الصحابة والسلف أنّه قال: «كل من ادعى محبة الله عز وجل، ولم يوافق الله في أمره، فدعواه

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٢).

باطلة»[1]، والموافقة: هي الطاعة، أي: تمام الطواعيّة بالأعمال الصالحة. هذه هي حقيقة الموافقة، أي: موافقة ما أمر الله.

وكذلك من يحبّ لا بدّ أن يتأثّر بمحبوبه، ولا بدّ أن تظهر عليه آثار هذا الحبّ، ولأجل ذلك ورد في الأحاديث الحثّ على محبّة الله تعالى، وعلى محبّة رسوله ﷺ، وبيان أثرهما، فقال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[2]، وهذه الثلاث كلّها متلازمة، وكلّها من آثار محبّة الله، فإنّ من أحبّ الله، وأحبّ رسوله، وقدّم محبتهما على غيرهما، أطاع الله ورسوله.

وكذلك من آثار محبّة الله ومحبّة رسوله: أن يحبّ أولياء الله، من كانوا، وأينما كانوا، ولو كانوا أباعد، ولو كانوا أجانب.

وكذلك من آثار محبّة الله: أن يبغض معاصي الله، وأن يبغض العصاة، الذين يبغضهم الله.

كذلك أيضًا من آثار محبّة الله: أن يكره الكفر الذي يبعده عن ربّه، وأن يؤثر الإيمان والطاعة التي تقرّبه إلى ربّه. فهذا مثال في أنّ العمل تابع للإيمان، وأثر من آثاره، ولازم من لوازمه، وكذلك لازم من لوازم الإسلام.

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٧٥) عن أبي يعقوب النهرجوري.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٨١).

ولأجل ذلك ورد عن الحسن ﷺ قوله: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّه مَا وَقَرَ فِي الصّدورِ وَصَدَّقَتْه الْأَعْمَالُ»[1]، فجعل الأعمال أثرًا من آثار الإيمان الذي يكون في القلب.

وبكلّ حال؛ من ظهرت عليه الأعمال الصالحة، فهو المؤمن، ومن ادّعى أنّه مؤمن، ولم تظهر عليه الأعمال الصالحة، فليس بمؤمن، ولو كان باطنه حسنًا، فإنّنا لا نعمل إلا بالظاهر، فالذي في الباطن، والذي في القلب لا يُحاسِبُ عليه إلا الربّ، أمّا نحن فليس لنا إلا الظاهِر، فمن أظهر لنا خيرًا وعمل برًّا، أحببناه وشهدنا له بالإيمان والصلاح، ومن أظهر لنا فسوقًا وعصيانًا ومخالفاتٍ وسيّئات، أبغضناه وشهدنا له بالفسوق والمعصية، ومقتناه ولو كان باطنه حسنًا، فالله تعالى هو الذي يحاسب على ما في القلب، فهو علاّم الغيوب، هكذا يجب علينا.

فبذلك يتبين أنّ الأعمال من مسمّى الإيمان، وأنّه لا يتم الإيمان إلا بالأعمال، وأن الإنسان عليه أن يحقّق إيمانه بأعماله التي يعملها سواء كانت أقوالًا يتلفظ بها، كالأذكار والأدعية، والتلاوة ونحوها، أو أعمالًا يعملها ببدنه أين كانت، كجهاد في سبيل الله، ونفقة في وجوه الخير، وما شابه ذلك، أو بقلبه، كحب من يحب الله، وكراهية أعداء الله، وما أشبه ذلك، أو بجميع جوارحه، فإذا كان كذلك سمينا هذه الأعمال بعضًا أو جزءًا من إيمان، فبذلك يعرف أنّ الإيمان يتفاوت أهله فيه بحسب الأعمال.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٨٣).

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ هَلْ يَسْتَلْزِمُ الْإِسْلَامُ الْإِيمَانَ؟ فيه النِّزَاعُ الْمَذْكُورُ، وَإِنَّمَا وَعَدَ اللَّهُ بِالْجَنَّةِ فِي الْقُرْآنِ، وَبِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ بِاسْمِ الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وَقَالَ تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وَأَمَّا اسْمُ (الْإِسْلَامِ) مُجَرَّدًا، فَمَا عُلِّقَ به في الْقُرْآنِ دُخُولُ الجَنَّة، لَكِنَّه فَرَضَه وَأَخْبَرَ أنه دِينُه الذي لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاه، وبه بَعَثَ النَّبِيِّينَ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فَالحَاصِلُ أَنَّ حَالَةَ اقْتِرَانِ الْإِسْلَامِ بِالْإِيمَانِ غَيْرُ حَالَةِ إِفْرَادِ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، فَمَثَلُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَثَلِ الشَّهَادَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا مِنَ الأخرى، فَشَهَادَةُ الرِّسَالَةِ غَيْرُ شَهَادَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، فَهُمَا شَيْئَانِ فِي الْأَعْيَانِ، وَإِحْدَاهُمَا مُرْتَبِطَةٌ بِالْأُخْرَى فِي المعنى وَالْحُكْمِ، كَشَيْءٍ وَاحِدٍ. كَذَلِكَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ، لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا إِسْلَامَ له، وَلَا إِسْلَامَ لِمَنْ لَا إِيمَانَ له؛ إِذْ لَا يَخْلُو الْمُؤْمِنُ مِنْ إِسْلَامٍ به يَتَحَقَّقُ إِيمَانُه، وَلَا يَخْلُو الْمُسْلِمُ مِنْ إِيمَانٍ به يَصِحُّ إِسْلَامُه.

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وفي كَلَامِ النَّاسِ كثيرة، أَعْنِي فِي الْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرَانِ.

مِنْهَا: لَفْظُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، فَالْكُفْرُ إِذَا ذُكِرَ مُفْرَدًا فِي وَعِيدِ الْآخِرَةِ دَخَلَ فيه

الْمُنَافِقُونَ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥]، وَنَظَائِرُه كثيرة. وَإِذَا قُرِنَ بَيْنَهُمَا كَانَ الْكَافِرُ مَنْ أَظْهَرَ كُفْرَه، وَالْمُنَافِقُ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِه وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِه.

وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَفْظُ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَلَفْظُ التَّوْبَة وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلَفْظُ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

أورد الشيخ الكلام عن الفرق بين الإسلام والإيمان . ولا شكّ أنّهما مسمّيان شرعيان، وكلاهما مطلوبان ومفروضان على العباد، ولا بدّ للعبد أن يعرف مسمّاهما، وأن يدين لله تعالى بهما، فيدين لله بأنّه هو الإله الحقّ، ويدين لله تعالى بأنّه هو الذي فرض عبادته على الخلق، ويدين للرسول ﷺ بأنّه مرسل من ربّه، وأنّه يحمل هذه الرسالة التي هي الشريعة، ويدين لله بالعبادات، ومن جملتها بقية أركان الإسلام فيؤدّي الصلوات، ويخرج الزكاة، ويصوم ويحجّ ويجاهد، ويعمل بالأعمال الشرعيّة التي كتبها الله، فبذلك يكون مسلمًا ظاهرًا.

وكذلك يصحح عقيدته، فيعتقد ويجزم بعقيدة سليمة بأنّ الله تعالى موصوف بصفات الكمال، ومنزّه عن صفات النقص، وبأنّه لا تصلح الإلهيّة إلاّ له وحده، وبأنّه خالق الكون ومدبّر الأمور، وكذلك يؤمن بأمور الغيب التي تقدّم تفصيلها، وإن لم يرها، فبذلك يصير جامعًا بين الإسلام والإيمان. هذا مجمل

القول في الإسلام والإيمان.

وبكلّ حال؛ إذا جُمع بين الإسلام والإيمان فسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بأعمال القلب، ولا شكّ أنّهما متلازمان، وكلّ من اتصف بواحد منهما دون الآخر لم يكفِه ذلك، فالذي يقول أنا مؤمن إيمانًا خفيًّا لا يكفي إلاَّ أن يأتي بالأعمال الظاهرة التي هي أركان الإسلام، والذي يأتي بالأركان الظاهرةً على أتم وجه، ولكنّ قلبه فاسد، لا تنفعه هذه الأركان، ولو صلى، ولو صام، ولو حجّ، ولو زكّى مادام أنها من غير عقيدة، ولأجل ذلك كثيرًا ما يجمع الله بينهما؛ مما يدلّ على أنّ المكلف لا بدّ أن يأتي بهما، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥، ٣٦]؛ فوصفهم الله تعالى بأنّهم من المؤمنين، ثمّ وصفهم بأنّهم من المسلمين، فدلّ على أنهم يقعون بين الأمرين، بين الإسلام والإيمان، ولكن لا يغني الإيمان عن الإسلام، ولا يكفي الإسلام عن الإيمان، وإن كان أحدهما إن أفرِد دخل فيه الآخر.

وقد كذّب الله تعالى الأعراب الذين قالوا: آمنّا، وهم ليسوا بمؤمنين حقيقة في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، فأُخبروا بأنّهم قالوا: آمنّا، وهم ليسوا بمؤمنين حقيقة؛ لأنّ قلوبهم فيها ريب، وشكّ، ولا يزال عندهم توقّف وتردّد في صحة ما جاء به الرسول ﷺ، وفي تصديقه بالأمور الغيبيّة، فلأجل ذلك قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي: لم يصل إلى قلوبكم، فأنتم أسلمتم ظاهرًا، والإيمان الذي

منبعه القلب لم يصل إلى قلوبكم حقيقة.

وثبت في «الصحيح» أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ، قال سعد ﷺ: فَتَرَكَ رسول اللَّـهِ ﷺ رَجُلًا هو أَعْجَبُهُمْ إلي، فقلت: يا رَسُولَ اللَّـهِ ما لك عن فُلَانٍ، فَوَاللَّـهِ إني لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فقال: «أو مُسْلِمًا»، فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي ما أَعْلَمُ منه، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فقلت: ما لك عن فُلَانٍ، فَوَاللَّـهِ إني لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فقال: «أو مُسْلِمًا»، ثُمَّ غَلَبَنِي ما أَعْلَمُ منه، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رسول اللَّـهِ ﷺ[1].

يعني: الأَوْلى أن تقول: إنه مسلم، ولا تحكم له بالإيمان، فإن الإيمان يجمع بين الباطن والظاهر، وأنت لا تعرف منه إلاّ الظاهر، هكذا يُفسَّرُ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا، يفسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة، ويفسّر الإيمان بأعمال القلب وقد ضرب له الشارح أمثلة.

الإسلام والإيمان متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، مثل الشهادتين، فإنهما متلازمتان؛ مَنْ شهد بإحداهما لزمته الأخرى، بل هي مكمّلة لها؛ لأننا نقول: من أين عرف أنه لا إله إلا الله، من أين عرفت بأن الله هو الإله الحقّ، وأنّه لا تصلح الألوهيّة إلا له، أليس ذلك بواسطة الرسالة، إذن فيلزمك تصديق الرسول والشهادة له بأنّه مرسل من ربّه، إذا صدقت بأنّ الرسول ﷺ مبعوث من الله، فما هي الرسالة التي بلّغها؟ أليس أول شيء بدأ به هو التوحيد؛ أن يقال: لا إله إلا الله؟ أي: بدأ بدعوة النّاس إلى عبادة الله، وترك عبادة ما سواه، أليست

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

هذه أعظم رسالة بلّغها؟ إذن فالشهادتان متلازمتان، ومن شهد أن لا إله إلا الله، ألزم بأن يأتي بالشهادة الثانية، وهي الشهادة بالرسالة، ومن شهد بأنّ محمدًا رسول الله لزمه قبول الرسالة التي أهمّها قول: لا إله إلا الله، فعرفنا بذلك أنّهما متلازمتان، فكذلك الإسلام والإيمان متلازمان، فمن أسلم في الظاهر قلنا له: لابدّ أن يكون إسلامك نابعًا من القلب، ومن آمن في الباطن، وحقّق الإيمان الذي في قلبه قلنا: لا بدّ أن يكون الذي في قلبك له أثر وله علامات، أين علامات الإيمان؟ أين آثار الإيمان؟ فآثار الإيمان تظهر على سمعك وعلى بصرك، وعلى يديك، وعلى لسانك، وعلى رجليك، وعلى مالك، وعلى حالك، تظهر على ذلك آثار الإيمان، فإذا أظهرت ذلك فأنت مؤمن، وإذا لم تظهره لست بمؤمن.

ثم ذكر أيضًا أنّ كثيرًا من الأمور تقترن ويفسّر أحدهما بكذا، والآخر بكذا مثل الكفر والنفاق؛ وهما من الأمور التي بيّنها الشرع، وإن كان له مسمّى في اللغة. وكذلك أيضًا الكفر والشرك متلازمان، فإن كلّ من كفر وصف بأنه مشرك، وكل من أشرك وصف بأنّه كافر، لماذا؟ لأنّ الشرك هو أن يجعل لله شريكًا، ومعروف أن الشرك مشتقّ من الشركة، أي: الاشتراك، كأنّه جعل عبادته مشتركة بين الخالق والمخلوق، وهذا يعم كل من حُكم بكفره؛ لأنّه أطاع غير الله، ولو لم يطع إلا الشيطان الذي نهاه عن عبادة الله، أو أمره بأن يعبد المخلوق، أو أمره أن يجحد الرسالة، أو نحو ذلك، فيكون قد عبد الشيطان، ولأجل ذلك يقول العلماء إن كلّ من عبد غير الله، فعبادته منصبّة على الشياطين.

ولذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، قال المشركون: كيف تزعم أنّ ما نعبده حصب لجهنّم، نحن نعبد الملائكة، فهل الملائكة حصب جهنّم؟ والنصارى يعبدون المسيح، هل المسيح حصب جهنّم؟ اليهود يعبدون العُزير، هل العُزير الصالح من حصب جهنّم؟ فقال النبيّ ﷺ: «**كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ**»(١)، فالشياطين هي التي دعتهم إلى عبادتها، فأطاعوها، فأصبحوا عابدين للشياطين، وإلاّ فالملائكة بريئة منهم، كما حكى الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ:٤٠، ٤١]. الجنّ: يعني الشياطين.

فالحاصل أنّ الشرك والكفر متلازمان، كلُّ من أشرك قيل هذا كافر مشرك، وكلُّ من كفر بالله وبنعمة الله، قيل: هذا مشرك كافر، وكذلك أيضًا المنافق موصوف بأنّه منافق، وبأنّه كافر، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣]، ففي أول السورة سمّاهم المنافقين، في قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون:١]، وفي الآية بعدها وصفهم

---

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ١٩٢) بسنده عن ابن جريج، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٩٦، ٩٧) بسنده عن محمد بن إسحاق بن يسار.

بأنّهم قد آمنوا ثمّ كفروا، فدلّ على أنّ كل من نافق فهو كافر، ولو كان يظهر للناس أنّه معهم؛ لأنّه كما وصف الله تعالى المنافقين بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقـــــرة: ١٤]، فرؤساؤهم الذين يدعونهم إلى النفاق هم شياطينهم.

فهذا دليل على أنّهم في الباطن مع الكفّار، وهذا دليل على أنّ الأعمال متلازمة لا يتمّ الإيمان إلا بها، والإسلام والإيمان والتوحيد واليقين، من المسمّيات الشرعيّة، وكذلك أسماء الكفر متلازمة، الفسوق والعصيان، والشرك والكفر والنفاق، وما أشبهها، إذا وُصِف واحدٌ بوصف منها انطبقت عليه الأوصاف، فيقال: هذا فاسق وكافر وضالّ وعاصٍ ومشرك ومنافق، ونحو ذلك، وإن كان النفاق يختصّ بمن أخفى كفره، ولا يعمّ من أظهر كفره، لكنّه في الحقيقة كثيرًا ما يصدق عليه ما ينطبق عليه أنّه منافق، ولو كان مظهرًا لكفره غالبًا.

قال الشارح:

وَيَشْهَدُ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، إلى آخِرِ السورة. وَقَدِ اعْتُرِضَ على هَذَا بِأَنَّ معنى الآية: ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، انْقَدْنَا بِظَوَاهِرِنَا، فَهُمْ مُنَافِقُونَ في الحَقِيقَة، وَهَذَا أَحَدُ قولي المُفَسِّرِينَ في هذه الآية الْكَرِيمَة.

وَأُجِيبُ بِالْقَوْلِ الْآخَرِ، وَرُجِّحَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ كَامِلِي الْإِيمَانِ، لَا أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ، كَمَا نَفَى الْإِيمَانَ عَنِ الْقَاتِلِ، وَالزَّانِي، وَالسَّارِقِ، وَمَنْ لَا أَمَانَة له. وَيُؤَيِّدُ هَذَا سِيَاقُ الآية، فَإِنَّ السورة مِنْ أَوَّلِهَا إلى هُنَا في النَّهْي عَنِ المَعَاصِي، وَأَحْكَامِ بَعْضِ الْعُصَاة، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ المُنَافِقِينَ.

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات:١٤]، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ مَا نَفَعَتْهُمُ الطَّاعَة، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥] الآية، يعني - والله أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِي الْإِيمَانِ، هُمْ هَؤُلَاءِ، لَا أَنْتُمْ، بَلْ أَنْتُمْ مُنْتَفٍ عَنْكُمُ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ.

يُؤَيِّدُ هَذَا: أنه أَمَرَهُمْ، أَوْ أَذِنَ لَهُمْ، أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، وَالْمُنَافِقُ لَا يُقَالُ له ذَلِكَ، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ لَنَفَى عَنْهُمُ الْإِسْلَامَ، كَمَا نَفَى عَنْهُمُ الْإِيمَانَ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَمُنُّوا بِإِسْلَامِهِمْ، فَأَثْبَتَ لَهُمْ إِسْلَامًا، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَمُنُّوا به على رسوله، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِسْلَامًا صَحِيحًا لَقَالَ: لَمْ تُسْلِمُوا، بَلْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ، كَمَا كَذَّبَهُمْ في قَوْلِهِمْ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]. واللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

قال الشيخ:

هذه الآية في سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤، ١٥]، يعني: أنّ المؤمنين حقًا هم الذين اتّصفوا بهذه الصفات:

**أوّلًا**: التصديق الجازم بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وبالرسول ﷺ وبما جاء عنه، على مراده.

**وثانيًا**: ثمّ لم يرتابوا، أي: لم يداخل قلوبهم شكّ ولا توقُّف، بل هم على يقين جازم بما هم عليه، دون أن يشكّوا في شيءٍ من الغيبيّات، بل هم على يقين جازم من أمر البعث والحشر والجزاء ونحو ذلك.

**وثالثًا**: العمل وهو قوله: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فهذا من أمثلة العمل؛ يعني أنّهم جمعوا بين الإيمان الذي هو العقيدة، وعدم الرّيب، والعمل، ويكون ذلك هو حقيقة الأعمال، وحقيقة الإيمان، فهؤلاء هم المؤمنون حقًا، إنّما المؤمنون من كان على هذا.

والحاصل: أنّ الله نفى عنهم الإيمان، وأثبت لهم الإسلام، ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، وأخبر أن الإيمان لم يصل إلى قلوبهم، ولكنهم

آمنوا إيمانًا ظاهرًا.

ولا شكّ أنّ هؤلاء هم من سمّى الله، وهم الأعراب، يعني: بداة من بوادي المسلمين، دخلوا في الإسلام، ولم يتمكّن الإيمان من قلوبهم، ولأجل ذلك ارتد الكثير منهم لما مات النبي ﷺ؛ لأنّهم لم يتمكّن الإسلام في قلوبهم، فهؤلاء مسلمون، ولكن لم يكونوا في شكّ، ولم يكونوا على يقين، لم تصل إليهم الأدلّة اليقينيّة، هناك من يقول: إنّهم منافقون.

والصواب أنّهم ليسوا من المنافقين الذين وصفهم الله في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١]، ووصفهم بقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]، بل أسلموا ظاهرًا وانقادوا، ولكن لم تطمئنّ قلوبهم، ولعلّ إسلامهم كان بالغلبة أنّهم غُلبوا، أو كان بالظهور لما رأوا الإسلام يعلو ويظهر، أي: آمنوا تجربة ونظرًا، يقولون: ندخل في هذا الإسلام، وبعد ذلك نختبره وننظر؛ إن كان لهم الرفعة والمنعة والقوة والتمكين لاطمأننا فيه، وكذلك إن وجدنا فيه سعة مال، ووجدنا فيه كثرةً وغنى وراحةً وأمنًا وفيه توسعة علينا قبلناه وتمسّكنا به، وإن وجدنا فيه تضييقًا وتعبًا رجعنا إلى ما كنّا عليه، فدخلوه عن تجربة لا عن يقين، فهم ليسوا مثل الصحابة، الذين دخلوا عن يقين.

وما أكثر الذين هذه حالتهم، ولكن إذا منّ الله على العبد فدخل في الإسلام،

ثم بعد ذلك يسّر الله له من يشرح له تعاليم الإسلام والإيمان، ويبيّن له الأدلّة اليقينيّة، فإنّه عند ذلك يقتنع وينشرح بذلك صدره، ويعرف ويستيقن بأنّ الإسلام دين الحقّ، وأنّه دين الصواب، فعند ذلك تظهر عليه آثار الإسلام، وهي الأعمالُ الصالحة.

قال الشارح:

وَيَنْتَفِي بَعْدَ هَذَا التَّقْدِيرِ وَالتَّفْصِيلِ دَعْوَى التَّرَادُفِ، وَتَشْنِيعُ مَنْ أَلْزَمَ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ لَوْ كَانَ هُوَ الْأُمُورَ الظَّاهِرَة لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يُقْبَلَ ذَلِكَ، وَلَا يُقْبَلَ إِيمَانُ الْمُخْلِصِ! وَهَذَا ظَاهِرُ الْفَسَادِ، فإنه قَدْ تَقَدَّمَ تَنْظِيرُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، وَأَنَّ حَالَةَ الِاقْتِرَانِ غَيْرُ حَالَةِ الِانْفِرَادِ.

فَانْظُرْ إِلَى كَلِمَةِ الشَّهَادَة، فَإِنَّ النبي ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لَا إِلَه إِلَّا الله»[1]، الحَدِيثَ، فَلَوْ قَالُوا: (لَا إِلَه إِلَّا الله)، وَأَنْكَرُوا الرِّسَالَة، مَا كَانُوا يَسْتَحِقُّونَ الْعِصْمَة، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَقُولُوا: (لَا إِلَه إِلَّا الله) قَائِمِينَ بِحَقِّهَا، وَلَا يَكُونُ قَائِمًا بِـ (لَا إِلَه إِلَّا الله) حَقَّ الْقِيَامِ، إِلَّا مَنْ صَدَّقَ بِالرِّسَالَة، وَكَذَا مَنْ شَهِدَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، لَا يَكُونُ قَائِمًا بِهَذِه الشَّهَادَة حَقَّ الْقِيَام، إِلَّا مَنْ صَدَّقَ هَذَا الرَّسُولَ فِي كُلِّ مَا جَاءَ به. فَانْتَظَمَتِ التَّوْحِيدَ. وَإِذَا ضُمَّتْ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله إِلَى شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، كَانَ الْمُرَادُ مِنْ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله إِثْبَاتَ التَّوْحِيدِ، وَمِنْ شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله إِثْبَاتَ الرِّسَالَة.

كَذَلِكَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ: إِذَا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، كَمَا فِي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥]، وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ»[2]: كَانَ الْمُرَادُ مِنْ أَحَدِهِمَا غَيْرَ الْمُرَادِ مِنَ الْآخَرِ. وَكَمَا قَالَ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٢).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٤٢٤).

ﷺ: «الْإِسْلَامُ عَلَانِيَة، وَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ»[1]. وَإِذَا انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا شَمِلَ معنى الْآخَرِ وَحُكْمَه، وَكَمَا فِي الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ وَنَظَائِرِه، فَإِنَّ لَفْظَي الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ إِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا، وإذا افترقا اجتمعا، فَهَلْ يُقَالُ فِي قوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة:٨٩]، أنه يُعْطَى الْمُقِلُّ دُونَ الْمُعْدِمِ، أَوْ بِالْعَكْسِ؟ وَكَذَا فِي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢].

وَيَنْدَفِعُ أَيْضًا تَشْنِيعُ مَنْ قَالَ: مَا حُكْمُ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يُسْلِمْ، فَمْ أَسْلَمَ وَلَمْ يُؤْمِنْ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة؟ فَمَنْ أَثْبَتَ لِأَحَدِهِمَا حُكْمًا لَيْسَ بِثَابِتٍ لِلْآخَرِ، ظَهَرَ بُطْلَانُ قوله.

وَيُقَالُ له فِي مُقَابَلَة تَشْنِيعِه: أَنْتَ تَقُولُ: الْمُسْلِمُ هُوَ الْمُؤْمِنُ، والله تعالى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥]، فَجَعَلَهُمَا غَيْرَيْنِ، وَقَدْ قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ والله إِنِّي لِأَرَاه مُؤْمِنًا؟ قَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا»، قَالَهَا ثَلَاثًا[2]، فَأَثْبَتَ له اسم الْإِسْلَامِ، وَتَوَقَّفَ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ، فَمَنْ قَالَ: هُمَا سَوَاءٌ. كَانَ مُخَالِفًا، وَالْوَاجِبُ رَدُّ مَوَارِدِ النِّزَاعِ إلى اللَّهِ ورسوله.

وَقَدْ يَتَرَاءَى فِي بَعْضِ النُّصُوصِ مُعَارَضَة، وَلَا مُعَارَضَة بِحَمْدِ اللَّهِ تعالى، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِي التَّوْفِيقِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٤٣٣).

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق بالجمع بين الإسلام والإيمان، في بعض المواضع كالآيات التي وردت، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، هذه الصفات لا يُكتفى بواحد منها، بل هي متلازمةٌ، فإنّ من أسلم لزمه الإيمان، ومن آمن لزمه القنوت، ومن قنت لزمه الصبر، ومن صبر لزمه الصيام، فكلّها صفات مترابطة من صفات أهل الإيمان، ولكن عطف بعضها على بعض يوافي كثرة الأعمال، يعني: أنّهم متصفون بها كلّها، وأنّها كلّها أعمال صالحة، فكلّ منها له معنى وله تفسير، فالقنوت يفسّر بأنّه دوام الطاعة، وهذا من لوازم الإسلام والإيمان، والصدق يفسّر بأنّه مطابقة القول للعمل، أو مطابقة العمل للقول، يعني أن يصدّق قوله عمله، وهذا من لوازم الإسلام والإيمان، فالذي يسلم ويؤمن، ولكنّه لا يصدق لا يقبل منه، ولأجل ذلك جعل الصدق من شروط (لا إله إلا الله)، في قول النبي ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1]. فلا بدّ من الصدق، فلذلك وصل أمر الله بقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، ولا بدّ من

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٥٤).

الصبر، فإنّ الذي يُسلم ويؤمن يُؤمر بالأعمال، فإذا أُمِر بالأعمال، فلا بدّ أن يصبر على الطاعة ولو كان فيها مشقّة، ويصبر عن المحرّمات ولو نازعته نفسه إليها، فإذا لم يصبر انثلم إيمانه، وانخرمت أوصافه الدينيّة، فلا بدّ أن يكون متّصفًا بهذه الأعمال كلّها.

فالحاصل: أنّ العطف في هذه الآية لمجرّد كثرة الصفات، لا للتغاير، وإلا فواحدة منها تستلزم البواقي؛ فالإسلام الحقيقي يستلزم الإيمان والقنوت والصدق والصبر والصيام، وتكون كلُّها من تمامه.

وكذلك بقيّة الآيات التي مرّت فإنّ قول الله تعالى في وصفه المؤمنين: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]؛ دليل على أنّهم حقًا جمعوا بين الوصفين.

فنقول: الشهادتان كلّ منهما مستلزمة للأخرى، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمّدًا رسولُ الله، فنبيّنا ﷺ أوّل ما بُعث كان يدعو الناس أن يقولوا: لا إله إلا الله، كما في قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله»[1]، وأكثر الأحاديث لم يذكر فيها الشهادة الثانية، ولكنّها مستلزمة لها، وهذا هو التصديق بالرسالة، فمن قال: لا إله إلا الله، ولكنّه لم يأت بالشهادة الثانية، لم تنفعه، فهما متلازمتان. وكذلك من قال: أنا مسلم، ولم يأت بصفة الإيمان لم ينفعه، فلا بدّ أن يأتي بصفة الإيمان حتّى يصدُق عليه حقًا أنّه جمع بين الوصفين: الإسلام والإيمان الحقيقيين.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٢).

وكذلك بقيّة الأدلّة، فلا بدّ لكل من أتى بصفة أن يأتي ببقيّة الصفات، وإلاّ فليس بصادق، فهذه الأوصاف ـ التي وصف الله تعالى بها عباده ـ كلّها أسماء لمسمّى واحد، وهو حقيقة هذا الدين الذي يدينون به، فإنّ الله تعالى سماه دين الإسلام، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، والدين: هو ما يُدان به، يعني: ما يدين به العبد، وما يتقرب به، فمن أسمائه أنّه دين، ولكن من فروعه هذه العبادات التي تسمّى فروعًا، وتسمّى شعبًا للإيمان، وأركانًا للإسلام، وتُسمّى: مراتب مراتب للدين، رتبة الإسلام، ثم رتبة الإيمان، ثم رتبة الإحسان، وتسمّى أركانًا ودعائم، يتكوّن منها، ويتقوّم منها.

والمسلم عليه أن يأتي بهذه الأركان كلّها، ومبدؤها كلّها معروف: الإتيان بالشهادتين، ويترتّب على الشهادتين قبول الرسالة، فإنّ من أتى بـ (لا إله إلا الله)، لزمته جميع أنواع العبوديّة؛ لأنّك إذا قلت: لا إله إلا الله، قلنا: الله هو الإله، فهو المعبود وهو المحمود، وهو المدعوُّ، وهو الذي يُشكَرُ، وهو الذي يذكر، وهو الذي يتقرّب إليه، وهو الذي يُطاع، وهو الذي يوحّد . وإذا قلت: إنّ محمّدًا رسول الله، يلزمك أن تؤمن به، وأن تصدّقه وتتّبعه وأن تحبّه وأن تتأسّى به، وأن تقتدي به، وأن تقدّم سنّته على غيرها، وأن تقبل كلّ ما بلّغه، فإنّ ذلك من تمام قولك: إنّه رسول الله، فإن وظيفة الرسول أن يبلّغ الرسالة، ومن حقّه أن يطاع، فيطيعه المرسل إليهم. هذا معنى الشهادتين، وتلازم وصف الإيمان والإسلام.

قال الشارح:

وَأَمَّا الِاحْتِجَاجُ بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، على تَرَادُفِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَلَا حُجَّة فيه؛ لِأَنَّ الْبَيْتَ الْمُخْرَجَ كَانُوا مَتصُفِينَ بِالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ الِاتِّصَافِ بِهِمَا تَرَادُفُهُمَا.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هذه الْمُعَارَضَاتِ لَمْ تَثْبُتْ عَنْ أبي حنيفة رحمه الله، وَإِنَّمَا هي مِنَ الْأَصْحَابِ، فَإِنَّ غَالِبَهَا سَاقِطٌ لَا يَرْتَضِيه أَبُو حنيفة. وَقَدْ حَكَى الطَّحَاوِي حِكَايَة أبي حنيفة مَعَ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَأَنَّ حَمَّادَ بْنَ زَيْدٍ لَـمَّا روى له حَدِيثَ: «أي الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ»[1] إلى آخِرِه، قَالَ له: أَلَا تَرَاه يَقُولُ: «أي الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، قَالَ: الْإِيمَانُ»، ثُمَّ جَعَلَ الْهِجْرَة وَالْجِهَادَ مِنَ الْإِيمَانِ؟ فَسَكَتَ أَبُو حنيفة، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِه: أَلَا تُجِيبه يَا أَبَا حنيفة ؟ قَالَ: بِمَ أُجِيبُه؟ وَهُوَ يُحَدِّثُنِي بِهَذَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ[2].

---

قال الشيخ:

هذه الآية يحتجون بها على تغاير الإسلام بالإيمان، وهي قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، كأنه

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٢٧)، وعنه أحمد في المسند (٤/ ١١٤) من حديث عمرو بن عبسة ﷺ.

(٢) أخرج هذا الأثر ابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٤٧).

أخبر بأنّه أخرج من كان فيها من المؤمنين، فلم يجد إلاّ بيتًا من المسلمين، وهو لوط عليه السلام وأهل بيته، ولا شكّ أنّهم جمعوا بين الوصفين، بين الإيمان والإسلام، ولهذا استثنى الله امرأته، فقال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء:١٧١]. فإذًا لا منازعات بين هذا الدليل وتلك الأدلّة، بل هو دليلٌ واضحٌ على تلازمهما؛ إذ أنّ الإسلام يستلزم الإيمان، فلا يتمّ الإيمان إلا بأركان الإسلام، ولا يتمّ الإسلام إلا بأركان الإيمان، ومن أتى بواحد منهما دون الآخر لن يقبل منه، فمن أتى بالأعمال الظاهرة ولم تكن عن يقين وعن صدق وعن عقيدة وتصديق بقلبه لم يكن مؤمنًا، ولم ينفعه الإسلام، ومن اعتقد اعتقادًا جازمًا، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وصدّق بخبر الله وبالبعث بعد الموت، ثم لم يعمل ولم يصلِّ ولم يصم ولم يحجّ ولم يؤدّ زكاة أمواله، ولم يأت بواجباته، ولم يحرّم الحرام، ولم يحلّل الحلال، فليس بمؤمن، ولو ادّعى أنّه مطمئن قلبه بالإيمان، هذا مقتضى هذه الآيات .

ثم هذه الشبه التي يستدلّون بها يدلي بها الحنفيّة، ويدّعون بذلك أنّهم ينصرون مذهب أبي حنيفة، بأن الأعمال ليست من مسمّى الإيمان، وبأنّ الإسلام مغاير للإيمان حيث يذهبون إلى أنّ الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، ويخرجون الأعمال من مسمّى الإيمان، والصحيح ـ كما قلنا ـ مذهب الجمهور: أنّ الأعمال داخلة في مسمّى الإيمان، وأنّ هذه الشبهات التي يستدلّون بها، ويدّعون أنها أدلّة لأبي حنيفة لم تكن منقولة عن أبي حنيفة نفسه، فهو ـ رحمه الله ـ من أجلّاء

السلف، ولم يكن يدلي بهذه الشبهات، ولا يشكك بها في هذه العقيدة، فإنّ العقيدة السليمة الصحيحة عقيدة أهل السنّة والجماعة، ولكنّ لما اشتهر هذا القول عن الحنفيّة، وهو أنّهم يخرجون الأعمال من مسمّى الإيمان، أخذوا يجمعون ما يستطيعون من الشبهات، من ما يسمّونه من الأدلّة عرضوها نصرة لمذهبهم، والصحيح أنّها لا دلالة فيها ـ كما ذكرنا ـ بل الأدلّة واضحة في أنّ الأعمال داخلة في مسمّى الإيمان، وثمرةٌ من ثمراته.

الأصل في هذا الدين هو العقيدة، والفروع هي العبادات؛ فإذا تأسّست الأصول انبنت عليها الفروع، وإذا خربت الأصول سقطت الفروع. فإذا كانت العقيدة راسخة في القلب، نبعت عنها الأعمال، انتجت أعمالًا صالحة، وحصل آثار تلك العقيدة الراسخة من امتثال الأوامر وترك الزواجر، والتصديق بالأخبار، والعمل الصالح، والعلم النافع، كلّ ذلك من نتائج هذا الأصل الأصيل، ومن فروع هذه العقيدة.

وبنظرنا في سير سلفنا الصالح من هذه الأمّة، نرى أنّهم لما كانت العقيدة مكتملة في قلوبهم أكثروا من الأعمال الصالحة، وصدّقوا بما أخبر الله واندفعوا في تحقيق تلك الأوامر، وأفنوا في ذلك أموالهم وأنفسهم وبلادهم، وهانت عليهم كلّها في سبيل تحقيق عقيدتهم، وما عليه آباؤهم وأسلافهم، لما عرفوا صحة الرسالة، وعرفوا صحّة التوحيد، وعرفوا حقيقة الإيمان بالبعث، وعرفوا ثواب الله تعالى في الآخرة، وعرفوا صدق ما وعد الله تعالى به لهم؛ عند ذلك هانت عليهم بلادهم فتركوها وهانت عليهم أموالهم، وسهلت عليهم عشائرهم

وأزواجهم وأقاربهم، كلّ ذلك أصبح هيّنًا عليهم في سبيل تمكّنهم من العمل الذي أمروا به، كذلك لمّا رسخت العقيدة في قلوبهم صدّقوا بوعد الله الذي وعدهم أن ينصرهم، وأن يقوّيهم، وأن يمكّن لهم في الأرض، وأن يستخلفهم كما استخلف الذين من قبلهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، فلمّا صدّقوا هذا ورسخ وتمكّن في قلوبهم؛ عند ذلك قاتلوا في سبيل الله، وقتلوا، وكذلك هاجروا وهجروا كلّ قريب أو بعيد. كلّ ذلك لأجل تصديقهم بخبر ربّهم، وتصديقهم بوعده ووعيده، وطلبهم ما وعد الله لهم من الثواب الجزيل في الآخرة، وما الذي حملهم على أن يقاتلوا الأعداء مع كثرتهم، ويصبروا حتى نصرهم الله إلاّ تصديقهم بوعد الله، حيث تمكّن ذلك في قلوبهم، فقابلوا أعداد الكفّار وعُددهم، وقابلوا جيوشهم الهائلة المتراكمة، واثقين بأنّ الله لا يُخلف وعده.

وكانوا إذا أُلقيت في قلوبهم شبهة احترقت تلك الشبهة قبل أن تتمكّن، وذلك لقوّة البراهين التي تضعف عندها تلك الشبه، فنحن بحاجة إلى أن نعرف تلك البراهين والأدلّة التي قامت عليها هذه العقيدة، وبحاجة إلى أن ندرسها ونعرف كيفيّة دلالتها، ودلالتها واضحة، ولكن تحتاج إلى قلوب فارغة من إغوائها، فإذن نحن بحاجة إلى أن نفرغ قلوبنا لها حتى تأتي إلينا، وقلوبنا فارغة من الشبهات، فارغة من الشواغل، فارغة من الضلالات والبدع، فإذا كان كذلك، فإن العقيدة ترسخ فيها ولا تتزعزع مهما اعتراها ما يعتريها، أما إذا تلقّت تلك القلوب الفارغة بدعًا وضلالات وشركيّات وخرافات، تلقّتها في حالة فراغها، ولم تصغِ إلا لها، ولم تسمع إلا هي، ثم عرضت عليها بعد ذلك الأدلّة الصحيحة

أو البراهين الساطعة، فإنّ تلك القلوب لا تجد فيها مكانًا فارغًا، وتبقى مقفلة، لا يدخلها الحقّ؛ لأنّها امتلأت بالضلال، فلم يجد الحقّ إليها سبيلًا، وامتلأت القلوب الفاسدة بالبدع، فلم تجد فيها السنّة مكانًا، وامتلأت بالخرافات، وامتلأت بالمحدثات، وامتلأت بالشبهات، فلم يجد الدليل إليها وصولًا، فلا حيلة فيها، إلَّا أن يشاء الله، ونحن نعجب من أهل البدع، وتمكّن البدع في نفوسهم، وتمسّكهم بها، مع أنّها تنكرها الطباع والفِطر، ومع ذلك يتمسّكون بها، وتتمكّن، ويعضّون عليها بالنواجذ، ولو أتيتهم بكلّ آية ما أقلعوا عنها إلا أن يشاء الله.

تأمّلوا مثلًا في الرافضة، الذين نُشِّؤوا على عقيدة زائفة، تأمّلوا كيف يبقون على هذه العقيدة، ويلقّنون عليها أبناءهم منذ الطفولة، ثمّ يحاول المحاولون في أن يقلعوا عنها، ويبيّن لهم السنّة، ويبيّن لهم الدليل، ولكن يدخل الكلام من أذن ويخرج من الأخرى دون أن يصل إلى القلوب، بل قلوبهم ليس فيها مكان للتقبّل، كذلك الكثير من المبتدعة من أشعريّة ومعتزلة وجبرية وكراميّة، لما أنّ قلوبهم منذ الصغر امتلأت بهذه الشبهات، لم يجد الحقّ إليها سبيلًا.

فنحن نحثُّ المسلم على أن يلقّن أولاده في طفولتهم معرفة الله، ومعرفة نبيّه ﷺ، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة الحساب والجزاء والأسماء والصفات، ومعرفة ما أُمر به وما نهى عنه، حتّى يرسخ ذلك في قلوبهم، ويحبّوه ويألفوه، فإذا لقّن أحدهم غيره لم يتقبّل ذلك، وإذا لقّن تلك الخرافات ودُعي إليها لم يتقبّل ذلك، بل نفر منه غاية النفور، بخلاف ما إذا بقي جاهلًا لا يعرف شيئًا، أو لقّن في

صغره عقيدة زائفة؛ فإنّه لا يقبل العقيدة الصحيحة، فهكذا فلنكن، لنتمكّن من عقيدتنا، وهكذا فلتظهر علينا آثارها.

وقد سبق كلام طويل يتعلّق بالإيمان والإسلام، وما يدخل في الإسلام، وما يدخل في الإيمان، والمسألة مسألة قديمة، حدث فيها خلاف بين المرجئة وبين أهل السنّة، فذهب المرجئة إلى أنّ الإيمان هو تصديق القلب، وجعل الأعمال ليست من مسمّى الإيمان، وذهب أهل السنّة إلى أن الأعمال داخلة في مسمّى الإيمان، وأنّ الإيمان له شعب وله فروع وكلّها تسمّى إيمانًا، فتسمّى الصلاة إيمانًا أو شعبة من الإيمان، والشهادتان إيمان أو بعض من الإيمان أو أصل الإيمان، والزكاة من الإيمان، والتصدّق أو الصدقة من الإيمان، والأذكار والأدعية من الإيمان، وهكذا.

وسبق أيضًا الخلاف: هل الإسلام غير الإيمان؟ وهل هما متغايران أو مترادفان؟ فذهب بعضهم إلى أنّهما شيء واحد، وعلى أن الإسلام أوسع من الإيمان، وأنّ الإنسان قد يصير مسلمًا ولا يصل إلى درجة الإيمان، فعلى هذا: الإيمان أخصّ من الإسلام.

من الذين سوّوا بينهما وقالوا: إنّ الإيمان والإسلام شيء واحد، من احتجّ بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، الكلام من الملائكة الذين يخاطبون إبراهيم - عليه السلام - بأنّهم سوف يخرجون أهل الإيمان؛ فوصفوا أهل ذلك البيت - وهم لوط عليه

السلام وأهل بيته ـ بأنّهم مسلمون، وبأنّهم مؤمنون، فقيل: إنّ الإيمان والإسلام شيء واحد، وهما مترادفان، والصحيح أنّ الآية لا تدلّ على أنّ الإسلام هو الإيمان؛ لأنّ أهل بيت لوط كانوا متّصفين بالإسلام وبالإيمان، فالإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو العقيدة الراسخة، كما تقدّم أنّه ﷺ فسّر في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ الإسلام بأركانه الخمسة، وفسّر الإيمان بأركانه الستّة، فجعل الإسلام أعمالًا، وهي الشهادة، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، وجعل الإيمان عقيدة وهي: التصديق بالله، وبالملائكة، وبالرسل، وبالكتب، وبالبعث بعد الموت، وبالقضاء والقدر، جعل هذا هو الإيمان، فأفاد أنّ الإيمان أصلًا هو ما يقوم بالقلب من هذا التصديق، وأنّ التصديق إذا كان راسخًا في العقل متمكّنًا في القلب؛ نتجت عنه الأعمال، فأصبحت الأعمال هي الدلالة على أنّ هناك تصديقًا صادقًا، فلذلك دخلت العبادات باسم الإيمان، فهذا أوضح الأدلّة في أنّ الإسلام أوسع من الإيمان.

وقد ذكرنا أنّ من العلماء من جعل الإسلام والإيمان والإحسان درجات:

فالدرجة الأولى درجة أرضيّة واسعة وهي الإسلام، والدرجة الثانية هي الإيمان، كأن المؤمنين خلاصة من المسلمين، انتقُوا وخلّصُوا حتى صعدوا إلى المرتبة الثانية، ثم خلصت من المؤمنين خلاصة الخلاصة وصفوة الصفوة، وجُعلوا في المرتبة الثالثة، وسُمّوا بالمحسنين، أو بأهل الإحسان كما في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ أنّه قسم المراتب ثلاثةً: الإسلام والإيمان والإحسان، فأوسعها أهل الإسلام، ثم بعد ذلك خلاصتهم أهل الإيمان، ثم بعدها خلاصة

الخلاصة أهل الإحسان، وهم أقلّ، فيقال في أولئك الخلاصة: أنتم محسنون ومؤمنون ومسلمون، أسلمتم أولًا، ثم آمنتم بعد ذلك، ثم أحسنتم، فوصلتم إلى الرتبة العالية. ويقال لأهل الإيمان: آمنتم بعدما أسلمتم، ويقال لأهل الإسلام: أسلمتم فقط ولم تصلوا إلى الإيمان، فعلى هذا الإنسان الكامل الذي وصل إلى مرتبة الإحسان أسلم ثم آمن ثم أحسن، وقد تقدّم تفسير الإحسان بأنّ النبيّ ﷺ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ»[1].

وكذلك يقال في الإيمان الحقيقي: هو الذي تنتج عنه الأعمال، وليس تصديقًا فقط لا تنتج عنه الأعمال، فليس بإيمان نقول: هذه الحجج التي يحتج بها أو يعرضها الشارح على أنها أدلّة في التفريق بين الإسلام والإيمان أدلّة للحنفيّة الذين يفرّقون بينهما، ويجعلون الإيمان مجرّد التصديق، ويجعلون الإسلام وأعمال الإسلام ليست داخلة في الإيمان، فيقول الشارح: إنّ هذه الأدلّة ضعيفة وإنّها لا يمكن أن تصدر عن أبي حنيفة مع جلالته، ومع معرفته ومع قوّة فهمه لكونها منهارة ضعيفة، واستدلّ على أنّ أبا حنيفة متى احتجّ عليه بالحديث توقّف عن ردّه، كما احتجّ عليه حماد بن زيد - وهو من علماء الحديث - في التفرقة بين المسلمين، والتفاوت بينهم بقوله ﷺ لما سُئل: أي الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قال: «الإِيمَانُ»[2]، فجعل الإيمان زائدًا عن مسمّى الإسلام، ودلّ على أنّ المسلمين

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٤٤٦).

يتفاوتون؛ فإذا كان مسلم ممّن تمكّن الإسلام في قلبه وصل إلى مرتبة الإيمان، وهي قوّة العقيدة، مع الانبعاث على العمل، فأبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لما احتُجّ عليه بهذا الحديث على تفاضل أهل الإسلام، وأنه ﷺ جعلهم متفاضلين، وجعل أفضل أعمال الإسلام هو الإيمان، أقرّ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ بذلك، ولم يردّ الحديث، مع أنّ أصحابه يتشوّفون إلى ردّ ذلك الدليل، ولكنّه سلم لهم، فيُستدلّ بذلك على أنّ هذه الاحتجاجات الضعيفة ليست من أبي حنيفة رحمه الله، وإنّما هي من أصحابه الذين يتعصّبون لمذهبه.

قال الشارح:

وَمِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الِاخْتِلَافِ: مسألة الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْإِيمَانِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلَ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ الله.

وَالنَّاسُ فيه على ثَلَاثَة أَقْوَالٍ: طَرَفَانِ وَوَسَطٌ، مِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَرِّمُه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُه بِاعْتِبَارٍ وَيَمْنَعُه بِاعْتِبَارٍ، وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ.

أَمَّا مَنْ يُوجِبُه فَلَهُمْ مَأْخَذَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عليه، وَالْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَالله مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا بِاعْتِبَارِ الْمُوَافَاة، وَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِه أنه يَكُونُ عليه، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ لَا عِبْرَة به، قَالُوا: وَالْإِيمَانُ الذي يَتَعَقَّبُه الْكُفْرُ، فَيَمُوتُ صَاحِبُه كَافِرًا: لَيْسَ بِإِيمَانٍ، كَالصَّلَاة التي أَفْسَدَهَا صَاحِبُهَا قَبْلَ الْكَمَالِ، وَالصِّيَام الذي يُفْطِرُ صَاحِبُه قَبْلَ الْغُرُوبِ، وَهَذَا مَأْخَذُ كَثِيرٍ مِنَ الْكُلَّابِيَّة وَغَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ أَنَّ الله يُحِبُّ في الْأَزَلِ مَنْ كَانَ كَافِرًا إِذَا عَلِمَ منه أنه يَمُوتُ مُؤْمِنًا، فَالصَّحَابَة مَا زَالُوا مَحْبُوبِينَ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ، وَإِبْلِيسُ وَمَنِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِه مَا زَالَ الله يُبْغِضُه وَإِنْ كَانَ لَمْ يَكْفُرْ بَعْدُ!

وَلَيْسَ هَذَا قَوْلَ السَّلَفِ، وَلَا كَانَ يُعَلِّلُ بِهَذَا مَنْ يَسْتَثْنِي مِنَ السَّلَفِ في إِيمَانِه، وَهُوَ فَاسِدٌ، فَإِنَّ الله تعالى قَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّهُمْ إِنِ اتَّبَعُوا الرَّسُولَ، فَاتِّبَاعُ الرَّسُولِ شَرْطُ الْمَحَبَّة، وَالْمَشْرُوطُ يَتَأَخَّرُ عَنِ الشَّرْطِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّة.

ثُمَّ صَارَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ طَائِفَة غَلَوْا فيه، حتى صَارَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَسْتَثْنِي في

الْأَعْمَالِ الصَّالِحَة، يَقُولُ: صَلَّيْتُ إِنْ شَاءَ الله! وَنَحْوَ ذَلِكَ، يعني: الْقَبُولَ. ثُمَّ صَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَسْتَثْنُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: هَذَا ثَوْبٌ إِنْ شَاءَ الله! هَذَا حَبْلٌ إِنْ شَاءَ الله! فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: هَذَا لَا شَكَّ فيه؟ يَقُولُونَ: نَعَمْ، لَكِنْ إِذَا شَاءَ الله أَنْ يُغَيِّرَه غيره!!.

الْمُأْخَذُ الثاني: أَنَّ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ مَا أَمَرَ الله به عَبْدَه كله، وَتَرْكَ مَا نَهَاه عنه كله، فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ: أَنَا مُؤْمِنٌ، بِهَذَا الِاعْتِبَارِ: فَقَدْ شَهِدَ لِنَفْسِه أنه مِنَ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ، الْقَائِمِينَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرُوا به، وَتَرْكِ كُلِّ مَا نُهُوا عنه، فَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله الْمُقَرَّبِينَ! وَهَذَا مِنْ تَزْكِيَةِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِه، وَلَوْ كَانَتْ هذه الشَّهَادَة صَحِيحَة؛ لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَشْهَدَ لِنَفْسِه بِالْجَنَّةِ إِنْ مَاتَ على هذه الْحَالِ.

وَهَذَا مَأْخَذُ عَامَّة السَّلَفِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَثْنُونَ، وَإِنْ جَوَّزُوا تَرْكَ الِاسْتِثْنَاءِ، بمعنى آخَرَ، كَمَا سَنَذْكُرُه إِنْ شَاءَ الله تعالى.

وَيَحْتَجُّونَ أَيْضًا بِجَوَازِ الِاسْتِثْنَاءِ فِيمَا لَا شَكَّ فيه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، وَقَالَ ﷺ حِينَ وَقَفَ على الْمَقَابِرِ: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لَاحِقُونَ»[1]. وَقَالَ أَيْضًا: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لله»[2]. وَنَظَائِرُ هَذَا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، و(٩٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (١١١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشيخ:

هذه مسألة تكلّم الشارح عليها في هذا الموضع، وهي مسألة الاستثناء، الاستثناء بقوله: أنا مؤمن إن شاء الله، أنا مسلم إن شاء الله. فمن العلماء من يوجبها، ومنهم من يحرّم الاستثناء، ومنهم من يجوّزه ولا يوجبه، أو يوجبه في حال دون حال.

عرفنا أنّ أتباع ابن كرّام من الأشاعرة، أو من يقرب من الأشاعرة يوجبون الاستثناء، ويوجبون أن يقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ثم تجاوزوا ذلك فصاروا يستثنون في الأشياء الظاهرة، فإذا صلّى قال: صلّيت إن شاء الله، وإذا أشار إلى شيء ذكر أيضًا أنّه كذا وكذا، واستثنى في ذلك، حتى يقول هذا ثوب إن شاء الله، هذا قلم أو كتاب إن شاء الله، مع أنّه لا يشكّ فيه. هؤلاء لهم مأخذ، فهم يقولون: السبب أنا لا ندري ما الخاتمة، وما هي العاقبة، فإنّ الإنسان إنّما يكون مؤمنًا إذا مات على الإيمان، ونحن لا ندري ربما يحصل من أمرنا غير ما كنا عليه، فلذلك يستثنون، يقولون: لأنّ الله أعلم بالخواتيم، والله أعلم بما نحن نموت عليه.

صحيح أنّ الله تعالى أعلم بالخاتمة، وأعلم بالعاقبة، وأعلم بما يموت عليه الإنسان، وقد أخبر النبيّ ﷺ بأنّ الإنسان يكون مكتوبًا عند الله من أهل الجنّة، وهو يعمل بعمل أهل النار، في قوله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إِلَّا ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ

فَيَدْخُلُها، وإِنَّ أَحَدَكُم ليَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ، فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُها»[1]، طوال حياته وهو يعمل بعمل أهل الجنّة، ومع أهل الجنّة، ثم يرتدّ في آخر حياته، ويختم له بعمل أهل النار، فيدخل النار والعياذ بالله.

كما ذكر كثير من المؤرخين قصة الرجل الذي كان مؤذنًا، وهو من صالح عباد الله، محافظًا على الصلاة، ومحافظًا على الأذان، ومحافظًا على الأعمال الصالحة، صعد مرة إلى المئذنة ليؤذّن فلفت نظره ابنة أحد جيران المسجد، وقد أسفرت فعلق بها، فترك الأذان ونزل، وطرق باب أهلها وقال: أُرِيدُكِ، فقالت: لماذا؟ فقال: أتزوّجك! قالت: أنا نصرانيّة وأنت مسلم! فعند ذلك قال: سأترك ديني وأدخل في دينِك وأتنصّر، فتنصّر، ولما تنصّر وعقد له عليها، مات قبل أن يدخل بها، فختم له بعمل أهل النار، هذا مثال، والأمثلة كثيرة.

فيقولون: إنّ العاقبة خافية علينا، فالاستثناء إنّما هو بالنظر إلى العاقبة. والجواب: إننا نقول لكم: لا نسألكم عن العاقبة، وإنّما نسألكم عن الحال وما أنت فيه وما قام الآن بقلبك، أما العواقب فأمرها إلى الله تعالى، فعلى هذا إذا سألك إنسان ما دينك، فلا تقل: ديني الإسلام إن شاء الله، إلا على وجه التبرك، بل تجزم وتقول: نعم، أنا مسلم، ومن أهل الإسلام، وفي بلاد الإسلام، وديني الإسلام، وأعتقد ما يعتقده المسلمون دون أن أستثني، ودون أن أتردد، ودون أن

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٩).

أتوقف والعاقبة للمتّقين وأمر الخاتمة إلى الله تعالى .

وصحيح أيضًا أن الإنسان يُجازى بما مات عليه، فإن كانت حياته حياة كفر، ثم ختم له بالإسلام، والإيمان، فهو محبوب عند الله، وإن كانت حياته حياة إيمان، ولكن ختم له بكفر، فهو مبغض عند الله طوال حياته، فإذا علم الله أنّ هذا الإنسان يموت كافرًا، فإن الله يبغضه ولو كان يجاهد، ولو كان يصلي، ولو كان يتهجّد، ولو كان يقرأ طيلة حياته، ولو كان يتدبّر آيات الله، ولو كان يعظ وينصح، فهو مبغض وممقوت عند الله منذ خُلق . وإذا علم الله أن إنسانًا يموتُ على الخير، ويموت على الدين ويموت على الإسلام، ولكن أكثر حياته وهو يشرك بالله ويكفر به ويعصي ويزني ويرابي ويقتل المسلمين ويقاتلهم ويشنّ عليهم الغارات، ويشجّع من يقاتلهم، ويحثّ على ردّ الإسلام، ومع ذلك فهو يؤمِّلُ أنّه يهتدي، والله يعلم أنّه يختم له بخاتمة حسنة يكون محبوبًا عند الله، وإن كانت أعمالُه كفريّة أو بدعيّة أو نحو ذلك. وبكلّ حال هذا قول الذين يُوجبون الاستثناء.

أمّا الذين يجوِّزونه ولا يوجبونه، أو الذين يجوِّزونه في بعض الحالات، فمثل هؤلاء يقولون إن الله تعالى قد ذكر الاستثناء للتبرّك، وذكر الاستثناء أيضًا في الأمور التي لا يشكّ فيها. وكذلك النبيّ ﷺ روى عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه قال: «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ على مِائَةِ امْرَأَةٍ أو تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللَّهِ، فقال له صَاحِبُهُ: قل إن شَاءَ اللَّهُ، فلم يَقُلْ: إن شَاءَ اللَّهُ، فلم يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إلا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ»، فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ

بيده، لو قال: إن شَاءَ اللَّهُ، لجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»[1].

وكذلك ذكروا أنّ قريشًا بعثت تسألهم عن محمد ﷺ، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم بذلك فإنه نبي، فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فجاءت قريش إلى رسول الله ﷺ، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أُخْبِرُكُم غَدًا بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ**»، ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي؛ حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وَعَدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه. حتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل ـ عليه السلام ـ من الله ـ عز وجل ـ بسورة أصحاب الكهف، فيها خبر ما سألوه عنه[2]، وعاتبه الله ـ جل وعلا ـ لأنه لم يقل إن شاء الله: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف:٢٣، ٢٤]. فدلَّ على أنّ الاستثناء يحصل به

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٩ و ٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن إسحق في السيرة (٤/ ١٨٢؟)، و الطبري (١٥/ ١٩١، ١٩٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تحقيق المطلب.

وكذلك عاتب الله ـ عز وجل ـ أصحاب الجنّة الذين ذكروا في سورة القلم فقال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم:١٧، ١٨]؛ جزموا بقولهم والله لنصرمنّها في الصباح، لم يقولوا: إن شاء الله، لم يستثنوا، فكانت العاقبة أن حرموا منها، ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ [القلم:١٩]، حريق أو رياح، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [القلم:٢٠]، جزاءً لهم لَـمَّا لم يقولوا: إن شاء الله، وجزاءً لهم لَـمَّا توعّدوا أن لا يدخلها عليهم مسكين.

وبكلّ حال، فالاستثناء جائز إن لم يكن عن شكّ، يقول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله، ولا يقصد بذلك الشكّ والتوقّف، ويقول أنا سوف أصلي إن شاء الله، ولو كان جازمًا، وسوف أصوم إن شاء الله ولو كان جازمًا، ولا يكون بذلك متردّدًا ولا شاكًّا فيما هو جازم عليه.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَنْ يُحَرِّمُه، فَكُلُّ مَنْ جَعَلَ الْإِيمَانَ شَيْئًا وَاحِدًا، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي مُؤْمِنٌ، كَمَا أَعْلَمُ أَنِّي تَكَلَّمْتُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فقولي: أَنَا مُؤْمِنٌ، كَقَوْلِي: أَنَا مُسْلِمٌ، فَمَنِ اسْتَثْنَى فِي إِيمَانِه فَهُوَ شَاكٌّ فيه، وَسَمَّوُا الَّذِينَ يَسْتَثْنُونَ فِي إِيمَانِهِمُ الشَّكَّاكَة.

وَأَجَابُوا عَنْ الِاسْتِثْنَاءِ الذي في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، بِأَنَّه يَعُودُ إلى الْأَمْنِ وَالخَوْفِ، فَأَمَّا الدُّخُولُ فَلَا شَكَّ فيه. وَقِيلَ: لَتَدْخُلُنَّ جَمِيعُكُمْ أَوْ بَعْضُكُمْ؛ لأنه عَلِمَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَمُوتُ.

وفي كِلَا الجَوَابَيْنِ نَظَرٌ: فَإِنَّهُمْ وَقَعُوا فِيمَا فَرُّوا منه، فَأَمَّا الْأَمْنُ وَالخَوْفُ فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ آمِنِينَ، مَعَ عِلْمِه بِذَلِكَ، فَلَا شَكَّ فِي الدُّخُولِ، وَلَا فِي الْأَمْنِ، وَلَا فِي دُخُولِ الجَمِيعِ أَوِ الْبَعْضِ، فَإِنَّ الله قَدْ عَلِمَ مَنْ يَدْخُلُ، فَلَا شَكَّ فيه أَيْضًا، فَكَانَ قَوْلُ: (إِنْ شَاءَ الله) هُنَا تَحْقِيقًا لِلدُّخُولِ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ فِيمَا عَزَمَ على أَنْ يَفْعَلَه لَا مَحَالَة: والله لَأَفْعَلَنَّ كَذَا إِنْ شَاءَ الله، لَا يَقُولُها لِشَكٍّ فِي إِرَادَتِه وَعَزْمِه، وَلَكِنْ إِنَّمَا لَا يَحْنَثُ الحَالِفُ فِي مِثْلِ هذه الْيَمِينِ؛ لأنه لَا يَجْزِمُ بِحُصُولِ مُرَادِه.

وَأُجِيبَ بِجَوَابٍ آخَرَ لَا بَأْسَ به، وَهُوَ: أنه قَالَ ذَلِكَ تَعْلِيمًا لَنَا كَيْفَ نَسْتَثْنِي إِذَا أَخْبَرْنَا عَنْ مُسْتَقْبَلٍ. وفي كَوْنِ هَذَا المعنى مُرَادًا مِنَ النَّصِّ نَظَرٌ، فإنه مَا سِيقَ الْكَلَامُ له، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُرَادًا مِنْ إِشَارَةِ النَّصِّ.

وَأَجَابَ الزمخشري بِجَوَابَيْنِ آخَرَيْنِ بَاطِلَيْنِ، وَهُمَا: أَنْ يَكُونَ المَلَكُ قَدْ قاله، فَأُثْبِتَ قُرْآنًا! أَوْ أَنَّ الرَّسُولَ قاله!! فَعِنْدَ هَذَا المِسْكِينَ يَكُونُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ غَيْر

كَلَام الله! فَيَدْخُلُ فِي وَعِيدِ مَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]. نسأل الله العافية.

---

قال الشيخ:

هؤلاء هم الذين يمنعون الاستثناء أصلًا فيسمون من يقول أنا مؤمن إن شاء الله شاكًّا، ويسمّون المستثنين: شُكّاكًا، فيقولون: أنت تشكّ في نفسك، وتشكّ في إيمانك، كيف تشكّ وأنت على يقين وأنت جازم بأنّك من أهل الإسلام، وبأنّك من أهل الإيمان؟ أنت تعرف أنّك تتشهّد الشهادتين، وقد نطقت بهما، ومعلوم أنّ من نطق بالشهادتين دخل في الإسلام، فإذا دخل في الإسلام فليس شاكًّا فيه، كذلك أيضًا إذا دخل في الإيمان لا يكون شاكًّا فيه، فيمنعون الاستثناء، ويحرّمون أن يقول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله، بل يقول أحدهم: أنا مؤمن حقًّا، كما يقول: أنا مسلم حقًّا.

والاستثناء في الإيمان ـ أنا مؤمن إن شاء الله ـ يرجع إلى الخاتمة كما تقدّم، ويرجع إلى الكمال.

والقول الثاني: هو الوسط، وهو المختار للإنسان، إذا قال أنا مؤمن إن شاء الله كان قصده بذلك العاقبة، وكان قصده الكمال؛ يعني: إن الله يوفقني لأن أُكمل أعمال الإيمان، لأن آتي بكلّ ما أُمرت به، وبكلّ ما هو من الإيمان، وهذا علمه عند الله؛ إذا شاء الله وفقني إلى ذلك، هذا هو القول الوسط . أمَّا الذين حرّموا

الاستثناء، فيجزمون ـ أو يقولون ـ إن الإنسان قد آمن يقينًا ولم يكن في شكّ، ولم يكن عنده تردّد، هؤلاء أيضًا يدّعون أنّ الإيمان هو الكلمة، ويقولون: إن مَنْ قال آمنت بالله، فقد كمل إيمانه، فلا حاجة إلى أن يستثني، ومرَّ بنا جوابهم عن الآية، وهي قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، فيقولون: الاستثناء إنّما هو للأمن، يعني أن الدخول محقّق، ولكن الأمن فيه تردّد، وهذا خطأ؛ لأنّ الله تعالى أخبر بالأمن كما أخبر بالدخول، وخبر الله محقّقٌ، فليس فيه تردّد . فإذًا وقعوا فيما أفاضوا فيه.

فأجاب بعضُهم: بأنّ قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، راجع إلى دخولهم كلّهم؛ لأن الله علم أنّ بعضهم يموت قبل الدخول.

والجواب أيضًا: أنّ المراد أنّ الله تعالى أخبر بالدخول، وليس المراد دخولهم كلهم الذين خوطبوا بهذه الآية، بل المراد جنس الدخول، فإنّه قد انضمّ إليهم غيرهم، وإن كان قد مات بعضهم.

وأما جواب الزمخشري أن كلمة (إن شاء الله) ليست من كلام الله، وإنما هي من كلام جبريل عليه السلام، أو من كلام النبي ﷺ، فهذا قول بعيد، يلزم منه أنّ في القرآن ما ليس من كلام الله تعالى، والزمخشري، وإن كان لغويًّا ولكنّه معتزلي، دخل في الاعتزال وتمكّن منه، فبنى ذلك على مذهبه الباطل.

ومما يتعلّق بالأمور الاعتقاديّة: مسألة الإيمان بالله تعالى، وما يلحق به، فالإيمان هو السمة والصفة التي تميّز بها أتباع الرسل، ولأجل ذلك يدعو الله تعالى

من اتّبع النبي ﷺ، وصدّقه بهذا الاسم، يناديهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [البقرة:١٠٤]، ولَمْ يُرِدْ: يا أيها الذين أسلموا، ولا يا أيُّها الذين صدقوا، ولا يا أيّها الذين اتّبعوا، تتابعت الآيات التي فيها هذه الأوامر بهذا السياق، و هذا الوصف ميزة لمن اتّبع النبيّ ﷺ، وعمل بسنّته، وصدّقه حقّ تصديقه، ووطّن نفسه لما جاء بالعمل به، ولأجل ذلك يوجّه الله الأوامر لهؤلاء تارة بالأعمال، وتارة بالاعتقادات، فمن الأعمال قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ [البقرة:١٧٨]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وأشباه ذلك.

ومن العقائد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ ﴾ [النساء: ١٣٦]، هذا أمر بالاعتقاد لأن يصدّقوا بذلك كلّه، ومعلوم أنّ هذا التصديق له آثار، فمن صدّق بالكتب المنزلة، وبالكتاب الذي بين أيدينا ظهرت عليه آثار التصديق بالاتباع والعمل، وأمّا من لم يتبعه ولم يعمل به، فإنّه لا يصدق عليه أنّه مؤمن، فلا بدّ أن يكون للإيمان بذلك آثار وعلامات على من ادّعى تصديقه.

وقد تكلّم العلماء على هذا المسمّى، وجعلوا هذا النوع تحت عنوان أسماء الإيمان والدين، وجعلوا هذه المسمّيات لها حقائق، واعتقدوها مسمّياتٍ شرعيّة، نقلها الشرع من المسمّيات اللغوية إلى مسمّيات شرعيّة، فيقال مثلًا: الإيمان في اللغة: التصديق، والإيمان في الشرع: الاتباع، أو الاتباع والعمل. فالشرع نقل هذه

المسمّيات إلى مسمّيات شرعيّة، فأصبحت بذلك ذات معانٍ مقصودة للشارع، ولأجل ذلك جاء عن النبي ﷺ تفسير الإيمان عامًّا للأعمال، وعامًّا للاعتقادات، وعامًّا للأقوال، تقدّم وتكرّر حديث شعب الإيمان، أنّها بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، ذكر منها النبيّ ﷺ ثلاث شعب: شعبة قولية، وشعبة اعتقاديّة وشعبة عمليّة، فالشعبة القولية: قول لا إله إلا الله، والشعبة الاعتقاديّة: الحياء من الإيمان، والشعبة العمليّة: إماطة الأذى عن الطريق، ومعنى ذلك أنّ الإيمان يستوعب الأعمال كلّها، ويستوعب الأقوال كلّها، ويستوعب الاعتقادات كلّها، فكلّها داخلة في هذا الاسم أنها من الإيمان، ولأجل ذلك يتفاوت الناس؛ فيكون هذا ناقص الإيمان، وهذا متوسّط الإيمان، وهذا ناقص الإيمان، وهذا تشوب إيمانه سيئةٌ، وهذا قد استوفى خصال الإيمان، وما أشبه ذلك.

وينتج من ذلك أنّ الأعمال الصالحة من مسمّى الإيمان، فيقال: الصلاة من الإيمان، والصدقة من الإيمان، والصوم من الإيمان، يعني: أنها أبعاض وأجزاء من هذا الإيمان الذي سمّى الله به عباده، فلا يكون الإنسان كامل الإيمان إلا إذا كمّل هذه الشعب وأتى بها كما ينبغي؛ سواءً كانت أفعالًا أو تروكًا، يعني: أن الأعمال من الإيمان، والتروك أيضًا من الإيمان، إذا تُرِكَتْ خوفًا من الله تعالى، فكان الدافع على تركها قوة اليقين، ولأجل ذلك يعدّ تركها من الخصال العظيمة المشكورة، والحديث الذي فيه أنّ النبيّ ﷺ عدّ خصال الظلال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ»، عدّ منهم: «وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إني

أَخَافُ اللَّهَ»[1]. ما هو العمل الذي عمله حتّى يستحقّ أن يكون من أهل الظلال؟ هو هذا الترك، أنّه ترك الشهوة الجنسيّة التي في النفس منها دوافع، ومع ذلك لا يخاف محذورًا، ثم كتب تركه هذا أعظم الأفعال، مع قوّة الدافع، أعظم من كثير من الأعمال.

وللعلماء خلاف: أيّهما أفضل: ترك المحرَّمات، أو فعل الطّاعات؟ فمثلًا: إذا كان هناك إنسان له شهوة قويّة، تدفعه إلى فعل فاحشة الزنى ونحوه، ولكنّه أمسك نفسه وعصمها وحجبها، وقادها بزمامها إلى الطاعات، فترك هذا الحرام مع قوة الدوافع فيه، أليس هذا قد جاهد نفسه؟ لا شكّ أنّ نفسه تدفعه دفعًا قويًا، ولكنّه يقوى على قمعها، ويقوى على ردّها، فهو دائمًا في جهاد مع نفسه، فهذا يُعدُّ من أفضل القربات. كذلك إنسان أمامه مشروبات محرّمة كالخمور والمسكرات وما أشبهها، وهي متيسّرة عنده وهي عنده لذيذة الطعم، ونفسه تشتهيها، ولكنّه عرف أنّها محرّمة، وأنّ فيها عقوبةً، فردّ نفسه واجتهد في قمعها، وأمسك بزمامها، وحمى نفسه من هذه المحرّمات، فهو مع نفسه مجاهد مجتهد في قمع هذه الشهوة؛ إذ تدفعه نفسه، ولكنّه يردّها، ماذا تكون حالته؟ لا شكّ أنّه في جهاد، قد يكون جهاد نفسه وقمعها مساويًا لجهاد الكفار الذي هو بذل النفس وبذل المال في قتال أعداء الله تعالى.

فإذًا عندنا فعل يكون عبادةً كقتال الكفار مثلًا، وكالأمر بالمعروف والنهي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عن المنكر، وكالصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة وما أشبه ذلك، وعندنا ترك يكون عبادة؛ كترك الشهوات، فهو أيضًا عبادة يثاب عليها، فيثاب على ترك الزّنى، مع وجود القوة والدوافع، وعلى ترك الخمور مع وجود الشهوة له، وعلى ترك أكل الحرام مع تيسيره وسهولة تناوله، وعلى ترك المعاملات الربويّة، وعلى ترك الغشّ مع وجود الدوافع له، وعلى ترك القتال بغير حقّ، وعلى ترك السّباب مع وجود من يسبّه... وما أشبه ذلك، فيثاب الإنسان على التروك، كما يُثاب على الطاعات والقربات، وكلّ داخل في مسمّى الإيمان. وبهذا نعرف أنّ الإيمان يستوعب خصال الطاعة كلّها، ويستوعب ترك المحرّمات، كل ذلك داخل في مسمّى الإيمان، فمن استكمله استكمل الإيمان، ومن نقص منه شيئًا نقص حظُّه من الإيمان.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَنْ يُجَوِّزُ الِاسْتِثْنَاءَ وَتَرْكَه، فَهُمْ أَسْعَدُ بِالدَّلِيلِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا: فَإِنْ أَرَادَ الْمُسْتَثْنِي الشَّكَّ فِي أَصْلِ إِيمَانِه مُنِعَ مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ، وَهَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ فيه. وَإِنْ أَرَادَ أنه مُؤْمِنٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٢ - ٤]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]، فَالِاسْتِثْنَاءُ حِينَئِذٍ جَائِزٌ. وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَثْنَى وَأَرَادَ عَدَمَ عِلْمِه بِالْعَاقِبَة، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَثْنَى تَعْلِيقًا لِلْأَمْرِ بِمَشِيئَةِ الله، لَا شَكًّا فِي إِيمَانِه. وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْقُوَّةِ كَمَا تَرَى.

---

قال الشيخ:

من مسائل الإيمان مسألة الاستثناء أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، هل يجوز أو لا يجوز؟ فمنهم من يقول: لا يجوز أن تقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأنّ في ذلك توقّفًا. وسمّوا من يستثني شاكًّا، يقولون: أتشكّ في أنّك مصدّق؟ أتشكّ في أنّك من أهل الدين؟ أتشك في أنّك من أهل هذا الإسلام؟ هؤلاء منعوا الاستثناء، وأوجبه آخرون، وقالوا: لا يجوز الجزم، ولا يجوز لأحد أن يقول أنا مؤمن، أو أنا

مؤمن حقًا؛ لأنّه ربّما ينقصه شيء من الإيمان، وربّما يكون من غير أهل الإيمان في العاقبة، فأوجبوا الاستثناء، فصاروا يقولون: أنا مؤمن إن شاء الله، وتقدّم أنّ منهم من يستثني حتّى في الأشياء الحقيقيّة، حتى يقول: هذا رجل إن شاء الله، وهؤلاء فيهم تشدّد.

والصحيح: القول الوسط: أنّه يجوزُ الاستثناء، ويجوز تركه، فإن كان المستثني شاكًا ومتردّدًا، فلا يجوز الاستثناء على وجه الشك، ولا على وجه التردّد، وإن كان الذي يستثني إنّما يستثني لأنّه لم يصل إلى درجة الكمال جاز الاستثناء، ومعلوم أنّنا لم نصل إلى درجة كمال الإيمان، فكمال الإيمان استيفاء بضع وسبعين شعبة، من الذي يستكملها على التّمام؟ إذن فلنا أن نستثني لعدم وثوقنا باستيفاء هذه الشُعب كلها، لا بدّ أن يكون عندي خلل، وعندي نقص في خصلة من الخصال، إمّا لم أكملها، وإمّا لم أعملها، وإما لم آتِ بها على الكمال، أو ما أشبه ذلك، إذًا أنا أستثني؛ لأن إيماني لم يصل درجة الكمال، فأقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو إلا ما شاء.

كذلك معلوم أنّ أعلى صفات المؤمن أن يكون جامعًا لأفضل الخصال، والإنسان لا يثق بأنّه وصل إلى تلك الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، قليل منّا من يوجَلُ قلبُه عند ذكر الله إلّا ما شاء الله، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، يعني: ازدادوا أعمالًا، كلّ يوم نسمع آيات الله، ومع ذلك قليل من يزداد عملًا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾،

قليل من يتوكّل على الله حقّ التوكّل ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال:٣]، يعني: يُتمُّونها تمامًا، كاملًا، فمثل هؤلاء قليل وجودهم؛ فلأجل ذلك لا بأس أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، يعني: أرجو أن أكون من أهل هذه الصفات.

كذلك الآيات التي مرّت معنا في سورة الحجرات: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥]، هذه أربع خصال قد يتعذّر للكثير استيفاؤها، فلذلك نعرف أنّ الاستيفاء يعود إلى الكمال، يعني أنا مؤمن ولكن لا أجزم بكمال إيماني، بل أرجو أن أكون من أهل هذه الخصال، ولكنّي لم أتحقق وصولي إليها، فيكون الاستثناء نظرًا إلى الكمال، أو يكونُ الاستثناءُ نظرًا إلى عاقبة الإنسان الذي يموت عليها، الله أعلم بها، فهو يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو يقول: أرجو أن أكون مؤمنًا، وأن أستمرّ على هذا الإيمان حتى يأتيني أجلي، فإذا استثنى على هذا الاعتبار جاز الاستثناء، هذا هو القول الوسط، لا أنّه شكّ وتردّد في تصديقه، ولا أنّه جزم ببلوغه الرتبة العالية، وخير الأمور أوسطها كما عرفنا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

قوله: وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كله حَقٌّ.

---

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رحمه الله ـ بِذَلِكَ إلى الرَّدِّ على الجَهْمِيَّة وَالْمُعَطِّلَة وَالْمُعْتَزِلَة وَالرَّافِضَة، الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْأَخْبَارَ قِسْمَانِ: مُتَوَاتِرٌ وَآحَادٌ، فَالْمُتَوَاتِرُ ـ وَإِنْ كَانَ قَطْعِي السَّنَدِ ـ لَكِنَّه غَيْرُ قَطْعِي الدِّلَالَة، فَإِنَّ الْأَدِلَّة اللَّفْظِيَّة لَا تُفِيدُ الْيَقِينَ!! وَبِهَذَا قَدَحُوا فِي دِلَالَة الْقُرْآنِ على الصِّفَاتِ! قَالُوا: وَالْآحَادُ لَا تُفِيدُ الْعِلْمَ، وَلَا يُحْتَجُّ بِهَا مِنْ جِهَة طَرِيقِهَا، وَلَا مِنْ جِهَة مَتْنِهَا! فَسَدُّوا على الْقُلُوبِ مَعْرِفَة الرَّبِّ تعالى وَأَسْمَائِه وَصِفَاتِه وَأَفْعَالِه مِنْ جِهَة الرَّسُولِ، وَأَحَالُوا النَّاسَ على قَضَايَا وَهْمِيَّة، وَمُقَدِّمَاتٍ خَيَالِيَّة، سَمَّوْهَا قَوَاطِعَ عَقْلِيَّة، وَبَرَاهِينَ يَقِينِيَّة!! وهي فِي التَّحْقِيقِ ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٣٩، ٤٠].

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّهُمْ قَدَّمُوهَا على نُصُوصِ الْوَحْيِ، وَعَزَلُوا لِأَجْلِهَا النُّصُوصَ، فَأَقْفَرَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الِاهْتِدَاءِ بِالنُّصُوصِ، وَلَمْ يَظْفَرُوا بِالْعُقُولِ الصَّحِيحَة الْمُؤَيَّدَة بِالْفِطْرَة السَّلِيمَة وَالنُّصُوصِ النَّبَوِيَّة. وَلَوْ حَكَّمُوا نُصُوصَ الْوَحْيِ لَفَازُوا بِالْمَعْقُولِ

الصَّحِيحِ، المُوَافِقِ لِلْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ.

بَلْ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ أَرْبَابِ الْبِدَعِ يَعْرِضُ النُّصُوصَ على بِدْعَتِه، وَمَا ظَنَّه مَعْقُولًا، فَمَا وَافَقَه قَالَ: إنَّه مُحْكَمٌ، وقبله وَاحْتَجَّ به!! وَمَا خَالَفَه قَالَ: إنَّه مُتَشَابِه، ثُمَّ رَدَّه، وَسَمَّى رَدَّه تَفْوِيضًا!! أَوْ حَرَّفَه، وَسَمَّى تَحْرِيفَه تَأْوِيلًا!! فَلِذَلِكَ اشْتَدَّ إِنْكَارُ أَهْلِ السنة عَلَيْهِمْ.

---

قال الشيخ:

هذا الكلام على أسماء الإيمان والدين، وابتداء في إجمال قول أهل السنّة في الأدلّة، معلوم أنّ الأدلّة عقليّة ونقليّة؛ الأدلة العقليّة هي ما دلّت عليه الفطرة، وما تشهد بسلامته وملاومته العقول المستقيمة، والفطر السليمة، ولا شكّ أن الإسلام هو دين الفطرة، يقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، ودين الإسلام موافق لما دلّت عليه هذه العقول السليمة، وغير مخالف لها.

أمّا النوع الثاني؛ فهو الأدلّة السمعيّة النقليّة، ويراد بها الكتاب والسنّة، فإنّها نقول منقولةٌ كابرًا عن كابر، هي أدلّة سمعية سمعها هذا عن شيخه، والشيخ عن شيخه، إلى أن اتّصلت بالرسول ﷺ وتناقلوها، فأنت مثلًا علّمك أستاذك أو مدرّسك القرآن والسنّة، وشيخُك علمه شيخه، وهكذا شيخ شيخك تعلّم عن شيخه، إلى أن اتصلت بالنبيّ ﷺ، فالنبيّ ﷺ جاءت إليه وحيًا من الله تعالى، من

وحي السماء، ووحي الله على أنبيائه لا يتطرّق إليه شكّ، ولا يكون فيه توقّف في صحّته، فإذًا هي أدلّة سمعيّة، أدلّة يقينيّة، متلقّاة عن الشرع الشريف، فماذا يجب علينا نحوها؟ يجب علينا أن نؤمن بها، وأن نعمل بها، وأن نتقبّلها، ولا نتوقّف بردّ شيء منها، فكما نعمل بها في العقائد نعمل بها في الأحكام، نعتبر بها، ونمتثل ما فيها، نرجو ونخاف، إذا سمعنا آيات الوعيد خفنا، وإذا سمعنا آيات الوعد رجونا، وإذا سمعنا القصص امتثلنا، وإذا رأينا الأمثال اعتبرنا، وإذا جاءتنا الأحكام عملنا، وإذا جاءتنا الأخبار صدقنا، هذه وظيفة المسلم وهذا عمله، وعمل المؤمن المسلم أنّه يتقبّلها؛ لأن الوحي إنما جاءنا من الله، وعقولنا قاصرة لا تصل إلى معرفة ما يحبّه الله ويكرهه، وعقولنا قاصرة لا تتجاوز محيطنا ودنيانا، ولا تحيط بما في الملأ الأعلى، ولا بما في الدار الآخرة، فكلّ ذلك يتوقّف على النقل، وعلى السمع الذي طريقه الاتباع.

فنقول: إن من واجب المسلمين أن يقدّموا قول الله وقول رسوله ﷺ على قول كل أحد، وأن يعملوا بهذه الأدلّة وبهذه النصوص، ويقدّموها على العقول وعلى أقوال المشايخ، حتّى يكونوا بذلك متّبعين حق الاتّباع، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاتباع في قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وفي قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]؛ متى يكون الإنسان متّبعًا للرسول ﷺ؟ إذا عمل بما جاء به، وهل العمل بما جاء به يختصّ بالأفعال، أو يعمّ العقائد، لا شكّ أنّه ينبني على العقائد أنّه يتلقّى العقيدة

بكتاب الله فترسخ في قلبه، وإذا رسخت وتمكّنت في قلبه كان من آثارها أن تنبعث جوارحه، وأن تعمل، وإلاّ فليس بمصدّقٍ، وليس بمتّبع، وليس بمؤمن حقًّا.

وقد ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أنّ المخالفين سدّوا على أنفسهم باب السند، فالأدلّة من القرآن والأدلّة من السنّة، لما كانت مخالفة لعقولهم لم يقبلوها، والأدلّة من القرآن قطعيّة الثبوت، وهم لا يتردّدون في أنّ القرآن هو كلام الله المنزل، ولا يتردّدون في أنّه منقول نقلًا متواترًا نقلته الأمّة في شرق الأرض وغربها، يقرؤه هؤلاء لهؤلاء، ولا يتردّدون في صحته ولا في ثبوته، ولكن فيه نصوص تخالف معتقداتهم، فيه أدلّة قطعيّة الثبوت تخالف ما ذهب إليه هؤلاء المعتزلة والأشعريّة والجهميّة والجبريّة والشيعة، وما أشبههم، هؤلاء لهم عقائد من أين أخذوا عقائدهم هذه؟ من عقولهم فحكّموا عقولهم، وجعلوها هي المرجّح، قرأت لبعضهم أنّه يقول: ما علمنا صدق الرسل إلا بعقولنا، فإذا جاء هذا الرسول بشيءٍ يخالف عقولنا رددناه!!

نقول: عجبًا لكم! ما دمتم قد أيقنت عقولكم بصدقهم، فما عليكم إلا أن تتقبّلوا كل ما جاء عنهم، فأمّا أن تشهد عقولكم بصدقهم، ثمّ تقولوا: لنأخذ من أقوالهم ما يوافق عقولنا، ونردّ ما يخالف عقولنا، فما كنتم بمصدّقين ولا صادقين في الاتّباع.

كذلك سمعناهم يقولون: الآيات القرآنيّة ثابتة يقينيّة، قطعيّة الثبوت، ولكن ليست قطعيّة الدلالة، دلالتها غير واضحة، فأخذوا يسلّطون عليها التحريف، وسمّوا هذا التحريف تأويلًا، وبالأخصّ فيما يتعلّق بالصفات والأسماء، سلّطوا

عليها التأويل، وهو في الحقيقة تحريف، فالأشعريّة أوّلوا كثيرًا من آيات الصفات؛ كآيات المحبّة، وآيات الرحمة، وآيات الغضب والرضا، وكذلك الصفات الذاتيّة؛ أوّلوا صفة الوجه وصفة اليدين وأوّلوا الصفات الفعليّة كصفة العلوّ وصفة الاستواء لمّا أنّهم كذّبوها أوّلوها، أوّلوا أدلّتها، ثم أثبتوا بعض الصفات كصفة الكلام وصفة الرؤية... مع أنّ قولهم للكلام أيضًا غير واضح كما تقدّم، وأثبتوا الرؤية للآخرة ولكن لم يثبتوها كما ينبغي، وأثبتوا صفة الإرادة وصفة السمع والبصر، إلى آخره.

ثم جاءت الجهميّة والمعتزلة، وقالوا: نحن نفعل كما فعلتم، أنت تأوّلتم آيات المحبّة والرحمة والغضب والرضا، لماذا خصصتم هذه بالتأويل؟ نحن كذلك أيضًا نتأوّل آيات القدرة، وآيات العلم وآيات السمع والبصر وآيات الكلام وآيات الحياة، وما أشبهها، قدرتكم على التأويل ليست أقلّ من قدرتنا، ولا نحن أضعف منكم!! فدخلوا من هذا الباب: باب التأويل، فسدّوا على أنفسهم أخذ الأدلّة من القرآن، وقالوا: إنّ الآيات قطعيّة الثبوت وليست قطعيّة الدلالة، بل هي محتملة للتأويل، فأوّلوها وحرّفوها، فصاروا لا يستدلّون بآيات القرآن على هذا النوع.

جاءتهم السنّة، وما فيها من الأحاديث النبويّة المنقولة بالأسانيد الصحيحة، فقالوا: نقسمها قسمين: متواتر وآحاد، فأمّا المتواتر، فنجعله كالقرآن قطعي الثبوت ولكنّه ظنيّ الدلالة، دلالته ضعيفة غير واضحة، نسلّط عليه التأويلات التي سلّطناها على الآيات فنستريح منها. أمّا القسم الثاني: الذي هو الأحاديث الأحاديّة ويسمّونها أخبار الآحاد، فهذه يردّونها كلّها، ولا يقبلونها في باب

العقائد، ويقولون: إنّها ظنّيّة الثبوت، مع كونها ظنّيّة الدلالة، وإذا كانت قطعيّة الدلالة فإنّها ظنّيّة الثبوت لا تفيد إلا الظنّ، والظنّ أكذبُ الحديث، فلا نقبلها، الله قد نهانا عن أخذها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وفي قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨]، فما دامت الأحاديث آحادًا، ولو كانت في صحيحي البخاري ومسلم، وفي السنن والمسانيد، ولو رواها من رواها؛ فهي ظنّية، لا تفيد إلاّ الظنّ، فردّوا هذا الباب.

وقد ناقشهم العلماء؛ كابن القيّم رحمه الله، وبيّن أنّ قولهم هذا خطأ، وأنّ الواجب قبولها، وأنّها قطعيّة الثبوت ولو كانت آحادًا، وأنّها تفيد اليقين، والنّاس يحتاجون إلى العمل بها، فكما يعملون بها في الفروع، فكذلك يعتقدونها في الأصول، وكما يعملون بها في الواقع، فكذلك يصدّقونها في الواقع أيضًا، والكلام عليها طويل.

وكان أول من أثار الكلام فيها الإمام الشافعي، في رسالته التي تعرف بـ «الرسالة في أصول الفقه»، كذلك الإمام البخاري في آخر «صحيحه» قال: كتاب أخبار الآحاد، وبيّن أدلّتها والعمل بها في الفروع وفي الأصول، وتكلّم عليها ابن القيم في كتابه «الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة»، وكسر ما يتعلّق به الجهميّة من ردّ هذه الأخبار، وبيّن أنّها تفيد يقينًا، وتفيد العلم القطعي، وأنّها ليست ظنّيّة الثبوت كما يقولون وعلى هذا تصير دلالتها واضحة ولو ردّها من

ردّها منهم، فمثلًا أحاديث الشفاعة متكاثرة متواترة، وإن كانت أفرادها آحادًا، ولكن مجيؤها من طرق، وعن عدد من الصحابة فيها إثبات الشفاعة، يثبتها ويوضّحها، لم تقبل ذلك المعتزلة ولا الخوارج الذين ينكرون شفاعة الشافعين، وإخراج أهل السنّة من النار، فيقال لهم: أحاديث الشفاعة قطعيّة لكثرتها، ولكنّهم يردّونها.

ومثل ذلك يقال في أحاديث رؤية المؤمنين لربّهم في الجنّة، وهي أحاديث مرويّة عن عدد كبير من الصحابة بروايات قويّة ثابتة، ليس فيها توقّف، وليس فيها تردّد؛ فهي متواترة في المعنى، وإن لم تكن متواترة في اللفظ، ومع ذلك يردّونها ويقولون: إنّها أخبار آحاد لم تخرج من الخبر الواحد.

والحاصل أن عقيدة أهل السنّة: أنّ الدلالة السمعيّة هي الأصل، وهي المرجّح، فكما أنّنا صدّقنا بالنبيّ ﷺ فلا نكون متّبعين حق الاتّباع إلاّ إذا تقبّلنا كُل ما بلّغه من الشريعة. فمن الذي بلّغه القرآن، فنعمل به في الأصول والفروع، وهو الذي علّمنا وبيّن لنا القرآن بفعله وبقوله، فلا بدّ أن نعتقد ذلك هو الذي أخبرنا عن الأوّلين، وهو الذي أخبرنا عن الآخرين، وهو الذي أخبرنا عن الدنيا، وهو الذي أخبرنا عمّا يكون في الآخرة، وكلّ ذلك في شريعته وسنّته، ولا نكون مصدّقين له إلا إذا صدّقناه في كلّ دقيق وجليل.

قال الشارح:

وَطَرِيقُ أَهْلِ السنة: أَنْ لَا يَعْدِلُوا عَنِ النَّصِّ الصَّحِيحِ، وَلَا يُعَارِضُوه بِمَعْقُولٍ، وَلَا قَوْلِ فُلَانٍ، كَمَا أَشَارَ إليه الشَّيْخُ رحمه الله، وَكَمَا قَالَ البخاري - رحمه الله -: سَمِعْتُ الْحُمَيْدِي يَقُولُ: كُنَّا عِنْدَ الشَّافِعِي - رحمه الله - فَأَتَاه رَجُلٌ فَسَأَلَه عَنْ مسألة، فَقَالَ: قَضَى فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رجُلٌ لِلشَّافِعِي: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟! فَقَالَ: سُبْحَانَ الله! تَرَانِي فِي كَنِيسَة! تَرَانِي فِي بِيعَة! تَرَى على وَسَطِي زُنَّار؟! أَقُولُ لَكَ: قَضَى رَسُولُ الله ﷺ، وَأَنْتَ تَقُولُ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟!

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ السَّلَفِ كَثِيرٌ.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وَخَبَرُ الْوَاحِدِ إِذَا تَلَقَّتْه الْأُمَّة بِالْقَبُولِ، عَمَلًا به وَتَصْدِيقًا له، يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِي عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأُمَّة، وَهُوَ أَحَدُ قِسْمَي الْمُتَوَاتِرِ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ سَلَفِ الْأُمَّة فِي ذَلِكَ نِزَاعٌ، كَخَبَرِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١)، وَخَبَرِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما -: «نَهَى عَنْ بَيْعِ الْوَلَاءِ وَهِبَتِه»(٢)، وَخَبَرِ أبي هريرة: «لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَة على عَمَّتِهَا وَلَا على خَالَتِهَا»(٣)، وَكَقَوْلِه: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٣٥)، ومسلم (١٥٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٠٨)، ومسلم (١٤٠٨).

النَّسَبِ»[1]، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَهُوَ نَظِيرُ خَبَرِ الذي أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْقِبْلَةَ تَحَوَّلَتْ إلى الْكَعْبَة، فَاسْتَدَارُوا إِلَيْهَا[2].

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُرْسِلُ رُسُلَه آحَادًا، وَيُرْسِلُ كُتُبَه مَعَ الْآحَادِ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ: لَا نَقْبَلُه؛ لأنه خَبَرٌ وَاحِدٌ! وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣]، فَلَا بُدَّ أَنْ يَحْفَظَ الله حُجَجَه وَبَيِّنَاتِه على خَلْقِه، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجَه وَبَيِّنَاتِه.

---

قال الشيخ:

هذا بيان للأدلّة التي بيّنوا بها ثبوت أخبار الآحاد، يقول الشارح إنّ الله تعالى فرض على الأمّة قبول ما بلّغه الرسول ﷺ، وقبول الشريعة التي جاءت عنه ﷺ، ووصف المؤمنين بأنّهم يقدّمون ذلك على قول كلّ أحد، في مثل هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، يعني: إذا جاءنا قضاء الله وقضاء رسوله، فلا نقدّم عليه أهواءنا، ولا نجعله محلّ تردد، ولا نقول نفرضه على عقولنا، ولا نقول نختار عليه قول مشايخنا فلان وفلان، بل نجعله هو الأصل، وهو المقدّم عندنا على قول

---

(١) أخرجه البخاري بلفظه (٢٦٤٥)، ومسلم بنحوه (١٤٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كلّ أحد صغيرًا كان أو كبيرًا، وذلك هو وصف كلّ مؤمن، وهكذا عمل أئمّة الإسلام، كان يقدّمون قول النبي ﷺ على اجتهاداتهم، وعلى آرائهم.

فهذا أبو حنيفة يقول: «إذا جاء الخبر عن رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي الحائط، وإذا جاء عن الصحابة فاضربوا بقولي الحائط، وإذا جاء عن التابعين، فنحن رجال وهم رجال»[1].

وهذا الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ»[2]، يعني: رسول الله ﷺ، فالإمام مالك جعل على نفسه أنّ قول الرسول ﷺ لا يُردّ منه شيءٌ، أمّا قول غيره، فهو محلّ للقبول والردّ؛ وذلك لأنّه محلّ اجتهاد، فأقاويل الرجال تدور على قدر الأدلّة في النقل.

كذلك الثابت عن الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في ذلك أكثر وأكثر، كما مرّ في القصّة التي أوردها الشارح، من أنّ رجلًا جاء إلى الشافعي يسأله عن مسألة يحفظ الإمام الشافعيّ فيها حديثًا ثابتًا عن رسول الله ﷺ، فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ قضاء، وذلك السائل كأنه ما قنع، وقال: ما تقول أنت يا شافعي؟! فغضب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ أشدّ الغضب، وقال هذه المقالة: **سُبْحَانَ اللهِ! تَرَانِي فِي كَنِيسَةٍ!**

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧). وأخرج البيهقي في المدخل إلى السنن (ص١١١) عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه قال: «إذا جاء الخبر عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب النبي ﷺ نختار من قولهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم».

(٢) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٤٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٩٣)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).

تَرَانِي فِي بِيعَةٍ! تَرَى عَلَى وَسَطِي زُنَّارٌ؟! أَقُولُ لَكَ: قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنْتَ تَقُولُ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟!)، فهل يكون له اختيار، وهل يكون له رأي مع رأي رسول الله ﷺ؟ حاشا للشافعي وحاشا غيره أن يكون لهم اختيار. وقد نقل عنه ابن القيم ـ رحمه الله ـ قوله: «أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»[1].

كذلك الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ ثبت عنه أنه قال: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحّته، ويذهبون إلى رأي سفيان الثوري، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعلّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»[2]. يحذّر الذين يقدمون رأيَ الإمام سفيان بن سعيد الثوري، وهو عالم من علماء العراق مشهور بالعلم، ومع ذلك له آراء قد تكون مخالفة للدليل، فيقول الإمام أحمد: إنّ هؤلاء الذين يأخذون رأي سفيان، ويتركون الأحاديث مع معرفة صحّتها حاليًا، يُخشى أن تنطبق عليهم الآية: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وبعد ذلك نقول: إن أخبار الآحاد متى ثبتت، فإنّها تفيد اليقين، وتفيد العلم،

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٢)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

وقد ضرب الشارح ـ رحمه الله ـ لها أمثلة، وذكر على ذلك أدلّة منها: ما ثبت في «الصحيح» أنّ أهل مسجد قباء كانوا يصلّون إلى جهة بيت المقدس، فجاءهم رجل واحد وهم في الصلاة، وقال لهم: إنّ رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة؛ فاستقبلوها. فصدقوه وهو واحد، وهم على قبلة متحقّقين منها، فاستداروا من الشمال إلى الجنوب وعملوا بقوله وهو واحد.

وهذا دليل على أنّ خبر الواحد الصادق المثبت يُعمَل به، ويُقدَّم ويصدَّق. فرسولُ الله ﷺ واحد، ومع ذلك صدّقوه وقبلوا ما جاء به، والرسل الذين يرسلهم الله تعالى غالبًا أنّهم أفراد، أرسل نوحًا ـ عليه السلام ـ وحدَه، وأرسل هودًا ـ عليه السلام ـ وحده، وأرسلَ صالحًا ـ عليه السلام ـ وحده، وأرسل شعيبًا ولوطًا وموسى وهارون عليهم السلام، فلا شكّ أنّ خبر الواحد يقبل ويفيد العلم.

والنبيّ ﷺ كان يرسل الدعاة أفرادًا؛ فأرسل معاذًا ﷺ إلى اليمن داعية إلى الله، وكذلك أرسل أبا موسى، وأرسل عليًّا، وأرسل عمّارًا، وأرسل سلمان، رضي الله عنهم، كلّ منهم إلى جهة، أرسلهم للدعوة، وكذلك أرسل جُباةَ الزكاة، يرسلهم أفرادًا، يأتي الفرد الواحد إلى أهل الغنم والإبل ويقول: أعطوني زكاة أموالكم؛ أنا مرسلٌ من رسول الله ﷺ، فلا يقولون له: أنت واحد، بل يقولون له: خذ زكاة أموالنا، ويقبلون خبره.

الحاصل: أنّ الأدلّة متنوّعة، وإنّما هذه نماذج مما ذكره منها، وبذلك يُعرفُ أن الحقّ قبول خبر الواحد إذا كان ثابتًا ويقينًا، وأنّ الناس يعملون بذلك، فما دام

كذلك، فلا مجال لرد ثُلث السنّة، أو ثلثيها لهذه الشبهة .

ومع ذلك، فالذين ردّوها ما ردّوا إلا قِسمًا خاصًا وهو ما يتعلّق بالعقائد، وأما ما يتعلّق بالأعمال فإنّهم رأوا الناس يعملون به، وقالوا: إنّ الناس يعملون، وهذا يفيد العمل ولا يفيد العلم، وهو في الحقيقة تناقض، ومعلوم أنّ كتب السنّة تلقّتها الناس بالقبول، وعملوا بها، فصحيح البخاري تلقّته الأمّة بالقبول، واعتقدوا ما فيه، وصاروا يعملون به، ويطبقونه، ولم يقولوا إنّه أخبار آحاد، وكذلك «صحيح مسلم»، وكذلك الكتب التي تعتمد الصحّة تلقّتها الأمّة بالقبول دون توقّف، فكانوا بذلك يعملون بما فيها لأنّها ثابتة، وأسانيدها قويّة، ليس فيها كذّاب، وليس فيها من يشكّ في صدقه.

وبذلك يعرف أنّ الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ محلّ القبول، ولا يجوز ردّها حتى لو خالفت العقول، قدّمت على قول كلّ قائل، وعلى عقل كل عاقل، لا سيّما وعقول أولئك الذين ردّوا السنّة أو ردّوا الآيات عقول مضطربة، عقول مختلفة، وشبهاتهم التي يشبّهون بها مضطربة أيّما اضطراب، يحصل فيها التناقض، فيشاهد أنّ الواحد منهم يبقى مثلًا ثلاثين سنة وهو يقول: إنّ هذه الصفة ينكرها العقل، ثم بعد ثلاثين سنة وبعدما يرجع لعقله، يرجع ويقول: بل يقرها!! سبحان الله! ثلاثون سنة من عمرك وأنت تنكرها، ثم بعد ذلك أقررت بها، هل عقلك تغيّر أو تبدّل؟! مما يدلّ على أنّ عقولهم ليست ميزانًا.

وكذلك نجد مجموعة من العلماء في بلد ينكرون هذه الصفات، ويقولون العقول تنكرها، وفي بلد آخر ألوف من العلماء تقرّ هذه الصفات، ويقولون:

العقول تثبتها. فكيف تكون هذه العقول مختلفة، هؤلاء يقولون: نثبت، وهؤلاء يقولون: ننفي، وهؤلاء يقولون: ما نقرّ بها، ولا يقرّ بها العقل، وهؤلاء يقولون بل نثبتها ونوجبها، إذًا العقول التي تضطرب بكذا وكذا، عقول غير متّزنة، وأدلّتهم وشبهاتهم لا عبرة بها، كما قال بعض الشعراء:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ[1]

شبّههم بالزجاج الذي يضرب بعضه بعضًا فينكسر، إذا ضربت زجاجتين إحداهما بالأخرى بقوة، فهل يبقى منهما شيء؟ كلاهما تتكسّر، هكذا أدلّة هؤلاء مع هؤلاء تضرب هذا بهذا فينكسر الدليلان، أما أدلّة أهل السنّة من الكتاب والسنّة، فإنّها ثابتة، لا يعتريها شيء من التغيير.

وبعد، فقد عرفنا أنّ معتقدَ أهل السنّة والجماعة الاعتماد على كتاب الله عزّ وجلّ، وعلى سنّة رسوله ﷺ. والعقائد هي: الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، والإيمان بما أخبر الله به مما بعد الموت، يرجعون في ذلك إلى هذه الأدلّة؛ لقطعهم بصحتها وثبوتها، ولقطعهم بصراحتها ومعرفة مدلولها، ومعلوم أنّ الله تعالى خاطب العرب بما يفهمون، أنزل عليهم القرآن بلسان عربي مبين، وهم فصحاء يفهمون المراد ويعقلون المعاني، ويسمعون وينظرون. ومعلوم أنّهم تقبّلوا تلك النصوص التي جاءت بها الرسل وأنّهم وثقوا بأنّ معناها مراد، وأنها ليست ألفاظًا جوفاء، بل ألفاظ لها معانٍ، وعرفوا أنّهم مطلوب منهم فهمها، ومطلوب

(١) انظر: الانتصار لأصحاب الحديث (ص٧٢)، ودرء التعارض (٧/ ٣١٤).

منهم تعقّل معناها؛ لأنّ الله تعالى يأمر بتعقّل هذا الكتاب، يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، والتدبُّر: هو التعقّل، ولو كانت لا معاني لها، أو لا يجوز اعتقاد معناها، وإنّما يتعبّد بألفاظها لما أمرنا بالتدبّر، ولما أُمرنا بالتفهّم.

وقد ثبت أنّ النبيّ ﷺ كان يعلّم أمّته ما يخفى عليهم بقوله وفعله، فكان يبيّن لهم المعاني التي اشتملت عليها الآيات من الأمور الغيبيّة ونحوها، وكان يخبرهم بما ورد في القرآن، فيخبرهم بشرح أمور الآخرة، ويشرح أسماء الله وصفاته، ويخبرهم بما يطلب منهم، وبما يعفى عنهم.

ومعلوم أيضًا أنّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قوم عرب فصحاء، ذوو فهم ومعرفة، ولو كانوا لم يفهموا ما قال لهم النبي ﷺ لما نقلوه بلفظه، ولما شرحوا معانيه، ولما اعتقدوا مدلولاته. وأيضًا لو كانوا قد أُمروا بأن يعرفوا منه غير المتبادر، لبيّنوا لتلامذتهم، ولقالوا لهم: لا تعتقدوا ظواهر النصوص، فإنّها ظواهر ظنّيّة لا تفيد اليقين. ولَـمّا لم يقولوا هذا، عُرف أنّهم فهموا أنّه مطلوب منهم تعقّلها، واعتقاد مدلولها. فهذا هو مذهب أهل السنّة، يقرؤون الآيات، ويفهمون معانيها، ويسمعون الأحاديث، ويفهمون معانيها، سواء كانت تتعلّق بالآخرة، أو كانت تتعلّق بعلم الغيب، أو بالإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته، أو بالإيمان بالكتاب أو البعث والنشور، أو ما أشبه ذلك، كل ذلك يعرفونه ويعتقدون مدلوله؛ إذا قرؤوا ما يتعلّق بالبعث اعتقدوا حقيقة أنّه سيحصل البعث والنشور

والجزاء والعذاب والثواب، إذا قرؤوا ما يتعلّق بصفات الله، اعتقدوا أنّ هذه النصوص دالّةٌ على علوّ الله فوق خلقه، ودالّة على قربه من خلقه واطّلاعه عليهم، ودالّة على علمه بكلّ شيء، ودالّة على سمعه وبصره وقدرته التّامة، ودالّة على مراقبته لخلقه في كلّ أعمالهم وأحوالهم، وإذا قرؤوا ما يتعلّق بعموم قدرة الله اعتقدوا أنّ الله قادر عليهم، وأنّه خالق كلّ شيء، وأنّه المتصرّف في الخلق، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هذه مدلولات النصوص يعتقدونها كما هي؛ والدليل على ذلك أنّهم نقلوا ذلك وكتبوه في مؤلّفاتهم، ومن جملة من كتبوا هذا الكتاب الذي ألفه الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله، وكذلك الأئمّة قبله؛ فكتب الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ رسائل تتعلّق بالعقيدة، وكتب ابنُه عبد الله رسالةً في السنّة، وكتب أيضًا ابن أبي شيبة رسائل تتعلّق بالإيمان، وكتبوا رسائل موجودة منّ الله بحفظها حتّى وصلت إلينا، لم تتغيّر.

وأمّا الذين خالفوهم ولم يقبلوا النصوص، لم يعملوا بالآيات، ولم يعملوا بالأحاديث، فقد اعتمدوا فيما تقدّم على عقولهم، فحكّموها، وجعلوها هي الدليل، تقبّلوا ما قد وافق عقولهم، وردّوا ما أنكرته عقولهم، وزعموا أنّ العقل هو الدليل الأساس، وقالوا: ما عرفنا صدق الرسل إلا بالعقول، فإذا جاء عن الرسل ما يخالف العقول، وجب إيضاحه وصرفه عن الظاهر.

وقد عرفنا أنّهم قسّموا الآيات قسمين، فقسم قالوا: إنّه ظاهر الثبوت، ولكنّه ظنّي الدلالة، فلا يقبلونه لاحتماله ـ في زعمهم ـ للتأويل، ولأجل ذلك

سلّطوا التأويل على تلك النّصوص، والقسم الثاني جعلوه ظاهرًا، ولكن لا يلزم أيضًا قبوله، ولو كان ظاهر الدلالة، ولكنّه محتمل التأويل، أمّا السنّة فيجعلونها قسمين: متواترًا وآحادًا، فقالوا: إن المتواتر قطعيّ الثبوت، ولكنّه ليس قطعيّ الدلالة لاحتمال أنّه ذو معانٍ كثيرة، فسلّطوا عليه التأويل، أمّا الآحاد فجعلوها ظنّية الثبوت، وما دام أنّها ظنّية الثبوت، فإنها لا تدخل في المعتقد، ويقولون: إنّ العقيدة لا تبنى إلاّ على اليقين، والآحاد ظنّيّة، وفي هذا اطِّراح للأحاديث كلّها إلا أفرادًا قليلةً، فهذه المتواترة قليلة، والباقية كلّها آحاد، ويقولون: الآحاد لا تقبل في المعتقد.

وقد عقّب الشارح على ذلك فقال: لا شكّ أنّ أكثر الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري ومسلم وكذلك كتب أهل السنّة إنها في اعتقادهم وفي اصطلاحهم آحاد لا تصل حدّ التواتر، وإذا كان كذلك، فإنّها ظنّيّة الثبوت، فلا تفيد يقينًا.

فقالوا مثلًا: الأحاديث التي في إثبات النظر إلى الله تعالى ورؤيته في الآخرة كلّها ظنّيّة وآحاد فلا نعتقدها، والأحاديث الواردة في علوّ الله تعالى على عرشه وعلوّه فوق سمواته كلّها ظنيّة، فلا نقبلها لكونها آحادًا، والأحاديث التي في نزوله لفصل القضاء، وفي نزوله إلى السماء الدنيا، ونحو ذلك كلّها آحاد، فلا يقبلونها، والأحاديث التي في صفات الفعل لا يقبلونها أيضًا. إذًا ماذا بقي؟ لم يبقَ إلّا أحاديث قليلة كأحاديث الشفاعة وأحاديث الحوض وما أشبهها، جعلوها متواترة، فقبلها بعضهم، والبعض لم يقبلها، وقال: إنّها وإن كانت قطعيّة الثبوت،

ولكنّها محتملة التأويل، وقد ردّ عليهم الشارح بقوله: إن الأمّة لم يزالوا يعملون بالآحاد، وأنّ النبيّ ﷺ كان يرسل رسله آحادًا، فيعمل بقولهم، ويرسل الداعية إلى اليمن مثلًا وهو واحد، ويكلّف الذين أُرسل إليهم أن يقبلوا منه، ويرسل المبلّغين آحادًا، ويرسل كتبه مع آحاد، ويقبل منهم، ويرسل أيضًا الجباة الذين يجمعون الصدقات آحادًا، فيُقبل منهم.

وذلك كلّه دليل على أنّهم عرفوا صدق أولئك الذين جاؤوا بهم، فما دام كذلك فإنّ هذه الأخبار التي رويت في الصحيحين، نقلها عدل عن عدل، وضابط عن ضابط، وثقة عن ثقة؛ حتى دونت في الكتب، أليست قطعيّة الثبوت، فلماذا لا نعمل بها؟ ولماذا لا نطبّقها؟ ولماذا لا ندخلها في الاعتقاد كما أدخلناها في العمل؟ ما الفرق بين العمل والاعتقاد؟ لا فرق واضح بينهما.

فإذًا واجب على الأمّة أن يعملوا بهذا، وهذا في الاعتقاد وفي العمل.

قال الشارح:

وَلِهَذَا فَضَحَ الله مَنْ كَذَبَ على رسوله في حَيَاتِه وَبَعْدَ وَفَاتِه، وَبَيَّنَ حَالَه لِلنَّاسِ. قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة: «مَا سَتَرَ الله أَحَدًا يَكْذِبُ في الحَدِيثِ». وَقَالَ عَبْدُالله ابْنُ المُبَارَكِ: «لَوْ هَمَّ رَجُلٌ في السَّحَرِ أَنْ يَكْذِبَ في الحَدِيثِ، لَأَصْبَحَ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: فُلَانٌ كَذَّابٌ»[1].

وَخَبَرُ الْوَاحِدِ وَإِنْ كَانَ يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ، وَلَكِنَّ التَّفْرِيقَ بَيْنَ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ وَسَقِيمِهَا لَا يَنَالُه أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ مُعْظَمَ أَوْقَاتِه مُشْتَغِلًا بِالحَدِيثِ، وَالْبَحْثِ عَنْ سِيرَة الرُّوَاة؛ لِيَقِفَ على أَحْوَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، وَشِدَّة حَذَرِهِمْ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالزَّلَلِ، وَكَانُوا بِحَيْثُ لَوْ قُتِلُوا لَمْ يُسَامِحُوا أَحَدًا في كَلِمَة يَتَقَوَّلُهَا على رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا فَعَلُوا هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ. وَقَدْ نَقَلُوا هَذَا الدِّينَ إِلَيْنَا كَمَا نُقِلَ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ يَزَكُ[2] الْإِسْلَامِ، وَعِصَابَة الْإِيمَانِ، وَهُمْ نُقَّادُ الْأَخْبَارِ، وَصَيَارِفَة الْأَحَادِيثِ. فَإِذَا وَقَفَ المَرْءُ على هَذَا مِنْ شَأْنِهِمْ، وَعَرَفَ حَالَهُمْ، وَخَبَرَ صِدْقَهُمْ وَوَرَعَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ، ظَهَرَ له الْعِلْمُ فِيمَا نَقَلُوه وَرَوَوْه.

وَمِنْ له عَقْلٌ وَمَعْرِفَة يَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الحَدِيثِ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِ نَبِيِّهِمْ وَسِيرَتِه وَأَخْبَارِه، مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ به شُعُورٌ، فَضْلًا أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا لَهُمْ أَوْ مَظْنُونًا. كَمَا أَنَّ النُّحَاة عِنْدَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ سِيبَوَيْه وَالخَلِيلِ وَأَقْوَالِهِمَا مَا لَيْسَ عِنْدَ

---

(١) أخرج الأثرين ابن الجوزي في مقدمة كتابه «الموضوعات» (١/ ٢٣).

(٢) اليَزَكُ: كلمة فارسية تعني: طلائع الجيش.

غَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ الْأَطِبَّاءِ مِنْ كَلَامِ بُقْرَاطَ وَجَالِينُوسَ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَكُلُّ ذِي صَنْعَةٍ هُوَ أَخْبَرُ بِهَا مِنْ غيره، فَلَوْ سَأَلْتَ الْبَقَّالَ عَنْ أَمْرِ الْعِطْرِ، أَوِ الْعَطَّارَ عَنِ الْبَزِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ!! لَعُدَّ ذَلِكَ جَهْلًا كَثِيرًا.

وَلَكِنَّ النُّفَاةَ قَدْ جَعَلُوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، مُسْتَنَدًا لَهُمْ فِي رَدِّ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، فَكُلَّمَا جَاءَهُمْ حَدِيثٌ يُخَالِفُ قَوَاعِدَهُمْ وَآرَاءَهُمْ، وَمَا وَضَعَتْه خَوَاطِرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ، رَدُّوه بِـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، تَلْبِيسًا مِنْهُمْ وَتَدْلِيسًا على مَنْ هُوَ أَعْمَى قَلْبًا مِنْهُمْ، وَتَحْرِيفًا لمعنى الْآيِ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

---

قال الشيخ:

عرفنا أنّ الأحاديث التي رواها ثقات، وكتبت في أمّهات الكتب قد تأكد العلماء من صحّتها، وإذا قيل: إنّ هناك أحاديث موضوعة وأحاديث مكذوبة قد رويت وقد كتبت وقد أُلّفت فيها الكتب التي يوجد فيها الضعيف والمضطرب والمعلول والشاذ، فكيف تعتمد هذه الأحاديث وتجعلونها دليلًا، وتعتمدونها في المعتقد والعقيدة، ولا تعتمد إلا على اليقين.

والجواب ـ كما قال الشارح ـ: أنّ الأحاديث قد يسّر الله لها من يحرّرها وينقحّها، ويبيّن صحيحها من سقيمها، وهؤلاء العلماء الذين هم علماء الحديث، رزقهم الله علمًا ثاقبًا، ورزقهم الله فهمًا وقوة يفرّقون بها بين ما هو حديث، وما

ليس بحديث، ولأجل ذلك شبّههم بالنقّاد، وشبّههم بالصيارفة، والصيرفي هو الذي حرفته أن يصرف الذهب والفضة، ويبيع هذا بهذا، فهو يعرف الدرهم الذي فيه غشّ، والدينار الذي فيه غشّ والجنيه المغشوش الذي فيه زيف، والحلي الصافي والمغشوش، والذهب المخلوط؛ لأنّ هذه حرفته وصنعته. كذلك أهل الحديث هذه حرفتهم وهذه صنعتهم، منذ أن نشؤوا وهم يتتبّعون أحاديث رسول الله ﷺ، فأصبحت لديهم مَلَكة يدركون بها ما هو صحيح وما هو ضعيف، لدرجة أنّ أحدهم لمجرّد سماع أوّل الحديث يقول: هذا ضعيف، هذا مكذوب، وبمجرّد سماع الإسناد يعرف من هو مقبول الحديث، ومن ليس بمقبول. هؤلاء هم الذين يسّرهم الله تعالى لحفظ سنّة نبيّه ﷺ.

نذكر هذه القصّة التي فيها أنّ المهدي قبض على زنديق، وعرف أنّه من المنافقين، وعزم على قتله، فقال الزنديق: هب أنّي قُتلت! كيف تفعل بأربعة آلاف حديث قد كذبتُها وبثثتُها بين الناس؟ فقال المهدي: تعيش لها نُقّادها جهابذة المحدّثين، الذين يميّزونها ويخرجونها من جملة الأحاديث، إذا سمعوا عشرة أحاديث من شخص واحد وفيها واحد موضوع، قالوا: امحوا هذا، واضربوا عليه، إنّه ليس بصحيح! هذه صنعتهم وهذه حرفتهم، تخصصوا بها وصار معهم مَلَكة ليست عند غيرهم، وعندهم معرفة بأخبار النبيّ ﷺ وبسنّته وبما ثبت عنه وبما يقوله، فإذا جاءهم الحديث مخالفًا للأحاديث الصحيحة عرفوا أنّه مكذوب، فالسنّة الشريفة لا تتضارب. إذا جاءهم الحديث لفظه مستبشع قالوا: هذا مكذوب؛ لأنّهم مع كثرة سماعهم لألفاظ النبيّ ﷺ، عرفوا أن اللفظ الركيك أو

المضطرب المتقطّع المتضارب ليس من كلام النبيّ ﷺ، فالنبيّ ﷺ أفصح الخلق، ولا يمكن أن يتكلّم بمثل هذا، فيحكمون بأنّه مكذوب، وهكذا أيضًا يدركونه إذا كان فيه مبالغة كبيرة، كذكر ثواب كبير على عمل قليل، أو ذكر عقاب كبير على سيئة صغيرة، أو نحو ذلك، يدركون أن هذه المبالغة لا ترد عن النبيّ ﷺ، وأشباه ذلك.

وبكلّ حالٍ، فقد بيّنوا الأحاديث الموضوعة، وبيّنوا كيفيّة وضعها، والأسباب التي حملته عليها، وجعلوا ذلك صنعتهم. رُوي أنّ رجلًا جاء إلى أبي حاتم الرازي، وكان ـ رحمه الله ـ من العلماء بالحديث، فقال له: كيف تدرك الحديث الموضوع والحديث الصحيح بمجردّ ما تسمعه؟ فقال هذه صنعتنا، ولكن إذا كنت شاكًا في ذلك فاسألني، وأقول لك: اعرض عليّ مئة حديث أبيّن لك مثلًا أنّ عشرة منها مكذوبة، ثم اذهب واعرضها على أبي زرعة ويبيّن لك العشرة نفسها، ففعل ذلك فعرض عليه مئة حديث كان فيها عشرة مكذوبة مثلًا، فعرفها وأعلّها؛ هذا الحديث علّته كذا، وهذا علّته كذا، ووافقه أبوزرعة. هؤلاء مثلًا من نقاد الحديث، اتفقوا على سماع هذه المئة، واتفقوا على الحديث الموضوع علّته كذا، وهذا علّته كذا، مع أنّ بعضهم لم يخبر بعضًا، وإنّما ذلك صنعتهم، فهذه حرفة أئمّة أهل الحديث.

ومعلوم أنّ ذلك ديدنهم وعلمهم. ومثّل الشارح على ذلك بأنّ كلّ من اهتم بعلم، فإنّه يبحث عن أصله وأهله، فمثلًا الذين حرفتهم علم النحو يتتبّعون أخبار النحاة، والمشتهرين بالنّحو من المتقدّمين؛ فمن الصدر الأوّل سيبويه،

المشهور بعلم النحو، والخليل بن أحمد المشهور بعلم النحو واللغة، وكذلك الفراء، ونحوهم المشتغلون بعلم الطب مثلًا، يعكفون على كتب من أخبار المتقدّمين كبقراط وجالينوس وسقراط وأفلاطون وهم من الأطباء المشهورين والمتقدمين قبل الإسلام، وبقيت لهم مؤلفات في كتب الطب موجودة يعتمدها الذين جاؤوا بعدهم.

وهكذا كل إنسان وصنعته وحرفته، فالبقال ليس مثل العطار؛ فهذا صنعته أن يبيع هذه البقول ونحوها، والعطّار يبيع الأطياب، وصنعته معرفة الطيب المخلوط والطيب الخالص، وكذا وكذا، كلّ واحد وصنعته.

فهذه صنعة المحدّثين سخّرهم الله لتنقية الأحاديث، حتى تميّز الحديث الذي ليس فيه طعن من الأحاديث المطعونة، كلّما تقرأ من الأحاديث التي في الأمّهات من الكتب تجدهم يقولون هذا الحديث صحّحه فلان، أو هذا الحديث ضعيف الإسناد، أو هذا حديث فيه اضطراب، أو هذا حديث مدرج أو هذا حديث منقطع، أو معضل، أو مضطرب المتن، أو مرسل، أو نحو ذلك؛ لأنّهم أرادوا أن يبيّنوا للأمّة ما دام أنّ هذه الأحاديث كتبت، وستعرض على الأفراد فلا بدّ أن يعرف الفرد الحديث الذي يعمل به، والذي لا يعمل به، فأصبحت السنّة ـ والحمد لله ـ محفوظةً.

فإذًا لماذا تردّونها أيها المعتزلة والمتكلّمون؟ لماذا تقولون: إنّ السنّة قد دخلها الكذب؟ نقول: صحيح أنّه دخلها الكذب، ولكن تميّزت الأحاديث المكذوبة من الأحاديث الصحيحة؛ لأجل ذلك فضح الله الكذّابين.

وقد قال الأئمّة: إنّه ما همّ أحد بكذب إلا فضحه الله على رؤوس الأشهاد، وهناك أناس دخلوا في الإسلام، وهم زنادقة، وصاروا يكذبون أحاديث ويفشونها، وهناك البعض يكذبون على النبيّ ﷺ حزبيّة أو انتصارًا لمذهب أو نحو ذلك، ولكنهم افتضحوا، وألفت فيهم المؤلفات، تجدون كتبًا ذكر فيها تراجم الضعفاء والمتروكين والمجروحين وضعفاء الحديث، عندنا كتاب اسمه «الكامل» لابن عدي مطبوع في نحو ثمانية مجلّدات، وكلّه بأسماء الرجال الضعفاء، يذكر بعض أحاديثهم الضعيفة، وهناك كتاب للعقيلي في أربع مجلّدات اسمه «الضعفاء»، وهكذا كتاب في ثلاثة أجزاء لابن حبّان اسمه «المجروحون».

ولا شكّ أنّ اهتمام العلماء بهؤلاء الضعفاء من المحدثين، يبيّن أنّهم من جملة من لا يقبلون في الحديث ولا يغترّ بحديثهم، فعرف بذلك أنّ السنّة - والحمد لله - ثابتة محفوظة، فلماذا تفرّقون بينها وبين غيرها؟ ولماذا تردّون السنّة مع ثبوتها؟

قال الشارح:

فَفَهِمُوا مِنْ أَخْبَارِ الصِّفَاتِ مَا لَمْ يُرِدْه الله وَلَا رسوله، وَلَا فَهِمَه أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّة الْإِسْلَام، أنه يَقْتَضِي إِثْبَاتُهَا التَّمْثِيلَ بِمَا لِلْمَخْلُوقِينَ! ثُمَّ اسْتَدَلُّوا على بُطْلَانِ ذَلِكَ بِـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، تَحْرِيفًا لِلنَّصَّيْنِ!! وَيُصَنِّفُونَ الْكُتُبَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا أُصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ الذي أَمَرَ الله به وَجَاءَ مِنْ عِنْدِه، وَيَقْرَؤُونَ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، وَيُفَوِّضُونَ معناه إلى الله تعالى، مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ لِمَعْنَاه الذي بَيَّنَه الرَّسُولُ، وَأَخْبَرَ أنه معناه الذي أَرَادَه الله.

وَقَدْ ذَمَّ الله تعالى أَهْلَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ على هذه الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ، وَقَصَّ علينا ذَلِكَ مِنْ خَبَرِهِمْ؛ لِنَعْتَبِرَ وَنَنْزَجِرَ عَنْ مِثْلِ طَرِيقَتِهِمْ، فَقَالَ تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، وَالْأَمَانِي: التِّلَاوَة الْمُجَرَّدَة، ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩]، فَذَمَّهُمْ على نِسْبَة مَا كَتَبُوه إلى الله، وعلى اكْتِسَابِهِمْ بِذَلِكَ، فَكِلَا الْوَصْفَيْنِ ذَمِيمٌ: أَنْ يَنْسِبَ إلى الله مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِه، وَأَنْ يَأْخُذَ بِذَلِكَ عِوَضًا مِنَ الدُّنْيَا مَالًا أَوْ رِيَاسَة.

نَسْأَلُ الله تعالى أَنْ يَعْصِمَنَا مِنَ الزَّلَلِ، فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، بِمَنِّه وَكَرَمِه.

قال الشيخ:

نرى هنا أنّ السنّة محفوظة ومصانة، وأنّ الله قد يسّر لها من يميّزها ويبيّن صحيحها من سقيمها، وأنّ السنّة متى ثبتت فليس لأحد ردّها.

كذلك كتاب الله تعالى، فهو ثابت صريح الدلالة، فبعد ذلك ليس لنا أن نردّه، ولا أن نردّ السنّة اعتمادًا على العقول واعتمادًا على العقيدة الباطلة ونحوها.

وقد ذكرنا أنّ هؤلاء المبتدعة اعتمدوا عقولهم، وجعلوها هي المقياس؛ فما وافقها أثبتوه، وما خالفها نفوه، ثمّ انقسموا ثلاثة أقسامٍ: قسم يحرّفون الكلم عن مواضعه، وقسم يفوّضون لله الآيات والكلمات ويقولون: لا نعرف معناها، وقسم يولّدون شيئًا من داخل أنفسهم، وكلامًا أو عبارات لا أصل لها، ويجعلونها معتمدًا . وكلّ الأقسام قد ذمّها الله تعالى.

فالقسم الأول: الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه، وهم الذين يؤوِّلون النّصوص، ويفسّرون عليها التفسيرات البعيدة، التي لا تمتّ إليها بصلة، وهذا مثل تحريف اليهود؛ إمّا تحريف لفظيٌّ وإمّا تحريف معنويّ؛ فالتحريف اللفظي: قولهم إنّ كلمة « استوى » بمعنى « استولى »، زادوا فيها لامًا، وقد حكى الله أنّ اليهود لمّا قيل لهم ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨]، غيّروا الكلمة، ولم يقولوا «حطّة»، وفي الحديث: «فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِنطَّةٌ»[1]، فزادوا فيها نونًا، فزيادة اليهود مثل زيادة الجهمية (لام استوى).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٢٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ، =

ولذا قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ[1]:

نُـونُ اليَهُـود وَلَامُ جَهمـيٍّ هُمَـا  فِي وَحْـيِّ رَبِّ العَـرْشِ زَائِـدَتَان

وأما القسم الثاني: فهو التفويض، هناك قسم منهم يسمّون المفوّضة، إذا سمعوا النصوص قالوا: لا نعرف معناها، ولكنّ نردّ ظاهرها ولا نفسّرها، فيردّون مدلولها، ويقولون: لا نثبت لله السمع، ولا نثبت لله النزول، ولا نثبت لله الاستواء، ولا نثبت له العلوّ، ولا نثبت له القدرة، لماذا؟ لأنّ العقل ينكر ذلك، ولكن لا نفسّر قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، ولا نفسّر قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ولا نفسّر قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، ولا نفسّر قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولكن نفوّضُ ذلك، ونسكت عن معناه، هؤلاء يعتمدون على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، كلّما جاءت هذه الآيات التي فيها الصفات، قالوا: إذا أثبتنا السمع، فإن المخلوق يسمع، فقد شبّهنا، والله ليس كمثله شيء، وإذا أثبتنا العلم، فالإنسان يعلم، فنكون قد شبّهنا، وهكذا كل صفة يردّونها، ولكنّ الكثير منهم يثبتون التأويل، ويفوّضون. فهؤلاء هم المفوّضة النفاة، الذين جمعوا بين الأمرين؛ بين تفويض بعضها، وأنّ أحدًا لا يعرف مدلولها، ولا المراد بها!!

---

=

وأصله عند البخاري برقم (٤٤٧٩).

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٦).

ذكرنا أنّ القرآن الكريم عربي، وأن الآيات نزلت بلسان عربيّ فصيح، يعرفه من سمعه ومن خوطب به، وعرفنا أنّ الله تعالى لا يخاطب الأمّة بكلام أعجميّ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت:٤٤]، فالكتاب عربيّ، والعرب يفهمون معانيه، فكيف ترد فيه معانٍ لا يعرفون مدلولها، أو يصعب عليهم تفسيرها؟! لا شكّ أنّ هذا بعيد عن الصواب.

كذلك القسم الذين جعلوا عمدتهم ما أورثه لهم رؤساؤهم وعلماؤهم، نقول: لا شكّ أنّ أولئك المشايخ الذين اعتمدتموهم ليسوا بمعتزلة، ونقول: على أي شيءٍ استند مشايخكم وعلماؤكم الذين قلّدتموهم؟ اعتمدوا على أدلّة عقليّة، وجعلوا النصوص ظواهر لفظيّة، وإذا جاءتهم الآيات قالوا: آيات القرآن هذه ظواهر لفظيّة لا تفيد معنى، ولا يعتمد على ظاهرها، وإنّما هي مطلوب منّا أن نتلوها للتبرّك، وأن نقرأها للبركة، وأما أن نعتقد معناها فلا. هذا ما يقولونه في الأمور الغيبيّة، وفي الأمور الأخرويّة، ولكن في باب الأحكام يقولون: إنّها تفيد العلم، وأنّه يعمل بها.

فيقال لهم: فرّقتم بين متماثلين، تعملون بآيات الصلاة والصيام، ولا تعملون بآيات الصفات، ولا تعملون بآيات الآخرة التي أخبر الله بها؛ فقد ذكر الله تعالى الوجوه بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٣]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥]، وأشباه ذلك، فتقبلون بعضًا وتردّون بعضًا، فقد شابهتم اليهود، الذين قال الله عنهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا

جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة:٨٥]، أنْ يخزيهم في الدنيا، وأن يفضحهم في الآخرة.

وبكلّ حال، فإن عمدة أهل السنّة والجماعة على النّصوص، ومع ذلك يقولون: إذا فكرنا فيها وجدناها موافقة للعقول، لا يمكن أن يكون هناك نصّ صحيح ثابت ومع ذلك يخالف العقل، العقل الصريح الذي سلم من الشّبهة، ولأجل ذلك جمع العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيميّة بين النصوص الصحيحة الثابتة، وبين صراحة العقل؛ فقد ألّف ابن تيميّة كتابًا في ذلك اسمه «العقل والنقل»، أو: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول». صحيح المنقول: الأحاديث الصحيحة المنقولة، وسمّي في الطبعات الأخيرة «درء تعارض العقل والنّقل» يعني: دفع التعارض بين العقل والنقل، العقل السليم والنقل للأحاديث الصحيحة الصريحة، فبيَّن أن كل الأحاديث الثابتة أو الآيات الصريحة لا تخالف العقول الصحيحة. لكن أولئك الذين اعتمدوا عقولهم لا شكّ أنّهم ممّن خربت عقولهم، وخربت فطرهم، لماذا؟ لأن الانحراف والشبه والزيغ في جانب الله هو الذي سبّب لهم هذا الانحراف والبعد عن الصواب، فترى حججهم مضطربة.

قد ذكرنا أنّ نهاية ضلال المتكلّمين ونحوهم الحيرة، نقل الشارح عن بعضهم قوله:

نِهَـايَةُ إِقْـدَامِ العُقُـولِ عِـقَالُ ... وَأَكْثَـرُ سَـعْيِ العَـالَمِينَ ضَـلَالُ

وَأَرْوَاحُنَـا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَـةُ دُنْيَانَـا أَذًى وَوَبَـالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ويقول إمام الحرمين الجويني: «قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى عنه أهل الإسلام، وكل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني».

فإذا كانت هذه غايتهم، فكيف تعتمد عقولهم، وكيف يُركن إلى تلك العقول، وترد بها الآيات والأحاديث. والحمد لله الذي يسّر لهذه الأمة علماء هداة مهديين ساروا على مذهب السلف والصحابة والتابعين والقرون المفضّلة، أحيوا هذا المذهب، واستدرجوا أدلّته فأصبحوا على هذا المعتقد.

يوجد كثير من الناس لم يزالوا على معتقد الأشعريّة، وعلى معتقد المعتزلة ونحوهم، ولا يزالون يحيون تراثهم، ويحقّقون كتبهم، وينشرونها ويفتخرون بأنّهم جدّدوا تلك المذاهب، فيبقون على هذه العقيدة الزائفة مع وضوح الأدلّة في غيرها. نحن نقول لهم: أنتم أخطأتم بتحقيق كل هذه الكتب ككتب القاضي عبدالجبار المعتزلي، وكتب ابن جنّي، وكتب الزمخشري المعتزلي، وأشباههم، والذين يحقّقونها يقدّمون لها مقدّمات، يمدحونها ويثنون على أربابها، وهم يعرفون اضطرابها، ولوْ كانوا في زمن قديم لم تصل إليهم كتب أهل السنّة لكانوا

معذورين، ولكن في هذا الزمان حيث عرفت كتب أهل السنّة وانتشرت وتجدّدت مرة بعد مرّة، وأصبح الحقّ واضحًا في كتب شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله، وكتب تلميذه ابن القيّم، وأتباعهما، وكتب أئمّة الدعوة، وكتب السلف، كتب الإمام الكبير أحمد بن حنبل - رحمه الله - وتلامذته وزملائه وأهل قرنه، حتّى لو لم يكن تلامذته من الحنابلة، ولكن مؤلّفاتهم شجى في حلوق أولئك المعتزلة، كلّما طبع كتاب ساءهم ذلك، وحرصوا على أن يردّوا عليه، ولكن لا ينفعهم إنكارهم ولا ينفعهم ردّهم.

إنّ أهل السنّة والجماعة بنوا عقيدتهم على الشريعة الإسلامية التي أوقفت على كتاب الله تعالى، وعلى سنّة رسوله ﷺ، وعرفوا أنّ ما جاءت به هذه الشريعة فكلّه من الدين، وكلّه مما كلِّف به المسلمون، وعرفوا أنّ الشريعة - سواء في العقائد أو في الأعمال - مبنيّة على الحكم والمصالح، فليس فيها أمر إلا وفيه مصلحة، وليس هناك شيء نهي عنه إلا وفي تركه مصلحة، فهي مؤسسة على تحصيل المصالح وتكثيرها، ونفي المفاسد وتقليلها.

وهكذا بُنيت هذه الشريعة، وهم بطريقتهم يؤمنون بالنصوص كما هي دون أن يتوقّفوا في شيء من مدلولاتها، وقد نقل عن الإمام الشافعيّ - رحمه الله - أنّه قال: «آمنتُ باللَّهِ، وبما جاءَ عَن اللَّهِ، على مُرادِ اللَّهِ، وآمنتُ برسولِ اللَّهِ، وبما جاءَ عَن رسولِ اللَّهِ، على مُرادِ رسولِ اللَّهِ»[1]. وهذا هو التقبّل للشريعة بما

(١) تقدم (٢/ ١٦٢).

جاءت به دون تردّد، ودون أن ينكر شيئًا منها، ودون أن يُحكّم فيه العقل، بل يقبله كما هو، وإذا لم يدركه عقله، فوّض كيفيته إلى عالمه سبحانه وتعالى .

ولا شكّ أنّ في ذلك أمور أهمّها: أمر الإيمان بالغيب؛ لأنّ الشريعة مبنيّة على الإيمان بالغيب، وهو أنّ يؤمن بالغيب وبكلّ الأمور التي لم يرها، ويعتقد صحّتها وثبوتها وبما جاء من صفاتها، ويفوّض كيفيّتها إلى خالقها، وإلى الذي أخبر بها تعالى . ولأجل ذلك يصلح أن يُقال: إنّ أهل السنّة هم الذين حقّقوا الإيمان بالغيب، وتركوا التدخّل بالعقول في الأمور الغيبيّة. ويردّ ذلك أهل البدع الذين عرضوا أمور الشريعة ـ لا سيّما الأمور الغيبيّة ـ على عقولهم، فرأوا أنّ ما أدركته عقولهم فهو المناسب والمقبول، وما أنكرته عقولهم الزائغة، فإنّه مردود، ولو اتّفق عليه الكتاب والسنّة، ولو سار عليه سلف الأمّة، فقد ردّوا النصوص وردّوا على الأئمّة، وأنكروا على السلف، وابتدعوا بدعًا، عمدتهم فيها عقولهم الزائغة، فلا التفات إلى مثل هؤلاء.

وقد ذكرنا أنّهم يتمسّكون ببعض النصوص، ويتركون بعضًا فيؤمنون بالمتشابه والمجمل، ويجعلون مثل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، مرجعًا لهم، ولا يعتبرون بآخر هذه الآية، فتمام الآية ردّ عليهم، فهذه بعض آية فيها ردّ على طائفتين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ردٌّ على الممثّلة والمشبّهة الذين يجعلون لله مِثْلًا، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ردٌّ على المعطّلة، الذين أنكروا صفات الله، ومنها السمع والبصر، فردَّ الله سبحانه على

الطائفتين ببعض آية، ولأجل ذلك كان هؤلاء المبتدعة يسوؤهم ما يقرؤون من النصوص في إثبات الصفات، حتّى مرّ بنا أنّ أحدهم - وهو ابن أبي دؤاد - وهو الذي تمكّن من المأمون وأضلّه، طلب منه أن يكتب على كسوة الكعبة: (ليس كمثلِهِ شيء وهو العزيز الحكيم)، أراد أن يغيّر الآية؛ لأنّ فيها إثبات السمع والبصر، وهو لا يؤمن بإثبات ذلك، مما يدلّ على أنّهم يأخذون ما يناسبهم، ويتركون ما لا يناسبهم، بل يسلّطون على ذلك أنواع التأويلات، ويظنّون أنّ العقل هو الذي عرفت به الشرائع، وأُدركت به صحة النبوّات. فإذا جاءت الشرائع والنبوّات بما يخالف ذلك العقل لن يقبل. هكذا علّلوا.

وقد ذكرنا أنّ عقولهم - التي جعلوها ميزانًا - مضطربة؛ فإنّ بعضهم ينكر صفة، ويبقى على إنكارها عشرين سنة، ثم يرجع ويقرّ بها، فيقال: هل نبت لك عقل جديد، حيث أقررت بها بعد الإنكار، وادّعيت أنّ العقل هو الميزان في الأول والآخر، وكذلك بالعكس؛ يقرّ بعضهم صفة من الصفات، ثم في النهاية ينكرها، وهو شخص واحدٌ، وكذلك التفاوت بينهم، فقد يكونان أخوين، أو تلميذين لشيخ واحد؛ أحدهما يقول: إنّ العقل يثبت الرؤية مثلًا، والآخر يقول: إنّ العقل ينكرها، وهذا يقول: إنّ العقل يثبت العلوّ، والآخر يقول: إنّ العقل ينكر العلوّ. فالعقول إذًا ليست هي الميزان للشريعة، وإنّما الميزان هو الكتاب والسنّة، وقد عرفنا أنّهم يقولون إنّ النصوص من القرآن صحيحة، ولكن ليست صريحة، بل محتملة للتأويل، ولأجل ذلك يسلّطون عليها أنواع التأويل. يحزنهم إذا رأوها مسرودة، فإذا رأوا آيات العلوّ مجموعة في موضع، وكذلك إذا رأوا آيات الاستواء

مجموعة في موضع، وكذلك إذا رأوا آيات إثبات السمع أو البصر أو الرؤية، أو نحو ذلك، يشقّ عليهم ذلك، ولكنّهم إذا فسّروا، فإنّهم يفسّرونها متفرّقة، ويتأوّلونها ويحملونها على المعاني البعيدة.

وكذلك الأحاديث؛ يقولون: الأحاديث إما صحيحة وليست صريحة، فيسلّطون عليها التأويل، أو صحيحةٌ ولكنّها لا تفيد إلا الظنّ، وهي التي يسمُّونها أخبار الآحاد، فلا يجعلونها حجّة إلا في الأعمال، أما في العقائد فلا. فينكرون بذلك شرع الله.

أما أهل السنّة، فهم يقبلونها كما هي، ويصفون الله تعالى بموجبها، ويتوقّفون عن كنه الصفة وكيفيّتها، وذلك هو العلم الذي استأثر الله تعالى بكيفيّته.

قال الشارح:

وَيُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رحمه الله ـ بقوله: (مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ) إلى أَنَّ مَا صَحَّ عَنِ النبي ﷺ نَوْعَانِ: شَرْعٌ ابْتِدَائِي، وَبَيَانٌ لِمَا شَرَعَه الله في كِتَابِه الْعَزِيزِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ حَقٌّ وَاجِبُ الِاتِّبَاعِ.

وقوله: (وَأَهْلُه في أَصْلِه سَوَاءٌ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَمُلَازِمَةِ الأولى). وفي بَعْضِ النُّسَخِ: (بِالْخَشْيَةِ وَالتُّقَى)، بَدَلَ قوله: (بِالْحَقِيقَةِ). ففي الْعِبَارَةِ الأولى يُشِيرُ إلى أَنَّ الْكُلَّ مُشْتَرِكُونَ في أَصْلِ التَّصْدِيقِ، وَلَكِنَّ التَّصْدِيقَ يَكُونُ بَعْضُه أَقْوَى مِنْ بَعْضٍ وَأَثْبَتَ، كَمَا تَقَدَّمَ نَظِيرُه بِقُوَّةِ الْبَصَرِ وَضَعْفِه. وفي الْعِبَارَةِ الأخرى يُشِيرُ إلى أَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَأَمَّا التَّصْدِيقُ فَلَا تَفَاوُتَ فيه. والمعنى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ قُوَّة، والله أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

---

قال الشيخ:

قد ذكرنا أنّ الإيمان الذي في القلب يتفاوت بقوته وبضعفه، وكذلك يتفاوت التصديق بقوة الأدلّة وكثرتها، أو بضعفها وقلّتها، وإذا تفاوت الذي في القلب تفاوتت الآثار؛ وذلك لأنّ ما في القلب يؤثّر على البدن، فإذا كان الإنسان قوي الاعتقاد، قويّ التصديق، قلبه مطمئنّ بالإيمان، مصدّق لما سمعه من الآثار، وتصديق القلب يظهر أثره فترى لسانه دائمًا يلهج بذلك الشيء الذي اعترف به وقلبه مطمئنًا بذلك، وترى بدنه مشتغلًا بذلك، وإذا كان التصديق ضعيفًا لم تَرَ له أثرًا على اللسان، ولا على البدن إلا قليلًا، وإذا كان هناك تكذيب لشيء من

الشريعة رأيت آثار ذلك التكذيب . فالحاصل أنّ آثار التصديق القوي هي الطاعات، وآثار التكذيب هي المعاصي، وآثار التوقّف هي قلّة الأعمال، وآثار ضعف التصديق هو في النتيجة.

فنتيجة التصديق القوي كثرة الأعمال الصالحة، والاستعداد للموت، ولما بعد الموت، وكذلك الإكثار من الحسنات، وعمل المبرّات، والبعد عن السيئات، وأنواع الخطايا، وذلك كلّه أثر من آثار قوة الإيمان في القلب . ومع ذلك، فإنّ الأعمال التي على البدن هي من الإيمان كما تقدّم، ولأجل ذلك المؤمن هو الذي يصدّق ويعمل، والذي لا يصدّق ولا يعمل؛ هو كافر، والذي يصدّق ولا يعمل فهو مؤمن ضعيف الإيمان، فلا بدّ من أن يجمع الإيمان الذي في القلب بين ثباته وقوّته وبين ظهور آثاره.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

والمُؤْمِنونَ كلُّهُم أَوْلِياءُ الرَّحْمَنِ.

---

قال الشارح:

قَالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الآية [يونس:٦٢، ٦٣]، الْوَلِي: مِنَ الْوِلَايَة بِفَتْحِ الْوَاوِ، التي هي ضِدُّ الْعَدَاوَة. وَقَدْ قَرَأَ حَمْزَة: {مَا لَكُمْ مِنْ وِلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنفال:٧٢]، بِكَسْرِ الْوَاوِ، وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا[1]. فَقِيلَ: هُمَا لُغَتَانِ. وَقِيلَ: بِالْفَتْحِ النُّصْرَة، وَبِالْكَسْرِ: الْإِمَارَة. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَجَازَ الْكَسْرُ؛ لِأَنَّ فِي تَوَلِّي بَعْضِ الْقَوْمِ بَعْضًا جِنْسًا مِنَ الصِّنَاعَة وَالْعَمَلِ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ مَكْسُورٌ، مِثْلُ: الْخِيَاطَة وَنَحْوِهَا.

فَالْمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَاءُ الله، والله تعالى وَلِيُّهُمْ، قَالَ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الآية [البقرة:٢٥٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١]. وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، قَالَ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الآية [التوبة:٧١]، وَقَالَ تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) انظر: السبعة في القراءات (ص٣٠٩)، وحجة القراءات (٣١٤).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[الأنفال:٧٢] إلى آخرِ السورة ، وَقَالَ تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:٥٥، ٥٦].

فهذه النُّصُوصُ كُلُّهَا ثَبَتَ فِيهَا مُوَالَاة الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَأَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ الله، وَأَنَّ الله وَلِيُّهُمْ وَمَوْلَاهُمْ. فالله يَتَوَلَّى عِبَادَه الْمُؤْمِنِينَ، فَيُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه، وَيَرْضَى عَنْهُمْ وَيَرْضَوْنَ عنه، وَمَنْ عَادَى له وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَه بِالْمُحَارَبَة. وهذه الْوِلَايَة مِنْ رَحْمَتِه وَإِحْسَانِه، لَيْسَتْ كَوِلَايَة الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ لِحَاجَتِه إليه. قَالَ تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:١١١]. فالله تعالى لَيْسَ له وَلِي مِنَ الذُّلِّ، بَلْ لله الْعِزَّة جَمِيعًا، خِلَافَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَتَوَلَّاه لِذُلِّه وَحَاجَتِه إلى وَلِي يَنْصُرُه.

---

قال الشيخ:

يتكلّم هنا عن الولي الذي يكثر ذكره في اصطلاحات الصوفيّة وعند القبوريين؛ الذين يغلون في بعض الأشخاص ويسمّونهم أولياء، يدّعون أنّ محبّتهم تستدعي تعظيمهم، مما يصل بهم إلى إعطائهم شيئًا من حق الله تعالى.

كلمة الوليّ مشتقّة من الولاية التي هي النّصرة، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١]، بعضهم ينصر بعضاً وبعضهم يؤيّد

بعضاً، كلّ منهم وليّ للآخر. الولي: الناصر الذي ينصره ويتولاّه ويؤيّده ويقوّيه. فإذا قيل: المؤمنون أولياء الله؛ فالمعنى: أنّ الله تعالى يؤيّدهم وينصرهم ويقويهم، وهم أيضاً ينصرون الله، أي: ينصرون دين الله، ويجاهدون في سبيله، ويبلّغون شريعته، ويذبون عن الشريعة وعن الإسلام، ويردّون عنه شبهات المشبّهين، فكانوا بذلك أولياء الله تعالى، والله تعالى وليّهم.

إذًا: وليّ الله كلّ تقيّ مؤمن، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس:٦٢، ٦٣]، هذا وصفهم، فكلّ مؤمن تقيّ فهو من أولياء الله، فما بين الإنسان وبين أن يصبح وليًّا لله إلّا أن يحقّق الإيمان، ويحقّق التقوى.

أمّا الصوفيّة ونحوهم فادّعوا أنّ هناك أولياء، وأنّ هذه الولاية رتبة يرتفع بها على رتبة الأنبياء والرسل، فالأولياء أصبحوا مقرّبين عند الله، وأصبحوا يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك ما يوحيه إلى الأنبياء، ويقول قائلهم:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الوَلِي

فهذا غلوّ منهم؛ لأنهم جعلوا الوليّ أرفع من النبيّ أو الرّسول، ولا شكّ أنّ الولي هو الذي يتولّى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦]، فمن كان الله وليّه، ومن تولّى الله تعالى نصره الله، فهو من حزب الله، وهم الغالبون. ومن كان مؤمنًا فهو من أولياء الله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيميّة رسالة مطبوعة منتشرة اسمها: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، فرّق فيها بين من يدّعي الولاية وليس من أهلها، وبين من يكون من أولياء الشيطان، ويدّعي بأنّه من أولياء الرحمن؛ لأنّ كثيرًا من أولئك الذين يظنّ الصوفيّة بهم الولاية هم في الحقيقة شياطين أو أولياء للشياطين؛ لأنّهم يتظاهرون للعوامّ بأمورٍ الله بريء منها، فيفعلون المنكرات والفواحش، ويأكلون الحرام، ويدّعون أنّهم قد أبيح لهم ذلك، وأنّهم سقطت عنهم التكاليف، ورفعت عنهم الأوامر والنواهي، وأُبيح لهم أن يفعلوا ما يشاؤون، فلا ينكر عليهم في زعم الذين يقدّسونهم ويعظّمونهم!

يُحكى عن بعض من يدَّعي الولاية أنّهم يأتيهم الإنسان الذي أصيبت امرأته بالخبال أو الجنون، ونحو ذلك، فيتركها تبيت عند هذا الوليّ! ويقول: إنّه ولي، وإنّه ليس بمخوف عليها منه، ولكن ينقلون عن كثير من النساء أن هذا الوليّ يخلو بها، وأنّه يفعل الفاحشة معها، وهو ولي كما يقولون!! لماذا؟ لأنّهم يقولون للعوام بأنّهم قد رُفعت عنهم التكاليف، وأبيح لهم أن يفعلوا ما يريدون، لهذا لا ينكر عليهم إن زنى أحدهم، أو أخذ المال بغير حقّه، أو انتهب، أو قتل، أو ترك الصلاة، أو فعل الفواحش والمنكرات، أو ما أشبه ذلك، يدّعون أنّهم وصلوا إلى حظيرة القدس، وأنّهم وصلوا إلى الدرجة العالية، وأنّهم سقطت عنهم التكاليف والأوامر. هذه صفات الوليّ عندهم.

ذكر بعض المشايخ أنّ هذا البدوي الذي يعبدُ ويعظّم قبره في مصر، وهو من أشهر القبور، عرف عنه أنّه دخل المسجد مرّة والناس في صلاة الجمعة وبال فيه قائمًا، والناس ينظرون، ثم خرج ولم يصلِّ، فتبعوه وقالوا: هذا مسلوب، هذا قلبه عند ربّه، وبعد ذلك صار يُظهر لهم مثل هذه الأمور، فغلوا فيه، واعتقدوا فيه الشيء العظيم، الذي لو قرأ أحدنا السيرة التي كتبت عنه لرأى فضائح تحزن كلّ ذي قلب سليم[1].

وكم من أمثال هؤلاء الذين إذا وصلوا إلى هذه الرتبة، زعموا أنّهم مباح لأحدهم أن يفعل ما يشاء، حتّى ولو مشى عُريانًا، ولو سلب وقتل، ونحو ذلك.

وقد قال الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني في قصيدته البائية:

كَقَوْمٌ عُرَاةٌ فِي فَلَا مِصْرَ مَا تُرَى ... عَلَى عَوْرَةٍ مِنْهُمْ هُنَاكَ ثِيَابُ

يَدُورُونَ فِيهَا كَاشِفِينَ لِعَوْرَةٍ ... تَوَاتَرَ هَذَا لَا يُقَالُ كَذَابُ

---

(١) قال السخاوي في الضوء اللامع (٩/ ١٥٠): «حدَّث المقريزي في عقوده عن شيخه أبي حيان، قال: ألزمني الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلي بن الباب المسير معه لزيارة أحمد البدوي بناحية طنطا، فوافيناه يوم الجمعة، وإذا هو رجل طوال عليه ثوب جوخ عال، وعمامة صوف رفيع، والناس يأتونه أفواجًا، فمنهم من يقول: يا سيدي خاطرك مع غنمي، وآخر يقول: مع بقري، وآخر: مع زرعي، إلى أن حان وقت الصلاة، فنزلنا معه إلى الجامع، وجلسنا لانتظار إقامة الجمعة، فلما فرغ الخطيب وأقيمت الصلاة، وضع الشيخ رأسه في طوقه بعد ما قام قائمًا، وكشف عن عورته بحضرة الناس، وبال على ثيابه وحصر المسجد، واستمر ورأسه في طوق ثوبه وهو جالس إلى أن انقضت الصلاة ولم يصل».

يَعُدُّونَهُمْ فِي مِصْرِهِمْ فُضَلَائِهِمْ  دُعَاؤُهُمْ فِيمَا يَرَوْنَ مُجَابُ[1]

قوم يمشون عراةً في مصر، وأهل ذلك المكان يقدّسونهم، ويتمسّحون بهم ويعدّونهم من خيارهم، ويدّعون أنّ دعوتهم مجابة؛ لأنّهم قد وصلوا إلى الله، وفي زعمهم أنّهم يأخذون من اللوح المحفوظ، وليسوا بحاجة إلى أن يرجعوا إلى القرآن ولا إلى السنّة!

عجبًا لهؤلاء، كيف اعتقدوا هذه العقيدة؟ هل هناك رتبة أفضل من رتبة الرسل؟ رسل الله وأنبياؤه الذين بلّغوا شرعه، والذين أنزل عليهم الوحي هم صفوة الله تعالى من خلقه، هل سقطت عنهم التكاليف؟ نبيّنا ﷺ هو خاتم الرسل، وهو أفضل الخلق، ألم يكن يقوم الليل حتى تتورّم قدماه؟ لِمَ لَمْ تسقط عنه التكاليف كما سقطت عن هؤلاء الأولياء؟ أليس كان يتورّع حتّى عن أكل تمرة وجدها في الطريق مخافة أن تكون من الصدقة؟ لماذا هؤلاء يأكلون أموال الناس؟ بل يستحلّون دماء الناس وأموالهم بغير حق، ويزعمون أنّهم قد رُفع عنهم الحرجُ، وأبيح لهم مالم يبح لغيرهم؟ لا شكّ أن هذا من تلاعب الشيطان بهم، ثم تلاعبه بأتباعهم.

وبكل حال نقول: إنّ الولاية التي يلهج بها هؤلاء ليست خاصةً بهذا دون هذا، بل كلُّ أحد يستطيع أن يكون من أولياء الله، إن حقّق الإيمان وحقّق التقوى. فإن قال البعض: إنّكم معشر الوهّابيين لا تعرفون للأولياء قدرًا، ولا تقيمون لهم

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (١/ ٢٢٨).

وزنًا، والأولياء عندكم لا تقدّسونهم، ولا تعرفون قدرهم؟ قيل له: ومَن هم الأولياء؟ فإن قال: قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، قلنا: اقرأ بعدها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]، ألا تكون منهم؟ ألا تحقّق التقوى بعد أن حقّقت الإيمان؟ ألا تكون وليًّا؟ ما بينك وبين أن تكون وليًّا إلَّا أن تحقّق الإيمان الصحيح وتحقّق التقوى، فلماذا تحرم نفسك، وتتعلّق بهم وتقدّسهم وتقدّرهم وتعتقد فيهم، وتغلو في قبورهم، وتفعل عندها ما لا يُفعَلُ إلا في بيوت الله تعالى، وفي المساجد، وما لا يصلح إلا لله تعالى؟ ولماذا تعتقد فيهم أنّهم يعلمون الغيب، وأنّهم يطّلعون على الكون، وأنّهم يدّبرون الأمور، وأنّهم يديرون الأفلاك، وأنّهم أقطاب الأرض، وأنّهم عمادها وأسسها، وأنّ الأرض ثبتت بثباتهم، وأنّ الأرض لولاهم لماجَتْ واضطربت بأهلها، ولكنّهم ثوابتها كما يزعم أولئك المتصوّفة؟!!

فنقول: هذا من تلاعب الشيطان بهم، وإلا فإنّ ولاية الله ـ عزّ وجلّ ـ تصلح لكلّ مؤمن، ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]، فعلى المؤمن أن يحرص على تحقيق الإيمان وتحقيق التقوى؛ ليكون من أولياء الله تعالى، وعليه أيضًا أن يتولّى الله، ويتولّى رسوله، ويتولّى إخوته المؤمنين بمعنى أن يحبّهم وينصرهم، فلذلك ذكر الله تعالى أنّ المؤمنين يتولّى بعضهم بعضًا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣]، عقد الله سبحانه الولاية بين المؤمنين كما عقد بين المهاجرين والأنصار، وفي الآية قوله

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [الأنفال:٧٢]؛ الذين هاجروا (المهاجرون)، والذين آووا ونصروا (الأنصار) بعضهم أولياء بعض، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾، يعني: بعضهم ينصر بعضًا ويؤيّده، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، بمعنى: أنّهم يتناصرون فيما بينهم، والجميع أولياء الله، كل من كان مؤمنًا فهو من أولياء الله، والله تعالى يتولّاه.

ثم قد يُفهم من إطلاقات الصوفيّة ونحوهم أنّ الوليّ وليّ الله، وأنّ الله تعالى بحاجة إلى هؤلاء الأولياء، وهذا اعتقاد خاطىء، فالله تعالى غنيّ عن الأولياء جميعًا، وغنيّ عن الخلق كلّهم، وليس بحاجة إلى عبادتهم، ولا إلى ولايتهم، وإنّما كان المؤمنون أولياء الله بمعنى أنّهم لمّا أحبّوا الله ولمّا أطاعوه وعبدوه تولّاهم الله، بمعنى: نصرهم وأيّدهم وقوّاهم، فأصبحوا هم أولياء الله، ووصف الله نفسه بأنّه وليهم، فهكذا يكون المؤمن من أولياء الله، والله تعالى وليّ الذين آمنوا.

قال الشارح:

وَالْوِلَايَة أَيْضًا نَظِيرُ الْإِيمَانِ، فَيَكُونُ مُرَادُ الشَّيْخِ: أَنَّ أَهْلَهَا فِي أَصْلِهَا سَوَاءٌ، وَتَكُونُ كَامِلَة وَنَاقِصَة، فَالْكَامِلَة تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢ - ٦٤]، فَـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ مَنْصُوبٌ على أنه صِفَة ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾، أَوْ بَدَلٌ منه، أَوْ بِإِضْمَارِ (أَمْدَحُ)، أَوْ مَرْفُوعٌ بِإِضْمَارِ (هُمْ)، أَوْ خَبَرٌ ثَانٍ لِـ (إِنَّ)، وَأُجِيزَ فيه الجَرُّ، بَدَلًا مِنْ ضَمِيرِ (عَلَيْهِمْ).

وعلى هذه الْوُجُوه كُلِّهَا فَالْوِلَايَة لِمَنْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، وَهُمْ أَهْلُ الْوَعْدِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ، وهي عِبَارَة عَنْ مُوَافَقَة الْوَلِي الحَمِيدِ فِي مَحَابِّه وَمَسَاخِطِه، لَيْسَتْ بِكَثْرَة صَوْمٍ وَلَا صلاة، وَلَا تَمَلُّقٍ وَلَا رِيَاضَة. وَقِيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالخَبَرُ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، وَهُوَ بَعِيدٌ؛ لِقَطْعِ الْجُمْلَة عَمَّا قَبْلَهَا، وَانْتِثَارِ نَظْمِ الآية.

وَتَجْتَمِعُ فِي الْمُؤْمِنِ وِلَايَة مِنْ وَجْه، وَعَدَاوَة مِنْ وَجْه، كَمَا قَدْ يَكُونُ فيه كُفْرٌ وَإِيمَانٌ، وَشِرْكٌ وَتَوْحِيدٌ، وَتَقْوَى وَفُجُورٌ، وَنِفَاقٌ وَإِيمَانٌ. وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا الْأَصْلِ نِزَاعٌ لَفْظِي بَيْنَ أَهْلِ السنة، وَنِزَاعٌ مَعْنَوِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبِدَعِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْإِيمَانِ. وَلَكِنَّ مُوَافَقَة الشَّارِعِ فِي اللَّفْظِ والمعنى أولى مِنْ مُوَافَقَتِه فِي المعنى وَحْدَه، قَالَ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، وَقَالَ تعالى:

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، الآية. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ على هذه الآية، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُنَافِقِينَ على أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ. وَقَالَ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصلة مِنْهُنَّ كَانَتْ فيه خَصلة مِنَ النِّفَاقِ حتى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، وفي رِوَايَة: «وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ»، بَدَلَ: «وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ». أَخْرَجَاه في «الصَّحِيحَيْنِ»(١). وَحَدِيثُ شُعَبِ الْإِيمَانِ تَقَدَّمَ(٢). وقوله ﷺ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ في قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ إِيمَانٍ»(٣).

فَعُلِمَ أَنَّ مَنْ كَانَ معه مِنَ الْإِيمَانِ أَقَلُّ الْقَلِيلِ لَمْ يُخَلَّدْ في النَّارِ، وَإِنْ كَانَ معه كَثِيرٌ مِنَ النِّفَاقِ، فَهُوَ يُعَذَّبُ في النَّارِ على قَدْرِ مَا معه مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ.

فَالطَّاعَاتُ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَالْمَعَاصِي مِنْ شُعَبِ الْكُفْرِ، وَإِنْ كَانَ رَأْسُ شُعَبِ الْكُفْرِ الْجُحودَ، وَرَأْسُ شُعَبِ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقَ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى مَرْفُوعًا إلى النبي ﷺ أنه قَالَ: «مَا مِنْ جَمَاعَة اجْتَمَعَتْ إِلَّا وَفِيهِمْ وَلِي لله، لَا هُمْ يَدْرُونَ به، وَلَا هُوَ يَدْرِي بِنَفْسِه»(٤)، فَلَا أَصْلَ له، وَهُوَ كَلَامٌ بَاطِلٌ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤) بنحو هذا اللفظ من حديث أنس ﷺ، وأخرجه الترمذي بلفظه (٢٥٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) قاله شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى (١١/ ٦٠): «وأما الحديث المروى (ما من جماعة يجتمعون إلَّا وفيهم ولى لله)، فمن الأكاذيب، ليس في شيء من دواوين الاسلام، =

فَإِنَّ الجَمَاعَة قَدْ يَكُونُونَ كُفَّارًا، وَقَدْ يَكُونُونَ فُسَّاقًا يَمُوتُونَ على الْفِسْقِ.

---

قال الشيخ:

يتكلّم الشارح هنا على الولاية والعداوة، وأنّها من الإيمان، وقد تقدّم أنّ أهل الإيمان يتفاوتون في إيمانهم، فكذلك الأولياء أيضًا يتفاوتون في صفة الولاية، فأولياء الله تعالى يتفاوتون في هذه الأوصاف، كما أنّ المؤمنين من عباد الله يتفاوتون في آثار الإيمان، إذا عرفنا أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنّ الحسنات والطاعات من شعب الإيمان، والمعاصي والمخالفات من شعب الكفر، أي: أنّ للإيمان شعبًا، وللكفر شعبًا، وأنّ الإنسان قد يجتمع فيه خصال كثيرة من خصال الإيمان، ويفقد بعضها فيكون مؤمنًا ناقص الإيمان، وقد يكون فيه خصلة من خصال الكفر، ولا يحكم بكفره، ويكون بذلك جامعًا بين كونه وليًّا لله من جهة، وعدوًا له من جهة، يحبّه الله تعالى على ما فيه من الإيمان والأعمال الصالحة، ويبغضه لما فيه من المعاصي ونحوها، والحكم للصفات التي تغلب. ويكون أيضًا مثابًا ومعاقبًا.

ولأجل ذلك يدخل الله تعالى كثيرًا من العصاة النار، ثم يخرجهم من النار بعد أن يمحَّصوا ويزال عنهم آثار تلك المعاصي، فأولئك محبوبون من جهة؛ لأنّهم

---

=

وكيف والجماعة قد يكونون كفارًا أو فساقًا يموتون على ذلك».

من المؤمنين المصدّقين الذين أتوا بالشهادتين ومبغوضون من جهة؛ لأنَّهم أصرّوا على كثير من المعاصي، واقترفوا كثيرًا من الذنوب، وعملوا أنواعًا من السيّئات، فأصبحوا بذلك قد جمعوا بين اقتراف السيئات وعمل الحسنات، لكن الحكم لما هو الأصل، فلو كان الإنسان في الأصل مِمّن شهد الشهادتين، وآمن بالله عزّ وجلّ، وآمن برسله، ولكن كان إيمانه الذي في قلبه ضعيفًا لم يحمله على كلّ العبادات والإتيان بها، ولم يزجره عن كلّ المعاصي والمخالفات، فإنّه يقال: هو مؤمن، ولكن يعاقبه الله بهذه المعاصي التي اقترفها، أو يعفو الله عنها.

كذلك الكافر؛ قد يعمل حسنات، وقد يفعل قُرباتٍ، ولكن العبرة بما عليه قلبه، فإذا كان كافرًا مشركًا بالله، يعتقد أنّ لله شركاء في العبادة، ويفعل أنواعًا من العبادة لغير الله تعالى، ولكنّه مع ذلك قد يصلّي، ويتصدّق، ويقرأ القرآن، ويحبّ الخير، ويجاهد المشركين؛ ولكنّه مع ذلك يعبد غير الله، فنقول: هذا مشرك، ولا ينفعه عمله الذي عمِلَه؛ لأنّه أحبط بذلك الشرك، حبطت أعماله وحسناته وقرباته، وبطل ثوابه، فلا يستحقّ عليها شيئًا.

وبكلّ حالٍ نقول: على المؤمن أن يحرص على تكميل إيمانه، فيكون بذلك من أولياء الله عزّ وجلّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]. الله تعالى جمع في وصفهم بين الإيمان والتّقى، آمنوا يعني: إيمانًا تظهر آثاره، وهي الصالحات، وتصديقًا قويًا، وتقوى يتركون بها الآثام والجرائم وأنواع المحرّمات وكبائر الإثم وصغائره، فإذا كمل الإيمان، ولو حصل منه شيء من السيئات

ونحوها، واتّقى الله ـ عزّ وجلّ ـ أصبح من أولياء الله، ثوابه الذي يحصل له ثواب عاجل.

فالثواب الذي في الدنيا هو أنّ الله تعالى يحبّ أولياءه ويتولاّهم ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:٢٥٧]، فإذا أحبّهم الله تعالى، وفّقهم إلى الطاعات، وحماهم من المعاصي والآثام، أمّا الثواب في الآخرة، فهو الثواب الأعظم، فقد ذكر الله بعض الثواب أو نوعًا منه في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، فجعلهم من أهل الأمن، والأمن: أن يكونوا آمنين في الآخرة، لا يخافون ولا يحزنون، ولأجل ذلك قال في الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]؛ فلهم الأمن، وهم على طريق سويٍّ، نعرف بذلك أنّ لله أولياء، وأنّهم ليسوا كما يزعم المتصوّفة والغلاة ونحوهم، خواصّ من النّاس يظنّون أنّهم قطعوا المسافات، وأنّهم سقطت عنهم التكاليف، بل كلّ من آمن إيمانًا صحيحًا واتّقى الله تعالى حصل على ولاية الله، وأمّا من قصّر بذلك فهو معه نوع من الولاية، ولكنّها ولاية ناقصة، فهناك ولاية كاملة وولاية ناقصة، والمسلم يحرص على أن يكون من أولياء الله، ولا يقول: أولياء الله هم فقط أهل الدرجات الرفيعة، وأهل المنازل العالية، والذين عرفوا الله المعرفة التّامة، ونحو ذلك، وكذلك الذين يسمّونهم أقطابًا وأوتادًا وعُمّارًا أو عاملين أو واصلين، أو نحو ذلك، لا يجوز أن يعتقد فيهم هذا الاعتقاد، بل كلّ من آمن بالله إيمانًا صحيحًا واتّقى الله، فهو من أولياء الله.

والأسباب التي تقوى بها هذه الأسس والأصول موجودة بحمد الله، فالإيمان بالله هو أصل هذه الأصول وهذه الأركان وأساسها، وهو مبنيّ على السمع، وهو ما بلّغته الرسل ودعت إليه، ومبنيّ على العقل، فإذا سمع العاقل تلك الأدلّة، ورأى دلالتها، أيقن بأنّها حقّ، وأنّها دالّة على قدرة قادر، وكذلك إذا فكّر فيما ترمي إليه، فإنّ تلك الأدلّة فيها الالتفات أو الاستدلال بالآثار وبالآيات وبالبراهين. ولأجل ذلك يقيم الله الحجة بهذه الأدلّة على المشركين والجاحدين ونحوهم، فيذكر لهم الآيات الكونيّة، ويتلو عليهم الآيات القرآنية، وكلّها تكون سببًا لترسيخ تلك العقيدة التي هي الإيمان بالله؛ فإنّ العاقل إذا نظر فيما بين يديه، وإذا نظر في هذه الأفلاك، وفي هذه المخلوقات العلويّة والسفليّة، علم أنّها لم تخلق عبثًا، وأنّ الذي خلقها لا يتركها هملًا، وإذا نظر في نفسه وفي حالته وفي مبدئه ومنتهاه، علم أيضًا أنّه لم يخلق عبثًا، وأنّه لا بدّ أن يؤمر وينهى، ولا بدّ أن يكون له ربّ مالك متصرّف، وأنّ الذي خلقه استعبده، فرض عليه أن يعبده وأن يحمده، وأن يذكره وأن يشكره، وأنّه لا بدّ وأن يثيبه على العبادة، ويعاقبه على المعصية.

هكذا تدلّ المؤمن العاقل فطرته على هذه الأمور فكيف وقد أرشدته الأدلّة، وقد قامت عليه البراهين، وقد أرسلت الرسل وأنزلت الكتب تبيّن للناس هذه الأشياء التي هي أساس العقيدة، فلأجل ذلك لما آمن بذلك من آمن، وعرفوها حقّ المعرفة، ورسخت في قلوبهم، وثبت الإيمان في أفئدتهم وأشربته قلوبهم ونبتت عليه لحومهم، وصار مندمجًا في دمهم ولحمهم، أصبح هذا الإيمان غذاءهم، وأصبحت العقيدة هي التي نمّتهم، فكانت النتيجة أن صبروا على

العذاب، وصبروا على الأذى، ولم يرتدّوا، ولم يرجعوا صبروا على الأذى، كما فُعل بالصحابة رضي الله عنهم، وكما فُعل بالأئمّة؛ لأنّهم ذاقوا حلاوة الإيمان، وذاقوا طعم الأعمال الصالحة، فكان ذلك سببًا في أنّهم ثبتوا غاية الثبات، ولم يتزعزعوا.

أمّا من كان إيمانه على طرف، وكانت عبادته على شفا جُرُفٍ، فإنّه إذا امتُحن بأدنى شيء ارتدّ ورجع القهقرى، ولم يثبت كما ثبت أولئك الذين ثبتت العقيدة في قلوبهم، والنّاس يتفاوتون في مثل ذلك، فنحن نحثّ كل عاقل على أن يتتبّع الأدلّة التي تثبت الإيمان في قلبه.

وقد مرّت بنا أدلّة كثيرة، إذا تعقّلها العاقل عرف دلالتها، وهي موجودة في القرآن، والقرآن من أوّله إلى آخره مشتمل على هذه الأدلّة والبراهين، لو لم يكن إلا قوله تعالى في أول أمر أمره لعباده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]؛ ستّة براهين في هذه الآية، إذا تعقّلها وقرأ قول أهل العلم عنها عرف أنّ فيها ستّة براهين، هي حجةٌ ساطعة بوجوب عبادة الخالق بعد الإيمان به، وبعد وصفه بما هو أهله. وكذلك إذا استمرّ في قراءة كتاب الله يجد هذه الأدلّة واضحة كما في سورة النحل وسورة الزّمر وسورة الروم ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم ﴾ [الروم:٢٠]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [الروم:٢١]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم:٢٢]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ

وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم:٢٣]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾ [الروم:٢٤]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ ﴾ [الروم:٤٦]، ونحو ذلك، وكلها براهين نصبها لتدلّ على عظمته، وعلى كمال قدرته.

والأدلّة على بقيّة أركان الإيمان تؤخذ أيضًا من كلام الله سبحانه وتعالى، وبها يعتقد صدق رب العالمين، وصدق قدره، فيكون من آثار حدوث هذه الأدلّة في قلبه وصدقها الأعمال الصالحة التي هي ثمرة ذلك الإيمان ونتيجته، ويكون نتيجتها بإذن الله النصر والتمكين في الأرض، كما نصر الله تعالى المؤمنين حقًا، وكما ثبّتهم على الصراط المستقيم حتّى لقوا ربّهم، ولهم منه الجزاء الأوفى إن شاء الله، ونحن نرجو أن نحشر في زمرتهم إذا اعتقدنا مثل عقيدتهم، وعملنا مثل أعمالهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ الْكَامِلُونَ فَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢ ـ ٦٤].

والتَّقْوَى: هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وَهُمْ قِسْمَانِ: مُقْتَصِدُونَ، وَمُقَرَّبُونَ. فَالْمُقْتَصِدُونَ: الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلى الله بِالْفَرَائِضِ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ. وَالسَّابِقُونَ: الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلى الله بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ. كَمَا فِي «صَحِيحِ البخاري»[1] عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَقُولُ الله تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عليه، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ، حتى أُحِبَّه، فَإِذَا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، وَيَدَه التي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَه التي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّه، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّه، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَه الْمَوْتَ وَأَكْرَه مَسَاءَتَه».

---

(١) برقم (٦٥٠٢).

وَالْوَلِي: خِلَافُ الْعَدُوِّ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَلَاءِ، وَهُوَ الدُّنُوُّ وَالتَّقَرُّبُ، فَوَلِي الله: هُوَ مَنْ وَالَى الله بِمُوَافَقَتِهِ مَحْبُوبَاتِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إليه بِمَرْضَاتِهِ، وَهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ الله تعالى فِيهِمْ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]. قَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: لَمَّا نَزَلَتِ الآية، قَالَ النبي ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ عَمِلَ النَّاسُ بِهَذِهِ الآية لَكَفَتْهُمْ»[1]. فَالْمُتَّقُونَ يَجْعَلُ الله لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا ضَاقَ على النَّاسِ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، فَيَدْفَعُ الله عَنْهُمُ الْمَضَارَّ، وَيَجْلِبُ لَهُمُ الْمَنَافِعَ، وَيُعْطِيهِمُ الله أَشْيَاءَ يَطُولُ شَرْحُهَا، مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ.

---

قال الشيخ:

ولاية الله تعالى تحصل لأهل الإيمان: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢ ـ ٦٤]، وعرفنا أنّ أصل الإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه، كما ورد في الحديث، والإيمان بهذه الأشياء ينبني على قوّة الأدلّة التي نصبها الله تعالى لعباده ليستدلّوا بها، فإذا آمن بها العبد إيمانًا راسخًا ثابتًا، فلا بدّ أن تحصل منه الأعمال، ولأجل

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨)، والنسائي في الكبرى (١١٥٣٩)، وابن ماجه (٤٢٢٠)، والدارمي (٢/ ٣٠٣)، وابن حبان (١٥/ ٥٣)، والحاكم (٢/ ٤٩٣) وصححه، ووافقه الذهبي. وفي سنده انقطاع بين أبي السليل وأبي ذر ﷺ.

ذلك عطف الله على الإيمان التقوى، والإيمان تحصل به الأعمالُ الصالحةُ، والتقوى يتوقّى بها العبد المحرّمات، وإذا توقّى المحرّمات وعمل الصالحات رُجي أن يكون وليًا من أولياء الله.

ذكر الله تعالى الإيمان في هذه الآيات، وذكر فيها البرّ والتقوى، وتكرّرت الآيات التي فيها ذكر خصال الإيمان كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:١٥]، هذه ذكر فيها خصالًا من خصال الإيمان، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال: ٢ ـ ٤]، وذكَرَ اللَّهُ أيضًا التقوى في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، هذه هي العقيدة. ثمّ ذكر الخصال المتعددة، إلى أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، ختم الآية بالتقوى، فجعل هؤلاء هم أهل التقوى، فمن عمل بهذه الآيات أصبح من المؤمنين، وأصبح من المتقين، فحينئذ يصبح من أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وعرفنا أنّ أولياء الله ينقسمون قسمين: السابق بالخيرات والمقتصد، وذكر الله تعالى أقسام هذه الأمة الذين ورثوا الكتاب، وجعلهم ثلاثة أقسام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]. واختُلِف في الظالم لنفسه؛ هل هو من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة؟ ولكنّ ظاهر الآية أنّه من الذين ورثوا الكتاب، لكنّه من أهل النقص والتقصير، إيمانه ضعيف، ولأجل ذلك قصّر في الأعمال، ولأجل ذلك وصف بالظلم، ولأجل ذلك نقصت درجاته.

أمّا المقتصد فهو المتوسط، والسابقون بالخيرات: الذين يأتون بالواجبات، ويأتون بجميع المستحبّات، ويتركون المحرّمات، ويتركون جميع المكروهات، ويتخلّون عن بعض المباحات، ويقتصرون على ما هو ضروري منها في هذه الحياة. هؤلاء هم السابقون بالخيرات؛ لأنّ الأفعال في هذه الدنيا تنحصر في هذه الخمس: المحرّمات لا يكمل الإيمان إلا باجتنابها، والمكروهات: تنقّص الإيمان وتقلل أجره، والمستحبّات والواجبات كلّها من الخيرات، وكلّها من الحسنات، فهي تزيد في الأعمال الصالحة، والمباحات؛ الاستكثار منها ينقّص الحسنات فينبني على ذلك أنّه لا يكون سابقًا بالخيرات، إلا إذا ترك المحرّمات كلّها، وترك المكروهات كلّها، وفعل الواجبات كلّها وفعل المستحبّات كلّها، وترك جزءًا لا حاجة له به من المباحات.

وأما أهل الاقتصاد ـ المقتصدون ـ فهم الذين يتركون المحرّمات وبعض المكروهات، ويفعلون المباحات، ويأتون بالواجبات، ويتركون بعض المستحبّات،وهم المتوسّطون.

وأمّا الظالمون لأنفسهم؛ فهم الذين يفعلون المكروهات، ويتركون

المستحبّات، وقد يتركون بعض الواجبات، وقد يفعلون بعض المحرّمات، فلأجل ذلك وصفوا بالظلم، والكلّ منهم تحت مشيئة الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى وعدهم بالجنّة، وأخبر بدعائهم بقوله عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤]. هكذا ذكر عنهم أنّهم يدعون بهذا والحزن هو الخوف، وذلك في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

وعلى كل حال صفات أهل الإيمان موجودة في الآيات، والذي يجب أن يكون منهم، ويُحشر معهم، فعليه أن يطبّق هذه الآيات، ويعمل مثل أعمالهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَأَكْرَمُهُم عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُم وَأَتْبَعُهُمْ لِلقُرْآنِ.

---

قال الشارح:

أي: أَكْرَمُ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْأَطْوَعُ لله، وَالْأَتْبَعُ لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ الْأَتْقَى، وَالْأَتْقَى هُوَ الْأَكْرَمُ، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وفي السُّنَنِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِي على عَجَمِي، وَلَا لِعَجَمِي على عَرَبِي، وَلَا لِأَبْيَضَ على أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ على أَبْيَضَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»[(١)].

وَبِهَذَا الدَّلِيلِ يَظْهَرُ ضَعْفُ تَنَازُعِهِمْ فِي مسألة الْفَقِيرِ الصَّابِرِ وَالْغَنِي الشَّاكِرِ، وَتَرْجِيحِ أَحَدِهِمَا على الْآخَرِ، وَأَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ التَّفْضِيلَ لَا يَرْجِعُ إلى ذَاتِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إلى الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ وَالحَقَائِقِ، فَالمَسْأَلَة فَاسِدَة فِي نَفْسِهَا. فَإِنَّ التَّفْضِيلَ عِنْدَ الله بِالتَّقْوَى وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، لَا بِفَقْرٍ وَلَا غِنًى، وَلِهَذَا - واللَّهُ أَعْلَمُ - قَالَ عُمَرُ ﷺ: «الْغِنَى وَالْفَقْرُ مَطِيَّتَانِ، لَا أُبَالِي أَيَّهُمَا رَكِبْتُ»[(٢)]. وَالْفَقْرُ وَالْغِنَى ابْتِلَاءٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) من حديث أبي نضرة المنذر بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. ولم يرد في شيء من السنن، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٦٦)، وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ١٢٣).

مِنَ الله تعالى لِعَبْدِه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر:١٥] الآية، فَإِنِ اسْتَوَيا ـ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ وَالْغَنِي الشَّاكِرُ ـ في التَّقْوَى، اسْتَوَيَا في الدَّرَجَة، وَإِنْ فَضَلَ أَحَدُهُمَا فِيهَا، فَهُوَ الْأَفْضَلُ عِنْدَ الله، فَإِنَّ الْفَقْرَ وَالْغِنَى لَا يُوزَنَانِ، وَإِنَّمَا يُوزَنُ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَحَالَ المسألة مِنْ وَجْه آخَرَ: وَهُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا لَا بُدَّ له مِنْ صَبْرٍ وَشُكْرٍ. وَإِنَّمَا أَخَذَ النَّاسُ فَرْعًا مِنَ الصَّبْرِ، وَفَرْعًا مِنَ الشُّكْرِ، وَأَخَذُوا في التَّرْجِيحِ، فَجَرَّدُوا غَنِيًّا مُنْفِقًا مُتَصَدِّقًا بَاذِلًا مَالَه في وُجُوبِ الْقُرْبِ شَاكِرًا لله عليه، وَفَقِيرًا مُتَفَرِّغًا لِطَاعَة الله، وَلِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ، صَابِرًا على فَقْرِه. وَحِينَئِذٍ يُقَالُ: إِنَّ أَكْمَلَهُمَا أَطْوَعُهُمَا وَأَتْبَعُهُمَا، فَإِنْ تَسَاوَيَا، تَسَاوَتْ دَرَجَتُهُمَا، والله أَعْلَمُ. ولَوْ صَحَّ التَّجْرِيدُ، لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ، مُعَافًى شَاكِرٌ أَوْ مَرِيضٌ صَابِرٌ، وَمُطَاعٌ شَاكِرٌ أَوْ مُهَانٌ صَابِرٌ، وآمِنٌ شَاكِرٌ أَوْ خَائِفٌ صَابِرٌ؟ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

يتفاضل الناس عند الله سبحانه بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، لا بحسب ولا بنسب، ولا بأصل الآباء والأجداد، ولا بالرّتب، ولا بالأموال والمناصب، إنّما تفاضلهم عند الله تعالى بالأعمال الصالحة، فالله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، بعدما ذكر القبائل والشعوب

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. خلق الله تعالى الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ليعرفوا فقط أنّ فلانًا من قبيلة فلان، وهكذا، لا ليتفاخروا، وبعد أن ذكر الحكمة التي هي التعارف، ذكر أن هذا الفخر لا يجوز، وإنّما الفخر بالتقوى، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وقد وردت أدلّة كثيرة في النهي عن الافتخار بالأنساب والأسلاف، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ ـ عز وجل ـ قد أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ من تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إنما هُمْ فَحْمٌ من فَحْمِ جَهَنَّمَ، أو لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ على اللَّهِ من الْجِعْلَانِ التي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ**»[1]، فجعل الفخر بالتقوى، وجعل الإنسان إنّما يكرم ويرتفع منصبه عند الله تعالى إذا حقّق التقوى، وفي ذلك يقول بعضهم[2]:

**أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ العِزُّ وَالكَرَمُ ... وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَمُ**

**وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تُقَي نَقِيصَة ... إِذَا حَقَّقَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَم**

الفخر إنّما هو بطاعة الله والتقرّب إليه، وتمايز الناس وتفاوتهم إنما يكون بحسب الإيمان وبحسب آثار الإيمان، فأفضلهم أكملهم إيمانًا، وأكملهم أعمالًا،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٣، ٥٢٤)، وأبوداود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ذكر البيتين الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦/ ٢٥٩) ونسبهما بسنده إلى أبي العتاهية.

وأحسنهم أقوالًا وأفعالًا، وأبعدهم عن الآثام، وأبعدهم عن أنواع الإجرام، هذا هو أكملهم عند الله وأرقاهم منزلةً، فأما منصب وجاه ومال ومسكن ونسب، فكلّ ذلك لا يغني عن صاحبه، كما ذكر الله قول الكافر: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩]. هلك عني سلطاني، وحسبي ونسبي، وقبيلتي وأسرتي، وأنصاري وأعواني وإخواني، كلّهم تخلو عنّي.

فما على الإنسان إلا أن يحقق الإيمان ويحقق التقوى؛ ليصبح بذلك أفخر الناس وأشرفهم، فالفخر والشرف عند الله، ولا يهمه إن كان ضعيفًا مهينًا لا يؤبه له ولا ينظر إليه، يُدفع بالأبواب، ولا يُقدّم في المجالس، ولا يحترم ولا يكرّم، لا يضرّه ذلك إن كان عند الله عزيزًا وشريفًا وكريمًا.

وقد ذكر الشارح أيضًا مسألة اشتهرت في الكتب؛ وهي مسألة التفضيل بين الصابر والشاكر، والصبر يكون مع الفقر، والشكر يكون مع الغنى، وقد تكلّم فيها العلماء، فتكلّم فيها ابن القيّم رحمه الله، وأطال في ذلك في كتابه الذي أسماه: «عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، وهو كتاب عظيم نوصي باقتنائه وقراءته، تكلّم فيه على الصبر وأنواعه، وعلى الشكر وفوائده، وأطال في ذلك، وأطال أيضًا على مسألة التفاضل بين الغني الشاكر، والفقير الصابر؛ الفقير هو الذي زويت عنه الدنيا، ولم يؤت منها إلا قوتًا قدر ما يسدّ رمقه، والغني هو الذي فتحت عليه الدنيا، وأوتي من أنواع زهرتها، فالفقير صبر واحتسب، وقنع بما آتاه ربّه. والغني شكر فأعطى حقّ هذا المال، وصرفه في وجوه البرّ، وأنفقه في الخيرات وفي

المسرّات، وأعطى المستضعفين، وصرفه على الجهاد في سبيل الله، ونفع به المحتاجين ونحوهم، فأيهم أفضل؟ ذلك الفقير الذي اقتصر على نفسه وصبر واحتسب، أو ذلك الغني الذي أنفق في وجوه الخير؟ اختلف العلماء في ذلك:

فإذا نظرنا في الأدلّة التي يستدلّ بها من حيث النقل من الآيات والأحايث. وجدناها كلّها تفضّل الفقير، وتحثّ على التقلّل من طلب الدنيا، وتحثّ على الزهد فيها، وتضرب لها الأمثال، وقد أورد في ذلك ابن القيّم جملة كبيرة من الأمثال، مع أنّه ذكر أنه اقتصر على البعض ولم يستوفها. وإلا لو استوفاها لزادت عمّا ذكر أضعافًا كثيرة.

وأمّا الأدلّة العقليّة، فإنّها تفضّل الشاكر الذي رزقه الله مالًا، ومعلوم أنّ المال لا يحصل إلاّ بتسبّب وتعب وكدح وطلب، وأنّ هذا الطلب يحتاج إلى وقت وزمان، فلأجل ذلك الفقير متفرّغ للعبادة، منقطع لها، وأمّا الغني فلا بدّ أن يكون له أوقات يقضيها في طلب المال وفي تنميته، وفي تصريفه، وفي حساباته، ونحو ذلك، فيكون جلّ وقته، أو أكثره فيما يتعلّق بحياته الدنيا، ويكون وقته الذي يقضيه في العبادة أقلّ بأضعاف من الوقت الذي يقضيه الفقراء في العبادات ونحوها، فلأجل ذلك مال بعضهم إلى تفضيل الفقير.

وقد مرّ معنا القول الذي يختاره الشارح وهو: أفضلهما أكثرهما تقوى، أكثرهما عبادة، أكثرهما أعمالًا صالحة، فإذا وفّق الله الأغنياء وأكثروا من الصالحات، وصار لا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله؛ فإنّهم يفضلون

غيرهم، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٧]، فإذًا لا بدّ أن يكون لهم تجارة، ويكون لهم بيع، ويكون لهم تنمية أموال، ولكن إذا جاء وقت العبادة تخلّوا عن الدنيا وعن متاعها كلّه، وتفرّغوا للعبادة، إذا جاءت أوقات المنافسات في الخيرات سارعوا إليها.

فإذًا هؤلاء قد جمعوا بين الأمرين، جمعوا بين أنّهم كانوا أهل تقوى وأهل إيمان وأهل أعمال صالحة وخيرات كثيرة، وبين أنّ لهم أعمالًا متعدّية؛ بحيث إنّهم وصلوا الأرحام، وأنفقوا في سبيل الله، وجهّزوا الغزاة مثلًا، وأقاموا المشروعات الخيريّة، ونشروا العلم، وبنوا بيوت الله، وأقاموا الأماكن التي يُتَعَلَّمُ فيها ويُقرأ، فكانوا بذلك نافعين لأنفسهم ونافعين لغيرهم، فكانوا بذلك أفضل.

وممّا يدلّ على ذلك ما ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة ﷺ أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ العلى وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ، فقال: «**وما ذَاكَ؟**»، قالوا: يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ ولا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ ولا نُعْتِقُ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شيئًا تُدْرِكُونَ بِهِ من سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ من بَعْدَكُمْ، ولا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إلا من صَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعْتُمْ؟**»، قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «**تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كل صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**»، فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إلى رسول اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: سمع إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مثله، فقال

رسول اللَّـهِ ﷺ: «**ذلك فَضْلُ اللَّـهِ يؤتيه من يَشَاءُ**»[1]، فَغُبِطَ الأغنياء الذين ما شغلهم مالُهم عن عبادتهم، ولا عن أذكارهم، ولا عن أعمالهم الصالحة.

وبكل حال؛ فالشكر والصبر كلاهما من الأعمال القلبيّة، ترى آثارها على الأعمال البدنيّة، والأعمال الصالحة زيادة على ذلك، فالتقوى والإيمان والصلاة، وكثرة الخيرات وكثرة الحسنات ناتجة عمّا في القلب. أمّا الشكر والصبر فهما من الصفات الظاهرة التي يمكن أن يحكم بتساويهما، وذكر الشارح أيضًا أن ما يقال في الشاكر والصابر يقال في أمثالهما؛ مثل: المبتلى والمعافى، فإن الإنسان المبتلى إذا صبر واحتسب، والآخر إذا عوفي فشكر؛ فهما سواء.

وقد ذكر الله تعالى أنّه أعطى من قبلنا من الأنبياء من الدنيا، ومع ذلك لم ينقصهم ذلك من مرتبتهم عنده، كما أعطى سليمان ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٦ ـ ٣٩]. لكن رتبة نبيّنا ﷺ وصبره على ما أُوتي وتقلّله ودعاؤه بقوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»[2]، أفضل من رتبة سليمان عليه السلام، مع أنّ سليمان ـ عليه السلام ـ كان شاكرًا لربّه، كما حكى الله عنه لـمَّا أُتي بعرش بلقيس: ﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة ﷺ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس


قال الطحاوي:

والإيمانُ: هُوَ الإيمانُ باللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، وحُلْوِهِ ومُرِّهِ مِنَ اللَّهِ تَعالى.

---

قال الشارح:

تَقَدَّمَ أَنَّ هذه الخِصَالَ هي أُصُولُ الدِّينِ، وَبِهَا أَجَابَ النبي ﷺ في حَدِيثِ جِبْرِيلَ المَشْهُورِ المُتَّفَقِ على صِحَّتِه، حِينَ جَاءَ إلى النبي ﷺ على صُورَةِ رَجُلٍ أَعْرَابِي، وَسَأَلَه عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصلاة، وَتُؤْتِي الزَّكَاة، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إليه سَبِيلًا»، وَسَأَلَه عَنِ الْإِيمَانِ؟ فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بالله، وَمَلَائِكَتِه، وَكُتُبِه، وَرُسُلِه، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِه وَشَرِّه»، وَسَأَلَه عَنِ الْإِحْسَانِ؟ فَقَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاه، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه فإنه يَرَاكَ»[1]. وَقَدْ ثَبَتَ كَذَلِكَ في «الصَّحِيحِ»[2] عنه ﷺ: أنه كَانَ يَقْرَأُ في رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ تَارَةً بِسُورَتَيِ الْإِخْلَاصِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]. وَتَارَةً بِآيَتَيِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ: التي في سورة الْبَقَرَة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، الآية [البقرة:١٣٦]، والتي في آلِ عِمْرَانَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

(٢) انظر: صحيح مسلم (٧٢٦، ٧٢٧).

﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، الآية [آل عمران: ٦٤].

وَفَسَّرَ ﷺ الْإِيمَانَ فِي حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ، الْمُتَّفَقِ على صِحَّتِه، حَيْثُ قَالَ لَهُمْ: «آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله وَحْدَه؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدَه لَا شَرِيكَ له، وَإِقَامُ الصلاة، وَإِيتَاءُ الزَّكَاة، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ»[1].

وَمَعْلُومٌ أنه لَمْ يَرِدْ أَنَّ هذه الْأَعْمَالَ تَكُونُ إِيمَانًا بالله بِدُونِ إِيمَانِ الْقَلْبِ، لِمَا قَدْ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أنه لَا بُدَّ مِنْ إِيمَانِ الْقَلْبِ، فَعُلِمَ أَنَّ هذه مَعَ إِيمَانِ الْقَلْبِ هُوَ الْإِيمَانُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ على هَذَا.

---

قال الشيخ:

ذكر الإمام الطحاوي ـ رحمه الله ـ خصال الإيمان أو أركان الإيمان، وقد تقدّم بعضها، وتقدّم أيضًا اختياره أنّ الأعمال ليست من مسمّى الإيمان، وأنّ الإيمان هو القول باللّسان والاعتقاد بالجنان، أو هو التصديق الجازم دون تردّد، وتقدّم أنّ القول الصحيح: كون الأعمال من مسمّى الإيمان؛ فالصلاة من الإيمان، والصدقات من الإيمان، والصوم والحجّ من الإيمان، و الجهاد ونحوه من الإيمان، وكذلك البرّ والصلة، ونحوها من خصال الإيمان، وكذلك ترك المحرّمات خوفًا من الله تعالى من الإيمان، أو من آثار الإيمان، ولكن أصول الإيمان هذه التي هي

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٣).

أركان الإيمان الستّة تُعدّ هي العقيدة والأسس والأصول، فإذا ثبتت ورسخت في العقل والقلب، فإنّ ثمرتها الأعمال الصالحة، كما ذكرنا في أوّل الكلام.

فثمرة الإيمان بالله سبحانه وتعالى في قلب العبد؛ أن يعبده وأن يخافه ويرجوه، وأن يعتمد عليه، ويقبل إليه بقلبه وقالبه، ويتوب وينيب إليه، وأن يصدّق بقدره، وأن يستعدّ للقائه. والأدلّة على الإيمان بالله تعالى سمعيّة وعقليّة، ومن حقّق الإيمان بالله تعالى واعتقد بأنّه هو الإله الحقّ وهو الرَّب، فإنّه بعد ذلك يصدّق بوجوب عبادته، ويصدّق بالإيمان بما أخبر به، ويصدّق بالبعث بعد الموت، وبالجزاء في الآخرة، ويصدّق بالرسل الذين بلّغوا رسالات ربّهم، ويصدّق بالكتب التي أنزلها الله وضمّنها شرائعه، ويصدّق بالقضاء والقدر، وأنّه من تمام قدرة الله على العباد وعلى كلّ شيء، ويصدّق بالأمور الغيبيّة التي أخبر الله تعالى بها، ولو لم يرها؛ لأنّه أخبر بها الصادق المصدوق، أخبر بها الله تعالى، وأخبرت بها رسله. ومن صدّق تصديقًا جازمًا بهذه الغيبيّات فسيعمل، وستظهر آثار هذا التصديق على جوارحه؛ على لسانه وعلى سمعه وعلى بصره، وعلى يديه وعلى رجليه، وعلى حاله ومآله، وعلى بدنه. يظهر أثر ذلك جليًا لا خفاء فيه.

النبيّ ﷺ فسّر الإيمان لجبريل - عليه السلام - بالأعمال الباطنة، والإسلام بالأعمال الظاهرة، وقد تقدّم لنا الكلام على الإسلام والإيمان والإحسان، وتبيّن أنّها مراتب، وأنّ أعلاها مرتبة الإحسان، ثم بعدها مرتبة الإيمان، ثم أوسعها مرتبة الإسلام، وتقدّم أمثلة على ذلك.

نحن نعلم أنّ كلّ من دخل الإسلام وعمل بالأعمال الظاهرة عومل معاملة

المسلمين، ولكن قد يكون إيمانه ضعيفًا لا يرتقي به إلى المرتبة الثانية، وكلّ من وصل إلى الإيمان وآمن بالأمور الغيبيّة، وعمل بموجبها، فقد يكون تصديقه متوسطًا لا يصل به إلى مرتبة الإحسان.

وقد عرفنا أنّ النبيّ ﷺ فسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة بحديث جبريل عليه السلام، وجعل الأعمال الظاهرة أيضًا هي الإيمان في حديث وفد عبد القيس، فقال لهم: «أَتَدْرُونَ ما الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟»، قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا من الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ»[1]، فجعل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من الإيمان، وكذلك أداء الخمس من الغنائم ألحقه بالزكاة، فجعل ذلك من الإيمان. وبوّب البخاري على هذه الخمس وجعلها من الإيمان، فيقول مثلًا: باب أداء الزكاة من الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، يعني: من الأفعال التي فعلها يكون متمّمًا للإيمان.

وقد ذكر الشارح الحديث الذي فيه شعب الإيمان: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ»[2]، فجعل هذه الشعب كلّها من خصال الإيمان، أي: من أجزائه أو من ثمراته، ولا شكّ أنّ المؤمنين يتفاوتون؛ ففي بعض

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٣).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٣٩).

الأحاديث: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[1]، فجعل حسن الخلق ـ مع أنّه جبلة وطبيعة ـ من الإيمان، ويثاب العبد عليه، وجعله سببًا لكمال الإيمان وقوّته وتمكّنه.

وبكلّ حال؛ ما على المسلم إلاّ أن يحرص على تحقيق الإسلام والإيمان والعمل به، ثم بعد ذلك يتفقّد أعماله: هل عمل بالأعمال التي يتصف بها المسلمون والمؤمنون؟ فإذا وجد في نفسه نقصًا حرص على تتميم ذلك النقص ليحوز المرتبة العالية.

وأمّا قراءة النبيّ في سنّة الفجر، فذكر الحكمة من قراءته لسورتي الإخلاص: وذلك أنّ سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فيها توحيد الذات والصفات، وأنّ سورة الكافرون فيها توحيد العبادة، توحيد الله تعالى بأفعاله متضمّنة في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وتوحيد الله تعالى بأفعالنا، بأن تكون أفعالنا لله وحده؛ طاعتنا وتوكّلنا وخوفنا ورجاؤنا متضمّنة في سورة الكافرون. إذًا كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين في سنّة الفجر التي يستقبل بها النهار؛ كأنّه يعاهد ربّه: إنّي في أول نهاري هذا أعبدك يا ربّ، وأخصّك بالعبادة، وأعتقد بوحدانيّتك، وأنزّهك عن صفات النقص.

وأمّا قراءته للآيتين في سورة البقرة وآل عمران فتلك الآيتان تشتملان على

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٨٤).

خصال الإيمان وخصال الإسلام. الإيمان ذكر في آية البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ فجمعت هذه الآية خصال الإيمان، يعني آمنا بالرسل، وآمنا بما أنزل إليهم، ولكنّ الإيمان يستدعي العمل، ولذلك ختمها بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. وأمّا آية آل عمران ففي التوحيد العملي: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ فختمها بالإسلام، وأكّد فيها التوحيد، فكانّ الإنسان إذا قرأهما في أوّل النهار يعاهد ربّه على أنّه مؤمن وأنّه موحّد.

وقد تكرر معنا أنّ عقيدة المسلم تنبني على أركان الإيمان أو أصول الإيمان التي بيّنها النبيّ ﷺ في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ المشهور في قوله لمّا سئل عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بالله، وَمَلَائِكَتِه، وَكُتُبِه، وَرُسُلِه، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِه وَشَرِّه**»[1]، وما يتفرّع عن هذه الأركان الستّة هي معتقد المسلمين، اعتقادهم بالأمور كلّها التي هي الأمور الغيبيّة، ودليلهم فيها هو الرسالات التي بلّغتها إليهم رسل الله، فلمّا عرفوا صدق الرسل وعرفوا ما جاؤوا به، وصحّته، وعرفوا

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

أدلّة رسالتهم والمعجزات التي أيّدهم الله بها، آمنوا برسل الله، ولما آمنوا برسل الله أوّلهم وآخرهم آمنوا برسالاتهم التي حملوها، والتي بلّغوها إلى أممهم، وكان من جملة تلك الرسالات الإيمان بالغيب، حيث إنّ الرسل صادقون، ويلزم تصديقهم فيما بلّغوه، وكان من جملة ما بلّغوه أن أخبروا الناس بأنّهم عبيد الله، وأنّ الله هو ربّهم، وأخبروا الناس بأنّهم متعبّدون؛ يعني: مأمورون ومنهيّون، وأخبروا بأنّ الخلق مثابون أو معاقبون، وأنّ هناك دارًا أخرى غير هذه الدار، يلاقون فيها جزاء أعمالهم، يلاقون فيها الثواب أو العقاب على ما قدّموه في هذه الحياة الدنيا، صدّق المؤمنون بذلك كلّه، ولمّا صدّقوا به ظهرت عليهم آثاره، فعند ذلك استعدّوا لذلك اليوم وللقاء الله عزّ وجلّ، وعملوا الأعمال الصالحة التي يعرفون أنّها سبيل النجاة في الآخرة، ويحذرون الأعمال التي توبقهم، والتي تكون سببًا في العذاب، فكان هؤلاء هم أهل العقل عن الله، فالمؤمنون هم أهل العقول، هم أهل الذكاء والفطنة، هم الذين لم تكثر أغراضهم عند الحياة الدنيا، ولا عند شهواتها وملذّاتها، ولم يقصروا أفكارهم على شهوات البطون والفروج، ولا على ما تميل إليه النفوس، بل سمت هممهم، وعلت عزائمهم، وتنافسوا في الأعمال الخيريّة، واستعدّوا للدار الآخرة، وجعلوا الدار الدنيا دار ممرّ، ليست دارَ مقرّ، وعبروها ولم يعمروها، وقدّموا عمارتهم ومنافساتهم لدارهم التي هي دار البقاء. هذا إيمانهم باليوم الآخر.

وكان من جملة ما أخبرتهم به الرسل: الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه، حلوه ومرّه كلّه من الله، وقد تكرّر معنا الإيمان بالقدر، وأنه يدخل فيه الإيمان

بعلم الله، بحيث يعتقد المسلم أنّ الله تعالى عالم بالأشياء قبل أن تقع، وعالم بما يكون في الوجود، وبما كان وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا الإيمان به دليلهم فيه: أنّ الربّ سبحانه وتعالى هو الذي يحدث ما يحدث في هذا الكون، فلا يحدثه إلا وقد علمه؛ قد علم وقته وزمانه الذي يحصل فيه، وعلم كيفيّة حصوله؛ فعلم عدد الرمل والتراب، وأبصر فلم يستر بصره حجاب، وسمع جهر القول وخفي الخطاب، وعلم ما سوف يحدث، علم أعمال الخلق وعلم عددهم، وعلم من يولد ومن لا يولد له، وعلم عمل كل مولود، وما يختم له قبل أن يولد، كل ذلك عالم به سبحانه وتعالى.

الفائدة من هذا هو اعتقادك بأنّ الله بكلّ شيء عليم، فهو يعلم السرّ والنّجوى، وما يدور في الصدور، ويعلم ما تكنّه الأنفس، ويعلم ما توسوس به الصدور، فإذا كان عالمًا بذلك فإنه يحاسب عليه إذا شاء، يقول الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٤]، فيحمل الإنسان على أن لا يحدّث نفسه إلا بالخير، وأن لا يهمّ إلا بالطاعة، ولا يتكلّم إلاّ بما فيه مصلحة، وأن يبتعد عن العقائد الباطلة وعن الوساوس والأوهام، وعن الهمم السيّئة؛ فبذلك تكون المعرفة بعلم الله تعالى.

كذلك يذكر الإيمان بالقدر، وأنّ الله سبحانه قادر، لا يُعجزه شيء، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولا يخرج مخلوق عن قدرته، ولا يعجزه أي مخلوق، وهو يعاقب من يشاء من دون أن يردّه أحد، وينتقم ممّن يشاء من دون أن يحتجز عنه

محتجز، وينتصر ممّن عصى وينتقم منه، وهو عزيز ذو انتقام، ويُحِلُّ بمن يشاء المثلات، وينزل بهم العقوبات، ويرسل عليهم النقمات إذا شاء، وذلك إذا خرجوا عن طاعته، ويوسّع على من يشاء ويضيّق على من يشاء، فإذا اعتقد المسلم ذلك، اعتقد بأنّ التصرّف الكونيّ له وحده.

كذلك يؤمن بما أصابه وما وقع له، ويعلم أنّ ما وقع له لم يكن ليخطئه؛ فإذا أصابك شيء، فاعلم أنّه لا مفرّ منه ولا محيد عنه، ولا تقل: يا ليتني تقدّمت أو تأخرت حتى أسلم من هذه المصيبة، بل اعلم أنّه لا مفرّ منها، وإن كان الربّ سبحانه قد أمرك بأخذ الحذر، فإذا علمت أن القدر من قدرة الله عزّ وجل، فعليك أن تعلم بأنَّ قدرة الله هي التي لا يخرج عنها شيء.

يدخل فيها الطاعات والمعاصي، فهو سبحانه الذي قدّر الطاعة وقدر المعاصي، كما يشاء، فلو شاء لهدى الناس أجمعين، ولكنّه سبحانه أمر ونهى. فالذين علم الله فيهم الخير امتثلوا ما أمرهم الله به، والذين علم فيهم السوء تركوا ما أُمِرُوا به، فهؤلاء الممتثلون لهم الثواب، وإن كان الله هو الذي وفقهم برحمته وفضله، وهؤلاء المخذولون لهم العقاب، وإن كان هو الذي خذلهم بحكمته وعدله.

كذلك ينبغي أيضًا أن نعرف أنّ الخير كلَّه من الله، ولا يمكن أن ينسب إليه الشرّ بوجه من الوجوه. نقول في تلبية الحج: لبيك وسعديك، والخير كلّه بيديك، والشرّ ليس إليك، نحن عبادك وافدون إليك، راغبون فيما بين يديك.

إذًا: الشرّ ليس إلى الله. معلوم أنّ الله تعالى هو الذي قدّر الخير والشرّ، لكنّ

صدوره من الله تعالى ليس شرًا، بل هو خير محض، ولكن إنّما يكون شرًا بنسبته إلى العبد، فإذا قدّر الله على هذا الكفر، وعلى هذا القتل، وعلى هذا الزنى، وعلى هذا السُّكْر، وعلى هذا السرقة، ونحو ذلك، فهي شرّ بالنسبة إلى العبد، وخير بالنسبة إلى تقدير الله تعالى، فإنّه هو الذي قدّرها، ولكنّه قدّرها لحكمة، حتى يُعلَم بأن الله على كلّ شيء قدير، وأنّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وتفصيل هذا قد مضى.

قال الشارح:

وَالْكِتَابُ والسُّنَّة مَمْلُوءَانِ بِمَا يَدُلُّ على أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَثْبُتُ له حُكْمُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ مَعَ التَّصْدِيقِ، وَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ معنى الصَّلاة وَالزَّكَاة، فَإِنَّ تِلْكَ إِنَّمَا فَسَّرَتْهَا السُّنَّة، وَالْإِيمَانُ بَيَّنَ معناه الْكِتَابُ والسُّنَّة. فَمِنَ الْكِتَابِ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، الآية [الأنفال:٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾، الآية [الحجرات:١٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فنَفْي الْإِيمَانِ حتى تُوجَدَ هذه الْغَايَة: دَلَّ على أَنَّ هذه الْغَايَة فَرْضٌ على النَّاسِ، فَمَنْ تَرَكَهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ، لَمْ يَكُنْ قَدْ أَتَى بِالْإِيمَانِ الْوَاجِبِ، الذي وُعِدَ أَهْلُه بِدُخُولِ الجَنَّة بِلَا عَذَابٍ. وَلَا يُقَالُ إِنَّ بَيْنَ تَفْسِيرِ النبي ﷺ الْإِيمَانَ في حَدِيثِ جبْرائيلَ وَتَفْسِيرِه إِيَّاه في حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ مُعَارَضَة؛ لأنه فَسَّرَ الْإِيمَانِ في حَدِيثِ جبْرائيلَ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ، فَكَانَ المعنى أنه الْإِيمَانُ بالله وَمَلَائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ الْأَعْمَالِ التي ذَكَرَهَا في تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ، كَمَا أَنَّ الْإِحْسَانَ مُتَضَمِّنٌ لِلْإِيمَانِ الذي قَدَّمَ تَفْسِيرَه قَبْلَ ذكره. بِخِلَافِ حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ؛ لأنه فَسَّرَه ابْتِدَاءً، لَمْ يَتَقَدَّمْ قبله تَفْسِيرُ الْإِسْلَامِ. وَلَكِنَّ هَذَا الجَوَابَ لَا يَتَأَتَّى على مَا ذكره الشَّيْخُ ـ رحمه الله ـ مِنْ تَفْسِيرِ الْإِيمَانِ، فَحَدِيثُ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ مُشْكِلٌ عليه.

وَمِمَّا يُسْأَلُ عنه: أنه إِذَا كَانَ مَا أَوْجَبَه الله مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة أَكْثَرَ مِنَ الْخِصَالِ

الخَمْسِ التي أَجَابَ بِهَا النبي ﷺ في حَدِيثِ جبْرائيلَ المَذْكُورِ، فَلِمَ قَالَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ هذه الخِصَالُ الخَمْسُ؟ وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُ النَّاسِ بِأَنَّ هذه أَظْهَرُ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَأَعْظَمُهَا، وَبِقِيَامِه بِهَا يَتِمُّ اسْتِسْلَامُه، وَتَرْكُه لَهَا يُشْعِرُ بِانْحِلَالِ قَيْدِ انْقِيَادِه.

---

قال الشيخ:

نعلم أنّ الإسلام فسّر بالأعمال الظاهرة والأركان الخمسة، والإيمان فسّر بالأركان الستّة التي هي العقائد. وعلى هذا فإذا اجتمع الإيمان والإسلام فسّر الإيمان بالأعمال العقديّة الغيبيّة، وفسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة التي هي أعمال بارزة وسبب التسمية أن الإسلام يستدعي الإذعان والاستسلام، فالذي يقيم الصلاة مذعن ظاهرًا، والذي يؤدي الحج مذعن ظاهرًا، والذي يزكّي ويصوم ويتشهّد مذعن مطاوع. وأما الأمور العقديّة القلبيّة فهذه خفيّة تستدعي أدلّة قويّة، ثمّ بعد ذلك ترتكز في النفس، وتكون آثارها الأعمال الصالحة.

وقد مرّ بنا أيضًا أنّ النبيّ ﷺ لَـمَّا جاء وفد عبد القيس قال لهم: «**آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، أَتَدْرُونَ ما الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**»، قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا من الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ**»[1]، فأمرهم بأركان الإسلام، وفسّر بها الإيمان؛ وذلك لأنه لم يفسّر لهم الإسلام، فجعل الإيمان هو الأعمال الظاهرة.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٣).

فعلى هذا: إذا اقتصر على الإيمان، فإنه يدخل فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمع الإيمان والإسلام فسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالباطنة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان، وأدخل فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فجعل تحكيم الشريعة وتحكيم النبيّ ﷺ هي العلامة الواضحة للإيمان، فمن لم يُحكّم الرسول لم يسمَّ مؤمنًا عملًا بهذه الآية، فهذا دليل على أنّ الأعمال تدخل في مسمّى الإيمان، إذا اقتصر على الإيمان دخلت فيه الأعمال الظاهرة والباطنة؛ لأنّها نتيجته وثمرته، أما الإسلام فيفسَّر بالأعمال الظاهرة؛ لأنّها علاماته. ومعلوم أنّ الأعمال الظاهرة ليست هي الخمسة فقط، ولكنّ هذه الخمسة هي دعائمه وأسسه وأصوله، وإذا حافظ عليها حافظ على غيرها، ولكن هناك خصال أخرى تُعدّ مكمّلاتٍ، فإذا أتى بهذه الأركان احتاج إلى المكمّلات.

وقد ذكرنا أنّهم ضربوا مثل الإسلام بالبناء؛ لقوله ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ على خَمْسٍ**»[1]، فمثّله بالبناء، ومن المعلوم أنّ البناء لابدّ أن يكون له زوايا، فجعل الأركان هي هذه الزوايا التي يتكوّن منها، وهي الحيطان الأربعة المتقابلة، فهذه تعد أركانه، لا يتمّ إلا بها، بالإضافة إلى ذلك يحتاج إلى تكملة، بقية خصاله التي هي إما أفعال أو تروك، وهي من جملة المكمّلات، فكما أنّ البناء إذا قامت حيطانه

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يكون بحاجة إلى مكمّلات هي الأبواب والنوافذ والسُرج، وإلى تهوية وإلى فرش ومرافق ومتكّئات، وما أشبه ذلك، فالإسلام بحاجة إلى الجهاد، وإلى الأعمال الصالحة، وإلى ترك المنكرات كلّها من قتل وزنى وسرقة وفساد، وكذلك ترك الشرك، ويحتاج إلى بر الوالدين، وإحسان الجوار، وردّ السلام، وصلة الأرحام، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، واتّباع الجنائز، وما أشبه ذلك، ولا شكّ أنّ هذه من خصال الإيمان، فالذي يأتي بأركان الإسلام الخمسة يطلب منه تكميل ذلك بما تستدعي هذه الخمسة وغيرها، ويقال له: ائتِ بالبقيّة حتّى تكون بذلك قد كمّلت الإسلام.

قال الشارح:

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ النبي ﷺ ذَكَرَ الدِّينَ الذي هُوَ اسْتِسْلَامُ الْعَبْدِ لِرَبِّه مُطْلَقًا، الذي يَجِبُ لله عِبَادَة مَحْضَة على الْأَعْيَانِ، فَيَجِبُ على كُلِّ مَنْ كَانَ قَادِرًا عليه، لِيَعْبُدَ الله بِهَا مُخْلِصًا له الدِّينَ، وهذه هي الخَمْسُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَجِبُ بِأَسْبَابٍ وَمَصَالِحَ، فَلَا يَعْلَمُ وُجُوبَهَا جَمِيعُ النَّاسِ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فَرْضًا على الْكِفَايَة، كَالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ إِمَارَة، وَحُكْمٍ، وَفُتْيَا، وَإِقْرَاءٍ، وَتَحْدِيثٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَإِمَّا أَنْ يَجِبَ بِسَبَبِ حَقِّ الْآدَمِيِّينَ، فَيَخْتَصُّ به مَنْ وَجَبَ له وعليه، وَقَدْ يَسْقُطُ بِإِسْقَاطِه، مِنْ قَضَاءِ الدُّيُونِ، وَرَدِّ الْأَمَانَاتِ وَالْغُصُوبِ، وَالْإِنْصَافِ مِنَ الْمَظَالِمِ، مِنَ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ، وَحُقُوقِ الزَّوْجَة وَالْأَوْلَادِ، وَصِلَة الْأَرْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ مِنْ ذَلِكَ على زَيْدٍ غَيْرُ الْوَاجِبِ على عَمْرٍو. بِخِلَافِ صَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَالزَّكَاة، فَإِنَّ الزَّكَاة وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا مَالِيًّا فَإِنَّهَا وَاجِبَة لله، وَالْأَصْنَافُ الثَّمَانِيَة مَصَارِفُهَا، وَلِهَذَا وَجَبَتْ فِيهَا النِّيَّة، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَفْعَلَهَا الْغَيْرُ عنه بِلَا إِذْنِه، وَلَمْ تُطْلَبْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَحُقُوقُ الْعِبَادِ لَا يُشْتَرَطُ لَهَا النِّيَّة، وَلَوْ أَدَّاهَا غيره عنه بِغَيْرِ إِذْنِه بَرِئَتْ ذِمَّتُه، وَيُطَالَبُ بِهَا الْكُفَّارُ. وَمَا يَجِبُ حَقًّا لله تعالى، كَالْكَفَّارَاتِ، هُوَ بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ، وَفِيهَا معنى الْعُقُوبَة، وَلِهَذَا كَانَ التَّكْلِيفُ شَرْطًا فِي الزَّكَاة، فَلَا تَجِبُ على الصَّغِيرِ وَالْمَجْنُونِ عِنْدَ أبي حنيفة وَأَصْحَابِه رَحِمَهُمُ الله تعالى، لما عُرِفَ فِي مَوْضِعِه.

قالَ الشيخ:

لماذا اقتصر في الإسلام على الأركان الخمسة، ولم يذكر بقيّة الخصال، لم يقل الإسلام أن تجاهد في سبيل الله، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأن تصل رحمك، وأن تبرّ والديك، وأن تحسن إلى جيرانك، وأن تتبّع الجنائز، ونحو ذلك.

لماذا لم يذكر هذه الخصال في الإسلام؟ ولماذا لم يذكر المتروكات؟ فلم يقل: إن من الإسلام أن تترك الزنى وأن تترك الشرك، وأن تترك السرقة، وأن تترك القتل، وأن تترك الغيبة والنميمة، وأن تترك السباب والفحشاء... وما أشبه ذلك، لم يذكر هذه الأشياء في الإسلام؟

نقول: هذه من خصال الإسلام، سواء أكانت من الأفعال أم كانت من التروك، ولكن يجاب عنها بما أجاب به الشارح، فيقال: إنّ الأركان الخمسة تستدعي غيرها. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا حافظ العبد عليها، فإنّها تحبب إليه الأعمال الخيريّة، فتراه يحبّ النفقة في سبيل الله والجهاد، ويحب الخير ويحب أهل الخير، ويتعلّم العلم ويعلمه وتراه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبرّ أبويه، ويسلّم على الناس، وتراه يصل الرحم، ويحسن الجوار، وتراه أيضًا يبتعد عن المنكرات؛ لأنّ صلاته تنهاه عن ذلك، فتراه يحفظ لسانه، ويحفظ عينيه عن النظر الحرام، ويحفظ أذنيه عن سماع الملاهي والغناء وما أشبه، ويحفظ يديه عن البطش بالآخرين، ويحفظ قدميه عن المشي بهما إلى ما حرّم الله، لماذا؟ لأنّ صلاته أمرته بالخير، وأبعدته عن الشرّ، فهذه خصلة أو سبب من الأسباب التي جعلته يحب الخير ويكثر منه.

وكذلك جواب ثانٍ: أنّ هذه الخصال قد لا تجب على كل فرد بخلاف الصلاة، فهي واجبة على كلّ فرد، والزّكاة واجبة على كلّ من عنده مال، والصوم على كلّ فرد، والحجُّ على كل قادرٍ عليه، أما الجهاد فإنّه يجب على القادر، وهو فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقي، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين، فمثلًا إفشاء السلام فرض كفاية؛ إذا سلّم واحد من العشرة كفى، وإن ردّ واحد من العشرة كفى، وكذلك الخصال الخيريّة لا تجب على كلّ أحد، فقد لا يجب على كلّ أحد أن يبرّ أو يصل، وليس كلّ أحد لديه أقارب يحتاج إلى صلتهم، فوجوبها إنما هو على الشخص الذي اتّصف بتلك الصفات.

وهناك جواب ثالث: مثلًا الكفّارات التي قد تصبح واجبةً، لا تجب على كلّ أحد بإيجاب الشرع، وإنّما بإيجاب نفسه؛ كالنذور التي يلزمها نفسه، هو الذي أوجبها، فإذا أوجب على نفسه أضحية، أو إذا أوجب على نفسه صدقة، فيُعدّ هذا ممّا أوجبه على نفسه، ولم يوجبه عليه الشرع، إنّما الشرع سنّ له الأضحية مثلًا، وسنّ له الصدقة، وسنّ له أنواع البرّ المتعدّية، أمّا كفارات النذور والأيمان؛ فهذه أيضًا لا تجب على كلّ فرد، بل تجب على من أوجبها على نفسه، أو أتى بالسبب الذي يوجبها، فالناذر هو الذي أوجب على نفسه كفارة إذا لم يفِ بنذره، والحالف هو الذي أوجب على نفسه كفارة عن الحلف، وهكذا كفارة القتل، وكفّارة الوطء في نهار رمضان. فالإنسان هو الذي أوجبها على نفسه.

وعلى كلّ حال، فإن الأشياء التي يكلّف بها الإنسان وتكون من الخصال

الخيريّة التي ليست واجبة، ولكنّها مشروعة، وفيها أجر؛ كالأذكار والأدعية، وقراءة القرآن والاعتكاف في المساجد، والإتيان بالنوافل قبل الصلاة وبعدها، وأنواع التطوّعات، وكذلك أنواع الصدقات الزائدة على الواجب؛ فهذه خصال خيريّة يحبّها الشرع، وإذا أحبّها العبد أكثر منها، وحبُّه لها يظهر عن كونها طاعة، فإذا علم أنّها طاعة وأنّ الله يحبّها أكثر منها.

وأما التروك والمحرمات، فإنّ الذي يتركها هو الذي يعرف عاقبتها، ويعرف الآثام التي تترتّب عليها، فإذا علم العبد أنّ الله تعالى يعاقبه على الشرك، وعلى الزنى والمخدّرات والخمر، وعلى القذف والسّباب والشتم، وعلى الغيبة والنميمة وأكل الحرام والرّبا والرشاوي، وعلى سماع الغناء واللهو وما أشبه؛ إذا عرف أنّه يعاقبه على هذه الأفعال تركها، وهذه أيضًا ليست من الضروريات، فليس كلّ واحد مضطرًا أن يتعامل بالمعاملات المحرّمة، وليس كلّ واحد محتاجًا إلى أن يغتاب، وأن يسبّ ويشتم، وليس كلّ واحد مضطرًا إلى أن يرى الحرام ويسمعه؛ فإذًا لما كان فيها مفاسد، ولم يكن فيها مصالح، كان الإسلام مشتملًا على النهي وعلى الزجر والعقوبة عليها، فإذا أسلم العبد، وعرف أنّ هذه الخصال التي هي أركان الإسلام، والسبب في أنّه مسلم، عرف أنّ الإسلام لا يجتمع هو وضدّه، وأن الإسلام ينهى عن الآثام، اجتنب الآثام كليًّا، واستكثر من الطاعات، وبذلك يتمّ إسلامه وإيمانه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه، وَحُلْوِه وَمُرِّه، مِنَ الله تعالى.

---

قال الشارح:

تَقَدَّمَ قوله ﷺ في حَدِيثِ جبْرائيلَ ـ عليه السلام ـ: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه»[1]، وَقَالَ تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١]، وَقَالَ تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الآية [النساء:٧٨، ٧٩].

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ وجه الجَمْعُ بَيْنَ قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وَبَيْنَ قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾؟، قِيلَ: قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: الخِصْبُ وَالجَدْبُ، وَالنَّصْرُ وَالهَزِيمَة، كُلُّهَا مِنْ عِنْدِ الله، وقوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾: أي: مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَة مِنَ الله فَبِذَنْبِ نَفْسِكَ عُقُوبَة لَكَ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]. يَدُلُّ على ذَلِكَ مَا رُوِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ أنه قَرَأَ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾: وَأَنَا

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

كَتَبْتُهَا عَلَيْكَ[1].

وَالْمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ هُنَا النِّعْمَة، وَبِالسَّيِّئَةِ الْبَلِيَّة، فِي أَصَحِّ الْأَقْوَالِ. وَقَدْ قِيلَ: الْحَسَنَة الطَّاعَة، وَالسَّيِّئَة الْمَعْصِيَة. وَقِيلَ: الْحَسَنَة مَا أَصَابَه يَوْمَ بَدْرٍ، وَالسَّيِّئَة مَا أَصَابَه يَوْمَ أُحُدٍ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ شَامِلٌ لمعنى الْقَوْلِ الثَّالِثِ. والمعنى الثاني لَيْسَ مُرَادًا دُونَ الْأَوَّلِ قَطْعًا، وَلَكِنْ لَا مُنَافَاة بَيْنَ أَنْ تَكُونَ سَيِّئَة الْعَمَلِ وَسَيِّئَة الْجَزَاءِ مِنْ نَفْسِه، مَعَ أَنَّ الْجَمِيعَ مُقَدَّرٌ، فَإِنَّ الْمَعْصِيَة الثَّانِيَة قَدْ تَكُونُ عُقُوبَة الأولى، فَتَكُونُ مِنْ سَيِّئَاتِ الْجَزَاءِ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ سَيِّئَاتِ الْعَمَلِ، وَالْحَسَنَة الثَّانِيَة قَدْ تَكُونُ مِنْ ثَوَابِ الأولى، كَمَا دَلَّ على ذَلِكَ الْكِتَابُ والسُّنَّةُ.

---

قال الشيخ:

الحسنات والسيّئات مقدَّرة من الله تعالى، فالله تعالى يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٨]، أي: الحسنة والسيئة كلّها مكتوبة ومقدّرة من الله، لو شاء الله ما حصلت هذه العقوبات ونحوها، ولا حصلت هذه الآفات وما أشبهها، فهي من الله خلقًا وتقديرًا وإرادةً وقدَرًا.

المراد بالحسنة والسيئة هنا: الحسنة يدخل فيها الأعمال الصالحة، فالله هو الذي أقدرك عليها، ويدخل في الخيرات الحسيّة ما أصابك من نعمة؛ ولد أو فرح أو بشر وسرور، أو ما يسرّك ويبهجك، ما أصابك من هذا كلّه فهو من الله، وقد

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (٢/ ٩٠٨)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٢٠٥).

جعل الله تعالى ذلك ثوابًا على الأعمال والحسنات التي يعملها العبد، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [النحل:٤١]، أي: لنعطيهم في الدنيا حسنة؛ وذلك لأنّهم أتوا بالأسباب، فإذا أتى العبد بالأسباب التي هي الإيمان والأعمال الصالحة؛ فإنّ الحسنة التي تصيبه إمّا أن تكون الحسنة التي هي خيرات دنيويّة أو الحسنة التي هي خيرات أخرويّة، وهي من الله، وهي أيضًا جزاء له على عمله.

فأنت أيها المؤمن التقيّ، المؤمن العامل الصالح! إذا أصلحت عملك جازاك الله بحسنة في الدنيا، وحسنة في الآخرة، ولهذا كان من دعاء النبيّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**»[1]، والحسنة في الدنيا: هي الصحة والأمن والرفاهية والنصر والتمكين، والخيرات المحبوبة في النفس، والحسنة في الآخرة: هي الجنّة. ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾، الذي تفضّل بها عليك، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، فمثلًا: ما أصابك من همّ، أو غمّ، أو جوع، أو عريّ، أو مرض، أو حزن، أو خوف، أو قلق، أو اضطراب، أو فقر، أو فاقة، أو موت، أو فراق حبيب، فاعلم أنّ ذلك عقوبة على سيئة اقترفتها، أو محنة لك واختبارًا، إذا كان في إيمانك شيء من الضعف، حتى يثبت إيمانك أو يتزعزع، فهي من نفسك، يعني: سببها هذه السيئة التي أُصيبت بها صادر عن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٢)، ومسلم (٢٦٩٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

نفسك؛ ولهذا قال الله تعالى للصحابة: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٦]، يعني: يوم غزوة أحد. وقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]، أي: بسبب فعلتموه سلّط الله عليكم عدوكم، فهو من عند أنفسكم، أو عملتم عملًا حصل به هذا التسليط.

نقول: الإنسان إذا ابتلي بالحسنة عليه أن يشكر، وإذا ابتلي بالسيّئة أن يصبر، فإذا أصابته النعمة، مثل الصحّة والمال والولد والأمن والرفاهيّة والخيرات التي تسرّه، فلا يعتقد أنّ ذلك لمحبته، بل يعتقد أنّ هذا ابتلاء من الله له، إمّا أنّه جزاء على أعمال عملها، وإمّا أنّه ثواب على حسنات عملها، فيكون قد عجّلت له حسناته، وهذا مخيف، فإنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يخافون إذا وسّعت عليهم الدنيا، يقولون: نخشى أن تكون طيّباتنا عجّلت لنا، فلا يبقى لهم في الآخرة ثواب، وقد تكون هذه الحسنات والنعم جزاء على أعمالهم الصالحة، مع ادخار الأجر لهم، فالله تعالى يثيب الصالحين والمؤمنين بثواب في الدنيا وثواب في الآخرة.

كذلك يمكن أن تكون هذه الخيرات وهذه النعم التي أصابها الناس في هذه الأزمنة، وهذه السَّعة والرفاهية ابتلاء من الله، فإنّ الله تعالى يبتلي بالخير كما يبتلي بالشرّ، فيبتلي بالحسنات ويبتلي بالسيئات؛ فعند الابتلاء بالحسنات هل يشكر العبد أم يكفر، كما حكى الله تعالى عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿هَٰذَا مِن

فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠].

فإذًا نقول: هذه النعم التي فتحت علينا من فضل الله ليبتلينا أنشكر أم نكفر، فإذا عرفنا أنها من الله شكرنا، وإذا عرفنا أنّنا بحاجة إلى تقييدها استعملناها بما يحبّ الله تعالى، فبذلك تثبت وبذلك نكون من الشاكرين لها، هذا هو الابتلاء بالخيرات، وأمّا الذين انخدعوا، واعتقدوا أنّ ذلك دليل على كرامتهم؛ فإنّهم هم المحرومون، وهم الذين تعجّلوا ثواب أعمالهم في الدنيا، واعتقدوا أنّ ما فتح عليهم وما أمدّهم الله به دليل على كرامتهم، وعلى فضلهم، وعلى شرفهم، وعلى رفعة منزلتهم ونحو ذلك، وقد وقع هذا للأولين، فقد حكى الله تعالى عن قارون أنّه قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص: ٧٨] أي أوتيته لشرفي وعلوّ منزلتي، أو أوتيته لأنّي محبوب عند الله، ولهذا ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٥]. هؤلاء هم الذين نظرتهم دنيويّة، ولم يعتبروا، وفي الحديث: «**إِنَّ الله ـ عز وجل ـ يعطي الدُّنْيَا من يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يعطي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ الله الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ**»[1].

فإذا عرف الإنسان أنّ هذا الابتلاء بالخيرات ليس دليلًا على الكرامة، بل إمّا أنّه لحسنات عملها، فجوزي عليها في الدنيا، ولم يبق له ثواب في الآخرة، وإمّا أنّه

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٢٤).

لأجل أن يختبر: هل يشكر أو يكفر؟ وإمّا أنه تعجيل وتوسعة عليه في الدنيا، دون أن ينقص من ثوابه في الآخرة، إذا شكر الله تعالى علم كيف يثاب بالحسنات الدنيويّة.

أما السيّئة الدنيويّة إذا أصابت الإنسان مصيبة أو بلاء أو مرض أو فقر أو موت أو حزن أو خوف أو تشريد وتفريق أو نهب وسلب، فما سبب ذلك؟

لا شكّ أنّه يدخل في هذه أسباب:

السبب الأول: إمّا أن يكون تكفيرًا للسيئات؛ فالمؤمن مبتلى، فإذا صار عنده سيئاتٌ، سلّط الله عليه المرض، وسلّط عليه الخوف، ونحو ذلك، كما في الحديث: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مع عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ**»[1]، وفي الحديث: «**أَشَدُّ الناس بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ، فَالأَمْثَلُ**»[2].

السبب الثاني: أنّ هذه المصائب وهذه الآفات التي تصيب الإنسان قد تكون تمحيصًا، وقد تكون تكفيرًا للسيئات التي اقترفها؛ وذلك لأنّه قد لا يأتي بحسنات تمحوها فيسلّط الله عليه الأمراض.

السبب الثالث: أنّه ابتلاء وامتحان؛ ليعلم الله من يصبر ومن يجزع، قال

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٢)، وابن حبان (٧/ ١٦٠)، والحاكم (١/ ٤٠)، والبيهقي (٣/ ٣٧٢) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

فإذًا هذه المساوئ بسبب الإنسان؛ سيّئات اقترفوها، أو أعمال قصّروا فيها، فالسبب أصلًا منهم، والله تعالى قد يبتليهم بهذه الأشياء حتى يختبر قوّة إيمانهم وصبرهم، وحتّى يرفع درجات الصابرين، وحتّى يكفّر عنهم بعض سيّئاتهم، أو يكون الابتلاء اختبارًا ليعلم من يصبر ومن يجزع. فهذا ما ورد في معنى قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩].

قال الشارح:

وَلَيْسَ لِلقَدَرِيَّة أَنْ يَحْتَجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ فَعَل العَبْدُ ـ حَسَنَة كَانَ أَوْ سَيِّئَة ـ فَهُوَ منه لا مِنَ الله! وَالقُرْآنُ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَهُمْ لا يُفَرِّقُونَ؛ ولأنه قال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، فَجَعَل الحَسَنَاتِ مِنْ عِنْدِ الله، كَمَا جَعَل السَّيئاتِ مِنْ عِنْدِ الله، وَهُمْ لا يَقُولُونَ بِذَلِكَ في الأَعْمَالِ، بَل في الجَزَاءِ.

وقوله بَعْدَ هَذَا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾، و﴿مِن سَيِّئَةٍ﴾، مِثْلُ قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾، و﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [النساء:٧٨].

وَفَرَّقَ ـ سبحانه وتعالى ـ بَيْنَ الحَسَنَاتِ التي هي النِّعَمُ، وَبَيْنَ السَّيِّئَاتِ التي هي المَصَائِبُ، فَجَعَل هذه مِنَ الله، وهذه مِنْ نَفْسِ الإِنْسَانِ؛ لأَنَّ الحَسَنَة مُضَافَة إلى الله، إِذْ هُوَ أَحْسَنَ بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْه، فَمَا مِنْ وَجْه مِنْ أَوْجُهِهَا إِلا وَهُوَ يَقْتَضِي الإِضَافَة إليه، وَأَمَّا السَّيِّئَة، فَهُوَ إِنَّمَا يَخْلُقُهَا لِحِكْمَة، وهي بِاعْتِبَارِ تِلكَ الحِكْمَة مِنْ إِحْسَانِه، فَإِنَّ الرَّبَّ لا يَفْعَلُ سَيِّئَة قَطُّ، بَل فِعْلُه كله حَسَنٌ وَخَيْرٌ.

---

قال الشيخ:

القدرية يدعون أن أفعال العباد خيرها وشرها من أنفسهم، وأن الله تعالى لا يقدر عليها؛ بل العبد هو الذي يخلق أفعاله. فاحتجوا بقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، على أنها من نفسه، وأنه هو الذي خلقها، وليس لله قدرة على أفعال العباد، وهذا لا دلالة فيه، فإن القدرية يقولون: أفعال العباد كلها

الحسنات والسيئات من العبد لا من الله، فهو الذي يخلق الحسنات، وهو الذي يخلق السيئات، والله لا يقدر على أن يهديه، ولا أن يوفقه إلى الحسنة، وليس لله قدرة عندهم على العباد، والله في القرآن فرق بين الحسنات والسيئات، وأضافهما كلتيهما إلى قدرته: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وأنكر على الذين يفرقون: في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾، فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨]، أي: كلها من عند الله وبقضائه وقدره، فالحسنة من عند الله تعالى؛ لأنه هو الذي أعان العبد عليها ووفقه، وإن كانت تُنسب إليه؛ لأنه هو الذي زاولها والذي فعلها ويُثاب عليها، والسيئات من الله هو الذي قدرها، وهو الذي مكن العبد من أن يفعلها، ولكنها تُنسب إلى العبد؛ لأنه هو الذي زاولها، والذي فعلها، فجعل السيئات من الله.

وهم لا يقولون بذلك في الأعمال بل في الجزاء، فيقولون: الجزاء من الله، وأما الأعمال خيرها وشرها، حسناتها وسيئاتها فيسندونها إلى العبد، ويقولون: إن الله لا يخلق السيئات فيُعاقب عليها فإن ذلك ظلم منه، بل العبد هو الذي يخلق أفعاله، حسنها وسيئها، الله تعالى قال بعد هذا: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، فهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨]، فالله تعالى فرَّق بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب،

فتُحمل الحسنات على أنها النعم والخيرات والفتح والنصر من الله تعالى، وهي نصر من الله وتوفيق منه، فإنه ينصر عباده، وتُحمل السيئات في هذه الآيات على أنها المصائب، وما يحصل من الأعداء، وتسلطهم على المسلمين، فإنها من العبد؛ لأنه هو الذي تسبب في أعمال سيئة قدرها الله تعالى، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]، أي: لما أصابتكم هذه المصيبة فهي من عند أنفسكم، بشؤم وبأعمال خالفتم فيها أوامر الله تعالى، وأوامر رسوله ﷺ، حيث إن الرماة لما خالفوا أمر النبي ﷺ حصل بذلك أن أصيبوا بهذه المصيبة، جعل الله تعالى هذه من عند الله التي هي الحسنات، وهذه من نفس الإنسان؛ لأن الحسنة مضافة إلى الله تعالى هو الذي وفَّق العبد إليها، وهو الذي أحسن بها من كل وجه، فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه، ويُحمد عليه؛ لأنه الذي أعان العبد عليها، ويسرها له، ووفقه لعملها.

وأما السيئات كالمصائب ونحوها، فإنما خلقها الله تعالى لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن، وكله خير، فيُقدر على المؤمنين المصائب؛ ليعلموا أنهم قد يُبتلون، وأنهم لا ينتصرون دائمًا، وأن ما يصيبهم فبذنوب اقترفوها، وبسيئات عملوها، فليراجعوا أنفسهم ويحسنوا أعمالهم، ويصلحوا في جميع أحوالهم.

فمن اعترض على الله تعالى في تصرفه فقد أخطأ؛ لأنه ينتقد فعل الله تعالى.

قال الشارح:

وَلِهَذَا كَانَ النبي ﷺ يَقُولُ فِي الاسْتِفْتَاحِ: «وَالخَيْرُ كله بِيَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». أي: فَإِنَّكَ لا تَخْلُقُ شَرًّا مَحْضًا، بَل كُلُّ مَا تَخْلُقُه ففيه حِكْمَة، هُوَ بِاعْتِبَارِهَا خَيْرٌ، وَلكِنْ قَدْ يَكُونُ فيه شَرٌّ لِبَعْضِ النَّاسِ، فَهَذَا شَرٌّ جُزْئِي إِضَافِي، فَأَمَّا شَرٌّ كُلِّي، أَوْ شَرٌّ مُطْلَقٌ،فَالرَّبُّ ـ سبحانه وتعالى ـ مُنَزَّه عنه، وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الذي لَيْسَ إليه.

---

قال الشيخ:

هذا الاستفتاح أخرجه مسلم[1]، وغيره[2] من حديث علي ﷺ في الاستفتاح الطويل، وقد يُستعمل هذا أيضًا في التلبية أن الحاج يقول: لبيك اللهم لبيك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك،أي: فإنك لا تخلق الشر المحض، بل كل ما يخلقه الله تعالى من المصائب فإنه خير بالنسبة إلى الله تعالى، فكل ما تخلقه يا ربنا فإن فيه حكمة، وهو باعتبارها خير، حيث إنه دال على الخير، ودال على أن الرب ـ سبحانه وتعالى ـ يسلط هذه العقوبات حتى يعتبروا ويراجعوا أنفسهم، ويتوبوا مما فعلوه، ويعتبروا بذلك، ويعلموا أنهم محل الخطأ، ومحل السيئات، وأن الله تعالى قد يُكفر هذه السيئات بهذه المصائب،

---

(١) برقم (٧٧١).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧)، وأحمد (١/ ١٠٢).

ولكن قد يكون هناك شر لبعض الناس، أعني: مصائب ونكبات وعقوبات فيسمى هذا شرًا جزئيًا إضافيًا، أي: أنه شر بالنسبة إلى الإنسان.

وبالنسبة إلى الكافر أو الفاجر أو العاصي فهو شر إذا أضيف إليه، أما أن يكون هناك شر كلي من الله تعالى، أو شر مطلق، يعني ليس بخير أبدًا، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عنه؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو خير، ولا يقدر إلا ما هو خير، وهذا هو الشر الذي يُقال: الشر ليس إليك، فيجب أن يعتقد العباد أن المصائب التي تصيبهم أنها خير من الله تعالى، ينبههم على أعمال قد فعلوها حتى يتوبوا منها، وحتى يصلحوا أعمالهم، وحتى يبدلوا سيئاتهم حسنات، ويتوبوا إلى الله تعالى من نقص أو تقصير فيما ارتكبوا، فينسبوا ذلك إلى أنفسهم، وإذا أصاب أحدهم فإنه يقول: إذا أصبت فالإصابة من الله وبتوفيقه، وإذا أخطأت فذلك الخطأ مني ومن الشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه من هذه الأخطاء، فيضيف الخطأ إلى نفسه؛ لأنه محل الخطأ ومحل النسيان، وفي الحديث: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[1].

فيعلم أن المصائب التي تصيبه كلها عقوبات وأن فيها خير، ويعلم أن الإنسان قد يسهو ويغفل، وقد يقع منه كثيرًا بعض المعاصي، ولكنه إذا أناب إلى الله وطلب مغفرته فإنه يتوب عليه، ويطلب منه سبحانه أن يمحو عنه هذه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وأحمد (٣/ ١٩٨)، والحاكم (٤/ ٢٤٤) من حديث أنس ﷺ.

الزلات وهذه الخطايا، فالرب تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويعفو عن السيئات، وهو أرحم الراحمين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، فعليهم أن يكثروا من الاستغفار، ويكثروا من التوبة، ويخافوا من ربهم أن يعاملهم بعدله فيعاقبهم.

قال الشارح:

وَلِهَذَا لا يُضَافُ الشَّرُّ إليه مُفْرَدًا قَطُّ، بَل إِمَّا أَنْ يَدْخُل في عُمُومِ المَخْلُوقَاتِ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء:٧٨]، وَإِمَّا أَنْ يُضَافَ إلى السَّبَبِ، كَقَوْلِه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:٢]، وَإِمَّا أَنْ يُحْذَفَ فَاعِلُه، كَقَوْلِ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجِنّ:١٠].

---

قال الشيخ:

الله تعالى لا يُضاف إليه الشر ـ لما تقدم ـ من قوله ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، فالشر ـ الذي هو محض ضرر ـ لا يُضاف إلى الله تعالى مفردًا، بأن يُقال: الشر إلى الله، أو هذا شر من الله أو نحو.

ثم ذكر أنه إما أن يدخل في عموم المخلوقات؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فيدخل في ذلك المصائب والعقوبات والنعم الكرامات؛ وكقوله تعالى في الحسنة والسيئة: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، يعني: الحسنة والسيئة كلها من عند الله؛ لأنه الذي قدرها.

وإما أن يُضاف إلى السبب؛ كقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فإنه

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٤٩).

سبحانه هو الذي خلق الجميع فيدخل الشر في ذلك.

وكما ذكر الله تعالى عن مؤمني الجن حيث جاء الشر محذوفًا فاعله في قولهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، هكذا حذف الذي يُريد بالشر، (أُرِيدَ) لم يقل: أراد بهم، أو لم يقل: لا ندري أشر أراده الله، ولما جاء الخير صُرح بأنه من الله: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وهذا يقع في القرآن كثيرًا، أن الشر لا يُضاف إلى الله إذا كان شرًا محضًا، وما ذاك إلا أنه سبحانه لا يصدر منه إلا ما هو خير، وما يحدث من الشرور ومن الأضرار فإنه لابد أن يكون فيه حكمة، ومصلحة؛ لأنه يترتب على ذلك مصالح كثيرة يكون من آثارها العبرة والموعظة والتخويف من فعل شيء من المحرمات، مخافة أن الله قد يعاقبه، كما عاقب الأمم السابقة، وكما أغرق قوم نوح لما دعا عليهم بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، وكذلك أهلك عادًا حيث أرسل عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩]، وأهلك ثمود بالصيحة وغيرهم، فإن هؤلاء لما أُهلكوا كان هلاكهم شرًا لهم، ولكنه خير؛ لأن فيه عبرة وموعظة وتخويف من فعلهم.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَلَيْسَ إِذَا خَلَقَ مَا يَتَأَذَّى به بَعْضُ الحَيَوَانِ لا يَكُونُ فيه حِكْمَة، بَل لله مِنَ الرَّحْمَة وَالحِكْمَة مَا لا يُقَدِّرُ قَدْرَه إلا الله تعالى، وَلَيْسَ إِذَا وَقَعَ في المَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ شَرٌّ جُزْئِي بِالإِضَافَة يَكُونُ شَرًّا كُلِّيًّا عَامًّا، بَلِ الأُمُورُ العَامَّة الكُلِّيَّة لا تَكُونُ إلا خَيْرًا أَوْ مَصْلحَة لِلعِبَادِ، كَالمَطَرِ العَامِّ، وَكَإِرْسَالِ رَسُولٍ عَامٍّ. وَهَذَا مِمَّا يَقْتَضِي أنه لا يَجُوزُ أَنْ يُؤَيِّدَ كَذَّابًا عليه بِالمُعْجِزَاتِ التي أَيَّدَ بِهَا الصَّادِقِينَ، فَإِنَّ هَذَا شَرٌّ عَامٌّ لِلنَّاسِ، يُضِلُّهُمْ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ.

---

قال الشيخ:

الله تعالى قد يخلق بعض ما يتأذى به الإنسان، أو يتأذى به الحيوان فإنه خلق الأمراض التي تصيب العباد، ومع ذلك خلق لها علاجًا، وقال النبي ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لهُ دَوَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلهُ مَنْ جَهِلهُ»[1]. فهذه الأمراض لله تعالى فيها حكم عظيمة، والعلماء يقولون: إنها تكفير للخطايا أو للسيئات، وتكفير للذنوب، ولهذا جاء في الحديث: «لا يَزَالُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حتى يَمْشِيَ على ظَهرِ الأَرْضِ لَيْسَ عليه خَطِيئَةٌ»[2]، يعني: يُكَفِّر الله عنه بذلك البلاء

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤١٣)، وأبو يعلى (٩/ ١١٣)، والطبراني في الكبير (١٠٣٣١)، والحاكم (٤/ ١٩٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد =

وذلك المرض خطاياه كلها.

وكذلك أيضًا قال ﷺ: «إِنَّ عِظَمُ الجَزَاءِ مع عِظَمِ البَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ فَمَنْ رضي فَلهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلهُ السُّخْطُ»[1].

وقال ﷺ: «إذا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّل له العُقُوبَةَ في الدُّنْيَا، وإذا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عنه بِذَنْبِهِ حتى يُوَافِيَ بِهِ يوم القِيَامَةِ»[2].

وقال ﷺ: «أَشَدُّ الناس بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلى حَسَبِ دِينِهِ»[3]. وجاءه رجل فقال: يا رسول الله إني أحبك. فقال: «إن كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلْبَلاءِ تِجْفَافًا»، أي: استعد للبلاء فإنه يأتيك، «فَإِنَّ البَلاءَ أَسْرَعُ إلى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إلى مُنْتَهَاه»[4]. وقد أخبر النبي ﷺ أن هذه المصائب يُكفر الله بها الخطايا في قوله: «ما يُصِيبُ المُسْلِمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ

---

=

(١/ ١٧٢) واللفظ له، من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٦).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٥٥٩).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ١١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه بلفظ «فأعد للفقر تجفافًا» الترمذي (٢٣٥٠)، والحاكم (٤٣٣١).

ولا حُزْنٍ ولا أَذًى ولا غَمٍّ حتى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ الله بها من خَطَايَاهُ»[١].

هذا فضل من الله تعالى.

فعُرف بذلك أن الله تعالى حكيم، فالحيوانات ليس لها ذنوب، فإن البهائم قد يصيبها جوع، وقد يصيبها قحط، وإن كان ذلك عقوبة لبني آدم، وليس للحيوانات ذنوب؛ ولهذا رُوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل:٦١]، أنه ينزل البلاء حتى تجف الأرض، ثم إن البهائم تلعن عصاة بني آدم وتقول: «مُنعنا القطر بذنوبهم»[٢].

فالله تعالى حكيم رحيم، له في كل شيء يحدث حكم لا يقدر قدرها إلا الله؛ لأنه حكيم في فعله، يضع الأشياء مواضعها، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة يكون شرًا كليًا فإنه قد يقع العذاب أو المرض في بعض البلاد دون بعض، فهذا شر جزئي، يعني: هذا البلاء أو هذا المرض أو كذلك هذا القحط، فلا يكون شرًا كليًا عامًا لجميع البلاد.

قوله: (**الأُمُورُ العَامَّة الكُلِّيَّة لا تَكُونُ إلا خَيْرًا أَوْ مَصْلحَة لِلعِبَادِ**)، فالمطر العام مصلحة للعباد ولو كان فيه ضرر على بعض الناس بغرق، أو هدم، أو نحو ذلك؛ ولهذا في دعاء الاستسقاء: (اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق).

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٩٨) من قول مجاهد رحمه الله.

قوله: (وَكَإِرْسَالِ رَسُولٍ عَامٍّ)، أي: وكذلك إرسال رسول عام فإنه يكون خيرًا للذين اتبعوه وأطاعوه، وقد يكون سبب عقوبة على الذين عصوه وخالفوا أمره، كما هي سنة الله تعالى فيما جاءت به الرسل.

قوله: (وَهَذَا مِمَّا يَقْتَضِي أنه لا يَجُوزُ أَنْ يُؤَيِّدَ كَذَّابًا عليه بِالْمُعْجِزَاتِ التي أَيَّدَ بِهَا الصَّادِقِينَ)، ولم يقع ذلك، بل الكذاب الذي يدعي أنه نبي لا تجري على يديه المعجزات التي أكد بها الصادقين؛ كالآيات التي أيد بها موسى عليه السلام، أو أيد بها عيسى عليه السلام، أو أيد بها نبينا ﷺ، تلك المعجزات لم تحصل للمتنبئين الذين يدعون أنهم أنبياء، فإن الله تعالى فضحهم وأظهر خزيهم، وتبين للناس كذبهم.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا شَرٌّ عَامٌّ لِلنَّاسِ)، أي: فتأييد الكذاب بالمعجزات شر عام للناس؛ لأنهم (يُضِلُّهُمْ فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ)، فمن حكمة الله أنه يظهر كذب هؤلاء، ويُبين ضلالهم ويتبين بعد ذلك فشلهم، ويظهر للناس علنًا هذا، وهكذا كل دعاة يدعون إلى ضلال لابد أن يكون شرهم ظاهرًا لمن تأمله، فإن الدعاة ـ مثلاً ـ إلى البدع، يظهر لمن تأمل ضلالهم، الدعاة إلى سب الصحابة وتكفيرهم ـ كما تفعله الرافضة ـ يعلم فساد قولهم كل عاقل، وكذلك الدعاة إلى العقائد السيئة؛ كالدعاة إلى عبادة القبور، ونحوها، أو الدعاية إلى الانحلال من الدين، أو الدعاية إلى تعطيل الرب ـ سبحانه وتعالى ـ عن صفات الكمال، كل هؤلاء لابد أن الله تعالى ينشر خزيهم ويفضح كذبهم.

قال الشارح:

وَلَيْسَ هَذَا كَالْمَلِكِ الظَّالِمِ وَالعَدُوِّ، فَإِنَّ المَلِكَ الظَّالِمَ لابُدَّ أَنْ يَدْفَعَ الله به مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِه، وَقَدْ قِيل: سِتُّونَ سنة بِإِمَامٍ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ لَيْلة وَاحِدَة بِلا إِمَامٍ. وَإِذَا قُدِّرَ كَثْرَة ظُلْمِه، فَذَاكَ خَيْرٌ في الدِّينِ؛ كَالمَصَائِبِ، تَكُونُ كَفَّارَة لِذُنُوبِهِمْ، وَيُثَابُونَ على الصَّبْرِ عليه، وَيَرْجِعُونَ فيه إلى الله، وَيَسْتَغْفِرُونَه وَيَتُوبُونَ إليه؛ وَكَذَلِكَ مَا يُسَلطُ عَلَيْهِمْ مِنَ العَدُو؛ وَلِهَذَا قَدْ يُمَكِّنُ الله كَثِيرًا مِنَ المُلُوكِ الظَّالِمِينَ مُدَّة، وَأَمَّا المُتَنَبِّئُونَ الكَذَّابُونَ فَلا يُطِيلُ تَمْكِينَهُمْ، بَل لابُدَّ أَنْ يُهْلِكَهُمْ؛ لأَنَّ فَسَادَهُمْ عَامٌّ في الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَة، قَال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦].

---

قال الشيخ:

هذا يؤيد ما ذكرنا من أن الله تعالى لا يؤيد الظالمين؛ كالمتنبئين، أما إذا تولى على الأمة ملك ظالم، أو عدو ظالم، فإن ذلك فيه مصلحة؛ لأن الملوك يدفع الله بهم الشر الكثير، فالذي يدفعه كحمايته من كيد الأعداء، وتمكينهم من عبادة الله تعالى، وتمكينهم من إظهار الإسلام ونشره في بلادهم؛ وكذلك أيضًا أمن البلاد إذا كان فيها ملك، ولو كان ذلك الملك ظالمًا على الناس، يعني: قاسيًا على الناس، فيه شيء من القسوة، وفيه شيء من العسف والظلم يحبس كثير، أو بقتل، أو بعقوبات أو بتنكيل، كما فعل بعض الملوك أو الأمراء؛ كالحجاج

ابن يوسف ونحوه، فإنه وإن كان ظالمًا فقد دفع الله تعالى به شرًا كثيرًا من حيث إن الذين عصوا وتمردوا عند ذلك قتلهم، أو حاول تفريقهم والقضاء على شرهم، كلما أراد ظالم أن يخرج، فإن الله تعالى نصر به الإسلام، وكذلك أيضًا فتح الله على يديه بلادًا كثيرة؛ كالهند والسند على يدي ابن أخيه ابن القاسم، وعلى يدي قتيبة بن مسلم وغيرهما.

ولهذا يُقال: (سِتُّونَ سنة بِإِمَامٍ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ ليْلة وَاحِدَة بِلا إِمَامٍ)، وهذا ظاهر فإنه إذا كان ظالمًا حجز الناس بعضهم عن بعض، ولم يتجرأ أحد على أحد، وإذا لم يكن هناك إمام يمنع الظالم من ظلمه، تعدى بعضهم على بعض، كما حصل في هذه البلاد في أول القرن الرابع عشر من السلب والنهب والقتل والاعتداء، حتى إن أحد المسافرين لا يأمن على نفسه، ويأتيه قطاع طريق ويأخذون متاعه،وربما أخذوا حتى ثيابه، وتركوه عريانًا، وإذا قاوم فإنهم قد يقتلونه حتى منَّ الله تعالى على هذه المملكة بولاية الملك الراحل الذي هو عبدالعزيز رحمه الله، فبعد أن استولى على البلاد، استتب الأمن ـ والحمد لله ـ وأمن الناس في أسفارهم، وفي بيوتهم، وعلى نفوسهم، وإذا قُدر كثرة ظلم ذلك الملك فإن ذلك خير في الدين، ويكون كالمصائب التي يسلطها الله تعالى على عباده فتكون كفارة لذنوبهم، فإن العقوبات كفارة، إذا حصل بذلك عقوبة على الإنسان يتذكر أنها نزلت أو حصلت عليه بسبب ذنب، فيصبر ويحتسب ويجعل مشتكاه إلى الله؛ كما قال بعض الشعراء:

وَإِذَا أَتَتْكَ مُصِيبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا ... صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَرْحَمُ

وَإِذَا شَـكَوْتَ إِلَى ابْـنِ آدَمَ إِنَّـمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ[1]

فالـذين تـصيبهم تلـك المـصيبة يعلمـون أن ذلـك بـذنوب اقترفوهـا، فيصبرون ويثيبهم الله على الصبر، فيرجعون إلى الله، ويكثرون من الاستغفار والتوبة إلى الله، ويكثرون من الأعمال الصالحة حتى يرفع الله تلك المصائب: أمراض، أو عاهات، أو جدب، أو قحط، أو كذلك تسليط أعداء أو نحو ذلك، فما يسلط الله عليهم من العدو فإنه بسبب ذنوب اقترفوها، جاء في بعض الأحاديث القدسية أن الله تعالى يقول: «**إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي**»[2]؛ (**وَلِهَذَا قَدْ يُمَكِّنُ اللهُ كَثِيرًا مِنَ الْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ مُدَّة**)، كما مكن للحجاج ونحوه، (**وَأَمَّا الْمُتَنَبِّئُونَ الْكَذَّابُونَ فَلا يُطِيلُ تَمْكِينَهُمْ**)، كما حصل لمسيلمة والأسود العنسي والمختار بن أبي عبيد، فإن الله تعالى انتقم منهم وسلط عليهم، وأهلكهم؛ وذلك (**لأَنَّ فَسَادَهُمْ عَامٌّ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَة**)؛ فلأجل ذلك لا يمكن الله لهم، وهم يقولون عليه بغير علم؛ ولهذا قال الله تعالى في محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، أي: لو أنه كذب علينا ولو بشيء مما أُنزل عليه فزاد فيه أو نقص فيه أو غير، أو قال على الله ما لم يقل لعاقبه الله عقوبة شديدة؛ كالأخذ باليمين، وسلط عليه حتى ينقطع منه الوتين، أي: حتى يموت.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص١١١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩١) عن الفضيل بن عياض رحمه الله.

قال الشارح:

وفي قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ مِنَ الفَوَائِدِ: أَنَّ العَبْدَ لا يَطْمَئِنُّ إلى نَفْسِه، وَلا يَسْكُنُ إِلَيْهَا، فَإِنَّ الشَّرَّ كَامِنٌ فِيهَا، لا يَجِيءُ إِلا مِنْهَا، وَلا يَشْتَغِلُ بِمَلامِ النَّاسِ وَلا ذَمِّهِمْ إِذَا أَسَاءُوا إليه، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ السَّيِّئَاتِ التي أَصَابَتْه، وهي إِنَّمَا أَصَابَتْه بِذُنُوبِه، فَيَرْجِعُ إلى الذُّنُوبِ، وَيَسْتَعِيذُ بالله مِنْ شَرِّ نَفْسِه وَسَيِّئَاتِ عَمَلِه، وَيَسْأَلُ الله أَنْ يُعِينَه على طَاعَتِه، فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ له كُلُّ خَيْرٍ، وَيَنْدَفِعُ عنه كُلُّ شَرٍّ.

---

قال الشيخ:

قول الله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، فيه هذه الفوائد: أن المسلم لا يطمئن إلى نفسه بل يتهمها، فإذا أصيب بمصيبة يتهم نفسه، ويعلم أنه ما أُتي إلا بسبب ذنب اقترفه، فلا يسكن إلى نفسه، ولا يزكي نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]، ولا يقول: إنني لا أستحق هذه العقوبة فكيف عاقبني فليس ذلك بغير حق!!.

يقول:(فَإِنَّ الشَّرَّ كَامِنٌ فِيهَا، لا يَجِيءُ إِلا مِنْهَا)، على ما في هذه الآية: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

قال: (وَلا يَشْتَغِلُ بِمَلامِ النَّاسِ وَلا ذَمِّهِمْ إِذَا أَسَاءُوا إليه)، ولا يقول: إنهم تعدوا عليَّ، وأنهم أساؤوا إليَّ وظلموني وأنهم تسلطوا عليَّ بكذا وكذا، هذا

لاشك أنه شكاية لله تعالى؛ لأن الله هو الذي سلطهم، وما سلطهم إلا لأنه عمل ذنوبًا يمكن أن يكونوا سُلِّطوا عليه بسببها، فهذه العقوبة (**مِنَ السَّيِّئَاتِ التي أَصَابَتْه**)، يعني: إذا آذاه الناس نقول: إن هذه ما أصابتك إلا بذنوب قد اقترفتها، فارجع إلى ربك وراجع نفسك، وتفقد نفسك، وتب إلى الله من الذنوب، وقل: أعوذ بالله من شر نفسي، وسيئات عملي، كما في الحديث أنه كان يقول: «**اللَّهم فَاطِرَ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لا إِلَهَ إلا أنت رَبَّ كل شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ على نَفْسِي سُوءًا أو أَجُرَّهُ إلى مُسْلِمٍ**»[1]. فيستعيذ بالله من شر نفسه ويتهمها، ويسأل الله أن يعينه على طاعته، فيقول: رب أعني على طاعتك، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، فبذلك يحصل له كل خير، ويندفع عنه كل شر.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧) بنحوه، والترمذي (٣٥٢٩) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٧٦٤٤)، وأحمد (١/ ١٤) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

قال الشارح:

وَلِهَذَا كَانَ أَنْفَعُ الدُّعَاءِ وَأَعْظَمُه وَأَحْكَمُه دُعَاءَ الفَاتِحَة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، فإنه إِذَا هَدَاه هَذَا الصِّرَاطَ أَعَانَه على طَاعَتِه وَتَرْكِ مَعْصِيَتِه، فَلَمْ يُصِبْه شَرٌّ، لا في الدُّنْيَا وَلا في الآخِرَة.

---

قال الشيخ:

دعاء الفاتحة دعاء عام، ودعاء مفيد فهو أنفع الأدعية التي يدعو بها الإنسان وأعظمها أثرًا وأحكمها؛ ولأجل ذلك شُرعت قراءة الفاتحة في الصلاة في كل ركعة؛ لقوله ﷺ: «لا صَلاةَ لِمَنْ لم يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»[1]، وفي أول الفاتحة توسلات، توسل بالحمد لله تعالى الذي هو رب العالمين، ووصفه بأنه هو الرحمن الرحيم،وأنه مالك يوم الدين، والتزم بعد ذلك أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يستعين إلا بالله، وبعد ذلك سأل فقال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، أي: دلنا وأرشدنا وثبتنا على هذا الصراط المستقيم، الذي هو طريق سوي ليس فيه اعوجاج، نسير عليه بأعمالنا لا بأقدامنا، إذا كانت عليه فإننا على هذا الصراط السوي، ووصف الله هذا الصراط بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

أي: الذين تفضل عليهم وأنعم عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، ثم سأل ربه أن يجنبه طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود الذين معهم علم ولم يعملوا به، وطريق الضالين الذين يتعبدون على جهل وضلال، والله تعالى إذا هداه هذا الصراط المستقيم أعانه على جميع طاعته، وعلى ترك معصيته، فحماه أن يصيبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال الشارح:

لكِنَّ الذُّنُوبَ هي لوَازِمُ نَفْسِ الإِنْسَانِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلى الهُدَى كُل لَحْظَة، وَهُوَ إلى الهُدَى أَحْوَجُ منه إلى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، ليْسَ كَمَا يَقُولُه بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: إنَّه قَدْ هَدَاه! فَلِمَاذَا يَسْأَلُ الهُدَى؟! وَأَنَّ المُرَادَ التَّثْبِيتُ، أَوْ مَزِيدُ الهِدَايَة! بَلِ العَبْدُ مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يُعَلِّمَه الله مَا يَفْعَلُه مِنْ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِه، وإلى مَا يَتْرُكُه مِنْ تَفَاصِيلِ الأُمُورِ، في كُلِّ يَوْمٍ، وإلى أَنْ يُلهِمَه أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ، فإنه لا يَكْفِي مُجَرَّدُ عِلمِه إنْ لَمْ يَجْعَله مُرِيدًا لِلعَمَلِ بِمَا يَعْلَمُه، وَإلا كَانَ العِلمُ حُجَّة عليه، وَلَمْ يَكُنْ مُهْتَدِيًا، وَالعَبْدُ مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يَجْعَله الله قَادِرًا على العَمَلِ بِتِلكَ الإِرَادَة الصَّالِحَة، فَإِنَّ المَجْهُول لنَا مِنَ الحَقِّ أَضْعَافُ المَعْلُومِ،وَمَا لا نُرِيدُ فِعْله تَهَاوُنًا وَكَسَلاً مِثْلُ مَا نُرِيدُه أَوْ أَكْثَرُ منه أَوْ دُونَه، وَمَا لا نَقْدِرُ عليه مِمَّا نُرِيدُه كَذَلِكَ، وَمَا نَعْرِفُ جُمْلَتَه وَلا نَهْتَدِي لِتَفَاصِيلِه فَأَمْرٌ يَفُوتُ الحَصْرَ. وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إلى الهِدَايَة التَّامَّة، فَمَنْ كَمُلتْ له هذه الأُمُورُ كَانَ سُؤَالُه سُؤَال تَثْبِيتٍ، وهي آخِرُ الرُّتَبِ.

---

قال الشيخ:

الذنوب من لوازم نفس الإنسان، ليس أحد معصومًا إلا رسل الله، ولابد أن يقع من الإنسان ذنوب وأخطاء وتقصير؛ فلذلك هو محتاج إلى الهدى في كل لحظة، وإلى التوفيق للهدى، فهو أحوج إلى الهداية منه إلى الطعام والشراب؛ وذلك لأن بها يحميه الله تعالى، وقد ذكر بعض المفسرين عن بعض الناس اعتراضهم على هذه الهداية، فيقول: كيف يسأل الهداية وهو عليها؛ لأن

الله قد هداه، فلماذا يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾، أليس هذا من تحصيل الحاصل؟ فيقولون: إن المراد التثبيت أو مزيد هداية. وهذا خطأ بل العبد محتاج أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله، ويهديه إلى ما يتركه من تفاصيل الأمور في كل يوم، فهو مضطر إلى أن الله تعالى يرشده ويعلمه ما يحتاج إليه، وما يفعله من الأحوال المفصلة؛ وذلك داخل في الهداية، وكذلك محتاج إلى ما يتركه من المحرمات والأمور التي نهى الله تعالى عنها، فهو في كل يوم محتاج إلى ذلك، فيحتاج إلى أن يسأل الله، أن يلهمه أن يقول: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي. فإذا ألهمه الله تعالى عمل بعلمه الذي علمه الله تعالى، وسلم من القول بلا عمل.

قوله: (فإنه لا يَكْفِي مُجَرَّدُ عِلمِه)، أي: كونه يعلم الحكم (إِنْ لَمْ يَجْعَلْه مُرِيدًا لِلعَمَلِ بِمَا يَعْلَمُه)، فكونك تعلم الأشياء، وتعلم الصراط وتعلم الحق فإن ذلك لا يكفي، بل تسأل الله تعالى أن يجعلك مهتديًا، ويجعلك مريدًا للعمل بما تعلمه حتى يوفقك الله إلى ذلك، وإلا فإن العلم يكون حجة عليك؛ لأنك لم تعمل به، ولا تكون مهتديًا حينئذٍ.

قوله: (وَالعَبْدُ مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يَجْعَلَه الله قَادِرًا على العَمَلِ بِتِلكَ الإِرَادَة الصَّالِحَة)، أي: محتاج إلى أن يجعله الله تعالى عاملاً ويعينه على العمل، ويجعله مريدًا إرادة موافقة للمطلوب.

قوله: (فَإِنَّ المَجْهُول لنَا مِنَ الحَقِّ أَضْعَافُ المَعْلُومِ)، أي: الذي نجهله أكثر

من الذي نعلمه، (**وَمَا لا نُرِيدُ فِعْله تَهَاوُنًا وَكَسَلاً مِثْلُ مَا نُرِيدُه أَوْ أَكْثَرُ منه أَوْ دُونَه**)، أي: فكثير من الطاعات ومن القربات والعبادات قد نعجز عنها، أو نتركها تهاونًا أو كسلاً، وهي أكثر مما نفعله أو نريده أو مثلها أو قريب منها.

قوله: (**وَمَا لا نَقْدِرُ عليه مِمَّا نُرِيدُه كَذَلِكَ**)، أي: ما لا نقدر عليه من الشيء الذي نريده كذلك فنحتاج إلى تقوية من الله تعالى.

قوله: (**وَمَا نَعْرِفُ جُمْلتَه وَلا نَهْتَدِي لِتَفَاصِيلِه فَأَمْرٌ يَفُوتُ الحَصْرَ**)، أي: وكذلك الأشياء التي نعرف جملتها ولا نهتدي إلى تفاصيلها كثيرة أمر يفوت الحصر، فنسأل الله تعالى هدايته لتفاصيل تلك الأمور، التي نعرف جملتها، ونحتاج إلى أن يعرفنا الله تعالى تفاصيلها، وأن يهدينا لذلك.

قوله: (**وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إلى الهِدَايَة التَّامَّة**)، أي: ونحن محتاجون إلى هداية الله التامة في كل لحظة، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا،(**فَمَنْ كَمُلتْ له هذه الأُمُورُ كَانَ سُؤَالُه سُؤَال تَثْبِيتٍ، وهي آخِرُ الرُّتَبِ**)، مع أن كمالها يقل إلا في أولياء الله وأصفيائه من خلقه.

قال الشارح:

وَبَعْدَ ذَلِكَ كله هِدَايَة أخرى، وهي: الهِدَايَة إلى طَرِيقِ الجَنَّة في الآخِرَة؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ مَأْمُورِينَ بِهَذَا الدُّعَاءِ في كُلِّ صلاة؛ لِفَرْطِ حَاجَتِهِمْ إليه، فَلَيْسُوا إلى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إلى هَذَا الدُّعَاءِ، فَيَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله بِفَضْلِ رَحْمَتِه جَعَلَ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ المُقْتَضِيَة لِلخَيْرِ، المَانِعَة مِنَ الشَّرِّ، فَقَدْ بَيَّنَ القُرْآنُ أَنَّ السَّيِّئَاتِ مِنَ النَّفْسِ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَدَرِ الله، وَأَنَّ الحَسَنَاتِ كُلَّهَا مِنَ الله تعالى.

---

قال الشيخ:

هناك هداية أخرى بعد هداية التثبيت، بعد هداية الدلالة، هذه الهداية الأخرى وهي الهداية إلى طريق الجنة في الآخرة، فإن العبد إذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾، فكأنه يقول: صراط الدنيا الذي تثبتنا عليه ونحن عليه، وترشدنا إليه، وصراط الهداية إلى الآخرة، الذي هو الصراط الذي يسلكه الناس، ويسيرون عليه بأعمالهم كما ورد ذلك في الأحاديث، ففي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «تُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ»، قال: قلت بِأَبِي أنت وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قال: «أَلَمْ تَرَوْا إلى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ في طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ على الصِّرَاطِ يقول: رَبِّ

سَلِّمْ سَلِّمْ، حتى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حتى يَجِيءَ الرَّجُلُ فلا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلا زَحْفًا ...»[1] إلى آخر الحديث، ذلك الصراط هو الطريق إلى الجنة في الآخرة؛ لهذا فالناس مأمورون بهذا الدعاء في صلاتهم: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾؛ وذلك لشدة حاجتهم إليه فهم أحوج إليه.

قوله: (فَلَيْسُوا إلى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إلى هَذَا الدُّعَاءِ)، حتى يثبتهم الله في الدنيا على صراط الحق، وحتى يهديهم الله في الآخرة إلى طريق الجنة.

قوله: (فَيَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله بِفَضْلِ رَحْمَتِه جَعَلَ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلخَيْرِ، المَانِعَةِ مِنَ الشَّرِّ)، حقيقة أن الله سبحانه جعل هذا الدعاء ـ الذي في سورة الفاتحة ـ من أعظم الأسباب التي يحصل بها العبد على الخير، ويحميه الله تعالى من الشر، فقد بين الله تعالى في القرآن في كثير من الآيات أن الشر من نفسك، في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، وفي قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥]، فهي بسبب ذنوب اقترفها، ولو كانت بقدر الله، أي: أنه قدرها وعلمها قبل أن توجد، ويعتقد أن الحسنات كلها من الله، يعني: النصر والتثبيت والهداية والرزق والخير والإعانة كلها من الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥).

قال الشارح:

وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُشْكَرَ سبحانه، وَأَنْ يَسْتَغْفِرَه العَبْدُ مِنْ ذُنُوبِه، وَأَن لا يَتَوَكَّل إِلا عليه وَحْدَه، فَلا يأتي بِالحَسَنَاتِ إِلا هُوَ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ تَوْحِيدَه، وَالتَّوَكُّل عليه وَحْدَه، وَالشُّكْرَ له وَحْدَه، وَالاسْتِغْفَارَ مِنَ الذُّنُوبِ.

وهذه الأُمُورُ كَانَ النبي ﷺ يَجْمَعُهَا في الصلاة؛ كَمَا ثَبَتَ عنه في الصَّحِيحِ: أنه كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَه مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: «رَبَّنَا لكَ الحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه»[1]، «مِلءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَال العَبْدُ، وَكُلُّنَا لكَ عَبْدٌ». فَهَذَا حَمْدٌ، وَهُوَ شُكْرٌ لله تعالى، وَبَيَانُ أَنَّ حَمْدَه أَحَقُّ مَا قاله العَبْدُ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: «لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[2].

---

قال الشيخ:

إذا كان الأمر كذلك وأن الإنسان بحاجة إلى سؤال الهداية من الله، وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه الذي أعانه ووفقه وهداه، ووجب عليه أيضًا أن يستغفر من ذنوبه، أي: أن يستغفر الله تعالى عن تقصيره، وعن خلله حتى أنه قد يستغفر من الغفلة، فقد كان النبي ﷺ يقول: «إنه لَيُغَانُ على قَلْبِي وَإِنِّي

---

(١) سيأتي تخريجه في تعليق سماحة الشيخ حفظه الله.

(٢) سيأتي تخريجه في تعليق سماحة الشيخ حفظه الله.

لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»[1]. معنى ذلك أنه قد يغفل وعدَّ هذه الغفلة ذنبًا فبادر بعدها إلى الاستغفار، يجب عليه أن يتوكل على الله وحده، لا يتوكل على مخلوق، فإن الله تعالى هو الذي يأتي بالحسنات كما في بعض الأدعية: «**اللهم لا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إلا أنت، ولا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلا أنت، ولا حَوْل ولا قُوَّة إلا بِكَ**»[2]. فأنت الذي تأتي بالحسنات سواءً الحسنات الدينية وهي: الأعمال الصالحة، أو الحسنات الدنيوية وهي: ما يحصل عليه العبد من الأرباح ومن المال الحلال ونحو ذلك فإنه من الله، فيوجب ذلك على العبد توحيد الله وإخلاص الدين له، ويجب عليه أن يتوكل عليه وحده، ولا يتوكل على غيره، ويثق به، والتوكل - كما فسره بعض العلماء - هو: تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيبًا ووكيلاً، ويجب عليه أن يشكر الله تعالى وحده، فيكون الشكر له وحده، والتوكل عليه وحده، فيجب على العبد أن يكثر من الاستغفار من الذنوب، ويتهم نفسه بأنه كثير الذنوب.

قوله: (**وهذه الأُمُورُ**)، وهي: الاستغفار والشكر والتوكل والتوبة ونحوها.

قوله: (**كَانَ النبي ﷺ يَجْمَعُهَا في الصلاة**)، يعني: في أدعية الصلاة، أو في الثناء على الله، (**كَمَا ثَبَتَ عنه في الصَّحِيحِ،أنه كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَه مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: رَبَّنَا ولكَ الحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه**)، وهذه جملة ليست في

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٠) من حديث عروة بن عامر ﷺ.

حديث أبي سعيد الذي بعده، وإنما هي عند البخاري[١] وغيره[٢]، من حديث رفاعة بن رافع الزرقي ﷺ أنه قال: «**كنا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ رسول الله ﷺ، فلما رَفَعَ رَأْسَهُ من الرَّكْعَةِ، قال: سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ قال رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه. فلما انْصَرَفَ رسول الله ﷺ قال: من الْمُتَكَلِّمُ آنِفًا؟ فقال الرَّجُلُ: أنا يا رَسُولَ الله. قال رسول الله ﷺ لقد رأيت بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ**». فنُسبت إلى النبي ﷺ؛ لأنه أقرها، ولم يُحفظ أنه قالها، ولعله كان يقولها بعد ذلك سرًا، فإنه إذا أقر دعاءً يحتاج إلى أن يقول به، كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَرَأَيْتُ كَأَنِّي قَرَأْتُ سَجْدَةً، فَرَأَيْتُ الشَّجَرَةَ كَأَنَّهَا تَسْجُدُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ سَاجِدَةٌ وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي عِنْدَكَ بِهَا أَجْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاقْبَلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ السَّجْدَةَ، فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَ الرَّجُلُ عَنْ كَلامِ الشَّجَرَةِ»[٣].

وفي حديث رفاعة ﷺ: لَمَّا سمعها الرسول ﷺ من ذلك الرجل أقرها بقوله:

---

(١) برقم (٧٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٧٠)، والترمذي (٤٠٤)، والنسائي (١٠٦٣)، وأحمد (٤/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي(٥٧٩)، وابن ماجه(١٠٥٣)، وابن حبان(٢٧٦٨)، والحاكم(١/ ٢١٩).

«لقد رأيت بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا»، عُلم أنه أقرها.

وأما قوله: «مِلءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ، وَكُلُّنَا لكَ عَبْدٌ». فإن هذا كله حمد لله تعالى، أي: حمدًا لو كان أجسامًا لملأ السماوات والأرض، وملأ ما بينهما، وملأ كل ما شاءه الله، فأنت يا رب أهل الثناء وأهل المجد، فنحمدك بأحق ما قاله العباد، ونعترف لك بأننا كلنا عبيد لك. ففي هذا أنه حمد الله وأنه شكر الله تعالى، وفيه بيان أن حمده سبحانه هو أحق ما يقوله العباد، وأفضل ما يتقربون به حتى يكتب الله تعالى لهم بذلك أجرًا.

ثم يقول بعد ذلك: «لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ». اعتراف بأن الله تعالى هو الذي يعطي، وإذا أعطى فلو حاول الناس أن يمنعوا عطاءه لم يقدروا، ولا معطي لما منعه، فمن منعه الله لم يقدر أحد على أن يعطيه.

قوله: «وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»، أي: صاحب الحظ لا ينفعه حظه، وهذا الحديث أخرجه بهذا اللفظ مسلم[1] وغيره[2]، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ،اللهم رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ مِلءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ...» إلى آخره.

---

(١) برقم (٤٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٤٧)، والنسائي (١٠٦٨)، وأحمد (٣/ ٨٧)، وابن حبان (٥/ ٢٣١).

قال الشارح:

وَهَذَا تَحْقِيقٌ لِوَحْدَانِيَّتِه: لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّة، خَلقًا وَقَدَرًا، وَبِدَايَة وَهِدَايَة، هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ، لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، وَلِتَوْحِيدِ الإِلهِيَّة، شَرْعًا وَأَمْرًا وَنَهْيًا، وَهو أَنَّ العِبَادَ وَإِنْ كَانُوا يُعْطَوْنَ جَدًّا: مُلكًا وَعَظَمَة وَبَخْتًا وَرِيَاسَة، فِي الظَّاهِرِ، أَوْ فِي البَاطِنِ؛ كَأَصْحَابِ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الخَارِقَة، فَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ، أي: لا يُنْجِيه وَلا يُخَلِّصُه، وَلِهَذَا قَال: «لا يَنْفَعُه مِنْكَ»، وَلَمْ يَقُل: «وَلا يَنْفَعُه عِنْدَكَ»؛ لأنه لوْ قِيل ذَلِكَ أَوْهَمَ أنه لا يَتَقَرَّبُ به إِلَيْكَ، لكِنْ قَدْ لا يَضُرُّه.

---

قال الشيخ:

قوله: «لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ...» إلى آخره، تحقيق لتوحيد الله تعالى بنوعي التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، فإنه يعترف بتوحيد الربوبية أنه سبحانه هو الذي يخلق ويقدر، وأنه هو الذي يهدي، وأنه هو الذي يعطي الممنوع، ولا مانع لما أعطاه، ولا معطي لما منعه، كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ قال: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لكَ، وَلوِ اجْتَمَعُوا عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»[1]، مع أن ذلك لا ينافي

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

فعل الأسباب، فالإنسان يبذل ما يقدر عليه من الأسباب إذا كان له حاجة عند أحد يعلم أنه سوف يقضيها، فإنه يطلبها ولا يكون ذلك سؤالاً من الناس، وإنما هذا سؤال من الله أن ييسر له هذا الشيء على يد هذا الإنسان.

وكذلك ذكر أنه تحقيق لتوحيد الإلهية شرعًا وأمرًا ونهيًا، فالله تعالى هو الذي شرع هذه الشرائع، هو الذي أمر العباد بطاعته وعبادته، والتوكل عليه ودعائه، والخوف منه ورجائه، وكذلك نهيًا هو الذي نهاهم عن المحرمات، وعن الفواحش، وعن الشرك، وعن القول عليه بغير علم.

وكذلك فيه (**أَنَّ العِبَادَ وَإِنْ كَانُوا يُعْطَوْنَ جَدًّا**)، أي: حظًا، ويعطيهم (**مُلكًا وَعَظَمَة وَبَخْتًا وَرِيَاسَة، فِي الظَّاهِرِ، أَوْ فِي البَاطِنِ**)، فإن ذلك لا ينفع ذا الجد منك الجد، فالذين يعطيهم الله في الدنيا ملكًا وعظمة ورئاسة، ويعطيهم حظًا، ويعطيهم مالًا، ويفتح عليهم، ويعطيهم قوة، لاشك أن هذا لا يعطيه إلا الله تعالى، ولا ينفعهم حظهم وإنما تنفعهم الأعمال الصالحة.

وكذلك الذين يعطيهم الله تعالى حظًا في الباطن (**كَأَصْحَابِ المُكَاشَفَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الخَارِقَة**)، مثل بعض الأولياء الذين يجري الله تعالى على أيديهم شيئًا من خوارق العادات، وتسمى كرامات الأولياء.

وكذلك ما يجري على أيدي السحرة والكهنة ونحو ذلك من الشعوذة، ومن الأشياء التي هي بخالفة للعادة، فإن ذلك من تسويل الشيطان، فلا ينفعهم ذلك عند الله تعالى، أي: لا ينجيه حظه أي: نصيبه، ولا يخلصه من عذاب الله؛ ولهذا قال: (**لا يَنْفَعُه مِنْكَ، وَلَمْ يَقُل وَلا يَنْفَعُه عِنْدَكَ؛ لأنه لَوْ قِيل**

ذَلِكَ أَوْهَمَ أنه لا يَتَقَرَّبُ به إِلَيْكَ، لكِنْ قَدْ لا يَضُرُّه). فعُرف بذلك أنه سبحانه هو الذي قدر هذه المقادير، وقدر هذه الأسباب، فإذا توكل عليه العباد فإنه سبحانه يعطيهم ويوفقهم.

قال الشارح:

فَتَضَمَّنَ هَذَا الكَلامُ تَحْقِيقَ التَّوْحِيدِ، وتَحْقِيقَ قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنه لوْ قُدِّرَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الأَسْبَابِ يَكُونُ مُسْتَقِلًا بِالمَطْلُوبِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِمَشِيئَةِ الله وَتَيْسِيرِه، لكَانَ الوَاجِبُ أَنْ لا يُرْجَى إِلا الله، وَلا يُتَوَكَّلُ إِلا عليه، وَلا يُسْأَلُ إِلا هُوَ، وَلا يُسْتَغَاثُ إِلا به، وَلا يُسْتَعَانُ إِلا هُوَ، فله الحَمْدُ، وإليه المُشْتَكَى، وَهُوَ المُسْتَعَانُ، وبه المُسْتَغَاثُ، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلا بالله، فَكَيْفَ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الأَسْبَابِ مُسْتَقِلاً بِمَطْلُوبٍ، بَل لابُدَّ مِنَ انْضِمَامِ أَسْبَابٍ أُخَرَ إليه، وَلا بُدَّ أَيْضًا مِنْ صَرْفِ المَوَانِعِ وَالمُعَارِضَاتِ عنه، حتى يَحْصُل المَقْصُودُ، فَكُلُّ سَبَبٍ فله شَرِيكٌ، وله ضِدٌّ، فَإِنْ لمْ يُعَاوِنْه شَرِيكُه، وَلمْ يَنْصَرِفْ عنه ضِدُّه، لمْ تَحْصُل مَشِيئَة.

---

قال الشيخ:

الكلام السابق متضمن لتحقيق التوحيد الذي تتضمنه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تحقيق العبادة الإلهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، توحيد الربوبية.

قوله: (فإنه لوْ قُدِّرَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الأَسْبَابِ يَكُونُ مُسْتَقِلاً بِالمَطْلُوبِ)، أي: مستقلاً بتحصيل المطلوب، (وَإِنَّمَا يَكُونُ بِمَشِيئَةِ الله وَتَيْسِيرِه)، يعني: أنه سبب يكون مؤثرًا مع أنه لا يكون إلا بمشيئة الله وتيسيره.

قوله: (لَكَانَ الوَاجِبُ أَنْ لا يُرْجَى إِلا الله)، مع هذا السبب الذي قد يفعله الإنسان كتجارة أو حرفة أو تعلم أو نحو ذلك، لو قُدر أن هذه الأسباب تكون مستقلة بالمطلوب مع أنها بمشيئة الله وتيسيره، ومع ذلك فالواجب أن لا ترجو إلا الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قوله: (وَلا يُتَوَكَّلُ إِلا عليه)، أي: وكذلك لا تتوكل إلا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧]، فالتوكل: التفويض والاعتماد، أي: تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيبًا ووكيلاً.

قوله: (وَلا يُسْأَلُ إِلا هُوَ)، أي: ويجب أن لا تسأل غيره، بل اسأله حاجتك كلها؛ لقوله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله»[1].

قوله: (وَلا يُسْتَغَاثُ إِلا به)، وحده؛ لقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال:٩]، والاستغاثة هي: الدعاء في حالة الشدة وفي حالة الحرج ونحو ذلك.

قوله: (فله الحَمْدُ، وإليه المُشْتَكَى)، فلله تعالى الحمد، أي: هو المستحق للحمد، وإليه يشتكي العباد ما يخشونه وما يخافونه، (وَهُوَ المُسْتَعَانُ)، أي: على

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

كل الأمور، (**وبه المُسْتَغَاثُ**)، أي: الذي يُدعى في حالة الشدة، (**وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إلا بالله**)، أي: لا تحول من حال إلى حال، ولا قدرة للعباد إلا به.

قوله: (**فَكَيْفَ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الأَسْبَابِ مُسْتَقِلا بِمَطْلُوبٍ، بَل لابُدَّ مِنَ انْضِمَامِ أَسْبَابٍ أُخَرَ إليه**)، ليست الأسباب ولا شيء منها يكون مستقلاً بمطلوب العبد، بل لابد أن ينضم إلى تلك الأسباب أسباب أُخر.

قوله: (**وَلا بُدَّ أَيْضًا مِنْ صَرْفِ المَوَانِعِ وَالمُعَارِضَاتِ عنه حتى يَحْصُل المَقْصُودُ**)، أي: ولابد أيضًا من صرف الموانع والمعارضات التي تمنع حصول ذلك: إما من معارضة بعض الناس وحسدهم؛ ولهذا يستعيذ بالله من شر حاسد إذا حسد، وإما ذنوب وعقوبات يقع فيها، فإذا عَرف ذلك فإنه يفعل الأسباب، ويعتقد أن الله تعالى مسبب الأسباب، فلابد أن يكون هناك أسباب أُخر، ولابد أيضًا أن تنضم إلى ذلك ـ أي: حصول ذلك الشيء ـ صرف الموانع وصرف المعارضات التي تعرض عليه، فبعد ذلك يحصل المقصود.

قوله: (**فَكُلُّ سَبَبٍ فله شَرِيكٌ وله ضِدٌّ**)، كل سبب من أسباب حصول المطلوب سواء في العبادات أو العادات فله ضد، وله شريك، وهو معاونة الله تعالى وتوفيقه، (**فَإِنْ لمْ يُعَاوِنْه شَرِيكُه**)، الذي في هذه الحالة هو الله، (**وَلمْ يَنْصَرِفْ عنه ضِدُّه**)، الذي هو حسد الناس ـ مثلاً ـ أو كذلك أعماله السيئة، إذا لم يكن ذلك (**لمْ تَحْصُل مَشِيئَتُه**) أي: مشيئتك أيها العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

قال الشارح:

وَالمَطَرُ وَحْدَه لا يُنْبِتُ النَّبَاتَ إلا بِمَا يَنْضَمُّ إليه مِنَ الهَوَاءِ وَالتُّرَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ الزَّرْعُ لا يَتِمُّ حتى تُصْرَفَ عنه الآفَاتُ المُفْسِدَة له، وَالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ لا يُغَذِّي إلا بِمَا جُعِل في البَدَنِ مِنَ الأَعْضَاءِ وَالقُوَى، وَمَجْمُوعُ ذَلِكَ لا يُفِيدُ إِنْ لَمْ تُصْرَفْ عنه المُفَسِدَاتُ.

---

قال الشيخ:

هذا مثال لما تقدم: أن الأسباب لا تؤثر وحدها، فمثَّل بالمطر مع أنه مطر ينزل من السماء، وأنه عذب فرات، يحصل به النبات، ولكن لابد أن يكون هناك أسباب تنضم إلى المطر، فإذا لم يكن التراب قابلًا للنبات كالأرض السبخة لم يحصل النبات، وكذلك إذا كان ينزل على أرض صخرية، لم يحصل النبات، ولابد أيضًا من الهواء، الذي يكون سببًا في جفاف الأرض، وسببًا في نباتها.

كذلك مثَّل بالزرع الذي يزرعه الناس، والغرس الذي يغرسونه، لا يتم الزرع حتى تُصرف عنه الآفات المفسدة له، فقد يوجد في الأرض ما يفسد النبات من أمراض، ومن آفات ونحو ذلك ومن دواب وما أشبهها، فلابد أن تصرف عن الأرض تلك الآفات حتى يتم الزرع، وتحصل الثمرة المعتادة.

كذلك الطعام والشراب لا يغذي، ولا يحصل به غذاء وشبع إلا بما جعله الله تعالى في البدن من الأعضاء والأعصاب والقوى التي جعلها الله تعالى في

البدن، حتى يكون سببًا في انتفاعه بذلك الغذاء.

يقول: (وَعَجْمُوعُ ذَلِكَ لا يُفِيدُ إِنْ لَمْ تُصْرَفْ عنه الْمُفْسِدَاتُ)؛ ولهذا فإن المريض إذا اشتد مرضه لا يتقبل الطعام، ولا يكون له غذاءً بل لا يفيده حتى يزول عنه ذلك المرض، الذي كدر عليه ونحو ذلك، وعلى هذا فإن هذه كلها أسباب جعلها الله تعالى أسبابًا، مع أنه سبحانه هو مسبب الأسباب وخالق كل شيء، فالعباد عليهم أن يفعلوا الأسباب، وعليهم أن يثقوا بأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٧]، فالله تعالى هو الذي جعل الأرض قابلة، وهو الذي جعل في جوفها هذا الماء الذي يُستخرج من جوفها، حتى يُسقى به ذلك الزرع الذي على وجه الأرض؛ وكذلك لو شاء لأهلك ذلك الزرع فجعله حطامًا؛ وكذلك بقية الغراس، والغراس والأشجار لو شاء الله ما أثمرت ولا نفعت، فهذا مثال.

وكذلك أيضًا التجار، فالتاجر يفعل الأسباب لطلب الأرباح، ويثق بأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، وأنه إذا لم يوفقه للربح والنجاح فإنه لا يستفيد من التجارة، فقد تكون سببًا للكساد، وسببًا للخسارة الظاهرة.

وهكذا أيضًا الحرف اليدوية التي علمها الله تعالى الإنسان، علمه الصناعة والحدادة والنجارة والخياطة والكتابة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا

﴿ لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:٥]، فجعل هذه أسبابًا لحصول منفعة من آثار ذلك، ولو شاء لما أثرت، ولما حصلت من آثارها مسبباتها، فالعباد يتعلمون هذه الحرف ثم بعد ذلك يزاولون تلك الحرف التي جعلها الله أسبابًا، فكذلك أيضًا الأعمال الأخروية، جعلها الله أسبابًا للسعادة في الدنيا.

قال الشارح:

وَالمَخْلُوقُ الذي يُعْطِيكَ أَوْ يَنْصُرُكَ، فَهُوَ - مَعَ أَنَّ الله يَجْعَلُ فيه الإِرَادَة وَالقُوَّة وَالفِعْل - فَلا يَتِمُّ مَا يَفْعَلُه إِلا بِأَسْبَابٍ كثيرة، خَارِجَة عَنْ قُدْرَتِه، تُعَاوِنُه على مَطْلُوبِه، وَلوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا، وَلا بُدَّ أَنْ يُصْرَفَ عَنِ الأَسْبَابِ المُتَعَاوِنَة مَا يُعَارِضُهَا وَيُمَانِعُهَا، فَلا يَتِمُّ المَطْلُوبُ إِلا بِوُجُودِ المُقْتَضِي وَعَدَمِ المَانِعِ.

---

قال الشيخ:

يقول الشارح - رحمه الله - وهو يتكلم عن الأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابًا يُستعان بها، يقول: (وَالمَخْلُوقُ الذي يُعْطِيكَ أَوْ يَنْصُرُكَ..)، صحيح أن كل من يريد أن ينصرك أو يعينك أو يساعدك، لا يتم له ما يفعله من مساعدتك أو إعطائك إلا بأسباب كثيرة، خارجة عن قدرته، تعينه وتساعده على مطلوبه، مع أن الله تعالى هو الذي يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل، فلا يقدر على أن يساعدك إلا بوجود تلك الأسباب، ولو كان ملكًا مطاعًا؛ كذلك لابد أن يُصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمانعها، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضي وعدم المانع، فالمقتضي: هو الذي يكون سببًا في الوجود؛ وكذلك عدم المانع الذي يكون سببًا في عدم وجوده، وفي عدم تيسره.

قال الشارح:

وَكُلُّ سَبَبٍ مُعَيَّنٍ فَإِنَّمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْمُقْتَضِي، فَلَيْسَ فِي الوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ مُقْتَضٍ تَامٌّ، وَإِنْ سُمِّي مُقْتَضِيًا، وَسُمِّي سَائِرُ مَا يُعِينُه شُرُوطًا ـ فَهَذَا نِزَاعٌ لفْظِي. وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي المَخْلُوقَاتِ عِلة تَامَّة تَسْتَلزِمُ مَعْلُولَها فَهَذَا بَاطِلٌ.

وَمَنْ عَرَفَ هَذَا حَقَّ المَعْرِفَة انْفَتَحَ له بَابُ تَوْحِيدِ الله، وَعَلِمَ أنه لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسْأَل غيره، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُعْبَدَ غيره، وَلا يُتَوَكَّل على غيره، وَلا يُرْجَى غيره.

---

قال الشيخ:

كل سبب معين، فإنما هو جزء من المقتضي، أي: جزء من الذي يقتضي حصول ذلك المسبب.

قوله: (فَلَيْسَ فِي الوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ مُقْتَضٍ تَامٌّ وَإِنْ سُمِّي مُقْتَضِيًا)، لا يتصور وإن سمي مقتضيًا، فلابد أن يكون معه ما يساعده على ذلك، ولابد أيضًا أن تمتنع عنه الموانع والحوائل، التي تحول بينه وبين ما يقتضيه من الفعل.

قوله: (وَسُمِّي سَائِرُ مَا يُعِينُه شُرُوطًا ـ فَهَذَا نِزَاعٌ لفْظِي)، قد يُسمى مقتضيًا، ويسمى سائر ما يعينه شروطًا، ولكن يقول: هذا نزاع لفظي، (وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي المَخْلُوقَاتِ عِلة تَامَّة تَسْتَلزِمُ مَعْلُولَها فَهَذَا بَاطِلٌ)، ليس هناك علة، غير عدة أسباب وانتفاء موانع. فلابد أن العبد يعرف مثل هذه الأسباب حق المعرفة، حتى يتبين له التوحيد الصحيح الذي لا يستحقه إلا الله تعالى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كله، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ على مَا جَاؤُوا به.

---

قال الشارح:

الإِشَارَة (بِذَلِكَ) إلى مَا تَقَدَّمَ، مِمَّا يَجِبُ الإِيمَانُ به تَفْصِيلاً، وقوله: (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه...) إلى آخِرِ كَلامِه، أي: لا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ بِأَنْ نُؤْمِنَ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرَ بِبَعْضٍ، بَلْ نُؤْمِنُ بِهِمْ وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ، فَإِنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، كَافِرٌ بِالْكُلِّ.

قَالَ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، فَإِنَّ المعنى الذي لأَجْلِه آمَنَ بِمَنْ آمَنَ به مِنْهُمْ، مَوْجُودٌ في الذي لَمْ يُؤْمِنْ به، وَذَلِكَ الرَّسُولُ الذي آمَنَ به قَدْ جَاءَ بِتَصْدِيقِ بَقِيَّةِ المُرْسَلِينَ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِبَعْضِ المُرْسَلِينَ كَانَ كَافِرًا بِمَنْ في زَعْمِه أنه يُؤْمِنٌ به؛ لأَنَّ ذَلِكَ الرَّسُولَ قَدْ جَاءَ بِتَصْدِيقِ المُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ، فَكَانَ كَافِرًا حَقًّا، وَهُوَ يَظُنُّ أنه مُؤْمِنٌ، فَكَانَ مِنَ الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

---

قال الشيخ:

يجب على كل مسلم أن يؤمن بما تقدم مما يجب الإيمان به، ومن ذلك الإيمان بالرسل كلهم دون أن يؤمن بالبعض دون البعض، فلا يُفرق بين أحد من الرسل، كما فعل ذلك النصارى، الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كفروا بيحيى - عليه السلام - وغيره من الرسل، وكفروا بمحمد ﷺ، فالمؤمنون لا يفرقون بين أحد من الرسل، بل يؤمنون بهم كلهم، بخلاف الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل نحن نصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض يعتبر كافرًا بالجميع، دليل ذلك هذه الآية، وهي قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، هذه حالتهم، وهؤلاء هم اليهود الذين يؤمنون بموسى عليه السلام، ويكفرون بعيسى عليه السلام، ويكفرون بمحمد ﷺ، ويتخذون بين من يؤمنون به ومن يكفرون به سبيلاً ومنهجًا وطريقًا يسلكونه، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾، أي: فإن الذي آمنتم به من الرسل فيه ما في الذي كفرتم به، فكلهم مرسل من عند الله تعالى، وما يوجد في الذي آمنتم به من الصفات والمعجزات يوجد في الذي لم تؤمنوا به، بل كفرتم به من الرسل، بل قد يكون ذلك الرسول الذي تؤمنون به وتصدقونه قد جاء بتصديق بقية إخوانه المرسلين، فإن كل نبي يصدق من قبله من الأنبياء، فكل رسول يصدق بجميع المرسلين الذين جاؤوا بالرسالة، وجاؤوا بالشريعة، فالواجب التصديق بهم كلهم، فمن كذَّب واحدًا منهم فقد كذَّب الجميع، قال

الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أنهم ما كذبوا إلا بنوح عليه السلام، ولكن نوحًا ـ عليه السلام ـ يصدق من قبله ومن بعده، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]، مع أنهم ما كذبوا إلا بنبيهم هود عليه السلام، ولكن هودًا ـ عليه السلام ـ مصدق لمن بعده ولمن قبله من المرسلين، وحيث إنهم كذبوا به، فاعتبروا مكذبين بجميع الرسل، فإذا لم يؤمنوا بأحد من المرسلين ولو بواحد، فإنهم يعتبرون قد كفروا بجميع المرسلين، ولو ادعوا أنهم يؤمنون بذلك البعض، كالذين يقولون: نحن نؤمن بموسى ـ عليه السلام ـ ومع ذلك يكفرون بعيسى ـ عليه السلام ـ وبمحمد ﷺ، فإن ذلك الرسول الذي جاء بتصديق المرسلين يجب أن يصدقوه، فإن عيسى ـ عليه السلام ـ صدق بمحمد ﷺ وبشَّر به، فإذا كذبوا محمدًا ﷺ فقد كفروا بجميع المرسلين، ولا ينفعهم إيمانهم بمن آمنوا به؛ لأنهم ردوا رسالة من جاءهم من المرسلين، مع أنهم يقولون: نحن مؤمنون به، فيكونون من الذين قال الله فيهم: إنهم من الأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، أي: خسروا أعمالهم، وضاع سعيهم، وهم يعتقدون أنهم على صواب وعلى هدى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللهَ عَارِفِينَ، وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَدْلِهِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ. وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تعالى مَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نَكِرَتِهِ، الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وِلَايَتِهِ. اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، ثَبِّتْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ.

---

قال الشارح:

فقوله: (وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ)، رَدٌّ لِقَوْلِ الخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ، الْقَائِلِينَ بِتَخْلِيدِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ فِي النَّارِ، لَكِنَّ الخَوَارِجَ تَقُولُ بِتَكْفِيرِهِمْ، وَالمُعْتَزِلَةَ بِخُرُوجِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ، لَا بِدُخُولِهِمْ فِي الْكُفْرِ، بَلْ لَهُمْ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ الْكَلَامِ على قَوْلِ الشَّيْخِ ـ رحمه الله ـ: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّه).

وقوله: (وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ)، تَخْصِيصُه أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، يُفْهَمُ منه أَنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ غَيْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ نَسْخِ تِلْكَ الشَّرَائِعِ به، حُكْمُهُمْ مُخَالِفٌ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ. وفي ذَاكَ نَظَرٌ، فَإِنَّ النبي ﷺ أَخْبَرَ أنه: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ

فِي قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ إِيمَانٍ»[1]. وَلَمْ يَخُصَّ أُمَّتَه بِذَلِكَ، بَلْ ذَكَرَ الْإِيمَانَ مُطْلَقًا، فَتَأَمَّلْه. وَلَيْسَ فِي بَعْضِ النُّسَخِ ذِكْرُ الْأُمَّة.

---

قال الشيخ:

عرفنا من عقيدة أهل السنّة أنّ المؤمنين لا يخلّدون في النار، وإن دخلوها، فإنّهم يخرجون منها، والمراد الذين ماتوا وهم مصرّون على ذنوبهم الكبيرة التي فيها وعيد؛ لأنّ الخوارج تمسّكوا بأحاديث ونصوص فيها وعيد شديد، لمن عمل ذنبًا أو كبيرة، فأخرجوه من دائرة الإسلام، وأدخلوه في دائرة الكفر، واستحلّوا دماءهم وأموالهم بمجرّد ارتكاب الذنب. والمعتزلة أخرجوهم من الإسلام، ولم يدخلوهم في الكفر، وجعلوهم بمنزلة بين منزلتين، وحكموا بخلودهم في النار، بموجب النصوص التي فيها وعيد، وجاء أهل السنّة فقالوا: إنّهم تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفر لهم ذنوبهم، وأدخلهم الجنّة على أوّل وهلة، وإن شاء أدخلهم النار تطهيرًا لهم لما اقترفوه من الذنوب، وبعدما يمحّصون ويهذّبون وينقّون؛ فإنّهم يخرجون من النار ويدخلون الجنّة، فمنهم من يطول بقاؤه في النار ألوفًا من السنين، وبعضهم من لا يبقى فيها إلا قليلًا، على قدر ذنوبهم أو بدعهم، ومآلهم إلى دخول الجنّة ولو بعد مدّة؛ لأنّهم من أهل الإيمان وأهل التوحيد وأهل التصديق، وإن كان فيهم شيءٌ من الذنوب اقترفوها.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٥١٧).

وعلى هذا، كيف تحمل النصوص التي فيها الوعيد بعدم دخول الجنّة لبعض العصاة؛ وذلك لأنه وردت أحاديث كثيرة وآيات ظاهرة الدلالة على أنّ العصاة في النار، سواء يخلدون فيها أو يدخلونها، أو يحرّمون على الجنّة مثل قوله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ»(١)، أي: نمام، وقوله: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ من كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ»(٢)، وقوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»(٣)، وكذلك الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ [الأنفال: ١٦]، ومثل قوله في آكل الرِّبا: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٩٣]؛ من عاد إلى أكل الرِّبا فتوعّدهم الله بأنّ لهم النار؛ لأنّ الرّبا من الكبائر، لا من الكفر والشرك، وكذلك الوعيد في قتل النفس قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا﴾ [النساء:٩٦].

هذه النصوص الوعيديّة تمسّك بها القدريّة والخوارج، وجعلوها نصًّا في أنّ العاصي المصرّ على المعصية لا يخرج من النار، بل يدخل فيها ويخلَّدُ، وتمسّكوا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٦).

بالآيات التي فيها عدم الخروج من النار؛ كقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وكقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، وكقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وأهل السنّة يقولون: هذه النصوص فيها وعيد شديد، فنجريها على ظاهرها؛ لتكون أبلغ في الزجر عن المعاصي؛ لأنّ التهاون في المعاصي يُعدّ ذنبًا أكبر، فلأجل ذلك لا نتأوّلها، بل نجريها على ظاهرها لتكون زاجرة، ونؤكّدها ونستدلّ بالأخبار الأخرى، وبالأحاديث الكثيرة التي فيها الوعيد الشديد على الذنوب، والتي فيها إهلاك الله تعالى لمن أذنب أيّ ذنب. لو تتبعناها لوجدناها أحاديث كثيرةً تدلّ على ذلك، فمن أراد أن يتوسّع فيها فليقرأ الأحاديث التي ذكرها ابن القيّم في كتابه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»؛ حيث أورد في أوّله أحاديث كثيرة وأدلّة كثيرة تدلّ على أنّ الله تعالى يعاقب على الذنوب، ولو لم تصل إلى الكفر، وأنّه بسبب الذنوب أهلك أقوامًا، واستدلّ أيضًا بما ورد في بعض الآثار: «أوحى الله إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك مائة ألف: أربعين ألفًا من خيارهم، وستين ألفًا من شرارهم، قال: يا رب، تهلك شرارهم، فما بال خيارهم؟ قال: إنهم يدخلون على الأشرار فيواكلونهم، ويشاربونهم، ولا يغضبون بغضبي»[1]. فعاقب الأخيار في الدنيا بالهلاك، ولم يكن لهم ذنب إلا

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٥٣)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣١٠) عن الوضين بن عطاء الشامي.

أنّهم جالسوا الأشرار وآكلوهم، ولم يذكر ذنب الأشرار؛ هل هو يصل إلى الكفر، أو من المعاصي، وإذا كان من المعاصي فالدليل واضح على أن العصاة متوعَّدون بالهلاك في الدنيا وبالعذاب أو الوعيد في الآخرة، ولما روي: «**أوحى الله ـ عز وجل ـ إلى جبريل ـ عليه السلام ـ أن اقلب مدينة كذا وكذا بأهلها، فقال: يا رب، إن فيهم عبدك فلان لم يعصك طرفة عين، فقال: اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط**»[1]. فأمر بإهلاكه مع أنّه لم يذكر له ذنب إلا أنّه لا يغار لله، ولا يتمعّر وجهه في ذات الله، وفي ذلك دليل على أنّ هذا ذنب إقرار العصاة، وعدم الغضب لذات الله، ولو لم يعملوا الذنب، ولكنّه لَمَّا لم يغضب لغضب الله؛ استحقّ أن ينزل به من الوعيد والعذاب ما نزل على المعذّبين.

وهذا يدلّ على أنّ أهل المعاصي على خطر في الدنيا والآخرة، وذلك أنّهم لو لم يكن إلاّ غضب الله عليهم في الدنيا، ولو لم يكن إلا أثر ذلك الغضب عليهم في الآخرة، ولو لم يكن للعصاة عقوبة إلاّ أنّهم إذا غضب الله عليهم انتقم منهم في الدنيا أيّ انتقام، ولو لم يصل ذنبهم إلى الكفر. فهذا مخيف. وكذلك من آثار غضب الرّب عليهم أن يدخلهم دار العذاب، ودار العذاب هي النار، ولو لم يدخلوها إلا ساعةً لاحترقوا، فكيف بما رُوي أنّهم يمكثون فيها عشرات السنين، وربّما مئات أو ألوف السنين، يعذّبون فيها على قدر ذنوبهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ولا شكّ أنّ هذا عذاب شديد، لو اقتصر عذابهم ساعةً، لكان أولى بهم أن لا يقترفوا ذنبًا، وأن لا يصرّوا على معصية أيًا كانت تلك المعصية، ولما جاءت هذه الأحاديث وهذه الآثار في وعيدهم؛ جاء في عقيدة أهل السنّة أنّنا نخاف على العصاة، فنقول لهم: إنّنا نخاف عليكم، فلا نأمن عليكم نقمة الله، ولا نأمن عذابه، فلا تأمن أيها العاصي أن يأخذك الله على غرة وعلى غفلة، لا تأمن أن يعذّبك أيّ عذاب حتى ولو كان عذابًا هيّنا.

روي عن بعض السلف أنه قال: لو توعّدني الله ـ إذا عصيته ـ أن يحبسني في الحمّام لكان ذلك وعيدًا شديدًا، يستحقّ أن أهرب من المعصية حتّى لا أحبس في الحمّام، فكيف بالحبس في النّار التي تلتهب وتشتدّ على أهلها، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:٨]، فإذا كان هذا وعيدًا بالعذاب الذي هو عذاب النار، فإنّه يحمل المؤمن المصدّق على الهرب من أسباب العذاب، حتى ولو كان يرجو في النهاية أن يخرج من النار، وأن يدخل الجنّة. فعند أهل السنّة أنّ كل من كان من أهل التوحيد والإيمان كان مآله إلى دخول الجنّة، ولو عذِّب في النار ما عذِّب، ولكن نخاف عليه ونخوِّفه.

كذلك أيضًا لَمّا وردت الأدلة الكثيرة في نجاة أهل التوحيد، آمن أهل السنة

بذلك، فصدقوا بأحاديث الشفاعة، والتي منها قوله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بها، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ»[1]، وكذلك في حديث عتبان بن مالك ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى»[2]، وأشباه ذلك. وهناك أحاديث الإخراج من النار؛ وأنّ الله تعالى يقول لنبيه ﷺ في حديث الشفاعة: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ من كان في قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ من إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ من النَّارِ»، وفي النهاية أنّ الله تعالى يقول: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ منها من قال: لَا إِلَهَ إلا الله»[3].

فدل ذلك على أن أهل (لا إله إلا الله) يخرجون من النار؛ لأنّهم كانوا موحّدين، ولم يشركوا بالله شيئًا؛ لا بالاعتقاد ولا بالأعمال، وكانوا على إيمانٍ راسخ في قلوبهم، ولكنّهم نزعتهم النفس إلى شيء من الذنوب، فأصرّوا عليها، ولم يستغفروا حتّى أتتهم آجالهم. فإنّ من حكمة الله أنّهم مؤمنون مصدّقون، ولكن توعّدهم بسبب ما اقترفوه من الذنوب، ولكن يخرجهم إذا شاء بفضله ورحمته، فنحن نخاف على العصاة، ولا نأمن عليهم، نقول لهم: إنّكم على خطر عظيم، إذا رأيت العاصي المصرّ على المعصية، وقد تمادى في معصيته، تحتّم عليك أن تحذّره، وتقول له: إنّك على خطرين؛ خطر عقوبة في الدنيا أن يعاجلك الله بها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٥)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٥٣).

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٤).

وأن ينتقم منك، وخطر عقوبة في الآخرة، بأن يدخلك النار وهي دار عذابه، ولو كان مآلك بتوحيدك واعتقادك أن تخرج منها، ولكن لا تأمن العذاب، إنّك لا تستطيع أن تصبر عليه، إذا كانت النار التي توعّد الله بها كما ورد فيها أنّها شديدة الوقود والالتهاب، وأنّ حرّها شديد، وقعرها بعيد، وطعام أهلها الزقوم، وشرابهم المهل والصديد، ولباسهم القطران والحديد، وعذابهم أبدًا في مزيد، فكيف بالصبر عليها؟!

لَمَّا قال النبيّ ﷺ: «**نَارُكُمْ جُزْءٌ من سَبْعِينَ جُزْءًا من نَارِ جَهَنَّمَ**»، قِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إن كانت لَكَافِيَةً، قال: «**فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**»[1]. إذا كانت نار جهنم تضاعف على نارنا بتسعة وستين جزءًا، فمن يصبر على العذاب بها؟ حتّى ذكر الحميم، وذكر الزقوم والمهل والصديد، وأخبر بقوله فيها: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وبقوله في شرابهم: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله فيه أيضًا: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، فهذا يحصل لكلّ من دخل النار، وبهذا يخيف المؤمن، والمؤمن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المصدّق لا بدّ أنّه يخاف من هذا العذاب ولو كان لأجل قصير.

فإذًا نحن نخاف على العصاة ولا نأمن عليهم عذاب الله، ونقول لهم: لا تأمنوا مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، ولو تعلّقتم وتشبّثتم بالأدلّة التي فيها الوعد، والتي فيها إخراج العُصاة من النار، والتي فيها تحريم أهل التوحيد على النار، ولكن لا تأمنوا من النار ولو جزءًا يسيرًا فتوبوا إلى ربّكم، وأصلحوا أعمالكم، هذا هو الجمع بين هذه الأحاديث؛ يعني أنّ أهل السنّة تمسّكوا بأحاديث الشفاعة، والتي فيها إخراج أهل التوحيد من النار، وقالوا: ربّما يمكثون فيها عشرات السنين أو مئاتها أو ألوفها. وأهل الوعيد تمسّكوا وتشدّدوا بالأدلّة التي فيها دخول النار، والوعيد بالنار على بعض المعاصي.

والجمع بينهما أنّه إذا لم يغفر الله فلا بدّ من أن يدخلوا النار، ثم بعد ذلك يخرجون منها برحمة الله أرحم الراحمين، وشفاعة الشافعين، ولا مانع أن يطلق الخلود على الدوام الطويل، ولا مانع أن يطلق حرمان الجنّة أو حرمان دخولها على حرمان الدخول أوّل وهلة، أو نحو ذلك، والله هو الحكيم في أمره، وكلام الله وكلام رسوله لا يمكن أن ينقض بعضه بعضًا، بل كلّه حقّ، فمتى أمكن الجمع بينهما اعتقدنا صحته.

قال الشارح:

وقوله: (فِي النَّارِ)، مَعْمُولٌ لقوله: (لَا يُخَلَّدُونَ)، وَإِنَّمَا قَدَّمَه لِأَجْلِ السَّجْعَة، لَا أَنْ يَكُونَ (فِي النَّارِ) خَبَرًا لقوله: (وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ)، كَمَا ظَنَّه بَعْضُ الشَّارِحِينَ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْكَبَائِرِ على أَقْوَالٍ:

فَقِيلَ: سَبْعة.

وَقِيلَ: سَبْعَة عَشْرَ.

وَقِيلَ: مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ على تَحْرِيمِه.

وَقِيلَ: مَا يَسُدُّ بَابَ الْمَعْرِفَة بالله.

وَقِيلَ: ذَهَابُ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ.

وَقِيلَ: سُمِّيَتْ (كَبَائِرَ) بِالنِّسْبَة وَالْإِضَافَة إلى مَا دُونَهَا.

وَقِيلَ: لَا نَعْلَمُ أَصْلًا، أَوْ: أَنَّهَا أُخْفِيَتْ كَلَيْلَة الْقَدْرِ.

وَقِيلَ: إِنَّهَا إلى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا نَهَى الله عنه فَهُوَ كَبِيرَة.

وَقِيلَ: إِنَّهَا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا حَدٌّ أَوْ تُوُعِّدَ عَلَيْهَا بِالنَّارِ، أَوِ اللَّعْنَة، أَوِ الْغَضَبِ، وَهَذَا أَمْثَلُ الْأَقْوَالِ.

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي تَعْرِيفِ الصَّغَائِرِ:

مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الصَّغِيرَة مَا دُونَ الْحَدَّيْنِ: حَدِّ الدُّنْيَا وَحَدِّ الْآخِرَة.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ ذَنْبٍ لَمْ يُخْتَمْ بِلَعْنَة أَوْ غَضَبٍ أَوْ نَارٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الصَّغِيرَة مَا لَيْسَ فِيهَا حَدٌّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا وَعِيدٌ فِي الْآخِرَة،

وَالمُرَادُ بِالْوَعِيدِ: الْوَعِيدُ الخَاصُّ بِالنَّارِ أَوِ اللَّعْنَةِ أَوِ الْغَضَبُ، فَإِنَّ الْوَعِيدَ الخَاصَّ فِي الْآخِرَةِ كَالْعُقُوبَةِ الخَاصَّةِ فِي الدُّنْيَا، أَعْنِي المَقْدِرَة، فَالتَّعْزِيرُ فِي الدُّنْيَا نَظِيرُ الْوَعِيدِ بِغَيْرِ النَّارِ أَوِ اللَّعْنَةِ أَوِ الْغَضَبِ.

وَهَذَا الضَّابِطُ يَسْلَمُ مِنَ الْقَوَادِحِ الْوَارِدَةِ على غيره، فإنه يَدْخُلُ فيه كُلُّ مَا ثَبَتَ بِالنَّصِّ أنه كَبِيرَة، كَالشِّرْكِ، وَالْقَتْلِ، وَالزِّنَا، وَالسِّحْرِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلِ الرِّبَا، وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَتَرْجِيحُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ وُجُوه:

أَحَدُهَا: أنه هُوَ المَأْثُورُ عَنِ السَّلَفِ، كَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُيَيْنَة، وَابْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمْ.

الثاني: أَنَّ الله تعالى قَالَ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١]. فَلَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْوَعْدَ الْكَرِيمَ مَنْ أُوعِدَ بِغَضَبِ الله وَلَعْنَتِه وَنَارِه، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُقَامَ عليه الحَدُّ لَمْ تَكُنْ سَيِّئَاتُه مُكَفَّرَة عنه بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ مَرْجِعُه إِلى مَا ذكره الله ورَسُولُه مِنَ الذُّنُوبِ، فَهُوَ حَدٌّ مُتَلَقًّى مِنْ خِطَابِ الشَّارِعِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ يُمْكِنُ الْفَرْقُ به بَيْنَ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، بِخِلَافِ تِلْكَ الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: سَبْعٌ، أَوْ سَبْعَ عَشْرَ، أَوْ إِلى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ، مُجَرَّدُ دَعْوَى.

وَمَنْ قَالَ: مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ على تَحْرِيمِه دُونَ مَا اخْتَلَفَتْ فيه، يَقْتَضِي أَنَّ شُرْبَ الخَمْرِ، وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ، وَالتَّزَوُّجَ بِبَعْضِ المَحَارِمِ، وَالْمُحَرَّمَ بِالرَّضَاعَة وَالصِّهْرِيَّة، وَنَحْوَ ذَلِكَ، لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ! وَأَنَّ الحَبَّة مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالسَّرِقَة لَهَا، وَالْكِذْبَة الْوَاحِدَة الخَفِيفَة، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْكَبَائِرِ! وَهَذَا فَاسِدٌ.

وَمَنْ قَالَ: مَا سَدَّ بَابَ المَعْرِفَة بالله، أَوْ ذَهَابَ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ، يَقْتَضِي أَنَّ شُرْبَ الخَمْرِ، وَأَكْلَ الخِنْزِيرِ وَالمَيْتَة وَالدَّمِ، وَقَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ، لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ! وَهَذَا فَاسِدٌ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا سُمِّيَتْ كَبَائِرَ بِالنِّسْبَة إِلَى مَا دُونَهَا، أَوْ كُلُّ مَا نَهَى الله عنه فَهُوَ كَبِيرَة، يَقْتَضِي أَنَّ الذُّنُوبَ فِي نَفْسِهَا لَا تَنْقَسِمُ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ! وَهَذَا فَاسِدٌ؛ لأنه خِلَافُ النُّصُوصِ الدَّالَّة على تَقْسِيمِ الذُّنُوبِ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَا تُعْلَمُ أَصْلًا، أَوْ إِنَّهَا مُبْهَمَة، فَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِه أنه لَا يَعْلَمُهَا، فَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَهَا غيره. والله أَعْلَمُ.

---

قال الشيخ:

قال صاحب المتن: (وَأَهْلُ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ)، يعني: نعتقد أنّ أهل الكبائر لا يخلّدون في النار إذا دخلوها، ولكن يمكثون فيها بقدر ذنوبهم، ثم يخرجون، ولَمَّا ذكر أنّ هذا قولنا في أهل الكبائر احتيج إلى معرفة الكبيرة ما هي؟ وذلك لأنّ الله تعالى قسّم الذنوب إلى قسمين: كبائر وسيّئات.

فقال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١]. فجعل هناك كبائر وهناك سيّئات، ولا شكّ أنّ الكبائر سيئات، ولكنها كبيرة، والسيّئات التي دونها تسمّى صغائر.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم:٣٢]، فقسّمها قسمين: كبائر ولَمَم، واللّمم: هو مقدمات الذنوب.

وقد ثبت عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: ما رأيت شيئًا أَشْبَهَ باللَّمَمِ مِمَّا قال أبو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ على ابن آدَمَ حَظَّهُ من الزِّنَى أَدْرَكَ ذلك لَا مَحَالَةَ، فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك أو يُكَذِّبُهُ**»(١). فجعل التصديق أو التكذيب بالفعل الذي هو الزنى بالفرج، وجعل هذه مقدّمات، فجعلها هي اللّمم، وكان تحريمها من باب سدّ الذرائع؛ لأنّها من باب الوسائل، فالأصل هو الزنى، الذي حرّمت هذه الأشياء لأجله، وهذه الأشياء من الكبائر، توعّد الله عليه بقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، وقرنه بالشرك والقتل، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان:٦٨]؛ فجعل الزنى من الكبائر التي توعّد عليها بالآثام والعذاب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

فبذلك نعرف أنّ الذنوب قسمان: كبائر وصغائر، وعلى هذا إذا قلت: ما حدّ الكبيرة حتّى نتجنّبها فتغفر لنا الصغيرة؟ نقول: الكبائر هي الذنوب الفاحشة التي سمّيت فاحشة، والتي تُوُعِّد عليها إمّا بحدٍّ في الدنيا، أو بعذاب في الآخرة، كالشرك والقتل والزنى والرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، هذه توعد عليها بعذاب في الآخرة.

والسرقة والقذف والسكر، هذه قد جعل فيها حدّ في الدنيا، وهو جلد أو تفسيق، أو نحو ذلك.

فإذا سمعنا ـ مثلًا ـ قوله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»[1]، وقوله: «**النَّائِحَةُ إذا لم تَتُبْ قبل مَوْتِهَا تُقَامُ يوم الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ من قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ من جَرَبٍ**»[2]، نعدّ هذا من الكبائر مثل.

وكذلك إذا أطلق على الذنب أنّه كفر، كقوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي من أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ في الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ في الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ**»[3]، أو«**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[4]، وأشباه ذلك، نقول: هذه كلّها من الكبائر.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٢).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٢).

(٤) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

وقد ثبتت بعض الأحاديث التي فيها عدّ الكبائر، كقوله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»[١]، وكقوله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟»، قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَجَلَسَ وكان مُتَّكِئًا فقال: «ألا وَقَوْلُ الزُّورِ، ألا وَشهادة الزُّورِ»[٢]، فهذه جعلها من أكبر الكبائر، وكذلك عدّ ﷺ اليمين الغموس من الكبائر[٣]، وسميت بذلك؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار.

وقد ألف العلماء كتبًا في الكبائر، فقد ألّف فيها الإمام الذهبي كتابه المشهور «كتاب الكبائر»، وأوصلها إلى سبعين كبيرةً، جمع فيها ما وقف عليه وإن كان قد أدخل بعضها في بعض، وجاء بعده ابن حجر الهيتمي، وألّف كتابه الكبير الذي سمّاه «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، وأوصلها إلى أربعمائة بتفصيل في بعضها، وذلك دليل على أنّه لا نهاية لها، وأنّ الذنوب كثيرة، وأيضًا هناك ذنوب في هذا الزمن لم تكن معروفة من قبل، فتضاف إلى هذا العدد، وبذلك يعرف بأنّ الذنوب كثيرة، وأنّه لا تحصر في سبع ولا في سبعين، كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السّبع»[٤]. وقد تصل إلى سبعمائة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، الذي أخرجه البخاري (٦٦٧٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥٥)، والطبري (٥/ ٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٧٣).

وقد يقال أيضًا: الكبيرة ما أصرّ عليه صاحبه، ولو كان صغيرة، ولذلك قالوا: «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»، ولعلّ ذلك تفسير لما ورد في الحديث في ذلك الرجل الذي أَذْنَبَ ذَنْبًا فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لي، فقال رَبُّهُ: «**أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي**»، ثُمَّ مَكَثَ ما شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فقال: «**أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي**»، ثُمَّ مَكَثَ ما شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لي، فقال: «**أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ ما شَاءَ**»[1]، فجعل هذه المعرفة سببًا للمغفرة، يعني: الاستغفار بعد الذنب سبب لمحوه.

نقول: إنّ الإصرار على الذنب ولو كان صغيرًا يصيّره كبيرًا؛ لأنّه يدلّ على التهاون في ذلك الذنب، وبما ورد من الوعيد، ويدلّ على أنّه لم يهتمّ بما ورد فيه من الوعيد، وتهاون بغضب الله عليه، وتهاون بما جاء في تحريمه فأصرّ عليه، واستمرّ عليه، فإذا استمرّ على شيء يسير، كأن يكون أكلًا يسيرًا للحرام، ولكنّه أصرّ عليه فإنه يصبح كبيرًا، وإذا أصرّ على الكذب ولو يسيرًا، كذبة أو كذبتين في الشّهر، فإنّ هذا يصبح ذنبًا كبيرًا، وإذا أصرّ على النظر إلى النساء المتبرّجات، أو على النظر إلى صورهن، عُدّ إصراره كبيرة من الكبائر، وإذا أصرّ على السرقة ولو يسيرة، وإذا أصرّ على القذف والسباب والشتائم واللّعن، وإذا أصرّ على السماع المحرّم للغناء

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ونحوه، وإذا أصرّ على النظر في الصور الفاتنة، واستمرّ على ذلك، يصير هذا الإصرار ذنبًا يوافق ما ورد فيه من الوعيد، وعُدّ كبيرةً من الكبائر.

وأمّا التعريفات التي مرّت، فكلّها تقريبيّة، كلٌّ يقرّب الكبيرة كما يظهر له، والكبائر هي الذنوب التي تسدّ باب المعرفة إلى الله تعالى، ولو كان هذا التعريف ليس بواضح، وكذلك التعريفات الأخرى التي فيها أنّ الكبائر: ما توعّد عليه بوعيد أو بعذاب، أو بنفي إيمان، أو حدّ في الدنيا، أو عقوبة في الآخرة.

أما الذين قالوا: إنّ الكبائر لا تعلم ولا يعرف معناها، وإنّها أخفيت كما أخفيت ليلة القدر، ونحو ذلك. نقول: إنّ الله تعالى ما أمر باجتنابها إلا وهي معروفة، وقد ورد في باب المناهي ما يعلم أنّها من الكبائر، وكما ذكرنا السبع الموبقات، وأكبر الكبائر، وإذا عرف العبد أنّ هذه من الكبائر، وأن الإصرار عليها سبب للوعيد الذي رتّب عليها، فإنّه يجتنبها حتى يسلم على دينه، ويستحقّ الوعد من الله تعالى الذي وعد بتكفير الخطايا.

كما أنّ اجتناب الكبائر سبب لمحو الصغائر، ومعلوم أنّ الصغائر قد تكثر على الإنسان؛ فإن كان مصرًّا عليها ومكثرًا منها لم يأمن من تكاثرها أن تجتمع عليه من كلّ جهة فتهلكه، وإن كانت متفرّقة ويسيرة من غير إصرار، فإنّ الله تعالى يغفرها بالأعمال الصالحة.

والحديث الذي ورد في التحذير من الصغائر، يفهم منه أن صاحبها يكون مصرًّا عليها؛ لقوله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ**

بها صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ»[1]. يعني: أنّ الذنوب الصغيرة: كلمة، ونظرة، وسبَّة، وبطشة، وأكلة، ونحو ذلك، إذا كانت كثيرة اجتمعت على الإنسان وأحدقت به فأهلكته؛ كما أنّ القوم إذا اجتمعوا وهم كثير، فجاء هذا بعود وهذا ببعرة، مع أنّ الأرض صحراء ليس فيها حطب، فبكثرتهم جمعوا ما يوقدون به، حتّى يُنضجوا طعامهم، فهذا يدلّ على أنّ الإنسان لا يأمن من الإصرار على الصغائر والذنوب الحقيرة، حتى لا تهلكه وتوقعه في العذاب، أو تؤهّله لكي يكون من أهل الوعيد، ومن أهل العذاب الشديد ـ والعياذ بالله ـ.

والتهاون بها والإكثار منها يدلّ على عدم الاهتمام بتحريم الله وبنهيه، أمّا الذي يحذرها ويتركها خوفًا من الله، ولأنّ الله نهى عنها وحرّمها، فهو الذي يستحضر عظمة الله، ويستحضر دائمًا تحريمه لما حرَّمه ولما نهى عنه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، والطبراني في الكبير (٥٨٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ. وحسَّن إسناده ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٢٩).

قال الشارح:

وقوله: (وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ)؛ لِأَنَّ التَّوْبَة لَا خِلَافَ أَنَّهَا تَمْحُو الذُّنُوبَ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي غَيْرِ التَّائِبِ.

وقوله: (بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله تعالى عَارِفِينَ)، لَوْ قَالَ: (مُؤْمِنِينَ)، بَدَلَ قوله: (عَارِفِينَ)، كَانَ أولى؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ الله وَلَمْ يُؤْمِنْ به فَهُوَ كَافِرٌ. وَإِنَّمَا اكْتَفَى بِالْمَعْرِفَة وَحْدَهَا الْجَهْمُ، وقوله مَرْدُودٌ بَاطِلٌ، كَمَا تَقَدَّمَ. فَإِنّ إِبْلِيسَ عَارِفٌ بِرَبِّه، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦]، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص٨٢، ٨٣]. وَكَذَلِكَ فِرْعَوْنُ وَأَكْثَرُ الْكَافِرِينَ، قَالَ تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون:٨٤، ٨٥]. إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّة على هَذَا المعنى.

وَكَأَنَّ الشَّيْخَ ـ رحمه الله ـ أَرَادَ الْمَعْرِفَة الْكَامِلَة الْمُسْتَلْزِمَة لِلاهْتِدَاءِ، التي يُشِيرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الطَّرِيقَة، وَحَاشَا أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ، بَلْ هُمْ سَادَة النَّاسِ وَخَاصَّتُهُمْ.

---

قال الشيخ:

لا خلاف أنّ التوبة النصوح تمحو الذنب، ولو كان من الكبائر، ولو كان الذنب من الشرك، فالكلام ليس في التائبين. أما أهل التوبة، فلا وعيد عليهم، بل

الله تعالى يقبل توبتهم، ويغفر ذنوبهم، ويدخلهم دار كرامته، ويكفّر عنهم بسبب توبتهم ما وقعوا فيه من كفر ومن كبائر ومن صغائر،ومن ترك أوامر، وذلك كلّه بسبب التوبة.

وهنا نقول: إنّ التوبة لا بدّ أن تكون نصوحًا، قال تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]؛ وذلك لأنه هناك من يتوب توبة لا تزجره عن المعاصي، وتسمّى توبة الكاذبين، فلا تكون مفيدة له، ولا ماحية لما وقع منه، ولا لما فعله من الخطايا، ولا لما تركه من الطاعات، فلا بدّ أن تكون التوبة نصوحًا، ومعلوم أنّ للتوبة شروطًا لا بدّ منها؛ ذكر العلماء منها: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب، وإذا تعلقت الحقوق بالعباد فلابد من إرجاعها إليهم، أو طلب العفو منهم.

أمّا الذي يتوب بلسانه ويقول: أنا تائب، أو: تبت إلى الله، ومع ذلك هو مصرّ على الذنب، حتى لو كان صغيرًا ومتهاونًا به، فهذا لا توبة له؛ لأنّه يتوب بلسانه، ويعمل الذنب بلسانه أيضًا، يقول بلسانه تبت إلى الله، ثم يستعمل لسانه في الشتم، أو في اللعن، أو في القذف، أو في الغيبة، ويستعمل بصره في المحرّم، وينظر إلى الحرام، أو يقول بلسانه: تبت ويأكل الحرام، ويبقى مستمرًا على ذلك، فلا توبة له.

وكذلك الذي يفخر بمعاصيه، مع أنّه قد تركها، فيفخر بأنّه قد زنى بكذا وكذا، ويفخر بأنّه قد قتل قبلُ فلانًا وفلانًا، ويرى ذلك مضحكًا، ويفخر بأنّه قد

خدع فلانًا وأخذ ماله، أو سرق كذا وكذا، ويفخر بأنّه شرب خمرًا، وما أشبه ذلك. فكلّ ذلك لا تقبل معه التوبة.

وهكذا الذي يتوب ولكن توبة مؤقتة، بأن يعزم أنّه بعد حين سيعاود الذنب إذا قدر عليه، ومثل الذين يسافرون من أجل الزنى في بلاد فيها الإباحيّة، فإذا جاؤوا قالوا: تبنا. ولكنّهم عازمون على أن يرجعوا إلى تلك البلاد مرّة أخرى ليعودوا إلى ما فعلوه.

وكذلك من ترك الذنب في وقت من الأوقات؛ كالذي يترك الخمرة في رمضان، والدخان ونحو ذلك، ثمّ يعزمون على أنّهم يرجعون إليه بعد انتهاء رمضان، لا شكّ أنّ هؤلاء لا تُقبل توبتهم.

والحاصل: أنّ التوبة النصوح تمحو الشرك والكبائر والسيّئات، وأكبر الشرك التثليث الذي ذكر الله عن النّصارى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ﴾ [التوبة:٧٣، ٧٤]، دعاهم إلى التوبة مع أنهم يقولون: إنّ الله ثالث ثلاثة، وكذلك دعا الذين يشركون إلى التوبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]؛ استثنى من تاب من هذه الثلاثة، فإنّه تقبل توبته، بل ذكر الله

أنّه يبدّل سيّئاته حسنات.

التوبة الصادقة تكون سببًا لمحو الذنوب كلِّها، كبائرها وصغائرها؛ فأمّا ما يتعلّق بكبائر الذين لم يتوبوا، فهم قد دخلوا تحت مشيئة الله، إذا شاء الله عاقبهم وعذّبهم بقدر ذنوبهم، وإذا شاء غفر لهم، ومحا عنهم ما وقعوا فيه من السيئات، ونحن لا نأمن أن ينتقم الله منهم في الدنيا، ويغضب عليهم في الآخرة، ويعذّبهم على الذنوب التي اقترفوها.

ومعلوم أيضًا أنّ عذاب الله شديد، والعذاب في النار لا يصبر عليه أحد لقوله في عذاب النار: ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٦]. ومن يطيق الصبر على ذلك العذاب الشديد. فإذًا إذا عرف المؤمن أنه إذا اقترف هذه السيّئات متوعَّد بهذا الوعيد الشديد زجره ذلك، وحمله على أن يتوب إلى الله تعالى ويقلع عن السيئات.

عرفنا أنّ عقيدة أهل السنّة والجماعة تخالف عقائد المبتدعة، وأنّ مبنى هذه العقيدة على سنة النبيّ ﷺ، وعلى الجماعة التي هي اجتماع كلمتهم على الحقّ، واجتماعهم على إمامهم وعلى متبوعهم، وبذلك سمّوا أهل السنّة وأهل الجماعة. الجماعة في الأصل هم الذين كانوا مجتمعين على الحق في الزمن الماضي ويراد بهم السلف الصالح، وغيرهم يعتبرون متفرّقين، ولأجل ذلك ذكرت الآية في قول الشارح: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ قالوا: تبيضّ وجوه أهل السنّة، وتسودّ وجوه أهل الفرقة والاختلاف، فدلّ على أنّ أهل السنّة

مجتمعون ومتآلفون، وأنّ أهل البدع مفترقون ومتخالفون، ومخالفون أيضًا للحقّ والصواب.

من عقيدة أهل السنّة أنّهم لا يُكفّرون بالذنوب ولا يخرجون المذنب من الإسلام، وخالفهم في ذلك كثير من المبتدعة، فكفّروا بمجرّد اقتراف الذنوب وأخرجوا أهل الكبائر من الإسلام، وفي ذلك اعتداء على حرمات المسلمين؛ لأنّهم كفّروا المسلمين، واستحلّوا دماءهم وأموالهم.

والمراد بالذنوب هنا التي هي دون الكفر، وتسمّى كبائر الذنوب، فإنّها لا يبلغ أصحابها أن يحكم بكفرهم، فلا نكفّر من قاتل المسلمين إذا كانا متأوّلًا، ولا نكفّر البغاة الذين يثورون على الأمّة، ولا نكفر قطاع الطريق، ولا نكفّر أيضًا من فعل جريمة الزّنى أو السرقة أو شرب الخمر أو القذف.

ولكنّ الذي يُكفَّر هو الذي يستحلّ الحرام، ويردُّ النصوص الصحيحة، ويعتمد هواه، وهذا يُعدّ كافرًا؛ لأنّ من استحلّ الحرام الصريح الذي دليله كالشمس يُعدّ قد ردّ على الله تعالى شريعته، وردّ على الرسول ﷺ سنّته.

وأيضًا من الذنوب التي يكفّر بها ـ وإن كان فيها خلاف ـ ترك الصلاة والإصرار على تركها، والتهاون بها، وذلك لورود الأدلّة على كفر من ترك الصلاة، ولا شكّ أن الكفر الذي ورد فيه أنّه هو الكفر الذي سمّي به الكفار، ولذلك لا فرق في ذلك، وإن كان بعضهم قد تأوّل ذلك. وعلى كل حال فهذه طريقة أهل السنّة والجماعة.

كذلك أيضًا من طريقة أهل السنة والجماعة أنّهم إذا مات أحد من العصاة

ونحوهم لا يتركون الصلاة عليه، وإن كان قد تترك الصلاة على بعضهم للزجر، أو يتركها الإمام ونحوه، كالصلاة على من قتل نفسه، لا يصلي عليه الإمام، والصلاة على من غلَّ لا يصلي عليه الإمام، ويصلي عليه بقيّة جماعة المسلمين، وقد ثبت عنه ﷺ لما رجمت المرأة التي اعترفت بالزّنى صلى عليها، وأخبر أنّ فعلها يُعدّ توبة، وهكذا كثير من العصاة، أباح الصلاة عليهم.

في زماننا هذا المتمسّكون بالسنّة حقًا ثلّة من الناس قليلة، ويصدق على هذا الزمان أنّه زمان الغربة الذي قال فيه النبي ﷺ: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[1]. وذُكر في تفسيرهم عدة روايات، منها: أنّهم الذين يفرّون بدينهم من الفتن؛ فإذا وقعت الفتن والاختلافات والبدع في بلاد هربوا ونجوا بدينهم، وفسَّرَهم النبي ﷺ بأنّهم: «**النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ**»[2]؛ فيكون من الأسرة واحد أو اثنان، ومن القبيلة خمسة أو عشرة، والبقيّة مخالفون لهم أو ضدّهم. فهؤلاء هم الغرباء، فطوبى لهم.

ولكن لا يضرّ الحقّ قلّة أهله، فالعبرة بالمتمسّكين بالحق، والعبرة بالأدلّة، وليست العبرة بكثرة الهالكين، وذلك لكثرة الأسباب التي تحرف الناس وتصرفهم عن الحقّ، ولكثرة الفتن والمغريات، ولكثرة الدعايات المضلّة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٨)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، والدارمي (٢/ ٤٠٢)، وأبو يعلى (٨/ ٣٨٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

إذًا لا عجب مع كثرة الدعايات المضلّة من كثرة الهالكين، وقد قال بعض السلف: «ليس العجب مِمّن هلك كيف هلك، إنّما العجب مِمّن نجا كيف نجا»؛ يعني: مع كثرة الفتن وكثرة الدعايات والمضلات يتمسك الإنسان بالشريعة، ويعضّ عليها بالنواجذ، مع كثرة من يخذّله ويقنّطه ويوبّخه، ويرميه بالرجعيّة وبالتقهقر والتزمّت والتشدّد والغلوّ، وما أشبه ذلك.

ولكن إذا رزقه الله إخلاصًا، وإذا تمسّك بالحقّ وصدق عليه، فلا يضرّه ذلك، وسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا؛ فيقال: هكذا أهل السنّة في كلّ زمان، يرميهم البعض بالشذوذ والتغفيل، ويقولون لهم مثلًا إنّهم مشبّهةٌ ومجسّمة وحشويّة ونوابت وغثاءٌ، ونحو ذلك من الأسماء التي ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، ولا تنطبق عليهم، وإنّما تنطبق على أعدائهم.

فلا عبرة بمن خالفهم، ولكن العبرة بمن وافق الحقّ وتمسّك به، فالحقّ حقّ ولو قلّ المتمسّكون به، والباطل باطل ولو كثر المعتنقون له، إنما العبرة بالدليل. وحجّة الله قويّة، ومن احتجّ بالدليل الواضح فإنه غالب، ولو صمد أمامه الناس، وقد مضى لنا أدلّة عقليّة وأدلّة نقليّة تبيّن صحّة ما عليه أهل الحقّ.

قال الشارح:

وقوله: (وَهُمْ فِي مَشِيئَةِ الله وَحُكْمِه، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِه)، إلى آخِرِ كَلامِه، فَصَّلَ الله تعالى بَيْنَ الشِّرْكِ وغيره؛ لأَنَّ الشِّرْكَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ، كَمَا قَالَ ﷺ[1]، وَأَخْبَرَ الله تعالى أَنَّ الشِّرْكَ غَيْرُ مَغْفُورٍ، وَعَلَّقَ غُفْرَانَ مَا دُونَه بِالْمَشِيئَة، وَالْجَائِزُ يُعَلَّقُ بِالْمَشِيئَة دُونَ الْمُمْتَنِعِ، وَلَوْ كَانَ الْكُلُّ سَوَاءً لَمَا كَانَ لِلتَّفْصِيلِ معنى؛ ولأنه عَلَّقَ هَذَا الْغُفْرَانَ بِالْمَشِيئَة، وَغُفْرَانُ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ بَعْدَ التَّوْبَة مَقْطُوعٌ به، غَيْرُ مُعَلَّقٍ بِالْمَشِيئَة، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْغُفْرَانُ الْمُعَلَّقُ بِالْمَشِيئَة هُوَ غُفْرَانَ الذُّنُوبِ سِوَى الشِّرْكِ بالله قَبْلَ التَّوْبَة.

---

قال الشيخ:

يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: إن أهل القبلة الذين عندهم ذنوب، وعندهم تقصير وفعلوا شيئًا من السيئات، التي دون الشرك، تحت مشيئة الله تعالى وحكمه، فإن شاء غفر لهم فضلاً منه وجودًا وإحسانًا، وعفا عنهم بفضله، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم، ثم إذا لم يكونوا من المشركين فإنهم يخرجون ويكونون من أهل الجنة بعد أن يمحصوا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة ﷺ.

أخبر أن الله تعالى قد فرَّق بين الشرك وغيره وفصل بينهما، أخبر تعالى أن الشرك لا يُغفر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، فالشرك أكبر الكبائر؛لذلك لا يغفره الله تعالى إلا بالتوبة، أخبر تعالى أنه غير مغفور، أما الذنوب التي دون الشرك فإنها تحت المشيئة إن شاء عفا عن أهلها وغفرها، وإن شاء عذبهم بقدرها، فالجائز يُعلق بالمشيئة دون الممتنع، فدل على أن غفران ما دون الشرك من الذنوب جائز، حيث علقه بالمشيئة بقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وأما الشرك فإنه ذكر أنه لا يغفر، فعُلم بأنه ممتنع غفرانه إلا بالتوبة.

ولو كان الشرك والذنوب والبدع كلها سواء في أنها لا تُغفر، وأنها يُعذب بها؛ كما يقوله الخوارج وكذلك المعتزلة، لو كان الكل سواء في عدم المغفرة لما كان للتفصيل معنى، فقد فصّل الله تعالى بينهما ـ أي: بين الشرك وغيره ـ وكذلك لو كان الشرك أيضًا يُغفر ـ كما يقوله المرجئة ـ بدون توبة لما خصه بأنه لا يُغفر، فالله تعالى علق الغفران بالمشيئة في قوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، أي: ما دون الشرك.

والتوبة النصوح تمحو الذنوب كلها، يغفر الله تعالى الكبائر والصغائر بعد التوبة، هذا مقطوع به، فلا يُعلق غفرانها بالمشيئة، بل يغفرها الله تعالى بالتوبة النصوح التي تتم شروطها؛ بأن يقلع عن هذا الذنب، ويتركه خوفًا من الله، ويندم على ما مضى من السيئات التي اقترفها، فيُعاهد ربه على أنه

لا يعود إليها بقية حياته، فهذا يكون قد تاب توبة صادقة.

أما قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فالإسراف هاهنا محمول على ما دون الشرك، أخبر بأنه تعالى قد يغفر الذنوب جميعًا، ونهاهم عن القنوط: الذي هو قطع الرجاء، أي: لا تقطعوا رجاءكم، وتقولوا: إن الله لا يغفر لنا، فقد أمَّلنا وأَمِنَّا إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا، لكن الشرك لابد فيه من التوبة، فما دون الشرك على العبد أن يتوب منه، وإذا مات وعليه ذنوب دون الشرك، فالله تعالى وعد أنه يغفرها لمن يشاء، وأخبر تعالى بأنه هو الغفور الرحيم، فوجب أن يكون الغفران معلقًا بالمشيئة، أي: غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة، ففي هذه الآية ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، المراد غير الشرك، وأما الشرك فلابد فيه من التوبة الصادقة.

قال الشارح:

وقوله: (ذَلِكَ أَنَّ الله مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِه)، فيه مُؤَاخَذَة لَطِيفَة، كَمَا تَقَدَّمَ.

وقوله: (اللَّهُمَّ يَا وَلِي الإِسْلامِ وَأَهْلِه مَسِّكْنَا بِالإِسْلامِ ـ وفي نُسْخَة: ثَبِّتْنَا على الإِسْلامِ ـ حتَّى نَلْقَاكَ به)، روى شَيْخُ الإِسْلامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الأَنْصَارِي في كِتَابِه (الْفَارُوقِ) بِسَنَدِه عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ الله ﷺ يَقُولُ: «يَا وَلِي الإِسْلامِ وَأَهْلِه، مَسِّكْنِي بِالإِسْلامِ حتَّى أَلْقَاكَ عَلَيْهِ». وَمُنَاسِبَة خَتْمِ الْكَلامِ الْمُتَقَدِّمِ بِهَذَا الدُّعَاءِ ظَاهِرَة. وَبِمِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ دَعَا يُوسُفُ الصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ الله عليه؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وبه دَعَا السَّحَرَة الَّذِينَ كَانُوا أَوَّلَ مؤمن بِمُوسَى صَلَوَاتُ الله على نَبِيِّنَا وعليه؛ حَيْثُ قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦]، وَمَنِ اسْتَدَلَّ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ على جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ فَلا دَلِيلَ له فيه، فَإِنَّ الدُّعَاءَ إِنَّمَا هُوَ بِالْمَوْتِ على الإِسْلامِ، لا بِمُطْلَقِ الْمَوْتِ، وَلا بِالْمَوْتِ الآنَ، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ.

---

قال الشيخ:

قوله: (قوله: ذَلِكَ أَنَّ الله مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِه، فيه مُؤَاخَذَة لَطِيفَة)، يعني: أن الله تعالى مولى المؤمنين، وليس خاصًا بأهل المعرفة الذين يدعون أنهم على

السلوك، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمد:١١].

المؤلف الماتن ـ رحمه الله ـ دعا بهذا الدعاء المناسب: (**اللَّهُمَّ يَا وَلِيَ الإِسْلامِ وَأَهْلِهِ مَسِّكْنَا بِالإِسْلامِ ـ أو ثَبِّتْنَا على الإِسْلامِ ـ حتى نَلْقَاكَ به**)، بعدما ذكر هذه الفِرَق المخالفة، الذين يغلبون جانب الرجاء ويبيحون المعاصي، أو الذين يخلدون أصحاب الكبائر في النار، ويدعون أنهم لا تُقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك، فهؤلاء مخالفون للإسلام الحقيقي، فالمسلم عليه أن يدعو الله بالتثبيت فيقول: ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به، وكذلك وردت أدعية فيها الدعاء بالثبات على الإسلام؛ لأن الله تعالى هو الذي يثبت؛ كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

أبو إسماعيل الأنصاري هو الهروي، وله كتاب في السنة اسمه (الفاروق)، روى فيه بإسناده عن أنس ﷺ، ذكر أن من دعاء النبي ﷺ: «**يَا وَلِيَ الإِسْلامِ وَأَهْلِهِ، مَسِّكْنِي بِالإِسْلامِ حتى أَلْقَاكَ عليه**». وهذا الحديث ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد)[1] بلفظ: «**يا ولي الإسلام وأهله ثبتني به حتى ألقاك**». وقال: «رواه الطبراني في الأوسط[2] ورجاله ثقات». ففيه أن الله تعالى ولي الإسلام وأهله، وفيه الدعاء بالثبات على الإسلام إلى الموت.

---

(١) (١٠/ ١٧٦).

(٢) (١/ ٢٠٦)، وأخرجه البيهقي في الدعوات الكبير (١/ ١٦٦)، والخطيب البغدادي في تاريخه (١١/ ١٦٠).

المؤلف الماتن ختم الكلام المتقدم بعد ذكره لتلك البدع ونحوها بذلك الدعاء، ومناسبته ظاهرة، وقد ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أن يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ قد دعا الله في آخر قصته بمثل هذا الدعاء، بعدما جمع الله له أبويه وإخوته دعا الله بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، هكذا لما آتاه الله الملك، ولما علمه تأويل الأحلام توسل إلى الله تعالى بالربوبية، وتوسل إليه بأنه فاطر السَّمَوات والأرض أي مبدعهما، وتوسل إلى الله بأنه وليه في الدنيا والآخرة، ورغب إليه أن يتوفاه مسلمًا، وأن يلحقه بعباده الصالحين قبله.

وهكذا أيضًا قد دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى عليه الصلاة والسلام؛ حيث قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ذكر الشارح أن بعض الناس يجعل هاتين الآيتين دليلاً على جواز تمني الموت، ولا دلالة فيهما، الدعاء هنا بقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، دعاء بالموت على الإسلام، لا بمطلق الموت، ولا بالموت في هذا الوقت، والفرق في ذلك ظاهر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس


قال الطحاوي:

وَنَرَى الصَّلاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ.

---

قال الشارح:

قَالَ ﷺ: «صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ». رواه مَكْحُولٌ عَنْ أبي هريرة ﷺ، وَأَخْرَجَه الدَّارَقُطْنِي، قَالَ: مَكْحُولٌ لَمْ يَلْقَ أَبَا هريرة. وفي إِسْنَادِه مُعَاوِيَة بْنُ صَالِحٍ، مُتَكَلَّمٌ فيه، وَقَدِ احْتَجَّ به مُسْلِمٌ في صَحِيحِه.

وَخَرَّجَ له الدَّارَقُطْنِي أَيْضًا وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الصلاة وَاجِبَة عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ، بَرًّا كان أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ، وَالْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ، بَرًّا كان أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ».

---

قال الشيخ:

المراد بالصلاة هي الإمامة، يعني: لو كان الإمام فاجرًا، ولكنه من أهل القبلة الذين يدينون بالإسلام، ويعملون به ولو كانوا على فسوق، بأن كانوا مثلًا يشربون الخمر، أو يستمعون الأغاني، أو يتجرؤون على المظالم ـ أي: مظالم الناس في أموالهم، أو في أبدانهم ـ ولكنهم من أهل القبلة، فنصلي خلف ذلك الإمام إذا كان له ولاية وله سلطان؛ كما صلى بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والتابعين خلف الحجاج، وإن لم يكن متهمًا في دينه، وكذلك لم يكن

أيضًا يعمل الفواحش، ولكن في سيفه رهق، وكان يقتل بالتهمة، ويسجن، ويؤذي ويُعذب المتهم، ولأجل ذلك خرج عليه الكثير من أهل العراق في واقعة ابن الأشعث، والنبي ﷺ قد رُوي عنه أنه قال: «**صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ**». أخرجه الدارقطني[1]، ومن طريقه البيهقي في «السنن»[2]، من رواية ابن وهب عن معاوية بن صالح عن العلاء بن الحارث عن مكحول عن أبي هريرة ﷺ، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة ﷺ، ومن دونه ثقات، والإمام الدارقطني هو الذي نبه على أن مكحولاً ما أدرك أبا هريرة ﷺ، وأما معاوية بن صالح فإنه قد احتج به مسلم في «صحيحه»، وإن كان مُتكلمًا فيه، ولعل الكلام فيه لا يقدح، ولعل مكحولًا سمعه من أبي هريرة ﷺ بواسطة فجزم براويته.

يقول: (**وَخَرَّجَ له الدَّارَقُطْنِي أَيْضًا وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: الصلاة وَاجِبَة عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ، بَرًّا كان أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ، وَالْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ، بَرًّا كان أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ**). هذه الرواية عند أبي داود[3]، ومن طريقه

---

(١) (٢/ ٥٧).

(٢) (٤/ ١٩).

(٣) برقم (٥٩٤).

البيهقي[١]، والدارقطني[٢]، وسنده منقطع، أي: مكحول لم يلق أبا هريرة ﷺ، ولعله قد رواه بواسطة ثقة؛ ولذلك جزم به.

وقد روى أيضًا أبو داود[٣] من حديث أنس ﷺ قال: «**ثلاثة من أَصْلِ الإِيمَانِ: الْكَفُّ عَمَّنْ قال لا إِلَهَ إلا الله، ولا تكفره بِذَنْبٍ ولا تخرجه من الإِسْلامِ بِعَمَلٍ وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي الله إلى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ، لا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ ولا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالإِيمَانُ بِالأَقْدَارِ**». وفي إسناده يزيد بن أبي نشبه راويه عن أنس، مجهول، وباقي رجاله ثقات.

أخبر ﷺ بأن الصلاة واجبة على المسلمين، ولو كان الإمام أميرًا قاهرًا بسيفه، ولو كان فاجرًا، ولو عمل الكبائر والذنوب؛ كذلك أخبر بأن الجهاد واجب مع الأمراء، ولو كان ذلك الأمير فاجرًا أو عاصيًا أو نحو ذلك.

---

(١) (٣/ ١٢١).

(٢) (٢/ ٥٦).

(٣) برقم (٢٥٣٢).

قال الشارح:

وفي «صَحِيحِ البخاري»[١]: أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ كَانَ يُصَلِّي خَلْفَ الحَجَّاجِ ابْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِي، وَكَذَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَكَانَ الحَجَّاجُ فَاسِقًا ظَالِمًا.

وفي «صَحِيحِه»[٢] أَيْضًا: أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ».

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «صَلُّوا خَلْفَ مَنْ قَالَ لا إِلَه إِلا الله، وَصَلُّوا على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ لا إِلَه إِلا الله». أَخْرَجَه الدَّارَقُطْنِي[٣] مِنْ طُرُقٍ، وَضَعَّفَهَا.

---

(١) كما في التلخيص الحبير (٢/ ٤٣)، ولم أقف عليه في الصحيح بلفظ صريح، اللهم إلا إن كان المقصود مفهوم الأثر الذي أخرجه البخاري (١٦٦٢) عن سالم بن عبد الله أَنَّ الْحَجَّاجَ بن يُوسُفَ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ تَصْنَعُ فِي الْمَوْقِفِ يوم عَرَفَةَ؟ فقال سَالِمٌ: إِن كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ فَهَجِّرْ بِالصَّلاةِ يوم عَرَفَةَ، فقال عبد اللَّهِ بن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ: صَدَقَ». فقد ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٥١٢) أن من فوائد هذا الأثر: «صحة الصلاة خلف الفاسق»؛ لأن الحَجَّاجَ خطب المسلمين يوم عرفة، وصلى بهم إمامًا.

ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٥٧) عن رجل من أهل اليمامة: «أنه رأى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ صلّى خلف ابن الزبير بمنى ركعتين، قال: ورأيته صلّى خلف الحجاج أربعًا».

(٢) برقم (٦٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) (٢/ ٥٦).

اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ الله وَإِيَّانَا ـ أنه يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُصَلِّي خَلْفَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ منه بِدْعَة وَلَا فِسْقًا، بِاتِّفَاقِ الأَئِمَّة، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الائْتِمَامِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُومُ اعْتِقَادَ إِمَامِه، وَلا أَنْ يَمْتَحِنَه، فَيَقُولُ: مَاذَا تَعْتَقِدُ؟! بَلْ يُصَلِّي خَلْفَ المَسْتُورِ الحَالِ.

---

قال الشيخ:

الحجاج بن يوسف من الولاة الذين تولوا على العراق، ورأى أن أهل العراق فيهم كثرة خروج وعصيان، فلم يجد بدًا من أن يأخذهم بالقسوة والشدة، وكان يقتل بالتهمة، فمن اتُهم في دينه، أو اتُهم في موالاته، فإنه يُعاقبه بحبس أو جلد أو قتل، وتشدد على الذين يظهر منهم شيء من المخالفة لولاة الأمور، ومع ذلك فإنه كان له فضل، فقد تسبب في فتح كثير من البلاد من الهند والسند والأفغان وما حولها، فأرسل الجنود والجيوش حتى تمكنوا من فتح تلك البلاد، وكان يحثهم، وقد ولاه عبدالملك قدر نصف مملكته: وهو العراق وخراسان والهند وما فُتح منها، كلها كانت تحت ولايته، فكان ولابد أن يجد من هو مخالف وعاص، ولم يُذكر أنه كان يتعاطى شرب الخمر، ولا أنه كان يسمع الأغاني، وإنما عابوه بكثرة الشدة التي فيه، ومع ذلك لم يقولوا إنه متهم في عقيدته أو نحو ذلك، ولما اشتهر عنه أنه فاسق أو ظالم بسبب قسوته أكثر العلماء في الأخير من الطعن فيه، ومنهم أكثر المؤرخين، ولعل سبب ذلك أنه مبالغة لأجل إخبار بني العباس بأن ولاة بني أمية فيهم فسوق ونحو ذلك، وقتله سعيد بن جبير؛ لأنه كان مع الذين خرجوا مع ابن الأشعث عليه ونقض

بيعته؛ كما ذكر ذلك ابن كثير[١].

فلا عبرة بما يُذكر في ترجمته من المساوئ الكثيرة التي يُتهم فيها في دينه، فليس يُتهم بترك الصلاة، ولا بالبخل، ونحو ذلك؛ ولذلك كان أنس بن مالك وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ يصلون خلفه، وقد كتب إليه عبدالملك أن يقتدي بابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ لما أقام الحج[٢].

ثم ذكر أن البخاري أيضًا روى أنه ﷺ قال: «**يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**». أي: يصلون بكم كأئمة، وليس المراد أن صلاتهم طاعة لكم، بل يصلون كأئمة لكم، «**فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ**»، أي: لكم أجر صلاتكم ولهم أجر صلاتهم، «**وَإِنْ أَخْطَؤوا**»، أي: في صلاتهم، «**فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**»، أي: عبادتكم كاملة والإثم عليهم.

كذلك حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «**صَلُّوا خَلْفَ مَنْ قَالَ لا إِلَه إِلا الله، وَصَلُّوا على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ لا إِلَه إِلا الله**»، قد ضعفه العلماء، ولكن معناه صحيح أن من قال: (لا إله إلا الله) من أهل الإسلام والتوحيد، ولم يظهر عليه شيء من البدع المكفرة فإنه إذا كان إمامًا يُصلى خلفه؛ وهكذا من مات من أهل لا إله إلا الله الموحدين يُصلى عليه؛ وذلك لأنهم أهل الإيمان ظاهرًا ولو كان باطنه خفيًا، فإذا صلينا عليه وشفعنا له وكان مسرفًا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٩/ ٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٣).

رُجي بذلك مغفرة الله له، وإذا كانت عقيدته النفاق أو البدعة المكفرة فإنه لا تنفعه شفاعة الشافعين.

فأخبر الشارح ـ رحمه الله ـ أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة مكفرة، ولا فسقًا ومعصية، وهذا قد اتفق عليه الأئمة الأربعة، وأنه ليس من شرط كونك مأمومًا أن تعلم عقيدة الإمام الذي تصلي خلفه، وليس لك أن تمتحنه، فلا تقل: أخبرني بعقيدتك، ماذا تعتقد. بل تصلي خلفه إذا كان مستور الحال، ليس معلنًا بشيء من البدع.

قال الشارح:

وَلَوْ صلى خَلْفَ مُبْتَدِعٍ يَدْعُو إِلَى بِدْعَتِهِ، أَوْ فَاسِقٍ ظَاهِرِ الفِسْقِ، وَهُوَ الإِمَامُ الرَّاتِبُ الَّذِي لَا يُمْكِنُهُ الصَّلَاة إِلَّا خَلْفَه، كَإِمَامِ الجُمْعَة وَالْعِيدَيْنِ، وَالْإِمَامِ فِي صَلَاةِ الحَجِّ بِعَرَفَة، وَنَحْوِ ذَلِكَ: فَإِنَّ المَأْمُومَ يُصَلِّي خَلْفَه، عِنْدَ عَامَّة السَّلَفِ وَالخَلَفِ.

وَمَنْ تَرَكَ الجُمْعَة وَالجَمَاعَة خَلْفَ الْإِمَامِ الْفَاجِرِ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ. وَالصَّحِيحُ أنه يُصَلِّيهَا وَلَا يُعِيدُهَا، فَإِنَّ الصَّحَابَة ـ رضي الله عَنْهُمْ ـ كَانُوا يُصَلُّونَ الجُمْعَة وَالجَمَاعَة خَلْفَ الْأَئِمَّة الْفُجَّارِ وَلَا يُعِيدُونَ، كَمَا كَانَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ يُصَلِّي خَلْفَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ، وَكَذَلِكَ أَنَسٌ ﷺ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَذَلِكَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ وغيره يُصَلُّونَ خَلْفَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَ يَشْرَبُ الخَمْرَ، حتى إنه صلى بِهِمُ الصُّبْحَ مَرَّة أَرْبَعًا، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ ؟ ! فَقَالَ له ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا زِلْنَا مَعَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ فِي زِيَادَةٍ[1] ! !

وفي «الصَّحِيحِ»: أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ لَمَّا حُصِرَ صلى بِالنَّاسِ شَخْصٌ، فَسَأَلَ سَائِلٌ عُثْمَانَ: إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّة، وَهَذَا الذي صلى بِالنَّاسِ إِمَامُ فِتْنَة ؟ فَقَالَ: (يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ الصلاة مِنْ أَحْسَنِ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنُوا فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ)[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٧) دون قول ابن مسعود ﷺ، وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٥٥٤) بتمامه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥).

وَالْفَاسِقُ وَالْمُبْتَدِعُ صَلَاتُه فِي نَفْسِهَا صَحِيحَة، فَإِذَا صلى الْمَأْمُومُ خَلْفَه لَمْ تَبْطُلْ صَلَاتُه، لَكِنْ إِنَّمَا كَرِه مَنْ كَرِه الصلاة خَلْفَه؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ بِدْعَة وَفُجُورًا لَا يُرَتَّبُ إِمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ، فإنه يَسْتَحِقُّ التَّعْزِيرَ حتى يَتُوبَ، فَإِذَا أَمْكَنَ هَجْرُه حتى يَتُوبَ كَانَ حَسَنًا، وَإِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا تَرَكَ الصلاة خَلْفَه وصَلَّى خَلْفَ غيره أَثَّرَ ذَلِكَ في إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ حتى يَتُوبَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يَنْتَهِي النَّاسُ عَنْ مِثْلِ ذَنْبِه، فَمِثْلُ هَذَا إِذَا تَرَكَ الصلاة خَلْفَه كَانَ في ذَلِكَ مَصْلَحَة شَرْعِيَّة، وَلَمْ تَفُتِ الْمَأْمُومَ الْجُمْعَة وَلَا الْجَمَاعَة.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ تَرْكُ الصلاة خَلْفَه يُفَوِّتُ الْمَأْمُومَ الْجُمْعَة وَالْجَمَاعَة، فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصلاة خَلْفَه إِلَّا مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ لِلصَّحَابَة رضي الله عَنْهُمْ.

وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْإِمَامُ قَدْ رَتَّبَه وُلَاة الْأُمُورِ، لَيْسَ في تَرْكِ الصلاة خَلْفَه مَصْلَحَة شَرْعِيَّة، فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصلاة خَلْفَه، بَلِ الصلاة خَلْفَ الأفضل أَفْضَلُ، فَإِذَا أَمْكَنَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَا يُقَدِّمَ مظْهِرًا لِلْمُنْكَرِ في الْإِمَامَة، وَجَبَ عليه ذَلِكَ، لَكِنْ إِذَا وَلَّاه غيره، وَلَمْ يُمْكِنْه صَرْفُه عَنِ الْإِمَامَة، أَوْ كَانَ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ صَرْفِه عَنِ الْإِمَامَة إِلَّا بِشَرٍّ أَعْظَمَ ضَرَرًا مِنْ ضَرَرِ مَا أَظْهَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ، فَلَا يَجُوزُ دَفْعُ الْفَسَادِ الْقَلِيلِ بِالْفَسَادِ الْكَثِيرِ، وَلَا دَفْعُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ بِحُصُولِ أَعْظَمِهِمَا، فَإِنَّ الشَّرَائِعَ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ. فَتَفْوِيتُ الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنَ الِاقْتِدَاءِ فِيهِمَا بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ التَّخَلُّفُ عَنْهَا لَا يَدْفَعُ فُجُورًا، فَيَبْقَى تَعْطِيلُ الْمَصْلَحَة الشَّرْعِيَّة بِدُونِ

دَفْعِ تِلْكَ المَفْسَدَة.

وَأَمَّا إِذَا أَمْكَنَ فِعْلُ الْجُمُعَة وَالْجَمَاعَة خَلْفَ الْبَرِّ، فَهَذَا أولى مِنْ فِعْلِهَا خَلْفَ الْفَاجِرِ. وَحِينَئِذٍ، فَإِذَا صلى خَلْفَ الْفَاجِرِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، فَهُوَ مَوْضِعُ اجْتِهَادِ الْعُلَمَاءِ، مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُعِيدُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يُعِيدُ. وَمَوْضِعُ بَسْطِ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.

وَأَمَّا الْإِمَامُ إِذَا نَسِيَ أَوْ أَخْطَأَ، وَلَمْ يَعْلَمِ الْمَأْمُومُ بِحَالِه، فَلَا إِعَادَة على الْمَأْمُومِ، لِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ صلى عُمَرُ ﷺ وغيره وَهُوَ جُنُبٌ نَاسِيًا لِلْجَنَابَة. فَأَعَادَ الصلاة، وَلَمْ يَأْمُرِ الْمَأْمُومِينَ بِالْإِعَادَة. وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ إِمَامَه بَعْدَ فَرَاغِه كَانَ على غَيْرِ طَهَارَة، أَعَادَ عِنْدَ أبي حنيفة، خِلَافًا لِمَالِكٍ وَالشَّافِعِي وَأَحْمَدَ فِي الْمَشْهُورِ عنه. وَكَذَلِكَ لَوْ فَعَلَ الْإِمَامُ مَا لَا يَسُوغُ عِنْدَ الْمَأْمُومِ. وفيه تَفَاصِيلُ مَوْضِعُهَا كُتُبُ الْفُرُوعِ. وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ إِمَامَه يُصَلِّي على غَيْرِ وُضُوءٍ!! فَلَيْسَ له أَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَه؛ لأنه لَاعِبٌ، وَلَيْسَ بِمُصَلٍّ.

---

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق بالصلاة خلف الولاة وخلف الأئمّة، ولا شكّ أنّ إمام المسلمين الذي يصلّي بهم، والذي يحكم فيهم، والذي يؤمّهم في الصلوات؛ الجمع والأعياد ونحوها، يجب أن يُختار من هو أهلٌ ومن هو كفء، وقد ثبت قول النبي ﷺ: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كانت قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً

فَلْيَؤُمَّهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا»[1].

وقد ذكر العلماء ترتيب الأئمّة على هذا الحديث، فقالوا: إنّ الأقرأ إذا كان علمًا بفقه الصلاة، فإنّه يقدّم على غيره، بشرط معرفته لأحكام الصلاة، فإذا استوى اثنان أو أكثر، قدِّم من هو أوسع علمًا بالسنّة، يعني: بالأحاديث النبويّة وصحيحها وما يتّصل بها، فإذا استوى في ذلك مع غيره، يقدّم من هو أقدم علمًا وأقدم هجرة، ثم بعد ذلك يقدّم أكبرهم سنًّا، ثم بعد ذلك يقدّم أتقاهم وأخشاهم وأورعهم.

ومعلوم أنّ ولاة الأمور سابقًا كانوا هم الذين يخطبون بالناس، وهم الذين يصلون بهم الجماعة أو الجمع والأعياد. فكان الخليفة أو الأمير هو الذي يتولّى الإمامة، وقد يكون فيهم بعض من النّقص، وبعض من الخلل، ولكنّهم لما تولّوا بالقوة، ولما كان لهم سيطرة وقوة وولاية، كانت طاعتهم واجبةً، لما في مخالفتهم ومعصيتهم من المفاسد الكبيرة؛ فإن معصية ولاة الأمور ومخالفتهم، وترك الصلاة خلفهم وتضليلهم، وترك طاعتهم يسبّب الشقاق والفتن والظلم والضرب والحبس والقتل، وتفريق الكلمة، وإساءة الظنّ وما أشبه ذلك؛ فجاءت الشريعة بالسمع والطاعة لولاة الأمور، حتّى قال النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان ﷺ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[2]. وما ذاك إلا لأن في الطواعية والانقياد لهم جمع لكلمة المسلمين،

(١) أخرجه مسلم (٦٧٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٧).

وعدم التفريق لهم.

فإذا كان الوالي هو الذي يتولّى الإمامة، ويتولى الخطبة والصلاة وقيادة الجهاد ويتولى إمارة الحجّ، فإنّهم يصلّون خلفه، ولا يتركون ذلك، وهذا فيما إذا لم يُوجد غيره، وكان المسلمون لا يصلّون إلا في مسجد واحد، وإمام هذا المسجد هو الأمير، وإذا كان فيه شيء من النقص أو الخلل في دينه أو عنده ذنب أو إصرار على معصية، أو نقص شيء من الطاعات؛ فالصلاة خلفه خير من الانفراد وأفضل من أن تصلّي وحدك، وأن تترك الجمعة والجماعة، أو تترك العيد أو ما أشبه ذلك، هذا هو الواجب على المسلم.

وقد ذكر الشارح أنّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يصلّون خلف أولئك الولاة، فالحجّاج الذي عرفنا أنّ ابن عمر وأنسًا ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يصلّون خلفه، كان مشهورًا بإراقة الدماء، ولذلك عدُّوه فاسقًا، وإن لم يكن فاسقًا في الاعتقاد، وإن لم يكن مخلًا بالعبادات، ولم يُذكر عنه شيء من اقتراف المحرّمات، بل كان شديدًا على العصاة، فكان يقيم الحدود، وكان يجلد الزناة وشاربي الخمر، وينهى عن سماع الغناء وما أشبه ذلك، ولم ينقل عنه إلا أنه كان في سيفه رهق. فقتل كثيرًا من المسلمين وإن كان قتلهم متأوّلًا، وبكلّ حال فقد جعلوه من العصاة بذلك، ومع ذلك كان يؤمّ الناس في عرفة، ويصلّي خلفه أنس بن مالك ﷺ.

وكذلك في عهد عبد الله بن مسعود ﷺ، كان الوليد بن عقبة بن أبي معيط أميرًا لعثمان ﷺ على الكوفة ، وكان متهاونًا بشيء من المحرّمات، فكان يشرب

الخمر؛ فصلّى بهم مرة وهو سكران، حتّى صلّى بهم الصبح أربعًا، والتفت إليهم، وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود ﷺ: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة!.

ومع ذلك ما تركوا الصلاة؛ لأنّهم إذا تركوها صلّوا فرادى، ولا شكّ أنّ في هذا شيئًا من ترك السنّة وترك الجماعة؛ فالصلاة مع الجماعة ولو كان ذلك الإمام الذي فرض نفسه والتزم بذلك فيه شيء من الخلل والنقص، لا ينقص من صلاة المصلّي خلفه شيء.

وكما علمنا فإن الصلاة من أحسن الأعمال؛ فإذا أحسنوها وأحسنوا ركوعها وسجودها وخشوعها وقراءتها وجميع ما يشترط فيها، فهي عملٌ صالح مبرور، فليس لنا أن نترك الصلاة خلفهم لأجل فسقهم ما دام أنّهم يقيمون الصلاة كما ينبغي، وبالصلاة وبإظهارها يحكم بأنّهم مسلمون، فإنّ من صلّى حكم بأنّه مسلم، ويعامل معاملة المسلمين، ولذلك قال ﷺ في أمراء السوء: «**سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ من رضي وَتَابَعَ**»، قالوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قال: «**لَا ما صَلَّوْا**»[1]، أي: ما داموا يصلّون ويقيمون الصلاة، والصلاة من أحسن الأعمال، فلا تخرجوا عليهم، ولا تقاتلوهم، ولا تقتلوهم، فهذا في ولاة الأمور.

فإذا لم يكن هناك أئمة ولاة، وكان الإمام ـ كما في هذه الأزمنة ـ هو الذي يوكل من قبل ولاة الأمور، فإنّه يختار للإمامة الأكفاء والورِعون، ويعزل عنها

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

المبتدع والعاصي الذي يعرف بمعصيته؛ فإذا عُرف أنّ هذا الشخص يتظاهر بمعصية، أو يفعل ذنبًا من الذنوب فلا يجوز أن يعيّن إمامًا مرتّبًا، بل إذا علم منه الناس هذا الذنب، فإن على الناس أن يؤخّروه ويسعوا في خلعه وإبعاده، أما لو لم يقدروا، فالصلاة خلفه أيضًا صحيحة إذا أتمّها، ولكن إذا وجد من هو أحسن منه، فليصلَّ خلف الحسن. فإذا رأيت إمام المسجد يستحلّ سماع الغناء أو يسكر أو يدخّن أو يحلق لحيته أو يسبل ثوبه أو يؤوي الفسقة والأشرار، أو يؤيّدهم، أو يتأخّر عن بعض الصلوات، أو يتركها، وأنت تعلم ذلك منه، وتجد إمامًا في مسجد آخر ـ ولو كان بعيدًا ـ تقيًا ورعًا محافظًا على العبادة، تاركًا للذنوب والآثام، فلا شكّ أنّ صلاتك خلف هذا الإمام أولى من صلاتك خلف العاصي.

أما لو كان ترك الصلاة خلف ذلك الوالي بسبب ابتداعه؛ فلو مثلًا هناك من أُلزمنا بالصلاة خلفه، وهو إمّا شيعيّ أو قبوريّ أو صوفيّ، ومع ذلك بيّنّا له، فأصرّ على معتقده، وصار إمامًا يصلي بهذا المسجد، فكوننا نصلّي خلفه فيه إقرار لهذه البدعة وتقوية لها، فعلينا أن نسعى في إزالته ونسعى في إبعاده، فإن لم نستطع، وكان في ترك الصلاة خلفه تنبيه للنّاس على بدعته، تركنا الصلاة خلفه، وذهبنا إلى المساجد الأخرى، لاسيّما إذا كان ترك الجماعة من الذين لهم كلمة مسموعة يسبب توبته ورجوعه عن بدعته ومعتقده؛ فيقول: قد ترك هؤلاء الصلاة خلفي؛ لأنّهم عرفوا أنّ ما أفعله خطأ. فيرجع إلى نفسه ويتوب، سواء كان الذي فيه بدعة أو معصية، فيرجع عن بدعته التي هي تعظيم القبور أو سبّ الصحابة، كما يفعل الرافضة، أو اعتقاد تفضيل بعض الصحابة على الخلفاء الأربعة أو نحو ذلك، أو

مذهب المتصوّفة الذين يدّعون أنّ الولي أفضل من النبيّ، أو أنّ أولياءهم يستطيعون أن يأخذوا من الملأ الأعلى أو ما أشبه ذلك من عقائد المتصوّفة الباطلة، أو يعمل معصية ظاهرة، كأن يحلق لحيته أو يشرب الدخان؛ فإذا ترك الناس الصلاة خلفه ارتدع وعلم أنّه مخطئٌ، وأنّ الناس ما تركوا الصلاة خلفه إلا أنّهم أنكروه، وأنّ الصواب الذي معهم أقرب من الصواب الذي معه، وأنّهم هم مجموعةٌ كبيرةٌ، فلا يمكن أن يكون هو المصيب وهم المخطئون مع كثرتهم.

فإذًا نقول: تترك الصلاة خلف الإمام إن كان في ذلك فائدة، هذا إن وجد غيره، أما إن لم يوجد غيره فإن الصلاة خلفه مجزئة، وأفضل من الصلاة على الانفراد كما ذكرنا. وبكلّ حال فالصلاة خلف الولاة إذا لم يوجد غيرهم لازمة وواجبة، ولا يجوز الانفراد عنهم، ولو كانوا عصاة.

فنحن كثيرًا ما ندخل المساجد ونجد جماعة من الناس يصلّون، وقد قدّموا واحدًا أنت تعرف أنّه يدخّن، أو تراه مسبلًا، أو تراه حليقًا تعرف منه ما لا يعرف هؤلاء الذين يصلّون خلفه؛ فماذا تفعل؟ نقول: صلِّ خلفه ولا تصلّ وحدك، وذلك لأنّه في هذه الحالة صلاته عارضة ليست مستمرّة، أما إذا رُتِّب إمامًا في مسجد وقد عرف بالفسق والفجور وسماع الأغاني، وبالنظر إلى الصور المحرّمة، وبمغازلة النساء وبالتساهل مع نسائه، أو إباحة السفور في أهله، فإذا عُرف منه ذلك؛ فلا يجوز إقراره على إمامة المسلمين؛ لأنّ في ذلك إظهارًا لمنكره وتمكينًا له، فإنّ كونه يتولّى الإمامة فيه شيء من تشجيعه وتقديمه ورفع مكانته ومستواه، وذلك رفع للباطل على الحقّ. فعلى جماعة المسجد أن يجتمعوا جميعًا ويسعوا في

عزله عن الإمامة أو عن الخطابة، وأن يسعوا لاستبداله بمن هو كفءٌ، وعلى المسؤولين - بعد أن يتأكّدوا من صحّة تهمته ومِمّا رمي به - أن لا يقرّوه على الإمامة، فإقراره فيه تقوية للمنكر، وإظهار لأهل المنكر، وعزلُه فيه إذلال وإهانة للعصاة، وردع لهم عن التظاهر بالمعاصي.

وعلى كلّ حال، فمعلومٌ أنّ صلاة الجماعة من واجبات الإسلام، وأنّ المسلمين مأمورون أن يجتمعوا في مساجدهم، وأن يقدّموا واحدًا منهم يصلون خلفه، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، يتابعونه في الرفع والخفض والحركات، كما هو معلوم في كتب الفروع، ولكن لا بدّ أن يكونوا جميعًا يقتدون بالإمام، ولا بدّ أن يكون الإمام قدوةً؛ حسنة وذلك لأنّه سمِّيَ إمامًا، والإمامُ هو القدوة الذي يؤتمّ به، كما في قوله ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ**»[1].

يبقى عندنا ما أشار إليه الشارح من مسائل فروعيّة، وذكر أن الكلام عليها واسع في محلّه في كتب الفروع وهو صحيح.

مثلًا من صلّى محدثًا حدثًا أكبر أو أصغر، وصلّى الناس خلفه وهم لا يعرفون حدثه فما الحكم؟ هذه مسألة فروعيّة، وقد فرّق فيها العلماء بين ما إذا علم بالحدث وهو في نفس الصلاة، فاستمرّ فيها؛ فإنّهم يعيدون، وما إذا لم يتذكّر إلا بعدما انصرف، فإنّهم لا يعيدون، واستدلّ على ذلك بقصّة عمر ﷺ: أنّه صلى مرةً بالصبح بالجماعة، فلمّا أصبح رأى على ثوبه أثر احتلام، فاغتسل وأعاد الصلاة، ولم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨)، ومسلم (٤١١) من حديث أنس ﷺ.

يأمرهم بالإعادة. هذا هو القول المشهور.

وقد رُويَ عن عليّ ﷺ أنّه صلّى مرة بجماعة محدثًا بالكوفة، ولما كان بعد عدّة أيام تذكّر أنّه صلى بهم ذلك الوقت وهو محدث، فأمر مناديًا ينادي: من صلّى مع أمير المؤمنين في اليوم الفلاني الصلاة الفلانيّة فليعد الصلاة. ولعلّ هذا من باب الاجتهاد عند عليّ ﷺ.

ومن المسائل الفروعية التي ذكرها الشارح: إذا ترك الإمام شيئًا من الصلاة يعتقد المأموم أنّه واجب، والإمام يعتقد بأنّه ليس بواجب، ففي هذه الحال الصلاة صحيحة صلاة الإمام وصلاة المأموم، وقد كانت هناك مخالفات بين الشافعي ومالك ـ ومالك شيخ الشافعي ـ، فالشافعي يرى وجوب الجهر بالبسملة، ومالك لا يرى البسملة من الفاتحة، فقيل للشافعي: هل نصلّي خلف من يتبع الإمام مالكًا؟ فقال: ألست أصلّي خلف مالك؟ ومع ذلك كان يصلّي خلفه وهو لا يقرأ البسملة، والشافعي يراها واجبة.

وكذلك رفع اليدين عند الركوع وعند الرفع من الركوع لا يراه الحنفيّة، والشافعيّة ونحوهم يرونه من السنّن المؤكّدة، فإذا تركه الإمام الحنفي وصلى خلفه الشافعيُّ أو الحنبليُّ، فصلاتهم صحيحة، ولا خلاف في ذلك؛ لأنّه صلّى خلف إمام مجتهد رأى أنّ ذلك من جملة صلاته، وهكذا مثلًا التأمين في الصلاة: بعض الأئمّة يرونه مبتدعًا، حتى إن الحنفيّة يبطلون الصلاة خلفه، فالحنفي إذا صلّى خلف شافعي وأمّن لا تبطل صلاته؛ لأنّه مجتهد، ولكلّ مجتهد نصيب، وتفريعُ المسائل والخلاف مذكور في كتب الأحكام.

قال الشارح:

وَقَدْ دَلَّتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ والسنة وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ أَنَّ وَلِي الْأَمْرِ، وَإِمَامَ الصلاة، وَالحَاكِمَ، وَأَمِيرَ الحَرْبِ، وَعَامِلَ الصَّدَقَة، يُطَاعُ فِي مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ، وَلَيْسَ عليه أَنْ يُطِيعَ أَتْبَاعَه فِي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ، بَلْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُه فِي ذَلِكَ، وَتَرْكُ رَأْيِهِمْ لِرَأْيِه، فَإِنَّ مَصْلَحَة الجَمَاعَة وَالِائْتِلَافَ، وَمَفْسَدَة الْفُرْقَة وَالِاخْتِلَافِ، أَعْظَمُ مِنْ أَمْرِ المَسَائِلِ الجُزْئِيَّة؛ وَلِهَذَا لَمْ يَجُزْ لِلْحُكَّامِ أَنْ يَنْقُضَ بَعْضُهُمْ حُكْمَ بَعْضٍ. وَالصَّوَابُ المَقْطُوعُ به صِحَّة صلاة بَعْضِ هَؤُلَاءِ خَلْفَ بَعْضٍ.

ويُرْوَى عَنْ أبي يُوسُفَ: أنه لَمَّا حَجَّ مَعَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَاحْتَجَمَ الخَلِيفَة، وَأَفْتَاه مَالِكٌ بِأَنَّه لَا يَتَوَضَّأُ، وصلى بِالنَّاسِ، فَقِيلَ لأبي يُوسُفَ: أَصَلَيْتَ خَلْفَه؟ قَالَ: سُبْحَانَ الله! أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ. يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ تَرْكَ الصلاة خَلْفَ وُلَاة الْأُمُورِ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ.

وَحَدِيثُ أبي هريرة، الذي رواه البخاري[1]، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»، نَصٌّ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا أَخْطَأَ فَخَطَؤُه عليه، لَا على المَأْمُومِ، وَالْمُجْتَهِدُ غَايَتُه أنه أَخْطَأَ بِتَرْكِ وَاجِبٍ اعْتَقَدَ أنه لَيْسَ وَاجِبًا، أَوْ فَعَلَ مَحْظُورًا اعْتَقَدَ أنه لَيْسَ مَحْظُورًا. وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُخَالِفَ هَذَا الحَدِيثَ الصَّرِيحَ الصَّحِيحَ بَعْدَ أَنْ يَبْلُغَه، وَهُوَ حُجَّة على مَنْ يُطْلِقُ مِنَ الحَنَفِيَّة وَالشَّافِعِيَّة وَالحَنْبَلِيَّة أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا تَرَكَ مَا يَعْتَقِدُ

---

(١) برقم (٦٩٤).

**الْمَأْمُومُ وَجُوبَه لَمْ يَصِحَّ اقْتِدَاؤُه به!! فَإِنَّ الِاجْتِمَاعَ وَالِائْتِلَافَ مِمَّا يَجِبُ رِعَايَتُه، وَتَرْكُ الْخِلَافِ الْمُفْضِي إلى الْفَسَادِ.**

---

قال الشيخ:

وردت أدلّة في طاعة ولاة الأمور مذكورة في كتب الأحكام والعقائد، وكلّ يطاع بحسب ولايته، وكلٌّ له ولاية تخصّه، فهناك الخليفة الذي تحت ولايته جميع المسلمين، في شرق الأرض وغربها، كما كان الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أميّة وخلفاء بني العباس؛ كانت خلافتهم عامّة لجميع البلاد الإسلاميّة، فطاعتهم فيما أمروا به إذا لم يكن فيها معصية فهي طاعة لله، ثبت عنه ﷺ: «**مَن أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**»[1]؛ هذه ولاية عامّة، وهناك ولاية أخصّ منها مثل: ولاية أمير الحجاج، وولاية أمير المجاهدين، والناس المسافرون مأمورون أن يؤمّروا أميرًا عليهم ولو كان سفرًا قصيرًا، إذا كانوا جماعة، كما في بعض الأحاديث عن النبيّ ﷺ قال: «**إذا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ**»[2]، وهذا الأمير الذي أمّروه لا يحلّ لهم أن يعصوه ما لم يأمرهم بمعصية؛ فلا سمع ولا طاعة إلا في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨)، والطبراني في الأوسط (٨/ ١٠٠)، والبيهقي (٥/ ٢٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

طاعة الله ورسوله.

وفي حديث عَلِيٍّ ﷺ قال: بَعَثَ النبي ﷺ سَرِيَّةً، فَاسْتَعْمَلَ عليها رَجُلًا من الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ فقال: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النبي ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قالوا: بَلَى، قال: فَاجْمَعُوا لي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فقال: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فقال: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إلى النبي ﷺ من النَّارِ، فما زَالُوا حتى خَمَدَتْ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النبي ﷺ، فقال: «**لو دَخَلُوهَا ما خَرَجُوا منها إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ في الْمَعْرُوفِ**»[1]. أمرهم بطاعته، ولكن بيّن في هذا الحديث أنّ الطاعة إنّما تكون فيما كان معروفًا، وأما مثل هذا فلا يكون. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ قوله: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»[2]. فإذا أمر الوالي بمعصية فلا سمع ولا طاعة، وإذا أمر بطاعة أو أمر بما فيه مصلحة، فإنّ أتباعه يطيعونه، ولا يخرجون عن طاعته. هذه وظيفة أتباعه.

فإن كانت إمارة في بلد ما، أو كان هناك أمير على جيش أو سريّة أو غزو، أو أمير على حجاج، أو عامل القوم الذي يجمع الزكاة، فإن كلّ هؤلاء لهم إمارة كلّ بحسبه، وكذلك لو جعل رئيسًا لمؤسسة من المؤسسات أو مديرًا لدائرة من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (٢٨٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٦٦)، والطبراني في الكبير (٣٨١) من حديث عمران بن حصين ﷺ، وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (٢٦٢٦)، وفيه: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ على الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ ما لم يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فإذا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ ولا طَاعَةَ».

الدوائر، وجعل تحته من يخدمه، أو يعمل فيها فإنّهم تحت ولايته، وعليهم أن يفعلوا ما يأمرهم به بشرط أن لا يكون هناك معصية تخالف نصًا صريحًا، فهذه وظيفة هؤلاء الناس، ينفّذون ما أمرهم أميرهم في الطاعة.

ولكن بكلّ حال؛ الطاعة بقدر المصلحة التي يأمرون فيها، ومعلوم أنّ ولايتهم إنّما هي خاصّة، فإذا كان الإنسان خارجًا عن ولايتهم؛ كأن يكون انتهى عمله معهم، أو كان في بيته؛ فليس لهم ولاية عليه. معلوم أنّ أمير الجيش أو أمير البلد أو أمير الدائرة أو نحوها أنّه بشر، وليس بمعصوم، وليست أقواله كلّها صحيحة أو واقعيّة، بل كثيرًا ما يفعل الشيء ويكون عن اجتهاده، فعلى أتباعه وزملائه ووزرائه أن يشيروا عليه بما فيه المصلحة، وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه، ويقبل إشارتهم، ويقبل اقتراحاتهم:

ومن ذلك أن الرسول ﷺ لما نزل عند أدنى ماء من بدر، قال له الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**»، فقال: يا رسول الله، فأن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم تغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**»، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبني حوضًا على

القلب الذي نزل، فمُلِيء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية[١].

ولَمَّا جاء الأحزاب وأحدقوا بالمدينة، وكانوا من قريش وغطفان، أرسل النبي ﷺ إلى أمير غطفان وقال له: نريد أن ترجع بقومك ونعطيك ثلث ثمار المدينة، واستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا: يا رسول الله، إن كنت أُمِرْت بشيء فافعله، وإن كان غير ذلك فوالله ما نعطيهم إلا السيف، فقال رسول الله ﷺ: «لم أؤمر بشيء، وإنما هو رَأيٌ أعرضه عليكما»، قالا: يا رسول الله ما طمِعوا بذلك منا قط في الجاهلية، فكيف اليوم وقد هدانا الله بك؟ فسُرَّ النبي بقولهما[٢]. فدل ذلك على أن أتباع الوالي يشيرون عليه، ويهيؤون له النظرة المناسبة.

نقول: لا شكّ أنّ الولاة ليسوا بمعصومين، وأنّ أتباعهم مأمورون بأن ينصحوهم، وأن يدلّوهم على ما فيه المصلحة لهم وللمجتمع، ولكن إذا اختير للولاية الكفء أو الحاكم الذي تجتمع فيه الصفات التي تؤهّله لهذا المنصب فليس لأحد الاعتراض عليه، إلا على وجه النظر، أو على وجه الإشارة.

إنّ مبنى عقيدة الإسلام على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، وعلى طاعة الله، وطاعة رسوله، وقد وردت الأدلّة في تأكيد الأمر بالطاعة، والنهي عن العصيان في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٢٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٩٤)، وذكره ابن هشام في السيرة (٤/ ١٨٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٣٠).

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح:١٧]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]، ومثل قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٩٢]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. وأخبر بأنّ طاعة الرسول من طاعة الله، فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وأخبر النبيّ ﷺ بأنّ طاعة الله تعالى سبب لدخول الجنّة، وكذلك معصيته سبب لدخول النار، وأن طاعة الرسول ﷺ هي السبب أو العلامة لطاعة الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إلا من أَبَى**»، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: «**من أَطَاعَنِي دخل الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[1].

ومن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ طاعة أولي الأمر، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال النبيّ ﷺ: «**من أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعْ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**»[2]. وكان ﷺ يأمر بطاعة أولي الأمر كما في قوله: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[3]، وفي حديث حذيفة بن اليمان ﷺ: «**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ**

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٣٥).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[١].

وقد ذكر العلماء من عقيدة أهل السنّة طاعة ولاة الأمور الذين لهم الولاية، والسيطرة على البلاد والعباد، وطاعتهم تُعد جمعًا لكلمة المسلمين وقمعًا للمفسدين وردعًا للظالمين؛ لأنهم بولايتهم يثبت الحق ويظهر، وإذا لم يكن هناك ولاة صار الضعيف نهبًا للقويّ، ولم تثبت الكلمة، ولم يثبت الأمن، وحصلت الزعازع والفتن، وشرط في طاعتهم ألا تكون في معصية الله، ولا تخالف شيئًا من شرع الله. فلذلك ورد في الحديث أنّه ﷺ قال: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»[٢]، وقال: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»[٣].

وإذا كان اجتماع المسلمين على أميرهم أو على واليهم، فاجتماعهم فيه مصلحة، فإن من تمام مصلحتهم وتمام طمأنينتهم وحياتهم وسعادتهم ألاّ ينزعوا يدًا من طاعة، وألا يخالفوا جماعة المسلمين، وألا ينبذوا إليهم أمرهم، وألا ينقضوا بيعتهم، وبذلك تثبت البلاد وتطمئن، ويأمن العباد على أنفسهم وعلى أموالهم، وبذلك يؤخذ الحق للمظلوم من الظالم، ويقهر على الحقّ، ويلزم عليه، ويضرب على يد الظالم بيد من حديد، فتأمن البلاد كلّها، ويذهب عنها الخوف والفتن والزعازع، لأجل هذا أمرنا بطاعة ولاة أمورنا.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٤٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٣).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٣).

إنّ علينا جميعًا مسؤولية، وهي: أن ننصح مَنْ ولّاه الله علينا، فإن هذا من تمام العقيدة. وكان النبيّ ﷺ من جملة ما يأخذه على أصحابه في البيعة قوله: «**أَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ**»[1]، وهذه المناصحة تتمثّل في النصح لهم، وهو: أنّ نكون ناصحين لهم، والناصح هو المخلص، والنصح مشتقّ من قولهم: نصح العسل إذا خلّصه وصفّاه. والمعنى ألاّ يكون في قلبه غلّ ولا حقد على مسلم، وأن يهدي لكلّ مسلم صغيرًا كان أو كبيرًا النصيحة، ويدلّه على الخير الذي يحبّه لنفسه، وبالأخصّ ولاة الأمور، وليست النصيحة مقتصرة على أن تحبّهم، وأن تخلص لهم المودّة، وأن تصفي لهم قلبك، ولا يكون في قلبك حقد ولا غلّ.

ولكنّ النصيحة تتمثل أيضًا بالتحذير من الشرور والدلالة على الخيرات، والإرشاد عند الهفوات، والتحذير من الزلّات، ونحوها، وولاة الأمور وكذلك من لهم ولاية؛ لأنّهم بشر، والبشر عُرضة للخطأ، والإنسان إذا أخطأ ينتظر البيان من إخوته وممّن تحته وممّن فوقه، وممّن أكبر منه، وممّن أصغر منه، ينتظر منهم جميعًا أن يرشدوه ويدلّوه ويهدوه إلى الحقّ ويبصّروه به، فإذا بيّنوا له، وبصّروه بالصواب، رجع إليه، وفرح أن يكون من رعيّته من يدلّه ومن يعينه، فيكون ذلك ردًّا له إلى الحق، وخيرًا للأمّة، وللولاة.

أما إذا تُرك الولاة على ما هم عليه من الخطأ، إن كانوا معتقدين أنّ ما هم فيه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠)، وابن حبان (٨/ ١٨٢)، والبيهقي (٨/ ١٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الصواب، ولم يرشدهم من هو حولهم من وزير أو أمير أو أخ أو صديق أو عالم، ولم يبيّنوا لهم ما يعلمونه، فإنّها تعظم بذلك المصيبة، وكل عاقل من ولاة الأمور، وكل ناصح وكلّ محبّ تقيّ مؤمن؛ يفرح ويسرّ إذا أبديت له النصيحة، وإذا أظهرت له الزلّة التي زلّها، والكلمة التي أخطأ فيها، فيرجع إلى الصواب، ويعود إلى طريق الحق، وهذه الصفة التي يلزم أن يكون عليها كلّ أحد من صغير وكبير وأمير ومأمور، فإذا كانت الأمّة كذلك؛ يحبّون لولاتهم ما يحبّونه لأنفسهم، وينصحون لهم ويطيعونهم، وكذلك يرشدونهم وينبّهونهم إلى الصواب، فعند ذلك تجتمع كلمة الأمّة، وبذلك يظهر الحقّ ويقوى أهله، هذا هو الواجب في حقّ ولاة الأمور.

أمّا العامّة فواجب علينا أن ننصح لهم؛ لأنّهم من جملة إخواننا، وقد جعل الله النصيحة لهم بعد النصيحة للولاة؛ فأمر بأن ننصح العامة والنصيحة للعامة تتمثّل بإرشادهم إلى الخير، وتحذيرهم من الشر، ودلالتهم عليه، وإرشاد ضالّهم، وتعليم جاهلهم، وتنبيه غافلهم، وأمرهم بالخير ودوام حثّهم عليه، ونهيهم عن الشرّ وتحذيرهم منه، وما أشبه ذلك، وهم إذا كانوا عقلاء أتقياء، فرحوا بالنصيحة وقبلوها، وسرّوا بمن نصحهم وشجّعوه والتزموا بأن يؤدّوا النصيحة إلى أبنائهم وإخوانهم وأحفادهم، فعند ذلك تنتشر الشريعة والعمل بها، وتظهر كلمة الله التي وعد بإظهارها، ويظهر دين الله على الدين كلّه.

وكذلك من عقيدة المسلمين أنّهم يدينون بالطاعة لولاة أمورهم، وأنّهم يصلّون على أهل التوحيد الذين يقولون: لا إله إلا الله، وأنّهم لا ينزعون يدًا من

طاعة؛ فإذا التزموا بذلك كلّه سكنت أمورهم، واستقرّوا في حياتهم، وعملوا بشريعتهم، فإذا عرفوا ذلك، عرفوا أنّ عقيدة الإسلام جاءت بكلّ ما فيه الأمن والاستقرار.

قال الشارح:

وقوله: (وعلى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ)، أي: وَنَرى الصلاة على مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَإِنْ كَانَ يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا الْعُمُومِ الْبُغَاة وَقُطَّاعُ الطَّرِيقِ، وَكَذَا قَاتِلُ نَفْسِه، خِلَافًا لأبي يُوسُفَ، لَا الشَّهِيدُ، خِلَافًا لِمَالِكٍ وَالشَّافِعِي رَحِمَهُمَا الله، على مَا عُرِفَ في مَوْضِعِه. لَكِنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا سَاقَ هَذَا لِبَيَانِ أَنَّا لَا نَتْرُكُ الصلاة على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ، لَا لِلْعُمُومِ الْكُلِّي.

وَلَكِنِ الْمُظْهِرُونَ لِلْإِسْلَامِ قِسْمَانِ: إِمَّا مُؤْمِنٌ، وَإِمَّا مُنَافِقٌ، فَمِنْ عُلِمَ نِفَاقُه لَمْ تَجُزِ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ وَالِاسْتِغْفَارُ له، وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ ذَلِكَ منه صُلِّي عليه. فَإِذَا عَلِمَ شَخْصٌ نِفَاقَ شَخْصٍ لَمْ يُصَلِّ هُوَ عليه، وَصَلَّى عَلَيْه مَنْ لَمْ يَعْلَمْ نِفَاقَه، وَكَانَ عُمَرُ ﷺ لَا يُصَلِّي على مَنْ لَمْ يُصَلِّ عليه حُذَيْفَة؛ لأنه كَانَ في غَزْوَة تَبُوكَ قَدْ عَرَفَ الْمُنَافِقِينَ، وَقَدْ نَهَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَأَخْبَرَ أنه لَا يَغْفِرُ لَهُمْ بِاسْتِغْفَارِه، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ بالله ورسوله، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بالله ورسوله لَمْ يُنْه عَنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ له مِنَ الذُّنُوبِ الِاعْتِقَادِيَّة الْبِدْعِيَّة أَوِ الْعَمَلِيَّة الْفُجُورِيَّة مَا له، بَلْ قَدْ أَمَرَه الله تعالى بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩]، فَأَمَرَه سبحانه بِالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ لِنَفْسِه وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، فَالتَّوْحِيدُ أَصْلُ الدِّينِ، وَالِاسْتِغْفَارُ له وَلِلْمُؤْمِنِينَ كَمَالُه. فَالدُّعَاءُ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَة وَالرَّحْمَة وَسَائِرِ الْخَيْرَاتِ، إِمَّا وَاجِبٌ وَإِمَّا مُسْتَحَبٌّ، وَهُوَ على نَوْعَيْنِ: عَامٌّ وَخَاصٌّ، أَمَّا الْعَامُّ

فَظَاهِرٌ، كَمَا في هذه الآية، وَأَمَّا الدُّعَاءُ الخَاصُّ، فَالصَّلَاة على المَيِّتِ، فَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ إِلَّا وَقَدْ أُمِرَ المُؤْمِنُونَ أَنْ يُصَلُّوا عليه صلاة الجِنَازَة، وَهُمْ مَأْمُورُونَ في صَلَاتِهِمْ عليه أَنْ يَدْعُوا له، كَمَا روى أَبُو دَاوُدَ[1] وَابْنُ مَاجَه[2] عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ على المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا له الدُّعَاءَ».

---

قال الشيخ:

نحن مأمورون بأن نحسن الظنّ بالمسلمين، وألا نحكم على مسلم يتظاهر بالإسلام بأنّه مرتدّ أو كافر؛ وذلك أن ظاهره من أهل الإسلام، ولو كان باطنه خفيًّا، فإنّنا نصلّي عليه بعد موته، ويدخل في ذلك كل من قال: لا إله إلا الله.

وأهل (لا إله إلا الله) هم أهل التوحيد، وهم أهل الإسلام، وهم أهل العلم والعمل، فيعملون بما توجبه (لا إله إلا الله)، ويتركون ما تحرّمه هذه الكلمة من المحرّمات، فإذا كانوا متمسّكين بذلك في الظاهر فإننا لا نكفّرهم، ونصلّي عليهم، ولو فعلوا هفوات، ولو صدر منهم زلّات، ولو كانوا مذنبين، ولو رأينا منهم بعض الذنوب الظاهرة، لم نحكم بكفرهم، ولم نحكم بخروجهم من الإسلام؛ لأنّ من عقيدة أهل السنّة أنّهم لا يُكفّرون بالذنوب، ولو كانت ما كانت، ما لَمْ تصل إلى الشرك، إلا ما ورد التكفير به كترك الصلاة، أي الإصرار على تركها،

---

(١) برقم (٣١٩٩).

(٢) برقم (١٤٩٧).

وقد ورد الأمر في أنه يشبه الكفر أو تسميته كفرًا.

وأمّا بقيّة الأعمال؛ فإذا أطلق على بعضها كفر، فإنّه يراد بها الكفر العملي. كقوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي أُمَّتِي هُمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، والنِّياحةُ عَلى المَيِّتِ»[1]. كون الإنسان يطعن في غيره ويقول له: لست من قبيلة فلان، ولست من بني فلان، ونحو ذلك. هذا أطلق عليه كفر، ولكنّه كفر عمليّ، والنياحة: هي الصياح على الميت، أطلق عليه أنه كفر، وهو كفر عمليّ، وكل هذه لا توجب أن نتبرأ من هذا الإنسان، ولا نترك الصلاة عليه، بل هو أولى بأن يصلّى عليه، فالمسلم الذي وقعت منه ذنوب يصلّى عليه، ولا تترك الصلاة عليه، ولو كان قد زنى، أو سرق، أو أكل مال اليتيم، أو تولى عن الزحف وما أشبه ذلك، ما عدا الذنوب التي توقعه في الكفر؛ من المكفّرات المشهورة التي إذا فعلها وقع في الكفر كالذي يسب الله، أو يسبّ الرسول ﷺ، أو يتنقّص دين الإسلام، أو نحو ذلك، فإنّ هذه تعدّ ردّة وخروجًا من الإسلام، وبكلّ حال فالمعاصي التي دون الشرك ودون الكفر يصلَّى على أهلها.

هناك المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون للناس أنّهم مؤمنون. هؤلاء لا يعلم النّاس بواطنهم، فيُصلّى عليهم عملًا بالظاهر؛ لأنهم يصلّون معنا، ويجاهدون معنا، ويصومون ويفطرون مع المسلمين، فلا يصل بهم الأمر إلى الكفر، إلا إذا كانوا يبطنون الكفر في أنفسهم، فأمرهم بينهم وبين الله، ولكن إذا

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

عُلم من إنسان نفاق حقيقي وظهر منه ما يدلّ على نفاقه، وإضماره الكفر، وأنّه ما أسلم ولا عمل هذه الأعمال إلا تستّرًا؛ فإنّه والحالة هذه يحكم بكفره ولا يصلّى عليه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤]. نهاه الله أن يصلّي على المنافقين الذين يعلم نفاقهم، والذين أطلعه الله على بعضهم، وبعضهم لم يعلم به، قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة:١٠١]. فالنبيّ ﷺ قد لا يعلم بعضهم، ولكن الله تعالى هو الذي يعلم أعيانهم، فأطلعه على بعضهم، والذين أطلعه عليهم نهاه أن يصلّي عليهم، وأطلع النبيُّ ﷺ حذيفةَ بن اليمان ﷺ على بعض أشخاص من المنافقين الذين همّوا بما لم ينالوا، فسمّاهم وأسَرّهم إلي حذيفة ﷺ، فكان حذيفة ﷺ يُسمَّى صاحب سرّ رسول الله ﷺ. ولهذا إذا قدّمت جنازة مشكوك فيها لم يصلّ عليها عمر ﷺ حتى يجد حذيفة ﷺ يصلّي عليها، فيعلم أنّ صاحبها ليس من المنافقين.

فإذا عُرِف من حال إنسان أنه منافق يؤذي الله ورسوله، ويؤذي المسلمين، ويؤذي الإسلام، ومع ذلك يتظاهر بأنه من المسلمين، فلا يصلَّى عليه والحال هذه، بل إذا اطّلع على إلحاده وزندقته فإنّه يقتل؛ لأنّ ذلك ردّة وتبديلٌ للدين، عملًا بقول الرسول ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وكذلك لا يصلّى على أهل البدع الذين يظهرون بِدَعَهم؛ مثل الرافضة الذين يظهرون للناس أنّهم يحبّون الإسلام، وأنّهم يحبّون القرآن، وما أشبه ذلك، ولكنّهم يُبطنون بغض الله وبغض رسوله، ويضمرون بغض الصحابة الذين حملوا كتاب الله، ويعتقدون أنّهم حرّفوا كتاب الله، وكذَبوا على رسول الله، ويبغضون أهل السنّة، فمثل هؤلاء أعداء لله، ويعدّون منافقين؛ لأنّهم في الحقيقة يضمرون الكفر، أو يضمرون البغض ويعملون بما يسمّى التقيّة، التي هي نوع من النفاق، وأشباههم من الملاحدة الذين يشكّ في عقيدتهم، فنترك الصلاة عليهم زجرًا عن أفعالهم، وزجرًا عن معتقداتهم.

أما بعض الأشخاص الذين تُركت الصلاة عليهم، فلا بدّ أنّ هناك سبب؛ فنقول مثلًا: من قتل نفسه، لم يصلِّ عليه الإمام الكبير أو العالم الكبير زجرًا عن هذا الفعل، ولكن هذا لا يمنع أن يصلّي عليه عامّة الناس؛ لأنّ ذنبه كبير.

وكذلك تُركت الصلاة على الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، لم يصلّ النبي ﷺ على شهداء المعركة؛ إما لعدم حاجتهم لذلك، أو لأنّهم والحال هذه يعتبرون من أتقى الأتقياء، ومن أهل الخير، وإما تخفيفًا لكربتهم؛ لأنّهم قد يكونون أعدادًا كبيرة.

فالأصل أنّنا نصلّي على أهل (لا إله إلا الله)، وأنّ الصلاة عليهم تنفعهم؛ لأنّ الميت قد انقطع عملُه، فهو بحاجة إلى أن يدعو له إخوتُه المسلمون بالرحمة وبالمغفرة، ونحو ذلك.

ففي حديث عوف بن مالك ﷺ قال: صلى رسول اللَّهِ ﷺ على جَنَازَةٍ

فَحَفِظْتُ من دُعَائِهِ وهو يقول: «**اللهم اغْفِرْ له وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عنه، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ من الخَطَايَا كما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ من الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا من دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا من أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا من زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ من عَذَابِ الْقَبْرِ، أو من عَذَابِ النَّارِ**»، قال: حتى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أنا ذلك الميِّتَ[1].

ولعلّ هذا لأجل أن يحفَظَهم هذه الأدعية ويعلّمهم إياها، ولم يحدد للصحابة دعاء، بل أمرهم أن يدعوا بما تيسّر، ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ: «**إِذَا صَلَّيْتُمْ على الميِّتِ فَأَخْلِصُوا له الدُّعَاءَ**»[2]. ادعوا له بما تيسّر، وبما تحفظون من الدعاء، أي: من هذا ومن هذا، وادعوا له بخيرَيِ الدنيا والآخرة؛ خير الدنيا يعني: نعيم البرزخ، وخير الآخرة يعني: ما بعد البعث الجنّة وزهرتها، وكذلك ما قبلها، ادعوا له بذلك، وادعوا له بالمغفرة، وأمر الله نبيّه ﷺ بالاستغفار للمؤمنين بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

وحكى الله عن بعض أنبيائه هذا الاستغفار، فحكى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنّه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤٠، ٤١]؛ لم يقتصر على والديه وعلى ذرّيته بل دعا للمؤمنين، وحكى عن نوح ـ عليه السلام ـ

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٣).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٦٦٢).

أنّه قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨]، فدعا للمؤمنين والمؤمنات عمومًا، يدخل في ذلك الأوّلون والآخرون.

فإذًا نحن مأمورون بالدعاء للمؤمنين، والصلاةُ عليهم؛ رجاء أن تنفعهم، والصلاة عليهم بعد موتهم فيها دعاء لهم واستغفار لهم، وزيادة في أعمالهم، فيحرص على أن يصلّى على الميّت ويحرص أيضًا على كثرة عدد المصلّين؛ لأنّهم ربّما يكون فيهم مجاب الدعوة، وربّما يكون في الكثير من هو أتقى وأنقى، وهو أفضل معتقدًا، فيجيب الله دعوتهم، ويمكن أنّه مع كثرتهم يقبل الله تعالى دعوتهم، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مَيِّتٍ تُصَلِّي عليه أُمَّةٌ من المُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كلهم يَشْفَعُونَ له، إلا شُفِّعُوا فيه**»[1].

(١) أخرجه مسلم (٩٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الطيار

خرج أحاديثه وعلق عليه وراجعه
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله المزيني

الجزء الرابع

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

(٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعد للنشر
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويحر

الجزء الرابع

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع انسويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (ابن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلَا نُنْزِلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا.

---

قال الشارح:

يُرِيدُ: أَنَّا لَا نَقُولُ عَنْ أَحَدٍ مُعَيَّنٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ: إنه مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، إِلَّا مَنْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ أنه مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كَالْعَشَرَةِ رضي الله عَنْهُمْ. وَإِنْ كُنَّا نَقُولُ: إنه لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مَنْ يَشَاءُ اللهُ إِدْخَالَه النَّارَ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ، وَلَكِنَّا نَقِفُ فِي الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ، فَلَا نَشْهَدُ له بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ؛ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ بَاطِنَةٌ، وَمَا مَاتَ عليه لَا نُحِيطُ به، لَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ، وَنَخَافُ على الْمُسِيءِ.

وَلِلسَّلَفِ فِي الشَّهَادَةِ بِالْجَنَّةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ لَا يُشْهَدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا يُنْقَلُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَالْأَوْزَاعِيِّ.

والثاني: أنه يُشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ جَاءَ فيه النَّصُّ، وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَالثَّالِثُ: أنه يُشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِهَؤُلَاءِ وَلِمَنْ شَهِدَ له الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: أنه مُرَّ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا بِخَيْرٍ، فَقَالَ النبي ﷺ: «وَجَبَتْ»، وَمُرَّ بِأُخْرَى، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا بِشَرٍّ، فَقَالَ: «وَجَبَتْ». وفي رِوَايَةٍ: كَرَّرَ: «وَجَبَتْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، مَا وَجَبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه

خَيْرًا وَجَبَتْ له الجَنَّة، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه شَرًّا وَجَبَتْ له النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله في الْأَرْضِ»[(١)]. وَقَالَ ﷺ: «تُوشِكُونَ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الجَنَّة مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «بِالثَّنَاءِ الحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّءِ»[(٢)]. فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ به أَهْلُ الجَنَّة وَأَهْلُ النَّارِ.

---

قال الشيخ:

أوّل الكلام يتعلّق بمن يُشهد له بالجنّة ومن يشهد له بالنار، هل يجوز ذلك أم لا؟ قد ثبت أنّه ﷺ شهد لبعض أصحابه بالجنّة، كالعشرة في حديث سَعِيدُ بن زَيْدٍ ﷺ قال: أَشْهَدُ على رسول اللَّهِ ﷺ أني سَمِعْتُهُ وهو يقول: «عَشْرَةٌ في الجَنَّةِ: النبي في الجَنَّةِ، وأبو بَكْرٍ في الجَنَّةِ، وَعُمَرُ في الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ في الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ في الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ في الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بن الْعَوَّامِ في الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بن مَالِكٍ في الجَنَّةِ، وَعَبْدُالرحمن بن عَوْفٍ في الجَنَّةِ»، قال سعيد بن زيد ﷺ: وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الْعَاشِرَ، فَقَالُوا من هو؟ فَسَكَتَ، فَقَالُوا: من هو؟ فقال: هو سَعِيدُ بن زَيْدٍ[(٣)].

أي: هم الخلفاء الأربعة والستة الذين جمعهم ابن أبي داود بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٦)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٦)، و(٦/ ٤٦٦)، وابن ماجه (٤٢٢١)، وابن حبان (١٦/ ٣٩٢)، والطبراني في الكبير (٣٨٢)، والحاكم (٤/ ٤٣٦) من حديث أبي زهير الثقفي ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٣)، وأحمد (١/ ١٨٧)، وابن حبان (١٥/ ٤٥٤).

وَقُلْ: إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... وَزِيْرَاهُ قِدَمًا ثُمَّ عُثْمَانُ الارْجَحُ
وَرَابِعُهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بَعْدَهُمْ ... عَلِيٌّ حَلِيْفُ الخَيْرِ بِالخَيْرِ مُنْجِحُ
وإِنَّهُمُ لَلْمُرَّهْطُ لاَ رَيْبَ فِيْهِمُ ... عَلَى نُجُبِ الْفِرْدَوْسِ بِالنُّورِ تَسْرَحُ
سَعِيْدٌ وَسَعْدٌ وَابْنِ عَوْفٍ وَطَلْحَةٌ ... وَعَامِرٌ فِهْرٍ وَالْزُّبَيْرُ الْمُمَدَّحُ[1]

هؤلاء شهد لهم النبيّ ﷺ بالجنّة، وخُتم لهم بالأعمال الصالحة، ولم ينقم عليهم ما يكون سببًا لمخالفة ما شهد به النبي ﷺ، وكذلك قصة ثابت بن قيس بن شماس ﷺ، بشره النبي ﷺ أنّه من أهل الجنّة[2]. يقول الراوي: فكان يمشي بيننا وهو من أهل الجنّة.

وكذلك قوله ﷺ لبلال ﷺ: «فَإِنِّي سمعت اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بين يَدَيَّ في الجَنَّةِ»[3]، وغيرهم ممّن شهد لهم بذلك، كما شهد لعمار وسلمان رضي الله عنهما[4].

وكما ثبت عنه ﷺ أنّه قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إن شَاءَ الله من أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ

---

(١) انظر النظم في طبقات الحنابلة (٣/ ١٠٠)، ولسماحة شيخنا عبدالله بن جبرين ـ حفظه الله ورعاه ـ شرح كامل مطبوع لهذا النظم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) كما في حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ إِلَى ثَلَاثَةٍ: عَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَانَ». أخرجه الترمذي (٣٧٩٧)، وأبو يعلى (٥/ ١٦٤)، والحاكم (٣/ ١٣٧) من طريق أبي ربيعة الأيادي عن الحسن عن أنس بن مالك ﷺ. قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ١٠٠): «هذا حديث لا يصح، وأبو ربيعة اسمه: زيد بن عوف، ولقبه: فهد، قال ابن المديني: ذاهب الحديث، وقال الفلاس ومسلم بن الحجاج: متروك الحديث».

أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا»[1]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمئة الذين بايعوا بيعة الرضوان، وفي هذا شهادة من النبي ﷺ أنهم لا يدخلون النار، أو أنّهم من أهل الجنّة؛ لأنّ من لم يدخل دخل الجنّة، ولا بدّ.

وكذلك أهل بدر الذين عددهم ثلاث مئة وبضعة عشر؛ قد ثبت أنّ النبيّ ﷺ قال: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قد اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[2]، فمثل هؤلاء إذا كان الله قد غفر لهم، فذلك دليل على أنّهم من أهل الجنّة. وبقيّة الصحابة رضي الله عنهم، يُرجى لهم الخير؛ وذلك لسبقهم وأعمالهم الصالحة، وقد أنزل الله فيهم آيات تدلّ على سبقهم وتدلّ على فوزهم، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ المهاجرون: الذين هاجروا من مكّة إلى المدينة، والأنصار: الذين أسلموا في المدينة، والذين اتبعوهم بإحسان: الذين أسلموا فيما بعد.

وبقي أنّ نقول: وردت أحاديثُ أيضًا في تغليب الرجاء، وأنّ أهل التوحيد لا يدخلون النار، وفي حديث عِتبان بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده رجل يقال له مالك بن الدُّخْشُم، فقال بعض الحاضرين: ذاك منافق، فقال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

«أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَأَنِّي رسول الله؟»، قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قَلْبِهِ، قال: «لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَأَنِّي رسول الله فَيَدْخُلَ النَّارَ أو تَطْعَمَهُ»[1].

وكذلك من حقّق التوحيد، كما قال النبي ﷺ: «من شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبد الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ على ما كان من الْعَمَلِ»[2].

فهذه أيضًا تزكية من الله، وشهادة من رسوله ﷺ بأنّ من أتى بهاتين الشهادتين على الحقيقة، وشهد بالجنّة والنّار، وشهد بالبعث بعد الموت، وشهد بما أخبر به الله تعالى، وكانت تلك الشهادة عن يقين وعن عقيدة راسخة فإنها تثمر العمل؛ فشهادة أن لا إله إلا الله تثمر طاعةَ الله وعبادته، وشهادة أن محمدًا رسول الله تثمر اتّباعه وتعظيم سنّته، وتقليده والسير على منهجه، وأثمرت شهادة أنّ الجنّة حقّ طلبها والعمل لها، وكذلك شهادة أنّ النّار حقّ أثبتت الهرب منها، والهرب من الأسباب التي توقع فيها، وكذلك العمل الصالح الذي يسبب أن صاحبه يدخل الجنّة على ما كان من العمل، وهناك أحاديث كثيرة تدل على أن الأعمال الصالحة قد رُتّب عليها دخول الجنّة، وهناك أيضًا أحاديث كثيرة معروفة

---

(١) أخرجه مسلم (٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

رتّب عليها دخول النار، ولكن يظهر أن ذلك الدخول لأجل ذلك الذنب ثم بعد التمحيص من ذلك الذنب الذي لم يصل بصاحبه إلى الشرك، وإلى الحكم بخلوده في النار، فيعذّب بقدر ذنبه، ثم يخرج من النار، وعليه تُحمل أحاديث الشفاعة التي بيّن رسول الله ﷺ فيها أنّه يشفع في أهل (لا إله إلا الله)، وأنّه يخرج من النار أهل الإيمان بالله، ولا يبقى في النار إلا مَنْ وجب عليه الخلود وحبسه القرآن، وهم الكفرة والملاحدة والمشركون ونحوهم.

إذًا فنحن نحكم حكمًا عامًا ونقول: أهل التوحيد وأهل الإسلام وأهل الإخلاص وأهل العمل؛ هؤلاء نرجو لهم الجنّة، والله تعالى لا يخيّب رجاء المؤمنين، وأهل الكفر وأهل الشرك وأهل الزندقة والنفاق؛ هؤلاء نعلم أنّ الله توعّدهم بالنار، ونخاف عليهم.

أمّا أهل الكبائر فنخاف عليهم ونرجو لهم رحمة الله، نرجو أن الله تعالى يرحمهم وهو واسع الرحمة، ولكن نخاف أن يعذّبهم؛ ذلك لأن عذاب الله شديد، وأنه سبحانه قد توعَّد بالعذاب على ما دون ذلك، ووعد بالثواب على أعمال قليلة. فنرجو لهؤلاء دون أن نجزم أنّهم من أهل الجنّة ولو لم يكن عندهم كبائر، ونخاف على هؤلاء دون أن نجزم لهم بالنار ولو كان عندهم كبائر، فنخاف على المذنب، ونرجو للمحسن، وهذه من عقائد أهل السنّة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ وَلَا بِشِرْكٍ وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إلى الله تعالى.

---

قال الشارح:

لِأَنَّا قَدْ أُمِرْنَا بِالْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ، وَنُهِينَا عَنِ الظَّنِّ وَاتِّبَاعِ مَا لَيْسَ لَنَا به عِلْمٌ. قَالَ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ الآية [الحجرات:١١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الآية [الحجرات:١٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الآية [الإسراء:٣٦].

---

قال الشيخ:

وهذا أيضًا يقتضي أنّنا لا نتخبّط بجهل، ونقول في المسلم بخير يقين؛ لأن المسلمين لهم ظواهر وبواطنُ، والحكم للمسلم على الظاهر أيضًا، والمعاملة له على الظاهر، فمن أظهر لنا خيرًا فإنّنا نحسن الظنّ به، ومن أظهر لنا شرًا فإنّنا نسيء الظنّ به. وروي أنّ عمر بن الخطاب ﷺ خطب بعد موت النبي ﷺ فقال: «إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رسول الله ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قد انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لنا من أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لنا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ

إِلَيْنَا من سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، الله يُحَاسِبُهُ في سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لنا سُوءًا لم نَأْمَنْهُ ولم نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قال: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ»[1]. فجعل الحكم على ما يظهره الإنسان.

ومما يدلّ على ذلك أيضًا حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار ﷺ: أن رجلاً استأذن النبي ﷺ في قتل رجل من المنافقين، فَجَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلامِهِ وَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يُصَلِّي؟»، قَالَ: بَلَى وَلا صَلاةَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيتُ عَنْهُمْ»[2].

أي: أنّه أمر بمعاملتهم بالظاهر ما داموا يعلنون الشهادتين، ويقيمون الصلاة إقامة ظاهرة، فليس لنا أن ننقّب عن قلب أحدهم؛ لأنّنا لا ندري ما يكنّه.

وفي حديث ذي الخويصرة لما جاء إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، فقال ﷺ: «وَيْلَكَ، أو لست أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟»، فقال خَالِدُ بن الْوَلِيدِ ﷺ: يا رَسُولَ اللَّهِ، ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فقال ﷺ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي»، قال خَالِدٌ: وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما ليس في قَلْبِهِ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «إني لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ الناس، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ»[3]، يعني: أنّنا إنّما نأخذهم بما يظهر لنا، فهذا أمر الله عزّ وجلّ.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٢٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٨٨).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٣٨٨).

ولَمَّا قتل أسامة بن زيد ﷺ رجلًا من المشركين بعدما قال: لا إله إلا الله؛ أنكر عليه النبيّ ﷺ وقال: «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلا الله وَقَتَلْتَهُ؟»، قال: قلت يا رَسُولَ الله إنما قَالَهَا خَوْفًا من السِّلَاحِ، قال: «أَفَلَا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ حتى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا»[1].

في هذه الأدلّة ونحوها أنّ المعاملة تكون بالظاهر، سواءً كان الظاهر خيرًا أو شرًا، فالذين يعملون الأعمال الخيريّة نحبّهم ونكل باطنهم إلى الله، والذين يظهرون الأعمال السيّئة نبغضهم، ونكلُ أمر قلوبهم إلى الله تعالى.

وكثيرًا ما ننكر على الذين يظهرون المعصية؛ فمثلًا الذي تراه يحلق لحيته، أو تراه يشرب الدخان، أو يسبل ثوبه، أو يتكاسل عن الصلاة، أو يقذفُ ويسبّ ونحو ذلك فتنكر عليه؛ فيقول لك: العمل على ما في القلوب، قلبي طاهر، إذا كان قلبي نقيًا فلا عبرة بما أفعله، العبرة ليست بالمظاهر. وهذا ليس صحيحًا؛ فنحن لا ندري ما باطنك؛ لأن باطنك خفيّ. نحن نعاملك بما أظهرت لنا، وهو عملك بهذه المعاصي، وإعلانها دليل على استخفافك بأمر الله، ودليل على تهاونك بعقوبة الله، وتهاونك بنظر الله، ودليل على أن في قلبك محبّة لهذه المعاصي، وأمّا كون قلبك نقيًا وكونك مؤمنًا ونحو ذلك، فهذا ليس إلينا، بل إلى الله عزّ وجلّ.

وأمّا إذا أظهر لنا الإنسان التّقى والورع، ورأيناه يحافظ على العبادات، ولم نسمع منه شيئًا يقدح في عدالته أو ديانته، فإنّنا نحبّه، وليس لنا أن نتتبّع أسراره الخاصّة، ولا أن نبحث عن خفاياه، ولا أن نظنّ به الظنون السيّئة التي حذّرنا الله

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد ﷺ.

منهـا، فقـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الآيـة [الحجرات:١٢]. أي: لا تقولوا: يمكن أنّ فلانًا منافق، لا ندري ما إيمانه، هلمّ بنا نتجسّس عليه، ولنستمع كلامه في خفيته وفي سرّه، ليس ذلك إلينا، ما دام لم يظهر سوءًا، فإنّنا نعامله بما أظهر، ولا نقول: إن باطنه خبيث، وإنّه يسرّ كذا وكذا، وكذلك لا نتكلّم فيه قدحًا بغير علم، فندخل في المخالفة التي حذرنا الله منها بقولـه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي لا تتبّع ما ليس لك به علم، فتتكلم بسوء أو تستمع إلى سيءٍ، أو تنظر إلى عورة ليس لك النظر إليها، أو تظنّ ظنًّا سيّئًا، إذا تسمّعت إلى حديث قوم وهم لا يحبّون أن تسمع، وتقول لعلّي أن أسمع منهم ما يدلّ على بغضهم، وعلى صدّهم عن الإسلام، نقول: ليس لك ذلك، وقد جاء الوعيد على لسان النبي ﷺ لمن يفعل ذلك، فقال ﷺ: «مَنْ اسْتَمَعَ إِلى حديث قَوْمٍ وَهُمْ له كَارِهُونَ أو يَفِرُّونَ منه صُبَّ في أُذُنِهِ الْآنُكُ يوم الْقِيَامَةِ»[1]. أما إذا أظهروا ذلك علنًا، فإنّ لك أن تشهد به، وهذا هو ما وُجد من الصحابة رضي الله عنهم، فإنّ الذين عُرِفَ نفاقُهم ما عرف إلا لما أعلنوه.

قد يُقال: إنّ هذا قد يكون سببًا في كثرة المنكرات؟ ونقول: مادامت المنكرات خفيّةً، فلسنا مسؤولين عنها، لكن إذا رأينا علامات ظاهرةً، مثل أن نرى بيوتًا

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يظنّ أنها بيوت دعارة، يتوافد إليها أناس مشكوك فيهم، فإنّ لنا أن نتحفّظ.

دين الإسلام يحثّ على التمسّك بالسنّة، ويحثّ على الاجتماع على العقيدة السلفيّة، وينهى عن التفرّق والتعادي والتقاطع، ويأمر بالتمسّك بالصراط المستقيم، والأدلّة على ذلك واضحة ظاهرة، استدلّ الشارح بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أمر بالاتّباع، وأمر بالتمسّك بالصراط المستقيم الذي أمرنا الله بأن ندعو به في صلاتنا بقولنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، وهو الطريق الذي سارت عليه الأمّة الإسلاميّة، ونهجه أهل السنّة، وأمر الله تعالى بالسير عليه، وبالتمسّك به، وأمر النبيّ ﷺ بالتمسّك به أشدّ ما يكون، وبالعضّ عليه بالنواجذ، التي هي أقاصي الأسنان، وهذا دليل على أهمّية السير على هذا الصراط السويّ.

وينهى الإسلام عن التفرّق والاختلاف؛ لأنّ في الاختلاف تعادٍ، فمتى اختلفت وجهات المسلمين، فكانت طائفة تذهب إلى هذا، وطائفة تذهب إلى هذا، وهذه تبدِّع هذه، وهذه تضلّل الأخرى؛ لم يكونوا مجتمعين على الحقّ، ولم يحصل بينهم التعاون على البرّ والتقوى، بل خيف عليهم أن يتسلّط عليهم عدوّهم ويتغلّب عليهم فلا يقاومونه لاختلاف وجهاتهم، ولاختلاف أنظارهم، فالله تعالى ينهى عن التفرّق كثيرًا، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ويقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، وينهى أيضًا عن الاختلاف كما في

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم:٣١، ٣٢]، أي: أحزابًا، فيذهب كل حزب إلى رأي يتشيّع له، يعني: يتعصّب له، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وبكلّ حال، فإذا عرفنا أنّ الإسلام يأمر بالاجتماع، فهذا الاجتماع لا بدّ أن يكون على السنّة، وعلى الصراط السويّ والطريق المستقيم. أما إذا كان المجتمعون اجتمعوا على ضلالة أو بدعة، فإن اجتماعهم هذا كلا شيء؛ وذلك لأنهم تركوا الحقّ جانبًا، وأعرضوا عن صراط الله الذي أمر بالتمسك به، وبسؤاله، وهو الذي سارت عليه الأمّة الإسلامية، وهو صراط المنعم عليهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

كثيرًا ما تأتي الأدلّة بالحثّ على الجماعة، وكثيرًا ما نسمع الخطباء يحثّون على الجماعة ويقولون: عليكم بالجماعة، فإنّ يد الله مع الجماعة، أو: فإنّ يد الله على الجماعة. المراد بالجماعة هنا: جماعة الإسلام، الذين يجتمعون على قول صحيح سليم، ليس فيه خطأ ولا خلل. هؤلاء هم الجماعة.

إذا جاءت النصوص من الكتاب والسنة تحث على التمسك بالجماعة، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وتحث على أن يصبح المسلمون كلّهم جميعًا، وأنّ الذي يشذّ منهم فإنه في سبيله إلى الهلاك، تتخطّفه الشياطين، ويصير من نصيبها

وتغويه. كما أنّ الغنم إذا كانت مجتمعة فإن الراعي يراقبها ويرعاها، فإذا ابتعدت واحدة وغفل عنها الراعي، جاء السبع فأكلها. وكذلك جماعة المسلمين.

ونعرف أنّ أهل البدع قد يكونون جماعات كثيرة، وقد يكون لهم قوّة وكثرة واجتماعات، حتّى قد يتفوّقوا في بعض الأحيان على أهل السنّة، وقد يزيدون عليهم عددًا أو عدّة أو قوّة، ولكن هل يقال إنّهم على الجماعة؟ أو هل يقال: إنهم أهل الجماعة؟ أو هل يقال: إنهم أهل السنّة؟ ليس كذلك. بل هم أهل فُرقة، وهم أهل بدعة، وهم أهل ضلالة، ولو كثر عددهم، ولو كثر جماعاتهم، ولو حصلت لهم قوة معنوية أو حسّيّة، فإنّهم ليسوا من أهل الجماعة، وليسوا من أهل السنّة.

أهل السنّة والجماعة الذين هذه أحوالهم، هم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهم يقلّون ويكثرون، وأحيانًا يتمكّنون ويُمكّن الله لهم، ويرجع ضالّهم ويرشد غاويهم، فيكثرون على الحقّ ويتمسّكون به، ويسيرون عليه، وأحيانًا يكثر أعداؤهم فيضلّون الخلق، ويشتّتون الجماعات، ويقلّ المتمسّكون بالسنّة، ويصيرون أفرادًا لا يعرفون، وربّما يستخفون بمذهبهم وربّما يكنّونه ولا يجهرون به، ومن جهر به أوذي وطرد واضطهد وسجن وشرّد، وهو مع ذلك على السنّة وعلى العقيدة وعلى التوحيد وعلى الدين الإسلامي وعلى الصراط المستقيم، ولكن إذا قويت البدع وانتشرت المنكرات في بعض البلاد، وتسلّط أهلها على الحقّ، استضعفوا أهله وساموهم سوء العذاب، ولكن النصر لهم والتمكين والعاقبة للتّقوى، فإذا صبروا واحتسبوا كان ما أصابهم في ذات الله تعالى وفي دينه رفعًا لدرجاتهم وإعظامًا لأجرهم.

وعلى هذا نقول: إنّ ما يحصل في هذه الأزمنة من اضطهاد لأهل الحقّ، وإذلال لهم، واتهام لهم بالثورات والانقلابات على الدول ومطاردتهم في الأسواق والأماكن وكلّ من رؤي متمسّكًا بالسنّة، وعاملًا بها أُدخل السجن وضرب وجلد، وفرضت عليه الضرائب التي تثقل كاهله، وما أشبه ذلك. كما هو موجود في بعض الدول التي تنتمي إلى الإسلام. هذا لا يدلّ على أنّه ليس على حقّ، بل هو على حقّ، وإذا صبر واحتسب كان ذلك أعظم لأجره، ولا يدلّ كثرة تلك الجماهير التي خالفت الحقّ، وتلك الأمم وتلك الشعوب وتلك الدول التي أظهرت خلاف الحقّ، وانتهجت الباطل؛ لا يدلّ ذلك على أنّهم على حقّ وصواب، ولو كثر عددهم.

فالعبرة ليست بالكثرة؛ إنّما العبرة بالإصابة، والعبرة بالحقّ لمن كان مصيبًا للحقّ ومتمسّكًا به، هذا هو الذي من أهل السنّة والجماعة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلا نَرَى السَّيْفَ على أَحَدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلا مَنْ وَجَبَ عليه السَّيْفُ.

---

قال الشارح:

في الصَّحِيحِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَال: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَه إِلا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، إِلا بإِحدى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِه الْمُفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ»(١).

---

قال الشيخ:

لا يجوز قتال المسلمين الذين هم من أمة محمد ﷺ، إلا من وجب عليه القتل؛ لكفره أو لسبب من الأسباب، مثل ما ذُكر في حديث ابن مسعود ﷺ، فإنه ﷺ أخبر بأنه لا يحل دم امرئ مسلم يشهد الشهادتين، ويوحد الله ولا يعبد غيره، ويتبع النبي ﷺ إلا بإحدى ثلاث خصال:

الأولى: «الثَّيِّبُ الزَّانِي»، الذي قد زنى وكان قد تزوج زواجًا حلالاً، فعدل عن الحلال إلى الحرام، فإنه يُقتل بالرجم، وهو حده في هذه الحال.

الثانية: «وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ»، إذا قتل متعمدًا، جاز لأولياء المقتول أن يقتلوه قصاصًا؛ لقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨]، وقوله

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة:٤٥]. إلى آخره.

الثالثة: «وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»، الذي ظهر عليه الارتداد، وفارق جماعة المسلمين، وترك الدين الحنيف، فمثل هذا داخل في الردة في قوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٦٤).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلا نَرَى الخُرُوجَ على أَئِمَّتِنَا وَوُلاة أُمُورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَلا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَة الله عَزَّ وَجَل فَرِيضَة، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَة، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلاحِ وَالمُعَافَاة.

---

قال الشارح:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء:٥٩]، وفي الصَّحِيحِ عَنِ النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عصى الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»(١).

وَعَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ قال: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»(٢). وَعِنْدَ البخاري: «وَلَوْ لِحَبَشِي كَأَنَّ رَأْسَه زَبِيبَة»(٣).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا: «على المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَة فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِه، إِلا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَة، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَة فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَة»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٨).

(٣) برقم (٦٩٦) من حديث أنس ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الشيخ:

يتضمن هذا الكلام وهذه الآية وهذه الأحاديث وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين وولاة أمرهم، الذين ولَّاهم اللهُ عليهم، والذين جعل الله تعالى لهم يدًا وسلطانًا، يتولون بذلك أمور المسلمين، فصار لهم ملك ولهم سلطة، فيجب على رعيتهم أن يطيعوهم، ولا يجوز الخروج عليهم، ونبذ بيعتهم ونقضها، وتكفيرهم وحث الناس على الخروج عليهم، ولو عملوا ما عملوا من قسوة أو شدة أو ما أشبه ذلك.

فإن الخروج عليهم يسبب مصائب وفتنًا ومشاكل كثيرة، يكون من آثارها كثرة القتل، وإراقة الدماء، والإضرار بالمسلمين وما أشبه ذلك، وهذا حاصل كما هو واقع في كثير ممن سبق، فإن الخوارج لما خرجوا على علي ﷺ كان خروجهم سببًا لقتلهم، وسببًا لوقوع الفتنة منهم، فهذه الفتنة سببها نبذ الطاعة ونقض العهد، كذلك أيضًا لما بويع يزيد بن معاوية خرج عن طاعته بعضهم كأهل المدينة وأهل مكة، فسبب ذلك أنه أرسل جيشًا إلى أهل المدينة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة تسمى (وقعة الحرَّة)، بسبب عدم طاعتهم وسمعهم لولي الأمر الذي تولى أمر المسلمين؛ وكذلك لما تمت البيعة لعبدالملك قبل ذلك حصل قتال، وفتن كثيرة، كما في وقعة (مرج راهط) حيث قُتل فيها خلق كثير، حتى تم الأمر لمروان بن الحكم، ولما تم الأمر له مكث أيامًا أو أشهرًا، ولما مات تولى ابنه عبدالملك، ولما تولى خرج عن طاعته عبد الله بن

الزبير ـ رضي الله عنهما ـ الذي استولى على الحجاز والعراق، ولما خرج عن طاعته أرسل إليه الحجاج، فحاصره في مكة التي هي أم القرى، وحصل بذلك فتن ومقتلة عظيمة، وكان الأولى أن تتفق الكلمة، إما على بيعة ابن الزبير رضي الله عنهما، وإما على بيعة عبدالملك، وكلاهما من قريش من صلبيتهم، وقد ولاهم الله تعالى ولاية، وكان أيضًا من آثار عدم طاعة عبدالملك أن قاتل أهل العراق، فقتل مصعب بن الزبير، وقتل معه خلقًا بسبب عدم مبايعته له.

كذلك الذين خرجوا على الحجاج وبايعوا ابن الأشعث، وقد اجتمع مع ابن الأشعث قدر مائة وعشرين ألفًا، ولم يبق مع الحجاج إلا نحو ثلاثين ألفًا، ومع ذلك انتصر عليهم الحجاج، وأحصي الذين قُتلوا من هؤلاء الذين بايعوا ابن الأشعث ما يقرب من ثمانين ألفًا، ولاشك أنها مصيبة سببها الخروج على الأئمة وعدم السمع والطاعة لهم.

وكذلك أيضًا لما تمت البيعة ليزيد في الشام أرسل عبيدالله بن زياد فاستولى على العراق، وكان أهل العراق يحبون الحسين، فكتبوا إليه يطلبون منه أن يأتي حتى يبايعوه خليفة عليهم، ولما جاءهم وإذا الأمر قد تم ليزيد واستحكمت ولاية العراق كلها لابن زياد، فطلبوا من الحسين أن يأتي إلى ابن زياد ويبايعه على السمع والطاعة ليزيد، ولكن امتنع من ذلك وقال: «اتركوني أذهب إلى يزيد أو أرجع إلى مكة» ولم يتركوه، وكان ذلك من أسباب أنه قُتل ﷺ بسبب هذه الفتنة.

فكل ذلك من أسباب الخروج على الأئمة، ولما استُخلف أبو جعفر

المنصور الذي كان العراق على المسلمين خرج عليه محمد بن عبدالله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، ويسمى (النفس الزكية)، وادعى أنه المهدي، فأرسل إليه المنصور جيشًا، وكان ذلك سبب قتله، وقُتل كثير ممن معه ممن يابعوه، وجاء أخوه أيضًا الذي هو العباس ومعه جيوش كثيرة من البصرة وهُزموا أيضًا، وقُتل الكثير منهم، كل ذلك بسبب نزع اليد من طاعتهم، فطاعتهم من طاعة الله عز وجل، كما أنه تجب طاعة الله، فكذلك تجب طاعة ولاة الأمور، إلا أن يأمروا بمعصية.

وندعو لهم بالصلاح والمعافاة، نقول: اللهم أصلح أئمة المسلمين، واجعلهم هداة مهتدين، ونسمع لهم ونطيع، ولا نخرج عليهم، ولا نكفرهم ما داموا يحكمون بشرع الله، فإن وجودهم سبب في أمن البلاد، وسبب في البعد عن الاختلاف والاضطراب والنهب والسلب، وكون القوي يأخذ الضعيف ونحو ذلك، وقد أمر الله تعالى بطاعتهم بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، أي: ولاة الأمر، فيدخل في ذلك الحكام والعلماء ونحوهم.

وكذلك الحديث الصحيح وهو قوله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي». الأمير هو: الذي يوليه النبي ﷺ، أو يوليه أحد من الأمراء، أو الملوك ونحو ذلك - إنه يُسمع له ويُطاع، ولو كان ضعيفًا أو نازل القدر أو نحو ذلك.

كذلك حديث أبي ذر ﷺ أنه قال: «إِنَّ خَلِيلِي»، يعني: الرسول ﷺ «أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»، أي: اسمع لولاة الأمور، ولو كان ذلك الولي عبدًا مملوكًا حبشيًا، والعادة أن الحبشة يكون لون وجوههم أسود؛ ولذلك قال في بعض الروايات: «وَلَوْ لِحَبَشِي كَأَنَّ رَأْسَه زَبِيبَة»، أي: شعر رأسه يتجعد كأن كل شعرة زبيبة، أي: واحدة من الزبيب، فأمر بأن يُسمع ويُطاع لولاة الأمور، ولو كان ذلك الوالي ناقص القدر عند العامة.

وهكذا أيضًا حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - وهو قوله ﷺ: «عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَة فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِه، إِلا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَة، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَة فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَة»، أي: أن المسلم عليه أن يسمع ويطيع إذا كان تحت ولاية ولي مسلم أو أمير من أمراء المسلمين، فيسمع له ويطيع، إلا إذا أُمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية كترك صلاة - مثلاً - أو فطر في رمضان بغير عذر، أو ارتكاب معصية بفعل فاحشة أو نحو ذلك، فلا يجوز طاعته في ذلك، إنما الطاعة في المعروف.

قال الشارح:

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُه عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَل بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقُلتُ: هَل بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَم، وفيه دَخَنٌ»، قُلتُ: وَمَا دَخَنُه؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، فَقُلتُ: هَل بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاة على أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوه فِيهَا»، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلدَتِنَا، يَتَكَلمُونَ بِأَلسِنَتِنَا»، قُلتُ: يَا رَسُولَ الله، فَمَا تَرَى إِذَا أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، فَقُلتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَة وَلا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِل تِلكَ الفِرَقَ كُلهَا، وَلوْ أَنْ تَعَضَّ على أَصْلِ شَجَرَة، حتى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ على ذَلِكَ»[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ رأى مِنْ أَمِيرِه شَيْئًا يَكْرَهُه فَلْيَصْبِرْ، فإنه مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَة شِبْرًا فَمَاتَ، فَمِيتَتُه جَاهِلِيَّة»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

وفي رِوَايَة: «فَقَدْ خَلعَ رِبْقَة الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِه»[1].

---

قال الشيخ:

هكذا كان حذيفة ﷺ يسأل عن الفتن، وعن الخلافات التي قد تقع في هذه الأمة مخافة أن يدركها، فيسأل: كيف أتخلص من تلك الفتن وتلك الشرور إذا أدركتني، فأخبر أنهم كانوا قبل الإسلام في جاهلية وشر، وفتن وخلافات وشرك ومعاص.

قوله:(فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الخَيْرِ)، الذي هو الإسلام، وهذا الدين الذي جمعنا الله تعالى عليه، وهدانا بهذا النبي الكريم، حتى صرنا ندين بهذا الإسلام.

سأله: (فَهَل بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرّ؟)، أي: هل بعد هذا الخير الذي نحن فيه يوجد شر في المستقبل؟ فأخبر النبي ﷺ أن هناك شر، ولعل ذلك إشارة إلى ما حصل من الخلافات في آخر ولاية علي ﷺ، وكذلك خلافة بني أمية، فقد حصل فيها شرور وفتن وخلافات، وإن كان فيها الجهاد قائمًا، وكذلك أيضًا فيها الإسلام ظاهر وقائم، ولكن هذه الفتن تعتبر شرًا.

ثم سأل: (هَل بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟)، فأخبر أنه هناك خير، ولكن فيه

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٣٢٥)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٣٦١)، وفي الكبير (١٠٦٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أبو داود (٤٧٥٨)، وأحمد (٥/ ١٨٠)، والحاكم (١/ ١١٧)، والبيهقي (٨/ ١٥٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

دَخَن، وفسر دَخَنَه بأنه قوم يستنون بغير السنة النبوية، يتركون السنة ويجعلون لهم نظمًا غير السنة النبوية، ويهدون بغير الهدي النبوي، ثم قال: (تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ). الدخن هو: الدخان، أي ليس خيرًا خالصًا بل يوجد فيه قذارة كالدخان؛ كالحقد والبغضاء والتفرق، فيكون ذلك مما يغيره، حيث إنهم يتركون الهدي النبوي ويهدون بغيره.

ثم سأل: (هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟)، فأخبر أنه نعم، دعاة شر على أبواب جهنم، (مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوه فِيهَا)، ولعله يشير إلى رؤوس المبتدعة؛ كالجهمية والمعطلة والرافضة ونحوهم، فإنهم يدعون إلى النار، يدعون إليها بأفعالهم وبأقوالهم، فحذر منهم، ووصفهم النبي ﷺ بأنهم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، أي: باللغة العربية، فهم عرب، كما هو الحاصل فيمن خرج منهم؛ كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وكذلك قبلهم وبعدهم الجهمية وأتباع الجهم، فهؤلاء يدعون إلى النار ومن أجابهم قذفوه فيها، وإن كانوا يظهرون أنهم على حق، وأخبر أنك إذا أدركت ذلك ولحقتهم (تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ)، أي: أكثريتهم، فإذا كانوا متفرقين لهم عدة أئمة، أو ليس لهم جماعة، وليس لهم إمام صالح، فإنك (تعْتَزِل تِلكَ الفِرَقَ كُلَهَا)، إذا لم تقدر على إصلاحها، ولو أن تعتزل تحت شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

كذلك حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رأى مِنْ أَمِيرِه شَيْئًا يَكْرَهُه فَلْيَصْبِرْ، فإنه مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، فَمِيتَتُه جَاهِلِيَّة».

ألزمه أن يصبر على ما يكرهه من الأمراء والأئمة، ولا يخرج عن طاعتهم، ولا يفارق جماعة المسلمين، فإذا خرج عن طاعة المسلمين فكأنه خرج من الإسلام، وخلع ربقة الإسلام من عنقه، والربقة هي: الحبل أو الخيط الذي يُجعل في رقبة الماعز ونحوه؛ ليحفظه حتى لا يشرد، فمَثَّل الإسلام أنه رباط في عنق المسلم، ما دام أنه متمسك بالإسلام، فإنه يكون على الإسلام، فإذا خرج وخالف طاعة ولاة الأمور يمثل كأنه خرج من الإسلام، كأن الإسلام كان رباطًا في عنقه فخلعه وخرج عنه، وهذا - والعياذ بالله - يعتبر دليلاً على أنه ليس بمسلم، وهذا من الأحاديث الشديدة، أخبر بأنه يموت ميتة جاهلية، أي: كأنه من أهل الجاهلية الذين ليس لهم دين، أو دينهم محرف، ليسوا على دين صحيح، فيكونون بذلك كالمرتدين والخارجين عن الإسلام، وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - في الصحيح: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٦٤).

قال الشارح:

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي ﷺ قَال: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخرَ مِنْهُمَا»(١).

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَال: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونكُمْ، وَتَلعَنُونَهُمْ وَيَلعَنُونكُمْ». فَقُلنَا: يَا رَسُول الله، أَفَلا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَال: «لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة، أَلا مَنْ وَلِي عليه وَالٍ، فَرَآه يأتي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَة الله، فَلْيَكْرَه مَا يأتي مِنْ مَعْصِيَة الله، وَلا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَة»(٢).

---

قال الشيخ:

يدل حديث أبي سعيد ﷺ أنه لا يجوز لأحد أن يطلب البيعة وعلى المسلمين خليفة قائم بأمر الله، مصلح لأمور المسلمين، لا يُنتقد عليه شيء من المخالفات، بل يقيم شرع الله، ويحكم بالعدل، فالذي يفتات عليه ويعزله، ويقول: أنا أولى بالخلافة منه فبايعوني، فيبايعه أناس.

نقول: لاشك أن هذا الآخر قد يسبب فتنة، ويسبب قتالًا بين المسلمين،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

فيُقاتل من معه من المسلمين الذين قد بايعوا للخليفة الثاني، فلذلك هذا الآخر يعتبر قد خلع طاعة الخليفة الأول، وقد خرج عليه، ولاشك أن خروجه يعتبر فسادًا في الأرض، فلذلك أباح الشرع قتل الآخر الذي يُفرق كلمة المسلمين.

وحديث عوف بن مالك ﷺ يخبر فيه ﷺ بالأئمة الذين يتولون أمور المسلمين، فإذا كانوا يحبونهم، أي: يحبهم المسلمون، ويحبون رعيتهم، ويدعون لهم وهو معنى (وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ) أي: تدعون لهم، (وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ) أي: يدعون لكم، فهؤلاء خيار الأئمة الذين يحصل بهم نفع للبلاد كبير، ويحصل بالإقامة معهم خير للمسلمين؛ لأنهم ينصرون الإسلام والمسلمين، ويؤمنون البلاد، ويدعون إلى الخير، ويقيمون الصلاة، ويرغبون أهل الخير.

أما إذا كان أولئك الأئمة وولاة الأمور أشرارًا يبغضهم الرعية، وهم يبغضون رعاياهم، ويدعون عليهم باللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله، وهم يلعنون أيضًا رعيتهم، فإن هؤلاء شرار ولو كانوا أئمة، ولكن لا يجوز عزلهم ولا قتالهم بالسيف؛ ولهذا قالوا: (أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ)، يعني: نخلع بيعتهم، ونثور عليهم ونقاتلهم؟ فمنع من ذلك، وقال: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة»، أي: ما داموا يقيمون الصلاة، وما داموا يؤمنون البلاد، وما كانوا يصلون ويمكنون المسلمين من أداء الصلاة، فإنه لا يجوز قتالهم، ولا الخروج عليهم.

ثم أخبر بمن ولي عليه أحد الولاة من المسلمين، ثم رأى من الولي فيه شيء من معصية الله، فلا يجوز له أن يخرج عليه، ولا ينزع يدًا من طاعة،

ولا يخلع بيعته، وإنما عليه أن يكره ما يأتي من المعصية ويقول: اللهم إن هذا منكر، وإنا له منكرون، فلا تؤاخذنا بما يفعله. وبذلك يسلم من إقرارهم على المعصية، إذا لم يقدر على الإنكار عليهم أو التغيير الظاهر.

قال الشارح:

فَقَدْ دَل الكِتَابُ والسنة على وُجُوبِ طَاعَةِ أُولِي الأَمْرِ، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، فَتَأَمَّل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، كَيْفَ قَال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وَلَمْ يَقُل: وَأَطِيعُوا أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ؟ لأَنَّ أُولِي الأَمْرِ لا يُفْرَدُونَ بِالطَّاعَةِ، بَل يُطَاعُونَ فِيمَا هُوَ طَاعَةُ الله ورسوله، وَأَعَادَ الفِعْل مَعَ الرَّسُولِ؛ لأن مَنْ يطِعِ الرَّسُول فَقَدْ أَطَاعَ الله، فَإِنَّ الرَّسُول ﷺ لا يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَةِ الله، بَل هُوَ مَعْصُومٌ فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا وَلِي الأَمْرِ فَقَدْ يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَةِ الله، فَلا يُطَاعُ إِلا فِيمَا هُوَ طَاعَةٌ لله ورسوله.

---

قال الشيخ:

دل كتاب الله تعالى كهذه الآية: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ودلت سنة النبي ﷺ كما في الحديثين السابقين قوله: «وَلا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»، على وجوب طاعة ولاة الأمور، وهم الأئمة الذين لهم ولاية، ولهم سلطة، ولهم تمكن.

قوله: (مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ)، أي: ما داموا إنما يأمرون بطاعة الله تعالى، ولا يأمرون بشيء من المعاصي والمحرمات. ولَـمَّا أورد هذه الآية وفيها: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، نبَّه على أن طاعة الرسول واجبة على كل فرد، أخذًا من قوله - عز وجل -: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، هاهنا ولم يقل: (أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ)، وإن كان ورد ذلك في آيات أخرى، بل كرر الفعل

بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾، وأما في الأمر بطاعة ولاة الأمر فلم يكرر الفعل، لم يقل: (وأطيعوا أولي الأمر منكم). يعني: يأتي بالفعل (أطيعوا)، وعلل الشارح ذلك بأن (أُولِي الأَمْرِ لا يُفْرَدُونَ بِالطَّاعَةِ)، أي: لا يُطاعون في كل ما يأمرون به.

قوله: (بَل يُطَاعُونَ فِيمَا هُوَ طَاعَة لله ورسوله)، أي: أنهم يُطاعون إذا أمروا بما هو طاعة أو مصلحة للعباد والبلاد، أما الرسول فإنه قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أعاد الفعل مع الرسول؛ لأن الذي يطيع الله تعالى يلزمه أن يطيع الرسول؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، (فَإِنَّ الرَّسُول ﷺ لا يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَة الله)، أي: الذي يأمر به فإنه من طاعة الله ومن أمره ومن شرعه.

قوله: (فإنه معصوم في ذلك)، يعني: قد عصمه الله أن يأمر بغير طاعة الله، أما أولوا الأمر، فقد يأمر ولي الأمر بغير طاعة الله، أو بمعصية أو نحو ذلك، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله، وقد نبه على ذلك العلماء - رحمهم الله - وتكلموا على هذه الآية وعلى ما يشبهها.

قال الشارح:

وَأَمَّا لُزُومُ طَاعَتِهِمْ وَإِنْ جَارُوا؛ فلأنه يَتَرَتَّبُ على الخُرُوجِ عَنْ طَاعَتِهِمْ مِنَ المَفَاسِدِ أَضْعَافُ مَا يَحْصُلُ مِنْ جَوْرِهِمْ، بَل في الصَّبْرِ على جَوْرِهِمْ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ، وَمُضَاعَفَةُ الأُجُورِ، فَإِنَّ الله تعالى مَا سَلطَهُمْ عَلَيْنَا إلا لِفَسَادِ أَعْمَالِنَا، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فَعَلَيْنَا الاجْتِهَادُ بالاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَة وَإِصْلاحِ العَمَلِ، قَال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وَقَال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وَقَال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّة أَنْ يَتَخَلصُوا مِنْ ظُلمِ الأَمِيرِ الظَّالِمِ، فَليَتْرُكُوا الظُّلْمَ.

---

قال الشيخ:

تلزم طاعة ولاة الأمور ولو حصل منهم ظلم، ولو جاروا ولو تعدوا، ولو حصلت منهم مخالفات، ولا يجوز الخروج عليهم ونزع طاعتهم، فإنه يترتب على الخروج مفاسد كثيرة من: إراقة الدماء، واختلاف الكلمة، وكثرة الإضرار بالمسلمين، واضطهاد للصالحين وإضعاف لقدرهم، ومنع لهم من الخير، ومنع لهم من الأعمال الصالحة، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

فيحصل من المفاسد أضعاف أضعاف ما يحصل من جور أولئك الأئمة، بل يجب الصبر على جورهم، فإن ذلك تكفير لسيئات الرعايا، وفيه مضاعفة للأجور، فيكفر الله تعالى بتسليطهم وصبر الرعية كثيرًا من السيئات، فيُضاعف الأجور للصابرين، ويعتقد الرعية أن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، وقد جاء في بعض الآثار: «كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ»[1]، وهذا أمر مشاهد، فإذا صلح المسلمون، وأصلحوا أعمالهم، واستقاموا على طاعة الله، أصلح الله لهم ولاة أمورهم، وعاملوهم معاملة حسنة؛ ولهذا قال: (وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ).

فنقول: عليكم أيها الرعية أن تجتهدوا في الأعمال الصالحة، وأن تكثروا من الاستغفار في كل وقت، وأن تتوبوا إلى الله توبة نصوحًا؛ حتى يرفع الله عنكم جور الأئمة وظلمهم، وحتى يبدلكم بذلك أئمة صالحين، يرشدونكم ويساعدونكم، فقد أخبر الله تعالى أن المصائب تحصل بشؤم السيئات، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، أي: أن هذه المصيبة عقوبة على ذنوب اقترفتموها وكسبتها أيديكم، وما يعفو الله عنه من الذنوب ولا يعاجلكم بعقوبته أكثر وأكثر، فهو

---

(١) أخرجه ابن جميع في معجم الشيوخ (١٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٣٦) من حديث أبي بكرة ﷺ. وأخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٢٢) من طريق يحيى بن هاشم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه، وقال: «هذا منقطع، وراويه يحيى بن هاشم وهو ضعيف».

يعفو عن كثير من المخالفات والسيئات.

وكذلك قال تعالى بعد قصة أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]؛ وذلك لما أصابتهم مصيبة في أحد، وقُتل منهم سبعون، ذَكَّرهم الله بأنكم قد أصبتم مثليها - أي: في غزة بدر - فقتلتم منهم سبعين، وكذلك أسرتم منهم سبعين، فأصبتم مثلي ما أصابكم في هذا، مع أن هذا الذي حصل عليكم من هذه المصيبة هو من عند أنفسكم، وبسبب مخالفتكم، وجعل دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]؛ وذلك لأن الرماة عصوا أمر الرسول ﷺ لما قال لهم: «إن رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هذا حتى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فلا تَبْرَحُوا حتى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»[1]، ولكنهم لما رأوا أن المشركين قد انهزموا عند ذلك تركوا ذلك المكان، فجاءهم العدو من الخلف، فهذا معنى قوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: بسبب عصيانكم.

وكذلك قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٣، ٢٦٦٢) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

نَفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، أي: أنها بسبب سوء عملك السيئات: يعني: أن العقوبات والمصائب بسبب الذنوب، فأصلح عملك، وأحسن العمل، وخف الله تعالى حتى يرفع عنك هذه السيئات، وهذه العقوبات التي قد يسلطها عليك، واعلم أنها كلها بقدر الله، ولكن لابد من سبب، فالحسنات محض فضل، الله تعالى هو الذي تفضل بها، وهو الذي أعانكم على ذلك، وفتح عليكم، ومع ذلك قد يكون ذلك جزاء أعمال صالحة فعلتموها، وأما المصائب فإنها وإن كانت بقضاء الله وقدره ولكنها في الحقيقة بشؤم الذنوب، أو عقوبة على السيئات. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، أي: يسلط الله على الظالمين من ينتقم منهم، أو من هو أظلم منهم، كما قال بعض الشعراء:

وَمَا مِنْ يَدٍ إلا يَدُ الله فَوْقَهَا  وَلا ظَالِمٌ إلا سَيُبْلَى بِظَالِمِ[1]

أي: أن هؤلاء الظالمين يسلط الله عليهم من هو أقوى منهم، وجاء أيضًا في الأثر عن الفضيل بن عياض أن الله تعالى يقول: «إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي»[2].

قوله: (فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الأَمِيرِ الظَّالِمِ، فَلْيَتْرُكُوا الظُّلْمَ)، أي: وليصلحوا أعمالهم، فكيفما تكونوا يولى عليكم.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٧٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٥٦٦).

قال الشارح:

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: أنه جَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِ الله: «أَنَا الله مَالِكُ الْمُلكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلتُهُمْ عليه رحمة، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلتُهُمْ عليه نِقْمَة، فَلا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، لكِنْ تُوبُوا أعطفهُمْ عَلَيْكُمْ»[1].

---

قال الشيخ:

هكذا جاء هذا الأثر عن مالك بن دينار، وهو عالم من العلماء ومن ثقات التابعين، وهذا الأثر موقوف على مالك بن دينار، وقد رفعه بعضهم، ولكن الصواب أنه ليس بمرفوع، ويمكن أنه اطلع على بعض كتب الله المتقدمة فنقل ذلك منها، أن الله تعالى يقول: «أَنَا الله مَالِكُ الْمُلكِ»، الملوك كلهم تحت ملك الله تعالى.

قوله: «قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي»، يعني: قلوب الملوك وقلوب الرعايا بيدي، يعني: بيد الله تعالى، وتحت تصرفه وتقديره.

يقول: «فَمَنْ أَطَاعَنِي»، أي: وعملوا الصالحات «جَعَلتُهُمْ عليه رحمة»،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧٢) عن مالك بن دينار، قال: «قرأت في الحِكَم أن الله تعالى يقول:...» وساق الأثر. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٩/ ٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٨) عن وهب بن راشد عن مالك بن دينار عن خلاس بن عمرو عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعًا. قال الدارقطني في العلل (٦/ ٣٠٥): «وهب بن راشد ضعيف جدًا متروك، ولا يصح هذا الحديث مرفوعًا، والموقوف أشبه بالصواب».

بمعنى أنهم يكونون سببًا في الشفقة على الأمة، وعدم التشديد عليهم.

قال: «وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عليه نِقْمَة»، أي: يعذب العصاة بتسليط الولاة عليهم، فينتقمون منهم، وإن كان لا يقصدون بهذا الانتقام حق الله تعالى، ولكن هكذا العقوبة، يكونون عليه نقمة.

قوله: «فَلا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ»، أي: أنتم أيها الرعية لا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، أي: تقولون إنهم ظلموا وأنهم جاروا.

قوله: «لكِنْ تُوبُوا أعطفهُمْ عَلَيْكُمْ»، أي: توبوا إلى الله تعالى وأصلحوا أعمالكم حتى يصلح أئمتكم، فكيفما تكونوا يُولى عليكم، فإذا أطعتم الله أعطفهم عليكم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَنَتَّبِعُ السنة وَالجَمَاعَة، وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ وَالخِلافَ وَالفُرْقَة.

---

قال الشارح:

السنة: طَرِيقَة الرَّسُولِ ﷺ.

وَالجَمَاعَة: جَمَاعَة المُسْلِمِينَ، وَهُمُ الصَّحَابَة وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلى يَوْمِ الدِّينِ. فَاتِّبَاعُهُمْ هُدَى، وَخِلافُهُمْ ضَلالٌ.

قَال الله تعالى لِنَبِيِّه ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]، وَقَال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، وَقَال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤]، وَقَال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وَقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وَقَال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٩].

---

قال الشيخ:

في هذا حث المسلمين أن يتبعوا طريقة الرسول ﷺ، وأن يسيروا مع جماعة المسلمين الذين تمسكوا بسنته، وفسره بأن جماعة المسلمين هم الصحابة ﷺ، والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، الذين تمسكوا بطريقتهم، وساروا على منهجهم، ولم يخالفوهم ولم يبتدعوا في دين الله شيئًا لم يأذن الله تعالى به، فاتباع الصحابة وأتباعهم هدى وبيان، وخلافهم ومخالفتهم ضلال وجهل، وابتداع بما لم يأذن الله به.

ثم استدل بهذه الآيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، قال بعض العلماء: هذه الآية تسمى آية المحنة، أن الله امتحن بها الذين يدعون أنهم يحبون الله، وجعل لمحبة الله تعالى علامة، ألا وهي اتباع النبي ﷺ، والسير على طريقته، سواءً كان في الأعمال، أو في الأقوال، أو في العقائد، أو ما أشبه ذلك، أن ذلك كله يجب اتباعه فيه، ويكون علامة على صدق الدعوة، ولهذا قال بعض العلماء: من ادعى محبة الله ولم يرافقه فدعواه باطلة. أي: هو كذاب، فلابد أن الذي يقول: أنا أحب الله أن يطيع الله، والذي يقول: أنا أحب الرسول أن يطيع الرسول، ومتى أحب الله ورسوله وعمل بطاعته واتبع شريعته، أحبه الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فذكر فائدتين:

الفائدة الأولى: أن الله تعالى يحبهم ويغفر لهم ذنوبهم.

والفائدة الثانية: أنهم يكونون من أتباع الرسول؛ ولأن الله تعالى يغفر لهم ويرحمهم.

**الآية الثانية**: قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، هذا ضد ما كان عليه المسلمون، فالذين يشاقون الرسول وينازعونه ويخالفونه فيما جاء به مع أنه قد جاء بالهدى، وقد عرفوا الهدى، ويخالفون سبيل الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ويخالفون المؤمنين فهؤلاء يعاقبهم الله:

فأولاً: أنه يوليهم ما تولوا من هذه الشقاق ومن هذه المنازعات.

وثانيًا: في الآخرة أنهم يصلون جهنم ـ والعياذ بالله ـ جزاء على مشاقتهم للرسول ومنازعته ومخالفتهم لما جاء به، وكذلك مخالفتهم سبيل المؤمنين والصالحين، ومن سار على نهجهم.

**الآية الثالثة**: قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤]، فأمر الله بطاعته ثم بطاعة الرسول؛ لأن الرسول لا يأمر إلا بما هو طاعة لله تعالى، وأخبر بأنهم إذا تولوا وأعرضوا ولم يتقبلوا ولم يطيعوا الله ورسوله، فإنما عليك ما حُملت أيها الرسول، يعني: حيث إنك دعوتهم

وبلغتهم، وعليهم ما حُملوا، ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، أيها الرعية، أي: عليكم ذنوبكم التي حملتموها، وإذا أطعتم هذا الرسول فإنكم تكونون من المهتدين الذين يسيرون على هدى، مع أن الرسول ﷺ ليس عليه إلا البلاغ المبين، وقد شهد له الصحابة أنه بلغ البلاغ المبين.

الآية الرابعة: قوله ـ عز شأنه ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذه الآية من الوصايا العشر التي في سورة الأنعام، أمر الله تعالى باتباع هذا الصراط، والمراد به دين الإسلام الذي هو صراط مستقيم لا اعوجاج فيها، أي سيروا عليه واتبعوه ولا تختلفوا، وقد ثبت أنه ﷺ خَطَّ خَطًّا، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ـ أي: خطوط ملتوية ـ ثُمَّ قَالَ: «وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»[1]، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، أي: الطرق المنحرفة التي تخالف طريق الله وصراط الله، فإذا فعلتموه كان حريًا أن تتفرق بكم تلك السبل، وتصدكم عن سبيل الله، وعن صراطه، فهذه وصية الله لكم لعلكم أن تكونوا من المتقين.

الآية الخامسة: قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٠٩)، وأحمد (١/ ٤٣٥)، وابن حبان (١/ ١٨٠)، والحاكم (٢/ ٢٣٩) من حديث ابن مسعود ﷺ.

بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥]، أي: لا تتفرقوا وتكونوا نِحَلاً وفِرَقًا مضطربة مختلفة بعدما جاءتكم البينات، وبعدما جاءكم الحق، فإنكم إذا فعلت ذلك ضللتم، والذين يفعلون ذلك يتوعدهم الله بأن لهم العذاب العظيم.

**الآية السادسة:** قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وقرأها بعضهم[1]: {إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ}، أي: الدين الصحيح، أو فرقوه أي: جعلوا منه ما هو واجب الطاعة وما ليس بواجب الطاعة، فقبلوا بعض الأحكام، كالتي تتعلق بالأحوال الشخصية، ولم يقبلوا ما فيه من الحدود، وما فيه من العبادة، فهؤلاء فرقوا دينهم، ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾، أي: كانوا أحزابًا، وكانوا فرقًا متفرقة. نزه الله نبيه منهم، فقال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾، أي: أنت بريء منهم، وهم بريئون منك، فلا يضرك ما كانوا عليه، إنما أمرهم إلى الله، فالله تعالى هو الذي يتولى حسابهم، ثم ينبئهم بأعمالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، ويجزيهم بأعمالهم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٠٤).

قال الشارح:

وَثَبَتَ فِي السُّنَنِ الحَدِيثُ الذي صَحَّحَه الترمذي، عَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَة، قَال: «وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَة بَلِيغَة، ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَال قَائِلٌ: يَا رَسُول الله، كَأَنَّ هذه مَوْعِظَة مُوَدِّعٍ؟ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَال: أُوصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَة، فإنه مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسنة الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُل بِدْعَة ضَلالة»[1].

---

قال الشيخ:

هذا الحديث صححه الترمذي وهو أحد أحاديث الأربعين النووية التي اختارها الإمام النووي ـ رحمه الله ـ وذلك لأنه جامع لهذه الوصايا.

وقد ذكر ابن رجب في شرحه عدة أحاديث فيها وعظ؛ لأن العرباض ﷺ يقول: «وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَة بَلِيغَة»، ولم يذكر تلك الموعظة، هل هي موعظة بالآخرة وعذاب الآخرة وما فيها، أو بالقبر وما يكون فيه، أو بالدنيا وحقارتها وعدم المنافسة فيها، وذكر أن تلك الموعظة بليغة بكوا منها حتى ذرفت العيون دموعًا.

قوله: «وَوَجِلتْ مِنْهَا القُلُوبُ»، أي: حصل لها وجل شديد وخوف

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

من الله تعالى. فلما وعظهم هذه الموعظة قال بعضهم: «يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هذه مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ؟»، وطلبوا منه أن يعهد إليهم وأن يوصيهم بوصية؛ لأنهم استنبطوا أنه سوف يودعهم، وأن هذا دليل على أنه سوف يفارقهم، والعادة أن الذي يفارق أهله لابد أن يوصيهم بوصية يتمسكون بها، فأوصاهم أولاً: (بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ)، أي: لولاة الأمور إذا تولوا عليكم، فعليكم أن تسمعوا وتطيعوا، وأن لا تخرجوا عن الطاعة؛ وكذلك أيضًا السمع والطاعة لله وللرسول، إذا دعاكم الرسول ﷺ إلى أمر، أو كذلك وجدتم أمرًا من الأمور الشرعية في كتاب الله تعالى، فعليكم أن تتمسكوا بذلك الأمر، وأن تسمعوا وتطيعوا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، أي: سمعنا كلامك، وسوف نلزم أنفسنا بطاعتك.

ثم أخبر بأنه (مَنْ يَعِشْ)، أي: من يحيى منهم فلابد أن يرى اختلافًا كثيرًا، فإن بعد موت الرسول ﷺ حصل اختلاف كثير في العقائد، وأدى ذلك إلى التكفير والقتال.

فأولًا: بعد موته ارتد كثير من الأعراب الذين كانوا قد آمنوا، فكان ذلك من الاختلاف.

ثانيًا: وكذلك في آخر حياته تنبأ كثير من الكاذبين؛ كمسيلمة والعنسي وغيرهما.

ثم أمرهم عند ذلك الاختلاف الذي سيحصل، وتفرق الأمم، وحصول

البدع وظهور المبتدعة؛ كالرافضة والخوارج والقدرية والمعطلة ونحوهم، أمرهم بأن يتمسكوا بالسنة، فقوله: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»، أي: الزموها وتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ.

ثم قال: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»، إذا قال: فعليكم بالشيء فمعناه الزموه وتمسكوا به، والسنة: هي الطريقة التي كان عليها، والخلفاء الراشدون: هم الخلفاء الأربعة ومن سار على نهجهم. ثم وصفهم بأنهم راشدون، يعني: أنهم من أهل الرشد والصلاح، ووصفهم بالمهديين، أي: أن الله تعالى هداهم وسددهم، أمر بأن يتمسكوا بها، أي: تمسكوا بهذه السنة التي أمرتكم بها، أمسكوها بأيديكم، وإذا خشيتم أنها تتفلت فعضوا عليها بالنواجذ التي هي أقاصي الأسنان من باب الحرص عليهم.

ثم حذرهم: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»، يعني: ابتعدوا عن المحدثات التي هي بدع وإضافات في الدين لما لم يأذن به الله تعالى، وأخبر أن «كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، وفي رواية: «وكل ضلالة في النار»، وهذا الحديث صححه بعض أهل العلم.

قال الشارح:

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّة، وَإِنَّ هذه الْأُمَّة سَتَفْتَرِقُ على ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّة ـ يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ ـ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَة، وهي الْجَمَاعَة». وفي رِوَايَة: «قَالُوا: مَنْ هي يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَا أَنَا عليه وَأَصْحَابِي»[1].

فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ عَامَّة الْمُخْتَلِفِينَ هَالِكُونَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، إِلَّا أَهْلَ السنة وَالْجَمَاعَة.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَي لَا تُؤْمَنُ عليه الْفِتْنَة، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هذه الْأُمَّة، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ الله لِصُحْبَة نَبِيِّه وَإِقَامَة دِينِه، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا على الْهَدْى الْمُسْتَقِيمِ)[2]. وَسَيَأْتِي لِهَذَا المعنى بَيَانٌ إِنْ شَاءَ الله تعالى، عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَنَرَى الْجَمَاعَة حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَة زَيْغًا وَعَذَابًا).

---

قال الشيخ:

وهذه أدلّة على أنّ أهل الحق هم المتمسّكون بالسنّة النبويّة، من كان على مثل

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥)، وذكره البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٤).

ما كان عليه النبيّ ﷺ وصحابته، الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ما خاضوا في علم الكلام الذي خاض فيه المتكلّفون المتكلّمون، وكذلك كانوا يكرهون الاختلاف حتى في الفروع، بل إذا اختلفت الأدلّة عليهم قالوا: آمنّا بها وفوّضنا ما لم نعلم، وعملنا بما كان عليه نبيّنا ﷺ وبما كنّا عليه في عهده.

قد تقدّم أنّه ﷺ كان ينهى أصحابه عن الاختلاف، وقد كان نفرٌ من الصحابة جُلُوسًا بِبَابِ النبي ﷺ، فقال بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ الله كَذَا وَكَذَا، وقال بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ الله كَذَا وَكَذَا، فَسَمِعَ ذلك رسول الله ﷺ، فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ ـ يعني: احْمَرّ وجهه من الغضب ـ فقال: «**بهذا أُمِرْتُمْ، أو بهذا بُعِثْتُمْ، أن تَضْرِبُوا كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إنما ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هذا، إنكم لَسْتُمْ مِمَّا ههنا في شيء، انْظُرُوا الذي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، والذي نُهِيتُمْ عنه فَانْتَهُوا**»[1].

هكذا أمر النبيّ ﷺ المسلمين، أمرنا إذا عرفنا الأدلّة أن نقول بها، وإذا اختلفت علينا أن نأخذ بما هو الأنسب والأظهر لنا، وندع الاختلاف، وقد أخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بوقوع الاختلاف في هذه الأمّة وأنها تتفرّق بهم الأهواء إلى ثنتين وسبعين فرقة وطائفة، كلّ طائفة تزعم أنّها على الحقّ، كلّ طائفة تضلّل غيرها، وتبرّر موقفها، وهذه الاختلافات اختلافات اعتقاديّة في الأمور التي يضلّل من خالف فيها، وليست الاختلافات في الفروع والمسائل

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٥)، وابن ماجه (٨٥)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٦٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

الاجتهاديّة، التي طريقها الاجتهاد، فإنّ هذه لا يضلّل من اتّبعها؛ ولهذا خالف بعض الأئمّة مشايخهم دون أن يضلّلوهم، فالإمام مالك كان إمامًا متّبعًا، وقد خالف أبا حنيفة في أشياء، والإمام الشافعي قرأ على مالك وأخذ عنه علمه، وقد خالفه أيضًا في أشياء، ولكن لم يعدّ هذا ضلالًا، وليست هذه المذاهب من الفرق الضالّة التي حكم النبيّ ﷺ أنّها في النار إلاّ واحدة. إنّما أراد تلك البدع المضلّة التي تتعلّق بالعقيدة، ولا شكّ أنّ أمور العقيدة أدلّتها يقينيّة، أدلّتها قطعيّة، لا يستدلّ عليها بالأدلّة الظنّيّة التي يتطرّق إليها الاحتمال في الثبوت أو عدمه، وإنّما يستدلّ عليها بأمور قطعيّة الدلالة لا لبس فيها ولا خفاء، ولكن عميت الأعين وصمّت الآذان، فأولئك المبتدعة: يرون الحقّ أبلج، يرون الصراط مستقيمًا، تأتيهم بالأدلّة وتوضّحها لهم، ولكن:

صُمٌّ وَلَو سَمِعُوا بُكْمٌ وَلَو نَطَقُوا ... عُمْيٌ وَلَو نَظَرُوا بُهْتٌ بِمَا شَهِدُوا
عَمُوا عَنِ الحَقِّ صُمُّوا عَنْ تَدَبُّرِهِ ... عَنْ قَوْلِهِ خَرَسُوا في غَيِّهِمْ سَمَدُوا
كَأَنَّهُم إِذْ تَرَى خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ... وَتَحْسِبُ القَوْمَ أَيْقَاظًا وَقَدْ رَقَدُوا

وهذا حرمان والعياذ بالله، وإلا فالطريق واضح، ولذلك حذّر النبي ﷺ من هذه الأهواء الثنتين والسبعين، هذه هي الأهواء، وأمر بالتمسّك بالجماعة، وأخبر أن الفرق كلّها في النار إلّا واحدة، وهي الجماعة ما عليه النبي ﷺ وأصحابه.

والصحابة - رضي الله عنهم - لم يتكلّموا في الجوهر والعَرَض، ولم يتكلّموا في الأعراض والأبعاض والأعضاء وما أشبه ذلك مما ابتُلي به المتكلّمون، ولم يتكلّموا في المحدثات التي امتلأت بها كتب هؤلاء المتكلّمين، وإنّما تقبّلوا ما جاءتهم به

السنّة، وما نصّ عليه الرب في القرآن، تقبّلوا ذلك كلّه واستسلموا له. كما شهد لهم ابن مسعود ﷺ في هذا الأثر: (مَنْ كَانَ مِنكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ).

ابن مسعود ﷺ من الصدر الأول، مات سنة ثنتين وثلاثين من الهجرة، بعد النبي ﷺ بسنوات معدودات، ومع ذلك يحثّ على طريقة الصحابة، يريد بالصحابة السابقين الأولين كالخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم؛ لأنهم قبله أو في زمانه، وكذلك من كان معه ممن مات من السابقين، وممن مات قبله أو معه، كعبد الرحمن بن عوف، وأبي ذر، والعباس بن عبدالمطلب، وأولئك الذين ماتوا قبله؛ لأنّ الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة، لا يؤمن عليه أن يضلّ، ولا يؤمن عليه أن يفتتن بالدعايات المضلّة وبالشبهات. يقول: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هذه الْأُمَّة، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا). ما أبلغه من وصف! البرّ: هو الصدق والإخلاص، يعني: أنّ قلوبهم خالصة مخلصة، وعلمهم عميق؛ لأنه علم نبويّ، وليسوا يتكلّفون.

وقد جاء رَجُلٌ إلى ابن مسعود ﷺ فقال: يا أَبَا عبد الرحمن، إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقُصُّ وَيَزْعُمُ أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تجيء فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ منه كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، فَجَلَسَ ابن مسعود ﷺ وهو غَضْبَانُ فقال: «يا أَيُّهَا الناس اتَّقُوا الله، من عَلِمَ مِنكُمْ شيئًا فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ، وَمَنْ لم يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: الله أَعْلَمُ، فإنه أَعْلَمُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُ[illegible] لِمَا لَا يَعْلَمُ: الله أَعْلَمُ، فإن الله ـ عز وجل ـ

قال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦])[1]. أنكر على هذا تفسيره الآية بما يراه، أو بما يظنّه من أنّه يكون الدخان قرب الساعة.

وبكلّ حال فهو ينكر على من يتكلّف في تفسير الآيات بمثل هذه الاحتمالات، فإذا نظرنا فيما روي عن السلف وعن الصحابة رضي الله عنهم، لم نجد في علمهم شيئًا من التكلّف، بل وجدناهم يأخذون الأدلّة بظاهرها، ويعتقدون ما دلّت عليه، وقد حدث في آخر عهدهم بعض من المنكرين لبعض الأمور الغيبيّة، ومما روي أنّ رجلًا انتفض عند ابن عباس - رضي الله عنهما - عندما قرأ آية في الصفات، أو سمعها استنكارًا لها، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ما فرق هؤلاء[2]؟ يَجِدُونَ عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلَكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ»[3].

أما الأثر المرويّ عن عليّ ﷺ أنّه قال: «حَدِّثُوا النَاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟»[4]. فإنّه دليل على أنّه قد وجد في عهده من يتحدّث بأشياء

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤، ٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) قوله: «ما فرق هؤلاء» يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون (ما) استفهامية إنكارية، و(فرق) بفتح الفاء والراء، وهو الخوف والفزع، أي: ما فزع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها. والثاني: أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء، ويجوز تخفيفها، و(ما) نافية، أي: ما فَرَّق هذا وأضرابه بين الحق والباطل. انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٤٨٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٣٩) وفي مصنفه (١١/ ٤٢٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٧).

قد تستغرب، وقد يستنكرها بعض الجهلة، فلأجل ذلك نهى أن يحدّثوا بأشياء فيها شيء من الغرابة، فأمرهم أن يتحدّثوا بالأشياء المعروفة كالأحكام. أي اشغلوا أوقاتكم بالأحكام وبأمور الطاعة والعبادة والنوافل، وإياكم أن تشتغلوا بالأشياء التي فيها غرابة يستغربها العامّة فينكرونها، وإذا أنكروها وهي قطعيّة هلكوا؛ لأنّهم كذّبوا الله ورسوله، هذه طريقة السلف الذين هم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سار على نهجهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ونحِبُّ أهلَ العَدْلِ والأَمانَةِ، ونُبغِضُ أَهلَ الجَوْرِ والخِيانَةِ.

---

قال الشارح:

وَهَـذَا مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَتَمَامِ الْعُبُودِيَّة، فَإِنَّ الْعِبَادَة تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْمَحَبَّة وَنِهَايَتَهَا، وَكَمَالَ الذُّلِّ وَنِهَايَتَه، فَمَحَبَّة رُسُلِ الله وَأَنْبِيَائِه وَعِبَادِه الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَحَبَّة الله، وَإِنْ كَانَتِ الْمَحَبَّة لَا يَسْتَحِقُّهَا غيره، فَغَيْرُ الله يُحَبُّ فِي الله، لَا مَعَ الله، فَإِنَّ الْمُحِبَّ يُحِبُّ، مَحْبُوبُه، وَيُبْغِضُ مَا يُبْغِضُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِيه، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِيه، وَيَرْضَى لِرِضَائِه، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِه، وَيَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ به، وَيَنْهَى عَمَّا يَنْهَى عنه، فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَحْبُوبِه فِي كُلِّ حَالٍ.

والله تعالى يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَنَحْنُ نُحِبُّ مَنْ يحبّه الله. والله لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ، وَلَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، وَلَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَنَحْنُ لَا نُحِبُّهُمْ أَيْضًا، وَنُبْغِضُهُمْ، مُوَافَقَة له سبحانه وتعالى.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلَاوَة الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ الله ورسوله أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّه إِلَّا لله، وَمَنْ كَانَ يَكْرَه أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَه الله منه، كَمَا يَكْرَه أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[1].

فَالْمَحَبَّة التَّامَّة مُسْتَلْزِمَة لِمُوَافَقَة الْمَحْبُوبِ فِي مَحْبُوبِه وَمَكْرُوهِه، وَوِلَايَتِه

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٨١).

وَعَدَاوَتِه. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ اللهَ الْمَحَبَّةَ الْوَاجِبَةَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُبْغِضَ أَعْدَاءَه، وَلَا بُدَّ أَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّه مِنْ جِهَادِهِمْ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤].

وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ بِحَسَبِ مَا فِيهِمْ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَجْتَمِعُ فيه سَبَبُ الْوِلَايَة وَسَبَبُ الْعَدَاوَة، وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ، فَيَكُونُ مَحْبُوبًا مِنْ وَجْه مَبْغُوضًا مِنْ وَجْه، وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ. وَكَذَلِكَ حُكْمُ الْعَبْدِ عِنْدَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ يُحِبُّ الشَّيْءَ مِنْ وَجْه وَيَكْرَهُه مِنْ وَجْه آخَرَ، كَمَا قَالَ ﷺ، فِيمَا يروي عَنْ رَبِّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَه الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَه مَسَاءَتَه، وَلَا بُدَّ له منه»[1].

فَبَيَّنَ أنه يَتَرَدَّدُ؛ لِأَنَّ التَّرَدُّدَ تَعَارُضُ إِرَادَتَيْنِ، وَهُوَ سبحانه يُحِبُّ مَا يُحِبُّ عَبْدُه الْمُؤْمِنُ، وَيَكْرَه مَا يَكْرَهُه، وَهُوَ يَكْرَه الْمَوْتَ فَهُوَ يَكْرَهُه، كَمَا قَالَ: «وَأَنَا أَكْرَه مَسَاءَتَه»، وَهُوَ سبحانه قَضَى بِالْمَوْتِ، فَهُوَ يُرِيدُ كَوْنَه، فَسَمَّى ذَلِكَ تَرَدُّدًا، ثُمَّ بَيَّنَ أنه لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ ذَلِكَ، إِذْ هُوَ مُفْضٍ إلى مَا هُوَ أَحَبُّ منه.

---

قال الشيخ:

واجب على المسلم أن يحبّ الله تعالى، وأن يحبّ ما يحبّه الله، وأن يحبّ من يحبّه الله.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٥٢٤).

يحبّ الله تعالى من كلّ قلبه؛ لأنّه ربّه والمنعم عليه، ويحبّ ما يحبّه الله من الأعمال التي تكون سببًا لرضاه، ويحبّ الذين يحبّهم الله من أوليائه وأصفيائه وعباده الصالحين. وإذا كان كذلك فإنّه يحظى بمحبّة الله تعالى له، أمّا كونه يحبّ الله ورسوله فإنّ لذلك أسباب، كيف لا يحبّ ربّه الذي هو خالقه ومالكه، كيف لا يحبّ ربّه الذي أنعم عليه وتفضّل عليه، كيف لا يحبّ ربّه الذي رزقه وخوّله وأعطاه ما يتمنّاه، كيف لا يحبّ ربّه الذي يتصرّف فيه كيف يشاء، كيف لا يحبّه وقد هداه للإسلام ونوّر بصيرته.

كذلك أيضًا لا بدّ أنْ يحبّ النبيّ ﷺ؛ لأنّ الله تعالى أنقذه على يديه، أنقذ الخلق، أنقذ هذه الأمّة على يدي هذا النبيّ ﷺ، فلأجل ذلك يلزم أن يحبّوه من كلّ قلوبهم، ويقدّموا محبّته على كل شيء، قال النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1]. وقال له عُمَرُ ﷺ: يا رَسُولَ الله، لأَنْتَ أَحَبُّ إِلي من كل شَيْءٍ إلا من نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بيده حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ من نَفْسِكَ»، فقال له عُمَرُ ﷺ: فإنه الآنَ والله لأَنْتَ أَحَبُّ إلي من نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: «الآنَ يا عُمَرُ»[2].

لا شكّ أنّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهلٌ لأن يُحَبّ، وأهلٌ لأن يحبّه المؤمنون الذين أنقذهم الله بدعوته، وأخرجهم من الظلّمات إلى النور، وأنقذهم به من

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبدالله بن هشام ﷺ.

الغواية، وبصّرهم بواسطته طريق الهداية والحقّ، فلذلك يقدّمون محبّته على كلّ شيء.

وفي هذا الحديث يقول ﷺ: « ثَلَاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ »[1]. أخبر ﷺ في هذا الحديث بأنّ هذه ثلاث لابدّ منها حتّى يجد بها حلاوة الإيمان، مبدؤها محبّة الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما من النفس والمال والولد ومن الوالد، ومن القريب والبعيد وكلّ شيء، ومعلوم أنه إذا حصلت له هذه المحبّة تبعها غيرها، إذا أحبّ الله تعالى وأحبّ رسوله ﷺ تبعتها الخصلتان الباقيتان: تبعتها محبّة ما يحبّه الله، وتبعتها كراهة ما يكرهه الله، فالثلاث متلازمة مترابطة.

أما الخصلة الثانية، فهي أن يحبّ المرء لا يحبّه إلاّ لله، معلوم أنّ من أحبّ الله أحبّ ما يحبّه الله، بل العادة أن الإنسان إذا أحبّك أحبّ كل من تحبّه أنت، فإذا أحببت زيدًا أحببت من يحبّه زيد، وأحببت من يحبّ زيدًا؛ وذلك لأنّك وثقت به، وصار له قدر في قلبك، وصار له منزلة؛ فصرت توقّره وتحبّه، فإذا رأيته يؤثر عملًا آثرت ذلك العمل معه، وإذا رأيته يجتنب شيئًا اجتنبته؛ لأنك تثق به، وتعرف أنّه لا يفعل إلا الخير، ولا يتجنّب إلاّ ما فيه ضرر، فكيف بما يكرهه الله تعالى؟ فإنّك تكرهه، وكيف بما يحرّمه ويبغضه؟ فإنّك تبغضه، وكيف بمن يحبّهم الله تعالى من

(١) تقدم تخريجه (١/ ٨١).

الناس؟ لا شكّ أنّك تحبّهم.

ولعلّك أن تقول: الله تعالى قد ذكر أن المؤمنين يحبّون المنافقين ظاهرًا في قوله تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، كيف يحبّهم المؤمنون، الصحابة الذين يحبّون الله ويحبّون رسوله، ويؤثرونه على أنفسهم، ويفدونه بأرواحهم، كيف يحبّون المنافقين؟

الجواب: أنّ المنافقين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، يبطنون ما هم عليه من الضلال والبغضاء، وبغض الله، وبغض رسوله وبغض الصحابة، وبغض المؤمنين، لا يبدون ذلك؛ إنّما يظهرون أنّهم أولياء الله، وأنّهم من أحبّائه، لذلك وثق بهم المؤمنون فأحبّوهم، يعني: تحبّونهم لأنّهم يحبّون الله ظاهرًا، وأنتم تحبّون الله، تحبّونهم؛ لأنّهم يظهرون لكم محبّة الرسول، وأنتم تحبّون الرسول، ومحبّ المحبوب محبوب، ولكن هم لا يحبّونكم؛ لأنكم تحبّون الرسول وهم يبغضونه، ومحب المبغوض مبغوض، ولأنكم صرتم على عقيدة وعلى يقين من محبّة الرسول ﷺ وهم على ضدّ ذلك يبغضونه، أبغضوكم لأنكم تحبّون مبغوضهم.

فإذًا نقول: عليك أن تحبّ الله، وتحبّ من يحبّه الله، وتظهر عليك آثار هذه المحبّة، ومن آثارها: الولاء والبراء، العطاء والمنع، التقريب والإبعاد، من أحببته أعطيته، ومن أبغضته حرمته، من أحببته قرّبته، ومن أبغضته أبعدته وابتعدت عنه، من أحببته واليته ومن أبغضته عاديته، فالذين يحبّون الله تحبّهم وتواليهم وتقرّبهم وتمدحهم وتقتدي بهم وتثني عليهم؛ لأنّ الله تعالى يحبّهم، والذين

يبغضهم الله تبغضهم وتعاديهم وتنقطع عنهم وتبعدهم وتحذرهم وتذمّهم وتحذّر منهم، ومن عاداتهم وطريقهم التي أصبحوا بها مبغضين لله ومبغوضين عند الله، ولو كانوا ما كانوا.

ومن الخصال التي ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ممّا يجب على كل مسلم ومسلمة: أنّ من أطاع الله ووحّده وأطاع الرسول ﷺ لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب، واستدلّ بالآية التي في آخر المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ لا تجد المؤمنين الموحّدين يوادّون من حادّ الله ورسوله أبدًا، بل لابدّ أن يحادّوهم ويعادوهم وينصبوا لهم قوس العداوة، ولو كانوا أقرب الأقربين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، يعني أقاربهم الخاصّة، وما ذاك إلا لأنّهم أحبّوا الله، فأبغضوا من يبغضه الله ولو كانوا أقرب الأقارب، عاداهم أولياء الله ومقتوهم، وابتعدوا عنهم، وقطعوا الصلة بهم. هكذا أثر المحبّة.

أمّا أولياء الله، فإنّهم أحبّوهم ولو كانوا بعيدين في النسب، صار بعضهم يؤثر أخاه المسلم على نفسه، ولو كان من الفرس أو الروم أو البربر أو الحبش. فمثلًا الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كان فيهم بلال من الحبشة، وصهيب رومي، وسلمان فارسي، ولكن جمعت بينهم أخوّة الإسلام، ومحبّة الله، فصاروا إخوة في ذات الله تعالى، يحبّ بعضهم بعضًا، ويؤثر بعضهم بعضًا، فهكذا تكون آثار هذه المحبّة، أنّ

الله تعالى لَمَّا أحبّ الصالحين وأنت تحبّ الله أحببتهم، وأنّه لَمَّا أبغض الكافرين وأنت تبغض ما يبغض الله أبغضتهم.

وكذلك الأعمال؛ فالله تعالى يبغض كثيرًا من الأعمال، فيقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]. إذا كان هؤلاء لا يحبّهم الله فلا تحبَّهم بل أبغضْهُم، انظر من يحبّه الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ويحبّ أهل هذه الخصال، ويحبّ أيضًا الأعمال الصالحة، ويحبّ لعباده أن يأتوها، فالذّي يدّعي المحبّة، لا بدّ أن تظهر عليه آثارها وعلاماتها الواضحة. ذكر أنّ اليهود والنصارى لَمَّا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وهم الكاذبون؛ أنزل الله آية تسمّى آية الامتحان، أو آية المحنة في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. امتحنهم الله في هذه الآية، وقال لهم: إذا كنتم صادقين في أنّكم تحبّون الله، فلا بدّ من علامة واضحة، والعلامة أن تتّبعوا هذا الرّسول الكريم، فإنّ هذا علامة صدق من يدّعي محبّة الله.

روي عن بعض السّلف أنّه قال: من ادّعى محبّة الله ولم يوافقه، فدعواه كاذبة؛ لأنّ الذي يحبّ الله يوافقه في أوامره ونواهيه، ويفعل ما يحبّ الله من الطاعات، ويجتنب ما يكرهه الله من المحرّمات والمعاصي، ويحبّ أولياء الله، ويبغض أعداء

الله، وكذلك يكون صادقًا في هذه المحبّة، وإذا لم يكن كذلك فليس بصادق، الذي يتظاهر بالمعصية ومع ذلك يدّعي محبّة الله فليس بصادق، قال بعض الشعراء[1]:

تَعْصِي الْإِلَـٰهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَـٰذَا عَجِيبٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ ... مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

فالطاعة علامة المحبّة.

إذًا محبّة الله واجبة، وعلاماتها ظاهرة، علامات محبّة الله طاعته، وحبّ العبادات التي يحبّها وحبّ العباد الذين يحبّهم، وكذلك موافقته، وكذلك بغض المعاصي التي حرّمها الله ومقتها، ومعاداة العصاة والكفرة الذين أبغضهم وكرههم ومقتهم. من كان كذلك فإنّه من أحباب الله الذين وعدهم الله تعالى بالثواب العظيم.

في الحديث القدسي الذي أشار إليه الشارح، يقول الربّ تعالى: «ما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

---

(١) راجع (١/ ٦٣٣).

قوله في الحديث: «كنت سَمْعَهُ...» إلى آخره، أي: أنّه لا يسمع إلّا ما يحبُّه الله، ولا يبصر إلّا ما هو محبوب لله، ولا يمدُّ يده ويبطش إلّا في طاعة الله، ولا يحرّك قدميه ماشيًا إلّا فيما أمر الله به وأحبّه.

وتقدم فيما سبق حثّ الإسلام على الاجتماع، ونهيه عن الافتراق، وحثّه على الائتلاف، وتحذيره من الاختلاف، وذلك أنّ المسلمين كلّما كانوا مجتمعين، وكلّما كانت كلمتهم واحدة، كانت قوّتهم، وكان ظهور كلمتهم أقوى من غيرهم ممّن خالفهم، وكلّما تفرّقت كلمتهم وتشتّت أهواؤهم واختلفت آراؤهم ضعفت معنوياتهم، وقوي عليهم عدوّهم، ولأجل ذلك جاء الإسلام يحثّ على الاجتماع، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ أمر بالاجتماع ونهى عن التفرّق، والتفرّق يعمّ تفرّق الأبدان وتفرّق الأهواء والآراء والمذاهب والشيع والفرق والأحزاب، يعمّ ذلك كلّه النهي عن التفرّق، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، تفرّقوا أي: تفرّقت كلمتهم، واختلفوا اختلفت آراؤهم وأهواؤهم.

وقد امتنّ الله تعالى على المؤمنين بأنّ جمعهم على كلمة التوحيد، وألّف بين قلوبهم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، أي: جمع بينهم ورزقهم المحبّة والألفة، بحيث إنّ بعضهم يؤثرُ أخاه المسلم على نفسه، وعلى ولده وعلى أحبابه وأقاربه وأحفاده وأنسابه، وذلك لِمَا في

قلبه من الود والرحمة للمسلمين عمومًا.

وهذه الأوصاف كلّما تأكّدت وقويت وثبتت كان المسلم مؤثرًا لهوى إخوته ومقدّما له ومحبًّا لهم غاية الحبّ، ومقدّما لمصالحهم، وإذا كانوا مجتمعة كلمتهم، ومتآلفين على كلمة التقوى نتج من ذلك تعاونهم على البرّ والتقوى، وتعاونهم على تنفيذ كلمة الله، وإظهار شعائر دينه، وكلّما كانوا كذلك ضعف أعداؤهم تخاذلوا وتفرّقوا، وحصل النصر والتمكين للمؤمنين، والتفرّق والانهيار للكافرين. وهذه سنّة الله.

فإن اختلاف الكلمات، واختلاف الآراء والأهواء سبب لتعصّب كلّ لرأيه ولمذهبه ولهواه، وهذا يحدث في أهل البدع، فإنّ هذه الطائفة إذا كانت تنتحل بدعةً وتهواها وتفضّلها فإنّها لا تقبل ممّن خالفها، بل ترى أنّ من خالفها على باطل وعلى ضلال. نشاهد مثلًا الذين يسمّون أنفسهم شيعة، وهم الروافض، تجدهم يتآلفون فيما بينهم ويحبّ بعضهم بعضًا، ويقدّم بعضهم بعضًا ربّما على نفسه. كما روي لي عن بعضهم بأنّ جماعة من أهل السنّة نحو المئتين بين عشرين ألفًا أو أكثر من الرافضة، الذين تأتيهم الإمدادات والعون وتأتيهم الشيعة من العراق وإيران ويشجّعونهم، الواجب أيضًا أنّ أهل السنّة يشجع بعضهم بعضًا ويواسونهم ويعظّمونهم ويمكّنونهم؛ لأنّ أخوّة الإسلام تجمع بينهم، فإذا كان أهل الباطل يجتمعون ويتناصرون على الباطل، الذي حمّي عليهم، وظهر لهم أنّه الحق، فالأحرى بالذين على الحق أن يتعاونوا.

وقد كان المسلمون في أول القرن الثاني لما كانوا في خراسان مجتمعين من

أماكن متعدّدة؛ إذا لم يغزوا، ولَم يذهبوا إلى قتال أعدائهم وقع الخلاف بينهم، وصاروا يتفاخرون كلّ يتعصّب لقبيلته، وكلّ يتعصّب لمذهبه ولأميره ولشيخه، وربّما حصل بينهم تقاتل وتناوش، أو ما أشبه ذلك، ولكن إذا جاءهم أمير عام عليهم، ناصح مخلص؛ جمع كلمتهم ووحّد وجهتهم إلى قتال أعدائهم، وتوجّهوا كلّهم نحو الأعداء، عندئذ زالت الإحن التي كانت بينهم، وأصبحوا إخوة متآخين، متوجّهين إلى العدو الذي هو أكبر الأعداء، وهو العدو في الدين، فكانت الفعلة التي يفعلها القادة وهي جمعهم على التوحيد، أكبر وجهة وأكبر نصيحة يجتمعون بها حتّى يقاتلوا أعداءهم.

نحن نحثّ المسلمين على أن تجتمع قوّتهم وتتوجّه نحو أعدائهم، سواء الأعداء الكفار أو الأعداء المبتدعون، أو نحوهم، وكذلك ننهاهم عن التمادي في الاختلاف؛ اختلاف الآراء، واختلاف الأهواء.

قد مرّ بنا حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: أن نفرًا من الصحابة كانوا جُلُوسًا بِبَابِ النبي ﷺ، فقال بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ الله كَذَا وَكَذَا، وقال بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ الله كَذَا وَكَذَا، فَسَمِعَ ذلك رسول الله ﷺ، فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ - يعني: احْمَرّ وجهه من الغضب - فقال: «بهذا أُمِرْتُمْ، أو بهذا بُعِثْتُمْ، أن تَضْرِبُوا كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إنما ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ في مِثْلِ هذا، إنكم لَسْتُمْ مِمَّا ههنا في شيء، انْظُرُوا الذي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، والذي نُهِيتُمْ عنه فَانْتَهُوا»[1]،

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٨).

فنهى عن اختلاف الكلمة في مسألة من المسائل كمسألة القدر ونحوه.

وعلى كلّ حال، فالإسلام جاء بجمع الكلمة، والحثّ على الجماعة، وحثّهم على الألفة فيما بينهم، وذكر الأسباب التي بها يتآلفون ويتعارفون ويتآخون، وذلك أنّهم أولًا: يتعارفون بأنّهم مسلمون، ويتحابّون لأجل الإسلام، وثانيًا: يتعارفون ويتآلفون بأنّ قصدَهم وهدفهم واحدٌ، وهو أنّ كلًّا منهم يطلب الأجر الأخروي، ويطلب النصر من الله تعالى على الأعداء. وثالثًا: أنّ كلًّا منهم يدينون بدين واحد يجمعهم هذا الدين، فإذا دانوا بدين واحد، فإنّ عليهم أن يتحابّوا في ذات الله تعالى، ويزيلوا الأسباب التي توقع بينهم العداوة والبغضاء، وبذلك يتآلفون ويتحابّون فيما بينهم، وكما أنّهم مأمورون - على اختلاف طبقاتهم وجنسيّاتهم - أن يتحابّوا وأن يجتمعوا ولو تفرّقت بلادهم ولو تناءت أماكنهم، مأمورون بذلك؛ فإنّهم مأمورون أيضًا بمقاطعة أعدائهم، وبمباينتهم وبغضهم والابتعاد عنهم وإذلالهم، سواء كانوا مبتدعة أو كفرة أو مشركين، فإنّهم إذا رأوا منهم الغلظة والشدّة والبغضاء والكراهية ذلّوا وهانوا، وهانت عليهم أنفسهم، وعرفوا عزّة الإسلام ورفعته وتمكّنه وعزة أهله فأذعنوا له، وانقادوا إما طوعًا وإما كرهًا. هذه الأمور مجرّبة في الأزمان الماضية، أنّ المسلمين كلّما اجتمعوا وأظهروا لأعدائهم المقت والاحتقار ذلّ الأعداء، وقوي الأولياء، وارتفعت كلمة الله، وانخفضت كلمة المشركين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ونَقُولُ: اللَّهُ أعْلَمُ فيما اشْتبَهَ عَلَينا عِلْمُهُ.

---

قال الشارح:

تَقَدَّمَ في كَلَامِ الشَّيْخِ - رحمه الله - أنه مَا سَلِمَ في دِينِه إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لله عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِه ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَه عليه إلى عَالِمِه.

وَمَنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ هَوَاه، وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج:٣، ٤]، وَقَالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وَقَدْ أَمَرَ الله نَبِيَّه ﷺ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ إليه، فَقَالَ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف:٢٦]، ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف:٢٢]، وَقَدْ قَالَ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ: «الله أَعْلَمُ بِمَا

كَانُوا عَامِلِينَ»[١].

وَقَالَ عُمَرُ ﷺ: اتَّهِمُوا الرَّأْيَ فِي الدِّينِ، فَلَوْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَرُدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِرَأْيِي، فَأَجْتَهِدُ وَلَا آلُو، وَذَلِكَ يَوْمُ أَبِي جَنْدَلٍ، وَالْكِتَابُ يُكْتَبُ، وَقَالَ: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فرضي رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَتَبَ وَأَبَيْتُ، فَقَالَ: «يَا عُمَرُ تَرَانِي قَدْ رَضِيتُ وَتَأْبَى؟!»[٢].

وقَالَ أَيْضًا ﷺ: «السُّنَّةَ مَا سَنَّهُ اللهُ ورسوله ﷺ، لَا تَجْعَلُوا خَطَأَ الرَّأْيِ سُنَّةً لِلْأُمَّةِ»[٣].

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ: «أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، إِنْ قُلْتُ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ بِرَأْيِي، أَوْ بِمَا لَا أَعْلَمُ»[٤].

وَذَكَرَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْحُلْوَانِيُّ، حَدَّثَنَا عَارِمٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ سَعِيدٍ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٣٧٣)، والبزار (١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٢٥، ١٢٦)، والطبراني في الكبير (٨٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص١٩٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٤٦): «أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٣٦)، وابن حزم في الإحكام (٦/ ٢٢٠).

(٤) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٦).

ابْنِ أَبِي صَدَقَة، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: «لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ أَهْيَبُ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ ﷺ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ نَزَلَتْ بِهِ قَضِيَّةٌ، فَلَمْ يَجِدْ فِي كِتَابِ اللهِ مِنْهَا أَصْلًا، وَلَا فِي السنة أَثَرًا، فَاجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا رَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ اللهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ»[1].

---

قال الشيخ:

هذه مسألة جديدة، وهي مسأله الفتيا بغير علم، والجرأة على الفتيا والقول في الشرع بغير علم ذنب كبير، وقد روي: «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ»[2]؛ وذلك لأنّ الذي يقول في الشرع وفي الدين برأيه وبهواه وبما يستحسنه؛ ينصّب نفسه مشرّعًا، وكأنّه نائب عن الله، مزاحم للربّ تعالى في شرعه، يقول: أحلّ الله كذا وحرّم كذا، وأمر بكذا ونهى عن كذا، وليس عنده مستند، وإنّما يعتمد على ما يستحسنه وعلى ما يراه مناسبًا ملائمًا لواقعه ونحو ذلك، فلا جرم أن كان هذا ذنبًا كبيرًا حتّى قال بعضهم: إن القول على الله بغير علم أكبر من الشرك ففي هذه الآية من سورة الأعراف حرّم الله بها خمسة أشياء؛ فبدأ بالأسهل، ثم بالذي فوقه حتى وصل إلى أعلاها وأشدّها تحريمًا، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ

---

(١) أخرجه ابن حزم في الإحكام (٦/ ٢١٩).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٦٩)، وابن عدي في الكامل كما في كشف الخفاء (١/ ٥١) عن عبيد الله بن جعفر مرسلًا.

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

الفواحش أصغر من الإثم، والإثم أهون من البغي: وهو الاستطالة على الناس بغير حقّ، ثمّ جاء بعد البغي ما هو أكبر منه وهو الشرك، والشرك أكبر من البغي، ثمّ جاء أكبرُ منه وهو: القول على الله بغير علم، وهو أكبر الخمسة التي حُرِّمت في هذه الآية؛ لأنّ الذي يقول على الله كأنّه رفع نفسه فوق العلماء والأنبياء، وجعل نفسه مشرِّعًا يحلّل ويحرّم ويقول على الله ما ليس له به علم.

ولذلك كان العلماء الجهابذة الذين بلغوا الذروة في المعرفة، وكانوا على جانب من الورع، يُسأل بعضهم فيتوقّفون في المسألة، ويترادّونها، إذا لم يكن فيها دليل واضح صريح، فيترادّها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا إلى أن يتولّى أحدهم الفتيا فيها، فيكتفي به عن نفسه، وكان الإمام أحمد رحمه الله كثيرًا ما يتلو الآية التي في سورة النحل: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦]. الذين يقولون هذا حلال بأهوائهم وهذا حرام بأهوائهم دون دليل، نقول: هذا من الافتراء الكاذب على الله تعالى بغير علم.

والإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة الذي تضرب إليه أعناق الإبل، والذي هو المرجع في زمانه، سأله قوم عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع مسائل، وتوقّف عن ستّ وثلاثين مسألة، فقالوا له: أتتوقّف وتقول: لا أدري، وأنت

مالك بن أنس؟ فقال: نعم، لا أدري لا أدري، قولوا: مالك بن أنس لا يدري، قولوا: مالك يقول: لا أدري.

وكان كثير من العلماء يحثّون على التوقّف عن المسائل، ويقولون: «مَن أخطأ لا أدري أُصيبت مقاتلُه». أي: إنّه إذا صار يفتي ولا يتوقّف، ويستحيي أن يقول: لا أدري، فإنّه قد تصاب مقاتله، بأن يزلّ مرة هنا ومرة هنا، ويحاسبه الله تعالى على أقواله بغير علم، ويقع في الهلاك والعياذ بالله.

أما الذي عنده علم من المسألة، وعنده دليل عليها، وعنده يقين بحكمها إذا سئل عنها فلا يجوز له السكوت، ولا يجوز له التوقّف، بل يقول بموجب علمه بالدليل، ولا يكتم العلم لقوله ﷺ: «**من سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ من نَارٍ يوم الْقِيَامَةِ**»[1].

أما إذا سئل وهو لا يعلم، وليس عنده خُبرٌ بهذه المسألة، فلا يجوز له الإقدام عليها، بل يحيله إلى من هو أعلم منه، وإلى من عنده علم بتفصيل هذه المسائل ونحوها.

ولقد اعتنى علماء الإسلام بهذه المسائل التي يمكن أن تقع غاية الاعتناء، واجتهدوا في بيانها وفي إيضاحها أتمّ الاجتهاد، وألحقوا كلّ مسألة بنظيرتها، فلم يبق لأحد قول، فأنت إذا سئلت عن مسألة، فارجع إليها في كتب أهل العلم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد (٢/ ٣٤٤)، وابن حبان (١/ ٢٩٧)، والحاكم (١/ ١٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقل هذه المسألة أفتى فيها العالم الفلاني بكذا، والشيخ الفلاني بكذا، ويوجد جوابُها في الكتاب الفلاني، وتوقّف أنت أن تستحسن فيها، أو تقول فيها ويقول بعضهم[1]:

وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الأَمْرُ ... مَا لِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ
فَذَاكَ شَطْرُ العِلْمِ فَاعْلَمَنْهُ ... وَاحْذَرْ هُدِيتَ أَنْ تَزِيغَ عَنْهُ

ويقولون: إن كلمة (الله أعلم) شطر العلم؛ كأنّ الذي تعلّم مسائل كثيرةً، وقرأ العلوم المتنوّعة، فقرأ في التفاسير، وقرأ في كتب الحديث، وكتب الأحكام والآداب والعقائد، وحصل منها معلومات، يقال له: أنت لم تحصّل إلا على علم قليل، ولذلك يقول بعضهم[2]:

وَلَيْسَ كُلَّ العِلْمِ قَدْ حويتَهُ ... أَجَلْ وَلَا العُشْرَ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ

ما حصلت إلا على العشر أو أقل، فالعلوم واسعة، وما فزت منها إلا بالنزر اليسير، فعليك أن تقتصر على ما تعلمه وتتحقّقه وتتقنه.

معلوم أيضًا أنّ هناك مسائل فيها مجال للاجتهاد؛ ولأجل ذلك اختلفت فيها آراء العلماء، واختلفت فيها المذاهب، فذهب الصحابيّ الفلاني إلى كذا، والصحابيّ الفلاني إلى قولٍ مخالف، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى كذا والإمام الشافعي إلى كذا، ومالك إلى كذا. هذه المسائل مجال للاجتهاد، والاختلاف الذي

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٤٧).

(٢) المرجع السابق.

حصل فيها سببه اختلاف الأفهام واختلاف الآراء وسعة المعلومات أو قلّتها، ونحن نعذر الذين خالفوا الدليل وأفتوا بخلافه، ونقول: هذا ما وصل إليه اجتهادهم، فهم قالوا عن اجتهاد لما اضطرّوا إلى القول فيها، وإلى الحكم بما يلزم السائل، وكانت واقعة لا بدّ إلى الفتيا فيها فاجتهدوا، ولو خالفوا الدليل فهم معذورون، فإنّ النبي ﷺ قد عذر المجتهد فقال: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»[1]، يعني: على اجتهاده.

فالمجتهد معذور على خطئه، ولكن هذا العذر ليس لكلّ أحد، فالذي لم يتأهّل للاجتهاد، ولم يصل إلى رتبة المعرفة، ولم يكن من أهل الإتقان للأعمال، ولا يعرف مراجع المسائل، ولا تفاصيل الأدلّة، ولا وجوه الاستدلال ولا ثبوت الأدلّة أو عدمه ولا يعرف الجمع بين مختلفها، ولا يعرف متقدّمها ومتأخّرها، ولا يفرّق بين خاصّها وعامّها ومطلقها ومقيّدها، فهذا لا يفتي بالشيء إلا إذا اتضح عنده كالشمس، أمّا الباقي فإنّه يتوقّف فيه حتى لا تنطبق عليه هذه الآيات التي استدلّ بها الشارح رحمه الله، والآيات التي أمر الله بها نبيّه أن يردّ العلم إلى الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ [الكهف:٢٦]. ونحن نقول: الله أعلم، والملائكة يقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢].

والله تعالى يذمّ الذين يجادلون في آيات الله بغير علم، فدلّ على أنهم إذا كان عندهم علم وجادلوا فتلك مجادلة حسنة، أما الذين يجادلون بغير علم فإنهم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٦٨).

مـــذمومون: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج:٣، ٤]، يعني: أنّه في هذه المجادلة قد اتّبع الشيطان.

وبكلّ حال فالعلوم ـ والحمد لله ـ مدوّنةٌ وموجودة ميسّرة، والعلماء موجودون وهم يعرفون مراجعها ويعرفون الراجح منها والمرجوح، ومن كان له أهليّة فأخذ العلم عن مظانّه فله أن يقول به، ولا يتبع غيره ممّن لم يتمكّن ومن لم يكن عنده أهليّة رجع إلى أهل العلم وقال بما قالوا به، أو بما وصلت إليه أفهامهم واجتهاداتهم.

قال الطحاوي:

ونَرَى المسحَ على الخُفَّيْنِ، في السَّفَرِ والحَضَرِ، كَمَا جاءَ في الأَثَرِ.

---

قال الشارح:

تَوَاتَرَتِ السنة عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِالمَسْحِ على الخُفَّيْنِ وَبِغَسْلِ الرِّجْلَيْنِ، وَالرَّافِضَة تُخَالِفُ هذه السنة المُتَوَاتِرَة، فَيُقَالُ لَهُمُ: الَّذِينَ نَقَلُوا عَنِ النبي ﷺ الْوُضُوءَ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَالَّذِينَ تَعَلَّمُوا الْوُضُوءَ منه وَتَوَضَّؤُوا وَهُوَ يَرَاهُمْ وَيُقِرُّهُمْ، وَنَقَلُوه إلى مَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الَّذِينَ نَقَلُوا لَفْظَ هذه الآية. فَإِنَّ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَتَوَضَّؤُنَ على عَهْدِه، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الْوُضُوءَ إِلَّا منه، فَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَمْ يَكُنْ مَعْهُودًا عِنْدَهُمْ في الجَاهِلِيَّة، وَهُمْ قَدْ رَأَوْه يَتَوَضَّأُ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَه إِلَّا الله تعالى، وَنَقَلُوا عنه غَسْلَ الرِّجْلَيْنِ في مَا شَاءَ الله من الحَدِيثِ، حتى نَقَلُوا عنه مِنْ غَيْرِ وَجْه في كُتُبِ الصَّحِيحِ وَغَيْرِهَا أنه قَالَ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ»(١).

مَعَ أَنَّ الْفَرْضَ إِذَا كَانَ مَسْحَ ظَاهِرِ الْقَدَمِ كَانَ غَسْلُ الجَمِيعِ كُلْفَة لَا تَدْعُو إِلَيْهَا الطِّبَاعُ، كَمَا تَدْعُو الطِّبَاعُ إلى طَلَبِ الرِّيَاسَة وَالمَالِ، فَلَوْ جَازَ الطَّعْنُ في تَوَاتُرِ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (٤/ ١٩١)، وابن خزيمة (١/ ٨٤)، والحاكم (١/ ١٦٢)، والدارقطني (١/ ٩٥)، والبيهقي (١/ ٧٠) من حديث عبد الله بن الحارث ﷺ. وأخرجه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، دون قوله: «وبطون الأقدام».

صِفَةَ الْوُضُوءِ، لَكَانَ فِي نَقْلِ لَفْظِ آيَةِ الْوُضُوءِ أَقْرَبَ إِلَى الْجَوَازِ.

---

قال الشيخ:

مسأله المسح على الخفين من المسائل التي يذكرها الفقهاء في أبواب الطهارة، يقولون: (باب المسح على الخفين)، والناس يسمعون ذلك ويفهمونه ويعرفونه، فهي من المسائل الفروعية مثل باب التيمّم، ومثل باب الغسل من الجنابة وموجباته، وخصال الفطرة، وما أشبه ذلك. ولكن لماذا تذكر هذه المسألة الفروعيّة في كتب العقائد؟

الجواب: أنّ الخلاف فيها مع المخالفين في العقيدة، والذين خالفوا فيها خالفوا في أكثر العقائد، وردّوا السنّة الصحيحة الصريحة في كثير من الأحكام الثابتة في هذه السنّة، وطعنوا في الذين يفعلونها، وخالفوا الأدلّة، الذين خالفوا في هذه السنة هم الرافضة الذين يسمّون أنفسهم شيعة، يقولون: إنّهم شيعة عليّ، أي: أعوان عليّ، مع أنّ عليًّا ﷺ بريء منهم ومن مشايعتهم، وإنّهم في الحقيقة لا شايعوه ولا نصروه، بل خذلوه وخذلوا أولاده، ولم يكن منهم نصر له ولا معاونة له ولا لأهله في زمن من الأزمان، ولكن زيّن لهم الشيطان فسمّوا أنفسهم شيعة عليّ، وأهل السنّة يسمّونهم رافضة؛ لأنهم رفضوا الحقّ، ولأنهم تركوا السنّة وتركوا الحقّ، وهم يعرفونه يعني أوائلهم وكذلك يعرفه أواخرهم، ولكنّهم عاندوا في تركه، فصدق عليهم اسم الرافضة.

وقولهم في هذه المسألة قول باطل؛ لأنّهم خالفوا المسلمين في أمرين: في غسل

الرجلين، وفي المسح على الخفين، فهم لا يرون غسل الرجلين إذا كانت الرجل بارزة، لا يرون غسلها، بل يمسحون الرجل كما يمسحون الرأس، وقد خالفوا السنّة الصريحة في غسل القدمين إن كانتا مكشوفتين، وخالفوا السنّة في مسح الخفين إن كانا على القدمين، فخالفوا مرّتين. ولأجل ذلك أنكر عليهم السلف، وأساؤوا بهم الظنّ، وحذروهم وحذَّروا منهم.

ورُوي عن ابن المبارك ـ رحمه الله ـ أنّه كان يقول: «إذا رأيت الرجل يسأل عن حكم المسح على الخفّين أسأتُ به الظنّ». يعني: اتهمته في معتقده، خوفًا من أن يكون من هؤلاء الشيعة؛ وذلك لأنّه لم يكن أحد من أهل السنّة المتمسّكين بها يشكّ في حكم المسح على الخفّين وفي جوازه؛ لأنّه متلقىً عن النبيّ ﷺ نقله عنه جمع عن جمع، وأعداد عن أعداد، وتلقّاه المسلمون وتقبّلوه، وروي في المسح أكثر من أربعين حديثًا، يقول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «ليس في نفسي من المسح على الخفين شيء، فيه أربعون حديثًا عن رسول الله ﷺ». يعني: أربعين حديثًا صحيحًا لا توقّف فيها ولا ارتياب.

وهناك أحاديث كثيرة قد يكون بها مقال، ولكن يستدلّ بها، وقد أوصلها بعضهم إلى ستّة وخمسين حديثًا كما في «نصب الراية»، وكذلك نقل الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وهو أحد كبار التابعين قال: حدّثني سبعون من أصحاب النبي ﷺ أنّه مسح على الخفّين وأمر به، فما دام أنّها سنّة ثابتة متواترة مشهورة، ليس فيها اختلاف، وليس في ثبوتها تردّد، فكيف ينكرها هؤلاء الرافضة؟ لا شكّ أنّ إنكارهم لها لأجل أنّ الذين قالوا بها هم من أهل السنّة، وهم يردّون على أهل

السنّة، ولا يقبلون شيئًا ممّا جاء به السنّيّون حتّى الآن.

وقد حدّثني أحد المدرّسين في الأحساء في مدرسة متوسطة تجمع بين أبناء السنّة وأبناء الشيعة، يقول: ألقيت عليهم اختبارًا شهريًا ولمّا أعددته اخترت مسائل في المسح على الخفين، فكانت أجوبتهم على ما في الكتب، ولكن إذا كان في النهاية فإنه يقول أحدهم: اعلم أيها المدرّس بأني أجبتك على ما في الكتاب، وإلا فأنا لا أقول بهذا، ولا أعتقده، ولا أصدّقه، ولو قلتم ما قلتم يا أهل السنّة، لا نذهب مذهبكم، ولا نقبل منكم. هذا مقتضى كلامه، مع أنّه طالب في المرحلة المتوسطة، يتلقّى العلم عن مدرّسين من أهل السنّة، لكن لما كان الذين يلقّنونهم عقيدتهم على تلك العقيدة، لم يتقبّلوا حتى هذه المسألة الفرعيّة التي هي من فروع المسائل، ولكن الذين نقلوها من الصحابة الذين يطعن فيهم الرافضة، الرافضة لا يقبلون كلام أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا طلحة والزبير ولا عبد الرحمن بن عوف ولا أبي عبيدة، ولا غيرهم من أكابر الصحابة ولا رواية أبي هريرة ولا عائشة ولا حفصة ولا غيرهم؛ لأنهم يعتقدون أنّهم كفّار، فلا جرم أن ردّوا هذه المسألة كليًّا؛ لأنّهم لا يقبلون أحاديث المسح على الخفّين أصلًا.

أما أهل السنّة فإنهم يقولون: هذه سنّة الرسول ﷺ، وهو الذي علّمنا الشريعة، وتلقّينا عنه علومها، تلقّينا عنه الصلاة وكيفيّتها وعدّدها، ولم يكن ذلك متوسعًا في القرآن؛ من الذي أخبرنا أن صلاة الظهر أربع، والفجر اثنتان، والمغرب ثلاث، غير الرسول ﷺ؟، وكذلك الذي أخبرنا أنّ في كلّ ركعة سجدتان، وأنّ في كلّ سجدةٍ دعاء كذا وكذا؟ لا شكّ أنّه النبيّ ﷺ، فهو الذي

علّمنا صفة الصلاة، وعلّمنا الطهارة وكيفيّتها، وكيفيّة الغسل وموجباته، وما أشبه ذلك، وحيث أنّه هو الذي علّمنا ذلك فهو الذي أيضًا علّمنا هذه السنّة التي هي سنّة المسح على الخفّين، ونقلها عنه صحابته الذين نثق بهم، والذين نعرف أنّهم صحبوه مدّة طويلة، والذين نقلوا عنه العلوم الشرعيّة والفرعيّة والأصولية نقلًا تامًا، وتثبّتوا في نقلها، فلا يتّهمون في نقلها بنقص ولا زيادة ولا خيانة فما داموا كذلك فكيف تتوجّه إليهم التّهم، نقول: نقبل هذه السنّة كما قبلنا بقيّة السنن، فما الفرق؟ إذا قبلنا ما نقلوه في العقيدة، فكذلك نقبل ما نقلوه في الأحكام، وما نقلوه في الفروع، فهي سنّة ثابتة متواترة لا شكّ فيها.

أمّا مسألة غسل القدمين، فالرافضة لا يغسلون القدمين ولو كانتا مكشوفتين، بل يكتفون بمسحهما ويستدلون بقراءة الجرّ: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾، وأهل السنّة يحملون الجرّ على أنّه للمجاورة، ويستدلّون بقراءة النّصب: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، يعني: واغسلوا أرجلكم، فهذا متعلّقهم، وأهل السنة يرون غسل القدمين، وأنّها تغسل كما تغسل اليدان إلى المرفقين، ويستدلّون بالسنّة؛ لأنّه تواتر عن النبي ﷺ أنّه كان إذا توضّأ غسل قدميه، ولم ينقل عنه أنّه مسحهما وهما ظاهرتان، لم ينقل عنه المسح إلا على الخفّين، أما إن لم تكن في خفّين فإنّه يغسلهما. هذا الذي تواتر عنه، رواه عنه الأعداد الكثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم، ورواه عن الصحابة رضوان الله عليهم التّابعون، وتلقّته الأمّة بالقبول قولًا وعملًا واشتهر ذلك فيما بين

المسلمين، وجاءت الرافضة فأنكروا ذلك، وقالوا: نقتصر على المسح.

سبب ذلك أنهم لا يقبلون ـ كما ذكرنا ـ أحاديث الصحابة؛ لأنّ هؤلاء الصحابة الأجلاّء في زعمهم كفّار، ولأنّهم ارتدّوا بعد الرّسول ﷺ، هذه عقيدتهم قاتلهم الله، يكفّرون الصحابة وهم الكفّار، فأهل السنّة عملوا بالسنّة المتواترة في المسح على الخفين وغسل الرجلين إذا لم تكونا في خفّين، وخالفهم الرافضة في ذلك.

وبكلّ حال هذه مسألة فرعيّة وليست اعتقاديّة؛ لأنّ العقائد إنما تكون في الأمور التي تحتاج إلى أمر خفي، دليله خفيّ أو هو من الأمور الغيبيّة وما أشبه ذلك من أمور الآخرة ونحوها، وأما مسائل الصلاة والطهارة وما أشبهها، فإنّها من الفروع، ولكنّها قد تدخل في الأصول إذا كانت أدلّتها قطعيّة يقينيّة، وهكذا مسألة المسح على الخفّين مسألة يقينيّة، إذا كان الثابت فيها أربعين حديثًا، ووصلت إلى ستّة وخمسين بما فيها الروايات المنقطعة التي وصلت من طرق أخرى، والضعيفة التي قوّيت بالتواتر، أو نحو ذلك فأصبح الدليل يقينيًا، وليس ظنيًا كما يقولون هم، وأصبح الذين عملوا به واتّبعوه من الصحابة، هم الذين نقلوا لنا كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ.

قال الشارح:

وَإِذَا قَالُوا: لَفْظُ الآية ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ الذي لَا يُمْكِنُ فيه الْكَذِبُ وَلَا الخَطَأُ، فَثُبُوتُ التَّوَاتُرِ في نَقْلِ الْوُضُوءِ عنه أولى وَأَكْمَلُ، وَلَفْظُ الآية لَا يُخَالِفُ مَا تَوَاتَرَ مِنَ السنة، فَإِنَّ المَسْحَ كَمَا يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الْإِصَابَة، كَذَلِكَ يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الْإِسَالَة، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: تَمَسَّحْتُ لِلصَّلَاة، وفي الآية مَا يَدُلُّ على أنه لَمْ يُرِدْ بِمَسْحِ الرِّجْلَيْنِ المَسْحَ الذي هُوَ قَسِيمُ الْغَسْلِ، بَلِ المَسْحُ الذي الْغَسْلُ قِسْمٌ منه، فإنه قَالَ: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إلى الْكِعَابِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، فَدَلَّ على أنه لَيْسَ في كُلِّ رِجْلٍ كَعْبٌ وَاحِدٌ، كَمَا في كُلِّ يَدٍ مِرْفَقٌ وَاحِدٌ، بَلْ في كُلِّ رِجْلٍ كَعْبَانِ، فَيَكُونُ تعالى قَدْ أَمَرَ بِالمَسْحِ إلى الْعَظْمَيْنِ النَّاتِئَيْنِ، وَهَذَا هُوَ الْغَسْلُ، فَإِنَّ مَنْ يَمْسَحُ المَسْحَ الخَاصَّ يَجْعَلُ المَسْحَ لِظُهُورِ الْقَدَمَيْنِ، وَجَعْلُ الْكَعْبَيْنِ في الآية غَايَة يَرُدُّ قَوْلَهُمْ. فَدَعْوَاهُمْ أَنَّ الْفَرْضَ مَسْحُ الرِّجْلَيْنِ إلى الْكَعْبَيْنِ، اللَّذَيْنِ هُمَا مُجْتَمَعُ السَّاقِ وَالْقَدَمِ عِنْدَ مَعْقِدِ الشِّرَاكِ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ والسنة.

وفي الآية قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ: النَّصْبُ وَالخَفْضُ، وَتَوْجِيه إِعْرَابِهِمَا مَبْسُوطٌ في مَوْضِعِه، وَقِرَاءَة النَّصْبِ نَصٌّ في وُجُوبِ الْغَسْلِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ على المَحَلِّ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ المعنى وَاحِدًا، كَقَوْلِه:

..... فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الحَدِيدَا[1]

---

(١) عجز بيت لعقيبة بن هبيرة الأسدي، وصدره: (معاوي إننا بشر فأسجح). انظر: تاريخ دمشق (٢٦/ ٤٦)، وكتاب سيبويه (١/ ٦٧).

وَلَيْسَ معنى: مَسَحْتُ بِرَأْسِي وَرِجْلِي، هُوَ معنى: مَسَحْتُ رَأْسِي وَرِجْلِي، بَلْ ذِكْرُ الْبَاءِ يُفِيدُ معنى زَائِدًا على مُجَرَّدِ الْمَسْحِ، وَهُوَ إِلْصَاقُ شَيْءٍ مِنَ الْمَاءِ بِالرَّأْسِ، فَتَعَيَّنَ الْعَطْفُ على قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾. فَالسُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ تَقْضِي على مَا يَفْهَمُه بَعْضُ النَّاسِ مِنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ بَيَّنَ لِلنَّاسِ لَفْظَ الْقُرْآنِ ومعناه، كَمَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَغَيْرُهُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النبي ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُتجَاوِزُوهَا حتى يَتَعَلَّمُوا مَعْنَاهَا[1].

وفي ذِكْرِ الْمَسْحِ فِي الرِّجْلَيْنِ تَنْبِيه على قِلَّة الصَّبِّ في الرِّجْلَيْنِ، فَإِنَّ السَّرَفَ يُعْتَادُ فِيهِمَا كَثِيرًا. وَالْمَسْأَلَة مَعْرُوفَة، وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.

---

قال الشيخ:

هذا يتعلّق بغسل القدمين والإنكار على من يمسح القدمين كالرافضة، وهم يستدلّون بقراءة الخفض ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾.

والجواب: أنّنا نستدلّ بقراءة النصب، فالقراءتان تفسّر إحداهما الأخرى. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية: أنّ المسح يطلق على الغسل، يسمّى الغسل مسحًا؛ تقول العرب: تمسّحت للصلاة، يعني غسلت أعضائي غسلًا خفيفًا، فالأمر بقوله:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٠)، والطبري (١/ ٦٠).

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، أي: اغسلوها غسلًا خفيفًا، قيل: إن سبب ذلك أنّ القدمين مظنّة الإسراف؛ لأنّهما قد يحتاج إلى كثرة صبّ الماء عليهما، ولأجل ذلك نهي عن الإسراف في صبّ الماء، فأمر بالغسل الخفيف الذي هو المسح.

وهناك جواب ثالث وهو أنّ الله حدّد موضع الغسل في اليدين والرجلين أي نهايته، ففي اليدين قال: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، ومعلوم أنّ التحديد يدلّ على أنّه مغسول، تُغسل اليد إلى المرفق، ثمّ قال: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾، فبيّن أنّها تغسل إلى الكعبين حيث ذكر النهاية، ولم يذكر ذلك في الرأس حيث قال: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾، ولم يقل إلى القُذال، أو إلى العنق، أو إلى الأذن، بل أطلق ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾، فالمسحُ لم يذكر له تحديدًا، والغسل ذكر له تحديدًا إلى الكعبين، والكعبان: هما العظمان النّاتئان ظاهر القدم. والرافضة يقولون إنّ الكعب هو العظم الذي في المفصَل، وهو كعب واحد، فيقولون: إنّ في كلّ رجل كعبًا واحدًا، وهو العظم الذي في المفصل بين الكعب وبين الساق، ولو كان كذلك لقال: إلى الكعاب، كما قال إلى المرافق.

وعلى كلّ حال، فتفصيل الكلام في المسألة لا يطال به، والمسألة ظاهرةٌ جليّةٌ والحمد لله.

كان من جملة ما مرّ بنا من أمور العقيدة وآثارها: مسألة المحبّة والبغض والولاء والبراء، وهو أنّ أهل السنّة يحبّون أهل الإيمان وأهل التقوى، ويبغضون

أهل الكفر والعناد، يحبّون أهل الطاعات، ويبغضون أهل المعاصي، وينتج من آثار هذه المحبّة الولاء لمن يحبّونه، والمعاداة والبغضاء لمن يبغضونه، ويكون سبب الولاء والبراء هو آثار الطاعة وآثار المعاصي. وهذه صفة مدح بها الله أولياءه، مدح بها صحابة نبيّه ﷺ؛ وذلك أنّهم لَمَّا ألّف الله بينهم جمعهم على الإيمان، ولَمَّا اجتمعت كلمتهم على تقوى الله تعالى تآلفوا فيما بينهم، فصار يحبّ بعضهم بعضًا، ويألف بعضهم بعضًا، ويوالي بعضهم بعضًا ويقرّب بعضهم بعضًا، بل وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، وهل أكثر من هذا الوصف؟ أنّهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، يقدّمون إخوتهم في ذات الله تعالى على مصالحهم الدنيويّة، ويقدّمونهم على شهواتهم الدنيويّة، فيؤثر أحدهم أخاه بالطعام وبيت جائعًا، ويؤثره بالشراب وبيت ظامئًا، ويؤثره بالكسرة الجميلة، ويؤثره بالمكان الوطيء والمركب الليّن ونحو ذلك، من باب المحبّة التي رسخت في قلوبهم، فهم لَمَّا أحبّوا الله تعالى أحبّوا أولياءه، وأحبّوا من يحبّه، ومحبّ المحبوب محبوب.

هكذا وصفهم الله تعالى، وألّف بين قلوبهم، بالرغم مع تباعدهم في الأرحام، وتباعدهم في الأنساب، وتباعدهم في البلاد، ولكن جمعهم وصف الإيمان، وتآلفت قلوبهم ولو كانوا قبل ذلك متعادين ومتقاتلين ومتناحرين. فهم قبل الإسلام كان بعضهم ينهب بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم

بعضًا؛ لأنه لم يوجد إيمان يؤلّف بينهم، ويجمع بين قلوبهم، فلمّا منّ الله عليهم بهذا الإيمان تآلفوا وتآخوا وتقاربوا، وهذا من الله تعالى لا من خلقه، ولهذا امتنّ على رسوله ﷺ بجمعهم عليه، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٢، ٦٣]، فتأليف القلوب هو اجتماعها وتحابُّها وتوادّها، ولو كانوا متباينة أنسابهم، فبعضهم من الحبشة كبلال، وبعضهم من الروم كصهيب، وبعضهم من الفرس كسلمان، وبعضهم من العرب، وبعضهم من العجم، ولكن جمعهم الوصف الوحيد الذي هو الإيمان بالله تعالى. فلنا بهم قدوةٌ، وكذلك كلّ المسلمين في كلّ زمان وفي كلّ مكان، يتآلفون فيما بينهم ويتوادُّون ويتحابّون.

وكذلك أيضًا من آثار التوادّ لأجل الإيمان: البغض لأجل الكفر والنفاق؛ لأن الكفر والإيمان ضدّان لا يجتمعان، فلا يجتمع أنّك تحبّ الله وتحبّ أعداءه، فإذا أحببت الله أحببت أولياءه، وأحببت طاعته وأحببت أهل طاعته، وإذا أحببت أولياءه فلا بدّ أن تبغض أعداءه، ولا بدّ أن تبغض من يبغضهم الله، وتقاطعهم وتعاديهم وتبتعد عنهم كلّ الابتعاد؛ وذلك لأنّ ربّك الذي أنعم عليك يبغضهم، وأنت تبغضهم لأجل ذلك، ومبغض المحبوب مبغوض، والذين يبغضهم محبوبك لا بدّ وأن تبغضهم، وهذا ما جرى للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن بعدهم، فإن الله تعالى مدحهم فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢]، لا تجدهم يوادّون أهل المحادّة،

ولا تجدهم إلا يباعدونهم ويبغضونهم، لا تجد المؤمنين حقًا يوادّون أهل المعصية، وأهل المحادّة أبدًا، بل لا تجدهم إلا وقد قاطعوهم، وباينوهم، وخالفوهم، وأبغضوهم، واحتقروهم وحقّروا شأنهم، وكرهوا مجالستهم ومؤانستهم، وقطعوا الصلة بهم ونفروا منهم ونفَّروا منهم وحقّروا شأنهم، وأذلوهم، وأهانوهم وحرصوا على إهانتهم بكلّ ما يستطيعون، وإذا استطاعوا أن يقاتلوهم قاتلوهم، ولو كانوا أقرب قريب آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. ضرب الله مثلًا بهؤلاء الذين هم أقرب الأقارب، الآباء والأبناء هم أقرب الأقارب، فإذا كان الله يبغضهم لمعصيتهم ولأجل خروجهم عن الاستقامة، فإن المؤمن يبغضهم، يحبّهم من أجل النسب، ولكن يبغضهم لأجل المعصية، يبغضهم لأجل الخروج عن طاعة الله، هكذا يكون أولياء الله، يبغضون من أبغضه الله تعالى، ولو كانوا أقارب، ويحبّون من يحبّه الله تعالى ولو كانوا أباعد.

كذلك مرّ بنا مسألة فرعيّة، وذكرنا أنّها أدخلت في الأصول؛ لأجل أنّ الخلاف فيها مع المخالفين في الأصول، وهي مسألة المسح على الخفين، وذلك لأنّ الرافضة أنكروا المسح على الخفين وصاروا مع ذلك يمسحون على القدمين المكشوفين، فتركوا سنّة وارتكبوا بدعة، ولما كانوا مخالفين في العقيدة مخالفين في محبة الصحابة، بل يبغضونهم، كذلك يغلون في بعض الصحابة ويعبدونهم، ونحن نخالفهم في هذا المعتقد الذي هو بغض الصحابة وردّ السنّة والطعن في الكتاب والسنّة ونحو ذلك، وكانوا أيضًا مخالفين لنا في هذه السنّة التي هي المسح على الخفين، فكانوا لا يرون ذلك ولا يعتقدونه، وأضافوا إلى ذلك بدعة أخرى

وهي أنّهم يمسحون على القدمين المكشوفين؛ لأنّهم لا يقبلون السنّة، ولا يعملون بالأحاديث الصحيحة التي في صحيحي البخاري ومسلم، بل ولا يعترفون بها، ولا يعترفون بأكثر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبأكثر الأسانيد التي وردت في الكتب، فلمّا كان كذلك لم يقبلوا هذه السنّة، مع أنّها سنّة مأثورة متواترة نقلها جمّ غفير من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن النبي ﷺ، ورواها عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الجمّ الغفير أيضًا، واشتهرت في عهد التابعين وتابعي التابعين، وعمل بها أهل السنّة في مختلف البلاد وعلى اختلاف الطبقات، وانفردت الرافضة بأن أنكرت هذه السنّة مع شهرتها.

فلأجل ذلك صار الذين ينكرونها محلّ سوء ظنّ، كما ذكرنا عن ابن المبارك قوله: «إنّ الرجل ليسألني عن حكم المسح على الخفين فأُسيء به الظنّ». يعني: يتّهم بأنه من الرافضة، وهذا هو المعمول به، أنه لا ينكرها إلا هؤلاء الرافضة فلا التفات لهم، وأما أحكام المسح على الخفين فمذكورة في كتب الأحكام.

قال الطحاوي:

والحَجُّ والجِهادُ مَاضِيانِ مَعَ أُولِي الأَمْرِ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، بَرُّهُمْ وفاجِرُهُمْ إِلى قِيامِ السَّاعةِ، لاَ يُبْطِلُهُما شَيْءٌ ولاَ يَنْقُضُهُما.

---

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رحمه الله - إلى الرَّدِّ على الرَّافِضَة، حَيْثُ قَالُوا: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ الله حتى يَخْرُجَ الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: اتَّبِعُوهُ!! وَبُطْلَانُ هَذَا الْقَوْلِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ عليه بِدَلِيلٍ. وَهُمْ شَرَطُوا فِي الْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، اشْتِرَاطًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ! بَلْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1] عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِي، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة، أَلَا مَنْ وَلِيَ عليه وَالٍ فَرَآه يأتي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ الله فَلْيَكْرَه مَا يأتي مِنْ مَعْصِيَةِ الله، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِه».

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ نَظَائِرِ هَذَا الحَدِيثِ فِي الْإِمَامَة. وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ الْإِمَامَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا. وَالرَّافِضَة أَخْسَرُ النَّاسِ صَفْقَةً فِي هذه المسألة؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْإِمَامَ المَعْصُومَ هُوَ الْإِمَامَ المَعْدُومَ، الذي لَمْ يَنْفَعْهُمْ فِي دِينٍ وَلَا دُنْيَا!! فَإِنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ

---

(١) برقم (١٨٥٥).

الْإِمَامَ الْمُنْتَظَرَ، مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِي، الذي دَخَلَ السِّرْدَابَ في زَعْمِهِمْ، سنة سِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ بِسَامَرَّا! وَقَدْ يُقِيمُونَ هُنَاكَ دَابَّة، إِمَّا بَغْلَة، وَإِمَّا فَرَسًا، لِيَرْكَبَهَا إِذَا خَرَجَ! وَيُقِيمُونَ هُنَاكَ فِي أَوْقَاتٍ عَيَّنُوا فِيهَا مَنْ يُنَادِي عليه بِالْخُرُوجِ: يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ! يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ! وَيُشْهِرُونَ السِّلَاحَ؛ وَلَا أَحَدَ هُنَاكَ يُقَاتِلُهُمْ! إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ التي يَضْحَكُ عَلَيْهِمْ مِنهَا الْعُقَلَاءُ!!

وقوله: (مَعَ أُولِي الْأَمْرِ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ)؛ لِأَنَّ الْحَجَّ وَالْجِهَادَ فَرْضَانِ يَتَعَلَّقَانِ بِالسَّفَرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ سَائِسٍ يَسُوسُ النَّاسَ فِيهِمَا، وَيُقَاوِمُ فيها الْعَدُوَّ، وَهَذَا المعنى كَمَا يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْبَرِّ يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ.

---

قال الشيخ:

يتعلّق هذا بالإمامة، وهي الولاية العامّة والولاية الخاصّة، وذلك لأنّ أهل السنّة يرون السمع والطاعة للأئمّة، وقد تقدّم الاستدلال على ذلك بمثل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وبمثل قوله ﷺ لحذيفة بن اليمان ﷺ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»(١)، وقوله ﷺ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا»(٢)، وفي حديث أبي ذر ﷺ قال: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ،

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٤٤).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

وَإِنْ كان عَبْدًا مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»[1].

وفي هذا الحديث الذي أورده الشارح: أنّه ﷺ قال: «خِيارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِيْنَ تُحِبُّوْنَهُم ويُحِبُّوْنَكُم، وتُصَلُّونَ عَلَيهِم، ويُصَلُّونَ علَيْكُم، وشِرَارُ أَئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُبْغِضونَهُمْ ويُبْغِضونَكُمْ، وتَلْعَنُونَهُم ويَلْعَنُوْنَكُم»، قالَ: قلنا: يَا رسولَ الله، أَفَلا نُنابِذُهُم عِنْدَ ذلِكَ؟ قالَ: «لاَ، ما أَقَامُوا فِيْكُم الصَّلاةَ...».

قوله: «تُصَلُّونَ عَلَيهِم، ويُصَلُّونَ علَيْكُم»، أي: تدعون لهم ويدعون لكم، «وتَلْعَنُونَهُم ويَلْعَنُوْنَكُم»، أي: تدعون عليهم ويدعون عليكم، «ما أَقَامُوا فِيْكُم الصَّلاةَ»، أي: ما داموا يقيمون الصلاة فيكم، فيبنون المساجد، ويعيّنون الأئمّة والمؤذنين، ويرفعون صوت الأذان في كلّ وقت، ويجتمع المصلّون ويقيمون الصلاة جماعة؛ لأنّ الصلاة هي شعار الإسلام وشعار المؤمنين.

فهذه الأدلّة تدلّ على وجوب السمع والطاعة للأئمّة، ولو كان فيهم شيء من النقص، ولو حصل فيهم شيء من الخلل والمعصية؛ لأنّ الاجتماع على الأئمّة مصلحة للأمّة؛ لأنّ ترك الاجتماع والتفرّق والاختلاف يكون سببًا للنهب والسلب والضرب والقتل، فيكون الضعيف نهبًا للقوي، وليس هناك من يأخذ حقّه، وتسلب الأموال، ولا يكون هناك حدود، ولا إنصاف لمظلوم إلا بهذه الولاية. فهذا هو السبب في أنّه أمر بالسمع والطاعة لولاة الأمور، بل حرص على أن يكون في كلّ طائفة أمير يرجعون إليه، فقد قال ﷺ: «إِذا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٩).

فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»[1]، فإذا كانوا ثلاثة أو أكثر وقد خرجوا في سفر فليؤمروا واحدًا منهم؛ ليرجعوا إليه ويستشيرونه ويشير عليهم، كلّ ذلك حثّ للأمّة أن يسمعوا ويطيعوا لولاة أمورهم.

وقد تقدّم شرح حقوق الأئمّة وما يجب لهم، ولكن ذكر هنا أنّ الجهاد والحج ماضيان مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا كما وردت بذلك السنّة، وكما عمل بذلك السلف الصالح، فكانوا يحجّون ويكون أمير الحجّ أحد الولاة، وقد يكون سفيهًا، وقد يكون فيه شيء من النقص، فقد يؤخّر الصلاة عن وقتها مثلًا، وقد يستمع شيئًا من اللهو، وقد يتعاطى شيئًا من الأشربة المكروهة كالنبيذ ونحوه، ولكن مصلحة جمعه لهؤلاء الحجاج، وحمايتهم عن قطّاع الطريق مصلحة كبيرة لا يستهان بها.

وقد كانوا في الأزمنة المتقدّمة من عهد الخلفاء إلى عهد قريب لابدّ أن يكون للحجّ أمير، كلّ أهل جهة يخرج بهم أمير يتأمّر عليهم، وإذا وصلوا إلى مكة تأمّر عليهم واحد يرجعون إليه، فأهل العراق يحجّون مع أمير خاصّ بهم يحميهم عن قطّاع الطريق إلى أن يصلوا إلى مكة، وكذلك أهل الشام، وأهل خراسان، وأهل البحرين، كلّ أهل جهة وإقليم يجتمعون مئات وربّما ألوفًا ويسيرون جميعًا، ولا يتفرّقون خوف قطّاع الطريق، فإذا وصل هؤلاء وهؤلاء إلى مكّة، كان الأمير واحدًا، وهو الذي يؤذّن فيهم بوقت الوقوف في عرفة، ويؤذّن فيهم بوقت

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٢).

الانصراف من عرفة، ويؤذّن فيهم بوقت رمي الجمار، وكذلك بوقت الخروج من مزدلفة، وهكذا، ويسيرون إذا سار، وينزلون إذا نزل، ويقتدون به، ويقيم لهم الأحكام، ويعلمهم المناسك.

في الأثر عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّه سُئل: متى نرمي الجمار؟ فقال: «إذا رمى إمامك»[1]، يعني: انتظر حتّى يرمي الإمام، فإذا رمى، فإنّ ذلك وقت الرمي. فدلّ على أنّهم لا يبدؤون برمي الجمار إلا إذا رمى أئمّتهم.

في هذه الأزمنة لمّا أمنت البلاد، وتقاربت الطرق وقُطع دابرُ قطاع الطريق، ونكبوا ولم يبقَ هناك من يعترض إلاّ فئة قليلة، صارت الطرق آمنة وأصبحوا يحجّون أفرادًا، وجاءت هذه الناقلات الجديدة، الحافلات والسيّارات والطائرات والبواخر ونحوها، وسهّلت للناس الطرق، وصاروا لا حاجة إلى أن يستصحبوا أميرًا أو يجتمعوا كلّهم، فهذا السبب في التساهل في أمر الولاية حتّى في المناسك، أصبحوا يعرفون المناسك، وقد حدّدت أماكنها وأوقاتها، وما أشبه ذلك، ولم يعد هناك ضرورة إلى إقامة أمير في الحج.

أمّا بالنسبة إلى الجهاد فمعلوم أنّه يحتاج أميرًا ذا حنكة ومعرفة بطرق السير، وكذلك بأوقات القتال وبمناسباته، فلأجل ذلك ما كانوا يغزون إلاّ ومعهم أمير قد عرف الطرق وعرف القتال، وقد صارت له فطنة وتجربة قويّة، فكانت كلّ سريّة أو كلّ جيش يخرج للغزو - السريّة ما دون الثلاثمئة، والجيش ما فوق ذلك

(١) أخرجه البخاري (١٧٤٦).

إلى عشرين ألفًا أو مئة ألف ـ فلا يخرجون إلا مع أمير يسير بهم، فيرفُق بضعيفهم، ويزجي متخلّفهم، وينتظر منقطعهم، هذا لمّا كان السير في ذلك الوقت على الرواحل التي يكون سيرها بطيئًا، ويحتاجون إلى أن يتأنّوا في سيرهم، فكان لا بدّ من تأمير واحد عليهم، ثمّ هو الذي يحدّد لهم وقت القتال، ويعيّن لهم الأماكن التي يقيمون فيها، ويقسّمهم أقسامًا، ويجعل منهم ميمنةً وميسرة وقلبًا، ويعجّل فيهم بالحملة على القتال عندما يأذن لهم، وينصب لهم الرايات والأعلام، لم يكن بدّ من أن يكون هذا الأمير ذا تجربة، وقد يكون الأمير فيه شيء من الخلل، أو عليه شيء من الخلاف، أو فيه نقص أو عيب، أو يفعل شيئًا من المعاصي، أو يترك شيئًا من الطاعات، ولكن لا يكون ذلك العمل الذي يعمله كفرًا؛ لقوله ﷺ: «**إِلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ من اللَّهِ فيه بُرْهَانٌ**»[1]. يعني: فلا تسمعوا ولا تطيعوا ولا تقاتلوا معه والحال هذه. فأمر بأن يقاتل مع هؤلاء ولو كانوا ذوي معصية أو خلل أو نقص. وبكلّ حال فهؤلاء الذين أُمرنا أن نجاهد معهم ونسير معهم.

في هذه الأزمنة قد يقال: تغيّرت الأحوال، ومع كلّ ذلك لا بدّ لكلّ غزو، أو لكلّ رباطٍ من رئيس يرأسهم يمتثلون إرشاداته وأوامره، يقفون إذا أوقفهم، ويرابطون، ولا يتراجع أحد منهم إلا بعدما يأذن له. فهذه الأمور لا بدّ من اعتبارها.

هذه الأزمنة يقولون إنّه تبدلت الأمور التي كانت سائدة قديمًا؛ لأنّ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١١٢).

الأسلحة تغيّرت عمّا كانت عليه، كان القتال قديمًا مواجهة بالسيف والرمح والنّبال والسهام، وجهًا لوجه، وأما الأسلحة الآن فقد يكتفى بقذفها من بعيد، كالصواريخ والقنابل وما أشبهها، ولكن لا يزال هناك حاجة إلى منفّذ وإلى أمير يُطاع في مثل هذه الأمور، هذا هو السرّ في الأمر بطاعة الولاة، وفي الأمر بالحجّ معهم وبالغزو معهم، ولو كان فيهم شيء من النّقص أو الخلل.

ثم ذكر أنّ هذا أتى به الطحاوي ردًّا على الرافضة، والرافضة من عقيدتهم أنّه لا يجاهد أحد إلا مع إمام معصوم، ولا يحجّ إلا مع إمام معصوم، ولا يزالون على هذه العقيدة إلى يومنا هذا، لدرجة أنّهم لا يصلّون خلفنا؛ لأنّهم يرون أنّ الصلاة لا تصحّ إلا خلف معصوم، أو خلف من يتمسّك بعقيدة ذلك المعصوم.

ومعلوم أنّ الرافضة اعتمدوا أنّ أئمّتهم الذين يعود نسبهم إلى أهل البيت اثنا عشر، وقد انقطعوا، أوّلهم الإمام علي ﷺ، في نظرهم أنّه هو الإمام، وأنّ له الإمامة، وأنّ خلافة أبي بكرٍ ﷺ باطلةٌ وأبو بكر ﷺ مغتصب للخلافة، وكذلك خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما، يدّعون أنّهم أخذوا ما لا يستحقّونه، ويسبّونهم ويدّعون أنّهم ظلمة، وكذلك يخوّنون الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين بايعوهم وأقرّوهم هذه المدّة، مع أنّ من بينهم عليًّا وأبناء عليّ ﷺ، فهذا معتقدهم. ثم يجعلون بعد عليّ الحسن، ثم بعد الحسن الحسين، ثم عليّ بن الحسين وهو زين العابدين، ثم بعده محمد الباقر، ثم جعفر الصادق، ثم علي الرضى إلى آخرهم، وهو محمد بن الحسن العسكري.

لَمّا أنّ الحسن العسكري لم يكن عنده أولاد، وكان عندهم أنّ الإمامة في

ذريّة عليّ، ثم في ذريّة ذريّته، كلّ واحد يخلفه ولده، فلم يكن للحسن العسكري أولاد، وتوفي، أوحى إليهم الشيطان أنه لا يمكن أن ينقطع الأمر، وأن لا يكون لهم أولاد يخلفونهم، فإذًا الثاني عشر من أئمتهم هو محمد بن الحسن العسكري، أين هو؟ دخل سرداب سامرّاء ولم يخرج، يدّعون أنّه دخل وهو طفل أو عندما ترعرع، وأنّه لا يزال في ذلك السرداب، وأنّهم ينتظرونه ليخرج من سنة مئتين وستين أو نحوها، وهم ليس لهم إمام، مع أنّهم يقولون: لا تصلح الدنيا إلا بإمام، والإمام لا بدّ أن يكون معصومًا، وأنّ الإمامة لا تخرج عن ذريّة علي، ثم ذريّة الحسين، ثم ذريّة زين العابدين، ثم ذريّة الصادق والباقر والرضا إلى الحسن، فلابدّ أن يكون له ولد يخلُفُه.

أهل العلم والمؤرخون يقولون: إنّ الحسن العسكري ليس له ولد، مات قبل أن يولد له، ولكن هؤلاء لَمّا كانت العقيدة راسخةً عندهم أنّ نسله لا ينقطع، جاءهم الشيطان، وقال: إنّ له ولدًا، ولكنّه دخل هذا السرداب، ولا بدّ له أن يخرج فانتظروه، فصاروا ينتظرونه من ألف ومئة وسبع وستين سنة، كانوا في تلك المدة في الأزمنة القديمة يُجلِسون واحدًا ينتظره ويصيح: اخرج يا مولانا، اخرج يا مولانا، ولا يجيبه أحد، وقد جعلوا عند طرف السرداب فرسًا، وجعلوا عليها سرجًا، وجعلوا مع الحرّاس الذين يحرسونها سيوفًا حتّى يحموه إذا خرج، ويدّعون أنّه سيخرج الآن ويركب الفرس، ويذهب إلى مكانهم، ويقتل أعداءهم، وينتصر لهم ممّن خالفهم، ولا يزالون إلى اليوم على هذه الطريقة يؤملون خروجَه.

في زمن الشارح كانوا يقيمون عند السرداب فرسًا، والآن لا أدري أستبدلوا

مكان السرداب سيارة أم غيرها؟ وقد ذكروا أنهم جعلوا هناك دبابًا مهيئًا لركوبه، فهم لا زالوا ينتظرونه. وهذا غاية الحمق، وغاية الضلال.

لما ذكر ابن القيم في آخر كتابه «المنار المنيف»[1] حالتهم، وأنّ الحسن العسكري هو منتظَرُهم، وأنّهم لا يزالون ينتظرونه، أنشد قول الشاعر:

مَا آنَ لِلسِّرْدَابِ أَنْ يَلِدَ الَّذِي ... كَلَّمْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ مَا آنَا
فَعَلَى عُقُولِكُمُ العَفَاءِ فَإِنَّكُمْ ... ثَلَّثْتُمُ العَنْقَاءَ وَالْغِيلَانَا

السرداب الذي تحرسونه ما آن له أن يلد الولد الذي حمّلتموه به، فلا بد للحامل أن تلد، فمتى يلد هذا السرداب هذا الولد؟ فلابدّ أنكم ممسوخو العقول. وهذا غاية السفه، وغاية الضلالة، يشترطون أن يكون للدنيا إمام معصوم، وأنّ الدنيا لا تخلو من إمام معصوم، وأنّ ذلك الإمام هو الذي يدبّر الناس، ويدبّر الأمور! إمامكم يا معشر الرافضة لم ينفعكم، فمنذ ألف ومئة وسبع وستين سنة لم تنتفعوا بهذا الإمام الذي تزعمونه.

هذه حالتهم، ولَـمّا أنّ استعلى عليهم قريبًا الخميني، الذي سمّوه آية الله الخميني، قالوا له ننتظر أن يخرج المهدي المنتظر، يعني العسكري. فيقولون: إنّه قال: نحن نخلفه حتّى يخرج، خدعهم بذلك، وادّعوا أنّه خليفة عن المهدي المنتظر، الذي هو محمد بن الحسن العسكري؛ ولذلك صاروا يطيعونه، ويقدّسونه تقديسًا يخرج عن المعتاد، كما ذكر لنا من صحبهم أنّه عندهم كأنّه رسول، بل قد

---

(١) (ص١٥٢).

يشرّع لهم، ويأمرهم بأوامر لا يأمر بها إلا الرسل، أو من يتلقّى عن الرسل، يطيعونه بذلك؛ لأنّه عندهم خليفة المهدي المنتظر.

وبكلّ حال فقد خالفوا في هذا الأمر، وهو أنّهم لا يطيعون الأئمّة في كلّ زمان، لا يثبتون خلف أئمّة الزمان، بل كثيرًا ما يخرجون عن الطاعة وينبذونها ويقاتلون الأئمة والخلفاء، ويفعلون ذلك كثيرًا، إلى أن جاء الوقت الذي تفرّقت فيه الولايات، واستقلّت كلّ دولة في جهتها، فصار كلّ من تولى بلدًا سمّوه رئيسًا وزعيمًا وصار يتولّى فيمن تولّى عليه من رافضة أو غيرهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ونُؤْمِنُ بِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ، فإِنَّ الله قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَينَا حَافِظِيْنَ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧، ١٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:٢١].

وفي «الصَّحِيحِ» عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَة بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَة بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صلاة الصُّبْحِ وَصَلَاة الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إليه الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ والله أَعْلَمُ بِهِمْ ـ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[1]. وفي الحَدِيثِ الْآخَرِ: «إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الخَلَاءِ وَعِنْدَ الْجِمَاعِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ، وَأَكْرِمُوهُمْ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) بنحوه، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديث غريب». وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٤٦) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ: اثْنَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ، يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ، صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِهِ، وَوَاحِدٌ أَمَامَهُ، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلَاكٍ بِالنَّهَارِ، وَأَرْبَعَةٍ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ، بَدَلًا، حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، قَالَ: مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ اللهِ خَلَّوْا عَنْهُ[1].

---

قال الشيخ:

نؤمن بالكرام الكاتبين وبالملائكة الحافظين، نؤمن بهم كما أمرنا الله، وإن كنّا لا نراهم، ولكنّ الإيمان بهم من أمر الغيب، وذلك لأنّ الله تعالى أخبر عن أشياء غيبيّة، فنحن نقبل بها ونصدّقها، ويكون لتصديقنا آثار.

أخبرنا عن هؤلاء المخلوقين، فإن الملائكة مخلوقون وإن كنّا لا نراهم، يكون أحدهم خلفنا أو أمامنا أو عن جانبينا ولا نراه، كما أخبرنا أيضًا بأنّ الشياطين يكونون معنا ولا نراهم، بل أخبر بأنّ الشيطان يلابس الإنسان، ويجري منه مجرى الدم، ويوسوس في صدور الناس، ومع ذلك لا نحسّ بهم ولا نراهم، فالإيمان بهم من الإيمان بالغيب الذي مدح الله أهله بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٣٩).

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢، ٣]؛ لأنّه إيمان بشيء خفيٍّ، ولكن العمدة فيه خبر الله تعالى، وخبر الله صدق وحقّ، وكذلك خبر الرسل المصدّقين، نؤمن بما جاؤوا به ونتقبّله، وإن كان ذلك خلاف ما نألفه ونعرفه، وخلاف ما يقوله من يقوله، وينكره من ينكره، فلا نلتفت إلى إنكار من أنكر؛ لأن الذين أنكروا وجود الشياطين أو وجود الأرواح أو أنكروا الملائكة، أو أنكروا وجود الجنّ أو نحو ذلك لم يتّسع فهمهم للأمور الغيبية، ولا للأمور السماويّة، ولا للقدرة الإلهية، فلأجل ذلك لم يتجاوزوا ما يدركون بالحسّ، فهؤلاء إيمانهم ناقص.

الحاصل: أن الكلام على الملائكة، الكرام الكاتبين ذكره الله تعالى في كتابه الكريم، مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، حافظين: يحفظونكم، وكاتبين: يكتبون أعمالكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧، ١٨]، هذان الرقيب والعتيد، هما الملكان اللذان يكتبان الحسنات والسيّئات، الذي على اليمين يكتب الحسنات، والذي على الشمال يكتب السيّئات، وذكروا أنّ الذي على اليمين أمير على الذي على الشّمال، إذا عمل سيّئة قال له: لا تكتبها رجاء أن يتوب ويستغفر، فإذا استمرّ عليها كُتبت سيئة، وإذا عمل الحسنة كتبها صاحب اليمين عشر حسنات كما ورد في الحديث وفي القرآن.

هؤلاء هم الحفظة للأعمال، وللأقوال ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾، أيّة لفظة يتلفّظ بها إلاّ وتكتب وتسجّل في سجلّ هؤلاء الملائكة، كتابة الله أعلم بها، قد تكون بالأحرف، أو غير ذلك، لهم قدرة على الكتابة وإن كانت ما كانت، وكذلك يكتبون كلّ الأعمال، ولذلك وصفهم بقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، يعلمون كلّ ما تفعلونه، أو كلّ ما يدور في بال أحدكم، فإنّه مكتوب، ويطلعهم الله على أعمال القلوب، أعمال القلوب التي تكنّها القلوب، يثاب عليه العبد أو يعاقب، فيثاب على النصيحة، ويعاقب على الحسد والغلّ والغشّ، ويثاب على الإيمان الذي هو التصديق الجازم، ويعاقب على النفاق الذي هو الشكّ والرّيب، والذي هو من أعمال القلوب. فلابدّ أنّ الملائكة يعلمونها؛ لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، هؤلاء هم الكتبة، ويسمّون أيضًا حفظة الأعمال.

وهناك أيضًا الحفظةُ الذين يحفظون الإنسان من الأضرار والأخطار التي يتعرّض لها، حتّى يأتي الأمر الذي قدّره الله تعالى فيخلّون بينه وبينه، وهم المذكورون في سورة الرعد في قوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، أي: يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء الأمر الذي قدّره الله، فإنّهم يخلّون بينه وبينه، ويدفعون عنه الأمور التي لم يقدّرها الله عليه، فيدفعون عنه الشّرور، والآفات، والأضرار، ويدفعون عنه الاعتداءات التي ما كتبها الله تعالى. فهم أربعة: ملكان عن اليمين وعن الشمال يحفظون أعماله، وملكان أمامه وخلفه يحفظون جسده عمّا لم يكتب عليه، فيبيت بين أربعة، ويصبح بين أربعة،

موكّل بكلّ إنسان ثمانية أربعة بالليل وأربعة بالنهار، فهولاء هم المعقّبات الذين يتعاقبون. كما في الحديث: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[1]. هذا من حفظ الله تعالى لأعمال العباد، الله تعالى قادر أن يحفظ عباده وأعمالهم من دون وكيل ومن دون كتابة، ولكنّه أراد بذلك قيام الحجّة على العبد حتّى لا يقول إنّي ظُلِمت وإنّي ما عملت كذا وكذا، بل يجد ما عمله كلّه مدوّنًا، فينشر له سجلّ بأعمال حسناته وسيئاته، ويقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤].

وصف الله المتّقين بالإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٢، ٣]، والغيب: كلّ ما أخبر الله به من الأمور الغائبة، التي ما رآها جنس البشر، وإن كان الله قد يطلع عليها بعض عباده.

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالملائكة، الذي هو ركن من أركان الإيمان الستّة. فالإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه. والمذكور في قول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فالإيمان بالملائكة وأنهم

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٤١).

مخلوقون لله تعالى، وإن كنّا لم نرهم، وأنّهم مسخّرون في أمر الله، وأنّهم مطيعون له، وأنّ لهم وظائف، ولهم أعمال، فمن جملة الملائكة الذين نؤمن بهم الحفظة، الذين يحفظون الإنسان، ويحفظون الأعمال.

والحكمة في الإخبار عنهم: أن يؤمن الإنسان بأنّه غير مهملٍ، وبأنّ أعماله محفوظة، فإذا آمن الإنسان بهذا، فما نتيجة هذا الإيمان، وما علامة هذا الإيمان؟ لاشكّ أنّ علامة التصديق الجازم أن يكثر من الحسنات ويتحفّظ من السيئات، إذا علم أنّ سيئاته مكتوبة ومدوّنة، وأنّه لا بد أن يحاسب عليها، حرص على أن يبتعد عنها وأن يقلّل منها، وإذا علم أنّ حسناته مكتوبة وأنّها مرادة، وأنه سيلقى جزاءها في اليوم الذي هو بحاجة إلى حسنة تزيد في أعماله، حرص في هذه الحياة على أن يتزوّد من الحسنات، وأن يشغل وقته كلّه بعمل الخير الذي يكون في سجلّ حسناته.

هذه نتيجة الإيمان بالملائكة عمومًا، والإيمان بالملائكة الحفظة، ويعرف أيضًا أنّه ليس بمهملٍ، وليس بمطلق السراح، وليس له الحريّة، وليس له التصرّف في نفسه، بل هو مأمور ومنهيٌّ، ومحاسبٌ ومجزيٌّ، وهو أيضًا محفوظة أوقاته، ومحفوظة أعماله، مدوّنة حسناته وسيئاته.

نرى كثيرًا من الناس يقولون: نعم، نحن نؤمن بالغيب، ونؤمن بالملائكة، ونؤمن بالكرام الكاتبين، ونؤمن بكتّاب الحسنات والسيئات، ونعلم أننا محفوظة علينا أعمالنا، ولكن مع الأسف تجدهم متهالكين في السيئات، مقلّين من الحسنات، إذا ذكّرتهم قد ينتبهون، إذا قلت له: يا أخي، كلامك هذا الذي أكثرت

منه في هذا المجلس، فكّر هل هو في سجلّ حسناتك أو في سجلّ سيئاتك؟ عند ذلك ينتبه. إذا قلت له: كلامك هذا هل هو لك أو عليك؟ ينظر ويفكّر ويقول: صحيح أنّ أكثره عليّ لا لي، أنّ أكثره لا يزيدني بل ينقصني، وأكثره لا ينفعني بل يضرّني. إذًا لماذا تكثر من هذا الكلام الذي تعلم أنّه يضرّك، ولماذا تُكثر من الأفعال التي تضرّك ولا تنفعك؟!

يقول بعض السلف: من عرف أنّ كلامه من عمله، قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه. ويستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١٤]، نجواهم: كلامهم الذي يتكلّمون فيه، ومثل ذلك الحديث المروي: «**كُلُّ كَلَامِ بنِ آدَمَ عليه لَا له إلا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أو نهى عن مُنْكَرٍ أو ذِكْرُ اللَّهِ**»[1]. فكلّ ما ينطق به الإنسان وكل ما يتلفّظ به، فإنّ لديه رقيب وعتيد موكّلان به، فليحاسب نفسه عند الكلام قبل أن ينطق به، وكذلك عند الأفعال قبل أن يفعلها، وينظر فيما ينفعه أو فيما يضرّه. والذي لا ينتبه ناقص العقل أو ناقص المعرفة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص٨، ٩)، وابن ماجه (٣٩٧٤)، وعبد بن حميد (١/ ٤٤٨)، وأبو يعلى (١٣/ ٥٦)، والحاكم (٢/ ٥١٢) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

قال الشارح:

وروى مُسْلِمٌ[١] وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ[٢] عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ به قَرِينُه مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِينُه مِنَ الْمَلَائِكَة»، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، لَكِنَّ الله أَعَانَنِي عليه فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ».

الرِّوَايَة بِفَتْحِ الْمِيمِ مِنْ: «فَأَسْلَمَ»، وَمَنْ رواه: «فَأَسْلَمُ» بِرَفْعِ الْمِيمِ، فَقَدْ حَرَّفَ لَفْظَه. ومعنى «فَأَسْلَمَ»، أي: فَاسْتَسْلَمَ وَانْقَادَ لِي، فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ صَارَ مُؤْمِنًا فَقَدْ حَرَّفَ معناه؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا.

ومعنى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، قِيلَ: حِفْظُهُمْ له مِنْ أَمْرِ الله، أي الله أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ قِرَاءَة مَنْ قَرَأَ: ﴿يَحْفَظُونَه بِأَمْرِ اللَّهِ﴾[٣].

ثُمَّ قَدْ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الْمَذْكُورَة أَنَّ الْمَلَائِكَة تَكْتُبُ الْقَوْلَ وَالْفِعْلَ، وَكَذَلِكَ النِّيَّة؛ لِأَنَّهَا فِعْلُ الْقَلْبِ، فَدَخَلَتْ فِي عُمُومِ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٢]. وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قوله ﷺ: «قَالَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَة فَلَا تَكْتُبُوهَا عليه، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عليه سَيِّئَة، وَإِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا له حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا». وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَة: ذَاكَ

---

(١) برقم (٢٨١٤).

(٢) في المسند (١/ ٣٨٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١١٨).

عَبْدُ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَة، وَهُوَ أَبْصَرُ به، فَقَالَ: ارْقُبُوه، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا له حَسَنَة، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائي»، خَرَّجَاهُمَا في الصَّحِيحَيْنِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ[1].

---

قال الشيخ:

الحديث الذي بدأ به الشارح في بيان أنّ الإنسان موكَّلٌ به ملائكةٌ يأمرونه بالخير، وهناك شياطين يأمرونه بالشرّ، ويسمّى هذا قرينًا وهذا قرينًا، الجنّي الذي هو الشيطان قرين سوء، والملك قرين خير، وقد ورد في الحديث: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ»[2].

الشيطان من أهل النار، ومن المعذّبين بها؛ لأنّه خُلق من النار، فأقدم على العذاب وأقدم على اللعنة، وأقسم أن يغوي جنس الإنسان، وأن يحرص على أن يخرجه من الإيمان، أقسم بذلك، وقال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

---

(١) أخرج الرواية الأولى: البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وانفرد مسلم بالرواية الثانية (١٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٨٥)، وأبو يعلى (٨/ ٤١٧)، وابن حبان (٣/ ٢٧٨)، والطبراني في الكبير (٨٥٣٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]. وتوعد الله تعالى من اتبع الشيطان بقوله: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء:١١٩، ١٢٠]، هذا الشيطان عدوٌّ للإنسان، ليس من جنس بني آدم أحدٌ إلا وقد سُلِّط عليه شيطان ووكِّل به ملك، فالملك يأمره بالخير، والشيطان يأمره بالشرّ.

وقد سأل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ النبيّ ﷺ: هل سُلّط عليك شيطان ووكّل بك ملك؟ قال: «نعم». لكن الشيطان الذي وكِّل بالنبيّ ﷺ أعانه الله عليه، فيقول ﷺ: «لَكِنَّ الله أَعَانَنِي عليه فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ». وليس معناه أنّه أصبح مسلمًا، بل المراد أنّه أذعن واستسلم، ولم يعد يأمر إلا بالخير؛ لأنّ الله تعالى عصم نبيّه ﷺ عن أن يتسلّط عليه الشيطان، فأعانه عليه، كما أنّ الله تعالى سخّر الشياطين لسليمان ـ عليه السلام ـ وذلّلهم له، وصاروا يعملون عنده، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص:٣٧، ٣٨]. وأمّا نبيُّنا ﷺ فذلّل الله له شيطانه، فلم يعد يأمره إلا بخير.

أمّا جنس بني آدم، فإنّ كلّ إنسان لا بدّ أن يتسلّط عليه هذا الشيطان ويوسوس له، فإذا رزقه الله قوّة الإيمان ورزقه قوّة اليقين، فإنّ تلك الوساوس التي يوسوس بها الشيطان لا تبقى في قلبه، ولا يصدّق بها، بل ينكرها، ويدفعها، هذا حقيقة المؤمن الصحيح الإيمان، ثمّ يعوّضه الله أنّ الملك الذي هو قرينه يثبّته وينشّطه ويذكّره ويدعوه إلى الخير، ويحثّه عليه، فيقوى الجانب الإيماني فإذا قوي

عزم على ترك الأعمال السيّئة، وعمل الأعمال الصالحة. فهذا هو المؤمن.

أما ضعيف الإيمان، فإنّ الشيطان هو الذي يتقوّى عليه، وتتمكّن وسوسته من قلبه، وتصدّه عن الهدى وتُوقِعُه في الردى، ولا ينفعه نصح الناصحين، ولا ينيب إلى لَمَّة الملك ولا يلتفت إليها، فيبقى بعد ذلك بعيدًا عن الخير، مقبلًا على الشر.

وهكذا أصناف الخلق؛ فإمّا إيمانه ضعيف فيقوى عليه قرين السوء وهو الشيطان، وإمّا إيمانه قوي فيقوى عليه قرين الخير وهو الملك، والقوة والضعف ليست القوة البدنيّة، ولكنّها القوّة الإيمانيّة، كون الإيمان راسخًا في القلب، إذا جاءته وساوس الشيطان اضمحلّت، وإذا جاءته تثبيتات الملك تمكّنت وقويت، وهذا هو السبب في انقسام الناس إلى من يكون عدوًّا لله، ومن يكون وليًّا لله، من يكون وليًّا للشيطان ومن يكون وليًّا للرحمن، فأولياء الرحمن هم الذين أطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسله، وصارت الملائكة الذين معهم يرسلونهم إلى الخير فيتّبعونهم، وأولياء الشيطان هم الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله. فهذا معنى كون الإنسان معه مَلَكٌ ومعه شيطان.

فيكون الإنسان معه ملائكة يدعونه إلى الخير ويحثّونه عليه، وملائكة يحفظونه، وملائكة يكتبون أعماله. الملائكة الذين يحفظونه هم الذين يقول الله فيهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]؛ وفسّرها بعض المفسّرين بقوله: يحفظونه امتثالًا لأمر الله تعالى، فإذا جاء القدر

خلَّوا بينه وبينه.

ثمّ هؤلاء الملائكة الذين هم الحَفَظَة يكتبون الحسنات والسيّئات، ومرّ معنا الحديث المشهور في «الصحيحين»[١]، حيث أخبر النبيّ ﷺ أنّ فضل الله أوسع على عباده، فالذي يهمّ بحسنة ولا يعملها يكتبها الله حسنة، والذي يهمّ بها ويعملها يكتبها عشرًا، والذي يهمّ بسيئة ولا يعملها يكتبها الله حسنة، والذي يهمّ بسيئة ويعملها يكتبها الله سيئة من دون مضاعفة، وإذا رزقه الله توبة منها مُحِيت عنه بتوبته، وإذا أصرّ عليها وعمل سيئة إلى جانب سيّئات أخرى تكاثرت عليه وتراكمت عليه وأصبح مثقلًا بالسيّئات، ولكن قد أخبر الله تعالى بأنّه يمحوها بالتوبة ويمحوها بالحسنات، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. وقال النبيّ ﷺ: «وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها»[٢]، يعني: متى وقعت في سيّئة، فأتبعها حسنة، إما حسنة العمل الصالح، وإمّا التوبة، وإما غير ذلك.

وقد تكلّم العلماء على هذا الحد . ث، وبيّنوا المراد منه، وأطالوا الكلام في ذلك، وملخّص ما ذكروا: أنّ الذي يهمّ بحسنة، ثم يتركها عجزًا أو تعبًا أو نحو ذلك يكتبها الله حسنة وإن لم يعملها، همّ مثلًا أنْ يتصدّق على مسكين، ولكن لم يجد في ذلك الوقت شيئًا وفاتت حاجته، يكتبها الله له حسنة. وإذا همّ مثلًا أن يقوم في آخر الليل للصلاة، ولكن غلبه النومُ، أو الكسل أو التعب، ولم يتيسّر له،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٠٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٢).

يكتب الله له كأنّه قام، يكتب له ذلك حسنة، فإذا يسّر الله له أن يتصدّق، أو يصلّي، أو يصوم، أو ذكر الله أو قرأ القرآن، فإنّ الحسنة بعشر أمثالها، ويكتب الدرهم بعشرة دراهم، يكتب الركعة بعشر ركعات، وقد تضاعف أضعافًا أخرى في أوقات أخرى.

أما بالنسبة إلى السيّئات، فإذا همّ بسيِّئة، ولكن تذكّر أنّها سيّئة، وتذكّر عقوبتها وإثمها، وتذكّر آثارها على قلبه، وآثارها على سيرته، وآثارها في دنياه وآخرته، من جراء الله، يقول في الحديث: «إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي»[1]، فهذا تكتب له حسنة، رغم أنه ما عمل حسنة، ولا عمل سيّئة، ولكنّه همّ بها، ثم تذكّر مخافة الله فتركها، يكتب على التّرك حسنة، يقول تعالى: «إنّما تركها من جرّائي»، أمّا إذا غلبته نفسه، وعمل تلك السيّئة، كتبت له سيّئة، والسيّئات تتكاثر، سيّئات النّظر، وسيّئات السّمع، وسيّئات الكلام، وسيئات الأكل والشرب، وسيّئات المكاسب، لا شكّ أنّها أيضًا تتكاثر عليه، وإذا عملها كتبها الله بمثلها حتّى يتوب عنها.

أمّا إذا تركها عجزًا، فإنّه يأثم ويكون على نيّته، فمثلًا همّ بزنى وبذل كل الأسباب، وقصد المكان، وحاول فتح الأبواب، وحاول صعود السلالم أو الحيطان، فلم يجد منفذًا، أو عثر عليه الحرس فقبضوا عليه وحبسوه، فمثل هذا يجازى على فعله؛ لأنّه ما تركها خوفًا من الله، ولكن تركها عجزًا. وكذلك إذا همّ بسرقة، ولكنه ما قدر، حاول أن يكسر الأبواب ويفتح الأقفال، ولكنّه لم يستطع،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٠٤).

فهذا يكتب عليه سيّئة، وكذلك لو همّ بحسنة ولكن دعته نفسه إلى تركها تهاونًا ليس عجزًا، فمثل هذا لا يثاب، وفي بعض الروايات لا تكتب عليه شيئًا. فالحديث هذا مخصوص بما إذا ترك السيّئة خوفًا من الله، أو ترك الحسنة عجزًا عنها، أو لعدم توفّر أسبابها، وإلا فقد يجازى بما نوى.

وقد ورد في الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنما الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فيه رَبَّهُ، وَيَصِلُ فيه رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله فيه حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا ولم يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يقول: لو أَنَّ لي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بنيته، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا ولم يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ في مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فيه رَبَّهُ، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَهُ، ولا يَعْلَمُ لله فيه حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لم يَرْزُقْهُ الله مَالًا ولا عِلْمًا، فَهُوَ يقول: لو أَنَّ لي مَالًا لَعَمِلْتُ فيه بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بنيته، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[1].

الأول: رجل آتته الله مالًا وعلمًا دينيًا، وعمل في ماله بعلمه، فيصل الأرحام، ويتصدّق بماله، وينفق في الجهاد، وينفق في وجوه الخير، ويبني المساجد والمدارس وينشر العلم، يعمل بعلمه في ماله، فهذا بأفضل المنازل: يعني أرقاها، نفعه علمه بتصريف ماله.

الثاني: رجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا، فهو يقول: لو أنّ لي مثل مال فلان

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٠)، والطبراني في الكبير (٨٦٨) من حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ.

لعملت فيه مثل عمله، أعطاه الله العلم، فهو يتمنّى أن يكون له مال حتّى يتصدّق ويصل الأرحام، وينشر العلم، وينفق على أبناء السبيل ويجهّز الغزاة وينفق في وجوه البر. يقول: فهو بنيّته وقصده، وهما في الأجر سواء.

الثالث: رجل آتاه الله مالًا، ولم يؤته علمًا، حرمه من العلم، ورزقه الأموال، فهو ينفقها في المعاصي، فينفقها في قطيعة الرحم، والملاهي، والقتل والزنى، والغناء؛ لأنه لا علم عنده بمآل هذا المال، ولا كيف يكسب فيه الأجر. هذا بأخبث المنازل.

الرابع: رجل حرمه الله، لم يؤته مالًا، ولم يؤته علمًا، ولكن يتمنّى أن يكون له مال مثل ذلك الجاهل، ويقول: لو كان لي مال لعملت فيه مثل ذلك الجاهل، يعني لقطعت الطريق، ولسافرت إلى المعاصي، ولصرفت في الأغاني وفي آلات اللهو؛ لأنه ما عنده علم. فيقوله ﷺ: فهو بنيّته وقصده، وهما في الوزر سواء.

فأخذنا من هذا أنّ من نوى الشرّ ولو لم يعمله، فإنّه يجازى على نيّته، وليس كلّ من نوى الشرّ وتركه يثاب، وإنّما يثاب إذا تركه لله وخوفًا من الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ونُؤْمِنُ بِمَلَكِ المَوْتِ، المُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْواحِ العالَمِين.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١]. وَلَا تُعَارِضُ هَذِهِ الآيَةُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وَقَولَهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢]؛ لِأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَتَوَلَّى قَبْضَهَا وَاسْتِخْرَاجَهَا، ثُمَّ يَأْخُذُهَا منه مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَوْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، وَيَتَوَلَّوْنَهَا بعده، كُلُّ ذَلِكَ بِإِذْنِ الله وَقَضَائِه وَقَدَرِه، وَحُكْمِه وَأَمْرِه، فَصَحَّتْ إِضَافَةُ التَّوَفِّي إلى كُلٍّ بِحَسَبِه.

---

قال الشيخ:

الإيمان بملك الموت من عقيدة أهل السنّة، وهو داخل في الإيمان بالملائكة، الإيمان بملك الموت، الذي وكّله الله تعالى بقبض الأرواح، ذكره الله تعالى في سورة السجدة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وورد في الأحاديث أنّه هو الموكّل بقبض الأرواح، وهو ملك واحد.

وقد تقول: كيف يقبض مَلَك واحد أرواح العالم في شرق الأرض وفي

غربها؟ نقول: لا ينافي ذلك قدرة الله تعالى الذي أقدره عليها، ويمكن أن يكون ملك الموت معه أعوانٌ يقبضون تلك الأرواح.

ونقول: الإنسان مُركّبٌ من جسد، وهو اللحم والجلد والعظم وغيره، ومن روح وهي التي تسري في هذا الجسد حتّى يعيش ويتحرّك، فما دامت الروح في الجسد، فإنه قابل للحركة، فإذا خرجت من الجسد، أصبح ميتًا جثة لا حياة به، فهذه الروح هي التي تُقبض عند الموت.

وقد أخبر النبي ﷺ كما في حديث البراء بن عازب ﷺ[1] أنّ الروح هي التي تخرج، وأنّه يخاطبها، وأنّها تنزع من جسده أو تنشط منه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:٢]. يقال النازعات التي تنزع أرواح الكافرين نزعًا شديدًا، والناشطات التي تنشط أرواح المؤمنين برفق.

وبكلّ حال؛ فالملائكة يقبضون أرواح المؤمنين ويصعدون بها إلى الله تعالى، أمّا أرواح الكفّار، فإنّه لا تفتّح لهم أبواب السّماء، بل تذهب أرواحُهم إلى حيث شاء الله. وقد تكلّم العلماء على حقيقة الروح وأطالوا فيها، وقد يأتي بعض الكلام على حقيقة الروح، والحاصل أنّنا نؤمن بالآيات الواردة في ذلك، مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١]، تأكّدنا أنّ هناك رسلًا يتوفّونه، وأخبر في آية أخرى أنّ ملك الموت واحد: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾[السجدة:١١].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧).

وإذا قيل: إنّه ملك واحد، فيمكن أن يكون اسم الموت الذي هو خروج الروح من الجسد هو الذي ورد في الأحاديث أنّه يفنى يوم القيامة أو يذبح[1].

فالذي يفنى ويذبح هو حقيقة الموت، وهو خروج الروح من الجسد. فنحن نشاهد الأموات عندما تخرج أرواحهم، ولا نشاهد الملائكة الذين يقبضون الروح غالبًا، ولكنّنا نؤمن بذلك، نؤمن بأنّ الملائكة يحضرون وإن كنّا لا نراهم، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥]، يعني: الملائكة أقرب إليه منكم، ولكنكم لا تبصرونهم، ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٦، ٨٧]؛ إذا كنتم تزعمون أنّكم غير مبعوثين، فردّوا هذه الرّوح إلى هذا الجسد الذي مات.

كما أخبر الله تعالى أيضًا بأنّ الملائكة يحضرون عند الميّت، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، يُخاطبونَ أَرواحَ الكفّار عند إخراجها.

فإذًا من عقيدة أهل السنّة أنّهم يؤمنون بملك الموت، وبأعوان ملك الموت الذين يقبضون الأرواح، وبأنّ الروح التي تخرج هي التي يقبضها الملك أو الملائكة، وهي التي تبقى بعد الموت، وأمّا الجسد فإنّه يفنى وأمّا الروح التي تخرج

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، المتقدم تخريجه (١/ ٤٣٢).

فهي التي تعذّب في البرزخ أو تنعّم، فإذا آمن الإنسان بذلك لم يستغرب عذاب القبر الذي ورد في الأحاديث، وما ورد أنّ النبي ﷺ أخبر أنّ في القبر عذابًا ونعيمًا، مع أنّنا نشاهد الأموات يفنون، وتأكلهم الأرض ولكن مع ذلك أرواحهم باقية، وهي التي تتألّم وتتعذّب، كما أنّها هي التي تقبض، وهي التي تجعل في أكفان من الجنّة، أو أكفان من النار على حسب ما ورد في السنّة، فبهذا يؤمن كلّ مسلم اعتمادًا على النّصوص، ولا منافاة بين الآيات؛ فالملك واحد ومعه أعوان هو يقبض وهم يقبضون، ويجعلون الأرواح في أكفان، ويصعدون بها.

قال الشارح:

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي حَقِيقَةِ النَّفْسِ مَا هي؟ وَهَلْ هي جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ؟ أَوْ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِه؟ أَوْ جِسْمٌ مُسَاكِنٌ له مُودَعٌ فيه؟ أَوْ جَوْهَرٌ مُجَرَّدٌ؟ وَهَلْ هي الرُّوحُ أَوْ غَيْرُهَا؟ وَهَلِ الْأَمَّارَة، وَاللَّوَّامَة، وَالْمُطْمَئِنَّة نَفْسٌ وَاحِدَة، أَمْ هي ثَلَاثَة أَنْفُسٍ؟ وَهَلْ تَمُوتُ الرُّوحُ، أَوِ الْمَوْتُ لِلْبَدَنِ وَحْدَه؟ وهذه المسألة تَحْتَمِلُ مُجَلَّدًا، وَلَكِنْ أُشِيرُ إلى الْكَلَامِ عَلَيْهَا مُخْتَصَرًا، إِنْ شَاءَ الله تعالى:

فَقِيلَ: الرُّوحُ قَدِيمَة، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الرُّسُلُ على أَنَّهَا مُحْدَثَة مَخْلُوقَة مَصْنُوعَة مَرْبُوبَة مُدَبَّرَة، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِهِمْ، أَنَّ الْعَالَمَ مُحْدَثٌ، وَمَضَى على هَذَا الصَّحَابَة وَالتَّابِعُونَ، حتى نَبَغَتْ نَابِغَة مِمَّنْ قَصُرَ فَهْمُه في الْكِتَابِ والسنة، فَزَعَمَ أَنَّهَا قَدِيمَة، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهَا مِنْ أَمْرِ الله، وَأَمْرُه غَيْرُ مَخْلُوقٍ! وَبِأَنَّ الله أَضَافَهَا إليه بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥]، وَبِقَوْلِه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]، كَمَا أَضَافَ إليه عِلْمَه وَقُدْرَتَه وَسَمْعَه وَبَصَرَه وَيَدَه. وَتَوَقَّفَ آخَرُونَ.

وَاتَّفَقَ أَهْلُ السنة وَالْجَمَاعَة أَنَّهَا مَخْلُوقَة، وَمِمَّنْ نَقَلَ الْإِجْمَاعَ على ذَلِكَ: مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ الْمَرْوَزِي، وَابْنُ قُتَيْبَة وَغَيْرُهُمَا.

وَمِنَ الْأَدِلَّة على أَنَّ الرُّوحَ مَخْلُوقَة، قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، فَهَذَا عَامٌّ لَا تَخْصِيصَ فيه بِوَجْه مَا، وَلَا يَدْخُلُ في ذَلِكَ صِفَاتُ الله تعالى، فَإِنَّهَا دَاخِلَةٌ في مسمى اسْمِه، فالله تعالى هُوَ الْإِلَه الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَعِلْمُه وَقُدْرَتُه وَحَيَاتُه وَسَمْعُه وَبَصَرُه وَجَمِيعُ صِفَاتِه دَاخِلٌ في مسمى اسْمِه، فَهُوَ

سبحانه بِذَاتِه وَصِفَاتِه الخَالِقُ، وَمَا سِوَاه مَخْلُوقٌ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ الرُّوحَ لَيْسَت هي الله، وَلَا صِفَة مِنْ صِفَاتِه، وَإِنَّمَا هي مِنْ مَصْنُوعَاتِه. وَمِنْهَا قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وقوله تعالى لِزَكَرِيَّا ـ عليه السلام ـ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]. وَالْإِنْسَانُ اسْمٌ لِرُوحِه وَجَسَدِه، وَالْخِطَابُ لِزَكَرِيَّا ـ عليه السلام ـ لِرُوحِه وَبَدَنِه، وَالرُّوحُ تُوصَفُ بِالْوَفَاة وَالْقَبْضِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، وَهَذَا شَأْنُ المَخْلُوقِ المُحْدَثِ.

وَأَمَّا احْتِجَاجُهُمْ بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]، فَلَيْسَ المُرَادُ هُنَا بِالْأَمْرِ الطَّلَبَ، بَلِ المُرَادُ به المَأْمُورُ، وَالمَصْدَرُ يُذْكَرُ وَيُرَادُ به اسْمُ المَفْعُولِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِإِضَافَتِهَا إليه بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ المُضَافَ إلى الله تعالى نَوْعَانِ:

صِفَاتٌ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَة وَالْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، فهذه إِضَافَة صِفَة إلى المَوْصُوفِ بِهَا، فَعِلْمُه وَكَلَامُه وَقُدْرَتُه وَحَيَاتُه صِفَاتٌ له، وَكَذَا وَجْهُه وَيَدُه سبحانه.

والثاني: إِضَافَة أَعْيَانٍ مُنْفَصِلَة عنه، كَالْبَيْتِ وَالنَّاقَة وَالْعَبْدِ وَالرَّسُولِ وَالرُّوحِ، فهذه إِضَافَة مَخْلُوقٍ إلى خَالِقِه، لَكِنَّهَا إِضَافَة تَقْتَضِي تَخْصِيصًا وَتَشْرِيفًا، يَتَمَيَّزُ بِهَا المُضَافُ عَنْ غيره.

وَاخْتُلِفَ فِي الرُّوحِ: هَلْ هي مَخْلُوقَة قَبْلَ الجَسَدِ أَمْ بعده؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ

الْمِيثَاقِ الْإِشَارَة إلى ذَلِكَ.

وَاخْتُلِفَ فِي الرُّوحِ: مَا هي؟ قِيلَ: هي جِسْمٌ، وَقِيلَ: عَرَضٌ، وَقِيلَ: لَا نَدْرِي مَا الرُّوحُ، أَجَوْهَرٌ أَمْ عَرَضٌ؟ وَقِيلَ: لَيْسَ الرُّوحُ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنَ اعْتِدَالِ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ، وَقِيلَ: هي الدَّمُ الصَّافِي الخَالِصُ مِنَ الْكَدَرِة وَالْعُفُونَاتِ، وَقِيلَ: هي الحَرَارَة الْغَرِيزِيَّة، وهي الحَيَاة، وَقِيلَ: هُوَ جَوْهَرٌ بَسِيطٌ مُنْبَعِثٌ في الْعَالَمِ كله مِنَ الحَيَوَانِ، على جِهَة الْإِعْمَالِ له وَالتَّدْبِيرِ، وهي على مَا وُصِفَتْ مِنْ الِانْبِسَاطِ في الْعَالَمِ غَيْرُ مُنْقَسِمَة الذَّاتِ وَالْبِنْيَة، وَأَنَّهَا في كُلِّ حَيَوَانِ الْعَالَمِ بمعنى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ، وَقِيلَ: النَّفْسُ هي النَّسِيمُ الدَّاخِلُ وَالخَارِجُ بِالتَّنَفُّسِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَلِلنَّاسِ في مسمى (الْإِنْسَانِ): هَلْ هُوَ الرُّوحُ فَقَطْ، أَوِ الْبَدَنُ فَقَطْ، أَوْ مَجْمُوعُهُمَا، أَوْ كُلٌّ مِنْهُمَا؟ وهذه الْأَقْوَالُ الْأَرْبَعَة لَهُمْ في كَلَامِه: هَلْ هُوَ اللَّفْظُ، أَوِ المعنى فَقَطْ، أَوْ هُمَا، أَوْ كُلٌّ مِنْهُمَا؟ فَالخِلَافُ بَيْنَهُمْ في النَّاطِقِ وَنُطْقِه. وَالحَقُّ: أَنَّ الْإِنْسَانَ اسْمٌ لَهُمَا، وَقَدْ يُطْلَقُ على أَحَدِهِمَا بِقَرِينة، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ.

والذي يَدُلُّ عليه الْكِتَابُ والسنة وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَة وَأَدِلَّة الْعَقْلِ: أَنَّ النَّفْسَ جِسْمٌ مُخَالِفٌ بِالمَاهِيَّة لِهَذَا الْجِسْمِ المَحْسُوسِ، وَهُوَ جِسْمٌ نُورَانِي عُلْوِي، خَفِيفٌ حَي مُتَحَرِّكٌ، يَنْفُذُ في جَوْهَرِ الْأَعْضَاءِ، وَيَسْرِي فِيهَا سَرَيَانَ المَاءِ في الْوَرْدِ، وَسَرَيَانَ الدُّهْنِ في الزَّيْتُونِ، وَالنَّارِ في الْفَحْمِ. فَمَا دَامَتْ هذه الْأَعْضَاءُ صَالِحَة لِقَبُولِ الْآثَارِ الْفَائِضَة عَلَيْهَا مِنْ هَذَا الْجِسْمِ اللَّطِيفِ، بَقِي ذَلِكَ الْجِسْمُ اللَّطِيفُ سَارِيًا في هذه الْأَعْضَاءِ، وَأَفَادَهَا هذه الْآثَارُ، مِنَ الحِسِّ وَالحَرَكَة الْإِرَادِيَّة، وَإِذَا فَسَدَتْ هذه، بِسَبَبِ اسْتِيلَاءِ الْأَخْلَاطِ الْغَلِيظَة عَلَيْهَا، وَخَرَجَتْ عَنْ قَبُولِ تِلْكَ الْآثَارِ فَارَقَ

الرُّوحُ الْبَدَنَ، وَانْفَصَلَ إلى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ.

وَالدَّلِيلُ على ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّيهَا وَإِمْسَاكِهَا وَإِرْسَالِهَا. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام:٩٣]، فَفِيهَا بَسْطُ الْمَلَائِكَةِ أَيْدِيَهُمْ لِتَنَاوُلِهَا، وَوَصْفُهَا بِالْإِخْرَاجِ وَالْخُرُوجِ، وَالْإِخْبَارُ بِعَذَابِهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ مَجِيئِهَا إلى رَبِّهَا. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾، الآية [الأنعام:٦٠]. فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّي النَّفْسِ بِاللَّيْلِ، وَبَعْثِهَا إلى أَجْسَادِهَا بِالنَّهَارِ، وَتَوَفِّي الْمَلَائِكَةِ لَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر:٢٧ ـ ٣٠]، فَفِيهَا وَصْفُهَا بِالرُّجُوعِ وَالدُّخُولِ وَالرِّضَا. وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَه الْبَصَرُ»(١). ففيه وَصْفُه بِالْقَبْضِ، وَأَنَّ الْبَصَرَ يَرَاه. وَقَالَ ﷺ في حَدِيثِ بِلَالٍ: «قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ»(٢). وَقَالَ ﷺ: «نَسَمَة الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلَقُ في شَجَرِ الْجَنَّة»(٣).

وَسَيَأْتِي في الْكَلَامِ على عَذَابِ الْقَبْرِ أَدِلَّة كثيرة مِنْ خِطَابِ مَلَكِ الْمَوْتِ لَهَا،

---

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥) من حديث أبي قتادة ﷺ.

(٣) أخرجه النسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وأحمد (٣/ ٤٥٥)، ومالك (١/ ٢٤٠)، وابن حبان (١٠/ ٥١٣)، والطبراني (١١٩) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

وَأَنَّهَا تَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، وَأَنَّهَا تَصْعَدُ وَيُوجَدُ مِنْهَا مِنَ الْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ، وَمِنَ الْكَافِرِ كَأَنْتَنِ رِيحٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. وعلى ذَلِكَ أَجْمَعَ السَّلَفُ وَدَلَّ الْعَقْلُ، وَلَيْسَ مَعَ مَنْ خَالَفَ سِوَى الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ، وَالشُّبَهِ الْفَاسِدَةِ، التي لَا يُعَارَضُ بِهَا مَا دَلَّ عليه نُصُوصُ الْوَحْيِ وَالْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ.

---

قال الشيخ:

كلمة الروح والنفس الصحيح أنّهما مترادفتان، فالروح هي النفس، وقد اختلف في حقيقة الروح ما هي. إذا مات الميت وخرجت روحه لا نبصرها، مع أنّنا نتيقّن أنّها خرجت، والملائكة أرواح ينزلون ويقبضونها ونحن لا نراهم لأنّهم أرواح، كذلك الشياطين، أرواح شريرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، نحن لا نرى الشياطين، مع أنّ الشيطان يدخل في الإنسان، ويجري منه مجرى الدّم، ويوسوس له، ولا نراه، لكنّه ينخنس إذا ذكر الله، ولهذا سمّاه الوسواس الخنّاس. وأقرب مثال: الجنّ وهي أرواح، يسلّط الله الجنّي على الإنسي، فيلابسه حتى يغلب على جسده، ويصير كأنّه هو روحه، ونحن لا نرى الجني إذا أتى أو إذا خرج، لا نراه، ولكننا نسمعه مثلًا إذا تكلّم وهو ملابس ذلك الإنسي، وأنّه ينطق ويتكلّم، ثم يخرج عندما يعذَّب، ولا نراه يدخل، ولا نراه خرج. فإذن هو روح بلا جسد، ولعلّه يأتينا كلام في حقيقة الروح وماهيّتها.

الكلام هنا عن الروح هل هي مخلوقة أو غير مخلوقة؟

دعوى الفلاسفة أنّها غير مخلوقة، وأنّها قديمة، والفلاسفة هم الذين يقولون: إنّ هذا الإنسان ليس له مبدأ، ينكرون أنّ الله خلق آدم من تراب، ويقولون: إنّ الإنسان قديم، وهذه الأرض قديمة لم يسبقها عدم، وينكرون الحشر والمعاد، ويقولون: ليس هناك حشر ولا نشر، ولا قيامة، ولا جنّة ولا نار، إنّما هذا البشر يتوالد ويبقى على الأرض دائمًا وأبدًا، كما أنّه عليها منذ الأزل، هؤلاء الفلاسفة ينكرون خلق الروح، ويقولون: الروح ليست مخلوقة وليست محدثة، بل هي باقية، وقديمة، وليس لها مبدأ ويستدلّون بهذه الآية في سورة الإسراء: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥].

والسؤال هو: ماهيّة الروح، ما هي؟ ولَـمَّا كانت حقيقتها بأنّها لا ترى ولا توصف، أجابهم بأنها من أمره، ولا يمكن أن نتصوّروها؛ لهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]. وليس المراد بأنّها صفة من صفاته، بل المراد أنّها من أمره، أي: مخلوقة بأمره، وكذلك إضافتها إلى الله في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر:٢٩]، ليس المراد أنّ الرّوح صفة من صفات الله، أو أنّها من ذات الله، بل المراد من الروح التي خلقتها، وكذلك قوله في عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء:١٧١]، أي: روح من الأرواح التي خلقها، أي ليس من ذات الله، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وبكلّ حال، نعرف أنّ هذه الروح التي بين جنبي الإنسان مخلوقة كسائر المخلوقات، ولكن لا ندرك كيفيّتها ولا ماهيّتها.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه عبدالله بن مسعود ﷺ قال: بَيْنَا أنا أَمْشِي مع النبي ﷺ في خَرِبِ المَدِينَةِ، وهو يَتَوَكَّأُ على عَسِيبٍ معه، فَمَرَّ بِنَفَرٍ من الْيَهُودِ، فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عن الرُّوحِ، وقال بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ لَا يَجِيءُ فيه بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فقال بَعْضُهُمْ: لَنَسْأَلَنَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ منهم فقال: يا أَبَا الْقَاسِمِ، ما الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ، فقلت: إنه يُوحَى إليه، فَقُمْتُ، فلما انْجَلَى عنه فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]،

أجابهم الله تعالى بأنّ الروح غير معروفة لكم، ولا تدرون ماهيّتها، ولا يمكنكم إدراكها، وذلك دليل على عظمة الله، وعلى عجيب قدرته، حيث نوّع المخلوقات، وجعل منها ما يُرى وما لا يُرى، وجعل منها أجرامًا، وجعل منها أرواحًا، وجعل منها جمادًا، وجعل منها متحرّكًا حيًا متقلّبًا في أمره، فهذا دليل على كمال قدرة الله عزّ وجلّ، ودليل على أنّه على كلّ شيء قدير، ودليل على قصر علم الإنسان، وقصر باعه في العلوم، وأنّه لا يطّلع على المغيّبات، وأنّه لا يصل بفكره، ولا بأمره،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦٢)، ومسلم (٢٧٩٤).

ولا ببحثه إلى الأمور التي أخفاها الله عنه، فعلى هذا ليس عليه أن يتدخّل في أمور الغيب، وليس له أن يتخرّص فيها.

وقد استدلّ العلماء بأمر الرّوح أنّ الإنسان لا يستطيع أن يتدخّل في أمر صفات الرّبّ سبحانه وتعالى؛ لأنّ الكثير من الذين تدخّلوا في صفات الله، وقالوا: كيف يتّصف بأنّه حيّ، وبأنّه سميع بصير، متكلّم بكلام مسموع ونحو ذلك، هذا مما يخالف الخيال ويخالف العقول ويخالف الفكر، ويخوضون في مثل هذا خوضًا زائدًا، فيقول لهم العلماء: أنتم قد عجزتم عن إدراك الروح التي بين جنوبكم، كلّ منكم خلقه مكوّن من جسد وروح، هذه الروح التي يحيا بها البدن ويموت بخروجها، هل أدركتم ماهيّتها؟ هل قدرتم على معرفة كنهها؟ هل عرفتم من أيّ شيء هي؟ هل هي جسم أو عرض أو جوهر؟ هل هي صافية أو كدرة؟ وإذا خرجت أين تذهب وأين تكون؟ وكذلك الأرواح الأخرى التي تتحقّقونها وتؤمنون بها كيف لا ترونها؟

فإذا عجزتم عن إدراك ماهيّتها، فأنتم عن إدراك صفات الربِّ بطريق الأولى أن تعجزوا، أنتم تتحقّقون أنّ هناك نوعًا من المكلّفين، وهم الجنّ الذين خلقهم الله من نار السّموم، نتحقّق أنّهم موجودون معنا، وأنّهم ينطقون ويتكلّمون، وأنّهم يقدرون على أن يتشكّلوا بأشكال متعدّدة، يتشكّلون بأشكال الحيوانات، أو الجمادات، أو يتصوّرون بصورة إنسان، وبصورة حشرة، وبصورة هامّة، ونحو ذلك، وكذلك يلابسون الإنس، يدخلون في جسد الإنسي ويلابسونه، ولا يشعر

بهم أحد، ولا يعرف أحد من أي شيء أجسامهم، بل نقول: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، إذا حجزنا وعجزنا عن إدراك ماهيّة هذه الأرواح التي هي أقرب شيء إلينا، والتي نشاهد أن الميت تخرج روحه ومع ذلك لا نراها، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]، فإذا كان هذا عجز الإنسان عن إدراك هذه الروح التي هي أقرب شيء إليه، فكيف يخوض في خالقه؟ وكيف يخوض في صفات الباري عزّ وجلّ؟ الأولى له أن يسلّم بذلك، وأن يردَّ علمها إلى عالمها.

وكذلك أيضًا لا يخوض في أمر المخلوقات التي لم يرها، لا يقول مثلًا: ما كيفيّة خلق الملائكة؟ ومن أي شيء أجسامهم؟ وكيف تركيب أعضائهم؟ وكيف يسجدون؟ على أي أعضاء، وهل لهم يدان ورجلان كما لنا؟ وهل لهم وجوه مثل وجوهنا؟ وكيف ينطقون ويتكلّمون؟

نقول: الله أعلم، لا علم لنا إلا أنّهم مخلوقون، وأنّ لهم أرواحًا مستغنية عن أجساد ظاهرة، فينزلون ولا نراهم كما أخبر الله تعالى بأنّهم ينزلون إلى الأرض في ليلة القدر في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:٤]. إذا تنزّلوا نحن لا نراهم.

وكذلك أخبر النبيّ ﷺ بتنزّلهم أو باجتماعهم عند صلاة العصر وعند صلاة الفجر، بقوله: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي

صلاة الصُّبْحِ وَصَلَاة الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إليه الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ...»[١]. هل نراهم؟ نحن لا نراهم، فهم عالم ونحن عالم.

حتّى الشياطين الذين سلّطهم الله على الإنسان، يقول تعالى في وصفه: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥]، وقال النبيّ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي من الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»[٢]، يعني: يجري في عروقه، ويصل إلى جميع جسده، ولا يمنعه شيء إلَّا إذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم فإن الشيطان ينخنس؛ ولذلك سمّي بالوسواس الخنّاس، ونحن مع ذلك لا نراهم.

فإذًا هم عالم ونحن عالم، فليس لنا أن ننكرهم ولا أن نجحدهم؛ لأنّ الله أخبر بهم، وخبر الله حقّ، وأخبر أنّهم يروننا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف:٢٧]، يعني: أنّ الشياطين يرونكم هم وأمثالهم كالجنّ ونحوهم، يرونكم دون أن تروهم. فما دمنا متحقّقين أنّ لنا أرواحًا لا نراها، وبأنّ هناك أرواحًا مخلوقةً كالجنّ والشياطين، نعرف بذلك قصر علمنا عن إدراكها وعن معرفة تركيبها.

وقد مرّ معنا أنّ العلماء قد تكلّموا فيها وأطالوا، وعرّفوها بتعريفات مختلفة، وكان من جملة من عرّفها تعريفًا مناسبًا ابن القيّم ـ رحمه الله ـ في كتابه الذي سماه «الروح»، وهو كتاب مطبوع مشهور، تكلّم فيه عن الأرواح وعذاب القبر

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٤١).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٤).

ونعيمه، وتكلّم فيه عن حقيقة الروح، وما ورد فيها من صفاتها، وبيّن فيه الردّ على الذين أنكروها، أو وصفوها بصفات غريبة، وعرّفها بأنّها جسم خفيف شفاف علويٌّ نوراني متحرّك، يسري في جسد الإنسان كما يسري الدّهن في الورد وكما تسري النار في الفحم، فما دام ذلك الجسد قابلًا لتلك الإفاضات منه، فإنه يبقى فيها، وإذا تغيّرت ماهيّة هذا الجسم، وبقي لا يصلح لفيضاناتها، أمر الله بفراق هذه الروح لهذا الجسم، فبقي جسم الإنسان جمادًا لا حركة فيه، وذلك هو الموت الذي نشاهده، نشاهد خروج الروح ويبقى الجسد جثّة هامدة.

فإذًا لا حاجة إلى كثرة الخوض فيها وإطالة الكلام فيها، مع أنّ الله تعالى قد حجز أنظار العباد عنها، وفوّض أمرها إليه جل وعلا.

وقد كتب بعض العلماء كالمحلّى أحد صاحبي كتاب «تفسير الجلالين»، الذي ألّف آخره جلال الدين المحلّي، وأوله جلال الدين السيوطي، فجلال الدين المحلّي لَمّا أتى على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:٧٢]، عرّف الروح: بأنها جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه، ولكن السيوطي لما أتى على قوله تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٨، ٢٩]، لم يذكر هذه الجملة التي هي تفسير الروح؛ لأنّه أتى على هذه الآية في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥]، فتوقّف عن تفسيرها، وبكلّ حال فالأولى التوقّف، فالذين خاضوا فيها من العلماء وأطالوا القول فيها عذرهم أنّهم يريدون

بذلك إقناع أولئك الكاذبين الذين ضاروا يعرّفونها بتعريفات بعيدة عن الواقع، فما حمل ابن القيّم على الإطالة في تعريفاتها وفي صفاتها إلا أنه يناقش فيها أقوامًا ينكرون وجودها، أو ينكرون خصالها أو ينكرون تميّزها، ولهم أقوال عجيبة كما حكاها في ذلك الكتاب، كالفلاسفة ونحوهم الذين يسمّونها مثلًا النفس الناطقة، أو يزعمون أنّها الكون كلّه أو هذا الهواء أو النَّفَس، أو ما أشبه ذلك ممّا لا أصل له، والأولى أنّنا نكِل علمها وعلمَ الغيب إلى الله تعالى.

قال الشارح:

وَأَمَّا اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي مسمى النَّفْسِ وَالرُّوحِ: هَلْ هُمَا مُتَغَايِرَانِ، أَوْ مُسَمَّاهُمَا وَاحِدٌ؟ فَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ النَّفْسَ تُطْلَقُ على أُمُورٍ، وَكَذَلِكَ الرُّوحُ، فَيَتَّحِدُ مَدْلُولُهُمَا تَارَةً، وَيَخْتَلِفُ تَارَةً.

فَالنَّفْسُ تُطْلَقُ على الرُّوحِ، وَلَكِنْ غَالِبُ مَا تُسَمَّى نَفْسًا إِذَا كَانَتْ مُتَّصِلَةً بِالْبَدَنِ، وَأَمَّا إِذَا أُخِذَتْ مُجَرَّدَةً فَتَسْمِيَةُ الرُّوحِ أَغْلَبُ عَلَيْهَا. وَتُطْلَقُ على الدَّمِ، ففي الحَدِيثِ: «مَا لَا نَفْسَ له سَائِلَةً لَا يُنَجِّسُ المَاءَ إِذَا مَاتَ فيه»[1].

وَالنَّفْسُ: الْعَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فُلَانًا نَفْسٌ، أي عَيْنٌ.

وَالنَّفْسُ: الذَّاتُ، ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الرُّوحُ فَلَا تُطْلَقُ على الْبَدَنِ، لَا بِانْفِرَادِهِ، وَلَا مَعَ النَّفْسِ، وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على الْقُرْآنِ، وعلى جِبْرَائِيلَ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣].

---

(١) أخرج نحوه الدارقطني (١/ ٣٣)، والبيهقي (١/ ٢٥٣) من قول إبراهيم النخعي. وقال ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ١١٢): «وأول من حُفِظ عنه في الإسلام أنَّه تكلم بهذه اللفظة فقال: "ما لا نفس له سائلة": إبراهيم النخعي، وعنه تلقاها الفقهاء». انظر: المغني (١/ ٤١). ويروى في هذا الباب حديث سلمان ﷺ عن النبي ﷺ: «يا سلمان، كل طعام وشراب وقعت فيه دابة ليس لها دم فماتت فيه فهو حلال، أكله وشربه ووضوؤه». أخرجه الدارقطني (١/ ٣٧)، وقال: «لم يروه غير بقية عن سعيد بن أبي سعيد الزبيدي، وهو ضعيف».

وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على الهَوَاءِ المُتَرَدِّدِ في بَدَنِ الْإِنْسَانِ أَيْضًا.

وَأَمَّا مَا يُؤَيِّدُ الله به أَوْلِيَاءَه، فهي رُوحٌ أخرى، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وَكَذَلِكَ الْقُوَى التي في الْبَدَنِ، فَإِنَّهَا أَيْضًا تُسَمَّى أَرْوَاحًا، فَيُقَالُ: الرُّوحُ الْبَاصِرُ، وَالرُّوحُ السَّامِعُ، وَالرُّوحُ الشَّامُّ.

وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على أَخَصِّ مِنْ هَذَا كله، وَهُوَ: قُوَّة المَعْرِفَة بالله، وَالْإِنَابَة إليه، وَمَحَبَّته، وَانْبِعَاثُ الْهِمَّة إلى طَلَبِه وَإِرَادَتِه، وَنِسْبَة هذه الرُّوحِ إلى الرُّوحِ، كَنِسْبَة الرُّوحِ إلى الْبَدَنِ، فَلِلْعِلْمِ رُوحٌ، وَلِلْإِحْسَانِ رُوحٌ، وَلِلْمَحَبَّة رُوحٌ، وَلِلتَّوَكُّلِ رُوحٌ، وَلِلصِّدْقِ رُوحٌ.

وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ في هذه الْأَرْوَاحِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه الْأَرْوَاحُ فَيَصِيرُ رُوحَانِيًّا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْقِدُهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَيَصِيرُ أَرْضِيًّا بَهِيمِيًّا.

وَقَدْ وَقَعَ في كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ ثَلَاثَة أَنْفُسٍ: مُطْمَئِنَّة، وَلَوَّامَة، وَأَمَّارَة، قَالُوا: وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه، وَمِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧]، ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢]، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣].

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّهَا نَفْسٌ وَاحِدَة، لَهَا صِفَاتٌ، فهي أَمَّارَة بِالسُّوءِ، فَإِذَا عَارَضَهَا الْإِيمَانُ صَارَتْ لَوَّامَة، تَفْعَلُ الذَّنْبَ ثُمَّ تَلُومُ صَاحِبَهَا، وَتَلُومُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، فَإِذَا قَوِيَ الْإِيمَانُ صَارَتْ مُطْمَئِنَّة؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «مَنْ سَرَّتْه حَسَنَتُه، وَسَاءَتْه سَيِّئَتُه،

فَهُوَ مُؤْمِنٌ»[١]. وقوله: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٢]، الحَدِيثَ.

---

قال الشيخ:

تكلّم الشارح ـ رحمه الله ـ على تعريف النفس وتعريف الروح بهذا الكلام السابق؛ وذلك لاختلاف العلماء: هل الروح النفس، أو الروح غير النفس؟ لأنّ كلمة النّفس قد تطلق على بعض الأشياء، كما في هذه التعريفات التي مرت معنا، فتطلق على الدّم، وفي الأثر: «مَا لَا نَفْسَ له سَائِلَة لَا يُنَجِّسُ المَاءَ إِذَا مَاتَ فيه»[٣]، يعني: كالذباب والبعوض والفراش إذا مات في الماء فإنّه لا ينجّسه؛ لأنّه ليس له نفس، أي ليس له دم إذا ذبح.

كذلك تطلق النفس على ذات الإنسان كما في هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، يعني: على ذواتكم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، يعني: لا تقتلوا ذواتكم، فذات الإنسان هي نفسه. وقد يكثر استعمال النّفس في مثل هذه المعاني وغيرها.

فإذًا النفس في الأصل هي ماهيّة الشيء وذاته، وأمّا الإنسان الذي كلّفه الله تعالى، فقد ناداه بنداء الإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٢).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ١٢٧).

[الانشقاق: ٦]، والإنسان هو هذا الجنس من بني آدم، ومعلوم أنّه مؤلّف من جسد وروح، وهذا النَّفَس الذي يدخل ويخرج ويجتذب الهواء، هذا نَفَس وهو ملازم للإنسان، ونَفْسُه يعني ذاتُه توصف بصفات، كما مرّ معنا أنها توصف أنّها نفس لوّامة، وأنّها نفس مطمئنّة، وأنّها نفس أمّارة بالسوء.

وبناءً على ذلك، فمن العلماء من يقول: إنّ للإنسان ثلاثة أنفس: نفس لوّامة، ونفس أمارة بالسوء، ونفس مطمئنّة.

والصحيح أنّها نفس واحدة: تارة يغلب عليها الاطمئنان، فتوصف بأنّها مطمئنّة، فنقول: هذا الإنسان نفسه مطمئنّة، وتارة يغلب عليها وصف اللوم، يفعل الشيء فتلومه نفسه على فعله، فيُقال: هذا الإنسان نفسه لوّامة، وتارة يغلبُ عليه بالسوء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، فهي نفس واحدة تتّصف بهذه الصفة تارة، وبهذه الصفة تارة، ولا تكون ثلاثة أنفس، وهذا هو الصحيح من أقوال العلماء.

فما دامت الروح في الجسد، فإنّها تسمّى نفسًا وتسمّى روحًا، وإذا خرجت الروح من الجسد فإنّها لا تسمّى نفسًا غالبًا، وإن كانت قد تسمّى، في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، يعني: أخرجوا أرواحكم، فإذا خرجت فإنّها روح تقبضها الملائكة وتكفّنها. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، فسمّاها هُنا أنفسًا؛ لأنها ما دامت في الجسد فإنّها تسمّى نفسًا، والله يتوفّاها يعني

يقبضها، أما بعد قبضها، فإنّها يغلب عليها اسم الروح.

وكذلك في النوم، نفس النائم تخرج، ولكنّها لا تخرج خروجًا كليًّا، بل يبقى تأثيرها على البدن؛ ولهذا إذا نام الإنسان ذكروا أنّ روحه تخرج وتصعد إلى السّماء وترى كذا وكذا من الرّؤيا، ونحو ذلك.

وفي الحديث في الدعاء عند النّوم: «بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»[1]. أفاد بأن النفس قد تمسك ولا ترجع إلى صاحبها إذا أراد الله، وقد ترجع، فهو يقول: «إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي» ولم تردّها عليّ «فَارْحَمْهَا»، «وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا» يعني: رددتها عليّ «فَاحْفَظْهَا».

كلمة الروح هي مادّة الحياة، وكلّ شيء تحصل به الحياة فإنّه يسمّى روحًا، فالله تعالى سمّى القرآن روحًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، لماذا سمّي القرآن روحًا؟ لأنّ به الحياة المعنويّة، حياة القلوب، التي هي حياة صحيحة، وإن كان أهلها لا يشعرون بها، أو لا يهتمون بها؛ لأنّ القرآن إذا تأثّرت به القلوب، فإنّه روح لها، وحياة القلوب أعظم حياة وأعظم منفعة لها، ولذلك سمّاه الله روحًا، فكما أنّ الأبدان تحيا بالأرواح، فكذلك القلوب تحتاج إلى أرواح معنويّة وهي هذا القرآن، وما فُسِّر به وما يتبعه من السنّة.

كذلك سمّى الله جبريل ـ عليه السلام ـ روحًا في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤]، الروح الأمين هو جبريل عليه السلام، هو الذي نزل به؛ لأنّ الملائكة كلّهم أرواح، وجبريل ـ عليه السلام ـ من جملتهم، ولا ينافي ذلك أنّهم يصعدون وينزلون، وأنّ لهم أجنحة، وأنّ لهم أجسادًا معنويّةً لا نراها، فهم أرواح وجبريل ـ عليه السلام ـ منهم، ولكن لجبريل ـ عليه السلام ـ خصوصيّة بهذه التسمية، حتى قال بعضهم: إنّ الروح في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، هو جبريل عليه السلام.

وقيل: إنّ المراد بالروح هنا هو الأرواح، سواء كانت أرواح الملائكة، أو أرواح البشر، أو أرواح الجنّ، أو الشياطين؛ تقوم الأرواح وتقوم الملائكة صفوفًا، وبها أيضًا فُسّرت الروح التي في سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، أنّ الروح هي أرواح بني آدم، أو أرواح الملائكة تتنزّل في تلك الليلة.

أيضًا لكلّ شيء روحٌ تحيا به، تلك هي الماهيّة، فكما مرّ في كلام الشارح، أنّ القرآن يسمّى روحًا، فالإسلام له روح، والإيمان له روح، كذلك التوكّل له روح، والعبادة لها روح، والاستعانة لها روح، وكذلك المحبّة والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادات لها روح، أي: لها حقيقة معنويّة تتأكّد فيها وتؤكّدها، وتصير بها حيّة مؤثّرة نافعة، فقد عُرف بذلك أنّ الروح هي الذي تحصل به الحياة، وسُمّيت بذلك؛ لأنّ فيها حياة البدن ولأنّها حيّةٌ.

وقد رجّح العلماء المحقّقون أنّ الأرواح بعد خروجها من الأجساد باقية، كما

يقول السفاريني في منظومته[١]:

وَأَنَّ أَرْوَاحَ الوَرَى لَمْ تُعْدَمُ  مَعَ كَوْنِهَا مَخْلُوقَةٌ فَاسْتَفْهِمِ

فهذه حقيقتها: أنّ أرواح بني آدم ما عُدمت بعد خروجها من أجسادهم، مع اعتقادنا أنّها مخلوقة مكوّنة بعد أن كانت معدومة، أوجدها الله وكوّنها.

وقد تقدّم الخلاف في وقت خلقها، متى خلقت؟ وأنّ الراجح أنّها تخلق مع خلق الإنسان، وتبقى بعد موته، وعلى كل حال فأمر هذه الأرواح وحقائقها يختلف باختلاف الإنسان وقوّة معنويّته وضعفها.

والراجح أنّها نفسٌ واحدة، تغلب عليها صفات الإيمان، فتسمّى نفسًا مطمئنّة، وتغلب عليها المعاصي، فتسمّى النفس اللوّامة، وتغلب عليها صفة الكفر والبدع ونحوها، فتسمّى نفسًا أمّارة بالسوء، وهي نفس واحدة. هذا هو الصواب.

---

(١) انظر: العقيدة السفارينية (ص٧٥).

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ: هَل تَمُوتُ الرُّوحُ أَمْ لا؟

فَقَالَتْ طَائِفَة: تَمُوتُ؛ لأَنَّهَا نَفْسٌ، وَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَة المَوْتِ، وَقَدْ قَال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. قَالُوا: وَإِذَا كَانَتِ المَلائِكَة تَمُوتُ، فَالنُّفُوسُ البَشَرِيَّة أولى بِالمَوْتِ.

وَقَال آخَرُونَ: لا تَمُوتُ الأَرْوَاحُ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ للبَقَاءِ، وَإِنَّمَا تَمُوتُ الأَبْدَانُ.

قَالُوا: وَقَدْ دَل على ذَلكَ الأَحَادِيثُ الدَّالة على نَعِيمِ الأَرْوَاحِ وَعَذَابِهَا بَعْدَ المُفَارَقَة إلى أَنْ يُرْجِعَهَا الله في أَجْسَادِهَا.

وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَال: مَوْتُ النُّفُوسِ هُوَ مُفَارَقَتُهَا لأَجْسَادِهَا، وَخُرُوجُهَا مِنْهَا، فَإِنْ أُرِيدَ بِمَوْتِهَا هَذَا القَدْرُ، فهي ذَائِقَة المَوْتِ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّهَا تُعْدَمُ وَتَفْنَى بِالكُلِّيَّة، فهي لا تَمُوتُ بِهَذَا الاعْتِبَارِ، بَل هي بَاقِيَة بَعْدَ خَلقِهَا في نَعِيمٍ أَوْ في عَذَابٍ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ الله تعالى.

وَقَدْ أَخْبَرَ سبحانه أَنَّ أَهْل الجَنَّة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]، وَتِلكَ المَوْتَة هي مُفَارَقَة الأَرْوَاحِ للأَجْسَادِ، وَأَمَّا قَوْلُ أَهْل النَّارِ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

فَالْمُرَادُ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَمْوَاتًا وَهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وفِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَمَاتَهُمْ، ثُمَّ يُحْيِيهِمْ يَوْمَ النُّشُورِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِمَاتَةُ أَرْوَاحِهِمْ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِلا كَانَتْ ثَلاثَ مَوْتَاتٍ.

وَصَعْقُ الأَرْوَاحِ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّوَرِ لا يَلْزَمُ منه مَوْتُهَا، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَاءَ اللهُ لفَصْلِ القَضَاءِ، وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَوْتٍ. وَسَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى.

وَكَذَلِكَ صَعْقُ موسى ـ عليه السَّلامُ ـ لَمْ يَكُنْ مَوْتًا[1]، والذي يَدُلُّ عليه أَنَّ نَفْخَةَ الصَّعْقِ ـ واللهُ أَعْلَمُ ـ مَوْتُ كُلِ مَنْ لَمْ يَذُقِ المَوْتَ قَبْلَهَا مِنَ الخَلائِقِ، وَأَمَّا مَنْ ذَاقَ المَوْتَ، أَوْ لَمْ يُكْتَبْ عليه المَوْتُ مِنَ الحُورِ وَالوِلْدَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَلا تَدُلُّ الآية على أنه يَمُوتُ مَوْتَةً ثَانِيَةً. واللهُ أَعْلَمُ.

---

قال الشيخ:

تكلم الشارح ـ رحمه الله ـ هنا على مسألة موت الأرواح، وهل تموت أو لا؟ فقال بعض العلماء: إنّها تموت، فإذا خرجت من الأجساد، فإنّها تحسّ إذا صعدت

---

(١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه البخاري (٣٤٠٨).

ولأهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قولان: أحدهما: مغشيًا عليه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وابن زيد. والثاني: ميتًا، قاله قتادة، ومقاتل.

والأول أصح؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، وذلك لا يُقال للميت.

انظر: تفسير الطبري (٩/ ٥٢، ٥٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٥٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٥).

إلى السماء، ويخرج منها ريح طيّبةٌ أو خبيثةٌ، وتتألّم أو تتنعّم، فهي لا تزال حيّة في هذا العالم في البرزخ بعد فراق الجسد، وأمّا الجسد فإنّه يفنى ويصير ترابًا؛ كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

وهناك من يقول: إنّ الأرواح بعد خروجها تبقى مدّة ثمّ تموت، فإنّها لا بدّ أن يأتي عليها الموت الذي كتبه الله على كلّ شيء؛ لأنّها أنفس وكلّ نفسٍ ذائقة الموت، ولأنّها لا بدّ من فنائها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]. هذا دليل من قال إنّها تفنى وتموت، وقاسوها على الملائكة؛ لأنّ الملائكة لا بدّ لهم أن يموتوا، وكذلك الجنّ، فهم يموتون مع كونهم أرواحًا، فلا بدّ أن يكون موتهم شيء يحسّون به، ويحصل بذلك عدم الحياة لهم. فإذا كان الجنّ يموتون والملائكة يموتون، فكذا الأرواح التي هي أرواح الإنسان فكيف لا تموت؟

والقول الآخر: أنّها بعد خروجها لا تموت، بل تبقى إما منعّمة، وإمّا معذّبة، كما ذكر في أحاديث عذاب القبر، وأنّ موتها هو مفارقتها لهذا الجسد، فإنّها كانت عامرة لهذا الجسد، وكانت منعّمة فيه فنزعت منه وخرجت منه، كما في الحديث البراء بن عازب ﷺ الوارد في نعيم القبر وعذابه[1].

فهذا دليل على أنّ خروجها ومفارقتها لهذا الجسد هو الذي يسمّى الموت، وهو الموت الذي كتب الله عليها، فإذا خرجت فإنّها ماتت، ولو كانت بعد ذلك

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧). وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في إثبات عذاب القبر ونعيمه؛ كما جاء في حديث أنس ﷺ الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

تبقى حيّة، أو متحرّكة، أو متلذّذة، أو متألّمة، والآيات التي فيها: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، المراد بها أنّها يأتي عليها الموت الذي هذه صفته، فقد أتى على هذه الروح الموت الذي هو مفارقة الجسد.

وعند بعض الفلاسفة أنّ الروح قديمة ليست مخلوقة وعبّر عن ذلك شاعرهم ابن سينا في قصيدته التي في أوّلها[1]:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ ... وَرْقَاءُ ذَاتُ تَقَلُّبٍ وَتَفَجُّعِ

وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ فَلَمَّا وَاصَلَتْ ... أَلِفَتْ مُرَافَقَةَ الخَرَابِ البَلْقَعِ

فمثّلها بأنّها هبطت من المحلّ الأرفع، وهو السماء، وشبّهها بالورقاء وهي: طير من الطيور الورق، وأنّها وصلت إلى هذا الجسد وهي كارهة، ولكنّها بعدما وصلت تمكّنت، وألفت مرافقته مع كونه خرابًا من دونها.

لكن لا يسلَّم لهم أنّها قديمة، وإنما هي مخلوقة مكوّنة بعد أن كانت عدمًا؛ فإنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيء، فأمّا فناؤها، فإنّه يحصل بمفارقة هذا الجسد، والله تعالى أخبر بأنّ كلّ شيء هالك إلا وجهه، فهلاكُها معناه خروجها من أجسادها، فهذا موت.

وبعضهم يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، المراد به كلّ من خُلق للفناء، أما الذي خلق للبقاء فإنّه لا يفنى، ويقول ـ فيما خلق الله في الجنّة من الحور ونحوها ـ: إنّها

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام (٢٩/ ٢٣٠).

خلقت للبقاء فلا تفنى، ولا يأتي عليها الموت. ومنهم من يقول: إنّها تبقى، ثم بعد ذلك تموت.

وأمّا الصعق الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، وكذلك عن الفزع: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. فهذا الفزع فزعٌ أولًا، ثم صعقٌ ثانيًا، فهذا الصّعْقُ إن كان على الأحياء فإنّه موت، يعني: أنّ الناس متى سمعوا النفخ في الصور ماتوا كلّهم، عبّر بالصعق عن الموت، فالناس الذين تدركهم الساعة، إذا نفخ في الصور ماتوا كلّهم موتة واحدة، ثم ينفخ فيه أخرى، وقال النبيّ ﷺ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»[1]. قيل: إنّه أراد أربعين سنة، فهذا الصعق موت في حقّ الأحياء، ولكن الأرواح ليس موتًا في حقّها، ولكن إذا صعقت، فلا يلزم أن تموت، وقيل إن الأرواح هي المستثنى في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فالذين شاء الله: مثل الأرواح، ومثل حور الجنّة، وما خلق للبقاء.

وبكلّ حال، نؤمن بأنّ هذا الكون يفنى، وأنّ هناك مخلوقات خلقت للبقاء كالأرواح، والله هو الذي خلقها، وقدّر لها مقاديرها، فإذا حصل النفخ في الصور، فإنّها لا يأتي عليها هذا الفناء والفزع والصعق الذي يأتي على غيرها.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أخبر النبيّ ﷺ عن الصعق بعد البعث: وكأنّه صعق وفزع يأتيه، فيقول: «النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟»[1]. وهي صعقة الطور المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فدلّ على أنّ هناك صعقًا في يوم القيامة، وهذا الصعق ليس بموتٍ، وإنّما هو غشيةٌ تحصل من هذا الفزع، ثم يحصل بعدها إفاقةٌ، ويكون النبي ﷺ أوّل من يفيق، فيجد موسى ـ عليه السلام ـ قد أفاق قبله، أو لم يُصعق جزاء له على صعقته يوم الطور.

تكلّم الشارح أيضًا على قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١]، والصحيح في هاتين الموتتين والحياتين أنّهما في الدنيا والآخرة:

الموتة الأولى: هي الموت في الأرحام وفي الأصلاب، فإنّه في حال كونه في الرّحم شبه ميت، لا حركة فيه مثل حركة الحيّ، حتّى ينفخ فيه الروح بعد الشهر الرابع.

والموتة الثانية: خروجه من هذه الدنيا.

والحياة الأولى: خروجه إلى هذه الدنيا من الرحم، فإنّها حياة مشاهدة.

والحياة الثانية: هي حياته بعد البعث يوم القيامة، وبعد النفخ في الصور، وهي حياته الأُخرويّة الباقية.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦١٨).

هاتان الموتتان: موتة في الرحم وموتة في الدنيا، والحياتان: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وهي مفسّرة في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾، يعني: في الأرحام، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾، يعني: في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، يعني: الموتة الأولى، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]، للآخرة.

كذلك أخبار الأنبياء ورسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم الصادقون المصدَّوقون، الذين ائتمنهم الله تعالى على وحيه، وأمرهم بتبليغه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

وكذلك نصب الأدلة على الأمور الغيبيّة والأمور الأخرويّة، وأمر العباد أن يتفكّروا فيما بين أيديهم وفيما خلفهم، ومن نظر في ذلك اعتبر وتذكّر واتّعظ، إذا نظر إلى خلق الإنسان ومبدأ أمره، عرف أنّ الذي خلقه قادر على أن يعيده، وليس بدء الخلق أهون من إعادته، نظر إلى الأفلاك العلوية والسفلية أخذ منها آية دلّ الله عليها بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧]، خلق السموات والأرض، مع اتساعها وثباتها، وتنوّع موجوداتها، أكبر من خلق النّاس.

وكذلك فالآيات التي أمر الله عباده بأن يتّعظوا فيها وينظروا فيها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم:٢٠]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم:٢١]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ

أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[الروم:٢٢]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[الروم:٢٣]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾ [الروم:٢٤]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ ﴾ [الروم:٤٦]، وفي هذه الآيات عبرةٌ لمن اعتبر وعظةٌ لمن اتّعظ.

فلأجل ذلك أصبح اليوم الآخر يقينًا عند أهل الإيمان؛ لأنّها قامت عليه البراهين، بعدما كان المشركون ينكرونه، ويقولون: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة:٤٧، ٤٨] يستنكرون ذلك، فأقام اللهُ عليهم الحجّة، وبيّن لهم الأدلّة.

ومعلوم أنّ الإنسان يتكوّن من جسد وروح، فبعد الموت تخرج هذه الروح من جسده، ويبقى الجسد ليس به حركة، فيفنى ويكون ترابًا، ولكن قدرة الله أعلى من كلِّ شيء، فهو قادر سبحانه أن يوصل إليه الألم أو النّعيم أو العذاب ولو كان ترابًا أو رمادًا، قادر على كلّ شيء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

**أمّا روحُه التي** كانت تعمر جسده، فقد ذكرنا أنّ الروح لا تعدم، وأنّها باقية، وأنّها في هذا البرزخ بين الدنيا والآخرة إمّا في نعيم وإما في عذاب، وإن كنّا بعقولنا لا ندرك ماهيّتها، ولا ندري أين مستقرّها، بل نتحقّق بأنّ الروح إذا خرجت من البدن لا تنعدم كما ينعدم البدن، بل تبقى والدليل على بقائها الأحاديث التي فيها أنّها تحضر، وأنّها يُعرج بها، وأنها ترى من يقبضها، ونحو ذلك. فهي إذًا باقية في هذه المدّة بين الدنيا والآخرة، وفي يوم القيامة يأمر الله الأرض فتجمع ما فيها من رفات الأموات، وتتجمّع عظامُهم حتّى تتكامل، ويكسوها الله لحمًا ثمّ بعد ذلك

يعيدها ويرسل إليها أرواحها.

وقد وقع مثل ذلك في الدنيا، فحكى الله قصّة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية، فقال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾، فاستبعد إعادتها وقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، فاستبعد أن تحيا بعد أن فنيت، فأراه الله الآية في نفسه، ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾، وكان معه حمارٌ وكان معه سلّة طعام وفاكهة، فلمّا أنْ بعثه بعد مئة عام ونفخ فيه الروح، أراه الله كيف يحيي الموتى، ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾، فقال الله: ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾، أي: لم يتغيّر، ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾، يقولون: إنّه بقي ينظر إلى عظام الحمار كيف تجتمع ويلتئم بعضها على بعض ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة:٢٥٩]، أولًا: التأمت العظام، ثم كساها الله لحمًا، ثم نبت عليها جلدها، ثم نفخ فيها الروح، وقام الحمار ونهق، فأراه الآية في نفسه وفي ما كان معه، وذلك بلا شكّ آية وعبرة على أنّ الله تعالى قادر على أن يحيي الموتى ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾[القيامة:٤٠]، فإذا أيقن الإنسان بذلك فإنّ يقينه يحمله على أن يستعدّ للموت.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وبِعَذابِ القَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا، وسُؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ في قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ ودِينِهِ ونَبِيِّهِ عَلَى ما جَاءتْ بِهِ الأَخْبارُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وعَنِ الصَّحابةِ رِضْوانُ الله عَلَيْهِم. والقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرانِ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧]. وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ به عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وغيره في الدُّنْيَا، وَأَنْ يُرَادَ به عَذَابُهُمْ فِي الْبَرْزَخِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ في الدُّنْيَا، أَوِ الْمُرَادُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ.

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ، قَالَ: «كُنَّا في جِنَازَةٍ في بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النبي ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَه، كَأَنَّ على رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَهُوَ يُلْحَدُ له، فَقَالَ: أَعُوذُ بالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ في إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ إليه الْمَلَائِكَةُ، كَأَنَّ على وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، فَجَلَسُوا منه مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ

مَلَكُ الْمَوْتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِه، فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة، اخْرُجِي إلى مَغْفِرَة مِنَ الله وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَة مِنْ في السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِه طَرْفَة عَيْنٍ، حتى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الحَنُوطِ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَة مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْه الْأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يعني على مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَة - إِلَّا قَالُوا: مَا هذه الرُّوحُ الطَّيِّبَة؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِه التي كَانُوا يُسَمُّونَه بِهَا في الدُّنْيَا، حتى يَنْتَهُوا بِهَا إلى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتِحُونَ له، فَيُفْتَحُ له، فَيُشَيِّعُه مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، إلى السَّمَاءِ التي تَلِيهَا، حتى يُنْتَهَى بِهَا إلى السَّمَاءِ التي فيها الله، فَيَقُولُ الله - عَزَّ وَجَلَّ -: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي في عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوه إلى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَة أخرى.

قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُه في جَسَدِه، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِه، فَيَقُولَانِ له: مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي الله، فَيَقُولَانِ له: مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ له: مَا هَذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله، فَيَقُولَانِ له: مَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ به وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوه مِنَ الجَنَّة، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى الجَنَّة، قَالَ: فَيَأْتِيه مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه، قَالَ: وَيَأْتِيه رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْه، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ له: مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْه الذي يَجِيءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَقِمِ السَّاعَة حتى أَرْجِعَ إلى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إليه مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ منه مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السُّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حتى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحٍ خَبِيثَةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا على مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حتى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ له، فَلَا يُفْتَحُ له، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ له: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ له: مَا هَذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا له بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عليه قَبْرُهُ، حتى تَخْتَلِفَ فيه أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي

يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْه يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَة».

رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ[١] وَأَبُو دَاوُدَ[٢]، وروى النسائي[٣] وَابْنُ مَاجَه[٤] أَوَّلَه، ورواه الحَاكِمُ[٥] وَأَبُو عَوَانَة الْإِسْفِرَائِينِي[٦] في صَحِيحَيْهِمَا، وَابْنُ حِبَّانَ[٧].

وَذَهَبَ إلى مُوجَبِ هَذَا الحَدِيثِ جَمِيعُ أَهْلِ السنة وَالحَدِيثِ، وله شَوَاهِدُ مِنَ الصَّحِيحِ، فَذَكَرَ البخاري - رحمه الله - عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ في قَبْرِه وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُه، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِه، فَيَقُولَانِ له: مَا كُنْتَ تَقُولُ في هَذَا الرَّجُلِ، مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أنه عَبْدُ الله ورسوله، فَيُقَالُ له: انْظُرْ إلى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ الله به مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّة، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»[٨].

---

(١) في المسند (٤/ ٢٨٧).

(٢) برقم (٤٧٥٣).

(٣) في المجتبى (٢٠٠١).

(٤) برقم (١٥٤٩).

(٥) في المستدرك (١/ ٣٧).

(٦) كما في إتحاف المهرة (٢/ ٤٥٩).

(٧) أشار إليه عقب حديث أبي هريرة ﷺ (٧/ ٣٨٧)، وقال: «زاذان لم يسمعه من البراء، فلذلك لم أخرجه».

(٨) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

قَالَ قَتَادَة: وَرُوِي لَنَا: أنه يُفْسَحُ له في قَبْرِه، وَذَكَرَ الحَدِيثَ.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ: أَنَّ النبي ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، فَدَعَا بِجَرِيدَةٍ رَطْبَةٍ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، وَقَالَ: «لَعَلَّه يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»[1].

وفي «صَحِيحِ أبي حَاتِمٍ»[2] عَنْ أبي هريرة، قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: «إِذَا قُبِرَ أحدكم، أَوِ الْإِنْسَانُ، أَتَاه مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ»، وَذَكَرَ الحَدِيثَ ... إِلَخْ.

---

قال الشيخ:

الإيمان بالبرزخ وبما يكون فيه ثبت تفصيلًا بالسنّة، وثبتت أدلّته مجملة من القرآن، وقد روي أنّ امرأة من اليهود دخلت على عائشة رضي الله عنها، فكان من جملة ما قالت: أعاذك الله من عذاب القبر، فاستغربت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن يكون في القبر عذاب، فلمّا جاء النبيّ ﷺ سألته عن عذاب القبر، فقال: «نَعَمْ، عَذَابُ القَبْرِ حَقٌّ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) (٧/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٢)، ومسلم (٩٠٣).

وقد استدلّ على عذاب البرزخ بآيات؛ منها الآية التي ابتدأ بها الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ وهي قصة آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

وأخرج الطبري[1]: أن رجلاً سأل الأوزاعي، فقال: رحمك الله، رأينا طيورًا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضًا فوجًا فوجًا، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سودًا، قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون، يُعرضون على النار غدوًا وعشيًا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها وصارت سوداء، فتنبت عليها من الليل رياش بيض وتتناثر السود، ثم تغدو، ويعرضون على النار غدوًا وعشيًا، ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله: ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾.

وإذا كان هذا في حقّ آل فرعون، فكذلك كلّ كافر، وكلّ خارج عن الإسلام وكلّ مبتدع، يثبت له هذا العذاب الذي ثبت لآل فرعون.

والآية الثانية التي يُستدل بها على عذاب القبر في آخر سورة الطور ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور:٤٥]، يعني: يوم القيامة، قال: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور:٤٧]، فُسِّر ﴿ دُونَ

(١) في تفسيره (٢٤/ ٧١).

ذَٰلِكَ ﴾: ـ أي قبل ذلك ـ بأنه إنّه عذاب القبر، وقيل: إنّه عذاب في الدنيا، ورجّح الشارح أنّه عذاب القبر، وذلك أنّ كثيرًا منهم مات ولم يعذّب في الدنيا، فدلّ على أنّه لا بدّ أنْ يأتيهم عذاب قبل عذاب يوم القيامة، ولا يكون إلا عذاب البرزخ.

وقد استدلّ أيضًا بقوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ [السجدة:٢١]، العذاب الأدنى: فُسِّر بعذاب القبر، وهو قبل العذاب الأكبر وهو العذاب الأخرويّ.

واستدلّ أيضًا عليه بقوله تعالى في سورة التوبة، لما ذكر المنافقين قال: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة:١٠١]، المرتان: مرّة في الدنيا، ومرّة في البرزخ، أو مرّتين في البرزخ، وهما: عذاب على الأرواح، وعذاب على الأبدان.

هذه الآيات تدلّ على أنّه وجد ذكر عذاب القبر في القرآن.

وقد تكلّم العلماء على القبور وما يكون فيها، فكتب المتقدّمون كتبًا كبيرة مثل ابن أبي الدنيا الذي ألّف كتاب «القبور»، وكذلك ابن القيم تكلّم على عذاب القبر في كتاب «الروح»، ذكر الأدلّة عليه، وذكر أنواعه، وكذلك تلميذه ابن رجب في كتابه «أهوال القبور» تكلّم فيه على عذاب القبر وأنواعه، وتوسّع في ذلك، وذكروا أدلّة وأمثلة على ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة تدلّ على إثبات عذاب القبر، ذكر الشارح بعضها كما مرّ معنا، وذكر ابن كثير في «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧]، أنّها نزلت في عذاب القبر، وقد أورد عندها أحاديث طويلة وقصيرة فيها ذكر ما يعرض على الميت في قبره وما يناله من العذاب، ومنها هذا الحديث الطويل الذي ذكره الشارح، فنتأمّل في هذا العذاب ونأخذ منه العبرة.

فمثلًا: اشترك المؤمن والكافر في أن ملك الموت يجلس عند رأس كلّ واحد منهما، إلّا أنّه يقول للمؤمن: «**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة، اخْرُجِي إلى مَغْفِرَة مِنَ الله وَرِضْوَانٍ**». ويقول للكافر: «**أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَة، اخْرُجِي إلى سَخَطٍ مِنَ الله وَغَضَبٍ**».

أمّا روح المؤمن، فتخرج كما تسيل القطرة من فيّ السّقاء، وأمّا روح الكافر فتتفرّق في جسده، فينتزعها بقوّة كما ينتزع السُّفّود من الصوف المبلول. والسفّود: هو الذي له أطراف محددة إذا أدخل في الصوف المبلول، فلا يخرج إلّا بعد أن يتقطّع ما علق به. فمثلًا إذا أردت أن تخرج شوكة من وسط صوف أو قطن لا تخرج إلّا بعد أن يتقطّع ما يحيط بها، فهذا لأنّه ينتزعها بقوّة فتتقطع العروق وتتقطّع الشرايين، ولا تخرج إلّا بقوة، وهذا دليلٌ على أنّ هذا أولُ عذابه.

بعدما تخرج الروح تأخذها الملائكة، فملائكة المؤمن كأنّ وجوههم الشمس، وملائكة الكافر سود الوجوه، ومع ملائكة المؤمن أكفانٌ من الجنة، وحنوطٌ من الجنّة، والحنوط: هو الطيب الذي يطيّب به الميّت، فهذا الحنوط

تطيّب به روح المؤمن. وأمّا الكافر فإنّ روحه تجعل في تلك المُسوح، وهي خشن الثياب.

بعدما يُصعد بها يخرج من المؤمن كأطيب ريح مسك وجدت على الأرض، ويخرج من الكافر كأنتن ريح جيفة وجدت على الأرض، مع أنّها روحه كذلك المؤمن يسمّى بأحسن أسمائه في الدنيا، والكافر بأسوأ أسمائه في الدنيا. والمؤمن تفتح له أبواب السماء، ويُرحَّب به، وتصل روحه إلى السماء السابعة، فعندئذ يقول تعالى: «**اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوه إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَة أخرى**»، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وهو مشتق من العلو.

وأما الكافر، فيقول تعالى: «**اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ**»، قال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، قالوا: إنّه مشتقّ من السجن، يعني: كأن أرواحهم مسجونة في جبٍّ في أسفل الأرض السفليّة. فهذا مستقرّ أرواحهم ومحلّ كتابهم، روح الكافر لا تفتح لها أبواب السماء، كما قال تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، وسَمّ الخياط: هو ثقب الإبرة، فكيف يتصوَّر أنّ الجمل يدخل في ثقب الإبرة، والمعنى: أنّهم لا يدخلون الجنّة، وكذلك فإنّ روح الكافر تطرح طرحًا من السماء إلى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

والمؤمن والكافر كلّ منهما تعاد روحه إلى جسده، وينزل به ملكان يقال لهما: منكر ونكير، يسألانه عن ثلاث مسائل: عن ربّه، ونبيّه، ودينه. فيثبّت الله المؤمن، ويُنطقه بالصواب، ولو كان أمّيًا لا يقرأ، ولكن تكون عقيدته التي مات عليها يبقى عليه أثرها، فيقول: ربّي الله، وديني الإسلام، ونبيّ محمد ﷺ.

أما الكافر ولو كان قارئًا، ولو كان عالمًا، فلا يدري بالجواب، ويزيغه الله، فيقول: هاه هاه لا أدري، وفي بعض الروايات أنّه يضرَبُ بمرزبّةٍ من حديد، والمرزبة: هي حديدةٌ كبيرةٌ لها رأس كبير يضرب بها، وفي بعض الروايات: «لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا»[1]! ماذا يتحمّل هذا الإنسان، يُضرب بهذه المرزبة، ولكن لَمَّا أنّ الله ما أراد إفناءه لا يفنى، ولكن يتألّم بذلك، ولو كنّا لا نشعر بذلك، ولا تدركه أفهامنا.

ولكن إذا سئل المؤمن وأجاب بالجواب الصحيح، «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوه مِنَ الجَنَّة، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى الجَنَّة، قَالَ: فَيَأْتِيه مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه»، وينظر إلى منزله من الجنّة، وفي بعض الروايات: «يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النَّارِ، فيقول: هذا كان مَنْزِلُكَ لو كَفَرْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ آمَنْتَ فَهَذَا مَنْزِلُكَ، فَيُفْتَحُ له بَابٌ إلى الجَنَّةِ»[2]، فينظر إليه فيراهما جميعًا، فيقول: ربِّ أقِم الساعة حتّى أرجع إلى أهلي ومالي، ويفسح له في قبره مدّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

بصره، ويكون قبره روضة من رياض الجنّة، وإن كنّا لا ندرك ذلك.

كذلك الكافر والعياذ بالله، «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوه مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى النَّارِ، فَيَأْتِيه مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عليه قَبْرُه، حتى تَخْتَلِفَ فيه أَضْلَاعُه»، ويكون عليه حفرة من حفر النار، وإن كنّا لا ندرك ذلك؛ لأنّه في عالم ونحن في عالم.

وقد وردت الأدلّة توضّح مثل هذا، وتثبت عذاب القبر، مثل ما في حديث أنس ﷺ الذي مرّ معنا قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِه وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُه، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِه ...»[1]. إلى آخره.

فإذا قال قائل: أين هذا؟ فنحن قد نحفر القبر بعد يومين أو ثلاثة، فنجده كما وضعناه لم يتغيّر، ويقول بعضُهم: إنّنا نضع على صدره الزّئبق الذي هو خفيف الحركة، فنجده لا يتغيّر عن موضعه، كيف يكون ذلك؟

الجواب: أنّكم في عالمٍ، وهم في عالم، العالم الذي هم فيه هو عالم الأرواح، التي يكون عليها الحساب وعليها العذاب، وهي التي تتعذّب وتتنعّم ونحن لا نشعر بذلك ولا تدركه أفهامنا. ولذلك يقول في الحديث: «يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إلا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ»[2]. لو أسمعنا الله ما يكون من أهل القبور، لَمَا استقرّ الناس في الدنيا، ولما تهنّوا في مأكلٍ ولا مشربٍ، ولما عمرت هذه

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الدّنيا بأهلها؛ لأنّهم لو كانوا يسمعون عذاب هؤلاء وبكاءهم وعويلهم وأنّهم سيصيرون إلى مثل ذلك تنكّدت عليهم الحياة، وتكدّر عليهم صفوها. ولذلك لمّا أراد الله عمارة هذه الدنيا حجب عنهم الأمور الأخرويّة التي أوّلها ما بعد الموت فلا يسمعون شيئًا ممّا فيها، ولا يعلمون ما فيها.

لكن قد يطلع الله أفرادًا منهم على شيء من ذلك، فمن أراد أن يعرف شيئًا من ذلك، فليرجع إلى الكتب التي ذكرنا، مثل: كتب ابن أبي الدنيا، وكتاب «أهوال القبور» لابن رجب، وكتاب «الروح» لابن القيم؛ فقد ذكروا أُناسًا أطلعوا على بعض من الأمور الأخرويّة، منها ما هو أحلام ورؤى، ومنها ما هو رأيُ عين، فقد روي أن شابًا مات فدفن، فرآه رجل من جيرانه في المنام وقد شاب، فقال له: ما قصتك؟ قال: دُفن بشر المريسي في مقبرتنا، فزفرت جهنم زفرة شاب منها كل من في المقبرة[1].

معلوم أنّ الاثنين قد يكون أحدهما سعيدًا والآخر شقيًّا، ويدفنان في قبرين متجاورين، فيكون هذا قبره روضة من رياض الجنّة، وهذا قبره حفرة من حفر النار، وهما متلاصقان ولا يتألّم هذا بعذاب هذا، ولا يتنعم هذا بنعيم هذا، والله قادر على كلّ شيء؛ لأنّه يقدر على إيصال كلٍّ ما يستحقّه، ولا يستبعد في قدرة الله أمثال هذه الأمور.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٦٦). وأخرج نحوه الخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٣)، وابن الجوزي في المنتظم (١٠/ ٢٧٨).

وأمّا الحكايات الدنيويّة، فقد ذكروا منها أشياء كثيرةً: ذكروا أنّ رجلًا من النّاس لما دفنوه وسوّوا عليه لَبِنَهُ، سقطت قلنسوة واحد منهم، فخفض رأسه ليأخذها، فرأى القبر قد مدَّ وقد وسِّع في نظر عينه، ولو لم ير ذلك غيره، وهذه بشرى للميت.

وكذلك أيضًا ما يحكى عن كثير من الذين يُشهد لهم بالخير، أنّه يخرج من قبورهم رائحة المسك، وأنّهم يشمّ منهم قبل أن يدفنوا روائح طيّبة على الأبدان، فكيف بالأرواح؟! والله تعالى أخبر على لسان رسله بهذه الأمور، وبيّن منها علامات؛ لتكون شاهدًا ودليلًا للأمّة على مثل هذه الأمور التي لم يروها.

وكذلك يُطلع اللهُ نبيَّه ﷺ على ما لا يطّلع عليه غيره، فقد أخرج مسلم في «صحيحه»[1] عن زَيْد بن ثَابِتٍ ﷺ قال: بَيْنَمَا النبي ﷺ في حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ على بَغْلَةٍ له وَنَحْنُ معه، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وإذا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أو خَمْسَةٌ أو أَرْبَعَةٌ، فقال: «**من يَعْرِفُ أَصْحَابَ هذه الْأَقْبُرِ؟**»، فقال رَجُلٌ: أنا، قال: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟**»، قال: مَاتُوا في الْإِشْرَاكِ، فقال: «**إِنَّ هذه الْأُمَّةَ تُبْتَلَى في قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ من عَذَابِ الْقَبْرِ الذي أَسْمَعُ منه**». فأطلعه الله على ما لم يطلع عليه غيره، ولا يلزم من ذلك أن يكون مطّردًا، فليس كلّ من ركب حمارًا ومرّ على قبر يشعر بذلك الحمار.

والدوابّ قد يكون لها سماع وانتباه لشيء لا يسمعه الإنسان، ولكن قد

---

(١) برقم (٢٨٦٧).

لا يظهر عليها أثر هذا السماع، وقد أخبر النبيّ ﷺ بأنّ الدوابّ في صباح كلّ يوم جمعة تصيخ قرب الصباح أو بعد الصباح إلى طلوع الشمس، تخشى أن يكون ذلك يوم القيامة. يقول في الحديث في فضل يوم الجمعة: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عليه، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وما من دَابَّةٍ الا وهي مُسِيخَةٌ[1] يوم الجُمُعَةِ من حِينِ تُصْبِحُ حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقاً مِنَ السَّاعَةِ إلا الجِنَّ والأنس»[2]. ونحن لا نشعر بهذه الإصاخة التي فيها هذا الوجل وهذا الخوف، وكذلك أيضًا لا نشعر بما يحصل لها من الخوف، أو من السماع المفزع أو نحو ذلك.

أما الرسل، فإنّ الله سبحانه قد يطلعُهم على بعض الأمور الغيبيّة؛ فمن ذلك أنّ الله تعالى أطلع نبيّه على هذين القبرين الذين يعذّبان، وقد مرّ بنا حديثهم في قوله: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ»[3]. وهذا من خصائص الرسول ﷺ، فالله تعالى هو الذي يطلعه على ما يشاء، ولا يجوز لغيره أن يغرز جريدة، أو عصًا رطبةً على أيّ قبر، ولا يمكن أن تكون تلك الجريدة تؤثّر كغيرها، ولا يمكن أن يقاس على الجريدة التي غرزها الرّسول ﷺ غيرها.

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٣٣): «مسيخة: أي مصغية مستمعة، ويروى بالصاد وهو الأصل».

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٤٦) واللفظ له، والنسائي (١٤٣٠)، وأحمد (٢/ ٤٨٦)، (٥/ ٤٥٣)، ومالك (١/ ١٠٨)، وابن حبان (٧/ ٧)، والحاكم (١/ ٢٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٧).

وقد ذُكر أن بعض الناس يستدلون بهذا الحديث على مشروعية أن يُغرز على كلّ قبر جريدة، وكلّما يبست نزعت وغرز مكانها أخرى، وهذا لم يفعله النبيّ ﷺ مع كلّ أحد، ولم يفعله الصحابة رضي الله عنهم، فلا يجوز، ولا وزن له ولا دلالة، ولكن علينا أن نعمل الأعمال الصالحة التي تُنجي من عذاب القبر، وعلينا أن ننصح المسلمين بأن لا يعملوا عملًا يدخلهم في العذاب، أو يؤهّلهم في العذاب، ونحثّهم على الأعمال الصالحة التي يستحقّون بها نعيم البرزخ، وينجيهم الله بها من عذاب النار وعذاب القبر.

واستحبّ العلماء في الصلاة على الجنازة أن يُدعى للميّت بالنجاة من عذاب القبر، كأن يُقال في الدعاء له ـ بعد ما يُدعى له بالمغفرة وتكفير الخطايا ـ: اللهمّ افسح له في قبره، ونوِّر له فيه. هذا مما يُرجى إجابته، أن يُفسح له في قبره. ويقال أيضًا: اللهمّ أنجه من عذاب القبر، ومن عذاب النار. هكذا يستحبّ أن يُدعى للميّت.

ويُدعى كذلك لكلّ المسلمين، أن ينجيهم الله من عذاب القبر، ومن فتنة القبر، ومن فتنة ما بعد الموت... وهكذا

أجمع المسلمون على الدعاء بذلك، بل أوجبه بعضهم في آخر الصلاة، فهو دليل على أنّهم موقنون بذلك، ويدلّ على وجوبه قوله ﷺ: «**إذا فَرَغَ أَحَدُكُم مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ فَلْيَتَعَوَّذْ بِالله من أَرْبَعٍ: من عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ**

فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»[١]. فجعل من جملتها عذاب القبر، فدلّ على أنّه عقيدة راسخة عند المسلمين أنّ القبر فيه عذاب، ولو لم يقبر، قد يقال: إنّ هناك أمم لا يدفنون أمواتهم بل يحرقونهم، وهناك من يموت في الصحراء ولا يُدفن بل تأكله الطيور، وتقطّعه السباع ولا يبقى له جثة أبدًا؟

نقول: يأتيه عذابه ولو كان رمادًا، ولو كان ترابًا؛ فقدرة الله تأتي على كلّ شيء، يعذّب أيًّا كانت حياته وحالته، لكن الأصل شرعيّة الدفن للأموات، فالإسلام شرع التدافن. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس:٢١]، أي: فشرع أن يقبر. ويقول النبيّ ﷺ: «إِنَّ هذه الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ من عَذَابِ الْقَبْرِ الذي أَسْمَعُ منه»[٢]. كأنه يقول: لو أنّه أسمعهم ما يسمع من عذاب القبر خُشِي أنّهم لا يتدافنون، وأنّهم يقولون لا حاجة إلى الدفن؛ فإنّه يعذّب في قبره، ولكن شرع الله التدافن، وقدّر أن يصل العذاب أو النعيم إلى كلّ واحد، سواء أدفن أم لم يدفن.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ١٥٥).

قال الشارح:

وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِه لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَسُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ وَالْإِيمَانُ به، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّتِه، إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وُقُوفٌ على كَيْفِيَّتِه، لِكَوْنِه لَا عَهْدَ له به في هذه الدَّارِ، وَالشَّرْعُ لَا يأتي بِمَا تُحِيلُه الْعُقُولُ، وَلَكِنَّه قَدْ يأتي بِمَا تَحَارُ فيه الْعُقُولُ. فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إلى الجَسَدِ لَيْسَ على الْوَجْه الْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إليه إِعَادَةً غَيْرَ الْإِعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي الدُّنْيَا.

---

قال الشيخ:

قد كثرت الأدلة في إثبات عذاب القبر، فأخبر النبي ﷺ به، وعلينا أن نصدق به، وقد كتب العلماء في ذلك وتوسعوا فيه، كتب في ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب «الروح» وأورد الأدلة، ثم إنه أورد شبهات من الفلاسفة ونحوهم الذين يكذبون بذلك، ويقولون: كيف يُجلس في قبره، وكيف يوسع عليه، وكيف يُضيق عليه، ويقولون: إننا وضعنا على صدره الزئبق الذي هو أخف شيء حركة، وفتحنا عليه بعد ثلاثة أيام فوجدناه كما وُضع لم يتحرك أية شيء منه، ونحو ذلك من شبههم.

فنحن نصدق بما جاء في الأحاديث ونقول: سمعنا وأطعنا، نعتقد أن ذلك حق.

قوله: (وَسُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ)، أي: سؤالهم لكل ميت من ربك؟ وما دينك؟

ومن نبيك؟

ونظرًا لتواتر الأخبار عن الرسول ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه كان ذلك مما يجب تصديقه، وإن لم تدركه العقول، وإن لم يكن في متناول الأنفس، بل إن هذا من الأمور الغيبة التي نؤمن بها وإن لم نرها.

يقول: (**وَالشَّرْعُ لَا يأتي بِمَا تُحِيلُه الْعُقُولُ، وَلَكِنَّه قَدْ يأتي بِمَا تَحَارُ فيه الْعُقُولُ**)، تتحير العقول وتسلم أمرها لله، ولا تكيف، ولا تنكر الأشياء التي جاءت الأدلة عليها يقينًا.

ثم قال: (**فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إلى الجَسَدِ لَيْسَ على الْوَجْه الْمَعْهُودِ في الدُّنْيَا**)، ما جاء في الحديث: «**وَتُعَادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ...**»[1] إلى آخره، ليس معناه أن روحه تعود إليه كما كانت في الدنيا بحيث يستيقظ ويحتاج إلى أكل ويحتاج إلى شراب، وإلى حركة طبيعية، ولكنه اتصال الله تعالى أعلم بحقيقته.

قوله: (**بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إليه إِعَادَةً غَيْرَ الْإِعَادَة الْمَأْلُوفَة في الدُّنْيَا**)، أي: كما يشاء الله تعالى.

---

(١) تقدم تخريجه (١٤٦).

قال الشارح:

فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَة أَنْوَاعٍ مِنَ التَّعَلُّقِ، مُتَغَايِرَة الْأَحْكَامِ:

أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا به في بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا.

الثاني: تَعَلُّقُهَا به بَعْدَ خُرُوجِه إلى وَجْه الْأَرْضِ.

الثَّالِثُ: تَعَلُّقُهَا به في حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا به تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْه، وَمُفَارَقَة مِنْ وَجْه.

الرَّابِعُ: تَعَلُّقُهَا به في الْبَرْزَخِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ فَارَقَتْه وَتَجَرَّدَتْ عنه فَإِنَّهَا لَمْ تُفَارِقْه فِرَاقًا كُلِّيًّا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا إليه الْتِفَاتٌ أَلْبَتَّة، فإنه وَرَدَ رَدُّهَا إليه وَقْتَ سَلَامِ الْمُسَلِّمِ[1]، وَوَرَدَ أنه يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عنه[2]، وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَة خَاصَّة، لَا يُوجِبُ حَيَاة الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَة.

الخَامِسُ: تَعَلُّقُهَا به يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ، وَلَا نِسْبَة لِمَا قبله مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إليه، إِذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ معه مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ. فَتَأَمَّلْ هَذَا يُزِحْ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كثيرة.

---

قال الشيخ:

قوله: (فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَة أَنْوَاعٍ)، كما ذكر ذلك ابن القيم - رحمه الله - في كتاب «الروح»، وتوسع في ذلك، في نحو عشرين صفحة.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٧).

(٢) كما في حديث أنس ﷺ الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

قوله: (أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا به في بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا)، فإذا كان في بطن أمه فإن فيه روح، ولكن تلك الروح لا نعلم كيفيتها؛ ولذلك لا يتنفس ولكنه يتحرك في بطن أمه مما يدل على حياته.

قوله: (الثاني: تَعَلُّقُهَا به بَعْدَ خُرُوجِه إلى وَجْه الْأَرْضِ)، وهو هذا التعلق المشاهد، إذا ولد البشر فساعة ما يخرج يُسمع له صوت، يعني: صيحة تدل على حياته، وكذلك أيضًا حركة، ثم بعد ذلك يبقى في هذه الحياة الدنيا يتنفس التنفس العادي، ويأكل ويشرب، ويحتاج إلى إخراج فضلات الأكل والشرب، وينام ويستيقظ، ويذهب ويجيء، ويسعى ويمشي، ويصعد وينزل، فهو حي كما هو مشاهد، يتكلم، ويتحرك، وينطق، ويسمع، ويبصر على ما هو معروف.

قوله: (الثَّالِثُ: تَعَلُّقُهَا به في حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا به تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْه، وَمُفَارَقَة مِنْ وَجْه)، النائم لم يفقد الحياة؛ ولأجل ذلك يتنفس التنفس العادي، ولكن ليس به الحركة، وليس به اليقظة، وقد جاء في حديث أبي قَتَادَةَ ﷺ أنه قال: سِرْنَا مع النبي ﷺ لَيْلَةً، فقال بَعْضُ الْقَوْمِ: لو عَرَّسْتَ بِنَا يا رَسُولَ الله، قال: «أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عن الصَّلَاةِ»، قال بِلَالٌ: أنا أُوقِظُكُمْ، فَاضْطَجَعُوا، وَأَسْنَدَ بِلَالٌ ظَهْرَهُ إلى رَاحِلَتِهِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ النبي ﷺ وقد طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ، فقال: «يا بِلَالُ، أَيْنَ ما قُلْتَ؟» قال: ما أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُهَا قَطُّ، قال: «إِنَّ الله قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حين شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حين

شَاءَ...» الحديث[1]. إلى آخر ما ذُكر، فمفارقتها له بالنوم ليست بمفارقة كاملة كالمفارقة بعد الموت، ولكن خرجت وبقي أثرها، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

قوله: (الرَّابِعُ: تَعَلُّقُهَا به فِي الْبَرْزَخِ)، وهذا هو ما يحصل به عذاب القبر أو نعيمه، فنعتقد أنه إذا مات فإن روحه تبقى حية، وموتها خروجها من هذا الجسد ومفارقتها له، ولكنها باقية؛ ولهذا توصف بأنها تصعد وتنزل، وتذهب وتجيء، وتوصف بأنها حية تتحرك كما يشاء الله، ونحن نعجز عن أن ندرك ماهية الروح التي كانت في البدن وخرجت منه، ولكن نعلم أنها مخلوقة، ونعلم أن لها حركة وانتقال وذهاب ورجوع، فإذا مات وفارقته هذه الروح لا يُقال: إنها فارقته فراقًا كليًا، بل لا يزال لها تعلق به، يبقى لها إليه التفات، لا تفارقه فراقًا كاملاً أبدًا، وقد ورد أنها تُرد إليه وقت سلام المسلم، ثبت ذلك في حق النبي ﷺ، أنه قال: «ما من أَحَدٍ يُسَلِّمُ عليّ إلا رَدَّ الله عليّ رُوحِي حتى أَرُدَّ عليه السَّلامَ»[2]، وورد أيضًا كذلك في حق غيره أن الإنسان إذا سلم على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٦٧): «هو كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، ولا يلزم من قبض الروح الموت، فالموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهرًا وباطنًا، والنوم: انقطاعه عن ظاهره فقط».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الميت أو على أهل القبور يسمعون سلامه، ولما وقف النبي ﷺ على جثث القتلى في بدر، أخذ يخاطبهم مخاطبة الأحياء، ويوبخهم على أعمالهم وردهم لرسالته، وقال لأصحابه: «**ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ منهم، غير أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شيئًا**»[1]، ويريد بذلك أرواحهم التي قد فارقت أجسادهم، هكذا أخبر.

وورد أن الميت إذا انصرف أصحابه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وفي حديث عن أنس ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم: «**إِنَّ الْعَبْدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ**»[2].

ثم قال: (**وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَة خَاصَّة، لَا يُوجِبُ حَيَاة الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَة**)، فترد عليه الروح مع أن البدن قد فني وصار ترابًا أو رمادًا، أو أُحرق، أو أكلته الطيور أو السباع، ومع ذلك فإن الروح باقية إذا سلم عليه أحد يرد عليه السلام.

قوله: (**الخَامِسُ: تَعَلُّقُهَا به يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ**)، فعندما يعيد الله الأجساد وتنبت إلى أن تتواصل وتكمل ولو كانت قد أُحرقت الأبدان، ولو أكلها الدود، ولو أكلها التراب يعيدها الله، وهو سبحانه على كل شيء قدير؛ كما في قصة ذلك الرجل الذي مر على قرية فقال: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٠) بنحوه، ومسلم (٢٨٧٣) واللفظ له، من حديث عمر ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾، ومعلوم أنه بعد موته مئة عام يصير ترابًا، وكان معه أيضًا حمار فأحيا الله أيضًا ذلك الحمار، وقال له: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة:٢٥٩]، فكل ذلك دليل على قدرة الله تعالى، وأنه في الآخرة يعيد الأجسام حتى تتكامل، ثم تدخلها الأرواح، ثم يقوم حيًا سويًا، وهذه الإعادة هي أكمل الإعادات.

ثم قال: (وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ، وَلَا نِسْبَةَ لِمَا قبله مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إليه، إِذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ معه مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ. فَتَأَمَّلْ هَذَا يُزِحْ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كثيرة).

قال الشارح:

وَلَيْسَ السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وغيره، وَأَفْسَدُ منه قَوْلُ مَنْ قَالَ: أنه لِلْبَدَنِ بِلَا رُوحٍ! وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَة تَرُدُّ الْقَوْلَيْنِ.

وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْقَبْرِ يَكُونُ لِلنَّفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السنة وَالْجَمَاعَة، تَنْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَة عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَة به.

وَاعْلَمْ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ نَالَه نَصِيبُه منه، قُبِرَ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ، أَكَلَتْه السِّبَاعُ أَوِ احْتَرَقَ حتى صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ صُلِبَ، أَوْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ، وَصَلَ إلى رُوحِه وَبَدَنِه مِنَ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إلى الْمَقْبُورِ.

---

قال الشيخ:

أخبر النبي ﷺ بأن السؤال في القبر للبدن والروح، فقد جاء في حديث البراء بن عازب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ له: من رَبُّكَ؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي»[1]، وإن كنا لا نسمع ذلك السؤال والجواب، وإن كنا نتيقن أن البدن لا يتحرك، فالله تعالى على كل شيء قدير، قادر على أن يعيد إليه الحياة حياة برزخية، كما أخبر الله عن حياة الشهداء في قوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، وقال

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

النبي ﷺ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ من الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إلى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ...»[1]، مع أن أجسادهم قد دُفنت، فقد دفنهم أهلوهم، حفروا لهم ودفنوهم مما يدل على أنهم ماتوا الموتة التي كتبها الله عليهم، وأخبر الله أن أهل الجنة لا يموتون بقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]، فهكذا يكون عذاب القبر، فليس السؤال في القبر للروح وحدها ولا للبدن بلا روح بل لهما كما يشاء الله.

وكذلك العذاب يكون على البدن ولو كان ترابًا، ويكون على الروح، باتفاق أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة يقولون: (تَنْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَة عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَة به)، كما يشاء الله.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: (وَاعْلَمْ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ)، البرزخ هو: ما بين الدنيا والآخرة، فالعذاب الذي يُسمى (عذاب البرزخ) هو العذاب الذي قيل: إنه عذاب القبر، ولكن عُبر بعذاب القبر؛ لأنه هو الغالب.

قوله: (قُبِر أو لم يُقبر، ولو أكلته السباع، أو احترق حتى صار رمادًا...)، هذا هو الصحيح عند أهل السنة أنه يصل إليه ما كتب الله عليه من العذاب ولو لم يكن مدفونًا، هكذا يعتقد أهل السنة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود ﷺ.

قال الشارح:

وَمَا وَرَدَ مِنْ إِجْلَاسِه وَاخْتِلَافِ أَضْلَاعِه وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُه مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، فَلَا يُحَمَّلُ كَلَامُه مَا لَا يَحْتَمِلُه، وَلَا يُقَصَّرُ به عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَه مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عنه مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُه إِلَّا الله. بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ الله ورسوله أَصْلُ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَإٍ فِي الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ أُضِيفَ إليه سُوءُ الْقَصْدِ. والله الْمُسْتَعَانُ.

---

قال الشيخ:

صح أن الميت يجلس في قبره، ويأتيه ملكان فيجلسانه، ونحن نعلم أنه ليس الإجلاس الحقيقي؛ لأننا نعلم أن القبر يضيق به لو جلس في حياته الدنيا، وورد أيضًا أنه إذا كان شقيًا ينضم إليه القبر حتى تختلف أضلاعه، يعني: من شدة ضم القبر، هذا أيضًا ليس كالضم الذي نعرفه، بل هو كما يشاء الله، وكذلك أيضًا أن القبر يوسع عليه مد بصره، ليس كما ندركه نحن؛ لأننا في عالم وهم في عالم.

قوله: (فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُه مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ)، أي: يجب أن نفهم مراد النبي ﷺ، ونقول: هذا كله صحيح، ولكن لا نقول: إنه كحالته في الدنيا، فإن ذلك معلوم أنه ليس بصحيح، فالذين غلوا وقالوا: إن الأموات في قبورهم كأنهم أحياء، كما يعتقد ذلك أهل الغلو، الذين يغلون في

الأولياء ونحوهم، فهذا خطأ؛ لأنهم قد ماتوا كما يموت غيرهم، وما ورد من إحياء الشهداء ونحوهم أمر لا يعرف كيفيته إلا الله، ولا نقصر كما فعلت الفلاسفة الذين أنكروا ذلك إنكارًا حقيقًا.

قوله: (فَلَا يُحَمَّلُ كَلَامُه مَا لَا يَحْتَمِلُه)، أي: لا نحمل كلام النبي ﷺ ما لا يحتمله، فنقول: إنه حقيقي وأنه يصوت وأنه يُسمع ونحو ذلك.

قوله: (وَلَا يُقَصَّرُ به عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَه مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ)، وكذلك لا نقصر به عن مراده، إذا أراد شيئًا فلا نقصر به عنه، ولا عما قصده من الهدى والبيان فإن له قصد أن يهدي الناس ويُبين لهم.

قوله: (فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عنه مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُه إِلَّا الله. بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ الله ورسوله أَصْلُ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ)، حيث إنهم صدوا عن سبيل الله، وفهموا عن الله فهمًا بعيدًا خاطئًا، ثم أدى بهم ذلك إلى أن ابتدعوا بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

قوله: (وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَأٍ فِي الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ)، يعني: كل من أخطأ في الفروع التي هي الاجتهادات والأعمال، والأصول التي هي: العقائد، أصلها سوء الفهم، فأصل كل خطأ سوء الفهم عن الله ورسوله.

قوله: (وَلَا سِيَّمَا إِنْ أُضِيفَ إليه سُوءُ الْقَصْدِ)، يعني: أن يكون قصده شيئًا كحالة المبتدعة ونحوهم.

قال الشارح:

فَالحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَة: دَارُ الدُّنْيَا، وَدَارُ الْبَرْزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ. وَقَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخُصُّهَا، وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا على الْأَبْدَانِ، وَالْأَرْوَاحُ تَبَعا لَهَا، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ على الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانُ تَبَعا لَهَا، فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ على الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا.

فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا المعنى حَقَّ التَّأَمُّلِ، ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّة أَوْ حُفْرَة مِنْ حُفَرِ النَّارِ مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ، وأنه حَقٌّ لَا مِرْيَة فيه، وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ التي في الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ، لَيْسَت مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ الله تعالى يَحْمِي عليه التُّرَابَ وَالْحِجَارَة التي فَوْقَه وَتَحْتَه حتى تَكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحِسُّوا بِهَا. بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إِلى جَنْبِ صَاحِبِه، وَهَذَا في حُفْرَة مِنَ النَّارِ، وَهَذَا في رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّة، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إِلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِه، وَلَا مِنْ هَذَا إِلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِه. وَقُدْرَة الله أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ مُولَعَة بِالتَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ به عِلْمًا.

وَقَدْ أَرَانَا الله في هذه الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِه مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ. وَإِذَا شَاءَ الله أَنْ يُطْلِعَ على ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِه أَطْلَعَه وَغَيَّبَه عَنْ غيره، وَلَوْ أَطْلَعَ الله على ذَلِكَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَة التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَمَا تَدَافَنَ النَّاسُ، كَمَا

في «الصَّحِيحِ» عنه ﷺ: «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ»[1]. وَلَمَّا كَانَتْ هذه الْحِكْمَة مُنْتَفِيَة في حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ.

---

قال الشيخ:

قوله: (فَالحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَة: دَارُ الدُّنْيَا، وَدَارُ الْبَرْزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ)، كما يشاء الله، دار الدنيا: معروفة، ودار البرزخ: بين الدنيا والآخرة، ودار القرار: هي الآخرة التي ليس بها ظعن ولا ارتحال.

قوله: (وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخُصُّهَا)، فدار الدنيا لها أحكام، ودار البرزخ الذي هو بعد الموت لها أحكام تخصها، وهكذا دار الآخرة.

قوله: (وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ)، والمراد بالنفس الروح، أي: أنه بدن الذي له ثقل، ونفس التي ليس لها ثقل، فإن الإنسان إنما ثقله ووزنه هو بهذا البدن الذي هو دم وجلد وعظم وعصب ولحم وأمعاء.. ونحو ذلك؛ ولهذا إذا خرجت منه الروح لا يخف وزنه بل هو كما كان عليه.

قوله: (وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا على الْأَبْدَانِ)، أي: جعل الله أحكام الدنيا على الأبدان: الجلد والعقوبات والطعن والقصاص ونحو ذلك على هذه الأبدان، التي هي الجسد واللحم والعظم.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٥٥).

قوله: (وَالْأَرْوَاحُ تَبَعا لَهَا)؛ لأنها هي التي تتألم؛لأن بها الحياة، فالأرواح تابعة للأبدان، وإلا فالأحكام في الدنيا كلها على الأبدان.

قوله: (وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ على الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانُ تَبَعا لَهَا)، بحيث إن الروح هي التي تُعذب وتُنعم،وهي التي تذهب وتجئ، وهي التي تخرج وترجع، والأبدان تبع لها قد يوصل إليها الله تعالى شيئًا من النعيم، ومن العذاب، وإن كنا لا ندرك ذلك.

قوله: (فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ على الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا)، أي: إذا رُدت الأرواح إلى أجسادها في الآخرة فإن الأحكام تتعلق بالبدن والروح جميعًا؛ لأنها اتصلت بالبدن اتصالاً كليًا بحيث إنها لا تفارقه أبدًا لا في موت ولا في نوم ونحو ذلك، فإذا قام الناس من قبورهم وردت إليهم أرواحهم، فالحكم حينئذٍ والنعيم أو العذاب عليهما جميعًا: الروح والجسد.

ثم قال: (فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا المعنى حَقَّ التَّأَمُّلِ، ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ) أي: عليك أن تتأمل اتصالات أو تعلق الروح بالبدن، وكذلك أيضًا تتأمل الدور الثلاثة، وتعرف بذلك أن النبي ﷺ لما أخبر أن القبر روضة من رياض الجنة على المؤمنين أن ذلك صحيح، أو كذلك حفرة من حفر النار[1] أن ذلك مطابق للعقل، وأن

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الذين أنكروا ذلك قصرت عقولهم.

قوله: (وأنه حَقٌّ لَا مِرْيَة فيه)؛ لأنه أخبر به الصادق المصدوق؛ (وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ)، فنحن نؤمن بالغيب الذي مدح الله تعالى به المتقين، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٢، ٣]، أي: من الغيب كل ما أخبر الله به وأخبر به نبيه ﷺ مما يكون بعد الموت كعذاب القبر ونعيمه ونحو ذلك.

ثم يقول: (وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ التي فِي الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ، لَيْسَت مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ الله تعالى يَحْمِي عليه التُّرَابَ وَالْحِجَارَة التي فَوْقَه وَتَحْتَه حتى تكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحِسُّوا بِهَا)، أي: ليست محسوسة، والتي لها حرارة، والله تعالى قادر على أن يجعل التراب الذي عليه، واللبن الذي عليه يشتعل حرارة شديدة، ولكن ذلك ليس بمحسوس؛ لأننا لا نحس به ولا نشعر بشيء من ذلك، وكذلك لو كان عليه حجارة فالله قادر على أن يجعلها حارة شديدة الحرارة، ولكن لا نحس بشيء من ذلك، نحن نجعل فوقه هذه اللبنات، وقد يُجعل فوقه أيضًا حجارة على فم اللحد، وكذلك يكون تحته لبن أو تحته تراب، والله تعالى قادر على أن يجعله حارً حتى يكون أعظم حرارة من جمر الدنيا، ولكن أهل الدنيا لو لمسوه ما أحسوا بذلك؛ لأن هذا شيء من الأمر الأخروي الذي لا يصل إليه فهم الناس، ولا معرفة أذهانهم ولا ما هم عليه.

يقول: (بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إلى جَنْبِ صَاحِبِه، وَهَذَا في حُفْرَة مِنَ النَّارِ، وَهَذَا في رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الجَنَّة، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِه، وَلَا مِنْ هَذَا إلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِه)، أي: إذا كان أحدهما شقيًا كافرًا فاسقًا خارجًا عن طاعة الله أو مبتدعًا، والآخر مؤمنًا نقيًا عقيدته سليمة يحب الله ورسوله، ويحب صحابة رسوله رضوان الله عليهم، ويحب العمل الصالح ويعمل بها، فالله تعالى قادر على أن يجعل هذا كأنه في حفرة من حفر النار، والآخر في روضة من رياض الجنة، وكل منهما إلى جنب صاحبه لا يحس هذا بحرارة النار التي على صاحبه، ولا هذا بالنعيم والزهور والروح والريحان الذي فيه الآخر، فالله تعالى على كل شيء قدير، (وَقُدْرَة الله أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ).

قوله: (وَلَكِنَّ النُّفُوسَ مُولَعَة بِالتَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ به عِلْمًا)، كما يقول ذلك ويفعله الفلاسفة والمكذبون، كأنهم يقولون: لا نصدق إلا بما نشاهد، وهذه حالة كثير من الفلاسفة ونحوهم الذين لا يقرون إلا بما يشاهدونه بالحواس، أي: بما يرونه وبما يسمعونه وبما يلمسونه، فالفلاسفة كذبوا بما لم يروه، وقالوا: إنا وضعنا على الميت زئبقًا ووجدناه لم يتحرك ولم يتغير.

يقول: (وَقَدْ أَرَانَا الله في هذه الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِه مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ)، بمعنى أننا رأينا عجائب قدرة الله في أنه يتصرف في عباده، فيكون هذا مؤمنًا وأهله كفار، وبعكس ذلك، وهذا من العجائب، وقدرة الله أوسع من ذلك كله.

وقد ذكر العلماء الذين كتبوا في هذا الباب وقائع كثيرة، فذكر ابن أبي الدنيا في كتاب (القبور) أمثلة تدل على عذاب هذا ونعيم هذا، مما اطلع الله عليه العباد، وكذلك أيضًا ذكره ابن القيم في كتاب (الروح) فقد توسع في مثل ذلك، وكذلك أيضًا ابن رجب في كتابه (أهوال القبور)، أمثلة كثيرة مما أطلعهم الله على بعض الأموات المعذبين أو المنعمين، هذا كله مما قدره الله، ومما أطلع به عباده على المغيبات.

قوله: (وَإِذَا شَاءَ الله أَنْ يُطْلِعَ على ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِهِ أَطْلَعَه وَغَيَّبَه عَنْ غيره)، كما وقع ذلك لكثير حتى ذكروا أن إنسانًا رأى إنسانًا يخرج ثم يشتعل نارًا ثم يغيب، وغير ذلك من الأمثلة. ثم قال: (وَلَوْ أَطْلَعَ الله على ذَلِكَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَةُ التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَمَا تَدَافَنَ النَّاسُ)، يعني: لو أنهم اطلعوا على هذه الأحوال لزالت حكمة الإيمان بالغيب.

يقول: (كما في الصحيح عنه ﷺ: «فَلَوْلا أَنْ لا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ من عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ»)، أي: يقول: إنه يسمع كثيرًا من عذاب القبر ويطلع على بعض من يُعذب، كما في الصحيح أَنَّهُ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ من الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[1]، فهكذا أطلعه الله، وأخبر ﷺ بأن الميت يصيح، وقال: «ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ من حَدِيدٍ ضَرْبَةً بين أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٧).

من يَلِيهِ إلا الثَّقَلَيْنِ»[١]، وقال ﷺ: «إذا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ على أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كانت صَالِحَةً قالت: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كانت غير صَالِحَةٍ قالت لأَهْلِهَا: يا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بها؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إلا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سمع الإِنْسَانُ لَصَعِقَ»[٢]، ولكن الله أخفى عن الإنسان هذه الأمور الغيبية، وليحصل الإيمان بالغيب الذي قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٢، ٣]، ومن جملة الغيب أن يؤمنوا بما أخبرهم الله به، وبما أخبرهم رسوله، ولو لم تدرك ذلك أذهانهم، ولا أعينهم، ولا أيديهم، بل يصدقون بذلك.

ثم قال: (وَلَمَّا كَانَتْ هذه الْحِكْمَةُ مُنْتَفِيَةً في حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ)؛ لأنها تسمع شيئًا من عذاب القبر، كما رُوي في ذلك أمثلة، رُوي أن بعض الدواب تحيص بصاحبها، ويُقال: إنها تسمع ولا نسمع ونحو ذلك كثير.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين؛ كالاسماعيلية والنصيرية وسائر القرامطة من بنى عبيد وغيرهم، الذين بأرض مصر والشام وغيرهما، فإن أهل الخيل يقصدون قبورهم لذلك، كما يقصدون قبور اليهود

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٦) حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

والنصارى، والجهال تظن أنهم من ذرية فاطمة، وأنهم من أولياء الله، وإنما هو من هذا القبيل، فقد قيل: إن الخيل إذا سمعت عذاب القبر حصلت لها من الحرارة ما يذهب بالمغل»[1].

وقال أيضًا: «وطلبت طائفة من سياس الخيل، فقلت: أنتم بالشام ومصر إذا أصاب الخيل المغل أين تذهبون بها؟ فقالوا: في الشام يُذهب بها إلى قبور اليهود والنصارى، وإذا كنا في أرض الشمال يُذهب بها إلى القبور التي ببلاد الإسماعيلية كالعليقة والمنيقة ونحوهما، وأما في مصر فيُذهب بها إلى دير هناك للنصارى، ونذهب بها إلى قبور هؤلاء الأشراف - وهم يظنون أن العبيديين شرفاء؛ لما ادعوا أنهم من أهل البيت - فقلت: هل يذهبون بها إلى قبور صالحي المسلمين، مثل: قبر الليث بن سعد، والشافعي، وابن القاسم، وغير هؤلاء؟ فقالوا: لا، فقلت لأولئك: اسمعوا، إنما يذهبون بها إلى قبور الكفار والمنافقين، وبيَّنت لهم سبب ذلك، قلت: لأن هؤلاء يُعذبون في قبورهم، والبهائم تسمع أصواتهم، فإذا سمعت ذلك فزعت، فبسبب الرعب الذي حصل لها تنحل بطونها فتروث، فإن الفزع يقتضي الإسهال، فيعجبون من ذلك، وهذا المعنى كثيرًا ما كنت أذكره للناس ولا أعلم أن أحدًا قاله، ثم وجدته قد ذكره بعض العلماء»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٧).

(٢) الرد على البكري (٥٠١ - ٥٠٣).

قال الشارح:

وَلِلنَّاسِ فِي سُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْ لَا؟ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الثَّالِثُ التَّوَقُّفُ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ، مِنْهُمْ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، فَقَالَ: وفي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ النبي ﷺ، أنه قَالَ: «إِنَّ هذه الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»[1]، مِنْهُمْ مَنْ يَرْوِيه «تُسْأَلُ»، وعلى هَذَا اللَّفْظِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هذه الْأُمَّةَ قَدْ خُصَّتْ بِذَلِكَ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُقْطَعُ به، وَيَظْهَرُ عَدَمُ الِاخْتِصَاصِ، والله أَعْلَمُ.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَلِلنَّاسِ فِي سُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْ لَا؟ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ)، القول الأول: إنه خاص، والقول الثاني: إنه عام، القول الثالث: التوقف، وهو قول جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر.

ثم ذكر حديث زيد بن ثابت ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ هذه الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»، فأخبر أنها تُبتلى، ولكن لا ينفي ذلك أن الأمم الأخرى تُبتلى، فإن الحكم واحد، وأن عذاب القبر يستحقه كل كافر من هذه الأمة ومن غيرها، فالصحيح والأقرب أن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ليس خاصًا بهذه الأمة، بل يكون أيضًا للأمم كلها، الأمم السابقة، وهذه الأمة وغيرها.

وهذا الحديث فيه: «إِنَّ هذه الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»، ويرويه بعضهم:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٥٥).

(تُسأل)، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خُصت بذلك، وهذا أمر لا يُقطع به، ويظهر عدم الاختصاص، وهذا هو الصحيح، أن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ليس خاصًا بهذه الأمة، بل الأمم السابقة يجيئهم مثل هذا، وكذلك أيضًا الأمم اللاحقة المعاصرون ولو كانوا يحرقون أمواتهم، ولو كانوا لا يدفنونهم، فإن عذاب القبر يأتي كل من قدر الله أن يعذب ولو كان رمادًا، ويقدر الله أن يوصل إليه العذاب ولو كان ترابًا، ولو كان لحمه في أجواف السباع أو نحو ذلك.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ اخْتُلِفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا.

وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ ؟

جَوَابُه أنه نَوْعَانِ: منه مَا هُوَ دَائِمٌ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]، وَكَذَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي قِصَّةِ الْكَافِرِ: «ثُمَّ يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النَّارِ فَيَنْظُرُ إلى مَقْعَدِه فِيهَا حتى تَقُومَ السَّاعَةَ»، رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1] في بَعْضِ طُرُقِه.

وَالنَّوْعُ الثاني: أنه مُدَّةً ثُمَّ يَنْقَطِعُ، وَهُوَ عَذَابُ بَعْضِ الْعُصَاةِ الَّذِينَ خَفَّتْ جَرَائِمُهُمْ، فَيُعَذَّبُ بِحَسَبِ جُرْمِه، ثُمَّ يُخَفَّفُ عنه، كَمَا تَقَدَّمَ ذكره في الْمُمَحِّصَاتِ الْعَشْرِ.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَكَذَلِكَ اخْتُلِفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا)، كما بحث ذلك ابن القيم في كتاب «الروح»[2]، ولعل الأقرب أنهم لا يُسألون؛ وذلك لأنهم لم يُكلفوا، والسؤال إنما يكون على المكلف الذي يُعذب أو يُنعم، أما الأطفال فقد اختُلف في أطفال الكفار الذين يموتون وهم صغار، والراجح أنهم

---

(١) في المسند (٤/ ٢٩٥).

(٢) (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦).

يمتحنون في الآخرة كالذين لم تبلغهم الرسالة وهم أهل الفترات.

يقول: (وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ ؟)، هذا أيضًا فيه خلاف، ثم ذكر أنه نوعان: الأول: ما هو دائم، والثاني: ما هو مدة ثم ينقطع.

وقد ذكر الله عذاب آل فرعون بقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]، دل على أنه دائم عرضهم على النار، وهذا في الدنيا قبل يوم القيامة، تُعرض أرواحهم على النار، وقد ذُكر في بعض الروايات أنها تذهب في أول النهار وهي صحيحة، وترجع وهي محترقة كأنها صور طير أو نحو ذلك، وهي أرواحهم، وأخرج الطبري[1] أن رجلاً سأل الأوزاعي فقال: رحمك الله، رأينا طيورًا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضًا فوجًا فوجًا، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سودًا، قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون، يُعرضون على النار غدوًا وعشيًا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها وصارت سوداء، فتنبت عليها من الليل رياش بيض وتتناثر السود، ثم تغدو، ويعرضون على النار غدوًا وعشيًا، ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله: ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

---

(١) في تفسيره (٢٤/ ٧١).

وذُكر في حديث البراء بن عازب ﷺ الطويل في قصة الكافر: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بابٌ إلى النَّارِ، فَيَنْظُرُ إلى مَقْعَدِه منها حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، هذا الحديث مشهور أخرجه الإمام أحمد وغيره، وقد سبق قريبًا، فهكذا أخبر بأنه يُفتح له بابٌ إلى النار، وأنه يأتيه من لهبها، ويأتيه من حرها، وأنه ينظر إلى ذلك المقعد ويقول: رب لا تقم الساعة؛ لأنه يعرف أنه إذا قامت الساعة جاء إلى ذلك المكان من النار الذي هو أشد عذابًا، فهؤلاء لا ينقطع عذابهم، عذاب القبر يستمر إلى قيام الساعة.

والنوع الثاني: ما هو مدة ثم ينقطع عذاب القبر في حقهم، وهذا عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فإذا ماتوا وهم على هذه المعاصي، فقد يُعذب بقدر جرمه، ثم يخفف عنه.

قوله: (كَمَا تَقَدَّمَ ذكره في المُمَحِّصَاتِ الْعَشْر)، يعني: المكفرات، يعني: أن هناك مكفرات للذنوب وهي عشرة، كالتوبة، والابتلاء في الدنيا، والحسنات الماحية، وكذلك عذاب القبر، والألم الذي في الموقف ونحو ذلك، وعلى كل حال فالأصل أن عذاب القبر قد اعترف به أهل السنة، وكذلك غيرهم وأنكره هؤلاء الفلاسفة ونحوهم، ولا عبرة بإنكارهم، والله تعالى على كل شيء قدير، والله تعالى أعلم.

قال الشارح:

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي مُسْتَقَرِّ الْأَرْوَاحِ مَا بَيْنَ الْمَوْتِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ:

فَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ عَلَى بَابِهَا، يَأْتِيهِمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا وَرِزْقِهَا.

وَقِيلَ: عَلَى أَفْنِيَةِ قُبُورِهِمْ.

وَقَالَ مَالِكٌ: بَلَغَنِي أَنَّ الرُّوحَ مُرْسَلَةٌ، تَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَتْ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَزِيدُوا عَلَى ذَلِكَ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَابِيَةِ مِنْ دِمَشْقَ، وَأَرْوَاحَ الْكَافِرِينَ بِبَرَهُوتَ بِبِئْرٍ بِحَضْرَمَوْتَ!

وَقَالَ كَعْبٌ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِلِّيِّينَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي سِجِّينَ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ تَحْتَ خَدِّ إِبْلِيسَ!

وَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ بِبِئْرِ زَمْزَمَ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ بِبِئْرِ بَرَهُوتَ.

وَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ يَمِينِ آدَمَ، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ عَنْ شِمَالِهِ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وغيره: مُسْتَقَرُّهَا حَيْثُ كَانَتْ قَبْلَ خَلْقِ أَجْسَادِهَا.

وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَفْنِيَةِ قُبُورِهِمْ.

وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أنه قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ كَطَيْرٍ خُضْرٍ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ، تَغْدُو وَتَرُوحُ إِلَى رِيَاضِ الْجَنَّةِ، تَأْتِي رَبَّهَا كُلَّ يَوْمٍ تُسَلِّمُ عليه.

وَقَالَتْ فِرْقَة: مُسْتَقَرُّهَا الْعَدَمُ المَحْضُ. وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ النَّفْسَ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِ الْبَدَنِ، كَحَيَاتِه وَإِدْرَاكِهِ! وَقَوْلُهُمْ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ والسنة.

وَقَالَتْ فِرْقَة: مُسْتَقَرُّهَا بَعْدَ المَوْتِ أَبْدَانٌ أُخَرُ تُنَاسِبُ أَخْلَاقَهَا وَصِفَاتِهَا التي اكْتَسَبَتْهَا في حَالِ حَيَاتِهَا، فَتَصِيرُ كُلُّ رُوحٍ إلى بَدَنٍ حَيَوَانٍ يُشَاكِلُ تِلْكَ الرُّوحَ! وَهَذَا قَوْلُ التَّنَاسُخِيَّة مُنْكِرِي المَعَادِ، وَهُوَ قَوْلٌ خَارِجٌ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ كُلِّهِمْ.

وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ بَسْطِ أَدِلَّة هذه الْأَقْوَالِ وَالْكَلَامِ عَلَيْهَا.

وَيَتَلَخَّصُ مِنْ أَدِلَّتِهَا: أَنَّ الْأَرْوَاحَ في الْبَرْزَخِ مُتَفَاوِتَة أَعْظَمَ تَفَاوُتٍ:

فَمِنْهَا: أَرْوَاحٌ في أَعْلَى عِلِّيِّينَ، في المَلَأِ الْأَعْلَى، وهي أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ وَسَلَامُه، وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ في مَنَازِلِهِمْ.

وَمِنْهَا: أَرْوَاحٌ في حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَسْرَحُ في الجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ، وهي أَرْوَاحُ بَعْضِ الشُّهَدَاءِ، لَا كُلِّهِمْ، بَلْ مِنَ الشُّهَدَاءِ مَنْ تُحْبَسُ رُوحُه عَنْ دُخُولِ الجَنَّة لِدَيْنٍ عليه. كَمَا في «المُسْنَدِ»[1] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَحْشٍ: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إلى النبي ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله: مَا لِي إِنْ قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله؟ قَالَ: «الجَنَّة»، فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: «إِلَّا الدَّيْنَ، سَارَّنِي به جِبْرِيلُ آنفا».

وَمِنَ الْأَرْوَاحِ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا على بَابِ الجَنَّة، كَمَا في الحَدِيثِ الذي قَالَ فيه رَسُولُ الله ﷺ: «رَأَيْتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوسًا على بَابِ الجَنَّة»[2].

---

(١) (٤/ ١٣٩، ١٥٠).

(٢) أخرجه بنحوه: أحمد (٥/ ١١، ١٣)، والطبراني في الكبير (٦٧٥٠، ٦٧٥١)، والحاكم =

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا فِي قَبْرِه، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا فِي الْأَرْضِ، وَمِنْهَا أَرْوَاحٌ فِي تَنُّورِ الزُّنَاة وَالزَّوَانِي، وَأَرْوَاحٌ فِي نَهْرِ الدَّمِ تَسْبَحُ فيه وَتُلْقَمُ الْحِجَارَة، كُلُّ ذَلِكَ تَشْهَدُ له السنة، والله أَعْلَمُ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أن الأرواح باقيةٌ بعد الموت، وأن الفناء يكون على الأجساد. وإذا عرفنا أن الأرواح باقية، فأين تكون مصيرها؟ ذكر الشارح كثيرًا من الأقوال في مستقر الأرواح، وهذه الأقوال الغالب أنها مبنية على الظن، وقد يكون بعضها له دليل من الكتاب والسنة، ولكن يظهر أن الأرواح تتفاوت بحسب الأعمال.

فقد ثبت في «الصحيح» أن أرواح الشهداء «فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ من الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ...»[1]. فدل على أن أرواحهم تكون في الجنة.

وثبت في القرآن أن أرواح آل فرعون تعرض على النار: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر:٤٦]. وعلى هذا فأرواح آل فرعون في النار يعرضون

---

=

(٢/ ٢٥)، والبيهقي (٦/ ٧٦) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٦٧).

عليها غدوًا وعشيًا.

وقد ورد في القرآن أيضًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، وسجّين: فسّر بأنه في الأرض السابعة، أو تحت الأرض السابعة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وعليّون: فوق السماء السابعة في أعلى ما شاء الله. ومعناه كتاب أعمالهم، وقيل إن أرواحهم كذلك.

وقد سبق في حديث البراء الطويل[1]: أنّ الله يقول: «**اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوه إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخرى**». ويقول في الكافر: «**اكْتُبُوا كِتَابَه فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُه طَرْحًا**»، ثُمَّ قَرَأَ النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]. فدلَّ على أنه يطرح من السماء ويتألم بهذا الطرح.

ومعلوم أن الروح بعد خروجها من الجسد ليست مرئيّةً فلا يراها البشر، ولا تدركها الأبصار، كما لا يرون الشياطين، ولا يرون الجنّ، فكذلك لا يرون أرواحهم عند خروجها.

فأما مستقرّها، فلم يرد نصّ صريح في أنها تستقرّ في مكان كذا وكذا، فالذين قالوا: إنّها تنعدم، العدم المحض؛ هؤلاء ينكرون عذاب القبر وينكرون نعيمه

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

وينكرون تألُّم الروح، وينكرون إعادتها في الجسد؛ لأنها إذا عدمت كما عدم الجسد لا يبقى لها حياة، ولا بقي لها تألم ولا عذاب، ولا يبقى القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار كما تقدّم. فهذا قول باطل.

وكذلك القول الذي هو أبشع منه، وهو قول الفلاسفة: أنها تكون في أجساد تلائمها؛ فروح الكافر إذا مات جعلت في كافر آخر، وروح المؤمن إذا مات جعلت في مؤمن آخر جديد، إذا مات هذا وولد هذا أخذت روح هذا ونفخت في هذا. يسمّى هؤلاء بأهل التناسخ، أو التناسخيون؛ لأنّهم يقولون: نسخت روح هذا وجعلت في هذا. وينكرون أيضًا بعث الأجساد، فهم يقولون الأجساد لا تعود، وكذلك ينكرون بدء الخلق، فيقولون: الخلق ليس له مبدأ، وينكرون فناء الدنيا ويقولون: هذه الدنيا مستمرّة، وليس لها نهاية، بل تستمرّ هكذا إلى غير نهاية، بل ينكرون الحشر والجزاء في الآخرة والنفخ في الصور وما أشبه ذلك.

أما الأقوال الأخرى؛ فالذين يقولون: إن هذه في الجنة وهذه في النار. والذين يقولون: إن أرواح المؤمنين على أبواب الجنة، وأرواح الكفار على أبواب النار. أو يقولون: إن أرواح المؤمنين على أفنية قبورهم، وكذلك أرواح الكافرين. أو يقولون: إنها بداخل القبور، أو يقولون: إن أرواح المؤمنين في بئر زمزم، وأرواح الكافرين في بئر برهوت، وهي بئر منتنة يذكرها بعضُهم، وهي في بلاد حضرموت. كل هذه أقوال ظنّيّة ليس عليها دليل قطعيّ.

نحن تحقّقنا أنّ الأرواح تخرجُ من الأبدان، وأنَّ أرواح المؤمنين منعّمة، وأرواح الكفار معذّبة. وأمّا مقرّها، فلا علم لنا بها.

وكذلك إذا خرجت الأرواح، وقلنا إنها باقية فكيف مع ذلك تتعارف؟ ورد في الحديث أنّ: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعَارَفَ منها ائْتَلَفَ، وما تَنَاكَرَ منها اخْتَلَفَ**»[1]. إذا كانت أرواحًا مجردة، ومع ذلك يلقى بعضها بعضًا، فكيف يعرف هؤلاء أنّ هذه روح فلان؟ لابدّ أنهم يعرفونه بميزة يتميّز بها مع أنّها أرواح؛ لأنّ الأجساد فيها علامات ظاهرة يتميّز فيها النّاس في صورته، وفي طوله وشعره وقِصره، وفي بياضه أو سواده. وأما الروح، فليس لها ميزة. فهذا هو الصحيح: أنّها باقية وأنّها تتعارف وتتآلف، وأنّهم يلقى بعضهم بعضًا، وأنّهم يسألونه.

وقد ورد في الحديث أنه: «**إذا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللهِ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ، حتى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حتى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: ما أَطْيَبَ هذه الرِّيحَ التي جَاءَتْكُمْ من الأرض، فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ من أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عليه، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فإنه كان في غَمِّ الدُّنْيَا، فإذا قال: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قالوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ**»[2]، إذا كان كافرًا ولم يأتهم، عرفوا أنه بعد موته

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه النسائي (١٨٣٣)، وابن حبان (٧/ ٢٨٤)، والحاكم (١/ ٢٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وكونه لم يأتهم، فلا بدّ أنه شقيٌّ، وأنّه ذُهِب به إلى دارٍ غير دارهم. فدلّ على أن أرواح المؤمنين تجتمع ويأتي بعضهم بعضًا، ويعرف بعضهم بعضًا، ويتفقّد بعضهم بعضًا، ويفرحون بمن جاءهم إذا مات، وصار معهم في أرواح المؤمنين، ويحزنون إذا مات أحد أقاربهم ولم يأتهم، ويعرفون أنه ذُهِب به إلى غيرِ موضعهم ومحلِّهم، وهو الهاوية التي هي دار العذاب. فكلّ ذلك دليل على أنّهم يتلاقون.

أمّا مقرّهم، فالله أعلم، هل هم في السماء أو في الأرض؟ وهل هم على أفنية القبور أو في الجنة أو في النار، أو في بئر زمزم، أو في بئر برهوت، أو في أي مكان؟ وكلّ ذلك ليس عليه دليل يقينيّ، ولكنّهم متحقّق بقاؤهم وتلاقيهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا الحَيَاة التي اخْتُصَّ بِهَا الشَّهِيدُ وَامْتَازَ بِهَا عَنْ غيره، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمـــران:١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]، فهي: أَنَّ الله تعالى جَعَلَ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ. كَمَا في حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ، أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ - يعني يَوْمَ أُحُدٍ - جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُمْ في أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّة، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إلى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُظَلَّلَة في ظِلِّ الْعَرْشِ»، الحَدِيثَ، رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1]، وَأَبُو دَاوُدَ[2]، وَبِمَعْنَاه في حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رواه مُسْلِمٌ[3].

فَإِنَّهُمْ لَمَّا بَذَلُوا أَبْدَانَهُمْ لله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى أَتْلَفَهَا أَعْدَاؤُه فيه، أَعَاضَهُمْ مِنْهَا في الْبَرْزَخِ أَبْدَانًا خَيْرًا مِنْهَا، تَكُونُ فِيهَا إلى يَوْمِ الْقِيَامَة، وَيَكُونُ نَعِيمُهَا بِوَاسِطَة تِلْكَ الْأَبْدَانِ أَكْمَلَ مِنْ تَنَعُّمِ الْأَرْوَاحِ الْمُجَرَّدَة عَنْهَا.

وَلِهَذَا كَانَتْ نَسَمَة الْمُؤْمِنِ في صُورَة طَيْرٍ، أَوْ كَطَيْرٍ، وَنَسَمَة الشَّهِيدِ في جَوْفِ طَيْرٍ. وَتَأَمَّلْ لَفْظَ الحَدِيثَيْنِ، ففي «الْمُوَطَّأِ»[4] أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ

---

(١) في المسند (١/ ٢٦٥).

(٢) برقم (٢٥٢٠).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ١٦٧).

(٤) (١/ ٢٤٠).

رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٍ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الجَنَّة، حتى يُرْجِعَه الله إلى جَسَدِه يَوْمَ يَبْعَثُه»؛ فقوله: «نَسَمَة الْمُؤْمِنِ» تَعُمُّ الشَّهِيدَ وغيره، ثُمَّ خَصَّ الشَّهِيدَ بِأَنْ قَالَ: «هي في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ»، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ في جَوْفِ طَيْرٍ صَدَقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا طَيْرٌ، فَتَدْخُلُ في عُمُومِ الحَدِيثِ الْآخَرِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَنَصِيبُهُمْ مِنَ النَّعِيمِ في الْبَرْزَخِ أَكْمَلُ مِنْ نَصِيبِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ على فُرُشِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الميِّتُ على فراشه أَعْلَى دَرَجَة مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، فله نَعِيمٌ يَخْتَصُّ به لَا يُشَارِكُه فيه مَنْ هُوَ دُونَه، والله أَعْلَمُ.

وَحَرَّمَ الله على الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا رُوِي في السُّنَنِ[1]. وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ فَقَدْ شُوهِدَ مِنْهُمْ بَعْدَ مُدَدٍ مِنْ دَفْنِه كَمَا هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ، فَيُحْتَمَلُ بَقَاؤُه كَذَلِكَ في تُرْبَتِه إلى يَوْمِ مَحْشَرِه، وَيُحْتَمَلُ أنه يَبْلَى مَعَ طُولِ الْمُدَّة، والله أَعْلَمُ. وَكَأَنَّه ـ والله أَعْلَمُ ـ كُلَّمَا كَانَتِ الشَّهَادَة أَكْمَلَ، وَالشَّهِيدُ أَفْضَلَ، كَانَ بَقَاءُ جَسَدِه أَطْوَلَ.

---

قال الشيخ:

ما تقدم عن الأرواح عمومًا، وهذا الكلام عن أرواح الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وأخبر الله بحياتهم فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦)، وأحمد (٤/ ٨)، والدارمي (١/ ٤٤٥)، والبيهقي (٣/ ٢٤٨) من حديث أوس بن أوس الثقفي ﷺ.

يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٩ ـ ١٧١].

وكونهم أحياء هي حياة برزخية: معلوم أنّهم أموات، أي: أرواحهم خرجت من أبدانهم، ومعلوم أنّ أبدانهم بقيت لا إحساسَ فيها ولا حياة كحياة أهل الدنيا، ومعلوم أنهم ليسوا كما كانوا في حياتهم قبل أن يموتوا أو يقتلوا، فلا يحتاجون إلى أكل ولا شرب ولا تخلٍّ ولا تنقّل. فإذًا هي حياة برزخية، وقد فارقوا الدنيا، وقسمت أموالهم على الورثة، وحلّت نساؤهم لغيرهم.

ذكر الله أنهم أحياء عنده، وهذه العنديّة تفيد مزيّة وفضيلة، فهم عند ربّهم يرزقون. ولو كانوا في الجنّة فهم عند ربّهم، فلو كانوا في قبورهم فأرواحهم عند ربّهم. وقد أخبر بأنّهم يرزقون، والرزق قد يكون حسيًّا وقد يكون معنويًا، فإن كان حسيًا: فمعناه أنّهم يحتاجون إلى ما يحتاج إليه أهل الدنيا من الأكل والشرب، ولكن معلوم أن ذلك ليس للأرواح وإنما هو للأجساد. ففي الأحاديث الواردة أن أرواحهم نقلت إلى أجساد طير خضر تعلق في شجر الجنّة، وتأوي إلى قناديل معلقة في الجنّة. معلوم أنّ الطير تشاهد بالعين، ولذلك وصفها بأنها خضر، فكأنّ روح هذا الشهيد أدخلت في هذا الطير، فأصبح حيًا يطير ويتقلّب ويدخل الجنّة، ويعلق في شجرها، يعني: يأكل، ويأوي إلى قناديل يعني: سرج معلّقة في الجنّة. فهذه هي أرواحهم.

وذكر الله أنّهم يستبشرون بأصحابهم الذين يأتونهم، كلّما جاءهم شهيد

فرحوا به، ويستبشرون بمن جاءهم من الأحياء، ويستبشرون أيضًا بنعمة الله، التي أنعم عليهم.

لا شكّ أنّ الشهداء لهم هذه المزيّة، وأنّ أرواحهم باقية، وأنّها في أجساد، وأنّها تتنعّم. أما أرواح غيرهم، فلم يذكر أنها تكون في أجساد، بل تكون روحًا من غير جسد، هذه أرواحهم كأرواح الشياطين وأرواح الجنّ التي لا تكون لهم أجساد تقوم بها.

ومعلوم أن أبدانهم تدفن في الأرض، وقد يكون بعضها لا يستطاع دفنه، فمعلوم أنّ هناك الكثير من الوقائع التي تكون بين المسلمين والمشركين، فيُقتل فيها الجمّ الغفير، الذين يصعب دفنهم، فتطول مدتهم وهم باقون من غير دفن وقد لا تطول، ومن غير شكّ أنهم يفنون بالعيان، وتأكلهم الأرض أو الطيور وما أشبه ذلك. وأما الذين يدفنون فقد ورد أنّهم يبقون مدة.

وفي «الصحيح»[1] عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: لَمَّا حَضَرَ أُحُدٌ دَعَانِي أبي من اللَّيْلِ فقال: ما أُرَانِي إلا مَقْتُولًا في أَوَّلِ من يُقْتَلُ من أَصْحَابِ النبي ﷺ، وَإِنِّي لَا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غير نَفْسِ رسول الله ﷺ، فإن عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا، فَأَصْبَحْنَا فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ، وَدُفِنَ معه آخَرُ في قَبْرٍ، ثُمَّ لم تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَهُ مع الْآخَرِ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فإذا هو كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَيَّةً غير أُذُنِهِ».

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥١).

وكذلك ذُكر لنا عن بعض الإخوان الذين قُتلوا في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف، في الوقعة التي تسمّى (تربة)، أنّهم حفروا في بعض الأماكن، فعثروا على جثة أحد الإخوان الذين قتلوا، وإذا هو لم تأكله الأرض، أي بعد خمسين أو ستين سنة، وهو لا يزال بدنه باقيًا.

وكذلك ذكر لنا من القتلى الذين قتلوا في أفغانستان في أول القرن الخامس عشر أن كثيرًا منهم نُبشوا بعد أيام، ووجدوا كما هم لم تأكلهم الأرض. ويذكرون أيضًا أنهم يجدون القتلى من الشيوعيين رائحتهم نتنة خلال يومين، لا يستطيع أحد أن يقربهم، والقتلى من المسلمين من الشهداء يؤتون بعد خمسة أيام ويدفنون ولا يحسّ برائحتهم، بل تكون منهم رائحة المسك.

فهذا دليل على أن الحياة يصل أثرها إلى البدن، ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]؛ ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]، ولو كانت حياة برزخيّة، ولو كانت حياة على الأرواح ولكن يصل أثرها إلى الأجساد، ولو أنّها فنيت بعد مدّة، ولو أنّها تمزّقت فصارت أشلاءً، لكن لا بدّ أنّ أثر هذه الحياة ونعيمها ينال الجسد كما ينال الروح، وهذه كرامة الله لأوليائه الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله، لـمّا رخصت عندهم هذه الحياة، ولـمّا آثروا الحياة الآخرة، على الحياة الدنيا، وقدّموا رضا الله تعالى على شهوات نفوسهم، عجّل لهم الثواب، عاجلاً يعني يُرى أثره في الدنيا، ويراه أهل الدنيا، ولعلّ في ذلك ما يحمل أهل الدنيا على المنافسة، وعلى

بذل المهج في سبيل الله، وعلى بذل كل شيء فيه إعزاز دين الله ونصره.

فهذا معنى الحياة التي وصف الله بها الشهداء من عباده، وقد سماهم شهداء في قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، الشهداء: هم الذين يقتلون في سبيل الله، وصفهم الله بذلك، قيل: لأنهم يشاهدون الآخرة كرأي عين، وقيل: لأنهم شهداء على غيرهم، وشهداء على الأمّة؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، هذا بالنسبة إلى أرواح الشهداء.

أمّا الأنبياء، فهم أعلى مقامًا من الشهداء؛ لأنّ الله ميّزهم بميزة، وخصّهم بكرامة، وهي الوحي والرسالة والفضيلة التي فضّلهم بها على غيرهم، ومعلوم أنّهم يموتون، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وإذا كانوا يموتون فلابدّ أنّ لهم حياة أكمل من حياة الشهداء، ولكن حياة برزخية أكمل من حياة الشهداء، أي: أجسادهم قد ذكر أنّها لا تبلى، بل تبقى في قبورهم لا تأكلها الأرض. وقد ذكر في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «**إِنَّ من أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يوم الْجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ من الصَّلَاةِ فيه، فإن صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**»، قالوا: يا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وقد أَرِمْتَ؟ ـ أي: بَلِيتَ ـ فقال: «**إِنَّ الله ـ عز وجل ـ حَرَّمَ على الأرض أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»[1]. فأجسادُ الأنبياء لا تأكلها الأرض ولا تبلى، ولو أنّهم

(١) تقدم تخريجه: (٤/ ١٩١).

دفنوا في الأرض، أو لم تعرف أماكنهم.

ومن العلماء من يقول: إنهم يرفعون. ولذلك رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماء؛ فرأى آدم ـ عليه السلام ـ في السماء الدنيا، ورأى يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ في السماء الثانية، ورأى يوسف ـ عليه السلام ـ في السماء الثالثة، ورأى إدريس ـ عليه السلام ـ في السماء الرابعة، ورأى هارون ـ عليه السلام ـ في السماء الخامسة، وموسى ـ عليه السلام ـ في السادسة، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ في السابعة. ولكن الصحيح أن الذي رآه هو أرواحهم، ولكنّها مُثّلت في أجساد حتى رأوه وعرفوه، وسلّموا عليه، وقالوا: «**مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ**»[1]. أما أجسادهم فيمكن أن تكون رفعت، ويمكن أنّها دفنت في الأرض، وهو المتبادر.

وبكلّ حال فشهادتهم كونهم شهداء لا شكّ أنهم أكمل من الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله. وبلا شكّ أنّ بعضًا من الشهداء قد يكون عليه شيء من الذنوب التي لا تكفّرها الشهادة. ففي الحديث أنّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم إن قُتِلْتَ في سَبِيلِ الله، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»، ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: «**كَيْفَ قُلْتَ؟**»، قال: أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، **وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إلا الدَّيْنَ، فإن**

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

جِبْرِيلَ ـ عليه السَّلَام ـ قال لي ذلك»[1]. فإذًا مَنْ كان عنده شيء من حقوق الآدميين لا تغفر له، بل لا بدّ فيها من المحاصّة والمقاصّة في الآخرة، إذا لم يوفّها عنه أولياؤه في الدنيا، فإنها تؤخذ من حسناته في الآخرة، وأما ذنوبه التي بينه وبين ربه فالقتل في سبيل الله يمحوها كلّها ولا يبقى عليه ذنب.

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٥) من حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ.

---

قال الشارح:

الْإِيمَانُ بِالْمَعَادِ مِمَّا دَلَّ عليه الْكِتَابُ والسنة، وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ. فَأَخْبَرَ الله سبحانه عنه في كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَأَقَامَ الدَّلِيلَ عليه، وَرَدَّ على الْمُنْكِرِينَ، في غَالِبِ سُوَرِ الْقُرْآنِ.

وَذَلِكَ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ - عليهم السلام - كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ على الْإِيمَانِ بالله، فَإِنَّ الْإِقْرَارَ بِالرَّبِّ عَامٌّ في بني آدَمَ، وَهُوَ فِطْرِي، كُلُّهُمْ يُقِرُّ بِالرَّبِّ، إِلَّا مَنْ عَانَدَ، كَفِرْعَوْنَ، بِخِلَافِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّ مُنْكِرِيه كَثِيرُونَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَمَّا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَانَ قَدْ بُعِثَ هُوَ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ[1]. وَكَانَ هُوَ الْحَاشِرُ الْمُقَفِّي[2]، بَيَّنَ تَفْصِيلَ الْآخِرَةِ بَيَانًا لَا يُوجَدُ في شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ. وَلِهَذَا ظَنَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَنَحْوِهِمْ أنه لَمْ يُفْصِحْ بِمَعَادِ الْأَبْدَانِ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَجَعَلُوا هَذَا حُجَّةً لَهُمْ في أنه مِنْ بَابِ التَّخْيِيلِ وَالْخِطَابِ الْجُمْهُورِي!.

وَالْقُرْآنُ بَيَّنَ مَعَادَ النَّفْسِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَمَعَادَ الْبَدَنِ عِنْدَ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، في غَيْرِ

---

(١) كما في حديث سهل بن سعد ﷺ الذي أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) كما في حديث جبير بن مطعم ﷺ الذي أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤).

مَوْضِعٍ. وَهَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى، وَيُنْكِرُونَ مَعَادَ الْأَبْدَانِ، وَيَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ: إنه لَمْ يُخْبِرْ به إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ على طَرِيقِ التَّخْيِيلِ!! وَهَذَا كَذِبٌ، فَإِنَّ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى هي مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْ آدَمَ إلى نُوحٍ، إلى إِبْرَاهِيمَ وموسى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَقَدْ أَخْبَرَ الله بِهَا، مِنْ حِينِ أُهْبِطَ آدَمُ، فَقَالَ تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف:٢٥]، وَلَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، [الحجر:٣٦]، قَالَ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر:٣٧، ٣٨].

وَأَمَّا نُوحٌ ـ عليه السَّلَامُ ـ فَقَالَ: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح:١٧، ١٨].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ـ عليه السَّلَامُ ـ: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء:٨٢]، إلى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَقَالَ: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١]، وَقَالَ: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ الآية [البقرة:٢٦٠].

وَأَمَّا موسى عليه السَّلَامُ، فَقَالَ الله تعالى لَمَّا نَاجَاه: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه:١٥، ١٦].

بَلْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْلَمُ المَعَادَ، وَإِنَّمَا آمَنَ بِمُوسَى، قَالَ تعالى حِكَايَةً عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر:٣٢، ٣٣]، إلى قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، إلى قوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]. وَقَالَ موسى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وَقَدْ أَخْبَرَ الله في قِصَّةِ الْبَقَرَةِ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣].

---

قال الشيخ:

هذا الكلام وما بعده يتعلّق بالبعث بعد الموت، الذي هو بعث الأجساد وحشرها، والنشرُ، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وجمع الأجساد بعد أن بليت، وبعد أن كانت ترابًا، وبعد أن تمزّقت وتفرّقت، يبعثها الله، ويعيد إليها الحياة، وتعود كما كانت، وتتصل بها أرواحها اتصالًا أبديًا محكمًا ليس فوقه اتصال، وليس كاتصالها في هذه الدنيا الذي يعتريه شيء من الانفصالات.

هذا هو البعث بعد الموت، ويكون يوم القيامة عندما ينفخ في الصور، وقيل: إن الصور هو قرن واسع كبير، فيه ثقوب بعدد أرواح بني آدم، ينفخ فيه إسرافيل، فتخرج كل روح على ثقب وتصل إلى جسدها، وأنه قبل النفخ في الصور ينزل الله

مطرًا فتنبت منه أجسادهم، والله قادر على أن ينبتها من دون مطر وغيره كما في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧]، يعني: أخرجكم إلى هذا الوجود.

والإيمان بالبعث وما بعده، والإيمان باليوم الآخر ويوم القيامة ركن أساسي من أركان الإيمان. وقد يكون هو الركن الأكيد؛ ولأجل هذا كثيرٌ ما يقتصر عليه مع الإيمان بالله في كثير من الأحاديث، كقوله ﷺ: «**من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ**»[1]، وقوله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحِدُّ على مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إلا على زَوْجٍ**»[2]. لم يذكر مع الإيمان بالله إلا الإيمان باليوم الآخر؛ لأنَّ الإيمان باليوم الآخر وقع فيه الخلاف بين الأمم ورسلهم، وأنكره المشركون، وبالغوا في إنكاره، واعتقدوا أن الأجساد بعد موتها تضمحلّ ولا تعود، وأنه ليس هناك حياة، وأنّ هذه الدنيا باقية وليس لها فناء، وقد حكى الله عنهم أنّهم يقولون: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، أي: الزمان. ومعنى قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ أي: يموت قوم ويحيا آخرون، وهو معنى قولهم: أرحامٌ تدفع وأرض تبلع. هذه عقيدة أولئك المشركين، وهي أيضًا عقيدة الدهريين.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤٠١).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٤٠١).

ولَمَّا كان الإيمان بالله واليوم الآخر آكدَ الأركان، وهو آكد من الإيمان بالكتب والرسل والملائكة؛ لأن الخلاف في الإيمان بها قليل، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإن المنكرين له كثير، فلما كان كذلك؛ جاءت الأدلة عليه كثيرة، في الآيات التي تؤكّد البعث بعد الموت، وسيأتي شيء من الآيات التي توضح البعث بعد الموت، والتي ردّ الله بها على المشركين الذين أنكروا البعث بعد الموت، وكيف احتجّ عليهم بحججٍ عظيمة، فإذا آمن العباد باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت فإنهم يستعدون لذلك بالأعمال الصالحة التي يكونون بها سعداء، وإذا لم يؤمنوا به، فإنهم لا يهتمون إلا بهذه الحياة؛ لأنه ليس هناك - في ظنهم - حياة بعد هذه الحياة.

والإيمان باليوم الآخر من آكد أركان الإيمان، وهو يعمّ البرزخ والحشر، ولكن أكثر ما يركّز على الحشر، الذي هو حياةُ الأجساد وحشرها وحسابها، وجمع الناس في الدار الآخرة وما أشبه ذلك؛ حتى يحصل الجزاء على الأعمال، وإدخال أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار. هذا هو الذي اتفقت عليه دعوة الرسل. وهذه الآيات التي مرت معنا تدل على أن الرسل مجمعون على أن اليوم الآخر لابدّ منه، وأنه سيأتي، كما في هذه الآيات من قول نوح - عليه السلام -: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧، ١٨]. هذا كلام نوح لقومه، ينبههم على أنهم سيخرُجون منها مثل قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه:٢٠]. وكذلك بقية الرسل ذكروا ذلك لأقوامهم يحثونهم على الإيمان بالله، وعلى الإيمان بالبعث بعد الموت،

وعلى الاستعداد له.

كذلك غير الأنبياء؛ ذكر الله عن مؤمن آل فرعون، الذي قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢]، أي: يوم القيامة إلى آخر الآيات حيث قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]. فكلّ ذلك دليل على أنّ أتباع الأنبياء أيضًا صرَّحوا على أنهم يؤمنون باليوم الآخر الذي هو يوم القيامة وما بعده.

الإيمان باليوم الآخر خبر الله. فالله سبحانه هو الذي أخبر باليوم الآخر، وبما يكون فيه، فمن آمن بالله آمن بأخبار الله.

واليومُ الآخر يشمل البعث وما بعده. بل يشمل الموت وما بعده، ولكن أكثر ما يذكرون البعث بعد الموت، وما بعده من الجزاء والحساب والثواب والحوض والميزان، وجزاء الأعمال، ومحاسبة الله تعالى للعباد، وما يكون في عرصات القيامة من طول الوقوف، ومن طلب الشفاعة، ومن الأهوال وطول ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبًا. يؤمن بذلك أهل السنّة على التفصيل الذي ذكره الله تعالى، ويكون من آثار إيمانهم الاستعداد ليوم المعاد. فإنّ الذي يؤمن بالشيء ويصدّق به تظهر عليه آثاره فيستعدّ له ويتهيّأ لذلك اليوم ويعرف أنّه لا نجاة له إلا بالأعمال الصالحة التي كلِّف بها.

إذا قرأنا القرآن وجدنا فيه الأدلة الكثيرة على الإيمان بالبعث، وضرب الأمثلة على ذلك، ولعلّ السبب في ذلك، كثرة المنكرين له من المشركين، الذين

يستبعدون إعادة الموتى من القبور بعد التفرُّق وذهاب الأشلاء وصيرورة الأجسام ترابًا، ويقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣]، يستبعدون ذلك، ويطلبون شططًا، فيقولون: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، أي: ابعثوا آباءنا الذين ماتوا من قبل حتى نعرف صدقكم.

ولَمَّا كان هذا تكذيبهم، فإن الله سبحانه ضرب لهم الأمثلة، وذكر الأدلّة، وبيّن لهم كمال القُدرة، ولأجل ذلك يقول العلماء: إنه لم يشتمل كتاب من الكتب السابقة على تقرير البعث وذكر أدلّته مثل ما اشتمل كتاب الله المنزّل على محمّد ﷺ. ففيه التصريح به تصريحًا بليغًا لا يحتمل أن يتطرّق إليه تأويل، أو حمل على محمل بعيد، ومع هذه الأدلّة وقوّتها وصراحتها وكثرة ضرب الأمثلة عليها، فإن كثيرًا ممن تسمّوا بأنّهم مسلمون ينكرون هذا البعث الجسماني، ويقال لهؤلاء: الفلاسفة الإلهيون؛ وهم الذين ينكرون أولًا: بدء الخلق، ويقولون إنّ جنس الإنسان لم يزل قديمًا، وليس له أول، وينكرون أن يكون أبو البشر آدم، وينكرون أن يكون بدء خلقه من طين، وينكرون أن يكون هناك وقت للإنسان لم يكن شيئًا مذكورًا. وثانيًا: ينكرون نهاية الدنيا ويقولون: الدنيا ليس لها آخر، وهذه الحياة تستمرّ أبدًا إلى غير نهاية، ويعبّرون بقولهم: أرحام تدفع وأرض تبلع. ينكرون عودة الأجساد وجمعها بعد تفرّقها، ويجعلون الجزاء على الأرواح، ويدّعون أنّ هذه الأرواح هي التي أهبطت من السماء، واتصلت بالجسد، ثم بعد ذلك خرجت منه إلى حيث كانت. ويقول رئيسهم ابن سينا ـ وهو من أكابرهم ـ في مطلع قصيدته العينية:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرْقَـاءُ ذَات تَقَلُّـبٍ وَتَفَجُّـعِ
وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ فَلَمَّا وَاصَلَتْ أَلِفَـتْ مُرَافَقَـةَ الخَـرَابِ البَلْقَـعِ[1]

يصف الروح بأنها هبطت من المكان الأرفع، واتصلت بجسدك إلى أن ألفته، ثم صارت جزءًا منه، ثم بعد ذلك تنفصل وتعود كما كانت. فهؤلاء ما آمنوا بالله حقّ الإيمان؛ فإن الإيمان باللهّ يستدعي الإيمان بخبره، ومن خبره حشر الأجساد، و بعثها، وجمعها بعدما تتفرّق، وهذا لم يكن من هؤلاء.

(١) راجع (٤/ ١٣٧).

قال الشارح:

وَقَدْ أَخْبَرَ الله أنه أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١]. وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ الدَّاخِلِينَ جَهَنَّمَ أَنَّ الرُّسُلَ أَنْذَرَتْهُمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا، فَجَمِيعُ الرُّسُلِ أَنْذَرُوا بِمَا أَنْذَرَ بِهِ خَاتَمُهُمْ مِنْ عُقُوبَاتِ الْمُذْنِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَعَامَّةُ سُوَرِ الْقُرْآنِ التي فِيهَا ذِكْرُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، يُذْكَرُ ذَلِكَ فِيهَا: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُقْسِمَ بِهِ عَلَى الْمَعَادِ، فَقَالَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية [سبأ:٣]. وَقَالَ تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، وَقَالَ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وَأَخْبَرَ عَنِ اقْتِرَابِهَا، فَقَالَ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج:١، ٢]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦، ٧].

وَذَمَّ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمَعَادِ، فَقَالَ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ

لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى:١٨]، ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]، ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل:٣٨]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل:٣٩]، ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر:٥٩]، ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء:٩٧ ـ ٩٩]، ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٤٩ ـ ٥٢].

فَتَأَمَّلْ مَا أُجِيبُوا به عَنْ كُلِّ سُؤَالٍ على التَّفْصِيلِ: فَإِنَّهُمْ قَالُوا أَوَّلًا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾. فَقِيلَ لَهُمْ فِي جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ: إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنه لَا خَالِقَ لَكُمْ وَلَا رَبَّ لَكُمْ، فَهَلَّا كُنْتُمْ خَلْقًا لَا يُفْنِيه المَوْتُ، كَالْحِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ فِي صُدُورِكُمْ مِنْ ذَلِكَ؟! فَإِنْ قُلْتُمْ: كُنَّا خَلْقًا على هذه الصِّفَةِ التي لَا تَقْبَلُ الْبَقَاءَ، فَمَا الذي يَحُولُ بَيْنَ خَالِقِكُمْ وَمُنْشِئِكُمْ وَبَيْنَ إِعَادَتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا؟!

وَلِلْحُجَّة تَقْدِيرٌ آخَرُ، وَهُوَ: لَوْ كُنْتُمْ مِنْ حِجَارَة أَوْ حَدِيدٍ أَوْ خَلْقٍ أَكْبَرَ مِنْهُمَا، فإنه قَادِرٌ على أَنْ يُفْنِيَكُمْ وَيُحِيلَ ذَوَاتَكُمْ، وَيَنْقُلَهَا مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ، وَمَنْ يَقْدِرُ على التَّصَرُّفِ في هذه الْأَجْسَامِ ـ مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا ـ بِالْإِفْنَاءِ وَالْإِحَالَة، فَمَا الذي يُعْجِزُه فِيمَا دُونَهَا؟ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ سُؤَالًا آخَرَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾، إِذَا اسْتَحَالَتْ جُسُومُنَا وَفَنِيَتْ ؟ فَأَجَابَهُمْ بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الْحُجَّة، وَلَزِمَهُمْ حُكْمُهَا، انْتَقَلُوا إلى سُؤَالٍ آخَرَ يَتَعَلَّلُونَ به بِعِلَلِ الْمُنْقَطِعِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: متى هُوَ ؟ فَأُجِيبُوا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾

---

قال الشيخ:

قد ذكرنا أنّ القرآن قد اشتمل على الأدلّة الكثيرة على تقرير البعث والنشور، وعلى تعظيم قدرة القادر، وعلى أنّه لا يعجزه شيء، وعلى أنّ الرسل أوّلهم وآخرهم بلّغوا هذا البيان، الذي هو اليوم الآخر والبعث والجزاء في الدار الآخرة، وذكروا ما يكون بعد الموت، فقد اتفقت دعوة الرسل كلهم على ذلك. والحكمة تقتضي ذلك، فإنّ هذه الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فالناس في هذه الدنيا يعملون، وفي الآخرة يلقون جزاء أعمالهم. ولذلك صار اهتمام العقلاء بما بعد الموت، وذلك بعمارة الدار الآخرة، عمارة ما سيفدون إليه، وقد انتبهوا إلى أنهم مأمورون بالعمارة، مأمورون بالبناء، ولكن البناء هو الذي يبقى، وليس الذي يفنى، فإن بناء الدنيا يفنى ويفنى ساكنوه، تفنى الدار ويموت صاحبها. وأما

العمارة في الآخرة فإنها هي الباقية، يقول بعضهم[1]:

لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا ... إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيهَا

فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ ... وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا

النَّفْسُ تَرْغَبُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ الزَّهَادَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

فَاغْرِسْ أُصُولَ التُّقَى مَا دُمْتَ مُجْتَهِدًا ... وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَاقِيهَا

فإذا [illegible] بأنه مأمور بالعمل للآخرة فوق العمل للدنيا؛ لأن الآخرة هي دار الجزاء، فالمؤمنون يعملون لها، بمعنى أنّهم يقدّمون ما تعمرُ به مساكنُهم في الجنّة. روي في بعض الآثار: أن الملائكة يبنون القصور لبني آدم، فإذا توقّف [illegible] عن العمل توقّفوا عن البناء، وقالوا: نتوقّف حتّى تأتينا النّفقة. ومعلوم ان من يبني في الدنيا يتوقّف العمّال حتى يعطيهم أجرتهم، وكذلك في الآخرة لا تُبنى الغرف التي فوقها غرف إلا بالأعمال الصالحة.

مرّت بنا هذه الأدلّة، ومنها: أنّ الرسل كلّهم أخبروا باليوم الآخر، واعترفت الأمم التي تدخل النار بأنّ رسلهم قد بلّغوهم، واعترفوا بأنّهم لم يصدّقوا بذلك لنقصٍ في عقولهم، وحكى الله عنهم ذلك بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك:٨، ٩]، فاعترفوا بالنذير، وتكذيبهم لهذا النذير حتى أوقعهم هذا التكذيب بالعذاب، حتى قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ

(١) انظر: الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص١٧١).

خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٧١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. يقول الله تعالى لهم هذه المقالة، فيقولون: بلى، ويعترفون بأنهم جاءتهم الرسل الذين أنذروهم لقاء يومهم هذا، ولكنّهم لم يتقبّلوا، بل كذّبوا الرّسل، واستبعدوا أن يكون هناك بعث بعد الموت، وظنوا أنه ليس هناك إلا هذه الدنيا، وأنّهم إنّما خلقوا لكي يأكلوا ويشربوا ويُمتّعُوا أنفسهم، وأجسامهم، وأنّهم بعد أن يخرجوا من الدنيا، لا يعودون للحياة مرة أخرى. هذه عقيدةٌ أوبقتهم، وأهلكتهم، وأنستهم ما خُلقوا له.

ومن الأدلة ـ ما مر بنا ـ أن الله أمر نبيّه ﷺ أن يقسم بربه على اليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس:٥٣]. الضمير في ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾، يعود على البعث وما بعد الموت، من الجزاء على الأعمال، أي: أحقّ ثابت ما أخبرتنا به من البعث والجزاء؟ قل: إي وربّي؛ أمره أن يحلف بالله رب المخلوقات جميعًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى ﴾ هذا حلف أيضًا، ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾، أي: لابدّ أن تأتيكم هذه الساعة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾[التغابن:٧]، هذا أيضًا قسم ثالث، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أي: لابدّ من البعث.

وكـذلك قولـه تعـالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣]، ونحو ذلك من الآيات التي يأمر الله بها نبيّه أن يقسم بأنّهم لابدّ أن يبعثوا.

أمّا المشركون فإنّهم ينكرون هذا، بل ويحلفون عليه، فيقول تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]. هذا على حسب نظرهم، فالله تعالى يقيم عليهم الحجج بعد جزمهم هذا، ويخبرهم بأنه هو الذي بدأ خلقهم، فلا بدّ أن يعيدهم، وهو الذي خلق هذه المخلوقات التي هذه عظمتها، فلابدّ أن يعيد الإنسان الذي هو أحقر وأصغر وأذلّ من هذه المخلوقات العظيمة. فيقول تعالى: إنّ خلق السموات والأرض بما فيها أكبر من خلق الناس، والله تعالى هو الذي خلقها، والإنسان لا شكّ أنّه من أفضل المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، لـمّا أنّه خلق الإنسان، وأعطاه السمع والبصر والفؤاد، وخصّه بالعلم والمعرفة، وأمره بأن يتعبّد لربّه ويطيع، وأمره بأن يستعدّ للقاء الله، وأخبره بأنه لا بدّ من لقاء ربّه، وأنّ اللقاء حتم لا بدّ منه.

فمن حقّق ذلك الإيمان وذلك الرجاء استعدّ له، فقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠]، أي: من كان مُوقنًا بأنّه لا بدّ من أن يلقى الله تعالى، فليستعدّ بالعمل الصالح الخالي من الشرك.

وقد أخبر الله تعالى بأنّ هذه الدنيا وما عليها حقيرةٌ مهينةٌ، لا تستحقّ أن يهتمّ لها هذا الاهتمام، فقال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، هذه أكثر ما يشتغلُ به أهلها. ثم ضرب لها مثلًا في أنها سوف تنقضي وجعلها: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾، الكافرون بالله هم الذين تعجبهم زهرة الدنيا، وهم الذين تُعجبهم زينتها وزينة ما عليها؛ لأنهم لهم رغبة في الدنيا، وليس لهم رغبة في الآخرة.

وقيل: إن الكفار هنا هم الزرّاع.

ولكن الأولى أنّهم الكفار بالله، فهم الذين يعجبهن نباته، وبعد مدة ما يكون هذا النبات؟ لا شكّ أنه ييبس، ويصير حطامًا، وتذروه الرياح. وهكذا هذه الدنيا: تزهر لأهلها وتخضرّ، ثم بعد ذلك تدبر عنهم، ولا تقبل، ويذوقون الضرّ كما ذاقوا الخير، وتنزع عنهم، أو ينزعون عنها، ولسان حالها يقول، كما أنشد بعضهم[1]:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمِلْءِ فِيهَا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فَلَا يَغْرُرْكُمْ طُولُ ابْتِسَامِي ... فَقَوْلِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكِي

فهذه حالة هذه الدنيا، إذا فكّر العباد فيما عليها، علموا أنها متاع، وقنعوا منها باليسير، وشمّروا للدار الآخرة، ونصبوا الأقدام، وهجروا التواني والتكاسل، الذي يعوقهم عن السير إلى الآخرة، وهجروا الفتور الذي يثني هممهم، وأنصبوا

(١) البيتان لأبي الفرج الساوي قالهما في مرثية فخر الدولة. انظر: يتيمة الدهر (٣/ ٤٥٨).

أبدانهم في طاعة الله تعالى، وعلموا أنّ الدنيا فانية، وجعلوا رغبتهم في الآخرة، ووثقوا بقول الله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٠]، هذه حال المصدّقين.

أما المكذّبون فقد مرّ معنا ما ذكر الله من حالهم في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء:٤٧ ـ ٤٩]. ثم يقول تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١]. فهذه حجّة عليهم أنّ الذي يعيدهم هو الذي فطرهم أوّل مرة، ﴿ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾، متى هذا البعث؟ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٢].

إذا دعاهم الله وأخرجهم، تذكّروا حياتهم الأولى، ويقولون: كم لبثتم؟ فيظنون أنّهم ما لبثوا في الدنيا إلاّ أيامًا قليلة، ويظنون أنّهم ما لبثوا إلا يومًا أو بعض يوم، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ [طه:١٠٣]، ويقول أمثلهم وأعقلهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه:١٠٤]، يتقالّون الزمن الذي لبثوه والذي مكثوه في الدنيا؛ لأنّهم لما كانوا في سرور كأنّهم مرّت عليهم الأيام قصيرةً، ولا شكّ أنّهم سيلقون بعد ذلك السرور جزاءً ينسيهم ما كانوا فيه من قبل، فإنّهم يعذّبون في الآخرة أو يثابون في الآخرة، فقد ورد في

الحديث أنه ﷺ قال: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا من أَهْلِ النَّارِ يوم الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يا بن آدَمَ، هل رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لَا والله يا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيَا من أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فَيُقَالُ له: يا بن آدَمَ، هل رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لَا والله يا رَبِّ، ما مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيت شِدَّةً قَطُّ»[1]، نسي النعمة التي في الدنيا؛ لأن لحظة واحدة تنسيه ما كان فيه من النعيم الذي كان في الدنيا، ويضرب ذلك بعضهم مثلًا فيقول[2]:

مَسَرَّةُ أَحْقَابٍ تَلَقَّيْتُ بَعْدَهَا ... مَسَاءَةَ يَوْمٍ إِنَّهَا شِبْهُ أَنْصَابِ

فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَى مَسَرَّةَ سَاعَةٍ ... وَرَاءَ تَقَضِّيهَا مَسَاءَةَ أَحْقَابِ

لو أن إنسانًا نُعِّم في الدنيا عشرات السنين، وهو أنعم ما يكون، وألذُّ ما يكون من الحياة والبهجة، ثم بعد ذلك ناله عذاب ساعة واحدة، فإنه سينسي ذلك النعيم والسرور والبهجة، أنساه إياه عذاب ساعة أو بعض ساعة. فكيف إذا كان نعيم الدنيا بأسرها قليلًا، والذي تناله أنت في عمرك أقل من القليل، فكيف إذا تعقبّ هذا النعيم العذاب المستمرّ الذي لا انقضاء له ولا انقطاع، وهو عذاب الآخرة، عذاب النار وبئس القرار. فإنه الذي لا انقضاء له أبدًا. فهذا يبيّن لك أنّ الدنيا قليل متاعها، وأنّ حظّ الإنسان منها أقلّ من القليل.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨٢).

وذكر الشارح أيضًا الآيات التي تدلّ على قرب قيام الساعة.

وقد يقول قائل: قد مرّ مئات السنين بعد نزول هذه الآيات، مرّ أربعة عشر قرنًا وبعض قرن، فكيف يقال: إنّها قريب؟ كما ذكر الله تعالى أنها قريب في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٧]، وفي قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، يعني: استعدّوا لها؛ فإنّها تأتي على حين غرّةٍ وبغتة، فلا بدّ أن تأتي، فترقّبوا أن تأتي في ذلك اليوم أو في تلك الليلة. يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢-٤٦]. وفي آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار.

فالآيات التي يذكر الله تعالى فيها أن الساعة قريبة مثل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، أو: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء:١]، أو ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، تدلّ على أنها قريبة.

والنبيّ ﷺ أخبرَ بأنّها قريبة، وأنّ الناس عليهم أن ينتظروها، فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: متى الساعة؟ قال ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»،

قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ»[١]. فإذا رأينا أماراتها أو أشراطها؛ فإنّ علينا أن ننتظر الساعة بغتةً، أو يأتي أمر الله.

أولها: النفخ في الصور، وهي نفخة الصعق، ثم تموت الأجساد وتفنى، ثم ينفخ فيه نفخة أخرى هي نفخة البعث، وهي نفخة القيام من القبور. فيبعث الناس، ويجتمعون في دار الجزاء للآخرة، وليس دون ذلك إلا أيامٌ قليلة، فالمسلم يكون متأهبًا لذلك، فإذا جاءه أمر الله، يكون على أهبة لذلك، وقد أعدّ للساعة عدّتها، وقد وثق بعمله، عمل عملًا صالحًا يكون سببًا في نجاته.

وقد كان السلف يهتمّون للآخرة، حتى ولو قيل لأحدهم: إنّك ميّتٌ هذا اليوم، لم يستطع أن يزيد في عمله؛ إذ قد بلغ الغاية القصوى من العمل، ومن الاجتهاد في الأعمال الصالحة؛ لأنه يترقّب الموت في كلّ حالة، ويمتثل قول النبيّ ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ»، وكان ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ يقول: «إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرْ المَسَاءَ، وَخُذْ من صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[٢]. أي: ترقّب الموت بينك وبين الصباح، أو بينك وبين المساء، مخافة أن يأتيك أمر الله. ومن مات فقد قامت قيامته.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

قال الشارح:

وَمِنْ هَذَا قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس:٧٨]، إلى آخِرِ السورة. فَلَوْ رَامَ أَعْلَمُ الْبَشَرِ وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ على الْبَيَانِ، أَنْ يأتي بِأَحْسَنَ مِنْ هذه الْحُجَّة، أَوْ بِمِثْلِهَا، بِأَلْفَاظٍ تُشَابِه هذه الْأَلْفَاظَ فِي الْإِيجَازِ وَوَضْعِ الْأَدِلَّة، وَصِحَّة الْبُرْهَانِ، لَمَا قَدَرَ. فإنه سبحانه افْتَتَحَ هذه الْحُجَّة بِسُؤَالٍ أَوْرَدَه مُلْحِدٌ، اقْتَضَى جَوَابًا، فَكَانَ فِي قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، مَا وَفَى بِالْجَوَابِ، وَأَقَامَ الْحُجَّة وَأَزَالَ الشُّبْهَة، لولا ما أَرَادَ سبحانه مِنْ تَأْكِيدِ الْحُجَّة وَزِيَادَة تَقْرِيرِهَا، فَقَالَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، فَاحْتَجَّ بِالْإِبْدَاءِ على الْإِعَادَة، وَبِالنَّشْأَة الأولى على النَّشْأَة الأخرى؛ إِذْ كلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ علمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قَدَرَ على هذه، قَدَرَ على هذه، وأنه لَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الثَّانِيَة لَكَانَ عَنِ الأولى أَعْجَزَ وَأَعْجَزَ.

وَلَمَّا كَانَ الْخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَة الْخَالِقِ على الْمَخْلُوقِ، وَعِلْمَه بِتَفَاصِيلِ خَلْقِه، أَتْبَعَ ذَلِكَ بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، فَهُوَ عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَجُزْئِيَّاتِه، وَمَوَادِّه وَصُورَتِه، فَكَذَلِكَ الثاني. فَإِذَا كَانَ تَامَّ الْعِلْمِ، كَامِلَ الْقُدْرَة، كَيْفَ يَتَعَذَّرُ عليه أَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وهي رَمِيمٌ؟.

ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِحُجَّة قَاهِرَة، وَبُرْهَانٍ ظَاهِرٍ، يَتَضَمَّنُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالِ مُلْحِدٍ آخَرَ يَقُولُ: الْعِظَامُ إِذَا صَارَتْ رَمِيمًا عَادَتْ طَبِيعَتُهَا بَارِدَة يَابِسَة، وَالْحَيَاة لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَادَّتُهَا وَحَامِلُهَا طَبِيعَتُه حَارَّة رَطْبَة، بِمَا يَدُلُّ على أَمْرِ الْبَعْثِ، ففيه الدَّلِيلُ

وَالجَوَابُ، فَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس:٨٠]، فَأَخْبَرَ سبحانه بِإِخْرَاجِ هَذَا الْعُنْصُرِ، الذي هُوَ في غَايَة الحَرَارَة وَالْيُبُوسَة، مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ الْمُمْتَلِئِ بِالرُّطُوبَة وَالْبُرُودَة، فالذي يُخْرِجُ الشَّيْءَ مِنْ ضِدِّه، وَتَنْقَادُ له مَوَادُّ المَخْلُوقَاتِ وَعَنَاصِرُهَا، وَلَا تَسْتَعْصِي عليه، هُوَ الذي يَفْعَلُ مَا أَنْكَرَه الْمُلْحِدُ وَدَفَعَه، مِنْ إِحْيَاءِ الْعِظَامِ وهي رَمِيمٌ.

ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا بِأَخْذِ الدِّلَالَة مِنَ الشَّيْءِ الْأَجَلِّ الْأَعْظَمِ، على الْأَيْسَرِ الْأَصْغَرِ، فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ قَدَرَ على الْعَظِيمِ الجَلِيلِ فَهُوَ على مَا دُونَه بِكَثِيرٍ أَقْدَرُ وَأَقْدَرُ، فَمَنْ قَدَرَ على حَمْلِ قِنْطَارٍ، فهو على حَمْلِ أُوقِيَّة أَشَدُّ اقْتِدَارًا، فَقَالَ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس:٨١]، فَأَخْبَرَ أَنَّ الذي أَبْدَعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، على جَلَالَتِهِمَا، وَعِظَمِ شَأْنِهِمَا، وَكِبَرِ أَجْسَامِهِمَا، وَسَعَتِهِمَا، وَعَجِيبِ خَلْقِهِمَا، أَقْدِرُ على أَنْ يُحْيِي عِظَامًا قَدْ صَارَتْ رَمِيمًا، فَيَرُدَّهَا إِلى حَالَتِهَا الأولى. كَمَا قَالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧]، وَقَالَ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأحقاف:٣٣]. ثُمَّ أَكَّدَ سبحانه ذَلِكَ وَبَيَّنَه بِبَيَانٍ آخَرَ، وَهُوَ أنه لَيْسَ فِعْلُه بِمَنْزِلَة غيره، الذي يَفْعَلُ بِالْآلَاتِ وَالْكُلْفَة، وَالنصب وَالمَشَقَّة، وَلَا يُمْكِنُه الِاسْتِقْلَالُ بِالْفِعْلِ، بَلْ لَابُدَّ معه مِنْ آلَة وَمُعِينٍ، بَلْ يَكْفِي في خَلْقِه لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَه وَيُكَوِّنه نَفْسُ إِرَادَتِه، وقوله لِلْمُكَوَّنِ: «كُنْ»، فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ كَمَا شَاءَه وَأَرَادَه.

ثُمَّ خَتَمَ هذه الحُجَّة بِإِخْبَارِه أَنَّ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِه، فَيَتَصَرَّفُ فيه بِفِعْلِه وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

---

قال الشيخ:

هذه الآيات في آخر سورة يس احتجّ الله بها على بعض المشركين. روي أنّ الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، جاء ومعه عظم ميت قد بلي وجعل يحتّه، وقال: أتزعم يا محمّد أنّ ربّك قادر على أن يعيد هذا حيًا بعد أن صار فتاتًا وترابًا. فقال: «نعم، يميتك الله ثم يحييك، ثم يحشرك إلى جهنّم». نزلت فيه هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

فهذه هي الحجّة الأولى يذكّرُهُ بأنّه خُلق من نطفة، والنطفة: ماء قذرٌ لو تُرِك لحظةً لَفَسَدَ، والله هو الذي أوجدَ الإنسان من هذه النطفة، ثم طوّره إلى أن أخرجه إنسانًا سويًا، وجعله بشرًا متكامل الخلق، فإذا هو يخاصم ربّه ويجادله، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨].

فهذا المثل كأنّه أتى بهذا العظم يفتّه. نسي مبدأ خلقه، نسي أنّ الله هو الذي أوجده من تلك النطفة إلى أن صار رجلًا، نسي قولَ الله تعالى لهُ ولغيره: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠، ٢١]. نسي خلقه

فقال: من يحيي العظام وهي رميم.

الآيات التي بعدها في تقرير الحياة، وفيها عدة حجج:

**الحجّة الأولى:** ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، فإنّ من ابتدأ الخلق قادر على أن يعيده، وليس بدء الخلق أهون من إعادته. هذه حجّة قاطعةٌ لكلّ خصومة، وذلك لأنّ الذي ابتدأ خلق الإنسان وأحياه في هذه الدنيا، وكذلك سائر المخلوقات، قدّر الله أنها تتوالد وأنّها تنشأ على هذه الحياة شيئًا فشيئًا، فالذي أوجده وخلقه وكوّنه وقدّره ما يقدر عليه؟ لا شكّ أنه قادر على أن يعيده كما كان.

**الحجّة الثانية:** قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، فهو عالم بكلّ شيء، ولا يخفى عليه شيء، يعلم عدد المخلوقات، علم عدد الرمل والتراب، وأبصر فلم يستر بصره حجابٌ، وسمع جهر القول وخَفيّ الخطاب، لا يخفى عليه شيء من أمر عباده، علم عددهم قبل أن يخلقهم، وعلم آجالهم، وعلم أعمالهم، وعلم أوقاتهم التي يولدون فيها، فهو بكل خلق عليم، فإذا كان عليمًا فلا يليق به أن يهمل الخلق.

**الحجة الثالثة:** قول الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]. يقولون: هناك شجر اسمه المرخ، وشجر اسمه العفار، يعرفه أهل البوادي، إذا أرادوا أن يقدحوا نارًا قطعوا عودين أخضرين وحزّوا في أحدهما حزًّا، ثم إنّهم يحركونه تحريكًا جيدًا فتنقدح منه النار، ثم

يجعلون الشرارة التي تنقدح منه في خرقة، ثم بعد ذلك ينفخونها ثم يشعلونها نارًا، ويغني هذا عن الكبرين الذي نستعمله، وهذا كانت تعرفه العرب، ويعرفه أهل البوادي إلى القريب. يقولون:

في كلِّ شجـرٍ نار يستنجد المرخَ والعفار

الله تعالى يخرج النار من هذا العود الأخضر، مع أنّ طبيعة النار حارة، وطبيعة هذا العود أنه رطب وأنه مائي، فتنقدح منه هذه الحرارة؛ أليس ذلك دليلًا على أن الذي أوجد هذه الحرارة في هذا العود قادر على أن يعيد إلى الإنسان حياته، ولو كان ترابًا، فهو قادر على أن يجمع أشلاءه، ولو كانت متفرّقة، فهو لا يصعب عليه أن يعيد إليه حرارته وحياته وطبيعته، كما لم يستعصِ عليه أن يخرج النار من ذلك الشجر الأخضر، الذي توقدون منه.

**الحجّة الرابعة**: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]؛ لأن خلق هذه السموات، مع ارتفاعها، وما فيها من الأفلاك، وما فيها من النجوم السائرة والثابتة، وما فيها من الشمس والقمر وهذه الأجرام العلوية، وكذلك هذه الأرض وما فيها من الشعاب والجبال والوهاد، أكبر من خلق الإنسان. فإن المخلوق العظيم يدلّ على عظمة خالقه، فإذًا القادر على أن يخلق هذه الأشياء، قادر على أن يخلق الإنسان مع صغره ومع حقارته، وقادر على أن يعيده كما كان. وقد قال الشارح: من يقدر أن يحمل قنطارًا، لم يصعب عليه حمل أوقية. والقنطار ملء الثوب من الذهب أو الفضة، والأوقية

ملء اليد. ومن يستطيع أن يخلق هذه المخلوقات العلوية العظيمة، لا يستطيع عليه أن يوجد الإنسان.

الحجة الخامسة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]. ليس كالذي يحتاج إلى حرفة وإلى صنعة وإلى عمل وإلى مواد يجمعها. فإن أراد الصانع أن يصنع طاولة، فإنه يحتاج إلى خشب ومسامير ومنشار ومطرقة ودهان، وكذلك من يريد صنع الزجاج، فإنه يحتاج إلى مواده التي يصنع منها. أما الربّ تعالى فلا حاجة به إلى مواد ولا إلى أعوان ولا إلى أجهزة، بل يأمر مجرّد أمر، ويريد مجرّد إرادة، إذا أراد فإنما يقول له: كن فيكون. فأمره بين الكاف والنون. فهذه أدلّة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان كما كان، فإذا عرف الإنسان ذلك استعدّ لما بعد الموت.

والإيمان بالحساب والجزاء والحوض والميزان، كلّ ذلك داخلٌ في الإيمان باليوم الآخر، وأنّ الشريعة الإسلامية قد فصّلت ذلك في الكتاب والسنّة، ما لم يكن مفصلًا في الشرائع قبلها، وأنّ الإيمان باليوم الآخر قد توافقت عليه الشرائع، شرائع الأنبياء المنزلة عليهم متّفقة على أنّ هناك بعثًا بعد الموت، وجزاء على الأعمال، خيرها وشرّها، وكذلك هناك حساب عسير أو يسير كما أخبر الله، وهناك وقوف في الموقف الذي هو موقف الناس يوم يقوم الناس لربّ العالمين، وتضمّنت إثبات البعث الذي هو بعث الأجساد وإعادتها بعد أن كانت ترابًا ورميمًا، وأنّ ذلك يسير على الله تعالى. ووردت آيات كثيرة في القرآن في تقرير هذا

البعث. ومرّت بنا آيات توضّح ذلك. وأنّ الله تعالى يحتجّ على البعث بحجج عقليّة معقولة مشاهدة، ويحتجّ عليه للمنكرين بإحياء الأرض بعد موتها. فيقول تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم:١٩]. لما ذكر بأنه يحيي الأرض بعد موتها، أخبر بأنهم كذلك يخرجون من الأرض، ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾، يعني: كانت أرضًا ميتة، فأحييناها فأحيينا به الأرض بعد موتها، ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ [الأعراف:٥٧]، يعني: كما تحيا هذه الأرض الميتة التي ليس فيها عود أخضر أو ورقة خضراء، ينزل عليها المطر فيغمرها فتصبح بعد ذلك تهتزُّ خضراء، فيها من أنواعِ النباتات المختلفة الطُّعوم والألوان والروائح والطبائع والأغراض. لا شكّ أنّ ذلك آية بينة على إخراج الموتى وإعادتهم، بعد أن يكونوا ترابًا.

ويحتجّ أيضًا ببدء الخلق، فيقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧]، أي: كما أنه بدأ خلق الإنسان وأحياه بعد أن كان عدمًا، وكذلك يعيده بعد أن يكون ترابًا، فالذي أخرج الإنسان بعد أن كان ماءً مهينًا، وبعد أن كان نطفةً قَذِرةً، أخرجه بشرًا سويًا حيًا عاقلًا متكلّمًا له حركاته وله حواسّه، فلا شكّ أنّه قادر على أن يعيده ولو تفرّقت أشلاؤه، ولو أكلته الدود أو أكله التراب وانعدم، فلا يعجز الله أن يعيده كما كان، فهذا من حجّة الله على خلقه، كذلك يحتجّ الله بمخلوقاته العلويّة والسفليّة التي هي أعظم من خلقه،

فيقول تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧]، ويقول تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١]. ويقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأحقاف:٣٣]. ونحو ذلك من الأدلّة.

ويخبر أنّه سبحانه لا يحتاج في خلقه ولا في تصرفه إلى حركة ولا إلى عمل، ولا إلى معين ولا مساعدٍ ولا شريك. وإنّما يأمر أمرًا لا يُرَدّ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]. فالذي تذلّ له المخلوقات وتطيعه كلها، ولا تستعصي عليه، إنّما إذا أمرها انقادت لأمره، لا يستعصي عليه أن يعيد خلق الإنسان كما كان، فهذه من الأدلّة التي سمعنا إيضاحها، ودلالتها على إعادة الخلق.

والإنسان العاقل الذي يسمع هذه الأدلّة يقنع أشدّ القناعة، ويصدّق بذلك غاية التصديق، ويستسلم لذلك ولا يبقى في قلبه شكّ ولا ريب، ولكن لا يكتفي بذلك، لا يكتفي بأن يقول: أنا مؤمن وأنا مصدّق وأنا موقن بذلك كلّه، وأنا لا أشكّ ولا أتردّد، بل يطلب منه فوق ذلك العمل الذي يلقى به ربه في ذلك اليوم، فلا بدّ أن يعمل العمل الذي ينجو به في ذلك اليوم. فإذا علم أنّ ذلك يوم عسير، ويوم طويل، كألف سنة مما تعدّون، وأنّه لا يخفّ إلا على أهل الإيمان، وعلم أنّ فيه الحساب، وأنّ الحساب يكون عسيرًا إلا على أهل الإيمان، وأهل

الأعمال الصالحة، فإنّ الله يحاسبهم حسابًا يسيرًا، وعلم أنّ فيه الوزن للأعمال، وأنّها تخفّ وتثقل، وأنّ الذي تثقل موازينه هم أهل الأعمال الصالحة، وأنّ فيه الحساب على الأعمال، وأنّ الله سريع الحساب، وأن الله يحاسبهم على الأعمال في طرفة عين، ولا يشغله شأن عن شأن، وعلم أيضًا أنّ فيه تطاير الصحف، فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، وآخذ كتابه من وراء ظهره. لاشكّ أنه يستعدّ لمثل هذه الأشياء، فيعلم أنّها لا تحصل إلا بعمل، فيسأل عن العمل ويتقرّب بذلك العمل.

قال الشارح:

وَمِنْ هَذَا قوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٦ ـ ٤٠]، فَاحْتَجَّ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَتْرُكُه مُهْمَلًا عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَأَنَّ حِكْمَتَه وَقُدْرَتَه تَأْبَىٰ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [النور:١١٥]، إلى آخر السورة. فَإِنَّ مَنْ نَقَلَه مِنَ النُّطْفَة إلى الْعَلَقَة، ثُمَّ إلى الْمُضْغَة، ثُمَّ شَقَّ سَمْعَه وَبَصَرَه، وَرَكَّبَ فيه الحَوَاسَّ وَالْقُوَى، وَالْعِظَامَ وَالمَنَافِعَ، وَالْأَعْصَابَ وَالرِّبَاطَاتِ التي هي أَشَدُّه، وَأَحْكَمَ خَلْقَه غَايَةَ الْإِحْكَامِ، وَأَخْرَجَه على هَذَا الشَّكْلِ وَالصُّورَة، التي هي أَتَمُّ الصُّوَرِ وَأَحْسَنُ الْأَشْكَالِ، كَيْفَ يَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِه وَإِنْشَائِه مَرَّة ثَانِيَة؟ أَمْ كَيْفَ تَقْتَضِي حِكْمَتُه وَعِنَايَتُه أَنْ يَتْرُكَه سُدًى؟ فَلَا يَلِيقُ ذَلِكَ بِحِكْمَتِه، وَلَا تَعْجِزُ عنه قُدْرَتُه.

فَانْظُرْ إلى هَذَا الِاحْتِجَاجِ الْعَجِيبِ، بِالْقَوْلِ الْوَجِيزِ، الذي لَا يَكُونُ أَوْجَزَ منه، وَالْبَيَانِ الجَلِيلِ، الذي لَا يُتَوَهَّمُ أَوْضَحُ منه، وَمَأْخَذِه الْقَرِيبِ، الذي لَا تَقَعُ الظُّنُونُ على أَقْرَبَ منه.

وَكَمْ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الِاحْتِجَاجِ، كَمَا فِي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج:٥]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن

سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون:١٢]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٦]، وَذَكَرَ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَكَيْفَ أَبْقَاهُمْ مَوْتَى ثَلَاثَمِائَة سنة شَمْسِيَّة، وهي ثَلَاثُمِائَة وَتِسْعُ سِنِينَ قَمَرِيَّة، وَقَالَ فِيهَا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ [الكهف:٢١].

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَة مِنَ الجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَة، لَهُمْ فِي الْمَعَادِ خَبْطٌ وَاضْطِرَابٌ. وَهُمْ فيه على قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُعْدَمُ الجَوَاهِرُ ثُمَّ تُعَادُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُفَرَّقُ الْأَجْزَاءُ ثُمَّ تُجْمَعُ. فَأُورِدَ عَلَيْهِمُ الْإِنْسَانُ الذي يَأْكُلُه حَيَوَانٌ، وَذَلِكَ الحَيَوَانُ أَكَلَه إِنْسَانٌ، فَإِنْ أُعِيدَتْ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ مِنْ هَذَا، لَمْ تُعَدْ مِنْ هَذَا؟ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَحَلَّلُ دَائِمًا، فَمَاذَا الذي يُعَادُ؟ أَهُوَ الذي كَانَ وَقْتَ المَوْتِ؟ فَإِنْ قِيلَ بِذَلِكَ، لَزِمَ أَنْ يُعَادَ على صُورَة ضَعِيفَة، وَهُوَ خِلَافُ مَا جَاءَتْ به النُّصُوصُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَيْسَ بَعْضُ الْأَبْدَانِ بِأَوْلَى مِنْ بَعْضٍ! فَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ أَجْزَاءً أَصْلِيَّة لَا تَتَحَلَّلُ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الحَيَوَانِ الذي أَكَلَه الثاني! وَالْعُقَلَاءُ يَعْلَمُونَ أَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ نَفْسَه كله يَتَحَلَّلُ، لَيْسَ فيه شَيْءٌ بَاقٍ، فَصَارَ مَا ذَكَرُوه في الْمَعَادِ مِمَّا قَوَّى شُبْهَة الْمُتَفَلْسِفَة في إِنْكَارِ مَعَادِ الْأَبْدَانِ.

وَالْقَوْلُ الذي عليه السَّلَفُ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ: أَنَّ الْأَجْسَامَ تَنْقَلِبُ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ، فَتَسْتَحِيلُ تُرَابًا، ثُمَّ يُنْشِئُهَا الله نَشْأَة أخرى، كَمَا اسْتَحَالَ في النَّشْأَة الأولى، فإنه كَانَ نُطْفَة، ثُمَّ صَارَ عَلَقَة، ثُمَّ صَارَ مُضْغَة، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا وَلَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأَه

خَلْقًا سَوِيًّا. كَذَلِكَ الْإِعَادَة: يُعِيدُه الله بَعْدَ أَنْ يَبْلَى كله إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النبي ﷺ، أنه قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ ابْنُ آدَمَ، ومنه يُرَكَّبُ»[1]. وفي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّ السماء تُمْطِرُ مَطَرًا كَمَنِي الرِّجَالِ، يَنْبُتُونَ فِي الْقُبُورِ كَمَا يَنْبُتُ النَّبَاتُ»[2].

---

قال الشيخ:

الاحتجاج الأوّل لتكميل الأدلّة، يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، قيل: إن المراد أن يهمل في الدنيا فلا يؤمر ولا يُنهى، مع أنّه قد أكملت عليه النعم، فيهمل دون أن يكلّف أو أن يؤمر بعبادة يدين بها لمن خلقه، ولمن تكفّل برزقه؛ هذا لا يليق، فلا يليق بعاقل أن يعتقد أن الإنسان في هذه الحياة مهمل بمنزلة البهائم التي لا عقول لها، لا يليق بحكمة الحكيم أن يهمل الإنسان على هذا، ولا بدّ أن جنس الإنسان الذي منّ الله عليه بالعقل والإدراك أن يكون قد خلق لحكمة وهي طاعة من خلقه وعبادته والامتثال لما أمر، فلا يليق أن يكون مهملًا دون أن يكلّف وأن يؤمر وينهى.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٨)، ومسلم (٢٩٩٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥١١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧٨٤)، والطبراني في الكبير (٩٧٦١)، موقوفًا على ابن مسعود ﷺ، وصححه الحاكم (٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠)، وانظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٩ـ ٣٣٠).

والقول الثاني: أن المراد: أن يهمل فلا يبعث، وأن يترك سدىً، فإذا مات لا يُبعث ولا يُحاسب، بل يكون آخر عهده إذا مات وصار ترابًا، فلا يكون بعد موته جزاء ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب، فهل يعتقد العاقل مثل هذا؟ لا يليق بالخالق الرازق المتصرّف المالك العالم بأحوال عباده، أن يتركه فلا يثيب من أطاع، ولا يعاقب من عصى، ولا يبعثهم ويجمعهم ليوم الحساب وجزاء الأعمال، بل لا بدّ وأن يحاسبهم وأن يثيب من يستحقّ وأن يعاقب من يستحقّ.

ثمّ إن مثل هذه الآية: قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [النور:١١٥]، يعني: أتحسبون أنكم مهملون في الدنيا، وأنكم مخلوقون كالبهائم السائمة، لا تحاسب ولا تكلّف، أحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون رجوعًا حقيقيًا تحاسبون فيه على أعمالكم، هذا ظنّ خاطئ بعيد.

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧]. وأنّ الإنسان ما خلق هملًا وسدىً. احتج عليه بأول خلقه، ألم يكُ نطفةً. يعني ألم يكن خلق ابن آدم أوّله نطفةٌ من ماء مهين، وجعله الله في قرار مكين وهو الرحم، ثم خلقه وطوّره من حال إلى حال، من نطفة، ثم من علقة، وهي قطعة من الدم، ثم من مضغة، وهي قطعة اللحم الصغيرة بقدر ما يمضغها الماضغ، ثم خلق هذه المضغة عظامًا، ثم صوّرها على هذه العظام التي تكون في الإنسان؛ الرأس والعنق والمنكب واليدان بما فيهما من مفاصل والظهر والرجلان، ثم كسيت هذه العظام لحمًا وجلدًا

وعروقًا ومفاصل وأعضاء، وشدّها سبحانه وأحكمها، وخلق ما في جوف الإنسان من كبده ورئتيه وكليتيه وأمعائه وأعضائه الداخلة، وأحكم خلقه على هذا الخلق، أيحسب بعد ذلك أن يتركه مهملًا، لا يؤمر ولا ينهى، أليس أوله نطفة من منيٍ يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوّى، فجعل منه الزوجين، هل يستطيع الإنسان أن يخلق نفسه؟ أو يخلق ولده؟ أو يتحكّم في جنسه ذكر أو أنثى، بل الله هو الذي يخلقهم فيجعل هذا ذكرًا وهذا أنثى، حتى تتمّ حكمته التي شاء أن يكون الإنسان مكوّنًا من الزوجين الذكر والأنثى ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة:٣٩، ٤٠]، بلى ونحن على ذلك من الشاهدين، نشهد بأنّه قادر على أن يحيي الموتى بعد موتهم وتفرّقهم، وهو على كلّ شيء قدير.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، يعني: أباكم آدم. ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج:٥]، يعني: تارة تكون مخلّقة، وهي التي يتمّ خلقها، وتارة تكون غير مخلّقة وهي التي يقذفها الرحم ولا يتمّ خلقها. ثمّ ذكر بعد ذلك حالة الإنسان وتطوّره، ثمّ ذكر أن القادر على هذا قادر على أن يحيي الموتى. بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج:٦، ٧].

كذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون:١٢]،

خلق الله آدم من طين، وخلق زوجه منه، أما أولاده فقد ذكر الله خلقهم فقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون:١٣، ١٤]، إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٥، ١٦]، ثم احتجّ بالمخلوقات الكبرى فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون:١٧].

والذي أوجَدَ الإنسانَ عَلَى هذا لا يُهمل خلقه، ولا يليق به أن يتركهم هملًا وسُدَى، لا يؤمرون ولا ينهون. وعلى هذا فالإنسان لا بدّ وأنّه مكلّفٌ، ولا بدّ وأنّه مأمورٌ ومنهيٌّ، وأنّ فرضًا عليه أن يفعل ما أُمر به، وأن يجتنب ما نُهي عنه، حتى يصدُق عليه أنّه ممتثل، وأنه مستحقّ للجزاء في الآخرة.

وقد مرّ معنا أنّ الفلاسفة والمتكلّمين يقولون: إن الإنسان مكوّنٌ من الجواهر المفردة، وأنّه تكوّن وتجمّع حتى صار على هذه الحالة، والجوهر عندهم هو أصغر شيء في الوجود يُدرَك بالبصر، فكأنهم يقولون إنّ الإنسان مجموعة من هذه الجواهر تجمّعت هذه على هذه على هذه حتى أصبح بهذه الصورة، كما في سارية المسجد المكوّنة من حبات التراب الصغيرة، قد تجمّعت حبّة مع حبّة مع حبّة، إلى أن صارت سارية، كذلك السقف وكل الأشياء الموجودة مكوّنة من هذه الجواهر المفردة. وذلك أنّا نشاهد أنّ الإنسان يولد وهو طفل صغير، غاية في الصغر، ثمّ ينمو ويكبر، فمن أين تأتيه هذه الجواهر، أليس ذلك إنّما نموّه ونباته وكبره،

بسبب ما يغذقه الله عليه وما يعطيه إياه، وما يتولّد منه.

ومن ذلك أن نشاهد أنّ الشجرة تنبت من الأرض وهي ورقة صغيرة كالنخلة مثلًا، ثم بعد ذلك تصبح نخلة صغيرة، فمتى جاءت هذه الجواهر وتركّبت منها حبّات حبّات، إلى أن صارت نخلة سويّة؟ ومن أين جاءت الجواهر إلى جسم الإنسان ودخلت في أعضائه وكبرت منها أعضاؤه؟ فهذا قول يستنكره كلّ عاقل.

وأيضًا قالوا: إنّ الإنسان إذا تُوفي، فإنّ تلك الأجزاء تتفرق وتصير ترابًا، ثم تعود تلك الحبّات كما كانت. معلوم أنّ الإنسان الذي يطول عمره حتى يبلغُ مئة سنة يضعف خلقه، ويموت وهو أضعف ما يكون، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]. فيموت وهو في غاية الضعف، فهل يليق أنّه إذا أعيد بعد الموت أن يحيا في هذه الحالة من الضعف؟! هذا يخالف ما ذكر الله؛ فقد ذكر الله أنّه يحييهم أقوى ما يكونون، ويعيد إليهم قوّتهم، وأنّهم يكمل خلقهم، فيعود هذا الإنسان أكمل ما كان، ويعاد إليه ما فقد من أجزاء، قال النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»[1]. فهذا يبيّن ضعف مقالاتهم.

وضرب الشارح لذلك مثلًا: لو أنّ إنسانًا أكلته سمكة، وأصبح في بطنها، ثم إن تلك السمكة اصطادها إنسانٌ، فأكلها شيئًا فشيئًا وأصبحت غذاءً له. أين يكون الإنسان الأول؟ اضمحلّ في جوف تلك السمكة ولم يبق منه شيء، وأين تلك السمكة؟ فإن تلك السمكة ـ ولو كانت كبيرة ـ قد يأكلها الإنسان في سنة أو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أكثر، شيئًا فشيئًا، أو يأكلها عدة أناس، فأين ذلك الذي أكلته؟ لا شكّ أنّه أصبح غذاء لها، ولكن الله تعالى قادر على أن يعيده حيًا سويًا، ولو أكلته السمك أو السباع أو الطيور وما أشبه ذلك.

فهؤلاء الفلاسفة الإلهيون ونحوهم، يدّعون أنّ الذي يعاد إنّما هو الأرواح، وهناك كثير من المتكلّمين يدّعون أنّ الإنسان مركّب من جواهر مفردة، وأنّ تلك الجواهر هي التي تعاد، وذلك كلّه قول باطل. فالإنسان قد أخبر الله أنّه مركّب من هذه الخلقة الظاهرة التي نقلها طورًا بعد طور من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم كسيت العظام لحمًا. ولم يذكر أنّه مكوّن من جواهر تواردت عليه في الرحم شيئًا فشيئًا إلى أن تكوّن منها هذا الإنسان.

فبطلت بذلك أقوالهم، وصحّ أنّ الله هو الذي يحيي الإنسان ويعيده كما كان عليه، وأنّه يعيد خلق الإنسان كما يشاء، دون أن يقال: إنّه مكوّن من جواهر مفردة أو غير مفردة، أو أعراض. وذلك لأنّ المتكلّمين يقسّمون الموجودات إلى جواهر وأعراض، ويقولون: كل ما تركّب من الجواهر المفردة هو ما يدركه البصر وما تدركه الحواس. وأما الأعراض: فهي التي ليس لها جرم، وإنما هي صفات أو أعراض كالبياض والسواد، والظلمة والنور، والألوان كالحمرة والخضرة، وما أشبه ذلك. وكذلك الأعراض من الأعمال كالأقوال والأفعال هذه أيضًا يسمّونها أعراضًا، وهذا مما توّغلوا فيه، ولا حاجة لأهل السنّة إلى مناقشتهم في ذلك، بل يقولون: إنّ هذه المخلوقات خلق الله عرضها وجوهرها، وهو الذي يجسّد هذا ويجمع هذا متى شاء وكيف شاء.

قال الشارح:

فَالنَّشْأَتَانِ نَوْعَانِ تَحْتَ جِنْسٍ، يَتَّفِقَانِ وَيَتَمَاثَلَانِ مِنْ وَجْه، وَيَفْتَرِقَانِ وَيَتَنَوَّعَانِ مِنْ وَجْه، وَالْمُعَادُ هُوَ الْأَوَّلُ بِعَيْنِه، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ لَوَازِمِ الْإِعَادَة وَلَوَازِمِ الْبَدَاءَة فَرْقٌ، فَعَجْبُ الذَّنَبِ هُوَ الذي يَبْقَى، وَأَمَّا سَائِرُه فَيَسْتَحِيلُ، فَيُعَادُ مِنَ الْمَادَّة التي اسْتَحَالَ إِلَيْهَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ رأى شَخْصًا وَهُوَ صَغِيرٌ، ثُمَّ رَآه وَقَدْ صَارَ شَيْخًا، عَلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ ذَاكَ، مَعَ أنه دَائِمًا فِي تَحَلُّلٍ وَاسْتِحَالَة. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتُ، فَمَنْ رأى شَجَرَة وهي صَغِيرَة، ثُمَّ رَآهَا كَبِيرَة، قَالَ: هذه تِلْكَ. وَلَيْسَتْ صِفَة تِلْكَ النَّشْأَة الثَّانِيَة مُمَاثِلَة لِصِفَة هذه النَّشْأَة، حتى يُقَالَ: إِنَّ الصِّفَاتِ هي الْمُغَيَّرَة، لَاسِيَّمَا أَهْلُ الْجَنَّة إِذَا دَخَلُوهَا فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَهَا على صُورَة آدَمَ، طُولُه سِتُّونَ ذِرَاعًا، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] وَغَيْرِهِمَا، وَرُوِي: أَنَّ عَرْضَهُ سَبْعَةُ أَذْرُعٍ. وَتِلْكَ نَشْأَة بَاقِيَة غَيْرُ مُعَرَّضَة لِلْآفَاتِ، وهذه النَّشْأَة فَانِيَة مُعَرَّضَة لِلْآفَاتِ.

وقوله: (وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ)، قَالَ تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤]، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٢٥]، وَالدِّينُ: الْجَزَاءُ، يُقَالُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، أي كَمَا تُجَازِي تُجَازَى، وَقَالَ تعالى: ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٦]، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٠]، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل:٨٩، ٩٠]، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص:٨٤]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَقَالَ ﷺ، فِيمَا يروي عَنْ رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ حَدِيثِ أبي ذَرٍّ الْغِفَارِي ﷺ: «يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَه»[1].

وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةَ بَيَانٍ عَنْ قَرِيبٍ، إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى.

---

قال الشيخ:

ما سبق يتعلّق ببقيّة الردّ على الفلاسفة والمتكلّمين الذين يزعمون أنّ الإعادة هي الإعادة لتلك الجواهر المفردة، ويزعمون أنّ الإنسان مركّب من تلك الجواهر.

فيقول الشارح: إننا نرى أنّ الإنسان يتغيّر من حال إلى حال، فيتغيّر من مرضٍ إلى صحّة، ومن صحّة إلى مرض، ويتغيّر من صغر إلى كبر. والتغير الظاهر: بأن يشاهد أنّه رضيع طفل، ثم بعد ذلك يكون شابًا، ثم يكون كهلًا، ثم يكون شيخًا كبيرًا، ثم يكون هرمًا. تقلّبه من هذه الحال إلى هذه الحال؛ هل يكون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

قد تغير، واكتسب روحًا غير روحه الأولى، أو اكتسب اسمًا غير اسمه الأول؟ لم يتغير، فإذا رُؤيَ، قيل: هو هذا الطفل، الذي رأيته قبل خمسين سنة وهو رضيع، قد أصبح كهلًا كبيرًا، ما تغيّر منه شيء إلا أنه نما جسمه وكبر وترعرع.

وكذلك مثّل الشارح بالشجر؛ من غرس شجرة وهي عود، ثم جاءها بعد سنتين، وقد أصبحت شجرة كبيرة ذات عروق وساق وأغصان وأوراق وثمر، فيقول: هذه هي تلك الشجرة التي غرسها فلان قبل كذا وكذا، وهي عود دقيق. فعلى هذا يقال: كيف تركّبت من جواهر؟ ومن أين جاءت هذه الجواهر حتى اتصلت بها، مع أنّا نشاهدها فقط تنمو وتكبر بواسطة غذائها الذي تتغذّى به، وهو ماؤها الذي تشربه.

كذلك الحيوانات كلّها، فيشاهد مثلًا أنّ السخلة تولد وهي صغيرة، ثم بعد ذلك تنمو بسبب الغذاء الذي تتغذى به، وكذلك بقية الأنعام، كلّها تنمو بسبب الغذاء الذي تتغذّاه دون أن تأتي جواهر لتلتصق بها، وتزيدها كبرًا. فهذا دليل على بطلان قول هؤلاء.

وعلى الرغم من هذا فإن كلامهم قد انتشر وتمكّن من كثير من العقلاء، وصاروا يغالون في كتب الفلاسفة، ويرجعون إليها مع ما فيها من هذا التهافت والتناقض. وبذلك يعلم أن هؤلاء الفلاسفة الإلهيين الذين يُمدحون ويُثنى عليهم ويُعظّم شأنهم، ويتعجّب من أفكارهم، ومن ابتكاراتهم، أنّهم ليسوا على شيء، وأنّ كلامهم متهافت، لا أصل له.

أما الكلام على جزاء الأعمال، فقد مر بنا أنّ الله سبحانه يُجازي عباده على

أعمالهم، فكثيرًا ما يقول تعالى: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران:١٨٢]، ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]. فيذكر الله تعالى أن الثواب الذي يحصل لعباده وأوليائه في الجنّة هو جزاء على أعمالهم. وكذلك في الأحاديث.

ففي القرآن يقول تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، ويقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]. يحاسبهم على حبّة الخردل، يعني: على مثقال هذه الحبّة.

وكذلك يذكر الله تعالى أنّه يجازيهم في أعمالهم في هذا الحديث القدسي: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**»[1]، أي: جزاءها. مع أنّه سبحانه قد أخبر بأنّه يضاعف الحسنات أضعافًا كثيرة، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠]. أخبر أنّه لا يظلم عباده، ولا يكتب عليهم مالم يفعلوا، ولا يجازيهم على السيئة بأكثر منها وإنّما بمثلها. وأما الحسنة فإنّه يضاعفها أضعافًا كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]. وقال النبيّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ**

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

والحاصل: أنّ القرآن مشتمل على أنّ الإنسان يُجازى على عمله، وأنّ أعماله التي يعمل في الدنيا يلاقي جزاءها، ولا يضيع منها شيء، فهو: **أوّلًا**: قد كُتب عليه قبل أن يُخلق أنه يفعل كذا وكذا. **وثانيًا**: تكتبها الملائكة في صحفهم، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. **وثالثًا**: يثبت الله مما في صحف الملائكة ما فيه حساب وعليه ثواب أو عقاب، ويمحو غير ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

والإنسان إذا علم أنّه مجازىً على عمله، اهتمّ بهذا العمل، فيحمله على أن يخلص فيه حتى يثاب عليه، فإنّه إن لم يكن خالصًا بطل ثوابه، ثم يحرص على أن يستكثر من الأعمال الصالحة حتى يتضاعف له أجرها ويكثر، فإنّه كلّما كثرت الحسنات كثر الثواب عليها. فهذا هو جزاء الأعمال حيث أخبر الله بأن الإنسان يجازى على أعماله في الآخرة.

وقد عرفنا أنّ من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وهو الركن الخامس من أركان الإيمان، وسمّي باليوم الآخر؛ لأنه ليس بعده يوم،

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٥).

والدار الآخرة هي يوم القيامة. اليوم الأول هو الدنيا وتُعدّ كأنها يوم. ثمّ اليوم الآخر هو الذي يكون بعد البعث. فعندنا يومان: الدنيا يوم، والآخرة يوم. الدنيا سمّيت بذلك؛ لأنها دنيّة، أو لأنّها دانية، وهي اليوم الأول. والآخرة سمّيت بذلك؛ لأنها متأخّرة عن هذه الدنيا، أو لأنها آخر ما يمرّ به الإنسان، وليس بعدها يوم، بل هي مستمرّة دائمًا وأبدًا. وأوّل ما يكون في اليوم الآخر هو البعث، الذي هو: إعادة الناس وإحياؤهم بعد تفرّق أشلائهم، وبعد صيرورتهم ترابًا ورفاتًا، فإعادتهم هو أوّل ما يكون في هذا اليوم، ثم بعده الحشر، الذي هو سوقهم إلى الموقف. وقد أخبر الله تعالى بأنّهم يحشرون على هذه الأرض، وأنّهم يحشرون زرقًا ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ [طه: ١٠٢، ١٠٣]، يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشرة أيام، ويقول أمثلهم طريقة: ما لبثتم إلا يومًا واحدًا. فالحشر هو سوقهم إلى الموقف.

والموقف هو موضع خصصه الله على الأرض، وقد أخبر الله بأنّ الأرض تبدّل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وأخبر بأنّها تمدّ مدًا: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق:٣ ـ ٥]، وذكر بأنّه يزال ما فيها، أي تمدّ كما يمدّ الأديم، كذلك يزال ما عليها من بنيان وجبال، ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥]، وتتفتت. تصير أولًا كالرمل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل:١٤]؛ يعني: رملًا ينهال. ثم بعد ذلك تكون كالهباء الذي يسير: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ

﴿ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، أي: كأنّها السحاب الذي هو هباء وغيم. وبعد ذلك يزال ما عليها، فيقول تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧]، مستوية ليس فيها منخفض ولا مرتفع، تزال الجبال والأبنية والمرتفعات والكثب ونحو ذلك ويقوم الناس عليها أوّلهم وآخرهم، يجمعهم الله تعالى كلّهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. فأخبر بأنّ أوّليهم وآخريهم كلّهم مجتمعون في ذلك اليوم الذي هو يوم الجمع.

والعرض يكون على الله تعالى، ولكن ذلك بعد أن تطول المدّة في ذلك الموقف، وبعد أن يلحقهم التّعب والعناء، ويستشفعون بالأنبياء ونحوهم، ويشفع محمّد ﷺ لينزل الله تعالى لفصل القضاء، وبعد ذلك العرض الذي هو عرض الناس، يقول تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]، أي: صفوفًا، صفًا بعد صفّ ليحاسبهم.

وأخبر تعالى بأنّه يحاسبهم، وكذلك أخبر النبيّ ﷺ أن الناس يحاسبهم الله ويناقشهم ويذكّرهم بما عملوا، فيقول ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ الله ليس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**»[1]، وقد أخبر الله تعالى بأنه سريع الحساب، لا يشغله شأن عن شأن.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وكذلك من الأهوال التي تكون يوم القيامة نصب الميزان، وتطاير الصحف، فإنّ الناس يأتيهم الهول عندما تنصب الموازين، حتّى يعلم من يخفّ ميزانه ومن يثقل. وعندما تتطاير الصحف حتّى يعلم من يأخذ كتابه بيمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله. فإذا ثقلت موازينه نودي: سعد فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا. وإذا أوتي كتابه بيمينه: عندئذ يفوز فوزًا عظيمًا، ويقرأ كتابه، ويعرضه على من يعرفه، ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩].

ونعرف أنّ ذلك كلّه مفصّل في القرآن بعبارات لا يعتريها الشكّ والرّيب. ولكن الفلاسفة الذين ينكرون هذه الأشياء حقيقة يتسلّطون على تأويلها وصرفها عن ظاهرها، حتّى تسلم لهم عقيدتهم، كما تسلّط إخوانهم من المعتزلة على نصوص الصفات فتأوّلوها، وفتحوا للناس باب التأويل.

وبكل حال؛ فهذه الأمور التي وردت في القرآن، لا يتمّ إيمان العبد إلا بالإيمان بها وتحقّقها وتيقّنها ومعرفة أنّها صحيحة ثابتة، ولا يعلم ذلك إلا بالاستعداد لها والتأهّب؛ لأنّ من آمن باليوم الآخر استعدّ لذلك اليوم، وقدّم العمل الصالح الذي يكون سببًا في نجاته وفوزه. وأما من يصدّق به بلسانه، ولا يستعدّ له فإنّ هذا يقول ما لا يفعل، ولا ينفعه قوله بلسانه ما دام أنّه لا يطبّق ما يقوله. كما يقول بعضهم في مثل هؤلاء المفرّطين: ألسنةٌ تصف، وقلوبٌ تعرف، وأعمال تخالف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالعَرْضُ وَالحِسَابُ، وَقِرَاءَةُ الكِتَابِ، وَالثَّوَابُ وَالعِقَابُ.

---

قال الشارح:

قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٥ ـ ١٨] إلى آخر السورة.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق:٦ ـ ١٥].

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، إلى آخر السورة.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥]، الآية، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

﴿ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧].

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨١].

وَرَوَى البُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - في «صَحِيحِهِ»[1]، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أحدٌ يُحاسَبُ يومَ القِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧، ٨]. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ». يَعْنِي: أَنَّهُ لَو نَاقَشَ فِي حِسَابِهِ لِعَبِيدِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

عرفنا من إيراد الآيات السابقة أن القرآن مشتمل بإيضاح على ذكر الدار الآخرة وما يكون فيها، وأنّ أوّل ما يكون هو النفخ في الصور، وقد ذكر في القرآن في عدّة مواضع، فذكر الله تعالى نفختين أو ثلاث نفخات: نفخة سماها نفخة الفزع حيث ذكر بعدها الفزع في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل:٨٧].

---

(١) برقم (١٠٣).

وسمّيت في سورة الزمر بنفخة الصعق: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨].

يقول بعض العلماء: إنها نفختان؛ نفخة فزع ونفخة صعق. وقال بعضهم: بل نفخة واحدة، يفزعون في أوّلها، ثم يصعقون في آخرها. وقال بعضهم: إنّ الفزع صعْقٌ، أي موت، أوله فزع ثمّ موت.

أمّا النفخة الثانية فهي نفخة البعث. كما في قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]. وهي النفخة التي يبعثون بعدها. وقد ورد في الحديث: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»[1]؛ توقف الراوي لا يدري: أربعون يومًا، أو أربعون شهرًا، أو أربعون سنة. وجزم بعضهم بأنّها أربعون سنة، أي ما بين نفخة الصعق، ونفخة القيام لربِّ العالمين.

بعد ذلك السَّوق: فتسوقهم الملائكة إلى الموقف، ويسمّى أيضًا الحشر في قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]. وبعد ذلك العرض، في قوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]، أي: صفوفًا. وبعده القيام الطويل، ثم ما يكون بعده.

إذا تأمّلنا النصوص وجدنا ما يؤيّد هذه الأشياء في آياتٍ متتابعة متكرّرة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣]، هي نفخة البعث أو

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٣٨).

نفخة الصعق. ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤]، أي: جعلت الأرض والجبال شيئًا واحدًا، حتى تكون مستوية صالحة لأن يوقف عليها، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٥]، أي: حصلت الواقعة التي هي يوم القيامة. الله تعالى سمّى يوم القيامة بهذه الأسماء: الواقعة، الحاقّة، القارعة، وسمّاه بيوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، وسمّاه بالطامّة والصّاخة: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات:٣٤]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس:٣٣].

هذه أسماء لهذا اليوم، الذي هو يوم القيامة، وكل اسم له معنى؛ فمعنى كونها الطامّة: أنّها تطمّ ما قبلها وتنسي ما قبلها، والطمّ في الأصل: التغطية، وطمّ البئر: إذا غطّاها. أو أنّها طامّة مذهلة، أو عامّة لكلّ الخلق. وأما تسميتها بالصاخّة: فإنه لثقلها على الناس، والصخُّ: هو الضربُ بقوّة، أو الثقل، ونحو ذلك.

وكلّ هذه الآيات تخوّف بما اشتملت عليه؛ وذلك أنّ هذا اليوم الذي هو يوم القيامة، الذي ذكر بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٤٨]. هذا اليوم هو يوم الجزاء، وهو اليوم الذي يوقف فيه الناس ويقومون ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

والآيات التي ذكرت فيه ووضّحت معناه متقاربة المعنى، ولو اختلفت الأسماء والألفاظ، فإنّ المعاني متقاربة؛ لأنّ الله تعالى يذكره في كلّ موقع بما يناسبه.

والقصد من تكرار ذكر يوم القيامة تحقّقه حتى لا يقال إنّه خيال، أو أنّه تقريبيّ وما أشبه ذلك، وحتى لا تتسلّط عليه التأويلات التي يسلكها النّفاة من الفلاسفة ونحوهم، فإنّهم يعجزون أن يصرفوا الآيات عن معناها إذا جُمِعَتْ.

ولذلك آمن أهل السنّة وآمن المسلمون بالبعث بعد الموت. وقالوا: ليس في العقول ما ينكره، والقدرة الإلهيّة عامّة له ولغيره، والعقلُ يقتضيه لأجل الجزاء على الأعمال، ولأجل الانتقام من الظالم، وأخذ الحق للمظلوم، ولأجل ثواب المطيع، وعقوبة العاصي. وذلك لأنّا نشاهد في الدنيا أنّ هناك ظلمة يموتون وهم مصرّون على الظلم، معهم أموالٌ اغتصبوها، ومنهم من قتل، ومنهم من انتهب مالًا سرقةً أو اختلاسًا أو غصبًا. ومنهم من انتهك عرضًا، ومع ذلك لا يؤخذ الحقّ منهم، ويموتون ويبقى الحقّ عندهم، والله تعالى أعدل من أن يذهب صاحب المظلمة دون أن ينتقم منه؛ فلا بدّ أن يكون هناك يوم آخر ينصف فيه الله المظلوم، وينتقم من الظالم بما يستحقّه، فيكون ذلك هو اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة.

كذلك نشاهد من يجدّ في الأعمال الصالحة، ويتقرّب بالحسنات، فلا يأتيه جزاء في الدنيا إلا ما يجده من لذّة الطاعة ونحوه، فلا بدّ أنّ الله لا يضيع عمله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف: ٣٠]. فلا يضيع أجره، مادام أنّه لم يتمتّع بشيء من أجره في الدنيا، فأجره يوفّى إليه في الدار الآخرة. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

كما أنّنا نشاهد الكفرة والفجرة الذين تمتّعوا من الدنيا بملذّات، وهم يظهرون الكفر والفسوق والسخرية بالرسل ويكذّبونهم، ويسخرون من الحقّ، ويفعلون المعاصي، ويتركون الطاعات، ومع ذلك يموت أحدهم وهو على إصراره لم ينله عقوبة في الدنيا، فلا بدّ أن يكون هناك دارٌ أخرى يعاملهم الله فيها بما يستحقونه، أو يعاملهم فيها بعدله، إذا لم يعفُ عن المحسن منهم. فهذه الأمور العقلية تدعو المؤمن أن يؤمن بالبعث بعد الموت، وأن يتحقّق وقوعه.

قال الشارح:

وفي الصَّحِيحِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا موسى آخِذٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ يَوْمِ الطُّورِ؟»[1] وَهَذَا صَعْقٌ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، إِذَا جَاءَ اللهُ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِهِ، فَحِينَئِذٍ يَصْعَقُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَصْنَعُونَ بقوله في الحَدِيثِ: «إِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأَرْضُ، فَأَجِدُ موسى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ»[2].

قِيلَ: لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ قَدْ وَرَدَ هَكَذَا، ومنه نَشَأَ الْإِشْكَالُ. وَلَكِنَّه دَخَلَ فيه على الراوي حَدِيثٌ فِي حَدِيثٍ، فَرَكَّبَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ، فَجَاءَ هَذَانِ الحَدِيثَانِ هَكَذَا: أَحَدُهُمَا: «أَنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ»، كَمَا تَقَدَّمَ، والثاني: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فَدَخَلَ على الراوي هَذَا الحَدِيثُ فِي الْآخَرِ. وَمِمَّنْ نَبَّه على هَذَا أَبُو الحَجَّاجِ الْمِزِّي، وبعده الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيِّمِ، وَشَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللهُ.

وَكَذَلِكَ اشْتَبَه على بَعْضِ الرُّوَاةِ، فَقَالَ: «فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»؟ وَالمَحْفُوظُ الذي تَوَاطَأَتْ عليه الرِّوَايَاتُ الصَّحِيحَةُ هُوَ الْأَوَّلُ، وعليه المعنى الصَّحِيحُ، فَإِنَّ الصَّعْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِتَجَلِّي اللهِ لِعِبَادِهِ إِذَا جَاءَ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٣).

لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، فَمُوسَى ـ عليه السَّلَامُ ـ إِنْ كَانَ لَمْ يُصْعَقْ مَعَهُمْ، فَيَكُونُ قَدْ جُوزِي بِصَعْقَةِ يَوْمَ تَجَلَّى رَبُّه لِلْجَبَلِ فَجَعَلَه دَكًّا، فَجُعِلَتْ صَعْقَة هَذَا التَّجَلِّي عِوَضًا عَنْ صَعْقَة الْخَلَائِقِ لِتَجَلِّي رَبِّه يَوْمَ الْقِيَامَة. فَتَأَمَّلْ هَذَا المعنى الْعَظِيمَ وَلَا تُهْمِلْه.

وروى الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1]، والترمذي[2]، وَأَبُو بَكْرِ بْنِ أبي الدُّنْيَا، عَنِ الحَسَنِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا موسى الْأَشْعَرِي يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَة ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَعَرْضَتَانِ جِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَعَرْضَة تَطَايُرِ الصُّحُفِ، فَمَنْ أُوتِي كِتَابَه بِيَمِينِه، وَحُوسِبَ حِسَابًا يَسِيرًا، دَخَلَ الْجَنَّة، وَمَنْ أُوتِي كِتَابَه بِشِمَالِه، دَخَلَ النَّارَ».

وَقَدْ روى ابْنُ أبي الدُّنْيَا عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: أنه أَنْشَدَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا[3]:

وَطَارَتِ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي مُنَشَّرَة ... فِيهَا السَّرَائِرُ وَالْأَخْبَارُ تُطَّلَعُ
فَكَيْفَ سَهْوُكَ وَالْأَنْبَاءُ وَاقِعَة ... عَمَّا قَلِيلٍ وَلَا تَدْرِي بِمَا تَقَعُ
أَفِي الْجِنَانِ وَفَوْزٍ لَا انْقِطَاعَ لَه ... أَمِ الْجَحِيمِ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَدَعُ
تَهْوِي بِسَاكِنِهَا طَوْرًا وَتَرْفَعُهُمْ ... إِذَا رَجَوْا مَخْرَجًا مِنْ غَمِّهَا قُمِعُوا

---

(١) في المسند (٤/ ٤١٤).

(٢) برقم (٢٤٢٥)، ولكنه من طريق الحسن عن أبي هريرة ﷺ، وقال عَقِبَه: «ولا يَصِحُّ هذا الْحَدِيثُ من قِبَلِ أَنَّ الْحَسَنَ لم يَسْمَعْ من أبي هُرَيْرَةَ، وقد رَوَاهُ بَعْضُهُمْ عن عَلِيٍّ الرِّفَاعِيِّ عن الْحَسَنِ عن أبي مُوسَى عن النبي ﷺ، ولا يَصِحُّ هذا الْحَدِيثُ من قِبَلِ أَنَّ الْحَسَنَ لم يَسْمَعْ من أبي مُوسَى».

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٩٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٧٣).

طَـالَ الْبُكَـاءُ فَلَـمْ يُـرْحَمْ تَـضَرُّعُهُمْ ... فِيهَـا وَلَا رِقَّيـة تُغْنِـي وَلَا جَـزَعُ
لِيَنْفَـعِ الْعِلْـمُ قَبْـلَ الْمَـوْتِ عَالِمَـه ... قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا

---

قال الشيخ:

تحقيق لما مرّ بنا من أمر الحشر والبعث بعد الموت، أخبر النبي ﷺ بأنه أوّل من تنشقّ عنه الأرض. فدلّ على أنّهم يجمع خلقهم ويكمّل وهم في جوف الأرض، إما في نفس القبور، وإما في بطن الأرض، ثم بعد ذلك تنشقّ الأرض عنهم، فتخرج الأرواح والأجساد على وجه الأرض، يقومون من قبورهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[يس:٥١]؛ الأجداث: القبور. ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، كأنّهم شعروا بأنّهم قبل بعثهم كانوا نيامًا، قد رقدوا فيُقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

الأنبياء لهم مزيّة، ونبيّنا ﷺ أفضلهم، فهو أوّل من تنشقّ عنه الأرض، ثم بعد ذلك بقيّة الأنبياء، ولو كانت أرواحهم قد رُفعت في الملأ الأعلى، وأما أجسادهم فبقيت في الأرض، وبعد ذلك يبعثهم الله؛ لأنّه أخبر أن الأرض هي مردّ كل إنسان في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس:٢١]، وفي قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]. يعمُّ الأنبياء وغيرهم، وبعدما يجتمعون في ذلك المجمع، وفي ذلك المكان الذي يجتمع فيه أوّلهم وآخرهم،

لا يحصي عددهم إلا الله تعالى. ويطول فيه وقوفهم، أخبر في هذا الحديث بأنّهم يصعقون؛ وهذه صعقة جديدة. إمّا أنّهم يسمعون صوتًا مزعجًا عندما تتشقّقُ السّماء بالغمام لتنزّل الملائكة، ويكون من أثر تشقّقها أصوات مزعجة، يصعق الناس فيها يعني: يغشون. وقد تطول هذه الغشوة، يكون نبيّنا ﷺ أوّل من يفيق، ولكن يجد موسى ـ عليه السلام ـ أيضًا قد أفاق قبله، ويكون في ذلك مزيّة لموسى عليه السلام، يقول النبي ﷺ: «فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»[1]؛ وصعقة الطور: هي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:١٤٣]. فهذا صعق في الدنيا، يعني: كأنّه جوزي بهذا الصّعق.

وبكلّ حال: فإنّ هذا الصعق يكون في الموقف، وفي الموقف أيضًا أهوال عظيمة منها: العرض على الله تعالى، ومنها نصب الموازين، ومنها تطاير الصحف، ومنها نشر كتب الأعمال التي هي دواوين الأعمال، كلٌّ ينشر له ديوان فيه أعماله، ويقول الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٣، ١٤]. ويقرأه من يقرأ ومن لا يقرأ. فيقولون كما أخبر عنهم الله أنهم يقولون: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٣).

وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ [الكهف:٤٩].

فهذه بلا شكّ حقائقُ يقينيّة دلّ عليها القرآنُ، ودلّ على أنّه يُحضر للإنسان كلّ شيء عمله من خير أو شر، فيسرّه أن يجد الحسنات مضاعفة موفّرة، وأمّا إذا وجد السيّئات، فيستاء لذلك ويحزن. قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران:٣٠]، فتجد النفس ما عملت من خير محضرًا، وما عملت من سوء تودّ لو أنه يبعد عنها؛ لأنّ السيّئات تسوء صاحبها، ويخاف من الجزاء عليها. وهذه كلّها حقائق يجب الإيمان بها، والاستعداد والتأهّب لها، ولما بعدها.

قال الشارح:

وَقَولُهُ: (والصِّرَاط)؛ أَي: وَنُؤمِنُ بِالصِّرَاطِ، وَهُوَ جِسْرٌ عَلَى جَهَنَّم، إِذَا انْتَهَىٰ النَّاسُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ مَكَانَ المَوْقِفِ إِلَى الظُّلْمَةِ التِي دُونَ الصِّرَاطِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِي الله عَنْهَا ـ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ: أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَات؟ فَقَالَ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْر»[1]. وفي هَذَا المَوْضِع يَفْتَرِقُ المُنَافِقُون عَنِ المُؤْمِنِينَ، وَيَتَخَلَّفُونَ عَنْهُمْ، وَيَسْبِقُهُمُ المُؤْمِنُونَ، وَيُحَالُ بَينَهُمْ بِسُورٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الوُصُولِ إِلَيْهِمْ.

وَرَوَى البَيْهَقِيُّ[2] بِسَنَدِهِ عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «يَجمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيامَةِ»، إِلَى أَنْ قَالَ: «فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمالِهِم، قَالَ: فَمِنْهُم مَنْ يُعْطَىٰ نُورَهُ مِثْلَ الجَبَلِ بَيْنَ يَدَيهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُعْطَىٰ نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعطَىٰ دُوْنَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ، حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُ ذَلِكَ مَنْ يُعْطَىٰ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً، إِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قدَمَهُ، وَإِذَا طُفِىءَ قَامَ، قَالَ: فَيَمُرُّ وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ، دَحْض مَزَلَّة، فَيُقَالُ: امْضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الكَوكَبِ، ومِنْهُم مَنْ يَمُرُّ

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٣١٥).

(٢) أخرجه مختصرًا بغير سنده في شعب الإيمان (١/ ٣٣٩)، وأشار إلى سنده في كتابه «البعث والنشور» (ص٢٥٢). وأخرجه بطوله الطبراني في الكبير (٩٧٦٣)، والحاكم (٢/ ٣٧٦)، والدارقطني في رؤية الله (ص١٣٩). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٠): «رواه الطبراني من طرق، ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني، وهو ثقة».

كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُم مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّحْلِ، وَيَرْمُلُ رَمَلًا، فَيَمُرُّوْنَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِم، حَتَّى يَمُرُّ الذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، تُجَرُّ يَدٌ، وَتَعْلَقُ يَدٌ، وتُجَرُّ رِجْلٌ، وَتَعْلَقُ رِجْلٌ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، قَالَ: فَيَخْلُصُونَ، فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الحَمْدُ للَّهِ الذِي نَجَّانَا مِنْكِ، بَعْدَ أَنْ أَرَانَاكِ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا» الحَدِيث.

---

قال الشيخ:

هذا من الأهوال التي ذكرت في يوم القيامة، فذكر الله تعالى أنّ الأرض تبدّل. وقد سئل النبيّ ﷺ: أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَات؟ فَقَالَ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْر». وقال في رواية أخرى: «عَلَى الصِّرَاط»[1].

وقد تكاثرت الأدلّة بأنّهم يعبرون على الصراط. والصراط: الطريق الذي يسار عليه، وفي الدنيا صراط، قال تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦]، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وهو صراط معنويّ.

وفي الآخرة صراط حسّيٌّ يعبر الناس عليه، أي يسيرون عليه. وهذا الصراط منصوب على متن جهنم، يمرّ الناس عليه على قدر أعمالهم. وقد أخبر الله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بأنّهم يتميّزون؛ فميّز الله المؤمنين من المنافقين، في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٢، ١٣]؛ إذا أعطوا نورًا وفرّقت عليهم الأنوار انطفأ نورُ المنافقين، وسار المؤمنون بنورِهم، فإذا ساروا تأخّر المنافقون في تلك الظلمة، فعند ذلك يحجزون ويمنعون، ويقولون انتظرونا، نأخذ قبسًا من نوركم نستضيء به، فيقال: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾، ارجعوا إلى المكان الذي قُسِّمت فيه الأنوار، فيرجعون، فإذا رجعوا ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾، حاجز منيع ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾، لا يُدخل إليه إلا من خلال ذلك الباب، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديث:١٣]، فهذا الوقت الذي يتميّز فيه المنافقون من المؤمنين.

وقد ورد في الحديث أيضًا: «إذا كان يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ ما كانت تَعْبُدُ، فلا يَبْقَى أَحَدٌ كان يَعْبُدُ غير اللَّهِ سُبْحَانَهُ من الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إلا يَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يَبْقَ إلا من كان يَعْبُدُ اللَّهَ، من بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ عُزَيْرَ بن اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ ما اتَّخَذَ اللَّهُ من صَاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ بن اللَّهِ، فَيُقَالُ

لهم: كَذَبْتُمْ، ما اتَّخَذَ اللَّهُ من صَاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لهم: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قال: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ ألا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يَبْقَ إلا من كان يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى من بَرٍّ وَفَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ في أَدْنَى صُورَةٍ من التي رَأَوْهُ فيها، قال: فما تَنْتَظِرُونَ، تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ ما كانت تَعْبُدُ، قالوا: يا رَبَّنَا فَارَقْنَا الناس في الدُّنْيَا أَفْقَرَ ما كنا إِلَيْهِمْ ولم نُصَاحِبْهُمْ، فيقول: أنا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شيئًا ـ مَرَّتَيْنِ أو ثَلَاثًا ـ حتى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فيقول: هل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بها؟ فَيَقُولُونَ: نعم، فَيُكْشَفُ عن سَاقٍ، فلا يَبْقَى من كان يَسْجُدُ لِلَّهِ من تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إلا أَذِنَ اللَّهُ له بِالسُّجُودِ، ولا يَبْقَى من كان يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إلا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ»[1]، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣]؛ وقد كانوا يُدعون في الدنيا إلى الصلاة وهم سالمون فلا يسجدون، فكذلك إذا دعوا إلى السجود يوم القيامة وأرادوا أن يسجدوا لم يحصل لهم، ولم يستطيعوا السجود، وحينئذٍ تُقسّم عليهم الأنوار، ويتميّز المؤمنون عن المنافقين، وينادون المؤمنين:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾، فيقولون: ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ﴾ [الحديد: ١٤].

وفي الأحاديث التي وردت عن النبيّ ﷺ الإخبار عن الجسر الذي يُنصبُ على متن جهنّم يوم القيامة، ويعبرونه، ويقول العلماء: إنّ هذا هو المرور أو الورود.

أخبر الله تعالى بأنّ كلًّا يرِد على النار. قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]. فمرورهم على هذا الصراط، هو ورودهم المذكور في هذه الآية، فأمّا المؤمنون المتّقون فإنّ الله تعالى ينجّيهم: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾، لا تضرّهم، بل كلّما مرّوا على لهبٍ منها طُفئ ذلك اللهب، كما جاء في الحديث: «**وَتَقُولُ النَّارُ لِلْمُؤْمِنِ: جُزْ يَا مُؤْمِنُ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي**»[1]، فإذا عبروا يتساءلون: ألم يعدنا ربّنا أنّا نردُ النّار، فيقال: إنّكم قد وردتُموها وهي هامدةٌ خامدةٌ. هذا هو مرورهم على هذا الصراط.

وقد ورد أيضا في وصف هذا الصراط بأنّه: دحضٌ مزلّة، تزلّ عنه الأقدام إلا من ثبّته الله، وأنّه أدقّ من الشعرة، وأحدّ من السيف الأبتر، وأنّ الناس يمرّون عليه، على قدر أعمالهم، أو على قدر النور الذي أعطاهم الله، فمنهم من يكون

---

(١) سيأتي تخريجه.

نوره الذي أعطيه مثل الجبل، ولكن لا يضيء إلاّ له، ومنهم من يكون نوره أقلّ من ذلك، وبعضهم إنّما يعطى نورًا على رأسِ إبهامِ قدَمِهِ يُضيءُ مرّةً ويطفأ مرّة،إذا أضاء مدّ رجله، وإذا طفئ وقف.

ويصف النبيّ ﷺ مرورهم على الصراط لَـمَّا سُئل: وما الجِسْرُ؟ قال: «**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فيه خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فيها شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لها: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ في نَارِ جَهَنَّمَ**»[1]. هذه الكلاليب التي مثل شوك السعدان، تخطف العصاةَ إذا مرّوا على هذا الصراط من أهل كبائر الذنوب ونحوهم، فإذا اختطفته وسقط وتكردس في النار، عُذِّب فيها على قدرِ عمله، أمّا الذين يعبرون على هذا الصراط إلى أن يتجاوزوه، فأولئك هم الذين يحمدون العاقبة، حتى ولو كان أحدهم يسير زحفًا، ولكن في نهايته أنّه سلم ونجا فيحمد العاقبة ويقول إذا التفت إلى النار: الحمد لله الذي أنجاني منك، لقد أعطاني ما لم يعطِهِ أحدًا من العالمين. فاغتبط حيث نجا من عذاب النار.

يتذكّر المؤمن مثل هذه الأهوال فيستعدّ لها، ويذكّر بها إخوانه الغافلين، ليستعدوا لها، وليعلموا أنّها حقّ ويقين، وأنّه ليس بينك وبين هذا إلا خروج هذه الروح من هذا الجسد، ثم بعد ذلك يلاقي أوّل الحساب.

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما أخبر الله مما يكون في يوم القيامة، فقد

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

أخبر الله وأخبر رسوله ﷺ بطول الموقف، فنؤمن بذلك اليوم الذي يقوم فيه الناس لربّ العالمين. أخبر النبي ﷺ بعرض الناس على ربّهم، وأنّهم يحشرون حفاة عراة غُرْلًا[1]، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، أي: كما خلقهم أوّل مرة. وأخبر تعالى بالحشر كما في قوله - جل وعلا -: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [طه:٨٥، ٨٦]؛ والحشر: هو الجمع، حشر الناس في يوم القيامة، وأخبر الله تعالى بأنّهم يأخذون صحفهم وكتبهم بأيمانهم أو بشمائلهم، ومن وراء ظهورهم، وأخبر تعالى بالحساب: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٧]، ويقول ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»[2].

وأخبر ﷺ بالحوض المورود يوم القيامة، ومن يرده ومن يذاد عنه، وأخبر بالصراط الذي ينصب على متن جهنّم، ليرده الناس، أو يسيرون من فوقه، على قدر أعمالهم وإيمانهم سيرًا سريعًا أو بطيئًا. وكذلك أخبر تعالى بالميزان: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢، ١٠٣].

أخبر الله تعالى وأخبر رسوله ﷺ بجملة هذه التفاصيل، ومن جملتها: كون الربّ - سبحانه وتعالى - يبرز لعباده يوم يسجد المؤمنون، ولا يستطيع المنافقون

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣، ٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

السجود. وأخبر تعالى بأنّ نور المؤمنين يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وبأنّ نور المنافقين ينطفىء إذا بدؤوا بالسير. وهي تفاصيلُ كثيرة، والإيمان باليوم الآخر يلزمه أن يؤمن المسلم بكلّ هذه التفاصيل، ما فصّل منها وما أجمل، من آمن بهذا اليوم آمن بكلّ ما فيه. والنهاية كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

وأخبرَ الله تعالى ورسولُه ﷺ بالأعمال التي تدخل الجنّة، والأعمال التي تدخل النار، وأخبر ﷺ بمن يُخرَج من النار بشفاعة الشافعين، أو برحمة الله تعالى، ومن لا يخرج منها، بل يخلّد فيها.

فكلّ هذه من التفاصيل التي وردت عن اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة، وقد عرفنا أنّ الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان، وأنّ المؤمنين يصدّقون به، وأنّ من يصدّق به لا يكون تصديقه مجرّد قوله: آمنت بذلك وصدّقت به، بل يكون من آثار تصديقه العمل الصالح الذي يستعدّ به لذلك، فيستعدّ به ليكون نوره كالشمس، ويستعدّ بالعمل الصالح الذي يرجح به الميزان، ويستعدّ بالعمل الصالح الذي يسير به على الصراط كالبرق، والعمل الصالح الذي يجعله يعطى كتابه بيمينه، ويقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩]، وبقية الأمور التي تكون في هذا اليوم لا بدّ من عمل صالح ينجو به من طريقة أهل الجحيم، ويفوز به بطريقة أهل النعيم.

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالْوُرُودِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم:٧١]. مَا هُو؟ وَالأَظْهَرُ وَالأَقْوَىٰ أَنَّهُ الْمُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧٢]. وَفِي «الصَّحِيحِ»[1] أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»، قَالَتْ حَفْصَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، فَقَالَ: «أَلَمْ تَسْمَعِيهِ قَالَ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾». أَشَارَ ﷺ إِلَى أَنَّ وُرُودَ النَّارِ لَا يَسْتَلْزِمُ دُخُولَهَا، وَأَنَّ النَّجَاةَ مِنَ الشَّرِّ لَا يَسْتَلْزِمُ حُصُولَهُ، بَلْ يَسْتَلْزِمُ انْعِقَادُ سَبَبُهُ، فَمَنْ طَلَبَهُ عَدُوُّه لِيُهْلِكُوهُ وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْهُ، يُقَالُ: نَجَّاهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ [هود: ٥٨]، ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٩٤]. وَلَمْ يَكُنِ الْعَذَابُ أَصَابَهُمْ، وَلَكِن أَصَابَ غَيْرَهُم، وَلَوْلَا مَا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاةِ، لَأَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ أُولَئِكَ.

وَكَذَلِكَ حَالُ الوَارِدِينَ النَّارَ، يَمُرُّونَ مِنْ فَوْقِهَا عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا، ويَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا، فَقَدْ بَيَّنَ ﷺ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ الْمَذْكُورِ: أَنَّ الوُرُودَ هُوَ الْمُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر رضي الله عنها.

وَرَوَى الحَافِظُ أَبُو نَصْر الوَائِلِي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ ﷺ: «عَلِّمِ النَّاسَ سُنَّتِي وَإِنْ كَرِهُوا ذَلِكَ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ لَا تُوقَفَ عَلَى الصِّرَاطِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى تَدْخُلَ الجَنَّةَ، فَلَا تُحَدِّثَنَّ فِي دِينِ اللَّهِ حَدَثًا بِرَأْيِكَ». أَوْرَدَهُ القُرْطُبِي[1].

وَرَوَى أَبُو بَكْر أَحْمَدُ بْن سَلْمَانِ النَّجَّاد، عَنْ يَعْلَى بْنِ مُنْيَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَقُولُ النَّارُ لِلْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ: جُزْ يَا مُؤْمِنُ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي»[2].

---

قال الشيخ:

قال تعالى لَـمَّا ذكر النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١]، ظاهره أنّ كلّ الناس واردون للنار، فما هذا الورود؟ وقد قال ﷺ: «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فَيَلِجُ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ»[3]، والمراد: الورود المذكور في هذه الآية، كأن الله أقسم أنكم لا بدّ أن تردوها.

والورود في الأصل: الإتيان إلى الشيء، ومنه تسمية الإبل التي تأتي إلى الماء ورودًا، يُقال: وردت الإبل أو الدوابّ المياه: جاءت إليه.

---

(١) في كتاب التذكرة (ص٣٣٦، ٣٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٤٠)، وأبونعيم في الحلية (٩/ ٣٢٩)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٣٩٤)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٩/ ٣٣٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠): «رواه الطبراني وفيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف». وانظر: لسان الميزان (٦/ ٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢) عن أبي هريرة ﷺ.

وأخبر تعالى ببعض من يردها كآل فرعون في قوله تعالى عن فرعون: ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود:٩٨]. فظاهر هذا أنّه أدخلهم فيها، فوردوا إليها وسقطوا فيها، أمّا في يوم القيامة: «يُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ عُزَيْرَ بن اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ ما اتَّخَذَ اللَّهُ من صَاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ بن اللَّهِ، فَيُقَالُ لهم: كَذَبْتُمْ، ما اتَّخَذَ اللَّهُ من صَاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لهم: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قال: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ»[1].

فالورود في هذه الآيات وفي هذه الأحاديث هو الوصول إليها، فكيف يكون ورود الأنبياء والأتقياء والصالحين والصحابة الذين لا بدّ أن يردوها؟ يخاطبنا الله بقوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٧١]، الحتم: الأمر الذي لابدّ منه، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧٢]، أخبر بأنّه يُنجّي أهل التقوى، ويُبْقي أهلَها الظالمين جاثين فيها.

الأشهر أنّ هذا الورود هو المرور على الصراط. وقد تقدّم أنّ الصراط جسر

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٥٦).

مزلّة، منصوب على متن جهنّم، أحدّ من السيف، وأدقّ من الشعرة، يمرّ الناس عليه بأعمالهم؛ فإذا مرّ المؤمن فإنّه بنوره وإيمانه لا يحُسّ بحرارة، ولا يحسّ بلهب، ولذلك تقول النار: «جُزْ يَا مُؤْمِنُ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي»[1]. النار لها لهب، وهذا اللهيب ينطفي من نور المؤمن، ولا يحسّ بأنّ تحته نارًا، ثم يمرّ على هذا الصراط كالبرق؛ والبرق أسرع من طرفة العين. ويمرّ بعضهم كالريح، ومنهم من يمرّ كأجاود الخيل، ومنهم من يمرّ كأجاود الرّكاب، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا. فهذا سيرهم على قدرِ أعمالِهم.

فإذًا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، أي: لا بدّ أن تمرّوا عليها مرورًا على الصراط، وإن لم يحسّ بها المؤمنون. ففي بعض الآثار أنّ المؤمنين بعدما يدخلون الجنّة يقولون: أليس قد أخبرنا الله أنّا نرد النار، أين النار؟ ما شعرنا بها؟ فيقال لهم: مررتم عليها وهي خامدة. يعني: بمرور المؤمنين تخمد فلا يحسّون بلهب، ولا يحسّون بحرارة أبدًا، وأمّا المنافقون والعصاة؛ فيخطفون وهم على الصراط. فقد ورد في الحديث أنّ على جنبات الصراط كلاليب، والكلُّوب: حديدة محنيّة محدّبة، وهي مثل شوك السعدان، أي: كلاليبها كثيرة، ولكن لا يقدر قدرها إلّا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فتخطف من أمرت بخطفه؛ فتخطف اليد، وتخطف الرجل، وتخطف بعد منتصف الطريق، وتخطف بعد ثلثه، وتخطف عند آخره. فإذا جاوزها الإنسانُ ولو كان مخدوشًا، وأصابه اللهيب، ولو

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٥٧).

بعد مئة سنة، فإنه عندما يجوز الصراط يلتفت نحو جهنم ويقول: الحمد لله الذي نجّاني منكِ، لقد أعطاني ما لم يعطِ أحدًا من خلقه؛ لأنّه رأى أنّه نجا مِنها ومن عذابها المستمرّ، ورأى أنّ ذلك سعادةٌ، وأيُّ سعادة ولو أنّ غيره قد ظفر بالنجاة قبله.

ففي الحديث أنّ حفصة ـ رضي الله عنها ـ استشكلت قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، ولكنّ النبيّ ﷺ بيّن لها أنّ الورود يكون للجميع، ولكن ينجّي الله سبحانه الذين اتّقوا. كيف ينجّيهم؟ هل يدخلونها ثم يخرجون منها؟ لا يلزم ذلك، ولكن كل من تجاوزها يقال بأنّه نجا منها، ويقال: لقد أنجاك الله من النار، وسلّمك منها، وأنقذك من دخولها. فكلّ من سلم من شرّ، يقال: هذا قد نجا، ولا يلزم أنّه دخل فيها ثمّ أخرج.

فالنجاة تُستعمل فيمن سَلِمَ من العذاب الذي عذِّب به غيره، ولا يلزم أنّ العذاب قد أصابه. فقد قال الله عن لوط ـ عليه السلام ـ وأهل بيته: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت:٣٢]، أي: لنخرجنه حتّى يسلم من العذاب، فلا يحسّ بالعذاب ولا يدخل به. هذه هي النجاة. وأنت دائمًا تدعو وتقول: اللهمّ أنجِنا من النار. وكذلك حكى الله عن الذين آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ أنهم قالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس:٨٥، ٨٦]، نجِّنا: سلِّمنا وأنقذنا، فكلّ من سلم من العذاب فهو ناجٍ.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَالمِيزَان)، أَيْ: وَنُؤْمِنُ بِالمِيزَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

قَالَ القُرْطُبِي: قَالَ العُلَمَاءُ: إِذَا انْقَضَى الحِسَابُ، كَانَ بَعْدَهُ وَزْنُ الأَعْمَالِ؛ لأَنَّ الوَزْنَ لِلجَزَاءِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ المُحَاسَبَةِ، فَإِنَّ المُحَاسَبَةَ لِتَقْرِيرِ الأَعْمَالِ، وَالوَزْنُ لإِظْهَارِ مَقَادِيرِهَا؛ لِيَكُونَ الجَزَاءُ بِحَسَبِهَا، قَالَ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ المَوْزُونَاتُ، فَجُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَنَوُّعِ الأَعْمَالِ المَوْزُونَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ: أَنَّ مِيزَانَ الأَعْمَالِ لَهُ كِفَّتَانِ حِسِّيَّتَانِ مُشَاهَدَتَانِ، رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ[1]، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِي، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَاللَّهِ ابْنَ عَمْرٍو ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يومَ القِيامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ قَالَ:

---

(١) في المسند (٢/ ٢١٣).

لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1]، وَابْنُ مَاجَه[2]، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا، مِنْ حَدِيثِ الليثِ، زَادَ التِّرْمِذِيُّ: «وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ». وَفِي سِيَاقٍ آخَرَ: «تُوضَعُ المَوَازِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُؤْتى بِالرَّجُلِ فيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ»، الحديث[3].

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ، وَهِيَ أَنَّ العَامِلَ يُوزَنُ مَعَ عَمَلِهِ وَيَشْهَدُ لَهُ مَا رَوَى البُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَقَالَ: اقْرَؤوا إِنْ شِئْتُم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[الكهف: ١٠٥]»[4].

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ[5]، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ،

---

(١) برقم (٢٦٣٩)

(٢) برقم (٤٣٠٠).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٥) في المسند (١/ ٤٢٠، ٤٢١).

وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ»؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُد».

---

قال الشيخ:

نؤمن بالميزان الذي أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف:٨، ٩]. وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢، ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦ ـ ٩]، وكذلك في كثير من الآيات.

كما وردت أحاديث كثيرة ذكر فيها النبي ﷺ الميزان، مثل قوله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»[1]. وكذلك في الحديث الصحيح في «صحيح مسلم»[2]:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) و (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) برقم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

«الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»، أي: كلمة (الحمد لله) تملأ الميزان، مما يدلّ على أنّ الكلمات أيضًا توزنُ. وغير ذلك من الأدلّة.

وقد أنكرت المعتزلة الميزان في الآخرة، وقالوا: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقّال. والله تعالى ليس بحاجة إلى أن ينصب الميزان، وفسّروا الميزان في هذه الآيات بالعدل؛ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾، يعني: العدل، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، يعني: نجح عندما يعدل بين الناس.

ولا شكّ أنّ هذا إنكار لخبر الله، ولخبر رسوله ﷺ، فالله تعالى ينصب الموازين ويظهرها؛ حتى لا يكون هناك ظلم، ولذلك أخبر تعالى عن هذه الموازين بأنّها يوزن فيها القليل والكثير، ففي هذه الآية في سورة الأنبياء يقول ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، بعد أن قال: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، فالإنسان لا يُظلم بمثقال حبة من خردل. وكذلك يقول تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]. المثقال: بمعنى الوزن، أي: إنّ الله تعالى يحضر الأعمال؛ صغيرها وكبيرها، حسنها وسيّئها، وتوزن حتّى مثاقيل الذّر. وهذه الموازين موازين حقيقيّة، وردت بالجمع، فهو لم يقل ميزانه، فدلّ على أنّ هناك عدد، يوزن لهذا ولذاك.

ثم اختلفوا في الموزون ما هو؟ على ثلاثة أقوالٍ:

**الأول**: أنّ الذي يوزن الأعمال، ولو كانت أعراضًا، يقلبها الله تعالى أجسامًا،

ثمّ توزن؛ لأنّ الأعراض ليس لها جرم، فكلمة الحمد لله ليس لها جرم تمسك به. وقراءتك وأذكارك وأدعيتك يقلبها الله أجسامًا مثل الخشب والحجر، فهي لها جسم ولها وزن. وكذلك يقلب الله الكلام، فيصبح جسمًا وجرمًا ووزنًا؛ ولذا يقول ﷺ: «الحَمْدُ للَّهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ». ويقول: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ في المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»؛ يدلّ على أن كلمة سبحان الله وبحمده، تصبح جرمًا وتوزن. ولا يخرج عن قدرة الله شيء، فهو قادر أن يقلب الأعراض أجسامًا.

الثاني: أنّ الذي يوزن هو الصحف، وتثقل الصحف وتخفّ بحسب ما كتب فيها، ودلّ على ذلك الحديث الذي مرّ بنا[1]: عن الرجل الذي كُتبت عليه الملائكة سيّئات كثيرة، حتى بلغت تسعة وتسعين سجلًا، والسجلّ: هو الصحيفة التي تكتب فيها القضايا. هذه السجلاّت تطوى طويًا، ثمّ إذا نشرت كانت مدّ البصر، نهايتها لا يدركها البصر الحديد. فهذه السجلات مليئة بالسيّئات من كلام أو فعل أو غير ذلك، لما وقف على هذه السجلاّت يسأله الله تعالى: هل تنكر شيئًا من هذا؟ لا يستطيع الإنكار. ويسأله: هل ظلمك الكرام الكاتبون؟ فلا يستطيع أن ينكر. ويسأله: هل لك عذر؟ فما له عذر. هل لك حسنة تقابل هذه السيّئات وتمحوها، فإنّ الحسنات يذهبن السيّئات؟ فينبهر وينبهت، ويقول: لا ليس لي حسنات، كأنّه أيس من النجاة، عندما وجد هذه السجلاّت المليئة بالسيّئات

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٦٦).

ولا يستطيع أن ينكرها، ولكنّ الله تعالى يقول: بلى لك عندنا حسنة واحدة، فتخرج له هذه البطاقة: وهي ورقة صغيرة مكتوب فيها: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله. ولكن: قالها عن يقين، وتصديق وعقيدة، وختمت بها أيامه وأعماله، وخرج من الدنيا وهو على هذه الحسنة، التي أثّرت فيه وفي قلبه. ولكنّه عندما يرى البطاقة يقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلاّت؟ فيقول الله تعالى: إنّك لا تظلم. فتجعل السجلاّت في كفّة، والبطاقة في كفّة، فعند ذلك تخف السجلاّت وتثقلُ البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء. فكانت سببًا في نجاته.

معلوم أنّ كثيرًا من الذين يقولونها يعذّبون؛ لأنّهم لم يقولوها عن يقين، ولم تؤثّر في عقيدتهم، ولم تصدر عن قلب مصدّق بها؛ ولذلك تخفّ موازينهم. أما هذا، فقد قالها عن علم ويقين وإخلاص وتقبّل فأثّرت في قلبه، فوقعت موقعًا، فثقلت موازينه. وهو ممّن يصدق عليه أنّه ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية.

**الثالث**: أنّ العامل نفسه يوزن، فيثقل إن كان قلبه ممتلئًا إيمانًا، ويخفّ إن كان قليل الإيمان. ونستدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]. وإن كانت محتملة: لا نقيم لهم قدرًا. ولكن ظاهرها أنّهم يوزنون، ولا يكون لهم وزن ظاهر. ويؤيّد ذلك هذا الحديث: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»[1]. فإذا جُعل في الميزان كان أخف من جناح الناموسة، فدل على أنّ العامل نفسه يوزن، وأنّه يثقل إذا كان

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٦٧).

تقيًّا. كما مرّ بنا من حديث ابن مسعود: فقد صعد مرّة على شجرة الأراك يقطع منها سواكًا، ولمّا صعد ورآه بعض الصحابة عَجبوا من دقّة ساقيه، فجعلوا يضحكون. فقال لهم النبيّ: «لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[1] فالعامل نفسه يوزن، فيثقل إن كان من أهل السعادة، ويخفّ إذا كان من أهل الشقاوة.

وقد قال الشارح: إنّ الوزن بعد الحساب، وذلك بأن يقال: حاسب نفسك، هذه صحائفك، هذه حسنة وهذه سيّئة، وبعدما يحاسب، ويقرّ بما له وما عليه، توزن هذه الأعمال حتّى يعرف مقدارها، وحتّى يحقّق في أمرها. فإذا وزنت عرف من يستحقّ أن يكون سعيدًا، وهو الذي حسناته ثقيلة، ومن بخلاف ذلك؛ لأنّ الحساب إنّما هو لتمييز الحسنات من السيّئات.

ولكن الميزان يميّز الحسنات؛ فقد تكون كثيرة وخفيفة، وقد تكون قليلة وثقيلة في الوقت نفسه. فقد يكون هناك إنسان له أذكار وأوراد وقراءات، ولكنها خفيفة. وآخر أذكاره قليلة ولكنها ثقيلة، بسبب صدورها عن الإخلاص والإيمان الراسخ المتمكّن في القلب.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٦٨).

قال الشارح:

وَقَدْ وَرَدَتِ الأَحَادِيثُ أَيْضًا بِوَزْنِ الأَعْمَالِ أَنْفُسِهَا، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي مَالِك الأَشْعَرِيّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورَ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالحَمْدُ للَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ»[1] الحديث.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَهُوَ خَاتِمَةُ كِتَابِ البُخَارِي، قَوْلُهُ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ»[2].

وَرَوَى الحَافِظُ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيُّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كِفَّتَي المِيزَانِ، وَيُوكَّلُ بِهِ مَلَكٌ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ، نَادَى المَلَكُ بِصَوتٍ يُسْمِعُ الخَلَائِقَ: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا، وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُهُ، نَادَى المَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الخَلَائِقَ: شَقِيَ فُلَانٌ شَقَاوَةً لَا يَسْعَدُ بَعْدَهَا أَبَدًا»[3].

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه أبونعيم في الحلية (٦/ ١٧٤) وقال: «تفرد به داود بن المحبر»، والبزار - كما تفسير ابن كثير ٥/ ٤٩٧، وقال ابن كثير: «إسناده ضعيف، فإن داود بن المحبر متروك». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٠): «رواه البزار، وفيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه». كما ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤٢٥) بصيغة التضعيف، ونسبه إلى البزار والبيهقي.

فَلَا يُلتفتُ إِلَى مُلْحِدٍ مُعَانِدٍ يَقُولُ: الأَعْمَالُ أَعْرَاضٌ لَا تَقْبَلُ الوَزْنَ، وَإِنَّمَا يَقْبَلُ الوَزْنَ الأَجْسَامُ!! فَإِنَّ اللَّهَ يَقْلِبُ الأَعْرَاضَ أَجْسَامًا، كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَمَا رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ[1]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَبْشًا أَغْبَرَ فَيُوْقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَرَوْنَ أَنْ قَدْ جَاءَ الفَرَجُ، فَيُذْبَحُ، وَيُقَالُ: خُلُودٌ لا مَوْتَ». وَرَوَاهُ البُخَارِيُّ بِمَعْنَاه[2]. فَثَبَتَ وَزْنُ الأَعْمَالِ وَالعَامِلِ وَصَحَائِفِ الأَعْمَالِ، وَثَبَتَ أَنَّ المِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الكَيْفِيَّاتِ.

فَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِالغَيْبِ، كَمَا أَخْبَرَنَا الصَّادِقُ ﷺ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

وَيَا خَيبَةَ مَنْ يَنْفِي وَضْعَ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ كَمَا أَخْبَرَ الشَّارِعُ، لِخَفَاءِ الحِكْمَةِ عَلَيْهِ، وَيَقْدَحُ فِي النُّصُوصِ بِقَوْلِهِ: لَا يَحْتَاجُ إِلَى المِيزَانِ إِلَّا البَقَّالُ وَالفَوَّالُ!! وَمَا أَحْرَاهُ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الذِينَ لَا يُقِيمُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا. وَلَو لَمْ يَكُن مِنَ الحِكْمَةِ فِي وَزْنِ الأَعْمَالِ إِلَّا ظُهُورُ عَدْلِهِ سُبْحَانَهُ لِجَمِيعِ عِبَادِهِ، فَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فَكَيْفَ وَوَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الحِكَمِ مَا لَا اطِّلَاعَ لَنَا عَلَيْهِ. فَتَأَمَّلْ قَوْلَ المَلَائِكَةِ لَمَّا قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

---

(١) في المسند (٢/ ٤٢٣).

(٢) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥].

وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ الحَوْضِ كَلَامُ القُرْطُبِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّ الحَوْضَ قَبْلَ المِيزَانِ، وَالصِّرَاطَ بَعْدَ المِيزَانِ. فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «أَنَّ المُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّةِ»[1]. وَجَعَلَ القُرْطُبِيُّ فِي «التَّذْكِرَةِ» هَذِهِ القَنْطَرَةَ صِرَاطًا ثَانِيًا لِلْمُؤْمِنِين خَاصَّة، وَلَيْسَ يَسْقُطُ مِنْهُ أَحَدٌ فِي النَّارِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

---

قال الشيخ:

من الأقوال الواردة في تفسير وزن الأعمال: أن الأعمال تُجسَّد، وأنّها توزن ولو كانت أعراضًا، فالله تعالى قادر على أن يقلب الأعراض أجسادًا كما يشاء، فيقلب التسبيح والتكبير أجسادًا وأجرامًا، ويكون لها ثقل ويكون لها وزن. وقد دلّت على ذلك السنّة كما في الأحاديث التي مرّت، والتي تدلّ على أنّ الأعمال تجسّد، وأنّها توزن، وأنّ الله لا يستعصي عليه شيء، كأن يقلب هذه الأعراض أجرامًا، وأنْ يكون لها وزن يخفّ ويثقل.

وقد أنكر المعتزلة الميزان الذي ينصب يوم القيامة، مع وروده في الآيات

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٣)، ولم يخرجه مسلم في صحيحه.

الصريحة، والأحاديث الصحيحة، ومع ذلك يقولون: (لَا يَحْتَاجُ إِلَى المِيزَانِ إِلَّا البَقَّالُ وَالفَوَّالُ)، تعالى الله عن قولهم. أنكروا أن يكون الميزان حقيقيًا، ولذلك يردّ عليهم الشارح، فيقول: إنّهم حريّون بأن يكونوا من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنًا.

ولا شكّ أن في وضع الموازين يوم القيامة حكمة عظيمة، ولو لم يكن فيها إلَّا العدل، ولذلك وصفها الله تعالى بالقسط: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧]؛ القسط: العدل، يعني: الموازين العادلة.

إذا نُصِبَ الميزان وحضر الموزون وزنَ أعماله، يقال: احضر وزن أعمالك، فإذا رجح ميزانه، نادى ذلك الملك: سعد فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا. وإذا خفَّ ميزانه نادى ذلك الملك: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا. وإذا تساوت الحسنات والسيئات، عومل بما يستحقه، بأن يعذّب بقدر سيّئاته، ثم يخرج إذا كان من أهل التوحيد، أو نحو ذلك مما يشاؤه الله.

وأوّل ما يكون يوم القيامة هو الحساب، ثم بعده الميزان، ثم بعده المرور على الصراط، ثم بعده القنطرة، ثم دخول الجنّة. أمّا الكفار الذين لا حسنات لهم ولا حساب، فلا يحاسبون؛ لأنهم ليس لهم حسنات، فإن كان لهم حسنات فقد استوفوها في الدنيا.

فأوّل شيء تعرض أعمالهم، ويقال: حاسبوا أنفسكم، ثم بعد ذلك تُنصبُ الموازين، ويعرف خفّة الأعمال وثقلها، ثم بعد ذلك ينصب الصراط فيسلكونه إن

كان لهم حسنات وسيئات فيسلم من يسلم، ويخدش من يخدش. ثم بعدما يسلمون ويعبرون الصراط، يوقفون على قنطرة بين الجنّة والنار، وهذه القنطرة يحاسبون فيها عن مظالم كانت بينهم، فمن كان عنده مظلمة يُجازى بها، فيُؤخذ من حسناته، ومن كان له حقّ يؤخذ له. فإذا هذِّبوا ونقّوا أُذن لهم في دخول الجنّة؛ لأنّهم لا يدخلون الجنّة وفي قلوبهم غلّ، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣]. فلا يدخلون الجنّة إلا بعد التنقية والتصفية، وبعد أن يكونوا متحابّين ليس بينهم إحن ولا بغضاءُ.

ومن آمن بتفاصيل اليوم الآخر على الحقيقة واليقين، ظهرت آثار ذلك في أعماله وفي سيرته وفي نهجه، وكلّما كان أشدّ يقينًا وأشدّ إيمانًا كان أكثر استعدادًا وتأهّبًا، وهكذا كانت حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، فإيمانهم حملهم على الاستعداد للموت، وللقاء ربّهم وللجزاء، وأن يعملوا الأعمال الصالحة، التي ينجون بها ويكونون بها من أهل السعادة وأهل الفلاح. حتّى إنّ أحدهم لو قيل له: إنّك تموت في هذا اليوم؛ لم يكن له عملٌ يزداد به؛ لأنه لم يضيّع لحظة من لحظاته في غير طاعة، وقد علم أنّ الموت لا بدّ نازل، وأنّه قد يأتي فجأة على غير موعد، وأنّ بعد الموت حسابًا وعذابًا أو ثوابًا، وعلم أنّ بعد الموت بعثًا ونشورًا، وجنّةً أو نارًا، فاستعدّ لذلك، فصار كل دقيقة تمرّ عليه يشغلها في طاعة الله. هكذا هو حال أولياء الله.

أمّا المفرّطون الذي يقولون آمنا، ولكن يقولونه بالألسن، وقلوبهم كأنّها غير

مصدّقة، ولذلك لا يستعدّون، فهؤلاء إيمانهم ضعيفٌ. ألسنتهم تصف، وقلوبهم تعرف، وأعمالهم تخالف؛ لأنَّ إيمانهم وتصديقهم كان عن تردّد أو كان يقينهم قد أتاه ما يضعفه؛ من أمثال الشهوات، وزينة الدنيا، والركون إليها، ومحبّة التوسّع في الملذّات وعدم استحضار الموت، وما بعد الموت، فكان ذلك حاملًا لهم على كثرة الغفلة، والانغماس في لذّة الدنيا، وعدم التفكّر في عاقبتها، وعدم التفريق بين الحلال والحرام، فحصل التفريط منهم، فجاءهم أمر الله بغتة وهم لا يشعرون، فندموا حين لا ينفع الندم، وقال أحدهم: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦].

فيجب أن نتفقّد أنفسنا، ونتفقّد إخواننا، فإذا رأينا الذي شغل وقته كلّه بأعمال الآخرة، قلنا: هذا صادق الإيمان بالآخرة، هذا مؤمن حقًّا، هذا ممّن استعدّ للقاء ربّه. وإذا رأينا ضعيف الإيمان، قليل الأعمال، ضعيف الاحتمال؛ قلنا: هذا ضعيف الإيمان، وقليل الاهتمام، وضعيف الإيمان بالآخرة، ولو كان إيمانه قويًا لما فرّط في أيامه، ولما تناسى لقاء ربّه. فنثبّت الأول ونحثّه على الزيادة، ونحذّر الثاني، وننبّهه على هذا التفريط، ونخوّفه من أن يأتيه الأجل وهو على هذا الإهمال. وبذلك نكون من المؤمنين بالدار الآخرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ، لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الخَلْقِ، وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُم إِلى الجَنَّةِ فَضْلًا مِنْهُ، ومَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلى النَّارِ عَدْلًا مِنْهُ، وكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قد فُرِغَ لَهُ، وَصَائِرٌ إِلى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالخَيْرُ وَالشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلى العِبَادِ.

---

قال الشارح:

أَمَّا قَوْلُهُ: (إِنَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ)؛ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ الآن، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ، حَتَّىٰ نَبَغَتْ نَابِغَةٌ مِنَ المُعْتَزِلَةِ وَالقَدَرِيَّةِ، فَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ: بَلْ يُنْشِئُهُما اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ. وَحَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَصْلُهُمُ الفَاسِد الذِي وَضَعُوا بِهِ شَرِيعَةً لِمَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَقَاسُوهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي أَفْعَالِهِمْ، فَهُمْ مُشَبِّهَةٌ فِي الأَفْعَالِ، وَدَخَلَ التَّجَهُّمُ فِيهِم، فَصَارُوا مَعَ ذَلِكَ مُعَطِّلَةً! وَقَالُوا: خَلْقُ الجَنَّةِ قَبْلَ الجَزَاءِ عَبَثٌ؛ لأَنَّهَا تَصِيرُ مُعَطَّلَةً مُدَدًا مُتَطَاوِلَةً. فَرَدُّوا مِنَ النُّصُوصِ مَا خَالَفَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ البَاطِلَةَ التِي وَضَعُوهَا للرَّبِّ تَعَالَى، وَحَرَّفُوا النُّصُوصَ عَنْ مَوَاضِعِهَا، وَضَلَّلُوا وَبَدَّعُوا مَنْ خَالَفَ شَرِيعَتَهُم.

فَمِنْ نُصُوصِ الكِتَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الجَنَّةِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]. وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ

لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤]، ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ [النبأ:٢١، ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النجم:١٣ ـ ١٥]. وَقَدْ رَأَىٰ النَّبِيُّ ﷺ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ، وَرَأَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةَ الْمَأْوَىٰ. كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ، فِي قِصَّةِ الإِسْرَاءِ، وَفِي آخِرِهِ: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ»(١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيهِ مَقْعَدُهُ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢).

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ، وَفِيهِ: «يُنَادِ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا»(٣).

وتقدّم حديث أنسٍ بمعنى حديثِ البراء(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

(٤) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

قال الشيخ:

نعلم أنّ بعد الموقف في يوم القيامة دار الجزاء: جزاء المحسنين جنات النعيم، وجزاء الكافرين نار الجحيم.

الجنّة في الأصل هي البستان الذي يجمع الخضرة والزهور والأنهار والظلال والأشجار والنُّضرة والبهجة والسرور، وسُمِّي بذلك؛ لأنه يجنّ مَنْ دخَلَهُ يستتر به، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم:١٧]، يَعْنِي: أَصْحابَ البُسْتانِ. ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف:٣٢].

فالجنّة في الدُّنيا هي البساتين التي تبهج وتفرح مَن دخَلَها، وسُمِّيَت دارُ النَّعيم بهذا الاسم؛ لأنّ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فقد ذكر الله ما في الجِنان، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠]، ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]. وكذلك ذكر الكثير من نعيمها في الأحاديث وفي الآيات، كقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد:١٥]. وكما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة:٢٥]. وكما في قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء:٥٧] وقوله:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] وغير ذلك من الآيات الدالّة دلالة واضحة على أنّ هذه الجنّة مشتملة على ما يجلب السرور والحبور، وأنّ فيها الجزاء الأوفى، وأنّ فيها النّعيم الذي ليس بعده نعيم، وأنّ أهلها يغتبطون فيها، ويقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. وكذلك يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]. هكذا نعيمهم.

وضدّ ذلك الجحيم التي هي: نار تلظّى، نار موقدة، نار حامية، ذكر الله لها عدّة أسماء، وقال في وصفها: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، وأخذ العلماء لها سبعة أسماء من الآيات: لظى، والحطمة، وجهنّم، والجحيم، وسقر، والسعير، والهاوية، وكلّها موجودة في القرآن بهذه الأسماء، وكلّها دالّة على شدّة الحرارة.

وقد أخبر الله تعالى بشدّة العذاب فيها، وأن أهلها كلّما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلودًا غيرها، وأنّه يحشرهم يوم القيامة على وجوههم، عميًا وصمًّا وبكمًا، كلّما خبت زادهم سعيرًا، أي: كلما انطفأت زيد في حرّها، وأنّ وقودها النّاس والحجارة، وأنّها تطّلع على الأفئدة، وأنّها عليهم مؤصدة؛ أي: مقفلة. وذلك من أنواع العذاب الذي ذكره الله.

وعندما يذكر الجنّة يشوّق إليها، كأنّه يقول: أيّها المؤمنون بالجنّة المصدّقون

بها! اطلبوها بالأعمال الصالحة، فهذا نعيمها وهذه صفتها. ويا أيّها المؤمنون بالنّار والمصدّقون بها! احذروا منها وابتعدوا عنها، فهذه حرارتها، وهذا عذابها. وأيّها المفرّطون، وأيّها الكافرون! أفلا تتوبون، أفلا تندمون وتبتعدون عن الأعمال السيّئة التي تجعلكم من أهل ذلك العذاب.

هكذا ذكر الله هذا العذاب وهذا الثواب، وسمّى دار الكفار بالنار، والنّار في الأصل: هي هذه النار التي نوقدها في الدّنيا، وننتفع بها، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧١ ـ ٧٣]؛ تذكرة أي: تذكرة بالنّار الأخرى، فسمّى ذلك العذاب نارًا؛ لأنّ فيه نارٌ تشتعل، وتتّقد، وقودها النّاس والحجارة.

وقد ورد ذكر الجنّة والنّار كثيرًا في القرآن الكريم، لكي يرغّب الله في هذه الدار التي هي دار الثواب، ويحذّر من تلك الدار التي هي دار العقاب.

عقيدة أهل السنّة أنّ الجنّة والنّار موجودتان الآن، وإن كنّا لا نعلم جهتها ولا مكانها، فإنّ علمنا قاصر، لا نحيط إلّا بالأرض وما على الأرض، ولكن الجهات كثيرة لا يعلمها إلّا الله. ففي يوم «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مع كل زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»[1]، أولئك الملائكة قد يكون أحدهم لو تمكّن لقلع الجبال، وجرّها خفيفةً بإذن الله، ومع ذلك هذا عددهم، فما مقدارها؟! فإخبار الله تعالى بأنّه يجاء بها يوم القيامة دليل على أنّها موجودة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

وكذلك الجنّة موجودة أيضًا، وتُبرَز يوم القيامة؛ يقول تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء:٩٠]، أُزلفت: يعني أُطلعت وأُظهرت، وهذا دليل على أنّها موجودة، وأنّها تبرز، فيقال: هذه الجنّة دار المتّقين، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء:٩١]، بُرِّزت أي: أبرِزت وأُظهرت، وإبرازها يدلّ على أنّها موجودة الآن، وكذلك الآيات التي مرّت بنا: قول الله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، أي: هُيِّئت لهم، وفي النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾، أي: هُيِئت لهم؛ دليل على أنّها موجودة، وقد أعدّت لأهلها.

وكذلك قوله في الجنّة: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النجم:١٣ ـ ١٥]، دليل أنّ الجنّة فوق السّماء السّابعة حيث يشاء الله أنّها موجودة الآن. وذكر الله أيضًا سعتها فقال: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]. وأنّه يقال للعبد في قبره: افتحوا لَهُ بابًا إلى الجنّة، فيأتيه من روحها وريحانها، فيقول: ربِّ أقم السّاعة. ويقال للكافر: افتحوا له بابًا إلى النّار، فيأتيه من حرّها وسمومها، فيقول: ربِّ لا تُقِم الساعة[1]. وهذا أيضًا دليل على أنّها موجودة، وأنّه يفتح له باب إليها، ويقال للمؤمن: هذا مقعدك من الجنّة، وللكافر: هذا مقعدك من النار. أليس ذلك دليلًا على أنّها موجودة؟

---

(١) تقدم في حديث البراء بن عازب ﷺ الطويل (٤/ ١٤٦).

وقد ذكر الشارح أنّ قومًا من المعتزلة أنكروا وجود الجنة والنار الآن، وقالوا: لا حاجة إلى وجودها الآن، وما دام أنّه ليس فيها أحد، تبقى مغلقة الأبواب، ومغلقة الغرف، وتحتاج إلى من يسقيها، ويرعاها هذه المدة الطويلة قبل أن يأتي إليها أهلها، فجعلوا أفكارهم متحكّمة في أمر الله، فقالوا: إن الجنة والنار ليستا موجودتين، وزعموا أنهما تُنشآن في يوم القيامة، عندما يبعث الله الخلق، ينشئ الجنّة وينشئ النار.

ولكن الذي عليه أهلُ السنّة والجماعة، أنّ الجنّة موجودة الآن، وقد دخلها النبيّ ﷺ، وأنّ النار موجودة، وقد عرضت عليه الجنّة والنار في صلاة الكسوف، فلمّا عرضت عليه الجنّة تقدّم، ولمّا عرضت عليه النّار تقهقر وتأخّر[1]. كلّ هذا دليل على أنّه رآها، وأنّها موجودة الآن، ولا يلزم ما يقوله أولئك المعتزلة، من أنّها معطّلة، وأنه لا حاجة إلى وجودها، على أصلهم الفاسد الذي أصّلوه، وهو أنّهم يتحكّمون في أمر الله، ويفرضون على الله ما يريدونه، ويقولون: يجب على الله أن يفعل كذا، فكأنّهم هم الذين يُوجبون بعقولهم ما يشاؤون. فهذه عقيدة ثابتة، ولا يضرّ خلاف من خالفها.

---

(١) انظر: التعليق التالي.

قال الشارح:

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[١] عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَتِ الحَدِيثَ، وَفِيهِ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُمْ بِهِ، حَتَّىٰ لَقَدْ رَأَيْتُنِي آخُذُ قِطْفًا مِنَ الجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي أُقَدِّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٢]، وَاللفْظُ لِلبُخَارِي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: انْخَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ الحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيتُ الجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ، لَأَكَلْتُم مِنْه مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ»، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتُ إِلى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّه، ثُمَّ رَأَت مِنْكَ شَيْئًا، قَالتْ: مَا رَأَيتُ خَيرًا قَطُّ!!».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[٣] مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ: «وَايْمُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَو رَأَيْتُمْ

---

(١) برقم (٩٠١)، وأخرجه البخاري أيضًا برقم (١٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

(٣) برقم (٤٢٦).

مَا رَأَيْتُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، قَالُوا: وَمَا رَأَيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ».

وَفِي «المُوطَّأ» وَ«السُّنَنِ»، مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا نَسْمَةُ المُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ، حَتَّىٰ يُرْجِعَهَا اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]. وَهَذَا صَرِيحٌ فِي دُخُولِ الرُّوحِ الجَنَّةَ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[2]، وَ«السُّنَنِ»[3]، وَ«المُسْنَدِ»[4]، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ، أَرْسَلَ جِبْرِيلُ إِلَى الجَنَّةِ، فَقَالَ: اذْهَبْ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِالجَنَّةِ فَحُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيهَا، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّارِ، قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ثُمَّ رَجَعَ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١١٨).

(٢) لم يخرجه مسلم كما ذكر المصنف، وإنما أخرج حديث أنس ﷺ (٢٨٢٢)، وفيه: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

(٣) أخرجه أبوداود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣٧٦٣).

(٤) (٢/ ٢٣٢).

فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَا يَدْخُلُها أَحَدٌ سَمِعَ بِهَا، فَأَمَرَ بِهَا، فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ، فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيْتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي السُّنَّةِ كَثِيرَةٌ.

---

قال الشيخ:

هذه الأحاديث صريحة في وجود الجنّة وفي وجود النار، وأنّ الرّسول ﷺ رآها أكثر من مرة، ففي صلاة الخسوف ذكر أنّه عرضت عليه الجنّة، وأنّه تناول منها عنقودًا لو أخذه لأكلوا منه ما بقيت الدنيا؛ لأنّ نعيم الجنّة لا ينفد. وعُرضت عليه النّار فتكعكع، يعني: تقهقر وتأخر، وذكر أنّه رأى فيها فلانًا وفلانة، وسمّى فيها عمرو بن لحيّ، وهو أوّل من غيّر دين إبراهيم عليه السلام، ورأى فيها سارق الحاجّ، الذي يسرق المتاع بمحجنه، ورأى المرأة التي تعذّب بهرّة ربطتها حتّى ماتت جوعًا، وفي هذا الحديث يقول: «رَأَيتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»؛ لأنّهن يكفرن الإحسان، إذا أحسن الزوج إلى المرأة غالبًا وليس دائمًا، ثمّ رأت منه شيئًا يخالف ما تشتهيه أنكرت إحسانه، ويكون ذلك سببًا في عذابها.

وكذلك أخبر النبيّ ﷺ أنّ أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق في شجر الجنّة. حتّى يردّها اللهّ إلى أجسادها. وأخبر الله تعالى أن أرواحًا من الكفار ـ كآل فرعون ـ تعرض على النّار، فقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾

[غافر:٤٦]. مما دلّ على أنّها موجودة، وأنّهم يعرضون عليها في الصباح والمساء.

فكلّ هذه الأدلّة واضحة الدلالة في أنّ الجنّة والنّار موجودتان الآن، ولا يهمّنا ما يقوله المعتزلة من أنّها تبقى معطّلة سنين طويلة، فإنّها تبقى تذكرة، وتعتبر ظاهرة لمن أطلعه الله عليها، وقد ذكر ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّه رأى رؤيا، وفيها: أنّ رجلين أتيا به النّار، فإذا هي مطويّة كطيّ البئر، يقول: رأيت فيها رجالًا أعرفهم، فقيل: لن تراع.

وكذلك أخبر النبيّ ﷺ في حديث سمرة ﷺ الطويل[1] في المنام، أنّه دخل الجنّة في المنام مع رجلين هما ملكان، وأنّه رأى فيها كذا وكذا، وهذا كلّه دليل على أنّها معدّة موجودة، وأنّ من مات وصل إليه ألمه إن كان من أهل العذاب، ونعيمه إن كان من أهل الثواب.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧).

قال الشارح:

وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الجَنَّةَ المَوْعُودُ بِهَا هِيَ الجَنَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا آدَمُ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا، فَالقَوْلُ بِوجُودِهِمَا الآن ظَاهِرٌ، وَالخِلَافُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفٍ.

وَأَمَّا شُبْهَةَ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ، وَهِي: أَنَّهَا لَو كَانَتْ مَخْلُوقَةً الآن لَوَجَبَ اضطرارًا أَنْ تَفْنَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَنْ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ فِيهَا وَيَمُوتُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص: ٨٨]، و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ»[1]، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِىء أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُم أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةَ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ للَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ». قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَفِيهِ أَيْضًا[2] مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيرِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ»، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، قَالُوا: فَلَو كَانَتْ مَخْلُوقَةً مَفْرُوغًا مِنْهَا لَمْ تَكُنْ قِيعَانًا، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذَا الغِرَاسِ مَعْنًى.

وَقَالُوا: وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ امْرَأَةِ فِرْعَونَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا

---

(١) برقم (٣٤٦٢).

(٢) برقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥).

فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم:١١].

فَالجَوَابُ: إِنَّكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ بِقَوْلِكُمْ: إِنَّهَا الآن مَعْدُومَةٌ بِمَنْزِلَةِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، وَقِيَامِ النَّاسِ مِنَ القُبُورِ، فَهَذَا بَاطِلٌ، يَرُدُّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الأَدِلَّةِ وَأَمْثَالِهَا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ، وَإِنْ أَرَدْتُم أَنَّهَا لَمْ يَكْمُلْ خَلْقُ جَمِيعِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهَا لِأَهْلِهَا، وَأَنَّهَا لَا يَزَالُ اللَّهُ يُحدِثُ فِيهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَإِذَا دَخَلَهَا المُؤْمِنُونَ، أَحْدَثَ اللَّهُ فِيهَا عِنْدَ دُخُولِهِمْ أُمُورًا أُخَر، فَهَذَا حَقٌّ لَا يُمْكِن رَدُّهُ، وَأَدِلَّتكُمْ هَذِه إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى هَذَا القَدْرِ.

---

قال الشيخ:

هذه الأحاديث وأشباهها دالّة على أنّ الجنّة موجودة، ولكن يحدث الله فيها ما يشاء، ويجدّد فيها ما يشاء.

ففي حديث الإسراء: أخبر ﷺ أنّه لقي إبراهيم عليه السلام، فقال: «أَقْرِىء أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُم أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةَ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ للَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَر»، يعني: أنّ الجنّة موجودة، ولكن كلّ أحد يُغْرَسُ له فيها غراس، أعمال يعملها في الدنيا، تكون مما يُغْرَسُ له في الجنّة، فإذا قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، غرست له شجرة في الجنّة، وإذا كرّرها فكذلك. وأيضًا يبنى له غرف بأعماله الصالحة. ففي بعض الآثار أنّ الملائكة تبني لابن آدم بيوتًا وغرفًا ما دام يعمل الصالحات، يذكر الله ويشكره ويأتي بالحسنات، فإذا توقّف عن العمل

توقّفوا عن البناء، فإذا قيل: لماذا توقّفتم؟ قالوا: حتّى تأتينا النّفقة. الباني في الدنيا يحتاج إلى نفقة، فالعمال لا يعملون لك من دون نفقة، ونفقة الملائكة الذين يبنون لك في الجنّة هي: ذكر الله وعبادته وعمل الحسنات. والبناء الذي تبنيه في الآخرة هو الذي يبقى، ولذا يقول بعض الشعراء[1]:

لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ المَوْتِ يَسْكُنُهَا ... إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ المَوْتِ يَبْنِيهَا

فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ ... وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا

النَّفْسُ تَرْغَبُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ الزَّهَادَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

فَاغْرِسْ أُصُولَ التُّقَى مَا دُمْتَ مُجْتَهِدًا ... وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ المَوْتِ لَاقِيهَا

فهكذا يكون الإنسان في الدنيا، أعماله تكون بمنزلة الغراس في الجنّة، فكلّما عمل حسنة، غرس له شجرة، أو بني له بيوتٌ ومنازل في الجنّة. مما يدلّ على أنّ الجنّة موجودة، وأنّها تتكامل في يوم القيامة بالأعمال الصالحة. كلّما توفي إنسان بني له بقدر أعماله، وهكذا إلى أن يأذن الله بقيام الساعة.

في حديث عبادة ﷺ الذي في الصحيحين: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبد اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»[2]. ففي الدار الآخرة جنّة هي دار الجزاء أعدّها الله لأوليائه، ودار

---

(١) راجع (٤/ ٢٠٩).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٧).

سمّاها النّار، هي دار العذاب أعدّها لأعدائه ولمن كفر به .

وصفات الجنّة والنّار تؤخذ من الكتاب والسنّة؛ حيث ذكر الله تعالى ما فيهما من العذاب وما فيهما من الثواب. ولا شكّ أنّ من آمن بذلك حقًا يستعدّ لذلك. وقد قال بعض السلف: عجبت للجنّة كيف ينام طالبها، وعجبت للنّار كيف ينام هاربها؛ يعني: أنّ من تحقّق هذه الجنّة فإنّه يطلبها، وإذا طلبها فإنّه لا يهنأ بالمنام ولا بالمقام. وكذلك من تحقّق وجود النّار وعذابها وما فيها من الأنكال والأكبال فإنّه يهرب منها، ولا يهنأ بالمنام ولا يهنأ بالمقام.

الكلام عن الجنّة والنّار يتعلّق بالكلام عن أحقّيتهما، وهذا يؤمن به كل من يؤمن بالله، وأما يتعلّق بوجودهما الآن، فهذا يؤمن به أهل السنّة، ويخالف فيه المبتدعة، ويتعلّق ببقائهما واستمرارهما، وهذا يؤمن به أهل السنّة أيضًا، فيؤمنون بأنّ الجنّة والنّار موجودتان الآن، وأنّهما مخلوقتان، وأنّ النبيّ ﷺ قد رأى الجنّة ورأى النّار رؤيا حقيقيّة، إمّا في المنام، وإما في الإسراء، ويؤمنون بما ذكر الله عنهما، وأنّ الجنّة أعدّت للمتّقين، وأنّ النّار أعدّت للكافرين، وغير ذلك من الأدلّة من الكتاب والسنة التي أوردها الشارح.

ويدخل في ذلك ردّنا على من أنكر ذلك، كما عرفنا عن المعتزلة ونحوهم الذين أنكروا وجود الجنّة والنار الآن، وقالوا: إنّما يخلقان يوم القيامة، وبيّن أنّ هذا مصادمة لكتاب الله وسنّة رسوله، والتي أخبر فيها بأنّه هيّأ الجنّة وأعدّها لمن آمن، فهي مخلوقة موجودة الآن بما فيها من النعيم، وهيّأ النّار فهي مهيّأةٌ بما فيها من عذاب. وأنّ الميّت في قبره يفتح له بابان؛ باب إلى الجنّة، وباب إلى النّار، فإذا

كان مؤمنًا قيل له: هذا منزلك من الجنّة، وهذا منزلك من النّار لو كفرت. فيزداد فرحًا حيث يرى العذاب الذي سلم منه، والثواب الذي حظي به ويفتح للكافر بابان؛ باب إلى الجنّة، ويقال: هذا منزلك لو آمنت بالله، وباب إلى النّار، ويقال: هذا منزلك ومقيلك، فيزداد حسرة على ما فاته من الثواب، وما فاته من النعيم.

وهذا بلا شكّ دليل على أنّهما موجودتان الآن، مهيّئتان كما أخبر الله.

فيؤمن أهل الإيمان بما أخبر الله، ومن هذا: هذه الأخبار الواضحة التي تدلّ على وجود الجنّة والنّار.

قال الشارح:

وَأَمَّا احْتِجَاجُكُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨]. فَأُتِيتُمْ مِنْ سُوءِ فَهْمِكُمْ مَعْنَى الآيَةِ، وَاحْتِجَاجُكُمْ بِهَا عَلَى عَدَمِ وُجُودِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ الآن نَظِيرُ احْتِجَاجِ إِخْوَانِكُمْ بِهَا عَلَى فَنَائِهِمَا وَخَرَابِهِمَا وَمَوتِ أَهْلِهِمَا!! فَلَمْ تُوفَّقُوا أَنْتُمْ وَلَا إِخْوَانُكُمْ لِفَهْمِ مَعْنَى الآيَةِ، وَإِنَّمَا وُفِّقَ لِذَلِكَ أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ، فَمِنْ كَلَامِهِمْ: أَنَّ المُرَادَ كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الفَنَاءَ وَالهَلَاكَ هَالِكٌ، وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ خُلِقَتَا لِلبَقَاءِ لَا لِلفَنَاءِ، وَكَذَلِكَ العَرْشُ، فَإِنَّهُ سَقْفُ الجَنَّةِ. وَقِيلَ: المُرادُ إِلَّا مُلْكَهُ، وَقِيلَ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ، وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، فَقَالَتِ المَلَائِكَةُ: هَلَكَ أَهْلُ الأَرْضِ، وَطَمِعُوا فِي البَقَاءِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ، فَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ لأَنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، فَأَيْقَنَتِ المَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالمَوْتِ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ تَوْفِيقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ النُّصُوصِ المُحْكَمَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى بَقَاءِ الجَنَّةِ، وَعَلَى بَقَاءِ النَّارِ أَيْضًا، عَلَى مَا يُذْكَرُ عَنْ قَرِيبٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

---

قال الشيخ:

الذين يحتجّون بهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، هم المبتدعة من المعتزلة وغيرهم، قالوا: لوكانت موجودة، لأتى عليها الفناء والهلاك، وكذلك النّار لو كانت موجودة لفنيت كما يفنى غيرها؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾، والرَّدُّ: أنّ الله أخبر بأنّ الذي خُلق للبقاء فإنّه باق، وذلك أنّ الجنّة والنّار خلقتا للبقاء، يثاب بها ويعاقب بها، أي بعد الموت وبعد البعث من الموت، فهما خلقتا للبقاء وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾، أي: كلّ شيء خلقه الله في الدنيا لا بدّ أن يهلك ويفنى إلا وجه الله، أي: إلا الله وحده، أو ما أريد به وجهه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾، الضمير في ﴿ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ يعود على الأرض، فإنه فانٍ ويبقى وجه ربّك، ويقال إن المراد: كلّ من على الحياة.

ولا مانع من أن يموت أهل السماء وأهل الأرض، من الملائكة والمخلوقات التي خلقها الله للفناء، ثمّ بعد ذلك يعودون ويبعثون كما كانوا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨].

ويقول الرسول ﷺ في الحديث: «**أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوت، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُون**»[1]، فأخبر بأنّ الحياة للّهِ وحده، وأنّ كلّ ما سواه يموت، ولا يلزم أنّ ذلك يعمّ المخلوقات كلّها كالجمادات ونحوها.

وقد ذكر الله أنّ الجبال تكون هباءً، وأنّ الأرض تتغيّر بغيرها ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وأنّ السموات تتفطّر ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [المعارج:٨]، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار:١]، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٨٥).

﴿ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥]. فذكر أنّ كلّ هذه الأشياء تتغيّر في ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، ولكن لا يكون ذلك عامًا في كلّ الموجودات.

وعلى كلّ حال: لا يلزم من ذلك فناء الجنّة؛ إذ هي من الذي خلقه الله للآخرة.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (لَا تَفْنِيَان أَبَدًا وَلَا تَبِيدَان)، هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الأَئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ.

وَقَالَ بِبَقَاءِ الجَنَّةِ وَفَنَاءِ النَّارِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ، وَالقَوْلَانِ مَذْكُورَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهَا.

وَقَالَ بِفَنَاءِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ الجَهْمُ بْنُ صَفْوَان إِمَامُ المُعَطِّلَةِ، وَلَيْسَ لَهُ سَلَفٌ قَطُّ، لَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَلَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَفَّرُوهُ بِهِ، وَصَاحُوا بِهِ وَبِأَتْبَاعِهِ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ، وَهَذَا قَالَهُ لِأَصْلِهِ الفَاسِدِ الَّذِي اعْتَقَدَهُ، وَهُوَ امْتِنَاعُ وُجُودِ مَا لَا يَتَنَاهَى مِنَ الحَوَادِثِ! وَهُوَ عُمْدَةُ أَهْلِ الكَلَامِ المَذْمُومِ، الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى حُدُوثِ الأَجْسَامِ، وَحُدُوثِ مَا لَمْ يَخْلُ مِنَ الحَوَادِثِ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ عُمْدَتَهُمْ فِي حُدُوثِ العَالَمِ، فَرَأَى الجَهْمُ أَنَّ مَا يَمْنَعُ مِنْ حَوادِثِ لَا أَوَّلَ لَهَا فِي المَاضِي يَمْنَعُهُ فِي المُسْتَقْبَلِ!! فَدَوَامُ الفِعْلِ عِنْدَهُ عَلَى الرَّبِّ فِي المُسْتَقْبَلِ مُمْتَنِعٌ، كَمَا هُوَ مُمْتَنِعٌ عِنْدَهُ عَلَيْهِ فِي المَاضِي!! وَأَبُو الهُذَيل العَلَّاف شَيْخُ المُعْتَزِلَةِ وَافَقَهُ عَلَى هَذَا الأَصْلِ، لَكِنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا يَقْتَضِي فَنَاءَ الحَرَكَاتِ، فَقَالَ بِفَنَاءِ حَرَكَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى يَصِيرُوا فِي سُكُونٍ دَائِمٍ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى حَرَكَةٍ!! وَقَدْ تَقَدَّمَ الإِشَارَةُ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي تَسَلْسُلِ الحَوَادِثِ فِي المَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ دَوَامِ فَاعِلِيَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ رَبًّا قَادِرًا فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ حَيًّا عَلِيمًا قَدِيرًا. وَمِنَ المُحَالِ أَنْ يَكُونَ الفِعْلُ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ لِذَاتِهِ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ،

فَيَصِيرُ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ، مِنْ غَيْرِ تَجَدُّدِ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لِلْأَوَّلِ حَدٌّ مَحْدُودٌ حَتَّى يَصِيرَ الفِعْلُ مُمْكِنًا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ الحَدِّ، وَيَكُونُ قَبْلَهُ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ، فَهَذَا القَوْلُ تَصَوُّرُهُ كَافٍ فِي الجَزْمِ بِفَسَادِهِ.

فَأَمَّا أَبَدِيَّةُ الجَنَّةِ، وَأَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَبِيدُ، فَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أَي: غَيْرَ مَقْطُوعٍ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي هَذَا الاسْتِثْنَاءِ؛ فَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِلَّا مُدَّةَ مُكْثِهِمْ فِي النَّارِ، وَهَذَا يَكُونُ لِمَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا، لَا لِكُلِّهِمْ.

وَقِيلَ: إِلَّا مُدَّةَ مُقَامِهِم فِي المَوْقِفِ، وَقِيلَ: إِلَّا مُدَّةَ مُقَامِهِمْ فِي القُبُورِ وَالمَوْقِفِ.

وَقِيلَ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ اسْتَثْنَاهُ الرَّبُّ وَلَا يَفْعَلُه، كَمَا تَقُولُ: وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّكَ إِلَّا أَنْ أَرَىٰ غَيْرَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ لَا تَرَاهُ، بَلْ تَجْزِم بِضَرْبِهِ.

وَقِيلَ: «إِلَّا» بِمَعْنَى الوَاوِ، وَهَذَا عَلَى قَوْلِ بَعْضِ النُّحَاةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَسِيبَوَيْهِ يَجْعَلُ «إِلَّا» بِمَعْنَى «لَكِن»، فَيَكُونَ الاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا، وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِير، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا خُلْفَ لِوَعْدِهِ، وَقَدْ وَصَلَ الاسْتِثْنَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. قَالُوا: وَنَظِيرُهُ أَنْ تَقُولَ: أَسْكَنْتُكَ دَارِي حَوْلًا إِلَّا مَا شِئْتُ. أَي: سُوَى مَا شِئْتُ، أَوْ لَكِنْ مَا شِئْتُ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: الاسْتِثْنَاءُ لِإِعْلَامِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَعَ خُلُودِهِمْ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، لَا أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَنْ مَشِيئَتِهِ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ عَزِيمَتَهُ وَجَزْمَهُ لَهُمْ بِالْخُلُودِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٦]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤]. وقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]. وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَة، يُخْبِرُ عِبَادَهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الأُمُورَ كُلَّهَا بِمَشِيئَتِهِ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَقِيلَ: إِنَّ «مَا» بِمَعْنَى «مَنْ»، أَي: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ دُخُولَهُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ مِنَ السَّعَدَاءِ. وَقِيلَ: غيرُ ذَلِكَ.

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، فَهَذَا الاسْتِثْنَاءُ مِنَ الْمُتشابِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]، مُحْكَمٌ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤]. وقوله: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥]. وقوله: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨].

وَقَدْ أَكَّدَ اللَّهُ خُلُودَ أَهْلِ الجَنَّةِ بِالتَّأْبِيدِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُم: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦]. وَهَذَا الاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَإِذَا ضَمَمْتَه إِلَى الاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٨]، تَبَيَّنَ لَكَ المُرَادُ مِنَ الآيَتَيْنِ، وَاسْتِثْنَاءُ الوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَكُونُوا فِيهِ فِي

الجَنَّةِ مِنْ مُدَّةِ الخُلُودِ، كَاسْتِثْنَاءِ المَوْتَةِ الأُوْلَى مِنْ جُمْلَةِ المَوْتِ، فَهَذِهِ مَوْتَةٌ تَقَدَّمَتْ عَلَى حَيَاتِهِم الأَبَدِيَّةِ، وَذَاكَ مُفَارَقَةٌ لِلْجَنَّةِ تَقَدَّمَتْ عَلَى خُلُودِهِمْ فِيهَا.

وَالأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ عَلَى أَبَدِيَّةِ الجَنَّةِ وَدَوَامِهَا كَثِيرةٌ، كَقَوْلِه ﷺ: «مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَمُ فِيهَا وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ»[1]. وَقَوْلِه: «يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا»[2].

وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَبْحِ المَوْتِ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُقَالُ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»[3].

---

قال الشيخ:

هذا دليل واضح على أبديّة الجنّة ودوامها. أهل السنّة يقولون بأبديّة الجنّة والنّار ودوامهما، وعدم انقطاعهما. وبعض العلماء قالوا: إنّ عذاب النّار ينقطع، أما الجنّة، فنعيمها دائم أبديّ لا ينقطع. وهناك مبتدعة إمامهم الجهم بن صفوان، قالوا: بأنّ الجنّة والنّار تفنيان، أوّل من قال هذا القول: الجهم بن صفوان، وهو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٦) بنحوه، وأخرجه بلفظه أحمد (٢/ ٣٠٤)، والترمذي (٢٥٢٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الذي جمع ثلاث بدع: بدعة التعطيل، وبدعة الجبر، وبدعة الإرجاء.

ومرّ بنا أنّ من عقيدته: أنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها، ولا بداية لها. وهذا على قاعدة له ابتكرها، ولم يسبق إلى هذا القول، وليس هناك أحد قبله قال بأنّ الجنّة تنقطع وتفنى وتزول، فهو أوّل من قال بذلك، ثم أبو الهذيل العلاّف من رؤوس المعتزلة، ومن رؤوس المتكلّمين، وافقه في أنّ النّار تفنى، وكذلك الجنّة، ولكن يقول: إنّ فناءها بمعنى أنّها تبقى موجودة، وأهلها كأنّهم ليسوا أحياء، أي تذهب حياتهم وتذهب حركاتهم. ولا شكّ أنّ هذا قول بالفناء.

وهناك قول في أنّ أهل النّار يبقون فيها بلا حركة، أو أن طبائعهم تنقلب طبيعة ناريّة، بمعنى أنّهم يبقون في النّار من دون تألّم، أي لا يحسّون بألمها؛ لأنّهم يصبحون ناريّين، كالجنّ والشياطين الذين لا تحرقهم النّار في الدنيا. وكلّ هذه أقوال لا دليل عليها.

أما أبديّة الجنّة فقد أكّدها الله تعالى، وورد التأكيد بالأبديّة في القرآن في عدّة آيات، فيها: قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧]، فأكّد الخلود بالأبديّة. وكذلك في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا ﴾ [التوبة: ١٠٠]، أكّد الخلود بالأبديّة، بمعنى: أنّهم مخلّدون فيها خلودًا دائمًا لا يتحوّل، فالأبديّة بمعنى

الدوام. وكذلك في قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [البينة:٨]، أكّد الخلود بالأبديّة، وهذا دليل على البقاء.

وقد ورد التأكيد بثلاثة أشياء في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:٢١]، مقيم: دائم، خالدين: دائمين، أبدًا: مؤبدًا. وهذا دليل مهم على الأبديّة والاستمرار.

واستدلّ الشارح على ذلك أيضًا بقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]، الموتة الأولى: يعني: التي في الدنيا، فهم دائمون فيها لا يموتون، بل مستمرّ بقاؤهم ولا يتحولّون منها. وهذا أيضًا دليل على بقائها.

واستدلّ أيضًا بقوله ﷺ في وصف أهل الجنّة: «يُنَادِي مُنَادٍ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أَبَدًا»[1]، والحديث الذي تقدّم في ذبح الموت بين الجنّة والنّار، وأنّه يقال: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»[2]. فيزداد أهل الجنّة فرحًا، ويزداد أهل النّار سوءًا؛ لأنّهم يتمنّون الخلاص، ويتمنّون أن يقضى عليهم، ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٠١).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٢٧٤).

مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧]، فيتمنّون أَنْ يقضي عليهم الله ليموتوا، فيخبر الله بأنّ ذلك لا يكون فيقول: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر:٣٦]، ويقول في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:١٣]، يتمنّى الموت فلا يموت، ولا يحيا حياة طيّبة يسعد فيها وينعم، هذه حالتهم. و هذا دليل على البقاء، ودليل على دوامهم وعدم انقطاع نعيم هؤلاء وعذاب هؤلاء.

ومرّ بنا كلام الشارح على ما يتعلّق بقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨]، أكّد البقاء بقوله تعالى: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾، أي: ما دامت باقية السماء والأرض، ومعلوم أنّ السماء يعيدها الله كما شاء، وأنّ الأرض يبدّلها ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فتبقى السموات وتبقى الأرض التي تبدّل، ولا نهاية لبقائها، وما دامت السموات والأرض باقية، فالجنّة والنّار باقيتان. وكذلك قوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾، أي: غير مقطوع ولا مصروم ولا نهاية له، وباقٍ مستمرّ متواصل، ليس له ما يكدِّره ولا ما يقطعه.

فهذا من المحكم؛ أي إن الآيات التي فيها الخلود والأبديّة والدوام وعدم الانقطاع هي محكمة تدلّ على الأبديّة والاستمرار، وأنّ أهل الجنّة إن قيل لهم: إنَّ نعيمكم سينقطع، ولو بعد مئة ألف سنة، ولو بعد ألف ألف سنة، سيتكدّر نعيمهم ويقولون: لا هناء لنا ما دام أنّه سينقطع، فإنّه سيأتي ذلك اليوم ولو كان بعيدًا. فهذا معلوم. ومما يكدّر نعيم الدنيا على أهلها معرفتهم بأنّ نعيمها يزول،

وأنّه يتبدّل. وأمّا نعيم الجنّة فهو لا يزول، ولذلك بشّرهم ربّهم بأنّهم باقون فيها، وأنّهم لا يحولون ولا يزولون.

والاستثناء في آية هود: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، فقد مر بنا أنّ العلماء قالوا: هذا الاستثناء من المتشابه، ومنهم من حمله على ما قبل دخولها، يعني: أنه قد يقضي عليهم قبل دخولها زمان. وهو وقت الحساب، فيكون فعله لذلك هو الاستثناء، أو يكون ذلك وقت الوقوف يوم القيامة قبل نزول الله لفصل القضاء، فيكون هذا هو زمن الاستثناء، وقيل: إنّه استثناء، ولكن لا يدلّ على أنّه يؤتى أو يقطع عليهم نعيمهم، ومثّله الشارح بقولك: سأكرمك إلا أن أشاء، وأنت عازم على إكرامه. وقد ورد ذلك أيضًا في القرآن، في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٤٨].

وعلى كلّ حال فهو من المتشابه، والآيات الدالّة على استمرار النّعيم وبقائه محكمة ليس فيها خفاء.

فيؤمن أهل العقيدة السلفيّة بما تتضمّن تلك الآيات ويستعدّون للقاء الله، ويطلبون هذا الثواب الذي لا يحول ولا يزول.

قال الشارح:

وَأَمَّا أَبَدِيَّةُ النَّارِ وَدَوَامُهَا، فَلِلنَاسِ فِي ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدَ الآبَادِ، وَهَذَا قَوْلُ الخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا، ثُمَّ تَنْقَلِبُ طَبِيعَتُهُمْ، وَتَبْقَى طَبِيعَةٌ نَارِيَّةٌ يَتَلَذَّذُونَ بِهَا لِمُوَافَقَتِهَا لطَبْعِهِم! وَهَذَا قَوْلُ إِمَامِ الاتِّحَادِيَّةِ ابْنِ عَرَبِي الطَّائِي.

الثَّالِثُ: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا إِلَى وَقْتٍ مَحْدُودٍ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَيَخْلُفُهُمْ فِيهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَهَذَا القَوْلُ حَكَاهُ اليَهُودُ للنَّبِيِّ ﷺ، وَأَكْذَبَهُمْ فِيهِ، وَقَدْ أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١].

الرَّابِعُ: يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَتَبْقَى عَلَى حَالِهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ.

الخَامِسُ: أَنَّهَا تَفْنَى بِنَفْسِهَا؛ لأَنَّهَا حَادِثَةٌ، وَمَا ثَبَتَ حُدُوثُهُ اسْتَحَالَ بَقَاؤُهُ!! وَهَذَا قَوْلُ الجَهْمِ وَشِيعَتِهِ، وَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

السَّادِسُ: تَفْنَى حَرَكَاتُ أَهْلِهَا، وَيَصِيرُونَ جَمَادًا، لَا يُحِسُّونَ بَأَلَمٍ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الهُذَيْلِ العَلَّاف كَمَا تَقَدَّمَ.

السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ، ثُمَّ يُبْقِيهَا مَا يَشَاءُ

ثُمَّ يُفْنِيهَا، فَإِنَّهُ جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ، وَيَبْقَى فِيهَا الكُفَّارُ، بَقَاءً لَا انْقِضَاءَ لَهُ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمَا عَدَا هَذَيْنِ القَوْلَيْنِ الأَخِيرَيْنِ ظَاهِرُ البُطْلَانِ.

وَهَذَانِ القَوْلَانِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ يُنْظَرُ فِي دَلِيلِهِمَا.

فَمِنْ أَدِلَّةِ القَوْلِ الأَوَّلِ مِنْهُمَا: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٦، ١٠٧]. وَلَمْ يَأْتِ بَعْدَ هَذَيْنِ الاسْتِثْنَاءَيْنِ مَا أَتَى بَعْدَ الاسْتِثْنَاءِ المَذْكُورِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣].

وَهَذَا القَوْلُ ـ أَعْنِي القَوْلَ بِفَنَاءِ النَّارِ دُونَ الجَنَّةِ ـ مَنْقُولٌ عَنْ عُمَرَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمْ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» المَشْهُورِ، بِسَنَدِهِ إِلَى عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ، لَكَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَقْتٌ يَخْرُجُونَ فِيهِ». ذَكَرَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾.

قَالُوا: وَالنَّارُ مُوجَبُ غَضَبِهِ، وَالجَنَّةُ مُوجَبُ رَحْمَتِهِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ

غَضَبِي»، وَفِي رِوَايَةٍ: «تَغْلِبُ غَضَبِي». رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»[١]، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ.

---

قال الشيخ:

تكلّم الشارح على فناء النار ومن يخرج منها، والأقوال الستّة التي مرّت بنا من أقوال المبتدعة، فمن عقيدة الخوارج والمعتزلة أنّ من دخل النّار لا يخرج منها، وأنّ العصاة وأصحاب الكبائر لا يخرجون منها، فمن دخلها فهو فيها مخلّد، ويستدلون بمثل قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وبقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، ونحو ذلك من الآيات. ولكن هذه الآيات يراد بها الكفار، ولا يراد بها أهل الكبائر من المؤمنين، أو من أهل التوحيد، فقد ورد الدليل بأنّهم يخرجون بالشفاعة، أو برحمة أرحم الراحمين، يعذّبون بقدر ذنوبهم ثمّ يخرجون. فهذا القول الذي هو قول الخوارج والمعتزلة بتخليد أهل الكبائر في النهار تخليدًا مؤبدًا، قول يخالف الأدلّة الصريحة.

وأمّا قول اليهود: إنّ أهل النّار الذين يدخلونها هم اليهود، ثمّ يخرجون منها، ويخلفهم فيها هذه الأمّة. لما قال لهم: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قالوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فيها، فقال ﷺ: «اخْسَئُوا فِيهَا، واللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فيها أَبَدًا»[٢]. وكذّبهم

---

(١) رقم (٣١٩٤، ٧٤٠٤)، وأخرجه مسلم أيضًا برقم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة:٨٠]. وقولهم هذا باطلٌ أيضًا؛ لأنّها لا يدخلها إلا أهلها.

وكذلك قول المعتزلة الذي مرّ بنا، وهو قول أبي الهذيل العلاّف: أنّهم تفنى حركاتهم، وتبقى ليس فيها حركة. قولٌ باطل.

وكذلك القول بأنّهم يصبحون فيها ناريّين، وتنقلب طبيعتهم طبيعة ناريّة، يتلذّذون بها كما يتلذّذ أهل الجنّة بالجنّة. هذا قول لا دليل عليه؛ لأنّ الأدلّة دلّت على أنّهم يتألّمون، وأنّهم ينادون، ويقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٧، ١٠٨]، وأخبر بأنّ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٦، ١٠٧]. فهذا دليل على أنّهم يتألّمون، ولا ينقطع ألمهم، بل أخبر تعالى بتجديد العذاب عليهم بقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦]. فالنّار تحرقهم حتى يصيروا فحمًا، ثم بعد ذلك يجدّد لهم الجلد واللحم حتّى يتألّموا من جديد مرّة بعد مرّة. وهذا دليل على بطلان قول من قال بأنّ طبيعتهم تتبدّل فتصبح ناريّة، وكذلك قول الذين قالوا: إنّها تبطل حركاتهم، فيصبحون جمادًا لا حركة بهم، وغير ذلك من أقوال المعتزلة ونحوهم.

وما بقي غير القولين الأخيرين. قال بعضهم: إنّهم يبقون فيها مدّة، وبعد

ذلك تفنى، وأنّهم لو مكثوا فيها ما مكثوا لا بدّ من نهايتها. والقول الآخر: أنّهم يبقون فيها، وأنّهم لا يفنون، وأنّها لا تفنى. فالذين استدلّوا على فنائها بقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ [النبأ:٢٣]، كأنّهم يقولون: الأحقاب معدودة، ومعروفة، فيدلّ على أنّ لبثهم فيها محدّد، ثم بعد ذلك يفنى ذلك العذاب.

ومرّ بنا هذا الأثر الذي يستدل عليه بهذه الآية، وأنّهم لو لبثوا فيها من السنين عددًا، كمثل عدد رَمْلِ عَالِجٍ؛ لكان لهم يوم يخرجون منها أو يفنون. والصحيح أنّ هذه الآية ليس فيها تحديد الأحقاب، وقد فسّر بعضهم الحقب بأنّه: مئة عام، وقد أخبر الله تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه قال لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف:٦٠]، فإذا كان الحقب مئة عام، فالعام اثنا عشر شهرًا، والشّهر ثلاثون يومًا، واليوم الواحد كألف سنة ممّا تعدّون، فلو قال الله: مئة حقب، أو ألف حقب، أو مئة ألف حقب؛ لكان للكافر نظر ورغبة وأمل ورجاء في أنّ عذابه سيزول، ولكن لم يحدّدها الله، ولأجل ذلك يقول بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾، أي: «كلّما مضى حقب جاء حقب بعده»[1]، إلى غير نهاية؛ لأنها لم تحدّد.

فلا دلالة في هذه الآية ولا في الآيات التي فيها استثناء، فهو كالاستثناء الذي في نعيم أهل الجنّة، وليس فيه ما يدلّ على أنّ أهل الجنة يخرجون من نعيمهم، أو

(١) أخرجه الطبري (٣٠/ ١١) عن قتادة رحمه الله.

أن أهل النار يخلصون من عذابهم، بل الأصح والمعتقد أنّ الجنّة والنّار دائمتان، باقيتان، لا تفنيان، ولا تبيدان أبدًا. وبذلك يرغب العباد في الدار التي لا ينقطع نعيمها، ويخشون من الدار التي لا ينقطع عذابها.

ومرّ بنا أنهّ يجب على المؤمن أن يؤمن بالثواب والعقاب، والجنّة والنّار، في قول النبي ﷺ: «**من شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبد الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ على ما كان من الْعَمَلِ**»[1]، وفي رواية: «**فُتِحَتْ له أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ من أَيِّهَا شَاءَ**»[2].

اشترط في هذا الحديث الإيمان بالجنّة والنار. وقد مرّ بنا أنّ من الإيمان بالجنّة والنّار الإيمان بوجودهما الآن، ومرّت بنا الأدلّة على ذلك، ومن الإيمان بهما الإيمان بالأبديّة والدوام والسرمديّة، وأنّهما لا ينقطعان.

والحكمة في ذلك صدق الرغبة. فلو قيل لأهل الجنّة: إنّكم ستزولون عن هذه الحياة، وإنّ نعيمكم سينقطع، ولو بعد مئة ألف عام أو أكثر؛ لتكدّر النعيم، وما صفا العيش، لعلمهم أنّ له انقطاع. كما في هذه الحياة؛ فإنّ الحياة الدنيا ما تكدّرت عند العارفين إلا بسبب زوالها وانقطاعها وانقضائها وتغيراتها، لذلك رغب عنها العارفون، وزهد فيها المؤمنون الأتقياء، ولم ينافسوا في نعيمها، ولا في

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

زخرفها، ولا في زينتها. فإذا عرفوا أنّ الجنّة دائمة مستمرّ نعيمها، حملتهم هذه العقيدة على أن يجعلوا المنافسة فيها، وأن يجعلوا فيها تمام الرغبة، وأن يكثروا من العمل الذي يكون مستمرًا ثوابه، ويكون أجره دائمًا، لا يأتي عليه زوال ولا تحوّل ولا انتقال. وأن يهربوا من الألم والعذاب الأبديّ السرمدي. وهذا يظهر بقوّة التصديق واليقين، فكلّما كان هذا الإيمان قويًا ويقينيًّا، وكلّما كان أتمّ وأقوى، كان الجدّ والنشاط والمثابرة والمنافسة أشد وأقوى في طلب الجنّة، وكان البعد عن النّار وأعمالها أشد، وكان الهرب منها أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف الطلب.

وقد ذكرنا فيما سبق قول بعض السلف: «عجبت من الجنّة كيف ينام طالبها، وعجبت من النّار كيف ينام هاربها»[1]. فالمؤمن لا يزال مثابرًا على طلب ذلك النعيم المقيم الدائم، والهارب من النار لا يزال هاربًا منها ومن أسبابها، فاعلًا كلّ سبب يخلّصه منها. فيستدلّ من ذلك على صدقه وإيمانه وإخلاصه.

فما ازدادت منافستنا في هذه الدنيا إلا لضعف إيماننا، وضعف هذا التصوّر لأبديّة هذا النعيم، وأبديّة هذا العذاب. وقد روي عن بعض السلف أنّه كان كثير البكاء، فقال له رجل: ما لعينك لا تجف؟ قال: «ويحك! إن ربي تواعدني أن يحبسني في جهنم، ولو كان يواعدني أن يحبسني في حمام، لكان ينبغي أن لا يجف لي دمعة»[2]. والحمّام معروف أنّه بيت فيه حرارة وشدّة وهج يسير، وليس كالنار.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١١٩) ونسبه إلى هرم بن حيان.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٥/ ٣٧٧) ونسبه إلى يزيد بن مرثد.

ورُوي أنّ بعض السلف لَمَّا أُهديت إليه جارية أدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخله بيتًا مطيبًا، فقام يصلي، فقامت فصلت، فلم يزالا يصليان حتى برق الفجر، فأتاه فقال له: أي عم! أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقمت تصلي وتركتها؟ فقال: «إنك أدخلتني أمس بيتًا أذكرتني به النار، ثم أدخلتني بيتًا أذكرتني به الجنة، فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحت»[1].

وفي بعض الأحاديث أن الرسول ﷺ قال لجبريل ـ عليه السلام ـ: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكاً قَطُّ؟ قال: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»[2].

ورُوي أن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له النبي ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟، قَالَ: مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ جَهَنَّمَ، مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ فَيُلْقِيَنِي فِيهَا»[3]. مع أنَّ الملائكة من أشرف الخلق وأبعدهم عن المعاصي، ولكن كما قال بعض السلف: من كان بالله أعرف، كان منه أخوف.

فهذا حال الجنّة والنّار وحال العاملين لها.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ٢١٩) ونسبه إلى صلة بن أشيم العدوي.

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ١٣٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة النار (٢١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥٢١) عن أبي عمران الجوني مرسلًا.

قال الشارح:

قَالُوا: وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُخْبِرُ عَنِ العَذَابِ أَنَّهُ: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأنعام:١٥]، و﴿أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٦]، و﴿عَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٥]، وَلَمْ يُخْبِرْ وَلَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ عَنِ النَّعِيمِ أَنَّهُ نَعِيمُ يَوْمٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]. وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ المَلَائِكَةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]. فَلَا بُدَّ أَنْ تَسَعَ رَحْمَتُهُ هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ، فَلَو بَقُوا فِي العَذَابِ لَا إِلَى غَايَةٍ لَمْ تَسَعْهُمْ رَحْمَتُهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»[1] تَقْدِيرُ يَوْمِ القِيَامَةِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَالمُعَذَّبُونَ فِيهَا مُتَفَاوِتُونَ فِي مُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِي العَذَابِ بِحَسَبِ جَرَائِمِهِمْ، وَلَيْسَ فِي حِكْمَةِ أَحْكَمِ الحَاكِمِينَ، وَرَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا يُعَذِّبُهُمْ أَبَدَ الآبَادِ عَذَابًا سَرْمَدًا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَأَمَّا أَنَّهُ يَخْلُقُ خَلْقًا يُنْعِمُ عَلَيْهِمْ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمْ نَعِيمًا سَرْمَدًا، فَمِنْ مُقْتَضَى الحِكْمَةِ، وَالإِحْسَانُ مُرَادٌ لِذَاتِهِ، وَالِانْتِقَامُ مُرَادٌ بِالعَرَضِ.

قَالُوا: وَمَا وَرَدَ مِنَ الخُلُودِ فِيهَا، وَالتَّأْبِيدِ، وَعَدَمِ الخُرُوجِ، وَأَنَّ عَذَابَهَا مُقِيمٌ، وَأَنَّهُ غَرَامٌ، كُلُّهُ حَقٌّ مُسَلَّمٌ، لَا نِزَاعَ فِيهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي الخُلُودَ فِي دَارِ العَذَابِ مَا دَامَتْ بَاقِيَةً، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي حَالِ بَقَائِهَا أَهْلُ التَّوْحِيدِ. فَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الحَبْسِ وَهُو حَبْسٌ عَلَى حَالِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَبْطُلُ حَبْسُهُ

(١) انظر: صحيح مسلم (٩٨٧).

بِخَرَابِ الحَبْسِ وَانْتِقَاضِهِ.

---

قال الشيخ:

هذا يتعلّق بقول من يقول: إنّ عذاب النّار لا يبقى، بل ينقطع وإنّ له حدًّا ونهايةً. وهذا قول قاله بعض العلماء عن اجتهاد. وعلّلوا بهذه التعليلات التي مرّت. ونحن لا نشكّ بأنّ الله رحيم بالعباد، وأنّ رحمته تغلب غضبه، ولكن نعرف أنّه خلق للرحمة أهلًا وخلق للعذاب أهلًا، ولا نشكّ أيضًا بأنّه سبحانه جعل هذا العمل اليسير في الدنيا له ثواب عظيم مضاعف مستمر، وكذلك الكفر اليسير له عذاب دائم مستمر كثير، وذلك لمقتضى حكمته.

فمثلًا: قول النبيّ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَها إِلَّا ذِراعٌ، فيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها، وإِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ، فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُها»[1]. يعني: أنّ بعض النّاس قد يولد كافرًا ويحيا كافرًا أو مبتدعًا، ويمضي عليه عمره وهو على بدعته أو كفره، وقبل موته بيوم أو ساعة أو سويعات؛ يمنّ الله عليه، فيهتدي ويسلم، ويموت على العقيدة وعلى الإسلام، فتكون تلك الساعة أو ذلك اليوم مكفّرًا لما مرّ في عمره، ماحيًا لسيّئاته وآثامه وكفره وشركه وذنبه طول حياته، فتكون ساعة واحدة محت

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٩).

كل أعماله الكفريّة، ختم له بها.

ومن هؤلاء: رجل مقنع بالحديد أتى النبي ﷺ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُ وأسلم، قال: «أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ»، فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «عَمِلَ قَلِيلاً وَأُجِرَ كَثِيرًا»[1]. فعمله هذا القليل، ثوابه عليه دائم لا ينقطع.

وبالمقابل قاتل رجلٌ مع المسلمين قتالًا شديدًا، لَا يَدَعُ لهم شَاذَّةً ولا فَاذَّةً إلا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فقالوا: ما أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كما أَجْزَأَ فُلَانٌ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّه مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فتبعه رَجُلٌ من الْقَوْمِ، فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بين ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ على سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ[2]. حبط عمله بهذه الفعلة.

نقول: العمل اليسير يُؤجر عليه العبد أبد الآباد، والكفر اليسير يعذّب عليه أبد الآباد. فلا بدّ أن نقول: إنّ الله تعالى قدّر هذا العذاب لمن كفر به، وخرج عن طاعته، وجعل ذلك مستمرًا لمن يستحقه بلا نهاية، كما خلق النعيم والأجر والثواب المستمرّ الباقي، ولم يجعل له نهايةً، وجعل ذلك ثوابًا لمن عمل صالحًا على عمله بغير نهاية، وهذا كلّه لا يخرج عن حكمة الله.

أمّا الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيّئًا، فهؤلاء أمرهم بيد الله، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم، وإن شاء عذّبهم بقدر سيّئاتهم. يدخلون النّار ويبقون فيها

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠) من حديث البراء ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

مدّة طويلة أو قصيرة بقدر ذنوبهم، ثمّ يخرجون منها بعدما يمكثون فيها المدّة التي قدّر الله. فأمّا أنّ النّار تخمد وينقطع عذابها، فهذا على الصحيح لا يكون، بل الله تعالى يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقد ذكرنا قوله تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣]، يقول العلماء: «كلّما مضى حقب جاء حقب بعده»[1]. فالصحيح أنّها دائمة مستمرة.

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣١٠).

قال الشارح:

وَمِنْ أَدِلَّةِ القَائِلِينَ بِبَقَائِهَا وَعَدَمِ فَنَائِهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٩]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[1] [الحجر:٤٨]، ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥]، أي: مُقِيمًا لَازِمًا.

وَقَدْ دَلَّتِ السُّنَّةُ المُسْتَفِيضَةُ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ، وَأَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ صَرِيحَةٌ فِي خُرُوجِ عُصَاةِ المُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ، وَأَنَّ هَذَا حُكْمٌ مُخْتَصٌّ بِهِمْ، فَلَوْ خَرَجَ الكُفَّارُ مِنْهَا، لَكَانُوا بِمَنْزِلَتِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَصَّ الخُرُوجُ بِأَهْلِ الإِيمَانِ، وَبَقَاءُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ لَيْسَ لِذَاتِهَا، بَلْ بِإِبْقَاءِ اللَّهِ لَهُمَا.

وَقَوْلُهُ: (وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]. وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ، فَقَالَ:

---

(١) هذه الآية من سورة الحجر وردت في أهل الجنة وليست في أهل النار.

«أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُم لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِم». رواه مسلم[1]، وأبو داود[2]، والنسائي[3].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢، ٣]. وَالْمُرَادُ: الهِدَايَةِ العَامَّةِ، وَأَعَمُّ مِنْهَا الهِدَايَةِ المَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

---

قال الشيخ:

مرّت بنا الآيات التي تتعلّق بأبديّة النّار، وهذه الآيات تدلّ على أنّ النّار باقية لا فناء لها، فإنّ قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]،المقيم: الدائم الذي لا يتحوّل ولا يتغيّر ولا ينقطع. وكذلك التعبير بالخلود والأبديّة، يدلّ على أنّ الخلود مستمرّ وكذلك الأبديّة. وكذلك قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، صريحة في أنّهم لا خروج لهم منها، بل هم مستمرّ بقاؤهم. وكذلك لمّا قالوا:

---

(١) برقم (٢٦٦٢).

(٢) برقم (٤٧١٣).

(٣) في المجتبى (١٩٤٧).

﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، تمنّوا الموت، فقال: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وكذلك قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، لا يُقضى عليهم فيستريحون من هذا العذاب، ولكنّهم دائمًا ماكثون فيها.

فالأدلّة التي مرّت معنا واضحة في أنّ النّار والجنّة باقيتان دائمتان مستمرّتان. وهذه عقيدة أهل السنّة. التي يؤمن بها المسلمون، ويدلّ إيمانهم بها على أنّهم يؤمنون بالغيب وإن لم يروه.

وأما أنّ الله تعالى علم أهل الجنّة، وعلم أهل النّار. فهو سبحانه قدّر من يعمل للجنّة، ومن يعمل للنّار، قبل أن يخلق الخلق، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، أو قبل أن يخلق السموات والأرض. ولا شكّ أنّ خلقهم على هذا ابتدأ منه، وهو بكلّ شيء عليم، فهو يعلم من هم أهل الجنّة، ومن هم أهل النّار. والآية صريحة في أنّهم خُلقوا هؤلاء للجنّة وهؤلاء للنّار: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩]، ذرأنا: أي خلقنا، لجهنّم أهلًا. وكذلك في الحديث قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِم، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُم لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِم»، بل في صلب آدم.

وورد في الحديث: أن النبي ﷺ سُئل عن قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ

وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»[1]، فلا يتجاوز أحد ما خُلق له، ومع ذلك فإنّهم مأمورون ما داموا في هذه الحياة بأن يستعدّوا وأن يعملوا.

ولَـمَّا قَالَ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لرسول الله ﷺ: أَفَلَا نَتَّكِلُ على كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[2].

الله تعالى أمرنا بالعمل، مع أنّه علم من يعمل ومن لا يعمل، وكذلك أمرنا بالدعوة إليه، وأمرنا بأن نعلّم الناس، وأن ندعوهم، وأن نبشّر وننذر، بل لذلك أرسل الرّسل مبشّرين ومنذرين، مع أنّه علم من يطيع ومن يعصي، وعلِمَ من هم أهل الجنّة، ومن هم أهل النار، ولكنّه جعل لذلك أسبابًا، فجعل رسالة الرسل سببًا من أسباب معرفته، والدّعوة إليه، والإيمان به، وكذلك جعل ورثة الرسل الذين يدعون إليه من أسباب العمل الصالح؛ لأن اللَّـهَ يهدي على أيديهم من جعله اللَّـهُ من أهل الجنّة.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٠٤).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٣).

قال الشارح:

فَالمَوْجُودَات نَوْعَان: أَحَدُهُمَا مُسَخَّرٌ بِطَبْعِهِ، وَالثَّانِي: مُتَحَرِّكٌ بِإِرَادَتِهِ، فَهَدَى الأَوَّلَ لِمَا سَخَّرَهُ لَهُ طَبِيعَةً، وَهَدَى الثَّانِي هِدَايَةً إِرَادِيَّةً تَابِعَةً لِشُعُورِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ.

ثُمَّ قَسَّمَ هَذَا النَّوْعَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

نَوْعٌ لَا يُرِيدُ إِلَّا الخَيْرَ، وَلَا يَتَأَتَّى مِنْهُ إِرَادَةُ سُوَاه، كَالمَلَائِكَة.

وَنَوْعٌ لَا يُرِيدُ إِلَّا الشَّرَّ، وَلَا يَتَأَتَّى مِنْهُ إِرَادَةُ سُوَاه، كَالشَّيَاطِين.

وَنَوْعٌ يَتَأَتَّى مِنْهُ إِرَادَةُ القِسْمَيْنِ، كَالإِنْسَان. ثُمَّ جَعَلَهُ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ:

صِنْفًا يَغْلِبُ إِيمَانُهُ وَمَعْرِفَتُهُ وَعَقْلُهُ هَوَاهُ وَشَهْوَتَهُ، فَيَلْتَحِقُ بِالمَلَائِكَةِ.

وَصِنْفًا عَكْسه، فَيَلْتَحِقُ بِالشَّيَاطِين.

وَصِنْفًا تَغْلِبُ شَهْوَتُهُ البَهِيمِيَّة عَقْلَهُ، فَيَلْتَحِقُ بِالبَهَائِمِ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْطَى الوجُودَيْنِ: العَيْنِي وَالعِلْمِي، فَكَمَا أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ إِلَّا بِإِيجَادِهِ، فَلَا هِدَايَةَ إِلَّا بِتَعْلِيمِهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَثُبُوتِ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَتَحْقِيقِ رُبُوبِيَّتِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: (فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الجَنَّةِ فَضْلًا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَدْلًا مِنْهُ) إِلَخ. مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَمْنَعُ الثَّوَابَ إِلَّا إِذَا مَنَعَ سَبَبَهُ، وَهُوَ العَمَلُ الصَّالِحُ، فَإِنَّهُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]. وَكَذَلِكَ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ حُصُولِ سَبَبِ

العِقَابِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُعْطِي الْمَانِعُ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، لَكِنْ إِذَا مَنَّ عَلَى الإِنْسَانِ بِالإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، لَا يَمْنَعُهُ مُوجِبُ ذَلِكَ أَصْلًا، بَلْ يُعْطِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالقُرْبِ مَا لَا عَينٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَحَيثُ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَلِانْتِفَاءِ سَبَبِهِ، وَهُوَ العَمَلُ الصَّالِحُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، لَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ حِكْمَةٌ مِنْهُ وَعَدْلٌ، فَمَنْعُهُ لِلأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنْ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَأَمَّا المُسَبَّبَاتُ بَعْدَ وُجُودِ أَسْبَابِهَا، فَلَا يَمْنَعُهَا بِحَالٍ، إِذَا لَمْ تَكُنْ أَسْبَابًا صَالِحَةً، إِمَّا لِفَسَادٍ فِي العَمَلِ وَإِمَّا لِسَبَبٍ يُعَارِضُ مُوجِبَهُ وَمُقْتَضَاهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ لِعَدَمِ المُقْتَضِي، أَوْ لِوُجُودِ المَانِعِ، وَإِذَا كَانَ مَنْعُهُ وَعُقُوبَتُهُ مِنْ عَدَمِ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ لَمْ يُعْطِ ذَلِكَ ابْتِدَاءً حِكْمَةً مِنْهُ وَعَدْلًا، فَلَهُ الحَمْدُ فِي الحَالَيْنِ، وَهُوَ المَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، كُلُّ عَطَاءٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلُّ عُقُوبَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ، يَضَعُ الأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي تَصْلُحُ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا زِيَادَةُ بَيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلّق بخلق الله تعالى أهل الجنّة وأهل النّار وتقسيمهم؛ لأنّه سبحانه خلق الجنّة وخلق لها أهلًا، وخلق النّار وخلق لها أهلًا، وكلّ موفّق وميسّر لما خُلق له، ولا يتجاوزون ما قدّر لهم. ولكنّه سبحانه جعل بعض الخلق شرًّا محضًا، وبعضهم خيرًا محضًا، وبعضهم فيه مادّتان؛ مادة خير، ومادة شر.

فالملائكة - كما مرّ بنا - كلّهم خير، ليس فيهم نفوس شريرة، بل كلّهم يعبدون الله. يقول النبيّ ﷺ: «أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ، ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»(١).

وعن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقْطُرُ مِنْهُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلَكٍ يُصَلِّي، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١١٨).

(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٦)، وقال ابن كثير: «إسناده =

وقد ذكر من عبادتهم واجتهادهم في الطاعات وأنواع القربات، مع أنّهم ليس لهم شهوة تحملهم على المعاصي، فلأجل ذلك كانوا كلّهم على خير، وأخبر الله بأنّهم يخدمون أهل الجنّة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥].

أمّا القسمُ الثّاني: فهم الشياطين، ولا شكّ أنّهم خلقوا للشرّ، وأنّهم خلقوا للنّار، وأنّهم مستعدون للقدوم عليها؛ لأنّهم خلقوا منها. ولهذا لا يتألّمون بالنّار في الدّنيا، ومنهم شياطين الجنّ، فإنّهم أيضًا خلقوا من نار، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥]. الشياطين ـ الذين هم إبليس وذريّته ـ كلّهم شرّ محض، ليس فيهم خير أصلًا، وهؤلاء أهل النّار.

القسم الثالث: الإنسان، وقيل: الثقلان: الجنّ والإنس، فهؤلاء فيهم خير، وفيهم شرّ، فمنهم من يغلب خيره، أو يكون كلّه خير وهم الأنبياء، وورثة الأنبياء والأتقياء والعبّاد والزهّاد المؤمنون صادقو الإيمان، هؤلاء يحميهم الله عن

---

=

لا بأس به»، وأخرجه بنحوه: البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٨٣)، وسمى الصحابي أبا جحش، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٩٣)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٤٧)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٠٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٦١).

الذنوب وعن الكبائر فلا يقربونها، ويحفظون أوقاتهم كلّها بالطاعة، ويتقرّبون إلى ربّهم بأنواع العبادة، فهؤلاء يلحقون بالملائكة، ومنهم من يكونون بضدّ ذلك، منهم أشرار وكفرة وفجرة وفسّاق خارجون عن الطاعة، لا يألفون العبادة، ولا يحبّونها، ويألفون الكفر والفسوق والعصيان، ويتلذّذون بالمعصية، وينفرون من الطاعة، فهؤلاء يلحقون بالشياطين، ويكونون منهم ومن أتباعهم، يدخلون في قول الله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٥]، وكذلك قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:٩٤، ٩٥]. فهذا القسم مُلحق بالشياطين.

ومن القسم الثالث نوع تغلب عليهم الحياة البهيميّة: وهم الذين يجعلون عقولهم تبعًا لما يشتهونه، فيسخّرون عقولهم للشهوات البهيميّة الدنيويّة، فهؤلاء ملحقون بالبهائم، ولكن هم أقرب إلى من اتّبع هواه وعَبَده، فإنّ الله تعالى أخبر بأنّه يكون منهم من يعبد هواه، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

وفي الأثر: «مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ من إِلَهٍ يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ من هَوًى مُتَّبَعٍ»[1]. الذي يعبد هواه: هو الذي لا يهوى شيئًا ولا يشتهي شيئًا إلّا ركبه. فانْظر أي الأقسام أحسن، فاختر أن تكون منهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٨)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١١٨) من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٨): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن دينار، وهو متروك الحديث».

يقول بعض العلماء: إنّ نفوس البشر ثلاثة أقسام:

نفوس علويّة ملكيّة، وهي نفوس الأتقياء الأصفياء، عباد الله المخلصين.

ونفوس بهيميّة: بمعنى أنّها ليس لها إلا هواها وشهواتها، وما تميل إليه بطباعها، فهؤلاء ملحقون بالبهائم، أشبه ما يكونون بمن لا عقول لهم، داخلون في قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقسم نفوسهم سبعيّة: وهم الذين من طبعهم الاعتداء والظلم والتجبّر والتكبّر والتسلّط على الغير وحبّ السلطة والسيطرة والتعدّي، فهؤلاء أشبه ما يكونون بالسّباع الضارية. وأفضل الأقسام: القسم الذين نفوسهم ملكيّة علويّة، همّتهم رفيعة وليست دنيئة.

هكذا اقتضت حكمةُ الله تقسيم الخلق هذه الأقسام الثلاثة. يعني: الملائكة والشياطين وبني آدم، وجعل الله في بني آدم هذه الأقسام الثلاثة. والله تعالى هو الذي يخلق ما يشاء ويختار.

وأما تقدير الله تعالى لأهل الجنّة ولأهل النار؛ فمعلوم أنّ الله تعالى حكيم في قدرته وفي تدبيره وفي تقديره، وأنّه لو عذّب أهل سمواته وأهل أرضه لما كان ظالمًا لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته أكبر من أعمالهم، فإنّهم ما عملوا ولا آمنوا ولا اتّقوا إلا بفضله[1]:

مَا لِلعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٣٩).

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَو نُعِّمُـوا فَبِفَـضْلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيْمُ الوَاسِـعُ

فهو سبحانه خلق الجنّة وخلق لها أهلًا، وقدّر أعمالهم ويسّر لهم السبل والوسائل التي تجعلهم من أهلها، وتلحقهم بالعباد الصالحين، وكذلك قدّر للنّار أهلًا؛ لأنّ هاتين الدارين دار الثواب ودار العقاب قد وعدهما الله تعالى بأن يملأ كلًا منهما. فلا بدّ من أن يدخلها الله من يستحقّها، فبفضله يُنعمُ على أهل الجنّة، وبعدله يعذّب أهل النّار، لا يظلم أحدًا. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١].

من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرّه. وكلّ منهما يحتاج إلى تفاصيل كثيرة. والمؤمن الذي يؤمن بالله يؤمن بما أخبر به من التفاصيل في هذه الأشياء؛ لأنّه من تمام الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به عمّا هو كائن، ومن علامات الإيمان باليوم الآخر الاستعداد له.

ويوم القيامة: عظيم الهول، عظيم الكرب، سمّاه الله يوم الفزع الأكبر. وأمّا تفاصيله، فإنّها مأخوذة من الأدلّة التفصيلية التي اشتملت عليها الآيات والأحاديث، فإذا عرفها المؤمن؛ ظهر عليه أثرها، فيستعدّ لهذا اليوم إذا آمن به، ويؤمن بأنّ الجنّة دار الكرامة لأولياء الله، وأنّ النّار دار العذاب لأعداء الله. ولكلّ منهما أهل، وقد وعد الله كلًا منهما بملئها، كما في قول النبيّ ﷺ: «تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فقالت النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتْ الْجَنَّةُ: ما لي لَا يَدْخُلُنِي إلا ضُعَفَاءُ الناس وَسَقَطُهُمْ، قال اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ

من أَشَاءُ من عِبَادِي، وقال لِلنَّارِ: إنما أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ من أَشَاءُ من عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا»[1].

وإذا كان كذلك، فإنّه يستعدّ لما ينجيه من النّار، ويدخله الجنّة، وأمّا صفة ما فيهما فقد فصّلت في الأدلّة، وألّفت فيها المؤلّفات؛ فلابن القيم رحمه الله كتاب قيّم اسمه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، جمع فيه صفة الجنّة وما ورد فيها، وذكر فيه درجاتها، وأبنيتها وقصورها وأنهارها وأشجارها وثمارها وحورها وسُررها وفرشها، وجميع ما أخبر الله، وفصّل ذلك. وكذلك لتلميذه ابن رجب رحمه الله كتاب سمّاه «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار»، تكلّم فيه عن النّار وعذابها وحميمها وزقومها وأغلالها وزمهريرها ودركاتها وحال أهلها وما ورد فيهم. فإن قرأ القارىء هذا الكتاب اشتدّ خوفه، واشتدّ فزعه، وإن لم يكن فيه تفصيل الأعمال التي يستحقّ بها النّار، وإنّما فيه ذكر العذاب في النّار. وأمّا الأعمال فهي مذكورة في الأدلّة مبسوطة تجدون مثلًا الأحاديث والآيات التي ذكر فيها أهل النار وأهل الجنّة، وهي مشروحة وموسّع الكلام فيها، فإذا عرفها المسلم فلا شكّ أنّه يهتمّ بها. ويعرف الأعمال الصالحة التي تصيّر أهلها من أصحاب الجنّة فيعملها، ويعرف الأعمال التي تُوعِّد عليها بالعذاب والنّار، فيتركها ويبتعد عنها وعن أهلها، حتّى يكون من أهل الوعد ويسلم من الوعيد.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس


قال الطحاوي:

وَالاسْتِطَاعَةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الفِعْلُ، مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لا يُوْصَف المَخْلُوقُ بِهِ تَكُونُ مَعَ الفِعْلِ، وَأَمَّا الاسْتِطَاعَةُ مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ والوُسْعِ والتَّمْكِينِ وَسَلامَةِ الآلاتِ، فَهِيَ قَبْلَ الفِعْلَ، وبِهَا يَتَعَلَّقُ الخِطَابُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

قال الشارح:

الاسْتِطَاعَةُ وَالطَّاقَةُ وَالقُدْرَةُ وَالوُسْعُ، أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ، وَتَقْسِيمُ الاسْتِطَاعَةِ إِلَى قِسْمَيْنِ - كَمَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ - هُوَ قَوْلُ عَامَّةِ أَهْلُ السُّنَّةِ، وَهُوَ الوَسَطُ، وَقَالَتِ القَدَرِيَّةُ وَالمُعْتَزِلَةُ: لَا تَكُونُ القُدْرَةُ إِلَّا قَبْلَ الفِعْلِ، وَقَابَلَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَقَالُوا: لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الفِعْلِ.

وَالَّذِي قَالَه عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ لِلعَبدِ قُدْرَةً هِيَ مَنَاطُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهَذِهِ قَدْ تَكُون قَبْلَهُ، لَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ، وَالقُدْرَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الفِعْلُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَعَ الفِعْلِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ الفِعْلُ بِقُدْرَةٍ مَعْدُومَةٍ.

وَأَمَّا القُدْرَةُ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالوُسْعِ، وَالتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الآلاتِ، فَقَدْ تَتَقَدَّم الأَفْعَالِ، وَهَذِهِ القُدْرَةُ المَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]. فَأَوْجَبَ الحَجَّ عَلَى المُسْتَطِيعِ، فَلَوْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِلَّا مَنْ حَجَّ، لَمْ يَكُن الحَجُّ قَدْ وَجَبَ إِلَّا عَلَى مَنْ حَجَّ، وَلَمْ يُعَاقَبْ أَحَدٌ

عَلَى تَرْكِ الحَجِّ! وَهَذَا خِلَافُ المَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فَأَوْجَبَ التَّقْوَى بِحَسَبِ الاسْتِطَاعَةِ، فَلَوْ كَانَ مَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّقْوَى، لَمْ يَكُنْ قَدْ أَوْجَبَ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى مَنِ اتَّقَى، وَلَمْ يُعَاقِبْ مَنْ لَمْ يَتَّقِ! وَهَذَا مَعْلُومُ الفَسَادِ.

وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة:٤]. وَالمُرَادُ مِنْهُ اسْتِطَاعَةِ الأَسْبَابِ وَالآلاتِ.

وَكَذَا مَا حَكَاهُ سُبْحَانَهُ مِنْ قَوْلِ المُنَافِقِينَ: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:٤٢]، وَكَذَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ القَوْلِ، وَلَوْ كَانُوا أَرَادُوا الاسْتِطَاعَةَ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ قُدْرَةِ الفِعْلِ، مَا كَانُوا بِنَفْيِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَاذِبِين، وَحَيْثُ كَذَّبَهُمْ دَلَّ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ المَرَضَ، أَوْ فَقْدَ المَالِ، عَلَى مَا بَيَّنَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ [التوبة:٩١ ـ ٩٣]. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥]. وَالمُرَادُ اسْتِطَاعَةُ الآلاتِ وَالأَسْبَابِ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: «صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[1]. وَإِنَّمَا نَفَى اسْتِطَاعَةَ الفِعْلِ مَعَهَا.

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٧).

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق بركن من أركان الإيمان وهو القدر. والقدر كما نُقل عن الإمام أحمد: هو قدرة الله. والمعنى: أنّ الله قادر على كلّ شيء، وأنّه يدخل في قدرته أفعال العباد وقدرتهم، وأنّه هو الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ومن الإيمان بالقدر الإيمان بأنّ للإنسان قدرة وإرادة على أفعاله وبها أصبح مكلّفًا، وأمّا من فقد القدرة فقد سقط عنه التكليف؛ لأنّ هذا شيء محسوس ظاهر ليس فيه خطأ، فالإنسان الأعمى لا يكلّف أن يقرأ في الكتاب، والإنسان الأعرج لا يكلّف أن يسعى السعي الشديد في الرّمل أو الطواف أو السعي. وقد أسقط الله الجهاد عن المعذورين، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧]، ونحْوِ ذلك مِن الآيات.

كما مرّ معنا من كلام الشارح: أنّ الاستطاعة تنقسم قسمين: استطاعة بمعنى التوفيق، وهذه لا يملكها إلا الله، واستطاعة بمعنى مزاولة الفعل، وهذه يوصف بها العبد.

فأمّا التوفيق والإلهام والهداية، فهي إلى الله، ولا يستطيعها العباد، وقد نفاها الله تعالى عن نبيّه، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]. وقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]. وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧]، وفي قراءة: {لَا يُهْدَى مَنْ يُضلُّ}، أي: من أضلّه الله لا أحد يقدر على هدايته. فهذه الهداية تستدعي توفيق الله وإلهامه

وإفهامه، وتستدعي الإقبال بقلبه وقالبه إلى الأعمال، وتستدعي هدايته وتوفيقه، هذه هي حقيقة خلق الله وفعل الله، ولكن الإنسان أيضًا له قدرة على بعض الأسباب، فيجعلها الله سببًا لهداية بعض الناس.

ولأجل ذلك قال النبيّ ﷺ لعليّ ﷺ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1]؛ يهدي الله بك: أي يجعلك سببًا في الهداية، والله هو الهادي، بمعنى أنّك بيّنت لذلك الرجل ودَعوته وحذّرته وخوّفته وأنذرته، ودعوته إلى ما ينفعُه، وبيّنت له ما ينفع، وما يضرّ، وعاقبة هذا وعاقبة هذا، فالله قذف في قلبه المعرفة والقبول، وتقبّل ما جئت به، فأصبح بذلك قابلًا وأيّ قبول. فمثل هذا يكون سببًا في الهداية. فأصلها من الله، وأنت منك الأسباب.

ويدخل في ذلك قول الرسول ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِثْلَ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ»[2]. سمّاه هدى، أي: ضدّ الضلال. فالداعي متسبِّب، والله هو الذي جعل السبب مؤثّرًا ومفيدًا.

وبعد ذلك القسم الثاني من الاستطاعة: وهي الاستطاعة التي هي مزاولة الفعل والقدرة عليه، وهي التي لا يكلّف الله إلا من قدر عليها. فالعاجز عن الحج ماليًا لا يستطيعه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧]، فالفقير الذي لا يجد مالًا يوصله إلى مكّة؛ فهذا لا يستطيع، ولو كان يستطيع بدَنيًّا. والّذي لا يستطيع بدنيًّا كالذي لا يستطيع ركوب سيّارة أو طائرة مثلًا لمرض أو شلل أو خوف، يقال: لا يستطيع الثبوت على المركوب، فهو بذلك لايستطيع ببدنه.

معلوم أنّ الله تعالى لا يكلّف الإنسان مع عجزه، إنّما يكلّفه إن كان قادرًا وإن كان فاهمًا. ولذلك أسقط الله التكاليف عن الأطفال؛ لكونهم غير قادرين أو فاهمين، وأسقطها عن فاقد العقل لنقصه معنويًا، وكذلك أسقطها عن العاجزين، كما في قوله تعالى في الجهاد: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة:٩١]، يعني: ليس عليهم حرج في أن يتخلّفوا عن الجهاد؛ لأن مثل هؤلاء لا يستطيعون، فالضعفاء لا يستطيعون أن يخوضوا المعارك، وكذلك المرضى لا يستطيعون ذلك، وكذلك الّذين لا يجدون ما ينفقون، فهو لا يجد مركوبًا أو سلاحًا وعدّة، هؤلاء أسقط الله عنهم الجهاد، كما أسقط عن العاجزين ماليًا وبدنيًا الحجّ بقوله تعالى: ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧]، وفسّرت السبيل: بالزاد والراحلة، كما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما يوجب الحج؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ»[1]، فدلّ على أن الاستطاعة قدرة العبد من حيث المال والبدن.

---

(١) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، والبيهقي (٤/ ٣٢٧).

فإن كان الفعل يستدعي مالًا مثل الحج والجهاد، سقط عنه إن كان لا يجد، فإن كان لا يستدعي مالًا كالقريب من مكّة، ولكن يستدعي قوّة بدن، وكان هذا الإنسان عاجزًا بدنيًا سقط عنه. والجهاد كذلك يسقط عنه إن كان عاجزًا بدنيًّا، فإن كان عاجزًا ماليًّا، ولكن هناك من تكفّل به، وجهّزه فإنّه لا يسقط عنه. كذلك العبادات البدنيّة المحضة، فإن كان فيها مشقّة، فإنّها تسقط أو تؤجّل، مثل: فطر الصائم في المرض أو في السفر، يقال: لا يستطيع الصيام وهو مريض أو مسافر للمشقّة، فيؤجّل الصيام. أمّا الصلاة فإنّها عمل بدنيّ، ولذلك تتوقّف أعمالها على القوّة والقدرة، فإذا لم يستطع أن يحصل على الماء، سقطت عنه الطهارة بالماء، واكتفى بالتيمّم، فيقال: لا يستطيع أن يجد الماء، أو لا يستطيع استعمال الماء لمرض أو حرق أو نحو ذلك. وكذلك فعل الصلاة إذا لم يستطع أن يصلي وهو قائم صلّى وهو جالس، وإن لم يستطع صلى على جنب أو مستلقيًا؛ لأن هذا قد فقد نوعًا من الاستطاعة البدنية فانتقل إلى ما يستطيعه، ويعرض ذلك العرض في كلّ شيء، حتى قال بعضهم[1]:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

أراد بذلك الأمور العادية، يعني الأفعال المحسوسة، في الحرف مثلًا الأجسام تختلف، فالإنسان الذي معه قوة بدنيّة يستطيع حمل الأثقال، وآخر لا يستطيع ذلك، ولكن يستطيع أن يفعل الأفعال التي ليس فيها حمل ولا ثقل

(١) ذكر هذا البيت ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٦٠) ونسبه إلى عمرو بن معد يكرب ﷺ.

ونحو ذلك؛ كحراسة وما أشبهها، فالنّاس يتفاوتون في هذه الاستطاعة.

معلوم أنّ الاستطاعة تكون قبل الفعل ومع الفعل. فمثلًا نرى إنسانًا قويًا مكتملًا، فنقول: أنت تستطيع أن تصلّي قائمًا. وإن رأينا إنسانًا قويًا غنيًا فنقول: أنت مكلّف بالحجّ؛ لأنّك تستطيعه ماليًا وبدنيًا. وهذه الاستطاعة تستمر إلى أن ينتهي من العمل، فتكون قبل الفعل، وفي أثناء الفعل. ولأجل هذا لو صلّى ركعتين من الظهر وهو قائم ثم عجز، جلس وأتمّ بقيّة صلاته جالسًا. وكذلك في الحج، فلو أنّه عمل أعمال الحج، ثم عجز عن بعضها كالرمي مثلًا، وكّل فيه وسقط عنه لعجزه. ويقال هكذا في سائر الأفعال. فالاستطاعة تكون قبل الفعل، ولا يخاطبها إلا من كان مستطيعًا قبل مزاولة الفعل. وتكون في أثناء الفعل.

وقولُ من قال: إنّ الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، قول باطل؛ لأنّه لو كان كذلك، لم يكن الإنسان مكلّفًا حتى يفعل، فلا يكون على القادر توبيخ، فإذا كان الإنسان قادرًا على الحج، ولكنّه تركه، وقال: أنا غير مكلّف حتّى أفعل، قلنا له: أنت مكلّف من الآن؛ لأنّك موصوف بالقدرة المالية والبدنية، فيلزمك أن تباشر الفعل. ويقال كذلك أيضًا في الإنسان الصحيح البدن الذي يسمع النداء بالصلاة ولا عُذر له، يستطيع أن يأتي المسجد فيؤدي الصلاة فيه، فهل يقال: أنت لا تستطيع حتّى تباشر الفعل، أنت غير مكلّف حتّى تبدأ في الفعل؟! لو قيل كذلك، لسقطت كثير من العبادات. لو قيل: وأنت لست بمكلّف ما دمت في بيتك حتّى تبدأ بمباشرة الفعل، لاعتذر الكثير، وقالوا: لا نكون قادرين إلا إذا باشرنا. وهذا قولٌ لا يقوله عاقل.

فمثلًا في النكاح يقول النبيّ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! من اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فإنه له وِجَاءٌ»[1]، فما معنى الاستطاعة هنا؟ هل يقال: أنت لا تستطيع حتّى تدخل بالزوجة؟ إذا رأيناه مثلًا يملك المال والأهليّة، قلنا: أنت مستطيع أن تتزوّج، فلو قال مثلًا: ما دمت لم أتزوّج؛ فأنا لي رخصة في أنْ أترك الزواج، قلنا: هذا خلاف العقل. وقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ [النساء:٢٥]، رخصة في أن ينكح الأمة المملوكة، فهل هذه الرخصة ما تكون إلا لمن عجز بعد الفعل، نقول: ليس كذلك، بل إذا رأيناه ذا مال يقدر على مهر الحرّة، منعناه أن يتزوّج الأمة، وقلنا: لا تحلّ لك. قد يقول: ما دمت لم أتزوّج فأنا غير مستطيع، نقول: أنت الآن مستطيع، والمال موجود عندك. وهكذا يقال في أنواع الاستطاعة.

أمّا الجهميّة الذين قالوا: إنّ العبد ليس له حركة، وإنّ حركاته ليست اختياريّة، بل اضطراريّة، ويسمّون المجبرة. فهؤلاء سلبوا العبد قدرته، وسلبوه اختياره، وجعلوا حركات يديه أو ركوعه أو سجوده أو زناه أو سكره اضطرارًا أو إجبارًا ليس له أي اختيار، وقالوا: إنّما هو بمنزلة أغصان الشجرة التي تحرّكها الرياح، أو حركة المرتعش الذي ترتعش يداه ولا يقدر على إمساكهما، وكذا جعلوا طاعاته ومعاصيه خارجة عن استطاعته ليس له أيّ اختيار، فأبطلوا بذلك الأوامر

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٥، ٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

والنّواهي، وأبطلوا بذلك الشريعة كلّها، ومع ذلك فإنّهم متناقضون، وقد مرّ معنا كثير من تناقضهم. وذلك أنّك لو ضربت أحدهم واحتججت بالقدر ما عذرك، ولا تركك تضربه، فكذلك أيضًا نقول: لا تحتجّ بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات، بل عليك أن تزاول الفعل بقدر استطاعتك التي منحك الله، فالله أعطى الإنسان استطاعة بها يزاول الأفعال، ولولا تلك الاستطاعة لما حصل تكليفٌ بهذه العبادات وبهذه الأفعال، ولو نُفيت لبطلت الشريعة.

أمّا مذهب المعتزلة الذين يجعلون أفعال العباد صادرة منهم، ليس لله قدرة على أفعالهم، فإن المعتزلة من مذهبهم أنّ العبد هو الذي يخلق فعله، وليس لله قدرة على أفعال العبد، فجعلوا العبد مستقلًا بفعله، ونفوا قدرة الله عليه، ونفوا الأدلّة التي تدلّ على ذلك. فقالوا: إنّ الله لا يقدر أن يهدي ولا أن يضلّ، بل العبد هو الذي يهدي نفسه، ويضلّ نفسه. وجعلوا للعباد الاختيار، لا لله تعالى، وأبطلوا قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وأبطلوا عموم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، وقالوا: لا يقدر إلّا على ما يشاء، لا على كلّ شيء. وهكذا قالوا بكلّ ما هذا سبيله.

فنقول: لا شكّ أنّ هذا قول باطل؛ لأنّنا نؤمن بقدرة الله، ونؤمن بعمومها، ولا ينافي ذلك أنّه أعطى العباد قدرة يزاولون بها أعمالهم، أصبحوا بها مكلّفين يثابون على الخير، ويعاقبون على الشرّ. ولكن تلك القدرة مغلوبة بقدرة الله، فقدرة الله غالبة على قدرتهم، وإرادته غالبة على إرادتهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا دَلِيلُ ثُبُوتِ الِاسْتِطَاعَةِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ الْقُدْرَةِ، فَقَدْ ذَكَرُوا فِيهَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، وَالْمُرَادُ: نَفْيُ حَقِيقَةِ الْقُدْرَةِ، لَا نَفْيُ الْأَسْبَابِ وَالْآلَاتِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ ثَابِتَةً. وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ عِنْدَ قَوْلِهِ: (وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَكَذَا قَوْلُ صَاحِبِ مُوسَى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٦٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٢]، وَالْمُرَادُ مِنْهُ: حَقِيقَةُ قُدْرَةِ الصَّبْرِ، لَا أَسْبَابُ الصَّبْرِ وَآلَاتُهُ، فَإِنَّ تِلْكَ كَانَتْ ثَابِتَةً لَهُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ عَاتَبَهُ عَلَى ذَلِكَ؟ وَلَا يُلَامُ مَنْ عَدِمَ آلَاتِ الْفِعْلِ وَأَسْبَابِهِ عَلَى عَدَمِ الْفِعْلِ، وَإِنَّمَا يُلَامُ مَنِ امْتَنَعَ مِنْهُ الْفِعْلُ لِتَضْيِيعِهِ قُدْرَةَ الْفِعْلِ؛ لِاشْتِغَالِهِ بِغَيْرِ مَا أُمِرَ بِهِ، أَوْ شُغْلِهِ إِيَّاهَا بِضِدِّ مَا أُمِرَ بِهِ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْقُدْرَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا حِينَ الْفِعْلِ. يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُدْرَةَ لَا تَصْلُحُ لِلضِّدَّيْنِ، فَإِنَّ الْقُدْرَةَ الْمُقَارِنَةَ لِلْفِعْلِ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِذَلِكَ الْفِعْلِ، وَهِيَ مُسْتَلْزِمَةٌ لَهُ، لَا تُوجَدُ بِدُونِهِ.

---

قال الشيخ:

معلوم أنّ للإنسان قدرة عامّة، ولكن قد يغلب تلك القدرة والاستطاعة ما يفوّتها عليه، ففي قصّة موسى ـ عليه السلام ـ والخضر، أنّ الخضر قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٧ ـ ٦٨]، ولكنّ موسى ـ عليه السلام ـ قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ

أَمْرًا ﴾ [الكهف:٦٩]، مع ذلك لم يستطع الصبر؛ لأنّه رأى ما أنكره، فهو لم يستطع أن يصبر عندما خرق الخضر السفينة؛ لأنّه رأى خرق السفينة سببًا لإغراقها، فأخبره الخضر بأنّه أراد بذلك عيبها حتّى لا تؤخذ منهم. ولَمّا رآه قتل غلامًا بغير ذنب لم يصبر؛ لأنه لم يعلم عاقبة هذا الغلام أنّه طبع كافرًا. ولَمّا أنّ الخضر أقام الجدار في تلك القرية التي لم يضيّفه أهلها، استنكر ذلك وقال: لم يضيّفونا، ومع ذلك تقيم جدارهم! وهو لم يستطع أن يصبر مع أنّه قادر على أن يمسك نفسه.

فقوله: ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾، ليس المراد: لن تستطيع بدنيًّا، ولن تستطيع عقلًا، بل نقدر أنّك إن رأيت شيئًا تستنكره وتستقبحه، فالعادة أنّك تندفع، ولو كنت لا تدري ما عاقبته. فهذا معنى الاستطاعة في هذا الباب، وبلا شكّ أنّ هذه الاستطاعة مقدورة، ولو لم تكن كذلك لما قال موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، فأراد بأنّه قادر على الاستطاعة.

فالاستطاعة إذًا: استطاعة مالية، وهي استطاعة الذي يريد الحجّ ونحوه، واستطاعة بدنيّة كاستطاعة صوم الكفّارات ونحوها. وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء:٩٢]، يعني: في كفّارة القتل، وفي كفّارة الظهار، هذا فيمن لم يستطع العتق وهو استطاعة ماليّة. واستطاعة بدنيّة ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]. أي: فمن لم يستطع الصيام لعذر من الأعذار.

ويقال كذلك في قدرة الله تعالى، وأنّ قدرته عامّة، وأنّه جعل للعباد القدرة

على مزاولة أعمالهم.

وأمّا الآية التي بدأ بها الشارح هنا، وهي قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، فمعلوم أنّ لهم أسماعًا، وأبصارًا، ولكن كأنّهم ينفرون من هذا الشيء، فلا يستطيعون أن ينصتوا ويستمعوا له، وكذلك لا يستطيعون مقابلته، ففي إمكانهم أن يستمعوا، ولكن الدوافع تدفعهم.

وقد ذكر الله مثال ذلك عن المشركين في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥]، معلوم أنّ هذا ليس بظاهر، فقلوبهم كقلوب غيرهم، ولكن كأنّهم يقولون: كلامك لا يدخل في قلوبنا، ولا يدخل في أسماعنا، ولو سمعناه لم نتأمّله ولم نتعقّله، ولا ننظر إليك نظر اعتبار. هل يقال: إنّهم عاجزون عن السمع؟ والجواب: أنهم ليسوا عاجزين، فكذلك قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾، هم قادرون على السمع ولكن ينفرون منه، والنفرة من الحقّ بسبب وسوسة الشيطان.

وكثير من أهل البدع لا يستطيعون أن يستمعوا النصائح التي تخالف بدعهم، بل إمّا أنّهم لا ينصتون إليها، وإما أنّهم إذا حضروها أخذوا يتكلّمون، كما في قول المشركين لبعضهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]. وإمّا أن يهربوا، ويخرجوا ويبتعدوا، كما حكى الله تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ أنّه قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧]، كأنّهم يقولون: نخشى أنّ نسمع فيدخل

شيء في قلوبنا أو يعلق به. وهكذا يقوله كثير من المبتدعة الآن.

كما حكى لنا بعض الإخوة الذين ذهبوا إلى نجران، وألقى له محاضرة تتعلّق بعقيدة أهل السنّة، وكان الغالب على أهل المسجد أنّهم من المكرميّة الذين هم إسماعيليّة، فلمّا جلسوا يستمعون، جاء مشايخهم وجعلوا يقيمونهم واحدًا واحدًا، مخافةَ أن يقع في أسماعهم أو يصل إلى قلوبهم شيء يغيّر معتقداتهم. فهم ولو كان الكلام حقًّا لا يقبلونه، ليس معهم قدرة ولا استطاعة على أن يقولوا: نستمع وننظر إن كان حقًّا نقبله، ونعرضه على الحق، ولا يضرّنا سماعنا. بل يبتعدون عنه.

وهناك أحد إخواننا الذين درّسوا في المدارس المتوسّطة في مدارس الشيعة، فاتّفقوا مع أبنائهم أن يناظروهم في القرآن والسنّة، وعندما حان الموعد وهم يظنّون أنّهم غالبون لهم جلسوا معهم مرّة أو مرّتين، وكأنّ آباءهم أحسّوا بشيء من التغيّر، فما كان منهم إلا أنْ رحّلُوه، وقالوا: ابتعد عن بلادنا ولا تعد تدرّس أولادنا، لماذا؟ هل لا يستطيعون أن يسمعوا، مع أنّه بيّن لهم معاني الآيات والأحاديث ونحوها؟ نقول: يستطيعون، ولكن في هذه الآية: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، نحن نعلم أنّهم يستطيعون السّمع، ولكن هناك ما يرجعهم، ويحول بينهم وبين هذا الاستماع، فأسماعهم موجودة، ولكن هناك ما يمنعهم عن السمع.

قال الشارح:

وَمَا قَالَتْهُ الْقَدَرِيَّةُ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ، وَهُوَ إِقْدَارُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، سَوَاءٌ، فَلَا يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَصَّ الْمُؤْمِنَ الْمُطِيعَ بِإِعَانَةٍ حَصَّلَ بِهَا الْإِيمَانَ، بَلْ هَذَا بِنَفْسِهِ رَجَّحَ الطَّاعَةَ، وَهَذَا بِنَفْسِهِ رَجَّحَ الْمَعْصِيَةَ! كَالْوَالِدِ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِيهِ سَيْفًا، فَهَذَا جَاهَدَ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهَذَا قَطَعَ بِهِ الطَّرِيقَ.

وَهَذَا الْقَوْلُ فَاسِدٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْمُثْبِتِينَ لِلْقَدَرِ، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ عَلَى عَبْدِهِ الْمُطِيعِ نِعْمَةً دِينِيَّةً، خَصَّهُ بِهَا دُونَ الْكَافِرِ، وَأَنَّهُ أَعَانَهُ عَلَى الطَّاعَةِ إِعَانَةً لَمْ يُعِنْ بِهَا الْكَافِرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]، فَالْقَدَرِيَّةُ يَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا التَّحْبِيبَ وَالتَّزْيِينَ عَامٌّ فِي كُلِّ الْخَلْقِ، وَهُوَ بِمَعْنَى الْبَيَانِ وَإِظْهَارِ دَلَائِلِ الْحَقِّ. وَالْآيَةُ تَقْتَضِي أَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، وَالْكُفَّارُ لَيْسُوا رَاشِدِينَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، يُبَيِّنُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هَدَى هَذَا وَأَضَلَّ هَذَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[الكهف:١٧]، وَسَيَأْتِي لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ زِيَادَةُ بَيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

في هذا ردٌّ على القول الذي حكاه عن المعتزلة؛ لأنّه حكى في أول الكلام ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: عن الجبريّة الذين يقولون: إنّ العبد مجبور وليس له اختيار، وأنّه بمنزلة الشجرة التي تحرّكها الرّياح، فهو مدفوع إلى الزّنى، وهو مدفوع إلى الرّبا، وهو مدفوع إلى شرب الخمر، وهو مدفوع إلى الصلاة، وليس له أيّ اختيار.

القول الثاني: قول المعتزلة: بأنّ العبد هو يخلق فعله، ويزاوله، وليس لله أيّ قدرة على فعله.

والقول الثالث: قول أهل السنّة: وهو أنّ للعبد قدرةً واختيارًا، ولكنّ قدرته واختياره مغلوبة بقدرة الله وباختياره، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء. وهدايته للمؤمنين تُعدّ فضلًا منه وكرمًا، وإضلاله للكافرين يُعدّ عدلًا منه دون ظلم، فما ظلم هؤلاء، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]. فقد امتنّ على هؤلاء وعلم أنّهم أهلٌ للفضل والنّعمة والهداية، فهداهم وسدّدَهم.

أمّا المعتزلة، فقالوا إنّه ليس لله أيُّ قدرة، وإنّ العبد هو الذي يهدي نفسه أو يضلّها، ونفوا مدلول الآيات ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٦، ٣٧]، وقد عرفنا الرَّدَّ عليهم بمثل هذه الآيات: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا

حَرَجًا ﴾ [الأنعام:١٢٥]، هذا أنعم عليه، وهذا خذله. فإنعامه على هذا يُعدّ فضلًا، وخذلانه لذاك يُعدّ عدلًا[1].

مَا لِلعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَو نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكَرِيْمُ الوَاسِعُ

إنّ من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر. وكلمة القدر كلمة لها أهميّتها وقدرها، لها معنويّتها: بمعنى أنّ من آمن بقدرة الله، وأنّ الله على كلّ شيء قدير؛ صدّق بالقدر.

ويدخل في القدر تقدير الأشياء قبل أوقاتها. ويدخل فيه كتابتها قبل أن تخلق وتُوجدُ، ويدخل فيه إرادة كلّ ما يحدث، ومشيئته العامّة، ويدخل فيه خلقها وإيجادها وتكوينها، وأنّها لا تكون إلا بإرادة الله وبخلقه وبتقديره وتكوينه، هذه تسمّى مراتب القدر الأربع: الأولى العلم، والثانيه الكتابة، والثالثة الإرادة، والرابعة الخلق.

فيؤمن العباد بهذه المراتب الأربع، ومن كذّب بشيء منها نقص إيمانه بالقدر. فأنكر ذلك طوائف من الغلاة، أنكروا أن يكون الله يعلم الأشياء قبل أن تحدث، وهم الذين يقول فيهم الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: ناظروهم بالعلم، فإن أقرّوا به خصموا، وإن جحدوه كفروا. أي: سلوهم: أتقرّون بأنّ الله تعالى موصوف بالعلم، وأنّ الله بكلّ شيء عليم، فإذا اعترفوا بذلك خصموا وقيل لهم: ما الفرق

---

(١) راجع (٤/ ٣٢٧).

بين علم الماضي وعلم المستقبل؟ فإنّ الله عليم بكلّ شيء، فإذا علم ما قد مضى، فلا يخفى عليه ما هو آت وما هو مستقبل. وأمّا الخلق والتكوين فإنّه يدخل في القدرة، يدخل في الإيمان بقدرة الله، فإذا كنّا نؤمن بأنّ الله على كلّ شيء قدير، فلا بدّ أنْ يدخل في هذه القدرة كلّ ما في الكون، لا يخرج عن قدرة الله شيء من الوجود ولا من الحركات التي تكون في هذا الكون، كلّها كائنة بقدرة الله وبمشيئته وبخلقه وتكوينه، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد.

ونعتقد أنّ ربّنا سبحانه أعطى الإنسان قدرة على مزاولة أفعاله، وأنّ العباد لهم إرادة، وقدرة الله غالبة على قدرتهم وغالبة على إرادتهم، فإذا أراد الله شيئًا فلابدّ أن يكون. وهذا معنى قول الشافعي في أبياتٍ مشهورةٍ[1]:

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَىٰ مَا عَلِمْتَ ... فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَىٰ وَالْمُسِنْ
عَلَىٰ ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ ... وَهَذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تَعِنْ

ومع ذلك فإنّ للعباد قدرةً تناسبهم، وبهذه القدرة أصبحوا مكلّفين، وبها أصبحوا مأمورين ومنهيين، ولو سقطت عنهم هذه القدرة، سقطت عنهم التكاليف. ومن أجل هذا تسقط التكاليف عن العاجز، ويُنفى عنه الحرج، فلا يكلّف إلا ما يطيق. فمن فقد العقل، لم يكن إلى إفهامه من سبيل، فلا يكلّف. ومن فقد البصر لم يكلّف بالغزو والقتال. وكذا سائر العاجزين ونحوهم. يقول

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة:٩١]، يعني: إذا تخلّفوا عن الجهاد. فدلّ على أنّ غيرهم عليهم حرج؛ لأنّ لهم استطاعة، وإنْ كانت تلك الاستطاعة مخلوقةً لله، وداخلة تحت قدرته.

وبكلّ حال، فالاستطاعة التي منحها الإنسان، هي التي في إمكانه أن يزاول بها الأعمال، مع أنّها داخلة في خلق الله تعالى، وأنّ الله سبحانه لا يكلّفهم إلا ما بقدرتهم واستطاعتهم ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]. ولذلك أسقط الحجّ عن غير المستطيع، بل جعل فرضه على من استطاع إليه سبيلًا، وكذلك أسقط ما يعجز عنه الإنسان أو يشقّ عليه: فرخّص للمسافر أن يفطر؛ لأنّ عليه مشقّة، وكذلك المريض له أن يفطر ويقضي لما في الصيام عليه من الصعوبة، وكذلك في سائر العبادات التي يعجز عنها العبد.

فالقدرة والاستطاعة التي في ملكيّة الإنسان، هي ما منحه الله، وما أودع فيه، وما قوّاه به، وإن كان ذلك كلّه داخلًا في عموم قدرة الإنسان.

وقد مرّ بنا أنّ الاستطاعة التي نفيت هي التي لا تدخل في مقدور الإنسان. كما نفي بقول الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق:٧]، أي: لا يكلّفها بغير ما أعطاها، لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها.

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَقَوْلُ الْقَائِلِ: يُرَجَّحُ بِلَا مُرَجِّحٍ. إِنْ كَانَ لِقَوْلِهِ: (يُرَجَّحُ) مَعْنًى زَائِدٌ عَلَى الْفِعْلِ، فَذَاكَ هُوَ السَّبَبُ الْمُرَجِّحُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَعْنًى زَائِدٌ كَانَ حَالُ الْفَاعِلِ قَبْلَ وُجُودِ الْفِعْلِ كَحَالِهِ عِنْدَ الْفِعْلِ، ثُمَّ الْفِعْلُ حَصَلَ فِي إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ دُونَ الْأُخْرَى بِلَا مُرَجِّحٍ! وَهَذَا مُكَابَرَةٌ لِلْعَقْلِ!! فَلَمَّا كَانَ أَصْلُ قَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ: إِنَّ فَاعِلَ الطَّاعَاتِ وَتَارِكَهَا كِلَاهُمَا فِي الْإِعَانَةِ وَالْإِقْدَارِ سَوَاءٌ. امْتَنَعَ عَلَى أَصْلِهِمْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْفِعْلِ قُدْرَةٌ تَخُصُّهُ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي تَخُصُّ الْفِعْلَ لَا تَكُونُ لِلتَّارِكِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْفَاعِلِ، وَلَا تَكُونُ الْقُدْرَةُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْقُدْرَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَبْلَ الْفِعْلِ، قَالُوا: لَا تَكُونُ مَعَ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ هِيَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ، وَحَالَ وُجُودِ الْفِعْلِ يَمْتَنِعُ التَّرْكُ، فَلِهَذَا قَالُوا: الْقُدْرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا قَبْلَ الْفِعْلِ! وَهَذَا بَاطِلٌ مُطْلَقًا، فَإِنَّ وُجُودَ الْأَمْرِ مَعَ عَدَمِ بَعْضِ شُرُوطِهِ الْوُجُودِيَّةِ مُمْتَنِعٌ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الْفِعْلُ مِنَ الْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ مَوْجُودًا عِنْدَ الْفِعْلِ. فَنَقِيضُ قَوْلِهِمْ حَقٌّ، وَهُوَ: أَنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ قُدْرَةٌ.

لَكِنْ صَارَ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ هُنَا حِزْبَيْنِ: حِزْبٌ قَالُوا: لَا تَكُونُ الْقُدْرَةُ إِلَّا مَعَهُ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ الْقُدْرَةَ نَوْعٌ وَاحِدٌ لَا يَصْلُحُ لِلضِّدَّيْنِ، وَظَنًّا مِنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْقُدْرَةَ عَرَضٌ، فَلَا تَبْقَى زَمَانَيْنِ، فَيَمْتَنِعُ وُجُودُهَا قَبْلَ الْفِعْلِ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّ الْقُدْرَةَ نَوْعَانِ كَمَا تَقَدَّمَ: نَوْعٌ مُصَحِّحٌ لِلْفِعْلِ، يُمْكِنُ مَعَهُ الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَهَذِهِ تَحْصُلُ لِلْمُطِيعِ

وَالْعَاصِي، وَتَكُونُ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَهَذِهِ تَبْقَى إِلَى حِينِ الْفِعْلِ، إِمَّا بِنَفْسِهَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِبَقَاءِ الْأَعْرَاضِ، وَإِمَّا بِتَجَدُّدِ أَمْثَالِهَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْأَعْرَاضَ لَا تَبْقَى زَمَانَيْنِ، وَهَذِهِ قَدْ تَصْلُحُ لِلضِّدَّيْنِ، وَأَمْرُ اللَّهِ مَشْرُوطٌ بِهَذِهِ الطَّاقَةِ، فَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ هَذِهِ الطَّاقَةُ، وَضِدُّ هَذِهِ الْعَجْزُ، كَمَا تَقَدَّمَ.

---

قال الشيخ:

يناقش الشارح بعض المبتدعة الذين يقولون: إنّ القدرة على الفعل تسبق الفعل وتسبق مزاولته، ولا تصحبه حالة وجوده. فيقولون مثلًا: إنّ الإنسان الذي عنده مال، وتمّت قوّته وقدرته على الإتيان بالحج، فإذا تمّت أصبح مكلّفًا، ولا تكون القدرة حالة مزوالته للعمل، مثل طوافه وسعيه وإحرامه ووقوفه ورميه ونحو ذلك، يقولون: لا تشترط القوّة ولا القدرة في هذه الحالات، وما ذاك إلا أنّها شرطت في أوّل الأمر، وزالت الحاجة إليها بعد ذلك، فلا حاجة إلى وجودها وبقائها حالة مزاولة الفعل، ويقولون كذلك في سائر العبادات؛ كصلاة الجماعة مثلًا: إذا أمن على نفسه، وكان معه قدرة وقوة، وكان صحيح البدن ليس به مرض، وليس بخائف، وجب عليه أن يصلي مع الجماعة، فإذا دخل المسجد، أو أُقيمت الصلاة، أو بدأ في الصلاة، فلو زالت القدرة لم تضرّ، ولا تشترط القدرة ولا وجودها حالة مزاولة الصلاة. هذا تقرير قولهم.

ولا شكّ أنّ القدرة والقوّة على الفعل لا بدّ من وجودها قبل الفعل وفي حالة وجود الفعل. فإن الإنسان مأمور بأن يصلي قائمًا، فإن صلّى ركعتين من

الظهر قائمًا، ثم عجز، رخّص له أن يجلس ويتمّ جالسًا، فدلّ على أنّ القدرة مشترطة حالة الفعل من أوّله إلى آخره. فلو أنّ إنسانًا تجهّز للحج، فلو قطع نصف الطريق مثلًا، ثم عجَز وقلّت نفقته، أو حصل له خوفٌ أو مرض جاز له أن يرجع ويؤجّل الحجّ؛ لأنّ القدرة لم تبقَ معه، بل حدث ما يضادّها. وهكذا بقيّة الأعمال.

ولكن قد يستثنى منها البعض: فمثلًا: إذا تمّ الحول على المال ووجب فيه الزكاة، تعلّق بذمّة المالك، ولو تلف المال بقيت الزّكاة في الذمّة،؛ لأنّه فرّط حيث أخّر إخراجها، وهناك من يقول: إنّها تسقط عنه، فمثلًا إذا حصد زرعه، ولَـمّا حصده كلّه وجمعه، وقبل أن يخرج زكاته احترق كلّه، أو حملته الرّياح وفرّقته، فالصحيح أنّه لا يلزمه زكاة؛ لأنّها ما وجدت مواساة، ومن أين يواسي والمال الذي وجبت فيه قد تلف. وكذا مثلًا لو تمّ حول نصاب الماشية السائمة، فلما تمّ الحول ماتت كلّها، أو لم يبق منها قدر النصاب، سقطت الزكاة عنها وأصبح من غير أهل الزكاة.

وكذلك الإنسان إذا صام نصف النهار، أصبح وهو قادر وعنده قوّة، وعنده استطاعة على إتمام ذلك اليوم، ولكن في أثناء النهار مرض أو أصابه مانع شديد منعه من الإتمام جاز له أن يفطر، ويقضي ذلك اليوم؛ لأنه أصبح من غير أهل الاستطاعة.

فتبيّن بهذا أنّ الاستطاعة التي أُمرنا بها في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، أنّ المراد بها الاستطاعة التي قبل الفعل، والتي مع

الفعل، فقبل الفعل يكون نشيطًا قويًّا، قادرًا على أن يكمّل الفعل، ومع الفعل يحصل منه أنّه قادر على إتمامه إلى آخره، فإذا لم يكمّله فهو معذور. فهذا توجيه قول أهل السنّة، ولا يلتفت إلى قول من يقول: إنّ القدرة تشترط قبل الفعل، ولا حاجة إلى اشتراطها، ولا إلى لزومها حالة مزاولة الفعل، وما ذاك إلا أنّهم متناقضون كما مرّ بنا.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَالِاسْتِطَاعَةُ الْمَشْرُوطَةُ فِي الشَّرْعِ أَخَصُّ مِنَ الِاسْتِطَاعَةِ الَّتِي يَمْتَنِعُ الْفِعْلُ مَعَ عَدَمِهَا، فَإِنَّ الِاسْتِطَاعَةَ الشَّرْعِيَّةَ قَدْ تَكُونُ مَا يُتَصَوَّرُ الْفِعْلُ مَعَ عَدَمِهَا وَإِنْ لَمْ يَعْجَزْ عَنْهُ، فَالشَّارِعُ يُيَسِّرُ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُرِيدُ بِهِمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِهِمُ الْعُسْرَ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَالْمَرِيضُ قَدْ يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ مَعَ زِيَادَةِ الْمَرَضِ وَتَأَخُّرِ بُرْئِهِ، فَهَذَا فِي الشَّرْعِ غَيْرُ مُسْتَطِيعٍ، لِأَجْلِ حُصُولِ الضَّرَرِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُسَمَّى مُسْتَطِيعًا. فَالشَّارِعُ لَا يَنْظُرُ فِي الِاسْتِطَاعَةِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَى مُجَرَّدِ إِمْكَانِ الْفِعْلِ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَى لَوَازِمِ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ الْفِعْلُ مُمْكِنًا مَعَ الْمَفْسَدَةِ الرَّاجِحَةِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ اسْتِطَاعَةً شَرْعِيَّةً، كَالَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْحَجِّ مَعَ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ يُصَلِّي قَائِمًا مَعَ زِيَادَةِ مَرَضِهِ، أَوْ يَصُومُ الشَّهْرَيْنِ مَعَ انْقِطَاعِهِ عَنْ مَعِيشَتِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَإِذَا كَانَ الشَّارِعُ قَدِ اعْتَبَرَ فِي الْمُكْنَةِ عَدَمَ الْمَفْسَدَةِ الرَّاجِحَةِ، فَكَيْفَ يُكَلِّفُ مَعَ الْعَجْزِ؟!

وَلَكِنَّ هَذِهِ الِاسْتِطَاعَةَ مَعَ بَقَائِهَا إِلَى حِينِ الْفِعْلِ لَا تَكْفِي فِي وُجُودِ الْفِعْلِ، وَلَوْ كَانَتْ كَافِيَةً لَكَانَ التَّارِكُ كَالْفَاعِلِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِحْدَاثِ إِعَانَةٍ أُخْرَى تُقَارِنُ، مِثْلَ جَعْلِ الْفَاعِلِ مُرِيدًا، فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِقُدْرَةٍ وَإِرَادَةٍ، وَالِاسْتِطَاعَةُ الْمُقَارِنَةُ تَدْخُلُ فِيهَا الْإِرَادَةُ الْجَازِمَةُ، بِخِلَافِ الْمَشْرُوطَةِ فِي التَّكْلِيفِ، فَإِنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِيهَا الْإِرَادَةُ. فَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْفِعْلِ مَنْ لَا يُرِيدُهُ، لَكِنْ لَا يَأْمُرُ بِهِ مَنْ لَوْ أَرَادَهُ لَعَجَزَ عَنْهُ. وَهَكَذَا أَمْرُ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، فَالْإِنْسَانُ يَأْمُرُ عَبْدَهُ بِمَا لَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ، لَكِنْ لَا يَأْمُرُهُ بِمَا يَعْجَزُ عَنْهُ الْعَبْدُ، وَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْإِرَادَةُ الْجَازِمَةُ وَالْقُوَّةُ التَّامَّةُ، لَزِمَ

وُجُودُ الْفِعْلِ. وَعَلَى هَذَا يَنْبَنِي تَكْلِيفُ مَا لَا يُطَاقُ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: الْقُدْرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ، يَقُولُ: كُلُّ كَافِرٍ وَفَاسِقٍ قَدْ كُلِّفَ مَا لَا يُطِيقُ. وَمَا لَا يُطَاقُ يُفَسَّرُ بِشَيْئَيْنِ: بِمَا لَا يُطَاقُ لِلْعَجْزِ عَنْهُ، فَهَذَا لَمْ يُكَلِّفْهُ اللَّهُ أَحَدًا، وَيُفَسَّرُ بِمَا لَا يُطَاقُ لِلاشْتِغَالِ بِضِدِّهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ التَّكْلِيفُ، كَمَا فِي أَمْرِ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، فَإِنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، فَلَا يَأْمُرُ السَّيِّدُ عَبْدَهُ الْأَعْمَى بِنَقْطِ الْمَصَاحِفِ! وَيَأْمُرُهُ إِذَا كَانَ قَاعِدًا أَنْ يَقُومَ، وَيُعْلَمُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ بِالضَّرُورَةِ.

---

قال الشيخ:

هذه أمثلة ساقها الشارح لَـمّا تقدّم من أنّ الله تعالى لا يكلّف العباد إلّا ما في وسعهم، وما في إرادتهم، وما تصل إليه قدرتهم، وما لا مشقّة عليهم فيه، وإن كانوا قد يستطيعون فعل بعض الأشياء التي أُسقطت عنهم، لكن مع مشقّة تلحقهم، والمشقّة تجلب التيسير، ولكن نفى الله الحرج في هذه الشريعة فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. ولَـمّا ذكر أنّهم يجوز لهم استعمال التراب عند فقد الماء أو عند التكلّف في استعماله، بمرض ونحوه قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦]. ولَـمّا أباح لهم الفطر في رمضان للسفر وللمرض قال بعد ذلك: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]. فإنّ المسافر قديمًا يشقُّ عليه الصيام ولكنّه يستطيعه، فإنْ صام انقطع عن العمل، وانقطع عن خدمة نفسه، واحتاج إلى أن يخدمه رفقته،

ويرشُّ عليه الماء لشدّة جهده؛ فهذا قد يقول: إنّي أطيق، ولكنّا نقول: إنّ ما فاتك أشدّ وأعظم؛ لأنك أعوزت غيرك إلى أن يخدموك، وإلى أن يقوموا عليك، وأبطلت مصالح نفسك، واحتجت إلى من يخدمك، ولو كنت تستطيع أن تكمّل يومك.

وكذلك المريض لو قال: أنا أستطيع أن أصوم مع المرض، ولكن المرض يزداد مع هذا الصيام ويشتدّ ويتكلّف صاحبه إذا صام، نقول: إنّه قد كلّف نفسه ما لا تطيق، وإنّه ولو كان يستطيع الإكمال، لكن عليه مشقّة من هذا الصيام، فله رخصة.

وكذا لو قال الفقير: أنا أستدين وأحجّ وأصبر على الدين الذي أتحمّله في ذمّتي، نقول: إنّك قد كلّفت نفسك ما فيه مشقّة؛ لأنّك لست على يقين بأنّك تقدر على وفاء هذه الديون التي تتحمّلها، أو أنّك في سفرك قد تضيّع أهلك، وقد يحتاجون إلى أن يتكففوا النّاس؛ لأنّك أنت الذي تتكسّب لهم، وتنفق عليهم، فإن سافرت عنهم، أدّى ذلك إلى أنّهم يحتاجون، ويسألون النّاس، فيسقط عنك الحجّ في هذه الحالة.

وكذلك في المصلّي الذي أُبيح له أن يصلّي جالسًا، ولكن يقول: في استطاعتي أن أقوم، ولو كان القيام يزيد في المرض، ويؤخّر البرء والشفاء. نقول: لست بمكلّف، وأنت لست بمستطيع، والذي يعجزه القيام يجزئه الجلوس، ويكون أجره كأجر القائم سواء. يقول النبيّ ﷺ: «صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ

لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[1]. ولو كانت الاستطاعة قد تحصل مع نوع من المشقّة.

وبكلّ حال، فإنّ المشقّة التي نفاها الله تعالى هي التي فيها صعوبة على العباد. فهذا من جملة ما لم يكلّفوا به، فإن كان عليهم شيء من الضيق والحرج والشدّة، فإنّ ذلك يجلب لهم الرخصة في أمورهم عامّة، وفي هذا الأمر خاصّة.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٣١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَأَفْعَالُ العِبَادِ خَلْقُ اللَّهِ وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ.

---

قال الشارح:

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَفْعَالِ الْعِبَادِ الِاخْتِيَارِيَّةِ.

فَزَعَمَتِ الجَبْرِيَّةُ وَرَئِيسُهُمُ الجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ التِّرْمِذِيُّ: أَنَّ التَّدْبِيرَ فِي أَفْعَالِ الخَلْقِ كُلِّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ كُلُّهَا اضْطِرَارِيَّةٌ، كَحَرَكَاتِ المُرْتَعِشِ، وَالْعُرُوقِ النَّابِضَةِ، وَحَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ، وَإِضَافَتِهَا إِلَى الخَلْقِ مَجَازٌ! وَهِيَ عَلَى حَسَبِ مَا يُضَافُ الشَّيْءُ إِلَى مَحَلِّهِ دُونَ مَا يُضَافُ إِلَى مُحَصِّلِهِ!

وَقَابَلَتْهُمُ المُعْتَزِلَةُ، فَقَالُوا: إِنَّ جَمِيعَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ الحَيَوَانَاتِ بِخَلْقِهَا، لَا تَعَلُّقَ لَهَا بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى. وَاخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْدِرُ عَلَى أَفْعَالِ الْعِبَادِ أَمْ لَا؟!

وَقَالَ أَهْلُ الحَقِّ: أَفْعَالُ الْعِبَادِ بِهَا صَارُوا مُطِيعِينَ وَعُصَاةً، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنْفَرِدٌ بِخَلْقِ المَخْلُوقَاتِ، لَا خَالِقَ لَهَا سِوَاهُ. فَالجَبْرِيَّةُ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ، فَنَفَوْا صُنْعَ الْعَبْدِ أَصْلًا، كَمَا غَلَتِ المُشَبِّهَةُ فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، فَشَبَّهُوا. وَالْقَدَرِيَّةُ نُفَاةُ الْقَدَرِ جَعَلُوا الْعِبَادَ خَالِقِينَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا كَانُوا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، بَلْ أَرْدَأَ مِنَ المَجُوسِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ المَجُوسَ أَثْبَتُوا خَالِقَيْنِ، وَهُمْ أَثْبَتُوا خَالِقِينَ!!

وَهَدَى اللَّهُ المُؤْمِنِينَ أَهْلَ السُّنَّةِ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

فَكُلُّ دَلِيلٍ صَحِيحٍ يُقِيمُهُ الجَبْرِيُّ، فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّـهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مِنْ جُمْلَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ فِي الحَقِيقَةِ وَلَا مُرِيدٍ وَلَا مُخْتَارٍ، وَأَنَّ حَرَكَاتِهِ الِاخْتِيَارِيَّةَ بِمَنْزِلَةِ حَرَكَةِ الْمُرْتَعِشِ، وَهُبُوبِ الرِّيَاحِ، وَحَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ.

وَكُلُّ دَلِيلٍ صَحِيحٍ يُقِيمُهُ الْقَدَرِيُّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّهُ مُرِيدٌ لَهُ مُخْتَارٌ لَهُ حَقِيقَةً، وَأَنَّ إِضَافَتَهُ وَنِسْبَتَهُ إِلَيْهِ إِضَافَةُ حَقٍّ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ وَاقِعٌ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

فَإِذَا ضَمَمْتَ مَا مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمَا مِنَ الحَقِّ إِلَى حَقِّ الْأُخْرَى، فَإِنَّمَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَائِرُ كُتُبِ اللَّـهِ الْمُنَزَّلَةِ، مِنْ عُمُومِ قُدْرَةِ اللَّـهِ وَمَشِيئَتِهِ لِجَمِيعِ مَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَفْعَالِ، وَأَنَّ الْعِبَادَ فَاعِلُونَ لِأَفْعَالِهِمْ حَقِيقَةً، وَأَنَّهُمْ يَسْتَوْجِبُونَ عَلَيْهَا الْمَدْحَ وَالذَّمَّ.

وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ أَدِلَّةَ الحَقِّ لَا تَتَعَارَضُ، وَالحَقُّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ ذِكْرِ أَدِلَّةِ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَكِنَّهَا تَتَكَافَأُ وَتَتَسَاقَطُ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ دَلِيلِ كُلِّ فَرِيقٍ بُطْلَانُ قَوْلِ الْآخَرِينَ. وَلَكِنْ أَذْكُرُ شَيْئًا مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ أُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا اسْتُدِلَّ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ.

قال الشيخ:

من هنا الكلام على أفعال العباد، فقال الطحاوي: (وَأَفْعَالُ العِبَادِ خَلْقُ اللَّهِ وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ)، فلم يثبتوا للعباد فعلًا، وإنّما أثبتوا لهم كسبًا، أي: هم الذين كسبوها، وهم الذين زاولوها، وإنما تنسب لهم؛ فالعبد يوصف بأنّه: الذي صلّى، وهو الذي صام، ولا يقال: خلق الله فيك الصوم، ولا خلق فيك الصلاة، ولا خلق فيك القتل والشرك أو الزنى؛ بل يقال: أنت المصلّي أو الصائم، وأنت القاتل أو السارق، وأنت البرّ أو الفاجر، وأنت العامل للصالحات أو السيّئات، وأنت الذي صبرت أو جزعت، وأنت الذي تشجّعت أو جبنت. يوصف بهذه الأفعال، ولو كانت خلق الله. اللهّ تعالى خالق كلّ شيء، وهو الذي خلقها وهو الذي أرادها، ولو شاء ما آمن أحد، ولا كفر أحد، ولكنّه تعالى أعطى العبد قدرة يزاول بها هذه الأعمال، فيصبح من أهلها وتنسب إليه، هو الذي تكلّم عليه الطحاوي.

الأشاعرة لا يثبتون للعبد فعلًا، ويعتقدون أنّ الأفعال لا حقيقةَ لها أصلًا، الكسب عند الأشعريّ[1] لا حقيقة له، وهو يثبت الكسب، ومع ذلك ينفي قدرة

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٨/ ١٢٨) عن الأشاعرة: «ثم أثبتوا كسباً لا حقيقة له، فإنه لا يُعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا، ويقولون: ثلاثة أشياء لا حقيقة لها: طفرة النظّام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري».

العبد. والحال عند البهشمي[١]: لا يثبت للحال حقيقة. وطفرة النَظَّام[٢] ـ الذي هو أحد المعتزلة ـ التي اعتقدها وذهب إليها لا حقيقة لها.

وقد جُمعت بقول بعض الشعراء[٣]:

مِمَّا يُقَالُ وَلَا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ ... مَعْقُولَةٌ تَدْنُو لِذِي الأَفْهَامِ

الكَسْبُ عِنْدَ الأَشْعَرِي وَالحَالُ ... عِنْدَ البَهْشَمِي وَطَفْرَةُ النَظَّامِ

والشارح ـ رحمه الله ـ ذكر أنّ للنّاس في هذه الأفعال ثلاثة مذاهب: مذهب باطل ن وهو مذهب الجبرية، ويقابله مذهب باطل آخر، وهو مذهب نفاة قدرة الله، ومذهب حقّ، وهو إثبات قدرة الله، وإثبات قدرة العبد التي تناسبه.

فالأول الذي قال أهله: إنّ العبد ليس له قدرة أصلًا، فهذا قول المجبرة أو الجبريّة، الذين يقولون: إنّ العبد مجبور على أفعاله، وليس له أيّ اختيار، بل حركاته بمثابة حركات المرتعش، وهو الذي ترتعش يداه، ولا يقدر على إمساكها، أو بمنزلة العروق النابضة التي تتحرّك، ولا يقدر على إمساكها، أو

---

(١) هو: أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي المعتزلي، تُنسب إليه فرقة البهشمية. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٨٣).

(٢) قال عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق (ص١٣٤): «من فضائحه قوله بالطفرة، وهي دعواه أن الجسم قد يكون في مكان ثم يصير منه إلى المكان الثالث أو العاشر منه، من غير مرور بالأمكنة المتوسطة بينه وبين العاشر؛ ومن غير أن يصير معدومًا في الأول، ومعادًا في العاشر».

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية (١/ ٤٥٩)، والنبوات (١٤٤).

حركاته بمنزلة حركات الأشجار التي تحرّكها الرياح. وهؤلاء جبريّة، رئيسهم الجهم بن صفوان، فهو أوّل من قال: إنّ العباد ليس لهم قدرة وليس لهم اختيار، وأنّهم مجبورون على أفعالهم. وهؤلاء يقولون: إنّ الله إذا عذّب الخلق فإنّه ظالم لهم؛ لأنّه الذي خلق فيهم المعصية، فكيف يخلق فيهم القتل والشرك والزنى وما أشبه ذلك، ويعاقبهم على ذلك؟ فيعدّون ذلك ظلمًا من الله تعالى، مع أنّ الله قد نفى الظلم عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

يقول قائلهم الذي ذكره ابن القيم في بعض كتبه[1]:

ألقاهُ في البحرِ مَكتوفًا وقال له ... إيّاك إيّاك أنْ تبتلَّ بالماءِ

يقولون: مثل العاصي الذي يُجبر على المعصية، كمثل الإنسان المكتوف اليدين الذي يلقى في البحر ويقال له: لا تبتلّ بالماء. هو لا يستطيع الحركة، ومع ذلك ألقي في البحر.

ويقول في ميميّته[2]:

وَعِنْدَ مُرَادِ اللَّهِ تَفْنَى كَمَيِّتٍ ... وَعِنْدَ مُرَادِ النَّفْسِ تسْدِي وَتُلْحِمُ

وَعِنْدَ خِلَافِ الحَقِّ تَحْتَجَّ بِالقَدَرِ ... ظَهِيرًا عَلَى الرَّحْمَنِ لِلجَبْرِ تَزْعُمُ

يقول: إنّ هؤلاء متناقضون، فإذا كان المراد للنفس فإنه يسدي ويلحم، أي: يأتي الأمور من طولها وعرضها، ولا يتوقّف جهده على شيء محدد، بل يبذل كل

---

(١) انظر: القصيدة الميمية بشرح مصطفى عراقي (ص١٨٠).

(٢) انظر: شفاء العليل (ص٤)، ومدارج السالكين (١/ ١٩٠).

ما في وسعه، ولكن إذا قيل له: إنّ الله أمرك بكذا، ونهاك عن كذا، فإنّه: يتقاعس ويتكاسل، فإذا قيل له: قال هذا مكتوب عليّ، وهذا ليس لي فيه اختيار، فيحتج بالقدر، ويزعُم أنّه مجبور على ذلك. هذا قول المجبرة الذين يزعمون أنّ العبد مجبور على فعله.

ويروى أنه تقدّم واحد منهم إلى شيخ الإسلام ابن تيميّة وهو في مجلسه وحوله تلامذته، فألقى عليه أبياتًا أولها[1]:

أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيٌّ دِينُكُمْ ... تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ

ويقول فيها:

دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى ... دُخُولِي سَبِيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي

يحتجّ ويقول: إنّ إنسانًا دعاني ثم سدّ الباب دوني، وقال لي ادخل: فكيف أدخل؟.

فردّ عليه شيخ الإسلام بأبيات مشهورة[2]، وقد شرحها عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله، ومطلعها:

سُؤَالُكَ يَا هَذَا سُؤَالُ مُعَانِدٍ ... مُخَاصِمٍ رَبُّ الْعَرْشِ بَارِي الْبَرِيَّةِ

فَهَذَا سُؤَالٌ خَاصَمَ الْمَلأَ الْعُلا ... قَدِيمًا بِهِ إِبْلِيسُ أَصْلُ الْبَلِيَّةِ

وَمَنْ يَكُ خَصْمًا لِلْمُهَيْمِنِ يَرْجِعَنْ ... عَلَى أُمِّ رَأْسٍ هَاوِيًا فِي الْحَفِيرَةِ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٥).

(٢) لسماحة شيخنا عبد الله بن جبرين ـ حفظه الله ـ شرح مطبوع للمنظومة كاملة.

وَيُدْعَى[1] خُصُومُ اللَّهِ يَوْمَ مُعَادِهِمْ إِلَى النَّارِ طُرًّا مَعْشَرُ الْقَدَرِيَّةِ
سَوَاءٌ نَفَوْهُ أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا بِهِ اللَّهَ أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ

واستمرّ في ذكر ما يتناقضون فيه، وذكر أنّهم يتناقضون؛ وذلك أنّ أحدهم إذا لامه لائم على فعل، فإنه يحتجّ بالقدر، ولكن لا يحتجّ بالقدر إذا كانت المصلحة له، فهو إذا كانت المصلحة له في طلب رزق أو معيشة، فإنه يبذل قصارى جهده، فيقال له: لماذا لا تجلس في بيتك وتترك التكسّب؟ ولماذا لا تترك الأكل وتقول: إن أراد الله لي حياة، فإني سأحيا ولو لم آكل، لماذا تلبس الثياب في الصيف تتّقي الحر، وفي الشتاء تتقي البرد؟ لماذا تتزوّج لتطلب الولد؟ ولماذا تغرس لتطلب الثمر؟! فأنت تفعل هذه الأفعال لطلب المعيشة. فكذلك نقول: لماذا لا تعمل أعمالًا صالحة فتؤهّلك لدخول الجنّة؟ ولماذا لا تترك الأعمال التي تؤهّلك لدخول النّار؟

فإذًا أنت معك قدرة واستطاعة على مزاولة الأعمال.

وقد ذُكر أن رجلًا سرق وجيء به إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وعزم على قطع يده، فقال ذلك السارق: إن هذا بقدر الله، كيف تقطعونني وقد قدر الله عليَّ ذلك؟ فقال عمر ﷺ: «أنت سرقت بقدر الله، وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره»[2].

ولما توجه عمر ﷺ إلى الشام، وذُكر له وقوع الطاعون بالشام، عزم على أن

---

(١) وفي نسخة: (وَتُدْعَى).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٥٠).

يرجع بمن معه إلى المدينة، فقال له أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: أَفِرَارًا من قَدَرِ اللَّـهِ؟ فقال عُمَرُ: «لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّـهِ إلى قَدَرِ اللَّـهِ»[1]، أي: إن الله تعالى قدّر لنا أن نرجع، فهو كتب علينا هذا، ولم يكتب علينا أنّنا نقدم على هذا الوباء.

وقد قال النبيّ ﷺ: «فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»[2].

وبكلّ حال هذه أقوال هذه الطائفة، ولهم حججٌ طويلة اختصرها الشارح.

والقدرية يخرجون أكثر الأفعال أو كلها عن قدرة الله تعالى، وهم أشبهوا بذلك المجوس، والمجوس هم الذين يجعلون الكون صادرًا عن خالقين، والقدرية جعلوا مع الله من يخلق، وقد تقدّم أنّهم يقولون أنّ القرآن مخلوق، واستدلّوا بقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر:٦٢]. فأدخلوا صفة الله تعالى ـ التي هي علمُه وكلامُه ـ في هذه الآية. وتناقضوا فأخرجوا أفعالهم عن عمومها، وجعلوا أفعالهم خلقهم، وليست خلق الله، ولم يعمّموا، ولم يعملوا بعموم الآية.

ولا شكّ أنّ أفعال العباد أولى ما يدخل في عموم الآية، وهو أنها خلق الله سبحانه وتعالى، وأنّها منسوبة إلى العباد نسبةَ فعل ومباشرة، ولهذا يقال: إنّ الله خالق كلّ شيء بما في ذلك حركات العباد وأفعالهم، ومع ذلك فإنّ الله تعالى هو

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) معلقًا جازمًا به، وأحمد (٢/ ٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الذي مكّنهم، وأعطاهم قوّة وقدرة، فهم يزاولون الأعمال بقوّتهم وقدرتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم. فقدرة الله غالبة على قدرتهم، وإرادته غالبة على إرادتهم. وبذلك أصبحت أفعالهم خلق الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦]. وأفعالهم هم الذين باشروها، فتنسب إليهم مباشرة، وتنسب إلى الله خلقًا وإيجادًا. وبما أعطاهم من القوة والقدرة يثابون ويعاقبون.

ولأجل ذلك نقول: إنّ العباد فاعلون حقيقةً، والله خالقهم وخالق أفعالهم. والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلّي والصائم، والمطيع والعاصي. وأنّ للعباد قدرة على أفعالهم ولهم إرادة، ولكن هذه القدرة والإرادة مسبوقة بقدرة الخالق تعالى وبإرادته. وهذا هو قول أهل السنّة.

وقد عرفنا القولين المتطرفين الذين هما طرفان في هذه المسألة:

**الطرف الأول**: هم المجبرة الذين سلبوا العباد القدرة والإرادة، وجعلوهم مجبورين ليس لهم أية قدرة ولا إرادة، ولا همّة، ولا أثر في الأعمال، وجعلوا حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار التي تحركها الرياح، وأبطلوا حكم الله تعالى. فإذا سئلوا: لماذا أرسل الرسل، لماذا يعذّب الله الكفار؟ ولماذا خصّ الله المؤمنين بأنّهم أهل الثواب؟ لم يكن لديهم جواب، إلا أنّ ذلك محض المشيئة، ومحض الإرادة، ليس لأحد فيه تصرف، ويردّدون قول الله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ويقولون: إنّه قدّر ذلك عليهم، وخلقه فيهم، ويعذّبهم على فعله فيهم. ولكن لا نسأل عن ذلك.

**وأمّا الطرف الثاني**: الذين هم المعتزلة: فأرادوا تنزيه الرّبّ تعالى عن أن يعذّبهم على أمر خلقه فيهم، كما يقولون، فجعلوا أنفسهم هي التي تخلق الفعل، ولم يجعلوا لله أيّ قدرة، بل كثير منهم يقولون: إنّ الله لا يقدر على أن يهدي من يشاء، ولا على أن يضلّ من يشاء، بل هم يهدون أنفسهم ويضلّونها.

فهؤلاء طرف هالك بعيد عن الصواب، وكلا الطرفين على طرفي نقيض.

ولكنّ الله هدى أهل السنّة، وآمنوا بعظيم قدرته، وآمنوا بأنّ له قدرة عامّة على أفعال العباد، وآمنوا بأنّه خلق أفعال العباد، وكتبوا في ذلك المؤلّفات، وألّف البخاري رسالة مشهورة «خلق أفعال العباد». وبيّنوا أنّ قدرة العبد هي التي تناسبه، والتي بها يثاب ويعاقب، وأنّها مع ذلك مغلوبة بقدرة الله تعالى، وبها يصبح العبد مستحقًا للثواب والعقاب على ما يزاوله من أعمال تنسب إليه لكونه باشر فعلها، ومع ذلك لا يخرج عن قدرة الله تعالى، والهداية بيد الله، فهو الذي أضلّ هؤلاء حكمة وعدلًا، وهدى هؤلاء رحمة وفضلًا وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال الشارح:

فَمِمَّا اسْتَدَلَّتْ بِهِ الجَبْرِيَّةُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، فَنَفَى اللَّهُ عَنْ نَبِيِّهِ الرَّمْيَ، وَأَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا صُنْعَ لِلْعَبْدِ. قَالُوا: وَالجَزَاءُ غَيْرُ مُرَتَّبٍ عَلَى الْأَعْمَالِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1].

وَمِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ الْقَدَرِيَّةُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، قَالُوا: وَالجَزَاءُ مُرَتَّبٌ عَلَى الْأَعْمَالِ تَرْتِيبَ الْعِوَضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَأَمَّا مَا اسْتَدَلَّتْ بِهِ الجَبْرِيَّةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَثْبَتَ لِرَسُولِهِ ﷺ رَمْيًا، بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، فَعُلِمَ أَنَّ الْمُثْبَتَ غَيْرُ الْمَنْفِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّمْيَ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ، فَابْتِدَاؤُهُ الحَذْفُ، وَانْتِهَاؤُهُ الْإِصَابَةُ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُسَمَّى رَمْيًا، فَالمَعْنَى حِينَئِذٍ ـ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ـ: وَمَا أَصَبْتَ إِذْ حَذَفْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَصَابَ. وَإِلَّا فَطَرْدُ قَوْلِهِمْ: وَمَا صَلَّيْتَ إِذْ صَلَّيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ صَلَّى! وَمَا صُمْتَ إِذْ صُمْتَ! وَمَا زَنَيْتَ إِذْ زَنَيْتَ!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَمَا سَرَقْتَ إِذْ سَرَقْتَ!! وَفَسَادُ هَذَا ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا تَرَتُّبُ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، فَقَدْ ضَلَّتْ فِيهِ الْجَبْرِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ، وَهَدَى اللَّهُ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. فَإِنَّ الْبَاءَ الَّتِي فِي النَّفْيِ غَيْرُ الْبَاءِ الَّتِي فِي الْإِثْبَاتِ، فَالْمَنْفِيُّ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، بَاءُ الْعِوَضِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ كَالثَّمَنِ لِدُخُولِ الرَّجُلِ إِلَى الْجَنَّةِ، كَمَا زَعَمَتِ الْمُعْتَزِلَةُ أَنَّ الْعَامِلَ مُسْتَحِقٌّ دُخُولَ الْجَنَّةِ عَلَى رَبِّهِ بِعَمَلِهِ! بَلْ ذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. وَالْبَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وَنَحْوُهَا، بَاءُ السَّبَبِ، أَيْ: بِسَبَبِ عَمَلِكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، فَرَجَعَ الْكُلُّ إِلَى مَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْمُعْتَزِلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، فَمَعْنَى الْآيَةِ: أَحْسَنُ الْمُصَوِّرِينَ الْمُقَدِّرِينَ. وَالْخَلْقُ يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ التَّقْدِيرُ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]. أَيِ: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ، فَدَخَلَتْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ فِي عُمُومِ: (كُلِّ). وَمَا أَفْسَدُ قَوْلِهِمْ فِي إِدْخَالِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عُمُومِ: (كُلِّ)، الَّذِي هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا! وَأَخْرَجُوا أَفْعَالَهُمُ الَّتِي هِيَ مَخْلُوقَةٌ مِنْ عُمُومِ: (كُلِّ)!! وَهَلْ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ: (كُلِّ) إِلَّا مَا هُوَ مَخْلُوقٌ؟ فَذَاتُهُ الْمُقَدَّسَةُ وَصِفَاتُهُ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي هَذَا الْعُمُومِ، وَدَخَلَ سَائِرُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي عُمُومِهَا. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وَلَا نَقُولُ لِأَنَّ: (مَا)

مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: خَلْقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ، إِذْ سِيَاقُ الْآيَةِ يَأْبَاهُ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ إِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْمَنْحُوتِ، لَا النَّحْتَ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَنْحُوتَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مَا صَارَ مَنْحُوتًا إِلَّا بِفِعْلِهِمْ، فَيَكُونُ مَا هُوَ مِنْ آثَارِ فِعْلِهِمْ مَخْلُوقًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ النَّحْتُ مَخْلُوقًا لِلَّهِ تَعَالَى لَمْ يَكُنِ الْمَنْحُوتُ مَخْلُوقًا لَهُ، بَلِ الْخَشَبُ أَوِ الْحَجَرُ لَا غَيْرُ.

وَذَكَرَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيُّ إِمَامُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ: أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْعَبْدَ يُحْدِثُ فِعْلَهُ ضَرُورِيٌّ. وَذَكَرَ الرَّازِيُّ أَنَّ افْتِقَارَ الْفِعْلِ الْمُحْدَثِ الْمُمْكِنِ إِلَى مُرَجِّحٍ يَجِبُ وُجُودُهُ عِنْدَهُ وَيَمْتَنِعُ عِنْدَ عَدَمِهِ ضَرُورِيٌّ، وَكِلَاهُمَا صَادِقٌ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ، ثُمَّ ادِّعَاءُ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ يُبْطِلُ مَا ادَّعَاهُ الْآخَرُ مِنَ الضَّرُورَةِ، غَيْرُ مُسَلَّمٍ، بَلْ كِلَاهُمَا صَادِقٌ فِيمَا ادَّعَاهُ مِنَ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ، وَإِنَّمَا وَقَعَ غَلَطُهُ فِي إِنْكَارِهِ مَا مَعَ الْآخَرِ مِنَ الْحَقِّ. فَإِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ كَوْنِ الْعَبْدِ مُحْدِثًا لِفِعْلِهِ وَكَوْنِ هَذَا الْإِحْدَاثِ وَجَبَ وُجُودُهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧، ٨]، فَقَوْلُهُ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، إِثْبَاتٌ لِلْقَدَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، وَإِثْبَاتٌ لِفِعْلِ الْعَبْدِ بِإِضَافَةِ الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى إِلَى نَفْسِهِ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا هِيَ الْفَاجِرَةُ وَالْمُتَّقِيَةُ. وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]، إِثْبَاتٌ أَيْضًا لِفِعْلِ الْعَبْدِ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

قال الشيخ:

هذه مناقشة لأدلّة الفريقين المتطرفين، ويهمّنا أن نعرف الجواب، وأمّا شرح أدلّتهم والتوسّع فيها وكيفيّة استدلالهم وترجيحها، فلا حاجة بنا إلى التوسّع فيه، وقد عرفنا أنّ كلا القولين: قول الجبرية وقول المعتزلة في طرفي نقيض، وكلاهما لا يزال لهم بقيّة يقولون بمثل هذه الأقوال، ولا تزال مؤلّفاتهم يُعتنى بها، وتنشر وتحقّق وينفق عليها الأموال، مع أنّها سبب في ضلال كثير من الناس، ويدّعون أنّهم بذلك يقوّون حجّتهم ومعتقدهم الذي اعتقدوه.

إذ قالوا: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، وقالوا: هذا دليل على أنّ الفعل ليس للإنسان، ولكنّه لله؛ فالله هو الذي رمى، وأشار الشارح ـ كما مرّ بنا ـ إلى أن التقدير: وما أصبت الهدف، ولكنّ الله هو الذي وفّق لإصابته، فأنت الذي رميت، والله وفّق للإصابة.

وهذه القصّة حصلت في غزوة بدر، وحصلت أيضًا في غزوة حنين، وذلك لما تواجه المسلمون مع المشركين، فأخذ رسول الله ﷺ قبضة من حصباء ورمى بها في وجوه القوم، ومعلوم أنّ رميته لو كانت بمجرّد قوّته لا تذهب إلا نحو عشرين مترًا أو ثلاثين، ولكن هذه الرمية وصلت إلى جميعهم أو أكثرهم، بحيث دخلت تلك الحجارة في عيونهم وأفواههم وأنوفهم، وأعمت عليهم الطرق، حصيات قليلة في يده رمى بها، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»[1]. الله تعالى هو الذي

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

أوصلها، وهو الذي وفّق لإصابتها، فكيف يقال: إنّ الأفعال ليست للإنسان، بل الفعل حقًا لله، ما دام أنّ الله أثبت الرّمي ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، أي: حرّكت يدك بتلك الحجارة وقذفتها. هذا دليل على أنّ الفعل أصله من الإنسان، وأنّ الله تعالى هو الذي يسدّده ويوصله، وهو الذي يحرّك همّة العبد إلى أن يفعل ذلك الفعل.

كثيرًا ما يكون المسلمون قلّة، وإذا وجّهوا سهامهم إلى المشركين أصابتهم ولو كانوا بعيدًا، فيسدّد الله سهامهم فتصيب العدو، وأمّا سهام أعدائهم، فإنّها تخطئهم وتذهب يمينًا أو شمالًا أو فوق أو تحت، ولا تصيبهم، يصرفها الله تعالى، فمن الغزاة الرمي، ومن الله التسديد والإصابة، ومن هذا قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، هذا من أدلّة الجبريّة.

ومن أدلّتهم في أنّ العمل ليس سببًا في دخول الجنّة قول النبيّ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1]. قالوا: هذا دليل على أنّ الأعمال ليس لها أثر، وأنّ الأعمال ليست هي التي تسبّب دخول الجنّة، فالأعمال ليست من الإنسان، والإنسان ليس له حركة، بل هو مدفوع إلى هذه الحركة، ومغلوب على أمره، لا يقدر أن يحرّك باختياره لا رأسًا ولا يدًا ولا لسانًا ولا إصبعًا ولا قدمًا، بل هو متصرَّف فيه، تحرّكه إرادة الله، كما تحرَّك الشجرة بغير اختيارها.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

الجواب على ذلك: أن النبيّ ﷺ أرد به أنّ أعمالنا ـ ولو كثرت ـ لا تُقابل نِعَمَ الله. فنعم الله علينا كثيرة، ولو عملنا ما عملنا، فإنّها قليلة بالنسبة إلى ما يجب علينا. وأعمالنا لو كثرت لم تكن سببًا وحيدًا في دخول الجنّة، ويدل لذلك حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ عَبَدَ اللَّهَ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا، وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ، الْأُصْبُعِ تَبِضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ، فَيَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنْ الْوُضُوءِ، وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا، ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ، وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ، وَهُوَ سَاجِدٌ، قَالَ: فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا ، وَإِذَا خَرَجْنَا، فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ، فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ، فَيُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ، فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي مَنْ خَلَقَكَ، وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ

أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ، وَأَخْرَجَ لَكَ المَاءَ العَذْبَ مِنْ المَاءِ المَالِحِ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَهُ أَنْ يَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي، فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ»[1].

وإذا قيل: قد وردت أدلّة في ترتّب الجزاء على الأعمال، وهي التي استدلّت بها المعتزلة، وجعلوا العمل هو السبب الوحيد في دخول الجنّة. واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]، ونحو ذلك. نقول: صحيح أنّ العمل سبب، ولكن رحمة الله مع ذلك السبب، فيدخل الجنّة بسبب عمله، ولكن مع ذلك برحمة الله تعالى، فهو أرحم الراحمين.

وقد ورد في الحديث: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِئَةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأرض جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذلك الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حتى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عن وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[2]. فإذا كان يوم القيامة،

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٥٠)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٥١)، وتمام في فوائده (١٦٨٨)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٩٥).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١١).

ضمّه إلى تلك الأجزاء مئة جزء، فيرحم عباده يوم القيامة. وقد أخبر النبيّ ﷺ عن واسع رحمة الله لَمَّا رأى امرأة تضمّ ولدها إلى صدرها وترضعه، فقال: «أَتَرَوْنَ هذه طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟»، قالوا: لَا وَهِيَ تَقْدِرُ على أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فقال: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ من هذه بِوَلَدِهَا»(١).

فإذًا: رحمة الله بالعباد أوسع لهم. ورد في الحديث: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِه وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وهو غَيْرُ ظَالِمٍ لهم، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لهم خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»(٢). فعرفنا بذلك ضعف ما استدل به هؤلاء وهؤلاء.

أما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة:١١]. يقولون: هذا دليل على أنّ الخالقين كثير، ليس الخالق هو الله وحده، ولكنّ الله أحسنهم، فجعلوا العباد خالقين مع الله، وجعلوهم رازقين مع الله.

والجواب: أنّ هذا ليس بصحيح، بل الله الخالق وحده، الله خالق كلّ شيء، فالخلق خلقه، والأمر أمره، والآية وردت في سياق التكوين والإيجاد، فيقال: إنّ الإنسان ليس هو الذي يخلق نفسه، وإن كان له سببٌ في وجود الولد، وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩)، و أبوداود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وابن حبان (٢/ ٥٠٥)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٤) عن أُبيّ بن كعب، وابن مسعود، وحذيفة بن اليمان - رضي الله عنهم - موقوفًا، ومن حديث زيد بن ثابت ﷺ مرفوعًا.

النّكاح والوطء والمباشرة، فيُنسب إليه أنّه له سببًا في خلق هذا الولد وتكوينه، ولكنّ الله تعالى أنشأه. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩]، المنيُّ الذي ينصبُّ في الرحم، ليس الإنسان هو الذي يخلقه، بل قدرة الله، فالله هو الذي قدّر أنّه يكون نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة، ثمّ خلقًا آخر، إلى أن يخرج بشرًا سويًّا. فإذن من الإنسان السبب، ومن الله تعالى الخلق والتكوين والتطوير، إلى أن يخرج سويًّا. فهذا معنى قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وقد يُراد بالخالقين الذين يكوّنون بعض المخلوقات في الدنيا، أو يبدعون بعض الأشياء، وإن كانوا مخطئين بذلك، ورد في الحديث القدسي: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أو شَعِيرَةً**»[1]. جعلوا أنفسهم خالقين، وهم المصوّرون الذين يضاهؤون بخلق الله. فهم لهم إرادة وهمّة في أنّهم يضاهؤون خلق الله، ويخلقون كخلقه، ولكن لا يستطيعون أن يضاهؤوا أو يشابهوا خلق الله تعالى، فالخلق الأصل خلق الله تعالى، فهو الذي خلق الأرواح، ولا يستطيعون أن يخلقوها، وهو الذي يحيي الأموات، ولا يستطيعون أن يحيوها. وفي الحديث: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فإن اللَّهَ مُعَذِّبُهُ حتى يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**»[2].

واستدلّ المعتزلة بترتيب الجزاء على الأعمال بقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢]، أو ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤]، أو ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة:٢٤].

والجواب: أنّ أعمالكم سبب وليست مستقلّة؛ فالأعمال من جملة الأسباب التي يثاب عليها العباد ويعاقبون.

واستدلّت الجبريّة بآيتين، الأولى: قوله -عز وجل-: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦]، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، في إثبات أنّ الإنسان ليست له أيّة نسبة وليس له أي خلق، وكذلك بقوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧]. وعرفنا كيف نردّ عليهم.

واستدلّوا بالنسبة إلى الأعمال، وأنّها ليست سببًا في دخول الجنّة، أو النّجاة من النّار، بالآية التي مرّت بنا. وبالحديث: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»[1].

وعرفنا بذلك أنّ أدلّتهم لا تفيدهم شيئًا، وأنّ ترتيب الجزاء على الأعمال من ترتيب الأسباب على المسبّبات.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

قال الشارح:

وَهَذِهِ شُبْهَةٌ أُخْرَى مِنْ شُبَهِ الْقَوْمِ الَّتِي فَرَّقَتْهُمْ، بَلْ مَزَّقَتْهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَهِيَ: أَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ الْحُكْمُ عَلَى قَوْلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الْمُكَلَّفِينَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَهُوَ خَلَقَهَا فِيهِمْ؟ فَأَيْنَ الْعَدْلُ فِي تَعْذِيبِهِمْ عَلَى مَا هُوَ خَالِقُهُ وَفَاعِلُهُ فِيهِمْ؟ وَهَذَا السُّؤَالُ لَمْ يَزَلْ مَطْرُوقًا فِي الْعَالَمِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ فِي جَوَابِهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَعَنْهُ تَفَرَّقَتْ بِهِمُ الطُّرُقُ: فَطَائِفَةٌ أَخْرَجَتْ أَفْعَالَهُمْ عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَائِفَةٌ أَنْكَرَتِ الْحُكْمَ وَالتَّعْلِيلَ، وَسَدَّتْ بَابَ السُّؤَالِ، وَطَائِفَةٌ أَثْبَتَتْ كَسْبًا لَا يُعْقَلُ! جَعَلَتِ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ عَلَيْهِ، وَطَائِفَةٌ الْتَزَمَتْ لِأَجْلِهِ وُقُوعَ مَقْدُورٍ بَيْنَ قَادِرَيْنِ، وَمَفْعُولٍ بَيْنَ فَاعِلَيْنِ! وَطَائِفَةٌ الْتَزَمَتِ الْجَبْرَ، وَأَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ! وَهَذَا السُّؤَالُ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ التَّفَرُّقَ وَالِاخْتِلَافَ.

وَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ عَنْهُ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَا يُبْتَلَى بِهِ الْعَبْدُ مِنَ الذُّنُوبِ الْوُجُودِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ خَلْقًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَهِيَ عُقُوبَةٌ لَهُ عَلَى ذُنُوبٍ قَبْلَهَا، فَالذَّنْبُ يُكْسِبُ الذَّنْبَ، وَمِنْ عِقَابِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، فَالذُّنُوبُ كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي يُورِثُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

يَبْقَى أَنْ يُقَالَ: فَالْكَلَامُ فِي الذَّنْبِ الْأَوَّلِ الْجَالِبِ لِمَا بَعْدَهُ مِنَ الذُّنُوبِ؟ يُقَالُ: هُوَ عُقُوبَةٌ أَيْضًا عَلَى عَدَمِ فِعْلِ مَا خُلِقَ لَهُ وَفُطِرَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَهُ لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَفَطَرَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَتَأَلُّهِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا خُلِقَ لَهُ وَفُطِرَ عَلَيْهِ؛ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، عُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي، فَإِنَّهُ صَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا قَابِلًا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ الْخَيْرُ الَّذِي يَمْنَعُ ضِدَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ الشَّرُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، وَقَالَ إِبْلِيسُ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وَقَالَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤١، ٤٢].

وَالْإِخْلَاصُ: خُلُوصُ الْقَلْبِ مِنْ تَأْلِيهِ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَخَلَصَ لِلَّهِ، فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ الشَّيْطَانُ. وَأَمَّا إِذَا صَادَفَهُ فَارِغًا مِنْ ذَلِكَ، تَمَكَّنَ مِنْهُ بِحَسَبِ فَرَاغِهِ، فَيَكُونُ جَعْلُهُ مُذْنِبًا مُسِيئًا فِي هَذِهِ الحَالِ؛ عُقُوبَةً لَهُ عَلَى عَدَمِ هَذَا الْإِخْلَاصِ، وَهِيَ مَحْضُ الْعَدْلِ.

---

قال الشيخ:

في هذا السؤال الذي يردّده المعتزلة أو الجبرية وهو قولهم: إذا كان الله خلق فينا المعاصي فكيف يعذّبنا؟ وإذا كان الله لم يهدنا بل أضلّنا، كيف يعذّبنا؟ وإذا نصحت أحدهم يقول: الله ما هدانا، وإن لم يهدنا الله فأنت لا تهدينا ! وكثيرًا ما يقولون: الله لم يهدنا، وكتب علينا ذلك، فإذا عذّبنا فقد ظلمنا أو نحو ذلك من

العبارات الشنيعة البشعة.

ولسنا بحاجة إلى مناقشة تلك الأقوال السيئة الشنيعة، وقد ذكر لنا الشارح من أقوالهم قول من لم يجعل للعبد أيّ اختيار، وقول من جعل العبد مستقلًا. وقول من أثبت له كسبًا، ولكن لا حقيقة لذلك الكسب. وقول من جعل الفعل صادرًا عن فاعلين، ومن جعل القدرة صادرة عن قادرين.

ونحن نقول: إنّ الإنسان أعطاه الله هذه القوّة والقدرة والمباشرة والهمّة التي يزاول بها الأعمال، وتنسب إليه، ويثاب بسببها، أو يعاقب بسببها، مع أنّه قادر على أن يضلّه، وعلى أن يعجزه، وأنّه هو الذي أمدّه وقوّاه، ومن أجل ذلك تنسب الأفعال إلى الإنسان مباشرة، وتنسب إلى الله خلقًا وتقديرًا، فيقال: هي خلق الله من حيث إنه قدّرها، وقوّى العباد عليها، وهي أعمال العباد من حيث إنّهم باشروها، وفعلوها بأبدانهم، فنسبت إليهم، ونسبت إلى الله تعالى، ولا منافاة بين النسبتين.

ثمّ مرّ معنا أنّ الله تعالى يعاقب العباد في الدنيا، ويعاقبهم أيضًا في الآخرة على السيّئات، فيقول الشارح: إنّ هذه العقوبة على الذنوب، وإنّ الأصل أنّه عاقب على هذه الذنوب بذنوب أخرى، فلمّا أنّهم أذنبوا كان من عقوبة الذنب أن أذنبوا ذنبًا آخر عقوبة، ثم ذنبًا آخر عقوبةً للثاني... وهكذا استمرّت بهم السيّئات، وتمادوا فيها، فيكون الوقوع في هذا الذنب أنّ الله خلّى بينه وبين نفسه، وخلّى بينه وبين هواه، وسلّط عليه أعداءه من شياطين الإنس والجنّ، فلمّا تمكّنوا منه صرفوه عن الهدى، وإن كان ذلك بتقدير الله، ولما صرفوه واستهوته الشياطين، صارت

أعماله سيّئات، عقوبة له على سيّئة اقترفها سابقًا.

ومما نقله الشارح: أنّ من عقوبة السيّئة السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فإذا عمل العبد حسنة، قالت الحسنة بعدها: اعملني، وإذا عمل العبد سيّئة، قالت السيّئة بعدها: اعملني، فتتابع في السيّئات المسيؤون، وفي الحسنات المحسنون، فهذا من ثواب الحسنة، وعقوبة السيّئة.

فإن قالوا: السيئة الأولى عقوبة على أيّ شيء ما دام أنّه وقعت منه هذه السيّئة، فكيف وقعت منه، وكيف خلقت فيه، وكيف فعلها ولم يسبقها سيئة؟ أجاب الشارح بأنّها: عقوبة على ترك الإخلاص، أو ترك الأعمال الصالحة التي أمر بها وكُلّف بها، وما ذاك إلا لأنّا خلقنا لعبادة الله، فإذا انشغلنا عن هذه العبادة أليس هذا يعدّ ذنبًا؟ إمّا في لهو وبطالة، وإما في غفلة، وإما بإقبال على شهوات تفوّت عليك الخير، وإمّا قطع الزمن الذي أنت مأمور أن تستغلّه في الطاعة، تقطعه في غير الطاعة. هذا كلّه يُعد ذنبًا، فيستحقّ من فعله أن يقع منه ذنبٌ آخر، عقوبة على ما فعله من هذا الترك.

الله خلق العباد لعبادته وحده، وأمرهم أن يشكروه، وأن يعرفوا حقّه عليهم، فلمّا خلقهم للعبادة وأمرهم بالإخلاص في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، فإذا تركوا هذه العبادة في وقت من الأوقات، عدَّ ذلك ذنبًا وقع منهم وإن لم يكن سيئة، ولكنه ترك لعمل صالح، فاستحقوا بهذا الذنب أن تسلّط عليهم الأهواء والأعداء، فيوقعونهم في الذنوب وتتابع عليهم السيّئات

وتتابع منهم كذلك.

وهذا التعليل علل به العلماء في عقوبة السيّئة. فقالوا: كيف يعاقب الله على السيّئة وهو الذي خلقها، وأجيب على ذلك: بأنّه ولو كان هو الذي قدّرها، لكنّ العبد هو الذي باشرها، ولذلك عُوقب عليها، وعُوقب بسيئة تبعتها. والعقاب الذي في الدنيا قد يكون عقابًا حسيًّا أو معنويًّا. فالعقاب الحسّي: هو ما أنزل الله على المعذّبين. فمنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسف بهم الأرض، ومنهم من أرسل عليه حاصبًا، ومنهم من أغرق، وأما العقوبات المعنويّة: فهي تسليط الأعداء والأهواء عليهم وحرمانهم الطاعة.

فإذا رأيت المكبّ على المعاصي فاعلم أنّه معاقب، وأنّ حرمانه من طاعة الله عقوبة عليه. وإذا رأيت المنهمك في الشهوات، المفوّت للأوقات، فاعلم أنّه معاقب، فإذا قال: على أيّ شيء يعاقبني الله ويقول: أنا ما أذنبت، أنا ما كفرت، أنا ما عصيت، كيف يعاقبني بأن يوقعني في هذا المصائب وفي هذه الذنوب؟ فقل له: إنّك أذنبت أولًا في غفلتك؛ لأنك أضعت وقتًا ثمينًا في الغفلة، وثانيًا: بتركك العمل، إذ كان عليك أن تشغل وقتك بأعمال صالحة، وبحسنات، فلمّا لم تفعل كنت مذنبًا، وكانت عقوبة هذا الذنب أن توالت عليك الذنوب.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنّه ذكر أنّ الذّنوب تؤثّر في القلوب وتقسّيها وتعميها وتصدّها عن الهدى، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هو نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ

قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الذي ذَكَرَ الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[1]. فإذا غلبه هذا السواد الذي هو بسبب المعاصي، فعندئذ تثقل عليه الطاعات، وتخفّ عليه المحرّمات.

من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر. ويدخل في القدر الإيمان بعموم قدرة الله تعالى، وأنّه على كلّ شيء قدير، ويدخل في قدرة الله تعالى أنّه قادر على أن يعذّب من يشاء، وقادر على أن يرحم من يشاء، وقادر على أن ينتقم من الظلمة ويهلكهم في أسرع وقت ممكن، وقادر على أن يبسط لهم الرزق، وقادر على أن يعمّم فضله على القاصي والداني، وقادر على أن يحرم هذا ويهلكه، وقادر على أن يغيّر هذا الكون، ويبدّل المخلوقات، فلا يعجزه شيء ولا يخرج عن قدرته شيء.

كذلك لا يكون في الوجود شيء إلا بإرادته، وبعد أن يشاء ذلك ويقدّره، فلا يكون فسوق ولا طاعة ولا معصية ولا هداية ولا ضلال، ولا كفر ولا إيمان، لا يكون إلا بعد أن يشاء ذلك، ﴿لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾[الشورى: ٣٣]، ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

ولكن اقتضت حكمته أن أضلّ أناسًا بعدله، فضلّوا سواء السبيل، ومنّ على

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في الكبرى (١٠١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وابن حبان (٣/ ٢١٠)، والحاكم (٢/ ٥١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

آخرين بفضله، فاهتدوا إلى سواء السبيل. وأولئك داخلون تحت قدرته، وهؤلاء كذلك، والجميع عبيده، وتحت تصرّفه، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويخفض ويرفع، لا معزّ لمن أذلّ ولا مذلّ لمن أعزّ، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

ويدخل في ذلك حركات العباد وأفعالهم فهو الذي قدّرهم، وهو الذي أعطاهم القوّة، وهو الذي بعث هممهم، وهو الذي شاء ما أرادوه وما فعلوه، ولو شاء لَمَا عصوه، وكلّ ذلك بمشيئته وقدرته، فإن أطاعوه فبفضله، فهو الذي منّ عليهم حتّى أطاعوه، وإن عصوه فبعدله، فهو الذي خذلهم حتّى عصوه.

وقد مرّ بنا أنّ في هذا خلافًا بين ثلاث طوائف:

الأولى: الجبرية، فقد غلوا في نفي قدرة العبد، وجعلوا حركته كحركة الأشجار، ولم يجعلوا له أيّ اختيار واستدلّوا بقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، ولكنّه ردّ عليهم بأنّ الله سبحانه أثبت الرمي لنبيّه ﷺ، فمنه الرمي ومن الله تعالى الإصابة.

الثانية: القدرية، وهم الذين أنكروا قدرة الله على أفعال العباد، وجعلوا العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، وليس لله قدرة على هداية هذا ولا إضلال هذا، ولا توفيق هذا ولا خذلان هذا، فجعلوا العبد أقدر من الله، وجعلوا قدرته تفوق قدرة الخالق، وجعلوا مع الله من يخلق، فهؤلاء يقال لهم: مجوس هذه الأمّة.

وتوسّط أهل السنّة، وجعلوا للعبد قدرةً وإرادةً، ولكنّها مسبوقة بقدرة الله

وإرادته، ومغلوبة بها، فإذا أراد اللهُ هداية عبد وفّقه وأطلق جوارحه فاختار الفعل الطيّب، فأصبح مطيعًا مؤمنًا، فتنسب إليه طاعاته ومعاصيه؛ لأن له إرادة، ولأن له قدرة زاول بها الأعمال، وتنسب إلى الله؛ لأنه هو الذي أقدره عليها، وهو الذي قوّاه ورزقه القوّة ورزقه التوفيق. وكذلك المعصية؛ تنسب إلى الله؛ لأنّه هو الذي قدّرها، وتنسب إلى العبد؛ لأنه هو الذي باشرها وهو الذي فعلها.

وجميع الحركات من الله تعالى إيجادًا وتكوينًا، ومن العبد فعلًا ومباشرة. فعلى هذا لا يكون هناك من يشترك في خلق الفعل وإيجاده، بل الله هو الذي مكّن العبد حتّى فعله وأظهره، والعبد هو الذي باشره، فتنسب إليه المباشرة، فلا يكون هناك خلاف ولا إجبار ولا إنكار لقدرة الله تعالى.

قال الشارح:

فَإِنْ قُلْتَ: فَذَلِكَ الْعَدَمُ مَنْ خَلَقَهُ فِيهِ؟ قِيلَ: هَذَا سُؤَالٌ فَاسِدٌ، فَإِنَّ الْعَدَمَ كَاسْمِهِ، لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعَلُّقِ التَّكْوِينِ وَالْإِحْدَاثِ بِهِ، فَإِنَّ عَدَمَ الْفِعْلِ لَيْسَ أَمْرًا وُجُودِيًّا حَتَّى يُضَافَ إِلَى الْفَاعِلِ، بَلْ هُوَ شَرٌّ مَحْضٌ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الِاسْتِفْتَاحِ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]. وَكَذَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَقُولُ لَهُ اللَّهُ: «يَا مُحَمَّدُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[2].

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ تَسْلِيطَ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا تَوَلَّوْهُ دُونَ اللَّهِ وَأَشْرَكُوا بِهِ مَعَهُ، عُوقِبُوا عَلَى ذَلِكَ بِتَسْلِيطِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْوِلَايَةُ وَالْإِشْرَاكُ عُقُوبَةَ خُلُوِّ الْقَلْبِ وَفَرَاغِهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ، فَإِلْهَامُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ثَمَرَةُ هَذَا الْإِخْلَاصِ وَنَتِيجَتُهُ، وَإِلْهَامُ الْفُجُورِ عُقُوبَةٌ عَلَى خُلُوِّهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٣٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٩)، والبزار (٧/ ٣٢٩)، والحاكم (٢/ ٣٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٨) عن حذيفة ﷺ موقوفًا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٧٧): «رواه البزار موقوفًا ورجاله رجال الصحيح». وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٦٧)، والبيهقي في القضاء والقدر (ص٢٧٥) من حديث حذيفة ﷺ مرفوعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ كَانَ هَذَا التَّرْكُ أَمْرًا وُجُودِيًّا عَادَ السُّؤَالُ جَذَعًا، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا عَدَمِيًّا فَكَيْفَ يُعَاقَبُ عَلَى الْعَدَمِ الْمَحْضِ؟

قِيلَ: لَيْسَ هَنَا تَرْكٌ هُوَ كَفُّ النَّفْسِ وَمَنْعُهَا عَمَّا تُرِيدُهُ وَتُحِبُّهُ، فَهَذَا قَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ أَمْرٌ وُجُودِيٌّ، وَإِنَّمَا هُنَا عَدَمٌ وَخُلُوٌّ مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ، وَهَذَا الْعَدَمُ هُوَ مَحْضُ خُلُوِّهَا مِمَّا هُوَ أَنْفَعُ شَيْءٍ لَهَا، وَالْعُقُوبَةُ عَلَى الْأَمْرِ الْعَدَمِيِّ هِيَ بِفِعْلِ السَّيِّئَاتِ، لَا بِالْعُقُوبَاتِ الَّتِي تَنَالُهُ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِالرُّسُلِ. فَلِلَّهِ فِيهِ عُقُوبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: جَعْلُهُ مُذْنِبًا خَاطِئًا، وَهَذِهِ عُقُوبَةُ عَدَمِ إِخْلَاصِهِ وَإِنَابَتِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ قَدْ لَا يُحِسُّ بِأَلَمِهَا وَمَضَرَّتِهَا، لِمُوَافَقَتِهَا شَهْوَتَهُ وَإِرَادَتَهُ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ.

وَالثَّانِيَةُ: الْعُقُوبَاتُ الْمُؤْلِمَةُ بَعْدَ فِعْلِهِ لِلسَّيِّئَاتِ. وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ هَاتَيْنِ الْعُقُوبَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ الْأُولَى، ثُمَّ قَالَ: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ الثَّانِيَةُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِنَابَةِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ وَحْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْلُقَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَجْعَلَهُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ مُنِيبِينَ لَهُ مُحِبِّينَ لَهُ؟ أَمْ ذَلِكَ مَحْضُ جَعْلِهِ فِي قُلُوبِهِمْ وَإِلْقَائِهِ فِيهَا؟ قِيلَ: لَا، بَلْ هُوَ مَحْضُ مِنَّتِهِ وَفَضْلِهِ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ بِيَدِهِ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ، وَلَا يَتَّقِي مِنَ الشَّرِّ إِلَّا مَا وَقَاهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا لَمْ يُخْلَقْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ وَلَمْ يُوَفَّقُوا لَهُ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ بِأَنْفُسِهِمْ، عَادَ السُّؤَالُ؟ وَكَانَ مَنْعُهُمْ مِنْهُ ظُلْمًا، وَلَزِمَكُمُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْعَدْلَ هُوَ تَصَرُّفُ الْمَالِكِ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

قِيلَ: لَا يَكُونُ سُبْحَانَهُ بِمَنْعِهِمْ مِنْ ذَلِكَ ظَالِمًا، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَانِعُ ظَالِمًا إِذَا مَنَعَ غَيْرَهُ حَقًّا لِذَلِكَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ الرَّبُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ خِلَافَهُ. وَأَمَّا إِذَا مَنَعَ غَيْرَهُ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ لَهُ، بَلْ هُوَ مَحْضُ فَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ عَلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا بِمَنْعِهِ، فَمَنْعُ الْحَقِّ ظُلْمٌ، وَمَنْعُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ عَدْلٌ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَدْلُ فِي مَنْعِهِ، كَمَا هُوَ الْمُحْسِنُ الْمَنَّانُ بِعَطَائِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الْعَطَاءُ وَالتَّوْفِيقُ إِحْسَانًا وَرَحْمَةً، فَهَلَّا كَانَ الْعَمَلُ لَهُ وَالْغَلَبَةُ، كَمَا أَنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ؟

قِيلَ: الْمَقْصُودُ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ الْمُتَرَتِّبَةَ عَلَى هَذَا الْمَنْعِ، وَالْمَنْعَ الْمُسْتَلْزِمَ لِلْعُقُوبَةِ لَيْسَ بِظُلْمٍ، بَلْ هُوَ مَحْضُ الْعَدْلِ.

---

قال الشيخ:

مناقشات لاعتراض المعتزلة الذين ينكرون قدرة الله على أفعال العباد، فيوردون هذه الشبهات ليلبِّسوا على غيرهم.

وقد مرّ بنا أنّ الشرّ لا يُضاف إلى الله على أنّه شرٌّ، نقول: كلّ أفعال الله تعالى خير، ولو كانت عقوبات، أو إهلاكًا أو انتقامًا، فلا يقال إنّه شرٌّ، ولا يقال إنّه مرضٌ بل هو خير بالنسبة إليه سبحانه وتعالى.

وإذا تتبعنا الأدلّة وجدنا أنّ الله تعالى لا ينسب الشرّ إلى نفسه، ولكنّه يذكره على صيغة المبني للمجهول، كما في قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن:١٠]، فالشرّ قالوا أريد بهم، وأراده الله؛ لأنّ الشرّ المحض لا يُنسب إلى الله، وأما الخير فيفصح بأنّه من الله، فقالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، فدلّ على أنّ كل ما يصدر من الله فهو خير، فالصواعق التي تنزل، والأمراض التي تحدث بتقدير الله، والجدب والقحط الذي يصيب الكثير من البلاد، لا يقال: إنّه شرّ، بل هو خير بالنسبة إلى الله؛ وذلك لأنّه قدّره لعاقبة حسنة، وقدّره لينبّه عباده على عزّته وقدرته، ولينبههم على خطئهم وذنبهم، وأنه غير ظالم لهم، «**لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وهو غَيْرُ ظَالِمٍ لهم، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لهم خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**»[1]، ومِمّا يستحقّونه.

فإذًا كلُّ ما يحدث فهو بتقدير الله، ولكن لا ينسب إلى الله الشر.

مرّ بنا أن النبيّ ﷺ كان يقول في التلبية: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[2]، جعل الخير كلّه من الله وإليه، والشرّ ليس إلى الله، أي: لا ينسب إلى الله، ولو كان هو الذي قدّره، ولو كان هو الذي شاءه، ولكن لا نسمّيه شرًا بالنسبه إلى إحداث الله له، فإنّه خير؛ لأنّه سبحانه ما أراد إلا الخير، وما أراد بعباده إلا أن ينبّههم، فإن كانوا عصاة سلّط الله عليهم قحطًا أو مرضًا،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٤٤٩).

فهذا خير، حتى ينتبهوا لمعصيتهم، ويعلموا أنّ ما أصابهم فهو عقوبة لهم. وإن كانوا مطيعين، علموا أنّ ذلك ابتلاء وامتحان وتنبيه لهم، ليكون ذلك زيادة في حسناتهم. لذا فإن جميع ما يحدث وما يقدّره الله في الكون، فهو خير إذا صدر من الله تعالى.

ومعلوم أيضًا أنّه سبحانه هو الذي يكوّن الكائنات ويقدّرها، وأنّه يعاقب العباد بما يستحقّون، وقد يعفو عنهم، وتكون عقوباته نوعين: عقوبة ظاهرها أنّها نعمة، وهي محنة وامتحان واختبار. وعقوبة يظهر فيها أنّها عذاب وألم. والكلّ قد يسمّى عقوبة، ولا يكون ذلك إلاّ إذا عصوا ما أمرهم، أو ما كُلِّفُوا به، وخالفوا ما أمروا به. فقد وجّه الله إليهم الأوامر، وبيّن لهم، ولكنّهم بطبعهم خالفوا وارتكبوا المعاصي فعاقبهم بعقوبتين، كما في آية سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤]، وهذه نعمة، ولكنّها عقوبة ومحنة، بمعنى: فتحنا عليهم الأرزاق، ويسّرنا لهم الأسباب، وقوّيناهم، وأعطيناهم الأموال والأولاد والأمن والرّخاء، وكثرة النّعم، وكثرة الخيرات، فازدهرت لهم الدّنيا، وأعجبوا بما أصابوا، وانخدعوا واغترّوا، وظنّوا أنّ ذلك كرامة ومنحة، وقالوا هذا بسبب أعمالنا وما نستحقّه، وعند ذلك يطغون ويبغون، ويتجبّرون ويتكبّرون، ويكفرون نعم الله، ويستعينون بها على المحرّمات والمعاصي، وكلّ ذلك بتقدير الله تعالى، ولو شاء لهداهم، ولكنّه خلّى بينهم وبين أنفسهم وأهوائهم، فاختاروا الضلال، فحقّت عليهم الكلمة، فعند ذلك تنزل

علـيهم العقوبـة الثانيـة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، أخذهم الله على حين غرّة وغفلة.

فإذًا قول الشارح: إنّ الذين قالوا: لماذا خلق الله فيهم عدم الإيمان؟ أجاب بأنّه: لا يُسمّى العدم شيئًا، وكذلك قولهم: لماذا لم يسوِّ بينهم، فيهديهم كلّهم، ويعطيهم العقول التي تهديهم إلى الخير، فأجاب بأنّه سبحانه له الحكمة، حيث إنّه خلق دارين: دارًا للنّعيم، ودارًا للجحيم، ولو سوّى بينهم في الاختيار والهداية، لتعطّلت إحدى الدارين، فمن حكمته أن جعل أهواءهم تختلف، فمنهم من اختار الهدى، ومنهم من اختار الضلالة، منهم من حقّت عليه كلمة العذاب، ومنهم من اختار أسباب الثواب. ولا يقال: إنّه ظلم هؤلاء حيث لم يوفّقهم، بل يقال: إنّه خلّى بينهم وبين أنفسهم، وإنّه لم يرَ هؤلاء أهلًا لنعمته، ولا أهلًا لحكمته، ولا أهلا لرحمته، بل رأى فيهم من الميل للهوى ما لا يكونون معه أهلًا للفضل.

وأنت تشاهد أبناء رجل واحد، وترى أنّ تربيتهم واحدة، وتعليمهم واحد، وكذلك يقرؤون كتبًا واحدة، ومع ذلك إذا كبروا يتفاوتون؛ فمنهم من يميل إلى الخير ويؤثره ويحبّه ويكون خيرًا محضًا، فيعمل الصالحات ويتقبّلها، ومنهم من يميل إلى الشرّ، ويميل إلى البطالة، وإلى المعصية والضلالة. فتقول: لماذا حصل هذا التفاوت، أليست تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم سواء؟ يقال: بلى، ولكن هؤلاء كتب الله لهم السعادة، وهؤلاء حكم عليهم بالشقاوة، هؤلاء هداهم،

وهـؤلاء أضـلّهم، والجميـع لم يظلمهـم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. ولكن بسبب أنّه لم يرَ هؤلاء أهلًا، بل علم أنّ طبعهم وميلهم وعقولهم منتكسة، وليست أهلًا لأن تقبل الهدى، فخلّى بينهم وبين أنفسهم، فانخذلوا وخرجوا عن الطاعة والاستقامة، بخلاف أولئك.

مع أنّنا نؤمن بأنّ هناك أسبابًا جعلها الله مؤثّرةً في هذه الدنيا، والسبب الوحيد في هداية الإنسان هو توفيق الله تعالى له، وإعطاؤه قابليّة للحقّ وميلًا إليه، ويقذف في قلبه محبّة للدين وميلًا إليه، هذا هو السبب الأصل، ثم هناك أسباب أخرى: فتنشئة الوالدين، جعلها الله سببًا للخير أو سببًا للشرّ، فإن كان الوالد محبًّا للخير وربّى أولاده على الخير وعلى العلم وعلى الدين، وعلى التقوى، وعلّمهم كلّ شيء ينفعهم، كان ذلك سببًا، وإن كان قد يتخلّف في بعضهم.

وكذلك إذا أراد الله بعبده الخير، وفّق له جليسًا خيّرًا، ويسّر له أصدقاء صالحين يهدونه ويدلّونه، ويأخذون بيده إلى سبيل النجاة. وكان ذلك كلّه من أسباب الهداية والاستقامة. ولكن ذلك كلّه بتقدير العزيز العليم، فجعل قلبه يميل إلى هذا أو إلى هذا، وهذه الأسباب قد تفعل مع الشخص الآخر ولكن لا تزيده إلاّ عُتُوًّا ونفورًا. فأنت قد تدعو إنسانًا، وتبذل له الأسباب فتعطيه نصائح وترشده، وتخوّفه، وتهدي إليه كتبًا ونشرات وأشرطة مفيدة؛ فيسمعها ويهتدي ويتقبّل، بعد أن كان عاصيًا عاتيًا، وتأتي إلى أخيه أو زميله، وتعمل معه ذلك العمل وتنصحه وتهديه، ولكن لا ينفع معه ذلك، ولا يتقبّل، ولا يزيده

ذلك إلا عتوًّا ونفورًا، بل قد يحتقر من يدعوه إلى الخير، ويتنقّصهم، ويرى نفسه أفضل منه. فليس هناك إلا أنّ هذا منّ الله عليه وجعل فيه هذه القابليّة للهداية، وذاك خذله وخلّى بينه وبين نفسه، وسلّط عليه أعداءه فحبسوه، وتمكّنوا من قيادته حيث يشاؤون، ولم تجدِ فيه الحيَل. وقال تعالى: ﴿لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

قال الشارح:

وَهَذَا سُؤَالٌ عَنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي أَوْجَبَتْ تَقْدِيمَ الْعَدْلِ عَلَى الْفَضْلِ فِي بَعْضِ الْمَحَالِّ؟ وَهَلَّا سَوَّى بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الْفَضْلِ؟ وَهَذَا السُّؤَالُ حَاصِلُهُ: لِمَ تَفَضَّلَ عَلَى هَذَا وَلَمْ يَتَفَضَّلْ عَلَى الْآخَرِ؟ وَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْجَوَابَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]. وَلَمَّا سَأَلَهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَنْ تَخْصِيصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَجْرَيْنِ وَإِعْطَائِهِمْ هُمْ أَجْرًا أَجْرًا، قَالَ: «هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[1]. وَلَيْسَ فِي الْحِكْمَةِ إِطْلَاعُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ النَّاسِ عَلَى كَمَالِ حِكْمَتِهِ فِي عَطَائِهِ وَمَنْعِهِ، بَلْ إِذَا كَشَفَ اللَّهُ عَنْ بَصِيرَةِ الْعَبْدِ، حَتَّى أَبْصَرَ طَرَفًا يَسِيرًا مِنْ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَتَخْصِيصِهِ وَحِرْمَانِهِ، وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ مَحَالِّ ذَلِكَ، اسْتَدَلَّ بِمَا عَلِمَهُ عَلَى مَا لَمْ يَعْلَمْهُ.

وَلَمَّا اسْتَشْكَلَ أَعْدَاؤُهُ الْمُشْرِكُونَ هَذَا التَّخْصِيصَ، قَالُوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، قَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]. فَتَأَمَّلْ هَذَا الْجَوَابَ، تَرَ فِي ضِمْنِهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِالْمَحَلِّ الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يَصْلُحُ لِغَرْسِ شَجَرَةِ النِّعْمَةِ فَتُثْمِرُ بِالشُّكْرِ، مِنَ الْمَحَلِّ الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِغَرْسِهَا، فَلَوْ غُرِسَتْ فِيهِ لَمْ تُثْمِرْ، فَكَانَ غَرْسُهَا هُنَاكَ ضَائِعًا لَا يَلِيقُ بِالْحِكْمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

---

قال الشيخ:

هذا المعنى قد ذكرنا ما يدلّ عليه، وقد عرفنا أنّ الربّ سبحانه وتعالى هو الحكيم، الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وأنّه من حكمته قسَّمَ خلقَه إلى سعيد وشقي، وإلى فاجر وتقيّ. وعلم من هو أهل للتقوى فوفّقه، ومن هو أهل للشقاء فخذله، ولا يظلم ربّك أحدًا.

فله الحكمة في أمره ونهيه، وله الحكمة في خلقه وتدبيره، وكذلك له الحكمة في هدايته وإضلاله، وتوفيقه وخذلانه، يهدي من يشاء فضلًا، ويضلّ من يشاء عدلًا.

وفضله سبحانه على عباده كلّهم حيث خلقهم على أحسن تقويم، وحيث رزقهم وحيث أنعم عليهم، وأعطاهم ما يعيشون به، ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فهذا هو الفضل العام الذي عمّمه على جميع الخلق. وأمّا الفضل الخاص فهو الهداية والتوفيق، والمنّة على العبد، وهو الذي يختصّ به من يشاء، ولا يُعاتب على تخصيصه، فلا يقال: لماذا خصّ هذا بالهداية دون هذا، ولماذا أغنى هؤلاء وأفقر هؤلاء، ولا يقال: لماذا أصحَّ هذا وأمرضَ هذا، ولا يجوز

الاعتراض على تصرُّف الله تعالى، فلا يقال: فلان لا يستحقّ أن يُبتلى، أو لا يستحقّ أن يمرض، فالأمر بيدِ الخالقِ سبحانه، فله الحكمة في أن أضلّ هؤلاء وهدى الآخرين وأن أنعم على هؤلاء وخذل غيرهم، وأنّه أعطى هذا ومنع هذا، له الحكمة في ذلك، وله النعمة والمنّة.

والآيات التي استدلّ بها الشارح واضحة الدلالة على أنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من خلقه، وليس الفضل خاصًا بالمال، ولا بالشهوات، ولا بالنّعم، ولا بالبنين، ولا بالخيرات، بل هو التوفيق والهداية، وهو إلهام العبد إيمانًا صادقًا ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٩]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، فهذا الفضل ليس لأحد أن يعترض على الله تعالى في أنه خصّ به قومًا دون قوم.

ولمّا قال المكذّبون للرّسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠]، قالت لهم رسلهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١١]، يمنّ عليهم: فهدايته منّة عليهم، والله ورسوله أمنُّ، أي: له المنّ وله الفضل. كما دعا بذلك رسول الله ﷺ، كان من دعائه بعد الصلاة أن يقول: «**لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، لا نَعْبُدُ إِلا إِيَّاهُ، لَهُ الْمَنُّ، وَلَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ**»[1]، المنّ: الامتنان على خلقه، يمتنّ عليهم بما يشاء، بمعنى أنّ له المنّة

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٥٠)، وأصله في صحيح مسلم (٥٩٤) من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما.

عليهم، أي: الإعطاء والتفضّل عليهم، والفضل: العطاء والهداية والتوفيق.

فإذًا: ما دام أنّه سبحانه يعطي هؤلاء دون هؤلاء، فلا يُعترض ويقال: إنّه يعطي هذا دون هذا، فمثلًا قد يعظم أجر هذا ويضاعف له الحسنات أكثر من هذا، لماذا؟ الله أعلم. لا شكّ أنّه رآه أهلًا، ونتذكّر قول الله تعالى لنساء النبي ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١]، تخصيصها إذا أحسنت أنّ لها الأجر مرّتين، ذلك فضل الله. وتخصيصها بأنّها إن فعلت ذنبًا تعاقب عليه مرّتين؛ لأنّها ذات منزلة وذات فضيلة، فلا يليق بها أن تفعل الذنب الذي تعاقَب عليه.

فتخصيصه بعض عباده بمضاعفة الثواب فضل منه ومنّةٌ، مع أنّا نعرف أن جميع الخلق سواسيةٌ، لا فرق بينهم أمام الله سبحانه، وليس لهم عنده حسب ولا نسب، ولا يعطي هؤلاء لكونهم ذوي شرف وذوي فضيلة، ولا يمنع هؤلاء لكونهم ذوي نسب دنيء أو نحو ذلك، فربّ شخص يكون من أشراف النّاس ومن مشاهيرهم، ومن أفاضلهم وأرفعهم نسبًا، ومع ذلك يكون بعيدًا عن الخير، بعيدًا عن الهداية، وآخر يكون من ذوي النسب الدنيء الذي لا يؤبه له، ولكن يكون له فضل ومنزلة ورفعة وشرف، وذلك بفضيلة التقوى.

ولذلك يقول بعضهم[1]:

---

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص ١٧٠).

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَىٰ هِيَ العِزُّ وَالكَرَمُ ... وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَم
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ ... إِذَا حَقَّقَ التَّقْوَىٰ وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ

ويقول آخر أيضًا[1]:

لَعَمْرُكَ مَا الإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ ... فَلَا تَدَعِ التَّقْوَىٰ اتِّكَالًا عَلَى الحَسَبِ
لَقَدْ رَفَعَ الإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسٌ ... وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ اللَّعِينَ أَبَا لَهَبِ

فأبو لهب من هاشم، ولكن وضعه الشرك، وسلمان ﷺ ليس من العرب، بل من فارس، ولكن رفعه الإسلام، ولا شكّ أنّ هذا محض عطاء من الله وفضل.

وقد ذكرنا أنّ لذلك أسبابًا، وأنّ من أسباب الهداية: كون العبد يرغب إلى ربّه، ويرفع إليه أكفّ الضراعة، ويتملّقه، ويدعوه في أوقات الإجابة، يسأله هداية قلبه، وهداية روحه، وهداية فطرته، ويسأله الإقبال من قلبه إلى ربّه. فهذا من أهمّ الأسباب الدعاء لله سبحانه. إذا رأيت في قلبك شيئًا من القسوة، دعوت الله أن يليّنه حتّى يتقبّل العظة ونحوها، وإذا رأيت من قلبك كراهية وإعراضًا عن الخير سألت ربّك ودعوته أن يقبل به إلى الخير، وإن رأيت من نفسك تثاقلًا عن الطاعة، سألت ربّك أن يهديك ويعينك على الطاعة، فذلك سبب من أسباب الهداية، والله تعالى جعل لأحكامه ولما قدّره أسبابًا مشاهدة فهذا منها.

كذلك من الأسباب كثرة العبادات والطاعات، فالعبد إذا أكثر من الحسنات وأكثر من القربات كانت سببًا في محبّته للخيرات وفي إكثاره من الحسنات، وبغضه

---

(١) البيتان لمحمد بن علي اليزدي، أخرجهما الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٤٦).

للسيّئات، إنّ الحسنات يذهبن السّيئات، فالحسنة تجرّ إلى أختها، والسيّئة تجرّ إلى مثلها. فهذه بلا شكّ أسباب. كما أنّ للشقاوة أسبابًا، وللضلالة أسبابًا، بعد خذلان الله، وبعد تخليته بينه وبين نفسه، وكثرة المعاصي تقسّي القلوب، والإعراض عن الطاعات والأذكار تقسّيها وتصدّها عن الخير، وتثقّل عليها الطاعات، وهذا كلّه داخل تحت إرادة الله ومشيئته وتقديره.

نحمد الله سبحانه وتعالى على أن هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونحمده لأنّه منّ علينا بالفطرة الحسنة وبالشريعة الإسلامية، وبالعقيدة السُّنّية، وبالطريقة المحمّديّة، وبالهداية إلى الصراط المستقيم، الذي من سلكه فاز ونجا، ومن حاد عنه تردّى وهلك. نحمد الله أن جعلنا من أهل السنّة، وحمانا وحفظنا من البدع والمنكرات والحوادث التي تخالف السنّة وتنافي الشريعة.

وهذا من أكبر النّعم، فقد منّ الله علينا أن عرّفنا السنّة، وعرّفنا سبل السلام، والطريق السوي، وحرم ذلك خلقًا كثيرًا. هناك خلق كثير من القبائل والدول والأمم لا يعرفون الإسلام، ولا يدينون به، بل يرونه عائقًا وقاطعًا عن السير في هذه الحياة التي هي غاية مطلبهم والتي هي نهاية مقصدهم. وهناك فئام من الناس يدينون بديانات أخرى ضالّة، يدّعون أنّها أهدى سبيلًا وأقوم طريقًا وأنّهم على سبيل النجاة، وأنّهم تفوّقوا على المسلمين، وأنّهم دانوا بطريقة وبسنّة أهدى من الشريعة الدينيّة، وهناك فئام ودول وقبائل وخلق كثير ينتسبون إلى الإسلام، ولكن ما معهم منه إلا مجرّد التسمّي، فيتسمّون بأنّهم مسلمون، وعقائدهم تخالف العقيدة الإسلامية، وأعمالهم تخالف الإسلام، فهم على شفا جرف هار، حريّ أن

يموتوا وهم على تلك البدع، وتلك المعاصي والمنكرات، فيكونون من أهل العذاب والعياذ بالله. وهناك فئام وأمم كثيرة يتسمّون بأنّهم مسلمون ولكنّ معهم منكرات ومحدثات وبدع، ولكن سوّل الشيطان لهم وأملى لهم وزيّن لهم أنّهم على الحقّ والهدى، وأنّهم أهدى من أهل السنّة والجماعة، وهم يفتخرون بهذه الأسماء التي ينتحلونها، وهم يظنّون أنّهم على حق، وهم على باطل، ولم يرعووا ولم يقبلوا هدى الله ولم يقبلوا الدليل، ولم يميلوا إلى الشريعة، بل زيّن لهم الشيطان أنّ تلك النحل والبدع هي السنّة، فجعل السنّة بدعة، والبدعة سنّة، والحقّ باطلًا، والباطل حقًّا، وهذا من انتكاس البصائر ومن عمى القلوب والعياذ بالله.

وهناك كثير ممن يدينون بالسنّة، وينتسبون إلى أنّهم من أهل الجماعة، وأنّهم على معتقد السّلف، لكن زيّن الشيطان لهم بعض الذنوب، ووقعوا في المعاصي والمخالفات، وإن لم تكن مكفّرات أو بدعيّات، فإنّها ذنوب عظيمة أصرّوا عليها واستمرّوا عليها، فقضوا أعمارهم وهم على تلك المعاصي والكبائر، وهم على خطر إذا لم يتوبوا ولم يتب الله عليهم، استحقوا من العذاب بقدر ذنوبهم وسيّئاتهم. وهناك آخرون لم يخالفونا في المعتقد، ولم يرتكبوا كبائر الذنوب، ولكنّهم استمروا على صغائر احتقروها، وتهاونوا بها. والاستمرار على الصغيرة والإصرار عليها والاستهانة بها يصيّرها كبيرة. وهذه الأقسام موجودة، وأشدّها الذين لا يعترفون بالله ربًّا، ولا بالشريعة الإسلامية أو غيرها دينًا.

وحيث إن الله سبحانه قد نجانا من هذه الأخطار كلّها، أفلا يكون ذلك حافزًا لنا على أن نتعلّم السنّة النبويّة، حتّى إذا عرفناها تمسّكنا بها، ورددنا على من

يخالفنا سواء كانت المخالفة في الأصول أو الفروع، وهذا والحمد لله ما نقوم به بكل ممكن، وهو من الأسباب التي يفتح الله بها على عباده، وينجّيهم.

وفي هذا الكتاب ناقشنا مسائل القضاء والقدر والإرادة والمشيئة، ووردت معنا شبهات القدرية والجبرية التي شبّهوا فيها على العباد، ولكن الله قيّض لهم من أهل السنّة من ردّ عليهم شبهاتهم فإذا عرف الإنسان جواب هذه الشبهات من أهل السنّة قنع إن شاء الله، بأن الله هو الذي أمر العباد ونهاهم، وقنع بأنّه ما أمرهم إلا لأنّهم قادرون على عمل هذه الأوامر، وكذلك قنع أيضًا بأنّهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، وأنّ الله سبحانه قوّاهم وأقدرهم ومكنّهم، وجعل لهم استطاعة يزاولون بها الأعمال، ويتمكّنون بها من الأفعال، وتُنسب بها إليهم أفعالهم طاعات ومعاصي، كما يكتسبون بها، وكما يتسبّبون بها بتحصيل أسباب الرزق، وكلّ ذلك لا يخرج عن قدرة الخالق، فله القدرة وله الاستطاعة الغالبة لكلّ قدرة، ولكنّه سبحانه لمّا أعطاهم هذه القدرة نسبت إليهم، وأصبحوا هم المزاولين للأعمال، فهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدّقون، وهم الذين يؤمنون ويسلمون ويحسنون ويتعبّدون، وهم الذين يسرقون ويزنون ويفعلون المعاصي والمحرّمات، ويعاقبون على هذا، ويثابون على هذا، وإن كان الله سبحانه هو الذي قدّر ذلك كلّه في هذا الكون، وإن كان هو الذي مكّن لهؤلاء وأعطاهم القدرة التي زاولوا بها الطاعات، وزاولوا بها المعاصي، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا حَكَمْتُمْ بِاسْتِحَالَةِ الْإِيجَادِ مِنَ الْعَبْدِ، فَإِذًا لَا فِعْلَ لِلْعَبْدِ أَصْلًا؟

قِيلَ: الْعَبْدُ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ حَقِيقَةً، وَلَهُ قُدْرَةٌ حَقِيقَةً. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧]، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَإِذَا ثَبَتَ كَوْنُ الْعَبْدِ فَاعِلًا، فَأَفْعَالُهُ نَوْعَانِ:

نَوْعٌ يَكُونُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ اقْتِرَانِ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَيَكُونُ صِفَةً لَهُ، وَلَا يَكُونُ فِعْلًا، كَحَرَكَاتِ الْمُرْتَعِشِ.

وَنَوْعٌ يَكُونُ مِنْهُ مُقَارِنًا لِإِيجَادِ قُدْرَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، فَيُوصَفُ بِكَوْنِهِ صِفَةً وَفِعْلًا وَكَسْبًا لِلْعَبْدِ، كَالْحَرَكَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْعَبْدَ فَاعِلًا مُخْتَارًا، وَهُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَلِهَذَا أَنْكَرَ السَّلَفُ الْجَبْرَ، فَإِنَّ الْجَبْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عَاجِزٍ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْإِكْرَاهِ، يُقَالُ: لِلْأَبِ وِلَايَةُ إِجْبَارِ الْبِكْرِ الصَّغِيرَةِ عَلَى النِّكَاحِ، وَلَيْسَ لَهُ إِجْبَارُ الثَّيِّبِ الْبَالِغِ، أَيْ: لَيْسَ لَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا مُكْرَهَةً.

وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِالْإِجْبَارِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ الْإِرَادَةِ وَالْمُرَادِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُ مُخْتَارًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي أَلْفَاظِ الشَّارِعِ: «الْجَبْلُ» دُونَ «الْجَبْرِ»، كَمَا قَالَ ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ لَخَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ»، فَقَالَ: أَخُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا؟ أَمْ خُلُقَيْنِ جُبِلْتُ عَلَيْهِمَا؟

فَقَالَ: «بَلْ خُلُقَيْنِ جُبِلْتَ عَلَيْهِمَا»، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّـهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ[1].

وَاللَّـهُ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَذِّبُ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلِهِ الِاخْتِيَارِيِّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِقَابِ عَلَى الْفِعْلِ الِاخْتِيَارِيِّ وَغَيْرِ الِاخْتِيَارِيِّ مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ.

وَإِذَا قِيلَ: خَلْقُ الْفِعْلِ مَعَ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ ظُلْمٌ؟! كَانَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: خَلْقُ أَكْلِ السُّمِّ ثُمَّ حُصُولُ الْمَوْتِ بِهِ ظُلْمٌ!! فَكَمَا أَنَّ هَذَا سَبَبٌ لِلْمَوْتِ، فَهَذَا سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ، وَلَا ظُلْمَ فِيهِمَا.

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ فِعْلٌ لَهُ حَقِيقَةً، وَلَكِنَّهُ مَخْلُوقٌ لِلَّـهِ تَعَالَى، وَمَفْعُولٌ لِلَّـهِ تَعَالَى، لَيْسَ هُوَ نَفْسُ فِعْلِ اللَّـهِ، فَفَرْقٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْمَفْعُولِ، وَالْخَلْقِ وَالْمَخْلُوقِ. وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّـهُ ـ بِقَوْلِهِ: (وَأَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلْقُ اللَّـهِ، وَكَسْبٌ مِنَ الْعِبَادِ)، أَثْبَتَ لِلْعِبَادِ فِعْلًا وَكَسْبًا، وَأَضَافَ الْخَلْقَ لِلَّـهِ تَعَالَى. وَالْكَسْبُ: هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي يَعُودُ عَلَى فَاعِلِهِ مِنْهُ نَفْعٌ أَوْ ضَرَرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

---

قال الشيخ:

في هذا الكلام الذي تكرر واتّضح معناه والحمد لله، نعرف أنّ الله سبحانه وتعالى أثبت للعباد أفعالًا، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (١٧) مختصرًا، وأخرجه بلفظه: أحمد (٤/ ٢٠٥)، وأبو داود (٥٢٢٥).

[الكهف:٢٩]، وأثبت أيضًا جزاءهم على تلك الأفعال، فقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٨٢]، فنسب الفعل إليهم، فهم الذين يعملون، وهم المؤمنون والمسلمون والمحسنون. كما أنّهم إذا خالفوا فهم الفاسقون والكافرون والخاسرون والظالمون، فتنسب المعاصي إليهم، وكذلك تنسب الطاعات إليهم، لماذا؟ لأنهم الذين زاولوها، وباشروها ظاهرًا. فأنت تشاهد المصليّ فتقول: هذا يصلي؛ يركع ويسجد، ولا تقول: هذا مجبور على الطاعات، ولا تقول: هذا مجبور على النفقة، بل تقول: هو يصلّي، أو ينفق باختياره، فالصدقة منه تنسب إليه، ويطيع الله بامتثال أمره في الإنفاق: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧]. وفي قوله: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [الرعد: ٢٢]، كما يُنسب إليه فعل العبادات في قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

أليس ذلك دليلًا على أنّهم قادرون، أيأمر الله العجزة؟ كلا، إنه لا يأمر من لا يقدر، فالله لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها، والنّاس يعرفون القادر والعاجز، فلا يقال للمقعد: امشِ، ولا يقال له: احمل هذا إلى البيت الفلاني، ولا يقال للأعمى: اكتب هذه الرسالة؛ لأنه معذور، وليس في إمكانه أن يكتبها كغيره. فالله تعالى عندما قال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، لا شكّ أنّه ما أمرهم إلا لأنّهم قادرون على العمل، ولأجل ذلك يثابون على أعمالهم، وعلى تنافسهم، وعلى طاعاتهم، وتُنسب إليهم خلافًا لما تقوله المجبرة، فتنسب إليهم لأنّهم زاولوها.

فـالله تعـالى يقـول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، ويقـول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧]، ويقـول: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]. أليس ذلك نسبة للأفعال إليهم؟ هذه صفات أمر الله بها، ومدح أهلها، وجعلها مقدورة للمخاطبين، وعلى هذا العباد أعطاهم الله هذه القوّة وهذه القدرة، ونحن نعتقد أنّه لو شاء الله ما فعلوا، ولولا مشيئة الله وتمكينهم ما حصلت منهم هذه الأفعال.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٦، ٣٧]، فأخبر بأنّه هو الذي هداهم ووفّقهم وأعانهم، ولكن هو الذي أمرهم ونهاهم، وهو الذي خلقهم وقوّاهم، وهو الذي مكّن لهم وأعطاهم، وهو الذي سخّر هم، كما أنّه هو الذي يعاقب ويثيب، ويعطي ويمنع، ويهدي ويضلّ. ولكن لمّا أنّه أمرهم كانوا متمكّنين من فعل ما أمرهم به، فلا يـأمرهم إلا بـما في إمكـانهم، ولـذلك يقـول تعـالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، يعني: أنّه ما أمركم إلا بما تستطيعون وتقدرون عليه، ولو كان الأمر كما يقول المجبرة، لكان يأمرهم بما لا يقدرون عليه، وذلك ولا شكّ من تكليف ما لا يطاق.

فالمجبرة يقولون: العبد مجبورٌ على فعله، وليس له فعل، ولا ينسب إليه، بل حركته كحركة المرتعش - مثل بعض البشر عند الكبر ترتعش يده من دون

اختياره ـ حركة قهريّة، وليست اختياريّة.

والمجبرة يزعمون أنّ العباد كلّهم ليس لهم أيّ اختيار أو أي قدرة، وإنّما حركاتهم؛ ركوعهم وسجودهم وكسبهم وعطاءهم ومنعهم وحجهم وعمرتهم وصدقتهم، كلّها ليست اختياريّة بل قهريّة، وكذلك عندهم المعاصي يعدّونها قهريّة، ويعذرون من زنى ومن قتل ومن سرق ومن نهب ومن سلب؛ لأنّهم في زعمهم ليس لهم فعل، بل هم مجبورون على هذا الفعل.

وبقولهم هذا تبطل الحكم، وتبطل الأحكام، وتتعطّل الشرائع، ولا حاجة إلى إرسال الرسل مادام أنّ المطيع مجبور على الطاعة، والعاصي مجبور على المعصية، فلماذا إذن أمر الله ونهى؟ لا شكّ أنّ هذا تجرُّؤ على الله تعالى، ثمّ هو مخالفة للعقول والبدائه، فالإنسان بفطرته يعرف أنّ عنده قدرة على المزاولة، فإذا رأيت إنسانًا نشيطًا وليس له عمل أو حرفة، مع أنه مفكّر وعارف وقادر وقويّ البنية وسليم الأعضاء، ألست تلومه على هذه البطالة، وتقول له: إنّ الله يبغض الفارغ البطّال، لماذا هذا الكسل، لماذا لا تعلِّمُ نفسك الكسب، وطلب الرزق، أتريد أن يأتيك رزقك إلى بيتك أو ينزل عليك طعامك وشرابك من السماء؟ فأنت تلومه، وهو يستحقّ أن يلام.

وذلك لأنّ الله تعالى كما أمر بالطاعات، كذلك أمر بالكسب، وأباحه، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وفي قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

[الجاثية:١٣]، فما دام كذلك فإنّه سبحانه أمرنا بأن نبتغي الرزق، وأن نتطلّبه، وكلّ عاقل إذا تمكّن وقَوِيَتْ بنيته، وكمُلت أعضاؤه واكتملّ نموُّه، ما بقي عليه إلاّ أن يتكسّب كما تكسّب آباؤه وأجداده، ويطلب ما يطلبون، ويُعفّ نفسه ويغنيها عن السؤال فإذا كان ذلك جبلّةً وطبيعةً، فكذلك يقال أيضًا في الجبلّة الإيمانيّة وفي الأوامر الشرعيّة، يقال: إنّ الله أمرك بأن تطلب النّجاة، وأن تعمل الأعمال التي تكون سببًا في سعادتك عاجلًا وآجلًا.

نقول بعد ذلك: أنّ الإنسان قد جُبِل على بعض الصفات، فيسمّى جِبلّةً ولا يسمّى إجبارًا.

وقد ذكر الشارح أنّه لا يقال: مجبورٌ على فعله، ولكن يقال: مجبول على هذه الأخلاق. الجبلّة: الطبيعة والخلطة. يقال: طبيعة فلان وجبلّته الصدق، أو الحلم، أو اللين، أو الكرم، أوالسخاء، أو النصيحة، أو الاهتداء، طبعه الله وجبله عليها، وكذلك على أضدادها، فيقال مثلًا: هذا جُبل على البخل، وعلى الشحّ، وعلى الجبن، وعلى الخوف، وعلى الكذب، وعلى الخيانة، والغشّ، أي: إنّها صفات جِبلِّيّةٌ مركوزةٌ في نفسه، فنفسه الشريرة تميل إليها، أو نفسه الخيريّة تميل إلى ضدّها. هذا فرق بين الجبلّة والجبر.

أمّا الجبر الذي تقول به الجبريّة، فهو الإكراه والإلزام على الفعل من دون اختيار أو قدرة، فلا يُجبر إلا من كان عاجزًا عن الفعل، فمثلًا الأمير أجبر فلانًا على القتل، أو فلان أُجبر على السكر، وفلانة أُجبرت على الزنى، يعني: هناك من أكرهها عليه، وهكذا. ففرق بين هذا وهذا.

فالصفات الجبلّيّة هذه أخلاق، وليس فيها إكراهٌ، بل يفعلها باختياره سواءً أكانت طاعات أم معاصٍ.

وأما الجبر: فالله تعالى تنزّه عن أن يكره أحدًا أو يجبر أحدًا، بل قال: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وإنّما هو اختيارات وجبلاّت وما أشبهها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ولَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّـهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ. وَهُوَ تَفسِيرُ: «لَا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا باللَّـهِ»، نَقُولُ: لَا حِيلَةَ لأَحَدٍ، وَلَا تَحَوُّلَ لأَحَدٍ، وَلَا حَرَكَةَ لأَحَدٍ عَنْ معْصِيَةِ اللَّـهِ، إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّـهِ، وَلَا قُوَّةَ لأَحَدٍ عَلَى إِقامَةِ طَاعَةِ اللَّـهِ والثَّباتِ عليْهَا إِلَّا بِتوفِيقِ اللَّـهِ تَعَالَى، وَكُلُّ شَيءٍ يجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّـهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. غَلَبَتْ مَشِيْئَتُهُ المَشِيْئاتِ كُلَّهَا، وَغَلَبَ قَضاؤُهُ الحِيَلَ كُلَّهَا، يَفْعَلُ مَا يَشاءُ وهُوَ غَير ظَالِمٍ أَبَدًا: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

---

قال الشارح:

فَقَوْلُهُ: (لَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّـهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢].

وَعَنْ أَبِي الحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ تَكْلِيفَ مَا لَا يُطَاقُ جَائِزٌ عَقْلًا، ثُمَّ تَرَدَّدَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ: هَلْ وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ أَمْ لَا؟ وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ بِوُرُودِهِ بِأَمْرِ أَبِي لَهَبٍ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَأَنَّهُ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، فَكَانَ مَأْمُورًا بِأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ. وَهَذَا تَكْلِيفٌ بِالجَمْعِ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ، وَهُوَ مُحَالٌ.

وَالجَوَابُ عَنْ هَذَا بِالمَنْعِ، فَلَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَالِاسْتِطَاعَةُ الَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِيمَانِ كَانَتْ حَاصِلَةً، فَهُوَ غَيْرُ عَاجِزٍ عَنْ

تَحْصِيلِ الْإِيمَانِ، فَمَا كُلِّفَ إِلَّا مَا يُطِيقُهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الِاسْتِطَاعَةِ. وَلَا يَلْزَمُ قَوْلُهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة:٣١]، مَعَ عَدَمِ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ، وَلَا لِلْمُصَوِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[1]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِتَكْلِيفِ طَلَبِ فِعْلٍ يُثَابُ فَاعِلُهُ وَيُعَاقَبُ تَارِكُهُ، بَلْ هُوَ خِطَابُ تَعْجِيزٍ.

وَكَذَا لَا يَلْزَمُ دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ لِأَنَّ تَحْمِيلَ مَا لَا يُطَاقُ لَيْسَ تَكْلِيفًا، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يُحَمِّلَهُ جَبَلًا لَا يُطِيقُهُ فَيَمُوتَ. وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: أَيْ لَا تُحَمِّلْنَا مَا يَثْقُلُ عَلَيْنَا أَدَاؤُهُ، وَإِنْ كُنَّا مُطِيقِينَ لَهُ عَلَى تَجَشُّمٍ وَتَحَمُّلٍ مَكْرُوهٍ، قَالَ: فَخَاطَبَ الْعَرَبَ عَلَى حَسَبِ مَا تَعْقِلُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَقُولُ لِلرَّجُلِ يُبْغِضُهُ: مَا أُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْكَ، وَهُوَ مُطِيقٌ لِذَلِكَ لَكِنَّهُ يَثْقُلُ عَلَيْهِ. وَلَا يَجُوزُ فِي الْحِكْمَةِ أَنْ يُكَلِّفَهُ بِحَمْلِ جَبَلٍ بِحَيْثُ لَوْ فَعَلَ يُثَابُ، وَلَوِ امْتَنَعَ يُعَاقَبُ، كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

---

قال الشيخ:

يدين أهل السنّة بأنّ الله تعالى أمر القادرين، ولم يأمر العاجزين، أمرهم بما في وُسعهم، ولم يأمرهم بما ليس في وُسعهم، وإذا قيل: لماذا سُمّيت العبادات

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تكاليف؟ نقول: سمّيت بذلك لكون الذي يفعلها يوصف بأنّه مكلّف، يعني: مأمور ومنهيّ. ومع ذلك فليس في فعلها كلفة ولا مشقّة، صحيح أن الكلفة هي الشيء الثقيل، كما قالت الخنساء في صخر[1]:

يُكَلِّفُهُ القَوْمُ مَا نَابَهُمْ ... وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدًا

أي: إنّهم يأمرونه بما ينوبهم، فيقوم بذلك، ولو كان أصغرهم، فدلّ على أنّه يفعل شيئًا في إمكانه وقدرته.

ونحن نعتقد بأنّ الله تعالى لم يأمرنا إلاّ بما هو في الإمكان، ولم يكلّف الإنسان إلاّ بما يستطيعه، فمثلًا الصيام، قد يقال إنّ فيه كلفة، خاصّة في الأيام الشديدة الحرّ والطويلة، ولكن هو في الإمكان وفي الاستطاعة، غالبًا أنّهم قادرون على الإمساك إلى غروب الشمس، والقدرة على ذلك معتبرةٌ، فإذا كان هناك مشقّة فإنّهم يفطرون، ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، يعني: يفطر ويقضي في أيام أخرى. وإذا قلت: إنّ هناك بلاد يطول فيها النّهار بحيث يكون ثمان عشرة ساعة، أو عشرين، أو نحوها، فصيام هذه الأيام فيه كلفة وفيه صعوبة. أجاب العلماء بأنّهم يمكنهم إذا عجزوا أن يُفطروا ويقضوه من أيام أخر، إذا قصُر النّهار أو توسّط؛ لأنّه أحيانًا يقصر عندهم النّهار فيصبح أربع ساعات، أو ست ساعات، ونحوها. فإذًا ليس في الأمر مشقّة.

---

(١) انظر: ديوان الخنساء (ص٢٠).

وإذا قلت مثلًا: إنّ الوضوء فيه مشقّة فلماذا كلِّف به؟ نقول: ليس فيه صعوبة، وإن كان الإنسان يجد برودة في الماء أو في الزمان، ولأجل ذلك إذا كان مريضًا لا يستطيع أن يتطهّر، فإنّه يعدلُ إلى التيمّم؛ لرفع الحرج. فليس في الشريعة شيء من الكلفة الشاقّة على العباد، بل المشقّة تجلب التيسير، فالله سبحانه ما كلّف العباد إلاّ بما يطيقون، ولا يطيقون إلاّ ما كلّفهم به، ولا يطيقون الشيء الزائد على ذلك. صحيح أنّهم قد يطيقون أكثر من ذلك، فقد يقول قائل: الله ما أمر إلا بصيام شهر واحد، ونحن نطيق صوم شهرين، أو ستة أشهر أو نحو ذلك.

فالجواب: أنّ القدرة العامّة التي يشترك فيها النّاس عمومًا هي فرض هذا الشهر، أمّا القدرة الخاصّة؛ فالإنسان يتعبّد بقدر قدرته. معلوم أنّه لو فرض شهران أو ثلاثة أشهر، لشقّ على كثير من النّاس، ولو أنّ آخرين لا يشقّ عليهم، وكذلك لو فُرض عليهم أن يحملوا الماء في الأسفار الطويلة لشقّ على كثير، وإن كان آخرون لا يشقّ عليهم. ويقال هكذا في سائر العبادة. فالعبادة إنّما كلّف الإنسان منها بما يستطيعه. فالمصلّي مأمور بأن يصلّي قائمًا، ولكنّه قد لا يستطيع، فيصلّي جالسًا، وكذلك قد يشقّ عليه أن يصلّي جالسًا، فينتقل إلى الصلاة على جنب. كما ورد ذلك في الأحاديث، فليس في الشريعة كلفة ولا مشقّة، بل ما أمرنا الله إلاّ بما هو مقدور للعباد، والأدلّة واضحة كما مرّ بنا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وسعها: طاقتها، أو لا تكلّف إلا قدرتها وطاقتها وتمكّنها، فلا تكلّف فوق ذلك ممّا يشقّ عليها.

فلو فرض الله على العباد أن يُخرجوا زكاة من أموالهم النصف في كلّ عام، لكان في ذلك شيء من الكُلفة، يقول قائلهم: أنا جهدت بهذا المال، وتعبت فيه، وما حصّلته إلاّ بعرقي، فكيف مع ذلك أعطيه هذا الذي ما تعب فيه؟ ولكن لمّا علم الله أنّ هناك من الضعفاء والعجزة والفقراء، جعل لهم حقًا في مال الأغنياء، وجعل ذلك الحقّ يسيرًا لا يكلّفهم، إذ ليس في ربع العشر كلفة، فهذا دليلٌ على أن الشريعة جاءت بما في الاستطاعة، ولم يأت أمر فيه مشقّة على النفوس.

معلوم أنّ هناك نفوسًا ضعيفة، قد تتثاقل عن الأشياء الخفيفة، وقد لا تصبر عن الشهوات المحرّمات، فهذه ليست عبرة، ولا يؤخذ بها. فلو قلت مثلًا: إنّ هناك أناسًا يستثقلون الصلاة، ويستثقلون إذا قرأ الإمام بورقة أو ورقتين، فيقولون: أتعبنا وشقّ علينا وكلّفنا، وكادت ظهورنا أن تقطع، وكادت أرجلنا أن تنهار. فهؤلاء لا نصدّقهم؛ لأنّا نشاهدهم أقوياء وأشدّاء في أبدانهم، ونجدهم في المباريات أقوياء، وفي طلب الدّنيا أشدّاء، فقولهم هذا غير صحيح.

كذلك هناك نفوس ضعيفة يقولون: إن منعنا عن شهواتنا تكليف بما لا يطاق. فيقولون: نفوسُنا لا تصبر عن هذه الأفعال. فإن اشتدت بأحدهم الشهوة، لم يصبر إلّا أن يزني مثلًا، أو يفجُر، ويقول: إنّ تكليفي بالعفاف تكليف بما لا يطاق. وإنّ تكليفي بالصبر عمّا أشتهيه وتندفع إليه نفسي تكليفٌ بما لا يطاق، وتكليفي بمنعي عن الخمر، تكليف بما لا تستطيع نفسي الصبر عنه.

سبحان الله! هذا تكليف بما لا يطاق؟ إذا منعنا الله عن الزّنى، ومنعنا عن المسكرات مثلًا، فهل هو تكليفٌ بما لا يطاق؟! الله تعالى ما حرّم علينا شيئًا إلّا

وجعل له بدلًا يقوم مقامه، فأحلّ لنا من النكاح ما يقوم مقام الزنى، فيقول تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء:٣]، ويقول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، فكيف يقول هذا: إنّ تكليفي بالتّعفف وبالامتناع عنه تكليف بما لا أطيق؟ هذا كذب، بل الإنسان يستطيع أن يقمع نفسه ويمنعها عن المحرّمات، وليس عليه مشقّة.

فعلى كلّ حال، نقول: هذه قاعدة مطّردةٌ، وهي أنّ التكاليف الشرعيّة ليس فيها مشقّة، سواء أكانت أفعالًا أم تروكًا. أشقّ ما فيها الجهاد مثلًا، الذي فيه تعرّض للقتل، ولكن لمّا علم المؤمنون بعاقبته الحميدة، وبما فيه من نصر للإسلام وإعزاز له، هانت عليهم نفوسهم، ولمّا علموا بأنّ الرّب يمدّهم ويقويّهم، وينزل عليهم الملائكة لتدافع معهم، ويخذل أعداءهم، كان ذلك دافعًا لهم إلى أن يستميتوا، ولما علموا أنّهم إذا قُتلوا فهم أحياء عند ربّهم، كان ذلك أيضًا دافعًا لهم إلى التفاني في سبيل الله، ولما علموا أيضًا أن الأعداء من الكفّار يقاتلون وهم على كفرهم، وتهون عليهم أنفسهم وهم على كفرهم، كانوا هم أولى بذلك أن يفدوا دينهم الدين الصحيح، فإن كانوا هم يفدون دينهم الباطل، فإنّنا نفدي ديننا الصحيح. ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء:١٠٤].

يعتقد المسلمون عمومَ قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. يدخل في ذلك الموجود والمعدوم، ويدخل في ذلك

الأعراض والجواهر، والحركات والأفعال والمخلوقات، كلُّها داخلة في عموم قدرة الله تعالى، ولا يخرج عن قدرته شيء، ودلّ على ذلك الأدعية المأثورة؛ ضمنه قول النبيّ ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: «**ألا أَدُلُّكَ على كَنْزٍ من كُنُوزِ الجَنَّةِ؟**»، قال: بَلَى، فقال: «**لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ**»[1]، تأمّل هذه الجملة: لا حول: أي لا تحوّل لأحد من حال إلى حال إلاّ بالله، ولا قوّة: أي لا قدرة لأحد إلَّا بالله، فإن أقدره الله فهو قادر فاعل، فإن منعه، أو حال بينه وبين الفعل، فليس بقادر وليس بفاعل. هذه الكلمة كثيرًا ما يدين بها العباد، وكثيرًا ما يقولونها، وأهل السنّة يدينون بمعناها، ويعتقدون أنّ الحول أي التحوّل والانتقال من الفقر إلى الغنى، أو من الضعف إلى القوّة، أو من القوّة إلى الضعف، ومن العطاء إلى المنع، ومن الهدى إلى الضلال وأضداد ذلك كلّه، الانتقال من حال إلى حال هو بقدرة الله وقوّته، والقوّة معناها: الاستطاعة، والإنسان قوّته التي يزاول بها الأعمال، هي من الله، فإذا شاء سلبك هذه القوّة، فجعلك عاجزًا مقعدًا، وإذا شاء منحك القوّة، وزادك قوّة على قوّتك. فهو الذي خلق الإنسان ﴿مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، فالضعف الذي في المخلوق الإنساني مبدؤه أنّ الله خلقه ضعيفًا، ثمّ أمدّه بقوّة منه، فإذا شاء سلب هذه القوّة في أوانها وفي عنفوانها، وإذا شاء زادها ومكّنها. فما شاءه الله لا بدّ أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

يحصل ولو كره العباد كلّهم، وما لم يشأه، فلا يحصل ولا يقع ولا يحدث ولو شاؤوه وأرادوه وحاولوه. فالحول حوله، والطول طَوله، والقدرة منه سبحانه.

فالعباد مأمورون، ولكن القوّة التي يزاولون بها فعل الأوامر إمداد من الله، وكذلك هم منهيّون، والقوّة التي يمتنعون بها عن المنهيات، هي أيضًا من الله، فهو الذي يمدّهم بالقوّة التي يمارسون بها الأفعال، ويمدّهم بالقوّة التي تحميهم عن المنهيّات.

وكذلك إذا خذل من شاء من عباده، وفعل ما فعل من المعاصي والمحرّمات، فذلك أيضًا بقضاء الله وقدره، ولو شاء لمنعهم من ذلك، ولحال بينهم وبينه، ولكن له الحكمة في ذلك، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون، له التصرّف في العباد، ولا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولو شاء لهدى النّاس أجمعين، ولو شاء لأضلّهم أجمعين، ولو هداهم لهداهم بفضله، وإذا أضلّ من شاء فبحكمته وبعدله.

لكن إذا هداك الله، وألهمك رشدك وسدَّدك، فعليك أن تشكره على هذه الهداية، وأن تستعين بما أعطاك من القوّة على الطاعة، فإذا رأيت من أضلّه الله، وحرمه من الخير، فإنّك تحمد ربّك على العافية، وتقول: الحمد لله الذي عافانا ممَّا ابتلاهم به، وفضّلنا على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلًا.

فلله الأمر والنّهي، وله القدرة التامّة، وله التصرّف في العباد، فهو الذي كلّفهم وأمرهم ونهاهم، وهو الذي أعطاهم ومنعهم، وهو الذي يهدي ويضلّ، ويُسعد ويُشقي، لا رادّ لقضائه، ولا مُعقِّب لحكمه. وإذا منّ الله على بعض العباد، فإنّ

ذلك فضل منه، وعليهم أن يشكروه على هذا الفضل، وإذا خذل بعضًا من العباد، وسلّط عليهم الشهوات، وخلّى بينهم وبين أنفسهم، وسلّط عليهم أهواءهم، فذلك حكمة منه وعدل، فما حصل للمهتدين محض فضل منه ونعمة يجب أن يشكروه عليها، وما حصل للضالين من خذلان، فهو حكمته يجب عليهم أن يعرفوا السّبب، فالسّبب من أنفسهم، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، أي: إنّه يستحقّ ذلك بسبب ما جُبِل عليه، وبسبب الخلق الذي علم الله أنّه لا يناسبه إلا أن يحرمه ويحول بينه وبين الهداية، فهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها.

ومرّ بنا قوله: بأنّ الله تعالى كلّف العباد بما يطيقون، وأنّهم لا يطيقون إلا ما كلّفهم، ولم يكلّفهم إلا ما في قدرتهم وما في وُسعهم، فهو سبحانه لم يأمر العباد بما هو مستحيل، وبما يعجزون عن تطبيقه، ولا عن فعله، ولم يأمرهم إلا بالشيء الذي في وسعهم وفي قدرتهم وطاقتهم، لا يخرج عن إرادتهم. ولو كلّفهم بما يعجزون عنه، لكان لهم حجّة أنّهم لا يستطيعون ذلك، ولا جرم أن يقال حينذاك: كيف يطيقون الشيء الذي فوق قدرتهم. وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فإذا علم العباد بذلك، ونظروا بأنّ التكاليف التي أمروا بها سهلة ويسيرة، ليس فيها مشقّة، ولو استثقلت هذا بعض النفوس، فإنّ تلك النفوس التي تستثقلها، إنّما أُتيت من ضعف في النفس،

لا أنّ ذلك عجز حسيّ كما هو مشاهد. ولأجل ذلك نجد أنّ الاثنين يتفاوتان في العبادة، أحدهما يفرح بطول الصلاة ويلتذّ بذلك ويعجبه، وآخر يستثقل ذلك ولو كانت الصلاة خفيفة مع كونه بدينًا قويًا. فهذا تفاوت من ضعف النفوس، لا أنّه تكليف بما يعجز البشر.

قال الشارح:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: يَجُوزُ تَكْلِيفُ الْمُمْتَنِعِ عَادَةً، دُونَ الْمُمْتَنِعِ لِذَاتِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُهُ، فَلَا يُعْقَلُ الْأَمْرُ بِهِ، بِخِلَافِ هَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَا لَا يُطَاقُ لِلْعَجْزِ عَنْهُ لَا يَجُوزُ تَكْلِيفُهُ، بِخِلَافِ مَا لَا يُطَاقُ لِلاشْتِغَالِ بِضِدِّهِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ تَكْلِيفُهُ. وَهَؤُلَاءِ مُوَافِقُونَ لِلسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فِي الْمَعْنَى، لَكِنَّ كَوْنَهُمْ جَعَلُوا مَا يَتْرُكُهُ الْعَبْدُ لَا يُطَاقُ لِكَوْنِهِ تَارِكًا لَهُ مُشْتَغِلًا بِضِدِّهِ، بِدْعَةٌ فِي الشَّرْعِ وَاللُّغَةِ. فَإِنَّ مَضْمُونَهُ أَنَّ فِعْلَ مَا لَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ لَا يُطِيقُهُ!

وَهُمُ الْتَزَمُوا هَذَا، لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ الطَّاقَةَ - الَّتِي هِيَ الِاسْتِطَاعَةُ وَهِيَ الْقُدْرَةُ - لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ! فَقَالُوا: كُلُّ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ فِعْلًا، فَإِنَّهُ لَا يُطِيقُهُ! وَهَذَا خِلَافُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ، وَخِلَافُ مَا عَلَيْهِ عَامَّةُ الْعُقَلَاءِ، كَمَا تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ عِنْدَ ذِكْرِ الِاسْتِطَاعَةِ.

وَأَمَّا مَا لَا يَكُونُ إِلَّا مُقَارِنًا لِلْفِعْلِ، فَذَلِكَ لَيْسَ شَرْطًا فِي التَّكْلِيفِ، مَعَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُنَاكَ إِرَادَةُ الْفِعْلِ. وَقَدْ يَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِرَادَةُ مَا سَمَّوْهُ اسْتِطَاعَةً، وَهُوَ مَا لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ ذَمَّ هَؤُلَاءِ عَلَى كَوْنِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ، وَلَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمُقَارِنَ لَكَانَ جَمِيعُ الْخَلْقِ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ قَبْلَ السَّمْعِ! فَلَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِ هَؤُلَاءِ بِذَلِكَ مَعْنًى، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ لِبُغْضِهِمُ الْحَقَّ وَثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ، إِمَّا حَسَدًا لِصَاحِبِهِ، وَإِمَّا اتِّبَاعًا

لِلْهَوَى، لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ. وَمُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لَا يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ، لِمُخَالَفَةِ مَا يَرَاهُ لِظَاهِرِ الشَّرْعِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُ عِلْمٌ. وَهَذِهِ لُغَةُ الْعَرَبِ وَسَائِرُ الْأُمَمِ، فَمَنْ يُبْغِضُ غَيْرَهُ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ، وَمَنْ يُحِبُّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ عُقُوبَتَهُ، لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِ لَهُ، لَا لِعَجْزِهِ عَنْ عُقُوبَتِهِ، فَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمُبَالَغَةِ، كَمَا تَقُولُ: لَأَضْرِبَنَّهُ حَتَّى يَمُوتَ، وَالْمُرَادُ الضَّرْبُ الشَّدِيدُ، وَلَيْسَ هَذَا عُذْرًا، فَلَوْ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ إِلَّا بِمَا يَهْوَوْنَهُ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

---

قال الشيخ:

هذا معاتبة ومجادلة لبعض المبتدعة، وأنه لا فائدة فيه ولا طائل تحت هذه المجادلة؛ لأنّها أقوالٌ تخالف المحسوس وتخالف المعقول؛ وذلك لأنّ العبد قد أُعطي قوة، وتلك القوّة كامنة فيه، وأنّه بواسطتها يستطيع أفعالًا وإن لم يفعلها، فهؤلاء المبتدعة من جبريّة وقدريّة، ونحوهم، عندهم أنّ الأفعال التي لم تفعل ولو كانت سهلة توصف بأنّها غير مقدورة للعبد؛ فإذا رأوا إنسانًا كافرًا قالوا: هذا لا يقدر أن يؤمن، مع أنّه قادر. وإذا رأوا إنسان لا يصلي قالوا: هذا غير قادر على الصلاة، مع أنّه يقدر. فكلّ شيء لم يفعله الإنسان مع قدرته عليه، يقولون: إنّه لا يقدر عليه، مع أنّه قادر، وهذا يخالف الحسّ ويخالف الظاهر.

فمثلًا: أنت لو رأيت إنسانًا قويّ البنية وقويّ البدن تستطيع أن تقول: إنّه

يستطيع أن يحمل كيسًا أو كيسين، ولو لم يحملهما، ويكون ذلك أيضًا فيما سخّر الله من الدوابّ التي تركب، فتقول في جمل ما: إنّه يستطيع أن يحمل مائة صاع، ولو أنّه ما حُمل عليه، فالاستطاعة والحمل ليس لما حصل ولما فعل، بل لما كمن فيه واستقرّ من الوصف، ويستطيعه ولو لم يباشره.

فهؤلاء المبتدعة لو رأوا إنسانًا ما قرأ، قالوا: هذا لا يستطيع القراءة، وليس في وسعه أن يقرأ. فإن وجد إنسان لا يحرث، قالوا: هذا لا يستطيع أن يحرث، أو أن يغرس، أو أن يرعى الإبل، هذا بالنسبة للأفعال المحسوسة.

ويقال كذلك أيضًا في الأعمال؛ سواء أكانت طاعات أم معاص، فالطاعات كمن يقولون لمن لم يصم: هذا لا يستطيع الصوم، ولو كان يستطيع الصوم لصام، مع أنه قادر وقوي. وكمن لا يستطيع أن يطعم الطعام، أو يخرج النفقة كما يفعل مثله، مع أنه غنيّ وذو مال، وقالوا: لو كان يستطيع أن يخرج لأخرج، ولو كان يستطيع أن يتصدّق لتصدّق، كأنّهم يقولون: إنّه لا يستطيع؛ لكون الله حال بينه وبين هذه الصدقة. الله تعالى أمره بالصدقة الواجبة في الزكاة والكفارة والنفقة على الأهل والولد وغير ذلك، ومع ذلك بخل بها، فهو قادر، ولو لم يكن قادرًا ما أمره الله بذلك، ولو لم يكن قادرًا على الصوم ما أمره.

فالله أمر الناس الذين يستطيعون الصوم، فمنهم من صام، ومنهم من لم يصم، وقد أمر النّاس كلّهم بالصلاة، فمنهم من صلّى ومنهم من لم يصلِّ. فلا يقال لمن لم يصلِّ: هذا لا يستطيع الصلاة، لو كان يستطيع لصلّى، نقول: بل هو مستطيع، ولكن حيل بينه وبينها، فهو محروم - والعياذ بالله - ويوصف بأنّه

عاصٍ، ويعاقَبُ على عصيانه، كما يعاقب على تلك الأفعال.

ويقولون كذلك في المنهيات، فيقولون فيمن زنى مثلًا أو ارتشى أو سكر: لا يستطيع ترك هذا، ولو كان يستطيع تركه لما فعله.

نقول: بل يستطيعه، ولو لم يستطعه ما نهي عنه، فالله تعالى ما نهى إلاّ من عنده قدرة على الانزجار وترك الشيء المنهيّ عنه. كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]، فلو كانوا عاجزين عن التّرك ما نهاهم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ﴾ [الأنعام:١٥١]، ولو كانوا عاجزين عن ذلك ما نهاهم عنه. وقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ [الأنعام:١٥١]، لو كانوا لا يستطيعون ترك القتل ما نهوا عنه.

وكذا يقال في الطاعات: لو كانوا عاجزين عن الصلاة لما أمروا بها، ولو كانوا عاجزين عن الطهارة ما أُمروا بها، فإنّ الله لا يأمر إلا بما هو مقدور، لا يأمر بالشيء المستحيل، أو الثقيل على النفس، الذي يكون فوق طاقتها، وبذلك نعرف أنّ هذا القولَ قولٌ مخالف للعقل، حتى في عرف النّاس.

فلو كانَ لك ولد نشيطٌ قويّ، فإنّك تقول له: يا ولدي اذهب فاشترِ لنا طعامًا، فإذا ذهب واشترى فقد أطاع، فإن لم يذهب، فهل يقال بأنّه ليس بمستطيع، أو يقال: هو عاصٍ لأبيه!!

ولو كان لك ولدٍ مريضٌ أو مقعد، هل تأمره أن يذهب إلى السّوق ليشتري لك حاجة؟ كيف تأمره وهو مريض مقعد لا يستطيع؟ فهذا يدلّ على أنّ الله

ما أمر إلا من هو مستطيع، ولأجل ذلك أسقط الحرج عن غير المستطيع، فلمّا أمر بالجهاد في سبيل الله أسقطه عن أهل الأعذار، فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح:١٧]، يعني: لا حرج عليهم في ترك القتال؛ لعجزهم عن ذلك. وقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٩١]، أي: لا حرج عليهم إذا لم يخرجوا للجهاد. فدلّ على أنّه ما أمر إلا المستطيع ومن عنده قدرة، وبذلك نعرف أنّ التكاليف إنّما هي على حسب قدرة العباد، لم يأمرهم الله إلا بما هو في طاقتهم وفي وُسعهم.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ)، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ، أَيْ: وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ. وَهَذِهِ الطَّاقَةُ هِيَ الَّتِي مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ، لَا الَّتِي مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالْوُسْعِ وَالتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الْآلَاتِ، وَ«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ الْقَدَرِ. وَقَدْ فَسَّرَهَا الشَّيْخُ بَعْدَهَا.

وَلَكِنْ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ إِشْكَالٌ، فَإِنَّ التَّكْلِيفَ لَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْإِقْدَارِ، وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهُوَ قَدْ قَالَ: (لَا يُكَلِّفُهُمْ إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ)، وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ يُطِيقُونَ فَوْقَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ بِعِبَادِهِ الْيُسْرَ وَالتَّخْفِيفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء:٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. فَلَوْ زَادَ فِيمَا كَلَّفَنَا بِهِ لَأَطَقْنَاهُ، وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا وَرَحِمَنَا، وَخَفَّفَ عَنَّا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ. فَفِي الْعِبَارَةِ قَلَقٌ، فَتَأَمَّلْهُ.

وَقَوْلُهُ: (وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ)، يُرِيدُ بِقَضَائِهِ: الْقَضَاءَ الْكَوْنِيَّ لَا الشَّرْعِيَّ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ يَكُونُ كَوْنِيًّا وَشَرْعِيًّا، وَكَذَلِكَ الْإِرَادَةُ وَالْأَمْرُ وَالْإِذْنُ وَالْكِتَابُ وَالْحُكْمُ وَالتَّحْرِيمُ وَالْكَلِمَاتُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

أَمَّا الْقَضَاءُ الْكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِي

يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢].

وَالقَضَاءُ الدِّيني الشَّرْعِي، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣].

وَأَمَّا الإِرَادَةُ الكَوْنِيَّةُ وَالدِّينِيَّةُ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ).

وَأَمَّا الأَمْرُ الكَونِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وَكَذَا قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦]، في أحدِ الأقوالِ، وهو أقواها.

وَالأَمْرُ الشَّرْعِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨].

وَأَمَّا الإِذْنُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٠٢].

وَالإِذْنُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٥].

وَأَمَّا الكِتَابُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر:١١]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ

مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وَالكِتَابُ الشَّرْعِيُّ الدِّينِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣].

وَأَمَّا الحُكْمُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ ابْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [يوسف:٨٠].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١١٢].

وَالحُكْمُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة:١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ ﴾ [الممتحنة:١٠].

وَأَمَّا التَّحْرِيمُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [المائدة:٢٦]. و﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٥].

وَالتَّحْرِيمُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ [المائدة:٣]. ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ ﴾ الآية [النساء:٢٣].

وَأَمَّا الكَلِمَاتُ الكَوْنِيَّةُ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ

التَّامَّاتِ التِي لَا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»[1].

وَالكَلِمَاتُ الشَّرْعِيَّةُ الدِّينِيَّةُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤].

---

قال الشيخ:

نعرف أنّ الله تعالى رحيم بعباده، وأنّه ما أمرهم إلاّ بما يطيقونه، ولو أمرهم بزيادة عليه لأطاقوه، ولكنّه رحمهم ولم يكلّفهم ما فيه مشقّة عليهم. فلو فرض الصيام شهرين، لقدروا على ذلك، ولكن قد يكون فيه مشقّة. ولو فرض عليهم في الطهارة الاغتسال بدل الوضوء، لقدروا عليه، ولكن فيه مشقّة. ولو فرض عليهم كلّ يوم عشر صلوات، لقدروا عليه، ولكن فيه مشقّة. وكذلك لو فرض عليهم الحجّ مرّتين في العمر أو أكثر، لاستطاع كثير منهم ذلك، ولكن مع مشقّة، ولو فرض عليهم في الزكاة خمس المال، لاستطاع كثير منهم ذلك ولكن كان فيه مشقّة. فلأجل ذلك خفّف الله عنهم.

ولَـمَّا فرض عليهم أن يثبت العشرة للمئة في الجهاد، وأن تثبت المئة للألف، ولا يفرّون منهم، علم أنّ في ذلك شيئًا من المشقّة، فخفّف عنهم إلى ألاّ يفرّ الواحد من اثنين، وأنزل أولًا قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٨).

مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا ﴾ [الأنفال:٦٥]، الواحد يغلب عشرة، ثم بعد ذلك خفّف عنهم: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ﴾، الواحد يغلب اثنين، بشرط الصبر، ﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فأخبر بأنّهم يقدرون ولكن خفّف عنهم، يعني: إذا كانوا صابرين محتسبين غلبوهم بإذن الله، وقد وقع ذلك: فأهل بدر غلبوا المشركين مع أنّهم أضعافهم، أي ثلاثة أمثالهم، ولكن هزموهم بإذن الله. وكذلك حكى الله عن طالوت ومن معه أنّهم قالوا: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وحكى عن الذين يظنّون أنّهم ملاقوا الله قولهم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

والحاصل: أنّه سبحانه وتعالى كلّف العباد بما يقدرون عليه، بل على أكثر منه، وإنّما أمرهم بما فيه يسرٌ وسهولة، دون حرج ومشقّة. فلمّا أمرهم بالطهارة بالماء، علم أنّ فيهم مرضى لا يستطيعون استعمال الماء، وعلم أنّ فيهم مسافرون لا يستطيعون حمل الماء في الصحراء، فأباح لهم التيمّم، ثم قال بعد ذلك: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦]، فلو أراد أن يشقّ عليكم لأمركم بحمل الماء في الأسفار، ولكنّه لم يرد أن يحرجكم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]. ولمّا أمر بالصيام، علم أنّ هناك من يشقّ عليهم من مرضى ومسافرين، فأباح لهم الفطر وقال:

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ثمّ قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، أي: لا يشقّ عليكم ويأمركم بما فيه كُلفةٌ وتعب، فعلم بذلك أنّ هذه التكاليف التي أمرهم بها هي في وسعهم وقدرتهم وطاقتهم. هذا بالنسبة إلى الأفعال المأمور بها.

ويقال كذلك في الأفعال المنهيّ عنها، فالذنوب والمعاصي المنهيّ عنها، يقدرون على تركها، ولو كان هناك من يقول: إنّه لا يستطيع تركها، فإنّه غير صادق، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى.

بعد ذلك مرّ بنا أن الشارح تكلّم على الشرعيّ والقدريّ، يعني: أنّ الله سبحانه وتعالى له القضاء والقدر، وله الشرع والأمر. فالمراد بالشرع: هو الذي يكلّف به، ويأمر به. والمراد بالقدر والقضاء: هو الذي قضاه أزلًا وكتبه وقدّره في عالم الغيب، ولم يخيّر فيه، بل جعله أمرًا أزليًّا مقدّرًا مخلوقًا.

فالإرادة مثلًا: شرعيّة وقدريّة، والأمر: شرعيّ وقدريّ، والإذن: شرعيّ وقدريّ، والحكم: شرعيّ وقدريّ، والكتابة: شرعية وقدرية، والكلمات: شرعيّة وقدريّة، وأدلّتها مرّت في كلام الشارح رحمه الله. والفرق بينهما أنّ الأمر الشرعي مكلّف العباد به، فإذا أمرهم أمرًا شرعيًا فإنّهم يمتثلونه، والأمر القدريّ: إذا أخبر بأنّ هذا أمر مقدّر عليهم، أزليّ، فإنّه لا يطلب منهم فعله؛ لأنّه حكمه وقدره.

ويقال كذلك في التحريم، فإذا قيل: ما الفرق بين التحريم القدري والتحريم

الشرعي؟ فالجواب: التحريم القدري: إخبار بأنّ هذا الشيء لا يكون، وأنّ الله حرّمه ومنعه بحيث لا يُتَصوّر ولا يكون أبدًا. وأمّا التحريم الشرعي: فهو نهي، يعني: نهى الله العباد عن أن يفعلوا هذه الأشياء، وأخبرهم بأنّها محرّمة عليهم، والتحريم هو المنع، أي منعناكم من هذه الأشياء، كقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة:٣]، وليس هذا مثل قوله: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ [الأنبياء:٩٥]؛ لأن هذا معناه أنّ الله قدّر أنّها لا تعود، وجعل ذلك ممتنعًا أصلًا.

عرفنا بذلك أنّ هناك فرقًا ظاهرًا بين الأوامر الشرعيّة والقدرية، وبين الإذن الشرعيّ والقدريّ، وما أشبه ذلك. والذي يهمّنا أن نؤمن بالقدريّ، ونؤمن بأنّه حقّ وصدق، نقول: هذا قدرُ الله، وهذه كتابة الله، وهذا تقديره علينا لا مفرّ لنا منه، هذا حكمه الأزليّ على العباد. وأمّا الشرعي: فإنّنا نمتثله ونعمل به، فإنّ قوله مثلًا: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ [المائدة:٤٥]، كتب في الألواح، أي: أوامر شرعية، ومنها: ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ... ﴾ إلى آخره. بخلاف قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، أي: في الأمور السابقة. والفرق بينهما: أنّ الشرعيّ يدين به العباد ويعملون به، والقدري يؤمنون به ويعتقدونه.

ولم يعرف أكثر المبتدعة الفرق بينها، ووقعوا في الخطأ وفي الضلال، فإنّهم لَمّا لم يفرّقوا بين الإرادة الشرعيّة والإرادة القدريّة، جعلوا الجميع مرادًا لله، وجعلوا إرادة الله للمعاصي رضىً بفعلها، فقالوا: إنّ الله لو ما أرادها لما حصلت، ولو أراد

الطاعات لحصلت. نقول: إنّ هذه إرادة قدريّة فلا تقيسوها بالإرادة الشرعيّة ومرّت بنا أدلّتها، فإنّ دليل الإرادة الشرعيّة هو قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء:٢٨]، ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٢٧]، هذه شرعيّة. بخلاف قوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة:١]. فهذه إرادة قدريّة، دالّة على أنّ قدرة الله تعالى أزليّة قديمة، وأنّ العبد ليس له مفرّ مما قدّره عليه. فكذا يكون الفرق بينهما، ويعرف العبد ما هو مأمور بفعله، وما هو مأمور باعتقاده.

يقول النبي ﷺ في خطبة الحاجة: «**مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَا هَادِيَ لَهُ**»(١)، ولا شكّ أنّ الهداية بيد الله تعالى وكذا الإضلال، من هداه الله فذلك نعمة من الله عليه، ومن أضلّه الله فلم يظلمه، وليس للعبد حجّة على الله، بل لله الحجّة البالغة، فإذا شاء هدى، وإذا شاء أضلّ، ومن هداه الله فقد أنعم عليه، وهدايته له فضل منه، ومن أضلّه الله فإنّه عدل منه، وإنّه تعالى لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسْألون، وأيضًا هو المنعم المتفضّل على خلقه.

ورد في بعض الأحاديث: «**لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وهو غَيْرُ ظَالِمٍ لهم، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لهم خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**»(٢). خيرًا من أعمالهم وفضلًا منه. وهو تعالى قد تنزّه عن الظلم في الحديث القدسيّ:

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[1].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فإذا أهلك العباد، أو سلّط بعضهم على بعض، أو سلّط عليهم عقوبة سماوية، أو عاقبهم بالنار، كان ذلك غير ظلم، بل هم يستحقّون ذلك، فإنّه لا يمكن أن يعذّبهم إلا بظلم منهم. يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧]، فالله لا يهلكهم ظلمًا منه لهم، ولا يهلكهم حتّى يقيم عليهم الحجّة، وكذلك أيضًا إذا أنعم عليهم فهو المتفضّل.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه بعد الصلاة: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ الْمَنُّ، وَلَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ»[2]، فالنعمة منه وحده، والتفضّل على الخلق منه وحده، والمنّ منه وحده. ومن أجل ذلك كان له الثناء الحسن وحده. فنعم الله كثيرة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، فما أصابنا من نعمة فهو محض فضل الله، ومحض منّه على عباده، وليس هو باكتسابنا، ولا باستحقاقنا، بل أعمالنا تضعف عن أن نستحقّ هذا الفضل وهذه النعمة، ولكن هو الذي يتفضّل علينا بالنعم والخيرات والتمكين والعطاء

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٣٩٤).

والصحّة والإعزاز. أو يسلّط على من يشاء ما يشاء من المصائب والعقوبات، وكلّ ذلك محض عدله.

وعلى هذا فإنّ المسلم يعتمد على ربّه، ويأتي بالأسباب التي تؤهّله أن يكون من أهل الفضل، وتؤهله أن يستحقّ أن يكون أهلًا للنعمة والخير، ويبتعد عن النّقم والعقوبات التي تكون سببًا للعذاب، فإنّه قد رتّب للنّعم أسبابًا وهي الأعمال الصالحة، وجعلها سببًا لتفضّله، فلنأتِ بالأسباب التي يرحمنا الله بسببها، ورتّب للعقوبات أسبابًا، وهي المعاصي، فلنبتعد عن أسباب العقوبات وهي المعاصي، حتّى نسلم من العقاب ونحظى بالثواب.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أَبَدًا)، الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ تَنْزِيهِ اللَّهِ نَفْسَهُ عَنْ ظُلْمِ الْعِبَادِ، يَقْتَضِي قَوْلًا وَسَطًا بَيْنَ قَوْلَيِ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ، فَلَيْسَ مَا كَانَ مِنْ بَنِي آدَمَ ظُلْمًا وَقَبِيحًا يَكُونُ مِنْهُ ظُلْمًا وَقَبِيحًا، كَمَا تَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ! فَإِنَّ ذَلِكَ تَمْثِيلٌ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ! وَقِيَاسٌ لَهُ عَلَيْهِمْ! هُوَ الرَّبُّ الْغَنِيُّ الْقَادِرُ، وَهُمُ الْعِبَادُ الْفُقَرَاءُ الْمَقْهُورُونَ. وَلَيْسَ الظُّلْمُ عِبَارَةً عَنِ الْمُمْتَنِعِ الَّذِي لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ فِي الْمُمْكِنِ الْمَقْدُورِ ظُلْمٌ! بَلْ كُلُّ مَا كَانَ مُمْكِنًا فَهُوَ مِنْهُ ـ لَوْ فَعَلَهُ ـ عَدْلٌ؛ إِذِ الظُّلْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مَأْمُورٍ مِنْ غَيْرِهِ مَنْهِيٍّ، وَاللَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧]. يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ هَذَا الْقَوْلِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ الَّذِي رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى

نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[1]. فَهَذَا دَلَّ عَلَى شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، وَالْمُمْتَنِعُ لَا يُوصَفُ بِذَلِكَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَهَذَا يُبْطِلُ احْتِجَاجَهُمْ بِأَنَّ الظُّلْمَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مَأْمُورٍ مَنْهِيٍّ، وَاللَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: هُوَ سُبْحَانَهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، وَإِنَّمَا كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ مَا هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، لَا مَا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، قَدْ فَسَّرَهُ السَّلَفُ، بِأَنَّ الظُّلْمَ: أَنْ تُوضَعَ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ، وَالْهَضْمُ: أَنْ يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

---

قال الشيخ:

توضيح لما حكاه عن المعتزلة الذين يقولون: إنّ الظلم هو غير المقدور عليه، الظلم الذي نزّه الله نفسه عنه، هو الشيء الذي لا يمكن ولا يُقدر عليه؛ لأنّ معتقد هؤلاء المتكلّمين من المعتزلة: أنّ العبد هو الذي يهدي نفسه، أو يضلّها، والله لا يقدر أن يضلّ هذا، ولا يهدي هذا، ويجعلون الله عاجزًا، ويوجبون على الله أن يثيب المطيع، فيجعلون ذلك حقًا عليه، والله تعالى ليس عليه حقّ لعباده.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٣٠).

يقول بعضهم[1]:

مَـا لِلعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ كَـلَّا وَلَا سَـعْيٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ
إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَو نُعِّمُـوا فَبِفَـضْلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيْمُ الوَاسِـعُ

وعلى هذا كونهم يوجبون على الله أن يثيب هذا، ويحرّمون عليه أن يعاقب هذا، ويجعلون هذا مستحقًّا بعمله، ولا يجعلون لله تصرّفًا ولا يجعلون له منّة، ولا يجعلون له فضلًا على عباده ورحمة، لا شكّ أنّ هذا تصرّف في أفعال الخالق سبحانه. فمن أجل ذلك ردّ عليهم الشارح، وبيّن أنّ الظلم الذي نفاه الله تعالى عن نفسه، ليس بممتنع ولا هو مستحيل، بل هو مقدور، ولكن الله تعالى لا يفعله، لكونه غير مستحسن، بل هو أمر مستهجن ومستقبح.

ولذلك نزّه الله نفسه في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، دليل على أنّه قادر على أن يظلم، ولكنّه منزّه عن ذلك. وكذلك قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، لا يخافُ ظلمًا بأن يحمل عليه سيئات لم يعملها، ولا هضمًا: أي نقصًا من حسنات قد عملها، بل الله تعالى أعدل من العباد، ولا يمكن أن يظلم هذا فينقصه، أو يظلمه فيزيد في سيئاته، بل له الفضل عليه، فيضاعف الحسنات ويمحو السيّئات، ومن أوبقته سيئاته، فهو الموبَق، ولا يهلك على الله إلّا هالك.

---

(١) راجع (٤/ ٣٤٥).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخَافُ الْمُمْتَنِعَ الَّذِي لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ حَتَّى يَأْمَنَ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَأْمَنُ مِمَّا يُمْكِنُ، فَلَمَّا آمَنَهُ مِنَ الظُّلْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ [طه:١١٢]، عُلِمَ أَنَّهُ مُمْكِنٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٨، ٢٩]، لَمْ يَعْنِ بِهَا نَفْيَ مَا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ وَلَا يُمْكَنُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا نَفَى مَا هُوَ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ مُمْكِنٌ، وَهُوَ أَنْ يُجْزَوْا بِغَيْرِ أَعْمَالِهِمْ. فَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ لَيْسَ اللَّهُ مُنَزَّهًا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ أَصْلًا، وَلَا مُقَدَّسًا عَنْ أَنْ يَفْعَلَهُ، بَلْ كُلُّ مُمْكِنٍ فَإِنَّهُ لَا يُنَزَّهُ عَنْ فِعْلِهِ، بَلْ فِعْلُهُ حَسَنٌ، وَلَا حَقِيقَةَ لِلْفِعْلِ السُّوءِ، بَلْ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ، وَالْمُمْتَنِعُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ!!

وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ هَذَا الْقَوْلِ، فِي مَوَاضِعَ، نَزَّهَ اللَّهَ نَفْسَهُ فِيهَا عَنْ فِعْلِ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ، فَعُلِمَ أَنَّهُ مُنَزَّهٌ مُقَدَّسٌ عَنْ فِعْلِ السُّوءِ وَالْفِعْلِ الْمَعِيبِ الْمَذْمُومِ، كَمَا أَنَّهُ مُنَزَّهٌ مُقَدَّسٌ عَنْ وَصْفِ السُّوءِ، وَالْوَصْفِ الْمَعِيبِ الْمَذْمُومِ. وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، فَإِنَّهُ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ خَلْقِ الْخَلْقِ عَبَثًا، وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ حَسِبَ ذَلِكَ، وَهَذَا فِعْلٌ. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]، إِنْكَارٌ مِنْهُ عَلَى مَنْ جَوَّزَ أَنْ يُسَوِّيَ اللَّهُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ حَسِبَ أَنَّهُ يَفْعَلُ هَذَا، وَإِخْبَارٌ أَنَّ هَذَا حُكْمٌ سَيِّءٌ قَبِيحٌ، وَهُوَ مِمَّا يُنَزِّهُ الرَّبُّ عَنْهُ.

---

قال الشيخ:

كلّ هذا ردٌّ على هؤلاء المبتدعة، فمن عقيدتهم أنّ الظلم الذي نزّه الله نفسه عنه هو المستحيل، الغير الممكن حصوله، وعلى موجب كلامهم يقال: إذن هم آمنون؛ لأن المستحيل ممتنع الوقوع، فإذًا لماذا لا يكونون آمنين من الظلم، وإذا كانوا آمنين منه، فكيف مع ذلك يؤمّنهم زيادة بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٣١]، وقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه:١١٢]؟ لو كان شيئًا مستحيلًا، لَمَا خافوا منه، ولَمَا خوّفهم، ودلَّ على هذا أنّه ما نزّه نفسه إلا عن شيء مقدور له، ولكنّه تعالى نزّه نفسه عنه؛ لأنّه لا يليق، ولأنّه وصف للظلمة الذين يفعلون ما لا يُستحسَن، فيقسرون ويقتلون ظلمًا، ويحبسون، فنزّه نفسه عن مثل هذا. يقال: هؤلاء ملوك ظلمة، ويقال: هؤلاء أمراء ظلمة؛ لأنّهم يبطشون بالنّاس بغير حقّ، فنزّه الله نفسه عن مثل هذه الأفعال.

عقيدة المجبرة الجبرية: هم الذين يجعلون لله الفعل لما يريد، ويقولون: يجوز لله أن يهلك المتّقين، ويجوز له أن يعذّب المؤمنين، ويجوز له أن يثيب الكفّار، وأن يرفع درجاتهم ويجعلهم في أعلى عليّين، وهم كفار فجّار خارجون على الطاعة،

ويجوز أن يعذّب المتقين المطيعين الذين ما عَصَوهُ طرفة عين، وأن يجعلهم في أسفل سافلين. هذا قول المجبرة.

ويقولون إنّهم ليس لهم اختيار، وليس لهم أفعال، وإنّما الفعل فعله، والقول قوله، ويستدلّون بمثل قوله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣].

وعلى قولهم تكون الخليقة ليس فيها عدل، والله تعالى أعدل من أن يضيّع خلقه، وقد مرّت بنا الأدلّة على أنّه سبحانه وتعالى ما خلق الخليقة عبثًا: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦]؛ لا يؤمر ولا يُنهى؟ هذا حسبان باطل. وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥]، أي: قد حسبتم ذلك، ولكنّكم أخطأتم في هذا الحسبان، وما كان ربّكم ليخلقكم ثم ليتركّكم عبثًا، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٢٧]، دلّ على أنّ من اعتقد بأنّه خلقهم لغير حكمة، وخلق المخلوقات هملًا وسُدىً، أنّه من الكافرين الضالين.

ومرّت الأدلّة التي تنفي التسوية بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وتأبى حكمة الله هذه التسوية؛ فالله تعالى يقول: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨]، أي: لا نجعلهم، بل تأبى حكمة الله أن نجعل المتّقين كالفجّار، وأن نجعل المحسنين كالمفسدين في الأرض، بل لا بدّ أن نميّز بينهم، وكما في قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم:٣٥]، لا يجوز، هذا خلاف حكمة الله، أن يسوّي بين المسلم وبين المجرم، فالمسلم له الثواب، والمجرم يستحقّ العقاب. ومثل قوله

تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، هل حسبوا ذلك؟ هذا حسبان باطل، كيف حسب الذين اقترفوا السّيئات أن نجعلهم مثل أهل الحسنات والأعمال الصالحة؟ هذا خطأ، ولا يكون أبدًا.

هذا كلّه من مقتضى قول الأشاعرة أو المجبرة الذين يجعلون لله التسوية بين الفاجر والمؤمن، ولذلك ردّ عليهم الشارح بهذه الآيات: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]، أي: لا نجعلهم، بل لا بدّ أن نميّز بينهم، فالله تعالى خلق هؤلاء وميَّزهم وجعلهم سعداء، وخلق هؤلاءِ وحكم عليهم بالشقاء، وهؤلاء يستحقّون النصر والتمكين في الدنيا، وهؤلاء يستحقون الخذلان والعذاب في الدنيا، وفي الآخرة فريق في الجنّة وفريق في السعير.

قال الشارح:

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ»[1].

وَهَذَا الحَدِيثُ مِمَّا يَحْتَجُّ بِهِ الجَبْرِيَّةُ، وَأَمَّا القَدَرِيَّةُ فَلَا يَتَأَتَّى عَلَى أُصُولِهِمُ الفَاسِدَةِ! وَلِهَذَا قَابَلُوهُ إِمَّا بِالتَّكْذِيبِ أَوْ بِالتَّأْوِيلِ!!

وَأَسْعَدُ النَّاسِ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ، الَّذِينَ قَابَلُوهُ بِالتَّصْدِيقِ، وَعَلِمُوا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ، قَدْرَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعَدَمَ قِيَامِ الخَلْقِ بِحُقُوقِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، إِمَّا عَجْزًا، وَإِمَّا جَهْلًا، وَإِمَّا تَفْرِيطًا وَإِضَاعَةً، وَإِمَّا تَقْصِيرًا فِي المَقْدُورِ مِنَ الشُّكْرِ، وَلَوْ مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ. فَإِنَّ حَقَّهُ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ، وَتَكُونَ قُوَّةُ الحُبِّ وَالإِنَابَةِ، وَالتَّوَكُّلِ وَالخَشْيَةِ، وَالمُرَاقَبَةِ وَالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، جَمِيعُهَا مُتَوَجِّهَةً إِلَيْهِ، وَمُتَعَلِّقَةً بِهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ القَلْبُ عَاكِفًا عَلَى مَحَبَّتِهِ وَتَأْلِيهِهِ، بَلْ عَلَى إِفْرَادِهِ بِذَلِكَ، وَاللِّسَانُ مَحْبُوسًا عَلَى ذِكْرِهِ، وَالجَوَارِحُ وَقْفًا عَلَى طَاعَتِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مَقْدُورٌ فِي الجُمْلَةِ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ تَشِحُّ بِهِ، وَهِيَ فِي الشُّحِّ عَلَى مَرَاتِبَ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. وَأَكْثَرُ المُطِيعِينَ تَشِحُّ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ وَجْهٍ،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

وَإِنْ أَتَى بِهِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، فَأَيْنَ الَّذِي لَا تَقَعُ مِنْهُ إِرَادَةٌ تُزَاحِمُ مُرَادَ اللَّهِ وَمَا يُحِبُّهُ مِنْهُ؟ وَمَنِ الَّذِي لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ خِلَافُ مَا خُلِقَ لَهُ، وَلَوْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ؟ فَلَوْ وَضَعَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ عَدْلَهُ عَلَى أَهْلِ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ بِعَدْلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ ظَالِمًا لَهُمْ.

وَغَايَةُ مَا يُقَدَّرُ، تَوْبَةُ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ وَاعْتِرَافُهُ، وَقَبُولُ التَّوْبَةِ مَحْضُ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ عَذَّبَ عَبْدَهُ عَلَى جِنَايَتِهِ لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ تَابَ مِنْهَا. لَكِنْ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ ـ بِمُقْتَضَى فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ـ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ مَنْ تَابَ، وَقَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، فَلَا يَسَعُ الْخَلَائِقَ إِلَّا رَحْمَتُهُ وَعَفْوُهُ، وَلَا يَبْلُغُ عَمَلُ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَنْجُوَ بِهِ مِنَ النَّارِ، أَوْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، كَمَا قَالَ أَطْوَعُ النَّاسِ لِرَبِّهِ، وَأَفْضَلُهُمْ عَمَلًا، وَأَشَدُّهُمْ تَعْظِيمًا لِرَبِّهِ وَإِجْلَالًا: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1].

وَسَأَلَهُ الصِّدِّيقُ دُعَاءً يَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِهِ، فَقَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[2].

فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ الصِّدِّيقِ، الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

وَالْمُرْسَلِينَ، فَمَا الظَّنُّ بِسِوَاهُ؟ بَلْ إِنَّمَا صَارَ صِدِّيقًا بِتَوْفِيَةِ هَذَا الْمَقَامَ حَقَّهُ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَةَ رَبِّهِ، وَحَقَّهُ وَعَظَمَتَهُ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَعْرِفَةَ تَقْصِيرِهِ. فَسُحْقًا وَبُعْدًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَسْتَغْنِي عَنْ مَغْفِرَةِ رَبِّهِ، وَلَا يَكُونُ بِهِ حَاجَةٌ إِلَيْهَا! وَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الْجَهْلِ بِاللَّهِ وَحَقِّهِ غَايَةٌ!! فَإِنْ لَمْ يَتَّسِعْ فَهْمُكَ لِهَذَا، فَانْزِلْ إِلَى وَطْأَةِ النَّعَمِ، وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحُقُوقِ، وَوَازِنْ مِنْ شُكْرِهَا وَكُفْرِهَا، فَحِينَئِذٍ تَعْلَمُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ.

---

قال الشيخ:

خلاصة هذا الكلام دائر حول هذا الحديث الذي أورده الشارح، وهذا الحديث أنكرته المعتزلة، واحتجّت به القدريّة، ولكنّه حجّة لأهل السنّة. صحيح أنّ الله تعالى لو عذَّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم؛ لأنّ ما عملوه من الأعمال، فهو بفضله، فهو الذي هداهم، وهو الذي أعطاهم، وهو الذي خوّلهم، وهو الذي سخّر لهم، إذن فإذا عذّبهم فإنّه لا بدّ أنّ يعذّبهم على شيء من التقصير، حتّى ولو كانوا مؤمنين ومتّقين؛ لأنّ هذا الإيمان وهذا التُّقى محض عطاء الله، ومحض فضله؛ ولذلك يقول النبيّ ﷺ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»[1]، فأعمالنا لا تدخلنا الجنّة بمحضها، حتّى يرحمنا الله معها، يدخل الجنّة

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

برحمته من يشاء، يقول تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١].

وإذا كان العباد مهما عملوا، فإنّهم بحاجة إلى رحمه الله، عُلِم أنّهم دائمًا يسألون ربّهم أن يعمّهم بواسع رحمته، وهو سبحانه أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم. وقد أخبر النبيّ ﷺ أنّ رحمة الله تعالى واسعة يرحم بها عباده، فقال ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِئَةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأرض جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذلك الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حتى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عن وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[1]. وهذا معنى كونه كتب على نفسه الرحمة، وقال ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»[2]. ولأجل ذلك كان من أسمائه الحسنى الرحمن الرحيم، وأخبر بأنه يرحم من عباده الرحماء، وقال ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ»[3]، وقال: «مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ»[4]. فكلّ ذلك دليل على أنّه تعالى يجود على من يشاء ويرحمهم.

ولكن أعمالهم مهما كانت ومهما كثرت فهي تقلّ عن أن يستحقوا بموجبها

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحدها الجنّة، ولو عملوا ما عملوا، ولو كُلِّفوا بأن يعملوا كلّ الأعمال ما أطاقوا، ولأجل ذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، استثقلوا هذه الآية، حتّى أنزل الله قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وقد فسّر عبد الله بن مسعود ﷺ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، قال: «أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر»[1].

فالإنسان مخلوق للعبادة، مأمور بأن يشغل كلّ أعماله وكلّ أفكاره وكلّ جوارحه بعبادة الله، ونظره وبصره يجعله كلّه عبادة، فلا ينظر إلا نظر اعتبار ونظر رحمة وإذا نظر فيما يضرّه أو نظر إلى ما لا يحلّ له، فقد عصى الله بهذا النظر، وكذلك السمع الذي جعله الله واسطة يسمع به الأصوات نعمة من الله، مأمور بأن لا يستعمله إلا فيما ينفعه من العلم والوعظ والخير والإرشاد والتوجيه والكلام النّافع، ولا يستمع به ما يضره من اللهو واللعب والضحك والباطل والغيبة والنميمة، ومن استمع إلى ذلك فقد كفر هذه النعمة، وما شكرها.

وهكذا أيضًا نعمة النطق بهذا اللسان الذي جعله الله معبّرًا عن حاجته، فيجب ألاّ يتكلّم به إلا بخير ويجعله مستعملًا في الذكر والشكر وفي الأمر بالخير والدلالة عليه، والنهي عن الشر، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٢٩)، والطبري (٤/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢).

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

فإذا فعل ذلك كان شاكرًا لهذه النعمة، وإن تكلّم فيما لا يعنيه، أو لا يجوز له، أو ما لا فائدة فيه، يكون كافرًا لهذه النعمة.

وهكذا يقال في التفكير والعقل الذي منّ الله به على الإنسان، فيجب أن يستعمله فيما يفيده، فيفكّر في خلق الله وفي آياته، وتدبّر آياته وتدبّر أوّل الأمر وآخره، فإذا فعل ذلك كان شاكرًا لهذه النّعمة، ولكن إذا صرف شيئًا من ذلك فيما يضرّه وجعل تفكيره وعقله في الأشياء الدنيئة، أو في ضرر الإسلام والمسلمين، أو صرف عقله وتفكيره في تدبير أموره الدنيويّة، ونسي أموره الدينيّة فقد كفر هذه النعمة.

وهكذا يقال في نعمة الجوارح، فاليدان يشكر ربه إذا استعملها وبطش بهما في الشيء الذي يقرّبه إلى الله، والرجلان يسير بهما في الشيء الذي ينفعه، وهكذا.

وقد عرف أنّ النّاس قد يقعون في أخطاء، فكيف مع ذلك يزكّون أنفسهم ويدّعون أنّهم من المقرّبين، ويدّعون أنّهم مستحقّون لكذا وكذا، وأنّ حقًا على الله أن يعطيهم، وأنّه إذا لم يعطهم كان ظالمًا لهم، وأنّه إذا عاقبهم وأجدب عليهم وسلّط عليهم الفقر والفاقة فهو ظالم لهم منه، ونحو ذلك.

نقول: إنّ هذا سوء ظنّ بالله تعالى، وأن القائلين بذلك أحسنوا الظن بأنفسهم، والإنسان عليه أن يعود إلى نفسه، وأن يلومها، وأن ينسب التقصير إليها، وأن يحاسبها أشدّ المحاسبة، بذلك يكتبه الله تعالى من أهل الرحمة والثواب،

أمّا إذا لم يحاسب نفسه، واعتقد أنّه من المحسنين ومن المتّقين، وأنّه فعل وفعل، وأخذ يمدح نفسه، ويرفع من شأن نفسه، ونحو هذا، فإن هذا يسبب بطلان عمله، وردّه عليه، وإذا كان نبيّنا ﷺ يعترف بأنّ لا يدخل هو الجنّة إلا أن يرحمه الله، فيقول: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1].

وكذلك الملائكة، فمن الملائكة من هم سجود من حين خُلقوا إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة، يقولون: يا ربِّ سبحانك، ما عبدناك حقَّ عبادتك. فكيف بنا نحن الذين أضعنا الوقت الكثير من حياتنا، ونحن الذين اتّبعنا كثيرًا من أهوائنا، ومع ذلك نزكّي أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]؛ لأنّ الله سبحانه هو أرحم بعباده، فيأتي العبد بأسباب الرحمة، ويعتقد بأنّه إذا لم تعمّه رحمة الله، فإنّه خاسر وأنّه جعل للرحمة أهلًا فقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، إلى آخر الآيات. ذكر أهل الرحمة، فليس كلّ من تمنّاها تحصل له، وإذن فليس كلّ واحد ينجيه عمله إلا برحمة الله، ورحمة الله لها أهلها، وأسباب رحمة الله سهلة يسيرة على من يسَّرها الله عليه.

نسأل الله سبحانه أن يُوزِعنا أن نشكر نعمته التي أنعم علينا وعلى والدينا، ونسأله أن يعاملنا برحمته ولا يعاملنا بعدله، فإنّه سبحانه هو المنعم بكلّ أنواع

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

الإنعام، فهو الذي أعاننا على ذكره وشكره، وهو الذي هدانا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فالهداية فضل منه ونعمة، وكذلك الإعطاء والمنّة والإلهام، كلّ ذلك محض فضله على عباده، ولأجل ذلك عباداتهم إلهام منه وتوفيق، فهو الذي أعانهم ووفّقهم وسدّدهم وقوّاهم وجعلهم مطيعين له، ولو شاء لأضلّهم جميعًا، ولو شاء لهداهم جميعًا، وله المشيئة النافذة، وله الحكمة البالغة، ولا يسأل عمّا يفعل، وهم يسألون، ونعمه على عباده لا تحصى، وأياديه عليهم لا تستقصى، وإذا مسّهم بخير فهو محض فضله، وإذا مسّهم بضرّ فهو ابتلاء منه وامتحان، وفي الصبر على ذلك أجر عظيم. ولذلك يقول بعضهم[1]:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّـهِ نِعْمَةً ... عَـلَيَّ لَـهُ فِي مِثْلِهَـا يَجِـبُ الـشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُـوغ الـشُّكْرِ إِلَّا بِفَـضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَـمَّ سُرُورُهَـا ... وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَـا الأَجْرُ

وَمَـا مِـنْهُمَا إِلَّا وَلَـهُ فِيـهِ مِنَّـة ... تَضِيقُ بِهَا الأَوْهَامُ والبَرُّ والبَحْرُ

فالعبد إذا قال: الحمد لله، فهذه نعمة ألهمه الله وأعانه أن حَمَده، فهذه النعمة التي هي الإلهام، تحتاج إلى نعمة أخرى يشكرها بها، فإذا قال أشكر الله وأحمد الله، فهذه نعمة أخرى يستحقّ أن يشكرها، وإذا قال: ربي لك الحمد، فهذه نعمة أخرى تستدعي الحمد. وكذلك إذا ذكر الله وكبّره وهلّله وسبّحه واستغفره، فكل

---

(١) الأبيات لمحمود الوراق، أخرجها البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ١٩٠).

هذا من فضل الله، وكلها نعم لها أن تشكر، ولأجل ذلك كانت لله النعمة على عباده، وله الفضل عليهم. كما مرّ بنا في الحديث: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وهو غَيْرُ ظَالِمٍ لهم، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لهم خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»[1]؛ وذلك بأنّه لا يظلم أحدًا، ولا يعذّبهم إلا على تقصير منهم، أي تقصير في شكر الربِّ، ولو حاسبهم على أعمالهم، ولو كانت أمثال الجبال، لم تقاوم أصغر نعمة عليهم، سواء أكانت نعمة حسّيّة أم معنوية؛ كهدايتهم وتعليمهم وفطرتهم الحسنة، ونحو ذلك. فإنّه لو حاسبهم على هذا العطاء لعذّبهم.

ومن أجل ذلك يقول النبي ﷺ في الحساب اليسير، بأنّ ذلك حساب العرض؛ أن تعرض عليهم أعمالهم دون أن يناقشوا فيها، ومن أجل ذلك يقول ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»[2]. من ناقشه الله الحساب على دقيق النعم وجليلها، ودقيق الأعمال وكبيرها، فإنّه لو كانت حسناته أمثال الجبال، لا تقوم أمام أصغر نعم الله ـ عزّ وجلّ ـ عليه، فإن حاسبهم حسابًا شديدًا عسيرًا لابد أن يعذّبهم. فالنبيّ ﷺ يقول: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[3]. وهذا وهو

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٢٥٩).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

سيد العالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الذي غَفَرَ الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وهو الذي تفطّرت قدماه لطول قيامه في الصلاة، ويقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»[1]؛ يعترف بأنّه بحاجة إلى رحمة الله، فنحن أولى بأن نحتقر أعمالنا، وأن نظهر فقرنا وفاقتنا، ونحن أحرى بأن نتضاعف عند ربّنا، ونظهر العجز، ونظهر الذلّ الذي نحتاج معه إلى التقوية، ونظهر الذنوب التي نحتاج معها إلى المغفرة، فلو لم يأخذ عباده بعفوه لهلكوا.

ولذلك لا ينبغي لنا أن نزكّي أنفسنا، ونتباهى بكثرة أعمالنا، ونقول: نحن أكثر عملًا من فلان، ونحن أكثر حسنات من هذا وهذا، فإنّ هذه التزكية قد تكون سببًا لأن يحبط الله العمل، ولذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩]. فهو الذي يمدح من يريد، ومن يستحقّ المدح، ولذلك فليحتقر المرء عمله حتى يضاعفه الله له أضعافًا كثيرة، وليطلب من ربّه المغفرة، وليدخل عليه من باب الذلّ والافتقار، وربّنا سبحانه عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَفِي دُعَاءِ الْأَحْيَاءِ وَصَدَقَاتِهِمْ مَنْفَعَةٌ لِلْأَمْوَاتِ.

---

قال الشارح:

اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ الْأَمْوَاتَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ سَعْيِ الْأَحْيَاءِ بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا تَسَبَّبَ إِلَيْهِ الْمَيِّتُ فِي حَيَاتِهِ.

وَالثَّانِي: دُعَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ، وَالصَّدَقَةُ وَالْحَجُّ، عَلَى نِزَاعٍ فِيمَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ ثَوَابِ الْحَجِّ، فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: أَنَّهُ إِنَّمَا يَصِلُ إِلَى الْمَيِّتِ ثَوَابُ النَّفَقَةِ، وَالْحَجُّ لِلْحَاجِّ. وَعِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ: ثَوَابُ الْحَجِّ لِلْمَحْجُوجِ عَنْهُ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَاخْتُلِفَ فِي الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، كَالصَّوْمِ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالذِّكْرِ، فَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ وَجُمْهُورُ السَّلَفِ إِلَى وُصُولِهَا، وَالْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ عَدَمُ وُصُولِهَا.

وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى عَدَمِ وُصُولِ شَيْءٍ الْبَتَّةَ، لَا الدُّعَاءِ وَلَا غَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمْ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَكِنَّهُمُ اسْتَدَلُّوا بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ»[1].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِمَا كَانَ تَسَبَّبَ فِيهِ فِي الحَيَاةِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ تَسَبَّبَ فِيهِ فِي الحَيَاةِ فَهُوَ مُنْقَطِعٌ عَنْهُ.

وَاسْتَدَلَّ المُقْتَصِرُونَ عَلَى وُصُولِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَدْخُلُهَا النِّيَابَةُ، كَالصَّدَقَةِ وَالحَجِّ، بِأَنَّ النَّوْعَ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ النِّيَابَةُ بِحَالٍ، كَالْإِسْلَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، يَخْتَصُّ ثَوَابُهُ بِفَاعِلِهِ لَا يَتَعَدَّاهُ، كَمَا أَنَّهُ فِي الحَيَاةِ لَا يَفْعَلُهُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَنُوبُ فِيهِ عَنْ فَاعِلِهِ غَيْرُهُ. وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ[2] بِسَنَدِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ».

---

قال الشيخ:

بعدما انتهى الكلام على القضاء والقدر جاء الطحاوي بهذه العبارة ردًّا على المبتدعة، وهي: هل ينتفع الأموات بشيء من أعمال الأحياء أو لا؟

صحيح أنّ الأموات قد طُوِيَتْ صحف أعمالهم، وقد ختم عليهم، فلا يستطيعون زيادة الحسنات ولا نقص السيئات؛ لأنهم أنهوا حياتهم ودخلوا في

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في السنن الكبرى (٢٩٣٠) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

عالم البرزخ الذي هو أوّل منازل الآخرة، فكأنّهم ختم على أعمالهم، ولكن الأحياء قد يهدون إليهم بعض الأعمال، هذه الأعمال التي يهديها إليهم الأحياء قد تكون أعمالًا بدنية أو أعمالًا قوليّة أو أعمالًا ماليّة. فالأعمال البدنيّة: كالصلاة والطواف والصوم وما أشبهها، والأعمال الماليّة: كالصدقات والنّفقات والأضاحي، والأعمال القوليّة: كالدّعاء والذكر والاستغفار وما أشبهها.

ولا شكّ أنّهم ينتفعون بالدّعاء، بأن يدعو لهم الأحياء، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[الحشر: ١٠]، نحن ندعو بهذا للذين سبقونا بالإيمان، ولو كنّا لم نعرفهم، ولو كان بيننا وبينهم مئة سنة أو أكثر.

وكذلك ينتفعون بالصلاة عليهم، وأوّلها: الصلاة على الميّت، ولو لم يكن لهم بها نفع لم تُشرع. وكذلك الأعمال التي كانوا سببًا فيها يبقى لهم أجرها، فإذا تصدّق أحدهم بصدقة، واستمرّت تلك الصدقة، يبقى ذلك الأجر مستمرًا، وذلك مثل: الأحباس والأوقاف التي ينتفع بها، فهذه يصل أجرها إليهم. وكذلك البيوت التي يُنتفع بها، كالمساجد، فإذا بنى مسجدًا فإنّه يأتيه أجره، ولو بعد موته بمئة سنة أو أكثر، ما دام يُصلَّى في هذا المسجد. وكذلك إذا بنى مدرسة لتحفيظ القرآن وطلب العلم النافع، فإن ذلك أيضًا يجري عليه أجره، وهو من باب الصدقة الجارية. وكذلك غلّات الأوقاف، فإذا جعل غلّة هذا الوقف صدقات أو في جهاد، كان ذلك أيضًا من الصدقة الجارية التي يأتيه أجرها بعد

موته. وكذلك إذا كان قد أورث علمًا ينتفع به، وألّف كتبًا كتبها وجعل فيها علومًا نافعة، فإنّه مادام يُقرأ فيها ويدعى له فأجره عليها مستمر إن شاء الله. وهكذا إذا نشر علمًا أو طبع مصاحف أو أنفق على كتب علم ونشرها، وصار ينتفع بها وتقرأ ويدعى لمن نشرها، فهذه من الأعمال الماليّة التي ينتفع بأجره منها بعد موته.

وكذلك كلّ إنسان كان متسبّبًا بعملٍ من الأعمال النافعة، ذكروا من ذلك مثلًا: الأحباس التي في الطرق وينتفع بها، كالمياه التي ينتفع بها ويشرب منها أبناء السبيل، وكذلك حفر الآبار التي ينتفع بها المارّة ونحوهم، وإجراء الأنهار، وإصلاح الطرق التي يمرّ بها المسلمون وينتفعون بها، وإضاءتها إن احتاجت إلى ذلك، وجعل المرافق فيها كالمياه مثلًا، كل ذلك من الأعمال الخيريّة التي إن فعلها احتسابًا كان له أجر. وكذلك إذا جعل غلّة أوقافه في تجهيز الجيش للجهاد، أو تجهيز الأموات، فإنّ ذلك أيضًا من الأعمال الصالحة، ويستمرّ أجره عليها ما دام يُنتفع بها؛ لأنّ هذا ممّا أنفق فيه.

أمّا الأعمال البدنيّة فقد اختُلف فيها، وقد ورد في الأثر: «**لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ**»، ولكنّ ذلك محمول على الأحياء؛ لأن الأحياء قادرون، ولا يجوز لأحدهم أن ينوب عن أحد، فلا تقول لولدك: صلِّ عني الظهر أو العصر ولو كان ولدك؛ لأنّ هذه العبادة تتعلّق ببدنك، فلا ينوب بها عنك أحد، وكذلك لو أحرمت بنسُكٍ فلا تقل لولدك أو عبدك: طف عنّي طواف الإفاضة، أو قف عنّي بعرفة؛ لأنّها

عمل بدنيّ لا يقوم فيه أحدٌ عن أحدٍ. وكذلك لا تقل لأحد: صم عنّي هذا الشهر، فإن هذا لا يجوز ذلك.

ولا يجوز التوكيل في مثل هذه الأعمال؛ لأنّها متعلّقة بالبدن، ولأنّ الحكمة فيها أن يفعلها العامل ببدنه، ويشعر بذله وضعفه بين يديّ ربّه، فإذا كان المتذلل غيره لم يتأثّر بذلك، فالحكمة في شرعيّة الصلاة: أن المصلّي يخضع ويخشع ويتواضع، ولا يحصل له أجر إذا تواضع غيره، ولو قال المصلي: أهديت صلاتي لك، لم يجز ذلك؛ لأنّه لا بدّ وأن يكون هذا العمل من نفسه. وكذلك الحكمة في الصيام: حصول ألم الجوع والجهد والصبر على ذلك، فإذا كان هو يأكل ويشرب ويتمتّع، والذي صام غيره، فلا تحصل المصلحة التي هي تأثّره بهذا الصيام، فيكون أجر الصيام لمن صامه لا له. وإن كان في ذلك استثناء كما سيأتي.

قال الشارح:

وَالدَّلِيلُ عَلَى انْتِفَاعِ الْمَيِّتِ بِغَيْرِ مَا تَسَبَّبَ فِيهِ، الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ.

أَمَّا الْكِتَابُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]. فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِاسْتِغْفَارِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَبْلَهُمْ، فَدَلَّ عَلَى انْتِفَاعِهِمْ بِاسْتِغْفَارِ الْأَحْيَاءِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى انْتِفَاعِ الْمَيِّتِ بِالدُّعَاءِ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى الدُّعَاءِ لَهُ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ، وَالْأَدْعِيَةُ الَّتِي وَرَدَتْ بِهَا السُّنَّةُ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ مُسْتَفِيضَةٌ. وَكَذَا الدُّعَاءُ لَهُ بَعْدَ الدَّفْنِ، فَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ[1]، مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ».

وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ زِيَارَةِ قُبُورِهِمْ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[2]، مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ أَنْ يَقُولُوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ». وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[3]

---

(١) برقم (٣٢٢١).

(٢) برقم (٩٧٥).

(٣) برقم (٩٧٤).

أَيْضًا، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ: كَيْفَ تَقُولُ إِذَا اسْتَغْفَرَتْ لِأَهْلِ الْقُبُورِ؟ قَالَ: «قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ.

وَأَمَّا وُصُولُ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1]، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[2]، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي تُوُفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا، فَهَلْ يَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِي الْمِخْرَافِ صَدَقَةٌ عَنْهَا. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي السُّنَّةِ.

وَأَمَّا وُصُولُ ثَوَابِ الصَّوْمِ، فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3]، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ». وَلَهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤).

(٢) برقم (٢٧٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

نَظَائِرُ فِي «الصَّحِيحِ».

وَلَكِنَّ أَبُو حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ قَالَ بِالْإِطْعَامِ عَنِ الْمَيِّتِ دُونَ الصِّيَامِ عَنْهُ؛ لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمُتَقَدِّمِ. وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.

وَأَمَّا وُصُولُ ثَوَابِ الْحَجِّ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[1]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ، أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا اللَّهَ، فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ». وَنَظَائِرُهُ أَيْضًا كَثِيرَةٌ.

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ يُسْقِطُهُ مِنْ ذِمَّةِ الْمَيِّتِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَجْنَبِيٍّ، وَمِنْ غَيْرِ تَرِكَتِهِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ، حَيْثُ ضَمِنَ الدِّينَارَيْنِ عَنِ الْمَيِّتِ، فَلَمَّا قَضَاهُمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدَتُهُ»[2].

وَكُلُّ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى قَوَاعِدِ الشَّرْعِ، وَهُوَ مَحْضُ الْقِيَاسِ، فَإِنَّ الثَّوَابَ حَقُّ الْعَامِلِ، فَإِذَا وَهَبَهُ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ لَمْ يُمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا لَمْ يُمْنَعْ مِنْ هِبَةِ مَالِهِ فِي حَيَاتِهِ، وَإِبْرَائِهِ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

---

(١) برقم (١٨٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠)، والحاكم (٢/ ٥٨)، والدارقطني (٣/ ٧٩)، والبيهقي (٦/ ٧٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣٩): «رواه أحمد والبزار، وإسناده حسن».

وَقَدْ نَبَّهَ الشَّارِعُ بِوُصُولِ ثَوَابِ الصَّوْمِ عَلَى وُصُولِ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، يُوَضِّحُهُ: أَنَّ الصَّوْمَ كَفُّ النَّفْسِ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ بِالنِّيَّةِ، وَقَدْ نَصَّ الشَّارِعُ عَلَى وُصُولِ ثَوَابِهِ إِلَى الْمَيِّتِ، فَكَيْفَ بِالْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ عَمَلٌ وَنِيَّةٌ؟

---

قال الشيخ:

هذه الأدلّة لمن قال بأنّه ينتفع الميّت بأعمال الحيّ التي يهديها إليه.

فانتفاعه بالأقوال مثل الذكر والاستغفار والدعاء له وما أشبه ذلك، دليله هذه الأحاديث، ولو كانت جاءت في الاستغفار للأموات؛ لأنّ دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قال الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»[1]. وسواء كان ذلك الذي دعوت له حيًّا أو ميّتًا. وكذلك أيضًا أخبر الله تعالى بأنّ الملائكة تستغفر للمؤمنين، فدلَّ على أنّهم ينتفعون بفعل غيرهم؛ لأنّ هذا العمل الذي يُهدى إليهم يُعدّ تبرّعًا من ذلك العامل، فإذا دعا لك، واستغفر لك، فإنّه متبرّع لك، ولا يدخل ذلك في الآية التي استدلّ بها المانعون من المبتدعة، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]. كثيرًا ما يستدلّ بهذه الآية المانعون، الذين يمنعون الإهداء إلى الأموات، فيمنعون الأضحية عنهم، ويمنعون القراءة لهم، أو نحو ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٣) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

والآية إنّما فيها الملكية، أي: لا يملك الإنسان إلّا سعيه، أمّا سعي غيره فلا يقدر عليه، ولا يقدر الميّت أن يأخذ من أعمال أولاده، أو أعمال زوجاته، ولو كانوا يحبّونه، ولعلّ هذا أيضًا في الدّار الآخرة، كما ورد في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]؛ «أنَّ الوالد يتعلق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أي والد كنت لك؟ فيثني خيرًا، فيقول له: يا بني، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك، أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا، ثم يتعلق بزوجته فيقول: يافلانة، أي زوج كنت لك؟ فتثني خيرًا، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبيها لي، لعلي أنجو بها مما ترين، فتقول: ما أيسر ماطلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا، إني أتخوف مثل الذي تتخوف»[1]. وهكذا. ففي الدار الآخرة لا ينتفع أحد إلا بعمله، أما في الدنيا فلا مانع من أن يهدي الحيّ للميّت، أو يتصدّق عنه، أو يدعو له؛ حيث إنه تبرّع بذلك.

وقد وردت الأدلّة في الدعاء للميّت في «سنن أبي دواود»[2] بسند صحيح أنّ النبيّ ﷺ يقول: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ». أي: ادعوا له وأنتم صادقون بالدعوات الجامعة. وأيضًا حديث عوف بن مالك ﷺ قال: صلى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٧٨) عن عكرمة رحمه الله.

(٢) برقم (٣١٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

رسول اللَّـهِ ﷺ على جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ من دُعَائِهِ وهو يقول: «اللهم اغْفِرْ له وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عنه، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ من الخَطَايَا كما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ من الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا من دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا من أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا من زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَقِهِ فِتْنَةَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ»، قال عَوْفٌ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ لو كنت أنا المَيِّتَ؛ لِدُعَاءِ رسول اللَّـهِ ﷺ على ذلك المَيِّتِ[1]. وهذا تعليم منه لأمّته أن يدعو بمثل هذه الدعوات على ذلك الميت، وإن لم تكن معيّنة مخصّصة، بل يدعو بها وبما يماثلها، ولو كان ذلك لا ينفع الميّت لم تُشرع صلاة الجنازة.

وكذلك بعد الموت وبعد الدفن، مر بنا أيضًا أنّه ﷺ كان يأمر أصحابه أن يسألوا له التثبيت، ويقول: «إِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»[2]. أي: أن يقولوا: اللهمّ ثبّته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أو أن يقولوا: اللهمّ ثبّته عند اللقاء، وما أشبه ذلك. فدلّ على أنّه ينتفع بذلك.

وكذلك أيضًا مرّ بنا الدعاء للأموات عند زيارة قبورهم، وأنّه ﷺ كان يعلّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ من الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لنا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ»[3]. فهذا دعاء

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٦٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

لهم بالمغفرة والعافية، مما يدلّ على أنّهم ينتفعون بذلك، وأنّهم يحتاجون، إليه وأنّهم يأتيهم من دعوات الأحياء حسنات كثيرة، يزدادون بها حسنات.

والقصص في ذلك كثيرة مشهورة، أشار إليها كثير من العلماء، ومن أراد التوسّع في هذا فليقرأ كتاب «الروح» لابن القيم رحمه الله. فإنّه استوفى ما يتعلّق بهذه المسائل، ولعلّ الشارح لخّص هذا منه. وكذلك لتلميذه ابن رجب كتابه الذي سمّاه «أهوال القبور»، وكلّها موجودة مشتهرة، وقد تكلّم فيه عن هذه المسائل، وأوضح ما يقال فيها.

كذلك مرّت بنا الأعمال البدنيّة، التي يعملها الحيّ عن الميّت، وفي انتفاع الميت بها خلاف، فقد ذهب الإمام أحمد في المشهور عنه أنّه لا يُصام عن الميت إلَّا النّذر، أي: لا يُصام عنه أيام رمضان؛ لأنّ في الحديث أنّ امرأة قالت: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عنها؟ قال: «أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ»[1]. فشَبّه الصوم عنها بالدّين، ولَمّا كان صوم نذر خصّه أحمد بالنذر، ومنع صيام الفرض، واستدلّ بقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: «لَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ»[2]. وقد عرفنا أنّ هذا الحديث محمول على الأحياء، بمعنى: لا يصوم حيّ عن حيّ، ولا يصلّي حيّ عن حيّ. أمّا في الأموات فقد صحّ هذا الحديث، وصحّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه (٤٥٠).

حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[1].

ولم يخصّ ذلك بنذر ولا بفرض، فدلّ على أنّه من المشروعات، فيُصام عنه القضاء ونحو ذلك. وإذا أطعموا عنه أجزأ عنه ذلك، سواء أكان الصوم عليه نذرًا أم فرضًا.

أما النفل عنه: كأن تصوم يومًا نفلًا وتقول: أهدي ثواب صيام هذا اليوم لوالدتي. ونحو ذلك. فهذا محلّ خلاف أيضًا، ولعلّ قياس الأدلّة أنّه جائز، ما دام سقط عنه الفرض بتطوّعك عنه، ولعلّ السبب في ذلك أنّك مأجور على هذا الصيام، ولو كان عملًا بدنيًّا، وقد أهديت لقريبك هذا تطوّعًا واختيارًا، فما المانع أن يكون أجره له؟! فهذا يقال في الصيام، ويقال أيضًا في الصلاة إذا أهدى صلاة له، وإن لم يكن ذلك مشهورًا.

وأمّا الصدقات: فلا شكّ في وصولها، سواء كانت من الميّت كالأحباس التي يوصي بها، أو كانت تبرّعًا من الحيّ، فلا شكّ في أنّه يصله أجرها إذا تصدّقت عنه صدقة خاصة، كصدقة الأضحية، وكذلك الصدقة في رمضان بطعام أو لحم أو كسوة على مستحقّ، أو نقود يُنتفع بها، وأهديت أجرها لأخيك أو لأبيك، فإنّه ينتفع بذلك ويصل إليه أجرها. وكذلك كلّ الأعمال الماليّة ونحوها.

أمّا العمل الذي يتكوّن من العمل البدنيّ والمال، مثل: الحجّ، فالبدني: ركوب الحاجّ وتعبه في بدنه وإحرامه وطوافه ووقوفه ورميه، وما أشبه ذلك. أما الماليّ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

فنفقته في ذهابه وإيابه، وذبيحته التي يذبحها فديةً، هذه أعمال ماليّة. فإن كان هذا المال من الميّت أو من تركته إذا أوصى بها أو نحو ذلك فإنّ أعمال هذا العامل تكون لهذا الميّت؛ لأنه وصل إلى تلك المشاعر بسبب هذا المال، وكأنّه لم يكن يقوى على الوصول إليها لولا ذلك المال، فكان العمل متسبّبًا عن ذلك المال، فكان أجره لصاحب ذلك المال. ولذلك يقولون: تصحّ الاستنابة في الحجّ والأجر للمحجوج عنه الذي دفع المال. والنّاس على هذا.

ونقول تعليقًا على هذا: إنّ الذي يحجّ عن غيره بمالٍ يأخذه، لا يجوز ذلك له إلَّا إذا كان عاجزًا عن الحجّ بماله، كالفقير الذي لا يستطيع الوصول إلى الحجّ لفقره، فيأخذ هذا المال ويستعمله ليصل إلى المناسك، فيؤجر على حجّه، ويكون الأجر الأصليّ لصاحب المال.

أمور العقيدة تتعرّض لكلّ شيء فيه خلاف مع المبتدعة، ولو كان من الفروع، ولو كان المخالف فيه مخالفًا لنصٍّ ظاهر، ولو كان المخالفون فيه قليلًا. ومن ذلك: مسألة وصول الثواب إلى الأموات، كالأعمال التي يعملها الأحياء إلى الأموات، ويسمّى: إهداء الأعمال إلى الأموات. وقد ورد ما يدلّ على وصول بعض الأعمال، وخصّها بعضهم بما تسبّب فيه الميّت؛ كقوله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

فالصدقة الجارية: كالأوقاف والأحباس التي وقفها في حياته، كبناء المساجد، وعمل سبل الماء ينتفع بها ابن السبيل، وبناء المدارس، وكذا الصدقات التي فيها غلاَّت، كوقف ثمار النخيل على الفقراء أو الحجّ أو الجهاد. ونحو ذلك.

وأمّا العلم الذي ينتفع به: فهو الكتب التي كتبها وألّفها، أو العلم الذي علّمه من يوصله إلى النّاس، فإنّه ما دام ينتفع به يأتيه أجر.

وأمّا الولد الصالح: فيعمّ الذكر والأنثى من ذريّته وذريّة ذرّيّته، الذين يدعون له. وأصل الدعاء: سؤال الله للميّت مغفرة ورحمة وثوابًا وتخفيف حساب، ونحو ذلك.

والأحياء يدعون للأموات، وأوّل ما يدعون له في صلاتهم على الجنازة، عندما يقدّم الميت بين يديّ المصلين، فيدعون له بالرحمة والمغفرة، وبتكفير الذنب، وإدخال الجنّة، وما أشبه ذلك. وهو ينتفع بذلك؛ لأنّ هذا من السنّة.

وأما بقيّة الأعمال: فاتفقوا بأنّ من تبرّع بصدقة عن ميّت يصله أجرها، سواء كانت عينًا أو طعامًا أو لحمًا أو كسوة، كل ذلك داخل في قوله ﷺ: «إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ». وتلك الصدقة تعمّ ما إذا كان الميّت هو الذي سبّل تلك الأسبال، أو تصدّق بها عنه ذريّته، أي: تبرّعوا عنه بمال يتصدّق بغلّته، فينتفع هو بتلك الصدقة التي تصدّقوا بها عنه، وجعلوا أجرها للميت، ويدخل في ذلك الأضاحي إذا أوصى بها، أو ذبحت عنه، فإنّها من جملة الصدقات.

وأمّا الصدقات الأخرى: فيصل أجرها، فإذا تصدّق عنه ولده أو قريبه، صدقة على فقير أو مسكين، أو ابن سبيل، أو على ذي حاجة، قريب أو بعيد، ثمّ

أهدى أجرها للميّت، نفعه ذلك. وكذلك إذا أطعم الطعام، أو كسا كسوة، ونوى أجرها لميّته، نفعه ذلك؛ لأنّ هذا كلّه من الصدقات التي إذا تبرّع بها ونوى أجرها للميت، وصل أجرها بمجرّد النيّة. ويدخل في ذلك أيضًا الصدقات التي يتبرع بها غير القريب، كأن يتصدّق عنه أحد معارفه؛ لأنّه نفعه، أو لأنّه نفع غيره من المسلمين، فإنّ ذلك يصل إليه.

ولا شكّ أيضًا أنّ الدعاء يصل إلى الأموات أجره، وقد علّمنا النبيّ ﷺ الصلاة على الميّت، والدعاء له، وكذلك فعل ذلك بنفسه، فدعا بهذه الأدعية للميّت، ودعا بالدعاء العام كقوله: «**اللهم اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا**»[1]. ولولا أنّه ينتفع بذلك لَمَا شرع هذا الدعاء، وكذلك الدعاء إذا زار القبور، فقد علّم الصحابة أن يدعوا للأموات: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ من الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إن شَاءَ اللَّهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لنا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ**»[2]. والسلام وحده دعاء، فيسألون الله لهم السلامة من العذاب، والسلامة من الآفات ونحوها.

وكلّ ذلك دليل على أنّه يصلهم الدعاء؛ لأنّه سؤال من الله، يسأل العبد ربّه

---

(١) أخرجه أبو دود (٣٢٠١)، والترمذي (١٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٥٢)، وابن ماجه (١٤٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٦٨)، وابن حبان (٧/ ٣٣٩)، والحاكم (١/ ٣٥٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

أن يرحم الميّت ويتجاوز عنه، فالله تعالى إن استجاب لهذا الدعاء، وصل أجره، ووصل أثره إلى ذلك الميّت، وانتفع بهذا الدعاء، فكان للميّت أجر، وللحيّ الداعي أجر أيضًا، كما يكون إذا دعا للغائب؛ لقوله ﷺ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قال الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»[1]. وكذلك الدعاء للميّت.

كذلك أيضًا بقيّة الأعمال ولو كانت بدنيّة، الراجح أنه يصله أجرها، وقد يُستثنى من ذلك بعض الأشياء التي يكون فيها العمل لغير الله، أو العمل غير الخالص.

فمثلًا: يكثر التساهل في إعطاء الإنسان أجرة على أن يحجّ عن الميت، فهل يصل الثواب إلى المحجوج عنه، أو لا يصل إليه؟

نقول: يختلف ذلك باختلاف حالة الحاجّ الذي أخذ هذا المال ليحجّ به، ننظر في حالته إن كان قصده المال، فلا حجَّ له، وإن كان قصده الحجّ فله حجّ. وكيف يكون قصده المال؟ إذا كان مثلًا: يريد أن يأخذ المال كتجارة، أو كرأس مال، أو يتزوّج به، لا أنّه يريد أن ينفقه في الحجّ حتّى يتيسّر له الحجّ. فالذي يقصده بأخذه المال أن يحجّ، ويقول: أنا عاجز عن الحجّ، وعاجز عن نفقه الحجّ، وأحبّ أن أحج، وأتمنّى أن أقف في تلك المشاعر، وأن تعمّني الرحمة، وأن تنزل عليّ المغفرة، وأكون ممّن يباهي الله بهم الملائكة، وأتذلّل لله تعالى بإظهار الذل والاستضعاف

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٧).

بين يديه، ولكن يعوقني المال، ولا أجده لفقري وفاقتي، فآخذ هذا المال، وأنفق منه على أهلي وولدي، وأنفق منه على سفري وطريقي، ولا أجعل الباقي زيادةً، ولا آخذ إلاّ قدر الكفاية. فمثل هذا يقبل حجّه، ويكون له أجر على حجّه، ويكن للمحجوج عنه أجرُ الحجّة التي هي ما دفعه إليه.

أمّا إذا كان قادرًا على أن يحجّ بماله، وليس له رغبة في الحجّ، ولكن ما أراده هو أن يأخذ هذا المال، ليزيد به ماله إن كان له مال، ولم يكن من الذين يشتاقون إلى الحج، وإلى الوقوف في المشاعر، ولا همّة له في ذلك، إنّما همّته هذا المال الذي بذل له، والذي أخذه، فتراه مثلًا: يكفيه لذهابه وإيابه ألفان، ولكنّه يزاود، ويقول: فلان يعطي خمسة آلاف، وفلان يعطي ثمانية أو ستة أو نحو ذلك، وكأنّه ما يريد هذا الحجّ إلا لهذا المال، فيدخل فيمن يريد الدنيا بعمل الآخرة. ويدخل في قول النبيّ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ**»[1]، أي: أنّه عبد هذا المال؛ لأنّه عمل عملًا صالحًا يُبْتَغَى به وجه الله، ولكنّه لم يعمله إلا ابتغاء هذا الذي عبده وهو المال، فهذا ولو أعطيته عشرة آلاف فأجر حجّته ناقص، ويدخل في الذين ذمّهم الله تعالى بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥]، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فليتفطنّ من يدفع أجر حجّته، وليسأل ذلك الحاجّ: ماذا تريدُ من حجّتك؟ المالَ أو الحجَّ؟ فإن كنتَ تريدُ الحجّ مشتاقًا إليه، فلك أجرك، وإن كنت تريد المال، فلن يكون لك أجر بهذه الحجّة، وخير لي أن أتصدّق بهذا المال على الفقراء والمساكين.

أمّا إن كان هذا الذي يريد أن يحجّ فقيرًا، ونويت بالزيادة أن تتصدّق عليه؛ لكونه من الذين تحلّ لهم الصدقة، فلك أجر على هذه النيّة، ولو كانت نيّته هو غير الحج، ووجدت أنّه قد ينتفع بهذا الحج، وإنما قصده المال، وهو من أهل الاستحقاق، كان للميّت أجر الصدقة، فينتفع الميّت سواءً بأجر الصدقة وأجر الحج.

قال الشارح:

وَالجَوَابُ عَمَّا اسْتَدَلُّوا بِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]، قَدْ أَجَابَ الْعُلَمَاءُ بِأَجْوِبَةٍ: أَصَحُّهَا جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ بِسَعْيِهِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ اكْتَسَبَ الْأَصْدِقَاءَ، وَأَوْلَدَ الْأَوْلَادَ، وَنَكَحَ الْأَزْوَاجَ، وَأَسْدَى الخَيْرَ وَتَوَدَّدَ إِلَى النَّاسِ، فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ، وَدَعَوْا لَهُ، وَأَهْدَوْا لَهُ ثَوَابَ الطَّاعَاتِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَثَرَ سَعْيِهِ، بَلْ دُخُولُ الْمُسْلِمِ مَعَ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي عَقْدِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي وُصُولِ نَفْعِ كُلٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى صَاحِبِهِ، فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَدَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ.

يُوَضِّحُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْإِيمَانَ سَبَبًا لِانْتِفَاعِ صَاحِبِهِ بِدُعَاءِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَعْيِهِمْ، فَإِذَا أَتَى بِهِ فَقَدْ سَعَى فِي السَّبَبِ الَّذِي يُوصِلُ إِلَيْهِ ذَلِكَ.

الثَّانِي - وَهُوَ أَقْوَى مِنْهُ -: أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْفِ انْتِفَاعَ الرَّجُلِ بِسَعْيِ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا نَفَى مِلْكَهُ لِغَيْرِ سَعْيِهِ، وَبَيْنَ الْأَمْرَيْنِ مِنَ الْفَرْقِ مَا لَا يَخْفَى، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا سَعْيَهُ، وَأَمَّا سَعْيُ غَيْرِهِ فَهُوَ مِلْكٌ لِسَاعِيهِ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَبْذُلَهُ لِغَيْرِهِ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُبْقِيَهُ لِنَفْسِهِ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٨، ٣٩]، آيَتَانِ مُحْكَمَتَانِ، مُقْتَضِيَتَانِ عَدْلَ الرَّبِّ تَعَالَى:

فَالْأُولَى: تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا بِجُرْمِ غَيْرِهِ، وَلَا يُؤَاخِذُهُ بِجَرِيرَةِ غَيْرِهِ، كَمَا يَفْعَلُهُ مُلُوكُ الدُّنْيَا.

وَالثَّانِيَةُ: تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ إِلَّا بِعَمَلِهِ؛ لِيَقْطَعَ طَمَعَهُ مِنْ نَجَاتِهِ بِعَمَلِ آبَائِهِ وَسَلَفِهِ وَمَشَايِخِهِ، كَمَا عَلَيْهِ أَصْحَابُ الطَّمَعِ الْكَاذِبِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ: لَا يَنْتَفِعُ إِلَّا بِمَا سَعَى.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة:١٨٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤]، عَلَى أَنَّ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَنْفِيَّ عُقُوبَةُ الْعَبْدِ بِعَمَلِ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤].

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ»[1]، فَاسْتِدْلَالٌ سَاقِطٌ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلِ انْقَطَعَ انْتِفَاعُهُ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنِ انْقِطَاعِ عَمَلِهِ. وَأَمَّا عَمَلُ غَيْرِهِ فَهُوَ لِعَامِلِهِ، فَإِنْ وَهَبَهُ لَهُ وَصَلَ إِلَيْهِ ثَوَابُ عَمَلِ الْعَامِلِ، لَا ثَوَابَ عَمَلِهِ هُوَ، وَهَذَا كَالدَّيْنِ يُوَفِّيهِ الْإِنْسَانُ عَنْ غَيْرِهِ، فَتَبْرَأُ ذِمَّتُهُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ مَا وَفَّى بِهِ الدَّيْنَ.

وَأَمَّا تَفْرِيقُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، فَقَدْ شَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّوْمَ عَنِ الْمَيِّتِ - كَمَا تَقَدَّمَ - مَعَ أَنَّ الصَّوْمَ لَا تُجْزِئُ فِيهِ النِّيَابَةُ، وَكَذَلِكَ حَدِيثُ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِيدَ الْأَضْحَى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أُتِيَ بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ، فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ[2].

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٦)، وأبو داود (٢٨١٠)، والترمذي (١٥٢١).

وَحَدِيثُ الْكَبْشَيْنِ اللَّذَيْنِ قَالَ فِي أَحَدِهِمَا: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا»، وَفِي الْآخَرِ: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ[1]. وَالْقُرْبَةُ فِي الْأُضْحِيَّةِ إِرَاقَةُ الدَّمِ، وَقَدْ جَعَلَهَا لِغَيْرِهِ.

وَكَذَلِكَ عِبَادَةُ الْحَجِّ بَدَنِيَّةٌ، وَلَيْسَ الْمَالُ رُكْنًا فِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكِّيَّ يَجِبُ عَلَيْهِ الْحَجُّ إِذَا قَدَرَ عَلَى الْمَشْيِ إِلَى عَرَفَاتٍ، مِنْ غَيْرِ شَرْطِ الْمَالِ. وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ، أَعْنِي أَنَّ الْحَجَّ غَيْرُ مُرَكَّبٍ مِنْ مَالٍ وَبَدَنٍ، بَلْ بَدَنِيٌّ مَحْضٌ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ الْمُتَأَخِّرِينَ.

وَانْظُرْ إِلَى فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ: كَيْفَ قَامَ فِيهَا الْبَعْضُ عَنِ الْبَاقِينَ؟

وَلِأَنَّ هَذَا إِهْدَاءُ ثَوَابٍ، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ النِّيَابَةِ، كَمَا أَنَّ الْأَجِيرَ الْخَاصَّ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَسْتَنِيبَ عَنْهُ، وَلَهُ أَنْ يُعْطِيَ أُجْرَتَهُ لِمَنْ شَاءَ.

---

قال الشيخ:

تقدّم أنّ مذهب الجمهور أنّ الميت ينتفع بأعمال الحيّ إذا أهداها إليه، وأنّ هناك بعض المبتدعة الذين أنكروا الانتفاع كليّا، وهناك البعض منهم فرّق بين الأعمال البدنيّة والأعمال الماليّة والأعمال القوليّة، فأوصل ثواب الأعمال القوليّة كالدعاء، والماليّة كالصدقة، ومنع وصول الأعمال البدنيّة كالحجّ والجهاد والصلاة والصوم.

---

(١) في المسند (٦/ ٣٩١) من حديث أبي رافع مولى رسول الله ﷺ.

وأمّا قول الجمهور: فإنّهم يرون وصول الجميع، وانتفاع الميّت بالجميع.

والـذين منعـوا اسـتدلّوا بقولـه تعـالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٨، ٣٩]، فقالوا: معنى قولـه: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، أي: لا ينفعه إلَّا سعيه وعمله، أمّا سعي غيره وعمله، فلا ينتفع به وليس له. هكذا قالوا.

وأجاب العلماء بجوابين:

**الأول**: أنّ الإنسان إذا اكتسب بأفعاله، وبحسن معاملته الأصدقاء، فكأنّهم له، ينتفع بدعائهم؛ لأنّهم من سعيه وكسبه، وكذلك إذا تزوّج الزوجة فقد اكتسبها، وأنجب الأولاد، فالأولاد أيضًا من كسبه وسعيه، فأصدقاؤه الذين اكتسبهم في حياته، يدعون له فينتفع بدعائهم، وينتفع بصدقاتهم، وكذلك أولاده الذين يدعون له ويتصدّقون عنه، مقابل تربيته لهم، ومقابل برّه بهم، وحنانه وحدبه عليهم، وكذلك زوجاته وبناته ونحو ذلك، كلّهم لما أنّه أسدى إليهم معروفًا، وفعل معهم خيرًا، فإنّ عملهم يكون مقابل ما عمله، فذلك يكون في سعيه وفي كسبه، ويدخل في قوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾.

**والثاني**: أنّ الآية ليس فيها نفي الانتفاع، ولكن فيها نفي الملك، والمعنى: ليس يملك الإنسان إلا سعيه، أما سعيُ غيره، فإنّه ملك لذلك الغير. فالخير هو الذي يملك عمله، فنقول: أنت الذي تملك دعاءك، وأنت الذي تملك عملك، وأنت الذي تملك صدقتك، وتملك بدنك ومالك، فإذا أهديت لذلك الميّت الذي

بينك وبينه قرابة، وأشركته بعملك وبدعائك وبصدقتك، فقد أهديته له، فينتفع به. وليس في الآية إلا نفي الملكيّة، لا نفي الانتفاع، ولم يقل: ليس للإنسان أن ينتفع إلا بما سعى، بل قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، أي: ليس يملك الإنسان إلا سعيه. وبذلك يعرف أنّ الآية نصّ في أنّ الميت ينتفع، أو ليس فيها نفي الانتفاع بعمل غيره.

وقد ذكرنا الحديث: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ ...»[1]، أي: عمله البدنيّ؛ انقطع ذكره بلسانه، وانقطع صومه ببدنه، وانقطعت صلاته ببدنه، ولكن لا ينفي أنّ غيره إذا أهدى إليه شيئًا من الأعمال، فإنّه ينتفع بذلك.

وقد ذكروا أنّ الأعمال إمّا أن تكون بدنيّة محضة؛ كالصلاة والصوم وحجّ أهل مكّة إلى عرفة على أقدامهم، فهذا يُعدّ عملًا بدنيًا محضًا، وهناك عمل ماليّ محض كالكفّارات والزّكوات والصدقات، فهذا عمل ماليّ محض. وهناك أعمال قوليّة؛ كالدعاء، والأذكار، والقراءة، والأوراد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك. وهناك أعمال مركّبة من القول والبدن؛ كالصلاة، فإنّ فيها ركوع وسجود وقراءة وأذكار، فهي قوليّة بدنيّة. وهناك أعمال مركّبة من المال والأعمال البدنيّة كالحج؛ إذ فيه الطواف والوقوف بعرفة والسعي، والرمي، والمالي من نفقته على نفسه، وأجرة ركوبه، ونفقه أهله في غيابه، وذبح فديته، وما أشبه ذلك من الأركان الماليّة. وكذا الجهاد، فهو مركّب من المال والبدن، كما قال تعالى:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٢]، فهذا من العمل البدني الواحد.

والأصل أنّ الجميع سواء في إهدائها للميّت، وقد دلّ على الإهداء الماليّ هذه الأحاديث في الأضاحي: قد مرّ بنا أنّ النبيّ ﷺ: ضَحَّى بكبشين. أحدهما عن محمّد وآل محمّد، والثاني: عن أمّة محمد، أو عمّن لم يضحِّ من أمّة محمد. وهذا دليل على أنّهم ينتفعون بهذه الأضحية التي ذبحها عنهم نبيّنا ﷺ، سواء كانوا أحياء أو أمواتًا. فما المانع من أن تكون الأضحية للميّت من جملة الصدقات يصل إليه أجرها، كما يصل إليه أجر الصدقة التي أجراها هو وأوصى بها. فإذا تبرّع له صديقه بأضحية، أو بعض أضحية، استفاد من أجرها.

ومن هذا الحديث أخذوا جواز الاشتراك في الأضحية؛ لأن النبي ﷺ جعلها عمَّن لم يضحِّ من أمّته، ولو كانوا مئات أو ألوفًا، فجعلها مشتركة بينهم. وكذلك التشريك للأحياء، يعني أنّها إذا ذبحها عن أهل بيته، وصل إليهم أجرها، ولو كانوا كثيرًا. ودلّ على أنّهم ينتفعون بعمل غيرهم، وبمال غيرهم. هذا بالنسبة إلى الأعمال الماليّة.

وقد تقدّم قول النبيّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[1]. مع أنّ الصيام عمل بدنيّ، ولا يخسر الصائم مالًا، إنّما عمله كلّه بدني. وقد يقال مثلًا: إنّ المصلّي يخسر مالًا إذا استأجر من يركبه إلى المسجد، أو إذا اشترى قيمة الوضوء

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

كالماء ونحوه، أو احتاج إلى سترة يستر بها عورته للصلاة، فإنّه يحتاج إلى المال. فإذا صحّ أن يصوم ويهدي صومه للميّت، أو أن يقضي الصيام عن الميّت، إن كان على الميّت صيام كالكفّارة والنذر، وهو بدنيّ محض، فبطريق الأولى أن تصحّ بقيّة الأعمال البدنيّة إذا تبرّع بها.

ويُقال هذا أيضًا في الأعمال القوليّة، قياسًا على الدّعاء، فإذا ذكر الله وأهدى ثواب هذا الذكر للميّت، أو ما أشبه ذلك، وصل إليه هذا الأجر.

وكذلك إذا تبرّع الحيّ للميّت بالعمل؛ إلى أبيك أو أخيك أو صديقك وحبيبك الذي له حقّ عليك وله منّة عليك، فأنت تجازيه بأن تضحّي عنه، أو أن تحجّ عنه، أو أن تهديه ثواب عمل لك، أو تتصدّق عنه، فلا شكّ أنّه ينتفع بذلك، ولو كان عمل غيره.

قال الشارح:

وَأَمَّا اسْتِئْجَارُ قَوْمٍ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيُهْدُونَهُ لِلْمَيِّتِ!! فَهَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ، وَلَا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ، وَلَا رَخَّصَ فِيهِ. وَالِاسْتِئْجَارُ عَلَى نَفْسِ التِّلَاوَةِ غَيْرُ جَائِزٍ بِلَا خِلَافٍ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الِاسْتِئْجَارِ عَلَى التَّعْلِيمِ وَنَحْوِهِ، مِمَّا فِيهِ مَنْفَعَةٌ تَصِلُ إِلَى الْغَيْرِ. وَالثَّوَابُ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَيِّتِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَمَلُ لِلَّهِ، وَهَذَا لَمْ يَقَعْ عِبَادَةً خَالِصَةً، فَلَا يَكُونُ ثَوَابُهُ مِمَّا يُهْدَى إِلَى الْمَوْتَى!! وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: إِنَّهُ يَكْتَرِي مَنْ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيُهْدِي ثَوَابَ ذَلِكَ إِلَى الْمَيِّتِ، لَكِنْ إِذَا أَعْطَى لِمَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُ وَيَتَعَلَّمُهُ مَعُونَةً لِأَهْلِ الْقُرْآنِ عَلَى ذَلِكَ، كَانَ هَذَا مِنْ جِنْسِ الصَّدَقَةِ عَنْهُ، فَيَجُوزُ.

وَفِي الِاخْتِيَارِ: لَوْ أَوْصَى بِأَنْ يُعْطَى شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ لِمَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَلَى قَبْرِهِ، فَالْوَصِيَّةُ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْأُجْرَةِ، انْتَهَى.

وَذَكَرَ الزَّاهِدِيُّ فِي «الْقُنْيَةِ»[1]: أَنَّهُ لَوْ وَقَفَ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ عِنْدَ قَبْرِهِ، فَالتَّعْيِينُ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَإِهْدَاؤُهَا لَهُ تَطَوُّعًا بِغَيْرِ أُجْرَةٍ، فَهَذَا يَصِلُ إِلَيْهِ، كَمَا يَصِلُ ثَوَابُ الصَّوْمِ وَالْحَجِّ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي السَّلَفِ، وَلَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ؟

---

(١) هو: «قنية المنية لتتميم الغنية»، لأبي الرجاء نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي الحنفي، المتوفى سنة ثمان وخمسين وستمائة. انظر: كشف الظنون (٢/ ١٣٥٧).

فَالجَوَابُ: إِنْ كَانَ مُورِدُ هَذَا السُّؤَالِ مُعْتَرِفًا بِوُصُولِ ثَوَابِ الحَجِّ وَالصِّيَامِ وَالدُّعَاءِ، قِيلَ لَهُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؟ وَلَيْسَ كَوْنُ السَّلَفِ لَمْ يَفْعَلُوهُ حُجَّةً فِي عَدَمِ الْوُصُولِ، وَمِنْ أَيْنَ لَنَا هَذَا النَّفْيُ الْعَامُّ؟

فَإِنْ قِيلَ: فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الصَّوْمِ وَالحَجِّ وَالصَّدَقَةِ دُونَ الْقِرَاءَةِ؟ قِيلَ: هُوَ ﷺ لَمْ يَبْتَدِئْهُمْ بِذَلِكَ، بَلْ خَرَجَ ذَلِكَ مِنْهُ مَخْرَجَ الجَوَابِ لَهُمْ، فَهَذَا سَأَلَهُ عَنِ الحَجِّ عَنْ مَيِّتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ فِيهِ، وَهَذَا سَأَلَهُ عَنِ الصَّوْمِ عَنْهُ، فَأَذِنَ لَهُ فِيهِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ الصَّوْمِ - الَّذِي هُوَ مُجَرَّدُ نِيَّةٍ وَإِمْسَاكٍ - وَبَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ؟

---

قال الشيخ:

يقع في بعض البلاد التي يغمرها الجهل، أو تكثر فيها البدع، إذا مات الميت في اليوم الأول والثاني والثالث، أو في الأسبوع الأول أو الثاني أو الثالث، أنّهم يجمعون عشرة أو عشرين من القرّاء، ويقولون لهم: اقرؤوا القرآن، وأهدوا ثوابه إلى أبينا أو أخينا، ولكم بكلّ جزء تقرؤونه كذا وكذا من المال!! أولئك القراء لم يقرؤوا لله، وإنّما قرؤوا للمال، وإذا كانوا قرؤوا للدنيا والمال، فهل لهم ثواب؟ من قرأ من أجل الدنيا ليس له ثواب، فإن لم يكن له ثواب، فماذا للذي يهدونه؟ ليس له شيء؛ لأنها قراءة لأجل الدنيا، وليست لأجل الله ولا الثواب.

فلأجل ذلك يقال: هذا من البدع، ثم هو من الضياع، ثم هو من إقرار الشرك، فإنّ هذا الذي قرأ عمل عملًا أخرويًا لأجل الدنيا، فيدخل فيمن أراد

الدنيا بعمل الآخرة. فهذا لا يجوز.

فلو طلب منك شخص أن تقرأ ختمة من القرآن وتجعل ثوابها لوالده أو والدته مقابل مبلغ من المال، فلا تفعل؛ لأنك تكون قد قرأت القرآن لأجل هذا المال، لا لأجل الله، ولا لأجل الحسنات، فقد عملت لأجل الدنيا عملًا أخرويًا.

**فأولًا**: مثل هذا لم يفعله السلف، ولم ينقل عن الصحابة والتابعين والأئمّة الأربعة.

**وثانيًا**: فيه هذا المقصد السيىء، الذي هو العمل لأجل الدنيا، مع أنّ العمل من الأعمال الصالحة، فلا يكون للميّت أجر على هذا. بخلاف ما إذا قرأت ختمة أو جزءًا أو أجزاء وقلت: اللهمّ اجعل ثوابها لوالدي أو لوالدتي، أو لجدي أو لعمّي، فلا مانع من وصول الأجر؛ لأنك ما قرأت من أجل الدنيا، ولكن قرأت من أجل الآخرة، عملت عملًا أخرويًا، ثمّ تبرّعت به لقريبك المتوفّى فلا مانع من وصول الثواب إليه.

ويدلّ على ذلك أن النبي ﷺ سُئل عن الحجّ عن الميّت، أو الحجّ عن العاجز، فأقرّ ذلك؛ كما ورد في حديث الخثعميّة التي قالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ على عِبَادِهِ في الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أبي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ على الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عنه؟ قال: «نعم»[1]. فهذا دليل على جواز الحجّ عن الأب ونحوه.

كذلك المرأة التي قالت: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عنها؟

---

(١) أخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: «أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ»[1]. أمرها بأن تقضي الصوم عن والدتها؛ لأنّه دَيْن لله، كما يُقضى الدَّين المالي عن العباد، فدَيْن الله أحقّ بالوفاء.

وكذلك أمر بالصدقة، لَـمَّا جاءه رجلٌ وقال: إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»[2].

فهذه الأعمال أقرّها، ومع ذلك لم ينفِ غيرها، بل ظاهره أنّ ما يشبهها يلحق بها، فيلحق بذلك بقيّة الأعمال بدنيّة أو ماليّة.

وقد مرّ بنا أنّهم اختلفوا في التّعليم بأجرة، وهو تعليم القرآن: كمن استأجر من يعلّم ولده، وذلك لأنّ ذلك أجرة على التلقين، وعلى التعب؛ فالذي يعلّم الأطفال لا شكّ أنّه يبذل جهدًا، ويقطع وقتًا، ويتعب نفسه في تلقين هذه الآية، وفي تصحيح هذا الخطأ، ولذلك فالتعليم يعد عملًا. ولهذا أقرّ النبيّ ﷺ الذين أخذوا الأجرة على الرقية، فقد مرَّ نَفَرٌ من أَصْحَابِ النبي ﷺ بِمَاءٍ فِيهِمْ لَدِيغٌ، فَعَرَضَ لهم رَجُلٌ من أَهْلِ المَاءِ، فقال: هل فِيكُمْ من رَاقٍ؟ إِنَّ في المَاءِ رَجُلًا لَدِيغًا، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ منهم فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ على شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إلى أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذلك، وَقَالُوا: أَخَذْتَ على كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا؟ حتى قَدِمُوا المَدِينَةَ، فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ على كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «إِن أَحَقَّ ما

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٦٠).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

أَخَذْتُمْ عليه أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»[١]. فأقرّهم على ذلك، وقال في رواية أخرى: «قد أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لي مَعَكُمْ سَهْمًا»[٢]، تطييبًا لنفوسهم. فيعدّ أخذ الأجر على تعليم القرآن كسائر أنواع التعليم، وقد ثبت أنّه ﷺ: جعل تعليم القرآن قائمًا مقام المهر قائلًا: «قَدْ زَوَّجْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ من الْقُرْآنِ»[٣]. كذلك يقال في تعليم بقيّة العلوم: يجوز أخذ الأجرة على التعليم؛ لأنّه مقابل التعب، ومقابل التلقين، وما أشبه ذلك. بخلاف العمل الذي يعمله لله تعالى، والذي يبتغي الأجر به.

وتقدّم أنّ النبيّ ﷺ نهى عن أخذ الأجرة على الأذان، فقال: «وَاتَّخِذْ مُؤَذِّنًا لَا يَأْخُذْ عَلَى أَذَانِهِ أَجْرًا»[٤]. ومنعوا أخذ الأجرة على الأعمال التي يختصّ صاحبها أن يكون من أهل القربة، وإنّما رخّصوا فيما يبذل من بيت المال، مقابل الالتزام بتلك الأعمال، كعمل الحسبة، وعمل الإمامة، والخطابة، والدعوة، ونحو ذلك. فلا يدخل ما يبذل لهم من بيت المال، في أنّهم عملوا عملًا صالحًا مما يُبتغى به وجه الله، ولم يعملوه إلّا للدنيا.

وبكلّ حال، فإهداء الأعمال التي يتبرّع بها صاحبها يصل أجرها بإذن الله إن لم يكن عاملها قد أخذ عليها أجرًا.

---

(١) أخرج البخاري (٥٧٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٣١)، والترمذي (٢٠٩)، والنسائي (٦٧٢)، وأحمد (٤/ ٢١)، والحاكم (١/ ١٩٩)، والبيهقي (١/ ٤٢٩) من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ.

نقول: إنّ مسألة إهداء الأعمال إلى الميّت وانتفاع الميّت بها تلحق بالأمور العقديّة؛ لأنّها: أولًا خالف فيها المبتدعة، وثانيًا أنّها من الأمور الغيبيّة؛ لأنّ الأموات في عالم غير عالمنا، في برزخ بين الدنيا والآخرة، وانتفاعهم بها غيب عنّا، لا ندري ولا يظهر لنا وجه الانتفاع جليًا، ولأجل ذلك اعتمدنا فيه على الدليل، والأدلّة التي اعتمدنا عليهم وإن لم تكن قطعيّة الثبوت، لكنّها ظنّيّة أو غالبيّة، فلأجل ذلك جعل هذا الباب في باب العقائد. وتقدّم ذكر الأمثلة، وكذلك ذكر الخلاف، والجواب عمّا استدلّ به المخالف، وذلك لأنّ المخالفين من المبتدعة اعتمدوا على الآية التي في سورة النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]، فقالوا: ليس للإنسان إلا ما سعى، وليس له إلا عمله.

وأجيب بأنّ الإنسان اكتسب الأصدقاء والأقارب ونحوهم، فاكتسابه هذا يعتبر من سعيه، فإذا تصدّقوا عنه أو دعوا له أو حجّوا عنه، فذلك من آثار سعيه وكسبه؛ لأنه أحسن في حياته إلى أصدقائه وأقاربه، فأحسنوا إليه بعد موته جزاءً له على إحسانه لهم في حياته.

وأجيب أيضًا: بأنّ الآية في ملكيّة الإنسان لعمله وكسبه، ولا يملك سعي غيره وعمله ولو كان من أقرب الأقارب له، لكن إذا تبرّع به كان ملكًا لمن تُبُرِّعَ له به، ويقاس ذلك على المال الذي تكتسبه فهو ملكك، ولكن متى تبرّع لك صديقك بمال، أو أعطاك عطيّة، وسمحت بها نفسه، فإنّك تملك تلك الهدية، وتدخل في ملكك، وتنتقل من ملكه، وكذلك إذا عمل عملًا صالحًا، كحجّ

وجهاد وصدقة ودعاء ونحو ذلك، وأهداه إلى فلان الميّت أو الحيّ، وجعل ثوابه له، فهذا في منزلة الهبة والعطيّة، ويصبح ثواب هذا العمل له بمنزلة مال الهديّة الذي يدخل في ملكه.

وأمّا الحديث الذي استدلّوا به وهو قول النبيّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1]. فهذا أيضًا ظاهر الدلالة، ولكن ليس المراد أنّه لا ينتفع إلا بهذه الثلاثة، ولكن المراد أنّه لا يجري عليه ولا يملك إلا هي، ولكن متى تبرّع له ولده أو غيره بشيء فهو له، وكذلك إن تبرّع له صديقه بحجّة عنه، أو صدقة عنه، أو بجهاد أهدى ثوابه إليه، فما المانع من وصولها إليه؟ ولا شكّ أنّ ذلك يصل إليه.

وقد اتّفق المسلمون على أنّه ينتفع الميت بصلاتهم عليه ودعائهم له، وزيارته في قبره، والدعاء له، فالأموات ينتفعون من دعوات الأحياء بأشياء كثيرة، تنوّر عليهم في قبورهم، وتزيد في حسناتهم، وتخفف من خطاياهم، ولولا ذلك لما تصدّق أحد عن أبويه، ولا تقرّب عنهما بشيء. وهذا ظاهر والحمد لله في أنّه ينتفع بما يهدى إليه من الأعمال.

وقد مرّ بنا الخلاف في إهداء الأعمال البدنيّة والانتفاع بها؛ كالصلاة والصوم الذي هو عمل بدنيّ محض، وقد ذكر بعضهم أنّه لا ينتفع أحد بذلك من صلاة أو

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

صيام أو حج، واستدلوا بأثر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ»[1]، ولكن وردت الأدلّة في الانتفاع بالصوم في قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[2]. ولَمَّا جاءت امرأة وقالت: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عنها؟ قال: «أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ»[3]. فأمرها بأن تصوم عن أمها، وسواء أكان هذا الصوم فرضًا أم نذرًا، فإنّه أقرّها عليه، بل أمرها بذلك، وشبّهه بقضاء الدين.

وعلى هذا فمعنى قوله: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ»، أي: لا يصلي أحد عن أحد وهو قادر، أي: لا يوكّل أحد أخاه أن يصلّي عنه فيقول: صلِّ عني صلاة المغرب أو العشاء، أو أن تصوم عنّي هذا اليوم من رمضان وهو قادر، فهذا لا يجوز؛ لأنّ العبادة وجّهت إلى الإنسان القادر، ولذلك لا يجوز له أن يُنيب غيره، أو أن يوكّل من يعمل عنه ذلك العمل وهو قادر؛ لأنّ الحكمة في هذه العبادة ظهور العبوديّة على الفرد، فأنت أيّها العبد مكلّف أن تعبد الله، وهذه العبادة موجّهة إليك، ولا بدَّ أن تظهر آثارها عليك، فالصلاة فُرضت على كلّ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٤٦٠).

مكلّف، ولا يجوز أن يوكّل عنه، فإنّ تذلّل المصلي يفوت بالتوكيل، المصلّي يتذلّل ويخشع ويتواضع، ويظهر عليه الخشوع بين يدي ربّه، وهذا لا يكون له إذا وكّل من يصلّي عنه، فلا ينتفع بهذه الصلاة، ولا يحصل له بها تذلّلٌ ولا خشوع ولا تضرّع ولا مسكنة بين يدي ربّه.

وكذلك الصيام، شُرع للامتثال بترك الشهوة لله سبحانه، وترك الطعام والشراب وزوجته لأجل امتثال أمر الله، فإن وكّل من يصوم عنه، ولو كان ولده، فأكل والنّاس ينظرون في رمضان مثلًا، كان غير متقبّل لأمر الله، ولم يُجزئ عنه توكيله، بل لأجل ذلك قالوا: لا يوكّل في العبادات البدنيّة، التي الحكمة منها إظهار الاستكانة والخضوع بين يدي الرّبّ.

ويلحق بذلك حجّ الفريضة للقادر، فإذا كان الإنسان قادرًا على الحجّ بالبدن وبالمال، فإنّه في هذه الحالة يكلّف بفعله، ولا يوكّل فيه، ولا ينيب فيه حتّى ولو من ماله؛ لأنّ الحكمة تقتضي الأمرين، تقتضي إنفاق المال في هذا السبيل، وتقتضي عمله ببدنه هذه المناسك، والأصل هو الأعمال التي كلّف بها، والمراد من شرعيّة الحجّ أن يظهر أثر هذه الأعمال على المكلّف، ولا يحصل إذا وكّل غيره، فمثلًا الحاجّ إذا أحرم خضع وخشع، وتمسكن لله، بلباسه الذي فيه تجرّد عن لباسه المعتاد، ولا تحصل له هذه المسكنة إذا وكّل غيره؟ وإذا أخذ يطوف حول البيت العتيق، يحصل له استضعاف وتذلّل، ويحصل له دعاء وتضرّع، ويحصل له إخبات بين يديّ ربه، وهذا لا يحصل له إذا وكّل من يحجّ عنه ! وكذلك إذا وقف بعرفات وقف وهو خائف راجٍ، وهو ذليل متواضع، وهو خاضع رأسه متذلل

لربّه، هل تحصل هذه الحالة إذا وكّل من ينوب عنه؟ فالحجّ في الأصل هو العبادة البدنيّة. وعرفنا أنّه يتركب من المال والبدن، ولكن قد يكون بدنيًا محضًا؛ كالمكيّ الذي لا يقدر على أن يستأجر دابّة أو سيارة يركبها، ولكنّه يقدر أن يمشي إلى عرفات وإلى منى ومزدلفة، يكون مكلّفًا بأن يحجّ ولا يسقط عنه الحجّ، وحجّه بدنيّ ليس فيه شيء من المال؟ فدلّ على أنّ الأصل في العبادة تحريك هذا البدن في طاعة الله، ومن أجل ذلك لم يصحّ أن يوكّل فيه، ولكن إذا حجّ فرضه مع القدرة، ثم تبرّع له ولده، أو تبرّع له أخوه، بأن أدّى عنه حجّة أخرى، وأهداها إليه، أو طاف عنه طواف تطوّع، فلا شكّ أنّه ينتفع بذلك، ولو كان قادرًا.

أمّا إذا عجز عن الحجّ: إمّا لعيب في بدنه أو لقلّة في ماله، أو للصعوبة والمشقّة بينه وبين الحرم، فهو معذور إن وكّل غيره، أو قام غيره مقامه في هذا العمل، أو تبرع له متبرّع.

عرف بذلك الفرق بين العبادات البدنيّة المحضة، وهي الصلاة والحجّ لمن هو في مكّة، وكذلك الجهاد إذا كان في البلد بالبدن، فمثل هذا يكون مكلّفًا إن كان فرضًا، أما إن كان تطوّعًا فأهدي إليه، فلا مانع من أن ينتفع به.

أمّا الأعمال الأخرى، فإنّها تدخلها النيابة، ففي الأذكار، يصح أن يفعلها، ثمّ يهديها إلى أخيه أو قريبه. وكذلك الدعاء، فالإنسان مأمور أن يدعو لأقاربه، أو للمسلمين عمومًا، وكذلك الصدقات، إذا تصدّق عن قريبه حيًّا أو ميتًا، فإنّه ينتفع بذلك، وهكذا بقيّة الأعمال.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: مَا تَقُولُونَ فِي الْإِهْدَاءِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

قِيلَ: مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مَنِ اسْتَحَبَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَآهُ بِدْعَةً؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَهُ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ كُلِّ مَنْ عَمِلَ خَيْرًا مِنْ أُمَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَيِّتَ يَنْتَفِعُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ، بِاعْتِبَارِ سَمَاعِهِ كَلَامَ اللَّهِ، فَهَذَا لَمْ يَصِحَّ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمَشْهُورِينَ. وَلَا شَكَّ فِي سَمَاعِهِ، وَلَكِنَّ انْتِفَاعَهُ بِالسَّمَاعِ لَا يَصِحُّ، فَإِنَّ ثَوَابَ الِاسْتِمَاعِ مَشْرُوطٌ بِالْحَيَاةِ، فَإِنَّهُ عَمَلٌ اخْتِيَارِيٌّ، وَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِهِ، بَلْ رُبَّمَا يَتَضَرَّرُ وَيَتَأَلَّمُ لِكَوْنِهِ لَمْ يَمْتَثِلْ أَوَامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيَهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ الْخَيْرِ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْقُبُورِ، عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: هَلْ تُكْرَهُ، أَمْ لَا بَأْسَ بِهَا وَقْتَ الدَّفْنِ، وَتُكْرَهُ بَعْدَهُ؟

فَمَنْ قَالَ بِكَرَاهَتِهَا - كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَأَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ - قَالُوا: لِأَنَّهُ مُحْدَثٌ، لَمْ تَرِدْ بِهِ السُّنَّةُ، وَالْقِرَاءَةُ تُشْبِهُ الصَّلَاةَ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَ الْقُبُورِ مَنْهِيٌّ عَنْهَا، فَكَذَلِكَ الْقِرَاءَةُ.

وَمَنْ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهَا - كَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، وَأَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ - اسْتَدَلُّوا بِمَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّهُ أَوْصَى أَنْ يُقْرَأَ عَلَى قَبْرِهِ وَقْتَ الدَّفْنِ بِفَوَاتِحِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَخَوَاتِمِهَا. وَنُقِلَ أَيْضًا عَنْ بَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ قِرَاءَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَمَنْ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهَا وَقْتَ الدَّفْنِ فَقَطْ ـ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ ـ أَخَذَ بِمَا نُقِلَ عَنْ عُمَرَ وَبَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ.

وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ، كَالَّذِينَ يَتَنَاوَبُونَ الْقَبْرَ لِلْقِرَاءَةِ عِنْدَهُ، فَهَذَا مَكْرُوهٌ، فَإِنَّهُ لَمْ تَأْتِ بِهِ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ مِثْلَ ذَلِكَ أَصْلًا. وَهَذَا الْقَوْلُ لَعَلَّهُ أَقْوَى مِنْ غَيْرِهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّوْفِيقِ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ.

---

قال الشيخ:

أما ما يتعلّق بالإهداء إلى رسول الله ﷺ، فقد بيّن الشارح ـ رحمه الله ـ الحكم فيه، وذكر أنّه لا يشرع أن تعمل عملًا وتقول: أجره لرسول الله ﷺ، سواء أكان قراءةً أم ذكر أم جهادًا، أم غير ذلك.

واحتجّ بدليلين:

**الأول**: أنّه لم يفعل في عهد النبيّ ﷺ، ولا في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فلم يكن أحد من الصحابة يعمل عملًا ويقول: أجره لرسول الله ﷺ. ولو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنّهم أعرف به، وأعرف بما يكون في شريعته، وهم الذين يحبّونه ويؤثرونه على أنفسهم، وهم الذين صحبوه، وأحبّوه، وقاتلوا معه، وعرفوه، وتلقّوا عنه السنّة، وهم الذين يقدّمون محبّته على كلّ محبّة، ويفدونه بأنفسهم، فكيف لم يهدوا إليه ثواب صلاة ولا صدقة ولا غير ذلك من الأعمال؟ إلّا ما روي عن عليّ ﷺ، أنّه ضحّى بكبشين، وقال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْصَانِي

أَنْ أُضَحِّيَ عنه، فَأَنَا أُضَحِّي عنه»[١]، ولو أنّ الحديث فيه ضعف.

وعلى كلّ حال، فهذا دليل واضح على عدم إهداء السلف للرسول ﷺ.

والدليل الثاني: أنّه ﷺ لا حاجة به إلى إهداء تلك الأعمال؛ لأنّ الله سبحانه، يكتب له مثل عمل العاملين من أمّته، مهما كثر العاملون، ومهما كثرت الأعمال، فقد ثبت أنّه ﷺ قال: «**من دَعَا إلى هُدًى كان له من الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ من تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذلك من أُجُورِهِمْ شيئًا، وَمَنْ دَعَا إلى ضَلَالَةٍ كان عليه من الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ من تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذلك من آثَامِهِمْ شيئا**»[٢]. وقال: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»[٣]. أليس نبيّنا ﷺ هو الذي دلّ على الإسلام، وهو الذي دلّ على الحسنات والصالحات، وهو الذي دلَّ على الصلات والقربات، وهو الذي دلَّ على الخيرات كلِّها وحذَّر عن الشرور؟

فأنت متى صلّيت صلاة، كتب لك أجرها تامًّا، وكتب له ﷺ مثل أجر تلك الصلاة، وإذا جاهدت كتب لك أجر جهادك كاملًا، وكتب مثله للنبيّ ﷺ؛ لأنّك اهتديت بدعوته، وإذا دعوت الله، أو ذكرته، أو قرأت في كتاب الله عزّ وجلّ،

---

(١) أخرجه أبوداود (٢٧٩٠)، والترمذي (١٤٥٩)، وأحمد (١/ ١٠٧)، والحاكم (٤/ ٢٢٩)، والبيهقي (٩/ ٢٨٨). قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٣/ ٩٤): «وفي إسناده حنش بن ربيعة، وهو غير حنش بن الحارث، وهو مختلف فيه، وكذا شريك القاضي النخعي، وقال ابن القطان: فيه أبو الحسناء لا يُعرف حاله».

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٣٣٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

كُتب لك أجرك تامًّا، وكتب للنبيّ ﷺ مثله.

إذًا، فهذا فضل الله له، فلا حاجة أن يُهدى إليه ما دام أنّ الله ـ عزّ وجل ـ قد أعطاه.

وأيضًا فأنت أحوج إلى عملك؛ لأنّه عليه السلام قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، أمّا أنت فإنّك بحاجة للأسباب التي تغفر بها خطاياك، وتمحى بها سيّئاتك، ويثقل بها ميزانك، فأنت أحوج إلى عملك، وهو غنيّ عن إهدائك، وأنت تترك حاجتك؟! هذا فيه شيء من الخطأ والغلط.

أمّا المسألة الثانية: فهي القراءة عند القبور. وقد مرّ بنا أنّ فيها ثلاث روايات عن الإمام أحمد: رواية: أنّه يجوز وقت الدفن فقط، ورواية: أنّه يجوز مطلقًا، ورواية: أنّه لا يجوز مطلقًا؟ والأرجح أنّه لا يجوز قصد القبور والدعاء والقراءة عندها، كما لا يجوز أن تقصد للصلاة عندها. وثبت أن النبيّ ﷺ نهى أن تتخذ القبور مساجد، فقال: «**ألا وَإِنَّ من كان قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، ألا فلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إني أَنْهَاكُمْ عن ذلك**»[1].

وثبت عنه ﷺ أنّه: نهى عن الصلاة في المقبرة، في أحاديث كثيرة، وقال ﷺ: «**لَا تُصَلُّوا عَلَى القُبُورِ، وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا**»[2].

والعلة في النهي عن الصلاة في المقبرة: مخافة الغلوّ، أو اعتقاد أن الذي يدعو

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبدالله ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي ﷺ.

عند القبر أو يصلي أو يقرأ، يعظم أجره، وأنّ أهل القبور يتسبّبون في رفع عمله، ومضاعفته وقبوله. ويكون ذلك وسيلة وذريعة إلى الاعتقاد في صاحب ذلك القبر.

ومعلوم أنّ الاعتقاد في أن أصحاب القبور ينفعون ويشفعون، ويرفعون الأعمال الصالحة ونحو ذلك، اعتقاد في مخلوق قد انقطع عمله، واعتقاد في مخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملك لغيره؟ فيكون ذلك من وسائل الشرك، وهو الواقع، فإنّ الذين صاروا يعظّمون القبور، ويطوفون بها، ويعكفون حولها، ويقرؤون عندها، كانت نهايتهم أن عبدوا تلك القبور، وخُيّل لهم أنّ أصحابها من الأولياء.

وكان أوّل ما عملوه أنّهم تردّدوا إلى ذلك القبر لمجرّد الزيارة، ثم بعد ذلك ظنّوا أنّ الأعمال عنده أفضل منها عند غيره، ثم صاروا يفضلون الصلاة عند القبر على الصلاة في المسجد، ويفضّلون القراءة عند القبور على القراءة في المسجد، ويفضّلون الدعاء عند القبور، عليه في المساجد، ثم اعتقدوا أنّ للقبور تأثيرًا، وأنّ للأموات تأثيرًا، وأنّ الأموات يضاعفون الأعمال، أو يرفعونها، ثم زاد الأمر إلى أن أصبحوا ينادون الميّت ويهتفون باسمه، ويقولون مثلًا: يا عيدروس، يا عبدالقادر، يا نقشبندي، يا جيلاني، أو ما أشبه ذلك من الأسماء التي أصبحوا يعتقدون فيها.

إذًا الصواب: هو المنع مطلقًا من قصد القبور للقراءة عندها، ولعلّ الدليل عليه أنّه قولُ الجمهور، وهو قول أبي حنيفة، ومالك، وأحمد في الرواية المشهورة

عنه، وكذا عند أصحابه، ورجّحها المحقّقون؛ كابن تيميّة وغيره، فذكروا أنّه: لا تجوز القراءة عند القبور بأيّ سبب، وبأيّ نيّة، وبأيّ معتقد، مخافة أن تكون وسيلةً إلى دعاء الأموات والاعتقاد فيهم.

وأما ما نقل عن ابن عمر - رضي الله عنهما - بأنّه أمر أن تقرأ عنده فواتح سورة البقرة وخواتيمها:

**فأولًا**: قد تكون الرواية عنه غير صحيحة ولا ثابتة؛ لأنّها لم تشتهر ولم يشتهر العمل بها.

**وثانيًا**: لعلّه أراد في حالة الدفن، أن يكون ذلك بمنزلة الدعاء، فإنّ الدعاء للميت عند القبر مشروع، كما كان النبيّ ﷺ إذا مات الميت ودفنه، قام على قبره وقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ**»[1]. يكون ذلك من باب الدعاء له؛ لأنّ هذه الآيات فيها دعاء مثل قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فكأنّه أراد أنّكم تدعون بها، فتقرؤونها وتجعلونها دعاء له، فلا يكون القصد منها القراءة، بل الدّعاء له، سواء قبل الدفن أو بعده، وسواء اعتقد أنّه ينتفع بهذه القراءة، أو أنّ القارىء ينتفع بهذه القراءة. فالقول بأنّه ينتفع بها. هذا فيه نظر؛ لأنّه لو كان مباحًا لفعله الصحابة رضوان الله عليهم.

وأيضًا القراءة في المساجد وإهداء ثوابها له أكثر أجرًا من القراءة عند القبور،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

فإنّ المساجد مأمور بالقراءة فيها، والقبور منهيّ عن الصلاة عندها، فالدّعاء في المساجد أفضل من الدعاء عند القبور، وكذلك الصلاة في المسجد مأمور بها، ومنهيّ عنها عند القبور. فعرف بذلك أنّ القول الصواب هو قول الجمهور، وهو: أنّه لا يقصد القبر للقراءة عنده، بل إذا أراد أن يهدي للميت قراءة أو ذكرًا، قرأها عند أهله، أو في بيته ونحو ذلك. أمّا أن يقصد القبر ويتحرّاه، فهذا لم يكن مشروعًا، فلا يكون جائزًا.

والمسلم عليه أن يتَّبعَ الدليل، وعليه أن يأخذ بقول جماهير الأمّة، ويترك الأقوال الشاذّة، ولو رويت عن بعض العلماء، ونحن نحسِّنُ الظنّ بهم، ونقول:

**أولًا**: إنّهم مجتهدون، وليس كلّ مجتهد بمصيب.

**ثانيًا**: أنّهم ولو كان عندهم شيء من الاجتهاد ونحوه، فإنّهم عرضة للخطأ.

**ثالثًا**: لم يكن عندهم من الاعتقاد ما عند من بعدهم، بل هم مأمونون أن يقع فيهم هذا الخطأ. والدليل على ذلك: أنّهم لم يقع منهم الغلوّ الذي وقع من المتأخرين في القرن الثامن، وإلى القرن الثالث عشر في هذه البلاد، بل إلى هذا القرن في كثير من البلاد، سبّب غلوّهم في هذه القبور دعاؤها من دون الله، بل وأصبحوا يعتقدون تلك القبور آلهة مع الله، وسبب ذلك تساهل علمائهم بقصدهم لهذه القبور، فاقتدى بهم السفهاء، واعتقدوا أنّ صاحب القبر له تأثير، فكان ذلك الشرك بالله صريحًا أو وسيلة من وسائل الشرك.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَاللَّهُ تَعَالَى يَسْتَجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيَقْضِي الحَاجَاتِ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ الخَلْقِ مِنَ المُسْلِمِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ المِلَلِ وَغَيْرِهِمْ: أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَقْوَى الأَسْبَابِ فِي جَلْبِ المَنَافِعِ وَدَفْعِ المَضَارِّ، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الكُفَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ دَعَاهُ لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا. وَإِجَابَةُ اللَّهِ لِدُعَاءِ العَبْدِ، مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، وَإِعْطَاؤُهُ سُؤْلَهُ، مِنْ جِنْسِ رِزْقِهِ لَهُمْ، وَنَصْرِهِ لَهُمْ. وَهُوَ مِمَّا تُوجِبُهُ الرُّبُوبِيَّةُ لِلْعَبْدِ مُطْلَقًا، ثُمَّ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِتْنَةً فِي حَقِّهِ وَمَضَرَّةً عَلَيْهِ، إِذْ كَانَ كُفْرُهُ وَفُسُوقُهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ. وَفِي «سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[1]. وَقَدْ نَظَمَ بَعْضُهُمْ هَذَا المَعْنَى، فَقَالَ:

الرَّبُّ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[2]

---

(١) أخرجه بلفظه: الترمذي (٣٣٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٩٩)، وأخرجه بنحوه: أحمد (٢/ ٤٤٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٢).

(٢) ذكره الخطابي في كتابه العزلة (ص٦٧) ونسبه إلى الخزيمي.

قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: قَدْ نَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الدُّعَاءِ، وَفِي ذَلِكَ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا: الْوُجُودُ، فَإِنَّ مَنْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ لَا يُدْعَى.

الثَّانِي: الْغِنَى، فَإِنَّ الْفَقِيرَ لَا يُدْعَى.

الثَّالِثُ: السَّمْعُ، فَإِنَّ الْأَصَمَّ لَا يُدْعَى.

الرَّابِعُ: الْكَرَمُ، فَإِنَّ الْبَخِيلَ لَا يُدْعَى.

الخَامِسُ: الرَّحْمَةُ، فَإِنَّ الْقَاسِيَ لَا يُدْعَى.

السَّادِسُ: الْقُدْرَةُ، فَإِنَّ الْعَاجِزَ لَا يُدْعَى.

وَمَنْ يَقُولُ بِالطَّبَائِعِ يَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ لَا يُقَالُ لَهَا: كُفِّي! وَلَا النَّجْمُ يُقَالُ لَهُ: أَصْلِحَ مِزَاجِي!! لِأَنَّ هَذِهِ عِنْدَهُمْ مُؤَثِّرَةٌ طَبْعًا لَا اخْتِيَارًا، فَشَرَعَ الدُّعَاءَ وَصَلَاةَ الِاسْتِسْقَاءِ؛ لِيُبَيِّنَ كَذِبَ أَهْلِ الطَّبَائِعِ.

---

قال الشيخ:

هذا بحث جديد يتعلّق بحكم الدعاء، وبشرعيّته من العبد لربّه، وبفائدة الدعاء. فذكر أنّ الله تعالى يجيب من دعاه، ويعطي من سأله، وأنّه سبحانه يفرح بدعاء الداعي، وأنّه يستجيب دعوتهم.

ذكر أنّ المشركين قبل الإسلام كانوا يدعون الله، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]، أي: ذهبت عنكم آلهتكم، وأصنامُكم، ومن تعبدون من دون الله، ولم تتذكروا إلَّا الربّ تعالى، الذي

تعلمون أنّه لا يجيب دعوتكم في مثل هذا الحال من الضرورة والضيق إلّا الله سبحانه وتعالى. ويقول في آية أخرى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]؛ دعوا الله في حالة ما يكونون على خطر الهلاك. ويقول في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢]؛ والموج تدفعه الريح، فيرتفع فوق مستوى البحر، فإذا جاءت الأمواج إلى السفينة اضطربت، وكادت أن تغرق، فإذا رأوا الأمواج تضربُ السفينة، خافوا من الهلاك، ورفعوا أيديهم وقالوا: يا ربِّ أنجنا من الهلاك، فلا يذكرون إلّا الله.

إذًا: الله تعالى يستجيب لهم مع أنّهم كفّار؛ لأنّهم أخلصوا له الدّعاء، والمسلمون أولى بأن يدعوا الله في الضُّرِّ والشدَّة والرّخاء، والله سبحانه يحبّ من يدعوه، ويبغض من لم يدعُه. وقد مرّ معنا الحديث الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».

ما نحبّ أن يغضب الله علينا، بل نريد رضاه، ورضاه يتوقّف على المسألة والدعاء، نستعينه عند العجز، ونستنصر به عند الخوف، نطلب منه أن يؤمّننا، وأن يقوّينا، ويغنينا، ويعزّنا، ويغفر لنا، ونطلب منه كلَّ حاجاتنا، ونرغب عن غيره من ذكر أو أنثى، ونجعل رغبتنا إليه سبحانه. وقد قال الشاعر:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

يقول بعضهم: لو أنّك مشيت مع إنسان، وأنت كلّ ساعة تقول له: أعطني حفنة تراب، أليس يغضب منك ويَمَلّ، ويقول: أتعبتني! لا شكّ أنّ ذلك يكلّفه أن ينحني ويناولك التراب. فبنو آدم لو سُئلوا ترابًا لَمَلّوا، فكيف إذا سُئلوا شيئًا يملكونه، أو لهم فيه نفع؟

فلذلك على الإنسان أن يعلّق رجاءه بربّه، ويطلب منه حاجاته كلّها، ولا يسأل غيره. يقول بعضهم[1]:

لَا تَجْلِسَنَّ بِبَابِ مَنْ ... يَأْبَىٰ عَلَيْكَ دُخُولَ دَارِهِ
وَتَقُولُ حَاجَاتِي إِلَيْهِ ... يَعُوقُهَا إِنْ لَمْ أُدَارِهْ
وَاتْرُكْهُ وَاقْصُدْ رَبَّهَا ... تُقْضَىٰ وَرَبُّ الدَّارِ كَارِهْ

إذا قصدت الرّبّ سبحانه وتعالى، وأنت صادق مخلص قضيت حاجتك، سواء كانت متعلّقة بإنسان، أو متعلّقة بما بينك وبين الرّبّ.

حكي أنّ إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ اشتكى إليه بعضُ أصحابِهِ جوعًا بهم؛ لأنّهم لا يكتسبون، فعند ذلك نظم أبياتًا يقول في أوّلها[2]:

أَنَا حَامِدٌ أَنَا شَاكِرٌ أَنَا ذَاكِرٌ ... أَنَا جَائِعٌ أَنَا حَاسِرٌ أَنَا عَارِي
هِيَ سِتَّةٌ وَأَنَا الضَّمِينُ بِنِصْفِهَا ... فَكُنِ الضَّمِينُ بِنِصْفِهَا يَا بَارِي

لم يتعلّق إلّا بربّه، كتب تلك الأبيات، ولَـمّا اطّلع عليها بعض المحسنين،

---

(١) ذكر هذه الأبيات أبو طاهر الأصبهاني في معجم السفر (ص٣٨٢) ونسبها لمجبر بن محمد الصقلي.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٨).

أعطاهم ما يسدّ حاجتهم، فالربّ هو الذي يسّر لهم هذا الرزق بيد هذه الإنسان، ولم يسألوه، ولم يسألوا إنسانًا، وعلّقوا قلوبهم بربّهم.

نقول: على الإنسان أن يجتهد، في دعائه لله سبحانه وتعالى، وأن يسأل ربّه كلّ حاجاته، ولا يترك حاجةً يظنّ أنّه سيحتاج إليها في يوم من الأيام، إلا ويسألها ربّه.

يقول بعض العلماء: سلِ الله كلّ شيء حتّى ملح طعامك، فإنّك بحاجة إلى أن يمدّك ربّك بكلّ شيء، فأنت مأمور بأن تسأله، وتفعل السبب، وتعرف أنّ الله تعالى ييسّر لك هذه الأشياء، ويجعلها مفيدة ومؤثّرة.

الأدلّة كثيرة على أهميّة الدعاء، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. وورد في الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ»(١)، وقرأ هذه الآية. فجعل الدّعاء عبادة. ومثل ذلك أيضًا: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٥، ٥٦].

والدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. وكلٌّ منهما ملازم

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي(٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧)، وابن حبان (٣/ ١٧٢)، والحاكم (١/ ٤٩٠) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

للآخر. فالمصلّي في صلاته يدعو ربّه في كثير من أركان الصلاة وهيئاتها، يسأل ربّه؛ ففي الفاتحة يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، وهذا دعاء. وفي الرّكوع وفي السجود يقول: سبحانك اللهّم ربنا وبحمدك اللهمّ اغفر لي، وهذا دعاء. وبين السجدتين يقول: ربِّ اغفر لي، ربِّ اغفر لي. ويكرّر ذلك، وهذا دعاء. وكذلك في السجود مأمور بأن يكثر من الدعاء، وكذلك في آخر التشهّد مأمور بأن يدعو. فالصلاة فيها دعاء، وكذلك الحجّ فيه دعاء في الطواف والسعي والوقوف والرمي. وذلك دليل على أنّ الله يحبّ من عباده أن يكثروا من دعائه، وأنْ لا يملّوا من هذا الدّعاء، وأنّه سبحانه لا بدَّ وأن يجيبهم إذا تمّت الشروط.

مرّ معنا كلام ابن عقيل على هذه الأدلّة، وقد استدلّ بها على أنّ اللهّ موجود، فإنّ المعدوم لا يُدعى، وأنّه سبحانه قادر، والعاجز لا يُطلب منه شيء، وأنّه غني، والفقير لا يطلب منه شيء، ويستدلّ على أنّه كريم، فالكريم هو الذي يجود، وهو الذي يهب مما عنده، فهو الذي لا تغيض نفقته، ولا ينقص ما عنده. كما يقول النبيّ ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وقال: أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ »[1].

ويقول الله تعالى في الحديث القدسيّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ،

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٨٨).

مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»[1]. والآيات والأحاديث والأدلّة على هذا كثيرة.

العقيدة: هي ما يعقدُ عليه القلب، وتشتمل على أعمال بدنيّة وأعمال ماليّة، وتتفاوت فيما بينها، فمن الأمور الاعتقادية: ما يكفّر بمخالفته، ومنها ما لا يكفّر بمخالفته، وتقدّم لنا في هذه العقيدة ذكر المسح على الخفين، وهو من الفروع، ومن الأمور العمليّة، ولا يكفّر المخالف فيه، فقد خالف فيه بعض الصحابة رضي الله عنهم، وبعض الأئمّة، ولكنّ استقرّ قول أهل السنّة على القول به.

وقد جاءتنا مسألة أيضًا فروعية، وهي مسألة إهداء الأعمال إلى الأموات أو الأحياء، فهي فرعيّة، ولا يكفَّرُ المخالف فيها، ولو كانت مما ذكر في العقيدة؛ وذلك لسببين:

أولًا: أن لهم شبه الدليل، وهو تمسّكهم بقول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩].

وثانيًا: أن لهم عملًا يرونه، واجتهادًا اجتهدوه، فلأجل ذلك لم يكفّروا بذلك. ولكنّهم يخطّئون.

وذُكر إهداءُ الأعمال في باب العقيدة؛ لأنّ الخلاف فيه مع المخالفين في العقيدة.

معلوم أنّ العقيدة هي الإيمان بالأسماء والصفات، والبعث بعد الموت،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٢٥).

والإيمان بالملائكة والرسل والكتب المتقدّمة، وما حصل فيها، وهذه من الأمور الاعتقاديّة، ولكن يلحق بها أيضًا أمور عمليّة، وتعطى حكم العقيدة، وإن كانت ليست من العقيدة التي يعقد عليها القلب، بمعنى أنّه يؤمن بها وإن لم يرَ لها دلالات، وقد يكون إدخال الأعمال إلى الأحياء أو الأموات في العقيدة من باب أنّه أمر غيبيّ. ولكن لمّا جاءت الشواهد والدلائل تدلّ على أنّه ينتفع الميّت بعمل الحيّ إذا أهداه إليه، قام بذلك أهل السنّة. فنراهم مثلًا: يصلّون على الأموات، فالأموات ينتفعون بصلاتهم عليهم، ونراهم يدعون لهم: فيدعو الإنسان لأبويه، كقول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح:٢٨]، وقد ذكروا أنّ والديه كانا مسلمين.

وكذلك النّهي عن الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أُولي قربى، مما يدلّ على أنّهم لو كانوا مسلمين لانتفعوا بهذا الاستغفار. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنّه حضر زمن موت عمّه أبي طالب، وطلب منه أن ينطق بالشهادة فلم يفعل، وكان آخر كلامه أن قال: هو على ملّة عبد المطّلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله ! فقال النبيّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»[1]. فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣].

ومفهومه: أنّهم يستغفرون للمسلمين، وثبت أنّ النبيّ ﷺ قال: «**اسْتَأْذَنْتُ**

---

(١) رواه البخاري برقم (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن ﷺ.

رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»[1]، يعني: بعموم هذه الآية: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣]. فهذا يفيد أنّهم ينتفعون بالاستغفار إذا كانوا مؤمنين، ولا ينتفعون به إذا كانوا مشركين. ومعلوم أنّ الاستغفار دعاء، فإنّه إذا قال: ربّ اغفر لي، فقد دعا الله، ثم يقول: ولوالديّ، فقد دعا الله، ثم يقول: وللمؤمنين، فقد دعا الله لنفسه ولوالديه وللمؤمنين، وهذا الدعاء يفيد وينفع.

وقد اشتهر أيضًا الاستدلال بعموم الآيات، مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، فنحن نقوله: ندعو لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، قديمًا وحديثًا، فندعو للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبيننا وبينهم عدد من القرون، وللتابعين وللعلماء في كلّ زمان إلى أن تعمّ هذه الدعوة آباءنا وأمّهاتنا وأبناءنا وأصحابنا وأصدقاءنا من المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان، وهذا بإذن الله ينفعهم.

وحكي أن إنسانًا رأى ميّتًا في منامه، فأخبره بأنّهم يأتيهم من دعاء الأحياء أمثال الجبال من الهدايا التي هي دعاء وصدقات، ونحو ذلك، تنوّر عليهم قبورهم، وتزداد بها حسناتهم، وتخفّ بها سيّئاتهم، وينتفعون بها، ويزاد بها في نعيمهم. والأعمال التي تهدى إليهم ثبت منها الدعاء ولا شكّ فيه. ومنها الصدقة

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والحج والصوم، كما ورد ذلك في الأحاديث التي ذكرناها، ومنها قصة المرأة التي قالت للنبي ﷺ: إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ على عِبَادِهِ في الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أبي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ على الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عنه؟ قال: «نعم»[1].

وحديث المرأة التي قالت: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عنها؟ قال: «أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ»[2].

وحديث الرجل الذي جاء على النبي ﷺ وقال: إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»[3].

هذا كلّه يفيد أنّ الأموات ينتفعون بعمل الأحياء المهدى إليهم.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٦٠).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

قال الشارح:

وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَغَالِيَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِلَى أَنَّ الدُّعَاءَ لَا فَائِدَةَ فِيهِ! قَالُوا: لِأَنَّ الْمَشِيئَةَ الْإِلَهِيَّةَ إِنِ اقْتَضَتْ وُجُودَ الْمَطْلُوبِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ، وَإِنْ لَمْ تَقْتَضِهِ فَلَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ!! وَقَدْ يَخُصُّ بَعْضُهُمْ بِذَلِكَ خَوَاصَّ الْعَارِفِينَ! وَيَجْعَلُ الدُّعَاءَ عِلَّةً فِي مَقَامِ الْخَوَاصِّ!! وَهَذَا مِنْ غَلَطَاتِ بَعْضِ الشُّيُوخِ. فَكَمَا أَنَّهُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ، فَإِنَّ مَنْفَعَةَ الدُّعَاءِ أَمْرٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ تَجَارِبُ الْأُمَمِ، حَتَّى إِنَّ الْفَلَاسِفَةَ تَقُولُ: ضَجِيجُ الْأَصْوَاتِ فِي هَيَاكِلِ الْعِبَادَاتِ، بِفُنُونِ اللُّغَاتِ، يُحَلِّلُ مَا عَقَدَتْهُ الْأَفْلَاكُ الْمُؤَثِّرَاتُ!! هَذَا وَهُمْ مُشْرِكُونَ.

وَجَوَابُ الشُّبْهَةِ بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ: فَإِنَّ قَوْلَهُمْ عَنِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ: إِمَّا أَنْ تَقْتَضِيَهُ أَوْ لَا، ثُمَّ قِسْمٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ: أَنْ تَقْتَضِيَهُ بِشَرْطٍ لَا تَقْتَضِيهِ مَعَ عَدَمِهِ، وَقَدْ يَكُونُ الدُّعَاءُ مِنْ شَرْطِهِ، كَمَا تُوجِبُ الثَّوَابَ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا تُوجِبُهُ مَعَ عَدَمِهِ، وَكَمَا تُوجِبُ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ عِنْدَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَا تُوجِبُهُ مَعَ عَدَمِهِمَا، وَحُصُولَ الْوَلَدِ بِالْوَطْءِ، وَالزَّرْعَ بِالْبَذْرِ. فَإِذَا قُدِّرَ وُقُوعُ الْمَدْعُوِّ بِهِ بِالدُّعَاءِ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ: لَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ، كَمَا لَا يُقَالُ: لَا فَائِدَةَ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْبَذْرِ وَسَائِرِ الْأَسْبَابِ. فَقَوْلُ هَؤُلَاءِ، كَمَا أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ، فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْحِسِّ وَالْفِطْرَةِ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ، مَا قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ: أَنَّ الِالْتِفَاتَ إِلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ! وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا، نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ،

وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ. وَمَعْنَى التَّوَكُّلِ وَالرَّجَاءِ، يَتَأَلَّفُ مِنْ وُجُوبِ التَّوْحِيدِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّ الِالْتِفَاتَ إِلَى السَّبَبِ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَيْهِ، وَرَجَاؤُهُ وَالِاسْتِنَادُ إِلَيْهِ. وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ هَذَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَقِلٍّ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ شُرَكَاءَ وَأَضْدَادٍ. وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنْ لَمْ يُسَخِّرْهُ مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ لَمْ يُسَخَّرْ.

وَقَوْلُهُمْ: إِنِ اقْتَضَتِ الْمَشِيئَةُ الْمَطْلُوبَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ؟ قُلْنَا: بَلْ قَدْ تَكُونُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، مِنْ تَحْصِيلِ مَصْلِحَةٍ أُخْرَى عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ، وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ أُخْرَى عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: وَإِنْ لَمْ تَقْتَضِهِ، فَلَا فَائِدَةَ فِيهِ؟ قُلْنَا: بَلْ فِيهِ فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ، مِنْ جَلْبِ مَنَافِعَ، وَدَفْعِ مَضَارَّ، كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ مَا يُعَجِّلُ لِلْعَبْدِ، مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ، وَإِقْرَارِهِ بِهِ، وَبِأَنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ قَدِيرٌ عَلِيمٌ رَحِيمٌ، وَإِقْرَارِهِ بِفَقْرِهِ إِلَيْهِ وَاضْطِرَارِهِ إِلَيْهِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الْعَلِيَّةِ، وَالْأَحْوَالِ الزَّكِيَّةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَطَالِبِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ إِعْطَاءُ اللَّهِ مُعَلَّلًا بِفِعْلِ الْعَبْدِ، كَمَا يُعْقَلُ مِنْ إِعْطَاءِ الْمَسْئُولِ لِلسَّائِلِ، كَانَ السَّائِلُ قَدْ أَثَّرَ فِي الْمَسْئُولِ حَتَّى أَعْطَاهُ؟!

قُلْنَا: الرَّبُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي حَرَّكَ الْعَبْدَ إِلَى دُعَائِهِ، فَهَذَا الْخَيْرُ مِنْهُ، وَتَمَامُهُ عَلَيْهِ. كَمَا قَالَ عُمَرُ ﷺ: إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَإِنَّمَا أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ، وَلَكِنْ إِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ فَإِنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ. وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ

﴿ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِالتَّدْبِيرِ، ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ الَّذِي دَبَّرَهُ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَقْذِفُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ حَرَكَةَ الدُّعَاءِ، وَيَجْعَلُهَا سَبَبًا لِلْخَيْرِ الَّذِي يُعْطِيهِ إِيَّاهُ، كَمَا فِي الْعَمَلِ وَالثَّوَابِ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ الْعَبْدَ لِلتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَثَابَهُ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ، فَمَا أَثَرَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، بَلْ هُوَ جَعَلَ مَا يَفْعَلُهُ سَبَبًا لِمَا يَفْعَلُهُ. قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ ـ أَحَدُ أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ ـ: نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَوَجَدْتُ مَبْدَأَهُ مِنَ اللَّهِ، وَتَمَامَهُ عَلَى اللَّهِ، وَوَجَدْتُ مِلَاكَ ذَلِكَ الدُّعَاءَ.

---

قال الشيخ:

وهذا يتعلّق بالدّعاء الذي أمر الله به، وحثّ عليه النبيّ ﷺ، ونهج عليه علماء الأمّة، ورغّبوا فيه، وهو سؤال الله تعالى، وطلب العبد حاجاته من ربّه، وأن ينزل العبد حاجاته بربّه، وأن يسأله قضاءها، وأن يرغب إليه في أن ييسّر له كلّ عسير، وأن يعطيه كلّ مطلب.

وقد تقدّمت أدلّة تفيد الأمر بالدّعاء، والحثّ عليه، مثل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. هذا كلام الله، لما قال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: يا رسول الله! أقريب ربّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا

﴿سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١]. فهذا خبر من ربّنا تعالى أنّه قريب، وأنّه يجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه. وكذلك أمر بالدعاء بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وهذا أمر بالدعاء، وخبر بأنّه يستجيب الدعاء. وقد حثّ النبيّ ﷺ على الدّعاء، وقال: «**الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ**»[٢]، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وكذلك حثّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الإكثار من الدّعاء.

وإذا قيل: إنّ الكثير قد يدعون ولا يرون أثرًا للإجابة، فأين معنى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟ نقول: ورد في بعض الأحاديث: «**ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ ليس فيها أثم وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إلا أَعْطَاهُ اللَّهُ بها إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ له دَعْوَتُهُ، وإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا له في الآخِرَةِ، وإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**»، قالوا: إِذًا نُكْثِرُ، قال: «**الله أَكْثَرُ**»[٣].

فلا يخلو من ثلاث حالات: إما أن تجاب دعوته عاجلًا، ويرى أثرها. وإمّا

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٥) عن الصلب بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٨) واللفظ له، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٤٨)، وعبد بن حميد (ص٢٩٢)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣٣٧)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

أن يدفع الله شرًّا عنه بسبب هذه الدعوة، كما يدفع بالأعمال الصالحة. وإمّا أن يدّخرها له الله في الآخرة، فيثيبه عليها كما يثيبه على الأعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقات والحج والجهاد ونحوها.

ومعلوم أيضًا أنّ الدّعاء ـ وإنْ أُجيب الداعي وأُعطي سؤله في الدنيا ـ فإنّ الله بكرمه يثيبه في الآخرة؛ بمعنى أنّه: يدفع عنه السوء، أو يعظم له الأجر، أو يجزل له الثواب؛ لأنّه قام بدعاء ربّه. وسبب ذلك: أنّ الإنسان الذي يعلم أنّ ربّه هو الذي يقضي الحاجات، وهو الذي يفرّج الكربات، وهو الذي يجيب الدعوات، يعلم ذلك، ثمّ ينزل حاجته بربّه، فهو بذلك يكون قد عبد ربّه، فيكون بدعائه متعبّدًا. فأنت إذا رفعت يديك تدعو الله تعالى، ولم تعلّق قلبك بأيّ مخلوق، فهذا دليل على أنّك عرفت أنّه الذي يقضي حاجتك، وأنّه الذي يملكها وحده، وأنّه الذي يفرّج الكروب، وأنّه علاّم الغيوب، فهذه عبادة قلبية، ألا يستحق الداعي ثوابًا على ذلك؟!

إذًا فالدعاء يُثاب عليه في الدنيا بأن يُجاب دعاؤه، وفي الآخرة بأن يُجازى على عبادته ومعرفته.

وتقدم اعتراض الفلاسفة والقدريّة ونحوهم، وقولهم: إنّ الدّعاء لا فائدة فيه، وقولهم: إذا كان هذا الأمر قد قدّر الله أنّه يأتي، فإنّه سيأتي دعوت أو لم أدعُ. وإذا لم يقدره الله لي فلا يأتي لو دعوت ثم دعوت، فما الموجب لهذا الدعاء؟ هذه شبهتهم.

فإذا قلنا لأحدهم: ادع ربّك أن يفرّج عنك هذا الكرب، ويقضي عنك هذا

الدَّين، ويزيل عنك هذا الهمّ والغم، وأن يوسّع عليك في رزقك، وأن يعافيك في بدنك، ويرزقك أهلًا وولدًا. يقول أحدهم: إن كان الله قد قدّر أنّه يرزقني، وأنّه يأتيني رزق، فسوف يأتيني دعوت أو لم أدعُ، وإن كان الله لم يكتب لي هذا الرزق، فلا فائدة في هذا الدعاء. هل هذا القول صحيح؟

نقول: ليس بصحيح؛ لأننا نقول: إنّ ربّنا سبحانه، قد قدّر لك هذا الأمر، ولكن جعل له سببًا؛ يعني: قدّر لك رزقًا، وجعل سببه الدعاء، وقدّر لك صحّة، وجعل لها سببًا هو الدعاء، فكأنّه كتب في الأزل أنّك تدعو فتصحّ، ولو لم تدعُ لم تصحّ، وكأنّه كتب في الأزل أنّك تدعو فترزق، ولو لم تدعُ لم ترزق. فيكون الدعاء سببًا من أسباب هذا الأمر الذي حصل لك.

ومعلوم أنّ الأسباب مرتبطة بمسبّباتها، وأنّ الله جعل في هذه الدنيا أسبابًا، وأمر العباد بمباشرتها، وجعل لتلك الأسباب تأثيرًا، وإن كان قد قدّر ذلك أزلًا، وكتبه في اللوح المحفوظ. وقد تقدّم كلام الشارح في الأسباب الحسيّة، والأسباب الحسيّة لا ينكرها منكر.

فمن المعلوم أنّ الإنسان لو ترك الأكل وهو ينظر إليه ويجده حتّى مات، يعد قاتلًا لنفسه؛ الله تعالى جعل هذا الأكل سببًا في بقاء الحياة، وقدّر أنّ الإنسان يأكل من هذا الطعام فيعيش، وأمر بذلك بقوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]. وقدّر أنّ الشراب سببٌ في بقاء هذه الحياة، ولو تركه الإنسان وهو قادر على أن يشرب، فمات، عُدَّ قاتلًا لنفسه. وكذلك الأسباب الأخرى مشاهد أنّها مؤثّرة

في مسبّباتها، فالنّكاح سبب في حصول الولد، والله أمر بذلك، فقال: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣]، وقال: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢]؛ لأنّ النكاح سبب في حصول الولد، فلو قال إنسان: لا أتزوج، إن كان الله قدّر لي أولادًا حصلوا وإن لم أتزوّج، وإن كان لم يُقدِّر لي أولادًا فلا فائدة في الزواج.

نقول: ليس كذلك، فالله إذا قدّر لك ولدًا، فإنّه لا بدّ له من سبب، جعل من سببه النّكاح، فأنت افعل هذا السبب حتّى يحصل ما قدّره، عليك أن تفعل والله هو الذي يقدّر ذلك.

ولو قال إنسان مثلًا وهو يملك أرضًا: لا حاجة لي أن أبذر في هذه الأرض أو أسقيها، فإن كان الله قّدر أن ينبت فيها قمحًا، أو زرعًا حصل ذلك، وإن لم يقدّر، فلا فائدة في الزّرع. هل هذه المقالة صحيحة؟ لا شكّ أنّها باطلة؛ لأنّ الله تعالى قد أمر بهذا السّبب، وهو بذرُ الأرض وسقيها، وهو إذا شاء جعلها مثمرة، يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣، ٦٤]، أثبت لهم حرثًا، ثمّ أخبر بأنّه هو الذي ينبته، ولو شاء ما نبت، ومن أجل ذلك قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]. فهذا بيان أنّ الأسباب لها فائدة، ولو كان ذلك مكتوب أزلًا، فإذًا: الدعاء سببٌ، كما أنّ الزرع والنّكاح والغزو سبب، وما أشبه ذلك. فهذه الأسباب تؤثّر بإذن الله تعالى.

هناك من يعتمد على الأسباب كُلًا، وتقدّم أنّ الاعتماد على الأسباب،

والاعتقاد بأنّ السبب هو وحده المؤثّر يُعدّ شركًا بالله؛ لأنه جعل لغيره تأثيرًا لم يجعله بتقدير الله. والله تعالى أخبر بأنّه هو يخلق الخلق، وهو يرزقهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩]، لو قال إنسان: إن الإنسان هو يخلق ولده؛ لأنّه صبّه في الرحم، ثمّ تكوّن إلى أن يكون ولدًا، ولم يجعل لله سببًا، كان ذلك كفرًا؛ لأنّ الله هو مسبّب الأسباب.

وقسم ثانٍ، وهم الذين يعرضون عن الأسباب، ولا يلتفتون إليها، وهذا نقص في العقل، فلا يليق بالعاقل أن يترك الأكل ويقول: إذا قدّر الله أنّي أعيش، فإنّي أعيش ولو لم آكل. وكذلك أيضًا يترك التكسّب وطلب الرزق، ويقول: ينزل عليّ من السماء طعامي وشرابي وكسوتي وحاجاتي، وإن لم أتحرك ولم أطلب. فذلك نقص في العقل. إذن الاعتماد على الأسباب يعد شركًا وقدحًا في التوحيد، وترك الأسباب نقص في العقل وقدح في الشرع.

وبكلّ حال، هذا الدعاء أمر الله به، وحثّ عليه، ورغّب فيه، وأخبر بأنّه يحبّ الذين يدعونه. وقد قال النبيّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[1]. فحثّ المسلم على أن يدعو الله حتّى يحصل على رضاه. وقد قال بعض السلف: اسألوا الله حاجاتكم كلّها حتّى الملح للطّعام. وإن كان ذلك يستدعي أيضًا أنّ الإنسان يفعل الأسباب، مع عدم اعتماده عليها، ومن جملتها أن يدعو الله تعالى. والدعاء يحصل لخيري الدنيا والآخرة، ويعلم أنّ أمور الدنيا والآخرة بيد الله، ويعلم أنّه

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٩٢).

هو الذي يعطي عباده، ولا تنفذ خزائنه مهما أنفق ومهما أعطى. كما في الحديث: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وقال: أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»[1].

وكما في الحديث القدسيّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»[2]. وأشباه ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة تحضّ على الدعاء وتحثّ عليه، وقد أسلفنا أنّ الدعاء فيه فائدة كبيرة بتعجيل استجابته في الدنيا، أو الثواب عليه في الآخرة، أو دفع شرّ بقدره. ولو لم يكن في الدّعاء إلا تذلّل الإنسان لربّه، وخضوعه له، وتضرّعه، وتمسكنه بين يدي ربّه؛ لكان فيه خيرًا عظيمًا. وهذا ردّ على من ألغى فائدة الدّعاء.

والواقع يشهد بفائدة الدعاء، فالنبيّ ﷺ لما سئل مرّة وهو على المنبر، أن يدعو الله تعالى بالغيث، رفع يديه، وقال: «اللهمّ أغثنا»، مرتين أو ثلاثًا، فاستجاب الله دعاءه، فنزل المطر في ذلك اليوم، واستمرّ نزوله أسبوعًا، وفي الجمعة الثانية دعا بقوله: «اللهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا»، فانفرجت السماء، وأصبحت

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٨٨).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٢٦).

المدينة في مثل الإكليل استجابةً لدعوته[1]. فدلّ على أنّ الدعاء يؤثر ويفيد، لاسيّما إن كان من مسلم مستجاب الدعوة، ومن تتمّ فيه الصفات التي تجعله أهلًا أن تُجاب دعوته، ويقوم بشروط إجابة الدعوة؛ فإنّ لها شروطًا مذكورة في الكتب المطوّلة.

وقد جمع العلماء ما صحّ عندهم من الأدعية؛ ففي «صحيح البخاري» كتاب اسمه كتاب الدعوات، أورد فيه الكثير من الأدعية المرفوعة تتعلق بأمور الدّنيا والآخرة، طلبًا أو منعًا؛ فالطلب: مثل سؤال الجنّة، وسؤال الخير ومحو الشرّ وما أشبه، والمنع مثل الاستعاذة من الشرور ونحوها. وكذلك في «صحيح مسلم» كتاب الذكر والدعاء، جمع فيه أيضًا أدعية كثيرة. وأخرجت الأدعية في كتب، من أوسعها كتاب «الدعاء» للبيهقي، و«الدعاء» للطبراني. واهتمّ بذلك العلماء المتقدّمون والمتأخّرون، وكلّ أخرج ما اطّلع عليه، وما عنّ له من الأدعية. وذلك كله دليل على فائدة الدعاء.

---

(١) اخرجه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قال الشارح:

وَهُنَا سُؤَالٌ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ: أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَدْ يَسْأَلُ اللَّهَ فَلَا يُعْطَى شَيْئًا، أَوْ يُعْطَى غَيْرَ مَا سَأَلَ؟ وَقَدْ أُجِيبَ عَنْهُ بِأَجْوِبَةٍ، فِيهَا ثَلَاثَةُ أَجْوِبَةٍ مُحَقَّقَةٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْآيَةَ لَمْ تَتَضَمَّنْ عَطِيَّةَ السُّؤَالِ مُطْلَقًا، وَإِنَّمَا تَضَمَّنَتْ إِجَابَةَ الدَّاعِي، وَالدَّاعِي أَعَمُّ مِنَ السَّائِلِ، وَإِجَابَةُ الدَّاعِي أَعَمُّ مِنْ إِعْطَاءِ السَّائِلِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[1].

فَفَرْقٌ بَيْنَ الدَّاعِي وَالسَّائِلِ، وَبَيْنَ الْإِجَابَةِ وَالْإِعْطَاءِ، وَهُوَ فَرْقٌ بِالْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ، كَمَا أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالْمُسْتَغْفِرِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ السَّائِلِ، فَذَكَرَ الْعَامَّ ثُمَّ الْخَاصَّ ثُمَّ الْأَخَصَّ. وَإِذَا عَلِمَ الْعِبَادُ أَنَّهُ قَرِيبٌ، يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي، عَلِمُوا قُرْبَهُ مِنْهُمْ، وَتَمَكَّنُهُمْ مِنْ سُؤَالِهِ، وَعَلِمُوا عِلْمَهُ وَرَحْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ، فَدَعَوْهُ دُعَاءَ الْعِبَادَةِ فِي حَالٍ، وَدُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ فِي حَالٍ، وَجَمَعُوا بَيْنَهُمَا فِي حَالٍ؛ إِذِ الدُّعَاءُ اسْمٌ يَجْمَعُ الْعِبَادَةَ وَالِاسْتِعَانَةَ، وَقَدْ فُسِّرَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، بِالدُّعَاءِ، الَّذِي هُوَ الْعِبَادَةُ، وَالدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ الطَّلَبُ. وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، يُؤَيِّدُ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ.

الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنَّ إِجَابَةَ دُعَاءِ السُّؤَالِ أَعَمُّ مِنْ إِعْطَاءِ عَيْنِ السُّؤَالِ، كَمَا

---

(١) اخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، أَوْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مِثْلَهَا، أَوْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»[1]. فَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الدَّعْوَةِ الخَالِيَةِ عَنِ الْعُدْوَانِ مِنْ إِعْطَاءِ السُّؤَالِ مُعَجَّلًا، أَوْ مِثْلِهِ مِنَ الخَيْرِ مُؤَجَّلًا، أَوْ يَصْرِفُ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ.

الجَوَابُ الثَّالِثُ: أَنَّ الدُّعَاءَ سَبَبٌ مُقْتَضٍ لِنَيْلِ المَطْلُوبِ، وَالسَّبَبُ لَهُ شُرُوطٌ وَمَوَانِعُ، فَإِذَا حَصَلَتْ شُرُوطُهُ، وَانْتَفَتْ مَوَانِعُهُ، حَصَلَ المَطْلُوبُ، وَإِلَّا فَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ المَطْلُوبُ، بَلْ قَدْ يَحْصُلُ غَيْرُهُ. وَهَكَذَا سَائِرُ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ، مِنَ الْأَذْكَارِ المَأْثُورَةِ المُعَلَّقِ عَلَيْهَا جَلْبُ مَنَافِعَ، أَوْ دَفْعُ مَضَارَّ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ بِمَنْزِلَةِ الْآلَةِ فِي يَدِ الْفَاعِلِ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ قُوَّتِهِ وَمَا يُعِينُهَا، وَقَدْ يُعَارِضُهَا مَانِعٌ مِنَ المَوَانِعِ. وَنُصُوصُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ـ المُتَعَارِضَةِ فِي الظَّاهِرِ ـ مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَكَثِيرًا مَا تَجِدُ أَدْعِيَةً دَعَا بِهَا قَوْمٌ فَاسْتُجِيبَ لَهُمْ، وَيَكُونُ قَدِ اقْتَرَنَ بِالدُّعَاءِ ضَرُورَةُ صَاحِبِهِ، وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ حَسَنَةٌ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ، جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِجَابَةَ دَعْوَتِهِ شُكْرًا لِحَسَنَتِهِ، أَوْ صَادَفَ وَقْتَ إِجَابَةٍ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ، فَيَظُنُّ أَنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ الدُّعَاءِ، فَيَأْخُذُهُ مُجَرَّدًا عَنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي قَارَنَتْهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّاعِي.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٠٥)، ولم يروه مسلم في صحيحه.

وَهَذَا كَمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلٌ دَوَاءً نَافِعًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي، فَانْتَفَعَ بِهِ، فَظَنَّ آخَرُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذَا الدَّوَاءِ بِمُجَرَّدِهِ كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، فَكَانَ غَالِطًا.

وَكَذَا قَدْ يَدْعُو بِاضْطِرَارٍ عِنْدَ قَبْرٍ، فَيُجَابُ، فَيَظُنُّ أَنَّ السِّرَّ لِلْقَبْرِ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ السِّرَّ لِلاضْطِرَارِ وَصِدْقِ اللَّجْءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

فَالْأَدْعِيَةُ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالرُّقَى بِمَنْزِلَةِ السِّلَاحِ، وَالسِّلَاحُ بِضَارِبِهِ، لَا بِحَدِّهِ فَقَطْ، فَمَتَى كَانَ السِّلَاحُ سِلَاحًا تَامًّا، وَالسَّاعِدُ سَاعِدًا قَوِيًّا، وَالْمَحَلُّ قَابِلًا، وَالْمَانِعُ مَفْقُودًا، حَصَلَتْ بِهِ النِّكَايَةُ فِي الْعَدُوِّ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأْثِيرُ. فَإِذَا كَانَ الدُّعَاءُ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ صَالِحٍ، أَوِ الدَّاعِي لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فِي الدُّعَاءِ، أَوْ كَانَ ثَمَّ مَانِعٌ مِنَ الْإِجَابَةِ: لَمْ يَحْصُلِ الْأَثَرُ.

---

قال الشيخ:

هذه الأجوبة قد تقدّمت الإشارة إلى بعضها. والسؤال: أنّ بعض النّاس يدعو ويكرّر الدعاء، ومع ذلك لا يستجاب دعاؤه، فكيف والله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]؟ قد يقول: لماذا لا يستجيب وقد وعد بالإجابة، وكذلك قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، كيف لم تحصل الإجابة؟

ذكر الشارح عدّة أجوبة، ومنها: القول بأنّ الإجابة أعمّ من الإعطاء، فقد قال تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، و﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ولم يقل: أعطيه مطلبه! فالإجابة يدخل فيها الثواب، ويدخل فيها التلبية لطلبه، ونحو ذلك. والسّماع: أي إنّه سمع دعوته سماع قبول. فيقول: هناك فرق بين إعطائه سؤله، وإجابة الدعوة، والله تعالى ذكر إجابة الدعوة، ولم يذكر إعطاء المسؤول، فلا يكون هناك اعتراض على الآية.

وتقدّم الاستشهاد بحديث النزول: يقول تعالى: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»، ففرّق بين السؤال والدّعاء، ففي السؤال قال: أعطيه، وفي الدّعاء قال: أجيبه، والآية فيها: أجيبه. فإن أجابه بأن سمع دعاءه، أو قبل دعاءه، صدق عليه أنّه أجابه، فيقال: أنت ممّن قبل الله دعاءك، وإن لم يعطك سُؤلك.

أمّا الجواب الثاني: ففيه أنّ الدّاعي لا يعدو أن يكون من هذه الثلاث: الأولى أن يعطى سؤله في الدّنيا. و الثانية: أن يدّخر له إلى الآخرة. والثالثة: أن يصرف عنه من الشرّ مثله. فهو رابح بكلّ حال.

أما الجواب الثالث: فهو أنّ الدعاء قد يتخلّف سبب الإجابة فيه؛ لأنّ الإجابة لها أسباب، ولها موانع، فمثلًا: الإنسان المسلم المؤمن صحيح الاعتقاد، هذا يعد سببًا من أسباب الإجابة. كذلك الملحّ في الدّعاء، حاضر القلب، الذي اجتمع قلبه ولسانه على الدّعاء، وكذلك المضطرّ غاية الضرورة، الذي وقع في

الضيق، فالتجأ إلى ربّه صادقًا في دعائه، وكذلك استعمل أدعيةً مأثورة، ومرويّة وجامعة ومانعة، وكذلك تحرّى أوقات الإجابة، وتحرّى أماكن الإجابة، تحرّى فيه الأسباب، فأعطي سؤله.

وإذا سمع بذلك آخر، فقال: فلان أُعطي سؤله لما أن دعا فاستجيب له. وأنا دعوت ولكن لم يستجب لي، فأنا لا أزال في شدّة، ولا أزال في كرب!

نقول: تخلّف فيك سبب من أسباب الإجابة، فلو اجتمعت فيك أسباب الإجابة، أجيب دعاؤك، ولكن لعلّه تخلّف فيك سبب، أو وجد فيك مانع. كارتكاب شيء من الذنوب، أو تقصير في شيء من الأعمال، فيكون مانعًا من الإجابة.

وقد مثّل الشارح ـ رحمه الله ـ لذلك بإنسان دعا عند قبر، ولكن دعا وهو مضطر، ودعا وهو صادق الرغبة، فظنّ أنّ إجابته بسبب ذلك القبر، فسمعه الآخرون وقالوا: هذا القبر تستجاب عنده الدعوة. وليس كذلك، بل الأمر إما حصل مصادفة، أو حصل بأمر سماويّ، أو لحاجة ما. فالحاصل أن الإنسان يجب عليه أن ينظر ويأتي بالأسباب التي تكون مفيدة في إجابة الدعاء.

الآيات كثيرة في أمر الله تعالى عباده أن يدعوه. وقد عرفنا أنّ الدّعاء هو النداء، فإذا قلنا: اللهمّ اغفر لنا، اللهمّ ارحمنا، فهذا يستدعي منا نداء لربّنا، المعنى: يا الله، يا ربّنا. وكذلك في الأدعية التي في القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ التقدير: يا ربّنا.

وقد ذكرنا أنّ الدّعاء ينقسم قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وأنّ كلًا منهما يلزم منه الآخر، فدعاء المسألة يستلزم دعاء العبادة، ودعاء العبادة يتضمّن دعاء المسألة، ودعاءُ العبادة يدخل فيه كل العبادات، فيقال: الصلوات دعاء عبادة، والأذكار دعاء عبادة، والأوراد دعاء عبادة، والصدقات والصلوات والبرّ والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وما أشبه ذلك من الأعمال الخيريّة، وكذلك ترك المنكرات، دعاء عبادة كلّها. ولكن هي في الحقيقة تتضمّن دعاء المسألة؛ لأنّ العابد ربّه ما قصد إلا المسألة، فكأنّه يقول: أقصد من صلاتي الأجر، وأقصد من صدقتي الثواب، وأقصد من دعائي ومن ذكري الحياة الطيّبة، كأنّه يقول: أصلّي لك يا ربّ وأحجّ لك؛ لتغفر لي، ولترزقني، ولتصلح أحوالي، فإذًا هو داعٍ في حقيقة أمره، ويقصد الأجر على هذه العبادة.

وقد ذكرنا أنّ الاشتغال بالثناء والذكر يقوم مقام السؤال، ولأجل ذلك وردت أدعية في القرآن، لفظها لفظ الدّعاء ولكنّها ذكر وثناء، مثل قول الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦، ٢٧]، ليس فيها سؤال، إنّما فيها ثناء على الله، ولكنّ هذا الثناء يستلزم الدّعاء. نقول: هذا هو حقيقة الدّعاء.

وهناك من ينكر الدّعاء؟ مثل فرقة من القدريّة الذين يقولون لا فائدة في الدّعاء؛ لأنّ ما كتب لك سوف يأتيك دعوت أو لم تدعُ، وإن كان لم يكتب لك،

فلا يأتيك دعوت أو لم تدعُ.

والجواب: أن الله كتب لك هذا، ولكن كتب له شرطًا، والشرط هو الدعاء؛ يعني: جعل لك رزقًا يأتيك بشرط الدعاء، وقدّر الله أنّك تدعو، وقدّر أنّه يجيب دعوتك، وأمرك بأن تدعو، وأخبرك بفائدة هذا الدعاء، ولو كان ما قالوه صحيحًا لم يكن في العمل كلّه فائدة. ونحن نعترف بأنّ الأعمال الصالحة لها تأثير، والأعمال السيّئة أيضًا لها تأثير. وعلى هذا فالدعاء له فائدة، كما أنّ العمل الصالح له فائدة، وفائدته الحياة الطيّبة، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. فعرفنا بذلك أنّنا مأمورون بالدعاء، وأنّه يجيب الدعوات، وأنّه قدّر أنّ يوفّق الداعي بالدّعاء، ويلهمه الله ذلك، فيحصل له فائدة.

كذلك أيضًا: قد يقول بعضهم: إنّنا ندعو دائمًا، ونكثر من الدعاء، ولا نرى له فائدة، ولا يُستجاب لنا؟!

والجواب: أنّ حرمان الإجابة أو تأخرها له أسباب، وإجابتها أيضًا لها أسباب، وقد سمعنا أخبارًا عن الصالحين الذين استجاب الله لهم وعلى الأخصّ في وقت الشدَّة، وسمعنا كثيرًا عن الصالحين الذين اشتدّت بهم الأزمات، وضاقت بهم السّبل، فدعوا الله وأخلصوا له الدّعاء، فاستجاب الله لهم وفرّج عنهم.

يذكر بعض آبائنا أنّهم كانوا مسافرين للحجّ في زمن شديد القحط، وأنّ

الطريق الذي سلكوه ليس به ماء، فساروا نحو خمسة أيام أو ستة، لم يردوا موردًا، واشتدّ عليهم العطش حتّى كادوا يموتون عطشًا، ولمّا أيقنوا بالهلاك ألهمهم الله الدّعاء، فتضرّعوا لله وهم في أشدّ ما يكونون من الحرّ؛ فأرسل الله عليهم سحابةً أمطرت عليهم قدر ما شربوا ورووا إبلهم وملؤوا قربهم، وأزال عنهم هذه الشدّة. وهناك الكثير من هذه العجائب التي تبين ما للدعاء من تأثير كبير.

وقد تقدّم الحديث عن النبيّ ﷺ: « **ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ ليس فيها أَثَم وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إلا أَعْطَاهُ اللَّهُ بها إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ له دَعْوَتُهُ، وإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا له في الآخِرَةِ، وإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**»، قالوا: إِذًا نُكْثِرُ، قال: «**الله أَكْثَرُ**»[1]. أي: أكثر أجرًا وثوابًا.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٠٥).

قال الطحاوي:

وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ. وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَقَدْ كَفَرَ وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الحَيْنِ.

---

قال الشارح:

كَلَامٌ حَقٌّ ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ. وَالحَيْنُ، بِالْفَتْحِ: الهَلَاكُ.

---

قال الشيخ:

قوله: (وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ)، كلام ظاهر يدلّ على أنّ الله تعالى هو المالك لكلّ شيء، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]. والمَلِك: اسم من أسماء الله، وكذلك من أسمائه المالك، الذي يملك التصرّف الكامل، فهو مالك الدنيا والآخرة، ومالك العباد، ومالك البلاد، ومذلّل الصعاب، مالك كلّ شيء، ولا يمكله شيء، تعالى الله فهو الخالق وما سواه مخلوقون، وهو المالك وما سواه مملوكون.

هذا معنى هذه الجملة: الاعتراف بأنّ الملك ملكه، وبأنّ العبيد كلّهم وما بأيديهم مملوكون له، وملكهم بما تحت أيديهم وما تحت تصرّفهم، ملك خاصّ لا يملكونه استقلالًا، وهو ملك مؤقّت. فإن قلت: هذه الدولة يملكها فلان، أو

رئيسها فلان. نقول: إنّ ملكه خاصّ ومؤقّت، وكذلك الأرض والعمارة يملكونها ملكًا خاصًا ومؤقّتًا، ربّما تنتزع منه، أو ينتزع منها، أو يموت ويتركها. فعرف بذلك أنّ الملك الحقيقي هو ملك الله سبحانه المالك: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:٨٣].

وأمّا قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (**وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ**)، فقد تقدّم ذلك في الجمل المتقدّمة، والتي ذكر فيها أنّ العباد بحاجة إلى ربّهم، وأنّهم مضطرّون إلى سؤاله، بل هو يحبّ منهم أن يدعوه ويسألوه، ويرغّب عباده أن يسألوه ويستعطوه من فضله، مع كونهم بحاجة إلى عطائه، وهو غنيّ عنهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨]. فوصف نفسه بأنّه الغنيّ، والعبادُ فقراءُ إلى الله.

وقد ورد في الحديث القدسي: «**يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا من هَدَيْتُهُ، فاستهدونى أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا من أَطْعَمْتُهُ، فاستطعمونى أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ، فاستكسونى أَكْسُكُمْ**»[1]. فلا يستغني أحدٌ عن الله طرفة عين، والذين يظهرون أنّهم في غنى عن الله، هم في الحقيقة فقراء، ولو حصل لهم ما حصل، ولو ذلّلت لهم الدّنيا، وضحكت لهم

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه (٤/ ٤٣٠).

حياتهم، حتى انخدعوا، أو انخدع كثير منهم.

وذُكر أن بعض الكفرة الذين كانوا بين المسلمين، لما قيل له: اعبد الله، فإن الله هو الذي رزقك. أنكر ذلك ـ والعياذ بالله ـ وقال: إنّما رزقتني يميني. فاعتمد على أنّه هو الذي يكسب، ونسي أنّ الله هو الذي حنّن عليه أبويه في طفولته، ووكّل به من يطعمه ويسقيه في حالة عجزه، حتّى اشتدّ عوده، ونسي فضل الله عليه، ولو شاء الله لسلبه ما أعطاه. فعلى هذا يعترف الإنسان أنّه فقير إلى الله، وأنّ العباد لا غنى لهم عن ربّهم طرفة عين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَاللَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٦٠]، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء:٩٣]، ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة:٦١]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَمَذْهَبُ السَّلَفِ وَسَائِرُ الْأَئِمَّةِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ، وَالرِّضَى، وَالْعَدَاوَةِ، وَالْوِلَايَةِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ، الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَمَنْعُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يَصْرِفُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا اللَّائِقَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى. كَمَا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ فِيمَا تَقَدَّمَ بِقَوْلِهِ: (إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ: تَرْكَ التَّأْوِيلِ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ).

وَانْظُرْ إِلَى جَوَابِ الْإِمَامِ مَالِكٍ ﷺ فِي صِفَةِ الِاسْتِوَاءِ كَيْفَ قَالَ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ»[1]. وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٤).

مَوْقُوفًا عَلَيْهَا، وَمَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ[1].

وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فِيمَا تَقَدَّمَ: (مَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ). وَيَأْتِي فِي كَلَامِهِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ.

فَقَوْلُ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى)، نَفْيُ التَّشْبِيهِ. وَلَا يُقَالُ: إِنَّ الرِّضَى إِرَادَةُ الْإِحْسَانِ، وَالْغَضَبَ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ. فَإِنَّ هَذَا نَفْيٌ لِلصِّفَةِ، وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُهُ وَلَا يَشَاؤُهُ، وَيَنْهَى عَمَّا يَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ، وَيُبْغِضُهُ وَيَغْضَبُ عَلَى فَاعِلِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ شَاءَهُ وَأَرَادَهُ، فَقَدْ يُحِبُّ عِنْدَهُمْ وَيَرْضَى مَا لَا يُرِيدُهُ، وَيَكْرَهُ وَيَسْخَطُ وَيَغْضَبُ لِمَا أَرَادَهُ.

وَيُقَالُ لِمَنْ تَأَوَّلَ الْغَضَبَ وَالرِّضَى بِإِرَادَةِ الْإِحْسَانِ: لِمَ تَأَوَّلْتَ ذَلِكَ؟ فَلَابُدَّ أَنْ يَقُولَ: لِأَنَّ الْغَضَبَ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ، وَالرِّضَى الْمَيْلُ وَالشَّهْوَةُ، وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى! فَيُقَالُ لَهُ: غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ فِي الْآدَمِيِّ أَمْرٌ يَنْشَأُ عَنْ صِفَةِ الْغَضَبِ، لَا أَنَّهُ الْغَضَبُ. وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: وَكَذَلِكَ الْإِرَادَةُ وَالْمَشِيئَةُ فِينَا، فَهِيَ مَيْلُ الْحَيِّ إِلَى الشَّيْءِ أَوْ إِلَى مَا يُلَائِمُهُ وَيُنَاسِبُهُ، فَإِنَّ الْحَيَّ مِنَّا لَا يُرِيدُ إِلَّا مَا يَجْلِبُ لَهُ مَنْفَعَةً أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةً، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَا يُرِيدُهُ وَمُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَيَزْدَادُ بِوُجُودِهِ، وَيَنْتَقِصُ بِعَدَمِهِ. فَالْمَعْنَى الَّذِي صَرَفْتَ إِلَيْهِ اللَّفْظَ كَالْمَعْنَى الَّذِي صَرَفْتَهُ عَنْهُ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٩).

سَوَاءٌ، فَإِنْ جَازَ هَذَا جَازَ ذَاكَ، وَإِنِ امْتَنَعَ هَذَا امْتَنَعَ ذَاكَ.

فَإِنْ قَالَ: الْإِرَادَةُ الَّتِي يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا مُخَالِفَةٌ لِلْإِرَادَةِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْعَبْدُ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَقِيقَةً؟ قِيلَ لَهُ: فَقُلْ: إِنَّ الْغَضَبَ وَالرِّضَى الَّذِي يُوصَفُ اللَّهُ بِهِ مُخَالِفٌ لِمَا يُوصَفُ بِهِ الْعَبْدُ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَقِيقَةً. فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُهُ فِي الْإِرَادَةِ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَمْ يَتَعَيَّنِ التَّأْوِيلُ، بَلْ يَجِبُ تَرْكُهُ؛ لِأَنَّكَ تَسْلَمُ مِنَ التَّنَاقُضِ، وَتَسْلَمُ أَيْضًا مِنْ تَعْطِيلِ مَعْنَى أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ بِلَا مُوجِبٍ. فَإِنَّ صَرْفَ الْقُرْآنِ عَنْ ظَاهِرِهِ وَحَقِيقَتِهِ بِغَيْرِ مُوجِبٍ حَرَامٌ، وَلَا يَكُونُ الْمُوجِبُ لِلصَّرْفِ مَا دَلَّهُ عَلَيْهِ عَقْلُهُ؛ إِذِ الْعُقُولُ مُخْتَلِفَةٌ، فَكُلٌّ يَقُولُ: إِنَّ عَقْلَهُ دَلَّهُ عَلَى خِلَافِ مَا يَقُولُهُ الْآخَرُ!

وَهَذَا الْكَلَامُ يُقَالُ لِكُلِّ مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى، لِامْتِنَاعِ مُسَمَّى ذَلِكَ فِي الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى خِلَافِ مَا يَعْهَدُهُ، حَتَّى فِي صِفَةِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ وُجُودَ الْعَبْدِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَوُجُودَ الْبَارِي تَعَالَى كَمَا يَلِيقُ بِهِ، فَوُجُودُهُ تَعَالَى يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ، وَوُجُودُ الْمَخْلُوقِ لَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ، وَمَا سَمَّى بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ وَسَمَّى بِهِ مَخْلُوقَاتِهِ، مِثْلَ الْحَيِّ وَالْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ، أَوْ سَمَّى بِهِ بَعْضَ صِفَاتِهِ، كَالْغَضَبِ وَالرِّضَى، وَسَمَّى بِهِ بَعْضَ صِفَاتِ عِبَادِهِ، فَنَحْنُ نَعْقِلُ بِقُلُوبِنَا مَعَانِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ حَقٌّ ثَابِتٌ مَوْجُودٌ، وَنَعْقِلُ أَيْضًا مَعَانِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ، وَنَعْقِلُ أَنَّ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا، لَكِنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ مُشْتَرَكًا؛ إِذِ الْمَعْنَى الْمُشْتَرَكُ الْكُلِّيُّ لَا يُوجَدُ مُشْتَرَكًا إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ، وَلَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا

مُخْتَصًّا. فَيَثْبُتُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا كَمَا يَلِيقُ بِهِ. بَلْ لَوْ قِيلَ: غَضَبُ مَالِكٍ خَازِنِ النَّارِ وَغَضَبُ غَيْرِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِكَيْفِيَّةِ غَضَبِ الْآدَمِيِّينَ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَيْسُوا مِنَ الْأَخْلَاطِ الْأَرْبَعَةِ، حَتَّى تَغْلِيَ دِمَاءُ قُلُوبِهِمْ، كَمَا يَغْلِي دَمُ قَلْبِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ غَضَبِهِ. فَغَضَبُ اللَّهِ أَوْلَى.

---

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق ببعض صفات الله تعالى، ومنها: صفة الغضب، والرِّضى، والسخط، والحبّ، والبغض، ونحوها، وهذه تسمّى صفات فعليّة. وقد مرّ فيما تقدّم أنّ الصفات تنقسم قسمين: صفات فعليّة، وصفات ذاتيّة.

فالصفات الذاتيّة: هي الملازمة للموصوف، كصفة الكلام والحياة والوجه واليد والسمع والبصر، ونحوها. وأمّا صفات العلو والنزول والكراهية والسخط والغضب والرّضى، فهي صفات فعلية، أي إنّ الله تعالى يفعلها إذا شاء. وقد تكاثرت الأدلّة في هذه الصفات.

ففي إثبات الصفات الفعلية وردت أدلّة كثيرة في القرآن والحديث. وهذه الأدلّة مع كثرتها أنكرها الكثير من المبتدعة، فقد أنكرها المعتزلة، مع أنّهم أنكروا كذلك الصفات الذاتيّة وغيرها. وأنكر الأشعريّة هذه الصفات الفعليّة. ولكن أهل السنّة لم ينكروها، بل أقروا بها؛ لأنّهم رأوا الأدلّة عليها واضحة من القرآن والسنّة، وهي متواترة. فقول الله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، هل ننكر دلالة هذه الآية على صفة الغضب؟

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ [النور:٩]، وقوله في القاتل: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء:٩٣]، وكذلك قوله تعالى حكاية عن هود ـ عليه السلام ـ لـمَّا أغضبه قومه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١]، وقال في اليهود: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١]، وكذلك آيات السّخط، كقوله تعالى: ﴿كَمَنْ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٢]، وكذلك آيات الرّضى كثير ورودها في القرآن: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩]. فنقول: لا شكّ أنّ هذا وصف ظاهر.

وكذلك أيضًا في الأحاديث، ففي حديث الشفاعة: «**فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**»[1]، وكذلك يقول إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأولوا العزم من الرسل، يقرّون بأنّ الله سبحانه يغضب في هذا اليوم غضبًا شديدًا. وهذا دليل على أنّ الأنبياء والرّسل يعترفون لربّهم بصفة الغضب الذي يليق به.

وعلى هذا، فلا بدّ من إثبات هذه الصفة، ولكن إذا أثبتناها، فإنّنا لا نكيّفها، ولا نقول كيفيّة الغضب كذا وكذا في حقّ الله، وكذلك ننزّهها عن مشابهة غضب المخلوق. ولذلك يقول الطحاوي: «لا كأحد من الورى»؛ أي: لا كغضب أحد

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٥).

من الخلق، فغضب الله يليق به، وغضب المخلوق يليق به.

وقد أنكر الأشاعرة هذه الصفة، وقالوا: إن الغضب الذي نعرفه: هو غليان دم القلب لطلب الانتقام. وهذا لا يليق بالله، ولا يليق به أن يوصف بهذا الغضب الذي بهذه الصفة. قال لهم أهل السنّة: فبمَ تفسّرون الآيات والأحاديث التي فيها إثبات الغضب. فقالوا: نفسّره في حقّ الله بأنّه إرادة الانتقام. قلنا: كيف صرفتم غضب الله إلى إرادة الله أن ينتقم، أي: إلى إرادة الانتقام؟ وهم صرفوه لأنّهم يعترفون بالإرادة، فهم يثبتون صفة الإرادة لله. فإذا قلنا لهم: الإرادة: ميل النفس إلى المراد. قالوا: لا، هذه إرادة المخلوق. فإن قلنا: الغضب الذي هو غليان دم القلب بإرادة الانتقام، وهذا أيضًا غضب المخلوق، فأنتم فررتم من شيء ووقعتم في مثله، فالأولى لكم أن تثبتوا صفة الغضب، وتنفوا عنها التشبيه، وتكلوا كيفيّتها إلى الله تعالى، كما تفعلون ذلك في سائر الصفات؛ لأنّ المخلوق قد وصف بكثير من الصفات التي هي من صفات الله، ومع ذلك يوجد فارق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

فإذا أثبتنا صفتي السمع والبصر اللتين أثبتهما الله تعالى لنفسه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]. وكذلك يوصف بها الإنسان، فيقول تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم:٣٨].

فإذًا: الإنسان سميع والله سميع، هل يلزم التشابه بين سمع الخالق وسمع المخلوق؟ معلوم أنّهما اشتركا في معنى عام. فإذا قيل ما هو السّمع؟ نقول: هو إدراك الأصوات. ولكن سمع الله لا يحجبه شيء، فهو يسمع دبيب النملة السوداء على الصفاة الصّمّاء في اللّيلة الظلماء، وسمع الله لا تختلف عليه الأصوات، ولا تغلقه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات. وسمع المخلوق ليس كذلك، فأنت إن تكلّم عندك اثنان معًا، اشتبه عليك ما يقول هذا بما يقول هذا. أمّا الرّب تعالى فلا يشغله سمع عن سمع. فإذًا حصل الفرق.

وكذلك البصر، الاشتراك في المعنى العام، وهو أن يقال: ما هو البصر؟ نقول: هو إدراك الصور والأشباح. لكن بصر الله غير بصر المخلوق. فالله تعالى موصوف بالبصر، ولا يستر بصره حجاب. أما المخلوق فلا يخرق بصره الحجاب، ولا يرى ما يبعد عن مدى بصره، فهناك فارق.

وكذلك نقول في الغضب والرّضى، وفي السخط والبغض، والكراهية والمحبّة. فنقول: إنّ بين محبّة الله ومحبّة المخلوق فرقًا. ولا نقول: إنّ محبّة الله هي ميل النفس إلى المحبوب، أو الانعطاف نحو الشخص المحبوب.

وكذلك قول النّبي ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ**»[1]. رحمة المخلوق معناها عطفه وحدبه على هذا الضعيف، ورقّته عليه حتّى ينقذه من شدّة، أو يفرّج عنه همًّا، أو نحو ذلك من باب

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٥).

الإنسانيّة. ولَمَّا رأى الصحابة ـ رضي اللَّهُ عنهم ـ امْرَأَةً من السَّبْيِ تبتغي صَبِيًّا لها في السَّبْيِ، فلمَّا وَجَدَتْهُ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هذه المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟**» قالوا: لَا والله، وهي تَقْدِرُ على أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فقال: رسول اللَّهِ ﷺ: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ من هذه بِوَلَدِهَا**»[1]. فالأمّ: تحبّ ولدها وترحمه وتشفق عليه، وإذا بكى رفعته وقبّلته، وألقمته ثديها. هذه رحمة جعلها في قلوب عباده، والله تعالى موصوف بأنّه رحيم وأنّه يرحم، ولكن هل رحمة الخالق مثل رحمة المخلوق؟ ليس بينهما تقارب، فالله تعالى رحيم بعباده، ولكن لا يلزم أن تكون من باب الرقّة التي تكون للمخلوق أو نحوها، فرحمة المخلوق تليق به، ورحمة الخالق تليق به. إنما تشتركان في أنهما تتعديان، فرحمة المخلوق تصل إلى الضعفاء، ورحمة الخالق تصل إلى عباده، يرحمهم بمعنى: أنّه ينقذهم من الشدائد، ويرحمهم بمعنى: يغفر لهم، ويكفّر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنّته، ومن آثار رحمته أنّه ينزل الغيث.

فيُقال كذلك في الغضب والرّضى. وقد مرّ ذلك في كلام الشارح أنّ غليان الدم في القلب ليس هو حقيقة الغضب، ولكنّه أثر من آثار الغضب. فعندما يأتي الإنسان ما يغضبه، يشتدّ غليان قلبه، ويحنق ويحقد على هذا الذي أغضبه، فإذا غضب أثار ذلك حماسته، حتى اندفع بأن ينتقم منه. فتراه مثلًا قد يحمرّ وجهه وتنتفخ أوداجه، وذلك أثر. مثل الاحمرار والانتفاخ والشدّة في الكلام،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

والانطلاق في السّباب، وليس هذا نفس الغضب، ولكنّه أثر من آثاره، فيقال مثلًا: من آثار غضب الله أنّه يعاقب العصاة العتاة، وأنّه يريهم بأسه وشدّته، ويرسل عليهم العقوبات؛ جزاء على كفرهم وعنادهم. ويقال: أغضبوا الله، بمعنى: أنّهم خالفوا أمره، وعصوه، أو نهاهم عن شيء فأتوه، وهذا يسبّب غضب الله عليهم.

فلو أنّ الإنسان أمر ولده فعصاه، لغضب عليه، ومن آثار غضبه أن يضربه أو يؤدّبه. الربّ تعالى يأمر خلقه الذين هم عبيده، وهو المنعم عليهم؛ ولا غنى لهم عن ربّهم طرفة عين، ومع ذلك يعصيه هؤلاء، وهذا يسبب غضبه عليهم، فإذا غضب عليهم عاقبهم، كما أنّهم إذا أطاعوه رضي عنهم، فرضاه له آثار، آثاره أن يفرّج عنهم الهموم والشدائد، وينصرهم ويعطيهم سؤلهم ويجيب دعوتهم، فيقال: هؤلاء قد رضي الله عنهم، ويثيبهم في الآخرة، فيكون ثوابه أثرًا من آثار رضاه عنهم. كما يقول تعالى في أهل الجنّة: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩]. وكذلك يقال في العصاة: هؤلاء الذين غضب الله عليهم. من آثار غضبه: أن سلّط بعضهم على بعض، وأن أوقع بينهم الفتن والمصائب، وأن أحلّ بهم النكبات والعقوبات، ونحو ذلك.

نقول: علينا أن نثبت هذه الصفات، كما أثبتها الله، وألا نسلّط عليها التأويلات؛ كقولهم: الغضب: إرادة الانتقام، والرّضى: إرادة الإنعام، ونحو ذلك. حيث وقع هؤلاء في مثل ما هربوا منه، أو أنكروا صفة أثبتها الله لنفسه،

فإذا أثبتوها وقالوا: نثبتها كما يليق بالله، ونفوّض كيفيّتها إلى الله، ولا نسلّط عليها التأويلات، ولا نتكلّف في صرفها عن ظاهرها، سلموا من الاعتراض. وهذا ما سلكه أهل السنّة. أمّا أهل البدع فإنّهم تشدّدوا وتكلّفوا حتّى حمّلوا الآيات والأحاديث ما لا تطيق، وجعلوها خارجة عن معناها، ولو وُفّقوا وسلكوا طريقة أهل السنّة في الرّضى والتسليم لم يقعوا في مثل هذه المخالفات.

ومن البدع أيضًا: التعطيل؛ أي: تعطيل الله عن صفات الكمال؛ لأنّ الذين روّجوها وأدخلوها كأنّهم اكتسبوا النّاس بالعقول، وأقنعوا من اتصلوا به أو من دعوه إلى أنّ أدلّتهم عقليّة، وأنّ العقل هو الأصل في النّقل، وأنّهم ما عرفوا صدق الرسل إلا بالعقل، فلا يمكن أن يصدّقوا الرّسل فيما يخالف العقل، أو فيما لا يقرُّه العقل، هكذا روّجوا ودعوا وموّهوا.

ومعلوم أنّ المعطّلة يقال لهم الجهميّة؛ لأنّ الجهم بن صفوان هو الذي نشر بدعة التعطيل، وأوّلهم هو الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري، ثم تبعه الجهم بن صفوان الذي قتله سلم بن أحوز، ثمّ انتشرت هذه البدعة وصارت عقيدة لطائفة تسمّوا بالمعتزلة، أنكروا صفات الله تعالى، بل أنكروا أسماءه، وزعموا أنّها أعلام لا تدلّ على صفات، فقالوا: إنّ الله عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، رحيم بلا رحمة. وأنكروا أيضًا صفات الأفعال، وصفات الذوات، فأنكروا علوّ الله تعالى على خلقه، وأنكروا ما أثبته لنفسه: كالوجه، بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]، واليدين بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤]، والعين بقوله: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر:١٤]. كذلك نفوا الصفات الفعليّة؛ فنفوا أنّ الله تعالى يحب أو يكره، أو يغضب، أو يرضى.

ووافقهم على هذا النفي طائفة متأخّرة تسمّوا بالأشاعرة، انتسبوا إلى أبي الحسن الأشعريّ، ولكنّه تبرأ منهم ورجع عن طريقتهم، واعتقد معتقد أهل السنّة ومعتقد الإمام أحمد، ومن كان على طريقته. لكن هؤلاء الذين تسمّوا بالأشاعرة أخذوا طريقة عن الأشعريّ كان رجع عنها. ومن عقيدتهم أنّهم لا يثبتون إلا سبع صفات، ومن عقيدتهم أنّهم ينكرون صفات الأفعال: فأهل السنّة يقولون: إنّ الله يغضب لا كغضب المخلوق، ويرضى لا كرضى المخلوق، ويحبّ لا كمحبّة المخلوق، ويسخط لا كسخط المخلوق. وهذه صفات كمال، ولو كانوا يتوهّمون أنّها مستحيلة.

ولكنّنا نقول: إنّنا نثبت أنّ الله يحبّ من يشاء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ [الصف:٤]، ونثبت أنّ الله يرضى: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [المائدة:١١٩]، ونثبت أنّه يغضب: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ [الفتح:٦]، ونثبت أنّ الله يكره: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ [التوبة:٤٦]. نثبت جميع هذه الصفات، ولكن ننزّه الله أن تكون صفاته مشابهة لصفات المخلوقين، بل صفات المخلوق تناسبه، وصفات الخالق تناسبه، ولا نفسّرها تفسيرًا أكثر من إثباتها وحقيقتها.

ولكن الذين نفوها قالوا: لا يتّصف بها إلاّ المخلوق، وأنّه يلزم من إثباتها كذا

وكذا من المشابهة التي لا يليق أن تكون في الخالق. ولكن عمدتهم - كما يقولون - أنّ العقل يستبعدها، وأنّه لا يمكن أن يتّصف بها الخالق عقلًا، فقدّموا العقل على النقل، واعتمدوه دليلًا.

ويقال لهم: ما دمتم اعترفتم بأنّ الرّسل صادقون، وأنّ عقولكم دلّت على صدق الرّسل، وعلى صدق ما جاءت به، فعليكم أن تتقبّلوا كلّ ما جاء عنهم، وأن لا تردّوا منه شيئًا، فإن رددتم بعضًا دون بعض، فقد صدّقتم بشيء وكذّبتم بشيء، فتكونون كالذين قال الله لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]، كما توعّد الله بذلك اليهود.

وبذلك نعرف أننا يجب أن نؤمن بجميع ما جاء به النبيّ ﷺ من الأسماء والصفات والعبادات والمعاملات وسائر الأحكام. آمنّا بالله، على ما جاء عن الله، وعلى مراد الله، وآمنّا برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله، وآمنّا بالكتاب كلّه ولم نقبل بعضًا ونردّ بعضًا، ووكّلنا ما لم نعرف تأويله إلى عالمه، وتركنا تلك التأويلات التي يتأوّلها الذين يحرّفون الكلِم عن مواضعه، وصرنا بذلك مؤمنين بكتاب الله، متّبعين لرسول الله ﷺ، مصدّقين لما جاء به. وهذا هو الإيمان الذي أمر الله به وأمر به رسوله، يؤمنون بالكتاب كلّه، ولا يفرّقون بين أحد من رسله. فيحشرون مع سلف الأمّة وأئمّتها.

قال الشارح:

وَقَدْ نَفَى الجَهْمُ وَمَنْ وَافَقَهُ كُلَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ؛ مِنْ كَلَامِهِ، وَرِضَاهُ، وَغَضَبِهِ، وَحُبِّهِ، وَبُغْضِهِ، وَأَسَفِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَقَالُوا: إِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ مَخْلُوقَةٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، لَيْسَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَّصِفًا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ!!

وَعَارَضَ هَؤُلَاءِ مِنَ الصِّفَاتِيَّةِ ابْنُ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ، فَقَالُوا: لَا يُوصَفُ اللَّهُ بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَصْلًا، بَلْ جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ صِفَاتٌ لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ، قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ، فَلَا يَرْضَى فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَلَا يَغْضَبُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ. كَمَا قَالَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[1]. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ؟ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

فَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَأَنَّهُ قَدْ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ ثُمَّ يَسْخَطُ، كَمَا يُحِلُّ السَّخَطَ ثُمَّ يَرْضَى، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ أَحَلَّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانًا

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

لَا يَتَعَقَّبُهُ سَخَطٌ.

وَهُمْ قَالُوا: لَا يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَضْحَكُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَغْضَبُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَرْضَى إِذَا شَاءَ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَجْعَلُوا الرِّضَى وَالْغَضَبَ وَالْحُبَّ وَالْبُغْضَ هُوَ الْإِرَادَةُ، أَوْ يَجْعَلُوهَا صِفَاتٍ أُخْرَى، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا يَتَعَلَّقُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَا بِمَشِيئَتِهِ وَلَا بِقُدْرَتِهِ؛ إِذْ لَوْ تَعَلَّقَتْ بِذَلِكَ لَكَانَ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ!! فَنَفَى هَؤُلَاءِ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ بِهَذَا الْأَصْلِ، كَمَا نَفَى أُولَئِكَ الصِّفَاتِ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِمْ: لَيْسَ مَحَلًّا لِلْأَعْرَاضِ. وَقَدْ يُقَالُ: بَلْ هِيَ أَفْعَالٌ، وَلَا تُسَمَّى حَوَادِثَ، كَمَا سُمِّيَتْ تِلْكَ صِفَاتٍ، وَلَمْ تُسَمَّ أَعْرَاضًا. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمْ يَجْمَعِ الْكَلَامَ فِي الصِّفَاتِ فِي الْمُخْتَصَرِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ فِي الْقَدَرِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْتَنِ فِيهِ بِتَرْتِيبٍ.

وَأَحْسَنُ مَا يُرَتَّبُ عَلَيْهِ كِتَابُ أُصُولِ الدِّينِ تَرْتِيبُ جَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ»[1]، الْحَدِيثَ. فَيَبْدَأُ بِالْكَلَامِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ، ثُمَّ بِالْكَلَامِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ، وَثُمَّ، إِلَى آخِرِهِ.

---

قال الشيخ:

يتعلّق هذا الكلام بالرّد على هؤلاء الذين ينفون الصفات، أو الذين يثبتون

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

صفات دون صفات. وعرفنا أن الجهميّة ينفون الصفات، بل ينفون الأسماء، وعلّة النفي عندهم، إنّه ليس محلًا للأعراض، ويقولون: إنّنا ننزّه الله عن الحوادث والأعراض وما أشبه ذلك.

وهذا قول بعيد عن الصواب؛ لأننا لا نقول بالأعراض، بل نقول: إنّ الرّبّ سبحانه واحد بصفاته، فليس هناك أعراض، ولا أبعاض، ولا حوادث، ولا غير ذلك. فهؤلاء الجهميّة الذين نفوا الصفات كلّها.

أما الأشاعرة، والكلاّبيّة، فيسمَّون الصفاتيّة، وسمّتهم المعتزلة بهذا الاسم؛ لأنهم أثبتوا سبع صفات، وهي: العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام. وهؤلاء هم أتباع محمد بن سعيد بن كلاّبٍ، والأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعريّ، وهؤلاء أنكروا الصفات الفعليّة؛ فأنكروا قول الله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]، وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾[الزخرف:٥٥]، وقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر:١٠]. فأنكروا: الحب والمقت، والغضب والرّضى، والكراهية والسخط والرّحمة؛ يقولون: لأنّها حوادث، والله لا تَحُلُّ به الحوادث. هكذا يقولون، ويعلّلون بهذا التعليل في كتبهم قديمًا وحديثًا، كما كان من آخرهم زاهد الكوثري الذي مات في أواسط القرن الماضي، في تعليقاته على كثير من الكتب وفي تحقيقه لها، ينكر هذه الصفات، ويردّ ويعلّل: بأنّهم جعلوا الله محلًا للحوادث؛ أي: حدث عليه الرّضى بعد أن لم يكن راضيًا، وحدثت عليه المحبّة

بعد أن لم يكن محبًا، وحدث عليه السخط بعد أن لم يكن ساخطًا، والكراهية بعد أن لم يكن كارهًا. ونحن نقول: ليس كذلك، بل الله تعالى يحبّ إذا شاء، ويبغض إذا شاء، وله المشيئة التّامّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]؛ فجعل له المشيئة التّامّة، والإرادة متى شاء، وأخبر بأنّه يكره من يشاء، ويغضب إذا شاء، ويحبّ متى شاء.

وأخبر النّبي ﷺ بأنّ الله يغضب في وقت دون وقت، في حديث الشفاعة يقول الرسل إذا جاءهم النّاس يطلبون منهم الشفاعة: «**إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**»[1]. وهكذا يقول آدم وأولو العزم من الرسل، فيثبتون أنّ الله تعالى غضب ذلك اليوم غضبًا شديدًا على أولئك الذين وافوه بالكفر والشّرك وبالمعاصي والمخالفات، فغضب عليهم؛ لمقابلتهم له بهذه الأعمال، فلا بدَّ أن ينتقم منهم وأن يعذّبهم، وأن ينزلهم دار عذابه التي يستحقّونها. هكذا ورد في هذا الحديث، فدلّ على مخالفة قول ابن كرّام ومن معه، من أنّ الغضب لا يحل في وقت دون وقت. هؤلاء الصفاتيّة يقولون: هذه الصفات لا تتغيّر، فإن كان موصوفًا بالغضب، فالغضب صفة له دائمة، وإن كان موصوفًا بالرِّضى، فالرِّضى له صفة دائمة، فجمعوا بين النقيضين، ويجعلونها صفات ملازمة له، هكذا جعلوها، وخالفوا الأدلّة كما مرّ بنا.

ومن الأدلّة التي وردت في هذا الحديث الذي في أهل الجنّة؛ حيث يسألهم

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٥).

تعالى عمّا يتمنّون بعدما أنالهم جنّته، فلا يدرون ماذا يقولون! فيقول تعالى: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[1]. فدلّ على أنّه رضي عنهم رضىً مستمرًا، وأنّ هذا الرّضى هو الذي أحلّهم في دار الكرامة، وهو أكبر نعيم. قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، أي: أكبر نعيمًا لهم هو هذا الرّضى عنهم. فالله تعالى يرضى إذا شاء ويغضب إذا شاء، وكذلك نقول في بقيّة الصفات.

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٣٥).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُم، وَلا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُم، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ وبِغَيرِ الخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَحُبُّهُمْ دِينٌ وإِيمانٌ وإِحْسَانٌ، وبُغضُهُم كُفْرٌ ونِفاقٌ وطُغْيانٌ.

---

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى الرَّدِّ عَلَى الرَّوَافِضِ وَالنَّوَاصِبِ. وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الصَّحَابَةِ هُوَ وَرَسُولُهُ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَوَعَدَهُمُ الْحُسْنَى.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، إلى آخر السورة، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ

﴿أَنفِقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَعَلَى الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ، يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا لَهُمْ، وَتَتَضَمَّنُ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لِلْفَيْءِ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّ فِي الْفَيْءِ نَصِيبًا، بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذُهُبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ». انْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِذِكْرِ سَبِّ خَالِدٍ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ، دُونَ الْبُخَارِيِّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لِخَالِدٍ وَنَحْوِهُ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»، يَعْنِي: عَبْدَالرَّحْمَنِ وَأَمْثَالَهُ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَنَحْوَهُ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ، وَهُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَهُمْ أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، فَهُمْ أَفْضَلُ وَأَخَصُّ بِصُحْبَتِهِ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَهُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَبَعْدَ مُصَالَحَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ، وَمِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَهَؤُلَاءِ أَسْبَقُ مِمَّنْ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُمْ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ، وَسُمُّوا الطُّلَقَاءَ، مِنْهُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَابْنَاهُ يَزِيدُ وَمُعَاوِيَةُ.

---

قال الشيخ:

هذا ابتداء كلام في فضل الصحابة ﷺ، والحامل على الكلام في الصحابة أنّه وجد طوائف يطعنون في الصحابة رضوان الله عليهم، ويرمونهم بالنّفاق، ويرمونهم بالرّدّة، ويتبرّؤون منهم، بل ويشتمونهم ويلعنونهم قديمًا وحديثًا، وهؤلاء الطوائف فرقتان: الروافض، والنواصب.

الروافض: هم الذين يغلون في أهل البيت، في عليّ ﷺ وذريّته فقط، ويزيدون في حبّهم، وأمّا بقيّة الصحابة ﷺ أو أكثرهم، فإنّهم يكفّرونهم.

وأمّا النّواصب: فهم الذين يضلّلون عليًا ﷺ وذريّته، ومن كان قريبًا منهم، ويميلون إلى بني أميّة، أو إلى من والاهم، وسمّوا نواصب؛ لأنّهم نصبوا العداوة لأهل البيت.

ولكن الرافضة هم الذين تمكّنوا وكثروا، فأصبحوا ينتشرون في الأرض، وتقوى شوكتهم.

نقول: لاشكّ أنّ حبّ الصحابة ﷺ من الإيمان؛ ولهذا قال النبيّ ﷺ في الأنصار: «لَا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضُهُمْ إلا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ الله، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ الله»[1]، ومعلوم أنّ المهاجرين أقدم وأفضل من الأنصار، فقدّم الله تعالى ذكرهم في الآيات التي ساقها الشارح هنا، ومع ذلك فإن الأنصار لهم ميزتهم، ولهم فضلهم، ولهم مكانتهم في السّبق والفضل.

كذلك أيضًا قد أثنى الله تعالى على جميع الصحابة رضوان الله عليهم كما مرّ معنا في الآيات: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الفتح: ٢٩]، لم يخصّ الله بعضهم، كلّ الذين يجاهدون معه، والذين يجلسون معه، والذين يصلّون معه مدحهم الله بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩]، وهذا يجب أن يكون وصفًا لأتباعهم: فيجب أن تكون أيّها المسلم رحيمًا مع المسلمين، شديدًا على الكافرين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، يعني: تبغضهم، وتحقّرهم وتغلظ لهم القول، وتتبرّأ من طريقتهم، وتجاهدهم بما تستطيع من أنواع الجهاد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التحريم: ٩]، فوصف الله الصحابة رضوان الله عليهم بأنّهم أشدّاء على الكفّار، وكأنّه يمدح الذين كانوا على هذه الطريقة في الشدّة عليهم، ومدحهم بأنّهم رحماء بينهم، أي يرحم بعضهم بعضًا، وما أجلّه من وصف أن يكون المسلم رحيمًا بإخوانه، مشفقًا عليهم، محبًّا لهم؛

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

لأنّهم مسلمون، ووصف الله سبحانه الصحابة ﷺ بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩]؛ دائمًا يشتغلون بالرّكوع والسجود، تظهر علامته على وجوههم من أثر السجود، وهذا دليل على أن من أخلّ بهذا الوصف، أو ترك الصلاة والسجود والركوع، فإنّه مخالف لطريقة الصحابة رضوان الله عليهم، ومخالف لطريقة الأمّة.

وصفهم الله بأنّهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، ووصفهم في آخر الآية بقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩]، فنقول لمن يبغضهم: إنّهم قد غاظوك، فأنت داخل في هذه الآية، كلّ من أبغضهم فقد صار في قلبه غيظ عليهم وحقد وشنآن وبغضاء، هكذا حالة من يبغضهم، فهو داخل في هذه الآية، من غاظه الصحابة فهو كافر.

وكذلك مدحهم الله تعالى بالسّبق: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[التوبة: ١٠٠]، السابقون: المتقدّمون الذين أسلموا قديمًا من المهاجرين، ومن الأنصار، ومن الذين أسلموا بعد الهجرة، ومن الذين اتّبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة؛ مدح الله الجميع بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[التوبة: ١٠٠]، وذلك فضل من الله تعالى.

وكذلك مدحهم في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ آمنوا إيمانًا راسخًا في قلوبهم،

وجاهدوا بالأموال وبالأنفس، هؤلاء هم المهاجرون، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ هؤلاء هم الأنصار، ثم قال بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال:٧٤]، مدحهم بأنّهم هم المؤمنون حقًّا، وقال بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾[الأنفال: ٧٥]. هذه كلّها مدائح لهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم، ولكنّ الرّوافض قوم لا يعقلون، قوم لا خلاق لهم!.

وكذلك أيضًا الآية التي في سورة الحديد وهي قوله تعالى:﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الحديد: ١٠]. وعدهم الله الثواب العظيم والثواب الكبير للجميع.

وكذلك أيضًا الآيات التي في سورة الحشر لما ذكر الله تقسيم الخلق في هذه السورة، وأولهم الفُقراء من المهاجِرين في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨]، يعني: الفقراء الذين هاجروا بأنفسهم وتركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وأهليهم، ونجوا بأنفسهم﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ﴾ [الحشر: ٨]؛ لما ضُيِّق عليهم هربوا ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ثمّ قال في الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، أي هؤلاء الأنصار يحبّون المهاجرين إليهم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾من الفيء ومن الغنائم، بل يوافقون على ذلك ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ويقدّمونهم

على أنفسهم، ولو كانوا بحاجة ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ومن جاء من بعدهم من أواخر الصحابة ﷺ الذين أسلموا بعد الفتح، فهؤلاء منهم بشرط أن يدعو لهم ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، ومن كان في قلبه بغض وحقد وغلّ وشنآن، فإنّه بريء منهم؛ ولذلك استنبط العلماء أنّ من لديه حقد على الصحابة ﷺ ولا يدعو لهم، أنّهم بلا شكّ ليسوا من أهل الفيء، ولا يستحقون أن يعطوا من بيت المال؛ وذلك لحقدهم على المسلمين، وبالأخصّ الصحابة ﷺ.

وقد اشتهر أنّ هؤلاء الرافضة يبغضون الصحابة ﷺ، ويشتمونهم ويدعون عليهم، ولكن ذلك خير للصحابة ﷺ؛ لأنهم قد ختمت أعمالهم، بعد الذي حصلوا عليه من الثواب العظيم. ولكن هؤلاء الذين يسبّونهم كأنّهم يهدون إليهم حسناتهم.

وقد روي عن بعض السلف أنّه قال: ما أرى النّاس ابتلوا بسبِّ الصحابة ﷺ إلاّ ليجري عليهم عملهم؛ أي: ليكون عمل الصحابة ﷺ مستمرّ غير منقطع، وليأخذوا من حسنات أولئك الذين يسبّونهم، فكأنّهم يهدونهم حسناتهم، وكأنّهم لما حقدوا عليهم رأوا أنّهم ضلاّل وكفّار، فعاد الضلال والكفر على هؤلاء والعياذ بالله، ودخلوا في قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذا الوصف يعمّ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وبلا شكّ أنّ الصحابة ﷺ يتفاوتون كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[الحديد: ١٠]، أي: لا يستوي الذين أنفقوا وقاتلوا قبل صلح الحديبية، مع الذين أسلموا بعد الفتح، فنحن نفضّل الذين آمنوا قبل بيعة الرّضوان، الذين رضي الله بها عنهم، وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠]، تحت شجرة هناك بالحديبية وكانوا نحو ألف وأربعمئة وزيادة، وكلّهم بايعوه على أن يقاتلوا حتّى ينتصروا ولا يفرّوا حتّى الموت. وصدقوا في ذلك. قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ صدقوا في هذا أتمّ صدق، ووفوا في هذه البيعة، ورضي الله عنهم، فقال في هذه السورة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨]، ومن رضي الله عنهم يعلم أنّهم يثبتون على هذا الرّضى، وأنه لا يسخط عليهم وقد علم أنّهم أهل للرّضى، كيف يرضى عنهم وهو يعلم أنّهم سيرتدّون؟ أو سيكفرون فيما بعد، ما استثنى الله أحدًا من أهل البيعة. وقد ثبت أنّه ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إن شَاءَ الله - من أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**»[1]، أي: كلّهم من أهل الجنّة.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

وكذلك قال للذين أسلموا بعد البيعة: «**لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أَحدَكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أَدركَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصيفَهُ**»[1]. المدّ: هو ربع الصاع، والنصيف: نصف المدّ. فكيف بمن أنفقوا أكثر أموالهم أو كلّها في سبيل الله. رضي الله عنهم وأرضاهم؛ فهم عدولٌ لا يدخلهم طعن، ومن طعن فيهم، فقد كذّب خبر الله، ومن كذّب خبر الله يُعد كافرًا؛ لأنه خالف كلام الله وطعن فيما أقرّ الله به، فهو يعلم ما كان وما يكون، يعلم إيمانهم وما في قلوبهم، ويعلم أنّ قلوبهم مطمئنّة بالإيمان.

إذًا الذين طعنوا فيهم يطعنون في الله تعالى، وأنه لم يعلم أنّهم سيرتدّون، وهذا معتقد الرافضة، فهم يقولون: إنّ هذه الصفات التي ذُكروا بها كانت من قبل، وبطل مفعولها بعد أن ارتدّوا. هكذا يقولون، ويكفّرون أجلاّء الصحابة رضوان الله عليهم، فعلى هذا يكونون قد طعنوا في خبر الله، وقالوا: إنّ الله لم يعلم ما في قلوبهم.

لم يزل المسلمين يحبّون الصحابة ﷺ ويجلّونهم، ويعترفون بفضلهم، ويعرفون أنّ الله اختارهم لصحبة نبيّه ﷺ، ويعلمون أنّهم خيرة الأمة، وصفوة قرون هذه الأمّة، وأنّ هذه الأمّة خير الأمم، وأزكاها عند الله تعالى. كما قال ﷺ: «**نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يوم الْقِيَامَةِ**»[2]؛ الآخرون وجودًا، والسابقون يوم القيامة،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فهذه الأمّة تسبق الأمم غيرها، ولا شكّ في أنّ خيرها صحابة النبيّ ﷺ. وقال ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1]، فخير النّاس من الأولين والآخرين القرن الذي بُعث فيهم رسول الله ﷺ من المؤمنين، وهذه تزكية من النبيّ ﷺ لهم، ولما قال لأصحابه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فكبّروا، فقال: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فكبّروا، فقال: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[2] فكبّروا.

وقد زكّاهم الله سبحانه: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]؛ يُراد بالأولين على الصحيح: الأولين من هذه الأمّة، أي الصحابة، فذكر أن أكثر السابقين الأولين من الصحابة، وكذلك من تبعهم وسار على نهجهم.

لقد فضّل الله سبحانه هؤلاء الصحابة وذكر ميزتهم، وذكر فضلهم فقبل المسلمون خبر الله تعالى، وقبلوا ما جاء به رسوله ﷺ، وفضلوا هؤلاء الصحابة ﷺ؛ لأنّهم هم الذين حملوا هذه الشريعة، وهم الذين بلّغوا القرآن كلام الله، وهم الذين بلغوا سنّة النبيّ ﷺ لمن بعدهم، وعملوا بقوله ﷺ: «**وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**»[3]، وقوله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[4]، فحملوا السنّة وبلّغوها.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فإن كانوا ـ كما تقول الروافض ـ كفارًا فكيف يقبل خبرهم؟ وكيف يقبل تبليغهم؟

ومعنى كلام الرافضة أن دين الله مغيّر، وأنّ كلام الله مبدّل، وأنّ شريعة الله غير محفوظة، وأنّ الله ما صدق في كلامه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، لم يحفظه، بل وكل أمره إلى كفرة فجرة ـ في زعمهم ـ غيّروا فيه وكتموا وزادوا ونقصوا، وحرّفوا، وقالوا ما يريدون، هذا مقتضى قول الرافضة، فما حفظ الله الشريعة، وليست هذه هي الشريعة الإسلامية في زعمهم.

فالطعن في الصحابة رضوان الله عليهم طعن في خبر الله، وطعن في الإسلام، وطعن في القرآن، وطعن في السنّة، وفي الأحاديث النبويّة، وفي الأحكام، وفي الأوامر والنّواهي، وطعن في كلّ ما جاء في هذه الشريعة.

ولكن ـ بحمد الله ـ أنّ الله تعالى قيضهم حتّى حفظوا الشريعة وبلّغوها، وقيض لهم تلامذة يتقبّلون منهم، ويأخذون عنهم السنّة، وقيّض للآخرين تلامذة إلى أن حفظت الشريعة الإسلامية، وحفظت بالأقوال وبالأفعال. وصدق كلام الله في هذه الآية في أنه يحفظ شريعته عن الضياع؛ لتقوم الحجّة على العباد، على الآخرين كما قامت على الأولين، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[الأنعام: ١٤٩]، وليس للعباد، فإن كانت الحجّة لله، فإنّ كلامه لم يتغيّر لتقوم الحجّة علينا وعلى من بعدنا، وعلى الخلق كلّهم حتى تقوم الساعة، وحتّى لا يقول النّاس: ما جاءنا بشير ولا نذير، بل جاءكم بشير ونذير يحمل الشريعة، قيّض الله له صحابة أتقياء أنقياء

اعترفت الأمّة بفضلهم، وفضائلهم التي اعترف بها الجميع، وألفوا بها الكتب والمؤلفات، فتجدون كتابًا للإمام أحمد في فضل الصحابة، وكذلك في «صحيح البخاري»، تجدون كتاب فضائل الصحابة، يبدأ بالخلفاء الرّاشدين، وكذلك في «صحيح مسلم» كتاب فضائل الصحابة، وكذا أكثر المؤلفين رووا فضائلهم بالأسانيد الصحيحة الثابتة، التي لا طعن فيها. كلّ ذلك اعتراف منهم بأنّ الصحابة ﷺ هم أفضل هذه الأمّة. وأجمعت الأمّة على تفضيل الخلفاء الراشدين فيهم، ثمّ العشرة المبشرين بالجنّة، وهكذا بقيّة الصحابة ﷺ، ولم تزل الأمّة ترضى عنهم، والله تعالى قد رضي عنهم بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ١٨]، وإذا رضي الله عنهم، فمتى علمتم يا أيها الرافضة، أنّه سخط عليهم؟؟!

يجب على المؤمن أن يعرف فضلهم، وأن يعترف بفضائلهم، وأن يصدّق ما جاء في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ، وأن يترضّى عنهم، وأن يحبّهم، وأن ينشر بين المسلمين فضائلهم، وأن يحذر من الرافضة الذين يطعنون فيهم ويكفّرونهم، ويطبّقون عليهم الآيات التي جاءت في المنافقين، ويجعلونهم منافقين أو مرتدّين بعد النبيّ ﷺ، وبذلك تعرف طريقة أهل السنّة، وطريقة الرافضة، الذين سمّوا أنفسهم شيعةً.

قال الشارح:

وَالمَقْصُودُ أَنَّهُ نَهَى مَنْ لَهُ صُحْبَةٌ آخِرًا أَنْ يَسُبَّ مَنْ لَهُ صُحْبَةٌ أَوَّلًا، لِامْتِيَازِهِمْ عَنْهُمْ مِنَ الصُّحْبَةِ بِمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْرَكُوهُمْ فِيهِ، حَتَّى لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُهُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَإِنْ كَانَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِحَالٍ مَعَ الصَّحَابَةِ؟ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ - مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - هُمُ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كُلُّهُمْ مِنْهُمْ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.

وَقِيلَ: إِنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مَنْ صَلَّى إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ. فَإِنَّ الصَّلَاةَ إِلَى الْقِبْلَةِ الْمَنْسُوخَةِ لَيْسَ بِمُجَرَّدِهِ فَضِيلَةً؛ لِأَنَّ النَّسْخَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى التَّفْضِيلِ بِهِ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، كَمَا دَلَّ عَلَى التَّفْضِيلِ بِالسَّبْقِ إِلَى الْإِنْفَاقِ وَالْجِهَادِ وَالْمُبَايَعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ، بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»، فَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ، قَالَ الْبَزَّارُ: هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.[1] وَلَيْسَ هُوَ فِي كُتُبِ الحَدِيثِ الْمُعْتَمَدَةِ.

---

(١) قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٩٠): «رواه عبد بن حميد في مسنده من طريق حمزة النصيبي عن نافع عن ابن عمر، وحمزة ضعيف جدًا، ورواه الدارقطني في غرائب مالك من =

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١) عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قِيلَ لِعَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: إِنَّ نَاسًا يَتَنَاوَلُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ! فَقَالَتْ: وَمَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا! انْقَطَعَ عَنْهُمُ الْعَمَلُ، فَأَحَبَّ اللَّهُ أَنْ لَا يَقْطَعَ عَنْهُمُ الْأَجْرَ.

وَرَوَى ابْنُ بَطَّةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً ـ يَعْنِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ـ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَفِي رِوَايَةِ وَكِيعٍ: خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ(٢).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَغَيْرِهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

---

=

طريق جميل بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر، وجميل لا يُعرف ولا أصل له في حديث مالك ولا من فوقه، وذكره البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر، وعبد الرحيم كذاب، ومن حديث أنس أيضًا، وإسناده واه، ورواه القضاعي في مسند الشهاب له من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، وهو كذاب، ورواه أبو ذر الهروي في كتاب السنة من حديث مندل عن جويبر عن الضحاك بن مزاحم منقطعًا، وهو في غاية الضعف، قال أبو بكر البزار: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ».

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٢٧٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٣٨٧). والذي أخرجه مسلم (٣٠٢٢) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «أمروا بالاستغفار لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٥٧)، وابن ماجه (١٦٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٨٤) من قول ابن عمر رضي الله عنهما.

ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً. الحَدِيثَ[1].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[2] عَنْ جَابِرٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] الآيات.

وَلَقَدْ صَدَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ فِي وَصْفِهِمْ، حَيْثُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ[3].

وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَدْ رَأَى أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ جَمِيعًا أَنْ يَسْتَخْلِفُوا أَبَا بَكْرٍ[4].

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٢).

(٢) برقم (٢٤٩٦) بنحو هذا اللفظ. وأخرجه بلفظه: أبوداود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٤)، وأحمد (٣/ ٣٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩)، والبزار (٥/ ٢١٢)، والطبراني في الكبير (٨٥٨٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٨): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون».

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٣٦٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٤١)، والحاكم (٣/ ٧٨).

وَتَقَدَّمَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ...إِلَخْ. عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ).

فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ لِخِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ؟ بَلْ قَدْ فَضَلَتْهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِخَصْلَةٍ، قِيلَ لِلْيَهُودِ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى. وَقِيلَ لِلنَّصَارَى: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ عِيسَى. وَقِيلَ لِلرَّافِضَةِ: مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ!! لَمْ يَسْتَثْنُوا مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَفِيمَنْ سَبُّوهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِمَّنِ اسْتَثْنَوْهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ.

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ)، أَيْ: لَا نَتَجَاوَزُ الْحَدَّ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، كَمَا تَفْعَلُ الشِّيعَةُ، فَنَكُونُ مِنَ الْمُعْتَدِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

---

قال الشيخ:

فضائل الصحابة ﷺ أكثر مما مرّ معنا، ولو لم يكن إلا هذا الحديث عن النبيّ ﷺ: «لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أحدكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أَدرك مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصِيفَهُ»[1]. وكذلك هذا الأثر الوارد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الذي يقول: «لا تَسُبُّوا أَصْحابَ محمَّدٍ، فلَمقامُ أَحدِهِمْ ساعَةً خَيْرٌ مِنْ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤١).

عَمَلِ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً»، أي: خير من عبادة أحدكم أربعين سنة.

وما ذالك إلا أنّهم آمنوا في وقت أزمة وشدّة، وفي وقت كفر وضلال، وفي وقت شرك وعبادة أوثان، فآمنوا واهتدوا، وفارقوا الأهل والبلد والمال، وأخلصوا دينهم لله، ووقرت محبّة الله ومحبّة الرسول ﷺ في قلوبهم، وثبت الإيمان في قلوبهم ورسخ، حتّى كان أرسى من الجبال، ثمّ ظهرت عليهم آثار ذلك، ففدوا رسول الله ﷺ بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأموالهم، وأنفقوا جلَّ ما يملكون في طاعة الله وطاعة رسوله، واجتهدوا بالعمل الصالح، وتفوّقوا على من بعدهم بأضعاف مضاعفة، الذين ولدوا في الإسلام ونشؤوا فيه، ولو كانوا أكثر منهم عملاً، ولو كانوا أقوم منهم أعمالاً، ولو كانوا أكثر منهم جهادًا أو نفقةً.

وقد جاءت الدلائل التي تدلّ على الرِّضى عنهم، فقد قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وهذا مدح لهم وإخبار برضاه عنهم، وفي قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ وذلك إخبار بأنّهم من أهل الجنّة، وخبر الله تعالى صدق، ومن أصدق من الله حديثًا، وفي قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]؛ يعني في غزوة تبوك، وهم أربعون ألفًا أو نحوهم، ذكر أنّه تاب عليهم كلّهم، لم يستثنِ منهم أحدًا. وكذلك ما ذكره الله تعالى من رضاه عن أهل بيعة الرضوان في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]؛ وأخبر بأنّ بيعتهم كأنها بيعة

الله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠]؛ وحاشاهم أن ينكثوا بيعة الله، وحاشاهم أن يكذبوا في مبايعته، سواء كانت مبايعتهم على الموت أو على أن لا يفرّوا.

وقد ذكر أنّه لما نزل أول سورة الفتح، وفيه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح: ١-٣]؛ فقال الصحابة: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[الفتح: ٥][1].

ولكن الرّافضة لما أنّ الله طمس قلوبهم، وأعمى بصائرهم، صُدّوا عن هذه الآيات، ولم يتفكّروا فيها، وأخذوا يُنقّبون في الآيات التي وردت في المنافقين، وأخذوا يطبّقونها على الصحابة، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦]، وإلاّ فنحن نقول لهم: متى سخط الله عليهم بعد الرِّضى؟! ومتى لم يتب عليهم بعد أن تاب؟! والله تعالى لا يخلف وعده، وقد صدقهم ما وعدهم.

وقد مرّ كلام ابن مسعود ﷺ، من أنّ الله سبحانه نظر في قلوب العباد، فاختار قلب محمّد ﷺ، ونظر في قلوب الأمم، فوجد قلوب أصحابه أبرّ وأزكى وأطهر، فاختارهم لصحبة هذا النبيّ ﷺ، مما يدلّ على أنّ الصحابة ﷺ هم

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

خلاصة الأمم، وهم صفوة الأمّة. ومرّ قوله أيضًا: من كان مستنًّا فليستَنَّ بمن مات. أولئك أصحاب محمّد ﷺ، أبرّ هذه الأمّة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلّها تكلّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ، فاعرفوا لهم حقّهم وفضلهم، فإنّهم كانوا على الهدى، وهذه شهادة منه ﷻ بأنّهم كانوا على الهدى، وأنّ من خالفهم وخرج عن طريقتهم ليس على الهدى، بل هو على الضلال.

الأدلّة الواضحة من الكتاب والسنّة شاهدة بفضائلهم ﷺ، وهي أكثر من أن تحصر. ولكن كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الأثر السابق الذكر: أنهم لما انقطع عملهم بموتهم، أجرى الله لهم حسنات غيرهم. فهؤلاء الذين يسبّونهم يعطونهم من حسناتهم، فهؤلاء الرافضة، والحاقدون على الصحابة ﷺ، يهدون إليهم أعمالاً كثيرة، فيصلّون ويتصدّقون ويصومون، ويذهب ثوابهم إلى غيرهم، فيأخذها الصحابة الأبرار.

ورُوي أيضًا عن الإمام أحمد: لم أرَ النّاس ابتُلُوا بسبِّ الصحابة إلاّ ليُجرِي الله لهم عملهم؛ لأنّه «**إذا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْه عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلَاثَةٍ**»[1]، ولكن إن كان هناك من يسبّه فإنّه يأخذ من حسنات الذين يسبّونه، وتُضافُ إلى حسناته. ويكون ذلك زيادة في حسناته، ورفعًا في مكانته.

وقد مرّ قول ابن مسعود ﷺ: «فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن»؛ يعني: الصحابة. وقد رأى المسلمون أنّ أبا بكر ﷺ أولى بالخلافة، فاتّفقوا عليه،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

وولّوه أمر المسلمين، كما سيأتي. وذلك بلا شك اتفاق منهم على أهليّته وأفضليّته، وأحقّيته بالخلافة؛ ولهذا سمّوه خليفة رسول الله ﷺ، وهو لا شكّ أنّه أهل لهذه الخلافة، وقد قام بها خير قيام، وصمد وصبر، وعمل بما كان يعمله رسول الله ﷺ.

مرّ أيضًا ما يُقال عن اليهود والنّصارى، وأنهم خير من الرّافضة؛ فاليهود يقولون: أفضلُ بني إسرائيل أصحاب موسى عليه السلام، والنصارى يقولون: أفضل أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ أصحابه الذين هم الحواريون. أمّا الرافضة فهم يقولون: شرّ هذه الأمّة أصحاب محمّد ﷺ. فتفوّقوا على اليهود، فصاروا أكثر من اليهود كفرًا؛ لأنّهم جعلوا أشرّ قرون هذه الأمّة وأكفرها، وأكذبها، وأبعدها عن الحقّ أصحاب النبيّ ﷺ. فهم ممّن زُيّن له سوء عملهم فرأوه حسنًا، ولم يستثنوا من أصحاب النبيّ ﷺ إلا عددًا قليلاً؛ كعليّ وأولاده، وعمار وسلمان وخبّاب ﷺ ونحوهم، وكذلك أقارب النبيّ ﷺ القدامى كحمزة ﷺ ونحوهم. أمّا بقيّة أصحاب النبيّ ﷺ فهم عندهم ضلاّل وكفّار، قاتلهم الله أنى يؤفكون، فلا يُغترّ بقولهم.

وبذلك نعرف أفضليّة الصحابة رضوان الله عليهم، مع أنّ أهل السنّة لا يشكّون بذلك، ولكن من باب التأكيد والتذكير.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ كَمَا فَعَلَتِ الرَّافِضَةُ)! فَعِنْدَهُمْ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِبَرَاءٍ، أَيْ: لَا يَتَوَلَّى أَهْلَ الْبَيْتِ حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا!! وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُوَالُونَهُمْ كُلَّهُمْ، وَيُنْزِلُونَهُمْ مَنَازِلَهُمِ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَهَا، بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، لَا بِالْهَوَى وَالتَّعَصُّبِ. فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الْبَغْيِ الَّذِي هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧]، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: الشَّهَادَةُ بِدْعَةٌ، وَالْبَرَاءَةُ بِدْعَةٌ. يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، مِنْهُمْ: أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ.

وَمَعْنَى الشَّهَادَةِ: أَنْ يَشْهَدَ عَلَى مُعَيَّنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ أَنَّهُ كَافِرٌ، بِدُونِ الْعِلْمِ بِمَا خَتَمَ اللَّهُ لَهُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ)؛ لِأَنَّهُ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهَا تَقَدَّمَ مِنَ النُّصُوصِ. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ[1] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

وَتَسْمِيَةُ حُبِّ الصَّحَابَةِ إِيمَانًا، مُشْكِلٌ عَلَى الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّ الْحُبَّ

---

(١) برقم (٣٨٦٢).

عَمَلُ الْقَلْبِ، وَلَيْسَ هُوَ التَّصْدِيقُ، فَيَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كَلَامِهِ: أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْعَمَلَ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ مَجَازًا.

وَقَوْلُهُ: (وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ)، تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا الْكُفْرُ نَظِيرُ الْكُفْرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

نقول: إنّ حبّ الصحابة من الإيمان، وبغضهم من النّفاق، فقد ثبت في «صحيح مسلم»، أنّ النبيّ ﷺ قال: «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ»[1].

ويُقال كذلك أيضًا في المهاجرين، فهم أقدم من الأنصار وأفضل، فبغضهم نفاق وكفر، وحبّهم زيادة في الإيمان وقوّة فيه، وباعث على الأعمال الصالحة، التي تنبعث من القلب.

ومن الأسباب الباعثة على حبّهم:

أولاً: سبقهم لمن قبلهم ولمن بعدهم، فهم الذين سبقونا بالإيمان، فنقول:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤٣).

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠]؛ أي: طهّر قلوبنا من أي حقد أو غلّ أو بغض لهم، فهم الذين تقدّمونا وكانوا مؤمنين.

**ثانيًا**: نحبّهم؛ لأنّ لهم المنّة علينا؛ لأنّهم حفظوا الشريعة، وبيّنوها، وبلّغوها، ودعوا إلى الله، وجاهدوا في سبيل الله، ونصروا الله ورسوله، وانتصر بواسطتهم الإسلام.

**ثالثًا**: نحبّهم؛ لأنّهم أهل الأعمال الصالحة، وأهل الأعمال في سبيل الله.

**رابعًا**: نحبّهم؛ لأنّهم أهل الإيمان القويّ، وأهل التصديق القويّ، وهم أولى بالمحبّة ممّن سمّوا أنفسهم شيعة، وادّعوا أنّهم يوالون ويعادون، ونحو ذلك.

مرّ معنا قول الرافضة: لا ولاءَ إلاّ بالبراء. ومعنى ذلك: أنّ من تولّى أهل البيت لزمه أن يتبرّأ من غيرهم، من الخلفاء الثلاثة، ومن غيرهم من الصحابةرضي الله عنهم!! لابدّ من الولاء والبراء. هكذا عندهم، نحن نقول: لا ولاء إلا ببراء. وهذا كلام صحيح، ولكن من الذي نتولاه؟ نتولى الصحابة ﷺ كلّهم، ومنهم أهل البيت، ومن الذي نتبرّأ منه؟ نتبرّأ من المنافقين، ومن الكافرين، ونتبرّأ ممّن أمرنا بالبراءة منه، ولو كانوا أقارب. كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤]، هؤلاء هم الذين نتبرأ منهم، ولا ولاء إلا ببراء، ولاؤنا للمؤمنين ومن جملتهم الصحابة ﷺ، وبراؤنا من الكفار ولو كانوا أقارب، ولاؤنا لمن لأولياء الله ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وتبرّؤنا من أعداء الله، ومن جملتهم أولياء الشيطان، الذين قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأمّا الرافضة؛ فعندهم الولاء لعليّ وذرّيّته وزوجته وأمّ زوجته التي هي خديجة رضي الله عنها، وأما البراء، فهو من أبي بكر وعمر وجابر وأنس وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة... وهم أجلاّء الصحابة رضوان الله عليهم. ما معنى البراء منهم؟ يقولون: نتبرّأ منهم؛ لأنّهم مرتدّون خارجون عن الإسلام، وأهل السنّة يقولون: نحن نحبّهم ولا نغلو في حبّهم، لا في حبّ الخلفاء الثلاثة، ولا في حبّ أهل البيت، بل نكنّ لهم حبًّا متوسطًا، ليس فيه غُلوّ، فالرافضة غَلَوا في حبّ أهل البيت حتّى رفعوهم عن قدرهم، وأعطوهم شيئًا من حقّ الله، بل صاروا يعبدونهم من دون الله، ويدعونهم في الشدائد، ويدعونهم في القربات، وأمّا بقيّة الصحابة ﷺ فقد جفوا في حقّهم، وضلّلوهم وبدّعوهم وكفّروهم، فقد جمعوا بين الغلوّ والجفاء، لم يتوسطوا في واحد منهما توسّط أهل السنّة، وخير الأمور ـ كما يُقال ـ أوساطها.

وقد هلكت في علي ﷺ طائفتان: طائفة غلوا وطائفة جفوا.

فالطائفة الذين جفوا هم النواصب، والخوارج. فإنّ الخوارج خرجوا على عليّ ﷺ وكفّروه، وقالوا له: حكّمت الرّجال. وقالوا له: لا حكم إلّا لله. هكذا يقولون. وقاتلوه إلى أنْ قتله أحدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم؛ زعم أنّه مرتدّ لتحكيمه الحكمين. واشترطوا في رجوعهم، فقالوا لا نرجع إليك حتّى تعترف

أنّك قد كفرت، وأنّ أعمالك وجهادك كلّه باطل، وتعترف بأنّك تستقبل عملًا جديدًا، وتبطل ثوابك كلّه. هؤلاء ماذا نسمّيهم؟ نسمّيهم جفاة، جفوا في حقّ آل البيت، ونسمّيهم هالكين؛ لأنّهم كفّروا أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن كان في جيش عليّ ممن رضي عنه، وقد كثر ذلك المذهب في القرن الأوّل، وهو مذهب أولئك الخوارج، الذين يكفّرون عليًّا ﷺ، ويمدحون من قتله.

ورُوي أنّ عمران بن حطان كان من أهل السنّة، وقد روى أحاديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وغيرها من الصحابة، ثمّ تزوّج امرأة من النواصب؛ أي: من الخوارج، ورجا لذلك أن يؤثّر عليها حتّى ترجع وتكون من أهل السنّة، ولكنّها أثّرت عليه، وأدخلته مذهب الخوارج، فأصبح منهم لكنّه ليس من المقاتلين، ولكن من قعدتهم، وهو ممّن مدحوا ابن ملجم بأبيات قال في بعضها[1]:

يَـا ضَرْبَـةً مِـنْ تَقِـيٍّ مَـا أَرَادَ بِهَـا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رُضْوَانًا

إِنِّي لَأَذْكُـرُهُ يَوْمًـا فَأَحْسَبُهُ ... أَوْفَى البَرِيَّـةِ عِنْـدَ اللَّـهِ مِيزَانًـا

يمدحون الذي قتل عليًا ﷺ، وهؤلاء لا شكّ طرف هالك.

أمّا الشيعة فمذهبهم معروف، وهو الرفض الذي هو الترك، ومنه: رفضت هذا القول، أي تركته. وهؤلاء الرافضة خرجوا في عهد عليّ ﷺ، وسبب ذلك أنّ يهوديًا يقال له: عبد الله بن سبأ دخل في الإسلام نفاقًا، أظهر الإسلام ولكن باطنه الكفر، وأراد بذلك أن يشكّك في الإسلام، ويدعو إلى أسباب الانحلال، فهو من

---

(١) أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٤٩٥).

الذين دعوا الثوار إلى قتل عثمان ﷺ، فهو جمع الجموع، وأثار من أثار حتّى اجتمعت عصابات خرجت من مصر ومن العراق، وحاصروا عثمان ﷺ، حتّى قُتل شهيدًا ﷺ. وكان من أسباب ذلك هذا المنافق. ولما استشهد عثمان ﷺ وتمّت البيعة لعليّ ﷺ ورأى عبدالله بن سبأ أن عليًا ﷺ محبوب عند أهل العراق، حيث استقرّ عندهم، أراد أيضًا أن يبطل إسلامهم، وأن يوقعهم في الكفر، فدعاهم إلى أن يغلوا في علي، فبدل ما هو خليفة وإمام يجعلونه ربًّا وإلهًا، فزيّن لهم وقال لهم: عليّ هو الربّ، وهو الإله. وانخدع به خلق كثير، واعتقدوا هذا الاعتقاد الفاسد، فقال: ابدؤوا بعبادته، فخرج عليهم عليّ ﷺ مرّة وهم صفوف، أعداد هائلة، فخرّوا له سجّدًا، فقال لهم: ما هذا؟ قالوا: أنت إلهنا، فتعجّب من ذلك، ودعا أكابرهم ليتوبوا، ولكن أصرّوا ولم يتوبوا، ثمّ اشتهر أنّه أحرقهم، وحفر لهم أخاديد، وأضرم لهم النيران، فكان يدعو أحدهم، ويقول له: تب، فمن لم يتب، أُلقي في تلك الأخاديد. وهو ينشد القول:

لَمَّا رَأَيتُ الأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا  أَجَّجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا[1]

قنبر هو غلامه، وما زادهم هذا الإحراقُ إلا تمسكًا بما هم عليه، ويقولون: الآن عرفنا أنّك الرّب؛ لأنّك الذي تحرق بالنّار، ولا يعذّب بالنّار إلاّ ربّ النّار، فقتل من قتل منهم، وتمسّك الباقون بما هم عليه.

وقد أنكر ابن عباس على عليّ ﷺ الإحراق، وقال: لو كُنتُ أَنا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ؛

(١) أخرج ذلك الأثر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (ص١٨٧).

لِأَنَّ النبي ﷺ قال: «لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»، وَلَقَتَلْتُهُمْ كما قال النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1]. وكان المسلمون جميعًا على أنّهم يقتلون وأنّهم كفّار. هؤلاء هم غُلاة الرافضة الذين جعلوا عليًا ﷺ هو الإله، هم أتباع ابن سبأ، ولا يزال كثيرٌ منهم على هذه العقيدة، غلاة الباطنيّة والغرابية. ويحفظ من شعرهم:

أشـــــهد أن لا إلـــــه إلا حيـــدره الأنـــزع البطـــين
ولا حجـــــاب عليـــــه إلا محمـــد الـــصادق الأمـــين
ولا طريـــــق إليـــــه إلا ســـلمان ذو القـــوّة المتـــين[2]

لما كان سلمانُ ﷺ من الفرس، جعلوه هو الحاجب على الله، وحيدرة هو اسم عليّ؛ لأنه كان يقول في خيبر[3]:

أنـا الـذي سـمّتني أمّـي حَيْـدَرهْ[4]
كَلَيْـثِ غَابَـاتٍ كَرِيـهِ المنْظَـرَهْ
أُوَفِّيهِمْ بِالـصَّاعِ كَيْـلَ السَّنْدَرهْ[5]

---

(١) تقدم تخريجه (٣٦٦٥).

(٢) ذكره شيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية (٢/ ٥١٢).

(٣) هذا الرجز أخرجه مسلم (١٨٠٧) في قصة فتح خيبر.

(٤) الحيدره: الأسد، سُمي به لغلظ رقبته. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٥٤).

(٥) أي: أقتلهم قتلًا واسعًا ذريعًا، والسندرة: مكيال واسع، وقيل: هي شجرة يُعمل منها النبل والعصي. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٠٨).

فصار هذا الاسم علمًا عليه، فهم يقولون: لا إله إلا عليٌّ، لا إله إلا حيدرة. ومشهورٌ هذا الاعتقاد فيهم، وهؤلاء هم بقيّة ورثة ابن سبأ، وهم السبئيون، ويُقال لهم: الغلاة. لما قُتل عليّ ﷺ اعتقدوا أنّه لم يُقتل، بل قالوا: إنّه رفع في السحاب، واعتقدوا أنّه سوف يرجع؛ فلذلك يقال لأحدهم: فلان يؤمن بالرجعة. ولا يزال كثير منهم يؤمن بالرجعة إلى اليوم.

يذكر أحد أصحاب دور الكتب أنّه جاءه أحد علماء الرافضة، وقال له: إني ألّفت كتابًا. قال: في أيّ شيء؟ قال: في الرجعة. فقال: كيف تكون الرجعة وقد قُتل علي ﷺ، وكيف يرجع وقد قال الله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]، فقال: قد آمن بها مشايخنا، وقد كتبوا فيها. فقال: كلّ ذلك خطأ. فقال: بل أنت المخطئ. فلمّا رأى أنّه مشدّد في الإنكار، ذهب ذلك المؤلف وهو يقول: والإسلاماه! بمعنى: أنّه لم يجد من يؤيّده على الإيمان بالرجعة. فهي عقيدة لا تزال موجودة، يؤمن بها الكثير في العراق، وفي إيران، وكثير من البلاد التي يكثر فيها الرافضة.

وهناك أيضًا طائفة منهم غلوا في عليّ ﷺ، ولكن جعلوه هو الرّسول، وادّعوا أنّ الرسالة له، وأنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أخطأ، كان مأمورًا أن ينزل على عليّ ﷺ، ولكنّه خان ونزل على محمّد ﷺ، فعليّ أحقّ بالرسالة من محمد ﷺ؛ ولذلك يقول أحدهم: خان الأمين وصدّها عن حيدره.

فهذا جبريل ـ عليه السلام ـ الذي سماه الله أمينًا في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

﴿ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]، يخوّنه هؤلاء الباطنية، وهم موجودون أيضًا، ويعتقد هذه العقيدة كثير من الرافضة في العراق وإيران بل في المملكة، ذكر لنا بعض الذين نقلوا عنهم من رافضة المدينة، أنّهم قبل التسليم من الصلاة يضربون بأيديهم على ركبهم ويكرّرون: خان الأمين خان الأمين. ثم يسلّمون.

وأمّا أكثريّتهم، فيُقال لهم الإمامية، يسمّون نفسهم الإماميّة، وهم في الحقيقة الرافضة. هذا هو الحقّ، وعقيدتهم: أنّ عليًّا ﷺ هو الإمام، وأنّ الأئمّة قبله مغتصبون، وأنّ أبا بكر ﷺ مغتصب للخلافة، وكذا عمر وعثمان رضي الله عنهما، وكذا من تولّى الخلافة غير عليّ ﷺ وذريّته، يعتبرون عندهم مغتصبين لما ليس لهم.

وهؤلاء أصل تكاثرهم في العراق، ثم انتشروا في غيره، وسببه ـ والله أعلم ـ ما حدث من بعض غلاة بني أميّة، في وسط القرن الأوّل، لما تولّى ابن زياد على العراق، وسبّب قتل الحسين ﷺ، واستمرّ فيها إلى أن قُتل ابن زياد، ثم مات بعده يزيد، فتولّى العراق بعد ولاية ابن الزبير الحجاج بن يوسف الثقفي في ولاية زياد، وفي ولاية أبيه، وفي ولاية الحجاج، كان هؤلاء الثلاثة يميلون إلى بني أميّة، وفي أنفسهم حقد على عليّ، يُزَيّن لهم أنّه ممن داهن في قتل عثمان ﷺ، ويقولون: إنّه قادر على أن ينصر عثمان ﷺ، فلماذا لم ينصره؟ فكانوا يسبّونه في الخطب على المنابر في العراق وفي الشام.

ولا شكّ أنّ في العراق كثيرًا من المحبّين لعليّ ﷺ، ألفوه في حياته، وأحبُّوه

بصدق، هؤلاء إمّا أن يكونوا معتدلين في حبّه، وإمّا أن يكونوا غُلاةً من أتباع الغلاة، إذا سمعوا هؤلاء الخطباء يلعنونه على المنبر، استاؤوا لذلك، فيحبون أن يكون لهم أتباع، وأن يكون لهم على ما هم عليه من يشجّعهم، فإذا سمعوا ذلك أخذوا في مجالسهم يذكرون فضائل عليٍّ ﷺ، فدخل بينهم الغلاة، فصار أولئك الغلاة في مجالسهم الخاصة التي هي من مجالس المحبين لعلي ﷺ يكذبون ويغلون في الكذب، ويولّدون، وبدل أن يذكروا فضائله الصحيحة ومدائحه التي مدحه بها النبيّ ﷺ، صاروا يضيفون إلى ذلك أكاذيب ليست بحقيقةٍ.

ولعليّ ﷺ فضائل، مثل قول النبي ﷺ له: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى**»[1]. ولكن الرافضة - بلا شكّ - لم يقنعُوا بذلك، بل صاروا يزيدون[2]. فصاروا لا يذكرون في مجتمعاتهم إلا فضائل علي ﷺ، فلا يجدون من يقتنع بقولهم، فيذكرون أكاذيب.

فمثلًا: حديث غدير خمّ، الذي يجعلونه عيدًا لهم يزيدون فيه. وفيه أنه ﷺ حمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ: أَلا أَيُّهَا النَاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رسول رَبِّي فَأُجِيبَ، وأنا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله فيه الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**». ثُمَّ قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ. وانظر كلام شيخ الإسلام في رد استدلالهم بهذا الحديث في مجموع الفتاوى (٤/ ٤١٦)..

(٢) انظر كلام العلماء في بطلان هذه الزيادات في مجموع الفتاوى (٤/ ٤١٧).

الله في أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي»[1]، هذا هو الثابت. ولكن ما اقتصروا عند هذا، فصاروا يُضيفون إليه زيادات مكذوبة، حتى ألّفوا كتبًا في هذا الحديث، وجعلوه بألفاظٍ عديدة فقالوا: إنه قال: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَإِنَّ عليّ مَوْلاهُ، اللهمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»[2]، وذكروا من أكاذيبهم أنّ اسم عليّ ﷺ مكتوب على قائمة العرش، وأنّه ممّن خلقه الله وقرنه باسم محمّد ﷺ وفضّله على خلقه، وأنّه وزوجته مكتوبان في غرف الجنّة كلّها.

هذه الأكاذيب التي يروّجونها ويقولونها إذا سمعها تلاميذهم وأحبابهم، أخذوا يروونها، وإذا سمعها الآخرون فماذا يقولون؟ كيف تكون هذه مزاياه، وكيف تكون هذه فضائله؟ ومع ذلك يتقدّم عليه غيره، كيف قدّم عليه أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ، لا بدّ أن يكون هو الأفضل وهو الإمام، ولما سمعوا تلامذتهم ومن كان حولهم وهم يتكلّمون بهذا، أرادوا أن يسكّتُوهم، فلم يجدوا إلا أن يكذبوا أكاذيب يسكّتون بها من حولهم حتى لا ينكروا عليهم ما هم فيه، فكذبوا أكاذيب لفّقوها ورموا بها أبا بكر وعمر وعثمان وبقيّة الصحابة ﷺ، وادّعوا أنّهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم ﷺ. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٤١٨): «وأما قوله يوم غدير خم: «أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي»، فليس من الخصائص، بل هو مساوٍ لجميع أهل البيت، وأبعد الناس عن هذه الوصية الرافضة، فإنهم يعادون العباس وذريته، بل يعادون جمهور أهل البيت، ويعينون الكفار عليهم».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧١٣)، وأحمد (٤/ ٣٧٠)، والطبراني في الكبير (٥٠٦٩) من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

مغتصبون، وادّعوا أنّهم خونة، وادّعوا أنّهم ظلمة، فامتلأت كتب الرافضة بالسبّ والحمل على هؤلاء الصحابة ﷺ وهي أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان. سببها ومبدأ أمرها التسكيت لتلامذتهم حتّى لا ينكروا عليهم.

ولمّا انتشرت هذه الأكاذيب فيما بينهم، اعتقد تلامذتهم كفر أئمّة الصحابة، واعتقدوا أنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ليسوا على هدى؛ لأنّهم بايعوا غير الإمام الحقّ، وخلعوا الإمام الحقّ من إمامته وهو عليّ ﷺ، وبايعوا أبا بكر ﷺ وهو مغتصبٌ ظالم، وبايعوا عمر ﷺ وهو ليس له حقّ ـ كما يزعمون ـ فجعلوهم بذلك مرتدّين، وأبطلوا بذلك فضائلهم التي ثبتت في كتب السنّة الصحيحة وغيرها، وقالوا: إنّ فضائلهم التي ذكرت في القرآن بطلت بسبب ردّتهم، ارتدّوا بعد موت محمّد ﷺ. وردّتهم أنّهم منعوا عليًا ﷺ من حقّه في الخلافة، وبايعوا مغتصبًا ظالمًا هو أبو بكر ﷺ!

هكذا كانت أقوالهم، وهكذا رسخت هذه العقيدة في نفوسهم، وتوارثوها، وأخذوا يتناقلون هذه الأكاذيب في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني، يتناقلون هذه الأكاذيب، ثم ينقلون فضائل علي ﷺ ويبالغون فيها، ويذكرون فضائل الحسين وفضائل الحسن وفضائل ابن الحنفيّة، وفضائل زين العابدين وأولادهم وأحفادهم، ويكذبون في فضائلهم أكاذيب لا تليق بعاقل، ولا يصدّقها ذو عقل سليم. ولو قرأتم في كتبهم التي يتناقلونها لعجبتم كيف يصدّقون هذه الأكاذيب، وتنطلي عليهم، ولكن سلبت عقولهم. ولأجل ذلك ذكر بعض العلماء أنّهم ليس لهم عقولٌ. والرّدود التي ردّت عليهم لو قرأتموها

لعجبتم كيف لم يرتدعوا عن هذه الأكاذيب، ولا يزالون على هذا المعتقد إلى اليوم، مع تفتّح النّاس، وتبصّرهم.

ولا يزالون يروون ويتناقلون تلك الأكاذيب في كتبهم، وقد أوّلوا عليها الآيات القرآنية، وهناك تفسير لأحد أئمّتهم فسَّر فيه قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]، البحران: عليّ وفاطمة يلتقيان بالنّكاح. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢]؛ هما الحسن والحسين. هكذا راجت هذه الأكاذيب بالنسبة إلى مديحهم.

أمّا بالنسبة إلى ذمّهم فمثلاً فسّروا قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١]؛ الجبت: هو أبو بكر، والطاغوت: عمر، رضي الله عنهما، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. وكذلك فسّروا قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]، يدا أبي لهب، يقولون: هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وفسّروا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]؛ البقرة: هي عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها. أعاجيب وأكاذيب راجت عليهم؛ لأنّهم سُلبوا العقل والمعرفة، وما يزالون مُصرّين على هذه العقيدة.

في آخر ولاية بني أميّة خرج رجل من ذرّيّة عليّ وهو أخو زين العابدين، وهو زيد بن الحسين، ولما خرج دعا النّاس إلى بيعته، فجاءه الرافضة، فقالوا: نبايعك على أن تتبرّأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأنّهم قد ارتسم في أذهانهم أنّهم أكفر من أبي جهل وفرعون، فلا بدّ أن يتبرّأ منهما، ولكنّه ﷺ قال:

هما صاحبا جدّي، ولا أتبرّأ منهما، قالوا: إذًا نرفضك، فرفضوه. ومن هنا عرفوا بالرّافضة. وهذا اسمهم، وهم الآن لا يعترفون به، ويشنّعون على من سمّاهم بهذا الاسم مع أنهم هم الذين سموا أنفسهم، وسمّاهم به زيد أخو زين العابدين أحد أئمّتهم، وزين العابدين هو أحد الأئمّة الاثني عشر. والذين بايعوا زيدًا سمّوا بالزيديّة، وهم الذين يوالون أبا بكر وعمر وأكثر الصحابة رضوان الله عليهم، ولكنّهم يتبرّؤون من بني أميّة.

أمّا تسميتهم بالشيعة، فهم يتمدّحون بهذا الاسم، ويقولون: نحن شيعة عليّ يعني: أنصاره، الشيعة في الأصل: الأنصار والأعوان. مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣]، وكما في قوله: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]، يعني: أتباعه، ولكنّهم في الأصل نسمّيهم نحن شِيَع، ولا نسمّيهم شيعة، فالشِّيَعُ: هي الفرقُ الضّالّة، الذين ذمّهم الله بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢].

والحاصل أنّهم فرق كثيرة متشعّبة؛ منهم الباطنيّة الذين ظهروا في أواخر القرن الثالث واستولوا على شرق الجزيرة العربية، القطيف والأحساء والبحرين، وما اتّصل بها، وصار لهم قوّة ونفوذ، وهم الذين قتلوا الحُجّاج سنة سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة في الحرم، وهم يطوفون بالبيت، دخل كبيرهم وقائدهم على أنّهم حُجّاج، ولما توسّطوا الحرم سلّوا سيوفهم، وأخذوا يقتلون الحُجّاج في

داخل الحرم، وجعل الحُجّاج يلوذون بالكعبة، ويتعلّقون بأستارها، فجعل زعيمُهم يقتلهم وهم كذلك، ويقول:

أنا باللَّهِ وباللَّهِ أنا  يخلقُ الخلقَ وأفنيهم أنا

وأخذ كسوة الكعبة، وشقّقها بين أصحابه، وقلع الحجر الأسود وذهب به إلى بلاده القطيف، وبقي عندهم إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، حيث ضعفت دولتهم، وقويت دولة الإسلام، فهُدِّدوا إن لم يردّوه بغزو دولة الإسلام لهم، فردّوه وهم كارهون، والحمد لله[1].

وهذه الطائفة من أكفر الطوائف وأخبثها. يقول العلماء: إنّهم يظهرون الرفض وهم كذبة، فظاهرهم الرّفض، وباطنهم الكفر المحض. وما تزال طائفة منهم تعيش بين المسلمين، يظهرون أنّهم إخواننا، ويدعون إلى التقارب، ويدّعون أنّهم على الحق، وأنّ مذهبهم الذي هم عليه كسائر المذاهب الفرعيّة، كالشافعيّ ومالك وأحمد، فكذبوا بذلك؛ لأنّهم مخالفون للمسلمين في العقيدة التي هي الأصل والأساس، فكيف يجتمعون مع المسلمين؟ وكيف يأمنهم المسلمون؟ وهم يُضمرون للمسلمين العداوة والبغضاء، فهم أعداء لله وللإسلام والمسلمين، فلا يغترّ بدعوتهم إلى ما يسمّونه التقريب، فإن هذا الاعتقاد كفر وضلال، فلا ينخدع المسلم بدعاياتهم وأعمالهم، بل نأخذ حذرنا منهم.

والعلماء الأولون كانوا منتبهين لهم، ولكن - مع الأسف - كان هؤلاء الرافضة

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١١/ ١٧١).

متستّرين في ذلك الوقت ـ في القرن الأول والثاني والثالث ـ ولم يكونوا يظهرون أمرهم، وتولّوا ولايات ووثق بهم أكثر العامة، وصاروا يروون عنهم الأخبار، وصار منهم أخباريّون، وإن لم يكونوا من غلاتهم، فدخل الكذب في كتب التاريخ بسبب الرواية عنهم.

فتجدون مثلاً في كتب التاريخ ـ حتى التي يكتبها أهل السنّة ما يدلّ على أنّها من وضع الرّافضة؛ فمثلاً من المشهورين بالأخبار شيعيّ، ولكن يقولون إنّه إخباريّ يروي الأخبار ويجمعها، يُقال له: لوط بن يحيى، ويشتهر بأبي مخنف، يروون عنه في كتب التاريخ، فيقول ابن جرير: قال أبو مخنف، وروى أبو مخنف. هذا الراوي يظهر أنّه من أهل السنّة، ولكن يميل إلى الشيعة، ودليل ذلك: أنّه يتتبع أخبار أهل البيت، ويبالغ في نقلها، ويطيل فيها، ويستقصي أخبارها، فمثلًا في تاريخ ابن جرير: مقتل الحسين، قصة واحدة قُتل فيها الحسين ومعه من أهل بيته نحو الأربعين، فعادة مثل هذه الواقعة يكفيها ثلاث أو أربع صفحات لكن استغرقت هذه الحادثة أكثر من نصف مجلّد، أكثر من خمسين ومائتي صفحة من تاريخ ابن جرير. وابن جرير ـ رحمه الله ـ من أهل السنّة، ولكن بلاده ـ طبرستان ـ كانت مليئة في زمانه بالرافضة، فكانوا يدخلون عليه شيئًا من أخبارهم، وإن كان محدّثًا ومفسّرًا وإمامًا، فإنّه قد ينخدع بهم.

ففي خبر غدير خمّ أَلَّفَ مجلدين، يقول ابن كثير عن ابن جرير: إنه ألف كتابًا ذكر فيه ما لا يصلح أن يذكر، حشد فيه الطيبَ والخبيث، والصحيحَ والسقيم، استوفى فيه ما سمعه، وذلك دليل على أنّه قد كثرت عنده تلك الأخبار، مما يدلّ

على أنّ أخبار الرافضة في ذلك الزمان قد كثرت.

في القرن الرابع استولى على العراق، بل على مصر وإيران دولة يُقال لهم: بنو بويه، وهذه الدولة رافضية، وكانت الخلافة لبني العباس، ولكن هؤلاء بمنزلة السلاطين الذين يديرون الدولة، أعلنوا مذهب الرافضة، وزادوا فيه ونشروه، وتمكّن في العراق؛ لأنها وطنهم، وإيران وما حولها. وصاروا يشجعون ويمكّنون كل من اعتنقه، ويولّونه الولايات، ولَـمَّا تمكّن هذا المذهب الخبيث وكثر معتنقوه، صاروا يحشدون من الكتب في تقرير مذهبهم، ويؤلفون المؤلفات في معتقدهم، فانتشرت الكتب وكثرت، ويوجد منها الآن ما لا يحصيه العدد، فتمكّن وقوي مذهبهم، وانخدع به من انخدع، ولا يزالون إلى الآن يخدعون الناس بمذهبهم الباطني، ويتقرّبون إلى النّاس بحسن معاملتهم وملاطفتهم، ومدحهم لأنفسهم، ويقولون: إن معهم شيئًا من الأخلاق والأدب والصدق، فيجتذبون النّاس بالمعاملة الحسنة، وإلَّا فالأصل أن معتقداتهم وأخلاقهم سيئة.

ولا أتجرأ أن أذكر الحكايات عنهم التي حكاها لنا بعض من عمل معهم بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، وما فيها من احتيالهم على أهل السنّة، ومقتهم وبغضهم وحقدهم عليهم، وحرصهم على أن يصلهم كلّ شرّ وكل سوء، ولكن ينخدع الكثير بهم. وقد ذكر لنا بعض المشايخ الذين ذهبوا إلى الأحساء أنّ منهم من يظن أنّهم مسلمون، ولا يفترقون عن المسلمين إلا كما يفترق من يقول: أنا شافعي، وأنا حنفي، ولم يدروا أنّهم ضُلاّل وكفّار حتّى ظهر لهم الحق.

ولما كان كذلك، اهتم العلماء بذكر فضائل السلف، وفضائل الصحابة، واهتموا بذكر ذلك في عقائدهم، كما فعل ذلك الإمام الطحاوي رحمه الله. وكما ذكر ذلك أهل العقائد نظمًا ونثرًا، يقول أبو الخطاب الكلوذاني في عقيدته[1] مبينًا فضل الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم:

قَالُوا فَمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ خَلِيفَةً  قُلْتُ الْمُوَحِّدُ قَبْلَ كُلِّ مُوَحِّد

يعني: أبا بكر ﷺ، ذكر ذلك في عقيدته. ثم ذكر خلافة من بعده من الخلفاء ﷺ، إلى أن ذكر خلافة علي ﷺ بوصفه رابعًا للخلفاء الراشدين ﷺ:

قَالُوا فَرَابِعُهُمْ فَقُلْتُ مُجَاوِبًا  مَنْ حَازَ دُونَهُمْ أُخُوَّةَ أَحْمَد

فمن هنا اهتم الأئمة بذكر فضائل الصحابة، لأنّنا لو تنزلنا على عقيدتهم، لرددنا الكتاب والسنّة، فمن أين جاءنا الكتاب والأحاديث، فإذا كانوا كفارًا كما يقولون؛ فإنّ أخبارهم لا تقبل.

أما شُبههم التي يرمون بها أهل السنّة، فإن الآيات التي نزلت في المنافقين يحملونها على الصحابة ﷺ، فقوله تعالى في معركة بدر: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٥، ٦]؛ يقولون: هؤلاء جادلوا الرّسول، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، هؤلاء كفروا بذلك، ونقول لهم: إن الله تعالى ما كفّرهم بذلك بل سمّاهم مؤمنين ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾

(١) لسماحة شيخنا عبدالله بن جبرين ـ حفظه الله ـ شرح كامل على منظومة أبي الخطاب الكلوذاني.

[الأنفال:٥]، نعم كرهوا مقابلة الكفّار مخافة أن يقضي عليهم وهم عدة الإسلام والمسلمين، ومعهم الرّسول ﷺ ومعهم خيار الصحابة، لكنّ الله تعالى نصرهم وأيّدهم، وسبب هذه الكراهية وهذه المجادلة أنهم يقولون: لو ذهبنا إلى العير. فهل هذا القول يخرجهم من الإسلام؟ كلا، لم يخرجهم، بل سماهم الله المؤمنين، فهذا هو معنى المجادلة والكراهية، ولكن الرافضة جعلوها دليلًا على أنّهم كفّار، وكفّروهم بمثل ذلك.

وفي آية أخرى، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾[الجمعة:١١]؛ يقولون: هؤلاء الذين انفضوا عن الرسول ﷺ وهو يخطب، ارتدّوا بذلك. لكن الله تعالى لم يكفّرهم على ذلك، بل عفا عنهم. ثمّ نقول: مَن هم الذين بقوا ومن هم الذين نفروا، معلوم أنّهم خرجوا ينظرون إلى هذه الإبل، ثم عادوا ليُتمّوا صلاتهم، ولا يليق بهم أن يتركوا الصلاة مع النبيّ ﷺ، ثمّ قد يكون معهم بعض أهل البيت، وقد يكون معهم بعض الذين يمدحونهم كعمار وصهيب وسلمان رضي الله عنهم؛ فلذلك لا دلالة لهم في الآيات التي يستدلّون بها.

ثم لو قدّر أنّهم صادقون، وأنّ هذه الأشياء وقعت منهم حقيقة، فلا يليق أن نكفّرهم بها، ولهم من السوابق ما يعفو الله به عنهم إذا ظهر منهم ذنب من الذنوب، ولا شكّ أنهم قد تابوا منه، والتوبة تجبُّ ما قبلها، أو مُحيت عنهم بثواب أعمالهم السابقة، التي ضاعف الله لهم حسناتهم فيها، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أَحدَكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أَدركَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصيفَهُ»[1]. فالحسنات يذهبن السيئات، فكيف ننسى فضائلهم السابقة وجهادهم، ونذكر لهم ذنبًا صغيرًا تابوا منه، على حد قول بعضهم:

يَنْسَى مِنَ المَعْرُوفِ طَوْدًا شَامِخًا وَلَيْسَ يَنْسَى ذَرَّةً مِمَّنْ أَسَا

فعلى المسلم أن تكون عقيدته نحو الصحابة رضوان الله عليهم: محبّتهم والترضّي عنهم، والثناء عليهم، وذكر فضائلهم، والاعتراف بما لهم من المزيّة والسّبق، ومعرفة أنّهم خير قرون هذه الأمّة، لم يكن ولا يكون مثلهم، وأنّ فضائلهم لا يدركها غيرهم. فإذا اعترفنا بذلك، عرفنا كفر من كفّرهم، وضلال من ضلّلهم وكرههم، ونصب العداوة لهم ولمن والاهم من أهل السنّة، فما علينا إلا أن نشهر فضائلهم وننشرها كما نشرها الأئمّة قبلنا، فالبخاري في صحيحه جعل كتابًا لفضائل الصحابة بدأ بفضائل الخلفاء الأربعة، وهكذا فعل مسلم في كتابه، وهكذا فعل الترمذي، وألف الإمام أحمد كتابه المشهور «فضائل الصحابة»، وهكذا الكتب المؤلفة في ذلك، كلّ ذلك بالثناء على الصحابة رضوان الله عليهم وأتباعهم، فإذا قرأ المسلم تلك الأخبار وعرف صحتها، عرف فضلهم وقدرهم، وعرف بأن من عاداهم ضالّ مضلّ، طاعنٌ في الله وفي شرعه، وطاعن في أصل الإسلام والسنّة.

أما هؤلاء الرافضة وأعمالهم، فهم في ضلال، نبرأ إلى الله منهم ومن عقائدهم

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤١).

السيّئة، ونسأل الله أن يحيينا على محبّة الخير وأهله، ويميتنا على الإسلام والسنّة.

وبعد ذلك نقول: إن صحابة رسول الله ﷺ هم الذين اجتمعوا به بعد إسلامهم، وأدركوا حياته، ورأوه وهم مؤمنون مصدقون به، وقد اشتهر أنهم جاهدوا معه، وأنفقوا أموالهم في سبيل الله، ونصرة لرسوله ﷺ، وقد مدحهم الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح:٢٩]، وهذا الوصف يعم جميع المهاجرين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، فإنهم تركوا بلادهم وعشائرهم وأموالهم؛ حبًا لله ورسوله ﷺ، وتصديقًا بالرسالة، مع ما لقوه قبل الهجرة من الأذى والعذاب في الله تعالى.

ثم تكبدوا الصعوبات في سفر الهجرة، وركبوا الأخطار، ثم إن العرب جميعًا رمتهم بالعداوة، وقاطعتهم، فتعرضوا لحرب العرب وغيرهم، وكان الحامل على ذلك هو قوة الإيمان، والجزم بصحة ما هم عليه، والثقة بنصر الله تعالى الذي ذكره في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور:٥٥]، وقد أخبرهم قبل ذلك بأنهم سوف يُبتلون ويُختبرون، فقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

﴿ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[آل عمران:١٨٦]؛ ولهذا لما تسلط عليهم الأحزاب وضيقوا عليهم، ثبتوا وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٢٢]، وأخبر الله تعالى أنه قد رضي عنهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[التوبة:١٠٠]، ومن رضي الله عنه فقد غفر له، ورضي عمله، فلا يسخط بعد ذلك عليهم، بل يوفقهم ويحميهم ويتوفاهم على الإسلام.

وورد في السنة ما يدل على فضلهم على من بعدهم في قوله ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١)، ويريد بالقرن: أهله، ففضل أصحابه على من بعدهم، وكذا نهى عن سبهم في قوله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أَحدَكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أَدركَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصيفَهُ**»(٢).

وروى مسلم(٣) من حديث أبي بردة ﷺ قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مع رسول الله ﷺ، ثُمَّ قُلْنَا: لو جَلَسْنَا حتى نصلي معه الْعِشَاءَ - قال - فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فقال: «**ما زِلْتُمْ ها هنا؟**» قُلْنَا: يا رَسُولَ الله صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حتى نصلي مَعَكَ الْعِشَاءَ، قال: «**أَحْسَنْتُمْ أو أَصَبْتُمْ**»، قال: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ، وكان

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٢).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤١).

(٣) برقم (٢٥٣١).

كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ، فقال: «**النُّجُومُ آمنة لِلسَّمَاءِ، فإذا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أتى السَّمَاءَ ما تُوعَدُ، وأنا آمنة لِأَصْحَابِي، فإذا ذَهَبْتُ أتى أَصْحَابِي ما يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي آمنة لِأُمَّتِي فإذا ذَهَبَ أَصْحَابِي أتى أُمَّتِي ما يُوعَدُونَ**»، أي: من الفتن والخلاف وكثرة البدع.

وقد شهد النبي ﷺ للعشرة بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد[1]، كما ثبتت الشهادة لجماعة آخرين بالجنة، كثابت بن قيس، وبلال، وعمار، وسلمان[2]، وقال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إن شَاءَ الله - مِن أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**»[3]، وقال: «**وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فقال اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[4]، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وأهل البيعة ألف وأربعمائة وزيادة.

ثم اتفق السلف على أن أفضل الصحابة الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم جميعًا، وجمهور أهل السنة على أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وقد اتفق الصحابة رضي الله عنهم على تقديم أبي

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤).

(٢) تقدم تخريج أحاديث المبشرين بالجنة (٤/ ٥).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

(٤) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

بكر ﷺ ومبايعته خليفة بعد النبي ﷺ؛ وذلك لما عرفوا من سابقته وصحبته وأعماله، ثم إن النبي ﷺ قدمه ليصلي بالناس في أيام مرضه، فصلى بهم تلك الأيام[1]، فبايعوه، وقالوا: رضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا، فهو ليس أكثرهم مالاً، ولا أقواهم بأسًا، ولا أعزهم عشيرة، فلم يبايعوه خوفًا من سطوته وقهره وسلطته، وإنما عرفوا فضله وسابقته، وما تميز به، وتذكروا الإشارات الدالة على أنه أولى بالخلافة مثل قوله ﷺ: «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي: أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»[2]، وقوله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[3]، وثبت في «الصحيحين»[4] عن أبي سعيد ﷺ أنه ﷺ خطب في آخر حياته، قال: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ**». وفضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة رضوان الله عليهم كثيرة مشهورة، ومن أراد الاطلاع فليراجع كتاب الفضائل من كتب السنة.

---

(١) كما ورد في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، وأحمد (٥/ ٣٨٢)، وصححه ابن حبان (١٥/ ٣٢٧)، والحاكم (٣/ ٧٥)، ووافقه الذهبي، من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوَّلًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، تَفْضِيلًا لَهُ وَتَقْدِيمًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ.

---

قال الشارح:

اخْتَلَفَ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ ﷺ: هَلْ كَانَتْ بِالنَّصِّ، أَوْ بِالِاخْتِيَارِ؟ فَذَهَبَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ إِلَى أَنَّهَا ثَبَتَتْ بِالنَّصِّ الخَفِيِّ وَالْإِشَارَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالنَّصِّ الجَلِيِّ.

وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ إِلَى أَنَّهَا ثَبَتَتْ بِالِاخْتِيَارِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى إِثْبَاتِهَا بِالنَّصِّ أَخْبَارٌ:

مِنْ ذَلِكَ مَا أَسْنَدَهُ الْبُخَارِيُّ[1] عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَأَنَّهَا تُرِيدُ المَوْتَ، قَالَ: «إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ». وَذَكَرَ لَهُ سِيَاقًا آخَرَ[2]، وَأَحَادِيثَ أُخَرَ. وَذَلِكَ نَصٌّ عَلَى إِمَامَتِهِ.

وَحَدِيثُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ

---

(١) برقم (٣٦٥٩)، وأخرجه مسلم (٢٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٦٠).

بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ[١].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٢] عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا ـ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْيَوْمِ الَّذِي بُدِئَ فِيهِ، فَقَالَ: ادْعِي لِي أَبَاكِ وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا، ثُمَّ قَالَ: يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «فَلا يَطْمَعْ فِي هَذَا الأَمْرِ طَامِعٌ»[٣].

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: «ادْعِي لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ أَبِي بكْرٍ، لأَكْتُبَ لأَبِي بَكْرٍ كِتابًا لا يُخْتَلَفُ عَلَيهِ»، ثُمَّ قَالَ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَخْتَلِفَ الْمُؤْمِنونَ فِي أَبِي بَكْرٍ»[٤].

وَأَحَادِيثُ تَقْدِيمِهِ فِي الصَّلَاةِ مَشْهُورَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَهُوَ يَقُولُ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»[٥].

وَقَدْ رُوجِعَ فِي ذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، فَصَلَّى بِهِمْ مُدَّةَ مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٧)، وبنحوه أخرجه البخاري (٥٦٦٦، ٧٢١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٦)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٢٥)، وابن أبي عاصم في السنة، والطبراني في الأوسط (٤٣٣١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٢٦٧)، وفي سنده مقال، لكنه يتقوى بالروايات الأخرى المخرجة في الصحيحين.

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده برقم (١٨٠٥)، ومن طريقه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٠٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١١٦٣)، وفي إسناده محمد بن أبان، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ، عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ مِنْهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ»[1].

وَفِي «الصَّحِيحِ»[2] أَنَّهُ ﷺ قَالَ عَلَى مِنْبَرِهِ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ، إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ».

وَفِي سُنَنِ أَبِي[3] دَاوُدَ، وَغَيْرِهِ[4]، مِنْ حَدِيثِ الْأَشْعَثِ عَنِ الحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكَرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا: رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَوُزِنْتَ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ وُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَحَ عُمَرُ، ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ، فَرَأَيْتُ الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ

---

(١) البخاري (٣٦٦٤ و ٧٠٢١)، ومسلم (٢٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) برقم (٤٦٣٤، ٤٦٣٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٨٧) وقال: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وأحمد (٥/ ٤٤)، والحاكم (٣/ ٧٠، ٧١)، جميعهم بدون زيادة: «خلافة نبوة...»، وهذه الزيادة لها شاهد من حديث سفينة ﷺ، وسيأتي تخريجه قريبًا.

الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ».

فَبَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ وِلَايَةَ هَؤُلَاءِ خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكٌ.

وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ عَلِيٍّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعِ النَّاسُ فِي زَمَانِهِ، بَلْ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ، لَمْ يَنْتَظِمْ فِيهِ خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ وَلَا الْمُلْكُ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ[1] أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَأَى اللَّيْلَةَ رَجُلٌ صَالِحٌ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ نِيطَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنِيطَ عُمَرُ بِأَبِي بَكْرٍ، وَنِيطَ عُثْمَانُ بِعُمَرَ»، قَالَ جَابِرٌ: فَلَمَّا قُمْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْنَا: أَمَّا الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَّا الْمَنُوطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَهُمْ وُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ[2] أَيْضًا عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْتُ كَأَنَّ دَلْوًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا، فَشَرِبَ شُرْبًا ضَعِيفًا، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا، فَانْتُشِطَتْ مِنْهُ، فَانْتَضَحَ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ، عَنْ سَفِينَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خِلَافَةُ

---

(١) برقم (٤٦٣٦).

(٢) برقم (٤٦٣٧).

النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ أَوِ الْمُلْكَ»[1].

---

قال الشيخ:

تكلّم العلماء في موضوع الخلفاء الراشدين، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثمّ عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وذكروا أن تسميتهم بالخلفاء الراشدين تسمية نبويّة؛ ففي الحديث أن النبيّ ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ»[2] فجعلهم خلفاء، والخليفة: هو الذي يخلف غيره، وسمّاهم راشدين، والراشد: ضد الغاوي؛ أي إنّهم على رشد، ووصفهم بالهداية، أنّهم مهتدون غير ضالّين، هذا ما يخصّ خلافة هؤلاء الأربعة، وكذلك من اقتدى بهم، أو سار على نهجهم؛ فقد قيل: إنّ عمر بن عبد العزيز من الخلفاء الراشدين؛ لأنّه أشبه سيرتهم.

كذلك أشار النبيّ ﷺ إلى الخلافة ثمّ الملك، كما في حديث سفينة: «خِلَافَةُ النبوَّةِ ثلاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي الله مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ»؛ وقد وقع ذلك؛ فخلافة أبي بكر ﷺ سنتان ونصف، وخلافة عمر ﷺ عشر، وخلافة عثمان ﷺ اثنتا عشرة سنة،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦، ٤٦٤٧)، والترمذي (٢٢٢٦) وقال: «وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وأحمد (٥/ ٢٢٠-٢٢١)، وصححه ابن حبان (١٥/ ٣٩٢)، والحاكم (٣/ ٧١)، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

فهذه أربع وعشرون سنة، وخلافة عليّ ﷺ خمس سنين إلا بعض سنة، وتتمّتها خلافة الحسن، فأصبحت هذه ثلاثين سنة أو نحوها، فهذه هي الخلافة التي أخبر النبي ﷺ بأنّها خلافة نبوّة، ثمّ بعدها يكون ملكٌ؛ لأنّ الملك لما انتقل إلى بني أميّة، أصبحوا كأنّهم يعملون عمل الملوك، ولو كان فيهم شيء من السيرة الحسنة والجهاد، ولكن عملهم ليس كعمل الخلفاء الراشدين؛ لأنهم جعلوها وراثةً، وصاروا يعهدون بالخلافة إلى أبنائهم أو من يقرب منهم.

وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على تقديم أبي بكر ﷺ، وفيهم أهل البيت، وفيهم عليّ والحسن والحسين والعباس، وابن العباس، وآل العباس، وآل عمر... جميع الصحابة اتّفقوا على خلافة أبي بكر ﷺ، والله تعالى لا يجمع الصحابة على ضلال، ولا يجمعون إلا على حقّ، وهذه حجّة قويّة على خلافة أبي بكر، أين الرافضة من هذا الإجماع؟ فالرافضة يقولون: إنّ أبا بكر مغتصب، وإنّه تجرأ على ما ليس له، وإنّ الصحابة خانوا هذه الأمانة التي هي عهدٌ لعليّ، وأن النبي ﷺ عهد إليه بالخلافة، ولكن خانوا وكتموا، وبايعوا أبا بكر ﷺ خيانة وضلالاً، هكذا قالوا، وهذا معناه أنّهم كلّهم أجمعوا على هذا الظلم، وحاشاهم من ذلك!

ولا شكّ أنّهم عندما بايعوا أبا بكر ﷺ عملوا بتلك الإشارات التي وجدوها، فإنّ النبيّ ﷺ لما قالت له تلك المرأة: أَرَأَيْتَ إِنْ جئتُ فلَمْ أَجِدْكَ؟ كأنّها تريدُ المَوْتَ، فمن آتي بعدك لقضاء حوائجي؟ فقال: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي**

أَبَا بَكْرٍ»[1]، فمعنى هذه الإحالة أنّ أبا بكر يكون الخليفة بعدي، وهذا ما كان.

كذلك الحديث الذي روته عائشة وهي من أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن، لا يمكن أن تكذب في حقّ أبيها، ولا غيره. ذكرت أنّ النبيّ ﷺ أراد أن يكتب كتابًا بالولاية لأبي بكر، «حَتَّى أَكْتُبَ لأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا»، أي: ائتوني بكتاب أكتب فيه عهدًا لأبي بكر ﷺ، ولكن علم بأنّ الله تعالى يجمع الصحابة على توليته، فترك الكتابة ثقة بما كانوا عليه من معرفة حقّه، وقال: «يَأْبَى اللهُ وَالْمُسلِمونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ»[2]؛ يعني: أنّهم يعرفون أحقّيته وأقدميّته.

وقد عُرف أنّ النبيّ ﷺ قدّمه في الصلاة لما ثقُل عليه مرضه، وصعب عليه أن يتولّى الصلاة بهم، وبقي عدة أيام لا يستطيع ذلك، وكان الذي يصلّي بالمسلمين أبو بكر رضي الله عنه، لما قال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»! فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ»، قَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فَعَادَتْ فَقَالَ: «مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ»[3]. فأكّد أنّ أبا بكر ﷺ هو الذي يصلح أنْ يكونَ إمامًا، وقد تولّى هذه الإمامة التي هي الصلاة في حياة النبيّ ﷺ، فلمّا أن توفي النبي ﷺ نظر الصحابة في خلافة أبي بكر ﷺ فقالوا: رضينا لدنيانا من رضيه

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٤).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨)، ومسلم (٤٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

نبيّنا لديننا. نبيّنا ﷺ رضيه إمامًا لنا، رضيه لديننا وليصلّي بنا، وهذا دليل على أفضليّته؛ ولذلك نرضاه أن يكون إمامًا لنا في هذه الولاية التي فيها إصلاح دنيانا، وضبط أحوالنا.

وقد ثبت أنّ النبيّ ﷺ خطب في آخر حياته، قبل مرضه بقليل، فقال: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَقَالَ: «فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا»، فعجب النّاس، أنّ النبيّ ﷺ يخبر عن هذا العبد الذي خيّره الله، وأنّ أبا بكر يبكي ويقول هذه المقولة! فلمّا قال ذلك قال النبيّ ﷺ: «**إِنَّ أَمَنَّ الناس عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أبو بَكْرٍ وَلَوْ كنت مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاتخذت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ إخوة الْإِسْلَامِ لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلا خَوْخَةَ أبي بَكْرٍ**»[1]، أليس ذلك دليلاً على أنّه مقدّم في هذا الأمر؟ الخُلّة هي: المحبّة التي تتخلّل القلوب، إنّه أحقّ أن يكون خليلاً، وأحقّ أن تكون له الخلّة، ولو كنت متّخذًا خليلاً لكان أبو بكر أحقّ أن يكون خليلاً. ثمّ أمر أن تُسدّ النوافذ التي تطلّ على المسجد إلا نافذة أبي بكر ﷺ. فقد كان الصحابة قد بنوا بيوتًا فتحوا منها أبوابًا على الحرم، هذا الباب يدخل منه فلان، وهذا باب لفلان، فأمر بأن تُسدّ تلك الأبواب التي تُسمّى خوخات، وتبقى خوخة أبي بكر ﷺ، وفي ذلك إشارة إلى أنّه سيتولّى الخلافة بعده، وأنّه سيحتاج إلى أن يدخل المسجد ويتكرّر دخوله، أليس هذا دليلاً على أنّه سيتولّى الخلافة، وعلم النبيّ ﷺ أنّه سيكون والي

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

المسلمين بعده، فأمر بإبقاء خوخته حتّى لا تتغيّر. كذلك قد مرّت كثيرٌ من الإشارات، ولكن مجموعها يكون صريحًا:

الإشارة الأولى: قصّة القليب: يقول ﷺ: «**بَيْنا أَنا نائِمٌ رَأَيْتُني على قَلِيبٍ**»، والقليب: البئر التي فيها ماء، «**عَلَيْها دَلْوٌ، فنَزَعْتُ منها ما شاءَ الله**» أي أجتذب الماء بالدلو، «**ثُمَّ أَخذَها ابنُ أَبي قُحافَةَ**»، جعل أبا بكر ﷺ هو من أخذها بعده، «**فنَزَعَ منها ذَنوبًا، أَو ذَنُوبَينِ، وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، والله يَغفِرُ لهُ**»، أي: ذلك لقصر خلافته، «**ثُمَّ اسْتحالَتْ غَرْبًا، فأَخَذَها ابنُ الخطَّابِ**»، والغرب: هو الدلو الكبير الذي يُستقى به من الآبار قديمًا، «**فلَمْ أَرَ عَبقَرِيًا مِنَ النّاسِ يَفْرِي فَرِيهُ، حَتَّى ضرَبَ النّاسُ بعَطَنٍ**»[1]؛ وذلك لأنّ مدّته طالت عشر سنين، وفي مدّته اتسعت رقعة الإسلام، وكثرت الأموال في بيت المال.

أليس في هذا دليلاً على أن من يأخذ الخلافة بعده هو أبو بكر ﷺ؟ ولكن لا تطول مدته، ويأخذها من بعده عمر ﷺ، فتطول مدّته.

أما الإشارة الثانية: فهي قصّة ذلك الدلو الذي تدلّى من السماء، يقول الرجل: «**رَأَيْتُ كَأَنَّ دَلْوًا دُلِّي من السّماءِ، فجاءَ أَبو بكرٍ فأَخذِ بعَراقِيها، فشَرِبَ شُرْبًا ضَعيفًا، ثُمَّ جاءَ عُمَر فأَخَذَ بِعَراقِيها، فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جاءَ عُثمانُ فأَخَذَ بِعراقِيها فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثمَّ جاءَ عَليٌّ فأَخَذَ بَعَراقِيها فانْتُشِطَتْ مِنْهُ،**

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

فانْتَضَحَ عَلَيهِ مِنها شَيْء»[1]. أليس ذلك دليل على ترتيبهم بعد النبيّ ﷺ.

هذه الإشارات التي هي إمّا حقيقة واقعة أو أنّها رؤيا فيها دليل واضح على أنّ هؤلاء يكونون خلفاء بعد رسول الله ﷺ.

وبكلّ حال، فإنّ هذه الإشارات مجموعها يجزم بأنّه نصٌّ صريح على أنّه ﷺ قدّم أبا بكر ﷺ وجعله خليفة بعده.

تأتي بعد ذلك قصّة بيعته وتوليته الخلافة، وكيف اجتمع الصحابة رضوان الله عليهم على بيعته وفضّلوه، ومعلوم أنّهم لم يختاروه إلاّ لميزةٍ تميّز بها، أليس هو أوّل من أسلم من الرّجال، فكما يقول الكلوذاني في عقيدته:

قَـالُوا فَمَـنْ بَعْـدَ النَّبِـيِّ خَلِيفَـةً ... قُلْـتُ الْمُوَحِّـدُ قَبْـلَ كُـلِّ مُوَحِّـدِ

حَامِيهِ فِي يَوْمِ العَرِيشِ وَمَنْ لَـهُ ... فِي الغَارِ أَسْعَدَ يَا لَهُ مِنْ مُسْعَدِ

الجمهور على أنّ أبا بكر ﷺ أوّل من أسلم من الرجال، فقد كان رجلاً عاقلاً موثوقًا كامل العقل، لما عرض النبيّ ﷺ عليه الإسلام، لم يتوقّف، بل بادر، وقبل الدعوة، ودخل في الإسلام، ولما دخل في الإسلام صار أيضًا داعية لأكثر الصحابة الذين أسلموا في مكّة، فأسلم عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة، وسعد، كلّهم بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم.

أليس من فضائله أنّ يكون رفيق النبيّ ﷺ وصاحبه في الهجرة، فقد اختاره النبيّ لصحبته بعد أن كان استعد للهجرة، فقال له النبيّ ﷺ: «أَقِمْ» فَقَالَ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

يَا رَسُولَ الله أَتَطْمَعُ أَنْ يُؤْذَنَ لَكَ؟ فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ»، فلمّا أذن له، قال: «أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ؟»، قَالَ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «الصُّحْبَةَ»[1]. أي: سوف تصحبني. ومعروف أنّه صاحبه في الغار، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠].

لا شكّ أنّ هذه الصحبة لا ينالها إلا مثله، فهو ﷺ جمع نفسه مع النبيّ ﷺ، وعرّض نفسه للقتل، المهاجرون غيره هاجروا بحجّة أو بعلم، ولم يتعرّض لهم المشركون، أمّا أبو بكر ﷺ والنبيّ ﷺ، فإنّ المشركين قد عزموا على قتل رسول الله ﷺ، فلمّا اجتمع معه أبو بكر ﷺ عزموا على أن يقتلوا أبا بكر معه، وجعلوا لمن أتاهم بكلّ منهما مئة من الإبل، فعند ذلك أمرهما الله بأن يخرجا بخفية، فخرجا ليلاً، ودخلا في غار ثور ثلاثة أيام، يأتيهما عامر بن فُهيرة بغنم لأبي بكر ﷺ، يحلب لهما ويسقيهما، وكذلك يأتيهما عبد الرحمن بن أبي بكر بالأخبار في الليل ثمّ يرجع.

أليس مبيت أبي بكر ﷺ مع النبيّ ﷺ من التعرّض للأذى، ومن الفداء له بنفسه؟ هذه ميزة لا يلحقه بها غيره، وكذلك صحبته له من مكّة إلى المدينة، اثنان على راحلتين، ليس معهما إلا رجل مشرك يدلّهما الطرق.

كذلك عندما خرج النبيّ ﷺ في غزوة بدر، ولما كانت الليلة التي وقعت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الوقعة في صبيحتها، بات النبيّ ﷺ طوال الليل يصلّي ويتهجّد، وبات أبو بكر ﷺ معه يحميه ويحرسه، وكلّما سقط رداؤه عنه ردّه عليه أبو بكر ﷺ، وقال آخر ما قال: «**يا نَبِيَّ الله كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وَعَدَكَ**»(١).

هذه من الميزات التي ميّز الله بها أبا بكر ﷺ ليكون أهلاً للخلافة بعد رسول الله ﷺ. والصحابة الذين بايعوه علموا أهليّته وكفاءته، فإذا نظرنا في سيرته ﷺ، وكيف ضبط الأمور، وكيف نظم الجيوش، فأرسل الرسل للدعوة، وفي سنة واحدة كان ناس من العرب قد ارتدّوا، ولم يبق إلا أهل مكّة والمدينة والطائف، أما الأعراب حولهم، فقد ارتدّوا إلاّ ما شاء الله، كيف قوي أبو بكر ﷺ على ضبط هذه البلدة، مع أنّ الناس كلّهم قد رموهم عن قوس العداوة، ولكن حزمه وفطنته وسياسته وسيرته دلّت على أنّه ذكيّ عارف، ضبط الأمور إلى أن رجع في أقلّ من نصف سنة من كان ارتدّ، واجتمعت العرب كلّهم في هذه السنة على الرجوع على الإسلام، وقاموا به بعدما كانوا تركوه، وذلك لفراسته القويّة التي تدلّ على حنكته وأهليّته، وأنّ الله تعالى ما اختاره في هذه المرحلة الحرجة إلا لأهليّته؛ لذلك يقول العلماء: إنّ الله حفظ الإسلام برجلين: أبي بكر ﷺ يوم الردّة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة.

ولأجل ذلك سمّاه الله تعالى بالصّدّيق، وقد سمّي بالصّدّيق أخذًا من قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾[الزمر: ٣٣]، الذي

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

جاء بالصِّدق: النبيّ ﷺ، والذي صدّق به: أبو بكر ﷺ. فهذه بلا شكّ تدلّ على أهليته. وقد أجمع الصحابة على تسميته بالصِّدِّيق مبالغة في الصدق، والصِّدِّيقيّة هي الرّتبة التي تلي النبوّة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء:٦٩]؛ بدأ بالصّدّيقين، ثم الشهداء والصالحين، والصّدّيقون: هم المبالغون في التصديق، وأبو بكر ﷺ على رأسهم.

فهذه الميزات والفضائل هي التي جعلته أهلاً لأن يتولّى أمر المسلمين، لكن طمس الله قلوب الرافضة، وأعمى بصائرهم، وحال بينهم وبين الحقّ فولّدوا أكاذيب في أنّه مغتصب، وأنّ الصحابة كلّهم خونة، وأنّ عليًّا مظلوم، وجعلوه أيضًا من الظالمين؛ لأنّه أقرّ بخلافة أبي بكر، وبايعه، وصبر على خلافته في زمانه، ولم يطالب بالخلافة، بل كان عليٌّ يصلي خلفه طيلة مدّة خلافته، ولم يقل أحد أنّ عليًّا كان له محراب، أو أنّه كان يصلي وحده، وحاشاه ترك الجماعة، أليس في ذلك دليلاً على أنّه أقرّ خلافته، وأنّه رضي به كما رضي به بقيّة المسلمين.

في القرون السابقة قد يكون الرافضة معذورين؛ لأنهم لَم يطّلعوا على سير الصحابة رضوان الله عليهم، ولم تنتشر كتب السلف، ولم تشتهر الأحاديث التي فيها؛ لكونها مخطوطة في المكتبات الكبيرة، فلا يمكنُ انتشارها، ولا يألفون دخول هذه المكتبات، ولا ينسخونها، وإنّما ينسخون ما يناسبهم من مؤلّفات مشايخهم، ولكن في هذه الأزمنة لا شكّ قد قامت عليهم الحجّة؛ لأنّ الحقّ قد استبان، ولكنّهم عاندوا وأصروا واستكبروا عن الحقّ، وإلا لا عذر لهم، فالآن كتب

السنّة وكتب الحديث وكتب السلف، بعد أن كان لا يوجد منها إلا نسخة أو اثنتان، توجد الآن ألوف منها في متناول الجميع، في إمكانهم أن يقرؤوها، بل قرأوها، ولكن أصرّوا واستكبروا.

كذلك في هذه الأزمنة وجدت الأشرطة التي فيها سيرة السلف، ولكنّهم اصرّوا واستكبروا على العناد والبدع الشنيعة، وكذلك تنشر سير الصحابة رضوان الله عليهم ومآثرهم في الصحف وفي المجلاّت وفي الإذاعات، لا شكّ أنّ أولئك الشيعة يقرؤونها ويسمعونها، ولكنّهم مع ذلك كلّه أصروا واستكبروا استكبارًا، وكذلك تدرّس فضائل الصحابة في المناهج الدراسيّة في المدارس، وهم يدرسونها ويقرؤونها، وقد عرفوا صحّة ما فيها وثبوته؛ لأنه يعتمد على الدليل، وعلى النقل الصحيح، ولكنّهم أيضًا أصرّوا واستكبروا استكبارًا؛ فهم قد قامت عليهم الحجّة، وليسوا كقدمائهم الأوّلين، وتمكّنوا مِمّا لم يتمكّن منه أولئك.

أما بالنسبة إلى أهل السنّة فقد كانوا في الزمان القديم لا يقرؤون كتب الرافضة، ولا يتمكّنون من الوصول إليها؛ لأن الروافض كانوا يخفونها، بل يخفون عقائدهم ولا يمكّنون أحدًا من قراءتها، وذلك لما فيها من فضائح، ومن أخطاء فاحشة، ومن الحمل على الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن في هذه الأزمنة، لم يقدروا على إخفائها، بل طُبعت كتبهم، وطبعت تفاسيرهم، واطّلع عليها أهل السنّة، ورأوا فيها الفضائح، ونقلوا ما نقلوا منها، وردّوا عليهم الردود الواضحة، وجعلوها حجّة عليهم، وردّوا عليهم من كتبهم ذاتها، من تناقضهم، وأكاذيبهم وترّهاتهم، وتأويلاتهم الفاسدة، وخرافاتهم التي يجعلونها أدلّة، اتّضح كذبها،

واتضّح لكلّ عاقل أنّها بعيدة عن الصواب، فبان بذلك كذبهم، وتناقضهم، واطُّلع على أسرارهم، ولكنّهم مع ذلك كلّه أصرّوا واستكبروا.

في هذه البلاد معلوم أنّ المناهج موحّدة بالنسبة إلى السنّة والشيعة، ولكن علماءهم يحرصون على ألاّ يقع في قلوب أبنائهم شيء مما درسوه على مدرّسيهم من أهل السنة، فإذا تعلموا ذلك من السنّة الصحيحة، وسير الصحابة الأفاضل، عرضوا ذلك على شيخ أو كبير لهم، فيصوّب هذا ويخطّئ هذا، ويقول: هذا لا تقولوا به، وهذا لا تعتقدوه، وهذا ليس بصحيح؛ فهذا يخالف معتقدكم، وهذا يخالف سيرتكم، حتّى يمحو أثر ما تلقّى أولئك الطلاب من مدرّسيهم السنّيين، وحتى يبقيهم على معتقد آبائهم وأجدادهم الباطل السيّىء، وهكذا سيرتهم.

ذكر لنا أحدهم أنّ هناك مدرّسًا من أهل السنّة في إحدى البلاد التي يغلب على أهلها التشيّع، فلمّا توجّه أولئك الطلاب وتفتّحوا، ورأى فيهم ذكاء، رأى أن يناقشهم بالدليل بالقرآن والسنّة الصحيحة، وأخذ يجعل لهم مجالس أسبوعيّة، يقرّر لهم فيها الحقّ، ويقول: نحن مع الحقّ أينما كان، إن كان معكم ائتونا به، وإن كان معنا أتينا به. واستمر معهم شهرًا أو شهرين، ولكن انتبه آباؤهم إلى أنّهم قد اقتنعوا بعض الاقتناع من هذا الشيخ، وأثّر قليلاً في عقيدتهم، فعمدوا إلى هذا الشيخ وطردوه وأبعدوه من بلادهم؛ لأن أبناءهم عرضوا عليهم توجيهاته، فلمّا وجدوا أنّها حُجَج قويّة تغلبهم، قالوا: هذا سوف يفسد معتقدهم، ولا بدّ من إبعاده.

وهم بالنسبّة إلى تولّيهم، يحاولون اضطهاد أهل الخير، ويحاولون ألّا يكون

لأهل السنّة قوّةٌ ولا ملكةٌ ولا نفوذ، ولا تسلّط على شيء، فقد ذكر لنا بعض الإخوان من بعض البلاد التي يديرها مدرّسون من الشيعة قرب المدينة النبويّة، أنّ المدير شيعي، والمدرّسون كلهم من الشيعة قد اتفقوا على ألا يدرّسوا الأولاد في المرحلة الابتدائية إلا دروسًا قليلة، فلا يعلّموهم هجاء ولا كتابة ولا قرآنًا ولا تجويدًا ولا حسابًا، وأن ينجّحوهم كلّ سنة من دون أن يعرفوا شيئًا، فإذا انتهى أحدهم إلى المرحلة المتوسّطة وهو لا يحسن كتابة اسمه ترك الدراسة، ويبقون على جهلهم. وهذا من حيلهم، ليضرّوا أهل السنّة، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨].

فإذًا من معتقد أهل السنّة الاعتراف بخلافة الخلفاء الراشدين، وأنّ ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، فأوّلهم وأفضلهم أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان، ثمّ عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وهم الخلفاء الراشدون الذين أمر النبيّ ﷺ باتّباعهم، وسمّاهم الخلفاء، بقوله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ**»[1]؛ شهادة لهؤلاء بأنّهم الخلفاء، وأنّهم راشدون، وعلى الصراط المستقيم الذي سألوا الله أن يهديهم إياه.

وسيرةُ أبي بكر ﷺ معروفة، فهي أحسن السير؛ لأنه اقتدى بالنبيّ ﷺ في كلّ ما يفعل، فأنفذ جيش أسامة أوّل ما تولّى، وبعث الجيوش لقتال المرتدّين، فانتصر الإسلام، بعد أن كان العرب قد رموا أهل المدينة عن قوس العداوة، انتصر

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

الإسلام في أربعة أشهر أو أقلّ، أرسل جيشًا لقتال بعض المرتدّين، فهدى الله طيئًا ومن معهم، فلمّا رآهم أولئك العرب والذين معهم فانضموا إليهم، ولم يمض إلا شهران أو ثلاثة أشهر حتّى بعث أبو بكر ستة عشر أميرًا أو سبعة عشر لقتال المرتدّين البعيدين، انضموا كلّهم إلى الإسلام، ورجعوا إليه، أليس ذلك دليلاً على حنكته وفراسته وقوّته في أمر الله تعالى، ودليلاً على أنّ الله سدّده وهدى به، ونصر به الإسلام.

الرافضة بأيّ شيء يطعنون فيه، لما أنّهم رووا فيما يروونه أنّ عليًّا هو الإمام، في الحديث الذي يسمونه حديث الغدير، مع أنّ أكثره كذب، وفيه: أنّه ﷺ قال: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَإِنَّ عليّ مَوْلاهُ، اللهمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»[1]؛ نقول: هذا صحيح. إنّ عليًّا من النبيّ ﷺ بمنزلة هارون من موسى، وهو مولى المسلمين، وكذلك نقول في أبي بكر ﷺ وفي بقية الخلفاء وسائر الصحابة، هم موالي المسلمين، وليست الولاية إلا ما تقتضي المحبّة، فإذا كان عليّ وليًّا للمؤمنين ووليًا للنبيّ ﷺ، والنبيّ ﷺ وليّ للمؤمنين أيضًا، فكذلك بقيّة الصحابة رضوان الله عليهم، وليس هناك دليل على أنّ عليًا ﷺ اختصّ بالولاية دون غيره، ودعاء النبيّ ﷺ: «**اللهمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»، دعاء صحيح إذا ثبت، نحن نواليه ونحبّه، ولكن لا نُفْرِط في حبّه، ولا نجعله أحق بالولاية من أبي بكر ﷺ وغيره من الخلفاء، بل نجعلهم كلّهم أهل ولاية وأهل محبّة وأهل ترضٍّ، وكذلك

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٧٠).

بقيّة الصحابة الأبرار، ونجعل من حقّهم علينا أن نواليهم وأن نحبّهم.

طعن الرافضة في أبي بكر طعنًا واحدًا؛ وهو أنّه: لم يُعطِ فاطمة حقّها من الميراث، ولم يورّثها! هذا هو الذي طعنوا عليه فيه، وتحاملوا عليه تحاملاً شديدًا، وأنكروا قول النبيّ ﷺ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[1]، مع ثبوته بطرق كثيرة، وجعلوا قول ذلك من أبي بكر ﷺ كذبًا، مع أنّه لم ينفرد بذلك، وجعلوه ﷺ مهتمًّا لأمر الدّنيا، وأنّ الدنيا أكبر همّه، مع أنّه يقول: «مالي وَلِلدُّنْيَا، ما مثلي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إلا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[2].

ومع ما ثبت عن الحارث بن أبي ضرار أنه قال: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً»[3]. فبأي شيء ينتقدون أبا بكر ﷺ ويقولون: إنّه منع فاطمة ـ رضي الله عنها ـ حقّها من أبيها؟

أولاً: الرّسل لا يورثون.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وأخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مسلم (١٧٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١)، وعبد بن حميد (٥٩٩)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٠٩) ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٩).

وثانيًا: الدنيا ليست ذات أهميّة عندهم حتّى يخلّفوها لأولادهم، ويقولون: لهم أن يرثوا، ولهم أن يأخذوا.

وثالثًا: الأرض التي جعلها صدقة قد صار عليّ ﷺ هو المتولي عليها بعد موت فاطمة.

وبكلّ حال: فهذا أكبر ما طعنوا فيه، ولما قالوا هذا، أخذوا يجمعون ويلفّقون عليه الأكاذيب، ويعيبونه بكلّ عيب، ويقولون: إنه قاتل المسلمين، وهم يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. نعم، لكنّهم لما فرّقوا بين الصلاة والزكاة، لم يكونوا مقرّين بالشهادة حقّ الإقرار، فلأجل ذلك رأى قتالهم وسمّاهم بالمرتدّين، وأنّه أقرّ خالدًا ﷺ على القتال، ويكفّرون خالدًا ﷺ بأمورٍ أخذوها عليه، نقول: نعم: أقرّه؛ لأنّه رآه أهلًا للقتال، وليس خالد ﷺ قريبًا له، ولا صهرًا، بل هو سيف الله الذي سمّاه النبيّ ﷺ، فماذا نقموا عليه حتّى يسبُّوه ويلعنوه ويشتموه؟!

إذًا أبو بكر ﷺ جعله النبيّ ﷺ خليفة في الصلاة كما سبق، وتقديمه بالصلاة دليل على أوّليّته، ودليل على أهليّته للإمامة، كذلك أيضًا هو دليل على ميزته وكفاءته، وفيه إشارة إلى أنّه سيخلفه ويقوم مقامه، بدليل خوخته التي لا تسدّ بأمر النبيّ ﷺ، فذلك إشارة إلى أنّ له أحقّية في المسجد وفي الولاية، وكذا مرّ قوله ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي: أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[1] فبدأ بأبي بكر ﷺ، فدلّ على أنّه يتولّى بعده، وهذا ما وقع، ثمّ تولى عمر ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

فإذا هذه الإشارات واضحة في أنّ أبا بكر ﷺ هو الخليفة بعده. وكذلك حديث القليب الذي سبق ذكره[١]، وفيه إشارة إلى قصر خلافة أبي بكر ﷺ، ومدّة خلافة عمر ﷺ الطويلة، وفي عصره فُتحت البلاد، وهذا ـ بلا شكّ ـ دليل على أنّهما خليفتان بعد النبيّ ﷺ. وكذلك في الرؤيا التي رآها بعض الصحابة في الدلو الذي دلّي من السماء... وفيه إشارة إلى تولّي أبي بكر ثم عمر رضي الله عنهما[٢]، وكذلك كثير من الإشارات، كقول النبيّ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ أَبا بكرٍ خليلاً**»[٣]. وأبو بكر ﷺ هو الخليفة الراشد الذي تولّى أمر المسلمين، وسار فيهم السيرة الحسنة، وبعده لم يولّ الخلافة لأولاده ولا لأقاربه ولم يحابِ بها أحدًا، وكذلك في خلال ولايته لم يولّ الأمراء لأجل قرابتهم أو محاباة، وإنّما اختار منهم من فيه الأهليّة والكفاءة، حتّى ولو لم يكونوا من قريش، فولّى خالدًا ﷺ وغيره لأهليّتهم.

إذًا نشهد أنّ أبا بكر ﷺ أهل للخلافة، وأنّ الله عندما اختاره خليفة، ووالِيًا للمسلمين كان ذلك عين المصلحة، وهو الذي ثبّت الله به الإسلام، وردّ به المسلمين، بعدما كادوا أن يخرجوا من الإسلام، وهو من سمّي بالصّديق، وهو الذي فتح الله به قلوب العباد، ورزقهم الإنابة إليه، والثبات على دينه.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

قال الشارح:

وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِالخَبَرِ المَأْثُورِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ، وَإِنْ لَا أَسْتَخْلِفْ، فَلَمْ يَسْتَخْلِفْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي رَسُولَ الله ﷺ[1].

وَبِمَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا - أَنَّها سُئِلَت مَنْ كَانَ رَسُولُ الله مُسْتَخلِفًا لَو اسْتَخْلَفَ؟[2].

وَالظَّاهِرُ - وَالله أَعْلَمُ - أَنَّ المُرَادَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِعَهْدٍ مَكْتُوبٍ، وَلَوْ كَتَبَ عَهْدًا لَكَتَبَهُ لِأَبِي بَكْرٍ، بَلْ قَدْ أَرَادَ كِتَابَتَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ، وَقَالَ: «يَأْبَى الله وَالمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»[3].

كَانَ هَذَا أَبْلَغَ مِنْ تُجَرَّدِ الْعَهْدِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَلَّ المُسْلِمِينَ عَلَى اسْتِخْلَافِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِأُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْبَرَ بِخِلَافَتِهِ إِخْبَارَ رَاضٍ بِذَلِكَ، حَامِدٍ لَهُ، وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ بِذَلِكَ عَهْدًا، ثُمَّ عَلِمَ أَنَّ المُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَتَرَكَ الْكِتَابَ اكْتِفَاءً بِذَلِكَ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَرَضِهِ يَوْمَ الخَمِيسِ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ لِبَعْضِهِمْ شَكٌّ: هَلْ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنْ جِهَةِ المَرَضِ؟ أَوْ هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٥).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

قَوْلٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ؟ تَرَكَ الْكِتَابَةَ، اكْتِفَاءً بِمَا عَلِمَ أَنَّ الله يَخْتَارُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ.

فَلَوْ كَانَ التَّعْيِينُ مِمَّا يَشْتَبِهُ عَلَى الْأُمَّةِ لَبَيَّنَهُ بَيَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ، لَكِنْ لما دَلَّهُمْ دَلَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْمُتَعَيِّنُ، وَفَهِمُوا ذَلِكَ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ. وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي خَطَبَهَا بِمَحْضَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: «أَنْتَ خَيْرُنَا وَسَيِّدُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ»[1]، وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلا قَالَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ إِنَّ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَمِيرٌ، وَهَذَا مِمَّا ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بُطْلَانُهُ.

ثُمَّ الْأَنْصَارُ كُلُّهُمْ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، لِكَوْنِهِ هُوَ الَّذِي كَانَ يَطْلُبُ الْوِلَايَةَ. وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ قَطُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَصَّ عَلَى غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ، لَا عَلِيٌّ، وَلَا الْعَبَّاسُ، وَلَا غَيْرُهُمَا، كَمَا قَدْ قَالَ أَهْلُ الْبِدَعِ!.

وَرَوَى ابْنُ بَطَّةَ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعَثَ مُحَمَّدَ بْنَ الزُّبَيْرِ الحَنْظَلِيَّ إِلَى الحَسَنِ، فَقَالَ: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ: أَوَ فِي شَكٍّ صَاحِبُكَ؟ نَعَمْ، وَالله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اسْتَخْلَفَهُ، لَهُوَ كَانَ أَتْقَى لِلَّهِ مِنْ أَنْ يَتَوَثَّبَ عَلَيْهَا[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٢٩٧).

قال الشيخ:

تقدّم القول الأول: أنّ خلافة أبي بكر ﷺ بالنصّ، وهذا قول أنّها بالإشارة. فهما قولان للعلماء.

الذين قالوا بالنصّ، استدلّوا بقوله ﷺ: «**اقتَدُوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أبي بَكْر وعُمَرَ**»[1]. فهذا نصّ، واستدلّوا بقوله للمرأة التي قالت: «أَرَأَيْتَ إِنْ جئتُ فلَمْ أَجِدْكَ؟» فقال: «**إِنْ لَمْ تَجِدِيني فَأْتِي أبا بَكْرٍ**»[2]، فإنّ هذا هو الذي يتولّى الأمر بعده. واستدلّوا بكون النبيّ ﷺ أمره بأن يصلي بالنّاس في مرضه[3]، وهذا نصّ في أنّه يكون إمامًا متّبعًا؛ ولهذا قالوا: رضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا. يعني: من قدّمه إمامًا علينا في الصلاة.

أمّا القول الثاني: إنّه لم يستخلف، وإنّما أشار إشارات، وإنّ عمر ﷺ قال: «**وَإِنْ لَا أَسْتَخْلِفْ، فَلَمْ يَسْتَخْلِفْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي رَسُولَ الله ﷺ**»[4]، هكذا قالوا: إنّ عمر ﷺ شهد بأنّ النبيّ ﷺ لم يستخلف.

نقول: لم يستخلف بالنّص، فهو لم يقل: أيّها النّاس بايعوا أبا بكر، فهو خليفتي عليكم. لكن قد عزم على أن يكتب له كتابًا، وقال لعائشة رضي الله عنها: «**ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ وَأَخَاكِ حتى اكتب كِتَابًا**»، حتّى لا يختلفوا عليه، ثمّ إنّه ترك

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٤).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

(٤) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠٤).

الكتاب، وقال: «وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلا أَبَا بَكْرٍ»[1]، فهو لم يقل: بايعوا أبا بكر، أو أبو بكر خليفتي! لكن مجموع هذه الإشارات يصبح نصًّا ودليلاً واضحًا لا خلاف فيه.

ومرَّ بنا كلام الحسن بن علي ﷺ، الذي هو الإمام الثاني عند الرافضة، لما قيل له: هل أبو بكر استخلفه الرسول أو لا؟ قال: هو أورع من أن يتوثّب عليها. يعني: لم يكن راغبًا بالولاية، ولا متعلّقًا فيها، ولكن لما اجتمعت عليه كلمة المسلمين، وجاءت هذه الإشارات باستخلافه قبلها، وإلا فهو ورع وزاهد ولا يمكن أن يقبلها من دون أن يكون أهلاً لها، ومن دون أن يجمع عليه أهل الحلّ والعقد من الصحابة رضي الله عنهم. فالنبيّ ﷺ أشار هذه الإشارات التي تدلّ على أنّ أبا بكر ﷺ أحقّ بالإمامة، وعمر ﷺ رأى أنّه أحقّ بالولاية فبايعه، وبايعه بقيّة الصحابة لم يتخلّفوا في أول يوم.

وقبل بيعة أبي بكر وبعد موت النبيّ ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأرادوا أن يبايعوا واحدًا منهم أميرًا، وهو سعد بن عُبادة ﷺ، فلمّا سمع بهم عمر وأبو بكر وأبو عبيدة رضي الله عنهم ذهبوا إليهم وخاطبهم أبو بكر لما قالوا: «مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ»، بقوله: «نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ»، فتمّت البيعة في السقيفة نفسها. فبايعوا أبا بكر واجتمعوا عليه[2]، ولم يتخلّف أحدٌ منهم،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وسعد بن عبادة لم يبايع تلك الساعة عسى أن يكون له شيء في الإمارة، ولكنّه فيما بعد بايع بيعة مختار راضٍ، وكذلك عليّ ﷺ، قيل: إنّه تأخّر عن البيعة، ثمّ بايع. والصحيح أنّه بايع باختياره وطوعه، ولِمَا علمه من أهليّة أبي بكر وأحقّيّته بالخلافة، وقد ثبت أبو بكر ﷺ من خلال أهليّته وحنكته وسياسته فإن الله اختاره للإسلام والمسلمين في ذلك الوقت الحرج، الذي هم أشد ما يكونون حاجة إلى خليفة قويّ حازم يقيم فيهم أمر الله تعالى، ويحكم أمورهم، فيسرّ الله لهم أبا بكر ﷺ، وأنعم عليهم بخلافته في ذلك الوقت.

قال الشارح:

وَفِي الجُمْلَةِ: فَجَمِيعُ مَنْ نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ طَلَبَ تَوْلِيَةَ غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ، لَمْ يَذْكُرْ حُجَّةً دِينِيَّةً شَرْعِيَّةً، وَلَا ذَكَرَ أَنَّ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْهُ، أَوْ أَحَقُّ بِهَا، وَإِنَّمَا نَشَأَ مِنْ حُبِّ قَبِيلَتِهِ وَقَوْمِهِ فَقَطْ، وَهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ فَضْلَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَحُبَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ. فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، وَعَدَّ رِجَالاً».

وَفِيهِمَا أَيْضًا، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُوبَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦١)، ولم يخرجه مسلم كما ذكر الشارح.

وَمَعْنَى: غَامَرَ: غَاضَبَ وَخَاصَمَ. وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ ذِكْرِ فَضَائِلِهِ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ - فَذَكَرَتِ الحَدِيثَ - إِلَى أَنْ قَالَتْ: وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ! فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي هَيَّأْتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي، خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ! ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، فَقَالَ حُبَابُ ابْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللهِ لَا نَفْعَلُ، مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ، وَأَعَزُّهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدًا، فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللهُ»[1].

وَالسُّنْحُ: الْعَالِيَةُ، وَهِيَ حَدِيقَةٌ بِالمَدِينَةِ مَعْرُوفَةٌ بِهَا.

---

قال الشيخ:

معلوم أنّ التقديم يدلّ على الفضل، والاختيار يدلّ على الأهليّة. وهم ما قدّموا أبا بكر ﷺ إلا لفضيلته، ولا اختاروه خليفة إلا لكونه كفؤًا لهذه الولاية،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠٨).

ولذلك أجمعوا عليه، ونزّه الله الأمّة أن تجتمع على خطأ أو ضلالة، وقد ذكر العلماء أن إجماع الأمّة حجّة قاطعة، ويعترف بذلك الرافضة، ولكنهم ها هنا خالفوا معتقدهم، ونقول لهم: من الذي خالف في بيعة أبي بكر؟ سمّوا لنا شخصًا لم يرض بهذه البيعة فيما بعد؟ فعليّ الذي هو الإمام قد بايعه وجاهد معه، وصار مستشارًا له، وقرينًا له في كلّ تدبيراته، يرجع كلّ منهما إلى قول الآخر، ولم ينقل عنه أنّه سخط بيعته أو أنكرها، فهو من جملة من بايع.

وأمّا سعد بن عبادة الأنصاري ﷺ فقد كان هيأ نفسه ليكون أميرًا للأنصار، ولكنّه لما تمّت البيعة لأبي بكر ﷺ بايعه، وكان كسائر المقتدين بأبي بكر وكأحد الرعيّة.

في هذه الأحاديث دليلٌ على فضيلة أبي بكر ﷺ، وأنّ النبيّ ﷺ كان يحبّه ويقدّمه. فهذا عمرو بن العاص من أكابر قريش لما أمّره النبي ﷺ على سريّة تُعرف بذات السلاسل، قبل أن يخرج جاء إلى النبي ﷺ، وقال له: «أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، قال: «مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا». فهذا دليل المحبّة، وإن كان النبيّ يحبّه ويقدّمه فذلك لأهليّته. وقد ذكر عمرو أنّه ﷺ سمّى بعده رجالاً[1].

وفي الحديث الثاني أنّ النبيّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟»[2]

---

(١) تقدم الحديث (٣/ ٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠٩).

وذلك بأنّه أوّل من أسلم من الرجال على الصحيح.

ويقول الكلوذاني في عقيدته:

قَـالُوا فَمَـنْ بَعْـدَ النَّبِـيِّ خَلِيفَـةً ... قُلْـتُ المُوَحِّـدُ قَبْـلَ كُـلِّ مُوَحِّـدِ

حَامِيهِ فِي يَـوْمِ العَرِيشِ وَمَـنْ لَـهُ ... فِي الغَارِ أَسْعَدَ يَا لَـهُ مِـنْ مُسْعِدِ

فكان الموحّد قبل كلّ موحّد؛ لأنه لما دعاه النبيّ ﷺ لم يتلعثم، ولم يتوقّف، فبمجرّد ما عرف الإسلام أسلم، ولم يقل دعني أنظر في أمري، كان رجلاً كاملاً. فلما دعاه إلى الإسلام قال: صدقت. فلذلك سمّي بالصّدّيق.

وكذلك أيضًا ما ذُكر في حديث السقيفة، فقد جاء إليها ومعه عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم، وخاطب الأنصار ـ لما طلبوا أن يكون منهم الأمير ـ قائلاً: «نَحْنُ الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ»، وذكر لهم أنّ النبيّ ﷺ أرشد أنّ الإمارة في قريش، فرضوا بذلك، ولما قال: «فَبَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ»، قال عمر ﷺ: لم يقل كلمة تؤلمني إلا هذه، ما كنت أحبّ أن أكون واليًا على قوم فيهم أبو بكر. أي لأهليّته وأحقّيّته، فهم قدّموه لصحبته، ومحبّته عند النبيّ ﷺ، وكونه صهرًا، وأهليّته وكفايته وفضائله التي ذكرها الله في القرآن الكريم: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١]، وغير ذلك من فضائله الكثيرة، ومن أراد أن يتوسّع فيها فليرجع إلى ترجمته وإلى ما كتبه عنه العلماء، ومن

أشهرها كتاب «فضائل الصحابة» للإمام أحمد، وهو مطبوع في مجلّدين.

وفضيلته في حروب الرّدة معروفة للجميع، فبعد أن مات النبيّ ﷺ ارتد الأعراب عن الإسلام، حتّى قال قائلهم[1]:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مُذْ كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لِعِبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِي بَكْرِ

يعني: ما لنا ولطاعته، إنّما طاعتنا للرسول ﷺ وهو موجود بيننا.

ولكن لما أنّ الله استخلفه على المسلمين كان ذلك عين المصلحة التي أيّد الله بها الإسلام في ذلك الوقت العصيب، والوقت الشديد، فقد سار فيهم السيرة الحسنة، وخلف النبيّ ﷺ فيما كان يفعله، لم يترك شيئًا يفعله إلا فعله، مثل توزيعه للغنائم، وتقسيمه لخمس الخمس، وإعطائه لمن كان يعطيهم النبيّ ﷺ من سهم ذوي القربى، وتوزيعه للصدقات، ولم يأل جهدًا أن يفعل كفعل النبيّ ﷺ.

ولكن لما لم يعط فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ميراثها من أبيها، نقمت عليه الروافض، وطعنوا في خلافته وإمامته، وصاروا يسبّونه ويشتمونه، زعمًا منهم أنّه خان الأمانة، وأنّه أخلف ما جاء من سيرة من قبله، ومعلوم أنه ﷺ لم يترك تركة، وثبت عنه أنّه قال ﷺ: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»[2]، وتقدم حديث الحارث بن أبي ضرار أنه قال: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا

---

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ١٢٥) ونسبه إلى حارثة بن سراقة الكندي.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠١).

جَعَلَهَا صَدَقَةً»[1]. فهذه شهادة من هذا الرجل الذي ليس من قريش، وإنّما هو من بني المصطلق، وهو أب لإحدى أمّهات المؤمنين، وهي جويريّة بنت الحارث. وقد أخبر بهذا الخبر، فدلّ على أنّه عليه الصلاة والسلام لم يكن وراءه تركة، حتّى لا يقول أحد إنّ أبا بكر ﷺ لم يُعطِ فاطمة رضي الله عنها حقّها، فما أعظم فريتهم!

وما هذا من شدّة محبّتهم لفاطمة رضي الله عنها، بل كان رسول الله ﷺ أشدّ منهم محبّة لفاطمة رضي الله عنها، فهي بضعة منه، لو أراد أن يعطيها لأعطاها في حياته، فقد ورد: «أَنَّ فَاطِمَةَ اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ الرَّحَى مِمَّا تَطْحَنُ، فَبَلَغَهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِسَبْيٍ فَأَتَتْهُ تَسْأَلُهُ خَادِمًا»، فلم يعطها شيئًا من ذلك، بل باع السَّبْيَ، وتصدّق به وأعطاه للمستضعفين من أهل الصُّفّة وغيرهم، وأرشدها مع زوجها إلى التسبيح والتكبير والتحميد عند النوم، وقال: «**فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمَا مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ**»[2].

فكيف يغار هؤلاء الرافضة لفاطمة والنبيّ ﷺ يحرمها ولم يعطها، وقال ﷺ لها أيضًا: «**سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ الله شَيْئًا**»[3]. ولو كان عنده مال لأخذت منه في حياته، فكيف يقولون: إنّه منعها من ميراثها؟!

ومعلوم أنّ الأنبياء لا يورّثون، والرافضة يتمسّكون بآيات فيها شيء من ذكر

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الميراث، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[النمل:١٦]. ويقولون: هذا دليل على أنّ الأنبياء يورثون!

عجبًا لهم؛ الآية إنّما فيها إرث النبوّة، فهو ورثه في نبوّته، بمعنى أنّه ورثه في مُلكه، فكان نبيًا بعده، وكان ملكًا بعده. ومعلوم أنّ داود ـ عليه السلام ـ له أولاد كثير؛ لأنّ له نساء كثيرات، فكيف خصّ داود سليمان عليهما السلام بالإرث، إنّما هو إرث النبوّة. وكذلك يستدلّون بقصّة زكريّاعليه السلام:﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[مريم:٥،٦]؛ ويقولون: هذا دليل على أنّ زكريّا ـ عليه السلام ـ طلب ولدًا حتّى يرثه! وهذا تأويل منكر منهم! كأنّه لا همّ للأنبياء إلاّ المال، لا والله! إنّما أراد يرثُني في النبوّة ويرث علمي، ويرث العلم الذي خلّفه آل يعقوب. أمّا أن يهتمّ بمن يرث ماله، فحاشاه! ليست الدّنيا أكبر همّه حتى يطلب من ربّه الولد من أجل ذلك، ومن أخبركم بأنّ زكريّا ـ عليه السلام ـ كان ذا مال لكي يطلب ولدًا يرثه؟

فهكذا ينقّبون عن مثل هذه ليطعنوا في أبي بكر ﷺ؛ ولأجل ذلك يكفّرونه ويضلّلونه، ويقولون إنّه خان الأمانة، وأنّه خالف السيرة النبويّة، ولم يقم بما قام به، وأنّه حرم فاطمة حقّها، وأنّه بخس عليًّا حقّه وهو الإمامة؛ لأنّه ـ في زعمهم ـ هو الوصيّ، وغير ذلك من أكاذيبهم.

قال الطحاوي:

ثمّ لعمرَ بنِ الخطَّابِ ﷺ.

---

قال الشارح:

أَيْ: وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ أَبِي بَكْر ﷺ لِعُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا. وَذَلِكَ بِتَفْوِيضِ أَبِي بَكْرٍ الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ، وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ بَعْدَهُ عَلَيْهِ. وَفَضَائِلُهُ ﷺ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُنْكَرَ، وَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ.

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَوَمَا تَعْرِفُ؟ فَقُلْتُ؟ لَا، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: ثُمَّ عُثْمَانُ! فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ فَقَالَ. مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1].

وتقدَّمَ قولُه ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي: أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[2].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[3]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَ: «وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ، فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُثْنُونَ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا بِرَجُلٍ قَدْ أَخَذَ بِمَنْكِبِي مِنْ وَرَائِي، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧١).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

(٣) برقم (٢٣٨٩)، وأخرجه أيضًا البخاري (٣٦٨٥).

عَلِيٌّ، فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَّفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى الله بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ الله، إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ الله مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو ـ أَوْ لَأَظُنُّ ـ أَنْ يَجْعَلَكَ الله مَعَهُمَا».

وَتَقَدَّمَ[1] حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ فِي رُؤْيَا رَسُولِ الله ﷺ وَنَزْعِهِ مِنَ الْقَلِيبِ، ثُمَّ نَزْعِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَحَالَتِ الدَّلْوُ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2]، مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: قَالَ: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ، يُكَلِّمْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ...». الحَدِيثَ، وَفِيهِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيه يَا ابْنَ الخَطَّابِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3] أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ مِنْهُمْ».

---

(١) تقدم الحديث (٥/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: تَفْسِيرُ «مُحَدَّثُونَ»: مُلْهَمُونَ.

---

قال الشيخ:

اتّفق الصحابة رضي الله عنهم على مبايعة عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي ﷺ؛ لأن أبا بكر ﷺ قد عَهِدَ إليه، فلما مرض وأحسّ بالوفاة، استحضر عمر ﷺ وقال: «أنت الخليفة بعدي»، وأرشد النّاس إلى مبايعته، وعهد إليه بالخلافة، فلم يختلف عليه اثنان، بل أجمعوا على مبايعته وأهليّته، فتمّت له البيعة، وتمّ أمره.

وفي ولايته ﷺ اجتهد في توسعة رقعة الإسلام، حيث أنفذ الجيوش، وبعثهم إلى أطراف البلاد، ففُتحت بلاد الشام في عهده، وكذلك العراق ومصر وإفريقيا وخراسان، ووقعت في عهده وقائع كثيرة، مثل اليرموك والقادسيّة ونهاوند، وغيرها من الوقائع المشهورة التي أعزّ الله بها الإسلام والمسلمين، وانتصر فيها أولياء الله على أعدائه. تمّ هذا بتوصية من عمر ﷺ وتحريض منه، ولم يتوقّف الأمر عند هذا، بل سار بنفسه إلى كثير من البلدان؛ ففتح بيت المقدس الذي هو «إيلياء»، والمعروف بلغتهم «أورشليم»، لم يفتح إلا بعدما غزاها بنفسه، ووقف عليها وحاصرها، فبعد ذلك فتحوا له الأبواب، وفتحوا المسجد الأقصى.

وبكلّ حال، فهو ثاني الخلفاء الراشدين، الذي وفّق الله أبا بكر ﷺ لتوليته، ووفق الأمّة لاختياره، فكانت توليته عين المصلحة، ووافق على ذلك المسلمون، ويترضّى عنه أهل السنّة، ويعترفون بفضائله، وبقوته وصرامته وحنكته، وسيرته

الحسنة التي ضُرب المثل فيها بعدله، وتواضعه، وفي منهجه، وفي سلوكه في الأمّة وغير ذلك من سيرته.

ولا شكّ أنّ هذا من توفيق الله تعالى للأمّة، حتّى قوي الإسلام وانتشر، ودخل النّاس في دين الله أفواجًا، وذلّ للإسلام أعداؤه من اليهود والنّصارى، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ومكّن الله للمسلمين في بلادهم، وحقّق لهم وعده في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥]. تحقّق ذلك كلّه في عهد الخلفاء رضي الله عنهم، وبالأخصّ في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ولا شكّ أنّ اختيار أبي بكر لعمر ـ رضي الله عنهما ـ لا بدّ أن يكون له مستند، فهو الذي قد صحب النبيّ ﷺ، وعرف إشاراته، وميله ومحبّته له، وسمع منه ما يدلّ على أفضليّة عمر وأهليّته، وقد وردت إشارات إلى خلافته مع خلافة من قبله ومن بعده، كقول النبيّ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ..**»[1]. ولا شكّ أنّ عمر ﷺ منهم. وكذلك قوله: «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»[2]، سمّاه مع من بعده باسمه الصريح، وأمر بالاقتداء به؛ وذلك لأنّه أهل

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

للاقتداء، وأنّه أهلٌ لحمل السنّة، فقد حمل من الشريعة ما حمل.

وفي عهده ﷺ كثرت المسائل الواقعيّة، فأفتى فيها بما قبله أهل السنّة، ولأجل ذلك يعرف فقهه وفهمه وفتاواه؛ لكثرة ما نقل عنه ووقع له. كذلك أيضًا من الإشارات حيث تقدّم فيه ما يدلّ على أنّه الخليفة بعد أبي بكر ﷺ، فقد تقدّم قول النبيّ ﷺ: «**بَيْنا أَنا نائِمٌ رَأَيْتُني على قَلِيبٍ، عَلَيْها دَلْوٌ، فنَزَعْتُ منها ما شاءَ الله، ثُمَّ أَخذَها ابنُ أَبي قُحافَةَ، فنَزَعَ منها ذَنوبًا، أَو ذَنُوبَينِ، وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، والله يَغفِرُ لهُ، ثُمَّ اسْتحالَتْ غَرْبًا، فأَخَذَها ابنُ الخطَّابِ، فلَمْ أَرَ عَبقَرِيًا مِنَ النّاسِ يَفْرِي فَرِيهُ، حَتَّى ضرَبَ النّاسُ بعَطَنٍ**»[1]؛ فأشار إلى خلافة أبي بكر ﷺ وأنّ مدتها قصيرة، فهو لم ينزع إلا دلوًا أو دلوين. أمّا عمر ﷺ فجعل ينزع بهذه الدلو التي استحالت غربًا، وهي الدلو الكبيرة، حتى روي الناس وضربوا بعطن؛ إشارة إلى طول خلافته، وإلى امتداد الإسلام والدولة في عهده، والانتصارات التي حصلت في خلافته.

كذلك يعترف أهل السنّة بأفضليّته، ومنهم عليّ ﷺ الذي تُقدِّسه الشيعة، وترفعه وتُعلي من شأنه، وتغلو فيه غُلُوًا زائدًا، يصل عند البعض إلى العبادة من دون الله، وتزعم أنّه عدو لهؤلاء الخلفاء، وتزعم أن من والى عليًا لا بدّ أن يعادي أبا بكر وعمر، فإنّهما ضدّان، ويقولون: لا ولاء إلا ببراء، ويقولون: لا يمكن أن توالي عليًا إلا أن تعادي أعداءه.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

ونقول: كذبتم، بل هما صاحبان، وأخوان، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. وبقيّة الصحابة رضوان الله عليهم كلّهم إخوة، وعليّ ﷺ واحد منهم، يحبّهم ويحبّونه، ويصلّي خلفهم، ويتولى ولاياتهم، ويأخذ أعطياتهم، ويجالسهم ويؤانسهم، ويكلّمهم ويصحبهم، ولم يظهر لهم عداوة، ولم يقاطعهم ويهجرهم. ولكنّكم أيها الرافضة نكست فطركم، ورأيتم الباطل حقًّا والحقّ باطلاً، وصوّبتم ما كان خطًا، وزعمتم أنّ بين الصحابة عداوة ولم تكن، بل أنتم أهلُ الحقد وأهل البغضاء!

يذكر العلماء أنّ الآثار شبه متواترة، أنّ عليًّا ﷺ كان يقول على المنبر: «خَيْرُ هذه الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أبو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ»[1] رضي الله عنهما. يعترف بذلك على المنبر، فأين عقول هؤلاء الرافضة من هذا الأثر المشهور غاية الشهرة، ومع ذلك يخالفونه في هذين الخليفتين وعثمان ويكفّرونهم ويضلّلونهم ويشتمونهم، وإمامهم عليّ - على زعمهم - يعترف بهما ويفضّلهما. فهذا محمد بن الحنفيّة ابنه وهم يغلون فيه أيضًا؛ لأنّه من أولاد عليّ، ولكن يغلون كثيرًا في الحسن والحسين. فهو يسأل أباه فيقول: «يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ؟» فيجيبه أبوه مستغربًا: «يَا بُنَيَّ، أَوَمَا تَعْرِفُ؟» فيقول: «لَا»، فيقول: «أَبُو بَكْرٍ»، يعترف علي ﷺ بأن أفضل الأمّة أبو بكر، ولفضله اتّخذ خليفة للمسلمين، ولفضله سَمَّوه خليفة رسول الله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٠٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٥١)، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٩٧) من حديث أبي جحيفة.

ﷺ، قال: «ثُمَّ مَنْ؟» قَالَ: «عُمَرُ»، هو ثانيه في الخلافة، وهو ثانيه في الفضل، قال: «وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: ثُمَّ عُثْمَانُ! فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟» خشي أن يقول عثمان ﷺ، وأحبّ أن يكون لأبيه الفضل، ولكنّ عليًا ﷺ تواضع غاية التواضع وقال: «مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1]، مع أنّ له الفضل. وقد اختلف العلماء من أهل السنّة: أيّهما أفضل؟ والخلاف في ذلك ليس مخرجًا من الملّة، ولا يُضلّل به، يعني في الفضيلة، كما سيأتي.

نقول: إنّ فضائل عمر ﷺ أكثر من أن تحصى، وقد أفردت بالتأليف قديمًا وحديثًا، فابن كثير رحمه الله صاحب «التاريخ» كتب في فضائل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأفرد بعضهم عمر ﷺ بالفضل، وأشهر من كتب فيه ابن الجوزي «مناقب عمر» رسالة مطبوعة منتشرة، ذكر فيها فضائله وأحواله وما بشّره به النبيّ ﷺ.

وقد تقدّم أنّه أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وفي حديث أبي موسى ﷺ قال: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ حَائِطًا، وَأَمَرَنِي بِحِفْظِ بَابِ الْحَائِطِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: **ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: **ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**، فَإِذَا عُمَرُ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ فَسَكَتَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى سَتُصِيبُهُ، فَإِذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩٥)، ومسلم (٢٤٠٣).

وكذلك من فضائله ما تقدم في الحديث الذي أشار إليه الشارح: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ على رسول الله ﷺ وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ من قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فلما اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ له رسول الله ﷺ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَضْحَكُ، فقال عُمَرُ: أَضْحَكَ الله سِنَّكَ يا رَسُولَ الله، فقال رسول الله ﷺ: **عَجِبْتُ من هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي فلما سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ** قال عُمَرُ فَأَنْتَ يا رَسُولَ الله أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ، ثُمَّ قال عُمَرُ: أَيْ عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنَنِي ولا تَهَبْنَ رَسُولَ الله ﷺ؟ قُلْنَ: نعم أنت أَغْلَظُ وَأَفَظُّ من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: **وَالَّذِي نَفْسِي بيده ما لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إلا سَلَكَ فَجًّا غير فَجِّكَ**»[1]، والفجّ هو الطريق، فالشيطان إن وجده هرب منه، وذهب إلى طريق آخر، وهذا دليل على صرامته في الحق. وكذلك شهد النبيّ ﷺ بأنّه من المحدَّثين، أي الملهمين. يقول ﷺ: «**قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ**»[2].

ومن أجل ذلك يكثر موافقته للسنّة وللقرآن، يقول ﷺ: «وَافَقْتُ الله فِي ثَلَاثٍ ـ أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ ـ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَوْ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ فَأَنْزَلَ الله آيَةَ الْحِجَابِ، قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦١٧).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٦١٧).

نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ قُلْتُ: إِنْ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ خَيْرًا مِنْكُنَّ حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ أَمَا فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التحريم:٥] الْآيَةَ»[1].

فذلك دليل على أنّه ﷺ كان من المحدّثين الملهمين.

ومن أشهر فضائله: أنّه دُفن مع النبيّ ﷺ وأبي بكر ﷺ، وجمع بينه وبينهما، وذلك دليلٌ على اعتراف الصحابة بفضله ومزيّته، حتى قال بعض العلماء في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: منزلتهما مع النبيّ ﷺ في حياته كمنزلتهما معه بعد مماته، فهما قريناه في حياته، وكذلك بعد مماته، جعلا معه في الحجرة النبويّة، أليس ذلك دليلاً على أفضليّتهما، وأنّهما صاحباه وحبيباه المقرّبان إليه؟! شهد بذلك عليّ ﷺ في الحديث الذي تقدّم لمّا مات عمر ﷺ «فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَّفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ»، يعني: أنّه لا يرجو أن يكون مثل أحد إلا عمر ﷺ، وأنّه لا يتمنّى أن يكون عمله إلا مثل عمل عمر ﷺ، حتّى يلقى الله بذلك، فالنبيّ ﷺ كان يحبّه، ويحبّ أبا بكر ﷺ، ومن آثار تلك المحبّة أن جمعا معه في المكان الذي قُبر فيه، ويقول: «إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

وَعُمَرُ »[1]، مما يجعله أهلاً أن يكون إلى جانب أبي بكر، والنبيّ ﷺ في المكان الذي دُفنوا فيه.

ومن فضائله أنّ له أوليّات كثيرة؛ فهو الذي أشار بجمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر، لما كثر القتل في القراء في وقعة اليمامة، وقتل فيها خمسمئة من حملة القرآن، فخشي أن يذهب منه شيء، فأشار بكتابته في الصحف، ووافقه أبوبكر رضي الله عنه.

وكذلك هو الذي وضع التأريخ، واختار أن يكون التأريخ بالهجرة؛ لأنها التي أظهر الله بها الإسلام، فبعد الهجرة بدأ الإسلام يظهر وينتشر، وقد أجمعت عليه الأمّة بعده إلى الآن.

وكذلك كان هو الذي سنّ هذه الأوقاف في الأرض المفتوحة عنوةً، مثل مصر والعراق والشام، فالأرض الزراعية المفتوحة، جعلها وقفًا على بيت المال، تُزرع وتكون أجرتها لبيت المال تموّله عند انقطاع الفتوحات والغنائم، وأقرّه على ذلك بقيّة الصحابة رضوان الله عليهم، ويستدلّ بذلك على معرفته بمهمّ الأمور ومستقبلها. وقد كان في عهد النبيّ ﷺ جريئًا في إنكار ما رآه منكرًا، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

ولكنّ الرافضة يتتبّعون ما يظنّون أنّ فيه شيئًا من العيب والقدح فيه، فيجمعون أكاذيب ويجمعون أمورًا لا مطعن فيها، ويجعلونها مطاعن في خلافته

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦١٧).

وأهليّته، ويجعلونه مرتدًا عن الإسلام، أو نحو ذلك.

ومن أكبر مطاعنهم عليه أنّه لما مرض النبيّ ﷺ قال: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ»، قَالَ عُمَرُ ﷺ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَلَبَهُ الْوَجَعُ، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ حَسْبُنَا»[1] فعند ذلك قاموا ولم يُكتب. فقال الرافضة: إنّه حسد عليًا، وإن عليًّا كان هو الخليفة، وإنّ أبا بكر ليس بخليفة، وإنّ عمر خاف أن يكتب النبيّ ﷺ الخلافة لعليّ، فعند ذلك قال: لا تكتبوا، فحرّم الكتابة ومنعها، وتجرأ، وقال: «وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ حَسْبُنَا». فهذا ما يطعنونه على عمر ﷺ، مع أنّهم غائبون لم يحضروا ذلك الوقت، ولم يعرفوا الإشارات والقرائن، وعمر ﷺ عرف القرائن، وعليّ كان حاضرًا، ولم يعترض، ولم يخطر بباله ﷺ، أنّ له ولاية، ولا أنّ عمر حرمه من الولاية أو الخلافة، فليس في هذا إشارة، ولو من بعيد، بأنّه حسد عليًا، فقال: لا تكتبوا، فعندنا كتاب الله.

والدليل على ذلك أن ابن مسعود ﷺ لما ذُكر له أنّ النبيّ ﷺ أراد أن يكتب كتابة لا نضلّ بعدها، فقال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الصَّحِيفَةِ التي عليها خَاتَمُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلْيَقْرَأْ هذه الْآيَاتِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥١ـ ١٥٣]»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤)، ومسلم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠) وقال: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٠٧).

فالصحابة فهموا أنّ وصيّة النبيّ ﷺ ليست وصيةً بخلافة ولا بغيرها، ولكنّها وصيّة بديانة وبأمانة؛ ولذلك ليس فيها إشارة إلى خلافة عليّ ﷺ ولا غير ذلك. بل تقدّم في حديث عائشة رضي الله عنها أنّ النبيّ ﷺ قال: «**ادْعِي لِي أَبَاكِ وأَخاكِ، حتَّى أَكتُبَ لأَبِي بَكْرٍ كِتابًا**»، ثمّ قالَ: «**يَأْبَى اللهُ والمُسلِمونَ إِلَّا أَبا بَكْرٍ**»[1]. فهذا دليل على أنّه لو كتب لولّى أبا بكر. فكيف يزعمون أنّ عمرَ حال بين عليّ وبين الولاية.

وكذلك لهم مطاعن كثيرة يجعلونها في كتبهم، ويذكرونها في خطبهم، ويرمونه رضي الله عنه بالفضائح والعظائم، والله حسبهم، ولكن ذلك لا يضرّه، بل يكتب له أجره عند الله موفّرًا.

وللعلماء في الخلفاء الراشدين مسألتان:

**المسألة الأولى**: ترتيبهم في الخلافة، ومسألة ترتيبهم في الفضل.

ففي الخلافة خلافًا للرافضة إجماع الأمّة الإسلامية على أنّ الخلافة بعد النبيّ ﷺ لأبي بكر، ثمّ لعمر، ثمّ لعثمان، ثمّ لعليّ رضي الله عنهم. وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون، ومن طعن في خلافة أحدهم، فهو أضلّ من حمار أهله، اتّفق أهل السنّة على أنّهم الخلفاء على هذا الترتيب، إلا أنّ الرافضة زعموا أنّ أبا بكر مغتصب للخلافة، وكذلك عمر وعثمان، وأنّهم لا يستحقون الخلافة، بل زادوا أن كفّروهم وشتموهم، وأخرجوهم من الإسلام، وطبّقوا عليهم الآيات التي وردت في

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

المنافقين. ولكن بقي أهل السنّة على عقيدتهم الواحدة في فضلهم، وحقّهم في الخلافة حسب ترتيبهم فيها.

المسألة الثانية: مسألة ترتيبهم في الفضل، وقد ورد عن عليّ ﷺ - الذي تغلو فيه الرافضة -: «خَيْرُ هذه الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أبو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ»[1]، لم يختلف الصحابة في ذلك، ولم يختلف أهل السنّة في تفضيل أبي بكر ثمّ عمر، ويروون ذلك مسندًا؛ فيروي عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ»[2]، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره، أي: يعترف بهذا الترتيب.

ورجّح أهل السنّة أنّ ترتيبهم في الفضل مثلُ ترتيبهم في الخلافة، ولكن وقع خلافٌ في الترجيح بين عليّ وعثمان رضي الله عنهما، فقومٌ قدّموا عثمان ﷺ، وهو القول الصحيح، وقوم قدّموا عليًّا. وهذه المسألة وهي: هل يُقدّم عثمان على عليّ، أو يقدّم عليّ على عثمان - رضي الله عنهما - في الفضل هي مسألة اجتهاديّة، لا يضلّل من قدّم عليًّا ﷺ، ولا يضلّل من قدّم عثمان ﷺ. وأمّا تقديم الشيخين، فلا خلاف في تقديمهما، ويضلّل من قدّم عليهما أحدًا من الصحابة أو من غيرهم.

عرفنا خلافة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وأنّها منصوصة؛ لقوله ﷺ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٥).

«اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي: أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[1]. والواقع كذلك، ولعلّ عهد أبي بكر إلى عمر كان اعتمادًا على هذا الحديث، ولعلّه كان اعتمادًا على الأهليّة والكفاءة، وقد وافقه الصحابة رضوان الله عليهم على هذا التقديم، وذلك لأهليّة عمر ﷺ وكفاءته وزهده وعبادته واجتهاده وحنكته وحرصه وحزمه وقوته وإدراكه وجهاده. ثمّ ظهر ذلك جليًّا بعد تولّيه الخلافة التي امتدّت عشر سنين، كلّها كانت جهادًا، يجاهد بنفسه، وبآرائه، ويجهز جيوشه ويرسل إليهم التعليمات فيأخذون بها، ويحثّهم على الصبر فيصبرون، وكان من أثر ذلك انتصار المسلمين انتصارًا عديم النظير، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون. وكان من آثار صفاته أن انتشر العلم، فقد كان ﷺ من أوعية العلم وحملته، فأرسل الدعاة إلى البلاد التي فتحت في زمانه، وأخذ يراسلهم ويكاتبهم، وكلّ ذلك لأجل أن يظهر دين الله على أعداء الله، ولو كره المشركون.

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وقدم له
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويان

الجزء الخامس

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

(٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الرياض الندية
## على
# شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الطيار

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويطر

الجزء الخامس

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (ابن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ثُمَّ لعُثمانَ ﷺ.

---

قال الشارح:

أَيْ: وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ عُمَرَ لِعُثْمَانَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، وَقَدْ سَاقَ الْبُخَارِيُّ ـ رَحِمَهُ الله ـ قِصَّةَ قَتْلِ عُمَرَ ﷺ، وَأَمْرَ الشُّورَى، وَالْمُبَايَعَةِ لِعُثْمَانَ، فِي «صَحِيحِهِ»[1]، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْرُدَهَا كَمَا رَوَاهَا بِسَنَدِهِ: عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بن الخطاب ﷺ قَبْلَ أَنْ يُصَابَ بِأَيَّامٍ بِالْمَدِينَةِ، وَوَقَفَ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، فَقَالَ: كَيْفَ فَعَلْتُمَا؟ أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَمَّلْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ؟ قَالَا: حَمَّلْنَاهَا أَمْرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ، مَا فِيهَا كَثِيرُ فَضْلٍ، قَالَ: انْظُرَا أَنْ تَكُونَا حَمَّلْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ؟ قَالَا: لَا، فَقَالَ عُمَرُ: لَئِنْ سَلَّمَنِي الله لَأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لَا يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا، قَالَ: فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ.

قَالَ: إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَالَ: اسْتَوُوا، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ، أَوِ النَّحْلِ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى، حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَنِي، أَوْ أَكَلَنِي الْكَلْبُ، حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ، لَا يَمُرُّ بِأَحَدٍ يَمِينًا وَشِمَالًا إِلَّا طَعَنَهُ، حَتَّى طَعَنَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا،

---

(١) برقم (٣٧٠٠)، وفي بعض ألفاظه اختلاف يسير عما أورده الشارح رحمه الله.

مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ، فَلما رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُسًا، فَلما ظَنَّ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ، نَحَرَ نَفْسَهُ، وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَدَّمَهُ، فَمَنْ يَلِي عُمَرُ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى، وَأَمَّا نَوَاحِي الْمَسْجِدِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَ الله، سُبْحَانَ الله، فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلَاةً خَفِيفَةً، فَلما انْصَرَفُوا، قَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي؟ فَجَالَ سَاعَةً، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: غُلَامُ الْمُغِيرَةِ، قَالَ: الصَّنَعُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قَاتَلَهُ الله! لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفًا! الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مَنِيَّتِي عَلَى يَدِ رَجُلٍ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ، قَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَأَبُوكَ تُحِبَّانِ أَنْ تَكْثُرَ الْعُلُوجُ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ أَكْثَرَهُمْ رَقِيقًا، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَعَلْتُ؟ أَيْ: إِنْ شِئْتَ قَتَلْنَا؟ قَالَ: كَذَبْتَ! بَعْدَ مَا تَكَلَّمُوا بِلِسَانِكُمْ، وَصَلَّوا قِبْلَتَكُمْ، وَحَجُّوا حَجَّكُمْ؟

فَاحْتُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ، فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، وَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: لَا بَأْسَ عَلَيْهِ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: أَخَافُ عَلَيْهِ، فَأُتِيَ بِنَبِيذٍ فَشَرِبَهُ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَجَاءَ النَّاسُ يُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى الله لَكَ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَقَدَمٍ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ، قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ، لَا عَلَيَّ وَلَا لِي، فَلما أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الْأَرْضَ، قَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ الْغُلَامَ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنَّهُ أَنْقَى لِثَوْبِكَ، وَأَتْقَى لِرَبِّكَ، يَا عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ، انْظُرْ مَا عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ؟ فَحَسَبُوهُ فَوَجَدُوهُ سِتَّةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَنَحْوَهُ، قَالَ: إِنْ وَفَى لَهُ مَالُ آلِ عُمَرَ، فَأَدِّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَإِلَّا فَسَلْ فِي

بَنِي دِيٍّ بْنِ كَعْبٍ، فَإِنْ لَمْ تَفِ أَمْوَالُهُمْ، فَسَلْ فِي قُرَيْشٍ، وَلَا تَعْدُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَأَدِّ عَنِّي هَذَا الْمَالَ.

انْطَلِقْ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَقُلْ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلَامَ، وَلَا تَقُلْ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي لَسْتُ الْيَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا، وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ. فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي، فَقَالَ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلَامَ، وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَقَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ، قِيلَ: هَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ قَدْ جَاءَ، قَالَ: ارْفَعُونِي، فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ، قَالَ. مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَذِنَتْ، قَالَ: الْحَمْدُ للهِ، مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمْ فَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي، وَإِنْ رَدَّتْنِي فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَاءَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ حَفْصَةُ وَالنِّسَاءُ يَسْتُرْنَهَا، فَلَمَّا رَأَيْنَاهَا قُمْنَا، فَوَلَجَتْ عَلَيْهِ، فَبَكَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، وَاسْتَأْذَنَ الرِّجَالُ، فَوَلَجَتْ دَاخِلًا لَهُمْ، فَسَمِعْنَا بُكَاءَهَا مِنَ الدَّاخِلِ، فَقَالُوا: أَوْصِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اسْتَخْلِفْ؟ قَالَ: مَا أَجِدُ أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ أَوِ الرَّهْطِ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَقَالَ: يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، كَهَيْئَةِ التَّعْزِيَةِ لَهُ، فَإِنْ أَصَابَتِ الْإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ، فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ مِنْ عَجْزٍ وَلَا خِيَانَةٍ.

وَقَالَ: أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا، الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ

قَبْلِهِمْ، أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وأن يُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الْأَمْصَارِ خَيْرًا، فَإِنَّهُمْ رِدْءُ الْإِسْلَامِ، وَجُبَاةُ الْأَمْوَالِ، وَغَيْظُ الْعَدُوِّ، وَأَنْ لَا يُؤْخَذَ مِنْهُمْ إِلَّا فَضْلُهُمْ عَنْ رِضَاهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالْأَعْرَابِ خَيْرًا، فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ، وَمَادَّةُ الْإِسْلَامِ، أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِمْ، وتُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ، أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَلَا يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ.

• لما قُبِضَ خَرَجْنَا بِهِ، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي، فَسَلَّمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ؟ قَالَتْ: أَدْخِلُوهُ، فَأُدْخِلَ، فَوُضِعَ هُنَالِكَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فلما فُرِغَ مِنْ دَفْنِهِ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: اجْعَلُوا أَمْرَكُمْ إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ، قَالَ الزُّبَيْرُ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَ طَلْحَةُ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عُثْمَانَ، وَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَيُّكُمَا تَبَرَّأَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فَنَجْعَلُهُ إِلَيْهِ؟ وَاللهُ عَلَيْهِ وَالْإِسْلَامُ لَيَنْظُرَنَّ أَفْضَلَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَأُسْكِتَ الشَّيْخَانُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفَتَجْعَلُونَهُ إِلَيَّ؟ وَاللهِ عَلَيَّ أَنْ لَا آلُوَ عَنْ أَفْضَلِكُمْ؟ قَالَا: نَعَمْ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَحَدِهِمَا، فَقَالَ: لَكَ قَرَابَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْقَدَمُ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، فَاللهَ عَلَيْكَ، لَئِنْ أَمَّرْتُكَ لَتَعْدِلَنَّ؟ وَلَئِنْ أَمَّرْتُ عُثْمَانَ لَتَسْمَعَنَّ وَلَتُطِيعَنَّ؟ ثُمَّ خَلَا بِالْآخَرِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا أَخَذَ الْمِيثَاقَ، قَالَ: ارْفَعْ يَدَكَ يَا عُثْمَانُ، فَبَايَعَهُ، فَبَايَعَ لَهُ عَلِيٌّ، وَوَلَجَ أَهْلُ الدَّارِ فَبَايَعُوهُ.

وَعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ: أَنَّ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ عُمَرُ اجْتَمَعُوا فَتَشَاوَرُوا، قَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَسْتُ بِالَّذِي أُنَافِسُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِئْتُمْ اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنْكُمْ؟ فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَلَمَّا وَلَّوْا

عَبْدَالرَّحْمَنِ أَمْرَهُمْ، مَالَ النَّاسُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَتَّى مَا أَرَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَتْبَعُ أُولَئِكَ الرَّهْطَ وَلَا يَطَأُ عَقِبَهُ، وَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِيَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَصْبَحْنَا فِيهَا فَبَايَعْنَا عُثْمَانَ. قَالَ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ: طَرَقَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْدَ هَجْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَضَرَبَ الْبَابَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَقَالَ: أَرَاكَ نَائِمًا؟! فَوَاللهِ مَا اكْتَحَلْتُ هَذِهِ الثَّلَاثَ بِكَبِيرِ نَوْمٍ، انْطَلِقْ فَادْعُ لِي الزُّبَيْرَ وَسَعْدًا، فَدَعَوْتُهُمَا لَهُ، فَشَاوَرَهُمَا ثُمَّ دَعَانِي، فَقَالَ: ادْعُ لِي عَلِيًّا، فَدَعَوْتُهُ، فَنَاجَاهُ حَتَّى ابْتَهَرَ اللَّيْلُ، ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي عُثْمَانَ، فَدَعَوْتُهُ، فَنَاجَاهُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْمُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ، فَلَمَّا صَلَّى النَّاسُ الصُّبْحَ، وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ، وَأَرْسَلَ إِلَى مَنْ كَانَ حَاضِرًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَأَرْسَلَ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ، وَكَانُوا وَافَوْا تِلْكَ الْحَجَّةَ مَعَ عُمَرَ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَشَهَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، يَا عَلِيُّ، إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ فَلَا تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى سُنَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَأُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ وَالْمُسْلِمُونَ[1].

وَمِنْ فَضَائِلِ عُثْمَانَ ﷺ الْخَاصَّةِ: كَوْنُهُ خَتَنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ابْنَتَيْهِ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[2] عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي

(١) أخرجه البخاري (٧٢٠٧).

(٢) برقم (٢٤٠٢).

بَيْتِهِ، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهُشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهُشَّ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ؟ فَقَالَ: أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ».

وَفِي «الصَّحِيحِ»[1]: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَأَنَّ عُثْمَانَ ﷺ كَانَ قَدْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ لِعُثْمَانَ».

---

قال الشيخ:

اتّفق المسلمون والصحابة ومن معهم على تقديم الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ بعد مقتل عمر ﷺ، وتقدّمت قصة مقتل عمر ﷺ، وتولية عثمان ﷺ.

وكان عمر ﷺ في آخر أيامه يتفقّد أحوال أهل البلاد التي أسّست في زمانه مثل العراق والشام وغيرها، وكان فيها أرض زراعيّة، رأى من المصلحة أنْ تبقى تلك الأرض موقوفة، ولا تقسّم بين المقاتلين حتّى ولو غنموها، فكانت موردًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لبيت المال؛ وذلك لأنه استشعر أنّ المدّ سيتوقّف، وقد كان مدّ بيت المال من الغنائم من الخمس والفيء، ولكن قد يتوقّف هذا الفيء، وهذه الغنائم في وقت من الأوقات، فيبقى بيت المال ليس له ما يُمَدّ به، فرأى أنّ تكون الأرض التي فُتحت عنوةً وقفًا لبيت المال، ثمّ أمر بأن تؤجّر، فيزرعها من يستأجرها ويؤدّي أجرتها إلى بيت المال، فأجّروها بقدر ما تطيقه، فسأل بعض أمرائه؛ مثل حذيفة وعثمان بن حُنيف رضي الله عنهما، وكان هو في تلك البلاد، فقال لهما: «كَيْفَ فَعَلْتُمَا أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَمَّلْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ؟»، أي: أجّرتماها بأجرة زائدة عما تطيقه الأرض، قَالَا: «حَمَّلْنَاهَا أَمْرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ مَا فِيهَا كَبِيرُ فَضْلٍ»[1]، وكان ﷺ يحبّ ألاّ يكون في رعيته، أو في الأمّة الإسلاميّة من يناله جَورٌ أو ظلم، حتّى ولو كان من الكفّار الذين استأجروا تلك الأراضي للزراعة والحراثة، فخشي أن يكونوا قد ظلموا بأجرها.

ثمّ التزم بأنّه إذا مدّ الله في حياته أن يوسّع على المسلمين والمستضعفين في أطراف الأرض، وألّا يترك أرملة أو فقيرًا في أقصى البلاد تحتاج إلى أحد بعده، فقال: «لَئِنْ سَلَّمَنِي اللهُ لَأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لَا يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا»، أي: يجعل لهم مددًا ويجعل لهم مالاً يغنيهم عن سؤال الناس، فقد جعل رزقًا للصحابة لما فتحت عليه البلاد وكثر المال، فدوّن ديوانًا جعل فيه إعاشة سنويّة لكلّ المسلمين من المهاجرين والأنصار وأهل المدينة والمجاهدين، وأحبّ أن

(١) تقدم تخريجه (٥/ ٣).

يصل ذلك إلى أهل البلاد الإسلامية، في الشام ومصر والعراق وخراسان، ولكن اخترمته المنيّة قبل ذلك.

فبعد هذه الكلمة التي التزم فيها بذلك، ما أتت عليه أربع ليال حتى قُتل. والذي قتله معروف مشهور، وهو غلام المغيرة بن شعبة، ويقال له: أبو لؤلؤة، وهو مجوسيّ، كان صانعًا يعمل للنّاس بالأجرة، وقد اتّفق مع المغيرة على أن يؤدي إلى المغيرة كلّ يوم دراهم معدودة عن عمله، فكأنّه تثاقل تلك الضريبة التي جعلها عليه المغيرة، فجاء إلى عمر ﷺ، وقال له: «يا أمير المؤمنين إن سيدي المغيرة يكلفني ما لا أطيق من الضريبة، قال عمر ﷺ: وكم كلفك؟ قال: أربعة دراهم كل يوم، قال: وما تعمل قال الأرحاء - وسكت عن سائر أعماله -؟ فقال: في كم تعمل الرحى؟ فأخبره، قال: وبكم تبيعها؟ فأخبره، فقال: لقد كلفك يسيرًا انطلق فأعط مولاك ما سألك، فلما ولى، قال عمر: ألا تجعل لنا رحى؟ قال: بل أجعل لك رحى يتحدث بها أهل الأمصار، ففزع عمر من كلمته - قال - وعلي معه، فقال: ما تراه أراد؟ قال: أوعدك يا أمير المؤمنين، قال عمر: يكفيناه الله قد علمت أنه يريد بكلمته غورًا»[1]، ففطن عمر ﷺ أنّه أراد أن يقتله، ولكنّه لم يأخذ حذره، وفي بعض الروايات قال: يتهدّدني العلجُ، أو يريد أن يقتلني. فلمّا أراد ذلك صنع سكينًا ذات رأسين محددين، وسقاها سمًّا، ثمّ لما قام عمر ﷺ لصلاة

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٤٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٤٠٩) من حديث أبي الحويرث.

الصبح سوّى الصفوف ثم كبَّر، وكان إذا كبّر أطال في القراءة في الركعة الأولى، كأن يقرأ سورة يوسف أو النحل، حتّى يجتمع النّاس، ويدركوا الركعة الأولى، ولكنّه ساعة ما كبّر، ولم يبدأ القراءة، فإذا هو يلتفت إلى من وراءه ويقول: «قَتَلَنِي، أَوْ أَكَلَنِي الْكَلْبُ»، ويعني بذلك هذا العلج المجوسيّ الكافر، الذي طعنه ثلاث طعنات قطع بها أمعاءه، عند ذلك طار العلج في الناس يطعن فيهم، فطعن ثلاثة عشر رجلًا مات منهم سبعة، حتّى ألقى عليه بعض المصلّين بُرنسًا وضمّه به ووضعه على الأرض، ووقف عليه، فعلم العلج أنّه مقتول، فقتل نفسه.

لما طُعن عمر ﷺ اجتاب عبدَ الرحمن ﷺ فصلّى بهم صلاة خفيفة، وعرف الناس الذين خلفه - حين سمعوا قوله: «قَتَلَنِي، أَوْ أَكَلَنِي الْكَلْبُ» - أنّه طُعن أو قُتل، أما أهل الصفوف البعيدة، فإنّهم لم يشعروا بما حصل، ولكنّهم لما فقدوا صوت عمر أخذوا يسبّحون.

بعدها قال عمرُ لابن عباس - رضي الله عنهم -: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي؟ فَجَالَ سَاعَةً، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: غُلَامُ الْمُغِيرَةِ، قَالَ: الصَّنَعُ؟»، أي: الذي بيده صنعة. ثمّ قال: «قَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَأَبُوكَ تُحِبَّانِ أَنْ تَكْثُرَ الْعُلُوجُ بِالْمَدِينَةِ»، وهم النصارى أو المجوس وهم المماليك، وكان العباس وابنه لديهما الكثير منهم، فقال ابن عباس: «إِنْ شِئْتَ فَعَلْتُ؟»، يعني: قتلناهم، فقال عمر ﷺ: «بَعْدَ مَا تَكَلَّمُوا بِلِسَانِكُمْ، وَصَلُّوا قِبْلَتَكُمْ، وَحَجُّوا حَجَّكُمْ؟»، فقد كان يكره أن يأتي هؤلاء المماليك إلى هذه البلاد، وهم على عاداتهم السيّئة.

وبعد الصلاة حُمِل عمر وجرحُه يسيل، وكأنّ الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها؛

لأنها مصيبةٌ عظيمةٌ، وفاجعةٌ كبيرةٌ؛ ولأنه ﷺ كان المثل الأعلى في العدل فيما رأوه. فحينما حملوه أصبح بعض النّاس يقولون: لا بأس عليه، وبعضهم يقولون: نخاف عليه من هذه الطعنات المسمومة، فلمّا سقوه نبيذًا - وهو عصير التمر - خرج من جرحه، ولكنّهم لم يتفطّنوا له، وظنّوه دمًا، فسقوه لبنًا، فخرج من الجرح أبيض، فعلموا حينئذ أنّه ميّت.

فقالوا له: اختر من يكون بعدك خليفة، فقد نزل بك أمر الله. ولكنّه ﷺ قال: «إِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ، وَإِنْ لَا أَسْتَخْلِفْ، فَلَمْ يَسْتَخْلِفْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي رَسُولَ الله ﷺ»[1]، فلم يعيّن خليفة بعينه، ولكنه جعل الأمر شورى في ستّة من الصحابة نوفي النبيّ ﷺ وهو عنهم راضٍ؛ لأنّ النبيّ ﷺ قد شهد لعشرة من الصحابة بالجنّة[2]؛ فمنهم: أبو عبيدة وقد مات في عهد عمر، ومنهم سعيد بن زيد لكنّه قريب لعمر، فلم يجعله من أهل الشورى؛ لقرابته مخافة أن يُتّهم بالمحاباة، وبقي ستّة وهم: عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوّام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد. هؤلاء هم الستّة الذين جعلهم مستشارين، وجعل الخلافة شورى فيهم.

وقد عرفنا أنّ عمر ﷺ عندما علم أنّه ميّت أخذ يوصي الخليفة بعده بالمهاجرين والأنصار وأهل المدن والقرى والأعراب، ويذكر ما لكلّ منهم من

---

(١) تقدم تخريجه (٢٦/ ٦٠٤).

(٢) كما في حديث سَعِيدُ بن زَيْدٍ ﷺ، الذي تقدم تخريجه (٤/ ٤).

المآثر ومن الجهاد، ومن السير الحسن، وهذه عادة الصالحين، وصيّة لمن بعدهم بالخير، وأن يسير على نهج قويم حتّى تأمن البلاد في عهده، وحتّى لا يخاف من جوره، وحتّى لا يكون عليه اختلاف، ولا خروجٌ، ولا إنكار. وقد عمل الخليفة بعده بهذه الوصايا.

ومرّ بنا أنّه لما جاءه المسبل إزاره، فشهد له بالخير، ولكنّ عمر ﷺ لما رأى إزاره يصل إلى الأرض نصحه - مع أنه ﷺ كان في مرض الموت - بأن يرفع إزاره وأعلمه أن ذلك أتقى للربِّ وأنقى للثوب. تلك عادته رضي الله عنه، أنّه يحبّ الخير للمسلمين، ولا يدّخر لهم وسعًا.

وكذلك قصّة استئذانه أن يُدفن مع صاحبيه أبي بكر ﷺ والنبيّ ﷺ، فقد استأذن من عائشة رضي الله عنها؛ لأنّ البيت مسكنها، وكانت تحبّ أن تكون في ذلك المكان، مع أبيها وزوجها، تدفن معهما، لكنّها آثرت عمر ﷺ، لما جاءها الخبر بأنّه قد طُعن، دخلوا عليها وهي باكية، ولكن لما ذكروا لها ذلك استبشرت ولبّت طلبه، فدفن مع صاحبيه ﷺ.

وقد أورد الشارح ما ذُكر عن عليّ ﷺ لما دُفن عمر ﷺ استشهد بقول النبيّ ﷺ: «جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»[1]، فكان دائمًا يقرنهما معه، فكان ذلك دليلاً أنّهما يقبران معه.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا لَا يَخْرُجُ مِنْهُ

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٠٧).

حَوَائِطِ المَدِينَةِ لِحَاجَتِهِ وَخَرَجْتُ فِي إِثْرِهِ، فَلما دَخَلَ الْحَائِطَ جَلَسْتُ عَلَى بَابِهِ وَقُلْتُ لَأَكُونَنَّ الْيَوْمَ بَوَّابَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَأْمُرْنِي، فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَضَى حَاجَتَهُ وَجَلَسَ عَلَى قُفِّ الْبِئْرِ فَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبِئْرِ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ لِيَدْخُلَ فَقُلْتُ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ لَكَ، فَوَقَفَ فَجِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ، قَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»، فَدَخَلَ فَجَاءَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبِئْرِ، فَجَاءَ عُمَرُ فَقُلْتُ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ لَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»، فَجَاءَ عَنْ يَسَارِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ فَدَلَّاهُمَا فِي الْبِئْرِ فَامْتَلَأَ الْقُفُّ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَجْلِسٌ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ فَقُلْتُ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ لَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، مَعَهَا بَلَاءٌ يُصِيبُهُ**»، فَدَخَلَ فَلَمْ يَجِدْ مَعَهُمْ مَجْلِسًا فَتَحَوَّلَ حَتَّى جَاءَ مُقَابِلَهُمْ عَلَى شَفَةِ الْبِئْرِ فَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ دَلَّاهُمَا فِي الْبِئْرِ فَجَعَلْتُ أَتَمَنَّى أَخًا لِي وَأَدْعُو الله أَنْ يَأْتِيَ، قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: فَتَأَوَّلْتُ ذَلِكَ قُبُورَهُمْ اجْتَمَعَتْ هَا هُنَا وَانْفَرَدَ عُثْمَانُ»[1].

فالنّبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ جُعلوا معًا، وعثمان ﷺ وحده، فحقّق الله تعالى لعمر ﷺ ما تمنّاه؛ فلذلك يقول بعض العلماء في أبي بكر وعمر: منزلتهما من النبيّ ﷺ في الحياة كمنزلتهما منه بعد الممات، فإنّهما كانا قرينيه وصاحبيه، ولا يسافر إلا وهما وزيراه، قرنهما معه في حياته، فجعلهما الله قرينيه بعد الممات.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦٢٢).

أما ما حصل من الشورى، فهؤلاء الستّة الذين اختارهم عمر ﷺ لما اجتمعوا جعل كلّ منهم أمره إلى واحد، فجعل الزبير بن العوام أمره إلى عليّ، وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف، وجعل طلحة بن عبيد الله أمره إلى عثمان بن عفان، فأصبح الأمر إلى ثلاثة، وكأنّ عبد الرحمن ﷺ هو الذي اهتم بهذا الأمر، واشتدّ عليه أن يبقى المسلمون دون خليفة لهم يقوم بأمرهم، فبقي ثلاث ليال لا يهنأ بنوم من شدة اهتمامه بأمر المسلمين، وكلّما اجتمع بأحد منهم أخذ منه العهد والميثاق إذا تمّ له الأمر أن يسير سيرة حسنة، وأنّ يتبّع سيرة الخليفتين قبله، حتّى رأى أن النّاس يميلون إلى عثمان ﷺ، وأنّ عثمان ﷺ له تجربة، وله مكانة وأهليّة، فأمره أن يبسط يده للمبايعة، فبايعه عبد الرحمن، وبايعه عليّ ري الله عنهما، ولم ينقل أنّ عليًا ﷺ توقّف، أو قال أنا أحقّ بها منه، أو أنا ابن عمّ النبيّ ﷺ، ونحو ذلك، بل وافق على ذلك بما أخذ عليه من العهد، وهذا دليل على أنه ﷺ لم يكن مخالفًا لما حصل، بل كان موافقًا له.

وتمّت الخلافة لعثمان ﷺ وسار في النّاس سيرة حسنة، واستمر في الخلافة اثنتي عشرة سنة، إلى أن قتُل سنة خمس وثلاثين من الهجرة. وله فضائل كثيرة، ولو لم يكن من فضائله إلا أنّه هاجر الهجرتين، فقد هاجر إلى الحبشة، ثمّ هاجر بعد ذلك إلى المدينة، ومن فضائله أنّه يُقال له ذو النورين؛ لأنه تزوّج أولاً رقيّة بنت رسول الله ﷺ، ثم ماتت في السنة الثانية من الهجرة، ثمّ زوّجه النبيّ ﷺ ابنته أم كلثوم، ولكنّها أيضًا ماتت في حياة النبيّ ﷺ. ويقال: ليس هناك أحد تزوّج بنتي نبيّ إلا عثمان ﷺ. ولذلك يقول فيه الكلوذاني:

قَـالُوا فَتَـالِتُهُمْ فَقُلْـتُ مُجَاوِبًـا مَـنْ بَـايَعَ الْمُخْتَـارُ عَنْـهُ بِاليَـدِ
صِهْرُ النَّبِيِّ عَلَى ابْنَتَيْهِ وَمَنْ حَوَىٰ فَـضْلَيْنِ فَـضْلِ تِـلَاوَةٍ وَتَهَجُّـدِ
يَعْنِـي ابْـنَ عُـثْمَانَ الـشَّهِيدَ وَمَـنْ فِي النَّاسِ ذُو النُّورَيْنِ صِهْرُ مُحَمَّدِ

وقد ثبت أنّه ﷺ لما كان في عمرة الحديبية، وصدّه المشركون عن دخول الحرم، وعن إكمال عمرته، أراد أن يبعث عمر ﷺ، لكنّ عمر خاف منهم لصرامته وقوّته، فأشار عليه أن يبعث عثمان ﷺ؛ لكونه ذا قرابة منهم، كأبي سفيان وكان سيّدًا فيهم، ولما بعثه، قال له أهل مكة: نمكّنك أن تطوف بالبيت، فقال: لا أطوف والنبيّ ﷺ لم يطف. وجاء خبر أنّ عثمان قتل، فعند ذلك فزع النبيّ ﷺ وقال: بايعوني، فبايعه الصحابة البيعة التي تسمّى بيعة الرّضوان، ولما تمّت وجاء الخبر بأنّ عثمان حيّ؛ قال النبيّ ﷺ بيده اليمنى على يده اليسرى: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ لِعُثْمَانَ»[1]، أي: هذه بيعة عثمان، فكأنّه بايع عن عثمان بنفسه؛ ولذلك يقال: إنه من أهل البيعة ولو لم يكن حضرها، بل البيعة ما حصلت إلا بسببه.

فهو ﷺ من أوائل من أسلم، مع أنّه لم يسلم لكونه صهرًا للنبيّ ﷺ، فأبو العاص بن الربيع، كان صهرًا للنبيّ ﷺ، ومع ذلك لم يسلم إلا في السنة الثامنة من الهجرة، مع أنّ زوجته أسلمت. ولكن عثمان ﷺ أسلم لكونه اتّضح بصحّة النبوّة، وبأحقيّة النبيّ ﷺ بالنبوّة، فأسلم ﷺ، وهاجر الهجرتين، وله

(١) تقدم تخريجه (٥/ ٨).

فضائل استحقّ بها أن يكون خليفة على المسلمين.

ومن فضائله أنّه الذي جمع القرآن بعدما افترق النّاس فيه وكادوا يختلفون، فكتب القرآن ونسخه في هذه المصاحف، وأرسلها إلى النّاس حتّى يقتصروا عليها، وقد اتفقت الأمّة على الاقتصار على هذا المصحف، وسمّي المصحف العثماني، أو الرسم العثماني. ومن فضائله أنّه كان يقطع الليل كلّه تهجّدًا، حتّى ذكروا أنّه يختم القرآن في كلّ ليلة، وذلك دليل على اهتمامه بالعبادة؛ ولذلك قال حسان بن ثابت ﷺ في مدحه[1]:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا

يعني: يقطع الليل كلّه بالتسبيح أي الصلاة، والقراءة.

ومرّ بنا أنّه ﷺ تستحي منه الملائكة، كما ورد في الحديث: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِهِ، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهَشَّ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ؟ فَقَالَ: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ»[2].

---

(١) انظر: ديوانه (ص٣٠٢).

(٢) تقدم تخريجه (٥/ ٨).

وقيل: إنّه كان حييًّا، لو رأى النبيّ ﷺ على تلك الحال، لرجع، ولم يجلس معه على تلك الهيئة، فلأجل ذلك استوى النبيّ ﷺ واستتر.

ولا شكّ أنّه كان من أجلّاء الصحابة وسابقيهم. وفي حديث آخر: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ، فَقَالَ: «اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ»[1]. فجعل أبا بكر ﷺ صدّيقًا، وعمر وعثمان - رضي الله عنهما - شهيدين. وتحقّق ذلك؛ فإنّ كلاً منهما قُتل شهيدًا. وهذه شهادة من النبيّ ﷺ لعثمان بالشهادة.

ولمّا قتل مظلومًا قيّض الله له من ينصره، فقد استنبط ابن عبّاس من قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[الإسراء:٣٣]، ولأجل ذلك قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إنّه كان مظلومًا، وإنّ أولياءه الذين يطالبون بدمه معاوية ﷺ ومن معه هم الذين ذكر الله أنّهم منصورون، وقال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾[2].

وبكلّ حال، لا مجال للطعن فيه ﷺ، فمن طعن في خلافته أو في عدالته، فقد طعن في الإسلام وفي حملة الإسلام.

اتفق أهل السنّة والجماعة على تعديل الصحابة، ويكفي في تعديل الراوي أن يكون من الصحابة، فإذا رُوي حديث وثبت أنّ راويه صحابي، ولو كان مجهولًا،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩).

قبلت روايته. وذلك دليل على أنّهم عرفوا مكانة الصحابة وعدالتهم. ولا شكّ أنّ الصحابة يتفاوتون في الفضل. وقد ذكر الله شيئًا من تفاوتهم في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[الحديد: ١٠]؛ فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح أفضل من الذين أسلموا بعد الفتح، ولم يقاتلوا ولم ينفقوا إلا بعده، ولكن وعدهم الله جميعًا الجزاء الحسن والجزاء الأوفى عند ربّهم وذلك ثناء وفضل كبير!

ومع هذا الثناء عليهم تطاول عليهم هؤلاء الأعداء من الرافضة، وسدّدوا سهام الطعن نحوهم، بل سلّطوها على خيارهم وأفاضلهم وأشرفهم، وهم الخلفاء الراشدون. وقد تقدّم شيء من سيرة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وهم الخلفاء الراشدون الذين ذكرهم النبيّ ﷺ بقوله: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ**»[1]، فإن أولى من يدخل في هذا الكلام من الخلفاء أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم، هؤلاء هم الخلفاء الراشدون الذين أوصى النبي ﷺ باتّباعهم، والسير على منهاجهم، وهم من الذين شهد لهم بالجنّة، شهادة عظيمة؛ فقد شهد لعشرة من الصحابة سيذكرهم الشارح قريبًا.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس


قال الطحاوي:

ثمّ لعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِب ﷺ.

---

قال الشارح:

أَيْ: وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ عُثْمَانَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُمَا. لَـمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ وَبَايَعَ النَّاسُ عَلِيًّا صَارَ إِمَامًا حَقًّا وَاجِبَ الطَّاعَةِ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ فِي زَمَانِهِ خِلَافَةَ نُبُوَّةٍ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ سَفِينَةَ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي الله مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ»[1]

وَكَانَتْ خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ سَنَتَيْنِ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَخِلَافَةُ عُمَرَ عَشْرَ سِنِينَ وَنِصْفًا، وَخِلَافَةُ عُثْمَانَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَخِلَافَةُ عَلِيٍّ أَرْبَعَ سِنِينَ وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وَخِلَافَةُ الْحَسَنِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

وَأَوَّلُ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ مُعَاوِيَةُ ﷺ، وَهُوَ خَيْرُ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنَّهُ إِنَّمَا صَارَ إِمَامًا حَقًّا لَـمَّا فَوَّضَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ - رَضِيَ الله عَنْهُمْ - الْخِلَافَةَ، فَإِنَّ الْحَسَنَ ﷺ بَايَعَهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ، ثُمَّ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ فَوَّضَ الْأَمْرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَظَهَرَ صِدْقُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ الله بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[2]. وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ فِي مَوْضِعِهَا.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) من حديث أبي بكرة ﷺ.

فَالْخِلَافَةُ ثَبَتَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بَعْدَ عُثْمَانَ ﷺ، بِمُبَايَعَةِ الصَّحَابَةِ، سِوَى مُعَاوِيَةَ مَعَ أَهْلِ الشَّامِ.

وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ ﷺ، فَإِنَّ عُثْمَانَ ﷺ لَمَّا قُتِلَ كَثُرَ الْكَذِبُ وَالِافْتِرَاءُ عَلَى عُثْمَانَ، وَعَلَى مَنْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ كَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وَعَظُمَتِ الشُّبْهَةُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْحَالَ، وَقَوِيَتِ الشَّهْوَةُ فِي نُفُوسِ ذَوِي الْأَهْوَاءِ وَالْأَغْرَاضِ، مِمَّنْ بَعُدَتْ دَارُهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَيَحْمِي اللهُ عُثْمَانَ أَنْ يَظُنَّ بِالْأَكَابِرِ ظُنُونَ سُوءٍ، وَيَبْلُغَهُ عَنْهُمْ أَخْبَارٌ، مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحْدَثٌ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يُعْرَفْ وَجْهُهُ، وَانْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ أَهْوَاءُ قَوْمٍ يُحِبُّونَ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ. وَكَانَ فِي عَسْكَرِ عَلِيٍّ ﷺ مِنْ أُولَئِكَ الطُّغَاةِ الْخَوَارِجِ - الَّذِينَ قَتَلُوا عُثْمَانَ - مَنْ لَمْ يُعْرَفْ بِعَيْنِهِ، وَمَنْ تَنْتَصِرُ لَهُ قَبِيلَتُهُ، وَمَنْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ حُجَّةٌ بِمَا فَعَلَهُ، وَمَنْ فِي قَلْبِهِ نِفَاقٌ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ إِظْهَارِهِ كُلِّهِ، وَرَأَى طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يُنْتَصَرْ لِلشَّهِيدِ الْمَظْلُومِ، وَيُقْمَعْ أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِلَّا اسْتَوْجَبُوا غَضَبَ اللهِ وَعِقَابَهُ. فَجَرَتْ فِتْنَةُ الْجَمَلِ عَلَى غَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْ عَلِيٍّ، وَلَا مِنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وَإِنَّمَا أَثَارَهَا الْمُفْسِدُونَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِ السَّابِقِينَ، ثُمَّ جَرَتْ فِتْنَةُ صِفِّينَ لِرَأْيٍ، وَهُوَ أَنَّ أَهْلَ الشَّامِ لَمْ يُعْدَلْ عَلَيْهِمْ، أَوْ لَا يُتَمَكَّنْ مِنَ الْعَدْلِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ كَافُّونَ، حَتَّى تَجْتَمِعَ الْأُمَّةُ، وَأَنَّهُمْ يَخَافُونَ طُغْيَانَ مَنْ فِي الْعَسْكَرِ، كَمَا طَغَوْا عَلَى الشَّهِيدِ الْمَظْلُومِ، وَعَلِيٌّ ﷺ هُوَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَيْهِ، فَاعْتَقَدَ أَنَّ الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ الْوَاجِبَتَيْنِ عَلَيْهِمْ تَحْصُلُ بِقِتَالِهِمْ، فَيُطْلَبُ إِمَامٌ، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ أَدَاءُ الْوَاجِبِ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ التَّأْلِيفَ لَهُمْ كَتَأْلِيفِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى دِينِ النَّبِيِّ ﷺ

وَالخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ مِمَّا يَسُوغُ، فَحَمَلَهُ مَا رَآهُ - مِنْ أَنَّ الدِّينَ إِقَامَةُ الحَدِّ عَلَيْهِمْ وَمَنْعُهُمْ مِنَ الْإِثَارَةِ، دُونَ تَأْلِيفِهِمْ - عَلَى الْقِتَالِ، وَقَعَدَ عَنِ الْقِتَالِ أَكْثَرُ الْأَكَابِرِ، لِمَا سَمِعُوهُ مِنَ النُّصُوصِ فِي الْأَمْرِ بِالْقُعُودِ فِي الْفِتْنَةِ، وَلِمَا رَأَوْهُ مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَرْبُو مَفْسَدَتُهَا عَلَى مَصْلَحَتِهَا. وَنَقُولُ فِي الجَمِيعِ بِالحُسْنَى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وَالْفِتَنُ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيَّامِهِ قَدْ صَانَ اللهُ عَنْهَا أَيْدِيَنَا، فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَصُونَ عَنْهَا أَلْسِنَتَنَا، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَمِنْ فَضَائِلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ مَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيٍّ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[1].

وَقَالَ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَتَطَاوَلْنَا لَهَا، فَقَالَ: ادْعُوا لِي عَلِيًّا، فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ»[2].

وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٦٩).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٣٢).

«اللهمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي»[١].

---

قال الشيخ:

الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب ﷺ، وهو الذي تتولاه الرافضة، وتدّعي أنّ الخلفاء قبله مغتصبون.

أمَّا أهل السنّة، فيقولون: إنّه آلت إليه الخلافة بعد مقتل عثمان ﷺ. لَـمَّا كان آخر عهد عثمان ﷺ اتُّهِم باتهامات لا أساس لها، وكان نهايتها أن ثار عليه ثوّار من العراق ومن مصر وحاصروه، إلى أن آل الأمر إلى قتله مظلومًا ﷺ. ولما قُتل لم يكن هناك أولى بالخلافة من عليّ ﷺ، وهو قريب النبيّ ﷺ وصهره، وهو أبو الحسنين الذين هما سبطا رسول الله ﷺ، وله فضائل كثيرة، وذكر أنه لما خالفه معاوية ﷺ، فلم يبايعه، واستقرّ معاوية في الشام، وعليّ ﷺ في العراق، كتب إليه معاوية كتابًا، يذكر فيه فضائله: أنّه كاتب الوحي، وأنّه خال المؤمنين ـ أي أخو أم المؤمنين التي هي أم حبيبة ـ ونحو ذلك من فضائله، وأنّه الذي جاهد وفتح الفتوح. ذكر ابن كثير في «تاريخه»[٢] أنّه طلب أن يكتب بيعة يذكر فيها:

مُحَمَّدُ النَّبِيُّ أَخِي وَصِهْرِي ... وَحَمْزَةَ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عَمِّي

وَجَعْفَرُ الَّذِي يُمْسِي وَيُضْحِي ... يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ابْنَ أُمِّي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٢) (١١/ ١١٧).

وَبِنْتُ مُحَمَّدٍ زَوْجِي وَعُرْسِي ... مُسَوَّطٌ لَحْمُهَا بِدَمِي وَلَحْمِي
وَسِبْطَا أَحْمَدَ وَلَدَايَ مِنْهَا ... فَأَيُّكُمْ لَهُ سَهْمٌ كَسَهْمِي
سَبَقْتُكُمْ إِلَى الإِسْلَامِ طُرًّا ... صَغِيرًا مَا بَلَغْتُ أَوَانَ حُلُمِي

هذه من فضائل عليّ ﷺ، وله فضائل كثيرة، ولكنّ الرافضة زادوا الكثير فوق هذا، حتى رفعوه فوق طوره، وأعطوه ما لا يستحقّه، ووصفوه بصفات أكبر من طور النبوّة، وجعلو له مكانة تفضّله على الخلفاء قبله، بل وعلى مكانة النبوّة.

وأما أهل السنّة، فلم يصفوه إلا بالصفات التي وردت فيه، ونقلت بالسنّة الصحيحة، والتي تميّز بها.

ولما كان بهذه المثابة رأى أصحاب رسول الله في المدينة، بأنّه أولى النّاس بالخلافة بعد مقتل عثمان رضي الله عنهما، فتمّت له البيعة، وكان ذلك في وقت الحجّ في سنة خمس وثلاثين من الهجرة، وكان الحُجّاج الذين كانوا في مكّة قد غابوا عن الفتنة التي هي مقتل عثمان، ولما انتهوا من الحجّ وأرادوا أن يقبلوا إلى المدينة، جاءهم الخبر بأنّ الثوار قتلوا عثمان، وأنّ بعضًا من الثوار هم من أهل العراق، وأرادوا أن يقاتلوهم، وقالوا: لا يقرّ لنا قرار حتّى نقاتل قتلة المظلوم، وهو عثمان ﷺ، وكان من أولئك الحجاج طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم، فتوجّهوا إلى العراق من مكّة، ولم يأتوا إلى المدينة، ولم يبايعوا عليًّا فيمن بايعه، ومعناه أنّهم قد شقّوا العصا، وأنّهم قد جعلوا في المسلمين خللًا، وكان يحبّ أنّهم أتوا إليه وبايعوه كما بايعه غيرهم، ثمّ بعد ذلك

يسير معهم في قتال أولئك الثوار، ولكن قضي الأمر.

فلمّا سمع بذلك علي ﷺ ساءه، وسار بمن معه ليردّهم إلى الطاعة، وشقّ عليه أن يخالفوه، وأن يقع اختلاف في الأمّة، وأحب أن تجتمع الأمة على خليفة واحد، حتّى يكونوا يدًا واحدة على الثوار، فتوجّه إلى العراق ومعه جموع كثيرة من أهل المدينة الذين بايعوه واتّبعوه، ووصلوا إلى الكوفة، وتقابلوا هم وأهل الحج الذين جاؤوا من مكّة، ومعهم عائشة ـ رضي الله عنها ـ وكانت على جمل لها مشهور، ثمّ تقابلوا وكادوا أن يصطلحوا على أنّهم: في الصباح يمسكون قُوّاد القتلة ويقتلونهم، ولما باتوا على ذلك، ولم يبقَ إلا الصباح، كان قتلة عثمان أشرافًا وأكابر وسادة، فقالوا: لا يمكن أن يقتل فلان وفلان وفلان. فكان من حيلتهم أنهم قالوا: إذا كان آخر الليل فقوموا وقاتلوا، وابدؤوا الحرب، حتّى يختلف هؤلاء وهؤلاء، ففعلوا ذلك، ولم يُدْرَ من أثار الحرب.

فوقعت وقعة شديدة كبيرة، وقتل عدة ألوف من المسلمين؛ منهم: طلحة، والزبير رضي الله عنهما، وأكثرهم أو كلّهم إلا نادرًا ليسوا من الصحابة، وبقوا من الصبح إلى الليل وهم يقاتلون، والسيف يعمل فيهم، وعائشة ـ رضي الله عنها ـ في وسطهم على جملها، وكان يأتي أصحابها الذين جاؤوا معها، ويمسكون بخطام الجمل، فكلّما جاء واحد يمسك بالخطام تُقطع يده، حتّى قطعت أكثر من عشرين يدًا، فرأى عليّ ﷺ أن يعقر الجمل، فلمّا عقر سقط، وسقطت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في هودجها، فعند ذلك أمر عليّ ﷺ أن تحاز إلى رحال المسلمين، وانتهت الحرب، وانهزموا، وهي معركة شديدة سببها قتلة عثمان ﷺ، وتمّت البيعة منهم

لعليّ ﷺ ولم يبقَ خلاف.

وبعد ذلك بقي أهلُ الشام بقيادة معاوية ﷺ؛ وذلك لأنّ معاوية ابن عمّ عثمان، أشد لقتله هو وأهل الشام، وصاروا يبكون على ما نُقل إليهم من الشناعة والبشاعة التي حصلت لعثمان ﷺ، ويجتمعون في المساجد، ويقولون: إنّهم سوف يأخذون بحقّ عثمان مهما وصل الأمر، فعند ذلك جمعوا جموعًا وتوجّهوا إلى العراق من أجل مقاتلة أولئك الثوار، واجتمعوا في موضع يقال له (صفّين)، حيث جاء عليّ في مئة ألف، وهؤلاء حول ذلك العدد، وتقابلوا، وأرادوا أن يصطلحوا بينهم، ولكن لم يحصل الاتفاق، وذلك بعد أن اختاروا حَكَمين، واختلف الحكمان، فنشبت الحرب واستمرّت أيامًا، منها ليلة اشتدّ فيها القتال تسمّى: ليلة الهرير، لَـمَّا انفصلت الـ ـب، بعدما كاد أهل العراق أن ينتصروا، رفع أهل الشام المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله، فعند ذلك تركوا القتال، بعدما قُتل منهم عشرات الألوف من هؤلاء وهؤلاء، رجع أهل الشام إلى شامهم وهم متقوّون، ورجع أهل العراق إلى عراقهم، وفيهم شيء من الاختلاف والضعف، وانفصلت منهم طائفة سمّوا بالخوارج، وقالوا لعليّ: أنت حكّمت الرجال، أي: إنّ عليًّا ﷺ اختار حكمًا من الرجال. وثاروا عليه، وهم الخوارج الذين غزاهم في النهروان، وقاتلهم وقتلهم.

والحاصل أنّ عليًّا ﷺ تمّت بيعته، وتمّت خلافته في العراق والحجاز وفي خراسان واليمن وأكثر الأمصار ما عدا الشام ومصر والمغرب، إذ كانت تحت ولاية معاوية ﷺ؛ لأنّه تمكّن منها وكان أهلها يحبّونه؛ لكونه ذا سيرة وجهاد فيهم،

فكان متمسّكًا بهذا الأمر، واستمر أمر كلّ منهما على هذه الحال، إلى أن قُتل عليّ ﷺ سنة أربعين من الهجرة، قتله الخارجي المعروف عبد الرحمن بن ملجم.

ولما قُتل عليٌّ ﷺ بايع أهلُ العراق الحسن ﷺ، وتمّت له البيعة، وكان أهل العراق يحبّون عليًا حبًا جمًا، وبقوا ملتزمين بطاعته، وطاعة ذريّته، فتعاهدوا أن ينصروا الحسن ﷺ، ويبذلوا في نصره ما يمكنهم. ولَمَّا تمّت له البيعة وبقي نصف سنة، عند ذلك أراد معاوية أن يغزوهم، وجاءهم بجيوش هائلة، واجتمع أيضًا مع الحسن ﷺ جنود هائلة عظيمة، ولما أوشكوا على القتال؛ فكّر الحسن ﷺ وقال: علامَ نقتل هؤلاء المسلمين؟ يقتل عشرات أو مئات الألوف من أجل الخلافة والولاية، لا بورك فيها ولا خير فيها، لماذا لا أتنازل وأحقن دماء المسلمين؟ عند ذلك أرسل إلى معاوية ﷺ: إنني سآتي إليك، وقال: سأبايعك وأتنازل لك عن الخلافة، واشترط عليه شروطًا: أن لا يقتل أحد لا من قتلة عثمان ﷺ، ولا من غيرهم، ويكفي ما حصل من القتل والقتال. وأن لا تسبُّوا أحدًا منا، ولا نسبَّ أحدًا منكم، لا تسبُّوا عليًا ولا نسبّ عثمان. وأن نكفّ عن هذه الفتن. فقبل تلك الشروط، وتمّت البيعة سنة إحدى وأربعين من الهجرة لمعاوية ﷺ، وسُمّي ذلك العام عام الجماعة، الذي اجتمعت فيه الأمّة على خليفة واحد هو معاوية ﷺ؛ ولذلك يقولون: الخلافة ما قبل الحسن ﷺ، والملك ما بعده.

وفي الحديث الذي تقدّم، وهو حديث سفينة، يقول ﷺ: «الْخِلَافَةُ بَعْدِي

ثَلاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا»[١].

فسّرها سفينة فقال: «أَمْسِكْ خِلافَةَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ سَنَتَيْنِ، وَعُمَرَ ﷺ عَشْرًا، وَعُثْمَانَ ﷺ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَعَلِيٍّ ﷺ سِتًّا»، ونصف سنة خلافة الحسن، جمعها ثلاثون، تنقص أو تزيد قليلًا، وما بعده فهو ملك.

وأوّل ملوك الإسلام معاوية ﷺ، وهو خيرُ ملوكهم وأفضلهم؛ لأنّه صحابيّ، وابن صحابيّ؛ ولأنّ سيرته سيرة حسنة، إلا أنّه يُلام لأنه أقرّ من يسبّ عليًّا ﷺ، وحصل بإقراره سبّ عليّ في خلافته في العراق أو في الشام نشوءُ هذه الطائفة التي تعصّبت لعليّ ﷺ، وولّدت أكاذيب في سبّ الصحابة رضوان الله عليهم، وفي الغلوّ في عليّ ﷺ.

ولأجل ذلك صارت الرافضة تحمل على معاوية ﷺ وعلى جميع بني أميّة وتضلّلهم، ما عدا عمر بن عبد العزيز ﷺ؛ وذلك لأنّ سبّ عليٍّ استمرّ في العراق، وكذلك في الشام وإن لم يكن في جميع الأماكن بل في بعض المساجد مدّة خلافة بني مروان، إلى أن تولّى عمر بن عبد العزيز، فعند ذلك أبطل سبّه، وبعده انقطع هذا السبّ.

ولكن نشأت طائفة الرافضة، وقويت بسبب هذا الفعل من أولئك الذين سوّل لهم الشيطان أنّ عليًّا ﷺ من جملة الذين ساهموا في قتل عثمان ﷺ وشاركوا فيه، فصاروا يسبّونه ويشتمونه على المنابر، وصار شيعتُه يتحرّقون كلّما سمعوا

---

(١) تقدم تخريجه. (٤/ ٥٨٨).

ذلك، ويجمعون أكاذيب في سبّ بني معاوية ﷺ وبني مروان، بل في سبّ الخلفاء الراشدين قبلهم، وفي الغلوّ في عليّ ﷺ.

ولا حاجة لعليّ ﷺ إلى أكاذيبهم، فله فضائل كثيرة، وله مناقب شهيرة، وهو غنيّ عمّا لفقوه له، وزادوا عليه، حتى جعلوا له ما لا يستحقّه!

فهو ﷺ من السابقين، أسلم وهو صغير، وكان سببُ إسلامه أنّ أبا طالب لَمَّا كثر عياله، وكان قليل ذات اليد، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس ﷺ وكان من أيسر بني هاشم: «**يَا أَبَا الفَضْلِ، إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ العِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَىٰ مِنْ هَذِهِ الأَزْمَةِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ نُخَفِّفُ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخُذ مِنْ بَنِيهِ رَجُلًا، وَتَأْخُذْ أَنْتَ رَجُلًا، فَنَكْفُلُهُمَا عَنْهُ**»[1]، فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا ﷺ فضمه إليه، وكان ينفق عليه، وأخذ العباس جعفرا - رضي الله عنهما - فضمه إليه، فلم يزل عليّ ﷺ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا، بادر وأسلم، فهو أول من أسلم من الصبيان، قيل: إنّه أسلم وعمره ثمان سنين أو عشر؛ ولذلك قيل: إنّه أسلم قبل أن يبلغ.

ومن فضائله: ما ورد في الحديث الذي تقدّم في قول النبيّ ﷺ له: «**أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[2]. معلوم أنّ هارون أخو موسى

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٣٨)، والحاكم (٣/ ٦٦٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٦٢) عن مجاهد بن جبر مرسلًا.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٦٦).

عليهما السلام، ولكنه نبيّ أوحي إليه كما أوحي إلى موسى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، فهارون نبيّ من الأنبياء الذين أوحي إليهم، ولكنّ عليًّا ﷺ قريب للنبيّ ﷺ، والقرابة لا تصل إلى حد النبوّة، إنّما هي قرابة ومحبّة وصلة ومصاهرة، حيث تزوّج بنت النبيّ ﷺ، فأصبحت له هذه المكانة.

ومن فضائله: الحديث الذي أورده الشارح، وهو قوله ﷺ يوم خيبر: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيٌّ؟ فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1]. فاشتمل هذا الحديث على فضائل ثلاث:

**الأولى**: أنّه يحبّ الله ورسوله.

**والثانية**: أنّه يحبّه الله ورسوله.

**والثالثة**: أنّ الله يفتح على يديه. ولأجل ذلك تطاول لها كثير من الصحابة حتّى قال عمر ﷺ: ما تمنّيت الولاية إلا يومئذ. وقد أرسله النبي ﷺ:

**أولاً**: لقرابته منه.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٣٢).

وثانيًا: لما عرف عنه من الشجاعة والقوة والإقدام.

وثالثًا: لتظهر آثار ذلك بالفتح على يديه.

فهو ﷺ له هذه الفضائل، كما لغيره من الصحابة رضي الله عنهم، بل جميع المؤمنين، ونحن - إن شاء الله جميعًا - نحبّ الله ورسوله، ونرجو أن نلقى ثواب هذه المحبّة، ونحبّ أولياء الله، ومنهم الصحابة رضي الله عنهم.

أمّا الفتن التي حصلت بينهم وبين أهل الشام، فهذه من الفتن التي وقعت باجتهاد، وأهل الشام معذورون؛ لأنهم يطالبون بدم عثمان ﷺ، وأهل العراق معذورون، حيث إنّ عليًا ﷺ يطالب بجمع الكلمة، يقول: بايعوني واجتمعوا معي، ونحن إذا اجتمعنا ولم نختلف تمكّنا من أخذ أولئك القتلة واحدًا واحدًا، وهي فكرة جيدة، ولكن قدّر الله، وحصل هذا الأمر.

فنحن نقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]، ونقول - كما قال الشارح -: تلك فتنةٌ صان الله عنها أيدينا، فنصون عنها ألسنتنا، فلا نقول هذا هو المصيب، ولا هذا هو المخطئ، ونكلُ أمرهم إلى الله، ونعذرهم، ولا نُلحق بهم لومًا ما داموا مجتهدين، ونعرف للجميع سبقهم، ونعرف لهم فضلهم وفضائلهم، ولا نتبرّأ من أحد من الصحابة؛ لا من عليّ ﷺ، ولا من معاوية ﷺ. ولأجل ذلك يقول الكلوذاني في معاوية ﷺ:

وَلِابْنِ هِنْدٍ فِي الفُؤَادِ مَحَبَّةٌ ... وَمَوَدَّةٌ فَلَسَيْرُ غَمَّنَ المُعْتَدِي

ذَاكَ الأَمِينُ المُجْتَبَىٰ لِكِتَابَةِ الـ ... ـوَحْيِ المُنَزَّلِ ذُو التُّقَىٰ وَالسُّؤْدَدِ

فمعاوية ﷺ من الخلفاء، ولكن ليس من الخلفاء الراشدين، يطلق عليه أنّه خليفة، ولكنّه ملك من الملوك، سار كسيرة الملوك لكنّه أحسنهم.

أمّا عليّ ﷺ فكان في زمانه الخليفة، وفضائله تدلّ على أقدميّته على معاوية وميزته، فهو من السابقين الأولين، ولكن معاوية ﷺ من الذين أسلموا بعد الفتح، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[الحديد:١٠].

نحمد الله أن جعلنا مسلمين، وجعلنا متحابّين في ذات الله، نحبّ أهل الخير متقدّمهم ومتأخّرهم، ونمتثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، فهذا وصف المؤمنين، يعترفون لمن سبقهم بالفضل والخير، وأحقّ السابقين بالفضل صحابة رسول الله ﷺ فنحبّهم من قلوبنا، كما هو حال أهل السنّة.

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في عقيدته[1]:

أُحِبُّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ لِي مَذْهَبٌ ... وَمَوَدَّةُ الْقُرْبَىٰ بِهَا أَتَوَسَّلُ

وَلِكُلِّهِمْ قَدْرٌ عَلَا وَفَضَائِلٌ ... لَكِنَّمَا الصِّدِّيقُ مِنْهُمْ أَفْضَلُ

نحبّهم رضي الله عنهم؛ لأنّهم السابقون إلى الخيرات، ولأنهم حفظوا على الأمّة دينها وشريعتها، ونحبّهم لفضلهم وشرفهم، ونحبّهم لقرابة أكثرهم لاسيّما

(١) البيتان (٣، ٤) من لامية شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

الخلفاء الراشدين من النبيّ ﷺ.

ومعلوم أيضًا أنّنا ما أحببناهم لمجرّد القرابة، فقد كان هناك من هو أقرب منهم؛ كأبي طالب وأبي لهب والذين ماتوا على الكفر، ومع ذلك نمقتهم، ونبرأ من أعمالهم. هذه عقيدتنا: أن من آمن به، ولو كان بعيدًا في نسبه، وصدّقه واتّبعه، فإنّه محبوب إلى كلّ مسلم تقيّ من أهل السنّة والجماعة.

ومحبّتنا للصحابة لا تصل إلى الغُلُوّ، كعادة الذين يغلون في الصالحين. فالرافضة الذين غلوا في آل البيت، أوصلهم هذا الحبّ إلى الغلو، بحيث اعتقدوا في أئمّتهم الاثني عشر نوعًا من الألوهيّة، وأعطوهم شيئًا من التصرّف في الكون، فصاروا يطلبون منهم ما لا يقدر عليه إلا الله، ويصفونهم بأوصاف لا يستحقّها إلا الله تعالى.

أمّا أهل السنة فأحبّوا الصحابة، وأحبّوا قبلهم نبيّهم ﷺ، ولم يغلو في أحد منهم، ولم يعطوه شيئًا من حق الله، بل اعتقدوا أنّهم بشر، وأنّهم مخلوقون، وأنّ فضلهم بالأعمال الصالحة، وأنّ محبّتهم تحمل على اتّباعهم، وعلى عمل مثل أعمالهم.

فإذا أحببنا الأئمة والمشايخ ودعاة الخير، كانت المحبة تحمل على أن يقتدي المحبُّ بالمحبوب، وأن يفعل كأفعاله، فبذلك يكون صادق المحبّة. أمّا أن تحمله محبّته على أن يعطيه شيئًا من حقّ الله، فهذا غلوّ وإطراء داخل في فعل النّصارى، وهذا منهيّ عنه، فقد قال ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا

عَبْدُهُ فَقُولُوا عبد الله وَرَسُولُهُ»[1]. وصفة العبوديّة للنبيّ ﷺ صفة شرف، وكذلك صفة العبودية للصحابة رضوان الله عليهم، ومَن بعدهم صفة فضل وشرف، فأنت تفرح إذا نسبت إلى أنّك عبد لله، فكذلك كان أنبياء الله، قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء:١٧٢]، لا يستنكفون: يعني لا يأنفون، ولا يتكبّرون عن العبوديّة، وكذلك الصحابة وأقارب النبيّ ﷺ لا يتكبّرون عن العبوديّة، بل يفتخرون بها. وهذا هو الواجب في اعتقادنا نحوهم.

وقد مرّ بنا في هذه العقيدة قول أهل السنّة في الخلفاء، وفي مجمل الصحابة رضوان الله عليهم، وأنّ أفضلهم الخلفاء الأربعة: أفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ، وأنّهم الخلفاء الراشدون.

وقد تكلّم العلماء في خلافتهم، وقالوا: الخليفة بعد النبيّ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ رضي الله عنهم. ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء، فهو أضلّ من حمار أهله! كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله.

كذلك تكلّم العلماء على فضلهم، فاتّفقوا على فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، واختلفوا في عثمان وعليّ - رضي الله عنهما - أيهما أفضل، فقدّم قومٌ عثمان وربّعوا بعلي، وجعلوه هو الرابع في الفضل. وقدّم قوم عليًّا ﷺ، وقوم توقّفوا. هكذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية. وذكر أنّ مسألة التقديم بين عثمان

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

وعليّ - رضي الله عنهما - ليست من المسائل التي يضلّل من خالف فيها، وإنّما الذي يضلّل مسألة الخلافة، فقد اتّفق أهل السنّة على أنّهم مرتّبون في الخلافة، واتّفقوا على أنّهم في الفضل يقدّم أبو بكر ثمّ عمر رضي الله عنهما، واختلفوا هل عليّ يلي عمر في الفضل، ثم عثمان بعده، أو العكس؟ وأكثر العلماء أنّ ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وهذا هو الذي نعتقده؛ ، لأنّهم لا يتفقون على خطأ، وقد اتّفقوا على تقديم عثمان في الخلافة، فدلّ ذلك على أهليّته وأفضليّته.

قال الطحاوي:

وَهُم الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَالأَئِمَّةُ المَهْدِيُّونَ.

---

قال الشارح:

تَقَدَّمَ الحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي «السُّنَنِ»، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

وَتَرْتِيبُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ - رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - فِي الْفَضْلِ، كَتَرْتِيبِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ. وَلِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - مِنَ الْمَزِيَّةِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَلَمْ يَأْمُرْنَا فِي الِاقْتِدَاءِ فِي الْأَفْعَالِ إِلَّا بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «اقْتَدُوا بِالَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[2]. وَفَرْقٌ بَيْنَ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِمْ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ، فَحَالُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَوْقَ حَالِ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ تَقْدِيمُ عَلِيٍّ عَلَى عُثْمَانَ، وَلَكِنْ ظَاهِرُ مَذْهَبِهِ تَقْدِيمُ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

عُثْمَانَ، عَلَى عَلِيٍّ. وَعَلَى هَذَا عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ لِعَلِيٍّ ﷺ: إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ[1].

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَيٌّ: أَفْضَلُ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ»[2].

---

قال الشيخ:

قد ذكرنا أنّ هؤلاء هم الخلفاء الراشدون، سمّاهم بذلك النبيّ ﷺ، الخلفاء؛ لأنّهم خلفوه، وواحدهم خليفة، والخليفة: هو الذي يخلُف من قبله بخير، وقد سمّى الله آدم ـ عليه السلام ـ خليفةً، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ لأنّه كما قيل: خلف لمن قبله. فكلّ من تولّى أمرًا مهمًّا، وناب عمّن قبله،

---

(١) تقدم تخريجه (٥/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٥) بلفظ: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ». وهو من أفراده، لم يروه مسلم في صحيحه.

فهو خلف عنه. فاتفقوا على تسمية أبي بكر ﷺ خليفة رسول الله ﷺ، وكانوا ينادونه بذلك، ولما تولّى عمر ﷺ دعوه بقولهم: يا خليفةَ خليفةِ رسول الله ﷺ، فرأى أنّ ذلك شيء يطول، فقال: أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فاتّفقوا على تسميته: أمير المؤمنين. ولكنّه في الحقيقة خليفة.

هؤلاء الأربعة سمّاهم النبيّ ﷺ بالرّاشدين، دليل على أنّهم على رُشد، والرشد: ضدّ الغيّ. قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ والرشد: هو الصلاح والخير، والغيّ: هو الغواية والضلال. فهم راشدون، نشهد لهم بذلك، كما شهد لهم نبيّهم ﷺ.

ومن فضلهم أنّه أمر باتّباعهم، في قوله: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ..»[1]؛ أي: اتّبعوها. إذا قيل: عليكم بكذا، فالمعنى: خذوه، وسنّتهم يعني: أعمالهم وطريقتهم التي ساروا عليها. ونحن نعرف أنّهم لم يبتدعوا سنّة من قبل أنفسهم، بل كانوا يحرصون كلّ الحرص على أن يسيروا على سنّة النبيّ ﷺ، ولكن نسبت إليهم؛ لأنّهم أظهروها؛ فقيل: هذه سنّة أبي بكر ﷺ، يعني الذي رواه وأظهره، ولو لم ينسبه إلى النبيّ ﷺ؛ لأنّهم لطول صحبتهم مع النبيّ ﷺ قد حفظوا ما لم يحفظ غيرهم، وعرفوا من شريعته ما لم يعرف غيرهم، فلا جرم كانت سنّتهم هي سنّة النبيّ ﷺ.

ومرّ بنا أنّه ﷺ أمر بالاقتداء بأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فقال: «اقْتَدُوا

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

بِاللَّذَيْنِ مِن بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[1]. يؤخذ من هذا صحّة خلافتهما، وأنّهما اللذان بعده، وقدّم أبا بكر ﷺ في الذكر؛ لأنّه الذي يليه، والاقتداء: هو التقيّد بقوله وبفعله. فالاقتداء بهما: هو تقبّل ما جاءا به، وتقبّل أعمالهم وأقوالهم، وتطبيقها، وعدّها من الشريعة. وهذا يُردّ به على من ردّ أقوال الصحابة رضي الله عنهم، لاسيّما الخلفاء الراشدين.

وقد كان كثير من الأئمّة ـ كالإمام أحمد بن حنبل ـ يقدّم قول الصحابة رضي الله عنهم على اجتهاد من بعدهم. وإذا وقع بينهم اختلاف قدّم قول الخلفاء الراشدين، وإذا وقع خلاف بين الخلفاء الراشدين قدّم قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وهذا دليل على معرفته بأنّهم أئمّة للاتّباع والاقتداء.

أما ترتيبهم في الخلافة، فهو كما وقع. يقول الكلوذاني:

قَالُوا فَمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ خَلِيفَةٌ ... قُلْتُ المُوَحِّدُ قَبْلَ كُلِّ مُوَحِّدِ

قَالُوا فَمَنْ ثَانِي أَبِي بَكْرِ الرِّضَى ... قُلْتُ الخِلَافَةَ فِي الإِمَامِ الزَّاهِدِ

قَالُوا فَثَالِثُهُمْ فَقُلْـ ... ـتُ مُجَاوِبًا ... مَنْ بَايَعَ المُخْتَارُ عَنْهُ بِاليَدِ

فهؤلاء هم الخلفاء، وهذا ترتيبهم. أمّا ترتيبهم في الفضل؛ فقد مرّ بنا قول ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّهم كان يقولون في حياة النبيّ ﷺ: «أَفْضَلُ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُ، أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ»[2]. فيبلغ ذلك النبيّ ﷺ فلا ينكره. وهذا

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٦٢٨).

هو القول الصحيح: أنّ ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

وقد روي عن أبي حنيفة أنّه كان يقدّم عليًّا على عثمان رضي الله عنهما، ولكن الصحيح عند أصحابه أنه كان يقدّم مع جمهور الأمّة عثمان ﷺ.

وكذلك الأثر المروي عن أيوب السختياني والذي يقول فيه: «مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ»، يعني: تنقّصهم وعابهم وحطّ من شأنهم؛ لأنّهم اجتمعوا على تقديم عثمان ﷺ، وولّوه عليهم.

ومرّ بنا أن عبد الرحمن بن عوف لَـمَّا أخذ البيعة لعثمان، قال لعليّ: «إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ»، أي: لا يعدلون بعثمان أحدًا، ودلّ ذلك على أنّ الصحابة في ذلك الوقت يعرفون قدر عثمان ﷺ ويفضّلونه.

ولما كان منشأ التشيع في العراق، وانتشرت الأحاديث والروايات في فضل علي ﷺ، روي عن أبي حنيفة أنه قال: إن عليًا أفضل من عثمان رضي الله عنهما، ولعله سمع كثرة من يطري عليًا ﷺ ويزيد من قدره ويصفه بما ليس بصحيح، وإن كان القول الصحيح عن أبي حنيفة أنّه يفضّل عثمان ﷺ كسائر أئمّة السنّة.

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه في ترجمة سفيان الثوري ـ وكان من أهل العراق ـ أنّه يميل إلى تفضيل عليّ على عثمان رضي الله عنهما، ولعلّ ذلك لم يثبت عنه، وإذا روي عنه شيء من ذلك، فلعلّه كان يكثر من فضائل عليّ ﷺ؛ لكونها منتشرة في العراق؛ لِمَا ظهر فيهم من الغلوّ في عليّ ﷺ وذريّته، وصاروا يبالغون فيما يذكرون عنه، ويتناقلون أحاديث لعلّ بعضها أو كثيرًا منها مكذوب، فيمكن أنّها وصلت إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري، وإلا فهما إمامان من أئمّة أهل السنّة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وأنَّ العشرةَ الَّذينَ سمَّاهُم رَسُولُ الله ﷺ وبَشَّرَهم بالجَنَّةِ؛ نَشْهَدُ لَهُم بالجَنَّةِ، عَلى مَا شَهِدَ رَسُولُ الله ﷺ، وَقَولُهُ الحَقُّ، وَهُمْ: أَبو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وعُثمانُ وعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبيرُ، وسَعدٌ، وسَعيدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عوفٍ، وَأَبو عُبَيْدَةَ ابنُ الجرّاحِ، وَهُوَ أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّة، رضيَ الله عَنْهُم أَجْمَعِينَ[1].

---

قال الشارح:

تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِ فَضَائِلِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ: وَمِنْ فَضَائِلِ السِّتَّةِ الْبَاقِينَ مِنَ الْعَشَرَةِ رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2]: عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ: أَرِقَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ»، قَالَتْ: وَسَمِعْنَا صَوْتَ السِّلَاحِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: يَا رَسُولَ الله، جِئْتُ أَحْرُسُكَ. وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ نَامَ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3]: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَمَعَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَبَوَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: «ارْمِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي».

---

(١) تقدم تخريج حديث العشرة المبشرين بالجنة (ص ٤).

(٢) برقم (٢٤١٠). وأخرجه أيضًا البخاري (٢٨٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٥)، ومسلم (٢٤١١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: «رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ الَّتِي وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ قَدْ شُلَّتْ»(١).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، قَالَ: لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ غَيْرُ طَلْحَةَ وَسَعْدٍ(٢).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٣)، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: نَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ يَوْمَ الخَنْدَقِ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ».

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنِ الزُّبَيْرِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ؟» فَانْطَلَقْتُ، فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَوَيْهِ، فَقَالَ: «فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»(٤).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(٥)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ».

---

(١) بل هو في صحيح البخاري (٣٧٢٤)، وقد وهم الشارح في نسبته لمسلم، إنه من أفراد البخاري، وقد نص الحافظ على ذلك (٧/ ١٢٣). وقوله: «يوم أحد»، ليس في لفظ البخاري. وذكر الحافظ أنه ثابت في رواية الإسماعيلي، يعني: في مستخرجه على البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٣)، ومسلم (٢٤١٢).

(٣) البخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥).

(٤) البخاري (٣٧٢٠)، ومسلم (٢٤١٦).

(٥) برقم (٢٤١٩)، وأخرجه أيضًا البخاري برقم (٣٧٤٤).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ. جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا أَمِينًا، فَقَالَ: «لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»، فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ، قَالَ: فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ ﷺ، قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ: النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ»، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الْعَاشِرَ، قَالَ: فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَقَالَ: «لَمَشْهَدُ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، يَغْبَرُّ مِنْهُ وَجْهُهُ، خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ، وَلَوْ عُمِّرَ عُمُرَ نُوحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ[2]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[3] عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ». رواهُ الإمامُ أحمد في

---

(١) البخاري (٣٧٤٥)، ومسلم واللفظ له (٢٤٢٠).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤).

(٣) برقم (٣٧٤٧).

«مسندِهِ»[1]، ورواه أبو بكر بنُ أبي خَيْثَمةَ، وقدَّمَ فيه عثمانَ على عليٍّ رضي الله عنهما.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى حِرَاءٍ، هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اهْدَأْ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2] وَالتِّرْمِذِيُّ[3] وَغَيْرُهُمَا. وَرُوِيَ مِنْ طُرُقٍ.

---

قال الشيخ:

أفضل الصحابة بعد الخلفاء الأربعة الستّة الباقون من العشرة، جمعهم ابن أبي داود في بيت واحد في عقيدته:

سَعِيْدٌ وَسَعْدٌ وَابْنِ عَوْفٍ وَطَلْحَةٌ ... وَعَامِرُ فِهْرٍ وَالزُّبَيْرُ الْمُمَدَّحُ

هؤلاء هم تمام العشرة، وهم من قريش.

سعيد بن زيد هو بن عمرو بن نفيل، وأبوه زيد كان ممّن وحّد الله تعالى في الجاهليّة، وكان ممّن ترك عبادة الأصنام، وترك الأكل مما أُهلّ لغير الله به، وشهد له النبيّ ﷺ بأنّه يبعث يوم القيامة أمّة وحده، وهو ابن عم عمر بن الخطاب بن

---

(١) المسند (١/ ١٩٣).

(٢) برقم (٢٤١٧).

(٣) برقم (٣٦٩٦).

نفيل. وشهد النبيّ ﷺ لسعيد بأنّه من أهل الجنّة.

وكذلك عبد الرحمن بن عوف من بني زهرة، وهم أخوال النبيّ ﷺ، فإنّ أمّه ﷺ من بني زهرة، وعبد الرحمن أسلم قديمًا بدعوة أبي بكر ﷺ، فأبو بكر ﷺ كان على صلة ببعض قريش، فكلّمهم وبيّن لهم الآيات والمعجزات التي أتى بها النبيّ ﷺ وبادروا إلى الإسلام. كان اسمه عبد عمرو، ثمّ لما أسلم سمّى نفسه عبدالرحمن، وكان لا يجيب إن ناداه أحد من قريش بعبد عمرو، ويجيب إذا نودي بعبد الرحمن. وقد تقدّم أنّه من الذين جعلهم عمر من أهل الشورى، وأخبر أنّ النبيّ ﷺ مات وهو عنهم راضٍ، وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن. وهو من الذين بُشِّروا بالجنّة في هذه الأحاديث السابقة، ومن فضله أنّه من الذين كانوا على جبل أحد لما تحرّك فقال النبيّ ﷺ: **اهْدَأْ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ**». فهو من الشهداء، ولفظ الشهيد ليس خاصًا بمن قتل في سبيل الله، فقد قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]؛ وقد قيل: إنّ المراد شهداء هذه الأمّة. وقد ذكر الله أنّ كلّ من آمن بالله ورسوله فإنّه من الشهداء، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩].

ولما هاجر عبد الرحمن آخى النبيّ ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري وكان سعد ذا غنى، فقال لعبدالرحمن: «أُقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ وَأُزَوِّجُكَ»، قَالَ

عبد الرحمن: «بَارَكَ الله لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ»[١]، فصار يتّجر، ثمّ إنّه أصبح ذا مال، وكان من أثرياء الصحابة رضي الله عنهم. قدمت عير له إلى المدينة، وكان النّاس في حاجة، وجاء إليه التجّار ورغّبوه، وأعطوه ربحًا وفيرًا، ولكنّه قال: قد أعطيت فيها في المئة ألفًا، فتصدّق بها، وقال: إنّ الله قد أخبر بأنّه يضاعفها أضعافًا كثيرة، مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١١]. فتصدّق بها كلّها، وكان ﷺ إذا أُتِي بالطعام الشهيّ، بكى حتّى يتركه، إذا تذكّر حالة الصحابة الذين كانوا في جهدٍ جهيد. وبكلّ حال فهو من أجلاّء الصحابة، مات سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، في السنة التي مات فيها العباس ﷺ.

أما طلحة بن عبيد الله، فهو أيضًا من العشرة، ومن المهاجرين، وهو من بني تيم بن مرّة الذين منهم أبو بكر ﷺ. وهو من الذين جاهدوا في الله حقّ جهاده، وكان ملازمًا للنبيّ ﷺ، وفي يوم أحد عندما أراد النبيّ ﷺ أن ينظر إلى المشركين في القتال يقول له: «يا نَبِيَّ الله بِأَبِي أنت وَأُمِّي لَا تُشْرِفْ يصبك سَهْمٌ من سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ»[٢]، وكان يقيه بيده، ويتلقّى السهام التي يُرمى بها النبيّ ﷺ، حتّى شَلَّت يده ﷺ، وذلك بلا شكّ من شدّة حبّه للنبيّ ﷺ.

والزّبير بن العوام، وهو من بني أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب، وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٤٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

ابن عمّ خديجة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، وهو من المهاجرين الأوّلين، وله قرابة بالنبيِّ ﷺ فهو ابن عمّته صفيّة بنت عبد المطّلب. وقد كان من المجاهدين الذين بذلوا أنفسهم في الجهاد في سبيل الله، وقد قال فيه النبي ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ»[1].

وقُتِل هو وطلحة - رضي الله عنهما - في سنة ست وثلاثين من الهجرة في وقعة الجمل، لما خرجوا مع أهل الجمل، وحصلت الوقعة مع عليّ ﷺ، وقد تبرّأ عليّ ﷺ ممّن قتلهم، وبكلّ حال فهم مجتهدون يعذرون، وقد أرادوا أن يتتبّعوا قتلة عثمان ﷺ كما تقدّم.

أمّا أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح ﷺ، فهو أيضًا من المهاجرين، وقد أسلم قديمًا، خرج أبوه مع أهل بدر من المشركين، ولما رآه أبوه مع المسلمين حاول أن يقتل ابنه؛ لأنّه مسلم، ولما لم يجد أبو عبيدة ﷺ بدًا قتل أباه لكونه مع المشركين، ولكون أبيه يريد قتله، ونزل فيه قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]، فهو من الذين لم يوادّوا المشركين ولو كانوا أبناءً أو آباءً أو إخوةً، وهو من الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، وأيّدهم بروح منه وأدخلهم جنّات. وذكر النبيّ ﷺ أنّه «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هذه الْأُمَّةِ أبو عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاحِ»[2]. مات

---

(١) تقدم تخريجه (٥/ ٤٢).

(٢) تقدم تخريجه (٥/ ٤٢).

ﷺ سنة ثمان عشرة من الهجرة، في خلافة عمر ﷺ، في الطاعون الذي سمّي طاعون عمواس، وقد كان عمر ﷺ بعد أن وَلِيَ الخلافة عزل خالد بن الوليد ﷺ من قيادة الجيش في الشام، وأمَّرَ أبا عبيدة ﷺ بدلًا منه.

فهؤلاء هم الخلفاء، وأتباعهم وأعوانهم الذين كانوا معهم، نشهد للجميع بأنّهم من أهل الخير، وأنّهم من أهل الجنّة كما شهد لهم نبيّهم ﷺ.

وهناك آخرون من الصحابة شهد لهم النبيّ ﷺ بالجنّة، فنحن نشهد لمن شهد له النبيّ بالجنّة، ونترضّى عن الجميع، كما ترضّى الله عنهم جميعًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ علم الله تعالى أنّهم يستحقّون رضوانه. ويقول النبيّ ﷺ: «لَعَلَّ الله أَنْ يَكُونَ قد اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1]؛ وهذا دليل على أنّه غفر لهم ولو عملوا ما عملوا. وإذا صدر منهم ذنب، على تقدير أنّه ذنب، فهو مغفور بقول الله إلى ذلك. فكيف مع ذلك تتصدّى لهم الرافضة وتسبّهم وتضلّلهم، أو تزعم أنّ فضائلهم التي فضّلوا بها قبل ردّتهم، حيث تزعم الرافضة أنّه ارتدّوا بعد موت النبيّ ﷺ حين منعوا عليًا حقّه من الولاية، هكذا تدّعي الرافضة، فمتى منعوه والنبيّ ﷺ هو الذي أمر أبا بكر أن يصلّي بالنّاس ولم يأمر عليًا! وكيف يكونون مرتدّين وهم السابقون، وهم الذين زكّاهم الله بقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وسمّاهم أهل

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

البيعة، بيعة الرضوان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

هذا عدا الصحابة الذين لهم سابقة فضل، نعترف بفضلهم، ونعرف منزلتهم، وحقهم وسبقهم، ونتبرأ ممّن ثلبهم وعابهم، وطعن فيهم وفي دينهم، كالرافضة الذين نصبوا عداوتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

قال الشارح:

وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى تَعْظِيمِ هَؤُلَاءِ الْعَشَرَةِ وَتَقْدِيمِهِمْ، لِمَا اشْتُهِرَ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ. وَمَنْ أَجْهَلُ مِمَّنْ يَكْرَهُ التَّكَلُّمَ بِلَفْظِ الْعَشَرَةِ، أَوْ فِعْلَ شَيْءٍ يَكُونُ عَشَرَةً!! لِكَوْنِهِمْ يُبْغِضُونَ خِيَارَ الصَّحَابَةِ، وَهُمُ الْعَشَرَةُ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَهُمْ يَسْتَثْنُونَ مِنْهُمْ عَلِيًّا ﷺ! فَمِنَ الْعَجَبِ: أَنَّهُمْ يُوَالُونَ لَفْظَ التِّسْعَةِ! وَهُمْ يُبْغِضُونَ التِّسْعَةَ مِنَ الْعَشَرَةِ! وَيُبْغِضُونَ سَائِرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وَثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١) عَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(٢) أَيْضًا، عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ غُلَامًا لِحَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ».

وَالرَّافِضَةُ يَتَبَرَّءُونَ مِنْ جُمْهُورِ هَؤُلَاءِ، بَلْ يَتَبَرَّءُونَ مِنْ سَائِرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِلَّا مِنْ نَفَرٍ قَلِيلٍ، نَحْوَ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا!! وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ فِي

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

(٢) برقم (٢٤٩٥).

الْعَالَمِ عَشَرَةٌ مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ، لَمْ يُهْجَرْ هَذَا الِاسْمُ لِذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لما قَالَ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٨٤]، لَمْ يَجِبْ هَجْرُ اسْمِ التِّسْعَةِ مُطْلَقًا. بَلِ اسْمُ الْعَشَرَةِ قَدْ مَدَحَ اللهُ مُسَمَّاهُ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾[الأعراف: ١٤٢]، ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢].

وَكَانَ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ[1].

وَكَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ يقول: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»[2].

وَقَالَ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ أَيَّامِ الْعَشْرِ»[3]، يَعْنِي عَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ.

وَالرَّافِضَةُ تُوَالِي بَدَلَ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ الِاثْنَيْ عَشَرَ إِمَامًا، أَوَّلُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُ وَصِيُّ النَّبِيِّ ﷺ، دَعْوَى مُجَرَّدَةً عَنِ الدَّلِيلِ، ثُمَّ الْحَسَنُ ﷺ، ثُمَّ الْحُسَيْنُ ﷺ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ، ثُمَّ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاظِمُ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضِيُّ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَوَادُ، ثُمَّ [illegible] بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَادِي، ثُمَّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ

---

(١) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري (٢٠٢٥)، ومسلم (١١٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٧)، ومسلم (١١٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٩٦٩) بنحو هذا اللفظ، وأخرجه بلفظه أبو داود (٢٤٣٨)، والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧)، وأحمد (١/ ٢٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الْعَسْكَرِيُّ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، وَيُغَالُونَ فِي مَحَبَّتِهِمْ، وَيَتَجَاوَزُونَ الْحَدَّ!! وَلَمْ يَأْتِ ذِكْرُ الْأَئِمَّةِ الِاثْنَيْ عَشَرَ، إِلَّا عَلَى صِفَةٍ تَرُدُّ قَوْلَهُمْ وَتُبْطِلُهُ، وَهُوَ مَا خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى النَّبِيِّ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا»، ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلِمَةٍ خَفِيَتْ عَلَيَّ، فَسَأَلْتُ أَبِي: مَاذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

وَفِي لَفْظٍ: «لَا يَزَالُ هذا الْأَمْرُ عَزِيزًا إلى اثنى عَشَرَ خَلِيفَةً»

وَفِي لَفْظٍ: «لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً»[2].

وَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ. وَالِاثْنَا عَشَرَ: الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْأَرْبَعَةُ، وَمُعَاوِيَةُ، وَابْنُهُ يَزِيدُ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ، وَأَوْلَادُهُ الْأَرْبَعَةُ، وَبَيْنَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيزِ، ثُمَّ أَخَذَ الْأَمْرُ فِي الِانْحِلَالِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١). وهذه ألفاظ مسلم.

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٥٣ـ ١٥٤) عقب هذا الحديث: «وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقا، بل لا بد من وجودهم، وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذي يعتقد فيهم الرافضة، الذين أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن ابن علي حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأخمد نار الفتنة، وسكّن رحى الحروب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا، لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور، وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس في الرؤوس وهذيان في النفوس لا حقيقة له ولا عين ولا أثر».

وَعِنْدَ الرَّافِضَةِ أَنَّ أَمْرَ الْأُمَّةِ لَمْ يَزَلْ فِي أَيَّامِ هَؤُلَاءِ فَاسِدًا، يَتَوَلَّى عَلَيْهِمُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ، بَلِ الْمُنَافِقُونَ الْكَافِرُونَ، وَأَهْلُ الْحَقِّ أَذَلُّ مِنَ الْيَهُودِ! وَقَوْلُهُمْ ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، بَلْ لَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا فِي ازْدِيَادٍ فِي أَيَّامِ هَؤُلَاءِ.

---

قال الشيخ:

ذكرنا من فضائل الصحابة رضوان الله عليهم - لاسيّما العشرة - أنّهم اجتمعت فيهم ثلاث البشائر:

**الأولى**: أنّه ﷺ بشّرهم بالجنّة.

**والثانية**: أنّهم من أهل بدر، والله قال لأهل بدر: «**اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»(١).

**والثالثة**: أنّهم من أهل البيعة، وقد قال الله عنهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وقال النبيّ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إن شَاءَ الله - من أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**»(٢).

وهذه كلّها داخل فيها هؤلاء العشرة، بل هم أولى بها، وغيرهم من الصحابة - رضوان الله عليهم - الذين حضروها لهم فضل ولهم سابقة.

فنقول: أهل بدر ثلاثمئة وبضعة عشر، هؤلاء قال الله لهم: «**اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ**

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

**فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، وهم نفسهم الذين تقول عنهم الرافضة أنّهم ارتدّوا وكفروا إلا عليًا ونفر قليل.

الذين بايعوا تحت الشجرة - وهم ألف وأربعمئة وزيادة - بايعوا النبيّ ﷺ بيعة الرضوان، وذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠]. وقد صار في هذا شرف لهم، وشرف للنبيّ ﷺ. حتى قال بعض المتأخّرين في مدحهم ومدح النبيّ ﷺ:

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى تَقَصِّي مَدْحِ مَنْ ... قَالَ الإِلَهُ لَهُ وَحَسْبُكَ جَاهَا
إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا ... حَقًّا يُقَالُ يُبَايِعُونَ الله

الحمد لله الذي جعلنا مسلمين، وجعلنا سنّيين، على كثرة المنحرفين والمبتدعين والمعرضين، الذين سوّل لهم الشيطان وأملى لهم، وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨]. وجعلنا متمسّكين بالكتاب والسنّة: الكتاب الذي جعله نورًا لمن سار عليه، وكذلك سنّة النبيّ ﷺ فهي سبيل النجاة من تبعها نجا، ومن تخلّف عنها غرق. وترى أهل البدع والضلال يدّعون أنّهم على الحقّ والصواب، ويعتقدون أنّهم هم الناجون، وما أبعدهم عن الحقّ، يرون الحقّ أبلج والطريق المستقيم والهدى القويم وهم عنه معرضون. وأدلّ على ذلك ما مرّ بنا في الكلام على الصحابة. فما ذنب الصحابة رضوان الله عليهم حتّى تقدح فيهم الرّافضة؟ هل لأنّهم حفظوا السنّة واتّبعوها، أو لأنهم بلّغوها؟ أو يقدح فيهم لأنّهم السابقون إلى الإسلام؟ أو لأنهم حفظوا على الأمّة دينها،

وفتحوا البلاد، ونصروا الأمّة، ونصروا رسولها؟هذه مآثرهم، ومتى كان للرافضة مثل هذه المآثر حتّى يقدحوا فيهم ويعيبوهم ويكفّروهم ويشتموهم، ويتّهموهم بأنّهم منافقون، وأنّهم حسدة ضالّون؟ هذه الأوصاف إنما تنطبق على الرافضة حقّ الانطباق، وأمّا صحابة الرسول ﷺ فهم منها برآء، نشهد بذلك وندين به.

مرّ بنا أنّ الرافضة يكرهون لفظ العشرة، لماذا؟ لأنّ النبيّ ﷺقال: «**عَشَرَةٌ فِي الجَنَّةِ...**»[1]، فهؤلاء العشرة لما كانوا يكفّرونهم، صار لفظ العشرة عندهم مكروهًا ممقوتًا، لا يحبّونه ولا يتقبّلونه، مع أنهم يستثنون من هؤلاء العشرة عليًا، والبقية يلعنونهم ويشتمونهم، ويكفّرون منهم تسعة، والعاشر يتولّونه ويفضّلونه. ونحن نسأل الرافضة: لماذا كرهتم لفظ العشرة ولم تكرهوا لفظ التسعة؟ أليس ذلك من الخطأ، ما ذنب هذه اللفظة، مع أنّها وردت في كلام الرسول ﷺ وكلام الله سبحانه وتعالى... ولم يرد فيه ذم، ولكن في قلوبهم حقد على هؤلاء العشرة إلا عليّ، وحقد على جميع الصحابة إلا أفرادًا منهم! فهذا عيب وخطأ ظاهر. وقد تمسّكوا بالحديث الذي في «صحيح مسلم»: «**لَا يَزَالُ هذا الْأَمْرُ عَزِيزًا إلى اثنى عَشَرَ خَلِيفَةً**»، ثمّ قال: «**كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ**»[2]؛ يقولون: هذا الحديث حجّة لنا على أئمّتنا الاثني عشر، وهو في كتابكم، أخرجه مسلم في «صحيحه»، فإذًا أنتم تروون الأحاديث التي تؤيّد مذهبنا، هكذا يقولون، نقول: هذا الحديث صحيح

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤).

(٢) تقدم تخريجه (٥/ ٥٢).

أخرجه مسلم وغيره بأسانيد صحيحة، ولكن لا ينطبق على أئمّتكم، إنما ينطبق على أئمّة لهم ولاية، أئمّة لهم إمارة، أئمّة لهم إمرة وولاية وسلطة وأتباع وولاية تامّة، يكون من آثارهم الإصلاح العام والاقتداء بهم، وتجهيز الجيوش، وفتح البلاد وجمع الأموال في بيت المال وتصريفها في وجوهها، هل كان هذا في أحد من أئمّتكم ما عدا عليًّا والحسن ستة أشهر؟ لم يكن. إنّما كانت هذه الولاية لأئمّة وولاة كلّهم من قريش.

مرّ بنا أنّ الشارح عدّ هؤلاء الاثني عشر، فعدّ الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم؛ لأنّها تمّت لهم الولاية، وعدّ معاوية ﷺ وابنه؛ لأنّ معاوية تولّى عشرين عامًا، وابنه أربع سنين، وكان الغزو في زمانهم مستمرًا، وعدّ عبد الملك بن مروان، وأولاده الخلفاء الذين هم أربعة من أولاده وعمر بن عبد العزيز، قبله ولدان من أولاد عبد الملك، وبعده ولدان، فهؤلاء اثنا عشر.

صحيح أنّ هناك غيرهم كابن الزبير ولكنّ ولايته ناقصة، وكذلك ولاية مروان أيضًا ناقصة، وولاية مروان بن محمد الأخير ناقصة؛ لأنّها سلبت منه، فما بقي إلا هؤلاء.

أمّا بعدهم ففي ولاية بني العباس، كثرت الفتن، والبدع، وانتشر الضلال، وقرّبوا اليونان والتّرك، ومكّنوهم من الولاية، وظهر في ذلك الزمان القول بخلق القرآن، والقول بإنكار الصفات، والقول بالجبر والإرجاء، والقول بالرفض.

والرافضة عندما يدّعون أن الأئمّة الاثني عشر هم أئمّتهم، نقول: نعم، عليّ ﷺ له خلافة، وهو من الخلفاء الراشدين، أمّا الحسن ﷺ فليس له خلافة إنّما استولى

ستّة أشهر، ثمّ تنازل لمعاوية ﷺ، وكذلك الحسين ﷺ فلم يتمّ له ولاية، وإنّما وعده أهل العراق أن يبايعوه، ثمّ لمّا جاءهم قُتل. أمّا ولده الذي هو علي بن الحسين زين العابدين، فهو عالم من العلماء، ولكن لم يكن له ولاية، وهكذا أولاده الذين تسلسلوا منه... إلى أن كان آخرهم الحسن بن محمد العسكري هو آخر السلسلة الذين هم من زين العابدين، وهو ليس له ولد! ولمّا كان إمامًا عند الرافضة، جعلوا له ولدًا، ولكن جعلوه مختفيًا، وأنّ اسمه محمّد بن الحسن، وأنّه سيخرج من سرداب سامرّاء. وقد ذكرنا شيئًا من الكلام عن هذا المنتظر، وعلمنا أنّ أئمّتهم ليس لهم ولاية ولا سلطة ما عدا عليّ والحسن بضعة أشهر، ثمّ بعد ذلك بقوا كأفراد قريش، وكسائر العلماء الذين معهم من العلم ما يعملون به أو يدعون إليه، ولكنّهم ليسوا وحدهم، بل في زمانهم علماء من قريش ومن غير قريش يماثلونهم، أو يفوقون كثيرًا منهم، فما الذي خصّص هؤلاء حتّى تجعلوهم أيها الشيعة أئمّتكم؟ فلا ميزة لهم ولا شيء يخصّصهم. فالأمر في استدلالهم بالحديث المتقدّم عن الأئمّة الاثني عشر ليس حجّة لهم، بل هو حجّة عليهم. فليتنبه لذلك!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَمَنْ أَحْسَنَ القَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ، وذُرِّيَّاتِهِ المُقَدَّسِينَ من كُلِّ رِجْسٍ، فقَدْ بَرِيءَ مِنَ النِّفاقِ.

---

قال الشارح:

قَدَّمَ بَعْضُ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1]، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا، بِمَاءٍ يُدْعَى: خُمًّا، بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، فَقَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي، فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، ثَلَاثًا».

وَخَرَّجَ الْبُخَارِيُّ[2] عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، قَالَ: ارْقُبُوا مُحَمَّدًا فِي أَهْلِ بَيْتِهِ.

إِنَّمَا قَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللهُ -: (فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ النِّفَاقِ)؛ لِأَنَّ أَصْلَ الرَّفْضِ إِنَّمَا أَحْدَثَهُ مُنَافِقٌ زِنْدِيقٌ، قَصْدُهُ إِبْطَالُ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالْقَدْحُ فِي الرَّسُولِ ﷺ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ. فَإِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَبَأٍ لَمَّا أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ أَرَادَ أَنْ يُفْسِدَ دِينَ الْإِسْلَامِ بِمَكْرِهِ وَخُبْثِهِ، كَمَا فَعَلَ بُولُسُ بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، فَأَظْهَرَ التَّنَسُّكَ، ثُمَّ أَظْهَرَ الْأَمْرَ

---

(١) برقم (٢٤٠٦).

(٢) برقم (٣٧١٣).

بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّى سَعَى فِي فِتْنَةِ عُثْمَانَ وَقَتْلِهِ، ثُمَّ لما قَدِمَ عَلى الْكُوفَةِ أَظْهَرَ الْغُلُوَّ فِي عَلِيٍّ وَالنَّصْرَ لَهُ، لِيَتَمَكَّنَ بِذَلِكَ مِنْ أَغْرَاضِهِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا، فَطَلَبَ قَتْلَهُ، فَهَرَبَ مِنْهُ إِلَى قرقيس. وَخَبَرُهُ مَعْرُوفٌ فِي التَّارِيخِ. وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ مَنْ فَضَّلَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ جَلَدَهُ جَلْدَ مُفْتَرٍ.

وَبَقِيَتْ فِي نُفُوسِ الْبُطِلِينَ خَمَائِرُ بِدْعَةِ الخَوَارِجِ، مِنَ الحَرُورِيَّةِ وَالشِّيعَةِ، وَلِهَذَا كَانَ الرَّفْضُ بَابُ الزَّنْدَقَةِ، كَمَا حَكَاهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الطَّيِّبِ[1] عَنِ الْبَاطِنِيَّةِ وَكَيْفِيَّةِ إِفْسَادِهِمْ لِدِينِ الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَقَالُوا لِلدَّاعِي: يَجِبُ عَلَيْكَ إِذَا وَجَدْتَ مَنْ تَدْعُوهُ مُسْلِمًا أَنْ تَجْعَلَ التَّشَيُّعَ عِنْدَهُ دِينَكَ وَشِعَارَكَ، وَاجْعَلِ الْمَدْخَلَ مِنْ جِهَةِ ظُلْمِ السَّلَفِ لِعَلِيٍّ وَقَتْلِهِمُ الْحُسَيْنَ، وَالتَّبَرِّي مِنْ تَيْمٍ وَعَدِيٍّ، وَبَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ، وَأَنَّ عَلِيًّا يَعْلَمُ الْغَيْبَ! يُفَوَّضُ إِلَيْهِ خَلْقُ الْعَالَمِ!! وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ أَعَاجِيبِ الشِّيعَةِ، فَإِذَا أَنِسْتَ مِنْ بَعْضِ الشِّيعَةِ عِنْدَ الدَّعْوَةِ إِجَابَةً وَرَشَدًا، أَوْقَفْتَهُ عَلَى مَثَالِبِ عَلِيٍّ وَوَلَدِهِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. انْتَهَى.

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَنْصَرِفُ مِنْ سَبِّ الصَّحَابَةِ إِلَى سَبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ، ثُمَّ آلِ الرَّسُولِ ﷺ؛ إِذْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَأَصْحَابُهُ مِثْلُ نَعْلَاءِ الْفَاعِلِينَ الضَّالِّينَ.

---

قال الشيخ:

بعد أن ذكر الصحابة العشرة، ذكر بقيّة الصحابة، وذكر زوجات النبيّ ﷺ،

---

(١) هو أبو بكر الباقلاني، محمد بن الطيب.

وقد تقدّم شيء من فضائل الصحابة جميعًا أو بعضهم، كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨]؛ وكانوا ألفًا وأربعمئة وزيادة، رضي الله عنهم. كذلك أخبر تعالى أنّه رضي عنهم في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، والآيات كثيرة

كما ورد فضلهم والحث على توقيرهم في أحاديث كقولهﷺ: **«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيده لو أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ»**[1]. هذا في الصحابة رضي الله عنهم، وما ذاك إلا أنّهم فاقوا غيرهم بالصحبة فلا يدركهم غيرهم ولا يصل إلى ما وصلوا إليه! لقد سبقونا وسبقوا من قبلنا، بصحبتهم لنبيّنا ﷺ، وبقتالهم وجهادهم، وبإيثارهم له، وبإنفاقهم أموالهم في سبيل نصره ونصر دينه، وبالتّعلّم منه والأخذ عنه، والالتزام بعده بالسنّة وتبليغها، والجهاد في سبيل الله معه وبعده. فمتى يدركهم غيرهم رضي الله عنهم.

هذا الحديث الذي أورده الشارح هو حديث غدير خمّ، الصحيح منه هو ما رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم ﷺ قال: «قام رسول الله ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا، بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بين مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ»، وذلك لما رجع النبيّ ﷺ من مكّة بعد

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥١).

حجّة الوداع، وأقبل على المدينة ففي أثناء الطريق نزلوا في موضع يقال له خمّ، وكان هناك غدير، فأقاموا عليه يومًا أو بعض يوم، فخطبهم، وأوصاهم في ذلك اليوم، وذكر لهم قُرب أجله، وكأنّ الله تعالى قد أطلعه على قرب وفاته، فقال: «أَمَّا بَعْدُ: ألا أَيُّهَا الناس فَإِنَّمَا أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رسول رَبِّي فَأُجِيبَ»، ورسول الله هو الملك الذي يقبض الروح، وأخلّف فيكم ما يقوم مقامي، «وأنا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله فيه الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»[1]، وصحيح أنّها المرجع، والذي يرجع إليه عند التنازع، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩]؛ أي: إلى الكتاب والسنّة.

هكذا قال: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدهما: كِتَابَ الله وَسُنَّتِي»[2]، وفي هذا الحديث: «وأنا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله فيه الْهُدَى وَالنُّورُ... فَحَثَّ على كِتَابِ الله وَرَغَّبَ فيه»، ثُمَّ قال: «وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي»، يقول الرواي: فقلنا لزيد: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ من أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قال: نِسَاؤُهُ من أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ من حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قال: وَمَنْ هُمْ؟ يعني: بني هاشم الذين لم تحلّ لهم الزكاة، فعدّ منهم «هُمْ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ»، فكأنّ زيدًا يقول: إنّه يقصد بذلك أقاربه أن يستوصى بهم خيرًا.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٦٩).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٢)، والدارقطني (٤/ ٢٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والحاصل أنّ في هذا الحديث أنّ أهل البيت هم بنو هاشم، وفيه شهادة زيد بن أرقم ﷺ أنّ نساء النبيّ ﷺ من أهل بيته. ولعلكم تسمعون الرافضة يقولون دائمًا: نحن نوالي أهل بيت الرسول ﷺ، أتعيبوننا بأنّنا نحبّ أهل بيته؟ أهو ذنب أنّ نحبّ أهل بيت النبيّ ﷺ؟ فهم يدندنون دائمًا بهذا الكلام. نقول: كذبوا. أهل بيته ﷺ يدخل فيهم نساؤه وهم يعادون نساءه - أو أغلب نسائه - أشدّ العداوة، ويدخل فيهم أعمامه وبنو عمّه العباس، وهم يعادون العباسيين، وذرّيتهم. ويدخل فيهم أقاربه من بني هاشم حتّى من ذريّة أبي لهب وأبي طالب وهما ماتا كافرين، لكن من ذرّيتهم من هو من بني هاشم من أقارب النبيّ ﷺ، ولكنّ الرافضة تتبرّأ منهم، ولا تحبّ إلا عليًّا وبعض ذريّته، فمحمد بن الحنفية لا يجعلون له ولاية، مع أنه ابن علي بن أبي طالب ﷺ.

إذًا فهل أهل بيته علي وولداه وذرّيتهم؟ أين نساؤه؟ ألسن هنّ في بيوته ﷺ؟ يقول تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. هذه البيوت التي قال الله قرن فيها، أليست بيوت النبيّ ﷺ؟ أليس الله تعالى يقول: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ما هي بيوت النبيّ ﷺ؟ هل هي بيوت خاصة غير بيوت أزواجه؟ النبي ﷺ لم يكن له إلا بيوت أزواجه، وهي التي أنزل فيها نساءه، فأهل بيته أقربهم نساؤه. ولا ننكر أنّ فاطمة من أهل بيته وكذلك زينب زوجة أبي العاص ورقيّة وأمّ كلثوم زوجتا عثمان هما أيضًا من أهل بيته، ولكن لا تعترف الرّافضة إلا بفاطمة فقط وأهل بيتها! أليس هذا خطأً، أليس هذا هو الغلط؟

بعد هذا نقول: نعرف أنّ واجب الصحابة، وواجب أمّهات المؤمنين على جميع المؤمنين؛ الترضّي عنهم، ومعرفة قدرهم وميزتهم، والاعتراف بحقّهم والاعتراف بفضلهم، ونقول: إنّ من أحبّ الصحابة وأحبّ أمّهات المؤمنين فهو - كما يقول الشارح -: (فَقَدَ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ)، وأنّ من أبغضهم فإنّ في قلبه نفاقًا.

ساق الشارح قصّة ابن السوداء، الذي هو عبد الله بن سبأ، أظهر محبّة عليّ ﷺ في البداية، وأظهر نصرته، لكنّه منافق؛ دخل في الإسلام متستّرًا من أجل أن يفسد على المسلمين دينهم، بل يفسد عليهم عقولهم! كان يهوديًّا، ولكنّه لما رأى الإسلام انتشر وتمكّن، غاظه ذلك، فعند ذلك فكّر في حيلة يفسد بها على المسلمين عبادتهم وديانتهم فأظهر التنسّك والتديّن، وأظهر الصلاح والموالاة، ثمّ أظهر محبّة عليّ ﷺ أوّل الأمر، وأظهر الثأر له، وسعى في الفتنة التي حصل بسببها قتل عثمان ﷺ، فهو الذي أثار أولئك الثوار أو كثيرًا منهم، وهو الذي اختلق مساوئ لعثمان ﷺ بأنّه فعل وفعل ونشرها بين الناس، فجمع جموعًا من العراق، وسار بهم إلى أن حاصروا عثمان ﷺ حتى قتلوه.

ولمّا بويع عليّ ﷺ أظهر ابن سبأ أوّل الأمر موالاته، ثمّ بعد ذلك فكّر في أن يفسد على أوليائه دينهم، فقال: إنّ عليًّا هو ربّكم! فلماذا لا تعبدونه، فاعبدوه، ما قال ذلك إلا ليفسد عليهم دينهم، فصدّقه خلق كثير من السبئيّة، ولما خرج عليٌّ ﷺ مرّة سجدوا له، وقالوا: أنت ربّنا! - تعالى الله -. فلم يقبل ﷺ ذلك، وطلب منهم التوبة عمّا يقولونه، وقال: توبوا. أنا ابن امرأة تأكل القديد، وأنا مولود وسوف أموت كيف تجعلونني ربًّا؟ ثم إنه لما رأى إصرارهم على ذلك أحرقهم،

فخدَّ لهم أخاديد، وجعل يستتيبهم، فتمسّكوا بمقالتهم، وقالوا: الآن عرفنا أنّك الرّب؛ لأنّك تعذّب بالنّار، ولا يعذب بالنّار إلا ربّ النّار. وكان يدعو بهم ويحرقهم، ويقول[1]:

لَـمَّا رَأَيْـتُ الأَمْـرَ أَمْـرًا مُنْكَـرًا ... أَجَّجْـتُ نَـارِي وَدَعَـوْتُ قَنْـبَرًا

وقنبر: غلام له. وهؤلاء هم أوّل الغلاة، ولا يزال لهم ورثة، يدّعون أن عليًا ﷺ الإله، حتّى يقول أحدهم:

أَشْـــــهدُ أن لا إِلـــــــه إلا ... حيـــدره الأنـــزع البطـــين

حيدرة: هو عليّ ﷺ.

ورثة هذا المنافق فرقة بعضهم موجود إلى الآن يسمّون الباطنية، ويسمّون أيضًا القرامطة، ولهم ثمانية أسماء مذكورة في بعض الكتب، تكلّم عنها ابن الجوزي في كتاب «تلبيس إبليس»، وأشهرها الباطنيّة؛ لأنّهم يبطنون غير ما يظهرون. يقول العلماء فيهم: ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض. حقيقة أنّهم لا دين لهم، دخلوا في الإسلام تستّرًا، وهمّهم أن يفسدوا عقائد النّاس، وقد ذكر الشارح مبدأهم، لمّا أنّهم صاروا على هذه العقيدة الفاسدة، ولا نتطرّق لها.

وقد ظهروا في آخر القرن الثالث، فلمّا تمكّنوا رأوا أنّ أهل العراق وأهل خراسان لم تمكّن فيهم حبّ آل البيت، فقالوا: نقتنصهم بهذه الحيلة، وكان ذلك بعد موت الحسن العسكري، الذي هو آخر خلفائهم وأئمّتهم الأحياء، والذي

---

(١) تقدم تخريج الأثر (٤/ ٥٦٥).

يدّعون أنّ ولده محمد بن الحسن دخل السرداب، فصاروا يقولون: نحن نذر بين يدي المهدي، والمهدي سيخرج قريبًا، فبايعونا على ما نحن عليه، وكان من أشهرهم قائد يقال له: ابن ديصان، وكان منزله في القطيف الآن، وقد اجتمع عليه خلق كثير، خرج مرة من العراق إلى القطيف، وفي الطريق رأى رجلاً يسوق له حُمُرًا، فقال له كلمات يدعوه بها، فقال: إنّني أدعو إلى نصرة المهدي، وأدعو إلى أمر فيه النصر، وكان ذلك الرجل يقال له: حمدان قرمط. فانخدع بابن ديصان هذا، وقال له: أنا الذي أتقبّل منك وأنصرك وأواليك، فأفشِ إليّ كلّ ما تريد، فصار حمدان هذا من أنصاره، وكثر أتباعه، وصارت النسبية إليه أكثر، حتّى سمّوا قرامطة نسبة إلى حمدان هذا، فكثروا وتمكّنوا، واستولوا على شرق الجزيرة العربية، حتى إنّ الخليفة العباسيّ أرسل إلى أميرهم يقول له: لا تخرج عن الطاعة، فإنّا سنقاتلك، فقال: إنّ عندي أكثر من مئة ألف يفدونني بأنفسهم، ثمّ قال لأحدهم: قم وألقِ نفسك من هذا الشاهق! فقام ذلك المسكين وألقى نفسه على أم رأسه، فسقط فمات. فقال: عندي مئة ألف كلّهم يفدونني كما فداني هذا، أتظنّ أنّي أخافك أيها الخليفة؟ فعظم أمر هذا القرمطي، وهو باطني، وتمكّنت دولتهم.

ولعلّكم تذكرون حادثتهم الشنيعة التي هي أشنع الأمور، وهي قتلهم الحُجّاج في الحرم المكّي وهم يطوفون بالحرم، في سنة سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة، عندما كان الحجاج يطوفون محرمين في يوم التروية، لم يشعروا إلا وقد سلّ ذلك القرمطي ورجاله سيوفهم، وجعلوا يقتلون الحجاج، فلاذوا بالكعبة، وتعلّقوا بأستارها، فقتلوهم وهم على تلك الحال، ولَم يبالوا بهم ولا بحرمة

البيت، ثمّ قذفهم في بئر زمزم حتّى امتلأ من القتلى، وامتلأت الساحة من القتلى - كان الله حسبه .

وكان من أمره أنّه خلع كسوة الكعبة وفرّقها بين أصحابه، وأصعد رجلًا ليقلع ميزاب الكعبة، لكنّه سقط فمات - عليه من الله ما يستحق - ثمّ قلع الملعون الحجرَ الأسود، وتوجّه هاربًا بمن معه يحمل الحجر الأسود، وبقي معهم اثنتين وعشرين سنة، إلى أن رُدّ في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، بعد أنّ هُدِّدوا وضعفت شوكتهم.

والرافضة هم ورثة القرامطة والباطنية، ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، كيف يوثق بهم، ويُدّعى بأنّهم إخوان لنا، وأنّهم من أهل الإسلام وأهل الولاية؟!

ومن مبادئهم التقيّة، وهي: أنّهم يلعنون الرافضة، ويلعنون الشيعة، ويترضّون عن الصحابة ظاهر أمرهم؛ ولكنّهم كالذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

عرفنا أنّ من أحبّ الصحابة رضوان الله عليهم، وأحبّ أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن وسار على نهجهم، فهو - إن شاء الله - بريء من النفاق؛ لأنّ حبهم تحمل على اتّباعهم وتقليدهم والعمل بسنّتهم، وأما بغضهم أو بغض أحد منهم، أو اتهامهم بالخيانة، فهذا سوء ظنّ بالله عزّ وجلّ بأنّه لم يحفظ كتابه،

يحفظ دينه، وتكذيب لقول الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]. فينتبه لمثل هذا، وليعلم أن محبّة الصحابة رضي الله عنهم براءة من النفاق، وقد ثبت أنّ النبيّ ﷺ قال في الأنصار: «**لَا يُحِبُّهُمْ إِلا مُؤْمِنٌ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إِلا مُنَافِقٌ**»[1]. وإذا كان هذا في حقّ الأنصار، فالمهاجرون بطريق الأولى. وكذلك نقول: نحن نحبّ أهل البيت ونحب عليًا وزوجته وأولاده، ونبرأ ممّن كفّرهم أو ضلّلهم، نحبهم ونشهد الله على محبّتهم، فبماذا تطعنون علينا يا معشر الرافضة؟ فإن قلتم: إنّ من أحبّ عليًا لزمه أن يبغض أبا بكر! قلنا: كذبتم! أبو بكر أخو عليّ وحبيبه، وقد مرّ بنا أنّ عليًا كان يؤدّب من فضّله على أبي بكر وعمر، والله لو خرج عليّ لأدّب هؤلاء الرافضة الذين يشتمون أجلاء الصحابة، ولنكّل بهم، ولكنّهم قوم لا يعقلون.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٥٠).

قال الطحاوي:

وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُم مِنَ التَّابِعِينَ ـ أَهْلُ الخَيرِ والأَثَرِ، وَأَهْلُ الفِقهِ وَالنَّظَرِ ـ لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بالجَميلِ، ومَنْ ذَكَرَهم بِسُوءٍ، فَهُوَ عَلى غَيْرِ السَّبيلِ.

---

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بَعْدَ مُوَالَاةِ الله وَرَسُولِهِ مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، خُصُوصًا الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، الَّذِينَ جَعَلَهُمُ الله بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ، يُهْدَى بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، إِذْ كُلُّ أُمَّةٍ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ عُلَمَاؤُهَا شِرَارُهَا، إِلَّا الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ، فَإِنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالْمُحْيُونَ لِمَا مَاتَ مِنْ سُنَّتِهِ، فَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا، وَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ اتِّفَاقًا يَقِينًا عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ. وَلَكِنْ إِذَا وُجِدَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَوْلٌ قَدْ جَاءَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِخِلَافِهِ: فَلَا بُدَّ لَهُ فِي تَرْكِهِ مِنْ عُذْرٍ.

وَجِمَاعُ الْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ:

أَحَدُهَا: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ.

وَالثَّانِي: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ أَرَادَ تِلْكَ المَسْأَلَةَ بِذَلِكَ الْقَوْلِ.

وَالثَّالِثُ: اعْتِقَادُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ مَنْسُوخٌ.

فَلَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا وَالْمِنَّةُ بِالسَّبْقِ، وَتَبْلِيغِ مَا أُرْسِلَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ إِلَيْنَا، وَإِيضَاحِ مَا كَانَ مِنْهُ يَخْفَى عَلَيْنَا، فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

---

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق بأئمّة المسلمين، وعلماء الدين، وعبّاد الأمّة وهداتها، الذين هداهم الله وسدّدهم وأرشدهم وبصّرهم بالحقّ، والذين ورثوا النبوّة وحملوا العلم عمّن قبلهم، ولقّنوه وعلّموه لمن بعدهم، قولاً وعملاً، وقد شهد النبيّ ﷺ لسلف الأمّة بالخير وبالفضل، فقال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَلُونَهُم»[1]، فهذه شهادة من النبيّ ﷺ لصدر هذه الأمّة بالخير، ولا شكّ أيضًا أنّهم يتفاوتون؛ وذلك لأنّ فيهم العلماء وفيهم العبّاد، ولا شكّ أنّ العلماء أفضل من العبّاد؛ ولهذا ورد في حديث أبي الدرداء المشهور: أنّ النبيّ ﷺ قال: «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ على سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٢).

(٢) أخرجه أبوداود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧٠٠).

ويقول بعضهم: ولعالم أشدُّ على الرحمن من ألف عابد. والعلماء هم ورثة الأنبياء، علماؤنا الذين تحمّلوا هذا العلم، نشهد أنّهم لم يكتموه، وأنّهم عملوا به، وأنّهم طبّقوه.

من الصحابة علماء أجلاّء عاملون بما قالوا، ونبغَ تلامذتهم فصاروا علماءَ مشهودًا لهم بالخير كالفقهاء السبعة الذين نظموا في هذه الأبيات[1]:

إِذَا قِيلَ مَنْ فِي العِلْمِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ... رُوَايَتُهُمْ لَيْسَتْ عَنِ العِلْمِ خَارِجَه

فَقُلْ هُمْ عُبَيْدُ اللهِ عُرْوَةُ قَاسِمٌ ... سَعِيدُ أَبُو بَكْرٍ سُلَيْمَانُ خَارِجَه

فأولهم: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، ابن عم عبد الله بن مسعود الصحابي.

والثاني: عروة بن الزبير بن العوّام، خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

والثالث: القاسم بن محمد بن أبي بكر عمّته عائشة رضي الله عنها.

والرابع: سعيد بن المسيّب التابعي المشهور العابد وهو قرشي الأصل.

والخامس: أبي بكر بن الحارث بن هشام من بني مخزوم من قريش.

والسادس: سليمان بن يسار، مولى مملوك ولكن قد منّ الله عليه بالعلم.

والسابع: خارجة بن زيد بن ثابت.

هؤلاء من أجلّاء علماء التابعين، ولهم من يروي عنهم.

واشتهر بعدهم أيضًا من صغار التابعين من لهم مكانة في العلم، ومكانة في الدين، فمن علماء المدينة: محمد بن مسلم الزهري، المعروف بابن شهاب،

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٣٤).

وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ويعرف: بربيعة الرأي. ومن علماء مكة: عطاء بن أبي رباح، مولى عتيق، ولكن منّ الله تعالى عليه بالعلم. وكذلك نبغ علماء أيضًا في سائر البلاد.

ورثهم أيضًا تلامذتهم، مثل: عبد الملك بن جريج، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، والأئمّة الأربعة المشهورون بالإمامة: في العراق أبو حنيفة، وفي المدينة مالك، وفي بغداد الإمام أحمد، وفي مكة ثمّ في مصر الشافعي، وفي مصر أيضًا الإمام الليث بن سعد، وفي الشام الإمام الأوزاعي، وأتباعهم وأشباههم.

نقول: هؤلاء أئمّة الدين، ولا يطعن فيهم إلا من هو ضالّ مضلّ، شهد لهم أتباعهم، وكذلك شهدت لهم الأمّة بأنّهم علماؤها، حمّلهم الله العلم، ولما تحمّلوه لم يكتموا، ولم يبتدعوا، ولم يغيّروا، بل كانوا على السنّة محاربين للبدعة، كلّما ظهرت بدعة أنكروها وأنكروا على أهلها، وشنّعوا عليهم، وحاربوهم، وكانت البدع في زمانهم مندحرة.

وقد قيل لابن المبارك - وهو عالم من علماء خراسان -: بماذا نعرف ربّنا؟ قال: بأنّه على عرشه فوق سمواته بائن من خلقه. وهذا تصريح بعقيدة أهل السنّة في زمانه، وردّ على المبتدعة لما ظهر في زمانه كثير من المبتدعين، مثل بشر المريسي ومحمد بن شجاع الثلجي وأحمد بن أبي دؤاد المبتدع المشهور، وأشباههم، خاف علماء السنة على الأمّة أن يقلّدوهم فأظهروا السنّة والأحاديث، وأظهروا الاستدلال بها، وبيّنوا المعتقد السليم الصحيح؛ حتّى لا يبقى للمسلم شبهة يشبّه بها هؤلاء المبتدعة، وأكثروا من الرواية للأحاديث التي تتعلّق بالعقيدة السلفيّة

السليمة الصحيحة؛ حتّى لا ينخدع أحد بما يموّه أولئك المبتدعة من أنّهم على حق أو صواب، فهدى الله بهم من أراد هدايته، وسلمت عقيدتهم وعقيدة أتباعهم.

هذا بالنسبة إلى أقوالهم في العقائد. فيذكر العلماء أنّهم متفقون في العقيدة، ولا يختلفون فيها، فلا يقال: مذهب أحمد في العقيدة كذا، ومذهب أبي حنيفة كذا؟ ولما كتب ابن تيميّة عقيدته الواسطيّة، وحصل جدال مع أهل زمانه، وكان السلطان حاضرًا، وأراد أن يفصل بينهم، فقال: إنّ على مذهب أحمد، ومذهب أحمد معترف به، وأنتم على مذهب أئمّتكم شافعية أو حنفية أو نحو ذلك، فعند ذلك قال ابن تيميّة رحمه الله: معاذ الله أن يكون للإمام أحمد مذهب خاص في باب العقيدة، بل هذه العقيدة مذهب الأئمّة كلّهم. ثمّ صنّف رسالة أخرى تسمّى «الفتوى الحموية» وتوسّع فيها، وذكر فيها أنّها قول الأئمّة كلّهم، فنقل عن أبي حنيفة، ومالك والشافعي والثوري وابن عيينة والأوزاعي، ثمّ نقل عن أتباعهم، وبيّن أنّهم متّفقون في باب العقيدة.

وأمّا المذاهب التي تفاوتت، فإنّما هي في الفروع الاجتهاديّة، التي هي الأعمال؛ لأن هناك أتباع للشافعية في الفروع، اجتهدوا كما اجتهد الشافعي واتّبعوه، وأنّ هناك أتباع لأبي حنيفة اتّبعوه، وأتباع لمالك اتّبعوه، وأتباع لأحمد، وأتباع للأوزاعي، ولكن هذا فيما يتعلّق بالفروع التي طريقها الاجتهاد.

وإذا قلت: لماذا حصل التفاوت، ولماذا حصل التمذهب، حتّى أدّى ذلك إلى التعصّب؟ فنحن نرى أنّ الشافعيّة يتعصّبون لمذهبهم، والحنفيّة يتعصّبون لمذهبهم، فلماذا هذا التعصّب، وهذا التمذهب، أليس الدليل واحدًا؟ أليس

الهدف والقصد واحدًا؟ نقول: نعم، الهدف واحد، ولكن هذه الأشياء حدثت بسبب الاجتهاد، ولما أنّ هؤلاء اختاروا قولاً، وكان لهم مشايخ وكتب يرجعون إليها، صار بعضهم يتمحّل في ردّ الأدلّة التي يستدلّ بهم خصومهم، ويتعصّب لمذهبه ومذهب إمامه، ونحن ننكر عليهم هذا التعصّب، ورد الأحاديث التي هي في غير مذهبهم، وهذا التعصّب حدث في المتأخّرين.

ومثال على ذلك «سنن البيهقي الكبرى». وفي ذيلها «الجوهر النقيّ في الردّ على البيهقي» لابن التركماني، فإن البيهقيّ عالم جليل محدّث حافظ، ولكنّه شافعي المذهب، فإذا جاء إلى المسألة التي فيها المذهب الشافعي استوفى الأحاديث التي فيها، ولا يزيد على الاستيفاء، وإذا خالف مذهبه مذهب أبي حنيفة، فإنّ المعلّق - وهو ابن التركماني الحنفي - يتعصّب تعصّبًا شديدًا، ويردّ تلك الأحاديث. نحن نعذر الإمام أبي حنيفة في مخالفته لتلك الأحاديث وتلك الأدلّة، فنقول: إما أنّها لم تبلغه، وإمّا أنّها لم تثبت عنده عندما بلغته، وإمّا أنّها بلغته ولكن ثبت عنده ما ينسخها وما يخالفها وإن لم يثبت عند غيره، فذهب إلى خلافها فهو معذور لكن لا يعذر أتباعه الذين تعصّبوا له، وتشدّدوا في نصر مذهبه، بل ردّوا الأحاديث كما يفعل ابن التركماني صاحب الجوهر النقيّ.

أمّا المقتصدون منهم فإنهم لا يتعصّبون؛ فمثلاً الإمام الزيلعي صاحب «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية»، يذكر أحاديثهم التي تؤيّد مذهب الحنفيّة، ثمّ يذكر أحاديث من خالفهم ولا يتشدد في ردّها، ولا في تعقّبها، وهذا بلا شكّ من الإنصاف.

وبكل حال نقول: إنّ الأئمّة والعلماء من هذه الأمّة، هم خير هذه الأمّة، فضلهم ظاهر؛ لأنّهم حفظوا على الأمّة دينها، ومن نصحهم للأمّة أنّهم دوّنوا ما علموه، فدوّنوا فقههم وأحكامهم والأحاديث التي بلغتهم، وبيّنوا وجهتهم واجتهاداتهم، وكلّ هذا نصح وشفقة للأمّة، فرضي الله عنهم، وجزاهم خيرًا عن هذه الأمّة، فهم أفضل هذه الأمّة، وقد ذكر الله عن الأمم السابقة أنّ علماءهم فيهم المخالفة الشديدة، فقال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١]؛ الرهبان: هم العُبّادُ، والأحبار هم العلماء. ويقول الله تعالى في أهل الكتاب: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨]؛ ذمّهم بأنّهم يكذبون، وأنّهم يقولون على الله ما لَم يقل، وأنّهم يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه، وأنّهم كتموا ما أنزل الله. ذمّهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

أمّا هذه الأمّة، فإنّ علماءها نصحوا للأمّة، وبيّنوا لهم طريق الصواب، وجزاهم الله عن الأمّة خيرًا، ونحن نقول كما قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلَا نُفَضِّلُ أَحَدًا مِنَ الأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَنَقُولُ: نَبِيٌّ وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الأَوْلِيَاءِ.

---

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ الله - إِلَى الرَّدِّ عَلَى الِاتِّحَادِيَّةِ وَجَهَلَةِ المُتَصَوِّفَةِ، وَإِلَّا فَأَهْلُ الِاسْتِقَامَةِ يُوصُونَ بِمُتَابَعَةِ الْعِلْمِ وَمُتَابَعَةِ الشَّرْعِ. فَقَدْ أَوْجَبَ الله عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ مُتَابَعَةَ الرُّسُلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ [النساء:٦٤]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ: مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا، نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ، نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا تَرَكَ بَعْضُهُمْ شَيْئًا مِنَ السُّنَّةِ إِلَّا لِكِبْرٍ فِي نَفْسِهِ.

وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِلْأَمْرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، كَانَ يَعْمَلُ بِإِرَادَةِ نَفْسِهِ، فَيَكُونُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ، بِغَيْرِ هُدًى مِنَ الله، وَهَذَا غِشُّ النَّفْسِ، وَهُوَ مِنَ الْكِبْرِ، فَإِنَّهُ شَبِيهٌ بِقَوْلِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَظُنُّ أَنَّهُ يَصِلُ بِرِيَاسَتِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي الْعِبَادَةِ، وَتَصْفِيَةِ نَفْسِهِ، إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعٍ لِطَرِيقَتِهِمْ!.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ صَارَ أَفْضَلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ!!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ الْعِلْمَ بِالله مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ!! وَيَدَّعِي لِنَفْسِهِ أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ!! وَيَكُونُ ذَلِكَ الْعِلْمُ هُوَ حَقِيقَةُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ الْمَشْهُودَ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ، لَيْسَ لَهُ صَانِعٌ مُبَايِنٌ لَهُ، لَكِنَّ هَذَا يَقُولُ: هُوَ الله! وَفِرْعَوْنُ أَظْهَرَ الْإِنْكَارَ بِالْكُلِّيَّةِ، لَكِنْ كَانَ فِرْعَوْنُ فِي الْبَاطِنِ أَعْرَفَ بِالله مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ كَانَ مُثْبِتًا لِلصَّانِعِ، وَهَؤُلَاءِ ظَنُّوا أَنَّ الْوُجُودَ الْمَخْلُوقَ هُوَ الْوُجُودُ الْخَالِقُ، كَابْنِ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالِهِ!! وَهُوَ لَمَّا رَأَى أَنَّ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ لَا سَبِيلَ إِلَى تَغْيِيرِهِ - قَالَ: النُّبُوَّةُ خُتِمَتْ، لَكِنَّ الْوِلَايَةَ لَمْ تُخْتَمْ! وَادَّعَى مِنَ الْوِلَايَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَمَا يَكُونُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مُسْتَفِيدُونَ مِنْهَا! كَمَا قَالَ:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ ... فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ[1]

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٣٥) يصف أحوال غلاة الصوفية: «وهم في الحلول والاتحاد نوعان: نوع يقول بالحلول والاتحاد العام المطلق؛ كابن عربي وأمثاله، ويقولون في النبوة: إن الولاية أعظم منها؛ كما قال ابن عربي:

مقام النبوة في برزخ ... فويق الرسول ودون الولي».

وقال في «رسالة في الرد على ابن عربي» (ص٢٠٥): «وهم مع هذا الكفر والتعطيل الذي هو شر من قول اليهود والنصارى، يدَّعون أن هذا العلم ليس إلا لخاتم الرسل، وخاتم الأولياء الذي يدَّعونه، وأن خاتم الأنبياء إنما يرى هذا العلم من مشكاة خاتم الأولياء، وأن

وَهَذَا قَلْبٌ لِلشَّرِيعَةِ، فَإِنَّ الْوِلَايَةَ ثَابِتَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]. وَالنُّبُوَّةُ أَخَصُّ مِنَ الْوِلَايَةِ، وَالرِّسَالَةُ أَخَصُّ مِنَ النُّبُوَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

هذا الكلام في الردّ على غُلاة الصوفيّة، وأهل وحدة الوجود، وهم مبتدعة، نشأ أوّلهم في أواخر القرون المفضّلة، ثمّ انتشروا وكثروا في أواسط القرون، وصار لهم مذاهب ونحل، ولا يزال لهم أتباع يدعون إلى طرقهم ومذاهبهم.

فمن فمذاهبهم: طريقة النقشبنديّة، والشاذليّة، والتيجانية، ولهذه الطرق دعاة يدعون إليها، ويسمون أنفسهم الصوفية، والكلام عليهم قد استوفاه الأئمّة المتقدّمون والمتأخّرون، فمن أوسع من تكلّم على الصوفية من المتقدّمين ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»، فإنّه لما تكلّم على الصوفيّة جعل فيهم نصف الكتاب أو قريبًا منه، مع أنّ الكتاب فيه ذمّ كلّ من عنده بدعة أو نِحْلَةٌ في زمانه، ولكنّه حمل على الصوفيّة، ولعلّه حمل عليهم لكثرتهم في زمانه، وذكر أشياء كثيرة منتقدة من طرقهم.

---

=

خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى خاتم الأنبياء».

وفي زماننا كتب فيهم عالم مصريّ هو عبد الرحمن الوكيل كتابين: الأول «صوفيّات»، والثاني «هذه هي الصوفيّة». وفضح مناهجهم وطرقهم، ولعلّه شاهد عباداتهم في بلاده، فإنّهم منتشرون في مصر وفي السودان، وطرقهم متمكنة في أكثر البلاد الإفريقيّة، ولهم أتباع كُثُرٌ، ويمدحون أنفسهم وطريقتهم، ويدّعون أنّهم الذين حفظوا الإسلام، وكافحوا ونافحوا عنه، وأنّهم هم الذين قاموا به أتمّ قيام، ودعوا إليه وبلّغوه، والذين هدى الله بهم من أراد هدايته، وأنقذ بهم من أراد به خيرًا. هكذا يقولون. وكذلك انتشروا في هذه البلاد، فيوجدون في الحجاز وشرق الجزيرة العربية، وهناك من يؤيّدهم ويتبّعهم وإن لم يكن على نحلتهم.

حدثت الصوفيّة في أواخر القرن الثاني، وكثروا في القرن الثالث. ولكن الصوفيّة الذين في هذين القرنين، لم يكن عندهم بدع، وسمّاهم السلف رحمهم الله صوفيّة؛ لأنّهم رضوا بالتخشّن والتقشّف والزهد، وصاروا يلبسون ثياب الصوف الخشنة، من دون أن يلبسوا معها ما يقيهم خشونتها، وذلك من باب التقشّف والزهد.

اشتهر منهم علماء وعبّاد في صدر هذه الأمّة، فمنهم: إبراهيم الخوّاص: عابد مشهور متنسّك، وإبراهيم بن أدهم الذي له حكايات ووقائع مشهورة، والجنيد بن محمد، وبشر الحافي، هؤلاء يسمّون صوفيّة في زمانهم، ولكن ليسوا على معتقد الصوفيّة المتأخّرين، بل هم زهّاد وعبّاد، ومبتعدون عن شهوات الدنيا وزينتها، مقبلون على العبادة، لا يريدون الدّنيا، ويقنعون منها باليسير. حتّى ذكروا أنّ بعضهم سمّى إبراهيم الخوّاص؛ لأنّه كان يأكل من كسب يده، يتتبّع ما يلقيه

النّاس من الخوص، ثمّ ينسجه، فيبيع منه بقدر ما يقتاته، ويصرف بقيّة وقته للعبادة. فهؤلاء ليسوا مذمومين، خلافًا لبعض المتأخرين الذين أدخلوا كل من كان صوفيًا، أو أطلق عليه اسم صوفي أدخلوه في الذّمّ.

أمّا متأخّروهم، فمنهم علماء معتبرون، ولكن دخل عليهم شيء من البدع المتأخّرة، ولعلّكم قرأتم شيئًا من رسائل الحارث المحاسبي، تتعلّق بالتصوّف ومحاسبة النّفس وما أشبهها، والحارث هذا: معه علم وزهد، ولكن دخل عليه - بسبب قلّة علمه - شيء من بدع المتصوّفة ونحوهم، ولكن لم تصل بدعته إلى بدعة المتصوّفة المتأخّرين، فلأجل ذلك أُنكِر عليه بعض الأشياء ولكنّها قليلة، وهو على طريقة الصوفيّة المتقدّمين، وهم أهل العبادة والزهد.

كذلك كان أوّل من انتقد في وسط القرن الثالث الشبلي، وهو عابد من العبّاد، وله أشعار في الزهديّات، ولكن حفظ عليه بعض الأشياء التي انتقدت عليه. وكذلك أبو يزيد البسطامي، وقد نقل عنه أشياء يُفهم منها أنه على طريقة أهل الاتّحاد. فنقل عنه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» أشياء مستنكرة؛ منها: أنّه سُمع يقول: سبحاني سبحاني ما أعظم شاني. ومنها: أنّه كان مرّة يمشي ووراءه أُناسٌ، فالتفت إليهم وقال: إنّني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون. فمقالاته هذه بعضهم حملها على أنّه زاد به الوجدان أو الذّوق فيما يقولون، فصار إلى هذه الحالة. وتأوّلها بعضهم بأنّه يحكي عن الله، وما أشبه ذلك.

ولكن أكثر ما أنكر العلماء على أحد الذين كانوا في آخر القرن الثالث وهو الحسين الحلاّج، الذين يحكون عنه عجائب، يحكون عنه وقائع بشعة عظيمة.

ومن يقرأ ترجمته في تاريخ ابن كثير يجد عجائب، وحيلاً يحتال بها على الناس وأنّه وليّ. وأجمع أهل زمانه على أنّه محكوم بقتله، فقُتل، ولو أنكر ذلك من أنكر.

في الكلام الذي مرّ بنا: ذهب بعض المبتدعة إلى أنّ الأولياء أفضل من الأنبياء! ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦]، لأولياء بمَ صاروا أولياء، ومتى نزل عليهم الوحي؟ ومتى تولاّهم الله وصاروا أولياءه إلا لما اتّبعوا رسُله وأطاعوهم، واتّبعوا شريعته، فتولاّهم الله، وتولّى توفيقهم وحفظهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧]؛ وليّهم: حافظهم، وهو الرقيب عليهم، وهو الموفّق لهم. وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢]؛ حزب الله: هم جنده وعباده الصالحون، وهم الذين يحبّهم ويحبّونه، وهم الذين شهد لهم بولايته، وبالأهليّة لأمره ولتقبّل شرعه.

وعلى هذا، فالنّاس قسمان: وليٌّ لله، وعدوّ لله. لا يخرج أحد عن هذين القسمين. ومن تولاّه ربّه حفظه. ومن عاداه ربّه خلّى بينه وبين نفسه، فصار وليًا للشياطين، تستهويه وتستحوذ عليه وتغويه وتؤزّه إلى الشرّ أزًّا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

فعلى هذا من لم يكن وليًا لله، فهو وليّ للشيطان، وعلى هذا المنوال وضع شيخ الإسلام ابن تيميّة كتابه المشهور الذي طُبع عدّة مرار واسمه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، جعل هذا الكتاب في بيان أولياء الله وحالتهم، وأولياء

الشيطان وعلامتهم، وبيّن أنّ كلّ من آمن بالله واتّقاه حقّ تقواه فهو وليّ لله تعالى، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]. الله تعالى ذكر أنّ أولياءه هم المؤمنون المتّقون وذكر ثوابهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢-٦٣]. لا تفسّرُ ولاية الله إلا بما فسّرها به سبحانه، أولياء الله هم الذين آمنوا وهم الذين يتّقون، فكلّ من حقّق الإيمان؛ بالرّب وبالبعث وبالملائكة، وبالرّسل، وبالكتب، وبالقدر خيره وشرّه، والإيمان بكلّ ما أخبر به الله، وكذلك ظهرت عليه آثار هذا الإيمان من العمل والاستعداد، وكذلك حقّق تقوى الله من مخافته ورجائه، وعمل بطاعته، فإنّه من أولياء الله. وأمّا من خالف ذلك فلم يطع أمر الله وخالفه وعصاه، فإنّه من أولياء الشيطان.

إذًا أولياء الله هم كلّ المؤمنين، وكلّ المتّقين. هذا مُعتقدُ أهل السنّة والجماعة. وقد ذكر النبيّ ﷺ في الحديث القدسي ولاية الله، وذكرها الصحابة رضي الله عنهم، قال تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[1] فجعل وليّ الله هو من يواليه ويتولاّه، ومن يعاديه فهو حرب لله، وأيّ شخص يقوى على محاربة الله؟ صريح الحديث: أنّ أولياء الله يتولاّهم ربّهم و... هم ويحميهم ويعزّهم ... من خالفهم، و... من خرج عليهم. وكذلك في القرآن

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥].

فإذا كان الله وليّنا، فإنّنا أولياء الله. وإذا كان الرّسول وليّنا، فنحن نتولاّه. وإذا كان المؤمنون أولياء بعض، فإنّهم أولياء الله. ذكر الله تعالى ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]؛ يعني: ينصر بعضهم بعضً يؤيّد بعضهم بعضًا، ويحمي بعضهم بعضًا، ويتناصرون فيما بينهم؛ لأنّهم جميعًا أولياء الله، فكلّ منهم يتولّى الآخر وينصره، ويحرصون على اكتساب ولاية الله بهذه الأمور، التي هي: ولاية من يتولاّه الله، ومحبّته ونصرته، والقرب منه. يقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أَحِبَّ في الله وأبغض في الله، وَوَالِ في الله، وَعَادِ في الله، فإنما تُنَالُ وِلايَةُ الله إلا بِذَلِكَ»[1]. فمن أراد أن ينال ولاية الله فليحبّ أولياءه، وليوالهم وليقترب منهم. وليعاد أعداء الله، ويبتعد عنهم، ويقاطعهم، فبذلك ينال ولاية الله له، ويكون من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

دائمًا يذكر الله أنّ المؤمنين ولو تفاوتت أنسابهم وبلادهم وألوانهم، فإنّ بعضهم يتولّى بعضًا، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٤)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٩٦).

كما أنّ الكفّار بعضهم أولياء بعض، ينصر بعضهم بعضًا، كما ذكر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[الأنفال: ٧٣]؛ يعني: لا تتولّوا أعداء الله، بل يكفيكم أن تكونوا جميعًا أولياء لله وأولياء لبعضكم، يكفيكم أن تكونوا من أولياء الله. هذه عقيدتنا التي نرجو أن نتوفّى عليها، وهي أنّ المسلمين والمؤمنين بعضهم أولياء بعض، وأن من تولّى الله، فإنّه من أولياءنا، وأنّ جميع من آمن واتّقى، فهو من أولياء الله.

وقد ذهبت الصوفيّة إلى أنّ هناك أولياء مخصّصين يسمّون الأولياء، وأنّ أكثريّة المؤمنين لا يصلون إلى درجة الولاية، وجعلوا هذا الذي سمّوه وليًّا أرفع رتبةً من النبيّ، وجعلوا النبيّ أرفع رتبة من الرّسول، وهذا مخالفة لشرع الله، وقد مرّ بنا في الشرح البيت الذي يستشهدون به:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ ... فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ

فجعلوا النبوّة منزلة وسطى، وجعلوا الرّسول المنزلة الدنيا، وجعلوا الولي المنزلة العليا وهو الأرفع. وفضّلوا كثيرًا ممّن سموهم أولياء على جميع الرّسل والأنبياء، وقالوا: إنّ الوليّ غنيّ عن الشرع، وغنيّ عن القرآن، وغنيّ عن هذا الدين، لماذا؟ لأنّ له ولاية رفعته إلى رتبة عالية، فأصبح يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي ينزل على الأنبياء والرّسل. فروح هذا الوليّ تتّصل بالملأ الأعلى، وتطّلع على اللوح المحفوظ، وتأخذ منه المعلومات، وتنال منه مرادها، ويستغني الوليّ عن الشرع، وعن هذا القرآن، وعن هذه العبادات كلّها. ولأجل

ذلك جعلوه في رتبة عالية، وقالوا: إنّه يأخذ بسرّه أو بسريرته، وأنّه يحدّثه قلبه عن ربّه، كما يقول بعض الأولياء: حدثني قلبي عن ربّي. ويسمّون ذلك سرًّا أو باطنًا من البواطن التي لا يُطْلِعون عليها غيرهم، ينقل ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «إغاثة اللهفان»[1] عن أقوالهم:

إِنْ قُلْتَ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ ... هَمَزُوكَ هَمْزَ المُنْكَرِ المُتَغَالِي

أَو قُلْتَ قَدْ قَالَ الصَّحَابَةُ والأُلَى ... تَبَعُوهُمُ فِي القَوْلِ وَالأَعْمَالِ

أَو قُلْتَ قَالَ الآلُ آلُ المُصْطَفَى ... صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ أَفْضَلُ آلِ

أَو قُلْتَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ... وَأَبُو حَنِيْفَةَ وَالإِمَامُ العَالِي

أَو قُلْتَ قَالَ صِحَابُهُم مِنْ بَعْدِهِم ... فَالكُلُّ عِنْدَهُمُ كَشِبْهِ خَيَالِ

لا يعتبرون بذلك كلّه ويقولون:

وَيَقُولُ قَلْبِي قَالَ لِي عَنْ سِرِّهِ ... عَنْ سِرِّ سِرِّي عَنْ صَفَا أَحْوَالِي

عَنْ حَضْرَتِي عَنْ فِكْرَتِي عَنْ خَلْوَتِي ... عَنْ شَاهِدِي عَنْ وَارِدِي عَنْ حَالِي

عَنْ صَفْوِ وَقْتِي عَنْ حَقِيْقَةِ مَشْهَدِي ... عَنْ سِرِّ ذَاتِي عَنْ صِفَاتِ فِعَالِي

دَعْوَى إِذَا حَقَّقْتَهَا أَلْفَيْتَهَا ... أَلْقَابَ زُوْرٍ لُفِّقَتْ بِمُحَالِ

نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ خَلْفَ ظُهُورِهِم ... نَبْذَ المُسَافِرِ فَضْلَةَ الأَكَّالِ

فهذه الاصطلاحات هي التي يتحدّثون بها، ويقولونها، ويدّعون أنّهم تفوّقوا

---

(١) (١/ ٢٣٢)

بها على الإسلام والمسلمين، وعلى أولياء الله من الصحابة والتابعين ونحوهم، ويستغنون بها ـ في زعمهم ـ عن الشرع الشريف وعن أهله، وقد حدث من آثار ذلك أنّهم عظّموا أولئك الذين ظنّوا أنّهم أولياء، أو ادّعوا فيهم الولاية، وعبدوهم من دون الله، فما عبدت القبور إلا لهذا السبب، فإنّ الشيطان صار يزيّن لهم أنّ هذا وليّ، وقد سقطت عنه التكاليف، وأنّه لا حرج عليه فيما يفعل، وأنّه قد ارتقى قلبه إلى ربّه، وأنّه مستغن عن الشرع وأهل الشرع.

ذكروا أنّ ما يسمونه بالسيّد البدوي يعتقدون أنّه لا يدخل مصر حبّة قمح إلاّ بعد أن يأذن فيها، فهو الذي يتصرّف في هذا كلّه، وعندهم أنّه مالك الملك ـ تعالى الله عنه ذلك ـ فلأجل ذلك أصبح معظّمًا معبودًا. وقد حكي بعض المشايخ أنه دخل المسجد والنّاس في الصلاة، فبال فيه، وخرج ولم يصلّ، فتبعوه وقالوا: مجذوب، قلبه عند ربّه، وجعلوا يتمسّحون به! وأمثاله كثير. لدرجة أنّهم لا يكون عليهم حرج، يسمّونهم بالأولياء ولا حرج عليهم.

وقد أشار إليهم الصنعاني ـ رحمه الله ـ بقوله[1]:

كَقَوْمٍ عُرَاةٍ فِي ذُرَى مِصْرَ مَا تَرَى ... عَلَى عَوْرَةٍ مِنْهُمْ هُنَاكَ ثِيَابُ

يَدُورُونَ فِيهَا كَاشِفِينَ لِعَوْرَةٍ ... تَوَاتَرَ هَذَا لَا يُقَالُ كِذَابُ

يَعُدُّونَهُمْ فِي مِصْرَ هُمْ مِنْ خِيَارِهِمْ ... دُهَاؤُهُمْ فِيمَا يَرَوْنَ نُجَابُ

يمشون عراة ويقولون: لا حرج عليهم، قلوبهم في الملأ الأعلى، هكذا

---

(١) انظر: الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص٢٥٤).

وصلت الحال إلى أنهم أسقطوا عنهم التكاليف، فإذا رأوا مجنونًا من المجانين الذين رفع القلم عنهم لفقد عقله، أخذوا يتمسّحون به ويقولون: هذا وليّ من أولياء الله. وإذا مات أحدهم فشيّع زعموا أنّ الملائكة تحمله، إذا جعلوه فوق متونهم على النّعش يُخيّل إليهم أنّه ارتفع عن المناكب، وأنّه يطير في الهواء على نعشه، وكلّ هذا تخييل من الشيطان.

وهكذا حال كلّ الذين عبدوا من دون الله بهذه الطريقة: أنّهم ما عبدوا إلا بسبب أنّ الجهلة غلوا فيهم، واعتقدوا فيهم أنّهم أولياء الله من دون النّاس.

وفي هذه الجزيرة، قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، كان هناك قبور يدّعون أنّها قبور لأولياء من أولياء الله، ذكر بعضهم الشيخ في رسالته «كشف الشبهات»؛ فمنهم رجل يسمّى شمسان، ولم يذكروا تفصيلًا عن حالته، وقبر يسمّى قبر يوسف، وآخر يسمّى قبر تاج، كذلك أيضًا ذكرهم ملا علي بن ملا عمران في قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

جَاءَتْ قَصِيدَتُهُمْ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي ... فِي سَبِّ دِينِ الهَاشِمِيّ مُحَمَّدِ

إلى أن قال:

الشَّيْخُ شَاهَدَ بَعْضَ أَهْلِ جَهَالَةٍ ... يَدْعُونَ أَصْحَابَ القُبُورَ الهُمَّدِ

تَاجًا وَشَمْسَانًا وَمَا ضَاهَاهُمَا ... مِنْ قُبَّةٍ أَوْ تُرْبَةٍ أَوْ مَشْهَدِ

إذا جاءهم الشيطان، وقال: هذا وليٌّ تبرّكوا به ما دام حيًا، وإذا مات فاعبدوه، فعبدوه من دون الله، وكثرت بذلك المعبودات، وانتشرت في كثير من البلاد؛ ففي العراق يعتقدون ولاية عبد القادر الجيلاني، وهو عبد صالح عالم

من العلماء، إلا أنّه لم يكن له صنعة في علم الشريعة، وفي علم الحديث، ولأجل ذلك لا يميّز بين صحيح الحديث وسقيمه. ولعلّكم قرأتم شيئًا في كتابه «الغنية» مما يدلّ على أنّه لم يكن متمكّنًا من علم السنّة، ولكن كان من أهل السلوك، ومن أهل التصوّف والعبادة؛ ولأجل ذلك غلوا فيه، وادّعوا أنّه وليّ، وصاروا ينقلون عنه أشياء من خوارق العادات، ليست صحيحة بل هي مكذوبة مختلقة، ليس لها أصل.

فمن ذلك أنّ امرأة مات ابنها، فأتت إليه وقالت: إنّ ابني مات، وليس لي غيره، فادعُ الله أن يحييه! فقال: سأفعل، ثمّ إنّه طار في الهواء حتّى أدرك ملك الموت وقد قبض أرواحًا وجعلها في زنبيل، فقال: ردّ روح هذا الميت! فلما لم يفعل، أخذ الزنبيل وأسقط ما فيه من الأرواح، فحيي كلّ من مات في ذلك اليوم!!!، وهذه خرافة من خرافاتهم. ومن ذلك ما ذكروا أنّه أُتي بكبش مطبوخ أو مشوي، فقال: كلوا ما عليه من اللحم، ولا تزيلوا عظامه، فلمّا أكلوا اللحم كلّه، قال: قم يا كبش بإذن الله! فقام الكبش ينفض شعره وجلده!! وهذه أيضًا خرافة لا أصل لها، وقد لفّقوا عليه الكثير من مثل هذه الأكاذيب، وادّعوا أنّه وليّ من أولياء الله، وأنّه أفضل من الأنبياء، وأنّه يدّعي له العصمة، وأنّه معفو عن التكاليف.

والذين ترجموا له من أولئك المخرّفين جعلوه من أهل وحدة الوجود، ولا شكّ أنّه - إن شاء الله - بريء من هذا كلّه، بل هو من العبّاد، ولكن لما ظهر على يديه شيء من الكرامات ادّعوا أنّه وصل إلى هذه الدرجات، وولّدوا عليه

هذه الأكاذيب، التي كان من نتيجتها أنّه صار معظّمًا يعبد في أقطار البلاد مثل أفريقيا والهند والسند والعراق والشام، وغالبًا أن ذكر عبد القادر على الألسن كثيرًا، حتّى سمعت رجلاً في عرفة في الحجّ يهتف: يا عبد القادر خذ بيدي، أنجني، اغفر لي. فنصحته وقلت: ومن هو عبد القادر؟ فقال: السيّد عبد القادر الجيلاني، ولي الله، الذي يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، ويملك أزمّة الأمور، يغفر لمن يشاء، ويعذّب من يشاء، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، فقلت له: ومن ربّ النّاس قبل عبد القادر؟ ولماذا لم يردّ عبد القادر عن نفسه الموت؟ وأين عبدالقادر الآن حتّى نعرف حالته؟ مخلوق خلق من ماء مهين، ثمّ تمتّع في الدنيا كما تمتّع غيره. ولكنّ ذلك الشخص ذهب يقول لي: أنت تسقط قدر أولياء الله، أنت لا ترى لأولياء الله فضلًا، أولياء الله فيهم وفيهم، وهم أحياء عند ربّهم يرزقون، فعرفت أنّه لا حيلة فيه، فذهبت أقول له: إنّي كفرت بك يا عبد القادر، فافعل بي ما تشاء. فقبض على رأسه، وظنّ أنّي سأموت في لحظتي، هذا ما زيّن لهم الشيطان.

وفي اليمن وليٌّ يقال له ابن علوان، يذكرون أيضًا أنّه من العلماء، ولكن لما مات، جاء الشيطان، وقال: هذا قبر ابن علوان، وهو وليّ من أولياء الله، فالآن يُدعى في أكثر الأماكن هناك، وإن كان في الزمن الأخير قد جاءتهم كتب أئمّة الدعوة، فانتبهوا إلى ذلك.

فعلى كل حال هذه هي الولاية التي أوقعها الشيطان في قلوب هؤلاء، وزيّن لهم أنّها مرتبة رفيعة، فانخدع بها هؤلاء حتّى عبدوا المخلوقين من دون الله، والآن

يذكر لنا الكثير أنّ هناك قبورًا تُعبد في العراق وفي أفغانستان وفي باكستان وفي الهند والسند، وفي عدد من البلاد العربية مثل سوريا ومصر ولبنان واليمن، ولا حقيقة لتلك القبور! حتّى ذكروا أنّ بعضهم مات له حمار، فدفنه ثمّ جاء إلى أهل البلد، وقال: هذا وليّ من أولياء الله، فقالوا: من هو؟ فسمّى لهم اسمًا، فعُبد قبر ذلك الحمار، وصار يُتبرّك بتربته، ولا شكّ أنّ هذا من وسوسة الشيطان.

مع ذلك، فهناك أناس ادّعي فيهم أنّهم أولياء لله تعالى، وهم ليسوا أولياء بل أعداء الله، ومنهم ملاحدة أهل وحدة الوجود، وفي تراجمهم من المبالغة والمديح العظيم لهم ما ليس بحقّ.

فهذا ابن عربي الاتّحادي على طريقة الحلاج، الذي يقول: إنّ وجود الخالق هو وجود المخلوق، وعين الخالق عين المخلوق ـ تعالى الله عن ذلك ـ ومع ذلك يذكرون في ترجمته من الثناء عليه والمديح له، والمبالغة في أمره، حتّى من بعض أهل السنّة من الحنابلة مثل ابن العماد الحنبليّ، لما أتى على ترجمة ابن عربي هذا جعل يروي عنه الحكايات التي تدلّ على أنّه مستجاب الدعوة، وأنّه مقرّب عند الله، وأورد له أقاويل، بينما الذين ترجموه من أهل العلم كابن كثير في «البداية والنهاية» بيّنوا حقيقته، وذكروا أنّه اتحاديّ ملحد، يقول بوحدة الوجود فلا يغترّ بمن مدحه أو أثنى عليه.

وعلى هذا نحذر من أمثال هؤلاء الذين يفضّلون أولياء الله على أنبيائه، ونعرف أنّ نبيًا واحدًا أفضل من جميع من يسمّون أولياء.

قال الشارح:

وَقَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ أَيْضًا فِي فُصُوصِهِ: وَلَمَّا مَثَّلَ النَّبِيُّ ﷺ النُّبُوَّةَ بِالحَائِطِ مِنَ اللَّبِنِ فَرَآهَا قَدْ كَمُلَتْ إِلَّا لَبِنَةً، فَكَانَ هُوَ ﷺ مَوْضِعَ اللَّبِنَةِ[1]، وَأَمَّا خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَةِ، فَيَرَى مَا مَثَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَيَرَى نَفْسَهُ فِي الحَائِطِ فِي مَوْضِعِ لَبِنَتَيْنِ!! وَيَرَى نَفْسَهُ تَنْطَبِعُ فِي مَوْضِعِ اللَّبِنَتَيْنِ، فَيُكْمِلُ الحَائِطَ!! وَالسَّبَبُ المُوجِبُ لِكَوْنِهِ يَرَاهَا لَبِنَتَيْنِ: أَنَّ الحَائِطَ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَاللَّبِنَةُ الْفِضَّةُ هِيَ ظَاهِرُهُ وَمَا يَتْبَعُهُ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، كَمَا هُوَ أَخْذٌ عَنِ اللهِ فِي الـ ـرْعِ مَا هُوَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ مُتَّبَعٌ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى الْأَمْرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَرَاهُ هَكَذَا، وَهُوَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ الذَّهَبِيَّةِ فِي الْبَاطِنِ! فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ المَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ المَلَكُ الَّذِي يُوحِي إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ، قَالَ: فَإِنْ فَهِمْتَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فَقَدْ حَصَلَ لَكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ!!

فَمَنْ أَكْفَرُ مِمَّنْ ضَرَبَ لِنَفْسِهِ المَثَلَ بِلَبِنَةِ ذَهَبٍ، وَلِلرُّسُلِ المَثَلَ بِلَبِنَةِ فِضَّةٍ، فَيَجْعَلُ نَفْسَهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ مِنَ الرَّسُولِ؟! تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦]، وَكَيْفَ يَخْفَى كُفْرُ مَنْ هَذَا كَلَامُهُ؟ وَلَهُ مِنَ الْكَلَامِ أَمْثَالُ هَذَا، وَفِيهِ مَا يَخْفَى مِنْهُ الْكُفْرُ، وَمِنْهُ مَا يَظْهَرُ، فَلِهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى نَاقِدٍ

---

(١) يشير الشارح - رحمه الله - لحديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ». أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦). والحديث أورده الشارح فيما تقدم (١/ ٦١٠).

جَيِّدٍ، لِيُظْهِرَ زَيْفَهُ، فَإِنَّ مِنَ الزَّغَلِ مَا يَظْهَرُ لِكُلِّ نَاقِدٍ، وَمِنْهُ مَا لَا يَظْهَرُ إِلَّا لِلنَّاقِدِ الْحَاذِقِ الْبَصِيرِ. وَكُفْرُ ابْنُ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالِهِ فَوْقَ كُفْرِ الْقَائِلِينَ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَلَكِنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالَهُ مُنَافِقُونَ زَنَادِقَةٌ، اتِّحَادِيَّةٌ، فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَالْمُنَافِقُونَ يُعَامَلُونَ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِإِظْهَارِهِمُ الْإِسْلَامَ، كَمَا كَانَ يُظْهِرُهُ الْمُنَافِقُونَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَهُوَ يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ. فَلَوْ أَنَّهُ ظَهَرَ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا يُبْطِنُهُ مِنَ الْكُفْرِ، لَأَجْرَى عَلَيْهِ حُكْمَ الْمُرْتَدِّ. وَلَكِنْ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِ خِلَافٌ، وَالصَّحِيحُ عَدَمُ قَبُولِهَا، وَهِيَ رِوَايَةُ مُعَلَّى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ ﷺ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

قال الشيخ:

ذكرنا أن ابن عربي هذا اتحاديّ، وقد نُقل عن الاتّحاديين أخبار بشعة، وأشهرهم الحسين الحلاّج، وهو الذي أفتى أهل زمانه بقتله، وقتل سنة تسع وثلاثمائة من الهجرة، بفتوى علماء زمانه من أهل السنّة، حيث نُقل عنه أخبار تدلّ على كفره. وكذلك قال بمقالته ابن عربي، ولكنّ ابن عربي يتستّر في نفسه مخافة أن يُقتل كما قُتل الحلاّج، فهو يظهر أنّه من أهل السنّة، ولكن عندما يُتأمّل كلامه يتّضح أنّه من أهل الاتّحاد؛ فلذلك يُعامل معاملة المنافقين، له كتاب مطبوع اسمه «فصوص الحكم»، ظاهره أنّه حكم وأنّه كلام حسن، ولكن عندما يتأمله الإنسان بالعقل والفكر، يعرف في أثناء كلامه ما يدلّ على أنّه اتحاديّ ومن أهل

وحدة الوجود، ولو لم يكن صريحًا بذلك، ويبين عقيدتهم ابن الفارض في قصيدته المشهورة والمعروفة بنظم الملوك، فيقول مخاطبًا محبوبته[١]:

لَـهَا صَـلَوَاتِي فِي المَقَـامِ أُقِيمُهَـا وَأَشْـهَدُ عَنْهَـا أَنَّهَـا لِي صَـلَّت

وهذه عقيدة أهل الوحدة، يقولون: إنّ كلّ شخص هو عابد ومعبود، يقول: أنا أصلي لها، وهي تصلي لي، ممّا يعني أنّ الخالق متّحد بالمخلوق ـ تعالى الله عن قولهم ـ وإذا كان هذا من المنافقين، فإن أقوالهم أقوال باطلة.

انظروا إلى المقالة التي مرّت بنا: إنّ النبيّ ﷺ مثّل الأنبياء بالبيت الذي أحكم بناؤه إلا موضع لبنة، يقول ﷺ: «فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[٢]. وابن عربي يقول: إنّ هذا البيت بقي فيه موضع لِبنَتين، لبنة من فضّة، وهي ظاهر الشرع، ويراد بها محمّد ﷺ. ولبِنة من ذهب، وهي باطن الأمر، وهي خاتم الأولياء، ويرى نفسه أنّه هو اللبنة من الذهب، فجعل نفسه لبنة ذهب والنبي ﷺ لبنة فضّة. هذا معتقده. يقول: إنّ الولاية لها خاتم، كما أنّ النبوّة لها خاتم، فكأنّما يقول بلسان الحال أو المقال: أنا خاتم الأولياء، ومحمّد خاتم الأنبياء، ويجعل نفسه أفضل؛ لأنّه يجعل نفسه باطن الأمر وسرّه، والرّسول ظاهره وعلنَه. هذا هو معتقدهم، وعلى هذا ماذا نقول في ابن عربي وأمثاله كابن سبعين وابن الفارض وقبلهم الحلاج؟

---

(١) يُنظر: الجواب الصحيح (٤/ ٤٩٩)، وتاريخ الإسلام (٤٦/ ١٠٩).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦١٠).

نقول فيهم: إنّهم يتستّرون بأنّهم مسلمون، ويصوغون كلمات فيها شيء من الحكم، وفيها شيء من العلم المحكم، ويعجب الناس من كلماتهم، وتعجبهم صياغتها، ويعتقدون أنّهم أولياء لله، ويعتقدون علمهم وفضلهم وأقدميّتهم، فلأجل ذلك يصبحون مقدّسين، ومحبوبين عند العامّة والخاصّة، ولكن لم يتفطّنوا في أسرارهم، ولم يتأمّلوا في باطن كلامهم، ولم ينظروا في داخل أمرهم، ولو تأمّلوه وتعقّلوه لعرفوا أنهم منافقون ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[الفتح:١١]، ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وهو شأن المنافقين، فإنّ المنافقين يقولون بأنّهم مسلمون، ويخفون في باطنهم الكفر: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[البقرة: ١٤]؛ وهؤلاء إذا خلا بعضهم إلى بعض فإنّهم يبدون لأوليائهم ما كان لديهم من الع ل م، وإذا لقوا عامّة النّاس فإنّهم يبدون الإسلام، ويمدحون أنفسهم بالاتّباع ونحو ذلك. إذن هم منافقون.

لَـمّا أظهر المنافقون الإسلام في العهد النبويّ، ولم يطّلع أحد من المسلمين على بواطنهم، فإنّهم عاملوهم معاملة المسلمين، فكانوا يأخذون منهم الصّدقات والزّكوات، مع أنّهم كفّار، ويصلّون على من مات منهم إذا لم يظهر لهم نفاقه، ولم يقاتلوهم حتّى قال النبيّ ﷺ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر ﷺ.

وكذلك كانوا يغزون مع المسلمين وإن لم يكونوا يريدون بذلك الأجر، بل كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة: ٤٧]، وفي قوله: ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦١]؛ وسمّاهم الله المرجفين، ومع هذا كلّه لم يقتلهم النبي ﷺ، بل أجرى أمرهم على الظاهر، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، وقبل كلامهم لما حلفوا، وأخبر الله أنّ حلفهم كذب: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٢]. ومع ذلك لم يقاتلهم، بناء على ما ظهر، فهكذا يقال في هؤلاء المنافقين أهل الاتّحاد الذين يدّعون أنّ الخالق عين المخلوق، تعالى الله عنه قولهم.

لا شكّ أنّ لهم أقوالًا بشعة، لا يجرؤ أحدنا أن يحكي أقوالهم، حتّى يقول بعض العلماء: إنّا لنستطيع أن نحكي أقوال اليهود والنّصارى، ولا نستطيع أن نحكي أقوال هؤلاء لبشاعتها، وقد ردّ عليهم العلماء؛ ففي زمن شيخ الإسلام ابن تيميّة كانوا قد ظهروا وتمكّنوا وكثروا وكثر أعوانهم، فردّ عليهم بعدد من رسائله، لَمّا سُئل عن أحوالهم، ولما رفع إليه كثير من أشعارهم ومن مقالاتهم التي كانوا ينظمون بها عقائدهم، سواءً كان نظمًا صريحًا أو خفيًّا، وكان من آثار ردّه: أن حذر النّاس منهم، ووقعت بينه وبينهم مناظرات في دمشق، وفي مصر، وظهر عليهم وغلبهم، حتّى إنّهم جاؤوا مرّة ليناظروه، وقالوا: نحن أولياء الله،

ومن علامات ولايتنا، أنّا لو دخلنا في هذه النّار التي تشتعل لم تحرقنا، فجاءهم يناظرهم ويحتجّ عليهم بالأدلّة، ويقول: أنا أدخل وإياكم في هذه النّار، فننظر أيّنا يحترق، ولكن اغسلوا جلودكم بالصابون والسدر والمزيل الذي يزيل ما فيها، وكان يعلم أنّهم يدهنون جلودهم بأدهان تستخرج من بعض الحيوانات ولا تحترق، فإن دخلوا في النّار لم تحترق أجسادهم بسبب هذا الدهن الذي عليها، فلمّا قال لهم ذلك: امتنعوا، وظهر بذلك دجلهم وكذبهم. وكتب فيهم عدّة رسائل، وكذلك كتب فيهم غيره من العلماء.

وبذلك نعلم فساد هذا المذهب الذي يجعل الأولياء - لاسيّما إذا أريد بهم هؤلاء الذين يؤمنون بوحدة الوجود - خير من الأنبياء، وأنه مذهب باطل. ونعرف أنّ هناك من أولياء الله من خصّهم الله بأنواع من الكرامات، ولا ننكر أنّ هناك من خيار عباد الله، ومن الأتقياء الأنقياء، الذين أجرى الله على أيديهم كرامات وخوارق عادات تدلّ على قربهم وأفضليّتهم، وعلى أنّهم مستجابة دعوتهم.

وقد أُلّف كتب في كرامات الأولياء، سواء في تراجم بعضهم أو في نفس الوقائع التي تقع، وذكر شيخ الإسلام ابن تيميّة جانبًا كبيرًا من هذا في الكتاب الذي ذكرنا وهو «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فذكر كرامات كثيرة لبعض الصالحين، ومن قرأها وجد فيها أنّ الله قد تفضّل عليهم، واستجاب دعوتهم، وأعطاهم طلبتهم. والشيخ ابن رجب - رحمه الله - له كتب كثيرة تتعلّق الرّغائب والرّقائق، مثل «استنشاق نسيم الأنس»، وكلامه على الشهادة، و«شرح

العروة الوثقى»، وكتابه الكبير الذي هو «جامع العلوم والحكم» يتعرّض فيه لكرامات الأولياء والصالحين، ويذكر أشياء من كراماتهم التي تجري على أيديهم، والتي تدلّ على أنهم من المتقبّلين.

ومن ذلك لما ذكر حديث: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ...وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[1]؛ فذكر وقائع تدلّ على أنّ بعض أولياء الله وبعض عباد الصالحين، يكون موتهم بسهولة بحيث لا يشعرون أو لا يحسّون بالموت، وذلك تسهيلًا عليهم، وأشباه ذلك.

وكذلك ألّف أبو نعيم كتابه «حلية الأولياء»، وهو مطبوع في عدة مجلّدات، ذكر فيه الأولياء، ولكنّه توسّع في العلماء ونحوهم، ويذكر بسنده بعض الوقائع وإن كانت ضعيفة ولم تثبت.

وبذلك وغيره يعرف أنّ أولياء الله هم الصالحون من عباده، كما أنّ أولياء الشيطان هم الأشقياء الذين خرجوا عن طاعة الله وابتُلوا بطاعة الشيطان.

ثم إن من عقيدة أهل السنّة: التفاضل الذي ذكره تعالى بين العباد، فأفضل الخلق هم رسل الله، وكذا ملائكته المقرّبون، وكذا عباده الصالحون، ومن عقيدة أهل السنّة: أنّه لا يكون أحد أفضل من الرسل والملائكة من بقيّة البشر، وخالفت في ذلك الصوفيّة وقدّموا الأولياء على الأنبياء، ومعلوم أنّ الوليّ بشر من جنس

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٥٢٤).

بني الإنسان، وأنّه لم يخرج عن البشريّة وعن كونه آدميًا، وكذلك لم يصل إلى رتبة الأنبياء وهي أن ينزل عليه الوحي، لا وحي إلهام ولا وحي واسطة ملك، وإن كان قد يجري الله على يديه شيئًا من الكرامات إما لفضله وإمّا لحاجته وإما لإقناع خصم أو نحو ذلك. فالمؤمنون المتّقون كلّهم أولياء الله ولكنّهم يتفاوتون في الإيمان وفي التقوى، فبعضهم أقوى إيمانًا وتقوى من البعض الآخر، فيكون لهم ميزة وفضيلة على غيرهم، فيحصل على الرفعة والقوّة والقرب، وتحصل له كرامات يجريها الله على يديه.

وقد ذكر ابن تيميّة في كتابه «الفرقان» بعض الكرامات، فقال: «وكان عبدالواحد بن زيد أصابه الفالج، فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء، فكانت وقت الوضوء تُطلق له أعضاءه ثم تعود بعد»[1].

وكذلك قال: «ورجل من النخع كان له حمار فمات في الطريق، فقال له أصحابه: هلم نتوزع متاعك على رحالنا، فقال لهم: أمهلوني هنيهة، ثم توضأ فأحسن الوضوء، وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى فأحيا له حماره، فحمل عليه متاعه»[2]. وكان ذلك كرامةً له.

---

(١) انظر: كتاب الفرقان ضمن مجموع الفتاوى (١١/ ٢٨٢).

وعبد الواحد هو: عبد الواحد بن زيد الزاهد القدوة أبو عبيدة البصري، توفي سنة ١٩٧هـ. انظر ترجمته وقصته في الحلية (٦/ ١٥٥)، وسير الذهبي(٧/ ١٧٨)، وصفة الصفوة(٣/ ٣٢١).

(٢) انظر: كتاب الفرقان ضمن مجموع الفتاوى (١١/ ٢٨١). والرجل هو: نباتة بن يزيد =

وأمّا الذين استجيبت أدعيتهم، فأكثر وأكثر، منها: أنّ سعيد بن جبير كان عند الديك يوقظه للصلاة، فذات ليلة ما صاح الديك، فلما نهض قال: ما له؟ قطع الله صوته، فلم يصح الديك بعدها بقيّة حياته، فقالت أمّه: يا بنيّ، لا تدع على أحد فتصيبه دعوتك، فإنّ هذه دعوة رجل صالح.

وكذلك ورد الكثير من هذه الدعوات المستجابة في كتاب ابن رجب «جامع العلوم والحكم»، يذكر فيها عجائب من جنس هذا؛ منها: قصّة الرجل الذي ذهب يشتري لأهله من بلاد بعيدة قمحًا، فلمّا لم يكن عنده ثمن، رجع وليس معه شيء، فمرّ بكثيب رمل، فقال: لماذا لا آخذ من هذا الرمل في أكياسي حتّى لا يقال: رجع خائبًا، فلمّا أنزل أكياسه، جاءت امرأته وفتحت أحدها، فوجدته قمحًا جيدًا، فطحنت منه وخبزت، فسألها: ما هذا القمح الذي أجد رائحته؟ فقالت: من البرّ الذي أتيت به، فحمد ربّه أنّه لم يخيّب سعيه، فكان ذلك البرّ غاية في الجودة، بحيث إنّه إن بذروا منه، تخرج الزرعة من أصلها إلى فرعها كلّها سنبل. استجابة لدعوة ذلك الرجل الصالح.

وذكر لنا بعض الإخوان أنّ هناك بلادًا فيها بعض الرافضة وبعض السنّة، فكان الرافضة إذا جاع الطفل يقولون له: ادعُ عليًّا حتّى يعطيك طعامًا! فإذا دعا،

---

=

النخعي أدرك النبي ﷺ وغزا في خلافة عمر ﷺ، انظر قصته ضمن ترجمته في الإصابة (٦/ ٤٩١)، والبداية والنهاية (٦/ ١٥٣).

قرّبوا له خبزًا أو طعامًا، وقالوا: هذا جاءك به عليّ. فأهل السنّة قالوا: نعوّد أبناءنا على أن يدعوا ربّهم، فإذا جاع الصبيّ، قالوا له: ادع ربّك يا ولدي حتى يرزقك الطعام، فإذا دعا ربّه، قالوا له: ائت ذلك المكان تجد فيه طعامًا من ربّك. فذات يومٍ غفلوا عنه، فجاء ولم يؤهّبوا له طعامًا، وكان قد دعا ربّه، ثمّ ذهب فكشف الطبق، فإذا فيه خبز من أحسن الخبز، فأكله حتّى شبع، فجاء أهله وقد أسفوا على أنّهم لم يهيّئوا له طعامًا، فقالوا: من أتاك بالطعام، فقال: دعوت ربّي فجاءني بالطّعام، كما كنت أدعوه. فهذه كرامة وآية من آيات الله! ولا شكّ أنّ هذه كرامات يجريها الله على يد عباده الصالحين.

وذكر شيخ الإسلام في كتابه «الفرقان» أنّ هناك أيضًا أولياء الشيطان، يجري الشيطان على أيديهم مخارق يموّهون بها على النّاس، ويوهمونهم أنّها كرامات وهي حيل شيطانيّة، وقد سمّاها رحمه الله بالأحوال الشيطانيّة، وذكر أمثلة من ذلك: مثل قصص السحرة وأولياء الشيطان، فمن ذلك: أنّ بعضهم تحمله الجنّ أو الشياطين وتقطع بهم مسافات طويلة، وأنّ الشياطين أو مردة الجنّ يتمثّلون لأوليائهم بصور وأشكال مختلفة، وأنّهم قد يقرّبون لهم الأشياء البعيدة، ولا شكّ أنّ هذا من وحي الشيطان.

ومنها الأعمال التي تسمعون عن السحرة، وأنّهم يفرّقون بين المجتمعين، ويجمعون بين المتباغضين، ويوقعون الوحشة بين الأصحاء، وأنّهم ربّما قلبوا هذا حيوانًا وهذا إنسانًا، فهذه أحوال شيطانيّة، ولا نقول: إنّها كرامات ولا خوارق عادات، وإنّما هي من وحي الشيطان ومن عمله، فإنّ الشيطان يتلبّس بتلك

الروح، ويغيّر هيئتها من حيوان إلى إنسان أو جماد... وغير ذلك. فتكون هذه المخارق تجري على يد أعداء الله، الذين هم عبدة الشياطين.

إذًا الفرق بين الأحوال الشيطانيّة التي تجري على أيدي أعوان الشيطان، والكرامات التي تجري على أيدي أولياء الرحمن: أنّ خارق العادة كرامة عندما يجري على يد عبد من عباد الله الصالحين، الذي ظاهره من أحسن الظواهر، وعمله من أحسن الأعمال، ودعاؤه مستجاب، وأكله حلال طيّب، ورزقه وكسبه من أحسن الكسب وأبعدهم عن الخبيث، مقيم للعباداته وصلواته وزكواته، مبتعد عن الشبهات والمحرّمات، متمسّك بالشريعة، مؤمن بالله إيمانًا قويًا ظاهرًا وباطنًا، مطبّق لشريعة الله، مطبّق للسنّة. بخلاف أولياء الشيطان - وإن تظاهر بعضهم بالإيمان والإسلام - فإنّ باطنهم يعرفه المتبصّرون، وفي ذلك آيات للمتوسّمين، يُعلَمُ خبث أحوالهم وخبث طواياهم.

ففي هذه البلاد نجد كثرة السحرة، الذين يعملون الشعوذة والسحر، بحيث أنّهم يزوّرون، وقد يقلبون أمام الأعين هذه الحقائق، ويخيلّون لمن ينظر إليهم أنّ هذا شيء وليس بشيء، أو ما أشبه ذلك، وهذا قديم، ولكن في هذه الأزمنة، وبسبب توافد الكفرة، قد فشا وانتشر، وهو عمل شيطانيّ. يشتكي كثير من النّاس مما يجدون في صدورهم من الوحشة في أنفسهم وأهليهم، وكذلك يشتكون من تسلّط الجنّ عليهم، وغلق الأبواب عليهم، وإحراق شيء من الأمتعة، وهم لا يدرون من يحرقها، وما هو إلاّ الجنّ أو الشياطين الذين سلّطهم أولئك السحرة عليهم، وكذلك ملابسة الجنّ لأناس من الصالحين بواسطة

السحرة والكهنة، الذين يُسخّرون عددًا من الجنّ لأعمالهم، هؤلاء أولياء الشيطان.

وهناك عباد صالحون مصلحون، نيّاتهم حسنة، حافظون لكتاب الله، عاملون بشريعة الله وسنّته، رزقهم الله قوة الإيمان وصفاء القلوب، ومن ميزتهم أيضًا أن كشف الله لهم عن هؤلاء السحرة وأعمالهم، فصاروا يعرفون أنّ هذا الشخص كاهن، وهذا ساحر، وهذا قد عمل كذا وكذا، ويعالجون المسحورين وأهل الأمراض الشيطانيّة، بالقراءة وما أشبهها في هذه الأزمنة وغيرها.

ذُكر لنا أنّ رجلًا كان حافظًا للقرآن، ومن المطبّقين للشريعة، ومن الذين نبت لحمهم على طعام طيّب، ولم يتعاطوا شيئًا من المشتبهات، كان إذا قرأ على المريض مرّة أو مرّتين شفي بإذن الله. كان إذا أُتي بكأس يقرأ فيه ينفث فيه نفثتين أو ثلاثًا امتلأ الكأس ولم يكن فيه إلا قليل من الماء، وإذا شربه المريض شفي بإذن الله. وهذا من آثار الإخلاص وقوّة الإيمان. وأمثاله كثيرون.

هؤلاء من أولياء الله الصالحين، هكذا نحسبهم، والله حسيبهم، عملوا بالشريعة، فأجرى الله على أيديهم هذا الشفاء بإذن الله، هذا الأثر الطيّب. وبضدّهم السحرة والكهنة الذين تجري على أيديهم تلك الأحوال الشيطانيّة، فهؤلاء أولياء الشيطان.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَنُؤمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ، وَصَحَّ عَنِ الثِّقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ.

---

قال الشارح:

فَالْمُعْجِزَةُ فِي اللُّغَةِ تَعُمُّ كُلَّ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، وَفِي عُرْفِ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ الْمُتَقَدِّمِينَ. وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ يُفَرِّقُونَ فِي اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا، فَيَجْعَلُونَ الْمُعْجِزَةَ لِلنَّبِيِّ، وَالْكَرَامَةَ لِلْوَلِيِّ. وَجِمَاعُهُمَا: الْأَمْرُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ.

وَالْكَمَالُ يَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثَةٍ: الْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْغِنَى. وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ لَا تَصْلُحُ عَلَى الْكَمَالِ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دَعْوَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[الأنعام:٥٠].

وَكَذَلِكَ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهَذَا أَوَّلُ أُولِي الْعَزْمِ، وَأَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهَذَا خَاتَمُ الرُّسُلِ، وَخَاتَمُ أُولِي الْعَزْمِ، وَكِلَاهُمَا تَبَرَّأَ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا لِأَنَّهُمْ يُطَالِبُونَهُمْ:

تَارَةً بِعِلْمِ الْغَيْبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٢].

وَتَارَةً بِالتَّأْثِيرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ الآيات [الإسراء:٩٠].

وَتَارَةً يَعِيبُونَ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةَ الْبَشَرِيَّةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ الْآيَةَ [الفرقان: ٧٠].

فَأُمِرَ الرَّسُولُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَنَالُ مِنْ تِلْكَ الثَّلَاثَةِ بِقَدْرِ مَا يُعْطِيهِ الله، فَيَعْلَمُ مَا عَلَّمَهُ الله إِيَّاهُ، وَيَسْتَغْنِي عَمَّا أَغْنَاهُ عَنْهُ، وَيَقْدِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِلْعَادَةِ الْمُطَّرِدَةِ، أَوْ لِعَادَةِ أَغْلَبِ النَّاسِ. فَجَمِيعُ الْمُعْجِزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ مَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ.

ثُمَّ الخَارِقُ: إِنْ حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ مَطْلُوبَةٌ فِي الدِّينِ، كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا دِينًا وَشَرْعًا، إِمَّا وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ، وَإِنْ حَصَلَ بِهِ أَمْرٌ مُبَاحٌ، كَانَ مِنْ نِعَمِ الله الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي شُكْرًا، وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهٍ يَتَضَمَّنُ مَا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ نَهْيَ تَنْزِيهٍ، كَانَ سَبَبًا لِلْعَذَابِ أَوِ الْبُغْضِ، كَالَّذِي أُوتِيَ الْآيَاتِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا: بَلْعَامُ بْنُ بَاعُورَا، لكن قد يكون صاحبها معذورا لِاجْتِهَادٍ أَوْ تَقْلِيدٍ، أَوْ نَقْصِ عَقْلٍ أَوْ عِلْمٍ، أَوْ غَلَبَةِ حَالٍ، أَوْ عَجْزٍ أَوْ ضَرُورَةٍ.

فَالخَارِقُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: مَحْمُودٌ فِي الدِّينِ، وَمَذْمُومٌ، وَمُبَاحٌ. فَإِنْ كَانَ الْمُبَاحُ فِيهِ مَنْفَعَةٌ كَانَ نِعْمَةً، وَإِلَّا فَهُوَ كَسَائِرِ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا مَنْفَعَةَ فِيهَا.

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الجَوْزَجَانِيُّ[1]: كُنْ طَالِبًا لِلِاسْتِقَامَةِ، لَا طَالِبًا لِلْكَرَامَةِ، فَإِنَّ نَفْسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الْكَرَامَةِ، وَرَبُّكَ يَطْلُبُ مِنْكَ الِاسْتِقَامَةَ.

---

(١) نقل كلام الجوزجاني شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١١/ ٣٢٠).

قَالَ الشَّيْخُ السُّهْرَوَرْدِيُّ فِي عَوَارِفِهِ[1]: وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي الْبَابِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ وَالْمُتَعَبِّدِينَ سَمِعُوا عن سَلَفِ الصَّالِحِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَمَا مُنِحُوا بِهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، فَنُفُوسُهُمْ لَا تَزَالُ تَتَطَلَّعُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُرْزَقُوا شَيْئًا مِنْهُ، وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ يَبْقَى مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ، مُتَّهِمًا لِنَفْسِهِ فِي صِحَّةِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ خَارِقٌ، وَلَوْ عَلِمُوا بِسِرِّ ذَلِكَ لَهَانَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، فَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَفْتَحُ عَلَى بَعْضِ الْمُجتهِدِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ ذَلِكَ بَابًا، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنْ يَزْدَادَ بِمَا يَرَى مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَآثَارِ الْقُدْرَةِ ـ يَقِينًا، فَيَقْوَى عَزْمُهُ عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالْخُرُوجِ عَنْ دَوَاعِي الْهَوَى. فَسَبِيلُ الصَّادِقِ مُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِالِاسْتِقَامَةِ، فَهِيَ كُلُّ الْكَرَامَةِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ لِلْقُلُوبِ مِنَ التَّأْثِيرِ أَعْظَمَ مِمَّا لِلْأَبْدَانِ، لَكِنْ إِنْ كَانَتْ صَالِحَةً كَانَ تَأْثِيرُهَا صَالِحًا، وَإِنْ كَانَتْ فَاسِدَةً كَانَ تَأْثِيرُهَا فَاسِدًا. فَالْأَحْوَالُ يَكُونُ تَأْثِيرُهَا مَحْبُوبًا للهِ تَعَالَى تَارَةً، وَمَكْرُوهًا للهِ أُخْرَى.

وَقَدْ تَكَلَّمَ الْفُقَهَاءُ فِي وُجُوبِ الْقَوَدِ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ غَيْرَهُ فِي الْبَاطِنِ. وَهَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ بِبَوَاطِنِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ الْأَمْرَ الْكَوْنِيَّ، وَيَعُدُّونَ خَرْقَ الْعَادَةِ لِأَحَدِهِمْ أَنَّهُ كَرَامَةٌ مِنَ اللهِ لَهُ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا الْكَرَامَةُ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُكْرِمْ عَبْدًا بِكَرَامَةٍ أَعْظَمَ مِنْ مُوَافَقَتِهِ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَهُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ

---

(١) نقل كلام السهروردي شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١١/ ٣٢٠).

رَسُولِهِ، وَمُوَالَاةُ أَوْلِيَائِهِ، وَمُعَادَاةُ أَعْدَائِهِ. وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

وَأَمَّا مَا يَبْتَلِي اللهُ بِهِ عَبْدَهُ، مِنَ السِّرِّ بِخَرْقِ الْعَادَةِ أَوْ بِغَيْرِهَا أَوْ بِالضَّرَّاءِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَجْلِ كَرَامَةِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَلَا هَوَانِهِ عَلَيْهِ، بَلْ قَدْ سَعِدَ بِهَا قَوْمٌ إِذَا أَطَاعُوهُ، وَشَقِيَ بِهَا قَوْمٌ إِذَا عَصَوْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾[الفجر: ١٥-١٧].

---

قال الشيخ:

مرّ بنا أنّ الكرامة هي أمر خارق للعادة، مستغرب، عجيب صدوره، وأنّه إذا جرى على أيدي الأنبياء سمّي معجزة. وقد ذكر العلماء معجزات للنبيّ ﷺ:

منها: أنّ الجذع حنّ له لما ترك الخطبة عليه، وهو جماد[1].

ومنها: أنّ الحصيات سبّحن بيده، وهنّ جماد[2].

---

(١) كما ورد في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ». أخرجه البخاري (٣٥٨٣)، ويُنظر: دلائل النبوة (٢/ ٥٦٣)، الشفا في حقوق المصطفى (١/ ٤٢٧).

(٢) كما ورد في حديث أبي ذر ﷺ قال: «إني انطلقت ألتمس رسول الله ﷺ في بعض حوائط المدينة، فإذا رسول الله ﷺ قاعد، فأقبل إليه أبو ذر حتى سلم على النبي ﷺ، قال أبو ذر: وحصيات =

ومنها: أنّ الحجر كان يسلّم عليه إذا مرّ به[١].

ومنها: أنّ الماء القليل يزيد إذا غمس فيه يده، حتّى يشرب منه الخلق الكثير، ويتوضؤوا ويملؤوا قربهم[٢].

ومنها: تكثير الطعام خبزًا أو لحمًا[٣].

كما ورد ذلك في أدلّة كثيرة. فهذه معجزات لا يقدر البشر على مثلها، أجراها الله على يديه، حتّى يعلم أنّه رسول من الله صادق.

وأمّا الكرامات، فما يجري على أيدي الصالحين من العباد، وقد وقع من ذلك كثير لبعض الصحابة، كالنصر والتأييد لهم في الوقائع التي يقلّ فيها عددهم،

---

=

موضوعة بين يديه فأخذهن في يده فسبحن في يده، ثم وضعهن في الأرض، فسكتن...». أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٢٩) (١١٤٦)، والبزار في مسنده (٩/ ٤٣١)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٥٩)، وفي مسند الشاميين (٣/ ٨١)، ويُنظر: دلائل النبوة لأبي نعيم (٢/ ٥٥٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٦٤)، والشمائل لابن كثير (٢٥٦).

(١) كما ورد في حديث جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قبل أَنْ أُبْعَثَ إِنِي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**». أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

(٢) كما ورد في حديث جابر ﷺ قَالَ: «عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا». أخرجه البخاري (٣٥٧٦).

(٣) كما ورد في حديث أنس بن مالك ﷺ [illegible] الذي أخرجه البخاري (٣٥٧٨).

ويكثر عدد عدوّهم، فإذا دعوا ربّهم وسألوه استجاب لهم، ونصرهم، وخذل عدوّهم، وقد ذكروا من ذلك وقائع:

منها: أنّ عمر ﷺ «بعث جيشًا، وأمر عليهم رجلاً يُدعى سارية، فبينا عمر ابن الخطاب يخطب الناس يومًا، فأقبل يصيح وهو على المنبر: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فقدم رسول الجيش فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا فإذا صائح يصيح: يا ساريةُ الجبلَ، يا ساريةُ الجبلَ، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمهم الله»[1].

وورد: «أن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ قال لِرَجُلٍ: ما اسْمُكَ؟ فقال: جَمْرَةُ، فقال: ابن من؟ فقال: ابن شِهَابٍ، قال: مِمَّنْ؟ قال: مِنَ الْحُرَقَةِ، قال: أَيْنَ مَسْكَنُكَ؟ قال: بِحَرَّةِ النَّارِ، قال: بِأَيِّهَا؟ قال: بِذَاتِ لَظًى، قال عُمَرُ: أَدْرِكْ أَهْلَكَ فَقَدِ احْتَرَقُوا، فَكَانَ كما قال عُمَرُ بن الْخَطَّابِ ﷺ»[2].

وكذلك لما قُتل عثمان ﷺ وقعت أوّل قطرة من دمه على المصحف، على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾[البقرة: ١٣٧]؛ فقال الصحابة: لا بدّ أن ينتقم من هؤلاء، وأن ينتصر الذين يحمون له.

استنبط ابن عباس - رضي الله عنهما - من قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٥)، وابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٣٦٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٧٣) من حديث يحيى بن سعيد.

جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء:٣٣]؛ أنّ معاوية ﷺ ومن معه سينتصرون؛ لأنّهم يقاتلون من أجل مظلوم وهو عثمان ﷺ فصار ذلك سببًا لانتصارهم، وأُمروا أن لا يسرفوا في القتل[١].

وهناك أيضًا كراماتٌ جرت على أيدي الصحابة في حياة النبيّ ﷺ، فأُسيد بن حضير وعبّاد بن بشر صحابيان من الأنصار، خرجا مرّة مع النبيّ ﷺ في ليلة مظلمة، فأضاء لهما طرف سوط أحدهما نورًا يشعّ لهما في الظلام في تلك الطرق الضيّقة، حتّى إذا افترقا افترق النّور؛ مع هذا شعلة، ومع هذا شعلة[٢]، وذلك كرامة لهما.

وكذلك أسيد بن حضير ﷺ كان مرّة يقرأ سورة الكهف، لم يشعر إلا وسُرُج أمثال المصابيح نزلت عليه، وكان فرسه مربوطًا فلمّا أحسّ بتلك الأنوار التي نزلت من السماء، حاص الفرس، وأسرع في الصلاة، وكان ابنه قريبًا من الفرس فخشي عليه، فلمّا انتهى من الصلاة ورفع رأسه، فإذا تلك السُّرُج قد ارتفعت، فقال له النبيّ ﷺ: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ»[٣].

وأيضًا قصّة أبي مسلم الخولاني، الذي غضب عليه الأسود العنسي، فأوقدوا له نارًا وألقوه فيها، فصارت عليه بردًا وسلامًا، وخرج ولم يحترق، فلمّا وفد إلى

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩).

(٢) كما ورد في حديث أنس بن مالك ﷺ الذي أخرجه البخاري (٣٨٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

عمر ﷺ قال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن»[١]، وأمرهم بأن يسلّموا عليه كلّهم ويهنّئوه.

وكذلك العلاء بن الحضرمي لما كان قائدًا لجيش في الخليج العربي، حال بينهم وبين عدوّهم البحر، فأرادوا أن يتبعوهم، فلم يجدوا بدًا من أن يخوضوا البحر بخيولهم، فنزلوا في البحر، وهم على خيولهم، ولم يفقدوا متاعًا أو شيئًا، وجعلت الخيل تسبح على البحر كما تسبح السفن، فلمّا رآهم الفرس قالوا: ما هؤلاء إلا شياطين، فهربوا وأتوا إلى مكان العدوّ وانتصروا عليهم. وعدّوا ذلك من كرامات ابن الحضرميّ ﷺ[٢].

وقد ذكر العلماء أنّ الكرامات في التّابعين أكثر منها في الصحابة رضوان الله عليهم، وذكروا لها أمثلة كثيرة. وهي دالّة على صلاحهم أو حاجتهم.

ومع ذلك فالكرامة لا تدلّ على أفضليّة ذلك الشخص الذي جرت على يديه! فإذا قلنا: لماذا لم تجرِ على يد أبي بكر ﷺ، مثلما جرت على يد عمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم ونحوهم؟ نقول: ليست الكرامات دليلاً على الأفضليّة، فهي إما لحاجة ذلك الذي جرت على يديه، وإمّا لقطع حجّة خصم، وإمّا لمناسبة.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٧/ ٢٠١)، واللالكائي في كرامات الأولياء (١/ ١٨١).

(٢) أخرج هذه القصة الطبراني في الأوسط (٤/ ١٥)، وانظر: صفة الصفوة (١/ ٦٩٤)، والإصابة (٤/ ٥٤١)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٢).

ولأجل ذلك لا نقول: إنّ الصحابة مفضولون؛ لأنّ الكرامات فيهم قليلة، وفي التّابعين كثيرة.

فالكرامات خوارق للعادات تجري على أيدي عباد الله الصالحين، و تدلّ على استقامتهم وحسن ديانتهم وصلاحهم، ومع ذلك يستدلّ بها كثير من العلماء على أنّها معجزات للنبيّ ﷺ؛ لأنّ هؤلاء الصالحين ما حصلت لهم هذه الكرامات، إلا باتّباعهم لهذا النبيّ الكريم ﷺ، فلمّا اتّبعوه وساروا على نهجه وطريقته حصلت لهم هذه الكرامات.

و[illegible] الكرامات من الله تعالى فإنّه الموصوف بالعلم، يعلم حال عباده، وحاجتهم، ويعلم إيمانهم وطمأنينة قلبهم. وكذلك هي من قدرة الله تعالى؛ فهو الذي قدّرها للعبد، وأقدره على ذلك، وأجرى على يديه هذه الكرامة. وكذلك هو الغني: غني عمّن سواه، فإنّ الرّبّ سبحانه هو الذي يغني من يشاء متى يشاء بدون منّة أو تردّد.

فهذه الصفات التي ذكرنا، المقدر لها هو الله وحده، والكرامات لا تحصل إلا من الله الذي هو عليم بهذا العبد، وقادر على أن يعطيه، وغنيّ لا تنقص خزائنه، ولا تحصل لأي بشر، كما في الآيات التي استشهد بها الشارح؛ مثل قوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ يعني: الخزائن عند الله تعالى وهو الغنيّ المغني، [الأنعام:٥٠]، ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾؛ علم الغيب وعلم المستقبل عند الله تعالى، ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:٥٠]، إنني لست من الملائكة، بل أنا بشر

ضعيف، لا قدرة لي إلا على ما أقدرني الله عليه. هذه الآيات حكاها الله عن نوح عليه السلام، وأمر بها نبيّه ﷺ، فكلّما كان العبد أقوم سبيلاً، وأكثر طاعة لله عزّ وجلّ، فإنّ الله يجري على يديه عند حاجته، ما يكون مقوّيًا لإيمانه.

ليس كلّ من جرت على يديه الخوارق يتفوّق على من لم تجرِ على يديه. فلا نقول مثلًا: إنّ ذلك العابد الذي يقال عنه: سحنون، والذي جرت على يديه العديد من الكرامات، إنّه أفضل ولا أشرف من الشافعي الذي لم تجرِ على يديه مثلها.

يحكون في ترجمة سحنون، وبهلول، ورابعة العدويّة كثيرًا من الكرامات، لا توجد مثلها في تراجم الأئمّة، كمالك وأبي حنيفة وشعبة والليث وأحمد والشافعي، لماذا لم تجرِ على أيديهم وقد جرت على أيدي غيرهم من العبّاد؟ نقول: لأنّ هؤلاء أكرمهم بما فتح على أيديهم من العلوم التي هي العلم بالله، وشرع الله، وأحكامه، وأمره ونهيه، فكانت مقوّية لإيمانهم، فلا يحتاجون أن يجري على أيديهم كرامة، بخلاف سحنون وبهلول ورابعة وبشر بن الحارث، فهؤلاء يمكن أن يكون في إيمانهم شيء من الرقّة والضعف، فيجري الله على أيديهم شيئًا من الكرامات حتّى يقوى إيمانهم، هكذا قال بعض العلماء. وإلا فلا تقارب بينهم وبين العلماء الذين لهم مكانة في العلم وغيره.

وقد مرّ بنا في كلام الشارح: أنّ بعضًا من هؤلاء العبّاد إذا تنسّك وتعبّد، فإنّه يطلب من ربّه أن يجري على يديه كرامة، ويحزنه إذا سمع فلانًا وفلانًا جرت على أيديهم كراماتٌ وخوارق عادات، فيبقى منكسرًا، ويكثر من فعل الأسباب

والسؤال عن الأسباب التي تحصّل له مثل هذه الكرامة إلى أن يحصل على يديه مثل ما حصل على يدي أمثاله.

نقول: ما هكذا كان الأولياء والصالحون من عباد الله، وعلماء الشريعة، والأئمّة، فلم يكونوا يهتمّون لأمور الكرامات، ولا يطلبونها، ولا يحزنون إن لم تحصل لهم.

وأمّا استجابة الدعاء؛ فالمسلم إذا دعا الله تعالى، وأخلص في دعائه، ولم ير لدعائه أثرًا، فإنّه يحزنه، ولذلك نقول له: لا تنقطع عن الدّعاء، بل أكثر من دعاء الله، فإنّ دعوتك ولو لم تجب، ولم ترَ أثرها؛ لا تدلّ على أنّك مردود، ولا على أنّك لست من أولياء الله. وقد قال النبيّ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا أَثَمٌ، وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**»[1]. فالمسلم إذا دعا الله تعالى، فإنّ الله يعطيه بدعوته أحد ثلاثة أشياء: إمّا أن يعجّل له دعوته وما طلب، وإمّا أن يدفع عنه من الشّر مثلها، وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة. فلا يخيب إذا دعا الله تعالى، فليس شرطًا أن تجاب دعوتك كلّما دعوت الله تعالى، وليس كلّ من أجيبت دعوته يحكم عليه بأنّه وليّ من أولياء الله.

نقول: إنّ هذه الكرامات وخوارق العادات التي يجريها الله على يد بعض عباده؛ إمّا ابتلاء وامتحانًا، وإمّا لحاجة، وإمّا لفضيلة وميزة حصلوا عليها،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٠٥).

ولا تكون دائمًا طوعهم، بل قد يحتاج أحدهم إلى كرامة وإجابة دعوة، فلا تحصل لهم.

ويؤمن أهل السنّة بالكرامات، وأنّها فضيلة لمن تحصل لهم، ولا تكون نقصًا فيمن لم تحصل له تلك الكرامة. ثم إنّ هناك من أنكرها كالمعتزلة وادّعوا أنّها لو حصلت لحصل الاشتباه بينها وبين معجزات الأنبياء. وقد بيّن العلماء أنّ الخوارق انقسمت ثلاثة أقسام:

**أولّها**: معجزات تختصّ بالأنبياء، وليس في قدرة البشر أن يأتوا بمثلها. كمعجزات نبيّنا ﷺ، ومعجزات موسى وعيسى عليهما السلام، وهي التي ذكرت في السنّة، وحكيت في القرآن.

**ثانيها**: كرامات أكرم الله بها أولياءه الصالحين، ويعدها العلماء دالّة على صدق نبوّة الأنبياء؛ لأنّها ما حصلت لهم إلا باتّباع أنبيائهم. فأتباع نبيّنا ﷺ حصل لهم كرامات بسبب إيمانهم وتصديقهم بنبيّهم، وتمسّكهم بشريعته، فكانت تلك الكرامات منّة من الله عليهم، وتقوية لإيمان بعضهم، وقطعًا لحجّة من خالفهم أو طعن في معتقدهم، وكذلك أجراها الله على أيديهم؛ لبيان الحق الذي هم عليه، وبيان صحّة معتقدهم، وبيان أنّ نبوّة نبيّهم نبوّة حقّ لا مرية فيها.

**وثالثها**: الأحوال الشيطانيّة التي تجري على أيدي السحرة والمشعوذين، وهي ما يتمكّن معه السحرة من الصرف والعطف، وقلب الأعيان، وقطع المسافات، والطيران في الهواء، دليل على أنّ من جرت عليه، فإنّه من خدم الشيطان وأعوانهم الذين يتقربون إلى الشياطين وإلى مردة الجنّ بما يحبّون،

فيذبحون لهم ويطيعونهم، فتصير الشياطين خدمًا لهذا الكاهن الذي عبدهم وذبح لهم وأشرك بالله، فتجري على يديه تلك المخارق والشعوذة، ويتلبّسون به وينطقون على لسانه، ويخبرون بالغائب والمسروق، ولكنّها تبطل بإذن الله إذا عولجت بالآيات القرآنيّة والأدعية النبويّة، فإذا ذكر الله وتليت الآيات القرآنية، وكان الذي يتلوها من أولياء الله الصالحين، وكان المقروء عليه تقيًّا ورعًا، بطل سحرهم. كما حصل لموسى ـ عليه السلام ـ لما ألقى العصا. فإنّ تلك القراءة تبطل سحرهم وشعوذتهم ويحترق عملهم، ويندحر الشيطان. أمّا إذا لم يكن القارئ أو المقروء عليه بهذه الصفة، فإنّ الشياطين تتمكّن من العصاة والمنحرفين والمخالفين والمكذّبين.

قال الشارح:

وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الأُمُورِ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ تَرْتَفِعُ دَرَجَتُهُمْ بِخَرْقِ الْعَادَةِ، وَقِسْمٌ يَتَعَرَّضُونَ بِهَا لِعَذَابِ الله، وَقِسْمٌ يَكُونُ فِي حَقِّهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاحَاتِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَتَنَوُّعُ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ بِاعْتِبَارِ تَنَوُّعِ كَلِمَاتِ الله. وَكَلِمَاتُ الله نَوْعَانِ: كَوْنِيَّةٌ، وَدِينِيَّةٌ.

فَكَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ هِيَ الَّتِي اسْتَعَاذَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلا فَاجِرٌ»[1]. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥]، وَالْكَوْنُ كُلُّهُ دَاخِلٌ تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: الْكَلِمَاتُ الدِّينِيَّةُ، وَهِيَ: الْقُرْآنُ وَشَرْعُ الله الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ، وَهِيَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَخَبَرُهُ، وَحَظُّ الْعَبْدِ مِنْهَا الْعِلْمُ بِهَا، وَالْعَمَلُ، وَالأَمْرُ بِمَا أَمَرَ الله بِهِ، كَمَا أَنَّ حَظَّ الْعِبَادِ عُمُومًا وَخُصُوصًا الْعِلْمُ بِالْكَوْنِيَّاتِ وَالتَّأْثِيرُ فِيهَا - أَيْ: بِمُوجَبِهَا - فَالأُولَى تَدْبِيرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ، وَالثَّانِيَةُ شَرْعِيَّةٌ دِينِيَّةٌ. فَكَشْفُ الأُولَى الْعِلْمُ بِالْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ، وَكَشْفُ الثَّانِيَةِ الْعِلْمُ بِالْمَأْمُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٨).

قال الشيخ:

ذكر الشارح أن الناس بالنسبة إلى خوارق العادات ثلاثة أقسام:

القسم الأول: (تَرْتَفِعُ دَرَجَتُهُمْ بِخَرْقِ الْعَادَةِ)، أي: ترتفع درجتهم إذا حصل لهم خارق عادة، فإنه يقوى إيمانهم، ويعلمون أن ربهم يحبهم ويحبونه ويزيدون في طاعته، فلا تزيدهم هذه الخوارق إلا إقبالاً على أنفسهم وعدلاً لها، واجتهادًا في الطاعات.

القسم الثاني: الذين (يَتَعَرَّضُونَ بِهَا لِعَذَابِ الله)، وذلك أنها إذا حصلت لهم اعتقدوا الولاية، واعتقدوا أنهم قد سقطت عنهم التكاليف، فتوسعوا في المعاصي والمحرمات، أو أنهم تحصل لهم هذه الخوارق بشرك يعملونه ومخارق وأحوال شيطانية.

القسم الثالث: (يَكُونُ فِي حَقِّهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاحَاتِ)، أي: تكون الخوارق في حقهم بمنزلة المباحات التي لا ينقصون بها، ولا يزيدون، لا تزيد عبادتهم، ولا تزيد سيئاتهم.

ثم يقول: (وَتَنَوُّعُ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ بِاعْتِبَارِ تَنَوُّعِ كَلِمَاتِ الله)، الكشف: ما يُكشف به لبعض الناس من الأحوال وما أشبهها، هذا يسمونه كشفًا. والكشف من عبارات الصوفية الذين يدَّعون أنه يُكشف لهم عن بعض الأمور الغيبية، وهذا ليس بصحيح، ولكن قد يحصل أن بعض أولياء الله تعالى يطلعهم الله على بعض الأمور المستقبلة، وذلك من كرامتهم. كذلك التأثير:

كون أحد يؤثر إما بدعوته، وإما بحال من حالاته، فهذا التنوع يكون باعتبار تنوع كلمات الله.

ثم ذكر أن (كَلِمَاتُ الله نَوْعَانِ: كَوْنِيَّةٌ، وَدِينِيَّةٌ)، وقد ذكر الفرق بينهما ابن القيم في «شفاء العليل»[1]، وذكره أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»[2].

ثم يقول: (فَكَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ هِيَ الَّتِي اسْتَعَاذَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلا فَاجِرٌ). وهذا حديث صحيح استُدل به على أن كلام الله غير مخلوق؛ لأن المخلوق لا يجوز أن يُستعاذ به، ووصف كلمات الله بأنهن تامات؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام:١١٥]؛ لأنه لا يجاوزهن أو لا يتجاوزهن بر ولا فاجر، يعني: أن من استعاذ من أهل البر بكلمات الله أعاذه الله، وأن من استُعيذ منه وهو فاجر فإنه لا يقدر أن يؤذي إذا استعيذ بكلمات الله منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، فهذا من كلمات الله الكونية، أمره وقوله: كن.

وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾[الأنعام:١١٥]، أي: تمت وهي لا تحتاج إلى تتميم، ووصف هذه الكلمات بقوله: ﴿ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾، يعني:

---

(١) (ص٢٨١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٠، ٢٧١).

حال كونها مطابقة للعدل وهو الصدق، وحال كونها عادلة ليس فيها ميل، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، لا أحد يقدر على أن يبدل كلمات الله، (وَالْكَوْنُ كُلُّهُ دَاخِلٌ تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ)، فإنه لا يتحرك إلا بإذن الله تعالى وبكلامه؛ وكذلك (سَائِرِ الخَوَارِقِ).

قوله: (وَالنَّوْعُ الثَّانِي: الْكَلِمَاتُ الدِّينِيَّةُ)، التي هي هذا القرآن، فإنه كلام الله، وأنه يُتعبد بتلاوته وقراءته، وكذلك شرع الله، فإنه من كلماته الدينية فهو قد بعث به رسوله ﷺ، ويدخل في كلمات الله الدينية كل الأوامر التي أمر بها، والنواهي التي نهى عنها، والأخبار التي أخبر بها، فكلها من كلمات الله الدينية.

قوله: (وَحَظُّ الْعَبْدِ مِنْهَا الْعِلْمُ بِهَا)، أي: على قدر العلم بها يكون حظه كبيرًا أو صغيرًا، أي: العلم بها ثم العمل بها، (وَالأَمْرُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ)، هذا هو حظ العبد: العلم والعمل والامتثال لما أمر الله به، (كَمَا أَنَّ حَظَّ الْعِبَادِ عُمُومًا وَخُصُوصًا الْعِلْمُ بِالْكَوْنِيَّاتِ وَالتَّأَثُّرُ فِيهَا)، حقًا أن العباد حظهم العلم بالكونيات، يعني: أن يعلموا كل ما هو كائن، وأن يتأثروا ويعتبروا، أي: بموجبها وما تحدثه.

قوله: (فَالأُولَى تَدْبِيرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ)، وهي الكلمات الكونية.

قوله: (وَالثَّانِيَةُ شَرْعِيَّةٌ دِينِيَّةٌ)، وهي الكلمات الدينية.

قوله: (فَكَشْفُ الأُولَى الْعِلْمُ بِالْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ)، فإنها كلها كونية، التي

يحدثها الله تعالى في هذا الكون،(وَكَشْفُ الثَّانِيَةِ الْعِلْمُ بِالْمَأْمُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ)، فمن كُشف له عن الحوادث الكونية، فإنه كشف له كلماته الكونية، ومن كُشف له عن الأمور الشرعية، فإنه يكون من أهل المأمورات الشرعية.

قال الشارح:

وَقُدْرَةُ الأُولَى التَّأْثِيرُ فِي الْكَوْنِيَّاتِ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ كَمَشْيِهِ عَلَى المَاءِ، وَطَيَرَانِهِ فِي الهَوَاءِ، وَجُلُوسِهِ فِي النَّارِ، وَإِمَّا فِي غَيْرِهِ، بِإِصْحَاحٍ وَإِهْلاكٍ، وَإِغْنَاءٍ وَإِفْقَارٍ.

وَقُدْرَةُ الثَّانِيَةِ التَّأْثِيرُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ بِطَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ، وَالتَمَسُّك بِكِتَابِ الله وسُنَّةِ رَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَإِمَّا فِي غَيْرِهِ بِأن يَأْمُر بِطَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ، فَيُطَاعُ فِي ذَلِكَ طَاعَةً شَرْعِيَّةً.

---

قال الشيخ:

إن تأثير الكلمات الكونية وقدرتها حصول التأثير في الكونيات، أي: في الكائنات، وفي الأمور العادية، فإذا مشى على الماء فهذا من تأثير الكلمات الكونية، وكذلك إذا طار في الهواء طيرانًا عاديًا بنفسه لا بواسطة الطائرات المعروفة، وكذلك لو جلس في الماء ولم يرسب، فإن ذلك من تأثير الكونيات، هذا في نفسه، كذلك في غيره، إذا صحح غيره من مرض، وإذا أهلك غيره، وإذا أغنى أحدًا أو أفقر أحدًا، فكل هذا من التأثير بالكلمات الكونية.

وأما التأثير بالكلمات الدينية فقدرة ذلك التأثير في الشرعيات، أي: في الأمور الشرعية، فيتأثر في نفسه بالزيادة من طاعة الله ورسوله، وكثرة الأعمال الصالحة، ويتمسك بكتاب الله تمسكًا كاملاً، ويسير على ما جاء به ﷺ،

ويتمسك بسنته ظاهرًا وباطناً، فهذا تأثيرها في نفسه، وأما في غيره فمن ذلك أن يأمر بطاعة الله ورسوله، فيُطاع في ذلك طاعة شرعية، إذا أمر غيره، أو نهى غيره، أمرهم بأن يطيعوا الله فامتثلوا ذلك، أو نهاهم عن معصية الله فأطاعوه، فقد أثر فيهم بالتأثير بالكلمات الشرعية.

قال الشارح:

فَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ عَدَمَ الخَوَارِقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً لا تَضُرُّ المُسْلِمَ فِي دِينِهِ، فَمَنْ لَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ المُغَيَّبَاتِ، وَلَمْ يُسَخَّرْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْكَوْنِيَّاتِ لا يَنْقُصُه ذَلِكَ فِي مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ الله، بَلْ قَدْ يَكُونُ عَدَمُ ذَلِكَ أَنْفَعَ لَهُ، فَإِنَّهُ إِنِ اقْتَرَنَ بِهِ الدِّينُ وَإِلا هَلَكَ صَاحِبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَإِنَّ الخَارِقَ قَدْ يَكُونُ مَعَ الدِّينِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ عَدَمِهِ، أَوْ فَسَادِهِ، أَوْ نَقْصِهِ.

---

قال الشيخ:

يقرر - رحمه الله تعالى - أن الإنسان ولو كان عبدًا صالحًا، ولو كان تقيًا نقيًا قد لا تحصل له خوارق، وقد لا يحصل له كرامات، فإذا عُدمت الكرامات علمًا وقدرة، فإن ذلك لا يضره في دينه؛ وذلك لأنه إذا كمل دينه وعمل بما أمر الله به، وانتهى عن المحرمات، ولكن مع ذلك لم يحصل له شيء من الكرامات، ولا حصل شيء من خوارق العادات، فإن ذلك لا يدل على أنه ليس كامل الدين، أو أن دينه ناقص. فإذا لم ينكشف له شيء من المغيبات فإن ذلك لا يضره؛ لأننا نقول: إن هذه المغيبات مما لا يعلمه إلا الله، فعليك أن تصلح عملك، ولو لم يُكشف لك شيء من المغيبات، ولو لم يُسخر لك شيء من الكونيات التي تُسمى خوارق، فتمسك بدينك، وذلك لا ينقصك في مرتبتك عند الله، بل قد يكون عدم ذلك أنفع لك.

ولذلك كان بعض الصالحين الذين حصلت لهم كرامات يتوبون منها،

يقولون: نخشى أنها تنقص حسناتنا، ونخشى أنا إذا حصلت منا هذه الكرامة أو هذا الخارق للعادة أن هذا ابتلاء، فيتوبون منها كما يتوبون من الذنوب.

يقول: (إِنِ اقْتَرَنَ بِهِ الدِّينُ وَإِلا هَلَكَ صَاحِبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)، فإذا كان ذلك الخارق مع الدين والتمسك والسلامة من البدع، ومن المعاصي، ومن المحرمات، والقيام بأركان الإسلام وبواجباته، ثم حصل مع ذلك خارق فلا بأس، أما إذا حصل خارق ولكن مع المعاصي ومع البدع، فإن صاحبه أقرب إلى الهلاك، خسر الدنيا وخسر الآخرة، فالخارق قد يكون مع الدين للصالحين، وقد يكون مع فساد الدين ومع عدمه، ومع نقصه لكثير من ضعفاء الإيمان، وقد يكون ذلك لأجل أن يقوى إيمانهم، إذا حصل لهم هذا الخارق، وقد يكون ابتلاءً، هل يشكرون الله ويعرفون أن هذا فضله، أو لا يفعلون ذلك.

قال الشارح:

فَالخَوَارِقُ النَّافِعَةُ تَابِعَةٌ لِلدِّينِ، خَادِمَةٌ لَهُ؛ كَمَا أَنَّ الرِّيَاسَةَ النَّافِعَةَ هِيَ التَّابِعَةُ لِلدِّينِ، وَكَذَلِكَ المَالُ النَّافِعُ؛ كَمَا كَانَ السُّلْطَانُ وَالمَالُ النَّافِعُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَمَنْ جَعَلَهَا هِيَ المَقْصُودَةَ، وَجَعَلَ الدِّينَ تَابِعًا لَهَا، وَوَسِيلَةً إِلَيْهَا، لا لأَجْلِ الدِّينِ فِي الأَصْلِ: فَهُوَ شَبِيهٌ بِمَنْ يَأْكُلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، وَلَيْسَتْ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ تَدَيَّنَ خَوْفَ الْعَذَابِ، أَوْ رَجَاءَ الجَنَّةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا هُوَ مَأْمُورٌ بِهِ، وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَشَرِيعَةٍ صَحِيحَةٍ.

---

قال الشيخ:

خوارق العادات والكرامات النافعة لا تنفع صاحبها إلا إذا كان عاملًا بالإسلام، فتكون تابعة للدين وخادمة له، ومقوية للمسلم على الأعمال الصالحة وعلى التوبة وترك المحرمات فتكون سببًا في ثباته على الدين، وسببًا في تمسكه، وسببًا في بعده عن المحرمات، فتكون الخوارق خادمة لدينه.

كما أن الرئاسة النافعة هي التابعة للدين، الرئيس والأمير والمقدم في الكون لابد أن يكون مطبقًا لتعاليم الدين، فإذا كان منحرفًا، ما نفعته رئاسته، ولو أن الناس يحترمونه، ويقومون له، ويجلونه ويبجلونه، ويعتقدون فيه شرفًا ورئاسة ونحو ذلك، فإذا لم يكن قائمًا بالدين لم ينفعه عند الله، ما نفعته رئاسته ولا نفعه ماله ولا نفعه الناس؛ ولذلك يقول يوم القيامة: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ

﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة:٢٨-٢٩]، أي: رئاستي وما أنا فيه، والقوم الذين يخدمونني ما نفعتني، أين هي؟

يقول: (وَكَذَلِكَ المَالُ النَّافِعُ)، الذي ينفع صاحبه، إذا كان مع الدين فإنه يُستفاد منه، وإذا كان مع الدنيا فإنه يكون وبالاً عليه، بحيث يتمنى أنه ما حصل له، يقول: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ﴾، أي: أموالي الكثيرة ما أغنت عني عندما يرى العذاب.

قوله: (كَمَا كَانَ السُّلْطَانُ وَالمَالُ النَّافِعُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ)، فالنبي ﷺ كان على يديه الأموال التي تُجبى إليه من الزكوات، ومن الجزية، ومن الإجارات ونحوها، وهو الذي يجعلها وسيلة إلى الدين، لا يجعل الدين وسيلة إليها.

وكذلك عمل أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - لم يقتنيا المال لأنفسهما ولا لأهلهما، وإنما عملا فيه بعمل النبي ﷺ، فالمال النافع لما كان بأيدي الخلفاء صرفوه في وجوهه، ولم يختصوا لأنفسهم ولا أقاربهم بشيء.

فمن جعل المال والرئاسة هي المقصودة، وجعل الدين تابعًا لها ووسيلة إليها (فَهُوَ شَبِيهٌ بِمَنْ يَأْكُلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ)، فلم يجعل هذه الرئاسة وهذا المال ونحوه تابعًا للدين، بل جعل الدين تابعًا لها، والذين جعلوا هذه الأشياء هي المقصودة فإنهم يعملون للدنيا، وفي الحديث: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ

وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[١].

فهؤلاء الذين يجعلون المال والرئاسة والسلطان تابعًا، أي: وسيلة لحصول المقصود، فإنهم كالذين يعملون عمل الآخرة يريدون به الدنيا.

وقد بوّب على ذلك الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ في كتاب (التوحيد): (بابٌ من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)، وجعل في المسائل إرادة الدنيا بعمل الآخرة، فالذين يقصدون بالسلطة تحصيل الوظائف الراقية، وتحصيل الأموال وما أشبه ذلك، ولا يجعلونها تابعة للدين، بل يجعلون الدين تابعًا لها، وهي الأصل، فهؤلاء يشبهون الذين يأكلون الدنيا بالدين، يجعلون الدنيا هي الوسيلة والمقصد، فيدخلون في قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، فأخبر بأن هؤلاء ليس لهم حظ في الآخرة، وإنما حظهم ما حصلوه في الدنيا، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود:١٥، ١٦].

فمثل هذا ليس مثل الذين يتدينون خوف العذاب أو رجاء الجنة، فإن ذلك مأمور به، وهو على سبيل النجاة وعلى شريعة صحيحة، ومثله الذي

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٦٦).

يقول: أنا أعمل لله لأجل أن ينجيني من عذابه، أو يدخلني جنته. لا يقول: أنا أعمل لله حتى يرزقني من الدنيا، وحتى يرزقني صحة في بدني أو مالاً وولَدًا ونحو ذلك، فإن هذا عمله يوفى إليه في الدنيا، وليس له في الآخرة حظ ولا نصيب.

قال الشارح:

وَالْعَجَبُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ هَمَّهُ قَدِ ارْتَفَعَ عَنْ أَنْ يَكُونَ خَوْفًا مِنَ النَّارِ أَوْ طَلَبًا لِلْجَنَّةِ، يَجْعَلُ هَمَّهُ بِدِينِهِ أَدْنَى خَارِقٍ مِنْ خَوَارِقِ الدُّنْيَا!! ثُمَّ إِنَّ الدِّينَ إِذَا صَحَّ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَلَابُدَّ أَنْ يُوجِبَ خَرْقَ الْعَادَةِ، إِذَا احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ صَاحِبُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦-٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1]، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ.

---

قال الشيخ:

لابد أنه يوجد كثير ممن يزعم (أَنَّ هَمَّهُ قَدِ ارْتَفَعَ عَنْ أَنْ يَكُونَ خَ ... مِنَ

---

(١) برقم (٣١٢٧).

النَّارِ أَوْ طَلَبًا لِلْجَنَّةِ)، فكأنه يقول: أنا لا أعبد الله خوفًا من النار، ولا أعبده طلبًا إلى الجنة، فيصبح أكبر همه أن يحصل على يديه خارق من خوارق العادة، أو كرامة من هذه الكرامات، حتى يفتخر بذلك، وحتى ينخدع به الناس ويقولون: هذا من الأولياء الذين تُستجاب دعوتهم، هذا أكبر همه، يجعله (أَدْنَى خَارِقٍ مِنْ خَوَارِقِ الدُّنْيَا).

قال: (ثُمَّ إِنَّ الدِّينَ إِذَا صَحَّ عِلْمًا وَعَمَلاً، فَلاَبُدَّ أَنْ يُوجِبَ خَرْقَ الْعَادَةِ، إِذَا احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ صَاحِبُهُ)، وهذا صحيح، فإن الإنسان إذا صحح عمله، وعمل على بصيرة، واتقى الله تعالى وأدى حقوقه، وتجنب ما حرمه الله تعالى، فإنه إذا احتاج إلى شيء لدنياه فإن الله تعالى يعطيه ويجيبه.

استدل ـ رحمه الله ـ على ذلك بهذه الآيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وحقيقة التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، فإذا اتقى الإنسان ربه وخافه وحده، ولم يخف غيره، فإن الله يجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وما ذاك إلا أنه حقق التقوى، والله تعالى وعده بأن يرزقه.

جاء في رواية في الأحاديث أن الله تعالى يقول: «وَعِزَّتِي وَعَظَمَتِي لَا يَعْتَصِمْ بِي عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي دُونَ خَلْقِي، أَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ نِيَّتِهِ، فَتَكِيدُهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، إِلَّا جَعَلْتُ لَهُ مِنْهُنَّ

فَرَجًا وَمَخْرَجًا»[1]. فقد وعده الله بأن يجعل له مخرجًا من كل ضائقة، ويجعل له اليسر بعد العسر، ويرزقه وييسر له الرزق، ويأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يقدر.

الآية الثانية: قوله - جل وعلا -: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، يعني: إذا حققتم تقوى الله وعملتم بطاعته فلابد أن يجعل لكم فرقانًا، أي: عملاً واضحًا، تعرفون به الحق من الباطل، تفرقون به بين الحق والباطل، وتعرفون من هو صالح ممن ليس بصالح، هذا من آثار التقوى.

الآية الثالثة: قوله - عز وجل -: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:٦٦]، أخبر بأنهم إذا فعلوا ما يوعظون به، أي ما يسمعونه من المواعظ، وما يسمعونه من النصائح، والتزموا بجميع أوامر الله تعالى، فقاموا بها، وبجميع ما نهى عنه الله تعالى، وابتعدوا عنه، فإن ذلك يكون خيرًا لهم، أي يرزقهم الله تعالى خيرًا، ويثبتهم ويكونون أشد تثبيتًا ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾، هذا الأجر في الدنيا وفي الآخرة يؤتيهم الله أجرًا عظيمًا، ويفتح عليهم باب المصالح، ويهديهم في الآخرة وفي الدنيا صراطًا

---

(١) أخرجه تمام الرازي في الفوائد (١/ ٢٤٣) من حديث كعب بن مالك ﷺ، وفيه يوسف بن السفر متروك يكذب، قال البيهقي: هو في عداد من يضع الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال الدارقطني: متروك يكذب، وقال أبو زرعة وغيره: متروك. انظر: كنز العمال (٣/ ٤٦). وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٥) عن وهب بن منبه، موقوفًا عليه.

مستقيمًا، يسيرون عليه إلى أن يأتوا إلى دار كرامة الله.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، هذا أيضًا يحصل لهم؛ لأنهم آمنوا بالله إيمانًا صحيحًا كاملاً، واتقوا ربهم تقوى صحيحة، فوعدهم الله بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أي: في الدنيا يُبشرون بأن الله سينصرهم ويؤيدهم ويقويهم ويرزقهم، وفي الآخرة يُبشرون بدار كرامة الله تعالى.

وأما الحديث عن أبي سعيد ﷺ فقد أخرجه الترمذي وغيره، ولكن في إسناده عطية العوفي وهو ضعيف، وقد رُوي من طرق أخرى عن ابن عمر وأبي أمامة وأبي هريرة رضي الله عنهم، لكن طرقه كلها ضعيفة، وبعضها متماسك، فلعل تعدد طرقه وكثرة شواهده يدل على أن له أصلًا[1].

الفراسة: هي الحدس؛ لأن المؤمن ينظر بنور الله، فإذا نظر إلى رجل يكن سوءًا عرفه، وقال: هذا سيئ الباطنية، هذا عنده همة سيئة فاحذروه، فيدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، أي: الذين يتوسمون في الإنسان الخير، فهؤلاء هم الذين يُرجى أن يكونوا من أهل المعجزات، أو من أهل الكرامات.

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨)، وكشف الخفاء (١/ ٤٢).

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى، فِيمَا يَرْوِي عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»[1]. فَظَهَرَ أَنَّ الاسْتِقَامَةَ حَظُّ الرَّبِّ، وَطَلَبَ الْكَرَامَةِ حَظُّ النَّفْسِ. وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

---

قال الشيخ:

هذا حديث قدسي أخبر تعالى بأن له أولياء، وأن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هم الذين آمنوا واتقوا، فإذا كان هناك ولي من أولياء الله قد اتقى الله حق تقاته، وقد آمن به حق الإيمان وقد عمل الصالحات، فإن من عاداه فإنه يعتبر بارز ربه بالمحاربة، يُقال للذين يعادون الصالحين: أنت تحارب ربك، أنت قد بارزت ربك بالمحاربة، فعليك أن تتوب ولا تؤذي عباد الله، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «يا مَعْشَرَ من آمَنَ بِلِسَانِهِ ولم يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فإنه من

---

[1] تقدم تخريجه (٥/ ٨١).

يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»[1].

ثم يقول الله تعالى في هذا الحديث: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»، وفي رواية: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ». التقرب هو: الأعمال الصالحة؛ لأنها تقرب العبد إلى رضا الله، كما أن السيئة تبعده عن رضا الله تعالى، فإذا عمل الصالحات وبالأخص الفرائض التي فرضها وكتبها على العباد، صدق عليه أن يتقرب إلى الله تعالى بما يحبه، فيكون قد تقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، أي بالفرائض، ولكن مع ذلك إذا أراد أن تثبت له محبة الله، فيتقرب إليه بالنوافل الزائدة عن الفرائض، يتقرب إليه بقيام الليل، وبصلاة الضحى، وبالرواتب التي قبل الظهر وبعده، وقبل العصر، وقبل المغرب وبعده، وقبل العشاء وبعده، وسنة الفجر، ونحو ذلك، ويتقرب إليه بنوافل الصيام، فيصوم من كل شهر ثلاثة أيام، أو يصوم كل اثنين وخميس، أو يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويتقرب بالصدقة الزائدة عن الفريضة التي هي زكاة المال، ويتقرب بمتابعة الحج والعمرة، ويتقرب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل العلم للمتعلمين، والنصيحة للمسلمين، وكذلك أيضًا يتقرب بترك المحرمات والمكروهات ونحوها، فإذا فعل ذلك أحبه الله، فإن الله تعالى يحب محبة تليق به.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، وأحمد (٤/ ٤٢٠) من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ. وأخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان (١٣/ ٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يقول: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»، بمعنى أنه لا يسمع الشيء إلا الذي في رضا الله تعالى، فلا يسمع إلا ما أُمر به، وما يفيده؛ وكذلك بصره، لا يمد بصره إلا في شيء فيه طاعة، فيكف بصره عن المحرمات ويحمي سمعه عن سماع المحرمات.

قوله: «وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا»، وكذلك يده فلا يبطش، ولا يمد يده، ولا يعمل بها، إلا ما يحبه ربه.

قوله: «وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»، أي: وكذلك رجله لا يمشي بها إلا إلى ما يحبه الله؛ ولأجل ذلك وعده قال: «وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ»، يعني: سؤله تكرمة له، ويعطيه ذلك، ويكون من خوارق العادات، ثم قال: «وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»، أخبر بأنه إذا استعاذه وهو صادق وهو من أولياء الله، أعاذه الله من كل شر، فإذا استعاذ من شرور الدنيا ومن شرور الناس، أعاذه الله تعالى.

وأما قوله: «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ»، فالله سبحانه وتعالى - يحب المؤمن ويحب ما يحيه المؤمن، وقد عُلم بأن المؤمن أو الإنسان بالطبع يكره الموت، ويكره الله تعالى الشيء الذي يسوءه، ولكن حيث إنه لابد له من الموت، فإن الله يهون عليه ذلك الموت، فلا يحس بمقدمات ولا بآلام ولا بغير ذلك.

فتبين (أَنَّ الاسْتِقَامَةَ حَظُّ الرَّبِّ)، فمتى استقام على طاعة الله، ثم عمل بطاعته، فقد حرص وجعل ذلك حظه في الدنيا والآخرة، وأما طلب الكرامة، وطلب خرق العادة فإنه حظ للنفس فقط، فإن الذي يعبد الله ويعمل لأجل أن تحصل له كرامة إنما يريد شيئًا تميل له نفسه.

قال الشارح:

وَقَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ فِي إِنْكَارِ الْكَرَامَةِ: ظَاهِرُ الْبُطْلانِ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ إِنْكَارِ الْمَحْسُوسَاتِ. وَقَوْلُهُمْ: لَوْ صَحَّتْ لاشْتَبَهَتْ بِالْمُعْجِزَةِ، فَيُؤَدِّي إِلَى الْتِبَاسِ النَّبِيِّ بِالْوَلِيِّ، وَذَلِكَ لا يَجُوزُ! وَهَذِهِ الدَّعْوَى إِنَّمَا تَصِحُّ إِذَا كَانَ الْوَلِيُّ يَأْتِي بِالْخَارِقِ، وَيَدَّعِي النُّبُوَّةَ، وَهَذَا لا يَقَعُ، وَلَوِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ لَمْ يَكُنْ وَلِيًّا، بَلْ كَانَ مُتَنَبِّئًا كَذَّابًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلامُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُجْتَبَى وَنَبِيُّهُ الْمُصْطَفَى).

---

قال الشيخ:

المعتزلة ينكرون هذه الخوارق، وهذه الكرامات، وإنكارهم هذا إنكار للمحسوسات؛ كما أنهم أيضًا ينكرون السحر، يقولون: لو صح لاشتبه صاحب الكرامة بالنبي، واشتبه الساحر بالنبي، فيؤدي إلى التباس النبي بغيره.

هذه شبهتهم، فأجابهم الشارح ـ رحمه الله ـ فقال: لا يجوز أن يلتبس النبي بالولي؛ وذلك لأن هذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدَّعي النبوة، وهذا لا يقع، فالأولياء لا تزيدهم الخوارق والكرامات إلا تذللاً لربهم، وعبادة له، فالذي يدعي النبوة لا يكون وليًا، ولو ادعى النبوة لم يكن وليًا، ولم يكن من أولياء الله بل يكون كذابًا ليس بصادق فيما يدعيه من النبوة.

ولاشك أن هناك فرق بين النبي والمتنبئ، كما حصل بين النبي ﷺ وبين مسيلمة الكذاب وغيره من المتنبئين، فإن هؤلاء الذين يتنبئون لابد أن يقع

منهم ما يُعرف به كذبهم، ولو حصل على أيديهم شيء من المخارق التي تساعدهم عليها الشياطين، كما حصل للأسود العنسي من أن شيطانه كان يخبره بالذين يضمرون له العداوة ويهمون بقتله، وكذلك غيره، تتنزل عليهم الشياطين وتخبرهم بذلك، وهذا يتبين به أنهم كذبة، لا أنهم أنبياء، ولو جرت على أيديهم تلك الخوارق التي هي أحوال شيطانية، فلابد أن يكون هناك فرق واضح بين الأولياء وبين الأعداء، فإن أولياء الله: هم العباد الصالحون، وإذا حصلت الكرامة لهم فذلك تكرمة لهم، حيث وثقوا بأمر الله تعالى، وتوكلوا عليه، وعبدوه حق العبادة، وأقاموا شريعته، واتبعوا سيرة نبيهم الكريم، وأطاعوه في كل ما يأمرهم به، فأجرى الله تعالى على أيديهم هذه الخوارق، ولم تزدهم إلا تصلبًا في دينهم، ولم تزدهم إلا تمسكًا بهذا الدين الحنيف، وعملوا به واتقوا ربهم، وأطاعوه، وعملوا الصالحات، وازدادوا خيرًا، وتورعوا عن المحرمات، ولم ينخدعوا بما أعطاهم الله من هذه الكرامة، وعلموا أنها ليست دليلاً على المحبة.

وقد تكون هذه الكرامات في حقهم ابتلاءً وامتحانًا، فإذا أشر ذلك الذي أُعطي تلك الكرامة الخارقة للعادة، وبطر، وأخذ يفتخر بأنه من الأولياء والصالحين، وأعجب بنفسه، عاقبه الله تعالى، وسلبه ما هو فيه من لذة العبادة، وقطع تلك الكرامة. ومتى تذلل لربه، وأظهر الاستضعاف بين يدي ربه، ولم تزده الكرامة إلا اجتهادًا في العبادة، زاده الله منها، ورفع درجته في الدنيا والآخرة.

قال الشارح:

وَمِمَّا يَنْبَغِي التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ هَاهُنَا: أَنَّ الْفِرَاسَةَ ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ:

إِيمَانِيَّةٌ، وَسَبَبُهَا نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ، وَحَقِيقَتُهَا أَنَّهَا خَاطِرٌ يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ، يَثِبُ عَلَيْهِ كَوُثُوبِ الأَسَدِ عَلَى الْفَرِيسَةِ، وَمِنْهَا اشْتِقَاقُهَا، وَهَذِهِ الْفِرَاسَةُ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الإِيمَانِ، فَمَنْ كَانَ أَقْوَى إِيمَانًا فَهُوَ أَحَدُّ فِرَاسَةً.

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «الْفِرَاسَةُ مُكَاشَفَةُ النَّفْسِ وَمُعَايَنَةُ الْغَيْبِ، وَهِيَ مِنْ مَقَامَاتِ الإِيمَانِ». انْتَهَى.

---

قال الشيخ:

إذا عُرف أن الفراسة هي: كون الإنسان يتفرس في غيره، فيخطر في باله أمر فيكون حقيقة، فيعرف أن هذا ـ مثلاً ـ من أهل الذكاء وقوة الإيمان، ويعرف أن هذا محتال بكذا وكذا، وقد وقعت فراسة كثير ذكر كثيرًا منها ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (الطرق الحكمية)، بحيث إن هناك من رأى شخصًا يعمل عملاً فتفرس فيه أنه محتال، أو تفرس في هذا أنه صاحب حرفة أو ما أشبه ذلك، بمعنى أنه فكر فيه نظرة عبرة فقال: أقول إن هذا أمره كذا وكذا. فوقع كما قال.

يقول: النوع الأول من أنواع الفراسة: الفراسة الإيمانية، سببها نور يقذفه الله في قلب عبده، هذا النور يحصل من آثار التفرس والتعرف لذلك الشخص، ولا يفتح الله عليه إلا إذا كان من أهل الإيمان.

ثم ذكر أن (حَقِيقَتُهَا أَنَّهَا خَاطِرٌ يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ)، بمعنى أنه يقع على القلب، (وَيَثِبُ عَلَيْهِ كَوُثُوبِ الأَسَدِ عَلَى الْفَرِيسَةِ، وَمِنْهَا اشْتِقَاقُهَا)، أي: ولهذا سميت فراسة، فاشتقاقها من الوثوب على الفريسة.

قوله: (وَهَذِهِ الْفِرَاسَةُ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الإِيمَانِ)، أي: هذه الفراسة قد تختلف فتقوى بقوة الإيمان، وتضعف بضعف الإيمان، فإذا كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أحد فراسة، ومع ذلك لا يلزم أن كل مؤمن قوي الإيمان يكون عظيم الفراسة، فقد يكون إيمانه قويًا ولكن ليس له هذه الحدة، ولا هذا الذكاء، ولا هذه المعرفة بمن يراه.

قوله: (قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ)، أبو سليمان الداراني - رحمه الله - اسمه: عبدالرحمن بن أحمد الداراني، وهو من كبار الزهاد، يقول: «الْفِرَاسَةُ مُكَاشَفَةُ النَّفْسِ وَمُعَايَنَةُ الْغَيْبِ، وَهِيَ مِنْ مَقَامَاتِ الإِيمَانِ». أي: ينكشف للنفس شيء لم يكن عليه دليل ظاهر؛ وكأنه يعرف الأمور المغيبة، فهذه الفراسة الإيمانية تعتبر من مقامات الإيمان.

قال الشارح:

وَفِرَاسَةٌ رِيَاضِيَّةٌ، وَهِيَ: الَّتِي تَحْصُلُ بِالْجُوعِ وَالسَّهَرِ وَالتَّخَلِّي، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا تَجَرَّدَتْ عَنِ الْعَوَائِقِ صَارَ لَهَا مِنَ الْفِرَاسَةِ وَالْكَشْفِ بِحَسَبِ تَجَرُّدِهَا.

وَهَذِهِ فِرَاسَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَلا تَدُلُّ عَلَى إِيمَانٍ، وَلا عَلَى وِلايَةٍ، وَلا تَكْشِفُ عَنْ حَقٍّ نَافِعٍ، وَلا عَنْ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، بَلْ كَشْفُهَا مِنْ جِنْسِ فِرَاسَةِ الْوُلاةِ وَأَصْحَابِ عِبَارَةِ الرُّؤَيا وَالأَطِبَّاءِ وَنَحْوِهِمْ.

---

قال الشيخ:

سميت هذه فراسة رياضية؛ لأنها تحصل بعد ترويض النفس، بأن يروض نفسه بالسهر والجوع والتخلي والانفراد والابتعاد وكثرة التفكير، حتى تتجرد نفسه عن العوائق وعن المشاغل ونحوها، فبعد ذلك يصير لها نوع من الفراسة والذكاء، ومعرفة الأحوال والكشف، وبحسب قوة تجردها عن العوائق.

يقول: (وَهَذِهِ فِرَاسَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ)، أي: أن هذه الفراسة تقع للمؤمن صادق الإيمان، وقد تقع أيضًا للكافر، فهناك كثير من الكفار ومن المنافقين يحصل لهم بعد رياضة النفس بالجوع ونحوه نوع من التفرس ومعرفة أحوال الناس.

قوله: (وَلا تَدُلُّ عَلَى إِيمَانٍ)، أي: أنها لا تدل على وجود الإيمان، فليس كل من حصلت له يكون مؤمنًا.

قوله: (وَلا عَلَى وِلايَةٍ)، ولا تدل أيضًا على الولاية، فلا يكون كل من حصلت له من أولياء الله.

قوله: (وَلا تَكْشِفُ عَنْ حَقٍّ نَافِعٍ)، أي: وليست أيضًا تكشف عن حق نافع، بل قد تكشف عن سوء، أو تكشف عن باطل، أو نحو ذلك.

قوله: (وَلا عَنْ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ)، أي: ولا تدل أيضًا على طريق مستقيم، بل يكون كشفها من جنس كشف فراسة ولاة الأمر، فإن كثيرًا من الولاة والقضاة ونحوهم يكون لهم فراسة، يعرفون بها شيئًا من الحالات ونحوها، كما ذكر ابن القيم شيئًا كثيرًا من فراسة إياس بن معاوية القاضي، وكذلك أيضًا تُقاس على عبارة أصحاب الرؤيا والأطباء، فإن الرؤيا إذا قُصت على من يعبرها، عرف تعبيرها بمجرد رؤية الرائي، أو بمجرد خبره، وذلك نوع من الفراسة؛ وكذلك الأطباء عندما يكون أحدهم يكشف على مريض، مجرد ما يراه وإن لم يكشف عليه، يعرف أنه مصاب بكذا وكذا قبل الكشف، هذه من الفراسة الرياضية.

قال الشارح - رحمه الله -:

وَفِرَاسَةٌ خَلْقِيَّةٌ، وَهِيَ الَّتِي صَنَّفَ فِيهَا الأَطِبَّاءُ وَغَيْرُهُمْ، وَاسْتَدَلُّوا بِالخَلْقِ عَلَى الخُلُقِ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ الارْتِبَاطِ، الَّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ الله، كَالاسْتِدْلالِ بِصِغَرِ الرَّأْسِ الخَارِجِ عَنِ الْعَادَةِ عَلَى صِغَرِ الْعَقْلِ، وَبِكِبَرِهِ عَلَى كِبَرِهِ، وَسِعَةِ الصَّدْرِ عَلَى سِعَةِ الخُلُقِ، وَبِضِيقِهِ عَلَى ضِيقِهِ، وَبِجُمُودِ الْعَيْنَيْنِ وَكَلالِ نَظَرِهِمَا عَلَى بَلادَةِ صَاحِبِهَا وَضَعْفِ حَرَارَةِ قَلْبِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

قال الشيخ:

هذه الفراسة الثالثة التي هي خلقية، بمعنى: أن أصناف الناس يختلفون، فالأطباء بحسب تجربتهم، وكذلك أهل الفراسة والذكاء بحسب ما عرفوه، وقد صنف الأطباء وغيرهم كثيرًا من هذه الفراسة، واستدلوا بالخَلق على الخُلق، أي: بخلقة الإنسان وهيكله وهيئته على أخلاقه، فإن بينهما ارتباط عضوي، بحيث إنه يُعرف بذلك أخلاقه وعادته وما بينهما، فالارتباط اقتضته حكمة الله، أي: اقتضت حكمة الله تعالى أن بين الخَلق والخُلق علامات يُعرف بها. فذكر أنه يُستدل (بِصِغَرِ الرَّأْسِ الخَارِجِ عَنِ الْعَادَةِ عَلَى صِغَرِ الْعَقْلِ)، وهذا قد لا يكون مطردًا ولكنه غالب، أن الإنسان إذا كان رأسه صغيرًا صغرًا خارجًا عن العادة المطردة، فإنه يدل على صغر عقله، وكذلك إذا رأوا رأسه كبيرًا خارجًا عن العادة، استدلوا بذلك على كبر عقله، وإن كان ذلك أيضًا ليس مطردًا، ويستدلون بسعة الصدر على سعة الأخلاق، فواسع الصدر سعة

زائدة يقولون: هذا دليل على سعة أخلاقه، وكذلك العكس إذا رأوه ضيق الصدر، يعني: متقارب الأضلاع ونحوها، قالوا: هذا خلقه ضيق، وهذا معه شيء من مكارم الأخلاق، وكذلك (وَبِجُمُودِ الْعَيْنَيْنِ)، يعني: قلة الخشوع ونحو ذلك، أو (وَكَلالِ نَظَرِهِمَا)، أي: ضعف النظر، والكلالة يستدلون به على البلادة، أن صاحب ذلك يكون بليدًا، وضعيف حرارة القلب ونحو ذلك. فهذه تسمى فراسة خَلقِيَّة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

ونُؤمِنُ بأشراطِ الساعةِ: من خُروجِ الدَّجَّالِ، ونُزولِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ - عليهِ السّلامُ - مِنَ السَّماءِ، ونُؤْمِنُ بِطُلوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها، وخُرُجِ دابَّةِ الأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِها.

---

قال الشارح:

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: «اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا». وَرُوِيَ «رَايَةً»، بِالرَّاءِ وَالْغَيْنِ، وَهُمَا بِمَعْنًى. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1] وَأَبُو دَاوُدَ[2] وَابْنُ مَاجَهْ[3] وَالطَّبَرَانِيُّ[4].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ، قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ،

---

(١) برقم(٣١٧٦).

(٢) مختصرًا برقم (٥٠٠٠).

(٣) برقم (٤٠٤٢).

(٤) في الكبير برقم (٧٠).

فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ»، فَذَكَرَ: الدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَالدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٢]، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ».

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَأَنْذَرَ قَوْمَهُ الْأَعْوَرَ الدَّجَّالَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر»، فَسَّرَهُ فِي رِوَايَةٍ: «أَيْ كَافِرٌ»[٣].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ[٤]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ

---

(١) برقم (٢٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٣١) و (٧٤٠٨)، ومسلم (٢٩٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[النساء: ١٥٩].

وَأَحَادِيثُ الدَّجَّالِ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَيَقْتُلُهُ، وَيَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ قَتْلِهِ الدَّجَّالَ، فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ عَلَيْهِمْ: يَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ بَسْطِهَا.

---

قال الشيخ:

ابتدأ الطحاوي ـ رحمه الله ـ في ذكر أشراط الساعة وأنّ أهل السنّة والجماعة يصدّقون بها، للأدلة الواردة بشأنها في القرآن والسنّة، من الأحاديث الصحيحة الثابتة، التي لا تردّد فيها.

أمّا ذكر المسيح ابن مريم، وأنّه يخرج في آخر هذه الأمّة، فقد ورد في تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[النساء: ١٥٩]؛ أنّ معنى هذه الآية: أنّ من أهل الكتاب من يدركونه، فيؤمنون به قبل موته، أي: إن منهم إلا سوف يؤمنون به، عند إذا خرج في آخر الدنيا، كما في الحديث: «لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى

لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»؛ يقتل الخنزير: لأن لحمه حرام؛ ولأنّ النصارى يبالغون في أكله، ويكسر الصليب الذي يعبده النّصارى، ويزعمون أنّه الصليب الذي صلب عليه عيسى لما قُتل، فيقدّسونه، مع أنّه الذي صُلب عليه ربّهم أو ابن ربّهم بزعمهم، تعالى الله عن قولهم. ويضع الجزية: بمعنى أنّه لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، بدل ما في هذه الشريعة: أنّ الكتابيين تقبل منهم الجزية، ويبقون على دينهم، فعيسى ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان لا يقبل الجزية، بل يقاتلهم إلى أن يسلموا أو يقتلوا، فينصره الله، ويفيض المال في ذلك الزمان حتّى لا يقبله أحد، أي يكثر المال في أيدي النّاس، وذلك ببركة ينزلها الله تعالى كما ورد في الحديث: «وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ»، يعني: يبارك الله تعالى في اللبن، «حتى أَنَّ اللِّقْحَةَ من الْإِبِلِ لتَكْفِي الْفِئَامَ من الناس، وَاللِّقْحَةَ من الْبَقَرِ لتَكْفِي الْقَبِيلَةَ من الناس، وَاللِّقْحَةَ من الْغَنَمِ لتَكْفِي الْفَخِذَ من النَّاس»، وكذلك يبارك في الثّمار، «فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ من الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا»[1]؛ يعني: قشرها. وذلك من آثار البركة.

كذلك من أشراط الساعة، ما ورد في الحديث الذي ذكره الشارح: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ...»، فعدّ منها: خروج الدجّال: وهو الأعور الكذاب الذي يخرج في آخر الزّمان، ويدّعي أنّه الرّب، ويفتن الله به خلقًا، ويأتي إلى القرية، إذا عصوه أصبحوا ممحلين. وإذا أطاعوه، أصبحوا منعَّمين، عقوبة وفتنة. ويدعو القرية، فيتبعه أهلها كيعاسيب النّحل، واليعسوب: ذكر النّحل.

---

(١) جزء من حديث النواس بن سمعان ﷺ الطويل الذي أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

وقد سأل الصحابة النبي ﷺ: يا رَسُولَ الله وما لَبْثُهُ في الأرض؟ قال: «أَرْبَعُونَ: يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ»، فقالوا: يا رَسُولَ الله، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الذي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فيه صَلَاةُ يَوْمٍ؟، قال: «لَا، اقْدُرُوا له قَدْرَهُ»[1]. أي: قدّروا لكلّ صلاة ما بينها وبين الأخرى، ثمّ صلّوا. كذلك أخبر أنّ الدجّال يقتله المسيح ابن مريم بباب لدّ ـ وهو باب في فلسطين من أرض الشام ـ إذا رأى المسيح ابن مريم ذاب كما يذوب الملح في الماء، فيقتله، ثم يزول أثره من الأرض.

لأجل ذلك كان ﷺ يكثر من الاستعاذة من الشيطان، ويكثر أن يستعيذ من أعوان الشيطان، ومنهم الدجاجلة، ومنهم هذا الدجال المنتظر. فيقول ﷺ: «إِذا تَشَهَّدَ أحدكم فَلْيَسْتَعِذْ بِالله من أَرْبَعٍ، يقول: اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[2].

وفي الحديث أنّه ﷺ ذكر له علامة فقال: «وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»[3]، من المعروف أنّ العنبة إذا أُخذ ماؤها، ظلّت قشرتها ملتصقة بعضها ببعض، فعينه حدقتها منطفئة، ملتصق جلدها بعضه ببعض. كذلك أخبر بعلامة أخرى فقال: «وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: ك ف ر»، كاف

---

(١) جزء من حديث النواس بن سمعان ﷺ الطويل الذي أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (٥/ ١٤٤).

منفصلة، وفاء، وراء، يقرؤها كلّ من نظر إليه من أهل الإيمان وإن لم يكن قارئًا.

ولكثرة الأحاديث التي وردت في الاستعاذة منه ومن شرّه، جعله العلماء من أشراط الساعة، وصاروا يحذّرون من شرّه، ولكن مع الأسف بعض المعاصرين أنكروه لـمّا رأوا أنّ الواقع لا يساعد عليه، فصاروا يتأوّلون الأحاديث التي وردت فيه، وصاروا يصرفونها عن معناها، حتّى قال بعضهم: المراد بالدجّال: الشرور التي تحصل في آخر الزمان والمنكرات! وغفلوا عن قوله ﷺ: «**وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى**»، وغفلوا عن أنّه يدعو النّاس ويفتنهم، وأنّه يسلّط على البلاد كلّها ما عدا مكّة والمدينة، فإنّ الله يجعل عليها ملائكة يحمونها فلا يدخلها، ولكنّ المدينة ترجف ثلاث رجفات فيخرج إليه من كان منافقًا[1]. وغفلوا أيضًا عن أوصافه التي وصف بها: من أنّه مكتوب بين عينيه كافر، وأنّه إنسان يجول ويتقلّب في البلاد، وأنّه يسير فيها بسرعة كما يسير السحاب. كذلك أوّلوا ما ورد ممّا معه من الأحوال الشيطانيّة، فإنّ هذه التي تجري على يديه أحوال شيطانيّة، حتّى إنّه يقطع الرجل قطعتين، ثم يقول له: قم! فيقوم. وأنّه إذا عصته قرية أصبحوا ممحلين، وإذا أطاعته بلدة أصبحوا في رفاهية ونعمة، وذلك أنّه فتنة يخرجها الله حتّى يفتن بها العباد، فمن رزقه الله علمًا وبصيرة وإيمانًا، لم يزدد من

---

(١) كما ورد في حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بَلَدٍ إلا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إلا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، ليس له من نِقَابِهَا نَقْبٌ إلا عليه الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ الله كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ». أخرجه البخاري (١٨٨١)، ومسلم (٢٩٤٣).

أمره إلا بصيرة، ومن أراد الله فتنته فإنّه ينخدع به.

لقد تكلّم العلماء كثيرًا حول المسيح الدجال وحول المسيح ابن مريم عليه السلام، وذكروا أدلّة كثيرة عليه، ومنهم ابن كثير عند تفسير آخر سورة النساء في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]؛ فقد أطال الكلام على ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام، وذكر الأحاديث التي تدلّ على نزوله، واستقصى ما ورد في ذلك. وأمّا ذكر المسيح الدجّال فقد ذكره في آخر «تاريخه»: أي في أشراط الساعة. وكتب في ذلك كثير من العلماء المتقدّمين والمتأخّرين، ومن أوفى من كتب في ذلك الشيخ حمود التويجري في كتابه «إتحاف الجماعة في أشراط الساعة»، فإنّ الجزء الثاني كلّه يتعلّق بالأشراط المذكورة في هذه الأحاديث، وقد توسّع فيها.

وأما دابّة الأرض؛ فذُكرت في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]؛ تكلّم ابن كثير في التفسير عند هذه الآية عنها، وذكر الأحاديث التي يمكن الاستدلال بها، ولكن أكثر ما ذكر فيها لم يصحّ، فما ذكر فيها من طولها وضخامتها، وأنّ معها عصى موسى وخاتم سليمان، وأنّها تختم كلّ أحد، وتجعل على المؤمن علامة الإيمان، وعلى الكافر علامة الكفر، حتّى إنّ النّاس يتبايعون بعد ذلك، فيقول هذا: يا مؤمن، وهذا: يا كافر. أكثر تلك الأحاديث لم تثبت، ولكن فيها أحاديث ثابتة، وفيها النصّ القرآني.

وأمّا طلوع الشمس من مغربها، فقد استدلّ عليه بقول الله تعالى في آخر سورة الأنعام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام: ١٥٨]؛ قيل: إنّ هذه الآية هي: طلوع الشمس من المغرب، فإذا طلعت: قال النّاس: آمنا! حينئذ لا ينفعهم إيمانهم، وذلك الوقت الذي قرُب فيه انتهاء الحياة الدنيا. وقد استوفى أدلّتها ابن كثير في آخر «تاريخه».

وقد أنكرها في هذه الأزمنة من أنكر المحسوسات، أو أنكر قريبًا من المحسوسات، وادّعوا أنّ الشمس لا تطلع من المغرب، فإنّ العادة جارية بأن الشمس تطلع من جهة مشرقها، ولا يتغيّر هذا الكون، إلا تغيرًا كليًّا، وهذا على قول من يقول: إنّ الشمس ثابتة، وإنّ الأرض هي المتحرّكة، ولكن هذا أيضًا يردّ عليهم، وأنّ الشمس تطلع من مغربها، وأنّ الناس إذا رأوا ذلك آمنوا، وحينئذ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام: ١٥٨].

وأما الدخان المذكور في هذا الحديث؛ فقيل: إنّه الدخان المذكور في سورة الدخان: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]، وقد ذهب بعض الصحابة إلى أنّه شيء قد مضى، ومنهم ابن مسعود ﷺ، فقد قال: إِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَئُوا عَنْ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللهمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ - يعني: أصابهم قحط - حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ[١]. من الغشاوة التي على أبصارهم، فكان ذلك هو الدخان الذي جاء في هذه الآية.

والجمهور على أنّه لم يأتِ، وأنّه شيء يكون بين يدي الساعة، وأنّه دخان حقيقيّ يأخذ بمشامّ كثير من النّاس، وأنّه يغشاهم كما تغشاهم الرّياح، وكما يغشاهم الغبار، بحيث يحول بينهم وبين نظرهم إلى السماء، وهذا الذي ورد في بعض الأحاديث، وأنّه من أشراط الساعة. وبكلّ حال: سواء مضى، أو أنّه شيء منتظر، فالآية محتملة لذلك.

كذلك من أشراط الساعة البطشة، وكذلك قيل: إنّها قد مضت: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الدخان: ١٦]، والصحيح أنّها قد وقعت وهي غزوة بدر.

ومن أشراط الساعة أيضًا اللِّزام: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]؛ هذا اللِّزام هو القحط والعذاب الذي وقع بقريش لما لم يطيعوا النبيّ ﷺ، وقيل: إنّه عذاب مستمر، أو أنّه مستقبل وسوف يحصل ذلك، ولعلّ الأرجح أنّه ما وقع بقريش، حتّى هرعوا إلى النبيّ ﷺ وطلبوا منه أن يدعو لهم، فدعا لهم، فرحمهم الله، وأزال عنهم القحط الذي نزل بهم[٢].

ومن أشراط الساعة ـ كما ذكر في هذه الأحاديث ـ: بعثته ﷺ، فهي تُعدُّ من أشراط الساعة، يقول الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]؛ أي

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) كما في تتمة الحديث السابق.

اقترب. ويقول تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، ويقول: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، أي: قرب وقت الحساب، ويقول تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، وكلّ هذه الآيات دالّة على قرب الساعة. ويقولون: إنّ من أكبر أشراطها بعثة النبيّ ﷺ، وكذلك موته بعد بعثته شرط من أشراط الساعة.

وكذلك إخباره في هذه الأحاديث عن أشياء تحصل ولا بدَّ، فإخباره بالفتنة والهرج الذي حصل[1]، وإخباره بالموتان الذي حصل في صدر الإسلام من الموت الذريع كما حصل إمّا بسبب الفتن، أو بسبب الأمراض التي مات فيها خلق كثير. وهذا ما نقول عنه موتانًا، أي: موت كثير فظيع.

ومن أشراطها: فتح بيت المقدس، وقد حصل في عهد عمر ﷺ لما أنّه غزا بنفسه بيت المقدس وفتحه، ثمّ تغلّب عليه الفرنج فبقي في أيديهم تسعين سنة، ثمّ استعاده المسلمون في زمن أحد الصالحين، فتحًا مبينًا واستولى عليه المسلمون وذلك بقيادة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله. ثمّ في هذا الزمن استولوا عليه مرّة أخرى، ومدّوا بطشهم عليه، ونسأل الله أن يجعل الكرّة للمسلمين حتّى يفتحوه ويعيدوه إسلاميًا كما ذكر في هذه الحديث.

---

(١) كما ورد في قوله ﷺ: «إِنَّ بين يَدَيْ السَّاعَةِ أَيَّامًا يُرْفَعُ فيها الْعِلْمُ، وَيَنْزِلُ فيها الْجَهْلُ، وَيَكْثُرُ فيها الْهَرْجُ، وَالْهَرْجُ الْقَتْلُ». أخرجه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (٢٦٧٢) من حديث عبدالله بن مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما.

وأما الخسوف التي ذُكرت فإنّها كثيرة، لكن يمكن أن تكون الخسوف الكبيرة؛ خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وقد يكون منها الرجفان والزلزال الذي يحصل في كثير من البلاد، قد يكون ملحقًا بتلك العقوبات التي يعاقب الله بها بعض عباده إذا حصل منهم ذنوب ارتكبوها، وتهاونوا بحدود الله وبحقوقه.

وكذلك النّار التي أخبر بها نبيّ الله ﷺ بقوله: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى**»[1]، و[illegible] قرية من قرى الشام. وقد خرجت هذه النّار في القرن السابع في حدود سنة أربع وخمسين وستمائة من الهجرة، حيث كان في الحرّة التي في شرق المدينة نار شديدة الضوء ترتفع أكثر من عشرين مترًا، ولكنها لا تحرق السعف، وإنّما تحرق الحجارة، تتقد بالحجارة وتشتدّ بها، ويلقى فيها السعف والخوص فلا يشتعل. ولما رأوها استمرّت أكثر من شهر في شرق المدينة، انزعج النّاس منها، ولكن عرفوا أنّها النّار المذكورة في هذا الحديث، وذكر أنّ ناسًا من بصرى رأوا ضوءها، ورأوا أعناق الإبل في تلك الأماكن البعيدة ترى بضوئها.

وأمّا النّار التي ذكرت في هذا الحديث فأخبر ﷺ أنّها تخرج من قعر عدن؛ أي: أقصى اليمن، وتحشر النّاس وتسوقهم إلى محشرهم، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وهذه من آخر أشراط الساعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وبكلّ حال؛ فإنّ المسلم يصدّق بما ورد في هذه الأحاديث من أشراط الساعة، ويؤمن بها، وإن أنكرها بعض من استبعد وقوع ذلك، وادّعى أنّ هذه أمثلة ضربت للتقريب، وتأوّل هذه الأحاديث، فلا عذر للمتأوّلين.

قال الشارح:

وَأَمَّا خُرُوجُ الدَّابَّةِ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ»[1].

وَرَوَى مُسْلِمٌ[2] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيَّتُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا».

أَيْ: أَوَّلُ الْآيَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ مَأْلُوفَةً، وَإِنْ كَانَ الدَّجَّالُ وَنُزُولُ عِيسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ مِنَ السَّمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، كُلُّ ذَلِكَ أُمُورٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٦)، ومسلم (١٤٨٧).

(٢) برقم (٢٩٤١).

مَأْلُوفَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ، مُشَاهَدَةُ مِثْلِهِمْ مَأْلُوفَةٌ، أَمَّا خُرُوجُ الدَّابَّةِ بِشَكْلٍ غَرِيبٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ، ثُمَّ مُخَاطَبَتُهَا النَّاسَ وَوَسْمُهَا إِيَّاهُمْ بِالْإِيمَانِ أَوِ الْكُفْرِ فَأَمْرٌ خَارِجٌ عَنْ مَجَارِي الْعَادَاتِ. وَذَلِكَ أَوَّلُ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ، كَمَا أَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، عَلَى خِلَافِ عَادَتِهَا الْمَأْلُوفَةِ، أَوَّلُ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ.

وَقَدْ أَفْرَدَ النَّاسُ فِي أَحَادِيثِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ مُصَنَّفَاتٍ مَشْهُورَةٍ، يَضِيقُ عَلَى بَسْطِهَا هَذَا الْمُخْتَصَرُ.

---

قال الشيخ:

الدابّة من الآيات التي ذُكرت في الأحاديث التي مرّت، والدّابّة مذكورة أيضًا في القرآن في قوله تعالى في آخر سورة النمل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢]، ووصف الدابّة وطولها وما معها وارد في الأحاديث.

وأمّا طلوع الشّمس من مغربها فوارد في سورة الأنعام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام: ١٥٨]؛ وفسّرت هذه الآية بطلوع الشمس من مغربها، وحينها لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل. وهاتان الآيتان الدابّة وطلوع الشمس من مغربها متقاربتان، إن حدثت إحداهما حدثت وراءها الأخرى.

ذكر الشارح أنّ خروج عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ والدجّال يكون قبل ذلك، ولكن معلوم أنّهم من جنس البشر، ولا يُستنكر خروجهم، وإنّما أخبر بخروجهم كأمر غيبيّ، بحيث يُعلم أنّهم ولو كانوا من البشر ولكن لهم شأن.

وأيضًا خروج يأجوج ومأجوج، يقول تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦]، وقد أخبر الله تعالى أنّ ذا القرنين بنى دونهم حاجزًا شديدًا وسدًّا منيعًا وهو المذكور في آخر سورة الكهف: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤]؛ يعني: بناء منيعًا يفصل بيننا وبينهم، حتى لا يتسلّلوا إلينا، فعمل ذلك ذو القرنين، وأمر أن يأتوا بزبر الحديد، ثم أوقد عليها بعد ما قال لهم انفخوا، حتّى ذاب الحديد فصبّه بين الجبلين، فأصبح سدًّا منيعًا، ثم يقول في آخر الآيات: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨].

ثمّ أخبر النبيّ ﷺ بأنّ يأجوج ومأجوج سيحفرون هذا السدّ ويخرجون. وفي بعض الأحاديث عن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: يَا رَسُولَ الله أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

فذكر بأنهم إذا خرجوا يعيثون في الأرض فسادًا؛ وذلك لأنهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله، ففي الحديث: «وَيَبْعَثُ الله يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ من كل حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ على بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ ما فيها، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لقد كان بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ»، ويكون ذلك في زمن عيسى عليه السلام، فيدعو عيسى الله تعالى عليهم، «فَيُرْسِلُ الله عليهم النَّغَفَ في رِقَابِهِمْ»، وهو دودٌ يخرج في رقابهم، «فَيُصْبِحُونَ فرسي كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى الأرض فلا يَجِدُونَ في الأرض مَوْضِعَ شِبْرٍ إلا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى الله فَيُرْسِلُ الله طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ الله، ثُمَّ يُرْسِلُ الله مَطَرًا لَا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ، ولا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حتى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ»[1]، أي: تصبح الأرض كالصدفة قد طُهّرت، ثمّ ينبت الله النبات بعد ذلك، ويُنزل البركة إلى آخر الحديث الذي ورد في «صحيح مسلم».

لما وردت هذه الأحاديث بالأسانيد الصحيحة، ورواها الأئمّة بأسانيدها، اعتقد أهل السنة صحّتها وآمنوا بها، وإن قصرت العقول عن إدراك معانيها، فيفوّضون كيفيّتها، كما يفوّضون كيفيّات الإيمان بجميع المغيّبات.

---

(١) جزء من حديث النواس بن سمعان ﷺ الطويل تقدم تخريجه (٥/ ١٤٦).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَلَا نُصَدِّقُ كَاهِنًا وَلَا عَرَّافًا، وَلَا مَنْ يَدَّعِي شَيْئًا يُخَالِفُ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَالإِجْمَاعَ الأُمَّةِ.

---

قال الشارح:

رَوَى مُسْلِمٌ[١] وَالإِمَامُ أَحْمَدُ[٢] عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ أَبِي عُبَيْدٍ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»[٣]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ».

وَالمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْعَرَّافِ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالُ السَّائِلِ، فَكَيْفَ بِالْمَسْؤُولِ؟.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٤] وَمُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ[٥] عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ؟ فَقَالَ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا

---

(١) برقم (٢٢٣٠).

(٢) في المسند (٤/ ٦٨).

(٣) (٢/ ٤٢٩).

(٤) البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨).

(٥) (٦/ ٨٧).

بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ».

وَفِي «الصَّحِيحِ»[١] عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ». وَحُلْوَانُهُ: الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ حَلَاوَتَهُ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يُعْطَاهُ الْمُنَجِّمُ وَصَاحِبُ الْأَزْلَامِ الَّتِي يُسْتَقْسَمُ بِهَا، مِثْلُ الْخَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا (ا ب ج د) وَالضَّارِبُ بِالْحَصَى، وَالَّذِي يَخُطُّ فِي الرَّمْلِ. وَمَا تَعَاطَاهُ هَؤُلَاءِ حَرَامٌ. وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، كَالْبَغَوِيِّ وَالْقَاضِي عِيَاضٍ وَغَيْرِهِمَا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٢] عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[٣] وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ[٤]، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٦٨) من حديث رافع بن خديج ﷺ بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٣) برقم (٩٣٤).

(٤) (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣).

النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ».

وَالنُّصُوصُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَسَائِرِ الْأَئِمَّةِ، بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَتَّسِعَ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهَا.

---

قال الشيخ:

في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي ذكره الشارح: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ؟ فَقَالَ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ»، يعني: أنهم كذبة، ليسوا على يقين ولا على دين. فقال النّاس: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟» يقولون مثلاً: في اليوم الفلاني يحدث مطر أو رعد أو صواعق أو ريح، فأخبر النبي ﷺ بأن تلك الكلمة تخطفها الشياطين من السّماء، فتلقيها على ألسنة الكهنة، فيزيدون فيها ويخلطون، يزيدون أكثر من مئة كذبة.

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، قَالَ عَلِيٌّ وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ، وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا

إِلَى الْأَرْضِ، وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنْ السَّمَاءِ»[1].

نقول: هؤلاء الكهنة الذين هذا حالهم، ما حكمهم؟ مرّت بنا الأحاديث الواردة في حقّ من سألهم؛ الأول في «صحيح مسلم» عن بعض أزواج النبيّ ﷺ وهي حفصة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[2]؛ ذكر العلماء: أنّه إذا تاب وندم، فإنّها تجزيه ولا يعيدُها. ولكن عقوبته على ذنبه أنّها لا تقبل منه، لاسيّما إذا أتاه وهو يقدّسه، ويعرف مكانته، ويعترف بفضله، ونحو ذلك.

يقول الشارح - رحمه الله -: (فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالُ السَّائِلِ، فَكَيْفَ بِالْمَسْؤُولِ)، المسؤول هو الكاهن، فإنّ كفره وخروجه من الإسلام أبعد وأبعد؛ لأن السائل والمصدّق له بما يقول في أمور الغيب حُكم بكفره؛ لأن الغيب لا يعلمه إلاّ الله، وقد حكى الله تعالى عن نبيّه ﷺ: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]؛ يعني: لا أعلم المغيّبات، وقال في آية أخرى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، فإذا كان

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

(٢) تقدم تخريجه (٥/ ١٥٩).

هذا حالُ نبيِّنا ﷺ، أنّه يقول: لا أعلم الغيب، ولا ما في القلوب، والذي يعلمها هو الله وحده، فكيف بحال غيره من المتكهّنة ونحوهم؟ هذا حكم السائل وهذا حكم المسؤول.

في الحديث الذي تقدّم أخبر النبيّ ﷺ بخبث كسب الكهنة، بقوله: «**ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ**»[1]؛ حلوان الكاهن: ما يُبذل له إذا أخبر، إذا جاءه الإنسان وقال: أخبرني بمكان دابّتي التي فُقدت، أخبرني بمكان المال الذي سُرِق، فيستوحي من شيطانه، ويقول: دابّتك توجد في المكان الفلاني، وعلامتها كذا وكذا، فيُعطى مالاً على إخباره، هذا المال نسميه خبيثًا وسحتًا؛ لأنّه أخذه على شيء محرّم، وهو ادّعاء علم الغيب.

يدخل في ذلك مَنْ يسمّى المنجّم، ومَنْ يسمّى العرّاف، وكذلك الساحر، والرمّال والضرّاب، ونحوهم، هؤلاء كلّهم يتدخّلون فيما لا يعنيهم.

فأمّا الكاهن؛ فقد ذكرنا أنّه الذي يدّعي معرفة المغيّبات، أو يخبر عمّا في الضمير، يقول: هذا يحدّث نفسه بكذا، أو يخبر بمكان المسروق، حسبما تخبره شياطينه.

وأمّا المنجّم؛ فهو الذي يدّعي علم الغيب بسير النجوم، فيقول: علامة المطر أن يكون النجم الفلاني في المكان الفلاني في الليلة الفلانيّة، وينزل مطر أو ينزل برد، أو ما أشبه ذلك. وهذا تدخّل في علم الغيب، الذي لا يعلمه إلا الله. وكذلك

---

(١) تقدّم تخريجه (٥/ ١٦٠).

ادّعاء أنّ هذه النجوم هي التي تنزل المطر.

وقد تقدّم الحديث الصحيح: أنّ النبيّ ﷺ صلى بأصحابه في الحديبية، ثمّ لما انصرف من الصلاة، كان قد أصابهم مطرٌ في تلك الليلة، فقال: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ؟» قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[1]، أي: جعل الكوكب هو الذي يؤثّر في الكون، وهو الذي يسيّر السُّحُب وينزل المطر، وذلك كلّه حقّ الله تعالى، فهو الذي ينفرد بذلك. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[الأعراف:٥٧]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:٤٦]؛ أي: تبشّرُ بالرحمة والمطر. فهو الذي يرسل الرياح فتثير السحاب، فيسيّره الله حيث يشاء، وينزله حيث يشاء، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠]، يعني: جعلنا على هذه أكثر، وعلى هذه أقل، كيف يشاء الله تعالى؛ فليس للكواكب تأثير، ومن ادّعى أنّ النجوم لها تأثير، فإنّه ممّن يتدخّل فيما لا يعنيه، ويقول على الله بغير علم.

وقد تقدّم أيضًا قول النبيّ ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (٥/ ١٦٠).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٢).

الفخر بالأحساب: يفتخر الإنسان بآبائه وأجداده الذين ماتوا، وقد قال النبيّ ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنما هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أو لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ على الله من الْجُعَلِ»[1]، وقال ﷺ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِي عَلَى أَعْجَمِي، وَلا لِعَجَمِي عَلَى عَرَبِي، وَلَا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»[2]، والطعن بالأنساب أن يقول للرجل: أنت لست من آل فلان ولا من آل فلان.

الاستسقاء بالنّجوم، أن يقال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، وهذا النجم فيه كذا، وكان الجاهليّة يقولون: لقد صدق نوء كذا وكذا، النجم الذي ينوء يعني: يطلع. وقد كذّبهم الله، فقال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، الرزق الذي ينزله الله تعالى على عباده، تجعلونه منسوبًا لغير الله، فتنسبونه إلى النوء والنّجوم، والنجوم مسخّرة ومنقادة لأمر الله سبحانه. وبكلٍّ لا يجوز التصدي بكلّ هؤلاء.

أمّا الرَّمّال؛ فذكروا أنّه الذي يخطّ في الرمل، ويدّعي معرفة الغيب به، فإذا جاءه إنسان يستشيره على أمر، أفعل أو لا أفعل؟ هل أسافر أو لا، هل أتزوّج هذه المرأة أم لا؟ فيقول: دعني أخطّ لك، فيأتي بعصا ويخطّ خطوطًا كبيرة بسرعة في

---

(١) أخرجه أبوداود (٥١١٦)، والترمذي واللفظ له (٣٩٥٥)، وأحمد (٢/ ٥٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. و(الجُعَل): بضم جيم وفتح عين، هو دويبة سوداء تدير الخَرْءَ بأنفها. الخنفساء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٤٩).

الرّمل، حتّى لا يعلم السائل عددها وكيف خطّها، ثم يرجع فيمحو اثنين، اثنين، ثم ينظر في الباقي، فإن بقي واحد قال: افعل، وإن بقي اثنان: قال: لا تفعل. وهذا بلا شكّ تدخّل في علم الغيب، وهذه الخطوط لا تدلّ على صواب، ولا على خطأ، ولا تدلّ على معرفة الأمور المستقبلة، ولا على صدق هذا ولا كذبه.

وكذلك الضَّرّاب بالحصى، كان أحدهم يجمع عنده الحصى بكثرة، فإذا جاءه رجل يسأله فإنه يرمي الحصى حتى يجمع حصى كثيرًا متراكمًا، فيأخذ منه حجرين حجرين حتى يبقى واحدًا أو اثنان، فإن بقي واحد تفاءل، وإن بقي اثنان تشاءم، وهذا قريب من الخطّاط، وكلّ هؤلاء ممّن يتدخّلون في الأمور الغيبيّة، ويقولون على الله ما لا يعلمون، ويتكلّمون في غيب لا يعلمه إلاّ الله.

وهناك أيضًا المستقسم بالأزلام، وهي حجارة كان يستقسم بها الجاهليّون، وأبطلها الإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠]؛ فجعلها رجسًا، والرّجس هو النّجس، وقال تعالى لما حرّم المحرّمات: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾[المائدة:٣]. كان أهل الجاهليّة يجعلون هذه الأزلام في كيس، فإذا أرادوا أمرًا من الأمور استقسموا، وذلك بأن يأتوا ذلك الكيس فينفضوه، ثم يأخذوا منه واحدًا، فإن خرج الذي يقول افعل فعلوا، وإن خرج الذي فيه لا تفعل لم يفعلوا، وإن خرج المهمل الذي ليس عليه شيء، أعادوا الاستقسام مرّة أخرى. فأبطل الله تعالى ذلك.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا قَدِمَ أَبَى أَنْ

يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الْآلِهَةُ فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ فَأَخْرَجُوا صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَاتَلَهُمْ اللهُ، أَمَا وَاللهِ قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا قَطُّ»[1] يعني: أنّ الله نزّه إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ عن أن يفعلا هذه الفعلة الجاهليّة. وكلّ هذا من الأمور التي يفعلها المشركون أو الجهلة ـ حتّى في هذه الأزمنة ـ ليتوصّلوا إلى العلوم المستقبلة.

وبعد أن عرفنا حكم هؤلاء، نقول: على المسلم أن يعرف حكمهم، ويعرف أنّهم كفرة فجرة، وأنّهم ضلال، وقد حكم بكفرهم، وقد ثبت في الحديث قول النبي ﷺ: «ليس مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ له، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ له، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ له»[2]؛ يعني: ليس من المسلمين. من تكهّن: أي تعاطى الكهانة، أو تكُهِّن له: أي ذهب إلى الكاهن يطلب منه الإخبار بأمر من أمور الغيب.

ومعروف أيضًا أنّ الكهنة والسحرة يعبدون الشياطين، وقد حكم العلماء بكفرهم وبردّتهم وبشركهم، وبيّنوا أنّهم لا يقبل منهم توبة، بل يبادر بأحدهم فيقتل، ولا يبقى لحظة واحدة.

وثبت أنّ عمر ﷺ كتب إلى بجالة بن عبدة: «أن اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ»،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٦٠١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥٥٥)، والبزار (٣٥٧٧) من حديث عمران بن حصين ﷺ. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٣) وجوّد إسناده، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١٧): «رجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة».

قال بجالة: «فقتلنا ثلاث سواحر»[١].

وقد ثبت «أن جَارِيَةً لِحَفْصَة زَوْجِ النبي ﷺ سَحَرَتْهَا فَاعْتَرَفَتْ بِهِ على نَفْسِهَا، فَأَمَرَتْ حَفْصَةُ عَبْدَ الرحمن بن زَيْدٍ فَقَتَلَهَا»[٢]؛ وذلك لأنّها علّقت عتقها بموتها، فحرصت على أن تموت سيّدتها، فعملت لها سحرًا، فاعترفت، فأمرت بها فقُتلت.

في هذه الأزمنة، يوجد الكثير من هؤلاء، فقد كثروا في هذه البلاد، بعد أن كانوا قلّة وأذلاّء، انتشر السحرة والكهّان، وكثر شرّهم وكثر ضررهم، وإذا قيل: ما سبب كثرتهم وفشوّهم وانتشارهم؟نقول ـ والله أعلم ـ: قلّة العلم الصحيح، وقلّة الإيمان، وقلّة الأعمال الصحيحة التي يبطل بها كيدهم، ويبطل بها عملهم؛ لأنّ الكهنة والسحرة والمشعوذين عملهم يتوقّف على الشياطين، وهي التي تمدّهم، وهي التي تخبرهم، وهي التي تعمل لهم وتحرّكهم، وترفع وتخفض فيهم، وتتكلّم على ألسنتهم، وتلابسهم، وتخدمهم بما يريدون. ومتى يكثر الشياطين؟ إذا كثر الخبث، وإذا كثرت المعاصي، إذا كثر الزنى، وكثر الرّبا، وكثر الخنا، وكثر الغنى، وكثر الفساد، وكثر اللهو والباطل، وانشغل النّاس بالشهوات، وضعف

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٤٣)، وأحمد (١/ ١٩٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٥٦٢)، والبيهقي (٨/ ١٣٦)، وعبدالرزاق في المصنف (١٠/ ١٧٩).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١٠/ ١٨٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٥٣ و٥٦١)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٦)، والطبراني الكبير (٣٠٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الإيمان وضعف أهله، وضعف المتمسّكون عن مقاومة هذه الأشياء؛ عند ذلك تستولي الشياطين وتستحوذ على أولئك، ويقلّ نزول الملائكة الذين يسدّدون المؤمنين، ويوفّقونهم، فإنّ الملائكة كلّما عمرت مكانًا هربت منه الشياطين، فإذا كثرت الشياطين، لم يكن هناك ملائكة.

إذًا فُشُوُّ هؤلاء سببه كثرة المعاصي التي تمكّنت في كثير من البلاد، فكان من نتيجتها أن استحوذ الشياطين وأولياء الشياطين من هؤلاء السحرة والكهنة على هذه البلاد.

وقد سمعتُ عن الكهنة، وعن أعمال السحرة أشياء تدلّ على أنّهم كفرة، وعلى أنّهم يتقرّبون إلى الشياطين بما تحبّ، حتّى تخدمهم فيما بعد، ففي هذا الوقت تحكّم الشياطين، فمنهم من لا تخدمه الشياطين حتّى يترك الصلاة مدّة، فعند ذلك يصبح كافرًا، فتحبّه الشياطين وتقترب منه وتتولاّه، وتخدمه وتفعل ما يريده، وتتكلّم على لسانه، ويستخدم منها ما يريد، ويصبحون طوع إشارته لكونه تسلّط عليهم بهذه الأمور التي استولى بها عليهم، ولا يفعلون ذلك إلا بعدما يكون قد كفر بالله.

وبعض الكهنة والسحرة لا تخدمهم الشياطين حتّى يذبحوا لها قرابين، فالشياطين تقنع باليسير، كأن يذبحوا لهم ذبابة، أو عصفورًا، أو ديكًا، أو كبشًا، ونحو ذلك، وكلّ ذلك تقنع به الشيطان، ويكون ذلك سببًا في خدمتهم له، ومتى فعل ذلك أيقنت بأنّه مشرك بالله. وكثير من السحرة يستدعون الشياطين، فيحفظون أسماءهم، فلان وفلان، فبعد ذلك يهتف بأسمائهم ويناديهم في أوقات

خلوته، حتّى إذا ألفوه وعرفوا أنّه من أوليائهم، صاروا طوع إشارته، فيخبرونه بما يريد، ويخبرونه بما يسترقونه من السّمع، ويخبرونه بالأمور الغيبيّة.

وآخرون من السحرة لا تخدمهم الشياطين حتّى يلامسوا الأقذار والنجاسات؛ لأنّ الشياطين تألف الأقذار، وتألف النجاسات؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخلاء تعوّذ من الخُبُث والخبائث[1]، وهي ذكران الشياطين وإناثهم. فإنّ الأماكن التي لا يُذكر فيها الله، وهي بيوت الخلاء يؤمّها الشياطين. فأولئك السحرة قد يلطّخون أجسامهم بالنجاسات والعذرة والأقذار، حتّى تأتيهم الشياطين التي تحبّ هذه النجاسات وتكون في خدمتهم. وهي توحي إليهم بأن يفعلوا كذا وكذا، فإن فعلوا أطاعتهم وخدمتهم، وصارت في ولايتهم.

وهؤلاء لا شكّ بأنّهم كفّار، وقد عبدوا غير الله، وقد أخبر الله بكفرهم في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]؛ فجعل تعليم السحر كفرًا، وجعله من عمل الشياطين، وأخبر عن الذين يعلّمونه كهاروت وماروت، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ فأفاد أنّ كل من تعلّم هذا السحر فإنّه يكفر، يعني: حكمه الكفر، لذلك يقول العلماء: إذا عرف أنّ هذا ساحر، فإنّ الصحيح أنّه يُقتل ولا يُستتاب؛

---

(١) كما ورد في حديث أنس ﷺ الذي أخرجه البخاري (١٤٢)، ومسلم (٣٧٥).

لأنّنا لا نعلم حقيقة توبته، وقد يقول الساحر والكاهن: إنّي تبت. ولكنّ قلبه مضمر على ما هو عليه من العمل، وشياطينه يخدمونه ملازمين له، لا ينفكّون عنه، فهو في الحقيقة كافر.

إذًا هذه بعض أفعال السحرة، وخدمة الشياطين، وما يذكر عنهم من أنّهم يحملون الإنسان من مكان إلى مكان بعيد، أو يقطعون به مسافات طويلة، أو يأتونه بعسيب نخل، ويقولون له: اركب على هذا العسيب، فيطيرون به على العسيب حتّى يبلغ المكان الذي يريد، وقد يكون على مسيرة شهر أو عدّة أشهر، هل معقول أنّ الإنسان يركب العسيب؟ لا شكّ أنّ الذي يفعل ذلك هم الشياطين، التي هي أرواح خبيثة، ولا تفعل ذلك إلا لأوليائها الذين صاروا من خدمها، فعلينا أن نعرفهم، ونبتعد عنهم، ونعرف أنّ كل من قرب منهم يعطى حكمهم.

نعرف إن هؤلاء السحرة والكهان كفرة، وأنّهم مشركون، فهم بَشَرٌ مثلنا، لا يمكن أن يطّلعوا على الغيب، أو يكشفوا الأسرار، فلا بدّ أنّهم يستخدمون الشياطين حتّى تخبرهم بما غاب عنهم، فالشياطين تطّلع على ما لا يطّلع عليه الإنسان، وكذلك مردة الجنّ، ويقطعون المسافات الطويلة في مدّة قصيرة، ويرون أشياء لا نراها، ويروننا ونحن لا نراهم، قال تعالى في الشيطان وجنده: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف:٢٧]. وهم لخفّتهم يسري أحدهم في

بدن الإنسان، يقول ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»[1]، أي: يجري في جسده وفي لحمه ودمه، وهذا الذي سبّب الوسوسة في صدور الناس، بأن يقول له: اذكر كذا، ويشكّكه في أمور الغيب وأمور السّاعة، فهؤلاء لما أطاعوا الشياطين وخدموها وعبدوها خدمتهم، ومعلوم أنّ الشياطين تحرص على إضلال الإنسان، وتحرص على أن توقع العبد في الكفر؛ لأنّ الشيطان عدوّ للإنسان، وقد أخبر الله عن إبليس بأنّه التزم بأن يغوي جنس الإنسان، وأن يضلّ النّاس، وأن يصدّهم عن الهدى، قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧]، فهذا التزام عدوّ الله بأن يضلّ الإنسان حتّى لا يبقى أكثرهم شاكرًا.

وهؤلاء السحرة والكهنة، لما تقرّبوا للشيطان، وذبحوا له، وعبدوه من دون الله، أو مع الله؛ عند ذلك أطاعهم عدوّ الله، وأظهر لهم ما لا يظهر لغيرهم، فانخدع الجهلة بهم، واعتقدوا بأنّهم مكرمون، وأنّهم على صواب، وأنّهم أفضل من غيرهم، حيث يخبرون بأشياء فتقع، ويخبرون بأشياء بعيدة فتعرف، وما علموا أنّ هذا من الشياطين، وأنّ الشياطين لا تطيعهم إلا إذا صرفوا لها شيئًا من حقّ الله تعالى، ومن فعل ذلك فقد عبدها مع الله تعالى.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٢٤).

قال الشارح:

وَصِنَاعَةُ التَّنْجِيمِ، الَّتِي مَضْمُونُهَا الْإِحْكَامُ وَالتَّأْثِيرُ، وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكِيَّةِ أَوِ التَّمْزِيجِ بَيْنَ الْقُوَى الْفَلَكِيَّةِ وَالْغَوَائِلِ الْأَرْضِيَّةِ: صِنَاعَةٌ مُحَرَّمَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَلْ هِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى لِسَانِ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ وَغَيْرُهُ: الْجِبْتُ السِّحْرُ.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[1]، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ: «كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: تَدْرِي مِمَّ هَذَا؟ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أُحْسِنُ الْكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي، فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ».

وَالْوَاجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ وَكُلِّ قَادِرٍ أَنْ يَسْعَى فِي إِزَالَةِ هَؤُلَاءِ الْمُنَجِّمِينَ وَالْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ وَأَصْحَابِ الضَّرْبِ بِالرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالْقَرْعِ وَالْفَالَاتِ، وَمَنْعِهِمْ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْحَوَانِيتِ وَالطُّرُقَاتِ، أَوْ يَدْخُلُوا عَلَى النَّاسِ فِي مَنَازِلِهِمْ لِذَلِكَ. وَيَكْفِي مَنْ يَعْلَمُ تَحْرِيمَ ذَلِكَ، وَلَا يَسْعَى فِي إِزَالَتِهِ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ؛ قَوْلُهُ

---

(١) برقم (٣٨٤٢).

تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩].

وَهَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينُ يَقُولُونَ الْإِثْمَ وَيَأْكُلُونَ السُّحْتَ، بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. وَثَبَتَ فِي السُّنَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِرِوَايَةِ الصِّدِّيقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»[1].

---

قال الشيخ:

التنجيم من الأعمال الشيطانيّة، وقد عرّفه الشارح: بأنّه الاستدلال بالأحوال الفلكيّة على الحوادث الأرضيّة، كأن يقول: طلوع النجم الفلاني سبب لحدوث رياح، أو سبب لحدوث غرق، أو جدب، أو خصب، أو إذا غاب النجم الفلاني، حدث في البلد الفلاني غرق، أو وباء، أو زلزال. وهذا فعل كثير من المنجّمين، ويغلب عليهم أنّهم شبه السحرة؛ لأنّ النجوم مسخّرة مسيّرة لأمر الله، وليست دليلاً ولا سببًا لما يقولون. أخرج البخاري[2] ـ رحمه الله ـ عن قتادة: «خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا،

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وصححه الترمذي (٢١٦٨ و٣٠٥٧)، وأحمد (١/ ٢)، وابن حبان (١/ ٥٣٩).

(٢) علقه بصيغة الجزم في كتاب بدء الخلق (٤/ ١٠٧)، فقال: «بَاب فِي النُّجُومِ، وَقَالَ قَتَادَةُ» فذكره.

فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ».

ويردّ قتادة على المنجّمين الذين يستدلّون بطلوع النّجوم على الحوادث التي تحدث في الأرض؛ من العاهات والمصائب والأمطار والخيرات والعقوبات، وما ذاك إلا أنّ النجوم مسخّرة بأمر الله، ليست تحدث بنفسها، بل الله تعالى سمّاها مسخّرة، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[النحل:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل: ١٦] أي: يقتدون في طرقهم. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[الأنعام: ٩٧]؛ يعني تستدلّون بها على الجهة التي تريدونها، وتعرفون أيّ جهة تقصدونها، فجعلها الله علامات تهتدون بها.

وقد جعلها أيضًا زينة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[الملك: ٥]، أي: هذه النجوم. وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[الصافات: ٦]، فإذا كنت في ليلة مظلمة ونظرت إلى السماء، فإذا نجومها تزهو في كلّ جانب، تظهر كالسُّرج لها تضيئها.

وكذلك أخبر تعالى بأنّها رجوم للشياطين، ترجم بها لمنعها عن استراق السّمع، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[الحجر:١٨]؛ الشهاب: هو الذي يُرمى به شيطان أو مسترق للسمع في الليلة الظلماء عندما تبصره منقضًا، قال تعالى عن الجنّ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[الجن: ٩] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[الملك:٥]، أي: هذه هي الحكمة من

خلق النّجوم. فأمّا الذين يدّعون أنّها تدلّ على طلوع خير أو غروبه، أو تدلّ على حدث أو أمر مستقبل، فهذا من التكلّف.

لكن يمكن أن يعرف بها مواقيت الشتاء والصيف، والغِراس والزروع؛ لأنّ الله وقّت لها مواقيت، فهناك نجوم تطلع في الشتاء، فإذا رآها الناس عرفوا أنّ هذا وقت زراعة البرّ ونحوه، ونجوم تطلع في الصيف، يعرف فيها وقت زراعة كذا وكذا، أو يعرفون دخول الشتاء أو الصيف أو انتهاءهما، فهذا أيضًا لا بأس به، فهي مواقيت؛ كما الليل والنّهار، والأشهر والأهلّة، فكذلك طلوع النجوم والبروج التي جعلها الله في السّماء، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر: ١٦]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]؛ هذه البروج التي هي منازل الشّمس، وهذه النّجوم التي هي منازل القمر، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]؛ ينزل في كلّ ليلة منزلة. لا شكّ أنّها خلق الله تعالى؛ وتعلُّم منازل الشمس، ومنازل القمر، وأحوال كلّ منها لا يدخل في التنجيم المحرّم. إنّما التنجيم المحرّم هو أن يستدل بطلوع النّجم الفلاني على حدوث كذا وكذا، فهذا من التدخّل في علم الغيب، والله سبحانه يقول لنبيّه ﷺ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، فلا يدخل في ذلك المنجّمون ونحوهم.

نعرف أنّ السحرة والكهنة منتشرون من قديم الزمان، والشارح ـ رحمه الله ـ من القرن الثامن يشتكي من كثرتهم، وأنّهم قد أضرُّوا بالنّاس في أعمالهم

الشيطانيّة، ويحرّض من يعرف بهم أن يدلّ عليهم، فإذا عرف إنسان عن شخص أنّه يتعاطى السحر أو الكهانة؛ فإن عليه أن يدلّ عليه، وأن ينكر فعله، أو ينبّه من ينكر فعله، فإنّ هذا من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، بل من تغيير المنكر الواجب تغييره على من علمه.

ويذكُر أنّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا ينكرون على الكهنة، ويستبشعون صناعتهم، ويستشنعون أفعالهم، فهذا أبو بكر ﷺ كان له غلام مملوك، لم يكن بحاجة إلى خدمته، فجعل يشغّله، فيقول: اذهب واحترف، واجمع لنا مالاً وخراجًا، فكان يأكل من كسبه، فجاء ذلك الغلام مرّة بمال كسبه من تكهّن، وأخبر بأنّه خدع إنسانًا بالكهانة في الجاهليّة، فقال: إني أعلم كذا، وإنّك مصاب بكذا وكذا، فلقيه ذلك الرّجل فأعطاه حُلوانًا، يعني: مالاً عن كهانته، وكان أبو بكر ﷺ قد عرف تحريم الكهانة، وأنّ حُلْوان الكاهن خبيث، فلمّا سمع من غلامه هذه القصّة، وأنّ المال الذي أكل منه سحت وحرام، لم يقرّ قراره طالما أنّ ذلك الطعام في بطنه، بل وضع يده في حلقه، واستخرج كلّ ما دخله في ذلك اليوم؛ حتّى لا يكون في غذائه لقمة من حرام أو من شبهة، وإن كان معذورًا؛ لأنّه قد يقول: إثمه على من كسبه، أو أنا ما شعرت بذلك عند أكله، أو معذور لأنّه قد يقول: إنّه دفعه عن طيب نفس، ولكنّه ﷺ لم تقبل نفسه هذه التأويلات، فاستخرج ما أكله ذلك اليوم.

وهذا دليل على بعد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن المشتبهات، ودليل على أنّهم يعرفون أنّ الكهنة كاذبون، وأنّ كسبهم حرام، وأنّ إقرارهم حرام؛ وذلك

لأنّ الله تعالى كذّبهم، وأخبر بأنّهم يأخذون من الشياطين، فقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣]؛ أي: يتلقّون السّمع من الشياطين، وأكثرهم كاذبون: الشياطين تكذب عليهم، وهم يكذبون على النّاس.

فإذًا: الكهنة عبدة للشياطين، ولا يجوز أن نقرّهم؛ لأنّ ذلك تمكين لهم من عبادة غير الله، وإقرار لهم على شركهم وعلى المنكر ونحن نقدر، فمتى قدرنا فنحن نحاربهم، ونحرص على أن نقضي على قوّتهم وعلى معنويّتهم.

نقول: إذا كانوا كثيرًا في عهد الشارح ابن أبي العزّ رحمه الله، فكيف بزماننا، ونحن في القرن الخامس عشر، والذي استحكمت فيه غربة الإسلام إلا ما شاء الله، والذي كثرت فيه الكهنة والسّحرة والشعوذة، وتمكّن فيه الأشرار، وصاروا قادة وسادة، يفعلون بالأبرياء ما يريدونه، و اجبنا نحوهم أن نغيّر ما نستطيع.

كثيرًا ما يشتكي بعض الإخوان بأنّهم أصيب منهم أحد بسحر، أو بعمل شيطانيّ أو تسلّط عليه جنيّ، وأخبر بأنّ الذي سخّره ساحر متسلّط، يذكرون أنّ الساحر متى تمكّن من السحر، فإنّه يسخّر جنودًا من الشياطين والجنّ، فهم يدلّونه على الأمور الغائبة عنه، وكذلك الجنّ يسلطهم، فيقول للجني: اذهب إلى فلان والبسه، وإلى فلانة فتلبّس بها، ولا تخرج منها أبدًا إلا بإذني، فإذا لبس ذلك الشخص، فإنّه لا يخرج ولو بقراءة؛ لأنّه مسخّر وإذا سُئل ذلك الجنيُّ: من الذي سخّرك ومن الذي سلّطك؟ فيدلّ عليه، ويقول: سخرني الساحر الفلاني الذي تحت

سيطرته عدد من الجنّ يتقربون إليه، وتقرّب إليهم حتّى تعهدوا أن لا يخرجوا عن طاعته. وهذا الذي أصيب بهذا الجنون، الغالب أنّه لا يبرأ إلا إذا مات هذا الجنيّ، فإنّ القراء يقرؤون بشدّة، ويقرؤون آيات من القرآن فيها شدّة وقوّة، فيكاد الجنيّ أن يحترق ولا يستطيع الخروج، وأحيانًا يموت، وهو لابس ذلك الإنسي، وبعد موته، يفيق الإنسي بإذن الله، ويقول: أين أنا؟ ولا يدري أين هو قبل ذلك، وإذا قيل لذلك الجنيّ: لماذا لا تخرج، يتعذّر بأنّه لا يستطيع الخروج حتّى يقتل ذلك الساحر الذي سلّطه، ويقول الجني: ولو متّ أو خرجت فإنّه سيُسلّط عليه غيري، وبموته تريحونني وتريحون أنفسكم فأخرج منه من دون أن تكرهوني أو أكرهكم، وتتخلّصون منّي أو أتخلّص منكم، هكذا يتكلّم كثير من الجنّ على لسان من لابسه.

ما واجبنا نحن تجاه هؤلاء السحرة الذين يعيثون في الأرض فسادًا، والذين يسلّطون على الأبرياء رجالاً ونساء. لا شكّ أنّ مثل هؤلاء لا بدّ أن يحاربوا حتّى نتخلص من شرّهم ونقطع دابرهم. أما إذا بقوا، فإنّهم يزيد شرّهم ويتمكّنون، ويصعب بعد ذلك التخلّص من شرّهم. ونحن نعرف أنّ هناك من أهل الخير من وفّقهم الله إلى التخليص من هذه الإصابات الشيطانيّة، فيعالجون من المسّ والصرف والعطف ونحو ذلك، ويشفي الله على أيديهم الكثير، ولكن هناك بعض الإصابات التي لا يمكن معالجتها إلا بقتل الساحر أو قتل الجنيّ، فلو تعاون الأهالي على التحذير ممن عرفوا أنّه ساحر ورفعوه إلى ولي الأمر، لاستراح منهم العباد والبلاد.

قال الشارح:

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ الخَارِجَةَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَنْوَاعٌ:

نَوْعٌ مِنْهُمْ: أَهْلُ تَلْبِيسٍ وَكَذِبٍ وَخِدَاعٍ، الَّذِينَ يُظْهِرُ أَحَدُهُمْ طَاعَةَ الْجِنِّ لَهُ، أَوْ يَدَّعِي الحَالَ مِنْ أَهْلِ المُحَالِ، مِنَ المَشَايِخِ النَّصَّابِينَ، وَالْفُقَرَاءِ الْكَذَّابِينَ، وَالطُّرُقِيَّةِ المَكَّارِينَ، فَهَؤُلَاءِ يَسْتَحِقُّونَ الْعُقُوبَةَ الْبَلِيغَةَ الَّتِي تَرْدَعُهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ عَنِ الْكَذِبِ وَالتَّلْبِيسِ. وَقَدْ يَكُونُ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ، كَمَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ بِمِثْلِ هَذِهِ الخُزَعْبَلَاتِ، أَوْ يَطْلُبُ تَغْيِيرَ شَيْءٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَنَوْعٌ يَتَكَلَّمُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ عَلَى سَبِيلِ الْجِدِّ وَالْحَقِيقَةِ، بِأَنْوَاعِ السِّحْرِ. وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ يُوجِبُونَ قَتْلَ السَّاحِرِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي المَنْصُوصِ عَنْهُ، وَهَذَا هُوَ المَأْثُورُ عَنِ الصَّحَابَةِ، كَعُمَرَ وَابْنِهِ وَعُثْمَانَ وَغَيْرِهِمْ. ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ: هَلْ يُسْتَتَابُ أَمْ لَا؟ وَهَلْ يُكَفَّرُ بِالسِّحْرِ؟ أَمْ يُقْتَلُ لِسَعْيِهِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ؟ وَقَالَ طَائِفَةٌ: إِنْ قَتَلَ بِالسِّحْرِ قُتِلَ، وَإِلَّا عُوقِبَ بِدُونِ الْقَتْلِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ كُفْرٌ، وَهَذَا هُوَ المَنْقُولُ عَنِ الشَّافِعِيِّ، وَهُوَ قَوْلٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ رَحِمَهُمَا اللهُ.

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي حَقِيقَةِ السِّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ: وَالْأَكْثَرُونَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ قَدْ يُؤَثِّرُ فِي مَوْتِ الْمَسْحُورِ وَمَرَضِهِ مِنْ غَيْرِ وُصُولِ شَيْءٍ ظَاهِرٍ إِلَيْهِ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مُجَرَّدُ تَخْيِيلٍ.

وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ دَعْوَةِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ، أَوْ غَيْرِهَا، أَوْ خِطَابِهَا، أَوِ السُّجُودِ لَهَا، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهَا بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ اللِّبَاسِ وَالْبَخُورِ

وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ كُفْرٌ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الشِّرْكِ، فَيَجِبُ غَلْقُهُ، بَلْ سَدُّهُ. وَهُوَ مِنْ جِنْسِ فِعْلِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَلِهَذَا حَكَى اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨ - ٨٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] الْآيَاتِ، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ أَيْضًا عَلَى أَنَّ كُلَّ رُقْيَةٍ وَتَعْزِيمٍ أَوْ قَسَمٍ، فِيهِ شِرْكٌ بِاللهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّكَلُّمُ بِهِ، وَإِنْ أَطَاعَتْهُ بِهِ الْجِنُّ أَوْ غَيْرُهُمْ، وَكَذَلِكَ كُلُّ كَلَامٍ فِيهِ كُفْرٌ لَا يَجُوزُ التَّكَلُّمُ بِهِ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ الَّذِي لَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ لَا يُتَكَلَّمُ بِهِ، لِإِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شِرْكٌ لَا يُعْرَفُ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا»[1].

وَلَا يَجُوزُ الِاسْتِعَاذَةُ بِالْجِنِّ، فَقَدْ ذَمَّ اللهُ الْكَافِرِينَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، قَالُوا: كَانَ الْإِنْسِيُّ إِذَا نَزَلَ بِالْوَادِي يَقُولُ: أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سُفَهَائِهِ، فَيَبِيتُ فِي أَمْنٍ حَتَّى يُصْبِحَ، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ يَعْنِي: الْإِنْسُ لِلْجِنِّ؛ بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ، رَهَقًا، أَيْ إِثْمًا وَطُغْيَانًا وَجَرَاءَةً وَشَرًّا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: قَدْ سُدْنَا الْجِنَّ، وَالْإِنْسَ! فَالْجِنُّ تَعَاظَمُ فِي أَنْفُسِهَا وَتَزْدَادُ كُفْرًا إِذَا عَامَلَتْهَا الْإِنْسُ بِهَذِهِ الْمُعَامَلَةِ. وَقَدْ قَالَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ.

تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١]. فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيُخَاطِبُونَهُمْ بِهَذِهِ الْعَزَائِمِ، وَأَنَّهَا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ: ضَالُّونَ، وَإِنَّمَا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فَاسْتِمْتَاعُ الْإِنْسِيِّ بِالْجِنِّيِّ: فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَإِخْبَارِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ: تَعْظِيمُهُ إِيَّاهُ، وَاسْتِعَانَتُهُ بِهِ، وَاسْتِغَاثَتُهُ وَخُضُوعُهُ لَهُ.

وَنَوْعٌ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَالْكُشُوفِ وَمُخَاطَبَةِ رِجَالِ الْغَيْبِ، وَأَنَّ لَهُمْ خَوَارِقَ تَقْتَضِي أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ! وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُعِينُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ! وَيَقُولُ: إِنَّ الرَّسُولَ أَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِكَوْنِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ عَصَوْا!! وَهَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ إِخْوَانُ الْمُشْرِكِينَ.

---

قال الشيخ:

تقدّم ذكر الخلاف: أولاً: هل يقتل الساحر مطلقًا، أو لا يقتل حتّى يستتاب؟ والأكثرون على أنّه يقتل ولا يستتاب، وهذا قول الجمهور، والشافعيّة رحمهم الله رأوا أنّه يُستتاب، أو أنّه يستفصل عن سحره، أو أنّه لا يُقتل إلّا إذا قتلَ بسحره.

ولكن قد ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنّهم قتلوا الساحر ولم يستتيبوه، ودلّ ذلك على أنّ هذا هو حكمه، وأنه لا تقبل توبته، وأنّ توبته تكون بينه وبين ربّه.

ثانيًا: هل للسحر حقيقة أو أنّه خيالات؟ أنكرت المعتزلة أن يكون للسحر حقيقة، وأنكر ذلك أيضًا كثير من المتأخّرين الذين ينكرون من العلوم غير ما تصل إليه إحساساتهم. والصحيح: أنّ له حقيقة، ولولا ذلك لم يُحتج إلى الاستعاذة منه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق:١ ـ ٤]، النفاثات: السواحر.

يذكر العلماء عن الساحر أنه إذا أراد السحر أخذ خيطًا أو حبلاً فعقد فيه عقدة، ثم تكون نفسه قد امتزجت بها الصفات الشريرة، وتلبّست بها الشياطين، وأصبحت ذات شرّ وأذى، فإذا توفّرت فيها تلك الصفة، نفثت نفثًا من ذلك الرّيق المسموم الشرير، فأوقعتها في ذلك الحبل أو الخيط، وعقدت عليها عقدة، وتكلّمت بكلام شرير، كأن يقول: يعقد فلان أو يضرّ فلانًا، فذلك من عمل السحرة.

ولو كان السحر ليس له حقيقة، لم يحتج إلى الاستعاذة منه؛ لأنّه لا يضرّ. قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة:١٠٢]؛ يفرقون بين الرجل والزوجة، وهو ما يسمّى بالصرف. وهناك أيضًا العطف: وهو جلب المودّة بين المتباغضين. وهذا كلّه عمل شيطاني، وتوصّلهم إلى ذلك

بأدوية وعلاجات، لا شكّ أنّها من وحي الشياطين ومن دلالتها، بأن تدلّهم على أنّ النفخ في الدواء الفلاني يسبب فرقة، ويسبّب بغضاء بين فلان وفلانة، فإذا رأى بين الزوجين عشرة طيبة، وأراد أن يفرّق بينهما، فإنه يعمل السحر الذي يوقع العداوة بينهما.

وهذا مشاهد وكثير، فقد يشتكي بعض الرجال بأنّه إذا دخل بيته وجد ضيقًا كثيرًا وحشرجة ونفرة، وشعر كأنه في سجن أشدّ ما يكون، ولا يذهب عنه ذلك حتّى يخرج من داره أو يصدّ عن امرأته. ويحصل أيضًا كثيرًا ما يسمى بحبس الرّجل عن امرأته، وأنّه لا يستطيع إتيانها، يفعل ذلك السحرة، ويكون الرّجل على هيئته وقوّته، فإذا اقترب من امرأته بردت همّته وهو على خلاف ذلك، ولا يدري ما السبّب، إلا أنّه من أعمال هؤلاء السحرة. فهذا دليل على أنّ السحر له حقيقة، وأنّه يؤثّر ويضرّ.

وأمّا ما ثبت في «الصحيحين»[1] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي، أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ مَطْبُوبٌ، قَالَ وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ»، فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ رَجَعَ

(١) البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).

فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: «نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ»، فَقُلْتُ اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَالَ: «لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، ثُمَّ دُفِنَتْ الْبِئْرُ».

يقول العلماء: هذا العمل الذي عمله ذلك الساحر هو عمل خفيّ فيما بين النبي ﷺ وبين امرأته، بمعنى أنّه حُبِس عنها. وجاء في بعض الروايات تقول: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ سُحِرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ»[1]. وأمّا في مجال الرّسالة، وفي مجال تبليغ الشريعة فلم يتغيّر شيء من عقله؛ لأنّ الله تعالى حفظه عن أن يناله السحرة بشيء يضرّ فيما يتعلّق برسالته. مما يدلّ على أنّ السحر يؤثر، فقد أثّر هذا الساحر، ولكنّ الله سبحانه أبطل كيده، كما أنّ اليهود أرادوا أن يقتلوه بسمّ ألقوه في لحم شاة أهدوها له، ولكن حماه الله عن الضرر[2].

وبكلّ حال فهذه أدلّة على أنّ السحر حقيقة، وأنّه يضرّ، وأنّ الساحر قد يتمكّن أن يقلب الإنسان حيوانًا، والحيوان إنسانًا، وكيف يكون ذلك؟ كيف يقلب الإنسان وحشًا أو دابّة أو وَعْلًا؟ يكون بأن يسلّط عليه جنًّا، ومعلوم أنّ الجنيّ يتشكّل بأشكال، فتارة يظهر بصورة سبع، وتارةً بصورة إنسان أو كلب، أو

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٥).

(٢) كما ورد في حديث أنس ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ الله ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ منها فَجِيءَ بها إلى رسول الله ﷺ فَسَأَلَهَا عن ذلك، فقالت: أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ، قال: مَا كَانَ الله لِيُسَلِّطَكِ على ذَاكِ». أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) واللفظ له.

بقرة، فقد أعطاه الله القدرة على التشكّل بهذه الأشكال، فإذا سلّط الساحر الجنيّ على شخص ثمّ أمره أن يخرج بصورة كلب أو حمار، لابسه ذلك الشيطان وانقلبت هيئته إلى ما يريده ذلك الساحر، ولا يبطل ذلك إلا بعدما يشفى بإذن الله بالقراءات والتعوّذات التي تبطل عمل السحرة.

بعد ذلك نقول: هذا يبطل قول من قال: إنّ السحر شعوذة، فالمعتزلة يقولون: إنّ السحر ليس له حقيقة، وإنّما هو تخيّلات. ويستدلّون بما حكى الله تعالى عن سحرة فرعون، قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٦٦]؛ جاؤوا بعصيّ فألقوها، فإذا هي تتحرّك كأنّها حيّات، وكذلك الحبال، ولكن لما ألقى موسى ـ عليه السلام ـ عصاه انقلبت حيّة تسعى فالتقمت عصيّهم وحبالهم، ثم عادت كما كانت، فعرف السحرة أنّ هذا ليس عملاً شيطانيًا، بل هو أمر حقّ رحماني، فعند ذلك ألقى السحرة ساجدين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩].

وكان السحرة والكهنة قبل مبعث النبيّ ﷺ كثيرين، ولكن لما بُعث النبيّ ﷺ حُرِست السّماء، وحيلَ بين الشياطين وبين الاسترَاق؛ حتّى ينقطع وحي الشياطين، وحتى ينقطع ما تسمعه الكهنة من أوليائها، حتّى لا يلتبس الحقّ بالباطل، ولا يلتبس وحي الشيطان بوحي الرحمن.

وأخرج مسلم[1] عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخبرني رَجُلٌ من أَصْحَابِ النبي ﷺ من الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مع رسول الله ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ إذا رُمِيَ بِمِثْلِ هذا؟» قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كنا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بها لِمَوْتِ أَحَدٍ ولا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إذا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حتى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هذه السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قال: الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قال رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ ـ ذَا قال، قال: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا حتى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هذه السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَقْذِفُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فما جاؤوا بِهِ على وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فيه وَيَزِيدُونَ».

ولمّا أرسل الله النبي ﷺ، ونزل الوحي عليه، كثرت حراسة السّماء ورجمت الشياطين، واشتكوا إلى رئيسهم الذي هو إبليس، وقالوا: منعنا من استراق السمع! فأرسل من يسأل ويستفصل عن السبب، ثمّ إنّهم وجدوا النبيّ ﷺ يصلّي بأصحابه، فاستمعوا إليه، ورجعوا إلى قومهم، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

---

(١) برقم (٢٢٢٩).

ورجع الذين استمعوا القرآن وقالوا: عرفنا السبب الذي لأجله حرمنا السمع، وهو بعث هذا النبيّ ﷺ فآمنوا به، كما حكى الله عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[الجن: ١٣]. فبكلّ حال: في ذلك الوقت حُرست السماء حراسة شديدة؛ لقوّة الإسلام؛ ولحماية الوحي من السّماء. ولما ضعف العمل بالشريعة، قوي وجود الكهنة، وقوي استراق السمع من الجنّ والشياطين، ونزولهم على أوليائهم من الكهنة والسحرة، وصار النّاس يشجّعونهم، فيأتون إلى أحدهم ويقولون: أخبرنا بكذا وكذا، فإذا أخبرهم بما توحي إليه الشياطين، قدّسوه وعظّموه، وقالوا: هذا هو الذي يعرف، وهو العارف، وهو العرّاف، ولا يزال الناس يتردّدون إليهم، وهذا بسبب ضعف الإسلام، وقد مرّ بنا الحديث الذي قال فيه ﷺ: «**مَنْ أتى حَائِضًا، أو امْرَأَةً في دُبُرِهَا، أو كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يقول، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ ﷺ**»(١).

ولو كان ذلك الكاهن يخبر بأشياء تخبره بها شياطينه، فقد يخبر بمكان الضالّة، ويخبر بعين السارق وما أشبه ذلك، نقول: هذا ما يستوحيه من شياطينه، والواجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله، وأن لا يصدّق هؤلاء الكهنة، وهكذا نقول أيضًا في السحرة، وقد كثروا وتمكّنوا، وتزايد الذين يشكون من ضررهم، ومن صرفهم وعطفهم وحبسهم وأعمالهم التي من عمل الشياطين.

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٩٠٤)، والترمذي واللفظ له (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهذه الأمور تحصل بسبب ضعف الإيمان وضعف القلوب، فعندما تكون مؤمنًا قويّ الإيمان فإنك تثق بأنّ الله سبحانه يحرسك ويحميك من كيد السحرة ومن ضررهم، فما يصاب بهذه الأحوال الشيطانيّة إلا ضعاف القلوب، فإذا تأمّلنا هؤلاء المصابين، وجدناهم إمّا من العصاة والفسقة، وإمّا من الجهلة، وإمّا من العامّة الذين لا يعرفون كيف يتحصّنون، أمّا أهل التحصّن، فإنّ الله يحميهم من كيد السحرة والشياطين.

إذا أردت أن تكون في حصن حصين من عمل السحرة والشياطين فعليك أن تتحصّن بالأشياء التي تحفظك:

أولّها: تحقيق العقيدة السليمة، وهي أنّ تصدّق أنّ الله هو النّافع الضارّ، وبأنّه هو الذي يحمي العباد إذا تحصّنوا به.

ثانيها: ذكر الله في كلّ وقت وفي كلّ حال، لا تغفل عن ذكر الله، فإنّه يطرد الشياطين.

ثالثها: الدعاء، وهو أن تدعو بكلّ ما يحضرك من الأدعية النافعة التي فيها حفظ لك ولأهل بيتك، ونحو ذلك.

رابعها: قراءة القرآن، وكثرة تدّبره وتكراره، فهو حصن لمن قرأه وتحصّن به واحتفظ به.

خامسها: حماية منزلك عن آلات اللهو، وعن الملاهي كلّها، وعن المعاصي ونحوها، فإنّ الشياطين تألف تلك الأماكن وتلك البيوت الممتلئة بالملاهي، والممتلئة بآلات الفساد ونحوها، فإذا كان المنزل خاليًا من هذه الأشياء، فإنّ

الملائكة هي التي تعمره، ولا تجتمع الملائكة والشياطين.

ثمّ إذا وقع أنّ إنسانًا أصيب بهذه المصيبة، فالعلاج لهذا هو العلاج الرحمانيّ، وهو كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولا يجوز علاجه بإتيان السحرة، ولا طلبهم أن يفكّ عنه، ولا العلاج بمثله من السحر، وإذا عرفنا أنّ الساحر إذا ثبت عنه ذلك بأنه يُقام عليه الحد، فكذلك نقول لا يجوز إقراره، فكيف يؤتى ويقال له: حلّ عن فلان المصاب، ويجب أن تعالجه؟ لا يجوز ذلك، إنّما نعالجه بمثل كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وبالأدعية النافعة والمباحة. ولقد تكلّم العلماء على بعض العلاجات النافعة، فمن ذلك ما تكلم به ابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد» عندما فسّر سورتيّ المعوِّذتين، حينما أتى على قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق:٤]، وأطال عن السحر وذكر حقيقته، وعلى ما قيل فيه، ثمّ تكلّم عن فكّ السحر وحلّه عن المسحور وهو المسمّى بالنُّشرة، وذكر الآثار في ذلك، فذكر الحديث الذي روي: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن النُّشْرَةِ، فقال: «**هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**»[1].

وقيل: النشرة حلّ السحر عن المسحور. وهي نوعان:

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٨٦٨)، وأحمد (٣/ ٢٩٤) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٢): «رواه البزار والطبراني في الأوسط، إلا أنه قال: ذكروا أنها من عمل الشيطان، ورجال البزار رجال الصحيح».

الأول: حلّ السحر بسحر مثله، وهي التي من عمل الشيطان، وعليه يحمل كلام الحسن البصري، أنّه لا يحُلُّ السحر إلا ساحر، وصفته: أنّ الساحر والمسحور كلاً منهما يتقرّب إلى الشيطان بما يحب، فإما أن يطيع الشيطان أو أن يدعو الشيطان حتّى يبطل عمله عن المسحور، وهذا حرام؛ لأنّ فيه تقرّب النّاشر والمنتشر إلى الشيطان، فيبطل عمله عن المسحور.

أما الثاني: فهو علاج المسحور بالأدوية والقراءة من القرآن ونحوه، وهذا لا بأس به، وهو داخل في كون القرآن شفاء، كما وصفه الله في قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]، فإذا قُرِئَ على المُصابُ، وكان ذلك المصاب عاصيًا أو فاسقًا، أو متّصفًا بخروجه عن الطاعة، لم تؤثّر فيه القراءة، حتّى يعلن التوبة وعدم الرّجوع، فعندها يستفيد من القراءة، عملاً بهذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾[فصلت:٤٤].

وقد ذكر ابن القيّم وابن كثير أنواعًا من العلاجات. وذكر ابن كثير السحر، وأطال فيه في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾[البقرة: ١٠٢]؛ ذكر أنّ من السحر ما يسبب البغضاء بين الزوجين، فيوقع الساحر بعمله الفرقة بينهما، أو يحجز الزوج عن

امرأته، فلا يقدر على جماعها، فذكروا علاجًا نقله ابن كثير عمّن نقله من السلف: ذكر أنّه يؤخذ سبع ورقات من السِّدر الأخضر، فتضرب بين حجرين، ثمّ يصبّ عليها ماء، ويقرأ فيها سورة الإخلاص، وآية الكرسي، والمعوِّذتين، وآيات السحر الثلاث، آية في سورة الأعراف: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾[الأعراف:١١٨، ١١٩]، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس:٨١، ٨٢]، وآية سورة طه: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[طه:٦٨، ٦٩]، يكرّر ذلك، ويقرأ [illegible] صاب أو المحبوس عن امرأته، فيفكّ ذلك الحبس بإذن الله، إذا توفّرت الشروط.

ونقل عن ابن عباس[1] - رضي الله عنهما - أنّه ذكر أنّ سبعًا وثلاثين آية في القرآن، فيها قول لا إله إلا الله، من قرأها في الصباح أو في المساء، فإنّه يُحمى عن كيد الشياطين ونحوه، وأنّه لا يضرّه سحر في ذلك اليوم.

وبكلّ حال، فالقرآن كلّه شفاء، وإن كان فيه آيات تخصّ قراءتها تكون حرزًا للمؤمنين، ودعاء. وكذلك الأحاديث النبويّة، وقد جمع العلماء أدعية من السنّة على شكل أوراد، وبإذن الله فإن قراءتها قبل المرض تكون حفظًا، وبعد

(١) وقفت على هذا الأثر في مخطوط عند سماحة شيخنا عبدالله بن جبرين حفظه الله، يسّر الله تحقيقه ونشره.

المرض تكون علاجًا.

وقد أصيب شخص بضيق وحشرجة عند دخوله منزله، فعمد إلى هذا الورد المشتهر «الورد المصفى المختار» الذي جمعه الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ وهو مطبوع، يقول الشخص: أخذت الورد وجعلت اقرؤه قبل أن أنام من أوله إلى آخره، وكذلك إذا أصبحت في المصلى وأنا رافع يدي كسير قلبي مدة شهر أو أقل، حتى زالت عني تلك الوحشة، وزال عني ذلك الضيق، وهذا دليل على أن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ هما شفاء إذا وقع المرض، وسبب في العصمة والحماية قبل وقوعه.

قال الشارح:

وَالنَّاسُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيهِمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْزَابٍ:

حِزْبٌ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِ رِجَالِ الْغَيْبِ، وَلَكِنْ قَدْ عَايَنَهُمُ النَّاسُ، وَثَبَتَ عَمَّنْ عَايَنَهُمْ أَوْ حَدَّثَهُ الثِّقَاتُ بِمَا رَأَوْهُ، وَهَؤُلَاءِ إِذَا رَأَوْهُمْ وَتَيَقَّنُوا وُجُودَهُمْ خَضَعُوا لَهُمْ.

وَحِزْبٌ عَرَفُوهُمْ، وَرَجَعُوا إِلَى الْقَدَرِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ثَمَّ فِي الْبَاطِنِ طَرِيقًا إِلَى اللهِ غَيْرَ طَرِيقَةِ الْأَنْبِيَاءِ!.

وَحِزْبٌ مَا أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا وَلِيًّا خَارِجًا عَنْ دَائِرَةِ الرَّسُولِ، فَقَالُوا: يَكُونُ الرَّسُولُ هُوَ مُمِدًّا لِلطَّائِفَتَيْنِ. فَهَؤُلَاءِ مُعَظِّمُونَ لِلرَّسُولِ جَاهِلُونَ بِدِينِهِ وَشَرْعِهِ.

الْحَقُّ: أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَتْبَاعِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنَّ رِجَالَ الْغَيْبِ هُمُ الْجِنُّ، وَيُسَمَّوْنَ رِجَالًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وَإِلَّا فَالْإِنْسُ يُؤْنَسُونَ، أَيْ يظهرون وَيُرَوْنَ، وَإِنَّمَا يَحْتَجِبُ الْإِنْسِيُّ أَحْيَانًا، لَا يَكُونُ دَائِمًا مُحْتَجِبًا عَنْ أَبْصَارِ الْإِنْسِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُمْ مِنَ الْإِنْسِ فَمِنْ غَلَطِهِ وَجَهْلِهِ. وَسَبَبُ الضَّلَالِ فِيهِمْ، وَافْتِرَاقِ هَذِهِ الْأَحْزَابِ الثَّلَاثَةِ - عَدَمُ الْفُرْقَانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ.

وَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: [illegible] خَالَفَهُمْ! وَهَذَا كَلَامٌ بَاطِلٌ، بَلِ الْوَاجِبُ عَرْضُ أَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَمَا وَافَقَهَا قُبِلَ! وَمَا خَالَفَهَا رُدَّ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا

فَهُوَ رَدٌّ»[١]، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[٢].

فَلَا طَرِيقَةَ إِلَّا طَرِيقَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا حَقِيقَةَ إِلَّا حَقِيقَتُهُ، وَلَا شَرِيعَةَ إِلَّا شَرِيعَتُهُ، وَلَا عَقِيدَةَ إِلَّا عَقِيدَتُهُ، وَلَا يَصِلُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ بَعْدَهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ إِلَّا بِمُتَابَعَتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُصَدِّقًا فِيمَا أَخْبَرَ، مُلْتَزِمًا لِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ، فِي الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي فِي الْقُلُوبِ، وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي عَلَى الْأَبْدَانِ: لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا للهِ تَعَالَى، وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ، وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ، وَأَنْفَقَ مِنَ الْغَيْبِ، وَأَخْرَجَ الذَّهَبَ مِنَ الْخَشَبِ، وَلَوْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ مَاذَا عَسَى أَنْ يَحْصُلَ!! فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ، مَعَ تَرْكِهِ الْفِعْلَ الْمَأْمُورَ وَعَمَلِ الْمَحْظُورِ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، الْمُبْعِدَةِ لِصَاحِبِهَا عَنِ اللهِ تَعَالَى، الْمُقَرِّبَةِ إِلَى سُخْطِهِ وَعَذَابِهِ. لَكِنْ مَنْ لَيْسَ يُكَلَّفُ مِنَ الْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينَ، قَدْ رُفِعَ عَنْهُمُ الْقَلَمُ، فَلَا يُعَاقَبُونَ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْإِقْرَارِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا مَا يَكُونُونَ بِهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُقَرَّبِينَ، وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ، وَجُنْدِهِ الْغَالِبِينَ. لَكِنْ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ تَبَعًا لِآبَائِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وذكره البخاري معلقًا في كتاب البيوع ـ باب النجش (٣/ ٦٩)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (٩/ ١٠٧).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٨٧).

﴿ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

فَمَنِ اعْتَقَدَ فِي بَعْضِ الْبُلْهِ أَوِ الْمُولَعِينَ، مَعَ تَرْكِهِ لِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى مُتَّبِعِي طَرِيقَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَهُوَ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ، مُخْطِئٌ فِي اعْتِقَادِهِ. فَإِنَّ ذَاكَ الْأَبْلَهَ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا زِنْدِيقًا، أَوْ زُوكَارِيًّا[1] مُتَحَيِّلًا، أَوْ مَجْنُونًا مَعْذُورًا! فَكَيْفَ يُفَضَّلُ عَلَى مَنْ هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله، الْمُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ؟! أَوْ يُسَاوَى بِهِ؟! وَلَا يُقَالُ: يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُتَّبِعًا فِي الْبَاطِنِ وَإِنْ كَانَ تَارِكًا لِلِاتِّبَاعِ فِي الظَّاهِرِ؟ فَإِنَّ هَذَا خَطَأٌ أَيْضًا، بَلِ الْوَاجِبُ مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. قَالَ مُوسَى بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى الصَّدَفِيُّ: قُلْتُ لِلشَّافِعِيِّ: إِنَّ صَاحِبَنَا اللَّيْثَ كَانَ يَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: قَصَّرَ اللَّيْثُ رَحِمَهُ الله، بَلْ إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ[2].

وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اطَّلَعْتُ عَلَى الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْبُلْهَ»[3]. فَهَذَا لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا يَنْبَغِي نِسْبَتُهُ

---

(١) هذه لفظة مولدة، والزواكرة: من يتلبس فيظهر النسك والعبادة، ويبطن الفسق والفساد. انظر: تاج العروس (١١/ ٤٣٩).

(٢) أخرج نحوه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٤٥)، وأورده ابن كثير (١/ ٧٩).

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (١/ ١٩١) في ترجمة أحمد بن عيسى الخشاب، وقال: «هذا حديث باطل بهذا الإسناد». وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٨٦) بلفظ: «أكثر أهل الجنة البله»، وقال عقبه: «رواه البيهقي والبزار والديلمي والخلعي بسند فيه لين عن =

إِلَيْهِ، فَإِنَّ الجَنَّةَ إِنَّمَا خُلِقَتْ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ أَرْشَدَتْهُمْ عُقُولُهُمْ وَأَلْبَابُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِأَوْصَافِهِمْ فِي كِتَابِهِ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِي أَوْصَافِهِمُ الْبَلَهَ، الَّذِي هُوَ ضَعْفُ الْعَقْلِ، وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ»[1]، وَلَمْ يَقُلِ الْبُلَهَ!.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح الكلام حول هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم أهل الغوث، وهم ممّن ينصبون أنفسهم لهذا الأمر، ولا شكّ أنّ الغوث إنّما هو من الله تعالى.

معلوم أنّ الغوث ـ الذي هو: إزالة الشدّة، وتفريج الكربات ـ من الله، وأمّا الإنسان فلا يقدر أن يزيل شدّة، ولا أن يزيل كربًا، ولا أن يسدَّ حاجة إنسان من دون أمر وإعانة من الله تعالى. فذكر أنّ هناك من يقول عن هؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحالة أنّهم تفوّقوا على الأنبياء، وأنّ الله يمدّهم بعطاء من عنده، وأنّه يفتح عليهم، وينزل عليهم ملائكته، أو ينزل عليهم وحيه بواسطة أو بغير واسطة،

---

=

أنس رفعه، وله شاهد عند البيهقي من حديث مصعب بن ماهان عن جابر، لكن قال ... به: إنه بهذا الإسناد منكر، وقال القاري في الموضوعات: وصححه في التذكرة، وليس كذلك، بل قال ابن عدي: إنه منكر» انتهى.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤١) من حديث عمران بن حصين ﷺ، وأخرجه مسلم (٢٧٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأنّهم قد استغنوا عن الوحي وعن شرائع الأنبياء، هذه مقالة بعض العوامّ أو من يقلّدهم.

الجواب: أنّ هذا كفرٌ، ولا يجوز اعتقاد أنّ أحدًا يستغني عن الشريعة الإسلامية مهما كانت حالته، بل الشريعة المحمّدية خاتمة الشرائع، والنبيّ محمّد ﷺ خاتم الأنبياء، ولا يسع أحدًا الخروج عن شريعته، كما يقال: إنّ من نواقض الإسلام أن يعتقد إنسان أنّ أحدًا يسعه الخروج عن شريعة النبيّ ﷺ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام.

ثمّ هناك طائفة اعتقدت في الذين يسمّون أنفسهم أهل الغوث، أنّهم كذَبة، وأنّه ليس هناك ما يسمّى بغوث، أو بفتح، أو إلهام، وقد تقدّم في كرامات الأولياء أنّ الله قد يفتح على بعض أوليائه، وينطقهم بكلمات حكمة، يكون فيها شيء مما يسمّى بخرق العادة، ويكون كرامة لهم، فلا يجوز إنكار ذلك.

نحن نقول: إنّ الخوارق التي قد تقدّمت ثلاثة أنواع:

**الأول**: هو الذي يجري على يد الرسل والأنبياء، وهذه هي المعجزات، ولا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثلها.

**والثاني**: يجري على أيدي الصالحين من عباد الله، وهذه تسمّى كرامات، بأن يفتح الله عليهم ويُلهمهم، وأن يعطيهم كرامات ظاهرها أنّها تعجز البشر، ولكنّها فتح من الله ومنّةٌ منه؛ لتقوية الإيمان، أو لإمدادهم.

الثالث: هو ما يجري على أيدي السحرة والمشعوذين والكهنة، وهذا ما يسمّى بالأحوال الشيطانيّة، وأنّ الشيطان قد يلابس بعض النّاس ويظهر له أحوال

يتعجّب منها، كما سمعنا من أفعالهم وعجائبهم، حتّى ذُكر أنّ أحدهم لما لابسه شيطانه أتى نارًا موقدة، وفيها جمر مثل الحجارة، وجعل يأخذ الجمرة بيده ويأكلها، ويسمع إذا دخلت فمه وتنطفئ به ثمّ يبتلعها، حتّى ابتلع الجمر كلّه، حتّى انطفأت النّار لكثرة ما أكله من جمرها. وهذا لا شكّ أنّ الشيطان لابسه، والشيطان مخلوق من النّار، ولا يتأثّر بالنّار. فلا ينكر مثل هذه الأشياء أنّها تجري على أيدي هؤلاء المشعوذين وما أشبههم.

كذلك لا شكّ في هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم أهل الغوث، وأنّهم لا طريق لهم يسلكونه إلا الطريق النبويّة، فليس لأحد أن يخالف الشريعة، بل الأمّة مكلّفة باتّباع هذه الشريعة، ولو خالفت الأهواء، ولو صعبت الأحوال، فلا يجوز لأحد أن يخرج عنها قيد أنملة، بل يتقيّد بها، الله تعالى سدّ الطرق إلا عن طريق محمد ﷺ، وكلّف الأمّة باتّباعه وتقليده مهما كانت الأحوال، وجعلت طاعته سببًا للسعادة، ومعصيته سببًا للشقاوة، قال تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١]، وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٤].

وقد عرفنا من كلام العلماء ـ رحمهم الله ـ: أنّ كلّ ما يقوله هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم أهل الغوث غالبًا ما يكون من تسويل الشيطان، وأنّه يلابسهم حتّى ينخدع بهم من ينخدع، فلا بدّ أن نعرض أمرهم على الكتاب والسنّة. وقد

تقدّم كلام الليث بن سعد عالم مصر رحمه الله، فقد نُقل للشافعي أنّه قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى المَاءِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: قَصَّرَ اللَّيْثُ رَحِمَهُ الله، بَلْ إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَاب والسنة».

ونقل المتقدّمون والمتأخّرون أنّ السحرة ونحوهم قد يرفعون بعض النّاس، حتّى يُخيَّلُ إلى النّاس أنّه بين السماء والأرض، يتحرّك ويضطرب، ويكلّم النّاس! فيقولون: سبحان الله! يطير في الهواء من دون أن يمسكه شيء، ولا يُدرى أنّ الشياطين حملته.

وذكر ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» أنّ الجنّ تحمل بعض أولياءها من مكان بعيد مسيرة شهر أو بعض أشهر، وأنّه يصل إلى النّاس في عرفة، ويقف معهم ساعة أو ساعات، ثمّ يردّونه إلى مكانه وأنّه يحدّث النّاس ويقول: رأيت فلانًا وفلانًا، وسلّمت على فلان، وقابلت فلانًا وهو راكب كذا، وحدث كذا وكذا، فإذا قدم الحجّاج قالوا: صحيح، هذا شيء حصل، رأينا فلانًا في عرفة، ولكن ما رأيناه في غير عرفة، ويتكلّمون كلامًا يطابق ما قاله! كيف حصل هذا؟ يقول: إنّ الشياطين حملته، فهي قادرة على الطيران بسرعة لخفّتها، ثمّ تردّه. ولكن لا تخدمه إلا إذا كان من أوليائها المقرّبين لها، فكيف نقول في هؤلاء: نعرض أمرهم على الكتاب والسنّة فما وافقهما قبلناه، وما خالفهما رددناه.

وأمّا ما ذكره عمّن يسمّون بالبُلْه، وقد اشتهر هذا في الزّمان الأول، وهم

أناس يسمّون بالبُلْه، وقد يسمّون بالمجانين، يقال لأحدهم: المجنون فلان، ثمّ ينقلون عنهم أفعالاً، ويقولون: إنّهم ممّن رفع عنهم القلم، وسقطت عنهم التكاليف، ونحو ذلك.

نقول: ليس كذلك، وقد تقدّم أنّ الشارح ردّ هذا الحديث الذي يتناقلونه، وهو: «اطَّلَعْتُ عَلَى الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْبُلْهَ»[1]، فهذا لا يصحّ، بل الله تعالى ذكر على لسان نبيّه ﷺ أن أهل الجنة هم العاملون، والذين هم أولو الألباب، الذين هم أصحاب العقول الراجحة، وليس ناقصي العقول، ولا المجانين، ولا البله! بل هؤلاء أقلّ أحوالهم أن تسقط عنهم التكاليف، بل لا يكلّفون إذا فقدوا العقل؛ فالأبله الذي هو ضعيف العقل قريب من المجنون، فكيف يكونون أكثر أهل الجنّة؟ بل هم إذا دخلوا الجنّة فإنّهم ممّن أثيبوا؛ لأنّهم لم يستطيعوا أن يعملوا لقلّة عقلهم وفهمهم.

هؤلاء الذين يسمّون بالبله قد انخدع بهم قوم كثير من المتقدّمين والمتأخّرين، بل إلى زماننا، كما قُرئ علينا في بعض كتب المتأخّرين أنّهم في مصر وفي سوريا وفي كثير من بلاد إفريقية، يعظّمون هؤلاء، ويدّعون أنّهم أولياء، وأنّهم ممّن سقطت عنهم التكاليف، وأنّهم من الذين يأخذون الوحي من دون واسطة الأنبياء، ويقولون: من كرامتهم إذا مات أحدهم، فإن الملائكة يحملونه فوق النّعش، وأنّ الذين يحملونه لا يحسّون بثقله، فيخيّل إليهم هذا، حتّى قيل: لمّا مات واحد من

---

(١) تقدم تخريجه (٥/ ١٩٦).

أولئك المجانين، أراد أولياؤه أن يوهموا العامّة، أنّه ممّن تحمله الملائكة، فصاروا يسرعون به سرعة زائدة، وهم يحسّون بثقله، ولكن لكي يوهموا العامّة أنّهم يحملونه وكأنّهم لا يحملون شيئًا، بل حملته الملائكة فوقهم، وذلك حتّى يعظّموه ويغلوا فيه، مع أنّه مجنون، لم يعرف إلا بكلام ساقط!

المتقدّمون ترجموا لهؤلاء، فينقلون أقوالاً عن المجنون سحنون، وبهلول، تجدونها في كتب التراجم، عن كرامات الأولياء ونحوهم، فهم يقتدون بكلام الواحد من هؤلاء مع أنّهم يسمّونه مجنونًا! وكذلك أيضًا يذكرون في بعض البلاد من جهلهم، أنّ أحدهم يمشي عريانًا، فيقولون: هذا سقط عنه التكليف، وقد ذكر ذلك الصنعاني في قصيدته البائيّة[1]:

كَقَوْمٍ عُرَاةٍ فِي ذُرَى مِصْرَ مَا تَرَى ... عَلَى عَوْرَةٍ مِنْهُمْ هُنَالِكَ ثِيَابُ
يَدُورُونَ فِيهَا كَاشِفِينَ لِعَوْرَةٍ ... تَوَاتَرَ هَذَا لَا يُقَالُ كِذَابُ
يَعُدُّونَهُمْ فِي مِصْرَ هُمْ مِنْ خِيَارِهِمْ ... دُعَاؤُهُمْ فِيمَا يَرَوْنَ مُجَابُ

ولا شكّ أنّ هذا من تلاعب الشيطان بهم.

وبكلّ حال: لا يغترّ بأمر هؤلاء بل يردّ أمر الجميع إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، فما وافق ذلك فهو الصواب.

وإذا قرأنا ما يمرّ علينا في هذه الكتب والأخبار، رأينا العجب العجاب، كيف أنّ هؤلاء من أهل العقول والأفهام والذكاء، ومع ذلك يتركون الحقّ

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (١/ ٢٢٨).

جانبًا؟ يتركون الحقّ وهم يرونه، ويرتكبون سبل الضلال، نسمع وتسمعون أخبارًا في القريب والبعيد فئام من النّاس قد كان آباؤهم على جهل، ولكن هم زال عنهم الجهل، كان آباؤهم على ضلال، ولكن هم أبصروا الهدى وعرفوه، ولكن تمسّكوا بسنن الآباء والأجداد وبعاداتهم، وصدق الله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات:٦٩، ٧٠]، فلمّا فشا هذا الأمر عند كثير من الجهلة تشبّثوا وتعلّقوا بهؤلاء الذين يُسمّون البله، وصاروا يرفعون من شأنهم، ويعتقدون أنّ أفعالهم وحي من الله، وأنّهم معصومون، فصاروا يتّبعونهم، ويتبعون إشاراتهم ولو كانت مخالفة للشرع، ولو كانت مخالفة للعقول السليمة، وهذا من الانحراف العقدي، ومن المخالفة للكتاب والسنّة؛ لأنّ الله أمرنا أن نتبّع النبيّ ﷺ، ونقتدي بسنّته وسيرته، ونتبّع كتاب ربّنا، ونلقي ما عدا ذلك خلف الظهور، مهما كان القائل، ومهما كان المخالف، فكلّ ما خالف شرع الله تعالى فلا يلتفت إليه، ومرّ بنا قول النبيّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[2]. فطرق المتصوّفة والملاحدة والاتحاديين، وبدع الصوفيّة، وتصفيقهم ورقصهم ولهوهم ولعبهم، كلّ ذلك من البدع التي اتّخذوها دينًا، وما أنزل الله بها من سلطان!

ومن المعلوم أنّهم قد يلابسهم الشيطان، وتجري على يديهم أشياء غريبة،

---

(١) تقدم تخريجه (٥/ ١٩٥).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٨٧).

توهم من رآهم بأنّهم على حقّ، وأنّهم يستطيعون أن يفعلوا أشياء خارقة فلا يغترّ بهم! حتى لو طاروا في الهواء، ولو مشوا على الماء، ولو أخرجوا الذهب من الخشب، بل نعتقد أنّ ذلك شعوذة وعمل شيطاني، حتّى نعرض أمرهم على كتاب ربّنا وسنّة نبيّنا ﷺ، فهما الميزان الذي يرجع إليه، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]؛ الردّ إلى الله: يعني إلى كتابه، وإلى الرّسول: يعني إلى سنّته بعد موته، فما وافقهما فهو الصواب، وإلا فهو مردود على من جاء به.

أما من يغترّ بهم من ضعفاء العقول ويسيرون خلفهم ويظنّون أنّ قلوبهم قد ارتقت، وتقرّبت إلى ربّها، وسقطت عنهم التكاليف، وأطلعهم الله على اللوح المحفوظ، وقد صار لهم تمكّن أن يأخذوا من المعدن الذي تأخذ منه الملائكة ما توحيه إلى الرسل، ونحو ذلك من الخرافات، فمثل هذا لا يُلتفت إليه، بل مرجعنا شرع الله ودينه.

هناك من يسمّون بالمجانين! لكن لما رآهم عوامّ النّاس قد زهدوا في الدّنيا، واشتغلوا بالأعمال الصالحة، سمّوهم بالمجانين، وهم حقيقة ليسوا بمجانين، ولكنّهم في الحقيقة حكماء. وأمّا من المتأخّرين الذين نقلت عنهم أقوال شنيعة، فهم ولو كانوا عقلاء، فهم أقلّ حالة من المجانين، ومن البُلَه والسفهاء وضعفاء العقول. والمرجع في ذلك إلى ما يقوله علماء الشريعة، الذين هم أعرف بالله وبما جاء عن الله تعالى.

قال الشارح:

وَالطَّائِفَةُ الْمَلَامِيَّةُ، وَهُمُ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مَا يُلَامُونَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ نَحْنُ مُتَّبِعُونَ فِي الْبَاطِنِ، وَيَقْصِدُونَ إِخْفَاءَ الْمَرَائِينَ! رَدُّوا بَاطِلَهُمْ بِبَاطِلٍ آخَرَ!! وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ بَيْنَ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يُصْعَقُونَ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَنْغَامِ الْحَسَنَةِ، مُبْتَدِعُونَ ضَالُّونَ! وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَدْعِيَ مَا يَكُونُ سَبَبَ زَوَالِ عَقْلِهِ! وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَلَوْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، بَلْ كَانُوا كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وَكَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وَأَمَّا الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْعُلَمَاءُ بِخَيْرٍ مِنْ عُقَلَاءِ الْمَجَانِينِ، فَأُولَئِكَ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ، ثُمَّ زَالَتْ عُقُولُهُمْ. وَمِنْ عَلَامَةِ هَؤُلَاءِ، أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ فِي جُنُونِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الصَّحْوِ، تَكَلَّمُوا بِمَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ. وَيَهْذُونَ بِذَلِكَ فِي حَالِ زَوَالِ عَقْلِهِمْ، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَكَلَّمَ إِذَا حَصَلَ لَهُمْ نَوْعُ إِفَاقَةٍ بِالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَيَهْذُونَ بِذَلِكَ فِي حَالِ زَوَالِ عَقْلِهِمْ. وَمَنْ كَانَ قَبْلَ جُنُونِهِ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا، لَمْ يَكُنْ حُدُوثُ جُنُونِهِ مُزِيلًا لِمَا ثَبَتَ مِنْ كُفْرِهِ أَوْ فِسْقِهِ. وَكَذَلِكَ مَنْ جُنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، يَكُونُ مَحْشُورًا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ. وَزَوَالُ الْعَقْلِ بِجُنُونٍ أَوْ غَيْرِهِ، سَوَاءٌ سُمِّيَ مَرَضًا

مُولَهًا أَوْ وَلِهًا، لَا يُوجِبُ مَزِيدَ حَالٍ، بَلْ حَالُ صَاحِبِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى يَبْقَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، لَا أَنَّهُ يَزِيدُهُ أَوْ يَنْقُصُهُ، وَلَكِنَّ جُنُونَهُ يَحْرِمُهُ الزِّيَادَةَ مِنَ الْخَيْرِ، كَمَا أَنَّهُ يَمْنَعُ عُقُوبَتَهُ عَلَى الشَّرِّ، وَلَا يَمْحُو عَنْهُ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَهُ.

وَمَا يَحْصُلُ لِبَعْضِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَنْغَامِ الْمُطْرِبَةِ، مِنَ الْهَذَيَانِ، وَالتَّكَلُّمِ بِبَعْضِ اللُّغَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلِسَانِ الْمَعْرُوفِ مِنْهُ!! فَذَلِكَ شَيْطَانٌ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ، كَمَا يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ! وَكَيْفَ يَكُونُ زَوَالُ الْعَقْلِ سَبَبًا أَوْ شَرْطًا أَوْ تَقَرُّبًا إِلَى وِلَايَةِ اللهِ، كَمَا يَظُنُّهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ؟! حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ[1]:

هُمُ مَعْشَرٌ حَلُّوا النِّظَامَ وَخَرَّقُوا ... سِيَاجَ فَلَا فَرْضٌ لَدَيْهِمْ وَلَا نَفْلُ
مَجَانِينُ إِلَّا أَنَّ سِرَّ جُنُونِهِمْ ... غَرِيبٌ عَلَى أَبْوَابِهِ يَسْجُدُ الْعَقْلُ

وَهَذَا كَلَامُ ضَالٍّ، بَلْ كَافِرٍ، يَظُنُّ أَنَّ فِي الْجُنُونِ سِرًّا يَسْجُدُ الْعَقْلُ عَلَى بَابِهِ!! لِمَا رَآهُ مِنْ بَعْضِ الْمَجَانِينِ مِنْ نَوْعِ مُكَاشَفَةٍ، أَوْ تَصَرُّفٍ عَجِيبٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ، كَمَا يَكُونُ لِلسَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ! فَيَظُنُّ هَذَا الضَّالُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ خُبِلَ أَوْ خَرَقَ عَادَةً كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ!! وَمَنِ اعْتَقَدَ هَذَا فَهُوَ كَافِرٌ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، فَكُلُّ مَنْ تَنَزَّلَ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ كَذِبٌ وَفُجُورٌ.

---

(١) انظر: الجواب الصحيح (٣/ ١٨٧).

قال الشيخ:

لا شكّ أنّ العقل نعمة من الله على الإنسان، وأنّه منّ على النوع الإنساني بأنّ ميّزه بهذا العقل وهذا الإدراك الذي كلّفه لأجله. فالله تعالى ما كلّف البهائم لفقد العقل، فالدوابّ والوحوش والحشرات، لم يكن لها عقول، فلم يكلّفها. والله تعالى ميّز الإنسان بهذا العقل، بحيث إنّه يفهم الخطاب، ويردّ الجواب، ويعرف ما يُقال له، ويتفكّر فيمن خلقه، وفيما بين يديه وما خلفه، وجعل الله له هذا العقل ينمو شيئًا فشيئًا، وجعله أكبر منّة، وجعل الذين يتفكّرون ويتدبّرون هم أهل العقول كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]؛ يعني: لا ينتفع بها إلا العقلاء، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]؛ يعني: يتفكّرون بعقولهم. وكثيرًا ما يأمر الله بالتفكّر بالمخلوقات، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ [ق: ٦]؛ يعني نظر عبرة، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ والتفكّر لا يكون إلا بالعقول، فإذا عرف ذلك فإن العقل ميزة الإنسان، إذا فقد العقل، فقد ميزته وخصيصته وفضيلته، والتحق بالبهائم، بل هو أقلّ منها، فالبهائم لها عقول معيشيّة، بمعنى أنّها تتبع مصالحها، وتطلب أسباب

نجاتها، وتعرف ما يناسبها من المآكل والمشارب ونحوها، وأمّا من سلب عقله، فإنّه لا يميز بين التمر والجمر، ولا بين التراب والماء، ولا يميّز بين السمّ والدسم؛ لأنّه فقد ميزته التي تميّز بها، فأصبح بذلك أقلّ حالة من البهائم.

ولذلك فإنّا نقول: إنّ الذين فقدوا عقولهم في الدنيا، بأن: سلّط الله عليهم، أو عاقبهم بأن أذهب عقولهم، أو ولدوا مجانين، ما هي حالتهم: هل يكونون أفضل ممّن وهبوا العقول؟

الجواب: إنهم ليسوا أفضل، بل أقلّ حالاتهم أنّهم معذورون، يرفع عنهم التكليف ولا يعاقبون! فلا يُقتل أحدهم إذا قتل؛ لأنّه لا عمد له، ولا يُجلد لو زنى، ولا يُقطع لو سرق؛ وذلك لأنه فاقد العقل، والعقل يعقل صاحبه، أي: يقيّده عن أن يتقدّم لما فيه مضرّة. وهؤلاء ليس عندهم ما يعقلهم ولا ما يقيّدهم.

وعلى هذا أيضًا، فإنه لا يُكتب لهم حسنات، وليس عليهم سيّئات. ولكن تسقط عنهم التكاليف، وثوابهم في الآخرة على ما يشاء ربّهم، يمكن أن يلحقوا بأهل الفترات، أو الذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، أو الذين لم يدركوا رسلاً قبلهم، في زمان الفترة. فإنّهم قد يقولون: يا ربّ ما جاءنا بشير ولا نذير، ما جاءتنا دعوة الرسل، فكيف تعذّبنا، فيقول ربّنا: أرأيتم إذا أمرتكم أتطيعوني؟ فيقولون: وما لنا لا نطيعك، فتمثّل لهم نار تشتعل، فيقول: ادخلوا هذه النار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، وصار من أهل الجنّة، ومن امتنع أن يدخلها، قال الله له، هذا وأنا الذي أمرتك، عصيت أمري، فكيف لو جاءتك رسلي؟ علم الله في هؤلاء أنّهم ممّن حقّت عليهم كلمة العذاب.

فالمجانين الذين ولدوا مجانين، أو أصابهم الجنون بعد الولادة وقبل التكليف، وبقوا على ذلك، هؤلاء يلحقون بأهل الفترات؛ أي: يمتحنون في الآخرة. أمّا أن يقال: إنّهم مقرّبون، أو لهم مكانة عند الله، أو أنّهم من أهل الزّلفى، أو أنّهم ممّن وصلوا إلى حظيرة القدس، فهذا كذب، بل هم أقل حالة من العقلاء بكثير.

وإذا أصاب أحدهم الجنون في أثناء حياته، فإن كان قبل ذلك من أهل الفسوق والذنوب والمعاصي والجرائم الذين يشربون ويسكرون ويقتلون ويفجرون، فإنّه إذا جنّ يصير هذيانه فيما كان يفعله من قبل، فتراه يتكلّم في أفعاله الشنيعة من الفواحش والمنكرات ونحوها، وإذا صحا في وقت من الأوقات، وعاد إليه عقله، فإنّه يعود إلى غيّه كما قال الشاعر[1]:

وَالشَّيْبُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ ... حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسُه

إِذَا ارْعَوَى عَادَ إِلَى قَوْلِهِ ... كَذِي الضَّنَى عَادَ إِلَى نُكْسِه

أمّا إذا كان قبل الجنون من أهل الإيمان والأعمال الصالحة والتقوى، فإنّه والحال هذه، إذا أُصيب بالجنون، ثمّ بقي على جنونه، أصبح معذورًا، ولا تزيد حسناته في حالة جنونه، بل يُرفع عنه التكليف، ويعود يتكلّم بما كان يعمله،

---

(١) البيتان لصالح بن عبد القدوس أبو الفضل الأزدي صاحب الفلسفة والزندقة. يُنظر: تاريخ بغداد (٩/ ٣٠٣)، وتاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٣٤٧)، ولسان الميزان (٣/ ١٧٢).

فيتكلّم في الحسنات والقُرُبات وما أشبه ذلك، وهذا في المجنون الذي فقد العقل فقدًا كليًا.

وإذا عرفنا أنّ الجنون نقص حقيقيّ، فإننا نقول: لا يجوز للإنسان أن يتعاطى الأسباب التي تذهب عقله، نقول: لماذا حرّم الله شرب المسكرات؟ لأنها تزيل العقل، ولو إزالة مؤقّتة. فالشيء الذي يزيل عقل الإنسان ويلحقه بالبهائم، ينبغي محاربته ومباعدته. فهؤلاء الذين يتعاطون أشياء تزيل عقولهم عمدًا، سواء كان هذا من المحرّمات كالإسكار وما أشبهه، أو من غيرها، نقول: إنهم هم السفهاء، فالعاقل لا يتعاطى شيئًا يذهب عقله. أمّا الأشياء التي يفعلها المتصوّفة؛ حيث يجتمعون في أماكنهم، ثمّ يغلب عليهم شيء يسمّونه الفناء، وذلك إمّا بسماع يسمعونه من وعّاظهم، وإمّا برقص، يرقصون إلى أن يصلوا إلى الفناء، وإمّا بتفكير، يفكّرون في أشياء إلى أن يغلب عليهم هذا الوصف، بحيث لا يشعرون بمن حولهم، فهذا أمر منكر، وفيهم قيل[1]:

أَلَا بَلِّغْ جَنَابَ الشَّيْخِ عَنِّي ... رِسَالَةَ مُسْتَقِنٍ بِالأَمْرِ خَبِرَا
وَسَلْ مِنْهُ غَدَاةَ يَهِزُّ رَأْسًا ... بِحَلْقَةِ ذِكْرِهِ وَيُدِيرُ فَخْرَا
أَقَالَ اللَّهُ صَفِّقْ لِي وَغَنِّ ... وَقُلْ كُفْرًا وَسَمِّ الكُفْرَ ذِكْرًا

وهذا الفناء الذين يزعمونه ما حصل للصحابة ولا للتابعين لهم بإحسان،

---

(١) الأبيات للشيخ عبدالغفار الأخرس مع أبيات أخرى يهجو فيها أحد مشايخ الطرق الصوفية، انظر: ديوانه (ص٥٩٥).

ولم يحصل لأئمّة الدين، وإنّما حصل لهؤلاء المتصوّفة الغلاة الذين يزعمون أنّ سببه هو هذا التواجد، وأنّه ـ كما يقولون ـ: إنّ أحدهم يتّصل قلبه بربّه، وأنّه يفنى عن نفسه، ولا يشعر بحالته، يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، يفنى بموجوده عن وجوده، يعنون أن موجوده هو ربّه، ووجوده يعني نفسه. يفنى بنفسه في ربّه، يفنى من لم يكن وهو الإنسان، ويبقى من لم يزل، تتّصل روحه بالملأ الأعلى.

هذا الفناء بدعة من بدع المتصوّفة، ومع ذلك فإنّهم يعدّونه رقيًّا، ويتمدّحون به، ويزعمون أنّه درجة رفيعة متقدّمة لا يصل إليها إلا الخواصّ.

وكذلك من أحوال المتصوّفة أنّ أحدهم إذا تليت عليه آيات أو مواعظ أو كلمات أو نحوها، فإنّهم يُصعقون، يُصعق أحدهم ويقول: إنّ ذلك مما لا يطيق الصبر عليه. وهذا الصعق لم يؤثر عن الصحابة رضوان الله عليهم، ولا عن أئمّة الدين، بل كانوا مثلما ذكر الله عنهم، أنّهم يزيدهم القرآن خضوعًا وخشوعًا، ويسجدون لله، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم: ٥٨]، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر: ٢٣]، تخشع قلوبهم، وتزيدهم إيمانًا. وهذه أوصاف أولياء الله، وهذا وصف المؤمنين. فأمّا أن يصل إلى أنّهم يصعقون أو يغمى عليهم، فهذا أقل أحواله أن يكون معذورًا، والذي غلبه هو شدّة الخوف، أو على ما يقول الصوفيّة شدّة التواجد. وهذا ليس أشرف حالاً من الصحابة رضوان الله عليهم والأئمّة المقتدى بهم.

وأمّا ما ذُكر عن أحوال هؤلاء الذين ذكرهم الشاعر، وأنّ العقول تسجد

على أبوابهم، فإنّ ذلك ـ بلا شكّ ـ كفر وضلال، فالعقول لا تسجد إلا لله، وهذا التواجد الذي يحصل لهم خطأ لا أصل له. فالمسلم يتقيّد بأوامر الشرع، ويبتعد عن الأشياء التي لا أصل لها.

وأمّا من يسمّون بالملاميّة الذين ذكرهم الشارح، وأنّهم الذين يفعلون الأشياء التي يلامون عليها، ويتعمّدون ذلك، فهؤلاء لا شكّ أنّهم من المنحرفين.

اللوم في الأصل: هو أن يفعل الإنسان شيئًا لا يحسن، ويلام عليه. وقد أنكر الله تعالى على أهل ذلك، كما في قوله تعالى في قصة فرعون: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٤٠]؛ أي: آتٍ بما يُلام عليه، يعني: مستحقّ للوم الذي. فأمّا هؤلاء، فإنهم يقولون أنّهم يعملون هذه الأشياء متعمّدين، ويتعمّدون أن يلاموا عليها! فليس لذلك أصل من دين الله، فلا يُغترُّ بمثل هذه الطرق.

قال الشارح:

وَأَمَّا الَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ بِالرِّيَاضَاتِ وَالخَلَوَاتِ، وَيَتْرُكُونَ الجُمَعَ وَالجَمَاعَاتِ، فَهُمُ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، قَدْ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، كَمَا قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ»[1]. وَكُلُّ مَنْ عَدَلَ عَنِ اتِّبَاعِ سُنَّةِ الرَّسُولِ، إِنْ كَانَ عَالِمًا بِهَا فَهُوَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، وَإِلَّا فَهُوَ ضَالٌّ. وَلِهَذَا شَرَعَ اللهُ لَنَا أَنْ نَسْأَلَهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَهْدِيَنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

---

قال الشيخ:

الذين ذكرهم الشارح هم من المتصوّفة، كان أحدهم أو مجموعة منهم يعتزلون إما في شبه الدير، أو في مكان بعيد، ثمّ يعكف في نظره بقلبه على ربّه، فيجمع جمعيّته، ويحيل فكره في الملأ الأعلى في نظره، ويبقى لا يخرج إلى المساجد،

---

(١) ليس الحديث في الصحيح كما ذكر الشارح، وإن كان صحيحًا، فقد أخرجه أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠) وحسّنه، والنسائي (١٣٦٩)، وابن ماجه (١١٢٥)، وأحمد (٣/ ٤٢٤)، وابن خزيمة (٣/ ١٧٦)، وابن حبان (٧/ ٢٦)، وصححه الحاكم (١/ ٢٨٠) ووافقه الذهبي، من حديث أبي الجعد الضمري ﷺ.

ولا يصلّي جمعة ولا جماعة، ويزعم أنّه إذا خرج تفرّق عليه قلبه، ورأى ما يشتّت عليه فكره، وأنّه إذا بقي اجتمع عليه فكره، وأعمل هذا العقل إلى أن يتجاوز السبع الطباق؛ لينظر في الملأ الأعلى، وفي ملكوت السموات والأرض، حتّى يحصل له ما يعبّرُ عنه بالتواجد، ويحصل له الاصطلامات والحركات التي تخالف الحركات الطبيعيّة. هذه فرق كثيرة قديمة الوجود، وموجودة الآن في البلاد التي يكثر فيها التصوّف.

ولا شكّ في الذين يتركون يتركون الجمع والجماعات، أنّهم تركوا الشريعة، والسنّة المحمدّيّة، وأنّهم ابتدعوا دينًا من عند أنفسهم فضّلوه على دين الله وشرعه، وليس لهم سنّة وطريقة يستدلّون بها، ولا دليل يحذون حذوه، إلا مجرّد التجربة، في زعمهم أنّ هذا جرّب، وأنّه لمّا جمع جمعيّته رأى ما لا يراه غيره.

الحاصل: أنّ هذه الجمعيّات تارة يكون الواحد ينفصل في زاوية من بيته أو في صومعة، أو مكان خاص، قد يخرج خارج البلد، ثمّ يجيع نفسه ويظمئها ويتعبها، ويعمل فكره، ويبقى مفكّرًا يومه وليلته ويومه الثاني وليلته الثانية، إلى أن يحصل له مطلبه، وهو الفناء الذي يعبّر عنه بالتواجد. وهذا فضّل نفسه على رسل الله؛ فإنّ الرسل وخاتمهم محمّد ﷺ لم يفعلوا هذه الجمعيّات، جمعيّة القلب كما يقولون، وبذلك يعرف ضلال هؤلاء، وبطلان طريقتهم، وأنّهم لا يمكن أن يصلوا إلى ما وصل إليه رسل الله الذين فضّلهم وميّزهم بالعلم والشريعة.

هذا من البدع المنكرة، والبدع لا تتمكّن إلا إذا رأى أهلها فيها شيئًا يحبّونه، ويجتذبون به النّاس، فهم قد انخدع بهم خلق كثير، عندما رأوا أنّه يحدث منهم

هذه الكلمات، وهذه الاصطلامات، وهذه الأمور التي يظنّون فيها شيئًا من الأمور الغيبيّة، وأنّهم يطلعون على أمور سماويّة، فرآهم جمهرة وجمع كبير من النّاس، ثم تزيَّوْا بزيِّهم، وساروا على نهجهم - والعياذ بالله - ووقعوا في هذا الأمر، الذي هو: ترك الشريعة، واتّباع هذه الطرق المبتدعة، وتعطيل ما هو عبادة سماويّة مأمور بها. وقد تقدّم الحديث: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ»[1] والعياذ بالله. وهكذا بقيّة الطرق التي تقدّمت، نحذر هذه الطرق، ونتجنّب أهلها، ونعرف أنّهم يسيرون عليها لأجل أن يُضلّوا غيرهم.

وهذه البدع والطرق لا تروج إلا على الجهلة الذين هم أتباع كلّ ناعق، أمّا أهل السنّة والجماعة، وأئمّة الدين وفقهاء الإسلام، فإنّهم يعرفون أنّ الطرق كلّها مسدودة إلا الطرق الشرعية، طريق الرسل الذين أرسلهم الله؛ ليوضّحوا للنّاس الشرائع، ويدلّوهم على ما يقرّبهم إلى ربّهم، فمن سلك تلك الطرق التي هي طرق أولئك المشعوذين وأولئك المموّهين ونحوهم، فإنها تؤدّي به إلى الهلاك. ومن سلك الطريق الأقوم التي هي سنّة النبيّ ﷺ، فهو يؤدي إلى الفلاح والنّجاح.

وقد ورد عن عبدالله بن مسعود ﷺ أنه قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

(١) تقدم تخريجه قريبا.

فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[الأنعام: ١٥٣][1].

وضرب بعضهم لذلك مثلاً بجريدة النّخل، جريد النخل تشاهدون أنّه يتدلّى بعضه حتّى تصل أطرافه إلى الأرض، فلو أنّ حشرة من الحشرات رقت على الجريدة، وسارت على وسط الجريدة ولم تنحرف، فإنّها تصل إلى أعلى النخلة وتأكل من ثمرها. أمّا إذا انحرفت وركبت إحدى الخُوصات المتدلّية، فإنّها تسير عليها قليلاً ثمّ تسقط بنهايتها.

هكذا من سار على هذا الخط المستقيم، أوصله إلى كرامة الله، وأوصله إلى النجاة، أمّا من انحرف فلا يأمن أن يهلك ويتردّى.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧٤)، وأحمد (١/ ٤٣٥)، وصححه ابن حبان (١/ ١٨٠)، والحاكم (٢/ ٢٣٩)، ووافقه الذهبي.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِقِصَّةِ مُوسَى مَعَ الخَضِرِ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ فِي تَجْوِيزِ الاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْوَحْيِ بِالْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ، الَّذِي يَدَّعِيهِ بَعْضُ مَنْ عَدِمَ التَّوْفِيقَ: فَهُوَ مُلْحِدٌ زِنْدِيقٌ، فَإِنَّ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الخَضِرِ، وَلَمْ يَكُنِ الخَضِرُ مَأْمُورًا بِمُتَابَعَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: أَنْتَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَمُحَمَّدٌ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، وَلَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لَكَانَا مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَإِذَا نَزَلَ عِيسَى ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ إِلَى الأَرْضِ، إِنَّمَا يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ، فَمَنِ ادَّعَى أَنَّهُ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَالخَضِرِ مَعَ مُوسَى، أَوْ جَوَّزَ ذَلِكَ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَّةِ: فَلْيُجَدِّدْ إِسْلامَهُ، وَلْيَشْهَدْ شَهَادَةَ الحَقِّ، فَإِنَّهُ مُفَارِقٌ لِدِينِ الإِسْلامِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ. وَهَذَا الْمَوْضِعُ مُفَرِّقٌ بَيْنَ زَنَادِقَةِ الْقَوْمِ وَأَهْلِ الاسْتِقَامَةِ، وَحَرِّكْ تَرَ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أن منهم من يستدل بقصة الخضر مع موسى عليه السلام، وأن الخضر استغنى (بِالْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ، الَّذِي يَدَّعِيهِ بَعْضُ مَنْ عَدِمَ التَّوْفِيقَ)، ويقولون: لا يلزمنا أن نكون من أتباع محمد ﷺ، كما لم يلزم الخضر أن يكون من أمة موسى عليه السلام.

أجاب الشيخ ـ رحمه الله ـ بأن موسى ـ عليه السلام ـ إنما بُعث إلى بني إسرائيل، (وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: أَنْتَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ)، والخضر قد

أوحي إليه، وأنزل الله عليه وعلمه؛ ولهذا قال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فأخبر بأن الله علمه علمًا، فلم يكن موسى - عليه السلام - مبعوثًا إلى الخضر، وإنما هو مبعوث إلى بني إسرائيل. ولا شك أن محمدًا ﷺ مبعوث إلى الثقلين: الجن والإنس. وقد قال ﷺ: «لو كان مُوسَى حَيًّا بين أَظْهُرِكُمْ ما حَلَّ له إلاَّ أَنْ يتبعني»[1]، وفي قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾[آل عمران: ٨١]، يقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه العهد لئن بُعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بُعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه»[2].

وذكر ابن كثير في تفسيره[3]: أن سبأ - وهو عبد شمس بن يشجب بن يعرب - بَشَّرَ برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعرًا:

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٨)، وأبو يعلى (٤/ ١٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٠٠) من حديث جابر ﷺ.

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣٠٦)، وابن حجر في الفتح (٦/ ٤٣٤)، كلاهما عزاه إلى صحيح البخاري، ولم أقف عليه في الصحيح. وأخرج ابن جرير الطبري (٣/ ٣٣٢) نحوه عن علي بن أبي طالب ﷺ.

(٣) (٣/ ٥٦٢).

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا ... نَبِيٌّ لا يُرَخِّصُ في الحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُم مُلُوْكٌ ... يَدِيْنُوه الْقِيَادَ بِكُلِّ دَامِي
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُم مِنَّا مُلُوْكٌ ... يَصِيْرُ الْمُلْكُ فِيْنَا بِاقْتِسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٌّ ... تَقِيٌّ مُخْبِتٌ خَيْرُ الأَنَامِ
يُسَمَّى أَحْمَدًا يَالَيْتَ أَنِّي ... أُعَمَّرُ بَعْدَ مَبْعَثِهُ بِعَامِ
فَأَعْضُدَهُ وَأَحْبُوهُ بِنَصْرِي ... بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَتَى يَظْهَرْ فَكُوْنُوا نَاصِرِيْهِ ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبَلِّغْهُ سَلامِي

فدل على أن الأنبياء، أو أتباعهم من المتقدمين كـ (سبأ)، الذي هو من المتقدمين، قد بشَّر بمحمد ﷺ.

وكذلك أيضًا عيسى ـ عليه السلام ـ لو كان حيًا لحكم بشريعة محمد ﷺ، وقد أخبر ﷺ بأن عيسى ـ عليه السلام ـ ينزل في آخر الزمان، وأنه يحكم بشريعة محمد ﷺ. فهؤلاء الذين يقولون: لسنا ملزمين باتباع محمد ﷺ كما أن الخضر ليس ملزمًا باتباع موسى ـ عليه السلام . نقول: كذبتم، بل جميع الأمة التي على وجه الأرض كلهم من الأمة، أي: من أمة الدعوة؛ لقوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ من هذه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ولا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولم يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إلا كان من أَصْحَابِ النَّارِ»[1]؛ ذلك لأنه يقول

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ﷺ: «بُعِثْتُ إلى الناس عَامَّةً»[1]. فالذين يقولون: لا نتبع شريعة محمد ﷺ. أو يقولون: يجوز لأحد من هذه الأمة أن لا يتبع هذه الشريعة. فهؤلاء قد كفروا.

يقول الشارح - رحمه الله -: (فَلْيُجَدِّدْ إِسْلامَهُ، وَلْيَشْهَدْ شَهَادَةَ الحَقِّ، فَإِنَّهُ مُفَارِقٌ لِدِينِ الإِسْلامِ بِالْكُلِّيَّةِ)، والعياذ بالله، مع أنه يدَّعي أنه من أولياء الله، ويقولون: إن أولياء الله أفضل من الأنبياء.

أولياء الله تعالى هم أتباع النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... كَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، فهؤلاء الذين يقولون: لسنا ملزمين بهذه الشريعة. نقول لهم: أنتم من أتباع الشيطان، ومن أوليائه، ومن أتباع الطواغيت التي أخرجتكم من النور إلى الظلمات. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فهكذا يُقال لهؤلاء الذين يدَّعون أنهم أولياء، وأنهم لا يُلزمون باتباع الشريعة، يحل لهم ما هو محرم في الشريعة، يُباح لهم الزنى وأكل المال بغير حق، وما أشبه ذلك. يقولون: نحن مستغنون عن شريعة محمد ﷺ؛ لأننا أولياء. ويقولون: إن النبي أفضل من الولي. حتى يقول قائلهم[2]:

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٧٤).

(٢) را ... (٥/ ٧٦).

مَقَـــامُ النُّبُـــوَّةِ فِي بَـــرْزَخٍ فُوَيْـــقَ الرَّسُـــولِ وَدُونَ الْـــوَلِيِّ

هكذا يقولون أن الولي هو الأعلى، ويفضلون أنفسهم على الأولياء، ويقولون: إن الولي يأخذ من اللوح المحفوظ، يطلع على اللوح المحفوظ فلا يحتاج إلى هذا القرآن ولا إلى هذه السنة. نعوذ بالله من الحرمان.

قال الشارح:

وَكَذَا مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ الْكَعْبَةَ تَطُوفُ بِرِجَالٍ مِنْهُمْ حَيْثُ كَانُوا، فَهَلاَّ خَرَجَتِ الْكَعْبَةُ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ فَطَافَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أُحْصِرَ عَنْهَا، وَهُوَ يَوَدُّ مِنْهَا نَظْرَةً؟ وَهَؤُلاءِ لَهُمْ شَبَهٌ بِالَّذِينِ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر:٥٢]، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح هنا أن هناك من يقول: إن الكعبة تطوف برجال منهم أينما كانوا. فلا يحتاجون إلى أن يسافروا إلى محمد ﷺ، ولا أن يسافروا إلى المدينة، ولا أن يسافروا إلى الكعبة؛ لأن الكعبة تأتي إليهم أينما كانوا!! بدل ما يطوفون مع عامة الناس بالكعبة يدعون أنهم تطوف بهم هذه الكعبة. تعالى الله.

يقول الشارح: (فَهَلاَّ خَرَجَتِ الْكَعْبَةُ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ فَطَافَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أُحْصِرَ عَنْهَا، وَهُوَ يَوَدُّ مِنْهَا نَظْرَةً؟)، لا شك أن قولهم هذا كفر، حيث فضَّلوا أنفسهم على الأنبياء، وجعلوا الكعبة التي يقصدها الناس تخدمهم، وتأتي إليهم في أي مكان، وتطوف بهم؛ كما تطوف بها سائر العامة.

وهؤلاء أشبه بالذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر: ٥٢]، كأنهم يدَّعون أنه نزلت عليهم كتب كما نزلت على الأنبياء، بل وأفضل من الأنبياء.

وينطبق عليهم الوصف الذي ذكره ابن القيم في اللامية التي أوردها في «إغاثة اللهفان»[1]، أولها قوله:

ذَهَبَ الرِجَالُ وَحَالَ دُوْنَ مَجَالِهِم ... زُمَرٌ مِنَ الأَوْبَاشِ وَالأَنْذَالِ
زَعَمُوا بِأَنَّهُمُ عَلَى آثَارِهِم ... سَارُوْا وَلَكِن سِيْرَةَ البَطَّالِ
لَبِسُوا الدِّلُوقِ مُرَقَّعًا وَتَقَشَّفُوا ... كَتَقَشُّفِ الأَقْطَابِ وَالأَبْدَالِ
قَطَعُوا طَرِيْقَ السَّالِكِيْنَ وَغَوَّرُوا ... سُبُلَ الهُدَىٰ بِجَهَالَةٍ وَضَلالِ
عَمَرُوا ظَوَاهِرَهُم بِأَثْوَابِ التُّقَىٰ ... وَحَشَوا بَرَاطِنَهُم مِنَ الأَدْغَالِ
إِنْ قُلْتَ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... هَمَزُوكَ هَمْزَ المُنْكِرِ المُتَغَالِي
أَو قُلْتَ قَدْ قَالَ الصَّحَابَةُ وَالأُلَىٰ ... تَبَعُوهُمُ فِي القَوْلِ وَالأَعْمَالِ
أَو قُلْتَ قَالَ الآلُ آلُ المُصْطَفَىٰ ... صَلَّىٰ عَلَيْهِ اللهُ أَفْضَلُ آلِ
أَو قُلْتَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ... وَأَبُو حَنِيْفَةَ وَالإِمَامُ العَالِي
أَو قُلْتَ قَالَ صِحَابُهُم مِنْ بَعْدِهِم ... فَالكُلُّ عِنْدَهُمُ كَشِبْهِ خَيَالِ
وَيَقُوْلُ قَلْبِي قَالَ لِي عَنْ سِرِّهِ ... عَنْ سِرِّ سِرِّي عَنْ صَفَا أَحْوَالِي
عَنْ حَضْرَتِي عَنْ فِكْرَتِي عَنْ خَلْوَتِي ... عَنْ شَاهِدِي عَنْ وَارِدِي عَنْ حَالِي
عَنْ صَفْوِ وَقْتِي عَنْ حَقِيْقَةِ مَشْهَدِي ... عَنْ سِرِّ ذَاتِي عَنْ صِفَاتِ فِعَالِي
دَعْ عَنْكَ إِذَا حَقَّقْتَهَا أَلْفَيْتَهَا ... أَلْقَابَ زُوْرٍ لُفِّقَتْ بِمُحَالِ

يقول ـ رحمه الله ـ: إن هؤلاء لا يلتفتون إلى الأدلة؛ لا إلى القرآن، ولا إلى

---

(١) (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

السنة، ولا إلى كلام الصحابة رضوان الله عليهم، ولا إلى كلام النبي ﷺ، ولا إلى كلام الأئمة الأربعة، ولا إلى كلام أتباعهم من بعدهم، وإنما يدّعون أن لهم خصائص: أنها تحدثهم نفوسهم.

يقول أحدهم: (حدثني قلبي عن ربي). وكل ذلك من الوهم الذي يوهمون به أتباعهم، حتى يكون لهم أتباع على باطلهم. نعوذ بالله من الحرمان، ونسأله العفو والغفران.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

نَرَى الجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا.

---

قال الشارح:

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]. فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٤).

فَبَيَّنَ أَنَّ عَامَّةَ الْمُخْتَلِفِينَ هَالِكُونَ إِلَّا أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَأَنَّ الِاخْتِلَافَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1] عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ، كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ، وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَالْعَامَّةِ، وَالْمَسْجِدِ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قَالَ: «هَاتَانِ أَهْوَنُ».

فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، مَعَ بَرَاءَةِ الرَّسُولِ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ، وَهُمْ فِيهَا فِي جَاهِلِيَّةٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُتَوَافِرُونَ، فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ كُلَّ دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ فَرْجٍ أُصِيبَ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ: فَهُوَ هَدْرٌ، نَزَّلُوهُمْ مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ بِإِسْنَادِهِ الثَّابِتِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: تَرَكَ النَّاسُ الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا

---

(١) في المسند (٥/ ٢٣٢، ٢٤٣).

(٢) انفرد بإخراجه البخاري (٧٣١٣) من حديث جابر ﷺ، ولم يروه مسلم.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾[الحجرات:٩][1].

فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا اقْتَتَلُوا كَانَ الْوَاجِبُ الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمْ كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى، فَلَمَّا لَمْ يُعْمَلْ بِذَلِكَ صَارَتْ فِتْنَةً وَجَاهِلِيَّةً، وَهَكَذَا تَسَلْسَلَ النِّزَاعُ.

وَالْأُمُورُ الَّتِي تَتَنَازَعُ فِيهَا الْأُمَّةُ، فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ - إِذَا لَمْ تُرَدَّ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ - لَمْ يَتَبَيَّنْ فِيهَا الْحَقُّ، بَلْ يَصِيرُ فِيهَا الْمُتَنَازِعُونَ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ إِنْ رَحِمَهُمُ اللهُ أَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَمْ يَبْغِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ يَتَنَازَعُونَ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ، فَيُقِرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَا يَعْتَدِي وَلَا يُعْتَدَى عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يُرْحَمُوا وَقَعَ بَيْنَهُمُ الِاخْتِلَافُ الْمَذْمُومُ، فَبَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِمَّا بِالْقَوْلِ، مِثْلَ تَكْفِيرِهِ وَتَفْسِيقِهِ، وَإِمَّا بِالْفِعْلِ، مِثْلَ حَبْسِهِ وَضَرْبِهِ وَقَتْلِهِ. وَالَّذِينَ امْتَحَنُوا النَّاسَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، كَانُوا مِنْ هَؤُلَاءِ، ابْتَدَعُوا بِدْعَةً، وَكَفَّرُوا مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهَا، وَاسْتَحَلُّوا مَنْعَ حَقِّهِ وَعُقُوبَتِهِ.

---

قال الشيخ:

الكلام المتقدم يتعلّق بوقوع الاختلاف في هذه الأمّة كما وقع الاختلاف في الأمم السابقة، وبما يجب على أمّة الإجابة وأمّة الدعوة من الاجتماع والائتلاف.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١٥٦) بلفظ: «ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة من هذه الآية: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾»، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وأخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ١٧٢).

يقول: إنّ الواجب على المسلمين جميعًا أن يأتلفوا ولا يختلفوا، وأن يكونوا إخوة كما سمّاهم الله تعالى.

لقد كان أهل المدينة قبل الإسلام مختلفين، يقع بينهم قتال كثير يستمرّ حتّى يقتل فيه أعداد من هؤلاء وهؤلاء، ولمّا جاء الإسلام، زال ذلك الاختلاف، وزالت تلك الفرقة، واجتمعوا على الإسلام، ذكّرهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[آل عمران: ١٠٣]؛ أي تمسّكوا بحبل الله الذي هو دين الإسلام، ولا تكونوا فرقًا وأحزابًا، ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[آل عمران: ١٠٣]. فجعلهم إخوة وهو حقّ، فإنّهم بعد أن دخلوا في الإسلام أصبحوا مثل الإخوة متحابّين، وأصبحوا يحبّون كلّ مؤمن، فلمّا جاءهم المهاجرون أحبّوهم كما كان يحبّون إخوانهم أولاد آبائهم وأمّهاتهم. كما ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾[الحشر: ٩]، بل يقدّمون محبّتهم على محبّة أنفسهم، كما في قوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]. وما ذاك إلا أنّهم عرفوا أنّ الله يحبّهم فأحبّوهم، ومحبُّ المحبوبِ محبوبٌ. مادام أنّ الله يحبّ المؤمنين، فإنّنا نحبّهم، فما دام أنّهم يحبّون الله ويحبّون رسول الله ﷺ، فإنّنا نحبّ من يحبّ الله، ونحبّ من يحبّ الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإذا ثبتت هذه المحبّة فلا بدّ أنّ لها آثارها، ومن آثارها: الاجتماع والجماعة، وهي أن نكون مجتمعين، وغير متفرّقين، أهدافنا موحّدة، مقاصدنا مجدّدة، كلّ منا

على الإسلام، ويعبد الله، ويعرفه، ويعرف دين الله ويدين به، وكلّنا على شريعة واحدة وعقيدة واحدة، هكذا كان الصحابة في عهد النبيّ ﷺ، على هذه الشريعة، وكذلك في عهد أبي بكر وفي عهد عمر وفي عهد عثمان رضي الله عنهم، كانوا على هذه الشريعة، لم يكن بينهم أيّ اختلاف يسبّب لهم التقاطع والتباغض والعداوات.

من تأمّل شرائع الأنبياء، وشريعتنا خاصّة، وجد أنّ كل المعاملات وكلّ الأحكام تهدف إلى هدف واحد، وهو تحصيل الأخوّة بين المسلمين، حتى يكون من آثاره جمع كلمة المسلمين ليكونوا إخوة في ذات الله تعالى، ويتركوا التقاطع والتباعد جانبًا. ومن تأمّل المنهيات التي تتعلّق بالمعاملات، وجد أنّ الحكمة من تحريمها والنّهي عنها أنّها تسبب البغضاء وتوقع العداوة، وتوقع الوحشة بين الأخوين المسلمين، لأجل ذلك نهى الله عن أشياء تسبّب هذا. مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لأنها تسبب الفرقة بين المسلمين، ولماذا نُهينا عن اللمز في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، واللّماز والهمّاز هو الذي يتتبع العثرات، ويلصق بالإنسان ما ليس فيه، لماذا نُهينا عن الهمز واللمز والعيب والثلب وتتبّع السوءات؟ لأنّه يُسبّب الفرقة.

وقال لنا النبيّ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ

إِخْوَانًا»[1]، لماذا نهانا النبي ﷺ عن هذه الأشياء؟ لأنها تسبّب الفرقة، وإذا تركناها أصبحنا مجتمعين، وبذلك يتبين أنّ الإسلام يهدف إلى الاجتماع، ويحثّ عليه، وينهى عن الاختلاف.

الآيات التي أوردها الشارح - رحمه الله - دالّة دلالة واضحة على النّهي عن الفرقة، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[آل عمران: ١٠٥]؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾[هود:١١٨، ١١٩]، وأمّا من رحمهم الله فإنّهم غير مختلفين، وأنّ أولئك الذين اختلفوا قد فاتتهم الرحمة، وفوات الرحمة عنهم أمر عظيم كبير، حيث حصل لهؤلاء الرحمة، وهؤلاء نزعت منهم الرحمة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾[الأنعام: ١٥٩]، ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]؛ لا شكّ أنّ هذا نهي عن الفرقة والاختلاف، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: ١٥٣]؛ لا تتّبعوا السبل المنحرفة، فتفرّق بكم عن سبيل الله، فسبيل الله هي سبيل النجاة.

معلوم أنّ هذه الشريعة، قد منّ الله تعالى ببقائها وحفظها على الأمّة، وأنّ حفظها نعمة عظيمة وكبيرة، حيث وفّقهم لحفظها وبقائها، وبيّن لهم تعاليمها، فكلّ شيء منها محفوظ ومبيّن، فلذلك نقول: لا مسوّغ للاختلاف، ولا موجب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

للتفرّق، لماذا نتحزّب أحزابًا، ولماذا نتسمّى أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، القصد واحد، والاختلاف سبيل إلى التحزّبات وإلى تفرّق الكلمة، ولا شكّ أنّ المسلمين كلّما تفرّقوا وتحزّبوا وتباعدت كلماتهم، ضعفت قوّتهم، وإذا ضعفت قوّتهم، تسلّطت أعداؤهم عليهم، ولو تتبّعنا التواريخ والوقائع التي وقعت على الأمم السابقة، بل وهذه الأمّة لوجدنا أنّهم إنّما تتسلّط عليهم الأعداء عندما تتفرّق كلمتهم، أمّا إذا اجتمعت كلمتهم، فإنّهم يصيرون إخوة، وهدفهم واحد، ووجهتهم نحو العدوّ واحدة.

ذكر المؤرخون أن المسلمين في آخر القرن الأول لمّا تركوا القتال وقعت بينهم الخلافات، وذلك بسبب المفاخرات، فهذه القبيلة تفتخر، وهذه تذكر حسبها، وهذه تذكر نسبها، فظهرت بينهم خلافات وشقاق، مع أنّهم كلّهم مسلمون، فلمّا جاءهم والٍ عليهم مخلص، هو قتيبة بن مسلم الباهلي، وهو واحد من القوّاد المصلحين، خطب فيهم وجمعهم، وقال[1]: لماذا تتفرّقون ولماذا تتحزّبون؟ كلّكم من آدم، وكلّكم مسلمون، وكلّكم على شريعة واحدة تعبدون ربًّا واحدًا، وتدينون دينًا واحدًا، فاستجمعوا قوّتكم، ووجهوها إلى عدوّكم، إلى أن أذلّوه. فلمّا جمعهم ووحّد كلمتهم توجّهوا يفتحون بلاد أفغانستان وبلاد السند، وبلاد ما وراء النّهر... إلى أن وصلوا إلى ما وصلوا إليه، هكذا فعلوا لمّا جمع الله كلمتهم، فعُرِفَ بذلك أنّ الشياطين وأعوان الشياطين، لهم أغراض في تفريق الكلمة.

---

(١) يُنظر خطب قتيبة ـ رحمه الله ـ في جمهرة خطب العرب (٢/ ٣٠٤).

والنبيّ ﷺ كان يحثّ على الجماعة، ومثّل المنفرد بالشاة القاصية التي تبتعد وتنفرد من الغنم، فيأتي الذئب على غفلة من الرُّعاة ويأخذها[1]. هكذا الشيطان ذئب الإنسان، متى وجد هذا شاذًا في قوله، وهذا منفردًا في عقيدته، وهؤلاء فرقة قليلة على نِحلة وعلى مذهب، تمكّن منهم وأدخل عليهم البدع، وأدخل عليهم الوساوس، فإذا انتبهوا لأنفسهم ورجعوا إلى الطريق السويّ، ورجعوا إلى الصرط المستقيم، ووحّدوا كلمتهم مع علمائهم ودعاتهم وسائر إخوانهم، فإنّهم يكونون يدًا واحدة على الشيطان، كلّما وسوس لهم وسوسة، أو ألقى في قلوبهم شبهة أوشكًا احترقت بنور النبوّة، واحترقت بأنوار الشريعة، ولم يبق له سلطان، ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقد تقدّم حديثُ افتراق هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النّار إلا واحدة[2]. وهو دليل على أنّ الله تعالى أطلع نبيّه ﷺ على أنّ الأمّة الذين استجابوا لدعوته، سوف يقع بينهم خلافات، وهذه الخلافات سوف يكون لها آثار، فآثارها وقوع قتال، ووقوع تكفير وتضليل فيما بينهم، وقد وقع هذا الاختلاف حتّى في عهد الصحابة رضي الله عنهم، فوقعت الفتنة الأولى بين عليّ ﷺ وبين

---

(١) قال ﷺ: «... فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ»، أخرجه أبوداود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وابن خزيمة (٢/ ٣٧١)، وابن حبان (٥/ ٤٥٧)، والحاكم (٢/ ٥٢٤) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

أهل العراق، لمّا جاء بعض الصحابة يطالبون باستئصال قتلة عثمان ﷺ، فوقعت وقعة بشعة تسمّى وقعة الجمل، قُتل فيها خلق كثير من هؤلاء وهؤلاء مع أنّهم كلّهم مسلمون، ولكن فتن الشيطان بينهم، وأوقع القتال، وهناك عدد كثير من الصحابة الأجلاء لم يدخلوها واعتزلوها، وإنّما دخلها من لا بدّ منه، كعليّ ﷺ ومن معه، وكعائشة ومن معها، وقُتل فيها الزبير وطلحة رضي الله عنهما، وقُتل فيها من قتل من أتباع هؤلاء وهؤلاء.

ثمّ وقعت وقعة أخرى وهي صفّين بين أهل الشام وأهل العراق، أهل الشام يطالبون بدم عثمان ﷺ، ويطلبون استئصال قتلته، وأهل العراق يطالبون بجمع الكلمة، ويقولون: نستأصلهم بعدما تجتمع الكلمة، فحصلت هذه الوقعة، التي قتل فيها عدد كبير يقدّر بعشرات الألوف، من هؤلاء وهؤلاء، ولا شكّ أنّها فتنة عظيمة، قتل فيها عمار بن ياسر، وقتل فيها كثيرون من غير الصحابة.

ثمّ انعزلت فرقة من أصحاب عليّ، وكفّروا عليًا ومعاويةَ، وانخزلوا من الصحابة وسمّوا بالخوارج؛ لأنّهم خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين، وليس فيهم أحد من الصحابة، بل كلّهم من غير الصحابة، فحصل أنّ الصحابة رضوان الله عليهم غزوهم في عقر دورهم وقاتلوهم، وحصل منهم ثورات وقتال استمرّ أكثر من سبعين سنة مع المسلمين، كلّ ذلك في قتال بين هؤلاء وهؤلاء، وكلّ ذلك من أسباب الفرقة، وأنّ الشيطان أوقع الخلاف بينهم في العقائد، حتّى يضلّلهم ويوقعهم فيما أوقعهم فيه مما له فيه هدف وقصد.

بعد ذلك نشأت فرق كثيرة، منها ما وصلت بدعتهم إلى الكفر، ومنها ما

وصلت إلى دون الكفر، وهو الابتداع الذي هو دون الكفر. والمسلمون وأهل السنّة يعتقدون أنّ الجميع مبتدعون، ويقولون: عليكم جميعًا أن ترجعوا إلى الأصل، لو رجعتم إلى الأصل والشريعة وطريقة الرسول ﷺ، لوجدتم أنّه طريق واحد ليس فيه تثنية، وذلك مذكور في حديث التفرّق، فإنّه ﷺ سئل عن الفرقة الناجية من هي؟ فقال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[1]. معلوم أنّ سنّة الصحابة رضوان الله عليهم وطريقتهم مجتمعة، وأنّهم - والحمد لله - لم يكن بينهم اختلاف، وأن ما كانوا عليه، فهو محفوظ مدوّن، فقد يسّر الله من العلماء من نقلوا عنهم أقوالهم، ومن نقلوا عنهم أفعالهم التي يتعبّدون بها ويدينون بها.

فعلينا أن نحرص على الاقتداء بسنّتهم، ونحذر من كلّ المحدثات التي جاءت من بعدهم، ونعلم أنّها بدع وضلالات، وأنّ النبيّ ﷺ كان يحثّ على التمسّك بسنّته، فوصيّته في آخر حياته، لما وعظ الصحابة رضي الله عنهم مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ منها الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ منها الْقُلُوبُ، فقال قَائِلٌ: يا رَسُولَ الله كَأَنَّ هذه مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فقال: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فإنه مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بها، وَعَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فإن كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[2]، فأمرهم بأن

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٤).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

يتمسّكوا بها بالأيدي، كأنّها شيء يمسك بالأيدي، فإن خافوا أن تتفلّت منهم، عضّوا عليها بالنواجذ التي هي أقصى الأسنان، وهذا أقصى شيء من التمسك، أن لا يجد إلا أقصى أسنانه فيتمسّك بها؛ وذلك لوجود من يحاول انتزاعها، فهذه السنّة فتمسّك بها، لأنه هناك من يحاول أن ينتزعها منك، وذلك بما يلقي في قلبك من الشُّبَه والتشكيكات والوسوسات، فإذا كنت متمسّكًا قويًّا فلا يستطيع أن يتغلّب عليك.

وأخبر أن كلّ محدثة بدعة، وأنّ السنّة طريقة واحدة، فمما حفظ عن النبي ﷺ: «فإن خَيْرَ الحديث كِتَابُ الله، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]. هكذا يخطب على رؤوس الأشهاد، يحثّ على هديه والتمسّك بكتاب ربّه، وينهى عن المحدثات التي هي محدثات في دين الله، وكذلك يخبر بأنّ دينه لا يجوز تغييره ولا الزيادة فيه ولا النقص فيه، كما في قوله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابربن عبدالله رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٨٧).

قال الشارح:

فَالنَّاسُ إِذَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ الرَّسُولَ: إِمَّا عَادِلُونَ وَإِمَّا ظَالِمُونَ، فَالْعَادِلُ فِيهِمْ: الَّذِي يَعْمَلُ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا يَظْلِمُ غَيْرَهُ، وَالظَّالِمُ: الَّذِي يَعْتَدِي عَلَى غَيْرِهِ. وَأَكْثَرُهُمْ إِنَّمَا يَظْلِمُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[آل عمران:١٩]. وَإِلَّا فَلَوْ سَلَكُوا مَا عَلِمُوهُ مِنَ الْعَدْلِ، أَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَالْمُقَلِّدِينَ لِأَئِمَّةِ الْعِلْمِ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي تِلْكَ الْمَسَائِلِ، فَجَعَلُوا أَئِمَّتَهُمْ نُوَّابًا عَنِ الرَّسُولِ، وَقَالُوا: هَذَا غَايَةُ مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ، فَالْعَادِلُ مِنْهُمْ لَا يَظْلِمُ الْآخَرَ، وَلَا يَعْتَدِي عَلَيْهِ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، مِثْلَ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ قَوْلَ مُقَلِّدِهِ هُوَ الصَّحِيحُ بِلَا حُجَّةٍ يُبْدِيهَا، وَيَذُمُّ مَنْ خَالَفَهُ، مَعَ أَنَّهُ مَعْذُورٌ.

ثُمَّ إِنَّ أَنْوَاعَ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ فِي الْأَصْلِ قِسْمَانِ: اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ، وَاخْتِلَافُ تَضَادٍّ.

وَاخْتِلَافُ التَّنَوُّعِ عَلَى وُجُوهٍ: مِنْهُ مَا يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ أَوِ الْفِعْلَيْنِ حَقًّا مَشْرُوعًا، كَمَا فِي الْقِرَاءَاتِ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، حَتَّى زَجَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ»[1]، وَمِثْلُهُ اخْتِلَافُ الْأَنْوَاعِ فِي صِفَةِ الْأَذَانِ، وَالْإِقَامَةِ، وَالِاسْتِفْتَاحِ، وَمَحَلِّ سُجُودِ السَّهْوِ، وَالتَّشَهُّدِ، وَصَلَاةِ الْخَوْفِ،

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢١٠).

وَتَكْبِيرَاتِ الْعِيدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا قَدْ شُرِعَ جَمِيعُهُ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَنْوَاعِهِ أَرْجَحَ أَوْ أَفْضَلَ.

ثُمَّ تَجِدُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ مِنَ الِاخْتِلَافِ مَا أَوْجَبَ اقْتِتَالَ طَوَائِفَ مِنْهُمْ عَلَى شَفْعِ الْإِقَامَةِ وَإِيتَارِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ! وَهَذَا عَيْنُ الْمُحَرَّمِ. وَكَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْهَوَى لِأَحَدِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآخَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ: مَا دَخَلَ بِهِ فِيمَا نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

وَمِنْهُ مَا يَكُونُ كُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ هُوَ فِي الْمَعْنَى الْقَوْلَ الْآخَرَ، لَكِنِ الْعِبَارَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ، كَمَا قَدْ يَخْتَلِفُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي أَلْفَاظِ الْحُدُودِ، وَصَوْغِ الْأَدِلَّةِ، وَالتَّعْبِيرِ عَنِ الْمُسَمَّيَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. ثُمَّ الْجَهْلُ أَوِ الظُّلْمُ يَحْمِلُ عَلَى حَمْدِ إِحْدَى الْمَقَالَتَيْنِ وَذَمِّ الْأُخْرَى وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى قَائِلِهَا! وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا اخْتِلَافُ التَّضَادِّ، فَهُوَ الْقَوْلَانِ الْمُتَنَافِيَانِ، إِمَّا فِي الْأُصُولِ، وَإِمَّا فِي الْفُرُوعِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْمُصِيبُ وَاحِدٌ. وَالْخَطْبُ فِي هَذَا أَشَدُّ، لِأَنَّ الْقَوْلَيْنِ يَتَنَافَيَانِ، لَكِنْ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَكُونُ الْقَوْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي مَعَ مُنَازِعِهِ فِيهِ حَقٌّ مَا، أَوْ مَعَهُ دَلِيلٌ يَقْتَضِي حَقًّا مَا، فَيَكُونُ الْحَقُّ مَعَ الْبَاطِلِ، حَتَّى يَبْقَى هَذَا مُبْطِلًا فِي الْبَعْضِ، كَمَا كَانَ الْأَوَّلُ مُبْطِلًا فِي الْأَصْلِ، وَهَذَا يَجْرِي كَثِيرًا لِأَهْلِ السُّنَّةِ.

---

قال الشيخ:

التفرّق والاختلاف شرٌّ على الأمّة، وفيه سبب لتفرقة الكلمة، وممّا يسببه كثرة المنازعات والمجادلات بين الأمّة وبين الأفراد والجماعات ونحو ذلك،

وكثرة التحزّبات، والانتصار من هؤلاء لقولهم، ومن هؤلاء لقولهم، ويوقع في التعصّب والتشدّد، وردّ الأقوال المخالفة بنوع من التعصّب والتكلّف، وردّ الأدلّة وما أشبه ذلك، وهذا ـ بلا شكّ ـ مذموم، وهذا يعرفه المتخصّصون الذين قرؤوا في كتب الخلاف، وأمّا الذين لم يقرؤوا، فنحن ننصحهم بألاّ يقرؤوا في مثل هذه الخلافات التي يحصل فيها كثير من المماحكات والمجادلات.

وقد تقدّم في كلام الشارح أنّ الاختلاف نوعان: اختلاف تنوّع، واختلاف تضادّ. فأمّا اختلاف التنوّع، فهذا من طبيعة البشر، ومن طبيعة المجتهدين أن يقع خلاف في المسائل الفرعيّة بين التلميذ وشيخه، فيكون هذا له رأي، وهذا له رأي، وهذا يختار قولاً، وذاك يختار قولاً، ولكن هذا لا يصل إلى التضليل، ولا يصل إلى المقاطعة.

فالإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، تلقّى العلم عن أهل المدينة الذين هم أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، وما سمعه في المدينة، وأثبته في «موطئه»، وتتلمذ عليه الشافعي، وقرأ عليه حديثه، ومع ذلك خالفه في كثير من الأمور الاجتهاديّة، ولكنّه لم يخطّئه، بل قال أنا مجتهد وهو مجتهد، ولكلّ مجتهد نصيب. فلمّا قيل له: هل نصلّي خلف من يقلّد مالكًا؟ غضب، وقال: ألست أصلّي خلف مالك؟ فمالكٌ شيخي، وأنا أصلّي خلفه، ولو خالفته في بعض الأمور التي هي أمور اجتهاديّة. فمثلاً: الإمام مالك كان لا يأتي بالبسملة، لا في الفاتحة ولا في السورة، والشافعي يجهر بالبسملة في الفاتحة وفي السورة. ولكنّه كان لا يعيب على من أخفى البسملة، كما لا يعيب مالك وأحمد على من جهر بها وأعلن. فهذا

الخلاف لا يؤدّي إلى تهاجر أو تقاطع. كذلك الإمام الشافعيّ يرى أنّه يتورّك في كلّ تشهّد يعقبه تسليم، ويرى الإمام أحمد أنّه لا يتورك إلا في التشهد الأخير من الصلاة التي فيها تشهدان، ومع ذلك لم يقع بينهما بسبب هذا الاختلاف تقاطع.

كذلك وقع الاختلاف في أشياء كثيرة، فمنها وفي العهد النبوي قال عمر بن الخطاب ﷺ: سمعت هِشَامَ بن حَكِيمِ بن حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ على غَيْرِ ما أَقْرَؤُهَا، وكان رسول الله ﷺ أَقْرَأَنِيهَا فَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عليه ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حتى انْصَرَفَ ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ الله ﷺ فقلت: يا رَسُولَ الله إني سمعت هذا يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ على غَيْرِ ما أَقْرَأْتَنِيهَا، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ»، فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ التي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ، فقال رسول الله ﷺ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ»، ثُمَّ قال لي: «اقْرَأْ»، فَقَرَأْتُ فقال: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ، إِنَّ هذا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فاقرأوا ما تَيَسَّرَ منه»[1].

فأقرّ النبيّ ﷺ عمر ﷺ على قراءته، وهشام ﷺ على قراءته، وأخبر بأنّ كلًّا منهما مصيب، ونهاهم عن الاختلاف.

كذلك ورد الخلاف في الاستفتاحات: فتارةً يستفتح بقوله: «سُبْحَانَكَ اللهم وَبِحَمْدِكَ»[2]، وتارة يستفتح بقوله: «اللهمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٧١).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وابن ماجه (٨٠٧)، وأحمد (٣/ ٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»[١]، وكان يستفتح تارة بقوله: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»[٢]، وتارة بقوله: «اللهم رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ»[٣]، فاختار هذا قوم وهذا قوم، ولم يخطّئ أحدهما الآخر.

كذلك ورد الخلاف في الأذان والإقامة، بعضهم يجعلون التشهدات أربعًا في الأذان وبعضهم يجعلها ثمانيًا. وكلمات الإقامة بعضهم يجعلها سبعة عشر، وبعضهم يجعلها إحدى عشرة. وذلك من باب الاجتهاد أيضًا ومن باب التوسعة.

وكذلك تكبيرات الجنازة، فقد رُوي أنّه كبّر خمسًا، وأنّه كبّر ستًا، وأنّه كبّر سبعًا، واختار كلّ قوم عددًا، ولم يقل أحدًا: إنّ من كبّر خمسًا أخطأ! وكذلك روي التسليم في صلاة الجنازة مرّة، وروي مرّتين، ولا يخطَّأُ هذا ولا هذا. وكذلك تكبيرات صلاة العيد، فمنهم من قال: سبعًا، ومنهم من قال: خمسًا، ومنهم من قال: تسعًا. وليس أحدهم بمخطىء، وهذا مروي وهذا مرويّ، وهذا يسمّى اختلاف تنوّع.

وقد سئل الإمام أحمد عن صلاة الخوف التي رويت بست روايات مختلفة، فقال: «الأحاديث التي جاءت في صلاة الخوف كلها أحاديث جياد صحاح،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ٢٧٥).

وهي تختلف، فأقول: إن ذلك كله جائز لمن فعله، إلا أن حديث سهل بن أبي حثمة أنكى في العذر، فأنا أختاره»[1]، فقد اختار صلاة النبيّ ﷺ في ذات الرّقاع، لأنها أقربها إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ...﴾ الآية. [النساء: ١٠٢].

وكذلك صلاة الكسوف، روي أنّه ركع ركوعًا واحدًا، وروي أنّه ركع ركوعين، وروي ثلاث ركوعات، وروي أربع، وروي خمس وهو أقصاها. وحملوه على أنّ ذلك وقع تكرارًا، تارة اقتصر على ركعة، وتارة ركوعين، إلى خمس، وهذا دليل على الجواز، وكأنّه لاحظ طول الوقت، فإذا تحرى أنّه سيطول ويتمادى الكسوف أطال وأكثر الركوعات. وإن كان الكسوف يسيرًا فإنّه يقتصر على ركوع أو ركوعين، من باب الاجتهاد أو من باب التوسعة.

وقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في أشياء كثيرة، ولكن لم يصل بهم الاختلاف إلى أن يضلّل بعضهم بعضًا، بل كلّ منهم يرى أنّه على صواب، وأنّ

---

(١) انظر: الكافي في فقه ابن حنبل (١/ ٢٠٧)، والإنصاف للمرداوي (٢/ ٣٤٧)، والروض المربع (١/ ٢٨٢)، ورواية سَهْلِ بن أبي حَثْمَةَ: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ صلى بِأَصْحَابِهِ فِي الْخَوْفِ فَصَفَّهُمْ خَلْفَهُ صَفَّيْنِ، فَصَلَّى بِالَّذِينَ يَلُونَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ قام فلم يَزَلْ قَائِمًا حتى صلى الَّذِينَ خَلْفَهُمْ رَكْعَةً، ثُمَّ تَقَدَّمُوا وَتَأَخَّرَ الَّذِينَ كَانُوا قُدَّامَهُمْ فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَةً، ثُمَّ قَعَدَ حتى صلى الَّذِينَ تَخَلَّفُوا رَكْعَةً، ثُمَّ سَلَّمَ». أخرجه البخاري (٤١٣١)، ومسلم واللفظ له (٨٤١).

صاحبه معذور ومجتهد، وكلّ منهم لا يخطِّئ صاحبه.

فنحن نقول: المرجع كتاب الله ينطق بيننا بالحقّ، فنجعله حكمًا، ونترك ما سواه، ولا نتعصّب لقولنا، ونردّ ما خالفنا بأنواع من التكلّفاتِ كما تفعله الجهميّة والجبريّة ونحوهم؛ لأنّ هؤلاء الذين خالفوا الحقّ قد أخبر الله تعالى بأنّهم زائغون فيقول تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٧]. فهؤلاء يتمسّكون بظواهر لا دلالة فيها، ويتّبعون آيات، ويقولون: هي في جانبنا، وهي عليهم لو تأمّلوا، ولكنّهم يأخذون منها جانبًا ويتركون البقيّة، يتركون الآيات الصريحة الدلالة، التي تخالف منهجهم ومعتقدهم، ويسلّطون عليها التأويلات، وكذلك يتركون صريح السنّة وصحيحها، ويردّونها بأنها لا تفيد إلاّ الظنّ، وبأنّها آحاد، فيقعون في ردّ السنّة، وفي ردّ الدليل الواضح وهم لا يشعرون.

نقول: هذا الفعل مستبشع، وهو أخذهم ببعض الآيات وترك جميع الآيات، فهذا سلكه أهل الزيغ، الذين يتّبعون ما تشابه منه، يقول النبيّ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»[1]؛ يعني: فأولئك هم الزائغون. ولا شكّ أنّ زيغ القلوب أشدّ أمراض القلوب، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف: ٥]؛ والزيغ: هو الميل والانحراف،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ففي قلوبهم زيغ عن الحقّ وعن قبوله.

الرافضة يقولون: نحن على الحق، ويتمسّكون بحديث: «وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ من أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تدرى ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كما قال الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٧، ١١٨]، قال: فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لم يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ على أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ»[1]. يستدلّون بهذا الحديث على أنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كلّهم مرتدّون، وأنّهم لم يبق منهم أحد على الحق، إلا عليّ ﷺ وذرّيته، ويستدلّون على أفضليّته بحديث: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[2]، وبحديث: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَإِنَّ عليّ مَوْلَاهُ، اللهمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»[3]، ويتركون الأحاديث الصريحة الصحيحة التي هي في فضل الصحابة، ويتركون أيضًا الآيات الواضحة التي تنصّ على فضائلهم وعلى مدائحهم رضوان الله عليهم، فيتركون الصحيح الواضح، ويتمسّكون بأشياء لا دلالة فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٦٩).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٥٧٠).

فلو قلنا لهم هذا الحديث: يختصّ بأهل الردّة الذين ماتوا وهم مرتدّون بعد النبيّ ﷺ، وقاتلهم أبو بكر ﷺ، وقاتلهم عليّ والخلفاء، رضي الله عنهم، أمّا هؤلاء الخلفاء فلم يغيّروا بعد موته، بل تمسّكوا بسنّته غاية التمسّك. وأمّا حديث: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى»، فالمراد القرابة والأخوّة، لا أنّه يفضّل بهذا على غيره.

والخوارج الذين يكفّرون بالسيّئات، ويخرجون العاصي والمذنب من الإسلام، ويدخلونه في الكفر، ويستحلّون دمه، ويخلّدونه في النّار إذا مات على ذلك، يتشبّثون ببعض الآيات في تخليد العصاة في النّار؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، فينكرون الشفاعة، وينكرون خروج العصاة من النّار، ويغفلون الآيات التي فيها مغفرة الله وسعة رحمته، وسعة فضله. ويتركون الآيات الصريحة؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ومثل أحاديث الشفاعة التي تعمّ كل من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه.

فنقول لهم: إنّ تلك الآيات خاصّة بالكفار الذين كتب عليهم الخلود؛ وذلك لأنّ في أوّلها ذكر الشرك والخلود في النّار. إذًا لا دلالة لكم فيما تمسّكتم به من العمومات، بل الأدلّة واضحة في أنّكم خارجون وزائغون عن الحقّ والصواب.

كذلك المرجئة الذين يتمسّكون بأنّ المعاصي لا تضرّ، ويستدلّون بآيات الوعد، ويتركون آيات الوعيد، ويستدلّون بقوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ويقولون: إنّ الشرك يحبط الأعمال، فإذًا الإيمان يمحو السيّئات، فلا يضرّ مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل.

ونقول لهم: هذا قياس فاسد؛ لأنّ الله توعّد العصاة بأنواع من الوعيد، وجعل هذا الوعيد حقًّا بأنّهم يعذّبون في النّار على قدر ذنوبهم، فنحمل على ذلك الآيات التي تمسّك بها الوعيديّة.

وعلى كلّ حال، فإذا أردنا أن نجمع المعتزلة والمرجئة والخوارج والكرّاميّة والكلابيّة والخطّابيّة والرافضة والإماميّة والزيديّة، فلا بدّ أنّهم إذا تُليت عليهم الأدلّة الواضحة لم يستطيعوا أن ينفصلوا عنها.

وكذلك نقول للمخالفين في هذا العصر: لا شكّ أنّ خلافاتكم هذه صريحة في مخالفة الحقّ والصواب، إذا رجعتم إلى الحقّ والصواب وجدتم أنّها تقدح في معتقدكم، وأنّ الأدلّة تردّ أقوالكم وتنصّ على خلاف ما تقولونه، وتنصّ أنّكم متى فضّلتم رأيًا أو نظرًا، فقد أبطلتم الأدلّة وعدلتم عن السنّة، وفضلّتم اتّباع الأهواء والشهوات، وملتم إلى الهوى والشهوات، وإلى ما تمليه عليكم نفوسكم، فأصبحتم بذلك مخالفين لدينكم الذي تنتمون إليه وهو الإسلام، وأصبحتم بذلك مخالفين لإجماع الأمّة فيما سبق، وأنّ المرجع إلى كتاب الله.

ولكن هؤلاء الذين خالفوا في هذه الأزمنة، وهؤلاء الذين تمذهبوا بهذه

المذاهب الجديدة، في الغالب أن انتماءهم إلى الإسلام انتماء لا حقيقة له، وإلا لو نظرنا في مناهجهم التي يسلكونها لوجدناها تخالف الإسلام مخالفة كليّة. وهذا ما يتعلّق بهذا النوع من الاختلاف، وهو اختلاف التضادّ الذي فيه كلّ أحد من المختلفين يبدّع الآخر ويضلّله، وهو مثل الاختلاف الذي وقع بين اليهود والنصارى، وقد حكى الله عنهم ذلك: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، فكذلك هؤلاء المختلفون. فالخوارج يقولون: ليس الجبريّة على شيء، وكذا يقول المجبرة، والأشاعرة يقولون: ليست المعتزلة على شيء، وكذا يقول المعتزلة. وأهل السنّة مع الرافضة كلّ منهم يقول للآخر: لستم على شيء، وكذلك الفرق التي حدثت في هذه الأزمنة، وجعلت الحقّ في جانبها، كلّ منها تفضّل نفسها على الأخرى، وتقدح فيما يتمسّك به الآخرون.

ولكن المرجع واحد، فإذا رجعنا إلى الأصل ـ الذي هو الشريعة الإسلامية وتركنا ما سواه ـ عرفنا: أنّ الحقّ واحد لا يتعدّد، فحينئذ نقول: ليس لمن خالفه عذر، بل هو ملوم وليس بمصيب، خلافًا للمعتزلة، الذين جعلوا الاجتهاد يتعدّد والحقّ في جانب كلّ من المجتهدين، وقالوا: إنّ كلّ مجتهد مصيب.

ونحن نقول: الاجتهاد له حدود. والنبيّ ﷺ قال: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وإذا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[1]، فأخبر ﷺ أن

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٦٨).

المجتهد المصيب له أجران، والمجتهد معذور إذا أخطأ، وله أجر على اجتهاده وخطؤه معفوّ عنه، ويكون هذا إذا كان الاجتهاد له مجال، أمّا الذين قامت عليهم الحجّة، وأقيم عليهم العذر، فهؤلاء لا يعذرون بخطئهم، ولو ادّعوا أنّهم مجتهدون، وقد نعذر الأوّلين الذين لم تبلغهم الأدلّة كما هي، ولا نعذر المتأخّرين الذين بلغتهم الأدلّة والنصوص، وقامت عليهم الحجّة خير قيام. هؤلاء لا نعذرهم بل نخطئهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ، فَالْأَمْرُ فِيهِمْ ظَاهِرٌ. وَمَنْ جَعَلَ اللهُ لَهُ هِدَايَةً وَنُورًا رَأَى مِنْ هَذَا مَا يُبَيِّنُ لَهُ مَنْفَعَةَ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ النَّهْيِ عَنْ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُلُوبُ الصَّحِيحَةُ تُنْكِرُ هَذَا، لَكِنْ نُورٌ عَلَى نُورٍ.

وَالِاخْتِلَافُ الْأَوَّلُ الَّذِي هُوَ اخْتِلَافُ التَّنَوُّعِ، الذَّمُّ فِيهِ وَاقِعٌ عَلَى مَنْ بَغَى عَلَى الْآخَرِ فِيهِ. وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى حَمْدِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، إِذَا لَمْ يَحْصُلْ بَغْيٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٥]. وَقَدْ كَانُوا اخْتَلَفُوا فِي قَطْعِ الْأَشْجَارِ، فَقَطَعَ قَوْمٌ، وَتَرَكَ آخَرُونَ.

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٨، ٧٩]، فَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالْفَهْمِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمَا بِالْحُكْمِ وَالْعِلْمِ.

وَكَمَا فِي إِقْرَارِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ لِمَنْ صَلَّى الْعَصْرَ فِي وَقْتِهَا، وَلِمَنْ أَخَّرَهَا إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ[1].

---

(١) يشير الشارح إلى حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال النبي ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْأَحْزَابِ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ». أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[1].

وَالِاخْتِلَافُ الثَّانِي، هُوَ مَا حُمِدَ فِيهِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَذُمَّتِ الْأُخْرَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾[البقرة: ٢٥٣].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩] الْآيَاتِ.

وَأَكْثَرُ الِاخْتِلَافِ - الَّذِي يَؤُولُ إِلَى الْأَهْوَاءِ بَيْنَ الْأُمَّةِ - مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَكَذَلِكَ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَاسْتِبَاحَةِ الْأَمْوَالِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ؛ لِأَنَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ لَا تَعْتَرِفُ لِلْأُخْرَى بِمَا مَعَهَا مِنَ الحَقِّ، وَلَا تُنْصِفُهَا، بَلْ تَزِيدُ عَلَى مَا مَعَ نَفْسِهَا مِنَ الحَقِّ زِيَادَاتٍ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْأُخْرَى كَذَلِكَ. وَلِذَلِكَ جَعَلَ الله مَصْدَرَهُ الْبَغْيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[البقرة:٢١٣]؛ لِأَنَّ الْبَغْيَ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ، وَذُكِرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ مَا خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2]، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٧١).

(٢) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

فَأَمَرَهُمْ بِالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِ، مُعَلِّلًا بِأَنَّ سَبَبَ هَلَاكِ الْأَوَّلِينَ إِنَّمَا كَانَ كَثْرَةَ السُّؤَالِ ثُمَّ الِاخْتِلَافَ عَلَى الرُّسُلِ بِالْمَعْصِيَةِ.

ثُمَّ الِاخْتِلَافُ فِي الْكِتَابِ، مِنَ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِهِ عَلَى نَوْعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: اخْتِلَافٌ فِي تَنْزِيلِهِ.

وَالثَّانِي: اخْتِلَافٌ فِي تَأْوِيلِهِ. وَكِلَاهُمَا فِيهِ إِيمَانٌ بِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ.

فَالْأَوَّلُ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي تَكَلُّمِ اللهِ بِالْقُرْآنِ وَتَنْزِيلِهِ، فَطَائِفَةٌ قَالَتْ: هَذَا الْكَلَامُ حَصَلَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ لَكَوْنِهِ مَخْلُوقًا فِي غَيْرِهِ لَمْ يَقُمْ بِهِ.

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ: بَلْ هُوَ صِفَةٌ لَهُ قَائِمٌ بِذَاتِهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، لَكِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَكُلٌّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ جَمَعَتْ فِي كَلَامِهَا بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَآمَنَتْ بِبَعْضِ الْحَقِّ، وَكَذَّبَتْ بِمَا تَقُولُهُ الْأُخْرَى مِنَ الْحَقِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ.

وَأَمَّا الِاخْتِلَافُ فِي تَأْوِيلِهِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِبَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ، فَكَثِيرٌ كَمَا فِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، هَذَا يَنْزِعُ بِآيَةٍ وَهَذَا يَنْزِعُ بِآيَةٍ، فَكَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، فَقَالَ: «أَبِهَذَا أُرْسِلْتُمْ؟ أَمْ بِهَذَا وُكِّلْتُمْ؟ أَنْ تَضْرِبُوا

كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ انْظُرُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَاتَّبِعُوهُ، وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[1].

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَا قَوْمُ بِهَذَا ضَلَّتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِمِ الْكِتَابَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِتَضْرِبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَلَكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا تَشَابَهَ فَآمِنُوا بِهِ»[2].

وَفِي رِوَايَةٍ: «فَإِنَّ الْأُمَمَ قَبْلَكُمْ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى اخْتَلَفُوا، وَإِنَّ الْمِرَاءَ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ»[3]. وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، مُخَرَّجٌ فِي الْمَسَانِدِ وَالسُّنَنِ.

وَقَدْ رَوَى أَصْلَ الْحَدِيثِ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»[4]، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ رَبَاحٍ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو قَالَ: هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَوْمًا، فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ».

وَجَمِيعُ أَهْلِ الْبِدَعِ مُخْتَلِفُونَ فِي تَأْوِيلِهِ، مُؤْمِنُونَ بِبَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ، يُقِرُّونَ بِمَا يُوَافِقُ رَأْيَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ، وَمَا يُخَالِفُهُ: إِمَّا أَنْ يَتَأَوَّلُوهُ تَأْوِيلًا يُحَرِّفُونَ فِيهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا: هَذَا مُتَشَابِهٌ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ، فَيَجْحَدُونَ مَا أَنْزَلَهُ الله مِنْ مَعَانِيهِ، وَهُوَ فِي مَعْنَى الْكُفْرِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّفْظِ بِلَا مَعْنًى هُوَ مِنْ جِنْسِ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١) باختلاف يسير في جملته الأخيرة، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ١٠٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٤٢)، والآجري في الشريعة (١/ ٤٦٩).

(٤) برقم (٢٦٦٦).

إِيمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجمعة:٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨]، أَيْ: إِلَّا تِلَاوَةً مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ مَعْنَاهُ. وَلَيْسَ هَذَا كَالْمُؤْمِنِ الَّذِي فَهِمَ مَا فَهِمَ مِنَ الْقُرْآنِ فَعَمِلَ بِهِ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ بَعْضُهُ فَوَكَلَ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ، كَمَا أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»(١)، فَامْتَثَلَ مَا أَمَرَ بِهِ ﷺ.

---

قال الشيخ:

في هذا الكلام يبيّن ما ذكرنا من أنّ الاختلاف مذموم، وما ذاك إلاّ أنّه يسبّب الوحشة والعداوة والبغضاء بين المسلمين، ويوقع الفرقة المعنويّة، بحيث تكون كلّ فرقة وكلّ حزب ينتصر لنحلته ومذهبه ومعتقده، ويضلّل الآخر فلا يكون المسلمون جميعًا، بل يكونون فرقًا وأحزابًا، وأمّا الاختلاف الذي هو واقعيّ، ولا يصل إلى حدّ الذمّ والتضليل، فهذا اختلاف في الفروع ويسمّى اختلاف تنوّع، وليس اختلاف تضادّ.

من طبيعة المجتهدين أنّ المجتهد يصيب تارة ويخطئ تارة، والمخطئ قد يتصوّر أنّ الحقّ معه، والخطأ مع الآخر، فيستمرّ على رأيه الذي يظنّه صوابًا،

---

(١) جزء من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢/ ١٨١).

وهو معذور والحال هذه.

تقدّم ما ذكره الشارح من الاختلاف بين الصحابة في عهد النبيّ ﷺ وأقرّهم الله تعالى ورسوله ﷺ؛ ففي غزوة بني النضير حين حاصرهم الصحابة، وكان لهم نخل، فجعل بعض الصحابة يقطعون النخل ليكون غيظًا للكفّار، وبعض الصحابة يقول: لا تقطعوه، فإنّه يرجع غنيمة للمسلمين، وكلّ مجتهد، وقد أقرّ الله هؤلاء وهؤلاء، فقال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]، وكذلك الاختلاف الذي حصل في غزوة بني قريظة، لمّا نقضوا العهد، قال النبي ﷺ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»[1]، وهم بمكان بعيد. فبعض الصحابة صلى في الطريق، وقالوا: إنّما أراد منّا الإسراع! وبعضهم لم يصلِّ وقال: نمتثل أمر رسول الله ﷺ ولو فات وقت الصلاة. حتّى وصلوا بين قريظة بعد غروب الشمس. فأقرّ هؤلاء وهؤلاء، ولم يخطِّئ أحدًا منهم لاجتهادهم.

وهكذا ـ مثلا ـ الاختلاف الذي وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم ولكن اجتمعوا بعد ذلك، لما توفي النبيّ ﷺ، فبعضهم أنكر موته وقال: إنّما هو إغماء. وبعضهم قال: لقد مات. لكنّهم اجتمعوا عندما سمعوا أبا بكر الصديق ﷺ يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

(١) تقدم تخريجه (ص: ٢٥٠).

﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[آل عمران: ١٤٤].

وكذلك لما ارتدّ المرتدّون من الأعراب، قال بعضهم: سوف نقاتلهم، وقال بعضهم: إنّهم يقرّون بالشهادة وإنّما منعوا الزّكاة. فاختلفوا، ثمّ اجتمعوا بعد ذلك على قتالهم، فقال عمر ﷺ: «فَمَا هُوَ إِلا أَنْ رَأَيْتُ أَنَّ الله شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ بِالْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»[1]، فهذا يبيّن أنّهم متى علموا أنّ الحقّ مع أحدهم رجعوا إليه، ولم يتعصّب أحدهم لرأيه ولا لمذهبه. وهذا هو الصحيح، أن يرجع الإنسان إلى الحقّ متى عرفه، فإنّ الحقّ قديم كما قال عمر ﷺ، والرجوع إلى الحقّ خير من التمادي في الباطل.

ومن هذا الاختلاف الذي وقع بين الأئمّة ما وقع بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من خلاف في بعض الفروع؛ فخالف ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في بعض الأمور ولكن لم يضلّله غيره. فروي عنه أنّه خالف حتّى في مسائل فرضيّة: فخالف في حجب الأمّ بأخوين، ورأى أنها لا تُحجب من الثلث إلى السدس إلا بثلاثة إخوة، واحتج بقول الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ﴾[النساء: ١١]، وقال لعثمان ﷺ: «فالأخوان بلسان قومك ليسا بإخوة»[2]. وخالف في العول الذي هو زيادة في الفروض ونقص في الأنصباء، وقال: «الذي أحصى رمل عالج عددًا لم يحص في مال نصفًا ونصفًا

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٧)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٧٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وثلثًا»[١]، والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين عملوا بالعول اتّفقوا على العمل به، ولكن لم يضلّلوه، وقالوا: هذا اجتهاده. وتوقف في تحريم الحمر الأهليّة، وقال: «لَا أَدْرِي أَنَهَى عنه رسول اللَّهِ ﷺ من أَجْلِ أَنَّهُ كان حَمُولَةَ الناس فَكَرِهَ أَنْ تَذْهَبَ حَمُولَتُهُمْ، أو حَرَّمَهُ في يَوْمِ خَيْبَرَ»[٢]، فردّ عليه الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن مع ذلك لم يعادوه ولم يقاطعوه، وقالوا: هذا اجتهاده وللآخرين اجتهاد.

وكذلك وقع خلاف بين الأئمّة الأربعة ـ مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد ـ كما هو معروف في الكتب المؤلّفة، حتى إنّه في المسألة الواحدة قد نجد أربعة أقوال، ولكن بعضهم يصلّي خلف بعض، ولا يضلّل أحدهم الآخر.

فقد وقع الخلاف بين أبي حنيفة ومالك في تقدير الصاع، فقدر أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ الصاع بثمانية أرطال، وقال مالك ـ رحمه الله ـ: الصاع خمسة أرطال وثلث. ومع ذلك كلٌّ منهم يرى أنّ له اجتهاده. وكذلك اختلافهم في الزكاة، وفي مسائل في الحج، وفي علّة الرّبا، لا نضلّلهم في هذا، ولكن نقول: هذا أدى إليه اجتهادهم، وهم في ذلك كلّه بذلوا وسعهم، وعليه فإنهم يدخلون في الحديث المتقدّم: «إذا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وإذا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١٠/ ٢٥٤)، وسعيد بن منصور (١/ ٦١)، والبيهقي (٦/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٢٧)، ومسلم (١٩٣٩).

**أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»**[1]. الذي أصاب لا شكّ أنّه بذل جهدًا وتوسّع في البحث، أو كان أمكن وأقدر ووفّقه الله فأصاب الحق، فله أجر الاجتهاد وأجر الإصابة. وأمّا الذي اجتهد فأخطأ وقد بذل وسعه في البحث، فله أجر الاجتهاد، ويفوته أجر الإصابة، ويعذر إذا أخطأ.

ولكن ليس كلّ أحد يكون أهلاً للاجتهاد، بل إنّما يجتهد في المسائل ويبحث فيها من يكون عنده القدرة على البحث، وعلى الوصول إلى الصواب، وعلى عين المسألة المطلوبة، وأمّا إن كان قاصرًا عن هذا، فلا يليق أن يمكّن من الاجتهاد.

والاختلاف في الفروع معروف ومدوّن في الكتب الفقهيّة، وكلّ يأخذ ممّا تيسّر منه، فإن وجدت المسألة فيها خلاف، فإنّك تنظر أي الأقوال أقرب إلى الصواب، وأيّها أمكن في نفسك، فتأخذ به، ولا تأخذ بمجرّد الميل، ولا بمجرّد هوى النّفس، بل ترجع إلى ما هو الصواب، وبذلك تكون موفّقًا.

أشار الشارح إلى نوعين من الاختلاف: اختلاف التنوّع، وذلك في الفروع التي يدخل فيها الاجتهاد. أمّا اختلاف التضادّ، فهو الذي يحدث عن هوى؛ لأنّ المبتدع متى هوي نحلة ومال إليها، فإنّه يصرّ على تلك النحلة ويخالف الأدلّة.

من أسباب اختلاف التضادّ: تقليد الآباء؛ لأنّ كثيرًا من النّاس يتّضح له الحقّ، ويعرف الجواب الصحيح ويخالفه، لماذا؟ لأنّ آباءه وأسلافه ليسوا على هذا المسلك. وإذا خالفه هجروه، وقالوا: تترك معتقد آبائك وأسلافك. وهذه سنّة

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٦٨).

المشركين التي ذكرها الله في القرآن، وقال بأنّهم يعرفون الحقّ ويتركونه، ويعرفون الباطل باطلاً ويرتكبونه! لماذا؟ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات:٦٩، ٧٠]، يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]. وكذلك بقيّة المبتدعة، يتمسّكون بما عليه أسلافهم ولو عرفوا الحقّ.

فمثلاً الرافضة: كانوا قديمًا لا يقرؤون كتب السنّة؛ وذلك لأنّها لم تشتهر ولم تنتشر، وإنّما يقرؤون كتب أئمّتهم، فكثير من عوامّهم وكثير ممّن يريد الحقّ لم يصل إليه ما يبيّن الطريق الحقّ، فبقوا على ضلالهم. ولكن في هذه الأزمنة طبعت الكتب ونُشرت؛ مثل كتب السنن والمسانيد والصحيح، ومن أرادها قدر عليها، وعرف منها الحقّ.

هنا بعض الشباب من الرافضة الذين تبيّن لهم الحقّ، ولكن لما اهتدوا وخالفوا طرق الرافضة، ماذا فعل أهلوهم؟ أنكروا عليهم وقالوا: أتتركون عقيدة آبائكم وأسلافكم، وضايقوهم، وأضرّوهم، حتّى إنّ واحدًا منهم تمسّكت زوجته بمذهبها، وقالت: لا يمكن أن تكون أهدى من أبي وأبيك، وأهدى من أسلافنا واستمرّت على طريقة آبائها، وهجرته هي وأهلها ومقتوه وطردوه.

وهناك شابّة أيضًا في القطيف، لما سمعت ودرست وأصغت إلى الإذاعة، واقتنت شيئًا من الكتب، واحتكّت بأهل السنّة، عرفت أنّ طريقة الشيعة بعيدة عن الصواب، فاتّبعت الحق وتمسّكت به، ولقيت من الأذى والحبس والضرب

والطرد، ولكنّها صبرت على ذلك كلّه.

نقول: لا شكّ في الذين يقلّدون الآباء والأجداد وهم على ضلال، أنهم ضالّون. العاقل يختار الحقّ والصواب، ولو خالفه من خالفه؛ لأنّه لا يهمّه إلا نفسه في الدار الآخرة، ففيها يفرّ منه أهلوه، ولا ينفع بعضهم بعضًا، فكيف يقدّم أحدهم الباطل تقليدًا للآباء والأجداد.

فإذًا من أسباب الاختلاف اتّباع الهوى، وتقليد الآباء والأجداد. فقد يعرف الحقّ ويتمسّك بالباطل، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]. فإذا كان الحقّ واضحًا؛ فالحقّ أحقّ أن يتّبع.

فإذن اختلاف التضادّ سبب التفرّق بين المسلمين، وسبب ضياعًا للحقوق، وسبّب تعصّبًا وأيّ تعصّب؛ فكلّ طائفة تعرف الحقّ وتتعصّب للباطل. ولو قرأنا مثلاً كتب المعتزلة لوجدنا فيها الكثير من التعصّب والتشدّد والتكلّف في صرف الأدلّة. ولو قرأنا كتب الخوارج أو الإباضيّة الموجود في عُمان؛ لعرفنا أنّهم يعرفون الحقّ ثمّ ينكرونه. وكذلك إذا قرأنا الكتابات التي يكتبها هؤلاء المخالفون من الفرق الذين تفرّقوا في هذه الأزمنة... وما أكثرهم كالبعثيّين وهم جميعًا لا شكّ أنّهم اتّضح لهم الحقّ، وتبيّن لهم، ولكن لما لم تكن أهواؤهم منقادة نحو الحقّ ونحو العمل به، تمسّكوا بالباطل وتشبّثوا به، وقدّموا الباطل على الحقّ، فكان هذا سببًا في أن كثرت الفرق وتفرّقت الأمّة، وصار بعضهم يضلّل بعضًا، ويخالف بعضهم بعضًا، ويتبرّأ بعضهم من بعض.

ومن الفرق ما يصل إلى حدّ الكفر، كفرقة المعطلة، وغلاة الجهميّة، فقد أخرجهم كثير من علماء الأمّة من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: ليسوا من فرق الأمّة. وكفرقة الفلاسفة والباطنيّة، وفي هذه الأزمنة فرقة الدروز الموجودين في سوريا وفي لبنان. ذكر لنا بعض المشايخ أنّهم عثروا على واحد منهم في الرّياض وهو سكران، فجاءوا به ليعاقبوه، ولكن شهد عليه أناس أنّه لا يصلّي، فقال: أنا لا أصلّي. فقالوا: مكتوب في جوازك وإقامتك أنّك مسلم، فلماذا لا تصلّي؟ فقال: ليس في ديننا صلاة، فبحثوا عنه، فإذا هو درزي. الدروز يكتبون في الهويّات أنّهم مسلمون، أين الإسلام؟ بل الكثير الذين اهتدوا منهم قاطعوهم، قاطعوا أولادهم وبناتهم وتبرؤوا منهم، وكانوا يخفون كتبهم التي فيها معتقداتهم، ولكنّها تسرّبت في هذه الأزمنة، فلم يستطيعوا إخفاءها، وافتضحوا، وظهرت بذلك عقائدهم المشينة، فتبيَّن أنهم ليسوا من الأمة الإسلامية.

وكذلك فرقة النصيريّة، موجودون في سوريا وغيرها. قديمًا كتب عنهم العلماء كابن تيميّة رحمه الله، له فيهم رسالة، مطبوعة مفردة، ومطبوعة مع مجموع الفتاوى، تضح فيها عقائدهم السيئة، إذا نظرنا في عقائدهم قلنا: هؤلاء أكفر من اليهود والنّصارى؛ لبعدهم عن الإسلام. ومع ذلك يُكتب هناك في هويّاتهم أنّهم مسلمون، وليس معهم إلا مجرّد الاسم.

وهكذا غلاة الرافضة الذين يكفّرون أجلاء الصحابة، ويطعنون في القرآن، لا شكّ أنّهم يصلون إلى مرتبة الكفر، فإنهم إن كانوا لا يعملون بالكتاب والسنّة، فماذا بقي لهم؟! فهذه فرق خرجت من ملّة الإسلام.

أمّا بقيّة الفرق، فيمكن أن تكون من المسلمين الذين يعمُّهم اسم المسلمين؛ لأنّهم يصلّون، ويدينون بالإسلام، ولكن بدعتهم مضلّلة ولكن لا توصلهم إلى حدّ الكفر. كالإباضيّة الموجودين في عُمان.

وكذلك كثير من الفرق والأحزاب الموجودون الآن في الدول الإسلاميّة، وقد تصل هذه الأحزاب إلى عشرين أو خمسين حزبًا، كلّ حزب يسجّل أعدادًا هائلة، ويحبّ أن يكون أكثر من الآخر، إذا نظرنا في هذه الأحزاب ـ ويتسمّون بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ـ فمنهم من يكون كافرًا بحتًا كالشيوعيّين، ففي بعض البلاد يكون لهم أحزاب، منهم واحد، ومنهم عدد، ومنهم من يكون معهم شيء من الإسلام، ولكن ليسوا متمسّكين به، ومنهم من هم مسلمون، ولكن معهم شيء من المخالفة، والجميع يعمّهم أنّهم أحزاب ومختلفون.

هناك أحزاب في الدول الإسلاميّة يتسمّون بأسماء ظاهرها أنّها حسن، ودعاياتهم أو أعمالهم فيها ما هو خطأ وفيها ما هو صواب.

فمثلاً جماعة التبليغ: وهي جماعة نشأت في الهند أو باكستان، وكان هدفهم أن يقوموا بتبليغ الشرع، ولهم طريقتهم في الدعوة، بمعنى أنّهم: يقتصرون على البيان بالفعل، دون أن يوضّحوا أو يدعوا بالقول غالبًا، وأنّهم يأخذون الأفراد، ويتركون الجماعات، يعني: لا يتكلّمون في الخطب ولا في المساجد العامّة، ولا محاضرات ولا غير ذلك، ورأوا أنّ هذه طريقة ناجحة. ولا نعيبهم بطريقتهم، فهم رأوا نجاح ذلك. ولكن دخل معهم فرق من الصوفيّة، ومن القبوريين، فالذين تمسّكوا بالسنّة ويعملون بها لا نعيبهم، والذين يصلون إلى بغض

التوحيد، بحيث إنّهم لا يقرؤون في كتب العقيدة، ويعيبون من يقرأ فيها، وبحيث يبايعون بعض رؤسائهم على الطاعة، وإن كان في خلاف الحقّ، وأنّهم إذا كانوا في بلاد غير إسلاميّة، يزورون المشاهد، ويعكفون عند القبور ويتمسّحون بها ويقرّونها! فهذا لا يقرّه الإسلام، وأمّا إذا لم يدخل أحد معهم من أولئك فلا بأس بهم.

وهناك كثير من الطوائف الإسلاميّة في سوريا ومصر والسودان ولهم فروع في المملكة، يتسمّون بأسماء حسنة، ولا نعيبهم؛ لأنهم يهدفون إلى هدف واحد، ويدعون دعاية واحدة، فمنهم من يسمّي نفسه بالسلفيين، ومنهم من يتسمّون بجماعة أنصار السنّة، ومنهم من يسمّون أنفسهم بأهل التوحيد، والأسماء حسنة، والأهداف متقاربة، والدعايات والطرق تختلف، ولا يضرّ هذا الاختلاف، فهؤلاء يفضّلون الاقتصار على التأليف والنّشر، وهؤلاء يفضّلون الرحلات، وهؤلاء يفضّلون الدعوة عن طريق المساجد والمنابر والمحاضرات، فكلّ ذلك سبيل في الدّعوة ما دام أنّ المنهج سليم، كما أخبرنا كثير منهم، أنّهم يدعون إلى العقيدة، سواء أفرادًا أو جماعات، ويحاربون البدعة ويحاربون الشرك، فكلّهم إن شاء الله لا نتهمهم إلا بخير، ولهم نشاط في كثير من البلاد الإسلاميّة، ويوجدون حتّى في باكستان وغيرها، وفي البلاد البعيدة يضطهدون، ويذلّون؛ لأنّهم يتّهمون كما يتّهمون أيضًا في البلاد العربيّة، بأنّهم وهّابيون، وأنّهم كفار وضلاّل وما أشبه ذلك.

وعلى كل حال جاء الإسلام بأن يجتمع المسلمون، وأن يصيروا يدًا واحدة،

ولا يتفرّقوا، فإنّهم إذا اجتمعت كلمتهم يقوون على مقاومة أعدائهم، وتقوى شوكتهم، ويهابهم الأعداء والأضداد، ومتى تفرّقوا ذلّوا وهانوا، كما يريده العدو. فيجب أن نتواصى جميعًا على أن تتوحّد كلمتنا، ومتى وجدنا من يخالف، نحرص على أن نجمع المتخالفين، ونقرّب هذا وهذا، إلى أن يتآلفا، ويصيرا يدًا واحدة. وإذا رأينا من يعيب على بعض الطرق، قلنا له: رويدك! ماذا تعيب عليهم؟ فإذا وجدنا أنّ ذلك العيب الذي يعيبه، لا يبلغ أن يهجروا لأجله، قلنا له: لا ينبغي لك أن تهجر إخوتك المسلمين، وتعيب إخوانك ومشايخك، ولا أن تسيء الظنّ بهم بمجرّد هذا الفعل الذي لا يبلغ أن يكون ذنبًا، فهو إمّا اجتهاد، أو قول مسبوق قد قاله من قاله من العلماء المتقدّمين، فكيف تضلّل بقول هو محلّ اجتهاد؟

وما يقع بين المسلمين في هذه البلاد وفي غيرها من هذا الاختلاف الذي سبّب سوء ظن بكثير من المشايخ، واتّهموا بأنّهم يحاولون الخروج، وبأنّهم ضلاّل، وبأنّهم شرّ على الأمّة من كذا وكذا، لا شكّ أنّ هذا أيضًا من وساوس الشيطان وكيد الأعداء الذين يريدون أن يفرّقوا بين المسلمين. فشباب المسلمين، وشباب الصحوة الذين أقبلو على ربّهم، يجب أن يجتمعوا، ويجب ألا يخطئ بعضهم بعضًا إلا في الشيء الذي يكون خطؤه واضحًا، ويعذروا من وجد منه النقص والتقصير، ولا يشدّدوا ولا يتّهموا إخوتهم أو علماءهم بمداهنة أو نقص أو تعمّد خطأ أو نحو ذلك، بل يعذروهم ويقبلوا عذرهم، وبذلك تجتمع كلمة المسلمين إن شاء الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

وَدِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَاحِدٌ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]. وَهُوَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ، وَبَيْنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ، وَبَيْنَ الْأَمْنِ وَالْإِيَاسِ.

---

قال الشارح:

ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ»(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. عَامٌّ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَلَكِنَّ الشَّرَائِعَ تَتَنَوَّعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة: ٤٨].

فَدِينُ الْإِسْلَامِ: هُوَ مَا شَرَعَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَأُصُولُ هَذَا الدِّينِ وَفُرُوعُهُ مَوْرُوثَةٌ عَنِ الرُّسُلِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ غَايَةَ الظُّهُورِ، يُمْكِنُ كُلَّ مُمَيِّزٍ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وَفَصِيحٍ وَأَعْجَمِيٍّ، وَذَكِيٍّ وَبَلِيدٍ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ بِأَقْصَرِ زَمَانٍ، وَإِنَّهُ يَقَعُ الْخُرُوجُ مِنْهُ بِأَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ، مِنْ إِنْكَارِ كَلِمَةٍ، أَوْ تَكْذِيبٍ، أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) بنحو هذا اللفظ.

مُعَارَضَةٍ، أَوْ كَذِبٍ عَلَى اللهِ، أَوِ ارْتِيَابٍ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى، أَوْ رَدٍّ لِمَا أَنْزَلَ، أَوْ شَكٍّ فِيمَا نَفَى اللهُ عَنْهُ الشَّكَّ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِي مَعْنَاهُ.

فَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى ظُهُورِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَسُهُولَةِ تَعَلُّمِهِ، وَأَنَّهُ يَتَعَلَّمُهُ الْوَافِدُ ثُمَّ يُوَلِّي فِي وَقْتِهِ.

وَاخْتِلَافُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ بِحَسَبِ مَنْ يَتَعَلَّمُ، فَإِنْ كَانَ بَعِيدَ الْوَطَنِ، كَضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ[1]، والنَّجْدِيِّ[2]، وَوَفْدِ عَبْدِالْقَيْسِ[3]، عَلَّمَهُمْ مَا لَا يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ دِينَهُ سَيَنْتَشِرُ فِي الْآفَاقِ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ مَنْ يُفَقِّهُهُمْ فِي سَائِرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ قَرِيبَ الْوَطَنِ يُمْكِنُهُ الْإِتْيَانُ كُلَّ وَقْتٍ، بِحَيْثُ يَتَعَلَّمُ عَلَى التَّدْرِيجِ، أَوْ كَانَ قَدْ عَلِمَ فِيهِ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ، أَجَابَهُ بِحَسَبِ حَالِهِ وَحَاجَتِهِ عَلَى مَا تَدُلُّ قَرِينَةُ حَالِ السَّائِلِ، كَقَوْلِهِ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»[4].

وَأَمَّا مَنْ شَرَّعَ دِينًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ أُصُولَهُ الْمُسْتَلْزِمَةَ لَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَنْقُولَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ هُوَ بَاطِلٌ، وَمَلْزُومُ الْبَاطِلِ بَاطِلٌ، كَمَا أَنَّ لَازِمَ الْحَقِّ حَقٌّ.

---

(١) كما في حديث أنس بن مالك ﷺ الذي أخرجه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢).

(٢) كما في حديث طلحة بن عبيدالله ﷺ الذي البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

(٣) كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - الذي أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

(٤) أخرجه مسلم (٣٨) من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي ﷺ.

قال الشيخ:

تطرّق الماتن والشارح ـ رحمهما الله ـ إلى وحدة الإسلام، الذي هو دين الله، الذي رضيه لنفسه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]؛ وردّ ما سواه من الأديان، فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران: ٨٥]. وأنّ أصل هذا الدين واحد، عليه جميع الأنبياء. الوحدانيّة اتّفق عليها رسل الله، اتّفقوا كلّهم على التوحيد، فكلّ منهم يبدأ دعوته فيقول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فالتوحيد هو دين جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، أي: كلّ الرسل أُوحيت إليهم هذه الكلمة، أمروا بها وبلّغوها إلى قومهم، وإن كانت الشرائع متنوّعة، كما حكى الله عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنّه قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[آل عمران: ٥٠]؛ فأحلّ لهم أشياء كانت محرّمة عليهم في شريعة الأنبياء قبله. وكذلك حكى الله عن نبيّنا ﷺ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي: أنّهم قبل بعثة محمد ﷺ كان عليهم آصار، يعني: أثقالًا وتكاليف، وأغلالًا من الأوامر والنّواهي،

وتشديدات، وأنّ تلك الآصار والأغلال وضعت، ثمّ خُفّف عنهم في هذه الشريعة التي هي خاتمة الشرائع.

بعد ذلك ذكر أنّ دين الإسلام دين سهل، تعاليمه يسيرة سهلة، قريبة التّناول. كان النبيّ ﷺ يعلّمه أصحابه في لحظات وفي أوقات يسيرة، فيخرج أحدهم معلّمًا ومبلّغًا. في وفد بني عبد القيس علّمهم أركان الإسلام، وعلّمهم أمّهات المحرّمات، ولكنّهم فهموا بلغتهم، وبسليقتهم وفطرتهم، فهموا بقيّة الشريعة، فعلّمهم الشهادتين، وعرفوا معناهما، وما تستدعيه كلّ واحدة منهما. بمجرّد ما قالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ عرفوا معنى لا إله إلا الله، فلم يعبدوا غيره، وعرفوا معنى محمد رسول الله، فأطاعوه ولم يعصوه.

وأمّا الصلاة؛ فإنّهم صلّوا معه يومًا أو يومين، ففهموها وعرفوها، وكذلك الزكاة؛ بعث إليهم من يعلّمهم في بلادهم ويأخذ منهم الزكاة المفروضة، وكذلك الصوم والحجّ بمجرّد ما أخبرهم فهموا ذلك، وكذلك المحرّمات، فالجلسة والجلستان في تلك الحلقات العلميّة يصبح بها أحدهم عالمًا، بينما يبقى أحدنا في هذه الأزمنة عشرين سنة ومع ذلك لا يأتي على جميع العلوم؛ لقصر الأفهام ولتغير الألسن، وتغير الاستعمالات، وتغيّر اللغات، ولأُلف هذه اللهجات المحدثة البعيدة عن الأصل، فيتعلّم في البداية الكلمات، ويتعلّم معانيها، ثم بعد ذلك يتعلّم مدلولات واصطلاحات العلوم الشرعيّة.

ذكر الشارح أنّ النبيّ ﷺ يعلّم كلاً بما هو أهمّ عنده، ولأجل ذلك اختلفت أجوبته! يُسأل سؤالًا واحدًا ويجيب بعدّة أجوبة، فسئل - مثلًا - .. ل له: «قُلْ لي في

الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عنه أَحَدًا بَعْدَكَ»، فقال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»[١]، وسُئل: أَيُّ الإِسْلامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[٢]، وسئل: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[٣]؛ وذلك لأنّه يخاطب كلاً بما يرى أنّه مستحقّ عليه، وبأنّه أهمّ له، وأولى بأن يهتمّ به، ويتأثّر به أفضل من غيره. فالمؤدى في الجميع واحد؛ لأنّها تعد من خصال الإسلام ومن خصال الإيمان.

وعلى كلّ حال، فالمسلمون يدينون بهذا الدين، ويعتقدون هذه الشريعة، ويتّبعونها، ويعرفون أنّها ليس فيها تعقيد، ولا صعوبات، لا في علومها، ولا في أعمالها.

فالعلوم سهلة ويسيرة، ولكنّها تحتاج إلى تعقّل، فقد يقول القائل: إنّني بذلت وتعلّمت، ولكنّي لم أصر عالمًا! نقول: لأنّك:

أولاً: لم تقبل إليها بكلّيّتك، بخلاف الصحابة رضي الله عنهم، فإنّ كل واحد منهم يقبل عليها بكلّيّته وبقلبه وقالبه، فيتعلّمها في يوم أو في يومين أو عشرين يومًا، كما ذُكر في حديث مالك بن الحويرث ﷺ.

وثانيًا: لم تطبّق ما تعلمته مباشرة؛ وذلك لأنّ الإنسان الذي يسمع الكلمات

---

(١) تقدم تخريجه (٥/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١)، ومسلم (٤٠) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

ولا يطّبقها في حينه تذهب من ذاكرته، فينساها بعد مضيّ شهر أو سنة أو نحو ذلك. بخلاف من إذا أراد التعلّم تفرّغ له، وفرّغ له قلبه، وكلّما تعلّم شيئًا كرّره وعمل به، فإنّه يمكن أن ينال العلم ويكون عالمًا في وقت قصير.

معلوم أيضًا أنّ العلوم كثيرة، ولكن يبدأ فيها بما هو الأهمّ، فالإسلام يعمّ الأعمال التي فعلها من الدين، والأعمال التي تركها من الدّين، والمباحات ونحوها، كلّها داخلة في مسمّى الإسلام، ومعرفتها يسيرة. والحمد لله أنّ المسلمين الذين خرجوا فينا بين أهلينا، ومن آباء وعلماء ومشايخ يدينون بالإسلام وبالعقيدة السلفيّة، ولا يخفى عليهم شيء من تعاليم هذا الدين.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:٨٧، ٨٨].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ رَسُولِ الله ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا؟! لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفِي غَيْرِ الصَّحِيحَيْنِ: «سَأَلُوا عَنْ عِبَادَتِهِ فِي السِّرِّ، فَكَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا»(٢).

وَذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ عُثْمَانَ ابْنَ مَظْعُونٍ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنَ مَسْعُودٍ، وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ، وَسَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ـ رضي الله عنهم فِي أَصْحَابِهِ ـ تَبَتَّلُوا، فَجَلَسُوا فِي الْبُيُوتِ،

---

(١) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥٩) دون قوله: «فَكَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا»، وإنما ورد ذلك اللفظ في رواية البخاري (٥٠٦٣).

وَاعْتَزَلُوا النِّسَاءَ، وَلَبِسُوا الْمُسُوحَ، وَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ، إِلَّا مَا يَأْكُلُ وَيَلْبَسُ أَهْلُ السِّيَاحَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَمُّوا بِالِاخْتِصَاءِ، وَأَجْمَعُوا لِقِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

يَقُولُ: لَا تَسِيرُوا بِغَيْرِ سُنَّةِ الْمُسْلِمِينَ، يُرِيدُ مَا حَرَّمُوا مِنَ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ، وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، وَمَا هَمُّوا بِهِ مِنَ الِاخْتِصَاءِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ فِيهِمْ، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «إِنَّ لِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَعْيُنِكُمْ حَقًّا، صُومُوا وَأَفْطِرُوا، وَصَلُّوا وَنَامُوا، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سُنَّتَنَا»، فَقَالُوا: اللهمَّ سَلَّمْنَا وَاتَّبَعْنَا مَا أَنْزَلْتَ[1].

وَقَوْلُهُ: (وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ)، تَقَدَّمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يُوصَفَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ، فَلَا يُقَالُ: سَمْعٌ كَسَمْعِنَا، وَلَا بَصَرٌ كَبَصَرِنَا، وَنَحْوُهُ، وَمِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ، فَلَا يُنْفَى عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهِ: رَسُولُهُ ﷺ، فَإِنَّ ذَلِكَ تَعْطِيلٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

وَنَظِيرُ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ).

وَهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٥١٩) عن عكرمة مولى ابن عباس مرسلًا، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٩)، وقال: «وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة».

[الشورى:١١]. فَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رَدٌّ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ.

---

قال الشيخ:

هذا في بيان أنّ الحقّ وسط بين طرفين، وأنّ أهل السنّة وسط بين فرق الأمّة، وأنّ الأمّة وسط بين الأمم. والكلام على وسطيّة أهل السنّة ووسطيّة الأمّة طويل ومعروف. فممّا ذكر أنّهم لا يغلُون ولا يقصّرون، بل وسط بين ذلك.

فالغلوّ: هو التشديد على النّفس. كما حصل من الذين أرادوا أن يختصُوا وحرّموا على أنفسهم الطيّبات، وشدّدوا على أنفسهم، ولزموا البيوت، واقتصروا على القليل من الطعام، وعزموا على أن يقوموا جميع الليل، ويصوموا جميع النّهار، ويعتزلوا كل اللذّات والشهوات، ويتشبّهوا بالرّهبانيّة. فهؤلاء غلَوْا.

والذين قصّروا: لا يأتون من الأعمال إلا باسم العمل، فلا يصلّون إلاّ الفريضة، وإذا صلّوها صلَّوْها خفيفة، ولا يصومون إلا الفرض، وربّما يقصّرون في الصيام، أو يأتون بما يفطّر أو يفسد صيامهم، وفي الطهارة يخفّفونها. فالأوّلون متشدّدون يتقعّرون ويشدّدون، والآخرون يخفّفون الطهارة، ويخفّفون في غسل الأعضاء، وربّما لم يسبغوا ولم يبلّغوا، فهؤلاء في طرف، وهؤلاء في طرف. والوسط هو الخير بين الغلو والتقصير، فالغلو مذموم لهذه الآية: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾[النساء:١٧١]. والتقصير أيضًا مذموم؛ لأنّ فيه نقصًا في العمل،

ونقصًا في لزوم ما أمر الله به.

كذلك الغلوّ والتقصير يعمّ جميع الأعمال؛ من عبادات ونحوها، فجميع العبادات يمكن أن يتصوّر فيها غلوّ وتقصير، فالمعاملات فيها غلوّ وتقصير، فالذي يحرّم البيوع، أو يحرّم أكثر الأطعمة، ولا يتعامل إلا مع فلان وفلان، أو لا يمتلك من الأموال إلا شيئًا دون شيء. يقال: هذا غالٍ، قد حرّم الطيّبات. وكذلك لو حرّم الصناعات الجديدة، فحرّم ركوب السيّارات أو الطائرات، أو حرّم الانتفاع بالأجهزة الحديثة، كمكبّر الصوت، والاستنارة بالكهرباء.

نقول: هذا قد غلا. والذي يتوسّع في مثل هذه الأشياء، تجرّه إلى الحرام، فيستعمل مثلاً السّماع والموسيقى والأجهزة المفسدة، كأجهزة التصاوير والتمثيليات الخليعة، والصور الماجنة، ويتوسّع في ذلك، نقول: هذا قد قصّر. وبينهما وسط، لا تشديد ولا غلوّ ولا تقصير وإخلال بالواجبات ونحوها.

وتكلّم الشارح ـ رحمه الله ـ على التشبيه، وذكر أنّ أهل السنّة متوسّطون بين المشبّهة، وبين المعطّلة، وهذا قد تقدّم مرارًا. فالمشبّهة: غلَوْا في إثبات الصفات وقالوا: إنّها كصفاتنا، يدٌ كيدنا، ووجه كوجهنا. والمعطّلة: هم الذين نفوا صفات الله وتأوّلوها وشدّدوا في صرفها عن ظاهرها، وعطّلوا الله تعالى عن صفات الكمال. فالمشبّهة غالون، والمعطّلة مقصّرون، والحقّ وسط بينهما، وهو أنّا لا نصل إلى درجة هؤلاء المعطّلة، ولا نسلك طريقة هؤلاء الممثّلة، ونثبت الصفات كما أثبتها لنفسه، ونصفه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، دون تشبيه أو تمثيل.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَبَيْنَ الجَبْرِ وَالْقَدَرِ)، تَقَدَّمَ الْكَلَامُ أَيْضًا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَأَنَّ الْعَبْدَ غَيْرُ مَجْبُورٍ عَلَى أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ حَرَكَاتِ الْمُرْتَعِشِ وَحَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ بِالرِّيَاحِ وَغَيْرِهَا، وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةً لِلْعَبْدِ، بَلْ هِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ وَكَسْبُهُ وَخَلْقُ اللهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: (وَبَيْنَ الْأَمْنِ وَالْإِيَاسِ) تَقَدَّمَ الْكَلَامُ أَيْضًا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ خَائِفًا مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ، رَاجِيًا رَحْمَتَهُ، وَأَنَّ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ بِمَنْزِلَةِ الْجَنَاحَيْنِ لِلْعَبْدِ، فِي سَيْرِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ.

---

قال الشيخ:

قرأنا ما ذكره الطحاوي من أنّ ديننا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا غيره. وهو: أن يسلم العبدُ قلبه وقالبه لربّه، وأن يذعن له، ويخضع له ويتواضع، وأن يعرفه بأسمائه وصفاته، ويجب أن يعبده حقّ عبادته، ويجاهد فيه حقّ جهاده.

ديننا ـ وهو الإسلام ـ وسط بين الأديان كلّها، وسط بين دين اليهود والنّصارى، دين اليهود فيه تشدّد، ودين النّصارى فيه تفريط. والإسلام جاء بالتوسّط بينهما. كذلك أيضًا الإسلام وسط بين الغلوّ والتقصير، فليس فيه غلوّ بحيث يكلّف أهله ويشقّ عليهم، وليس فيه تقصير بحيث يكون فيه نقص أو خلل في أيّة عبادة.

فالطهارة التي هي عبادة لا يجب فيها التشدّد كالدّلك الشديد، وتكرار صبّ

الماء فهذا غلوّ، ولا يجزئ فيها مسح الأعضاء مسحًا، أو غسلها غسلًا خفيفًا لا يبلغ أن تبتلّ البشرة، فهذا تقصير، بل الوسط بين ذلك.

الإسلام أيضًا وسط في باب صفات الله تعالى بين المشبّهة الذين شبّهوا صفات الله بصفات خلقه، والمعطّلة الذين نفوا صفات الله وعطّلوه من صفات الكمال. فأهل السنّة توسّطوا، فهم الذين أثبتوا لله تعالى صفات الكمال، ونفوا عنه التشبيه والتمثيل بالمخلوقات.

والإسلام وسط في باب الوعد والوعيد، بين الوعيديّة والمرجئة، فهناك الوعيديّة الذين شدّدوا وحكموا بأنّ من عصى أدنى معصية فقد كفر وحلّ ماله ودمه، وآخرون قالوا: المعاصي لا تضرّ، فأكثروا منها. هؤلاء غلَوْا وهؤلاء فرّطوا. الإسلام وسط، جاء ليحذّر من الإصرار على المعاصي وكبائر الذنوب والاستمرار على صغائرها، وجاء بترك التكفير والخروج على أئمّة المسلين وعامّتهم؛ أي: صار أهل السنّة وسطًا بين هؤلاء وهؤلاء.

كذلك أيضًا هو وسط بين الأمن واليأس. فهناك طائفة يكثرون من المعاصي والبدع والكفريات، وهم آمنون، يصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وآخرون غلب عليهم اليأس والقنوط، وقعوا في معاصٍ وذنوب، ولكنّهم قطعوا الرّجاء، وانقطعوا انقطاعًا كليًّا عن التوبة، وأيسوا من قبولها، واعتقدوا أنّهم لا تنفعهم التوبة ولا تقبل منهم، فهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا

﴿ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

كذلك الإسلام وسط في باب أفعال العباد بين القدريّة والجبريّة، فالمجبرة يقولون: ليس للعبد اختيار، بل هو مجبور على أفعاله، وحركته كحركة الأشجار تحرّكها الرّياح، فلا طاعة تنسب إليه، ولا معصية تنسب إليه. كذلك طائفة أخرى عزلوا الله تعالى عن أفعال العباد، فنفوا عنه القدرة التامّة، نفوا أنّه يهدي هذا ويضلّ هذا، نفوا أنّه يعين هذا ويخذل هذا، وجعلوا العبد هو الذي يهدي نفسه أو يضلّ نفسه، أو يفعل باختياره من دون أن يكون لله قدرة عليه! توسّط أهل السنّة بينهم، وجعلوا للعبد قدرة وله إرادة واختيارًا وجعلوا هذه القدرة خاضعة لقدرة الله مغلوبة بقدرته. وهذا معنى كون دين الإسلام وسطًا بين طرفين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قال الطحاوي:

فَهَذَا دِينُنَا وَاعْتِقَادُنَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَنَحْنُ بُرَآءُ إِلَى الله تَعَالَى مِنْ كُلِّ مَنْ خَالَفَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ، وَنَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ، وَيَخْتِمَ لَنَا بِهِ، وَيَعْصِمَنَا مِنَ الْأَهْوَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْآرَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الرَّدِيَّةِ، مِثْلِ الْمُشَبِّهَةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ، وَالْجَبْرِيَّةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَغَيْرِهِا، مِنَ الَّذِينَ خَالَفُوا السُّنَّةَ والجَمَاعَةَ، وَخَالَفُوا الضَّلَالَةَ، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بُرَآءُ، وَهُمْ عِنْدَنَا ضُلَّالٌ وَأَرْدِيَاءُ. وَبِالله الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ.

---

قال الشارح:

الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: (فَهَذَا) إِلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ الْكِتَابِ إِلَى هُنَا. وَالْمُشَبِّهَةُ: هُمُ الَّذِينَ شَبَّهُوا الله سُبْحَانَهُ بِالْخَلْقِ فِي صِفَاتِهِ، وَقَوْلُهُمْ عَكْسُ قَوْلِ النَّصَارَى، شَبَّهُوا الْمَخْلُوقَ - وَهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْخَالِقِ وَجَعَلُوهُ إِلَهًا، وَهَؤُلَاءِ شَبَّهُوا الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، كَدَاوُدَ الْجَوَارِبِيِّ وَأَشْبَاهِهِ.

وَالْمُعْتَزِلَةُ: هُمْ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ، وَوَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ الْغَزَّالُ وَأَصْحَابُهُمَا، سُمُّوا بِذَلِكَ لَمَّا اعْتَزَلُوا الْجَمَاعَةَ بَعْدَ مَوْتِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ الله، فِي أَوَائِلِ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ، وَكَانُوا يَجْلِسُونَ مُعْتَزِلِينَ، فَيَقُولُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: أُولَئِكَ الْمُعْتَزِلَةُ.

وَقِيلَ: إِنَّ وَاصِلَ بْنَ عَطَاءٍ هُوَ الَّذِي وَضَعَ أُصُولَ مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَتَابَعَهُ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ تِلْمِيذُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، فَلَمَّا كَانَ زَمَنُ هَارُونَ الرَّشِيدِ صَنَّفَ لَهُمْ أَبُو الْهُذَيْلِ كِتَابَيْنِ، وَبَيَّنَ مَذْهَبَهُمْ، وَبَنَى مَذْهَبَهُمْ عَلَى الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ، الَّتِي سَمَّوْهَا:

الْعَدْلَ، وَالتَّوْحِيدَ، وَإِنْفَاذَ الْوَعِيدِ، وَالْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ! وَلَبَّسُوا فِيهَا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، إِذْ شَأْنُ الْبِدَعِ هَذَا، اشْتِمَالُهَا عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ.

وَهُمْ مُشَبِّهَةُ الْأَفْعَالِ ؛ لِأَنَّهُمْ قَاسُوا أَفْعَالَ اللهِ تَعَالَى عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ، وَجَعَلُوا مَا يَحْسُنُ مِنَ الْعِبَادِ يَحْسُنُ مِنْهُ، وَمَا يَقْبُحُ مِنَ الْعِبَادِ يَقْبُحُ مِنْهُ! وَقَالُوا: يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، بِمُقْتَضَى ذَلِكَ الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ!! فَإِنَّ السَّيِّدَ مِنْ بَنِي آدَمَ لَوْ رَأَى عَبِيدَهُ تَزْنِي بِإِمَائِهِ وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ لَعُدَّ إِمَّا مُسْتَحْسِنًا لِلْقَبِيحِ، وَإِمَّا عَاجِزًا، فَكَيْفَ يَصِحُّ قِيَاسُ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ؟! وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

فَأَمَّا الْعَدْلُ، فَسَتَرُوا تَحْتَهُ نَفْيَ الْقَدَرِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَا يَخْلُقُ الشَّرَّ وَلَا يَقْضِي بِهِ، إِذْ لَوْ خَلَقَهُ ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ يَكُونُ ذَلِكَ جَوْرًا!! وَاللهُ تَعَالَى عَادِلٌ لَا يَجُورُ. وَيَلْزَمُهُمْ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْفَاسِدِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُهُ، فَيُرِيدُ الشَّيْءَ وَلَا يَكُونُ، وَلَازِمُهُ وَصْفُهُ بِالْعَجْزِ ! تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا التَّوْحِيدُ فَسَتَرُوا تَحْتَهُ الْقَوْلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، إِذْ لَوْ كَانَ غَيْرَ مَخْلُوقٍ لَزِمَ تَعَدُّدُ الْقُدَمَاءِ!! وَيَلْزَمُهُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْفَاسِدِ أَنَّ عِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ وَسَائِرَ صِفَاتِهِ مَخْلُوقَةٌ، أَوِ التَّنَاقُضُ!

وَأَمَّا الْوَعِيدُ، فَقَالُوا: إِذَا أَوْعَدَ بَعْضَ عَبِيدِهِ وَعِيدًا فَلَا يَجُوزُ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ وَيُخْلِفَ وَعِيدَهُ، لِأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَلَا يَعْفُو عَمَّنْ يَشَاءُ، وَلَا يَغْفِرُ لِمَنْ يُرِيدُ، عِنْدَهُمْ!!

وَأَمَّا الْمَنْزِلَةُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ مَنِ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ !!.

وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، فَهُوَ أَنَّهُمْ قَالُوا: عَلَيْنَا أَنْ نَأْمُرَ غَيْرَنَا بِمَا أُمِرْنَا بِهِ، وَأَنْ نُلْزِمَهُ بِمَا يَلْزَمُنَا، وَذَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَضَمَّنُوهُ أَنَّهُ يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَى الْأَئِمَّةِ بِالْقِتَالِ إِذَا جَارُوا!! وَقَدْ تَقَدَّمَ جَوَابُ هَذِهِ الشُّبَهِ الْخَمْسِ فِي مَوَاضِعِهَا.

وَعِنْدَهُمْ أَنَّ التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ مِنَ الْأُصُولِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي لَا يُعْلَمُ صِحَّةُ السَّمْعِ إِلَّا بَعْدَهَا، وَإِذَا اسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِأَدِلَّةٍ سَمْعِيَّةٍ، إِنَّمَا يَذْكُرُونَهَا لِلِاعْتِضَادِ بِهَا، لَا لِلِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا، فَهُمْ يَقُولُونَ: لَا نُثْبِتُ هَذِهِ بِالسَّمْعِ، بَلِ الْعِلْمُ بِهَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْعِلْمِ بِصِحَّةِ النَّقْلِ! فَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَذْكُرُهَا فِي الْأُصُولِ، إِذْ لَا فَائِدَةَ فِيهَا عِنْدَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُهَا لِيُبَيِّنَ مُوَافَقَةَ السَّمْعِ لِلْعَقْلِ، وَلِإِينَاسِ النَّاسِ بِهَا، لَا لِلِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا! وَالْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ فِيهِ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشُّهُودِ الزَّائِدَيْنِ عَلَى النِّصَابِ! وَالْمَدَدِ اللَّاحِقِ بِعَسْكَرٍ مُسْتَغْنٍ عَنْهُمْ! وَبِمَنْزِلَةِ مَنْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَاتَّفَقَ أَنَّ الشَّرْعَ مَا يَهْوَاهُ!! كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ إِذَا وَافَقَ هَوَاهُ، وَيُخَالِفُهُ إِذَا خَالَفَ هَوَاهُ، فَإِذًا أَنْتَ لَا تُثَابُ عَلَى مَا وَافَقْتَهُ مِنَ الْحَقِّ، وَتُعَاقَبُ عَلَى مَا تَرَكْتَهُ مِنْهُ، لِأَنَّكَ إِنَّمَا اتَّبَعْتَ هَوَاكَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ. وَكَمَا أَنَّ «الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1]، وَالْعَمَلُ يَتْبَعُ قَصْدَ صَاحِبِهِ وَإِرَادَتَهُ، فَالِاعْتِقَادُ الْقَوِيُّ يَتْبَعُ أَيْضًا عِلْمَ ذَلِكَ

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٦).

وَتَصْدِيقَهُ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَابِعًا لِلْإِيمَانِ كَانَ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ إِذَا كَانَ عَنْ نِيَّةٍ صَالِحَةٍ كَانَ صَالِحًا، وَإِلَّا فَلَا، فَقَوْلُ أَهْلِ الْإِيمَانِ التَّابِعُ لِغَيْرِ الْإِيمَانِ، كَعَمَلِ أَهْلِ الصَّلَاحِ التَّابِعِ لِغَيْرِ قَصْدِ أَهْلِ الصَّلَاحِ. وَفِي الْمُعْتَزِلَةِ زَنَادِقَةٌ كَثِيرَةٌ، وَفِيهِمْ مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

---

قال الشيخ:

في هذه الخاتمة تكلّم الماتن والشارح على هذه الفرق التي خالفت أهل السنّة في الاعتقاد، ولا شكّ أن مخالفتهم عن عناد؛ وذلك لأنّهم حكّموا العقول في الشرع، ونظروا فيما يهوونه، وفيما تميل إليه أهواؤهم فاتّبعوه، فصدق عليهم أنهم ممن اتبع هواه، أو ممّن اتخذ إلهه هواه، والهوى يعمي ويصمّ. وما تحت أديم السماء إله يُعبد شر من هوى متّبع.

ذكر لنا طائفتين: الأولى المشبّهة، والثانية: المعتزلة، وهما طرفا نقيض، فالمعتزلة نسمّيهم معطّلة، والمشبّهة نسمّيهم ممثّلة. وقد قال السلف: الممثّل يعبد صنمًا، والمعطّل يعبد عدمًا. ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ[1]:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

ويقول بعضهم: من شبّه الله تعالى بخلقه فقد كفر، ومن أبطل ما وصف الله

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢١٢).

به نفسه فقد كفر. وليس فيما أثبته الله تشبيه؛ وذلك لأنّ عذرهم أنّ إثبات هذه الصفات التي وردت في الكتاب والسنّة تشبيه؛ وذلك لأنّها - في زعمهم - موجودة في المخلوق، وإذا كانت موجودة في المخلوق، وأثبتت في الخالق، فقد حصل التشبيه، ويعتمدون على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهذا دليلهم السمعي، وأمّا دليلهم العقليُّ فهو المحكّم عندهم دائمًا، يجعلون عقولهم حاكمة على الكتاب والسنّة، ولا يعترفون من الوحيين إلا بما يوافق أهواءهم.

المشبّهة هم الذين غلوا في الإثبات، فجعلوا صفات الخالق كصفات المخلوق، ويقولون: إنّا لا نعقل إلا ما نشاهده، وإذا أخبرنا الله بشيء غائب وسمّاه، قسناه على ما نعرفه. ويقال لهم: إنّ صفات كلّ شيء تناسبه، فكلّ له صفات تناسب ذاته، فكما أنّ لله تعالى ذاتًا لا تشبه ذوات مخلوقاته، فله صفات لا تشبه صفاتهم.

أمّا المعتزلة الذين هم المعطّلة النّفاة، والذين نفَوْا صفات الله التي هي صفات كمال، وجعلوها مجازًا، ولم يثبتوا لله لا صفات فعل ولا صفات ذات، فهؤلاء غلوا في النّفي.

والمعتزلة - كما ذكر الشارح - حدثوا قديمًا في أول المئة الثانية، في آخر حياة الحسن البصري، خرج من حلقته رجل يُقال له: واصل بن عطاء. هذا الرجل كان فصيحًا جريئًا في الكلام ذكيًا قويّ العبارة، ولكن زيّن له سوء عمله فرآه

حسنًا، فكان من أول أمره عندما جاء رجل يسأل الحسن البصري عن مسألة الكفر والإيمان والفرق بينهما، فتكلّم واصل، وقال: أنا لا أقول: إنّ العاصي مؤمن، ولا أقول إنّه كافر بل هو في منزلة بينهما، ولا أحكم بأنّه مؤمن فأعامله معاملة أهل الإيمان، ولا أحكم بأنّه كافر، فأقاتله كمقاتلة الكفّار، بل أجعله في منزلة بينهما. فعند ذلك أراد أن يقنعه الحسن فامتنع من القناعة.

ثمّ إنّه اعتزل في ناحية عن مجلس الحسن، وجعل يقرّر مذهبه لما أُعطيه من بلاغة وقوّة، وجعل الذين أعجبوا به يجلسون في حلقته، واعتزلوا حلقة الحسن البصري رحمه الله. فكلّما جاء رجل من المبتدعة، وسأل عن مسألة وظهر أنّ في مسألته شيء من التعنّت والشدّة، قال له الحسن: اذهب إلى أولئك المعتزلة. أو يقول: أولئك المعتزلة، فلُقّبوا بالمعتزلة، واعترفوا بهذا الاسم.

يوجد منهم الآن بقايا على مذهبهم أو على بعض مذهبهم؛ فكثير ممّن يسمّون أنفسهم أشعريّة، يلحظ من مذهبهم أنّهم على معتقد المعتزلة، إلا أنّ الفرق يسير. وكذلك الشيعة، وعلماء الرافضة وأكابرهم حديثًا وقديمًا على مذهب المعتزلة. ويوجد من مذهبهم طوائف كثيرة في كثير من البلاد في الشام ومصر والعراق واليمن وإفريقية وباكستان، فهم لم ينقرضوا بل موجودون.

طبعوا قريبًا كتبًا لواحد من أكابرهم، وهو القاضي عبد الجبّار، فله كتاب كبير اسمه «المغني» طبع في نحو أربعة عشر مجلّدًا، ضمّنه عقليّات مذهبه، والذين طبعوه أُعجبوا بأسلوبه، وقوّة تعبيره، وقوة سبكه للكلام، وحقّقوه ونشروه.

كما قد طبع له كتاب اسمه «الأصول الخمسة»، وهي التي ذكرها الشارح

كما تقدّم:

**الأصل الأول: التوحيد**: ويريدون به نفي الصفات.

يقولون: إذا أثبتنا لله السمع والبصر والقدرة، ما أثبتنا واحدًا، بل أثبتنا عددًا، فلا نثبت إلا واحدًا؛ لأنّنا موحّدون. يردّ عليهم بأنّ الصفات من جنس الذات، فلا يكون هناك تعدّد.

**الأصل الثاني: هو العدل**، ومعناه نفي قدرة الله على أفعال العباد. يقولون: إنّ الله لا يخلق الذنب ثمّ يعاقب عليه، والعبد هو الذي يخلق أفعال نفسه، فنفوا أنّ الله يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء.

**الأصل الثالث: هو المنزلة بين منزلتين**، وهو أنّ أهل الكبائر ليسوا بمسلمين، ولا بكفّار، بل في منزلة بينهما. ولا أدري من أين جاؤوا بهذه المنزلة؟ أهل السنّة يقولون: إنّهم مؤمنون ناقصٌ إيمانهم، أو فسقة، أو مؤمنون بأصل الإيمان في قلوبهم، أمّا معاصيهم، فإنّهم سمّوا بها فسقة.

**الأصل الرابع: إنفاذ الوعيد**، فهم يقولون: الآيات التي فيها وعيد لا بدّ من إنفاذه، حتّى لا يُخلفَ الله وعده. فإذا وعد أهل الكبائر أنّهم في النّار، فلا بدّ أن يدخلوها ولا يخرجوا منها أبدًا، فكلّ ذنب مات صاحبه مُصرًّا عليه، فإنّه مخلّد في النّار. فلأجل ذلك ينكرون شفاعة الشافعين، ويقولون: ليس هناك شفاعة، ومن دخل النّار من أهل الكبائر لا يخرج منها أبدًا، بل هو مخلّد في النّار.

**الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر**، ويضمّنون ذلك كلّ منكر رأوه فإنّهم يقاتلون عليه، حتّى ولو كان ذلك الذي أظهر المنكر

وعمل به، خليفة أو إمامًا أو ملكًا من الملوك، يخرجون عليه، وأخذوا هذا من معتقد الخوارج. فهم يعتقدون بالخروج عن الأئمّة بمجرّد الذنوب. وقد خالفهم أهل السنّة؛ لقول النبيّ ﷺ: «عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ»[1]، وقوله ﷺ: «على المَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إلا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ ولا طَاعَةَ»[2]، وقوله ﷺ لحذيفة بن اليمان ﷺ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[3].

فهذه الأصول الخمسة هي ما بنوا عليه مذهبهم، ودليلُهم في ذلك أصلاً العقل كما تقدّم، والأدلة السمعيّة إذا جاءت موافقةً لمعتقدهم، جعلوها زائدة على قدر الحاجة. وهم يمثّلونها بالمدد الذي جاء إلى الجيش بعد الاستغناء عنه، وكأنّ جيشين يتقاتلان، وأحدهما كفء للآخر وقادر على أن يغلبه، ولكن جاءه المدد، فقالوا: لا حاجة لنا فيه، ونحن قادرون على أن نقاوم عدوّنا وننتصر عليه. فهم لم يأبهوا بالأدلّة من الآيات والأحاديث.

وبلا شكّ أنّ عقائدهم التي بُنيت على هذا العقل متهافتة، إذا نظرنا إلى كثرة اضطرابهم، وغلظ حجابهم عن معرفة الله تعالى، وكثر تناقضهم، ورجوع

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ١٩).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٦٤٤).

أكابرهم عمّا كانوا عليه، فتوجد مسألة واحدة يختلفون فيها؛ فهذا يقول: العقل أقرّها، وآخر يقول: العقل نفاها، كيف ذلك؟ عقل يقرّها وعقل ينقضها؟ دليل على أنّ العقول ليست معتمدة، بل العمدة على السّمع، وعلى الأدلّة اليقينيّة، التي هي مسموعةٌ مثبتة، جاءت من قبل حكيم حميد، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٢]، هذا هو المعتمد الصحيح.

قال الشارح:

وَالجَهْمِيَّةُ: هُمُ المُنْتَسِبُونَ إِلَى جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ التِّرمِذِي، وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ نَفْيَ الصِّفَاتِ وَالتَّعْطِيلَ، وَهُوَ أَخَذَ ذَلِكَ عَنِ الجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، الَّذِي ضَحَّى بِهِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ القَسْرِيُّ بِوَاسِطَ، فَإِنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ فِي يَوْمِ عِيدِ الأَضْحَى، وَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللهُ ضَحَايَاكُمْ، فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا»[1]، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الجَعْدُ عُلُوًّا كَبِيرًا! ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ. وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ اسْتِفْتَاءِ عُلَمَاءِ زَمَانِهِ، وَهُمُ السَّلَفُ الصَّالِحُ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى.

وَكَانَ الجَهْمُ بَعْدَهُ بِخُرَاسَانَ، فَأَظْهَرَ مَقَالَتَهُ هُنَاكَ، وَتَبِعَهُ عَلَيْهَا نَاسٌ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا شَكًّا فِي رَبِّهِ! وَكَانَ ذَلِكَ لِمُنَاظَرَتِهِ قَوْمًا مِنَ المُشْرِكِينَ، يُقَالُ لَهُمُ السُّمَنِيَّةُ مِنْ فَلَاسِفَةِ الهِنْدِ، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ مِنَ العِلْمِ مَا سِوَى الحِسِّيَّاتِ، قَالُوا لَهُ: هَذَا رَبُّكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ، هَلْ يُرَى أَوْ يُشَمُّ أَوْ يُذَاقُ أَوْ يُلْمَسُ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالُوا: هُوَ مَعْدُومٌ!! فَبَقِيَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لَا يَعْبُدُ شَيْئًا، ثُمَّ لَمَّا خَلَا قَلْبُهُ مِنْ مَعْبُودٍ يُؤَلِّهُهُ، نَقَشَ الشَّيْطَانُ اعْتِقَادًا نَحَتَهُ فِكْرُهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ الوُجُودُ المُطْلَقُ!! وَنَفَى جَمِيعَ الصِّفَاتِ، وَاتَّصَلَ بِالجَعْدِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الجَعْدَ كَانَ قَدِ اتَّصَلَ بِالصَّابِئَةِ الفَلَاسِفَةِ مِنْ أَهْلِ حَرَّانَ، وَأَنَّهُ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨).

أَيْضًا أَخَذَ شَيْئًا عَنْ بَعْضِ الْيَهُودِ الْمُحَرِّفِينَ لِدِينِهِمُ الْمُتَّصِلِينَ بِلَبِيدِ بْنِ الْأَعْصَمِ، السَّاحِرِ الَّذِي سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ. فَقُتِلَ جَهْمٌ بِخُرَاسَانَ، قَتَلَهُ سَلْمُ بْنُ أَحْوَزَ[1]، وَلَكِنْ كَانَتْ قَدْ فَشَتْ مَقَالَتُهُ فِي النَّاسِ، وَتَقَلَّدَهَا بَعْدَهُ الْمُعْتَزِلَةُ. وَلَكِنْ كَانَ الْجَهْمُ أَدْخَلَ فِي التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ يُنْكِرُ الْأَسْمَاءَ حَقِيقَةً، وَهُمْ لَا يُنْكِرُونَ الْأَسْمَاءَ بَلِ الصِّفَاتِ.

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي الْجَهْمِيَّةِ: هَلْ هُمْ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَمْ لَا؟ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ: وَمِمَّنْ قَالَ إِنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ.

وَإِنَّمَا اشْتَهَرَتْ مَقَالَةُ الْجَهْمِيَّةِ مِنْ حِينِ مِحْنَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ، فَإِنَّهُ مِنْ إِمَارَةِ الْمَأْمُونِ قَوُوا وَكَثُرُوا، فَإِنَّهُ قَدْ أَقَامَ بِخُرَاسَانَ مُدَّةً وَاجْتَمَعَ بِهِمْ، ثُمَّ كَتَبَ بِالْمِحْنَةِ مِنْ طَرَسُوسَ سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ وَفِيهَا مَاتَ، وَرَدُّوا الْإِمَامَ أَحْمَدَ إِلَى الْحَبْسِ بِبَغْدَادَ إِلَى سَنَةِ عِشْرِينَ، وَفِيهَا كَانَتْ مِحْنَتُهُ مَعَ الْمُعْتَصِمِ وَمُنَاظَرَتُهُ لَهُمْ بِالْكَلَامِ، فَلَمَّا رَدَّ عَلَيْهِمْ مَا احْتَجُّوا بِهِ عَلَيْهِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ طَلَبَهُمْ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُوَافِقُوهُمْ وَامْتِحَانَهُمْ إِيَّاهُمْ: جَهْلٌ وَظُلْمٌ، وَأَرَادَ الْمُعْتَصِمُ إِطْلَاقَهُ، أَشَارَ عَلَيْهِ مَنْ أَشَارَ بِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ ضَرْبُهُ، لِئَلَّا تَنْكَسِرَ حُرْمَةُ الْخِلَافَةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ! فَلَمَّا ضَرَبُوهُ قَامَتِ الشَّنَاعَةُ فِي الْعَامَّةِ، وَخَافُوا، فَأَطْلَقُوهُ. وَقِصَّتُهُ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ.

وَمِمَّا انْفَرَدَ بِهِ الْجَهْمُ: أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ تَفْنَيَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ فَقَطْ،

---

(١) انظر: البدء والتاريخ (٥/ ١٤٦)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٧).

وَالْكُفْرَ هُوَ الجَهْلُ فَقَطْ، وَأَنَّهُ لَا فِعْلَ لِأَحَدٍ فِي الحَقِيقَةِ إِلَّا لله وَحْدَهُ، وَأَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا تُنْسَبُ إِلَيْهِمْ أَفْعَالُهُمْ عَلَى سَبِيلِ المَجَازِ، كَمَا يُقَالُ تَحَرَّكَتِ الشَّجَرَةُ، وَدَارَ الْفَلَكُ، وَزَالَتِ الشَّمْسُ! وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

عَجِبْتُ لِشَيْطَانٍ دَعَا النَّاسَ جَهْرَةً إِلَى النَّارِ وَاشْتُقَّ اسْمُهُ مِنْ جَهَنَّمَ[1]

وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ الله ـ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الْأَعْرَاضِ وَالْأَجْسَامِ؟ فَقَالَ: لَعَنَ الله عَمْرَو بْنَ عُبَيْدٍ، هُوَ فَتَحَ عَلَى النَّاسِ الْكَلَامَ فِي هَذَا.

---

قال الشيخ:

وهذه طائفة من المبتدعة، بل من أقدمهم وأعرقهم في البدعة، وهم الجهميّة الذين هم أتباع هذا الشيطان الذي وصفه الشاعر:

عَجِبْتُ لِشَيْطَانٍ دَعَا النَّاسَ جَهْرَةً إِلَى النَّارِ وَاشْتُقَّ اسْمُهُ مِنْ جَهَنَّمَ

فليس بين اسمه وجهنّم إلا النون. هذا الرجل كان بخراسان، وأظهر مقالته هذه، التي أخذها من شيخ قبله يقال له: الجعد بن درهم، والجعد أخذها من يهوديّ يقال له: طالوت. . . وطالوت أخذها من خاله لبيد بن الأعصم، وهو يهودي عمل السحر للنبيّ ﷺ، فكفاه الله شرّه وأبطل كيده. فرجع إسناد الجهم إلى سَحَرة اليهود. وله إسناد ثانٍ ذكره الشارح، وهو أنّه اتّفق مرّة بفرقة يقال لهم السمنيّة، وكانوا ينكرون من العلوم ما سوى الحِسِّيَّات، أما الذي يخبرون عنه

---

(١) هذا البيت أنشده عبدالله بن المبارك رحمه الله. يُنظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ١٨٤).

ولا يرونه ولا يحسّونه فلا يقبلون، فلما لقوا هذا الرجل الذي هو الجهم، شكّكوه في ربّه، فقالوا له: ربّك الذي تعبد، هل رأيته؟ هل سمعت كلامه منه إليك؟ هل لمسته؟ هل شممته؟ فإذًا ليس لك ربٌّ، وهو معدوم. فعند ذلك بقي متحيّرًا أربعين يومًا لا يصلّي، شاكًا في ربّه، ولكنّه بعد ذلك تذكّر، فقال لكبير أولئك السمنيّة: أليس لك روح؟ فقال: نعم. فقال: روحك هذه التي تدخل في جسدك ثم تخرج منه، وتدخل في جسد هذا ثم تخرج منه، هل رأيتها بعينك؟ قال: لا. قال: هل شممتها، هل لمستها، هل سمعتها؟ قال: لا. قال: فإذًا هي موجودة وجودًا مطلقًا فكذلك الله. وجود مطلق بشرط الإطلاق.

فاعتقد الجهم أنّ وجود الخالق من دون أن تكون له صفات، بل هو مجرّد وجود مطلق. فبقي على هذه العقيدة، وهي نفي الأسماء ونفي الصفات، فلا يثبت لله اسمًا إلا على سبيل المجاز، ولا يثبت لله الصفات أبدًا، بل كلّ صفاته ينكرها، حتّى لو كانت في الصحيحين أو في كتاب الله تعالى. وهي عقيدته في باب الصفات.

أمّا عقيدته في باب الإرجاء فإنّه يقول: لا يضرّ مع الإيمان ذنب، فهو يبيح للعاصي أن يكثر من كبائر الذنوب، ولا تضرّه. فلا يضرّه لو سرق وقتل وزنى وأكل مال اليتيم، وعنده عقيدةٌ أنّ الإيمان هو مجرّد المعرفة، فإذا كنت عارفًا بالله فأنت مؤمن كامل الإيمان، وأمّا الكفر فهو عنده الجهل فقط، فمن كان جاهلاً بالدين، فإنّه يُعدّ كافرًا. أما إن عرف ربّه وهي معرفة الوجود المطلق، فهو مؤمن كامل الإيمان.

كذلك من عقيدته أنّه يقول بالجبر، فلا يثبت لله تعالى أفعالًا، والعبد مجبور على أفعاله ليس له اختيار.

انفرد بثلاثة أشياء: بالتعطيل والجبر والإرجاء. وزعم أنّ الإيمان مجرّد إثبات المعرفة.

وشيخ جهم الذي أخذ العلم عنه - وهو الجعد - عرفنا من عقيدته أنّه ينكر الصفات، فمن جملة ما ينكره الخلّة التي هي المحبّة، فيقول: إنّ الله ما اتّخذ إبراهيم خليلاً، وكما ينكر صفة الكلام، فيقول: إنّ الله ما كلّم موسى تكليمًا. فلأجل هذه العقيدة الفاسدة أفتى العلماء بقتله، فقتله أمير في العراق يسمّى خالد بن عبد الله القسري مثل الأضحية، وقال في يوم العيد: أيّها النّاس! ضحّوا تقبّل الله ضحاياكم، فإنّي مضحٍّ بالجعد بن درهم وفي ذلك يقول ابن القيم - رحمه الله -[1]:

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبَ سُنَّةٍ ... لِلَّـهِ دَرُّكَ مِـنْ أَخِـي قُرْبَـانِ

والجهم قتله سَلْمُ بن أَحْوز، مما يدلّ على عِظَم ذنب كلّ واحد منهما، ولكن للأسف بقيت عقيدتهما بعد موتهما، وتمكّنت عقيدة الجهم في إيران وتلك البلاد، ثمّ وصلت إلى العراق، وفي العراق كان هناك جهميّ اسمه بشر المريسي، كتب فيها كتبًا كثيرة، ولكن ردّ عليها علماء كثر، ومن جملة من ردّ عليه الإمام الدارمي في كتاب المطبوع بعنوان «رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المرّيسي العنيد» وبيّن في ردّه مذهب أهل السنّة، وأبطل مذهبه الذي بناه على العقليّات.

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠).

وفي زمن المرّيسي لم يكن هناك له قوّة وصولة، ولكن بعد موت الرّشيد وابنه الأمين، تولّى الخلافة المأمون، الذي استولى عليه الجهميّة وتقرّبوا منه، وزيّنوا له هذا المذهب الباطل، فانتحله واعتقده، وعند ذلك دعا النّاس إلى اعتناقه، وفتن النّاس، وحصل أذى كبير، حتّى فتن الأئمّة، وأدخل السجون كثيرًا منهم، وأُكرهوا على أن يعتنقوه، فادّعى بعضهم أنّه قاله للتخلّص، لا عن عقيدة، كيحيى بن معين وغيره، وأمّا الإمام أحمد فإنّه أصرّ على أن يطلب دليلاً يؤيّدون فيه حجّتهم، فلم يستطيعوا أن يأتوه بدليل مقنع، فأصرّ على أنّ القرآن كلام الله، وأنّه ليس بمخلوق بعدما عذّبوه أشدّ العذاب، ومع ذلك لَمْ يزدد إلا تصلّبًا وتشدّدًا. فقال له بعضهم: لو قلت إنّ القرآن مخلوق لخلّصناك من هذا العذاب، فقال: لو قلتم إنّ القرآن كلام الله لخلصتم من عذاب النّار.

والحاصل أنّه أصرّ على ذلك حتّى جعل الله له فَرَجًا ومخرجًا، فتوفّي المأمون قبل أن يصل إليه الإمام أحمد، ولكن تولّى تعذيبه المعتصم الذي تولّى بعده، إلى أن مات المعتصم وهو ما يزال يُعذّب ويُهان، وتولّى بعده الواثق ابن المعتصم، ولكنّه خفّف المحنة، ولكن لمّا مات الواثق، وتولّى ابنه المتوكّل، نصر السنّة وقرّبها، وكبت أهل البدعة، وزالت دولتهم. والحمد لله رب العالمين.

قال الشارح:

وَالجَبْرِيَّةُ أَصْلُ قَوْلِهِمْ مِنَ الجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ - كَمَا تَقَدَّمَ - وَأَنَّ فِعْلَ العَبْدِ بِمَنْزِلَةِ طُولِهِ وَلَوْنِهِ! وَهُمْ عَكْسُ القَدَرِيَّةِ نُفَاةِ القَدَرِ، فَإِنَّ القَدَرِيَّةَ إِنَّمَا نُسِبُوا إِلَى القَدَرِ لِنَفْيِهِمْ إِيَّاهُ؛ كَمَا سُمِّيَتِ المُرْجِئَةُ لِنَفْيِهِمُ الإِرْجَاءَ، وَأَنَّهُ لا أَحَدَ مُرْجَأٌ لأَمْرِ اللهِ، إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ تُسَمَّى الجَبْرِيَّةُ (قَدَرِيَّةً)؛ لأَنَّهُمْ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ القَدَرِ؛ وَكَمَا يُسَمَّى الذِينَ لا يَجْزِمُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الوَعْدِ وَالوَعِيدِ، بَل يَغْلُونَ فِي إِرْجَاءِ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى الأَنْوَاعِ، فَلا يَجْزِمُونَ بِثَوَابِ مَنْ تَابَ، كَمَا لا يَجْزِمُونَ بِعُقُوبَةِ مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَكَمَا لا يُجْزَمُ لِمُعَيَّنٍ. وَكَانَتِ المُرْجِئَةُ الأُولى يُرْجِئُونَ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا، وَلا يَشْهَدُونَ بِإِيمَانٍ وَلا كُفْرٍ !!.

---

قال الشيخ:

ذكر الشارح هذا التعريف للمرجئة، وأول من اشتهر به الجهم بن صفوان الذي هو أشهر من أشتهر ببدع ثلاث:

الأولى: بدعة التعطيل في النفي للصفات.

الثانية: بدعة الإرجاء.

والثالثة: بدعة الجبر.

يقول الجهم: إن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه وقصره، فأفعاله مجبر عليها، ليس له اختيار، فليس له أن يفعل شيئًا، الله تعالى هو الذي أ... على

أن يكفر، أجبره على أن يفسق، أجبره على أن يعصي، يفعل هذه المعاصي وليس له اختيار. أي: كما أن الله تعالى خلق هذا طويلًا، وخلق هذا أسمر أو أسود أو أحمر أو أبيض ليس له يد في ذلك، فهؤلاء عكس القدرية الذين يقولون: إن الله لا يقدر على أفعال العباد، بل العباد هم الذين يخلقون أفعالهم دون قدرة الله تعالى.

قوله: (**القَدَرِيَّةَ إِنَّمَا نُسِبُوا إِلَى القَدَرِ لنَفْيِهِمْ إِيَّاهُ**)، يعني: أنهم يقولون ليس الله قادرًا على أن يجعل هذا مؤمنًا، وهذا كافرًا، بل العبد هو الذي يجعل نفسه مؤمنًا وكافرًا ومطيعًا وعاصيًا.

قوله: (**كَمَا سُمِّيَتِ المُرْجِئَةُ لنَفْيِهِمُ الإِرْجَاءَ**)، يعني: أصل تسميتهم أنهم نفوا الإرجاء، وقالوا: (**وَأَنَّهُ لا أَحَدَ مُرْجَأٌ لأَمْرِ الله إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ**)؛ لقوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٠٦]، فنفوا ذلك، ولكن الأصل أن الجبرية يقولون: إن العبد مجبور على أفعاله ليس له أي اختيار بل أفعاله كفره وطاعته مثل طوله وقصره، هذا هو الأصل.

وأما المرجئة فإنهم سموا مرجئة؛ لأنهم يغلبون جانب الرجاء، بمعنى أنهم يقولون: لا تضر المعاصي مع التوحيد، إذا كان الإنسان موحدًا، فلا تضره المعاصي وإن كثرت، كما أن الشرك لا تنفع معه الأعمال بل تحبط.

فهذا من أسباب تسميتهم بالمرجئة؛ لأنهم غلبوا جانب الرجاء، حتى قال قائلهم:

تَكَثَّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايَا إِذَا كَانَ القُدُومُ عَلَى كَرِيمِ[1]

هذا سبب، ولكن أكثر ما يسمون به لأنهم يعتقدون أن السيئات لا تضر، أو أن الله تعالى قد جبرهم عليها، فالجبرية في الأصل قدرية؛ فإنهم قد يسمون قدرية؛ (لأَنَّهُمْ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ القَدَرِ)، بحيث قالوا: ليس للعباد اختيار.

قال: (الذِينَ لا يَجْزِمُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الوَعْدِ وَالوَعِيدِ)، يسمون أيضًا قدرية، أو يسمون مرجئة، كذلك الذين (يَغْلُونَ فِي إِرْجَاءِ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى الأَنْوَاعِ، فَلا يَجْزِمُونَ بِثَوَابِ مَنْ تَابَ، كَمَا لا يَجْزِمُونَ بِعُقُوبَةِ مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَكَمَا لا يَجْزِمُ لِمُعَيَّنٍ. وَكَانَتِ المُرْجِئَةُ الأُولى يُرْجِئُونَ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا، وَلا يَشْهَدُونَ بِإِيمَانٍ وَلا كُفْرٍ)، وبكل حال فإن الجبرية هم الذين يعتقدون أن العبد ليس له اختيار، وفي ذلك يقول قائلهم:

أَلْقَاهُ فِي البَحْرِ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ[2]

يشبهون الإنسان بإنسان مكتوف أُلقي في البحر. فيُقال له: لا يبتل طرفك. وهذا ليس في اختياره، يقولون: إن العبد قُذف في هذه المعاصي، وليس له أن يمتنع منها؛ لأنها قُدرت عليه، وكُتبت عليه.

---

(١) يُنسب هذا البيت لأبي علي الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح، المعروف بأبي نواس الحكمي. قال عنه الحافظ ابن حجر: «شعره في الذروة، ولكن فسقه ظاهر، وتهتكه واضح، فليس بأهل أن يُروى عنه». انظر: لسان الميزان (٧/ ١١٥)، ووفيات الأعيان (٢/ ٩٥).

(٢) يُنسب هذا البيت إلى عبد الغني بن إسماعيل الدمشقي النابلسي، المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف. انظر ديوانه (ص٢٨).

قال الشارح:

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَمِّ القَدَرِيَّةِ أَحَادِيثُ فِي السُّنَنِ: مِنْهَا مَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلا تَشْهَدُوهُمْ»[1]. وَرُوِيَ فِي ذَمِّ القَدَرِيَّةِ أَحَادِيثُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ، تَكَلَمَ أَهْلُ الحَدِيثِ فِي صِحَّةِ رَفْعِهَا، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا مَوْقُوفَةٌ، بِخِلافِ الأَحَادِيثِ الوَارِدَةِ فِي ذَمِّ الخَوَارِجِ، فَإِنَّ فِيهِمْ فِي الصَّحِيحِ وَحْدَهُ عَشَرَةُ أَحَادِيثَ، أَخْرَجَ البُخَارِيُّ مِنْهَا ثَلاثَةً، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ سَائِرَهَا. وَلَكِنَّ مُشَابَهَتَهُمْ لِلمَجُوسِ ظَاهِرَةٌ، بَل قَوْلُهُمْ أَرْدَأُ مِنْ قَوْلِ المَجُوسِ، فَإِنَّ المَجُوسَ اعْتَقَدُوا وُجُودَ خَالِقَيْنِ، وَالقَدَرِيَّةَ اعْتَقَدُوا خَالِقِينَ!!.

---

قال الشيخ:

المراد بالقدرية ها هنا: هم نفاة القدرة من الله تعالى، اعتقادهم أن كل عبد يخلق فعله، وأن الله لا يقدر على شيء مع العباد، لا يهدي من يشاء، ولا يضل من يشاء، بل العباد هم الذين يضلون أنفسهم، ويغوون أنفسهم، أو يهدون أنفسهم، وحجتهم أنه لو خلق الأفعال فيهم ثم عذبهم لكان ظالمًا؛ لأنهم يقولون: أنت الذي قدرت علينا الكفر، أنت الذي قدرت علينا المعاصي

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٨٧).

والبدع فكيف تعذبنا. هكذا قالوا.

ورد في ذمهم أحاديث في السنن أمثلها الحديث الذي رواه أبو داود في سننه: (**عن عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلا تَشْهَدُوهُمْ**). وهذا الحديث قد سبق في هذا الكتاب، هذا هو أمثل ما ورد، ولعله أيضًا موقوف على ابن عمر رضي الله عنهما، فإنه قد سُئل عن القدرية الذين ينكرون علم الله السابق، يقولون: إِنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ، فلما سُئل عنهم قال: «فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي برئ منهم، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عبد الله بن عُمَرَ: لو أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ، ما قَبِلَ الله منه حتى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»[1]، وهذا في القدرية الذين ينكرون علم الله، والذين ينكرون كتابة المعاصي، أو كتابة الطاعات كتابة سابقة، ويقولون: إن الأمر أنف.

وأما القدرية الذين يعطلون الرب ـ سبحانه ـ عن القدرة على أفعال عباده، فهؤلاء يُعرفون بـ(القدرية النفاة)، الذين ينكرون قدرة الله.

فالأولون الذين ينكرون علم الله قد رد عليهم الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه فقد كفروا»[2]. أي: سلوهم هل الله تعالى عالم بكل شيء؟ فإذا اعترفوا بذلك

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٠).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٠).

فإنهم يُخصمون، ويُقال: ما الفرق بين علم تقدم وعلم ما تأخر؟

وأما القدرية الذين هم نفاة القدرة، فقد قال فيهم الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «القدر قدرة الله»[1]. يعني: أن من أقر بأن الله تعالى على كل شيء قدير، واعترف بقدرة الله على كل شيء، فإنه يُقال له: ما الفرق بين قدرته على العقوبات ونحوها، وبين قدرته على أفعال العباد؟ فإنه قادر على أن يجعل هذا مهتديًا، ويجعل هذا عاصيًا، وأن يجعل هذا مطيعًا، وأن يعينه إلى أن يفعل كذا وكذا؟ فهؤلاء هم القدرية الذين يُقال: إنهم مجوس هذه الأمة، بمعنى أنهم شابهوا المجوس؛ لأن المجوس يقولون: إن هذا الوجود له خالقان: النور والظلمة، النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر.

وأما هؤلاء القدرية فإنهم يقولون: إن كل إنسان يخلق أفعاله، فيجعلون مع الله من يخلق، فيقول: «إِنْ مَرِضُوا فَلا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلا تَشْهَدُوهُمْ». أي: اهجروهم وابتعدوا عنهم ما داموا على هذه العقيدة.

قوله: (وَرُوِيَ فِي ذَمِّ القَدَرِيَّةِ أَحَادِيثُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ، تَكَلَّمَ أَهْلُ الحَدِيثِ فِي صِحَّةِ رَفْعِهَا)، أما الأحاديث الكثيرة التي رُويت في ذم القدرية، فالصحيح أنها موقوفة ليس فيها مرفوع، بل كلها من أقوال الصحابة الذين قالوها، حتى يترجح في هذا الحديث أنه أيضًا من قول ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: (بِخِلافِ الأَحَادِيثِ الوَارِدَةِ فِي ذَمِّ الخَوَارِجِ)، أي: أن الأحاديث

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٨٦).

التي وردت في ذم الخوارج صحيحة.

قوله: (أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ مِنْهَا ثَلاثَةً)، أي: روى البخاري منها ثلاثة أحاديث صحيحة بأسانيد صحيحة.

قوله:(وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ سَائِرَهَا)، أي: روى مسلم -رحمه الله- سبعة أحاديث، وكلها بأسانيد صحيحة، عن علي وعن حذيفة وعن ابن مسعود -رضي الله عنهم- وغيرهم.

يقول: (وَلَكِنَّ مُشَابَهَتَهُمْ لِلْمَجُوسِ ظَاهِرَةٌ، بَلْ قَوْلُهُمْ أَرْدَأُ مِنْ قَوْلِ الْمَجُوسِ)، حيث إن المجوس اعتقدوا خالقين فقط: النور والظلمة، وأما القدرية فيعتقدون أن كل إنسان يخلق أفعاله، هذا اعتقادهم.

قال الشارح:

وَهَذِهِ البِدَعُ المُتَقَابِلَةُ حَدَثَتْ مِنَ الفِتَنِ المُفَرِّقَةِ بَيْنَ الأُمَّةِ، كَمَا ذَكَرَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ[1]، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، قَالَ: «وَقَعَتِ الفِتْنَةُ الأُولى - يَعْنِي مَقْتَلَ عُثْمَانَ - فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ أَحَدًا، ثُمَّ وَقَعَتِ الفِتْنَةُ [يَعْنِي: الحَرَّة][2] فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ الحُدَيْبِيَةِ أَحَدًا، ثُمَّ وَقَعَتِ الثَّالِثَةُ، فَلَمْ تَرْتَفِعْ وَلِلنَّاسِ طَبَاخٌ». أَيْ: عَقْلٌ وَقُوَّةٌ.

---

قال الشيخ:

أي: أن هذه البدع متقابلة، وأن سبب حدوثها الفتن التي فرقت بين الأمة، فلأجل ذلك حصلت هذه البدع، التي هي مذاهب باطلة منكرة حصل بها تفرق الأمة، وحصل بسببها فتن وقتال، وقد ذكر سعيد بن المسيب - رحمه الله - هذه الفتن:

الفتنة الأولى: مقتل عثمان ﷺ، وكان ذلك في سنة خمس وثلاثين، عندما ثار عليه أولئك الثوار الذين أنكروا عليه شيئًا من سيرته، وأغلبهم من البوادي، ثم تسوروا عليه حتى قتلوه، وكانت فتنة عظيمة حصل بعدها قتال، كما في وقعة (الجمل)، وفي وقعة (صفين)، حيث قُتل في الوقعتين نحو مائة

---

(١) بعد حديث (٤٠٢٤).

(٢) زيادة من البخاري.

ألف، هذه من الفتن.

قوله:(فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ أَحَدًا)، أي: الذين شهدوا بدرًا، كان منهم: طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام ـ رضي الله عنهما ـ قُتلوا في وقعة الجمل.

أما **الفتنة الثانية**: فهي وقعة (الحرَّة)، التي وقعت في سنة ثلاث وستين في خلافة يزيد، لما أن أهل المدينة خلعوا يزيدًا وامتنعوا من بيعته، أرسل إليهم جيشًا فاستباح المدينة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، فلم تُرفع حتى مات بقية أهل الحديبية، (لَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ الْحُدَيْبِيَةِ أَحَدًا)، أي: الذين بايعوا النبي ﷺ في الحديبية بيعة الرضوان.

وأما **الفتنة الثالثة**: أما هذه الفتنة فهي ما حصل بعد ذلك، جاء في بعض الروايات: (ولو قد وقعت الثالثة لم ترفع وللناس طباخ، أي: عقل)، ويمكن أن الفتنة الثالثة فتنة الخوارج الأزارقة ونحوهم، فإنهم قد قتلوا كثيرًا من أهل السنة، وقد استمرت فتنتهم نحو عشر سنين، وهم يقاتلون ويقتلون كثيرًا من المسلمين، فيقول:(فَلَمْ تَرْتَفِعْ وَلِلنَّاسِ طَبَاخٌ، أَيْ: عَقْلٌ)، هكذا فُسر هذا الأثر.

قال الشارح:

فَالخَوَارِجُ وَالشِّيعَةُ حَدَثُوا فِي الْفِتْنَةِ الأُولَى، وَالْقَدَرِيَّةُ وَالْمُرْجِئَةُ فِي الْفِتْنَةِ الثَّانِيَةِ، وَالجَهْمِيَّةُ وَنَحْوُهُمْ بَعْدَ الْفِتْنَةِ الثَّالِثَةِ، فَصَارَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا يُقَابِلُونَ الْبِدْعَةَ بِالْبِدْعَةِ، أُولَئِكَ غَلَوْا فِي عَلِيٍّ، وَأُولَئِكَ كَفَّرُوهُ! وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي الْوَعِيدِ، حَتَّى خَلَّدُوا بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي الْوَعْدِ حَتَّى نَفَوْا بَعْضَ الْوَعِيدِ - أَعْنِي الْمُرْجِئَةَ - وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي التَّنْزِيهِ حَتَّى نَفَوُا الصِّفَاتِ، وَهَؤُلاءِ غَلَوْا فِي الإِثْبَاتِ، حَتَّى وَقَعُوا فِي التَّشْبِيهِ! وَصَارُوا يَبْتَدِعُونَ مِنَ الدَّلائِلِ وَالمَسَائِلِ مَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ، وَيُعْرِضُونَ عَنِ الأَمْرِ المَشْرُوعِ، وَفِيهِمْ مَنِ اسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الأَوَائِلِ: اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسِ وَالصَّابِئِينَ، فَإِنَّهُمْ قَرَؤُوا كُتُبَهُمْ، فَصَارَ عِنْدَهُمْ مِنْ ضَلالَتِهِمْ مَا أَدْخَلُوهُ فِي مَسَائِلِهِمْ وَدَلائِلِهِمْ، وَغَيَّرُوهُ فِي اللَّفْظِ تَارَةً، وَفِي المَعْنَى أُخْرَى! فَلَبَّسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَكَتَمُوا حَقًّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ، فَتَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا، وَتَكَلَّمُوا حِينَئِذٍ فِي الْجِسْمِ وَالْعَرَضِ وَالتَّجْسِيمِ، نَفْيًا وَإِثْبَاتًا.

وَسَبَبُ ضَلالِ هَذِهِ الْفِرَقِ وَأَمْثَالِهِمْ عُدُولُهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، الَّذِي أَمَرَنَا اللهُ بِاتِّبَاعِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. فَوَحَّدَ لَفْظَ (صِرَاطِهِ) وَ(سَبِيلِهِ)، وَجَمَعَ (السُّبُلَ) المُخَالِفَةَ لَهُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، وَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[1].

---

قال الشيخ:

تكلم على الذين غلوا وجفوا، فذكر الخوارج والشيعة، القدرية فالمرجئة، الجهمية فالمعتزلة، وذكر أن كلاً منهم يُقابل الآخر، فبعضهم غلوا في علي وهم الشيعة، والخوارج كفروه، كذلك الخوارج والمعتزلة غلوا في الوعيد حتى خلدوا المؤمنين في النار، والمرجئة غلوا في الوعد حتى نفوا بعض الوعيد، وأباحوا الكثير من المعاصي، كذلك المعتزلة والجهمية غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات، والمشبهة غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه، فشبهوا صفات الله تعالى بصفات خلقه، فيقولون: إن المفهوم من هذه الصفات أنها الصفات المعروفة، فالمفهوم من الأصابع أنها أصابع اليد يبطش بها الإنسان، والمفهوم باليد اليد التي يقبض بها الإنسان ونحو ذلك. فصاروا مشبهة، وهؤلاء خالفوا قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقول الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ

---

(١) تقدم تخريجه (٥/ ٢١٦).

يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]. وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع.

جميع هذه الفرقة يقدرون أدلة عقلية ليست من الشرع في شيء، يفرضون مسائل عقلية، ثم يعرضونها على النصوص، ويقولون: إن النصوص لا تدل على كذا وكذا، أو إنه يجب تأويلها؛ لأنها تخالف ما دل عليه العقل. ثم يعرضون عن الأمر المشروع الذي أدلته واضحة، ولا يعتبرون به، ولا يقبلون الأدلة الواضحة من كتاب الله تعالى ولا من سنة النبي ﷺ، بل يضربون بها عرض الحائط، وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل.

فالمعتزلة والجهمية ونحوهم ذُكر أن سبب ضلالهم لما عُربت كتب اليونان وكتب المجوس والصابئين والنصارى ونحوهم، قرؤوا كتبهم ووقعوا في هذا الشك، ووقعوا في الاعتزال، ووقعوا في الزندقة، وصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم وفي دلائلهم، وغيروه في اللفظ تارة، وغيروه في المعنى أخرى.

تلك الضلالات وتلك البدع أدخلوها في مسائلهم وفي دلائلهم العقلية التي يفرضونها، وغيروا ألفاظ القرآن وألفاظ السنة، ولبسوا الحق بالباطل، خلطوه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٤٢]، كتموا الحق الذي جاء به نبيهم ﷺ وغيروه، فصاروا فرقًا وصاروا مختلفين؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا

جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وتكلموا حينئذٍ في أشياء لم ترد في الشرع، تكلموا في الجسم والعرض والتجسيم نفيًا وإثباتًا، والأبعاض والأعراض وما أشبهها، وكل ذلك لا دليل عليه. والواجب أن يُعرض عن هذه المسميات: لفظ الجسم والعرض والجوهر ونحوها؛ لأنها لم يرد إثباتها ولا نفيها، فلا حاجة لنا إلى ذكرها.

لاشك أن سبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم عدولهم عن الصراط المستقيم، الذي أمرنا الله تعالى باتباعه، حيث بدلوه بغيره، الله تعالى أمرنا بقوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، صراط الله تعالى هو دينه القويم الذي جاءت به الأنبياء، وآخرهم نبينا محمد ﷺ، وأما (الطرق) فهي السبل التي أخبر ﷺ بأن: «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، هذا يدعو إلى التشيع، وهذا يدعو إلى الخروج، وهذا إلى القدر، وهذا إلى الإرجاء، وهذا إلى التعطيل، وهذا إلى التشبيه، وهذا إلى الاعتزال، وما أشبه ذلك. هذه هي السبل التي تفرقت بالناس عن سبيل الله تعالى.

وهكذا قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]، سبيل الله تعالى: صراطه المستقيم.

وكذلك سبيل النبي ﷺ: سنته التي شرعها لأمته، أخبر بأنه يدعو إلى الله

على بصيرة، أي: على نور وبرهان، يدعو إلى دين الله، وإلى الحق، وإلى الإسلام، على بصيرة ونور. وهكذا أتباعه، كل من اتبعه فإنه يدعو إلى الله على بصيرة، يتبصر في دين الله تعالى، ثم يدعو إلى سبيل الله تعالى.

في الآية في سورة الأنعام، وحَّد الصراط ﴿صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾، وكذلك في آية سورة يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِي﴾، وحَّد سبيل الله. أما السبل فجمعها: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، التي أخبر ﷺ بأن «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ». السبل المخالفة لا يجوز اتباعها؛ لأنها تخالف سبيل الله تعالى.

وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ خَطًّا، وَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ الله»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، هذا تمثيل لصراط الله تعالى، مثله بأن خط خطًا مستقيمًا، ليس معوجًا، وليس به انحراف، وأخبر بأنه سبيل الله وصراطه السوي، ثم جعل عن يمينه وعن يساره خطوطًا ملتوية، خطوطًا قصيرة أو طويلة ، وأن من سلك هذا الصراط أدى به إلى ثواب الله، وأوصله إلى الجنة، وأما من انحرف وركب بُنيات الطريق وسلك تلك الطرق أو تلك السبل التي تدعو إليها الشياطين، فإنه يكون من أتباع الشياطين والعياذ بالله.

قال الشارح:

وَمِنْ هَاهُنَا يُعْلَمُ أَنَّ اضْطِرَارَ الْعَبْدِ إِلَى سُؤَالِ هِدَايَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ. وَلِهَذَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى فِي الصَّلاةِ قِرَاءَةَ أُمِّ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، إِمَّا فَرْضًا أَوِ إِيجَابًا، عَلَى حَسَبِ اخْتِلافِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ، لاحْتِيَاجِ الْعَبْدِ إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ الْقَدْرِ، الْمُشْتَمِلِ عَلَى أَشْرَفِ الْمَطَالِبِ وَأَجَلِّهَا. فَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنْ نَقُولَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧] ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»(١).

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ: فَمَنْ؟!»(٢).

---

قال الشيخ:

يعني: أن العبد لا يستغني، أي: يقول: يا ربي، اهدني الصراط، دلني على الصراط، ثبتني على الصراط. في كل حالة مخافة أن يضل وأن ينحرف وأن

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٩٥٣)، وأحمد (٤/ ٣٧٨)، وابن حبان (١٦/ ١٨٣) من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

يغويه دعاة السوء، فيترك شرع الله تعالى.

شرع الله تعالى في الصلاة قراءة أم القرآن التي هي الفاتحة، في كل ركعة حتى النوافل، شرعها فريضة أو شرعها واجبة، على حسب ما اختلف العلماء في ذلك وفي سبب شرعيتها، وفيها قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ [الفاتحة:٦]، احتياج العباد إلى هذا الدعاء عظيم القدر، الذي يشتمل على أشرف المطالب وأجلها. يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

أولاً: نسأل هدايتنا إلى الصراط، أي: ثبتنا على الصراط، أرشدنا إليه، دلنا عليه، ارزقنا الاستقامة عليه. وصف بأنه مستقيم، أي: ليس فيه اعوجاج.

ثانيًا: سأل ربه صحبة أهل الخير: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: سبيلهم الذي كانوا عليه، فإنهم هم الصالحون المذكورون في قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]. هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، تسأل الله صحبتهم، وأن يثبتك على سيرتهم؛ لأنهم الذين منَّ الله عليهم بالهداية، وأنعم عليهم ووفقهم. ثم ذكر تجنب طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، تسأل الله أن يجنبك طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود الذين معهم علم ولم يعملوا به، فهم أولى بالغضب، وكذلك طريق الضالين، وهم النصارى الذين يعبدون الله على جهل وضلال. ثبت عن النبي ﷺ أنه

قال: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ». ذكر الله تعالى اليهود بقوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾[البقرة: ٩٠]، غضب من الله تعالى يتبعه غضب، وذلك لأنهم علموا ولم يعملوا.

كذلك وصف النصارى بأنهم ضالون في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

ومع ذلك فإن المغضوب عليهم يعم الجميع، فالنصارى مغضوب عليهم بسبب هذا الفعل، وهو أنهم تخبطوا في الأعمال، وكذلك اليهود ضالون، فالجميع مغضوب عليهم وضالون.

رُوي عن بعض السلف أنه قال: «من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى». لأن اليهود يعرفون ولكن يكتمون الحق، نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

ثبت أيضًا في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!». وقد أصبح كثير من هذه الأمة - مع كونهم ينتسبون إلى الإسلام - يقتدون بعادات اليهود وبعادات النصارى،

ويتبعونهم، ويلبسون لبستهم، ويتكلمون بلغتهم، ويقلدونهم في أفعالهم وبعقائدهم، بل ويمدحونهم ويثنون عليهم، ويدعون أنهم هم القوم، وأنهم أولى بالصواب من الصالحين من هذه الأمة، فصاروا منهم. اتبعوا طريقتهم كما أخبر بذلك ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ منهم»[1]، و«المَرْءُ مع من أَحَبَّ»[2].

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قال الشارح:

قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ: مَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْعُبَّادِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى.

فَلِهَذَا تَجِدُ أَكْثَرَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ، مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، حَتَّى إِنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ يَقْرَؤُونَ كُتُبَ شُيُوخِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَيَسْتَحْسِنُونَ طَرِيقَتَهُمْ، وَكَذَا شُيُوخُ الْمُعْتَزِلَةِ يَمِيلُونَ إِلَى الْيَهُودِ وَيُرَجِّحُونَهُمْ عَلَى النَّصَارَى. وَأَكْثَرُ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ الْعُبَّادِ - مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَنَحْوِهِمْ - فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى، وَلِهَذَا يَمِيلُونَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ وَالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَشُيُوخُ هَؤُلَاءِ يَذُمُّونَ الْكَلَامَ وَأَهْلَهُ، وَشُيُوخُ أُولَئِكَ يَعِيبُونَ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ، وَيُصَنِّفُونَ فِي ذَمِّ السَّمَاعِ وَالْوَجْدِ وَكَثِيرٍ مِنَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ الَّتِي أَحْدَثَهَا هَؤُلَاءِ.

---

قال الشيخ:

علماء هذه الأمة الذي يعلمون ولكنهم لا يعملون يشبهون اليهود في هذه الصفة - نعوذ بالله - ولا شك أن العقوبة عليهم أشد.

يقول الشاعر:

فَإِنْ كُنْت لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ  وَإِنْ كُنْت تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ[1]

كذلك الذي ينحرف من العباد يتشبه بالنصارى؛ لأنه يتخبط في

---

(١) انظر: الملثمي لابن الجوزي (ص٢٢٠).

العبادات، ويعرض عن العلم وعن التعلم.

ولهذا قال: (فَلِهَذَا تَجِدُ أَكْثَرَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنْ أَهْلِ الْكَلامِ، مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ)، ويراد بأهل الكلام: الذين تخبطوا في الكلام وتوسعوا فيه حتى أدخلوا في الكتاب ما ليس منه، وأدخلوا في الشريعة أشياءً ليست منها. ولا شك أن هؤلاء أشبه باليهود والنصارى. فالمعتزلة تشبهوا باليهود وصاروا أقرب إليهم، وقد ذُكر أن بعض علماء اليهود يقرؤون كتب شيوخ المعتزلة، ويستحسنون طريقتهم، وذلك لأنهم ولدوا هذا الكلام، وتوسعوا في تلك الافتراضات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فكأن المعتزلة واليهود بعضهم من بعض، فعلماء اليهود يقرؤون كتب المعتزلة، وشيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود، ويرجحونهم على النصارى، ويقرؤون أيضًا بهم حتى صاروا من الضالين.

كذلك المنحرفون من العباد كالصوفية ونحوهم أشبه بالنصارى، ولذلك يميلون إلى نوع من الرهبانية التي هي في النصارى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧].

كذلك هؤلاء المتصوفة وقعوا في الحلول والاتحاد ـ نعوذ بالله ـ عقيدة أهل وحدة الوجود، وذلك أشبه بالنصارى؛ لأن النصارى يدعون أن عيسى ـ عليه السلام ـ من الله، تعالى الله عن ذلك، لكن النصارى خصوا الألوهية بعيسى، أما المتصوفة فإنهم جعلوا ذات الرب تعالى حالة في جميع المخلوقات، فيقولون:

جميع ما في الوجود كله ذات الرب. تعالى الله عن قولهم.

وشيوخ هؤلاء المتصوفة يذمون أهل الكلام، ويذمون المتكلمين، ويتبرؤون من المتكلمين، ولكنهم وقعوا في الحلول والاتحاد.

وشيوخ أهل الكلام يعيبون طريقة المتصوفة، ويصنفون في ذم السماع والوجد، وكثيرٌ من الزهد والعبادة التي أحدثها المتصوفة ينكرونها، ويذمون طريقة الصوفية. ولكنهم أقرب إلى اليهود.

ولا يسلم الإنسان إلا إذا ابتعد عن طريقة هؤلاء وهؤلاء، عن طريقة المتكلمين من المعتزلة وأشباههم من اليهود، وعن طريقة المتصوفة ومن أشبههم من النصارى.

قال الشارح:

وَلِفِرَقِ الضُّلالِ فِي الْوَحْيِ طَرِيقَتَانِ: طَرِيقَةُ التَّبْدِيلِ، وَطَرِيقَةُ التَّجْهِيلِ.

أَمَّا أَهْلُ التَّبْدِيلِ فَهُمْ نَوْعَانِ: أَهْلُ الْوَهْمِ وَالتَّخْيِيلِ، وَأَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ.

فَأَهْلُ الْوَهْمِ وَالتَّخْيِيلِ، هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الأَنْبِيَاءَ أَخْبَرُوا عَنِ اللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ بِأُمُورٍ غَيْرِ مُطَابِقَةٍ لِلأَمْرِ فِي نَفْسِهِ! لَكِنَّهُمْ خَاطَبُوهُمْ بِمَا يَتَخَيَّلُونَ بِهِ وَيَتَوَهَّمُونَ بِهِ أَنَّ اللهَ شَيْءٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ، وَأَنَّ الأَبْدَانَ تُعَادُ، وَأَنَّ لَهُمْ نَعِيمًا مَحْسُوسًا، وَعِقَابًا مَحْسُوسًا، وَإِنْ كَانَ الأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ، لأَنَّ مَصْلَحَةَ الْجُمْهُورِ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا فَهُوَ كَذِبٌ لِمَصْلَحَةِ الْجُمْهُورِ!! وَقَدْ وَضَعَ ابْنُ سِينَا وَأَمْثَالُهُ قَانُونَهُمْ عَلَى هَذَا الأَصْلِ.

وَأَمَّا أَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ، فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يَقْصِدُوا بِهَذِهِ الأَقْوَالِ مَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الأَمْرِ، وَإِنَّ الْحَقَّ فِي نَفْسِ الأَمْرِ هُوَ مَا عَلِمْنَاهُ بِعُقُولِنَا! ثُمَّ يَجْتَهِدُونَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الأَقْوَالِ إِلَى مَا يُوَافِقُ رَأْيَهُمْ بِأَنْوَاعِ التَّأْوِيلاتِ!! وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ لا يَجْزِمُونَ بِالتَّأْوِيلِ، بَلْ يَقُولُونَ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ كَذَا. وَغَايَةُ مَا مَعَهُمْ إِمْكَانُ احْتِمَالِ اللَّفْظِ.

---

قال الشيخ:

فرق الضلال لهم في الوحي طريقتان: طريقة التبديل، وطريقة التجهيل؛ كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في «الحموية».

أهل التبديل ينقسمون إلى نوعين: (أَهْلُ الْوَهْمِ وَالتَّخْيِيلِ، وَأَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ)، هذه من فرق الضلال الذين هم فرقة التبديل. (فَأَهْلُ الْوَهْمِ وَالتَّخْيِيلِ، هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الأَنْبِيَاءَ أَخْبَرُوا عَنِ اللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ بِأُمُورٍ غَيْرِ مُطَابِقَةٍ لِلأَمْرِ فِي نَفْسِهِ)، ليس هناك حقيقة يوم آخر، وليس عندهم حقيقة جنة ولا نار، وإنما أرادوا أن يكون لهم أتباع، وأرادوا أن هذه خيالات، يخيلون إلى عامة الناس حتى إذا قالوا: إن هناك جنة، وفيها نعيم، وفيها ثواب، وهناك نار، وفيها عقاب. تبعوهم، وإلا يقولون: ليس هناك بعث ولا نشور، ولا يوم قيامة، ولا جنة ولا نار، (لَكِنَّهُمْ خَاطَبُوهُمْ بِمَا يَتَخَيَّلُونَ بِهِ وَيَتَوَهَّمُونَ بِهِ أَنَّ اللهَ شَيْءٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ)، كأنهم ينكرون أيضًا الخالق الذي هو رب العالمين، يقولون: يخاطبون العامة ويوهموهم أن الله شيء عظيم كبير، (وَأَنَّ الأَبَدَانَ تُعَادُ)، أي: تُبعث يوم القيامة، مع أن ذلك ليس بحقيقة، يوهمونهم أن هناك نعيم محسوس وعقاب محسوس، ومع أن الأمر ليس كذلك.

هذه عقيدة أهل التخييل، كأنهم يقولون: ليس هناك بعث ولا نشور، ولا إعادة للأبدان، وليس هناك رب ولا يوم آخر، وليس هناك نعيم ولا عقاب. يقولون: مصلحة الجمهور في ذلك، لا يستجيبون إلا إذا كان هناك خيالات، وإلا إذا كان هناك شيء يعتقدونه، وإن كان كذبًا، وهذا الكذب لمصلحة الجمهور.

قال ـ رحمه الله ـ: (وَقَدْ وَضَعَ ابْنُ سِينَا وَأَمْثَالُهُ قَانُونَهُمْ عَلَى هَذَا الأَصْلِ)، والعياذ بالله. وقد توسع فيه شيخ الإسلام ابن تيمية في «الحموية» وغيره، هذه

طريقة أهل التخييل وأهل الوهم ونحو ذلك.

ثم قال: (**وَأَمَّا أَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ، فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يَقْصِدُوا بِهَذِهِ الأَقْوَالِ مَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الأَمْرِ**)، ما قصدوا أن الله تعالى موصوف بهذه الصفات؛ لذلك يقولون: الأنبياء ما قصدوا الحق في نفس الأمر (**وَإِنَّ الْحَقَّ فِي نَفْسِ الأَمْرِ هُوَ مَا عَلِمْنَاهُ بِعُقُولِنَا**)، وما تدلنا عليه أفهامنا. ثم بعد ذلك يجتهدون في تأويل هذه الأقوال وهذه النصوص، ويسمون ذلك تأويلاً، يحرفونها إلى ما يوافق آراءهم وعقولهم، (**أَكْثَرُهُمْ لا يَجْزِمُونَ بِالتَّأْوِيلِ، بَلْ يَقُولُونَ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ كَذَا. وَغَايَةُ مَا مَعَهُمْ إِمْكَانُ احْتِمَالِ اللَّفْظِ**)، وهكذا. وهذه طريقة المعتزلة، وكذلك أيضًا طريقة الأشعرية في كثير من تأويلاتهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا أَهْلُ التَّجْهِيلِ وَالتَّضْلِيلِ، الَّذِينَ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ: إِنَّ الأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَ الأَنْبِيَاءِ جَاهِلُونَ ضَالُّونَ، لا يَعْرِفُونَ مَا أَرَادَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الآيَاتِ وَأَقْوَالِ الأَنْبِيَاءِ! وَيَقُولُونَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّصِّ تَأْوِيلٌ لا يَعْلَمُهُ إِلا اللهُ، لا يَعْلَمُهُ جَبْرِيلُ وَلا مُحَمَّدٌ وَلا غَيْرُهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَضْلا عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ يَقْرَأُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وَهُوَ لا يَعْرِفُ مَعَانِيَ هَذِهِ الآيَاتِ! بَلْ مَعْنَاهَا الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ لا يَعْرِفُهُ إِلا اللهُ تَعَالَى!! وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةُ السَّلَفِ!!.

---

قال الشيخ:

وأما أهل التجهيل وأهل التضليل فإن حقيقة قولهم (إِنَّ الأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَ الأَنْبِيَاءِ جَاهِلُونَ ضَالُّونَ)، وأنا نحن الذين عرفنا ولنا أدلة ولنا عقول، فالأنبياء وأتباعهم لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات، ولا أقوال الأنبياء. مع أن الأنبياء قالوها ابتداءً.

يقولون: (يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّصِّ تَأْوِيلٌ لا يَعْلَمُهُ إِلا اللهُ، لا يَعْلَمُهُ جَبْرِيلُ وَلا مُحَمَّدٌ وَلا غَيْرُهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَضْلا عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ)، هكذا يقولون: إن النبي ﷺ جاهل أو إنه يضلل الناس. يقولون: إنه يقرأ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ومع ذلك لا يعرف معاني هذه الآيات، وكأنها كلام أعجمي، مع أن الله تعالى ذكر أن القرآن بلسان عربي مبين، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت:٤٤]، فيقولون: إن الرسول وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وكذلك بقية الأنبياء لا يعرفون معاني هذه الآيات التي وردت في هذا الكتاب. (بَلْ مَعْنَاهَا الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ لا يَعْرِفُهُ إِلا الله تَعَالَى)، ويتأولون أن ذلك من المتشابه الذي قال الله فيه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٧].

قال ـ رحمه الله ـ: (وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةُ السَّلَفِ)، يعني: أن السلف الصالح ـ من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والأئمة والمحدثين ـ لا يعرفون ذلك، وأنهم يقرؤون هذه النصوص ولا يعتقدون معناها، يقولون: إننا والسلف الجميع على نفي الصفات في الأمر، ولكن السلف سكتوا، ونحن تكلمنا وأوَّلنا وعرفنا، حتى توافق ما في العقول. هكذا طريقتهم وهكذا عادتهم.

قال الشارح:

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ المُرَادَ بِهَا خِلافُ مَدْلُولِهَا الظَّاهِرِ المَفْهُومِ، وَلا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ، كَمَا لا يُعْلَمُ وَقْتُ السَّاعَةِ! وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ تُجْرَى عَلَى ظَاهِرِهَا وَتُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهَا!! وَمَعَ هَذَا يقولون: فَلا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا إِلا الله، فَيَتَنَاقَضُونَ حَيْثُ أَثْبَتُوا لَهَا تَأْوِيلاً يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا، وَقَالُوا مَعَ هَذَا: إِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَهَؤُلاءِ يَشْتَرِكُونَ فِي الْقَوْلِ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يُبَيِّنِ الْمُرَادَ بِالنُّصُوصِ الَّتِي يَجْعَلُونَهَا مُشْكِلَةً أَوْ مُتَشَابِهَةً، وَلِهَذَا يَجْعَلُ كُلُّ فَرِيقٍ الْمُشْكِلَ مِنْ نُصُوصِهِ غَيْرَ مَا يَجْعَلُهُ الْفَرِيقُ الآخَرُ مُشْكِلاً.

---

قال الشيخ:

قولهم: (إِنَّ المُرَادَ بِهَا خِلافُ مَدْلُولِهَا الظَّاهِرِ الْمَفْهُومِ)، هذه طريقة الذين يقولون: إن ظاهر النصوص غير مراد، والمراد بها خلاف ما تدل عليه في الظاهر، وخلاف ما يتبادر إلى الفهم، وذلك المراد لا يعلمه أحد (كَمَا لا يُعْلَمُ وَقْتُ السَّاعَةِ).

وآخرون قالوا: (تُجْرَى عَلَى ظَاهِرِهَا وَتُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهَا)، وهؤلاء وقعوا في التشبيه، ومع هذا يقولون: (فَلا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا إِلا الله، فَيَتَنَاقَضُونَ حَيْثُ أَثْبَتُوا لَهَا تَأْوِيلاً يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا، وَقَالُوا مَعَ هَذَا: إِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهَا). لا شك أن هذا تناقض، (وَهَؤُلاءِ يَشْتَرِكُونَ فِي الْقَوْلِ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يُبَيِّنِ الْمُرَادَ بِالنُّصُوصِ الَّتِي يَجْعَلُونَهَا مُشْكِلَةً أَوْ مُتَشَابِهَةً)، مشتركون في ذلك، فيجعلون

نصوص الصفات مشتركة مشكلة متشابهة، (وَلِهَذَا يَجْعَلُ كُلُّ فَرِيقٍ الْمُشْكِلَ مِنْ نُصُوصِهِ غَيْرَ مَا يَجْعَلُهُ الْفَرِيقُ الآخَرُ مُشْكِلاً)، فالذين يثبتون يقولون: إن المتشابه هو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ونحو ذلك. فيجعلون هذا هو المشكل. والمعتزلة يقولون: المشكل هو قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، ونحو ذلك.

قال الشارح:

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَمْ يَعْلَمْ مَعَانِيَهَا أَيْضًا! وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: عَلِمَهَا وَلَمْ يُبَيِّنْهَا، بَلْ أَحَالَ فِي بَيَانِهَا عَلَى الأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَعَلَى مَنْ يَجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ تِلْكَ النُّصُوصِ!! فَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَعْلَم أو لَمْ يُعَلِّم، بَل نَحْنُ عَرَفْنَا الحَقَّ بِعُقُولِنَا، ثُمَّ اجْتَهَدْنَا فِي حَمْلِ كَلامِ الرَّسُولِ عَلَى مَا يُوَافِقُ مَعْقُولَنَا، وَأَنَّ الأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ لا يَعْرِفُونَ الْعَقْلِيَّاتِ!! وَلا يَفْهَمُونَ الـ[illegible]مِعيَّاتِ!! وَكُلُّ ذَلِكَ ضَلالٌ وَتَضْلِيلٌ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ.

نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ الْوَاهِيَةِ، الْمُفْضِيَةِ بِقَائِلِهَا إِلَى الْهَاوِيَةِ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

---

قال الشيخ:

قوله: (ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَمْ يَعْلَمْ مَعَانِيَهَا أَيْضًا)، هكذا أيضًا يقولون: إنها لا تُعلم معانيها. ومنهم من يقول: إن الرسول (عَلِمَهَا وَلَمْ يُبَيِّنْهَا، بَلْ أَحَالَ فِي بَيَانِهَا عَلَى الأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ)، وعلى هذا يكون الرسول كتم، وحاشاه من ذلك.

يقولون: (أَحَالَ فِي بَيَانِهَا عَلَى الأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَعَلَى مَنْ يَجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ تِلْكَ النُّصُوصِ)، كأنه يقول: اجتهدوا في إحالتها، فكروا بعقولكم ثم اصرفوها إلى ما يوافق عقولكم، ولا تأخذوها على ظاهرها، ولا تفهموا منها

شيئًا مما تدل عليه. يحيلها على من يجتهد في العلم بتأويل تلك النصوص ولو كان يتكلف.

والحاصل: أنهم جميعًا مشتركون في أن الرسول ﷺ لم يعلم معانيها، أو لم يُعلمه، وإنما يقولون: نحن عرفنا الحق بعقولنا، ثم اجتهدنا في فهم كلام الرسول ﷺ على ما يوافق معقولنا. كأنهم يقولون: نحن أعلم من الرسول، ونحن أعلم من الصحابة، ونحن أعلم من السلف.

ويقولون: (إِنَّ الأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ لا يَعْرِفُونَ الْعَقْلِيَّاتِ!! وَلا يَفْهَمُونَ السَّمْعِيَّاتِ!!)، وهذا كله ضلال وتضليل عن سواء السبيل ـ نعوذ بالله ـ حيث جهَّلوا أنبياء الله، وجعلوا أنفسهم أعلم من الأنبياء، حيث إنهم فكروا ولما دلتهم عقولهم الزائغة على خلاف هذه النصوص قالوا: إن هذه النصوص لا يعلمها الأنبياء، أو يعلمونها ولكن لم يبينوا معانيها، ولم يبينوا ما تدل عليه، وأما نحن فإننا فكرنا وتذكرنا وصارت معلوماتنا وعقولنا تفكر في هذا الكون، فدلتنا عقولنا على الحق، فنحن نحتاج إلى أن نحرف تلك النصوص بما نسميه تحريفًا أو تأويلاً، حتى لا تخالف معقولاتنا، ولا تخالف ما نعقله، ولو كان ذلك خلاف ما يتبادر إلى الأذهان.

ولهذا يقولون: طريقتنا نحن الخلف أعلم وأحكم؛ لأننا أزلنا ذلك الإشكال الذي يُفهم من تلك النصوص، حيث إن ظاهرها يخالف المعقولات. نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

# الفَهَارِسُ

أَوَّلًا: فَهْرَسُ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ.

ثَانِيًا: فَهْرَسُ الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ.

ثَالِثًا: فَهْرَسُ الآثَارِ المَرْوِيَّةِ.

رَابِعًا: فَهْرَسُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ.

خَامِسًا: فَهْرَسُ المَوْضُوعَاتِ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



# فهرس الآيات القرآنية


| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| سورة الفاتحة | | |
| ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ...﴾ | ٢ـ٧ | ١/ ٢٦٠، ٢/ ٣٦ |
| ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ | ٤ | ٤/ ٢٣٤ |
| ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ | ٥ | ١/ ٦٦، ٢/ ٥٤٥، ٥٥٦ |
| ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ | ٦ | ٤/ ٢٥٤، ٤٩٧ |
| ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ...﴾ | ٦، ٧ | ١/ ٨٦، ١٠٨، ٣/ ٥٧٨، ٤/ ١٣، ٥/ ٣٠٥، ... |
| سورة البقرة | | |
| ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ | ١، ٢ | ٢/ ١٠٩، ١١٢ |
| ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ...﴾ | ٢، ٣ | ٤/ ٩٨، ١٠٠، ١٧٣، ١٧٦ |
| ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ | ٣ | ٣/ ٢٥٢، ٣٨٨ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ...﴾ | ٦ | ٣/ ٢٥٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ... ﴾ | ٧ | ٢/ ٦٠١ |
| ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ... ﴾ | ٨ | ٣/ ٢٥٢ |
| ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ | ١٠ | ٢/ ٣٠٢، ٦٠٠ |
| ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ... ﴾ | ١٤ | ١/ ٥٨٧، ٣/ ٣٤٠، ٤٣٦، ٥/ ٦٦ |
| ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ | ١٨ | ٢/ ٦٠٤ |
| ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ | ٢٠ | ١/ ٣٥٢، ٣٦١ |
| ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ... ﴾ | ٢١، ٢٢ | ١/ ٢٣٣، ٢٣٦، ٣/ ٢٤٣، ٥٢٢، ٤/ ٤٠٢، ... |
| ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ | ٢٣ | ١/ ٧٢، ٥٦٤، ٥٦٦، ٢/ ١٠٣ |
| ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا... ﴾ | ٢٣، ٢٤ | ٢/ ١٠٦ |
| ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾ | ٢٤ | ٣/ ٣٢٣، ٤/ ٢٨٠ |
| ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ | ٢٥ | ٣/ ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٩، ٤/ ٢٨١ |
| ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ... كُنتُمْ أَمْوَٰتًا ... ﴾ | ٢٨ | ٤/ ١٣٤، ١٤٠ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ | ٢٩ | ١/ ٣١٧، ٣٦١، ٣/ ٥٢٠، ٤٩٨ |
| ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ | ٣٠ | ٢/ ٧٦، ٤/ ٢٧٥، ٥/ ٣٧ |
| ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ | ٣١ | ٣/ ١٦٠، ١٦١، ٤/ ٤٠٨ |
| ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ ...﴾ | ٣١، ٣٢ | ٣/ ١٦٣ |
| ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ | ٣٢ | ٢/ ٥١٦، ٣/ ١٦٢، ٤/ ٧١ |
| ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ | ٣٤ | ٢/ ٧٦، ٣/ ١٥٤، ١٥٦ |
| ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ | ٣٦ | ٢/ ٧٨ |
| ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ | ٣٧ | ٣/ ١٥٥ |
| ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ...﴾ | ٤٠، ٤١ | ٢/ ٥٥٤ |
| ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ | ٤١ | ٢/ ٣٨٧ |
| ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ ...﴾ | ٤٢ | ١/ ١٤٣، ١٤٥، ٣/ ٤٠٥، ٥/ ٣٠٢، ... |
| ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ | ٤٣ | ٢/ ٥١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ | ٤٨ | ٤/ ٢٤٥ |
| ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ | ٤٩ | ٣/ ٩٢، ٤٩٦ |
| ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ | ٥٥ | ٢/ ١٥٩ |
| ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ | ٥٨ | ٣/ ٤٩٧ |
| ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ | ٦١ | ٤/ ٥٢٣، ٥٢٧ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ | ٦٧ | ٤/ ٥٧٢ |
| ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ...﴾ | ٧٣ | ٤/ ٢٠٠ |
| ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ...﴾ | ٧٤ | ٢/ ٦٠٢ |
| ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ | ٧٥ | ٢/ ٧٧، ١٠٧، ٣/ ٤٩٦ |
| ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ...﴾ | ٧٨، ٧٩ | ٢/ ٦٥، ٤٩٧، ٥/ ٢٥٢ |
| ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا ...﴾ | ٨٠، ٨١ | ٤/ ٣٠٦، ٣٠٩ |
| ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ | ٨٣ | ١/ ٢٧١ |
| ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ | ٨٥ | ١/ ١٤٤، ٢/ ١٦٢، ٣/ ٥٠٠، ٤/ ٥٣٤، ... |
| ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ | ٩٠ | ٥/ ٣٠٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ...﴾ | ٩٣ | ٣/ ٦٠٥ |
| ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ...﴾ | ٩٧، ٩٨ | ٣/ ١٢٤ |
| ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ...﴾ | ٩٨ | ٣/ ١١٧، ٤٠٥، ٤٠٧ |
| ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا...﴾ | ١٠٢ | ٤/ ٤٢٣، ٥/ ١٧٠، ١٨٣، ١٩١، ... |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ | ١٠٤ | ٣/ ٣٦٩، ٤٦٥ |
| ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ | ١٠٩ | ١/ ١٧ |
| ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ...﴾ | ١١٣ | ٥/ ٢٤٦ |
| ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾ | ١٢٤ | ١/ ٦١٤، ٣/ ٩٧، ٤/ ٤٢٥، ... |
| ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ | ١٢٥ | ٣/ ١٠٠ |
| ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ | ١٢٧ | ٣/ ١٠٠ |
| ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا...﴾ | ١٣٠، ١٣١ | ١/ ٣٠٣ |
| ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ...﴾ | ١٣٣ | ٢/ ٤٢٥ |
| ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ...﴾ | ١٣٤ | ٥/ ٣١ |
| ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾ | ١٣٦ | ٣/ ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٥٣٦، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ | ١٤٣ | ١/ ١٤٦، ٣/ ٢٧١، ٣٤٩ |
| ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا ...﴾ | ١٤٦ | ١/ ٩٧، ٢/ ٦٢، ٣/ ٣٤٨ |
| ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ | ١٥٢ | ١/ ٩٥، ٦٠٨ |
| ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ...﴾ | ١٥٤ | ٤/ ١٩٠، ١٩٤ |
| ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ...﴾ | ١٥٥ | ٢/ ٤٨١، ٣/ ٥٦٠ |
| ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ | ١٦٠ | ٣/ ٣٠٣ |
| ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾ | ١٦٣ | ١/ ١٨٧، ٣٦٩، ٢/ ٣٠٨ |
| ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ...﴾ | ١٦٤ | ١/ ١٨٨ |
| ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ...﴾ | ١٦٦، ١٦٧ | ٢/ ٤٢٧ |
| ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ | ١٦٧ | ٣/ ٢٤١، ٦٠٦، ٤/ ٣٠٨، ٣١٨، ٣١٩، ... |
| ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾ | ١٧٠ | ٢/ ٤٢٥ |
| ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ | ١٧١ | ٣/ ٣٧٢ |
| ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ ...﴾ | ١٧٢ | ٣/ ٤٤٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ...﴾ | ١٧٤ | ١/ ١٤٥، ٥/ ٣٠٧ |
| ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ | ١٧٦ | ٢/ ٣٩، ٥/ ٢٢٥ |
| ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ...﴾ | ١٧٧ | ٣/ ١٠١، ١٠٣، ١٣٢، ٤١٢، ٤١٥، ٤٢٤ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ...﴾ | ١٧٨ | ٢/ ٤٩٥، ٣/ ٢٥٨، ٢٦٣، ٤٦٥، ٤/ ١٧ |
| ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ | ١٧٩ | ٣/ ٢٨١ |
| ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ | ١٨١ | ٤/ ٢٤٣ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ | ١٨٣ | ٣/ ٤٦٥، ٤/ ٤٢٤ |
| ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا...﴾ | ١٨٤ | ٤/ ٤٠٩ |
| ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ...﴾ | ١٨٥ | ١/ ٣٨٩، ٢/ ٤٦٣، ٥٤٩، ٤/ ٣٥٣، ... |
| ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ...﴾ | ١٨٦ | ٢/ ١٧، ٣٨٩، ٣/ ٥٤٤، ٦٣، ٤/ ٤٦٩، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ | ١٩٥ | ١/ ٣٣٤ |
| ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ | ١٩٦ | ٥/ ٥١ |
| ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ | ١٩٧ | ٢/ ٥٧١، ٤/ ٤٠٠ |
| ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ | ٢٠٠ | ٢/ ٥٠٦، ٥٠٨ |
| ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾ | ٢٠٤ | ٢/ ٢٣١ |
| ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾ | ٢٠٤، ٢٠٥ | ٢/ ٢٤٢ |
| ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ | ٢٠٥ | ٢/ ٤٦١، ٤/ ٥٩ |
| ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ ...﴾ | ٢٠٨ | ٣/ ٤٦٥ |
| ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ ...﴾ | ٢١٠ | ٢/ ١٨٩ |
| ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ ...﴾ | ٢١١، ٢١٢ | ٣/ ٣٣٠ |
| ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ | ٢١٣ | ٣/ ١٩٤، ٥/ ٢٤٩ |
| ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ...﴾ | ٢١٧ | ٣/ ٢٦٣ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ...﴾ | ٢١٨ | ٣/ ٢٩٨، ٣٢١ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ | ٢٢٢ | ١/ ٦٢٨، ٤/ ٥٩ |
| ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ | ٢٢٤ | ٢/ ٢٠٨، ٣٠ |
| ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ | ٢٣٨ | ٢/ ٨٨، ٣/ ٤٠٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ | ٢٤٣ | ٢/ ٢٨٢، ٤٩٧ |
| ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ | ٢٤٦ | ٢/ ٢٨٢ |
| ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ...﴾ | ٢٤٩ | ٤/ ٤٢٦ |
| ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ | ٢٥٣ | ١/ ٣٨٩، ٣٩٢، ٢/ ٤٥٢، ٨١، ٣/ ٨٨، ... |
| ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ | ٢٥٤ | ٣/ ٣٠٢ |
| ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ | ٢٥٥ | ١/ ٢١٥، ٣١٤، ٢/ ٣٥٣، ١٨١، ٣/ ٤٩٨، ... |
| ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ | ٢٥٦ | ٤/ ٤٠٦، ٥/ ٣٨ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ ...﴾ | ٢٥٧ | ٣/ ٢٠٠، ٥٠٨، ٥١٠، ٥١٤، ٥٢٠، ... |
| ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ...﴾ | ٢٥٨ | ١/ ١٩٣، ٢/ ٥١٦ |
| ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ ...﴾ | ٢٥٩ | ٤/ ١٤٢، ١٦٥ |
| ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ ...﴾ | ٢٦٠ | ٣/ ٣٦٢، ٤/ ١٩٩ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ...﴾ | ٢٦٤ | ٣/ ٢٤٠ |
| ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ...﴾ | ٢٦٩ | ١/ ٩٥ |
| ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ...﴾ | ٢٧١ | ٣/ ٣٠٤ |
| ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ | ٢٧٧ | ٣/ ٤٠٧، ٤٠٨ |
| ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ | ٢٧٣ | ١/ ٥٨١ |
| ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ ...﴾ | ٢٧٥ | ٣/ ٢٦١، ٢٨٥ |
| ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ | ٢٧٧ | ٣/ ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩ |
| ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ...﴾ | ٢٨١ | ١/ ١٨، ٤/ ٢٤٥ |
| ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ | ٢٨٤ | ١/ ٤٩٧، ٤٩٨، ٢/ ٥٠٠، ٩٢، ٤/ ٤١٢، ... |
| ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ | ٢٨٥ | ٢/ ٢٠٦، ٣/ ١٠١، ١٠٣، ١١٤، ... |
| ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ | ٢٨٦ | ٢/ ٩٢، ٣/ ١١٤، ٤/ ٢٢٣، ٣٣٠، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| سورة آل عمران | | |
| ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ...﴾ | ١ ـ ٤ | ١/ ٤١٥، ٤٢١، ٢/ ١٠٩، ١١٢، ٣/ ١٩٤، ... |
| ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ | ٣ | ٣/ ٤٠٥ |
| ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ | ٤ | ٣/ ١٩٧ |
| ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ ...﴾ | ٧ | ٢/ ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٦، ٥٢٧، ٦٠٢، ... |
| ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ | ٨ | ٢/ ٦٠٢، ٦٠٤ |
| ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾ | ١٨ | ٣/ ١٢٨، ١٢٩ |
| ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾ | ١٨، ١٩ | ١/ ٣، ١١٠، ١٧٥، ... |
| ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ | ١٩ | ٣/ ٤٥، ٥/ ٢٣٦، ٢٦٣ |
| ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ ...﴾ | ٢٠ | ١/ ٦٣٨ |
| ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ | ٢٦ | ٢/ ٣١٩ |
| ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ ...﴾ | ٢٦، ٢٧ | ٤/ ٥١٧ |
| ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ | ٢٨ | ٢/ ٣١٦ |
| ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا ...﴾ | ٣٠ | ٤/ ٢٥٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ...﴾ | ٣١ | ١/ ٦١٤، ٦٣١، ٢/ ٢٦٥، ٣/ ٨٧، ٤٥٥، ٤/ ٣٩، ... |
| ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ | ٣٢ | ٤/ ٥٩ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾ | ٣٣ | ٣/ ٩١، ١٦٧ |
| ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ | ٤٠ | ١/ ٤٥١ |
| ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ | ٥٠ | ١/ ٦٠٠، ٢/ ٥٤، ٥/ ٢٦٥ |
| ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ | ٥٥ | ٣/ ٤٤، ٤٦ |
| ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ | ٥٨ | ١/ ١٠٧، ١١٠، ٣/ ٤٣٠ |
| ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ...﴾ | ٥٩ | ٢/ ٨٥ |
| ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ...﴾ | ٦١ | ٥/ ٢٢ |
| ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾ | ٦٤ | ١/ ٢٥٣، ٣/ ٥٣٦، ٥٤١ |
| ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ | ٧٦ | ١/ ٦٢٨ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ...﴾ | ٧٧ | ٢/ ١٥، ١٧ |
| ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم ...﴾ | ٧٨ | ٥/ ٧٤ |
| ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ...﴾ | ٨١ | ٥/ ٢١٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٨٣ | ٣/ ٤١٨ |
| ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ...﴾ | ٨٥ | ١/ ٢٢٠، ٥/ ٢٦٣، ٢٦٥ |
| ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾ | ٩٤ | ١/ ٥٩١ |
| ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ | ٩٧ | ٣/ ١٧، ٤/ ٣٣٠، ٣٣٣ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ | ١٠٢ | ٤/ ٤٤٣ |
| ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ | ١٠٣ | ١/ ١٠٧، ٤/ ١٣، ٦١، ٥/ ٢٢٥، ... |
| ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ...﴾ | ١٠٤ | ١/ ٩٥ |
| ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ ...﴾ | ١٠٥ | ٤/ ١٣، ٣٩، ٤٢، ٦١، ٥/ ٢٢٥، ... |
| ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ | ١٠٦ | ٢/ ١٢٥، ٢٨٠، ٣/ ٦٢٤ |
| ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ | ١١٩ | ١/ ٥٤٢، ٤/ ٥٧ |
| ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ | ١٢٠ | ١/ ٥٥٠ |
| ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ | ١٢٨ | ٢/ ٣٩٨، ٤٠٢ |
| ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ | ١٣٢ | ٣/ ٦٥٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ...﴾ | ١٣٣ | ٣/ ٤١٥، ٤٣٠، ٤/ ٢٧٩، ٢٨٤ |
| ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ | ١٣٤ | ١/ ٦٢٨ |
| ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ ...﴾ | ١٣٧ | ٣/ ٣٦٥ |
| ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ | ١٣٨ | ١/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٣٣٩، ٢/ ١٨٧،... |
| ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ...﴾ | ١٣٩ | ١/ ٥٨٥، ٦٠٤ |
| ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ | ١٤٠ | ٤/ ١٩٥ |
| ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ...﴾ | ١٤٤ | ٥/ ٢٥٣ |
| ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ...﴾ | ١٤٥ | ١/ ٥٢٨ |
| ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ ...﴾ | ١٥٢ | ٤/ ٣٥ |
| ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ ...﴾ | ١٥٤ | ١/ ٥٣١، ٢/ ٣٩٨، ٤٠١، ٥٨٤، ... |
| ﴿ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ | ١٥٥ | ٢/ ١٠٨ |
| ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ...﴾ | ١٥٩ | ١/ ٩٦، ٥/ ٣٠٣ |
| ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ | ١٦٢ | ٤/ ٥٢٧ |
| ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ ...﴾ | ١٦٤ | ١/ ٦٠٦، ٦٠٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ...﴾ | ١٦٥ | ٣/ ٥٥٧، ٥٦٣، ٤/ ٥٨٤، ٣٣، ٣٥، ... |
| ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ | ١٦٦ | ٣/ ٥٥٧ |
| ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ | ١٦٧ | ٣/ ٣٩٣ |
| ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ | ١٦٨ | ١/ ٥٣٠ |
| ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ | ١٦٩ | ٤/ ١٦٦، ١٩٠، ١٩٤ |
| ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ...﴾ | ١٦٩ ـ ١٧١ | ٤/ ١٩١ |
| ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ...﴾ | ١٧١ ـ ١٧٣ | ٣/ ٣٩٥ |
| ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ...﴾ | ١٧٣ | ١/ ١٦٥، ٣/ ٣٩٣، ٣٩٤ |
| ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ...﴾ | ١٧٥ | ٢/ ٥٥٦، ٢٨٧، ٣/ ٣٠٩ |
| ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ | ١٨٢ | ٤/ ٢٣٧ |
| ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ...﴾ | ١٨٣، ١٨٤ | ١/ ٢٨٣ |
| ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ | ١٨٥ | ٤/ ١٣٧، ٢٩٠ |
| ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ...﴾ | ١٨٦ | ٤/ ٥٨٠ |
| ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ...﴾ | ١٨٧ | ٥/ ٧٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ | ٢٠٠ | ٢/ ٥٤٨ |
| سورة النساء | | |
| ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ | ١ | ١/ ٢٥٧، ٣٩٩، ٦٤٦ |
| ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ | ٣ | ٤/ ٤١٢، ٥٠٨ |
| ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ...﴾ | ١١ | ٥/ ٢٥٤ |
| ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ...﴾ | ١٤ | ١/ ١٣٤، ٣/ ٦٥٦، ٤/ ١٠٢، ٥/ ١٩٩، ... |
| ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ | ٢٣ | ٤/ ٤٢٤، ٤٢٨ |
| ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ...﴾ | ٢٥ | ٤/ ٣٣١، ٣٣٧ |
| ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ ...﴾ | ٢٦ـ٢٨ | ١/ ٣٨٩، ٢/ ٤٦٣، |
| ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ | ٢٧ | ٤/ ٤٢٩ |
| ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ | ٢٨ | ٤/ ٤٢٢، ٤٢٩ |
| ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ | ٢٩ | ٤/ ١٢٧، ١٢٩ |
| ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ...﴾ | ٣١ | ٤/ ٦١٣، ٦١٥ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ | ٣٤ | ٣/ ٢٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ | ٣٦ | ١/ ٢٧١ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ...﴾ | ٤٠ | ٢/ ٣٧٩، ٣/ ٣١٣، ٤/ ٢٣٧، ٥/ ٢٤٥، ... |
| ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ | ٤٦ | ١/ ١٢٦ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ | ٤٨ | ٣/ ١١١، ٢٩٩، ٣٠١، ٣١٣، ٦٠٣، ... |
| ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم...﴾ | ٤٩ | ٤/ ٤٤٨ |
| ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ | ٥١ | ٤/ ٥٧٢، ٥/ ١٧٣ |
| ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا ...﴾ | ٥٥ | ٢/ ٦٠١ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ...﴾ | ٥٦ | ٣/ ٦١٠، ٤/ ٣٠٩، ٣١٧ |
| ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ | ٥٧ | ١/ ٨٨، ٤/ ٢٨١، ٣٠٣، ... |
| ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ | ٥٨ | ١/ ١٠٩، ٣٤٩، ٤/ ٤٢٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ | ٥٩ | ١/ ١٢٥، ١٣٥، ٢/ ١٨٦، ٢٠٩، ٣/ ٦٥٨، ... |
| ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ...﴾ | ٦٠ | ١/ ١٣٥ |
| ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾ | ٦١، ٦٢ | ١/ ١٣٥، ١٣٦ |
| ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ...﴾ | ٦٤ | ١/ ٨٤، ٥/ ٧٥ |
| ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ...﴾ | ٦٥ | ١/ ١٣٤، ٢/ ٢٠٣، ٢٠٤، ٣/ ٥٤٦، ... |
| ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ ...﴾ | ٦٦-٦٨ | ٥/ ١٢٨، ١٣٠ |
| ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ...﴾ | ٦٩ | ١/ ٨٧، ١٦٣، ١٦٤، ٢/ ٦٠٠، ٣/ ٥٧٩، ... |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ...﴾ | ٧١ | ٢/ ٥٦٩، ٥٧٤ |
| ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ ...﴾ | ٧٧ | ٢/ ٥٨٤ |
| ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ...﴾ | ٧٨ | ٢/ ٤٩٤، ٥٨٤، ٣/ ٥٥٥، ٥٦١، ٥٦٢، ... |
| ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ...﴾ | ٧٨، ٧٩ | ٣/ ٥٥٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ | ٧٩ | ١/ ٢٨٩، ٦٤٢، ٣/ ٥٥٦، ٥٦٠، ٥٦٢، ... |
| ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ...﴾ | ٨٠ | ١/ ١٣٤، ٢/ ٢٦٥، ٣/ ٦٥٦، ٤/ ٣٢، ... |
| ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ | ٨٢ | ١/ ٩٤، ٢/ ١٠٦، ١١١، ٢٠٩، ٣/ ١٩٤، ١٩٧، ... |
| ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ | ٨٧ | ٢/ ١٠٩، ١١٠ |
| ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ | ٩٢ | ٣/ ٣٤٦، ٤/ ٣٤٠ |
| ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ...﴾ | ٩٣ | ٣/ ٢٦١، ٤/ ٥٢٣، ٥٢٧ |
| ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ ...﴾ | ٩٦ | ٣/ ٦٠٥ |
| ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ ...﴾ | ١٠٢ | ٢/ ٤٦٨، ٥٤٦، ٥٦٩، ٥٧٤، ٥/ ٢٤١، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ...﴾ | ١٠٤ | ٤/ ٤١٢ |
| ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ | ١١٣ | ١/ ١٣٢ |
| ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ...﴾ | ١١٤ | ٤/ ٤٤٤ |
| ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ ...﴾ | ١١٥ | ٤/ ٣٩، ٤١، ٥/ ٦٨ |
| ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ | ١١٦ | ٣/ ٢٤ |
| ﴿لَّأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ...﴾ | ١١٨ ـ ١٢٠ | ٤/ ١٠٤ |
| ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ | ١٢٢ | ٢/ ٦، ١١٠، ٣/ ١٢٠ |
| ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ | ١٢٣ | ٣/ ٣١٢ |
| ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ | ١٢٥ | ١/ ٦٣٢، ٣/ ٨٠، ٨٣ |
| ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ١٢٦ | ٣/ ٢٠ |
| ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ | ١٣٤ | ١/ ٣١٧، ٣٦١، ٤/ ٥٢٨ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ...﴾ | ١٣٥ | ٢/ ٤٢٤ |
| ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ...﴾ | ١٣٦ | ٣/ ١٠١، ١٠٣، ١٣٠، ٤٦٤ |
| ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ...﴾ | ١٣٧، ١٣٨ | ٣/ ١٠٣، ٣٤٠ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ...﴾ | ١٤٠ | ٢/ ٢٤٢ |
| ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ ...﴾ | ١٤١ـ١٤٣ | ٣/ ٤٣٩ |
| ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ | ١٤٥ | ٣/ ٣٤١ |
| ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ...﴾ | ١٥٠، ١٥١ | ١/ ١٤٤، ٣/ ٦٠٠، ٦٠١، ... |
| ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ | ١٥٣ | ٢/ ١٥٩ |
| ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ | ١٥٨ | ٣/ ٤٤، ٤٧ |
| ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ...﴾ | ١٥٩ | ٥/ ١٤٥، ١٤٩ |
| ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ | ١٦٣ | ٢/ ١٩٠، ١٩١، ١٩٧، ٣/ ١٩١، ... |
| ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ...﴾ | ١٦٤ | ١/ ٢٨٤، ٥١٤، ٢/ ١١، ١٣، ٣/ ٨٠، ... |
| ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ | ١٦٥ | ١/ ٨٣، ١١٦، ٢/ ١٣٣، ٤٢٠ |
| ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ | ١٦٦ | ١/ ٣١٤ |
| ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ | ١٦٩ | ٤/ ٣١٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ...﴾ | ١٧١ | ١/ ٣٠٨، ٢/ ٨٥، ٤/ ١٢٠، ٥٥٥، ٥/ ٢٦٩، ... |
| ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ...﴾ | ١٧٢ | ١/ ٧٣، ٥٦٦، ٣/ ١٢٩، ١٣٣، ١٧٤، ... |
| **سورة المائدة** | | |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ | ١ | ٢/ ٤٦٤، ٤/ ٤٢٤، ٤٢٩، |
| ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ...﴾ | ٣ | ١/ ١٣٣، ٢٧٦، ٣/ ١٤٥، ٤٢٣، ٤/ ٤٢٤، ... |
| ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ | ٤ | ١/ ٥٢٣ |
| ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ...﴾ | ٥ | ٣/ ٤٣١ |
| ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ...﴾ | ٦ | ١/ ٣٨٩، ٤/ ٧٧، ٨١، ٣٥٣، ... |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ ...﴾ | ٨ | ٣/ ٢٧١ |
| ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ..﴾ | ١٥ | ٢/ ٢١٨، ٢٢١ |
| ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ...﴾ | ١٧ | ١/ ١٩٦، ٣٠٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ | ١٨ | ٤/ ٥٩ |
| ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ | ٢٠ | ١/ ٥١٥ |
| ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ...﴾ | ٢٦ | ٤/ ٤٢٤ |
| ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ...﴾ | ٣٣ | ٢/ ٢٣٧ |
| ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ...﴾ | ٣٧ | ٢/ ٥٩٢، ٣/ ٢٤٠، ٤/ ٦٠٧، ٣١٨، ... |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ...﴾ | ٣٥ | ٢/ ٣٩٩ |
| ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ | ٤١ | ١/ ١٢٦، ٢/ ١٨٦ |
| ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ | ٤٤ | ٢/ ٥٥٤، ٣/ ٢٥٦، ٢٧٣، ٢٨٢، ... |
| ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾ | ٤٥ | ١/ ١٠٩، ٣/ ٢٧٣، ٤/ ١٨، ٤٢٤، ٤٢٨، ... |
| ﴿... لَمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾ | ٤٧ | ٣/ ٢٧٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا ...﴾ | ٤٨ | ١/ ١٣٢، ٣/ ١٩٩، ٤٠٨، ٥/ ٢٦٣، ... |
| ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ | ٥٠ | ١/ ٢٧٥، ٣/ ٢٨٢ |
| ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ | ٥٤ | ١/ ٦٣٠، ٣/ ٨٦ |
| ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾ | ٥٥، ٥٦ | ٣/ ٥١٠، ٥/ ٧٨ |
| ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾ | ٥٦ | ٣/ ٥١٠، ٥/ ٧٧ |
| ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ...﴾ | ٦٠ | ٤/ ٥٢٣ |
| ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ | ٦٤ | ١/ ٣١٢، ٢/ ٢٨٨، ٣١٨، ٤/ ٥٣٣، ... |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ | ٦٧ | ١/ ٩٤، ١١٥، ٢/ ٣٨، ١٧٥ |
| ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ...﴾ | ٧٣ | ١/ ١٩٦، ٣٠٨، ٢/ ٣٠٧ |
| ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ | ٧٥ | ١/ ٦١٣ |
| ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ...﴾ | ٧٧ | ١/ ١٠١، ٣٠٧، ٥/ ٢٦٩، ٣٠٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ...﴾ | ٧٩ | ٥/ ١٧٤ |
| ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ ...﴾ | ٨١ | ٣/ ٤٠٤ |
| ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ ...﴾ | ٨٧، ٨٨ | ٥/ ٢٧٢، ٢٧٣ |
| ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾ | ٨٩ | ٣/ ٣٠٢، ٤٤٢ |
| ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ ...﴾ | ٩٠ | ٥/ ١٦٦ |
| ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ | ٩٢ | ١/ ٢٧٦، ٣/ ٤٠٥، ٦٥٦،... |
| ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ...﴾ | ٩٣ | ٣/ ٢٧٩، ٢٨٤ |
| ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ | ٩٧ | ١/ ٣٦١ |
| ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ ...﴾ | ١٠١ | ١/ ٦ |
| ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ﴾ | ١١٦ | ٢/ ٦، ٣١٦، ٣٢١ |
| ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ ...﴾ | ١١٦، ١١٧ | ١/ ١٩٧ |
| ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ...﴾ | ١١٧، ١١٨ | ٥/ ٢٤٣ |
| ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ | ١١٩ | ٢/ ٦، ٤/ ٥٢٣، ٥٢٧، ٥٣١، ٥٣٣،... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ | ١٢٠ | ١/ ٣٦٦، ٣/ ٤٩٨، ٤/ ٣٣٨ |
| ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ ...﴾ | ١٢٥ | ٤/ ٤٢٩ |
| ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ | ١٤٥ | ٢/ ٤٩٥ |
| سورة الأنعام | | |
| ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ | ١ | ٢/ ٢٨، ٣٠، ٣/ ٤٠٥، ٤٠٧ |
| ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ...﴾ | ٨ | ٢/ ١٦٠، ٣/ ١٧٩ |
| ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ | ٩ | ٣/ ١٧٩ |
| ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ...﴾ | ١٤ | ١/ ٤٢٤، ٤٢٥، ٢/ ١٤٤ |
| ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ | ١٥ | ٤/ ٣١٤ |
| ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ | ١٨ | ٢/ ٣٢٤، ٣٢٩، ٣/ ٢٦، ٣٠، ٤٤، ... |
| ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ | ١٩ | ١/ ١٣٣، ٢٣٢، ٢٤٩، ٦٤٢، ... |
| ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ | ٢٦ | ٣/ ٣٤٢، ٣٤٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ | ٢٨ | ١/ ٥٣٧ |
| ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ...﴾ | ٣١ | ٤/ ٢٠٦ |
| ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ ...﴾ | ٣٩ | ١/ ٥٤٣، ٥٥٢، ٢/ ٤٥٥، ٤٥٦ |
| ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا ...﴾ | ٤٤ | ٤/ ٣٨٥، ٣٨٨، ٣٨٩ |
| ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ...﴾ | ٤٦ | ١/ ٢٣٣ |
| ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ ...﴾ | ٥٠ | ٣/ ١٦٧، ١٦٨، ١٧٨، ٥/ ١٠٢، ١١٠، ... |
| ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ | ٥٢ | ١/ ٣١٢، ٣٢٠ |
| ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ...﴾ | ٥٣ | ٤/ ٣٢٣، ٣٩٢ |
| ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ | ٥٤ | ٢/ ٣١٦، ٣٢١ |
| ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ...﴾ | ٥٩ | ٢/ ٤٥٧، ٥٢٨، ٥٨١ |
| ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ...﴾ | ٥٩، ٦٠ | ١/ ٥١٨، ٥٢٠ |
| ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا ...﴾ | ٦٠ | ٤/ ١١٨ |
| ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ | ٦١ | ٣/ ٣٠، ٤/ ١١١، ١١٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ ...﴾ | ٦٥ | ٢٢٦/٥ |
| ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ | ٦٨ | ١٢٨/١، ١٣٠، ٢٤٢/٢، ٢٣١/٣ |
| ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ...﴾ | ٧٦-٨٢ | ٢١٣/١، ١٨١/٥ |
| ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ...﴾ | ٨٢ | ٥٢٠/٣ |
| ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾ | ٨٣-٨٦ | ١٨٦/٣ |
| ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ | ٨٨ | ٢٤٠/٣، ٢٦٣ |
| ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ | ٩٠ | ٣٠٠/١، ٣٠٢ |
| ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ...﴾ | ٩١ | ٦٠٢/١ |
| ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ...﴾ | ٩٣ | ١١٣/٤، ١١٨، ١٣٠ |
| ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ | ٩٥ | ٣١٤/١ |
| ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ ...﴾ | ٩٧ | ١٧٥/٥ |
| ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ | ٩٩ | ٧٢/٢، ١٢٩، ١٣٢ |
| ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ...﴾ | ١٠٢، ١٠٣ | ١٤٧/٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ | ١٠٣ | ١/ ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٢/ ١٣٦،... |
| ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ...﴾ | ١١٠ | ٣/ ٧٥، ٧٧ |
| ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ...﴾ | ١١١، ١١٢ | ١/ ٥٤٣ |
| ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا ...﴾ | ١١٢ | ٢/ ٢٨٤، ٣/ ١٢٢ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ ...﴾ | ١١٤ | ٢/ ٧٠، ٧٢، ٣/ ٤٨ |
| ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ | ١١٥ | ٢/ ٦، ٧٧، ٥/ ١١٥، ١١٧،... |
| ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ | ١٢١ | ١/ ٥٧٩، ٦٣٧ |
| ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا ...﴾ | ١٢٢ | ١/ ٩٠، ٢/ ٥٩٨، ٣/ ٢٠٠ |
| ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ ...﴾ | ١٢٤ | ٤/ ٣٢٣، ٣٩٣، ٥/ ٧٥، ٩٠،... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ | ١٢٥ | ١/ ٣٨٨، ٣٨٩، ٢/ ٣٩٢، ٤٥١، ٤٥٥، ... |
| ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ...﴾ | ١٢٨ | ٤/ ٣٠٧، ٥/ ١٨٢ |
| ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا ...﴾ | ١٢٩ | ٤/ ٣٣، ٣٦ |
| ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ | ١٣٠ | ١/ ٦٤١، ٤/ ٢١٠ |
| ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ ...﴾ | ١٣٦ | ١/ ١٩٣ |
| ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ...﴾ | ١٤٨ | ١/ ٥٤٨، ٥٤٩، ٢/ ٤٥١ |
| ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ | ١٤٩ | ١/ ١١٦، ٢/ ٤٢٧، ٤٥٣، ٤/ ٣٩٩، ... |
| ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ...﴾ | ١٥١ | ٤/ ٤٢٠ |
| ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ...﴾ | ١٥١ـ١٥٣ | ٤/ ٦٢٦ |
| ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ | ١٥٢ | ٤/ ٤٠٧ |
| ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ | ١٥٣ | ١/ ٨٩، ٤/ ١٣، ٣٩، ٤٢، ٤/ ٢٥٤، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾ | ١٥٨ | ١/ ٣١٢، ٢/ ١٨٨، ٥/ ١٥٠، ١٥٥،... |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ...﴾ | ١٥٩ | ٤/ ١٤، ٣٩، ٤٣، ٥/ ٢٣٠ |
| ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ...﴾ | ١٦٠ | ٤/ ٢٣٤، ٢٣٧ |
| ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ | ١٦٤ | ٤/ ٤٣٣ |
| ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ...﴾ | ١٩١ | ١/ ٢٥٠ |
| **سورة الأعراف** | | |
| ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ | ١، ٢ | ٢/ ١١٠، ١١٢ |
| ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ | ٧ | ٢/ ٢٩١ |
| ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ...﴾ | ٨، ٩ | ٢/ ٢٩٤، ٤/ ٢٦٨ |
| ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ | ١٢ | ٢/ ٢٦٥، ٢٦٦، ٣/ ١٥٤، ١٥٧ |
| ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ | ١٦ | ٢/ ٤٤ |
| ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ...﴾ | ١٧ | ٣/ ٣٥، ٥/ ١٧٢ |
| ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ ...﴾ | ٢٠ | ٣/ ١٦٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ | ٢٢ | ٢/ ٣٣، ٧٧ |
| ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ...﴾ | ٢٣ | ١/ ٦٢٤، ٢/ ٢١٠، ٣/ ١٥٥، ٤/ ٦٨، ... |
| ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ | ٢٥ | ٢/ ٣٥١، ٤/ ١٩٩ |
| ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ | ٢٧ | ٤/ ١١٩، ١٢٤، ٥/ ١٧١ |
| ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ | ٣١ | ٣/ ٤٧٤، ٤/ ٥٠٧ |
| ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ...﴾ | ٣٣ | ٤/ ٦٥ |
| ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ...﴾ | ٣٤ | ١/ ٥٢٨، ٥٣٠، ٥٣٤، ٢/ ٤٠٤، ... |
| ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم ...﴾ | ٣٨ | ٢/ ٤٢٦ |
| ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ...﴾ | ٤٠ | ٤/ ١٤٥، ١٥١، ٣١٨ |
| ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ | ٤١ | ٤/ ٢٧٧ |
| ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ | ٤٤ | ٢/ ٢٩٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ...﴾ | ٥٣ | ٢/ ٢٩٠، ٢٩٣ |
| ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ | ٥٤ | ١/ ١٢٩، ٢١٣، ٤٣٣، ٢/ ١٩، ٢٢، ٢٤٤، ... |
| ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ...﴾ | ٥٥، ٥٦ | ٢/ ٣٨٤، ٣٨٥، ٤/ ٤٩٦ |
| ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ | ٥٧ | ٤/ ٢٢٣، ٥/ ١٦٤ |
| ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ | ٥٩ | ١/ ٨٤، ١٦٨، ١٦٩، ٥/ ٢٦٥، ... |
| ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ | ٦٥، ٧٣، ٨٥ | ١/ ١٦٨ |
| ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ ...﴾ | ٧١ | ٤/ ٥٢٧ |
| ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ | ٨٣ | ٣/ ٤٤٧ |
| ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ | ٩٥ | ٢/ ١٣٨ |
| ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ ...﴾ | ٩٩ | ٣/ ٢٨٩، ٢٩٠، ٣١١، ٣٢٤، ٣٣٢، ... |
| ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ...﴾ | ١٠٤ | ١/ ١٩٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ...﴾ | ١١٧-١١٩ | ٥/ ١٨٦ |
| ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ...﴾ | ١١٨، ١١٩ | ٥/ ١٩٢ |
| ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ | ١٢٦ | ٣/ ٦٣١، ٦٣٣ |
| ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ | ١٢٧ | ١/ ١٢٦ |
| ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ ...﴾ | ١٣٣ | ١/ ٥٧٢ |
| ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ | ١٣٧ | ٤/ ٤٢٤ |
| ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ...﴾ | ١٤٢ | ٥/ ٥١ |
| ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ | ١٤٣ | ١/ ٥١٤، ٦٢٢، ٢/ ١٢، ١٣، ٦٥، ... |
| ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾ | ١٤٤ | ٢/ ١٨، ٤٤، ٦٥، ١٩٢، ٣/ ٨٨، ... |
| ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا ...﴾ | ١٤٨ | ٢/ ١٠، ١٢ |
| ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ | ١٥١ | ١/ ٦٥ |
| ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ...﴾ | ١٥٦ | ٤/ ٢٠٠، ٣١٤، ٤٤٥ |
| ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ | ١٥٧ | ٢/ ٦١، ٦٢، ٥/ ٢٧٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ ... ﴾ | ١٥٨ | ١/ ٧٣، ١٣٣، ٥٦٤، ٦٤٢، ٣/ ٤٧٤، |
| ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ | ١٦٥ | ١/ ٦٥ |
| ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ... ﴾ | ١٧٢ | ٢/ ٤٠٣، ٤١٤، ٤١٧، ٤٤٤، ٤/ ٣٢٠، ... |
| ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ... ﴾ | ١٧٢، ١٧٣ | ٢/ ٤٠٦، ٤٢٥ |
| ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ... ﴾ | ١٧٣ | ٢/ ٤٣٠ |
| ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا ... ﴾ | ١٧٩ | ٤/ ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٧ |
| ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ | ١٨٠ | ١/ ٣٦٧، ٤٢٢، ٢/ ٣٠٥ |
| ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ | ١٨٢ | ٣/ ٣٢٥ |
| ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ | ١٨٥ | ١/ ١٧١، ٢/ ١٢٩، ١٣٢، ٥/ ٢٠٨، ... |
| ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ... ﴾ | ١٨٧ | ٤/ ٢١٥ |
| ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ... ﴾ | ١٨٨ | ٥/ ١٦٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ ...﴾ | ٢٠١ | ٣/ ٣٦٩ |
| ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ | ٢٠٢ | ٣/ ٣٧٠ |
| ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ...﴾ | ٢٠٤ | ٢/ ٥٧، ١٠٤ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ | ٢٠٦ | ٣/ ٤٥، ٤٩، ١٢١، ١٢٨، ١٣١، ... |
| **سورة الأنفال** | | |
| ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ | ١ | ١/ ١٣٤ |
| ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ | ٢ | ٣/ ٣٦٣، ٣٩٣، ٤٠٣، ٤٠٦، ٤٧٠، ... |
| ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ...﴾ | ٢ ـ ٤ | ٣/ ٤٦٩، ٥٢٦ |
| ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ...﴾ | ٣، ٤ | ٣/ ٤٠٧، ٤٧١ |
| ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ...﴾ | ٥، ٦ | ٤/ ٥٧٧ |
| ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا ...﴾ | ١٦ | ٣/ ٢٦١، ٦٠٥ |
| ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ...﴾ | ١٧ | ٤/ ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٥، ٣٨٢ |
| ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ...﴾ | ٢٣ | ١/ ٥٣٧ |
| ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ | ٢٤ | ١/ ٣٠٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ | ٢٩ | ٥/١٢٨، ١٣٠ |
| ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ...﴾ | ٣٣ | ٣/٣٠٤ |
| ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ | ٤٥ | ٢/٥٤٨ |
| ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ ...﴾ | ٥٨ | ١/٥٩٤ |
| ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ...﴾ | ٦٢، ٦٣ | ٤/٦١، ٨٣ |
| ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ ...﴾ | ٦٤ | ١/١٦٥ |
| ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ ...﴾ | ٦٥، ٦٦ | ٤/٤٢٦ |
| ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ | ٧٢ | ٣/٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٥، ٤/٤٧٣، ٥٤٠، ... |
| ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ | ٧٣ | ٣/٥١٤، ٥/٨٢ |
| ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ...﴾ | ٧٤ | ٤/٥٤٥ |
| ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ...﴾ | ٧٥ | ٢/٤٣٢، ٤٣٤، ٤/٥٤٥ |
| سورة التوبة | | |
| ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ | ٢ | ٣/٤٨ |
| ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ | ٤ | ١/٣٣٤، ٣/٢٦٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ | ٦ | ٢/ ٦، ٦٤، ٦٥، ٧٧، ١١٤، ٣/ ٨٨، ... |
| ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ...﴾ | ١٧ | ١/ ٢٦٦ |
| ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ ...﴾ | ٢١ | ٤/ ٣٠٣ |
| ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ...﴾ | ٢٤ | ١/ ٨١ |
| ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ | ٣٠ | ١/ ٧٤، ١٩٧، ٣٠٨، ... |
| ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ | ٣١ | ١/ ٢٧٠، ٢٧١، ٢/ ٢٣٤، ٥/ ٧٤ |
| ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ...﴾ | ٣٢ | ١/ ٢٩٢ |
| ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ | ٣٣ | ١/ ٣٣، ٩٢، ٢/ ٦٠٥، ١٨٧، ٣/ ٤٨٠، ... |
| ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ...﴾ | ٤٠ | ٤/ ٥٩٤، ٦١٢ |
| ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ | ٤٢ | ٤/ ٣٣١ |
| ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ...﴾ | ٤٦، ٤٧ | ٢/ ٤٨٥، ٤٨٦، ٤/ ٥٣٣ |
| ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ...﴾ | ٤٧ | ٥/ ٩٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ | ٥١ | ٢/ ٥٨٣، ٣/ ٥٥٤ |
| ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ | ٦١ | ٣/ ٣٨٠ |
| ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ | ٦٢ | ٥/ ٩٤ |
| ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ...﴾ | ٦٥، ٦٦ | ٣/ ٣٣١ |
| ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ | ٦٧ | ١/ ١٠٣ |
| ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ ...﴾ | ٦٩ | ٢/ ٥٠٦ |
| ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ | ٧١ | ٣/ ٥٠٨، ٥٠٩، ٥/ ٥١٤، ٨١ |
| ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ...﴾ | ٧٣، ٧٤ | ٣/ ٦٢٣ |
| ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ | ٨٢ | ٤/ ٤٠٢ |
| ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ...﴾ | ٨٤ | ٣/ ٦٦٤ |
| ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ...﴾ | ٧٩ | ٣/ ٣٣٠ |
| ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ...﴾ | ٩١-٩٣ | ٤/ ٣٣١، ٣٣٤، ٣٤٦، ٤٢١ |
| ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ...﴾ | ٩٢ | ٥/ ٩٤ |
| ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ...﴾ | ٩٦ | ٢/ ٤٨٦ |
| ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ...﴾ | ١٠٠ | ١/ ٧٦، ١١٣، ٤/ ٦، ٣٠٢، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ ...﴾ | ١٠١ | ٣/ ٦٦٤، ٤/ ١٤٩ |
| ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ | ١٠٥ | ١/ ٥٣٦، ٢/ ٤٦٦، ٤/ ٤٠٢ |
| ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ | ١٠٦ | ٥/ ٢٩٢ |
| ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ | ١١١ | ٣/ ١٩١ |
| ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن ...﴾ | ١١٣ | ٤/ ٤٩٩، ٥٠٠ |
| ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ...﴾ | ١١٧ | ٤/ ٥٥٤، ٥٥٦ |
| ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ...﴾ | ١٢٢ | ١/ ٤٧٩ |
| ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ...﴾ | ١٢٤، ١٢٥ | ٣/ ٣٩٣، ٣٩٥ |
| ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾ | ١٢٥ | ٢/ ٣٠٢ |
| ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ | ١٢٨ | ١/ ٣١٤، ٣٣٦ |
| ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ | ١٢٩ | ٣/ ٧، ٩ |
| سورة يونس | | |
| ﴿الٓرٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ | ١ | ٢/ ١١٠، ١١٢ |
| ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ ...﴾ | ٢ | ١/ ٦٤٢ |
| ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ ...﴾ | ٣ | ١/ ٤٩٠، ٣/ ١١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ | ٥ | ١/ ٦٤٩ |
| ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ | ١٢ | ٤/ ٩٦ |
| ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ...﴾ | ١٦ | ٤/ ٣٠٠ |
| ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ | ١٨ | ١/ ٢٠٥، ٢١٤، ٢١٥ |
| ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...﴾ | ١٩ | ٣/ ١٩٨ |
| ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ | ٢٢ | ١/ ٢٢٩ |
| ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى...﴾ | ٢٥، ٢٦ | ٢/ ١٣٣ |
| ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ | ٢٦ | ٢/ ١٣٠، ١٥٥ |
| ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٣١ | ١/ ١٩٤، ٢٣٥ |
| ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ | ٣٨ | ٢/ ١٠٩، ١١٠، ١١٤، ١١٥، ... |
| ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ ...﴾ | ٥٣ | ٤/ ٢٠٦، ٢١٠ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ | ٥٧ | ١/ ٩١، ٢/ ٦٠٦، ٦٠٩، ٣/ ١٩٥، ... |
| ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ | ٦١ | ٢/ ٢٨٦، ٤٣٣، ٣/ ٦٠ |
| ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ...﴾ | ٦٢ | ٣/ ٥٢٠، ٥٢٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ...﴾ | ٦٢ ـ ٦٤ | ٣/ ٤٣٠، ٥٠٨، ٥١٠، ٥١٤، ٥١٦، ... |
| ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ | ٦٣ | ٣/ ٥١٩ |
| ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ | ٨٣ | ٣/ ٣٨٠، ٣٨١ |
| ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ...﴾ | ٨٥، ٨٦ | ٤/ ٢٦٥ |
| ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٩٩ | ١/ ٥٤٣، ٥٥٦، ٢/ ٤٥٥ |
| ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ | ١٠١ | ١/ ٢٨٩ |
| **سورة هود** | | |
| ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ | ٦ | ٢/ ٥٧٦، ٤/ ٣٩٣ |
| ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ | ٧ | ١/ ٤٧٥، ٤٧٧، ٥٣٥، ٣/ ٩، ١٠، ١٢ |
| ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ | ١٣ | ٢/ ١٠٠، ١٠٣، ١٠٦/٢، ١٠٩، ... |
| ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾ | ١٥، ١٦ | ٤/ ٤٦٦، ٥/ ١٢٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ...﴾ | ٢٠ | ٤/ ٣٣٩، ٣٤١، ٤١٧ |
| ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ | ٢٥ | ١/ ٨٣ |
| ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ | ٢٦ | ٤/ ٣١٤ |
| ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ ...﴾ | ٣١ | ٣/ ١٧٨ |
| ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ...﴾ | ٣٢ | ٢/ ٤٤ |
| ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ...﴾ | ٣٤ | ١/ ٣٨٩، ٥٤٣، ٥٥٠، ... |
| ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ ...﴾ | ٣٥ | ٢/ ١٠٧ |
| ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ | ٣٦ | ٤/ ٤٠٠ |
| ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ | ٤٤ | ٣/ ٤٩ |
| ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ...﴾ | ٤٥، ٤٦ | ٢/ ١٤١ |
| ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ | ٤٦ | ٢/ ١٣٧ |
| ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ | ٥٠ | ١/ ٨٣ |
| ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ...﴾ | ٥٣ـ٥٦ | ١/ ٢٨٣، ٢٨٦ |
| ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ | ٥٨ | ٤/ ٢٦١ |
| ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ | ٨٨ | ١/ ١٦٣ |
| ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ...﴾ | ٩٠ | ١/ ٦٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ | ٩٤ | ٤/ ٢٦١ |
| ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ | ٩٨ | ١/ ٣٨١، ٤/ ٢٦٢ |
| ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ...﴾ | ١٠٢ | ١/ ٢٩٥، ٣/ ٣٢٥ |
| ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ...﴾ | ١٠٦ـ١٠٨ | ٤/ ٣٠٧، ٣٠٩ |
| ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ | ١٠٧ | ١/ ٣٨٧ |
| ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ...﴾ | ١٠٨ | ٤/ ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٤ |
| ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ | ١١٤ | ٣/ ٢٥٩، ٣١١، ٣١٤ |
| ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ...﴾ | ١١٧ | ٤/ ٤٣٠ |
| ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ | ١١٨، ١١٩ | ٥/ ٢٣٠ |

## سورة يوسف

| | | |
|---|---|---|
| ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ | ١ | ١/ ٢٧٦، ٢٧٧ |
| ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ | ٢ | ٢/ ٢١٨، ٢٢١ |
| ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ...﴾ | ٤ | ٢/ ٢٩٤ |
| ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ | ٦ | ١/ ١٢٥، ٢/ ٢٩٠، ٢٩٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ | ١٧ | ٣/ ٣٣٧، ٣٧٧ |
| ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ ...﴾ | ٢٤ | ٤/ ٣٧٧ |
| ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ...﴾ | ٣١ | ٣/ ١٦٧، ١٦٨ |
| ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ...﴾ | ٣٦ | ٢/ ٢٩٤ |
| ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ | ٣٨ | ٢/ ٤٢٥ |
| ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ | ٣٩ | ٣/ ٥٧ |
| ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ | ٥٠ | ١/ ٣١٦ |
| ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ | ٥١ | ١/ ٣١٤، ٣١٦ |
| ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ | ٥٣ | ١/ ٦٨، ٤/ ١٢٨، ١٣٠ |
| ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ | ٦٧ | ٣/ ٥٩٣ |
| ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ | ٦٨ | ١/ ٣١٩ |
| ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ | ٧٦ | ١/ ٣١٨ |
| ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ | ٨٠ | ٢/ ١٣٨، ٤/ ٤٢٤ |
| ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ | ٨١ | ١/ ٣٦٤ |
| ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ | ٨٧ | ٣/ ٢٨٩، ٣١١، ٣٢٦، ٣٣٢، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ...﴾ | ٩٩، ١٠٠ | ٢/ ٢٩٤ |
| ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ | ١٠٠ | ٢/ ٢٩٠، ٣/ ١٥٤ |
| ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ | ١٠١ | ١/ ١٢٥، ٣/ ٦٣١، ٦٣٣ |
| ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ | ١٠٦ | ٣/ ٥١٦ |
| ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ | ١٠٨ | ١/ ١١٢، ١١٣، ٥/ ٣٠٠، ٣٠٣، |
| ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ | ١٠٩ | ١/ ٦١٣، ٥/ ٢٠٧ |
| ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ ...﴾ | ١١١ | ١/ ٣٤٧، ٢/ ٢١٩، ٢٢٢ |
| **سورة الرعد** | | |
| ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ | ١ | ٢/ ١١٢ |
| ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ | ٣ | ٥/ ٢٠٧ |
| ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ | ٤ | ٥/ ٢٠٧ |
| ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ | ٥ | ١/ ٣٣٤ |
| ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ ...﴾ | ٦ | ٣/ ٢٨٨ |
| ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ ...﴾ | ١١ | ٣/ ١١٨، ١٣٩، ٤/ ٩٧، ٩٩، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ | ١٦ | ٢/ ١٩، ٢٠، ٢٧، ٢٨، ٣/ ٥٦٧، ... |
| ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ...﴾ | ١٧ | ١/ ١٧، ٣/ ٣١٩ |
| ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ | ٢٢ | ٤/ ٤٠٢ |
| ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ...﴾ | ٢٣، ٢٤ | ٤/ ٣٢٥ |
| ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ | ٢٨ | ٢/ ٦٠٤ |
| ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ | ٣١ | ١/ ٣٨٨، ٤/ ٣٨١، ٣٩١ |
| ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ | ٣٥ | ٤/ ٣٠٠ |
| ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ...﴾ | ٣٨ | ٣/ ١٧٩ |
| ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ ...﴾ | ٣٨، ٣٩ | ١/ ٥٣٣، ٥٣٤ |
| ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ...﴾ | ٣٩ | ١/ ٤٧٤، ٤٨١، ٥٣٨، ٢/ ٥٣٢، ٥٦٨، ٥٧١، ... |
| **سورة إبراهيم** | | |
| ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ | ٩ | ٣/ ١٨٧ |
| ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ...﴾ | ٤ | ٢/ ٢١٨، ٢٢١، ٣/ ١٧٩ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ...﴾ | ١٠ | ١/ ١٨٧، ٢١٩، ٢/ ٤٢٠، ٤/ ٣٩٤، ... |
| ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ...﴾ | ١١ | ٤/ ٣٩٤ |
| ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ...﴾ | ١٨ | ٣/ ٢٤٠، ٢٦٣ |
| ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ | ٢٤ | ٢/ ٢٨٢ |
| ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ...﴾ | ٢٧ | ٣/ ٦٣٢، ٤/ ١٥٠ |
| ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ...﴾ | ٤٠، ٤١ | ٣/ ٦٦٦ |
| ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ | ٤١ | ٤/ ١٩٩ |
| ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ | ٤٨ | ٤/ ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٩٦ |
| **سورة الحجر** | | |
| ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ | ١ | ١/ ٢٧٦ |
| ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ | ٩ | ١/ ٩٤، ٣١٨، ٤/ ٥٥٠، ٥/ ٦٧، ... |
| ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ...﴾ | ١٤ | ٣/ ٤٣٧ |
| ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ | ١٦ | ٥/ ١٧٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ | ٢٧ | ٣/ ١٥٧، ٤/ ٣٢٥ |
| ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ ...﴾ | ٢٨، ٢٩ | ٤/ ١٢٥ |
| ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ | ٢٩ | ٤/ ١١٥، ١١٩، ١٢٠ |
| ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ | ٣٦ | ٣/ ٣٣٥، ٦٢١، ٤/ ١٩٩ |
| ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ...﴾ | ٣٧، ٣٨ | ٤/ ١٩٩ |
| ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ...﴾ | ٣٩ | ١/ ٥٤٨، ٥٥٠، ٣/ ٣٣٥ |
| ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ...﴾ | ٤١، ٤٢ | ٤/ ٣٧٧ |
| ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ | ٤٨ | ٤/ ٣٠٠، ٣١٨ |
| ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ...﴾ | ٤٩، ٥٠ | ٣/ ٢٨٨ |
| ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ ...﴾ | ٥٦ | ٣/ ٢٩٠، ٣٢٧ |
| ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ | ٧٠ | ٣/ ١٦٧، ١٦٩ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ...﴾ | ٧٣ | ١/ ٢٥٨ |
| ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ | ٧٥ | ٥/ ١٢٨، ١٣١ |
| ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ | ٩١ | ٢/ ٢٨، ٣١٧، ٣٢١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| **سورة النحل** | | |
| ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ | ١ | ٤/ ٢١٥، ٥/ ١٥١ |
| ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ | ٥ | ٤/ ٤٣٠ |
| ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ...﴾ | ١٢ | ٥/ ١٧٥ |
| ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ ...﴾ | ١٥، ١٦ | ١/ ٢١٩ |
| ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ | ١٦ | ٥/ ١٧٥ |
| ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ...﴾ | ١٧ | ١/ ٢٥٠، ٤٦٨، ٤٦٩، ... |
| ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ | ٢٣ | ٤/ ٥٩ |
| ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ | ٣٢ | ٤/ ٣٧٣، ٣٧٤ |
| ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ...﴾ | ٣٥ | ١/ ٥٤٨، ٢/ ٢١٨، ٢٢٠، ٣/ ١٨٥، ... |
| ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ...﴾ | ٣٦ | ١/ ٨٤، ١٦٨، ١٦٩، ٥٩٨، ... |
| ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ | ٣٧ | ٤/ ٣٣٢ |
| ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ...﴾ | ٣٨، ٣٩ | ٤/ ٣٠٧، ٢١١ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ...﴾ | ٤١ | ٣/ ٥٥٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ...﴾ | ٤٣، ٤٤ | ١/ ٢٨٣ |
| ﴿لِّتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ | ٤٤ | ٢/ ٢٢٣ |
| ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ...﴾ | ٤٤ | ١/ ٩٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢/ ١٩٧، ... |
| ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ | ٥٠ | ٢/ ٣٢٤، ٣٢٩، ٣/ ٢٦، ٣٠، ٤٤، ... |
| ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ...﴾ | ٥١ | ١/ ٢٧٠، ٣/ ٣٢٣ |
| ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ | ٦٠ | ١/ ٤١٠، ٤١٢ |
| ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِمۡ ...﴾ | ٦١ | ٣/ ٥٧١ |
| ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ | ٧٤ | ١/ ٣٥٦، ٣٦٠، ٥٠٥، ... |
| ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ ...﴾ | ٧٨ | ١/ ٣٤١ |
| ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ | ٨٢ | ٣/ ١٨٥ |
| ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ | ٨٩ | ١/ ١٣٣، ٢/ ٢١٩، ٢٢٢ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ | ٩٠ | ٤/ ٤٢٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ...﴾ | ٩١ | ٢٨/٢ |
| ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ...﴾ | ٩٧ | ٥١٨/٤ |
| ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ...﴾ | ٩٨ | ٥٧/٢ |
| ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ...﴾ | ١٠٠ | ٢٣٢/٥ |
| ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ | ١٠٢ | ٦٧/٢، ٧٢، ٤٥/٣ |
| ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ...﴾ | ١٠٣ | ١٠٦/٢، ١١٣ |
| ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ | ١٠٦ | ٣٧٧/٣، ٣٧٨ |
| ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ...﴾ | ١١٦ | ٦٨/٤ |
| ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ...﴾ | ١٢٠ | ٦١٤/١ |
| ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ ...﴾ | ١٢٥ | ٩٦/١، ٢٤١/٢، ٢٨٥، ٢٢٢/٣ |
| **سورة الإسراء** | | |
| ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ | ١ | ٧٢/١، ٥٦٣، ٥٦٥، ٣٣٣/٢، ٣٤٥، ... |
| ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ | ٩ | ٦٠/٢ |
| ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا...﴾ | ١٣، ١٤ | ٣٤٢/١، ٥٣٨، ٢٥١/٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ | ١٤ | ٢/ ٢٩٥، ٤/ ١٠٠ |
| ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ... ﴾ | ١٦ | ٤/ ٤٢٣ |
| ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ | ١٧ | ٤/ ٢٥٩ |
| ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا ...﴾ | ١٨ | ٥/ ١٢٦ |
| ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ | ٢٢ | ١/ ٢٧٠ |
| ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ...﴾ | ٢٣ | ١/ ٨٧، ٢٧٠، ٢٧١، ٤/ ٤٢٣، ... |
| ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ | ٢٩ | ٢/ ٢٨، ٣٠ |
| ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ | ٣٢ | ٢/ ٥١، ٦١٦، ٤/ ٤١٢، ٤٢٠ |
| ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ ...﴾ | ٣٣ | ٥/ ١٨، ١٠٨ |
| ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ | ٣٥ | ٢/ ٢٩٣ |
| ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ | ٣٦ | ٢/ ٢١٠، ٢٢٥، ٤/ ٩، ٦٠، ١٢٠ |
| ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ | ٣٨ | ٢/ ٤٦١ |
| ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ | ٣٩ | ٢/ ٢٨ |
| ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ...﴾ | ٤٢ | ١/ ٢٥٠، ٢٠١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ...﴾ | ٤٧ـ٥٢ | ٤/ ٢١٣ |
| ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا ...﴾ | ٤٩ـ٥٢ | ٤/ ٢٠٧ |
| ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ | ٥٥ | ٣/ ١٤٤، ١٤٨، ١٤٩ |
| ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٥٥، ٥٦ | ١/ ٢٥١، ٦١٧ |
| ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ...﴾ | ٥٧ | ٣/ ٢٨٦، ٢٩٠، ٣٢٣ |
| ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ | ٦٠ | ٢/ ١٧٧، ٣٣٨ |
| ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ | ٦٢ | ٣/ ١٥٣، ١٥٦، ١٥٧، ٥/ ١٧٢، ... |
| ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ ...﴾ | ٦٧ | ١/ ١٩٣، ٤/ ٤٩٣ |
| ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ...﴾ | ٧٠ | ٤/ ٢١١ |
| ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ | ٧٨ | ٢/ ٥٧، ٥٨، ٣/ ١٤١ |
| ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ...﴾ | ٨٢ | ١/ ٩١، ٢/ ٦٠٦، ٦٠٩، ٥/ ١٩١، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ...﴾ | ٨٥ | ١/ ٤٠٢، ٣/ ١٢٠، ٤/ ١١٥، ١١٦، ١٢٠، ... |
| ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ...﴾ | ٨٦ | ٤/ ٣٠٠ |
| ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ ...﴾ | ٨٨ | ٢/ ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٢، ١٠٩، ... |
| ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا ...﴾ | ٩٠ | ٥/ ١٠٢ |
| ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ | ٩٢ | ٣/ ١٦٨ |
| ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ ...﴾ | ٩٥ | ٣/ ١٦٩ |
| ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ...﴾ | ٩٧-٩٩ | ١/ ١٠٣، ٣/ ٦١٠، ٤/ ٢٠٧ |
| ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ...﴾ | ٩، ١٠١ | ١/ ٨٨ |
| ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ...﴾ | ١٠٢ | ١/ ١٩٠، ١٩١، ٣/ ٣٣٥ |
| ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ...﴾ | ١٠٦ | ٢/ ٧٠ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ...﴾ | ١١١ | ١/ ٣٥٦، ٣/ ٥٠٩ |
| **سورة الكهف** | | |
| ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ | ١ | ١/ ٧٢، ٥٦٥ |
| ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن ...﴾ | ١٧ | ١/ ٥٤٧، ٤/ ٣٣٢، ٣٤٣ |
| ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ ...﴾ | ٢١ | ٤/ ٢٢٧ |
| ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ | ٢٢ | ٤/ ٦٥ |
| ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ...﴾ | ٢٣، ٢٤ | ٣/ ٤٦٠ |
| ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ...﴾ | ٢٦ | ٤/ ٦٥، ٧١ |
| ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ | ٢٩ | ١/ ٥٤٦، ٦١٠، ٤/ ٤٠١ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ | ٣٠ | ٤/ ٢٤٦ |
| ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ | ٣٢ | ٤/ ٢٨١ |
| ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ...﴾ | ٣٧ | ٢/ ٤٣٠ |
| ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ | ٤٥ | ١/ ٣٥٢ |
| ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ...﴾ | ٤٧، ٤٨ | ٤/ ٢٤٤ |
| ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ | ٤٨، ٤٩ | ٤/ ٢٤٠، ٢٤٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ | ٤٩ | ١/ ٥٢، ٢/ ٢٩٥، ٤/ ٢٥٢، ٣٩٠،... |
| ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ | ٥٠ | ٣/ ١٥٧ |
| ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ | ٥٨ | ٣/ ٣٢٦ |
| ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ...﴾ | ٦٠ | ٣/ ١٦٢، ٤/ ٣١٠ |
| ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ ...﴾ | ٦٥ | ٥/ ٢١٨ |
| ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ | ٦٧ | ٤/ ٤١٧ |
| ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ | ٦٧، ٦٩ | ٤/ ٣٣٩ |
| ﴿أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ ...﴾ | ٧٢ | ٤/ ٣٣٩ |
| ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ | ٧٨ | ٢/ ٢٩٠ |
| ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ | ٧٩ | ١/ ٣١٤، ٣١٦ |
| ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ | ٨٢ | ٢/ ٢٩٠ |
| ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٩٤ | ٥/ ١٦٠ |
| ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ | ٩٧ | ٣/ ٣٥ |
| ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ... دَكَّآءَ ...﴾ | ٩٨ | ٥/ ١٥٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾ | ١٠٤ | ٣/ ٦٠٢ |
| ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ | ١٠٥ | ٤/ ٢٦٧، ٢٧١ |
| ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ...﴾ | ١٠٩ | ١/ ٣٧٩، ٤٥١<br>٢/ ٦، ٥٣، ٧٨،<br>٣/ ١٩٢، ... |
| ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ | ١١٠ | ٣/ ١٧٩، ٥٩٣،<br>٤/ ٢١١ |
| **سورة مريم** | | |
| ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ | ١، ٢ | ٢/ ١١٢ |
| ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ...﴾ | ٥، ٦ | ٤/ ٦١٥ |
| ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ | ٩ | ١/ ٣٧٠، ٥٠٠،<br>٤/ ٥٠٢، ١١٦، |
| ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىَنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ | ٣٠ | ١/ ٥٦٦ |
| ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ | ٣٨ | ١/ ١٠٣،<br>٤/ ٥٢٨ |
| ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ...﴾ | ٣٩ | ١/ ٤٣١ |
| ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ | ٥٢ | ٢/ ٧، ١٣، ٢٥،<br>٤٤ |
| ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ | ٥٣ | ٥/ ٣٠ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ | ٥٩ | ١/ ١١٧ |
| ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ | ٦٠ | ٣/ ٣٠٤ |
| ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ | ٦٤ | ٢/ ٤٣٢، ٣/ ١٤٦، ١٤٧ |
| ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ | ٦٥ | ١/ ٣١٨، ٣٦٠، ٢/ ٢٨٦، ٥٠٦، ٥/ ٣٠٥، ... |
| ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ | ٧١، ٧٢ | ٢/ ٣٧٢، ٤/ ٢٥٧، ٢٦١ |
| ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًى﴾ | ٧٦ | ٣/ ٣٩٤، ٣٩٩ |
| ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ...﴾ | ٨٣ | ٣/ ٣٧٣، ٥/ ٨٠ |
| ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴾ | ٩٣ | ١/ ٥٦٦ |
| ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا﴾ | ٩٦ | ١/ ٦٣٤، ٢/ ٥٦٤ |
| ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ | ٩٧ | ٢/ ١٠٤ |
| سورة طه | | |
| ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ | ٥ | ١/ ٣١١، ٥١٤، ٢/ ٢٥٣، ٢٦٨، ٣/ ٣، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ...﴾ | ١٠ | ٢/ ٣٤ |
| ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ | ١٢ | ٢/ ٣٣ |
| ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ...﴾ | ١٣، ١٤ | ١/ ٣٧١ |
| ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ | ١٤ | ٢/ ١٩٢ |
| ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ...﴾ | ١٤ـ ١٨ | ٢/ ٣٤ |
| ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ...﴾ | ١٥، ١٦ | ٤/ ١٩٩ |
| ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ...﴾ | ٢٠ | ٤/ ٢٠٢ |
| ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ | ٢٤ | ٢/ ١٤ |
| ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ | ٤١ | ٢/ ١٤١، ٣١٦ |
| ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ...﴾ | ٤٣، ٤٤ | ٢/ ١٤ |
| ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ | ٤٦ | ٢/ ١٤ |
| ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ | ٥٠ | ٤/ ٣١٩ |
| ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً ...﴾ | ٥٥ | ٢/ ٣٥١، ٤/ ١٣٦، ٢٥٠ |
| ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ | ٦٦ | ٥/ ١٨٦ |
| ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ...﴾ | ٦٨، ٦٩ | ٥/ ١٩٢ |
| ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ | ٦٩ | ٥/ ١٧٣ |
| ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ | ٧١ | ١/ ٥٩٨، ٣/ ٤٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ | ٧٣ | ٣/ ٥٨ |
| ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ | ٧٤ | ١/ ٤٤٩ |
| ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ | ٧٧ | ٢/ ١٤٨ |
| ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ...﴾ | ٨٥، ٨٦ | ٤/ ٢٥٩ |
| ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ...﴾ | ٨٩ | ٢/ ١٠، ١٢ |
| ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ ...﴾ | ١٠٢، ١٠٣ | ٤/ ٢٣٩ |
| ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ...﴾ | ١٠٣، ١٠٤ | ٤/ ٢١٣ |
| ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ | ١٠٨ | ٤/ ٢٤٠ |
| ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ | ١١٠ | ١/ ٣٦٥، ٤٠١، ٢/ ١٤٩، ١٨٤، ... |
| ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ | ١١١ | ١/ ٤١٥، ٤٢٢ |
| ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...﴾ | ١١٢ | ٤/ ٣٢٢، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ... |
| ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ ...﴾ | ١١٤ | ٢/ ٥٨ |
| ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ...﴾ | ١٢٣ - ١٢٦ | ١/ ١٠٠، ١٠١، ١٠٣ |
| ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ | ١٣٢ | ٢/ ٥٦٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| سورة الأنبياء | | |
| ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ...﴾ | ١ | ٤/ ٢٠٦، ٢١٥، ٥/ ١٥٢ |
| ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ | ١٩ | ٣/ ٤٥، ٤٩، ١٣٣ |
| ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ...﴾ | ١٩، ٢٠ | ٣/ ١١٦، ١٢٠، ١٢٣ |
| ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ | ٢٠ | ٣/ ١٣١ |
| ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ | ٢٢ | ١/ ٢٠١، ٢٠٢، ٢٤٧ |
| ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ | ٢٣ | ٢/ ٤٤٦، ٥٢٤، ٤/ ٣٦٤، ٤٠٧، ٤٣٧، ... |
| ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ ...﴾ | ٢٥ | ١/ ٨٥، ١٦٨، ١٦٩، ٥/ ٢٦٥... |
| ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ...﴾ | ٢٦ | ١/ ٥٦٣، ٣/ ١٢٨، ١٣١ |
| ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ ...﴾ | ٢٦، ٢٧ | ١/ ٧٣، ٥٦٦، ٣/ ١١٦، ١٢٠، ١٤٩، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ | ٢٧ | ٣/ ١٦٥ |
| ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ | ٢٨ | ٣/ ٣٦ |
| ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ...﴾ | ٣٠، ٣١ | ٢/ ٢٨ |
| ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ | ٣٢ | ٣/ ١٩ |
| ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ...﴾ | ٤٢ | ١/ ٤١٨ |
| ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ | ٤٧ | ١/ ٣٤٢، ٢/ ٢٩٥، ٤٥٩، ٤/ ٢٣٧، ... |
| ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ ...﴾ | ٥٧، ٥٨ | ١/ ٢١٣ |
| ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ | ٥٩ | ١/ ٢٠٥ |
| ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ | ٦٠ | ٣/ ٩٩ |
| ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ | ٦٢ | ١/ ٢٠٥ |
| ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ | ٦٨ | ١/ ٢٠٥ |
| ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ...﴾ | ٧٨، ٧٩ | ٥/ ٢٤٨ |
| ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ ...﴾ | ٨٧ | ١/ ٦٢٣، ٦٢٧، ٢/ ٥٤٧ |
| ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ | ٩٠ | ٢/ ٥٥٥ |
| ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ...﴾ | ٩٥ | ٤/ ٤٢٤، ٤٢٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ...﴾ | ٩٦ | ٥/ ١٥٤ |
| ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ | ٩٨ | ٣/ ٤٣٤ |
| ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ | ١٠٢ | ١/ ٤٨١ |
| ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ | ١٠٤ | ٤/ ٢٥٩ |
| ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ...﴾ | ١٠٥ | ٤/ ٤٢٤ |
| ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ | ١٠٧ | ١/ ٦٠٦ |
| ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ...﴾ | ١١٢ | ١/ ٦٦، ٢/ ٥٤٥، ٤/ ٤٢٤ |

## سورة الحج

| | | |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ | ١ | ١/ ٤٩٩، ٦٤٦ |
| ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾ | ٣ | ٢/ ٢٣١، ٢٤٢ |
| ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾ | ٣، ٤ | ٢/ ٢٢٥، ٢٢٧، ٤/ ٦٥، ٧١ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ...﴾ | ٥، ٧ | ٤/ ٢٢٦، ٢٣٠ |
| ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾ | ٨، ٩ | ٢/ ٢٢٥، ٢٢٧ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ | ١٧ | ١/ ٢٨٩ |
| ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ...﴾ | ١٩ | ٥/ ٢٣٨ |
| ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ...﴾ | ٢٢ | ٢/ ٥٩٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ | ٢٦ | ٣/ ١٠٠ |
| ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ...﴾ | ٣١ | ٤/ ١٤٥، ١٥١، ١٨٦ |
| ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ | ٤٠ | ١/ ٦٠٤ |
| ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ...﴾ | ٤٦ | ١/ ٢٨٢، ٣/ ٣٧١، ٤/ ٥٥٧ |
| ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ | ٥٢ | ١/ ٦٠٦ |
| ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ | ٥٥ | ٤/ ٣١٤ |
| ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٦٥ | ١/ ٤١٨، ٣/ ١٨ |
| ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ ...﴾ | ٧٠ | ١/ ٥٤٠، ٢/ ٤١١، ٤٣٤، ٥٨١، ... |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ...﴾ | ٧٣ | ١/ ٢٣٨ |
| ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ | ٧٧ | ١/ ٥٤٢ |
| ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ | ٧٨ | ٣/ ٩٤، ٤/ ١٩٥، ٣٥٣، ٤٠٣، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| سورة المؤمنون | | |
| ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ | ١، ٢ | ٤/ ٤٠٣ |
| ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ | ١ ـ ٩ | ٣/ ٣٤٦ |
| ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ...﴾ | ٢، ٣ | ٣/ ٤١٠ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ...﴾ | ٥، ٦ | ٣/ ١٥٩ |
| ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ ...﴾ | ١٢ ـ ١٧ | ٤/ ٢٢٧، ٢٣١ |
| ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ | ١٤ | ٤/ ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٣ |
| ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ | ١٧ | ٣/ ٦٠ |
| ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ...﴾ | ٢٧ | ١/ ٣٤٨ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ | ٥٧ | ٤/ ٤٠٣ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ...﴾ | ٥٧ ـ ٦١ | ٣/ ٢٨٦ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ ...﴾ | ٦٠ | ٣/ ٢٨٧ |
| ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ | ٦٨ | ٣/ ١٩٧، ٤٨٦، ٥/ ٢٠٧ |
| ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ﴾ | ٧١ | ٤/ ٤١٨، ٥/ ٢٥٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ...﴾ | ٨٤-٨٩ | ١/ ١٨٩، ٢٠٢، ٢/ ٢١٤، ٥٦٧، ٣/ ٦٢١، ... |
| ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ...﴾ | ٩١ | ١/ ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦ |
| ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ...﴾ | ١٠٢، ١٠٣ | ٤/ ٢٥٩، ٢٦٦، ٢٦٨ |
| ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا ...﴾ | ١٠٧، ١٠٨ | ٤/ ٣٠٩ |
| ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ | ١٠٨ | ٢/ ١٥ |
| ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ ...﴾ | ١٠٩، ١١٠ | ٣/ ٣٣٠ |
| ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ | ١١٥ | ٢/ ٤٤٨، ٤/ ٤٣٥، ٤٣٧ |
| ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ | ١١٦ | ٣/ ٣، ٧، ٩ |
| سورة النور | | |
| ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ | ٩ | ٤/ ٥٢٧ |
| ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ | ١٦ | ٥/ ٧٩ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ...﴾ | ٢٣، ٢٤ | ٣/ ٢٦٢، ٦٠٥ |
| ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ...﴾ | ٢٥ | ٤/ ٢٣٤ |
| ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ ...﴾ | ٣٢ | ٤/ ٥٠٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ | ٣٥ | ٢/ ١٣٤ |
| ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ...﴾ | ٣٧ | ٣/ ٥٣٤ |
| ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـَٔانُ ...﴾ | ٣٩، ٤٠ | ٣/ ٢٤٠، ٤٧٢ |
| ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَٰرِ﴾ | ٤٣ | ٢/ ١٣٤ |
| ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ اللَّهَ ...﴾ | ٥٢ | ٢/ ٥٥٤، ٥٥٦ |
| ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ﴾ | ٥٤ | ١/ ٩٤، ٢/ ٣٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٣/ ١٨٥، ... |
| ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ | ٥٥ | ١/ ٢٩٢، ٤/ ٥٨٠، ٦١٩، ... |
| ﴿وَأَقِيمُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ الرَّسُولَ ...﴾ | ٥٦ | ١/ ٥٤٢ |
| ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ | ٦١ | ٤/ ١٢٧، ١٢٩ |
| ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ...﴾ | ٦٣ | ٣/ ٤٨٢ |
| ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ...﴾ | ١١٥ | ٤/ ٢٢٦، ٢٢٩ |
| **سورة الفرقان** | | |
| ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ | ١ | ١/ ٧٢، ٥٦٥، ٦٤٢، ٦٤٦، ٣/ ١٦٧، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ | ٢ | ١/ ٥٢٤، ٥٢٥، ٢/ ٤٤٦، ٥٨٥، ٥٨٦، ... |
| ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ...﴾ | ٧ | ٢/ ٥٦٨، ٥٧٠، ٣/ ١٦٩، ١٧٨، ١٧٩، ... |
| ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ ...﴾ | ١٢ـ١٤ | ٣/ ٦٠٨ |
| ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ ...﴾ | ٢٠ | ٢/ ٥٧٠ |
| ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ ...﴾ | ٢٣ | ٣/ ٢٤٠، ٢٦٣، ٣٢٠ |
| ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ | ٢٥ | ٤/ ٢٩٦ |
| ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ | ٢٨ | ١/ ٦٣٢، ٣/ ٨٤ |
| ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ...﴾ | ٣٣ | ١/ ٣٧٧، ٢/ ٢٥٦ |
| ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ | ٥٠ | ٥/ ١٦٤ |
| ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ...﴾ | ٥٨ | ١/ ٤١٥، ٤١٦، ٢/ ٤٢٣، ٢٨٦، ٤/ ٢٩٦، ... |
| ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ | ٦١ | ٥/ ٧٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ ... ﴾ | ٦٣ | ١/ ٥٦٧ |
| ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ | ٦٥ | ١/ ٦٣٤، ٤/ ٣١٨ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ...﴾ | ٦٨ | ٣/ ٦١٥ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ...﴾ | ٦٨ ـ ٧٠ | ٣/ ٦٢٣ |
| ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ...﴾ | ٧٠ | ٥/ ١٠٣ |
| ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ | ٧٤ | ١/ ٦١٤ |
| ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ | ٧٧ | ٥/ ١٥١ |
| **سورة الشعراء** | | |
| ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً ...﴾ | ٤ | ٤/ ٣٨١ |
| ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ | ١٠ | ٢/ ٧، ١٣، ٣٣، ٧٧، ١٩٢، ١٩٧ |
| ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ...﴾ | ٢٣ ـ ٢٨ | ١/ ١٩٠، ١٩٢، ... |
| ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ | ٥٨ | ١/ ٣٨٤ |
| ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ ...﴾ | ٦١، ٦٢ | ٢/ ١٤٦، ١٤٨ |
| ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ...﴾ | ٦٧، ٦٨ | ١/ ٥٩٥ |
| ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ | ٧١ | ١/ ٢٠٥، ٢١٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ ...﴾ | ٧٥، ٧٦ | ١/ ٢١٢، ٣٨١، ٣٨٣، ... |
| ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ | ٨٠ | ٢/ ٤٥٠ |
| ﴿وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي ...﴾ | ٨٢ | ٤/ ١٩٩ |
| ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ | ٩٠، ٩١ | ٤/ ٢٨٤ |
| ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ...﴾ | ٩٤، ٩٥ | ٤/ ٣٢٦ |
| ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ | ١١١ | ١/ ٥٩٢ |
| ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ | ١٢٣ | ٣/ ٦٠٢ |
| ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ | ١٣٠ | ١/ ٢٨٧ |
| ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ | ١٥٥ | ١/ ٢٨٥ |
| ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ | ١٦٥ | ٣/ ١٦٧، ١٧٠ |
| ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ | ١٧١ | ٣/ ٤٤٧ |
| ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ | ١٩٣ | ٤/ ١٢٨، ٥٦٧ |
| ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ...﴾ | ١٩٣-١٩٥ | ٢/ ٣٧، ٧٠، ٣/ ٢٢٥، ٢٢٦، ٤/ ١٥٢ |
| ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ | ١٩٥ | ٢/ ١٠٦ |
| ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ | ١٩٦ | ٢/ ٦١، ٦٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ...﴾ | ٢١٨، ٢١٩ | ١/ ٣٥٠ |
| ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ...﴾ | ٢٢١ـ ٢٢٦ | ١/ ٥٧٥، ٥٧٧، ٥/ ١٧٨، ٢٠٦ |
| ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ...﴾ | ٢٢٤ـ ٢٢٧ | ١/ ٥٧٦ |
| ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ | ٢٢٧ | ٣/ ٣٥٣ |
| سورة النمل | | |
| ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ...﴾ | ١٤ | ١/ ١٩٠، ١٩١، ٣/ ٣٤١ |
| ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ | ١٦ | ٤/ ٦١٤ |
| ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ ...﴾ | ٢٢ | ٣/ ١٦٣ |
| ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ | ٢٣ | ٢/ ٢٧، ٢٩، ٣/ ٥، ٨ |
| ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ...﴾ | ٢٤، ٢٥ | ١/ ٢١٢ |
| ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ | ٢٦ | ٣/ ٣ |
| ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ...﴾ | ٣٠ | ١/ ٦٤ |
| ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ | ٣٨ | ٣/ ٥ |
| ﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ...﴾ | ٤٠ | ٣/ ٥٣٥، ٥٥٨ |
| ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ | ٤٢ | ٣/ ٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ ... ﴾ | ٤٨، ٤٩ | ١/ ٢١٧ |
| ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ | ٥٢ | ١/ ٥٩٦ |
| ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ | ٥٩ | ٣/ ٥٧ |
| ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ... ﴾ | ٥٩، ٦٠ | ١/ ٢٣٢، |
| ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم ... ﴾ | ٦٠ ـ ٦٤ | ١/ ٢٣٣، ٢٣٤ |
| ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ | ٦٥ | ٢/ ١٧٦، ٥/ ١٦٢ |
| ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ... ﴾ | ٦٦ | ٤/ ٢٠٧ |
| ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً ... ﴾ | ٨٢ | ٥/ ١٤٩، ١٥٥، ١٥٦ |
| ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ... ﴾ | ٨٤ | ٥/ ٥١ |
| ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ ... ﴾ | ٨٧ | ٤/ ١٣٨ |
| ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ... ﴾ | ٨٨ | ٤/ ٢٤٠ |
| ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ... ﴾ | ٨٩، ٩٠ | ٤/ ٢٣٥ |
| سورة القصص | | |
| ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ | ٧ | ١/ ٦١٣ |
| ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ... ﴾ | ١٥ | ٤/ ٥٧٣ |
| ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ... ﴾ | ١٦ | ١/ ٦٢٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ...﴾ | ٢٠ | ١/ ٣٩٥، ٣٩٧ |
| ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ...﴾ | ٣٠ | ٢/ ٣٢، ٣٣ |
| ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ...﴾ | ٤٨ | ١/ ٢٨٥ |
| ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ ...﴾ | ٤٩ | ٢/ ٧٢ |
| ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى ...﴾ | ٥٠ | ٢/ ٢٢٥، ٢٢٧، ٤/ ٦٥ |
| ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ...﴾ | ٥٦ | ١/ ٥٥٢، ٤/ ٣٣٢ |
| ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ ...﴾ | ٥٨ | ١/ ٥٩٧ |
| ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ | ٦٨ | ٤/ ٣٣٨ |
| ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ...﴾ | ٧٥ | ٣/ ٥٥٨ |
| ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ | ٧٨ | ٣/ ٥٥٨ |
| ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ...﴾ | ٨٤ | ٤/ ٢٣٥ |
| ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ...﴾ | ٨٧ | ٣/ ١٢٤ |
| ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ | ٨٨ | ١/ ٢٧٠، ٣١٢، ٢/ ٢٨٨، ٣٨٤، ٤/ ١٣٤، ... |
| سورة العنكبوت | | |
| ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ ...﴾ | ١ ـ ٢ | ١/ ٥٨٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ...﴾ | ٨ | ٢/ ٤٢٥ |
| ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ | ١٥ | ١/ ٣٤٨، ٥٩٧ |
| ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ | ٢٦ | ٣/ ٣٨٠، ٣٨١ |
| ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ | ٣٢ | ٤/ ٢٦٥ |
| ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ | ٣٨ | ١/ ١٩١ |
| ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ...﴾ | ٤٣ | ١/ ٣ |
| ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ | ٤٦ | ١/ ٩٦، ٢/ ٢٤١، ٣/ ٢٢١ |
| ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ ...﴾ | ٤٩ | ٢/ ١٠٠، ١٠٣ |
| ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴾ | ٥٠، ٥١ | ١/ ٢٩٧ |
| ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ...﴾ | ٦٠ | ٢/ ٥٧٦ |
| ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ...﴾ | ٦١ | ١/ ٢٠٣ |
| ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾ | ٦٣ | ١/ ٢٠٣ |
| ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ | ٦٤ | ١/ ٤١٦ |
| ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ ...﴾ | ٦٥ | ٤/ ٤٩٤ |
| سورة الروم | | |
| ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ...﴾ | ١٩ | ٤/ ٣٢٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ...﴾ | ٢٠ـ٢٤ | ١/ ١٨٨، ٣/ ٥٢٢، ٤/ ١٤٠ |
| ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ ...﴾ | ٢٦ | ١/ ٥٠٨ |
| ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٢٧ | ١/ ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٨، ٤/ ٢٢٣... |
| ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم ...﴾ | ٢٨ | ١/ ٢٣٨ |
| ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ...﴾ | ٣٠ | ١/ ١٩٨، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢/ ٤٠٦، ٤٤٤، ... |
| ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ...﴾ | ٣٠ـ٣٦ | ١/ ٢١٩ |
| ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ | ٣١، ٣٢ | ٤/ ١٤ |
| ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ ...﴾ | ٣٢ | ٤/ ٥٧٣، ٥/ ٢٣٠ |
| ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ ﴾ | ٤٦ | ٣/ ٥٢٢، ٤/ ١٤١، ٥/ ١٦٤ |
| ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ | ٤٧ | ٢/ ٣٨٣ |
| ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ | ٥٤ | ١/ ٣١٩، ٤/ ٢٣١، ٤١٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| **سورة لقمان** | | |
| ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ | ١٠ | ٣/ ١٩ |
| ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾ | ١٠، ١١ | ١/ ٢٤٣، ٤٤٥ |
| ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ | ١٣ | ٣/ ٣٠٢ |
| ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... ﴾ | ٢٥ | ١/ ٢٠٢، ٢/ ٤٢١، ٣/ ٦٢١ |
| ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ... ﴾ | ٢٧ | ١/ ٤٥١، ٢/ ٥٣، ٧٧، ٧٨، ... |
| ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ ... ﴾ | ٣٢ | ٤/ ٤٩٤ |
| ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ... ﴾ | ٣٤ | ٢/ ٥٢٨ |
| **سورة السجدة** | | |
| ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ | ١، ٢ | ١/ ٢٥٣ |
| ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ | ٥ | ٣/ ٤٦، ١٢٥، ١٢٦، ٤/ ٥٠٤ |
| ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ | ١١ | ٣/ ١١٧، ٤/ ١١١، ١١٢ |
| ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ | ١٣ | ١/ ٥٥٢، ٥٥٦، ٢/ ٦٧، ٤٥٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ | ١٤ | ٤/ ٣٧٥ |
| ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ ...﴾ | ١٥ | ٣/ ٣٤٦، ٤٠٦ |
| ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ...﴾ | ١٦ | ٣/ ٣٢١، ٣٢٣ |
| ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ | ١٧ | ٢/ ٤٥٣، ٤/ ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٨٢، ... |
| ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ | ١٨ | ١/ ٣١٤ |
| ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ | ٢٠ | ٣/ ٦٠٦، ٤/ ٣٠٨، ٣١٩ |
| ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ...﴾ | ٢١ | ٤/ ١٤٩ |
| سورة الأحزاب | | |
| ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ ...﴾ | ٧ | ١/ ٣٠١، ٣/ ١٨٩، ٤٠٥، ٤٠٧، ... |
| ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ...﴾ | ٢٢ | ٤/ ٥٨١ |
| ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ ...﴾ | ٢٣ | ٤/ ٥٤٧ |
| ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ ...﴾ | ٣٠، ٣١ | ٤/ ٣٩٥ |
| ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ | ٣٢ | ٣/ ٣٠٢، ٣٠٥، ٦٠١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ ...﴾ | ٣٣ | ١/ ٧٥، ٣٩٠، ٥/ ٦٢ |
| ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ...﴾ | ٣٤ | ١/ ٩٥ |
| ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ...﴾ | ٣٥ | ٣/ ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣ |
| ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ ...﴾ | ٣٦ | ٣/ ٤٧٩، ٤٨٠ |
| ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ | ٣٧ | ٣/ ٣٧ |
| ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ | ٣٨ | ١/ ٥٢٤، ٥٢٥، ٢/ ٥٨٥، ٥٨٦،... |
| ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ﴾ | ٣٩ | ٢/ ٣٩ |
| ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾ | ٤٠ | ١/ ١٣١، ٥٦٤، ٢/ ٦٠٩، ٤٣٢، ٤٣٤،... |
| ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ | ٤١ | ١/ ٩٥ |
| ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ...﴾ | ٤٣ | ١/ ٦٤، ٧٤، ٣/ ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠،... |
| ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ | ٤٤ | ٢/ ١٦٩، ١٧١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ...﴾ | ٤٥ | ١/ ٧٥، ٨٤ |
| ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ | ٤٦ | ١/ ٨٣ |
| ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ | ٥٣ | ٥/ ٦٢ |
| ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ ...﴾ | ٥٤ | ٣/ ٥٤٣ |
| ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ | ٥٦ | ٣/ ١٢٩ |
| ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا ...﴾ | ٦١ | ٥/ ٩٤ |
| ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ...﴾ | ٦٧ | ٤/ ٢١٥ |
| ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ ...﴾ | ٧١ | ١/ ١٣٤، ٥/ ١٩٩ |
| **سورة سبأ** | | |
| ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ ...﴾ | ٣ | ١/ ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٦، ٤/ ٢٠٦، ٢١٠، ... |
| ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي ...﴾ | ٦ | ٣/ ١٩٤، ١٩٩ |
| ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ | ٢٣ | ٣/ ٤٤ |
| ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ...﴾ | ٢٨ | ١/ ٦٤٢، ٦٤٦، ٦٤٩ |
| ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ | ٣٥ | ٢/ ٤٨٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ ...﴾ | ٤٠، ٤١ | ٣/ ٣٤٥، ٥/ ١٨٢ |
| **سورة فاطر** | | |
| ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ | ١ | ٢/ ٤٠٧، ٣/ ١٣٣ |
| ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ...﴾ | ٨ | ١/ ٦٢، ٥/ ٥٤ |
| ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ | ١٠ | ٢/ ٢٦٨، ٢٧١، ٣/ ٤٤، ٤٦، ١٢٥، ... |
| ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ | ١١ | ١/ ٣١٤، ٣١٧، ٥٣٣، ٢/ ٢٥٣، ٤/ ٤٢٣... |
| ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ | ١٥ | ٣/ ١٧ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ | ١٥-١٧ | ١/ ٣٢٣، ٣٧٩، ٤/ ٤٢٤، ٥٢١ |
| ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ | ٢٤ | ١/ ٨٣، ٦١٠ |
| ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟...﴾ | ٢٨ | ١/ ٤، ٣/ ٣٠٩ |
| ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم ...﴾ | ٣٠ | ٤/ ٢١٣ |
| ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا ...﴾ | ٣٢ | ٣/ ٤١٧، ٥٢٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ | ٣٤ | ٣/ ٥٢٨، ٤/ ٢٨٢ |
| ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ ...﴾ | ٣٦ | ١/ ٤٣١، ٤/ ٣٠٤، ٣١٨، ٣٢٠، ... |
| ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ | ٤٠ | ١/ ٢٧٨ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ...﴾ | ٤١ | ١/ ٤٦٨، ٣/ ٢٠ |
| ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ | ٤٤ | ١/ ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥، ... |
| **سورة يس** | | |
| ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ | ٥ | ٣/ ٦٩ |
| ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ | ١٢ | ٢/ ٦٣ |
| ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ ...﴾ | ٢٣ | ١/ ٢٠٥ |
| ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا...﴾ | ٣٣ | ١/ ١٨٨ |
| ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ...﴾ | ٣٧ | ١/ ١٨٨ |
| ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ | ٣٩ | ١/ ٣٨١، ٣٨٣، ٥/ ١٧٦ |
| ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ | ٤٧ | ١/ ٥٥٢، ٢/ ٤٥١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ...﴾ | ٥١، ٥٢ | ٤/ ٢٥٠ |
| ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ | ٥٤ | ٤/ ٤٤٩، ٤٦٩ |
| ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ | ٥٨ | ٢/ ١٥، ١٦، ٣/ ٢٧، ٥٣، ... |
| ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ ...﴾ | ٦٥ | ٢/ ١١ |
| ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ | ٦٩ | ١/ ٥٧٦ |
| ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ...﴾ | ٧١ | ٢/ ٣١٧، ٣١٩ |
| ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ...﴾ | ٧٧، ٧٨ | ٤/ ٢١٩ |
| ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ...﴾ | ٧٨، ٧٩ | ٤/ ٢١٧ |
| ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ | ٧٩، ٨٠ | ٤/ ٢٢٠ |
| ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ...﴾ | ٨٠، ٨١ | ٤/ ٢١٨ |
| ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ | ٨١ | ٤/ ٢٢١، ٢٢٤ |
| ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ...﴾ | ٨١، ٨٢ | ٥/ ١٩٢ |
| ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن ...﴾ | ٨٢ | ١/ ٣٧٩، ٤٧٧، ٤٩٩، ٢/ ٢٢، ٣/ ١٠، ... |
| ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ | ٨٣ | ٤/ ٢١٩، ٥٢١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| **سورة الصافات** | | |
| ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ...﴾ | ١ـ٣ | ٣/ ١١٩ |
| ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ | ٦ | ٥/ ١٧٥ |
| ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ | ٨ | ٣/ ١٢٨ |
| ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ ...﴾ | ٨ـ١٠ | ١/ ٥٧٧، ٣/ ١٣٢ |
| ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ...﴾ | ٢٧، ٢٨ | ٢/ ٤٢٦ |
| ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ | ٣٣ | ٢/ ٤٢٦ |
| ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ | ٥٧ | ١/ ٥٥٢ |
| ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ...﴾ | ٦٩، ٧٠ | ٥/ ٢٠٣، ٢٥٧ |
| ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ | ٨٣ | ٤/ ٥٧٣ |
| ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ | ٨٨، ٨٩ | ١/ ٢١٣، ٥/ ١٨١ |
| ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ | ٩٦ | ١/ ٢١٣، ٣٩٥، ٤/ ٥٩٠، ٣٦٤، ٣٦٧، ... |
| ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ | ١٠٠ | ٣/ ٩٩ |
| ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ | ١٠١ | ١/ ٣١٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ ...﴾ | ١٣٧، ١٣٨ | ١/ ٥٩٦ |
| ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ...﴾ | ١٥١ ـ ١٥٤ | ١/ ٢٧٤ |
| ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ | ١٥٣ | ٢/ ٣٠٩ |
| ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ | ١٦٥ | ٣/ ١٣٤ |
| ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ | ١٦٥، ١٦٦ | ٣/ ١٣١ |
| ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ | ١٧٣ | ١/ ٦٠٤ |
| ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ...﴾ | ١٨٠ ـ ١٨٢ | ١/ ١١٠ |
| **سورة ص** | | |
| ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ | ٥ | ١/ ٢١٨، ٢٣٢، ٢٣٥، ... |
| ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ...﴾ | ٧ | ١/ ٢٣٥ |
| ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ | ١٧ | ١/ ٧٣، ٥٦٥ |
| ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ...﴾ | ١٨، ١٩ | ١/ ٢٨٥ |
| ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ...﴾ | ٢٧، ٢٨ | ٤/ ٢٢٩، ٤٣٧، ٤٣٨ |
| ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ | ٢٨ | ٤/ ٤٣٥ |
| ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ | ٢٩ | ١/ ٩٤، ٣/ ١٩٧، ٤٨٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً...﴾ | ٣٦-٣٩ | ١/ ٢٨٥، ٣/ ١٦٣، ٥٣٦،... |
| ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ...﴾ | ٣٧، ٣٨ | ٤/ ١٠٥ |
| ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ | ٤١ | ١/ ٧٣، ٥٦٥ |
| ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ | ٤٥ | ١/ ٧٣، ٥٦٥ |
| ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ | ٥٤ | ٤/ ٣٠٠ |
| ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ...﴾ | ٧٢ | ٤/ ١٢٥ |
| ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ | ٧٥ | ٢/ ٣١٦، ٣١٩، ٣/ ١٥٧، ١٦٤، ٥/ ٣١٥،... |
| ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ...﴾ | ٨٢، ٨٣ | ٢/ ٤٤، ٣/ ٣٣٥، ٦٢١، ٤/ ٣٧٧ |
| ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ...﴾ | ٨٥ | ٣/ ٣٤١، ٤/ ٣٢٦ |
| ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ | ٨٦ | ٤/ ٥١ |
| **سورة الزمر** | | |
| ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ | ١ | ١/ ٢٥٣، ٢/ ٦٧، ٣/ ٤٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ | ٣ | ١/ ٧٠، ٢٠٥، ٢١٤، ... |
| ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ | ٦ | ٢/ ٧٢ |
| ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ...﴾ | ٧ | ١/ ٣٩٢، ٤٦٠، ٢/ ٤٦٦، ٤/ ٥٩ |
| ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ | ٩ | ١/ ٣، ٣/ ٣٢١، ٣٢٣ |
| ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ | ١٠ | ٤/ ٢٤٦ |
| ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ...﴾ | ٢٣ | ٢/ ٦٠٣، ٥/ ٢٠٥، ٢١١ |
| ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ...﴾ | ٢٩ | ١/ ٢٣٨، ٢٥٩، ٥٢٠، ... |
| ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ | ٣٠ | ٤/ ١٩٥ |
| ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ | ٣٣ | ٤/ ٥٩٥ |
| ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ...﴾ | ٣٦، ٣٧ | ١/ ٦٩، ٢/ ٤٥٠، ٤/ ٣٤٤، ٤٠٣، ... |
| ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ...﴾ | ٤٢ | ١/ ٤١٩، ٤/ ١١١، ١١٨، ١٣٠، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ | ٤٨ | ٤/ ٣٠٥ |
| ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ | ٥٣، ٥٤ | ٢/ ٥٦٦، ٣/ ٣٠٣، ٦٢٨، ٦٣٠، ... |
| ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ...﴾ | ٥٦ | ٤/ ٢٧٨ |
| ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ | ٦٢ | ٤/ ٣٦٣ |
| ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ | ٦٥ | ١/ ٦٢٥، ٣/ ٢٤٠، ٢٦٣، ... |
| ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ...﴾ | ٦٧ | ١/ ٤٩٣، ٢/ ٢٨٨، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٣٠، ٣/ ٢٨، ... |
| ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن ...﴾ | ٦٨ | ١/ ٦٢١، ٦٢٢، ٣/ ١٢٤، ٤/ ١٣٨، ... |
| ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ | ٧١ | ٣/ ١١٧، ٤/ ٢٠٦، ٢١٠ |
| ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا...﴾ | ٧٣ | ٣/ ١١٨ |
| ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ...﴾ | ٧٤ | ٤/ ٢٨٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ...﴾ | ٧٥ | ٣/ ٣، ١٠، ١٢٨، ١٣١، ٤/ ٣٢٥، ... |
| **سورة غافر** | | |
| ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ...﴾ | ١ ـ ٣ | ٢/ ٧٢، ٣/ ٢٨١ |
| ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ | ٢ | ٣/ ٤٥، ٤٨ |
| ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ | ٣ | ٣/ ٢٨٩، ٤٠٥ |
| ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ | ٧ | ٣/ ٣، ٧، ٩، ١٢٨، ١٣٠، ٤/ ٣١٤، ... |
| ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ ...﴾ | ١٠ | ٤/ ٥٣٧ |
| ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ | ١١ | ٤/ ١٣٤، ١٣٩ |
| ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ...﴾ | ١٥ | ١/ ٨٩، ٩٠، ٣/ ٣، ٧ |
| ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ...﴾ | ١٥ ـ ١٧ | ٤/ ٢٤٢ |
| ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ...﴾ | ١٧ | ٤/ ٤٣٢ |
| ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ | ٣١ | ٤/ ٣٢٨، ٤٣٦ |
| ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ | ٣٢ | ٤/ ٢٠٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ...﴾ | ٣٢-٤٦ | ٤/ ٢٠٠ |
| ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ ...﴾ | ٣٥ | ١/ ٣١٤، ٣١٧، ٤/ ٦٥ |
| ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ ...﴾ | ٣٦، ٣٧ | ٢/ ٤٤، ٣/ ٥٣ |
| ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا ...﴾ | ٤٠ | ٤/ ٢٠٣ |
| ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ...﴾ | ٤٥، ٤٦ | ٤/ ١٤٣ |
| ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ | ٤٦ | ٣/ ٩٢، ٤/ ١٤٨، ١٨٠، ١٨٥، ... |
| ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ...﴾ | ٤٩ | ٣/ ١٣٩ |
| ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ | ٥١ | ١/ ٦٠٠، ٦٠٤ |
| ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ | ٥٥ | ١/ ٥٥٠ |
| ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ...﴾ | ٥٦ | ٥/ ٩٠ |
| ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ...﴾ | ٥٧ | ١/ ٢٤٣، ٤/ ١٤٠، ٢١٨، ٢٢٤، ... |
| ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ...﴾ | ٥٩ | ٤/ ٢٠٧ |
| ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ | ٦٠ | ١/ ٥٣٦، ٢/ ٣٨٩، ٤/ ٤٩٢، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ | ٦٥ | ١/ ٢٤٥ |
| ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ...﴾ | ٦٧ | ٢/ ٤٣٠ |
| ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ ﴾ | ٦٩ | ٢/ ٢٨٢ |
| ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ...﴾ | ٧٨ | ١/ ٦٠٧، ٣/ ١٨٥ |
| ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ﴾ | ٨٢ | ١/ ١٠١، ٢٨٢ |
| سورة فصلت | | |
| ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ | ٢ | ٢/ ٧٠، ٧٢، ٣/ ٤٥، ٥/ ٢٨٤ |
| ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ ...﴾ | ٥ | ٤/ ٣٤١ |
| ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ | ١١ | ٢/ ٤١٧ |
| ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ | ١٢ | ٤/ ٤٢٢ |
| ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ | ١٥ | ١/ ٢٨٧، ٣١٥، ٣٤٨، ... |
| ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ | ١٧ | ١/ ٥٥٤ |
| ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا...﴾ | ٢١ | ٢/ ١١، ١٩ |
| ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ...﴾ | ٢٢ | ٢/ ٤٣٧ |
| ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ...﴾ | ٢٢، ٢٣ | ٢/ ٤٥٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ | ٢٦ | ٤/ ٣٤١ |
| ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ...﴾ | ٣٠ | ٣/ ١٣٣ |
| ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ ...﴾ | ٣٣ | ٣/ ٢٢٢ |
| ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ...﴾ | ٣٨ | ٣/ ١٢٨، ١٣١ |
| ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ | ٤٠ | ٢/ ٣٠٦ |
| ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ ...﴾ | ٤١، ٤٢ | ٣/ ١٩٤، ١٩٩ |
| ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ...﴾ | ٤٢ | ١/ ٥٧٨، ٢/ ٧٠، ٧٢، ٣/ ٤١، ... |
| ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ | ٤٤ | ١/ ٨٩، ٩١، ٢/ ٦٠٦، ٦١٠، ٦١١، ... |
| ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ | ٤٦ | ١/ ٥٦٦، ٤/ ٣٤٤، ٣٦٠، ٤٣٠، ... |
| ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ | ٤٧ | ٢/ ٣٣ |
| ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...﴾ | ٥٢، ٥٣ | ١/ ٢٨٨ |
| ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ | ٥٤ | ٣/ ٢٠ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| سورة الشورى | | |
| ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ | ٥ | ٣/ ٣٩ |
| ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ...﴾ | ٧ | ٤/ ٢٦٠ |
| ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٩ | ١/ ٢٤٣ |
| ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ...﴾ | ١١ | ١/ ٣١٠، ٣١٣، ٢/ ٣٦٠، ٧٢، ٣/ ٦٦، ... |
| ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ...﴾ | ١٣ | ١/ ٣٠١، ٣/ ١٨٩ |
| ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ | ١٧ | ١/ ٢٨٣ |
| ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ...﴾ | ١٨ | ٤/ ٣٠٧ |
| ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ ...﴾ | ٢٠ | ٤/ ٤٦٦، ٥/ ١٢٦ |
| ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ...﴾ | ٢٤ | ١/ ٦٠٢، ٤/ ٣٠٠ |
| ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ...﴾ | ٢٧ | ١/ ٤٠٠ |
| ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا ...﴾ | ٣٠ | ٣/ ٥٥٤، ٤/ ٣٣، ٣٤، ٣٢٣ |
| ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ | ٣٣ | ٤/ ٣٨١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ | ٣٧ | ٤٠٣/٤ |
| ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ | ٤٨ | ٣٧/٢ |
| ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن ...﴾ | ٥١ | ١٧٥/٢، ٤٤/٣، ٤٧ |
| ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ...﴾ | ٥٢، ٥٣ | ٨٩/١، ٩٠، ١٢٧/٤، ١٣١ |
| **سورة الزخرف** | | |
| ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ | ١، ٢ | ٢٧٦/١ |
| ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ | ٣ | ٢٧/٢، ٣٠، ٧٠ |
| ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ | ١٣ | ٣١١/١، ٤٩/٣ |
| ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ ...﴾ | ١٩ | ٢٦٤/١، ٢٦٥، ٢٨/٢، ٣٠، ٣٠٩، ... |
| ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ...﴾ | ٢٠ | ٥٤٨/١، ٥٥١ |
| ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ...﴾ | ٢٣ | ٢٥٧/٥ |
| ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ | ٣٢ | ٣١٩/٢ |
| ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...﴾ | ٣٣ | ٣٩٩/١ |
| ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ...﴾ | ٤٥ | ١٧٠/١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ...﴾ | ٥١ـ٥٤ | ١/ ١٩٢، ٢٩٥ |
| ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ | ٥٥ | ٤/ ٥٣٧ |
| ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ | ٥٨ | ٢/ ٢٢٩ |
| ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ...﴾ | ٦٧ | ١/ ٦٣٢، ٣/ ٨٣ |
| ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ...﴾ | ٧١ | ١/ ٨٨، ٤/ ٢٨٢ |
| ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا ...﴾ | ٧٢ | ٤/ ٣٦٦ |
| ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ | ٧٥ | ٤/ ٣١٨ |
| ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ | ٧٦ | ٤/ ٤٣٢ |
| ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ...﴾ | ٧٧ | ١/ ٤٣١، ٢/ ١٣٨، ١٤٤، ٤/ ٣٠٤، ... |
| ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ...﴾ | ٨٠ | ٤/ ٩٦ |
| ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ | ٨٦ | ١/ ٢٦٣ |
| ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ...﴾ | ٨٧ | ١/ ١٩٤، ٢١٤ |
| سورة الدخان | | |
| ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ | ١، ٢ | ٢/ ٢١٨، ٢٢١ |
| ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ...﴾ | ١ـ٥ | ٣/ ٤٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ...﴾ | ٣ـ٥ | ٢/ ٧٢ |
| ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ | ١٠، ١١ | ١/ ٥٧٩، ٥/ ١٥٠ |
| ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ | ١٦ | ٥/ ١٥١ |
| ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ | ٣٢ | ٣/ ١٦٧، ١٧٠ |
| ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ...﴾ | ٥٦ | ٤/ ١٣٤، ١٦٧، ٣٠٠، ٣٠٣ |
| **سورة الجاثية** | | |
| ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ | ٢ | ٢/ ٧٢ |
| ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ١٣ | ٤/ ٤٠٤ |
| ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ...﴾ | ١٧ | ٤/ ٥٦٠ |
| ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ | ١٨ | ١/ ٨٧ |
| ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾ | ٢١ | ٤/ ٤٣٦، ٤٣٨ |
| ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ | ٢٣ | ٢/ ٢٢٩، ٢٣١، ٤/ ٦٠١، ٣٢٦ |
| ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ...﴾ | ٢٤ | ٤/ ٢٠١ |
| ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ | ٢٥ | ٤/ ٢٠٤ |
| ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ...﴾ | ٢٩ | ٤/ ٩٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| **سورة الأحقاف** | | |
| ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ ...﴾ | ١١ | ١/ ٣٨١ |
| ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ | ٢٠ | ٣/ ٢٦٣ |
| ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ...﴾ | ٢٥ | ٢/ ٢٧، ٢٩ |
| ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ...﴾ | ٢٦ | ٣/ ٣٧٢ |
| ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ | ٢٩ | ١/ ٦٤٥ |
| ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ | ٣٠ | ١/ ٦٤١ |
| ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ | ٣١ | ١/ ٦٤١ |
| ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ | ٣٣ | ٤/ ٢١٨، ٢٢٤ |
| ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ | ٣٥ | ١/ ٣٠١، ٦٢٤، ٣/ ١٨٩، ٤/ ٢١٥، ... |
| **سورة محمد** | | |
| ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ | ١٠ | ١/ ١٧١ |
| ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾ | ١١ | ٣/ ٥٠٨، ٦٣٢ |
| ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ | ١٥ | ٣/ ٦١٠، ٤/ ٢٨١ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ...﴾ | ١٧ | ٣/ ٣٩٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ...﴾ | ١٨ | ٥/ ١٥٢ |
| ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ...﴾ | ١٩ | ١/ ٦٧، ٧٠، ٣/ ٣٧١، ٦٦١، ٦٦٦ |
| ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ | ٢٤ | ٢/ ٦٠٣ |
| ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ...﴾ | ٣٠ | ١/ ٥٧٦، ٥٨١ |
| ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ ...﴾ | ٣١ | ٣/ ٣١٦، ٥٦٠ |
| ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ | ٣٨ | ١/ ٤٢٤، ٤٢٥، ٣/ ٢٢، ٤/ ٥٢١، ... |
| **سورة الفتح** | | |
| ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ | ١ | ٢/ ٣١٩ |
| ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...﴾ | ١ ـ ٣ | ٤/ ٥٥٧ |
| ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ | ٢ | ٣/ ٣٠٨ |
| ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ | ٤ | ٣/ ٣٦٣، ٣٩٣، ٣٩٦، ٣٩٨ |
| ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ...﴾ | ٥ | ٤/ ٥٥٧ |
| ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ...﴾ | ٦ | ٤/ ٥٢٧، ٥٣٣، ٥٣٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ...﴾ | ١٠ | ٤/ ٥٤٧، ٥٥٦، ٥/ ٤٩، ٥٤ |
| ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ | ١١ | ٣/ ٣٧٨، ٥/ ٩٣ |
| ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ | ١٥ | ٢/ ٥، ٦٥، ٧٧، ١١٤ |
| ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ...﴾ | ١٧ | ٣/ ٦٥٥، ٤/ ٣٣٢، ٤٢١ |
| ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ | ١٨ | ٤/ ٥٢٣، ٥٤٠، ٥٤٧، ٥٥١، ٥٥٦، ... |
| ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ | ٢٧ | ٣/ ٤٥٦، ٤٦٢، ٤٦٤ |
| ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ...﴾ | ٢٩ | ١/ ٥٦٤، ٤/ ٥٤٠، ٥٤٣، ٥٤٤، ... |
| **سورة الحجرات** | | |
| ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ ...﴾ | ٧ | ٤/ ٣٤٣ |
| ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ | ٩ | ١/ ٦٣٠، ٥/ ٢٢٧ |
| ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ...﴾ | ٩، ١٠ | ٣/ ٢٥٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ ...﴾ | ١٠ | ٣/ ٢٦٥ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ | ١١ | ٤/ ٩، ٥/ ٢٢٩ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ...﴾ | ١٢ | ٣/ ٤٧٧، ٤/ ٩، ١٢ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ...﴾ | ١٣ | ١/ ٦٤٦ |
| ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ...﴾ | ١٤ | ٣/ ٢٠٣، ٤٢٦، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٣٨، ... |
| ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ | ١٥ | ٣/ ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٦٩، ... |
| ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ | ١٨ | ٥/ ١٧٥ |
| ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ...﴾ | ٤٤ | ٤/ ٢٨٢ |
| ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ | ٦٤ | ٢/ ١٦ |
| **سورة ق** | | |
| ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ | ٣ | ٤/ ٢٠٤ |
| ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ | ٦ | ١/ ١٠١، ١٧٠، ٢٨١، ٥/ ٢٠٥، .... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ...﴾ | ١١ | ١/ ٥٩٣ |
| ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ...﴾ | ١٦ | ١/ ٣٥٠، ٥٢٠، ٢/ ٥٥٣، ٣/ ٢١ |
| ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ ...﴾ | ١٧، ١٨ | ٤/ ٩٦، ٩٨، |
| ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ | ١٨ | ١/ ٥٣٨، ٢/ ٥٥٣، ٣/ ١١٨، ١٣٢، ٤/ ٢٣٨، ... |
| ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ | ٢٢ | ١/ ١٠٣ |
| ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ ...﴾ | ٢٨، ٢٩ | ٤/ ٤٣٥ |
| ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ | ٢٩ | ١/ ٥٦٦، ٢/ ١٦، ٤/ ٣٣٩، ٣٢٨، ... |
| ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ | ٣٥ | ٢/ ١٣٠، ١٣٢ |
| ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ...﴾ | ٣٨ | ١/ ٣٥٢، ٣٥٤، ٤١٧، ٢/ ٢٨٦، ... |
| **سورة الذاريات** | | |
| ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ | ٤ | ٣/ ١١٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ...﴾ | ٢٣ | ٤/ ٢١١ |
| ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ | ٢٨ | ١/ ٣١٤ |
| ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ | ٣٥، ٣٦ | ٣/ ٤٣٢، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥١ |
| ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ...﴾ | ٣٨ ـ ٤٠ | ٥/ ٢١٢ |
| ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ | ٤٩ | ٢/ ٤٤٩ |
| ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ | ٥٦ ـ ٥٨ | ١/ ٢٢٧، ٣١٥، ٤٢٤، ... |
| ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ ...﴾ | ٥٧ | ٢/ ١٤٥ |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ | ٥٨ | ٢/ ٥٧٦ |
| **سورة الطور** | | |
| ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ...﴾ | ١ ـ ٤ | ٣/ ١٢٧ |
| ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ | ٣ | ٢/ ٦١ |
| ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ | ٤ | ٢/ ٣٤٣ |
| ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ...﴾ | ١٦ | ١/ ٥٤٢، ٦٢٤ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ...﴾ | ٢١ | ٥/ ١٩٦ |
| ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ...﴾ | ٣٠، ٣١ | ١/ ٥٧٦، ٦٠٢ |
| ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ | ٣٤ | ٢/ ١٠٦، ١١٠ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ | ٣٥ | ١/ ١٩٩، ٣٢٣، ٣٧٦، ... |
| ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى ...﴾ | ٤٥ـ٤٧ | ٤/ ١٤٣، ١٤٨ |
| سورة النجم | | |
| ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ | ٥ | ٣/ ٢٢٧ |
| ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ ...﴾ | ٥ـ١١ | ٢/ ٣٣٨، ٣٤٦، ٣٤٨ |
| ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ | ٦ | ٣/ ١٣٥ |
| ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ | ٧ | ٢/ ١٨٣ |
| ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ | ٨ | ٢/ ٣٤٦ |
| ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ | ١٠ | ١/ ٥٦٣، ٥٦٥، ٣٤٧ |
| ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ | ١١ | ٢/ ٣٤٦، ٣٤٨ |
| ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ | ١٣ | ١/ ٣٥٥، ٢/ ١٤٧، ٣٤٦، ٣٤٩، ... |
| ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ...﴾ | ١٣، ١٤ | ٢/ ١٧٨ |
| ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ...﴾ | ١٣ـ١٥ | ٢/ ٣٣٨، ٤/ ٢٨٠، ٢٨٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ ...﴾ | ١٧، ١٨ | ٢/ ٣٣٨ |
| ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ...﴾ | ٢٣ | ٢/ ٢٢٥، ٢٢٧، ٣/ ٢٠٥، ٢٠٧، ... |
| ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى ...﴾ | ٢٨ | ٣/ ٤٧٧ |
| ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ | ٣٢ | ٣/ ٥٧٦، ٦١٥، ٤/ ٤٤٥ |
| ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...﴾ | ٣٨، ٣٩ | ٤/ ٤٦٨، ٤٧١ |
| ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ | ٣٩ | ٤/ ٤٤٩، ٤٨٠، ٤٩٨ |
| سورة القمر | | |
| ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ | ١ | ٤/ ٢٠٦، ٢١٥، ٥/ ١٥٢ |
| ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ | ١٤ | ٢/ ٣٠٠، ٤/ ٥٣٣ |
| ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ | ١٧ | ٢/ ١٠٤ |
| ﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ | ١٩ | ٣/ ٥٦٨ |
| ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ | ٣٤ | ٣/ ٩٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ | ٤٩ | ١/ ٥٢٤، ٥٢٥، ٢/ ٤٤٦، ٥٩٤،... |
| **سورة الرحمن** | | |
| ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ | ١٣ | ١/ ٦٤٣ |
| ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ | ١٥ | ٤/ ٣٢٥ |
| ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ | ١٩ | ٤/ ٥٧٢ |
| ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ | ٢٢ | ١/ ٦٤٢، ٤/ ٥٧٢ |
| ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ...﴾ | ٢٦، ٢٧ | ١/ ٣٨٤، ٣٨٥، ٤١٨، ٤/ ١٣٤... |
| ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ | ٢٧ | ٢/ ٣١٦، ٤/ ٥٣٢ |
| ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ | ٢٩ | ١/ ٤٧٤، ٢/ ٥٤٢، ٥٦٨، ٥٧٢،... |
| ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ | ٤٦ | ٢/ ١٥٤ |
| ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ | ٥٠ | ٤/ ٢٨١ |
| ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ | ٥٢ | ٤/ ٢٨١ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ | ٦٢ | ٢/ ١٥٤ |
| ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ | ٦٤ | ٢/ ١٠٢ |
| ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ | ٦٨ | ٤/ ٢٨١ |
| **سورة الواقعة** | | |
| ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ | ١٣، ١٤ | ٤/ ٥٤٩ |
| ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا...﴾ | ٤٧، ٤٨ | ٤/ ١٤١ |
| ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ ...﴾ | ٤٩، ٥٠ | ٢/ ٣٥٤، ٤/ ٢٤٠ |
| ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ...﴾ | ٥٨، ٥٩ | ٤/ ٣٧٤، ٥٠٩ |
| ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ...﴾ | ٦٣ ـ ٦٧ | ٢/ ٥٧٠، ٥٩٥، ٣/ ٥٩٦، ٤/ ٥٠٨، ... |
| ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ | ٧٠ | ٢/ ٥٩٦ |
| ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ...﴾ | ٧١ ـ ٧٣ | ٤/ ٢٨٣ |
| ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ | ٧٨ | ٢/ ٦١، ٧٨ |
| ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ | ٨٢ | ٥/ ١٦٥ |
| ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ...﴾ | ٨٣ ـ ٨٧ | ٤/ ١١٣، ١٢٣ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| | سورة الحديد | |
| ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ | ٣ | ١/ ٣٧٦، ٣٨٣، ٤٨٠، ٣/ ٢٨، ... |
| ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ ...﴾ | ٤ | ١/ ٤٩٠، ٥٢١ |
| ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ ...﴾ | ٩ | ١/ ٦٠٧ |
| ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ...﴾ | ١٠ | ٤/ ٥٤٠، ٥٤٥، ٥٤٧، ٥/ ١٩، ٣٢، ... |
| ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ...﴾ | ١١ | ٥/ ٤٦ |
| ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم ...﴾ | ١٢، ١٣ | ٤/ ٢٥٥ |
| ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ | ١٣ | ٢/ ١٢٩، ١٣٢ |
| ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ...﴾ | ١٤ | ٤/ ٢٥٧ |
| ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ...﴾ | ١٦ | ٢/ ١٠٢ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ...﴾ | ١٩ | ٥/ ٤٤ |
| ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...﴾ | ٢٠ | ٤/ ٢١٢ |
| ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ | ٢١ | ٤/ ٢٧٩، ٣٩٢، ٣٩٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ...﴾ | ٢٢ | ٢/ ٤١١، ٤٣٤، ٤٥٧، ٥٨١ |
| ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ...﴾ | ٢٣ | ٢/ ٥٨٣ |
| ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ | ٢٥ | ١/ ٢٨٣ |
| ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ ...﴾ | ٢٩ | ٤/ ٣٩٢، ٣٩٤ |
| سورة المجادلة | | |
| ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ ...﴾ | ١ | ٣/ ٣٥، ٤/ ٥٢٨ |
| ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ | ٤ | ٣/ ٣٠٤، ٤/ ٣٣١، ٣٤٠ |
| ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ٧ | ١/ ٥٤٠ |
| ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ | ٨ | ٢/ ٢٨٢ |
| ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ...﴾ | ١١ | ١/ ٣ |
| ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ | ٢٢ | ١/ ٦٠٤، ٤/ ٥٨، ٨٣، ١٢٨، ... |
| سورة الحشر | | |
| ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ | ٢ | ٢/ ١٨٨، ١٩٠ |
| ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً ...﴾ | ٥ | ٤/ ٤٢٣، ٥/ ٢٤٨، ٢٥٣، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ ...﴾ | ٨ـ١٠ | ٤/ ٥٤١، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٨٠،... |
| ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى ...﴾ | ٩ | ٤/ ٨٢، ٥/ ٢٣١ |
| ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ...﴾ | ١٠ | ٣/ ٣٢٨، ٤/ ٤٥١، ٤٥٤، ٥٠٠،... |
| ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ | ١١ | ٢/ ٢٨٢ |
| ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ...﴾ | ٢٣ | ١/ ٢٨٩، ٢٩٤، ٣٧١،... |
| ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ...﴾ | ٢٤ | ١/ ٢٥٧، ٤٠١ |
| **سورة الممتحنة** | | |
| ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ | ١ | ٤/ ٤٢٤ |
| ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ | ٤ | ٤/ ٥٦٢ |
| **سورة الصف** | | |
| ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ...﴾ | ٤ | ١/ ٦٣٠، ٤/ ٥٤، ٥٩، ٥٣٣،... |
| ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ | ٥ | ١/ ١٠٩، ٢/ ٦٠١، ٣/ ٧٥، ٢٣٠،... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ | ٦ | ١/ ٦٠٠ |
| ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ...﴾ | ٨ | ٤/ ٥٩٩ |
| ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ...﴾ | ٨، ٩ | ١/ ٢٩٢، ٦٤٨ |
| **سورة الجمعة** | | |
| ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ...﴾ | ٢ | ١/ ٦٠٧ |
| ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ...﴾ | ٥ | ٥/ ٢٥٢ |
| ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ | ٧ | ٢/ ١٤٤ |
| ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ١٠ | ٢/ ٥٦٩ |
| ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ | ١١ | ٤/ ٣٧٣، ٥٧٨ |
| **سورة المنافقون** | | |
| ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ | ١ | ٣/ ٣٤٥، ٤٣٧ |
| ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ | ٣ | ٣/ ٣٤٠، ٣٤٥ |
| ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ...﴾ | ٤ | ١/ ٥٨٧ |
| ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ | ١١ | ١/ ٥٣٠، ٥٣٤، ٤/ ٥٦٧ |
| **سورة التغابن** | | |
| ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ | ١ | ٤/ ٥٢٠ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ | ٢ | ١/ ٥٥٦، ٣/ ٣٧٨ |
| ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ | ٦ | ٣/ ٢٣ |
| ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟...﴾ | ٧ | ٤/ ٢٠٦، ٢١٠ |
| ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ | ٨ | ٢/ ٢٢١، ٣/ ١٩٤، ٢٠١،... |
| ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ | ١١ | ٢/ ٥٨٣، ٣/ ٣١٦ |
| ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ...﴾ | ١٢ | ٣/ ١٨٥ |
| ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ | ١٦ | ٤/ ٣٣١، ٣٥٠، ٤٤٣ |
| **سورة الطلاق** | | |
| ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ...﴾ | ٢، ٣ | ٢/ ٥٦٥، ٥٦٦، ٣/ ٥٦٧، ٥٢٥، ٥/ ١٢٨،... |
| ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ | ٣ | ١/ ١٦٥، ٢/ ٥٦٥ |
| ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ...﴾ | ٥ | ٢/ ٥٦٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ | ٧ | ١/ ٥٤١، ٤/ ٣٤٧، ٤٠٢ |
| ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ | ٨ | ١/ ٤٧٧ |
| ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ | ١٢ | ١/ ٣٦٥، ٣/ ٢٤ |
| **سورة التحريم** | | |
| ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ ...﴾ | ٥ | ٤/ ٦٢٤ |
| ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ | ٦ | ٣/ ١٣٩ |
| ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ | ٨ | ١/ ٩٠، ٣/ ٦٢٢ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ ...﴾ | ٩ | ٤/ ٥٤٣ |
| ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ | ١١ | ٣/ ٤٩ |
| **سورة الملك** | | |
| ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ | ١ | ٢/ ٣١٩، ٤/ ٥٢٠ |
| ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ ...﴾ | ٢ | ١/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٥٤١ |
| ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ | ٥ | ٥/ ١٧٥ |
| ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ...﴾ | ٨، ٩ | ٣/ ١١٨، ٦٠٩، ٤/ ٢٠٩، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ | ٩ | ١/ ٦١٠ |
| ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا ...﴾ | ١٠ | ٤/ ٢١٠ |
| ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ | ١٤ | ١/ ٥١٨، ٥٢٠، ٢/ ٤١١، ٥٧٨، ... |
| ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ | ١٥ | ٢/ ٥٦٩، ٤/ ٤٠٤ |
| ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ | ١٦ | ٢/ ١٨٩، ٢٩٢، ٣/ ٤٧ |
| سورة القلم | | |
| ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ | ١ | ٢/ ٥٣٥، ٥٣٨، ٥٥١ |
| ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ | ١٧ | ٤/ ٢٨١ |
| ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ...﴾ | ١٧ - ٢٠ | ٣/ ٤٦١ |
| ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ...﴾ | ٣٥، ٣٦ | ١/ ٢٧٤، ٤/ ٤٣٥، ٤٣٧، ... |
| ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ...﴾ | ٤٢، ٤٣ | ٢/ ١٧١، ٤/ ٢٥٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ | ٤٨ | ١/ ٦٢٤ |
| **سورة الحاقة** | | |
| ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ...﴾ | ١٣، ١٤ | ٤/ ٢٤٠ |
| ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ | ١٥ | ٤/ ٢٤٥ |
| ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ...﴾ | ١٥ـ١٨ | ٤/ ٢٤٢ |
| ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ | ١٧ | ٣/ ٩، ١٠، ١٤، ١٣٠ |
| ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ | ١٩ | ٢/ ٢٩٥، ٤/ ٢٤١، ٢٦٠ |
| ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ | ٢٤ | ٤/ ٢٣٧، ٣٧٢، ٣٧٥ |
| ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ | ٢٥ | ٢/ ٢٩٥ |
| ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ...﴾ | ٢٨، ٢٩ | ٣/ ٥٣٢، ٥/ ١٢٥ |
| ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ | ٤٠ | ٢/ ٣٥، ١١٤ |
| ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ...﴾ | ٤٠ـ٤٢ | ٢/ ٣٦، ٣/ ٢٢٧ |
| ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ...﴾ | ٤١، ٤٢ | ١/ ٥٧٧، ٣/ ٢٢٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ...﴾ | ٤٤ ـ ٤٧ | ١/ ٢٩٤، ٦٠٤، ٣/ ٥٧٣، ٥٧٥ |
| **سورة المعارج** | | |
| ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ...﴾ | ١، ٢ | ٤/ ٢٠٦ |
| ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ | ٤ | ٢/ ٢٩٣، ٣/ ٤٤، ٤٦، ١٢٥، ... |
| ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ | ٦، ٧ | ٤/ ٢٠٦ |
| ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ | ٨ | ٤/ ٢٩٦ |
| **سورة نوح** | | |
| ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ...﴾ | ٧ | ٤/ ٣٤١ |
| ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ...﴾ | ١٠، ١١ | ١/ ٦٧ |
| ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ...﴾ | ١٧، ١٨ | ٤/ ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢ |
| ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ ...﴾ | ٢٣ | ١/ ٢٠٤، ٢٠٥ |
| ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ | ٢٦ | ٢/ ٣٧٠، ٣/ ٥٦٨ |
| ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ | ٢٧ | ٢/ ٤٢٧ |
| ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ ...﴾ | ٢٨ | ١/ ٦٧، ٣/ ٦٦٧، ٤/ ٤٩٩ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| سورة الجن | | |
| ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ...﴾ | ١، ٢ | ١/ ٦٤٥ |
| ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ...﴾ | ٦ | ١/ ١٧١، ٥/ ١٩٤ |
| ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ ...﴾ | ٨ـ ١٠ | ٣/ ١٢٠، ٥/ ١٨٧ |
| ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ | ٩ | ٥/ ١٧٥ |
| ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ١٠ | ١/ ٣٩٣، ٤٧٠، ٢/ ٤٥٠، ٣/ ٥٦٧، ... |
| ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ | ١١ | ٣/ ١٢٢ |
| ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ...﴾ | ١١ـ ١٥ | ١/ ٦٤٥ |
| ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ | ١٣ | ٥/ ١٨٨ |
| ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ | ١٨ | ٣/ ٢٦٧ |
| ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ | ١٩ | ١/ ٧٢، ٥٦٤ |
| ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ | ٢٦ | ٢/ ٦٠٧ |
| ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا...﴾ | ٢٦، ٢٧ | ٢/ ٥٢٨، ٥/ ١٧٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| سورة المزمل | | |
| ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ | ١٤ | ٤/ ٢٣٩ |
| ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ ...﴾ | ١٩ | ١/ ٢٥٠ |
| ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ ...﴾ | ٢٠ | ٢/ ٥٦٩ |
| سورة المدثر | | |
| ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ | ٢٥ | ٢/ ١٠٧، ٣/ ٤٦٣ |
| ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ...﴾ | ٢٥، ٢٦ | ٢/ ٣، ١٠٨ |
| ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ | ٣٠ | ٣/ ١١٨، ١٤٠ |
| ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ | ٣١ | ١/ ٥٥٢، ٣/ ١١٩، ١٣٩ |
| ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ | ٤٨ | ٢/ ٣٧٣ |
| ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ ...﴾ | ٥٢ | ٥/ ٢٢٥ |
| ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ | ٥٦ | ٢/ ٥٥٤، ٥٥٦ |
| سورة القيامة | | |
| ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ | ١ | ٤/ ٢٤٥ |
| ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ | ٢ | ٤/ ١٢٨ |
| ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ...﴾ | ١٦، ١٧ | ٢/ ٥٩ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ | ٢٢، ٢٣ | ٢/ ١٢٠، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ... |
| ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ | ٢٣ | ٢/ ١٥٨، ٣/ ٤٩٩ |
| ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ | ٢٤ | ٢/ ٢٨٠ |
| ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ | ٣٦ | ٤/ ٢٢٨، ٤٣٧ |
| ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى...﴾ | ٣٦-٤٠ | ٢/ ٤٣٠، ٤/ ٢٢٦ |
| ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ...﴾ | ٣٩، ٤٠ | ٤/ ٢٣٠ |
| ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ | ٤٠ | ٤/ ١٤٢ |
| **سورة الإنسان** | | |
| ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ...﴾ | ١ | ١/ ٤٤٧، ٤٨٢، ٤٩٩، ٤/ ١١٦، |
| ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ | ٢ | ١/ ٣١٤، ٣١٧، ٤/ ٥٢٨ |
| ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ...﴾ | ٢، ٣ | ٤/ ٣١٩ |
| ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ | ٦ | ١/ ٥٦٧ |
| ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴾ | ٣٠ | ١/ ٥٤٣، ٢/ ٤٥٢، ٤٥٥ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ...﴾ | ٣١ | ٤/ ٤٤٢ |
| سورة المرسلات | | |
| ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ | ١ | ٣/ ١١٩ |
| ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ | ٦ | ١/ ٢٨٦ |
| ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ ...﴾ | ٢٠-٢٢ | ٢/ ٤٣٠، ٤/ ٢١٩ |
| ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ | ٢٥ | ١/ ١٨٨ |
| سورة النبأ | | |
| ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ | ٦ | ١/ ١٨٨ |
| ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ...﴾ | ٩-١١ | ٢/ ٣٠ |
| ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ...﴾ | ٢١، ٢٢ | ٣/ ٢٩٤، ٤/ ٢٨٠ |
| ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ | ٢٣ | ١/ ٤٥٦، ٤/ ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٧، ... |
| ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ | ٢٦ | ٤/ ٢٣٤ |
| ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ | ٣٠ | ٤/ ٣١٨ |
| ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ | ٣١ | ٣/ ٢٩٤ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ | ٣٨ | ٤/ ١٣٢ |
| سورة النازعات | | |
| ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ | ١، ٢ | ٣/ ١١٩، ٤/ ١١٢ |
| ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ | ٥ | ٣/ ١١٥، ١١٩ |
| ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ | ١٦ | ٢/ ١٣، ٣٣ |
| ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ | ٢٤ | ١/ ١٢٦، ١٨١، ٢/ ١٨٥، ٣٢،... |
| ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ | ٢٧ | ١/ ١٨٨ |
| ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ | ٣٤ | ٤/ ٢٤٥ |
| ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ...﴾ | ٣٧-٤١ | ٣/ ٢٩٤ |
| ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ | ٤٢ | ٥/ ١٠٢ |
| ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ...﴾ | ٤٢-٤٦ | ٤/ ٢١٥ |
| سورة عبس | | |
| ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ...﴾ | ١١-١٤ | ٢/ ١٠٣ |
| ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ | ١٣، ١٤ | ٢/ ١٠٠، ١٠٢ |
| ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ | ١٥، ١٦ | ٣/ ١١٩ |
| ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ | ١٦ | ٣/ ١٢٨، ١٣٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ | ٢١ | ٤/ ١٥٨، ٢٥٠ |
| ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا...﴾ | ٢٤، ٢٥ | ١/ ١٨٩ |
| ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ | ٣١ | ٢/ ١٥٦، ١٥٩، ٥١٨ |
| ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ | ٣٣ | ٤/ ٢٤٥ |
| ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...﴾ | ٣٤-٣٧ | ٤/ ٤٥٨ |
| ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ | ٣٨، ٣٩ | ٢/ ١٢٥ |
| **سورة التكوير** | | |
| ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ...﴾ | ١٩-٢١ | ٢/ ٣٦، ٢٧، ٣/ ٢٢٥، ٢٢٦،... |
| ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ | ٢٠، ٢١ | ٣/ ١٣٥ |
| ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ | ٢١ | ٤/ ٥٦٧ |
| ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ | ٢٣ | ٢/ ١٨٣، ٣٤٩ |
| ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ...﴾ | ٢٩ | ١/ ٥٤٣، ٥٤٥ |
| **سورة الانفطار** | | |
| ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ | ١ | ٤/ ٢٩٦ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ | ٦ | ٣/ ٢٣٨ |
| ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ...﴾ | ١٠ ـ ١٢ | ٢/ ٥٣٨، ٥٥٣، ٣/ ١٣١، ١٤٠، ٤/ ٩٦، ... |
| ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ | ١١ | ٣/ ١٢٨ |
| ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ | ١٢ | ٤/ ١٠٣ |
| ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ...﴾ | ١٣، ١٤ | ٣/ ٢٩٤، ٤١٥ |
| **سورة المطففين** | | |
| ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ | ٦ | ١/ ٣٤٢، ٣٥٣، ٤/ ٢٤٥ |
| ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ | ٧ | ٢/ ١٣٩، ٤/ ١٥١، ١٨٦، ... |
| ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ | ١٤ | ٢/ ٦٠٣، ٣/ ٣٧٣، ٤/ ٣٨١ |
| ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ | ١٥ | ٢/ ١٧، ١٢٣، ١٣٦، ١٣٨، ١٧٠، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ | ١٨ | ٢/ ١٣٩، ٤/ ١٥١، ١٨٦،... |
| ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ | ٢١ | ٣/ ١٢٨، ١٣٢ |
| ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ ...﴾ | ٢٧، ٢٨ | ٣/ ١٧٧ |
| ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ...﴾ | ٢٩، ٣٠ | ٣/ ٣٣٠ |
| **سورة الانشقاق** | | |
| ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ..﴾ | ٣ـ ٥ | ٤/ ٢٣٩ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ...﴾ | ٦ | ٤/ ١٣٠ |
| ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ...﴾ | ٦ـ ١٥ | ٤/ ٢٤٢ |
| ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ...﴾ | ٧، ٨ | ٤/ ٢٤٣ |
| **سورة البروج** | | |
| ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ | ١ | ٥/ ١٧٦ |
| ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ | ١٥ | ٣/ ٣، ٧، ٩ |
| ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ | ١٥، ١٦ | ١/ ٤٥١، ٤٥٧ |
| ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ | ٢٠ | ٣/ ١٩، ٢٤ |
| ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ | ٢١، ٢٢ | ١/ ٤٨١، ٥٣٠ |
| ﴿لَّوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ | ٢٢ | ٢/ ٦١، ٦٢ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| **سورة الأعلى** | | |
| ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ | ١ | ٣/ ٤٧ |
| ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ...﴾ | ٣،٢ | ١/ ٥٢٤، ٥٢٦ |
| ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ | ١٣ | ٤/ ٣٠٤ |
| ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ...﴾ | ١٩،١٨ | ٣/ ١٩١ |
| **سورة الغاشية** | | |
| ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ | ٢ | ٢/ ٢٨٠ |
| ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ | ٨ | ٢/ ٢٨٠ |
| ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ | ١٧ | ٢/ ١٣٢ |
| ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ...﴾ | ١٨،١٧ | ١/ ١٠١، ١٧٠ |
| **سورة الفجر** | | |
| ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ | ١ | ٢/ ١٠٢ |
| ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ | ٢،١ | ٥/ ٥١ |
| ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ...﴾ | ١٥ـ١٧ | ٣/ ٥٣٠، ٥/ ١٠٥ |
| ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ | ٢٢ | ١/ ٣١٢، ٢/ ١٨٨ |
| ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ | ٢٧ | ٤/ ١٢٨ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ...﴾ | ٢٧ ـ ٣٠ | ٤/ ١١٨ |
| **سورة البلد** | | |
| ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ...﴾ | ٨، ٩ | ١/ ٣٤١ |
| **سورة الشمس** | | |
| ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا ...﴾ | ٧ ـ ١٠ | ٤/ ٣٦٨ |
| **سورة الليل** | | |
| ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ | ٥ ـ ١٠ | ٢/ ٤١٠، ٤٣٣ |
| ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى ...﴾ | ١٧ ـ ٢١ | ٤/ ٦١٢ |
| ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ | ٢٠ | ٢/ ٣٢١، ٣/ ٤٧، ٦٤... |
| **سورة الشرح** | | |
| ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ | ٥، ٦ | ٤/ ٥٤٩ |
| **سورة التين** | | |
| ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ | ٦ | ٣/ ٤١٦ |
| **سورة العلق** | | |
| ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ | ٥ | ١/ ٥٢٣، ٣/ ٥٩٧ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| **سورة القدر** | | |
| ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ | ٤ | ٤/ ١٣٢ |
| **سورة البينة** | | |
| ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ | ٤ | ٤/ ١٢٣ |
| ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ ... ﴾ | ٥ | ١/ ٧٠، ٢٧١، ٤/ ٣٧٩ |
| ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ ... ﴾ | ٧ | ٣/ ١٦٦، ١٧١ |
| ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ | ٨ | ٤/ ٣٠٣ |
| **سورة الزلزلة** | | |
| ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ... ﴾ | ٧، ٨ | ٤/ ٢٣٧، ٢٦٩ |
| **سورة القارعة** | | |
| ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ | ٥ | ٤/ ٢٣٩ |
| ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ... ﴾ | ٦ـ٩ | ٢/ ٢٩٤، ٤/ ٢٦٨ |
| **سورة العصر** | | |
| ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ | ١ | ٢/ ١٠٢ |
| **سورة الهمزة** | | |
| ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ | ١ | ٥/ ٢٢٩ |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| **سورة الفيل** | | |
| ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ | ١ | ٢/ ٢٧٨، ٢٨٢ |
| **سورة الماعون** | | |
| ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ | ٥ | ٨٩/٣ |
| **سورة الكوثر** | | |
| ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ | ١ | ٢/ ٣١٩، ٣٥٣ |
| **سورة الكافرون** | | |
| ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ | ١ | ٢/ ٢٥٣، ٢٥٦، ٢/ ٣٤٥، ٣/ ٥٢٦ |
| **سورة النصر** | | |
| ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ...﴾ | ٣ | ١/ ٦٧ |
| **سورة المسد** | | |
| ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ | ١ | ٢/ ٥١، ٥٢، ٤/ ٥٧٢ |
| ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ | ٣ | ٣/ ٢٦٩ |
| **سورة الإخلاص** | | |
| ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ | ١ | ١/ ٢٥٦، ٣٦٣، ٢/ ٣٠٨، ٣/ ٥١٦، ... |

| الآيـــــة | رقمها | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ | ٤ | ١/ ٣١٨، ٣٥٤، ٣٥٦، ٥/ ٣٠٠،... |
| ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ...﴾ | ١ ـ ٤ | ٢/ ٣٠٧ |
| سورة الفلق | | |
| ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ...﴾ | ١ ـ ٤ | ٥/ ١٨٣ |
| ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ | ٤ | ٥/ ١٨٩ |
| ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ | ٢ | ٣/ ٥٦٧ |
| سورة الناس | | |
| ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ | ٥ | ٤/ ١٢٤ |

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



# فهرس الأحاديث النبوية


| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٦٢٦ |
| «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ...» | أبو موسى الأشعري ﷺ | ٤/ ٦٢٢، ٥/ ١٤ |
| «ابْعَثْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ١٦٤ |
| «أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ أَمْ بِهَذَا وُكِّلْتُمْ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ٢٥٠ |
| «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ ...» | عبد الرحمن بن عوف ﷺ | ٥/ ٤٣ |
| «أَتَانِي آتٍ من رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي...» | أبو ذر ﷺ | ٣/ ٢٧٧ |
| «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ معه ...» | ابن مسعود ﷺ | ١/ ٦٤٤ |
| «أَتَدْرُونَ ما الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٥٣٩ |
| «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ...» | زيد بن خالد ﷺ | ٥/ ١٦٠، ١٦٤ |
| «أَتَرَوْنَ هذه طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٣٧٣، ٥٣٠ |
| «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٥/ ١٢٨ |
| «أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٥٤٩، ٥٥١ |
| «اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٥/ ١٨ |
| «اثْنَتَانِ فِي الناس هُمَا بِهِمْ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٠٠، ٢٥٧، ٢٧٦، ٣٩١، ٦٦٣... |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦١٧ |
| «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ ...» | عبيد الله بن جعفر رحمه الله | ٤/ ٦٧ |
| «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٥٣٥، ٥٣٩ |
| «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٥٢٧<br>٢/ ٥٧٥ |
| «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٤١، ٥٤٦ |
| «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٤٠٨ |
| «أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عن الصَّلاةِ...» | أبو قتادة ﷺ | ٤/ ١٦٢ |
| «أُخْبِرُكُم غَدًا بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٤٦٠ |
| «أَخَذَ الله المِيْثَاقَ من ظَهْرِ آدَمَ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٥١ |
| «اخْسَئُوا فِيهَا، والله لَا نَخْلُفُكُمْ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٣٠٨ |
| «ادْعِي لِي أَبَاكِ وَأَخَاكِ، حَتَّى...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٥٨٥، ٥٨٩، ٦٠٧، ٦٢٧ |
| «ادْعِي لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ أَبِي بكْرٍ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٥٨٥، ٥٨٩ |
| «أَدَقُّ من الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٢/ ٣٧٢ |
| «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ...» | عمرو بن العاص ﷺ | ٤/ ٧١،<br>٥/ ٢٤٩ |
| «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُم أَنْ يَعْرِفَ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٦٣ |
| «إِذَا أَحَبَّ اللَّهَ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٥٦١، ٥٦٣،<br>٣/ ٢٢٧ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٣١٦، ٥٧٠ |
| «إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٢٨ |
| «إذا تَشَهَّدَ أحدكم فَلْيَسْتَعِذْ بِالله...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ١٤٧ |
| «إذا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ٦٥٢، ٤/ ٨٩ |
| «إذا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٨٨ |
| «إذا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ ...» | عمرو بن العاص ﷺ | ٢/ ١٦٨، ٥/ ٢٤٦، ٢٥٦ |
| «إِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ٢٤٢ |
| «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ...» | عقبة بن عامر ﷺ | ٣/ ٣٢٥ |
| «إن رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ٣٥ |
| «إِذَا زَنَى الْعَبْدُ نُزِعَ منه الْإِيمَانُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٣٧١، ٣٧٣ |
| «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٥٩٣ |
| «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الجَنَّةَ فَسَلُوهُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤، ١٤ |
| «إِذَا صَلَّيْتُمْ على المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦٦٢، ٦٦٦، ٤/ ٤٥٨ |
| «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٢١٦ |
| «إذا فَرَغَ أَحَدُكُم مِنَ التَّشَهُّدِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٥٧ |
| «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٣/ ٢٥٦ |
| إذا قال العبد: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ ...﴾ | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١١٤ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إِذَا قُبِرَ أحدكم...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٤٧ |
| «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ١٦١ |
| «إذا كان يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٢٥٦ |
| «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، مَاجَ النَّاسُ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٧٤ |
| «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٤٥٠، ٤٦٢، ٤٦٩، ٤٧٢، ... |
| «إِذَا مِتُّ فَاسْحَقُونِي ثُمَّ ذُرُّونِي...» | أبو سعيد ﷺ | ٣/ ٢٤٧ |
| إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ ...» | جابر ﷺ | ١/ ٣١٥ |
| «إذا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ١٧٦ |
| «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ...» | جابر ﷺ | ٣/ ٩، ١٣٥ |
| «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٥٦٣، ٥٦٥، ٢/ ٣٧٧ |
| «أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٤٦٠، ٤٧٧، ٤٨٢، ٥٠١، |
| «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي من أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ...» | أبو مالك الأشعري ﷺ | ٣/ ٢٧٢، ٦١٦، ٥/ ١٦٠، ١٦٤، ... |
| «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنافِقًا...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٣/ ٢٥٦، ٢٦٢، ٥١٧،... |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ...» | أبو موسى الأشعري ﷺ | ٣/ ٦٠ |
| «أَرْبَعُونَ: يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ ...» | النواس بن سمعان ﷺ | ٥/ ١٤٧ |
| «ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٤٧ |
| «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦٢١، ٢/ ٤٠١ |
| «ارْمِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٥/ ٤١ |
| «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٨٨ |
| «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ١٦٧، ١٨٥ |
| «أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٢/ ٣٨٤ |
| «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٥٠٠ |
| «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا...» | عثمان بن عفان ﷺ | ٤/ ٤٥٤، ٤٩٠ |
| «الْإِسْلَامُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٤٢٤ |
| «الْإِسْلَامُ عَلَانِيَة، وَالْإِيمَانُ ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٤١٧، ٤٤٢ |
| «أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ ...» | أبو سفيان ﷺ | ١/ ٥٩١ |
| «أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ٣١٦ |
| «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ...» | أسماء بنت يزيد رضي الله عنها | ١/ ٤٢٠ |
| «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٦٥٦ |
| «أَشَدُّ الناس بَلاءً الأَنْبِيَاءُ...» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ٣/ ٥٥٩، ٥٧٠ |
| «أَشَعَرْتِ أَنَّ الله أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ١٨٤ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٥٩٤ |
| اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ...» | أبو موسى الأشعري ﷺ | ٢/ ٣٩٨ |
| «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ...» | عبد الرحمن بن أبزي ﷺ | ١/ ٣٠٠، ٣٠٢ |
| «أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٤٧٩ |
| «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ: كَلِمَةُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٥٧، ٦٠ |
| «أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ ...» | أبو ذر ﷺ | ٣/ ١١٨، ١٢٣، ٤/ ٣٢٤ |
| «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ...» | عمران بن حصين، وابن عباس رضي الله عنهم | ٥/ ١٩٧ |
| «اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ ...» | حذيفة بن أسيد ﷺ | ٥/ ١٤٣ |
| «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» | معاوية بن الحكم ﷺ | ٣/ ٤٨ |
| «اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ...» | عوف بن مالك ﷺ | ٥/ ١٤٣ |
| «اعْزِلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ، فَإِنَّهُ...» | جابر بن عبدالله ﷺ | ١/ ٥٤٥ |
| «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ» | أبو هريرة | ١/ ١٥٥ |
| «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ١/ ٧٣، ٦٤٣ |
| «أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦١٨ |
| «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٢/ ٤٣٣، ٤/ ٣٢٠ |
| «اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٥/ ٥٣ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٤٨، ٥٠ |
| «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ ...» | عثمان بن أبي العاص ﷺ | ١/ ٤٣٩، ٢/ ٤٨، ٥٠ |
| «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٢/ ٤٨، ٥٠، ٤/ ٤٢٥، ٥/ ١١٥، ... |
| «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ ...» | خولة بنت حكيم رضي الله عنها | ١/ ٤٣٩ |
| «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي ...» | محمد بن كعب القرظي ﷺ | ١/ ٤٣٩ |
| «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٥/ ٢٢٦ |
| «أَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِغْفَاةً...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٥٢ |
| «أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٦٢٢، ٤/ ٢٤٨، ٢٥١، ... |
| «أَفْضَلُ مِن أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٣٥ |
| «أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٥٣٤ |
| «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا...» | المغيرة بن شعبة ﷺ | ٤/ ٤٤٨ |
| «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وَقَتَلْتَهُ...» | أسامة بن زيد ﷺ | ٤/ ١١ |
| «أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٢١٧ |
| «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يا بَنِي تَمِيمٍ» | عمران بن حصين ﷺ | ١/ ٤٧٩ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي...» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٤/ ٥٨٣، ٥٨٥، ٦٠٢، ٦٠٦، ... |
| «اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ١٤٦، ١٨٦ |
| «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٣٨٤، ٥٤٠ |
| «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ الْمَلائِكَةِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١٣٦ |
| «ألا أَدُلُّكَ على كَنْزٍ من كُنُوزِ الجَنَّةِ...» | أبو موسى الأشعري ﷺ | ٤/ ٤١٣ |
| «أَلا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ٨، ١٦ |
| «ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ...» | أبو بكرة ﷺ | ٣/ ٦١٧ |
| «إلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ...» | عبادة بن الصامت ﷺ | ٣/ ١١٢، ٤/ ٩١ |
| «أَلَا تَأْمَنُونَنِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ٤٧ |
| «إِلَّا الدَّيْنَ، سَارَّنِي به جِبْرِيلُ آنفا» | عبد الله بن جحش ﷺ | ٤/ ١٨٤ |
| «ألا وَإِنَّ من كان قَبْلَكُمْ كَانُوا...» | جندب بن عبد الله ﷺ | ٤/ ٤٨٨ |
| «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ٥١ |
| «الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٦٦ |
| «اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي...» | عبد الله بن مغفل ﷺ | ٤/ ٥٦٠ |
| «اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٥٥٦ |
| «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٥٣٥ |
| «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٥٤ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «اللَّهُمَّ أَطِلْ عُمرَهُ، وَأَكْثِرْ ...» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ٥٣١ |
| «اللهمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٥/ ١٥٠ |
| «اللهمّ أغثنا...» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ٥١٠ |
| «اللهم اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٤٦٤ |
| «اللهم اغْفِرْ له وَارْحَمْهُ...» | عوف بن مالك ﷺ | ٣/ ٦٦٦، ٤/ ٤٥٩ |
| «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٣٧٦، ٣٧٨، ٣/ ٣٨٣، ٢٨، |
| «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ...» | شداد بن أوس ﷺ | ٢/ ٣٩٤ |
| «اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ١/ ٦٢٤ |
| «اللهم إن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٤٠٠ |
| «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ١/ ٣٦٤، ٣٦٧ |
| «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ...» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٤٣٩، ٢/ ٤٦٢ |
| «اللهمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٢٤٠ |
| «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ ...» | عمار بن ياسر ﷺ | ١/ ٣١٥، ٣١٧، ٥٢٩،... |
| «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٢٧٥، ٢٧٦، ٣/ ١١٧، ٥/ ٢٤٠،... |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفى» | عبد الله بن أبي أوفى ﷺ | ٣/ ٩٧ |
| «اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ ...» | أبو حميد الساعدي ﷺ | ١/ ٧٥ |
| «اللَّهم فَاطِرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ...» | أبو بكر الصديق ﷺ | ٣/ ٥٧٧ |
| «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٢٩٢ |
| «اللهم لا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إلا أنت...» | عروة بن عامر ﷺ | ٣/ ٥٨٦ |
| «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٤٢٤، ٤٤١ |
| «اللَّهُمَّ مَا قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ ...» | زيد بن ثابت ﷺ | ١/ ٥٤٦ |
| «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ١/ ٣٦٧ |
| «اللهمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ٥/ ٢٣ |
| «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا...» | أبو رافع مولى رسول الله ﷺ | ٤/ ٤٧٠ |
| «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ ما أَحَلَّ اللَّهُ...» | عدي بن حاتم ﷺ | ٢/ ٢٣٤ |
| «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ...» | عبيد الله بن عدي ﷺ | ٣/ ٣٨٨، ٤/ ١٠ |
| «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله...» | عتبان بن مالك ﷺ | ٤/ ٧ |
| «أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ (الٓمٓ) حَرْفٌ ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٢/ ١٠٠ |
| «أَمَا إِنَّه مِنْ أَهْلِ النَّارِ...» | سهل بن سعد ﷺ | ٤/ ٣١٦ |
| «أَمَا بَعْدُ: ألا أَيُّهَا الناس فَإِنَّمَا أنا ...» | زيد بن أرقم ﷺ | ٤/ ٥٦٩، ٥/ ٥٨، ٦١ |


...

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ...» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ٤/ ٥٦٩، ٥/ ٢٢، ٣٠، ٢٤٣، ... |
| «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ...» | أبو الدرداء ﷺ | ٤/ ٦٠٩ |
| «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناس حتى يَشْهَدُوا» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٤٢، ١٦٨، ١٧٥، ٣/ ٣٥٦، ... |
| «آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٤١٣، ٥٣٧، ٥٤٧ |
| «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ...» | مالك بن صعصعة ﷺ | ٢/ ٣٣٩ |
| «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الجَنَّةِ» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٧٤ |
| «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأَرْضُ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٦٢٢، ٤/ ٢٤٨ |
| «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٦٢٩ |
| «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَال إِلى اللَّهِ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٢٢٩، ٢٣١، ٥٠١ |
| «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ...» | أبو بكرة ﷺ | ٥/ ٢٠ |
| «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٤/ ٢٩٠ |
| «إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ...» | ابن مسعود ﷺ | ٢/ ٤٣٩، ٤٥٩، ٤/ ٣١٥ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ ...» | ابن مسعود ﷺ | ١/ ٥٣٨، ٢/ ٤٣٦، ٤٣٩ |
| «إن أَحَقَّ ما أَخَذْتُمْ عليه أَجْرًا...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٤٧٩ |
| «إِنَّ بين يَدَيْ السَّاعَةِ أَيَّامًا يُرْفَعُ...» | عبد الله بن مسعود وأبو موسى، رضي الله عنهما | ٥/ ١٥٢ |
| «أنا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي» | ثوبان ﷺ | ١/ ١٣٢ |
| «أَنَّ رَحْمَتِي سبقت غَضَبي» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٧٨ |
| «أَنَا سَيِّدُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٧١، ٢/ ٣٦٢ |
| «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٧١، ٦١٧، ٦٢٠ |
| «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٦١٨، ٦١٩ |
| «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ...» | واثلة بن الأسقع ﷺ | ٣/ ٢٩٣، ٣٢٢ |
| «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ» | جندب بن عبدالله ﷺ | ٢/ ٣٥٣ |
| «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا ...» | جندب ﷺ | ١/ ٦٢٨، ٦٣٢، ٣/ ٨١، ٩٢، ... |
| «إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٤٠٣ |
| «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ ...» | واثلة بن الأسقع ﷺ | ١/ ٦١٧ |
| «إِنَّ الله بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ...» | أبو الدرداء ﷺ | ٤/ ٦٠٩، ٦١١ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٩١، ٩٢، ٥٠٢ |
| «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قد اتَّخَذَنِي خَلِيلًا...» | جندب بن عبد الله ﷺ | ١/ ٣٠١ |
| «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٥٣٥ |
| «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ...» | عتبان بن مالك ﷺ | ٣/ ٣٥٣، ٣٥٤، ٦٠٩ |
| «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٤٠٤، ٤/ ٣٢١ |
| «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٣١، ٥٣٢ |
| «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٤/ ٢٦٦ |
| «إِنَّ اللَّهَ ـ عز وجل ـ اصْطَفَى ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ١٧٧ |
| «إِنَّ الله ـ عز وجل ـ حَرَّمَ على..» | أوس بن أوس ﷺ | ٤/ ١٩١، ١٩٥ |
| «إِنَّ اللَّهَ ـ عز وجل ـ قد أَذْهَبَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٥٣١ |
| «إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَا يَنَامُ ...» | أبو موسى ﷺ | ١/ ٣٦٢، ٤١٥، ٤١٩، ٢/ ١٣٤، ١٤١، ... |
| «إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يُعْطِي الدُّنْيَا...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ١/ ٢٤، ٣/ ٥٥٨ |
| «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ...» | أبي ثعلبة الخشني ﷺ | ٣/ ١٤٥، ١٤٦ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٣١٥، ٤/ ٢٣٨ |
| «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ على ابن آدَمَ حَظَّهُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦١٥ |
| «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُم ثَلاثًا...» | المغيرة بن شعبة ﷺ | ٢/ ٤٦٦، ٤٦١ |
| «إِنَّ الله لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ١٤٤ |
| «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا» | عمرو بن العاص ﷺ | ١/ ٥ |
| «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ...» | أبو موسى ﷺ | ١/ ٢٩٥، ٣/ ٣٢٥ |
| «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٢٢٣ |
| «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤخَذَ بِرُخَصِهِ ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٤٦١ |
| «إِنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ ...» | ابن مسعود ﷺ | ٢/ ٨٦، ٨٧ |
| «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ...» | سلمان ﷺ | ٣/ ٥١، ٥٣ |
| «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٢٦٣ |
| «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٥٨٣ |
| «إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٤٥٥، ٤٧٨، ٥٠١ |
| إِنَّ أُمِّي تُوُفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا...» | سعد بن عبادة ﷺ | ٤/ ٤٥٥ |
| « إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٤٥٦ |
| «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ١٥٥ |
| «أَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلاهُ الله...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦٥٨ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ صلى بِأَصْحَابِهِ ...» | سهل بن أبي حثمة ﷺ | ٥/ ٢٤١ |
| «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٦١٠ |
| «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ من كان في قَلْبِهِ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٦٠٩ |
| «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ الله بَيْنَ ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٥٩١ |
| «إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٠٨ |
| «إنما الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ...» | أبو كبشة الأنماري ﷺ | ٤/ ١٠٩ |
| «إِنَّمَا الطَّاعَة فِي الْمَعْرُوفِ» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٣/ ٦٥٧ |
| «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبَّنا...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٣/ ١٦٤ |
| «أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ١٦٥ |
| «إن ملكًا مِن حملة العرش...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١٣٧ |
| «أنا الملك، أنا الملك...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٢٩ |
| «إِنَّ الْمُؤْمِنَ الذي إِذَا عَمِلَ الحَسَنَة ...» | أبو ذر ﷺ | ٣/ ٤١٢ |
| «إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٦٢٢، ٤/ ٢٤٨ |
| «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إذا دَخَلُوهَا نَزَلُوا ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ١٥٣ |
| «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ...» | معاوية ﷺ | ٢/ ٥٠٧، ٥١٣، ٤/ ٤٧، ٥/ ٢٢٥، ... |
| «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ ...» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٢٠٨ |
| «الْآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدَتُهُ» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٤/ ٤٥٦ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٣٨٤، ٣٨٥، ٤/ ٢٩٦ |
| «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٤٥٣ |
| «أَنْتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٨٢ |
| «أَنْتُمْ مَسْؤولُونَ عَنِّي، فَماذا...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٥١ |
| «إِنَّ جِبْرِيلَ كان يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٢١٧ |
| «إِنَّ الجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ١٩٧ |
| «إِنَّ الجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ إلى ثَلَاثَةٍ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ٥ |
| «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ ...» | أبو ذر ﷺ | ٤/ ١٩، ٢٣، ٨٧ |
| «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٤٣٤، ٤٣٦، ٥٢٦، ٥٣٤، ... |
| «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،...» | سمرة بن جندب ﷺ | ٤/ ٥٨٧ |
| «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ...» | سهل بن سعد ﷺ | ٢/ ٤٣٨ |
| «أَنَّ رسُولَ الله ﷺ اسْتَقْبَلَ الْبَيتَ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٧٣ |
| «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا...» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ٣/ ٤٣٣ |
| «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دخل عَامَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٥٧٤ |
| «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَه الْبَصَرُ» | أم سلمة رضي الله عنها | ٤/ ١١٨ |
| «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ...» | معاذ بن جبل ﷺ | ٥/ ٢٢٦ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي من الْإِنْسَانِ...» | صفية بنت حيي رضي الله عنها | ٤/ ١٢٤، ٥/ ١٧٢ |
| «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ٥٤٣، ٥٦١ |
| «إِنَّ الصلاة مِنْ أَحْسَنِ مَا يَعْمَلُ...» | عثمان بن عفان ﷺ | ٣/ ٦٤١ |
| «إِنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا ...» | معاوية بن الحكم ﷺ | ٢/ ٨٦ |
| «إِنَّ الْعَبْدَ إذا أَخْطَأَ خَطِيئَةً...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٣٨٠ |
| «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى...» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ١٤٦، ١٥٣، ١٦٤، ... |
| «إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي...» | البراء بن عاذب ﷺ | ١/ ٤٢٩ |
| «إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمٰوَاتِهِ لَهَكَذَا...» | جبير بن مطعم ﷺ | ٣/ ٤ |
| «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مع عِظَمِ الْبَلَاءِ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٣١٦، ٥٥٩، ٥٧٠، ... |
| «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ...» | أبو الدرداء ﷺ | ١/ ١٢٠ |
| «انْفُذْ على رِسْلِكَ ...» | سهل بن سعد ﷺ | ٣/ ٢٦٨ |
| «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَة ...» | النعمان بن بشير ﷺ | ٣/ ٣٨٧ |
| «إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا ...» | أبو مالك الأشعري ﷺ | ١/ ٣٤٤ |
| «إِنَّ فِيكَ لَخَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ...» | أشج عبد القيس ﷺ | ٤/ ٤٠٠ |
| «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٢٥٢ |
| «إِنَّ القُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ...» | بريدة ﷺ | ١/ ٤٢٩ |
| «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بها ...» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ١/ ٦١٦ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلى اللَّهِ حُفَاةً...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٢٣٢ |
| «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ١٩٠، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨١، ... |
| «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا...» | جرير بن عبد الله ﷺ | ٢/ ١٥٠، ١٥٣، ١٩٢، ٢٨١، ... |
| «إن كُنْتَ مُجِنِّي فَأَعِدَّ لِلْبَلاءِ تِجْفَافًا» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٥٧٠ |
| «إِنَّ لِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا...» | عكرمة رحمه الله | ٥/ ٢٧٠ |
| «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا...» | أنس بن مالك ﷺ | ٥/ ٤٢، ٤٦ |
| «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا...» | سمرة ﷺ | ٢/ ٣٥٩ |
| «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ١٠٤ |
| «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً تَرْعَدُ ...» | أبو جحش ﷺ | ٤/ ٣٢٤ |
| «إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ» | جبير بن مطعم ﷺ | ٤/ ٥٨٤، ٥٨٩، ٦٠٦ |
| «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ ...» | جبير بن مطعم ﷺ | ١/ ٦٠٩ |
| «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٣٦، ٣/ ٤٧٩، ٥/ ٢٧٨ |
| «أَنَّ ما بين مِصْرَاعَيْنِ من مَصَارِيعِ...» | عتبة بن غزوان ﷺ | ٢/ ٣٧٩ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٦٤٩ |
| «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٥/ ٢٥١ |
| «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ١٧٥، ٣٤٦، ٣٥٠ |
| «إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ...» | زيد بن ثابت ﷺ | ٤/ ٩٦ |
| «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ على مَنَابِرَ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٣٢٠ |
| «إن المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا...» | صفوان بن عسال ﷺ | ٣/ ١٤٢ |
| «إِنَّ من أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يوم الجُمُعَةِ...» | أو[illegible]ن أوس ﷺ | ٤/ ١٩٥ |
| «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا ...» | جندب ﷺ | ١/ ٢٠٨ |
| «أَنَّ الْمُؤمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ٣١٣، ٤/ ٢٧٥ |
| «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ١٣٣ |
| «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ...» | أبو بكر الصديق ﷺ | ٥/ ١٧٤ |
| «إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٍ يَعْلَقُ...» | كعب بن مالك ﷺ | ٤/ ١٩١، ٢٨٧ |
| «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ١/ ١٠٥ |
| «إِنَّهُ الآنَ يُسْأَل» | عثمان بن عفان ﷺ | ٤/ ٤٥٩ |
| «إِنَّ هذا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ على سَبْعَةِ ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٥/ ٢٣٩ |
| «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِيْنُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٢٦٧، ٢٧٢ |
| «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٥٧ |
| «إن هذا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ الله...» | ابن مسعود ﷺ | ١/ ١٠٦ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إِنَّ هذه الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا...» | زيد بن ثابت ﷺ | ٤/ ١٥٥، ١٥٨، ١٧٨ |
| «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا...» | معاوية بن الحكم ﷺ | ٢/ ٨٧ |
| «أَنَّهُ كُلَّمَا شُرِبَ مِنْهُ وَهُوَ فِي زِيَادَةٍ ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٢/ ٣٥٩ |
| «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٥٣٠ |
| «إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٤٤٠ |
| «إنه لَيُغَانُ على قَلْبِي...» | أبو بردة ﷺ | ٣/ ٣٠٨، ٥٨٦ |
| «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ١٤٧، ١٥٦، ١٧٥ |
| «إنه من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٦٥ |
| «إِنَّهُ يُؤْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٤٢٩ |
| «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ» | جندب ﷺ | ١/ ٦٢٨، ٣/ ٨١ |
| «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ...» | أبو ذر ﷺ | ٣/ ١٢٦ |
| «إني انطلقت ألتمس رسول الله ﷺ ...» | أبو ذر ﷺ | ٥/ ١٠٥ |
| «إني حَامِلُكَ على وَلَدِ النَّاقَةِ» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ١٩٦ |
| «إِنِّي رَأَيتُ الجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقودًا...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٢٨٦ |
| «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ...» | سهل بن سعد ﷺ | ٢/ ٣٥٤ |
| «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٦١ |
| «إِنِّي قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ...» | عائشة رضي الله عنها | / ٥٨٢ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إني لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كان...» | جابر بن سمرة ﷺ | ٥/ ١٠٦ |
| «إن يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عليه ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٥٧٨ |
| «إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٤٥٦ |
| «اهْدَأْ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٤٤، ٤٥ |
| «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أبو طَالِبٍ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٣٨١ |
| «أوحى الله عز وجل إلى جبريل ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٦٠٧ |
| «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ...» | عياض بن حمار ﷺ | ١/ ٦٢٥ |
| «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله ...» | العرباض بن سارية ﷺ | ١/ ٤٣، ٤/ ٨٧، ٥/ ٣٦، ٢٣٧،... |
| «أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٣١٩ |
| «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٤٨٠، ٢/ ٦٢، ٤١١، ٤٥٧،... |
| «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ...» | عبادة بن الصامت ﷺ | ٢/ ٥٣١، ٥٣٣ |
| «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟...» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٥٨٩ |
| «أي الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ...» | عمرو بن عبسة ﷺ | ٣/ ٤٤٦، ٤٥٣ |
| «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٢٢٩ |
| «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٣٠٩ |
| «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ...» | سهل بن سعد ﷺ | ٣/ ٦٢٠ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ...» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٥٨٣ |
| «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٤٥٧، ٥٨٥، ٣/ ٩٤، ١٠١، ... |
| «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٣٣٩، ٣٥٠، ٣٧٧، ٣٨٤، ... |
| «أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ...» | عمرو بن العاص ﷺ | ٣/ ٨٢٣، ٤/ ٦٠٩، ٦١١ |
| «أَيْنَ اللَّهُ...» | معاوية بن الحكم ﷺ | ٣/ ٤٨، ٥٢ |
| «إِيه يَا ابْنَ الخَطَّابِ! وَالَّذِي نَفْسِي ...» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ٦/ ٦١٧ |
| «بِاسْمِكَ ربي وَضَعْتُ جَنْبِي...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٣١ |
| «بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦٢٦ |
| «بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، يُقَالُ: له الْبُرَاقُ...» | مالك بن صعصعة ﷺ | ٢/ ٣٣٦ |
| «الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ» | أبو أمامة ﷺ | ٣/ ٣٨٤ |
| «بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٤/ ٤٦٩ |
| «بُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ» | جابر بن عبد الله ﷺ | ١/ ٦٤٨ |
| «بُعِثْتُ إِلَى الناس عَامَّةً» | جابر بن عبد الله ﷺ | ١/ ٧٤، ٥/ ٢٢٠ |
| «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ١٥٥ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٧٩ |
| «بَلْ عَبْدًا رَسُولًا» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٨٢ |
| «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٤/ ٥٤٩ |
| «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» | رجال من بني سلمة رضي الله عنهم | ٣/ ٦٥٤ |
| «بُنِيَ الْإِسْلَامُ على خَمْسٍ» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٣/ ٥٤٨ |
| «بهذا أُمِرْتُمْ، أو بهذا بُعِثْتُمْ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٠/ ٤٨، ٦٣ |
| بَيْنَا أنا أَمْشِي مع النبي ﷺ في خَرِبٍ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ١٢١ |
| «بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ إِذْ جَاءَ جبريلُ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ١٨٢ |
| «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٥٨٦، ٥٩٢، ٦٢٠ |
| «بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ إِذْ سَطَعَ ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٢/ ١٥، ٣/ ٢٧، ٥٣ |
| «بَينَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ...» | العباس بن عبد المطلب ﷺ | ٣/ ١٣٠ |
| «بين الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٢٣٤ |
| «بَيْنَ الْمُسْلِمِ، وبينَ الكُفْرِ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٢٥٧ |
| «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٣٨، ٢٤٤ |
| «تَحَاجَّتْ الجَنَّةُ وَالنَّارُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٣٢٨ |
| «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ...» | أسامة بن شريك ﷺ | ٢/ ٥٩٥ |
| «تُدْنَى الشَّمْسُ يوم الْقِيَامَةِ...» | المقداد بن الأسود ﷺ | ٢/ ٣٦٩ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «تُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٥٨٣ |
| «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ...» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٣/ ٦٤٤، ٦٥٧، ٤/ ٨٧، ٥/ ٢٨٣ |
| «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٥/ ٢٦٧ |
| «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٤٦٦، ٥/ ١٢٣ |
| «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ١٤١ |
| «تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٤٣ |
| «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٥٠٧، ٥١٢ |
| «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٢/ ٥٠٠ |
| «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ» | عمران بن حصين ﷺ | ٥/ ١٠٨ |
| «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ من...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٤٥ |
| «تُوشِكُونَ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ ...» | أبو زهير الثقفي ﷺ | ٤/ ٤ |
| «تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يوم الْقِيَامَةِ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ١/ ٤٢٩، ٤/ ٢٦٧ |
| «ثلاثة من أَصْلِ الإِيمَانِ الْكَفُّ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٦٣٦ |
| «ثَلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ ...» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ٨١، ٣/ ٤٢٨، ٤/ ٥٣، ٥٦ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ٢٨٠ |
| «ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ..» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٧٣ |
| «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى...» | ابن عباس وأبي حبة الأنصاري رضي الله عنهم | ٢/ ٥٣٥، ٥٣٩ |
| «ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ...» | رافع بن خديج ﷺ | ٥/ ١٦٠، ١٦٣ |
| «ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ من حَدِيدٍ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ١٧٦ |
| «ثُمَّ يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النَّارِ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ١٨٠ |
| «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٥٨٧ |
| «جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٦١٧، ٥/ ١٣ |
| «جُرِحَ وَجْهُ النبي ﷺ، وَكُسِرَتْ...» | سهل بن سعد ﷺ | ٢/ ٥٧٤ |
| «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ في مِائَةَ جُزْءٍ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٣١٠، ٤/ ٣٧٢، ٤٤٢ |
| «جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٢٥٥ |
| «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا...» | أبو موسى ﷺ | ٢/ ١٥٠، ١٥٤، ٣٢١ |
| «حِبِّ النَّبِيَّ ﷺ» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٨٣، ٩٤ |
| «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ...» | أبو موسى ﷺ | ١/ ٣١٢، ٢/ ٣١٧، ٣٢١ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» | جندب ﷺ | ١/ ٦٤٠ |
| «حُفَّتْ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ...» | أنس ﷺ | ٢/ ٥٠٩، ٤/ ٢٨٧ |
| «الحَمْدُ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ...» | ابن مسعود ﷺ | ١/ ٦٦ |
| «خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٤/ ٣٧١ |
| «خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ خَطًّا...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٥/ ٢١٥، ٣٠١ |
| «خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً ...» | سفينة ﷺ | ٤/ ٥٨٨، ٥/ ٢٠، ٢٨ |
| «خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْأَحَدِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٤١٧ |
| «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ...» | عياض بن حمار ﷺ | ١/ ٢١٩ |
| «خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ١٣٤، ١٥٧ |
| «خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣١٧ |
| «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الذِينَ تُحِبُّونَهُمْ...» | عوف بن مالك ﷺ | ٤/ ٢٨، ٨٦، ٨٨ |
| «خَيْرُ الناس قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ...» | ابن مسعود ﷺ وعمران بن حصين ﷺ | ١/ ١١٢، ٤/ ٥٤٩، ٥٥٣، ٥٨١، ٥/ ٦٩، ... |
| «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشَّمْسُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٥٦ |
| «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فيه خَطَاطِيفُ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٢٥٨ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ» | النعمان بن بشير ﷺ | ٤/ ٤٩٦، ٥٠٥ |
| «دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لِأَخِيهِ...» | أبو الدرداء ﷺ | ٤/ ٤٥٧، ٤٦٥ |
| «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ١٦٦ |
| «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٢٥٠ |
| «رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ١٣٦ |
| «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيل ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ١٣٥، ١٣٦ |
| «رَأَى اللَّيْلَةَ رَجُلٌ صَالِحٌ أَنَّ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٤/ ٥٨٧ |
| «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ١/ ٦٥، ٤/ ٤٤٢، ٥٢٩ |
| «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السَّلَامُ مُهْبَطًا...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ١٣٦ |
| «رَأَيْتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوسًا...» | سمرة بن جندب ﷺ | ٤/ ١٨٤ |
| «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٢٠٧ |
| «رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٢٨٦ |
| «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٩٣ |
| «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٣/ ٣٠٧ |
| «رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، حَمْدًا...» | رفاعة بن رافع ﷺ | ٣/ ٥٨٦، ٥٨٨ |
| «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٥٥٢ |
| «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٤/ ٣٣٤ |
| «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي...» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٥٨٨ |
| «زَوْجُكِ الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ» | عبيدة بن سهم الفهري ﷺ | ٢/ ١٩٧ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» | البراء بن عازب ﷺ | ٢/ ٥٧، ٥٨ |
| «سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ١٥٩ |
| «سُئِلَ النبي ﷺ عن الذَّرَارِيِّ مِنَ ...» | الصعب بن جثامة ﷺ | ٢/ ٤٢٧ |
| «سَأَلُوا عَنْ عِبَادَتِهِ فِي السِّرِّ...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ٢٦٩ |
| «سَأُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللَّهِ...» | أبو رزين ﷺ | ٣/ ٢٦ |
| «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٢٣٣، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٧٦، ٣٩١، ٦١٦، .... |
| «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٢٩٠ |
| «سُبْحَانَكَ اللهم وَبِحَمْدِكَ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٣٧٠، ٥/ ٢٣٩ |
| «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٦٦ |
| «سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ...» | أم سلمة رضي الله عنها | ٣/ ٦٤٦ |
| «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ...» | بريدة بن الحصيب ﷺ | ٤/ ٤٥٤، ٤٥٩، ٤٦٤،... |
| «سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٦١٤ |
| «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ على الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٦٥٣ |
| «السَّلَامُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى» | عبد الله بن الشخير ﷺ | ١/ ٦٢٠ |
| «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» | سلمة بن الأكوع ﷺ | ٤/ ٣٦٩ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٧٤ |
| «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٢/ ٣٧٧، ٣/ ٣١٨ |
| «الشَّيْطَانُ يَجْرِي من الْإِنْسَانِ ...» | صفية بنت حيي رضي الله عنها | ١/ ٤٠٣، ٤/ ١٢٠ |
| «صَلَاةٌ في الْمَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ...» | جابر بن عبدالله ﷺ | ٢/ ٣٣٥ |
| «الصلاة وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦٣٤، ٦٣٥ |
| «صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ» | أبو امامة ﷺ | ١/ ٥٢٩ |
| «صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ...» | عمران بن حصين ﷺ | ٤/ ٣٣١، ٣٥٤ |
| «صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦٣٤، ٦٣٥ |
| «صَلُّوا خَلْفَ مَنْ قَالَ لا إِلَه إِلا الله...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٣/ ٦٣٧ |
| «صِنْفَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ لَيْسَ لَهُمَا...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٨٨ |
| «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ...» | أبو مالك الأشعري ﷺ | ١/ ٤٣٢، ٤/ ٢٦٩، ٢٧٣ |
| «عَجِبْتُ من هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ...» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ٤/ ٦٢٣ |
| «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لي بَطْحَاءَ...» | أبو أمامة ﷺ | ١/ ٨٢ |
| «عَشْرَةٌ في الجَنَّةِ ...» | سعيد بن زيد ﷺ | ٤/ ٤، ٥/ ٤٣، ٥٥ |
| «عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٥/ ١٠٦ |
| «على خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ١٤٠ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٢٦٣ |
| «على المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَة...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٤/ ١٩، ٢٣، ٥/ ٢٨٣ |
| «عَلِّمِ النَّاسَ سُنَّتِي وَإِنْ كَرِهُوا...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٢٦٢ |
| «عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٢٨٣ |
| «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ...» | العرباض بن سارية ﷺ | ١/ ٤٣، ٤/ ٥٨٣، ٥٨٨، ٥٩٩،... |
| «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ ...» | ابن مسعود ﷺ | ١/ ٥٧١ |
| «عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيامَةِ ثَلَاثَةٌ...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٢٩٩ |
| «عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٥ |
| «الْعَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ...» | بريدة الأسلمي ﷺ | ٣/ ٢٣٤ |
| «الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٣٨٢ |
| «فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٦٦ |
| «فَإِنَّ الْأُمَمَ قَبْلَكُمْ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ٢٥١ |
| «فإن خَيْرَ الحديث كِتَابُ الله...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٥/ ٢٣٥ |
| «فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمَا مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٦١٤ |
| «فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٣٩٧ |
| «فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ فَأَكُونُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٥ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حين تَطْلُعُ بين قَرْنَيْ ...» | عمرو بن عبسة ﷺ | ٢١٢/١ |
| «فَإِنِّي سمعت اللَّيْلَةَ خَشْفَ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/٤ |
| «فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِنطَةٌ» | أبو هريرة ﷺ | ٤٩٧/٣ |
| «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤٨٩/٢ |
| «فُتِحَتْ له أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ...» | عقبة بن عامر ﷺ | ٣١١/٤ |
| «فَتَطَّلِعُونَ على حَوْضِ الرَّسُولِ...» | لقيط بن عامر ﷺ | ٣٥٧/٢ |
| «فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٩٢/٥ |
| «فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٩٣/٣ |
| «فَرَغَ اللَّهُ مِنْ المَقَادِيرِ وَأُمُورِ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٤٨٤/١ |
| «فَرُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ...» | مالك بن صعصعة ﷺ | ١٢٦/٣ |
| «فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣٦٣/٤ |
| «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٦١٠/١ |
| «فَضْلُ الصَّلَاةِ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ...» | أبو الدرداء ﷺ | ٣٣٤/٢ |
| «فَضْلُ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ ...» | أبو أمامة ﷺ | ٤/١ |
| «فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢٥/٤ |
| فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١٣٧/٣ |
| «فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٦٢٢/١ |
| «فَلا يَطْمَعْ فِي هَذَا الأَمْرِ طَامِعٌ» | عائشة رضي الله عنها | ٥٨٥/٤ |
| «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنكُم الغَائِبَ» | أبو بكرة ﷺ | ١١٥/١ |
| «فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٢٥٢/٥ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ ...» | النواس بن سمعان ﷺ | ١/ ٦٣٩ |
| «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٥٧٨ |
| «فيعرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيكُم فَيَسْأَلُهُم» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٤ |
| «فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ٤٣٤، ٤/ ٥٢٧ |
| «فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: شَفَعَتِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٢/ ٣٧٧ |
| «فيقول: هل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٢/ ١٧١ |
| «فَاتَلَهُمُ الله، أَمَا وَالله قَدْ عَلِمُوا...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ١٦٧ |
| «قال: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٣٣ |
| «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٨٨ |
| «قَالَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: إِذَا هَمَّ...» | أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهم | ٤/ ١٠٣ |
| «قَالَتِ الْمَلَائِكَة: ذَاكَ عَبْدُ يُرِيدُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٠٤ |
| «قال رجل في غزوة تبوك...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٣/ ٣٣١ |
| «قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ...» | بلال بن رباح ﷺ | ٤/ ١١٨ |
| «قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٤١٩ |
| «قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٥٧٥، ٥٧٩ |
| «قَدَّرَ اللهُ تَعَالى مَقَادِيرَ الخَلقِ ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ١/ ٤٨٣، ٥٢٤، ٢/ ٥٣٤، ٥٣٦، ٥٧٨، ... |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هذِهِ الأُمَّةِ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٥٨٧، ٥/ ٢٩٤ |
| «قَدْ زَوَّجْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ ...» | سهل بن سعد ﷺ | ٤/ ٤٧٩ |
| «قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ ...» | ابن مسعود ﷺ | ١/ ٥٢٨، ٥٢٩ |
| «قَدْ فَعَلت...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٢٢٣ |
| «قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٦١٧، ٦٢٣ |
| «قُلْ آمَنْتُ بِالله ثُمَّ اسْتَقِمْ» | سفيان بن عبدالله ﷺ | ٥/ ٢٦٤، ٢٦٧ |
| «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا...» | أبو بكر الصديق ﷺ | ٤/ ٤٤٠ |
| «قلت يا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ...» | أبو ذر ﷺ | ٢/ ٣٣٥ |
| «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ ...» | المسيب بن حزن ﷺ | ١/ ٣٧٤ |
| «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله تُفْلِحُوا» | ربيعة بن عباد الديلي ﷺ | ١/ ٣٧٣ |
| «قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٤٥٥ |
| «كان أبو طَلْحَةَ يَتَتَرَّسُ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٥٧٤ |
| «كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ» | عمران بن حصين ﷺ | ١/ ٤٧٩ |
| «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» | عمران بن حصين ﷺ | ١/ ٤٧٨، ٤٩١ |
| «كان رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٣٢، ٢٤٦ |
| «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ سُحِرَ حَتَّى...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ١٨٥ |
| «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ فَلَمَّا ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ١٠٥ |
| «كَأَنِّي بِنِسَاءِ بَنِي فَهْمٍ يَطُفْنَ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٤٤٧ |
| «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُول الله...» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٤/ ٢٤ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٢ |
| «كِتَابُ الله، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ...» | معاذ بن جبل ﷺ | ١/ ١٠٧ |
| «كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قبل...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ١/ ٤٨٤ |
| «كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٥/ ٥٠ |
| «كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٥٦ |
| «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٥٦٥ |
| «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، لَا تَخْتَلِفُوا...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٢١٠، ٢١٢، ٥/ ٢٣٦ |
| «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٢٢٨ |
| «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ١٣٤، ٣/ ٦٥٦ |
| «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فيه...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦٣ |
| «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حتى الْعَجْزُ ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٥٢٥ |
| «كُلُّ كَلَامِ بن آدَمَ عليه لَا له...» | أم حبيبة رضي الله عنها | ٤/ ١٠٢ |
| «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣ |
| «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ...» | ابن جريج رحمه الله | ٣/ ٣٤٥ |
| «كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً ...» | معاوية ﷺ | ١/ ٤٣ |
| «كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءِ» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٥٦ |
| «كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ» | أبو بكرة ﷺ | ٤/ ٣٤ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ...» | كعب بن عجرة ﷺ | ٣/ ٩٢ |
| «كنا عِنْدَ رسول اللَّهِ ﷺ نُؤَلِّفُ...» | زيد بن ثابت ﷺ | ٣/ ٢١٦ |
| «كُنَّا فِي جِنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ١٤٣ |
| «كنت مع رسول اللَّهِ ﷺ في سُوقٍ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٥٦٨ |
| «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٤/ ٢١٦ |
| «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قد...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ١٣٧ |
| «لَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ...» | المغيرة بن شعبة ﷺ | ١/ ٢٨٦ |
| «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٩٨ |
| «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٣ |
| «لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ...» | زينب بنت جحش رضي الله عنها | ٥/ ١٦٠ |
| «لَا، الْإِيمَانُ مُكَمَّلٌ فِي الْقَلْبِ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٣٩٧، ٣٩٨ |
| «لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا» | عوف بن مالك ﷺ | ٥/ ١٨٤ |
| «لَا بِشَيْءٍ من نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ ...» | جابر بن عبدالله ﷺ | ١/ ٦٤٣ |
| «لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا ...» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٥/ ٤٣ |
| «لَأَبْعَد مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٢/ ٣٥٦ |
| «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٢/ ٤٣٨، ٥٤٠، ٥٤٣،... |
| «لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ القَدَرِ وَلَا تُفَاتِحُوهُمْ» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٥٨٧ |
| «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٨٥ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «لا تَدْخُلُ الْمَلائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٣/ ١٤٠ |
| «لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦٣٠ |
| «لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إلا طَمَسْتَهُ، ولا ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ١/ ٢١١ |
| «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا ...» | جرير ﷺ | ٣/ ٣٣٣، ٢٥٦، ٢٦٠ |
| «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ ...» | المغيرة ﷺ | ١/ ٤٤، ١١٥، ١١٨ |
| «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٥٤١، ٥٤٨، ٥٥٥، ٥٧٩، ٥٨١، ٥/ ٦٠، ... |
| «لَا تُشَدِّدُوا فَيُشَدِّدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ...» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ٣٠٧ |
| «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلَاثَةِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٣٤ |
| «لا تَصْحَبُ المَلائِكَةُ رُفْقَةً فيها...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ١٤١ |
| «لَا تُصَلُّوا عَلَى القُبُورِ، وَلَا...» | أبو مرثد الغنوي ﷺ | ٤/ ٨٨ |
| «لَا تُطْرُونِي كما أَطْرَتْ النَّصَارَى...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٥/ ٣٤ |
| «لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٥٦٥ |
| «لَا تَغْضَبْ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٣٧٠ |
| «لَا تُفَاضِلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٦١٨ |
| «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦١٧، ٦٢١ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦٢٣، ٦٢٦ |
| «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ١٥٣ |
| «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ١٥٥ |
| «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَنْزِلَ فِيكُمْ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦١١ |
| «لَا تَلْعَنْهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسولَهُ» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٢٥١ |
| «لَا تُنْكَحُ المَرْأَة على عَمَّتِهَا...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٧٩ |
| «لَا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٠٤ |
| «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ...» | عبد الله بن الزبير ﷺ | ٤/ ٣٩٤، ٤٣٠ |
| «لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» | المسيب بن حزن ﷺ | ٤/ ٤٩٩ |
| «لا صَلاةَ لِمَنْ لم يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ» | عبادة بن الصامت ﷺ | ٣/ ٥٧٨ |
| «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ ...» | عمران بن حصين ﷺ | ٣/ ٦٥٣، ٦٥٧ |
| «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ على مِائَةِ امْرَأَةٍ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٥٩ |
| «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا ...» | سهل بن سعد ﷺ | ١/ ٦٣١، ٥/ ٢٢، ٣٠،... |
| «لَا فَضْلَ لِعَرَبِي على عَجَمِي ...» | رجل من أصحاب النبي ﷺ لم يُسَمْ | ٣/ ٥٢٩، ٥/ ١٦٥ |
| «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٦٠١، ٦١٣ |
| «لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٣٣٣ |
| «لا وَالَّذِي نَفْسِي بيده حتى أَكُونَ...» | عبد الله بن هشام ﷺ | ٤/ ٥٥ |
| «لَا، يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٢٨٧ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٥/ ٩٣ |
| «لَا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ٥٤٣، ٥/ ٦٧ |
| «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ١٧ |
| «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ ...» | أم حبيبة رضي الله عنها | ٣/ ٤٠١، ٤/ ٢٠١ |
| «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٠١ |
| «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ» | حذيفة ﷺ | ٣/ ٦٠٥ |
| «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ من كان في قَلْبِهِ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٦٠٥ |
| «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إن شَاءَ الله...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٤/ ٦، ٥٤٧، ٥٥٤، ٥٨٢،... |
| «لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٣٥٣ |
| «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ...» | ثوبان ﷺ | ١/ ٥٣٠ |
| «لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا...» | جابر بن سمرة ﷺ | ٥/ ٥٢ |
| «لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا...» | جابر بن سمرة ﷺ | ٥/ ٥٢ |
| «لا يَزَالُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حتى...» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ٣/ ٥٦٩ |
| «لَا يَزَالُ الناس يَتَسَاءَلُونَ حَتَّىٰ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٤٩٤ |
| «لَا يَزَالُ هذا الْأَمْرُ عَزِيزًا...» | جابر بن سمرة ﷺ | ٥/ ٥٢، ٥٥ |
| «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٧٦، ٣٤٥،... |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «لَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ» | ثوبان ﷺ | ١/ ٥٣١ |
| «لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦٤٣ |
| «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ٢٤٨، ٢٥٣ |
| «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٢٦٢ |
| «لَا يَمُوتَنَّ أحدكم إلا وهو ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٢٩٢، ٣٢٢، ٣٣٢ |
| «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦٢٣، ٦٢٥ |
| «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ أَكُونَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٨٧، ٣٩٩، ٤/ ٥٥ |
| «لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ...» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ٦٣٠، ٣/ ٤٠٠ |
| «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حتى يَكونَ ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ١/ ١٠٨ |
| «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بوائقه» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٠٠ |
| «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٢/ ٤٤٩، ٤/ ٣٨٣، ٣٨٧ |
| «لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَأْخَذَ الْقُرُونِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٥٠٦، ٥٠٩ |
| «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٥/ ٣٠٥، ٣٠٧، |
| «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قد اطَّلَعَ ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٦ |
| «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يوم الْقِيَامَةِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٢/ ٣٠١ |
| «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى...» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٢٠٨ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِم بِحُكْمِ المَلِكِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ٣٤، ٣٧ |
| «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ١٧٦ |
| «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٢٩٠ |
| «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ أُمَّتِي ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٥٥٧ |
| «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ...» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٢/ ٥٨٧ |
| «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٥/ ٤٢، ٤٦ |
| «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦٠٩ |
| «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ١٩٠ |
| «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٤٠٥ |
| «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٢٨٧ |
| «لَمَّا قَضَى الله الخَلْقَ كَتَبَ في كِتَابِهِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٨٢، ٣/ ٢٧، ٣٠، ٤٩، ٣١١، ... |
| «لَمَّا كذبني قُرَيْشٌ قُمْتُ في الحِجْرِ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٢/ ٣٣٧ |
| «لم أؤمر بشيء، وإنما هو...» | سعد بن معاذ ﷺ | ٣/ ٦٥٥ |
| «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧٥ |
| «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» | الحسن البصري رحمه الله | ٢/ ٥٤٩ |
| «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٤٤٠، ٤٤١ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِه ...» | زيد بن ثابت ﷺ | ٤/ ٣٧٣، ٣٨٧، ٤٢٩، ٤٣٩، ... |
| «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ على اللَّهِ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٥٧٦ |
| «لو دَخَلُوهَا ما خَرَجُوا منها...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٣/ ٦٥٣ |
| «لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ١٥٢ |
| «لو كان مُوسَى حَيًّا بين أَظْهُرِكُمْ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٥/ ٢١٨ |
| «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ١/ ٦٢٨، ٣/ ٨١، ٩٣، ٤/ ٥٨٦،... |
| «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله ...» | زيد بن ثابت ﷺ | ٤/ ١٥٥، ١٧١ |
| «لَوْ لَمْ تُذْنِبوا، لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٤٧٤ |
| «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٢/ ٥٠٦، ٥١٠ |
| «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ٤١ |
| «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٥٢ |
| «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٢٢ |
| «لَيْسَ أحدٌ يُحاسَبُ يَومَ القِيَامَةِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٢٤٣ |
| «لَيْسَ لِنَبِي إذا لَبِسَ لأُمَّتَهُ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٢/ ٥٧٤ |
| «لَيْسَ المُخْبِرُ كَالمُعَايِنُ» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٣٦٢ |
| «ليس مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ له...» | عمران بن حصين ﷺ | ٥/ ١٦٧ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «ليس مِنَّا من لَطَمَ الخُدُودَ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٢٧٦، ٦٠٥، ٦١٦ |
| «ليس من بَلَدٍ إلا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٥/ ١٤٨ |
| «لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ ...» | أبو موسى ﷺ | ٣/ ٣٨٥ |
| «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ١٦٥ |
| «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا...» | أبو أمامة ﷺ | ٣/ ٩٨، ١٨٧ |
| «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ من بُيُوتِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ١٤١ |
| «ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ منهم...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ١٦٤ |
| «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لهُ دَوَاءً...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٥٦٩ |
| «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لهُ شِفَاءً» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٠٤ |
| «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا ...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ٢٦٩ |
| «مَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا ...» | عبد الله بن قيس ﷺ | ١/ ٣١٢ |
| «مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ من إِلَهٍ يُعبَد...» | أبو أمامة ﷺ | ٤/ ٣٢٦ |
| «مَا تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٥٩ |
| «مَا تَقُولُ فِي الصَّلاةِ؟...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٥٣٥٦ |
| «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ١٨٧ |
| «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ ...» | زيد بن أسلم رحمه الله | ١/ ٤٩٢، ٣/ ٦، ١٣ |
| «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ ...» | أبو ذر ﷺ | ١/ ٤٩٣، ٣/ ٦، ١١ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «مَا ضَل قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى ...» | أبو أمامة الباهلي ﷺ | ٢/ ٢٢٩ |
| «مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٥٤٤ |
| «مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِع قَدَمٍ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ١٣٤ |
| «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ١٣٤ |
| «مَا كَان الله لِيُسَلِّطَكِ على ذَاكِ» | أنس بن مالك ﷺ | ٥/ ١٨٥ |
| «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحلَقَةٍ...» | أبو ذر ﷺ | ٣/ ١٥ |
| «مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ والله إِنِّي ...» | سعد بن أبي وقاص ﷺ | ٣/ ٤٤٢ |
| «مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتابَ اللَّهِ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٢/ ٥٠١ |
| «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكاً قَطُّ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ١٣٧، ٤/ ٣١٣ |
| «مالي وَلِلدُّنْيَا، ما مثلي وَمَثَلُ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٦٠١ |
| «ما من أَحَدٍ يُسَلِّمُ عليّ إلا...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٦٣ |
| «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ٥١ |
| «مَا مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ...» | عدي بن حاتم ﷺ | ٤/ ٢٤٠ |
| «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ١٠٣ |
| «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٢/ ٤٣٢ |
| «ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ ليس...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٥٠٥، ٥١٣، ٥١٩، ٥/ ١١٢، ... |
| «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ١٣ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ١٩٨، ٢١٩، ٢/ ٤٠٧، ٣/ ٧٠، ... |
| «ما من مَيِّتٍ تُصَلِّي عليه أُمَّةٌ...» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٦٦٧ |
| «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَأَنْذَرَ قَوْمَهُ الْأَعْوَرَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٥/ ١٤٤ |
| «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ...» | أبو سعيد وأبو هريرة رضي الله عنهما | ٣/ ٣١٢، ٣١٧، ٥٧٠، ... |
| «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦٠٩، ٥/ ٩٠ |
| «مَخْفِقُ الطَّيرِ سَبْعَ مِئةِ عَامٍ» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ٩ |
| «المَرْءُ مع من أَحَبَّ» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٥/ ٣٠٨ |
| «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٩٤، ٤/ ١٩٦ |
| «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٥٨٥، ٥٨٩ |
| «مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٥٨٩ |
| « مسيرة شهرٍ في شهر» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٢/ ٣٥٦ |
| «مِلءَ السَّمَوَاتِ، وَمِلءَ الأَرْضِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ٥٨٥، ٥٨٨ |
| «مَنْ أَتَى حَائِضًا، أو امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ١٨٨ |
| «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ١٥٩ |
| «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ...» | بعض أزواج النبي ﷺ | ٥/ ١٥٩، ١٦٢ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٥٧ |
| «مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله ...» | أبو أمامة ﷺ | ٣/ ٣٨٥ |
| «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا ما ليس...» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٨٧، ٥/ ١٩٥، ٢٠٣، ٢٣٥،... |
| «مَنْ اسْتَمَعَ إلى حديث قَوْمٍ وَهُمْ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ١٢ |
| «من أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّـهَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦٥١، ٦٥٦، ٤/ ١٩، ٢٢، ... |
| «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٥٥٨، ٥٦١ |
| «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٦٦٤، ٤/ ١٨، ٢٧، ٥٦٦ |
| « مِنَ الْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ١٢٩ |
| «من تَرَدَّى من جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٤٩٨ |
| «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا...» | أبو الجعد الضمري ﷺ | ٥/ ٢١٣، ٢١٥ |
| «من تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ ...» | بريدة ﷺ | ٣/ ٢٣٥ |
| «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ منهم» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ٣٠٨ |
| «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٥٢١، ٥٢٣، ٣/ ١٤٣ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «من حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أو ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٣٨٥، ٣٩١، ٣/ ٢٥٧، ٢٦٤ |
| «مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٨٥ |
| «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٠٤ |
| «من خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٩٥ |
| «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٣٣٣، ٤٨٧ |
| «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، فَلَهُ مِثْلُ...» | أبو مسعود الأنصاري ﷺ | ٤/ ٤٨٧ |
| «مَنْ رأى مِنْ أَمِيرِه شَيْئًا ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٢٤ |
| «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» | أبو بكرة ﷺ | ٤/ ٥٨٦ |
| «مَنْ رأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ٣٨٥ |
| «من سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكَتَمَهُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٦٩ |
| «مَنْ سَرَّتْه حَسَنَتُه، وَسَاءَتْه سَيِّئَتُه...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٤١٢، ٤/ ١٢٩ |
| «من سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ ...» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ٥٢٩ |
| «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ ...» | أبو هريرة ﷺ<br>أبو الدرداء ﷺ | ١/ ٤<br>١/ ٥ |
| «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٥/ ٢٦٧ |
| «من شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله ...» | عبادة بن الصامت ﷺ | ٤/ ٧، ٢٩٢، ٣١١ |
| «مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا ...» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ٤٣٢ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٢٠٢، ٢٠٣ |
| «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فإن اللَّهَ مُعَذِّبُهُ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٣٧٤ |
| «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٨١، ١٣٢ |
| «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْه...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ١٩٥، ٢٠٣ |
| «من غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٧٦ |
| «مَنْ قَالَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٦٢٣ |
| «مَنْ قَالَ حِينَ يَخْرُجُ إلى الصَّلاَةِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٢/ ٣٨٨ |
| «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٤/ ٢٩٠ |
| «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ١٥٦، ١٥٨ |
| «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ١٥٦، ١٦٧ |
| «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ، وَكَفَرَ بِمَا...» | أبو مالك الأشجعي ﷺ | ١/ ٧١، ٣/ ٣٥٤، ٣٥٦، ٤٢٦، ... |
| «مَنْ قَرَأَ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ ...» | أبو مسعود ﷺ | ٣/ ١٠٨، ١١٤ |
| «من قَرَأَ حَرْفًا من كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٢/ ١٠٣ |
| «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...» | معاذ بن جبل ﷺ | ١/ ١٧٤ |
| «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٢٥٨ |
| «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أو ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٣٨٥ |
| «من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٤٠١، ٤/ ٢٠١ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَإِنَّ عليّ مَوْلاهُ...» | زيد بن أرقم ﷺ | ٤/ ٥٧٠، ٦٠٠، ٥/ ٢٤٣،... |
| «مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٤٤٢ |
| «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٤٩٢، ٤٩٤، ٥٠٩ |
| «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٤٥٥، ٤٦١، ٤٧٣، ٤٨٢، ... |
| «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا ...» | معاذ بن جبل ﷺ | ٣/ ٣٥٤، ٤٤٣ |
| «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ...» | عثمان بن عفان ﷺ | ١/ ١٧٤ |
| «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٢٥٩، ٤٤٧ |
| «مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِيَنِي...» | الزبير ﷺ | ٥/ ٤٢ |
| «مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَمُ فِيهَا...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٣٠١ |
| «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٤٧٦ |
| «من يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» | معاوية ﷺ | ١/ ٤ |
| «من يَعْرِفُ أَصْحَابَ هذه الْأَقْبُرِ...» | زيد بن ثابت ﷺ | ٤/ ١٥٥ |
| «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ ...» | ابن مسعود ﷺ | ١/ ٦٦، ٥٤٧، ٢/ ٤٥٠، ٤/ ٤٢٩ |
| «مَهْلا يَا قَوْمِ! بِهَذَا أَهلكَتِ الأُمَمُ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٢/ ٢٠٨ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ١٨١ |
| «النَّائِحَةُ إذا لم تَتُبْ قبل مَوْتِهَا...» | أبو مالك الأشعري ﷺ | ٣/ ٢٧٢، ٦١٦ |
| «نَارُكُمْ جُزْءٌ من سَبْعِينَ جُزْءًا...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٦١٠ |
| «النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ١٣٩ |
| «النُّجُومُ آمنة لِلسَّمَاءِ، فإذا ذَهَبَتْ...» | أبو بردة ﷺ | ٤/ ٥٨١ |
| «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٥٤٥ |
| «النِّزَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٦٢٦ |
| «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلَقُ...» | كعب بن مالك ﷺ | ٤/ ١١٨ |
| «نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٤٥٦ |
| «نَعَمْ، عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ١٤٧ |
| «نعم، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ...» | أبو قتادة ﷺ | ٤/ ١٩٦ |
| «نَهَىٰ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ ...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ١/ ٢١١ |
| «نَهَى عَنْ بَيْعِ الْوَلَاءِ وَهِبَتِه» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٣/ ٤٧٩ |
| «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» | أبو ذر ﷺ | ٢/ ١٧٩، ١٨٠، ٣٤٩ |
| «النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٣/ ١٦٥ |
| «هَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه خَيْرًا وَجَبَتْ له...» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ٤ |
| «هذا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ...» | أبو الدرداء ﷺ | ١/ ٦ |
| «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١٠٨ |
| «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٤١٧، ٤٢٣ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٤٢ |
| «هذا فِرْعَوْنُ هذه الأُمَّةِ» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٢٦٩ |
| «هذه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله في قُلُوبِ عِبَادِهِ» | أسامة بن زيد ﷺ | ١/ ٦٥ |
| «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ، فَضَرَبَ بِهَا...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ٨، ١٦ |
| «هَلْ تَدْرُوْنَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ ...» | العباس بن عبد المطلب ﷺ | ٣/ ٤ |
| «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ١٥٠، ١٥٤، ١٩٢ |
| «هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٤/ ٣٩٢ |
| «هَلكَ المُتَنَطِّعُونَ» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٢/ ٢٤٠، ٢٤٤، ٥٢٣ |
| «هل مَعَكَ من شِعْرِ أُمَيَّةَ...» | عمرو بن الشريد ﷺ | ٣/ ١١ |
| «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٢٥٣، ٢٥٤ |
| «هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٥/ ١٩٠ |
| «هُوَ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٣٥٣ |
| «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ» | أبي خزامة عن أبيه ﷺ | ١/ ٥٢٥، ٢/ ٩٥ |
| «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا» | أبو ذر ﷺ | ٣/ ٣١٢، ٣١٤، ٤/ ١٠٧ |
| «وَاتَّخِذْ مُؤَذِّنًا لَا يَأْخُذْ عَلَى...» | عثمان بن أبي العاص ﷺ | ٤/ ٤٧٩ |
| «وإذا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً ...» | معاذ بن جبل ﷺ | ١/ ٥٣٢ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «وَأَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا ...» | عائشة رضي الله عنها | ١/ ٥٣٥ |
| «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ ...» | عمار بن ياسر ﷺ | ٢/ ١٥٧ |
| «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٥٤٦، ٢/ ٤٦٠، ٥٨٩، ٣/ ٥٨٩، ... |
| «وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٤٩ |
| «وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ من أُمَّتِي...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ٢٤٣ |
| «وَتُعَادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ١٤٦، ١٦٠، ١٦٦ |
| «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لا يَسْمَعُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ٢١٩ |
| «وَالَّذِي نَفْسِي بيده إني أَرْجُو أَنْ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٥٤٩ |
| «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ...» | صهيب بن سنان ﷺ | ١/ ٥٨٥ |
| «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَلِجُ النَّارَ...» | أم بشر رضي الله عنها | ٤/ ٢٦١ |
| «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُما أَثْقَلُ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٢٦٨، ٢٧٢ |
| «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ...» | أبو هريرة ﷺ | ٥/ ١٤٤ |
| «وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ» | معاذ ﷺ | ٣/ ٨٢، ٩٢ |
| «وَأَنَا أَشْهَد» | حبيب بن أبي ثابت رحمه الله | ٣/ ٢٧ |
| «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لَاحِقُونَ» | عائشة رضي الله عنها | ٣/ ٤٥٦ |
| «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فما أَنْتُمْ ...» | جابر ﷺ | ١/ ١١٥، ٢٢٢ |
| «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ...» | أبو الدرداء ﷺ | ٥/ ٦٩ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ» | سهل بن سعد ﷺ | ٢/ ٤٣٩ |
| «وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٥/ ١٤٤، ١٤٧ |
| «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ ...» | ثوبان ﷺ | ١/ ٦١٠، ٦٣٨ |
| «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ...» | عياض بن حمار ﷺ | ٢/ ٤٤٥ |
| «وَايْمُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَو رَأَيْتُمْ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ٢٨٦ |
| «وَبُعِثْتُ إلى الناس كَافَّةً» | جابر بن عبد الله ﷺ | ١/ ٦٥٠ |
| «وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٧٣ |
| «وَتَقُولُ النَّارُ لِلمُؤْمِن: جُزْ يَا...» | يعلى بن منية ﷺ | ٤/ ٢٥٧، ٢٦٢، ٢٦٤، ... |
| «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٨٩ |
| «وَجَعَلَ بين عَيْنَيْ كل إِنْسَانٍ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٥٢ |
| «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٥/ ٢٤٠ |
| «وَالخَيْرُ كله بِيَدَيْكَ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٣/ ٥٦٤ |
| «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذلِكَ ...» | العباس بن عبد المطلب ﷺ | ٣/ ٢٧، ٣١ |
| «وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي...» | كعب بن مالك ﷺ | ٥/ ١٣٠ |
| «وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَة...» | العرباض بن سارية ﷺ | ٤/ ٤٣، ٥/ ٣٦ |
| «وَقَدْ وَجَدْتُمُوه؟...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٥٠٠ |
| «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٤٤٥ |
| «وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٤/ ٢٦٧ |
| «وَلَوْ لِحَبَشِي كَأَنَّ رَأْسَه زَبِيبَة» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ١٩ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» | أبو بكرة ﷺ | ٤/ ٥٤٩ |
| «وَلَيَلْقِيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ...» | عدي بن حاتم ﷺ | ٢/ ١٥١ |
| «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٥٢٤، ٤/ ٥٤ |
| «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ...» | أبو هريرة | ٣/ ٥٢٤، ٥/ ٩٦ |
| «وما لي لا أبكي، ما جفت لي عين...» | أبو عمران الجوني ﷺ | ٣/ ١٣٦ |
| «وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٦، ٥٨٢، ٥/ ٤٨ |
| «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٦٣٠، ٢/ ٤٩٢ |
| «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٣٧٤ |
| «وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ...» | أبو ذر الغفاري ﷺ | ٣/ ٢٣٢ |
| «وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٤٣٩ |
| «وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلى ...» | معاذ بن جبل ﷺ | ٢/ ٩٣ |
| «وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ...» | النواس بن سمعان ﷺ | ٥/ ١٤٦ |
| «وَيَبْعَثُ الله يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ...» | النواس بن سمعان ﷺ | ٥/ ١٥٨ |
| «وَيَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ أَحْيَانًا رَجُلًا ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٦٥ |
| «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟!...» | جبير بن مطعم ﷺ | ٣/ ٣٤ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «وَيْلَكَ، أو لست أَحَقَّ أَهْلِ ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ٣٨٨، ٤/ ١٠ |
| «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إذا لم أَعْدِلْ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ١/ ٤٥ |
| «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ ...» | عبد الله بن الحارث ﷺ | ٤/ ٧٣ |
| «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ...» | أبو بكر الصديق ﷺ | ٣/ ٣٢٢ |
| «يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ عَمِلَ النَّاسُ...» | أبو ذر ﷺ | ٣/ ٥٢٥ |
| «يَا أَبَا الفَضْلِ، إِنَّ أَخَاكَ....» | مجاهد بن جبر رحمه الله | ٥/ ٢٩ |
| «يا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ ...» | أُبي بن كعب ﷺ | ١/ ٤٢١ |
| «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ٢٧٤، ٣٠١، ٣٠٣ |
| «يا أَيُّهَا الناس خُذُوا مِنَ الْعِلْمِ...» | أبو أمامة ﷺ | ١/ ٦ |
| «يَأْبَى اللهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٥٨٥، ٦٠٤ |
| «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٩٨، ٤٠٢ |
| «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ ...» | أبو هريرة ﷺ | ١/ ٤٩٤ |
| «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ ...» | أنس بن مالك ﷺ | ١/ ٤٢٢ |
| «يا رب هذا صوت ضعيف...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٥٤٧ |
| «يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٤٧٧، ٤/ ٥٠١ |
| «يا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٣٤٩ |
| «يا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٢/ ٣٧٨ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «يا سلمان، كل طعام وشراب...» | سلمان ﷺ | ٤/ ١٢٧ |
| «يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هي أَعْمَالُكُمْ ...» | أبو ذر ﷺ | ٤/ ٢٣٥، ٢٣٧ |
| «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ...» | أبو ذر ﷺ | ٤/ ٤٣٠، ٤٣٣ |
| «يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا من...» | أبو ذر ﷺ | ٤/ ٤٣٠، ٥٢١ |
| «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ...» | أبو ذر ﷺ | ١/ ٤٢٤، ٤/ ٤٩٧، ٥١٠،... |
| «يَا عَمِّ أُرِيدُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٢٣٥، ٣٧٤ |
| «يَا عُمَرُ تَرَانِي قَدْ رَضِيتُ وَتَأْبَى...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٦٦ |
| يَا غُلَامُ أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٤٠ |
| «يَا قَوْمُ بِهَذَا ضَلَّتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ٢٥١ |
| «يَا مُحَمَّدُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ...» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٤/ ٣٨٤ |
| «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى ...» | معاذ بن جبل ﷺ | ٢/ ٣٨٣ |
| «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! من اسْتَطَاعَ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٣٣٦ |
| «يا مَعْشَرَ من آمَنَ بِلِسَانِهِ...» | أبو برزة الأسلمي ﷺ | ٥/ ٣١٣ |
| «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ...» | أبو مسعود ﷺ | ٣/ ٦٤٣ |
| «يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ...» | أُبي بن كعب ﷺ | ٣/ ١٦٢ |
| «يا نَبِيَّ الله كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٥٩٥ |
| «يَا وَلِيَ الإِسْلامِ وَأَهْلِه ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٦٣١، ٦٣٢ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ١٤١، ٤/ ٩٦، ١٠٠، ١٢٤، ... |
| «يَجْمَعُ اللهُ الناس يوم الْقِيَامَةِ ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ١٧٠ |
| «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيامَةِ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٢٥٣ |
| «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٤٧٩ |
| «يَخْرُجُ من النَّارِ من قال ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٣/ ٤٠٢ |
| «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٣/ ٥١٧، ٦٠٤ |
| «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٢٨٨، ٣٢٠، ٤/ ٤٩٧، ٥١٠، ... |
| «يَدْخُلُ الجَنَّةَ من أُمَّتِي سَبْعُونَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٣٧٣، ٣٨٠ |
| «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ...» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٢/ ٦٨ |
| «يُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لهم...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٢/ ٢٥٦، ٢٦٣ |
| «يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قبل عَمَلِ...» | أبو موسى ﷺ | ١/ ٤٣٠ |
| «يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ١٥٣ |
| «يُصْبِحُ فِيهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٤٤١ |
| «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا...» | أبو هريرة ﷺ | ٢/ ٦٣٧، ٦٥١ |
| «يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ...» | عبد الله بن عمرو ﷺ | ٢/ ٣٣٠ |
| «يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ...» | أبو أمامة ﷺ | ١/ ٤٣٠ |

| طرف الحديث | الراوي | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ ...» | أبو موسى الأشعري ﷺ | ٤/ ٢٤٩ |
| «يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النَّارِ...» | أبو سعيد الخدري ﷺ | ٤/ ١٥٢ |
| «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ ...» | أنس بن مالك ﷺ | ٢/ ٤٠٥ |
| «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ١٨١ |
| «يَقُولُ الله تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا...» | أبو هريرة ﷺ | ٣/ ٥٢٤ |
| «يَمْرُقُونَ من الدِّينِ ...» | أبو سعيد ﷺ | ٣/ ٢٣٥ |
| «يُنَادِ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ...» | البراء بن عازب ﷺ | ٤/ ٢٨٠ |
| «يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ...» | أبو سعيد وأبو هريرة رضي الله عنهما | ٤/ ٣٠١، ٣٠٣ |
| «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٥١٢ |
| «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ...» | عدي بن حاتم ﷺ | ٥/ ٣٠٥، ٣٠٧ |
| «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا...» | أنس بن مالك ﷺ | ٤/ ٢١٤ |
| «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سَبْعُونَ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٢٨٣ |
| «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَبْشًا أَغْبَرَ...» | أبو هريرة ﷺ | ٤/ ٢٧٤ |
| «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ...» | أبو سعيد ﷺ | ١/ ٤٣١ |

# فهرس الآثار المروية


| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «ائتِ سيف جُدَّة؛ تجد بها أصنامًا ...» | ابن الكلبي | ١/ ٢٠٧ |
| «اتَّهِمُوا الرَّأْيَ في الدِّينِ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٦٦ |
| «اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٢/ ٤٣٧، ٤٥٧ |
| «اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةَ» | معاذ بن جبل ﷺ | ٣/ ٤٠٠ |
| «أجمع العلماء على أن من استبانت...» | الشافعي رحمه الله | ٣/ ٤٨٢ |
| «أَحِبَّ في الله وأبغض في الله...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ٨٢ |
| «أَخْبِرْهم أَنِّي مِنْهُم بَرِيءٌ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٢/ ٥٩٣ |
| «أَخْطَأَتْ اسْتُكَ الحُفْرَةَ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٢٨٠، ٢٨٥ |
| «أَدْرِكْ أَهْلَكَ فَقَدِ احْتَرَقُوا» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٥/ ١٠٧ |
| «أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ لَا تَخْتَلِفُ...» | حذيفة بن اليمان ﷺ | ٣/ ٢١١، ٢١٣ |
| «إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٤/ ٢١٦ |
| «إذا جاء الخبر عن رسول الله...» | أبو حنيفة رحمه الله | ٣/ ٤٨١ |
| «إذا رأيت الرجل يسأل عن حكم ...» | ابن المبارك رحمه الله | ٤/ ٧٥ |
| «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى المَاءِ...» | الليث بن سعد رحمه الله | ٥/ ٢٠٠ |
| «إذا رمى إمامك» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٤/ ٩٠ |
| «إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي ...» | الفضيل بن عياض رحمه الله | ٣/ ٥٧٥، ٤/ ٣٦ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| « إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً...» | محمود الوراق رحمه الله | ٤/ ٤٤٦ |
| «ارْقُبُوا مُحَمَّدًا فِي أَهْلِ بَيْتِهِ...» | أبو بكر الصديق ﷺ | ٥/ ٥٨ |
| « أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِلِّيِّينَ...» | كعب بن مالك ﷺ | ٤/ ١٨٣ |
| «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» | أم سلمة رضي الله عنها | ٣/ ١٨، ٤/ ٥٢٤ |
| «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» | مالك بن أنس رحمه الله | ١/ ٤٠٢، ٤٣٣، ٢/ ١٩٩، ٣/ ١٨،... |
| «أُقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ وَأُزَوِّجُكَ» | سعد بن الربيع ﷺ | ٥/ ٤٥ |
| «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ١/ ٢٠٨ |
| «ألا تعجبون مما قال محمد، يزعم...» | أبو جهل | ٢/ ٣٣٦ |
| «الذي أحصى رمل عالج عددًا...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ٢٥٤ |
| «ألستَ ترى السماء ...» | عكرمة رحمه الله | ١/ ٣٥٥، ٢/ ١٤٨، ١٨٤،... |
| «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٣٩١، ٣٩٥ |
| «اللَّهُمَّ زِدْنَا إِيمَانًا وَيَقِينًا وَفِقْهًا» | ابن مسعود ﷺ | ٣/ ٤٠٠ |
| «أَمْسِكْ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ سَنَتَيْنِ...» | سفينة ﷺ | ٥/ ٢٨ |
| «آمنتُ باللَّهِ، وبما جاءَ عَن اللَّهِ...» | الشافعي رحمه الله | ٢/ ١٦٢، ٥١٦، ٣/ ٥٠٢ |
| «أنا الذي سمّتني أمّي حَيْدَرهْ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٥٦٦ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «أَنَا حَامِدٌ أَنَا شَاكِرٌ أَنَا ذَاكِرٌ...» | إبراهيم بن أدهم رحمه الله | ٤/ ٤٩٥ |
| «إِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٦٠٤، ٥/ ١٢ |
| «إن استطعت فكن عالِمًا...» | عمر بن عبدالعزيز رحمه الله | ١/ ٢٠ |
| «أن اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٥/ ١٦٧ |
| «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٢٩٢ |
| «إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٣٢٧، ٤/ ٩ |
| «الانْبِسَاطُ بِالْقَوْلِ مَعَ الحَقِّ تَرْكُ الأَدَبِ» | الشبلي رحمه الله | ٣/ ٢٠٥ |
| «أَنْتَ خَيْرُنَا وَسَيِّدُنَا وَأَحَبُّنَا...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٦٠٥ |
| «إن تلك الطيور في حواصلها...» | الأوزاعي رحمه الله | ٤/ ١٤٨، ١٨١ |
| «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْصَانِي أَنْ ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٤٠ |
| «إِنَّ السماء تُمْطِرُ مَطَرًا كَمَنِي...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٢٢٨ |
| «انْطَلَقَ النبي ﷺ في طَائِفَةٍ من ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٦٤٤ |
| «إن الله ينهاكم عن التعري...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١٤٠ |
| «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٥٥٤ |
| «إن البهائم تلعن عصاة بني آدم...» | مجاهد رحمه الله | ٣/ ٥٧١ |
| «إن عجائب القرآن أطرن نومي...» | رجلٌ لم يُسم | ١/ ١٠٨ |
| «إنك أدخلتني أمس بيتًا...» | صلة بن أشيم رحمه الله | ٤/ ٣١٣ |
| «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ ...» | عمر بن عبدالعزيز رحمه الله | ٣/ ٣٩٠، ٤٠٣ |
| «إن للحسنة ضياء في الوجه...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ١/ ١٠٢ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «إن لم يكونوا أهل الحديث ...» | أحمد بن حنبل | ١/ ٤٤، ١٢٠، ٢/ ٥١٢ |
| «إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ...» | النجاشي رحمه الله | ١/ ٥٨٢ |
| «إنهم وإن طقطقت بهم البغال...» | الحسن البصري | ١/ ٢٣، ١٠٢ |
| «أنَّ الوالد يتعلق بولده يوم القيامة...» | عكرمة رحمه الله | ٤/ ٤٥٨ |
| «أن يطاع فلا يُعصى...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٤٤٣ |
| «إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ...» | عبد الرحمن بن عوف ﷺ | ٥/ ٧، ٣٧ |
| «إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٥٠٣ |
| «أوحى الله إلى يوشع بن نون...» | الوضين بن عطاء رحمه الله | ٣/ ٦٠٦ |
| «أَوَ فِي شَكٍّ صَاحِبُكَ...» | الحسن رحمه الله | ٤/ ٦٠٥ |
| «أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي...» | أبو بكر الصديق ﷺ | ٢/ ١٥٦، ١٥٩، ٤/ ٥١٩، ٦٦ |
| «بَارَكَ الله لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ...» | عبد الرحمن بن عوف ﷺ | ٥/ ٤٦ |
| «بِأَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ، بَائِنٌ...» | ابن المبارك رحمه الله | ٢/ ٣١٤ |
| «بَلَغَنِي أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ كَطَيْرٍ...» | ابن شهاب رحمه الله | ٤/ ١٨٣ |
| «بَلَغَنِي أَنَّ الرُّوحَ مُرْسَلَة...» | مالك بن أنس رحمه الله | ٤/ ١٨٣ |
| «بِمَ أُجِيبُه؟ وَهُوَ يُحَدِّثُنِي...» | أبو حنيفة رحمه الله | ٣/ ٤٤٦ |
| «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ الله» | ذو النون المصري | ١/ ٤١١ |
| «تَرَكَ النَّاسُ الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ٢٩٦ |
| «تَعْصِي الْإِلَه وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ...» | عبد الله بن المبارك رحمه الله | ١/ ٦٣١ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «تعلموا العربية، فإنها تثبت العقل...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ١٠٥ |
| «التقوى أن تعمل بطاعة الله...» | طلق بن حبيب رحمه الله | ٢/ ٥٥٥ |
| «تكاد السموات تتفطّر من ثقل ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٤٠ |
| «تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ١٠٠ |
| «تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا نَظَرًا» | عكرمة رحمه الله | ٢/ ١٣٠ |
| «تَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ١٢٩ |
| «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَقَدِ ...» | عمار بن ياسر ﷺ | ٣/ ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣ |
| «جبرائيل عبدالله، ومكيائيل عبدالله...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١٣٦ |
| «جَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِ الله: أَنَا الله مَالِكُ...» | مالك بن دينار رحمه الله | ٤/ ٣٧ |
| «حدثنا من كان يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ...» | عبد الله بن حبيب ﷺ | ١/ ٢٧٨، ٢/ ١٦٧، ٤/ ٨٠ |
| «حَدِّثُوا الناس بِمَا يَعْرِفُونَ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٥١ |
| «حكمي في أهل الكلام...» | الشافعي رحمه الله | ١/ ١٢٩، ١٤٩، ٢/ ٢٤٤، ٢٥٤، ... |
| «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٥/ ١٠٩ |
| «خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ...» | قتادة رحمه الله | ٥/ ١٧٤ |
| «خَيْرُ هذه الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٦٢١، ٦٢٧ |
| «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي ...» | عبدالله بن مسعود ﷺ | ٢/ ٣٤٩ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «رآه رؤيا قلب ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ١٧٨ |
| «رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ...» | ابن المبارك رحمه الله | ٢/ ٢٢٩ |
| «رَأَيْتُ عُمَرَ بن الخطاب ﷺ قَبْلَ أَنْ ...» | عمرو بن ميمون رحمه الله | ٥/ ٣ |
| «رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ الَّتِي وَقَى...» | قيس بن أبي حازم رحمه الله | ٥/ ٤٢ |
| «الرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ ...» | مجاهد رحمه الله | ١/ ٦٤١ |
| «الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٦٤١ |
| «رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ ...» | الشافعي رحمه الله | ٢/ ٥٥٤ |
| «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ...» | زينب بنت جحش رضي الله عنها | ٣/ ٣٥، ٣٧ |
| «سأل إبراهيم صلوات الله عليه ملك ...» | أشعث بن أسلم رحمه الله | ٣/ ١١٧ |
| «سُبْحَانَ الله! تَرَانِي فِي كَنِيسَةٍ...» | الشافعي رحمه الله | ٣/ ٤٧٩، ٤٨١ |
| «السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي جَوْفِ ...» | السدي رحمه الله | ٣/ ١٥ |
| «السُّنَّةَ مَا سَنَّه الله ورسوله...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٦٦ |
| «السَّنَةُ - وَالَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ - بَيْنَ...» | الحسن البصري رحمه الله | ٢/ ٦٠٠ |
| شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا...» | حسان بن ثابت ﷺ | ٣/ ٢٧، ٣١ |
| «شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ...» | عبد الله بن رواحة ﷺ | ٣/ ٩، ٣١ |
| «ضحوا تقبل الله ضحاياكم...» | خالد القسري | ١/ ٤٨، ٢/ ٥، ٣/ ٨٠، ٥/ ٢٨٥، ... |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «عجبت لقوم عرفوا الإسناد ...» | أحمد بن حنبل رحمه الله | ٣/ ٤٨٢ |
| «عَجِبْتُ لِشَيْطَانٍ دَعَا النَّاسَ جَهْرَةً...» | عبد الله بن المبارك رحمه الله | ٥/ ٢٨٧ |
| «عجبت من الجنّة كيف ينام طالبها...» | هرم بن حيان رحمه الله | ٤/ ٣١٢ |
| «عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ...» | مجاهد رحمه الله | ٢/ ٢٩٢ |
| «علامَةُ جَهْمٍ وَأَصْحَابِهِ دَعْوَاهُمْ ...» | إسحاق بن راهويه رحمه الله | ١/ ٤٠٥ |
| «عَلَامَةُ الجَهْمِيَّةِ تَسْمِيَتُهُمْ ...» | وكيع بن الجراح رحمه الله | ١/ ٤٠٥ |
| «عَلَى مَتْنِ الرِّيح» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٤٧٧، ٤٨٠، ٢/ ٥٣٦، ٣/ ١٠ |
| «الْعِلْمُ بِالْكَلامِ هُوَ الجَهْلُ ...» | أبو يوسف رحمه الله | ١/ ١٤٧ |
| «الْغِنَى وَالْفَقْرُ مَطِيَّتَانِ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٥٢٩ |
| «فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٥٣٩، ٥/ ٢٩٥ |
| «فالأخوان بلسان قومك ليسا بإخوة» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ٢٥٤ |
| «الْفِرَاسَةُ مُكَاشَفَةُ النَّفْسِ وَمُعَايَنَةُ...» | أبو سليمان الداراني رحمه الله | ٥/ ١٣٧ |
| « فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ...» | الشافعي رحمه الله | ١/ ٥٤٦، ٢/ ٤٦٠، ٤/ ٣٤٦ |
| «فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنَّ الله شَرَحَ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٥/ ٢٥٤ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «فيه ثقوب بقدر عدد الآدميين...» | وهب بن منبه رحمه الله | ٣/ ١٢٥ |
| « قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السَّلام حين ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ١٦٥ |
| «القَدَرُ سِرُّ اللَّهِ، فَلَا تَكْشِفْهُ» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٢/ ٤٤٦ |
| «القدر قدرة الله» | أحمد بن حنبل رحمه الله | ٢/ ٥٨٦، ٥٩٠، ٥/ ٢٩٦ |
| «القَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ٥٨٨ |
| «قَدْ نَظَرْتُ إِلَى القُرَّاءِ فَرَأَيْتُ قِرَاءَتَهُمْ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٢٢٠ |
| «القرآن أمين على كل كتاب قبله» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ١٣٢ |
| «قَصَّرَ اللَّيْثُ رَحِمَهُ الله، بَلْ إِذَا رَأَيْتُمُ...» | الشافعي رحمه الله | ٥/ ٢٠٠ |
| «قف حيث وقف القوم، فإنهم...» | عمر بن عبدالعزيز رحمه الله | ٢/ ٢٤٣ |
| «قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ...» | محمد بن الحنفية رحمه الله | ٤/ ٦١٦، ٦٢١ |
| «كان أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرَوْنَ...» | عبد الله بن شقيق رحمه الله | ٣/ ٢٣٤ |
| «كان بين نوح وآدم عشرة قرون...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١٩٨ |
| «كَانَ سُفْيَانُ، وَشُعْبَةُ، وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ...» | أبو داود الطيالسي | ٢/ ٣١٤ |
| «كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يَأْكُلُ مِنْ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٥/ ١٧٣ |
| «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١٥ |
| «كُلُّ حَيٍّ فَعَّالٌ، وَلَمْ يَكُنْ رَبُّنَا تَعَالَى ...» | الدارمي رحمه الله | ١/ ٤٥٤، ٤٥٧ |
| «كلّما مضى حقب جاء حقب بعده» | قتادة رحمه الله | ٤/ ٣١٠، ٣١٧ |
| «كل من ادعى محبة الله ...» | أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله | ٣/ ٤٢٧ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٤/ ٦٢٨، ٥/ ٣٧، ٣٩ |
| «كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ الله ﷺ حَيٌّ...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ٥/ ٣٧ |
| «كُنْ طَالِبًا لِلاسْتِقَامَةِ، لَا طَالِبًا...» | أبو علي الجوزجاني رحمه الله | ٥/ ١٠٣ |
| «لَا أَدْرِي أَنَهَى عنه رسول اللَّهِ ﷺ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ٢٥٥ |
| «لَا الْإِنْسُ تُقْصِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٣٧١ |
| «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٥٥٣، ٥٥٥ |
| «لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الحَقَّ إِذَا وَافَقَ...» | عمر بن عبدالعزيز رحمه الله | ٥/ ٢٧٨ |
| «لئن قال ذلك لقد صدق...» | أبو بكر الصديق ﷺ | ٢/ ٣٥٦ |
| «لَا نَقُولُ: اللَّهُ وَعِلْمُهُ ...» | أحمد بن حنبل رحمه الله | ١/ ٤٣٨ |
| «لا يَجُوزُ القِرَاءَةُ مَعَ القُدْرَةِ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ» | أبو حنيفة رحمه الله | ٢/ ١٠١ |
| «لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ ...» | أبو حنيفة رحمه الله | ١/ ٤٠٤ |
| «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٤٥٠، ٤٥٢، ٤٨٢، ... |
| «لَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٤٥٠، ٤٦٠ |
| «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْطِقَ فِي ذَاتِ ...» | أبو حنيفة رحمه الله | ٣/ ٢٠٥ |
| «لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ...» | أبو سفيان ﷺ | ١/ ٥٨٦ |
| «لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ١٧٥ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٣/ ٨٤ |
| «لَمَّا أَنَّ حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي السُّخْطِ...» | الشافعي رحمه الله | ٢/ ١٣٦ |
| «لَمَّا حَضَرَ أُحُدٌ دَعَانِي أبي...» | جابر بن عبد الله ﷺ | ٤/ ١٩٣ |
| «لَمَّا رَأَيتُ الأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٥٦٥، ٥/ ٦٤ |
| «لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ رَسُولًا إِلَى الْإِنْسِ ...» | مقاتل رحمه الله | ١/ ٦٤١ |
| «لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَعْضِ...» | أبو عثمان النهدي رحمه الله | ٥/ ٤٢ |
| «لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ ...» | ابن سيرين رحمه الله | ٤/ ٦٧ |
| «لَهُ يَدٌ وَوَجْهٌ وَنَفْسٌ ...» | أبو حنيفة رحمه الله | ٢/ ٣١٦ |
| « لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا...» | ابن عمر رضي الله عنهما | ١/ ٤٧ |
| «لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٤٩٦، ٤/ ٣٦٣ |
| «لو كُنتُ أَنا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٥٦٥ |
| «لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ...» | حسان بن ثابت ﷺ | ١/ ٥٦٧، ٥٧٣ |
| «لَوْ هَمَّ رَجُلٌ فِي الْسَّحَرِ...» | ابن المبارك رحمه الله | ٣/ ٤٩٠ |
| «ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب ...» | أبو الدرداء ﷺ | ١/ ١٠٢ |
| «ليس أحد من خلق الله...» | الأوزاعي رحمه الله | ٣/ ١٣٨ |
| «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي ...» | الحسن البصري رحمه الله | ١/ ٣٨٣، ٤٢٩ |
| «ليس في الدنيا مما في الجنَّة ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٣٤٣ |
| «ليس في نفسي من المسح على الخفين» | أحمد بن حنبل رحمه الله | ٤/ ٧٥ |
| «ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه العهد...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٥/ ٢١٨ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «مَا تَرَكَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ...» | الحارث بن أبي ضرار ﷺ | ٤/ ٦٠١، ٦١٣ |
| «مَا خَلَّفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٤/ ٦٢٤ |
| «مَا زِلْنَا مَعَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ فِي زِيَادَةٍ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٣/ ٦٤١ |
| «مَا سَتَرَ الله أَحَدًا يَكْذِبُ فِي الحَدِيثِ» | سفيان بن عيينة رحمه الله | ٣/ ٤٩٠ |
| «مَا السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُون...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٤٩٣، ٢/ ٣٣٠، ٣/ ٧، ٢١، ... |
| «ما فرق هؤلاء؟ يَجِدُّونَ عِنْدَ مُحْكَمِهِ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٤/ ٥١ |
| «مَا لَا نَفْسَ له سَائِلَة...» | إبراهيم النخعي رحمه الله | ٤/ ١٢٧، ١٢٩ |
| «ما منا إلا راد ومردود عليه...» | مالك بن أنس رحمه الله | ٣/ ٤٨١ |
| «ما من عبد إلا وملك موكل...» | مجاهد رحمه الله | ٣/ ١٣٩ |
| «مَجِّدُوا اللهَ فَهُوَ لِلمَجْدِ أَهْلُ...» | أمية بن الصلت | ٣/ ٩ |
| «ملائكة يحفظونه من بين يديه...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ١٣٩، ٤/ ٩٧ |
| «مِنَ اللَّهِ الرِّسَالَةُ، وَمِنَ الرَّسُول البَلاغُ» | الزهري رحمه الله | ٢/ ٢١٤ |
| «من خاف الله خاف منه كل شيء...» | الفضيل بن عياض رحمه الله | ٢/ ٥٥٥ |
| «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلى الصَّحِيفَةِ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٦٢٦ |
| «مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ...» | نعيم بن حماد رحمه الله | ١/ ٤٠٤، ٤١٤، ٥٠٣ |
| «من عَلِمَ مِنْكُمْ شيئًا فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٥٠ |
| «مِنْ فِقْه الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَاهَدَ إِيمَانُه ...» | أبو الدرداء ﷺ | ٣/ ٣٩٩ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفُ...» | أحمد بن عاصم رحمه الله | ٣/ ١٨٣ |
| «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٤٧، ٥٠، ٥٥٤ |
| «من الكفر فروا ...» | علي بن أبي طالب ﷺ | ٣/ ٢٣٦ |
| «مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَدْ...» | أيوب السختياني رحمه الله | ٥/ ٣٧، ٤٠ |
| «مَنْ وَصَفَ اللَّهَ بشيء فَشَبَّهَ...» | إسحاق بن راهويه رحمه الله | ١/ ٤٠٤ |
| «النَّاسُ فِي حُجُورِ عُلَمَائِهِمْ...» | ربيعة بن أبي عبدالرحمن | ١/ ٣٤٥ |
| «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا ...» | الشافعي رحمه الله | ١/ ٥٣٩، ٢/ ٥١٤، ٢/ ٥٧٨ |
| «نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ» | أبو بكر الصديق ﷺ | ٤/ ٦٠٧ |
| «نَظَرَتْ إِلَى رَبِّهَا فَنُضِّرَتْ بِنُورِهِ» | الحسن رحمه الله | ٢/ ١٢٩ |
| «نَظَرْتُ فِي الْقَدَرِ فَتَحَيَّرْتُ ...» | وهب بن منبه رحمه الله | ١/ ٥٥٠ |
| « هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ فِي قَوْمٍ ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ١/ ٢٠٤ |
| «هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٢/ ٥١٨ |
| «هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ...» | هرقل عظيم الروم | ١/ ٥٨٣ |
| «هَلَكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٢/ ٥٩٨ |
| «هل كنتم تتهمونه بالكذب ...» | هرقل عظيم الروم | ١/ ٥٧٣ |
| «هَلُمُّوا نَزْدَدْ إِيمَانًا» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٣٩٩ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «هو الرجل تصيبه المصيبة...» | علقمة رحمه الله | ٣/ ٣١٦ |
| «هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بِالذَّنْبِ...» | مجاهد رحمه الله | ٣/ ٣٧٠ |
| «هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ» | علي بن أبي طالب وأنس بن مالك رضي الله عنهما | ٢/ ١٣٠ |
| «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السّبع» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٦١٧ |
| «هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٢/ ١٧٧ |
| «وَافَقْتُ الله فِي ثَلَاثٍ...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٤/ ٦٢٣ |
| «وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ» | عمر بن الخطاب ﷺ | ١/ ٥٤٩، ٢/ ٤٩٥ |
| «... وَأَنَا كَتَبْتُهَا عَلَيْكَ» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٥٥٥ |
| « وَطَارَتِ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي ...» | ابن المبارك رحمه الله | ٤/ ٢٤٩ |
| «وَقَدْ رَأَى أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ جَمِيعًا...» | عبد الله بن مسعود ﷺ | ٤/ ٥٥٤ |
| «وَقَعَتِ الفِتْنَةُ الأُولى ...» | سعيد بن المسيب ﷺ | ٥/ ٢٩٨ |
| «ولست أُبَالِي حِيْن أُقْتَلُ مُسْلِمًا...» | خبيب بن عدي ﷺ | ٣/ ٢٠٧ |
| «وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ...» | عائشة رضي الله عنها | ٢/ ٤٥ |
| «وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ...» | أبو طالب عم النبي ﷺ | ٣/ ٣٣٥، ٣٤٢ |
| «وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ: مِنْ فَوْقِهِمْ...» | ابن عباس رضي الله عنهما | ٣/ ٣٥ |
| «وَمَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا! انْقَطَعَ عَنْهُمُ ...» | عائشة رضي الله عنها | ٤/ ٥٥٣ |
| «ويحك! إن ربي تواعدني أن يحبسني...» | يزيد بن مرثد رحمه الله | ٤/ ٣١٢ |
| وَيْلَكَ! أَتَدْرِي مَنْ هَذِهِ؟...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٣/ ٣٥ |

| طرف الأثر | القائل | الجزء والصفحة |
|---|---|---|
| «يا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا...» | يحيى بن يعمر وحميد بن عبدالرحمن الحميري | ٢/ ٥١٤ |
| «ياأبتِ! أرأيت قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ | مصعب بن سعد | ٢/ ٨٩ |
| يا سارية الجبل، يا سارية الجبل...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٥/ ١٠٧ |
| «يا نَبِيَّ الله بِأَبِي أنت وَأُمِّي لَا تُشْرِفْ...» | طلحة بن عبيد الله ﷺ | ٥/ ٤٦ |
| «يكفيناه الله قد علمت أنه...» | عمر بن الخطاب ﷺ | ٥/ ١٠ |
| «يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ» | أبو حنيفة رحمه الله | ٢/ ٣٢٨ |

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



# فهرس المصادر والمراجع

## (أ) كتب التفسير وعلوم القرآن:

١- القرآن الكريم.

٢- أحكام القرآن، محمد بن إدريس الشافعي أبو عبدالله، تحقيق: عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤٠٠هـ.

٣- الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع، أحمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٤- التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم. دار الفكر، بيروت.

٥- تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.

٦- تفسير ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٥هـ.

٧- تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠١هـ.

٨- تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٩- الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ.

١٠- حجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

١١- زاد المسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

١٢- السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية١٤٠٠هـ.

١٣- العجاب في بيان الأسباب، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٤- فضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: مروان عطية، محسن خرابة، وفاء تقي الدين، دار ابن كثير، ، وبيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

## (ب) كتب الحديث وعلومه:

١٦- إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: د. زهير بن ناصر الناصر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٧- الأحاديث المختارة، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، تحقيق عبدالملك ابن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

١٨- الانتصار لأصحاب الحديث، منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: محمد بن حسين الجيزاني، مكتبة أضواء المنار، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٩- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٣٩٣هـ.

٢٠- تحفة الأشراف، تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة: الأولى ١٩٩٩م.

٢١- التلخيص الحبير - ابن حجر العسقلاني - تحقيق : السيد عبد الله هاشم اليماني المدينة المنورة، طبعة ١٣٨٤هـ

٢٢- التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، طبعة ١٣٨٧هـ.

٢٣- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكَلِم، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

٢٤- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة ١٤٠٣هـ.

٢٥- الحطة في ذكر الصحاح الستة، أبو الطيب السيد صديق حسن القنوجي، دار الكتب التعليمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

٢٦- حاشية ابن القيم على تهذيب سنن أبي داود. دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

٢٧- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة١٤١٥هـ.

٢٨- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٢٩- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

٣٠- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.

٣١- سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم المدني، دار المعرفة، بيروت.

٣٢- سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٣٣- سنن سعيد بن منصور، لسعيد بن منصور الخراساني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٣٤- سنن سعيد بن منصور، لسعيد بن منصور الخراساني، تحقيق: د. سعد بن عبدالله الحميد، ، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٣٥- السنن الصغرى للبيهقي، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٣٦- السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، طبعة ١٤١٤هـ.

٣٧- سنن النسائي الصغرى (المجتبى)، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث الإسلامي، دار المعرفة بيروت، الطبعة السادسة ١٤٢٢هـ.

٣٨- سنن النسائي الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، وإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣٩- شرح السنّة للبغوي، أبي محمد الحسين بن مسعود الفرّاء، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ.

٤٠- شرح مشكل الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤١- شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٤٢- شرف أصحاب الحديث، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر، تحقيق: د. محمد سعيد خطي أوغلي، دار إحياء السنة النبوية، أنقرة.

٤٣- شُعَب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٤٤- صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

٤٥- صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٣٩٠هـ.

٤٦- صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٤٧- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

٤٨- علل الحديث، عبد الرحمن بن محمد بن بن إدريس بن مهران الرازي أبو محمد، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٤٠٥هـ.

٤٩- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق د. محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٥٠- العلل الواردة في الأحاديث النبوية، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي أبو الحسن الدارقطني، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله السلفي. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٥١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

٥٢- الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤٠٦هـ.

٥٣- الفوائد، تمام بن محمد الرازي أبو القاسم، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٥٤- كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى١٣٩٩هـ.

٥٥- كشف الخفاء ومزيل الإلْباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت،

الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

٥٦- الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، تحقيق أبو عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٥٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، وبيروت.

٥٨- المحدث الفاصل، الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، تحقيق محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

٥٩- المدخل إلى السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب، الكويت، طبعة ١٤٠٤هـ.

٦٠- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، مكتبة المعارف.

٦١- مسند أبي داود الطيالسي، لسليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.

٦٢- مسند أبي عوانة، يعقوب بن إسحاق الاسفرائيني، دار المعرفة، بيروت.

٦٣- مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٦٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.

٦٥- مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٦٦- مسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي،

مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٦٧- مسند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية١٤٠٧هـ.

٦٨- مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٦٩- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي، دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٧٠- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٧١- مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٧٢- المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة ١٤١٥هـ.

٧٣- معجم الشيوخ، محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي أبو الحسين، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، بيروت، طرابلس، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٧٤- المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٧٥- المعجم في مشتبه أسامي المحدثين، عبيد الله بن عبد الله بن أحمد الهروي

أبو الفضل، تحقيق: نظر محمد الفاريابي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٧٦- المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

٧٧- معرفة علوم الحديث، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

٧٨- المغني عن حمل الأسفار، أبو الفضل العراقي، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، الطبعة الأولى١٤١٥هـ.

٧٩- موطأ الإمام مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي دار إحياء التراث العربي، مصر.

٨٠- نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، محمد بن علي بن الحسن أبو عبدالله الحكيم الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٩٩٢م.

٨١- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكاني، دار الجيل، بيروت.

## (ج) كتب العقيدة:

٨٢- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، عبيد الله محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق عثمان عبد الله الأثيوبي، دار الراية للنشر، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.

٨٣- اجتماع الجيوش الإسلامية ابن القيم، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٤هـ.
٨٤- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني، تحقيق: د. محمد يوسف موسى، علي عبدالمنعم عبدالحميد، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ.
٨٥- الأسماء والصفات، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عبدالله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي.
٨٦- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب. دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
٨٧- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، محمد بن عمر بن حسن الرازي، تحقيق: علي سامي النشار. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ.
٨٨- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٦٩هـ.
٨٩- البعث والنشور، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٩٠- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.
٩١- التحف في مذاهب السلف، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: سيد عاصم علي، دار الصحابة للتراث، طنطا - مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٩٢- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق عبد العزيز الشهوان. دار الرشد، الرياض ١٤١٨هـ.

٩٣- تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٩٤- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق : د. علي حسن ناصر، دار العاصمة الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٩٥- الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، أبو الحسن عبد العزيز ابن يحيى بن عبدالعزيز الكناني المكي، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ.

٩٦- درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الذهبية، الرياض، طبعة ١٣٩١هـ.

٩٧- رؤية الله، علي بن عمر الدارقطني، تحقيق مبروك إسماعيل مبروك، مكتبة القرآن، القاهرة.

٩٨- الرد على البكري، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى١٤١٧هـ.

٩٩- الرد على الجهمية، عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد أبو سعيد الدارمي، تحقيق: د. بدر بن عبد الله البدر. دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

١٠٠- الروح، لابن القيم. دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٥هـ.

١٠١- السنة، لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

١٠٢- السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٠٣- السنة للخلال ـ دار الراية للنشر والتوزيع ـ الرياض.

١٠٤- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٥- شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.

١٠٦- شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ.

١٠٧- شرح القصيدة الميمية للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، عرض وتحليل مصطفى عراقي، مطبعة التقدم، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م.

١٠٨- شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

١٠٩- الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين للإمام أبي حنيفة، د. محمد بن عبد الرحمن الخميس، مكتبة الفرقان، الإمارات، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ

١١٠- الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: د. عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

١١١- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد بدر الدين الحلبي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٨هـ.

١١٢- الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري. دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١١٣- صفة النار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١١٤- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

١١٥- العرش وما روي فيه، محمد بن عثمان بن أبي شيبة، تحقيق محمد بن حمد الحمود، مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١١٦- العظمة، لأبي الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١١٧- العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) محمد بن أحمد ابن سالم بن سليمان السفاريني، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود. مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

١١٨- العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد بن عبد العزيز بن

مانع، الرئاسة العامة للإفتاء، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

١١٩- العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، لشمس الدين الذهبي، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

١٢٠- الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

١٢١- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لشيخ الإسلام ابن تيمية،تحقيق عبدالقادر الأرناؤط. ط الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء. الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

١٢٢- القدر، أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض الفريابي، تحقيق: عمرو عبدالمنعم سليم، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

١٢٣- القضاء والقدر، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق: محمد بن عبد الله آل عامر، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

١٢٤- لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي تحقيق: بدر بن عبد الله البدر. الدار السلفية، الكويت،الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٢٥- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثالثة.

١٢٦- منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٢٧- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، محمد الأمين الشنقيطي، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ.

١٢٨- النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة١٣٨٦هـ.

١٢٩- نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد، على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد - لأبي سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: د. رشيد بن حسن الألمعي. الناشر: مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

## (د) كتب الأصول والقواعد الفقهية:

١٣٠- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

١٣١- إعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

١٣٢- صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، أحمد بن حمدان النمري الحراني أبو عبدالله، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ.

١٣٣- الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبدالرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

## (هـ) كتب الفقه والفتاوى:

١٣٤- تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٣٥- الروض المربع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبعة ١٣٩٠هـ.

١٣٦- شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٣٧- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.

١٣٨- المغني لموفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي الدمشقي الحنبلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٥هـ.

## (و) كتب اللغة والأدب:

١٣٩- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني. تحقيق سمير جابر. دار الفكر، بيروت.

١٤٠- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

١٤١- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية. بيروت.

١٤٢- الحماسة المغربية، أبو العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوي التادلي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

١٤٣- ديوان أبي العتاهية.

١٤٤- ديوان الإمام الشافعي.

١٤٥- ديوان حسان بن ثابت ﷺ.

١٤٦- ديوان الخنساء.

١٤٧- ديوان عبد الغفار الأخرس.

١٤٨- ديوان عدي بن زيد العتادي.

١٤٩- شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

١٥٠- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، سوريا، طبعة ١٤٠٥هـ.

١٥١- شرح الآجرومية، للشيخ حسن الكفراوي، مكاتب سليمان مرعي، سنغافورا.

١٥٢- شرح الكافية الشافية، جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، دار المأمون للتراث ومركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

١٥٣- الفصول المفيدة في الواو المزيدة، صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي، تحقيق: حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

١٥٤- كتاب سيبويه، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى.

١٥٥- لسان العرب، لابن منظور جمال الدِّين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي ثمّ المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

١٥٦- المدهش، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي، تحقيق: الدكتور مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ.

١٥٧- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، طبعة١٣٩٩هـ

## (ز) كتب التاريخ والسيرة والتراجم:

١٥٨- أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، تحقيق: د. عبدالله عبدالرحيم عيلان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

١٥٩- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي أبو عبد الله، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

١٦٠- الاستيعاب لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي. دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٦١- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٦٢- الإصابة في تمييز الصحابة. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني. تحقيق : علي محمد البجاوي. دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٦٣- الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد الـ ـاع، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، المكتبة العتيقة، القاهرة -

تونس، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ.

١٦٤- البداية والنهاية، لعماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ.

١٦٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

١٦٦- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٧- تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٨- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.

١٦٩- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.

١٧٠- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٧١- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٧٢- تهذيب الكمال، الحافظ المزي. تحقيق بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠هـ.

١٧٣- توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، ابن حجر العسقلاني، تحقيق:

أبوالفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، الطبعة : الأولى ١٤٠٦هـ.

١٧٤- الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ.

١٧٥- الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ.

١٧٦- حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

١٧٧- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر، دار الكتب العلمية ، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ.

١٧٨- زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ.

١٧٩- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ.

١٨٠- سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.

١٨١- السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تعليق عمر عبدالسلام تدمري، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٨٢- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٨٣- الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي أبو عيسى، تحقيق: سيد عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٨٤- صفة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، دار المعرفة بيروت، طبعة١٣٩٩هـ.

١٨٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٨٦- طبقات الحنابلة، محمد بن أبي يعلى أبو الحسين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

١٨٧- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن عبد الله بن عبد الكافي السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ.

١٨٨- الطبقات الكبرى (القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم)، محمد بن سعد ابن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.

١٨٩- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، دار صادر، بيروت.

١٩٠- طبقات فحول الشعراء - محمد الجمحي - دار المدني - جدة.

١٩١- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، محمد بن أحمد بن عبدالهادي بن قدامة المقدسي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت.

١٩٢- فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٣هـ.

١٩٣- الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تحقيق يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.

١٩٤- لسان الميزان، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط. دائرة المعارف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

١٩٥- المجروحين من المحدثين والضعفاء، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ.

١٩٦- معجم الأدباء، أبو عبد الله ياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٩٧- معجم السفر، أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

١٩٨- معجم ما استعجم عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

١٩٩- مناقب الشافعي، لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، طبعة ١٣٩١هـ.

٢٠٠- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي

أبو الفرج، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى١٣٥٨هـ.

٢٠١- الموضوعات، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، تحقيق: توفيق حمدان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٠٢- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق علي عوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٥م.

٢٠٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.

٢٠٤- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٣هـ.

## (ح) كتب الزهد والرقاق:

٢٠٥- الرحلة إلى بلاد الأشواق (شرح القصيدة الميمية للإمام شمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن القيم)، عرض وتحليل مصطفى عراقي، مطبعة التقدم، القاهرة.

٢٠٦- الزهد، أحمد بن حنبل الشّيباني، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

٢٠٧- الزهد، عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي أبو عبد الله، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠٨- الزهد الكبير، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عمر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م.

٢٠٩- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد

ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١٠- مدارج السّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقّي ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

٢١١- منازل السائرين، عبد الله الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة١٤٠٨هـ.

٢١٢- المنتخب من كتاب الزهد والرقائق، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب، تحقيق: د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

## (ط) كتب عامة، وكتب الأخلاق والسلوك:

٢١٣- الآداب الشرعية، أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

٢١٤- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.

٢١٥- الإشراف في منازل الأشراف، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، تحقيق: د. نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢١٦- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار

المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

٢١٧- بدائع الفوائد، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق هشام عطا وعادل العدوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٢١٨- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق أحمد حجازي، مكتبة الكليات الأزهرية، طبعة ١٤٠٠هـ.

٢١٩- الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٢٢٠- التهجد وقيام الليل، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، تحقيق: مصلح بن جزاء بن فدغوش الحارثي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٢٢١- جامع بيان العلم وفضله، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٢٢٢- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢٣- الدعاء، سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٢٢٤- ذم الهوى، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، طبعة ١٩٦٢م.

٢٢٥- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان البستي أبو حاتم، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٧هـ.

٢٢٦- العزلة، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

٢٢٧- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة١٤١٢هـ.

٢٢٨- طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

٢٢٩- عمل اليوم والليلة، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي الخرساني، تحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٣٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله أبو طاهر القسطنطني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٣هـ.

٢٣١- المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٣هـ.

٢٣٢- المدهش، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: د. مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

٢٣٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٣٤- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مصطفى بن عبد الله

القسطنطيني الرومي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٣هـ.

٢٣٥- الوابل الصيب من الكلم الطيب، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



# فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| فهرس الجزء الأول | |
| مقدمة المحقق | ٣ |
| مقدمة الطبعة الأولى | ٣١ |
| مقدمة الشارح | ٤٠ |
| علم أصول الدين أشرف العلوم | ٧٧ |
| أسباب بعثة الرسل إلى الخلق | ٨٣ |
| أعرف الناس بالله ـ عزل وجل ـ أتبعهم للطريق الموصل إليه | ٨٩ |
| الإيمان المجمل والإيمان التفصيلي بما جاء به الرسول ﷺ | ٩٣ |
| عاقبة التفريط في اتباع ما جاء به الرسول ﷺ | ١٠٠ |
| لا يقبل الله من الأولين والآخرين إلا أن يدينوا بما يوافق ما شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام | ١١٠ |
| خير قرون هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هم الصحابة والتابعون | ١١٢ |
| حدوث الفرقة والاختلاف بعد القرون المفضلة | ١١٥ |
| ذكر أسباب تأليف الأئمة مؤلفات في العقيدة | ١٢٢ |
| ما جاء به الرسول ﷺ كاف كافل يدخل فيه كل حق | ١٤٠ |
| أقوال أئمة السلف في أهل الكلام | ١٤٧ |
| المبتدعة وأهل الكلام محجوبون عن معرفة مقادير السلف | ١٥٨ |
| ذكر السبب الداعي إلى شرح هذه العقيدة | ١٦٠ |
| ذكر منهج الشارح في شرحه هذه العقيدة | ١٦٣ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| بيان أن هذه العقيدة هي عقيدة أهل السنة والجماعة | ١٦٧ |
| أهمية التوحيد | ١٦٨ |
| اتفاق دعوة الرسل على التوحيد | ١٦٩ |
| أول واجب على المكلفين | ١٧٠ |
| اتفاق السلف على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان | ١٧٢ |
| أهمية توحيد العبادة | ١٧٥ |
| توحيد الصفات | ١٧٧ |
| الحلول والاتحاد أقبح من كفر النصارى | ١٨٠ |
| توحيد الربوبية | ١٨٧ |
| اعتراف جميع الأمم بتوحيد الربوبية | ١٩٠ |
| تقرير توحيد الربوبية | ١٩٤ |
| الرد على النصارى | ١٩٦ |
| توحيد الربوبية يوافق الفطرة | ١٩٨ |
| الدليل العقلي على وجود الخالق سبحانه وتعالى | ٢٠٠ |
| توحيد الألوهية هو الذي دعت إليه الرسل | ٢٠٢ |
| المشركون يقرون بتوحيد الربوبية وينكرون توحيد الألوهية | ٢٠٤ |
| أصل الشرك تعظيم القبور | ٢٠٨ |
| من الشرك عبادة الكواكب | ٢١٢ |
| شبهة المشركين في عبادتهم لغير الله | ٢١٤ |
| توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية | ٢١٧ |
| معرفة الخالق سبحانه معرفة فطرية | ٢١٩ |
| الأدلة العقلية على معرفة الخالق | ٢٢٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| حسن التصور ومعرفة الدافع إلى الإقدام عليه | ٢٢٥ |
| ميل النفس إلى الصلاح بفطرتها عند انعدام العوامل الخارجية من مصلحات ومفسدات | ٢٢٧ |
| استخدام الأدلة العقلية للرد على من ينكرون وجود الخالق | ٢٢٨ |
| الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي صاحبه إذا لم يحقق توحيد العبادة | ٢٣٠ |
| الآيات المقررة لتوحيد الربوبية يقصد منها تقرير توحيد الألوهية | ٢٣٢ |
| وضوح الأدلة على توحيد الألوهية ناشئ عن شدة حاجة الناس إليه | ٢٣٦ |
| طريقة القرآن في ضرب الأمثلة واضحة الدلالة على توحيد الألوهية | ٢٣٨ |
| امتناع شرك الربوبية عند عموم الخلق إلا من شذ منهم | ٢٤٠ |
| الشرك في توحيد الربوبية شرك جزئي | ٢٤٠ |
| انتظام العالم وإحكام خلقه دليل على وحدانية خالقه | ٢٤٢ |
| إثبات توحيد الربوبية يلزم منه إثبات توحيد الألوهية | ٢٤٦ |
| أظلم الظلم على الإطلاق الشرك وأعدل العدل التوحيد | ٢٤٨ |
| تضمن توحيد الألوهية لتوحيد الربوبية دون العكس | ٢٥٠ |
| افتقار سائر المخلوقات إلى الله يمنع من اتخاذها آلهة من دونه | ٢٥١ |
| أنواع التوحيد الذي دعت إليه الرسل | ٢٥٣ |
| تضمن كل سور القرآن لنوعي التوحيد | ٢٥٧ |
| شواهد التوحيد في الفاتحة وآية: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ | ٢٦٠ |
| مراتب الشهادة | ٢٦٣ |
| مرتبة العلم | ٢٦٤ |
| مرتبة التكلم والإخبار | ٢٦٥ |
| مرتبة الإعلام | ٢٦٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| مرتبة الأمر والإلزام | ٢٧٠ |
| بيان استلزام شهادة الله لنفسه بالإلهية للأمر بعبادته سبحانه من وجوه | ٢٧٢ |
| الوجه الأول في استلزام الشهادة للأمر بالعبادة | ٢٧٢ |
| الوجه الثاني في استلزام الشهادة للأمر بالعبادة | ٢٧٤ |
| بيان هذه الشهادة بالسمع | ٢٧٦ |
| وضوح السمع وبيانه | ٢٧٧ |
| فضل العلم وشرفه | ٢٧٩ |
| دلالة النظر والتفكر على وحدانية الله | ٢٨١ |
| من رحمة الله وإحسانه إقامة الحجج والبينات على صدقه وصدق رسله | ٢٨٣ |
| معجزات كل نبي تناسب أهل زمانه | ٢٨٥ |
| عظم معجزة هود مع أنها أخفى معجزات الأنبياء | ٢٨٧ |
| تصديق الله لعباده وأنبيائه حجة على من خالفهم | ٢٨٨ |
| بيان صحة الاستدلال بأسماء الله وصفاته على صحة رسالة أنبيائه | ٢٩٠ |
| تمكين الله لرسوله ونشر دينه وقهر أعدائه دليل على صحة الرسالة | ٢٩١ |
| عدم نزول العقوبة بمحمد ﷺ دليل على صدقه وكذب أعدائه | ٢٩٤ |
| بطلان قول من قسم التوحيد إلى:<br>توحيد عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة | ٢٩٧ |
| توضيح معنى توحيد الخاصة وخاصة الخاصة عند الصوفية | ٢٩٨ |
| كمال توحيد الرسل وبيان أكملهم في ذلك | ٣٠٠ |
| توحيد الصوفية يفضي إلى الفناء والاتحاد | ٣٠٣ |
| توحيد الصوفية ليس هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل | ٣٠٤ |
| أبيات الهروي موهمة وإن كان معتقده سليمًا | ٣٠٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| بيان أن مصطلح الفناء ونحوه غلو في الدين | ٣٠٧ |
| الرد على المشبهة والمعطلة بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ | ٣١٠ |
| تشبيه الخالق بالمخلوق كفر | ٣١١ |
| التشبيه في الصفات الذاتية ضلال | ٣١٢ |
| الرد على المعطلة في غلوهم في نفي المشابهة بين الخالق والمخلوق | ٣١٤ |
| ذكر بعض النصوص في أسماء وصفات مشتركة بين الخالق والمخلوق | ٣١٤ |
| الرد على المعطلة النفاة | ٣١٦ |
| إلزام المخالفين لأهل السنة بإثبات إله متصف بما وصف به نفسه | ٣١٧ |
| إلزام من أثبت بعض الصفات بإثبات الصفات الأخرى | ٣١٩ |
| إلزام من أثبت الأسماء بإثبات الصفات | ٣٢٠ |
| إلزام من أثبت الذات بإثبات الأسماء والصفات | ٣٢١ |
| إلزام الدهرية بإثبات إله واجب الوجود | ٣٢٢ |
| وجود المخلوقات يدل بالضرورة على وجود خالقها | ٣٢٥ |
| الاتفاق في التسمية بين ما للخالق والمخلوق لا يلزم منه المشابهة | ٣٢٧ |
| بيان خطأ النفاة في توهمهم أن الأسماء الكلية يكون مسماها ثابتاً في الأعيان | ٣٣١ |
| المخاطب لا يفهم معاني الألفاظ إلا بعد معرفة عينها أو ما يناسب عينها | ٣٣٣ |
| وضوح البلاغ وحرص المبلغ يقتضي وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته | ٣٣٦ |
| بيان أن الشرع خاطب العرب بصفات الله وهم يفهمون معانيها | ٣٣٨ |
| بيان انقسام المخاطبين في فهم الخطاب للتوصل إلى أن الصفات خطاب له معنى مفهوم | ٣٤١ |
| طريقة إطلاق الألفاظ الشرعية على مسمياتها الحادثة المشاهدة | ٣٤٥ |
| إخبار الرسول بالأمور الغيبية وطريقة التعليم فيها ترد على نفاة الصفات | ٣٤٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| تقدير انتفاء المماثلة بين الخالق والمخلوق تغني عن إثبات الفارق عند ذكر الصفات | ٣٤٩ |
| مخالفة طريقة أهل البدع في باب الصفات لطريقة القرآن والسنة | ٣٥٢ |
| النفي المتضمن إثبات كمال الضد طريقة شرعية في باب الصفات | ٣٥٥ |
| يأتي إثبات الصفات في كتاب الله مفصلًا والنفي مجملًا | ٣٥٩ |
| النَّفي ليس بمدحٍ إلا إذا تضمَّن إثباتًا | ٣٦١ |
| نفي العجز عن الله ليس من النفي المذموم | ٣٦٦ |
| تقدير الخبر في كلمة التوحيد | ٣٦٩ |
| حب المشركين لآلهتهم وتعظيمها عبادة لها | ٣٧٤ |
| معنى قوله: (قديم بلا ابتداء دائم بلا انتهاء) | ٣٧٦ |
| الأدلة العقلية والنقلية في إثبات الأولية والآخرية لله تعالى | ٣٧٨ |
| اعتقاد أهل السنة في أولية الله وأزليته | ٣٧٩ |
| إدخال المتكلمين لفظ (القديم) في أسماء الله تعالى | ٣٨١ |
| وصف المتكلمين لله بالقديم ومعناه عندهم | ٣٨٢ |
| معنى كلمة (القديم) في لغة العرب | ٣٨٣ |
| معنى قوله: (لا يفنى ولا يبيد) | ٣٨٥ |
| معنى قوله: (ولا يكون إلا ما يريد) | ٣٨٧ |
| أقسام القدرية وحكم كل قسم | ٣٨٨ |
| أنواع الإرادة | ٣٨٩ |
| الفرق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية | ٣٩١ |
| ذكر الآيات الدالة على الفرق بين الإرادة الشرعية والقدرية | ٣٩٢ |
| اجتماع الإرادة الشرعية والقدرية في إيمان المؤمن وعمله الصالح | ٣٩٣ |
| وجه إنكار القدرية لقدرة الله والرد عليهم | ٣٩٥ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| حكمة الله تعالى في إعانة العبد على ما أمره أو عدم إعانته | ٣٩٨ |
| عجز البشر عن معرفة كنه صفات الله وكنه ذاته سبحانه | ٤٠١ |
| عقيدة أهل السنة في الصفات بين المعطلة والمشبهة | ٤٠٦ |
| نفي التشبيه غير مستلزم لنفي الصفات وإثبات الصفات غير مستلزم للتشبيه | ٤١٠ |
| الكلام على صفة الحياة والقيومة وما يتعلق بهما | ٤١٥ |
| نفي اللغوب والتعب عن الله سبحانه وتعالى | ٤١٦ |
| الحكمة من تسمية الله نفسه بالقيوم | ٤١٨ |
| معنى الحي القيوم وما يتضمنانه | ٤٢٠ |
| التوسل والدعاء بأسماء الله من مستلزمات الإيمان بها | ٤٢٢ |
| الكلام على صفتي الخلق والرزق وما يتعلق بهما | ٤٢٤ |
| انفراد الله سبحانه بالخلق والرزق | ٤٢٥ |
| الحكمة من خلق الله للجن والإنس | ٤٢٦ |
| حقيقة انفراد الله تعالى بالرزق وتيسير أسبابه | ٤٢٦ |
| الكلام على الإماتة والبعث | ٤٢٩ |
| حقيقة الموت ومآله يوم القيامة | ٤٣٠ |
| حقيقة تحويل الأعراض إلى أجرام | ٤٣١ |
| عقيدة أهل السنة في الصفات الفعلية لله تعالى | ٤٣٣ |
| عقيدة أهل السنة في تجدد الصفات الفعلية لله تعالى | ٤٣٥ |
| حكم إطلاق نفي حلول الحوادث ومعناها عند أهل السنة وغيرهم | ٤٣٧ |
| شبهة نفي حلول الحوادث والرد عليها | ٤٣٩ |
| شبهة: أن صفات الله زائدة على ذاته والرد عليها | ٤٤١ |
| شبهة: أن صفات الله غيره والرد عليها | ٤٤١ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الكلام على مسألة الاسم والمسمى | ٤٤٣ |
| قول الجهمية بامتناع حوادث لا أول لها والرد عليهم | ٤٤٥ |
| مذاهب الناس في تسلسل الحوادث | ٤٥٠ |
| التوقف عن القول بتسلسل الحوادث بالماضي | ٤٥٣ |
| أقسام التسلسل | ٤٥٤ |
| الأول: التسلسل الممتنع | ٤٥٥ |
| الثاني: التسلسل الواجب | ٤٥٥ |
| الثالث: التسلسل الممكن | ٤٥٨ |
| الرد على من زعم بأن الرب تعالى لم يزل معطلًا عن الفعل ثم فعل | ٤٦٢ |
| الكلام على مسألة حوادث لا أول لها وحوادث لا آخر لها | ٤٦٦ |
| القول بأن الحوادث لها أول يلزم منه التعطيل قبل ذلك | ٤٧٥ |
| حديث عمران بن حصين ﷺ ودلالته | ٤٧٨ |
| لا ينبغي الخوض في الأمور الغيبيَّة التي ليس عليها دليلٌ وبرهانٌ | ٤٩٤ |
| اتصاف الله تعالى بالربوبية والخلق قبل وجود متعلقهما | ٤٩٥ |
| اتصاف الله تعالى بإحياء الموتى وخلق الخلق | ٤٩٦ |
| عموم قدرته تعالى وضلال المعتزلة | ٤٩٨ |
| التشبيه والتعطيل وموقف أهل السنة منهما | ٥٠٢ |
| الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ | ٥٠٥ |
| اختلاف عبارات المفسرين في المثل الأعلى | ٥٠٨ |
| معنى قوله: (خلق الخلق بعلمه) | ٥١٨ |
| ذكر المناظرة بين الإمام عبد العزيز الكناني وبشر المريسي | ٥١٨ |
| لا يحدث في الوجود شيءٌ إلَّا وقد كتبه الله وقدَّر أجله وحدَّده | ٥٢٤ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الكلام على الآجال المضروبة والخلاف مع المعتزلة في ذلك | ٥٢٨ |
| الكلام على الدعاء فيما سبق به القدر | ٥٢٩ |
| سبق القدر لا ينافي جواز الدعاء بطول العمر ونحو ذلك | ٥٣١ |
| الكلام على آية: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ | ٥٣٣ |
| عموم علم الله بكل شيء ولو لم يكن | ٥٣٧ |
| المحو والإثبات لما كتب | ٥٣٨ |
| الرد على القدرية الذين ينكرون علم الله بالآجال والكائنات | ٥٣٩ |
| غاية خلق الخلق وإيجادهم | ٥٤١ |
| نفوذ مشيئة الله تعالى وتبعية مشيئة العبد لها | ٥٤٣ |
| ذكر مذهب المعتزلة في المشيئة والرد عليه | ٥٤٦ |
| الكلام على محاجة آدم وموسى عليهما السلام | ٥٤٩ |
| الرد على المعتزلة في إيجابهم الأصلح على الله تعالى | ٥٥٢ |
| الخلق يتقلبون بين فضل الله تعالى وعدله | ٥٥٦ |
| علو الله تعالى عن الضد والند | ٥٥٧ |
| لا راد لقضاء الله ولا غالب لأمره | ٥٥٩ |
| وجوب التسليم لأقدار الله وأحكامه | ٥٦١ |
| الإيمان بمحمد ﷺ رسولًا | ٥٦٣ |
| شرف وصف العبودية للنبي ﷺ | ٥٦٥ |
| أقسام العبودية | ٥٦٦ |
| طرق معرفة صدق النبي ﷺ | ٥٦٨ |
| أحوال الأنبياء الدالة على صدقهم | ٥٧٠ |
| المعجزات والخوارق | ٥٧١ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الشريعة المحكمة | ٥٧٣ |
| وضوح كذب الكهان ونحوهم | ٥٧٥ |
| القرائن الدالة على التمييز بين الصادق والكاذب | ٥٨٠ |
| تفصيل الأحوال الدالة على صدق محمد ﷺ | ٥٨٢ |
| شهادة خديجة رضي الله تعالى عنها | ٥٨٨ |
| شهادة ورقة بن نوفل | ٥٨٩ |
| شهادة النجاشي رحمه الله تعالى | ٥٩٠ |
| شهادة هرقل ملك الروم | ٥٩١ |
| الأحوال والقرائن الدالة على صدق الأنبياء | ٥٩٥ |
| بقاء الآيات الدالة على الأنبياء وأقوامهم | ٥٩٦ |
| إخبارهم بما سيكون ووقوعه | ٥٩٩ |
| إنكار رسالة النبي ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى ونسبته إلى الظلم والسفه | ٦٠١ |
| الفرق بين النبوة والرسالة | ٦٠٦ |
| ختم النبوة بمحمد ﷺ | ٦٠٩ |
| صلاحية التشريع وعمومه دليل على ختم الرسالة | ٦١٠ |
| كذب مدعي النبوة بعده صلى الله عليه وسلم | ٦١١ |
| إمامته ﷺ للأتقياء | ٦١٤ |
| سيادته ﷺ المرسلين وفضله عليهم | ٦١٧ |
| التوفيق بين إخباره ﷺ عن فضله والنهي عن تفضيله | ٦١٨ |
| الكلام على المفاضلة بين محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام | ٦٢١ |
| الكلام على المفاضلة بين محمد ويونس عليهما الصلاة والسلام | ٦٢٣ |
| الكلام على المحبة والخلة وثبوتهما لمحمد ﷺ | ٦٢٨ |

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس




| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الخلة وموقعها من المحبة | ٦٣٢ |
| مراتب المحبة وما يوصف الله تعالى به منها | ٦٣٤ |
| حكم ادعاء النبوة بعد النبي ﷺ | ٦٣٧ |
| عموم رسالته ﷺ إلى الإنس والجن | ٦٤١ |
| **فهرس الجزء الثاني** | |
| القرآن الكريم والاعتقادات فيه | ٣ |
| الصحيح من أقوال الفرق في القرآن الكريم | ٧ |
| أقوال شاذة مخالفة وما يلزم منها | ٨ |
| نقض أدلة المعتزلة على أن القرآن مخلوق | ١٠ |
| تحريف بعض المعتزلة للقرآن ليوافق معتقدهم | ١٣ |
| تكليم الله لأهل الجنة يبطل قول المعتزلة | ١٥ |
| نقض استدلال المعتزلة بآية: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ | ١٩ |
| نقض عبد العزيز المكي لأدلة المعتزلة | ٢٣ |
| هموم (كل) في كل موضع بحسبه ويُعرف ذلك بالقرائن | ٢٧ |
| نداء الله لموسى ودلالاته | ٣٢ |
| علاقة الأمينين بالقرآن الكريم | ٣٥ |
| اتفاق أهل السنة على أن كلام الله غير مخلوق واختلاف المتأخرين | ٣٩ |
| إثبات أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ صفة الكلام لله تعالى | ٤٢ |
| قبول ما جاء في كلام المعتزلة من حق | ٤٦ |
| اختلاف ما جاءت به الرسل عما عليه المبتدعة | ٤٨ |
| مخالفة متأخري الحنفية في كلام الله لما عليه السلف | ٥١ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| رد قول من يقول: إن القرآن عبارة عن كلام الله | ٥٣ |
| الفرق بين القراءة والمقروء في استعمال لفظ القرآن | ٥٧ |
| الفرق بين كون القرآن في زبر الأولين وفي كتاب مكنون | ٦١ |
| سماع كلام الله تعالى وتبليغه وما يفهم من ذلك | ٦٤ |
| رد الطحاوي على من زعم أن القرآن معنى واحد | ٦٧ |
| معنى أن القرآن بدأ من الله بلا كيفية | ٧٠ |
| اختلاف إنزال القرآن عن إنزال المخلوقات المعبر به في القرآن | ٧٢ |
| إثبات أن القرآن كلام الله تعالى بالحقيقة غير مخلوق | ٧٥ |
| اختلاف الناس عند إطلاق مسمى الكلام والقول | ٧٩ |
| الرد على الأشاعرة في استدلالهم بشعر الأخطل | ٨٢ |
| صلة شعر الأخطل بعقيدة النصارى | ٨٦ |
| عدم بطلان الصلاة بحديث يرد قول الأشاعرة | ٨٨ |
| حديث التجاوز عن حديث النفس يرد قول الأشاعرة | ٩١ |
| حديث دخول الناس النار بسبب حصائد ألسنتهم يرد قول الأشاعرة | ٩٣ |
| وقوع الأشاعرة في القول بخلق القرآن | ٩٧ |
| إلزام الأشاعرة بأشد مما لزم المعتزلة | ١٠٠ |
| كفر من أنكر أن القرآن كلام الله | ١٠٧ |
| إعجاز القرآن في اللفظ والمعنى دليل على أنه كلام الله | ١٠٩ |
| وسطية الإثبات بين طرفي التشبيه والنفي | ١١٧ |
| رؤية أهل الجنة لله تعالى يوم القيامة بغير إحاطة ولا كيفية | ١٢٠ |
| المعتزلة والجهمية والخوارج ينكرون الرؤية | ١٢١ |
| بيان دلالة آية سورة القيامة على ثبوت الرؤية | ١٢٤ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الرد على تأويل المعتزلة لآيات الرؤية وأحاديثها | ١٢٦ |
| استعمالات النظر بحسب صلاته وتعديه بنفسه | ١٢٩ |
| دلالة آية المطففين على ثبوت الرؤية للمؤمنين | ١٣٦ |
| بيان دلالة قوله: ﴿لن تراني﴾ على ثبوت الرؤية والرد على المعتزلة | ١٣٩ |
| الرد على المعتزلة في الاستدلال بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ على نفي الرؤية | ١٤٦ |
| الأحاديث الدالة على الرؤية | ١٥٠ |
| حديث جرير ﷺ | ١٥٣ |
| حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما | ١٥٤ |
| حديث أبي موسى ﷺ | ١٥٤ |
| سماع الأحاديث يورث اليقين برؤية الله تعالى | ١٥٦ |
| إزالة شبهة التشبيه عن أحاديث الرؤية | ١٦٠ |
| الرد على من نفى الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة | ١٦٣ |
| كيف يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة | ١٦٥ |
| ذكر الخلاف في رؤية أهل المحشر لله تعالى | ١٦٩ |
| الاتفاق على أن الله تعالى لا يراه أحد في الدنيا بعينه | ١٧٣ |
| تأويل المعتزلة تحريف لكلام الله ورسوله ﷺ | ١٨٥ |
| الطرق التي يُعرف بها مراد المتكلم | ١٩٠ |
| إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل | ١٩٨ |
| الواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره | ٢٠٣ |
| لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بتوحيد المُرْسِل وتوحيد متابعة الرسول | ٢٠٤ |
| القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا بل يصدق بعضه بعضًا | ٢٠٨ |
| لا حرج في أخذ العلوم الدنيوية من غير الرسول ﷺ | ٢١٠ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين والانقياد لهما | ٢١٤ |
| العقل مع النقل كالمقلد مع المجتهد | ٢١٦ |
| إدراك العقل أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى | ٢١٨ |
| لا يجوز لأحد أن يترك من الدين ما يخالف عقله، والأدلة على ذلك | ٢٢٠ |
| النهي عن التكلم في أمور الدين بغير علم | ٢٢٥ |
| نقص توحيد من لم يسلم للرسول ﷺ | ٢٢٩ |
| ذكر أصناف ممن يعترضون على الشريعة بآرائهم وأذواقهم | ٢٣٣ |
| كلام أبي حامد الغزالي في علم الجدل | ٢٤٠ |
| ذم السلف لعلم الكلام لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق | ٢٥٢ |
| التداوي بالقرآن لا بالفلسفة وكلام اليونان | ٢٥٨ |
| لو كان علم الكلام وتفاصيله من الشريعة ما أهملته الرسل | ٢٦١ |
| مثال التركيب وبعده | ٢٦٢ |
| سبب الضلال واعترافات أهل الكلام | ٢٦٥ |
| ذكر أحوال بعض من عدلوا عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم | ٢٦٧ |
| قصص أخرى عن أهل الكلام | ٢٧٣ |
| علاج القلوب عند الاختلاف | ٢٧٦ |
| لزوم الإيمان برؤية الله تعالى دون توهم أو تأويل | ٢٧٧ |
| دلالة ألفاظ الكتاب توجب الإيمان بما دلت عليه | ٢٧٩ |
| وضوح كلام النبي ﷺ في الصفات | ٢٨١ |
| بعض تأويل أهل الكلام | ٢٨٢ |
| البعد عن التأويل سبب للسلامة | ٢٨٤ |
| رؤية الله تعالى كمال له عز وجل | ٢٨٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الواجب على أهل التأويل أن يقتصروا على نفي التشبيه | ٢٨٩ |
| معاني التأويل في الكتاب والسنة | ٢٩٠ |
| المتشابه في القرآن والمراد به | ٢٩٦ |
| اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل | ٣٠٠ |
| أمراض القلوب الناشئة من التشبيه والتعطيل | ٣٠٢ |
| السلامة في البراءة من مرضي التشبيه والتعطيل | ٣٠٥ |
| تنزيه الله عن الشبيه والكفؤ | ٣٠٧ |
| واجب المسلم مع ربه تعالى في صفاته | ٣٠٩ |
| مصطلحات أهل الكلام وكيفية التعامل معها | ٣١٠ |
| بيان أن أهل السنة لا يحدون الله تعالى | ٣١٤ |
| إثبات صفة اليد ونحوها وبيان أنها ليست أعضاء ولا أدوات | ٣١٦ |
| أدلة إثبات صفة الوجه والنفس | ٣٢١ |
| السلامة في ترك مصطلحات أهل الكلام | ٣٢٢ |
| لفظ الجهة ودلالته | ٣٢٣ |
| استدراك على المصنف رحمه الله تعالى | ٣٢٥ |
| إثبات صفة علو الله تعالى على خلقه | ٣٣٠ |
| الإسراء والمعراج وما ورد فيهما | ٣٣٢ |
| إثبات الإسراء والمعراج من عقائد أهل السنة | ٣٣٣ |
| الإسراء والمعراج كان بروحه وجسده ﷺ | ٣٣٧ |
| الأدلة على المعراج | ٣٣٨ |
| حديث الإسراء والمعراج | ٣٤٠ |
| لزوم الإيمان بالإسراء والمعراج دون اعتراض | ٣٤٣ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| الصحيح أن النبي ﷺ رأى ربه بقلبه ولم يره بعين رأسه | ٣٤٦ |
| الحوض وما ورد فيه ووجوب الإيمان به | ٣٥٢ |
| سعة الحوض وبعض أوصافه | ٣٥٦ |
| مكان الحوض ووقت وروده | ٣٥٧ |
| أوصاف الحوض ومن يستحق وروده | ٣٥٩ |
| الشفاعة يوم القيامة | ٣٦٢ |
| إيراد الشارح للرواية التي فيها الشفاعة العظمى | ٣٦٦ |
| شرح حديث الشفاعة العظمى | ٣٦٨ |
| ذكر ما يقع بعد فصل القضاء | ٣٧١ |
| ذكر الشارح أنواعًا أخرى من الشفاعة | ٣٧٣ |
| تفصيل ما خص به النبي ﷺ من الشفاعات | ٣٧٨ |
| النهي عن الاستشفاع بالمخلوق في الدنيا | ٣٨٣ |
| لا يحق لأحد أن يحلف على الله ولا بغير الله | ٣٨٥ |
| حديث السؤال بجاه النبي مكذوب | ٣٨٦ |
| حق العباد على الله تفضل منه وتكرم لا واجب | ٣٨٧ |
| الرد على المستدلين بحديث: « أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ » | ٣٨٩ |
| لا يجوز الإقسام بالمخلوق ولا التوسل به | ٣٩١ |
| أشياء يجوز التوسل بها | ٣٩٣ |
| الكلام على توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما | ٣٩٤ |
| الرد على شبهة القبوريين في حديث التوسل بالعباس ﷺ | ٣٩٥ |
| التوسل بالأعمال الصالحة توسل مشروع | ٣٩٧ |
| الشفاعة كلها لله فلا تطلب من غيره | ٤٠١ |

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|
| الكلام على الميثاق المأخوذ على بني آدم المذكور في سورة الأعراف | ٤٠٣ |
| ذكر قول من قال بأن الذرية مأخوذة من ظهور بني آدم | ٤٠٦ |
| فطرة الله تعالى في خلقه وما يصرفها | ٤٠٧ |
| ذكر قول من قال بأن الذرية مأخوذة من ظهر آدم | ٤٠٩ |
| علم الله بالسعداء والأشقياء لا يعني ترك العمل | ٤١٠ |
| الكلام على معنى الميثاق المأخوذ وعلى خلق الروح والجسد | ٤١٢ |
| آية أخذ الميثاق لا تدل على أخذ الذرية من ظهر آدم | ٤١٦ |
| تضعيف الشارح للقول باستخراج الذرية من ظهر آدم وإشهادها | ٤١٩ |
| الإقرار بالربوبية أمر فطري | ٤٢٤ |
| قيام الحجة في توحيد الربوبية بالفطرة والعقل | ٤٢٥ |
| قيام الحجة على الإنسان بوجوب اتباع الرسل كما يرشد إليه العقل | ٤٢٧ |
| لا يعذر الإنسان في كفره باتباع آبائه وعليه أن ينظر بعقله | ٤٢٩ |
| وجوب البحث عن الحق على كل عاقل | ٤٣٠ |
| إثبات صفة العلم لله تعالى وتقديره لأعمال الخلائق | ٤٣٢ |
| عموم علم الله بكل شيء | ٤٣٣ |
| كتابة الله ما علمه في اللوح المحفوظ | ٤٣٤ |
| أنواع التقدير | ٤٣٥ |
| علم كتابة مآل الإنسان من السعادة والشقاوة وهو في رحم أمه | ٤٣٨ |
| الأعمال بالخواتيم | ٤٤٠ |
| أهمية تعلم العقيدة بتفاصيلها | ٤٤١ |
| ظهور آثار العقيدة على العمل | ٤٤٣ |
| القدر سر الله تعالى في خلقه | ٤٤٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| لا يُسأل الله تعالى عما يفعل | ٤٤٨ |
| خلق الخير والشر دليل على كمال القدرة ولكن لا ينسب الشر إلى الله | ٤٤٩ |
| مذهب المعتزلة في أفعال العباد | ٤٥٠ |
| الرد على المعتزلة في المشيئة | ٤٥١ |
| قصتان لمجوسي وأعرابي مع المعتزلة | ٤٥٤ |
| مراتب القدر | ٤٥٧ |
| العلم والكتابة | ٤٥٧ |
| الإرادة والخلق | ٤٥٩ |
| التسوية بين المشيئة والمحبة هي منشأ الضلال في القدر | ٤٦١ |
| الفرق بين المشيئة والإرادة | ٤٦٢ |
| الإرادة الشرعية | ٤٦٣ |
| الإرادة الكونية | ٤٦٤ |
| القدرية والجبرية لا يثبتون إلا الإرادة الكونية | ٤٦٥ |
| مذهب أهل الحق في خلق أفعال العباد | ٤٦٥ |
| حكمة الله في خلقه ومشيئته لما يكرهه ولا يرضاه | ٤٦٨ |
| ابتلاء المؤمنين بمجاهدة الشرور وبغض أهلها | ٤٧٠ |
| الحكمة من إيجاد المخلوقات الشريرة إظهار كمال قدرة الله تعالى | ٤٧١ |
| ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة | ٤٧٤ |
| الشر يرجع إلى عدم الخير لا من جهة وجوده المحض | ٤٧٨ |
| كل ما أوجده الله وأراده فهو خير بالنسبة إليه تعالى | ٤٨١ |
| إيضاح أن خلق الشرور ليس شرًّا بالنسبة إلى الله | ٤٨٤ |
| الحكمة من تقدير الشر بخذلان المنافقين عن الخروج للجهاد | ٤٨٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| هل يحب العبد الشر ويرضى به من جهة أنه مراد لله واقع بمشيئته | ٤٨٨ |
| شبهة من يقول: إذا خالفت أمر الله فقد وافقت مراده | ٤٩٠ |
| على العبد أن يستحضر أنه مكلف مختار | ٤٩١ |
| ما يرضى به من قضاء الله وما لا يرضى به | ٤٩٣ |
| نرضى بقضاء الله ولا يلزم الرضا بكل مقضي | ٤٩٤ |
| الاحتجاج بالقدر لا يمنع من أخذ الحق | ٤٩٥ |
| الأخذ بالأسباب | ٤٩٧ |
| التحذير من الوسوسة والتشكك في القدر | ٥٠٠ |
| الإيمان والإسلام والإحسان وضدها مسميات شرعية | ٥٠٣ |
| فساد الدين يأتي من الشبهات أو الشهوات | ٥٠٦ |
| الكلام على حديث الافتراق، وبيان الفرق بين أمة الدعوة وأمة الإجابة | ٥١٠ |
| أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر | ٥١٤ |
| مبنى العبودية والإيمان على التسليم | ٥١٥ |
| ذكر كمال عقول سلف الأمة وعلومهم | ٥١٨ |
| عدم تكفير من تأول حكم كتاب الله لشبهة عرضت له | ٥٢١ |
| لا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود | ٥٢٦ |
| الكلام على مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله | ٥٢٨ |
| الإيمان باللوح والقلم | ٥٣١ |
| اختلاف العلماء في القلم والعرش أيهما خلق أولًا | ٥٣٤ |
| جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة | ٥٤٠ |
| الكلام على حديث: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ» | ٥٤٣ |
| الأقلام الأربعة | ٥٥٠ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الواجب إفراد الله تعالى بالتقوى والخشية | ٥٥٤ |
| إذا اتقى العبد ربه كفاه مؤونة الناس | ٥٦١ |
| لا بد لكل مخلوق أن يتقي إما المخلوق وإما الخالق | ٥٦٥ |
| تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل | ٥٦٨ |
| المقدور كائن لا محالة ولو تحصن منه المتحصن | ٥٧٣ |
| سبق علم الله بالكائنات قبل خلقها | ٥٧٨ |
| لا منافاة بين قدرة العبد وسبق علم الله بما هو عامل | ٥٧٩ |
| غلاة المعتزلة ينكرون علم الله في الأزل | ٥٨١ |
| الإيمان بالقدر وسبق علم الله من عقد الإيمان والاعتراف بربوبية الله | ٥٨٥ |
| أحاديث ذم القدرية | ٥٨٧ |
| الإيمان بالقدر من تمام الإيمان بصفات الله تعالى | ٥٨٨ |
| مشابهة القدرية للمجوس في إثبات خالق مع الله | ٥٩١ |
| الأصول التي يقتضيها الإيمان بالقدر المطابق للعلم | ٥٩٣ |
| أهل السنة في القدر وسط بين القدرية والجبرية | ٥٩٧ |
| أمراض القلوب في باب القدر | ٥٩٨ |
| مرض القلب ناتج إما عن شهوة أو شبهة | ٦٠٠ |
| تفصيل أمراض القلوب | ٦٠١ |
| أسباب الوقاية من أمراض القلوب | ٦٠٣ |
| أعراض مرض القلب وعلاجه | ٦٠٦ |
| علاج أمراض القلوب بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ | ٦٠٧ |
| الآيات التي تصف القرآن بأنه شفاء | ٦٠٩ |
| القرآن علاج للأمراض الحسية والمعنوية المستعصية بشرط الإيمان | ٦١٠ |

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس




| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| فهرس الجزء الثالث | |
| الكلام على العرش | ٣ |
| عظمة العرش | ٥ |
| معنى العرش في اللغة | ٩ |
| العرش غير الكرسي | ١٥ |
| استغناء الله عن العرش وما دونه | ١٧ |
| العرش فوق المخلوقات، والله مستو عليه محيط بكل شيء | ٢٠ |
| وجوب الإيمان بصفة العلو لله تعالى | ٢٢ |
| إحاطة الله بكل شيء لا تنافي فوقيته وعلوه | ٢٦ |
| ذكر الأدلة على إثبات صفة الفوقية لله تعالى | ٢٧ |
| الرد على منكري العلو | ٣٢ |
| ذكر بعض الأدلة على إثبات صفة العلو | ٣٤ |
| الرد بالأدلة العقلية على نفاة صفة الفوقية | ٤١ |
| أنواع الأدلة الدالة على إثبات صفة العلو لله تعالى | ٤٤ |
| كلام السلف في إثبات صفة العلو | ٥٦ |
| علو الله تعالى مطلق من كل الوجوه | ٦١ |
| معاني قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ | ٦٤ |
| الرد العقلي على من أنكر صفة العلو | ٦٦ |
| الفطرة السليمة تدل على علو الله | ٦٧ |
| بطلان القول بأن السماء قبلة الدعاء | ٧٣ |
| بداية ظهور المبتدعة منكري العلو | ٧٧ |

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|
| ما يترتب على اعتقاد العلو لله سبحانه وتعالى | ٧٩ |
| حقيقة الخلة والمحبة والفرق بينهما | ٨٠ |
| معنى الخلة والخليل | ٨٣ |
| شبهة إنكار المحبة بين العبد وربه والرد عليها | ٨٦ |
| تكليم الله لموسى ـ عليه السلام ـ وغيره | ٨٧ |
| نبينا محمد ﷺ شارك إبراهيم وموسى في منزلة الخلة والتكليم | ٩١ |
| الجواب على ما في الصلاة الإبراهيمية من إشكال متوهم | ٩٣ |
| منبع العقيدة وأصلها الإيمان بالغيب | ٩٤ |
| خصائص آل إبراهيم عليه السلام | ٩٧ |
| وجوب الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والمرسلين | ١٠١ |
| حقيقة الإيمان عند الفلاسفة | ١٠٤ |
| أصول الدين وأركانه عند المعتزلة | ١٠٧ |
| أصول الدين وأركانه عند الرافضة | ١١٢ |
| أصول أهل السنة تابعة لما جاء به الرسول ﷺ | ١١٣ |
| فضل الآيتين من آخر سورة البقرة | ١١٤ |
| الإيمان بالملائكة وما يتضمنه | ١١٥ |
| حقيقة خلق الملائكة وذكر أسماء بعضهم في القرآن والسنة | ١١٦ |
| ذكر بعض صفات الملائكة وما وكلوا به | ١١٨ |
| مسألة التفضيل بين الملائكة والبشر الكلام فيها من باب الجدل | ١٢١ |
| رؤساء الملائكة ثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل | ١٢٣ |
| ذكر بعض الآيات والأحاديث الواردة في أصناف الملائكة ومراتبهم | ١٢٨ |
| تفصيل الكلام في مسالة المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر | ١٤٣ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الواجب الإيمان بالملائكة والنبيين وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل | ١٤٥ |
| ذكر أدلة تفضيل البشر على الملائكة والرد عليها | ١٥٣ |
| وجوب الإيمان بمن سمى الله في كتابه من رسله وأنبيائه | ١٨٥ |
| أولو العزم من الرسل | ٤٨٩ |
| الإيمان بما سمى الله من الكتب المنزلة | ١٩١ |
| الإيمان بالقرآن يكون بالإقرار به واتباع ما فيه | ١٩٤ |
| أهل القبلة مسلمون مؤمنون | ٢٠٢ |
| النهي عن المجادلة والمماحكة في دين الله تعالى كما يفعل المتكلمون | ٢٠٥ |
| النهي عن الجدال في كتاب الله تعالى | ٢١٠ |
| الكلام على ترتيب سور القرآن واجتهاد الصحابة في ذلك | ٢١٥ |
| ذكر كذب الخبر عن ابن مسعود ﷺ أنه كان يجوز قراءة القرآن بالمعنى | ٢٢٠ |
| نشهد أن القرآن كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين | ٢٢٥ |
| إبطال توهم القرامطة وغيرهم أن القرآن تصوره النبي ﷺ في نفسه إلهامًا | ٢٢٨ |
| لا يجوز تكفير المسلم بذنب ما لم يستحله | ٢٣٠ |
| الآثار الدالة على خطورة التكفير | ٢٣٢ |
| إطلاق الكفر على ذنوب لا تخرج من الملة | ٢٣٣ |
| حكم تارك الصلاة | ٢٣٤ |
| البدع المكفرة وغير المكفرة | ٢٣٥ |
| عقيدة المرجئة والخوارج والمعتزلة في مرتكب الذنوب | ٢٣٧ |
| عقيدة أهل السنة في مرتكب الذنوب | ٢٤١ |
| ذكر أمثلة من البدع التي توصل إلى الكفر | ٢٤٢ |
| من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله تعالى لا يغفر له | ٢٤٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| موانع تكفير المعين | ٢٤٧ |
| حكم إطلاق الكفر على العمل | ٢٥٠ |
| تقسيم الخلق في القرآن إلى: مؤمن وكافر ومنافق | ٢٥١ |
| المسميات الشرعية في الدين وتعلقها بالعقيدة | ٢٥٣ |
| مذهب أهل السنة في مسألة التكفير والتفسيق والتبديع | ٢٥٤ |
| وجه تسمية الشارع لبعض الذنوب كفرًا | ٢٥٦ |
| أمثلة لبعض الأدلة التي حملها العلماء على محامل غير الكفر | ٢٦٠ |
| البدع المكفرة | ٢٦٤ |
| من يحكم بكفره ودخوله النار | ٢٦٨ |
| الأقوال المختلفة في أصحاب المعاصي | ٢٧٠ |
| عقيدة أهل البدع في أصحاب المعاصي | ٢٧٢ |
| عقيدة أهل السنة في أصحاب المعاصي | ٢٧٣ |
| واجب المسلم تجاه مسائل العقيدة | ٢٧٧ |
| الحكم بغير ما أنزل الله، وأقسام أهله | ٢٧٩ |
| الحاكمون بغير ما أنزل الله مع اعتقادهم أنه أحسن من حكم الله | ٢٨٠ |
| الحاكمون بغير ما أنزل الله لهوى في نفوسهم | ٢٨٢ |
| المجتهد المخطئ في الحكم | ٢٨٣ |
| العقائد المختلفة في الخوف والرجاء | ٢٨٦ |
| عقيدة المسلم في الخوف والرجاء في حق نفسه وفي حق غيره | ٢٩١ |
| متعلقات الخوف | ٢٩٥ |
| علامة الخوف والرجاء | ٢٩٦ |
| حقيقة الرجاء ومتعلقاته | ٢٩٨ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| مكفرات الذنوب | ٣٠٣ |
| السبب الأول: التوبة | ٣٠٥ |
| السبب الثاني: الاستغفار | ٣٠٦ |
| ذكر بعض الأسباب التي لأجلها يجمع العبد بين الخوف والرجاء | ٣٠٨ |
| السبب الثالث: الحسنات | ٣١٤ |
| السبب الرابع: المصائب الواقعة للإنسان | ٣١٦ |
| السبب الخامس: عذاب القبر | ٣١٧ |
| السبب السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم | ٣١٧ |
| السبب السابع: ما يُهدى إلى الميت بعد موته | ٣١٧ |
| السبب الثامن: أهوال يوم القيامة | ٣١٧ |
| السبب التاسع: المقاصصة | ٣١٨ |
| السبب العاشر: شفاعة الشافعين | ٣١٨ |
| السبب الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين | ٣١٨ |
| خطر الأمن من عذاب الله واليأس من رحمته | ٣٢١ |
| الجمع بين الخوف والرجاء | ٣٢٣ |
| من عقيدة أهل السنة الحكم على الإنسان بحسب ظاهره | ٣٢٧ |
| الحكم على أهل العصيان يتفاوت بتفاوت معاصيهم | ٣٣٠ |
| خروج العبد من الإيمان إذا جحد شيئاً من أركان الإيمان | ٣٣٣ |
| تعريف الإيمان عند أهل القبلة | ٣٣٤ |
| تعريف الإيمان لغة واصطلاحاً | ٣٣٧ |
| الأحكام المترتبة على تحقق اسم الإيمان | ٣٣٨ |
| عقيدة أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية | ٣٣٨ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| تعريف الحنفية للإيمان | ٣٤٠ |
| تعريف الماتريدية والكرامية للإيمان | ٣٤٠ |
| تعريف الجهمية للإيمان وما ينبني عليه | ٣٤١ |
| ترجيح الشارح أن الخلاف بين أهل السنة وأبي حنيفة في تعريف الإيمان خلاف لفظي | ٣٤٣ |
| بيان أن الخلاف في تعريف الإيمان معنوي ويترتب عليه معان كثيرة | ٣٤٥ |
| مجمل عقيدة أهل السنة في أسماء الإيمان والدين والأقوال المخالفة لهم | ٣٤٧ |
| عدم تحقق الإيمان بالقول بدون العمل | ٣٥٢ |
| تفاوت قوة الإيمان بتفاوت قوة الاعتقاد وكثرة الأعمال | ٣٥٧ |
| الأدلة العقلية والنقلية على زيادة الإيمان | ٣٦٢ |
| التصديق الذي في القلب يتفاوت | ٣٦٥ |
| اعتذار الشارح عن الخلاف بين أبي حنيفة والأئمة الثلاثة في معنى الإيمان | ٣٦٨ |
| حصر معنى الإيمان في التصديق يؤدي إلى التساهل في المعاصي | ٣٧٤ |
| بيان ما أضافه الشارع للإيمان من أوصاف وشرائط لابد منها | ٣٧٦ |
| الرد على من استدل ببعض النصوص على أن الإيمان والتصديق مترادفان | ٣٨٠ |
| الفرق بين لفظ (التصديق) و(الإيمان) فيما يتعلق بخبر الغيب والشهادة | ٣٨٢ |
| من استكمل خصال الإيمان استكمل إيمانه | ٣٩٠ |
| توضيح أدلة زيادة الإيمان ونقصانه | ٣٩٣ |
| ضعف الأحاديث التي تدل على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص | ٣٩٧ |
| أدلة أخرى من الحديث وكلام الصحابة تدل على نقص الإيمان | ٣٩٩ |
| تفاوت أهل الإيمان في إيمانهم | ٤٠٠ |
| وجه اقتران الإيمان بالعمل الصالح | ٤٠٤ |

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|
| الرد على شبهة القائلين بأن العمل ليس من الإيمان | ٤٠٦ |
| فوائد الاعتقاد بأن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي | ٤١١ |
| أدلة دخول العمل في مسمى الإيمان | ٤١٢ |
| الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان | ٤١٧ |
| وجه العموم والخصوص بين الإسلام والإيمان والإحسان | ٤١٨ |
| اختلاف الناس في مسمى الإسلام | ٤٢٤ |
| إطلاق الإسلام على ما يشمل الإيمان | ٤٢٧ |
| التلازم بين الإسلام والإيمان | ٤٣٠ |
| اجتماع الإسلام والإيمان وافتراقهما | ٤٣٢ |
| اجتماع الكفر والشرك والنفاق والعصيان وافتراقهما | ٤٣٤ |
| الكلام على آية الحجرات في الفرق بين الإسلام والإيمان | ٤٣٧ |
| انتفاء دعوى الترادف بين الإسلام والإيمان | ٤٤١ |
| نفي الاحتجاج بآية الذاريات على ترادف الإيمان والإسلام | ٤٤٦ |
| الشبه الواردة عن الحنفية لإخراج الأعمال عن الإيمان ليست منقولة عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله | ٤٤٧ |
| مسألة الاستثناء في الإيمان والأقوال فيها | ٤٥٥ |
| القول بوجوب الاستثناء في الإيمان | ٤٥٧ |
| القول بجواز الاستثناء في الإيمان وعدم وجوبه | ٤٥٩ |
| القول بتحريم الاستثناء في الإيمان | ٤٦٢ |
| اشتمال الإيمان على الأفعال والتروك | ٤٦٧ |
| جواز الاستثناء في الإيمان إذا لم يكن للشك | ٤٦٩ |
| قبول ما صح عن الرسول من الشرع والبيان | ٤٧٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| موقف المؤمن من الأدلة السمعية | ٤٧٣ |
| موقف المبتدعة من الأدلة السمعية | ٤٧٥ |
| طريقة أهل السنة في التعامل مع النص | ٤٧٩ |
| من الأدلة الدالة على قبول خبر الآحاد | ٤٨٠ |
| اعتماد أهل السنة في العقائد على الكتاب والسنة ومخالفة غيرهم لهم | ٤٨٥ |
| المبتدعة قسموا الآيات والأحاديث أقساماً لكي يخالفوها | ٤٨٧ |
| دفاع أهل السنة عن الحديث | ٤٩٠ |
| خبرة أهل الحديث بالحديث | ٤٩١ |
| تبيين أهل الحديث للأحاديث الضعيفة | ٤٩٢ |
| تبيين أهل الحديث للضعفاء والمتروكين | ٤٩٤ |
| السنة محفوظة ومصانة وقد يسر الله لها من يميزها ويبين صحيحها وسقيمها | ٤٩٦ |
| أقسام الناس في التعامل مع النصوص | ٤٩٧ |
| السنة نوعان: شرع ابتدائي، وبيان لما شرعه الله تعالى في كتابه | ٥٠٦ |
| المؤمنون كلهم أولياء الرحمن | ٥٠٨ |
| تفسير معنى الولاية | ٥٠٩ |
| غلو الصوفية في الأولياء | ٥١٠ |
| انحراف بعض الصوفية باستحلال الحرام | ٥١١ |
| تلاعب الشيطان بالصوفية وانحلالهم من التكاليف | ٥١٢ |
| ولاية الله تنال بالإيمان والتقوى | ٥١٣ |
| اعتقاد الصوفية حاجة الله إلى الولي | ٥١٥ |
| تفاوت المؤمنين في الولاية | ٥١٦ |
| أكمل الناس ولاية أكملهم إيماناً | ٥١٩ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| أتباع هذه الأمة ثلاثة: سابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسه | ٥٢٦ |
| أكرم المؤمنين أطوعهم لله وأتبعهم للقرآن | ٥٢٩ |
| الكلام على مسألة التفضيل بين الصابر والشاكر | ٥٣٢ |
| أركان الإيمان | ٥٣٦ |
| ثمرة الإيمان | ٥٣٨ |
| سر قراءة سورتي الإخلاص وآيتي الإسلام والإيمان في سنة الفجر | ٥٤٠ |
| ثمرة الإيمان بالرسل واليوم الآخر | ٥٤١ |
| ثمرة الإيمان بالقدر وما يترتب عليه | ٥٤٣ |
| لا يثبت حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق | ٥٤٦ |
| الإسلام ليس منحصراً في الأركان الخمسة وإنما هي دعائمه | ٥٥٠ |
| الإيمان بالقدر خيره وشره | ٥٥٤ |
| الحسنات والسيئات كلها مقدرة من الله تعالى | ٥٥٥ |
| الواجب على المسلم إذا أصابته حسنة أو سيئة | ٥٥٧ |
| أسباب المصائب والابتلاءات | ٥٥٩ |
| الرد على ادعاء القدرية أن أفعال العباد خيرها وشرها من أنفسهم | ٥٦١ |
| لا يخلق الله تعالى شرًّا محضًا | ٥٦٤ |
| الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيرًا أو مصلحة للعباد | ٥٦٩ |
| الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه | ٥٧٣ |
| ينبغي على العبد أن لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها | ٥٧٦ |
| أنفع الدعاء دعاء الفاتحة | ٥٧٨ |
| الذنوب من لوازم نفس الإنسان وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة | ٥٨٠ |
| حاجة العبد إلى هداية التثبيت بعد هداية الدلالة | ٥٨٣ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| يجب على العبد أن يشكر ربه على إعانته وتوفيقه وهدايته | ٥٨٥ |
| تحقيق توحيد الربوبية والإلهية | ٥٨٩ |
| ذكر أمثلة على أن الأسباب لا تؤثر وحدها | ٥٩٥ |
| بطلان كون المخلوقات علة تامة تقتضي معلولها | ٥٩٩ |
| وجوب الإيمان بجميع الرسل | ٦٠٠ |
| الموحدون لا يخلدون في النار وإن دخلوها | ٦٠٣ |
| مآل أهل التوحيد إلى الجنة لا يعني الأمن وعدم الخوف | ٦٠٦ |
| خلاف العلماء في تعيين الكبائر وتعدادها | ٦١٢ |
| انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر | ٦١٤ |
| إياكم ومحقرات الذنوب | ٦١٩ |
| فضل التوبة وشروطها | ٦٢١ |
| مجمل اعتقاد أهل السنة في مسألة التكفير | ٦٢٤ |
| الحق يعرف بدليله لا بقائله | ٦٢٦ |
| غفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة | ٦٢٨ |
| مناسبة ختم الكلام عن البدع بهذا الدعاء: «اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكنا بالإسلام» | ٦٣١ |
| حكم الصلاة خلف المبتدع والفاسق | ٦٣٤ |
| صلاة الصحابة خلف الولاة والظلمة والفسقة | ٦٣٧ |
| حكم الصلاة خلف مستور الحال | ٦٣٨ |
| الصلاة خلف المبتدع وتفاصيلها | ٦٤١ |
| الكلام على حديث: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً» | ٦٤٤ |
| الإمامة العارضة يتسامح فيها ما لا يتسامح مع الإمامة الراتبة | ٦٤٨ |

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس




| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| حكم الصلاة وراء الإمام المحدث حدثًا أكبر أو أصغر | ٦٤٩ |
| حكم ترك الإمام بعض واجبات الصلاة اجتهادًا | ٦٥٠ |
| من تجب طاعته في مواضع الاجتهاد | ٦٥١ |
| وجوب طاعة الله ورسوله | ٦٥٥ |
| طاعة ولاة الأمر بالمعروف من طاعة الله ورسوله | ٦٥٦ |
| وجوب مناصحة ولاة الأمر | ٦٥٨ |
| الصلاة على من مات من المسلمين براً أو فاجراً | ٦٦١ |
| من علم نفاقه لا يصلى عليه | ٦٦٤ |
| ترك الصلاة على بعض المسلمين من بعض الأعيان لبعض الأسباب | ٦٦٥ |
| **فهرس الجزء الرابع** | |
| مسألة الشهادة بالجنة والنار للمعين | ٣ |
| تحقيق التوحيد يحرم دخول النار | ٦ |
| الحكم عام فيمن يستحق الجنة ومن يستحق النار | ٨ |
| الحكم على الناس إنما يكون بالظاهر لا بالظن | ٩ |
| دين الإسلام يحث على التمسك بالسنة وينهى عن التفرق والتعادي والتقاطع | ١٣ |
| لا يجوز قتال أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف | ١٧ |
| الكلام على طاعة ولاة الأمر | ١٩ |
| الآيات والأحاديث الدالة على وجوب السمع والطاعة لولاة الأمور | ٢٢ |
| حديث حذيفة ﷺ في الفتن والخلافات التي تقع في هذه الأمة | ٢٤ |
| حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - في النهي عن مفارقة الجماعة | ٢٦ |
| لا يجوز لأحد أن يطلب البيعة وعلى المسلمين خليفة قائم بأمر الله | ٢٨ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| دلالة الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية | ٣١ |
| في الصبر على أئمة الجور تكفير السيئات ومضاعفة الأجور | ٣٣ |
| طاعة الله سبب في تخفيف شر أئمة الجور وعدم التشديد عليهم | ٣٧ |
| وجوب الاجتماع على الحق وحرمة التفرق | ٣٩ |
| في اتباع الصحابة وأتباعهم هدى وبيان، وفي مخالفتهم ضلال وجهل وابتداع | ٤٠ |
| ذكر بعض الآيات الدالة على ذلك | ٤٠ |
| التحذير من الافتراق والأمر بلزوم الجماعة | ٤٤ |
| أهل الحق هم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه | ٤٧ |
| عمق علم الصحابة وعدم تكلفهم يوجب الاهتداء بهديهم | ٥٠ |
| أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله | ٥٣ |
| وجوب حب الله وحب ما يحبه الله | ٥٥ |
| من آثار محبة الله تعالى ومحبة أوليائه | ٥٧ |
| العلامة الدالة على صدق محبة الله | ٦٠ |
| خطورة الاختلاف والتفرق على الأمة | ٦٢ |
| مقومات الوحدة والتآلف بين المسلمين | ٦٤ |
| خطورة القول على الله بغير علم | ٦٥ |
| منهج السلف في الإفتاء | ٦٨ |
| إذا اجتهد العالم فأخطأ فله أجر | ٧٠ |
| مسألة المسح على الخفين | ٧٣ |
| سبب ذكر مسألة المسح على الخفين في كتب العقائد | ٧٤ |
| تواتر أحاديث المسح على الخفين | ٧٥ |
| مسألة غسل القدمين في الوضوء | ٧٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الأدلة على وجوب غسل القدمين | ٧٩ |
| مجمل القول في مسألة الولاء والبراء وآثارها | ٨٢ |
| مجمل القول في مسألتي المسح على الخفين وغسل القدمين | ٨٤ |
| الجهاد والحج ماضيان وإن جار الأئمة | ٨٦ |
| الرد على الرافضة في خرافة الإمام المنتظر | ٨٦ |
| وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر ما أقاموا الصلاة | ٨٧ |
| ضرورة الإمارة في الجهاد وضرورة طاعة الأمير وإن كان مقصرًا | ٨٨ |
| الإمارة في الحج | ٨٩ |
| حصر الرافضة للإمامة في اثني عشر إمامًا | ٩٢ |
| السرداب ومهدي الرافضة | ٩٣ |
| الإيمان بالملائكة وما وكلوا به من أعمال | ٩٦ |
| الإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب | ٩٧ |
| وظيفة الملائكة الكرام الكاتبين | ٩٨ |
| وظيفة الملائكة الحافظين | ٩٩ |
| كل إنسان وكل به قرين من الجن وقرين من الملائكة | ١٠٣ |
| الإيمان بملك الموت | ١١١ |
| حقيقة الروح | ١١٥ |
| الروح محدثة مخلوقة ولكن لا ندرك كيفيتها ولا ما هيتها | ١٢٠ |
| الجهل بكيفية الروح المخلوقة دليل على الجهل بكيفية صفات الخالق سبحانه | ١٢٢ |
| اختلاف العلماء في تعريف الروح | ١٢٤ |
| الفرق بين النفس والروح | ١٢٧ |
| هل تموت الروح بعد مفارقتها الجسد والأقوال في ذلك | ١٣٤ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| الكلام على الموتتين والحياتين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ | ١٣٩ |
| الإيمان بعذاب القبر وفتنته | ١٤٣ |
| الأدلة على عذاب القبر | ١٤٧ |
| شرح حديث البراء الطويل في عذاب القبر | ١٥٠ |
| الرد على من ينكر عذاب القبر | ١٥٣ |
| إطلاع الله بعض خلقه على عذاب بعض أهل القبور | ١٥٤ |
| استحباب الدعاء للميت بالنجاة من عذاب القبر | ١٥٧ |
| الشرع لا يأتي بما تحيله العقول ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول | ١٥٩ |
| تعلقات الروح بالبدن | ١٦١ |
| عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة | ١٦٦ |
| يجب أن لا يُحمَّل كلام الرسول ﷺ ما لا يحتمل ولا يُقصر به عن مراده | ١٦٨ |
| الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار | ١٧٠ |
| سؤال منكر ونكير وأقوال الناس في ذلك | ١٧٨ |
| عذاب القبر نوعان: دائم ومنقطع | ١٨٠ |
| الاختلاف في مستقر الأرواح بعد الموت | ١٨٣ |
| الروح لا تدركها الأبصار في الدنيا | ١٨٦ |
| فساد قول الفلاسفة: إن الروح بعد مفارقتها للميت تكون في جسد يناسبها | ١٨٧ |
| كيفية تعارف الأرواح | ١٨٨ |
| أرواح الشهداء | ١٩٠ |
| أرواح الأنبياء | ١٩٥ |
| الإيمان بالبعث والجزاء | ١٩٨ |
| اهتمام القرآن والسنة بالإيمان بالبعث أكثر من غيره | ٢٠١ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| إنكار الفلاسفة للبعث الجسماني | ٢٠٤ |
| إيراد الأدلة القرآنية المتنوعة على البعث | ٢٠٦ |
| حكمة الله وعدله يقتضيان البعث | ٢٠٨ |
| إقامة الله الحجة على الكفار المنكرين للبعث يوم القيامة | ٢١١ |
| حقيقة الدنيا الزائلة | ٢١٢ |
| قرب قيام الساعة | ٢١٥ |
| الكلام على قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ | ٢١٧ |
| تفصيل الشريعة لما يكون بعد البعث | ٢٢٢ |
| الحجج العقلية على البعث والرد على الفلاسفة في ذلك | ٢٢٦ |
| العرض والحساب يوم القيامة | ٢٤٢ |
| أول ما يكون من يوم القيامة هو النفخ في الصور | ٢٤٣ |
| أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة نبينا محمد ﷺ | ٢٤٨ |
| أهوال يوم القيامة | ٢٥١ |
| الإيمان بالصراط | ٢٥٣ |
| وصف الصراط وصفة المرور عليه | ٢٥٧ |
| وجوب الإيمان بتفاصيل اليوم الآخر ومنها المرور على الصراط | ٢٥٩ |
| معنى الورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ | ٢٦١ |
| الإيمان بالميزان وحقيقته | ٢٦٦ |
| إنكار المعتزلة للميزان | ٢٦٩ |
| اختلاف العلماء في الموزون | ٢٧٠ |
| تجسد الأعمال ووزنها يوم القيامة | ٢٧٣ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| ترتيب ما يكون يوم القيامة بعد خروج الناس من قبورهم | ٢٧٦ |
| ثمرة الإيمان بالميزان وغيره مما يكون يوم القيامة | ٢٧٧ |
| الإيمان بالجنة والنار | ٢٧٩ |
| معنى الجنة | ٢٨١ |
| أسماء النار وصفتها | ٢٨٢ |
| اعتقاد أهل السنة أن الجنة والنار موجودتان الآن | ٢٨٣ |
| إنكار المعتزلة لوجود الجنة والنار قبل يوم القيامة | ٢٨٥ |
| أدلة وجود الجنة والنار | ٢٨٦ |
| الرد على شبهة من ينكر وجود الجنة الآن حتى لا يلزم موت أهلها يوم القيامة | ٢٩٠ |
| الرد على احتجاج منكري وجود الجنة بآية: (كل شيء هالك إلا وجهه) | ٢٩٥ |
| أبدية الجنة وعدم فنائها والكلام على الاستثناء في آية هود | ٢٩٨ |
| ذكر بعض الآيات المؤكدة على أبدية الجنة | ٣٠٢ |
| اختلاف الناس في أبدية النار ودوامها | ٣٠٦ |
| أدلة من قال بفناء النار | ٣٠٧ |
| أدلة القائلين ببقاء النار وعدم فنائها | ٣١٨ |
| ترجيح القول ببقاء النار وعدم فنائها | ٣٢٠ |
| أنواع الموجودات | ٣٢٢ |
| الملائكة كلهم خير | ٣٢٤ |
| الشياطين كلهم شر | ٣٢٥ |
| الإنس والجن فيهم خير وشر | ٣٢٥ |
| نفوس البشر ثلاثة أقسام | ٣٢٧ |
| تقدير الله لأهل الجنة وأهل النار بحكمته وعدله ورحمته | ٣٢٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| آثار الإيمان باليوم الآخر | ٣٢٨ |
| حقيقة الاستطاعة وأقسامها واختلاف الناس فيها | ٣٣٠ |
| استطاعة بمعنى التوفيق | ٣٣٢ |
| استطاعة بمعنى القدرة على الفعل | ٣٣٣ |
| الاستطاعة تكون قبل الفعل ومع الفعل | ٣٣٦ |
| بطلان القول بأن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل | ٣٣٦ |
| بطلان مذهب الجهمية في الاستطاعة | ٣٣٧ |
| بطلان مذهب المعتزلة في الاستطاعة | ٣٣٨ |
| أدلة ثبوت الاستطاعة | ٣٣٩ |
| الرد على قول القدرية: إن إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء | ٣٤٣ |
| إثبات قدرة العباد على أفعالهم | ٣٤٦ |
| الرد على من نفى القدرة على الفعل أثناء فعله | ٣٤٨ |
| لا يكلف الله العباد إلا ما في وسعهم | ٣٥٢ |
| أفعال العباد مخلوقة لله تعالى | ٣٥٦ |
| مذاهب الناس في الأفعال | ٣٥٩ |
| المذاهب المخالفة لعقيدة أهل السنة في باب القدر | ٣٦٤ |
| الرد على المخالفين في باب القدر | ٣٦٦ |
| الرد على شبهة: كيف يخلق الله الذنب ويعاقب عليه | ٣٧٦ |
| مجمل ذكر المذاهب الموافقة والمخالفة في باب القدر | ٣٨١ |
| حكم إضافة الشر إلى الله عز وجل، وذكر المخالفين في ذلك | ٣٨٤ |
| الحكمة في عدم إيمان جميع الخلق | ٣٨٩ |
| لله تعالى الحكمة البالغة في أمره ونهيه وخلقه وتدبيره وهدايته وإضلاله | ٣٩٢ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| مقدمة في فعل العبد وقدرته وأنها من الله سبحانه وتعالى | ٣٩٧ |
| حقيقة فعل العبد لفعله مع كونه مخلوقًا لله سبحانه | ٤٠٠ |
| نسبة الأفعال بأنواعها للعبد وقدرته عليها | ٤٠٢ |
| عقيدة الجبرية في أفعال العبد بأنواعها والرد عليهم | ٤٠٣ |
| التكليف بحسب الطاقة والاستطاعة | ٤٠٧ |
| التكليف والأمر الشرعي عند أهل السنة | ٤٠٩ |
| القدرة والقوة مستمدة من الله سبحانه | ٤١٢ |
| معنى قوله: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ» | ٤١٣ |
| سهولة ويسر التكاليف الشرعية وسبب استثقالها عند البعض | ٤١٤ |
| الرد على من يجعل الفعل المتروك غير مقدور عليه | ٤١٧ |
| نفي القدرة والاستطاعة عن فعل الخير أو ترك الشر عند أهل البدع | ٤١٨ |
| الفرق بين الكوني والشرعي من القضاء والإرادة ونحو ذلك | ٤٢٢ |
| رحمة الله بالعباد في عدم تكليف ما لا يطاق | ٤٢٥ |
| إيمان أهل السنة بما هو قدري وامتثالهم لما هو شرعي | ٤٢٨ |
| رحمة الله وجنته فضل منه سبحانه، وعذابه وناره عدل منه سبحانه | ٤٢٩ |
| تنزيه الله لنفسه عن الظلم | ٤٣٢ |
| ضلال أهل الكلام في طريقة تنزيههم لله عن الظلم | ٤٣٣ |
| الرد على أهل الكلام في طريقة تنزيه الله عن الظلم | ٤٣٥ |
| انقلاب الموازين عند الجبرية | ٤٣٧ |
| الكلام على حديث: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ» | ٤٣٩ |
| لن يدخل أحد الجنة بعمله | ٤٤٥ |
| عظيم فضل الله علينا يوجب علينا شكره | ٤٤٧ |

| الموضـوع | الصفحة |
| --- | --- |
| مسألة: انتفاع الأموات بسعي الأحياء | ٤٤٩ |
| انتفاع الأموات بدعاء الأحياء وبما تسببوا به من أعمال | ٤٥١ |
| الدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه | ٤٥٤ |
| مناقشة المانعين في معنى آية: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ | ٤٥٧ |
| الصلاة على الجنازة دليل على انتفاع الميت بعمل الحي | ٤٥٨ |
| دعاء زيارة المقابر دليل على انتفاع الميت بعمل الحي | ٤٥٩ |
| الكلام على انتفاع الميت بأعمال الحي البدنية | ٤٦٠ |
| وصول الصدقة والحج وانتفاع الميت بها | ٤٦٢ |
| دعاء الأحياء وصدقاتهم تنفع الأموات | ٤٦٣ |
| لا تعطى الأجرة لمن قصد بحجه المال | ٤٦٥ |
| الجواب على أدلة المانعين من وصول ثواب الأعمال إلى الأموات | ٤٦٨ |
| حكم دفع الأجرة مقابل قراءة القرآن أو تعليمه | ٤٧٥ |
| حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن | ٤٧٨ |
| الجواب عن أدلة المانعين وصول ثواب الأعمال المهداة للميت | ٤٨٠ |
| حكم إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله ﷺ | ٤٨٥ |
| أدلة عدم مشروعية إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله ﷺ | ٤٨٦ |
| حكم قراءة القرآن عند القبور | ٤٨٨ |
| أهمية الدعاء وإجابة الله للداعي | ٤٩٢ |
| دعاء المشركين عند الاضطرار | ٤٩٣ |
| الله يغضب إن تركت سؤاله | ٤٩٤ |
| أقسام الدعاء | ٤٩٧ |
| مجمل القول في انتفاع الميت بعمل الأحياء | ٤٩٨ |

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|
| الرد على من زعم أن الدعاء لا فائدة فيه | ٥٠٢ |
| قد يعطي الله الداعي خيرًا مما دعا به فيظن أن دعوته لم تجب | ٥٠٥ |
| الدعاء سبب من الأسباب التي يجب الأخذ بها | ٥٠٧ |
| الاعتماد على الأسباب كفر وتركها قدح في الشرع والعقل | ٥٠٩ |
| الواقع يشهد بفائدة الدعاء | ٥١٠ |
| بيان السبب في أن الداعي قد لا يعطى شيئًا أو يعطى غير ما سأل | ٥١٢ |
| أهمية الدعاء وإنكار بعض طوائف القدرية له | ٥١٧ |
| افتقار الخلق إلى الله وحاجتهم إليه | ٥٢٠ |
| صفات الله الفعلية كالغضب والرضا | ٥٢٣ |
| إنكار طوائف أهل البدع لأسماء الله وصفاته | ٥٣٥ |
| عقيدة أهل السنة في الصحابة | ٥٤٠ |
| ثناء الله على الصحابة | ٥٤٣ |
| تفاضل الصحابة رضوان الله عليهم | ٥٤٧ |
| تزكية الله عز وجل لسائر الصحابة | ٥٤٩ |
| عقيدة الرافضة في الصحابة ولازم قولهم فيهم | ٥٥٠ |
| لا يعدل فضل الصحبة شيء | ٥٥٤ |
| إيمان من أحب الصحابة وكفر ونفاق من أبغضهم | ٥٦٠ |
| بعض الأسباب الباعثة على حب الصحابة | ٥٦١ |
| اعتقاد الرافضة أن تولي آل البيت لا يتم إلا بالبراءة من سائر الصحابة | ٥٦٢ |
| وسطية أهل السنة في حب الصحابة | ٥٦٣ |
| ادعاء بعض طوائف الرافضة ألوهية علي ﷺ | ٥٦٥ |
| ادعاء طوائف من الرافضة أن عليًا رسول من عند الله | ٥٦٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| سبب انتشار الرافضة | ٥٦٨ |
| أدلة الرافضة في تفضيل آل البيت والطعن في الصحابة | ٥٦٩ |
| أول نشأة الرافضة | ٥٧٢ |
| علاقة الباطنية بالرافضة | ٥٧٣ |
| استغلال الرافضة لما في تاريخ ابن جرير للترويج لمذهبهم | ٥٧٥ |
| طريقة الرافضة في الاستدلال بآيات القرآن للطعن في الصحابة | ٥٧٧ |
| مجمل معتقد أهل السنة في الصحابة | ٥٧٩ |
| عقيدة أهل السنة في خلافة أبي بكر ﷺ | ٥٨٤ |
| الأدلة العقلية والنقلية على أحقية أبي بكر ﷺ بالخلافة | ٥٨٨ |
| إسلام أبي بكر ﷺ ومرافقته للنبي ﷺ في الهجرة | ٥٩٣ |
| قوة أبي بكر ﷺ وحزمه في تعامله مع المرتدين | ٥٩٥ |
| معتقد متأخري الرافضة في الصحابة كمعتقد متقدميهم | ٥٩٦ |
| جهود الرافضة في إفساد عقائد المسلمين | ٥٩٨ |
| فضل أبي بكر الصديق ﷺ والرد على الطاعنين فيه | ٥٩٩ |
| استشهاد الرافضة بحديث الغدير للطعن في خلافة أبي بكر ﷺ والرد عليهم | ٦٠٠ |
| استشهاد الرافضة بما حصل بين فاطمة وأبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ للطعن في خلافته والرد عليهم | ٦٠١ |
| بعض أقوال النبي ﷺ وأفعاله الدالة على أحقية أبي بكر ﷺ بالخلافة | ٦٠٢ |
| استخلاف أبي بكر ﷺ إن لم يكن نصًا فهو بإشارة واضحة | ٦٠٤ |
| تقديم الصحابة لأبي بكر ﷺ دليل على أحقيته بالخلافة | ٦٠٩ |
| تقديم السلف لعمر ﷺ على سائر الصحابة بعد أبي بكر ﷺ | ٦١٦ |
| استخلاف أبي بكر لعمر ـ رضي الله عنهما ـ دليل على أحقيته بالخلافة | ٦١٨ |

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس




| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| موقف آل البيت من أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ومخالفة الرافضة لهم في ذلك | ٦٢٠ |
| الأدلة العقلية والنقلية على أحقية عمر بالخلافة | ٦٢٢ |
| ترتيب الخلفاء في الفضل كترتيبهم في الخلافة | ٦٢٧ |
| **فهرس الجزء الخامس** | |
| خلافة عثمان ﷺ | ٣ |
| عدل عمر ﷺ وحرصه على ما ينفع المسلمين | ٨ |
| قصة مقتل عمر ﷺ | ١٠ |
| جعل عمر ﷺ الأمر شورى من بعده | ١٢ |
| فضائل عثمان ﷺ | ١٦ |
| عقيدة أهل السنة في الصحابة رضوان الله عليهم | ١٩ |
| خلافة علي بن أبي طالب ﷺ | ٢٠ |
| انعقاد البيعة لعلي ﷺ | ٢٤ |
| حدوث موقعة الجمل بين المسلمين بسبب مقتل عثمان ﷺ | ٢٥ |
| خروج أهل الشام على علي ﷺ مطالبين بدم عثمان ﷺ | ٢٦ |
| خلافة الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ بعد استشهاد أبيه | ٢٧ |
| فضائل علي ﷺ | ٢٩ |
| الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما | ٣١ |
| حب أهل السنة للصحابة ومعرفتهم لفضلهم | ٣٢ |
| الأمر باتباع الخلفاء الراشدين | ٣٦ |
| ترتيب الصحابة في الفضل | ٣٩ |
| العشرة المبشرون بالجنة | ٤١ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الشهادة بالجنة لكل من شهد له النبي ﷺ بذلك | ٤٨ |
| الاتفاق على تعظيم العشرة المبشرين بالجنة وضلال الرافضة في بغضهم أكثرهم | ٥٠ |
| نعمة اتباع السنة ومحبة الصحابة | ٥٤ |
| الأئمة الإثنا عشرية عند الرافضة الإمامية | ٥٥ |
| محبة الصحابة وأهل البيت براءة من النفاق | ٥٨ |
| الكلام على حديث غدير خم | ٦٠ |
| أهل البيت هم بنو هاشم ويدخل فيهم أمهات المؤمنين | ٦٢ |
| قصة عبد الله بن سبأ اليهودي | ٦٣ |
| الباطنية هم ورثة ابن سبأ | ٦٤ |
| اعتداء الباطنية على الحجاج في الحرم واقتلاعهم الحجر الأسود | ٦٥ |
| الرافضة هم ورثة الباطنية القرامطة ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض | ٦٦ |
| محبة أهل السنة لعلماء السلف | ٦٨ |
| فضل أهل القرون الأولى | ٦٩ |
| مذهب السلف في العقيدة واحد | ٧٢ |
| ذم التعصب للأئمة في المسائل الاجتهادية | ٧٣ |
| لا يُفضل أحد من الأولياء على أحد من الأنبياء | ٧٥ |
| ضلال الصوفية في ذلك | ٧٧ |
| منزلة أولياء الله | ٨٠ |
| المؤمنون بعضهم أولياء بعض | ٨٢ |
| ذكر بعض فضائح الصوفية | ٨٤ |
| كفر ابن عربي الاتحادي وأمثاله | ٩٠ |
| ظهور مذهب أهل وحدة الوجود | ٩٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| التصديق بكرامات أولياء الرحمن | ٩٥ |
| الفرق بين الكرامات والحيل الشيطانية | ٩٩ |
| الفرق بين الكرامة والمعجزة | ١٠٢ |
| من كرامات الصحابة | ١٠٧ |
| الكرامات لا تدل على الأفضلية | ١٠٩ |
| طلب الكرامات | ١١٢ |
| أقسام الخوارق: معجزات أنبياء، وكرامات أولياء، وخوارق شيطانية | ١١٣ |
| أقسام الناس بالنسبة لخوارق العادات | ١١٥ |
| كلمات الله نوعان: كونية وقدرية | ١١٧ |
| آثار الكلمات الكونية والكلمات القدرية | ١٢٠ |
| عدم الخوارق علمًا ووقدرة لا تضر المسلم في دينه | ١٢٢ |
| الخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له | ١٢٤ |
| إذا صح الدين علمًا وعملًا فإنه يوجب خرق العادة إذا احتاج صاحبه إلى ذلك | ١٢٨ |
| الكلام على حديث: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ» | ١٣٢ |
| إنكار المعتزلة لكرامات الأولياء والرد عليهم | ١٣٤ |
| أنواع الفراسة: | ١٣٧ |
| فراسة إيمانية | ١٣٨ |
| فراسة رياضية (مشتركة بين المؤمن والكافر) | ١٣٩ |
| فراسة خلقية | ١٤١ |
| الإيمان بأشراط الساعة | ١٤٣ |
| نزول عيسى عليه الصلاة والسلام | ١٤٥ |
| خروج الدجال | ١٤٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| خروج دابة من الأرض تكلم الناس | ١٤٩ |
| طلوع الشمس من مغربها | ١٥٠ |
| الدخان | ١٥٠ |
| البطشة واللزام | ١٥١ |
| بعثة النبي ﷺ وموته | ١٥١ |
| فتح بيت المقدس | ١٥٢ |
| الخسوفات الكبيرة | ١٥٣ |
| نار تخرج من المدينة | ١٥٣ |
| نار تخرج من قعر عدن | ١٥٣ |
| أول الآيات خروجًا | ١٥٥ |
| خروج يأجوج ومأجوج | ١٥٧ |
| بيان حقيقة الكهنة والتحذير من سؤالهم وتصديقهم | ١٥٩ |
| كسب الكاهن والمنجم والساحر خبيث | ١٦٣ |
| من الكهانة الخط في الرمل وضرب الحصى والاستقسام بالأنواء | ١٦٣ |
| حكم الكهنة | ١٦٧ |
| كفر السحرة وعبادتهم للشياطين | ١٦٩ |
| حكم التنجيم وتعلمه | ١٧٣ |
| وجود السحرة والكهنة منذ عهد الصحابة | ١٧٧ |
| الواجب تجاه السحرة والكهنة | ١٧٩ |
| أنواع السحرة | ١٨٠ |
| الخلاف في قتل الساحر | ١٨٢ |
| الخلاف في حقيقة السحر | ١٨٣ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| بطلان قول المعتزلة: إن السحر شعوذة وليس حقيقة | ١٨٦ |
| حراسة السماء من استراق السمع عند بعثة محمد ﷺ | ١٨٧ |
| كيفية التحصن من كيد السحرة والشياطين | ١٨٩ |
| الطرق الجائزة في علاج السحر | ١٩٠ |
| أحوال الناس مع أصحاب الكرامات والخوارق الشيطانية | ١٩٤ |
| لا يُصدق أصحاب خوارق العادات حتى يُعرضوا على الكتاب والسنة | ٢٠٠ |
| اعتقاد الولاية في بعض البله بدعة وضلال | ٢٠١ |
| أحوال الطائفة الملامية والرد عليهم | ٢٠٥ |
| نعمة العقل | ٢٠٧ |
| لا يُكتب للمجانين حسنات وليس عليهم سيئات | ٢٠٨ |
| الرد على أصحاب الفناء | ٢١١ |
| كل تعبد خالف الشرع مردود على صاحبه | ٢١٣ |
| الرد على من استدل بقصة الخضر على جواز الاستغناء بالوحي عن العلم اللدني | ٢١٧ |
| ذكر بعض أوهام غلاة الصوفية | ٢٢٢ |
| منهج أهل السنة في لزوم الجماعة وترك الفرقة | ٢٢٥ |
| الجماعة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين | ٢٢٨ |
| من مقاصد الشريعة المحبة والاجتماع | ٢٢٩ |
| الآيات الدالة على لزوم الجماعة | ٢٣٠ |
| خطر التفرق والتنازع والتحزب | ٢٣١ |
| الحث على التمسك بسنة النبي ﷺ وهدي الصحابة | ٢٣٤ |
| أنواع الخلاف | ٢٣٦ |
| اختلاف تنوع | ٢٣٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| اختلاف تضاد | ٢٣٧ |
| المرجع عند الخلاف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ | ٢٤٢ |
| حقيقة الاختلافات الواقعة في صدر الإسلام | ٢٤٨ |
| الاختلاف الواقع بين الصحابة في عهد النبي ﷺ | ٢٥٣ |
| الاختلاف الواقع بين الأئمة الأربعة | ٢٥٥ |
| أسباب اختلاف التضاد في الأمة | ٢٥٧ |
| مفاسد اختلاف التضاد | ٢٥٨ |
| حكم الأحزاب والفرق الموجودة في عصرنا | ٢٦٠ |
| مميزات دين الإسلام | ٢٦٣ |
| الإسلام هو دين جميع الأنبياء مع اختلاف الشرائع | ٢٦٥ |
| يسر الإسلام وسهولة تعلمه | ٢٦٦ |
| دين الإسلام وسط بين الغلو والتقصير | ٢٦٩ |
| دين الإسلام وسط بين التشبيه والتعطيل | ٢٧٢ |
| دين الإسلام وسط بين الجبر والقدر وبين الأمن واليأس | ٢٧٣ |
| بيان معتقد بعض الفرق التي خالفت أهل السنة في الاعتقاد | ٢٧٦ |
| أول من أسس مذهب المعتزلة وسبب تسميتهم | ٢٨٠ |
| أصول المعتزلة الخمسة | ٢٨٢ |
| بيان مذهب الجهمية | ٢٨٥ |
| عقيدة الجهم في الإيمان والأفعال | ٢٨٨ |
| بشر المريسي ونشره لمذهب الجهمية | ٢٩٠ |
| بيان مذهب الجبرية | ٢٩٩ |
| أحاديث في ذم القدرية | ٣٠٤ |

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|
| حدوث البدع المتقابلة بعد وقوع الفتن المفرقة بين الأمة | ٢٩٨ |
| سبب الضلال العدول عن الصراط المستقيم الذي أمر الله باتباعه | ٣٠١ |
| اضطرار العبد سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة | ٣٠٥ |
| المنحرفون من العلماء يشابهون اليهود، والمنحرفون من العباد يشابهون النصارى | ٣٠٩ |
| أحوال فرق الضلال مع الوحي | ٣١٢ |
| أهل التبديل نوعان: أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل | ٣١٣ |
| أهل التجهيل والتضليل | ٣١٥ |
| خاتمة الشرح | ٣١٩ |
| الفهارس | ٣٢١ |
| فهرس الآيات القرآنية | ٣٢٣ |
| فهرس الأحاديث النبوية | ٤٥١ |
| فهرس الآثار المروية | ٥٠٨ |
| فهرس المصادر والمراجع | ٥٢٢ |
| فهرس الموضوعات | ٥٤٩ |

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس